

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الملك المعبود الرؤوف الرحيم الودود المخرج للخلق من ظلمة العدم إلى نور الوجود الفاتح عليهم بمعرفته والتحقق بوجدانيته كل باب مسدود الدال لهم على باهر حكمته وعظيم قدرته بالمعنى المعقول والحس المشهود فلا يرتاب في أنه الواحد القدير العليم الخبير إلا الكفور الكنود خلق العباد وقدر آجالهم وأحصى أنفاسهم وأعمالهم وأوقفهم من شرعه على نهج سوي وحد محدود فمن وقف عنده وأطاع فقد فاز من ثمرة الإيجاد بالمقصود ومن حاد عنه واستكبر فقد أورد نفسه الردى وبئس الورد المورد نحمده تعالى على ما أسبغ من النعم البيض وكسا من البرود وأزاح من العلل ووقى من النوب السود ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنبؤا بها من الجنائن السدر المخضود

والطلع المنضود ولظل الممدود ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله أكرم مبعوث وأشرف مولود صاحب المقام المحمود واللواء المعقود والحوض المورود صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم في محافل السلم بدور وفي جحافل الحرب أسود ولهم في أتباعه ونصرتهم اليد البيضاء الباع الممدود والدعاء لأمر المؤمنين مولانا الحسن ابن أمير المؤمنين مولانا محمد ابن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن كوكب السعود ومنيع الكرم والجود والمنير بطبعته الغراء وإمامته البيضاء الأغوار والنجود لا زالت به ملة الإسلام بحول الله في صعود ترددي الكفر وتنفي البغي وتذود وتصول على الضلال وتسود أمين ويعد فيقول مؤلفه أحمد بن خالد الناصري السلاوي عفا الله عنه هذا بعون الله كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى كتاب جمعه لنفسه ولمن شاء الله من أبناء جنسي ذكرت فيه دول هذا القطر المغربي من لدن الفتح الإسلامي إلى وقتنا هذا الذي هو آخر القرن الثالث عشر سالكا فيما أنقله من ذلك سبيل الاختصار أتينا منه بما تسمو إليه النفوس من حوادث الأعصار ملما بما لا بد منه من وفيات بعض الأئمة المقتدى بهم في الدين متبركا أولا بذكر رسول الله وخلفائه الراشدين منحريا من القول أصحابها من العبارات أفصحها والله تعالى المسؤول في بلوغ المأمول فمنه سبحانه المنة والطول وبهيدته تعالى القوة والحول

مقدمة في فضل علم التاريخ علم أن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا وأرفعها منزلة وذكره وأنفعها عائدة وذخرا وكفاه شرفا أن الله تعالى شحن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية بما أفحم به أكبر أهل الكتاب وأتى من ذلك بما لم يكن لهم في ظن ولا حساب ثم لم يكف تعالى بذلك حتى امتن به على نبيه الكريم وجعله من جملة ما أسداه إليه من الخير العميم فقال جل وعلا تلك القرى نقص عليك من أنبيائها وقال وكل نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وقال لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب وقد كان رسول الله ما يحدث أصحابه بأخبار الأمم الذين قبلهم ويحكي من ذلك ما يشرح به صدورهم ويقوي إيمانهم ويؤكد فضلهم وكتاب بدء الخلق من صحيح البخاري رحمه الله كفيلا بهذا الشأن وأت من القدر المهم منه ما يبرد غلة العطشان قال بعضهم احتج الله تعالى في القرآن على أهل الكتابين بالتاريخ فقال تعالى يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون وحكى بدر الدين القرافي رحمه الله إن الإمام الشافعي رضي الله عنه كان يقول ما معناه ذابت في قراءة علم التاريخ كذا وكذا سنة وما قرأته إلا لأستعين به على الفقه

قلت معنى كلام الشافعي هذا أن علم التاريخ لما كان مطالعا على أحوال الأمم والأجيال ومفصحا عن عوائد الملوك والأقوال ومبيننا من أعراف الناس وأزيانهم ونحلهم وأديانهم ما فيه عبرة لمن اعتبر وحكمة بالغة لمن تدبر واقتدر كان معينا على الفقه ولا بد ذلك أن جل الأحكام الشرعية مبني على العرف وما كان مبنيا على العرف لا بد أن يطرد باطراده وينعكس بانعكاسه ولهذا ترى فتاوي الفقهاء تختلف باختلاف الأعصار والأقطار بل والأشخاص والأحوال وهذا السبب بعينه هو السر في اختلاف شرايع الرسل عليهم الصلاة وتباينها حتى جاء موسى بشرح وعيسى بأخر ومحمد بسوى ذلك صلى الله على جميعهم وسلم تم فائدة التاريخ ليست محصورة فيما ذكرناه بل له فوائد أخر جلية لو قيل بعدم حصرها ما بعد قال الجلال السيوطي رحمه الله من فوائد التاريخ واقعة رئيس الرؤساء المشهورة مع اليهود ببغداد وحاصلها أنهم أظهروا رسما قديما يتضمن أن رسول الله بإسقاط الجزية عن يهود خيبر وفيه شهادة جماعة من الصحابة منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فرجع الرسم إلى رئيس الرؤساء وعظمت حيرة الناس في شأنه ثم عرض على الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي فقام له وقال هذا مزور فقيل له به عرفته قال فيه شهادة معاوية وهو إنما أسلم عام الفتح سنة ثمان من الهجرة وخبير وفتحت سنة سبع وفيه شهادة سعد بن معاذ وهو مات يوم بني قريظة وذلك قيل فتح خيبر فسر الناس بذلك وزالت حيرتهم اه قال العلامة القادري في الأزهار الندية وفي حدود صدر هذه المائة أعني المائة الحادية عشرة ظهر نحو هذا الكتاب لمزور بمعناه والرفع على خطوطه بتاريخ سبع وعشرين وسبعمئة

بالموحدة ثم ظهر أيضا بتاريخ ست وثمانمئة ثم تعدد ظهوره مرارا أخرها سنة اثنتين وأربعين وألف مسمى فيه جماعة ممن شهرتهم بالدين والعلم قاطعه بالتقول عليهم في ذلك انظر بقية كلامه قلت وقد وقعت في بعض التقايد المظنون بها الصحة على كلام للأديب أبي عبد الله اليفرنى المعروف بالصغير في هذا المعنى قال جرى بمجلس شيخنا قاضي الجماعة فلان الفلاني ذكر علم التاريخ فقال إن علم التاريخ بضر بجهله وتنفع معرفته لا كما قيل قيل إنه علم لا ينفع وجهالة لا تضر قال وانظر ما وقع في هذا الوقت في حدود عشر ومائة ألف من أن نفرا من يهود فاس الجديد امتنعوا من أداء الجزية وأخرجوا ظهيرا قديما مضمنا أن النبي عقد لموسى بن حبي بن أخطب أخي صافية رضي الله عنها ولأهل بيت صافية الأمان لا يطأ أرضهم جيش ولا عليهم نزل ولهم ربط العمائم فعلى من أحب الله ورسوله أن يؤمنهم وكتب علي بن أبي طالب وشهد عتيق بن أبي قحافة وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وتاريخ شهادتهم في ذي القعدة سنة تسع من الهجرة قال شيخنا فظهر لي ولعلماء العصر أن ذلك زور واقترأ لا شك فيه ولا امتراء لأن التاريخ بالهجرة إنما حدث زمن عمر سنة سبع عشرة لأسباب اقتضت ذلك كما في ابن حجر ولأن أهل التاريخ لم يذكروا لصفية أبا اسمه موسى وإنما المروي في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام قتل أبا صافية وزوجها ولأن الظهير الذي استظهروا به نسخة من الأصل الذي فيه خطوط الصحابة وقد أرخوا الاستنساخ من الأصل بسنة ثلاث وعشرين وسبعمئة فقد تأخر خط الصحابة بزعمهم إلى المائة الثامنة وكيف يتوصل في المائة الثامنة إلى ذلك خط الصحابة هذا خلاصة ما كتبه أهل فاس في إبطال الظهير ولما رفع ذلك إلى السلطان المولى إسماعيل رحمه الله عاقب اليهود عقابا شديدا اه وبالجملة ففضيلة علم التاريخ شهيرة وفائدته جلية خطيرة ومادحه محمود غير ملوم والحديث بفضل حديث معلوم والله در ابن الخطيب إذ يقول وبعد فالتاريخ والإخبار فيه لنفس العاقل اعتبار وفيه للمستبصر استبصار كيف أتى القوم وكيف صاروا يجري على الحاضر حكم الغائب فيثبت الحق بسهم صائب وينظر الدنيا بعين النبل ويترك الجهل لأهل الجهل وقال آخر ليس بإنسان ولا عاقل من لا يعي التاريخ في صدره ومن روى أخبار من قد مضى أضاف أعمارا إلى عمره

ذكر رسول الله وخلفائه الأربعة رضي الله عنهم أما رسول الله فهو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن البسيع بن الهيميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل بن نابر اهيم عليهما السلام ابن تارح وهو أزر بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ابن لامك بن متوشلخ نحنوخ بن يرد بن مهليل بن قينان بن أنوش بن شبت بن آدم عليهما السلام فأما ما بين رسول وبين عدنان وإسماعيل فمختلف فيه اختلافا كثيرا ما بين سبعة آباء إلى نحو الأربعين والمختار ما ذكرناه تبعا لأبي الفداء وأما ما بين إسماعيل وأدم عليهما السلام فمتفق عليه عند أهل الكتاب وهي أسماء أعجمية بكثر تغييرها لصعوبة النطق بحرورها والله أعلم قال ابن خلدون ولد رسول الله عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول لأربعين سنة من ملك كسرى أبو شروان وقيل لثمان وأربعين ولثمانمئة واثنتين وثمانين سنة لذ القرنين ومات أبوه عبد الله وأمه حامل به وكفله جده عبد المطلب واسترضع له امرأة من بني



سعد بن بكر اسمها حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية فكان عندها نحو أربع سنين وشق صدره وهو عندها في السنة الرابعة من مولده فخافت عليه وردته إلى أمه ثم ماتت أمه عقب ذلك واستمر في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي أيضا لممضي ثمان سنين من مولده به عبد المطلب إلى ابنه أبي طالب فكفله أبو طالب أحسن كفالة وقام بشأنه أتم قيام ونشأ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن خمس وعشرين سنة وشهد بناء الكعبة وهو ابن خمس وثلاثين سنة ووضع الحجر الأسود بيده الشريفة في موضعه بعد أن تراضت قبائل قريش عليه ثم آتاه اله الكتاب والحكم والنبوة على رأس أربعين سنة من عمره أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت أول ما بدى به رسول الله الوحي الرؤيا الصالحة ولمسلم الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حجب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه والتحنث التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الوحي وفي رواية حتى فجئه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ فقال ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم فرجع بها رسول الله ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فإل زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة أي خديجة مالي وأخبرها الخبر وقال لقد خشيت على نفسي قالت له خديجة كلا أبشر

فو الله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني في كتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى فقالت هل خديجة أي ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعا ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله أو مخرجي هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال فكلمها أوفى بزوة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدي له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله حقا فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه فبرجع فإذا طالته عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فيبتدى له جبريل فيقول له مثل ذلك ثم نزل عليه بعد فترة الوحي سورة المدثر قال العلماء كان رسول الله بعد نزول الوحي عليه نبيا فقط ثلاث سنين لم يؤمر فيها بإبذار ثم آتاه جبريل عليه السلام برسالة من ربه عز وجل فكان فيما أنزل عليه في ذلك ثم آتاه جبريل عليه السلام برسالة من ربه عز وجل فكان فيما أنزل عليه ف بذلك قوله تعالى وأنذر عشيرتک الأقربين روى محمد بن إسحاق بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية على رسول الله قال يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعا وعرفت أنني متى أبديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جاءني جبريل فقال يا محمد إن لا تفعل ما تؤمر بعذبك ربك فصنع لنا طعاما واجعل لنا عليه رجل شاة واملا لنا عسا من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ففعلت

ما أمرني به ثم دعوتهم له وكانوا يومئذ نحو أربعين رجلا يزيدون رجلا أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحزمة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعت فجئت به فتناول رسول الله اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة ثم قال كلوا باسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة وإيم الله إن كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجنتهم بذلك العس فشربو حتى رووا جميعا وإيم الله إن كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله أن يكلمهم بده أبو لهب فقال سحركم صاحبكم ففرق القوم ولم يكلمهم رسول الله فقال الغد يا علي ! هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول ففرق القوم قبل أن أكلمهم فاعدد لنا من الطعام مثل ما صنعت ثم أجمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربو ثم تكلم رسول الله فقال يا بني عبد المطلب إني قد جنتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله عز وجل أن أدعوكم إليه فأياكم يؤازرنى على أمري هذا ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال لما نزلت وأنذر عشيرتک الأقربين سعد النبي على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذ لم يستطع أني خرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ما جربنا عليك كذا قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعنا فنزلت نبت يدا أبي لهب وتب

ما أغنى عنه ماله وما كسب ثم مضى رسول الله على أمر ربه صابرا محتسبا فيما يناله من المحن وضروب الأذى معلنا بالتناكير والإنذار داعيا إلى الله أثناء الليل وأطراف النهار وأسلم معه جماعة من السابقين إلى الإسلام كخديجة وعلي وأبي بكر وزيد بن حارثة وعثمان وسائر العشرة سوى عمر بن الخطاب فإن إسلامه كان قد تأخر قليلا وسائر العشرة سوى عمر بن الخطاب فإن إسلامه كان قد تأخر قليلا ونصبت قريش العداوة لرسول الله واقتربت كلمتهم عليه وانجاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب وتعاهدت قريش على أن لا يناكحهم ولا يبايعوهم ولا ينفعوهم بشيء ونال أصحاب رسول الله الذي آمنوا معه ن الأذى فوق ما يوصف وهاجر جماعة منهم إلى النجاشي بالحبيشة فراراً بدينهم من الفتنة وحذب على رسول الله عمه أبو طالب وقام دونه وذبح عنه سفهاء قريش ومنعه منهم ما استطاع وكانت خديجة رضي الله عنها توازره على أمره وتسليه وتهون عليه مايلقاه من قومه فكان يرتاح لذلك وخفف عليه بعض ما يجد ثم توفي أبو طالب في شوال سنة عشر من النبوة وتوفيت خديجة بعد ذلك ببسبر وكانت وفاتها قبل الهجرة بثلاث سنين فعظمت على رسول الله المصيبة وتتابعت عليه المحن حتى كان يسمى ذلك العام عام الحزن ونالت قريش منه ما لم تكن تمنع فينبهه قبل ذلك فكان رسول الله في تلك الثلاث سنين إذا حضر الموسم خرج إلى قبائل العرب بمنة وطاف عليهم قبيلة قبيلة يدعومهم إلى الله تعالى ويعوض عليهم نفسه ويسألهم النصرة له والقيام معه حتى يبلغ رسالة ربه فإن قريشا قد عنت على الله وكذبت رسوله وردت عليه كرامته ويقول فيما يقول يا بني فلان إني رسول الله إليك يأمرك أن تعبدوا ولا تشركوا به شيئا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي وتصدقوني ولقي في هذه المدة من الشدائد ما رفع الله به في عليين درجته وأجزل به كرامته وشرف منزلته وحاز به في جوار الله تعالى أكرم نزل

وصار إمام أولي العزم من الرسل صلى الله على جميعهم وسلم ولما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه خرج في بعض المواسم يعرض نفسه على القبائل كما كان يصنع فيبنيها هو عند العقبة بمنى إذ لقي ستة نفر من الخزرج من أهل مدينة يثرب وأهلها يومئذ قبيلتان الأوس والخزرج وجميعهم أب واحد وهم من عرب اليمن والنفر الستة هم أبو أمامة أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر بن حديدة وعقبة بن عامر بن أبي وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم فقال لهم رسول الله من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال أمن موالى يهود وكانوا يحالفوا قريظة والنضير قالوا نعم قال أفلا تجلسون حتى أكلمكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن قال ومما كان صنع الله لهم في الإسلام أن اليهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وهم أهل أوثان وشرك وكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا إن نبينا الان مبعوث قد أظلم زمانه سننبتعه ونقلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل قال بعضهم لبعض يا قوم تعلموا والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقتم إليه فأجابوه وصدقوه وأسلموا معه وقالوا إنا قد تركنا قوما وبينهم من العداوى والشتم ما بينهم فعسى اله أني جمعه بك وسنقدم عليهم ودعومهم إلى أمرك فإن يجمعهم الله عليك فلاأحد أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى بلادهم فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله ودعومهم إلى الإسلام حتى إذا كان العلم المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا منهم خمسة من الستة الذين ذكرواهم آنفا عدى جابر بن عبد الله فإنه لم يحضرها وسبعة من غيرهم وهم معاد بن الحارث أخو عوف بن الحارث المذكور وذكوان بن عبد القيس ويزيد بن ثعلبة البلوي وعبادة بن

الصامت والعباس بن عباد بن نضلة وهؤلاء العشرة من الخوارج ومن الأوس أبو الهيثم مالك بن التيهان وعويم بن ساعدة فلقوا رسول الله بالعبقة فبايعوه بيعة النساء أن لا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزناوا ولا يقتلوا أولادهم إلى آخر الآية فقال فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم يده في الدنيا فهو كفارة لكم وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء الله عذبكم وإن شاء غفر لكم قال وذلك قبل أن تفرض الحرب فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ومعه عمرو بن أم مكتوم الأعمى ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفهم في الدين فكان مصعب بالمدينة يسمى المقرئ وكان منزله على أسعد بن زرارة فأسلم على يده كثير من الأوس والخزرج منهم أسيد بن حضير وسعد بن معاذ سيدا الأوس وسعد هذا هو الذي يقول فيه حسان بن ثابت رضي الله عنه وما اهتز عرش الله من أجل هالك سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف بطون من الأوس وكانوا في عوالي المدينة وكان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر سيدا مطاعا فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق فأسلموا كلهم ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة من العام المقبل وذلك سنة ثلاث عشرة من المعث وخرج معه من الأنصار الذين أسلموا ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان بعضهم من الأوس وبعضهم من الخزرج مع حجاج قومهم من أهل الشرك فلما وصلوا على مكة واعدوا رسول الله أن يجتمعوا به ليلا في أوسط أيام التشريق بالعبقة من منى وجاءهم رسول الله ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يتوثق لابن أخيه فقال يا معشر الخزرج إن محمدا

من حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو في عز ومنعة من قومه وبلده وأنه قد أتى إلا الانحياز إليكم وللحقوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له لما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خلفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخذلوه فمن الآن فدعوه فقالوا قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما شئت فتكلم رسول الله فقتل القرآن ودعا إلى الله عز وجل ورغب في الإسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم قال فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما تمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثاهما كبرا عن كابر فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالا يعني عهودا وإنا قاطعوها فهل عسيت أن فعلنا ذلك ثم أظهرت الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا فتيسم رسول الله ثم قال بل الدم والدم والهدم الهدم أنتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم وقال رسول الله أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا يكونون كفاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم فأخرجوا له اثني عشر نقيبا وتسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس قال عاصم بن عمر بن قتادة إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله قال العباس بن عباد بن نضلة يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرفكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون إنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقت الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة قالوا فإنا نأخذ على مصيبة الأموال وقت الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا قال الجنة قالوا بسط يده فبايعوه وأول من

ضرب على يده البراء بن معرور ثم تتابع القوم ثم قال رسول الله انفضوا إلى رحالكم فقال العباس بن عباد بن نضلة والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غدا على أهل منى بأسيا فتنا فقال رسول الله إني لم أؤمر بذلك ولكن أرجعوا إلى رحالكم ثم انصرف القوم راجعين إلى المدينة وأمر النبي بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالا وأقام رسول الله بمكة ينتظر الإذن من ربه في الهجرة وبقي معه أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب إلى أن أذن الله لنبيه في الهجرة فهاجر كما هو معلوم في كتب الحديث والسير ولما استقر رسول الله بالمدينة أظهر الإسلام وشرع الأحكام وبين الحلال والحرام ونزل عليه من القرآن السبع الطول سوى سورة الأنعام فإنها نزلت بمكة ونزل عليه قوله تعالى أن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله فكانت هذه أول آية نزلت بالإذن في القتال فجاهد رسول الله في الله حق جهاده ونال من نصره الدين وإعلاء كلمة الله غاية مراده وانتالت عليه وفود العرب من كل ناحية ولبت دعوته من أماكنها الدانية والقاصية وضرب الإسلام بجرانه في جزيرة العرب كلها وأجمع على التمسك بدينه أهل عهدها وحلها قال القاضي عياض رحمه الله في كتاب الشفا فتح على رسول الله في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما داني ذلك من الشام والعراق وجبى إليه من أخماسها وجزئتها وصدقاتها ما لا يجبي للملوك إلا بعضه وهادته جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهما بل صرفه مصارفة وأغنى به غيره وقوى به المسلمين حصل المقصود من بعثته وأظهر دينه على الدين كله أنزل الله تعالى عليه اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً قال المسعودي نزلت هذه الآية يوم الجمعة بعد العصر يوم عرفة والنبي واقف بعرفات على

نأقته العضاة فكادت عضد الناقة تندق وبركت لتقل الوحي وذلك في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة روي أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر فقال له النبي ما يبكيك يا عمر فقال أبكاني أنا كنا في زيارة من ديننا فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص قال صدقت فكانت هذه الآية نعي رسول الله عاش بعدها إحدى وثمانين يوما ومات يوم الاثنين لليالي خلتا من ربيع الأول وقيل لانتني عشرة ليلة قال الخازن في تفسيره وهو الأصح سنة إحدى عشرة من الهجرة فمجموع عمره ثلاث وستون سنة على الصحيح أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال أنزل على رسول الله وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة قال الشيخ محي الدين النووي ورد في عمره ثلاث روايات إحداهما أنه توفي وهو ابن ستين سنة الثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي أصحها وأشهرها اه وفضل رسول الله أشهر من أن يشرح ويبين فهو حجة الله في الأرض وشهيد على الخلق ومصطفاه من البشر والمخصوص بمزية النبوة وأدم بين الماء والطين والله در ابن الخطيب إذ يقول يا مصطفي من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له أغلاق أيروم مخلوق نشأه بعد ما أتى على أخلاقك الخلاق

خلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو أبو بكر واسمه عبد الله وقيل عتيق بن أبي قحافة واسمه عثمان بن عمرو وبن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب التيمي المعروف بالصديق يجتمع مع رسول الله في مرة بن كعب ولي الخلافة بعد رسول الله بإجماع من الصحابة ومن تأخر عنها أولا رجع إليها ثانيا إلا ما كان من سعد بن عباد الأنصاري فإنه توقف عن بيعته وذلك أنه لما توفي رسول الله اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة وهموا بمبايعة سعد بن عباد سيد الخزرج لأنهم كانوا يرون أنهم أحق بالأمر لأنهم الذين أووا ونصروا وتبوا والدار والإيمان من قبل المهاجرين ولما انتهى الخبر إلى أبي بكر وعمر أفرغهما ذلك وبادرا إلى السقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجراح فوجدوا الأنصار بها على ما بلغهم من العزم على بيعة سعد فحاجهم أبو بكر رضي الله عنه وقال نحن أولياء رسول الله وعشيرته وأحق الناس بالأمر بعده فحن الأمراء وأنتم الوزراء فقال الحباب بن المنذر لا والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير وإن شئتم أعداها جذعة أنا جذيلها المحكك وعديها المرجب فقام بشير بن سعد الأنصاري فقال ألا إن محمدا من قريش وإن قومه أحق وأولى بالأمر بعده ونحن وإن كنا أولى فضل في الجهاد وسابقة في الدين فما أردنا بذلك إلا رضى الله وطاعة بنيه فلا نبتغي به من الدنيا عوضا ولا نستطيع به على الناس ثم أشار أبو بكر بأن يبايعوا أحد الرجلين إما عمر بن الخطاب وإما أبا عبيدة بن الجراح ففكرها ذلك وبايعا أحد الرجلين إما عمر بن الخطاب وإما أبا عبيدة بن الجراح ففكرها ذلك وبايعا أبا بكر وسبقهما إليه بشير بن سعد ثم تناجى الأوس فيما بينهم وكان فيهم أسيد بن حضير أحد النقباء ففكرها إمارة الخزرج عليهم ومالوا إلى بيعة أبي بكر فبايعوه وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطوون سعد بن عباد وهو مضطجع بينهم يوعك فقال رجل من أصحابه قتلتم سعد بن عباد

فقال عمر قتله الله فقال أبو بكر مهلا يا عمر الرفق هنا أبلغ ثم لحق سعد بالشام فلم يزل هناك حتى توفي أيام عمر رحم الله جميعهم وكانت بيعة أبي بكر يوم الثلاثاء الثاني من وفاة رسول الله قبل دفنه ولما توفي رسول الله ارتدت عامة العرب لأن كلمة الإسلام لم تكن رسخت في قلوبهم على ما

ينبغي ومنع آخرون منهم الزكاة وقالوا نصلي ولا نؤدي الزكاة ظنا منهم أن ذلك كان واجبا عليهم في حياة النبي فقط واضطراب أمر المسلمين عند وفاته رقتهم وكثرة عدوهم قالت عائشة رضي الله عنها لما توفي رسول الله ر ارتدت العرب ونجم النفاق وأشرأت اليهودية والنصرانية ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالرجال الراسية لهاضها وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الساتية لفقد نبيهم وقال أبو بكر بن عياش سمعت أبا حصين يقول ما ولد بعد النبيين أفضل من أبي بكر الصديق لقد قام مقام نبي من الأنبياء في قتال أهل الردة وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما توفي رسول الله واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله قال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها قال عمر فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق وحكي ابن خلدون أن أبا بكر رضي الله عنه لما عزم على قتال أهل الردة استخلف أسامة بن زيد بعد رجوعه من بعثته الذي كان بعثه رسول الله فيه قبل وفاته بفي في المدينة حتى أنفذه أبو بكر بعد وفاته فخرج أبو بكر في جماعة من المسلمين إلى ذي حسي وإلى ذي القصة موضعين قرب المدينة ثم سار حتى نزل على أهل الريدة بالإبريق وبها عيس وذيبيان وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة وتعلبة بن سعد وغيرهم فقاتلهم أبو بكر وهزمهم ورجع إلى المدينة ثم خرج إلى ذي القصة ثانيا فعد فيه أحد عشر لواء على أحد عشر جندا لقتال أهل الردة وأمر كل واحد باستنفا من يليه من المسلمين من كل قبيلة وعقد للأمرء على تلك الأجناد منهم خالد بن الوليد وخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وغيرهم وكتب لهم عهدهم بنص الله الرحمن الرحيم هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله لفلان الله لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقولوا له ثم يبنئهم بالذي عليهم ولذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فإن أجاب إلى أمر الله تعالى وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل كان الله حسيبه بعد فيما استتر به ومن لم يجب إلى داعية الله قوتل وقتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل الله من أحد شيئا مما أعطى إلا الإسلام فمن أجابه وأقر به قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وأن لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لنلا يكونوا عيونا ولنلا يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتقدمهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول اه

وكتب إلى كل من بعث إليه الجنود من المرتدين كتابا واحدا أيضا وجعله في نسج متعددة بيد رسل تقدموا أمام الأمرء يأمرهم فيه بالتمسك بكلمة الإسلام وبينهاهم عن الارتداد ويحذرهم عاقبته وسوء أثره تركنا ذكره اختصارا وكان أول ما بدأ به خالد بن الوليد رحمه الله من القتال قتال طليحة بن خويلد الأسدي أسد خزيمة وكان كاهنا وادعى النبوة في حياة رسول الله وتبعه أفريق من قومه بني أسد ومن غيرهم فوجه إليه رسول الله ضرار بن الأزور ليقاتله فيبينما ضرار يريد مناجزته إذ ورد عليه الخبر بوفاة رسول الله ففت ذلك في عضد ضرار وانكأ راجعا بمن معه من المسلمين إلى المدينة وعظم أمر طليحة حينئذ واستطار شره وانضمت إليه غطفان وبعض طيء وأخلاق من العرب على ماء من مياه بني أسد يقال له بزاجة فسار إليهم خالد رحمه الله فأوقع بهم وقعة شعاء فل بها جمعهم وقتل من قتل منهم ونجا طليحة إلى الشام برأس طمرة ولجام وبقي هناك إلى أن أسلم وحسن إسلامه وكانت له في تال فارس الروم زمان الفتح اليد البيضاء ثم تتبع خالد رحمه الله أهل الردة قبيلة قبيلة وجمعا جمعا فقتل وحرق ورضخ بالحجارة ورمى من رؤوس الجبال وأبلغ في النكاية بكل وجه فخشعت نفوس المرتدين وخامر قلوبهم الرعب وقوم اعواجههم الطعن والضرب حتى راجعوا الإسلام كرها وكان من اظمهم شوكة وأشدهم قوة بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب وكان موطنهم باليمامة وهي بلاد واسعة ذات نخل وزرع على أربعة أيام من مكة وكان مسيلمة هذا قد قدم على النبي فيوفد بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب وكان موطنهم باليمامة وهي بلاد واسعة ذات نخل وزرع على أربعة أيام من مكة وكان مسيلمة هذا قد قدم على النبي في وفد بني حنيفة فأسلم ثم ارتد وادعى النبوة استقلالا ثم مشاركة مع النبي وشهد له بذلك الرجال بن عنفة أحد أشرف بني حنيفة وكان قد هاجر إلى النبي وأقام عنده وقرأ القرآن وتفق في الدين فلما ارتد مسيلمة بعثه النبي معلما لأهل اليمامة ومشغبا عن مسيلمة فكان من أعظم الفتن على بني حنيفة فإنه شهد لمسيلمة بالنبوة واتبعه على شأنه وصار مؤننا له يشهد له بالرسالة بعد رسول الله فعظم شأنه

فيهم وكان مسيلمة ينتهي إليه رأيه وكان يأتي بأسجاع كثيرة يزعم أنها قرآن ينزل عليه ويأتي بمخارق من الشبهة ويقول إنها معجزاته فنقع على خلاف المقصود إهانة من الله له فنهض خالد رحمه الله بعد الفراغ من طليحة وغيره من أهل الردة إلى بني حنيفة وهم يومئذ كثير يقال كانوا أربعين ألف مقاتل ولما سمعوا بدنو خالد منهم خرجوا وعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنقروا الناس فنفروا معهم وأقبل خالد على مقدمة مسيلمة فالتقوا واقتتلوا واشتدت الحرب وانكشف المسلمون حتى دخل بنو حنيفة خباء خالد ثم تراجع المسلمون وكروا على بني حنيفة وقاتل ثابت بن قيس بن شماس حتى قتل ثم زيد بن الخطاب أخو عمر كذلك ثم أبو حنيفة بن عتبة بن ربيعة ثم مولاة سالم ثم البراء أخو أنس بن مالك وكان تأخذه عند الحرب رعدة حتى ينتفض ويقعد عليه الرحال حتى يبول ثم يثور كالأسد فقتل ذلك اليوم وفعل الأفاعيل واستحر القتل في المسلمين خصوصا قراء القرآن وأهل السابقة قال ابن خلدون قتل يوم اليمامة من الأنصار ما ينيف على الثلاثمائة وستين ونم المهاجرين مثلها ومن التابعين لهم مثلها أو يزيدون وفشت الجراحات فيمن بقي ثم هزم الله العدو وأجأهم المسلمون إلى حديقة كانت هناك وفيها مسيلمة فقال البراء بن مالك ألقوني عليهم من أعلى الجدار فاقتمهم وقاتلهم على باب الحديقة حتى دخل بعض المسلمين عليهم واقتحم الباقون من أعلى الحيطان فقتل من بني حنيفة يومئذ سبعة عشر ألف مقاتل فسميت الحديقة حديقة الموت وأما مسيلمة فقتله وحشي بالحربة التي قتل بها حمزة بن عبد المطلب يوم أحد وشاركه في قتله رجل من الأنصار ثم صالح خالد بن حنيفة فيخبر طويل وهذه الوقعة من أعظم الوقعات التي كانت في زمن أبي بكر رضي الله عنه وهي كانت السبب الداعي إلى جمع القرآن في المصحف واستمر كذلك إلى أن جمعه عثمان بن عفان رضي الله عنه الجمع الثاني في المصحف

ففي الصحيح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمير بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضي الله عنه إن عمر أتاني فقال غن القتل قد استحر يوم اليمامة بقاء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن قال أبو بكر قلت لعمر كيف فعل شينا لم يفعله رسول الله فقال عمر هو والله خير فلم يزل عمر يرأعني فيه حتى شرح الله ذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر قال زيد بن ثابت وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا تهتمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتنبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن قلت كيف تفعلان شينا لم يفعله رسول الله فقال أبو بكر هو والله خير فلم أزل أراجعهم حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فقمت ففتتعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسف واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر اه ولما فرغ خالد من أمر اليمامة بعث إليه أبو بكر في المحرم سنة اثنتي عشرة يأمره بالسير إلى العراق وذلك عندما أجمع العرب على الإسلام وانتفقوا على التمسك بكلمته وأخلصوا الطاعة لله ولخليفة رسول الله فسمت لأبي بكر رضي الله عنه همة في قتال فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم يومئذ فتوجه خالد رحمه الله نحو فارس وكان عذابا من عذاب الله أرسله على أهل الكفر والضلال وما مثله إلا قول المتنبي وما كان إلا النار في كل موضع يثير غبارا في مكان دخان

فتوجه خالد رحمه الله وفتح الحيرة وما وراءها من أعمال العراق وفتح الأنبار وعين التمر وأوقع الوقائع العظيمة بمسالح أهل فارس وجيوشهم حتى أخالفهم في بلادهم وهم بالافتحام عليهم ومقاتلتهم في عقر دارهم وكتب إليهم بكتابين يتوعدهم ويتهدهم ثم صرفه أبو بكر رضي الله عنه إلى الشام فشهد اليرموك مع جيوش المسلمين الذين كانوا هناك ففي الأكتفاء عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي وكانت له صحبة قال لما أراد أبو بكر أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن الزبير وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم فدخلوا عليه وأنا فيهم فقال إن الله لا تحصى نعمه ولا تبغى جزاءها الأعمال فله الحمد كثيرا على ما اصطنع عندكم ثم جمع كلمتكم وأصلح ذات بينكم وهداكم إلى الإسلام ونفى عنكم الشيطان فليس يطعم أن تشركوا بالله ولا أن تتخذوا إليها غيره فالعرب اليوم بنوا أم وأب وقد رأيت أن أستفزه إلى الروم بالشام فمن هلك منهم هلك شهيدا وما عند الله خير للأبرار ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين مستوجبا على الله ثواب المجاهدين هذا رأيي الذي رأيت فليشر على امرؤ بمبلغ رأيه فأجاب كل من الحاضرين باستصواب رأيه وتقوية عزمه فجهز أبو بكر رضي الله عنه جيوشا وأمر عليهم أمراء كخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة ويزيد بن أبي سفيان وأمر أبا عبيدة بن الجراح على جميعهم وعين له حمص وأوصى كل واحد منهم بما تنبغى الوصية به فكان بسبب تلك الجموع وقعة اليرموك بين المسلمين والروم في رجب سنة ثلاث عشرة من الهجرة بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه بنحو شهر لأن وفاته رضي الله عنه كانت مساء ليلة الثلاثاء بين العشاءين لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة ليال وعمره ثلاث وستون سنة رضي الله عنه ونفعنا به

خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول من دعي أمير المؤمنين وكان أبو بكر قبله يدعى خليفة رسول الله وهو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل مصغرا بن عبد العزى بن رباح بكسر الراء وفتح المثناة التحتية بن عبد الله بن قريظ بضم القاف ابن رزاح بفتح الراء بن عدي بن كعب بن لؤي يجتمع مع رسول الله في كعب بن لؤي ولي الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه بعهد منه إليه قال ابن خلدون لما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر رضي الله عنهما الأمر من بعده بعد أن شاور عليه طلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وأخبرهم بما يريد فيه فأثتوا على رأيه فأشرف على الناس وقال إني قد استخلفت عمر ولم آل لكم نصحا فاسمعوا له وأطيعوا ودعا عثمان فأمره فكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو خليف محمد رسول الله عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر وينيب فيها الفاجر إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيرا فإن صبر وعدل فلذلك علمي به ورأيي فيه وإن جار وبدل فلا علم لي بالغييب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فكان أول ما أنفذه من الأمور عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش بالشام وتولية أبي عبيدة وجاء الخبر بذلك والمسلمون موافقون عدوهم باليرموك فكتب أبو عبيدة الأمر كله حتى انقضى والمسلمون موافقون عدوهم باليرموك فكتب أبو عبيدة الأمر كله حتى انقضى أمر اليرموك وكان فتح دمشق بعدها فحينئذ أظهر أبو عبيدة إمارته وعزل خالد فسمع خالد وأطاع وقيل في هذا الخبر غير هذا مما هو مبسوط في كتب الفتح ثم إن عمر رضي الله عنه سدد عزمه وأرهب حده لغزو فارس والروم فتابع عليهم الجنود وعين لك أمير عمله وعقد لأبي عبيد بن مسعود الثقفي على جيش من المسلمين وبعثه نحو العراق فاستشهد أبو عبيد بموضع يقال له قس الناطف على الفرات فولى مكانه المثنى بن حارثة

الشيباني وكان بطلا من الأبطال نظير خالد بن الوليد في يمن النقبية والجرأة على الأعداء فأوقع بأهل فارس عدة وقعات منها وقعة البويب قتل فيها من الفرس مائة ألف أو يزيدون ثم إن عمر رضي الله عنه استأنف الجد لجهاد فارس وقال والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رئيسا ولا ذا رأي ولا خطيبا ولا شاعرا إلا رامه به فرماه بوجوه الناس وكتب إلى المثنى بأمره أن يخرج بالمسلمين من بين العجم ويتفرق بهم على المياه بحياهم وأن يدعو الفرس وأهل النجدات من ربيعة ومضر ويحضرهم طوعا وكرها ثم حج عمر سنة ثلاث عشرة ورجع إلى المدينة فوافته أمماد العرب بها ففقد عليهم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وولاه حرب العراق وأوصاه وقال يا سعد بن أم سعد لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله فإن الله لا يمحو السوء بالسوء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته فالناس في دين الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله يلزمه فالزمه وعليك بالصبر ثم سرحه في أربعة آلاف ممن اجتم إليه فيهم وجوه العرب وأشرفها وانضاف إليه في طريقه جموع أخر فكانت له في هذا الوجه وقعة القادسية المشهورة دامت فيها الحرب بين المسلمين والفرس أربعة أيام بلياليها وقتل فيها رستم زعيم الفرس وصاحب حربها واستلحمت جنوده وكان الفتح الذي لم يكن له في الإسلام نظير وذلك في المحرم سنة أربع عشرة وقيل خمس عشرة ثم كان بعدها فتح المدائن وجولاء وسائر بلاد العراق وغيرها من بلاد فارس الجبل وأرمينية وأذربيجان وسجستان وكرمان ومكران وخراسان وغير ذلك مما يطول ذكره وكذا استول جيوش المسلمين الذين بالشام على بلاد الشام والجزيرة وأنطاكية

وغيرها من بلاد الروم ومصر والإسكندرية وبقرة وطرابلس الغرب وغير ذلك وفي سنة أربع عشرة أمر عمر رضي الله عنه باختطاط البصرة والكوفة بعراق العرب لما بلغه من وخامة البلاد وأن العرب قد تغيرت ألوانهم بالعراق فأذن لهم في اختطاط المصريين وأن لا يتجاوزوا في بناءهما السنة ويقال إن اختطاط الكوفة كان في سنة سبع عشرة وفي سنة خمس عشرة وضع عمر الديوان وفرض العطاء للمسلمين ولم يكن قبل ذلك وروى الزهري عن ابن المسيب أن ذلك كان في المحرم سنة عشرين قال ابن خلدون يقال وضع عمر الديوان لسبب مال أتى به أبو هريرة من البحرين فاستكثروه وتبوا في قسمة فسموا إلى إحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدنون فقبل منه عمر وقيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان فقال له ومن يعلم بغيبه من يغيب منهم فإن من تخلف أخل بمكانه وإنما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا فأمر عمر رضي الله عنه عقيل بن أبي طالب ومخزومة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية مرتبا على الأنساب مبتدأ فيه بقرابة رسول الله الأقرب فالأقرب بعد أن قال علي وعبد الرحمن بن عوف لعمر أبدا بنفسك فقال لا بل بعم رسول الله فبدأ بالعباس ثم بالأقرب فالأقرب من رسول الله وفرض لأهل بدر خمسة آلاف وخمسة آلاف وفرض لمن بعدهم إلى الحديبية أربعة آلاف ثم لمن بعدهم ثلاثة آلاف ثم الفين وخمسمائة ثم لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفا ألفا ولرؤدقهم خمسمائة خمسمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين وخمسين ثم مائتين وأطى نساء النبي لكل واحدة عشرة آلاف وقض عائشة بألفين وجعل النساء على مراتب فلاهل بدر خمسمائة ثم أربعمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين والصبيان مائة مائة

والمساكين جريبين في الشهر ولم يترك في بيت المال شيئا وسئل في ذلك فأبى وقال هي فنتة لمن بعدي ثم سئل رضي الله عنه الصحابة في قوته هو من بيت المال فأذنوا له وسأله في الزيادة على لسان ابنته حفصة متكتمين عنه فغضب وامتنع وفي سنة ست عشرة قدم جيلة بن الأبهيم ملك غسان على عمر رضي الله عنه في جماعة من أصحاب مسلمين فلتاقه المسلمون ودخل في زي حسن وبين يديه جنائب مفادة على أصحابه الديباج حتى تطاول النساء من خورهن لرؤيته وأكرم عمر وفادته وأحسن نزله وأجله بأرفع رتب المهاجرين ثم خرج عمر للحج في هذه السنة فحج معه جيلة فبينما جيلة يطوف بالبيت إذا وطئ رجل من فزارة فضل إزاره فلطمه جيلة فهشم أنفه فأقبل الفزاري إلى عمر وشكاه فأحضره عمر وقال له افتد نفسك وإلا أمرته بلطمك فقال جيلة كنت أظن أنني بالإسلام أعز مني في الجاهلية فقال عمر دع عنك هذا فقال جيلة إني أنتصر فقال عمر إن تنصرت ضربت عنقك فقال له أنظرني ليلتي هذه فأنظره فلما جاء الليل سار جيلة بخيلة ورجله إلى الشام ثم منها إلى القسطنطينية وتبعه خمسمائة رجل من قومه فتصبروا عن آخرهم وفرح هرقل به وأكرمه ثم ندم جيلة على فعلته تلك وقال تنصرت الأشراف نم عار لطمه وما كان فيها لو صبرت لها ضرر تكنفني فيها لجاج ونخوة وبعث لها العين الصحيحة بالعمور ويا ليتني أرى المخاض بقفرة وكنت أسيرا في ربيعة أو مضر ويا

ليت لي بالشام أدنى معيشة أجالس قومس ذاهب السمع والبصر أدين بما دانوا به من شريعة وقد يحبس العير النجون على الدبر وكان قد مضى رسول عمر إلى هرقل وشاهد ما هو فيه جبلة من النعمة فأرسل جبلة بخمسائة دينار إلى حسان بن ثابت وأمضاهما له عمر فمدحه حسان بن ثابت بأبيات منها إن ابن جفنة من بقية معشر لم يذهب أبأؤهم بالوم لم ينسني بالشام إذ هو ربها كلا ولا منتصرا بالروم يعطي الجزيل ولا يراه عنده إلا كيعض عطية المذموم وفي سنة سبع عشرة جيء إلى عمر بالهرمزان ملك الأهواز أسيرا ومعه وفد فيهم أنس بن مالك والأحفن بن قيس فلما وصلوا به إلى المدينة ألبسوه كسوته من الديباج المذهب ووضعوا على رأسه تاجه وهو مكلل بالياقوت ليراه عمر والمسلمون على هيئته التي يكون عليها في ملكه فطلبوا عمر فلم يجدوه فسألوا عنه فقيل هو في المسجد فأتوه فإذا هو نائم فجلسوا دونه فقال الهرمزان أين هو عمر قالوا هو ذا قل فأين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب فنظر الهرمزان إلى عمر وقال عدلت فأمنت فمتمت واستيقظ عمر لجلية الناس فقال الهرمزان قالوا نعم يا أمير المؤمنين فقال الحمد لله الذي أنزل بالإسلام هذا وأشباهه وأمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوبا ضيقا فقال عمر كيف رأيت عاقبة أمر الله فيك فقال الهرمزان لما خلى الله بيننا وبينكم في الجاهلية غلبناكم ولما كان الآن غلبتمونا وفي سنة ثمان عشرة كانت مجاعة الرمادة وطاعون عمواس وحلف عمر لا يذوق السم واللين حتى يحيي الناس واستسقى عمر بالعباس عم النبي وهلك بالطاعون أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وابنه عتبة في آخرين أمثالهم وتغنى الناس بالشام وبالبيصرة أيضا ولما فحش أثر الطاعون بالشام أجمع عمر المسير إليه ليقسم مواريت المسلمين ويتطوف على الثغور ففعل ورجع وكانت له خرجة أخرى قبل هذا لفتح بيت المقدس وفي سنة عشرين فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية وشهد الفتح

معه الزبير بن العوام وجماعة من كبار الصحابة وفي سنة اثنتين وعشرين سار عمرو بن العاص إلى برقة فصالحه أهلها على الجزية ثم سار إلى طرابلس الغرب فحاصرها وفتحها عنوة وفي سنة ثلاث وعشرين كانت وفاة عمر رضي الله عنه على ما سياتي وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر وعنه أيا قال لما أسلم عمر كان الإسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا قوة ولما مات عمر مان الإسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلا ضعفا وعند ابن أبي شيبه رضي الله عنه قال كان إسلام عمر عزا وهجرته نصرا وإمارته رحمة وفي الصحيح أيضا عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله قال بينا أنا نائم رأيتني على قليب وعليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ثم استحالت غربا فأخذها عمر بن الخطاب فلم أر عقربا من الناس ينزع نزع عمر وفي رواية فلم أر عقربا من الناس يفري فريه حتى يضرب الناس بعطن قال النووي رحمه الله قالوا هذا المنام مثال لما جرى للخليفين من ظهور آثارهما الصالحة وانتفاع الناس بهما وكل ذلك مأخوذ من النبي لأنه صاحب الأمر فقام به أكمل قيام وقرر قواعد الدين ثم خلفه أبو بكر فقاتل أهل الردة وقطع دابرهم ثم خلفه عمر فطالت مدة خلافته عشر سنين وزيادة واتسع الإسلام في زمانه فشبهه أمر المسلمين بقليب فيه الماء الذي فيه حياتهم وصلاحتهم وأميرهم بالمستسقى لهم منها وسعته هي قيامه بمصالحهم اه قلت من تأمل أمر عمر رضي الله عنه علم أنه كان عجيبا من العجب فإنه عمد إلى ثلاث دول هي أعظم دول العالم في ذلك الوقت دولة الفرس ودولة الروم ودولة القبط فحاربهم في نفس واحد وفرق جيوشه عليهم مع قلة المسلمين إذ ذلك وشظف عيشهم فغلبهم على ممالكهم وأزال عزهم وكسر كراسيهم وأمات نخوتهم بحيث ضرب الجزية على رقابهم طول أحقابهم

فلم يطالبوا بعدها بثأر ولا عادوا إلى جماع ونفار بل أعطوا القادة وأسلموا أنفسهم للصحار ثم لم يكتف بذلك حتى أغزى خيل المسلمين أطراف المعمور من خراسان والترك وبلاد النوبة وبلاد البربر ولعمري ما أمر الإسكندر الذي تضرب الأمم به المثل في الغلبة والتمكن في الأرض إلا دون أمر عمر بكثير فإن الإسكندر كان غازيا بجميع جيشه متوليا ذلك بنفسه جوالا في الأرض غير مقيم ووجهته في حروبه وجهة واحدة كلما فرغ من مملكة انتقل إلى غيرها تاركا للتي خلف وراءه غير ملتفت إليها وكأنه كان لا عرض له إلا في إظهار القوة والبطش والغلبة على الأمم دون ما سوى ذلك من تصريف الممالك طوع الأمر والنهي ولذا قال حمزة الأصبهاني في كتابه تواريخ الأمم وما رواه القصاص من إن الإسكندر بنى بأرض إيران عدة مدن منها أصبهان ومرو وهراة وسمرقند فحدث لا أصل له لأن الرجل كان مخربا لا عامرا اه فأما عمر رضي الله عنه فإنه لما استولى على جيوشه على أكثر المعمور صرف ممالكها طوع أمره حتى جبي إليه خراجها وثبتت استقامتها وزال اعوجاجها أقوى ما كانوا شوكة وأشد قوة وأكثر حامية ولم يمت رحمه الله حتى انتهت خيله في جهة الشرق إلى نهر بلخ وفي جهة الشمال إلى البيضاء على ماتي فرسخ من بلنجر وفي جهة المغرب إلى تخوم الروم وبلاد برقة وطرابلس الغرب كل ذلك في مدة يسيرة لم يجاوز معظمها الثلاث سنين وهو مع ذلك في جوف بيته متردد فيما ينزله ومسجده لم يستعمل لذلك كثير أسباب ولا أجلب بنفسه بخيل ولا ركاب إنما هو الرأي الميمون والنصر المضمون والأمر الجاري بين الكاف والنون والوعد المنجز بقوله تعالى ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فأما وفاة عمر رضي الله عنه فروى ابن سعد بإسناد صحيح أن عمر كان لا يؤذن لمن احتلم من أولاد العجم في دخول المدينة حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة فنذر له أن عنده غلاما صنعا وهو يستأذنه أن يدخله المدينة ويقول إن له أعمالا ترفع

الناس إنه حداد نقاش نجار فأذن له عمر وضرب عليه مولاة مل شهر مائة فشكى إلى عمر شدة الخراج فقال له ما خراجك بكثير في جنب ما تعمل فانصرف ساخطا فلبث عمر ليالي فمر به العبد فقال عمر ألم أحدث أنك تقول لو شئت لصنعت رحي تطحن بالريح فالتفت إليه عابسا فقال لأصنعن لك رحي يتحدث الناس بها فأقبل عمر على من معه فقال توعدني العبد فلبث ليالي ثم اشتمل على خنجر ذي رأسين نصابه في وسطه فكم في زاوية من زوايا المسجد في الغلس حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة وكان عمر يفعل ذلك فلما دنا عمر وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة قد خرقت الصفاق وهي التي قتلته وفي صحيح البخاري عن عمرو بن ميمون قال رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة ب اليمان وعثمان بن حنيف قال كيف فعلتما في أرض السواد أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق يعني من الخراج قالا حملناها أمرا هي له مطيقة ما فيها كبير فضل قال انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق قالا لا فقال عمر لئن سلمني الله تعالى لأدعن أرا من أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبدا قال فما أتت عليه رابعة حتى أصيب قال عمرو بن ميمون إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب وكان إذا مر بين الصفيين قال استنوا حتى إذا لم ير فيهن خلا فقدم فكبر وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبر فسمعت يقول قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة واسمه فيروز فطار العلاج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميننا ولا شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين واسمه خطاب التميمي اليربوعي طرح عليه برونسا فلما ظن العلاج أنه مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه فممن يلي عمر فقد رأى الذي أرى وأما نواحي المسجد فإتهم لا

يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله صلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة قال الصنع قال نعم قال قاتله الله لى د أمرت به معروفا الحمد لله الذي لم يعل مبتني بيد رجل يدعي الإسلام قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر الطوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقا قال إن شئت فعلنا أي إن شئت قتلنا قال كذبت بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبائكم وحجوا حجكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقاتل يقول لا بأس وقاتل يقول أخاف عليه فأتى بنبيذ فشربه فخرج من جرحه ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جرحه فلموا أنه ميت فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك بصحبة رسول الله ووقدم في الإسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة قال وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي فلما أدبر الشاب إذا إزاره يمس الأرض قال ردوا علي الغلام قال يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك

وأنتى لربك يا عبد الله بن عمر انظر ماذا علي من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه قال إن وفي له مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فإسأل في بني عدي بن كعب فإن لم تف أموالهم فإسأل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم فأد عني هذا المال انطلق إلى عائشة أم المؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال اقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأوترنه به اليوم على نفسي فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء قال ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال ما لديك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت قال الحمد لله ما كان من شيء

أهم على من ذلك فإذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فادخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فيكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت داخلًا لهم قسمنا بكاءها من الداخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين استخلف قال ما أجد أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء نفر أو الرهط الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض فسمي عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له فإن أصابت الإمارة سعدا فهو ذاك وإلا فليستنن به أيكم ما أمر فاني لم أعزله عن عجز ولا خيانة وقال أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأوصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفي عن مسيئهم وأوصيه بالأوصار خيرا فإنهم رء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشي أموالهم وترد على فقرائهم وأوصيه بزمة الله ودمه رسوله أن يوفي لهم بعدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكفوا إلا لظقتهم فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب قالت أدخلوه فادخل فوضع هناك مع صاحبيه فلما فرغ من دفن اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن أمركم إلى ثلاثة منكم فقال الزبير قد جعلت أمري إلى علي فقال طلحة

طلحة قد جعلت أمري إلى عثمان وقال سعد قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف فقال عبد الرحمن أيكما ينبتأر من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن أفتجعلونه إلي والله على أن لا ألو عن أفضلكم قالوا نعم فأخذ بيد أحدهما

فقال لك

من قرابة رسول الله والقدم ما قد علمت فانه عليك لئن أمرتك لنعدلن ولن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعين ثم خلا بالأخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال ارفع يدك يا عثمان فباعه وباع له علي وولج أهل الدار فباعوه اه وكانت وفاة عمر رضي الله عنه يوم السبت منسوخ ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام كذا لأبي الفداء وفي حديث عائشة مما أخرجه أبو عمر بن عبد البر ناحت الجن على عمر رضي الله عنه قبل أن يموت بثلاث فقالت أبعد قتيل بالمدينة أظلمت له الأرض تهتت العضاة بأسوق جزى اله خيرا من إمام وباركت يد الله في ذلك الأديم الممزق فمن يسع أو يركب جناح نعمة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق قضيت أمورا لم غادرت بعدها بوائق من أكمامها لم تتفق خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه هو أبو عمرو وعثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بنقصي يجتمع مع رسول الله في عيد منافع ولي الخلافة بعد عمر رضي الله عنه باختيار أهل الشورى له وقد تقدم خبر ذلك مستوفى ولما بويع رقى المنبر وقام خطيبا فحمد الله وتشهد ثم ارتج عليه فقال إن أول كل أمر صعب وإن أعش فستأتيكم الخطب على وجهها إن شاء الله ثم نزل وأقر عمال عمر كلهم إلا ما كان من المغيرة بن شعبة أمير الكوفة فإنه عزله واستبدل به سعد بن أبي وقاص لوصية عمر بذلك ثم بعد مدة نحو سنة عزل من عزل عمر واستبدل بهم آخرين كان فيهم من هو من قرابته فعزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة وكان أخا عثمان من أمه وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها

عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وكان أخاه من الرضاة ثم عزله بعد ذلك أبا موسى الأشعري عن البصرة وولى عليها عبد الله بن عامر بن كريز وهو ابن خاله واستكتب مروان بن الحكم بن أبي العاص وهو ابن عمه كل ذلك كان لمصلحة اقتضاه الحال وضم حمص وقنسرين وفلسطين وغيرها من بلاد الشام إلى معاوية بن أبي سفيان أمير دمشق ومضى رضي الله عنه وكان لأول خلافة عثمان قد انتقض بعض الثغور والجهات مثل الإسكندرية وبعض بلاد العمم وفارس ونحو ذلك فتلاقاها بالغزو والبعوث حتى عادت إلى الطاعة وأدت ما كانت تؤديه أيام عمر أو أكثر وفتح عليه بلاد أرمينية مثل تقيس وقاليقلا وخراسان وبلاد الروم حتى بلغ عمورية ووجد بين أنطاكية وطرسوس من حصون الروم خاليا فجمع فيها العساكر حتى رجع وخربها وكذا استتم المسلمون في خلافة عثمان رضي الله عنه فتح مدن خراسان والجوزجان والطلقان وطخارستان وما وراء النهر إلى فرغانة في الشرق وانتهى الفتح أيضا إلى كابل وزابلستان وهي بلاد غزنة من تغور الهند في الجنوب

فتح إفريقية وفتح في خلافة عثمان رضي الله عنه إفريقية أيضا من بلاد المغرب وكان من خبرها أنه لما كان سنة ست وعشرين من الهجرة عزل عثمان رضي الله عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه عن خراج مصر واستعمل مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه فلما قدم ابن أبي سرح مصر كان على خراجها وعمرو بن العاص على حربها فكتب ابن أبي سرح إلى عثمان يشكو عمرا فاستقدمه عثمان واستقل ابن أبي سرح بالخراج والحرب معا ثم أمره عثمان بغزو إفريقية بعد أن كان عمرو بن العاص استنار عمر رضي الله عنه في غزوها فمعه من ذلك وقال له تلك المفارقة وليست بإفريقية أو كلاما هذا معناه ولما أمر عثمان بن أبي سرح بغزوها قال له إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم ثم عقد عثمان لعبد الله بن نافع بن عبد القيس على جند ولعبد الله بن نافع بن الحارث على آخر وسروجهما فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ثم إن ابن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده فاستشار عثمان الصحابة رضي الله عنهم فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين رضي الله عنهم وساروا مع ابن أبي سرح سنة ست وعشرين ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا

الروم عندها ثم ساروا إلى إفريقية وبثوا سرايا في كل ناحية وكان ملكهم جرجير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفا من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سببلة دار ملكهم وأقاموا يقتتلون ودعوه إلى الإسلام أو الجزية فاستكبر ولحقهم عبد الله بن الزبير مددا بعثه عثمان لما أبطأت أخبارهم وسمع جرجير بوصول المدد ففت في عضده وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال فقال له ابن الزبير تنادي أنت بأن من قتل جرجير أشد منه ثم قال عبد الله بن الزبير لابن أبي سرح الرأي أن تترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متاهبين للحرب وتقاتل الروم بباقي العسكر إلى أن يصدجروا فتركهم بالآخرين على غرة لعل الله ينصرنا عليهم ووافق على ذلك أعيان الصحابة ففعلوا ذلك وركبوا من الغد إلى الزوال وألحوا عليهم حتى أتوهم ثم افترقوا وأركب عبد اله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم وقتل ابن الزبير ثم حاصر ابن أبي سرح سببلة حتى فتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الرجل ألفا وبيث جيوشه في البلاد إلى قفصه فسبوا وغنموا وبعث عسكرا إلى حصن الأجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتح على الأمان ثم صالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار وأرسل عبد الله بن أبي سرح عبد الله بن الزبير بخير الفتح وبالحمس إلى عثمان رضي الله عنه فاشتره مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار ثم وضعها عنه عثمان وأعطى ابن أبي سرح خمس الخمس من الغزوة الأولى ثم بعد تمام الصلح رجع عبد الله بن أبي سرح

إلى مصر بعد مقامه بأفريقية سنة وثلاثة أشهر ويقال إنه لما فتح إفريقية أمر عثمان رضي الله عنه عبد الله بن نافع أن يسير إلى جهة الأندلس فغزا تلك الجهة وعاد إلى أفريقية فأقام بها واليا من قبل عثمان ورجع ابن أبي سرح إلى مصر والله أعلم وفي سنة ثمان وعشرين استأذن معاوية عثمان في غزو البحر فأذن له وقد كان معاوية وهو بمصر أيام عمر رضي الله عنه كتب إليه في شأن جزيرة قبرص يقول إن قرية من قرى حمص يسمعون أهلها نباح كلاب قبرص وصياح ديوكهم فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يقول صف لي البحر وراكبه فكتب إليه عمرو يقول هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء إن ركد ألق القلوب وإن تحرك أزاع العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة وراكبه دود على عود إن مال غرق وإن نجا فرق فكتب عمر إلى معاوية والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول جبل بالأرض فيستانن الله كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض فكيف أحمل الجنود على هذا البحر الكافر وبالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم فإياك أن تعرض لي في ذلك فقد علمت ما لقي العلاء مني ثم لما كانت خلافة عثمان أوح معاوية عليه في غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم فاختر الغزو جماعة من الصحابة فيهم أبو ذر وأبو الدرداء وشداد بن أوس وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان واستعمل عليهم عبد الله بن قيس حليف بني فزارة وساروا إلى قبرص وجاء عبد الله بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار لكل سنة ويؤدون مثلها للروم ولا منعة لهم على المسلمين ممن أرادهم من سواهم وعلى أن يكونوا عينا للمسلمين على عدوهم ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم وكانت هذه

الغزاة سنة ثمان وعشرين كما قدمنا وقل غير ذلك وفيها توفيت أم حرام بنت ملحان سقطت عن دابتها حين خرجت من البحر وكان النبي أخبرها بذلك وهو نائم عندها كما في الصحيح وأقام عبد الله بن قيس على البحر فغزا خمسين غزوة لم ينكب فيها أحد إلى أن نزل في بعض الأيام في ساحل المرقأ من أرض الروم فثاروا إليه فقتلوه ونجا الملاح وكان استخلف سفيان بن عوف الأزدي على السفن فجاء إلى أهل المرقأ وقتلهم حتى قتل وقتل معه جماعة من المسلمين وفي سنة ثلاثين جمع عثمان القرآن الجمع الثاني في المصاحف وفيها هلك بزدجرد كسرى فارا من جيوش المسلمين بمدينة مرو من خراسان وهو آخر الأكاسرة وبموته انقضت دولة آل ساسان وكان من خبر جمع القرآن ما أخرجه البخاري عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفو في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أمة بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق قال ابن شهاب وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أنه سمع أبا زيد بن ثابت قال فقدت آية من الأحزاب حين نسختنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري من المؤمنين رجال صدقوا ما

عاهدوا الله عليه فالحقها في سورتها في المصحف وفي سنة ثلاث وثلاثين تكلم جماعة من أهل الكوفة في عثمان بأنه ولي جماعة من أهل بيته لا يصلحون للولاية ونقموا عليه أمورا أخر لا حاجة بنا إلى ذكرها مع أنه كان فيها مجتهدا وذلك أن عثمان رضي الله عنه كان فيه مزيد حياء ورفقة وبرور بأقاربه وكان عمر رضي الله عنه مرهوب الجانب عند الخاصة والعامة له عين كائنة على الرعية بصيرا بما يأتون وينرون محدثا في ذلك كما أخبر عنه وكان من الحزم والضبط على ما وصفتها عائشة رضي الله عنها إذ قالت رحم الله عمر كان أحوذ به نسيج وحده قد أعد للأمر أقرانها فكان عثمان ألين جنبا من عمر فتوسع الناس في زمانه في أمور الدنيا أكثر مما كانوا عليه في زمان عمر واستعملوا النفيس من الملبس والمسكن والمطعم واقتنوا الضياع والأثاث قال المسعودي في مروج الذهب وفي أيام عثمان اقتنى الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وكانت إلى طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانون ألفا وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والإسكندرية والكوفة وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنائها بالجص والأجر والساج وبنى سدر بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات وبنى المقادار داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن وخلف يعلى بن منية خمسين ألف دينار وغير

ذلك مما قيمته ثلاثمائة ألف درهم اه كلام المسعودي فاستحالت الأحوال في زمان عثمان كما ترى ولما رأى ذلك بعض الناس ممن لم يكن له رسوخ في الفقه والدين ولا هو من أهل السابقة من فضلاء الصحابة والمسلمين صاروا ينقمون على عثمان بأنه أهمل أمر الرعية وخالف سيرة العمرين مع ما أنضاف إلى ذلك من تولية أقاربه وحاشاه من ذلك رضي الله عنه فإن الرجل كان مجتهدا وهو أهل للاجتهاد وما تخيلوه من إهماله أمر الرعية حتى استحالت أمرها إلى ما ذكر نخيل باطل إذ ليس ذلك بسبب ما فتح على المسلمين من الأقاليم والممالك والأقطار والنواحي والأمصار وترادف الجبايات الفانقة الحصر وانثيال كنوز كسرى وقيصر وغيرهم من ملوك الأرض عليهم فأتى الأمر على حاله مع هذا الفتح العجيب والنصر الغريب وقد قيل دوام الحال من المحال والناس ليسوا على قدم واحد في الزهد في الدنيا فالحق الذي لا عوج فيه ولا أمت أن عثمان رضي الله عنه كان على الحق حتى لقي ربه وما يعدون به عليه من مخالفة الشيخين رضي الله عنهما إن صح فمحلله الاجتهاد كما قلنا ومعلوم أن أحكام الشرع تنور مع المصالح والمفاسد وتختلف باختلاف الأزمان والأحوال كما لا يخفى على من له أدنى مسيس بالفقه قل ابن خلدون اختلاف الصحابة والتابعين إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون إذا اختلفوا فإن قلنا إن الحق في المسائل الاجتهادية في واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطئ فإن جهته لا تتعين بإجماع فيبقى الكل على احتمال الإصابتة والتأنيث مدفوع عن الكل إجماعا وإن قلنا إن الكل حق وإن كل مجتهد مصيب فأجرى بنفي الخطأ والتأنيث ثم استمر أولئك الناقدون على عثمان رضي الله عنه وتمادوا في طعنهم وتشغيبيهم حتى تفاقم الأمر وشرى الداء وأعوز الدواء واختلط المرعى بالهمل

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر وآخر الأمر أنه لما كانت سنة خمس وثلاثين قدم من مصر جمع قيل ألف وقيل سبعمائة وقدام من الكوفة جمع أر ومن البصرة كذلك وحاصروا عثمان رضي الله عنه في داره وكانت خطوب وقطعوا عنه الماء واستمر الحصار نحو أربعين يوما ثم سور عليه جماعة من أهل مصر فقتلوه وسال دمه على المصحف يقال أن الذي تولى قتله كنانة بن بشر التجيبي وطعنه عمرو بن الحمق طعنات وجاء عمير بن ضبابي البرجمي وكان أبوه قد مات في سجن عثمان فوثب عليه حتى كسر ضلعا من أضلاعه وكان قتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثنتي عشر يوما وقيل أنه قتل صبيحة عيد الأضحى من السنة المذكورة وهو الذي عند ابن الخطيب في رقم الحلل وابن بدرود في شرح العبدونية ويؤيده قول حسان بن ثابت يرثيه ضجوا بأشمت عنوان السجود به يقطع الليل تسيحا وقرأنا لتسمعن وشيكا في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا وقول الفرزدق بعده عثمان إذ قتلوه وانتهكوا دمه صبيحة ليلة النحر رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به

خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو أبو الحسن علي بن أبي طالب وسمع عبد مناف ب عبد المطلب جد النبي واسمه شيبه وفيه يجتمع مع النبي بوبع بعد مقتل عثمان رضي الله عنه باتفاق من يعتبر أهل الحل والعقد بعد امتناعه من ذلك قال ابن خلدون لما قتل عثمان



اجتمع طلحة بن الزبير والمهاجرون والأنصار وأتوا عليا يبايعونه فأبى وقال أكون وزيراً لكم خير من أكون أميراً ومن اخترتم رضيتهم فآلحو عليه وقالوا لا تعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك فخرج إلى المسجد وبيعوه وأول من بايعه طلحة ثم الزبير بعد أن خيراها ويقال أنهما ادعيا الإكراه بعد ذلك بأربعة أشهر وتخلف عن بيعة علي رضي الله عنه ناس من الصحابة وغيرهم فلم يبعضهم وقال أولئك قوم قعدوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل ولما ولي الخلافة رضي الله عنه أحبب السنة وأمات البدعة وأوضح منار الحق وأحمد نار الباطل ولم تأخذ في الله لومة لائم ولما دخلت سنة ست وثلاثين فرق عماله على النواحي فبعث إلى الكوفة عمارة بن شهاب وكان من المهاجرين وولي على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري وعلى اليمن عبيد الله بن عباس وكان من الأجداد وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وكان من أهل الجود والشجاعة والرأي وعلى الشام سهل بن حنيف الأنصاري ولما وصل سهل إلى تبوك لقيته خيل فقالوا من أنت قال أمير على الشام فقالوا إن كان بعثك غير عثمان فارجع فرجع إلى علي ومضى قيس بن سعد إلى مصر فولبها واعتزلت عنه فرقة كانوا عثمانية وأبو أن يدخلوا في طاعة علي حتى يقتل قتلة عثمان ومضى عثمان بن حنيف إلى البصرة فدخلها واتبعته فرقة وخالفته أخرى ومضى عمارة بن شهاب إلى الكوفة فلقبه طلحة بن خويلد الأسدي الذي

وكان ادعى النبوة فقال له إن أهل الكوفة لا يستبدلون بأميرهم أحداً وكان عليهما أبو موسى الأشعر من قبل عثمان رحمه الله تعالى فرجع عمارة إلى علي ومضى عبيد الله بن عباس إلى اليمن فولبها وكان العامل بها من قبل عثمان يعلو بن منية فأخذ ما كان بها من المال ولحق بمكة ومعه ستمائة بعير وصار مع عائشة رضي الله عنها وذلك أن عائشة كانت خرجت إلى مكة زمان حصار عثمان فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة فلقبها الخبر بمقتل عثمان فأعظمت ذلك ودعت إلى الطليبدمه ولحق بها طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وجماعة من بني أمية والتفق رأيهم على المضي إلى البصرة للاستيلاء عليها وكان عبد الله بن عمر قد قدم مكة من المدينة فدعوه إلى المسير معهم فأبى وأعطى يعلو بن منية عائشة الجمل المسمى بعسكر وكان اشتراه بمائة دينار فركبته وساروا فمروا في طريقهم بماء يقال له الحوآب فباحتهم كلابه فقالت عائشة أي ماء هذا فقيل ماء الحوآب فصرخت بأعلى صوتها وقالت إنا لله وإنا إليه راجعون سمعت رسول الله يقول وعنده نساؤه ليت شعري أين تكن تتبجها كلاب الحوآب ثم ضربت عضد الجمل فأناخته وقالت ردوني أنا والله صاحبة ماء الحوآب وقامت بهم يوماً وليلة إلى أن قيل النجاء فقد أدرككم علي بن أبي طالب وغلبوها على رأيها فارتحلوا نحو البصرة فاستولوا عليها بعد قتال مع أميرها عثمان بن حنيف ولما بلغ عليا رضي الله عنه مسير عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة سار نحوهم في أربعة آلاف من أهل المدينة فيهم أربعمائة ممن بايع تحت الشجرة وثمانمائة من النصارى وكانت رايته مع ابنه محمد بن الحنفية وعلى ميمنته الحسن وعلى مسيرته الحسين وعلى الخيل عمار بن ياسر وعلى الرجالة محمد بن أبي بكر الصديق وعلى الخيل عمار بن ياسر وعلى الرجالة محمد بن أبي بكر الصديق وعلى مقدمته عبد الله بن العباس وكان مسيره في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ولما وصل علي إلى ذي قار لقيه أمير البصرة عثمان بن حنيف وأخبره الخبر فقال علي إن الناس وليهم قبلي رجلاً فعمل بالكتاب والسنة ثم وليهم ثالث فقالوا في حقه وفعلوا ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير ثم نكثوا ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما علي والله إنهما ليعلمان أني لست بدون رجل ممن تقدم صم سار علي يوم البصرة فيمن معه من أهل المدينة وأهل الكوفة وانضم إلى عائشة وطلحة والزبير جمع آخر والتقوا بمكان يقال له الخريبة عند موضع قصر عبيد الله بن زياد يوم الخميس النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ولما تراءى الجمعان خرج طلحة والزبير وجاءهم علي حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال علي لقد أعددتما عند الله عذراً ألم أكن أخاكم في دينكما تحرمان دمي وأحرم دمكما فهل من حديث أحل لكما دمي قال طلحة ألبت علي عثمان قال علي يومئذ يوفيه الله دينهم الحق فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة أما بايعتني قال والسيوف على عنقي ثم قال الزبير أتذكر يوم قال لك رسول الله لتقاتلنه وأنت له ظالم قال اللهم نعم ولو ذكرت ذلك قيل مسيري ما سرت والله لا أقاتلك أبداً وافترقوا وكان علي رضي الله عنه قد بعث إليهم قبل اللقاء القعقاع بن عمرو التميمي وأمره أن يشير بالصلح ومنها فيعث إليهما فجاء فقال لهما القعقاع إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح فقال طلحة والزبير كذلك هو قال القعقاع فأخبراني ما هو قالا قتلة عثمان فإن تركهم ترك القرآن قال فقد قتلتم منهم عدداً من أهل البصرة يعني حين قتلوا أميرها عثمان بن حنيف قال وغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وطلبتهم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف فإن قاتلتم هؤلاء كلهم اجتمع ربيعة ومضر على حربكم فأين الإصلاح قالت عائشة فماذا تقول أنت قال هذا الأمر دواؤه التسكين فإذا سكن الأمر اختلجوا أي أخذوا على غرة فقالوا قد أصببت وأحسننت فارجع إلى علي فإن كان علي مثل رأيك

صلح الأمر فرجع القعقاع إلى علي فأعجبه وأشرف القوم على الصلح وعلم بذلك جماعة ممن كان سعى في قتل عثمان أو رضي به فقالوا إن يصلح هؤلاء فعلى دماننا يصطرحون ثم تعافدوا على أنهم إذا التقوا بجيش عائشة وطلحة والزبير أنشبو القتال حتى يشتغل الناس عما عزموا عليه من الصلح فكان كذلك فإنه لما كانت صبيحة الليلة التي اجتمع فيها علي بطلحة والزبير على أولئك المتعاهدون على إنشأ الحرب وما يشعر بهم أحد وصمدت منهم مضر وربيعة إلى ربيعة واليمن إلى اليمن فوضعوا فيهم السلاح على حين غفلة فثار الناس وتسابقوا إلى خيولهم وزحف البعض إلى البعض واشتبكت الحرب فكانت الوقعة العظمى المعروفة بوقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين من الشهر المذكور أعني جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وقتل طلحة في المعركة ولالزبير وهو راجع إلى المدينة وعقر الجمل الذي كانت عليه عائشة وأمر علي رضي الله عنه بنقل هودجها إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي ونادي منادي علي يوم الجمل وكذا يوم صفين الآتي أن لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور ثم صلى على القتلى من الجانبين وأمر بالأطراف فدفنت في قبر عظيم وجمع ما كان في العسكر من الأثاث وبعث به إلى مسجد البصرة وقال من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً عليه ميسم السلطان وأحصى القتلى من الجانبين فكانوا عشرة آلاف منهم من ضبة ألف رجل وبلغ عليا أن بعض الغوغاء عرض لعائشة رضي الله عنها بالقول السيء فأحضر البعض منهم وأوجعهم ضرباً ثم جهزها إلى المدينة بما احتاجت إليه وبث معها أخاها محمد بن أبي بكر الصديق في أربعين امرأة من نساء البصرة اختارهن لمرافقتها وجاء يوم ارتحالها فودعها واسعتب لها واستعنت له ومشى معها أميالاً وشيعها بنوه مسافة يوم وذلك غرة رجب فذهبت إلى مكة وأقامت بها حتى حجت تلك السنة ثم رجعت إلى المدينة واستعمل علي رضي الله عنه على البصرة عبد الله بن عباس وسار إلى الكوفة فنزل بها وانتظم له الأمر بالعراق ومصر

واليمن والحرمين وفارس وخراسان ولم يبق خارجاً عن طاعته إلا أهل الشام وأميرهم معاوية بن أبي سفيان فبعث إليه علي رضي الله عنه جرير بن عبد الله البجلي يأمره بالدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار فلما قدم جرير على معاوية ماطله حتى قدم عليه عمرو بن العاص من فلسطين فاستشاره فأشار عليه بترك البيعة والطلب بدم عثمان وأن يقاتل معه على أنه ظفر ولاء مصر فاجابه معاوية إلى ذلك ورجع جرير إلى علي رضي الله عنه بالخبير فسار علي من الكوفة قاصداً معاوية ومن معه بالشام وقدم عليه عبد الله بن عباس ومن معه من أهل البصرة فقال علي رضي الله عنه لأصبحن العاص وابن العاص سبعتين ألفاً عاقدي النواصي مجنبيين الخيل بالقلاص مستحقين حلق الدلاص وسار معاوية ومعه عمرو بن العاص وأهل الشام من دمشق يريد علياً وتآنى معاوية في مسيره

حرب صفين وخرجت سنة ست وثلاثين ودخلت سنة سبع بعدها فاجتمع الجيشان بصفين وتراسوا وتداعوا إلى الصلح فلم يقض الله بذلك وكانت حرب يسيرة بالنسبة لما بعدها ولما دخل صفر وقع بينهما القتال فكانت وقعات كثيرة بصفين يقال إنها تسعون وقعة وكانت مدة مقامهم على الحرب مائة يوم وعشرة أيام وعدد القتلى بصفين من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً منهم ستة وعشرون من أهل بدر وكان علي رضي الله عنه قد تقدم إلى أصحابه أن لا يقاتلهم حتى يبدؤهم بالقتال وأن لا يقتلوا مدبراً ولا يكشفوا عورة ولا يأخذوا من أموالهم شيئاً وقاتل عمار بن ياسر رضي الله عنه مع علي قتالا عظيماً وكان عمره قد نيف على تسعين سنة وكانت الحرب في يده ويده ترتعد فقال هذه

راية قاتلت بها مع رسول الله ثلاث مرات وهذه الرابعة ودعا بفتح من لين فشرّب منه ثم قال صدق الله ورسوله اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه قال لي رسول الله إن آخر رزقي من الدنيا ضيحة لبن وروي أنه كان يرتجز نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله ضربا يزيد الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله ولم يزل عمار يقاتل ذلك اليوم حتى استشهد رضي الله عنه وفي الصحيح المتفق عليه إن رسول الله قال ويح عمار تقتله الفئة الباغية وبعد قتل عمار رضي الله عنه انتخب علي اثني عشر ألفا بعد أن روى لهم حديث عمار وحمل بهم على عسكر معاوية فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتفض ثم نادى يا معاوية على ما تقتل الناس بيننا هلم

أحاكمك إلى الله فأبنا قتل صاحبه استقام له الأمر فقال له عمرو بن العاص أنصفك فقال معاوية لكنك ما أنصفت ثم تقاتلوا ليلة الهرير شبّهت بليلة القادسية وكانت ليلة الجمعة واستمر القتال إلى الصباح وكان علي يسير بين الصفوف ويحرض كل كتيبة على التقدم حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهره وروي أنه كبر تلك الليلة سبعمئة تكبيرة وكانت عادته أنه كلما قتل قتيلا كبر ودام القتال إلى ضحى يوم الجمعة وقاتل الأشتر النخعي قتالا عظيما حتى انتهى إلى معسكرهم وقتل صاحب رايتهم وأمهده على بالرجال فلما رأى عمرو شدة الأمر قال لمعاوية مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ويقولون كتاب الله بيننا وبينكم فإن قبلوا ذلك ارتفع عنا القتال وإن أبى بعضهم وجدنا في افتراقهم راحة ففعلوا ذلك فقال الناس نجيب إلى كتاب الله فقال علي يا عباد الله امضوا على حاكم في قتال عدوكم فإن عمرا ومعاوية وابن أبي معيط وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وأنا أعرف بهم منكم ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعة ومكيدة فقالوا لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فلا نقبل فقال علي إنما قاتلناهم ليدنوا بكتاب الله فإنهم نبذوه فقال جماعة من القراء الذين صاروا خوارج يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو فعلنا بك ما فعلنا بابن فقال علي رضي الله عنه إن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فافعلوا ما بدا لكم وأخر الأمر إنهم اتفقوا على أن يحكموا بين رجلين من الجانبين وما حكما به عليهم صاروا إليه فاختار أهل الشام عمرو بن العاص داهية العرب واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري بعد مراجعات وقعت بين علي وبينهم واجتمع الحكمان عند علي لتكتب القضية بحضوره فكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال عمرو بن العاص إنما هو أميركم وليس بأمرنا فقال الأحنف لا تمحوا اسم أمير المؤمنين وقال

الأشعث أمحها فقال علي الله أكبر سنة بسنة والله إني لكاتب القضية يوم الحديبية فكتبت محمدا رسول الله فقالت قريش لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فأمرني رسول الله بمحوه فقلت لا أستطيع قال فأرنيه فأرته فمحا بيده فقال لي إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب ثم كتب الكتاب هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم إنا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحبي ما أحبي ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفروقة وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين اليهود والمواثيق إنهما أمانان على أنفسهما وأهلها والأمة لهما أنصار على الذي يتفاضلان عليه وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يواردها في حرب ولا فرقة وأجلا القضاء إلى رمضان من السنة وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وشهد رجال من أهل العراق ورجال من أهل الشام ووضعوا خطوطهم في الصحيفة ودعى الأشتر النخعي ليشهد فقال لا صحبتني يميني ولا نفعني بعدها شمالي إن وضع لي فيها اسم وكتب الكتاب في يوم الأربعاء ثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين وعينوا موضع الحكم بدومة الجندل فوقع الاجتماع للأجل المذكور وحاصل ما كان من ذلك أن الحكمان اتفقا على خلع علي ومعاوية ويكون الأمر شورى بين الناس حتى يختاروا من يقدمونه للأمر وقدم عمرو بن العاص أبا موسى على نفسه في الكلام فتكلم أبو موسى على رؤوس الناس بما اتفقا عليه من خلع علي ومعاوية حتى ينظر الناس لأنفسهم فلما سكت أبو موسى قام عمرو فقال أيها الناس إن هذا قد خلع

صاحبه وقد خلعته كما خلعه وأثبت معاوية فهو ولي ابن عفان وأحق الناس بمقامه فكذبه أبو موسى وتنازعا وتشتاما ومرج أمر الناس ولم يحصلوا على طائل وانسل أبو موسى الأشعري إلى مكة فأقام بها ولم يرجع إلى علي حياء منه ومضى عمرو بن العاص في أهل الشام فسلموا على معاوية بالخلافة ولأم علي أصحابه فيما كان منهم من عصيانه أولا وانخداعهم لأهل الشام أخرا وقال فيما قال كأتى وإياكم كما قال أخو جشم أمرتهم أمري بمعراج اللوا فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد وقال إن هذين الحكيمين اللذين اخترتموها تركا حكم الله وحكما بهوى النفس واختلفا فلم يرشدهما الله فتأهبوا للجهاد واستعدوا للسير وأصبح علي رضي الله عنه غاديا يريد الشام في ثمانية وسبعين ألفا وكانت الخوارج قد خرجوا عليه واعتزلوه وقالوا حكمت الرجال في دين الله ولا حكم إلا الله وبلغه أن الخوارج قد اجتمعوا بالنهروان وتعاهدوا على حرب المسلمين ثم بلغه أن الخوارج البصرة لقوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله قريبا من النهروان فعرّفهم بنفسه فسألوه عن أبي بكر وعمر فأثنى خيرا ثم عن عثمان في أول خلافته وأخرها فقال كان محقا في الأول والأخر فسألوه عن علي قيل التحكيم وبعده فقال هو أعلم بالله وأشد توقيا على دينه فقالوا إنك توالي الرجال على أسمائهم ثم نبذوه وبقروا بطن امرأته وقتلوا معه ثلاث نسوة من طيء ومن عجيب أمرهم أنهم لقوا مسلما ونصرانيا فقتلوا المسلم وقالوا احفظوا ذمة نبيكم في النصراني فسار إليهم علي رضي الله عنه وأرسل إليهم أن ادفعوا قتلة إخواننا منكم فنكف عنكم حتى تلقى أهل المغرب ففعل الله بركم إلى خير فأرسلوا إليه كلنا قد قتلهم وكلنا يستحل دماءكم فاتاهم علي رضي الله عنه

فقال أيتها العصابة التي أخرجها المراء من الحق إلى الباطل وأصبحت في اللبس والخطب العظيم إني نذير لكم أن تصبحوا تلقاكم الأمة غدا صرعى بآثاء هذا النهر بغير بينة منكم ولا برهان ألم تعلموا بأني قد نهيتكم عن الحكومة إلي وأخبرتكم أن القوم إنما طلبوها خديعة فصينموني وحملتوني على أن حكمت ولما حكمت شرطت وأخذت على الحكيمين أن يحييا ما ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات فانقلبا وحكما بغير حكم الكتاب فبيننا أمرهما ونحن على أمرنا الأول فما الذي أصابكم ومن أين أتيتم قالوا حكمنا وكنا بذلك كافرين وقد تبنا فإن تبنا كما تبنا فنحن قومك وإلا فاعتزلنا ونحن ننبأك على سواء إن الله لا يحب الخائنين فقال علي رضي الله عنه صبحكم حاصب ولا بقي منكم وافد أبعد إيماني برسول الله وجهادي في سبيل الله وهجرتي مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين وروي أنه لما كلمهم واحتج عليهم تتادوا لا تخاطبهم ولا تكلمهم وتهيؤوا للقاء الرب الرواح الرواح إلى الجنة فخرج علي رضي الله عنه فعبأ الناس ميمنة وميسرة ووقف في القلب في مضر وجعل على الخيل ابا أيوب الأنصاري وعلى أهل المدينة وكانوا سبعمئة قيس بن سعد بن عبادت الخوارج على نحو هذه التبعية ورفع علي رضي الله عنه مع أبي أيوب الأنصاري راية الأمان فنادى أبا أيوب من أتى هذه الراية ولم يقاتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن ومن انصرف عن هذه الجماعة فهو آمن فاعتزل فروة بن نوفل الأشجعي في خمسمائة وقال أعتزل حتى يتضح لي الأمر في قتال علي فنزل الدسكرة وخرج آخرون إلى الكوفة ورجع آخرون إلى علي رضي الله عنه وكانوا أربعة آلاف فبقي منهم ألف وثمانمئة فحمل عليهم علي والناس وزحفوا هم إلى علي رضي الله عنه ينادون الرواح الرواح إلى الجنة فاستقبلهم الرماة وعطفت عليهم الخيل من المجنبتين ونهض إليهم الرجال بالسلاح فهلكوا

كلهم في ساعة واحدة كأنما قيل لهم موتوا فماتوا وكان جملة من قتل من أصحاب علي رضي الله عنه سبعة نفر فطلب علي رضي الله عنه المخدج في القتلى فلم يوجد فقام رضي الله عنه وعليه أثر الحزن لفقده فأنتهى إلى قتلى بعضهم فوق بعض فقال أفرجوا ففرجوا يمينا وشمالا فاستخرجوه فقال الله أكبر والله ما كذبت على رسول الله وإنه لناقص اليد ما فيها عظم طرفها مثل ثدي المرأة عليها خمس شعرات أو سبع رؤوسها معقفة ثم قال أنتوني به فظفر إلى منكبها فإذا اللحم مجتمع على منكبها كئذي المرأة عليها شعرات سود إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذي بطن يده الأخرى ثم تترك فتعود إلى منكبها فقال أصحاب علي رضي الله عنه قد قطع الله دابرهم آخر الدهر فقال علي والذي نفسي بيده إنهم لفي أصلاب الرجال

بجرح من زكاهم الله تعالى بقوله كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله وزكاهم رسول الله زمريهم وأمتنا على سمنتهم وطيبتهم يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم الفائدة الثانية أطبق السلف على أن ترتيب الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم في الفضل على حسب ترتيبهم في الخلافة وذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان وممن قال به سفيان الثوري لكن قيل إنه رجح عنه وقالت الشيعة وكثير من المعتزلة الأفضل بعد النبي علي بن أبي طالب والحق هو القول الأول وهل التفضيل بين الخلفاء قطعي أو ظني فالذي مال إليه الأشعري هو الأول والذي مال إليه القاضي أبو بكر البلقاني واختاره

إمام الحرمين في الإرشاد هو الثاني وعبارته لم يبق عندنا دليل قاطع على تفضيل بعض الأئمة على بعض إذ العقل لا يدل على ذلك والأخبار الواردة في فضائلهم متعارضة ولكن الغالب على الظن أن أبا بكر أفضل الخلاق بعد الرسول ثم عمر أفضلهم بعده وتعارض الظنون في عثمان وعلي وها هنا انتهى بنا القول فيما قصدناه من التبرك بذكر رسول الله وذكر خلفائه الأربعة رضي الله عنهم ولنرجع إلى ما نحن بصده من ذكر أخبار المغرب الأقصى مقدمين القول أولا في نسب البربر وبيان حالهم قبل الإسلام وبعده على الجملة لنتخلص بعده للمقصود والله تعالى يعصمنا من الزلل بمنه وكرمه

القول في نسب البربر وبيان أصلهم أعلم أن الناس اختلفوا في تحقيق نسب البربر وإلى أي أصل من أصول الخليفة يرجعون فذكر صاحب كتاب الجمان في أخبار الزمان ونقله عن أهل العلم بالسيرة أن بني حام تنازعا مع بني سام فانهزم بنو حام أمامهم إلى المغرب وتنازلوا به واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى آخر المغرب إلى تخوم السودان وكان بسواحل المغرب الأفارقة والإفرنج فكانت ذرية حام في المداشر والخيام والأعاجم الأول في البلدان وبقي أكثر أولاد حام في بلاد فلسطين من أرض الشام على زمن داود عليه الصلاة والسلام وكان ملكهم يسمى جالوت فلما قتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء أمر بإجلائهم من بلاد كنعان وفلسطين إلى أرض المغرب فساروا نحو إفريقية والزاب وانتشروا هنالك حتى ضاقت بهم تلك البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمال وصاروا ينبعون مواقع القطر بالإبل وبيوت الشعر ولم تقدر الإفرنج على ردهم ودفاعهم فاتحازت العاجم للمدن وبقي البربر فيما عدى المدن وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الأديان الفاسدة فمنهم من تمجس ومنهم من تهود ومنهم من تنصر واستمروا على ذلك إلى زمان الإسلام وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان ولهم حروب وملاحم وعظام مع من قارعهم من الأمم وقال الطبري وغيره إن البربر أخلاق من كنعان والعماليق وغيرهم فلما قتل داود جالوت تفرقوا في البلاد وقال الكلبي اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام فقيل داود بالوحي قيل يا داود أخرج البربر من الشام فإنخم جذام الأرض وقيل يوشع بن نون عليه السلام وقيل إفريقيش الحميري واختلف في إفريقيش هذا فقال المسعودي هو إفريقيش بن أبرهة ذي المنار أحد التبابعة المشهورين

وقال ابن حزم هو إفريقيش بن قيس بن صيفي أخو الحراث الرائش منهم وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى إفريقية وبه سميت وساق البربر إليها من أرض كنعان مر بها عند ما غلبهم يوشع بن نون وقتلتهم فاحتمل الفل منهم وساقهم إلى إفريقية فأنزلهم بها وقتل ملكها جرجير ويقال إنه الذي سمي البربر بهذا الاسم لأنه لما فتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم فسموا البربر والبربرية في لغة العرب اختلاط اصوات غير مفهومه ومنه بربرية الأسد وينسبون إليه في ذلك شعرا وهو قوله بربرت كنعان لما سقتها من بلاد الضنك للخصب العجيب أي أرض سكنوها ولقد فازت البربر بالعيش الخصيب ولما قفل إفريقيش من غزو المغرب ترك هنالك حامية من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهما بها على الآن وليسوا نم نسب البربر قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسبيلي وجميع النسابين من العرب وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد له اختلف الناس في نسب البربر اختلافا كثيرا وأنسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قبط بن حام وأنه لما نزل مصر خرج بنوه يريدون المغرب فسكنوا من آخر عمالة مصر وذلك فيما وراء برقة إلى البحر الخضرم مع بحر الأندلس إلى منقطع الرمل متصلين السودان وقيل عن البربر صنفان البرانس والبتر وان البتر منهم من ولد بر بن قيس بن عيلان بن مضر واختلفوا في توجيه ذلك فقال الطبري خرج بر بن قيس بن عيلان بنشد ضالة له بأحياء البربر فرأى جارية منهم فخطبها من أبيها وتزوجها فولدت له وقال في كتاب الجمان وأما تسميتهم بالبربر فإنه لما صار ملك مضر لقيس بن عيلان كان له ولد اسمه بر فخرج مغاضبا لأبيه وإخوته إلى جهة المغرب فقال الناس بربر أي توحش في البراري فسموا بربرا ونقل ابن

أبي زرع وابن خلدون عن النسابين من البربر وحكاها أيضا البكري وغيره أنه كان لمضر بن نزار ولدان إلياس وعيلان أمهما الزباب بنت حيدة بن عمرو بن معد بن عدنان فولد عيلان بن مضر ولدين وهما قيس ودهمان ابنا عيلان أما دهمان فولده قليل وهم أهل بيت من قيس يقال لهم بنو أمامة وأما قيس بن عيلان فولد أربعة بنين وجارية وهم سعد وعمرو وخصفة أمهم مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار ثم بر وأخته تماضر أمهما تمرغ بنت بجدول بن غمار بن مصمود البربري الجذولي وكانت قبائل البربر إذ يسكنون الشام ويجارون العرب في المساكن والأسواق والمساعي ويشاركونهم في المياه والمسارح والمراعي ويصاهر بعضهم بعضا وكانت البهائم بنتدهمان بن عيلان بن مضر من أجمل نساء زماتها وأكملهن ظرفا وأدبا فكثر خطابها من سائر قبائل العرب فقال بنو عمها وهم عمرو وسعد وخصفة وبر لا يتزوج ابنة عمنا إلا أحدنا ولا تخرج منا إلى غيرنا فخيروها فيمن شاءت منهم فاخترت برا وكان أصغرهم سنا وأكملهم شبابا فتزوجها دون إخوته فحسدوه عليها وهو بقتله من أجلها وكانت أمه تمرغ من دهاة النساء فبعثت إلى أبيها دهمان وأعلمته الخبر وواطأته على الخروج بولدها إلى أرض قومها من البربر حيث تأمن عليه ثم بعثت إلى قومها فأتوها سرا فارتحلت معهم هي وولدها بر وكنتها البهائم بنت دهمان فلقوا ببلاد البربر وهم يومئذ مستوطنون فلسطين وأكناف الشام فنزل بر على أخواله واعتز بهم وبنى بابنة عمه البهائم فولدت له هناك ولدين علوان ومادغيس ابني بر بن قيس بن عيلان فأما علوان فمات صغيرا ولم يعقب وأما مادغيس فكان يلقب الأبتري وهو أبو البتر من البربر وإليه يرفعون أنسابهم ومن ولده جميع زنانة كما سيأتي ويزعمون أن تماضر أخت بر بكته بعد فرقة بشعر تقول فيه لتلك كل باكية أخاها كما أبكي على بر بن قيس تحمل عن عشيرته فأضحى ودون لقائه انضاء عنس

ومما ينسب إليها قولها وشطت ببر داره عن بلادنا وطوح بر نفسه حيث يمما وأزرت ببر لكنة أعجمية وما كان بر في الحجاز بأعجا كاتا وبر لم نقف بجيانا بنجد ولم تقسم نهايا ومغنا وأنشد علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلي ألا أيها الساعي لفرقة بيننا توقف هداك الله سبل الأطايب فأقسم أنا والبرابرة إخوة تناولنا جد كريم المناسب أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى له حومة تشفي غليل المحارب وبر بن قيس عصبية مضرية وفي الفرع من أحسابها والذوائب فنحن وهم ركن منبع وإخوة على رغم أعداء لنام المناقب في أبيات غير هذه وينشد أيضا ليزيد بن خالد بمدح البربر قوله أيها السائل عنا أصلنا قيس عيلان بنو الغر الأول نحن ما نحن بنو بر الندى طارد الأزمة نحار الإبل قد بنى المجد فاروى زنده وكفانا كل خطب ذي جلال إن قيسا يعتزي بر له ولبر يعتزي قيس الأجل فلنا الفخر بقبس إنه جدنا الأكبر فكاف الكبل إن قيسا قيس عيلان هم معدن الخير على الخير دال حسبي البربر قومي إنهم ملكوا الأرض بأطراف الأسفل في أبيات أخر واعلم أن الخلاف في نسب البربر طويل وقد تركنا جله اختصارا وأشبه هذه الأقوال بالصحة ما نقلناه أولا مما يدل على أن جبل البربر من ولد حام وأنهم جبل قديم قد سكنوا المغرب عندما تنازلت ذرية نوح عليه السلام وانتشرت الخليفة على وجه الأرض ثم تلاحقت بهم بقية بني كنعان من الشام عندما أجلاهم يوشع بن نون عليه سلام أولا ثم داود عليه السلام ثانيا قال ابن خلدون بعد تزييف القول بأن البربر من ولد جالوت بالخصوص أو من العرب ما نصه والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وأن اسم أبيهم مازيغ اه ومما يستملح من النوادر المقولة في نسب البربر قول خلف بن فرج السميصر من شعراء الأندلس يهجو البربر رأيت آدم في نومي قفلت له أبا البرية إن الناس قد حكموا إن البرابر نسل منك قال إذا حواء

طالق إن كان الذي زعموا وهذا من ملح الشعراء وشيبتنتهم وإلا فالبربر جبل معروف من اعظم الاجيال واعزها ولهم الفخر الذي لا يجهل والذكر الذي لا يهمل وقد تعددت فيهم الدول وكثرت فيهم الملوك العظام وكان لهم القدم الراسخ في الإسلام واليد البيضاء في الجهاد ومنهم الأئمة والعلماء والأولياء والشعراء وأهل المزايا والفضائل وستقف على كثير من ذلك عن قريب إن شاء الله القول في تقسيم شعوب البربر على الجملة اعلم أن أمة البربر أمة عظيمة قد ملأت ما بين برقة والبر المحيط شرقا وغربا وما بين بلاد السودان والبحر الرومي جنوبا وشمالا ومع عظمها فيجمعها شعبان عظيمان بحيث لا يخرج بربري عنهما قال ابن خلدون علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جدان عظيمان وهما برنس ومادغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد أم لا فعند ابن حزم أنهما لأب واحد والجميع من نسل كنعان بن

حام وقال سابق بن سليمان المظاطي وغيره من نساب البربر إن البرانس فقط من نسل كنعان وأما البتر فهم بنو بر بن قيس بن عيلان بن مضر وهذا القول قد تقدم ما فيه فالحق أن الشعبين معا عريقان في البربرية وأن الجميع من ولد مزيع ومزيع هو من ولد كنعان بن حام كما مر فأما البرانس فتقسم إلى سبع قبائل أوربية وصنهاجة وكامة ومصمودة وعجسية وأوريغة وأراجة ويقال ورداجة بالواو بدل الهمزة وزاد سابق المظاطي وغيره ثلاث قبائل أر وهم لمطة وهسكورة وجزولة فتكون عشرا فأما أوربية فكان منهم كسيلة بن أغز الأوربي قاتل عقبة بن نافع رضي الله عنه زمان الفتح ومنهم إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي القائم بدعوة إدريس بن عبد الله رضي الله عنه وأما صنهاجة فهم أكبر قبائل البربر حتى زعم كثير من الناس الثلث مقدار منهم وكان منهم بنو زيري بن مناد ملوك إفريقية والملمون ملوك مراکش والأندلس وأما كتامة فهم القائلون بدعوة العبيديين بإفريقية ومصر وأما المصامدة فمنهم غمارة وكان منهم بليان النصراني صاحب سبنة وطنجة أيام دخول عقبة بن نافع للمغرب الأقصى وهم القائلون أيضا بدعوة بني إدريس في دولتهم الثانية بعد بني أبي العافية ومن المصامدة أيضا برغواطة أهل تامسنا وما اتصل بها ومنهم أهل جبل درن القائلون بدعوة محمد بن تومرت مهدي الموحدين وأما باقي قبائل البرانس فلم يكن لهم ملك يذكر وقد تقدم لنا أن النسابين نم العرب يقولون إن صنهاجة وكتامة من حمير وأن إفريقيش الحميري تركهم حامية بإفريقية فتناسلوا بها واستحال لسانهم إلى البربرية لكن المحققون من نساب البربر كسابق المظاطي وغيره ينكرون ذلك ويجزمون بأنهما قبيلتان عريقتان في البربر وأما البتر وهم بنو مادغيس الأبتر فينقسم شعبهم إلى أربع قبائل وهم ضريسة ونفوسة وأداسة وبنو لوي وهم لواتة فأما ضريسة فمنهم مكناسة ومن مكناسة بنو مدرار ملوك سجلماسة وبنو أبي العافية ملوك فاس ومن

ضريسة أيضا زناتة كلها وبن زناتة جرواة قوم الكاهنة داهيا صاحبة جبل أوراس التي أوقعت بحسان بن النعمان عام الخليفة عبد الملك بن مروان ومن زناتة أيضا بنو خزر المغراويون ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ومنهم مغرواة ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سلا وتادلا ومنهم زيان ملوك تلمسان وبنو مريين ملوك فاس أيضا فهؤلاء كلهم من زناتة وزناتة هو زانا بن يحيى بن ضرى بن زنجيك بن مادغيس الأبتر وأما نفوسة وأداسة ولواتة فلم يكن لهم ملك يذكر وأعلم أن كل قبيلة من هذه القبائل الأربع عشرة وتشتمل على عمائر وبطون وأفخاذ وفضائل لا حصر لها وفيما ذكرناه كفاية وبالله التوفيق الخبر عن حال البربر قبل الإسلام وذكر بعض أمصار المغرب القديمة وما قيل في ذلك وقد تقدم لنا أن البربر أمة قديمة سكنوا أرض المغرب في قديم الزمان وأنهم لما عمرو بلادهم وملؤوا أكتافهم انحازت الفرنج عنهم إلى السواحل والشعور وبقي البربر فيما سوى ذلك من الضواحي والجبال والكهوف وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الأديان الفاسدة إلى آخر ما مر فهذا كان حالهم على الجملة وقال ابن خلدون لم تنزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلى الإسكندرية عامرة بهذا الجبل ما بين البحر الرومي وبلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلها بالشرق والمغرب إلا في بعض الأحابيين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم فقد غزتهم ملوك اليمن من قراهم مرارا على ما ذكر مؤرخهم فاستكانوا لعلهم ودانوا بدينهم ذكر ابن الكلبي أن حميرا أبا القبائل اليمنية ملك المغرب مائة سنة

وإنه الذي ابتنى مدائنه مثل إفريقية وصقلية واتفق المؤرخون من العرب على غزو إفريقيش الحميري من التبابعة أرض المغرب اه وما نقله عن ابن الكلبي من غزو حمير أرض المغرب قد نقل أيضا إنكاره عن الحافظين أبي عمر بن عبد البر وأبي محمد بن حزم وأنها قالا ما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن ثم ذكر أن البعض من البربر كانوا قد دانوا بدين اليهودية وأخذه عن بني إسرائيل عند استئصال ملكهم تقرب الشام وسلطانهم منهم كما كان جرواة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة وكما كانت نفوسة من برابرة إفريقية وفندلاوة ومديونة وبهولة وغيانة وبنو فازاز من برابرة المغرب الأقصى حتى محا إدريس الأكبر جميع ما كان في نواحيه من بقايا الأديان والملل وقال غير واحد

من المؤرخين كان أهل المغرب الأقصى يضررون بأهل الأندلس لاتصال الأرض بينهم ويلقون منهم الجهد الجهد في كل وقت إلى أن أجتاز بهم الإسكندر فشكوا حالهم إليه فأحضر المهندسين وأتى إلى الزقاق يعني زقاق سبنة فأمرهم بوزن سطح الماء من البحر المحيط والبحر الرومي فوجدوا المحيط يعلو الرومي بشيء يسير فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الرومي ونقلها من الحضيض إلى الأعلى ثم أمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الأندلس من الأرض فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية وبني عليها رصيفا بالحجر والجيار بناء محكما وجعل طوله اثني عشر ميلا

صوهي المسافة التي كانت بين البحرين وبني رصيفا آخر يقابله من ناحية طنجة وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر العظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين فدخل في البحر الرومي ثم ارتفع الماء فأغرق مدنا كثيرة وأهلك أمما عظيمة كانت على الشطين وطما الماء على الرصيفين بإحدى عشرة قامة فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهورا بينا مستقيما على خط واحد وأهل الجزيرة يسمونه القنطرة وأما الرصيف الذي يلي جهة العدو فإن الماء حمله في صدره واحتقر ما خلفه من الأرض بنحو اثني عشر ميلا وعلى طرفه من جهة المغرب قصر المجاز وسبنة وطنجة وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف بن مالك والجزيرة الخضراء وما بين سبنة والخضراء هو عرض البحر المسمى بالزقاق والبوغاز أيضا اه وما ذكره من أن أرض المغرب كانت متصلة بأرض الأندلس نحوه في تواريخ الفرنج القديمة غير أنهم يسمون الملك الذي فتح الباغاز هرقل الجبار وعند ابن سعيد

أنه كان فيما بين قصر المجاز وطريف قنطرة عظيمة قد وصلت ما بين البرين يزعم الناس أن الإسكندرية بناها ليعبر عليها من بر الأندلس إلى بر العدو والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر وفي تواريخ الفرنج المقطوع بصحتها عندهم أن ملوك الروم الأولى حاربوا القرطاجنيين من أهل إفريقية والمغرب وغلّبهم على البلاد وهدموا في بعض تلك الحروب مدينة قرطاجنة الشهيرة الذكر قال الشيخ رفاعة في بديرة القدماء ما نصه قرطاجنة مدينة بأرض إفريقية هي إحدى مدن الدنيا الشهيرة وقد هدمها الروم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بمائة وست وأربعين سنة ثم أسست ثانية وخرّبها العرب حتى إنه لا يرى الآن شيء من آثارها إلا بغاية الجهد ويقرب موضعها مدينة تونس اه وقال ابن خلدون في كتاب طبعة العمران حين تكلم على قيادة الأساطيل ما نصه وقد كانت الروم والإفريقية والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكان أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة

في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف منهم إلى ملك العدو الجنوبية مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى المغرب أجازوا عليها في الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطة وجولاء ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالأسلحة والعدد فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حقا فيه معروفة في القديم والحديث اه قلت الفرنج اليوم جازمون بأن ملوك الروم الأولى كانوا مستولين على أرض المغرب بأسرها قد ملكوها مدة طويلة من الزمان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بكثير وأن الأمصار القديمة بالمغرب مثل سبنة وطنجة وسلا وشالة ووليلي ونحوها هي من بناتهم أو بناء القرطاجنيين قبلهم ولقد قال لي بعض أهل الخبرة منهم إن مدينة سلا كانت موجودة في ذلك العصر وأنه رآه مذكورة



بهذا الاسم في تواريخ الروم القديمة المذكورة فيها أخبار المغرب وأمصاره وحققته عليه ذلك فجزم به ولم يرجع وما يقال من أن سبته وسلا من بناء بعض أولاد نوح عليه السلام فقول بعيد عن الصحة نعم قد ذكر في التوراة عند الكلام على ذرية نوح وتسلطهم بالأرض إنه كان منهم سبته بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام ويبعد أن تكون المدينة من بناء هذا الرجل أو بناء بعض بنيه لبعد العهد وطول المدة وعدم نقل ذلك من وجه صحيح وإن كانت أرض المغرب هي لأولاد حام من قديم الزمان والله أعلم ولما أخذ الروم بدين النصرانية في زمن قسطنطين الملك وكانت لهم اليد العليا على من جاورهم من الأمم مثل الحبشة والقيط والفرنج والقوط وغيرهم حملوهم على الأخذ به فدانتوا به معهم وتلقوه عنهم وبثوه في بلادهم ورعاياهم وكان الفرنج مجاورين للبربر في المغرب الأدنى والقوط مجاورين لهم في الأقصى ليس بينهم وبينهم إلا خليج البحر فحملوا أهل السواحل منهم على الأخذ بذلك الدين فدانتوا به أيضا ونظر القيصرية يومئذ منسحب عن الجميع وأمرهم نافذ في الكل واستمر الحال على ذلك حتى جاء الله بالإسلام وأظهره على الدين كله فدانت به البربر على ما نذكره إن شاء الله فهذا السبب كان كسيلة الأوروبي ويليان الغماري وغيرهما من كبار البربر نصارى وقال ابن خلدون كان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعدة وعدد ملوك ورؤساء وأقيال وأمراء لا يرامون بذل ولا تتألم الروم والفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة ولا إساءة ثم قال وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية كما كان المقوقس صاحب مصر والإسكندرية وبرقة يؤدي الجباية له وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الأندلس من القوط لما كان الروم قد غلبوا على هؤلاء الأمم أجمع وعندهم أخذوا دين النصرانية وكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر أفريقية ولم تكن للروم فيها ولاية وإنما كان كل من كان منهم بها جند للفرنج ومن حشودهم وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح أفريقية فمن باب التغليب لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج وما قاتلوا في الشام إلا الروم فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية ونقلت الأخبار عن العرب كما هي فجزير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم وكذا الأمة الذين ماتوا بأفريقية غالبيتهم على البربر ونزالين بمدنها وحصونها كانوا من الفرنجة اه

القول في تحديد المغرب وذكر حال البربر بعد الإسلام اعلم ان لفظ المغرب يطلق في عرف اهله على ناحية من الارض معروفة بعينها حددها من جهة مغرب الشمس البحر المحيط المعروف بالكبير ومن جهة مشرق الشمس بلاد برقة وما خلفها إلى الإسكندرية ومصر فبرقة خارجة عن بلاد المغرب بهذا الاعتبار وبلاد طرابلس وما دونها إلى جهة الجنوب جبال الرمل الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد البربر وتعرف عند العرب الرحالة هنالك بالعرق ثم ويعرف هذا الرومي بالصغير ومن جهة الجنوب جبال الرمل الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد البربر وتعرف عند العرب الرحالة هنالك بالعرق ثم هذا المغرب يشتمل على ثلاث ممالك إفريقية وهي المغرب الأدنى وقاعدتها في صدر الإسلام مدينة القيروان وفي هذا العصر مدينة تونس وسمي أدنى لأنه أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز ثم بعد أفريقية مملكة المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان وجزائر بني مزغنة وهذه المملكة اليوم في يد فرنج إفرنسة ملكوها في سنة ست وأربعين ومائتين وألف وأهلها مسلمون ثم بعد ذلك مملكة المغرب الأقصى وسمي الأقصى من جهة المغرب البحر المحيط ومن جهة المشرق وادي ملوية مع جبال تازا ومن جهة الشمال البحر الرومي ومن جهة الجنوب جبل درن قاله ابن خلدون وفي تقسيم الفرنج أن المغرب الأقصى يشتمل على خمس عمالات فاس وعمالة مراكش وعمالة السوس وعمالة درعة وعمالة تاقابلت ودار الملك به تارة فاس، وتارة مراكش، وهو في الأغلب ديار المصامدة

من البربر ويساكنهم فيه عوالم من صنهاجة ومضغرة وأروبة وغيرهم لكنهم قليل بالنسبة إلى المصامدة ويساكنهم فيه أيضا عالم من العرب أهل الخيام انتقلوا من جزيرة العرب إلى أفريقية ثم من إفريقية إليه أواخر المائة السادسة أيام الخليفة يعقوب المنصور الموحدي وهم اليوم قبائل عديدة يرجعون في نسبهم إلى رياح وجشم فأما رياح فهم من بن هلال بن عامر بن صعصعة وأما جشم فهم بنو جشم بن معاوية بن بكر وكلهم ينتهي نسبهم إلى مضر ويضاف إليهم قبائل أخر نحقق الكلام فيهم بعد هذا إن شاء الله ثم قد علمت أن كلامنا بالقصد الأول في هذا الكتاب إنما هو على المغرب الأقصى لكنا نتكلم أولا على أخبار المغرب مطلقا ونذكر أمراء الموحدين من قبل الخلفاء بالمشرق على التفصيل ما دام نظرهم منسحبا عليه وظلمهم ممتدا إليه إذ كان أمر الخلافة في صدر الإسلام متحدا وحكمها مجتمعما وكلمتها نافذة في جميع ممالك الإسلام شرقا وغربا بحيث لا يخرج قطر من الأقطار ولا مصر من الأمصار فيما بعد أو دنا عن الأرض عن نظر الخليفة الأعظم وقد كان ذلك دينا متبعا وحكما مجمعا عليه ولا تصح لأحد إمارة أو ولاية إلا بالإستناد إليه حتى إذا طال العهد وضعف أمر الخلافة وتقلص ظلها من القاصية تفرقت ممالك الإسلام البعيدة عن دارها وتوزعتها الثوار من بني هاشم وغيرهم واستبدت الأمراء النازحون عنها كل بما غلب عليه وسار أمر الوحدة إلى الكثرة وحكم الاجتماع إلى الفرقة فلماذا نتكلم الآن على أخبار المغرب مطلقا ونذكر ولاته الموجهين إليه من قبل الخلفاء واحدا بعد واحد إلى زمن إدريس بن عبد الله المستنيد بملك المغرب الأقصى والمقتطع له عما عداه من الممالك الإسلامية فحينئذ نفرد الكلام عليه بخصوصه على ما شرطناه فأما الآن فلا يمكننا الكلام عليه وحده لأنه والحالة هذه مندرج في غيره من ممالك المغرب إذ الوالي الموجه من قبل الخليفة في صدر الإسلام كان يكون واليا على إفريقية وما بعدها من بلاد المغرب إلى البحر المحيط وقد تضاف إلى نظره الأندلس بل كان الوالي

بمصر قد يكون نظره شاملا لجميع بلاد المغرب حسيما نقف عليه فاعرف هذه الجملة ولتكن منك على بال وأما حال البربر بعد الإسلام فيعرف من أخبار الولاة التي نسردها الآن وبالله التوفيق ولاية عمرو بن العاص رضي الله عنه وقتحه برقة وطرابلس لما كانت خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية وفرغ منها سار في سنة إحدى وعشرين من الهجرة إلى برقة وكانت تسمى في القديم إنطابلس فصالحه ألها على الجزية ثم سار بعدها إلى طرابلس فحاصرها شهرا وكانت مكشوفة السور من جانب البحر وسفن الروم في مرساها فحسر الماء في بعض الأيام واكتشف أمرها لبعض المسلمين المحاصرين لها فاقتحموا البلد فيما بين البحر والبيوت فلم يكن للروم ملجأ إلا سفنهم وارتفع الصباح فأقبل عمرو بعساكره فدخل المدينة ولم يفلت الروم إلا بما خف في المراكب ثم عطف عمرو رضي الله عنه على مدينة صبرة وكانوا قد أمنوا بمنعة طرابلس واشغال المسلمين بحصارها فصبحهم في جيش المسلمين واقتحمها عليهم عنوة وكمل الفتح ورجع عمرو إلى برقة فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية وكان أكثر أهل برقة لواته وهم بنو لوي الأكبر وأكثر أهل طرابلس وصبرة نفوسة وكلتا القبيلتين من البتر ولما فرغ عمرو رضي الله عنه من أمر طرابلس وما معها استأذن عمر بن

الخطاب رضي الله عنه في التقدم إلى إفريقية وقال تلك المفارقة وليست بأفريقية أو كلاما هذا معناه فامتثل وعاد إلى مصر فكان عمرو بن العاص أول أمير للمسلمين وطلنت خيله أرض المغرب لكنه لم يصل إلى إفريقية ولا كان من البرابر إسلام غير أن صاحب كتاب الجمان نقل أنه لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستفتحت مدينة مصر وكان عليها عمرو بن العاص قدم عليه ستة نفر من البربر محلقين الرؤوس واللحي فقال لهم عمرو من أنتم وما الذي جاء بكم قالوا رغبتنا في الإسلام فجننا له لأن جدونا قد أوصونا بذلك فوجههم عمرو إلى عمر رضي الله عنه وكتب إليه يخبرهم فلما قدموا عليه وهم لا يعرفون لسان العرب كلمهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم من أنتم قالوا نحن بنو مازيغ فقال عمر لجلسائه هل معتم قط بهؤلاء فقال شيخ من قريش يا أمير المؤمنين هؤلاء البربر من ذرية بر بن قيس بن عيلان خرج مغاضبا لأبيه وإخوته فقالوا بر بر أي أخذ البرية فقال لهم عمر رضي الله عنه ما علامتكم في بلادكم قالوا نكرم الخيل ونهين النساء فقال لهم عمر ألكم مدائن قالوا لا قال ألكم أعلام تهتدون بها قالوا لا قال عمر والله لقد كنت مع رسول الله في بعض مغازيه فنظرت إلى قلة الجيش فقال لي رسول الله يا عمر لا تحزن فإن الله سيعز هذا الدين يقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا حصون ولا أسواق ولا علامات يهتدون بها في الطرق ثم قال عمر فالحمد لله الذي من علي برويتهم ثم أكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم من الجيوش القادمة عليه وكتب إلى عمرو بن العاص أن يجعلهم على مقدمة المسلمين وكانوا من أفخاذ شتى اه والله أعلم

ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح وفتحه إفريقية لما كانت خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه عزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري أخاه من الرضاة وأمره بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين من الهجرة وقال له إن فتح الله عليك خمس الخمس من الغنائم ثم عقد عثمان لعبد الله بن سعد بن أبي سرح على جند وعبد الله بن نافع بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدر على التوغل فيها لكثرة أهلها ثم إن عبد الله بن أبي سرح استأن عثمان في ذلك واستمد فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسي وابن الزبير وقيل لحقهم مددا وساروا مع عبد الله بن سعد سنة ست وعشرين ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها ثم تجاوزوها إلى إفريقية وبثوا سرايا في كل ناحية وكان ملكهم جرجير الفرنجي يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفا من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سيطة دار ملكهم وأقاموا يقتتلون ودعوه إلى الإسلام أو الجزية فاستكبر ولحقهم عبد الله بن الزبير مددا بعثه عثمان رضي الله عنه لما أبطأ عليه أخبارهم وسمع جرجير بوصول المدد ففت ذلك في عضده وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال فقال له ابن الزبير تنادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على

بلاؤه فخاف جرجير أشد منه ثم أشار ابن الزبير على ابن أبي سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب ويقاوم الروم بباقى العسكر إلى أن يضجروا فيركبهم بالأخريين على غرة قال لعن الله ينصرنا عليهم ووافق على ذلك أعيان الصحابة ففعلوا وركبوا من الغد إلى الزوال وألحوا عليهم حتى أتعبوهم ثم افترقوا وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهمزوا وقتل كثير منهم وقتل ابن الزبير جرجير وحيزت ابنته سبية فنفلها ابن أبي سرح ابن الزبير ثم حاصر ابن أبي سرح سيطة ففتحها وخربها وكان سم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الرجل ألفا وبث جيوشه في البلاد إلى قصبة فسبوا وغنموا وبعث عسكرا إلى حصن الأجم وقد اجتمعوا به أهل البلاد فحاصر وفتحته على الأمان ثم صالحه أهل إفريقية على ألف وخمسمائة ألف دينار وأرسل ابن الزبير بخير الفتح وبالحمس إلى المدينة فاشتره مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار وبعض الناس يقول أعطاه إياه عثمان رضي الله عنه ولا يصح وإنما أعطى ابن أبي سرح خمس الخمس من الغزوة الأولى وانحاز الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة والفتح إلى حصون إفريقية وانساح المسلمون في البسائط بالغات ووقع بينهم وبين أهل الضواحي من البربر زحوف وقتل وسبي حتى لقد أسروا يومئذ من ملوك البربر صولات بن وزمار الزناتي ثم المغرواوي جد بني خزر ملوك تلمسان فرفعوه إلى عثمان رضي الله عنه فأسلم على ده فمن عليه وأطلقه وعهد له على قومه ويقال إنما وصله وافتاد فأكرم وفادته والله أعلم ثم رغب الفرنج والبربر في السلم وسألوا الصلح وشرطوا لابن أبي سرح ثلاثمائة قطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب ويخرج من بلادهم ففعل ورجع المسلمون إلى المشرق بعد مقامهم بإفريقية سنة وثلاثة أشهر ولما بلغ هرقل ملك الروم أن أهل إفريقية صالحوا المسلمين بذلك المال

الذي أعطوه غضب عليهم وبعث بطريقا يأخذ منهم مثل ذلك فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا قد كان ينبغي له أن يسعدنا فيما نزل بنا فقاتلهم البطريق وهزمهم وطرد الملك الذي ولوه عليهم بعد جرجير فلحق بالشام وقد اجتمع النس على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فاستجاشه على إفريقية فبعث معه معاوية بن حديج السكوني على ما نذكره ولاية معاوية بن حديج على المغرب هو معاوية بن حديج بالحاء المهملة مصغرا الكندي ثم السكوني له صحبة وممن شهد مع عمرو بن العاص فتح مصر وقدم بخير الفتح على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولما قدم عالج إفريقية على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وشكا إليه ما ناله من صاحب قيصر بعث معه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وشكا إليه ما ناله من صاحب قيصر بعث معه معاوية بن حديج بن حديج خمس وأربعين ألفا وصل إلى الإسكندرية هلك العالج ومضى معاوية فقدم إفريقية في عشرة آلاف فنزل قومية فسرح إليه البطريق ثلاثين ألفا مقاتل كان قيصر قد وجهها من القسطنطينية في البحر لمدافة العرب عن إفريقية فلن تغن شيئا وقاتلهم معاوية فهزمهم عند حصن الأجم ثم بث سرايا ودوخ البلاد فبعث عبد الله بن الزبير إلى سوسة فافتتحها ثم بعث عبد الملك بن مروان إلى جلولا فافتتحها كذلك وقال ابن خلدون إن معاوية حاصر حصن جلولا فامتنع عليه حتى سقط ذات يوم سورته فملكه المسلمون وغنموا ما فيه

ثم وجه جيشا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب فأخذوا فيها ثم فتح بنزرت وظهر الإسلام في البربر ثم عاد إلى مصر بعد أن خلد آثارا حسية وبنى جيش القيروان أبارا ثم عزله معاوية بن أبي سفيان عن إفريقية وأقره على مصر فقط ثم عزله عنها في خبر ليس ذكره من غرضنا ولاية عقبة بن نافع الفهري على المغرب وبنائه مدينة القيروان هو عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي الفهري صحابي بالمولد وهو آخر من ولي المغرب من الصحابة وكان عمرو بن العاص وهو أمير على مضر قد استعمل عقبة هذا وهو ابن خالته على إفريقية فأنتهى إلى لواته ومزاته فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين غدامس من تخوم السودان وفي السنة بعدها افتتح ودان وكورا السودان وأثن في تلك النواحي وكان له فيها جهاد وفتوح فظهر غناؤه وعرفت نجدته وكفايته فلما كانت سنة خمسين ولاة معاوية رضي الله عنه على إفريقية استقلالا وبعث معه عشرة آلاف فارس فدخل عقبة إفريقية بعد رجوع معاوية بن حديج عنها وانضاف إليه مسلمة البربر فكثر جمعه ووضع السيف في أهلها لأنهم كانوا إذا جاءت عساكر المسلمين أسلموا فإذا رجعوا عنها ارتدوا ثم رأى عقبة رحمه الله أن يتخذ مدينة يعصم بها جيش المسلمين من البربر وتقام بها الجميع والأعياد فاستشار من معه فقالوا نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر فقسطوا علينا الفرنج فانظر لنا بنظر الله قال صاحب الجمان وكانت بقعة القيروان غيضة لا يأوى إليها إلا الوحوش والسباع فصاح بها عقبة أن اخرجي أيتها الوحوش والهوام بإذن الله عز وجل فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لا يرى فيها شيء من الهوام

المؤذية ولا السباع العادية ثم شرع في بنائها وقال هذه أوسع لأبيكم وأمن عليكم من روم القسطنطينية وإفنج الجزيرة وعن الليث بن سعد أن عقبة رحمه الله غزا إفريقية فأتى وادي القيروان فبات عليه هو وأصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال يا أهل الوادي أظعنونا فإنا نازلون قال ذلك ثلاثا فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما لا يعرف من الدواب تخرج ذاهبة وهم قيام ينظرون إليها منحين أصبحوا حتى أوهجت الشمس وحتى لم يروا منها شيء فنزلوا الوادي عند ذلك قال الليث فحدثني زياد بن عجلان أن أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التمس حبة أو عقر ب ألف دينار ما وجدت اه وفي الجمان لما شرع عقبة رحمه اله في بناء جامعها تنازعوا في القبلة فأتى عقبة أت في النوم فوضع له علامة على سمت القبلة فلم انتبه أعلم الناس بذلك فأتوا إلى الموضع فوجدوا اللامة كما قال فوق عقبة ينظر إلى القبلة فسمع تكبيره في الجو من ناحية القبلة فنظر فرأى الكعبة عيانا ورأها كل من كان حوله وقال ابن خلدون اختط عقبة رضي الله عنه القيروان وبنى بها المسجد الجامع وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وكملت في خمس سنين وكان يغزو ويبعث سرايا للإغارة والنهب ودخل أكثر البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين اه وقال صاحب الخلاصة النقية اختط عقبة بن نافع القيروان سنة خمسين وجعل دور سورها اثني عشر ميلا وبنى بها الجامع الأعظم وقتل البربر وشردهم ثم عزله معاوية عنها والله أعلم

ولاية أبي المهاجر دينار وفتحه المغرب الأوسط كان معاوية رضي الله عنه قد ولى على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد بوزن محمد الأنصاري فاستعمل مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر المذكور ويقال مولى بني مخزوم فقدمها سنة خمس وخمسين وأساء عزل عقبة واستخفف به لشيء كان بينهما وكره نزول القيروان فبنى مدينة قريبا وأخلى قيروان عقبة فدعا عقبة الله تعالى أن يمكنه منه وكان رجلا صالحا مجاب الدعوة فاستجيب له فيه على ما نذكره ثم إن أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعائي صنعاء الشام إلى جزيرة شريك وهي المعروفة الآن بالجزيرة القبلية وإليها يسلك من باب الجزيرة أحد أبواب تونس فافتتحها وكان كسيلة بن أغز البرنسي من أهل المغرب الأقصى من عظماء البربر وكان

نصرانيا قد جمع الجموع من البربر والفرنجة وزحف إلى المسلمين فزحف إليهم أبو المهاجر فهزمهم حول تلمسان وتمكن من البلاد وظفر بكسيلة فظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه قال ابن خلدون لم أقف لتلمسان على خير أقدم من خبر ابن الرقيق من أن أبا المهاجر لما قدم إفريقية توغل في ديار المغرب ووصل إلى تلمسان وبه سميت العيون القريبة منها عيون أبي المهاجر اه فهو أول أمير المسلمين وطنت خيله المغرب الأوسط ثم إن عقبة بن نافع لما قفل إلى المشرق شكى إلى معاوية رضي الله عنه ما ناله من أبي المهاجر فاعتذر إليه ووعده برده إلى عمله ثم ولاه ابنه يزيد على المغرب سنة اثنتين وستين وذكر الواقدي أن عقبة ولي سنة ست وأربعين فاختلط القيروان ثم عزله يزيد سنة اثنتين وستين بأبي المهاجر فحينئذ قبض على عقبة وضيق عليه فكتب إليه يزيد يأمره ببعثه فبعثه إليه ثم أعاده واليا على إفريقية والله أعلم ولاية عقبة بن نافع الثانية وفتح المغرب الأقصى ومقتله لما توفي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وولي بعده ابنه يزيد بعث عقبة بن نافع واليا على المغرب فقدمه في التاريخ المتقدم واعتقل ابا المهاجر وخرب مدينته وعمر القيروان وعزم على الجهاد فاستخلف زهير بن قيس البلوي على القيروان ويقال ولاه على مقدمة جيشه وخرج في جيش كثيف ففتح حصن لميس ومدينة باغانة المطل عليها جبل أوراس وفتح بلاد الجريد فتحا ثانيا وصالح أهل فزان وسار إلى الزاب وتاهرت فشنت جموع البربر ومن انضم إليهم من الفرنج ثم تقدم إلى المغرب الأقصى فأخن في أهله إلى إن وصل إلى البحر المحيط فكان عقبة رحمه الله أول أمير المسلمين وطنت خيله المغرب الأقصى وقال ابن خلدون قدم عقبة بن نافع المغرب في ولايته الثانية سنة اثنتين وستين فاضطغن على كسيلة صحبته لأبي المهاجر ونكبه وتقدم أبو المهاجر إلى عقبة فلم يقبل ثم زحف إلى المغرب وعلى مقدمته زهير بن قيس البلوي فدوخه ولقي ملوك البربر ومن انضم إليهم من الفرنجة بالزاب واهرت فهزمهم واستباحهم وأذن له يليان أمير غمارة ولاطفه وهاداه ودله على عورات البربر وراءه بمدينة ويلي وبلاد المصامدة والسوس

وقال صاحب الجمان افتتح عقبة المغرب ونزل على طنجة فحاصرها واستنزل ملكها بليان الغماري وكان نصرانيا فنزل على حكمه بعد أن أعطاه أموالا جليلية ثم أراد عقبة للحاق بالجزيرة الخضراء من عدوة الأندلس فقال له بليان أتترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ويقطع البحر بينك وبين المدد فقال عقبة وأين كفار البربر قال ببلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس قال عقبة وما دينهم قال ليس لهم دين ولا يعرفون إن الله حق وإنما هم كالبهائم وكانوا على دين المجوسية يومئذ فوجه عقبة نحوهم فنزل على مدينة ويلي بإزاء جبل زرهوان وهي يومئذ من أكبر مدن الغرب فيما بين النهرين العظيمين سبو وورغة وهذه المدينة هي المسماة اليوم في لسان العامة بقصر فرعون فافتتحها عقبة وعم وسبى ثم توجه إلى بلاد درعة والسوس فلقتيه جموع البربر فافتتلوا قتالا شديدا ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة وقتلهم المسلمون قتلا ذريعا وتبعوا آثارهم إلى صحراء لمقونة لا يلقاهم أحد إلا هزموه ثم عطف عقبة على ساحل البحر المحيط الغربي فأنتهى إلى بلاد أسفي وأدخل قوائم فرسه في البحر ووقف ساعة ثم قال لأصحابه ارفعوا أيديكم ففعلوا وقال اللهم إني لم أخرج بطرا ولا أشرا وإنك تعلم إنما تطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء اللهم إنا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الإسلام فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام ثم انصرف راجعا وقال ابن خلدون أيضا وصل عقبة إلى جبال درن وقاتل المصامدة بها فكانت بينه وبينهم حروب وحاصروه بجبل درن فنهضت إليهم جموع زناتة وكانوا خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة فأفرجت المصامدة عن عقبة وأخن فيهم حتى حملهم على طاعة الإسلام ودخ بلادهم ثم أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين

المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فأتخن فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر وقاتل مسوقة من وراء السوس ودوخهم وقتل راجعا وكان يستعين به ويمتتهن فأمره يوما بسلخ شاة بين يديه فدفعها كسيلة إلى غلمانه فأراه عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره فقام إليها كسيلة مغضبا وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته والعرب يقولون ما هذا يا بربري فيقول هو أجبر فيقول لهم شيخ منهم إن البربري يتوعدكم وبلغ ذلك أبا المهاجر وهو معتقل عند عقبة فبعث إليه بنهاه ويقول كان رسول الله يستأنف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه وبادر عزه حديث عهد بالشرك فستفسده وأشار عليه بأن يتوثق منه وخوفه غائلته فتهاون عقبة بقوله فلما قفل من غزاته هذه وانتهى إلى طنبه من أرض الزاب وكسيلة أثناء هذا كله في صحبته صرف العساكر إلى القيروان أفراجا ثقة بما دوخ من البلاد وأدل من البربر حتى بقي في قليل من الجند فلما وصل إل تهودة وأراد أن ينزل بها الحامية نظر إليه الفرنجة وطعموا فيه فراسلوا كسيلة ودلوه على الفرصة فيه فانتهزوها وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر فاتبعوا أثر عقبة وأصحابه حتى إذا غشوه بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه فلم يفلت منهم أحد وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مسرح واحد وفيهم أبو المهاجر كان عقبة قد استصحبه في اعتقاله كما قلنا فأبى رضي الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن قال ابن خلدون واجدات الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء أعني عقبة وأصحابه بمكائهم من أرض الزاب لهذا العهد وقد جعل على قبورهم أسمنة ثم جصصت واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات ومظان البركات بل هو أشرف مزار من الأجداد في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا

يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهما ففداهم ابن مصاد صاحب قصة وبعث بهم إلى القيروان ثم زحف كسيلة بعد الوقعة إلى جهة القيروان إذ هي دار الإمارة بالمغرب يومئذ وبها جمهور العرب ووجوده الإسلام فبلغهم الخبر وعظم عليهم الأمر فقام زهر بن قيس البلوي فيهم خطيبا وقال يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم فخالف حنش بن عبد الله الصنعاني لما علم أنه لا طاقة للمسلمين بما دهمهم من أمر البربر ورأى أن النجاة بمن معه من المسلمين أولى ونادى في الناس بالرحيل إلى مشرقهم فاتبعوه إلا قليلا منهم وبقي زهير في أهل بيته فاضطر إلى الخروج وسار إلى برقة فأقام بها مطلا على المغرب ومنتظرا للمدد من الخلفاء واجتمع إلى كسيلة جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة وعظم أمره وتقدم إلى القيروان فاستولى عليها في المحرم سنة أربع وستين وفر منها بقية العرب فلحقوا بزهير ولم يبق بها إلا أصحاب الزراري والأثقال فأمنهم كسيلة وثبتت قدمه بالقيروان واستمر أميرا على البربر ومن بقي بها من العرب خمس سنين وقرن ذلك مهلك يزيد بن معاوية وفتنة الضحاك بن قيس مع مروان ابن الحكم بمرج راهط من أرض الشام وحروب آل الزبير فاضطرب أمر الخلافة بالمشرق واضطرب المغرب نارا وفتت الردة في زناتة والبرانس إلى أن استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وأذهب آثار الفتنة ثم المشرق فالتفت إلى المغرب وتلافى أمره على ما نذكره

ذكر من دخل المغرب من الصحابة مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم فمنهم بلال بن حارث بن عاصم المزني أبو عبد الرحمن من أهل المدينة أقطع النبي العقيق وكان صاحب لواء مزينة يوم الفتح ذكره صاحب الخلاصة النقية فيمن دخل المغرب ومنهم جرهد بن خويلد الأسدي أو الأسلمي ذكر صاحب الإشراق أنه من جملة من دخل إفريقية من أرض المغرب ومنهم جبلة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة الأنصاري أخو أبي مسعود البدري قال في التجريد شهد أحدا وشهد فتح مصر وصفين مع علي وغزا إفريقية مع معاوية بن حديج سنة خمس وكان فاضلا من فقهاء الصحابة روى ابن منده ومحمد بن الربيع من طريق مالك بن أبي عمران عن سليمان بن يسار أنه سئل عن النفل في الغزو فقال لم أر أحدا يعطيه غير أن ابن خديج نفلنا من إفريقية الثلث بعد الخمس ومعنا من أصحاب رسول الله من المهاجرين الأولين ناس كثير فأبى جبلة بن عمرو الأنصاري أن يأخذ منه شيئا ومنهم الحسنان رضي الله عنهما على ما ذكره ابن خلدون وهما سيدا شباب أهل الجنة وربحانا الرسول أشهر من أن يعرف بهما ومنهم الحارث بن حبيب بن خزيمة القرشي العامري ذكره خليفة بن خياط فيمن نزل مصر من الصحابة قال وقتل بإفريقية مع معبد بن العباس بن عبد المطلب ومنهم حمزة بن عمرو الأسلمي ذكره في الإشراق ومنهم حبان بالكسر وموحده ابن أبي جبلة قال في الإصابة له إدراك قال ابن يونس بعثه عمر بن الخطاب إلى أهل مصر يفقههم وذكره

ابن حبان في ثقات التابعين وقال غيره مات بإفريقية ومنهم خالد بن ثابت العجلاني الفهمي قال ابن يونس شهد فتح مصر وولي بحر مصر سنة إحدى وخمسين وأغزاه مسلمة بن مخلد إفريقية سنة أربع وخمسين قال في الإصابة ذكرته اعتمادا على أنهم كانوا لا يؤمرون في الفتح إلا الصحابة ومنهم ربيعة بن عباد الديلي ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة لغزو المغرب قال مالك وأبوه بكسر الميملة وتخفيف الموحدة على الصواب ويقال بالفتح والتشديد ذكر وابن سعد أنه مات في خلافة الوليد ومنهم ربيع بن ثابت بن السكن الأنصاري ثم النجاري وولاه معاوية على طرابلس سنة ت وأربعين فغزا إفريقية قال ابن يونس توفي ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ست وخمسين ومنهم زهير بن قيس البلوي أبو شداد الآتي ذكره بعد قال ابن يونس يقال له صحبة ومنهم سفيان بن وهب الخولاني أبو أيمن له صحبة ورواية شهد حجة الوداع وفتح مصر وإفريقية وسكن المغرب مات سنة إحدى وتسعين ومنهم سلكان بن مالك قال محمد بن الربيع ذكره الواقدي فيمن دخل مصر لغزو المغرب ومنهم سلمة بن الكوع الأسلمي الصحابي المشهور ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة لغزو المغرب مات بالمدينة سنة سبع وسبعين وهو ابن ثمانين سنة وكان شجاعا راميا سابقا يسبق الفرس شدا على قدميه ومنهم العبدلة الأربعة رضي الله عنهم فمنهم بعد الله بن عباس ترجمان القرآن أشهر من أن يعرف به وهو الذي قسم غنائم إفريقية يوم الفتح

ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما من أعلام الصحابة وعبادهم وزهادهم والمتمسكين بالسنة منهم رضي الله عنه ومنهم عبد الله بن الزبير بن العوام الشجاع المشهور والبطل المذكور وهو أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة وهو قاتل جرجير يوم الفتح كما مر ومنهم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أحد أجواد الدنيا وأبطالها ذكر ابن خلدون إنه ممن دخل إفريقية غازيا فهؤلاء العبدلة الأربعة ومنهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح الأمير المعروف وقد تقدم ذكره ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابي المشهور أسلم قبل أبيه وهو أكثر الناس حديثا عن رسول الله والصواب أن يجعل أحد العبدلة بدل ابن جعفر والله أعلم قال أبو هريرة رضي الله عنه ما كان أحد أكثر مني حديثا عن رسول الله إلا ما كان من عب الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب عده ابن ناجي فيمن دخل المغرب مع ابن أبي سرح ومنهم عبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب ابن عمر رسول الله ولد على عهد النبي وقتل بإفريقية ومنهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب ذكره في الخلاصة النقية وكان صحابيا بالمولد قتل يوم صفين مع معاوية ومنهم أخوه عاصم بن عمر وصحبته بالمولد ذكره صاحب الخلاصة أيضا ومنهم عبد الله بن نافع بن الحصين وجهه عثمان رضي الله عنه مع ابن أبي سرح لشدة بطشه وإصابة رأيه ومنهم عقيبة بن نافع الفهري الأمير المشهور فاتح المغرب الأقصى وهو صاحب الترجمة

ومنهم عثمان بن عوف المزني على خلاف فيه وأم عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد تقدم أنه انتهى إلى طرابلس ولم يصل إلى إفريقية ومنهم مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي ولد بعد الهجرة بستينين ولم تحصل له رواية لأنه خرج مع أبيه إلى الطائف فأقام به ذكره صاحب الخلاصة فيمن دخل المغرب ومنهم مسعود بن الأسود البلوي وقيل العدوي قال الذهبي بايع تحت الشجرة يعد في المصريين وغزا إفريقية ومنهم المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري له ولأبيه صحبة قال محمد بن الربيع دخل مصر لغزو المغرب مات سنة أربع وستين ومنهم المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي والد سعيد بن المسيب له ولأبيه صحبة ورواية ذكره الواقدي فيمن دخل مصر لغزو المغرب ومنهم المطلب بن أبي وداعة القرشي السهمي له ولأبيه صحبة وهما من مسلمة الفتح قال محمد بن الربيع دخل مصر لغزو المغرب فيما ذكره الواقدي ومنهم معاوية بن حديج السكوني أحد المرء وقد تقدم ذكره ومنهم معبد بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي قال الذهبي ولد على عهد النبي واستشهد بإفريقية شابا في زمن عثمان رضي الله عنه وحكى المؤرخون أن معاوية بن أبي سفيان أغزى سعيد بن عثمان بن عفان خراسان ومعه قثم بن العباس بن عبد المطلب فغير سعيد النهر إلى سمرقند فاستشهد قثم بها وكان أخوه الفضل بن عباس قد مات بأجنادين من أرض الشام وعبد الله الترجمان مات بالطائف ويعبد اله الأصغر مات باليمن ومعبد بإفريقية فقال الناس لم ير مثل بني أم واحدة أبعد قيورا من بني العباس

ومنهم المقداد بن الأسود الكندي وليس الأسود أبه وإنما تنبأه الأسود بعد عبد يغوث وهو صغير فعرف به وإنما اسم أبيه عمرو بن ثعلبة الكندي كان المقداد أحد السابقين شهد بدرًا واحدا والمشاهد كلها ولم يثبت أن أحدا شهد بدرًا فإرسا سواه غزا إفريقية مع ابن أبي سرح فلما رجعوا على مصر قال له ابن أبي سرح لولا أن يقال أفسدت مرتين لهدمتها ومنهم المنير الأسلمي قال ابن يونس له صحبة وكان بإفريقية وقال عبد الملك بن حبيب لم يدخل الأندلس من الصحابة إلا المنير الإفريقي وأما المشتهرون بكنيتهم فمنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور واسمه فهد السقيفة وبيعة أبي بكر والصلاة على النبي ودفنه قال ابن كثير توفي غازيا بإفريقية في خلافة عثمان رضي الله عنه قتل وهلك له خمسة أولاد بمصر بالطاعون فقال قصيدته العينية يرثيهم وهي مشهورة ومنهم أبو رمثة البلوي قيل اسمه رفاعة بن يثربي وقيل بالعكشي له صحبة ورواية قال الذهبي سكن بمصر وما بإفريقية ومنهم أبو زمعة البلوي قال الذهبي اسمه عبد وقيل عبيد بن أرقم بايع تحت الشجرة ونزل مصر وغزا إفريقية مع ابن حديج روى حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفسا وسأل هل من توبة مات بإفريقية ودفنت معه شعرات من شعر رسول الله حسبما هو مشهور وهو صاحب المقام خارج القيروان ومنهم أبو ضبيس البلوي قال الذهب له صحبة وقال محمد بن الربيع الجيزي دخل مصر لغزو المغرب ومنهم أبو المبتذل خلف له صحبة ونزل إفريقية وقيل أبو المنير كذا

في التجريد وغير هؤلاء ممن لم يحضرنا ذكرهم أخرج ابن عبد الحكم عن سليمان بن يسار قال غزونا إفريقية مع ابن حديج ومعنا بشر كثير من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار اه رضي الله عنهم ونفعا بهم وحشرنا في زمريتهم أمين ذكر اختلاف العلماء في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو غير ذلك قال الشيخ أبو الحسن القاسبي رحمه الله في شرح الموطأ في كتاب الجهاد منه اختلف الناس في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو مختلطة أي البعض عنوة والبعض صلحا على ثلاثة أقوال الأول وهو الذي يظهر م روايته ابن القاسم عن مالك أنها فتحت بالسيف عنوة لأنه جعل النظر في معادنها للإمام ولو صح ذلك لم يجز لأحد بيع شيء منها كأرض مصر لأنها فتحت بالسيف الثاني إنها مختلطة هرب بعضهم عن بعض وتركوها فمن بقي بيده شيء كان له وهو الصحيح والله أعلم ويحكى أن أحد عمال المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس حين تغلب على أرض فاس قال لهم أخبروني عن أرضكم أصل هي أم عنوة فقالوا له لا جواب لنا حتى يأتي الفقيه يعنون الشيخ أبا جيدة فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال ليست بصلح ولا عنوة إنما أسلم أهلها عليها فقال خلصكم الرجل وأبو جيدة هذا هو دفين باب بني مسافر أو أبواب فاس المحروسة رحمه الله

ولاية زهير بن قيس البلوي على المغرب ومقتل كسيلة وما يتبع ذلك لما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة كان زهير مقيما ببرقة منذ مهلك عقيبة بن نافع كما مر فبعث إليه عبد الملك بالمدد وولاه حرب البربر وأمره باستنفاذ القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها وحضه على الطلب بدم عقيبة فراجع زهير يعلمه بكثرة الفرنج والبربر فأمده بالمال ووجه العرب وفرسانها فزحف زهير إلى المغرب سنة تسع وستين في آلاف من المقاتلة وجمع له كسيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس من نواحي القيروان واشتد القتال بين الفريقين ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة وقتل كسيلة ووجه من معه من البربر ومن لا يحصى من عامتهم واتباعهم العرب إلى مرامجة ثم إلى وادي ملوية وفي هذه الواقعة ذلك البربر وفتيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد وخاف البربر من زهير والعرب خوفا شديدا فاجؤوا إلى القلاع والحصون وكسرت شوكة أوربة من بينهم واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة وليلي وكانت فيما بين موضع فاس ومكناسة بجانب جبل زهرون ولم يكن لهم بعد هذه الواقعة ذكر إلى أن قدم عليهم إدريس بن عبد الله رضي الله عنه فقاموا بدعوته على ما نذكره إن شاء الله وأما زهير فإنه لما رأى ما منح الله من الظفر والنصر وساق غلبه من العز والملك خشي على نفسه الفتنة وكان من العباد المحببتين فترك القيروان آمن ما كانت وارتحل إلى المشرق وقال إنما جنت للجهاد في سبيل الله وأخاف على نفسي أن تميل إلى الدنيا فلما وصل إلى برقة وجد

ولما استقرت القواعد لموسى بالمغرب كتب إلى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو الأندلس فغزاها في اثني عشر ألفا من البربر وخلق يسير من العرب وعبر البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وصعد الجبل المنسوب إليه المعروف اليوم بجبل طارق يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وسبعين للهجرة وذكر عن طارق أنه كان نائما وقت العبور في المركب فرأى النبي الأربعة يمشون على الماء حتى مروا به فيشره النبي بالفتح وأمره بالرؤف بالمسلمين والوفاء بالعهد ذكر ذلك ابن شكوال وقال ابن خلدون في أخبار الأندلس إن أمة القوط ملكوا جزيرة الأندلس نحو أربعمئة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح وكان ملكهم ذلك العهد يسمى لذريق وهو سمة ملوكهم كحجر سمة ملوك صقلية وكانت لهم خطوة وراء البحر في هذه العدة الجنوبية خطوها من زقاق البحر إلى بلاد البربر واستعدوهم وكان ملك البربر بذلك القطر الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى بليان وكان يدين بطاعتهم وبملتهم وموسى بن نصير أمير العرب إذ ذاك عامل بإفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك ومنزله بالقيروان وكان قد أغزا لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى وبه خ أقطاره وأه غل في جبال طنجة حتى وصل إلى خليج الزقاق واستنزل بليان لطاعة الإسلام وخلف مولاه طارق بن زياد واليا بطنجة وكان بليان ينقم على لذريق ملك القوط بالأندلس فعلة فعلها زعموا بابنته الناشئة في داره على عاتقهم في بنات بطارقهم فغضب لذلك وأجاز إلى لذريق فأخذ

قلت يعني أنه كان من عادة أكابر العجم بالأندلس أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون التنويه بهم إلى دار الملك الأكبر بطليلة ليصيروا في خدمته ويتأدبوا بأدابه وينالوا من كرامته حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا وتحمل صدقاتهم وتولى تجهيز إناتهم استتلافا لأبائهم فاتفق أن فعل ذلك بليان عامل لذريق على سبتة وكان أهلها نصارى فبعث بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه إلى دار لذريق فوعدت عينه فأعجبته وأحبها ولم يتمالك أن استكرهها فافتضها فاحتالت حتى أعلمت أباها سرا فأحفظه ذلك وحمى أنفه وقال ودين المسيح لأزليان ملكه ولأحفرن ما تحت قدميه فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس مع سابق القدر ثم إن بليان عبر البحر من سبتة في صنبر قلب الشتاء وأصعب الأوقات فقدم طليطلة واجتمع بالملك فأنكر مجيئه في ذلك الوقت وسأله عن السبب فذكر خيرا واعتل بأن زوجته قد اشتد شوقها إلى رؤية ابنتها وأنه أحب إسعافها بطلبها وسأل الملك تمكينه منها وتعجيل سراحه إلى عمله ففعل وأحسن جائزة الجارية وتوثق منها بالكتمان وأفضل على أبيها وانقلب راجعا وذكروا أنه لما ودعه قال له لذريق إذا قدمت علينا فاستقره لنا من الشذافات التي لم تزل تطرفنا بها فإنها أثر جوارحنا لدينا يعني بذلك طيورا فارهة كانت تتخذ للاصطياد فقال له أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذافات ما دخل عليك مثلها قط يعرض له بما أضمره من إدخال العرب عليه ثم لحق بليان بطارق بن زياد وهو بطنجة فكشف له عورة القوط فانتزه طارق الفرصة لوقته وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمئة من العرب واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف وصيرهم عسكريين أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمى جبل طارق به والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن وبلغ الخبر لذريق فنهض إليهم بجر أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين

ألفا فالتقوا بفحص شريش فهزمه الله ونقلهم أموال أهل الكفر ورقابهم وكتب طارق إلى موسى بالفتح والغنائم فحركته الغيرة وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر فوافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأندلس وتلقاه طارق فاتفق واتبع وقال إن موسى لما سار إلى الأندلس عبر البحر إليها من ناحية الجبل المنسوب إليه المعروف اليوم بجبل موسى وتتكب النزول على جبل طارق ويتم الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجرف وضم قانس في الغرب ودوخ أقطارها وجمع غنائمها وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروب الأندلس ودروبه ويخوض إليه ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية مجاهدا فيهم ومستلحما لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق ونمى الخبر إلى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما هم به موسى تغرير بالمسلمين إن لم يرجع هو وكتب له بذلك عهده ففت ذلك في عزم موسى وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد غوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة واحتل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والخائز والأيام على العجل والظهر يقال إن من جملة ثلاثين ألف رأس من السبي وولى على إفريقية ابنه عبد الله واندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية المغرب فكان صاحب القيروان ناظرا في الجميع وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك وقد ولي الخلافة بعد الوليد فسخطه ونكبه وثار عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز

فقتلوه لسنتين من ولايته بإغراء الخليفة سليمان وكان خيرا فاضلا وافتتح في ولاية مدائن كثيرة وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة الفهري وكان سبب غضب سليمان على موسى أنه لما توجه إلى المشرق وانتهى إلى مصر وصل أشرفها وفقهاها وبلغه الخبر بمرض الوليد ووفاه كتابه يستحثه على القدوم ووفاه كتاب آخر من أخيه سليمان يثبته فأسرع موسى للحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاث أيام ودفع إليه ما معه من الذخائر والأموال فغاض ذلك سليمان وأسأه مكافأته حين أفضى الأمر إليه فكبه ونكب آل بيته أجمع وكانت وفاة موسى رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني ارتدت البربر اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ولم يستقر إسلامهم حتى عبر موسى بن نصير البحر إلى الأندلس وأجاز معه كثيرا من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقروا هنالك فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذن البربر لحكمه وتناسوا الردة ثم نبضت فيهم عروق الخارجية بعد على ما نذكره ولاية محمد بن يزيد على المغرب لما ارتحل موسى بن نصير إلى المشرق ونكبه الخليفة سليمان كما قلنا عزل ابنه عبد الله عن المغرب وولى مكانه محمد بن يزيد مولى قريش ويقال مولى الأنصار فقدم القيروان سنة سبع وتسعين وكان سليمان قد أمره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فأتى على ذلك ثم لما قتل أهل الأندلس أميرهم عبد العزيز بن موسى ولوا عليهم أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن أخت موسى فوجه محمد بن يزيد الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي واليا من قبله على الأندلس فقدمها واستقر أميرا بها سنتين وثمانية أشهر قالوا وكان محمد بن يزيد هذا عادلا حسن السيرة قاتل المخالفين بثغور المغرب وغنم وسبى ولم يزل واليا عليه حتى

مات سليمان فكانت ولايته سنتين وأشهرها والله أعلم ولاية إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر على المغرب لما توفي سليمان بن عبد الملك رحمه الله وولى الخلافة بعده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه استعمل على المغرب إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم فقدم القيروان سنة مائة وكان خير أمير وخير وال ولم يزل حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى تم إسلامهم على يده وبث فيهم من فقههم في دينهم وذكر أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم في تاريخ إفريقية أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين حبان بن أبي جبلة ولما توفي عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة وبويع يزيد بن عبد الملك وجه يزيد بن أبي مسلم الثقفي واليا على المغرب على ما تذكره

ولاية يزيد بن أبي مسلم على المغرب هو يزيد بن أبي مسلم دينار مولى الحجاج بن يوسف الثقفي الظالم المشهور وكان يزيد هذا كاتبه وصاحب شرطته قال ابن خلكان كانت فيه كفاية ونهضة قدمه الحجاج بسببها وكان من خبره أن الحجاج لما حضرته الوفاة استخلف يزيد هذا على خراج العراق فأقره الوليد بن عبد الملك واغتبط به وقال ما مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا ولما مات الوليد وولى بعده أخوه سليمان عزل ابن أبي مسلم وأمر به فأحضر بين يديه في جامعة وكان رجلا قصيرا دميما قبيح الوجه عظيم البطن تحقره العين فلما نظر إليه سليمان قال أنت يزيد بن أبي مسلم قال نعم اصلى الله أمير المؤمنين فإنك رأيتني والأمر غني مذبرا ولو رأيتني والأمر علي مقبل لاستعظمت ما استصغرت ولاستجلت ما احتقرت فقال سليمان قتله الله فما أربط جاشه وأغضب لسانه ودارت بينه وبين سليمان محاورات

غير هذه ثم كشفت عنه فلم يجد عليه خيانة فهم باستكتابه فقال عمر أنا أوجدك من هو أعف عن الدينار والدرهم منه فقال سليمان من هو قال إبليس ما مس دينارا ولا درهما قط وقد أهلك هذا الخلق فتركه سليمان وحدث جويرية بن أسماء أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة بلغه أن يزيد بن أبي مسلم خرج في جيش من جيوش المسلمين فكتب إلى عامل الجيش برده وقال إني لأكره أن أستنصر بجيش هو فيهم فلما توفي عمر رضي الله عنه وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك عزل

إسماعيل بن عبيد الله عن المغرب وولى مكانه يزيد بن أبي مسلم فأساء السيرة قالوا ووجه عنيسة بن سحيم الكلبي واليا من قبله على الأندلس فاستقام على يده أمرها ثم ثار أهل المغرب بآبى مسلم فقتلوه سنة ثنتين ومائة لشهر من ولايته قال الطبري وكان سبب ذلك أنه كان قد عزم أن يسير في أهل المغرب بسيرة الحجاج في أهل العراق فإن الحجاج كان وضع الجزية على رقاب الذين أسلموا من أهل السواد وأمر بردهم إلى قراهم ورسائيقهم على الحالة التي كانوا عليها قبل اسلام فلما عزم يزيد على ذلك تأمر البربر فيه وأجمعوا على قتله فقتلوه وولوا عليهم محمد بن يزيد الذي كان قبله فيما ذكره الطبري وكان غازيا بصقلية فلما قدم بمغانمه ولوه أمرهم وقال ابن عساکر ولوا بعده إسماعيل بن عبيد الله والله أعلم ثم كتب إلى أهل المغرب إلى الخليفة يزيد إنا لم نخلع يدا من طاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله ورسوله فقتلناه وأعدنا عاملك فكتب إليهم يزيد إني لم أرض ما صنع ابن أبي مسلم وأقر محمد بن يزيد على المغرب وذلك في سنة اثنتين ومائة كما قلنا وحدث الوضاح بن أبي خيثمة وكان حاجب عمر بن عبد العزيز قال أمرني عمر بن العزيز يعني في مرض موته بإخراج قوم من السجن وفيهم يزيد بن أبي مسلم فأخرجتهم وتركتهم فحدد علي فلما مات عمر هربت إلى أفريقية خوفا منه قال فيينا أنا بإفريقية إذ قيل قدم رائي قال طالما سألت الله أن يمكنني منك فقلت وأنا والله لطالما سألت الله أن يعيذني منك فقال ما أعانك الله والله لأقتلك ولو سابقتي فيك ملك الموت لسبقته ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بهما وأمر بالوضاح فأقيم عليه مكتوبا وقام السيف وراءه ثم أقيمت الصلاة فتقدم يزيد إليها فلما سجد أخذته السيوف ودخل على الوضاح من قطع كتافه وأطلقه فسبحان اللطيف الخبير

ولاية بشر بن صفوان على المغرب لما كتب أهل المغرب إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك بما كان منهم إلى ابن أبي مسلم وما اعتذروا به في شأنه أقر عليهم محمد بن يزيد أو إسماعيل بن عبيد الله على الخلاف المتقدم ما شاء الله ثم ولى عليهم بشر بن صفوان الكلبي وكان واليا على مصر فقدم القيروان سنة ثلاث ومائة فهدم المغرب وسكن أرجاءه واستصفي بقايا آل موسى بن نصير ثم وفد على يزيد بن عبد الملك فوجده قد مات وبويع هشام بن عبد الملك فرده هشام إلى عمله من المغرب فاستقر بالقيروان واستدعى منه أهل الأندلس واليا يقوم بأمرهم وذلك بعد مقتل عنيسة بن سحيم الكلبي شهيدا في بعض غزوات الفرنج فولى عليهم يحيى بن سلمة الكلبي فقدم الأندلس آخر سنة سبع ومائة فأصلح شأنها ثم غزا بشر بن صفوان صقلية بنفسه سنة تسع ومائة فأصاب سببا كثيرا ورجع إلى القيروان منصورا فكانت منيته عقب ذلك ولاية عبيدة بن عبد الرحمن على المغرب لما توفي بشر بن صفوان وانتهى الخبر إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ولى على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وهو ابن أخي أبي الأعرس السلمي وقيل ابن ابنه فقدم القيروان سنة عشر ومائة ونظر في أمر المغرب والأندلس معا وولى من قبله على الأندلس ولاية أربعة واحدا بعد واحد وهم عثمان بن أبي نسعة الخثعي وحذيفة بن الحوص القيسي والهيثم بن عبيد الكلبي ومحمد بن عبد الله الأشجعي وكان عبيدة بن عبد الرحمن قد أخذ عمال بشر بن صفوان قبله وعذبهم فكتب بعضهم بذلك إلى الخليفة هشام فعزله لاربع سنين وستة أشهر من ولايته

ولاية عبيد الله بن الحبحاب على المغرب عبيد الله هذا هو مولى بني سلول وكان رئيسا نبيلًا وأميرا جليلا وخطيبا مصقعا ولاء هشام بن عبد الملك على المغرب بعد عزل عبيدة بن عبد الرحمن عنه وأمره أن يمضى إليه من مصر فاستخلف عبيد الله على مصر ابنه أبا القاسم وسار إلى المغرب فقد القيروان في ربيع الآخر سنة أربع عشرة ومائة واستعمل عمر بن عبيد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى واستعمل ابنه إسماعيل بن عبيد الله معه على السوس وما وراءه واستعمل على الأندلس بد الرحمن بن عبد الله الغافقي فكانت له في الفرنجة وقائع وأصيب جيشه في رمضان من السنة المذكورة في موضع يعرف ببلاط لشهداء وبه عرفت الغزوة

ثم ولى عبيد الله على الأندلس عبد الملك بن فطن الفهري ثم بعده عقبه بن الحجاج السلولي فكان محمود السيرة وتمكن سلطان عبيد الله بالمغرب وبنى جامع الزيتونة بتونس لكن صحح صاحب المؤنس أن أول مختط للجامع المذكور حسان بن النعمان وتممه عبيد الله هذا واتخذ بها دار صناعة لإنشاء المراكب البحرية ثم بعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبه بن نافع الفهري غازيا أرض المغرب فانتهى إلى السوس الأقصى وقاتل مسوة ثم تخطاهم إلى تخوم السودان وأصاب من مغنم الذهب والفضة والسبي شيئا كثيرا ودوخ بلاد البربر وقبالها ورجع ثم أغزاه ثانية جزيرة صقلية فركب البحر إليهم سنة اثنتين وعشرين ومائة معه ابنه عبد الرحمن بن حبيب فانزل سرقوسة أعظم مدن صقلية وضرب على أهلها الجزية وأثن

في سائر الجزيرة وكان عمر بن عبيد الله في هذه المدة بطنجة قد أساء السيرة في برابرة المغرب الأقصى وأراد أن يخمس من أسلم منهم ورحم أنه الفيء فنفرت قلوب البربر عنه وأحسوا بأنهم طعمة للعرب وثقلت عليهم وطأة عمال ابن الحبحاب جملة بما كانوا يطالبونهم به من الوظائف البربرية مثل الإدم العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب فكانوا يتغالبون في جمع ذلك وانتخابه حتى كانت الصرمة من الغنم تملك ذبحا لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه فكثرت عيئهم بذلك في أموال البربر فأجمعوا الانتفاض وبلغهم مسير العساكر مع حبيب بن أبي عبيدة إلى صقلية فجأهم ذلك على مرادهم وثار ميسرة المضغري بأحواز طنجة على ما نذكره وكانت بدعة الخارجية يومئذ قد سرت فيالبربر وتلقها رؤوسهم عن عرب العراق الساقطين إلى المغرب نزعا بها إلى الأطراف داعين أعمار

الأمم إليها عسى أن تكون لهم دولة فاستحكمت صبغتها في طعام البربر وشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والأسباب في خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتفاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم في سلطانهم ولنذكر هنا أصل الخوارج وفرقهم على الجملة ثم نعود إلى موضوعنا الذي كنا فيه فنقول قد تقدم لنا في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما كان من أمر التحكيم وما نشأ عنه من خروج طائفة من القراء عليه وقالوا حكمت الرجال في دين الله ولا حكم إلا الله وأن عليا رضي الله عنه استأصلهم بالنهروان فقال له بعض أصحابه قد قطع الله دابرهم آخر الدهر فقال علي رضي الله عنه والذي نفسي بيده إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء لا تخرج خارجة إلا خرجت بعدها مثلها فصدق الله قول علي ونبغت منهم طوائف بالعراق وغيره وتكرر خروجهم على الخلفاء وشرى داؤهم وأعيى داؤهم وتعددت فرقهم ومذاهبهم قال ابن خلدون افترقت الخوارج على أربع فرق الأولى الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي وكان رأيه البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم والاستعراض يعني القتل من غير سؤال عن حال أحد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة لأنه يراهم كفارا الثانية النجدية ويقال لهم النجدات أصحاب نجدة بن عامر الحنفي وهو بخلاف الأزارقة فيذلك كله الثالثة الإباضية أصحاب عبد الله بن إياض التميمي ثم الصريمي وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المناققين فلا ينتهون إلى الرأي الأول ولا يقفون عند الثاني ولا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم وهم عندهم كالمناققين ومن هؤلاء البيهسية أصحاب أبي بيهس هيصم بن جابر الضبيعي

الرابعة الصفرية وهم موافقون للإباضية إلا في القعدة يعني الذين يقعدون عن القتال معهم فإن الإباضية أشد على القعدة منهم وربما تشعبت هذه الآراء بعد ذلك واختلفت في تسمية الصفرية فقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار الصريمي وقيل اصفروا بما نهكهم العبادة وفي القاموس الصفرية بالضم وبكسر قوم من الحرورية نسبوا إلى عبد الله بن صفار بن ككتان أو إلى زياد بن الأصفر أو إلى صفرة ألوانهم أو لخلوهم من الدين اه وقد كانت الخوارج من قبل هذا الافتراق على رأي واحد لا يختلفون إلا في الشاذ من الفروع وفي أصل افتراقهم مكاتبات بين نافع بن الأزرق وأبي بيهس وعبد الله بن إياض ذكرها المبرد في الكامل فلتنظر هنالك وكانت خوارج المغرب إباضية وصفرية فلما كانت ولاية عبيد الله بن الحبحاب ونال عنه من البربر ما نالوا من الجور والعسف انتقضوا عليه وثار ميسرة المضغري المعروف بالخفير بأحواز طنجة ومضغرة المظن من بني فاتن بن تامضيت بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الأبتري وكانوا على رأي الصفرية وكان شيخهم ميسرة المذكور مقدما في ذلك المذهب فحمل

البربر على الخروج عن الطاعة وزحف إلى عمر بن عبيد الله بطنجة فقتله سنة اثنتين وعشرين ومائ وولى عليها من قبله عبد الأعلى بن جريج الإفريقي رومي الأصل ومولى للعرب كان إمام الصفرية في انتحال مذهبهم فقام بأمرهم مدة ثم تقدم إلى السوس فقتله عاملها إسماعيل بن عبيد الله وكان ميسرة لما استولى على طنجة والمغرب الأقصى فدبايعه البربر بالخلافة وخطبوا بأمر المؤمنين إذ الخوارج لا يشترون في الإمام الأعظم الفريسية محتجين بقوله اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة وهو مؤول واضطرم المغرب ناراً وفتت نحلة الخارجية في جميع قبائله وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد ثم إن ابن الحجاب بعث إلى ميسرة خالد بن حبيب الفهري فيمن كان قد بقي عنده من الجيش واستقدم أباه وبعثه في أثر خالد ونهض إليهم ميسرة في جموع البربر فلحقهم بأحواز طنجة فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم تحاجزوا ورجع ميسرة إلى طنجة فساعت سيرته في البربر ونقموا عليه ما جاء به فقتلوه وولوا عليهم مكانه خالد بن حميد الزناتي قال ابن عبد الحكم هو من هتورة غحدي بطون زناتة ابن الحجاب عساكر الخليفة هشام بن عبد الملك وعلى مقدمتها خالد بن حبيب الفهري فكان اللقاء على وادي شلف فانهزم المسلمون وقتل خالد بن حبيب ووجه من معه من العرب فسميت الواقعة وقعة الأشراف وانتقض المغرب على ابن الحجاب من سائر جهاته وبلغ الخبر إلى أهل الأندلس فعزلوا عامله عقبة بن الحجاج السلولي وولوا عليهم عبد الملك بن قطن الفهري ومرج أمر الناس وانتهى الخبر بذلك كله إلى الخليفة هشام بدمشق فعزل ابن الحجاب عن المغرب وقال صاحب الخلاصة لما اختلت الأمور على ابن الحجاب بالقدوم فخرج في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة والله أعلم

ولاية كلثوم بن عياض على المغرب ومقتله لما انتهى إلى الخليفة هشام ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب والأندلس وخلعهم للطاعة شق ذلك واستضعف ابن الحجاب فكتب إليه يستقدمه وولى على المغرب كلثوم بن عياض القشيري ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتالهم كان فيه مع ما انضاف إليه مجموع البلاد التي مر بها سبعون ألفاً على ما قيل ولما انتهى كلثوم إلى القيروان أساء السيرة في أهلها فكتبوا إلى حبيب بن أبي عبيدة وهو يومئذ يتلمسان مواقف للبربر يشكون منه إليه وكان لآل عقبة بالمغرب وجهة لم تكن لغيرهم فكتب إليه حبيب ينهيه ويؤده فاعتذر كلثوم وأغضى له عليها ثم استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة وسار يؤم المغرب في جموعه وعلى مقدمته ابن أخيه بلج بن بشر القشيري فمر على طريق سبتة وانتهى إلى تلمسان فلقى حبيب بن أبي عبيدة فاقتتلا ثم اصطالحا وزحفا جميعاً إلى المغرب الأقصى فنهضت إليهم البربر وكان اللقاء على وادي سبو من أعمال طنجة وقال ابن خلدون في أخبار البربر إن الخليفة هشام ولي بن عياض على المغرب سنة ثلاث وعشرين ومائة سرحه في اثني عشر ألفاً من أهل الشام وكتب إلى ثعور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه فزحف إلى إفريقية ثم إلى المغرب حتى بلغ وادي سبو فيروز إليه خالد بن حميد الزناتي فيمن معه من البربر وكانوا خلفاً لا يحصون فلقوا كلثوم بن عياض بعد أن هزموا مقدمته فاشتد القتال بينهم وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة وكثير

من الجند واقتربت العساكر فمضى أهل الشام إلى الأندلس مع بلج بن بشر ومضى أهل مصر وإفريقية إلى القيروان وما ذكره أن خالد بن حميد هو الذي هزم جيوش كلثوم في هذه الواقعة هو مقتضى ما سبق من أن ميسرة قتل في ولاية عبيد الله بن الحجاب وجزم ابن حيان بأن الذي هزم جيوش كلثوم هو ميسرة الخفير واقتصر عليه ابن خلدون في أخبار بني فاتن قال انتهت مقدمة كلثوم بن عياض إلى سبة من أعمال طنجة فلقية البربر هنالك مع ميسرة وقد فحسوا عن أواسط رؤوسهم وتنادوا بشعار الخارجية فهزموا مقدمته ثم هزموه وقتلوه وكان كيدهم في لقاتهم إياه أن ملؤوا الشنان بالحجارة وربطوها في أنساب الخيل ثم أرسلوها في جيش العرب فكانت الحجارة تقعق في شنانها وخيل العرب تنفر حتى اختل مصافهم وتمت الهزيمة عليهم فافترقوا وذهب بلج مع الطلائع من أهل الشام إلى سبتة ورجع أهل مصر وإفريقية إلى القيروان وظهرت الخوارج في كل جهة واقتنع المغرب عن طاعة الخلفاء إلى أن هلك ميسرة وقام برياسة مضغرة من بعده يحيى بن حارث منهم اه كلام ابن خلدون فاضطرب النقل في هذه الواقعة كما ترى والله أعلم بالصواب قال ابن حيان إن كلثوم بن عياض لما انهزمت جيوشه نجا جريحا إلى سبتة في أهل الشام ومعه ابن أخيه بلج بن بشر بن عياض وحاصرهم البربر بها ولما اشتد حصارهم بسبتة وانقطعت عنهم الأقوات وبلغوا من الجهد الغاية استغاثوا بإخوانهم نم عرب الأندلس فقتلهم عنهم صاحبها عبد الملك بن قطن لخوفه على سلطانه منهم فلما شاع خبر ضررهم عند رجالات العرب اشفقوا عليهم فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين ميرة أمسكت من أرقامهم فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمئة سوط ثم اتهمه بعد ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمئة سوط ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه فسلم عينيه ثم ضرب سبعمئة سوط ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه فسلم عينيه ثم ضرب عنقه وصلب عن يساره كلباً واتفق في هذا الوقت أن برابرة الأندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابرة العنوة على العرب انتقضوا على العرب الأندلس

واقتدوا بما فعله إخوانهم بالمغرب وتطننوا لما كانوا غافلين عنه قبل ذلك من الخلاف على العرب ومزاحمتهم في سلطانه وأصل ذلك كله النزعة الخارجية فاستفحل أمرهم بالأندلس وكثر إيقاعهم بجيوش ابن قطن فخاف أن يلقى منهم ما لقيه العرب بالمغرب من إخوانهم وبلغه أنهم قد عزموا على قصده فلم ير أجدى له من الاستعداد بصعاليك عرب الشام أصحاب بلج الموترين بسبتة فكتب إلى بلج وقد مات عمه كلثوم فأسرعوا إلى إجابته وكانت تلك أمينتهم فأحسن إليهم وأسبغ النعمة عليهم وشطر عليهم أن يقيموا عنده سنة واحدة حتى إذا فرغوا له من البربر انصرفوا إلى مغربهم وخرجوا له عن أندلسه فرضوا بذلك وعاهدوه وأخذ منهم الرهائن عليه ثم قدم عليهم ابنه قطناً وأمياً والبربر في جموع لا يحصيها غير رازقها فاقتتلوا قتالاً صعباً فيه المقام إلى أن كانت الدبرة على البربر فقتلهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا فلهم بالثغور وخفوا عن العيون فكر الشاميون وقد امتلأت أيديهم من الغنائم فاشتدت شوكتهم وثابت همتهم ويطروا ونسوا العهود وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس فقتلوا عليه وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم بسبتة وقتله الرجل الي أغاثهم بالميرة فخلعوه وقدموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر وتبعه جند بن قطن وأغروه بقتله فأبى فثارت اليمانية وقالوا قد حميت لمضرك والله لا نطيعك فلما خاف تفرق الكلمة أمر بابن قطن فأخرج إليهم وهو شيخ كبير كفرخ نعاماً قد شهد وقعة الحرة بالمدينة فجعلوا يسبونهم ويقولون له أفلت من سيوفنا يوم الحرة ثم طالبتنا بتلك الترة فعرضتنا لأكل الكلاب والجلود وحبستنا بسبتة محبس الضنك حتى أمتنا جوعاً فقتلوه وصلبوه في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة وصلبوا عن يمينه خنزيراً صوعن يساره كلباً واستولى بلج على الأندلس وكانت خطوب يطول ذكرها والله ولي العون والتوفيق

ولاية حنظلة بن صفوان على المغرب لما سمع الخليفة هشام بما جرى على كلثوم وأصحابه قامت قيامته فوجه حنظلة بن صفوان الكلبى وهو أخو بشر بن صفوان المتقدم واليا على المغرب فقدم القيروان سنة أربع وعشرين ومائة فوجد هواراً وهم ولد هوار بن أوريج بن برنس خوارج على الدولة ورنيساهم عكاشة بن أيوب الفزازي وبعد الواحد بن زيد الهواري وكانا على مذهب الصفرية فلما استقر حنظلة بالقيروان لم يلبث إلا يسيراً حتى زحف إليه عكاشة وعبد الواحد في هوارة ون تبعهم من البربر فخرج إليهم حنظلة والتقوا على القرن من ظاهر القيروان فهزمهم بعد قتال صعب واستلحمهم وقتل عبد الواحد وأخذ عكاشة أسراً ولما جاء إليه بعكاشة في رتمه وبراس عبد الواحد سجد شكراً لله تعالى على ما منحه من الفتح وأمر بعكاشة فقتل وأحصيت القتلى ف بذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين ألفاً وكتب حنظلة بذلك إلى الخليفة هشام وسمعه الليث بن سعد فقال ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلي من غزوة القرن والأصنام ثم وجه حنظلة أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبى واليا من قبله على الأندلس واستقام أمره بها حيناً من الدهر ثم ثار عليه الصميل بن حاتم الكلبى وخلعه في خبر طويل

ولم يزل حنظلة على المغرب في أحسن حال إلى أن طرق الخلل الخلافة بالمشرق وخفت صوتها لما حدث في بني أمية من فتنة الوليد الفاسق وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان الحمار آخر خلفائهم وأفضى المر إلى الإذلة منهم ببني العباس فأجاز عبد الرحمن بن حبيب الفهري من الأندلس على المغرب وغلّب حنظلة عليه سنة ست وعشرين ومائة على ما نذكره ذكر صالح بن طريف البرغواطي المتنبى ومخترقته وفي هذا التاريخ كان ظهور صالح بن طريف البرغواطي الذي ادعى النبوة بتأمسنا من بلاد المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط فيما بين سلا

وأسفى وبرغواطة بطن من المصامدة على ما حققه ابن خلدون وكان أبوه طريف يكنى أبا صبيح وكان من قواد ميسرة الخفير القائم بدعوة الصفرية ولما انقضى أمر ميسرة بقي طريف قائما بأمر برغواطة بتأمنا ويقال إنه تنبأ أيضا وشرع لهم الشرائع ثم هلك وولى مكانه ابنه صالح هذا وقد كان شهد مع أبيه حروب ميسرة قال ابن خلدون وكان من أهل العلم والخير ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده وهي معروفة في كتب المؤرخين قال في القرطاس كان الضلال الذي شرع لهم أنهم يقرون بنبوته وأنهم يصومون شهر رجب ويأكلون شهر رمضان وفرض عليهم عشر صلوات خمسا بالليل وخمسا بالنهار وأن الأضحية واجبة على كل شخص في الحادي والعشرين من المحرم وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين وأمرهم أن لا يعتسلوا من جنابة إلا من حرام وصلاتهم غيماء لا سجود فيها لكنهم يسجدون في آخر ركعة خمس سجودات ويقولون عند تناول الطعام والشراب باسمك يا كساي وزعم أن تفسيره بسم الله وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما يشاء ولا يتزوج من بنات عمه ويطلقون ويراجعون ألف مرة في اليوم فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك وأمرهم بقتل السارق حيث وجد وزعم أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف وأن الدية تكون من البقر وحرّم عليهم رأس كل حيوان والدجاجة مكروه أكلها وقدمتهم في الأوقات النيكة وحرّم عليهم ذبحها وأكلها ومن ذبح ديكا أو أكله أعتق رقبة وأمرهم أن يلحسوا بصاق ذبحها وأكلها ومن ذبح ديكا أو أكله أعتق رقبة وأمرهم أن يلحسوا بصاق ولاتهم على سبيل التبرك فكان يبصق في أكفهم فيلحسونه ويحملونه إلى مرضاهم يستشفون به ووضع لهم قرآنا يقرؤونه في صلواتهم ويتلونه في مساجدهم وزعم أنه نزل عليه وأنه وحى من الله تعالى إليه ومن شك في ذلك فهو كافر والقرآن الذي شرع لهم ثمانون سورة سماها لهم بأسماء النبيين وغيرهم منها سورة آدم وسورة نوح وسورة فرعون وسورة موسى وسورة هاروت وماروت وسورة بني إسرائيل وسورة الأسباط وسورة أيوب وسورة يونس وسورة الجمل وسورة الديك وسورة الحجل وسورة الجراد وسورة هاروت وماروت وسورة إبليس وسورة الحشر وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم حرم فيها وحل وشرع وفصل وتسمى فيهم بصالح المؤمنين وقال أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه الذي أنزله على محمد حكاة البكري عن زمو بن صالح الوافد منهم على الحكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم يومئذ أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة وكان يترجم عنه بجميع خبره داود بن عمر المسطاسي قال وكان ظهور صالح هذا في خلافة هشام بن عبد الملك سنة سبع وعشرين ومائة وقد قيل إن ظهوره كان لأول الهجرة وأنه انتحل ذلك عنادا ومحاكاة لما بلغه من شأن النبي والأول أصح ثم زعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان وأن عيسى يكون صاحبه ويصلي خلفه وأن اسمه في اللسان العربي صالح وفي السرياني مالك وفي العجمي عالم وفي العبراني روبيل وفي البربري واربا ومعناه الذي ليس بعده نبي ثم خرج إلى المشرق بعد أن ملكهم سبعا وأربعين سنة ووعدهم أنه يرجع إليهم في نواة السابع منهم وأوصى بنيه بالتمسك بدينه فتوارثوا ضلاله من بعده إلى أواسط المائة الخامسة وكان للدول فيهم ملاحم إلى أن جاءت دولة المرابطين فمحو أثر بدعتهم وسنعيد القول فيهم بأبسط من هذا عند الوصول إليها إن شاء الله الخبر عن تغليب آل عقبة بن نافع على المغرب وولاية عبد الرحمن بن حبيب منهم كان عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه واليا على المغرب كما مر وهو الذي افتتح الأقصى منه ولما استشهد بالزاب بقي بنوه به فكانت لهم وجهة معروفة بين أهله لمكان أبيهم عقبة من جهاد العدو وما فتح الله على يده من الأقطار واختطاطه مدينة القيروان إلى هي كرسي الإمارة فكان ما منح الله أهل المغرب من الإسلام والدين كله في صحيفته فنالوا بذلك شرفا خاصا زيادة على شرف القرشية وعز الفهرية فكان يكون لهم الشفوف في بعض الأحيان حتى على الولاة فضلا عن غيرهم وقد تقدم لنا في اخبار موسى بن نصير أنه استعمل ابنه عبد العزيز على الأندلس فثار عليه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع وقتله بإغراء سليمان بن عبد الملك وتقدم أيضا ما كان منه إلى كلثوم بن عياض عند قدومه القيروان من التوعد حتى أدى ذلك إلى مقاتلتها ولما قتل أصحاب بلج الملك بن قطن الفهري وصلبوه كما مر فارقهم الترجمة في جملة أصحاب بلج الناجين إلى سبته ولما قتل أصحاب بلج الملك بن قطن الفهري وصلبوه كما مر فارقهم عبد الرحمن هذا لما صنعوا بابن عنه وعزم على الطلب بدمه فاجتمع إليه نحو مائة ألف من عرب الأندلس وبربرها وعمد إلى بلج فقتله في خبر طويل ثم حاول عبد الرحمن التغلب على الأندلس فلما قدم أبو الخطار واليا عليها من قبل حنظلة بن صفوان أيس منها وركب البحر إلى المغرب فاحتل بتونس في جمادى الأولى سنة ست وعشرين ومائة وقد توفي هشام وولى الخلافة بعده الوليد بن يزيد الفاسق فدعا عبد الرحمن أهل تونس إلى نفسه فأجابوه وبلغ ذلك حنظلة صاحب القيروان فكره قتال المسلمين وسفك دماهم فبعث إليه جماعة من وجوه الجند يدعونه إلى الطاعة فلما وصلوا إليه انتهز الفرصة وأوثقهم في الحديد وأقبل بهم إلى القيروان فيمن اجتمع إليه وأرسل إلى أوليائهم يحذرهم قتاله ويقول إن رميتم ولو بحجرة قتلت من في يدي فأحجموا عنه ضنا بأشرافهم عن القتل وعلم بذلك حنظلة فارتحل إلى المشرق سنة سبع وعشرين ومائة ودخل عبد الرحمن القيروان فتمكن منها واستولى على المغرب وهو أول من تغلب عليه قالوا ولما ولي مروان بن محمد المعروف بالحمار الخلافة بعث إليه بعهد وكان أمر البربر يومئذ قد تقافم وداء الخارجية قد أعزل ورؤسها قد نبغت في كل جهة فانتقضوا من أطراف البقاع وتواثبوا على المر بك لمكان داعين إلى بدعتهم وتولى كبر ذلك منهم صنهجة فإبهم النفا على كبيرهم ثابت الصنهاجي واغلبوا على باجة وثارت هوارة بطرابلس ملتقين على رئيسهم عبد الجبار والحراث وغير هؤلاء وكانوا على مذهب الإباضية فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيسي لما خرج يدعوهم إلى السلم وعظم الخطب فزحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين ومائة فظفر بالصنهاجي والهوارى وقتلها وقل جموعهما ثم زحف إلى عروة بن الوليد الصفري وكان قد ثار بتونس فقتله واستأصل الثوار وانقطع أمر الخوارج من إفريقية ثم زحف سنة خمس وثلاثين ومائة إلى جموع من البربر وكانوا قد تجمعوا بنواحي تلمسان فظفر بهم وقل جمعهم ورجع ثم أغزى جيشا في البحر إلى صقلية وآخر إلى سردانية فأثخنوا في أمم الفرنج حتى أدعنوا للجزية ودوخ عبد الرحمن أرض المغرب وأذل المعاندين إلى أن كان ما نذكره وأما أهل الأندلس فإنهم كانوا قد خلعوا أبا الخطار وولوا عليهم ثوبة بن سلامة الجذامي قالوا ابن شكوال لما اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب فكتب إليه بعهد وذلك سلخ رجب سنة سبع وعشرين ومائة فضبط البلاد واستمر واليا سنتين أو نحوهما ثم هلك وولى أهل الأندلس عليهم يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب وهو ابن صاحب الترجمة ذكر الرازي أن مولده كان بالقيروان وأنه لما استولى أبوه على المغرب خرج يوسف هذا مغاضبا له لأمر اقتضى ذلك فقدم الأندلس واستوطنها وساد بها فأقامه أهلها واليا عليهم بعد أميرهم ثوبة وقد مكثوا فوضى أربعة أشهر وكان اجتماعهم عليه بإشارة الصميل بن حاتم الكلابي فاستبد يوسف بالأندلس وضبطها إلى أن دخل عليه عبد الرحمن بن معاوية الأموي المعروف بالداخل فانتزعها منه وأورثها بنيه كما سيأتي بخول عبد الرحمن الأموي إلى إفريقية وجوازه إلى الأندلس وتأسيسه للدولة الأموية لها ولما اسقر قدم الدولة العباسية بالمشرق وانقضى أمر بني أمية سنة اثنتين وثلاثين ومائة وذهبوا فيكل وجه أفلت عبد الرحمن بن معاوية هذا وقصد المغرب فاجتاز بالقيروان وبها عبد الرحمن بن حبيب صاحب الترجمة فارتاب به وعزم على قتله فنجا الأموي إلى الأندلس وكان من أمره ما كان ذكر ابن حبان أن عبد الرحمن بن معاوية الأموي سار حتى أتى إفريقية فنزلها وقد سبقه إليها جماعة من فل بني أمية وكان عند صاحبها عبد الرحمن بن حبيب يهودي حدثاني قد صحب مسلمة بن عبد الملك فكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي وملكه الأندلس ويرثها عقبه من بعده وأن اسمه عبد الحمى وهو ذو صغيرتين ومن بيت الملك فاتخذ الفهري صغيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية فلما جيء إليه بعبد الرحمن الأموي ورأى صغيرتيه قال لليهودي هو هذا وأنا قاتله فقال له اليهودي إن قتلته فما هو ه وإن غلبت عليه فإنه لهو وثقل فل بني أمية على ابن حبيب فطرد كثيرا منهم خوفا على ملكه ثم تجنى على ابنين للوليد بن يزيد كان قد استجار به فقتلها وأخذ مالا كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان وغلبه على أخته فتزوجها غصبا وطلب عبد الرحمن بن حبيب من الأندلس فاختفى كذا لابن حبان وعند ابن خلدون أن الأخت المذكورة زوجها عبد الرحمن من أخيه إلياس بن حبيب ولما قتل ابن عمها امتعضت لذلك وأغرت زوجها واستفسدته على أخيه حتى قتله كما نذكر وذلك أنه لما انتظم أمر الدولة العباسية بالمشرق وبويع السفاح ثم المنصور بعده كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعو إلى الطاعة والبيعة فأجابوه ودعا له وبعث إليه

بهديّة فيها بزاة وكلاب وذهب قليل وذكر أن أفريقية اليوم إسلامية وقد انقطع السبي فغضب المنصور وكتب إليه يتوعده وبعث إليه مع ذلك بخلعه الإمارة فزاع عبد الرحمن يده من الطاعة ومزق الخلعة على المنبر فوجد أخوه إلياس بذلك السبيل إلى ما كان يحاوله عليه ودخل وجوه الجند في الفتك به وإعادة الدعوة للخليفة المنصور ومالاه على ذلك أخوه عبد الوارث بن حبيب وأحس عبد الرحمن منهما بالشر فأمر إلياس بالمسير إلى تونس

فأظهر الامتثال ثم جاء ليودعه ومعه عبد الوارث وكان عبد الرحمن مريضا فدخل عليه وقتله على فراشه آخر سنة سبع وثلاثين ومائة لعشر سنين وسبعة أشهر من تغلبه على المغرب استيلاء إلياس بن حبيب على المغرب لما فتك إلياس بأخيه عبد الرحمن معتدا عليه بخلعه طاعة الخليفة فر ابنه حبيب بن عبد الرحمن إلى تونس بعد أن طلبوه وضبطوا أبواب القصر ليأخذوه فلم يظفروا به وكان عمه عمران بن حبيب واليا بتونس من قبل أبيه فلحق به وتم الأمر لإلياس واستولى على القيروان ثم زحف إليه عمران وحبيب فيمن اجتمع إليهما وخرج إلياس للقائهم فالتقوا واقتتلوا مليا ثم اصطالحوا على أن يكون لحبيب قصبة وقسطيلة وسائر بلاد الجريد ولعمران تونس وسطفورة والجزيرة وإلياس القيروان وسائر أفريقية والمغرب وتم هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة وسار حبيب إلى عمله من بلاد الجريد وارتحل إلياس مع أخيه عمران إلى تونس ولما وصلا إليها غدر إلياس بعمران فقتله وقتل جماعة من الأشراف معه وقيل غربه إلى الأندلس وعاد هو إلى القيروان فبعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع قاضي إفريقية عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وصفا له أمر المغرب وثقل عليه مكان حبيب فاحتال عليه حتى أركبه البحر إلى الأندلس وأركب معه أخاه عبد الوارث فردهم قاصف من الريح إلى طبرقة وكتبوا بخبرهم إلى إلياس

فلج في طردهم وتسامعت موالى عبد الرحمن وشيعته بابن مولاهم فتسارعوا إليه وانزلوه من السفين والتقوا عليه وزحفوا به إلى تونس فملكوها وخرج إلياس لقتالهم فخالقوه إلى القيروان وملكوها عليه وفتقوا السجون فرجع إلياس لقتالهم وقد فر أكثر من معه إلى حبيب ولما تراءى الجمعان حول القيروان برز حبيب فنادى يا عم لم تقتل أوليائنا وضائعنا وهم جنتنا فلهم للبراز فأبنا غلب ملك فصاح الجيوشان بتصويب رأيه فيرزا وتضاربا حتى عجب الناس من صبرهما ثم قتل حبيب إلياس ودخل القيروان فملكها آخر سنة ثمان وثلاثين ومائة فكانت ولاية إلياس نحو سنة ونصف وفي هذه السنة استولى عبد الرحمن بن معاوية الأموي على جزيرة الأندلس انتزعها من يد أميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري وهو أخو حبيب المذكور أنفا قال ابن حيان كان تغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك بقرطبة يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة واستقام أمره بالأندلس وبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قيل تمامه ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور العباسي ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالأندلس وأثل بها الملك العظيم لبني مروان وخرجت الأندلس من يومئذ عن نظر صاحب القيروان بل وعن نظر الخليفة بالمشرق والله غالب على أمره

استيلاء حبيب بن عبد الرحمن على المغرب وفتنة عاصم بن جميل المنتنئ ومقتله لما قتل حبيب بن عبد الرحمن عمه إلياس وتمكن من القيروان طلب عمه عبد الوارث لمشاركته في دم أبيه كما مر ففر عبد الوارث إلى ورفجومة إحدى بطون نفزاو بن لوي من البرابرة البتر فنزل على كبيرهم عاصم بن جميل وكان كاهنا يدعي النبوة فأجاره ثم نهض إليهم حبيب فاقفوا به وهزموه إلى قابس واستفحل أمر عاصم وشايعه على شأنه من رجالات نفزاوة عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي ويزيد بن سكوم الولهاسي وكانا على رأي الإباضية وانضمت إليهم سائر نفزاوة واشتدت شوكتهم وكان قيامهم أولا بدعوة الخليفة المنصور ولما بقي أهل القيروان فوضى بسبب فرار أميرهم إلى قابس كتب من بها من العرب إلى عاصم هذا يدعونهم للقدوم عليهم والقيام بأمرهم بشرط الدعاء للمنصور فأتى وقتالهم فهزموهم ودخل القيروان عنوة واستباح أهلها وخرب مساجدها واهانها ثم سار إلى حبيب بقابس بعد أن استخلف على القيروان ومن بقي بها من نفزاوة عبد الملك ابن أبي الجعد فقاتل حبيبا وهزمه فلحق حبيب بجبل أورابن وأجاره أهله ثم زحف إليهم عاصم فهزموه وقتلوه واستلحموا جماعة من أصحابه وقام بأمر ورفجومة والقيروان من بعده عبد الملك بن أبي الجعد وأهل القيروان أثناء هذا كله في غاية المذلة والهوان مع البربر ثم زحف حبيب إلى القيروان فبرز إليه عبد الملك وهزم حبيبا وقتله في المحرم سنة أربعين ومائة فكانت ولايته نحو ثلاث سنين وانقرض بمقتله أمر آل عقبة من المغرب والبقاء لله وحده

استيلاء عبد الملك بن أبي الجعد على المغرب لما قتل عبد الملك بن أبي الجعد الورنجومي حبيب بن عبد الرحمن الفهري رجع في جموع البربر إلى القيروان فملكها وأمر أمر ورفجومة واستطالوا على أهل القيروان وقتلوا من بها من قريش وسائر العرب حيث وجدوا وعاملوهم معاملة المكناسيين لآل إدريس واستحلوا من الحرمات ما لم يستحله عاصم بن جميل قبلهم حتى لقد ربطوا دوابهم بالمسجد الجامع واشتد البلاء على أهل القيروان واقترفوا في النواحي فرارا بأنفسهم وشاع خبرهم في الأفق فحينئذ قام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح الغافري من رجالات العرب وكان على رأي الإباضية بأحواز طرابلس منكرا لفضل ورفجومة ومغيرا عليهم حسبما نذكر استيلاء عبد الأعلى بن السمح على المغرب وظهور الصفرية من آل مدرار المكناسيين وبنواهم مدينة سجلماسة كان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافر يمين وجوه العرب وكان على رأي الإباضية كما قتلا ولما بلغ ما ارتكبته ورفجومة من أهل القيروان امتعض لذلك وقام محتسبا عليهم وشايعه على ذلك برابرة طرابلس وتولى كبر ذلك هواره إحدى بطون أوربغة من البرانس فاجتمعوا إليه وتقدم بهم إلى طرابلس فملكها ثم زحف إلى القيروان سنة إحدى وأربعين ومائة فخرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد في جموعة فانخزل عنه أهل القيروان لما نالهم من عسفه وعسف قومه فانهزم وقتل واستولى أبو الخطاب على القيروان وأخضع في جموع عبد الملك من

ورفجومة وسائر نفزاوى ثم ولى على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي وهو من أبناء رستم أمير الفرس يوم القادسية كان عبد الرحمن هذا من موالى العرب ومن رؤوس هذه البدعة فاستخلفه أبو الخطاب على القيروان ورجع هو إلى طرابلس للقاء العساكر القادمة من جهة الخليفة المنصور على ما نذكره ولما حصل هذا الاضطراب بالمغرب اجتمعت الصفرية من مكناسة بناحية المغرب الأقصى فنقضوا طاعة العرب وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالى العرب ورؤوس الخوارج واختلطوا مدينة سجلماسة سنة أربعين ومائة من الهجرة ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية فيدينهم واقتنعوا سجلماسة وأعمالها عن نظر الولاة بالقيروان ومن هذا الاجتماع نشأت دولة بني مدرار أميرا عليهم نحو خمس عشرة سنة ثم سخطوا إمرته ونقموا عليه بعض أحواله فعمدوا إليه وأوثقوه كتفا ووضعوه على قنة حبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين ومائة واجتمعوا بعده على كبيرهم أبي القاسم بن سمو بن واسول المكناسي الصفرى كان أبوه سمو من حملة العلم ارتحل إلى المدينة فأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس قاله عريب بن حميد القرطبي في تاريخه وكان عكرمة بربري لأصل كما عند ابن خلكان قال وقد تكلم الناس فيه لأنه

كان يرى رأي الخوارج وكان أبو القاسم المذكور صاحب ماسية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد وحمل قومه على طاعته فلما خلعوا عيسى بايعوا أبا القاسم من بعده وقام بأمرهم إلى أن هلك سنة سبع وستين سنة وكان يخطب في عمله للمنصور ثم للمهدي من بني العباس ولما هلك ولوا عليهم ابنه إلياس بن أبي القاسم وكان يدعى بالوزير ثم انتفضوا عليه سنة أربع وسبعين ومائة فخلعوه وولوا مكانه أخاه اليسع بن أبي القاسم وكنيته أبو منصور وكان صفرىا وعلى عهده استنقل ملكهم بسجلماسة وهو الذي أدار سورها وأتم بناءها واخطب بها المصانع والقصور وانتقل إليها آخر المائة الثانية وهلك سنة ثمان ومائتين وولى بعده ابنه مدرار ولقبه المنصر وطالت مدته وكان له ولدان كل منهما اسمه ميمون أحدهما لأروى بنت عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت والآخر لبغي وكان يعرف بالأمير فتتازعا وتداولوا الأمر بينهما استبداده إلى أن هلك سنة ثلاث وستين ومائتين وولى ابنه محمد بن ميمون وكان إباضيا وتوفي سنة سبعين ومائتين فولى اليسع بن المنصر وفي أيامه قدم عبيد الله المهدي أول خلفاء لعبيديين من الشيعة وابنه أبو القاسم من المشرق فدخل سجلماسة متنكرين وكان الخليفة المعتض بالله العباسي قد أوعز إلى اليسع هذا بالقبض

عليهما فقبض عليهما وأودعهما السجن إلى أن افتكهما مقيم تولتهما أبو عبد الله الشيعي المعروف بالاحتساب فإنه اقتحم سجنهما في خبر معروف وأخرج عبيد الله وابنه من السجن وقتل اليسع سنة ست وسبعين ومائتين

ثم بايع أهل سجلماسة من بعده الفتح بن ميمون الأمير وكان أباضيا وهلك على رأس المائة الرابعة فولى أخوه أحمد بن ميمون الأمير واستنقلم أمره إلى أن زحف مصاللة بن حبوس الكتامي قائد الشيعة العبيديين في جموع كتامة إلى المغرب الأقصى سنة تسع وثلاثمائة فدوخه وأخذ أهله بدعوة صاحبه عبيد الله بن المهدي وافتتح سجلماسة وتقبض على صاحبها أحمد بن ميمون الأمير ثم ولى عليها من قبله محمد بن بسادر بن مدرار فلم يلبث أن استبد على الشيعة وتلقب بالمعز وهلك سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وولى ابنه المنتصر محمد بن المعز فمكث عشرا وهلك وولى ابنه المنتصر سمكو شهرين وكانت جدته تدبر أمره لصغره ثم ثار عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون الأمير ورفض الخارجية ونادى بالدعوة العباسية وأخذ بمذهب أهل السنة وتلقب بالشاكر الله واتخذ السكة باسمه فكانت تسمى بالدراهم الشاكرية قال ابن حزم وكان في غاية العدل وكانت سكتة في غاية الطيب واستمر إلى أن زحف جوهر الكاتب قائد المعز العبيدي في جموع صنهاجة وكتامة إلى المغرب الأقصى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فغلب على سجلماسة وفر عنها محمد بن الفتح إلى حصن تسكرات على أميال منها ثم دخل سجلماسة منتكرا فعرفه رجل من مضغرة وأعلم به جوهر فقبض عليه وساقه أسيرا مع أحمد بن أبي بكر الزناتي صاحب فاس إلى المهدي كما نذكره ثم لما انتقض المغرب على الشيعة وأخذ زناته بطاعة الحكم المستنصر صاحب الأندلس ثار بسجلماسة قائم من ولد الشاكر الله وتلقب بالمنتصر

بأخيه ثم وثب عليه أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة فقتله وقام بالأمر وتلقب بالمعز بالله وأقام على ذلك مد وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال وأمر زناته قد استقل بالمغرب إلى أن زحف خزرون بن فلول الزناتي ثم المغرواوي إلى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة فبرز إليه أبو محمد المعز فهزم خزرون وقتله واستولى على بلده وذخيرته وبعث برأسه إلى قرطبة وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر المستبد على بني أمية بالأندلس وانقرض أمر بني مدرار والبقاء لله وقد لخصنا هذه الدولة الدرارية من كتاب العبر وسردناها هنا استطرادا ثم نعود إلى موضوعنا الذي كنا فيه وبالله التوفيق ولاية محمد بن الأشعث على المغرب لما ارتكبت ورفجومة من أهل القيروان ما ارتكبه وقد جماعة من رجالات العرب بها على الخليفة المنصور واستصرخوه على الخوارج وشكروا إليه تسليقهم على كرسي الإمارة بالقيروان فوجه المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي واليا على مصر وأمره باستنفاذ إفريقية من البربر فوجه محمد بن الأشعث أبا الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي سنة اثنتين وأربعين ومائة فخرج إليه أبو الخطاب المعافري وهزمه بسرت قريبا من طرابلس واستولى على عسكره ورجع أبو الأحوص مقلولا إلى مصر فكتب المنصور إلى ابن الأشعث

بأمره بالمسير إلى المغرب بنفسه فسار إليه في أربعين ألفا ومعه الأغلب بن سالم التميمي فلقبهم أبو الخطاب بسرت أيضا فأوقع به ابن الأشعث وقتله واستلحم جموعه وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكانه من القيروان فاحتمل أهله وولده ولحق باباضية المغرب الأوسط ونزل على لماية بطن من بني فاتن بن تامصيت بن ضرى من البتر لحف كان بينه وبينهم فالتقوا عليه وبيعوا له بالخلافة وتفاوضوا في بناء مدينة تكون كرسيا لإمارتهم شأن الصفرية من بني مدرار فشرعوا في بناء مدينة تاهرت سنة أربع وأربعين ومائة فعمرت واتسعت خطتها وتواتها بنو رستم واقتنعوها عن نظر ولاة المغرب وكان يسلم عليهم بالخلافة على ما هو المعروف من ذهب الخوارج إلى أن انقضت دولتهم على يد العبيديين وأخر المائة الثالثة وأما ابن الأشعث فإنه استقر بالقيروان غرة جمادى الأولى سنة أربع وأربعين ومائة وشرع في بناء سورها في ذي القعدة من السنة اتم في رجب سنة ست وأربعين ومائة وضبط المغرب أحسن ضبط وافتتح طرابلس واستعمل عليها المخارق بن غفار الطائي وعلى طينة والزاب الأغلب بن سالم وخافه البربر ثم ثار عليه عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني أحد الجند في جماعة من قواد مضر ونفوه عن القيروان فقتل إلى المشرق ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة فكانت ولايته نحو أربع سنين

ولاية الأغلب بن سام التميمي على المغرب لما قفل ابن الأشعث إلى المشرق ولى جند مضر عليهم عيسى بن موسى الخراساني واتصل بالمنصور ما فعله قواد مضر من ذلك فبعث إلى الأغلب بن سالم التميمي ثم السعدي بعهد على المغرب والأغلب هذا هو جد الأغلبية ملوك أفريقية من بعده على المغرب والأغلب هذا هو جد الأغلبية ملوك أفريقية من بعده وكان من نوي الشجاعة والرأي ومن صحاب أبي مسلم بخراسان فدخل المغرب مع ابن الأشعث واستعمله على طينة كما مر فلما وافته عهد الخليفة أواخر جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين ومائة انتقل إلى القيروان وأمنها واستقام أمره ثم خرج عليه أبو قررة بن دوناس اليفرنى المغيلي من الصفرية والتفت عليه زناته بجهة تلمسان وبيعوا له بالخلافة واستفحل أمره فزحف إليه الأغلب فلما دنا منه فر أبو قررة إلى المغرب الأقصى فلم يقف إلا بطنجة وانتهى الأغلب إلى الزاب ثم عاد إلى القيروان فعد أبو قررة إلى وطنه من تلمسان وفي سنة خمسين ومائة خرج الأغلب لقتال الصفرية فتناقل عنه طائفة من الجند ولما أوغل في طلب الصفرية ثار عليه الحسن بن حرب الكندي وكان يتونس ولحق به المتناقلون من الجند وكان تناقلهم على الأغلب بمكاتبة الحسن إياهم في ذلك فأقبل بهم إلى القيروان واستولى عليها ولحق الأغلب بقباس وكتب الحسن يرغبه في الطاعة فلم يقبل ثم وافى كتاب المنصور يدعو الحسن إلى الطاعة فأبى فصمد إليه الأغلب واقتتلا فانهزم الحسن وفر إلى تونس وجمع الجموع ورجع فخرج إليه وقاتلها فانهزم الحسن وفر إلى تونس وجمع الجموع ورجع فخرج إليه الأغلب فاصابه سهم فقتله فقدم أصحابه عليهم المخارق بن غفار الطائي الذي كان على طرابلس وحملوا على الحسن فانهزم أمامهم إلى تونس ثم لحق بكتامة وخيل المخارق في اتباعه ثم رجع إلى تونس بعد شهرين فقتله الجند

وقيل إن أصحاب الأغلب قتلوه في الوقت الذي فيه الأغلب وكان مقتل الأغلب في شعبان سنة خمسين ومائة وقام بأمر إفريقية المخارق بن غفار إلى أن كان ما نذكره ولاية عمر بن حفص هزارمرد على المغرب لما بلغ الخليفة المنثور مقتل الأغلب بن سالم وجه مكانه عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب بن أبي صفرة فقدم القيروان في خمسمائة فارس سنة إحدى وخمسين ومائة فاستقامت أموره ثلاث سنين ثم خرج إلى طينة فدارة السور عليها واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبى فثار البربر بإفريقية لما علموا من بعد الحامية عنها وغلبوا على من كان بها وزحفوا إلى القيروان فخرج إليهم حبيب فهزمه وقتلوه وثار البربر الإباضية بطرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن لبيب المغيلي مولى كندة وتسامعت به خوارج المغرب فانقضوا من كل ناحية ونبتت رؤوس الفتنة من كل وجه وعادت هيف إلى أديانها وكانت هذه الفتنة هي زيدة الفتن التي مخضتها الخوارج بالمغرب من لدن ميسرة الخفير إلى الآن فإنهم زحفوا إلى عمر بن حفص وهو بطينة من ارض الزاب في اثني عشر عسكريا فكان منهم أبو قررة اليفرنى من أربعين ألفا من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت في خمسة عشر ألفا من الإباضية والمسور بن هاني الزناتي في عشرة آلاف من الإباضية أيضا وعبد الملك بن سكريد الصنهاجي في الفين من صنهاجة الصفرية وجرير بن مسعود المديوني فيمن تبعه من مديونة وانضم إليهم غير هؤلاء من خوارج هواره وزناته ممن لا يحصى كثرة ولما اشتد الحصار على عمر بن حفص أعمل الحيلة في إيقاع الخلاف

بينهم ودافعهم بالموال وأرسل إلى أبي قررة على يد ابنه أبي نور أن يعطيه أربعين ألفا ولابنه أربعة آلاف على أن يرتحل عنه فقبل وارتحل بقومه وانقض البربر عن طينته ثم سار أبو حاتم يعقوب بن لبيب إلى القيروان وحاصرها ثمانية أشهر حتى أكل أهلها الميتة ولما اشتد الحصار على أهل القيروان خرج عمر بن حفص من طينة يريد أبا حاتم الإباضية الذين معه وبلغ أبا حاتم وأصحابه وهم محاصرون للقيروان مسير عمر بن حفص إليهم فساروا لقاتله فمال هو من الأريس إلى تونس ثم جاء إلى القيروان فدخلها واستعد للحصار وشحنها بالاقوات والرجال وأتبعه أبو حاتم والبربر وأبو قررة معهم في قومه وكانوا في ثلاثمائة وخمسين ألفا الخيل منهم خمسة وثمانون ألفا والباقي رجالة وأحاطوا بالقيروان وعمر بن حفص داخلها وطال الحصار ثم بلغه الخبر أن المنصور وجه لاستفادة ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى فأنف من ذلك وقال لا خير في الحياة بعد أن يقال يزيد أخرجه من الحصار إنما هي رقدة ثم ابعت إلى الحساب وخرج عمر فقاتل حتى قتل أواسط حجة سنة أربع وخمسين ومائة وكان عمر

هذا بطلا سما بلقب هزارد و هو لفظ فارسي معناه ألف رجل ثم ولى الناس عليهم أخاه لأمه حميد بن صخر وانقضى الحصار وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان وتلم سورها وخرج أكثر الجند إلى طبنة ودخل أبو حاتم القيروان فاستولى عليها ويقال إن ابن صخر وادعه على ما أحب والله تعالى أعلم

ولاية يزيد بن حاتم على المغرب لما بلغ المنصور انتفاض إفريقية على عمر بن حفص وحصاره بطبنة أولا ثم بالقيروان ثانيا بعث إليه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة في ستين ألفا وبلغ خبره عمر بن حفص فحملة ذلك على الاستماتة كما تقدم وبلغ أبا حاتم وهو بالقيروان مسير يزيد بن حاتم إليه فخرج للقائه فلقه يزيد بن حاتم بنواحي طرابلس واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم البربر وقتل أبو حاتم في ثلاثين ألفا من أصحابه وتتبعه يزيد بالقتل طلبا بدم عمر بن حفص ثم ارتحل إلى القيروان فدخلها يوم الاثنين لعشر مضت من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائة فمهدا ورتب أسواقها وأفرد لكل صناعة مكانا وجدد بناء جامعها وضبط الأمور أحسن ضبط وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري مع أبي حاتم فلحق بكتام فبعث يزيد في طلبه المخارق بن غفار فحاصره ثمانية أشهر ثم غلب عليه فقتل جماعة ممن معه وهرب الباقون في كل ناحية ونجا هو إلى الأندلس وبعث يزيد المخارق أيضا على الزاب فنزل وأثنى في البربر وأوقع بهم وقائع عظيمة وكانت حروب الخوارج مع العرب منذ انتفضوا على عمر بن حفص إلى انقضائها ثلاثمائة وخمسا وسبعين حربا قاله ابن خلدون ثم انتفضت ورفجومة سنة سبع وخمسين وولوا عليهم رجلا اسمه أبو زرغونة فسرح إليهم يزيد بن حاتم من عشيرته يزيد بن مجزاة المهلبى فهزمه واستأذنه ابنه المهلب وكان عل الزاب وطبنة في الزحف إلى

ورفجومة فاذن له وأمه بالعلاء بن سعيد بن مروان المهلبى من عشيرتهم أيضا فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل وانتفضت نفاوة من بعد ذلك في سلطنة ابنه داود بن يزيد فاستأصلهم قتلا أيضا فركنت ربح الخوارج من البربر وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال قال ابن خلدون لم يزل أمر الخوارج بالمغرب يعني أيام يزيد هذا في تناقض إلى أن اضمحلت ديانتهم وافتقرت جماعتهم وبقيت آثار نحلتهم في أعقاب البربر الذين دانوا بها في صدر الإسلام ففي بلاد زناتة بالصحراء منها أثر باق لهذا العهد وكذلك في جبال طرابلس أثر باق من تلك النحلة والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء واستمر يزيد بن حاتم ضابطا لأمر إفريقية والمغرب إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة سبعين ومائة في خلافة هارون الرشيد العباسي فكانت ولايته خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وولى الناس عليهم ابنه داود إلى أن كان ما تذكره وكان يزيد رحمه الله من السحاء الأمجاد والفضلاء وكل بني المهلب كذلك وبهم ضرب المثل أبو محمد الحريري في المقامات إذ قال وصار الأدب أعلق بي من الهوى ببني عذرة والشجاعة بال أبي صفرة وقال الشاعر الحماسي نزلت على آل المهلب شاتيا بعيدا عن الأوطان في الزمن المحل فما زال بي معروفهم واقفادهم وبرهم حتى حسبتهم أهلي فأما يزيد هذا من بينهم فعاله في الشجاعة وجودة الرأي كما رأيت وأما الجود والسخاء فهو فيهما المثل السائر كان ربيع بن ثابت الرق الشاعر مدح يزيد بن أسيد بالتصغير السلمي وهو وال على أرمينية فقصر في حقه ثم مدح يزيد بن حاتم فبالغ في الإحسان إليه فقال ربيعة من قصيدة لثنتان ما بي الزبيدي في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم يزيد سليم سالم المال والفتى قى الأزدي للاموال غير مسالم

فهم أفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جميع الدراهم ولاية روح بن حاتم على المغرب ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم وكان أخوه روح واليا على فلسطين وكان أسن من يزيد استقدمه وعزاه في أخيه وولاه على المغرب فقدم القيروان منتصف سنة إحدى وسبعين ومائة وكان يزيد قبلة قد أذل الخوارج ومهد البلاد كما قلنا فكانت أرض المغرب ساكنة أيام روح ورغب في موادعته عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت فوادعه قال ابن خلدون وفي أيام روح انخفضت شوكة البربر واستكانوا للغلب وطاعوا للدين فضر ب الإسلام بجرانه وألقت الدولة المضربة على البربر بكلها اه كلام ابن خلدون وفي أيام روح أيضا اجتاز الإمام إدريس بن عبد الله ببلاد مصر وإفريقية ناجيا من وقعة فخ التي كانت بمكة لآل العباس على آل علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ودخل مدينة وليلي من المغرب الأقصى سنة اثنتين وسبعين ومائة كما سبأني إن شاء الله قال ابن خلكان كان روح بن حاتم من الكرماء الأجواد وولي لخمسة من الخلفاء السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد ويقال إنه لم يتفق مثل هذا إلا لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه فإنه ولى لرسول الله الأربعة رضي الله عنهم قال وكان روح واليا على السنند ولاء عليها المهدي بن المنصور فلما مات أخوه يزيد بالقيروان ودفن بباب سلم قال أهل إفريقية ما أبعد ما يكون بين قري هذين الأخوين فإن أخاه بالسنند وهذا هنا فاتفق أن الرشيد عزل روحا عن السنند وسيره إلى موضع أخيه يزيد فدخل إفريقية أول رجب سنة إحدى وسبعين ومائة ولم يزل واليا بها إلى أن توفي بها لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربع وسبعين ومائة ودفن مع أخيه يزيد في قبر واحد ففجبت الناس من هذا الاتفاق بعد ذلك التباعد رحمهما الله ثم ولى المغرب من قبل الرشيد حبيب بن نصر المهلبى ثم عزله سنة سبع وسبعين ومائة وولى على المغرب الفضل بن روح بن حاتم وقتله عبد الله بن الجارود منتصف سنة ثمان وسبعين ومائة وانقضت بانقراض دولة آل المهلب من المغرب ثم ولى الرشيد على المغرب هرثمة بن أعين فبنى القصر الكبير بالمنستير وبنى السور على طرابلس من جهة البحر ولما رأى هرثمة ما بالمغرب من كثرة الثوار والخلاف استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه لستين ونصف من ولايته ثم ولى الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل العكي وكان رضيعا له فاضطربت عليه إفريقية وبلغ الرشيد ذلك وطلب أهل إفريقية من إبراهيم بن الأغلب وكان من عمال محمد بن مقاتل أن يكتب إلى الرشيد في الولاية عليهم فكتب إلى الرشيد في ذلك على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت تحمل من مصر إلى إفريقية إعانة

للولاة بها وعلى أن يحمل هو من إفريقية إلى أربعين ألفا وبلغ الرشيد غناؤه وكفايته فاستشار فيه أصحابه فأشار هرثمة بن أعين بولايته فكتب له بالعهد على إفريقية منتصف أربع وثمانين ومائة فقام إبراهيم بالأمر وضبط البلاد فسكنت واستراحت من الفتن وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل إليها بجملته وأورث بإفريقية ملكا لبنيه من بعده وفي هذه المدة انقسم المغرب إلى ثلاث ممالك فكان بنو الأغلب بإفريقية والقيروان وبنو خزر المغراويين بالمغرب الأوسط وتلمسان وبنو إدريس بالمغرب الأقصى وقيل أن نفرد الكلام عليه نذكر فصلا تشير فيه إلى مذاهب أهل المغرب القول في مذاهب أهل المغرب أصولا وفروعا وما يتبع ذلك قد تقدم لنا ما قاله الشيخ ابن أبي زيد رحمه الله من أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة وأنه لم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد موسى بن نصير وبعد فتحه الأندلس ثم كمل إسلامهم على يد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي

المهاجر وتقدم أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أرسل عشرة من التابعين يفتيهم أهل المغرب في دينهم فكان المغاربة في صدر الإسلام لذلك على مذهب جمهور السلف من الأمة واعتقادهم وهو المذهب الحق إلى أن حدثت فيهم بدعة الخارجية لأول المائة الثانية من الهجرة نزح إليهم بها بعض أهل النفاق من خوارج العراق وبتوها فيهم فقتلوا منهم بالقبول وحسن موقعها لديهم بسبب ما كانوا يعانونه من ثقل وطأة الخلافة القرشبية وجور لا تشترط فيها القرشبية بل ولا العربية وأن كل من كان أتقى لله كان أحق بها ولو عبدا حبشيا على ظاهر الحديث ودسوا إليهم مع ذلك بعض

تشديدات الخوارج وتعمقاتهم وأروهم ما هم عليه من التصلب في دينهم فظهر للبربر ببداى الرأي أن تعمقهم ذلك إنما هو أثر من آثار الخشية لله والخوف منه وأن ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعا وغاب عنهم أن الدين يسر كما قال وأن ملة الإسلام عرفت من بين الملل بالحنفية السمحة لذلك والله تعالى يقول وما جعل عليكم في الدين من حرج ومن أمعن نظره في نصوص الشريعة من الكتاب والسنة علم يقينا أن طريق النجاة إنما هي سلوك الوسط وإن كلا من التعمق والانحلال ضلال وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله الآية وقد قرر جمع من الأئمة المقتدى بهم كالغزالي في الإحياء وغيره أن المحمود في أمور الدينيات كلها إنما هو سلوك الوسط بين الإفراط والتفريط وبه يتم مراد الله من خلقه وكلا طرفي قصد الأمور ذميم وهذا مبحث طويل نفيس وقد رمزنا إليه بهذه النبتة اليسيرة والتوفيق بيد الله وقد رسخت هذه البدعة الخارجية في البربر زمانا طويلا إلى أن اضمحلت في أواخر المائة الثانية وما بعدها ومع ذلك فقد

بقيت منها آثار في أعقابهم من أصحاب الأطراف كما ذكره ابن خلدون والناقد بصير ولما طهر الخلفاء من بني العباس المغرب من هذه النزعة الشيطانية أخذ أهله بعدها بمذاهب أهل العراق في الأصول والفروع لأن ذلك المذهب يومئذ هو مذهب الخلفاء بالمشرك والناس على قدم إمامهم قال عياض في المدارك ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية ظهورا كبيرا إلى قرب أربعمائة سنة فانقطع منها ودخل منه شيء إلى ما وراءها من المغرب قديما بمدينة فاس وبالأندلس وكذا ظهر أيضا مذهب عبد الرحمن الأوزاعي من أهل الشام واختلف الناس في السبب الذي انتقل به أهل المغرب عن مذهب أبي حنيفة وغيره إلى مذهب الإمام مالك بن أنس الذي هو مذهب السلف من

أهل الحجاز فقال ابن خلكان في ترجمة المعز بن باديس الصنهاجي المتوفى في أواسط المائة الخامسة ما نصه كان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بإفريقية أظهر المذاهب فحمل المعز المذكور مبيع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه وحسم مادة الخلاف في المذاهب واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن اه قلت كان المعز هذا وأسلافه من صنهاجة بإفريقية على مذهب الراضة من الشيعة أخذوه عن خلفائهم العبيديين أيام استيلائهم على المغرب في صدر المائة الرابعة وحمله الناس عليه وامتحنوهم وطارت بدعتهم في أقطار المغرب كله فلما أفضى الأمر إلى المعز بن باديس المذكور قطع دعوة الشيعة من إفريقية ودعا لبني العباس وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك علام المدينة وإمام دار ال هجرة هذا والمعروف أن مذهب مالك ظهر أولا بالأندلس ثم انتقل منها إلى المغرب الأقصى أيام الأدارسة وكذا ظهر بإفريقية ظهورا بينا قبل وجود المغرب بكثير بل قبل استيلاء صنهاجة والعبيديين على المغرب وذلك على يد أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بسحنون وغيرهما من أئمة المغاربة ثم لما ظهرت دولة الشيعة بإفريقية حاولوا محوه فلم يتيسر لهم ذلك وكان فقهاء المالكية في ذلك العصر معهم في محنة عظيمة منهم ابن أبي زيد والقاسمي وأبو عمران الفاسي وطبقتهم ولم يزل الأمر إلى أن نصره المعز المذكور جزاه الله خيرا قالوا وكان ظهوره بالأندلس على يد الفقيه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون فهو أول من أدخله الأندلس وكانوا قبل ذلك يتفقون على مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام لمكان الدولة الأموية منه فلما ظهر مالك رضي الله عنه بالمدينة وعظم صيته وانتشرت فتاويه بأقطار الأرض رحل إليه جماعة من أهل الأندلس والمغرب كان من أمثالهم وأسبقهم شبطون المذكور وقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بنابي هند وغيرهم أيام هشام بن

عبد الرحمن الداخل فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به ذكر بالأندلس فانتشر يومئذ علمه ورأيه بها وكان رائد الجماعة ف بذلك هو شبطون كما قلنا وهو أول من أدخل كتاب الموطأ المغرب أتى به مكملًا متقنا فأخذه عنه يحيى بن يحيى الليثي ثم دخل بعد ذلك إلى مالك فقرأه عليه وعاد إلى الأندلس فتم ما كان قد بقي من شهرة المذهب المالكي قال ابن حزم مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولي الرشيد أبا يوسف خطة القضاء كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاء وكان لا يلي قاضي في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختاره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع إلى الدنيا فاقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه وكان ذلك زاندا في جلالتهم وداعيا إلى قبول رأيه لديهم اه ورأيت في بعض التأليف في سبب ظهور مذهب مالك بالأندلس والمغرب أن حاج المغرب والاندلس قدموا على مالك رضي الله عنه بالمدينة فسألهم عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل فقيل له إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله فقال مالك ليت الله زين حرمنا بمصله ففهم عليه بنو العباس هذه المقالة وكان ذلك سبب توصلهم إلى ضربه في مسألة الإكراه كما هو مشهور وبلغت مقالته صاحب الأندلس فسر بها وجمع الناس على مذهبه فانتشر في أقطار المغرب من يومئذ والله أعلم ومما يناسب هنا ما نقله المؤرخون أن أبا عبد الله محمد بن خيرون الأندلسي الأصل القيرواني الدار رحل إلى المشرق في صدر المائة الرابعة

فأخذ عن علمائه وقرأه وعاد إلى إفريقية بقرأة نافع بن أبي نعيم وكان الغالب عليهم القراءة بحرف حمزة فشاخ حرف نافع من يومئذ في أقطار المغرب بعد أن كان لا يقرأ به إلا الخواص واستمر الحال على ذلك إلى اليوم فهذا حال أهل المغرب في الفروع وأما حالهم في الأصول والإعتقادات فبعد أن ظهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولا والرافضية ثانيا أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف رضي الله عنهم في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر وهو والله أحسن المذاهب وأسلمها والله در القائل قيدتنا أن ليس ممثل صفاته ولا ذاته شيء عقيدة صائب سلم آيات الصفات بأسرها وأخبارها للظاهر المتقارب ونؤيس عنها كناه فهم عقولنا وتأويلنا فعل اللبيب المراقب ونركب للتسليم سفنا فإنها لتسليم دين المرء خير المراكب واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة فرحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ومتأخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة وتخريجه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازتها وضروب بلاغتها مما يوافق عليه النقل والشعر ويسلمه العقل والطبع ثم عاد محمد بن تومرت إلى المغرب ودعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة وجزم بتضليل من خالفها بل بتكفيره وسمى أتباعه الموحدين تعريضا بأن من خالف طريقته ليس بموحد وجعل ذلك ذريعة إلى الإنتزاء على ملك المغرب حسبما تقف عليه مفضلا بعد إن شاء

الله لكنه ما أتى بطريقة الأشعري خالصة بل مزجها بشيء من الخارجية والشيوعية حسبما يعلم ذلك بامعان النظر في أقواله وأحواله خلفائه من بعده ومن ذلك الوقت أقبل علماء المغرب على تعاطي مذهب الأشعري وتقريره وتحريه درسا وتأليفا إلى الآن وإن كان قد ظهر بالمغرب قبل ابن تومرت فظهورا ما والله أعمل وقد كان بعد المؤمن بنعلي وبنوه من بعده منعوا الناس من التقليد في الفروع وحملوا الأئمة على أخذ الأحكام الشرعية نم الكتاب والسنة مباشرة على طريقة الإجتهد المطلق وحرقوا شيئا كثيرا من كتب الفروع الحديثة التصنيف ووقع ذلك من بعض علماء عصرهم موقع الإستحسان منهم الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي فقد ذكر في كتاب القواصم والعواصم له ما يشعر بذلك قا لبعد ذكره ما وقع بالمغرب من الفتن ما نصه عطفنا عنان القول إلى مصائب نزلت بالعلماء في طريق الفتوى لما كثرت البدع وذهب العلماء وتعاطت المبتدعة منصب الفقهاء وتعلقت أطماع الجهال به فنالوه بفساد الزمان ونفوذ وعد الصادق في قوله اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا وبقيت الحال هكذا فماتت العلوم إلا عند آحاد الناس واستمرت القرون على موت العلم وظهور الجهل وذلك بقدره الله تعالى وجعل الخلف منهم يتبع السلف حتى آلت الحال إلى أن لا ينظر في قول مالك وكبيره أصحابه ويقال قد قال في هذه المسألة أهل قرطبة وأهل طلمنكة وأهل طليطلة وصار الصبي إذا عقل وسلخوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله تعالى ثم نقلوه إلى الأدب ثم إلى الموطأ ثم إلى المدونة ثم إلى ووثائق ابن العطار ثم يختمون له بأحكام ابن سهل ثم يقال قال فلان الطليطي و فلان المجريطي وابن مغيث لا أعايت الله ثراه فيرجع

الفهري ولا يزال يمشي إلى وراء ولولا أن الله تعالى من بطائفة تفرقت في ديار العلم وجاءت بلباب منه كالقاضي أبي الوليد الباجي وأبي محمد الأصيلي فرشوا من ماء العلم على هذه القلوب الميتة وعطروا أنفاس الأمة الدفيرة لكان الدين قد ذهب ولكن تدارك الباربي تعالى بقدرته ضرر هؤلاء ينفع هؤلاء وربما سكنت الحال قليلا والحمد لله اه والله تعالى ولي التوفيق تنمة مهمة قد ظهر ببلاد المغرب وغيرها منذ أعصار ومتطولة لا سيما في المائة العاشرة وما بعدها بدعوة قبيحة وهي اجتماع طائفة من العامة على شيخ من الشيوخ الذين عاصروهم أو تقدموهم ممن يشار غلي بالولاية والخصوصية ويخصونه بمزيد المحبة والتعظيم ويتمسكون بخدمته والتقرب غليه قدرا زاندا على غير من الشيوخ بحيث يرسم في خيالهم أن كل المشايخ أو جلهم أن دونه في المنزل عند الله تعالى ويقولون نحن أتباع سيدي فلان وخدام الدار الفلانية لا يقولون عن ذلك ولا يزولون خلفا عن سلف وينادون باسمه ويتسنيئون به ويفرعون في مهاماتهم إليه معتقدين أن التقرب إليه نافع والإنحراف عنه قيد شبر ضار مع أن النافع والضار هو الله وحده وإذا ذكر لهم شيخ آخر أو دعوا إلي حاصوا حيصة حمر الوحش من غير تبصر

في أحواله هل يستحق ذلك التعظيم أم لا فصار الأمر عصيبا وصارت الأمة بذلك طرائق قندا ففي كل بلد أو قرية عدة طوائف وهذا لم يكن معروفا في سلف الأمة الذين هم القوة لمن بعدهم وغرض الشارع إنما هو في الاجتماع وتمام الألفة واتحاد الوجهة وقد قال تعالى لأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الآية وقد ذم قوما فرقوا دينهم وكانوا شيعا وإنما الشأن في أهل الخصوصية والدين أن يكونوا عند العاقل المحتاط لدينه كأستاذ المشط بحيث يحبهم الله وفي الله ويستشفع بهم إلى الله ويسأله تعالى أن يكرمه بما أكرمهم به من الخير والهدى والدين ولحبهم حب التشريع لا حب التشيع وليتأدب معهم ولا يقدم على مفاضلتهم بالهوى والرجم بالغيب فإن ذلك متوقف على الإطلاع على منزلتهم عند الله وذلك محبوب عنا وإذا نزلت به حاجة فليفرغ في قضائها إلى مولاه الذي خلقه ورزقه مستشفعا إليه بنبيه الذي هداه للإيمان على يده ثم بخواص الأمة الذين هم أبائنا في الدين فإن المطلوب من العبد أن يصرف وجهته وقصده في جميع أموره ويتعلق فيها بالله بحيث لا يطلبها إلى من ولا يتكل فيها إلا عليه قاطعا للنظر عن كل ما سواه اللهم إلا على سبيل التوسل والإستشفاع كما قلنا هذا هو التوحيد الذي بعث الله به محمدا وإليه دعا وعليه قائل وسواه شرك ومنازلة لما جاء به إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله ثم أسترسل هؤلاء الطغام في ضلالهم حتى صارت كل طائفة تجتمع في أوقات معلومة من مكان مخصوص أو غيره على بدعتهم التي يسمونها الحضرة فما شئت من طست وطار وطبل ومزمار وغناء ورقص وخيط

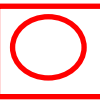
وفصص وربما اضافوا إلى ذلك نارا أو غيرها يستعملون على سبيل الكرامة بزعمهم ويستغرقون في ذلك الزمن الطويل حتى يمضي الوقت والوقت من أوقات الصلوات وداعي الفلاح ينادي على رؤوسهم وهم في حيرتهم يعمهون لا يرفعون به رأسا ولا يرون بما هم فيه من الضلال بأسا بل يعتقدون أن ما هم فيه من أفضل القرب إلى الله تعالى عن جهالتهم علوا كبيرا ولا تجد في هذه المجامع الشيطانية غالبا إلا من بلغ الغاية في الجفاء والجهل من لا يحسن الفاتحة فضلا عن غيرها مع ترك الصلاة طول عمره أو من في معناه من معنوه ناقص العقل والدين فما أوحى هؤلاء الفسقة على محتسب يغير عليهم ما هم فيه من المنكر العظيم واللبس المقيم وأعظم من هذا كله أنهم يفعلون تلك الحضرة غالبا في المساجد فإبهم يتخذون الزاوية باسم الشيخ ويجعلونها مسجدا للصلاة بالمحراب والمنار وغير ذلك ثم يعمرنا بهذه البدعة الشنيعة فكم رأينا من عود ورياب ومزمار على أحش الهيأت في محاريب الصلوات ومن بدعتهم الشنيعة محاكاتهم أضرحة الشيوخ لبيت الله الحرام من جعل الكسوة لها وتحديد الحرم على مسافة معلومة بحيث يكون من دخل تلك البقعة من أهل الجرائم أمانا وسوق الذبائح إليها على هيئة الهدى واتخاذ الموسم كل عام وهذا وأمصاله لم يشرع إلى فيح الكعبة ثم يقع في ذلك الموسم ولا سيما مواسم البادية من المنابر والمفاسد العظام واختلاط الرجال بالنساء باديات متبرجات شأن أهل الإباحة وشأن قوم نوح في جاهليتهم ما تصم عنه الأذان ولا منكر ولا مغير ولا متمعض للدين لا بل للحسب فأما الدين عند هؤلاء فلا دين فإننا لله وإننا إليه راجعون على ضيعة الدين وغفلة أهله عنه وبالله ويا للمسلمين لهؤلاء الهمج الرعاع الذين سلخوا المروءة والحياء والغيرة والعقل والدين والإنسانية جملة فليسوا في فطنة الشياطين ولا في سلامة صدور البهائم ولا في نخوة السباع فيغضبوا لديهم ومروعتهم

ومن جهالاتهم الفظيعة جمعهم بين اسم الله تعالى واسم الولي في مقامات التعظيم كالقسم والإستعطاف وغيرهما فإذا أقسموا قالوا وحق الله وحق سيدي فلان وإذا عزموا على أحد قالوا دخلت عليك بالله وسيدي فلان وإذا سألوا قالوا من يعطينا على الله وعلى سيدي فلان فيعطفون اسم العبد على اسم مولاه بالواو المقتضية للتشريك والتسوية التامة في مقام قد حظر الشارع أن يتجاوز فيه اسم الله إلى غيره وهذا هو صريح الشرك ومن منكرهم الجدير بالتغيير اجتماعهم كل سنة للوقوف يوم عرفة بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ويسمون ذلك حج المسكين فانظر إلى هذه الطامة التي اخترعها هؤلاء العامة ومن اختراعاتهم تسميتهم لبدعتهم بالحضرة كما قلنا أخذنا من سام حضرة الله تعالى في إصلاح الأئمة العارفين من الصوفية كأهل رسالة القشيري ومن في معانهم فأوهم هؤلاء الشياطين بهذه التسمية أنهم يكونون في حال اشتغالهم بتلك البدعة في حضرة الله تعالى ثم يذهبون فيسمون جنوبيهم وتخبطهم على تلك الطبول والمزامير بالخال أخذنا من الحال التي تعترى السالك إلى الله تعالى في حال ترقيه في درجات المعرفة والوصول وهذا لعمر الله من أفبح الضلالات وأشنع الجهالات إلى غير هذا مما أغني فيه العيان عن الخبر وعرفه الخاص والعام في حالي الورد والصدر ولسنا ننكر على أولياء الله وأهل الخصوصية منهم أو على من يسلك سبيلهم على الوجه المقرر في كتب الأئمة المقتدى بهم منهم وإنما نشرح حال هؤلاء الجهلة الذين لم يأتوا الأمر من بابيه ولا أخذوه عن أربابه وإنما حالهم ما رأيت وعلمت وهذه نغمة مصور صاحبها عند المنصف معذور فنسأل الله العظيم المولى الكريم أن يحرك همة من له القدرة والتصرف إلى حسم هذه الضلالات وقطعها عسى أن يرحمنا ربنا ويجبر كسرنا ويكتب

عدونا إذا نحن راجعنا ديننا وسنة نبينا إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال وقد أن نرد الكلام على المغرب الأقصى عند ما استولى عليه المولى إدريس بن عبد الله وبنوه من بعده واقتطعوه عن نظر الخلفاء بالمشرق وصبروه مملكة مستقلة إذ كان ذلك من شرط كتابنا هذا حسبما تقدمت الإشارة إليه مقدمين لذلك ما يجب تقديمه من الإشارة إلى أمر الخلافة وتنازع أهل الصدر الأول في استحقاقها ومن هو أولى بها ثم نتخلص منه على المقصود بالذات والله الموفق

الدولة الإدريسية الخبر عن دولة آل إدريس بالمغرب الأقصى وذكر السبب في أوليتها أعلم أنه قد ثبت في الصحيح أن رسول الله قال إن هذا الأمر في قریش لا يعاديه أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقامة الدين وفيه أيضا أنه قال لا يزال هذا الأمر في قریش ما بقي منهم إثنان قال الحافظ ابن حجر لو فقد قرشي فكناني ثم رجل من بني إسماعيل ثم عجمي على ما في التهذيب أو جرهمي على ما في التلمة ثم رجل من بني إسحاق وأن يكون شجاعا ليغزو بنفسه ويعالج الجيوش ويقوى على فتح البلاد ويحى البيضة وأن يكون أهلا للقضاء بأن يكون مسلما مكلفا حرا عدلا ذكرا مجتهدا ذا رأي وسمع وبصر ونطق وتتعد الإمامة ببيعة أهل الحل والعقد من العلماء ووجوه الناس المتيسر اجتماعهم وباستخلاف الإمام من يعينه في حياته ويشترط القبول في حياته ليكون خليفة بعد موته وباستنباء متغلب على الإمامة ولو غير أهل لها كصبي وامرأة إن قهر الناس بشوكته وجنده وذلك لينظم أمر المسلمين اه ثم نقول قد تقدم لنا أمر الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم بعد النبي وأن السلف أطبقوا على أن ترتيبهم في الفضل على حسب ترتيبهم في الخلافة وتقدم لنا أيضا ما كان من علي ومعاوية رضي الله عنهما وأن ما صدر منهما أن اجتهادا محضا وطلباً للحق وأن الصواب كان مع علي رضي الله عنه والكل مأجور ثم لما قتل علي رضي الله عنه بايع أهل العراق ابنه الحسن رضي الله عنه وزحف عليه معاوية في أهل الشام ورأى الحسن ما في حقن دماء المسلمين وجمع كلمتهم من الثواب عند الله والكرامة لديه فاختر الأخرى على الدنيا

وقدم الأجل على العاجل وسمل الأمر إلى معاوية على شروط معروفة وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين كما قال جده وحاز معاوية الخلافة وصفت له وتوارثها بنوا أمية من بعده بعد مقاتلات ومنازعات كانت من بني هاشم وغيرهم لهم بطول جلبها وكان السواد الأعظم من المسلمين يرون أن بني هاشم أحق بالأمر من بني أمية لأن بني هاشم هم آل بين النبي وعشيرته الأقربون وهم أهل العلم والدين والخصوصية الذين اجتياهم الله وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فهم أحق بمنصب رسول الله ثم غيرهم وهذا الرأي صواب غير أن ذلك ليس بطريق الوجوب عند أهل السنة بل بطريق الأحقية والأولوية إذا توفرت الشروط فيهم وفي غيرهم من سائر بطون قریش وإلا فمن انفردت به الشروط وجب المصير إليه وكان شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوجبون الخلافة لبنيه دون من عداهم ويزعمون أن ذلك بوصية من النبي لعلي رضي الله عنه وهذه الوصية لم تثبت عند أهل السنة من طريق صحيح ومذاهب هؤلاء الشيعة في كيفية سوق الخلافة في عقب علي رضي الله عنه متعددة لا حاجة لنا بذكرها وكان بنو علي رضي الله عنه في الصدر الأول كثيرا ما يثورون في النواحي شرقا وغربا طالبيين حقه في الخلافة منازل فيها بني أمية أولا ثم لبني العباس من بعدهم ثانيا وخبرهم في ذلك معروف وجلبه يطول إلى أن كان منهم عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وكان سادة أهل البيت يومئذ وكان له عدة أولاد منهم محمد المعروف بالنفس الزكية وإبراهيم



ويحي وسليمان وإدريس وغيرهم ولما صار أمر بني أمية إلى الاختلال أيام الحمار آخر خلفاتهم اجتمع أهل البيت بالمدينة وتشاوروا فيمن يقدمونه للخلافة فوقع اختيارهم

على محمد بن عبد الله النفس الزكية فبايعوا له بالخلافة وسلموا له الأمر بأجمعهم وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو المنصور وذلك قبل أن تنتقل الخلافة إلى بين العباس فبايع للنفس الزكية فيمن بايع له من أهل البيت وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم لما علموا له من الفضل عليهم قال ابن خلدون ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله يحتجان له حين خرج بالحجاز ويريان أن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر المنصور لانعقاد البيعة أولا وكان أبو حنيفة يقول بفضله ويحتج لحقه فتأنت إلى الإمامين المحنة بسبب ذلك أيام أبي جعفر المنصور حتى ضرب مالك رضي الله عنه على الفتيا في طلاق المكره وحبس أبو حنيفة رضي الله عنه على القضاء ولما انقضت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس وصار الأمر إلى أبي جعفر المنصور منهم سعى عنده بالبيت وأن محمد بن عبد الله يروم الخروج عليه وأن دعائه قد ظهروا بخراسان فأمر المنصور عامله على المدينة رباح بن عثمان المري بحبس عبد الله بن حسن ومن إليه من آل الحسن بن علي بن أبي طالب فحبسه جماعة من بنيه وإخوته وبني عمه قال ابن خلدون في خمسة وأربعين من أكابرهم وقدم المنصور المدينة في حجة حجها حتى هلكوا في حبسهم وجد المنصور في طلب محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه إبراهيم لكونهما تغيبا فلم يحبسا في جملة من حبس من عشيرتهم ثم لما كانت سنة اثنتين ومائة وأرهق محمد بن عبد الله الطلب وأعيت عليه المذاهب ظهر بالمدينة المنورة ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه واستفتى أهل المدينة الإمام مالكا رضي الله عنه في الخروج مع محمد بن عبد الله وقالوا في أعناقنا بيعة للمنصور فقال إنما بايعتم

مكرهين فتسارع الناس إلى محمد وأجابوا دعوته ولزم الإمام ملك بيته وخطب محمد بن عبد الله على منبر رسول الله وذكر المنصور بما نقمه عليه ووعد الناس واستنصر بهم وتسمى بالمهدي ولم يتخلف عن بيعته من وجوه الناس إلا القليل وبلغ المنصور خبر محمد بن عبد الله وما كان منه بالمدينة فاشفق من ذلك غاية الإشفاق وكتب إلى محمد كتاب أمان وبعده الجميل إن هو راجع الطاعة فأجابته محمد بعدم قبول ذلك منه ودارت بينهما مكاتبات ومحاورات في الأفضلية وابن خلدون في تاريخه وآخر الأمر أن المنصور بعث لحرب محمد المهدي ابن عمه عيسى بن موسى العباسي فاستعد المهدي للقتال وأدار على المدينة الخندق الذي حفره رسول الله يوم الأحزاب وقدمت جيوش العباسيين ونزلوا على المدينة وخرج إليهم محمد بن عبد الله فيمن بايعه واقتتل الناس قتالا شديدا وأبلى محمد المهدي في ذلك اليوم بلاء عظيما وقتل بيده سبعين رجلا ولما اشتد القتال وعان مخايل الاختلال وانصرف فاعتسل وتحنط وجمع بين الظهر والعصر ومضى فأحرق الديوان الذي كان فيه أسماء من بايعه وجاء إلى السجن فقتل رباح بن عثمان عامل المنصور على المدينة وقتل معه جماعة كانوا مسجونين عنده ثم عاد إلى المعركة وقد تفرق عنه جل أصحابه ولم يبق معه إلا نحو ثلاثمائة فقال له بعضهم نحن اليوم في عدة أهل بدر ثم تقدم فقاتل حتى قتل ضرب فسقط لركبتيه وطعنه حميد بن قحطبة في صدره ثم احترز رأسه وأتى به عيسى بن موسى فبعث به إلى المنصور وكان مقتل محمد المهدي رحمه الله في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة وقتل معه جماعة من أهل بيته وأصحابه ولحق ابنه علي بن

محمد بالسند إلى أن هلك هنالك واختفى ابنه الآخر عبد الله الأشتر إلى أن هلك أيضا في خبر طويل ثم خرج إبراهيم بن عبد الله أخو المهدي المذكور بالبصرة عقب ذلك فبعث إليه المنصور عيسى بن موسى المذكور أتفا فقاتله آخر ذي القعدة من السنة فانهزم إبراهيم وقتل رحمه الله بعد أن بايعه أكثر من مائة ألف ثم لما كانت سنة تسع وستين ومائة في أيام موسى الهادي بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور خرج بالمدينة الحسين بالتصغير بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان معه جماعة من أهل بيته منهم إدريس ويحي وسليمان بنو عبد الله بن الحسن المثنى وهم أخوة محمد النفس الزكية فاشتد أمر الحسين المذكور بالمدينة وجرى بينه وبين عامل الهادي على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب قتال فانهزم عمر المذكور وبايع الناس الحسين المذكور على كتاب الله وسنة نبينا للمرتضى من آل محمد وكانوا يكونون بذلك عن الإمام المستور إلى أن يقدر على إظهار أمره وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة يتجهزون أياما ثم خرجوا إلى مكة يوم السبت لست بقين من ذي القعدة فانتهى الحسين إلى مكة وانضم إليه جماعة من عبيدها وكان قد حج تلك السنة جماعة من وجوه بني العباس وشيعتهم فمنهم سليمان بن أبي جعفر المنصور ومحمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد بن علي وانضم إليهم من حج من قوادهم ومواليهم واقتتلوا مع الحسين المذكور يوم التروية فاحترزوا رأسه وأحضره أمام بني العباس وهو مضروب على فقاه وجبهته ثم جمعت رؤوس أصحابه فكانت مائة ونيفا وكان فيها رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنى في قول واختلط المنهزمون بالحاج فذهبوا في كل وجه

وكان مقتلهم بموضع يقال له فخ على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع وستين ومائة كما قلنا وفي ذلك يقول بعض شعراء ذلك العصر فلايكين على الحسين بعولة وعلى الحسن وعلى ابن عاتكة الذي واروه ليس له كفن تركوا بفتح غدوة في غير منزلة الوطن في أبيات والحسن الذي ذكره في هذه الأبيات هو الحسن بن محمد بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وكان أسر في ذلك اليوم فضربت عنقه صبيرا وابن عاتكة الذي ذكره هو عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ثم حمل رأس الحسين ومعه باقي الرؤوس إلى الهادي فأنكر عليهم حمل رأس الحسين ولم يعطهم جوائزهم غضبا عليهم دخول إدريس بن عبد الله أرض المغرب الأقصى قد تقدم لنا أن يحيى وإدريس ابني عبد الله حضرا وقعة فخ مع الحسين بن علي المذكورة إلى بلاد الديلم في جهة الشرق ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه واشتدت شوكته الفضل وبذل له الأمان وما يختاره فأجابته يحيى بن عبد الله إلى ذلك وطلب يمين الرشيد وأن يكون بخطه ويشهد فيه الأكبر ففعل ذلك وحضر يحيى بن عبد الله إلى بغداد فأكرمه الرشيد وأعطاه مالا كثيرا ثم حبسه حتى مات في السجن وأم إدريس فانه فر الوقعة المذكورة ولحق بمصر وعلى بريدها يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين وكان واضح يتشبع لال البيت فعلم شأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذي كان مستخفيا

به ولم ير شيئا أخلص من أن يحمل على البريد إلى المغرب ففعل ولحق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه راشد فنزل بمدينة ولبلى سنة ثنتين وسبعين ومائة وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة من البربر البرانس فأجاره وأكرمه وجميع البربر على القيام بدعوته وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع في ذلك وانتهى الخبر إلى الرشيد بما فعله واضح غب شأن إدريس فقتله وصلبه وقال ابن أبي زرع في كتاب القرطاس إن إدريس بن عبد الله لما قتلت عشيرته بفتح فر بنفسه مستترا في البلاد يريد المغرب فسار من مكة حتى وصل إلى مصر ومعه مولى له اسمه راشد فدخلها والعامل عليها يومئذ لبني العباس هو علي بن سليمان الهاشمي فبينما إدريس وراشد يمشيان في شوارع مصر إذا مرا بدار حسنة البناء فوقها يتأملانها وإذا بصاحب الدار قد خرج فسلم عليهما وقال ما الذي تنتظرانه من هذه الدار فقال راشد أعجبنا حسن بنائها قال وأظنكما غريبين ليسا من هذه الدار فقال راشد جعلت فداك إن الأمر كما ذكرت قال فمن أي الأقاليم أنتما قال من الحجاز قال فمن أي بلاده قال من مكة قال وأخلكما من شعبة الحسينيين الفارين من وقعة فخ فهما بالإنكار ثم توسما فيه الخبر أرايتان أخبرناك من نحن أكننت تستر علينا قال نعم ورب الكعبة وأبذل الجهد في صلاح حالكما فقال راشد هذا إدريس بن عبد الله بن حسن وأنا مولاه راشد فررت به خوفا عليه من القتل ونحن قاصدون بلاد المغرب فقال الرجل لتطمئن نفوسكما فإنني من شعبة آل البيت وأول من كتم سرها فأنتم من الأمنين ثم أدخلهما منزله وبالغ في الإحسان إليهما فاتصل خبرهما بعلي بن سليمان صاحب مصر فبعث إلى الرجل الذي هما عنده فقال له إنه قد رفع إلي خبر الرجلين الذين عندك وإن أمير المؤمنين قد كتب إلي في طلب الحسينين والبحث عنهم وقد بث عيونهم على الطرقات وجعل الرصاد

على أطراف البلاد فلا يمر بهم أحد حتى يعرف نسبه وإني أكره أن أتعرض لدماء آل البيت فلك ولهم الأمان فاذهب إليهما وأعلمهما بمقالي وأمرهما بالخروج من عملي وقد أجليتهما ثلاثا فسار الرجل فاشترى راحلتين لإدريس ومولاه واشترى لنفسه أخرى ووضع زادا يبلغهما إلى

إفريقية وقال الراشد اخرج أنت مع الرفقة على الجادة وأخرج أنا وإدريس على طريق غامض لا تسلكه الرفاق وموعنا مدينة برقة فخرج راشد مع الرفقة في زي التجار وخرج إدريس مع المصري فسلكا البرية حتى وصلا إلى برقة وأقاما بها حتى لحق بهما راشد ثم جدد المصري لهما زادا وودعهما وانصرف وسار إدريس وراشد يجدان السير حتى وصلا إلى القيروان فأقاما بها مدة ثم خرجا إلى المغرب الأقصى وكان راشد من أهل النجدة والحزم والدين والنصيحة لآل البيت فعمد إلى إدريس حين خرجا من القيروان فألبسه مدرعة صوف خشبية وعمامة كذلك وصيره كالخادم له بأمره وبنهاه كل ذلك خوفا عليه وحياطة له ثم وصلا إلى مدينة تلمسان فأراحا بها أياما ثم ارتحلا نحو بلاد طنجة فسارا حتى عبرا وادي ملوية ودخلا بلاد السوس الأدنى وتقدما إلى مدينة طنجة وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب الأقصى وأم مدنه فأقاما بها أياما فلما لم يجد إدريس بها مراده خرج مع مولاه راشد حتى انتهيا إلى مدينة وليلي قاعدة جبل زرهون وكانت مدينة متوسطة حصينة كثيرة المياه والغروس والزيتون وكان لها سور عظيم من بنيان الأوائل يقال إنها المسماة اليوم بقصر فرعون فنزل بها إدريس على صاحباها ابن عبد الحميد الأوربي فأقبل عليه ابن عبد الحميد وبالغ في إكرامه وبره فعرفه إدريس بنفسه وأفضى إليه بسره فوافق على مراده وأنزله معه في داره وتولى خدمته والقيام بشؤونه وكان دخول إدريس المغرب ونزوله على ابن عبد الحميد بمدينة وليلي

غرة ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ومائة بيعة الإمام إدريس بن عبد الله رضي الله عنه لما استقر إدريس بن عبد الله بمدينة وليلي عند كبيرها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي أقام سنة أشهر فلما دخل شهر رمضان من السنة جمع ابن عبد الحميد عشيرته من أوربة وعرفهم بنسب إدريس وقربائه من رسول الله وقرر لهم فضله ودينه وعلمه واجتماع خصال الخير فيه فقالوا الحمد لله الذي أكرمنا به وشرفنا بجواره وهو سيدنا ونحن العبيد فما تريد منا قال يتابعونه قالوا ما منا من يتوقف عن بيعته فباعوه بمدينة وليلي يوم الجمعة رابع رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين ومائة وكان أول من بايعه قبيلة أوربة على السمع والطاعة والقيام بأمره والاقداء به في صلواتهم وغزواتهم وسائر أحكامهم وكانت أوربة يومئذ من أعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأكثرها عددا وتلتها في نصرته إدريس والقيام بأمره مغللة وصديقه وهما معا من ولد تامزيت بن ضرى ولما بوع إدريس رحمه الله خطب الناس فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه الناس لا تمدن الأعناق إلى غيرنا فإن الذي تجذونه من الحق عندنا لا تجذونه عند غيرنا ثم بعد ذلك وفدت عليه قبائل زناتة والبربر مثل زواغة وزواوة وسدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة وكافة البربر بالمغرب الأقصى فباعوه أيضا ودخلوا في طاعته فاستتب أمره وتمكن سلطانه وقويت شوكته ولحق به من أخوته سليمان بن عبد الله ونزل بارض زناتة من تلمسان ونواحيها كذا عند ابن خلدون في أخبار الأدارسة والذي عنده في أخبار بني العباس وكذا عند أبي الفداء أن سليمان بن عبد الله بن حسن قتل بوقعة فخ وجمع رأسه مع رؤوس القتلى فاشه أعلم

غزو إدريس بن عبد الله بلاد المغرب الأقصى وفتحها لياها ثم إن إدريس بن عبد الله رضي الله عنه اتخذ جيشا كثيفا من وجوه زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم وخرج غازيا بلاد تامسنا ثم زحف إلى بلاد تادلا ففتح معانها وحصونها وكان أكثر أهل هذه البلاد لا زالوا على دين اليهودية والنصرانية وإنما الإسلام بها قليل فأسلم جميعهم على يده وقل إلى مدينة وليلي مؤيدا منصورا فدخلها أواخر ذي الحجة سنة اثنين وسبعين ومائة فأقام بها شهر محرم سنة ثلاث وسبعين ريثما استراح الناس ثم خرج برسم غزو من كان بقي من قبائل البربر بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية وكان قد بقي منهم بقية متحصنون في المعامل والجبال والحصون المنيعه فلم يزل إدريس رحمه الله يجاهد في حصونهم ويستنزله من معانهم حتى دخلوا في الإسلام طوعا وكرها ومن أبى الإسلام منهم أباده قتلا وسببا وكانت البلاد التي غزاها في هذه المرة حصون فندلاوة وحصون مديونة وبهلولة وقلاع غياثة وبلاد فازاز ثم عاد إلى مدينة وليلي فدخلها في النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة

غزو إدريس بن عبد الله أرض المغرب الأوسط وفتح مدينة تلمسان لما قفل إدريس رضي الله عنه من غزو بلاد المغرب الأقصى سنة ثلاث وسبعين ومائة أقام بو ليلي بقية جمادى الآخرة ونصف رجب التالي لها ريثما استراح جيشه ثم خرج منتصف رجب المذكور برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبني يفرن فأنتهى عليها ونزل خارجها فخرج عليه صاحبها محمد بن خزر من ولد صولات المغراوي مستأما ومبايعا له فأمنه إدريس وقبل بيعته ودخل مدينة تلمسان فأمن أهلها ثم أمن سائر زناتة وبني مسجد تلمسان وأتقته وأمر بعمل منبر نصبه فيه وكتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة قال ابن خلدون واسم إدريس مخطوط في صفحة المنبر لهذا العهد اه ثم رجع إدريس رحمه الله إلى مدينة وليلي فدخلها مؤيدا منصورا

وفاة إدريس بن عبد الله والسبب في ذلك لما حصل لإدريس رحمه الله ما حصل من التمكن والظهور اتصل ذلك بالخليفة ببغداد وهو هارون الرشيد العباسي وبلغه أن إدريس قد استقام له أمر المغرب وأنه قد استفحل أمره وكثرت جنوده وقد فتح مدينة تلمسان وبنى مسجدا وأنه عازم على غزو إفريقية فخاف الرشيد عاقبة ذلك وأنه إن لم يتدارك أمره الآن ربما عجز عنه في المستقبل مع ما يعلم من فضل إدريس خصوصا ومحبة الناس في آل البيت عموما فقلق الرشيد من ذلك واستشار وزيره يحيى بن خالد البرمكي وقال إن الرجل قد فتح تلمسان وهي باب إفريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار وقد هممت أن أبعث إليه جيشا ثم فكرت في بعد الشقة وعظم المشقة فرجعت عن ذلك فقال يحيى الرأي يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه برجل داهية يحتال عليه ويغتاله وتستريح منه فأعجب الرشيد ذلك فوقع اختيارهما على رجل من موالي المهدي والد الرشيد واسم الرجل سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ فأحضره يحيى وأعلمه بما يريد منه ووعد على قتل إدريس الرفعة والمنزلة العالية عند الرشيد وزوده مالا وكرفا يستعين بها على أمره وأصبحه الرشيد كتابا منه إلى واليه على إفريقية إبراهيم بن الأغلب كذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وفيه أن ابن الأغلب لم يكن واليا على إفريقية في هذا التاريخ وإنما وليها سنة أربع وثمانين ومائة حسبا سبق فوصل الشماخ إلى والي إفريقية بكتاب الرشيد فأجازه إلى المغرب وقدم الشماخ على إدريس بن عبد الله مظهرا النزوع إليه فيمن نزع إليه من وحدان العرب متبرئا من الدعوة العباسية منتحلا للدعوة الطالبية فاختصه إدريس رحمه الله وحلا بعينيه وعظمت منزلته لديه وكان الشماخ ممثلنا من الأدب والظرف والبلاغة عارفا بصناعة الجدل فكان إذا جلس الإمام إدريس إلى البربر ووجه القبائل تكلم الشماخ فذكر فضل أهل البيت وعظيم بركتهم على الأمة ويقرر ذلك ويحتج لإمامة إدريس وأنه الإمام الحق دون غيره فكان يعجب إدريس ويقع منه الموقع فاستولى الشماخ عليه حتى صار من ملازميه ولا يأكل إلا معه وكان راشد كالنائب لإدريس ملازما له أيضا فلما ينفرد عنه لأنه كان يخاف عليه من مثل ما وقع فيه لكثرة أعداء آل البيت يومئذ وكان الشماخ يترصد الغرة من راشد ويتربص الفرصة في إدريس إلى أن غلب راشد ذات يوم في بعض حاجاته فدخل الشماخ على إدريس فجلس بين يديه على العادة وتحادثا مليا ولما لم ير الشماخ راشدا بالحضرة انتهز الفرصة في إدريس فقبل إنه

كانت مع الشماخ قارورة من طيب مسموم فأخرجها وقال لإدريس هذا طيب كنت استصحبه معي وهو من جيد الطيب فرأيت أن الإمام أولى به مني وذلك من بعض ما يجب له علي ثم وضع القارورة بين يديه فشكره إدريس وتناول القارورة ففتحها واشتم ما فيها فصعد السم إلى خياشمه وانتهى إلى دماغه فغشي عليه وقام الشماخ للحين كأنه يريد حاجة الإنسان فخرج وأتى منزله فركب فرسا له عتيقا كان قد أعده لذلك وذهب لوجهه يريد المشرق وافقت الناس الإمام إدريس فإذا هو مغشي عليه لا يتكلم ولا يعلم أحد ما به وقيل إن الشماخ سمه في سنون والسنون بوزن صبور ما يستاك به وكان إدريس يشكي وجع الأسنان واللثة وقيل سمه في الحوت الشابل وقيل في عنب أهاده إليه في غير إبانة والله أعلم ولما اتصل خبر إدريس بمولاه راشد أقبل مسرعا فدخل عليه وهو يحرك شفثيه لا يبين كلاما قد أشرف على الموت فجلس عند رأسه متحيرا لا يدري ما دهاه واستمر إدريس على حالته تلك إلى عشي النهار فتوفي في مهل ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائة وتنفذ راشد الشماخ فلم يره فلم أنه الذي اغتال إدريس ثم جاء الخبر بأن الشماخ قد لقي على أميال من البلد فركب راشد في جمع من البربر واتبعوه وتقطعت الخيل في النواحي وطلبوه ليلتهم إلى الصباح فلحقه راشد بوادي ملوية عابرا فشد عليه راشد بالسيف وضربه ضربات قطع في بعضها يمانه وشجه في رأسه شجاجا ونجا

وكبرائهم فأوغل عمير في فحص سايس حتى انتهى إلى العيون التي ينبع منها وادي فاس فرأى بها من عناصر الماء ما ينبف على السنين عنصرا ورأى مياهها تطرد في فسيح من الأرض وحول العيون شعراء من شجر الطرفاء والطخش والعرعار والكخ وغير ذلك فشرب من الماء فاستطابه ونظر إلى ما حوله من المزارع التي ليست على نهر سبو فأعجبته فاحذر مع مسيل الوادي حتى انتهى إلى موضع مدينة فاس اليوم فنظر فإذا ما بين الجبلين غيضة ملتفة الأشجار مطردة العيون والأنهار وفي جانب منها خيام من شعر يسكنها قوم من زواغة يعرفون ببني الخير وقوم من زينات يعرفون ببني يرغشوكان بنو يرغش على دين المجوسية وكان بيت نارهم بالموضع المعروف بشيوية وكان البعض منهم على دين اليهودية والبعض على دين النصرانية وكان بنو الخير ينزلون بعدوة القرويين وبنو يرغش ينزلون بعدوة الأندلس وكانوا قلما يفترقون عن القتال لاختلاف أهوائهم وتباين أديانهم

فرجع عمير إلى إدريس وأعلمه بما رأى من الغيضة وساكنيها وما وقع عليه اختياره فيها فجاء إدريس لينظر إلى البقعة فألفى بني الخير وبني يرغش يقتتلون فأصلح بينهم وأسلموا على يده واشترى منهم الغيضة بستة آلاف درهم بستة آلاف درهم فرضوا بذلك ودفع لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك على يد كاتبه أبي الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي ثم ضرب أبنتيه بكر وواوة وشرع في بناء المدينة فاخطت عدوة الأندلس غرة ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة وفي سنة بعدها اخطت عدوة القرويين وبني مساكنه بها وانتقل إليها وقد كان أول أدار السور على عدوة الأندلس وبني بها الجامع المعروف بجامع الأشياخ وأقام فيه الخطبة ثم انتقل ثانيا إلى عدوة القرويين كما قلنا ونزل بالموضع المعروف بالمقرمدة وضرب فيه قيطونة وأخذ في بناء جامع الشرفاء وأقام فيه الخطبة أيضا ثم شرع في بناء داره المعروفة الآن بدار القيطون التي يسكنها الشرفاء الجوطيون من ولده ثم بنى القيسارية إلى جانب المسجد الجامع وأدار الأسواق حوله وأمر الناس بالبناء وقال لهم من بنى موضعاً أو اغترسه قبل تمام السور فهو له فيني الناس من ذلك شيئا كثيرا واغترسوا ووقف عليه جماعة من الفرس من أرض العراق فأنزلهم بغيضة هناك كانت على العين المعروفة بعين علون وكان علون عبدا أسود بأوي إلى تلك الغيضة ويقطع الطريق بها على المارة فتحامى الناس غيضته وتناذروها فأعلم إدريس رحمه الله بشأته فبعث في طلبه خيلا قبضوا عليه وجأزوا به إليه فأمر بقتله وصلبه على شجرة كانت على العين فأضيفت إليه العين من يومئذ وقيل عين علون ثم أدار إدريس السور على عدوة القرويين وكانت من لدن باب السلسلة إلى غدير الجوزاء قال عبد الملك الوراق كانت مدينة فاس في القديم بلدين لكل بلد منهما سور يحيط به وأبواب تختص به والنهر فاصل بينهما وسميت

إحدى العدوتين عدوة القرويين لنزول العرب الوافدين من القيروان بها وكانوا ثلاثمائة أهل بيت وسميت الأخرى عدوة الأندلس لنزول العرب الوافدين من الأندلس بها وكانوا جما غفيرا يقال أربعة آلاف أهل بيت وكان الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس صدرت منه لأول إمارته هنات أوجبت قيام جماعة من أهل الورع وعليه فيهم يحي بن يحي الليثي صاحب مالك وراوي الموطأ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما فخلعوا الحكم وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربرض الغربي من قرطبة فقاتلهم الحكم وكثروه وكادوا يأتون عليه ثم أظفروه الله بهم ووضع فيهم السيف ثلاثة أيام وهدم دورهم ومساجدهم وفر الباقون منهم فلقوا بفاس فأنزلهم إدريس رحمه الله بعدوة الأندلس فأضيفت إليهم وأما اللاحقون بالإسكندية فتاروا بها بعد حين فزحف إليهم عبد الله بن طاهر الخزاعي صاحب مصر من قبل المأمون بن الرشيد فقاتلهم ونفاهم إلى جزيرة إقريطش فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الفرنج من أيديهم بعد مدة وذكر ابن غالب في تاريخه أن الإمام إدريس لما فرغ من بناء مدينة فاس وحضرت الجمعة الأولى صعد المنبر وخطب الناس ثم رفع يديه في آخر الخطبة فقال اللهم إنك تعلم أنني ما أردت ببناء هذه المدينة مباحاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة وإنما أردت أن تعبد بها ويثلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد بقيت الدنيا اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنيهم عليه واكفهم مؤنة أعدائهم وأدر عليهم الأرزاق وأعمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قدير

فأمن الناس على دعائه فكثر الخيرات بالمدينة وظهرت بها البركات ومن محاسن فاس أن نهرها يشقها بنصفين وتتشعب جدوله في دورها وحماماتها وشوارعها وأسواقها وتطحن به أرحاؤها ثم يخرج منها وقد حمل أقدارها وأزبالها إلى غير ذلك من عيون الماء التي تتبع بداخلها وتتفرج من بيوتها تجاوز الحصر كثرة وقد مدحها الفقيه الزاهد أبو الفضل ابن النحوي بقوله يا فاس جميع الحسن مسترق وساكنوك ليهنهم بما رزقوا هذا نسيمك أم روح لراحتنا وماوك السلسل الصافي أم الورق أرض تخللها الأنهار داخلها حتى المجالس والأسواق والطرق وقال الفقيه الكاتب أبو عبد الله المغيلي يتشوق إلى فاس وكان يلي خطة القضاء بمدينة أزمور يا فاس الله أرضك من ثرى وسقاك من صوب الغمام المسبل يا جنة الدنيا التي أربت على حمص بمنظرها البيهي الأجلل غرف على غرف ويجري تحتها ماء أئذ من الرحيق السلسل وبساتن من سندس قد زخرقت بجدول كالأيم أو مالمفصل وجامع القرويين شرف نكرة أنس بذكراه يهيج تململ وبصحته زمن المصيف محاسن فمع العشي الغرب منه استقبل واجلس إزاء الخصة الحسنبا به واكرع بها عني فديتك وانهل

غزو إدريس بن إدريس المغربيين واستيلاؤه عليها لما فرغ إدريس من بناء مدينة فاس وانتقل إليها بمحلته واستوطنها بحاشيته وأرباب دولته واتخذها دار ملكه أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة فخرج غازيا بلاد المصامدة فانتبه إليها واستولى عليها ودخل مدينة نفيس ومدينة أغمات وفتح سائر بلاد المصامدة وعاد إلى فاس فأقام بها إلى سنة تسع وتسعين ومائة فخرج في المحرم برسم غزو قبائل نفزة من أهل المغرب الأوسط ومن بقي هناك على دين الخارجية من البربر فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان فنظر في أحوالها وأصلح سورها وجامعها وصنع فيها منيرا قال أبو مروان عبد الملك الوراق دخلت مدينة تلمسان سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرايت في راس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك مكتوبا فيه هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم في شهر المحرم سنة تسع وتسعين ومائة اه وقد تقدم لنا ما يخالف هذا والله أعلم وأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازا يدبر أمرها ويصلح أحوالها ثلاث سنين ثم رجع إلى مدينة فاس قال داود بن القاسم الأوربي شهدت مع إدريس بن إدريس بعض

غزواته مع الخوارج الصفرية من البربر فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا فلما تقارب الجمعان نزل إدريس فتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ثم ركب فرسه وتقدم للقتال قال فقاتلناهم قتالا شديدا فكان إدريس يضرب حتى ارتفع النهار ثم رجع إلى رايته فوقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه فطففت أتامله وأديم النظر إليه وهو تحت ظلال البود يحرص الناس ويشجعهم فأعجبني ما رأيت من ثباته وقوة جأشه فالتفت نحوي وقال يا داود ما لي أراك تديم النظر إلي قلت أيها الإمام إنه قد أعجبني منك خصال لم أرها اليوم في غيرك قال وما هي قلت أولاها ما أراه من ثبات قلبك وطلاقة وجهك عند لقاء العدو قال ذلك ببركة جدنا صلى الله عليه وسلم ودعائه لنا وصلاته علينا ووراثته من أبينا علي بن أبي طالب قلت وأراك تبصق بصاقا مجتمعا وأنا أطلب قليل الريق في فمي فلا أجد قال يا داود ذلك لقوة جأشي واجتماع لي عند الحرب وعدم ريقك لطيش عقاك واقتراق ليك قلت وأنا أيضا أتعجب من كثرة تغلبك في سرجك وقلة قرارك عليه قال ذلك مني زعم إلى القتال وصرامة فيه فلا تظنه رعبا وأنشأ يقول أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب فلما نمل الحرب حتى تملنا ولا نشتهي مما يؤول من النصب

وفاة إدريس بن إدريس رحمه الله قال ابن خلدون انتظمت لإدريس بن إدريس كلمة البربر كلمة البربر ومحي دعوة الخوارج منهم واقتطع المغربيين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى غلى وادي شلف ودافع إبراهيم بن الأغلبن عن حماه بعد ما ضابقه بالمكاييد واستفساد الأولياء حتى قتلوا راشد مولاه وارتاب إدريس بالبربر فصالح بين الأغلبن وسكن من غربه وضرب السكة باسمه وعجز الأغالبة بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدراسة ودافعوا خلفاء بين العباس بالمعادير الباطلة وصفا ملك المغرب لإدريس واستمر بدار ملكه من فاس ساكنا وادعا مقتعدا أريكته مجتئيا ثمرته إلى أن توفاه الله ثاني جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين وعمره نحو ست وثلاثين سنة ودفن بمسجده بإزاء الحائط الشرقي منه وقال البرنسي إنه توفي بمدينة ولبلى ودفن إلى جنب أبيه وكان سبب وفاته أنه أكل عنبا فشرق بحية منه فمات لحينه وخلف من الولد

الثاني عشر ذكرا أولهم محمد وعبد الله وعيسى وإدريس وأحمد وجعفر ويحيى والقاسم وعمر وعلي وداود وحزمة كذا في القرطاس وزاد ابن حزم الحسن والحسين وولي الأمر منهم بعده محمد وهو أكبرهم

الخبر عن دولة محمد بن إدريس رحمه الله لما توفي إدريس بن إدريس رحمه الله قام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه إليه ولما ولي قسم بلاد المغرب بين أخوته وذلك بإشارة جدته كززة أم إدريس فاخصت القاسم منها بطنجة وسبتة وقصر مصمودة وقلعة حجر النسر وتطوان وما انضم إلى ذلك من القبائل والبلاد واختص عمر منها بتيكاس وترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة واختص داود ببلاد هوارة وتسول وتازا وما بين ذلك من قبائل مكناسة وغيانة واختص يحيى بأصيلا والعراسش والبصرة وبلاد ورغة وما على ذلك من القبائل واختص حمزة بمدينة وليلي وأعمالها واختص أحمد بمدينة مكناسة ومدينة تادلا وما بينهما ببلاد فازان واختص عبد الله بأغامت وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى وأبقى الآخرين في كفالته وكفالة جدتهم كززة لصغيرهم وبقيت تلمسان لولد عمه سليمان بن عبد الله فإن إدريس بن إدريس لما غزا تلمسان وأقام بها ثلاث سنين كما سبق ودوخ بلاد زناتة واستوسقت له طاعتهم عقد عليها لبني عمه سليمان بن عبد الله فلما توفي إدريس واقتسم بنوه أعمال المغرب كانت تلمسان في سهم عيسى بن إدريس بن

محمد بن سليمان بن عبد الله واستمرت بأيديهم إلى أن تلاشى أمرهم بدخول العبيدين عليهم قاله ابن خلدون وأقام محمد بن إدريس بدار مكة من فاس مقتعدا على أريكته وأخوته ولاة على بلاد المغرب قد ضبطوا أعمالها وسدوا ثغورها وأمنوا سبلها وحسنت سيرتهم في ذلك إلى أن كان ما تذكره حدوث الفتنة بين بني إدريس ثم خرج على محمد بن إدريس أخوه عيسى بمدينة أزموور ونيز طاعته وطلب الأمر لنفسه فكتب محمد إلى أخيه القاسم صاحب طنجة يأمره بحرب عيسى فامتنع من ذلك فكتب محمد إلى أخيه عمر صاحب تيكاس بمثل ما كتب به إلى القاسم فامتثل أمره وزحف إلى عيسى في قبائل البربر وأمه محمد بألف فارس من وناتة فأوقع عمر بعيسى وهزمه وطرده عن عمله وكتب إلى الأمير محمد بالفتح فشكره على ذلك وولاه على ما فتحه من عمل عيسى وأمره مع ذلك بالمسير إلى قتال القاسم الذي عصى أمره أولا فزحف عمر إلى القاسم ونزل عليه بظاهر طنجة فخرج إليه القاسم ودارت بينهما حرب شديدة هزم فيها القاسم واستولى عمر على ما بيده من البلاد فصار الريف البحري كله في عمل عمر من تيكاس وبلاد غمارة إلى سبتة ثم إلى طنجة وهذا ساحل البحر الرومي ثم ينقطع إلى أصيلا والعراسش ثم إلى سلا ثم أزموور وبلاد تامسنا وهذا ساحل البحر قرب أصيلا بموضع يعرف بتاهدرات على ضفة النهر هناك وأعرض عن الدنيا وأقام يعبد الله إلى أن مات رحمه الله واتسعت ولاية عمر بن إدريس وخلصت طويته لأخيه محمد الأمير إلى أن توفي عمر بموضع يعرف بفتح الفرس من بلاد صنهاجة في دولة أخيه محمد

سنة عشرين ومائتين فحمل إلى فاس وصلى عليه الأمير محمد ودفن مع أبيه وعمر هذا هو جد الأشراف الحموديين المالكيين للأندلس بعد بني أمية وعقد الأمير محمد على عمله لولده علي بن عمر إلى أن كان من أمره ما ذكره وأما عيسى فيقال إنه توفي بآيت عتاب وله بها ذرية والله أعلم وفاة محمد بن إدريس رحمه الله وأقام الأمير محمد بن إدريس بعد وفاة أخيه عمر سبعة أشهر وتوفي بمدينة فاس في ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائتين ودفن بشرفي جامعها مع أبيه وأخيه بعد أن عهد بالأمر لابنه علي بن محمد المعروف بحيدرة على ما سيأتي الخبر عن دولة علي بن محمد بن إدريس لما توفي محمد بن إدريس بإيع لابنه علي بن محمد بعهد منه إليه ويلقب علي هذا بحيدرة على لقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو جد الأشراف العلميين أهل جبل العلم ومنهم المشيشيون أولاد مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه والوزانيون أولاد مولانا عبد الله الشريف وينتهي نسب هؤلاء إلى المولى بلح بن مشيش أخي المولى عبد السلام بن مشيش وكان سن علي حيدرة يوم بويع تسع سنين وأربعة أشهر فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب والبربر وأحسنوا كفالته وطاعته وكانت أيامه خير أيام وقال ابن أبي زرع ظهر لعلي هذا من الذكاء والفضل ما يقتضيه شرفه

وسار بسيرة أبيه وجده في العدل فكان الناس في أيامه في أمن ودعة إلى أن توفي في شهر رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين وعهد بالأمر لأخيه يحيى بن محمد على ما سيأتي الخبر عن دولة يحيى بن محمد بن إدريس قال ابن خلدون قام يحيى بن محمد بن إدريس بالأمر وامتد سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستبحر عمران فاس وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت خارجها الأرباض ورحل إليها الناس من الثغور القاصية وقال ابن أبي زرع قصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب بناء مسجد القرويين بفاس قال ابن أبي زرع كان موضع مسج القرويين أرضا بيضاء لرجل من هوارة كان والده قد حازها أيام بناء فاس ولما قدم وفد القيروان على إدريس الأصغر حسبما تقدم كان فيهم امرأة اسمها فاطمة بنت محمد الفهري وتكنى أم البنين فنزلت في أهل بيتها بالقرب من موضع المسجد المذكور ثم مات زوجها وإخواتها فورثت منهم مالا جسيما وكان من حلال فأرادت أن تنفقه في وجوه الخير وكانت لها نية صالحة فعزمت على بناء مسجد تجد ثوابه عند الله فاشترت البقعة م ربتها وشرعت في حفر أساس المسجد وبناء جدرانه وذلك يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين فبنته بالطابية والكدان

وكانت الطريقة التي سلكتها في بنائه أنها التزمت أن تأخذ التراب وغيره من مادة البناء من نفس البقعة دون غيرها مما هو خارج عن مساحتها فحفرت في أعماقها كهوفا وجعلت تستخرج منها التراب الجيد والحجر الكدان وتبني به وأنيطت بها بئرا يستقى منها الماء للبناء والشرب وغير ذلك وكان ذلك كله تحريا منها أن لا تدخل في بناء المسجد شبهة فعادت بركة نيتها وورعها على المسجد المذكور حتى كان منه ما ترى قالوا ولم تزل فاطمة المذكورة صائمة من يوم شرع في بنائه إلى أن تم وصلت فيه شكرا لله تعالى وكانت مساحة المسجد يوم بني أربع بلاطات وصحنا صغيرا وجعلت محرابه في موضع الثريا الكبرى وجعلت طولها من الغرب إلى الشرق مائة وخمسين شبرا وبنيت به صومعة غير مرتفعة بموضع القبة التي على رأس العزة اليوم واستمر الحال على ذلك إلى أن انقضت دولة الأدارسة وجاءت دولة زناتة من بعدها وأداروا السور على العدوتين معا القرويين والأندلس وزادوا في مسجديهما زيادة كثيرة فنقلوا الخطبة من مسجد الشرفاء إلى مسجد القرويين ومن مسجد الأشياخ إلى مسجد الأندلس وذلك صدر المائة الرابعة ثم لما استولى عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس على فاس وبلاد العدو استعمل على فاس عاملا له اسمه أحمد بن أبي بكر الزناتي ثم اليفرنى فاستأنن الناصر في إصلاح مسجد القرويين والزيادة فيه فأذن له وبعث إليه بمال من خمس الغنائم فزاد فيه زيادة بيينة وأزال الصومعة القديمة عن موضعها وبنى الصومعة الموجودة الآن وكتب على بابها في مربعة بالجص واللازورد هذا ما أمر به أحمد بن أبي بكر الزناتي هده

الله ووقفه ابتغاء ثواب الله وجزيل إحسانه وابتدأ العمل في هذه الصومعة يوم الاثنين غرة رجب سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وفرغ م بنائها في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وركب في أعلى المنارة سيف الإمام إدريس بن إدريس تبركا به وذلك أن بعض حفدة إدريس رحمه الله تنازعوا في السيف المذكور وأراد كل أن يحوزه لنفسه فقال لهم الأمير أحمد بن أبي بكر هل لكم في أن تبيعوني هذا السيف قالوا وما نصنع به قال أجله في أعلى المنارة فقالوا أما إذا أردت هذا فنحن نهبه لك مجانا فوهبه له فركبه في أعلى المنارة وكانت مبنية من الحجر المنجور وفيها ثقب يشعش فيها الطير من الحمام والزرزور وغيرهما ويتأذى المسجد والناس بها واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت سنة ثمان وثمانين وسماتة أيام السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني فاستأنن القاضي أبو عبد الله بن أبي الصبر السلطان يوسف المذكور في تلبس المنارة وتبييضها فأذن له فلبسها وبيضاها وملكها حتى صارت كالمرأة الصقلية وقال ابن خلدون ثم أوسع في خطه المسجد المذكور المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس وأعد له السقاية والسلسلة بباب الحافة ثم أوسع في خطه علي بن يوسف اللمتوني ثم ملوك الموحدون وبني مرين واستمرت العمارة به وانصرفت همهم إلى تشييده والمنافسة في الاهتبال به فبلغ الاحتفال فيه ما شاء حسبما هو مذكور في تواريخ المغرب

أه وفي أيام يحيى بن محمد صاحب الترجمة وذلك في سنة سبع وثلاثين ومائتين قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدعي النبوة وتأول القرآن على غير الإبطيين والاستحداد وأخذ الزينة ويقول لا تغيير لخلق الله فأمر أمير تلمسان بالقبض عليه فهرب وركب البحر من مرسى هنين إلى الأندلس فشق بها أيضا خره وتبعه من سفهاء الناس أمة عظيمة إليه ملك الأندلس فاستتابه فلم يتب فقتله وصلبه وهو يقول أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله الخبر عن دولة يحيى بن محمد بن إدريس لما توفي يحيى بن محمد الذي بنى مسجد القرويين في أيامه ولي الأمر من بعده ابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس فأساء السيرة وكثر عيبه في الحرم ودخل على جارية من بنات اليهود في الحمام وكانت بارعة في الجمال فراودها عن نفسها فاستغاثت وبادر الناس إليها بالإنتكار وثابت العامة عليه وتولى كبر ذلك عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي وكانت زوجة يحيى المذكور وهي عاتكة بنت علي بن عمر بن إدريس صاحب الريف والسواحل أشارت عليه بالاختفاء بعودة الأندلس ريثما تسكن الفتنة فتوارى بها فمات من ليلته أسفا على ما صنع بنفسه وما وقع فيه من العار واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل على فاس وقام بأمرها فكتبت عاتكة بنت علي إلى أبيها تعلمه بالخبر واستدعاه مع ذلك أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجمع حشمه وجيشه وجاء إلى فاس فاستولى عليها وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس وصار بعد هذا تارة يكون في عقب عمر بن إدريس صاحب الريف وتارة يكون في عقب القاسم بن إدريس الزاهد على ما نذكره

الخبر عن دولة علي بن عمر بن إدريس لما دخل علي بن عمر مدينة فاس واستقر بها ببيعة الناس ودخلت الكافة في طاعته وخطب له على جميع منابر المغرب واستقام له الأمر إلى أن تار عليه عبد الرزاق الفهري وكان من الخوارج الصفرية وأصله من وشقة بلد بالأندلس فقام بجبال مديونة من أعمال فاس على مسيرة يوم ونصف منها فتبعه خلق كثير من البربر من مديونة وغياثة وغيرهم فبنى قلعة منيعة ببعض جبال مديونة وسماها وشقه باسم بلده قال ابن أبي زرع وهي باقية بتلك الناحية حتى الآن ثم زحف إلى قرية صفرون فدخلها وبايعه كافة البربر الصفرونية ثم زحف بهم إلى فاس فخرج إليه علي بن عمر إدريس في عسكر ضخم فكانت بينهم حرب شديدة كان الظفر في آخرها لعبد الرزاق فانهزم علي بن عمر وقتل خلق كثير من جنده وفر بنفسه إلى بلاد أوربة فدخل عبد الرزاق مدينة فاس وملك عدوة الأندلس وخطب لها بها وامتنع منه أهل عدوة القرويين وبعثوا على يحيى بن القاسم الزاهد وكان ما نذكره الخبر عن دولة يحيى بن القاسم بن إدريس لما فر علي بن عمر عن فاس واستولى عبد الرزاق الصفري على عدوة الأندلس بعث أهل فاس إلى يحيى بن القاسم بن إدريس ويعرف يحيى هذا بالعدم فوصل إليهم فبايعوه ووله على أنفسهم ويحيى العدم هذا هو جد الأشراف الجوطيين بفاس فإنيهم أولاد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العدم وإنما قيل له الجوطي نسبة إلى جوطه بضم الجيم وبالطاء

المهملة قرية كانت على نهر سبو بالعدوة الجنوبية منه نزلها يحيى بن محمد فنسب إليها وقبره معروف بها إلى الآن ولما استقل يحيى بن القاسم بالألم قاتل عبد الرزاق حتى أخرجه من عدوة الأندلس فدخلها وبايعه أهلها وجميع من نزل بها من أهل الأندلس الربضييين رضض قرطبة واستعمل يحيى بن القاسم عليهم ثعلبة بن محارب بن عبد الله الأزدي من ولد المهلب بن أبي صفرة وهو ربيضي أيضا فلم يزل واليا على عدوة الأندلس إلى أن توفي فاستعمل يحيى مكانه ولده محارب بن عبود بن ثعلبة وخرج الأمير يحيى بن القاسم إلى قتال الصفرية فكانت له معهم حروب ووقائع كثيرة ولم يزل أميرا على فاس وأعمالها إلى أن اغتالاه الربيع بن سليمان الثنتين وتسعين ومائتين وكانت في أيام هؤلاء الأمراء أحداث تذكرها ففي سنة ثلاث وخمسين ومائتين كان ببلاد العدوة والأندلس قحط شديد نضبت منه المياه واستمر إلى سنة ستين وفي سنة أربع وخمسين كسف القمر كله من أول الليل حتى أصبح ولم ينجل وفي سنة ستين ومائتين عم القحط والغلاء جميع بلاد الأندلس والمغرب وإفريقية ومصر والحجاز حتى رحل الناس عن مكة إلى الشام ولم يبق بها غلا نفر يسير مع سدنة الكعبة ثم كان بالمغرب والأندلس وباء عظيم مع غلاء في الأسعار وعدمت الأقوات فهلك خلق كثير وفي سنة ست وستين ومائتين كانت بالسماء حمرة شديدة من أول الليل إلى آخره لم يعهد قبلها مثلها وذلك ليلة السبت لتسع بقين من صفر من السنة المذكورة وفي سنة سبع وستين ومائتين في يوم الخميس الثاني والعشرين من

شوال منها كانت زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلا تهدمت منها القصور وانحطت منها الصخور من الجبال وفر الناس من المن إلى البرية من شدة اضطراب الأرض وتساقطت السقوف والحيطان وفرت الطيور عن أوكارها وماجت في السماء زمانا حتى سكنت الزلزلة وعم هذه الرجفة جميع بلاد الأندلس سهلها وجبالها وجميع بلاد العدوة من تلمسان إلى طنجة ومن البحر الرومي إلى أقصى المغرب إلا أنها لم يمت فيها أحد لطفما من الله تعالى بخلفه وفي سنة ست وسبعين ومائتين طبقت الفتنة جميع أفاق الأندلس والمغرب وإفريقية وفي سنة خمس ومائتين كانت المجاعة الشديدة التي عمت جميع بلاد الأندلس وبلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا ثم عقب ذلك وباء ومرض وموت كبير هلك فيه من الخلق ما لا يحصى فكان يدفن في القبر الواحد عدد من الناس كثرة الموتى وقلة من يقوم بهم وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة والأمر لله وحده الخبر عن دولة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس لما قتل يحيى العدم في التاريخ المتقدم من الأمر من بعده يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس فبايعه أهل عدوة فاس وخطب له بهما وامتد ملكه على جميع أعمال المغرب وخطب له على سائر منابره وكان يحيى هذا واسطة عقد البيت الإدريسي أعلاهم قدرا وأبعدهم ذكرا وأكثرهم عدلا وأغزرهم فضلا وأوسعهم ملكا وكان فقيها حافظا للحديث ذا فصاحة وبيان بطلا شجاعا حازما ذا صلاح

ودين وورع قال ابن خلدون لم يبلغ أحد من الأدراسة مبلغه في الدولة والسلطان إلى أن طما على ملكه عياب العبيديين القائمين بإفريقية فأغرقه استيلاء العبيديين من الشيعة على المغرب الأقصى وقدم قائدهم مصالة بن حبوس إلى فاس قد قدمنا عند ذكر ولاية المغرب أن إبراهيم بن الأغلب كان أخراهم وأنه أوثق بإفريقية ملكا لئنه فاستمرت دولتهم بها إلى أواخر المائة الثالثة وانقرضت على يد أبي عبد الله المحتسب داعية العبيديين من الشيعة فإن المحتسب حج في بعض السنين واجتمع بمكة بحجاج كتامة من أهل المغرب فتعرف إليهم ووعدهم بظهور المهدي من آل البيت على يدهم ويكون لهم به الملك والسلطان فتبعوه على رأيه وصحبهم إلى بلادهم ورأس فيهم رئاسة دينية وقرر لهم مذهب الشيعة فاتبعوه وتمسكوا به ثم بايعوا مولاة عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين فاستولى على إفريقية في خبر طويل ثم سمت همته إلى تملك المغرب الأقصى فأغراه قائده مصالة بن حبوس المكناسي صاحب تاهرت والمغرب الأوسط فزحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلاثمائة وانتهى إلى فاس فبرز إليه يحيى بن إدريس لمدافته في جموع العرب والبربر والموالي والتقوا بقرق مكناسة فانهزم يحيى وعاد مفلولا إلى فاس ثم تقدم مصالة إلى فاس وحاصرها إلى أن صالحه يحيى على مال يؤديه إليه وعلى البيعة لعبيد الله المهدي فقبل يحيى الشرط وخرج عن الأمر وأنفذ بيعته إلى المهدي وأبقى عليه مصالة في سكنى فاس وعقد له على عملها خاصة وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية المكناسي على ما سوى ذلك من بلاد المغرب وكان موسى هذا صاحب نسولبلاد نازا وكان كبير مكناسة بالمغرب الأقصى على الإطلاق وكان قد خدم مصالة حين قدم المغرب وتعرف إليه وهاداه وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب فحسنت منزلته لديه وولاه بلاد المغرب كلها عدى فاسا وأعمالها فإنه تركها للأمير يحيى كما قلنا

وصار المغرب الأقصى في ملكه العبيديين واندرجت دولة الأدراسة في دولتهم فكان موسى بن أبي العافية بعد ذهاب مصالة كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد به عمره يحيى بن إدريس بحبسه ونسبه وفضله ودينه فقطع به كلما كان يريد ففان على قلب موسى منه حمل ثقيل فلما قدم مصالة المغرب في كرتة الثانية وذلك سنة تسع وثلاثمائة سعى موسى بن أبي العافية عنده يبيح للقائه والسلام عليه في جماعة من وجوه دولته فقبض مصالة عليهم وقيدهم بالحدود وتقدم إلى فاس فدخلها ويحيى بين يديه موثقا على جملته عنده بأنواع العذاب حتى استصفى أمواله ونخاثره ثم نفاه إلى نواحي أصيلا وقد ساءت حاله وانفض جمعه فاقام عند بني عمه ببلاد الريف مدة فاعطوه مالا ووصلوه بما يقيم به أوده ويستعين به على امره فلم يرض ذلك وارتحل عنهم يريد إفريقية فعرض له موسى بن أبي العافية في طريقة فقبض عليه وسجنه بمدينة الكافي قريبا من عشرين سنة ثم أطلقه بعد ذلك قالوا وكان أبوه إدريس بن عمر قد دعا عليه أن يميتة الله جانعا غربيا فاستجيب له فيه فخرج يحيى من سجن ابن أبي العافية

إلى إفريقي وهو في فقر وذلة قد بلغ سوء الحال منه كل مبلغ فوصل إلى المهديّة على تلك الحال فوافق بها فتنة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى وحصاره إياها فمات بها جانعا غربيا سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة رحمه الله

عود المغرب الأقصى إلى الأدارسة وظهر الحسن الحجام بن محمد بن القاسم ب إدريس لما قبض مصالمة على يحيى بن إدريس واستصفى أمواله كما قلنا استعمل على فاس ربحان الكتامي وعاد إلى القيروان فأقام ربحان عاملا على فاس وأحوازها نحو ثلاثة أشهر وثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام وعرف بذلك لأنه كان بينه وبين عمه أحمد بن القاسم بن إدريس حرب فحمل الحسن على فاس من أصحاب عمه فطعنه في موضع المحاجم ثم فعل ذلك بثان وثالث لا يطعنهم إلا في موضع المحاجم فقاتل عمه أحمد بن إدريس فمات فلهذا كان لقبه في ذلك يقول بعضهم وسميت حجاما ولست بحاجم ولكن لطنع في مكان المحاجم وكانت ثورة الحجام على ربحان سنة عشر وثلاثمائة أتى إلى فاس في جمع من شيعته وأنصاره وكان مقداما شجاعا فدخلها على حين غفلة من أهلها فاستولى عليها وقتل ربحان وقيل نفاه عنها واجتمع الناس على بيعته ودخل في طاعته أكثر قبائل البربر بالمغرب وملك عدة مدن مثل مدينة لواتة وصفرون ومدين ومداين مكناسة والبصرة واستقام له الأمر بالمغرب إلى أن كان منه مع موسى بن أبي العافية ما نذكره

خروج السحن الحجام إلى قتال موسى بن أبي العافية قال في القرطاس وفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة خرج الأمير الحسن الحجام إلى قتال موسى بن أبي العافية فالتقى معه بفحص الزاد على مقربة من وادي المطاحن ما بين فاس وتازا فأوقع الحجام بابن أبي العافية وقعة عظيمة لم يقع في دولة الأدارسة مثلها قتل فيها من عسكر ابن أبي العافية نحو ألفين وثلاثمائة من جملة ابنه منهال بن موسى بن أبي العافية وقتل من عسكر الحجام نحو السبعمائة ثم كانت العافية لموسى بن أبي العافية فاتفق عسكر الحجام وعاد مفلولا إلى فاس ففعل الحجام ودخل فاسا وحده وترك عسكره خارج المدينة فغدر به عامله عليها حامد بن حمدان الهمداني ويقال الأوربي من قرى إفريقية دخل عليه ليلا في داره فقيده وأخذ إليه وأغلق المدينة في وجه الجند وطير إلى موسى بن أبي العافية يستدعيه إلى فاس وكان ما نذكره الخبر عن دولة آل أبي العافية المكناسيين الناسخة لدولة آل إدريس بفاس وأعمالها وكان موسى بن أبي العافية متمسكا في هذه المدة بدعوة العبيد بين من الشيعة فلما قبض حامد بن حمدان على الحسن الحجام واستولى ابن أبي العافية بادر نحوه فدخل عدوة القرويين واستولى عليها ثم قاتل أهل عدوة الأندلس حتى ملكها فلما ملك المدينتين معا طالب حامد بن حمدان بإحضار الحسن الحجام وقال أقتله بولدي منهال وكان حامد قد ندم على فعلته تلك فدافع موسى وسوفه وكره المجاهرة بسفك دماء آل البيت ولما جن الليل خالف حامد إلى الحسن ففك عنه قيده

وأرسله فتدلى الحسن من السور فسقط وانكسرت ساقه فحمل حتى انتهى إلى عدوة الأندلس فاخفى بها إلى أن مات لمضي ثلاث من سقطته رحمه الله وذلك سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وأراد ابن أبي العافية قتل حامد بن حمدان لعدم تمكنه إياه من الحجام ففر إلى المهديّة وكانت دولة الحسن الحجام بفاس نحو سنتين وانقضت دولة آل إدريس من فاس وأعمالها وتداول المغرب الأقصى العبيديون أصحاب إفريقية والمروانيون أصحاب الأندلس مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء وتجددت للأدارسة دولة أخرى ببلاد الريف نذكرها عن قريب إن شاء الله وصفت فاس وأعمالها لابن أبي العافية وملك معها كثيرا من أعمال المغرب وبليغته القبائل والأشباخ وهو في ذلك كله متمسك بدعوة الشيعة كما قلنا فكان كالثابت عنهم بالمغرب والله غالب على أمره طرد موسى بن أبي العافية آل إدريس من أعمال المغرب وحصره إياهم بحجر النسر لما استولى موسى بن أبي العافية على فاس والمغرب شمر لطرده الأدارسة عنه فأخرجهم من ديارهم وأجلاهم عن بلادهم من شالة وأصيلا وغيرهما من البلاد التي كانت في أيديهم ولجؤوا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التي أسسها سلفهم وكانت قلعة حجر النسر حصنا منيعا بناه محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس شامخا في عنان السحاب فنزل عليهم

موسى بن أبي العافية وشدد عليهم الحصار وأراد استئصالهم وقطع دابرهم فعذله على ذلك أكابر دولته وقالوا له أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتخليه منهم هذا الشيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له فاستحيا عند ذلك وارتحل عنهم إلى فاس وخلف على حصارهم قائده أبا الفتح التسولي في ألف فارس يمنعون من التصرف وكان ذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة استيلاء موسى بن أبي العافية على تلمسان وأعمالها لما ارتحل موسى بن أبي العافية عن حجر النسر سار إلى فاس فأقام بها أياما وقتل عامله على عدوة الأندلس عبد الله بن ثعلبة بن محارب بن عبود الأزدي وولى مكانه أخاه محمد بن ثعلبة ثم عزله وولى مكانه طوال بن أبي يزيد فلم يزل عاملا عليه إلى أن خرجت فاس عن يد ابن أبي العافية واستعمل موسى على المغرب الأقصى ولده مدين بن موسى بن أبي العافية وأنزله بدعوة القرويين ثم نهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة وثلاثمائة فملكها وأعمالها وكانت بيد الحسن بن أبي العيش من أعقاب سليمان بن عبد الله أخي حصنا وتحصن به ثم زحف ابن أبي العافية إلى مدينة نكور فملكها أيضا وحاصر الحسن في حصنه مدة ثم عقد له سلما على حصنه وكان ذلك في شعبان سنة عشرين وثلاثمائة ثم عاد إلى فاس وقد دوخ البلاد والأقطار وانتظم المغريان الأقصى والأوسط في ملكه

انحرف موسى بن أبي العافية عن الشيعة إلى بني مروان وما نشأ عن ذلك كان عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس قد سما له أمل في التملك على المغرب الأقصى لما بلغه من تراجع أمر بني إدريس به وإشراف دولتهم على الهرم فملك سبتة من يد بني عصام القائمين بها بالدعوة الإدريسية ولما استولى موسى بن أبي العافية على المغرب خاطبه الناصر في القيام بدعوته ووعده الجميل على ذلك وآتاه من بين يديه ومن خلفه حتى أجابه إلى مراده ونقض طاعة الشيعة وخطب للناصر على منابر عمله فاتصل الخبر بعبيد الله المهدي صاحب إفريقية فسرح إليه قائده حميد بن يصلين المكناسي صاحب تاهرت في عشرة آلاف فارس وهو ابن أخي مصالمة بن حبوس المقدم الذكر فالتقى حميد وموسى بفحص مسون فكانت بينهما حرب سجال ثم إن حميدا بيت موسى ليلة فحضر في عسكره فانهزم موسى وأصحابه ومضى إلى عين إسحاق من بلاد تسول فتحصن بها وتقدم حميد إلى فاس فلما شارفها فرعها مدين بن موسى ولحق بابيه فدخلها حميد واستعمل عليها حامد بن حمدان الهمداني وكان في جملة ثم عاد إلى إفريقية وقد قضى إربه من المغرب وكان ذلك سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ولما اتصل ببني إدريس المحصورين بحجر النسر خبر هزيمة موسى بن أبي العافية وفرارا ابنه عن فاس وولاية حامد بن حمدان عليها قويت نفوسهم

وتظاهروا على أبي الفتح التسولي فنزلوا إليه وقتلوه وهزموه ونهبوا معسكره وخرجوا إلى القضاء بعد انحصارهم بالقلعة المذكورة أربع سنين ثورة أحمد بن بكر الجذامي بدعوة المروانيين بفاس وما نشأ عن ذلك وأقام حامد بن حمدان واليا على فاس من قبل الشيعة إلى أن ثار عليه أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامي وذلك عقب وفاة عبيد الله المهدي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فقتل حامد بن حمدان وبعث برأسه وبولده إلى موسى بن أبي العافية فبعث به موسى إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة واستولى على المغرب وعادت الدعوة به إلى بني مروان ولما اتصل الخبر بصاحب إفريقية أبي بصاحب إفريقية أبي القاسم بن عبيد الله المهدي المتولي بعد أبيه سرح قائده ميسورا الخصي إلى المغرب فقدمه ميسور سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وخام ابن أبي العافية عن لقائه واعتم بصحن الكاي وتقدم ميسور إلى فاس فحاصرها أياما إلى أن خرج إليه أحمد بن بكر مبابعا وقدم بين يديه هدية نفيسة ومالا جليلا فقبض ميسور الهدية والمال ثم قبض على أحمد بن بكر وقيده وبعث به إلى المهديّة ولما نذر أهل فاس بغيره امتنعوا عليه وأغلقوا أبوابهم دونه وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتي فحاصروهم ميسور سبعة أشهر ولما طال عليهم الحصار رغبوا في السلم فصالحهم على أن أعطوه سنة ألف دينار وأنطاعا ولبودا وقبرا للماء وأثا وكتبوا ببيعتهم إلى أبي القاسم الشيعي وكتبوا اسمه في سكتهم وخطبوا له على منابرهم فقبل ميسور ذلك منهم وأقر عليهم حسن بن قاسم اللواتي وارتحل عنهم واستمر حسن عاملا على فاس إلى أن قدم أحمد بن بكر من المهديّة مطلقا مكرما فتخلى له عن ما

كان بيده وذلك في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة فكانت ولاية حسن بن القاسم على فاس ثمان عشرة سنة قاله في القرطاس وقال ابن خلدون إن أحمد بن بكر الجذامي قدم من إفريقية سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فسار إلى فاس وأقام بها متكررا إلى أن وثب بعاملها حسن بن قاسم اللواتي

فتخلّى له عن العمل والله أعلم حرب ميسور مع موسى بن أبي العافية لما صالح ميسور أهل فاس نهض إلى حرب ابن أبي العافية فدارت بينهم حروب كان الظهور في آخرها لميسور وأسر البوري بن موسى بن أبي العافية وغربه إلى المهديّة وطرده موسى على أعمال المغرب إلى نواحي ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء ثم قتل إلى القيروان وقال ابن أبي زرع في كتاب القرطاس إن بني إدريس تولوا معظم الحروب التي دارت بين ميسور وبين ابن العافية وإنهم قاتلوا ابن أبي العافية حتى فر أمامهم إلى لاصحراء قال وتملك الأدارسة أكثر ما كان بيد ابن أبي العافية قائمين بدعوة الشيعة فلم يزل ابن أبي مدينة أكرسيف إلى مدينة نكور إلى أن قتل ببعض بلاد ملوية وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وقيل إنه قتل سنة ثمان وعشرين قاله البرنسي اه كلام ابن أبي زرع وقال ابن خلدون إن موسى بن أبي العافية رجع من الصحراء إلى أعماله بالمغرب فملكها وولى على عدوة الأندلس أبا يوسف بن محارب الأزدي قال وهو الذي مدن عدوة الأندلس وكانت حصونا ثم زحف إلى تلمسان سنة خمس وعشرين وثلاثمائة فاستولى عليها قال واستفحل أمر ابن أبي العافية بالمغرب الأقصى واتصل عمله محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط وبثوا دعوة الأموية في أعمالها والله أعلم بقية أخبار آل أبي العافية بالمغرب قال ابن أبي زرع لما هلك موسى بن أبي العافية ولي بعده ابنه براهيم إلى أن توفي سنة خمسين وثلاثمائة فولّي بعده ابنه عبد الله ويقال عبد الرحمن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية إلى أن توفي سنة ستين وثلاثمائة وذكر بعض المؤرخين لأيامهم أنه لما توفي محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية ولي بعده ابنه القاسم بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية فكانت بينه وبينهم حروب إلى أن غلب عليه يوسف بن تاشفين فقتله واستأصل شافة ذرية موسى بن أبي العافية بالمغرب وكانت دولتهم مائة وأربعين سنة من سنة خمس وتلاثين إلى سنة خمس وأربعين وأربعمئة اه ولكن دولتهم بفاس انتهت إلى قدم ميسور الخصي كما مر وبقيت رياستهم بالأطراف إلى دولة اللمونييين والله أعلم وكان في هذه المدة من الأحداث ما نذكره ففي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شوال سنة تسع وتسعين ومائتين كسفت الشمس كسوفاً كلياً وكان ذلك بعد صلاة العصر فغاب القرص كله وظهرت النجوم وأذن أكثر الناس بالمساجد للمغرب ثم تجلت مضئنة بعد ذلك ومكثت مقدار ثلث ساعة ثم غربت وفي سنة ثلاث وثلاثمائة كان بإفريقية والمغرب والأندلس فتن كثيرة ومجاعة عظيمة أشبهت مجاعة سنة ستين ومائتين ثم وقع الموت في الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم وفي سنة خمس وثلاثمائة أحرقت النار أسواق مدينة فاس وأسواق

تاهرت قاعدة زناتة وأحرقت أسواق قرطبة وأرباض مكناسة من بلاد جوف الأندلس وكان ذلك في شوال من السنة المذكورة فسميت سنة النار وفي سنة سبع وثلاثمائة كان بإفريقية والمغرب والأندلس رخاء مفرط وطاعون ووباء كثير وفيها كانت الريح السوداء الشديدة الهبوب التي قلعَت الأشجار وهدمت النور بفاس فقاتب الناس ولزموا المساجد وارتدعوا عن كثير من الفواحش وفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ظهر حاميم المتنبئ بجبال غمارة قال ابن خلدون كانت غمارة غريقة في الجهالة والبعد عن الشرائع بسبب البداوة والانتباز عن مواطن الخير وتبنا فيهم من قبيلة يقال لها محسكة حاميم بن من الله يكنى أبا محمد وبنى أبوه من الله أبا يخلف ومان ظهوره بجبل حاميم المشتهر به قريبا من تطوان واجتمع إليه كثير من غمارة وأقروا بنبوته وشرع لهم شرائع وعبادات وصنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه فمما شرع لهم صلاتان في كل يوم واحدة عند طلوع الشمس والأخرى عند غروبها ثلاث ركعات في كل صلاة ويسجدون وبطون أيديهم تحت وجوههم ومن قرأنهم الذي كانوا يقرؤونه بعد تهليل يهللون به بلسانهم خلني من الذنوب يا من خلني النظر ينظر في الدنيا أخرجني من الذنوب يا من أخرج يونس من بطن الحوت وموسى من البحر ثم يقول في ركوعه أمّنت بحاميم وبأبيه أبي يخلف من الله وآمن رأسي وعقلي وما يكنه صدري وما أحاط به دمي ولحمي وأمّنت بتالية عمه حاميم أخت أبي يخلف من الله ثم يسجد وكانت تالية هذه امرأة كاهنة ساحرة وكان حاميم يلقب المقفري وكانت أخته دبو كاهنة ساحرة أيضا وكانوا يستغيثون بها فيالحرب والقحوط وفرض عليهم صوم الاثنين وصوم الخميس إلى الظهر وصوم الجمعة وصوم عشرة أيام من رمضان ويومين من شوال ومن أفطر في يوم الخميس عمدا فكفارته أن يتصدق بثلاثة أثار ومن أفطر في يوم الاثنين فكفارته أن يتصدق بثورين وفرض عليهم في الزكاة العشر في كل

شيء وأسقط عنهم الحج والوضوء والغسل من الجنابة وأحل لهم أكل الأثني من الخنزير وقال إنما حرم قرآن محمد الخنزير الذكر وأمر أن لا يؤكل الحوت إلا بذكاة وحرّم عليهم أكل البيض وأكل الرأس من كل حيوان فيبعث إليه عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس عسكريا فالتقوه بقصر مصمودة من أحواز طنجة فقتلوه وقتلوا أتباعه وصلبوا شلوه بالقصر المذكور وبعثوا برأسه إلى الناصر بقرطبة ورجع من بقي من أتباعه إلى الإسلام وذلك سنة خمس عشر وثلاثمائة قال ابن خلدون وكان لابنه عيسى بن حاميم من بعده قدر جليل في غمارة وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ظهر ببلاد المغرب غمام كثيف دام خمسة أيام لم ير الناس فيها شمسا وكان الشخص لا يرى من الأرض فيه إلا موضع قدميه فقاتب الناس وأخرجوا الصدقات فكشف الله عنهم وما بهم وسميت سنة الغمام وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة نزل برد عظيم الواحدة منه تزن رطلا وأكثر قتل الطير والوحش والبهائم وكثيرا م الناس وكسر الأشجار وأفسد الثمار كان ذلك بأثر قحط شديد وغلاء عام وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة نزل أيضا برد كثير لم يعهد مثله كثرة قتل المواشي وأفسد الثمار وجاءت السيول العظيمة بجميع بلاد المغرب وكان بها رعود قاصفة وبروق خاطفة ودام ذلك أياما واستسقى الناس واستصحوا في هذه السنة وفيها أيضا كانت ريح شديدة هدمت المباني وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس هلك فيه أكثر الخلق وفي هذه المدة كان الشيخ أبو سعيد المصري المعروف بأبي سلهامة موجودا وهو من كبار صلحاء المغرب وقبره شهير قرب مشروع الحضر على ساحل البحر وعليه قبة عجيبة الصنعة محكمة العمل بالنقش والأصباغ والزليج الملون قال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن في مرآة المحاسن كان على رأس قبر الشيخ أبي سلهامة لوح مذهب مكتوب عليه هذه القبور الثلاثة التي أخفى الله تعالى فيها قبر الشيخ أبي سعيد المكنى أبي سلهامة وكانت وفاته سنة نيف وأربعين وثلاثمائة قال أبو عبد الله المذكور ثم إن النصارى نزلوا مرة هناك فاقتلعوا اللوح وذهبوا به قال وكان النيف الزائد على الأربعين مسمى في اللوح ولكني أنسيتّه ومع ذلك فهو لا يزيد على السبع والله تعالى أعلم الخبر عن الدولة الثانية للأدارسة ببلاد الريف هذه الدولة التي كانت للأدارسة ببلاد الريف لم تكن لهم على سبيل الاستقلال والاستبداد كما كانت لهم أولا بفاس والمغرب إنما كانوا فيها تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب إما من الشيعة أصحاب إفريقية وإما من المروانيين أصحاب الأندلس كما ستقف عليه واعلم أنا قد قدمنا أن بني إدريس كانوا قد اقتسموا أعمال المغرب بعد وفاة أبيهم إدريس رحمه الله وذلك بإرادة جدتهم كنزة وأن بلاد الريف منها كانت في سهم عمر بن إدريس وأنه قتل أخويه عيسى والقاسم وأضاف أعمالهما إلى عمله فبقيت بلاد الريف بيد بني عمر بن إدريس يتوارثونها خلفا عن سلف فلما انقرضت دولة آل إدريس بفاس على يد موسى بن أبي العافية انحازوا إلى بني عمهم وعشيرتهم ببلاد الريف وتحصنوا بقلعة حجر النسر كما سبق ولما قدم ميسور الخصي من إفريقية وأجلّى موسى بن أبي العافية إلى الصحراء أقام بنو إدريس بريفهم يتداولون رياسته تحت نظر الشيعة تارة وتحت نظر المروانيين أخرى إلى أن انقرضت دولتهم وذهبت رياستهم من المغرب بالكلية والله غالب على أمره

الخبر عن رئاسة القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس لما فر موسى بن أبي العافية أمام القائد ميسور إلى الصحراء صارت الرئاسة في المغرب بعده لأبي محمد بن القاسم بن إدريس وهما القاسم الملقب بكنون وشقيقه إبراهيم وهما معا أخوان للحسن الحجام الذي تقدم ذكره فاجتمع بنو إدريس وبايعوا القاسم المذكور فملك أكثر بلاد المغرب إلا فاسا فإنه لم يملكها وكان سكناه بقلعة حجر النسر واستمر على إمارته مقيما لدعوة الشيعة إلى أن توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فولّي بعده ابنه أبو العيش الخبر عن دولة أبي العيش امد بن القاسم كنون كان أبو العيش هذا فقيها ورعا حافيا للسير عارفا بأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر شجاعا جوادا وكان يعرف في بني إدريس بأحمد الفاضل وكان مائلا إلى بني مروان ولما ولي بعد أبيه قطع دعوة العبيديين في جميع عمله وبايع لعبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس وخطب له على جميع

المغرب بعد ذلك أياما واستسقى الناس واستصحوا في هذه السنة وفيها أيضا كانت ريح شديدة هدمت المباني وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس هلك فيه أكثر الخلق وفي هذه المدة كان الشيخ أبو سعيد المصري المعروف بأبي سلهامة موجودا وهو من كبار صلحاء المغرب وقبره شهير قرب مشروع الحضر على ساحل البحر وعليه قبة عجيبة الصنعة محكمة العمل بالنقش والأصباغ والزليج الملون قال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن في مرآة المحاسن كان على رأس قبر الشيخ أبي سلهامة لوح مذهب مكتوب عليه هذه القبور الثلاثة التي أخفى الله تعالى فيها قبر الشيخ أبي سعيد المكنى أبي سلهامة وكانت وفاته سنة نيف وأربعين وثلاثمائة قال أبو عبد الله المذكور ثم إن النصارى نزلوا مرة هناك فاقتلعوا اللوح وذهبوا به قال وكان النيف الزائد على الأربعين مسمى في اللوح ولكني أنسيتّه ومع ذلك فهو لا يزيد على السبع والله تعالى أعلم الخبر عن الدولة الثانية للأدارسة ببلاد الريف هذه الدولة التي كانت للأدارسة ببلاد الريف لم تكن لهم على سبيل الاستقلال والاستبداد كما كانت لهم أولا بفاس والمغرب إنما كانوا فيها تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب إما من الشيعة أصحاب إفريقية وإما من المروانيين أصحاب الأندلس كما ستقف عليه واعلم أنا قد قدمنا أن بني إدريس كانوا قد اقتسموا أعمال المغرب بعد وفاة أبيهم إدريس رحمه الله وذلك بإرادة جدتهم كنزة وأن بلاد الريف منها كانت في سهم عمر بن إدريس وأنه قتل أخويه عيسى والقاسم وأضاف أعمالهما إلى عمله فبقيت بلاد الريف بيد بني عمر بن إدريس يتوارثونها خلفا عن سلف فلما انقرضت دولة آل إدريس بفاس على يد موسى بن أبي العافية انحازوا إلى بني عمهم وعشيرتهم ببلاد الريف وتحصنوا بقلعة حجر النسر كما سبق ولما قدم ميسور الخصي من إفريقية وأجلّى موسى بن أبي العافية إلى الصحراء أقام بنو إدريس بريفهم يتداولون رياسته تحت نظر الشيعة تارة وتحت نظر المروانيين أخرى إلى أن انقرضت دولتهم وذهبت رياستهم من المغرب بالكلية والله غالب على أمره

الخبر عن رئاسة القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس لما فر موسى بن أبي العافية أمام القائد ميسور إلى الصحراء صارت الرئاسة في المغرب بعده لأبي محمد بن القاسم بن إدريس وهما القاسم الملقب بكنون وشقيقه إبراهيم وهما معا أخوان للحسن الحجام الذي تقدم ذكره فاجتمع بنو إدريس وبايعوا القاسم المذكور فملك أكثر بلاد المغرب إلا فاسا فإنه لم يملكها وكان سكناه بقلعة حجر النسر واستمر على إمارته مقيما لدعوة الشيعة إلى أن توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فولّي بعده ابنه أبو العيش الخبر عن دولة أبي العيش امد بن القاسم كنون كان أبو العيش هذا فقيها ورعا حافيا للسير عارفا بأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر شجاعا جوادا وكان يعرف في بني إدريس بأحمد الفاضل وكان مائلا إلى بني مروان ولما ولي بعد أبيه قطع دعوة العبيديين في جميع عمله وبايع لعبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس وخطب له على جميع

منابر عمله وبابع أبا العيش كافة أهل المغرب إلى سجماسة وكان السواد الأعظم من أهل المغرب الأقصى لهم محبة من جانب آل إدريس وإيثار لهم لا يبعون بهم بدلا مهما وجدوا إلى ذلك سبيلا

تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد المغرب ومضايقته لأبي العيش بها لما بايع أبو العيش لعبد الرحمن الناصر وخطب ل اقتراح عليه أن ينزل له عن طنجة ليضيفها إلى سبتة التي كان استولى عليها من قبل فامتنع أبو العيش من ذلك فبعث إليه الناصر بالأسطول والمقاتلة فحاصره وضيق عليه ولما رأى أبو العيش أنه لا طاقة له بحربه أجابه إلى ما سأل ونزل له عن طنجة وبقي أبو العيش مع إخوته وبني عمه من الأدارسة بمدينة البصرة وأصبلا تحت بيعة الناصر وفي كنفه متمسكين بدعوتهم وكانت قواد الناصر وجيوشه تجيز من الأندلس إلى العودة بقاتلون من خالف الأدارسة من البربر ويستألفونهم والناصر مدد لمن عجز منهم برجاله مقو لمن ضعف بماله حتى ملك أكثر بلاد المغرب وبابعته قبائله من زناتة والبربر وخطب له على منابره من تاهرت إلى طنجة ما عدا سجماسة فإنه قام بها في ذلك الوقت منادر البربري وبابع الناصر أهل فاس فيمن بابع من بلاد العودة فولى عليهم محمد بن الخير المغراوي وكان من أبسط ملوك زناتة بدا وعظهم شأنا و أحسنهم إلى ملوك بني أمية انباشا وأخلصهم طوية وكان لبني يفرن ومغراوة من زناتة ولاية للأمويين وتبشيع لهم وذلك بولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه لخدمهم صولات بن وزمار المغراوي الذي وفد عليه وأسلم على يده كما سبق في اخبار الفتح والله أعلم فسرت تلك الولاية فيعقب زناتة للأمويين عموما كما كان لصنهاجة من البربر ولاية آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأقام محمد بن الخير واليا على

مدينتي فاس نحو سنة وارتحل عنها إلى الأندلس برسم الجهاد عليها ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتي وهو الذي بنى صومعة مسجد القرويين سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كما سبق وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ولي الناصر على مدينة طنجة وأحوازها يعلى بن محمد اليفرنى فنزلها في قبائل يفرن وأمضى أمره ونهيه فيها هجرة أبي العيش إلى الأندلس بقصد الجهاد لما رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العودة هانت عليه رياستها فكتب عليه بقرطبة يستأنه في الجهاد فأذن له وأمر أن يبني له في كل منزل ينزله قصرا وذلك من الجزيرة الخضراء إلى الثغر وأن يجري له فيها ألف دينار في كل يوم ضيافة له ومن الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر فلم يزل على ذلك حتى وصل إلى الثغر فكانت منازلها من الجزيرة إلى الثغر ثلاثين منزلا لأمات أبو العيش رحمه الله شهيدا في جهاد الفرنج سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة الخبير عن دولة الحسن بن كنون لما خرج أبو العيش من الأندلس برسم الجهاد استخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون وهو القاسم بن محمد بن إدريس وهو آخر ملوك الأدراسة بالمغرب ولم يزل مواليا للمروانيين متمسكا بدعوتهم إلى أن كان ما نذكره

قدوم القائد جوهر الشيعي من إفريقيا إلى المغرب واستيلائه عليه لما اتصل بخليفة الشيعة وهو المعز لدين الله معد بن إسماعيل العبيدي غلبة الناصر على بلاد العودة وأن جميع من بها من قبائل زناتة والبربر رفضوا دعوتهم ودخلوا في دعوة بني أمية عظم الأمر عليه وبعث قائده جوهر بن عبد الله الرومي المعروف بالكتاب في جيش كثيف يشتمل على عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة وغيرهم وأمره أن يطأ بلاد المغرب ويدلها ويستنزل من بها من الثوار ويشد وطأته عليهم فخرج جوهر من القيروان سنة سبع وأربعين وثلاثمائة يوم بلاد المغرب فاتصل خبره ببعلى بن محمد اليفرنى صاحب طنجة وخليفة الناصر على بلاد العودة فحشد قبائل زناتة ونهض إلى القائد جوهر فكان اللقاء على تاهرت فالتحمت الحرب بين الفريقين فأخرج القائد جوهر الأموال وبدلها في قواد كتامة فضموا له قتل أمير زناتة يعلى بن محمد فلما اشتد القتال صممت عصابة من قواد كتامة وأنجدها وقصدوا إلى يعلى بن محمد فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوا به إلى جوهر فبذل لهم مالا جليلا بشارة عليه وبعث بالرأس إلى مولا المعز فطيف به بالقيروان وذكر ابن خلدون أن يعلى بن محمد بادر إلى لقاء جوهر عند قدومه وأذعن له وبابع فأظهر جوهر القبول ثم دس إليه من اغتاله وتفرق بنو يفرن وزناتة بعد مقتل أميرهم وبعد مدة التأم ملكهم على ولده يدو بن يعلى بن محمد اليفرنى ثم تقدم جوهر إلى سجماسة وكان قد قام بها محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار المعروف بالشاكر لله وقد تقدم لنا أنه ادعى الخلافة وتسمى بأمر المؤمنين وضرب السكة باسمه وكتب عليها تقدست عزة الله وكانت سكنته تعرف بالشاكرية وكانت في غاية الطيب وكان سنيا مالكي المذهب قد خالف سلفه في مذهب الصفرية فنزل عليه جوهر وحاصره بسجماسة ثم اقتحمها عنوة بالسيف وأفلت الشاكر ثم عاد بعد يومين أو ثلاثة فدخل سجماسة منتكرا فحرف وقبض عليه وأتى به إلى جوهر فأوثقه في الحديد وساقه أسيرا بين يديه حتى نزل على فاس بعد أن أفنى حماة الصفرية ورجالها بالسيف وكان نزوله على فاس سنة تسع وأربعين وثلاثمائة فحاصرها وأدار بها القتال من كل جهة قريبا من نصف شهر ثم اقتحمها عنوة بالسيف على يد زيري بن مناد الصنهاجي فإنه تسنم أسوارها ليلا ودخلها فقتل بها خلقا كثيرا وقبض على أميرها أحمد بن أبي بكر الزناتي الذي ولاه الناصر عليها ونهب المدينة وقتل حماتها وشيوخها وسبى أهلها وهدم أسوارها وكان الحادث بها عظيما وكان دخول جوهر إياها ضحوة يوم الخميس الموفى عشرين من رمضان سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ثم سار جوهر في بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين ويسبي ويفتح البلاد والمعقل وخافته البربر وفرت أمامه قبائلها فأنفذ الأمر في المغرب الأقصى ثلاثين شهرا وانتهى إلى البحر المحيط وصاد من سمكه وجعله في قلال الماء وأرسله إلى مولا المعز ثم انصرف راجعا بعد أن دوخ البلاد وأثن فيها وقتل حماتها وقطع دعوة المروانيين منها ورداها إلى العبيديين فخطب لهم على جميع منابر الغرب وانتهى القائد جوهر إلى المهدي دار المعز لدين الله وقد حمل معه أحمد بن أبي بكر اليفرنى أمير فاس وخمسة عشر رجلا من أشباخها وحمل أيضا محمد بن أبي الفتح أمير سجماسة ودخل بهم أسارى بين يديه في أقباص من خشب على ظهور الجمال وجعل على رؤوسهم قلائس من لبد مستطيلة منبثة بالقرون فطيف بهم في بلاد إفريقية وأسواق القيروان ثم ردوا إلى المهدي وحبسوا بها حتى ماتوا في سجنها

قدوم بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الشيعي من إفريقيا إلى المغرب كان الأمير الحسن بن كنون قد بايع العبيديين فيمن بايعهم عند غلبة جوهر على المغرب فلما انصرف جوهر إلى إفريقية أو آخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكت الحسن بن كنون بيعة العبيديين وعاد إلى المروانيين فتمسك بدعوة الناصر ثم بدعوة ابنه الحكم المستنصر خوفا منهم لا محبة فيهم لقرب بلادهم وأقام على ذلك إلى أن قدم الأمير بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي من لإفريقية إلى المغرب لأخذ ثار أبيه فقتل زناتة واستأصلهم وملك المغرب بأسره وقطع أيضا منه دعوة الأمويين وقتل أولياءهم وأخذ البيعة على جميع أهل المغرب للمعز معد بن إسماعيل كما فعل جوهر قبلة فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته وقتل أولياء المروانيين معه الحسن بن كنون صاحب مدينة البصرة وكشف وجهه في ذلك وأعمل فيه جهده فاتصل خبره بالحكم المستنصر خبره بالحكم المستنصر فحقد عليه لذلك فلما انصرف بلكين بن زيري إلى إفريقية بعث الحكم المستنصر صاحب الأندلس قائده محمد بن القاسم بن طملى في جيش كثيف إلى قتال الحسن ابن كنون فأجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في عدد كثير وعدة كاملة وذلك في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فزحف الحسن إلى قتاله في قبائل البربر فكان اللقاء بأحواز طنجة بموضع يعرف بحمص بي مصرخ فكانت بينهما حرب شديدة قتل فيها محمد بن القاسم قائد الحكم المستنصر وقتل معه خلق كثير من أصحابه وفر الباقون فدخلوا سبتة

وتحصنوا بها وكتبوا إلى الحكم يستغيثون به فبعث إليهم صاحب حروبه غالبا مولاه البعيد الصبيت المعروف بالشهامة والنجدة والدهاء وأعطاه الحكم أموالا جليلا وجيوشا كثيرة وعددا وافر وأمره بقتال آل إدريس واستنزاهم من معاقلم وقال له عند وداعه يا غالب سر مسير من لا إنن له في الرجوع إلا حيا منصورا أو ميتا معنورا ولا تشج بالمال وابسط يدك به يتبعك الناس قدوم غالب الأموي إلى المغرب وتغريب آل إدريس إلى الأندلس ثم خرج غالب من قرطبة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون فخاف منه وأخلى مدينة البصرة وحمل منها حرمه وأمواله وذاختره إلى قلعة حجر النسر القريبة من سبتة واتخذها معقلا يتحصن بها وأجاز غالب البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة فلقية الحسن بن كنون هناك في جموع البربر وقتاله أياما وسرب غالب الأموال إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن بن كنون وودهم ومناهم فانفضوا عن الحسن حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله فلما رأى ذلك سار إلى حجر النسر فتحصن به واتبعه غالب فحاصره به

ونزل عليه بجميع جيوشه وقطع عنه المواد وأمهده الحكم بعرب الدولة الذين بالأندلس ورجال الثغور فوصل المدد إلى غالب غرة المحرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة فاشتد الحصار على الحسن بن كنون فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله وينزل إليه فيسير معه إلى قرطبة فيكون لها فأجابته غالب إلى ذلك وعاهده عليه فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله وأسلم الحصن إلى غالب فملكه واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدو من معاقلمهم وأخرجهم عن أوطانهم ولم يترك بالعدوة رئيسا منهم وسار إلى مدينة فاس فملكها واستعمل عليها محمد بن أبي علي بن

قشوش بعدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة بعدوة الأندلس فلم تنزل فاس بيد بني أمية إلى أن غلب عليها زيري بن عطية المغراوي وانصرف غالب إلى الأندلس وساق معه الحسن بن كنون وجميع ملوك الأدارسة وقد وطأ جميع بلاد المغرب وفرق العمال في نواحيه وقطع دعوة بني عبيد من جميع أفاقه ورد الدعوة إلى الأموية فخرج بهم غالب من فاس آخر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ووصل إلى سبتة فركب البحر منها واستقر بالخضراء وكتب إلى مولاه الحكم المستنصر بالله يعلمه بقدمه وبمن قدم معه من العلويين فلما وصل كتابه إلى الحكم أمر الناس بالخروج إلى لقاءهم وركب هو في جميع عظيم من وجوه دولته فتلقاهم فكان يوم دخولهم قرطبة يوما مشهودا وذلك أول يوم من المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة وسلم الحسن بن كنون على الحكم فأقبل عليه وعفا عنه ووفى له بعهدده وأوسع له ولرجاله في العطاء وأجرى عليهم الجرايات الكثيرة وخلع عليهم الخلع الرفيعة وأثبت جميع أهله ورجاله في ديوان العطاء وكانوا سبعمائة رجل أنجاد يعدون بسبعة آلاف وسكنه قرطبة وأقام الحسن وعشيرته في كنف الحكم فيأمن وغبطة إلى أن كان ما تذكره حدوث النفرة بين الحكم والحسن والسبب في ذلك ولما استقر الحسن بن كنون وعشيرته بقرطبة تحت كنف الحكم المستنصر بالله الأموس على ما وصفناه استمر الحال على ذلك إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة وكان للحسن قطعة عنبر غريبة الشكل كبيرة الحجم ظفر بها في بعض سواحل من بلاد العدو أيام ملكه لها فسواها منشورة يتوسدها ويرتفع بها فيبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها فسأله حملها عليه وضمها إلى ذخائره على أن له حكمه مسمطا فامتنع الحسن من ذلك وأبى أن يسلمها إليه فكنيه

عليها وسلبه جميع أوأله وسلبه القطعة أيضا فيقبت في خزانة الأمويين إلى أن غلب ابن حمود الإدريسي على ملك الأندلس ودخل قرطبة واستقر بالقصر منا فألقى تلك العنبر لا زالت قائمة العين قد عقبتها الأيام حتى صارت على أيدي العلوية أربابها ولما نكب الحكم الحسن أمر بإخراجه وإخراج عشيرته من قرطبة وإجلالهم إلى المشرق فركبوا البحر من المرية إلى تونس سنة خمس وستين وثلاثمائة وكان قصد الحكم بتغريبهم التخفف منهم والراحة من نفقاتهم مع ما كان قومه يعدلونه عليهم فسار الحسن بن كنون وعشيرته إلى مصر فنزلوا بها على خليفة الشيعة وهو العزيز بالله نزار بن المعز العبيدي وكان العبيديون قد ملكوا مصر يومئذ ونقلوا كرسي خلافتهم إليها فأقبل العزيز نزار على الأدارسة وبلغ في إكرامها ووعد الحسن النصر والأخذ بثأره ممن غلبه على ملك سلفه عود الحسن بن كنون إلى المغرب وما كان من أمره إلى مقتله وانقراض دولته لما استقر الحسن بن كنون بمصر عند العزيز نزار أقام عنده مدة طويلة إلى أن دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة في أيام هشام المؤيد بالله الأموي فكتب نزار للحسن بعهدده على المغرب وأمر عامله على إفريقية بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي أن يقويه بالجيش فسار الحسن إلى بلكين بن عسركا يشتمل على ثلاثة آلاف فارس فاقتحم بهم بلاد المغرب فسارت إليه قبائل البربر بالطاعة فشرع في إظهار دعوته واتصل خبره بالمنصور بن أبي عامر حاجب هشام المؤيد والقائم بملكه فبعث إليه ابن عمه الوزير أبو الحم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر المعروف بعسكلاجة في جيش كثيف وقلده أمر المغرب وسائر أعماله وأمره

يقتال الحسن بن كنون ففقد لوجهه وركب البحر إلى سبتة وخرج إلى حرب الحسن فأحاط به وحاصره أياما ثم أجاز المنصور بن أبي عامر ولده عبد الملك في أثر الوزير أبي الحكم في جيش كثيف ممد له فلما رأى في ذلك الحسن بن كنون سقط في يده ولم يجد حيلة فطلب الأمان على نفسه على أن يسير إلى الأندلس كمثل حالته الأولى فأعطاه الوزير أبو الحكم من ذلك ما وثق به وكتب إلى ابن عمه المنصور يخبره بذلك فأمر بتعجيله إلى قرطبة موكلا به فيبعث به إليه ولما انتهى الخبر إلى المنصور بقدم الحسن لم يمض أمان ابن عمه وأنفذ إليه من قتله من طريقه وآتاه برأسه ودفن شلوه بمكان مقتله وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وركدت ربح العلوية بالمغرب وتفرقت جمعهم وانقضت دولتهم وتفرقت الأدارسة في قبائل المغرب ولادوا بالاختفاء إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب الشريف واستحالت صبيغتهم منه إلى البداوة واستمر الحال إلى أن أشرقت دولة بني أمية بالأندلس على الانقراض وكان بالأندلس رجلا من آل إدريس دخلوها في جملة البربر الذين كانوا هناك وهم علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس فطار لهما ذكر في الشجاعة والإقدام ثم ترفت بهم الأحوال إلى أن ورثوا خلافة الأندلس من يد الأمويين به في خبر طويل ولما قتل الحسن بن كنون هبت ربح عاصف احتملت رداءة فلم يوجد بعد قالوا وكان الحسن هذا فظا غليظا قاسي القلب كان إذا ظفر يعدو أو

سارق أو قاطع طريق أمر به فطرح من ذروة قلعة المسماة بحجر النسب فيهوي منها إلى الأرض مد البصر يدفع الرجل بخشبة تمد إليه فلا يصل إلى الأرض إلا وقد تقطع **قال ابن أبي ررح كانت مدة ملك الأدارسة بالمغرب من يوم بويق إدريس بن عبد الله وذلك يوم الخميس السابع من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة مائتي سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريبا وكان عليهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة وكانوا يكابدون دولتين عظيمتين دولة العبيديين بإفريقية ودولة بني أمية بالأندلس وكانوا يراحمون الخلفاء إلى ذروة الخلافة ويقعد بهم عنا ضعف سلطاتهم وقلة مالهم فكان سلطانهم إذا امتد وقوي ينتهي على مدينة تلمسان وإذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة وحجز النسب إلى أن انقضت أيامهم وانقضت مدتهم والبقاء لله وحده **كان في هذه المدة من الأحداث أنه في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة كانت ربح شديدة قلعت الأشجار وهدمت الديار وقتلت الرجال وفي ليلة الثلاثاء الثامن عشر من رجب منها ظهر في البحر شهاب ثاقب مائل كالعمود العظيم أضواء الليل لسطوع نوره وأشبهت تلك الليلة ليلة القدر وقارب ضوءها ضوء النهار وفي هذا الشهر أيضا كسف النيران فخنفت القمر ليلة أربع عشرة منه وطلعت الشمس كاسفة في اليوم الثامن والعشرين منه وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائة كان الجراد بالمغرب وفي سنة اثنتين وستين بعدها دخل مغراوة المغرب وملكوه وتعرف هذه السنة بسنة لقمان المغراوي وفيها توفي الشيخ الفقيه الصالح الفاضل أبو ميمونة دراس بن إسماعيل وهو أول من أدخل مدونة سحنون مدينة فاس****

وذكر الرشاطي أن وفاته كانت سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ولعله أصح وفي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة عم الجراد بلاد المغرب كلها وفي سنة ثمان وسبعين بعدها كان الفيض الذي فاضت منه جميع أودية المغرب وفي سنة تسع وسبعين بعدها كانت الربح الشرقية بالمغرب ودامت ستة أشهر فأعقبت وباء عظيما وأمراضا كثيرة وفي سنة ثمانين وثلاثمائة تدارك الله عبادته وكان الرخاء المفرط بالمغرب فكان الزرع لا يوجد من يشتره لكثرة وكان الفلاحون وأصحاب الحرث يتركونه قائما في محاقلمهم لا يحصونه لرخصه الخير عن دولة زناتة من مغراوة وبني يفرن بفاس والمغرب ينبغي أن تقدم هنا كلاما يكون كالتوطئة لأخبار هذه الدولة المغربية فنقول إن هذه الدولة لم يكن لها استقلال بالمغرب وفاس وإنما كانت رياستها تحت نظر الأمويين بالأندلس ثم إن مغراوة وبني يفرن قبيلتان من أعيان قبائل زناتة وكان مغراو ويفرن أخوين شقيقين وهما ابنا يصلبتين بن مسري بن زاكيا بن ورسيك بن الدبديت بن زانا وهو أبو زناتة وقد تقدم لنا في أخبار الفتح أن الصحابة رضي الله عنهم أسروا صولات بن وزمارا كبير مغراوة لذلك العهد وبعثوا به إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فأسلم على يده وولاه على قومه وقيل إن صولات هاجر إلى عثمان رضي الله عنه طائعا من غير أسر فأكرمه وولاه فكان بيت صولات بسبب هذه المزبة نبيا في قومه مغراوة وسائر زناتة ولما مات صولات ورث رياسته من بعده ابنه حفص بن صولات ثم من بعده خزر بن حفص بن صولات ثم ابنه محمد بن خزر وهو الذي غزا إدريس بن عبد الله بمدينة تلمسان وانقاد له وأجاب دعوته ودخل إدريس معه تلمسان وأصلح شأنها وبني مسجدها حسبما تقدم له وأجاب دعوته ودخل إدريس معه تلمسان وأصلح شأنها وبني مسجدها حسبما تقدم الخبر عن ذلك مستوفى ثم

لم تزل ذرية محمد بن خزر هذا تتوارث رئاسة سلفهم من بعدهم إلى أن كان منهم في صدر المائة الرابعة أخوة وهم محمد بن خزر وعبد الله بن خزر ومعد بن خزر ولفل بن خزر وكلهم رئيس شريف في قومه ولهم أخبار مع خلفاء الشيعة بإفريقية والروانيين بالأندلس يطول ذكرها مع أنها ليست من موضوعنا ولما كانت سنة تسع وستين وثلاثمائة زحف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي صاحب إفريقية بعد العبيديين إلى المغرب الأقصى وأناخ على مدينتي فاس وقتل عاملها محمد بن أبي علي بن قشوش صاحب عدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة صاحب عدوة الأندلس واستعمل عليها محمد بن عامر المكتاسي وأجفلت ملوك زناتة من بني خزر المغراويين وبني محمد بن صالح الإفريين أمامه وانحازوا جميعا إلى سبته وعبر محمد بن الخير من آل خزر البحر إلى المنصور بن أبي عامر صريخا فخرج المنصور في عساكره إلى لاجزيرة الخضراء ممدا لهم بنفسه وعقد لجعفر بن علي بن حمدون على حرب بلكين الصنهاجي وأجازه البحر وأمه بمائة حمل من المال فاجتمعت إليك ملوك زناتة وضربوا مصافهم بساحة سبته وجاء بلكين الصنهاجي حتى صعّد جبال تطوان وتنسّم هضابها وأطل على عساكر زناتة وأهل الأندلس بساحة سبته فرأى ما لا قبل له به ويقال إنه لما عاين ذلك قال هذا أفعى فغرت إلينا فاها وكر راجعا على عقبة فاجتاز على مدينة عظيمة فهدمها ثم صمد إلى برغواطة ببلاد تامسنا فجاهدهم وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأنصار واستولى على المغرب

أجمع ومضى دعوة بني أمية من نواحيه ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وقدم الحسن بن كنون الإدريسي من مصر إلى المغرب يطلب ملك سلفه انضم إليه يدو بن يعلى بن محمد بن صالح الإدريسي من مصر إلى المغرب يطلب ملك سلفه انضم إليه يدو بن يعلى بن محمد بن صالح الإفري في قومه وشايحه على مراده وسرح المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس إليه ابن عمه أبا الحكم الملقب بعسكلاجة وانضم إليه آل خزر المغراويين وهم محمد بن الخير الأصغر وخزرون بن فلفل بن خزر ومقاتل وزيري ابنا عطية بن عبد الله بن خزر وانضم إليهم سائر مغراوة وظاهرها أبا الحكم عسكلاجة على شأنه في حصار الحسن بن كنون حتى طلب الأمان لنفسه حسبما استوفينا خبره أنفا ثم تقدم عسكلاجة إلى فاس فدخلها واستولى على عدوة الأندلس سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وخطب بها لبني أمية وبقي محمد بن عامر المكتاسي عامل الشيعة بدعوة القرويين إلى سنة ست وسبعين وثلاثمائة فأتى أبو بياض فدخل عدوة القرويين بالسيف وقبض على محمد بن عامر المكتاسي فقتله وخطب بها لبني أمية أيضا هكذا في القرطاس وقال ابن خلدون إن المنصور بن أبي عامر عقد على المغرب بعد انصراف عسكلاجة عنه للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي وأطلق يده في الأموال والرجال وأرسله إليه سنة ست وسبعين وثلاثمائة وأوصاه بالإحسان إلى مغراوة ولا سيما مقاتل وزيري ابنا عطية لحسن انحباشهم إلى المرانبيين وصدق طاعتهم لهم وأغراه ببو بن يعلى الإفري لتمريضه في الطاعة وقيامه مع الحسن بن كنون فنفذ الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود لعمله ونزل بفاس وضبط المغرب أحسن ضبط واجتمعت عليه مغراوة ثم هلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين وورث رياسته على بادية قومه أخوه زيري بن عطية وحسنت صحبته للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود ومعاملته له

ثم إن المنصور بن أبي عامر استدعى زيري بن عطية للوفادة عليه بقرطبة فوفد عليه وأحسن المنصور إليه ورفع منزلته ثم عاد إلى المغرب وأمره بقتال يدو بن يعلى الإفري فاجتمع عليه هو والوزير ابن عبد الودود فقاتلوه فانتهصر عليهم يدو بن يعلى وقتل الوزير ابن عبد الودود ثم عقد المنصور بن أبي عامر لزيري بن عطية نم بعده على المغرب وفاس وكان ذلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة هذا ملخص ما عند ابن خلدون في هذا الخبر ثم حكى بعده ما يخالفه مما نذكره مبسوطا عن قريب وتوقف في أيهما الصواب والله أعلم الخبر عن دولة زيري بن عطية الصغراوي بفاس والمغرب وهو زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر المغراوي وعبد الله المذكور هو أحد الإخوة الأربعة من بني خزر قال في القرطاس ملك على زناتة سنة ثمان وستين وثلاثمائة فقام فيالمغرب بدعوة هشام المؤيد بالله وحاجبه المنصور بن أبي عامر وذلك بعد انقراض دولة الأدارسة منه وبني أبي العافية المكتاسيين فغلب زيري أولا على جميع بوادي المغرب ثم ملك مدينتي فاس بعد عسكلاجة وأبي بياض دخلها سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فاستوطنها وصيرها دار ملكه واستقام له ر المغرب فعلا قدره وقوي سلطانه وارتفع شأنه وهو في ذلك متمسك بدعوة بني مروان اصحاب الأندلس والله غالب على أمره

حديث أبي البهار الصنهاجي مع المنصور ابن أبي عامر وما نشأ عن ذلك كان أبو البهار بن زيري بنمناد الصنهاجي قد خالف على ابن أخيه منصور بن بلكين ابن زيري بن مناد الصنهاجي أمير إفريقية وظهور الدولة العبيدية وخلع دعوة الشيعة ومال إلى دعوة المرانبيين وغلب على المهديّة وتونس وششال وتلمسان ووهران وشلف وكثير من بلاد الزاب وخطب للمؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر وبعث ببيعتة إليهم وذلك في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فلما وصلت بيعته إلى المنصور بن أبي عامر بعث إليه بعهدته على ما بيده من البلاد وبهدية وخلع وبأربعين ألف دينار فلما قبض أبو البهار المال والهدية أقام على بيعتهم نحو الشهرين ثم خلعهم وعاد إلى العبيديين فبلغ ذلك المنصور فغاضبه وكتب إلى زيري بن عطية بعهدته على بلاد أبي البهار وأمره بقتاله ففسر إليها ففسر إليه زيري بن عطية بعهدته على بلاد أبي البهار وأمره بقتاله ففسر إليها ففسر إليه زيري بن عطية بعهدته على بلاد أبي البهار وأمره بقتاله ففسر إليها ففسر إليه زيري بن عطية من فاس في جيوش لا تحصي من قبائل زناتة وغيرهم ففر أبو البهار أمامه ولحق بابن أخيه منصور بن بلكين وترك له البلاد فملك زيري بن عطية تلمسان وسائر أعمال أبي البهار فانبسط سلطانه بالمغرب من السوس الأقصى إلى الزاب وكتب بالفتح إلى المنصور بن أبي عامر وبعث له بهدية عظيمة فيها مائتا فرس من عتاق الخيل وخمسون جملا مهريا سابقة وألف درقة من جلود اللط وأعمال كثيرة من قسي الزان وقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللطم وغيره وألف حمل من التمر الجيد في جنسه وأعمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة فسر بها المنصور وكافأه عليها وكتب له بتجديد عهده على المغرب وذلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وأقام زيري بن عطية بفاس وأسكن قبيله بأحائها وبالقرى منها في قبايلهم ودفع بني يفرن عن فاس وأحوازها إلى نواحي سلا فاستولوا عليها كما سيأتي

وفادة زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر بالأندلس لما كانت سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة استدعى المنصور بن أبي عامر زيري بن عطية أن يقدم عليه بقرطبة فاستخلف على المغرب ولده المعز بن زيري وأمره بسكنى تلمسان واستخلف على عدوة الأندلس من فاس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة وعلى عدوة القرويين منها علي بن محمد بن أبي علي بن قشوش وولى قضاء المدينتين الفقيه الفاضل أبا محمد قاسم بن عامر الأزدي وسار إلى الأندلس وقدم بين يديه هدية عظيمة من جملتها طائر فصيح يتكلم بالعربية والبربرية ودابة من دواب المسك ومهابة وحشية تشبه الفرس وحيوانات غريبة وأسدان عظيمان في قفصين من حديد وشيء كثير من التمر في غاية الكبر الواحدة منه تشبه الخيارة عظما وحمل معه من قومه وعبيدة ثلاثمائة فارس وثلاثمائة رجل فاحتفل المنصور لقبومه احتفالا عظيما وبرز الخاصة والعامّة للقائه وأنزله بقصر جعفر الحاجب وتوسع له في الجرايات والإكرام ولقبه باسم الوزير وأفاض عليه أموالا جسيمة وخلعا نفيسة وعجل بسراجه إلى عمله بعد أن جدد له عهده على المغرب وعلى جميع ما غلب عليه بسراجه إلى عمله بعد أن جدد له عهده على المغرب وعلى جميع ما غلب عليه منه فعبّر البحر واحتل بمدينة طنجة فلما استقر بها وضع يده على رأسه وقال الآن علمت أنك لي فاستقل ما وصله به المنصور واستقبح اسم الوزارة الذي سماه به ولقد خاطبه به فاستقل ما وصله به المنصور واستقبح اسم الوزارة الذي سماه به ولقد خاطبه به بعض رجاله فنهاه عن ذلك وقال وزير من يالك لا والله إلا أمير ابن أمير وأعجبا لابن أبي عامر ومخرقته لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله وإن له منا ليوما وبلغت مقالته المنصور فصر عليها أنه وزاد في اصطناعه إلى أن كان ما نذكره

استيلاء يدو بن يعلى الإفري على فاس ومقتله تقدم لنا أن بني يفرن من أعيان قبائل زناتة وكان يدو بن يعلى بن محمد بن صالح الإفري قد قام بأمر بني يفرن بعد مقتل أبيه يعلى بن محمد حين قتلته جوهر الكاتب قائد الشيعة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فملك يدو كثيرا من بوادي المغرب واتصلت رياسته إلى هذا التاريخ وقد تقدم لنا أن مغراوة دعوا بني يفرن إلى سلا وأحوازها فاستولوا عليها وكان الأمير يدو بن يعلى مضاهيا لزيري بن عطية في الحسب والفضل والمال ولما استدعى المنصور بن أبي عامر زيري بن عطية للوفادة المتقدمة أراد أن يفعل ببو بن يعلى

مثل ذلك وكان قصده أن يمكر به لأنه كان لا يظمنن إليه اطمئنان زيري بن عطية فاساء يدو بن يعلى إجابة المنصور وقال متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد للبيطرة فأقصر عنه المنصور وكانت بين زيري ويديو بن يعلى إذا غلب على زيري دخل مدينة فاس واستولى عليها وإذا غلب عليه زيري أخرجه عنها وملكها وكانت الحرب بينهما سجالا وسئمت الرعية بفاس كثرة تعاقبهم عليها ثم لما سافر زيري بن عطية إلى الأندلس انتهز يدو بن يعلى الفرصة في غيبته فزحف إلى فاس ودخل منها عدوة الأندلس بالسيف في ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة وقتل بها خلقا كثيرا من مغراوة فلما نزل زيري بن عطية بطنجة اتصل به خبر يدو بن يعلى واستيلاؤه على فاس فأسرع السير نحوه حتى نزل قريبا من فاس فكانت بينهما حرب شديدة هلك فيها خلق كثير من القبيلتين مغراوة وبني بفرن إلى أن هزمه زيري واقتحم عليه فاسا عنوة فقتله ومثل به وبعث برأسه إلى المنصور بن أبي عامر بقرطبة وذلك سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة

بناء مدينة وجدة لما قتل زيري بن عطية يدو بن يعلى صفا له أمر المغرب ولم يبق له به منازع وهابته الملوك وبقي الأمر مستقيما بينه وبين المنصور في الظاهر فسمت همته إلى بناء مدينة تكون خاصة به ويقومه وأرباب دولته فبنى مدينة وجدة وشيد أسوارها وأحكم قصبته وركب أبوابها وسكنها بأهله وحشمه ونقل إليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدة ملكه لكونها واسطة البلاد وتغرا للعمالتين المغرب الأقصى والأوسط وكان اختطاطها إياها في شهر رجب سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ولم يزل زيري بن عطية في علو سلطان ارتفاع شأن إلى سنة ست وثمانين وثلاثمائة ثم حدث ما نذكره حدوث الفرة بين زيري بن عطية والمنصور بن أبي عامر وما نشأ عن ذلك ثم فسد ما بني المنصور وبين زيري بن عطية واتصل بالمنصور أن زيري ينتقصه ويعرض في شأنه وحجره على المؤيد ويتكلم فيه القبيح فقطع المنصور عنه رزق الوزارة الذي كان يجريه عليه في كل سنة محي اسمه من ديوانه ونادى بالبراءة منه فعزم زيري على خلافة فقطع ذكره من الخطبة واقتصر على ذكر هشام المؤيد وطرد عماله من المغرب وأجأهم إلى سبتة فأنفذ إليه المنصور بن أبي عامر مولاة واضحا الفتى في جيش عظيم وأمه بالحمامة من سائر الطبقات وأزاح عليهم وأفاض عليهم الأموال للنفقات

وأشج البحر واستقر بمدينة طنجة فانضم إليه بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وغيرهم وبايعوه على قتال زيري بن عطية ومن معه من قبائل زناتة فأفاض عليهم لخن والأموال ثم أمد المنصور بمن كان معه من الأندلس من ملوك البربر النازعين عن زيري بن عطية إليه فتكاملت جيوشه وخرج بهم واضح منتجة يوم فاسا فاتصل خبره بزيري بن عطية فخرج إليه من فاس في عساكر زناتة فالقوى الجمعان بوادي زادت فكانت بينهما حروب بعد العهد بمثلها مدة من ثلاثة أشهر إلى أن انهزم واضح وقتل أكثر جيشه وفر واضح إلى طنجة فدخلها منهزما وكتب إلى المنصور يطلب منه المدد وقال ابن خلدون إن واضحا حين برز من طنجة وزحف إليه زيري بن عطية توافقا ثلاثة أشهر ثم تناول واضح أصيلا ونكور فضبطهما واتصلت الوقائع بينه وبين زيري ثم بيت واضح معسكر زيري بنواحي أصيلا وهم غارون فأوقع بهم وخرج المنصور من قرطبة فوصل إلى الجزيرة الخضراء ثم أجاز ابنه عبد الملك المظفر بجميع عسكر الأندلس وقوادها حتى بقي المنصور وحده وأمره بحرب زيري بن عطية فركب المظفر البحر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة واتصل خبر المظفر بزيري بن عطية فخافه وأخذ في الاستعداد لملاقاته وكتب إلى جميع قبائل زناتة يستصرخهم فاتته الوفود من بلاد ملوية وتلمسان والزاب وسائر بوادي زناتة فهض بهم إلى قتال عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر وبرز عبد الملك من طنجة ومعه واضح الفتى في جيوش لا تحصى والتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة فكانت بينهم

حرب أعظم من الأولى ودام القتال بينهم إلى الليل وكان في عسكر زيري بن عطية غلام أسود اسمه سلام كان زيري قد قتل أخاه فوجد الفرصة إليه فانتزها وضربه بسكين في نحره ثلاث ضربات فأشواه أي لم يصب مقتله ومر الأسود يشد نحو المظفر وبشره بقتل زيري فاستكذبه ثم سقط إليه الخبر الصحيح بأن زيري قد أثبت فشد عليهم عبد الملك وهم في حال دهشة من جرح أميرهم فهزموهم واستمرت الهزيمة على زيري وأصحابه واتخذ منهم عبد الملك بالقتل وملك محلة زيري بأسرها واحتوى على جميع ما فيها من المال والسلاح والكرام والإبل والعدة فاستولى من ذلك على ما لا يأخذ الحصر ومضى زيري على وجهه حتى انتهى إلى موضع يعرف بمضيق الحية بالقرب من مكناسة فعسكر به واجتمع إليه الفل من قومه وعزم على الرجوع لمناجزة المظفر فاتصل الخبر بالمظفر فانتخب من عسكره خمسة آلاف فارس وقدم عليهم واضحا الفتى ونهضوا إلى زيري بن عطية فحاربوا في محلته ليلا بمضيق الحية وهم آمنون فأوقعوا بهم وقعة عظيمة أسر فيها من أشرف مغراوة نحو ألفي رجل وذلك في منتصف رمضان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فامتن عليهم عبد الملك المظفر وأركبهم معه فكانوا من جنده وفر زيري بن عطية في شردمة من أصابه وبني عمه فانتهى إلى فاس فأغلق وأعطوه مع ذلك الزاد والدواب فأخذهم وانصرف إلى الصحراء فنزل بلاد صنهاجة وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى

قدوم عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر مدينة فاس وما كان من شأنه بها لما انهزم زيري بن عطية من مضيق الحية إلى الصحراء نهض عبد الملك المظفر من معسكره يوم فاسا فدخلها يوم السبت منسوخ شوال سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فاستقبله أهلها متبشرين به فأحسن لقاءهم وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح فقرأ الكتاب على منبر جامع الزهراء من قرطبة وعلى منابر مساجد الأندلس كلها شرقا وغربا وأعتق المنصور ألفا وخمسمائة مملوك وثلاثمائة مملوكة شكرا لله تعالى وفرق أموالا كثيرة على الفقراء وذوي الحاجات وكتب إلى ولده المظفر بعهدته على المغرب وأوصاه بحسن السيرة والعدل فقرأ كتابه على منبر مسجد القرويين وذلك يوم الجمعة آخر ذي القعدة من السنة المذكورة وانصرف واضح إلى الأندلس واستوطن عبد الملك مدينة فاس وعدل فيها عدلا لم يعهده من أحد قبله وأقام بها ستة أشهر ثم صرفه والده عنها إلى الأندلس وبعث إليها عوضا عنه عيسى بن سعيد صاحب الشرطة فأقام واليا عليها إلى صفر سنة تسع وثمانين وثلاثمائة فعزل المنصور عنها وعمه كان ولاء من بلاد العدو ولي عليها واضحا الفتى وانصرف عيسى بن سعيد إلى الأندلس من السنة المذكورة بقية أخبار زيري بن عطية لما نزل زيري بن عطية ببلاد صنهاجة وجردهم قد اختلفوا على ملكهم باديس بن منصور بن بكين بن زيري بن مناد صاحب إفريقية فأرسل زيري بن عطية في قبائل زناتة حاشرين فأتى منهم خلق كثير من مغراوة

وغيرهم فاعتنم زيري تلك الفرصة من صنهاجة فزحف إليهم وأغل في بلادهم وهزم جيوشهم ودخل مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب وملك مع ذلك تلمسان وشلف والمسيلة وأقام بها الدعوة للمؤيد وحاصر مدينة أشير قاعدة بلاد صنهاجة وكتب إلى المنصور بن أبي عامر بذلك يسترضيه ويشترط على نفسه الرهن والاستقامة إن أعيد إلى ولايته وبينما هو محاصر لأشير يباكرها ويراوحها بالقتال انقضت عليه جراحاته التي كان جرحه الأسود فمات منها سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة الخبر عن دولة المعز بن زيري بن عطية المغراوي لما هلك زيري بن عطية اجتمع آل خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المعز بن زيري فبايعوه وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة وصالح المنصور بن أبي عامر وقام بدعوته ورجع إلى طاعته ولم يزل على ذلك إلى أن توفي المنصور وولي ابنه بعده عبد الملك المظفر فبايعه المعز أيضا ودعا له على منابره فعزل المظفر واضحا الفتى عن فاس وسائر بلاد المغرب وصرفه إلى الأندلس وكتب إلى المعز بن زيري بعهدته على فاس وسائر أعمال المغرب حواضره وبواديه وذلك سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وشرط له المعز أن يؤدي إليه في كل سنة مالا معلوما وخيلا ودرقا يوصل ذلك إلى قرطبة وأعطاه مع ذلك ولده معنصر بن المعز رهنا وكان ذلك نسخة كتاب العهد بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله من الحاجب المظفر سيف الدولة الإمام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة أهل مدينتي فاس وكافة أهل المغرب سلمهم الله أما بعد أصلح الله

شأنكم وسلم أنفسكم وأديانكم فالحمد لله علام الغيوب وغفار الذنوب ومقلب القلوب ذي البطش الشديد المبدئ المعيد الفعال لما يريد لا راد لأمره ولا معقب لحكمه بل له الملك والأمر وبهيد الخير والشر إياه نعبد وإياه نستعين وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون وصلى الله على سيدنا محمد

سيد المرسلين وعلى آله الطيبين وجميع الأنبياء والمرسلين والسلام عليكم أجمعين وإن المعز بن زيري بن عطية أكرمهم الله تابع رسله لدينا وكتبه متصلا من هنات دفعته إليها ضرورات ومستغفرا من سيئات حظتها من توبته حسنات والتوبة ممحاة الذنب والاستغفار منقذ من العتب وإذا أثن الله بشيء يسره وعسى أن تكرر هو شينا ولكم فيه خيره وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة ولزوم الجادة واعتقاد الاستقامة وحسن المعونة وخفة المؤنة فوليناها ما قبلكم وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم وأن يرفع أعمال الجور عنكم وأن يعمر سبلكم وأن يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم إلا في حدود الله تبارك وتعالى وأشهدنا الله عليه بذلك وكفى بالله شهيدا وقد وجهنا الوزير أبا علي بن حذيم أكرمهم الله وهو من تقاتنا ووجوه رجالنا ليأخذ بشأته ويؤكد العهد فيه عليه بذلك وأمرناه بإبشركم فيه ونحن بأمركم معتنون ولأحوالكم مطلعون وأن يقضي على الأعلى للأدنى ولا يرضى فيكم بشيء من الأدنى فتقوا بذلك وذلك وأسكنوا إليه ولبيضا القاضي أبو عبد الله أحكامه مشدودا ظهره بنا معقودا سلطانه بسلطاننا ولا تأخذه في الله لومة لائم فذلك ظننا به إذ وليناها وأملنا فيه قلدها والله المستعان وعليه التكلان لا إله إلا هو ولتبلغوا منا سلاما طيبا جزيلا ورحمة الله وبركاته

ولما وصل إلى المعز بن زيري العهد بولايته على المغرب ما عدا كورة سجلماسة فإنها كانت لبني خزرون بن قفل ضم نشره وثاب إليه نشاطه وبث عماله في جميع كور المغرب وجبا خراجها لم تزل ولايته متسقة وطاعة رعاياه منتظمة إل أن افترق أمر الجماعة بالأندلس واختل رسم الخلافة بها فاضطرب أمر المغرب على المعز وأقام على ذلك إلى أن هلك سنة سبع عشرة وأربعمائة كذا عند ابن خلدون وفي القرطاس لم تزل بلاد المغرب أيام المعز في غاية الهدنة والعافية والرخاء والأمن إلى أن توفي في جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة والله أعلم وأما ابنه معنصر فإنه أقام بقرطبة إلى أن قامت الفتنة بالأندلس وانقضت الدولة العامرية فانصرف معنصر إلى أبيه وعشيرته بفاس وحكي في القرطاس أنه لما كانت سنة تسع وثلاثمائة وتوفي عبد الملك المظفر وولي بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر بعث إليه المعز بن زيري بهدية نفيسة فيها خمسون فرسا وكان ولده معنصر مرتها عنده بقرطبة كما قلنا فأحضر الحاجب عبد الرحمن معنصر بن المعز حين وصلت إليه هدية أبيه فخلع عليه وعلى الرسل الذين قدموا عليه بالهدية وبعث به إلى أبيه مكرما فجمع المعز كل فرس كان عنده وبعث به إلى قرطبة وكان مبلغ عدد الخيل تسعمائة فرس ولم تصل من المغرب إلى الأندلس هدية أعظم منها

الخبر عن دولة حمامة بن المعز بن عطية المغراوي لما توفي المعز بن زيري بن عطية ولي بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية وليس بابن له كما زعم بعض المؤرخين وإنما هو ابن عمه وقع الاتفاق في بعض الأسماء فنشأ الغلط واستولى حمامة على عمل فاس والمغرب واستفحل ملكه وقصده الأمراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء وكانت الدولة بالأندلس قد تداعت إلى الاختلال فكان ذلك من أسباب استتقال الدولة المغراوية بفاس والمغرب واستقلال بالأمر فكان لحمامة من الظهور ما ذكرناه إلى أن أصابته عين الكمال بمنازعة أبي الكمال على ما نذكره الخبر عن دولة أبي الكمال تميم بن زيري اليفرنى واستيلائه على فاس وأعمالها قد تقدم لنا أن بني يفرن كانوا قد تحيزوا إلى النواحيسلا فاستنزلوا عليها وعلى مدينة شالة ثم ملكوا تادالا وما والاها من البلاد ثم لما كانت سنة أربع وعشرين وأربعمائة كان الأمير على بني يفرن أبا الكمال تميم بن زيري بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى فزحف من سلا إلى فاس في قبائل بني يفرن ومن انضاف إليهم من زتاتو وبرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن إليهم فكانت بينهم حرب شديدة أحجبت عن هزيمة حمامة ومات من مغراوة أمم واستولى تميم على فاس وأعمال المغرب ودخلها في جمادى الآخرة من السنة المذكورة واستباح يهود فاس فقتل منهم أكثر من ستة آلاف يهودي وسبى حرمهم واصطلم نعمتهم بالمره ولحق حمامة بوجدة فاستمد من كان هنالك من قبائل مغراوة وزناته

وأجداد قبائل ملوية وانتهى إلى تنس فاستنفر من هنالك من زناته وبعث الحاشدين في قبائليتهم إلى جميع بلاد المغرب الأوسط وكتب من بعد عنه من رجالاتهم فاجتمع له من ذلك جم غفير ثم زحف إلى فاس سنة تسع وعشرين وأربعمائة فأفرج عنها أبو الكمال ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة وأقام بها على أن هلك سنة ست وأربعين وأربعمائة وكانت مدة استيلائه على فاس وأعمالها خمس سنين وقيل سبع سنين وكان أبو الكمال اليفرنى يغلب عليه الجفاء والجهل ومع ذلك فقد كان صلبا في دينه مستقيما فيه مولعا بجهاد برغواطة وكان يغزوهم مرتين في السنة إلى أن توفي ولما كانت سنة اثنتين وستين وأربعمائة وقتل ابنه في حرب لموتونه جاؤوا به ليدفونه إلى جانب قبر أبيه الكمال فسمعوا من قبره تكبيرا في النوم فقال له ما هذا التكبير والشهد الذي سمعناه من قبرك قال تلك الملائكة وكلهم الله بقبري يكبرون ويهللون ويسبحون ويكون ثواب ذلك لي إلى يوم القيامة قال وبم نلت ذلك قال جهادي برغواطة حكي هذا الخبر في القرطاس والله على كل شيء قدير وأقام حمامة في سلطان فاس والمغرب إلى أن توفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وقيل غير ذلك

الخبر عن دولة دوناس بن حمامة ويكنى أبا العطاف واستولى على فاس وسائر ما كان لأبيه من مدن المغرب وأعماله وخرج عليه لأول دولته ابن عمه حماد بن معنصر بن المعز بن عطية فجرت له معه حروب وخطوب وكثرت جموع حماد وغلب على ضواحي فاس وحاصرها حصارا شديدا وقطع عن عدوة القرويين جرية الوادي واحترق السياج المعروف بسياج حماد ويقال إن دوناس خندق به على نفسه واستمر حماد محاصرا لفاس إلى أن هلك سنة خمس وثلاثين وأربعمائة فاستقامت دولة دوناس وانفسحت أيامه وصار الناس في هدنة ودعة ورخاء كثير وفي أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها وقصدها الناس والتجار من جميع النواحي فأدار دوناس السور على أرباضها وبنى بها المساجد والحمامات والفنادق واستبحر عمرانها فصارت حاضرة المغرب من يومئذ ولم يشغل دوناس من يوم ولي غلى ان توفي إلا بالبناء والتشييد وكانت وفاته في شوال سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة الخبر عن دولة فتوح بن دوناس المغراوي لما توفي دوناس بن حمامة ولي بعده ابنه الفتوح بن دوناس ونزل بعودة الأندلس ونازعه أخوه الأصغر واسمه عجيسة وكان شهما محريا

فاستولى على عدوة القرويين واستبد على أخيه وافترق أمر فاس وأعمالها بافتراقهما وقامت الحرب بينهما على ساق وبنى الفتوح بعودة الأندلس قسبة منيعة بالموضع المعروف بالكدان وبنى عجيسة أيضا قسبة مثلها برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين وكثرت العداوة بينهما واستحكمت فكانا لا يفتران عن القتال ليلا ونهارا وعظم الخوف بالمغرب وكثر الهرج وغلغلت الأسعار واشتدت المجاعة وظهرت لمتونة على أطراف البلاد فملكوها والمر لا زال والحال ما حال وليس لأهل فاس شغل إلا القتال واستمر الأمر على ذلك ثلاث سنين إلى أن بيت الفتوح عجيسة فاقتحم عليه عدوة القرويين ليلا فقتله واستولى على العدوتين معا والفتوح بن دوناس هذا هو الذي بنى باب الفتوح من مدينة فاس بسورها القبلي وبه عرف إلى الآن وأخوه عجيسة هو الذي بنى باب عجيسة برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين من ناحية الجوف وبه عرف أيضا إلى الآن فلما ظفر الفتوح بعجيسة وقتله أمر بتغيير اسم الباب المنسوب إليه فأسقط الناس العين من عجيسة وقتله أمر بتغيير اسم الباب المنسوب إليه فأسقط الناس العين من عجيسة وقتله أمر بتغيير اسم الباب المنسوب إليه فأسقط الناس العين من عجيسة وعرضوا عنها الألف واللام فقالوا باب الجيسة قاله في القرطاس وقال ابن خلدون خففوه لكثرة الاستعمال ولم يزل الفتوح مستوليا على فاس إلى أن دهم المغرب ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة وخشي الفتوح مغية ذلك فأفرج عن فاس وتخلى عنها وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد الصنهاجي إلى المغرب سنة أربع وخمسين وأربعمائة ودخل فاسا واحتمل من أكابرها وأشرفها عددا رهنا على الطاعة وقفل إلى قلعة الخبر عن دولة معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية المغراوي لما تولى الفتوح بن دوناس عن ملك فاس وأعمالها قام بالأمر بعده

قريبة معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية فبايعته قبائل مغراوة الذين بفاس وأحوازها وذلك في سنة خمس وخمسين وأربعمائة وكان معنصر ذا حزم وشجاعة وإقدام وشغل بحرب لمتونة وكانت له عليهم الوقعة المشهورة ثم غلب يوسف بن ناشفين على فاس وخلف عليها عامله وارتحل إلى عمارة وفتح الكثير من بلادها حتى أشرف على طنجة ثم رجع إلى حصار قلعة فازاز فخاله معنصر إلى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لمتونة ومثل بهم بالحرق والصلب واتصل الخبر بيوسف بن ناشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فاستدعى مهدي بن يوسف الكزناني صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل أيديهما وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله وبعث برأسه إلى



وليه الحاجب سكوت البرغواطي صاحب سبته واستصرخ أهل مكناسة بيوسف بن تاشفين فصرح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فأخذوا بمخنفها وقطعوا المرافق عنها وألحقوا بالقتال عليها حتى اشتد بأهلها الحصار ومسهم الجذ وبرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه وفقد في الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمئة فلم يدر م فعل الله به سبحانه وتعالى الخبر عن دولة تميم بن معنصر المغراوي لما فقد معنصر بن حماد في الملحمة التي كانت بينه وبين المتونيين بايع أهل فاس من بعد لابنه تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وقتنة وجهد وغلاء وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة حتى إذا كانت سنة ثنتين وستين وفرغ من فتح غمارة صعد إلى فاس فحاصرها أياما ثم اقتحمها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبنو يفرن ومكناسة وغيرهم

وهلك تميم بن معنصر في جملتهم حتى جز الناس عن موارثهم فرادى فاتخذوا لهم الأخاديد وقبروا جماعات وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان قاله ابن خلدون وقال في القرطاس دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس الدخلة الثانية الكبرى فقتل بها من مغراوة وبنو يفرن في أزقتها وجوامعها ما يزيد على العشرين ألف رجل وذلك سنة اثنتين وستين وأربعمئة وانقضت دولة مغراوة من الغرب والبقاء لله وحده وكانت مدة دولتهم نحو مائة سنة وفي دولتهم عظم شأن فاس وبنيت الأسوار على أرباضها وحصنت أبوابها وزيد في مسجديها القرويين والأندلس زيادة كثيرة واتسع الناس في أيام مغراوة في البناء فعظمت فاس واستبحر عمرانها وكثرت خيراتها واتصل الأمن والرخاء جل أيامهم إلى أن ضعفت أحوالهم وجاروا على رعيتهم بأخذ أموالهم وسفك دماهم والتعرض لحرهم فانقطعت عنهم المواد وكثر الخوف في البلاد وغلت الأسعار وبلى الله عباده بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وذلك في دولة الفتوح بن دوناس ومن بعده فكان رؤساء مغراوة وبنو يفرن يلجئون على الناس دورهم فيأخذون ما يجدون بها من الطعام ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم ويأخذون أموال التجار فلا يقدر أحد أن يصددهم عن ذلك وكان سفاؤهم وعبيد هم يصعدون على قنة جبل العرض فينظرون الدور التي بالمدينة فإذا رأوا دارا بها دخان فصدوها وأخذوا ما وجدوا بها من طعام أو غيره ومن تعرض لهم في ذلك قتلوه فلما ارتكبوا هذه العظائم سلبهم الله ملكه وغير ما بهم من نعمة الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فسلط عليهم المرابطون فمحو آثارهم من المغرب ونفوه عنه بالكلبة وطهره من جورهم وفي أيامهم اتخذ أهل فاس المطامير في بيوتهم للطحن والطبخ لئلا

يسمع دري الرحي فتصدهم سفهاء مغراوة وفيها أيضا اتخذوا غرغا لا مراقي لها حتى إذا كان عشي النهار صعد الرجل بأهله وعياله إليها يسلم ثم يرفع السلم معه لئلا يدخل عليه فجأة وكان من هذا شيء كثير وكان من الأحداث في هذه المدة أنه في ليلة الخميس الثالث والعشرين من رجب سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة ظهر نجم في السماء كان في رأي العين مثل الصومعة العظيمة طلع من جهة المشرق وتهافت جريا فيما بين المغرب والجوف وتطاير منه شرر عظيم فزع الناس منه واستغاثوا ربه في صرف مكروهة عنهم وفي سنة اثنتين وثمانين بعدها كان الكسوف الكلي الذي أذهب جميع الفرس وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمئة كانت الريح الهائلة التي نظر الناس فيها إلى الهائم تمر بين السماء والأرض نعوذ بالله من سخطه وفي سنة أربع وتسعين وثلاثمئة طلع الكوكب الوقاد وهو نجم عظيم ضخم الجرم كثير الضياء وفي سنة ست وتسعين وثلاثمئة طلع نجم عظيم من ذوات الأذنان شديد الارتعاد وفي سنة سبع وأربعمئة انقضت دولة بني أمية بالأندلس وقامت بها دولة بني حمود فكانت مدتها نحو سبع سنين وانقضت أيضا واقترب أمر الجماعة بالأندلس وصار الملك بها طوائف إلى أن نسخ ذلك يوسف بن تاشفين وفي سنة إحدى عشرة وأربعمئة اشتد القحط ببلاد المغرب كلها من تاهرت إلى سجلماسة وكثر الفناء في الناس نسأل الله العافية وفي سنة خمس عشرة وأربعمئة كانت الزلزلة العظيمة بالأندلس اضطربت لها الأرض وانهدت الجبال

وفي سنة سبع عشرة وأربعمئة توفي الفقيه ابن العجوز بفاس وفي سنة ثلاثين وأربعمئة توفي الشيخ الفقيه أبو عمران الفاسي قال في التشوف أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي أصله من مدينة فاس ونزل بالقيروان فأخذ عن ابن الحسن القاسبي ثم رحل إلى بغداد فحضر مجلس القاضي أبي بكر بن الطيب ثم عاد إلى القيروان وبها مات ثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاثين وأربعمئة وكان مقدا في الفضل والأمانة اه

بسم الله الرحمن الرحيم الدولة المرابطية الخير عن الدولة الصنهاجية للمتونة المرابطية وأوليتها قد تقدم لنا عند الكلام على نسب البربر وشعوبها أن صنهاجة إحدى قبائل البرانس من البربر وأنهم أعظم قبائلها بالمغرب لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط حتى زعم كثير من الناس أنهم ثلث البربر وتقدم لنا أن النسابين من العرب زعموا أن صنهاجة وكثامة من حمير خلفهم الملك إفريقيش بالمغرب فاستحالت لغتهم إلى البربرية والتحقيق خلاف ذلك وأنهم من كنعان بن حام كسائر البربر وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين منهم لتونة وكدالة ومسوقة ومسراته ومداسة وبنو وارث وبنو دحير وبنو زياد وبنو موسى وبنو قشتال وغير ذلك وتحت هذه القبائل بطون وأخاذ قوت الحصر وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان إحداهما دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين بإفريقية ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين والأخرى دولة الملتهمين بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس كما سيأتي وموطن هؤلاء الملتهمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولاً في أربعة عرضاً وفيهم قوما لا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فاكهة وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزاً إلا أن يمر ببلادهم التجار فينحفونهم بالخبز والدقيق وإنما قيل لهم الملتهمون لأنهم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم أصلاً قال ابن خلكان اللثام سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف وسبب ذلك على ما قيل إنحمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد فتعله الخواص منهم فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم وقيل كان سببه أن قوما من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية ويقعدوا هم في البيوت متلثمين في زي النساء فإذا أتاهم العدو وظنوهم نساء خرجوا عليهم ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيف فقتلوهم فلزموا اللثام تبركاً به بما حصل لهم من الظفر بالعدو وقال عز الدين ابن الأثير في كامله ما مثاله وقيل إن سبب تلثمهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجل ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدار النساء بالبيوت فلما أشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا وقالوا هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتل الموت والرأي أن نسوق النعم ونمضي فإن اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل رجال إلى الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء فقتلوا من اعدو خلقا كثيرا وكان من قتل النساء أكثر فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب ولا يزيلونه ليلا ولا نهارا وفي ذلك يقول أبو محمد بن حامد الكاتب قول لهم شرف العلام من حمير وإذا انتموا صنهاجة فهم هم لما حوروا أحرار كل فضيلة غلب الحياء عليهم فقتلوا وقال ابن خلدون كاندين صنهاجة أهل اللثام المجوسية شأن برابرة المغرب ولم يزلوا مستقرين بتلك المفاصل الصحراوية حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس وكانت الرياسة فيهم للمتونة واستوسق لهم ملك ضخم عند دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس توارثه ملوك منهم من بني رتنطيو وطالت أعمارهم فيه إلى الثمانين ونحوها ودوخا تلك البلاد الصحراوية وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام فدان به كثير منهم واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوهم منهم ثم افترق أمرهم من بعد ذلك وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعة واستمروا على ذلك مائة وعشرين سنة إلى أن قام فيهم الأمير أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتاسرت المتوني فاجتمعوا عليه وأحبوه وابعوه وكان من أهل الفضل والدين والجهاد والحج فلبث فيهم ثلاث سنين ثم استشهد في بعض غزواته الخير عن رياسة يحي بن إبراهيم الكدالي وما كان من أمره مع الشيخ أبي عمران الفاسي رحمهما الله لما توفي أبو عبد الله بن تيفاوت قام

بأمر صنهاجة من بعده بن إبراهيم الكدالي وكدالة وملتونة أخوان يجتمعان في أب واحد وكل منهما قبيل كبير يسكنون الصحراء التي تلي بلاد السودان ويليه من جهة المغرب البحر المحيط فاستمر الأمير يحي بن إبراهيم على رئاسة صنهاجة وحر بهم لأعدائهم إلى أن كانت سنة سبع وعشرين وأربعمائة فاستخلف على صنهاجة ابنه إبراهيم بن يحي وارتحل إلى المشرق برسم الحج فلما قضى حجة وزيارته فقل إلى بلاده فمر في عوده بالقيروان فلقى بها الشيخ الفقيه أبا عمران الفاسي وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه فرآه الشيخ أبو عمران محبا في الخير فأعجبه حاله وسأله عن اسمه ونسبه وبلده فأخبره بذلك كله وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من كثرة الخلق فقال له الشيخ وما ينتحلون من المذاهب قال إنهم قوم غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم فاختره الشيخ وسأله عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئا إلا أنه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة فقال له الشيخ وما يمنحك من تعلم العلم فقال يا سيدي عدم وجود عالم بأرضي وليس في بلادي من يقرأ القرآن فضلا عن العلم ومع ذلك فأهل أرضي يحبون الخير ويرعون فيه لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويعلمهم الكتاب والسنة وشرائع الإسلام فلو رغبت في الثواب من الله تعال لبعثت معي بعض طلبتك يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فينتفعون به ويكون لك وله الأجر العظيم عند الله تعالى إذ كنت سبب هدايتهم فندب الشيخ أبو عمران تلامذته إلى ذلك فاستصعبوا دخول أرض الصحراء وأشفقوا منها فقال الشيخ أبو عمران تلامذته إلى ذلك فاستصعبوا دخول أرض الصحراء وأشفقوا منها فقال الشيخ أبو عمران ليحي بن إبراهيم إني أعرف ببلد نفيس من أرض المصامدة ففيها حدائق وراعا أخذ عني علما كثيرا واسمه وجاج بن زلو المطي من أهل السوس الأقصى أكتب إليه كتابا لينظر في تلامذته من يبعثه معك فسر إليه لعلك تجد حاجتك عنده فكتب إليه الشيخ أبو عمران كتابا يقول فيه أما بعد إذا وصلك حامل كتابي هذا **وهو يحي بن إبراهيم**

الكلداني فابعت معه من طلبتك من تتق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم والله لا يضيع أجر من أحسن ملا وأبو محمد واجاج هذا من رجال التشوف قال فيه ومنهم واجاج بن زلو المطي من أهل السوس الأقصى رحل إلى القيروان وأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبه العلم وقراءة القرآن وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه وإذا أصابهم قحط استسقوا به اه فسار يحي بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل إلى الفقيه واجاج بمدينة نفيس فسلم عليه ودفع إليه الكتاب وكان ذلك في رجب سنة ثلاثين وأربعمائة فنظر الفقيه واجاج في الكتاب ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران فانندب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين الجزولي وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة مشاركا في العلوم فخرج مع يحي بن إبراهيم إلى الصحراء وكان من أمره ما نقصه عليك الخبر عن دخول عبد الله بن ياسين أرض الصحراء وابتداء أمره بها لما انتهى يحي بن إبراهيم إلى بلاده ومعه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي تلقاه قبائل كدالة وملتونة وفرحوا بمقدمهما وتيمنا بالفقيه وبالغوا في إكرامه وبره فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم رسم الدين ويسوسهم بإداب الشرع وألفاهم يتزوجون بأكثر من أربع حرائر فقال لهم ليس هذا من السنة وإنما سنة الإسلام أن يجمع الرجل بين أرب نسوة حرائر فقط وله فيما شاء من ملك اليمين سعة

وجعل بأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وكبحهم عن كثير من مآلوفاتهم الفاسدة وشدد في ذلك فأطرحوه واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما جشمهم من مشاق التكليف فلما رأى عبد الله بن ياسين إعراضهم عنه واتباعهم لأهوائهم عزم على الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في دين الإسلام يومئذ فلم يتركه يحي بن إبراهيم لذلك وقال له إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي وما علي فيمن ضل من قومي وكان قومه ليس عندهم من الإسلام إلا الشهادة دون ما عداها من أركان الإسلام وشرائعه ثم قال **يحي بن إبراهيم** لعبد الله بن ياسين هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة قال وما هو قال إن ههنا جزيرة في البحر قال ابن خلدون هو بحر النيل يحيط بها من جهاتها يكون ضحضاها في المصيف يخاض بالأقدام وغمرها في الشتاء يعبر الزورق قال يحي بن إبراهيم وفيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر ندخل فيها ونقتات من حلالها ونعبد الله تعالى حتى نموت فقال عبد الله بن ياسين إن هذا الرأي حسن فهل بنا فلندخلها على اسم الله فدخلها ودخل معها سبعة نفر من كدالة وابتنى عبد الله رابطة هناك وأقام في أصحابه يعبدون الله تعالى مدة في ثلاثة أشهر فتسامع الناس بهم وأنهم اعتزلوا دينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار فكثر الواردون عليهم والتوابون لديهم فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الخير ويرغبهم في ثواب الله ويحذرهم ألم عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم فلم تمر عليه إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل وكان من ارهم ما تسمعه عن قريب

شروع عبد الله بن ياسين في الجهاد وإعلانه بالدعوة وما كان من أمره في ذلك لما اجتمع إلى عبد الله بن ياسين من أشرف صنهاجة نحو ألف رجل سماهم المرابطين للزومهم رابطته ولما تفقهوا ورسخ فيهم الدين قام فيهم خطيبا فوعظهم وشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم جزائه ثم ندبهم إلى جهاد من خلفهم م قبائل صنهاجة وقال لهم معشر المرابطين إنكم اليوم جمع كثير نحو ألف رجل ولن يغلب ألف من قلة وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم بأن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في الله حق جهاده فقالوا له أيها الشيخ المبارك أمرنا بما شئت تجدنا سامعين لك ومطيعين ولو أمرتنا بقتل آباءنا لفلنا فقال لهم اخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم وخوفهم عقاب الله وأبلغوهم حجته فإن تابوا فخلوا سبيلهم وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته فوعظهم وأنذروهم ودعاهم إلى الإقلاع عما هم بسبيله فلم يرفعوا بذلك رأسا فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهها وقرأ عليهم حجة الله ودعاهم إلى التوبة ورجعهم في الجنة وخوفهم من النار وأقام يندروهم سبعة أيام وهم في ذلك كله لا يلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلا فسادا فلما ينس منهم قال لأصحابه قد أبلغنا في الحجة

وأنذرونا وأعدرنا وقد وجب علينا الآن جهادهم فاغزوهم على بركة الله فيدا أو لا بقبيلة كدالة فغزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه وقتل منهم خلقا كثيرا وأسلم الباقون إسلاما جديدا وحسنت حالهم وأدوا ما يلزمهم من كل ما فرض الله عليهم وكان ذلك في صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ثم سار إلى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقتلهم حتى أظهره الله عليهم وعنا إلى الطاعة وابعوه على إقامة الكتاب والسنة ثم سار إلى قبيلة مسوفة فقاتلهم حتى أذعنوا له وابعوه على ما بآبعت لمتونة وكدالة فلما رأى ذلك سائر صنهاجة ساروا إلى التوبة والمبايعة وأقروا له بالسمع والطاعة فكان كل من أتاه تابا منهم يطهره بأن يضربه مائة سوط ثم يعلمه القرآن وشرائع الإسلام وكان يأمرهم بالصلاة والزكاة وأداء العشر واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه ما سرفع إليه من ذلك ثم أخذ في اشتراء السلاح وأركاب الجيوش من ذلك المال وجعل يغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء وذلك قبائلها ثم جمع أسلاب القتلى في تلك المغازي وجعلها فينا للمرابطين وبعث بمال دثر مما اجتمع لديه من الزكوات والأعشار والأخماس إلى طلبه العلم ببلاد المصامدة فاشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء وما والأها من بلاد السودان وبلاد القبلة وبلاد المصامدة وسائر أقطار المغرب وأنه قام رجل بكدالة يدعو إلى الله تعالى وإلى الصراط المستقيم ويحكم بما أنزل الله وأنه متواضع زاهد في الدنيا وطار له ذكر في العالم وتمكن ناموسه من القلوب وأحبته الناس ثم توفي **يحي بن إبراهيم الكدالي** على أثر ذلك وحكى ابن خلدون أن وفاة يحي بن إبراهيم كانت قبل اعتزاله عبد الله بن ياسين وأصحابه في الجزيرة والله أعلم

الخبر عن رئاسة يحي بن عمرو بن تكلانين الممتوني لما توفي يحي بن إبراهيم الكدالي عزم عبد الله بن ياسين على تقديم رجل يقوم بأمر المرابطين في حربهم وجهادهم لعدوهم وكانت قبيلة لمتونة من بين قبائل صنهاجة أكثر طاعة لله تعالى ودينا أراد الله فكان عبد الله بن ياسين

يكرمهم ويقدمهم على غيرهم وذلك لما أراد الله تعالى من ظهور أمرهم وتملكهم على الخلق فجمع عبد الله بن ياسين رؤوس القبائل من صنعهاجة وولى عليهم يحي بن عمر الممتوني وعبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة لأنه هو الذي يأمر وينهى ويعطي ويمنع وعن رأيه يصدرون فكان يحي ب عمر يتولى النظر في أمر الحرب وعبد الله بن ياسين ينظر في أمر الدين وأحكام الشرع ويأخذ الزكوات والأعشار وكان يحي شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين واقفا عند أمره ونهيه فمن حسن طاعته له أنه قال له يوما قد وجب عليك أدب قال يحي فيماذا يا سيدي قال لا أعرفك به حتى أخذه منك فكشف له يحي عن بشرته فضربه عشرين سوطا ثم قال له إنما ضربتك لأنك باشرت القتال واصطلبت بنار الحرب بنفسك وذلك خطأ منك فإن الأمير لا يقاتل وإنما يقف ويحرض الناس ويقوي نفوسهم فإن حياة الجند بحياة أميره وهلاكه بهلاكه واستقام الأمر ليحي بن عمر وملك جميع بلاد الصحراء وغزا بلاد السودان ففتح كثيرا منها وكان من أهل الزهد والدين والصلاح

الخبر عن غزو عبد الله بن ياسين ويحي بن عمر سجلماسة والسبب في ذلك قد تقدم لنا عند الكلام على بنبي مدرار المكناسيين أصحاب سجلماسة أن انقراض دولتهم كان على يد خزرون بن فلفل بن خزر المغراوي وأنه زحف إلى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة وبرز إليه صاحبها أبو محمد المعتز بالله آخر ملوك بني مدرار الصفورية فهزمه خزرون وقتله واستولى على بلده وذخيرته وبعث برأسه إلى قرطبة وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر واستمر خزرون بن فلفل واليا على سجلماسة إلى أن وولي بعده ابنه وانودين بن خزرون إلى أن هلك أيضا وولي ابنه مسعود بن وانودين ولما انقضت الدولة الأموية بالأندلس وافترق أمر الجماعة بها وصار الملك طوائف استبد أماء الأطراف وملوك زناتة بالمغرب كل بما في يده وعدم الوازع وتصرفوا في الرعايا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم فنال فاسا وأعمالها من جور بني عطية المغراويين ما حكينا بعضه قبل ونال أهل سجلماسة ودرعة من بني خزرون بن فلفل المغراويين مثل ذلك أو أكثر فلما كانت سنة سبع وأربعين وأربعمئة وقد انتشر ذكر عبد الله بن ياسين وأصحابه المرابطين في العالم اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين ويحي بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغوبون إليهم في الوصول إلى بلادهم ليظهرها مما ي في من المنكرات وشدة العسف من الأمراء وعرفوهم بما هم فيه أهل العلم والدين وسائر المسلمين من النذل والصغار مع أميرهم مسعود بن وانودين المغراوي فلما وصل الكتاب إلى عبد الله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأ عليهم وشاورهم في الأمر فقالوا أيها الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد

وخرج بهم في عشرين من صفر سنة سبع وأربعين وأربعمئة في جيش كثيف من المرابطين وقيل كان خروجه سنة خمس وأربعين وأربعمئة فسار حتى وصل إلى بلاد درعة فوجد بها عامل مسعود بن وانودين فنفاه عنها ووجد بها خمسين ألف ناقة لمسعود المذكور وكانت ترعى في حامي حما لها هنالك فاكتسحها عبد الله بن ياسين واتصل الخبر بمسعود فجمع جيوشه وخرج نحوه فالتقى الجمعان فيما بين درعة وسجلماسة فكانت بينهما حرب فظيعة وأكثر جيشه وفر الباقي واستولى عبد الله بن ياسين على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم مع الإبل التي كان اكتسحها في درعة فأخرج الخمس من ذلك كله وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهم وقسم الأربعة أخماس على المرابطين واتحل من فوره إلى سجلماسة فدخلها وقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها وغير ما وجد بها من المنكرات وقطع المزامير وآلة اللهو وأحرق الدور التي كانت بها الخمر وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه واستعمل على سجلماسة عاملا من لمتونة وانصرف إلى الصحراء ثم توفي الأمير أبو زكرياء يحي بن عمر في بعض غزواته ببلاد لاسودان سنة سبع وأربعين وأربعمئة الخبر عن رئاسة أبي بكر بن عمر الممتوني وفتح بلاد السوس لما توفي الأمير يحي بن عمر الممتوني ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين وأربعمئة وقلده أمر الحرب والجهاد ثم ندب المرابطين إلى غزو بلاد السوس والمصامدة فزحف إليها في جيش عظيم في ربيع الثاني من السنة المذكورة

وكان أبو بكر بن عمر رجلا صالحا ورعا فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين الممتوني ثم سار حتى انتهى إلى بلاد السوس فغزا جزولة من قبائلها وفتح مدينة ماسة وتارودانت قاعدة بلاد السوس وكان بها قوم من الرافضة يقال لهم البجليه نسبة إلى علي بن عبد الله البجلي الرافضي كان سقط إلى بلاد السوس أيام قيام عبيد الله الشيعي بإفريقية فأشاع هنالك مذهب الرافضة فتوارثوه عنه جبلا بعد جبل وعضوا عليه فكانوا لا يرون الحق إلا ما في يدهم فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر حتى فتحوا مدينة تارودانت عنوة وقتلوا بها خلقا كثيرا ورجع من بقي منهم على مذهب السنة والجماعة وحاز عبد الله بن ياسين أسلاب القتل منهم فجعلهما فينا وأظهر الله المرابطين على من عاداهم ففتحوا معاقل السوس وخضعت لهم قبائله وفرق عبد الله بن ياسين عماله بنواحيه وأمرهم بإقامة العدل وإظهار السنة واخذ الزكوات والأعشار وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم المحدثه فتح بلاد المصامدة وما يتبع ذلك من جهاد برغواطة وفتح بلادهم وذكر نسبهم ثم ارتحل عبد الله بن ياسين إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن وبلاد رودة ومدينة شغشاوة بالسيف ثم فتح مدينة نفيش وسائر بلاد كدميوه ووفدت عليه قبائل رجرجة وحاحة فبأيعوه ثم ارتحل إلى مدينة أغمات

وبها يومئذ أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي فنزل عليها وحاصرها حصارا شديدا ولما رأى لقوط ما لا طاقة له له أسلمها وفر عنها ليلا هو وجميع حشمه إلى تادلا فاستجار ببني بفرن ملوك سلا وتادلا ودخل المرابطون مدينة أغمات سنة تسع وأربعين فأقام بها عبد الله بن ياسين نحو الشهرين ريثما استراح الجند ثم خرج إلى تادلا ففتحها وقتل من وجد بها من بني بفرن ملوكها وظفر بلقوط المغراوي وقتله وكان للقوط هذا امرأة اسمها زينب بنت إسحاق النفاوية قال ابن خلدون وكانت من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرئاسة وكانت قبل لقوط بن يوسف المغراوي خلفه أبو بكر بن عمر على امرأته زينب بنت إسحاق المذكورة إلى أن كان من أمرها ما نذكره ثم تقدم عبد الله بن ياسين إلى بلاد تامسنا ففتحها واستولى عليها ثم أخبر بأن بساحل قبائل برغواطة ف عدد كثير وجمع عظيم ولنذكر هنا كلاما ملخصا في برغواطة ودولتهم ثم نرجع إلى ما نحن بصدده فنقول اختلف الناس في نسب برغواطة هؤلاء إلى أي شيء يرجع فبعضهم يلحقهم بزنانة وبعضهم يقول في متنبهم صالح بن طريف البرغواطي إنه يهودي الأصل من سبط شمو بن يعقوب عليه السلام نشأ ببرباط حصن من عمل شدونة من بالاد الأندلس ثم رحل إلى المشرق وقرأ على عبيد الله المعتزلي واشتغل بالسحر وجمع منه فنونا وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا فوجد بها قبائل جهالا من البربر فآظهم لهم الصلاح والزهد وموه عليهم وخبيلهم بلسانه وسحرهم بنير نجاته فصدقوه واتبعوه فادعى النبوة وشرع لهم شرائع ووضع لهم قرآنا حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى فكان يقال لمن تبعه ودخل في دينه برباطي ثم عربته العرب فقالوا برغواطيسموا برغواطة

قال ابن خلدون وهذا من الأغاليط البينة وصحح أن القوم من المصامدة بشهادة الموطن والجوار غير ذلك والتحقيق أن برغواطة قبائل شتى ليس يجمعهم أب واحد وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى صالح بن طريف الذي ادعى النبوة بتامسنا سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وتسمى بصالح المؤمنين وشرع لأتباعه الديانة التي أخذها عنه وكان صالح قد شهد مع أبيه طريف حروب ميسرة المضغري كبير الصفورية لعهد وكان طريف يكنى أبا صبيح ومن كبار أصحاب ميسرة المذكور ويقال إنه ادعى النبوة أيضا وشرع لقومه الشرائع ثم هلك سنة سبع وعشرين ومائة وقام بأمره ابنه صالح بن طريف المذكور ففعت مخارقه على مخارق أبيه وكان أولا من أهل العلم والدين ثم انسلخ من آيات اله وانتحل دعوى النبوة وأتى من اليهتان بما أوضحناه قبل في ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي على المغرب ثم خرج صالح بن طريف إلى المشرق سنة أربع وسبعين ومائة بعد أن ملك أمرهم سبعا وأربعين سنة ووعدهم أنه يرجع إليهم في دولة السابع منهم وأوصى بشريعته إلى ابنه إلياس بن صالح ولم يزل إلياس مظهرا للإسلام مصرا على ما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم وكان مظهرا بالعفاف والزهد إلى أن هلك سنة أربع وعشرين ومائتين لممضي خمسين سنة من ولايته ثم ولى من بعده ابنه يونس بن إلياس فأظهر دينهم ودعا إلى كفرهم وقتل من لم يدخل في أمره حتى حرق مدائن تامسنا وما والاها يقال إنه حرق منها ثلاثمائة وثمانين مدينة واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم

إياه وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكالات وهو حجر عال نابت وسط الطريق سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين نفسا قال زمر بن صالح ثم رحل يونس بن إلياس إلى المشرق وحج

ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده وهلك سنة ثمان وستين ومائتين لأربع وأربعين سنة من ملكه وانتقل الأمر عن بنيه إلى غيرهم من قرابته فولي أمرهم أبو غنيم محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين أبياته واشتدت شوكته وعظم أمره وكانت له في البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار إلى شيء منها سعيد بن هشام المصمودي في أبيات منها وقله وهذي أمة هلكوا وضلوا وعاروا لا سقوا ماء معينا يقولون النبي أبو غنيم فأخزى الله أم الكاذبين سيعلم أهل تامسنا إذا ما أتوا القيامة مفضعينها هنالك يونس وبنو أبيه يقودون البرابر حائرنا واتخذ أبو غنيم من الزوجات أربعاً وأربعين لأنهم يبيحون في ديانتهم الخسيسة أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء وكان له من الولد مثل ذلك أو أكثر وهلك أواخر المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه ثم ولي بعده ابنه أبو الأنصار عبد الله بن أبي غنيم فافتق سنيته وكان كبير الدعوة مهيباً عند ملوك عصره يهودنه ويدافعونه بالمواسلة وكان يلبس الملحفة والسرراويل ويلبس المخيط من الثياب ولا يتعم أحد في بلاده إلا الغرباء وكان حافظاً للجار وافيًا للعهد وتوفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة لأربع وأربعين سنة من ملكه ودفن بتاسلاخت وبها قبره وولي بعده ابنه أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار وهو ابن اثنتين وعشرين سنة فسار سيرة أبياته وادعى النبوة واشتد أمره وعلا سلطانه ودانت له قبائل المغرب قال زمر بن صالح كان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغواطة وعشرة آلاف من سواهم وقد كان لملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم آثار عظيمة من الأدارسة والأموية والشيعة وغيرهم ولما زحف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي إلى المغرب فغزو المشهور وأجفلت قبائل زناتة وملوكها بين يديه وانحازوا إلى سبته وأطل عليهم من جبل تطوان وعين جمعهم الكثيف عنهم إلى جهاد برغواطة فأوقع بهم وقتل أميرهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار وبعث بسبيهم إلى القيروان وذلك سنة تسع وستين وثلاثمائة ثم حاربهم أيضاً جنود المنصور بن أبي عامر لما عقد ابنه عبد الملك المظفر لمولاه ووضح على جهاد برغواطة فعظم أثره فيهم بالقتل والسبي ثم حاربهم أيضاً بنو بفرن لما استقل بنو يعلى بن محمد بن صالح منهم بناحية سلا واقتطعواها عن عمل زيري بن عطية المغراوي صاحب فاس وكان لأبي الكمال تميم بن زيري اليفرنى فيهم جهاد كبير حسبما تقدم التنبيه عليه وذلك أعوام العشرين وأربعمائة فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعد أن أئخن فيهم سبياً وقتلاً ثم تراجعوا من بعده إلى أن جاءت دولة المرابطين ودخلوا أرض المغرب دخلتهم وفتحوا بلاد المصامدة وبلاد تادلا وتامسنا فأخبر عبد الله بن ياسين بأن بساحلها قبائل برغواطة في عدد كثير وجمع عظيم وأنهم محوس أهل ضلالة وكفر وأخبر بما تمسكوا به من ديانتهم الخبيثة وقيل له إن برغواطة قبائل كثيرة وأخلاق شتى اجتمعوا في أول أمرهم على صالح بن طريف المنتبئ الكذاب واستمر حالهم على الاضلال والكفر إلى الآن فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الكفر رأى أن الواجب تقديم جهادهم على جهاد غيرهم فسار إليهم في جيوش المرابطين والمير يومئذ على برغواطة هو أبو حفص عبد الله من ذرية أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غنيم محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف فكانت بينه وبين عبد الله بن ياسين ملاحم عظام مات فيها من الفريقيين خلق كثير وأصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولي مهدي المرابطين فكان فيها شهادته رحمه الله ولما حضرته الوفاة قال لهم يا معشر المرابطين إني ميت من يومي هذا لا محالة وإنكم في بلاد عدوكم فإياكم أن تجبنوا أو تنازعوا ففشلوا وتذهب ريحكم وكونوا أعوانا على الحق وغخوانا في ذات الله وإياكم والتحاسد على الرياسة فإن الله يؤتي ملكه من يشاء من خلقه ويستخلف في أرضه من أراد من عباده في كلام غير هذا وتوفي عبد الله بن ياسين عشية ذلك اليوم وهو يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ودفن بموضع يعرف بكريفله وبني على قبره مسجد وهو مشهور بها إلى الآن وكان عبد الله بن ياسين رحمه الله شديد الورع في المطعم والمشرب إنما يتعشى من لحوم الصيد ونحوها لم يأكل شيئاً من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة إقامته فيهم وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوج في كل شهر عدداً من النساء ثم يطلقهن ولا يسمع بامرأة جميلة إلا خطبها ومن حسن سياسته أنه أقام في صنهاجة السنة والجماعة حتى أنه ألزمهم أن من فاتته صلاة في جماعة ضرب عشرين سوطاً ومن فاتته ركعة منها ضرب خمسة أسواط ومن كراماته أن المرابطين خرجوا معه في بعض غزواته ببلاد السودان فنفذ ما معهم من الماء حتى أشرفوا على الهالك فقام عبد الله فقيم وصلى ركعتين ودعا الله تعالى وأمن المرابطون على دعائه فلما فرغ من الدعاء قال لهم احفروا تحت مصلاي هذا فحفروا فصادفوا الماء على نحو شبر من الأرض غنبا بادراً فشربوا واستقوا وملؤوا وررعه أنه لم يزل صائماً من يوم دخل بلاد صنهاجة إلى أن توفي رحمه الله واستمر الأمير أبو بكر بن عمر على رياسته وجددت له البيعة بعد وفاة عبد الله بن ياسين فكان أول ما فعله بعد تجهيزه إياه ودفنه أن زحف إلى برغواطة مصمماً في حربهم متوكلاً على الله في جهادهم فاتخض فيهم قتلاً وسبياً حتى تفرقوا في المكامن والغياض واستأصل شأفتهم وأسلم الباقون إسلاماً جديداً ومحا

أبو بكر بن عمر أثر دعوتهم من المغرب وجمع غنائمهم وقسمها بين المرابطين وعاد إلى مدينة أغمات غزوة أبي بكر بن عمر بلاد المغرب سوى ما تقدم وفتحها إياها لما استقر الأمير أبو بكر بن عمر بأغمات أقام بها إلى صفر من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة وخرج غازياً بلاد المغرب في أم لا تحصى من صنهاجة وجزولة والمصامدة ففتح جبال فازاز وسائر بلاد زناتة وفتح مدائن مكناسة ثم نزل على مدينة لواتة فحاصرها حتى اقتحمها عنوة بالسيف وقتل بها خلقاً كثيراً من بني بفرن وخربها فلم تتمر بعد إلى الآن وكان تخريبه إياها في آخر يوم من ربيع الثاني من السنة المذكورة ثم رجع إلى مدينة أغمات عود أبي بكر بن عمر إلى بلاد الصحراء والسبب في ذلك كان الأمير أبو بكر بن عمر اللتوني قد تزوج زينب بنت إسحاق النفاوية وكنيت بارعة الجمال والحسن كما قلنا وكانت مع ذلك حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي متين ومعرفة بإدارة الأمور حتى كان يقال لها الساحرة فأقام الأمير أبو بكر عندها بأغمات نحو ثلاثة أشهر ثم ورد عليه رسول من بلاد القبلة فأخبره باختلال أمر الصحراء ووقوع الخلاف بين أهلها وكان الأمير أبو بكر رجلاً متورعاً فعظم عليه أن يقتل المسلمون بعضهم بعضاً وهو قادر على كفهم ولم ير أنه في سعة من ذلك وهو متوالي أمرهم ومسؤول عنهم فعزم على الخروج إلى بلاد الصحراء ليصلح أمرها ويقم رسم الجهاد بها ولما عزم على السفر طلق امرأته زينب وقال لها عند فراقه إياها يا

زينب إني ذاهب إلى الصحراء وأنت امرأة جميلة بضعة لا طاقة لك على حرارتها وإني مطلقك فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب فطلقها ثم سافر عن أغمات وجعل طريقة على بلاد تادلا حتى أتى سجلماسة فدخلها وأقام بها أياماً حتى أصلح أحوالها ثم سافر إلى الصحراء ونقل ابن خلكان عن كتاب المعرب عن سيرة ملوك المغرب في سبب رجوع المير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء ما مثاله قال كان أبو بكر بن عمر رجلاً سادجاً خبير الطباع مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب غير ميل إلى الرفاهية وكانت ولاية المغرب من زناتة ضعفاً لم يقاوموا الملتئمين فأدوا البلاد لأبي بكر بن عمر سمع أن عجوزاً في الصحراء ذهبت لها ناقة في غداة فيكت وقالت ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله على بلاد المغرب فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلاً من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ورجع إلى بلاده الجنوبية اه وكان سفر أبي بكر بن عمر إلى الصحراء في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ولما وصل إليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشاً كثيفاً وغزا به بلاد السودان فاستولى منعا على نحو تسعين مرحلة وكان يوسف بن تاشفين قد استفحل أمره أيضاً بالمغرب واستولى على أكثر بلاده فلما سمع الأمير أبو بكر بن عمر بما آل إليه أمر يوسف بن تاشفين وما منحه الله من النصر أقبل من الصحراء ليختبر أحواله ويقال إنه كان مضمرًا لعزله وتولية غيره فأحس يوسف بذلك فشاور زوجته زينب بنت إسحاق وكان قد تزوجها بعد أبي بكر بن عمر فقالت له إن ابن عمك متورع عن سفك الدماء فإذا لقيته فترك ما كان يعهده منك من لأدب والتواضع معه وأظهر أثر الترفع والاستبداد حتى كأنك مسالو له ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا من الأموال والخلع وسائر طرف المغرب واستكثر من ذلك

فإنه بأرض صحراء كل ما جلب إليه من هنا فهو مستطرف لديه فلما قرب أبو بكر بن عمر من أعمال المغرب خرج إليه يوسف بن تاشفين فلقبه على بعد وسلم عليه وهو راكب سلاما مختصرا ولم ينزل لهولا تأدب معه الأدب المعتاد فنظر أبو بكر إلى كثرة جيوشه فقال له يا يوسف ما تصنع بهذه الجيوش قال استعين بها على من خالفني فارتاب أبو بكر به ثم نظر إلى ألف بعير قد أقبلت موقرة فقال ما هذه الإبل الموقرة قال أيها الأمير إني قد جئت بك كل ما معي من ممال وأثاث وطعام وإدام لتستعين به على بلاد الصحراء فازداد أبو بكر تعرفا من حاله وعلم أنه لا يتخلى له عن الأمر فقال له يا بن عم انزل أوصيك فنزلا معا وجلسا فقال أبو بكر إني قد وليت هذا الأمر وإني مسؤول عنه فانق الله تعالى في المسلمين وأعتقتي وأعتق نفسك من النار ولا تصعب من أمور رعيتك شيئا فإنك مسؤول عنه والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء فأقام بها مواظبا على الجهاد في كفار السودان إلى أن استشهد من سهم مسموم أصابه في شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد أن استقام له أمر الصحراء كافة إلى جبال الذهب من بلاد السودان والله غالب على أمره الخبر عن دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المتتوني لما عزم لأمر أبو بكر بن عمر على السفر إلى بلاد الصحراء دعا ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم المتوني فعقد له على بلاد المغرب وفوض إليه أمره وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبني يفرن وسائر زناتة والبربر واتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من فضله ودينه

وشجاعته ونجدته وورعه وورعه وسداد رأيه ويمن نقيته فعاد يوسف من سجلماسة بنصف جيش المرابطين بعد ارتحال أبي بكر بن عمر بالنصف الآخر وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ولما انتهى يوسف بن تاشفين إلى ملوية ميز جيوشه فوجدها أربعين ألفا من المرابطين فأختار منهم أربعة من القواد وهم سير بن أبي بكر المتوني ومحمد بن تميم الكدالي وعمر بن سليمان المسوفي ومدرك التلكاني وعقد لكل قائد منهم على خمسة آلاف من قبيلته وسائر قبائل البربر القانمين به ثم سار هو في أثرهم يتقرب إلى المغرب بلدا بلدا ويتتبع أهله قبيلة قبيلة يقوم بقتالونه ثم يظفر بهم وقوم يفرّون بين يديه وقوم يلقون إليه السلم ويبدلون الطاعة حتى دوخ بلاد المغرب ثم سار حتى دخل مدينة أغمات ولما استقر بها تزوج زينب بنت إسحاق النفازي التي كانت تحت أبي بكر بن عمر فكانت عنوان سعده والقائمة بملكه والمديرة لأمره والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب ومن ذلك إشارتها عليه في أمر أبي بكر بن عمر وكيفية ملاقاته حسبما ذكرناه آنفا وهكذا كان أمرها في كل ما تحاوله رحمها الله ومما يستطاب من حديثها ما حكاه ابن الأثير في كامله وقد تكلم على يوسف بن تاشفين هذا فقال كان حسن السيرة خيرا عادلا يميل إلى أهل العلم والدين بكرمهم ويحكمهم في بلاده ويصدر عن رأيهم ومكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام من ذلك أن ثلاثة نفرًا اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها وتمنى الآخر عملا يعمل فيه لأمر المسلمين وتمنى الآخر زوجته وكانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار واستعمل الآخر وقال للذي تمنى زوجته يا جاهل ما حملك على هذا الذي لا

تصل إليه ثم أرسله إلى زوجته فتركته في خيمة ثلاثة أيام ثم أمرت بأن يحمل إليه في كل يوم طعام واحد ثم أحضرته وقالت ما أكلت في هذه الثلاثة الأيام قال طعاما واحدا فقالت له كل النساء شيء واحد وأمرت له بمال وكسوة وسرحته إلى حال سبيله وكانت وفاته سنة أربع وستين وأربعمائة بناء مدينة مراكش لما دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة كان أمر يوسف بن تاشفين قد استفحل بالمغرب جدا ورسخت قدمه في الملك وعظم صيته فسمت همته إلى بناء مدينة يأوي إليها بحشمه وجنده وتكون حصنا له ولأرباب دولته فاشترى موضع مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة وقال صاحب المغرب كان ملكا لعجز منهم ثم نزل الموضع المذكور بخيام الشعر وبني مسجدا لصلاته وقصبة صغيرة لاختزان ماله وسلاحه ولم يبن على ذلك سورا وقال أبو الخطاب بن دحية في كتاب النبراس إن موضع مدينة مراكش كان مزرعة لأهل نفيس فاشتراه يوسف بن تاشفين بماله الذي خرج به من الصحراء وفي كتاب المغرب إن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش بموضع كان يسمى بذلك الاسم ومعناه بلغة المصامدة **امش مسرعا** وكان ذلك الموضع مكمنا للصوص فكان المارون فيه يقولون لرفقائهم تلك الكلمة تعرف الموضع بها وضبط هذه الكلمة بضم الميم وفتح الراء المشددة بعدها ألف وبعد ألف كاف مكسورة ثم شين معجمة ويقال كان في موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر وبها قوم من البربر فاختلطها يوسف وبنى بها القصور والمسكن الأنيقة وهي في مرج فسيح وحولها جبال على فراسخ

منها وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يعدل مزاجها وحرها وقال ابن خلدون اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها في جبل درن إذ لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم قوة ولا أكثر جمعا وفي القرطاس لما شرع يوسف بن تاشفين في بناء مسجد مراكش كان يحترم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعا منه الله تعالى والذي بناه يوسف من ذلك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش جوفًا من جامع الكتبيين منها ويعرف اليوم بالسجينة ولم يكن بالموضع ماء فحفر الناس آبارا فظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوها وبنو بها قالوا ولم تزل مدينة مراكش لا سور لها إلى أن توفي يوسف بن تاشفين رحمه الله وولي بعده ابنه علي بن يوسف ومضى معظم دولته فأدار عليها السور سنة ست وعشرين وخمسائة يقال كان ذلك بإشارة القاضي أبي الوليد محمد بن رشد الفقيه المشهور فإنه كان قد قدم على السلطان بمراكش فأشار عليه بذلك عندما نبغ محمد بن تومرت مهدي الموحدين بجبال المصامدة وكانت مدة البناء ثمانية أشهر وكان الإنفاق على السور سبعين ألف دينار وبنى علي بن يوسف أيضا الجامع الأعظم المسوب إليه اليوم والمنار الذي عليه وأنفق عليه ستين ألف دينار أخرى ورأيت في كتاب ابن عبد العظيم الأزموري الموضوع في مناقب بني أمغار رضي الله عنهم أن أمير المسلمين علي بن يوسف المتوني لما عزم على إدارة السور على مراكش شاور الفقهاء وأهل الخير في ذلك فمنهم من ثبته ومنهم من نديه إليه وكان من جملة من ندد القاضي أبو الوليد بن رشد ثم شاور أبا عبد الله محمد بن إسحاق المعروف بأمغار صاحب عين

الفرط فأشار ببنائه وبعث له من ماله الحلال وأمره أن يجعله في صندوق صائر ويتولى الإنفاق في ذلك رجل فاضل فقبل السلطان إشارته وعمل برأيه فسهل الله أمر البناء ثم لما جاءت دولة الموحدين وكان منهم يعقوب المنصور الشهير الذي اعتنى بمدينة مراكش واحتفل في تشييدها وبالغ في تميم مساجدها وتنجيد مصانعها ومعاهدها على ما نذكر البعض منه في محله إن شاء الله ولم تزل مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحدية من بعدهم سائر أيامهم ثم لما جاءت دولة بني مرين من بعدهم اتخذوا ككرسي مملكتهم بمدينة فاس وبنوا بها المدينة البيضاء ثم جاءت الدولة السعدية من بعدهم فنقلوا الكرسي إلى مراكش وبنو بها قصر البديع المشهور ثم جاءت الدولة الشريفة العلوية فاتخذ المولى إسماعيل بن الشريف كرسي ملكه بمكناسة الزيتون واحتفل في بنائها احتفالا عظيما على ما نذكره إن شاء الله ثم لما كانت دولة المولى محمد بن عبد الله رد كرسي الملك إلى مراكش وبنى بها قصوره ومصانعها واستمرت مرسيا لمملكتهم إلى الآن وفضل مراكش أشهر من أن يذكر لا سيما ما اشتملت عليه من مزارات الأولياء ومدافن الصالحاء الكبار والأئمة الأخيار حتى قال الوزير ابن الخطيب في مقامات البلدان عند ذكره مدينة مراكش هي تربة الولي وحضرة الملك الأولى وعبر عنها أبو العباس المقرري في نفخ الطيب ببغداد المغرب حرسها الله وصانها من ريب الزمان وطوارق الحدثان

فتح مدينة فاس وغيرها من سائر بلاد المغرب وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة المذكورة جند يوسف بن تاشفين الأجناد واستكثر القواد وفتح كثيرا من البلاد واتخذ الطبول والبند ورتب العمال وكتب العهود وجعل في جيشه الأغزاز والرماة كل ذلك إرهابا لقبائل المغرب فكمّل له من الجيش في تلك السنة أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة والأغزاز والرماة فخرج بهم من حضرة مراكش قاصدا مدينة فاس فالتقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة وسدراته ومغيلة وبهولة ومديونة وغيرهم في خلق عظيم فقاتلوه فكانت بينه وبينهم ملاحم عظام انهزموا فيها من بين يديه وانحصروا بمدينة صدينة فدخلها عليهم بالسيف عنوة فهدم أسوارها وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف ثم رحل إلى فاس فنزلها بعد أن فتح جميع أحوازها وذلك في آخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة وقال ابن خلدون إن يوسف بن تاشفين نازل أولا قلعة فازاز وبها مهدي بن تولى اليحشفي وبنو يحشش بطن من زناتة وكان أبوه تولى صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده فإزاله يوسف بن تاشفين ثم استجاش به على فاس مهدي بن يوسف الكزناني صاحب مكناسة لأنه كان عدو المعنصر المغراوي صاحب فاس فزحف في عساكر

المرابطين إلى فاس وجمع إليه مناصر ففض جموعه اه والله أعلم ثم أقام يوسف على فاس أياما فظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله وارتحل عنها إلى مدينة صفر و فدخلها من يومه عنوة وقتل ملوكها أولاد

مسعود بن وانودين المغراوي صاحب سجلماسة وكانوا قد استولوا عليها ثم رجع يوسف إلى فاس فحاصرها حتى فتحها وهو الفتح الأول وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمئة فأقام بها أياما واستعمل عليها عاملا من لمتونة وخرج إلى بلاد غمارة ففتح الكثير منها حتى أشرف على طنجة وبها يومئذ الحاجب سكوت البرغواطي من موالى بني حمود ثم رجع إلى منازل قلعة فازاز فخالفه بنو معنصر بن حماد المغراوي إلى فاس فدخلوها وقتلوا عامل يوسف الذي كان بها وكان مهدي بن يوسف الكزنائي صاحب بلاد مكناسة قد بايع يوسف بن تاشفين ودخل في طاعة المرابطين فأقره يوسف على عمله وأمره أن يخرج بين يديه بجيشه لفتح بلاد المغرب فجمع مهدي بن يوسف جيشه وخرج م مدينة عوسجة يريد الاجتماع بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فسمع بذلك تميم بن معنصر المغراوي صاحب فاس فعاجله في أنجاد مغراوة وقبائل زناتة وأدركه ببعض الطريق وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله وبعث برأسه إلى الحاجب سكوت صاحب سبتة وطنجة ولما قتل مهدي بن يوسف بعث أهل مدائن مكناسة إلى ابن تاشفين بالخير وبذلوا له الطاعة فملك بلادهم ثم توالى عساكر المرابطين على تميم بن معنصر بالغرارات والنهب واشتد عليه الحصار وعمت الأقوات بفاس فلما رأى ما نزل به من المرابطين جميع مغراوة وبنى يفرن وخرج إليهم لإحدى الراحتين فكانت عليه الهزيمة فقتل تميم وجماعة من عشيرته وتقدم مكانه بفاس القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية المكناسي فجمع قبائل زناتة وخرج بهم إلى المرابطين فالتقى معهم على وادي صيفير فكانت بينهم حرب شديدة انهزم فيها المرابطون وقتل جماعة من فرسانهم واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو على قلعة فازاز فارتحل عنها

وخلف جيشا من المرابطين لحصارها فأقاموا عليها تسع سنين ثم دخلوها صلحا سنة خمس وستين وأربعمئة ولما رحل يوسف عن قلعة فازاز وذلك سنة ست وخمسين سار إلى بني مراسن وأميرهم يومئذ يعلى بن يوسف فعزاهم وقتل منهم خلق وفتح بلادهم ثم سار إلى بلاد ورغة ففتحها وذلك في سنة ثمان وخمسين وأربعمئة وفي سنة ستين فتح جميع بلاد غمارة وجبالها من الريف إلى طنجة وفي سنة اثنتين وستين أقبل إلى فاس فنزل عليها بجميع جيوشه بعد أن فرغ من جميع بلاد المغرب سوى سبتة وشدد الحصار على فاس حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل بها من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة وغيرهم خلقا كثيرا حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وقتل منهم بجامع القرويين وجامع الأندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف وفر من بقي منهم إلى أحواز تلمسان وهذا و الفتح الثان للمدينة فاس وكان يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمئة وفي هذا الخبر بعض مخالفة لما قدمناه في أخبار مغراوة وذلك نقلناه عن ابن خلدون وهذا عن ابن أبي زرع فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلا فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس أمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين المدينتين عدوة القرويين وعدوة الأندلس وصيرهما مصرا واحدا حصنهما وأمر ببناء المساجد في شوارعها وأزقتها وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وأمر ببناء الحمامات والفنادق والأرجاء وأصلح بناءها وربت أسواقها وأقام بها إلى صفر من سنة ثلاث وستين وأربعمئة ثم خرج إلى بلاد ملوية ففتح حصون وطاق وفي سنة أربع وستين بعدها استدعى يوسف أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة وغمارة والمصامدة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبيعوه

وكساهم ووصلهم بالأموال ثم خرج للطواف على أعمال المغرب وتفتت أحوال الرعية والنظر في سيرة ولاته وعماله فيها وهم في صحبته فصلح على يده الكثير من أمور الناس وفي سنة خمس وستين بعدها غزاها يوسف مدينة الدمنة من بلاد طنجة فدخلها عنوة وفتح جبل علودان وفي سنة سبع وستين وأربعمئة فتح يوسف جبال غيابة وبني مكود وبني رهينة وقتل منهم خلقا كثيرا وفيها فرق عماله على بلاد المغرب فولى سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلثة وفزاز وولى عمر بن سليمان على فاس وأحوازها وداود بن عائشة على سجلماسة ودرعة وولى ابنه تميم بن يوسف على مدينة مراکش واعمات وبلاد السوس والمصامدة وتادلا وتامسنا وصفا ملك المغرب ليوسف بن تاشفين سوى سبتة وطنجة وكان خيرا ما ذكره فتح سبتة وطنجة وما ترتب عليه من جهاد بالأندلس كانت سبتة وطنجة لبني حمود لإدريسيين من لدن دولة الأمويين ولما انقرضت دولتهم وخلفهم بنو حمود المذكورون بها استتابوا على سبتة وطنجة من وثقوا به من مواليم الصقالية ولم يزل أمر المدينتين إل نظر هؤلاء النواب واحدا بعد واحد إلى أن استقل بهما الحاجب سكوت البرغواطي وكان عبدا لشيوخ حداد من موالى الحموديين اشتراه من سبي برغواطة في بعض أيام جهادهم ثم صار إلى علي بن حمود فأخذت النجاية بضبيعة إلى أن استقل بالأمر واقتعد كرسي معلمه بطنجة وسبتة وأطاعته قبائل غمارة واتصلت أيام ولايته إلى أن كانت دولة المرابطين وتغلب يوسف بن

تاشفين على بلاد المغرب ونزل بلاد غمارة فدعا الحاجب سكو إلى مظاهرتة معهم بالأجلاج معه ومظاهرتة على عدوه ثم نثاه عن ذلك ابنه الفائل الرأي فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه إلى الحاجب سكوت وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية قد كتب إلى يوسف بن تاشفين يستدعيه للحوز برسم الجهاد ونصر البلاد فأجابيه يوسف بقوله لا يمكنني ذلك إلا إذا ملكت طنجة وسبتة فراجع ابن عباد قطاعته في البحر فينزلوها أيضا حتى يتملكها فأخذ يوسف في محاولة ذلك وصرف عزمه إليه ثم دخلت سنة سبعين وأربعمئة فجهز إليها قائده صالح بن عمران في اثني عشر ألف من المرابطين فارس من المرابطين وعشرين ألفا من سائر قبائل المغرب فلما قربوا من طنجة برز إليهم الحاجب سكوت بجموعه وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة وقال والله لا يسمع أهل سبتة بطول المتوني وأنا حي أبدا فالتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة فدخلوها واستولوا عليها ولحق ضياء النولة يحيى بن سكوت بسبتة فاعتصم بها وكتب القائد صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمئة بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدي بن تيلكان اللمتوني لغزو تلمسان والمغرب الأوسط فسار إليها في عشرين ألفا من المرابطين وكان بتلمسان يومئذ العباس بن بختي من ولد

يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن حزر المغراوي فدخلوا المغرب الأوسط وتقروا بلاد زناتة وظفروا ببيلى ابن الأمير العباس بن بختي فقتلوه وانكفروا راجعين إلى يوسف بن تاشفين فألفوه بمراكش ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين فيها غير يوسف بن تاشفين السكة في جميع عمله وكتب عليها اسمه وفيها فتح سنة أربع وسبعين وأربعمئة فيها زحف يوسف بن تاشفين إلى مدينة وجدة ففتحها وفتح بلاد بني يزناسن وما والاها ثم سار إلى تلمسان ففتحها واستلح من كان بها من مغراوة وقتل أميرها العباس بن بختي المغراوي وأنزل بها عامله محمد بن تينغمر المسوفي في عساكر المرابطين فصارت ثغرا لمملكته واختط بها مدينة تاكرات بمكان محلته وهو اسم المحلة بلسان البربر ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف إلى الجزائر وانكفا راجعا إلى المغرب فدخل مراكش في ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعمئة ثم ورد عليه بها كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بلاد الأندلس وما آل إليه أمرها م تغلب العدو على أكثر ثغورها ويسأله النصر والإعانة فأجابيه يوسف بقوله إذا فتح الله على سبتة اتصلت بكم وبذلت جهدي في جهاد العدو وكان الفتن قد تحرك في هذه السنة في جيوش لا تحصي من الإفرتج والبشكنس والجلالفة وغيرهم ففتح بلاد الأندلس شفا يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبي ثم يرتح على غيرها ونزل على إشبيلية فأقام عليها ثلاثة أيام فأفسد وخرب وكذلك فعل في شذونة وأحوازها وخرب بشرق الأندلس قرى كثيرة ثم صار حتى وصل جزيرة طريف فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال هذا آخر بلاد الأندلس قد وطنته ثم رجع على مدينة سرقسطة فنزل عليها وحاصرها وحلف أن لا

يرتحل عنها حتى يدخلها أو يحول الموت دونها وأراد أن يقدمها بالفتح على غيرها فبذل إليه أميرها المستعين بن هود مالا عظيما فلم يقبله منه وقال المال والبلاد لي وبعث إلى كل قاعدة من قواعد الأندلس جيشا لحصارها والتصييق عليها ثم ملك مدينة طليطلة من يد صاحبها القادر بن ذي النون سنة سبع وسبعين وأربعمئة فكان ذلك من أقوى الأسباب المحركة للخبر عن الغزوة الكبرى بالزلاقة من أرض الأندلس لما انقرضت دولة بني أمية بالأندلس صدر المائة الخامسة بعد نزاع بين أعيانها شديد وقتل منهم عريض مديد وخلفتها الدولة الحمودية فلم يطل أمدها حتى اقتسمت رؤساء الأندلس مملكته وتوزعوا أعمالها وصارت الحال إلى ما قال ابن الخطيب حتى إذا سلك الخلافة انتشر وذه العين جميعا والأثر قام

بكل بقعة مليك وصاح فوق كل غصن ديك فوجد العدو السبيل إلى الاستيلاء على ثغور المسلمين وانتهاز الفرصة فيها بالتضريب بين ملوكها وإغراء بعضهم بعض وكان منهم ابن عباد بسرقسطة ومجاهد العامري بدانية وغير هؤلاء وكلهم يداري الطاغية ويتقيه بالجزية إلى أن كان من أمر الأذفونش ما كان من تخريب بلاد المسلمين واستيلائه على طليطلة بعد حصاره إياها سبع سنين ثم حصاره سرقسطة فلما رأى رؤساء الأندلس ما نزل بهم من مضايق عدو الدين واستطالته على ثغور المسلمين أجمع رأيهم على إجازة يوسف بن تاشفين فكتبه أهل الأندلس كافة من الخاصة والعلماء يستصرخونه في تنفيس العد عن مخنقهم ويكونوا معه بدا واحدة عليه

فلما تواترت رسلهم وكتبهم عليه بعث ابنه المعز بن يوسف في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضه المجاز فانزلها برا وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحرا فاقتحموها عنوة في ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وأربعمئة وقبض على صاحبها ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطي ووجي به إلى المعز أسيرا فقتله صبيرا وبعث بكتاب الفتح إلى أبيه وهو بفاس ينظر في أمر الجهاد ويستعد له ففرح يوسف بفتح سبتة وخرج من حينه قاصدا نحوها ليعبر منها إلى الأندلس ولما سمع المعتمد ابن عباد بفتح سبتة ركب البحر إلى المغرب لاستنفاذ يوسف إلى الجهاد فلقبه مقبلا ببلاد طنجة بموضع يعرف ببليطة على ثلاث مراحل من سبتة وقال ابن خلدون لقيه بفاس فأخبره بحال الأندلس وما هي عليه من الضعف وشدة الخوف والاضطراب وما يلقاه المسلمون من عدوهم من القتل والأسر والحصار كل يوم فقال له يوسف ارجع إلى بلادك وخذ في أمرك فإني على أترك فرجع ابن عباد إلى الأندلس ونزل ليوسف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجهاده ودخل يوسف سبتة فنظر في أمرها وأصلح سفنها وقدمت عليه بها جنود الله من المغرب والصحراء والقبلة والزاب فشرع في إجازتها إلى الأندلس ولما تكاملت بساحل الخضراء عبر هو في أثرها في موكب عظيم من قواد المرابطين وأنجدهم وصلحانهم فلما استوى على ظهر السفينة رفع يديه وقال اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا صلاحا للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نعبره فسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت وكان ذلك يوم الخميس عند الزوال منتصف ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمئة ونزل بالخضراء فصلى بها الظهر من يومه ذلك ولقية المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية وابن الأفيطس صاحب بطليوس وغيرهما من ملوك الأندلس

واتصل الخبير بالأذفونش وهو محاصر لسرقسطة فارتحل عنها وقصد نحو أمير المسلمين وبعث إلى ابن ردمير والبرهانس وغيرهما من كبار النصرانية واستنفر أهل قشتالة وجليقية وسائر المجاورين له من أمم النصرانية فاجتمع له منهم ما يفوت الحصر ومد إلى ابن تاشفين والمسمين هكذا وقع مساق هذه الغزوة عند ابن خلدون وابن أبي زرع وغيرهما وساقها ابن الأثير وابن خلكان وابن عبد المنعم الحميري مساقا غير هذا ولذا ذكر بعض ما نقلوه من ذلك فنقول لما ملك يوسف بن تاشفين المغرب وبنى مراكش وتلمسان الجديدة وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة وتمهدت له الأقطار العريضة المديدة تاقت نفسه إلى العبور لجزيرة الأندلس ففهم بذلك وأخذ في إنشاء السفن والمراكب ليعبر فيها فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إمامه بجزيرتهم وأعدوا له العدة والعدد إلا أنهم استهولوا جمعه واستصعبوا مدافعتهم وكرهوا أن يصحبوا بين عدوين الفرنج عن شمالهم والمثمين عن جنوبهم وكانت الفرنج قد اشتدت وطأتها عليهم فتغير وتنهب وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين والفرنج مع ذلك ترهب جانب ملك المغرب يوسف بن تاشفين إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم لنفاذ أمره ونقله دولة زناة وملك المغرب إليه في أسرع وقت مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي تقد الفارس والطعنات التي تنظم الكلى فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم وكان ملوك الأندلس يفتنون إلى ظلم يوسف ويحذرونه خوفا على ملكهم مهما عبر إليهم وعابن بلادهم فلما رأوا عزيمة متوفرة على العبور راسل بعضهم بعضا يستجدون آراءهم في أمره وكان فزعهم في ذلك إلى المعتمد ابن عباد لأنه أشجع القوم وأكبرهم مملكة فوقع اتفاقهم على مكاتبته وقد تحققوا أنه يقصد بهم يسألونه الإعراض عنهم وأنهم تحت طاعته فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس يقول أما بعد فإنك إن عرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز وإن أجبنا دايك نسبنا إلى عقل ولم تنسب إلى وهن وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتيها فاختر لنفسك أكرم نسبتيك فإنك بالمحل الذي لا يجوز أن نسبق فيه إلى مكرمة وإن في استيفائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام فوصه الكتاب مع تحف وهدايا وكان يوسف لا يعرف اللسان العربي لكنه كان ذكي الطبع يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والماربطية فقال له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظموك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في نزلة الأعادي فإنهم مسلمون وهم من ذوي البيوتات فلا تغير بهم وكف بهم من ورائهم من الأعداء الكفار ولدهم ضيق لا يحتمل العساكر فأعرض عنهم إعراضك عن أطاعك من أهل المغرب فقال يوسف بن تاشفين لكتابه فما ترى أنت فقال أيها الملك أعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهدته الذي لا يرد بانه خليف حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استغفى وأن يهب إذا استوهب وكلما وهب جزيلًا كان أعظم لقدره فإذا عظم قدره تأصل ملكه وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته وإذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس ولم يتجشم المشقة إليهم وكان وارث الملك من غير إهلاك لأخوته واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكام البصرى بطريق تحصيل الملك قالمين جاد ساد ومن ساد قاد ون قاد ملك البلاد فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف فهمه وعلم صحته فقال للكاتب أجب القوم واكتب بما يجب في ذلك وأقرأ علي كتابك فكتب الكاتب بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته تحية من سالم كم وسلم إليكم ورحمة التأييد والنصر فيمن حكم عليكم وإنكم مما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة مخصصون منا بأكرم إيثار وسماحة فاستديموا وقاءنا بوفائكم واستصلحوا آخانا بإصلاح آخائكم والله ولي التوفيق لنا لكم

والسلام فلما فرغ من كتابه قرأ على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللط مما لا يكون إلا في بلاده وأنفذ ذلك إليهم فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به وعظموه واعتزوا بولايته وتوقت نفوسهم على دفع الفرنج وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يربيبهم أن يجيزوا إليه يوسف بن تاشفين ويكونوا من أعوانه عليه فتأتى ليوسف بن تاشفين برأي وزيره ما أراد من محبة أهل الأندلس له وكفاه حربهم وقال ابن الأثير فيا لكامل كان المعتمد ابن عباد أعظم ملوك الأندلس وممتلكا لأكبر بلادها مثل قرطبة وإشبيلية وكان مع ذلك يؤدي الضريبة إلى الأذفونش كل سنة فلما تملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة على عادته فردها عليه ولم يقبلها منه ثم أرسل إليه يتهدده ويتوعدده بالمسير إلى قرطبة وتملكها من يده إلا أن يسلم إليه جميع الحصون التي في الجبل ويبقي السهل للمسلمين وكان الرسول في جمع كثير نحو خمسمائة فارس فأنزله المعتمد وفرق أصحابه على قواد عسكره ثم أمر القواد أن يقتل كل منهم من عنده وأحضر الرسول فصعقه حتى برزت عيناه وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر وكان متوجها إلى قرطبة ليحاصرها فلما بلغه هذا الخبر رجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويستعد استعدادا غير الذي سبق وعاد المعتمد إلى إشبيلية وأقام بها وترك قرطبة بدون مدافع يدافع عنها وقال ابن عبد المنعم الحميري في كتابه الروض المعطار ما ملخصه إن المعتمد ابن عباد أخر في سنة من السنين الضريبة التي كان يدفعها للأذفونش عن وقتها ثم أرسلها إليه بعد فغضب الأذفونش واشتط وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة وأمعن في التجني حتى طلب أن تأتي زوجته إلى الجامع الأعظم بقرطبة فتلد فيه إذ كانت حاملا وكان بالجانب الغربي من المسجد المذكور موضع كنيسة قديمة بنى المسلمون عليها المسجد فأشار عليه الأطباء والقسيسون أن تكون زوجته ساكنة قرب ولادتها

بمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر لدين الله وأبدع في تشييدها وتنجيدها وتردد المرأة مع ذلك إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة وكان الرسول في ذلك يهوديا وكان وزير الأذفونش فامتنع ابن عباد من ذلك فراجع اليهودي وأغلظ له في القول ولسعه بكلمة أسفته فأخذ ابن عباد مجبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزل دماغه في حلقة وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة ولما سكن غضبه استفتى الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي فإباده الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل إذ ليس له ذلك وقال للفقهاء إنما بادت بالفتوى خوفا أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو وعسى الله

بمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر لدين الله وأبدع في تشييدها وتنجيدها وتردد المرأة مع ذلك إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة وكان الرسول في ذلك يهوديا وكان وزير الأذفونش فامتنع ابن عباد من ذلك فراجع اليهودي وأغلظ له في القول ولسعه بكلمة أسفته فأخذ ابن عباد مجبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزل دماغه في حلقة وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة ولما سكن غضبه استفتى الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي فإباده الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل إذ ليس له ذلك وقال للفقهاء إنما بادت بالفتوى خوفا أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو وعسى الله

أن يجعل في عزمته للمسلمين خيرا وبلغ الأذفوش ما صنعه ابن عباد فأقسم بأهله ليغزونه بإشبيلية وليحاصرنه في قصره ثم زحف في عسكرين أحدهما عليه والآخر على بعض قواده حتى نزل على ضفة النهر الأعظم بإشبيلية قبالة قصر ابن عباد وفي أيام مقامه هنالك كتب إلى ابن عباد زاريا عليه كثر بطول مقامه في مجلسي هذا علي الذباب واشتد الحر فاتخفي من قصره بمروحة أروح بها على نفسي وأطرد بها الذباب عن وجهي فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنتظر لك في مراوح من جلود اللطم تروح منك لا عليك إنشاء الله فلما وصلت رسالة ابن عباد الأذفوش وقرئت عليه وفهم مقتضاها أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال وفشا في الأندلس توقيع ابن عباد وما أظهر من العزيمة على إجازة يوسف بن تاشفين والاستظهار به على العدو فاستبشر الناس وفرحوا بذلك وانفتحت لهم أبواب الأمل وأما ملوك طوائف الأندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفرداه برأيه في ذلك اهتموا منه فمنهم من كاتبه ومنهم من شافهه وحذروه عاقبة ذلك وقالوا له الملك العقيم والسيفان لا يجتمعان في عمد فأجابهم ابن عباد بكلمته

التي صارت مصلا رعي الجمال خير من رعي الخنازير ومعناه أن كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيرا يرعى جماله في الصحراء خير من كونه مرقا لأذفوش أسيرا له يرعى خنازيره وقال لمن لامة يا قوم إني من أمري على حالتين حالة يقين وحالة شك ولا بد لي من إحداهما أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو على الأذفوش ففي الممكن أني في لي ويبقى على وفائه ويمكن أن لا يفعل فهذه حالة شك وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله وإن استندت إلى الأذفوش اسخطت الله فإذا كانت حالة الشك فإيهما عارضة فلا شيء أدع ما يرضي الله وأتي ما يسخطه فحينئذ أقصر أصحابه عن لومه ولما عزم ابن عباد على رأيه أمر صاحب بطليموس المتوكل على الله عمر بن الأفيضي وصاحب غرناطة عبد الله بن حبوس الصنهاجي أن يبعث إليه كل منهما قاضي حضرته فعلا واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة عبد الله بن محمد بن أدهم وكان أعقل أهل زمانه فلما اجتمع عند ابن عباد القضاة بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وعرفهم أربعتهم أنهم

رسله إلى يوسف بن تاشفين وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه في الجهاد وأسند إلى الوزير مالا بد منه من إبراهيم العقود السلطانية وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تقد عليه وفود تغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالكاء ناشدين بالله والإسلام مستجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته فيسمع إليهم ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم ولما أنتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم وأكرم مثواهم وجرت بينه وبينهم مرواضات ثم انصرفوا إلى مرسلهم ثم عبر يوسف البحر عبورا سهلا حتى أتى الجزيرة الخضراء فخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات وأقاموا له سواقا جلبوا إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات وأقاموا له سواقا جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق وأذنوا للغزاة في دخلو البلد والتصرف فيها

فامتلات المساجد والرحاب بالمطوعة وتواصوا بهم خيرا هذا مساق صاحب الروض المعطار وقال ابن الأثير لما رجع المعتمد ابن عباد إلى إشبيلية وترك قرطبة بدون مدافع وسمع مشايخها بما جرى من قتل ابن عباد لليهودي وأروا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض اجتماعوا وقالوا هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت وساروا إلى القاضي أبي بكر عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له ألا تنتظر على ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وغطاتهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها وقد رأينا رأيا نعرضه عليك قال ما هو قالوا نكتب إلى عرب إفريقية ونشترط له ماذا وصلوا إلينا فاسمانهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله وقال أخاف إذا وصلوا إلينا يخرّبوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية ويتركوا الفرنج ويبدؤوا بنا والمرابطو أصلح منهم واقرب إلينا قالوا له فكاتب يوسف بن تاشفين وراغب إليه في العبور إلينا يرسل بعض قواده وبينما هم يتفاوضون إذ قدم عليهم ابن عباد وهم في ذلك فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه فقال له ابن عباد أنت رسول الله في ذلك فامتنع القاضي وإنما أراد أن يبريء نفسه من تهمة تلحقه فألح عليه المعتمد فعبر القاضي البحر إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الأذفوش وكان أمير المسلمين يومئذ بمدينة سبتة ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس وأرسل إلى مراکش في طلب من بقي من عساكره فأقبلت إليه بتلو بعضها فلما تكاملت عنده البحر وسار فاجتمع بالمعتمد ابن عباد بإشبيلية وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضا وخرج من أهل قرطبة عسكر كبير وقصده المطوعة من سائر بلاد الأندلس ووصلت الأخبار إلى الأذفوش فجمع عساكره وحشد جنوده وسار من طليطلة وكتب على أمير

المسلمين يوسف بن تاشفين كتابا كتبه له بعض غواة أدياب المسلمين يغلظ له في القول ويصف ما معه من القوة والعدد وبالغ ف بذلك فلما وصل وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه وكان كاتبها مقلقا فكتب وأجاد فلما قرأه على أمير المسلمين قال هذا كتاب طويل وأخضر كتاب الأذفوش وكتب على ظهره الذي يكون ستره وأرسله إليه فلما وقف عليه الأذفوش ارتاع له وعلم أنه بلي برجل له دهاء وعزم وذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبور منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا ورغاتها وكان ليوسف في عبورها رأي مصيب فكان يحدق بها عسكره ويحضرها الحرب فكانت خيل الفرنج تجمع منها وقدم يوسف بن تاشفين بن يديه كتابا للأذفوش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب كما هي السنة ومن جملة ما في الكتاب بلعنا يا أذفوش أنك دعوت الله في الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر إلينا دعوت الله في الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر إلينا فإني قد سمع الأذفوش ما كتب إليه يوسف جاش بحر غيظه وزاد في طغيانه واقسم أن لا يبرح من موضعه حتى يلقاه ولنرجع إلى كلام صاحب الروض والمعطار قال رحمه الله فلما عبر يوسف وجميع جيوشه البحر إلى الخضراء نهض إلى إشبيلية على أحسن الهيئات جيشا بعد جيش وأميرا بعد أمير وقبيل بعد قبيل وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ورأى يوسف ما سره من ذلك ونشطه وتوالت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس من وجوه أصحابه فلما أتى محلة يوسف ركض نحوهم وركضوا نحوه ثم برز إليه

يوسف وحده والتقى منفردين وتصافحا وتعانقا وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكرا نعم الله وتواصيا بالصبر والرحمة وبشرا أنفسهما بما استقبله من غزو أهل الكفر وتضرعا إلى الله في أن يجعل ذلك خالصا لوجهه مقربا إليه واقتربا فعاد يوسف لمحلته وابن عباد إلى جهته وأحلقت ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين باتوا تلك الليلة فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية ففعل ورأى الناس من غزاة سلطانهم ما سرهم ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر أو أعان وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف أهل كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا وكان الأذفوش لما رأى اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح فاستنفر الفرنجة للخروج ورفع القسيسون والزهبان والأساقفة صلباتهم ونشروا أنا جديهم فاجتمع له من الجالقة والإفرنج ما لا يحصى عدده وجواسيس كل فريق تتردد من الجميع وبعث الأذفوش إلى ابن عباد إن صاحبكم يوسف قد تعنى بالمجيء من بلاده وخوض البحر وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم وقال لخاصته وأهل مشورته إني رأيت أني إن أمكنتكم من الدخول إلى بلادي فناجزوني فيها فيها وبين جدرها وربما كانت الدائرة علي يستحكمون البلاد ويحصون من فيها غداة واحدة ولكني أجعل يومهم معي فيحوز بلادهم فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي وجبر لمكاسري وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أن يكون في وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها ثم برز بالمختارن جنوده وأنجاد جموعه على باب دربه وترك بقية جموعه خلفه وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء فالمقل يقول المختارون أربعون ألف دراع

ولكل واحد أتباع وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله واتفق الكل أن عدد المسلمين كان أقل من عدد الكفار ورأى الأذفونش في نومه كأنه راكب فيلا وبين يديه طبل صغير وهو ينفق فيه فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويلها فأحضر رجلا مسلما عالما بتفسير الرؤيا فقصها عليه فاستعفاها من تعبيرها فلم يعفه فقال تأويل هذه الرؤيا ن كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل إلى آخر السورة وقوله تعالى فإذا في الناقر ذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير وذلك يقضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه فلما اجتمع جيشه ورأى كثرتة أعجبه فأحضر ذلك المعبر وقال له بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحبا بكتابتكم فانصرف المعبر وقال لبعض المسلمين هذا الملك هالك وكل من معه وذكر الحديث ثلاث مهلكات وفيه وإعجاب المرء بنفسه م خرج الأذفونش إلى بلاد الأندلس وتقدم السلطان يوسف نحوه أيضا وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس وجعل ابنه عبد الله على مقدمته وسار وهو ينشد متفانلا ببيت سائر مجيزا له بأبيات من شعره لا بد من فرج قريب يأتيك بالعجب العجيب غزو عليك مبارك سيعود بالفتح القريب لله سعدك إنه نكس على دين الصليب لا بد من يوم يكون له أخا يوم القليب ووافت الجيوش كلها بطليوس فأنا بظاهاها وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفظس فلقبهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود ثم جاءهم الخبر بشخص الأذفونش إليهم وقال ابن أبي زرع ارتحل يوسف بن تاشفين من الخضراء قاصدا

نحو الأذفونش وقدم بين يديه فأنده أبا سليمان داود بن عائشة وكان بطلا من الأبطال في عشرة آلاف فارس من المرابطين بعد أن قدم أمامه المعتمد ابن عباد مع أمراء الأندلس وجيوشهم منهم ابن صمداح صاحب المرية وابن الأفظس وغيرهم فأمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد فتكون محلة ملوك الأندلس واحدة ومحلة المرابطين أخرى فتقدم بهم ابن عباد فكانوا إذا ارتحل ابن عباد من موضع نزله يوسف بمحلته فلم يزلوا كذلك حتى نزلوا مدينة طرطوشة فأقاموا بها ثلاثا وكتب منها يوسف إلى الأذفونش يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحب وكان جواب الأذفونش ما تقدم ثم ارتحل يوسف وارتحل الأذفونش حتى نزلوا معا بالقرب من بطليوس وكان نزول يوسف بموضع يعرف بالزلاقة وتقدم المعتمد فنزل ناحية أخرى تحجز بينه وبين يوسف روبة وبين المسلمين والفرنج نهر بطليوس حاجزا يشرب منه هؤلاء وهؤلاء فأقاموا ثلاثة أيام والرسل تختلف بينهم إلى أن وقع اللقاء على ما نذكره لما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونهم في محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكابذ الذفونش إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين كان لا يخرج إلى طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفا بالمحلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات ثم قامت الأساقفة والرهبان ورفعوا صلبانهم ونشروا أنجيلهم وتباعدوا على الموت وعظ يوسف وابن عباد أصحابهما وقام الفقهاء والصالحون في الناس مقام الوعظ وحضوهم على الصبر والثبات وحذروهم من الفشل والفرار وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم وهو يوم الأربعاء فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم فقع الأذفونش ورجع إلى

أعمال المكر والخديعة فعاد الناس إلى محلاتهم وبتوا ليلتهم ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول غدا يوم الجمعة وهو عيدكم والحد عيدنا فليكن لقاءنا بينهما وهو يوم السبت فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة وإنما قصده الفتنك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار ويقال إن الأذفونش واعددهم ليوم الإثنين وبت الناس ليلتهم على أهبة واحتراس كما أشار ابن عباد وبعد مضي جزء من الليل اتبه الفقيه الناسك أبو العباس أمد بن رميلة القرطبي وكان في محله ابن عباد فرحا مسرورا يقول إنه رأى النبي تلك الليلة في النوم فيشهر بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب وانتهى ذلك إلى ابن عباد فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقا لما توقعه من غدر العدو الكافر ثم جاء بالليل فإرسال ن طلائع المعتمد يخبران أنها أشرفا على محلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح ثم تلاحق بقية الطلائع محققين لتحرك الأذفونش ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحرب فهم غير عارفين بهذه البلاد وإنما قادهم ابن عباد فاهجموا عليه واصبروا له فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ولا راه يصبر لكم إن صدقتموه الحملة فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة بطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجلبية الأمر فقال له قل له إني سائر إليك إن شاء الله وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي بكيفية رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها نارا ما دام الأذفونش مشتغلا مع ابن عباد

وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد فلم يصله إلا وقد غشيته جنود الطاغية فصدم ابن عباد صدمة قطعت أماله ومال الأذفونش عليه بمجموعه وأحاطوا به من كل جهة فهاجت الحرب وحمي الوطيس واسترحر القتل في أصحاب ابن عباد وصبر صبرا لم يعهد مثله واستبسط السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحرب واشتد عليه وعلى أصحابه البلاء وساعات الظنون وانكشف البعض منهم وفيهم ابنه عبد الله بن المعتمد وأثن هو جراحات في رأسه وبدنه وعقرت تحته في ذلك اليوم ثلاث أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وتذكر في تلك الحالة ابنا له صغيرا يكنى أبا هاشم وكان قد تركه بأبشيبيلة عليا فقال أبا هاشم هشمتين الشفار فله صبري لذلك الأوار ذكرت شخصيك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفراء ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد يوسف بن تاشفين داود بن عائشة وكان بطلا شهما بنفسه على ابن عباد ثم أقبل يوسف بعد ذلك وطبوله قد ملت اصواتها الجو فلما أبصره الأذفونش وجه حملته إليه وقصده بمعظم جنوده فيبادر إليهم السلطان يوسف وصددهم صدمة ردتهم إلى مركزهم وانتظم به شمل ابن عباد واستنشق الناس الناس ربح الظفر وتباشروا بالنصر ثم صدقوا جميعا الحملة فزلزت الأرض من حوافر الخيل وأظلم النهار بالعجاج وخاضت الخيل في الدماء وصبر الفريقان صبرا عظيما ثم تراجع ابن عباد على يوسف وحمل معه حملة معها النصر وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين لعموا بالتحام الفئتين وصدقوا الحملة فانكشف الطاغية ومر هاربا منهزما وقد طعن في إدى ركبتيه طعنة بقي يخمع بها بقية عمره قالوا وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على فرس يومئذ أنثى يمر بين ساقات المسلمين وصوفهم يحرضهم ويقوي نفوسهم على الجهاد ويحضهم على الصبر فقاتل الناس ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت

وعلى سياق ابن خلكان إن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء وكان موعد بالمنجزة يوم السبت فغدر الأذفونش ومكر فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رحب أقبلت طلائع ابن عباد والروم في أثرها والناس على طمأنينة فيبادر ابن عباد للركوب وانبث الخبر في العساكر فما جت بأهلها ورجفت الأرض وصارت الناس فوضى على غير تعبئة ولا أهبة وجهتهم خيل العدو فغمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها وتكرت الأرض حصيدا خلفها وصرع ابن عباد وأصابه جرح اشواه وفر رؤساء الأندلس وأسملوا محلاتهم وظنوا أنه وهي لا يرقع ونازلة لا تدفع وطن الأذفونش أن أمير المسلمين في المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين فتقدم أمير المسلمين وأحدثت به أنجاد خيله ورجاله من صنهجة ورؤساء القبائل وقصدوا محلة الأذفونش فاقترحوها وقتلوا حاميتها وضربت الطبول وزعقت البوقات الأرض وتجاوبت الحبال والأفاق وتراجع الروم إلى محلتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف وخلوا المعترك بدرق اللط وسيوف الهند ومزاريق الزان فخالطوا الخيل وطعنوها فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه فأهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على عنائه وانتضى خنجرا كان متمنطقا به فأثبته في فخذة فهتك حلق درعه وشك فخذة مع بداد سرجه وكان وقت الزوال يوم الجمعة منتصف رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وهبت ريح النصر فانزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه القويم وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه فأخرجوهم عن محلاتهم فولوا ظهورهم وأعطوا ألقاهم والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم إلى أن لحقوا بروة الجؤوا إليها واعتصموا بها واحدقت بهم الخيل فلما أظلم الليل أنساب الأذفونش وأصحابه من البروبة وأفلتوا من بعد ما نشبت فيهم أظفار المنية واستولى

المسلمون على ما كان في محلته من الأثاث والأنية والمضارب والأسلحة وغير ذلك وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين من ذلك تل عظيم وقال صاحب الروض المطار لجأ الأذفوش إلى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس منهم إلا مكلوم وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابه وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها والمخول ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نكالا محيطا به وبأصحابه وأقربا ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه وشكر صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهم مهم عنه فقال له ها هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشيبيلية كتابا مضمونه كتاب بهذا اليك من المحلة المنصورة يوم الجمعة منتصف رجب وقد أعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفرة المشركين وأذاقهم العذاب الأليم والخطب الجسيم فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسمية في تشييت شمل الأذفونش والإحتواء على جميع عساكره أصلا الله نكال الجحيم ولا أعدامه الوبال العظيم بعد غتبان النهب على محلاته واستئصال القتل بجميع أبطاله وحماته حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها فله الحمد على جميل صنعه ولم يصبني والحمد لله إلا جارحات يسيرة أمت لكنها قرحت بعد ذلك فله الحمد والمنة والسلام واستشهد ف يذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة وقاضي مراکش أبي مروان عبد الملك المصمودي وغيرهما رحم الله الجميع

وحكي أن موضع المعترك كان على اتساعه ما فيه موضع قدم إلا على ميت أو دم وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم واستؤذن ف يذلك السلطان يوسف ففك عنها وأثر بها ملوك الأندلس وعرفهم أن مقصوده الجهاد والأجر العظيم وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم فلما رات ملوك الأندلس إيتار يوسف لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له صنعه وأمر أمير المسلمين بقطع رؤوس القتلى وجمعها فقطعت وجمع بين يديه منها أمثال الجبال فبعث منها إلى إشبيلية عشرة آلاف رأس وإلى قرطبة مثل ذلك وإلى بلنسية مثلها وإلى سرقسطة ومرسية مثلها وبعث إلى بلاد العدو أربعين ألف رأس فقسمت على مدن العدو ليراهم الناس فيشكروا الله على ما منحهم من النصر والظفر العظيم قال ابن أبي زرع وفي هذا اليوم تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ولم يكن يدعى به قبل ذلك وأظهر الله تعالى الإسلام وأعز أله وكتب أمير المسلمين بالفتح إلى بلاد العدو وإلى تميم بن المعز الصنهاجي صاحب إفريقية فعمت المفرحات في جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس واجتمعت كلمة الإسلام وأخرج الناس الصدقات وأعتقوا الرقاب شكرا لله تعالى ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أصحابه وأبطاله ففقدهم ولم يسمع إلا نواح التكالي عليهم اغتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك أسفا وغما وراح إلى أمه الهاوية ول يخلف إلا بنتا وادة جعل المر غلبها فتحصنت بطليطة ورحل المعتمد إلى إشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين فأقام يوسف بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام وورد عليه الخبر بوفاة ولده أبي بكر بن يوسف وكن قد تركه مريضا بسنة فاغتم لذلك وانصرف راجعا إلى العدو وذهب معه ابن عباد يوما وليلة فعزم عليه يوسف في الرجوع إلى منزله وكانت جراحاته قد تورمت عليه فسير معه ولده عبد الله إلى أن وصل البحر وعبر إلى المغرب

وكان أمير المسلمين عند مجيئه إلى بلاد الأندلس وقصده ملاقة الأذفونش قد تحرى المسير بالعراء من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتى نزل الزلافة تجاه الأذفونش وهناك اجتمع بعساكر الأندلس قاله ابن خلكان ولما فرغ من الوعدة رجع عوده على بدنه كل ذلك تورع منه وتكرم وتخفيف عن الرعايا رحمه الله ورضي عنه ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس وهنئ بالفتح وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه قال عبد الجليل بن وهبون حضرت ذلك اليوم وأعدت قصيدة أنشدتها بين يديه فقرأ قارئ إلا نصره فقد نصره الله فقلت بعدا لي ولشعري والله ما أقيت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به اه ومن هنا اختلفت أقوال المؤرخين في حال أمير المسلمين في الجهاد فقيل إنه لم يرجع إلى بلاد الأندلس بعد هذه المرة لكنه ترك قواده فيها ورسم لهم بالجهاد وشن الغارات على بلاد العدو وقيل إنه عاد إليها ثانيا وثالثا وعلى هذا القول اختلفوا في زمان العود وتاريخه والله تعالى أعلم بقية أخبار أمير المسلمين في الجهاد وما اتفق له مع ملوك الأندلس وكبيرهم ابن عباد أعلم أن أقوال المؤرخين اختلفت في أمر يوسف بن تاشفين بعد غزوة الزلافة فحكى ابن خلكان وغيره أن أمير المسلمين لما عزم على النهوض إلى بلاد المغرب ترك قائده سير بن أبي بكر المتتوني بأرض الأندلس وخلف معه جيشا برسم غزو الفرنج فاستراح سير بن أبي بكر أياما قلائل ثم دخل بلاد الأذفونش وشن الغارات فنهب وقتل وسبى وفتح الصحون المنيعية والمعالم الصعبة وتوغل في بلاد العدو وحصل على أموال جليظة وذخائر عظيمة ورتب رجالا وفرسانا في جميع ما استولى عليه وأرسل إلى السلطان يوسف

بجميع ما حصله وكتب إليه يعرفه أن الجيوش بالتغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضييق عيش وأنده وملوك الأندلس في بلاده وأهلهم في أرغد عيش وأطيبه وسأله مرسومة فكتب إليه أن يأمرهم بالانقلة والرحيل إلى أرض العدو فمن فعل فذاك ومن أبي فحاصره وقتله ولا تلبس عليه ولتبدأ بمن والى التغور منهم ولا تتعرض لابن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد وكل بلد أخذته فول عليه أميرا من عسكرك فامتثل سير بن أبي بكر أمره واستتزلهم واحدا بعد واحد حتى كان آخرهم ابن عباد فآلقه بهم ونظمه في سلكهم على ما نذكره وقال ابن أبي زرع لما كانت سنة إحدى وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثاني يرسم الجهاد قال وسبب جوازه أن الأذفونش لعنه الله لما هزم وجرح وقتلت جموعة عمد إلى حصن لبيط الموالي لعمل ابن عباد فشقته بالخبيل والرجال والرامة وأمرهم أن يكونوا ينزلون من الحصن المذكور فيغربون في أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الأندلس إذ كان السبب في جواز أمير المسلمين إلى الأندلس فكانوا ينزلون من الحصن في الخيل والرجل فيغربون ويقتلون ويأسرون قد جعلوا ذلك وظيفة عليهم في كل يوم فسأه ابن عباد ذلك وضاق به ذرعا ثم عبر البحر إلى العدو مستنقرا الأمير المسلمين فلقبه بالمعمورة من حلق وادي سبو وهذه المعمورة هي المسماة اليوم بالمهيدة من أحواز سلا فشكا عليه حصن لبيط ومن يلقاه المسلمون من أهله فوعده الجواز إليه فرجع المعتمد وسار يوسف في أثره فركب البحر من قصر المجاز إلى الخضراء فلقاه ابن عباد بألف دابة تحمل الميرة والضيافة فلما نزل يوسف بالخضراء كتب منها إلى أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد وقال لهم الموعد بيننا وبينكم حصن لبيط ثم تحرك يوسف من الخضراء وذلك في ربيع الأول من السنة المذكورة فنزل على حصن لبيط وفي القاموس لبيط

كزنبيل بلد بالجزيرة الخضراء الأندلسية ولعله هو هذا فلما نزله أمير المسلمين لم يأتهم من أمراء الأندلس غير ابن عبد العزيز صاحب مرسية وابن عباد إشبيلية فإزلا معه الحصن وشرعوا في القتال والتصبيق عليه وكان يوسف رحمه الله يشن الغارات على بلاد الفرنج كل يوم ودام الحصار على الحصن أربعة أشهر لم ينقطع القتال يوما واحدا إلى أن دخل فصل الشتاء ووقع بين ابن عبد العزيز وابن عباد نزاع وشأن فشكا المعتمد إلى أمير المسلمين ابن عبد العزيز فقبض عليه أمير المسلمين وأسلمه إلى ابن عباد فاختلف أر المحلة بسبب ذلك وفر جيش ابن عبد العزيز وقواده عنها وقطعوا الميرة ووقع بها الغلاء ولما علم الأذفونش بذلك حشد أمم النصرانية وقصد إلى حماية الحصن في أم لا تحصي فلما قرب من الحصن انحرف له يوسف عنه إلى ناحية لورقة ثم إلى الميرة ثم جاز إلى العدو وقد تغير على أمراء الأندلس لكونه لم يأتهم أحد عندما دعاهم إلى الجهاد ومنازلة الحصن ولما أفرج أمير المسلمين عن الحصن المذكور أقبل الأذفونش حتى نزل عليه فأخلاه مما كان فيه من آلة الحصار ومداته وأخرج من كان فيه من بقية النصرارى المنفلتين من مخالف المنية وعاد إلى طليطة فاستولى ابن عباد عليه بعد خلافه وفناء جميع حماته بالقتل والجوع سوى تلك الصباية المنفلتة وكان فيه عندما نازله أمير المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل دون العيال والذرية فأتى عليهم القتل والجوع حتى لم يبق فيه سوى نحو المائة وهم المنفلتون منه عند إخلائه ثم لما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثالث يرسم الجهاد فسار حتى نزل على طليطة وحاصر بها الأذفونش وشن الغارات باطرافها فاكتسحها وانتسف ثمارها وزروعها

وخرّب عمرانها وقتل وسبى ولم يأت من ملوك الأندلس أحد ولا عرج عليه منهم فخرج فغاضه ذلك ولما قفل من غزو طليطة عمد إلى غرناطة فنازلها وكان صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن جبوس قد صالح الأذفونش وظهره على أمير المسلمين وبعث إليه بمال واشتغل بتحسين بلده وفي ذلك يقول بعض شعراء عصره يبني على نفسه سقاها كأنه دودة الحرير دعوه يبني فسوف يديري إذا أتت قدرة القدير ولما انتهى أمير

المسلمين إلى غرناطة تحصن منه صاحبها عبد الله بن بلكين وأغلق أبوابها دونه فحاصره أمير المسلمين نحو شهرين ولما اشتد عليه الحصار أرسل يطلب الأمان فأمنه أمير المسلمين وتسلم منه البلاد فملكها وبعث بعبد الله وأخيه تميم بن بلكين صاحب مالقة إلى مراکش مع حريمهما وأولادهما فأقاما بها وأجرى عليهما الإتفاق إلى أن ماتا بها ولما خلع أمير المسلمين بني باديس وملك غرناطة ومالقة وما أضيف إليهما خاف منه المعتمد ابن عباد وانقبض عنه ويقال إن ابن عباد طمع في غرناطة وأن أمير المسلمين يعطيه إياها فعرض له بذلك فأعرض عنه أمير المسلمين فخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عليه ثم سعى بينهما الوشاة فتغير عليه أمير المسلمين وعبر إلى العدو في رمضان سنة ثلاث وثمانين المذكورة ولما انتهى إلى مراکش ولي على الأندلس قائده سير بن أبي بكر المتونى وفوض إليه جميع أمورها كلها ولم يأمره في ابن عباد بشيء فسار سير بن أبي بكر نحو إشبيلية وهو يظن أن ابن عباد إذا سمع به يرحل إليه ويتلقاه على بعد ويحمل إليه الضيافات على العادة فلم يفعل وتحصن منه ولم يتلفت إليه فراسله سير بن أبي بكر أن يسلم إليه البلاد ويدخل في طاعة

أمير المسلمين فامتنع ابن عباد فعند ذلك تقدم سير إلى حصاره وقتاله وبعث بعض قواده إلى قرطبة ليحاصرها وبها يومئذ المأمون بن المعتمد ابن عباد فنزلها في عساكر المرابطين حتى فتحها يوم الأربعاء ثالث صفر بياسة وأبدة وحصن البلاط والمنور والصخرة وشقورة ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لم يبق لابن عباد بلد إلى قرمونة فنزلها حتى دخلها عنوة زوال يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة فاشتد الأمر على ابن عباد وطال عليه الحصار فبعث إلى الأندلس قائده الفونس ليعنه الله يستغيث به على لموتة ويعدده بإعطاء البلاد ويذل الطرف والتلاذ إنه كشف عنه ما هو فيه من الحصار فبعث إليه الأندلس قائده القوس في جيش من عشرين ألف فارس وأربعين ألف رجل فلما علم سير بقدم الفرنج إليه انتخب من جيشه عشرة آلاف فارس من أهل الشجاعة والنجدة وقدم عليه إبراهيم بن إسحاق المتونى وبعثه للقاء الفرنج فالتقى الجمعان بالقرب من حصن المدور فكانت بينهما حروب شديدة مات فيها خلق كثير من المرابطين ومنحهم الله النصر فهزموا الفرنج وقتلوا حتى لم يفلت منهم إلا القليل ثم شد سير بن أبي بكر في الحصار والتصبيح على إشبيلية حتى اقتحمها عنوة وقبض على المعتمد وجماعة من أهل بيته فقيدهم وحملهم في السفين بنهر إشبيلية وبعث بهم إلى أمير المسلمين بمراكش فأمر أمير المسلمين بإرسال المعتمد إلى مدينة أغمات فسجن بها واستمر في السجن إلى أن مات به لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثمان وثمانين وأربعمئة وكان دخول سير بن أبي بكر مدينة إشبيلية يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعمئة

ثم ملك المرابطون بعد ذلك ما بقي من بلاد الأندلس إلى أن خلصت لهم ولم يبق لملوك الطوائف بها ذكر وهذه الأخبار نقلناها عن ابن أبي زرع مزوجة باليسير من كلام غيره واعتمدنا كلامه لأنه موضوع بالقصد الأول لأخبار المغرب فيكون أعنى به من غيره وفي تاريخ ابن خلدون بعض مخالفة لما مر قال أجاز يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس الجواز الثاني سن ست وثمانين وأربعمئة وتناقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من تكبره عليهم لما يسمون به رعاياهم من الظلمات والمكوس وتلاحق المغارم فوجد عليهم وعهد برفع المكوس وتحري المعتلة وقال أيضا إن الفقهاء بالأندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلمات عنهم فقدم بذلك إلى ملوك الطوائف فأجابوه بالامتثال حتى إذا رجع عن بلادهم رجعا إلى حالهم فلما أجاز ثانية انقبضوا عنه إلا ابن عباد فإنه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم فقبض على ابن رشيق البناء وأمكن ابن عباد منه للعداوة التي بينهما وبعث جيشا إلى المرية ففر عنها صاحبها ابن صمادح ونزل بجايو من أرض إفريقية وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ومحلاته فساء نظره وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم وسارت إليه بذلك فتاوى أهل المشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي وغيرهما فعمد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبد الله بن بلكين وأخاه تميما عن مالقة بعد أن كان منهما مداخلة للطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين وبعث بهما إلى المغرب فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه وفشت السعيات بينهم ونهض أمير المسلمين إلى سبتة فاستقر بها وعقد للأمير سير بن أبي بكر على الأندلس وأجازها فأنتهى إليها وقعد ابن عباد عن تلقية وميرته فأحفظه ذلك وطالبه بالطاعة للأمير المسلمين والنزول عن الأمر ففسد ذات بينهما ثم غلبه على جميع عمله ثم صمد إلى إشبيلية فحاصره بها واستنجد الطاغية فعمد إلى استنقاذ من هذا الحصار فلم يخف

عنه شيئا وكان دفاع لموتة مما مات في عضده واقتحم المرابطون إشبيلية عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمئة وقبض سير على المعتمد وقاده أسيرا إلى مراکش فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبس من أغمات سنة تسعين وأربعمئة ثم عمد إلى بطليموس وقبض على صاحبها عمر بن الأفضل فقتله وابنيه يوم الأضحى سنة تسع وثمانين وأربعمئة بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكه مدينة بطليموس ورثاهم الأديب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون بفضيلته المشهورة التي يقول في أولها الدهر يفعج بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصور وهي قصيدة غريبة في مولها وموضوعها عند فيها أهل النكبات ومن عثر به الزمان بما يبكي منه الجماد وتستشرف لسماعه الأنجاد والوهاد ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث إلى الأندلس سنة تسعين وأربعمئة وزحف إليه الطاغية فبعث أمير المسلمين عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج المتونى فاتهم النصرى أمامه وكان الظهور للمسلمين ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين وانضم إليه محمد بن الحاج وسير بن أبي بكر فافتتحو عامة الأندلس م أيدي ملوك الطوائف ولم يبق الأمير مزدي صاحب بلنسية إلى بلاد برشلونة فاتخن فيها وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع وانتظمت بلاد الأندلس في ملكية يوسف بن تاشفين وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كان لم يكن واستولى أمير المسلمين على العدوتين معا واتصلت هزائم المرابطين على الفرنج مرارا والله غالب على أمره فهذا كلام ابن خلدون في سياقه هذه الأخبار

واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حط من رتبة أمير المسلمين وعض عليه إما في كونه كان بربريا من أهل الصحراء بعيدا عن مناحي الملك والأدب ورقة الحاشية وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس حتى فعل بهم ما فعل وذلك حين عابن حسن بلادهم ورفاهية عيشهم واعلم أن هذا الكلام جدير بالرد واصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها ويستظنون بظلمهم ويغدون ويروحون في نعمتهم فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم وروساتهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان وإلا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت ومن ركوب الجادة وتحري طريق الحق على الوصف الذي سمعت وهذا ابن خلدون إمام الفن ومتحري الصدق قد نقل أن ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبذلوا له المال في مظاهرتة إياهم على أمير المسلمين ثم لم يقدم على قتالهم واستنزلهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الأئمة الأعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك فافهم هذا واعرفه والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمنه وكرمه بقية أخبار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سوى ما تقدم قال ابن خلدان كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حازما سائسا للأمر ضابطا لمصالح مملكته مؤثرا لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم قال وبلغني أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي رحمه الله لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم إلى

التوجه إليه فوصل إلى الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فجاء إليه الخبر بوفاته فرجع عن ذلك العزم قال وكنت على هذا الفصل في بعض الكتب وقد ذهب عني في هذا الوقت من أين وجدته وكان أمير المسلمين يوسف معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين دقيق الصوت وكان يخطب ليني العباس وهو أول من تسمى بالأمير المسلمين ولم يزل على حاله وعزه وسلطانه إلى أن توفي يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسماية وعاش سبعين سنة ملك منها مدة خمسين سنة رحمه الله وقال ابن خلدون تسمى يوسف بن تاشفين بالأمير المسلمين وخطب الخليفة لعهده ببغداد وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله العباسي وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الإمام المشهور فتلفا في القول وأحسنا في الإبلاغ طلبا من الخليفة أن يعقد للأمير المسلمين بالمغرب والأندلس فعد

له وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة منقول في أيدي الناس وانقلبوا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما نظره من الأقطار والأقاليم وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضانه على العدل والتمسك بالخير ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الأندلس سنة سبع وتسعين وأربعمائة اه كلام ابن خلدون وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستنصر بالله مع أنه كان بعيدا عنه وأقوى شوكته منه لتكون ولايته مستندة إلى الشرع وهذا من ورعه رحمه الله وإنما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدبا مع الخليفة حتى لا يشاركه في لقبه لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة والخليفة من قريش كما الحديث فافهم

ومن أخبار يوسف بن تاشفين أيضا ما نقله غير واحد من الأئمة أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المغربية والأندلسية المعاونة بشيء من المال على ما هو بصدده من الجهاد وأنه كاتب إلى قاضي المرية أبي عبد الله محمد بن يحيى عرف بابن البراء يأمره بفرض معاونة المرية ويرسل بها إليه فامتنع محمد بن يحيى من فرضها وكتب إليه يخبره بأنه لا يجوز له ذلك فأجابه أمير المسلمين بأن القضاة عندي والفقهاء قد أباحوا فرضها وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فرضها في زمانه فراجعه القاضي عن ذلك وبكتاب يقول فيه الحمد لله الذي إليه مأبنا وعليه حسابنا وبعد فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعاونة وتأخري عن ذلك ون أبي الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله وضجيعه في قبره ولا يشك في عدله وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ولا بوزيره ولا بضجيعه في قبره ولا ممن لا يسك في عدله فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل فإله تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هناك من أهل العلم وليلحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم وحينئذ تجب معاونة الله تعالى على ذلك كله والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته فلما بلغ كتابه إلى أمير المسلمين وعظه الله بقوله ولم يعد عليه في ذلك قولا والأعمال بالنيات وكان أمير المسلمين حين ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة باسمه ونقش على الدينار لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكتب على الدائرة ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وكتب على الصفحة الأخرى عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكوته وكان ملكه قد انتهى إلى مدينة أفرغة من قاصية شرق الأندلس وإلى مدينة أشبونة على البحر المحيط من بحر الأندلس وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما طولا وفي العرض ما يقرب من ذلك وملك بعدوة المغرب من جزائر بني مرغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان ولم ير في بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا خراج لا في حضره ولا في بادية إلا ما أمر الله به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والأعشار وجزيات أهل الذمة وأخماس الغنائم وقد جبي في ذلك من الأموال على وجهها ما لم يجيبه أحد قبله يقال إنه وجد في بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربيع من الورق وخمسة آلاف وأربعمائة ربحا ن مطبوع الذهب وكان رحمه الله زاهدا في زينة الدنيا وزهرتها ورعا متقشفا لباسه الصوف لم يلبس قط غيره ومأكله الشعير ولحوم الإبل والبانها مقتصر على ذلك لم ينقل عنه مدة عمره على ما منحه الله من سعة الملك وخوله من نعمة الدنيا وقد رد أحكام البلاد إلى القضاة وأسقط ما دون الأحكام الشرعية وكان يسير في أعماله بنفسه فينفق أحوال الرعية في كل سنة وكان محبا للفقهاء وأهل العلم والفضل مكرما لهم صادرا عن رأيهم يجري عليهم أراؤهم من بيت المال وكان مع ذلك حسن الأخلاق متواضعا كثير الحياء جامعا لخصال الخير رحمه الله تعالى ورضي عنه

الخبر عن دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللموني لما توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في التاريخ المتقدم بايع الناس ابنه علي بن يوسف المذكور بمراكش بعد من أبيه إليه وتسمى بأمير المسلمين وكان سنه يوم بويح ثلاثا وشرين سنة وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه لأنه صادف البلاد ساكنة والأموال وافرة والرعايا أمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة وسلك طريقه أبيه في جميع أموره واهتدى بهديه يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين على عمه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين لما توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سجاه ابنه علي بن يوسف بثوبه وخرج إلى المرابطين ويده في يد أخيه أبي الطاهر تميم بن يوسف فبايعه ثم قال للمرابطين قوموا فبايعوا أمير المسلمين فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة وبايعه الفقهاء وأشباه القبائل فتمت له البيعة بمراكش ثم كتب إلى سائر بلاد المغرب والأندلس وبلاد القبلة يعلمهم بوفاته أبيه واستخلافه من بعده ويأمرهم بالبيعة فأتته البيعة من جميع البلاد وأقبلت نحوه الوفود للتعزية والتهنئة إلا أهل مدينة فاس فإن ابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن يوسف كان أميرا عليها من قبل جده يوسف فلما انتهى إليه الخبر بموت جده وولاية عمه عظم عليه ذلك وأنف من مبايعة عمه فخرج علي ووافق على ذلك جماعة من قواد لمتونة فزحف إليه علي بن يوسف من

مراكش حتى إذا دنا من فاس خاف يحيى بن أبي بكر على نفسه وعلم أنه لا طاقة له بحرب عمه فأسلم لعمه وخرج منها خائفا يتربص فدخلها علي بن يوسف يوم الأربعاء الثامن من ربيع الآخر سنة خمسماية واستقام له الأمر وقيل إن لي بن يوسف لما دنا من فاس نزل بمدينة مغيلة من أحوازها ثم كتب إلى ابن أخيه يعاتبه على ما ارتكبه من الخلف ويدعوه إلى الدخول في الطاعة كما دخل الناس وكتب كتابا آخر إلى أشباج البلد يدعوهم فيه إلى بيعته ويهددهم فلما وصل الكتاب إلى يحيى وقرأه جمع أهل البلد واستشارهم في المقاتلة والحصار فلم يوافقوه فلما يبس منهم خرج فارا إلى مزدي بن تليكان وكان عاملا على تلمسان فلقه مزدي بوادي ملوية مقبلا برسم البيعة لعلي بن يوسف فأعلمه يحيى بما كان من شأنه فضمن له مزدي عن معه العفو والصفح فرجع معه حتى إذا وصلا إلى فاس دخل مزدي علي أمير المسلمين علي بن يوسف ونزل يحيى مستخفيا بحومة وادي شردوع ولما اجتمع مزدي بأمير المسلمين وسلم عليه ورأى منه إكراما وقبولا أعلمه خير يحيى وما ضمن له من العفو فأجابه إلى ذلك وعفا عنه وأمنه ثم جاء يحيى فبايعه وخيره أمير المسلمين بين أن يسكن جزيرة مبروقة بشرق الأندلس أو ينصرف إلى بلاد الصحراء فانصرف إليها ثم سافر منها إلى الحجاز فحج البيت ورجع إلى عمه فاستأذنه أن يكون في جملته ويكون سكناه معه بحضة مراكش فأذن له في ذلك فسكنها مدة ثم اتهمه عمه بالتشغيب عليه فتفقعه وبعث به إلى الجزيرة الخضراء فاستمر إلى أن مات

أخبار الولادة بالمغرب الأندلس لما بويح أمير المسلمين علي بن يوسف عزل عن قرطبة الأمير أبا عبد الله محمد بن بن أبي زلفى فغزا طليطلة وأوقع بالنصارى فقتلهم قتلا ذريعا بباب القنطرة أخذهم على غرة وفي سنة إحدى وخمسماية عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف عن بلاد المغرب وولى مكانه أبا عبد الله بن الحاج فأقام واليا على فاس وسائر أعمال المغرب نحو سنة أشهر ثم عزله وولاه بلنسية وأعمالها من بلاد الأندلس ولما عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف عن بلاد المغرب وولاه غرناطة وأعمالها من بلاد الأندلس فكانت له على النصارى وقعة أفليح وذلك أنه خرج غازيا بلاد الفرنج سنة اثنتين وخمسماية فنزل حصن أفليح وبه جمع عظيم من الفرنج فحاصروهم حتى اقتحم عليهم الحصن فأرسل النصارى إلى القصبية فتحصنوا بها وانتهى خبرهم إلى الفتح فاستعد للخروج لإغاثتهم فأشارت عليه زوجته أن يبعث ولده عوضا منه لأن تميم بن يوسف ابن ملك المسلمين وسانحة ابن ملك النصارى فامتثل إشارتها وبعث ولده سانحة في جيش كثيف من زعماء الفرنج وأنجاهم فصار حتى إذا دنا من أفليح أخبر تميم بن يوسف بمقدمه فعزم على الإفراج عن الحصن وأن لا يلقى الفرنج فأشار عليه قواد لمتونة منهم عبد الله بن محمد ابن فاطمة ومحمد بن عائشة وغيرهم بالمقام وشجعوه وهونوا عليه أمرهم فقالوا إنما قدموا في ثلاثة آلاف فارس وبيننا وبينهم مسافة فرجع إلى رأيهم فلم يكن إلا عشي ذلك اليوم حتى وافتهم جيوش الفرنج في ألوف

كثيرة فهم تميم بالفرار فلم يجد له سبيلا ثم صمم قواد لمتونة على مناجزة العدو وصمدوا إليه فكانت بينهم حرب عظيمة بعد العهد بمثلها فهزم الله تعالى ونصر المسلمين وقتل ولد الفتح وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفا ونيف ودخل المسلمون أفليح بالسيف عنوة واستشهد في هذه الوقعة جماعة من المسلمين رحمهم الله واتصل الخبر بالفتح فاعتم لقتل ولده وأخذه بلده وهلاك جنده فمرض ومات أسفا لعشرين يوما من الوقعة وكتب تميم بن يوسف إلى أمير المسلمين بالفتح واعلم أنه يقال في ملوك الجلالة الذين نسيهم اليوم الإصطنبول الأذفونش ويقال الفتح فقال ابن خلكان

كثيرة فهم تميم بالفرار فلم يجد له سبيلا ثم صمم قواد لمتونة على مناجزة العدو وصمدوا إليه فكانت بينهم حرب عظيمة بعد العهد بمثلها فهزم الله تعالى ونصر المسلمين وقتل ولد الفتح وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفا ونيف ودخل المسلمون أفليح بالسيف عنوة واستشهد في هذه الوقعة جماعة من المسلمين رحمهم الله واتصل الخبر بالفتح فاعتم لقتل ولده وأخذه بلده وهلاك جنده فمرض ومات أسفا لعشرين يوما من الوقعة وكتب تميم بن يوسف إلى أمير المسلمين بالفتح واعلم أنه يقال في ملوك الجلالة الذين نسيهم اليوم الإصطنبول الأذفونش ويقال الفتح فقال ابن خلكان

المذكور معارضا له على طريق السهل وأقاموا على ذلك مدة توفي أمير المسلمين علي بن يوسف في أثنائها وأفضى الأمر إلى ابنه تاشفين وهو في الحرب وقدم أهل مراکش إسحاق بن علي بن تاشفين نابيا عن أخيه تاشفين بمرآكش وأعمالها ومضى تاشفين بعد البيعة له متبعا لعبد المؤمن حتى انتهيا تلمسان فنزل عبد المؤمن بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطرى المطل عليها ونزل تاشفين بالبسيط مما يلي الصفصاف ووصله هناك مدد صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية مع قائده طاهر بن كباب لعصيبة الصنهاجية وفي يوم وصوله أشرف على عسكر الموحدون وكان يدل بإقدام وشجاعة فقال لجيش لمتونة إنما جئتكم لأخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن وهذا وأرجع إلى قومي فامتعض تاشفين لكلمته وأذن له في المناجزة فحمل على القوم فركبوا وصموا للقاته فكان آخر العهد به

وبعسكره وكان الموحدون قد قتلوا قبل ذلك الروبرتير قائد تاشفين على الروم وقتلوا عسكره في بعض الغارات ثم فتكوا بعسكر ثالث من عساكر تاشفين ونالوا منه أعظم النبل وفي القرطاس زحف المرابطون لقتال الموحدون فنهاهم تاشفين فلم ينتهوا وتعلقوا في الجبل لقتالهم فهبط عليهم الموحدون فهزموهم هزيمة شنعاء ولما توالى هذه الوقائع على تاشفين أجمع الرحلة إلى وهران فبعث ابنه إبراهيم ولي عهده إلى مراکش في جماعة من لمتونة وبعث كاتبها معه أحمد بن عطية ورحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسائة فأقام عليها شهرا ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون إلى أن وصل إليه من المرية بعشرة أساطيل فارسي قريبا معسكره وزحف عبد المؤمن من تلمسان وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى فقدموا وهران وفضوا جموع المرابطين الذين بها ولجا تاشفين إلى رابية هناك فأحذقوا بها واضرموا النيران حولها حتى إذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا على فرسه فتردى من بعض حافات الجبل وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسائة ونجا فل العسكر إلى وهران فانحصورا مع أهلها حتى جهدهم العطش ونزلوا جميعا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة فأتى عليهم القتل رحمه الله وقال في القرطاس إن تاشفين بن علي خرج ذات ليلة وهو بوهران ليضرب في محلة الموحدون فتكاثرت عليه الخيل والرجل فقر أمامهم وكان بجبل عال مشرف على البحر فظن أن الأرض متصلة به فأهوى من شاهق بإزاء رابطة وهران فمات رحمه الله وكان ذلك في ليلة مظلمة مطيرة وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة آنفا

فوجد من الغد بإزاء البحر مينا فاحتز رأسه وحمل إلى تينمل فعلق على شجرة هناك وذلك بعد ملازمة الحرب مع الموحدون في البيداء لم يأو إلى ظل قط من يوم بويغ إلى أن مات وكانت مدة ولايته سنتين وشهرا ونصف شهر وقال ابن خلكان لما تيقن تاشفين بن علي أن دولتهم ستزول أتى مدينة وهران وهي على البحر وقصد أن يجعلها مقره فإن غلب على الأمر ركب منها إلى الأندلس وكان في ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب وباعلاها رباط بأوي إليه المتعبدون وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى صاحب المهدي فكمنوا عشية وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه فأيقن الذين فيه بالهلاك فخرج راكبا فرسه وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو فترامى الفرس نازيا لوعته ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هناك إلى جهة البحر على حجارة في محل وعر فتكسر الفرس وهلك تاشفين في الوقت وقتل الخواص الذين كانوا معه وكان عسكره في ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى في ذلك الليل وجاء الخبر بذلك إلى عبد المؤمن فوصل إلى وهران وسمى ذلك الموضع الذي فيه الرباط صلب الفتح ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل إلى السهل ثم توجه إلى تلمسان وهي مدينتان قديمة وحادثه بينهما شوط فرس ثم توجه إلى فاس فحاصرها واستولى عليها سنة أربعين وخمسائة ثم قصد مراکش سنة إحدى وأربعين بعدها فحاصرها أحد عشر شهرا وفيها إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين

وجماعة من مشايخ دولتهم فقدموه بعد موت أبيه علي بن يوسف نابيا عن أخيه تاشفين فاستولى عليها وقد بلغ الفتح من أهلها كل مبلغ وأخرج إليه إسحاق بن علي ومعه سير بن الحاج وكان من الشجعان ومن خواص دولتهم وكانا مكتوفين وإسحاق دون بلوغ عزم عبد المؤمن أن يعفو عن إسحاق لصغر سنه فلم يوافق خواصه وكان لا يخالفهم فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما ثم نزل عبد المؤمن القصر وذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسائة وقال ابن خلدون أقام الموحدون على مراکش تسعة أشهر وأمير الملتئمين يومئذ إسحاق بنعلي بن يوسف بايعوه صبيا صغيرا عند بلوغ خبر أخيه ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدون فانهمزوا وتتبعهم الموحدون بالقتل واقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسائة وقتل عامة الملتئمين ونجا إسحاق في جملته وأعيان قومه إلى القصبه حتى نزلوا على حكم الموحدون وأحضر إسحق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم وتولى كبير ذلك أبو ح فصح عمر بن واكك منهم وانمحي أثر الملتئمين واستولى الموحدون على البلاد والله غالب على أمره قال ابن جنون كانت لمتونة أهل ديانة وصدق خالصة وصحة مذهب ملكوا بالأندلس من بلاد الإفرنج إلى البحر الغربي المحيط ومن بلاد العدو من مدينة بجاية إلى جبل الذهب من بلاد السودان وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر بالثنية وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن تناهى الفمخ في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصاف وبيعت الثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال والقطاني لا تباغ ولا تشتري وكان ذلك مصحوبا بطول أيامهم ولم يكن في عمل من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تسقيط ولا وظيف من الوظائف المخزونية حاشا الزكاة والعشر وكثرت

الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغيبة ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع طريق ولا من يقوم عليهم وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدون سنة خمس عشرة وخمسائة وأما الأحداث الواقعة في أيامهم ففي شهر ذي الحجة من سنة سبع وستين وأربعمائة ظهر النجم المعكف بالمغرب وفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة كسفت الشمس الكسوف الكلي الذي لم يعهد قبله مثله وكان ذلك يوم الاثنين عند الزوال في اليوم الثامن والعشرين من الشهر وفي سنة اثنين وسبعين بعدها كانت الزلزلة العظيمة التي لم ير الناس مثلها بالمغرب انهرمت منها الأبنية ووقعت الصوامع والمنارات ومات فيها خلق كثير تحت الهدم ولم تزل الزلزلة تتعاقب في كل يوم وليلة من أول يوم ربيع الأول إلى آخر يوم من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة ولد الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن الأصبغ المعروف بابن المناصف صاحب الأرزوزة وفي سنة ثلاث عشرة وخمسائة توفي أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي بقلة حماد صواب الحسن اللخمي وغيره من المشايخ وكان أبو الفضل من أهل العلم والدين على هدي السلف الصالح وكان مجاب الدعوة ولما أفتى فقهاء المغرب بإحراق كتب الشيخ أبي حامد الغزالي رضي الله عنه وأمر أمير المسلمين علي بن يوسف بحرقها انتصر أبو الفضل هذا لأبي حامد رحمه الله وكتب إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بحرقها انتصر أبو الفضل هذا لأبي حامد رحمه الله وكتب إلى أمير المسلمين في ذلك

وحدث صاحب التشوف وهو أبو يعقوب يوسف بن يحيى التتلي المراكشي الدار عرف بابن الزيات بسنده عن أبي الحسن علي بن حزم قال لما وصل إلى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتحريح على كتاب الإحياء وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة أن كتاب الإحياء ليس عندهم ذهب إلى أبي الفضل أستفتيته في تلك الأيمان فأفتى بأنها لا تلزم وكانت إلى جنبه أسفار فقال لي هذه الأسفار من كتاب الأحياء وددت أنني لم أنظر في عمري سواها وكان أبو الفضل قد انسخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءا فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءا ومناقبه كثيرة رحمه الله قلت لم يقع في دول المرابطين أشنع من هذه النازلة وهي إحراق كتاب الإحياء فإنه لما وصلت نسخة إلى بلاد المغرب تصفحها جماعة من فقهاء مهم القاضي أبو القاسم بن حمدين فانفقوا فيها أشياخ على الشيخ أبي حامد رضي الله عنه وأعلموا السلطان بأمرها وأفتوه بأنها يجب إحراقها ولا تجوز قراءتها بحال وكان علي بن يوسف واقف كليله عند إشارة الفقهاء وأهل العلم قد رد جمع الأحكام إليهم فلما أفتوه بإحراق كتاب الإحياء كتب إلى أهل مملكته في سائر الأمصار والأقطار بأن يبحث عن نسخ الإحياء بحثا أكيدا ويحرق ما عثر عليه منها فجمع من نسخها عدد كثير ببلاد الأندلس ووضعت بصحن جامع قرطبة وصب عليها الزيت ثم أوقد عليها بالنار وكذا فعل بما ألقى من نسخها بمرآكش وتوالى الإحراق عليها في سائر بلاد المغرب ويقال إن ذلك كان في حياة الشيخ أبي حامد رحمه الله وأنه دعا بسبب ذلك على المرابطين أن يمزق ملكهم فاستجيب

له فيهم فإن كان كذلك فتاريخ الإحراق يكون فيما بين الخمسمائة والخمسين بعدها لأن بيعة علي بن يوسف كانت على رأس الخمسمائة ووفاة الشيخ أبي حامد

الغزالي رضي الله عنه كانت يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة وفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة توفي الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن العريف كان متناهما في الفضل والدين والزهد في الدنيا منقطعاً إلى الخير يقصد الناس ويألفونه فيحمدون صحبته وسعى به إلى أمير المسلمين علي يوسف فأمر بإشخاصه إلى حضرة مراکش فوصلها وتوفي بها ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر من السنة المذكورة واحتفل الناس لجنائزته وندم أمير المسلمين على ما كان منه له في حياته وظهرت له كرامات رحمه الله ودفن بقرب الجامع القديم الذي بوسط مراکش في روضة القاضي موسى بن أحمد الصنهاجي قُلت وقبره الآن مشهور بسوق العطارين من مراکش عليه ناء حفيل وفي هذه السنة أيضاً أعني سنة ست وثلاثين وخمسمائة توفي أبو الحكم بن برجان قال ابن خلكان هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي عرف بابن برجان بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وبعدها جيم وبعد الألف نون وكان عبداً صالحاً وله تفسير القرآن الكريم وأكثر كلامه فيه على طريق أرباب الأحوال والمقامات اه وقال في التشوف لما أشخص أبو الحكم بن برجان من قرطبة إلى حضرة مراکش وكان فقهاء العصر انتقدوا عليه مسائل قال أبو الحكم والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي يعني أمير المسلمين علي بن يوسف فمات أبو الحكم فأمر أمير المسلمين أن يطرح على المزبلة ولا

يصلى عليه وقد فيه من تكلم ن الفقهاء وكان أبو الحسن علي بن حرزهم يومئذ بمراكش فدخل عليه رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه فأخبره بما أمر به السلطان في شأن أبي الحكم فقال له أبو الحسن إن كنت تتبع نفسك من الله فافعل ما أقوله لك فقال له مرني بما شئت أفعله فقال له تنادي في طرق مراکش واسواقها يقول لكم ابن حرزهم احضروا جنازة الشيخ الفقيه الصالح الزاهد أبي الحكم بن برجان ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله ففعل ما أمره فبلغ ذلك أمير المسلمين فقال من عرف فضله ولم يحضر جنازته فعليه لعنة الله قال ابن عبد الملك في كتاب الذيل والتكملة أبو الحكم بن برجان مدفون بمراكش برحبة الحنطة منها قال وهو الذي تقول له العاة سيدي أبو الرجال وكان الشيخ أبو بنور المشتارني موجوداً في هذه المدة إلا أنني لم أفق على تاريخ وفاته قال في التشوف هو أبو بنور عبد الله بن وإكريس الدكالي من مشترية من أشياخ أبي شعيب أيوب السارية كبير الشأن من أهل الزهد والورع حدثوا عنه أنه مات أخوه فتزوج امرأته فقدمت إليه طعاماً يأكله فوقع في نفسه أن فيه نصيب الأيتام الذين هم أولاد أخيه فأمسك عنه وبات طويلاً وجاءه رجل من أشياخ مشترياته فقال له إن عامل علي بن يوسف تهددني بالقتل والصلب وقد خرج من مراکش متوجهاً إلى دكالة فقال له أبو بنور رده الله عنك فسار إلى أن بقي بينه وبين قرية بليسكاون وهي أم تي تسميها العامة بوسكاون نصف يوم فأصاب العامل وجع قضى عليه من حينه وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ثار القاضي أبو القاسم بن حميد بن بقرطبة مع العامة على المرابطين فقتلهم والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

الدولة الموحدية الخبر عن دولة الموحدين من المصامدة وقيامها على يد محمد بن تومرت المعروف بالمهدي قال ابن خلدون كان للمصامدة في صدر الإسلام جبال درن عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لأخوانهم بر غواطة في نحلة كفرهم وكان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته فكانت لهم دولة عظيمة أدلت من لمتونة بالعدوتين ومن صنهاجة بإفريقية حسباً هو مشهور ويأتي ذكره إن شاء الله تعالى قال وأصل المهدي من هرغة من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت وكان يلقب في صغره أيضاً أم غار وزعم كثير من المؤرخين أن نسبة في أهل البيت فيبعضهم ينسبه سليمان بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب والله أعلم بحقيقة المر وكان أهل بيته أهل نساك ورباط وكانت ولادته على ما عند ابن خلكان يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة وشب المهدي قارناً محياً بالأندلس ودخل قرطبة وهي يومئذ دار علم ثم لحق بالإسكندرية وحج ودخل العراق ولقي به جملة من العلماء وفحول النظر وأفاد علماً واسعاً وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده ولقي أبا حامد الغزالي وفلوضه بذات صدره في ذلك فأراده عليه

قال ابن خلكان اجتمع محمد بن تومرت بأبي حامد الغزالي والكياء الهراسي والطروشوي وغيرهم وحج وأقام بمكة مدة مديدة وحصل قدراً صالحاً من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين وكان ورعاً ناسكاً متقشفاً مخشوناً مخلوقاً كثر الإطراق بساماً في وجوه الناس مقبلاً على العبادة لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصاً وركوة كان شجاعاً فصيحاً في لسان العرب والبربر شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع لا يقع في أمر الله بغير إظهاره وكان مطبوعاً على الإلذاذ بذلك متحملاً لأذى من الناس بسببه وناله بمكة شرفها الله شيء من المكروه من أجل ذلك فخرج منها إلى مصر وبالغ في الإنكار فزادوا في آذاه وطردته الولاة وكان إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل به خلط في كلامه فينسب الجنون فخرج من مصر إلى الإسكندرية وركب البحر متوجهاً إلى بلاده وكان قد رأى في منامه وهو في بلاد المشرق كأنه شرب ماء البحر جمعة كرتين فلما ركب السفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة وألزمهم إقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم ولم يزل على ذلك حتى انتهى إلى المهديّة من أرض إفريقية وكان ملكها يومئذ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وذلك في سنة خمس وخمسمائة هكذا ذكره ابن أخيه أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم الصنهاجي في كتاب الجمع والبيان في أخبار القبروان وقيل إن ارتحال محمد بن تومرت عن بلاد المشرق كان سنة عشر وخمسمائة واجتيازه بمصر كان سنة إحدى عشرة بعدها والله أعلم بالصواب ولما انتهى إلى المهديّة نزل بمسجد مغلق وهو على الطريق وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها فتسامع الناس به في البلد فجأؤوا إليه

وقرؤوا عليه كتباً من أصول الدين فبلغ خبره الأمير يحيى فاستعداه جماعة من الفقهاء فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء فقال له أصلحك الله لرعيتهك ول يقم بعد ذلك بالمهديّة إلا أياماً يسيرة ثم انتقل إلى بجاية فأقام بها مدة وهو على حاله في الإنكار فأخرج منها إلى بعض قرها واسمها ملالة فوجد بها عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي وقال ابن خلدون انطوى المهدي راجعاً إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارباً من الدين وكان قد لقي بالمشرق أنمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهلاً لبدعة وذهب في رأيهم إلى تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت فيصير المهدي أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علي على رأي الإمامية من الشيعة ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة سواها واحتل بطن أبلس الغرب معنياً بمذهبه ذلك مظهر للنكير على علماء المغرب في عدولهم عنه أخذوا نفسه بتدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع حتى لقي بسبب ذلك إذابات في نفسه احتسبها من صالح عمله ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان من المقترفين فأغلظ له ولأتباعه بالنكير وتعرض يوماً لتغيير بعض المنكرات في الطرق فوقع بسببها هيجة نكرها السلطان والخاصة واتمروا به فخرج منها خائفاً يتربص ولحق بماللة على فرسخ منها وبها يومئذ بنو ورياكل من قبائل صنهاجة وكان لهم اعتزاز

ومنعه فأوروه وأجاروه وطلبهم السلطان صاحب بجاية بإسلامه إليه فأبوا وأسخطوه وأقام بينهم يدرس العلم أياماً وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارة الطريق قريباً من دار ملالة وهناك لقيه كبير أصحابه عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه فأعجب بعلمه وصرّف عزمه إليه فاخص به وشمّر للأخذ عنه وفي كتاب المغرب عن سيرة ملوك المغرب أن المهدي كان قد أطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت يقال إنه عثر عليه عند الشيخ أبي حامد الغزالي رضي الله عنه وإبته رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس وهو من ذرية رسول الله

إلى الله يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ي ن م ل و رأى فيه أيضا أن استقامة ذلك الأمر واستيلائه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م و ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة فأوقع الله سبحانه في نفسه أنه القائم بهذا الأمر وأن أوانه قد أرف فما كان محمد يمر بموضع إلا ويسأل عنه ولا يرى أحدا إلا أخذ اسمه وتفقد حليته وكانت حلية عبد المؤمن معه فيبينما هو في الطريق رأى شابا قد بلغ أشده على الصفة التي معه فقال له محمد بن تومرت وقد تجاوزه ما اسمك يا شاب فقال عبد المؤمن فرجع إليه وقال له الله أكبر أنت بغيي ونظر في حليته فوافقت ما عنده فقال له من أين أقبلت قال من كومية قال أين مقصدك فقال المشرق قال ما تبغي قال علما وشرفا قال قد وجدت علما وشرفا وذكرنا أصحابني تنله فوافقه على ذلك فألقى إليه محمد بأمره وأودعه سره قال ابن خلدون وارتحل المهدي إلى المغرب وعبد المؤمن في جملته ولحق بوانثربس فصحبه منها أبو محمد عبد الله الوائشريسي المعروف بالبشير وقال ابن خلكان وكان فصيحاً في لغتي العرب والبربر ففاوضه المهدي فيما عزم عليه من القيام فوافقه على ذلك أتم موافقة وكان البشير ممن تهابت وقرأ فيها فتذاكرا يوماً في كيفية الوصول إلى المطلوب فقال المهدي للبشير أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس وتظهر من العجز واللكن والحصر والتعري عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس لتتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة سبيلاً إلى المطلوب ويقوم لنا ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه فنصدق فيما نقول ففعل البشير ذلك ثم لحق المعدي بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فأحضره القاضي بها وهو ابن صاحب الصلاة ووبخه على منتحله ذلك وعلى خلافه لأهل قطره وظن القاضي أن من العدل نزعه عن ذلك فسم عن قوله واستمر على طريقه إلى فاس فنزل بمسجد طريانة وأقام بها يدرس العلم إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة ثم انتقل إلى مكناسة فنهى بها عن بعض المنكرات فثار إليه الغوغاء وأوجعه ضرباً ثم لحق بمراكش وأقام بها أخذاً في شأنه ولقي بها أمير المسلمين علي بن يوسف بالمسجد الجامع عند صلاة الجمعة فوعظه وأغظ له في القول ولقي ذات يوم أخت أمير المسلمين حاسرة فتاعتها على عادة قومها المثلثين في زي نساتهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تفريره ففاوض أمير المسلمين الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من سيرته وكانوا قد ملئوا منه حسداً وحفيظة لما كان ينتحل من مذهب

الأشعرية في تأويل المتشابه وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إقراره كما جاء ويرى أن الجمهور لفتوه تجسيمياً ويذهب إلى تكفيرهم بذلك على أحد قولي الأشعرية في التكفير فأغروا الأمير فأحضره للمناظرة معهم فكان له الفلج والظهور عليهم وقال ابن خلكان كان محمد المهدي قد استندى أشخاصاً من أهل المغرب جلاداً في القوى الجسمانية أعماراً وكان أميل إلى الأعمار من أولي الفطن والإستبصار فاجتمع له منهم ستة نفر سوى أبي محمد البشير ثم أنه رحل إلى أقصى المغرب وتوجه في أصحابه إلى مراكش وملكها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين وكان ملكاً عظيماً حليماً ورعاً عادلاً متواضعاً وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهيب الأندلسي وكان عالماً صالحاً زاد ابن خلدون عارفاً بالنجوم فشرع محمد المهدي في الإنكار على جري عادته حتى أنكر على ابنة الملك فبلغ خبره الملك وأنه يتحدث في تغيير النولة فتحدث مع مالك بن وهيب في أمره فقال مالك بن وهيب نخاف من فتح باب يهسر علينا سده والرأي أن تحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلاد فأجاب الملك إلى ذلك وكان المهدي وأصحابه مقيمين في مسجد خراب خارج البلد فطلبوهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده سلوا هذا الرجل ما يبغي منا فانتدب له قاضي المرية واسمه محمد بن أسود فقال ما هذا الذي يذكر عنك من الأقوال في حق الملك العادل الحلبي المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه فقال له المهدي أما ما نقل عني فقد

قلته ولي من ورثته أقوال وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه وليعلم بتعريه عن هذه الصفة إنه مغرور بما تقولون له وتضرونه به مع علمك أن الحجة متوجهة عليه فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع جهاراً وتمشي الخنازير بين المسلمين وتؤخذ أموال اليتامى وعدد من ذلك شيئاً كثيراً فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياءً ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لقله لم يتكلم أحد منهم فقال مالك بن وهيب وكان كثير الإجتراء على الملك أيها الملك عندي نصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتاً وإن تركتها لم تأن غائلتها فقال الملك ما هي فقال إني أخاف عليك من هذا الرجل وأرى أن تعقله وأصحابه يتفق عليهم كل يوم ديناراً لتكفي شره وإن لم تفعل فلتنتفنن عليه خزانك كلها ثم لا ينفك ذلك فوافقه الملك على رأيه فقال له وزيره يقبح بك أن تبكي من موعدة رجل ثم تسيء عليه في مجلس واحد وإن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره فصرفه وسأله الدعاء وقال ابن خلدون كان مالك بن وهيب حزاء ينظر في النجوم وكان الكهان يتحدثون بأن ملكاً كائناً بالمغرب في أمة من البربر ويتغير فيه شكل السمكة لقران بين الكوكبين العلويين من السيارة يقتضي ذلك فقال مالك بن وهيب احتفظوا بالدولة من الرجل فإنه صاحب القرآن والدرهم المربع فطلبه علي بن يوسف ففقدته وشرح الخيالة في طلبه فقاتهم وحكى صاحب المغرب إنا لمهدي لما خرج من عند أمير المسلمين لم يزل وجهه تلقاء وجهه إلى أن فارقه فقيل له نراك قد تأدبت مع الملك إذ لم توله ظهره فقال أردت أن لا يفارق وجهي الباطل حتى أعيره ما استطعت اه كلامه

فملا خرج المهدي وأصحابه من عند الملك قال لهم لا مقام لكم هنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فما نأمن أن يعاود الملك في أمرنا فينا لنا منه مكروه ون لنا بمدينة أغمات أخاصني الله ففقد المرور به فلن نعدم منه رأياً ودعاء صالحاً واسم هذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم وهو من فقهاء المصامدة فخرجوا إليه ونزلوا عليه وأخبره محمد بن تومرت خبرهم وأطلعهم على مقصدهم وما جرى له مع الملك فقال عبد الحق هذا الموضع لا يحميك وإن أحصن الموضع المجورة لهذا البلد تينمل وبيننا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم فلما سمع المهدي بهذا الإسم تجدد لذكر اسم الموضع الذي رآه في كتاب الجفر فقصده مع أصحابه وقال ابن خلدون لما حق المهدي بأغمات غير المنكرات على عادته فأغرى به أهل أغمات علي بن يوسف وطبروا إليه بخبره فخرج منها هو وتلامذته الذين كانوا معه في صحبته فلحق أولاً بمسفيوة ثم بهنتانة ولقبه به الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية ثم ارتحل المهدي عنهم إلى هرغة فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشر وخمسمائة وبنى رابطة للعباد فاجتمع عليه الطلبة من القبائل وأخذ يعلمهم المرشدة له في التوحيد باللسان البربري وشاع أمره ثم داخل عامل لمتونة على السوس أناساً من هرغة في قتله ونذر بهم إخوانهم فقتلوا المهدي إلى معقل من أشياهم وقتلوا من داخل فيأمره ودعوا المصامدة إلى مبايعته على التوحيد وقتل المجسمة دونه سنة خمس عشرة وخمسمائة فتقدم إليها رجالاتهم من العشرة وغيرهم وكان فيهم من هنتانة أبو حفص عمر بن يحيى وأبو يحيى بن يكيث ويوسف بن وانودين وابن يغمور ومن تينمل أبو حفص عمر بن علي الصناكي

ومحمد بن سليمان وعمر بن تافراكين وغيرهم وأعبت قبيلة هرغة فدخلوا في أمره كلهم قم دخل معهم كدمية وكفيسية ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان قبلها يلقب بالإمام وكان يسمى أصحابه الطلبة وأهل دعوته الموحدين تعريضاً لمتونة في أخذهم بالعدل على التأويل وميلهم إلى التجسيم ولما تم له من أصحابه خمسون سماهم ايت الخمسين ثم زحف إليهم عامل لمتونة على السوس وهم بمكانهم من هرغة فاستجاشوا إخوانهم من هنتانة وتينمل فاجتمعوا إليهم وأوقعوا بعكس لمتونة فكانت تلك باكورة الفتح وكان المهدي يعدهم بذلك فاستبصروا في أمره وتسابقوا كفاتهم إلى الدخول في دعوته وترددت إليهم عساكر لمتونة مرة بعد أخرى ففضوهم وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينمل فأوطنه وبنى داره ومسجده بينهم وحوالي منبع وادي نفيس وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا له هذا كلام ابن خلدون في سياق هذا الخبر جئنا به مختصراً واقتضى كلام ابن خلكان أن ظهور المهدي ومبايعته لم تكن إلا بتينمل فإنه قد عقب ما سبق لهن أن الفقيه عبد الحق بن إبراهيم المصمودي أشار على المهدي بالمسير إلى تينمل وأن المهدي لما سمع هذا الإسم تجدد له ذكر فيه فقصده مع أصحابه فلما أتوه رأهم أبه على تلك الصورة فعلموا أنهم طلاب علم فقاموا إليهم وأكرمهم وتلقوهم بالترحاب وأنزلوهم في أكرم منازلهم وسأل أمير المسلمين عنهم بعد خروجهم

من مجلسه ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول المهدي إليهم وكان قد سار فيهم ذكره فجأؤوه من كل فج عميق وتبكروا بزيارته وكان كل من أتاه استندناه وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على السلطان فإن

أجابهم بغيره إلى خواصه وإن خالفه أعرض عنه وكان يشتمل الأحداث وذوي الغرة وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة وكان ذوو الحنكة والعقل والحلم من أهاليهم يبهونهم ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم سطوة السلطان فكان لا يتم له مع ذلك أمر وطالت المدة وخاف المهدي من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل وخشي أن يطرق على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى استسلامه إليه والتخلي عنه فشرع في أعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه فرأى بعض أولاد القوم شقرا زرقا وألوان آبائهم السمرة والكحل فسألهم عن سبب ذلك فلم يجيبوه فألزمهم الإجابة فقالوا نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج وفي كل سنة تصعد مماليكه إلينا وينزلون في بيوتنا ويخرجوننا عنها ويختلون بمن فيها من النساء فتأتي أولادنا على هذه الصفة وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا فقال المهدي والله إن الموت خير من هذه الحياة وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح فقالوا بالرغم لا بالرضى فقال أرايتم لو أن ناصرا نصركم على أعدانكم ما كنتم تصنعون قالوا كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت ثم قالوا من هو قال هو ضيفكم يعني نفسه فقالوا السمع والطاعة وكانوا يغالون في تعظيمه فأخذ عليهم العهود والمواثيق واطمأن قلبه ثم قال لهم استعدوا لحضور هؤلاء بالسلح فإذا جاؤكم فأجروهم على عادتكم وخلوا بينهم وبين النساء وميلوا عليهم بالخمور فإذا سكروا فآذنونني بهم فلما حضر الممالك وفعل بهم أهل الجبل ما أشار به المهدي وكان ذلك ليلا أعلموه بذلك مر بقتلهم كلهم فلم يمض من الليل ساعة حتى أتوا على آخرهم ولم يفلت منهم سوى مملوك واحد كان خارج المنازل لحاج له فسمع التكبير عليهم والإيقاع بهم فهرب على غير الطريق حتى خلص من الجبل ولحق بمراكش فأخبر الملك بما جرى فندم على فوات

محمد بن تومرت من يده وعلم أن الحزم كان مع مالك بن وهيب فيما أشار به فجهز من وقته خيلا بمقدار ما يسع وادي تينمال فإنه ضيق المسلك وعلم المهدي أنه لا بد من عسكر يصل إليهم فأمر أهل الجبل بالعودة على أنقاب الوادي ومراصده واستنجد لهم بعض المجاورين فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبي الوادي مثل المطر وكان ذلك من أول النهار إلى آخره وحال بينهم الليل فرجع العسكر إلى الملك وأخبروه بما تم لهم فعلم أنه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنهم فأعرض عنهم وتحقق المهدي ذلك منه وصفت له مودة أهل الجبل فعند ذلك استدعى أبا محمد البشير وقال له هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة لنستميل بذلك قلوب من لم يدخل في الطاعة ثم اتفقا على أنه يصلي الصبح ويقول بلسان فصيح بعد استعمال العجمة واللكنة في تلك المدة إنني رأيت البارحة في منامي أنه نزل إلي ملكان من السماء وشقا فؤادي وغسلاه وحشواه علما وحكمة وقرآنا فلما أصبح فعل ذلك وهو فصل يطول شرحه فانقاد له كل صعب القياد وعجبوا من حاله وحفظه القرآن في النوم فقال له محمد بن تومرت لعجل لنا بلا بشرى في أنفسنا وعرفنا أسعداء نحن أم أشقياء فقال له أما أنت فإنك المهدي القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك ثم قال اعرض أصحابك علي حتى أميز أهل الجنة من أهل النار وعمل في ذلك حيلة قتل بها كل من خالف أمر محمد بن تومرت وأبقى من أطاعه وشرح ذلك بطول وكان غرضه أن لا يبقى في الجبل مخالفا لهم فلما قتل من قتل علم محمد بن تومرت أن في الباقين من له أهل وعشيرة قتلوا وأنهم لا تطيب

نفوسهم بذلك فجمعهم وبشرهم بانتقال ملك مراكش واغتنام أموالهم فسرهم ذلك وسلاهم عن أهلهم وبالجملة فإن تفصيل هذه الواقعة طويل ولسنا بصدد ذلك وخلاصة الأمر أن محمد بن تومرت لم يزل حتى جهز جيشا عدد رجاله عشرة آلاف بين فارس وراجل وفيهم عبد المؤمن بن علي وأبو محمد البشير وأصحابه كلهم وأقام هو بالجبل فنزل القوم لحصار مراكش وأقاموا عليها شهرا ثم كسروا كسرة شنيعة وهرب من سلم منهم من القتل وكان فيمن سلم عبد المؤمن وقتل البشير وبلغ المهدي وهو بالجبل وقد حضرته الوفاة قبل عود أصحابه إليه فأرصى من حضر أن يبلغ الغائبين إن النصر لهم وإن العاقبة حميدة فلا يضجروا وليعودوا القتال فإن الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم وإن الحرب سجال وإنكم ستقون ويضعفون ويقولون وتكثرون وأنتم في مبدأ أمر وهم في آخره وأشبه هذه الوصايا وهي وصية طويلة اه كلام ابن خلكان وقال ابن خلدون لما كان شأن أبي محمد البشير وميز الموحد من المنافق اعترم المهدي على غزو لمتونة فجمع كافة أهل دعوته من المصامدة إليهم فلقوه بكبكب وهزمهم الموحدون وأتبعوهم إلى أعماق فلقبتهم هنالك زحوف لمتونة مع أبي بكر بن علي بن يوسف وإبراهيم بن تاعماشت فهزمهم الموحدون وقل إبراهيم وجنده واتبعوهم إلى مراكش فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفا كلهم راجل إلا أربعمئة فارس واحتفل علي بن يوسف في الاحتشاد وبرز إليهم لأربعين من نزولهم خرج عليهم من باب أيلان فهزمهم وأثنى فيهم قتلا وسبيا وفقد البشير واستنحر القتل في هيلانة وأبلى عبد المؤمن في ذلك اليوم أحسن البلاء وقيل للمهدي إن الموحدين قد هلكوا فقال لهم ما فعل عبد المؤمن قالوا هو على جواده الأدهم قد أحسن البلاء فقال ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد

وقال ابن الخطيب في رقم الحلال كانت وقعة البحيرة بأحواز مراكش قد استأصلت معظم أصحاب المهدي وكانت تأتي عليهم ومع ذلك فلم تضع منه ولا وهنت صبره وكان يقول مثل هذا الأمر كالفجر يتقدمه الفجر الكاذب ويبعده ينبليج الصبح ويستعلي الضوء ويأمرهم باتخاذ مرابط الخيل التي ينالون من فيء عدوهم بعدها وإنه يعطي الرجل على قدر ما أعد من الرباط إلى غير ذلك فهذا خبر المهدي مختصرا من ابن خلدون ممزوجا بما نقله ابن خلكان من ذلك وقد ساق ابن أبي زرع في القرطاس خبر المهدي هذا وفيه بعض مخالفة لما تقدم فلنأت به وإن أدى إلى بعض التكرار وزيادة في الإمتاع وتحلية للأسماع فنقول قال ابن أبي زرع ما ملخصه إن المهدي رحل إلى المشرق في طلب العلم ولقي مشايخ وسمع منهم وأخذ عنهم علما كثيرا وحفظ جملة من حديث رسول الله ونبغ في علم الأصول والاعتقادات وكان في جملة من لقي من العلماء الشيخ أحمد الغزالي رضي الله عنه لازمه ثلاث سنين وكان الشيخ أبو حامد كثيرا ما يشير إلى المهدي ويقول إنه لا بد أن يكون له شأن ونمى الخبر بذلك إلى المهدي فلم يزل يتقرب إلى الشيخ بأنواع الخدمة حتى أطلعه على ما عنده من العلم في ذلك فلما تحققت عنده الحال استخار الله وعزم على الترحال فخرج قاصدا بلاد المغرب غرة ربيع الأول سنة عشر وخمسائة ولازم في طريقه درس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن اجتمع به عبد المؤمن بن علي فبإيعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والعسر واليسر ثم قدم بلاد المغرب واستقر بمراكش وكانت له فصاحة وعليه مهابة فأخذ يطعن على المرابطيين وينسبهم إلى الكفر والتجسيم ويشيع عند من يثق به ويسكن إليه أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وجرى منه

بمراكش من تغيير المنكر ونحوه ما تقدم ذكره فاتصل خبره بعلي بن يوسف اللمتوني فأحضره وقال له ما هذا الذي بلغنا عنك فقال إنما أن رجل فقير أطلب الآخرة وأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأنت أيها الملك أولى من يفعل ذلك فإنك المسؤول عنه وقد زهرت بمملكك المنكرات وفشت البدع وقد وجب الله عليك إحياء السنة وإماتة البدعة وقد عاب الله تعالى أمة تركوا النهي عن المنكر فقال كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون فلما سمع أمير المسلمين كلامه تأثر له وأخذه وأطرف مفكرا ثم أمر بإحضار الفقهاء فحضر منهم ما أغص المجلس ثم قال أمير المسلمين اختيروا الرجل فإن كان عالما اتعبناه وإلا أديناه وكان المهدي فصيحاً لساناً ذا معرفة بالأصول والجدل وكان الفقهاء الذين حضروا أصحاب حديث وفروع فدارت بينهم محاوراة ومذاكرة أسكتهم فيها وبان عجزهم عنه فعدلوا عن المذاكرة إلا الممالأة وأغرؤا به أمير المسلمين وقالوا هذا رجل خارجي وإن بقي بالمدينة أفسد عقائد أهلها فأمره أمير المسلمين بالخروج من البلد فخرج إلى الجبانة وضرب بها خيمة جلس فيها وصار الطلبة يترددون إليه لأخذ العلم عنه فكثرت جمعه وأحبته العامة وعظموه وانتهى خبره إلى أمير المسلمين ثانياً ونقل إليه أنه يطعن على الدولة فأحضره مرة أخرى وقال له أيها الرجل اتق في نفسك ألم أنك عن عقد الجموع والمحازب وأمرتك بالخروج من البلد فقال أيها الملك قد امتلئت أمررك وخرجت من المدينة إلى الجبانة واشتغلت بما يعينني فلا تسمع لأقوال المبطلين فتوعد أمير المسلمين وهم بالقبض عليه ثم عصمه

الله منه ليقتضي الله أمرا كان مفعولا ولما انفصل المهدي عن المجلس أغرى الحاضرون أمير المسلمين به وشرحوا له جلية أمره وما يدعو عليه فاستدرك أمير المسلمين فيه رأيه

وبعث إليه من يأتيه برأسه فسمع بذلك بعض بطانته فمر مسرعا حتى إذا قرب من الخيمة قرأ قوله تعالى يموسى إن الملائكة يأتونوك فسمعا المهدي ووطن لها فانسل من حينه **خرج حتى أتى تينملا فاقام بها وذلك في شوال سنة أربع عشرة وخمسمائة ثم لحق به أصحابه العشرة السابقون إلى دعوته والمصدقون بإمامته وهم عبد المؤمن بن علي الكومي وأبو محمد البشير الوائشريسي وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني وأبو يحيى بن يكيث الهنتاني وأبو حفص عمر بن علي أصناك وإبراهيم بن إسماعيل الخزرجي وأبو محمد عبد الواحد الحضرمي وأبو عمران موسى بن تمار وسليمان بن خلوف وعاشر فأقاموا بتينملا إلى روضان من سنة خمس عشرة وخمسمائة أعظم صيته بجبل درن وكثرت أتباعه فلما رأى ذلك أظهر دعوته ودعا الناس إلى بيعته فباعه العشرة البيعة الخاصة عقب صلاة الجمعة خامس عشر رمضان من السنة ولما كان الغد وهو يوم السبت خرج المهدي في أصحابه العشرة متقلدين السيوف وتقدم إلى الجامع فصعد المنبر وخطب الناس وأعلمهم أنه المهدي المنتظر ودعاهم إلى بيعته فباعوه البيعة العامة ثم بث دعائه في بلاد المصامدة يدعون الناس إلى بيعته ويزرعون محبته في قلوبهم بالثناء عليه ووصفه بالزهد وتحري الحق وإظهار الكرامات فانثال الناس عليه من كل جهة وسمى أتباعه الموحدين ولقنهم عقائد التوحيد باللسان البربري وجعل لهم فيه الأعراب والأحزاب والسور وقال من لم يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد لا تجوز إمامته ولا تؤكل ديبحته فاستولت محبته على قلوبهم وعظموه ظاهرا وباطنا حتى كانوا يستغيثون به في شادندهم وينوون باسمه على منابرهم ولم تزل الوفود تترادف عليه حتى اجتمع عليه جم غفير فلما علم أن ناموسه قد رسخ ولسلطانه قد تمكن قام فيهم خطيبا وندبهم إلى جهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم وأموالهم فانتدب الناس**

لذلك وبإيعوه على الموت فانتخب منهم عشرة آلاف من أجناد الموحدين وقدم عليهم أبا محمد البشير وعقد له راية بيضاء ودعا لهم وانصرفوا فصدوا على مدينة أغمات وانتهى الخبر إلى أمير المسلمين فجهز لقتالهم جيشا من الحشم والأجناد فلما التقوا انتصر عليهم الموحدون وهزمهم واتبعهم حتى أدخلهم مراکش وحاصروها أياما ثم أفرجوا عنها حين تكاثرت عليهم جيوش لمتونة وكان ذلك ثالث شعبان سنة ست عشرة وخمسمائة وقسم المهدي الغنائم التي غنمها من عسكر المرابطين وتلا عليهم قوله تعالى وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعدل لكم هذه الآية وانتشر ذكر المهدي بجميع أقطار المغرب والأندلس وأركب جل جيشه من خيل المرابطين التي غنمها ثم غزا مراکش بنفسه فعبا جيشه وسار حتى نزل بجبل كيليز بقرب المدينة فأقام محاصرا لها ثلاث سنين يباكرها بالقتال ويرواها من سنة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة ولما ضجر من مقامه هناك نهض إلى وادي نفيس وانحدر مع مسيله يدعو الناس لطاعته ويقايل من أبي منهم فانقاد له أهل السهل والجبل وبياعته كدمبوة ثم غزا بلاد ركراسة فأخذهم بالدعاء إلى توحيد الله وشرائع دينه وسار في بلاد المصامدة يقايل من أبي ويسالم من أجاب ففتح بلادا كثيرة ودخل في دعوته عالم كثير من المصامدة وورع إلى تينملا فأقام بها شهرين ريثما استراح الناس ثم غزا مدينة أغمات وبلاد هزرجة في ثلاثين ألفا من الموحدين فاجتمع على حربها أهل أغمات وهزرجة وخلق كثير من الحشم ولمتونة وغيرهم فانتصر عليهم الموحدون فهزموهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وقسم المهدي أنفاله بين الموحدين ثم غزا أهل درن ففتح قلاعها وحصونها وطاع له جميع من فيه من قبائل هرغة وهنتالة وكنفسية وغيرهم ثم عاد إلى تينملا فأقام بها وريثما استراح الناس ثم ندبهم إلى غزو

مراكش وجهاد المرابطين وقدم عليهم عبد المؤمن بن علي وأبا محمد البشير وحض عبد المؤمن بإمامة الصلاة فساروا حتى انتهوا إلى أغمات فلقبهم بها أبو بكر بن علي بن يوسف في جيش كثيف من لمتونة وقبائل صنهاجة فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم ثمانية أيام ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموا أبا بكر وجيشه إلى مراكش وقتلهم في كل طريق وحاصروا مراكش أياما ثم رجعوا إلى تينملا فخرج المهدي للقائهم فرحب بهم وعرفهم بما يكون لهم من الصنن والفتح وما يملكونه من البلاد ثم كانت وفاته عقب ذلك على ما نذكره إنشاء الله فهذا سياق ابن أبي زرع لهذه الأخبار والله أعلم بالصواب بقية أخبار المهدي وبعض سيرته على وفاته كان المهدي رجلا ربيعة أسمر عظيم الهمة غائر العينين حديد النظر خفيف العارضين له شامة سوداء على كتفه الأيمن ذا سياسة ودهاء وناموس عظيم وكان مع ذلك عالما فقيها راويا للحديث عارفا بالأصول والجدل فصيح اللسان مقداما على الأمور العظام غير متوقف في سفك الدماء يهون عليه إتلاف عالم في بلوغ غرضه وكان حصورا لا يأتي النساء وكان متيقظا في أحواله ضابطا ملا ولي من سلطانه أنشد صاحب كتاب المغرب ف يحقه آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه ثم قال له قدم في الثرى وهمة في الثريا ونفس ترى غرافة ماء الحياة دون إراقاة ماء المصيا أغفل المرابطون عقله وربطه حتى دب إليهم دبيب القلق في الغسق وترك في الدنيا دويبا أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم لكان لعزمه فيها غير مسلم وكان قوته من غزل أخت له في كل يوم رغيفا بقليل سمن أو

زيت ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ورأى أصحابه يوما وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه فأمر بضم ذلك جميعه وإبراقه وقال من كان يبتغي لأجل الدنيا فليس له عندي إلا ما رأى ومن تبعني للأخرة فجزاؤه عند الله وكان على خمول زيه وبسط وجهه مهيبا منبع الحجاب إلا عند مظلمة وله رجل مختص بخدمته والإذن عليه وكان له شعر فمن ذلك قوله أخذت بأعضادهم إذ نؤوا وخلقك القوم إذ ودعو فكم أنت تنهى ولا تنهتي وتسمع وعظا ولا تسمع فيا حجر السن حتى متى تسنا لحديد ولا تقطع وكان كثيرا ما ينشد تجرد من الدنيا فإنيك إنما خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد وكان يتمثل أيضا بقول أبي الطيب المتنبي إذا غامرت في شرف مروح فلا تقنع بما دون النجوم فطعمهم الموت فيأمر حقير قطع الموت في أمر عظيم ويقول أيضا ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم باتم ويقول أيضا وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام وقال ابن الخطيب في رقم الحل قالوا كان محمد بن تومرت يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام وينكر كتب الرأي والتقليد وله باع في علم الكلام وغلبت نزعة خارجية وكان ينتحل القضايا الإستقبالية ويشير إلى الكوائن الآتية ورتب قومه ترتيبا غريبا فمنهم أهل الدار وأهل الجماعة وأهل الساقاة وأهل خمسين وأهل سبعين والطلبة والحفاظ

وأهل القبائل فأهل الدار للامتهان والخدمة وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة وآل الساقاة للمباهاة وأهل سبعين وخمسين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي وسائر القبائل لمدافعة العدو وكان يعلمهم أوجه العبادات في العادات قلت من ذلك أن طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجمتهم فعند كلمات أم القرآن ولقب بكل كلمة منها رجلا فصمهم صفا وقال لأولهم اسمك الحمد لله وللتاني رب العالمين وهكذا تمت كلمات الفاتحة ثم قال لهم لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هذه الأسماء على نسفها في كل ركعة فسهل عليهم الأمر وحفظوا أم القرآن ذكره صاحب المعرب قالوا وهو أول من أحدث أصبح والله الحمد في أذان الصبح ومن جرائته وإقدامه وتهالكة على تحصيل مرامه ما حكاه صاحب القرطاس قال كانت بين الموحدين والمرابطين حرب فقتل من الموحدين خلق كثير فعظم ذلك على عشائهم فاحتال المهدي بأن انتخب قوما من أتباعه ودفنهم أحياء بموضع المعركة وجعل لكل واحد منهم متفنا في قبره وقال لهم إذا سلنتم عن حالكم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا وأن ما دعا إليه الإمام المهدي هو الحق فجدوا في جهاد عدوكم وقال لهم إذا فعلتم ذلك أخرجتم وكانت لكم عندي المنزلة العالية وقصد بذلك أن يثبتهم على التمسك بدعوته ويهون عليهم ما لا قوا من القتل والجراحات بسببه ثم جمع أصحابه عند السحر وقال لهم أنتم يا معشر الموحدين حزب الله وأنصار دينه وأعوان الحق فجدوا في قتال عدوكم فإنكم على بصيرة من أمركم وإن كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من إخوانكم يخبركم بما لقوا من الثواب عند الله ثم أتى بهم إلى موضع المعركة ونادى يا معشر الشهداء ماذا لقيتم

من الله عز وجل فقولوا قد أعطانا من الثواب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فافتن الناس وظنوا أن الموتى قد كلموهم وحكوا ذلك لبقية إخوانهم فازدادوا بصيرة في أمره وثباتا على رأيه والله أعلم بحقيقة الحال وفاة المهدي رحمه الله كانت وفاة المهدي عقب وقعة البحيرة قال ابن خلدون لأربعة أشهر بعدها وقال ابن الخطيب وغيره وكانت وفاته يوم الأربعاء ثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقيل غير ذلك وقال في القرطاس لما رجع الموحدون من غزو مراكش إلى تينملا خرج إليهم المهدي فسلم عليهم ورحب بهم

وأعلمهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد وبمدة ملكهم وأعلمهم أنه يموت في تلك السنة فبكوا وأسفوا ثم مرض مرضه الذي مات منه وقدم عبد المؤمن للصلاة أيام مرضه ثم توفي في التاريخ المتقدم
وذكر بعض المؤرخين أن المهدي رأى في منامه قبل وفاته كان أتيا أثناء فأنشده أبياتا نعى له فيه نفسه وأعلمه باليوم الذي يموت فيه فكان كذلك انظر القرطاس وقد مر في هذه الأخبار ذكر كتاب الجفر وربما تتشوق النفس لمعرفة حقيقته فقد قال ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق رضي الله عنه وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره وكان مكتوبا عند جعفر الصادق في جلد ثور صغير فزواه عنه

هارون العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب فيه لأن الجفر في اللغة هو الصغير فصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن الكريم وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق رضي الله عنه وذكره ابن قتيبة في أوائل كتاب اختلاف الحديث فقال بعد كلام طويل وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن الكريم وما يدعو من علم باطنه لما وقع إليهم من الجفر الذي ذكره العدلي ثم قال ابن قتيبة أمل تر أنا لرافضين تفرقوا فكلهم في جعفر قال منكرا فطائفة قالوا إمام ومنهم طوائف سمته النبي المطهرا ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم برئت إلى الرحمن ممن تجفروا في أبيات غير هذه ثم قال ابن قتيبة وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب لهم فيه الإمام جعفر الصادق كلما يحتاجون إليه وكلما يكون إلى يوم القيامة اه وهذا تزييف من ابن قتيبة وكان هذا المذهب أبو العلاء المعري فقال لقد عجبوا لأهل البيت لما أتاهم علمهم في مسك جفر ومرأة المنجم وهي صغيرة أرته كل عامرة وقفر والمسك يفتح الميم الجلد والجفر يفتح الجيم ما بلغ أربعة أهر من أولاد المعز وكانت عانتهم في ذلك الزمان أنهم يكتبون في الجلود وما شاكلها لقلّة الأوراق ويومئذ وقال ابن خلدون كتاب الجفر لم تتصل روايته عن جعفر الصادق رضي الله عنه ولا عرف عينه وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل ولو صح النسبة إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند ثم نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات رضي الله عنهم

الخبر عن دولة أبي محمد عبد المؤمن بن علي الكومي وأوليتها اعلم أن بني عبد المؤمن ليسوا من المصامدة وإنما هم من كومية ثم من بني عابد منهم وكومية ويعرفون قديما بصطفورة بطن من بني فان بن تلمصيت بن ضري بن زجيك هذا هو الصحيح وبعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المؤمن إلى قيس عيرن بن مضر وهو ضعيف قال ابن خلدون كان عبد المؤمن من بني عابد أحد بيوتات كومية وأشرفهم قال وموطنهم بتكرارت وهو حصن في الجبل المطل على هنين من ناحية الشرق وقال ابن خلكان كان والد عبد المؤمن وسيطا في قومه وكان صناعا في عمل الطين منه الأينية فيبيعهما وكان عاقلا من الرجال وقورا ويحكى أن عبد المؤمن في صباه كان نائما تجاه أبيه وأبوه مشتغل بعمله في الطين فسمع أبوه دويما في السماء فرجع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن وهو نائم فغظته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها فرأته أمه على تلك الحال فصاحت خوفا على ولدها فسكتها أبوه فقالت أخاف عليه فقال لا بأس عليه بل إني متعجب مما يدل عليه ذلك ثم إنه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل فطار عنه بأجمعه فاستيقظ الصبي وما به من ألم فتفتت أمه جسده فلم تر به أثرا ولم يشك ألما وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر فمضى أبوه إليه فأخبره بما

راه من النحل مع ولده فقال الزاجر يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب فكان من أمره ما اشتهر وقد تقدم لنا أن المهدي كان عنده كتاب الجفر وكان فيه أن أمره لا يتم إلا على يد رجل اسمه كذا وحليته كذا وهو عبد المؤمن بن علي فأقام المهدي يتطلبه مدة أن لقيه بملاحة وعبد المؤمن إذ ذاك شاب حدث طالب علم فلازم المهدي واستمسك بزجره إلى أن كان من أمره ما كان وكان المهدي يتفرس فيه النجاة وينشد إذا أبصره تكاملت فيك أوصاف خصصت بها فلننا بك مسرور ومغتبط السن ضاحكة والكف مانحة والنفس واسعة والوجه منبسط والبيتان لأبي الشيب الخزاعي وكان يقول لأصحابه صاحبكم غلاب الدول وكان يقول عبد المؤمن من صديقي هذه الدائرة وقال ابن خلدون أثر المهدي عبد المؤمن بمزيد الخصوصية والقرب بما خصه الله به من الفهم والوعي للتعليم حتى كان خالصة المهدي وكجز صحابته وكان مؤملا لخلافته لما أظهر عليه من الشواهد المؤنثة بذلك وفي ذلك يقول ابن الخطيب وخلف الأمر لعبد المؤمن فانقادت الدنيا له في رسن حياه بين القوم بالإمارة إذ وضحت له فيه الإمارة ولما اجتاز المهدي في طريقه إلى المغرب بالتحالفة عرب الجزائر أهدوا إليه حمارا فارها يركبه لأنه كان ساعيا على رجليه فكان يؤثر به وزعم بنو عبد المؤمن أن المهدي كان استخلفه من بعده وقال ابن خلكان لم يصح أنه استخلفه وإنما راعى أصحابه في تقديمه إشارته فتم له الأمر والله أعلم

بيعة عبد المؤمن بن علي والسبب فيها لما توفي المهدي في التاريخ المتقدم تولى عبد المؤمن تجهيزه والصلاة عليه ثم دفنه بمسجده الملاصق لداره من تينملل ولما فرغ الموحدون من أمره تشوف كل واحد من العشرة إلى الخلافة بعده وكانوا من قبائل شتى وأحببت كل قبيلة أن يكون الخليفة منها وأن لا يتولى عليها من هو من غيرها فتنافسوا في ذلك فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا فيما بينهم وخافوا على أنفسهم النفاق وأن تقسد نياتهم وتفتقر جماعتهم فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه كان غريبا بين أظهرهم ليس من المصامدة لأن المصامدة من البرانس وكومية قبيلة عبد المؤمن من البتر فقدموه لذلك مع ما كانوا يرون من ميل المهدي إليه وإيثاره على غيره فتم له الأمر وقال ابن خلدون لما مات المهدي خشي أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة من البرانس وكومية قبيلة عبد المؤمن من البتر فقدموه لذلك مع ما كانوا يرون من ميل المهدي إليه وإيثاره على غيره فتم له الأمر وقال ابن خلدون لما مات المهدي خشي من أصحابه افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة لولاية عبد المؤمن لكونه من غير جلدتهم فأرجوا الأمر أن تخالط بشاشة الدعوة قلوبهم وكتما موته ثلاث سنين يموهون فيها بمرضه ويقومون سنتهم في الصلاة والحزب الراتب ويدخل أصحابه إلى بيته كأنه اختصم بعبادته فيجلسون حوالي قبره ويتفاوضون في شؤونهم ثم يخرجون لإنقاذ ما أبرموه ويتولى ذلك عبد المؤمن حتى إذا استحك أمرهم وتمكنت الدعوة من كافتهم كشفوا القناع عن حالهم وتمالا من بقي من العشرة على تقديم عبد المؤمن وتولى كبير ذلك الشيخ أبو حفص للناس موت المهدي وعهده لصاحبه وانقاد بقية أصحابه لذلك وروى لهم يحي بن يعفور أنه كان يقول في دعائه أثر صلواته اللهم بارك في صاحب الأفضل فرضي الكافة وانقادوا له وأجمعوا على بيعته

وزعموا أن عبد المؤمن استعمل في ذلك حيلة تم له بها ما أراد وذلك أنه عمد إلى طائر أسد فضرهما حتى أنسا به وعلم الطائر أن يقول عند علامة نصبها له النصر والتمكين لعبد المؤمن أمير المؤمنين وعلم الأسد أن يبصيص له ويتمسح له كلما رآه ثم جمع عبد المؤمن الموحدين وخطبهم وحضهم على الألفة واجتماع الكلمة وحذرهم عاقبة البغي والخلاف وبينما هو في ذلك إذ أرسل سائس الأسد أسده وصفر صاحب الطائر لطائره فيبصيص هذا وأعلن بالنصر هذا فعجب الحاضرون من ذلك ورأوا أنها كرامة لعبد المؤمن فازدادوا بها بصيرة في أمره وثباتا على بيعته مع ما كان من تقديم المهدي له في الصلاة أيام مرضه وفي ذلك يقول بعضهم أنس الشبل ابتهاجا بالأسد ورأى شبه أبيه فقصد ودعا الطائر بالنصر لكم قضى حكيم حين وفد والله أعلم وكانتبيعة عبد المؤمن العامة بعد صلاة الجمعة لعشرين يوما من ربيع الأول سنة ست وعشرين وخمسائة بجامع تينملل وأول من بايعه العشرة أصحاب المهدي ثم الخمسون من أشياخ الموحدين ثم كافة الموحدين لم يتخلف عن بيعته منهم أحد فاستوثق له الأمر واستولى على المغرب بأسره وفتح بلاد إفريقية إلى برقة وبلاد بأسرها وخطب له على منابر

هذه الأقاليم كلها على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله ولما تمت بيعته غزا من حينه بلاد تادلا فقتل بها وسبي ثم غزا بلاد درعة فاستولى عليها ثم غزا بلاد غمارة فافتتح البعض منها وقتل واليها ثم تسابق الناس إلى دعوته أفواجا وأنت قضت البعض منها وقتل واليها ثم تسابق الناس إلى دعوته أفواجا وانتفضت البربر على المرابطين في سائر أقطار المغرب وكان ما ذكره غزوة عبد المؤمن الطويلة التي استولى فيها على المغربيين ثم صرف عبد المؤمن عزمه لفتح بلاد المغرب فغزا غزوة الطويلة التي مكث فيها سبع سنين وأجلت عن فتح المغربيين معا الأقصى والأوسط خرج

لها نم تيمثال في صفر سنة أربع وثلاثين وخمسائة فلم يزل يتقرى بلاد المغرب ويفتح معاقها ويستنزل حماتها ويذل صعايبها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسائة وكان خروجه من تيمثال على طريق الجبل وخرج تاشفين بن علي في أتباعه من مراکش على طريق السهل إلى أن وصلا إلى تلمسان حسبا قدمناه في أخبار المرابطين قال ابن خلدون خرج عبد المؤمن في هذه الغزوة من تيمثال يعني على طريق الجبل كما قلنا وخرج تاشفين بن علي يعني في حياة والده بعساكره بحاذيه في البسيط والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن وهو يتنقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل والحطب للدفء إلى أن وصل إلى جبال غمارة واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب وأقشعت الرعايا عن البلاد وأحل الطاغية على المسلمين بالعودة الأندلسية وهلك خلال ذلك أمير المسلمين علي بن يوسف سنة سبع وثلاثين وخمسائة وولي بعده ابنه تاشفين بن علي المذكور وهو في غزاته هذه

وفي القرطاس ارتحل عبد المؤمن إلى جبال غمارة وارتحل تاشفين بن علي في أثره فنزل بإزاء عين القديم وذلك في فصل الشتاء فأقام بذلك المنزلة شهرين حتى أحرق أهل محلته أوتاد أخبيتهم ورماحهم وهدموا بيوتهم وخيامهم انتهى ونشأت فتنة بين لمتونة ومسوفة فنزع جماعة من أمراء مسوفة منهم عامل تلمسان يحيى بن إسحاق المعروف بآكمار ولحقوا بعبد المؤمن ودخلوا في دعوته فنبذ إليهم المرابطون العهد وإلى سائر مسوفة واستمر عبد المؤمن على حاله فإزال سبتة فامتعت عليه وتولى كبر دفاعه عنها القاضي أبو الفضل عياض بن موسى الشهير الذكر وكان رئيسها يومئذ بأبويته ومنصبه وعلمه ودينه قال ابن خلدون ولذلك سخطته الدولة يعني دولة الموحدين آخر الأيام حتى مات مغربا عن سيئته مستعملا في خطة القضاء بالبادية من تادلا رحمته الله وتمادى عبد المؤمن في غزاته إلى جبال غيائة وبطوية فافتتحها ثم نازل ملوية فافتتح حصونها ثم تخلى إلى بلاد زناتة فأطاعته قبائل مديونة وكان قد بعث إليهم جيشا من الموحدين إلى نظر يوسف بن واندين فرج إليهم محمد بن يحيى بن فانوا عامل تلمسان من قبل المرابطين فيمن معه من جيوش لمتونة وزناتة فهزمهم الموحدين وقتل ابن فانوا وانفض جمع زناتة ورجعوا على بلادهم وولى تاشفين بن علي على تلمسان أبا بكر بن مزدي وقدم على عبد المؤمن وهو بمكانه من الريف أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن بدر من أمراء بني ومانوا من زناتة فبعث معهم يحيى بن يعمر ويوسف بن وانودين في عسكر فأتحنوا في بلاد بني عبد الواد وبني بلومي من زناتة سببا وأسرا ولحق صريخهم بن تاشفين بن علي فأمدهم بعساكر لمتونة ومعهم الروبرثير قائد الروم ونزلوا منداس وانضمت إليهم قبائل زناتة من بني بلومي وبني عبد الواد مع شيخهم حمامة بن مطهر وإخوانهم بني توجين وغيرهم فأوقعوا بيني ومانوا وقتلوا

أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه واستنفذوا غنائمهم وتحصن الموحدون وقل بني ومانوا بجبل سيرات ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخا بعبد المؤمن ومستجيبا به على لمتونة وزناتة فارتحل معه عبد المؤمن إلى تلمسان ثم أجاز إلى سيرات وقصد محلة لمتونة وزناتة فأوقع بهم ورجع إلى تلمسان فنزل ما بين الصخرتين من جبل تيطرى ونزل تاشفين بن علي وقومه لعصبية الصنهاجية وفي يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين وكان يدل بإقدام فعرض لمتونة وأميرهم تاشفين بن علي لعودهم عن المناجزة الموحدين وقال إنما جئتمكم لأخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع إلى قومي فامتعض تاشفين بن علي من كلمته وأذن له في المناجزة فحمل على القوم فركبوا وصمموا لقلائه فكان آخر العهد به وانفض عسكره وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم وهو الروبرثير في عسكر ضخم فأغار على قوم من زناتة كانوا في بسيط لهم فاكسحهم ورجع بالغنائم فاعترضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلوه وقتلوا الروبرثير في جملتهم ثم بعث تاشفين بن علي بعثا آخر إلى جهة أخرى فلقبهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فقتلوا منهم أعظم النبل وتوالت هذه الوقائع على تاشفين بن علي اللمتوني فأجمع الرحلة إلى وهران وبعث ابنه ولي عهده إبراهيم بن تاشفين إلى مراکش في جماعة من لمتونة وبعث كتابا معه أحمد بن عطية ورحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسائة فأقام عليها شهرا ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون

إلى أن وصله من المرية بعشرة أساطيل فارسي قريبا من معسكره وزحف عبد المؤمن من تلمسان وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاني ومعه بنو ومانوا من زناتة فتقدموا إلى بلاد زناتة ونزلوا منداس وسط بلادهم وجمع له بنو بادين كلهم وبنو بلومي وبنو مريين ومغراوة فأتحن فيهم الموحدون حتى أذعنوا للطاعة ودخلوا في دعوتهم ووفد على عبد المؤمن جماعة من رؤسائهم وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس شيخ بني بلومي وحمامة بن مطهر شيخ بين عبد الواد وغيرهم فتلقاهم بالقبول وسار بهم في جموع الموحدين إلى وهران فبينا لمتونة بمعسكرهم ففضوهم ولجا تاشفين إلى رابية هناك فأحذقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى إذا غشيم الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا فرسه فنزدي به من بعض حافات الجبل وهلك لسع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسائة وبعث برأسه إلى تيمثال نجا قل العسكر إلى وهران فانحصروا بها مع أهلها حتى جهدهم العطش فنزلوا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة فاستأصلهم القتل رحمهم الله وبلغ خبر مقتل تاشفين بن علي إلى تلمسان مع فل لمتونة الذين نجوا من وقعة وهران وفيهم سير بن الحاج في آخرين من أعيانهم ففر معهم من كان بها من لمتونة ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان استباح أهل تلمسان أهل تلمسان لما كان أكثرهم من الحشم بعد أن مان بعثوا سئين من عهدهم فلقبهم يصليتين من مشيخة بني عبد الواد فقتلهم أجمعين وافتتح عبد المؤمن تلمسان وعفا عن أهلها ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد أن ولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين وقيل يوسف بن وانودين

فتح مدينة فاس نقل بعض المؤرخين أن عبد المؤمن لم يزل محاصرا لتلمسان والفتح ترد عليه وهناك وصلته بيعة أهل سجلماسة إلى أن اعترم على الرحيل إلى المغرب فترك إبراهيم بين جامع محاصرا لتلمسان وقصد مدينة فاس سنة إحدى وأربعين وخمسائة وقد تحصن بها يحيى بن أبي بكر الصحراوي من فل تاشفين بن علي من وهران فنزلها عبد المؤمن وبعث عسكرا لحصار مكناسة ثم نهض في أتباعه وترك عسكرا من الموحدين على فاس وعليهم الشيخ أبو حفص وأبو إبراهيم من صحابة المهدي العشرة فحاصروها سبعة أشهر ثم داخلهم ابن الجباني فسرب البلد وأدخل الموحدين ليلا صوفر يحيى بن أبي الصحراوي إلى طنجة ثم أجاز منها إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية بالأندلس وكان واليا على قرطبة من قبل المرابطين فأقام عنده إلى أن كان من أمره ما نذكره وانتهى خبر فتح فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة فرجع إليها ودخلها وحكى صاحب القرطاس في فتح فاس خلاف هذا الوجه فقال وفي سنة أربعين وخمسائة فتح عبد المؤمن فاسا بعد حصار شديد قطع بسيط الأرض وانتهى إلى مراكزه منها ثم خرقت السد فانحدر الماء على المدينة دفعة واحدة وهدم سورها ثم هدم من دورها مايزيد عن ألفي دار بالثنية وهلك بها خلق كثير وكان الماء يأتي على أكثرها ثم دخلها عبد المؤمن وأمن أهلها إلا من كان بها من المرابطين فإنه أمر أن لا يمضي لهم أمان وقتلهم قتل عاد ثم أمر بسور المدينة فهدم منه تلم كثيرة أوسعها جدا وقال إنا لا نحتاج إلى سور وإنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا فم تزل فاس لا سور لها إلى أن تداركها حافده يعقوب المنصور فابتدأ ببناء ومات قائمه ابنه الناصر سنة ستمائة

ولما فتح عبد المؤمن فاسا ولى عليها إبراهيم بن جامع الذي خلفه على تلمسان فإنه لما فتح ارتحل إلى عبد المؤمن فاتصل به وهو محاصر لفاس ففتحها عبد المؤمن وولاه عليها وان قد اعترضه في طريقه المخضب بن عسكر شيخ بني مريين ونالوا منه ومن رفقته وكانت معه أموال لمتونة وذخيرتهم التي استولى عليها عبد المؤمن بوهران وكان ابن جامع داها بها إلى تيمثال فاعترضه بنو مريين وانتزعوها منه وانتهى الخبر بذلك إلى عبد المؤمن فكتب إلى عامله على تلمسان يوسف بن وانودين يأمره أن يجهز العساكر إلى بني مريين فبعثها صحبة عبدا لحق بن منغداد شيخ بني عبد الواد فأوقعوا ببني مريين وقتل المخضب شيخهم فتح مراکش واستنصل بقية الممتونيين ثم ارتحل عبد المؤمن من فاس عامدا إلى مراکش فوافته في طريقه بيعة أهل سبتة فولى عليهم يوسف بن مخلوف بن مشيخة هنتانة ومر على مدينة سلا فافتتحها بعد مواجهة قليلة وتلم سورها فمافس ونزل منها بدار ابن عشرة وكانت هذه الدار قصرا بديعا بمدينة سلا بناه الفقيه أبو العباس بن القاسم من بين عشرة شديدة وأقننه ولما فرغ منه وصفته الشعراء وهنته به ودعت له وكان بالحضرة يومئذ الأديب ابن الحمارة ولم تيكن أعد شيئا ففكر قليلا ثم قال يا أوحد الناس قد شيدت واحدة فحل فيها حلول الشمس في الحمل فما كدارك في الدنيا لذي أمل ولا كدارك في الأخرى لذي عمل وهذا القصر لم يببق له اليوم اسم ولا رسم

ثم تهادى عبد المؤمن إلى مراکش وسرح الشيخ أبا حفص لغزو بر غواطة فأخذن فيهم ورجع فلقية في طريقه وانتهوا جميعا إلى مراکش وقد انضم إليها جموع لمطة فأوقع بهم الموحدون وأخذوا فيهم قتلا واكتسحوا أموالهم وطمعناهم وأقاموا على مراکش تسعة أشهر وأميرهم يومئذ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين وكانوا قد بايعوا أولا إبراهيم بن تاشفين بن علي فألوه مضعفا عاجزا فخلعوه وبايعوا عمه إسحاق بن علي المذكور وهو صبي صغير ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل فاقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسائة وقتل عامة الملتزمين ونجا إسحاق في جملته وأعيان قومه إلى القصبية حتى نزلوا على حكم الموحدين وأحضر إسحق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم وتولى كبير ذلك أبو حفص بن واجاج منهم وانمى أثر الملتزمين واستولى الموحدون على جميع البلاد وقد قيل في ترتيب هذه الأخبار غير هذا الوجه وقال ابن مطروح القيسي لما يبيع عبد المؤمن بتينمال ارتحل بجيوش الموحدين نحو مراکش فحاصرها وذلك في شوال سنة ست وعشرين وخمسائة ثم ارتحل عنها إلى تادلا ثم على سلا فتلقاه أهلها سامعين مطيعين فدخلها يوم السبت الرابع والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة وخطب له بها وفي سنة سبع وعشرين بعدها فتح عبد المؤمن بلاد تازا وفي سنة ثمان وعشرين بعدها تسمى عبد المؤمن بأمير المؤمنين وعلم أن اللقب كان في صدر الإسلام خاصا للخليفة بالمشرق من بني أمية أو من بني العباس بعدهم ولما قام عبدة الله المهدي أول ملوك العبيديين بإفريقية تسمى بأمير المؤمنين لأنه كان يرى أنه أحق بالخلافة من بني العباس

المعاصرين له بالمشرق فهو أول من زاحم الخليفة في هذا اللقب ثم تبعه على ذلك عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس ورأى أن له في الخلافة حقا اقتاده بسلفه الذين كانوا خلفاء بالمشرق وكلاهما أعني بالعبيدي والأموي قرشي من عبد مناف ثم لم يتجاسر أحد لا من ملوك العجم بالمشرق ولا من ملوك البربر من المغرب على اللقب بأمير المؤمنين لأنه لقب الخليفة الأعظم القرشي كما علمت إلى أن جاءت دولة المرابطين وكان منهم يوسف بن تاشفين واستولى على المغربيين والأندلس وعظم سلطانه واتسعت مملكته وخاطب الخليفة العباسي بالمشرق فولاه على ما بيده وتسمى بأمير المسلمين أديا وخاطب الخليفة العباسي حسبما أشرنا إليه سالفا ولما جاء عبد المؤمن هذا لم يبال بذلك أديا مع الخليفة حسبما أشرنا إليه سالفا ولما جاء عبد المؤمن هذا م يبال بذلك كله واتسم بالخليفة وتلقب بأمير المؤمنين وتبعه على ذلك بنوه من بعده ولسان الحال ينشد لقد هزلت حتى بدا من هزلها كلاها وحتى سامها كل مفلس وفي سنة تسع وعشرين وخمسائة أمر عبد المؤمن ببناء رباط مدينة تازا فبينت وحصن سورها ثم كانت محاربه لتاشفين بن علي على نحو ما أسلفناه والله تعالى أعلم ثورة محمد بن هود السلاوي المعروف بالماسي كان محمد بن هود بن عبد الله السلاوي رجلا من سوقة أهل سلا وكان أبوه سمسارا بها يبيع الكنايش وكان هو قصارا بها مدة ثم لحق بعبد المؤمن عندما ظهر وبايعه وشهد معه فتح مراکش ثم فارقه وظهر برباط ماسة من ناحية السوس ودعا لنفسه وتسمى بالهادي وتمكن ناموسه من قلوب العامة وكثير من الخاصة فأقبل إليه الشراد من كل جانب وانصرفت إليه وجوه الأغمار من أهل الأفاق وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة ورجراة وقبائل تامسنا وهوارة وفشت ضلالتة في جميع المغرب

قال في الفرطاس بايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن إلا مراکش فسرح إليه عبد المؤمن عسكريا من الموحدين لنظر يحيى بن إسحاق أنكمار النازع إليه من إبالة تاشفين بن علي حسبما تقدم فالتقى بالماسي وقاتله فانتصر الماسي عليه وعاد مهزوما إلى عبد المؤمن فسرح إليه عبد المؤمن ثانيا الشيخ أبا حفص الهنتاتي في جيش عظيم من أتباع الموحدين وغيرهم واحتفل عبد المؤمن في الاستعداد ونهض الشيخ أبو حفص من مراکش فاتح ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين وخمسائة وشيعة عبد المؤمن إلى وادي تانسيفت ثم دعا له وودعه وانصرف الشيخ أبو حفص في جيوش الموحدين حتى انتهوا إلى رابطة ماسة فبرز إليهم محمد بن هود في نحو ستين ألفا من الرجالة وسبعائة من الفرسان فكانت بينهم حرب شديدة ثم انتصر عليهم الموحدون فهزمهم وقتل محمد بن هود في المعركة مع كثير من أتباعه وفضت جموعه وكان ذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة وكان الذي باشر قتل ابن هود هو الشيخ أبو حفص رئيس الجيش فلقية الموحدون سيف الله تشبها له بخالد بن الوليد رضي الله عنه وكتب الشيخ أبو حفص إلى عبد المؤمن برسالة الفتح من إنشاء الفقيه أبي جعفر بن عطية القضاعي الكاتب المشهور يقول فيها كتابنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ونصره تعالى المعهود القديم وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم فتح بهر الأنوار إشراقا وأحرق بنفوس المؤمنين إحدافا ونبه للألماني النائمة جفونا وأحداقا واستغرق غاية الشكر استغراقا فلا تطيق الألسن لكنه وصفه إدراكا ولا لحاقا جميع أشتات الطب والأرب وتقلب في النعم أكرم متقلب وملا دلاء الأمل إلى عقد الكرب فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أوثابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة حين لم تعط الحال بشرحه مهلة كان أولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلما واقتطعوا الكفر معنى واسما وأملى الله تعالى لهم ليزدادوا إثمًا وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخز علاته واستهوى القلوب بمهولاته ونصب له الشيطان من حيلاته فأتته المخاطبات من بعد وكتب وانسلت إليه الرسل من كل حدب واعتقدته الخواطر أعجب عجب وكان الذي قادهم إلى ذلك وأوردهم تلك المهالك ووصول من كان يتلك السواحل ممن ارتسم برسم الإنقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام واشتغل على زعمه بالقيام والصيام آناء الليالي والأيام ليسوا الناموس أوثابا وتدرعوا الرياء جلبابا فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق بابا ومنها في ذكر صاحبهم الماسي المدعي للهداية فصرع بحمد الله تعالى لحينه وبادرت إليه بوادر منونه وأتته وافدات الخطايا عن يساره ويمينه وقد كان يدعى أنه بشر بأن المنية في هذه العوام لا تصيبه والنوائب لا تنويه ويقول في سواه قولا كثيرا ويخلق على الله تعالى إفكا وزورا فلما رأوا هيئة اضطجاعه وما خطته الأسنة في أعضائه وأضلاعه ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه هزم من كان لهم من الأحزاب وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب وأعطوا على بكرة أبيهم صفحات الرقاب ولم تقطر كلمهم إلا على الأعقاب فامتلات تلك الجهات بأجسامهم وأذنت الأجال بانقراض أمادهم وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم فلم يعاين منهم إلا من خر صريعا وسقى الأرض نجيعا ولقي من أمر الهندييات فظيعة ودعت الضرورة بأقيهم إلى الترامي في الوادي فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ويسبح طامعا في الخروج إلى ما ينجيته اختطفته الأسنة اختطافا وأذاقته موتا ذعافا ونم لج في الترامي على لججه ورام البقاء في تبج قضى عليه شرقة وألوى ببقته غرقه ودخل

الموحدون إلى البقية الكائنة فيه يتناولون قتلهم طعنا وضربا ويلقونهم بامر الله تعالى هولا عظيما وكربا حتى انبسطت مراقبات الدماء على صفحات الماء وحكت حكرتها على زرقته حمرة الشفق على زرقة السماء وجزت العبرة للمعتبر في جري ذلك الدم جر بالأبحر وبالجملة فهي رسالة بلغة وهي التي أورثت منشئها الرتبة العلية والمنزلة السنية فإن عبد المؤمن لما وقف عليها استحسنتها ووقعت منه موقعا كبيرا فاستكتبه أولا ثم استوزره ثانيا ثم نكبه وقتله ثالثا كما سيأتي ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزوة ماسة أراح بمراكش أياما ثم خرج غازيا بلاد القانمين بدعوة محمد بن هود بجبال درن فأوقع بأهل نفيس وهيلانة وأخذن فيهم بالقتل والسبي حتى أذعنوا للطاعة ورجع ثم خرج إلى هسكرة فأوقع بهم واقتنح معاقلمهم وحصونهم ثم نهض إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراکش ثم خرج ثالثة إلى برغواطة فحاربوه مدة ثم خزموه واضطرت نار الفتنة بالمغرب وكان ما نذكره انقراض أهل سبتة على الموحدين وخير القاضي عياض رحمه الله معهم قدم لنا أن عبد المؤمن كان غزا سبتة في غزوته الطويلة وأن القاضي عياض رحمه الله دفعه عنها وأنه لما قتل تاشفين بن علي وقتحت تلمسان وفاس واستفحل أمر عبد المؤمن بايع أهل سبتة في جملة من بايع من أمصار المغرب قالوا وبادر القاضي عياض إلى لقاء عبد المؤمن فاجتمع به بمدينة سلاحيين كان ذاهبا لفتح مراکش فأجزل صلته وولى على سبتة يوسف بن

مخلوف التينملي وساكن الموحدون أهل سبتة في ديارهم واطمانوا إليهم فلما انتقض المغرب على عبد المؤمن بسبب قيام محمد بن هود وما نشأ عن ذلك من الفتن انتقض أهل سبتة أيضا وكان انتفاضهم كما في الفرطاس بأي القاضي عياض رحمه الله فقتلوا عامل الموحدين ومن كان معه من

أصحابه وحاميته وحرقهم بالنار وركب القاضي عياض البحر إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية وكان معتصما بقرطبة متمسكا بدعوة المرابطين فليقه وأدى إليه البيعة وطلب منه واليا على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي الذي كان معتصما بفاس أيام حصار عبد المؤمن لها ففر ولحق بابن غانية كما قلنا وبقي في جملته إلى أن بعثه مع القاضي عياض في هذه المرة فدخل يحيى سبتة وقام بأمرها ولما اتصلت بعبد المؤمن هذه الأخبار مع ما تقدم من هزيمة برغواطة للشيخ أبي حفص خرج من مراکش قاصدا بلاد برغواطة أولا ثم من بعدهم قانيا فتسامعت برغواطة بخروج عبد المؤمن إليهم فكتبوا إلى يحيى بن أبي بكر بمكانه من سبتة يستنصرونه عليهم فاتاهم وبايعوه واجتمعوا عليه وقتلوا عبد المؤمن فهزمه ثم كانت له الكرة عليهم فهزمهم وحكم السيف فيهم واستأصل شأقتهم حتى انقادوا للطاعة وبتروا من يحيى الصحراوي ولمتونة وفر الصحراوي إلى منجاته ثم طلب الأمان من عبد المؤمن وتشفع إليه بأشياخ القبائل فأمنه ووفد عليه فبايعه وحسنت طاعته لديه وكان ذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسائة ولما رأى أهل سبتة ذلك كله سقط في أيديهم وندموا على صنيعهم وكتبوا ببيعتهم إلى عبد المؤمن وقدم بها أشياخ سبتة وطلبها تائبين فعفا عنهم وعن القاضي عياض وأمره بسكنى مراکش والصحيح أنه ولاه القضاء بتادلا ثم دخل مراکش قبل دخلها مريضا مرض موته وقيل مات بالطريق

وحمل إليها وأمر عبد المؤمن مع ذلك بهدم سور سبتة فهدم وكذلك فعل بفاس وسلا وأعلم أن ما صدر من القاضي عياض رحمه الله في جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى أن لا حق لهم في الأمر والإمامة وإنما هم متغلبون وهذا أمر لا خفاء به كما هو واضح ولما كانت شوكة عبد المؤمن لا زالت ضعيفة وتاشفين بن علي أمير الوقت لا زال قائم العين امتنع القاضي عياض رحمه الله من مبايعة عبد المؤمن ودافعه عن سبتة إذ لا موجب لذلك لأن بيعة تاشفين في أعناقهم وهو لا زال حيا فلا يعقل عن بيعته إلى غيره بلا موجب وأما ما غلط به المهدي رحمه الله من أن المرابطين مجسمة وأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار فضلا عن أن تكون طاعتهم واجبة فسفسطة منه عفا الله عنا وعنه ولما قتل تاشفين وفتحت تلمسان وفاس وقويت شوكة عبد المؤمن بايعه القاضي عياض حينئذ وقيل صلته لأن من قويت شوكته وجبت طاعته ثم لما ضعف أمره ثانيا بسبب قيام الماسي عليه وإجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته رجع القاضي بأهل سبتة عن بيعته إلى طاعة المرابطين الذين لهم الحق في الإمامة بطريق الأصالة ولم يأخذ بدعوة الماسي لأنه تائر أيضا هذا مع ما كان ينقل عن المهدي من أنه غلبت نزعة خارجية عليه وأنه يقول بعصمة الإمام وذلك بدعة كما لا يخفى فتكون إمامته وإمامة أتباعه مقدوحا فيها من هذه الحيثية لكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجبت الطاعة فالحاصل أنما فعله القاضي عياض أولا وثانيا وثالثا كله صواب موافق للحكم الشرعي فهكذا ينبغي أن تفهم أموال أئمة الدين وأعلام المسلمين رضي الله عنهم ونفعنا بعلمهم

وأما القتل والتحريق الذي صدر من أهل سبتة فالظن بالقاضي عياض رحمه الله أنه لا يوافق على ذلك ولا يرضاه لكن العامة تتسرع إلى مجاوزة الحدود لا سيما أيام الفتن وذلك معروف من حالهم والله الموفق ما دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسائة فتح الموحدون مدينة مكناسة القديمة بعد حصارهم أياها سبع سنين اقتحموها عنوة يوم الأربعاء ثالث جمادى الأولى من السنة المذكورة فخرجت وقتل أكثر رجالها وسبي حريمهم وخمست أموالهم ثم بنيت مكناسة تكررارة المدينة الموجودة الآن أخبار الأندلس وفتوحها كان عبد المؤمن لما فتح تلمسان وفاسا بعث إلى الأندلس جيشا من عشرة آلاف فارس من أنجاد الموحدين وقال ابن خلدون بعث عبد المؤمن بعد فتح مراکش جيشا من الموحدين لنظر بدران بن محمد المسوفي النازع إلى عبد المؤمن من جملة تاشفين بن علي وعقد له على حرب الأندلس ومن بها من لمتونة والثوار وأمده بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجي ولما أجازوا إلى الأندلس نزلوا بأبي الغمر بن عزرون صاحب شريش فكان أول بلد فتحوا من الأندلس شريش خرج إليهم صاحبها أبو الغمر فيمن معه من المرابطين وبايعهم لعبد المؤمن ودخل في طاعته فكان الموحدون يسمون أهل شريش بالسابقين الأولين وحررت أملكهم فلم تزل محررة سائر أيامهم فلم يكن في أملكهم رباعة وجميع بلاد

الأندلس مربعة وكان ملوك الموحدين إذا قدم عليهم وفيه الأندلس كان أول من ينادي من هم أهل شريش فكان يقال أين السابقون فيدخلون للسلام فإذا سلموا وقضيت حاجاتهم انصرفوا فدخل غيرهم حينئذ وكان فتح شريش فاتح ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وخمسائة ثم زحف الموحدون إلى لبلبة وكان بها من الثوار يوسف بن أحمد البطرودي فبذل لهم الطاعة ثم زحفوا إلى شلب ففتحوها ثم نهضوا إلى باجة ويطليوس ففتحوها أيضا ثم زحفوا إلى إشبيلية فحاصروها برا وبحرا إلى أن فتحوها في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسائة وفر من كان بها من المرابطين إلى قرمونة وقتل من أدركه القتل منهم وقتل في جملتهم عبد الله ولد القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الحافظ المشهور وأصيب في هبة تلك الدخلة من غير قصد وكتب الموحدون بالفتح إلى عبد المؤمن ثم قدم عليه وفتحهم بمرأش مبايعين له سنة اثنتين وأربعين وخمسائة ورئيس الوفد يومئذ القاضي أبو بكر بن العربي المذكور فألفوا عبد المؤمن مشغولا بحرب محمد بن هود الماسي فأقاموا بمرأش سنة وصنفا لم يلقوه بالمصلى فسلموا عليه سلام الجماعة ثم بعد ذلك دخلوا عليه فسلموا عليه السلام الخاص وقيلت ببيعتهم وسأل عبد المؤمن القاضي أبي بكر بن العربي عن المهدي هل كان لقيه عند الإمام أبي حامد الغزالي فقال ما لقيته ولكن سمعت به فقال له فما كان أبو حامد يقول فيه قال كان يقول إن هذا البربري لا بد أن يسيطر ثم صرف عبد المؤمن أهل إشبيلية بعد أن أجازهم وكتب لهم منشورا بتحريم أملكهم فانصرفوا عنه في جمادى

الأخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسائة فلما قربوا من مدينة فاس توفي الإمام أبو بكر بن العربي رحمه الله فحمل ودفن خارج باب المحروق منها بتربة القائد مظفر مزارة إلى الآن وعليه قبة حسنة وفي هذه السنة ملك الموحدون قرطبة وكان بها يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية مقيما لدعوة المرابطين فلما دخل الموحدون الأندلس واشتعلت نار الفتنة بحرب المرابطين وانتهز الطاغية الفرصة في بلاد الإسلام وضيق ابن غانية بقرطبة وألح على جهاته حتى نزل له عن بياسة وأبدة وتغلب على أشبونة وطرطوشة والمرية وماردة وأفراغة وشتنرتين وشتنمرية وغيرها من حصون الأندلس وطالب ابن غانية بالزيادة على ما بذل له أو الإفراج عن قرطبة فأرسل ابن غانية إلى بدران بن محمد أمير الموحدين واجتمعا بأستجة وضمن له بدران أمان الخليفة عبد المؤمن على أن يتخلى له عن قرطبة وقرمونة ففعل ثم لحق بغرناطة وبها ميمون بن بدر اللمتوني في جماعة من المرابطين وأراد أن يكلمه في الدخول في طاعة الموحدين وأن يمكنهم من غرناطة كما فعل هو بقرطبة فتوفي بغرناطة يوم الجمعة الرابع والعشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعين وخمسائة ودفن في القسبة بإزاء قبر باديس بن حبوس الصنهاجي وانتهز الذين كانوا بإشبيلية أبا الغمر بن عزرون لحمائها ووصل إليه مدد يوسف البطرودي من لبلبة وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث إليها عسركا من الموحدين لنظر يحيى بن يغمر ولما دخلها أفرج عنها الطاغية لأيم من مدخله وبادر ثوار الأندلس إلى يحيى بن يغمر في طلب الأمان من عبد المؤمن ثم تلاحقوا به بمرأش فقتلهم وصفح لهم عما سلف

قدوم عبد المؤمن إلى سلا ووفادة أه الأندلس عليه بها لما كانت سنة خمس وأربعين وخمسائة قدم عبد المؤمن من مراکش إلى سلا فنظر في أمرها وأجرى إليها ماء عين غوبلة حتى وصل على رباطها ولم تكن رباط الفتح يومئذ قد بنيت لأن بانيها حافده يعقوب المنصور كما سيأتي إنشاء الله وغنما كان يقال رباط سلا ثم أن عبد المؤمن لأهل الأندلس في الوفاة عليه بسلا فقدموا عليه في نحو خمسمائة فارس من الفقهاء والقضاة والخطباء والأشباخ والقواد فلقاهم الشيخ أبو حفص الهنتاني والوزير الكاتب أبو جعفر بن عطية والأشياخ الموحدين على نحو مليون من المدينة فأمر عبد المؤمن بإبازلهم وافاض عليهم سجال الإكرام وأنواع الضيافات والإنعام وبقوا على ذلك ثلاثة أيام ثم أنزلهم في الدخول فدخلوا عليه أول يوم منالمرح ففتح سنة ست وأربعين وخمسائة فسلموا عليه وأشار الوزير ابن عطية لأهل قرطبة بالتقدم فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج فأراد أن يتكلم فدهش ثم وصف حال قرطبة يا أمير المؤمنين إن الفتن لعة الله قد أضعفها فتلناه أبو بكر بن الجد بالحطبة البليغة فجلى في ذلك المجلس واستحسن عبد المؤمن خطبته ووصل الجميع كلا على قدره وقضى مطالبهم وأوصالهم بما اقتضاه الحال وأمرهم بالإتصاف إلى بلادهم فانصرفوا فرحين مغتبطين وقال ابن خلدون استدعى عبد المؤمن أهل الأندلس وهو بسلا فوفدوا عليه وبايعوه جميعا وبايعه الرؤساء من الثوار

على الإنخلاع من الأمر مثل سدراتي ابن وزير صاحب باجة ويابرة ويوسف البيطروجي صاحب لبللة وابن عزرون صاحب شريش ورندة ومحمد بن الحجام

صاحب بطليوس وعامل بن مهيب صاحب طليبرة وتخلف ابن القيسي وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سببا لقتله من بعد وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم ورجع عبد المؤمن إلى مراكش واستصحب الثوار فلم يزلوا بحضرته والله تعالى أعلم غزو إفريقية وفتح مدينة بجاية ثم بلغ عبد المؤمن اضطراب بلاد إفريقية بسبب تنازع ملوكها من بني زيري بن مناد الصنهاجيين واستطالة العرب عليهم بها فاجمع الرحلة إلى غزوها بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وأبا إبراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه فخرج من مراكش أواخر سنة ست وأربعين وخمسائة واستخلف عليها الشيخ أباحفص الهنتاني وسار حتى وصل إلى سلا فأقام بها شهرين ثم نهض منها إلى سبتة مظهرا أنه يريد العبور إلى الأندلس بقصد الجهاد فلما وصل إلى سبتة استدعى فقهاء قرطبة وإشبيلية وأعيان الأندلس وقوادها فاستوضح منهم أحوال البلاد وأوصاهم بما عليهم منها وودعهم ورحل عن سبتة مظهرا العود إلى مراكش وصار حتى وصل إلى القصر الكبير وهو قصر كتامة فميز جيوشه وأزاح عنهم وفرق فيهم الأموال وأمرهم بتجديد الأزواد وخرج يعترف البلاد على غير طريق فجعل مدينة فاس عن يمينه وجد السير حتى خرج على وادي ملوية ثم صار إلى تلمسان فأقام بها يوما واحدا ثم خرج منها وولى السير قاصدا بجاية فطرق الجزائر على حين غفلة من أهلها فدخلها وأمنهم وفر صاحبها القائم بن يحيى بن العزيز إلى أبيه يحيى بجاية وخرج إلى عبد المؤمن الحسن بن علي الصنهاجي صاحب المهدي وكان الفرنج قد أخرجوه منها فقصده ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب

بجاية فعاد به إلى الجزائر وأنزله بها كالمسجون فلما طرقت عبد المؤمن الجزائر في هذه المرة خرج إليه الحسن بن علي المذكور فصحبه ووصل يده بيده حتى كن من أمره ما ذكره إنشاء الله ثم اعترضت جيوش صنهاجة عبد المؤمن بأمر العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها وفر صاحبها يحيى بن العزيز الصنهاجي آخر ملوك بني حماد أصحاب القلعة فركب البحر في أسطولين كان أحدهما لذلك واحتمل فيهما ذخيرته وأمواله وعزم على المسير إلى مصر ثم عدل إلى بونة فنزل على أخيه الحارث فأكثر عليه سوء صنيعه وإفراجه عن البلد فارتحل عنه إلى قسنطينة فنزل على أخيه الحسن فتخلى له عن الأمر وفي ذلك دخل الموحدون قلعة حماد عنوة وكان عبد المؤمن وجه جيشا من الموحدين إليها وأمر عليهم ابنه أبا محمد عبد الله فدخلوها وأضرموا النيران في مساكنها وخربوها وقتلوا بها نحو ثمانية عشر ألفا وامتلأت أيدي الموحدين من الغنائم والسبي ثم جمع لهم العرب الذين هناك من الأثيخ وزغبة ورياح وغيرهم بسطيف فأوقعوا بهم واستلحموهم وسبوا نساءهم واكتسحوا أموالهم وأما يحيى بن العزيز فإنه بايع لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين وخمسائة ونزل له عن قسنطينة واشترط لنفسه فوفى له عبد المؤمن ونقله إلى مراكش بأهله وخاصته فسكنها وأفاض عليه الإحسان وأنزله منزلة رفيعة ثم انتقل إلى سلا سنة ثمان وخمسين وخمسائة فسكن بقصر ابن عشرة منها إلى أن مات من سنته رحمه الله ووفد على عبد المؤمن بمراكش كبار العرب من أهل إفريقية طائعين فوصلهم ورجعوا إلى قومهم مغتبطين

فتح المرية وبياسة وأبدة كانت هذه البلاد قد استولى عليها الفرنج أيام الموحدين والمرابطين بالأندلس فلما كانت سنة ست وأربعين وخمسائة عبر الشيخ أبو حفص إلى الأندلس في جيش كثيف من الموحدين ومعه السيد أبو سعيد ابن أمير المؤمنين برسم الجهاد وكان بنو عبد المؤمن يسمون أبناءهم بالسادة فنزلوا المرية وضيقوا عليها بالحصار وبنى السيد أبو سعيد على محتته سورا واستغاث نصارى المرية بالفنش فأغاثهم بمحمد بن مردنيش وكان واصلا يده بيده ووجه معه السلطين أحد قواد الفرنج في جيش كثيف فلم يتمكنوا من البلد ولا من محلة الموحدين لكونها محصنة بالسور فرجع ابن مردنيش والسلطين بخفي حنين وافترق فلم يجتمعا بعد ثم عمد السلطين إلى بياسة وأبدة فأخلاهما من النصارى الذين كانوا بهما خوفا عليهم ورجع عوده على يده وأما السيد أبو سعيد فإنه شدد الحصار على المرية حتى نزلوا على الأمان بواسطة الوزير ابن عطية وفي سنة ثمان وأربعين وخمسائة وجه عبد المؤمن على بصليتين قريب المهدي فأتى به مكبولا من سبتة فأمر بقتله وصلبه بباب مراكش لأمر نعمة عليه ثم ارتحل عبد المؤمن بعد مقتل بصليتين إلى تينملل بقصد زيارة قبر المهدي فزار وفرق في أهلها أموالا عظيمة وأمر ببناء مسجدها وتوسعتها

قدوم عبد المؤمن مدينة سلا وتولية أولاده على النواحي بها لما قضى عبد المؤمن إربه من تينملل ارتحل منها إلى سلا فأقام بها بقية سنة ثمان وأربعين وخمسائة ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعدها فبايع لابنه السيد أبي عبد الله محمد بولاية العهد وأمر أن يذكر في الخطبة بعده وكتب بذلك إلى جميع الأفاق ثم عقد لابنه السيد أبي الحسن علي فاس وأعمالها واستوزر له أبا الحجاج يوسف بن سليمان وعقد لابنه السيد أبي الحفص عمر على تلمسان وأعمالها واستوزر له أبا محمد عبد الحق بن ونونين واستكتب له أبا الحسن عبد الملك بن عياش وعقد لابنه السيد أبي سعيد عثمان على سعيد بن ميمون الصنهاجي واستكتب له أبا بكر بن طفيل القيسي وأبا بكر بن حبيش الباجي وعقد لابنه السيد أبي محمد عبد الله على بجاية وأعمالها واستوزر له أبا سعيد بخلف بن الحسن وعقد للشيخ أبي زيد بن بكيت على قرطبة وأعمالها ويقال إن قرطبة كانت في هذا التاريخ بيد يحيى بن يعفور والله أعلم واستقامت الأحوال لعبد المؤمن وبنينه وصفا له المغريان والأندلس والله غالب على أمره

إيقاع عبد المؤمن بعبد العزيز وعيسى أخوي المهدي والسبب في ذلك كان عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي من مشيخة العسكر ووجه الجيش بإشبيلية أيام فتحها ووفادة أهلها على عبد المؤمن بمراكش حسبما تقدم ثم ساء أثرهما بها واستطالت أيدهما على أهلها واستباحا الدماء والأموال ثم اعترضا على الفتنك بيوسف البيطروجي صاحب لبللة فلحق ببلده وأخرج الموحدون الذين بها وحول الدعوة عنهم إلى المرابطين ونشأ عن ذلك فساد كبير بالأندلس ثم لحق أخوا المهدي بالعودة فخير طويل واستمر حالهما إلى أن بايع عبد المؤمن لابنه محمد بولاية العهد وعقد لإخوته على العملات والنواحي ففسدت نية عبد العزيز وعيسى بذلك مع ما كان صدر من عبد المؤمن من قتل ابن عمهما بصليتين وكانا يومئذ بفاس وعبد المؤمن بسلا فخرجا نم فاس إلى مراكش على طريق المعدن مضميرين للغدر واتصل خبر خروجهما بعبد المؤمن فخرج من سلا في أثرهما متلافيا أمر مراكش وقدم أمامه وزيره أبا جعفر بن عطية فسبقاه إليها وداخلا بعض الأوباش بها في شأنهما فوثبوا بعاملها أبي حفص عمر بن تافراكين فقتلوه بمكانه من القصبية ووصل على أثرهما الوزير ابن عطية ثم عبد المؤمن على أثره فأطفا تلك النائرة وتقبض عبد المؤمن على عبد العزيز وعيسى وقتلها وصلبها وتبع المداخلين لهما فألحقهم بهما وانقطع الشغب وزال الفساد

أمر عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد النسا إلى الأصول من الكتاب والسنة لما كانت سنة خمسين وخمسائة أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي بإصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه وتغيير المنكرات ما كانت وأمر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستتباط الأحكام منها وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم نم بلاد الأندلس والعودة فجزاه الله خيرا نقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش وبناء جامع الكتبيين بها كان بقرطبة ثم بجامعها الأعظم المشهور مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ذكر جماعة من المؤرخون نعمه ابن بكوال وغيره وكان ذلك المصحف الكريم متداولوا عند بني أمية وأهل الأندلس واستمر بقرطبة إلى دولة الموحدين فنقله عبد المؤمن إلى مراكش قال ابن بكوال أخرج المصحف العثماني من قرطبة وغرب منها وكان بجامعها الأعظم ليلة السبت الحادي عشر نم شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسائة في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبأمره وهذا

أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان رضي الله عنه على الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشام وما قيل من أن فيه دم عثمان بعيد وإن يكن أحدها فلعنه الشامي قال ابن عبد الملك قال أبو القاسم التجيبي السبتي أما الشامي فهو باق بمقصورة جامع بني أمية بدمشق وعينته هناك سنة سبع وخمسين وستمائة كما عاينت المكي بقية الشراب قال فعله الكوفي أبو البصري قال الخطيب ابن مرزوق في كتاب المسند الصحيح الحسن اخبرني الذي بالمدينة والذي نقل من الأندلس فالفيت خطمها سواء وما توهومو أنه خطه بيمينه فليس بصحيح فلم يخط عثمان واحدا منها وإنما جمع عليها بعضا من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المتبني ونص ما على ظهره هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله منهم زيد

بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وذكر العدد الذي جمعه عثمان رضي الله تعالى عنه من الصحابة رضي الله عنهم على كتب المصحف اه وكان من خبر نقله إلى مراكش ما ذكره ابن رشيد في رحلته عن أبي زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور قال وصل إلى عبد المؤمن ابنه السيدان أبو يعيد وأبو يعقوب من الأندلس وفي صحبتها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو الإمام الذي لم يختلف فيه مختلف ثقلى وصوله بالإجلال والإعظام ويودر إليه بما يجب من التجليل والإكرام وكان في وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لأولي الألباب وذلك أن أمير المؤمنين عبد المؤمن كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره في خاطره وتروى مع نفسه في كيفية جلبيه من مدينة قرطبة محل مئواه القديم فتوقع أن يتأذى أهل ذلك القطر بفراره ويستوحشوا لفقدان إضاءته وإشرافه فوقف عن ذلك فأوصله الله إليه تحفة سنية وهدية

هنية دون أن يكدرها من البشر اكتساب أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب بل أوقع الله تعالى في نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله ما أطلع بالمشاهدة على صحة صدقة وعضلت مخايل برقة سواكب ودقة وعد ذلك من كرامات المؤمنين عبد المؤمن وسعادته ثم عزم عبد المؤمن على تعظيم المصحف الكريم وشرع في انتخاب كسوته واختيار حليته فحشر الصناع المتقنين ممن كان بالحضرة وسائر بلاد المغرب بالأندلس فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصواغين والنظاميين والحلائن والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقيين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين ولم يبق من يوصف ببراعة أو ينسب إلى الحذق في الصناعة غلا أحضر للعمل فيه والاشتغال بمعنى من معانيه وبالجملة فقد صنعت له أغشية بعضها من السندس وبعضها من الذهب والفضة وبعضها من الأجر والياقوت وأصناف الأحجار الغريبة النوع والشكل العديدة المثال واتخذ للغشاء محمل بديع مما يناسب ذلك في غراية الصنعة وبداعة الصبغة واتخذ للمحمل كرسي على شاكلته ثم اتخذ للجميع بحضرة مراكش حرسها الله فيديئ بنيانه وتأسيس قبيلته في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسائة وكمل في منتصف شعبان من السنة المذكورة على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع وأفسح المساحة وأحكم البناء والنجارة وفيه من شمسبات الزجاج لاستغراب تمامه ودرجات المنبر وسياج المقصورة ما لو عمل في السنس العديدة لاستغراب تمامه فكيف في هذا الأمد اليسير الذي لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم في تقديره وتخطيطه فضلا عن بنائه وصلبته فيه صلاة الجمعة منصف شعبان المذكور ونهض عبد المؤمن عقب ذلك لزيارة روضة المهدي بمدينة تينملل

فأقام بها بقية شعبان ومعظم رمضان وحمل في صحبته المصحف العثماني في التابوت المذكور ومعه مصحف المهدي وختم القرآن العزيز في مسجد المهدي وعند ضريحه ختمات كثيرة وعاد إلى مراكش ولم يزل الموحدون يعتنون بهذا المصحف الكريم ويحملونه في أسفارهم متبركين به كتابوت بني إسرائيل إلى أن حمله منهم السعيد وهو علي بن إدريس بن يعقوب المنصور الملقب بالمعتضد بالله حين توجه إلى تلمسان آخر سنة خمس وأربعين وستمائة فقتل السعيد قريبا من تلمسان ووقع النهب في الخزائن واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ونهب المصحف في جملة ما نهب منه وعثر عليه ملوك بني عبد الواد أصحاب تلمسان فلم يزل في خزائنها بها إلى أن افتتحها السلطان الأعظم أو الحسن المريني أواخر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وحصل عنده فكان يتبرك به ويحمله في أسفاره على العادة إلى أن أصيب في وقعة طريف وحصل في بلاد البرتغال وأعمل أبو الحسن الحيلة في استخلافه حتى وصل إلى فاس سنة خمس وأربعين وسبعمائة على يد بعض تجار آزموور واستمر في خزائنه إلى أن سافر أبو الحسن سفرته المعلومة إلى إفريقية فاستولى عليها ولما كانت سنة خمس وسبعمائة ركب أبو الحسن البحر من تونس قافلا إلى المغرب وذلك في إبان هيجان البحر فغرقت مراكبه وهلكت نفوس تجل عن الحصر وضاعت نفائس يعز وجود مثلها ومن جملتها المصحف العثماني فكان ذلك آخر العهد به ومما يناسب ذكره هنا المصحف العقباني وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب وكان متداولاً عند ملوكه ومتبركا به وثاني المصحفين في المنزلة عند أهل المغرب قال أبو عبد الله اليفرنى في كتاب النزهة إن السلطان أبا العباس أحمد المنصور بالله المعروف بالذهبي لما جدد ولاية العهد لولده المأمون

بعث إليه بالقوم من مدينة فاس فوافاه بتامسنا وبأشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه وحضر الأعيان وأهل العقد والحل وأحضر المصحف الكريم الذي هو مصحف عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه قال وهو من ذخائر الخلفاء وأحضر الصحبان للشبخين وقرئ ظهير البيعة وذلك في شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة ولم يزل المصحف العقباني متداولاً بين الملوك السعديين إلى أن انقرضت دولتهم وجاءت الدولة الشريف العلوية السجلماسية فانتقل المصحف المذكور إليها وتداولته ملوكها إلى أن جاء السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل بن الشريف ربه الله فبعث هدية سنية مع ركب الحاج للحرم النبوي وبعث في جملتها المصحف المذكور قال صاحب البستان ولما سافر الركب يعني سنة خمس وخمسين ومائة وألف وجه معه السلطان المولى عبد الله ثلاثة وعشرين مصحفاً بين كبير وصغير كلها محلاة بالذهب منبثة بالدر وياقوت ومن جملتها المصحف الكبير العقباني الذي كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثماني وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري نسخة بالقيروان من المصحف العثماني فوقع هذا المصحف بيد الأشراف الزيدانيين يتداولونه بينهم إلى أن بلغ إلى السلطان المولى عبد الله المذكور فغريه من المغرب إلى المشرق ورجع الدر إلى صدفة والإبريز إلى معننه قال الشيخ المسناوي وقد وقتت عليه حين أمر السلطان المولى عبد الله بتوجيهه إلى الحجرة النبوية وظهر لي أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعده ما بينهما ووجه معه السلطان المذكور ألفي حصاه بالثنية وسبعمائة حصاة من البياقوت المختلفة الألوان إلى الحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى السلام وهذه الأخبار غن كانت متباعدة التاريخ فهي متناسبة المعنى جمعناها هنا ليقف الناظر عليها في محل واحد وتحصل فائدتها متناسقة والله الموفق

نكبة الوزير ابن عطية والسبب فيها كان الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية من أهل مراكش وأصله القديم من طرطوشة ثم بعد من دانية وكان أبوه أبو أحمد بن عطية كاتباً لأمير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني ثم لابنه تاشفين من بعده وتحصل في قبضة الموحديين فعفا عنه عبد المؤمن ولما حاصر عبد المؤمن فاساً اعتزم أبو أحمد هذا الفرار فقبض عليه في طريقه وسبق إلى عبد المؤمن فاعتذر فلم يقبل عبد المؤمن عذره وسحب إلى مصره فقتل رحمه الله وكان ابنه أبو جعفر صاحب الترجمة كاتباً لإسحاق بن علي اللمتوني بمراكش فشملة عفو أمير المؤمنين شمله من ذلك الفل وخرج في جملة الشيخ أبي حفص الهنتاني حين نهض لقتال محمد بن هود الماسي فلما كان الفتح وكتب رسالته المتقدمة وقف عليها عبد المؤمن فاستحسنها واستكتبه لذلك ثم ارتفعت مكانته عنده فاستوزره فظهر غناؤه وكفايته وحمدت سيرته وإدارته وقاد العساكر وجمع الأموال وبذلها وبعد في الدولة صيته ونال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله أحد في دولته وتحبب إلى الناس بإجمال لسعي والإحسان فعمت صنائعه وفتشا معروفه وكان محمود السيرة مخت المحاولات ناجح المساعي سعيد المآخذ ميسر المأرب وكانت وزارته زينا للوقت وكمالاً للدولة رحمه الله ثم لما كانت سنة إحدى وخمسين وخمسائة وقد أشياخ إشبيلية على عبد المؤمن ورغبوا منه في ولاية بعض أبنائه عليهم فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها وبعث معه لوزير ابن عطية المذكور لمباشرة الأمور وإصلاح الأحوال فأغنى في ذلك الغناء الجميل ولما غاب وجهه عن الحضرة وجد حساده السبيل إلى التدبير عليه

والسعي به حتى أوغروا صدر الخليفة عليه فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي وانبرى لمطالبة ابن عطية وجد في التماس عوراته وتشنيع سقائته وطرحت بمجلس السلطان أبيات منها قل للإمام أطل الله مدته قولا تبين لذيلب حقائقه إن الزراجين قوم قد وترتهم وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه وللوزير إلى آرائهم ميل فذاك ما كثرت فيهم علائقه فبادر الحزم في إطفاء نارهم فريما عاق من أمر عواقبه هم العدو ومن الأهم كههم فاحذر عدوك واحذر من يصادقه الله يعلم أي ناصح لكم والحق أبلج لا تخفى طرائقه قالوا فلما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وعر صدره على وزيره أبي جعفر وأضمر له في نفسه شراً فكان ذلك من أقوى أسباب كتيبه وقيل أفضى إليه بسر فأفشاء وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس فقلق وعجل الانصراف إلى مراكش فحجب عنده فومه ثم قيد إلى المسجد في اليوم بعده حاسر العمامة واستحضر

الناس على طبقاتهم وقرروا على ما يعلمون من أمره وما صار إليه منهم فأجاب كل بما اقتضاه هواه وأمر بسجنه ولف معه أخوه أبو عقيل عطية وتوجه في أثر ذلك عبد المؤمن إلى زيارة تربة المهدي فاستصحبهما بحال ثقاف وصدر عن أبي جعفر في هذه الحركة من لطائف الآداب نظما ونثرا في سبيل التوسل لإمامهم المهدي عجائب فلم تجد شيئا مع نفاذ الله تعالى فيه ولما انصرف من وجهته أعادها معه قافلا إلى مراكش فلما حاذى تاكمارت أنفذ الأمر بقتلها بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحه هناك فمضيا لسبيلهما وذلك في شوال سنة ثلاث وخمسين وخمسائة ومما خاطب به الوزير المذكور عبد المؤمن مستعظما له من رسالة تعالى فيها فعالاته ولم ينل الأمانة وهذه سنة الله تعالى فيمن لا يحترم جناب الألوهية ولم يحرص لسانه من الوقوع فيما يخدم في وجه فضل الأنبياء على غيرهم قوله سامحه الله تالله لو أحاطت بي كل خطية ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطية حتى سخرت بمن في لوجود وأنفت لأدم من السجود وقلت إن الله تعالى لم يرحي في الفلك إلى نوح وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا وبريت لقدار ثمود نبلا وحططت عن يونس شجرة اليقين وأوقدت مع هامان على الطين وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها واقتربت على العذراء البتول ففقدتها وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة وظهرت الأحزاب بالقصوى من العدة وأبغضت كل قرشي وأكرمت لأجل وحشي كل حبشي وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة الخليفة وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبه واعتقلت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبه وقلت تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر وسفكوا الدماء على الشريد الأعفر وغادرت الوجه من الهامة خضيبا ونولت من قرع سن الحسين قضيبا ثم أتيت حضرة المعصوم لائذا ويقبر الإمام المهدي عائدا لأذن لمقاتلي أن تسمع وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع مع أبي مقرف وبالذنب معترف فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا بحمل قلوب هدها الخفان والسلام على المقام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته وكتب مع ابن له صغير آخره عطفنا علينا أمير المؤمنين فقد بان العزاء لفرط البث والحزن قد أغرقتنا ذنوب كلها ليجرح رحمة منكم أنجي من السفن وصادفنا سهام كلنا غرض وعطفة منكم أوفى من الجنن هيهات للخطب أن تسطو حوادثه بمن أجارته رحماكم من المحن من جاء عنكم يسعى على ثقة بنصره لم يخف بطشا من الزمن فالثوب يظهر عند الغسل من درن والطرف يرهص بعد الرخص في سنن أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم من دون من عليهم لا ولا أئمن ونحن من بعض من أحببت مكارم كلنا الحياتين من نفس ومن بدن

وصيبة كفراخ البورق من صغر لم يألوا النوح فر فرغ ولا فنن قد أوجدتهم أياد منكم سابقة والكل لولاك لم يوجد ولم يكن فوق عبد المؤمن على هذه القصيدة الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ومما كتب به من السجن أنوح على نفسي أم أنتظر الصفا فقد أن أن تنسى الذنوب وأن تمحى بها أنا في ليل من السخط حائر ولا اهتدي حتى أرى للرضا صبحا وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهجو ابن عطية فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه وكان لأبي جعفر أخ اسمه عطية قتل معه كما قلنا ولعطية هذا ابن أديب كاتب وهو أبو طالب عقيل بن عطية ومن نظم في رجل تعشق قينة كانت ورثت مالا من مولاها فكانت تنفق عليه منه فلما فرغ المال ملها فقال أبو طالب لا تلحه إن مل من حبها فلم يكن ذلك عن ود لما رآها قد صفا ما لها قال صفا الوجد مع الوجد ويروي أن الوزير ابن عطية رحمه الله مر مع الخليفة عبد المؤمن ببعض طرق مراكش فأطلت جارية بارعة الجمال من شباك فقال عبد المؤمن قدت فوادي من الشباك إذ نظرت فقال الوزير مجيزا له حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل فقال عبد المؤمن كأنها لحظها في قلب عاشقها فقال الوزير سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي ولا خفاء أن هذه طبقة عالية رحم الله الجميع بمنه

غزو إفريقية ثانيا وفتح المهدي وغيرها من الثغور كانت بلاد إفريقية بيد بني زيري بن مناد الصنهاجيين من لدن الدولة العبيدية بها وفي هذا التاريخ كانت دولتهم قد أشرفت على الهرم وكثر التنازع بينهم وزحمتهم الثوار من العرب وغيرهم بتلك الأقطار فانتهز الفرنج أصحاب صقلية الفرصة فيهم وملكو منهم عدة ثغور مثل صفاقس وسوسة وغيرهما ثم ملكوا بعد ذلك المهدي وهي يومئذ دار ملك الحسن بن علي الصنهاجي آخر ملوك بني زيري بن مناد ففر الحسن عنها إلى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية فأنزله بالجزائر ولما طرد عبد المؤمن ثغر الجزائر في غزوته الأولى إلى إفريقية خرج إليه الحسن بن علي هذا وصحبه وصار في جملته فكان الحسن يغريه بغزو إفريقية واستنفاذا من يد العدو وكان عبد المؤمن يحب ذلك ويرغب فيه إلا أنه كان ينتظر إبان الفرصة فاتفق أن فرنج أقعوا بأهل زويلة وهي مدينة بينها وبين المهدي نحو ميدان وقعة شنيعة حتى أنهم قتلوا النساء والأطفال ففر جماعة منهم إلى عبد المؤمن بن علي وهو بمراكش يستغيثونه ويستصرونه على العدو فلما وصلوا إليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس في ملوك الإسلام من يقصد سواه ولا يكشف هذا الكرب غيره فدمعت عيناه وأطرق ثم رفع رأسه وقال أبشروا لأنصرتكم ولو بعد حين وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج إليه العسكر في السفر وكتب إلى جميع نوابه في المغرب وكان قد ملك العدوتين الأندلس والمغرب واتسعت خطة مملكته إلى قرب مدينة تونس فكتب إلى من بطريقه من النواب يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وأن يترك الزرع في سنبلة

ويخزن في مواضعه وأن يحفروا الآبار في الطرق ففعلوا جميع ما أمرهم به وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق وطبنوا عليها فصارت كأنها تلال فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسائة سار عبد المؤمن من مراكش يوم بلاد إفريقية وقال ابن خلدون كان عبد المؤمن في هذه السفارة قد عزم على العبور إلى الأندلس لما بلغه من اضطراب أحوالها واستطالة الطاغية بها فنهض يريد الجهاد واحتل بسلا فبلغه انتفاض إفريقية وأمه شأن النصارى بالمهدية فلما توافرت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص الهنتاني على المغرب وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس ونهض يغد السير إلى إفريقية واجتمع عليه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الأتباع والسوقة أمثالهم وكان هذا الجند يمتد أميالا وبلغ من حفظه وضبطه أنهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة وإذا نزلوا صلوا بإمام واحد بتكبيره واحدة لا يتخلف منهم أحد كائنا من كان وقدم بين يديه الحسن بن علي الصنهاجي صاحب المهدي وكان قد اتصل به كما قلنا فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شيئا وطريده وشلندا فلما نزلها راسل أهلها يدعوهم إلى الطاعة فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال ولما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهلها إلى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم فأجابهم عبد المؤمن بأن لهم الأمان في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة وأما من عداهم من سائر أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهليهم ويقاسمهم على أموالهم وأملأهم نصفين وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله فاستقر الأمر على ذلك وتسلم البلد وبعث إليهم من يمنح العساكر من الدخول عليهم وبعث أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم وأملأهم وأقام أهل تونس بها على أجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم وعرض عبد المؤمن الإسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن أبقى قتل وأقام عليها ثلاثة أيام ثم سار إلى المهدي وأسطوله بجانيه في البحر فوصل إليها ثامن عشر رجب من السنة المذكورة وكان بالمهدية يومئذ خواص الفرنج من أولاد ملوكها وأبطال فرسانها وقد أخذوا مدينة زويلة المجاورة للمهدية فدخلها عبد المؤمن وامتألت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل إفريقية ما يخرج عن الإحصاء وأقبلوا بقاتلون المهدي مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق محال القتال عليها لأن البحر دائر بأكثرها فكانها كف في البحر وزندها متصل بالبر وكانت الفرنج تخرج شجعانها إلى أطراف العسكر فتتال منه ويعودون سريعا فأمر عبد المؤمن ببناء سور غربي المدينة بمنعهم من الخروج وأحاط الأسطول بها في البحر وركب عبد المؤمن شينيا ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وتطوف بها في البحر فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنها لا تتفتح بقتال برا ولا بحرا وليس لها إلا المطولة وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقلعة من يوثق به وعدم القوات وحكم القدر صدقت وعاد عبد المؤمن من البحر وأمر بجمع الغلات والأقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صار في المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل إلى المعسكر من بعيد يقول متى حدثت هذه الجبال فيقال هي حنطة وشعير فيتعجب من ذلك وتمادى الحصار وفي

مدة هذا الحصار استولى عبد المؤمن على طرابلس وصفاقص وسوسة وجبل نفوسة وقصور إفريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف وسير ابنه أبا محمد من مكان حصاره للمهدية في جيش ففتح بلاد أخرى

ثم أطاعه أهل مدينة قصة وقدم عليه صاحبها فوصله بألف دينار وبالجملة فإنه استخلص في هذه المدة جميع بلاد إفريقية من أيدي القائمين بها ولما كان الثاني والعشرون من شعبان من السنة المذكورة جاء أسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينيا غير الطراندمدا لآل بلاد الأندلس وقد سبى أهلها وأسره وحملهم معه فأرسل إليهم ملك الفرنج بأمرهم بالمسير إلى المهدي ليمدوا إخوانهم الذين بها فقدموا في التاريخ المذكور فلما قاربوا المدينة حطوا شرعهم ليدخلوا الميناء فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن وركب العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العساكر وداخل الرعب قلوبهم ونزل عبد المؤمن إلى الأرض فجعل يمرغ وجهه ويبيكي ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا في البحر فانهمزت شواني الفرنج وأعادوا القلوع وساروا وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شواني وكان أمرا عجبيا وفتحا غريبا وعاد أسطول المسلمين مظفرا منصورا وفرق فيهم عبد المؤمن الأموال ويأس أهل المهدي حينئذ من النجاة ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى إلى آخر ذي الحجة من السنة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها إلى بلادهم وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم عبد المؤمن الإسلام ودعاهم إليه فقالوا ما جئنا لهذا وإنما جئنا نطلب فضلك وترددوا إليه أياما وكان من جملة ما استعظموه به أن قالوا أيها الخليفة ما عسى أن تكون المهدي ومن بها بالنسبة إلى ملكك العظيم وأمرك الكبير وإن أنعمت علينا كنا أرقاء لك في أرضنا فعفا عنهم وكان الفضل شيمته وأعطاهم سفنا ركبوا فيها وساروا وكان الزمن شتاء فغرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صقلية إلا النفر اليسير

وكان صاحب صقلية قد قال إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية تقتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله الفرنج غرقا وكانت مدة استيلائهم على المهدي اثنتي عشرة سنة فدخلها عبد المؤمن صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة فكان يقال لهذه السنة سنة الخماس وأقام عبد المؤمن بالمهدية عشرين يوما حتى رتب أحوالها وأصلح ما انتلهم من سورها ونقل إليها الذخائر والأقوات والرجال والعدد واستخلف عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي وجعل معه الحسن بن علي الصنهاجي الذي كان صاحبها وأمره أن يقتدي براهيه في أفعاله وأقطع الحسن بها إقطاعا وأعطاه دورا نفسية يسكنها وكذلك فعل بأرلايه وصفت إفريقية كلها لعبد المؤمن ودخل أهلها في طاعته من برقة إلى تلمسان ولم يبق له بها منازع ففرق فيها عماله وقضاته وضبط ثغورها وأصلح شؤونها وثنى عنانه إلى المغرب أول صفر من السنة المذكورة وانقطعت عادية الفرنج عن بلاد إفريقية مدة مديدة والله تعالى أعلم بتوظيف عبد المؤمن الخراج على أرض المغرب وفي هذه السنة أعني سنة خمس وخمسين وخمسمائة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب فكسر من برقة في جهة الشرق إلى بلاد نول من السموس الأقص في جهة الغرب بالفراسخ والأميال طولا وعرضا ثم أسقط في التكسير الثلث في الجبال والغياض والأنهار والسماخ والخزون والطرق وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة بقسطها من الزرع والورق فهو أول من أحد ذلك في المغرب عفا الله عنه

بناء عبد المؤمن جبل طارق كان عبد المؤمن رحمه الله وهو بإفريقية قد أمر ببناء جبل الفتح وتحصينه وهو جبل طارق فبنى وشيد حصنه وكان ابتداء البناء به في تاسع ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة المذكورة وكمل بناؤه في ذي القعدة منها بناء عبد المؤمن مدينة البطحاء لما كان بعد المؤمن قافلا ثم بلاد إفريقية بني مدينة البطحاء وسبب بنائه إياها لما طالب بالموحدين الإقامة بالمشرق والتغرب عن أوطانهم عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن والفتك به في خيائه إذا نام فتأتى شيخ من أشياخ الموحدين ممن اطلع على ذلك إلى عبد المؤمن فأخبره الخبر وقال له دعني أبت الليلة في وضعك وأتم على فراشك فإن فعلوا ما اتفقوا عليه كنت قد فديتك بنفسي ف يحق للمسلمين وأجري على قدر نيتي فبات على فراشه فاستشهد في تلك الليلة فلما أصبح عبد المؤمن وصلى الصبح افتقده فوجده قتيلًا على فراشه فأخذه وحمله بين يديه على ناقه لا يقودها أحد فسارت الناقة يمينا وشمالا حتى بركت وحدها فأمر عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عنها وأخذ بزمام الناقة فأزبلت عن مبركها وحفر قبره فيه ودفن وبنيت عليه قبة وبنى بإزاء القبة جامعًا ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد وترك بها عشرة أهل بيت من كل قبيلة من قبائل المغرب فقبر الشيخ هنالك مزارا عن أهل تلك البلاد إلى اليوم قاله في القرطاس

ولما دخل عبد المؤمن إلى تلمسان في هذه الرجعة قبض على وزيره عبد السلام بن محمد الكومي فسجنه ثم سمه من جرعة لبن هلك بها من ليلته عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق والسبب في ذلك كان عبد المؤمن وهو بإفريقية قد بلغه أن محمد بن مردنيش الثائر بشرق الأندلس قد خرج من مرسية ونازل جيان وأطاعه واليها محمد بن علي الكومي ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها وغدر بقرمونة وملكها ثم رجع إلى قرطبة وخرج ابن بكيث لحربه فهزمه ابن مردنيش وقتله فكتب عبد المؤمن إلى عماله بالأندلس يخبرهم بفتح إفريقية عليه وأنه أصل إليهم فلما نهض من تلمسان في رجعتة هذه عدل على طنجة فدخلها في ذي الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة وأقام بها إلى أن دخلت سنة ست وخمسين بعدها فغير منها إلى الأندلس ونزل بجبل طارق فأقام به شهرين واستشرف منه أحوال الأندلس ووفد عليه قوادها وأشياخها فأمر بغزو غرب الأندلس فنهض إليه الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص الهنتاني من قرطبة في جيش كثيف نم الموحدين ففتح حصن المرنكش من أحواز بطليوس وقتل جميع من كان به من النصارى وخرج الفتن من طليطلة لإغائته فوجده قد فتح وصد الموحدون لقتاله فهزمه الله وقتل من عسكره ستة آلاف وساق المسلمون السب إلى قرطبة وإشبيلية وفي هذه السنة ملك الموحدون بطليوس وباجة وبابورة وحصن القصر فولى عليها عبد المؤمن محمد بن علي بن الحاج وعاد إلى مراکش

قدوم كومية قبيلة عبد المؤمن عليه بمراكش والسبب في ذلك تقدم لنا أن عبد المؤمن لم يكن من المصامدة وإنما كان من كومية إحدى بطون بني فاتن من البرابرة البتر وكانت مواطنهم بالمغرب الأوسط إلى أن استدعاهم عبد المؤمن إلى مراکش سنة سبع وخمسين وخمسمائة والسبب في ذلك أنه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذي فداه بنفسه وتحقق ذلك منهم ورأى أنه غريب بين أظهرهم ليس له قبيل يستند إليه ولا عشير يتقون به ويعتمد عليه أرسل في خفية إلى أشياخ كومية الذين هم قبيلته وعشيرتهم وأمرهم بالقدوم عليه وأن يركبوا كل من بلغ الحلم منهم وبيأتوه في أحسن زي وأكمل عدة وسرب إليهم الأموال والكسي فاجتمع منهم أربعون ألف فارس ثم أقبلوا إلى عبد المؤمن وهو بمراكش برسم خدمته والقيام بين يديه ولما دخلوا أرض المغرب تشوش أهله من قدوم هذا الجيش الحفيل من غير أن يتقدم لهم سبب ظاهر وتقول الناس الأقاويل فسار جيش كومية وعرفوا أمير المؤمنين عبد المؤمن بخبرهم فأمر عبد المؤمن الشيخ أبا حفص الهنتاني أن يخرج إليه في جماعة من الموحدين وأشياخهم ليتعرفوا خبرهم فسار حتى لقيهم على وادي أم الربيع فقال لهم ما أنتم أسلمنا أم حرب قالوا بل نحن سلم نحن قبيل أمير المؤمنين نحن كومية قصدنا زيارته والسلام عليه فرجع أبو حفص وأصحابه وعرف عبد المؤمن الخبر فأمر جميع الموحدين أن يخرجوا على لقايمهم ففعلوا واحتفلوا لذلك وكان يوم دخولهم مراکش يوما مشهودا فرتبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية من أهل الديوان وجعلهم بين قبيلة يتمثل والقبيلة التابعة لهم

وجعلهم بطانته يركبون خلف ظهره ويمشون بين يديه إذا خرج ويقومون على رأسه إذا جلس فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر دولتهم إلى انقراضها استعداد عبد المؤمن للجهاد وإنشاؤه الأساطيل بسواحل المغرب وما يتبع ذلك من وفاته رحمه الله لما تمهد لعبد المؤمن ملك المغربيين وإفريقية والأندلس وطاعت له سائر الأقطار وخضعت له الرقاب في البوادي والأمصار تفرغ لشأنه وتاقت نفسه للجهاد فعزم على غزو بلاد الفرنج برا وبحرا فأمر رحمه الله في هذه السنة التي هي سنة سبع وخمسين وخمسمائة بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل ممالكة فأنشئ له منها أربعمائة قطعة فمناها بحلق المعمورة وهي التي تسمى اليوم المهدي مائة وعشرون قطعة ومنها بطنجة وسبتة وباديس ومراسي الريف مائة قطعة ومنها إفريقية ووهران ومرسى هنين مائة قطعة ومنها ببلاد الأندلس ثمانون قطعة ونظر في استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح

والعدد وأمر بضرب السهام في جميع عمله فكان يضرب له منها في كل يوم نحو عشرة قناطير جدية فجمع له من ذلك ما لا يحصى كثرة وفي خلال هذا وفدت عليه قبيلة كومية كما مر ثم لما دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسائة خرج أمير المؤمنين عبد المؤمن من مراكنش قاصدا الأندلس برسم الجهاد وكان خروجه يوم الخميس خامس ربيع الأول من السنة المذكورة فوصل إلى رباط سلا فكتب إلى جميع بلاد المغرب والقبلة وإفريقية والسوس وغير ذلك يستنفرهم إلى الجهاد فأجابهم خلق كثير واجتمع له من عساكر الموحدين والمرتقة ومن

قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل فضاقت بهم الأرض وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا من عين غبولة إلى عين خميس إلى حلق المعمورة فلما استوفيت لديه الحشود وتكاملت لديه الجنود والوفود كان المعنى الذي أشار الله القائل إذ تم أمر بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم فابتدأ بعيد المؤمن مرضه الذي توفي منه وتمادى به ألمه فخاف أن يفجأه الحمام فأمر بعزل ولده محمد عن ولاية العهد وإسقاط اسمه من الخطبة لما ظهر له من العجز عن القيام بأمر الخلافة وكان ذلك يوم الجمعة الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكتب بذلك إلى جميع طاعته وتمادى به مرضه واشتد ألمه فتوفي ليلة الجمعة الثامن من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وقيل غير ذلك وحمل إلى تينمل فدفن بها إلى جنب قبر الإمام المهدي رحمه الله فسبحان من لا يبدي ملكه ولا ينقصي عزه ونقل ابن خلكان في كيفية عزل ولي العهد وجها آخر قال ناقلا من خط العماد بن جبرل أن عبد المؤمن كان في حياته عهد إلى أكبر أولاده وهو محمد وبايعه الناس بعد تحيف الجند له وكتب بيبعته إلى البلاد فلما مات عبد المؤمن ولم يتم له الأمر لأنه كان على أمور لا يصلح معها للملكة من إيمان شرب الخمر واختلاف الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال إنه مع هذا كله كان به ضرب من الجذام واضطرب أمره

واختلف الناس عليه فخلع وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوما وذلك في شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسائة وكان الذي سعى في خلعه أخويه أبا يعقوب يوسف وأبا حفص عمر ابني عبد المؤمن ولما تم خلعه دار الأمر بين الأخوين المذكورين وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوي الرأي فتأخر منهما أبو حفص عمر وسلم الأمر إلى أخيه أبي يعقوب يوسف فبايعوه واتفقت عليه الكلمة والله تعالى أعلم بقية أخبار عبد المؤمن وسيرته قال ابن خلكان كان عبد المؤمن عند وفاته شبخا نقي البياض قال ونقلت من تاريخ فيه سيرته وحليته فقال مؤلفه رأيته شبخا معتدل القامة عظيم الهامة أشهل العينين كث اللحية شئن الكفين طويل القعدة واضح بياض الأسنان بخده الأيمن خال وكان رحمه الله فصيحاً فقيهاً بالأصول والجدل والحديث مشاركا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية ذا حزم وسياسة وإقدام في الحرب ومهمات الأمور سري الهمة ميمون النقيبة لم يقصد قط بلدا إلا فتحه ولا جيشا إلا هجمه محبا لأهل العلم والأدب مكرما لوفادتهم منقفا لبضاعتهم ذكر العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي لما أنشده ما هز عطفية بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي أشار عليه أن يقتصر على هذا البيت وأمر له بالف دينار وقد تقدم ما دار بينه وبين وزيره ابن عطية من الشعر الذي تجاذبوا في أمر الجارية التي أطلت في الشباك وذلك دليل على سراوة طبعه وخفة روحه رحمه الله

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي قال ابن خلدون لما هلك عبد المؤمن أخذ السيد أبو حفص بن عبد المؤمن لبيعة على الناس لأخيه أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن باتفاق من الموحدين كافة ورضى من الشيخ أبي حفص الهنتاتي خاصة واستقل في رتبة وزارته وذكر القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر مؤرخ دولتهم أن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بويع بيعة الجماعة يوم الجمعة ثامن ربيع الأول سنة ستين وخمسائة وذلك بعد وفاة والده عبد المؤمن بستين لأنه لما بويع بعد وفاة والده توقف عن بيعته ناس من أشياخ الموحدين وامتنع من بيعته أخوا السيد أبو محمد صاحب بجاية والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة فكف عنهم ولم يطالبهم ببيعته وتسمى بالأمر ولم يتسم بأمر المؤمنين حتى اجتمع عليه الناس وذكر ابن مطروح في تاريخه أنه لما مات عبد المؤمن كان ولده يوسف بإشبيلية فأخفى أصحابه موته وأرسلوا إلى يوسف فوصل من إشبيلية إلى سلا في أقرب وقت فبويع بها ولم يتخلف عن بيعته إلا ناس قليلون فلم يلتفت إليهم وكان أول شيء فعله بعد البيعة أن سرح الجيوش المجتمعة للجهاد إلى بلادهم وقبائلهم وكتب إلى البلاد بتسريح المساجين وتفريق الصدقات في جميع عمله وتسمى بالأمر ثم ارتحل إلى مراكنش فدخلها وأقام بها وكتب إلى جميع أهل طاعته من الموحدين يطالبهم بالبيعة فأثته البيعة من جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس ما خلا قرطبة وبجاية فإن ولاتهما وهما أخواه توقفوا عن ذلك وانتشر خبر أمير المؤمنين يوسف في أقطار

البلاد وأدان له من بالعودتين من العباد وفرق الأموال في القبائل والأجناد وفي سنة تسع وخمسين وخمسائة قدم عليه أخواه السيد أبو محمد صاحب بجاية والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة تائبين مبايعين وقدم معهما أشياء ملبيةما وفتحتهما فوصلهم أمير المؤمنين يوسف بالأموال والخلع وأحسن إليهم وفي السنة ثار مرزغ الصنهاجي من صنهاجة مفتاح وضرب السكة باسمه وكتب فيها مرزغ الغريب نصره الله عن قريب وكانت ثورته ببلاد غمارة فبايعه خلق كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة فأفسد تلك الناحية ودخل مدينة تازا وقتل بها خلقا كثيرا وسبى فبعث عليه أمير المؤمنين يوسف جيشا من الموحدين فقتل وحمل رأسه على مراكنش وفي سنة ستين وخمسائة كانت وقعة الجلاب بالأندلس بين السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن وجيوش الفرنج مع ابن مردنيش وكانت الفرنج ثلاثة عشر لفا فهزم ابن مردنيش وقتل من معه من الفرنج بأجمعهم وكتب السيد أبو سعيد بالفتح إلى أخيه أمير المؤمنين يوسف وفي سنة إحدى وستين وخمسائة عقد أمير المؤمنين يوسف على بجاية لأخيه السيد أبي زكرياء وعلى إشبيلية للشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم ثم أдал منه بأخيه السيد أبي إبراهيم وأقر الشيخ أبي عبد الله على وزارته وعقد على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحاق وأقر السيد أبا سعيد على غرناطة ثم نظر الموحدون في وضع العلامة المكتوبة بخط الخليفة فاختروه الحمد لله وحده لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي في بعض مخاطباته فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم والله أعلم

ثورة سبع بن منغفاد بجبال غمارة وفي سنة إحدى وستين وخمسائة ثار سبع بن منغفاد وسماه ابن أبي زرع يوسف بن منغفاد بجبل تيزيران من بلاد غمارة وعظمت الفتنة في قبائلها وجاذبهم فيها جرائهم من صنهاجة فبعث إليهم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن عساكر الموحدين إلى نظر الشيخ أبي حفص الهنتاتي ثم تعاضمت فتنة غمارة وصنهاجة فخرج إليهم أمير المؤمنين بنفسه وأوقع بهم واستأصلهم وقتل سبع بن منغفاد وحمل رأسه إلى مراكنش وانحسم داؤهم وعقد يوسف لأخيه السيد أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم وفي سنة ثلاث وستين اجتمع الموحدون على تجديد البيعة ليوسف بن عبد المؤمن واللقب بأمر المؤمنين وذلك في جمادى الآخرة منها وخاطب العرب بإفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرضهم وكتب إليهم في ذلك بقصيدة ورسالة مشهورة بين الناس فكان من احتفالهم ووفودهم عليه ما هو معروف وفي سنة أربع وستين بعدها وفد عليه أهل الأمصار من إفريقية والمغرب والأندلس القضاء والفقه والخطاء والشعراء والأشياخ والأعيان برسم التهنية والمطالعة بأحوال بلادهم فوصلت الوفود إلى مراكنش فدخلوا عليه وهنؤوه بالخلافة ووصل الجميع كل على قدره وأوصاهم بما اقتضاه الحال وكتب لهم الظواهر بمطالبهم وإصلاح شؤونهم وانصرفوا شاكرين وفي هذه السنة أيضا بعث أمير المؤمنين الشيخ أبا حفص الهنتاتي في جيوش الموحدين إلى الأندلس لاستنقاذ بطليوس من حصار العدو واحتفل أمير المؤمنين في ذلك فلما انتهوا إلى إشبيلية بلغه أن الموحدين وأهل بطليوس هزموا العدو وأسروا قائد جيشه فسار الشيخ أبو حفص إلى قرطبة

وفي سنة خمس وستين بعدها وجه يوسف بن عبد المؤمن أخاه السيد أبا حفص إلى الأندلس برسم الجهاد فعبير البحر من قصر المجاز إلى طريف في عشرين ألفا من الموحدين والمتطوعة فدخلوا بلاد العدو وبعث السيد أبو حفص أخاه السيد إلى بطليوس فعقد الصلح مع الطاغية ابن أنفونش وهو يومئذ أعظم ملوك فرنج الجزيرة وانصرف ونهضوا جميعا إلى مرسية ومعهم إبراهيم بن همشك كان من قواد ابن مردنيش فزرع عنه إلى الموحدين فحاصروا ابن مردنيش الثائر بمرسية وأعمالها واستولوا على أكثر بلاده واتصل الخبر بالخليفة بمراكنش وقد خف إلى الجهاد وفي سنة ست وستين أمر أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ببناء قلعة تانسيفت وكان الشروع في بنائها يوم الأحد ثالث صفر من السنة المذكورة الجواز الأول لأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس بقصد الجهاد لما اتصل بأمر المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ما اتفق لشقيقه

السيد أبي حفص من الاستيلاء على غالب بلاد ابن مردنيش وظهور المسلمين على عدوهم بها وكان بعض ملوك الفرنج بها لم يزالوا يشغبون على المسلمين بالغارات على أطراف بلادهم تاقت نفسه إلى العبور إلى بلاد الأندلس بقصد إصلاح حالها وجهاد العدو بها وقد توافدت لديه وهو بمراكش جموع العرب من إفريقية صحبة السيد أبي زكرياء صاحب بجاية والسيد أبي عمران صاحب تلمسان وكان يوم قدمهم عليه يوما مشهودا فاعترضهم وسائر عساكرهم

ونهب إلى الأندلس في مائة ألف من العرب والموحدين واستخلف على مراكش أخاه السيد أبا عمران فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسائة ثم ارتحل بعدها إلى إشبيلية ولقيه السيد أبو حفص هنالك منصرفا من بعض زواته ولما نزل أمير المؤمنين يوسف بإشبيلية خافه محمد بن مردنيش وحمل على قلبه فمرض ومات وقيل إن أمه سمته لأنه كان قد أساء إلى خواصه وكبراء دولته فتصحتة فتهدها وخافت بطشه فسمته ولما مات محمد بن مردنيش جاء أولاده وإخوته إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو بإشبيلية فسلموا إليه جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت لأبيهم فأحسن إليهم أمير المؤمنين وتزوج أختهم وأصبحوا عنده في أعز منزلة وصنع في وليمتها مهرجانا عظيما يقصر الوصف عنه ولما صفت لأمر المؤمنين يوسف الأندلس خرج من إشبيلية غازيا بلاد العدو فنزل على مدينة له تسمى وبذة فأقام محاصرا لها شهورا إلى أن اشتد عليهم الحصار وعطشوا فراسلوه في تسليم المدينة وأن يعطيهم الأمان على نفوسهم فامتنع من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم وأصوات هائلة وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملاً ما كان عندهم من الصهاريج فارتوتوا وتقوا على المسلمين فانصرف عنهم إلى إشبيلية بعد أن هادنهم مدة سبع سنين فليعتبر الواقف على هذه القضية وليعلم أن هؤلاء الكفار جاحدون ينسبون إلى الله تعالى ما لا يليق به من التثليل وأنواع الكفر ومع ذلك لما انقطع رجاؤهم ورجعوا إليه تعالى بالاضطرار الصادق رحمهم سبحانه وهو أرحم الراحمين فلا ينبغي بعد هذا للمؤمن الموحد إذا حصل في شدة أن ييأس من رحمة الله فإنه لا يائس من روح الله إلا القوم الكافرون والسر في الاضطرار فإنه عند أرباب البصائر هو اسم الله الأعظم الذي

إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى اللهم اجعلنا يا مولانا عنك من المرحومين فأنت أهل ذلك والقادر عليه ثم بلغ أمير المؤمنين خروج العدو إلى أرض المسلمين مع القومس الأحذب فخرج إليهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح وأثن فيهم ورجع إلى إشبيلية وفي هذه السنة أعني سنة سبع وستين وخمسائة شرع أمير المؤمنين بن عبد المؤمن في بناء جامع إشبيلية فتم وصليت به الجمعة في ذي الحجة منها وفي هذه السنة أيضا عقد أمير المؤمنين الجسر على وادي إشبيلية بالقوارب وبنى قصبته الداخلية وبنى الزلايق للسور وبنى سور باب جوهر وبنى الرصفان المتدرجة بضفتي الوادي وجلب الماء من قلعة جابر حتى أدخله إشبيلية وأنفق في ذلك أموالا لا تحصى ثم انتقض ابن أذفونش وأغار على بلاد المسلمين فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص إليه فغزاه بعقر داره وافتتح قنصرة بالسيف وهزم جموعه في كل جهة ثم ارتحل الخليفة من غشبية راجعا إلى مراكش سنة إحدى وسبعين وخمسائة من إجازته إلى الأندلس وعقد على قرطبة لأخيه أبي الحسن وعلى إشبيلية لأخيه أبي علي وأصاب مراكش طاعون فهلك من السادة أبو عمران وأبو سعيد وأبو زكريا وقدم الشيخ أبو حفص الهنتاتي من قرطبة فهلك في طريقه ودفن بمدينة سلا وهو جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا علي وأبا الحسن فعقد لأبي علي على سجلماسة وجع أبو الحسن إلى قرطبة وعقد لأخي السيد أبي حفص لأبي زيد منهما على غرناطة ولأبي محمد على مالقة

وفي سنة ثلاث وسبعين سطا بذرية بني جامع وزرانه وغربهم إلى ماردة وفي سنة خمس وسبعين وخمسائة عقد لغانم بن محمد بن مردنيش على أسطوله وأغزاه مدينة أشبونة فغنم ورجع وفيها كانت وفاة أخيه الوزير السيد أبي حفص بن عبد المؤمن بعد ما أبلى في الجهاد وبالغ في نكايته العدو وتقدم ابنه الأندلس فأخبر الخليفة بانقراض الطاغية واعترزم على الجهاد وأخذ في استدعاء العرب من إفريقية والله تعالى أعلم غزو أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بلاد إفريقية وفتح مدينة قنصرة والسبب في ذلك كانت قنصرة من بلاد إفريقية قد استبد بها بنو الرند وأخر دولة صنهاجة من بني زيري بن مناد كان جدهم عبد الله بن محمد بن الرند عاملا لهم بها فتوارثها بنوه من بعده فاستبدوا بها آخر الدولة ولما غزا عبد المؤمن بلاد إفريقية استنزلهم في جملة من استنزل من الثوار بها ولما مات عبد المؤمن وبويع ابنه يوسف بلغه سنة أربع وسبعين وخمسائة أن بعض بني الرند قد عاد إلى قنصرة وثار بها فاضطربت لأجل ذلك أولها فنهض إليها في سنة خمس وسبعين بعدها فانتهى إلى إفريقية ونزل على مدينة قنصرة وضيق عليها بالقتال والحصار حتى دخلها وظفر بابن الرند القائم بها فقتله وذلك في سنة ست وسبعين وخمسائة ثم عاد إلى مراكش فدخلها في سنة سبع وسبعين بعدها هكذا في القرطاس ونحوه لابن خلدون في أخبار بني عبد المؤمن وذكر عند الكلام على بني الرند ودحا آخر فقال كان عبد المؤمن قد ولى على قنصرة عمران بن موسى الصنهاجي فأساء إلى الرعية فبعثوا عن

علي بن العزيز بن المعتز الرندي من بجاية وكان بها في مضيعة يحترف بالخباطة فقدم عليهم وثاروا بعمران بن موسى عامل الموحديين فقتلوه وقدموا مكانه علي بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته وأغزاه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاث وستين وخمسائة أخاه السيد أبا زكرياء فحاصره وضيق عليه وأخذ وأشخصه إلى مراكش بماله وماله واستعمله على الأشغال بمدينة سلا الم. أن هلك بها وفتبت دولة بني الرند والبقاء لله وحده اه كلامه والله أعلم أي ذلك كان وفي سنة ثمان وسبعين وخمسائة خرج أمير المؤمنين يوسف من مراكش لبناء حصن أركندر فبناه على المعدن الذي ظهر هنالك الجواز الثاني لأمر المؤمنين يوسف ابن عبد المؤمن إلى الأندلس برسم الجهاد وما يتصل بذلك من وفاته رحمه الله لما قدم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن من فتح قنصرة سنة سبع وسبعين وخمسائة قد عليه ولادة الأندلس ورؤساء يهتنونها بالإياب فأكرم وفادتهم وانصرفوا ثم بلغه الخبر بأن أذفونش بن سانحة نازل قرطبة وشن الغارات على جهة مالقة ورندة وغرناطة ثم نزل إستجة وتغلب على حصن شقيلة وأسكن به النصارى وانصرف فاستنقر السيد أبو إسحاق سائر الناس للغزو ونازل الحصن نحوا من أربعين يوما ثم بلغه خروج أذفونش من طليطلة بمدده فانكفا راجعا وخرج محمد بن يوسف بن واندوين من إشبيلية في جموع الموحديين ونازل طليطلة فبرز إليه أهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم فاعتزم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على معاودة الجهاد وولى على

الأندلس أمناء وقدمهم للإحتشاد فعقد لابنه السيد أبي زيد على غرناطة ولابنه السيد أبي عبد الله على مرسية ونهض سنة تسع وسبعين وخمسائة وفي القرطاس كان خروجه من مراكش في التاريخ المذكور على باب نكالة قال برسم غزو إفريقية فلما وصل إلى سلا آتاه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جامع من إفريقية فأعلمه بهدونها وسكونها فصرف عزمه إلى الأندلس فنهض من سلا ضحوة يوم الخميس الموفي ثلاثين من ذي القعدة من السنة المذكورة فنزل بظاهرها وبات هناك ثم نهض يوم الجمعة الموالي له فوصل إلى نكتاسة يوم الأربعاء السادس من ذي الحجة فعبد بها عيد الأضحى خارجها ثم ارتحل إلى فاس فدخلها وأقام بها بقية الشهر ثم دخلت سنة ثمان وخمسائة ففي اليوم الرابع بها نهض من فاس وسار حتى انتهى إلى سبتة فأقام بقية الشهر المحرم وأمر الناس بالجواز إلى الأندلس فجازت قبائل العرب أولا ثم قبائل زناتة ثم المصامدة ثم غرارة وصنهاجة وأوربة وأصناف البربر ثم عبرت جيوش الموحديين والأغزاز والرمات فلما استكمل الناس الجواز عبر هو في آخرهم في الحاشية والعبيد وكان جوازه يوم الخميس خامس صفر من السنة المذكورة فنزل بجبل الفتح ثم ارتحل منه إلى الجزيرة الخضراء ثم سار إلى إشبيلية فلما أشرف عليها يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر خرج إليه ولجه السيد أبو إسحاق ومعه فقهاء إشبيلية وأشياخها فبعث إليهم يأمرهم بالوقوف بأخر المنية حتى يصل إليهم فلما صلى الظهر وركب اجتاز بهم فلما دنا منهم نزلوا عن دوابهم فوقف لهم حتى سملة عن آخرهم وركبوا ثم نهض إلى غزو مدينة شنترين من بلاد غرب الأندلس فانتهى إليها في السابع من ربيع الأول فنزل عليها وأدار به الجيوش وشدد عليها في

الحصار والقتال وبذل المجهود إلى ليلة الثاني والعشرين من ربيع المذكور فانتقل من موضع نزوله بجوفي شنترين إلى غربها فأنكر المسلمون ذلك ولم يعلموا له سببا فلما جن الليل وصلى العشاء الأخيرة بعث إلى ولده السيد أبي إسحاق صاحب إشبيلية فأمره بالرحيل من غد تلك الليلة لغزو أشبونة وشن الغارات على أنحائها وأن يسير إليها في جيوش الأندلس خاصة وأن يكون رحيله نهارا فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل

ليلا وصرخ الشيطان في محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل في هذه الليلة وتحث الناس بذلك وتأهبوا له ورحلت طائفة منهم بالليل ولما كان قرب الفجر ألقع السيد أبو اسحق وألقع من كان مواليا له وتتابع الناس بالرحيل وتسابقوا لاختيار المنازل وأمير المؤمنين مقيم في مكانه لا علم له بذلك فلما أصبح وصلى الصبح وأضاء النهار لم يجد حوله من أهل المحلات أحدا إلا يسيرا من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله وينزلون لنزوله وإلا فواد الأندلس فإنهم الذين كانوا يسيرون أمام ساقته وخلف محلته من أجل من يتخلف عنها من الضعفاء فلما طلعت الشمس وتطلع النصارى المحصورون على المحلة من سور البلد ورأوا أمير المؤمنين منفردا في عبيده وحشمه وتحققوا ذلك من جواسيسهم فتحروا البلد وخرج جميع من فيه خرجة منكرا وهم ينادون الري الري أي أقصدوا السلطان فضربوا في محلة العبيد إلى أن وصلوا إلى أخبية أمير المؤمنين فمزقوها واقتحموها فبرز إليهم وقاتلهم بسيفه حتى قتل ستة منهم ثم طعنوه طعنة نافذة وقتل عليه ثلاث من جواريه كن قد أكبن عليه ولما طعن وقع بالأرض وتصايح العبيد ونادوا بالفرسان والأجناد فترجع المسلمون وقاتلوا النصارى حتى أراحهم عن الأخبية واشتد القتال بينهم وتوافقوا ساعة ثم انهزم الفرنج وركبهم المسلمون بالسيف حتى أدخلوهم المدينة وقتل منهم خلق كثير يزيدون على العشرة آلاف واستشهد من المسلمين جماعة وركب أمير المؤمنين يوسف

وقد أنفذته الطعنة وارتحل الناس ولا يدرون أين ثم اهدتوا بالطبول فقصدوا جهة إشبيلية ثم أمر أمير المؤمنين بريد العبور إلى المغرب فاشتد ألمه ومات بالطريق رحمه الله قاله ابن مطروح وكانت وفاته يوم السبت العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسائة قرب الجزيرة الخضراء فحمل إلى إشبيلية فدفن بها إلى جنب قبر أبيه وقيل إنه لم يمض حتى وصل إلى مراكش وكان ولده يعقوب اللخيفية بعده هو الذي يدخل على أبيه ويخرج ويصرف الأمور بين يديه من يوم طعن إلى أن مات قالوا وكنتم ولده موته حتى وصل إلى مدينة سلا فأفشاءه وكان قبل موته بأشهر كثيرا ما ينشد قول الشاعر ويردده طوي الجديان ما قد كنت أنشره وأنكرتني ذوات الأعين النجل ورتاه الأديب أبو بكر يحيى بن مجبر بقصيدة أجاد فيها وأولها جل الأسى فأسل دم الأجناف ماء الشؤون لغير هذا الشأن بقية أخبار أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وسيرته قال ابن خلكان كان يوسف بن عبد المؤمن أبيض تعلوه حمرة شديدة سواد اشعر متسدبر الوجه أفوه أعين إلى الطول ما هو في صوته جهارة رقيق حواشي الطبع حلو الألفاظ حسن الحديث طيب المجالسة أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام صرف عنايته إلى ذلك ولقي فضلاء إشبيلية أيام ولايته بها وكان فقيها حافظا متقنا لأن أباه هذبه وقرن به وبإخوانه أكمل رجال الحرب والمعارف فنشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان وفي قراءة العلم بين أفضل العلماء وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقية العلوم ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخاري وكان يحفظ القرآن

الكريم مع جملة صالحة من الفقه ثم طمغ إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب وجمع من كتب الحكمة شيئا كثيرا وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن الوزير أبو بكر محمد بن طفيل كان متحققا بجميع أجزاء الحكمة قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر بن الصانع المعروف بابن باجة وغيره ولا بن طفيل هذا تصانيف كثيرة وكان يوسف بن عبد المؤمن حريصا على الجمع بين علم الشريعة والحكمة ولم يزل يجمع إليه العلماء من كل فن من جميع الأقطار ومن جملتهم القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بالحفيد وكان يوسف بن عبد المؤمن شديد الملوكية بعيد الهمة جماعا مناعا ضابطا لخارج مملكته عارفا بسياسة رعيته وكن سخيا جوادا في محل السخاء والجود قد استغنى الناس في أيامه وكان من ضبطه وسياسته ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب حتى لا يكاد يحضر وله في غيبة نواب وخلفاء وحكام قد فوض الأمور إليهم لما علم من صلاحهم وأهليتهم لذلك قال ابن خلكان والدناير اليوسفية المغربية منسوبة إليه ومما يستطرف من أخباره رحمه الله أن الأديب أبا العباس أحمد بن عبد السلام الكرواني وكروان قبيلة من البربر منازلهم بضواحي فاس كان نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثات وتقدم في هذا الشأن وله فيه تآليف وكان مع ذلك صاحب نوادر جالس بها عبد المؤمن ثم ولده يوسف ثم ولده يعقوب فمن نوادره أنه حضر يوما إلى باب أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن المذكور وحضر إليه أيضا الطبيب سعيد الغماري فقال أمير

المؤمنين لبعض خدمه انظر من بالباب من الأصحاب فخرج الخادم ثم عاد إليه فقال يا سيدي بهامد الكرواني وسعيد الغماري فقال أمير المؤمنين يوسف من عجائب الدنيا شاعر نم كروان وطبيب من غمارة فبلغ ذلك الكرواني وضرب لنا مثلا ونسي خلقه أعجب منهما والله خليفة من كومية فيقال إن أمير المؤمنين يوسف لما بلغه ذلك قال أعاقبه بالحلم عنه ففيه تكتيب له ومن شعر الكرواني من جملة قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين يوسف المذكور وهو بديع إن الإمام هو الطبيب وقد شفا عل البرايا ظاهرا ودخिला ص حمل البسيطة وهي تحمل شخصه كالروح يوجد حاملا محمولا الخبر عن دولة أمير المؤمنين المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي قال ابن خلدون لما توفي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على حصن شنترين في التاريخ المتقدم بويق ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ورجع بالناس إلى إشبيلية فاستكمل البيعة واشتوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد يحيى فاستولى على بعض الحصون وأتحن في بلاد الكفارة ثم أجاز البحر إلى الحضرة ولقبه بقصر مصمودة السيد أبا زكريا ابن السيد أبي حفص قادما من تلمسان مع مشيخة بني زغبة من عرب هلال ومضى إلى مراكش فغير المناكر وبسط العدل ونشر الحكام اه وفيه نوع مخالفة لما قدمناه وقال ابن أبي زرع لما تمت له البيعة وطاعت له الأمة كان أول شيء فعله أن أخرج مائة ألف دينار ذهبا من بيت المال ففرقها في الضعفاء من بيوتات المغرب وكتب إلى جميع بلاده بسترية السجون ورد المظالم التي

ظلمها العمال في أيام أبيه وأكرم الفقهاء وراعى الصلحاء وأهل الفضل وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال وفرق الموحدين وسائر الأجناد أموالا جمة وكان أول شيء حدث في دولته شأن بني غانية المسوفيين أصحاب جزيرة ميورقة وأعمالها فلنأت بشيء من ذلك خروج علي بن إسحاق المسوفي المعروف بابن غانية على يعقوب المنصور قد تقدم لنا في أخبار الدولة اللتونية أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني كان قد استعمل على الجزائر الشرقية من بلاد الأندلس وهي ميورقة ومنورقة ويابسة محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية وهي أهمها فتوارثها بنوه من بعده إلى أيام يوسف بن عبد المؤمن فبعث إليه محمد بن إسحاق بن محمد الموسوي المذكور بالطاعة فقبل ذلك فقبل ذلك يوسف بن عبد المؤمن وبعث إليه قائده علي بن الروبرتي ليختبر أمره ويعقد له البيعة عليه ويؤكد الأمر في ذلك وكان لمحمد بن إسحاق المذكور عدة اخوة يساهمونه في الرياسة فلما انتهى إليهم ابن الروبرتي وعلما الأمر الذي قدم لأجله أنكروا على أخيهم ذلك لأنه لم يكن أعلمهم بمكاتبة يوسف بن عبد المؤمن فخلصوا نجيا دونه وتقبضوا عليه وعلى ابن الروبرتي وقدموا مكانه أخاهم علي بن إسحاق بن محمد ثم بلغهم خبر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب المنصور فركب علي بن إسحاق أسطوله وطرق بجاية على حين غفلة من أهلها وعليها يومئذ السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان خارجا في بعض مذهب فاستولى عليها ابن غانية في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسائة

وحكى ابن أبي زرع في استيلاء ابن غانية على بجاية وجها آخر قال دخل امبورقي وهو علي بن إسحاق المذكور مدينة بجاية يوم الجمعة السادس من شعبان سنة ثمانين وخمسائة والناس في صلاة الجمعة وكان أبواب المدن قبل ذلك لا تغلق وقت صلاة الجمعة فارتقب ابن غانية الناس حتى أحرموا بصلاة الجمعة ثم اقتحم عليهم المدينة وعمد إلى الجامع الأعظم وأدار به الخيل والرجل فمن بايعه خلى سبيله ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه قال وأقام بها سبعة أشهر ثم استرجعت من يده قال ومن ذلك اليوم اتخذ الناس غلق أبواب المدن يوم الجمعة وقت الصلاة والله أعلم ثم استولى علي بن إسحاق على الجزائر ثم على مازونة ثم على مليانة ثم على القلعة ثم نازل قسنطينة فامتعت عليه واتصل الخبر بالمنصور فسرح السيد أبا زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وعقد له على حرب ابن غانية وعقد لمحمد بن إبراهيم بن جامع على الأساطيل وإلى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلي فوصل أبو زيد إلى أفريقية وشرذ ابن غانية عنها إلى الصحراء في أخبار طويلة ثم عاود ابن غانية الإجلاب على بلاد إفريقية وظهره على ذلك قراقوش الغزي من موالى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي صاحب مصر وكان قد تغلب على طرابلس

وما والاها وبلغ المنصور أن ابن غانية قد استولى على قفصة فهض بنفسه من حضرة مراکش ثالث من شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ووصل إلى فاس فأراح بها ثم سار إلى رباط تازا ثم سار على التعبية إلى تونس وجمع ابن غانية من إليه من الملتئمين والعرب وجاء معه قراقوش الغزي صاحب طرابلس فسرح إليهم المنصور مقدمة من جيشه لنظر السيد

أبي يوسف يعقوب ابن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن فلقبهم ابن غانية في جموعه فانتصر عليهم وانهزم الموحدون وقيل جماعة من وجوههم وأسر علي بن الروبرتي في آخرين وامتلت أيدي العرب من أثارهم وأساليبهم ووصل سرعان الناس إلى المنصور وهو بتونس فهض إليهم في الحال ونزل القيروان ثم أعذ السير إلى الحامة فالتقى الجمعان وأنشبو الحرب فكانت الهزيمة على ابن غانية وأحزابه وأفلت من المعركة بدماء نفسه ومعه خيل قراقوش وأتى القتل على أكثرهم ثم صبح المنصور مدينة قابس وكانت في يد قراقوش فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس وثنى العنان إلى توزر فافتتحها وقتل من وجد بها ثم إلى قفصة فنزلها أياما حتى نزلوا على حكمه فقتل من كان بها من الحشود وهدم سورها واستبقى أهلها وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة ولما فرغ من أمر قفصة نهض إلى عرب إفريقية ففك بهم واستباح حلهم وأموالهم وشردهم فيكل وجه ثم بعد ذلك جاؤوه تائبين خاضعين فنقل أهل الفتنة والخلاف منهم إلى المغرب الأقصى ورجع إلى مراکش فدخلها في رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة الخبر عن انتقال العرب من جزيرتهم إلى أرض إفريقية ثم منها إلى المغرب الأقصى والسبب في ذلك أعلم أن أرض إفريقية والمرغب لم تكن للعرب بوطن في الأيام السالفة لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام وإنما كان المغرب ووطنا لأمة البربر خاصة لا يشاركونهم فيه غيرهم ولما جاءت الأمة الإسلامية وأظهرها الله على الدين كله زحفت جيوش المسلمين من المغرب إلى أرض المغرب في جملة ما زحف إليه من أقطار الأرض لكن العرب الداخلون إلى أرض المغرب في ذلك العصر إنما

كانوا يدخلون إليه غزاة مجاهدين على ظهور خيولهم فيقتضون الوطر من فتح الأقطار والأمصار ثم ينقلب جمهورهم إلى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب وإن بقي القليل منهم به فإنما كانوا يستوطنون منه الأمصار دون البادية ويسكنون القصور دون الخيام فلم تكن العرب تسكن المغرب يومئذ بقبائلهم وخيامهم ولا استوطنوه بأحيائهم وحللهم كما هو شأنهم اليوم لأن الملك الذي حصل لهم والغلب الذي مكنتهم الله منه كان يمنعهم من سكنى البادية ويعدل بهم إلى الحضارة ولا بد فكانت الخيمة بأرض المغرب معدومة رأسا أو قليلة جدا لبعض البربر ممن كان يتخذها منهم وهم قليل وإنما كان يسكن الجمهور منهم بالمداشر وكهوف الجبال واستمر الحال على ذلك إلى أوسط المائة الخامسة فخلت العرب أرض إفريقية واستوطنوها بحلهم وخيامهم ثم لما كانت أواخر المائة السادسة في دولة يعقوب المنصور رحمه الله نقل الكثير من منهم إلى المغرب الأقصى فاستوطنوه بحلهم وخيامهم كذلك وصارت أرض المغرب منقسمة بين أمة العرب أهل اللسان العربي وأمة البربر أهل اللسان البربري بعد أن كانت بلاده خاصة بالبربر لا يشاركونهم فيها غيرهم كما قلنا واعلم أن أمة العرب تنقسم أولا إلى قسمين عدنان وقحطان ثم ينقسم كل من عدنان وقحطان إلى شعبين عظيمين فاما عدنان وهم الإسماعيلية ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فينقسمون إلى ربيعة ومضر و أما قحطان وهم اليمانية ذرية قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام فينقسمون إلى حمير وكهلان هذا هو المعروف المشهور ثم نسب الفريقين وقد يذكر النسابون لكل منهما شعبا

آخر لكننا لم نعتبرها إما لانقراضها أو لقوة الخلاف فيها أو لقلتها جدا واندرجها فيمن ذكرناه ثم يتشعب كل من هذه الشعوب الأربعة إلى قبائل وعتائر ويطون وأخاذ وفصائل لا حصر لها لكننا ننبه على الغرض المقصود منها فنقول من جملة قبائل مصر بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر ومن قبائلها أيضا بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور المذكور في النسب السابق وقد نسبت الخنساء جشم هذا إلى جده فقالت تهجو دريد بن الصمة معاذ الله ينكحني حبركي قصير الشبر من جشم بن بكر ومن قبائلها أيضا بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر المذكور أيضا ومن جملة قبائل كهلان القحطانيين بنو الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن منجج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان وكهلان هو ابن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان واعلم أن هؤلاء القبائل الأربعة التي ذكرناها هي التي ذكر المؤرخون أنها انتقلت إلى إفريقية والمغرب وقد يضاف إليهم غيرهم من قبائل العرب لكنهم ليسوا بمشهورين كالأربعة المذكورة وأما خير دخولهم إلى المغرب والسبب فيه فقد ذكر المؤرخون أن بني سليم بن منصور وبني هلال بن عامر لم يزلوا بجزيرة العرب برهة من الدهر إلى أن مضى الصدر من دولة بني العباس وكانوا أحياء ناجعة بأرض الحجاز ونجد فبنوا سليم مما يلي الدنية المنورة وبني هلال في جبل غزوان عند الطائف ثم تحيز بنو سليم والكثير من هلال بن عامر إلى البحرين وعمان وصاروا جندا للقرامطة على بلاد الشام وظاهرهم على

ذلك بنو سليم وبني هلال ثم انتقلت دولة العبيد بين من إفريقية إلى مصر وغلبوا القرامطة على الشام وانتزعوا منهم وردوهم على أعقابهم إلى البحرين ونقولا أثنى عليهم ثم بني سليم وبني هلال فأنزلوهم بصعيد مصر في العنوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك وكان لهم أضرار بالبلاد ولما انتقلت الدولة العبيدية من إفريقية إلى مصر كما قلنا استلبوا على إفريقية بني زيري بن مناد الصنهاجيين فملكها وكانوا يخطبون بملوك العبيديين على منابرهم ويضربون السكة بأسمائهم ويؤدون إليهم إثارة معلومة وطاعة معروفة ولما انساق ملك إفريقية إلى المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي كان له رغبة في مذهب أهل السنة خالف فيه أسلافه الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة وكان الخليفة من العبيديين بمصر يومئذ المستنصر بالله معد بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله والمعز هذا هو الذي انتقل إلى مصر وبني مدينة القاهرة وكان المعز بن باديس الصنهاجي لا تزال المراسلات والهدايا تختلف بينه وبين المستنصر العبيدي صاحب مصر كما كانت أسلافهما ثم إن المعز بن باديس ركب ذات يوم لبعض مذاهبه وذلك في أول ولايته فكبا به فرسه فنأدى مستغنياً بالشبهين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسمعتة العامة وكان جمهورهم سنيا فتأروا بالرافضة وقتلواهم أبرح قتل وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الإيمان وقطعوا من الأذان حي على خير العمل وكانت هذه الواقعة في أيام الظاهر العبيدي والد المستنصر فكتب المعز بن باديس في ذلك فاعتذر إليه بالعمامة فأغضى عنه واستمر ابن باديس على إقامة الدعوة لهم والمهاداة معهم وهو في أثناء ذلك يكتب وزيرهم القائم بأمر دولتهم أبا القاسم علي بن أحمد الجرجاني ويستمليه ويعرض ببني عبيد وشيعتهم ويغض منهم ثم هلك الوزير أبو القاسم سنة ست وثلاثين وأربعمئة وولي الوزارة

بعده أبو محمد الحسن بن علي البازوري أصله من قرى فلسطين وكان أبوه فلاحا بها فلما ولي الوزارة خاطبه المعز بن باديس دون ما كان يخاطب به من قبله من الوزراء كان يقول في كتابه إليهم عيذكم وصار يقول في كتاب البازوري صنيعتكم فحقد ذلك عليه وصارت القوارص تسري من بعضهم إلى بعض إلى أن أظلم الجو بين المعز بن باديس وبين المستنصر العبيدي ووزيره البازوري فقطع ابن باديس الخطبة بهم على منابره سنة ثلاث وأربعين وأربعمئة وأحرق بنود المستنصر ومحا اسمه من السبكة والطرز ودعا للقائم العباسي خليفة بغداد وجاءه خطابه وكتاب عهده فقري بجامع القيروان ونشرت الرايات السود وهدمت دور الإسماعيلية وبلغ الخير بذلك إلى المستنصر بالقاهرة فقامت قيامه فقاوض وزيره أبا محمد الحسن بن علي البازوري في أمر ابن باديس فأشار عليه بأن يسرح له العرب من بني هلال وبني جشم الذين بالصعيد وأن يتقدم إليهم بالاصطناع ويستميل مشايخهم بالعتاء وتولية أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها بدلا من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالا بتلك القاصية ورائق عدوانهم من ساحة الخلافة وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك فيعت المستنصر وزيره إلى هؤلاء الأحياء وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم ببغير ودينار لكل واحد منهم وأباح لهم إجازة النيل وقال لهم قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الأباق فلا تفتقرون بعدها وكتب البازوري إلى المعز أما بعد فقد أنقذنا إليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقتضي الله أمرا كان مفعولا فشرهت العرب إذ ذاك وعبروا النيل إلى برقة فنزلوا بها واستباحوها

وافتحوا أمصارها وأعجبتهم البلاد فكتبوا لإخوانهم الذين بقوا شرقي النيل يرغبونهم في البلاد فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا للمستنصر لكل رأس دينارين فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه وتعارعوا على البلاد فحصل لبني سليم شرقها ولبني هلال غربها ثم انتشروا في أقطار إفريقية مثل الجراد لا يؤمرون بشيء إلا أتوا عليه وبالجملة فلم تمر إلا مدة يسيرة حتى استولوا على ضواحي إفريقية ونازلوا أمصارها واقتصوا من أهلها الإتاوة وحضروا ابن باديس في مصره وصاهرهم ببناته تأليفا لهم ومع ذلك فلم يجد شيئا والحديث في ذلك طويل وليس تتبعه من غرضنا قال ابن خلدون ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق يزعمون أن الشريف ابن هاشم كان صاحب الحجاز ومكة ويسمونه شكر بن أبي الفتوح وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان في أخته جازية فأنكحه إياها وولدت منه ولدا واسمه محمد وأنه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وقتته فأجمعوا الرحلة عن أرض نجد إلى إفريقية وتحيلوا عليه في استرجاع أختهم جازية المذكورة فطالبته بزيارة أوبوها فأزارها إياهم وخرج بها إلى حلهم وأقام معها مدة الزيارة فارتحلوا به وبها وكنتموا رحلتهم عنه وموها عليه بأنهم يباكرون به الصيد والقنص ويروحون به إلى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه وصار حيث لا يملك أمرها عليهم ففاقوه ورجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعني على خبر قيس وليلى ويروون كثيرا من أشعارها محكمة المباني مثقفة الأطراف وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع لم يفتقد فيها من البلاغة شيء وإنما فقد منها الإعراب فقط ولا مدخل له في البلاغة وفي هذه الأشعار شيء كثير دخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية

فذلك لا يوثق ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناة وحروبهم وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم لكننا لا ننق برؤايتها وربما يشعر بالبصيرة بالبلاغة بالمصنوع منها وغيره وهم منفقون على الخير عن حل جازية هذه والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمي عندهم بالجنون لتواترها بينهم وهذا الشريف الذي يشيرون إليه هو من الهواشم وهو شكر بن أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر ابن موسى الثاني ابن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبو الفتوح هو الذي خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدي وبيع له بنو الجراح أمراء طيء بالشام وبعثوا عنه فوصل إلى أحيائهم وبيع له كافة العرب ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدي ورجع إلى مكة وهلك سنة ثلاثين وأربعمئة فولد بعده ابنه شكر هذا وهلك سنة ثلاث وخمسين وولي بعده ابنه محمد الذي يزعم هؤلاء الهلاليون أنه من جازية هذه وقال ابن حزم إن شكر بن أبي الفتوح لم يولد له قط وإنما صار أمر مكة من بعده إلى عبد كان له وقال ابن خلدون بل أخبرني من أوثق به من الهلاليين لهذا العهد أنه وقف على بلاد الشريف شكر بن أبي الفتوح وأنها بقعة من أرض نجد مما يلي الفرات وإن ولده بها لهذا العهد والله أعلم واعلم أن جازية بنت سرحان هذه كانت من بني دريد بن أثيج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة فهي هلالية أثيجية دريدية ومن مزاعمهم أنها لما صارت إلى إفريقية وفارقت الشريف ابن هاشم المذكور خلفه عليها منهم ماضي بن مقرب من رجالات دريد فأقامت عنده مدة ثم غاضبته ولحقت بأخيها الحسن بن سرحان فمنعها منه فقامت عشيرة ماضي بن مقرب معه وقتلوا الحسن بن سرحان وعشيرته وثارقت الفتنة بينهم وقتل فيها الحسن بن سرحان واستمرت العداوة بينهم على أيام الموحدين فهذا سبب انتقال هؤلاء العرب من الحجاز ونجد إلى إفريقية وأما سبب انتقالهم من إفريقية إلى المغرب الأقصى فقد ذكرنا أن بني سليم بن منصور وبني هلال بن عامر اقتربوا على بلاد إفريقية فكان لبني سليم شرقها ولبني هلال غربها ثم تغلبوا على ضواحيها وأمصارها وضابقوا ملوكها بها وانظم إلى بني هلال بن عامر بنو جشم بن معاوية بن بكر فعلمت أيديهم على الجميع واستمر أمرهم على ذلك إلى أن كانت دولة يعقوب المنصور الموحدي رحمه الله تار ابن غانية ببلاد إفريقية كما تقدم فظاهرتة العرب من جشم وهلال على الموحدين وأوقعوا بمقدمة المنصور فنهض إليهم من تونس وأوقع بالملثمين أولا ثم بالعرب ثانيا وقل جمعهم واتبع آثارهم إلى أن شردهم إلى صحارى برقة وانتزع تلك البلاد من أيديهم ثم راجعوا بصائرهم فاتوه طائعين خاضعين حسبا قدما الخير عن ذلك مستوفي وكان الذين قاتلوه أولا راجعوا طاعته ثانيا هم قبائل هلال بن عامر وجشم بن معاوية بن بكر كما قلنا وهم أصحاب غرب إفريقية وأما بنو سليم بن منصور فلم يقاتله منهم أحد فذلك بقي بنو سليم بأرض إفريقية ونقل المنصور رحمه الله بني هلال وبني جشم إلى المغرب الأقصى حين أتوه طائعين وكان ذلك سنة أربع وثمانين وخمسائة أنزل قبيلة رباح من بني هلال ببلاد الهبط فيما قصر كاتمة المعروف بالقصر الكبير إلى أزغار البسيط الأفيج هناك إلى ساحل البحر الأخضر فاستقروا بها وطاب لهم المقام وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط الأفيج ما بين سلا

ومراكش وهو أوسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار لإحاطة جبل الدر بن بها فلم ييمموا بعدها فقرا ولا أبعدها رحلة واعلم أن هذين البسيطين يسميان اليوم ف يعرف عامة أهل المغرب بالغرب والحوز فالغرب عبارة عن بلاد الهبط وأزغار وما في حكمها و الحوز عبارة عن بلاد تامسنا وما اتصل بها إلى مراكش فكان لرياح بلاد المغرب ثم أعلم أيضا أن قبيلة رباح هم بنو رباح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة وهم بطون كثيرة وجلمهم قد بقي بأرض إفريقية والذين انتقلوا منهم إلى المغرب الأقصى كان رئيسهم في ذلك العصر مسعود بن سلطان بن زمام الذواذي من بني مرداس بن رباح فأقام معهم مدة ثم جمع جماعة من قومه وفر إلى إفريقية وذلك ف يدود التسعين وخمسائة وأبدأ وأعاد هنالك في الإجلاب مع الثوار إلى أن هلك في بعض تلك المدة وأقام الباقون بعد فرار كبيرهم مسعود المذكور ببلاد الهبط وأزغار إلى أن انقضت دولة الموحدين وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون الموحدي وقتله سنة ثلاثين وستمئة ولما تغلب بنو مرين على ضواحي المغرب ضرب الموحدون على رباح هؤلاء البيث مع عساكرهم فقاموا بحماية ضواحيهم وانضم إليهم بنو الملوك منهم فكانت بين الفريقين جلة قتل فيها عبد الحق بن محبو بن أبي بكر بن حماسة أبو الملوك المريني وقتل معه ابنه إدريس فأوجدت رباح السبيل لبني مرين على أنفسهم فيطلب الثأر فأخذوا فيهم بعد أن ملكوا المغرب واستلحموم قتل وسبوا مرة بعد أخرى وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت المريني سنة سبع وسبعمئة تتبعهم بالقتل إلى أن لحقوا برؤوس الهضاب وأسمنه الربا المتوسطة في

المرج المستبحر بأزغار فصاروا إلى عدد قليل ولحقوا بالقبائل الغارمة وذهبت رباح أدراج الريح هذا خبرهم على الجملة وأما بنو جشم أصحاب تامسنا فإن المنصور لما نقلهم إليها نقل معهم قبائل أخرى كانوا قد قاتلوه معهم ولم يكونوا ن نسبهم ولكنهم كانوا مندرجين فيهم فكان يطلق على الجميع جشم وهؤلاء القبائل هم المقدم والعاصم من بني هلال بن عامر ثم من الأتيج منهم وقرة من بني هلال أيضا والخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر فهؤلاء القبائل ليسوا من جشم كما ترى ولكنهم لما انغمروا فيهم وانتقلوا إلى المغرب بانتقالهم أطلق على الجميع جشم فأما المقدم والعاصم فهما ابنا مشرف بن أثيج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة وأما قرة فهم بنو قرة بن عبد مناف بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال فهؤلاء القبائل الثلاثة أعني المقدم والعاصم وقرة هلاليون وأما الخلط فهم بطن من بني عقيل بالتصغير قال أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الخلط بنو عرف وبنو معاوية ابني المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة المذكور في الأنساب المتقدمة فقد بان لك بهذا أن هذه القبائل الأربع أعني العاصم ومقدم وقرة والخلط ليسوا من بني جشم بن معاوية بن بكر من حيث النسب وأن الثلاث الأول من بني هلال بن عامر وأن الرابعة وهي الخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر يجتمع الجميع كما ذكرناه أولا والله تعالى أعلم ولنتكل الآن على أخبار جشم على الجملة فنقول لما نزل بنو جشم ببسيط تامسنا أقاموا به برهة من الدهر ثم تميز جمهورهم إلى العاصم ومقدم وبني جابر وسفيان والخلط فأما مقدم والعاصم فكانوا مع إخوانهم ببسيط تامسنا المذكور وكان

لموحدين عليهم عسكرة وجبابة وكان شيخ العاصم لعهد الموحدين ثم عهد المأمون بن المنصور منهم حسن بن زيد وكان له أثر في الفتنة التي ثارت بين المأمون وبين يحيى بن الناصر المنصور ولما هلك يحيى المذكور سنة ثلاث وتلاثين وستمئة أمر الرشيد بن المأمون بقتل حسن بن زيد المذكور مع قائد وقائد ابني عامر من شيوخ بني جابر كل منهما قائد فقتلوا جميعا ثم صارت الرياسة لأبي عياد وبنيه وكان رئيسهم لعهد بني

ميرين عياد بن أبي عياد وكان له تلون على الدولة في الفترة تارة واستقامة أخرى فر إلى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة وفر إلى السوس ورجع منه سنة سبع وسبعائة ولم يزل هذا دأبه وكانت له ولاية مع السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني من قبل ذلك ومقاماته في الجهاد مع المذكورة وبقيت رياسته في بنيه إلى أن انقضى أمرهم وتلاشوا والله خير الوارثين وأما بنو جابر بن جشم فكانت لهم شوكة أيضا وكان لهم أثر في الفتنة الناشئة بين المأمون بن المنصور ويحيى بن الناصر بن المنصور فكانوا شعبة ليحيى ولما ولي الرشيد بن المأمون أمر بقتل قائد وقائد ابني عامر وهما يومئذ شيخا بني جابر فقتلا وقتل معهم حسن بن زيد شيخ العاصم كما تقدم وكانوا جميعا معتقلين عند الرشيد وولي أمر بني جابر بعدهما يعقوب بن محمد بن قيطون ثم قبض عليه قائد الموحي أبو الحسن بن يعلى وكان ذلك بأمر أبي حفص المرتضى الموحي وولي رياسته بني جابر بعده إسماعيل بن يعقوب بن قيطون ثم تحيز بنو جابر هؤلاء عن أحياء جشم إلى سفح الجبل بتادلا وما إليها يجاورون هناك صناعة من البربر الساكنين بفتنه وهضابه فيسهلون إلى البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا دهمتهم مخافة من السلطان قال ابن خلدون والرياسة فيهم لهذه العصور يعني أواخر المائة الثامنة في وردية من بطونهم قال أدركت شيخا عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن علي الوردية ثم هلك وأقيم مقامه ابنه الناصر بن حسين ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوحه عن السلطان أبي سالم المريني سنة ستين وسبعائة ونهضت إليهم عساكر السلطان فأمكنوا منه ثم لحق بهم أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم عند فراره من مراکش سنة ثمان وستين ونزله السلطان عبدالعزيز المريني وأحاط به وبهم فلحق ببرابرة صناعة ثم أمكنوا نه على مال حمل إليهم ولحق بهم أثناء هذه الفتن الأمير عبد الرحمن بن أبي يفوس المريني على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب وطلبه الوزير عمر فأخرجوه عنهم وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة فكرته الدولة وتقبضت عليه وأودعته السجن فمكث فيه سنين ثم تجافت عنه الدولة من بعد ذلك وأطلقته ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ولد السلطان عبد العزيز وأودعته السجن ونقلوا الرياسة عن بيته إلى غيرهم والله تعالى مقلب الأمور وقد يزع كثير من الناس أن وردية من بني جابر ليسوا من جشم وأنهم بطن سدراته إحدى شعوب لواته من البربر ويستدلون على ذلك بموطنهم وجوارهم البربر والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك وأما سفيان فهم الذين كانت لهم الرياسة والشوكة عند دخول العرب إلى المغرب كانت رياستهم يومئذ في أولاد جرمون على سائر بطون جشم واستمروا على ذلك سائر أيام الموحدين ولما ضعف أمر بني عبد المؤمن استكثروا بهم في حروبهم فطانت لهم عزة ودالة على الدولة بسبب الكثرة وقرب العهد بالبدواة وخيوا ووضعوا في الفتن مع أعقاب الملوك من بني عبد المؤمن المتنازعين على الملك وظاهروا البعض منهم على البعض وساءت آثارهم بالمغرب وكان شيخهم المشهور على عهد يحيى بن الناصر الموحي

جرمون بن عيسى السفياني وكانت بينهم وبين الخلط عداوة فصارت الخلط شعبة للمأمون وبنيه وصارت سفيان بسبب ذلك شعبة ليحيى بن الناصر منازعة في الخلافة بمراكش ثم قتل الرشيد بن المأمون مسعود بن حمدان شيخ الخلط ربما نذكر بعد فصاروا إلى يحيى بن الناصر وصارت سفيان إلى الرشيد ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مع الموحدين ونزح جرمون سنة ثمان وثلاثين وستمائة عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق المريني حياء مما وقع له مع الرشيد وذلك أنه ناداه ذات ليلة حتى سكر فقام يرقص طربا م حمل عليه وهو سكران وعريد وأساء الأدب ثم أفاق فقدم وفر إلى محمد بن عبد الحق وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها وعلا كعب ابنه كانون بن جرمون عند السعيد بن المأمون ثم خالف عليه عند نهوضه إلى بني مرين سنة ثلاث وأربعين وستمائة ورجع إلى أمور فملكها وقت ذلك في عضد السعيد فرجع عن حركته إلى تلمسان وقتل بحصن تامزردت قبل مقتل السعيد بيوم واحد قتلت الخلط في فتنة وقعت بينهم في محلة السعيد وهي التي جرت عليها تلك الواقعة وقام بأمر سفيان من بعده أخوه يعقوب بن جرمون وقتل ابن أخيه محمد بن كانون وحضر مع عمر المرتضى الموحي حركة أمان أيملين سنة تسع وأربعين وستمائة فرحل يعقوب بن جرمون عن السلطان واختل عسكره بسبب ذلك فرجع واتبه بنو مرين فكانت الهزيمة ثم عفا له المرتضى عنها ثم قتله مسعود وعلي ابنا أخيه كانون بثأر أخيهما محمد سنة تسع وخمسين وستمائة ولحقا يعقوب بن عبد الحق المريني وقدم المرتضى ابنه عبد الرحمن فعجز عن القيام بأمره فقدم عمه عبد الله بن جرمون فعجز أيضا فقدم مسعود بن كانون فأقام شيخا على سفيان واستمرت حالهم مع الموحدين وبني مرين على هذا النحو من إخلاص الطاعة والنصرة تارة والتمريض فيهما أخرى

وقال ابن خلدون واتصلت الرياسة على سفيان في بني جرمون هؤلاء إلى عهدنا قال وأدركت شيخا عليهم لعهد السلطان أبي عنان يعقوب بن علي بن منصور بن عيسى بن يعقوب بن جرمون بن عيسى وكانت سفيان هؤلاء أحياء حلوا بأطراف تامسنا مما يلي أسفي وغلبتهم الخلط على بساطها الفسحة وبقي منأحيائهم الحارث والكلابة ينتجعون أرض السوس وقفاره ويطلبون ضواحي بلاد حاحة من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس ورياستهم في أولاد مطاع من الحارث وطال عيشهم في ضواحي مراكش وإفسادهم فلما استبد سلطان مراكش الأمير عبد الرحمن بن أبي يفوس المريني سنة ست وسبعين وسبعائة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم ثم استقدمهم في بعض أيامه للعرض بخيلهم ورجلهم على العادة وشيخهم يومئذ منصور بن يعيوش من أولاد مطاع فتقبض عليهم أجمعين وخضعت شوكتهم والله قادر على ما يشاء وأما الخلط فقد كانوا ببسيط تامسنا أولى عدد وقوة وكان شيخهم هلال بن حميدان بن مقدم ولما ولي العادل بن المنصور الموحي خالفوا عليه وهزموا عساكره وبعث هلال بيئته إلى المأمون بن المنصور سنة خمس وعشرين وستمائة وتبعه الموحدون على ذلك ثم جاء المأمون فظاهروه على أمره وتحيزت أعداؤهم إلى يحيى بن الناصر منازعه ولم يزل هلال بن حميدان مع المأمون على أن هلك في حركته سنته وباع بعده لابنه الرشيد وجاء إلى مراكش وهزم سفيان واستباحهم ثم هلك هلال بن حميدان فولى مكانه أخوه مسعود بن حميدان ثم خالف على الرشيد فاحتال الرشيد عليه حتى وفد عليه بمراكش فقتله في جماعة من قومه سنة اثنتين وثلاثين وستمائة وولي أمر الخلط بعده يحيى بن هلال وفر بقومه إلى يحيى بن الناصر وحاصروا مراكش ثم استولوا عليها وعاثوا فيها وخرج

الرشيد إلى سجلماسة ثم عاد إليهم سنة ثلاث وثلاثين بعدها وغلبهم عليها ثم راجعوا طاعة الرشيد وطردهوا يحيى بن الناصر إلى بني معقل عرب الصحراء فتقبض الرشيد على وشاح وعلي ابني هلال وسجنهم بأزمور سنة خمس وثلاثين وستمائة ثم أطلقهم ثم بعد ذلك حضروا مع السعيد بن المأمون حركته إلى بني عبد الواد أصحاب تلمسان وجروا عليه الواقعة حتى قتل فيها بسبب فتنتهم مع سفيان يومئذ فلم يزل المرتضى يعمل الحيلة فيهم قتل فيهم إلى أن تقبض على أشياخهم سنة اثنتين وخمسين وستمائة فقتلهم ولحق عواج بن هلال بن حميدان ببني مرين وقدم المرتضى عليهم على بن أبي علي من بيت الرياسة فيهم ثم رجع عواد إلى الموحدين سنة أربع وخمسين وستمائة فأغراه علي بن أبي علي فقتل في غزاه تلك ثم كانت واقعة أم الرجايل لبني مرين على المرتضى سنة ستين وستمائة فنزع علي بن أبي علي إلى بني مرين ثم صار الخلط كلهم إلى بني مرين وكانت الرياسة فيهم أول دول بني مرين لأبي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي وأصهر إليه السلطان يعقوب بن عبد الحق فأفكحه مهلهل ابنته عائشة الي كان منها ابنه السلطان أبو سعيد بن يعقوب ولم يزل مهلهل كبيرا عليهم إلى أن هلك سنة خمس وتسعين وستمائة ثم قام بأمر الخلط ابنه عطية وكان لعهد السلطان أبي سعيد وابنه السلطان أبي الحسن وبعثه السلطان أبو الحسن سفيانا عنه إلى سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون ولما هلك عطية قام بأمر الخلط ابنه عيسى بن عطية ثم ابن أخيه رمام بن إبراهيم بن عطية وهو الذي بلغ المبالغ العز والترف والدالة على السلطان والقرب من مجلسه إلى أن هلك فولى أمر الخلط بعده أخوه أحمد بن إبراهيم ثم أخوهما سليمان بن إبراهيم ثم أخوه مبارك بن إبراهيم على مثل حالهم أيام السلطان أبي عنان المريني ومن بعده إلى أن كانت الفتنة بالمغرب بعد مهلك السلطان أبي سالم المريني واستولى لى المغرب أخوه السلطان عبد العزيز وأقطع ابنه ناحية مراكش فكان إبراهيم بن عطية هذا معه ولما تقبض على أبي الفضل تقبض على مبارك المذكور وأودع السجن إلى أن غلب السلطان عبد العزيز على عمر بن محمد الهنتاتي وقتله فقتل معه مبارك بن إبراهيم هذا لما كان يعرف به من صحبته ومدخلته في الفتن كما يذكر في أخبار بني مرين وولي ابنه محمد بن مبارك على قبيل الخلط قال ابن خلدون إلا أن الخلط اليوم دثرت كأن

لم تكن بما أصابهم من الخصب والتترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الأفيح زيادة على العز والدعة فأكلتهم السنون وذهب بهم التترف والله غالب على أمره أه ولما انقضت الدولة المرينية من المغرب وجاءت دولة الشرفاء السعديين وقام مهم أبو عبد الله محمد الشيخ المعروف بالمهدي انحاشت الخلط إليه وظهروا الخدمة والنصيحة وغلب محمد الشيخ المذكور على فاس وأخرج أبا حسون الوطاسي عنها فذهب أبو حسون المذكور إلى دولة الترك بالجزائر واستنصر بهم على السعديين فلبوا دعوته وقدم معه منهم عسكر جرار إلى فاس فأخرجوا محمد الشيخ السعدي عنها بعد حروب عظيمة جرت الخلط من الجندية ووظف عليهم الخراج ومحا اسمهم من ديوان الخدمة ونقل أعيانهم إلى مراکش واتخذهم رهائن عنده ولم يزل الأمر كذلك إلى دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور

السعدي المعروف بالذهبي فرأى جلال الخلط وقتالهم يوم وادي المخازن وإبلائهم الإبلاء الحسن فاختر النصف منهم وردهم إلى الجندية أبقى النصف الآخر في غمار الرعية ونقلهم إلى أزغار فاستوطنوه فعاثوا في تلك البلاد وأكثروا فيها الفساد ومدوا أيديهم إلى أولاد مطاع فنهبهم وضايقوا بني حسن فكثرت الشكاية بهم إلى المنصور السعدي فغضب عليهم مغرماً سبعين ألفاً فلم يزيديوا إلا شدة فغضب عليهم بعث إلى تكرارين من أرض الصحراء فامتنعوا من ذلك فبعث إليهم القائد موسى بن أبي جمادة العمري فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة ثم حكم فيهم السيف فمزقهم كل ممزق ومن ثم خدمت شوكتهم ولانت للغامز قناتهم ثم ختموا أعمالهم بفعالهم الشنعاء التي ملأت الأفواه وأسالت من الجفون الأمواه وهي قتلتهم ولي الله تعالى المجاهد في سبيله أبا عبد الله سيدي محمد البعاشي المالكي رحمه الله فما زلنا نسمع أن قبيلة الخلط إنما سلبوا العز منذ قتلهم للولي المذكور وكان ذلك في المحرم سنة إحدى وخمسين وألف والله تعالى أعلم الخبر عن بني معقل عرب الصحراء من أرض المغرب وتحقيق نسبهم وبيان شعوبهم وبطونهم قال ابن خلدون هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بفقار المغرب الأقصى مجاورون لني عامر من زغبة الهلاليين في مواطنهم بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط من جهة الغرب وهي ثلاثة بطون ذوي عبيد الله وذوي منصور وذوي حسان فذوي عبيد الله منهم هم المجاورون لبني عامر ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة ومواطن ذوي المنصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة وعلى درعة وما يحاذيها من التل مثل تازا وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمعدن

ومواطن ذوي الحسان من درعة إلى البحر المتوسط وينزل شيوخهم بلاد بول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملمثين من كدالة ومسوفة ولمتونة وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل يقال إنهم لم يبلغوا المائتين واعترضتهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بأخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت وجاوروا زناتة في القفار فغفوا وكثروا وأثروا في صحاري المغرب الأقصى فغمرها رماله وتقلبوا في فيافيه وكانوا هنالك أحلافا لزناتة سائر أيامهم وبقي منهم بإفريقية جمع قليل اندرجوا في جملة بني كعب بن سليم ودخلوه حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان واستتلاف العرب فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن أقام بنو معقل هؤلاء في القفار وتفردوا في البيداء فنمو نمو لاكفاء له وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالفقر مثل قصور السوس غرباً ثم توات ثم بودة ثم تمنطيت ثم واركلان ثم تاسبيت ثم تيكرايين شرقاً وكل واحدة من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها فحازت عرب معقل هذه الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الإتاوات والضرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً وكانوا في تلك المدة السالفة يعطون الصدقت لمملوك زناتة ويأخذوهم بالماء والطوائل ويسمونهم جمل الرحيل وكان لهم الخيار في تعيينها ولم يكن هؤلاء العرب يحمون من أطراف المغرب وتلوله حمى ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد الصحراء بأذية ولا مكروه لما كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحديين وزناتة من بعدهم وكان لهم بازاء ذلك أقطاع من الدولة يمدون إلى أخذه اليد السفلى

وعددهم قليل كما قلنا وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم فإن فيهم من فرارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر وفيهم من أشجع بن ريث بن غطفان أحباء كبيرة يطغنون مع بني معقل بجهات سجلماسة ووادي ملوية ولهم عدد وذكر وفيهم الصباح من الأخضر ويقولون إنهم من ولد أخضر بن عامر وعامر هذا هو والله أعلم من ولد رياح الهلاليين وفيهم المهابة من عياض إحدى بطون الأثنج الهلاليين ويهم العمور من الأثنج أيضاً وفيهم بطون آخر من بن بهلال وبني سليم وغيرها وأما أنسابهم عند الجمهور فخفية ومجهوة والنسابون من عرب هلال يعدونهم من بطونهم وهو غير صحيح وهم أعني بني معقل يزعمون أن نسبهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبي طالب وليس ذلك أيضاً بصحيح لأن الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجدة هكذا ذكر ابن خلدون لكنه لم تكلم على جهينة إحدى بطون قضاة وذكر أنهم نزلوا بلاد الصعيد وملؤها قال ونزل معهم في تلك المواطن من أسوان إلى قوص بنو جعفر بن أبي طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحي المدينة وأخرجوهم منها فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة ويحترقون في غالب أحوالهم بالتجارة أي كلامه فعلى هذا لا يبعد أن تكون طائفة من هؤلاء الجعافرة وأوطنوا صحراء وهم بنو معقل المذكورون والناس مصدقون في أنسابهم والله تعالى أعلم بحقائق الأمور ثم قال ابن خلدون والصحيح والله أعلم من أمرهم أنهم من عرب اليمن فإن في اليمن بطنين يسمى كل واحد منهما معقل ذكرهما ابن الكلبي وغيره فأحدهما من قضاة بن مالك بن حمير وهو معقل بن

كعب بن عليم بن جناب وينتهي نسبة إلى قضاة والآخر من بني الحارث بن كعب أصحاب نجران الذين كان منهم بنو عبد المدان ملوك نجران في الجاهلية والإسلام وهو معقل بن كعب بن ربيعة بن لاهارث بن كعب وينتهي نسبه إلى كهلان قال والأنسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر وقد عده الإخباريون في بطون هلال الداخلين إلى إفريقية لمجاورتهم في الوطن قال ومن إملاء نسابهم أن معقلاً جدهم له من الولد سجير ومحمد فولد سجير عبيد الله وثعلب فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم ومن ثعلب الثعالبة الذين كانوا ببسيط متبجة من نواحي الجزائر وولد محمد مختاراً ومنصوراً وجلالاً وسالماً وعثمان فولد مختار بن محمد حسان وشبابة فمن حسان ذوي حسان البطن المذكور أهل السوس الأقصى ومن شبابة الشبانات جيرانهم هنالك ومن جلال وسالم وعثمان الرقيطات بادية في ذوي حسان ينتجعون معهم وولد منصور بن محمد حسيناً وأبا الحسين وهما شقيقان وعمران ومنيا وهما شقيقان أيضاً وهما الأحلاف ويقال لعمران العمرانية ولمنبا المنبات ثم يقال لجميع البطون الأربعة ولد منصور بن محمد ذوي منصور وهم إحدى بطونهم الثلاث المذكورة والله تعالى أعلم بغيبه فهذه أصول عرب المغرب الأقصى وكيفية دخولهم إليه واستيطانهم إياه وبعض فصولهم قد ذكرناها ملخصة من تاريخ إمام الفن أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون ومن جمهرة الأنساب لابن حزم وزدنا ما يحتاج منها إلى البيان بياناً والله تعالى الموفق ولنرجع إلى ما كنا بسبيله من أخبار أمير المؤمنين يعقوب المنصور رحمه الله فإنه لما رجع من إفريقية إلى مراکش سنة أربع وثمانين وخمسائة رفع إليه أن أخاه السيد أبا حفص صاحب مرسية الملقب بالرشيد وعمه السيد أبا الربيع صاحب تادلا عندما بلغهما خير الوقعة التي كانت على مقدمة

المنصور بإفريقية حدثاً أنفسهم بالتوثب على الخلافة فلما قدما عليه بالتهنئة أمر باعتقالهما خلال ما استملاً أمرهما ثم قتلها وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على جباية وفي سنة خمس وثمانين وخمسائة شرع المنصور في إدخال ساقى الماء إلى مراکش ثم تاققت نفسه إلى الجهاد فمان ما تذكره الجواز الأول ليعقوب المنصور رحمه الله إلى الأندلس بقصد الجهاد قال ابن أبي زرع وفي سنة خمس وثمانين تحرك أمير المؤمنين يعقوب المنصور إلى الأندلس برسم غزو بلاد غربها وهي أولى غزواته ففبر من قصر المجاز إلى الخضراء يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من السنة المذكورة ثم نهض من الخضراء حتى نزل شنترين وشن الغارات على مدينة أشبونة وأحاطها بقطع الثمار وحرق الزروع وقتل وسبا وأضرم النيران في القرى وأبلغ في النكاية وانصرف إلى العدو بثلاثة عشر ألفاً من السبي فدخل فاساً في آخر رجب من السنة المذكورة مرأسلة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر ليعقوب المنصور رحمهما الله والتماسه منه الأساطيل للجهاد كانت الفرنج

قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة قبل هذا التاريخ وملكوا معها بيت المقدس شرفه الله فلما استولى السلطان صلاح الدين رحمه الله على ديار مصر والشام اعتزم على جهادهم وصار يفتح حصونها واحدا بعد واحد حتى أتى على جميعها وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسائة وهدم الكنيسة التي بناها وافتتحت أمم النصرانية من كل جهة وتناحرت أساطيلهم الكفرية بالمدد من كل ناحية لتلك الثغور القريبة من بيت المقدس واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لضعفها يومئذ عن ممانعتهم فبعث صلاح الدين صريحة إلى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسائة يطلب إعانتة بالأساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس الشام وأوفد عليه أبا الحارث عبد الرحمن بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر من حصون الشام وكان صلاح الدين قد ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث صلاح الدين عبد الرحمن هذا إلى يعقوب المنصور طالبا مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الفرنج وبين أمداد النصرانية بالشام وللمنازلة الثغور التي ذكرنا وبعث معه إلى المنصور هدية تشتمل على مصحفين كرمين منسويين ومائة درهم من دهن البيلسان وعشرين رطلا من العود وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوسا عربية بأوتارها وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة مثقلة فوصل إلى المغرب فصادف المنصور بالأندلس فانتظره بفاس إلى أن رجع فلقه وأدى الرسالة وقدم الهدية وكان الكتاب الذي بعث به صلاح الدين من إنشاء الأديب عبد الرحيم البيهقي المعروف بالقاضي الفاضل وكان عنوان الكتاب من صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفي أوله الفقيه إلى الله تعالى يوسف بن أيوب وبعده الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنفية من استعمر الأرض وأغنى من أهلها من سألته القرض وأجرى من أجرى على يده النافلة والقرض وزين سماء بدراري الذراري التي بعضها من بعض وهو كتاب طويل ولما وقف عليه المنصور ورأى تحافهم فيه عن خطابه بأمر المؤمنين لم عبه ذلك وأسرها في نفسه وحمل الرسول على مناهج البر والكرامة ورده إلى مرسله ولم يجبه إلى حاجته ويقال إنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولا ومنع النصراني من سواحل الشام والله تعالى أعلم قال ابن خلدون وفي هذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالأساطيل الجهادية وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها وكان ابن منقذ المذكور قد مدح المنصور بقصيدة يقول فيها سأشكر بحرا ذا عباب قطعته إلى بحر جود ما لأخراه ساحل إلى معدن النقوى إلى كعبة الندى إلى من سمت بالذكر منه الأوائل إليك أمير المؤمنين ولم تنزل إلى بابك المأمول تزجي الرواحل قطعت إليك البر والبحر موقنا بأن نذاك الغمر بالنجح كافل وحزت بقصيدتك العلى فبلغتها وأدنى عطايك العلى والفاضل فلا زلت للعلاء والجود بانبا تبلغك الأمل ما أنت أمل وعدتها أربعون بيتا فأعطاه بكل بيت ألفا وقال له إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك يعني لا لأجل صلاح الدين عود المنصور إلى إفريقية والسبب في ذلك لما قدم المنصور من الأندلس إلى فاس وفرغ من شأن ابن منقذ تواترت إليه الأخبار بأن ابن غانية قد ظهر بإفريقية فنهض إليها من فاس في ثامن شعبان من تلك السنة فدخل تونس في أول ذي القعدة منها فألقى بلاد

إفريقية ساكنة وقد فر ابن غانية عنها إلى لاصحراء حين سمع بقومه وفي سنة ست وثمانين وخمسائة استولى الفرنج على مدينة شلب وباجة وبابورة من غرب الأندلس وذلك لما علموا أن المنصور قد أبعد عنهم واشتغل بأمر إفريقية فاغتموا الفرصة فيها واتصل الخبر بالمنصور فغاضه ذلك وأعظمه وكتب إلى قواد الأندلس يوبخهم ويأمرهم بغزو بلاد الفرنج ويعلمهم أنه قادم عليهم في أثر كتابه فاجتمع قواد الأندلس إلى محمد بن يوسف والي قرطبة فخرج بهم في جيش كثيف من الموحيدين والعرب وأهل الأندلس حتى نزل على شلب فشدد عليها الحصار وتابع عليها القتال حتى فتحها وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة وبابورة ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمسة عشر ألفا من السبي وثلاثة آلاف أسير قدمهم بين يديه في القطنان خمسون علجا في كل قطينة وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسائة وفي هذا الشهر رجع المنصور من إفريقية فانتهى إلى تلمسان فأقام بها إلى آخر السنة المذكورة وفي فاتح محرم من سنة ثمان وثمانين وهي سنة أكروا خرج المنصور من تلمسان إلى فاس وهو مريض فكان يركب في أكروا فدخل فاسا وأقام بها مريضا سبعة أشهر حتى أبل من علته ثم نهض إلى مراكش فأقام بها إلى سنة إحدى وتسعين وخمسائة ثم نهض منها إلى الأندلس بقصد الجهاد وكان ما ذكره إن شاء الله

الغزوة الكبرى بالأرناك من بلاد الأندلس قال ابن خلكان كان يعقوب المنصور رحمه الله قد خافه الفتن صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه إلى خمس سنين فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها إلا القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيئا فظيعا فانتهى الخبر إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور وهو بمراكش فتجهز لقصدهم في جيش عرمرم من قبائل الموحيدين والعرب واحتفل في ذلك وعبر البحر إلى الأندلس سنة إحدى وتسعين وخمسائة واتصل بالفرنج عبوره إليهم فجمعوا خلقا كثيرا من أقصى بلادهم وأدانيتها وأقبلوا نحوه قال ابن خلكان وقد رأيت بدمشق جزء بخط الشيخ تاج الدين عبد الله بن حموية السرخسي كان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مد وكتب فصولا تتعلق بتلك الدولة فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الواقعة فينبغي ذكره ههنا قال لما انقضت الهدنة بين أمير المؤمنين يعقوب المنصور وبين الأذفونش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الأندلس وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة وذلك في أواخر سنة تسعين وخمسائة عزم يعقوب المنصور وهو يومئذ بمراكش على التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج وكتب إلى ولاة الأطراف وقواد الجيوش بالحضور وخرج إلى مدينة سلا ليكون اجتماع العساكر بظاها فاتفق أنه مرض مرضا شديدا حتى بئس منه أطباؤه فتوقف الحال عن تدبير تلك الجيوش وحمل يعقوب المنصور إلى مراكش وهو مريض فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد وعاثوا فيها وأغاروا على النواحي والأطراف وكذلك فعل الأذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالأندلس واقتضى الحال تفرقة الجيوش التي جمعها يعقوب المنصور شرقا وغربا واشتغلوا بالمدافعة والممانعة فكثر طمع الأذفونش

في البلاد وبعث رسولا إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور يهدد ويتوعد ويطلب بعض الحصون المتخمة له من بلاد الأندلس وكتب إليه رسالة من إنشاء وزير له من ضعفاء المسلمين يعرف بابن الفخار وهي باسمك اللهم فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح أما بعد فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب إنك أمير الملة الحنفية كما أني أمير الملة النصرانية وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخائل والتواكل وإهمال أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار وأسبي الذراري وأمثلة بالرجال ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة وأنتم تزعمون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا نستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا وقد حكى لي عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتماطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى فلا أدري أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكنيب بما وعد ربك ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا لعله لا يسوغ لك التفتح معها وما أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك على أن تقي بالعهد والمواثيق والاستكثار من الرهان وترسل إلي جملة من عبيدك بالمرائب والشواني والطرائد والمسطحات وأجوز بجملة إليك فأفادتك في أعز الأماكن لديك فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك وهدية عظيمة مثلت بين يديك وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك وهدية عظيمة مثلت بين يديك وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإرادة لا رب غيره ولا خير إلا خيره فلما وصل كتابه إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقيع كما يأتي في بقية أخباره أرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجهم منها أدلة

وهم صاغرون ثم كتب الجواب ما ترى لا ما تسمع فهو ألو من تكلم به فارسله مثلا وأنشد متمثلا ولا كتب إلا المشرفية والفتى ولا رسل إلا الخسيس العرمرم ثم أمر بالإستنفار واستدعاء الجيوش من الأوصار وضرب السراقات بظاها البلد من يومه وجمع العساكر وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبتة يريد الأندلس وقال ابن أبي زرع خرج أمير المؤمنين يعقوب المنصور من حضرة مراكش يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وخمسائة يولي السير ويطوي المناهل ولا يلوي على فارس ولا راجل والجيوش تتابع في أثره ن سائر

الأقطار فلما انتهى إلى قصر المجاز أخذ في إجازة الجيوش الواردة عليه لا يفرغ من طائفة إلا وقد لحقت بها أخرى فأجاز أولاً قبائل العرب ثم زناتة ثم المصامدة ثم غمارة ثم المتطوعة من قبائل المغرب ثم الأغزاز والرماة ثم الموحدون ثم العبيد ثم أجاز أمير المؤمنين في أثرهم في موكب عظيم من أشياخ الموحدين وأهل النجدة والزعامة ومعه فقهاء المغرب وصلحواؤه واستقر بالجزيرة الخضراء بعد صلاة الجمعة الموفى عشرين من رب من السنة المذكورة فأقام بها يوماً واحداً ثم نهض إلى العدو قبل أن تخمد قرائح المجاهدين وتضعيف نياتهم فسار حتى بقي بينه وبين حصن الأرك الذي كان العدو نازلاً بإزياته نحو مرحلتين فنزل هنالك وذلك يوم الخميس ثالث شعبان من السنة فجمع الناس ذلك اليوم فأوضحهم ووعظهم ثم اختص أهل الأندلس بمزيد المشورة وقال لهم إن جميع من استنصرته وإن كانوا أولي بأس ومعرفة بالحرب لكنهم لا يعرفون نم قتال الفرنج ما تعرفونه أتم لتمرسمكم بهم وتمرسهم بكم فأحالوه في الرأي على القائد أبي عبد الله بن صناديد فعول المنصور رحمه الله في ذلك على رأيه

وقال ابن الخ طيب في رقم الحال إن أمير المؤمنين المنصور رحمه الله عرض جيشه وأخذ في تقريب القرب على الله تعالى بين يدي جهاده فسرح السجون وأدر الأرزاق وعين الصدقات ورحل فنزل الأرك وقد خيمت بأحوازه محلات العدو يضيق عنها المتسع وقام المنصور بعد أن اجتمع الناس فتنقل من المسلمين وقال منكم يطلب الرضى والغفران وخطب الخطباء بين يديه محرضين ومذكرين فنشط الناس وطابت النفوس ومن الغد صدع المنصور بالنداء وأمر بأخذ السلاح والروز إلى اللقاء فكانت التعبئة تحت الغلس وحكى ابن أبي زرع أن المنصور بات تلك الليلة عاكفاً بمصلاه على الركوع والسجود وإنه ألقى فاه فرأى ملكاً نزل من السماء في صورة بشر وبه راية خضراء وبشره بالفتح وأنشده في ذلك آياتاً بقيت على ذكر المنصور إلى أ استيقظ وقصر رؤياه على وجوه الجند فإزداد الناس طمأنينة وبصيرة فلما كان يوم السبت خامس شعبان جلس

المنصور في قبته الحمراء المعدة للجهاد ثم دعا بكبير وزرانه الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص وقدمه على ذلك الجيش وعقد له رايته وقدمه بين يديه ففرقت على رأسه الرايات وقرعت بين يديه الطبول وسار في قبيل هنتاتة وبين يديه القائد ابن صناديد في جيش الأندلس ثم عقد المنصور لجرمون بن رباح على قبائل العرب ولمنديل بن عبد الرحمن المغزوي على قبائل مغراوة ولمحيو بن أبي بكر بن حمامة المريني جد الملوك المرينيين على قبائل بن يمرين ولجبار بن يوسف العبد الوادي على قبائل بني عبد الواد ولعباس بن عطية التوجيني على قبائل بني توجين ولتلجين بن علي على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ولمحمد بن منغافد على قبائل غمارة وعقد للفقهاء الصالح أبي خزر بخلف بن خزر الأوربي على المتطوعة

وقال ابن خلدون إن الذي كان على المتطوعة يومئذ هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص والكل إلى نظر الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص وبقي المنصور رحمه الله في جيش الموحدين والعبيد وأمر الشيخ أبا يحيى بالرحيل والتقدم أمامه إلى جهة العدو وكان المنصور قد صفر مع ابن صناديد من الرأي أن يبقى هو متأخراً في الموحدين والعبيد والجشم على مسافة يخفى بها عن أعين العدو ويقدم الشيخ أبا يحيى ببعض الرايات والطبول في هيئة السلطان فيلقى العدو فإن كانت للمسلمين فهو المطلوب وإن كانت عليهم كنا لمنصور رداً لهم ثم يستأنف القتال مع العدو وقد انفل حده ولا نت شوكته فسار الشيخ أبو يحيى على هذا الترتيب وابن صناديد أمامه في فرسان الأندلس وحمايتها فكان الشيخ أبو يحيى إذا ألقع بجيشه عن موضع صباحاً خلفه المنصور فيه بجيشه مساء حتى أشرف الشيخ أبو يحيى على جموع الفرنج وهي يومئذ إلى جنب حصن الأرك ويقال أركو بزيادة الواو في آخره قد ضربت أخيبتها على روبة عالية ذات مهال وأحجار كبار قد ملأت السهل والوعر ونزل الشيخ أبو يحيى بجيشه في البسيط ضحوة يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسائة وعند ابن خلدون أن ذلك كان يوم الخميس قال واقتفى المنصور في ذلك طريقة أبيه وجده فإنه أكثر ما كانوا يصافون يوم الخميس ومعظم حركاتهم في صفر فعياً الشيخ أبو يحيى عساكره تعبئة الحرب وعقد الرايات لأمراء القبائل وأوقف كل قبيلة في مركزها الذي عين لها فجعل عسكر الأندلس في الميمنة وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في المسيرة وجعل المتطوعة والغزاز والرماة في المقدمة وبقي هو في القلب في قبيلة هنتاتة ولما أخذ الناس مراكزهم من حومة القتال خرج جرمون بن رباح يمشي في صفوف المسلمين ويحضرهم على الثبات والصبر وبينما الناس

على ذلك إذ انفصلت من جيوش العدو كتيبة عظيمة من نحو عشرة آلاف فارس كلهم مدجج في الحديد وكانت هذه الكتيبة هي شوكة ذلك الجيش وحده كان الفئس لعنه الله قد انتخبهم وصلت أقتسته عليهم صلاة النصر ورشومهم بماء المعمودية وتحالفوا عند الصليبان أن لا يبرحوا حتى يقتلوا المسلمين أو يهلكوا دونهم فلما برزت هذه الكتيبة نادى منادي الشيخ أبي يحيى معشر المسلمين اثبتوا في مصافكم وأخلصوا لله تعالى يتكمن وأنكروا اله عز وجل في قلوبكم وبرز عامر الزعيم من أمراء العرب فضض الناس على الصبر وثبتتهم وحملت كتيبة العدو حتى اندثقت رماح المسلمين في صدور خيلها أو كادت ثم تقهقرت قليلاً ثم عاودت الحملة فكانت كالأولى ثم تهبأت للحملة الثالثة فدفعت حتى خالطت صفوف المسلمين وخلص البعض منها إلى الشيخ أبي يحيى يظنونه المنصور فاستشهد رحمه الله بعد ما أحسن البلاء وقاتل قتالاً شديداً واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمتطوعة وغيرهم وسمى بنو الشيخ أبي يحيى بني الشهيد وعرفوا به من يومئذ وأظلم الجو بالغيبار واختلطت الرجال بالرجال وانفرد كل قرن بقرنه وأقبلت العرب والمتطوعة فأحاطوا بالكتيبة التي دعت إلى الشيخ أبي يحيى وزحفت زناتة والمصامدة وغمارة إلى الروبة التي فيها الفئس وجموعه وكانت على ما قيل تنيف على ثلاثمائة ألف بين فارس ورجال فتوغل المسلمون في تلك الأوعار إليهم وخالطوهم بها واشتد القتال واسترحر القتل في الكتيبة التي دعت أولاً وانقضت عليهم العرب والمتطوعة وهنتاتة فطحنوهم طحناً وانكسرت شوكة النفس بهلاكهم إذ كان اعتمادهم ومعو له عليهم وأسرت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين فأعلموه بأن الله تعالى قد قل شوكة العدو وأشرف على الإنهزام فعندها أمر المنصور بالرايات فرفعت وبالطبول فقرعت ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير وتسابقوا لقتال العدو وخفقت البنود وزحف أمير المؤمنين نحو المعركة

فلمبرع الفئس اللعين إلا الرايات قد أقبلت تخفق من كل جهة وزعقات الطبول والأبواق وأصوات المجاهدين بالتكبير قد زلزلت الأرض فقال ما ما هذا فقيل هذا المنصور قد أقبل في جيشه وما قاتلك سائر اليوم إلا بهم الأرض زلزالها فولوا الأدبار لا يلوون على شيء وأسدهم يومئذ من وجد في فرسه بقية تنجيه وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وأحاط بعضهم بحصن الأراك يظنون أن الفئس قد تحصن به وكان عدو الله قد دخل عنوة وأضرموا النيران في أبوابه واحتوا على جميع ما كان فيه وفي محلة العدو من الأموال والذخائر وأنواع السلاح التي تفتوت الحصر وقلا ابن خلدون كان ملوك الفرنج الذين قاتلوا المنصور يومئذ ثلاثة ابن أذفونيش وابن الرند والبيبو ح قال واعتصم لهم بحصن الأراك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم فاستنزلوا المنصور على حكمه حتى فودي بهم عددهم من المسلمين وفي القرطاس أن عدد أسارى الأراك كانوا أربعة وعشرين ألفاً فمن عليهم المنصور وأطلقهم قال فعز ذلك على جميع الموحدين وسائر المسلمين وعدت للمنصور سقطة من سقطات الملوك وقال ابن الأثير كانت الدائرة يوم الأراك أولاً على المسلمين ثم عادت على الفرنج وانهزموا أقيح هزيمة وكان عدد من قتل ن الفرنج يزيد من مائة ألف وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً وقيل ثمانون ألفاً ومن البغال مائة ألف ومن الحمير أربعمائة ألف قال في فح الطيب جاء بها الكفار لحمل أنقالتهم لأنهم لا إيل لهم قال وأما الجواهر والأموال فلا تحصى وبيع الأسير بدرهم والسيف بنصف درهم والفرس بخمسة دراهم والحمار بدرهم وقسم المنصور الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع كذا في فح الطيب وفي كامل ابن الأثير أن يعقوب المنصور رحمه الله نادى في عسكره من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح وأحصى ما حمل إليه منه فكان زيادة على سبعين ألف ليس واستشهد من المسلمين نحو عشرين ألفاً ثم تقدم المنصور بجيوشه إلى بلاد الفرنج وأخذ بخرب المدن والقرى ويفتح الحصون والمعازل ويقتل ويسبي ويأسر حتى وصل إلى إشبيلية فاستقر بها وأما الفئس فإنه لما انهزم وصل إلى طليطلة في أسوأ حال فحلق رأسه ولحيته ونكس صليبه وركب حماراً وأقسم أن لا يركب فرساً ولا بغلاً ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنصر النصرانية فجمع جموعاً وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه فاتاه من المتطوعة والمرتزة جمع عظيم ثم نهض إلى الفئس فالتقوا في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسائة فانهزم الفرنج

هزيمة قبيحة وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغيره ثم تقدم المنصور إلى مدينة طليطلة فحاصرها وقاطلها قتالا شديدا وقطع أشجارها وشن الغارات على ما حولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون مثل قلعة رباح ووادي الحجارة وجريط وجبل سليمان وأفليج وكثير من أحواز طليطلة ثم ارتحل عن طليطلة إلى مدينة طلمنكة فدخلها عنوة بالسيف فقتل مقاتلة وسبا النساء والذرية وغنم أموالها وهدم أسوارها وأضرم النيران في جوانبها وتركها قاعا صاففا وثى عناته إلى إشبيلية فدخلها غرة صفر سنة ثلاث وتسعين

وخمسمائة فرغ إليه في القاضي أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد مقالات نسب فيها إلى المرض في دينه ومعتقده وكان أحد فلاسفة الإسلام وربما ألقى بعضها بخط يده فحبس ثم أطلق وأشخص إلى مراكش وبها كانت وفاته رحمه الله ثم خرج المنصور من إشبيلية غازيا بلاد ابن أذفونش فسار حتى احتل بساحة طليطلة وبغله ان صاحب برشلونة قد امد ابن أذفونش بعساكره وأنهم جميعا بحصن مجريط فنهض إليهم ولما أطل عليهم انفضت جموع ابن أذفونش من قبل القتال ثم انكفأ المنصور راجعا إلى إشبيلية ثم اجتمع ملوك الفرنج وأرسلوا يطلبون الصلح فأداهم إليه وصالحهم على مدة خمس سنين بعد أن كان عازما على الامتاع مريدا لملازمة الجهاد إلى أن يفرغ منهم فاتاه خبر علي بن إسحاق المسوفي المعروف بابن غانية وأنه دخل إفريقية وأراد الاستيلاء عليها ففت ذلك في عزمه وصالحهم على المدة التي ذكرنا وعقد على إشبيلية للسيد أبي زيد بن الخليفة وعلى مدينة بطليوس للسيد أبي الربيع ابن السيد أبي حفص وعلى لامغرب للسيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص ثم عبر البحر إلى المغرب فوصل إلى مراكش في شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة وفي نفع الطيب أن يعقوب المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها خرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه وبكين بين يديه وسألته إبقاء البلد عليهن فرق لهن ومن عليهن به ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جل وردهن مكرمات والله القدرة والله تعالى أعلم لطيفة قال الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي رحمه الله في كتاب الفتوحات

المكية ما نصه ولقد كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت إلى الأندلس لقتال العدو حين استفحل أمره على الإسلام فلقبت رجلا من رجال الله ولا أركى على الله أحدا وكان من أخص أودائي فسالني ما تقول في هذا الجيش هل يفتح له وينصر في هذه السنة أم لا فقلت له ما عندك في ذلك فقال إن الله تعالى قد ذكره في كتابه ووعده نبيه بهذا الفتح في هذه السنة وبشر نبيه في كتابه الذي أنزله عليه وهو قوله إنا فتحنا لك فتحا مبينا فموضع البشري فتحا مبينا من غير تكرار الألف فإنها لإطلاق الوقوف ف تمام الآية فانظر أعدادها بحساب الجمل فنظرت فوجدت الفتح يكون في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ثم جرت إلى الأندلس وقد نصر الله جيش المسلمين وفتح الله به قلعة رباح والأركو وكركرا وما انضاف إلى هذه القلاع من الولايات هذا عيانتها من الفتح ممن هذه صفته فأخذت للقاء ثمانين وللنساء أربعمائة وللحساء المهملات ثمانية وللألف واحد وللميم أربعين وللبياء اثنين وللبياء عشرة وللنون خمسين وأما الألف فقد أخذ عددها وكان المجموع إحدى وتسعين وخمسمائة وهي سنة الهجرة إلى هذه السنة فهذا م الفتح الإلهي لهذا الشخص انتهى ذكر ما شيده المنصور رحمه الله من الآثار بالمغرب والأندلس كان يعقوب المنصور رحمه الله لما عزم على المسير إلى الأندلس بقصد الجهاد أوصى إلى نوابه ووكلاته ببناء قسبة مراكش والاعتناء بتشييد قصورها فمن آثاره الباقية بها إلى الآن بابها المعروف بباب أكنور ولا مزيد على ضخامته وارتفاعه وأمرهم ببناء الجامع الأعظم بها المنسوب إليه إلى اليوم وتشييد مناره المائل به ومنار جامع الكتبيين المضروب به المثل في الارتفاع وعظم الهيكل قال ابن سعيد طول صومعة الكتبيين بمراكش مائة ذراع وعشر أذرع

ولما اجتاز المنصور في سفره هذا بأرض سلا أمر أيضا ببناء مدينة رباط الفتح فأست سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأكمل سورها وركبت أبوابها وأمر ببناء المسجد الأعظم بطالعه سلا ومدرسة الجوفية منه قال صاحب الروض المعطار كان يعمل في بنائه ونقل حجراته وترابه سبعمائة أسير من أسارى الفرنج في قيودها وأمر ببناء جامع حسان ومنارة الأعظم المضروب به المثل في الضخامة وحسن الصنعة قالوا ولم يتم بناؤه ولما فرغ المنصور من وقعة الأرك واحتل بمدينة إشبيلية أخذ في إتمام بناء جامعها الأعظم وتشييد مناره المشاكل للمنازين المتقدمين فهو ثلاثة الأثافي بالنسبة لهما بل قيل إنه ليس في بلاد الإسلام منا أعظم منه وعمل لهذا المنار تقافيج من ألمح ما يكر قال في القراطس بلغت من العظم إلى ما لا يعرف قدره إلا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المنار حتى قلعت الرخامة من أسفله وزنة العمود الذي ركبت عليه أربعون رعبا من لاحديد وكان الذي صنعها ورفعها في أعلى المنار المذكور المعلم أبو الليث الصقلي وموهت تلك التقافيج بمائة ألف دينار ذهبيا ولما كمل جامع إشبيلية وصلّى فيه أمر ببناء حصن البرج على وادي إشبيلية وقد تقدم لنا في أخبار عبد المؤمن أنه هدم أسوار مدينة فاس وأن حافده المنصور هذا شرع في بنائها ثم أتمها ابنه الناصر من بعده ولما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش وجد كل ما أمر به من البناءات قد تم على أكمل حال واحسنه مثل القسبة والقصور والجامع والصوامع وأنفق على ذلك كله من أخماس الغنائم وكان قد تغير على الوكلاء والصناع الذين تولوا بناء ذلك لأنه سعى إليه بأنهم اجتمعوا الأموال وصنعوا للجامع سبعة أبواب على عدد أبواب جهنم فلما دخله المنصور وتطوف به أعجبه فسأل عن عدد أبوابه فقيل إنها سبعة أبواب والثامن هو الذي دخل منه أمير المؤمنين فقال المنصور عند ذلك لا بأس بالغالي إذا قيل حسن

واتخذ المنصور رحمه الله في جامع هذا لمصلا به مقصورة عجيبة كانت مديرة بحيل هندسية بحيث تنصب إذا استقر المنصور ووزرائه بمصلا منها وتخفي إذا انفصلوا عنها حكى الشريف الغرناطي شارح الحازمين عن الكاتب البارح أبي الحسن عبد الملك بن عياش أحد كتاب المنصور قال كانت لأبي بكر يحيى بن مجير الشاعر المشهور وفادة على المنصور في كل سنة فصادف في إحدى وفاداته فراغه من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره في حضرة مراكش وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترتفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله وكان جميع من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والأدباء قد نظموا أشعارا أنشدها إياها في ذلك فلم يزيدوا على شكره وتجزئته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره ولم يكن فيهم من تصدى لوصف الحال حتى قدم أبو بكر بن مجير فأنشد قصيدته التي أولها أعلمتني ألقى عصا التنسيار فهي بلدة ليست بدار قرار طورا تكون بمن حوته محيطة فكأنها سور من الأسوار وتكون حيننا عنهم مخبوءة فكأنها سر من الأسرار وكأنها علمت مقادير الورى فتصرفت لهم على مقدار فإذا أحست بالإمام يزورها في قومه قامت إلى الزوار يبدو فتبدو ثم تخفى بعد كتكون الهلالات للأقمار فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها قال أبو العباس المقرئ في نفع الطيب وقد بطلت حركات هذه

المقصورة الآن وبقيت آثارها حسبما شاهدهت سة عشر وألف والله وارث الأرض ومن عليها ومن شعر ابن مجير يصف خيل المنصور من قصيدة مدحه بها قوله لها حلبة الخيل العتاق كأنها نشاوى تهادت تكلب العزف والقصفا عرائس أغنتها الحبول عن الحلّى فلم تبغ خلخالا ولا التسمت وفقا فمن يقو كالطرس تحسب أنه وإن جردوه في ملاءته النقا وألق أعطى الليل نصف إهابه وغار عليه الصبح فاحتبس النصف ورد تغشى جلده شفق الدجا فإذا حازه دلى له الذليل والعرفاء وأشقر مع الراح صرفا أديمه وأصفر لم يمسح بها جلده صرفا وأشهب قضى الأديم مدثر عليه خطوط غير مفهمة حرفا كما خطط الراهي بمهرق كاتب فجر عليه ذيله وهو ما جفا تهب على الأعداء منها عواصف ستنتسف أرض المشركين بها نسفا ترى كل طرف كالغزال فتمترى أطبيرا ترى تحت العجاجة أم طرفا وقد كان في البيداء بألف سرية فربته مهرا وهي تحسبه خشفا تتاوله لفظ الجواد لأنه إذا ما أردت الجري أعطاكه ضعفا ومما مدح به المنصور رحمه الله قول بعض شعراء عصره حين طلب منه الفئش الصلح فأجابته إليه أهل بان يسعى إليه ويرتجى ويزار من أقصى البلاد على الرجا من قد غدا بالمكرمات مقلدا وموشحا ومختما ومتوجا عمرت مقامات الملوك بذكره وتعطرت منه الرياح تارجا ودخل عليه الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر فأنشده أزال حجابيه عني وعيني تراه من المهابة في حجاب وقريني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي وكانم بكسر النون جنس من السودان وهم بنو عم تكورره وليس

اسمهما للانتساب لأب أو أم وإنما كان اسم بلدة بنواحي غانة فسمي هذا الجنس بها وكذلك تكرر اسم للأرض التي هم بها فسموا بها والله أعلم بنية أخبار المنصور وسيرته قال ابن أبي زرع كان المنصور رحمه الله ذا رأي وحزم ودين وسياسة قال وهو أول من كتب العلامة بيده ملوك

الموحدين الحمد لله وحده فجرى عملهم على ذلك وقد تقدم لنا أن ذلك كان في دولة أبيه فانه أعلم وهو واسطة عقد ملوك الموحديين الذي ضخم الدولة وشرعها وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء وبهجة صنع الله عز وجل في أيامه الأمن بالمشرق والمغرب والأندلس فكانت الطغينة تخرج من بلاد نول فنتهي إلى برقة وحدها وبنى المستنانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم الإنفاق في جميع أعماله أجرى المرتبات على الفقهاء وطلبة العلم كل على قدر مرتبته وبنى الصوامع والقطائر وحفر الآبار للماء في البرية واتخذ عليها المنازل من السوس الأقصى إلى سوبقة بن مصكوك فكانت أيامه زينة للدهر وشرفا للإسلام وأهله وقال ابن خلكان كان يعقوب المنصور رحمه الله صاقي السمرة جدا إلى الطول ما هو جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الأعضاء جوهرى الصوت جزيل الألفاظ من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثا وأكثرهم إصابة بالظن مجريا للأمر ولي وزارة أبيه فيبحث عن الأحوال بحثا شافيا وطلوع مقاصد العمال والولاية وغيرهم مطالعة أفادته معرفة الجزئيات الأمور فلما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحديين

على تقديمه فقام بالأمر أحسن قيام ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع وأقام لحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات وكان قد أمر لأول دولته بقراءة السملة في أول الفاتحة في الصلوات وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الإسلام التي في ملكه فأجاب قوم وامتنع آخرون وكان ملكا جوادا عادلا متمسكا بالشرع المطهر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغي من غير محاباة ويصلي بالناس الصلوات الخمس ويلبس الصوف ويحف للمراة والضعيف ويأخذ لهم بالحق قال ابن خلكان وسعدت عنه حكاية يليق أن ننكرها هنا وهي أن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن عاشر أبي حفص كان قد تزوج أخت يعقوب المنصور فأقامت عنده ثم جرت بينهما مناصرة فجاءت إلى بيت أخيها يعقوب المنصور فسير بالشيخ عبد الواحد في طلبها فامتنعت عليه فشكى الشيخ عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان فاجتمع القاضي المذكور بأمر المؤمنين يعقوب المنصور وقال له إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله فسكت عنه المنصور ومضت أيام ثم إن الشيخ أبا محمد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر المنصور بمراكش وقال له أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جازوني فاجتمع القاضي بالمنصور وقال له يا أمير المؤمنين الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية فسكت المنصور ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور فقال له يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني منهم فاجتمع القاضي بالمنصور وقال له يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله فأما أن تسير إليه أهله وإما أن تعزلني عن القضاء فسكت

المنصور وقيل أنه قال له يا عبد الله ما هذا إلا جد كبير ثم استدعى خادما وأمره سرا بأن تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه فحملت إليه في ذلك اليوم ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئا يكرهه وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأمره وهذه حسنة تعد له وللقاضي أيضا فإنه بالغ في إقامة منار الشرع والعدل وكان المنصور يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر وقتل العمال الذين تشكروهم الرعايا أمر برفض فروع الفقه وإحراق كتب المذاهب وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة النبوية ولا يقدون أحدا من الأئمة المجتهدين بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس قال ابن خلكان ولقد أدرنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا وهم على ذلك الطريق مثل أبي الخطاب بن دحية وأخيه أبي عمرو ومحيي الدين بن عربي نزيل دمشق وغيرهم وكان يعاقب على ترك الصلوات ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزه تعزيرا بلوغا وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرته سلطنته حتى أنه لم يبق بجمع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو في طاعته وداخل في ولايته إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس وكان محسنا محبا للعلماء مقربا للأدباء مصغيا إلى المدح مثيبا عليه وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتابه الذي سماه صفوة الأدب وديوان العرب في مختار الشعر وهو مجموع مليح أحسن في اختياره كل الإحسان وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقيع وإجادته وقد تقدم لنا موقع به على كتاب الفتن

وحكى ابن الخطيب في رقم الحل أن المنصور طلب يوما من قاضيه أن يختار به رجلين لغرضين من تعليم ولد وضبط أمر فعرفه برجلين قال في أحدهما وهو بحر في علمه وقال في الآخر وهو بر في دينه ولما خرج لمنصور أحضرهما واختبرهما فقصرأ بين يديه وأكذب الدعوى فوق المنصور على رقعة القاضي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ظهر الفساد في البر البحر قال ابن الخطيب وهذا من التوقيع العريق في الإجابة والصنعة وكان مجلس المنصور رحمه الله مجلس الفضلاء والأدباء وأرباب المعرفة والفنون حكى أبو الفضل التيشفاني قال جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب يعقوب المنصور وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد والرئيس الوزير أبي بكر بن زهر بضم الزاي وكان الأول قرطبيا والثاني إشبيلية فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة ما أنري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية وهذا الوزير ابن زه هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية وزير المنصور ولأبيه من قبله قال ابن خلكان كان ابن زهر من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء نالوا المراتب وتقدموا عند الملوك ونفذت أوامره وكان يتكرر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع إلى الأندلس ومما قاله بمراكش يتشوق إلى ولد له صغير تركه بإشبيلية ولى واحد مثل فرخ القطا صغير تخلف قلبي لديه نأت عنه داري فيا وحشتي لذاك الشخصيص وذاك الوجيه تشوقني وتشوقته فيبكي علي وأبكي عليه

لقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إلي ومني إليه قال العلامة الأديب أبو العباس المقري في نفع الطبيب أخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني الأندلسي الأصل الفاسي المولد والنشأة حكيم حضرة السلطان أبي العباس المنصور بالله السعدي أن ابن زهر لما قال هذه الأبيات وسمعتها يعقوب المنصور أرسل المهندسين إلى إشبيلية يعني من غير علم من ابن زهر وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحرارته ثم بينوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة وفرشها بمثل فرشها وجعل فيها مثل آلاته ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع فراه أشبه شيء ببيوته وحرارته فاختار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام فقيل له ادخل البيت الذي يشب بيتك فدخله فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه هكذا وهكذا وإلا فلا لا ومن أطباء المنصور الوزير الطبيب الشهير أبو بكر بن طفيل من أهل آتش كان حانقا بصناعة الطب والجراحات ومن أطبائه أيضا الحفيد بن رشد المتقدم الذكر ومن كتبه الكاتب البارع أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي النشأة الجياوري الأصل والفقيه البارع أبو الفضل بن طاهر من أهل بجاية ومن الفقهاء الذين كانوا يجالسونه ويسامرونه الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجدي والفقيه القاضي أبو عبد الله بن الصقر وغيرهم رحم الله الجميع

وفاة يعقوب المنصور رحمه الله قال ابن أبي زرع لما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش أخذ البيعة لولده أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله فبايعه كافة الموحديين وسائر أهل الأمصار والأقطار فلما تمت البيعة للناصر المذكور وجلس في محل الخلاف وجرت الأحكام والأوامر باسمه وعلى يديه في حياة أبيه دخل المنصور قصره فلزمه وقال ابن خلكان لما وصل المنصور إلى مراكش يعني بعد قدومه من الأندلس أمر باتخاذ الأحواض والروايا والآلات السفر للتوجه إلى بلاد إفريقية فاجتمع إليه مشايخ الموحديين وقالوا له يا سيدنا قد طالعت غيبتنا بالأندلس فما من له خمس سنين وغير ذلك فنتعم علينا بالمهلة هذا العام وتكون الحركة في أول سنة خمس وتسعين وخمسائة فأجابهم إلى سؤالهم وانتقل إلى مدينة سلا وشاهد ما فيها من المنتزهات المعدة له وكان قد بنى بالقرب من المدينة مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه وبنائها على البحر المحيط الذي هناك وهي على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي واطاف تلك البلاد وتزدهر فيها ثم رجع إلى مراكش قال ابن خلكان وبعد هذا اختلفت الروايات في آخره فمن الناس من يقول إنه ترك ما كان فيه وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد الشرق وهو مستخف لا يعرف ومات خاملا ومنهم من يقول إنه لما رجع إلى مراكش كما ذكرناه توفي في غرة

جمادى الأولى وقيل في ربيع الآخرة في سابع عشرة وقيل في غرة صفر ولم ينقل شيء من أحواله بعد ذلك إلى حين وفاته وقيل توفي بمدينة سلا قال ابن خلكان ثم حكى لي جمع ككثير بدمشق أن بالقرب من

المجمل البليلة التي من أعمال البقاع العزيزي قرية يقال له احمارة وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب وكل أهل ذلك النواحي متفوق على ذلك وليس عندهم فيه خلاف وهذا القبر بينه وبين المجمل مقدار فرسخين من جهتها القبيلة بغرب قال وكان أوصى أن يدفن على قارة الطريق ليترحم عليه من يمر به قال المقرئ في نخ الطيب هذه عامية لا يثبثها علماء المغرب وسبب هذه المقالة تولع العامة به فكذبوا قيمته وقالوا إنه ترك الملك وحكوا ما شاع إلى الآن وذاع مما ليس له أصل ثم نقل عن الشريف الغرناطي مثل ذلك فانظره قال مؤلفه عفا الله عنه وعندني أن إنكار ما حكاه ابن خلكان ليس بجيد وهب أن أهل المغرب قالوا ذلك تولعوا به فما بال أهل المشرق يتولعون به ويتخذون له المشهد ثم يتفق كبيرهم وصغيرهم على أنه قبر يعقوب ملك المغرب من غير أصل ولا مستند هذا بعيد في العادة بل لا بد أن يكون لذلك أصل والله أعلم بحقيقته نعم ما تزعمه عامة المغرب في حمة أبي يعقوب التي بقرب مدينة فاس أنها منسوبة ليعقوب المنصور هذا وأنه رصد لها عفرتين يوقد ان عليها إلى الأبد وأن حرارة ماؤها بسبب ذلك الإيقاد وأن الشفاء الذي حصل للمستحمين إنما هو ببركة يعقوب المنصور

وجعلوا له زوجة أو بنتا اسمها شافية اشتقاقا من لفظ الشفاء الحاصل بتلك العين كله باطل وغنما حرارة العين بخاصة في ذلك الماء ولعلها ما فيه من الكريمية فلما نرى أصحاب الجرب يتلطخون بالكبريت المعالج فيشفون وكم من عين على وجه الأرض في المشرق والمغرب وبلاد المسلمين والكفار على هذه الحالة كما أخبر بذلك غير واحد وقال الجوهرى في الصحاح الحمة العين الحارة يستشفى بها الأعداء والمرضى وفي الحديث العالم كالحمة اه ومثله في القاموس بل ذكر فيه مدينة تفلين وهي قصبية كرجستان عليها سوزان قال وبالقراب أيضا من مدينة فاس على مسيرة أربعة أميال منها حمة ابن أبي زرع في القرطاس حمة أبي يعقوب هذه وذكر معها حمتين أخريين فقال وبالقراب أيضا من مدينة فاس على مسيرة أربعة أميال منها حمة عظيمة تعرف بحمة خولان ماؤها في أشد ما يكون من السخونة وبالقراب أيضا منها حمة وشناتة وحمة أبي يعقوب وهي من الحمامات المشهورة بالمغرب اه كلامه فقد ذكر أبا يعقوب بلفظ الكنية فهو غير يعقوب المنصور قطعا ولعله أبو يعقوب الأشقر الآتي ذكره في أحداث المائة السابعة ولنرجع إلى الكرم على وفاة المنصور عند علماء المغرب فنقول قال ابن الخطيب في رقم الحلل توفي يعقوب المنصور رحمة الله في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسائة ودفن بمجلس سكناه من مراكش وكذب العامة بموته ولوعا و تمسكا به فادعوا أنه ساح في الأرض اه وقال ابن أبي زرع لما حضرت المنصور الوفاة قال ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها الأولى إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب مع إني أعلم أنهم أهل فساد والثانية بناء

رباط الفتح أنفقت فيه بيت المال وهو عبد لا يعمر والتالثة إطلاقي أسارى الأرك ولا بدل لهم أن يطلبوا بثأرهم قلت ما ذكره رحمه الله في رباط الفتح من أنه لا يعمر قد تخلف ظنه فيه فهو اليوم من أمر أمصار المغرب وأحضرها حرسه الله وحرس سائلا أمصار المسلمين من أفق النقضان وطوارق الحدثان ولندكر ما كان في هذه المدة من الأحداث فنقول في سنة أربعين وخمسائة هدم علي بن عيسى بن ميمون وكان من رؤساء البحر في دولة الممتونيين صنم قانس وقانس هذه هي الجزيرة المسماة في لسان العامة اليوم يقالص وكان بها صنم عظمي على صورة رجل وبيده مفتاح يقال إن حكماء اليونان اتخذوه طلسمًا هناك كان من خاصيته أن يمنع هبوب الريح فيما جاوره من البحر المحيط وكانت السفن لا تجري هناك على ما قيل فلما ثار ابن ميمون المذكور بالجزيرة المذكورة ظن أن تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيئا وفي السنة المذكورة توفي أبو علي منصور بن إبراهيم المسماطسي دفن في أزموور وكان كبير الشأن من أهل العلم والعمل ومن أشياخ أبي شعيب السارية وفي سنة أربع وأربعين وخمسائة توفي الإمام الهمام الحافظ البارع أبو الفضل عياض بن موسى البحصبي قال ابن خلكان توفي بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة وقيل في شهر رمضان من السنة المذكورة ودفن بباب أيلان داخل المدينة وذلك في دولة عبد المؤمن بن علي وفي سنة تسع وخمسين وخمسائة توفي الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرز هم ينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو من أهل مدينة فاس وبها توفي أخريات شعبان من السنة المذكورة وكان فقيها زاهدا صوفيا قال أبو الحسن

المذكور اعتكفت على قراءة الأحياء سنة فجدت المسائل التي تنتقد عليه وعزمت على إحراق الكتاب فتمت فرأيت قائلا يقول جردوه واضربوه حد الفرية فضربت ثمانين سوطا فلما استيقظت جعلت أقلب ظهري ووجدت الألم الشديد من ذلك فتمت إلى الله ثم تأملت المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة وقد تقدم لنا ما اتفق له مع السلطان في جنازة أبي الحكيم بن بركان وفي سنة إحدى وستين وخمسائة توفي الشيخ أبو شعيب أوب بن سعيد لصنهاجي الملقب بسارية م أهل مدينة أزموور وبها توفي يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثاني من السنة المذكورة وكان رضي الله عنه شديد المراقبة والورع والخوف من الله تعالى ونقلت في الورع والخوف حكايات انظر التشوف قال مؤلفه عفا الله عنه زرت فحسبت هذا الشيخ سنة ثمانين ومائتين ألف ومدحته بقصيدة سلكت فيها الأدياء من النسب وغيره وأندتها عند ضريحه فرأيت لها بركة والحمد لله فأحببت أن أذكرها هنا وهي هذه الله يا رب ما هيجت من شجن على الفؤاد ومن ضنى على البدن وقتت فيك ركابا طالما وقتت على القصور على الأطلال والدمن أيام فيك حسان ما أشبهها بالشمس حسنا ولا في اللبين بالغصن وفيك أسد من الملوك عاداتها بذل النضار وصون البيض والحسن يحمون منك عراضا كنت أعدها مأوى السرور فعادت موقف الحزن عاثت يد الدهر فيهم منذ أزمنا كأن بأسهم المحذور لم يكن قوم عرفت ندامهم قبل معرفتي نفسي وفاجأني في المهدي بالمتن ومد ترعرعت لم أعلق بغيرهم حتى كآني رضع الحب في اللين قضيت حق الشباب في منازلهم أيام عيش لنا أحلى من الوسن

من ظن بالدهر خيرا فهو من خدع فوده هدنة تبنى على دخن لا أنتحي منها إلا شرفت به ولا احل مكانا ليس بالخشن ولا أصاحب من هذا الورى بشرا إلا حصلت على رزق من الإحن حتى توهمت أنني جنيت لهم حرب البسوس وأنتي أبو الفتن وما لذي الفضل من ذنب يلام به سوى فضيلته في دهره الزمن فعد يا قلب عن شكوى أضيق بها ذرعا فشكوك لي ضرب من الوهن ولست أحسب هذا الدهر مرعوبا ولو تعلقت منه بابين ذي يزن حلا لقد علق يدي بمن علق يدي العفاة به في الشام واليمن بأعظم الناس منزلا ومنزلة وأسمح الناس كفا بالندى الهتن وأشمخ الناس قدرا في الورى وعلا وأحكم الناس للفرروض والسنن ذاك الوي الذي كل الأنام غدا يتلو مناقبه في السر والعلن أبو شعيب الذي من بحره انتشبت جداول اليمن في الحياء والمدن بدر غدا في سماء المجد مكتملا به علا ذكر أزموور في الوطن أرض إذا الضرع المحروم يمهما أفي بها بدل الأهلين والسكن أود ن أجل ثاويها حجارتها واجعل الترب ليمسكا بلا ثمن كيف لا تطبي قلبي منازل من به أكون من الأحداث في جنن مجلي الغياهب مبدول المواهب مق فو المذهب بالجند والقرني بحر الحقيقة والغوث الذي لهجت به القبائل في المقام والطعن ما زال يرقى الذرى منكل صالحة حتى اكتسى شهرة النيران في الفتن يا خير من أمه العافي ولاذبه أهل الجرائم والأوزار والمحن إني خدمتك في شعر عنيت به وليس لولا حلاك الزهر بالحسن أشكو إليك سقاما أنت مبرته ولست أرجو سواك منه بعشني وشد أزري فإني كنت معتقدا إذا بلغتك قددت الدهر بالرسن وانظر بفضلك من وافك معتقدا فإن نظرت فكل الخير يشملني وأعظم السؤال منك النفس تصلحها وظهر القلب ما لأمراض والدرن وامنحه نورا وتوفيقا ومعرفة أرى بها علمي والبر في قرن

فجد بما رمت من جدواك يا أملي فبحر جودك عذب ليس بالأجن سقى ضريحك غيث ما يزال به بستان أنسك وهو مورق الفن بجاه أفضل خلق الله كلهم محمد ذي المزايا العر والمنن عليه أزكى صلاة الله ما تليت صحف وما نسج القريض ذو لسن والأل والصحب والأزواج قاطبة ومن قفا مهجهم في كل ما زمن واعلم أن التعلق بأولياء الله رضي الله عنهم يجب أن يكون مع استحضار أن الله تعالى هو المطلوب على الحقيقة والفاعل للأشياء كلها لا مبدع غيره ولا مرجو سواه وإنما التمسك بأهل الله لأجل التبرك بهم والاستشفاع بهم إلى الله تعالى لأنهم أبواب الله والدالون عليه نفعا الله بهم وأفاض من مددهن أمين وفي سنة تسع وستين وخمسائة توفي الشيخ الفقيه العالم أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف المعروف بابن قرقول

صاحب كتاب مطالع الأنوار الذي وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض كان من الأفاضل وصحب جماعة من علماء الأندلس وتوفي بمدينة فاس يوم الجمعة أول وقت العصر سادس شوال من السنة المذكورة وكان قد صلى الجمعة في الجامع ذلك اليوم فلما حضرته الوفاة تلى سورة الإخلاص وجعل يكررها بسرعة ثم تشهد ثلاث مرات وسقط على وجهه ساجدا فوقع ميتا رحمه الله وفي سنة سبعين بعدها توفي الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأنصاري المعروف بالمتنبي ومتنطية قرية بأحواز الجزيرة الخضراء وهو الموثق المشهور لآزم بمدينة فاس خاله أبا الحجاج المتنبي وبين يديه تعلم عقد الشروط وله كتاب كبير في الوثائق سماه النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام ثم انتقل إلى سبتة فاستوطنها ولآزم مجالس علمائها بالمناظرة والتفقه ومهر في كتابه الشروط واشتغل بها حتى لم يكن في وقته أقر عليها وكان له في السجلات اليد الطولى وطبع

عليها حتى كاد طبعه لا يواتيه في سواها بل كان طبعه في ذلك أكثر من فقهه ثم ولي القضاء بشريش وأصابه خضر لازمه نحو السنين ثم توفي مستهل شعبان من السنة المذكورة وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسائة توفي وحيد عصره وأعجوبة دهره الولي العارف الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون قال قوم إنه من هزميرة إيرجان وقيل من بني صبيح من هسكورة مات وقد نيف على المائة بنحو الثلاثين سنة ودفن بجبل إيرجان ي أوائل شوال من السنة المذكورة كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه يقول رأيت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زماننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعزى قال ونظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل الأحياء للغزالي وكان لباس الشيخ أبي يعزى برنسا أسود مرقوعا إلى أسفل من ركبته وجبة من تليس مطرف وشاشية من عزف وكان يتعش من نبات الأرض ولا يشارك الناس في معاشهم وكان طويلا رفيقا أسود اللون وكان إذا جنه الليل دخل عيضة كثيرة السباع يتعبد فيها فإذا قرب الفجر أعلم أصحابه به وأحواله رضي الله عنه وكراماته كثيرة وفي سنة ثلاث وسبعين بعدها توفي الشيخ العارف أبو الحسن علي بن خلف بن غالب القرشي دفين قصر كتامة نشأ بشلب من بلاد الأندلس وقرأ بفرطية واستقر أخرا بقصر كتامة وبه توفي في السنة المذكورة وقيل إن وفاته كانت سنة ثمان وستين قبل هذا التاريخ والله أعلم وكان رضي الله عنه متمكنا في علوم القوم وكان الأولياء يحضرون مجلسه وهو من تلامذة أبي العباس بن العريف المتقدم الذكر وفي سنة ثمانين وخمسائة توفي الشيخ أبو عبد الله التاودي العلم من أهل مدينة فاس ومن أصحاب الشيخ أبي يعزى وكان يعلم الصبيان فيأخذ الأجر من أولاد الأغنياء فيرده على أولاد الفقراء ومات بفاس في السنة المذكورة وهذه النسبة إلى بني تاودي وهي قبيلة بقرب فاس

وفي سنة إحدى ثمانين بعدها توفي الإمام المشهور أبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد عبد الله بن أحمد السهلي الخثمي صاحب كتاب الروض الألف وغيره من التأليف الحسان وصاحب الأبيات المشهورة في الدعاء يا من يرى ما في الضمير ويسمع أنت المعد لكل ما يتوقعا يا من يرجى للشدائد كلها يا من إليه المشتكى والمفزع يا من خزائن رزقه في قول كن آمن فإن الخير عندك أجمع ما لي سوى فقي إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع ما لي سوى قرعي لبابك حيلة فلئن رددت فأني باب أفرع ومن الذي أدعو وأهتف باسمه إن كان فضلك عن فقيرك يمنع حاشي لجودك أن تنقظ عاصيا الفضل أجزل والمواهب أوسع كان ببلدته سهيل وهي قرية بالقرب من مالقة يتسوغ بالعفاف ويتبع بالكفاف حتى نمت خبره إلى السلطان بمراكش فطلبه إليه وأحسن إليه وأقبل بوجهه غاية الإقبال عليه فأقام بها نحو ثلاث سنين ثم توفي بها يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من السنة المذكورة ودفن وقت الظهر خارج باب الرب أحد أبواب مراكش وكان رحمه الله ضريرا نفعنا اله تعالى به وفي سنة تسعين وخمسائة توفي ولي الله تعالى أبو محمد عبد الحليم بن عبد الله المرسي المعروف بالمعروف بالعماد من صلحاء سلا كان رحمه الله عبدا صالحا يدور على المكاتب ويستوهد الدعاء من الصبيان ويبيكي على نفسه وله كرامات وتوفي ببلده المذكور وبقبره معروف ملاصق للمسجد الأعظم قرب بابه الكبير من جهة القبلة وفي سنة ثلاث وتسعين وخمسائة توفي الشيخ أبو يعقوب يوسف بن علي المبتلي المعدود في سبعة رجال من صلحاء مراكش كان رضي الله

عنه كبير الشأن فاضلا صابرا راضيا على ربه فيما ابتلاه به من داء الجذم سقط بعد جسده ذات يوم فصنع طعاما كثيرا للفقراء شكرا لله تعالى على ذلك وكان يسكن بحارة الجذمي العتيقة قبلي مراكش وبها مات في شهر رجب من السنة المذكورة ودفن خارج باب أغمات عند رابطة الغار واحتفل الناس لجنزاته رضي الله عنه وفي سنة أربع وتسعين بعدها توفي الشيخ العارف بالله تعالى أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري الولي الكبير المشهور أصله من حصن قطنية من عمل إشبيلية ثم انتقل إلى العودة فأخذ عن الشيخ أبي الحسن بن حرزم وعن الشيخ أبي يعزى وبه انتفع وعليه تخرج وكان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه من العارفين الراشحين قد خاض من الأحوال بحارا ومن المعارف أسراراً وجل في حداته سنة في بلاد المغرب من سبتة ومراكش وفاس ولزم بفاس الشيخ ابن حرزم كما قلنا ثم سمع بخبر الشيخ أبي يعزى فقصده وأخذ عنه وظهرت عليه بركته قال الشيخ أبو مدين لما قدمت فاسا لقيت بها الأشياخ فسمعت رعاية المحاسبي على أبي الحسن بن حرزم وكتاب السنن للترمذي على أبي الحسن بن غالب وأخذت طريقة التصوف على أبي عبد الله الدقاق وأبي الحسن السلاوي قال وكنت أزرور الشيخ أبي يعزى مرارا فقال لي جماعة من الفقهاء المجاورين لأبي يعزى قد ثبت عندنا ولاية أبي يعزى ولكننا نشاهده بلمس بطون النساء وصدورهن ويتقل عليهن فيبرأن ونحن نرى أن لمسهن حرام فإن تكلمنا في هذا هلكتنا وإن سكتنا حرنا فقلت لهم أرايتم لو أن ابنة أحدكم أو أخته أصابها داء لا يطلع عليه إلا الزوج ولم يوجد من يعانیه إلا طبيب يهودي أو نصراني أستم تجيزون ذلك مع أن دواءه مظنون ودواء أبي يعزى أنتم على يقين منه فبلغ كلامي أبي يعزى فاستحسنه

قال محمد بن إبراهيم الأنصاري خرج الشيخ أبو مدين ألف تلميذ وجاءه رجل ليعترض عليه فجلس في الحلقة فقال له أبو مدين لم جئت قال لأقتبس من نورك فقال له ما الذي في كحك فقال له مصحف فقال له افتحه وقرأ سطر يخرج لك ففعل فخرج له قوله تعالى الذين يكذبون شعيبا كانوا هم الخاسرين فقال له مدين أما يكفيك هذا فاعترف الرج وتاب وكراماته رضي الله عنه كثيرة وكان استوطن في آخر عمره بجاية وكثر عليه الناس وظهرت على يده كرامات فوشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور وقال له إنا نخاف منه على دولتكم فإن له شبيها بالإمام المهدي وأتباعه كثيرون بكلبلد فوقع منه ذلك فكتب لصاحب بجاية يبعث إليه وأوصاه بالاعتناء به وأن يحمله إليه خير محمل ففعل ولما كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه بالطريق مرض مرض موته فلما وصل وادي يسر قرب تلمسان اشتد به مرضه فنزلوا به هنالك فكان آخر كلامه الله الحق فتوفي ودفن برابطة العباد قرب تلمسان وسمع أهل تلمسان بجنزاته فحضرها وكانت من المشاهد العظيمة وفي سنة خمس وتسعين وخمسائة توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوي صاحب كتاب الهداية أقام نحو أربعين سنة لم تفته صلاة في جماعة إلا يوما واحدا لعذر عاقه عن ذلك دخل مدينة فاس ومعه نحو من أربعين ألفا من المال فما زال ينفقها في سبيل الخير حتى لم يبق له إلا دار سكناه فباعها من بعض أهل فاس وأمره المشتري لها فلما خرجت منها جنازته حازها المشتري المذكور وكانت وفاته يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة واعلم أنا قد قدتمنا أن الشيخ أبا مدين كان تلميذا للشيخ أبي يعزى وكان الشيخ أبو يعزى تلميذا للشيخ أبي شعيب السارية وكان الشيخ أبو

شعيب تلميذا للشيخ أبي ينور الدكالي نفعنا الله بجمعهم وأفاض علينا من مددهم أمين ولنرجع إلى أخبار الدولة الموحدية فنقول الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله بوبع لأبي عبد الله محمد الناصر لدين الله في حياة والده يعقوب المنصور ثم جددت له البيعة بعد وفاته وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسائة وهو اليوم الذي توفي فيه أبوه فأقام بمراكش بقية ربيع الأول وربيع الثاني ثم نهض في فاتح جمادى الأولى إلى فاس فأقام بها بقية السنة المذكورة ثم غزا جبال غمارة من أجل علودان الغماري الثائر بها ففتحها ثم رجع إلى فاس فأتم بناء سورها الذي كان خربه عبد المؤمن وبني قصبتها ورتب أمورها وأقام بها إلى سنة ثمان وتسعين وخمسائة فعاد إلى مراكش وأقام بها إلى أن كان ما نذكره غزو الناصر بلاد إفريقية وولاية الشيخ أبي محمد بن أبي خصص

عليها والسبب في ذلك لما هلك المنصور رحمه الله قوي أمر يحيى بن إسحاق المعروف بابن غانية بإفريقية واسولى على أعمال قراقوش الغزي صاحب طرابلس وعلى المهديّة وتغلب على بلاد الجريد ثم نازل تونس سنة تسع وتسعين وخمسائة وافتتحها عنوة لأربعة أشهر من حصارها في ختام المائة السادسة وقبض على السيد أبي زيد وابنه ومن كان معه من الموحدين

وطالب أهل تونس بالنفقة التي أنفق وبسط عليهم العذاب حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم ثم دخل في دعوته أهل القيروان وغيرها من البلاد وانتظمت له أعمال إفريقية وفرنق العمال وخطب للخليفة العباسي واتصل بالناصر وهو بمراكش هذا كله فامتعض لذلك وشاور الموحدين في أمر إفريقية فأشاروا عليه بمسالمة ابن غانية وأشار الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص بالنهوض إليها والمدافعة عنها فعمل على رأيه ونهض إليها سنة ستمائة وبعث الأسطول في البحر لنظر يحيى بن أبي زكريا الهزرجي واتصل ذلك بابن غانية فبعث ذخائره وحرمه إلى المهديّة مع علي بن الغاني من قرابته وولاه عليها ولما قرب الناصر من إفريقية خرج ابن غانية من تونس إلى القيروان ثم إلى قفصة واجتمع إليه العرب وأعطوه الرهائن على المظاهرة والدفاع وسار إلى حمامة مطماطة ثم إلى جبل بني دمر فتحصن به ووصل الناصر إلى تونس ثم سار في اتباع ابن غانية إلى قفصة ثم إلى قابس ثم عاد إلى المهديّة فمسك عليها واتخذ الألة لحصارها وسرح الشيخ أبي محمد عبد الواحد لقتال ابن غانية في أربعة آلاف من الموحدين سنة اثنتين وستمائة فلقبه بجبل تاجورة من نواحي قابس وأوقع به وقتل أخاه جبارة بن غسحاق واستنذف السيد أبو زيد من معتقله وأما الناصر فإنه استمر محاصرا للمهديّة وبها يومئذ علي بن الغاني وكان يدعى بالحاج وكان شهيدا محاربا فامتنع على الناصر وأبى من مكابدة الحرب وخذاعه ما يقصر عنه الوصف وأشجى الموحدين وبالغ في نكايتهم فكانوا يسمونه الحاج الكافر ثم نزل على الأمان وأحسن إليه الناصر إحسانا تاما وسماه بالحاج الكافي بالياء بدل الراء لما رأى من مراعاة

لصاحبه وحسن عهده معه واستشهد الحاج الكافي هذا في وقعة العقاب الآتية وكان فتح المهديّة في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وستمائة وولى الناصر محمد بن يعقوب الهزرجي وارتحل عنها في عشرين من جمادى الثانية فدخل تونس غرة رجب وأقام بها بقية السنة وأكثر الذي بعدها ولما كان رمضان من سنة ثلاث وستمائة اشاع الناصر الحركة إلى المغرب واستخلف على إفريقية نقتة ووزيره الشيخ أبي محمد عبد

الواحد ابن الشيخ أبي حفص الهنتاني جد الملوك الحفصيين بعد مراجعة وامتناع قال ابن خلدون امتنع الشيخ أبو محمد إلى أن بعث إليه الناصر في ذلك بابنه يوسف فأكره مجيئه وأذعن ويقال إن الناصر قال له يا أبا محمد أنت تعلم ما تجشمنه من المشاق والصوائر في استفاد هذا القطر ولا أمن عليه من عدو متوثب ولا يقوم بحمايته إلا أنا أو أنت فامض إلى حفظ ممالكنا المغربية وأقيم أنا أو قم أنت وارجع أنا فققعه الحياء حينئذ وأذعن للإقامة واشترط شروطه المعروفة وهي أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال ثم يعود إلى وطنه وأن يحكمه الناصر فيمن يحبسه معه ن الجند ويرضاه من أهل الكفاية وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل فقبل الناصر شروطه ولما عزم الناصر على النهوض إلى المغرب خرج إليه أهل تونس رافعي أصواتهم بين يديه إشفاقا من عود ابن غانية إليهم فاستدعى وجوههم وكلمهم بنفسه وقال إنا قد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم وأثرناكم به على شدة حاجتنا إليه وهو فلان فيباشر الناس بولايته وشيع الناصر إلى باج ورجع واليا على جميع بلاد إفريقية واستقل بأمرها ونهياها فمن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية وقفل الناصر

إلى المغرب فدخل مراكش في ربيع سنة أربع وستمائة ولما استقر بالحضرة وفدت عليه الوفود وهنأته الشعراء بالفتح فكان من ذلك ما أنشده ابن مرج الكحل وهو قوله ولما توالى الفتح من كل جهة ولم تبلغ الأوهام في الوصف حده تركنا أمير المؤمنين لشكره بما أودع السر الإلهي عنده فلا نعمة إلا تؤدي حقوقها علامته بالحمد لله وحده فاستحسن الكتاب منه ذلك ووقع أحسن موقع وأشار بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين فإنها كانت أن يكتب السلطان بيده بخط غليظ في رأس المنشور الحمد لله وحده وقد تقدم ذلك والله أعلم فتح جزيرة ميورقة كانت جزيرة ميورقة لبني غانية المسوفيين من عهد علي بن يوسف بن تاشفين الممتوني وكان يعقوب المنصور قد بعث إليها أسطوله مرارا فامتنتت عليه ولما ولي ابنه ناصر وغزا إفريقية وجه إليها من ثغر الجزائر أسطولا مع عمه السيد أبي العلاء والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص فنازلوها ثم اقتحموها عنوة وقتلوا صاحبها عبد الله بن إسحاق المسوفي وانصرف السيد إلى مراكش بعد أن ولي عبد الله بن طاع الله الكومي ووفد أهلها على الناصر فأكرم وفادتهم وولي القضاء عليهم الفقيه الجليل المحدث أبو محمد عبد الله بن سليمان الأنصاري المعروف بابن حوط الله ذكره ابن الخطيب في الإحاطة فقال كان مشهورا بالعقل والفضل معظما عند الملوك معلوم القدر لديهم يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية مقاما في ذلك ذا بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسلا وميورقة قظاظر بالعدل

وعرف بما أبطن من الدين والفضل وكان من العلماء العاملين مجانيا لأهل البدع والأهواء بارع الخط حسن التقييد على غير ذلك ثم ولي الناصر على ميورقة عمه اليد أبو زيد وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر وبعث السيد وليها السيد أبو عبد اله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ثم أبو يحيى بن علي بن أبي عمران التينمالي ومن يده أخذها التصاري سنة سبع وعشرين وستمائة وكان الحادث بها عظيما ثورة ابن الفرس وما كان من أمره كما عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس منطبق العلماء بالأندلس ويعرف بالمهر وحضر مجلس يعقوب المنصور في بعض الأيام وتكلم بما خشي عاقبته في عقده فخرج من المجلس واختفى مدة ثم القحطاني المراد بقوله لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه يملأها عدلا كما ملئت جورا الحديث وكان مما نسب إليه من الشعر قوله قولاً لأبناء المؤمن بن علي تأهبوا لوقوع الحادث الجلل قد جاء سيد قحطان وعالمها ومنتهى القول والغلاب للدول والناس طوع عصاه وهو سائقهم بالأمر والنهي بحر العلم والعمل وبادروا أمره فانه ناصره والله خادع أهل الزيف والميل فبعث الناصر إليه الجيوش فهزموه وقتل وسبق رأسه إلى مراكش فنصب بها وكنت الفتنة وقد ثار أيضا في سنة ستمائة رجل من آل البيت من العبيديين واسمه محمد بن عبد الله بن العاضد هو آخر خلفاء الشيعة بمصر فثار حافده محمد بن عبد الله المذكور بجبال ورغة من أحواز فاس فظفر به

وقتل وعلق رأسه بباب الشريعة أحد أبواب فاس وأحرق جسده في وسط الباب المذكور وركبت مصارعه فسمي الباب باب المحروق بعد أن كان يسمى باب الشريعة ثم في سنة عشر وستمائة ثار ولد هذا المحروق بجبال غمارة وادعى انه الفاطمي وتبعه خلق كثير من أهل الجبل والبادية فبعث إليه الناصر جيشا فظفر به وقتل وفي سنة إحدى وستمائة بنى عامل الريف من قبل الناصر واسمه يعيش سور بادس ولنديه ومليلية حياطة وتحصينا ثم فجأة العدو وفي سنة أربع وستمائة أمر الناصر بتجديد سور مدينة وجدة وإصلاحها فشرع فيك في فاتح رجب من السنة المذكورة وفيها أيضا أمر الناصر ببناء دار الوضوء والسقاية بإزاء جامع الأندلس بفاس فبنيت وجلب إليها الماء من العين التي خارج باب الحديد وأمر ببناء الباب الكبير المدرج الذي يحصن الجامع المذكور وأنفق في ذلك كله من بيت المال وفيها أيضا أمر ببناء مصلى القرويين وأمر أن لا يصلى بمصلى الأندلس فأقام الناس بعودة القرويين ثلاث سنين ثم عادوا يصلون بالأندلس والقرويين معا كما كانوا أولا بعد أن شهد أنها قديمة وفي شوال من السنة المذكورة نهض الناصر من فاس إلى مراكش فأقام بها إلى أن كان ما نذكره

غزة العقاب التي محص الله فيها المسلمين ثم اتصلت الأخبار بالناصر وهو بمراكش أن الفتح لعنه الله قد استطال على ثغور المسلمين بالأندلس وأنه يغير على قراها وينهب الموال ويسبي النساء والذرية فأهمه ذلك وأقلقه وكتب إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص صاحب إفريقية يستشيريه في الغزو فأبى عليه فخالفه وأخذ في الحركة للجهاد وكان الناصر معجبا برأيه مستبدا بأموره ففرق الأموال على القواد والأجناد وكتب إلى جميع بلاد إفريقية والمرغوب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار فأجابته خلق كثير وأزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجل تخرج للجهاد فتقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار وتسارع الناس إليه خفافا وتقالا من البوادي والأمصار فلما تكاملت لديه الحشود وتوافقت بخصرته الجنود خرج من مراكش في تاسع عشر شعبان سنة سبع وستمائة فأنهى إلى قصر المجاز فأقام به وشرع في إجازة الجيوش من أوائل شوال إلى أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة فتلاق هنالك قواد الأندلس وفقهاؤها وروساؤها وأقام بطريف ثلاثا ثم نهض إلى إشبيلية في

أمام لا تحصي وجيوش لا تستقصي قد ملأت السهل والوعر حكي بعض الثقافات من مؤرخي المغرب أنه اجتمع مع الناصر في هذه الغزوة من أهل المغرب والأندلس ستمائة ألف مقاتل وكان الناصر رحمه الله قد أعجبه ما رأى من كثرة جنوده وأيقن بالظفر فقسم الناس على خمس فرق فجعل العرب فرقة وزناتة وصنهاجة والمصامدة و غمارة وسائر أصناف قبائل المغرب فرقة وجعل المتطوعة فرقة وجعل جند الأندلس فرقة والموحدين فرقة وأمر كل فرقة أن تنزل ناحية واهتزت جميع بلاد

الفرنج لجوازه وتمكن رعيه في قلوبهم فأخذوا في تحصين بلادهم وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم وكتب إليه أكثر أمرائهم يسألونه السلم ويطلبون منه العفو وقد علمه منهم ملك بنبلونة مستسلما خاضعا طالبا للصلح فيقال إنه قدم بين يديه كتاب النبي كتيبه إلى هرقل ملك الروم يستشفع به وقد كان هذا الكتاب وقع إليه ورائته من بعض سلفه فاحتفل الناصر لقدمه وصف له الجيوش من باب مدينة قرمونة إلى اب إسبيلية أربعين ميلا ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين وصرفه إلى بلاده مكرما مسعفا بجميع مطالبه وعند ابن خلدون أن الذي وفد عليه الناصر في هذه الغزوة هو البيوج أحد الملوك الثلاثة الذين شهدوا وقعة الأراك قال وهو الذي مكر بالناصر يوم العقاب قدم عليه وأظهر له التصح وبذل له أموالا ثم غدر به وجر عليه الهزيمة والله أعلم ثم خرج الناصر من إسبيلية غازيا بلاد قشتالة في أوائل صفر سنة ثمان وستمائة فسار حتى نزل حصن سلبطرة وهو حصن منيع وضع على قمة جبل وقد تعلق بأكتاف السحاب ليس له مسلك إلا من طريق واحد في مضائق وأوعار فنزل عليه لناصر وأدار به الجيوش ونصب عليه أربعين منجنيقا فهتك أرباضه ولم يقدر منه على شيء قالوا وكان وزيره أبو سعيد بن جامع قد تمكن من الناصر فأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوي الحنكة والرأي منهم عن بساطة وانفرد هو به فكان يشير على لناصر في غزوته هذه بآراء كانت سبب الضعف والوهن وجلبت الكرة على المسلمين من ذلك أن الناصر لما أعياه أمر الحصن عزم على النهوض عنه إلى غيره فأشار عليه ابن جامع بأن لا يتجاوزة حتى يفتحه فيقال إنه أقام على ذلك الحصن ثمانية أشهر فنيت فيها أزواد الناس وقتل علوفاتهم وكنلت عزائمهم وفسدت نياتهم وانقطعت الأمداد عن

المحلة فغلت بها الأسعار ودخل فصل الشتاء فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضر ويقال إنه من طول مقام الناصر على ذلك الحصن عتس الخطاف في جانب خبائه وباض وأفرخ وطارت فراخه وهو مقيم على حاله واتصل بالفنش لعنه الله ما آل إليه أمر المسلمين من الضجر وقلة المادة وتشوش البواطن واختلاف الرأي فاعتتم الفرصة وبعث الحاشرين في مدانته ودعا كل من قدر على حمل السلاح من رعيته فاجتمع له من ذلك ما لا حصر له ثم خالف الناصر إلى قلعة رباح فنزلها وبها يومئذ أبو الحجاج يوسف بن قاسم من قواد الأندلس وزعمائها كان قد ترتب في ذلك الحصن في جماعة من الخيل لحمايته وضبطه فحاصره الفنش وبالغ في التصبيق عليه فكان ابن قاسم يكتب لأمير المؤمنين الناصر يعلمه بحاله ويستمدد على عدوه وهو على حصن سلبطرة فكان الوزير ابن جامع إذا وصلت إليه كتب ابن قاسم أخفاها عنالناصر لنلا يرحل عن الحصن قبل فتحه فلما طال الحصار على ابن قاسم وفنى ما عنده من الأقوات والسلاح وينس من إمداد الناصر إياه وخشي على من في الحصن من النساء والذرية صالح الفش على تسليم الحصن له وخروج المسلمين أميين على أنفسهم ففعل واستولى الفنش على قلعة رباح وسار ابن قاسم إلى الناصر ليجتمع به ويعلمه بالأمر على وجهه وسار معه صهره له بعد أن عزم ابن قاسم عليه أن يرجع فأبى وقال إن قتلت قتلت معك ولما وصل إلى الوزير ابن جامع أمر بحبسه وحبس صهره معه ثم دخل على الناصر فقال له إن ابن قاسم قد دفع الحصن إلى العدو ثم قدم عليك وأراد الدخول عليك وكان الناصر قد تغير باطنه على أهل الأندلس واتهمهم بكتمان أمر العدو عنه حين كان بمراكش فلما قدم ابن قاسم في هذه المرة وقال له ابن

جامع ما قال أمر يقتله هو وصهره قطعا بالرماح رحمهما الله فحقدت جيوش الأندلس على ابن جامع وفسدت نياتهم على الناصر وأحس ابن جامع بذلك فأمر بإحضار قوادهم فحضروا بين يديه فقال اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم كما قال الله تعالى لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا وسننظر بعد هذا في أمر كل فاجر ولما علم النصر بحال الفنش وما هو عليه من القوة وكثرة الجموع واستيلائه على قلعة رباح التي هي أمنع ثغور المسلمين شق ذلك عليه وامتنع من الطعام والشراب حتى مرض من شدة الوجد ثم شدد في قتال سلبطرة وبذل الأموال الجلبلة حتى فحها صلحا وذلك في أواخر ذي لاجبة من سنة صمان وستمائة ثم زحف الفنش إلى الناصر ونهض الناصر إليه فالتقى الجمعان بموضع يعرف بحصن العيقان فضرب لمصاف وضرب للناصر قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة وقعد أمامها على درفته وفرسه قائم بإزائه ودارت العبيد بالقبعة من كل ناحية ومعهم السلاح التام ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنشر فتقدمت إليهم المتطوعة وحملوا عليهم أجمعون وكانوا مائة وستين ألفا فغابوا في صفوفهم وانطبقت عليهم الفرنج فاقتتلوا قتلا شديدا فاستشهد المتطوعة عن آخرهم هذا وعساكر الموحدين والعرب حملة منكورة فلما انتشب القتال بين الفريقين فرقت قواد الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حققوه على ابن جامع في قتل ابن قاسم أولا وتهديم وطرده لهم ثانيا فجزوا الهزيمة على المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله وتبعهم قبائل البربر والموحدون العرب وركبتهم الفرنج بالسيف وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الداشرة التي دارت عليه من العبيد

والحشم فألوهما كالبنيان المرصوص لم يقدرها منها على شيء ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد وهي مشرعة إليهم فدخلوا فيها والناصر قاعد على درفته أما خبائه بقول صدق الرحمن وكذب الشيطان حتى كانت الفرنج تصل إليه وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف ثم أقبل إليه بعض فرسان العرب على فرس له أنثى فقال له إلى متى قعودك يا أمير المؤمنين وقد نفذ حكم الله وتم أمره وفنى المسلمون فعند ذلك قام الناصر إلى جواد له سابق كان إمامه فأراد أن يركبه فترجل العربي عن فرسه وقال له اركب هذه الحرة فإنها لا ترضى بعار فلعل الله ينجيك عليها فإن في سلامتك الخير كله فركبها الناصر وركب العربي جواده وتقدم أمامه في كوكبة عظيمة من العبيد محيطة بهم والفرنج في أعقابهم تقتلهم ونادى منادي الفنش يومئذ ألا لا أسر إلا القتل ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره فحكمت سيوف الفرنج في المسلمين إلى الليل وكانت هذه الرزية العظيمة يوم الإثنين خامس عشر سنة تسع وستمائة فذهبت قوة المسلمين بالمغرب ولأندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية مع الفرنج إلى أن تدارك الله رفق الأندلس بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني رحمه الله كما سنقص خبر ذلك مستوفى عند الوصول إليه إن شاء الله قال ابن الخطيب لما لحق الناصر بإسبيلية حمل السيف على طائفة كبيرة ممن توجهت إليهم الظنة وقال ابن خلدون ثم رجعت الفرنج إلى الأندلس بعد الكائنة للإغارة على بلاد المسلمين فلقبهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريبا من إسبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك

وفاة الناصر رحمه الله قال ابن أبي زرع لما قدم الناصر إلى مراكش منصرفا من وقعة العقاب أخذ البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر فبايعه كافة الموحدين وخطب له عل جميع منابر المغرب والأندلس في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة تسع وستمائة ولما تمت له البيعة دخل الناصر قصره واحتجب فيه عن الناس واتغمس في لذاته مصطحبا ومغتبطا إلى شعبان من سنة عشر وستمائة فمات مسموما بتدبير وزيره عليه في ذلك قال وكانت وفاته يوم الأربعاء الحادي عشر من شعبان المذكور وقال خلكان تقول المغاربة إن الناصر رحمه الله كان قد أوصى إلى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم ثم أراد أن يختبر قدر أمره عندهم فتتك وجعل يمشي في البستان ليلا فعندما رآه جعلوه غرضا لرماحهم فجعل يقول أنا الخليفة أنا الخليفة فما تحققوه حتى فرغوا منه والله أعلم بصحة ذلك قالت الصحيح في وفاة الناصر ما ذره الوزير ابن الخطيب في رقم الحل قال ثم صرف الناصر وجهه إلى غزو الأندلس في عزم لم يبلغ إليه ملك قبله ولما احتل رباط الفتح من سلا نزل به الموت فتوفي ليلة الثلاثاء عشر شعبان سنة عشر وستمائة فأنحل العزم وتفرقت الجموع والبقاء له وحده

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف المنتصر بالله ابن الناصر بن المنصور رحمه الله لما هلك محمد الناصر لدين الله ببيع ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب المنصور وهو ابن ست عشرة سنة ولقب بالمنتصر بالله وغلب عليه الوزير أبو سعيد بن جامع ومشيشة الموحدين فقاموا بأمره واستبدوا عليه وتأخرت بيعة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص من إفريقية لصغر سن المنتصر ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته حينئذ واشتغل المنتصر عن تدبير الأمر والجهاد بما يقتضيه الشباب وعقد للسادات على عملات ملكه فعقد للسيد أبي إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ويلقب بالظاهر على فاس وأعمالها وهو أخو المنصور ووالد عمر المرتضى الآتي ذكره وعقد لعمة السيد أبي إسحاق بن المنصور على إشبيلية وما اضيف إليها ولعمه أبي عبد الله محمد بن المنصور على بلنسية وشاطبة وأعمالها ولعمه أبي محمد عبد الله بن المنصور على مرسية ودانية وأعمالها وبعث معه الشيخ أبا زيد بن بركان وكان من أشياخ الموحدين وهاتهم وفي دولة المنتصر هذا فشل أمر الموحدين وذهبت ربحهم وأشرفت دولتهم على الهرم واستولى الفتن على المعامل التي أخذها المسلمون وهزم حامية الأندلس في كل جهة واستبدت السادة بالأطراف والتأثت الأمور بالأندلس والمغرب أجمع أما الأندلس فبتكالب العدو عليها وفناء حمايتها وأما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأمصاره من وقعة العقاب ثم ظهرت بنو مرين بجهة فاس سنة ثلاث عشرة وستمئة وكانوا موطنين بصحراء فيجيج وما والاها فاقتحموا المغرب في هذه السنين لخلاته

من الحامية واكتسحوا بسانطه بالغارث وانحازت رعاياه إلى المعامل والحصون وكثرت الشكايات بهم إلى المنتصر وهو مقيم بمراكش فكتب إلى السيد أبي إبراهيم صاحب فاس يأمره بغزوه فخرج إليهم وهو ببلاذ الريف فأوقعوا به وقعة شعاع كانت باكورة فتحهم وعاد السيد مفلولا إلى فاس وأصحابه عراة بين يديه يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف بالمشعلة فسميت السنة سنة المشعلة وكانوا قد أسروا السيد أبا إبراهيم ثم عرفوه فأطلقوه ثم ضمدت بنو مرين بعدها إلى تازا فقلوا حاميتها وعظمت شوكتهم بالمغرب على ما نذكره بعد أن شاء الله وفي سنة أربع عشرة وستمئة هزم المسلمون بقصر أبي دانس من الأندلس وهي من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب لأن العدو كان قد نزل قصر أبي دانس وحاصره فخرج إليه جيش إشبيلية وجيش قرطبة وجيش جيان وحشود بلاد غرب الأندلس لاستنقاذ قصر أبي دانس وكان ذلك بأمر المنتصر فساروا يؤمون العدو فلم تقع عينهم على عينه إلا وقد خامر قلوب المسلمين الرعب ولولا الأديار لما كان قد رسخ في نفوسهم من بأسه يوم العقاب فتكالب العدو بعدها على المسلمين وتمرس بهم وهن عليه أمرهم وخشعت نفوسهم له وملا فروا منه في هذه الخرجة ركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم ورجع الفتن إلى قصر أبي دانس فحاصره حتى اقتحمه عنوة وقتل جميع من به من المسلمين وفي سنة ثمان عشرة وستمئة توفي صاحب إفريقية الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص فبايع الموحدون بإفريقية ابنه أبا زيد عبد الرحمن فقام بالأمر وأطفا النائرة وافاض العطاء ومهد النواحي ورتب الأمور حتى ورد كتاب المنتصر من مراكش ثلاثة أشهر ن ولايته بتأخيره وتولية السيد أبي العلاء الكبير مكانه وهو إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن فقدم إفريقية في ذي القعدة سنة ثمان عشرة وستمئة والي

الهزائم على ابن غانية التائر بإفريقية حتى شرد إلى الصحراء وأبو العلاء هذا هو الذي بنى البرجين الذين على باب المهديّة وحصنها وهو الذي بنى برج الذهب بإشبيلية أيام ولايته عليها في دولة أبيه وأقام أبو العلاء بإفريقية إلى أن توفي بتونس منها في شعبان سنة عشرين وستمئة استولى على إفريقية بعده ابنه أبو زيد بن إدريس وساءت سيرته في الناس وأقام على ذلك إلى دولة العادل عبد الله بنا لمنصور صاحب مراكش فعزله وولى مكانه عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص ثم غلب عليه أخوه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص وتداول ملك إفريقية بنوه من بعده واستبدوا بها واقتطعوا عن نظر بني عبد المؤمن أصحاب مراكش فلم تعد إليهم بعد وأما يوسف المنتصر فإنه استمر مقيما بمراكش على لذاته إلى أن توفي وكان من خير وفاته أنه كان مولعا باتخاذ الحيوان واستنتاجه فكان يؤتى إليه بأصناف البقر من الأندلس فيرسلها في بيستانه الكبير من حضرة مراكش ويحمل بعضها على بعض للتناسل فخرج ذات يوم لللطوف على تلك البقر والنظر إليها فتوسط قطيعا منها وقد ركب فنتشا ص فأنكرته بقرة شرود كانت في ذلك القطيع فطعته في صدره طعنة أتت عليه من حينه وذلك في عشي يوم السبت الثاني عشرة من ذي الحجة سنة عشر بن وستمئة ولم يختلف إلا حملا من جارية له قال ابن خلكان لم يكن في بني عبد المؤمن أحسن وجها من المنتصر ولا أبلغ في المخاطبة إلا أنه كان مشغوبا براحته فلم يبرح عن حضرته فضعفت الدولة في أيامه والله تعالى أعلم

الخبر عن دولة أمير المؤمنين عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله لما هلك المنتصر في التاريخ المتقدم اجتمع الوزير ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبي محمد عبد الواحد بن يوسف وهو أخو المنصور قال ابن أبي زرع بايعوه على كره منه بقبّة المنصور من قصبية مراكش وهو يومئذ في سن الشيخوخة وكان عالما فاضلا متورعا فاستقام له الأمر نحو شهرين وخطب له في جميع أعمال الموحدين ما عدا مرسية فإن ابن أخيه السيد أبا محمد بن المنصور الملقب بالعدل كان واليا عليها وكان وزيره بها الشيخ أبا زيد بن بركانا لمعروف بالأصفر وكان من دهاء الموحدين وكان المنصور رحمه الله إذا راه يستعيز بالله من شره ويقول ما ذا يجري على يدك من الفتن يا أصفر وكان من خبره أنه لما بويح المخلوع أمر بإطلاق ابن بجران لأنه كان محبوبا على ما عند ابن خلدون فأطلق ثم صده ابن جامع عن ذلك وأنفذ أخاه أبا إسحاق في الأسطول ليغريبه إلى ميورقة فلأذ ابن بركان حينئذ يعبد الله بن المنصور صاحب مرسية ونزل منه منزلة الوزير وأغراه بالتوثب من بعد الناصر وقال له فيما قال إنك أحق بالخلافة من عبد الواحد أنت ولد المنصور وأخو الناصر وعم المنتصر ولك الرأي وحسن السياسة والحزم ولو دعت الموحدين إلى بيعتك لم يختلف عليك اثنان وكان الناس على كره من ابن جامع وولاة الأندلس يومئذ كلهم بنو المنصور فأصغى إليه عبد الله هذا وكان مترددا صفي بيعة عمه فيرز إلى مجلس حكمه واستدعى من مرسية وأعمالها من الموحدين والفقهاء والأشياخ فدعاهم إلى بيعته فبايعوه وتسمى بالعدل وكان إخوته أبو العلاء

الأصغر صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة فبايعوه سرا وكان أبو محمد بن أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي صاحب جيان وقد عزله المخلوع بعمه أبي الربيع بن أبي حفص فانتفض وبايع للعدل وزحف مع أبي العلاء صاحب قرطبة وهو أخو العادل إلى إشبيلية وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع فدخل في دعوتهم وامتنع السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخو البياسي عن بيعة العادل وتمسك بطاعة المخلوع وخرج العادل من مرسية إلى إشبيلية فدخلها مع أبي زيد بن بركان وبلغ الخبر إلى مراكش فاختلّف الموحدون على المخلوع وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه إلى هسكورة لكراهيتهم له وجرت خطوب أفضت إلى خلع عبد الواحد وقتله وفي القرطاس أن عبد الواحد العادل كتب إلى أشياخ الموحدين الذين بحضرة مراكش يدعوهم إلى بيعته وخلع عبد الواحد ووعدهم على ذلك الأموال الجزيلة والمنازل الرفيعة والولايات الجليلة فساروا إلى ذلك ودخلوا على عبد الواحد وتهددوه بالقتل إلا أن يخلع نفسه وبياع للعدل فأجابهم إلى ذلك فخرجوا عنه ووكلوا بالقصر من يحفظه وكان ذلك يوم السبت الحادي والعشرين سنة إحدى وستمئة فلما كان يوم الأحد بعده دخلوا على عبد الواحد القصر وأحضروا القاضي والفقهاء والأشياخ فاشهد بالخلع وبياع للعدل ثم دخلوا عليه بعد مضي ثلاث عشرة ليلة من خلعه فخفقوه حتى مات وانتبهوا قصره واستولوا على أمواله وحرّمه فكان عبد الواحد هذا أول من خلع وقتل من بين عبد المؤمن وصار أشياخ الموحدين لخلفائهم كالأتراك لبني العباس فكان فعلهم ذلك سببا لذهاب ملكهم وانقراض دولتهم والله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وكانت وفاة عبد الواحد المخلوع خامس رمضان المعظم سنة إحدى وعشرين وستمئة

الخبر عن دولة أبي محمد عبد الله العادل ابن المنصور رحمه الله ببيع له البيعة الأولى مرسية من بلاد الأندلس منتصف صفر سنة إحدى وعشرين وستمئة وتلقب بالعدل في أحكام الله ثم خلس له الأمر وبايعه كافة الموحدين وخطب له بحضرة مراكش أواخر شعبان من السنة المذكورة وتوقف عن بيعته السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخو البياسي كما ذكرناه آنفا وكان واليا على بلنسية وشاطبة ودانية ولما رأى السيد أبو

محمد البياسي أخاه السيد أبا زيد توقف عن بيعه العادل وضبط بلاده ثار هو ببياسة وما انضاف إليها من قرطبة وجيان وقباجطة وحصون الثغر الأوسط وتلقب بالظافر وإنما دعي البياسي لقيامه من بياسة فوصلت بيعة الموحدين من مراکش إلى العادل ومعها كتاب أبي زكريا يحيى ابن الشهيد شيخ هنتانة بقصة المخلوع وما كان من أمره فصادف وصولهما هيجان هذه الفتنة فشغل العادل بها عن مراکش وبعث أخاه السيد أبا العلاء الأصغر وهو إدريس بن المنصور في جيش كثيف إلى البياسي فحاصره ببياسة ولما اشتد عليه لاحتصار أظهر الطاعة والانقياد وبيع للعادل حتى إذا أفرج عنه أبو العلاء عاد إلى النكت وبعث إلى الفتح يستنصره على العادل وضمن له أن يزل له عن بياسة وقباجطة فكان أول من سن إعطاء الحصون والبلاد للفرنج فوجه إليه الفتح بجيش من عشرين ألفاً ولما توافق لديه جموع الفرنج نهض من قرطبة يريد غبيلية حتى إذا دنا منها خرج إليه السيد أبو لاعلاء الأصغر وهو الذي دعي بالمأمون فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم السيد أبو العلاء واستولى البياسي والفرنج على محلته بما فيها من أثاث وسلاح ودواب وغير ذلك

ولما رأى العادل ما وقع بأخيه وجنده خشي أن يتقادم داء البياسي ويمتد عياب فتنته إلى مراکش فترك أخاه أبا العلاء قبائله وعبر البحر إلى العودة ولما احتل بقصر المجاز دخل عليه عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص المدعو بعبو فقال له العادل كيف حالك فأشده حال متى علم ابن المنصور بها جاء الزمان إلى منها تائباً فاستحسن ذلك منه وولاه إفريقية وهذا البيت لأبي الطيب المتنبى وإنما تمثل به عبو لموافقة اسم منصور فيه لاسم والد العادل فحسن التمثيل به وانتهى العادل في سيره إلى سلا فأقام بها وبعث عن شيوخ جشم عرب تامسنا وكان لابن يرجان عناية واختصاص بهلال بن حميدان أمير الخلط فتناقل جرمون بن عيسى أمير سفيان بن أبي حفص وتغير لابن يرجان ففسد باطنه وسعى في إفساد الدولة وغلب طريقه إليها من العرب شددان ثم دخلها واستوزر أبا زيد بن عبد الواحد بن أبي حفص وتغير لابن يرجان ففسد باطنه وسعى في إفساد الدولة وغلب أبو زكريا ب الشهيد شيخ هنتانة ويوسف بن علي شيخ تينمائل على أمر العادل ثم خالفت عليه عرب الخلط وهسكورة وعثوا في نواحي مراکش وخرّبوا بلاد دكالة فخرج إليهم ابن يرجان فلم يغب شيئا فأنفذ إليهم العادل عسكرياً من الموحدين لنظر إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص فتنهزم وقتل واضطربت الأحوال على العادل وخرج ابن الشهيد أبي حفص فانهزم وقتل واضطربت الأحوال على العادل وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي إلى قبائلهم للحشد ومدافعة هسكورة والعرب فاتفقا أيضاً على خلع العادل واضطربت الأمور ولما انتهى إلى أبي العلاء صاحب الأندلس خبر أخيه العادل وما هو فيه بمراكش من الاضطراب دعا لنفسه بإشبيلية فيبيع بها وأجابه أكثر أهل الأندلس وتلقب بالمأمون وبيع له السيد أبو زيد صاحب بلنسية وهو أخو البياسي وكان ذلك في أوائل شوال سنة أربع وعشرين وستمائة

ولما تمت بيعته كتب إلى الموحدين الذين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ويعلمهم باجتماع أهل الأندلس والموحدين الذين بها عليه ووعدهم في ذلك ومناهم فكان منهم بعض توقف ثم أجمع رأيهم على مبايعته وخلع أخيه العادل فدخلوا عليه قصره وسأله أن يخلع نفسه فامتنع فوثبوا عليه ودسوا رأسه في خصة ماء كانت هناك وقالوا له لا تفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع فقال اصنعوا ما بدا لكم والله لا أموت إلا أمير المؤمنين فوضعا عامته في عنقه وخنقوه ورأسه في الخصة حتى فاظ وكان خيراً فاضلاً رحمه الله وكانت وفاته في الحادي والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة وكتبوا بيعتهم إلى أبي العلاء المأمون وبعثوا بها إليه مع البريد ثم بدا لهم في بيعه المأمون بعد انفصال البريد عنهم فنكثوا وبيعوا يحيى بن الناصر بن المنصور واضطربت الأحوال بالمغرب والأندلس وطما عباب الفتن وكان ما نذكره الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له كان المأمون وهو أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور لما بلغه انتفاض الموحدين والعرب بالحضرة على أخيه وتلاشي أمره ثم لما انفصل البريد ببيعته من الحضرة ندم الموحدون على ذلك لما يعلموه من شهامته وصرامته وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف وتخوفوا أن يأخذهم بدم عمه عبد المخلوع ثم أخيه عبد الله العادل فاتفق رأيهم على مبايعة يحيى بن الناصر بن المنصور وهو شاب غر كما يقل عذاره وإنما وقع اختيارهم عليه ليكون أطوع لهم فإن سنه يومئذ كانت ستة عشر سنة

فبايعوه بجامع المنصور من قصبه مراكش بعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة وامتنع عرب الخلط وقبائل هسكورة من بيعته وقالوا قد بايعنا المأمون فلا نتكث بيعته وتأخر قدوم المأمون إلى مراکش وبقي بالأندلس يأتي شرحها وأقام يحيى بمراكش واستتب أمره بها بعض الشيء وجهز جيشاً من الموحدين والجند إلى قتال الخلط وهسكورة وهم يومئذ في طاعة المأمون فانهزم جيش يحيى وقتل منه خلق كثير وعاد مفلولاً إلى مراکش ثم اطلع يحيى على مداخلة أبي زيد بن يرجان للعرب وهسكورة في الغارة على مراکش واطلع على ذلك أيضاً أبو زكريا يحيى بن الشهيد فقتل أبا زيد بن يرجان وابنه عبد الله ونصب رؤوسهما على باب الكحل وطوف أجسادهما بأسواق المدينة ثم اضطربت الأحوال على يحيى وانتفضت البلاد وغلت الأسعار وعم الخراب والفساد بلاد المغرب واستحوذ بنو مريين على ضواحيه وضابقت الموحدين في كثير من أمصاره واقتضوا جبايته ونبتت الثوار في الأقطار على ما نذكره ثورة محمد بن أبي الطواجين الكتامي بجبال غمارة ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة ثار بجبال غمارة محمد بن أبي الطواجين الكتامي المتنبى وكان أبوه من قصر كتامة منقيضاً عن الناس وكان ينتحل صناعة الكيمياء فكان يلقب بأبي الطواجين لكثرة الظروف التي كان يستعملها في ذلك بزعمه وتلقن ذلك عنه ابنه هذا ثم ارتحل إلى سبتة ونزل على بني سعيد بأحوازها وادعى صناعة الكيمياء فتبعه الغوعاء ثم ادعى النبوة وشرع الشرائع وأظهر أنواعاً من الشعبة فكثرت تابعوه ثم اطلعوا على خبثه فنبذوا إليه عهده وزحف إليه عساكر سبتة ففر عنهم ثم قتله

بعض البرابرة غيلة بواد لاو بين بلاد بني سعيد وبلاد بني زيات وابن أبي الطواجين هذا هو الذي تسبب في قتل الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه على ما نذكره بعد إن شاء الله أخبار الثوار وما آل إليه أمر الموحدين بها لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب وكثرت الفتن في أقطاره ونواحيه وانتزى السادات منهم بنواحي الأندلس كل في عمله واستظهر كل واحد منهم على أمره بالطاغية ونزلوا له عن كثير من الحصون فسدت من أجل ذلك ضمائر أهل الأندلس عليهم وتصدى للثورة على لاموحدين محمد بن يوسف بن هود الجذاميين ملوك الطوائف بسرقسطة وكان يؤمل لها وربما امتحنه الموحدين لذلك مرات فخرج في نفر من الأجناد سنة خمس وعشرين وستمائة ووجه إليه والي مرسية يومئذ السيد أبو العباس بن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن عسكرياً فهزموهم وزحف إلى مرسية فدخلها واعتقل السيد بها وخطب للخليفة المستنصر العباسي صاحب بغداد وفي ذلك يقول ابن الخطيب في رقم الحل عند ذكره لبني هود هؤلاء وكان من أعقابهم الأمير محمد بن يوسف الأخير وكان يأسلاً شديد البأس وبيع المستنصر العباسي ثم زحف إليه أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وهو أخو البياسي المتقدم ذكره من شاطبة وكان والياً بها كما مر فهزمه ابن هود ورجع إلى شاطبة واستجاش بالمأمون وهو يومئذ بإشبيلية فخرج في العساكر ولقيه ابن هود فانهزم واتبعه المأمون إلى مرسية فحاصره مدة وامتنعت عليه فأقلع عنه ورجع إلى إشبيلية ثم انتفض على السيد أبي زيد ببلنسية زبان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن

مردنيش وخرج عنه على أيدة سنة ست وعشرين وستمائة وكان بني مردنيش هؤلاء عصابة وأولي باس وقوه فتوقع أبو زيد اختلال أمره وبعث إليه ولاطفه في الرجوع فأبى فخرج أبو زيد من بلنسية ولحق بطاغية برشلونة ودخل في دين النصرانية والعباد بالله وبيع أهل شاطبة لابن هود ثم تابعت بلاد الأندلس على بيعته ودخل في طاعته أهل قرطبة وإشبيلية بعد رحيل المأمون عنه إلى مراکش ولم يبق للموحدين بالأندلس سلطان ثم في سنة تسع وعشرين وستمائة ثار محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر بحصن أرجونة من أعمال قرطبة ودعا لأبي زكريا الفصلي صاحب إفريقية ثم دخل في طاعته أهل قرطبة وتنازع ابن الأحمر وابن هود رئاسة الأندلس وتجادبا جبل الملك بها وكانت خطوب أسولى لطاغية فيها على كثير من حصون الأندلس ثم استقر قدم ابن الأحمر في الملك وأورثه بنيه من بعده والله غالب على أمره قدوم أبي العلاء المأمون بن المنصور من الأندلس إلى مراکش وما اتفق له في ذلك قد تقدم لنا أن الموحدين بمراكش خنقوا العادل وبيعوا أخاه المأمون وبعث انفصال البريد بالبيعة دنموا وبيعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر فوصلت بيعة الموحدين إلى المأمون وهو يومئذ بإشبيلية فسر بها وأمر بإقراها على

منابر الأندلس ثم أخذ في التجهيز والحركة إلى مراكش دار ملكهم فسار حتى إذا وصل إلى الجزيرة الخضراء اتصل به الخبر أن الموحدين قد نكثوا بيعته وبيعوا ابن أخيه يحيى فوجم لذلك وأطرق ملياً ثم أنشد ممتثلاً بقول حسان رضي الله عنه لتسمعن وشيكا في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثماناً

ثم كتب من حينه إلى ملك لإشتالة يستنصر على الموحدين ويسأله أن يبعث له جيشاً من الفرنج يجوز بهم إلى العودة لقتال يحيى ومن معه نم الموحدين فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلي بلاده يختارها هو وأن يبني بمراكش إذا دخلها لجيش النصرى الذين معه كنيسة يظهرن بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم وأن من أسلم منهم لا يقبل منه إسلامه ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بأحكامهم إلى غير ذلك فأسغفه المأمون في جميع ما طلبه منه وكان يحيى بن الناصر صاحب مراكش لما رأى اختلاف أحواله بها كما قلنا ومبايعته أكثر آله المغرب لعمه المأمون خرج فاراً بنفسه إلى تيمنل وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وستمانه ولما فر يحيى عن الحضرة قدم أشياخ الموحدين الذين بها واليا يضبطها للمأمون ريثما يقدم عليهم وجددوا له البيعة وكتبوا إليه يخبروه بفرار يحيى إلى الجبل ويرغبون إليه في القدوم عليهم وكتب عليه أيضاً هلال بن حميدان أمير الخلط واستمر يحيى معتصماً بالجبل أربعة أشهر ثم بدا له فعاد إلى مراكش وقتل عامل المأمون الذي قدمه الموحدين بها واستمر بها نحو سبعة أيام ثم خرج إلى جبل جليز وعسكر به وأقام منتظراً لقدم المأمون ودفاعه عن مراكش ثم بعث صاب قشتالة إلى المأمون جيشاً من اثني عشر ألفاً برسم الخدمة معه والمقاتلة دونه على الشروط المتقدمة وكان وصولهم إليه في رمضان سنة ست وعشرين وستمانه ثم عبر بهم من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في ذي القعدة من السنة المذكورة وهو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها فأراح بسبتة أياماً ثم نهض إلى مراكش حتى إذا دنى منها لقيه يحيى بجيوش الموحدين وذلك عشي يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الأول من السنة الداخلة فانهزم يحيى

وفر إلى الجبل وقتل كثير من جيشه ودخل المأمون حضرة مراكش وبيعاه الموحدون وصعد المنبر بجامع المنصور وكان علامة أدبياً بليغاً فخطب الناس ولعن المهدي على المنبر وقال لا تدعوه بالمهدي المصوم وادعوه بالغوي المذموم ألا لا مهدي إلا عيسى وإنا قد نبذنا أمره النحس ولما انتهى إلى آخر خطبة قال معشر الموحدين لا تظنوا أنني أنا إدريس الذي تدرس دولتكم على يده كلا إنه سيأتي بعدي إن شاء الله ثم نزل وأمر بالكتب إلى جميع البلاد بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة وتغيير سنته التي ابتدعتها للموحدين وجرى عليها سفهم ونعى عليها النداء للصلاة باللغة البربرية وزيادته في أذان الصبح والله الحمد وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي وأمر بتدوير الدراهم التي ضربها المهدي مربعة وقال كل ما فعله المهدي وتابعه عليه أسلافنا فهو بدعة ولا سبيل إلى إبقائه وأبداً في ذلك وأعاد ثم دخل قصره فاحتجب عن الناس ثلاثاً ثم خرج في اليوم الرابع فأمر بأشياخ الموحدين وأعيانهم فحضروا بين يديه فقال لهم يا معشر الموحدين إنكم قد أظهرتم علينا العناد وأكثرتم في لأرض الفساد ونقضتم العهود وبذلتهم في حربنا المجهود وقتلتهم الإخوان والأعمام ولم ترقبوا فيهم إلا ولا ذمام ثم أخرج كتاب بيعتهم الذي بعثوا به إليه واحتج عليهم بنكثهم الذي نكثوا بعده فقامت الحجة عليهم فبهتوا وسقط في أيديهم والتفت إلى قضية المكيدى وكان بازائه قد قدم معه إشبيلية فقال له ما ترى أيها القاضي في أمر هؤلاء الناكثين فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول فمن نكث فإنما ينكث على نفسه فقال المأمون صدق الله العظيم فإنما نكث فيهم بحكم الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ثم أمر بجميع أشياخ الموحدين وأشرفهم فحسبوا إلى مصارعهم وقتلوا من عند آخرهم ولم يبق على كبيرهم ولا صغيرهم حتى أنه أتى بابن أخت له صغير يقال إن سنة كان ثلاث عشرة

سنة وكان قد حفظ القرآن فلما تقدم للقتل قال له يا أمير المؤمنين اعف عني لثلاث قال ما هن قال صغر سني وقرب رحمي وحفظي لكتاب الله العزيز فيقال إن المأمون نظر إلى القاضي كالمستشير له وقال له كيف ترى قوة جاش هذا الغلام وإقدامه على الكلام في هذا المقام فقال القاضي يا أمير المؤمنين إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً فأمر به فقتل رحمه الله ثم أمر بالرووس فعلقت بدائر سور المدينة ذكر ابن أبي زرع أنها كانت تنيف على أربعة آلاف رأس وكان الزمان زمن قبط فننتت بها المدينة وتآذى الناس بريحتها فرجع إليه ذلك فقال إن ههنا مجانين وأن تلك الرووس حروز لهم لا يصلح حالهم إلا بها وإنها لعطره عند المحبين وننته عند المبغضين ثم أنشد أهل الحرابة والفساد من الورى بالقطع والتعليق في الأشجار ففساده فيه الصلاح لغيره يعززون في التشبيه للذكاء فرووسهم ذكرى إذا ما أبصرت فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار وكذا القصاص حياة أرباب النهي والعدل مألوف بكل جوار لو عم حلم الله سائر خلقه ما كان أكثرهم من أهل النار وهذه الفتكة التي ارتكبها المأمون من الموحدين أنست فتكة الحارث بن ظالم والبراض الكنانى والحجاف بن حكيم هي التي استأصلت جمهورهم وأماتت نخوتهم وإذن المأمون للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة وسط مراكش على شرطهم المتقدم فضرربوا بها نواقيسهم وكانت الكنيسة في الموضع المعروف بالسجينة وقبض على قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو محمد عبد الحق بن عبد لاحق فقيده ودفعه إلى هلال بن حميدان الخاطي فحبسه حتى أفتدي منه بستة آلاف دينار وأقام المأمون بمراكش خمسة أشهر ثم نهض إلى الجبل لقتال

يحيى بن الناصر ومن معه من الموحدين وذلك في رمضان سنة سبع وعشرين وستمانه فالتقى معه على الموضع المعروف بالكاعة فانهزم يحيى وقتل من عسكره ومن أهل الجبل خلق كثير سبق من رؤوسهم إلى مراكش أربعة آلاف رأس وفي هذه السنة استبد الأمير أبو زكريا ابن الشيخ أبي محمد بن حفص الهنتاني بإفريقية وخلع طاعة الموحدين وفي سنة ثمان وعشرين بعدها نفذت كتب المأمون إلى سائر البلاد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيها خرجت بلاد الأندلس كلها من ملك الموحدين وفاهم عنها ابن هود لثائر بها وقتلتهم العامة في كل وجه وفي سنة تسع وعشرين بعدها خر على المأمون أخوه السيد أبو موسى عمران بن المنصور بمدينة سبتة وتسمى المؤيد فاتصل الخبر بالمأمون فخرج عليه وبلغه في طريقه أن قبائل بني فازاز ومكلاثة قد حاصروا مكناسة وعاثوا في نواحيها فسار إليهم وحسم مادة فسادهم وعاد إلى سبتة فحاصر بها أخاه السيد أبا موسى مدة فلم يقدر منه على شيء وكانت سبتة من أحصن مدن المغرب ولما طالت غيبة المأمون عن الحضرة اغتتم يحيى بن الناصر الفرصة فنزل من الجبل واقتمها مع عرب سفيان وشيخهم جرمون بن عيسى ومعهم أبو سعيد بن واندوين شيخ هنتاة وعاثوا فيها وهدموا كنيسة النصرى التي بنيت بها وقتلوا كثيراً من يهودها وسبوا أموالهم ودخل يحيى القصر فحمل منه جميع ما وجده به إلى الجبل واتصل الخبر بالمأمون وهو على حصار سبتة فارتحل عنها مسرعاً إلى مراكش وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة ولما أبعده عن سبتة عبر أبو موسى صاحبها إلى الأندلس فبايعه ابن هود وأعطاه سبتة فعوضه ابن هود عنها بالمرية فكان السيد أبو موسى بها إلى أن مات وانتهى الخبر إلى المأمون وهو في طريقه بأن ابن هود قد ملك سبتة فتوالت عليه الفجائع فمرض أسفا ومات بوادي العبيد وهو قافل من حصار

سبتة وكانت وفاته في آخر يوم من سنة تسع وعشرين وستمانه وكانت أيامه أيام شقاء وعناء ومنازعة افتقرت دولة الموحدين فيها فرقتين فرقة معه وفرقة مع يحيى بن الناصر وكان محق دولة الموحدين واستنصل أركانها وذهاب نخوتها على يده قالوا ولولا أن الأمور قد استحال إلى ما ذكر لكان المأمون موافقاً لأبيه المنصور في كثير من الخلل ومتبعا سنته في الأحوال وكان المأمون فصيح اللسان فقيها حافظاً للحديث ضابطاً للرواية عارفاً بالقرارات حسن الصوت والتلاوة مقدماً في علم اللغة والعربية والأدب وأيام الناس كاتباً بليغاً حسن التوقيع لم يزل سائر أيام خلافته يسرد كتب الحديث مثل البخاري والموطأ وسنن أبي داود وكان مع ذلك شهماً حازماً مقدماً على عظام الأمور ولي الخلافة والبلاد تضطرم ناراً والممالك قد توزعت الشوار فكان المأمون إذا فكر في حال الثوار وما آل إليه حال لا دولة معهم وما دهام من كثرتهم ينشد ممتثلاً تكاثرت الطبا على خدش فما يدري خدش ما يصيد يشير إلى حاله معهم وأنه لم يدري ما يتلأفي من ذلك والله تعالى أعلم الخبر عن دولة أبي محمد عبد الواحد الرشيد ابن المأمون رحمة الله لما هلك المأمون بويج ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد قال ابن أبي زرع بويج له بالخلافة بوادي العبيد ثاني يوم من وفاة أبيه وهو الأحد فاتح محرم سنة ثلاثين وستمانه وسنه يومئذ أربع عشرة سنة وكان الذين أخنوا له البيعة كانوا بن جرمون

السفياني وشعيب بن أوقايط الهسكوري وفرنسيل قائد جيش الفرنج فإنه لما مات المأمون كتمت جاريته بعد موته وسامها حجاب وكانت فرنجية الأصل ومن دهاه النساء

وعقلانهم وهي أم الرشيد فاستدعت هؤلاء نفر الثلاثة وكانوا عمدة جيش المأمون يركب كل واحد منهم في أزيد من عشرة آلاف من قومه وأعوانه ولأن أهل الحل والعقد من الموحديين قد أتت عليهم فتكت المأمون فجاءوا إليه فأعلمتهم بموت الخليفة ورغبت إليهم في بيعة ابنها الرشيد والقيام معه وبذلت لهم على ذلك أموالا جمة ووعدهم مع ذلك أنهم إذا فتحوا الحضرة وكان يحيى قد استولى عليها كما قلنا تجعلها لهم قينا فبإيعوه وأخذوا البيعة له على سواهم فبإيع الناس طوعا وكرها خوفا من سيفهم ولما تم أمره جعل أباه في تابوت وقدمه أمامه وسار إلى مراکش وسمع يحيى وأهل مراکش بما شرطته حجاب للقواد الثلاثة من جعل مدينتهم فينا فخرجوا لقتال الرشيد بأجمعهم واستخلف يحيى على مراکش أبا سعيد بن وانودين والتقى الجمعان فاقتتلوا فانهزم يحيى وقتل أكثر من معه وصبح الرشيد مراکش فتحصن منه أهلها وصالح قائد الفرنج وأصحابه على فيئها بخمسة آلاف دينار ودخل الرشيد مراکش واستقر بها وكان قد وصل في صحبة عمه السيد أبو محمد سعد بن المنصور فحل من تلك الدولة بمكان وكان عليه التدبير والحل والعقد وبعد استقرار الرشيد بمراكش قدم عليه عمر بن أوقايط الهسكوري صحبة أولاد المأمون الذين كانوا بإشبيلية ونفاهم ابن هود عنها وكان ابن أوقايط هذا منحرفا عن المأمون أيام حياته فتقدم بصحبة هؤلاء الأولاد وقدم على الرشيد فتقبله واتصل بالسيد أبي محمد وحسنت منزلته لديه ثم لما هلك السيد أبو محمد لحق ابن أوقايط بقومه ومعلمته وكشف وجهه لاختلاف وأخذ يدعو يحيى بن الناصر واستنفر له قبائل الموحديين ونه إليهم الرشيد سنة إحدى وثلاثين وستمئة واستخلف على الحضرة صهره أبا العلاء إدريس وصعد إليهم الجبل فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزرجة واستولى على معسكرهم ولحق يحيى ببلاد سجلماسة

وانكفأ الرشيد راجعا إلى حضرة واستأنم له كثير من الموحديين الذين كانوا مع يحيى فأمنهم ولحقوا بحضرته وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا القديمي وجاء الباقرن على أثره بعد أن شرطوا عليه إعادة ما كان أزاله المأمون من رسوم المهدي وسنته فأعيدت واطمأنوا لإعادة رسوم الدعوة المهدية واستقامت الأحوال في هذه الأيام إلى أن كان ما نذكره فتنة الخلط مع الرشيد واستيلائهم على حضرة مراکش كان مسعود بن حميدان كبير قد أغراه عمر بن أوقايط بالخلاف لصحبة بينهما وكان مذلا بإسائه وكثرة جموعه يقال إن الخلط كانوا يومئذ يناهزون اثني عشرة ألف فارس سوى الرجل والأتباع والحشود فمضى مسعود في الطاعة وتناقل عن الوفاة إلى الحضرة ولما علم بعقد الموحديين واجتماع كلمتهم على الرشيد غاظه ذلك وأخذ في السعي للفرقة والشتات بينهم فأعمل الرشيد الحيلة في استدعائه وصرف عساكره إلى بعض الجهات حتى خلا لمسعود الجو وذهب عنه الريبواستقدمه الرشيد فأسرع الحلاق بالحضرة وقدم معه معاوية عم عمر بن أوقايط فقبض على معاوية وقتل لحينه واستدعى الرشيد ابن حميدان إلى المجلس الخلفي وقتلوا ساعتئذ بعد جولة وهيعة وقضى الرشيد حاجة في نفسه منهم ولما بلغ خبر مقتلهم إلى قومهم قدموا عليهم يحيى بن هلال بن حميدان وأجلبوا على سائر النواحي وأعلنوا بدعوة يحيى بن الناصر واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء وداخلهم في ذلك عمر بن أوقايط وزحفوا لحصار مراکش وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلوان فدافع ابن أوقايط بجموعه في تلك العساكر فانهزموا وأحيط بجند النصارى وقتلوا وتفاقم الأمر بالحضرة وعمت الأقوات واعتزم الرشيد

على الخروج إلى جبل الموحديين فخرج إليها وسار منها إلى سجلماسة فملكها واشتد الحصار على مراکش واقتمها يحيى بن الناصر وأنصاره من الخلط وهسكورة فتهربوا وساء أثرهم فيها واضطربت أحوال الخلافة بها وتغلب على السلطان السيد أبو إبراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حافة وهذه الفتن سنة اثنتين وثلاثين وستمئة هجم نصارى جنوة على مدينة سبتة وحصارهم إياها وفي هذه السنة أعني سنة اثنتين وثلاثين وستمئة نازل الفرنج الجنوبيون سبتة بأجفان لا تحصى ونصبوا عليها المنجنبيقات والآلات المعدة للحصار واستمروا على ذلك إلى أن دخلت سنة ثلاث وثلاثين بعدها فلم يقدرها منها على شيء ولما اشتد الحصار على أهل سبتة صالحوا الفرنج في الإفراج عنهم بأربعمائة ألف دينار فقبلوا وألقوا عنهم بعد الحصار الشديد والتضييق عليهم عود الرشيد إلى مراکش وفرار يحيى عنها إلى بني معقل ومقتله بهم وفي هذه السنة أعني سنة ثلاث وثلاثين وستمئة خرج الرشيد من سجلماسة يقصد مراکش وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان فأجابوه وعبروا وادي أم الربيع وبرز إليه يحيى في جموعه والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واسترحر القتل فيهم ودخل الرشيد إلى الحضرة ظافرا وأشار ابن أوقايط على الخلط بالاستصراخ بآبى هود صاحب الأندلس والأخذ بدعوته فنكثوا بيعة يحيى وبعثوا وفدهم إلى ابن هود صحبة ابن أوقايط فاستقر هناك ولم يرجع إليهم قولا فعلم الخلط أنها حيلة من ابن أوقايط وأنه من الورطة

وخرج الرشيد من مراکش وفر الخلط أمامه وسار إلى فاس وأقام بها أياما وفرق في فقهاها وصلحائها أموالا ورباعا مغلة وسرح الوزير السيد أبا محمد إلى غمارة وفازاز لجباية أموالها وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعة لحق بعرب معقل فأجاروه ووعده النصره واشتطوا عليه في المطالب فأسف بعضهم بالمنع فاعتاله في جهة تازا وسبق رأسه إلى الرشيد بفاس فبعثه إلى مراکش وأوعز إلى نائبه بها أبي علي بن عبد العزيز يقتل العرب الذين كانوا في اعتقاله وهم حسن بن زيد شيخ العاصم وقائد ابنا عامر شيخا بني جابر فقتلهم وانكفأ الرشيد راجعا إلى حضرته سنة أربع وثلاثين وستمئة وكان ابن أوقايط لما فصل ابن هود صاحب الأندلس أقام عنده إلى هذه السنة فركب البحر في أسطول من أساطيل ابن هود وقصد مدينة سلا وبها يومئذ السيد أبو العلاء صهر الرشيد فبازلها وكاد يغلب عليها ثم رجع عنها بلا باطل وفي سنة خمس وثلاثين بعدها بايع أهل إشبيلية للرشيد ونقضوا طاعة ابن هود وتولى كبر ذلك أبو عمر بن الجد ووصل وفدهم إلى لاهضرة ومروا في طريقهم بسبتة فافتدى أهلها بهم في بيعة الرشيد وقدموا على الحضرة وولى عليهم الرشيد أبا علي بن خلاص منهم وانصرف وفد إشبيلية وسبتة راضين واستقدم الرشيد رؤساء الخلط وكانوا راجعوا طاعته بعد مقتل يحيى فقدموا عليه وتقبض عليهم وبعث عساكره فاستباحوا حللهم وأحيائهم ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن أوقايط وكان أهل إشبيلية قد بعثوا به عليه فقطع دارهم وفي سنة ست وثلاثين وستمئة وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر التائر بالأندلس على ابن هود وكان قد بايع أولا أبا زكريا الحفصي صاحب إفريقية ثم بدا له فرد البيعة إلى الرشيد

استيلاء العدو على قرطبة وفي هذه السنة كان استيلاء العدو دمره الله على مدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس ودار مملكتها وذلك يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال السنة المذكورة وفي سنة سبع وثلاثين بعدها انتشر بنو مرين ببلاد المغرب واشتدت شوكتهم به وزحف إليهم الرشيد فهزموه ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه وأقام في محاربتهم سنتين ورجع عنهم إلى لاهضرة فاشتد عدوانهم بالمغرب وألحوا على مكناسة حتى أعطوا الإتاوة لبني حمامة منهم واتصل أغلبهم في نواحيها وفي سنة تسع وثلاثين وستمئة قتل الرشيد كاتبه ابن المومياتي لمداخلة له مع بعض السادة وهو عمر بن عبد العزيز بن يوسف ووقف الرشيد على كتب بخطه غلط الرسول بها فدفعها بدار الخلافة فوقعت إلى الرشيد فقتله وفاة الرشيد رحمه الله مات الرشيد رحمه الله غريبا في بعض بستانه بحضرة مراکش وذلك يوم الخميس تاسع جمادى سنة أربعين وستمئة ويقال إنه أخرج من الماء حيا فحم لوقته ومات وذكر أبو عبد الله أكنسوس أن غرق الرشيد كان في البركة الكبرى التي بدار الهناء من أجدال اليوم قال وكان يقال لها البحر الأصغر لأن ملوك بني عبد المؤمن الذين أنشؤوها كانوا يرسلون فيها الزوارق والفلك الصغار بقصد النزهة والفرجة والله تعالى أعلم

الخبر عن دولة أبي الحسن السعيد علي بن المأمون بن المنصور رحمه الله لما هلك الرشيد ببيع أخوه لأبيه أبو الحسن على المدعو السعيد بتعيين أبي محمد بن وانودين وتلقب بالمعتضد بالله واستوزر السيد أبا إسحاق ابن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن ويحيى بن عطوش وتقبض على جملة من مشيخة الموحديين واستصغى أموالهم واصطنع لنفسه رؤساء العرب من جشم واستظهر بجموعهم على أمره وكان شيخ سفيان كانوا بن جرمون كبير مجلسه وكان ضرر بني مرين قد تفاقم بالمغرب وداؤهم قد أعضل فخرج السعيد سنة اثنتين وأربعين وستمئة لتمهيد بلاد المغرب فانهزمت إلى سجلماسة وكان صاحبها عبد الله بن زكريا الهزرجي قد انتفض عليه فقتله واستولى عليها ثم رجع حتى نزل المقرمدة من

أرض فاس وعقد المهادنة مع بني إسرائيل وقفل إلى مراكش فكانت هدنة على دخن فلم يلبث إلا يسيرا حتى عاود النهوض إليهم سنة ثلاثة وأربعين بعدها واستخلف السيد أبا زيد ابن السيد أبي إبراهيم أخا الوزير المذكور أنفا على مراكش واستعمل أخاهما السيد أبا حصص وهو المرتضى على سلا وسار نحو بني مرين فجمع له أميرهم أبو بكر بن عبد الحق جموع زناتة وصمد نحوه حتى إذا تراءى الجمعان وتهايا القوم للقاء خالف كانون بن جرمون إلى أزمور فاستولى عليها وغلّب الموحديين عليها فرجع السعيد أدراجه في أتباعه ففر كانون عنها فاعتزله السعيد فأوقع به واستلحم كثير من قومه سفيان واستولى على ما كان لهم من مال وماشية ولحق كانون ببني مرين ورجع السعيد إلى الحضرة ثم تقدم الأمير أبو بكر بن عبد الحق المريني إلى مكناسة فضايقها وخطب طاعة أهلها فثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه وحذر شيوخها وكبرائها من سطوته فحولوا الدعوة إلى الأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية وكان استبد على بني عبد المؤمن ورام التغلب حتى على كرسيمهم بمراكش فبايعه أهل مكناسة بمواطأة الأمير أبي يعقوب بن عبد الحق من بعده ثم استقبل بنفسه واستبد بأمره عندما تم له ملك المغرب حسبما نقصه بعد إن شاء الله وفي هذه السنة بعث أهل غشيلية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبي كريا الحفصي أيضا وبعث أبو علي بن خلاص صاحب سبتة بهدية مع ابنه في أسطول أنشأه لذلك فغرق عند إقلاعه من المرسى وقبل هذه المدة ببسير كان الأمير أبو زكريا الحفصي قد تغلب على تلمسان وبايعه صاحبها يغمراسن بن زيان العبد الوادي وهو جد ملك بني زيان أصحاب تلمسان والمغرب الأوسط فعظم قدر أبي زكريا بسبب هذه البيعات التي انتقلت عليه من سائر لاجهات وحدته نفسه بالتوثب على كرسى الخلافة بمراكش وغص بنو عبد المؤمن بمكانه وعظم عليهم استبداده ثم طمعه في كرسيمهم وقرارة عزهم مع أنه ما كان إلا جدولا من بحرهم وفرعا من دوحتهم والأمر كله لله نهوض السعيد من مراكش إلى غزوات الثوار بالمغربيين ومحاصرته يغمراسن بن زيان وما آل إليه الأمر من مقتله رحمه الله لما بلغ مراكش استبداد الأمير أبي زكريا بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي بإفريقية ومبايعة أمراء الجهات له أعمل نظره في الحركة إلى هؤلاء الثوار والنهوض لتدويخ هذه الأقطار وكان السعيد شهما حازما يقظا بعيد المهمة فنظر في أعطاف دولته وفاوض المأل من الموحديين في تنقيف أطرافها وتقويم أودها وحرك

همهم وأثار حفائظهم وأراهم كيف اقتطع عنهم الأمر شيئا فشيئا فابن أبي حفص اقتطع إفريقية ويغمراسن بن زيان اقتطع المغرب الأوسط ثم أقام فيه الدعوة الحفصية وابن هود اقتطع الأندلس وأقام فيها دعوة بني العباس وابن الأحمر بالجانب الآخر منها مقبم للدعوة الحفصية أيضا وهؤلاء بنو مرين قد تغلبوا على ضواحي المغرب ثم سمو إلى تملك أمصاره وإن سكتنا على هذا فيوشك أن يختل الأمر وتتقرض الدولة فتذامروا وتداعوا على النهوض إليهم فحشد السعيد الجنود وجيز العساكر وأزاح علمهم واستنفر عرب المغرب وما يليه واحتشد كافة المصامدة ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمئة يربد مكناسة وبني مرين أولا ثم تلمسان وغمراس ثانيا ثم إفريقية وابن أبي حفص ثالثا ولما نزل بوادي بهت أخذ في عرض عساكره وتمييزها فخرج الأمير أبو بكر بن عبد الحق من مكناسة ليلا وحده يتجسس الأخبار فأنشرف على جموع السعيد فرأى ما لا قبل له به فعاد إلى قومه وأفرج للسعيد عن البلاد وتلاحت به بنو مرين من أماكنها التي كان الأمير أبو بكر أنزلهم بها واجتمعوا عليه بحصن تازا وطامن بلاد الريف وتقدم السعيد إلى مكناسة فخرج إليه أهلها يطلبون منه العفو وقدموا بين أيديهم الشيخ الصالح أبا علي منصور بن حرزوز وتلقوه بالصيبيان من المكاتب على رؤوس الألواح وبين أيديهم المصاف وخرج النساء حاسرات يطلبن العفو فعفا عنهم ثم ارتحل إلى تازا في أتباع بني مرين وانتقل أبو بكر بن عبد الحق إلى بني يزناس ثم راجع نظره في مسالمة الموحديين والدخول في أمرهم فبعث ببيعتة إلى السعيد وهو يومئذ بتازا مع جماعة من وجوه بني مرين فقبلها السعيد وعفا لهم عما سلف فسأله وفدهم أن يستكفي بالأمير أبي بكر في أمر تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان وقد كتب إليه الأمير أبو بكر أيضا

بذلك يقول يا أمير المؤمنين أرجع إلى حضرتك وقوني بالجيش وأنا أكفيك أمر يغمراسن وافتح لك تلمسان فاستشار السعيد وزراءه فقالوا لا تفعل فإن الزناتي أخو الزناتي لا يخذله ولا يسلمه فكتب إليه السعيد بأن يبعث إليه جماعة من قومه يعسكرون معه فأمده أبي عباد بن أبي يحيى بن حمامة وخرجوا تحت رايات السعيد ونهض من تازا يريد تلمسان وعند ابن أبي زرع أن السعيد لما فرغ من أمر مكناسة عسكر بظاهر فاس وهناك أنته بيعة بني مرين قال ثم ارتحل السعيد عن فاس في الرابع عشر من محرم سنة ست وأربعين وستمئة وخسف القمر تلك الليلة خسوفا كليا وأصبح السعيد غاديا يريد تلمسان فلما ركب فرسه انكسرت لؤلؤة المنصوري فتطير ونزل ولم يرتحل إلا في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور ولما سمع يغمراسن بإقبال السعيد إليه خرج من تلمسان في عشرينه وقومه من سائر بني عبد الواد وتحملوا بأهلهم وأولادهم إلى قلعة تامزردت قبلة وجدة فاعتصموا بها ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن مؤديا للطاعة وساعيا في مذاهب الخدمة ومتوليا من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعو إليه ويصرفه في سبيلهم ومعتزرا تخلف يغمراسن عن الوصول إلى حضرة السعيد فاج السعيد في شأنه ولم يعذره وأبى إلا مباشرة طاعته بنفسه وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفيناني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من المأل وردوا الفقيه عبدون إلى يغمراسن ليستقمه فتناقل يغمراسن عن القوم خشية على نفسه واعتد السعيد الجبل في عساكره حتى أناخ بها في ساحة القلعة وأخذ بمخنقهم ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع ركب مهجرا في وقت القيلولة على حين غفلة من الناس ليضطوف بالقلعة وتقوى مكانها فيصير به فارس من بني عبد الواد يعرف بيوسف الشيطان كان أسفل الجبل بقصد الحراسة واتفق أن يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر كانا قريبين منه

فعرقوا السعيد فانفضوا عليه من بعض الشعاب أمثال العقبان وطعنه يوسف الشيطان فكبه على فرسه وعمد يعقوب بن جابر إلى وزيره يحيى بن عطوش فقتله ثم استحلوا لوقتهم مواليه ناصحا من العلوج وعنبرا من الخصيان وقائد جند النصارى وهو أخو القمط ووليدا يافعا من ولد السعيد ويقال إنما كان ذلك يوم عبي السعيد العساكر وصعد الجبل للقتال وتقدم أمام الناس فاقتطعه بعض الشعاب المتوعدة في طريقه فتوآب عليه هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه وذلك منسوخ سنة ست وأربعين وستمئة وانتهى الخبر إلى المحلة فارتجت وماجت وأخذ أهلها في الفرار وبادر يغمراسن إلى السعيد فنزل إليه وهو صريع على الأرض فحياه وقده وأقسم له على البراءة من دمه والسعيد رحمه الله واجم بمصرعه وجود بنفسه إلى أن فاظ وانتهب المعسكر بجملته واستولى بنو عبد الواد على ما كان به من الأخبية الحسنة والفازات الفيعة واختص يغمراسن بفسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه واستولى على الذخيرة التي كانت فيه منها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه يزعمون أنه أحد المصحف التي انتسخت لعهد خلافته وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل ثم صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس ثم صار إلى خزائن الموحديين من يد لمتونة قال ابن خلدون وهو لهذا العهد في خزائن بني سربن فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان وذلك عند غلب السلطان أبي الحسن المريني على تلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمئة كما نذكره اه وقد تقدم لنا الخبر عن هذا المصحف وفيه مخالفة لبعض ما هنا وسببنا لنا في دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني ما يخالف ذلك كله والله أعلم بحقيقة الأمر ومن الذخائر التي صارت ليغمراسن من فسطاط السعيد العبد المنتظم

من خزرات اليافوت الفاخر والدر النفيس المشتمل على مئين متعددة من حصانه وكان يسمى بالتعبان ثم صار إلى بني مرين أيضا إلى أن تلف في البحر عند غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمرسى بجاية مرجعة من تونس حسبما نذكره بعد إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه مما يستخلصه الملوك لأنفسهم ويعتدونه من ذخائرهم ولما سكنت الفتنة وركد عاصف تلك الهيئة نظر يغمراسن في شأن مواراة الخليفة فجهزه ورفع على أعواده فدفعه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين رضي الله عنه ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع وأصحابين جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمنين فألحقوهن بدرعة من تخوم طاعتهم فكان ليغمراسن بذلك حديث جميل في الإباء على الحرم ورعي حقوق الملك وأما أهل محلة السعيد فإنهم بعد نهوضهم تداعوا واجتمعوا إلى عبد الله بن السعيد وقلوا قاصدين مراكش واتصل الخبر بالأمير أبي بكر بن عبد الحق وهو يومئذ ببني يزناس وقدمت عليه الحصاة التي كان وجهها مع السعيد فتحقق الخبر وانتهر الفرصة في

الموحدين فاعترضه عسكريهم بجبهات تازا فقتل عبد الله بن السعيد واستلبهم واستولى على ما بقي من أثاثهم ثم جد السير إلى مكناسة فدخلها وملكها ولحق فل الموحدين بمراكش فبايعوا عمر المرتضى كما نذكره إن شاء الله الخبير عن دولة أبي حفص عمر المرتضى ابن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله لما توفي أبو الحسن السعيد كان عمر المرتضى واليا من قبله بقصبة رباط الفتح من سلا كما قدمنا فاجتمع الموحدون بجامع المنصور من قصبة مراكش

وعقدوا له البيعة وبعثوا بها إليه ونهض هو متوجها إلى مراكش فلقاه وقد هم أثناء طريقه بتامنا واجتمع عليه أشياخ العرب فبايعوه أيضا واستقام أمره وتلقب بالمرتضى وعقد ليعقوب بن كاتون على بني جابر ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد أن كان قومه قدموه عليهم ودخل الحضرة واستوزر أبا محمد بن يونس من قرابته وقبض على حاشية السعيد ثم وصل أخوه السيد أبو إسحاق الذي كان وزيرا للسعيد من قبل ناجيا من وقعة تامزرديت أخذها على طريق سجلماسة فاستوزره أيضا وأسند إليه أمره واستولى أبو بكر بن عبد الحق أمير بني مرين بعد مهلك السعيد على رباط تازا ومكناسة ثم استولى سنة سبع وأربعين وستمائة على فاس وأعمالها فاقتطع عن المرتضى بلاد الغرب كلها ولم يبق له إلا بلاد الحوز من سلا إلى السوس ولأول دولة المرتضى كان استيلاء العدو على إشبيلية إحدى قواعد الأندلس فإن طاعية قشتالة وهو الإصبينول خذله الله حاصرهما سنة خمس وأربعين وستمائة وفي يوم الاثنين الخامس من شعبان وانتقل كرسي المملكة الإسلامية بالأندلس إلى غرناطة وذلك في دولة بني الأحمر وفي سنة تسع وأربعين وستمائة ملك الأمير أبو بكر المريني ورباط الفتح ووفد على المرتضى بمراكش موسى بن زيان الونكاسي وأخوه علي بن زيان من قبيل بني مرين وأغروه بقتال بني عبد الحق فأسفهم ولما انتهى إلى أمان إيمولين أشاع يعقوب بن جرمون السفياني قضية الصلح بينهما وأصبح راحلا وقد استولى الجزع على قلوب الجيش فانفضوا ووقعت الهزيمة من غير قتال ووصل المرتضى إلى الحضرة وأغضى ليعقوب عما صدر منه وفي سنة خمسين وستمائة استرجع المرتضى سلا ورباط الفتح من يد بني مرين وفي سنة إحدى وخمسين بعدها فر من حاشية المرتضى علي بن يدر

من بني باداسن ولحق ببلاد السوس وتحصن ببعض جبالها ثم حاصر تارودانت قاعدة بلاد السوس فاستولى عليها واستخدم الثبانات وذوي حسان من عرب معقل وأطاعته قبائل جزولة واستفحل أمره واستولى على بسائط السوس فوجه عليه المرتضى فنهض عليه وحاصره ببعض حصونه قرب تارودانت ولما اشتد عليه الحصر رغب في الإقالة ومعاودة الطاعة فقبل ذلك منه أبو دبوس وأقلع عن حصاره وعاد إلى الحضرة ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد على بني يدر هذا عليهم وتملك قطر السوس واستولى على تارودانت وسائر قره ومعاقله وأرهب حده للعرب وسامهم الهضمية فزحفوا إليه وقتلوه في السنة المذكورة ثم توارث قطر السوس من بعده جماعة من عشيرته واستمر ملكهم عليه إلى زمان السلطان أبي الحسن المريني فغلبهم عليه وانقرض أمرهم رجع إلى أخبار عمر المرتضى وفي سنة اثنتين وخمسين وستمائة خرج أبو الحسن بن يعقوب قائد المرتضى في جيش من الموحدون إلى تامنا ليكشف أحوال العرب ومعه يعقوب بن شيخ بن بني جابر قبض عليه وعلى ورزيره ابن مسلم وطير ابن مسلم وطير بهما إلى الحضرة معتقلين وفي سنة ثلاث وخمسين بعدها خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس وأعمالها من يد بني مري المتغلبين عليها واحتفل في الاحتشاد وبالغ في الاستعداد فكان جيشه ثمانين ألف فارس من الموحدون والعرب والأغزاز وأهل الأندلس والفرنج فسار حتى نزل جبل بني بهلول قبلة فاس وكانت هيبة بني مرين وناموسهم قد تمكن من قلوب جيش المرتضى فكانوا منذ قريبا من أحواز فاس لا ينامون إلا غرارا فانطلق ذات ليلة فرس لبعض

الجنديين وجرى بين الأخبية وجرى الناس خلفه ليأخذوه فظن أهل المحلة أن بني مرين قد أغاروا عليهم فركبوا خيولهم وماج بعضهم في بعض وانقلبوا منهزمين لا يلوون على شيء واتصل الخبر بأبي بكر بن عبد الحق وهو بفاس فخرج للوقت واحتوى على جميع ما ي محللة الموحدون من الأخبية والأثاث والسلاح والمال ومر المرتضى على وجهه فدخل مراكش في جمع قليل من الأشياخ والإفرنج وأقام بها وأعرض عن بني مرين وتسلى عنهم سائر أيامه وازدادت شوكة الموحدون ضعفا واستبد أبو القاسم العزفي بسببته واستتب أمره بها وتوارث الرياسة بها عشيرته من بعده زمانا إلى أن غلبهم عليها بنو مرين وفي سنة خمس وخمسين وستمائة استولى أبو بكر بن عبد الحق على سجلماسة وتقبض على واليها عبد الحق بن أصكوا بمدخله خديم له يعرف بمحمد القطراني وشرط على المير أبي بكر أن يكون هو الوالي عليها فأضى له شرطه وأنزل معه بها جماعة من رجالات بني مرين حتى إذا هلك أبو بكر بن عبد الحق أخرجهم محمد القطراني واستبد بأمر سجلماسة وراجع دعوة المرتضى واعتذر إليه واشترط عليه الاستبداد فأضى له شرطه إلا أحكام الشريعة وبعث أبا عمر بن حجاج قاضيا من الحضرة وبعض السادة للنظر في القضية وقائدا من النصارى بمعسكر للحماية فأعمل القاضي ابن حجاج الحيلة في قتل القطراني وتولى الفتك به قائد النصارى واستبد السيد بأمر سجلماسة بدعوة المرتضى واستفحل أمر بنين مرين أثناء ذلك ونزل أمير يعقوب بن عبد الحق بسائط تامنا فسرح إليهم المرتضى عساكر الموحدون لنظر يحيى بن عبد الله بن وانودين فأجفلوا إلى وادي أم الربيع واتبعهم الموحدون وألحوا عليهم فعطف عليهم بنو مرين واقتتلوا ببطن الوادي فانهزمت عساكر الموحدون وعذب بهم بنو جابر وكان في مسيل الوادي كدى يحسر عنها

الماء فتبدو كأنها أرجل فسميت الواقعة من أجل ذلك بام الرجلين وذلك في سنة ستين وستمائة وبقي المرتضى يعالج أمر علي بن بدر التائر بالسوس على سنة اثنتين وستين وستمائة فاقبل الأمير يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين حتى نزل على مراكش واتصل الحرب بينه وبين الموحدون بظاها أياما هلك فيها عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق فبعث المرتضى إلى أبيه يعقوب بالتعزية لولا طفه إتوة يبعث بها غلي في كل سنة فرضي يعقوب وارتحل عنها وقيل إن مقتل عبد الله بن يعقوب كان سنة ستين قبل وقعة أم الرجلين والله تعالى أعلم انتفاض أبي دبوس على المرتضى واستيلائه على مراكش ومقتل المرتضى عقب ذلك لما ارتحل بني مرين عن مراكش بعد مهلك عبد الله بن يعقوب فر من الحضرة قائد حروب المرتضى وابن عمه وهو السيد أبو العلاء إدريس الملقب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن لسعاية تمكن فيه عند المرتضى وأنه يطلب الأمر لنفسه فاحس أبو دبوس بالشر ولحق بيعقوب بن عبد الحق فأدركه عند مقمه إلى فاس قافلا من منازل مراكش فأقبل عليه الأمير يعقوب وبالغ في إكرامه فطلب منه أبو دبوس الإعانة على حرب المرتضى وكان بظلا محربا وضمن له فتح مراكش واشترط له المقاسمة فيما يغلب عليه من السلطان وما يستفقيه من الذخيرة والمال فأمده الأمير يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين وبالكفاية من المال وبالمستجد من آلة الحرب من طولوب ونود ونحو ذلك وكتب له مع ذلك إلى عرب جشم وأميرهم يومئذ علي بن أبي الخاطي أن يكونوا معه يدا واحدة فسار أبو دبوس حتى وصل إلى سلا فكتب منه إلى العرب وأشياخ الموحدون والمصامدة الذين في طاعة المرتضى بدعوتهم إلى بيعته وبعدهم ويمنيهم فتلقتهم ويمنيهم وفود العرب والهساكرة وصنهاجة أزمر ببعض الطريق فبايعوه وساروا معه حتى نزل بلاد هشكررة ثم كتب خاصته من وزراء المرتضى أن يعلموه بحال البذل والدولة فراجعوه أن أسرع السير وأقبل ولا تخشن شيئا فإنا قد فرقنا الجند في أطراف البلاد وهذا وقت انتهاز الفرصة فزحف أبو دبوس إلى مراكش حتى إذا انتهى إلى أغمات وجد بها الوزير أبا زيد بن يكيث في جيش من حاميتها ففانزله الحرب فانهزم ابن يكيث وقتل عامة أصحابه وسار أبو دبوس يوم مراكش ومعه سفيان وبني جابر وكبيرهم يومئذ علوش على باب الشريعة منها والناس في صلاة الجمعة حتى ركز رمحه بمصارع الباب ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبي دبوس والأسوار خالية من الحامية والحراس فقصد أبو دبوس باب أغمات وتسور البلد من هنالك ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها وصمد إلى القصبة فاقتحمها من باب الطبول واستولى عليها وقال ابن أبي زرع إن دخول أبي دبوس مراكش كان من باب المصالحة وذلك ضحى

يوم السبت الثاني والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة والمصالحة التي أضيف إليها هذا الباب هي بستان كبير من جملة بساتين اجداد دار الخلافة بمراكش ولا زال هذا البستان مشهور بهذا الاسم إلى الآن وهو من إنشاء عبد المؤمن بن علي رحمه الله فقد ذكر الشيخ أبو عبد الله بن محمد عذارى الأندلسي في كتاب البيان المغرب عن أخبار المغرب أن بستان المسرة الذي بظاهر جنان الصالحة أنشأه عبد المؤمن بن علي

كبير الموحدين قال وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهي وجلب إليه الماء من أجمات واستنبت له عيوناً كثيرة قال ابن اليسع وما أخرجت أنا من مراکش في سنة ثلاث وأربعين

وخمسمائة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش اه قلت ولشهر هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجوا به فيقولون يا جردة مالحة أين بت سارحة فيجنان الصالحة في أسجاع غير هذه تجري على السنة الصبيان والله أعلم رجع إلى خير أبي دبوس قال ابن أبي زرع لما اقتحم أبو دبوس مراکش سار حتى وقف بباب البند من القصبة فغلقت الأبواب دونه وقام عبيد المخزن عليها يقاتلونه ولما رأى المرتضى أن أبا دبوس قد التحف معه كساء دار الملك خرج من القصر ناجيا بنفسه من باب الفاتحة ومعه الوزير أبو زيد بن يعلو الكومي وأبو موسى بن عزوز الهنتاني ثم انتقل منها إلى كدموية ثم إلى شفشوة ثم لحق أخرا بأزمور ونزل على صهر له من بني عطوش كان واليا عليها من قبله وكان ابن عطوش هذا قد أسره العدو فافتكه المرتضى بمال جسيم وزوجه ابنته وولاه أزمور فلما وقعت عليه الكائنة بمراكش ذهب إليه مستجيرا به ومطمئنا إليه فكان من جزائه له أن قبض عليه وقيده وكتب إليه أبي دبوس يعلمه بشأنه فكتب أبو دبوس إليه يستكشفه في شأن الذخيرة فأكثر المرتضى أن يكون قد أذخر شيئا وحلف على ذلك ومت إليه بالرحم حتى كاد أبو دبوس يعطف عليه ثم أغراه خاصته به فوجه عليه من قتله في الطريق وأتى عليه برأسه وسار ابن عطوش بفلعته هذه أظلم من الخيفقان وكان مقتل المرتضى في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة وكان رحمه الله ينتهي إلى التصوف والزهد والورع

وتسمى بتألت العمرين وكان مولعا بالسماح لا يكاد يخلو منه ليلا ولا نهارا وكان في أيامه رخاء مفرط لم ير أهل مراکش مثله وقال ابن الخطيب كان المرتضى فاضلا خيرا عفيفا مغمد السيف مانلا على الهدنة رحمه الله الخير عن دولة أبي العلاء إدريس الواثق بالله المعروف بأبي دبوس لما تقدم أبو دبوس حضرة الخلافة على المرتضى وفر المرتضى ملكها أبو دبوس واستتب لها وبها وبياعه كافة الموحدين وأهل العقد والحل من الوزراء والفقهاء والأشياخ وكان ذلك بجامع المنصور يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة واستقل أبو دبوس بمملكة مراکش وأعمالها وتلقب بالواثق بالله والمعتمد على الله وبذل العطاء ونظر في الولايات ورفع المكوس عن الرعية ولما اتصل بالأمير يعقوب بن عبد الحق ما كان من أبي دبوس واستيلائه على المملكة كتب إليه يهنئه بالفتح ويطلب منه أن يمكنه من الشرط الذي شرط له فلما وصل إليه الكتاب أدركته النخوة وغلب عليه الكبر وقال للرسول قل يعقوب بن عبد الحق يغتنم سلامته ويبيعت غلي ببيعتة حتى أقره على ما بيده وإلا غزوته بجنود لا قبل له بها فعاد الرسول إلى الأمير يعقوب وأبلغه الخبر ودفع إليه كتاب أبي دبوس فإذا هو يخاطبه مخاطبة الخلفاء لعمالهم والرؤساء لخدمتهم فتحقق الأمير نكته وغلده فنهض إليه في جموع بني مريين وعساكر المغرب فلما أشرف على مراکش خام أبو دبوس عن اللقاء وتحصن بداره ولجأ إلى أسواره فتقدم الأمير يعقوب حتى نزل على مراکش وحاصرها أياما وعادت في نواحيها وانتسف ما حولها ولما رأى أبو دبوس ما نزل به منه كتب إلى قريعه يغمسان بن زيان صاحب تلمسان يطلب منه أين يسغل عنه الأمير يعقوب بما وراءه من أعمال

فاس والمغرب وأسنى له الهدية في ذلك وأكد العهد في الموالاتة والمناصرة فأجابته يغمسان إلى ذلك نهض من حينه فشن الغارات على ثغور المغرب واضرم نار الفتنة بها واتصل ذلك بالأمير يعقوب وهو محاصر لمراكش فرجع عوده على بدنه وسار إلى يغمسان فنجازته الحرب وانتصف منه على ما ينبغي وحسم مادة فساده ثم كر راجعا إلى مراکش في شعبان سنة ست وستين وستمائة ولما عبر وادي أم الربيع شن الغارات على النواحي وبث سرايا في الجهات وطال عيئه في البلاد وأبدأ في ذلك وأعاد في البلاد وأبدأ في ذلك وأعاد حتى ضاقت صدور بني عبد المؤمن بمراكش وتكرد عيشهم فحرضهم أولياءهم من عرب جيش وأغرهم باستنهاض أبي دبوس لمدافعة عدوه ووعدهم النصر من أنفهم فتحرك أبو دبوس لذلك واشربت نفسه إلى القتال فحشد وأبع وبرز من الحضرة في جيوش ضخمة وجموع وافرة ولما علم الأمير يعقوب بخروجه ودنوه منه أظهر من نفسه العجز عن لقائه وكر راجعا إلى جهة بلاده يستجره بذلك ليبعد عن الحضرة ومددها وتمادى أبو دبوس في اتباعه حتى انتهى إلى وادي ودغو فكر عليه الأمير يعقوب والتحم القتال وقامت الحرب على ساق فلم تمض إلا ساعة حتى انهزم الموحدين وأطلق أبو دبوس عنانه للفرار يريد مراکش فأدركته خيل بني مريين وتناولته رماحهم وخر صريعا للبيدين وللمم واحتر رأسه وجمي به على الأمير يعقوب فسجد شكرا لله تعالى ثم بعث به على فاس وتقدم هو إلى مراکش فاستولى عليها في أوائل محرم سنة ثمان وستين وستمائة وفر الموحدون الذين كانوا بمراكش إلى جبل تيمنل فبايعوا إسحاق بن أبي إبراهيم أبا المرتضى فيقي ذبالة هنالك إلى سنة أربع وسبعين وستمائة فقبض عليه وجمي به إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق هو وابن عمه السيد أبو سعيد بن أبي الربيع ووزير القباطلي وأولاده فقتلوا جميعا وانقرضت دولة بني عبد المؤمن من الأرض وذهبت محاسن مراکش يومئذ

بذهاب دولتهم والبقاء لله وحده لا رب غيره ولا معبود سواه ولندكر ما كان في هذه المدة من الأحداث ففي سنة إحدى وستمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسبتي فدين مراکش وذلك يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ودفن خارج باب تاغزوت وكان شيخه أبو عبد الله الفخار من أصحاب القاضي أبي الفضل عياض وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه جميل الصورة أبيض اللون حسن الثياب فصيح اللسان قادرا على الكلام لا يباظره أحد إلا أقحمه حتى كأن مواقع الحجيج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه وكان مع ذلك حلما صبورا عطوفا يحسن إل من يؤذيه ويحلم عن يسفه عليه برا باليتامي والمساكين رحيمًا بهم يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرفات ويحض الناس على الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار فتنتال عليه من كل جانب فيفرقها على المسكين وينصرف وكان له مع الله تعالى في التوكل عليه عقد أكيد ومقام حميد قد ظهر أثره على روضته المباركة بعد وفاته حدث أبو القاسم عبد الرحمن بن إبراهيم الخزرجي بعثني أبو الوليد بن رشد من قرطبة وقال لي إذا رأيت أبا العباس السبتي بمراكش فانظر مذهبه واعلمي به قال فجلست مع السبتي كثيرا إلى أن حصلت على مذهبه فأعلمته بذلك فقال لي أبو الوليد هذا رجل مذهبه أن الوجود يفعل بالوجود وقال الوزير ابن الخطيب كان سيدي أبو العباس السبتي رضي الله عنه مقصودا في حياته مستغاثا به في الأزمات وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة ومبنى أمره على انفعال العالم عن الجود وكونه حكمة في تأثر الوجود له في ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة

ولما توفي ظهر هذا الأثر على تربيته وانسحبت على مكانه عادة حياته ووقع الإجماع على تسليم هذا الدعوى وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعثته له من أماكنهم على بعد المدى وانقطاع الأماكن القصي تحملهم أجنحة نباتهم فتهوي إليه بمقاصدهم من كل فج عميق فيجدون الثمرة المعروفة والكرامة المشهورة وفي سنة عشر وستمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس وفي سنة ست عشرة وستمائة توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن محمد السلمى البليفي ينتهي نسبه إلى العباس بن مرداس السلمى صاحب رسول الله كان أبو إسحاق رحمه الله من كبار العلماء العاملين والزهد المحققين مثابرا على الاجتهاد والانقطاع إلى الله تعالى وظهرت عليه ببلده المرية من عدوة الأندلس كرامات واجتمع عليه خلق كثير وشاع ذكره هنالك فوشوا به إلى الخليفة صاحب مراکش وهو يوسف المنتصر الموحد فكتب إلى عامله على المرية يأمره بتوجيهه الشيخ أبي إسحاق مكرما غير مروع ولما عزم العامل على توجيهه قام العامة والأتباع دون الشيخ وأرادوا أن يحولوا بينه وبين العامل فقال لهم الشيخ طاعة السلطان واجبة ولما انتهى إلى مراکش ودخل على المنتصر هابه وجله وندم على ما كان منه إليه ثم بالغ في إكرامه وبعد ذلك مرض الشيخ أبو إسحاق وتوفي في السنة المذكورة واحتفل الناس لجنائزه وحضرها الأمراء والكبراء وكسر العامة نعشه واقتسموا أعوادا تبركا به وقبره مشهور بمراكش بسوق الدقيق منها ويقرب ضريحه مسجد جامع ينسب إليه والعامة تقول جامع سيدي إسحاق بدون لفظ الكنية وليس كذلك وفي سنة سبع عشرة وستمائة كان الجراد والقحط والغلاء الشديد بالمغرب وفيها ألف الفقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المراكشي الدار عرف بابن الزيات كتابه المسمى بالتشوف إلى رجال التصوف وذكر

فيه أنه لم يتعرض لذكر أحد من أولياء زمانه الأحياء غير أنه ذكر أن من جملة أولياء زمانه الذين كانوا قيد الحياة الشيخ الصالح الصوفي أبو محمد صالح بن بنضار بن عيان الدكالي ثم الماجري نزيل رطب أسفي قال وهو الآن يفتر من الجهاد والمحافظة على المواصلة والأوراد ومن كلامه الفقير ليس له نهاية إلا الموت قال وحدثني عنه تلامذته بعجائب من الكرامات والكلام على الخواطر وهو على سنن المشايخ الأول رضي الله عنه وفي سنة اثنين وعشرين وستمئة توفي الشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وقيل فيما بعد إلى سنة خمس وعشرين وتوفي رضي الله عنه شهيدا بجبل العلم من جبال غمارة وقبره هناك مشهور من أعظم مزارات المغرب وكان سبب شهادته أن محمدا بن أبي الطواجين الكتامي كان قد ثار بتلك البلاد وانتحل صناعة الكيمياء ثم ادعى النبوة حسبا سلف وتبعه على ضلالته طغاة غمارة والبربر فكان عدو الله يخص بمكان الشيخ رضي الله عنه لما أتاه الله من شرف التقوى والاستقامة المؤيد بشرف النسب الصميم والعنصر الكريم فسول له الشيطان أنه لا يتم أمر مخرقة في تلك الناحية إلا بقتل الشيخ فهدس له جماعة من أتباعه وأشياعه فرصدوا الشيخ حتى نزل من خلوته في سحر م الأسحار إلى عين هنالك قب الجبل المذكور فتوضأ منها وولى راجعا إلى محل عبادته وارتقاب فجره فدعوا عليه وقتلوه ومن الشائع أنه القي عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودفعوا إلى شواهد تردوا منها في مهوي سحيقة تمزقت فيها أشلائهم ولم يرجع منهم خبر والشيخ عبد السلام هذا هو ابن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بتشديد اللام بن مزوار بفتح الميم وبالراء المهملة أخيرا ابن حيدرة واسمه علي بن محمد بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وفي هذه السنة أيضا استأسد العدو الكافر على المسلمين بالأندلس وتوالت له عليهم الهزائم متعددة واستولى على كثير من الحصون واستلحم منهم عدة ألوف حتى خلت المساجد والأسواق ويفسدة أربع وعشرين وستمئة اشتد الغلاء بالمغرب والأندلس حتى بيع الفقير من القمح بخمسة عشرة دينارا وعم الجراد بلاد المغرب وفي سنة ست وعشرين وستمئة كان السيل العظيم بفاس هدم من سورها البلي نحو مسافتين وهدم من جامع الأندلس ثلاثة بلاطات وهدم دورا كثيرة وفنادق متعددة من عدوة الأندلس وفي سنة ثلاثين وستمئة كان الغلاء ببلاد المغرب وكثر بها الجوع والوباء حتى بلغ الفقير من القمح ثمانين دينارا وخلت الأمصار من أهلها وفي سنة خمس وثلاثين وستمئة عاود الغلاء والوباء أرض المغرب فأكل الناس بعضهم بعضا وكان يدفن في الحفير الواحد المائة من الناس وفي سنة ست وأربعين وستمئة وقع الحريق بأسواق فاس فاحترقت حارة باب السلسلة بأسرها إلى حمام الرحبة وبالله تعالى العصمة والتوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم الدولة المرينية الخبر عن دولة بني مرين ملوك فاس والمغرب وذكر أوليتهم وأصلهم اعلم أن العلامة الرئيس **أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون** رحمه الله قسم جبل زناتة إلى طبقتين الطبقة الأولى هي التي كان منها مغراوة ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سلا وقد تقدم الكلام على دولتهم مستوفى والطبقة الثانية هي التي كان منهم بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الأقصى وهؤلاء هم الذين تعلق اغرض الآن بذكرهم فاعلم أن جبل زناتة في المغرب كما قال الرئيس المذكور جبل قديم معروف العين والأثر وهم لهذا العهد أخذون من شعار العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتقلب في الأرض وإيلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والإبابة من الانقياد إلى النصفة وشعارهم من بين البربر واللغة التي يتراطنون بها وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد وأدعوا لحكمهم والأكثر منهم بالمغرب الأقصى أمم آخر وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم على ملك المغرب أحياء طواعن بمجالات الفقر من فيجج إلى سجلماسة إلى ملوية وربما يخطفون في طعنهم إلى بلاد الزاب ويذكر نسابتهم أن الرياسة كانت فيهم في تلك العصور لمحمد بن ورزير بن فكوس بن كرمات بن مرين ومرين ينصل نسبه بزانا بن يحيى أبي الجبل وكان لمحمد المذكور سبعة من الولد اثنان منهم شقيقان وهم حمامة وعسكر وخمسة أبناء علات وكان يقال لهم بلسان زناتة تيريعين ومعناه الجماعة ويزعمون أن محمد بن ورزير لما هلك قام بأمره من قومه ابنه حمامة بن محمد وكان الأكبر من ولده ثم من بعده شقيقه عسكر بن محمد ثم من بعده ابنه المخضب بن عسكر من ولده ثم من بعده شقيقه عسكر بن محمد ثم من بعده ابنه المخضب بن عسكر وهلك سنة أربعين وخمسائة في بعض الحروب التي كانت بين عبد المؤمن والمرابطين ثم قام بأمر بني مرين بعد المخضب ابن عمه أبو بكر بن حمامة بن محمد إلى أن هلك فقام بأمرهم بأمرهم ابنه أبو خالد محيو بن أبي بكر ولم يزل مطاعا فيهم إلى أن استتفروهم يعقوب المنصور إلى غزوة الأرك بالأندلس فشهوها وأبلوا فيها البلاء الحسن وأصابته محيو بن أبي بكر يومئذ جراحات هلك منها بصحراء الزاب سنة اثنين وتسعين وخمسائة وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده وبقائها في عقبه ما نذكره إن شاء الله الخبر عن دخول بني مرين أرض المغرب الأقصى واستيلائهم عليه والسبب في ذلك كان السبب في دخول بني مرين لهذا القطر المغربي أنه لما كانت وقعة العقاب بالأندلس سنة تسع وستمئة وهزم الناصر وهلك الجمهور من حامية المغرب ورعاياه حتى خلت البلاد من أهلها ثم حذب عقب ذلك الوباء العظيم الذي تحيف الناس إلا قليلا وهلك الناصر سنة عشر بعدها فبأبع

الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذ صبي حدث لا يحسن التدبير وشغلته مع ذلك أحوال الصبا ولذات الملك بأمر الرعية فتصافرت هذه الأسباب على الدولة لموحدية فأضعفتها لحينها وأمضتها المرض الذي كان سببا لحينها وكان بنو مرين يومئذ موطنين ببلاد القبلة من زاب إفريقية إلى سجلماسة ينتقلون في تلك القفار والصحاري لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تتاهل الدولة بهزيمة ولا يؤدون إليها ضريبة كثيرة ولا قليلة ولا يعرفون تجارة ولا حرتا إنما شغلهم الصيد وطراد الخيل والغارات على أطراف البلاد وكانت طائفة منهم ينتجعون تخوم المغرب وتلوه زمان الربيع والصيف فيكتالون من أطراف البلاد ما يحتاجون إليه منالميرة ويرعون فيها تلك المدة أنعامهم وشاءهم حتى إذا أقبل فصل الشتاء اجتمع نجعهم بأكرسيف ثم شدوا الرحلة إلى بلادهم فكان ذلك دأبهم على مر السنين فلما كانت سنة عشر وستمئة أقبل نجعهم على عادته للارتفاق والميرة حتى إذا أطلوا على المغرب من ثنايه ألفوه قد تبدلت أحواله وبادت خيله ورجاله وفنيت حماته وأبطاله وعريت من أهله أوطانه وخف منها سكانه وقطانه ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت خصيبة المرعى غزيرة الماء واسعة الأكناف فسيحة المزارع متوفرة العشب لقة راعيها مخضرة التلول والربي لعدم غاشيها فأقاموا بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وما هي عليه من الخصب والأمن وعدم المحامي والمدافع فاغتموا الفرصة وأقبلوا مسرعين بنجعهم وحلهم وانتشروا في نواحي المغرب وأوجفوا عليها بخيلهم وركابهم واكتسحوا بالغارات والنهب بسيطها ولجأت الرعايا إلى حصونها ومعاقلها وتم لهم ما أرادوا من الاستيلاء على بسيط المغرب وسهله وانتجاع مواقع طله ووبله الخبر

عن رياسة الأمير أبي محمد عبد الحق بن محيو المريني رحمه الله لما دخل بنو مرين المغرب كان الأمير عليهم يومئذ عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد المريني فكثر عيبتهم وضررهم بالمغرب وأعزل داؤهم وتضاعف على الرعية فرفعت الشكايات بهم إلى الخليفة بمراكش وهو يومئذ يوسف المنتصر بن الناصر بن المنصور فجهر لهم جيشا كثيفا من عشرين ألفا وعقد عليه لأبي علي بن والنودين وكتب له إلى صاحب فاس السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن بأمره بالخروج معه لغزو بني مرين والإيخان فيهم وعدم الإبقاء عليهم مهما قدر على ذلك واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوية فتركوا أئقاليهم وعيالهم بحصن تازوطا من أرض الريف وصمدوا إلى الموحدنين فالتقى الجمعان بوادي نكور فكان الظهور لبني مرين على الموحدنين فهزموهم وقتلوه وامتلت الأيدي مناسلابهم وامتعتهم ورجع الموحدون إلى فاس يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة لكثرة الخصب يومئذ بعام المشعلة وهي سنة ثلاث عشرة وستمئة ثم زحف الأمير عبد الحق في ذي الحجة من السنة المذكورة بجموع بني مرين إلى رباط تازة حتى وقف بإزاء زبوتونها فخرج عاملها لحره في جيش كثيف من الموحدنين والعرب والحشد من قبائل تسول ومكناسة وغيرهم فقتلت بنو مرين العامل المذكور وهزموا جيوشه

وجمع عبد الحق الأسلاب والخيل والسلاح وقسم ذلك كله في قبائل بني مرين ولم يمك منها لنفسه شيئا وقال لبنيه إياكم أن تأخذوا من هذه الغنائم شيئا فإنه يكفيكم منها التثاء والظهور على أعدائكم

حرب بني مرين مع عرب رياح ومقتل الأمير عبد الحق رحمه الله لما انتصر بنو مرين على أعدائهم الموحدين حصل في نفوس بني عسكر بن محمد من عشيرتهم نفاسة عليهم وضاق صدورهم من استقلال بني عمهم إلى مظاهرة الموحدين وأوليائهم من عرب رياح وكانت رياح يومئذ أشد قبائل المغرب قوة وأقواهم شوكة وأكثرهم خيلا ورجالا لحدث عهدهم بالعز والبدواة فأغراهم الموحدون يومئذ ببني مرين لينتصفوا لهم منهم وانفتحت كلمتهم عليهم وسمعت بنو مرين بإقبال العرب والموحدين وبني عسكر إليهم فاجتمعوا إلى أميرهم عبد الحق فقالوا له ما ترى في أمر هؤلاء العرب المقبلين إلينا فقال يا معشر مرين أما ما دمت في أمركم مجتمعين وفي أرائكم متفقين وكنتم على حرب عدوكم أعوانا وفي ذات الله إخوانا فلا أخشى أن ألقى بكم جميع أهل المغرب وإن اختلفت أهواؤكم وتشتت أراؤكم متفقين وكنتم على حرب عدوكم أعوانا وفي ذات الله إخوانا فلا أخشى أن ألقى بكم عدوكم فقالوا له إنا نجد لك بيعة على السمع والطاعة وأن لا نختلف عليك ولا نفر عنك أو نموت دونك فانهض بنا إليهم على بركة الله فنهض الأمير عبد الحق في جموع بني مرين فكان اللقاء بمقرية من وادي سبو على أميال من تافراست فكانت بينهم حرب بعد العهد بملتها وقتل فيها لأمير عبد الحق وكبير أولاده إدريس ولما رأيت بنو مرين ما وقع بأمرها وابنه حميت وعضبت واقسمت بإيمانها أن لا يدفن حتى يأخذوا بثاره فصمموا العزم لقتال رياح واستأنفوا الجد لقراعهم وصبروا صبرا جميلا فنصرهم الله على عدوهم فهزموا رياحا وقتلوا منهم خلقا كثيرا وشردهم في الشعاب والأودية ورؤوس الهضاب واحتوا على م كان في محلتهم من السلاح والخيل والأثاث وقام بامر بني مرين بعد هلاك عبد الحق ابنه عثمان على ما نذكره إن شاء الله

بقية أخبار الأمير عبد الحق وسيرته قالوا كان الأمير عبد الحق المريني مشهورا في قومه بالتقى والفضل والدين موسوما بالصلاح وصحة اليقين معروفا بالورع والعفاف موصوفا في سيرته بالعدل والإنصاف يطعم الطعام ويكفل الأيتام ويؤثر المساكين ويحنو على المستضعفين وكانت له بركة معروفة ودعوة مستجابة موصوفة وكانت قلنسوته وسراويله يتبرك بهما في جميع أحياء زناتة وكانوا يحملون فضلة وضوئه فيستشفون بها لمرضاهم وكان يسرد الصوم فلا يزال صائما طول عمره في الحر والبرد لا يرى مفطرا إلا في أيام العباد كثير الذكر والأوراد لا يقتر عنها في سائر الحالات متحريا لكل الحلال لا يبتات إلا من لحوم إبله وألبانها أو ما يعانیه من الصيد معظما في بني مرين مطاعا فيهم يقفون عند أمره ولا يصدرون إلا عن رأيه حكى ابن أبي زرع عن حدثه من الثقات أنه قدم على أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق في وفد من أعان فاس وفقهائها وذلك في رمضان سنة ثلاث وثمانين وستمئة والأمير يعقوب يومئذ برباط الفتح يريد العبور إلى الأندلس برسم الجهاد قال فجرى في مجلسه ذكر والده الأمير عبد الحق فقال الأمير يعقوب كان الأمير عبد الحق رحمه الله صادق القول إذا قل فعل وإذا عاهد وفي لم يحلف بالله قط بارا ولا حائنا ولم يشرب مسكرا قط ولا ارتكب فاحشة تضع الحوامل ببركة إزاره متى عسرت عليهن الولادة وكان يسرد الصوم ويقوم أكثر الليل وإذا سمع بخبر صالح أو عابد قصد لزيارته واستوهب منه الدعاء شديد الخوف من الصالحين متواضعا لهم وكان مع ذلك سما لأعدائه قاهرا لهم وما وجدنا إلا ببركته وبركة من دعا له من الصالحين قالوا وكان الأمير عبد الحق في ابتداء أمره قليل الأولاد فرأى ذات ليلة في منامه كان شعلا أربعاً من نار خرجن منه فعلمن في جو المغرب ثم احتوين على جميع أقطاره فكان تأويلها تملك بنيه الأربعة من بعده وهذا

مثل الرؤيا التي رآها عبد الملك بن مروان من يوله في المحراب أربع مرات فكان تأويلها أن ولي الخلافة أربعة من بنيه وسليمان ويزيد وهشام وكان الأمير عبد الحق تسعة من الولد إدريس وهو أكبرهم وقتل معه في حرب رياح وعثمان ومحمد وأبو بكر ويعقوب وهؤلاء الأربعة هم الذين ولوا الأمر بعده وعبد الله وعبد الرحمن ويقال له بلسانهم رحو وزيان وأبو عباد وبنت هي العاشرة والله أعلم الخبر عن رئاسة الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق رحمه الله لما فرغ بنو مرين من حرب رياح ورجعوا من اتباعهم اجتمعوا إلى الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق وكان أكبر بني أبيه بع إدريس فعزوه بمصائب أبيه وأخيه وبإيعوه عن رضى منهم فاجتمعت عليه كلمتهم ولما فرغ الأمير أبو سعيد من تجهيز أبيه وأخيه ودفنهما أقسم أن لا يرجع عن حرب رياح حتى يثار بمائة شيخ منهم فسار إليهم وأثن فيهم حتى شفى نفسه وأذعنوا إلى الطاعة ولاذوا بالسلم فسالمهم على إتواة يؤدونها إليه كل سنة ثم ضعفت شوكة الموحدين وتداعى أمرهم إلى الاختلال واشرف ملكهم على ربوة الاضمحلال وتقلص ظل حكاهم عن البدو جملة وفسدت لسابلة واختلط المرعى بالهمل فلما رأى الأمير أبو سعيد ما عليه أمر الموحدين من الضعف وما نزل برغايا المغرب من الجور والعسف جمع أشياخ مرين وندبهم إلى القيام بأمر الدين والنظر في مصالح المسلمين فأسرعوا إلى إجابته وبادروا لتلبية دعوته فسار بهم أبو سعيد في نواحي المغرب يتقرب مسالكه وشعوبه ويتتبع تلوله ودروبه ويدعو الناس إلى طاعته والدخول في عهده وحمائته فمن أجابه منهم أمنه ووضع عليه قدرا معلوما من الخراج ومن أبي عليه نابذه وأوقع به فيبايعه من قبائل المغرب هوارة وزكارة ثم تسول ومكناسة ثم بطوية وفشتالة ثم

سدراة وبهلولة ومديونة ففرض عليهم الخراج وفرق فيهم العمال ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها على رأس كل حول على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم ثم لما كانت سنة عشرين وستمئة غزا بلاد فازاز ومن بها من طواعن زناتة فأتحن فيهم حتى أذعنوا للطاعة وقبض أبيدهم عن إذابة الناس بالغارات والنهب في الطرقات ثم في سنة إحدى وعشرين بعدها غزا عرب رياح أهل أزغار وبلاد الهبط فأتحن فيهم حتى كاد يأتي عليهم ولم يزل دأبه ذلك من تدويخ بلاد المغرب وأقطاره حتى هلك باغتيال عالج له كان ربا صغيرا فثب وسول له الشيطان الفتك به فترصد غرته وطعنه بحربة في منحره فمات لوقته سنة ثمان وثلاثين وكان ذا نجدة وشجاعة وعزم وكرم وإيثار مكرما للفقهاء وأهل الصلاح سالكا في ذلك سنن أبيه رحمه الله الخبر عن رئاسة الأمير أبي معرف محمد بن عبد الحق رحمه الله لما هلك الأمير أبو سعيد قام بالأمر بعده أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق فافتقى سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة م أمصاره وجباية المغارم من باديته وبعث الرشيد بن المأمون صاحب مراکش قائده أبا محمد بن وانودين لحرب بني مرين وعقد له على مكناسة فأجحف بأهلها في المغارم ثم نزل بنو مرين في بعض الأحيان بنواحيها وأجلبوا عليها فنأدى أبو محمد في عسكره وخرج إليهم فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين وبارز محمد بن إدريس بن عبد الحق قائدا من قواد الفرنج فاختلفا ضربتبن هلك العالج بإحداهما وجرح محمد بالأخرى فاندمل جرحه وصار أترا في وجهه لقب من أجله بأبي ضريبة ثم شد بنو مرين على الموحدين فأنكشوا ورجع بن وانودين إلى مكناسة مفلولا

ويبقى بنو عبد المؤمن من أثناء ذلك في مرض من الأيام وتثاقل عن الحماية ثم أومضت دولتهم إيماضة الخمود وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستمئة وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد وبإيعه أهل المغرب انصرفت عزائمهم إلى غزو بني مرين وقطع أطماعهم عما سمت إليه من تملك المواطن فجهز عساكر الموحدين لقتالهم ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الفرنج فنهضوا سنة اثنتين وأربعين وستمئة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفا فسمع الأمير أبو معروف بإقبالهم فاستعد لقتالهم وزحف إليهم فكان اللقاء بموضع يعرف بصخرة أبي بياش من أحواز فاس فدارت بينهم حرب شديدة وصبر الفريقان ولما كان عشي النهار قتل الأمير أبو معرف بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الفرنج تحاملا فعثر فرس أبي معرف به وأمكنت العالج فيه الفرصة فاعتنمها وطعنه فمات فانهمزمت بنو مرين وتبعهم الموحدون فاتخذوا الليل جملا وأسروا طول ليلتهم بحلهم وعيالاتهم وأموالهم فأصبحوا بجبال غيائة من نواحي تازا فاعتصموا بها أياما ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء وولوا عليهم أبا بكر بن عبد الحق على ما نذكره وكانت هذه الواقعة وهلاك الأمير أبي معرف عشية يوم لاخمس تاسع جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وستمئة الخبر عن دولة الأمير أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله هذا الأمير هو الذي رفع من راية بني مرين سما بها إلى مرتبة الملك وكنيته أبو يحيى وهو أول من جند الجنود منهم وضرب الطبول ونشر البند وملك الحصون والبلاد واكتسب الطارف والتلاد بإيعه بنو مرين بعد

مهلك أخيه أبي معرف في التاريخ المتقدم فكان أول ما ذهب إليه ورآه من النظر لقومه أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين بني مرين وأنزل كلا منهم يناحية منه سوغهم إياها سائر الأيام طعمة لهم وأمر كل واحد من أشياخ بين مرين أن يستركب الرجل ويستحلق الاتباع فحسنت حالهم وكثرت غاشيتهم وتوفرت جموعهم

استيلاء الأمير أبي بكر على مكناسة وبيعة أهلها لابن أبي حفص بواسطته ثم سار الأمير أبو بكر بمحلته فنزل جبل زرهون ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب إفريقية لأنه كان يومئذ على دعوته وفي ولايته وحاصرها وضيق عليها يمنع المرافق وترديد الغارات إلى أن أذعنوا لطاعته فافتتحها صلحا بمداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبي الحسن بن أبي العافية وبعثوا ببيعتهم إلى الأمير أبي زكريا الحفصي وكانت البيعة من إنشاء أبي المطرف بن عميرة المخزومي وكان من أعلام ذلك العصر ومشاهيره ولي القضاء لبني عبد المؤمن بمدينة سلا ثم استنقصوه بعدها بمكناسة فشهد هذه القضية وكتب البيعة ولما فتح الأمير أبو بكر مكناسة أقطع أخاه يعقوب ثلاث حبايتها جزاء له على وساطته وكان فتح مكناسة سنة ثلاث أربعين وستمائة ثم انس الأمير أبو بكر من نفسه الاستبداد ومن قبيلة الاستيلاء فاتخذ الآلة لذلك وسما بنفسه إلى مرتبة الملك وأعد له عدته وانتهى الخبر إلى السعيد صاحب مراکش بتغلب الأمير أبي بكر على مكناسة وصرها لابن أبي حفص فوجم لها وفاوض الملأ من أهل دولته في أمره وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئا فشيئا حتى لم يبق بيدهم إلا قرارة مراکش وما حولها بعد امتداد ظل ملكهم على المغربيين والأندلس ثم نهض السعيد من مراکش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولادهم تلمسان ويغمراسن بن زيان ثانيا ثم إفريقية وابن أبي حفص أخرا ولما وصل إلى وادي بهت عرض جيوشه وميزها واتصل الخبر بالأمرير أبي بكر وهو بمكناسة فخرج وحده ليلا يتجسس لأخبار ويستطلع أحوال السعيد وجموعه فتقدم حتى أشرف على محلة السعيد من كتب ولا علم

لأحد به فرأى ما لا طاقة له به ورأى من الرأي أن يتخلى للسعيد عن البلاد ولا ينجازه الحرب فالحق بمكناسة واستدعى بني مرين من أمكانهم التي عين لهم فتلاحقوا به وساروا إلى قلعة تازوفا من بلاد الريف فتحصنوا بها وتقدم السعيد إلى مكناسة فتلقاه أهلها خاضعين مستشفعين إليه بشيوخهم وصبيانهم فعفا عنهم ثم سار إلى فاس فنزل بظاهرها من ناحية القبلة وخرج إليه أشياخها فسلموا عليه وسألوه الدخول إلى البلد فكرم عنهم وأبي ثم ارتحل إلى رباط تازا فنزل بظاهرها وهناك بعث إليه الأمير أبو بكر ببيعتة قبلها وكتب له ولقومه بالأمان وكان فيما خاطبه به الأمير أبو بكر أن قال له ارجع يا أمير المؤمنين إلى حضرتك وأنا أكفيك أمر بغير مرسان وافتح لك تلمسان فشاور السعيد خاصته في ذلك فقالوا لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الزناتي أخو الزناتي لا يسلمه ولا يخذله وإنما نخاف أن يصطلحا على حريك فاسعهم وكتب إلى الأمير أبي بكر يقول له أقم بموضعك وابعث إلي بحصة من قومك فأمده بخمسائة من بني مرين وعقد عليها لابن عمه أبي عياد بن أبي يحيى بن حمامة وتقدم السعيد إلى تلمسان فكان من هلاكه على قلعة تامزدركت ما قدمناه في أخبار دولته وكان الأمير أبو بكر لما نزل حصن تازوفا وأهل ذلك الحصن يومئذ هم بنو وطاس بطن من بني مرين أجمعوا الفتك به وغيره ونفاسته عليه ففسد إليه بذلك بعض شيوخهم وأعمله بما تواطؤوا عليه من غدره فارتحل الأمير أبو بكر عنهم إلى بني بزناس وكانوا نازلين يومئذ بعين الصفا فأقام هناك معهم حتى رجعت إليه الحصة التي كانت مع السعيد وأعلموه بمقتله واقتراق جموعه فانتهمز الأمير أبو بكر الفرصة في قل الموحدين واعتراضهم بأكرسيف فاستبلهم وانتزع الآلة من أيديهم وأدار إليه كتيبة الفرنج والناشبة من الأغزاز واتخذ المركب الملوكي من يومئذ ثم أغد السير إلى مكناسة فدخلها واستولوى عليها وأقام بها أياما ثم نهض إلى أعمال وطاط وحصون ملوية فافتتحها ودوخ جبالها وذلك أواخر صفر سنة ست وأربعين وستمائة

استيلاء الأمير أبي بكر على فاس وبيعة أهلها لما فرغ الأمير أبو بكر من فتح حصون ملوية صرف عزمه إلى فتح فاس وانتزاعها من يد بني عبد المؤمن وكان العامل بها يومئذ السيد أبا العباس من بني عبد المؤمن فأناخ عليها الأمير أبو بكر بخيله ورجله وتلف ف مداخلة أهلها وضمن لهم جميل النظر وحميد السيرة وكف الأذى عنهم فأجابوه ووثقوا بعهده وغناؤه وأووا إلى ظله وركنوا إلى طاعته وانتحل الدعوة الحفصية بأمره ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن بأسا من صريخهم فبايعوه بالرابطة خارج باب الشريعة وحضر هذه البيعة الشيخ أبو محمد الفشتالي ونشده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم وسلوك طريق العدل فيهم فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التي يتعرف أثرها خلفهم فيتلك البيعة ودخل الأمير أبو بكر مدينة فاس زوال يوم الخميس السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وأربعين وستمائة بعد موت السعيد صاحب مراکش بشهرين ولما دخل الأمير أبو بكر قصبه فاس أمن السيد أبا العباس عامل الموحدين بها وأخرجها من القصبه بعياله وأولاده وبعث معه سبعين فارسا يبلغونه إلى مأمنه فأجازوه وادي أم الربيع ورجعوا ثم نهض الأمير أبو بكر إلى منزلة تازا وبها يومئذ السيد أبو علي بن محمد أخو أبي دبوس فزازها أربعة أشهر حتى نزلوا على حكمه فقتل بعضهم ومن على آخرين منهم وسد ثغورها وأقطع أخاه يعقوب بن عبد الحق رباط تازا وحصون ملوية ورجع إلى فاس فأقام بهانحو سنة واستقامت له الأمور وقدمت عليه الوفود وأمر القبائل بالزول في البسائط وعمارة القرى والمدائر وأمنت الطرقات وتحركت التجار ورخصت الأسعار وصلح أمر الناس واغتبوا بولايته

انتفاض أهل فاس على الأمير أبي بكر ومحاضرتة إياهم لما استولى الأمير أبو بكر على المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرنا نهض في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وستمائة إلى معدن العوام من بلاد فازاز لفتح بلاد زناتة وتدويج نواحيها واستخلف على فاس مولاه السعدي بن خرياش من جماعة الحشم أحلاف بني مرين وكان الأمير أبو بكر لما فتح فاسا استبقى من كان فيها من عسكر بني عبد المؤمن من غير نسبهم على الوجه الذي كانوا عليه من الخدمة مع الموحدين وكان من جملتهم طائفة من النصارى نحو المانتين وعليهم قائد منهم يقال له شريد الفرندي فكانوا من حصة السعدي هنالك فوقعت بينهم وبين شيعة الموحدين من أهل فاس مداخلة وعزم الفاسيون على الفتك بالسعدي وتحويل الدعوة إلى المرتضى فاجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المغلبي وفاوضوه في ذلك فوافقهم على رأيهم فاستدعوا شريدا وقالوا له تقتل هذا السود وتضبط البلد حتى نكتب إلى المرتضى فيبعث إلينا من يقوم بأمرنا فأجابهم إلى ذلك وكان ميله إلى الموحدين وهواه معهم لكونه صنيعتهم وكان الذي مشى في هذه الثورة وتولى كبرها المشرف ولد القاضي المذكور وابن جشار وأخوه وابن أبي طاط وولده فلما كانت صبيحة الثلاثاء الموفي عشرين من شوال سنة سبع وأربعين وستمائة طلع الأشياخ المذكورون إلى القصبه للسلام على السعدي على عادتهم في ذلك فدخلوا عليه بمجلس حكمه وهاجوه ببعض المحاورات فغضب وانتهمزهم فوثبوا به ونادوا بشعارهم وكان شريد الفرنجي واقفا في عسكره أما القصبه قد وأطاهم على ذلك فافتحم على السعدي وقتله وقاتل معه أربعين من رجاله واحتز العامة رأسه ورفعوه على عطا وطافوا به في أسواق البلد وسككها واقتحموا القصر فانتهمزوه وسبوا الحرم ونصبوا النصراني لضبط البلد وبعثوا ببيعتهم إلى المرتضى صاحب مراکش واتصل الخبر بالأمرير أبي بكر وهو منازل بلاد فازاز فأفرج عنها وأخذ السير إلى فاس فأناخ عليها بعساكره وشمر لحصارها وقطع المادة عنها

وبعث أهل فاس إلى المرتضى بالصريخ فلم يرجع إليهم قولا ولا ملك له مضرا ولا نفعا ولا وجد لكشف ما نزل بهم حيلة ولا وجهها سوى أنه استجاش على الأمير أبي بكر بغير مرسان بن زيان صاحب تلمسان وأمله لكشف هذه النازلة عمن انحاش إلى طاعته فأجابهم بغير مرسان إلى ذلك وطمع أن يكون ذلك سببا له فيتملك المغرب وسلما للسعدي إلى ذروة ملكه فاحتشد لحركته ونهض من تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي بكر عن فاس وأهلها واتصل بالأمرير أبي بكر خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته فاسا فتجمر الكتاب عليها وصمد إليه قبل فصوله عن تخوم بلاده فلقبه بوادي أيسلي نم بسيط وجدة فتزاحف القوم وكانت ملحمة عظيمة هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد إبراهيم بن هشام نم بني عبد الواد ثم اكتشفت بنو عبد الواد ونجا بغير مرسان بن زيان إلى تلمسان برأس طمرة ولجام وترك محلته بما فيها فاحتوى عليها الأمير أبو بكر وانكفا راجعا إلى فاس للأخذ بمخنتها فوصل إليها في جمادى الآخرة سنة ثمان وستمائة وأناخ عليها بكله واتسأنف الجد وأر هف الحد وشدد في الصغار وأيس أهل فاس من إغاثة المرتضى وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ولم يجدوا وليجة من دون مراجعة طاعة بني مرين فسألوا الأمير أبا بكر الأمان فبذله لهم على غرم ما أتلفوا له بالفصر من المال يوم الثورة وقره مائة ألف دينار فتحملوها وأمكنوه من قياد البلد فدخلها في

الثالث والعشرين من الشهر المذكور فأقام بها إلى رجب الموالي له وطالبهم بالمال فسوفوه وتلوا في المقال فلما رأى ذلك منهم قبض على جماعة من أشياخها وأمنائها وأتلفهم بالحديد وطالبهم بالمال والأثاث الذي انتهبوه من القصر فقال له شيخ يعرف بابن الخبا إنما فعل الذنب منا سنة فكيف تهلكنا بما فعل السفهاء منا ولو فعل الأمير ما أشير به عليه لكان صوابا من الرأي فقال وما ذلك قال تعمد إلى هؤلاء نفر السنة والذين سعوا في الفتنة فتأخذ رؤوسهم وتشردهم بهم من خلفهم ثم تأخذنا نحن بغرم المال فقال لعمرى لقد أصيبت

ثم أمر بالقاضي المغربي وابنه وابن أبي طاط وابنه وابن جشار وأخيه فقتلوا ورفعوا على الشرفات رؤوسهم وأخذ الباقين بغرم المال طوعا وكرها قال ابن خلدون فكان ذلك مما عذب رعية فاس وقادها لأحكام بني مرين وضرب الرهب على قلوبهم فخشعت منهم الأصوات وانقادت منهم الهمم ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمسه يد في فتنة وكان مقتل نفر المذكورين خارج باب الشريعة يوم الأحد الثامن من رجب المذكور استيلاء الأمير أبي بكر على مدينة سلا ثم ارتجاعها منه وهزيمة المرتضى بعد ذلك لما أكمل اله للامير أبي بكر فتح مدينة فاس واستوسق أمر بني مرين بها ورجع إلى ما كان فيه من منازل بلاد فازاز فافتتحها ودوخ أوطان زناتة واقتضى مغارمهم وحسم علل الثأرين بها ثم تخطى ذلك إلى مدينة سلا وربط الفتح سنة تسع وأربعين وستمائة فملكها وتآخم الموحدون بثغرها واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق وعقد له على ذلك الثغر وضم الأعمال إليه وبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى بمراكش فأهمله الشأن وأحضر الملام من الموحدون وفأوضهم واعتزم على حرب بني مرين وسرح العساكر سنة خمسين وستمائة فأحاطت بسلا ثم افتتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى وعقد عليها لأبي عبد الله بن يعقوب من مشيخة الموحدون ثم أجمع المرتضى النهوض بنفسه إلى بني مرين فبعث في المدائن والقبائل حششرين فأهرعت إليه أمم الموحدون والعرب والمصامدة وغيرهم وفصل من مراكش سنة ثلاث وخمسين وستمائة فينحى إلى السير حتى انتهى إلى جبال بهولة من نواحي فاس وصمد إليه الأمير أبو بكر في عساكر بني مرين ومن اجتمع إليهم من ذويهم

والتقى الجمعان هناك وصدفهم بنو مرين الجلال فاختل مصاف الموحدون وانتهزت عساكر المرتضى وأسلمه قومه ورجع إلى مراكش مقلولا واستولى بنو مرين على معسكره واستباحوا سرادقة وانتهبوا فساطيطه وغنموا جميع ما وجدوا لها من المال والذخيرة واستاقوا سائر الكراع والظهر وامتألت أيديهم من الغنائم واعتز أمرهم وانبسط سلطانهم وكان يوما له ما عبده وفي القرطاس أن انهزم جيش المرتضى في هذه المرة كان عن جولان فرس بين أخبيتهم ليلا فحسبوا أن بني مرين قد أغاروا عليهم فانهزموا لا يلبون على شيء والله أعلم ثم غزا الأمير أبو بكر بعد هذا بلاد تادلا فاستباح حاميتها من بني جابر عرب جشم واستلمح أبطالهم والأن من جدهم وخضد من شوكتهم وفي خلال هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق وهو ابن أخي الأمير أبي بكر شعر منه بفساد الخيلة والإجماع لتوثب على الأمر فس لابنه أبي حديد مفتاح بن أبي بكر بقتله فقتله في جهات مكناسة سنة إحدى وخمسين وستمائة والله تعالى أعلم استيلاء الأمير أبي بكر على سجلماسة ودرعه وسائر بلاد القبلة لما كانت سنة خمس وخمسين وستمائة نهض الأمير أبو بكر إلى محاربة يعمراسن بن زيان وسمع به يعمراسن فهض إليه أيضا فكان اللقاء بأبي سليل فافتتلوا وانهزم يعمراسن واعتزم الأمير أبو بكر على اتباعه فقتاه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يعمراسن فرجع ولما انتهى إلى المقرمة من أواز فاس بلغه أن يعمراسن قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة كانت له من بعض أهلها وعورة أطمعته في ملكها فأسرع الأمير أبو بكر السير بجموعه إلى سجلماسة فدخلها قبل وصول يعمراسن إليها بيوم ثم جاء يعمراسن حتى نزل خارجها بباب تاحسنت وسقط في يده ونيس من غلبة الأمير أبي بكر عليها ودارت بينهما حرب تكافأ

الفرقان فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي بكر وانقلب يعمراسن إلى بلده وعقد الأمير أبو بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وجعل مسلحة الجند بها لنظر أبي يحيى القطراني وملكه قيادتهم وانكفأ راجعا إلى فاس والله تعالى أعلم وفاة الأمير أبي بكر رحمه اله لما رجع الأمير أبو بكر من حرب يعمراسن على سجلماسة أقام بفاس أياما ثم نهض إلى سجلماسة أيضا متفقدًا لثغورها فانقلب منها عيلا ووصل إلى فاس فتوفي بقصره من قصبته أواسط رجب سنة ست وخمسين وستمائة ودفن داخل باب الجيزيين من أبواب عدوة الأندلس بزاء الشيخ أبي محمد الفشتالي حسيما أوصى بذلك وتصدى للقيام بالمر بعده ابنه عمر على ما ذكره الخبر عن دولة أبي حفص الأمير عمر بن أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله لما مات الأمير أبو بكر رحمه الله اشتمل العامة من بني مرين على ابنه أبي حفص عمر فبايعوه ونصبوه للامر وتباروا في خدمته ومالت المشيخة وأهل العقد والحل إلى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان غائبا عند مهلك أخيه بتازا فلما بلغه الخبر أسرع للحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر وأحس عمر بميل الناس إلى عمه يعقوب ففلق لذلك وأغراه أتباعه بالفك بعمه فاعتصم بالقصبة ثم سعى للناس في الإصلاح بينهما فتفادى يعقوب من الأمر ودفعه إلى أخيه على أن تكون له بلاد تازا وبطوية وملوية التي كان أقطعه إياها أخوه من قبل فانفصلوا على ذلك وخلص الأمر لعمر واستمر بفاس أشهرًا إلى أن غلب عليه عمه المذكور حسيما نقص عليك

الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمه الله هذا السلطان جليل القدر عظيم الشأن وهو سيد بني مرين على الإطلاق وستسمع من اخباره الحسنة ما يستغرق الوصف ويستوقف السمع والطرف وهو رابع الإخوة الأربعة الذين ولوا المر بالمغرب من بني عبد الحق وكانت أمه واسمها أم اليمن بنت علي البطوي رأت وهي بكر كأن القمر خرج من قلبها حتى صعد إلى السماء وأشرق نوره على الأرض فقصت رؤياها على أبيها فسار إلى الشيخ الصالح أبي عثمان الوريكلي فقصها عليه فقال إن صدقت رؤياها فستلد ملكا عظيما فكان كذلك ولما انفصل الأمير يعقوب بن عبد الحق عن ابن أخيه عمر بولاية تازا وما أضيف إليها اجتمع عليه كافة بني مرين وعذلوه فيما كان منه من التخلي عن الملك وحملوه على العود في الأمر ووعده من أنفسهم المظاهرة والنصر إلى أن يتم أمره فأجاب وبايعوه وصمد على فاس فبرز الأمير عمر للقائه ولما تراءى الجمعان خذل عمر جنوده وأسلموه فرجع إلى فاس مقلول ووجه الرغبة إلى عمه أن يقطعه مكناسة وينزل له عن الأمر فأجاب به ذلك ودخل السلطان يعقوب مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة ونفذت كلمته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وما بين سجلماسة وقصر كنامة واقتصر عمر على إمارة مكناسة فتولاها أياما ثم اغتاله بعض عشيرته فقتلوه لنحو سنة ثم إمارته فكفى الأمير يعقوب أمره واستقام سلطانه وذهب التنازع والشقاق عن ملكه وكان يعمراسن بنزيان لما سمع بموت قرنه الأمير أبي بكر سما له مل في الإجلاب على المغرب فجمع لذلك قومه من بني عبد الواد واستظهر ببني توجين ومغراوة ووعدهم ومناهم وأطمعهم في غيل الأسد ثم نهض بهم على المغرب حتى إذا انتهوا إلى كلدمان صمد إليهم الأمير يعقوب فقلهم وردد لهم على أعقابهم ومر يعمراسن في طريقه بتافرسيت من بلاد بطوية فأحرق

وانتسف واستباح وأعظم النكاية ورجع الأمير يعقوب إلى فاس واتفق مذهب أخيه الأمير أبي بكر في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي نصارى الإصبينول فكان له بها أثر جميل وذكر خالد رحمه الله استيلاء نصارى الإصبينول على مدينة سلا وإيقاع السلطان يعقوب بهم وطردهم عنها كان يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق قد استعمله عمه الأمير أبو بكر بن عبد الحق على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه ولما استرجعها الموحدون من يده أقام يتقلب في جهاتها مترصدا للفرصة وإمكانها فيها ولما بويع عمه السلطان يعقوب بن عبد الحق أسفته بعض الأحوال منه فذهب مغاضبا حتى نزل عين غبولة وأطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدهما ذريعة لما أسر في نفسه من التوثب على الأمر فتمت له الحيلة وملك سلا وركب عاملها أبو عبد الله بن يعقوب البحر فارا إلى آزموه وخلف أمواله وحرمه فتملك يعقوب بن عبد الله ذلك وتمكن من البلد وجاهر بالخلع وصرف إلى منازعة عمه السلطان يعقوب وجوه العزم وتمكنت الوحشة بين اليعقوبيين وداخل يعقوب سلا تجار الحرب من الإصبينول في الإمداد بالسلح فتباروا في ذلك وكثرت سفن المترددين منهم إليها حتى كثروا أهلها وزاد عددهم فعزموا على الثورة بها واهتبلوا فيها غرة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند اشتغال الناس بعيدهم وتاروا بسلا في اليوم

الثاني من شوال فوضعوا السيف في أهلها وقتلوا الرجال وسبوا الحرم وانتهبوا الأموال وكان الحادث بها عظيما وضبوا البلد وتحصن يعقوب بن عبد الله برباط الفتح وطار الصريح إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق وهو يومئذ بمدينة تازا

دخلها أوائل من السنة المذكورة لاستشراف أحوال يغمراسن بن زيان فوصل إليه الخبر في اليوم الرابع من شوال المذكور فنهض السلطان يعقوب من فورهِ بعد أن صلى العصر بتازا من ذلك اليوم فأسرى ليلته تلك في نحو الخمسين فارسا ومن الغد صلى العصر بظاهر سلا فكان قطعه مسافة ما بينهما في يوم وليلة وهذا أمر خارق للعادة بلا شك أظهره الله على يد هذا السلطان لصدقه وعزمه وحسن نيته وإلا فالمسافة ما بين تازا وسلاست مراحل أو أكثر ثم تلاحقت به جيوش المسلمين من القبائل المتطوعة من جميع آفاق المغرب فحاصر النصارى بها وضيق عليهم ووالى القتال عليهم بالليل والنهار حتى اقتحمها عليهم عنوة لأربع عشرة ليلة من حصارها وأثن فيهم بالقتل ونجا من نجا منهم إلى سفنهم فنشروا قلوبهم وذهبوا يلتفتون وراءهم ثم شرع السلطان يعقوب رحمه الله في بناء السور الغربي من سلا الذي يقابل الوادي منها فإنه كان لا سور لها من تكل الجهة من أيام عبد المؤمن بن علي فإنه كن قد هدم أسوار قواعد المغرب مثل فاس وسبتة وسلا حسبما قدمنا الخبر عنه في دولته ومن هذه الثملة كان دخول النصارى على سلا فشرع السلطان يعقوب رحمه الله في بنائه فبناه من أول دار الصناعة قبلة إلى البحر جوفاً وكان رحمه الله يقف على بنائه بنفسه ويناول الحجر بيده ابتغاء ثواب الله وتواضعاً وسعياً في صلاح المسلمين حتى تم السور المذكور على أحسن وجه وأكمله ويار الصناعة المذكورة في هذا الخبر هي الدار التي كانت تصنع بها الأساطيل الحربية والمراكب الحربية يجلب إليها العود من غابة المعمورة فتصنع هنالك ثم ترسل في الوادي وكان ذلك من الأمر المهم في دولة الموحدين حسبما سلف قال في الجذور دار الصناعة بسلا بناها العلم أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج من أهل إشبيلية وكان من العارفين بالبحل الهندسية ومن أهل المهارة فينقل الأجرام ورفع الأثقال بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية اه وأما يعقوب بن عبد الله التائر فإنه خشي بادرة السلطان يعقوب بن

عبد الحق فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وتقفه ثم نهض إلى بلاد تأسنا فاستولى عليها وملك مدينة أنفى وهي المسماة الآن بالدار البيضاء فضبطها ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته وسار هو إلى لقاء يغمراسن فلقه وعقد معه المهادنة واقتربا على السلم ووضع أوزار الحرب ورجع السلطان إلى المغرب فخرج عليه بنو أخيه إدريس على ما نذكره خروج بني إدريس بن عبد الحق على عمهم السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قد تقدم لنا أن الأمير عبد الحق المريني كان له تسعة من الولد أميرهم إدريس وقتل مع والده في حرب رباح وكان لإدريس هذا عدة أولاد بقوا في كفالة أعمامهم ولما أفضى الأمر إلى السلطان يعقوب وكان أولاد إدريس قد ملكوا أمر أنفسهم واشتدت شكيمتهم فففسوا عليه ما أتاه الله من الملك ورأوا أنهم أحق به منه لأن أباهم هو الأكبر من ولد عبد الحق كما مر فخرجوا على عمهم يعقوب ولحقوا بقصر كتامة وتابعوا ابن عمهم يعقوب بن عبد الله على رأيهم من عشيرتهم ومواليهم واعتصموا بجبال غمارة فنهض إليهم السلطان يعقوب وتلطف بهم حتى استنزلهم واسترضاهم وعقد لعامر بن إدريس منهم سنة ستين وستمئة على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المتطوعة من بني مريين وأغزاهم الأندلس لجهاد العدو بها وحملهم وفرض لهم في العطاء وشفع بهذه الفعلة الحسنة عمله في واقعة سلا وهو أول جيش عبر البحر إلى الأندلس من بني مريين فكان لهم في الجهاد والمرابطة مواقف مذكورة ومقامات محمودة تبع الخلف فيها السلف ودام ذلك فيهم برهة من الدهر وقاموا عن أهل المغرب والأندلس بهذا الواجب العظيم رحمهم الله وجزاهم عن المسلمين خيرا

وأما يعقوب بن عبد الله صاحب سلا فإنه أقام خارجا بالنواحي منتقلا في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلي من أولياء السلطان يعقوب إلى ساقية غبولة من ناحية رباط الفتح سنة ثمان وستين وستمئة فكفى السلطان يعقوب أمره حصار السلطان يعقوب حضرته مراكش ونزوع أبي دبوس منها إليه وهلاك المرتضى بعد ذلك لما فرغ السلطان يعقوب من شأن لخارجين عليه من عشيرته أجمع رأيته لمنازلة المرتضى والموحدين في دارهم وحضرتهم ورأى أنه أوهن لشوكتهم وأقوى لأمره عليهم فبعث في قومه وحشد أهل مملكته واستكمل التعبئة وسار سنة ستين وستمئة حتى انتهى إلى جبل جيليز فشارف دار الخلافة ونزل بعقرها وأخذ بمخنفها وخفقت ألبيته على جنباتها وعقد المرتضى على حربه لأبي دبوس إدريس بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن فعبا كتابه ورتب مصافه وبرز لمداقعتهم ظاهر الحضرة فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها هلك فيها الأمير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ففتت مهلكه في عضدهم وارتحلوا عنها إلى أعمالها واعترضتهم عساكر الموحدين بوادي أم الربيع وعيبيهم يحي بن عبد الله بن وانودين فاقتتلوا في بطن الوادي وانهزمت عساكر الموحدين هزيمة شنعاء وتركوا الأموال والأثاث فاحتوى بنو مريين على ذلك كله وهي واقعة أم الرجلين ثم سعى سمسارة الفتن عند الخليفة المرتضى في ابن عمه وقائد حربه أبي دبوس بأنه يطلب الأمر لنفسه وشعر هو بالسعاية في جانبه فخشي بادرة المرتضى ولحق بالسلطان يعقوب سنة إحدى وستين وستمئة عند دخوله إلى فاس من محاصرته مراكش فأقام عنده مليا ثم سألته الإعانة على أمره بعسكر يمهده به وآلة يتخذها لملكه ومال بصرفه في ضرورياته على أن يشرکه في

الفتح والغنيمة والسلطان فأمده السلطان يعقوب بخمسة آلاف من بني مريين وبالمستجد من الآلة والكفاية من المال وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل مملكته وغيرهم أن يكونوا معه بدا واحدة حتى يبلغ مراده في فتح مراكش وسار أبو دبوس في الكتائب حتى شارف الحضرة ودرس إلى أشباعه من الموحدين بأمره فثاروا بالمرتضى فكان من فراره إلى أزموور ونزوله على صهره ابن عطوش ومقتله على يده ما قدمنا ذكره في دولته واستتب أمر أبي دبوس بمراكش وثبت قدمه فبعث إليه السلطان يعقوب في جموع بني مريين وعساكر المغرب فخام عن اللقاء واعتصم بالأسوار فزحف إليه السلطان يعقوب وحاصره أياما ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزروع وينسف الأقوات وعجز أبو دبوس عن مدافعتة فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفت في عضده ويشغله عما أمامه بما وراءه فكان ما نذكره وقعة تالغ بين يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان لما نزل السلطان يعقوب حضرته مراكش وربض على ترائبه للتوثب عليها لم يجد أبو دبوس ملجأ من دون الاستظهار عليه بيغمراسن بن زيان ليأخذ بحجزته عنها فبعث إليه بالصريح في ذلك وأكد العهد وأسنى الهدية فشمير يغمراسن لاستنفاده وجذب السلطان يعقوب عنه من خلفه بشن الغارات على ثغور المغرب وإيقاد نار الفتنة بها فهاج عليه من السلطان يعقوب لئب عايبا وأرهب منه حدا ماضيا فأفرج للوقت عن مراكش ورجع عوده على بدنه يريد تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان فنزل فاسا وتلوم بها أياما حتى أخذ أهبة الحرب وعدة النزال ثم نهض إلى تلمسان منتصفا محرم سنة ست وستين وستمئة وسلك على أكرسيف ثم على تافراطست

وتزاحف الفريقان بوادي تالغ وعبأ كل منها كتابه ورتب مصافه وبرز النساء في القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض والتحم القتال وطال القراع والنزال ولما فاء الفياء ومال النهار وكثرت حشود بني مريين جموع بني عبد الواد ومن إليهم انكشفا ومنحو العدو أكتافهم وهلك في الحومة أبو حفص عمر بن يغمراسن بن زيان وكان كبير أولاده وولي عهده وهلك معه جماعة من عشيرته ولما انهزم بنو عبد الواد بقي يغمراسن في ساقته حاميا لهم من بني مريين أن تركيهم من خلفهم فكان رداء لهم إل أن وصلوا إل بلادهم وكانت وقعة تالغ يوم الاثنين الثاني عشر من جمادى الأخيرة من السنة المذكورة ورجع السلطان يعقوب إلى مكانه من حصار مراكش والله غالب على أمره فتح حضرته مراكش ومقتل أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين بها لما قفل السلطان يعقوب من حرب يغمراسن صرف عزمه إلى غزو مراكش والعود إلى حصارها كما كان أول مرة فنهض إليها من فاس في شعبان سنة ست وستين وستمئة ولما عبروا وادي أم الربيع بث السرايا وشن الغارات وأطلق الأعنة والأيدي للنهب والعيث فحطموا زروعها وانتسفوا آثارها وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادالا فأخن فيهم واستباحهم م نزل وادي العبيد فأقام هنالك أياما ثم غزا بلاد صنهاجة فاستباحها ولم يزل ينقل ركابه في أحواز مراكش ويجوس خلالها إلى آخر ذي القعدة من سنة سبع وستين وستمئة فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة عند أبي دبوس وقالوا له يا مولانا كم تعقد عن حرب بني مريين وقد ترى ما نزل بنا في حريمتنا وأموالنا منهم فأخرج بنا إليهم لعل اله يجعله سبب الفتح فإنهم قليلون وجمهورهم وذوو الشوكة منهم قد بقوا



برباط تازا لحراسة ذلك الثغر من بني عبد الواد ولم يزلوا يفتلون له في الذروة والغارب حتى أجابهم إلى رأيهم فاستعد للحرب وبرز من حضرة مراکش في جيوش ضخمة وجموع وافرة فاسجره السلطان يعقوب بالفارار أمامه ليلعد عن مدد الصريخ فيستمكن منه فلم يزل أبو دبوس يسعى خلفه حتى نزل ودغوا فحينئذ كر عليه السلطان يعقوب فالتحمت الحرب واختل مصاف أبي دبوس وفر يسابق إلى مراکش وأين منه مراکش فأدركته الخيول وحطمته الرماح فخر صريعا واحتز رأسه وجيء به إلى السلطان يعقوب فسجد شكرا لله تعالى وذلك يوم الأحد ثاني محرم سنة ثمان وستين وستمائه ثم تقدم السلطان يعقوب نحو مراکش وفر من كان بها من الموحدين إلى تينمال وبايعوا إسحاق أخا المرتضى فبقي ذبالة هنالك إلى أن قبض عليه سنة أربع وسبعين وستمائه وجيء به في جماعة من قومه إلى السلطان يعقوب فقتلوا جميعا وانقرض أمر بني عبد المؤمن والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ثم خرج الملاء وأهل الشورى من الحضرة إلى لقاء السلطان يعقوب ففرح بهم وأمنهم ووصهم ودخل مراکش في عسكر ضخم وموكب فخم يوم الأحد التاسع من محرم المذكور **وورث ملك آل عبد المؤمن وتملاه واستوسق أمره بالمغرب وتطامن الناس لياسه وسكنوا لظلم سلطانه وأقام بمراكش إلى رمضان من سنته ثم أغزا ابنه الأمير أبا مالك عبد الواحد بن يعقوب بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوخ أقطارها ورجع إلى أبيه واستمر السلطان يعقوب بمراكش يصلح شؤونها إلى رمضان من سنة تسع وستين وستمائه فخرج بنفسه إلى بلاد درعة فأوقع بعربها الواقعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم ورجع لشهرين من غزاته ثم أجمع الرحلة إلى دار ملكه بفاس فعقد على مراکش لمحمد بن علي بن يحيى من كبار أوليائهم ومن أهل خولته وكان من طبقة الوزراء وأنزله بقصبة مراکش وجعل المسالحي في أعمالها لنظره وعهد إليه بتدويخ الأقطار ومحو آثار بني عبد المؤمن وفصل من مراکش قاصدا حضرة فاس في شوال من السنة المذكورة والله تعالى أعلم**

مراسلة السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي للسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمهما الله كانت دولة بني أبي حفص أصحاب تونس وإفريقية فرعا من دولة بني عبد المؤمن وشعبية منها حسبا نبنها عليه غير مرة ولما ضعفت دولة بني عبد المؤمن بمراكش والمغرب كان صاحب إفريقية أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الهنتاني يأمل الاستيلاء عليها والتملك لها ويتمنى ذلك لو ساعده القدر لأنه أرض سلفه وموطن أصله وعشيرته لأن عمالة مراکش لم تعرف إلا المصامدة من قديم الزمان وقبيلة هنتانية هي صميمها وذوابتها فيهدا ونحوه كان بنو أبي حفص يتطاولون إلى ملك مراکش ولما نبغ بنو مريين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون إلى أبي زكرياء الحفصي تأليفا لأهل المغرب واستجلابا لمرضاتهم وإيتانا لهم من ناحية أهوائه إذ كانت صيغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم فلو دعوا إلى غيرها من أول الأمر لحاصوا عنها حصية حمر الوحش ولما لم يكن بني مريين أن يدعو إلى بني عبد المؤمن لأنهم أقتالهم وإياهم ينازعون ولهم يحاربون ويجالون دعوا إلى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم والدعوة إلى الفرع كالدعوة إلى أصله فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها وإنما كان بنو مريين يسرون من ذلك حسوا في ارتغاء ولهذا لما استقل السلطان يعقوب بالأمر وتمكن له السلطان بالمغرب قطع دعوة الحفصيين حالا بعد أن كان أولا يدعو إليها هو وإخوته من قبله وكان بنو شأبي حفص ينشطون لذلك ويهادون بني مريين ويمدونهم بالمال والسلاح وغير ذلك ولما عزم السلطان يعقوب على منزلة مراکش كتب إلى أبي عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص يخبره بذلك ويستمده حتى

كانه نائب عنه لا غير وأرسل بكتابه مع ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق في جماعة من وجوه دولته فأكرم المستنصر وفادتهم ثم لما فتح السلطان يعقوب مراکش واستولى عليها بعث إليه المستنصر بهدية فيها من أصناف الخيل الجياد والسلاح والثياب الرفيعة ما اختاره واستحسنه وبعث بذلك مع جماعة من وجوه دولته أيضا وفيهم الكاتب أبو عبد الله محمد الكنتاني تفتطف الكاتب المذكور في ذكر المستنصر على منبر مراکش حتى تم له ذلك بمحض وفد الموحدين فعظم سرورهم وانقلبوا إلى صاحبهم بالخير واتصلت المودة والمهاداة بين المستنصر والسلطان يعقوب سائر أيامهم ولما هلك المستنصر وبويع ابنه أبو زكرياء يحيى المدعو بالواثق اتفقت سنن أبيه في ذلك فيبعث إلى السلطان يعقوب بهدية حافلة مع قاضي بجاية أبي العاس الغماري هذا بالمغرب ذكر تحدث الناس به ذهرا وقطع السلطان يعقوب لأول أمره إلى الحفصيين كما قلنا والله تعالى أعلم **عقد السلطان يعقوب ولاية العهد لابنه أبي مالك بسلا وما نشأ عن ذلك من خروج قرابته عليه كان السلطان يعقوب حين خرج من مراکش بعد فتحها قاصدا حضرة فاس دار ملك بني مريين اجتاز بمدينة سلا فأراح بها أياما فطرقة مرض وعك منه وعكا شديدا فلما أبل من مرضه جمع قومه وعقد العهد لأبكر أولاده أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب لما علم من أهليته لذلك وأخذ له البيعة عليم جميعا فأعطوها طواعية وعز ذلك على الربة من بني عبد الحق وهم أولاد سوط النساء بنو إدريس بن عبد الحق وبنو عبد الله بن عبد الحق وبنو رحو بن عبد الحق وإنما قيل لهم أولاد سوط النساء لأن هؤلاء الثلاثة من بني عبد الحق كانوا أشقاء أمهم اسمها سوط النساء فلما بايع السلطان**

يعقوب لابنه أبي مالك بولاية العهد أسفهم ذلك لأنهم كانوا يرون أنهم أحق بالأمر حسبا سلف فارتدوا على أعقابهم وقبوا لمهم ظهر المجن وعادت هيف إلى أتيانها وأسروا من ليلتهم من سلا ولم يصبحوا إلا بجبل علودان من بلاد غمارة عش خلفهم ومدرج فنتتهم وكان ذلك في عيد الفطر من سنة تسع وستين وستمائه وانضم إليهم بنو أبي عياد بن عبد الحق وشابجهم على رأيهم فخرج السلطان يعقوب في أثرهم وقدم بين يديه ابنه لأمير يوسف بن يعقوب في حمسه آلاف فأحاط بهم وأخذ بمخنقهم ولحق به أخوه أبو مالك ف عسكره ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان ثم لحق بهم السلطان يعقوب في عساكره فأحاط بهم ثلاثا ولما رأوا أن قد أحيط بهم سألوا الأمان فيبذله لهم وأنزلهم ومسح صدورهم واسترضاهم واستل سخانهم ووصل بهم إلى حضرته فسألوا منه فسألوا منه الأذن في اللحاق بتمسان حياء مما ارتكبه من الخلاف فأذن لهم فأجازوا البحر إلى الأندلس وخالفهم عامر بن إدريس لما أنس من ميل عمه إليه بتمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد إلى قومه بعد منزلة السلطان يعقوب لتمسان حسبا نذكره عن قريب قال ابن خلدون واحتل هؤلاء القرابة من بني عبد الحق بأرض الأندلس على حين أقر من الحامية جوها واستأسد العدو على ثغورها وتحلبت شفاهه لالتهامها فتيبها أسودا ضارية وسيوفا ماضية معودين لقاء الأبطال وقراع الحتوف والنزال مستغلطين بخشونة البداوة وصرامة العز ويسأله التوحش فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا في صدره سجي دون الوطن الذي كان طعمة له في ظنه وارتدوه على عقبه ونشطوا من هم المسلمين المستضعفين ورا البحر وبسطوا من أمالهم لمدافعة طاغيتهم وزاحموا أمير الأندلس في رياستها بمنكب قوي فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدة من أعياصهم وغيرهم من أمم البربر وثأفوه في مستقر عزه وساهموا في الجباية بفرض العطاء والديوان فيبذله لهم واستعدوا على العدو وحسن أثرهم فيه حسبا تلمع بالبعض من ذلك إن شاء الله

هجوم النصارى على العرائش وتيشمس من ثغور المغرب لما كان المحرم من سنة ثمان وستين وستمائه هجم النصارى على مدينة العرائش وتيشمس من ثغور العدة المغربية فقتلوا رجالها وسبوا نساءها واتهبوا أموالها وأضرموها نارا ورجعوا عودهم على بدءهم فركبوا أجناتهم ولحقوا ببلادهم ولم تتلهم شوكة السلطان يعقوب لأنه كان مشغولا بفتح مراکش في التاريخ المذكور ولم يبين في القرطاس هؤلاء النصارى من هم وقعة إيسلي بين السلطان يعقوب ابن عبد الحق ويغمراسن بن زيان لما أنعم الله على السلطان يعقوب بامتداد ظل ملكه في أقطار المغرب ونواحيه ونفوذ كلمته في حواضره وبواديه وتم له الصنع بفتح مراکش وورثة كرسى بني عبد المؤمن بها وعاد إلى فاس كما قلنا تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن بن زيان وما أسفه به من تخذيل عزائمهم ومجادبتهم عن قصده ورأى أن وقعة تلاج لم تشف صدره ولا أطفأت نار موجده فأجمع أمره لغزوة ونشطه لذلك ما صار إليه من الملك وسعة السلطان فحشد جميع أهل المغرب وعزم على استئصاله وقطع دابره فعسكر بفاس وبعث ولده أبا مالك إلى مراکش في جماعة من خواصة حاشريين ي مدانها وضواحيها فاجتمع عليه من قبائل العرب والمصامدة وصدناهجة وبقايا عساكر الموحدين بالحضرة وحامية الأمصار من جند الفرنج وناشبة الغزو استكثر من ذلك لكة واحتفل السلطان يعقوب بفاس كذلك ثم نهض منها غرة صفر سنة سبعين وستمائه فسار حتى نزل وادي ملوية فأقام عليه أياما حتى لحقه ابنه أبو مالك في جموعه وتوافقت لديه أمداد العرب من قبائل

جشم أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر ومن معهم من الأتبع وقبائل ذوي حسان والشبانان من معقل أهل السوس الأقصى وقبائل رياح أهل أزغار وبلاد الهبط فعرض هنالك عساكره وميزها وربتها فيقال إنها بلغت ثلاثين ألفا وارتحل يريد تلمسان ولما انتهى إلى أنكاد قدمت عليه رسل ابن الأحمر ووفد أهل الأندلس يستصرخونه على العدو ويسألونه الإغاثة والنصر ويخبرونه بأنه قد كلب عليهم وشره لانتهاهم بلادهم فتحركت همته رحمه الله للجهاد ونصر المسلمين وإغاثة المستضعفين منهم ونظر في صرف الشواغل عن ذلك وجنح للسلم مع يغمراسن وعزم عليها واستنثار المأمن من أشياخ العرب وبنو مريين في ذلك فصوبوا رأيه لما كانوا عليه أيضا من إيثار الجهاد ومحبة فبعث السلطان يعقوب جماعة من أشياخ القبائل إلى يغمراسن يدعونه إلى الصلح واجتماع الكلمة وقال لهم في جملة قوله إن الصلح خير كله فإن جنح يغمراسن إليه وأتاب فذاك وإلا فأسر عوا إلي بالخير فسار الأشياخ إلى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهيبته واستعد للقاء وحشد قبائل زناتة المجاورين له في تلك البلاد من بني عبد الواد وبنو راشد وأحلافهم ومغراوة من عرب بني زغبة فبلغوه الرسالة وعرضوا عليه مقالة السلطان يعقوب فأبى واستكبر وصم عن سماع قولهم وموعظتهم وقال أبعد مقتل ولدي أصلحه والله لا كان ذلك أبدا حتى أثار به وأذيق أهل المغرب النكال من أجله فرجعت الرسل إلى السلطان يعقوب بالخبر وتزاحف الفريقان فكان اللقاء على وادي ايسلي من بسيط وجدة وعياً السلطان يعقوب كتائبه ورتب مصافه وجعل ابنه عبد الواحد في الميمنة وابنه يوسف في الميسرة ووقف هو في القلب ودارت بينهم رحى الحرب وركدت مليا وهلك في الحومة أبو عنان فارس الفرنج وتقبض على قائدهم برنيس وانهزم الباقون ونجا يغمراسن في فله حاميا لهم ومدافعا عنهم من خلفهم ومر في هزيمته بفساطيطها فأضرمها نارا تقاديا من حصرة استيلاء العدو عليها وانتهبت بنو مريين باقي معسكره واستبيحت حرمة وارتحل السلطان يعقوب من الغد في أثره حتى إذا انتهى إلى وجدة وقف عليها فأمر بهدمها فتسارعت أيدي الجند إليها وجعلوا

عاليها

سافلها وألصقوا بالرغام جدرانها وتركوها قاعا صمصفا وكانت هذه الواقعة منتصف رجب من سنة سبعين وستمئة ثم تقدم إلى تلمسان فنزل عليها وحاصرها وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب والعيث ثم شن الغارات على البساطت فاكنتسحها سببا ونسفها نسفا وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي وكان من عليه وزرائه وحماة ميدانه وله في ذلك أخبار مذكورة وكان مهلكه في شوال من السنة المذكورة وقدم عليه وهو محاصر لتلمسان الأمير أبو زيان محمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية كبير بني توجين من زناتة في جيش كثيف من قومه مبابها ببونده وطبوله وآلة حربه وكان قدومه هذا بقصد مظاهرة السلطان يعقوب على يغمراسن وتلمسان لعداوة كانت بينهما فأكرم السلطان يعقوب وفادته واستركب الناس للقاءه واتخذ رتبة السلاح لمباهاته واستمر الحصار على تلمسان وعظمت نكاية بني توجين فيها بتخريب الرباع وانتساف الجنات وقطع الثمار وإفساد الزرع وتحريق القرى والضياح لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك أو أكثر ولما امتنعت تلمسان على السلطان يعقوب وأيس من فتحها لحصانتها واشتداد شوكة حاميتها عزم على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي بالقول إلى أمهته قبل أن ينهض هو عن تلمسان ووصله وقومه وملا حقايبهم من التحف وجنب لهم مائة من الخيل المقربات الجياد بمراكبها وأراح عليهم ألف ناقة حلوب وعمهم بالخلع الفاخرة والصلوات الوافرة واستكثر لهم نم السلاح والفازات والفساطيط وحملهم على الظهر وارتحلوا إلى منجاتهم ومقرهم من جبل وانشر يس وتلوم السلطان يعقوب عليهم أياما ريثما وصلوا حذرا عليهم من يغمراسن أن ينتهز الفرصة في اتباعهم ثم أفلع السلطان عن تلمسان وثنى عناته إلى المغرب فوصل إلى رباط تازا في أول يوم من ذي الحجة من السنة المذكورة فعيد بها عيد النحر ثم ارتحل إلى فاس فدخلها فاتح سنة إحدى وسبعين وستمئة فأقام بها إلى اليوم الحادي عشر من صفر فتوفي ولده وولي عهده الأمير أبو مالك عبد الواحد بن يعقوب فأسف لفقده ثم

صبر واحتسب ثم نهض إلى مراكش فدخلها أوائل ربيع الثاني من السنة المذكورة فأقام بها شهرا حتى أصلح من شأنها ثم نهض إلى طنجة وسبته على ما ذكره فتح طنجة وسبته وما كان من أمر العزفي بهما قد تقدم لنا في دولة أبي حفص عمر المرتضي أن الفقيه أبا القاسم العزفي استبد عليه بسبته وتوارث ذلك بنوه من بعده وكان هؤلاء العزفيون من بيوتات سبته وأهل الرياسة والعلم والدين فيهم ولما ضعف أمر بني عبد المؤمن بالمغرب استقل الفقيه أبو القاسم بن أبي العباس العزفي برياستها وضبطها وانتظم في طاعته سائر أعمالها ولما كانت سنة ثلاث وستين وستمئة بعث الفقيه المذكورة أجدانه إلى مدينة أصيلا فهدموا أسوارها ونقضوا قصبته لأنه خاف عليها من خلائها أن يملكها العدو ويتمنع بها واستمرت أموره في سبته ونواحيها على الشداد وكانت طنجة تالية لسبته في سائر أحوالها وكانتا معا من أحصن بلاد المغرب فدخل صاحب طنجة وهو أبو الحجاج يوسف بن محمد الهمداني المعروف بابن الأمير في طاعة أبي القسم المذكور ثم انتفض عليه لمضي سنة من طاعته واستبد وخطب لابن أبي حفص صاحب إفريقية ثم للخليفة العباسي صاحب بغداد ثم لنفسه وسلك في طنجة مسلك العزفي في سبته ولبثوا على ذلك ما شاء الله حتى إذا ملك بنو مريين المغرب وافتتحوا معاقله وحصونه وهلك الأمير أبو بكر بن عبد الحق وابنه أبو حفص عمر من بعده فتحيز بنوه في أتباعهم وحشمهم إلى ناحية طنجة وأصيلا فأوطنوا

صاحبيتها وعاثوا في نواحيها وضيقوا على أهل طنجة حتى شارطهم ابن الأمير على خراج معلوم على أن يكفوا الأذية ويحموا الحوزة ويصلحوا السابلة فاتصلت يده بيدهم وترددوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم ثم مكروا وأضرموا الغدر فدخلوا في بعض الأيام متأطنين السلاح وفتكوا بابن الأمير غيلة فثارت بهم عامة أهل طنجة واستلحمهم لحببهم في مصرع واحد سنة خمس وستين وستمئة واجتمعوا على ولده فبايعوه وبقيت في ملكته خمسة أشهر ثم استولى عليها أبو القاسم العزفي فنهض إليها بعساكره من الرجل برا وبحرا وملكها وفر ابن الأمير فلق بتونس ونزل على المستنصر الحفصي واستقرت طنجة في إيالة العزفي فضببطها وقام بأمرها وولي عليها من قبله وأشرك المأمن من أشرفها في الشورى ولما استولى السلطان يعقوب على حضرة مراكش ومحا دولة آل عبد المؤمن منها وفرغ من أمر عدوه يغمراسن هم بتلك الناحية وأحب أن يضيفها إل ما بيده ليصفوا له أمر المغرب الأقصى كله فنهض إلى طنجة ونزلها مفتتح اثنتين وسبعين وستمئة لأنها كانت في البسيط دون سبته فكان أمرها أسهل فحاصرها نحو ثلاثة أشهر فامتنعت عليه وبنس منها وعزم على الإفراج عنها فبينما هو يقاتل في عشي اليوم الذي عزم على النهوض في غده إذا بجماعة من رماتها قاموا على برج ورفعوا لواء أبيض ونادوا بشعار بني مريين وذلك لخلاف وقع بينهم داخل البلد فتسارع الجند ليهم فملكهم البرج فتسوروا إليه الحيطان وقاتلوا عليه سائر ليلتهم إلى الصباح يعقوب بالأمان فلم يهلك من أهلها إلا نفر يسير ممن رفع يده للقتال وشهر السلاح ساعة الدخول وكان ذلك في ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وستمئة ولما فرغ السلطان يعقوب من طنجة بعث ولده الأمير يوسف إلى سبته فحاصر بها العزفي أياما ثم لاذ بالطاعة على أن يبقى ممتنعا بحصنه ويؤدي للسلطان خراجا معلوما كل سنة فقبل السلطان منه ذلك وأفرجت عنه عساكره وعاد إلى فاس والله غالب على أمره

فتح سجلماسة وما كان من أمرها لقد ذكرنا ما كان من استيلاء الأمير أبي بكر بن عبد الحق على سجلماسة ودرعة وأنه عقد على مسلحتها لأبي يحيى الفطري الذي كان السبب في غلبه عليها المرتضى وقتل الفطاني بواسطة القاضي ابن حجاج حسبا تقدم ذلك كله م غلب عليها بعد حين يغمراسن بن زيان بواسطة عرب المنبات من بني معقل أهل الصحراء وعقد عليها لعبد الملك بن محمد العبد الوادي السلطان المعروف بانب حنينية نسبة إلى أمه وهي أخت يغمراسن بن زيان ولما فتح السلطان يعقوب بلاد المغرب وانتظمها في ملكته وجه عزمه إلى افتتاح سجلماسة وانتزاعها من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها فنهض إليها في رجب سنة اثنتين وسبعين وستمئة في جموع بني مريين وقبائل المغرب من العرب والبربر ونازلها ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعدادات وغير ذلك فالابن خلدون ونصب عليها هنادم النقط القاذف يحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها اه كلامه قلت وفيه فائدة أن البارود كان موجودا في ذلك التاريخ وأن الناس كانوا يقاتلون به ويستعملونه في محاصراتهم وحرابهم يومئذ وفيه رد لما نقله أبو زيد الفاسي في شرح منظومته

الموضوعة في العمل الجاري بفاس قال كان حدوث البارود سنة ثمان وستين وسبعمئة حسبما ذكره بعضهم في تأليف له في الجهاد وأنه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء ففرق له فأعاده فأعجبه فاستخرج منه هذا البارود اه وصرخ الشيخ أبو عبد الله بناني في حاشيته على مختصر الشيخ خليل بأن حدوثه كان في وسط المائة الثامنة وهو غير صواب لما علمت من كلام ابن خلدون أنه كان موجودا قيل قبل ذلك بنحو مائة سنة ويغلب على ظني أن لفظ الستمائة تصحف بالسبعمئة فسرى الغلط من ذلك والله أعلم

وأقام السلطان يعقوب على حصار سجلماسة حولا كاملا وكان سفهاؤها يصعدون فوق الأسوار ويعلبون بالسبب والفحش إلى أن هتك المنجنيق ذات يوم طائفة من سورها فدخلت من هنالك عنوة بالسيف وعات الجندي أهلها فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية وأتى القتل على عاملها عبد الملك بن حنينة ومن كان بها من أشياخ بين عبد الواد وعرب المنبات وكان فتحها آخر صفر وقيل يوم الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وستمئة وكمل بفتحها للسلطان يعقوب فتح بلاد لمغرب وتمشت طاعته في أقطاره فلم يبق فيه أهل حصن يدينون بغير دعوته ولا جماعة تتحيز إلى غير فتنة أخبار المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني في الجهاد وما كان له بالأندلس من الذكر والفخر الجزيل رحمه الله قد تقدم لنا ما كان للعدو الكافر على المسلمين في وقعة العقاب من الظهور والغلبة وأن تلك الوقعة كانت سبب ضعف المسلمين بالمغرب والأندلس واستيلاء العدو الكافر على جل ثغورها وحصونها ولما ضعف أمر الموحدين بالغرب استبد السادة منهم بالأندلس وصاروا إلى المنافسة فيما بينهم واستظهار بعضهم على بعض بالطاغية وإسلام حصون المسلمين إليه في سبيل الفتنة فمشت رجالات الأندلس بعضهم إلى بعض وأجمعوا على إخراج الموحدين من أرضهم فثاروا بهم لوقت واحد وأخرجهم وتولى كبير ذلك يوسف بن هود الجذامي ثم من بعده محمد بن يوسف بن نصر المعروف ونازع ابن هود الرياسة بالأندلس ولا الشهيرة الي منها قرطبة وإشبيلية قاعدتا أرض الأندلس كان كل واحد من هذين الثائرين يتقرب إلى الطاغية بما غلب عليه من ذلك ليعينه على صاحبه

والأمر لله وحده وانقرض أمر ابن هود عن أمد قريب واستمرت دولة ابن الأحمر في عقبه إلى آخر المائة التاسعة ولما استتب أرم ابن الأحمر بالأندلس عقد السل مع الطاغية على أن ينزل له عن جميع بسائط عرب الأندلس فنزل له عنها أجمع ولجأ بالمسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوعاره ومتشبهين بمعاقله وحصونه واختار ابن الأحمر لنزوله مدينة غرناطة واتخذها كرسي مملكته وابتنى بها لساكنه حصن الحمراء وكان ابن الأحمر هذا يدعى بالشيخ وكان قد عهد إلى ولده القائم من بعده محمد المعروف بالفقيه لانتحاله طلب العلم في صغره وأوصاه إذا ناباه أمر من العدو أو وصل إليه مكروه أن يستنصر عليه ببني مرين ويذرا بهم في بهم في نحره ويجعلهم وقاية بين العدو وبين المسلمين فلما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس بادر محمد الفقيه إلى العمل بإشارة والده وأوفد مشيخة الأندلس كافة على السلطان يعقوب رحمه الله فلقبه فدهم منصرفا من فتح سجلماسة فتبادرا للسلام عليه والقوا إليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين وثقل وطأته فحيا ودهم واستبشر بمقدمتهم وبأدر لإجابة داعي الله وإيثار الجنة وكان السلطان يعقوب رحمه الله منذ أول أمره مؤثرا عمل الجهاد كلا به مختارا له لو أعطي الخيار على سائر أعماله حتى لد كان اعترم على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي بكر وطلب إنذنه في ذلك فلم يأذن له فكان في نفسه من ذلك شغل وله إليه صاغية فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزيمته وأيقظوا همته فأعمل في الاحتشاد وبعث في النفير ونهض من فاس في شوال سنة ثلاث وسبعين وستمئة فوصل إلى طنجة وأقام هنالك وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عنهم وأجزل أعطياتهم وعقد عليهم لابنه أبي

سنة أربع وسبعين وستمئة واحتل بساحل طريف وكان السلطان يعقوب حين استصرخه ابن الأحمر وأوفد عليه مشايخ الأندلس اشترط عليه السلطان يعقوب النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره بها فتجافى له عن رندة وطريف ولما أحس الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة بإجازة السلطان يعقوب قدم إليه الوفد من أهل مالقة بيعتهم وصریخهم وكان أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو إسحاق من أصهار ابن الأحمر وكانوا مستوليين على مالقة ووادي آش وقمارش ووقعت بينهما وبين ابن الأحمر منافسة فخرجا عن طاعته ولما عبر السلطان يعقوب إلى الأندلس بادر أبو محمد بن أشقيلولة إليه واتصل به وأمضه الود والنصح وسابق ابن الأحمر في ذلك ونازعه في برور مقدمه والإذعان له وربما صدرت من ابن أشقيلولة في حق ابن الأحمر جفوة بمحضر السلطان يعقوب أدت إلى بعض الفساد وانصرف ابن الأحمر مغاضبا للسلطان من أجل ذلك ولما احتل السلطان بناحي طريف ملأت كتائبه ساحة الأرض ما بينها وبين الجزيرة الخضراء ثم نهض إلى العدو قبل أن يسبق إليهم الخبر فدخل دار الحرب وانتهى إلى الوادي الكبير فعقد هنالك لولده الأمير يوسف على خمسة آلاف من عسكره قدمها بين يديه ثم تبعه على أثره وسرح كتائبه في البسائط وخال المعقل تنسف الزروع وتخطم الغروس وتخرب العمران وتنتهب الأموال وتكتسح السرح وتقتل المقاتلة وتسبي النساء والذرية حتى انتهى إلى حصن المدور وبياسة وأبدة واقحم حصن بلمة عنوة وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها وقتل السلطان يعقوب رحمه الله والأرض تموج سببا إلى أن عرس بأستجه من تخوم دار الحرب وجاءه النذير باتتبع العدو آثاره لاستنقاذ أسراه واسترجاع أمواله وأن زعيم الفرنج وعظيمهم نونه خرج في طلبهم في أمم النصرانية من المحتلم إلى الشيخ فقدم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفا من الفرسان أمامها وسار يقفها من خلفها حتى إذا أطلت رايات العدو مر ورائهم كان

الزحف ورتب المصاف وجرى السيف وذكر اسم الله وراجعت زناتة بصانئها وعزائمها وتحركت هممها وأبليت في طاعة ربها والذب عن دينها وجاءت بما يعرف من بأسها وبلانها في مقاماتها ومواقفها فلم يكن إلا كلا ولا حتى هبت رح النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية وقتل الزعيم نونه وكان هذا اللعين زعيم النصرانية بالأندلس قد قدمه الفئس على جيوشه واستعمله على حروبه وفوض له في جميع أموره وكان النصراني قد سعدوا بطائرة وتيمونا بنقبيبة لأنه لم تهزم قط راية وكان وبالا على بلاد الإسلام كثير الغارات عليها حتى جمع الله بينه وبين السلطان يعقوب فأراحه من تعب الحرب وكد الغارات وأحقه بأمة الهاوية ومنح المسلمين رقاب الفرنج واسترح فيهم القتل حتى بلغت قتلاهم عدد الألوف وجمعوا من رؤوسهم مآذن أذنوا عليها لصلاتي الظهر والعصر واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين أكرمهم الله تعالى بالشهادة وأثرهم بما عنده ونصر الله حربه وأعز أوليائه وأظهر دينه وبدا للعدو ما لم يكن يحسبه يعقوب رحمه الله برأس الزعيم نونه إلى ابن الأحمر فيقال إنه بعثه سرا إلى قومه بعد أن طيبه وأكرمه ولاية أخلصها لهم ومدارة وانحرافا عن السلطان يعقوب ظهرت شواهد ذلك عليه بعد حين وأعلم أن هذا لزعيم يسميه كثي من المؤرخين دون نونه ولفظه دون معناها في لسانهم السيد أو العظيم أو ما أشبه ذلك فلذا أسقطناها وقتل السلطان يعقوب من غزاته هذه إلى الجزيرة الخضراء منتصف ربيع من السنة المذكورة فقسم في المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم وكراهم بعد الاستنثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه ويقال كان مبلغ الغنائم في هذه الغزاة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرون ألفا من السبي ومن الأسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثون ومن الكراع أربعة عشر ألفا وستمئة وأما الغنم فانتسعت عن الحصر

كثرة حتى لقد زعموا أنه بيعت الشاة الواحدة بدرهم وكذلك السلاح وأقام السلطان يعقوب بالجزيرة أياما ثم نهض في جمادى الأولى من السنة المذكورة غازيا لإشبيلية فجاس خلالها وتقوى نواحيها وأقطارها وأثنى بالقتل والنهل في جهاتها وعات في عمرانها وأوغل في مسيره حتى وقف على بابها وزعفت طبوله في جوها وخفقت ألويته على جنباتها ولجأت الفرنج إلى الأسوار واعتمدوا على الحصار ولم يخرج إليه منهم أحد ثم ارتحل إلى شريش فأدأقها منوبال العيث والاكنتساح مثل ذلك أو أكثر ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته فبيعت الفرنجية من سببه حينئذ ودخل فصل الشتاء فظفر السلطان يعقوب في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العودة لنزول عسكره منتبذا عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم وتخير لها مكانا ملاصقا للجزيرة فأوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب من سنته أعني سنة أربع وسبعين وستمئة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر واحتل بقصر صمودة وأمر ببناء السور على باديس مرفأ السفن ومحل العبور من بلاد غمارة ثم رحل إلى فاس فدخلها في النصف من شعبان من السنة المذكورة فتح جبل تينمل ونبش قبور بني عبد المؤمن على يد الملياني عفا الله

عنه قد تقدم لنا أن جبل تيمال كان حصنا للموحدين وملجأ لهم إذا نابهم مكروه وكان مسجده مزارا عظيما لهم لأنه مدفن إمامهم وملحد خلفاتهم فكانوا يكفون عليه ويلتمسون بركة زيارته ويقدمون ذلك بين يدي غزواتهم

قربة يقرّبون بها إلى الله تعالى ولما استولى السلطان يعقوب على مراكش فر من كان بها من الموحدين إلى الجبل المذكور واعتصموا به وبايعوا إسحاق أخا المرتضى وأملوا منه رجوع الكرة وإدالة الدولة واستمر الحال على ذلك إلى هذه السنة فهض عامل مراكش من قبل السلطان يعقوب وهو محمد بن علي بن محلي أحد خزلته ونازل الجبل المذكور وحاصره مدة ثم اقتحمه عنوة وافتض عززته وفك ختامه وتقبض على خليفة الموحدين إسحاق وابن عمه السيد أبي سعيد بن أبي الربيع ومن معهما من الأولياء وجنبا إلى مصارعهم بباب الشريعة من مراكش فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم وكان فيمن قتل منهم الكاتب القبائلي وأولاده وعائت عساكر بني مرين في جبل تيمال واكتسحوا أمواله ونشوا قبور خلفاء بني عبد المؤمن واستخرجوا أشلاءهم وكان فيها شلو يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور فقطعت رؤوسهم وتولى كبر ذلك أبو علي أحمد الملياني كان أبو علي هذا ثار على الحفصيين بمدينة مليانة فجهزوا إليه عساكره وأجهضوه عنها ففر إلى السلطان يعقوب فقبله وأواه وأقطعه بلد أغمات إكراما له فحضر هذه الواقعة في جملة العسكر واركتب هذا الفعل الشنيع ورأى أنه قد شفى نفسه باستخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم والعبث أشلائهم وقد أنكر الناس عامة والسلطان يعقوب عنها تأنيسا لغزبته ورعيا لجواره ولما توفي السلطان يعقوب وولي بعده ابنه يوسف سعى إليه في الملياني هذا فنيكه على ما نذكره إن شاء الله ولما وصل السلطان يعقوب من غزوته إلى فاس انتقض عليه طلحة بن محلي أحد أحواله وتمنع بجبل آصروا من بلاد فزاز فسار إليه لسلطان يعقوب وحاصره به فأناب إلى الطاعة ونزل على الأمان وذلك في منتصف

رمضان سنة أربع وسبعين وستمئة وفي ثاني يوم من شوال من هذه السنة ثارت العامة باليهود بفاس بسبب حدث أحدثوه فقتلوا منهم أربعة عشر يهوديا ولولا أن السلطان ركب بنفسه ورد العامة عنهم لكانت إياها بناء المدينة البيضاء المسماة اليوم بفاس الجديد لما فتح جبل تيمال ومحيت منه بقية آل عبد المؤمن وتمهد ملك المغرب للسلطان يعقوب واستقل أمره وكثرت عاشيته رأى أن يخطط بلدا فأمر بنسب إليه ويتميز بسكانه وينزل فيه بحاشيته وأوليائه الحاملين لسرير ملكه فأمر ببناء المدينة البيضاء ملاصقة لمدينة فاس على ضفة وادبها المخترق لها من جهة أعلاه وشرع في تأسيسها ثالث شوال من سنة أربع وسبعين وستمئة وركب السلطان بنفسه فوقف عليها حتى خطت مساحتها وأست جدرانها وجمع الأيدي لحركات الكواكب فاختاروا لها م الطوالع ما يرضون أثره ويحمدون سيره وأست فيه وكان في أولئك المعدلين إمامان شهيران أبو الحسن بن القطان وأبو عبد الله بن الحباك المقدمان في الصناعة فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم رحمه الله وكما رضي ونزلها بحاشية وذويه سنة أربع وسبعين المذكورة واختط الناس بها الدور والمنازل وأجريت فيها المياه إلى القصور وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام قال ابن أبي زرع ومن سعادة طالعتها أنه لا يموت فيها خليفة ولم يخرج منها لواء قط إلا كان منصورا ولا جيش إلا كان ظافرا ثم أمر رحمه الله ببناء قسبة مكاسة فشرع في بنائها وبناء جامعها في السنة المذكورة ثم استوزر صنيعته أبا سالم فتح الله السدراتي وأجرى له رزق الوزارة على عادتهم ثم كافا بغمراسن بن زيان على هديته التي ما بعث بها إليه قبل إجازته

إلى الأندلس فبعث إليه فسطاطا رائقا كان صنع له بمراكش وثلاثين من البغال الفارحة ذكرانا وإناثا وغير ذلك مما يباهي به ملوك المغرب وفي سنة خمس وسبعين وستمئة أهدى إليه الأمير محمد بن عبد القوي التوجيني صاحب جبل وانثريس أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية وفي نفسه أثناء هذا كله من أمر الهاد شغل شاغل يتخطى إليه سائر أعماله حسبا نذكره إن شاء الله الجواز الثاني للسلطان إلى الأندلس برسم الجهاد لما قفل السلطان يعقوب من غزوته الأولى واستنزل الخوارج وثقف الثغور وهدى الملوك واخطت المدينة البيضاء لنزوله كما ذكرنا خرج فاتح سنة خمس وسبعين وستمئة إلى جهة مراكش لسد ثغورها وتنقيف أطرافها وتوغل في أرض السوس وبعث وزيره فتح الله السدراتي في العساكر فجاس خلالها ثم انكفأ راجعا وهناك خاطب السلطان يعقوب رحمه الله قبائل المغرب كافة بالانفير إلى الجهاد فتنقلوا عليه فلم يزل يحرضهم وهم يسوفون إلى أن دخلت سنة ست وسبعين بعدها ولما رأى تتأقل الناس عليه نض إلى رباط الفتح وتلوم به أياما في انتضار الغزاة فأبطؤوا عليه فخف في خاصته وتقدم في حاشيته حتى انتهى إلى قصر المجاز وقد تلاحق به الناس من كل جهة لما رأوا من عزمه وتصميمه فأجاز بهم البحر واحتل بطريف آخر محررم من السنة المذكورة ثم ارتحل إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى رندة فوفاه بها الرئيسان أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن علي بن أشقيلولة صاحب مالقة وأخوه أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن برسم الجهاد معه ثم ارتحل السلطان من رندة فاتح ربيع الأول من السنة المذكورة حتى انتهى إلى غشيلية فعرس عليها يوم المولد النبوي وكان بها يومئذ ملك الجلالة أن أذفونش فلم يجد بدا من الخروج إليه بعد أن خام عن اللقاء أولا فبرز في جموعه وصفها على ضفة الوادي الكبير من ناحية السلطان وأظهر من أبهة الحرب ما قدر عليه فكانت جيوشه كلها في الدروع والسوابغ والبيض اللوامع

والسيوف البواتر وغير ذلك من آلات الحرب التي يكاد شعاعها يدهش البصر وزحف إليه السلطان يعقوب رحمه الله بعد أن صلى ركعتين ودعا الله تعالى ووعظ الناس وذكرهم فرتب مصافه وجعل ولده الأمير يوسف في المقدمة وزحف على التعبية فاقتتلوا مليا ثم انهزمت الفرنج فتنساق بعضهم في الوادي وانحدر آخرون مع ضفته وتساعد آخرون كذلك واقتحم المسلمون عليهم وسط الماء وقتلوه في لجته حتى صار الماء أحمر وطفت جيفهم من الغد عليه فكان فيهم عبرة لمن اعتبر ويات السلطان والمسلمون تلك الليلة على صهوات خيولهم يقتلون ويأسرون وأضرمو النيران بساحة إشبيلية حتى صار الليل نهارا وباتت الفرنج على الأسوار ينفخون في القرون ويحترسون طول يلاتهم ثم ارتحل السلطان من الغد إلى جبل الشرف وبيت السرايا في نواحيه فلم يزل يتقرب تلك الجهات حتى آباد عمرانها وطمس معالمها ودخل حصن قطنبانية وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة وأثنخ في القتل والسبي ثم ارتحل بالغانم والأقال إلى الجزيرة الخضراء فدخلها في الثامن والعشرين من ربيع الأول المذكور فأراح بها وقسم الغنائم في المجاهدين ثم خرج غازيا مدينة شريش منتصف ربيع الآخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب ووبال الحصار وقطع الزياتين والأعقاب وسائر الأشجار وأباد خضراءها وحرقت ديارها وأثنخ فيها بالقتل والأسر وكان السلطان يعقوب يباشر قطع الشجر والثمر بيده وسرح ولده الأمير يوسف من معسكره في سرية للغارة على إشبيلية وحصون الوادي الكبير فبالغ في النكاية واكتسح حصن روطنة وشلوقة وغليانة والقتاطر ثم صبح إشبيلية فاكتسحها وانكفأ راجعا بالمغانم والسبي إلى السلطان يعقوب فسر بمقدمه وقلوا جميعا إلى الجزيرة الخضراء فأراح السلطان بها أياما وقسم في المجاهدين غنائمهم ثم جمع أشياخ القبائل وندبهم إلى غزو قرطبة وقال يا معشر المجاهدين إن إشبيلية وشريش وأحوازهما قد ضعفت وبادت ولم يبق لكم بها كبير نفع ولا نكاية وإن قرطبة وأعمالها بلاد حصينة عامرة وعليها اعتماد الفرنج ومنها معاشهم ومادتهم فإن عزتموها واستأصلتم خضراءها مثل ما فعلتم بإشبيلية وشريش كان ذلك سبب ضعف النصرانية بهذا القطر فأجابوا

بالسمع والطاعة فدعا لهم وفرق فيهم الأموال والخلع وخاطب ابن الأحمر يستنفره للجهاد معه وقال إن خروجك معي إلى قرطبة يكون لك مهابة في قلوب الفرنج ما عشت سوى ما تستوجه من الله تعالى من الثواب في ذلك ونهض السلطان إلى قرطبة فاتح جمادى الأولى من سنة ست وسبعين المذكورة فوفاه ابن الأحمر بناحية شدونه فأكرم موصله وشكر خوفه إلى الجهاد وبادره إليه ونازلوا حصن بني بشير فدخلوه عنوة وقتلت المقاتلة وسببت النساء ونفلت الأموال وهم الحصن حتى لم يبق له أثر ثم بث السلطان رحمه الله السرايا والغارات في البساط فاكتسحها وامتلات الأيدي وأثرى العسكر وفاض عليهم من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال والمير والقمح والشعير والزيت والعل ما لا يوصف ثم ساروا يتقون المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها وخفقت ألوية السلطان في نواحيها وزعقت طبوله في فضائها وتقدم في أبطاله وحماته حتى وقف على بابها ثم دار بأسوارها ينظر كيف الحيلة في قتالها ووقف ابن الأحمر بعساكر الأندلس أمام محلة المسلمين يحرسونها خوفا من كرة العدو وخنس الفرنج وراء الأسوار وانثب بعوث المسلمين وسراياهم في نواحي قرطبة وقرأها ففسقوا آثارها وخرّبوا عمرانها وترددوا على جهاتها ودخلوا حصن الزهراء بالسيف وأقام السلطان على قرطبة ثلاثا ثم ارتحل عنها إلى حصن بركونة فدخله عنوة ثم أرجونه كذلك ثم قدم

بعثا إلى مدينة جيان فقامها حظها من الخسف والدمار وخام الطاغية من عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانه وإتلاف بلاده فجنح إلى السلم وخطبه من السلطان يعقوب ورغب فيه إليه وبعث الأقسمة والرهبان للوساطة في ذلك فرفعهم السلطان يعقوب إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه وقال لوفد الفرنج إنما أنا ضيف والضيف لا يصلح على رب المنزل فساروا إلى ابن الأحمر وقالوا له إن السلطان يعقوب قد رد الأمر إليك ونحن قد جئناك لنعقد معك صلحا مؤبدا لا يعقبه غدر ولا حرب وأقسموا له بصلبانهم إن لم يرضه الفتح ليخلعنه لأنه لم ينصر الصليب ولا حمى الحوزة فأجابهم ابن

الأحمر إليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدد الطويلة فاتعد السلم في آخر شهر رمضان من السنة المذكورة وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر وخرج له عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الأحمر وساقها إلى غرناطة وقال له السلطان يعقوب يكون حظ بني مريم من هذين الغزاة الأجر والثواب مثل ما فعل يوسف بن تاشفين رحمه الله مع أهل الأندلس يوم الزلاقة ولما قفل السلطان يعقوب من هذه الغزوة اعتل الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة ثم هلك غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد بالسلطان يعقوب آخر شهر رمضان وهو متلوم بالجزيرة الخضراء منصرفا من الغزو كما ذكرناه فنزل له عن مائة ودعا إلى حوزها منه وقال له إن لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يملكها ابن الأحمر فحازها السلطان يعقوب منه وعقد عليها لابنه أبي زيان منديل بن يعقوب فسار إليها وتملكها وعز ذلك على ابن الأحمر غاية لأنه لما بلغه وفاة أبي محمد بن أشقيلولة سما أمه إليها وأن ابن أخته وهو محمد الوافد على السلطان يعقوب شيعة له لا يبغى به بدلا فأخطأ ظنه وخرج الأمر بخلاف ما كان يرتقب ولما قضى السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء صومه ونسكه خرج إلى مائة فدخلها سادس شوال من السنة وبرز إليه أهيا في يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سرورا بمقدم السلطان واغتباطا بدخولهم في دعوته وانخراطهم في سلك رعته وأقام فيهم إلى خاتم سنته ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلي من صنائع دولتهم وأنز معه المسالحو وترك عنده زيان بن أبي عباد بن عبد الحق في طائفة لنظره من أبطال بني مريم واستوصاه بمحمد بن أشقيلولة وارتحل إلى الجزيرة الخضراء ثم أجاز منها إلى المغرب فاتح سنة سبع وسبعين وستمئة وقد اهتزت الدنيا لمقدمه وامتلأت القلوب سرورا بما هبأه الله من نصر المسلمين بالأندلس وعلو راية الإسلام على كل راية وعظمت بذلك كله موجدة ابن الأحمر ونشأت الفتنة كما نذكره إن شاء الله

حدث الفتنة بين السلطان يعقوب وابن الأحمر وما نشأ عن ذلك من حصار الجزيرة الخضراء وغير ذلك قد تقدم لنا أن بنو أشقيلولة كانوا أصهارا لابن الأحمر وانهم لما قدموا على السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء في جوازه الأول صدرت من ابن أشقيلولة كلمات أحفظت ابن الأحمر وغازطته فذهب لأجلها مغاضبا وانحرف عن السلطان يعقوب ولم يشهد معه الغزو ولا عرج على الجهاد ولما نصر الله السلطان يعقوب على عدوه وقتل الطنج وبعث برأسه إلى ابن الأحمر طيبه وبعثه إلى قومه انحرافا عن السلطان وموالة للعدو ولما جاز السلطان يعقوب الجواز الثاني انقض عنه ابن الأحمر ولم يلقه حتى خاطبه السلطان واستنفره إلى الجهاد فلحقه بشدونة كما مر ولما صنع الله للسلطان ما صنع من الظهور والعز الذي لا كفاء له واستولى على مائة من يد ابن أشقيلولة اتاب ابن الأحمر بمكانه وظن به الظنون وتخوف منه ما كان من يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف فغض بمكانه وأظلم الجو بينهما ودارت بينهما مخاطبات شعرية على السنة الكتاب في معنى العتاب ولم تنزل الفوارص بين السلطانيين تجري وعقارب السعاية تدب وتسري وخوف ابن الأحمر على ملكه يشتد ويزيد وأواصر الأخوة الإسلامية تتلاشى وتبيد إلى أن استحكمت البغضاء وضاق بينهما رحب الفضاء ففزع ابن الأحمر إلى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده بيده وحبله بحبله وأن يعود إلى منزله أبيه معه من ولايته ليدافع به السلطان يعقوب وقومه عن أرضه ويأمن معه من زوال سلطانه فاعتتم الطاغية هذه الفرصة ونكت عهد السلطان يعقوب ونقض السلم وعلن بالحرب وأغزا أساطيله الجزيرة الخضراء حيث كانت مسالحو السلطان يعقوب وجنوده وأرست بالزقاق حيث فراض المجاز وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر وحال العدو بينهم وبين إغاثة إياهم واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية واتفقا على منع السلطان يعقوب من عبور

البحر وداخل ابن الأحمر عمر بن يحيى بن محلي صاحب مائة في النزول له عنها بعوض ففعل واستولى ابن الأحمر عليها ثم راسل هو والطاغية يغمراسن بن زيان من وراء البر وراسلهم هو في مشاقفة السلطان وإفساد ثغوره وإنزال العوائق المانعة له من حركته والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الغزو وأسوأ فيما بينهما الهدايا والتحف وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف وبعث إليه ابن الأحمر مكافأة على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يرض بالمال وردده وأصفتت أراؤهم جميعا على السلطان يعقوب ورواوا أن قد أبلغوا في أحكام أمرهم وسد مذاهب إليهم واتصل خبر هذا كله بالسلطان وهو بمراكش كان خرج إليها مرجعه من الغزو في المحرم سنة سبع وسبعين وستمئة لما كان من عبث عرب جشم بتامسنا وإفسادهم السابلة فتتف أطرافها وحسم مادة فسادها ثم اتصل به خير ابن محلي ونزوله عن مائة لابن الأحمر ومنازلة الطاغية بأساطيله للجزيرة الخضراء وتضييقه على المسلمين بها فبلغ ذلك منه كل مبلغ ونهض من مراكش ثالث شوال من السنة يريد طنجة فوصل إلى قرية مكول من بلاد تامسنا فتوالت عليه بها الأمطار والسيول وعاقته عن النهوض وبينما هو في ذلك ورد عليه الخبر أيضا بنزول الطاغية على الجزيرة الخضراء برا وإحاطة عسكره بها بعد أن كانت أساطيله منازلها في البحر منذ سنة أشهر أو سبعة وأنه مشرف على التهامها وبعثوا إليه يستصرخونه ويخبرونه بالحال فاعتزم على الرحيل ثم اتصل به الخبر ثالثا بخروج مسعود بن كاتون السفيناني ببلاد نفيس من أرض المصامدة خامس ذي القعدة من السنة وأن الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم فانخرقت على السلطان الفتوق وتوالت عليه الخطوب ولم يدر ما يصنع إلا أنه رأى أن يقدم أمر ابن كاتون والعرب فكرا راجعا إليه وقدم بين

يديه حافده تاشفين بن أبي مالك وزيره يحيى بن حازم العلوي وجاء هو على ساقتهم وفر مسعود بن كاتون وجموعه أمام السلطان فانتهب معسكرهم وحلهم واستباح عرب الحارث من سفيان ولحق مسعود بجبل سكبوية فاعتصم به وشايع عبد الواحد السكبيوي القائم به على خلافه ونازله السلطان يعقوب بعساكه أياما وسرح ابنه الأمير أبا زيان منديل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها فأوغل في ديارها وقفل إلى أبيه في آخر يوم من السنة المذكورة واتصل بالسلطان ما تضاعف على أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وإعواز الأوقات وأنهم ختنوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر فأهمه ذلك وكان أقسم أن لا يرتحل عن ابن كاتون حتى ينزل على حكمه أو يهلك دون ذلك فأعمل النظر فيما يكون به خلاص أهل الجزيرة فعقد لولي عهده ابنه الأمير يوسف وكان بمراكش على الغزو إليها وكان أهل الجزيرة كما قلنا قد أحاط بهم العدو برا وبحرا وانقطعت عنهم المواد وعميت عليهم الأنباء إلا ما يأتيهم به الحمام من جبل طارق وفتي أكثرهم بالقتل والجوع وسهر الليل على الأسوار وشدة الحصار حتى أشرف بقيتهم على الهلاك وأيسوا من الحياة فحينئذ جمعوا صبيبتهم وختنواهم كما مر وبينما هم على ذلك قدم الأمير يوسف بجيشه إلى طنجة وكان قدومه في أوائل صفر من سنة ثمان وسبعين وستمئة وكان السلطان يعقوب لما بعث ابنه الأمير يوسف إلى طنجة قد كتب إلى الثغور بإعداد الأساطيل وعمارتها وتوجيهها إليه وقسم الإعطاءات وحض الناس على النهوض فتوفرت هم المسلمين على الجهاد وأجابوا من كل ناحية وأبلى الفقيه أبو خاتم العزفي صاحب سبنة لما بلغه الخطاب من السلطان في شأن الأساطيل البلاء الحسن وقام فيه المقام المحمود فهيا

خمس وأربعين أسطولا واستنفر كافة أهل بلده من المحلتم إلى الشيخ فركبوا البحر أجمعون ولم يبق بسبنة إلا النساء والشيوخ والصبيان ورأى ابن الأحمر ما نزل بأهل الجزيرة وإشراف الطاغية على أخذها فقدم على ممالاته إياه وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة فكانت اثني عشر أسطولا فنهض في الوقت اثنان وسبعون أسطولا واجتمعت كلها بمرفأ سبنة وقد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زي وأكمل استعداد ثم تقدمت إلى طنجة ليراها الأمير يوسف فشاها وسر بها وعقد لهم رأيته مع جماعة من أبطال بني مريم رغبوا في الجهاد ثم أفلعت الأساطيل عن طنجة

ثامن ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمئة وانتشرت قلوبهم في البحر فأجازوه وباتوا ليلة المولد الكريم بمرفاً جبل الفتح وصبحوا العدو وأساطيله يومئذ تناهز أربعانة فظاهر المسلمون في دروعهم وأسبغوا من شكنتهم وأخلصوا الله عزائمهم وتنادوا بالجنة وشعارها ووعظ خطباؤهم وذكر صلحاؤهم والتحم القتل ونزل الصبر فلم يكن إلا كلا ولا حتى نضجوا العدو بالنبل ففسدت أفروطتهم واختل مصافهم وانكشفتوا وتساقطوا في عياب البحر فاستلحمهم السيف وغشبيهم اليم واستولى المسلمون على أساطيلهم فملكوها وأسروا قائدها المند في جماعة من حاشيته واستمر مثقفاً بفاس حتى فر بعد ذلك وسر المسلمون الذين بداخل الجزيرة بفساد أفروطة العدو وهلاكها ولما رأى عسكر الطاغية الذي في البر ما أصاب أهل البحر منهم من القتل والأسر داخلهم الرعب وخافوا من هجوم الأمير يوسف عليهم إذ كان مقبلاً بساحل طنجة مستعداً للعبور ففوضوا أبنيتهم وأفرجوا عن البلاد لحينهم وانتشر المسلمون والنساء والصبيان بساحة البلاد كأنما نشروا من قبر وغلبت مقاتلتهم كثيراً من عسكر العدو على متاعهم فغنموا من الحنطة والإدام

والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياما حتى وصلتها الميرة من النواحي وأجاز الأمير يوسف البحر من حينه فاحتل بساحل الجزيرة وأرهب العدو في كل ناحية لكنه صده عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الأحمر فرأى أن يعقد مع الطاغية سلماً ويصل يده بيده لمنزلة غرناطة دار ابن الأحمر فأجابته الطاغية إلى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة وبعث أساقفته لعقد ذلك وإحكامه فأجازهم الأمير يوسف إلى أبيه وهو بناحية مراكش فغضب لها وأنكر على أنه وزوى عنه وجه رضاه وأقسم أن لا يرى أسقفاً منهم إلا أن يراه بأرضه ورجعهم إلى طاغيتهم مخفي السعي كاسفي البال ووصلت في هذه السنة هدية السلطان أبي زكرياء يحيى الوائق الحفصي مع أبي العباس الغماري حسبما مرت الإشارة إليه قبل هذا ثم إن السلطان يعقوب رحمه الله رجع إلى فاس وبعث خطابه إلى الأفاق مستنقراً للجهاد وفصل عنها غرة رجب من سنة ثمان وسبعين وستمئة حتى انتهى إلى طنجة وعابن ما اختل من أحوال المسلمين في تل الفترة وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية ومن فيها وكان قد أمر أمره في هذه المدة وظهره أعداء ابن الأحمر من بني اشقيلولة وغيرهم عليه حتى حاصروا غرناطة ومرج أمر الأندلس ونغلت أطرافها وأشفق السلطان يعقوب رحمه الله على المسلمين الذين بها وعلى ابن الأحمر مما ناله من خسف الطاغية فراسله في المودعة واتفاق الكلمة على أن ينزل له عن مالقة التي خادع عنها ابن محلي كما تقدم فامتنع ابن الأحمر وأساء الرد في ذلك فرجع السلطان يعقوب إلى إزالة العوائق عن شأنه في الجهاد وكان من أعظمها فتنة يغمراسن واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية ابن أنفونش من الاتصال والإصفاق على تعويقه عن الغزو فبعث إلى يغمراسن يسأله عن الذي بلغه عنه ويطلب منه تجديد الصلح وجمع الكلمة فلج في الخلاف وكشف وجه العناد وأعلن بما

وقع بينه وبين أهل العدو الأندلسية مسلمهم وكافرهم من الوصلة وأنه معتزم على وطء بلاد المغرب فصرف السلطان يعقوب عزمه إلى غزو يغمراسن وقفل إلى فاس لثلاثة أشهر من حلوله بطنجة فدخلها آخر شوال من السنة المذكورة وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجة عليه وقال له فيما خاطبه به إلى متى يا يغمراسن هذا النفور والتمادي في الغرور أما أن أتتشرح الصدور وتتقضي هذه الشرور في كلام غير هذا فصم يغمراسن عن ذلك كله ولم يرفع به رأساً ولما أيس السلطان يعقوب من إقلاعه ورجوعه نهض إليه من فاس آخر سنة تسع وسبعين وستمئة وقدم ابنه الأمير يوسف في العساكر وتبعه فأدركه بتازا ولما انتهى إلى ملوية تلوم أياما في انتظار العسكر ثم ارتحل حتى نزل وادي تافنا وصمد إليه يغمراسن بجموع زناتة والعرب بحلهم ونجعهم وشأنهم وتغهم والتقت طوابع القوم أولاً فكانت بينهما حرب ثم ركب على آثارهما العسكران والتحم القتال سائر النهار وكان الزحف بالموضع المعروف بالملعب من أحواز تلمسان ثم انكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم وانتهب معسكرهم بما فيه من الكراع والسلاح والفساطيط والمتاع وبات عسكر السلطان يعقوب تلك الليلة على متون جيادهم واتبعوا من الغد آثار عدوهم واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين لقيه بناحية القصبات وعاثوا جميعاً في بلاده تخريباً ونهباً ثم أذن السلطان يعقوب لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمخنق تلمسان محاصراً لها حتى يصل محمد بن عبد القوي إلى مأمته من جبل وانشربس خوفاً عليه من غائله يغمراسن واتباعه إياه ثم أفرج عنها وقف إلى المغرب فدخل حضرة فاس في رمضان سنة ثمانين بعدها فبني بها بامرأة مسعود بن كانون السفياي لأنه كان قد هلك قبل هذه السنة وسرح ابنه الأمير يوسف إلى السوس لتدويخ أقطاره ثم وافاه وهو بمراكش صريخ الطاغية على ما نذكره الآن

الجواز الثالث للسلطان يعقوب إلى الأندلس مغيثاً للطاغية ومغتماً فرصة الجهاد لما كان السلطان يعقوب رحمه الله بمراكش سنة إحدى وثمانين وستمئة قدم عليه طاغية الإضبنيول واسمه هراندة مع وفد من بطارقتة وزعماء دولته مستصرخاً له على ابنه سانجة الخارج عليه في طائفة من النصراري وأنهم غلبوه على أمره زاعمين بأنه شاخ وضعف عن تدبيرهم ولم يقدر على القيام بنصرتهم فاستنصر عليهم ودعاه لحربهم وأمله لاسترجاع ملكه من يدهم فاعتنم السلطان يعقوب هذه الفرصة في الحال وجعل جوابه نفس النهوض والارتحال فسار معهم لم يرجع على شيء حتى أتى قصر المجاز وهو قصر مصمودة فعبر منه واحتل لوقته بالجزيرة الخضراء في ربيع الثاني من سنة إحدى ثمانين المذكورة وأوعز على الناس بالنفير إلى الجهاد واجتمعت عيه مسالحو الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صحرة عباد وهناك قدم عليه الطاغية هراندة ذليلاً لعزة الإسلام مؤملاً صريخ السلطان فأكرم موصله وأكرم وفادته وذكر ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما من الأثبات أن هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده لقدره وخضوعاً لعزه فدعا السلطان رحمه الله بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هناك من جموع المسلمين والفرنج ثم التمس الطاغية من السلطان أن يمهده بشيء من المال ليستعين به على حربه ونفقاته فأسلمه السلطان مائة ألف دينار من بيت مال المسلمين رهنه الطاغية فيها تاجه الموروث عن سلفه قال ابن خلدون وبقي هذا التاج بدرا بني يعقوب بن عبد الق فخرراً للأعقاب لهذا العهد قلت وما أبعد حال هذا الطاغية المهين من حال عطاردين حاجب التميمي الذي لم يسلم قوس أبيه على تطاول السنين والقصة مشهورة فانظر ما بين الهمم العربية والعجمية من اليون وحال الفريقين في الابتذال والصون ثم إن السلطان يعقوب رحمه الله تقدم مع الطاغية ودخل دار الحرب غازياً حتى نازل قرطبة وبها يومئذ سانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفته

فقاتلها أياماً ثم أفرج ثم أفرج عنها وتنقل في جهاتها وبعث سراياه إلى جيان فأفسدوا زروعها ثم ارتحل إلى طليطلة فعاث في جهاتها وخرّب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر فامتلات أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها ففعل السلطان من أجل ذلك إلى الجزيرة فاحتل بها في شعبان وأقام بها إلى آخر السنة المذكورة وكانت غزوة لم يسمح الدهر بمثلها وفي هذه السنة توفي يغمراسن بن زيان على ما في القرباطين وذكر ابن خلدون أنه لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان وقال له يا بني إن بني مريين بع استفعال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم فإياك أن تحاربهم فإن مددهم موفور ومددك محصور ولا يغرنك أني كنت أحاربهم ولا أنقص عن لقائهم لأنني كنت أخشى معرفة الحين عنهم بعد التمرس بهم والإحتراء عليهم وأنت لا بضرك ذلك لأنك لم تحاربهم ولم تتمرس بهم فغلبك بالتحصن ببلادك متى زحفوا إليك وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما حاورك من عمالات الموحدين أصحاب تونس يستقبل بها ملكك وتكافئ حشد العدو بحشدك قال فعمل ابنه عثمان على وصيته وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب وهو بالأندلس في الرابع فعقد معه السلم على ما أحب وانكفاً راحاً إلى أخيه فطابت نفسه وتفرغ لافتتاح البلاد الشرقية انعقاد الصلح بين السلطان يعقوب وابن الأحمر والسبب في ذلك لما اتصلت يد السلطان يعقوب رحمه الله بيد الطاغية وقام معه في ارتجاع ملكه خشى ابن الأحمر عاديته فجنح إلى موالة ابنه سانجة الخارج عليه ووصل يده بيده وأكد له العقد واضطرت الأندلس ناراً وفتنة بسبب هذا الخلاف ولما قفل السلطان يعقوب من غزوته مع الطاغية وقد ظهر على ابنه أجمع على منزلة مالقة إليها من الجزيرة الخضراء فاتح سنة اثنتين وثمانين وستمئة

فغلب أولا على الحصون الغربية كلها ثم أسف إلى مالقة فأناح عليها بعساكره وضاق على ابن الأحمر النطاق ولم تغن عنه موالاة سانجة شيئا وبدا له سوء المغيبة في شأن مالقة وندم على تناولها فأعمل نظره في الخلاص من ورطتها ولم ير لها إلا الأمير يوسف ابن السلطان يعقوب فخطبه بمكانه من المغرب مستصرخا له لرفع هذا الخرق ورتق هذا الفتق وجمع كلمة المسلمين على عدوهم فأجابوه واغتم المثوبة في مسعاه وعبير البحر إلى الأندلس في صفر سنة اثنتين وثمانين المذكورة فوافى أباه بمسكده على مالقة ورغب منه السلم لابن الأحمر في شأنها والتجافي له عنها فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضى الله عز وجل في جهاد عدوه وإعلاء كلمته وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر وتجددت عزائم المسلمين للجهاد غازيا غرة ربيع الثاني من سنة اثنتين وثمانين المذكورة حتى انتهى إلى قرطبة فأئذن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون ثم ارتحل نحو البرت وترك محلته على بياسة بالمغانم والأثقال وترك معها خمسة آلاف فارس يحمونها من كرة العدو ثم أغذ السير في أرض قفرة ليلتين حتى انتهى إلى البرت من نواحي طليطلة فسرح الخيل في البساتن وجالت في أكنافها ولم تنته إلى طليطلة لتناقل الناس بكثرة الغنائم وأئذن في القتل وقفل على غير طريقة فأئذن وخرب وانتهى إلى أبدة فوقف بساحتها وقتلتها ساعة من نهار فرماه علاج من خلف السور بسهم أصاب فرسه فارتحل عنها إلى معسكره ببياسة فأراح بها ثلاثا ينسف آثارها ويقتلع أشجارها وقفل إلى الجزيرة وبين يديه من السبي والغنائم ما يعجز عنه الوصف فدخلها في شهر رجب من السنة المذكورة فقسم الغنائم ونفل من الخمس وولى على الجزيرة حافده عيسى بن عبد الواحد بن يعقوب فهلك شهيدا على شريش بسهم مسموم لشهرين من ولايته ثم عبر السلطان إلى المغرب فاتح شعبان ومعه ابنه أو زيان مندبل فأراح بطنجة ثلاثا ثم نهض إلى فاس فدخلها آخر شعبان ولما قضى صيامه ونسك عيده ارتحل إلى مراكش لتمهيدها وتفقد أحوالها وقسم من نظره لنواحي سلا حضا فأقام برباط الفتح شهرين اثنتين وتوفيت في هذه المدة الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوي وهي أم الأمير يوسف وكانت

وفاته برباط الفتح ودفنت بشالة ثم نهض السلطان يعقوب إلى مراكش فدخلها فاتح ثلاث وثمانين وبلغه مهلك الطاغية هراندة بن ادونش واجتماع النصرانية على ابنه سانجة الخارج عليه فحركت همته إلى الجهاد ثم سرح ابنه الأمير يوسف ولى عهده بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو

العرب الذين بها وكف عاديتهم ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة فأجفلوا أمامه واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس فهلك أكر العرب في تلك القفار جوعا وعطشا وقفل راجعا لما بلغه من اعتلال والده السلطان يعقوب فوصل إلى مراكش وقد أبل من مرضه وعزم على الجهاد شكرا لله تعالى على نعمة العافية وفي هذه السنة وصل ماء عين غبولة إلى قسبة رباط الفتح بأمر السلطان يعقوب وكان ذلك على يد المعلم المهندس أبي الحسن علي بن الحاج والله تعالى أعلم الجواز الرابع للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد لما اعتزم السلطان يعقوب على العبور إلى الأندلس عرض جنوده وحاشيته وأراح عليهم وبعث في قبائل المغرب بالغبير ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه ثم ارتحل إلى قصر المجاز وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمتطوعة خاتم سنته ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين بعدها واحتل بظاهر طريف ثم سار إلى الجزيرة الخضراء فأراح بها أياما ثم خرج غازيا حتى انتهى إلى وادي لك وسرح الخيول في بلاد العدو وبسانطه يحرق وينسف فلما خرب بلاد النصرانية

ودمر أرضهم قصد مدينة شريش فنزل بساحتها وأناخ عليها في العشرين من صفر سنة أربع وثمانين المذكورة وبث السرايا والغارات في جميع نواحيها وبعث عن المسالحي التي كانت بالثغور فتوافقت لديه ولحقه حافده عمر بن عبد الواحد بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرسانا ورجالا وواقته حصاة العزفي صاحب سبته غزاه ناشبة تناهز خمسمائة وأوعز إلى ولي عهده الأمير يوسف باستنفاذ من بقي من أهل العدو وكان السلطان رحمه الله لما أناخ على شريش بع وزيره محمد بن عطاو ومحمد بن عمران عيوننا فوافقوا حصن القناطر وروطة واستكشفا ضعف الحامية واختلال الثغور وعادوا إلى السلطان فأخبروه ثم عقد السلطان لحافده منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من بني مرين والغز وعرب العاصمة والخلط والأثبيج وأعطاه الراية وبعثه لغزو إشبيلية وذلك في يوم الأحد التاسع والعشرين من صفر من السنة المذكورة فغنموا ومرو بقرمونة في منصرفهم فاستباحوها وأئخنوا بالقتل والأسر ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ثم عقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان في يوم الخميس الثالث من شهر ربيع الأول من السنة وأعطاه الراية وسرحه إلى بسانط وادي لك فرجعوا من الغنائم بما ملأ العساكر بعد أن أئخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار وأبادوا عمرانها ثم سرح ثامن ربيع المذكور عسكرا من خمسمائة فارس لإغارة على حصن ركش فوافره على غرة فاكتسحوا أموالهم وسبوا ثم عقد تاسع ربيع أيضا لابنه أبي معرف على ألف من الفرسان وسرحه لغزو إشبيلية فساروا حتى هجموا عليها يوم المولد الكريم وتحصنت منه حاميتها بالأسوار فحرب عمرانها وقطع أشجارها وامتلت أيدي عسكره سبيا وأموالا ورجع إلى محلة السلطان وهي نازلة شريش كما قدمنا ملوء الخقائب ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع المذكور لغزو حصن كان بالقرب

من معسكره كان أهله يقطعون الطريق على من خرج من الحل مفردا أو في قلة وسرح معه الرجل من الناشبة والفعلة بالآت من المسالحي والنفوس وأمد بالرجل من المصامدة وغزاة سبته فاقتموه عنوة على أهله وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذرية وألصقوا خده بالتراب ونسفوا آثاره نسفا ولسبعة عشر من الشهر ركب السلطان إلى حصن مرتقوط قريبا من معسكره فخر به وحرقه بالنار واستباحه وقتل المقاتلة وسبى الأهل ولعشرين من شهره المذكور وصل ولي عهده الأمير يوسف من العدو المغربية بغبير أهل المغرب وكافة القبائل في جيوش ضخمة وعساكر موفورة وركب السلطان للقائهم وبرور مقدمهم وعرض العساكر القادمة معه يومئذ فكانت ثلاثة عشر ألفا من المصامدة وثمانية آلاف من برابرة المغرب كلهم متطوع بالجهاد فعقد السلطان لولي العهد على خمسة آلاف من المرتزقة وألفين من المتطوعة وثلاثة عشر ألفا من الرجل وألفين من الناشبة وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ربيع الأول المذكور وسرحه لغزو إشبيلية والإئخان في نواحيها فعبا كئانبه ونهض لوجهه وبث الغارات بين يديه فأئخنوا وسبوا وقتلوا واقتحموا الحصون واكتسحوا الأموال وعاج ولي العهد على الشرف والغاية من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقتم بعض حصونها وقفل إلى معسكر السلطان وهو بمكانه من حصار شريش وفي يوم الاثنين السادس من ربيع الثاني قدم أبو زيان مندبل ابن السلطان يعقوب من المغرب في جيش كثيف فيهم خمسمائة فارس من عرب بني جابر أهل تادلا مع كبيرهم يوسف بن قيطون وفيهم من المتطوعة والناشبة عدد كثير فعقد له السلطان غداة وصوله وأمده بعسكر آخر وأغزاه قرمونة والوادي الكبير فأغار على قرمونة وطمعت حاميتها في المدافعة فبرزوا له وصدقهم القتال فانكشفوا حتى أدخلهم البلد ثم أحاطوا ببرج كان قريبا من البلد ساعة من نهار واقتموه عنوة ولم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة إشبيلية فأغار واقتم برجها

كان هنالك عينا على المسلمين وأضرمه نارا وامتلت أيدي عساكره وقفل إلى معسكر السلطان على شريش ولثلاث عشرة ليلة من ربيع الثاني عقد السلطان لولي العهد الأمير يوسف لمنازلة جزيرة كتور فصمد إليها وقتلتها واقتمها عنوة وفي ثاني جمادى الأولى عقد السلطان للحاج أبي الزبير طلحة بن يحيى بن محلى وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مالقة سنة خمس وسبعين خرج إلى الحج فقضى فرضه ورجع ومر في طريقه بتونس فأتاهم الدعى ابن أبي عمارة كان بها يومئذ فاعتقله سنة اثنتين وثمانين ثم سرحه ولحق بقومه بالمغرب ثم عبر إلى الأندلس غازيا مع السلطان يعقوب فعقد له في هذا اليوم على مائتين من الفرسان وسرحه إلى إشبيلية ليكون ربيبة للمعسكر وبعث معه لذلك عيونا من اليهود والمعاهدين من النصراني يعرفون له أخبار الطاغية سانجة والسلطان يعقوب رحمه الله أثناء هذا كله يغادي شريش ويراجحها بالقتل والتخريب ونسف الآثار وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو فلا يخلو يوم من تجهيز عسكر أو إغزاة جيش أو عقد راية أو بعث سرية حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية وخرب بسانط إشبيلية وليلة وقرمونة وإسنجة وجمال الشرف وجميع بسانط الفرنتيرة وأبلى في هذه الغزوات عياد بن أبي عياد العاصمي من شيوخ جشم والخضر الغزي من أمراء الأكراد بلاء عظيما وكان لهم فيها ذكر وصيت وكذلك غزاة سبته وكذا سائر المجاهدين من عرب جشم وغيرهم مثل مهلهل بن يحيى الخطي صير السلطان ويوسف

بن قيطون الجابري وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم فلما دمرها تدميرا وأوسعها تخريبا ونسفها نسفا واكتسحها غارة ونهبها وهجم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر اعتمز السلطان على القبول وأفرج عن شريش لآخر جمادى الأولى من السنة المذكورة بعد أن حاصرها نحوًا من ثلاثة أشهر وعشرة أيام واتصل به أن العدو أوعز إلى أساطيله

باحتيال الزقاق والاعتراض دون الفراض فأوعز السلطان إلى جميع سواحل من سبتة وطنجة وبلاد الريف ورباط الفتح والمنكب والجزيرة وطريف بتوجيه أساطيلهم فتوافقت منها ستة وثلاثون أسطولا متكاملة فبعثها فاجتجت أساطيل العدو عنها وارتدت على أعقابها واحتل السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء وهي المسماة اليوم بخوزيرت غرة رمضان من سنة أربع وثمانين وستمئة ونزل بقصره من المدينة الجديدة التي بناها بإزائها فبرزت أساطيل المسلمين أمامه بالمرسى وهو جالس بمشور قصره فلبعوا برأى منه في البحر وتجاولوا وتناطحو وتطاردوا كفعلهم ساعة الحرب فسر بذلك وأحسن إليهم وصرفهم إلى حال سبيلهم وفادة الطاغية على السلطان يعقوب بأحواز الجزيرة الخضراء وعقد الصلح بينهما والسبب في ذلك قال ابن خلدون رحمه الله لما نزل ببلاد النصرانية من السلطان يعقوب ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسي نسايم وإبادة مفاصلهم وتخريب معاقلم وانتساف عمرانهم زاعت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لا عاصم لهم من أمير المسلمين فاجتمعوا إلى طاغيتهم سانجة خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب واليأس لنكال وحملوه على الضراعة لأمير المسلمين في السلم وإيفاد الملاً من كبار النصرانية عليه في ذلك وإلا فلا تزال تصيبهم منه قارعة أو تحل قريبا من دارهم فأجاب إلى ما دعه إليه من الخسف والهزيمة لدينه وأوفد على أمير المسلمين وهو بالجزيرة الخضراء وفدا من بطارقتهم وشماستهم يخطبون السلم ويضرعون في المهادنة والإيقاع ووضع أوزار الحرب فردهم أمير المسلمين اعترازا عليهم ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه فأسمعهم أمير المسلمين وحنج إلى السلم لما تيقن من صاغيتهم إليه وذلهم لعز الإسلام وأجابهم إلى ما سألوه

واشترط عليهم ما تقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه والوقوف عند مرضاته في ولاية جبرانه من الملوك أو عدواتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده وترك التصريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنه واستدعى السلطان الشيخ أبا محمد عبد الحق الترجمان وبعثه لاشترط ذلك وإحكام عقده فصار عبد الحق إلى الطاغية سانجة وهو باثبيلية فعقد معه الصلح واستبغ وأكد في الوفاء بهذه الشروط ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه على قومه وبلاده دون أمير المسلمين وأن يكون معه يدا واحدة عليه فأحضرهم الطاغية بمشهد عبد الحق وأسمعهم ما عقد مع أمير المسلمين على قومه وأهل ملته كافة وقال لهم إنما أنتم عبيد آباي فلستم معي في مقام السلم والحرب وهذا أمير المسلمين على الحقيقة ولست أطبق مقاومته ولا دفاعه عن نفسي فكيف عنكم فانصرفوا ولما رأى عبد الحق ميله إلى رضا السلطان وسوس إليه بالوفادة عليه لتمتكن الألفة وتستحكم العقدة وأراه مغيبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة فمال إلى موافقته وسأله لقي الأمير يوسف ولي عهد السلطان أولا ليطمئن قلبه فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش وباتا بمعسكر المسلمين هنالك ثم ارتحلا من الغد للقاء السلطان يعقوب وكان قد أمر الناس بالاحتفال لقاء الطاغية وقومه وإظهار شعائر الإسلام وأبهته وأن لا يلبسوا إلا البياض فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية وقدم الطاغية في جماعته سود اللباس خاضعين ذليلين فاجتمعوا بالأمر بحصن الصخرات على مقرب من وادي لك وذلك يوم الأحد العشرين م شعبان سنة أربع وثمانين وستمئة وتقدم الطاغية فلقبه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يلقي بها مثله من عظام الملل وقدم الطاغية بين يديه هدية من طرف بلاده اتحف بها السلطان وولي عهده كان فيها زوج من الخيول

الروحشي المسمى بالفيل وحمارة من حمر الوحش على غير ذلك من الطرف فقبلها السلطان وابنه وأضعفوا له المكافأة وكمل عقد السلم وقيل الطاغية سساتر الشروط ورضي بعز الإسلام عليه وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضى والمسرة وسأل منه السلطان أن يبعث إليه بكتب العلم التي بأيدي النصراني منذ استيلائهم على مدن الإسلام فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملا فيها جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفسيره كابين عطية والتعليق ومن كتب الحديث وشروحها كالتنزيه والاستنكار ومن كتب الأصول والفروع واللغة العربية والأدب وغير ذلك فأمر السلطان رحمه الله بحملها إلى فاس وتبسيها على المدرسة التي أسسها بها لطيلة العلم وقفل السلطان فاحتل بقصره من الجزيرة لليلتين بقيتا من شعبان ففضى صومه ونسك عيده وجعل من قيام ليلة جزأ لمحاضرة أهل العلم وأعد الشعراء كلمات أشدوها يوم عيد الفطر بمشهد الملاً في مجلس السلطان وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة أبو فارس عبد العزيز الملزوزي الأصل المكاسي الدار ويعرف بعزوز أتى بقصيدة طويلة

من بحر الوافر على روي الباء المفتوحة المردوفة بالألف ذكر فيها بقصيدة طويلة من بحر الوافر على روي الباء المفتوحة المردوفة بالألف ذكر فيها سيرة السلطان وغزواته و غزوات بنه وحفته وامتدح قبائل مرين ورتبهم على منازلهم وذكر فضلهم وقيامهم بالجهاد وذكر قبائل العرب على اختلافها وأنشئت بماتى دبنار ثم عمل السلطان نظره في الثغور فرتب بها المسالحو وبعث ولده الأمر أبا زيان مندبلا ليكف على الحد بين ارضه وارض ابن الأحمر وعقد له على تلك الناحية وأنزله بحصن ذكوان قرب مالقة وأوصاه أن لا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثا وعقد لعاد بن أبي عباد العاصمي على مسلحة أخرى وأنزله بأسطوبونة وأجاز ابنه الأمير يوسف إلى الغرب لتفقد أحواله ومباشرة أموره وأمره أن يبني على قبر والده أبي الملوك عبد الحق بتافر طاست زاوية فاخطت هنالك رباطا حفيلا وبنى على قبر الأمير

عبد الحق إدريس أسمنة من الرخام ونقشها بالكتابة ورتب عليها قراء لتلاوة القرآن ووقف على ذلك ضياعا وأرضا تسع حرث أربعين زوجا رحم الله الجميع بمنه وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه اله وفي آخر ذي القعدة من سنة أربع وثمانين وستمئة مرض السلطان يعقوب بن عبد الحق مرضه الذي توفي منه فلم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف إلى أن توفي بقصره من الجزيرة الخضراء من ارض الأندلس في ضحى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم فاتح سنة خمس وثمانين وستمئة وحمل إلى رباط الفتح من بلاد العدو فدفن بمسجد شالة وقبره اليوم طامس الأعلام رحمه الله بقية أخبار السلطان يعقوب بن عبد الحق وسيرته كان السلطان عقوب رحمه الله أبيض اللون تام القدم معتدل الجسم حسن الوجه واسع المنكبين كامل اللحية معتدلا أشيب نقي البياض حلما متواضعا جوادا مظفرا منصور الراية ميمون النقيبة لم يقصد جيشا إلا هزمه ولا عدوا إلا قهره ولا بلدا غلا فتحه صواما قواما دائم الذكر كثير البر لا تزال سبحته في يده مقربا للعلماء مكرما للصلحاء صادرا في أكثر أموره عن رأيهم ولما استلم له الأمر بنى المرستانات للمرضى والمجانين ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنققات من بيت المال وكذا فعل بالجنمي والعلم والفقراء رتب لهم مالا معلوما يقضونه في كل شهر من جزية اليهود وبنى المدارس لطيلة العلم ووقف عليها الأوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى نفعه الله بقصده

الخبر عن دولة السلطان الناصر لدين يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله تعالى لما مرض السلطان يعقوب بقصره من الجزيرة الخضراء مرض نساؤه وطيرن بالخبر غلى ولي عهده الامير يوسف وكان يومئذ بالمغرب فاتصل به الخبر وهو بأحزاز فاس فأسرع السير إلى طنجة وقد مات أبوه قبل وصوله فأخذ البيعة له الوزراء والأشياخ ولما عبر إليهم البحر واحتل بالجزيرة جددوا له البيعة غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمئة وأخذوها له على الكافة فاستتب ملكه واستقام أمره ففرق الأموال وأجزل الصلات وسرح السجون ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر ووكلمهم فيها إلى أمانتهم وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس وأزال المكوس ورفع الأنزال عن دور الرعية وصرف اعتناؤه إلى إصلاح السابلة فأزال أكثر الرتب والقبالات التي كانت بالمغرب إلا ما كان منها في الأقطار الخالية والمفازات المخوفة فخصعت مرين تحت قهره وصلاح أمر الناس في أيامه وكان أول شيء أحدث من أمره أن بعث إلى ابن ابن الأحمر وضرب له موعدا للإجتماع به فيبادر إليه ولقيه بظاهر مبرالة في العشر الأول من ربيع الأول من السنة المذكورة فلقاه السلطان مبرة وتكريما وتجافى له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت في مكلة أبيه ونزل له عنها ما عدى الجزيرة ورنده وطريف وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة ورجع السلطان يوسف إلى الجزيرة فقدم عليه بها وقد الطاغية سانجة مجددين عقد السلم الذي عقده لهم السلطان يعقوب رحمه الله ولما تمهد للسلطان يوسف أمر الأندلس عقد لأخيه أبي عطية

العباس بن يعقوب على الثغور الغربية وأوصاه بضبطها وعقد للشيخ المجاهد أبي الحسن علي بن يوسف بن يزكاتن على مسلحتها وجعل إليه أمر الحرب وأعدة الخيل وأمدته بثلاثة آلاف من بين مريين والعرب ثم عبر البحر إلى المغرب يوم

الاثنين سابع ربيع الآخر من السنة المذكورة فنزل بقصر المجاز ثم سار إلى حضرة فاس فدخلها ثاني عشر جمادى الأولى منها ولحين استقراره بها خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في بنه وإخوته ومن انضم إليه ولحق بجبال ورغة ودعا لنفسه فسرح إليه السلطان يوسف أخاه أبا معرف محمد بن يعقوب فيداه له في النزوع إليهم فلقح بهم وشايهه معلى رأيهم من الخلاف فأغزاهم السلطان يوسف عساكره وردد إليهم البيوت والكتائب ثم تطف في استنزال أخيه حتى نزل على الأمان وفر بنو إدريس إلى تلمسان فقبض عليهم أثناء طريقهم وحيء بهم في الحديد إلى تازا فبعث السلطان يوسف أخاه أبا زيان فقتلهم خارج باب الشريعة منها في رجب من السنة ورهب الأعياص من بني عبد الحق يومئذ وخافوا بادرة السلطان يوسف فلقحوا بغرناطة ملتفتين على بني إدريس منهم ثم ارتحل السلطان في رمضان من السنة المذكورة إلى مراکش لتمهيد نواحيها وتنقيف أطرافها فدخلها في شوال وأقام بها إلى رمضان القابل من سنة ست وثمانين وستمئة فنهض من مراکش لغزو **عرب معقل بصحراء درعة** لأنهم كانوا قد اضطروا بالرعايا وأفسدوا السابلة فسار إليهم في اثني عشر الفا من الخيل ومر على بلاد هسكورة معترضا جبل درن وأدركهم نواجع بالفقر فأثنى فيهم بالقتل والسبي واستكثر من رؤوسهم فعلقت بشرفات مراکش فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية بها من لن انقراض الدولة الموحدية لما وقع من الإرتياب بأولاد محلى بكثرة خروجهم على النولة وكانت نكبته غر محرم سنة سبع وثمانين وستمئة وهلك فيا لسجن في صفر الموالي له وعقد السلطان يوسف على مراکش وأعمالها لمحمد بن عطوا الجاناتي من موالي دولتهم ولاء حلف وترك معه ابنه أبا عامر عبد بن يوسف ثم ارتحل السلطان يوسف إلى فاس فدخلها منتصف ربيع من السنة المذكورة

قدوم بني اشقيولة على السلطان يوسف بسلا وإقطاعه إيهاهم قصر كتامة والسبب في ذلك قد تقدم لنا أن بني اشقيولة كانوا من وجوه الأندلس وأهل الرياسة بها حتى صاهرهم ابن الأحمر بابنته وأخته وقاموا معه في إثبات قواعد ملكه ثم انحرفوا عنه إلى مولاة بني مريين ونزل محمد بن عبد الله بن أبي الحسن منهم إلى السلطان يعقوب عن مألقة وكان عمه أبو إسحق بن أبي الحسن صاحب وادي أش وأعمالها واتصل ذلك في بنه على أن يبيع السلطان يوسف فقاموا بدعوته فيها ثم فصلت المصافاة وتأكدت المودة بين السلطان يوسف وابن الأحمر على ما أسلفناه آنفا فطلب ابن الأحمر من السلطان يوسف أن ينزل له عن وادي أش التي هي لبني اشقيولة المتمسكين بدعوته كما نزل له عن غيرها من الثغور فأجابها السلطان إلى ذلك وكتب إلى أبي الحسن بن إسحاق بن اشقيولة يأمره بالتخلي له عنها فتركها له وعبر هو وحاشيته البحر إلى السلطان يوسف سنة سبع وثمانين المذكورة فلقه بمدينة سلا فأعطاه السلطان يوسف القصر الكبير وأعماله طعمه سوغه إيها فلم تل ولايته متوارثة في بنه حتى انقضوا آخر دولة بني مريين واستمكن ابن الأحمر من وادي أش وحصونها ولم يبق له بالأندلس منازع من قرابته والله أعلم دوث الفتنة بين السلطان يوسف وعثمان بن يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان قد تقدم لنا أن يغمراسن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان أن لا يحدث مع بني مريين حربا ولا يوافقهم في زحف ما استطاع لاستغلال أمرهم عليه بملكهم المغرب الأقصى وأعماله وأن عثمان قد عمل على ذلك فأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب بالأندلس وعقد معه السلم

ورجع إلى أخيه كما تقدم ولما ولي السلطان يوسف وقفل من مراکش إلى فاس في هذه المرة بعد أن ترك ابنه **أبا معامر عبد الله مع محمد بن عطوا** عامل مراکش ثار أبو عامر المذكور بها وخلق طاعة أبيه ودعا إلى نفسه وشايهه ابن عطوا على ذلك واتصل الخبر بالسلطان يوسف وهو بفاس فأسرع السير إلى مراکش وبرز إليه ابنه أبو عامر فاقتتلوا ثم انهزم أبو عامر فعدا إلى مراکش واكتسح بيت المال بها وفر إلى تلمسان ومعه ابن عطوا المذكور فقدمها سنة ثمان وثمانين وستمئة فأراه عثمان بن يغمراسن ومهد لهم المكان فلبثوا عنده مليا ثم عطف السلطان على ابنه الرحم فرضي عنه وأعادته إلى مكانه وطالب عثمان بن يغمراسن أن يسلم إليه ابن عطوا الناجم في النفاق مع ابنه فأبى من إضاعة جواره وإخفار ذمته وأغلظ له الرسول في القول فسطا به عثمان واعتقله فثارت من السلطان يوسف الحفاظ الكامنة وتحركت منه الإلح القديمة والنزغات المتوارثة فاعتزم على غزو تلمسان ونهض إليها من مراکش في صفر من سنة تسع وثمانين وستمئة بعد أن عقد عليها لابنه الأمير أبي عبد الرحمن يعقوب بن يوسف ثم نهض من فاس إليها آخر ربيع الآخر من سنته في عساكره وجنوده وحشد القبائل وكافة أهل المغرب وسار حتى نازل تلمسان فتحصن منه عثمان وقومه بأسوارها فحاصره السلطان يوسف وضيق عليه ونصب عليه المجانيق وكان حصاره إيهاها في رمضان من السنة المذكورة ثم سار في نواحيها ينسف الآثار ويحرب القرى ويحطم الزروع ثم نزل بذراع الصابون من ناحيتها ثم انتقل منه إلى تامت وحاصرها أربعين يوما وقطع أشجارها وأباد خضرها ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعا إلى المغرب وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بني يزناسن ونسك الأضحى وقرابته بتازا وتلبث بها أياما ثم نهض منها إلى الأندلس بقصد الجهاد على ما نذكره

انتقاض الطاغية سانجة وإجازة السلطان يوسف إليه لما رجع السلطان يوسف غزوا تلمسان وإفاه الخبر وهو بتازا أن الطاغية سانحة قد انتقض ونبذ العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور فأوعز السلطان إلى قائد المسالح بالأندلس علي بن يوسف بن يزكاتن بالدخول إلى دار الحرب ومنازلة شريش وشن الغارات على بلاد الطاغية فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستمئة وجاس خلالها وتوغل في أطرافها وأبلغ في النكاية ثم فصل السلطان يوسف من تازا غازيا أثره في جمادى الأولى من السنة المذكورة واحتل قصر مصمودة وهو قصر المجاز واستنفر أهل المغرب وقبائله ففروا وشرع في إجازتهم البحر فبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزا لهم دون الإجازة فاعوز السلطان يوسف إلى قواد أساطيله بالسواحل بمعمارته لمقابلة أساطيل العدو ففعلوا وقدمت فالتقت مع أساطيل العدو ببحر الزقاق في شعبان من السنة فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصمهم الله وقتل قواد أساطيله فأمر السلطان يوسف باستئناف العمارة ثم أغزاهم ثانية فحامت أساطيل العدو عن اللقاء وصاعدوا عن الزقاق فملكته أساطيل السلطان فأجاز أخريات رمضان من السنة واحتل بطريف ثم دخل دار الحرب غازيا فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا في أرض العدو وردد الغارات على شريش وإشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ في النكاية والإثخان غرضه وقضى من الجهاد وطره وهجم عليه فصل الشتاء وانقطعت الأميرة عن العسكر فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة الخضراء ثم عبر إلى المغرب فاتح سنة إحدى وتسعين وستمئة فتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منعه من الجواز مرة أخرى كما نذكره الآن

حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وابن الأحمر على طريف بمظاهرة ابن الأحمر له عليها لما قفل السلطان يوسف من الأندلس وقد أبلغ في نكاية العدو كما قلنا عظم على الطاغية أمره وتقلت عليه وطأته فشرع في إعمال الحيلة في الإفساد بينه وبين ابن الأحمر وكان ابن الأحمر يتخوف من السلطان يوسف أن يغلبه على بلاده فخلص مع الطاغية نجيا وتفاوضا في أمر السلطان يوسف وأن تمكنه من الإجازة إليهم إنما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين حفاقيه وتصرف شوانبيهم وسفهم فيه متى أرادوا فضلا عن الأساطيل الجهادية وأن أم تلك الثغور هي طريف وأنهم استمكوا منها منعوا السلطان من العبور وكانت عيننا لهم على الزقاق وكان أسطولهم بمرفئها رسدا لأساطيل صاحب المغرب الخائضة لجة ذلك البحر فاعتزم الطاغية على منازلة طريف وبها يومئذ مسلحة بني مريين وتكفل له ابن الأحمر بمظاهرتة على ذلك والتزم له بالمدد والميرة للعسكر أيام منازلته على أن تكون له إن خلصت للطاغية وتعاهدوا على ذلك وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات من المجانيق والعرادات وأحاط بها برا وبحرا وانقطع المدد والميرة عن أهلها وحالت أساطيل العدو بينهم وبين صريخ السلطان واضطرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريبا من عسكر الطاغية وسرب إليه المدد من الرجال والسلاح والميرة وأصناف الأقوات وبعث عسكرا لمنازلة حصن إسطنبول فقتل عليه بعد مدة من الحصار واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار فراسلوا الطاغية في الصلح والنزول عن البلد فصالحهم واستنزلهم وتملكها آخر يوم من شوال سنة إحدى

وتسعين وستمئة ووفى لهم بما عاهدهم عليه واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية له عنها حسبما تعاهدا عليه فأعرض عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضا عنها فخرج من يده الجميع ولم يحصل على طائل فكانت حاله في ذلك كحال صاحبة النعام المضرور بها المثل عند العرب وبالله التوفيق ثورة عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسي بحصن تازوطا اعلم أن بني وطاس فخذ من بني مريين لكنهم ليسوا من بني عبد الحق وكانت الرياسة فيهم لبني الوزير منهم وبنو الوزير يزعمون أن نسبهم دخيل في مريين وأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني لحقوا بالبادية ونزلوا على بني وطاس فالتحموا بهم وليسوا جلدتهم وحازوا رياستهم ولما دخل بنو مريين المغرب واقتسموا أعماله كما قدمنا بقيت بلاد الريف خالصة لبني وطاس هؤلاء فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان حصن تازوطا بها من أمنع معاقل المغرب ولما غلب الأمير أبو بكر بن عبد الحق على مكناسة وأقام فيها دعوة الحفصيين ونهض السعيد بن المأمون الموحي من مراکش لغزوه فر أمامه إلى حصن تازوطا هذا ونزل به على بني الوزير هؤلاء لاجئا إليهم ومستجيرا بهم فأرادوا الفتك به غيرة منه وحسدا له فشرع بهم وتحول عنهم إلى عين الصفا من بلاد بزناسن حسبما تقدم ذلك كله ولما انقضى أمر بني عبد المؤمن واستقام ملك المغرب لبني مريين صرفوا عنايتهم إلى هذا الحصن فكانوا ينزلون به من الحامية من يتقون بغناؤه واضطلاعه ليكون أخذًا بناصية هؤلاء الرهط من بني وطاس لما يعلمون من سموهم إلى الرياسة وتطلعهم إليها وكان السلطان يوسف رحمه الله قد عقد على هذا الحصن لابن أخيه منصور بن عبد الواحد بن يعقوب وكان عمر وعامر ابنا يحيى ابن الوزير رئيسين على بني وطاس لذلك العهد فاستهونوا أمر السلطان يوسف بعد موت والده وحدثوا أنفسهم بالثورة في ذلك الحصن والاستبداد بتلك الناحية فوثب عمر بن يحيى منهم بمنصور بن عبد الواحد في شعبان من سنة إحدى وتسعين

وستمئة وفتك بحاشيته ورجاله وأزعجه عن الحصن وغلبه على ما كان بقصره من مال وسلاح ومتاع وأعشار للروم كانت مختزنة هنالك وضيظ الحصن وشحنه برجاله ووجه قومه ولحق منصور بن عبد الواحد بعمر السلطان يوسف فهلك لليل أسفا على ما أصابه وسرح السلطان يوسف وزيره الناصح أبا عمر بن السعد بن خرياش الحشمي بالحاء المهمل في العساكر لمنازلة حصن تازوطا فأناخ عليه بكله ثم تبعه السلطان يوسف على أثره وفي صحبته عامر بن يحيى بن الوزير أخو عمر الثائر فإنه كان قد نزع إليه فأحاط السلطان بالحصن وضيظ عليه حتى اشفق عمر لشدة الحصار وبئس من الخلاص وظن أنه قد أحبط به فندس إلى أخيه عامر في كنف ما نزل به فضمن عامر للسلطان يوسف نزول أخيه إن هو تركه يصعد إليه حتى يجتمع به فأذن له السلطان يوسف في ذلك فصعد إليه وتفاوضا في أمرهما وآخر الأمر أن عمر احتمل الذخيرة وفر ليلا غلى تلمسان وبدا لعامر في النزول عندما صار في الحصن فامتنع به قيل لأنه بلغه أن السلطان يوسف عزم على قتله أخذًا بثأر ابن أخيه منصور وإفلاته أخاه من يده واستمر على ذلك إلى أن قدم على السلطان يوسف وفد الأندلس وفيهم الرئيس أبو سعيد ب إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة راغبا في الصلح مع ابن عمه ومعتذرا عنه فأرسي أساطيله بمرسى غساسة ونزل إلى السلطان وقدم بين يديه هدي تتاسب الحال فسمع بهم عامر الوطاسي وهو في الحصن فبعث إليهم يسألهم الشفاعة له عند السلطان يوسف لوجهاتهم لديه فشفع له الرئيس أبو سعيد فقبل السلطان يوسف شفاعته بشرط أن تنقل بحاشيته إلى المرسى وركب أكثرهم الأسطول وتأخر عامر إلى جوف الليل فنزل من الحصن وخاض الفلاة إلى تلمسان فتبعت الخيل أثره ففاتهم وأدركوا ولده أبا الخيل فجيء به إلى السلطان يوسف فبعث به إلى فاس فضربت عنقه وصلب

هنالك وأنزل السلطان يوسف بقية الحاشية من الأسطول فأمر بهم فاستلموا مع من كان من بالحصن من أتباعهم وقراباتهم وذرياتهم وتملك السلطان يوسف حصن تازوطا وأنزل به عماله ومسلحته وقفل إلى حضرته بفاس أخر جمادى الأولى من سنة اثنتين وتسعين وستمئة ولما كان السلطان نازلا على تازوطا قدم عليه رجل من فرنج جنوة بهدية جليلة فيها شجرة مموهة بالذهب عليها أطيبار تصوت بحركات هندسية مثل ما صنع للمتوكل العباسي وفي هذه المدة سعي عند السلطان يوسف بأولاد الأمير أبي بكر بن عبد الحق وأنهم أرادوا الخروج عليه فهدد عليهم لذلك وأحسوا بالشر ففروا إلى تلمسان وأقاموا هنالك إلى أن بعث السلطان يوسف إليهم بالأمان فأقبلوا حتى إذا كانت بصيرة من ناحية ملوية اعترضهم الأمير أبو عامر عبد الله ابن السلطان يوسف فاستلحمهم أجمعين وهو يرى أنه قد أرضى أباه بذلك الفعل واتصل الخبر بالسلطان يوسف فسخطه وأقصاه وتبرأ منه فلم يزل طريدا ببلاد الريف وجبال غمارة إلى أن هلك ببني سعيد منهم آخر سنة ثمان وتسعين وستمئة وحمل إلى فاس فدفن بالزاوية التي داخل باب الفتوح وخلف ثلاثة أولاد عامر وسليمان وداود فكلهم جدهم السلطان يوسف إلى أن هلك فولي الأمر بعده حافده عامر وبعد عامر سليمان وسياتي ذكرهما إن شاء الله انعقاد الصلح بين السلطان يوسف وابن الأحمر ووفادته عليه بطنجة لما استولى الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الأحمر له عليها ونقض الطاغية عهد ابن الأحمر في النزول له عنها سقط في يد ابن الأحمر وندم على فعله ورجع إلى التمسك بالسلطان يوسف فأوفد عليه ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل ووزيره أبا سلطان زيز الداني في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقدير المعذرة عن شأن طريف وافر

بمكانه من حصار تازوطا كما قدمنا فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنتين وتسعين وستمئة بإسعاء غرضه من المواخاة واتصال اليد فوقع ذلك منه أجمل موقع وطار سرورا من أحواله وأجمع الرحلة إلى السلطان لإحكام العقد والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف والرغبة إليه في نصره بلاد الأندلس وإغاثة المسلمين الذين بها فتهيا لذلك وعبر البحر في ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين وستمئة واحتل بجبل بيونش من ناحية سبتة قم ارتحل إلى طنجة فلقبه بها الأميران أبو عامر عبد الله وأبو عبد الرحمن يعقوب ابنا السلطان يوسف وكان أبو عامر لا زال يومئذ من أبيه بعين الرضا ولما علم السلطان يوسف بقدمه خرج من فاس للقائه وبرور مقدمه فوافاه بطنجة فقدم ابن الأحمر بين يدي نجواه هدية أتحف بها السلطان يوسف كان من أحسنها موقعا لديه المصحف الكبير الذي يقال إنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ثم خلص على ابن الأحمر فأتحف به السلطان يوسف في هذه المرة فقبل السلطان ذلك وكافاه بأضعافه وبالغ في تكريمته وأسعفه بجميع مطالبه وأراد ابن الأحمر أن يبسط العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان يوسف عن سماع ذلك وأضرب عن ذكره صفحا وير وأحفى ووصل وأجزل ونزل لابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا من تغور الأندلس كانت قبل في ملكه ومملكة أبيه وعاد ابن الأحمر إلى أندلسه آخر سنة اثنتين وتسعين وستمئة محبوا محبورا وعبرت معه عساكر السلطان يوسف لحصار طريف ومنزلته وعقد على حربها لوزيره الشهير الذكر عمر بن السعود بن خرياش الحشمي فنزلها مدة فامتتعت عليه وأفرج عنها وفي

سنة ثلاث وتسعين بعدها فرغ السلطان يوسف من بناء جامع تازا

وعلق به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثلاثون قنطارا وعدد كؤوسها خمسمائة كأس وأربعة عشر كأسا وأنفق السلطان في بناء الجامع وعمل الثريا المذكورة ثمانية آلاف دينار ذهبيا وفي سنة أربع وتسعين بعدها خرج السلطان يوسف لغزو تلمسان فوصل إلى تداويرت وكانت تخما لعمل بني مريين وبني عبد الواحد فنصفها للسلطان يوسف ونصفها لعثمان بن يغمراسن وشرع في بناء الحصن الذي هنالك فأدار سوره وشيده وركب أبوايه مصفحة بالجديد وكان يقف على بنائه بنفسه من صلاة الغداة إلى السماء لا يغيب عن العلمة إلا في أوقات الضرورة وفرغ من بنائه وتحصينه في رمضان من السنة المذكورة ولما تم شحنه بالعسكر والسلاح وعقد عليه لأخيه أبي بكر بن يعقوب ويكنى أبا يحيى وانكفا راجعا إلى الحضرة ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين بعدها بقصد تلمسان فسار حتى نزل على ندرومة فحاصرها وشد في قتالها ورمها بالمجنيق أربعين يوما فامتتعت عليه فأفرج عنه ثاني عيد الفطر من السنة المذكورة ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمئة فسار إلى تلمسان وبرز عثمان بن يغمراسن لمدافته فانهزم وتحصن بالأسوار وتقدم السلطان يوسف حتى نزل على تلمسان وقتل من أهلها خلقا ثم ألقع عنها ورجع إلى المغرب ففضى نسل الأضحى من السنة المذكورة برباط تازا وأمر ببناء القصر بها وسار إلى فاس فدخلها فات سنة سبع وتسعين وستمئة ثم ارتحل إلى مكناسة ففضى بها بعض الوطر ثم عاد إلى فاس ثم خرج منها في جمادى الأولى من السنة المذكورة غازيا لتلمسان ومر في طريقه



بمدينة وجدة فأمر ببنائها وكان أبوه السلطان يعقوب قد هدمها كما مر فبناها السلطان يوسف في هذه المرة وحصن أسوارها وبنى بها قصبة ودارا لسكانه وحماما ومسجدا ثم سار إلى تلمسان فنزل بساحتها واحاطت عساكره بها إحاطة الهالة بالقمر ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار اخترعها المهندسون والصناع وتقربوا إلى السلطان

بعملها فأعجبته وكانت تحمل على أحد عشر بغلا ولما امتنعت تلمسان عليه أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة ومر في عودته إلى المغرب بوجدة فأنزل بها الحامية من بني عسكر بن محمد لنظر أخيه الأمير أبي بكر بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت وأمرهم بشن الغارات على أعمال تلمسان مع الساعات والأحيان ففعلوا واستولى الأمير أبو بكر بذلك على أكثر تلك الجهات والله تعالى أعلم فتكاه ابن الملياني بشيوخ المصامدة وتزويره الكتاب بهم والسبب في ذلك قد تقدم لنا عند الكلام على فتح جبل تنيمال أن أبا علي الملياني كان قد سعى في نبش قبور بني عبد المؤمن والعبث بأشلائهم وأن الناس قد غاظهم ذلك لا سيما المصامدة منهم ولما هلك السلطان يعقوب وولي بعده ابنه يوسف استعمل أبا علي الملياني على جباية المصامدة فباشرها مدة ثم سعى به شيوخ المصامدة عند السلطان بأنه احتجن المال لنفسه فأمر السلطان بمحاسبتة فحوسب وظهرت مخايل صدقهم عليه فنكبه السلطان يوسف أولا ثم قتله ثانيا واصطنع ابن أخيه أبا العباس أحمد بنعلي الملياني واستعمله في كتابته وأقامه ببابه في جملة كتابه وكان السلطان يوسف قد سخط على بعض شيوخ المصامدة منهم علي بن محمد هنتانة وعبد الكريم بن عيسى كبير قدموية وأوعز إلى ابنه الأمير علي بن يوسف بمراكش باعتقلهما فاعتقلهما فيمن لهما من الولد والحاشية وأحسن بذلك أحمد بن الملياني فاستعجل الثأر الذي كان يعتده عليهم في عمه أبي علي وكانت العلامة السلطانية يومئذ موكولة إلى كتاب الدولة لم تخصص بواحد منهم لما كانوا كلهم ثقات أمناء وكانوا عند السلطان كأسنان المشط فكتب أحمد بن الملياني إلى الأمير أبي علي كتابا على لسان والده يأمره فيه أمرا جزما

بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين ووضع عليه العلامة التي تنفذ بها الأوامر السلطانية وختم الكتاب وبعث به مع البريد قال ابن الخطيب ولما أكد على حامله في العجل وضايقه في تقدير الأجل تأتى حتى إذا علم أنه قد وصل وأن غرضه قد حصل فر غلى تلمسان وهي بحا حصارها فاتصل بأنصارها حالا بين أنواعها وأبصارها وتعجب الناس من فراره وسوء اعتزاره ورجعت الطنون في آثاره ثم وصلت الأخبار بتعام الحيلة وستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة فتركها شنعاء على الأيام وعارا في الأقاليم على حملة الأقاليم اه ولما وصل الكتاب إلى ولد السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين إلى مصارعهم وحكم السيف في راب جميعهم فقتل علي بن محمد الهنتاني وولده وعبد الكريم بن عيسى القدموي وبنوه الثلاثة عيسى وعلي منصور وابن أخيه عبد العزيز بن محمد وطير الأمير علي إلى والده مع بعض وزرائه وهو يرى أنه قد امتثل الأمر واستوجب الشكر فلما وصل الرسول بالخبر إلى السلطان يوسف بطش به فقتله غيظا عليه وأنفذ البريد في الحال باعتقال ولده وقعد لك ومن ذلك الوقت قصر السلطان علامته على من يختاره من ثقات الكتاب وعولهم وجعلها يومئذ للفقهاء الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين وكان من الكفاة المضطلعين بأمر الدولة المحتملين للكثير من أعبائها وأما ابن الملياني فإنه فر إلى تلمسان والسلطان يوسف محاصر لها ولما وقع الإفراج عنها بعد حين انتقل إلى الأندلس فبقي هنالك إلى أن توفي بغرناطة سنة خمس عشرة وسبعمائة ومن شعره يفخر بهذه الفعلة وغيرها قوله العز ما ضربت عليه قبابي والفضل ما اشتملت عليه ثيابي والزهر ما أهداه غصن يراعتي والمسك ما أبداه نفس كتابي فالمجد يمنع أن يزاحم موردي والعزم يأبى أن يضام جنابي فإذا بلوت صنعية جازيتها بجميل شكري أو جزيل ثوابي وإذا عقدت مودة أجريتها مجرى طعمامي من دمي وشرابي وإذا طلبت من الفراقد والسهي ثارا فأوشك أن أنال طلابي

الحصار الطويل وما تخلل ذلك من الأحداث على تلمسان تقدم لنا أن السلطان يوسف لما رجع من محاصرة تلمسان فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة مر في طريقه بوجدة فأنزل بها الحامية من بني عسكر إلى نظر أخيه الأمير أبي بكر وأمره بشن الغارات على أعمال بني زيان فامتثل الأمير أبو بكر أمره وألح على النواحي بالغارات وإفساد السابلة فضاق أهل ندرومة بذلك ذرعا وأوفدوا وفدا منهم على الأمير أبي بكر يسألونه الأمان لهم ولمن وراءهم من قومهم على أن يمكنوه من قياد بلدهم ويدينوا بطاعة السلطان يوسف فيذل لهم من ذلك أهل تاونت فأوفد الأمير أبو بكر جماعة من أهل البلد إلى أخيه السلطان يوسف فقدموا عليه منتصف رجب من سنة ثمان وتسعين المذكورة فادوا طاعتهم فقبلها ورغبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريجهم من ملكة عدوهم وعدوهم عثمان بن يغمراسن ووصفوا له من عسفه وجورة وضعفه عن الحماية ما أكد عزمه على النهوض فنهض لحينه من فاس في رجب المذكور بعد أن استكمل حشده ونادى في قومه وعرض عسكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عليهم وسار في التعبية حتى نزل بساحة تلمسان ثاني شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناف عليها بكلكه وربض قبائلها على ترابيه وأنزل محلته بفنائها وأحاط بجميع جهاتها وتحصن بالجدران وعولوا على الحصار ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سورا عظيما جعله سيجا على تلمسان وما اتصل بها من العمران وصيرها في وسطه ثم أُرِدَف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد المهوى وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على ابواب تلك المداخل مسالح تحرسه وأوعد بالعقاب من يختلف إلى تلمسان برفق أو يتسلل إليها بقوت وأخذ بمخنتها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص

إليها الطير لا بل الطيف واستمر مقبما عليها كذلك مائة شهر ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة اختط إلى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبائه قصرا لسكانه واتخذ به مسجدا لصلاته وأدار عليهما سورا بجزهما ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحبية والقصور الأنيقة واتخذوا البساتين وأجروا المياه وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمارستان وابتنى مسجدا جامعاً أقامه على الصهرنج الكبير وشيد له منارا رفيعا وجعل على رأسه تقايح من ذهب صير استبحر عمرانها ونفقت أسواقها ورحل إليها التجار باليضائع من جميع الأفاق **وسماها المنصورة فكانت من أعظم أمصار المغرب وأحفا إلى أن خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف** وارتحال جيوشه عنها ولما تمكن السلطان يوسف من حصار تلمسان سرح كتائبه وسراياه في أعمالها وحصونها فاستولى في مدة قريبة على ندرومة وهنين ووهران وتالموت وتامزردكت ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة ووانشريس وملبانية والقصبات ولمدية وتافرجينت وجميع بلاد بني عبد الواد وبلاد بني توجين وبلاد مغراوة وبياحه ابن علان صاحب الجزائر وأخذ رعبه بملوك الناحي وكانت دولة بني أبي حفص يومئذ قد انقسمت بقسمين فصار كرسي منها بتونس وآخر ببجاية فتنافس صاحب تونس وصاحب بجاية في مصانعة السلطان يوسف والتقرب إليه بالهدايا والتحف وصار السلطان يوسف في ذلك الوقت ملك المغرب على الحقيقة والإطلاق والله غالب على أمره نكبة بين وقاصة من يهود فاس كان بنو وقاصة هؤلاء من يهود ملاح وكانوا مداخلين للسلطان يوسف من صغره إلى كبره وكانوا يتولون قهزمة داره ويقضون أموره الخاصة

به ويخلصون إلى الكثير من باطن أمره قد التحموا به التحاما وامتزجوا به امتزاجا يجالسونه في خلواته وينادمونه في أنسه فعظم جاههم عند الحاشية لإقبال السلطان عليهم واستتبعوا الوزراء فمن دونهم من رجال الدولة وتعددت فيهم الرؤساء والقهارمة فكان منهم خليفة بن وقاصة وأخوه إبراهيم وصهره موسى بن السبتي وابن عمه خليفة الأصغر وغيرهم واستمروا على ذلك برهة من الدهر ثم إن السلطان يوسف استفاق استفاقا والتفت إليهم التفاتة وراجع بصيرته في شأنهم فأهمه أمرهم وشعر كاتبه بذلك القائم بأمر دولته أبو محمد عبد الله بن أبي مدين فسعى عنده فيهم وأوجده السبيل عليهم فسطا بهم سطوة منكرة واعتقلوا في شعبان من سنة إحدى وسبعمائة بمعسكره من حصار تلمسان وقتل خليفة الكبير وأخوه إبراهيم وموسى بن السبتي وإخوته بعد أن امتحنوا ومثل بهم وأنت النكبة على حاشيتهم وأقاربهم فلم تبق منهم باقية إلا أن السلطان استبقى مهم خليفة الأصغر احتقارا لشأنه حتى كان من قتله بعد ما نذكره وعبث بسائرهم وظهرت الدولة من رجسهم وأزيل منها معرفة راستهم والأمور بيد الله سبحانه ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعمائة توفي عثمان بن يغمراسن في الحصار عقب شربة لبن يقال إنه جعل فيها سما وشربه فعل ذلك بنفسه تفاديا من معرفة غلبه عدوه عليه فاجتمع بنو عبد الواد لحينهم وبياعوا ابنه محمد بن عثمان واجتمعوا عليه ثم برزوا إلى قتال عدوهم على العادة حتى كأن عثمان لم يموت وبلغ الخبر إلى السلطان يوسف فتفجع على عثمان وعجب من صرامة قومه من بعده

انتفاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد على سبته كان محمد بن الأحمر المعروف بالفتية قد هلك سنة إحدى وسبعمئة وولي الأمر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندي وكان من أول ما فعله محمد المخلوع بعد استقلاله بالأمر المبادرة إلى أحكام عقد الموالاة بينه وبين السلطان يوسف فأوفد عليه وزير أبيه أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني ووزيره الكاتب أبا عبد الله بن الحكيم فوصلا إلى السلطان يوسف بمسكروه من حصار تلمسان فتلقاهما بالقبول والمبرة وجددت لهما أحكام الود والولاية وانقلبا إلى مرساهما خير منقلب وطلب السلطان منهما أن يمدوه بالرجل من عسكر الأندلس وناشيتهم المعودين منازل الحصون والمتاغرة بالرباط فأسعفوه ثم فسد ما بينهما لمناسات جرت إلى ذلك فانتفض ابن الأحمر وعاد لسنة سلفه من موالاة الطاغية وممالاته على المسلمين أهل المغرب وأحكم العهد مع هراندة بن سانجة من بني أدفونش ملوك قشتالة خذلهم الله ثم أوعز ابن الأحمر على ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة في أعمال الحيلة في الغدر بأهل سبته ففعل وداخل في ذلك بعض عمال بني العزفي بها فأمكنه من البلد فاقتحمها بأساطيله وجنده على حين غفلة من أهلها وتقبض على بني العزفي ولى حاشيتهم وأركبهم الأسطول وبعث بهم إلى مالقة ثم منها إلى غرناطة فتلقاهم ابن الأحمر واحتفل لهم وأنزلهم بقصوره وأجرى عليهم النفقة واستقروا بالأندلس برهة من الدهر ثم عادوا إلى المغرب كما نذكر وأسند الرئيس أبو سعيد بأمر سبته وثقف أطرافها وسد ثغورها وبلغ الخبر بذلك إلى السلطان يوسف فحمى أنفه وعظم عليه الأمر فبعث ولده الأمير أبا سالم إبراهيم في جيش كثيف إلى حصارها وحشد إليها قبائل الريف وقبائل تازا فلم يغن شيئا ورجع مهزوما فسخطه السلطان لذلك وأهمله وبقي على ذلك غلى وفاة السلطان رحمه الله وكان انتفاض ابن الأحمر سنة ثلاث وسبعمئة

ثورة عثمان بن أبي العلاء بجبال غمارة كان عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الحق من أعياص الملك المريني وكان قد قدم من الأندلس في صحبة الرئيس أبي سعيد عند استيلائه على سبته ثم ثار بعد ذلك ببلاد غمارة ودعا لنفسه وبقي منتقلا هناك مدة فتغلب على تكساس وأصيلا والعرایش وانتهى إلى قصر كتامة وخب في الفتنة ووضع إلى أن لحق بالأندلس لأول دولة السلطان أبي الربيع فولى بها مشيخة الغزاة وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء كما سيأتي إن شاء الله وفي سنة ثلاث وسبعمئة بعث السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان ركب الحاج المغربي إلى الحرمين الشريفين واعتنى بشأن هذا الركب فبعث معهم حامية من زناتة تناهز خمسمئة فارس من الأبطال وخاطب صاحب الديار المصرية لعده وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي من مماليك بين أيوب المعروفين بالبحرية واستوصاه بحاج أهل المغرب وأتحفه بهدية استكثر فيها من الخيل العرب والمطايا الفارسة يقال كان عدد الخيل والمطايا أربعمئة إلى غير ذلك ما يناسب من طرف المغرب وماعونه وبعث معهم إلى حرم مكة مصحفا ضخما اعتنى به واستكتبه وجعل له غشاء مكللا بنفيس الدر وشريف الباقوت ورفع الأحجار ونهج السلطان يوسف رحمه الله بهذا الركب والهدية السبيل لحاج المغرب فأجمعوا الحج سنة أربع بعدها فاجتمع منهم عدد وافر وركب ضخم فعقد السلطان يوسف على دلالته لأبي زيد الغفاري وفصلوا من تلمسان في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وفي شهر ربيع الآخر بعده قدم حاج الركب الأول الذين حملوا المصحف والهدية ووفد معهم على السلطان يوسف شريف مكة السيد لبيدة بن أبي نمي نازعا عن سلطان الترك صاحب مصر لما كان قد قبض على أخويه حميضة ورميثة بعد مهلك أبيهم أبي نمي صاب مكة فاستبلغ السلطان يوسف من إكرامه والتنويه بقدره وسرحه إلى المغرب ليجول في أقطاره ويطوف على معالم الملك وقصوره وأوعز إلى العمال بالبروز به وإتحافه على ما يناسب قدره ورجع هذا الشريف إلى حضرة السلطان من تلمسان سنة خمس وسبعمئة ثم فصل منها إلى مشرقه وفي شعبان من هذه السنة قدم أبو زيد الغفاري دليل ركب الحاج الثاني ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان يوسف لما كان صاحب مصر قد أسفهم بالتقبض على إخوانهم وكان ذلك شأنهم متى غاظهم السلطان وأهدوا إلى السلطان يوسف ثوبا من كسوة الكعبة أعجب به فاتخذ منه ثوبا لليوسه في الجمع والأعياد كان يستنبطه بين ثيابه تبركا به وأما الملك الناصر صاحب مصر فإنه كافأ السلطان يوسف على هديته بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوانات ونحو ذلك مثل الفيل والزرافة ونحوهما وأوفد به مع عظام دولته وفصلوا من القاهرة آخر سنة خمس وسبعمئة فوصلوا إلى السلطان يوسف وهو بالمقصورة في جمادى الآخرة سنة ست بعدها واهتز لقبومهم وأركب الناس للقيهم وأكرم وفادتهم وبعثهم إلى المغرب للتطوف به على العادة في مبرة أمثالهم وهلك السلطان يوسف أثناء ذلك وأفضى الأمر إلى حافده أبي ثابت فأحسن منقلبهم ملأ حقائبهم وفصلوا من المغرب إلى بلادهم في ذي الحجة من سنة سبع وسبعمئة ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان بعدها اعترضهم الأعراب بالفقر فانتهبوهم وخلصوا إلى مصر بجريفة الذفق فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سفرا ولا لفتوا إليه وجها وظالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يوبه له وبهادونهم ويكافون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئا

وفاة السلطان يوسف رحمه الله كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قد اتخذ في جملة حاشيته ومماليكه خصيا اسمه سعادة وكان هذا الخصي قد تصير إليه من جهة أبي علي الملياني أيام كان عاملا له على مراکش وكان السلطان يوسف في ابتداء أمره يخلط الخصيان بأهله ولا يحجبهم عن حرمه وعياله ثم حدثت للسلطان ريبة في بعض الخصيان فأعققت جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير عريفهم وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وفسدت نياتهم فسولت لهذا الخصي الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان فعمد إليه وهو في بعض حجر قصره فاستأن عليه فأذن له فألفاه مستلقيا على فراشه مختضبا بحناء فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هاربا وانطلق بعض الأولياء في أثره فأدركه من العشي بناحية تاسلت فقبض عليه وجيء به إلى القصر فقتله العبيد والحاشية وصابر السلطان يوسف منيته إلى آخر النهار ثم قضى رحمه الله يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمئة وقبر هناك ثم نقل بعد ما سكنت الهيعة إلى مقبرتهم بشالة فدفن بها مع سلفه وأطلال ضريحه لا زالت ماثلة إلى الآن وبموت السلطان يوسف انقضت مدة الحصار عن آل يغمراسن وقومهم من بني عبد الواد وسائر أهل تلمسان وكانت المدة في ذلك مائة شهر كما قلنا نالهم فيها من الجهد والشدة ما لم ينل أمة من الأمم واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران حتى أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السوق للوفود وغلّت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما

تجاوز حد العادة وعجز وجدهم عنها فكان ثمن مكيال القمح ومقداره اثنا عشر رطلا ونصف مثقالين ونصف من الذهب العين وثمان الشخص الواحد من البقر سنتين مثقالا ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصف وثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمان المثقال ومن الخيل بعشر المثقال والرطل من الجلد البقري مائة أو مئتي بثلاثين درهما والهر الداجي بمثقال ونصف والكلب بمثله والفار بعشرة دراهم والحية بمثل ذلك والدجاجة بثلاثين درهما والبيض واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك والأوقية من الزيت باثني عشر درهما ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين درهما ومن الملح بعشرة دراهم ومن الحطب كذلك والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال ومن الخس بعشرين درهما ومن اللفت بخمسة عشر درهما والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما والخيار بثلاثة أثمان الدينار والبطيخ بثلاثين درهما والحب من التين والإجاص بدرهمين واستهلك الناس أموالهم وموجودهم وضائق أحوالهم وهلكت حاميتهم فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج للاستماتة فهيا الله لهم الصنع الغريب ونفس عن مخنفهم بمهلك السلطان يوسف على يد الخصي المريب وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور وكتبوا بعد هذه الحادثة في سكنهم ما أقرب فرج الله استغرابا لها قال ابن خلدون حدثني شيخنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأيلي قال جلس السلطان أبو زيان بن عثمان بن يغمراسن صبيحة يوم الفرج وهو يوم الأربعاء سابع ذي القعدة في زاوية من زوايا قصره يفكر واستدعى ابن جحاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهرام والمطامير المختومة فقال له إنما بقي عوالة اليوم وغد فاستوصاه بكتمان ذلك وبينما هم يتذكرون في ذلك دخل عليهم أخوه أبو حمو فأخبروه بذلك فوجم وجلسوا سكوئا لا ينطقون

وإذا بدع قهرمانة القصر وكانت وصيفة ن وصانفت بنت السلطان ابي إسحاق حظية ابيهم قد خرجت من القصر إليهم وحيثهم وقالت لهم تقول لكم خطايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لالتهامكم ولم يبق الأفواق ناقة لمصارعكم فأريحونا من معرفة السبي

وقربونا إلى مصارعنا وأربحوا أنفسكم فينا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم فالتفت أبو حمو إلى أخيه أبي زيان وكان من الشفقة بمكان فقال قد صدقتك الخبر فما تنتظر بهن فقال يا موسى أرجنتي ثلاثا لعل الله يجعل بعد عسر يسرا ولا تشاورني بعدها فيهن بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهم وتعالى إلي نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستमित ويقضي الله ما شاء فغضب أبو حمو وأنكر عليه التأخير في ذلك وقال إنما نحن والله نترصب المعرفة بهن ويأنفسنا وقام عنه مغضبا وجهش السلطان أبو زيان قال أبو جحاف وأنا بمكاني بين يديه لا أملك متأخرا ولا متقدما إلى أن غلب عليه النوم فما راغني إلا حرسى بالباي يشير إلي أن أعلم السلطان بمكان رسول جاء من محلة بني مرين وها هو بسدة القصر قال ابن جحاف فلم أطق رد جوابه إلا بالإشارة وانتبه السلطان من همسنا فزعا فأعلمته فاستدعا للحين فلما وقف بين يديه قال إن السلطان يوسف بن يعقوب هلك الساعة وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم فاستبشر السلطان أبو زيان واستدعى أخاه وقومه حتى بلغ الرسول المذكور رسالته أن السلطان يوسف لما هلك تطاول للأمر بعده القابة مناخوته وولده وحفدته وتحيز حافده أبو ثاب إلى بني ورتجن لخولة كانت له فيهم فاستجاش بهم واعصوبوا عليه وبعث إلى بني زيان أن يعطوه آلة الحرب ويكونوا مفزعا له إن أخفق مسعاه على أنه إن تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين وأفرج عنهم فعاقدوه على ذلك فوفى لهم لما تم أمره ونزل لهم عن جمى الأعمال التي كان السلطان يوسف غلب عليها من بلادهم ورحلوا إلى مغربهم والله غالب على أمره

بقية أخبار السلطان يوسف وسيرته كان السلطان يوسف رحمه الله أبيض حسن القدم مليح الوجه ألقى الأنف مهيبا لا يكذب أحد يبده بالكلام جوادا مشفقا على الرعية منتفقا لأحوالها شجاعا شهما ذا عزيمة إذا هم ألقى بين عينيه همه ونكب عن ذكر العواقب جانبا وهو ألو من هذب ملك بني مرين وأكسبه رون الحضارة وبهاء الملك وكان غليظ الحجاب لا يكاد يوصل إليه إلا بعد الجهد ومن أعيان كتاه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين العثماني ومن أعيان شعرائه أبو الحكم مالك بن المرحل السبتي وأبو فارس عبد العزيز الملزوزي المكناسي وغيرهما والله تعالى أعلم ولئنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث ففي سنة ست وخمسين وستمائة وهي السنة التي بوبع فيها السلطان يعقوب بن عبد الحق كان الرخاء المفرط بالمغرب بحيث كان الدقيق يباع بفاس وغيرها ربع منه بدرهم والقمح ستة دراهم للصفحة والشعير ثلاثة دراهم للصفحة وأما القطاني فلم يكن لها ثمن والعسل ثلاثة أرتال بدرهم والزيت أربعون أوقية بدرهم والزبيب درهم ونصف للربع والتمر ثمانية أرتال بدرهم واللوز صاع بدرهم والشابل الطري فردة بغيراط والملح حمل بدرهم ولحم البقر مائة أوقية بدرهم ولحم الضأن سبعون أوقية بدرهم والكيش بخمسة دراهم وهكذا وفي سنة إحدى وستين ومائتين ظهر **النجم أو بالذوائب وكان ابتداء ظهوره ليلة الثلاثاء الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة وبقي يطلع كل ليلة وقت السحر نحو من عشرين يوما** وفي سنة أربع وستين وستمائة كان دخول الشريف المولى حسن بن قاسم الحسيني من أرض ينبع الحجاز إلى سجلماسة وهذا الشريف هو جد الأسر الفلويين السجلماسيين ملوك المغرب الأقصى في عصرنا هذا أعلى

الله تعالى فدرهم وخذل مجدهم وفخرهم وعند الكلام على دولتهم السعيدة نذكر كيفية دخول هذا الشريف إلى المغرب والسبب فيه إن شاء الله وفي سنة ست وستين وستمائة سرق من بيت المال بقصبة فاس اثنا عشر ألف دينار وثلاث قلائد يساوين أكثر من ذلك وفي حدود السبعين وستمائة كان ظهور البارود على ما مر من أن السلطان يعقوب بن عبد الحق فتح به سجلماسة في هذه المدة والله تعالى أعلم وفي سنة سبع وسبعين وستمائة بنى المسجد الجامع بفاس الجديد وفي سنة تسع وسبعين وستمائة علفت به ثرياه وذلك يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول منها ووزن هذه الثريا سبعة قنطير وخمسة عشر رطلا وعدد كؤوسها مائتا كأس بالثنية وسبع وثمانون كأسا وفيها كان الجراد العام بالمغرب أكل الجسر والزرع ولم يترك خضراء على وجه الأرض وبلغ القمح عشرة دراهم للصاع وفي سنة ثمانين وستمائة بنيت قنطرة وادي النجاة وقنطرة ماريح وفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة كان بالمغرب قحط شديد لم ير الناس قطرة ماء حتى كان اليوم السابع والعشرون من رمضان وهو اليوم الذي توفيت الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوية من بني علي بن عسكروهي أم السلطان يوسف فغاث الله العباد وأحيا برحمته البلاد وفي سنة خمس وثمانين وستمائة بنيت قصبية تطاوين وفيها ركبت الناعورة الكبرى على واد فاس شرع عملها في رجب من السنة المذكورة ودارت في صفر من السنة بعدها وفي سنة ست وثمانين بني قصر المجاز وركبت أبوابها وفيها غرس بستان المصاراة بفاس الجديد وبنيت الدار البيضاء بها أيضا وفي سنة تسع وثمانين وستمائة كانت **الريح الشرقية المتواليه الهبوب ونشأ عنها القحط الشديد واستمر ذلك إلى آخر سنة تسعين بعدها فرح الله**

بإلده وباده وفيها توفي الشيخ الصالح أبو يعقوب الأشقر بالكندرتين من بلاد بني بهلول من أحوار فاس ولعل أبا يعقوب هذا هو الذي تنسب إليه الحجة التي قدمنا الكلام عليها في أخبار المنصور الموحدي والله أعلم وفيها بنى المسجد الجامع بمدينة تازا وبنيت قبة مكناسة الزيتون ورباعها وفي سنة إحدى وتسعين وستمائة أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بعمل المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال له وصيره عيداً من الأعياد في جميع بلاده وذلك في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وكان الأمر به قد صدر عنه وهو بصبره من بلاد الريف في آخر صفر من السنة فوصل برسم إقامته بحضرة فاس الفقيه أبو يحيى بن أبي الصبر وأعلم أنه قد كان سبق السلطان يوسف إلى هذه المنقبة المولدية بنو العزفي أصحاب سبته فهم أول من أحدث عمل المولد الكريم بالمغرب والله تعالى أعلم وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة كان كسوف الشمس وذلك قرب

زوال يوم الأحد التاسع والعشرين من رجب من السنة المذكورة كسف منها نحو الثلثين وصلّى بالناس صلاة الكسوف بجامع القرويين من فاس الخطيب أبو عبد الله بن أبي الصبر حتى انجلت فخرج من المحراب ووقف بإزائه فوعظ الناس وذكرهم وفي هذه السنة رفعت أيدي الموتقين من الشهادة بفاس ولم يبق بها منهم سوى خمسة عشر رجلا من أهل العدالة والمعرفة وكانوا قبل ذلك أربعة وتسعين وكان ذلك يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة وفيها كانت الجماعة الشديدة والوباء العظيم عم ذلك بلاد المغرب وإفريقية ومصر فكانت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتسل وبلغ القمح عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواق بدرهم وأمر السلطان يوسف

بتبديل الصيعان وجعلها على مد النبي وكان ذلك بالحضرة على يد الفقيه أبي فارس عبد العزيز الملزوزي الشاعر المشهور ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة فيها صلح أمر الناس وانجبرت أحوالهم ورخصت الأسعار في جميع الأمصار فبيع القمح بعشرين درهما للصفحة وفي هذه السنة كسفت الشمس أيضا الكسوف الكلي بحيث غاب قرص الشمس كله وصار النهار ليلا كالحالة التي تكون ما بين العشاءين وظهرت النجوم وماج الناس وضاعت نفوسهم ولولا أن الله سبحانه تداركهم بسرعة انجلانها لهلكوا جزعا وكان ذلك بعد صلاة ظهر الثلاثاء الثامن والعشرين من ذي الحجة من سنة أربع وتسعين المذكورة وفي سنة سبعمائة أسس السلطان يوسف بن يعقوب مدينته المنصورة بإزاء تلمسان وهو محاصر لها الحصار الطويل حسبما مر الخبر على ذلك مستوفى وبالله تعالى **الخبر عن دولة السلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله ابن يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قد تقدم لنا أن أبا عامر عبد الله ابن السلطان يوسف كان قد انتدب عن أبيه وبقي منتقلا ف جهات الريف وبلاد غمارة إلى أن هلك في بلاد بني سعيد منهم وأنه خلف ثلاثة أولاد أحدهم أبو ثابت عامر بن عبد الله هذا الذي ولي الأمر بعد جده وذلك أنه لما هلك السلطان يوسف رحمه الله بالمنصورة كما تقدم كان حافده أبو ثابت هذا في جملته وكان لي في بني ورتاجن من أهل تلك البلاد خولة فلحق بهم ودعا لنفسه فبايعوه وقاموا معه في أمره وبايعه معهم أشياخ بني مرين والعرب بظاهر المنصورة يوم الخميس ثاني يوم وفاة جده يوسف وبادر الحاشية والوزراء ومن شايهم بداخل المنصورة إلى بيعة الأمير أبي سالم بن السلطان يوسف وكاد أمر بني**

مرين يفسد وكلمتهم تتفرق فبعث السلطان أبو ثابت وكان شهما مقادما إلى صاحبي تلمسان أبي زيان وأبي حمو ابني عثمان بن يغمراسن فعقد لهما عهدا على أن يرحل عنهم بجموعه وأن يمدوه بالآلة ويرفعوا له كسر بيئهم ويضموه إليهم إن خاب أملهم ولم يتم له أمر فأجابوه إلى ذلك وحضر العقد أبو حمو فأحكمه وشرط عليها السلطان أبو ثابت أن لا يتعرضوا لمدينة جده المنصورة بسوء وأن يتعاهدوا مساجدها وقصورها بالإصلاح وأن من أراد الإقامة بها من أهلها فما لأحد عليه من سبيل لأن الناس كانوا قد استوطنوا وألفوها وطاب مقامهم بها وتأتلوا بها بها الأثاث والمتاع والخرثي وسائر الماعون مما يثبت المرتحل ويثقل جناح الناهض فقبل أبو حمو ذلك كله وتفرغ السلطان أبو ثابت لشأنه وجمع كلمة قومه واختل

أمر أبي سالم فلم يتم وكتب السلطان أبو ثابت إلى حامية بني مريين وحصنها التي كانت متفرقة في الصغور الشرقية التي استولى عليها السلطان يوسف أيام حياته فأقبلوا إليه ينسلون من كل حدت وأسلموا البلاد إلى أهلها من بني عبد الواد وقتل السلطان أبو ثابت عمه أبا سالم بن يوسف ثم أتبعه بعم أبيه أبي بكر بن يعقوب في آخرين من القرابة وغيرهم ممن يتوقع منه الشر وفر بقية القرابة خشية على أنفسهم من سطوة أبي ثابت فلقحوا بعمان بن أبي العلاء الثائر بجبال غمارة من عهد السلطان يوسف فشايعوه على أمره وتقوى بهم على ما نذكره ثم ارتحل السلطان أبو ثابت قاصدا حضرة فاس في جموع لاثحصى وأمر لا تستقصى فعبد عبد الأضحى من سنة ست وسعمائة في طريقه بن تلمسان ووجده ثم نهض إلى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وسبعمائة ثم نهض بعد ذلك إلى مراكش على ما نذكره ولما علم بنو يغمراسن أن أبا ثابت قد أبعده عنهم وأنه توغل في البلاد المراكشية واشتغل بحروب الثائرين بها عمدوا إلى المنصورة فجعلوا عاليه سافلها وطمسوا معالمها ومحو آثارها فأصبحت كأن لم تغن بالأمس

ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد ابن عبد الحق وما كان من أمره كان السلطان أبو ثابت لما فصل من تلمسان قدم بين يديه ابن عمه الحسن بن عامر بن عبد الله بن يعقوب وأمره بالنظر في أحوال فاس والمغرب ومره بضبطها وتسريح سجونها ورد مظالمها وتفريق الأموال على الخاصة والعامه ففعل ولما قدم حضرة فاس عقد لأن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق على مراكش ونواحيها وعهد إليه بالنظر في أحوالها وضبطها صمد إليها واحتل بها وتمكن منها ثم حدثه نفسه بالنتزاع فاستلحق واستركب واتخذ الآلة وجاهر بالخلعان وتقضى على الوالي بمراكش الحاج المسعود فقتله من تحت السياط في جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمائة ودعا لنفسه واتصل الخبر بالسلطان أبي ثابت وهو بفاس فرح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعدي بن خرباش الخشمي بالحاء المهملة ويعقوب بن أصناك في خمسة آلاف فارس فساروا إلى مراكش وبرز يوسف بن محمد بن أبي عياد إلى حربهم وعبر إليهم وادي أم الربيع فالتقوا معه على ضفته الشرقية فهزموه وعاد إلى مراكش واتبعه الوزير ودخل ابن أبي عياد مراكش فقتل جماعة من جند الفرنج الذين بها وسبى ذراريهم وخرج منها إلى أغمات فلم يستقر بها ثم إلى جبال هسكورة فنزل على كبيرها مخلوف بن هنو الهسكوري ولحق به موسى بن سعيد الصبيحي من أغمات تدلى من سورها فلحق به ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعمائة وأمر بقتل أوربة المداخلين لابن أبي عياد في انتزاعه فاستلحموا جميعا ولما لحق ابن أبي عياد بمخلوف بن هنو الهسكوري واستجار به فلم يجره على السلطان أبي ثابت بل قبض عليه مع ثمانية من كبار أصحابه وبعثهم في

الحديد إليه وهو بمراكش فقتلوا في مصرع واحد بعد أن مثل بهم بالسياط وبعث برأس ابن أبي عياد إلى فاس فطيف به ونصب على سورها ثم أثنى أبو ثابت في كل من كان على رأي ابن أبي عياد وخاض معه في الفتنة فاستلحم منهم بمراكش ما ينيف على الستمائة وصلبهم على سورها من باب الرب أحد أبواب مراكش إلى برج دار الحررة عزونه وقتل في أغمات منهم مثل ذلك وخرج منتصف شعبان إلى منزلة السكسيوي وتدويج جهات مراكش فنزل بتامزوارت وتلقاه السكسيوي بالبيعة والهدية والضيافة فقبل السلطان أبو ثابت ذلك منه ثم بعث قائده يعقوب بن أصناك في جيش من ثلاثة آلاف فارس إلى بلاد حاحة برسم غزو قبائل زكنة ففروا بين يديه حتى دخلوا بلاد القبلة وانقطع أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان بتامزوارت وأخبره بسكون البلاد وأمنها فانكفأ السلطان أبو ثابت راجعا إلى مراكش فدخلها غرة رمضان من سنة سبع وسبعمائة ثم خرج منها في منتصف قاصدا رباط الفتح فاجتاز على بلاد صنهاجة وعبر وادي أم الربيع من مشرع كتامة في القوارب لزيادة الماء يومئذ ثم ارتحل فاجتاز ببلاد تامسنا فتلقاها بها عرب جيش نم قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم فاستصحبهم معه إلى مدينة أنفي بعد أن استأنذوه في الرجوع فلم يأذن لهم ولما أحتل بأنفي دعا بأشياخهم فحضروا عنده فقبض على ستين منهم أودعهم سجن أنفي وضرب أعناق عشرين من فسادهم القاطعين للسبل وصلبهم على سور أنفي ثم نهض إلى رباط الفتح فدخله في السابع والعشرين من رمضان فعبد هنالك عبد الفطر وقتل به ثلاثين من فتاك لعرب المتممين بالحرابة وقطع الطريق وصلبهم على أسوار العدوتين ثم ارتحل منتصف شوال لغزو عرب رباح الموطنين بأبي طويل وفحص أزغار وبلاد الهبط فغزاهم وأخذهم بالإجن القديمة فقتل منهم خلقا وسبى ذراريهم وانتهب أموالهم ونهض إلى فاس فاحتل بها منتصف ذي القعدة وعيد بها عيد الأضحى ثم نهض إلى سبتة على ما نذكره

غزو السلطان أبي ثابت بلاد غمارة وسبتة ومحاصرته لعثمان بن أبي العلاء قد تقدم لنا أن عثمان بن أبي العلاء كان قد ورد من الأندلس صحبة الرئيس أبي سعيد بن الأحمر المتغلب على سبتة أيام السلطان يوسف وأنه ثار بجبال غمارة ودعا لنفسه واستحوذ عليها وكان السلطان يوسف بلغه خبره وأهمه شأنه إلا أنه كان يرجو أن يفتح تلمسان عن قريب ثم ينهض إليه فعامله الحمام دون ذلك ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي ثابت وقدم حضرة فاس شغله عن عثمان بن أبي العلاء ما كان من ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد بمراكش كما قدمناه فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء لابن عمه عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق فزحف إليه ونهض عثمان بن أبي العلاء واستلحم من كان معه من جند الفرنج وهلك في تلك الواقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات الدولة المرشحين للوزارة وسار عثمان بن أبي العلاء إلى قصر كتامة فدخله واستولى على جهاته وكان بطلا من الأبطال وعلى أثر ذلك كان رجوع السلطان أبي ثابت من غزاة مراكش وقد حسم الداء ومحي أثر النفاق فاعتزم على النهوض إلى بلاد غمارة ليمحو منها أثر دعوة أبي العلاء التي كادت تلج عليه دار ملكه ويستخلص سبتة من يد ابن الأحمر المتغلب عليها لأنها صارت ركابا لمن يروم الخروج على السلطان من القرابة المستقرين وراء البحر غزاة في سبيل الله فنهض السلطان أبو ثابت من فاس عقب عيد الأضحى من سنة سبع وسبعمائة حتى انتهى إلى قصر كتامة فتلوه به ثلاثا حتى تلاحق به قبائل مريين والعرب والرماة من سائر البلاد فعرض جيشه وارتحل قاصدا جبال غمارة وكان عثمان بن أبي العلاء قد فر أمامه إلى ناحية سبتة فسار السلطان أبو ثابت في أتباعه حتى نازل حصن علودان واقتحمه عنوة واستلحم به زهاء أربعمائة ثم نازل بلد الدمنة على شاطئ البحر فقتل الرجال وسبى النساء والذرية

وانتهب الأموال وكانوا قد تمسكوا بطاعة ابن أبي العلاء وأجازوه إلى القصر في وسط بلادهم وبالغوا في تضييفه وإكرامه ودخلوا معه القصر وأصيلا ونهبوا كثيرا من مال أهلها ثم ارتحل السلطان أبو ثابت إلى طنجة فدخلها فاتح سنة ثمان وسبعمائة وتحصن ابن أبي العلاء بسبتة مع أوليائه من ابن الأحمر وسرح السلطان أبو ثابت عسكره فتفرقت في نواحي سبتة بالغارات واكتساح الأموال بناء مدينة تطوان ثم أمر السلطان باختطاط مدينة تطاوين لنزول عسكره وللأخذ بمخنق سبتة هكذا عند ابن أبي زرع وابن خلدون واعلم أن تطاوين هذه هي تطاوين القديمة وقد تقدم لنا أن قصبتها بنيت في سنة خمس وثمانين وستمائة وذلك لأول دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثم بنى السلطان أبو ثابت هذه المدينة عليها في هذا التاريخ الذي هو فاتح سنة ثمان وسبعمائة وكان بناؤها خفيفا شبه القرية عدا قصبتها فإن بناءها كان محكما وثيقا واستمرت هذه المدينة عامرة إلى صدر المائة التاسعة فخربت ثم جدد بناؤها بعد نحو تسعين سنة حسبا يأتي الخبر عن ذلك مستوفى إن شاء الله تعالى قالوا ووين وهي كناية عن المخاطب نحو يا فلان وما أشبه ذلك قالوا والسبب في تسميتها بذلك أنهم في وقت اختطاطهم لها كانوا يضعون الحرس على تطاوين أي يا فلان افتح عينك لأن عادة الحارس أن يقول ذلك فصار هذا بعضهم تيط معناها العين ووين معناها المقلة ومعنى مجموع الكلمتين مقلة العين والإضافة مقولبة كما هي في لسان بعض الأمم العجمية فإنه لا مستند له والله تعالى أعلم

ولما شرع السلطان أبو ثابت في بناء مدينة تطاون أوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبي الصبر إلى ابن الأحمر صاحب سبتة في شأن النزول له عن البلد وأقام هو بقصبة طنجة ينتظر الجواب بماذا يكون وفي أثناء ذلك مرض مرض موته وتوفي يوم الأحد الثامن من شهر صفر سنة ثمان وسبعمائة ودفن بظاهر طنجة ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن بانه بشالة فوروري هناك رحمة الله عليه وعليهم بالخبر عن دولة السلطان أبي الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمة الله لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالأمر عمه علي بن يوسف المعروف بابن زريقاء وهي أمه وعلى هذا هو الذي قتل شيوخ المصامدة بكتاب ابن الملياني كما تقدم وخلص الملا من بني مريين أهل الحل والعقد إلى ابن أبي الربيع لمذكور أخي أبي ثابت فبايعوه واستتب أمره فتقبض على عمه علي بن زريقاء وسجنه بطنجة فبقي مسجوناً بها إلى أن هلك

سنة عشر وسبعمئة وبث السلطان أبو الربيع العطاء في الناس وأجزل الصلات فأرضى الخاصة والعامة وصفا له الأمر ثم ارتحل نحو فاس واستدعى من كان بمحلة تطاوين من الجند فأقبلوا إليه وأرضاهم بالمال كذلك ولما فصل من طنجة تبعه عثمان بن أبي العلاء من سبته في جيش كثيف ليضرب في محلته ليلا فنذر به عسكر السلطان أبي الربيع فأسهر ليلتهم وباتوا على صهوات خيولهم فوافاهم عثمان بساحة علودان وهم على ذلك فتأخرهم الحرب فهزموه وتقبض على ولده وكثير من عسكره وقتل آخرون وكان للسلطان أبي الربيع الظهور الذي لا كفاء له ووصل أبو يحيى بن أبي الصبر من الأندلس وقد أحكم عقدة الصلح مع ابن الأحمر صاحب غرناطة

ولما رأى عثمان بن أبي العلاء ذلك سقط في يده أبيس من المغرب فغير البحر فيمن معه من القرابة إلى الأندلس وولي مشيخة الغزاة بها فكانت له في جهاد اليد البيضاء وعلأ أمره بالأندلس وزاحم بني الأحمر ملوكها في رياستهم وجبايتهم حتى كاد يستولي على المر من أيديهم وشرقوا بدائه ومارسهم ومارسوه مدة طويلة وعدلوا في أمره إلى المصانعة والمجاملة في أخبار ليس جليها من غرضنا إلى أن توفي لكانا نذكر من ذلك أنموذجا يستدل به الواقف عليه على ما وراءه فنقول لما توفي **عثمان بن أبي العلاء** رحمه الله كتب على قبره ما صورته هذا قبر شيخ الحماة وصدر الأبطال والكمأة واحد الجلالة ليث الإقدام والبسالة علم الأعلام حامي دمار الإسلام صاحب الكتائب المنصورة والأفعال المشهورة والمغازي المسطورة وإمام الصوف القاتم بباب الجنة تحت ظلال السيوف سيف الجهاد وقاصم الأعداء وأسد الأساد العالي الهمم الثابت القدم الهمام الماجد الأرضى البطل الباسل الأمضى المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير الأصيل الشهير المقدس المرحوم **أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق** كان عمره ثمانين وثمانين سنة أنفق ما بين راحة في سبيل الله وغدوة حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنين وثلاثين غزوة وقطع عمره مجاهدا مجتهدا في طاعة الرب محتسبا في إدارة الحرب ماضيا العزائم في جهاد الكفار مصادما بين جموعهم تندف التيار وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره في الأقطار أشهر من المثل السيار حتى توفي رحمه الله وغبار الجهاد طي أنوابه وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه فمات على ما عاش عليه وفي ملحمة الجهاد قبضه الله إليه واستأثر به سعيا مرتضى وسيفه على رأس ملك الروم منتضى مقدمة قبول وإسعاد ونتيجة جهاد وجلاد ودليلا على نيته الصالحة وتجارته الرابحة فارتجت الأندلس لبعده أتخفه الله برحمة من عنده توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة رحمه الله

وأما السلطان أبو الربيع فإنه لما سار عن طنجة دخل حضرة فاس حادي عشر ربيع الأول من سنة **ثمان وسبعمائة** فأقام بها سنة المولد الكريم وفرق الأموال واستقامت الأمور وتمهد الملك وعقد السلم مع صاحب تلمسان أبي حمو موسى بن عثمان بن يعمراسن وأقام وادعا بحضرته مجتنبيا ثمرة ملكه وكان في أيامه غلاء إلا أن الناس انفتحت لهم فيها أبواب المعاش والترف حتى تغالوا في أثمان العقار فبلغت قيمتها فوق المعتاد حتى لقد بيع كثير من النور بفاس بألف دينار من الذهب العين وتنافس الناس في البناء فاتخذوا القصور المشيدة وتأنفوا فيها بالزليج والرخام وأنواع النقوش وتناغو في لبس الحرير وركوب الفاره وأكل الطيب واقتناء لالحلي من الذهب والفضة واستبحر العمران وظهرت الزينة والأموال كلها بيد الله تعالى نكبة الفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين واستنصل بني وقاصة اليهوديين بعد ذلك كان الفقيه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان إحدى قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير وكان بيته بيت العلم والدين واتصلوا خدمة بني مريين أيام دخولهم المغرب واستيلائهم عليه وكان أبو محمد هذا من خاصة السلطان يوسف بن يعقوب وجعل بيده وضع العلامة على الرسائل وفوض إليه في حساب الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الأوامر بالقبض والبسط فيهم واستخلصه لمناجاته والإفضاء إليه بسره ولما هلك السلطان يوسف وولي بعده السلطان أبو ثابت ضاعف رتبة هذا الرجل وشفع لديه حظه ومنصبه ورفع على الأقدار قدره ثم ولي بعده أخوه أبو الربيع فسلك فيه مذهب سفة واضطلع أبو محمد بن أبي مدين بأمر دولته وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا أيام السلطان يوسف يرون أن نكبتهم كانت بسعاية أبي محمد فيهم وكان خليفة الأصغر منهم قد أفلتت من تلك النكبة كما ذكرناه

فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة هذا بداره في بعض المهن فيباشر الأمور وترقى فيها حتى اتصل بالسلطان فجعل غاية قصده السعاية بأبي محمد بن أبي مدين وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع أنه يختلي مع حرم حاشيته وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس ففسد إلى السلطان بأن أبي مدين يعرض بتهامك في ابنته وأن صدره قد وغر لذلك وأنه مترصد بالدولة ومتربص ها النوائر فتمكنت سعائته من السلطان وظن أنه صادق وكان يخشى عائلة ابن أبي مدين بما كان له من الوجاهة في النولة ومداخلة القبيل فاستعجل السلطان أبو الربيع دفع غائلته ودس إلى قائد جند الفرنج بقتله فسار إليه ولقيه بمقبرة الشيخ أبي بكر بن العربي فرصده وأتاه من خلفه فطعنه طعنة كبتة على ذقنه واحتر رأسه والقاه بين يدي السلطان أبي الربيع ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجد الرأس بين يديه فذهبت نفسه عليه وعلى مكانته من الدولة حسرة وأسفا وياظ السلطان لمكر اليهودي وأطلعته على خبئه وأرج له براءة كان بعث بها ابن أبي مدين معه إلى السلطان يتنصل فيها ويحلف على كذب ما رمي به عنده فنتبه السلطان لمكر اليهودي وعلم أنه قد خدعه وندم حيث لم ينفعه الندم وقتك لحينه بخليفة بن وقاصة وحاشيته من اليهود المتصددين للخدمة وسطا بهم سطوة الهلكة فأصبحوا مثلا للأخريين انتفاض أهل سبته على بني الأحمر ومراجعتهم طاعة بني مريين كان أهل سبته قد سئمو ملكة أهل الأندلس وتقلت عليهم ولايتهم لا سيما حين رحل عنهم عثمان بن أبي العلاء وعبر البحر بقصد الجهاد كما مر واتصل خبر ذلك بالسلطان أبي الربيع فانتبه الفرصة فيهم وعقد لثقتهم **تاشفين بن يعقوب الوطاسي** أخي وزيره عبد الرحمن بن يعقوب على عسكر ضخم من بني يعقوب الوطاسي أخي وزيره عبد الرحمن بن يعقوب على عسكر ضخم من بين مريين وسائر طبقات الجند وبعثه إلى سبته فغذ السير إليها ونزل بساحتها ولما أحس به أهل البلد تمشت رجالاتهم فيما بينهم وتنادوا

بشعار بني مريين وثأروا على من كان بسبته من حامية ابن الأحمر فأخرجوهم منها واقتحم تاشفين بن يعقوب البلد عشر صفر من سنة تسع وسبعمائة وتقبض على قائد القصة أبي زكرياء يحيى بن مليلة وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة وعلى قائد الحرب بها من القرابة عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق وطير تاشفين بالخبر إلى السلطان أبي الربيع فعم السرور وعظم الفرح واتصل ذلك بابن الأحمر فضاقت ذرعه وخشي عادية بني مريين وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة وملكوها فقلب رأيه ورأى أن يجنح إلى السلم مع السلطان أبي الربيع لشدة شوكته ولكلب الطاغية عليه في أرضه لولا أن غزاه بني مريين يكون من غربه فيبادر السلطان ابن الأحمر وهو أبو الجيوش نصر بن محمد أخو المخلوع الذي كان قبله وأوفد رسله على السلطان أبي الربيع راغبين في السلم خاطبين للولاية وتبرع بالنزول عن الجزيرة وردنة وحصونها ترغيبا للسلطان أب بالربيع في الجهاد فقبل منه ذلك وعقد له الصلح على ما أراد وخطب منه أخته فأنكحه ابن الأحمر إياها وبعث السلطان أبو الربيع إليه بالمدد للجهاد أموال أو خيولا جنائب مع ثقتهم عثمان بن عيسى البريناتي أخي وزيره إبراهيم بن عيسى واتصلت بينهما الولاية إلى أن توفي السلطان أبو الربيع رحمه الله انتفاض الوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي على السلطان أبي الربيع ومبايعته لعبد الحق بن عثمان والسبب في ذلك لما انعقد الصلح بين السلطان أبي الربيع وابن الأحمر وحصلت المصاهرة بينهما والمودة كانت رسل ابن الأحمر لا توال تنردد إلى حضرة السلطان بفاس فقدم منهم ذات يوم بعض المنهمكين في اللهو المدمنين للشرب والقصف فكشف صفحة وجهه في معاقره الخمر وتجاهر بذلك بين الناس وكان السلطان أبو الربيع قد عزل قاضي فاس أبا غالب المغيلي وولى القضاء مكانه الشيخ الفقيه أبا الحسن الزرولي المعروف بالصغير صاحب

التقييد على المدونة وكان رحمه الله قد شدد على أهل الفسوق والمنكر فسبق إليه ذات يوم هذا الأندلسي وهو سكران فأمر العدول فاستوحوه واشتموا منه رائحة الخمر وأبوا شهادتهم على ذلك فأمضى القاضي حكم الله فيه وجلده الحد فاضطرم الأندلسي غيظا وتعرض للوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي ويقال له رجو باللسان الزناتي فكشف له عن ظهره يريه أثر السياط ويغني عليه سوء هذا الفعل مع رسل الدول فضجر الوزير من ذلك وأخذته العزة بالإثم ولعله كان في قلبه شيء على القاضي فأمر وزعته بلحضار على أسوأ الحالات وعزم على البطش به

فتبادروا إليه واعتصم القاضي بالمسجد الجامع ونادى في المسلمين فتارت العامة بهم ومرج أمر الناس وقامت الفتنة على ساق واتصل الخبر بالسلطان فتلافي الأمر وأحضر أصحاب الوزير فضرب أعناقهم وشردهم بهم من خلفهم جزاء الله خيرا فأسرهما الوزير في نفسه وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد وكان من شيوخ بني مرين وأهل الشورى فيهم وداخل قائد الفرنج غنالوا المنفرد برياسة العسكر وشوكة الجند وكان لهؤلاء الفرنج بالوزير اختصاص بحيث أتروه على السلطان فدعاهم لخلع طاعة السلطان أبي الربيع وبيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الأعياص فأجابوه وبايعوا له وتم أمرهم ولما كان يوم السبت الثالث والعشرون من ربيع الآخر من سنة عشر وسبعمئة فر الوزير المذكور وقائده الفرنسي ومن شايهم على رأيهم فخرجوا إلى ظاهر البلد الجديدة وجاهروا بالخلعان وأقاموا الآلة والرسم وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون المملأ وعسكروا بالعودة القسوى من سبو ثم ساروا إلى ناحية تازا ولما استقروا برباطها أخذوا في جمع الجيوش ومكاتبة الخاصة من بني مرين والعرب يدعونهم إلى بيعه سلطانهم والمشايعة لهم على رأيهم وأوفدوا على أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان يدعونه إلى المظاهرة على أمرهم واتصل اليد والمد بالعسكر والمال فتوقف أبو حمو ولم يقدم ولم يحجم وبقي ينتظر عمادا ينجلي أمرهم واتصل خبر ذلك كله بالسلطان أبي

الربيع فنهض إليهم وقدم بني يديه يوسف بن عيسى الحشمي وعمر بن موسى الفودودي في جيش كثيف من بني مرين وسار هو في ساقهم واتصل خبر خروجه بعبد الحق بن عثمان ووزيره فانكشفوا عن تازا ولحقوا بتلمسان وكانوا يظنون أن السلطان لا يخرج إليهم وحمد أبو حمو عاقبة توفقه نصراً وبشوا من صريخه غياهم ولما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت أجاز عبد الحق بن عثمان وزيره إلى الأندلس ورجع الحسن بن علي ومن معه إلى السلطان أبي الربيع بعد أن أخذ منه الأمان وهلك رحو بن يعقوب بالأندلس لمدة قريبة ولما احتل السلطان أبو الربيع بتازا حسم الداء ومحا أثر الشقاق وأخذن في حاشية الخوارج وشيعتهم بالقتل والسبي ثم اعتل أيلما أثناء ذلك فتوفي بتازا بين العشاءين ليلة الأربعاء منسوخ جمادى الآخرة من سنة عشر وسبعمئة ودفن من ليلته تلك بصحن الأعظم من تازا رحمه الله الخبير عن دولة السلطان أبي سعيد عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله كان لهذا السلطان من أهل العلم واحلم والعفوف جوادا متواضعا متوافقا في سفك الدماء لقبه السيد بفضل الله وإمه حرة اسمها عائشة بنت الأمير أبي عطية مهلهل بن يحيى الخطي ولما هل السلطان أبو الربيع بتازا في التاريخ المتقدم تطاول للأمر عمه أبو سعيد الأصغر وهو عثمان بن السلطان يوسف وخب في ذلك ووضع وأسدى وألم فلم يحصل على شيء واجتمع الوزراء والمشايخ بالقصر بعد هداة من الليل وتفاوضوا في أمرهم حتى وقع اختيارهم على أبي سعيد الأكبر وهو عثمان ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستدعوه فحضر فبايعوه ليلتند وتم أمره وأنفذ كتبه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة وسرح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن علي بن عثمان إلى فاس فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعمئة وملك قصر الخلافة بالحضرة واحتوى على أمواله وذخيرته وفي غد ليلته أخذت

البيعة للسلطان أبي سعيد بظاهر تازا على بني مرين وسائر زناتة والعرب والعسكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدماء فقام بالأمر واستوسق له الملك وفرق الأعطيات وأسنى الجوائز وتقدف الدواوين ورفع الظلمات وحط المعارم والمكوس وسرح السجون ورفع عن أهل فاس ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية في كل سنة فصلح حال الناس في أيامه ثم ارتحل لعشرين من رجب من السنة فدخل حضرة فاس فاستقر بها وقدم عليه وفود التهنة من جميع بلاد المغرب ثم خرج في ذي القعدة على رباط الفتح لتفتد الأحوال والنظر في أمور الرعية وإنشاء الأساطيل الجهادية فعبد هنالك عبد الأضحى وبأمر الناس وأمر بإنشاء الأساطيل بدار الصناعة من سلا برسم جهاد الفرنج ثم رجع إلى فاس فعقد سنة إحدى عشرة وسبعمئة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس الجزيرة ورندة وما إليها من الحصون ثم نهض سنة ثلاث عشرة وسبعمئة إلى ناحية مراکش لما كان بها من اختلال الأحوال وخروج عدي بن هنو الهسكوري ونقضه للطاعة فنزله السلطان أبو سعيد وحاصره مدة ثم اقتحم عليه حصنه عنوة وقبض عليه وبعثه موثقا في الحديد إلى فاس فأودعه المطبق وقفل راجعا إلى حضرته فاحتل بها مؤيدا منصورا والله تعالى أعلم غزو السلطان أبي سعيد ناحية تلمسان كان بنو مرين قد حققوا على أبي حمو صاحب تلمسان من أجل توفقه في أمر عبد الحق بن عثمان ووزيره رحو بن يعقوب الوطاسي وتسهيئه الطريق لهم إلى الأندلس ومداهنته في ذلك وكان مقتضى الصلح المنعقد بينه وبين السلطان أبي الربيع أن يقبض عليهم ويبعث بهم إليه حالا ففقد بنو مرين على أبي حمو ووجدوا في أنفسهم عليه ولم أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد واستسقى ملكه ودوخ الجهات المراكشية وفرغ من شأن

المغرب اعترزم على غزو تلمسان فنهض إليها سنة أربع عشرة ولما انتهى إلى وادي ملوية قدم ابنتيه الأميرين أيا الحسن وأيا علي في عسكرين عظيمين في الجنائن وسار هو في ساقتهما فدخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية فاكتمسح نواحيها واصطلم تعمتها ثم نازل وجدة فقاتلها قتالا شديدا فامتنعت عليه ثم نهض إلى تلمسان فنزل بالمعرب من ساحتها وتحصن أبو حمو بالأسوار ونسفها نسفا ودوخ جبال بني يزناسن وأخذن فيهم وانتهى في قوله إلى وجدة ففر أخوه أبو البقاء يعيش وكان في معسكره من أجل استرابة لحقته من السلطان وسار إلى تلمسان فنزل على أبي حمو ورجع السلطان أبو سعيد على العبية فانتهى إلى تازا فأقام بها وبعث ابنه الأمير أبا علي إلى فاس فكان من خروجه عليه ما نذكره خروج الأمير أبي علي إلى أبيه السلطان أبي سعيد واسبب في ذلك كان للسلطان أبي سعيد ولدان أحدهما وهو الأكبر من أمته الحشبية وهو أبو الحسن علي بن عثمان وثانيهما وهو الأصغر من علجة من سبي الفرنج وهو أبو علي عمر بن عثمان وكان هذا الأصغر أعلق بقلب السلطان وأحبهما إليه ولما استولى على ملك المغرب رشحه لولاية العهد وهو شاب لم يطر شاربه ووضع له ألقاب الإمارة وصير معه الجلساء والخاصة والكتاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه ولم يدخر عنه شيئا من مراسم الرياسة والملك وعقد على وزارته لإبراهيم بن عيسى اليرباني من كبار الدولة ووجهها وككان أخوه الأكبر أبو الحسن شديد البرور بأبيه فما رأى إقبال أبيه على أخيه علي انحاش هو أيضا إليه وصار في جملة وخط نفسه بحاشيته طاعة لأبيه ومسارة في هواه واستمرت حال الأمير أبي علي على هذا وخاطبه ملوك النواحي وخاطبهم وهانوه وهاداهم وعقد الرايات وأثبت في الديوان ومحا وزاده في العطاء ونقص وكاد يستبد بالأمر كله

ولما قفل السلطان أبو سعيد من تلمسان أواخر سنة أربع عشرة وسبعمئة أقام بتازا وبعث ولديه إلى فاس فلما استقر الأمير أبو علي بها حدثته نفسه بالقيام على أبيه وخلص طاعته فراوده المداخلون له على التريص حتى يمكر بأبيه ويقبض عليه باليد فابى واستعجل الأمر وركب الخلاف وجاهر بالخلعان ودعا لنفسه فأطاعه الناس ولم يتوقفوا عنه لما كان أبوه جعله إليه من أمرهم وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو أبيه فبرز السلطان أبو سعيد من تازا في عسكره يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم بدا للأمير أب يعلي في وزيره إبراهيم بن عيسى وعزم على القبض عليه لأنه بلغه أنه يكاتب أباه فيعتد للقبض عليه عمر بن خلف الفودودي وتظن الوزير لما أراده من المكر به فقبض هو على الفودودي ونزع إلى السلطان أبي سعيد فقبله ورضي عنه وكان الأمير أبو الحسن قد لحق بأبيه قبل ذلك نازعا عن جملة أخيه فقوي جناح السلطان بهما وارتحل إلى لقاء ابنه أبي علي ولما تراءى الجمعان بالمقرمة ما بين فاس وتازا اختل مصاف السلطان وانهزم جريحا إلى تازا فقتله ابنه أبو علي وحاصره بها ويقال إن أبا الحسن إنما لحق بأبيه بعد المحنة ثم سعى الخواص بين السلطان وابنه أبي علي بالصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقصر على تازا وجهاتها فقط فرضي السلطان بذلك وشهد المملأ من مشيخة العرب وزناتة وأهل الأمصار واستحکم العقد بينهما وانكفأ الأمير أبو علي راجعا إلى حضرة فاس مملكا على المغرب وتوافقت إليه بيعات الأمصار وفودهم واستوسق أمره ثم تدارك الله السلطان أبا سعيد بلطفه ورد عليه من حقه من حيث لا يحتسب وذلك أن الأمير أبا علي اعتل عقب وصوله إلى فاس واشتد وجعه حتى أشرف على الهلاك وخشي الناس على أنفسهم اختلال الأمر بموته فسيابوا إلى والده السلطان أبي سعيد بتازا ولحق به سائر خواص الدولة وحملوه على تلافي الأمر وانتهاز الفرصة فنهض من تازا واجتمع إليه كافة بني مرين والجند وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصرا له وابتنى دارا لسكناه وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد

وتفويض الأمر ولما تدين للأمير أبي علي اختلاف أمره بعث إلى أبيه في الصلح على أن يعوض سحلماسة وما والاها فأجيب إلى ذلك وفي له السلطان بما اشترط وارتحل إلى سحلماسة سنة خمس عشرة وسبعمائة فأقام بها دولة فخيمة واستولى عللا بلاد القبلة ودون الدواوين واستلحق واسترك واستخدم طواعن العرب من بني معقل وافتتح معقل الصحره وقصور توات وتكرارين وتامنطيت وغير ذلك وأما السلطان أبو سعيد فإنه دخل إلى فاس الجديد ونزل بقصره وأصلح شؤون ملكه وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره وفوض إليه شؤون ملكه وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره وفوض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لأخيه ووفدت عليه بيعات الأمصار بالمغرب ورجعوا إلى طاعته وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد ببناء الباب أمام القنطرة من الجزيرة الخضراء ثم بعد ذلك أدار الستارة بالمدينة المذكورة وفيها سار إلى مراكش فأقام أياما حتى أصلح شؤونها وعاد إلى الحضرة وفي سنة ثمان عشرة وسبعمائة نكب السلطان أبو سعيد كتابه منديل بن محمد الكناني وكان السبب في ذلك أنه لما ثار الأمير أبو علي على أبيه وخلعه انحاش إليه منديل هذا ثم لما اختل أمر أبي علي عاد منديل إلى السلطان أبي سعيد وترتب في منزلته التي كان عليها قبل وكان الأمير أبو الحسن يقصد عليه لأجل انحياشه إلى أخيه لما كان بينهما من المنافسة وكان هو كثيرا ما يوغر صدر أبي الحسن بإيجاب حق أخيه عليه وامتهانه في خدمته فطوى له أبو الحسن على البث حتى إذا فصل أبو علي إلى سحلماسة وانفرد أبو الحسن بمجلس أبيه وخلاله وجهه أحكم السعاية في منديل عند أبيه وكان منديل كثيرا ما يغضب السلطان في المحاوررة والخطاب دالة عليه وكبرا فاعتد السلطان عليه بشيء من ذلك مع ما كان ابنه أبو الحسن يغريه به فسخطه سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأذن لابنه أبي الحسن في نكبه فاعتقله واستصفي أمواله وطوى ديوانه وامتحنه أياما ثم قتله بمحبسه

خفقا وقيل جوعا وذهب في الداهيين وأبوه أبو عبد الله محمد الكناني هو الذي بعثه السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى المستنصر الحفصي عند فتح مراكش وعاد إليه منه بالهدية صحبة وفد أهل تونس وتلطف أبو عبد الله الكناني حتى ذكر المستنصر في الخطبة على منبر مراكش وفرح الوفد بذلك حسبا تقدم الخبر عنه مستوفى ونشأ ابنه منديل هذا ظل الدولة المرينية فكان من أمره ما قصصناه عليك وفاة أهل الأندلس على السلطان أبي سعيد واستصراخهم إياه على الطاغية وما نشأ عن ذلك كان الملوك من بني مرين قد انقطع غزوه من الأندلس برهة من الدهر منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لاشتغاله في آخر أمره بحصار تلمسان واشتغال حفته من بعده بأمر المغرب مع قصر مدتهم فقتلوا العدو وراء البحر على المسلمين بسبب هذه الفترة واشتد كلبه كلبه على ثغورها مع أن القرابة من بني مرين كانوا شجي في صدره وقذى في عينيه في تلك البلاد حسبا ألمعنا إليه غير مرة ولما أفضى الأمر السلطان أبي سعيد اشتغل في صدر دولته بأمر ابنه علي وخروجه عليه فاهتبل الطاغية الغرة في الندلس وزحف في جموعه إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة وكان من خبر هذه الواقعة أن الطاغية بطرة بن سانجة ويقال دون بطرة وقد نبهنا على لفظه دون فيما سبق ذهب إلى طليطلة ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا وسجد له وتضرع بين يديه وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بأرض الأندلس وأكد عزمه وتأهب لذلك غاية الأبهة فوصلت أثقاله ومجانيقه وآلات الحصار والأقوات في المراكب وتقدم في جموعه حتى نزل بأحواز غرناطة وكان رديفه في ذلك الجند علجا آخر يقال له جوان وانضم إليهم ملوك آخرون من ملوك الأطراف قيل سبعة وقيل أكثر وامتلأت الأرض بهم وعزموا على استئصال بقية المسلمين بالأندلس وكان جيشهم فيما قيل يشتمل على خمسة وثلاثين ألفا من الفرسان وعلى نحو مائة ألف من الرجالة المقاتلة

ولما رأى أهل الأندلس ذلك بعثوا إلى السلطان أبي سعيد فقدم عليه وهدم بحضرته من فاس وفيهم من وجوه الأندلس وصلحائها الشيخ أبو عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي والشيخ أبو إسحاق بن أبي العاص وغيرهم فاعتذر إليهم السلطان أبو سعيد بمكان عثمان بن أبي العلاء من دولتهم ومحلته من دار ملكهم وكان عثمان بن أبي العلاء يتولى يومئذ مشيخة الغزاة بالأندلس لأن وفاته تأخرت إلى سنة ثلاثين وسبعمائة حسبا مر فشرط عليهم السلطان أبو سعيد أن يمكنه منه لئلا يله العيون إلى تلك البلاد وجهاد العدو بها من غير من غير تشويش وقال دفعوه البنا يرمته حتى يتم أمر الجهاد ثم نرده عليكم حياطة على المسلمين وخشية من تقربكم فاستصعب أهل الأندلس هذا الشرط لما يعلمونه من صرامة عثمان بن أبي العلاء وإدلاله بنأسه وبأس عشرته فأخفق سعيهم ورجعوا منكسرين وأطالت الفرنج المقام على غرناطة وطعموا في التهامها ثم إن الله تعالى نفس عن مخفهم ودافع بقدرته عنهم وهباً لعثمان بن أبي العلاء في الفرنج واقعة كانت من أغرب الوقائع وذلك أنه لما كان يوم المهرحان وهو الخاص من جمادى الأولى من سنة تسع عشرة وسبعمائة عمد عثمان بن أبي العلاء إلى جماعة حنده واختار من أنجلد بني مرين منهم نحو المائتين وقيل أكثر وتقدم بهم نحو جيش الفرنج فظن النصراني أنهم إنما خرجوا لأمر غير القتال من مفوضة أو إبلاغ رسالة أو نحو ذلك حتى غدا سامتوا موقف الطاغية ورديفه جوان صمموا نوهما حتى خالطوهما في مراكزهما فصرعوهما في جملة م الحاشية وانهم ذلك الجمع من حينه وولوا الأنبار واعترضهم من ورائهم مسارب الماء للشرب على نهر شنبل فطارحوا فيها وهلك أكثرهم واكتسحت أموالهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الأسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطاراً ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبا كتب بذلك بعض الغرناطيين إلى الديار المصرية وكان من حملة الأسارى امرأة الطاغية وأولاده

فدخلت في نفسها مدينة طريف وحل الفتح وثمانية عشر حصنا فيما حكى بعض المؤرخين فلم يقبل المسلمون ذلك قلت هذا خطأ في الرأي وضعف في السياسة قالوا وزادت عدة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفاً ويقال إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق وأما الذين هلكوا بالحبال والشعب فلا يحصون وقتل الملوك السبعة جميعهم وقيل خمسة وعشرون واستمر البيع في الأسرى والسبي والدواب سنة أشهر ووردت الشائير بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين سوى ثلاثة عشر نفساً وقيل عشرة أنفس وسلخ وطلبت النصراني الهدنة فعدت لهم والله تعالى أعلم انتقض الأمير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد وما نشأ عن ذلك لما كانت سنة عشرين وسبعمائة انتقض الأمير أب علي صاحب سحلماسة والصحراء على ابنه السلطان أبي سعيد وتغلب على درعة وسما إلى طلب مراكش فعقد السلطان أبو سعيد على حربه لأخيه الأمير أبي الحسن واغراه إياه ثم نهض على أثره فاحتل بمراكش وثقف أطرافها وحسم عليها وعقد عليها لكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم وقفل إلى الحضرة ثم لما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة نهض الأمير أبو علي في جموعه من سحلماسة وأغذ السير إلى مراكش فاقتحمها بعساكره قبل أن يجتمع لكندوز أمره وتقبض عليه وضرب عنقه ورفع على القناة وملك مراكش وسائر ضواحيها وبلغ الخبر إلى السلطان أبي سعيد فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد وأزاح العلال واستوفى الأعطيات وقدم بين يديه ابنه الأمير أبا الحسن

ولي عهده وجاء هو على ساقته وساروا على هذه التعبية ولما انتهوا إلى وادي ملوية اتصل بهم الخبر أن أبا علي يريد أن يبيتهم فأسهروا ليلتهم وباتوا على ظهور خيلهم وبعد مضي جزء من الليل طرقهم أبو علي في جموعه فكانت الديرة عليه وفل عسكره وارتحلوا من الغد في أثره وكان قد سلك جبل درن فاقتربت جنوده في أوعاره ولحقهم من المشاق ما يفوت الوصف حتى ترجل الأمير أبو علي عن فرسه وسعى على قدميه وخلص من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ولحق بسحلماسة ومهد السلطان أبو سعيد نواحي مراكش وعقد عليها لموسى بنعلي الهنتاني فعظم غناؤه في ذلك واضطاعه وامتدت أيام ولايته وارتحل السلطان إلى سحلماسة فدافعه الأمير أبو علي بالخضوع ورغب إليه في الصفح والرضا والعود إلى السلم فأجاباه السلطان إلى ذلك لما كان قد شغفه من حبه فقد كان يؤثر عنه من ذلك غرائب ورجع إلى الحضرة وأقام الأمير أبو علي بمكانه ومن مملكة القبلة إلى أن هلك السلطان أبو سعيد وتلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن كما نذكره إن شاء الله بناء مدارس العلم بحضرة فاس حرسها الله قد تقدم لنا أن السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله كان بنى مدرسته التي بفاس مما سبق التنبيه عليه ووقف عليها كتب العلم التبت بعث بها إليه الطاغية سانجة عند عقد الصلح معه ووقف عليها غير ذلك وافق في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده فاستكثروا من بناء

المدارس العلمية والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة وأجروا على الطلبة بها الجرايات الكافية فأمسكوا بسبب ذلك من رمق العلم وأحبوا مراسمهم وأخذوا بضيقه جزاهم الله عن نيتهم الصالحة خيرا ولما كانت سنة عشرين وسبعمئة أمر السلطان أبو سعيد رحمه الله ببناء المدرسة التي بفاس الجديد فبنيت آتقن بناء وأحسنه ورتب فيها الطلبة لقرأة

القرآن والفقهاء لتدريس العلم وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر وحبس عليها الرباع والضياع ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده وفي سنة إحدى وعشرين بعدها بنى ولي عهده الأمير أبو الحسن المدرسة التي ببغري جامع الأندلس من حضرة فاس فجاءت على أكمل الهيئات وأعجبها وبنى حولها سقاية ودار الوضوء وفندقا لسكنى طلبة العلم وجلب الماء إلى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس وأنفق على ذلك أمالا جليلة تزيد عن مائة ألف دينار وشحنها بطلبة العلم وقرأ القرآن وحبس عليها رباعا كثيرة ورتب فيها الفقهاء للتدريس وأجرى عليهم الإنفاق والكسوة نفعه الله بقصده وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة في فاتح شعبان منها أمر السلطان أبو سعيد أيضا ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين فبنت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست وشرع في بنائها بمحضرة فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها وأجرى بها ماء معيناً من بعض العيون هنالك وشحنها بالطلبة ورتب فيها إماما ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية واشترى عدة أملاك ووقفها عليها احتساباً بالله تعالى وسبأه التنبيه على ما بناه ابنه أبو الحسن من ذلك أيام ولايته وحافده أبو عنان وغيرهما إن شاء الله وبالجملة فقد كان لبني مريين جنوح إلى الخير ومحبة في العلم وأهله تشهد بذلك آثارهم الباقية إلى الآن فمدارسهم العلمية وغيرها وفي مثل ذلك يحسن أن ينشد هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسنين البنين إن

البناء غدا تعظم شأنه اضحى يدل على عظيم الشأن

أخبار بني العزفي أصحاب سبته فقد تقدم لنا أن الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر صاحب مائة كان قد غدر بأهل سبته وقبض على رؤسائها من بني العزفي وغيرهم إلى غرناطة سنة خمس وسبعمئة فاستقروا هنالك في إيالة السلطان ابن الأحمر المعروف بالمخلوع مدة ولما استولى السلطان أبو الربيع المريني على سبته ونفى بني الأحمر عنها استأذنه بنو العزفي في الرجوع إلى المغرب والقدوم عليه فأذن لهم واستقروا بفاس وكان أبو زكرياء يحيى وأبو زيد عبد الرحمن ابنا أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أبي العباس أحمد العزفي من سرواتهم وأهل المروعة والدين فيهم وكانوا يغشون مجالس العلم بمسجد القرويين من فاس لما كانوا عليه من انتحاله وكان السلطان أبو سعيد أيام ولايته بني أبيه من قبله يحضر مجلس الشيخ الفقيه أب بالحسن الصغير وكان أبو زكرياء يحيى بن أبي طالب يلازمه ويتودد إليه فاتصل به وصارت له بذلك وسيلة عنده فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد رعى لبني العزفي تلك الوسيلة فأنعم عليهم وعق لأبي زكرياء منهم على سبته ووردهم إلى موطن سلفهم ومقر رياستهم فقدموها سنة عشر وسبعمئة وأقاموا فيها دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته ولما فوض السلطان أبو سعيد إلى ابنه علي الأمر وجعل له الإبرام والنقض عقد أبو علي سبته لأبي زكرياء حيون بن أبي العلاء القرشي وعزل أبا زكرياء يحيى بن أبي طالب منها واستقدمه إلى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه أبو حاتم واستقروا في جملة السلطان وهلك أبو طالب بفاس أثناء تلك المدة ثم كان من خروج الأمير أبي علي على أبيه وانتاضه عليه ما قدمناه فلحق أبو زكرياء بن أبي طالب وأخوه أبو زيد بالسلطان أبي

سعيد نازعين إليه ومفارقين لابنه الثالث عليه واستمروا في جملة إلى أن مرض الأمير أبو علي وزحف أبوه إليه وحاصره بفاس حسبا مر فحينئذ عقد السلطان أبو سعيد لأبي زكرياء على سبته ثانياً وبعثه إليها ليقبم دعوته في تلك الجهات وترك ابنه محمد بن أبي زكرياء تحت يده رهنا على الطاعة فاستقل أبو زكرياء بلمارتها وأقام دعوة السلطان أبي سعيد بها واتصل ذلك منه نحو سنتين ثم هلك عمه أبو حاتم بسبته سنة ست عشرة وسبعمئة وانتقض أبو زكرياء بن أبي طالب على السلطان أبي سعيد ورجع إلى حال سلفه من الاستبداد وإقامة الشورى بالبلد واستقدم من الأندلس عبد الحق بن عثمان الذي كان خرج على السلطان أبي الربيع مع الوزير عبد الرحمن الوطاسي فقدم عليه وعقد له على الحرب ليفرق به كلمة بني مريين بالمغرب ويوهن بأسهم فتخف عليه وطأتهم واتصل ذلك كله بالسلطان أبي سعيد فقام وقعد وجهز إلى سبته العساكر من بني مريين وعقد على حربها للوزير إبراهيم بن عيسى اليربوني فزحف إليها وحاصرها فاعتذر إليه أبو زكرياء بحبس ابنه عنه ومفارقته له وأنه إذا رجع إليه ابنه بدل الطاعة وراجع الدعوة فأعلم الوزير السلطان بذلك فبعث إليه بالولد ليسلمه إلى أبيه بعد أن يقتضي منه موجبات الطاعة وأسبابها وجاء الخبر إلى أبي زكرياء بأن ابنه قد قدم وأنه كائن بفسطاط الوزير بساحل البحر بحيث تتأتى الفرصة في أخذه فبعث أبو زكرياء إلى عبد الحق بن عثمان قائد الحرب وأعلمه بمكان ابنه فوطأه عبد الحق على انتزاعه منهم ثم هجم ليلاً في جماعة من حاشيته على فسطاط الوزير فاحتمل الولد وأصبح به عند أبيه وسمع أهل عسكر الوزير بالهيلة فركبوا وتبعوا الأثر فلم يبقوا على خبر وتفقد الوزير الولد الذي كان عنده فلم يجده واتهم الجيش الوزير بأنه مالا شيعاً أبيه على أخذه وإلا فلا يقدم أحد هذا الإقدام بدون مداخلته من بعض الجيش فتقبضوا على الوزير لعلمه ببراءته ونصحته ثم رغب أبو زكرياء بعدها في رضا السلطان وطاعته وولايته فنهض

السلطان أبو سعيد رحمه الله سنة ست عشرة إلى طنجة لاختبار طاعة أبي زكرياء فبان له صدقه وعقد له على سبته واشترط هو على نفسه حمل الجباية إلى السلطان وإسناة الهدية في كل سنة واستمر الحال على ذلك إلى أن هلك أبو زكرياء سنة عشرين وسبعمئة وقام بالأمر بعده ابنه محمد بن أبي زكرياء إلى نظر ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ قريبتهم وكان قائد الأساطيل بسبته ولي النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الرنداحي إلى الأندلس وتغلب محمد بن علي هذا بسبته واختلفت كلمة الغوغاء واضطرب الأمر على بني العزفي بها فانتبه السلطان أبو سعيد الفرصة فيها وأجمع النهوض إليها سنة ثمان وعشرين وسبعمئة ونزل عليها فبادر أهل سبته بإيتاء طاعتهم وعجز محمد بن أبي زكرياء عن المناهضة وظنها محمد بن علي من نفسه فتعرض للأمر في أوغاد من لفيفها واجتمعوا إليه فدافعهم الملامن أهل سبته عن ذلك وحملوهم على الطاعة واقتادوا بني العزفي إلى السلطان أبي سعيد فانقادوا إليه واحتل السلطان بقصبة سبته وثقف جهاتها ورم مثلما واصلح خلخالها واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه في أعمالها فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدراتي على حاميتهما وعقد لأبي القاسم بن أبي مدين العثماني على جبايتها والنظر في بنائها سنة تسع وعشرين وسبعمئة وانكفأ راجعا إلى حضرته وقد ذكر ابن الخطيب في كتاب الإكليل محمد بن أبي زكرياء هذا فقال فيه ما صورته فرع تأود من الرياسة في دوحه وتردد بين غدوة في المدج وروحة نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله والدهر يبسر أمه الأفضى ويسهله حتى اتسقت أسباب سعده وانتهت إليه رياسته سلفه من بعده فألقت إليه رحالها وحطت وتمتعته بقرينها بعد ما شطت ثم كبح له الدهر بعد ما تبسم وعاد زرعاً نسيمة الذي كان تنسم وعاق هلاله عن تمه ما كان من تغلب ابن عمه واستقر بهذ البلاد نازح الدار بحكم الأقدار وإن كان نبيه

المكانة

والمقدار وجرت عليه جرابية واسعة ورعاية متتابعة إلى آخر كلامه ويعني بقوله هذه البلاد بلاد الأندلس والله أعلم المصاهرة بين السلطان أبي سعيد في ابنه أبي الحسن وبين أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي والسبب في ذلك كان أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن حب تلمسان قد ضايق بني أبي حفص أصحاب تونس وإفريقية في بلادهم واستولى على كثير من ثغورهم وردد البعوث والسرايا إلى أطراف ممالكهم وفي سنة تسع وعشرين وسبعمئة جهز أبو تاشفين إليهم جيشاً كثيفاً وعقد عليه ليحيى بن موسى من صنائع دولته ونصب مع ذلك لملك تونس وإفريقية بعض أعقاب الحفصيين وهو محمد بن أبي عمران كان لجأ إليه في بعض الفتن التي كانت له مع بني عمه وتقدم هذا الجيش إلى أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي فهزمه واقتحموا مدينة تونس فاستولوا عليها ونصبوا لملكها والولاية عليها محمد بن أبي عمران المذكور ليس له من الملك إلا الاسم والأمر كله بيد يحيى بن موسى قائد الجيش وخلص السلطان أبو بكر بن أبي زكرياء الحفصي إلى بونة جريحا مطرودا عن كرسي ملكه ودار عزه فعزم حينئذ على الوفاة على السلطان أبي سعيد المريني ليأخذ له حقه من آل يغمراسن المتغلبين عليه وأراد مع ذلك

تجديد الوصلة لتي منانت لسلفه مع بني مريين فأشار عليه حاجبه محمد بن سيد الناس بإنفاذ ابنه الأمير أبي زكرياء صاحب الثغر استنكافا له عن مثلها فقبل إشارته وأركب ابنه المذكور البحر وبعث معه وزيره أبا محمد عبد الله بن تافراجين نافضا أمامه طرق المقاصد والمحاورات ونزلوا بمرسى غساسنة من ساحل المغرب وقدموا على السلطان أبي سعيد بحضرته فابلغوه رسالة أبي بكر الحفصي فاهتز لذلك هو وابنه الأمير أبو الحسن وقال لو فد الحفصيين والله لأبذلن في مظاهر تكم مالي وقومي ونفسي ولأسيرن بعساكري إلى تلمسان فأنزلها وكان فيما شرط عليهم السلطان أبو سعيد مسير أبي بكر الحفصي بعساكره إلى منازل تلمسان مع فقيلوا وانصرفوا إلى منازلهم مسرورين ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين وسبعمئة ولما انتهى إلى وادي ملوية وعسكر بصبره جاءه الخبر اليقين يعود أبي بكر الحفصي إلى تونس وجلوسه على كرسيه بها فاستدعى السلطان أبو سعيد ابنه أبا زكرياء ووزيره أبا محمد بن تافراجين وأعلمهما الخبر وأسنى جوانزمهم وأمرهم بالانصراف إلى صاحبهم فركبوا أساطيلهم من غساسنة وبعث معهم إبراهيم بن أبي حاتم العزفي والقاضي بحضرته أبا عبد الله بن عبد الرزاق يخطبون بنت السلطان أبي بكر الحفصي لابنه الأمير أبي الحسن فوصلوا إلى الحفصي وأدوا الرسالة وانعقد الصهر بينهم في ابنته **فاطمة شقيقة الأمير أبي زكرياء** وزفها إليهم في أساطيله مع مشيخة الموحدين وكبيرهم أبي القاسم بن عتو فوصلوا إلى مرسى غساسنة سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة فقام بنو مريين لها على أقدم البر والكرامة وبعثوا بالظهر إلى غساسنة لركوبها وحمل أثقالها وصيغ حكومات الذهب والفضة ومدت ولايا الحرير المغشاة بالذهب واحتفل السلطان أبو سعيد رحمه الله لوفدها وأعراسها بما لم يسمع بمثله في دولتهم وتحدثت الناس به دهرا وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلا كما نذكرها **وفاة السلطان أبي سعيد بن يعقوب** رحمه الله كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما بلغه الخبر بوصول العروس فاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة ارتحل بنفسه إلى تازا ليشرف أحوالها كرامة لها ولأبيها وسرورا بعرض ابنه فاعتل هنالك ازداد مرضه حتى إذا أشفا على الهلكة ارتحل به ولي العهد لأبى الحسن إلى الحضرة وحمله في فراشه على أكتاد الحاشية والجند

حتى نزل بواد سبو ثم أدخله كذلك ليلا إلى قصره فأدركنه المنية في طريقه فتوفي ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة وكان مرضه بعلة النقرس فوضعه بمكانه من بيته واستدعى ابنه أبو الحسن الصالحين لمواراته فدفن ببعض قبائه رحمه الله وكانت أيامه أعيادا ومواسم ومن أكابر كتابه الرئيس أبو محمد عبد المهيم الحضرمي السبتي **الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله أبي الحسن علي ابن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله** هذا السلطان هو أفخم ملوك بني مريين دولة وأضخمهم ملكا وأبعدهم صيتا وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثارا بالمغربيين والأندلس ويعرف عند العامة بالسلطان الأكلل لأنه كانت حبشية فكان أسمر اللون والعامة تسمي الأسمر والأسود أكحل وإنما الأكلل في لسان العرب أكحل العينين فقط وكان أخوه أبو علي للملوكة من سبي النصراري فكان أبيض وانضاف لذلك أن كان أبو الحسن ملكا على الحضرة وأبو علي ملكا على بلاد القبلة فكانا أخوين ملكين في عصر واحد أحدهما أسمر والآخر أبيض فعرف هذا بالأكلل والآخر بالأبيض للقبلة ولما هلك السلطان أبو سعيد رحمه الله اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة على ولي عهده أبي الحسن المذكور وعقدوا له على أنفسهم وأتوه طاعتهم فأمر للحين بنقل معسكره من ناحية سبو إلى الزيتون من ناحية فاس ولما فرغ من دفن أبيه خرج إلى معسكره بالمحل المذكور واجتمع الناس إليه على طبقاتهم لأداء البيعة بفسطاطة **وتولى أخذ السبعة له يومئذ على الناس الشيخ أبو محمد عبد الله بن قاسم المزوار والمزوار في لسان**

زنانة معناه الرئيس وكان هذا الرجل رئيس الوزعة والمتصرفين وحاجب الباب السلطاني قديم الولاية في ذلك منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب ثم زفت على السلطان أبي الحسن زوجته الحفصية فبنى بها بمكانه من المعسكر المذكور وأجمع رأيه على الانتقام لأبيها من عدوه أبي تاشفين الزياني على ما نذكره حدوث الفتنة بين الأخوين أبي الحسن وأبي علي ثم مقتل أبي علي والسبب في ذلك كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما عهد بالأمر لابنه أبي الحسن وتحقق مصيره إليه كثيرا ما يستوصيه بأخيه أبي علي لكفاه به وشفقتة عليه فلما خلاص الأمر إلى أبي الحسن وكان موثرا رضا أبيه جهده اعتزم على الحركة إلى سجماسة لمشاركة أحوال أخيه واختيار أمره وما هو عليه من سلم أو حرب ليعمل على مقتضى ذلك فارتحل من معسكره بالزيتون قاصدا سجماسة فتلقته وفود أخيه أبي علي أثناء الطريق مؤديا حقه وموجبا مبرته ومهنئا له بما أتاه الله من الملك ويعمله مع ذلك بأنه متجاف عن المنازعة له قانع من تراث أبيه بما في يده طالب منه أن يعقد له بذلك فاجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل وعقد له على سجماسة وما والاها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيه وأشهد على ذلك الملا من بني مريين وسائر زناتة والعرب وانكأ السلطان أبو الحسن راجعا إلى تلمسان عازما على الانتقام من أبي تاشفين الزياني فسار حتى انتهى إلى تلمسان ثم تجوزها إلى جهة الشرق حتى نزل بتاسالت منتظرا لاقوم صهره السلطان أبي بكر الحفصي عليه وفاء بالعهد الذي كان انعقد له مع السلطان أبي سعيد أيام وفادة ابنه أبي زكرياء عليه من أنهما يكونان يا واحدة على حصار تلمسان حتى يحكم الله بينهما وبين صاحبها فعسكر أبو الحسن بتاسالت ثم بعث بحصنة من جنده في البحر إلى صهره الحفصي مددا له وهو يومئذ بجاية يقاتل جيش بن زيان عليها ولم اتصل الخبر بأبي تاشفين صاحب تلمسان فكر في أمر أبي الحسن وأعمل الحيلة بأن دس على أخيه الأمير أبي علي صاحب سجماسة في اتصال اليد به والاتفاق معه على أخيه أبي الحسن وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه ويشغله عنه حتى يتمكنا منه ووعده أبو تاشفين ومناه ولم يزل به حتى انتقض على أخيه ونهض من سجماسة إلى درعة فقتل عاملها وولى عليها عاملا من قبيلة ثم سحر العساكر إلى جهة مراکش وأجلب عليها بخيله ورجله واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن وهو بمعسكره من تاسالت ينتظر قدوم الحفصي عليه فانكأ راجعا إلى الحضرة مجمعا الانتقام مناخيه ولما انتهى في طريقه إلى حصن تاوريرت شحنه بالعسكر وعقد عليه لابنه تاشفين بن أبي الحسن ووقف أمره على نظر منديل بن حمامة شيخ بني تيربعين ثم أعذ السير إلى سجماسة فزل عليها وأخذ بمخفها وحشر الفعلة والصناع لصنع الآلات والبناء بساحتها وأقام عليها يغادها بالقتال ويرأوحها حولا كاملا ونهض أبو تاشفين في عساكره من تلمسان يريد الغارة على أطراف المغرب كي يشغل أبا الحسن عن أیه بذلك فانتهى إلى تاوريرت فبرز عليه تاشفين بنابي الحسن في عساكره مريين فهزموه وردوه على عقبه إلى تلمسان ثم بعث بحصنة من جنده مددا للأمير أبي علي ففسرخوا إلى سجماسة جماعات وأفذاذا حتى تكاملوا لديه فلم يغنوا شيئا وطاولهم السلطان أبو الحسن الحصار أنزل بهم أنواع النكال حتى اقتحم البلد عنوة تاسع عشر محرم من سنة أربع وثلاثين وسبعمئة وتقبض على الأمير أبي علي عند باب قصره وجيء به إلى أخيه أبي الحسن وقد خامره الجزع فلما مثل بين يديه تضرع إليه وقيل حافر فرسه فأمر أبو الحسن بتقيفه وحمله على بغل إلى فاس وانكأ هو راجعا إلى الحضرة فلما دخلها اعتقل أخاه ببعض حجر القصر أشهرها ثم قتله فصدأ وخنقا وكانت سن أبي علي يومئذ سبعا وثلاثين سنة وكانت دولته بسجماسة تسع عشرة سنة وأشهرها وكان رقيق الحاشية ينتمي إلى الأدب وهو الذي استقدم أبا محمد عبد المهيم الحضرمي من سبته واستكتبه أيام أبيه ومن شعر الأمير أبي علي يخاطب أخاه أبا الحسن أيام حصاره له بسجماسة وقد أيقن بزوال أمره

فلا يغرنك الدهر الخزون فكم أباد من كان قبلي يا أبا الحسن الدهر مذ كان لا يبقى على صفة لا بد من فرح فيه ومن حزن أين الملوك التي كانت تهاهم أسد العربين ثورا في اللحد والكفن بعد الأسرة والتيجان قد محبت أرسومها وغفت عن كل ذي حسن فاعمل لأخرى وكن بالله مؤتمرا واستغن بالله في سر وفي علن واختر لنفسك أمرا أنت أمره كائن لم أكن يوما ولم تكن وفاة السلطان ابن الأحمر على السلطان أبي الحسن بحضرة فاس وفتح جبل طارق لما هلك السلطان أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن الأحمر المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش قام بالأمر بعده ابنه محمد طفلا صغيرا واستبد عليه وزيره محمد بن المحروق فقتله بعدما شب وعقل وكان الطاغية قد استولى على جبل الفتح وهو جبل طارق سنة تسع وسبعمئة وزاحم الفرنج به ثغور المرينيين وصار شجى في صدر الدولتين المرينية والأحمرية واستمر الحال على ذلك إلى أن بويع الأمير السلطان أبو الحسن وكان له رغبة في الجهاد اقتداء بمذهب جده يعقوب بن عبد الحق فبادر السلطان محمد بن غسماعيل

بن الأحمر إلى الوفاة عليه لإحكام عقد المودة معه وللمفاوضة في أمر الجهاد وغير ذلك مما فيه صلاح لدولته فقدم عليه بدار ملكه بفاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة فأكبر السلطان أبو الحسن موصله وأركب الناس للقاته وأنزله بروض المصارة لصق داره واستبلغ في إكرامه وفلوضه ابن الحمير في شأن المسلمين وراء البحر وما أهمهم من عدوهم وشكى إليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدور الثغور قبل وشكى إليه أمر بني عثمان بن أبي العلاء لأنهم كانوا قد استطالوا عليه في أرضه فأشكاه أبو الحسن وعامل الله تعالى في أسباب الجهاد وكان يومئذ مشغولا بفتنة أخيه أبي علي ومع ذلك فقد أمده بالجند وعقد لابنه أبي مالك

على خمسة آلاف من أنجاد بني مرين وأنفذهم مع ابن الأحمر لمنازلة جبل الفتح فاحتل أبو مالك بالجزيرة الخضراء وتتابعت إليه الأساطيل بالمدد وأرسل ابن الحمير في الأندلس حاشرين فتسائل الناس إليه من كل جهة وزحفوا جميعا إلى الجبل وأحاطوا به وأبلوا في منازلته البلاء الحسن إلى أن فتحه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة واقتحمه المسلمون عنوة ونفلهم الله من كان به من النصارى بما معهم وشرع المسلمون في شحنه بالأقوات ينقلونها من الجزيرة الخضراء على خيولهم خوفا من كفة العدو ويأشر نقلها الأميران أبو مالك وابن الحمير بأنفسهما ونقلها الناس عامة وتحيز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة الخضراء وترك الجبل يحيى بن طلحة بن محلي من وزراء أبيه ووصل الطاغية بعد ثلاث من فتحه فأناخ عليه وحاصره وبرز أبو مالك بعساكره من الجزيرة فنزل بإزائه وزحف ابن الأحمر فنزل بإزائه أيضا ثم خاف ابن الأحمر عادية العدو لقرب العهد بارتجاع الجبل وخفة من به من الحامية والسلاح فبادر إلى لقاء الطاغية وسبق الناس إلى فسطاطة عجلا بائعا نفسه من الله في رضا المسلمين وسد خلتهم فتلقاته الطاغية راجلا حاسرا إعظاما له وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المعقل وأتحفه بنخاثر مما لديه وارتحل من فورهِ وشرع الأمير أبو مالك في تحصين ذلك الثغر وسد فروجه وقال أبو العباس المقرئ في النسخ ارتجع السلطان أبو الحسن جبل طارق بعد أن أنفق عليه أموالا وصرف إليه الجنود والحشود ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقت به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين واهتم ببناؤه وتحصينه وأنفق عليه أموال المال في بناؤه وحصنه وسوره وبنى أبراجه وجامعه ودوره ومحاربيه ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برا وبحرا فصر المسلمون وخيب الله سعي الكافرين فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته ولا يجد سبيلا للتضييق عليه بمحاصرته ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق الأموال وأنصف العمال فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفا وعشرين سنة وحاصره السلطان أبو الحسن سنة

أشهر وزاد في تحصينه ابنه أبو عنان رحمهما الله تعالى وأما ابن الأحمر فإن أولاد عثمان بن أبي العلاء شيوخ الغزو بالأندلس لما رأوا ما حصل بينه وبين السلطان أبي الحسن من الوفاق واتصال اليد خافوا أن تعود موافقتهم بالضرر عليهم إذ كانوا أعداء للولتين معا أما دولة المغرب فبخروجهم عليهم ومناذبتهم إياهم غير مرة وأما دولة الأندلس فباستحواذهم على أهلها ومزاحمتهم إياها في رياستها فتشاوروا فيما بينهم وفتكروا بابن الأحمر يوم رحيله عن الجبل إلى غرناطة فقاصفوه بالرماح وقدموا أخاه أبا العجاج يوسف بن إسماعيل مكانه فقام بالأمر بعده وشمر للأخذ بثأر أخيه فاحتل على بني أبي العلاء حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ثم غربهم إلى تونس إلى أن كان من أمرهم ما نذكرهم فتح تلمسان ومقتل صاحبها أبي تاشفين وانقراض الدولة الأولى لنبي زيان بمهلكه لما استقام ملك المغرب للسلطان أبي الحسن بمقتل أخيه أبي علي صاحب سجلماسة ونصر الله جنده على الطاغية بالأندلس تفرغ لشأن تلمسان والانتقام من صاحبها أبي تاشفين الذي ضايق أصحابه من بني أبي حفص في أرضهم ونازعهم في ملكهم وكان السلطان أبو الحسن قد بعث لأول بيعته شعفاء إلى أبي تاشفين في أن يتخلى عن عمل الموحديين ويرجع إلى تخوم أعماله التي ورثها عن سلفه وقال له في جملة ذلك كف عنهم ولو سنة واحدة ليسمع الناس أنني نأفحت عن صهري ويقدروا قدرتي فاستنكف أبو تاشفين من ذلك وأغلظ للرسول في القول وأفخس بعض السفهاء من عبيده في الرد عليهم بمجلسه ونالوا من السلطان أبي الحسن بمحضره فعادت الرسل إليه وأعلموه بالقضية على وجهها فحمي لذلك وغضب وتأكد عزمه على النهوض إلى تلمسان فكان من نهوضه أولا وانتقاض أخيه عليه وعوده إليه من تأسلت ما قصصناه قبل مستوفى

ثم عاود السلطان النهوض إلى تلمسان في هذه المرة فعسكر بظاهر فاس الجديد وبعث وزراءه ووجوه دولته إلى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والجموع ثم عجل وعرض جنوده وأزاح عظمهم وعبى مواكبه وفصل في التعبية من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعمئة فسار يجر الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده ومر بوجدة فجمر عليها الكتائب للحصار ثم مر سار على التعبية من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعمئة فسار يجر الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده ومر بوجدة فجمر عليها الكتائب للحصار ثم مر بندرومة فقاتلها بعض يوم ثم اقتحمها عنوة فاستولى عليها وقتل حاميتها ثم سار على التعبية حتى أناخ على تلمسان ثم بلغه الخبر بتغلب عسكره على وجدة سنة ست وثلاثين وسبعمئة فأوعز إليهم بتخريب أسوارها فأضرعوا بالآرض وتوافقت لديه أمداد النواحي وحشودها ووفدت عليه قبائل مغراوة وبنى توجين فأتوه طاعتهم وسرح كتابهم إلى القاصية فتغلب على هيران وهنين ثم على مليانة وتنس والجزائر وغيرها واستولى على الضواحي ونزع إليه يحيى بن موسى كبير قواد أبي تاشفين وصاحب الثغور الشرقية من أعماله فلقاه ميرة وكرامة ورفع بساطه ونظمه في طبقات وزيارته وجلساته وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى بن سليمان العسكري شيخ بني عسكر بن محمد وصهر السلطان على ابنته فسار في الألوية والجنود فطوع ضاحية الشرق وافتتح أمصاره حتى انتهى إلى لمدية ونظم البلاد في طاعة السلطان أبي الحسن واحتشد جمعها فلقوا بمعسكره واستعمل السلطان أبو الحسن عماله على الجهات واختط بغربي تلمسان البلد الجديد لسكنائه ونزول عساكره وأحيا معالم المنصورة التي كان اختطها عمه يوسف بن يعقوب وخربها بنو زيان من بعده فأدار عليها سياجا من السور ونطاقا من الخندق ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه وجعلت رماته تنضح رماة العدو بالنبل ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيد برجاً آخر يقرب منهم وترتفع شرفاته فوق خندقهم وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعاليه ورتب المجانيق لرجعها وأحكم عملها لدكها فالت من ذلك فوق الغاية وعظم أثرها في القصور العظيمة والقباب الرفيعة التي تأنق أبو تاشفين في تشييدها وكان السلطان أبو الحسن يصبح المقاتلة كل يوم

ويطوف على البلد من جميع جهاته لتفقد رؤساء العسكر في مراكزهم وربما انفرد في طوافه فطاف في بعض الأيام منتبذا عن الحاشية فاهتبل بنو عبد الواد غرته حتى إذا سلك ما بين الجبل والبلد فتحوا أبوابها وأرسلوا عليه عقبان جنودهم يحسبونها فرصة كالتى ليغمراسن بن زيان في السعيد الموحدي واضطروه على سفح الجبل حتى لحق بأوعاره وكاد ينزل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد وأحس أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووجدنا وركب ابنه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك وهما جناحا عسكره وعقبا جفاقه وتهافت إليهم صفور بني مرين من كل جو فانتكشت عساكر بني عبد الواد وولوا الأديار منهزمين لا يبلي أحد منهم على أحد واعتراضهم مهوى الخندق فقتلوا فيه وتهافتوا على ردمه فكان الهالك يومئذ فيه أكثر من الهالك بالسلاح وهلك من بني توجين يومئذ عمر بن عثمان كبير الحشم وعامل جبل وانشريس ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني بدللتن وصاحب قلعة تاوغروت وهما ما هما في زناته إلى أشباه لهما استلحموا في هذه الوقعة فحصد هذا اليوم من جناح دولة بني زيان وحطم منها واتصل الحصار مدة من ثلاثين سنين حتى إذا كان السابع والعشرون من رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمئة اقتحم السلطان أبو الحسن مدينة تلمسان عنوة ووقف أبو تاشفين رحمه الله عند باب قصره في جماعة من أصحابه منهم ولده عثمان ومسعود ووزيره موسى بنعلي ووليه عبد الحق بن عثمان وهو الذي كان خرج على السلطان أبي الربيع وبيعه عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي حسبما مر فإنه لحق به بعد تلك الوقعة بتلمسان ثم منها إلى الأندلس ثم حضر انتفاض الغزي بسببته سنة ست عشرة كما مر ثم لحق بأبي بكر الحفصي ثم نزع عنه إلى أبي تاشفين واستمر عنده إلى هذا اليوم فشده في جماعة من بنيه وبنى أخيه وكنوا أحلاس حرب وقتيان كريمة فمانعوا دون القصر واستماتوا عليه إلى أن استلحموا ورفعت رؤوسهم على عصا الرماح فطيف بها وغصت سك البلد من داخلها وخارجها بالعساكر وكظت أبوابها بالزحام حتى لقد كب الناس على أذقانهم

وتوافقوا على مسارهم فوطنوا بالحوافر وتراكت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المسلك ما بين السقف ورحبة الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهباً واكتساحاً وأما أبو تاشفين فإنه قاتل حتى قتل ابنه عثمان ومسعود أمامه وخلصت إليه جراحات فاتخته وتقبض عليه بعض الفرسان فساقه إلى السلطان فليقه ابنه الأمير أبو عبد الرحمن فأمر به فقتل في الحين واحتز رأسه وسخط السلطان ذلك من فعله لأنه كان حريصاً على توبيخه وتقريعه وقال ابن الخطيب وقف أبو تاشفين وبنوه بإزاء القصر مدافعين عن أنفسهم وقاموا مقام الصبر والإستجماع وصدفوا عن أنفسهم الدفاع إلى أن كثرثروا وأعجلتهم ميتة العز عن شد الوثاق وإمكان الثمات فكان في شأنهم عبرة رحمهم الله وخلص السلطان أبو الحسن إلى المسجد الجامع بحاشيته واستدعى شيوخ الفتيا بتلمسان وهما الإمامان الشهيران أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابنا الإمام فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظه وذكروه بما نال الناس من النهب والعيث فركب لذلك بنفسه وسكن الناس وقبض أيدي الجند عن الفساد وعاد إلى معسكر بالبلد الجديد وقد كمل الفتح وعز النصر واستولى السلطان أبو الحسن على تلك الإمارة المؤتلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلى وثمانين الذخيرة وفاخر المتاع وخطير العدة وبديعة الآلة وصامت المال وضروب الرقيق و صنوف الأثاث والماعون ورفع القتل عن بني عبد الواد أعدائه وشفا نفسه بقتل سلطانهم وعفا عنهم وأثبتهم في الديوان وفرض لهم العطاء واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم وجمع كلمة بني واسين من بني مريين وبني عبد الواد وبني توجين وسائر زناتة وصاروا عسباً تحت لوائه وسد بكل طائفة منهم ثغراً من أعماله فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومرابطين واندرجوا في جملته واتسع نطاق مملكته وأصبح أبو الحسن ملك زناتة بعد أن كان ملك بني مريين و السلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب فقط إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين

مراسلة السلطان أبي الحسن لسلطان مصر وبعثه المصاحف من خطه إلى المساجد الثلاثة شرفها الله كان للسلطان أبي الحسن مذهب ورأى في ولاية ملوك المشرق والمكلف بالمعاهد الشريفة اقتداء في ذلك بعمه يوسف بن يعقوب وغيره من سلفه وضاعف ذلك ليده مئين ديانته ورفيع همته ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى واستولى على المغربيين خاطب لحنينه صاحب مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن ركب الحاج في سابلتهم وكان سفيره في ذلك فارس بن ميمون بن وردار وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين الخلف كما كانت بين السلف فأجمع السلطان أبو الحسن حينئذ على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالبحر الشريف حرم مكة قرية إلى الله تعالى وابتغاء للمثوبة فانسخها بيده وجمع الوراقين لتتميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها وصنع لها وعاء مؤلفاً من الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشي بصفائح الذهب ورصع بالجوهر والياقوت واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أدبها بخطوط الذهب ومن فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان وأخرج من خزائنه أملاً عيها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها وأوفد على الملك الناصر خواص مجلسه وكبار أهل دولته مثل عريف بن يحيى كبير أخواله من عرب الخلط وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة بساطه على كل خالصة عطية بن مهلهل بن يحيى كبير أخواله من عرب الخلط وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة ببابه الشيخ أبا محمد عبد الله بن قاسم المزوار واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالا تحدث الناس به دهراً قال ابن خلدون وقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين الرسول المذكور ووعيته ثم أنسيته وذكر لي بعض قهارمة الدار أنه كان فيها خمسمائة من

عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة ولجمها خالصاً ومغشى ومموها وخمسمائة حم لمن متاع المغرب وماعونه وأسلحته ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسية وبرانس وعمائم وإزاراً معلمة وغير معلمة ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملونا وغير ملونا وسانجا ومنمقا ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدبغ المنسوبة إلى الملط ومن خرثي المغرب وما عونه ما تستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجواهر والياقوت واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ذلك الركب فأذن لها واستبلغ في تكريمها واستوصى بها وفده و سلطان مصر في كتابه وفصلوا من تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ووصلوا إلى مصر في الثاني والعشرين من رمضان من السنة المذكورة وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وقدموا هديتهم غلبه لقبها وحسن موقعها لديه وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوماً مشهوداً تحت الناس به دهراً ولقاهم سلطان مصر في طريقهم أنواع البر والكرامة حتى قضوا فرضهم ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبه وأسنى الملك الناصر هيدة السلطان من الفساطيط المشرقية الغربية الشكل والصنعة بالمغرب ومن ثياب الإسكندرية البديعة النسيج المرقومة بالذهب ورجعهم بها إلى مرسلهم وقد استبلغ في تكريمهم وصلتهم وبقي حديث هذه الهدية مذكوراً بين الناس لهذا العهد له كلام ابن خلدون بعضه أيضاً وقد ذكر إمام الخطيب أ و عد الله بن مروق في كتابه المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن هذه الهدية وفصل منها بعض ما أجمله فقال أرسل السلطان أبو الحسن للناصر بن قلاوون للديار المصرية من أجار الياقوت العظيم القدر و الثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ومن الزمرد مائة وثمانية وعشرين ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ومن الجواهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعة وستين وأرسل حلاً كثيرة منها مذهبية ثلاثة عشر ومن الأثان عشرين مذهبية ومن الللادي ستة وأربعين ومن القنوع ستة وعشرين مذهبية ومن المحررات المخبمة ثمانمائة ومن الرصان عشرين شقة ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرين ومن

البرانس المحررة ثمانية عشر ومن المشققات مائة وخمسين ومن أحارم الصوف المحررة عشرين ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المنبوق والحلل ثمانمائة ومن أوجه اللحف المذهبية عشرين وحائطين حلة وحنايل مائة واثنى عشر كلها حرير وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ومن السيوف المحلات بالذهب المنظم بالجواهر عشرة والسروج عشرة بركب الذهب كذلك ومهاميز الذهب وثلاثة ركب فضة وستة مزججة ومذهبية ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك وشاشية حديد بذهب مكلل بالجواهر ومن لزمات الفضة عشرة وسروج مخروزة بالفضة عشرة وعشر علامات مغشاة مذهبية وعشر رايات مذهبية وعشر براقع مذهبية وعشر أمثلة مرقومة وثلاثون جلداً شرك وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانمائة بنهود الفضة وخباء قبة كبيرة من مائة بنقية لها أربعة أبواب وقبة أخرى مضرية من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبية وهي من حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وأبنوس وأكبارها من فضة مذهبية ومن البزات الأحرار المنتقات أربعة وثلاثين ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمسة وثلاثين ومن البغال الذكور والإناث مائة وعشرين ونم الجمال سبعمائة وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع الربعة المكرمة يعني ربعة المصحف الكريم وأعطى السلطان الحرة أم أخته أم ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعددة وبغلات وللرسول المعين للهدية ألفاً والشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة وبرسم العطاء لعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ولشراء الرباع ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهباً اه وذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك منها لصاحب الأندلس صلة وصدقة وهدية في مرات ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي ومنها لصاحب إفريقية ومنها لصاحب تلمسان اه وقال العلامة المقرئ مؤرخ مصر في كتاب السلوك ما نصه

وفي ثاني وعشرين من رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج ومعها هدية جليلة إلى الغاية نزل لحملها من الأسطول السلطاني ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال وكان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حجرة ومائة فحل ومانتا بغل وجميعهما بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة وبعضها بسروجها وربكها ذهب وكذلك لجمها وعدتها اثنتان وأربعون رأساً منها سرجان من ذهب مرصع بجواهر وفيها مائة كساء وغير ذلك من القماش العالي وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح وهم جمع كثير جدا وكان يوم فلذوع الهدية من الأيام المذكورة ففرق السلطان الهدية من الأيام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم حتى نفذت كلها سوى الجواهر واللؤلؤ فإنه اختص به فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار ثم نقلت الحرة إلى الميدان بمن معها ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والجلاء والفاكهة في كل يوم بكرة

وعشية وما عمهم وفضل عنهم فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ونصف أردب أرزا وقنطارا حب رمان وربيع قنطار سكرًا وثمان فانوسيات شمعا وتوابل الطعام وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم وأجرة حمل أبقالهم مبلغ ستين ألف درهم ثم خلع على جميع من قدم مع الحررة فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول وحمل إلى الحررة من الكسوة ما يجلب قدره وقيل لها أن تملئ ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء وإنما تريد عناية السلطان إكرامها من معها حيث كانوا فنقدم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد إن يغي بتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوئية وهما كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلوات والسكر والدقيق والبيجماط وطلبوا الحماله لحمل جهازها وأزودتها وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة وأمره أن يرحل بها في مركب لها

بمفردها قدام المحمل ويمتثل كلما تأمر به وكتب لأميري مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة اه وفيه بعض مخالفة لما وصفه ابن مرزوق في الهدية والخطب سهل ثم انتسخ السلطان أبو الحسن رحمه الله نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول ووقفها على القراء بالمدينة وبعث بها من تخيره لذلك العهد من أهل دولته سنة أربعين وسبعمئة وفعل مثل ذلك بحرم بيت المقدس قال العلامة **أب العباس المقدسي** في **نفع الطب** كان السلطان أبو الحسن المريني قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال ووقف عليها أوقافاً جليلة كتب سلطان مصر والشام توقيعه بمسامحتها من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين بن نباتة المصري ونص ما يتعلق به الغرض منه هنا قوله وهو الذي مد يمينه بالسيف والقلم فكتب في أصحابها وطر الختمات الشريفة فايد الله حربه بما سطره من أجزائها واتصلت ملائكة النصر بلوانه تغدو وتروح وكثرت فتوحه لألمياء العرب فقالت أوقاف الشرق لا بد للفقراء من فتوح ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجدي وخط سطورها بالعربي وطالما خط في صفوف الأعداء بالهندي ورتب عليها أوقافاً تجري أقلام الحساب في إطلاقها وطلقها وحبس أملاكاً شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها والله تعالى يمتع من وقف هذه الختمات بما سطر له في أكرم الصحائف وينفع الجالس من ولاية الأمور في تقريرها ويتقبل من الواقف اه قال المقدسي وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة وهو الذي ببيت المقدس وربيعته في غاية الصنعة اه والله تعالى أعلم واتصلت الولاية بين السلطان أبي الحسن وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعمئة وولي أمر مصر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضاً على ما نذكر بعد إن شاء الله

نكبة الأمير أبي عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبي الحسن وفرار وزيره زيان بن عمر الوطاسي والسبب في ذلك كان السلطان أبو الحسن رحمه الله عندما نهض إلى تلمسان أولاً وثانياً ينتظر قدوم صهره السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي عليه لما كان انعقد بينه وبين أبيه أبي سعيد رحمه الله من الاجتماع على تلمسان والتعاون على حصارها ولما فتح أبو الحسن تلمسان في التاريخ المتقدم كان وزير الحفصيين البيخ أبو محمد بن تافرجين شاهداً لذلك الفتح قدم رسولا من عند مخدومه السلطان أبي بكر المذكور فأمر إلى السلطان أبي الحسن بأن مخدومه قادم عليه للقاءه وتهنئته بالظفر بعدوه فتشوف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر ويعني به وارتحل عن تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمئة وعسكر بمتيحة منتظراً لوفادة صهره عليه فتكاسل الحفصي عن القدوم بسبب تثبيط محمد بن الحكيم من رجال دولته إياه عن ذلك وقال له إن لقاء سلطانين لا يتفق إلا في يوم على أحدهما فكره الحفصي ذلك وتقاعد عنه وطل مقام السلطان أبي الحسن في انتظاره ثم طرقة بفسطاطه مرض أزمه الفراش حتى تحدث أهل العسكر بمهلكه وكان ابنه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهد منذ أيام جدتهما أبي سعيد وكان أبوهما قد جعل لهما لأول دولته ألقاب الإمارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء واستحقاق الفرسان وانفراد كل بعسكره على حدة وجعل لهما مع ذلك الجلوس بمقعد فصله مناوبة لتنفيذ الأوامر السلطانية فكانا لذلك ورديين له في سلطانه ولما اشتد وجمع السلطان في هذه المرة تمشت سمسرة الفتنة بينهما وتحزب أهل العسكر لهما حزبين وشوشوا بواطنهما فيث كل واحد منهما المال وحمل على المقربات وصار الجيش شيعا وهم الأمير أبو عبد الرحمن بالتوثب على الأمر قبل أن يتبين حال السلطان بإجراء

وزرائه وبطانته بذلك وتظن خاصة السلطان لما وقع فأخبروه الخبر وحضوه على الخروج إلى الناس قبل أن يتفانم الأمر ويتسع الخرق فيبرز السلطان إلى فسطاط جلوسه وتسامع أهل المعسكر به فازحموا إلى بساطة وتقبليده وتقبض على أهل الظنة من الجيش فأودعهم السجن وسخط على الأميرين وأمر برحيل من كان معهم من الجند فقدمهم إلى معسكره ثم رجع إلى فسطاطه وطفنت نار الفتنة وسكن سعي المفسدين وانتبذ الناس عن الأميرين المذكورين فيبقيا أوحش من وتد بقاح فاشتد جرح الأمير أبي عبد الرحمن وركب من فسطاطه وخاض الليل فأصبح بحلة أولاد على أمراء بني زغبة من هلال الموطنين بأرض حمزة فقبيض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل ورداه إلى أبيه فاعتقله بوجدة ورتب العيون لحراسته ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاس بالموحدين أصحاب تونس فأجاروه ورضي السلطان صبيحة فرار أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي مالك وعقد له على ثغور عمله بالأندلس وصرفه إليها وانكفا راجعا إلى تلمسان والله أعلم ثورة ابن هيدور الجزار وما كان من أمره لما تقبض السلطان أبو الحسن على ابنه عبد الرحمن وأودعه السجن تفرق خدمه وحشمه في الجهات وكان منهم رجل جزار مرتب في مطبخه يعرف بابن هيدور وكان له شبه في الصورة بأبي عبد الرحمن فلحق ببني عامر بن زغبة وكانوا لذلك العهد منحرفين عن طاعة السلطان أبي الحسن لاختصاصه عريف بن يحيى أمير بني سويد أعدائهم فلما لحق بهم ابن هيدور هذا انتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن وأنه ابنه أبو عبد الرحمن فشبه لهم وبياعوه وأجلبوا به على نواحي لمية فيبرز إليهم قائداً فهزموه ثم جمع لهم ونزمار بن عريف بن يحيى فهزمهم واقترب جمعهم ونبذوا للجزار عهده فلحق ببني يزنان من زواوة فنزل على شيتهم شمسي من بني

عبد الصمد منهم وكانت هذه المرأة قد ملكتهم وغلبت عليهم بقومها ورجالها وكان لها بنون عشرة فاستفحل أمرها بهم ولما نزل عليها الجزار المذكور وانتسب لها إلى السلطان أبي الحسن قامت بأمره وشمرت عزائمها لإجارتها وحملت قومها على طاعته وشاع في الناس خبره فمن مصدق ومن مكذب وسرب السلطان أبو الحسن الأموال في قومها وبنيها على إسلامه إليه فأبنت ثم نمت إليها الخبر بكذبه وتمويهه فنبتت إليه عهده وخرج عنها إلى بلاد العرب فلحق بالزواوة أمراء رباح من بني هلال ونزل على سيدهم يعقوب بن علي وانتسب له في مصل ذلك فأجاروه إن صدق نسبه وأوعز السلطان أبو الحسن إلى صهره أبي بكر الحفصي في شأن الجزار فبعث الحفصي إلى يعقوب بن علي في ذلك فأشخصه إلى السلطان أبي الحسن مع بعض حاشيته فلحق به بمكانه بسببته يريد الجهاد فامتحنه وقطعه من خلاف وانحسم داؤه وبقي المغرب تحت جارية من النولة إلى أن هلك في بعض السنين وأما الأمير أبو عبد الرحمن فإنه لما سجن بوجدة بقي هنالك إلى سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة فوثب ذات يوم بالسجان فقتله واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فانفذ حاجبه إعلان بن محمد فقضى عليه رحم الله الجميع **أخبار السلطان أبي الحسن في الجهاد** وما كان من وقعة طريف التي محص الله فيها المسلمين وغير ذلك لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وعلت على الأيدي يده وانفسخ نطاق ملكه دعتهم إلى الجهاد وكان كلفا به فأعز إلى ابنه الأمير أبي مال أمير الثغور الأندلسية سنة أربعين وسبعمئة بالدخول إلى دار الحرب وجهاز إليه العساكر من حضرته وأنفذ إليه الوزراء فشحص أبو مالك غازيا وتوغل في بلاد النصرانية واكتسحها وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدر من أرضهم وأناخ بها فاتصل به الخبر أن النصراني قد جمعوا له وأنهم

أعدوا السير في اتباعه فأشار عليه الملاء بالخروج من أرضهم وعبور الوادي الذي كان تخما بين أرض المسلمين ودار الحرب ويتحيز إلى مدن المسلمين فيمتنع بها فلج في إبايته وصمم على التعريس وكان قرما ثمتا إلا أنه غير بصير بالحرب لصغر سنه فصحبتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يركبوا وخاطبهم في بيوتهم وأدركوا الأمير أبا مالك بالأرض قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه واحتوا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فتفجع لهلال ابنه واسترحم

له واحتسب عند الله أجره ثم أنفذ وزراءه إلى سواحل المغرب لتجهيز الأساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجنود وأزاح عنهم واستنفر أهل المغرب كافة ثم ارتحل إلى سبتة لياشر أحوال الجهاد وتسامعت به أمم النصرانية فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطولها إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي المغرب وبعث إلى أصهاره الحفصيين بتجهيز أسطولهم إليه فعدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية ووافى سبتة في ستة عشر أسطولاً من أساطيل إفريقية كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز المائة وعقد السلطان عليها لمحمد بن علي العزفي الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها أيام السلطان أب سعيد وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق وقد تكامل عيدهم وعدتهم فاستلأموا وتظاهروا في السلاح وزحفوا إلى أسطول النصارى وتوافقوا ملياً ثم قربوا الأساطيل بعضها من بعض وقرنوها للمصاف فلم يعض إلا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين

بعدهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هربا بالسيوف وطعنا بالرمح وألقوا أشلاءهم في البيم وقتلوا قائدهم الملند واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤوسهم في جوانب البلد ونظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشاء وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة وأنشد الشعراء بين يديه وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة أربعين وسبعماية فكان من أعز أيام الإسلام ثم شرع السلطان أبو الحسن في إجازة العساكر نم المطوعة والمرتزة وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العودة إلى العودة ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين ألفاً **هو في أسطولها مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعماية ونزل بساحة طريف** وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع في منازلها ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن الحر في عسكر الأندلس من غزاة بني مرين وحامية الثغور ورجالة البني فمسكروا حذاء معسكره وأحاطوا بطريف واحداً وأنزلوا بها أنواع القتال ونصبوا عليها الآلات وجهر الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر وطال مقام المسلمين بمكانهم حول طريف ففتنت أروادهم وقلت المعلومات فوهن الظهر واختلت أحوالهم ثم احتشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتقال صاحب أشبونة وغرب الأندلس وزحفوا إلى المسلمين لسنة أشهر من نزولهم على طريف ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين سرب إلى طريف جيشاً من النصارى أكنه بها على وقت الحاجة غلبه فدخلها ليلاً على حين غفلة من العس الذين أرسدوا لهم وأحسوا بهم آخر الليل فثاروا بهم من مرادهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عدداً وقد نجا أكثرهم فلبسوا على السلطان أنه لم يدخل البلد سواهم حنرا من سطوته ثم وزحف الطاغية من الغد في جموعه إلى المسلمين وعبأ السلطان مواكبه صفوفاً وتزاحفوا ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وهو الذي

دخل ليلاً وخالفوا المسلمين إلى معسكرهم وعمدوا إلى فسطاط السلطان فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا على حراسته فاستلحموهم لقتلهم ثم دافعهم النساء عن أنفسهم فقتلوهن كذلك وخلصوا إلى حظايا السلطان منهن عائشة بنت عمه أبي بكر بن يعقوب بن عبد الحق وفاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي وغيرهما من حظاياهن وفتلوهن واستبلوهن ومثلوا بهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر نارا ثم أحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختلف مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان تاشفين ابن السلطان أبي الحسن صمم في طائفة من قومه وحاشيته حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به وتقبضوا عليه وعظم المصاب بأسره وكان الخطب على الإسلام قلما فجع بمثله وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من سنة إدى وأربعين وسبعماية وولى السلطان أبو الحسن متحيزاً إلى فئة المسلمين واستشهد كثير من الغزاة وتقدم الطاغية حتى انتهى إلى فسطاط السلطان من المحلة فأكثر قتل النساء والولدان وكان ذلك منتهى أثره ثم انكفأ راجعاً إلى بلاده ولحق ابن الأحمر بغرناطة وخلص السلطان أبو الحسن في ليلة غده ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم استيلاء العدو على الجزيرة الخضراء لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالأندلس وطمع في التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونازل أولاً قلعة بني سعيد ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها وجمع الآلات والأيدي على حصارها وأخذ بمخنقتها فأصابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمة سنة اثنتين وأربعين وسبعماية وأدال الله الطيب منها بالخبيث وانصرف الطاغية إلى بلاده وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعود إلى الجهاد لرجع الكرة فأرسل في المدائن حاشرين وأخرج قواده إلى سواحل المغرب لتجهيز الأساطيل فتكامل

له منها عدد معتبر ثم ارتحل إلى سبتة لمشاركة ثغور الأندلس وقدم عساكره إليها مع وزيره عسكر بن تاحضريت وعقد على الجزيرة الخضراء لمحمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير وبعث إليها مدداً من العسكر مع موسى بن إبراهيم اليرباني من المرشحين للوزارة نيابة وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطولاً وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعتة وتلاقت الأساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق فملكه دون المسلمين وأقبل الطاغية من إشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأً أساطيل المسلمين وفرضة المجاز ورجا أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف وحشر الفعلة والصناع للآلات وجمع الأيدي عليها وطولها الحصار واتخذ أهل المعسكر بيوتا من الخشب للمطولة وجاء السلطان أ والحجاج بن الأحمر بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب إلى أهل الجزيرة المدد من الفرسان والمال والقوت في أوقات الغفلة من أساطيل العدو تحت جناح الليل وأصيب كثير من المسلمين في ذلك ولم يغن على أهل الجزيرة ذلك المدد شينا واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد وأجاز السلطان أبو الحجاج إلى السلطان أبي الحسن يفوضه في شأن السلم مع الطاغية بعد أن أذن الطاغية له في الإجازة مكرها وأصدر له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غص الرقيق وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومن كان بها من عسكر السلطان فسألوا الطاغية الأمان على أن ينزلوا له عن البلد فيبذله لهم وخرجوا فوقى لهم وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعماية فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ما عوضهم بما فاتهم وخلع عليهم وحملهم ووصلهم بما تحدث الناس به وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة له على تقصيره في المدافعة مع تمكنه منها وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعاً إلى حضرته موقناً بظهور أمر الله وإنجاز وعده والله متم نوره ولو كره الكافرون

بقية أخبار بني أبي العلاء قد تقدم لنا أن عثمان بن أبي العلاء كان يلي مشيخة الغزاة بالأندلس وأنه استشهد سنة ثلاثين وسبعماية وقام بأمره ابنه أبو ثابت فاستحوذ بعصبية وقومه على بني الأحمر فقتلوا محمد بن إسماعيل منهم مرجعه من فتح جبل الفتح ونصبوا للأمر أخاه يوسف بن إسماعيل منهم مرجعه من فتح جبل الفتح ونصبوا للأمر أخاه يوسف بن إسماعيل حسبما تقدم الإلماع بذلك ثم إن السلطان أبا الحجاج هذا بقي بين جنبيه داء دخيل من بني أبي العلاء الذين فتكوا بأخيه فلم يزل يسعى في أمرهم حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ثم غربهم إلى تونس فنزلوا على السلطان أبي بكر ون في إشخاصهم إلى حضرته فتوقف الحفصي عن ذلك وأبى من إخبار ذمتهم فأشار عليه وزيره أبو محمد بن تافرجين ببعثهم إليه وأنه لا يريد بهم إلا الخير فيعتهم وبعث كتابه بالشفاة فيهم فقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين وسبعماية فتلقاهم بالبر والكرامة إكراماً لشفيهم وأنزلهم بمعسكره وحملهم على الخيول المسومة بالمرابك الثقيلة وضرب لهم الفساطيط وأسنى لهم الخلع والجوائز وفرض لهم في أعلى رتب العطاء وصاروا في جملته ولما احتل بسبتة لمشاركة أحوال الجزيرة الخضراء سعى عنده فيهم بأن كثيرا من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوثب على الأمر فتقبض عليهم وأودعهم السجن بمكانة الزيتون واستمروا هنالك إلى أن قام أبو عنان فأطلقهم واستعان بهم على أمره حسبما نذكه إن شاء الله

مراسلة السلطان أبي الحسن لصاحب مصر أبي الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن راسل الملك الناصر صاحب مصر وهاداه بما عظم وقعه عند الخاصة والعامة واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعماية وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضاً وأتخفه وعزاه عن أبيه وأوفد عليه كتابه وصاحب ديوان الخراج أبا الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين وفي صحبته الحرة أخت السلطان أبي الحسن فضى من وفادته ما حمل وأصحابه السلطان أبو الحسن كتاباً إلى

الملك الصالح أبي الفداء وكان وصوله إلى مصر منتصف شعبان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ونص الكتاب بعد البسملة والصلاة على النبي عند أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله رب العالمين المنصور بفضل الله المتوكل عليه التمدد في جميع أموره لديه سلطان البرين حامي العدوتين مؤثر المرابطة والثاغرة موازر حزب الإسلام حق الموازنة ناصر الإسلام مظاهر دين الملك العلام ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين فخر السلاطين حامي حوزة الدين ملك البرين إمام العدوتين ممدد البلاد مبدد شمل الأعداء مجند الجنود المنصور الرايات والبنود محط الرجال مبلغ الآمال أبي سعيد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين حسنة الأيام حسام الإسلام أبي الأملاك مشجي أهل العناد والإشراك مانع البلاد رافع علم الجهاد مدوخ أقطار الكفار مصرخ من ناداه للانتصار القائم لله بإعلاء دين الحق أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أخلص الله لوجهه جهاده ويسر في قهر عداة الدين مراده إلى محل ولدنا الذي طلع في أفق العلا بدرا تما وصدع بأنواع الفخار فجلى ظلما وظلما وجمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علما وأحیی رسما حائظ الحرمين القائم بحفظ القبيلتين باسط الأمان قابض كف

العنوان الجزيل النوال الكفيل تأمينه بحياطة النفوس والأموال قطب المجد وسمائه حسب الحمد وملاكه السلطان الجليل الرفيع الأصيل الحافل العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الأضخم الأضخم المعان المؤزر المؤيد المظفر الملك الصالح أبي الوليد إسماعيل بن محل أخينا الشهير علاوة المستطير في الأفاق ثناؤه زين الأيام والليال كمال عين غنسان المجد وإنسان عين الكمال وارث الدو الناقت بصحيح رأيه في عقود أهل الملل والنحل حامي القبيلتين بعدله وحسامه النامي في حفظ الحرمين أجر اضطلاعه بذلك وقيامه هازم أحزاب المعاندين وجيوشها هادم الكنايس والبيع فهي خاوية على عروشها السلطان الأجل الهمام الأحفل الأضخم الفاضل العادل الشهير الكبير الرفيع الخطير لمجاهد المرابط المقسط عدله في الجائر والقاسط المؤيد المظفر المنعم المقدس **المظفر** زين السلاطين ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد بن الملك الأرضي الهمام الأضخم والد السلاطين الأخيار عاقد لواء النصر في فخر الأرمن والفرنج والتتار محيي رسوم الجهاد معي كلمة الإسلام في البلاد جمال الأيام شمال الأعلام فاتح الأقاليم صالح ملوك عصره المتقادم الإمام المؤيد المنصور المسدد قسيم أمير المؤمنين فيما تقلد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون مكن الله له تمكين أوليائه ونمى دولته التي أطلعها له السعد شمسا في سمانه وأحسن إيزاعه للشكر أن جعله وارث آباءه سلام كريم يفوح زهر الربى مسراه وينافح نسيم الصبا مجراه يصحبه رضوان يدوم ما دامت تفل الفلك حركاته ويتولاه روح وريحان تبيبه به رحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله مالك الملك جاعل العاقبة للفقير صدعا باليقين ودفعنا للشك وخاذل من أسر النفاق في النجوى فاصر على الدخن والإفك والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محى بأنوار الهدى ظلم الشرك ونبيه الذي ختم به الأنبياء وهو واسطة ذلك السلك ودعا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الأفلاك وماجت بهم حاملة الفلك والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هذه فسلك في قلوبهم أجمل السلك وملكوا أعنه هواهم فلزموا من محجة الصواب أنجح السلك وصابروا في جهاد

الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهب يزيد خلوصا على السبك والدعاء لأولياء الإسلام وحماته الأعلام بنصر لمضائه في العدي أعظم الفتك ويسر بقضائه درك أمال الظهور وأحفل بذلك الدرك فكتابه إليكم كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم من حضرتنا مدينة فاس المحروسة وصنع الله سبحانه يعرف مذاهب الألفاظ ويكيف مواهب تلهج الألسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف ويصرف من أمره العظيم وقضائه المتلقى بالتسليم ما يتكون بين النون والكاف ومكانكم العتيد سلطانه وسلطانكم المجيد مكانه وولاؤكم الصحيح برهانه وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال ميدانه وإلى هذا زاد الله سلطانكم تمكيننا وأفاد مقامكم تحسينا وتحسينا وسلك بكم من سنن من خلقتموه سبيلا مبينا فلا خفاء بما كانت عقده أيدي التقوى ومهنته الرسائل التي على الصفاء تطوى بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدس وبقره مع الأبرار في علبين أنسه من مؤاخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفتاحة وحفظ عليها محكم الإخلاص معوذاتها المحبة والنية الصالحة فاعتقدت على التقوى والرضوان واعتصمت بتعارف الأرواح عند تنازع الأبدان حتى استحكمت وصلة الولاء والتأمت كلحمة النسب لحمة الإخاء فما كان إلا وشيكا من الزمان ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ورد ورد أورد رنق المشارب وحقق قول ومن يسأل الركبان عن كل غائب أنبا باستنارة الله تعالى بنفسه الزكية وإكنا درته السنية وانقلابه إلى ما أعد له من المنازل الرضوانية بجليل ما وقر لفقده في الصدور وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقثور حنانا للإسلام بتلك الأقطار وإشفاقا م أن يعتور قاصدي بيت الله الحرام من جراء الفتق عارض الإضرار ومساهمة في مصاب الملك الكريم والوصي الحميم ثم عميت الأخبار وطويت ط السجل الأثار فلم نر مخبرا صدقا ولا معلما بمن استقر له ذلك الملك حقا وفي أثناء ذلك حفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخ أهل الأندلس وسلطانها وتواتر الأخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب أوطانها ونحن أثناء ذلك الشأن نستخبر الورد ام تلك البلدان عما أجلى عنه ليل الفتن بتلك الأوطان فيعد لأي

وقعنا منها على الخير وجاءنا بوقاية حرم الله بكم البشير وتعرفنا أن الملك استقر منكم في نصابه وتداركه الله تعالى منكم بفتح الخير من أبوابه فأطفا بكم نار الفتنة وأجمدها منه أدواء النفاق ما أعل البلاد وأفسدها فقام سبيل الحج سايلا وعبر طريقه لمن جاء قاصدا وقافلا ولما احتقت بهذا الخبر القرائن وتواتر بنقل الحاضر المعان آثار حفظ الإعتقاد البواعث والود الصحيح تجره حقا الموارث فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفنتة الكوار الجامعة بين الخير والإستخبار الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والدثار ومثل ذلك الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب لفقده وتحل عرى الإصطبار بموته ولات حين أوانه ولكن الصبر اجمل ما ارتداه ذو عقل حصين والأجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ومثلكم من لا يخف وقاره ولا يشف عن ظهور الجزع الحادث اصطباره ونم خلفتموه فمات ذكره ومن قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره وقد طالت والحمد لله المعيشة الراضية بالحقب وطاب بين مبداه ومحتضره هنيئا بما من الأجر اكتسب وصار حميدا إلى خير منقلب ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موقنا ووهب فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة أرضه المقدسة وحماية زوار بيته مقبلة أو معرسة ونحن بعد بسط هذه التعزية نهنيك بما خولكم الله أجمل التهنية وفي ذات الله الإيراد والإصدار وفي مرضاته سبحانه الإضمار والإظهار فاستقبلوا دولة ألقى العز عليها رواقه وعقد الظهور عليها نطقه وأعطاه أكان الزمان عقده وميثاقه ونحن على ما عدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود موثقة وموالاتة محققة وثناء كماشمه عن أذكي من الزهر غب القطر مفتقه ولم يرغب عنكم ما كان من بعثنا المصفيح الأكرمين اللذين خطتهما منا اليمين وأوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين إلى قرار مكين وإنه كان لوالدكم الملك الناصر تولاة الله برضونه وأورده موارد إحسانه في ذلك من الفعل الجميل والصنع الجليل ما ناسب مكانه الرفيع وشاكل فضله من البر الذي لا يضيع حتى طبق فعله الأفاق ذكرا وطوق أعناق الورد والقصاد برا وكان من أجمل ما به تحفى وأنحف وأعظم ما يعرفه إلى الملك العلام في ذلك تعرف إذنه

للمتوجهين إذا ذاك في شراء رباغ توقف على المصحفين ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين فجرت أحوال القراء فيها بذلك الخارج السمفاد ريثما يصلهم من خراج ما وقفناه عليهم بهذه البلاد على ما رسمه رحمة الله عليه من عنابة به متصلة واحترام فينتكل الأوقاف فواندها به متوفرة متحصلة وقد أمرنا مؤدي هذا لكما لكم وموفده على جلالكم كاتينا الأسنى الفقيه الأجل الحظي الكمل أبا المجد ابن كاتينا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى الأرضي الأفضل الأحظي الأكمل المرحوم أبي عبد الله بن أبي مدين حفظ الله عليه رتبته ويسر في قصد البيت الحرام بغيته بأن يتفقد أوائل تلك الأوقاف ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف وأن يتخير لها من يرتضي لذلك ويحمد تصرفه فيما هنالك وخطابنا سلطانكم في هذا الشأن جريا على الود الثابت الأركان وإعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من الأفعال الحسان وكما لكم يقتضي تخليد ذلك البر الجميل وتجديد علم ذلك الملك الجليل وتشديد ما اشتمل عليه من الشراء الأصيل والأجر الجزيل والتقدم بإذن السلطاني في إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب على ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرق الصواب وثناؤنا عليكم التناء الذي يفوح زهر الربا ويطارح نغم حمام الأيگ مطربا ويحسب المصفاة ومقتضى الموالاتة نشرح لكم المتزايدات بهذه الجهات وننبئكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلك الجناب وذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصريخ ونادى منا للجهاد عزما لمثل ندائه يصيح أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب

وفرض عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب وأنت بقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها وتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ليمحو كلمة الإسلام منعاً ويفلصوا ظل الإيمان عنها فقدمنا نم يشتغل بالأساطيل من القواد وسرنا على اثرهم إلى سبتة منتهى الغرب الأقصى وباب الجهاد فما وصلناها إلا وقد أخذ العدو الكفور وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور وأتوا من أجفانهم بما لا يحصى عدداً وأرصدوها بمجمع البحرين حيث المجاز إلى دفع العدا وتقلصوا عن

الانبيساط في البلاد واجمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل من جمعه من الأعداء لكننا مع انسداد تلك السبيل وعدم أمور نستعين بها في ذلك العمل الجليل حاولنا إمداد تلكم البلاد بحسب الجهد وأصرخناهم بما أمكن من الجند وجهزنا أجفاننا مختلسين فرصة الإجازة تتردد على خطر بمن جهز للجهاد جهازه وأمرنا لصاحب الأندلس من المال بما يجهز به حركته لمدانة محلة حزب الضلال وأجرينا له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة وأرضناهم من النوال ما نرجو به ثواب الآخرة وجعلت أجفاننا تتردد في مينا السواحل وتلج أبواب الخوف العاجل لإحراز الأمن الأجل مشحونة بالعدد الموفورة والأبطال المشهورة والخيل المسومة والأقوات المقومة فمن ناج حارب دونه الأجل وشهيد مضى لما عند الله عز وجل وما زالت الأجفان تتردد على ذلك الخطر حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجزها عند الله يدخر ثم لم تقع بهذا العمل في الإمداد فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله مساهمة به لأهل تلك البلاد فلقى من هول البحر وارتجاجه والحاح العدو ولجاجة ما به الأمثال تضرب وبمثله يتحدث ويستغرب ولما خلص لتلك العدو بمن أبقته الشدائد نزل بإزاء الكافر الجاحد حتى كان منه بفرسخين أو أدنى وقد ضرب بعطن يصباح العدو وبمياسيه بحرب بها يمتنى وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريته شرارته وقويت في الحرب إدارته يبيلون البلاء الأصدق ولا يبيلون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق إلا أن المطاولة بحصارها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها في البر نحو عامين معقودا عليها الصف بالصف أدى إلى فناء الأقوات في البلد حتى لم يبق لأهليه قوت شهر م انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربى على عشرة آلاف دون الحرم والولد فكتب إلينا سلطان الأندلس برغب في الأذن له في عقد الصلح ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجهه النجع فأذننا له فيه الإذن العام إذ في إصراره وإصراخ من يقطره من المسلمين توخينا ذلك المرام هنالك دعا النصر إلى السلم فاستجابوا وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا فتم الصلح إلى عشر سنين وخرج من بها من فرسان

ورجال وأهل وبنين ولا رزقوا مالا ولا عدة ولا لقوا في خروجهم غير النزوح عن أول أرض مس الجلد ترابها شدة ووصلوا إلينا فأجزلنا لهم العطاء وأسلبناهم عما جرى بالحباء فمن خيل تزيد على الألف عتاقها وخلع تربي على عشرة آلاف أطواقها وأموا عمت الغني والفقر ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير وكف الله ضر الطواغيت عما هداها وما انقلبوا بغير مدرة عفا رسمها وصم صداها وقد كف ضر الطواغيت عما عداها وما انقلبوا بغير مدرة عفا رسمها وصم صداها وقد كان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الثغر أن قدر لنا فتح جبل طارق من أيدي الكفر وهو المطل على هذه المدرة والفرصة منه إن شاء الله تعالى متيسرة حتى يفرق عقد الكفار ويفرج بهذه الجهة منهم مجاوروا هذه الأقطار فولوا إجلابهم من كل جانب وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجمعهم من الأجفان والمرابك لما بالينا بأصفاقهم ولحللنا بعون الله عقد اتقاقهم ولكن للموانع أحكام ولا راد لما جرت به الأقاليم وقد أمرنا لذلك الثغر بمزيد المدد وتخبرنا له ولسائر تلك البلاد العدد والعدد وعدنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وعاء السفر ونزيتب الجياد وننتخب العدد لوقت الظهور المنتظر وتكون على أهبة الجهاد وعلى مراقبة الفرصة عند تمكنها من الأعداء وعند عودنا من تلك المحاولة نيسر الركب الحجازي موجهها إلى هناك روحله فأصدرنا إليكم هذا الخطاب إصدار الود الخالص يخشى جديدة من البلاء ومالك ما عند أحنى الآباء واعتقادنا فيكم في ذات الله لا يخشى جديده من البلاء ومالك من غرض بهذه الأثناء موفي قصده على أكمل الأهواء موالي تتميمه على أجمال الأراء والبلاد باتحاد الود متحدة والقلوب والأيدي على ما فيه مرضاة الله عز وجل معتقدة جعل الله ذلك خالصا لرب العباد مدخورا ليوم التناد مسطورا في الأعمال الصالحة يوم المعاد بمنه وفضله هو سبحانه يصل إليكم سعدا تتفاخر به سعود الكواكب وتتضافر على الإقياد له صدور المواكب وتتقاصر عن نيل مجده متطاولات المناكب والسلام الأتم يخصكم كثيرا أثيرا ورحمة الله وبركاته وكتب في يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمئة وصورة العلامة وكتب في التاريخ المؤرخ

قال ابن خلدون فقضى أبو الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين من وفادته ما حمل وكان شأنه عجا في إظهار أهبة سلطانه والإنفاق على المستضعفين من إلاح في طريقه وإتحاف رجال الدولة التركية بذات يده والتعفف عما في أيديهم رحمه الله وقال العلامة المقرئ في منتصف شعبان من سنة خمس وأربعين وسبعمئة قدمت الحرة صاحب المغرب في جماعة كثيرة وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام وأن يدعو له الخطباء في يوم الجمعة ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوهم ويكتب إلى أهل الحرمين بذلك اه ولعل هذا الكتاب آخر غير الذي سردناه يتضمن ما ذكره والله أعلم ونشخة الجواب عن الكتاب الذي سردناه من إنشاء خليل الصفدي شارح لأمية العجم بعد البسمة في قطع النص بقلم الثالث عبد الله ووليه صورة العلامة ولده إسماعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المظفر المنصور عماد الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين محي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والتürk فاتح الأقطار واهب المملك والأمصا إسكندر الزمان مملك أصحاب المناير والأسرة والتخوت والتيجان ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه مالك البحرين خادم الحرمين الشريفين سيد الملوك والسلاطين جامع كلمة الموحدين ولي أمير المؤمنين أبو الفداء إسماعيل بن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون خلد الله تعالى سلطانه وجعل الملائكة أنصاره واعوانه يخص المقام العالي الملك الأجل الكبير المجاهد المؤيد المرابط والمثاغر المعظم المكرم المظفر المعمر الأوسع الأوسع الأوحده الأمجد السني السري المنصور أبا الحسن علي بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أمده الله بالظفر وقرن عزمه بالتأييد في الأصل واليكر سلام وشت البروق وشانعه وانخرت الكواكب ودائعه

واستوعب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه وثناء اتخذ النفحات المسكية طلائعه ونبه بالتغريد في الروض سواجعه وجلى في كأسه من الشفق المحمر دمامه ومن النجوم فواقعه أما بعد حمد الله على نعم أدت لنا الأمانة في عود سلطنة والدنا الموروثة وأجلستنا على سرير مملكة زواياها بين النجوم مبنوثة وأحسن بنا الخلف عن سلف عهده في الأعناق غير منكورة ولا منكوتة وثلاثه على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم في الكفرة غاية أمله وسؤله صلاة تحط بالرضوان سيولها وتجرب بالفقران ذبولها ما تراسل أصحاب وتواصل أحباب فيوضع للعلم الكريم ورود كتابكم العظيم وخطابكم الفائق على الدر التنظيم تفاخر الخمائيل سطوره ويصبع خد الورد بالخجل منتوره ويحي الرياض اليبانة فالألفات غصونه والخمزات عليها طيبوره ويخلع على الأفاق حلال الأيام والليالي فالطرس صباحه والنفس ديجوره لفظه يطرب ومعناه يعرب فيغرب وبلاغته تدل على أنه آية لأن شمس بيانها طلعت من المغرب فاتخذنا سطوره ريجانا ورجعنا ألفاظه ألقانا ورجعنا إلى الجد قشبين ألقاته بظلال الرماح وورقه بصقال الصفاح وحروفه المعرقة بأفواه الجراح وسطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة يوم الكفاح وانتهينا إلى ما أودعتموه من اللفظ المسجوع والمعنى الذي يطرب طائرته المسموع والبلاغة التي فضح التظبع بيانها المطبوع فأما العزاء بأخيكم الوالد قدس الله روحه وسقى عهده وأحسن لسلفه خلفا بعده فلنا برسول الله أسوة حسنة ولولا الوثوق بأنه في عدة الشهداء يفوز بالجنة يوم العرض قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس في الأفاق ويوقف عند نضارة حدائقه الحدائق وورثنا منه حسن الأخاء لكم والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم وأما الهناء بورائة ملكه والإنخراط مع الملوك في سلكه فقد شركنا لكم منحي هذه المنحة وقابلناها ببناء يعطر النسيم في كل نفحه ووقفنا عليها حمدا جعل الود علينا إيرادا وعلى أنفاس سرحة الروض شرحة وتحققنا به حسن ودكم والجمل وكريم إختاكم الذي لا يمد يد رسخه ولا يميل

وأما ما ذكرتموه من أمر الصفحين الكريمين الشريفين الذين وقفتموهما على الحرمين المنفين وإنكم جهزتم كتابكم الفقيه الأجل الأسنى الأسمى أبا المجد ابن كاتبكم أبي عبد الله بن أبي مدين أعزه الله لتفقد أحوالهما والنظر في أمر أوقافهما فقد وصل المذكور بمن معه في حرز السلامة وأكرمنا

نزلهم وسهلنا بالترحيب سيلهم وجمعنا على بذل الإحسان إليهم شملهم وحضر المذكور بين أيدينا وقربناه وسمعنا كلامه وخاطبناه وأمرنا في أمر الصحفيين الشريفين بما أشرتم ورسما لنوابنا في توخي أوقافهما بما ذكرتم وهذا الوقف المرور جار على أحسن عادة ألّفها وأثبت قاعدة عرفها مرعي الجوانب محمي المنازل والمضارب أمن إزالة رسمه أو إزالة حكمه بدره أبدا في مطالع تمه وزهرة دائما يرقص في كفه لا يزداد إلا تخليدا ولا إطلاق ثبوته إلا تقييدا ولا عنق اجتهاده إلا تقليدا جريا على قاعدة أوقاف ممالكتنا وعادة تصرفاتنا في مسالكتنا وله مزيد الرعاية وإفادة الحماية ووفادة العناية وأما ما وصفتموه نم أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلا ومني به من الكفار حزننا وسهلها فإنه شق علينا سماعه الذي أنكى أهل الإيمان وعدد به نوب الزمان كل قلب بأنامل الخفقان وطالما فزتم بالظفر ورزقتم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة وفر ولكن الحرب سجال وكل زمان لوائره دولة ولرجائه رجال ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسمومة وسالت على عدوكم أباطحهم يقسينا المعوجة وسهامنا المقومة وكحلنا عين النجوم بمراد الرياح وجعلنا ليل العجاج ممزقا بيروق الصفايح واتخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كرات وفرجنا مضايق الحرب بتوالي الكرات وعطفنا عليهم الأعنة وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الأسنان وقلقنا الصخرات بالصرخات وأسلنا العبرات بالرعبات ولكن أين الغاية من هذا المدى المتناول وأين الثريا من يد المتناول وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا أما ما فقدتموه من

الأجفان التي طرفها طيف الإلتاف وأم حرم فئتها الفناء وطاف به بعد الألفاظ فقد روع هذا الخير قلب الإسلام ونوع له الحزن على اختلاف الإصباح والإظلام وهذه الدار بالخطب في السحر ولكن في بقلناك ما يسلي عن وأما ما رأيتموه من الصلح فرأى عقده مبارك وأمر ما فيه فارط عزم وإن كان فينتدرك والأمر يجيء كما يجب لا كما نحب والحروب يزورها نصرها تارة ويغيب مع اليوم غدا وقد برد الله الردى ويعيد الظفر بالعدا وأما عدوكم على فاس المحروسة طلبا لإراحة من عندكم من الجنود وتجهيزا لمن يصل من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود فهذا أمر ضروري للتدبير سروري التتمير لأن النفوس تمل وثير المهاد كيف ملازمة صهوات الجياد وتسام من مجالسة الشرب كيف بممارسة الحرب وتعرض عن دوام اللذة فكيف بمباشرة المنايا الفذة وهذا جبل طارق الذي فتح الله به عليكم وساق هدي هديته إليكم لعله يكون سببا إلى ارتجاع ما شرد وحسما لهذا الطاغية الذي مرد وردا لهذا النازل الذي كدر ورد الصبر لما ورد فعادة الألفاظ بكم معروفة وعزمتكم إلى جهات الجهاد مصروفة وقد تقاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن بطرق وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق وأما ما منحتهم من الخيل العتاق والملابس التي تطلع بدور الوجوه من مشارق الأطواق والأموال التي زكت عند الله تعالى ونمت على الإنفاق فعلى الله عز وجل خلفها ولكم في منازل الدنيا والآخرة سرفها وشرفها وإليكم تساق هدايا أثبتتها وتحفكم تحفها وإذا وصل وفدكم الحاج وأنار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم الداج وكانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا يتحولون تحفا أنتم سببها ويتناولون طرفا في كؤوس الاعتناء بهم ينضد حبيبها وإذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق وسهلنا لهم الرفيق وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى وسألهم ممن إذا

زاروا حجراته الشريفة حازوا الشريفة حازوا الراحة من العناء وفازوا بالنعى وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسبهم مشقة ذلك الدرب ويخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب وغمرناهم بالإحسان في العود إليكم وأمرناهم بما ينهونه شفاها لئيك وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم وتوفر لأخذ الثار حماكم وتخصمك بتأييد تنزلون روضه الأنضر وتجنون به ثمر النصر اليناع من ورق الحديد الأخضر وتتخفكم بسعد لا يبلى قشيبه وعز لا يمحو شيايه مشيية وتحبته المباركة تغادبكم وتراوحكم وتقاوحكم أنفسها المعترية وتتفحكم بمنه وكرمه في سادس رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة قال ابن خلدون ثم شرع السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على إفريقية كما نذكره في كتب نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس فلم يقدر إتمامها وهلك قبل فراغه من نسخها اه وهو يقتضي أن السلطان المذكور ما كتب سوى مصنفين اثنين ويؤيده ظاهر الكتابين المسرودين أنفا مع أنه تقدم النقل عن الشيخ أبي العباس المقرئ أنه وقف على النسخة الموقوفة ببيت المقدس والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر هدية السلطان أبي الحسن إلى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب اعلم أن أرض السودان للمغرب تشتمل على ممالك منها مملكة غانة ومنها مملكة مالي ومنها مملكة كاغو ومنها مملكة برنو وغير ذلك وكان ملك مالي وهو السلطان منسى موسى بن أبي بكر من أعظم ملوك السودان في عصره ولما استولى السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط وغلب بني زيان على ملكهم عظم قدره وطال ذكره وشاعت أخباره في الأفاق فسمما هذا السلطان وهو منسى موسى إلى مخاطبة السلطان أبي الحسن وكان مجاورا لمملكة المغرب على نحو مائة مرحلة في الفقر فأوفد عليها جماعا من أهل مملكته مع ترجمان من الملمتين المجاورين لبلادهم من صنهجة فوفدوا على السلطان أبي الحسن في سبيل التهينة بالظفر فأكرم وفادتهم وأحسن مئواهم ومنقلبهم ونزع إلى مذهبه في الفخر فانتخب طرفا من متاع المغرب وماعونه وشيئا من ذخيرة داره وأسنى الهدية وعين رجالا من أهل دولته كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر الخصي فأوفدهم بها على ملك مالي منسى سليمان لمهلك أخيه موسى قبل مرجع وفده وأوعز إلى أعراب الفلاة من بني معقل بالسير معهم ذاهبين وجاءين فشمم لذلك علي غانم أمير أولاد جرار من معقل وصحبهم في طريقهم امتثالا لأمر لسلطان وتوغل ذلك الركب في الفقر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول الشقة فأحسن منسى سليمان مبرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون السلطان أبا الحسن ويوجبون حقه ويؤدون طاعته ويذكرون من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان أبي الحسن واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به واعلم أن منسى موسى الذي ذكرناه كان من كبار الملوك كما قلنا وهو الذي صحبه أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجي من شعراء الأندلس كان قد لقيه في لموسم بعرفة فحلى بعينه وحظيت منزلته عنده فصحبه إلى بلاده وأقام عنده مصحوبا بالبر والكرامة وبنى للسلطان المذكور قبة رائعة فازدادت حظوته عنده قال ابن خلدون أطرف أبو إسحاق الطويجي السلطان منسى موسى ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته وكان صناع البيدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة فجاءت من أتقن المبانى ووقعت من السلطان منسى موسى موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ووصله باثني عشر ألفا من مثاقيل التبر مثوبة عليها اه وكانت وفاة أبي إسحاق بتنتبكتوا يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة يبع وأربعين وسبعمائة

مصاهرة السلطان أبي الحسن ثانيا مع السلطان أبي بكر الحفصي رحمهما الله قد تقدم لنا ما كان من وقعة طريف وإنه هلك فيها حرم السلطان أبي الحسن من جملتهن فاطمة بنت السلطان أبي بكر الحفصي فلما فقدها أبو الحسن بقي في نفسه منها حنين إلى ما شغفته به من خلالها ولذادة العيش في عشرتها فسمما له من الإعتياض عنها ببعض أخواتها فأوفد في خطبتها وليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد من بني زغبة الهلاليين وكاتب الجباية والعسكر بدولته أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وفقه الفتوى بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان السطي ومولاه عنبر الخصي فوفدوا على السلطان أبي بكر سنة ست وأربعين وسبعمائة فأنزلهم منزل البر والكرامة ثم دس إليه حاجبه أبو محمد عبد الله بن تافراجين غرض وفادتهم وأنهم قدموا خاطبي بعض كرامته لسلطانهم فأبى من ذلك صونا لحرمة عن جولة الأقطار وتحكم الرجال مثل ما وقع في ابنته الأولى فلم يزل حاجبه المنور يخضض عليه الشأن ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع ما بينهما من الصهر السبق والمخالصة القديمة والعهود المتأكدة إلى أن أجاب وأسعف من الصهر السبق والمخالصة القديمة والعهود المتأكدة إلى أن أجاب وأسعف وجعل ذلك للحاجب المذكور فاتعد الصهر بين السلطانيين على ابنته عزونه شقيقة ابنه أبي العباس الفضل بن أبي بكر صاحب بونة وأخذ الحاجب في شوار العرس وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال مقام الرسل بتونس إلى أ استكمل الجهاز فارتحلوا منها في ربيع سنة سبع وأربعين وسبعمائة وأوعز السلطان أبو بكر إلى ابنه الفضل شقيق العروس المذكورة أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياما بحقه وبعث من بابه جماعة من مشيخة الموحدين فوفدوا جميعا على السلطان أبي الحسن واتصل بهم الخبر في طريقهم بوفاة السلطان أبي بكر فجأة ليلة الأربعاء ثاني رجب من السنة المذكورة فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عند ما وصلوا إليه واستبلغ في إكرامهم وأجمل موعد

أخيها الفضل بسلطانه ومظاهرته على تراث أبيه فاطمأنت به الدار عند السلطان أبي الحسن إلى أن سار في جملته وتحت لوائه إلى إفريقية كما نذكره إن شاء الله غزو السلطان أبي الحسن إفريقية واستيلائه على تونس وأعمالها كان السلطان أبو بكر الحفصي رحمه الله قد عهد بالأمر بعده لابنه أبي العباس أحمد وكان أوفد على السلطان أبي الحسن حاجبه ابا القاسم بن عتو في غرض له وأصبحه كتاب العهد إلى السلطان المذكور ليوافق عليه فوقف عليه السلطان أبو الحسن وكتب على حشايتيه بخطه ووافقه عليه رحمه الله وأحكم العقد ف بذلك ولما مات السلطان أبو بكر كان ولي العهد غائبا عن الحضرة فبايع أبو محمد بن تافراجين لابنه عمر ذكر الشيخ أبو العباس الوائشريسي في أفضية المعيار عن الشيخ ابن عرفة أن سلطان إفريقية أبا بكر الحفصي كتب العهد لولده أحمد فلما توفي عرفة أن سلطان إفريقية أبا بكر الحفصي كتب العهد لولده امد فلما توفي السلطان المذكور أحضر أبو محمد بن تافراجين قضاي تونس قاضي الجماعة أبا عبد الله محمد بن عبد السلام وقاضي النكحة أبا عبد الله الأجمي وأمرهما أن يبايعا ولد الخليفة عمر فقالا كي فبايعوه ونحن شهدنا بيعة أخيه أحمد والتزامناها وكان الحاجب ابن تافراجين نبيلاً فلما دخلنا أحضر الحاجب المذكور أهل العقد والحل وأمرهم أن يبايعوا عمر فبايعوه فلما خرج القاضي وجد البيعة قد حصلت وكان في انتظار أحمد المشهود له بالعد وهو غائب بقصة خوف الفتنة فبايع القاضي وكان ابن عرفة يستصوب فعل الحاجب وامتناع القاضيين أولا وبيعتهم ثانيا ثم قدم ولي العهد ووقع بينه وبين أخيه قتال وجرت خطوب كان في آخرها قتل ولي العهد وقتل وليه أبي الهول بن حمزة أمر الكعوب من عرب سليم في آخرين منهم وقطع عمر

أيضا أخويه عبد العزيز وخالد من خلاف فهلكا وكان الحاجب أبو محمد بن تافراجين قد حس بالشر من جهة عمر المتغلب وتوقع النكبة من جانبته فتسلل إلى قصره وأخذ ما خف من ذخيره ولحق بالسلطان أبي الحسن وقص عليه الخبر وأغرراه بتملك إفريقية وأوجب عليه النظر للمسلمين فيها وكان السلطان أبو الحسن يتمنى ذلك لولا مكان صهره أبي بكر فأقام بنحين لها الأوقات ويترقب لها الفرص حتى كانت هذه وإنما تتجع المقالة في المرء إذا صادقت هوى في القواد فاطهر أبو الحسن الإمتعاض لما فعله عمر بأخيه ولي العهد من منعه من حقه أولا ثم عراقه دمه ثانيا لا سيما وقد كان أعطى خط يده بالموافقة على العهد المذكور فأجمع الحركة إلى إفريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر أخو أبي الهول المقتول مع ولي العهد فاستعداه على عدوه ففتح السلطان أبوة الحسن ديوان الطعاء ونادى في الناس بالمسير إلى إفريقية وأزاح عليهم وعسكر بظاهر تلمسان ثم نهض في صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعائة بجر الدينار بما حملت بعد أن عقد لابنه الأمير أبي عنان على المغرب الأوسط وعهد إليه بالنظر في أموره كافة وجعل إليه جبايته وقدمت عليه في طريقه أعراب إفريقية وولاية قابس وبلاد الجريد وأطاعته طرابلس والزاب وجباية وصاحبها يومئذ أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر ولما وصل قسطنطينة خرج عليه أبناء الأمير أبي عبد الله بن أبي بكر ولما وصل إلى قسطنطينة خرج إليه أبناء الأمي أبي عبد الله بن أبي بكر فبايعوه فأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوحدة وأقطعهم جبايتها وأنزل بقسطنطينة خلفاءه وعماله وقد كان صرف حابيا عبد الله صاحب بجاية إلى ندرومة فأزل بها وأقطعته الكفاية من بجايتها ثم وفد عليه بنو حمزة بن عمر أمراء الكعوب من سليم فأخبروه بإجفال عمر المتغلب بتونس مع طاعة أولاد مهلهل واستحثوه في اعتراضهم قبل لحاقهم بالفقر فشرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو بن يحيى العسكري وتلوم السلطان أبو الحسن بقسطنطينة وعرض جيوشه بسطح لجعاب منها ثم ارتحل على أثرهم وأخذ حمو بن يحيى السير مع ناجعة أولاد أبي الليل فلقوا بعمر صاحب تونس بأرض الحامة من ناحية قابس فدافعوا عن

أنفسهم بعض الشيء ثم انهزموا وكبا بعمر دزاده في نفاقه بعض البييرابيع وانجلى الغبار عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهما وأوثقهما قائد العسكر بيه حتى إذا جن الليل ذبحهما خوفا من أن تقتكهما العرب من يده وبعث برأسيهما إلى السلطان أبي الحسن فوصل إليه ببجاية وخلص الفل من تلك الواقعة إلى قابس فتقبض عبد الملك بن مكي صاحبها على رجالات من أهل الدولة كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة فبعث بهم ابن مكي إلى السلطان أبي الحسن ممقرنين في الأصفا فاما ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطعهم من خلاق لغتيا الفقهاء بجرايتهم واعتقل الباقي وسرح السلطان عساكره إلى تونس وعقد عليهم لصهره على ابنته يحيى بن سليمان بن بني عسكر فاحتلوا بتونس ثم جاء السلطان على أثرهم فنزل بظاهرها يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين وسبعائة وتلقاه وفد تونس وشيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشورى فاتوه طاعتهم وانقلبوا مسرورين بولايته مغتبطين بملكته وكانت تونس يومئذ مشحونة بالأعلام الأكابر منهم ابن عبد السلام وابن عرفة وابن عبد الرفيع وابن رشد الحفصي وابن هارون وأعلام آخرون ثم عبا السلطان أبو الحسن يوم السبت مواكبه لدخول الحضرة فصف جنوده سماطين من معسكره يسبحون إلى باب البلد نحو أربعة أميال وركبت بنو مريين من مواكزهم من جموعهم وتحت راياتهم وركب السلطان من قسقاطه وعن يمينه وليه عريف بن يحيى كبير سويد ووليه أبو محمد عبد الله بن تافراجين وعن يساره الأمير أ و عبد الله محمد بن أبي زكرياء وهو أخو السلطان أبي بكر ووليه الأمير أبو عبد الله ابن أخيه كانا معتقلين بقسطنطينة فأطلقهما السلطان أبو الحسن وصحبوه إلى تونس فكانوا طراز ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعصاب بني مريين وكبرائهم وهدرت بطوله وخفقت راياته وكانت يومئذ نحو المائة وجاء السلطان والمواكب تجتمع عليه صفافا إلى أن وصل إلى البلاد

وقد ماجت الأرض بالجيش قال ابن خلدون وكان يوما لم ير مثله فيما عقناه قلت كان سن ابن خلدون يومئذ ست عشرة سنة لأنه ولد غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة وكان قدم في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من أعلام المغرب كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم في ثم دخل القصر الخلافي وخلع على أبي محمد بن تافراجين وقرب إليه فرسا بسرجه ولجامه وطعم الناس بين يديه وانتشروا إلى منازلهم ثم دخل السلطان أبو الحسن مع ابن تافراجين إلى حجر القصر ومسكن الخلفاء فطاف على تلك البساتين وسرح نظره فيها واعتبر بجالها ثم أفضى منها إلى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بصببة تونس في عسكر حمايتها ثم ارتحل من الغد إلى القيروان فجاء في نواحيها ووقف على آثار الأولين ومصانع الأقدمين والطول المائلة لصنهاجة والعبديين والنمس البركة في زيارة القبور التي نذكر للصحابة والسلف من التابعين والأولياء في ساحتها ثم سار إلى سوسة ثم إلى المهديّة ووقف على ساحل البحر منها وتطوف في معالمها ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبله أشد قوة وأثارا في الأرض واعتبر بأحوالهم ومر في طريقه بقصر الأجم رباط المستير وانكأ راجعا إلى تونس فاحتل بها غرة رمضان من السنة ونزل المسالج على ثغور إفريقية وأقطع بني مريين البلاد والضواحي وأمضى إقطاعات العرب التي كانت لهم من قبل الحفصيين واستعمل على الجهات وخفقت الأصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدي أهل الفساد وانقرض أمر الحفصيين في هذه المدة إلا أنه عقد على بونة لصهره الفضل ابن السلطان أب بيكر إكراما لصهره ووفادته عليه واتصلت ممالك السلطان أبي الحسن ما بين مسراته إلى السوس الأقصى من هذه العدة وإلى رندة من عدوة الأندلس ودخل المغرب بأسره في طاعته وحذر ملوك مصر والشام ما شاع من بسطته وانفاسخ دولته ونفوذ كلمته والملك لله يؤتية من يشاء من عبادة والعاقبة للمتقين وقد كان الشعراء رفعا عليه قصائد في سبيل التهينة بالفتح وكان سابق

الحلية يومئذ أبو القاسم الرحوي في قصيدة يقول في مطلعها أجابك شرق إذ دعوت ومغرب فمكة هشت للقاء ويشرب وهي طويلة تخطيناها اختصارا والله تعالى ولي التوفيق بمنه انقاض عرب سليم بإفريقية على السلطان أبي الحسن وما نشأ عن ذلك قد تقدم لنا عند الكلام على العرب الداخلين إلى المغرب أن جمهورهم كان من بني جشم بن معاوية بن بكر وبني هلال بن عامر بن صعصعة وبين سليم بن منصور وإن الذين بقوا منهم بإفريقية هم بنو سليم وبعض هلال وكان لهم استنطالة على الدول واعتزاز عليها فكان ملوك الحفصيين يتألفونهم بالولايات والإقطاعات ونحو ذلك وكان السلطان أبو الحسن المريني حاله مع عرب المغرب الأقصى غير حال الحفصيين مع عرب إفريقية وملكته لأهل باديتهم غير ملكتهم لأهل باديتهم فلما ورد إفريقية واستولى عليها رأي من اعتزاز العرب بها على الدولة وكثرة إقطاعاتهم من الضواحي والأمصار ما تجوز الحد المعتاد عنده فأنكر ذلك وضرب على أيديهم وعوضهم عنه بأعطيات فرضها لهم في الديوان من جملة الجند واستكثر جبايتهم فنقصهم الكثير منها ثم شكا إليه الرعية من أولئك العرب وما ينالونهم به من الظلمات وضرب الإتاوة التي يسمنونها الخافرة فقبض أيديهم عن ذلك كله وتقدم إلى الرعايا



بمنعهم منها فارتابت العرب لذلك وفسدت ضمائرهم وثقلت وطأة الدولة المرينية عليهم فترصبوا بها وتحزبوا لها وتعاونت ذنابهم في بواديههم فاجتمعوا وأغاروا على قباطين بني مريين ومسالحهم في تغور إفريقية حتى أنهم أغاروا على ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان في مرعاها والسطان يومئذ بها فعظم عليه ذلك وحقد على كبرائهم وأظلم الجو بينه وبينهم ثم وقد عليه أيام الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة أمير بني كعب وأخوه أمد وخليفة بن عبد الله من بني مسكين وابن عمه خليفة بن

أبي زيد أولاد القوس فأنزلهم السلطان أبو الحسن وأجمل لقاءهم مغضبا عما صدر من غوغاتهم ثم رفع إليه عبد الواحد بن اللحياني من أولاد الملوك الحفصيين أنهم يعثروا إليه مع بعض حاشيته يطلبون منه الخروج معهم لينصبوه للأمر بإفريقية وأنه خشي على نفسه بادرة السلطان فتراها إليه ن ذلك فقامت قيامة السلطان أبي الحسن عند سماعه ذلك فأحضرهم وأحضر الحفصي معهم وقرره بما دار بينه وبينهم فيهتوا وأنكروا فوبخهم وأم ربههم فسبحوا إلى السجن ثم فتح ديوان العطاء وعرض الجند لغزوهم وعسكر بسجوج من ظاهر تونس وذلك بعد قضاء نساك الفطر من سنة ثمان وأربعين وسبعمئة واتصل الخبر بأولاد أي الليل وأولاد القوس باعتقال وفدهم وجمع السلطان لغزوهم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وانطلقوا في إحيائهم يحزبون الأحزاب ويستشيرون الثوار وعطفوا على أعدائهم من أولاد مهلهل فوصلهم بعد القطيعة وكانوا بعد مقتل سلطانهم عمر بن أبي بكر قد لحقوا بالفقر خوفا من أبي الحسن لأنهم كانوا شيعة لعمر المذكور فلما وقع بين أبي الحسن وبين أولاد أبي الليل ما وقع ركب قتيبة بن حمزة إليهم ومعه أمه ونساء أولادها ففتارحوا عليهم ورغبوا إليهم في الاجتماع معهم على الخروج على السلطان ومن منابذته فكان أولاد مهلهل إليها مسرعين فارتحلوا معهم وتوافت أحياء سليم من بني كعب وبني حكيم بتوزر من بلاد الجردى فتأامروا وتصافوا وأهدروا الدماء بينهم وتبايعوا على الموت وصاروا نفسا واحدة على تباين أغراضهم وفساد ذات بينهم والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للأمر فدلهم بعض سماسرة الفتى على رجل من بني عبد المؤمن وهو أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر ملوك بني عبد المؤمن وهو أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر ملوك بني عبد المؤمن وكان يحترف بالخياطة في توزر بعد ما طوحت به الطوائح فانطلقوا إليه وجاؤوا به ونصبوه للأمر وجمعوا له شيئا من الفساطيط والخيل والألات والكسوة

ارتحل من ساحة تونس يريد العرب فوافاهم بالموضع المعروف بالبتينة بين بسبب تونس وبسيط القيروان فأجفلوا أمامه فأتبعتهم وألح عليهم إلى أن وصلوا إلى القيروان فلما رأوا أن لا ملجأ لهم منه عزموا على البات له وتحالفوا على الإستماتة وكان عسكر السلطان أبي الحسن يومئذ مشحونا بأعدائه من بني عبد الواد المغلوبين على ملكهم ومغراوة وبني توجين وغيرهم فسدوا إلى العرب أثناء هذه المناوشة بأن ينجزوا السلطان غدا حتى يتحزوا إليهم ويجروا عليه الهزيمة فأجابوهم إلى ذلك وصبحوا معسكر السلطان من الغد فركب إليهم في التعبية ولما تقابلوا تخيز إليهم الكثير ممن كان معه واختل مستجيرا بها ودافع عنه أهلها وتسابقت العرب إلى معسكره فانتبهوه بما فيه من المضارب والعدد والألات ودخلوا فسطاط السلطان فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه وأحاطوا بالقيروان وزحفت غليها حللهم فدارت بها سايجا واحدا وتعاونت ذنابهم بأطراف البقاع وأجلب ناعق الفتنة منهم بكل قاع واضطربت إفريقية نارا وكانت الهزيمة يوم الإثنين سابع محرم من سنة تسع وأربعين وسبعمئة وبلغ الخبر إلى تونس وكان السلطان قد خلف بها عند رحيله الكثير من أبنائه وحرمه ووجوه قومه وأمناء بيت ماله وبعض الحاشية من جنده فحاصنوا بالقصبة وأحاط بهم الغوغاء كي ستنزلوهم عنها فامتنعوا عليهم وكانوا بها أملاك منهم وكان الأمير أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب في هذا التاريخ فوافاه الخبر قرب القيروان فانفض معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم في القصبة ثم نزع أبو محمد بن تافراجين عن السلطان أبي الحسن وكان محصورا معه بالقيروان وكان قد سئم صحبته ومل خدمته لأنه كان أيام حجابته للسلطان الحفصي مستبدا عليه مفضا إليه في جميع أموره فلما أتوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على تلك العادة لأنه كان قائما على أموره بنفسه وليس التفويض للوزراء من شأنه وكان ابن تافراجين يظن أنه سيوكل إليه أمر إفريقية وينصب معه لملكها الفضل ابن السلطان أبي بكر شقيق زوجته وربما زعموا أنه عاهده على ذلك

فكا في قلبه من الدولة المرينية مرض وكان العرب أيام عزمهم على الخروج يفوضونه بذات صدورهم فلما حصلوا على البيعة من الظهور على السلطان وحصاره بالقيروان احتالوا في أمر ابن تافراجين فبعثوا إلى السلطان يطلبون منه بعثه إليهم ليفوضوه في الرجوع إلى الطاعة والانخراط في سلك أبي الحسن فقلدوه حجابة سلطنتهم ابن أبي دبوس ثم سرحوه إلى حصار من بالقصبة من بني مريين وطمعوا في استيلاء عليها وفض ختامها فسار ابن تافراجين إليها وانضم إليه أشياخ الموحدين في زعانف م الغوغاء وأحاطوا بالقصبة فم لحق بهم ابن أبي دبوس فأعدودها القتال ونصبوا عليها المجانيق فامتعت عليهم ولم يغتوا شيئا وابن تافراجين في أثناء ذلك يحاول الفرار بنفسه لاضطراب الأمور واختلال الرسوم إلى أن بلغه خلوص السلطان أبي الحسن من القيروان إلى سوسة وكان من خبره أن العرب بعد حصارهم إياه بالقيروان اختلفت كلمتهم لديه وكان قد دخل أولاد مهلهل في الإفراج عنه واشترط لهم على ذلك أموالا ونذر بنو أبي الليل بذلك فاضربت كلمتهم ودخل عليه قتيبة بن حمزة منهم بمكانه من القيروان زعيما بالطاعة فتقبله وأطلق أخويه خالدا وأحمد ومع ذلك فلم يطمئن إليهم ثم جاء إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة بن أبي زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وعاهده على الإفراج عنه والقيام معه حتى يصل إلى مأمته فخرج معهم ليلا على التعبية وذوبان العرب تطأ أنباله وضباعها تنوشه إلى أن استقر بسوسة وأمن على نفسه وقد أتى النهب على جل ما ما كان معه ولما سمع ابن تافراجين وهو محاصر للقصبة بوصول السلطان إلى سوسة تسلل من أصحابه وركب البحر إلى الإسكندرية فأصبحوا وقد فقدوه فاضطرب أمرهم وارتاب سلطانهم ابن أبي دبوس لما علم بخبره فانفض جمعهم عن القصبة وأفرجوا عنها وخرج بنو مريين فملكوا البلد وخرّبوا منازل الحاشية بها ثم ركب السلطان أبو الحسن من سوسة البحر فاحتل بتونس في ربيع الآخر سنة تسع وأربعين

وسبعمئة فاجتمع شمله واستتب أمره وكتب إلى صاحب مصر في التقبض على ابن تافراجين فأجاره بعض الأمراء وانصرف لقضاء فريضة الحج واعتمل السلطان أبو الحسن في إصلاح أسوار تونس وإجدارة الخندق عليها وأقام لها من الصيانة والحصانة رسما دفع به في نحر عدوه وبقي له ذكره من بعده ثم أجلب العرب وسلطانهم ابن أبي دوس على تونس ونزلوا أبا الحسن بها واستبلغوا في حصاره وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان فعول عليهم ثم راجع بنو حمزة بصانرهم وصاروا إلى مهادنته فعقد لهم السلم ودخل عليه عمر بن حمزة وأفدا فحبسه حتى قبض إخوانه على أميرهم ابن أبي دوس وقادوه إليه استبلاغا في الطاعة وإنمحاضا للولاية فتقبلهم وأودع ابن أبي دبوس السجن وعقد لصهر بينه وبين عمر بن حمزة فزوج ابنه عمر بابنه أبي الفضل واختلفت أحوال هؤلاء العرب على السلطان أبي الحسن في الطاعة تارة والانحراف أخرى مدة إقامته بتونس إلى أن كان ما نذكره والله غالب على أمره انتفاض الأطراف وثورة أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن واستيلاؤه على المغرب قد تقدم لنا أن السلطان أبا بكر الحفصي رحمه الله لما زوج ابنته من السلطان أبي الحسن بعث معها في زفافها شقيقها أبا العباس الفضل بن أبي بكر وأن خبر وفاة والده أدركه وهو بالطريق ولما وصل إلى السلطان أبي الحسن عزاه عن مصاب أبيه ووعد بالمظاهرة على ملكه فيقي عنده بتلمسان إلى أن نهض في صحبته إلى إفريقية فلما غلب السلطان أبو الحسن على بجاية وقسنطينة وارتحل إلى تونس عقد له على بونة التي كان يلي عملها أيام أبيه فانقطع أمره وفسد ضميره وطوى على البث حتى إذا كانت نكبة القيروان سما إلى التوثب على ملك سلفه وكان أهل قسنطينة وبجاية قد سئموا ملكة بني مريين ويرموا بولايتهم لمخالفتهم بعض العوائد التي كانت لهم مع الملوك

الحفصيين ولأن الصبغة الحفصية كانت قد رسخت في نفوسهم جيلا بعد جيل فصعب عليهم نزعها نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل فأشربوا إلى الثورة على المرينيين لما سمعوا بنكبة القيروان واتفق أن قدم قسنطينة ركب من أهل المغرب قاصدين إلى السلطان أبي الحسن وكان فيهم عمال الجباية قدموا بجبايتهم عند رأس الحول كما جرت به عادتهم في ذلك ومعهم ابن صغير للسلطان اسمه عبد الله وفيهم وفد من رؤساء الفرنج بعثهم طاعيتهم بقصد التهنة بفتح إفريقية ومعهم تاشفين ابن

السلطان الذي أسر يوم طريف أطلقه الطاغية بعد أن أصابه خبال في عقله وأرسل معه بهدية نفيسة وفيهم أيضا فتوافت هؤلاء الوفود بقسنطينة وقد طم عباب الفتنة على إفريقية فأراد غوغاؤها وانتهت ما معهم ثم تخلصوا منهم في خبر طويل وفي أثناء ذلك ثار الفضل بن السلطان أبي بكر بونة فراسله أهل قسنطينة في القنوم عليهم والقيام بأمرهم فقدمها وجرت خطوب واتصل بأهل بجاية ما فعله أهل قسنطينة فتبعوهم على رأيهم من الانتقاض وثبوا على من كان عندهم من حامية بني مريين فاستلبوهم وأخرجوهم عراة واستدعوا الفضل بن أبي بكر من قسنطينة فبادر إليهم واستولى على بجاية واستتب أمره بها وأعاد ألقاب الخلافة وبينما هو يحدث نفسه بغزو تونس ثار عليه أبناء أخيه أبي عبد الله بن أبي بكر فانتمزوا منه بجاية وردوه إلى عمله الأول وانتقض على السلطان أبي الحسن أيضا سائر زناتة من بني عبد الواد ومغراوة وبني توجين وبليغ بنو عبد الواد لعثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يعمراسن بن زيان وساروا إلى تلمسان فاستجدوا بها ملك سلفهم في أخبار طويلة وجرت هذه الخطوب والسلطان أبو الحسن مقيم بتونس تغاديه العرب

بالمقتل وتراوحه وتزوج عليه تارة وتستقيم أخرى وطال مقامه بها وعميت أنبأؤه على أهل المغرب وحدث في الخلق الوباء العظيم الذي عم المشرق والمغرب فأرجف بموته واضطربت الأحوال بالمغرب الثلاثة الأدنى والأوسط والأقصى واصل ذلك بالأمير أبي عنان وهو يومئذ تلمسان كان أبوه قد ولاه عليها عند ذهابه إلى إفريقية حسبا من فلما أرحف بمهلك أبيه وتساقط إليه الفل من عسكره عراة زرافات ووجدنا تطول إلى الاستئثار يملك أبيه دون سائر إخوته وكان مرشحا عنده لذلك لمزيد فضله عليه في غير وصف واتفق أن كان عنده رجل من بني عبد الواد اسمه عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار وكان ينسب إلى علم الحدثان ولما سافر السلطان إلى إفريقية كان هذا الرجل أول المرجبين به وأنه لا يرجع من سفرته وأن الأمر صائر إلى أبي عنان ونجح ذلك في أبي عنان فاشتمل على ابن جرار وخلطه بنفسه فلما ورد الخبر بنكبة السلطان وانحصاره أولا بالقيروان ثم بتونس لم يسترب أبو عنان في صدق ابن جرار وخلطه بنفسه فلما ورد الخبر بنكبة السلطان وانحصاره أولا بالقيروان ثم بتونس لم يسترب أبو عنان في صدق ابن جرار وأنه على بصيرة من أمره فتحفز للوثية وصمم على الثورة ثم أكد عزمه على ذلك ما اتصل به من خبر ابن أخيه منصور بن أبي مالك عبد الواحد بن أبي الحسن بفاس الجديد وأنه ثار بها وفتح ديوان العطاء واستلحق واستركب ورام التغلب على المغرب واحتيازا الأمر لنفسه دون غيره وروى في ذلك بأنه إنمأ عزم على الذهاب إلى إفريقية لاستنفاد السلطان من هوة الحصار يسر من ذلك حسوا في ارتغاء وتظن لشأنه الحسن بن سليمان بن يزريكن عامل القصبة بفاس وصاحب الشرطة بالضواحي فاستأنده في اللحاق بالسلطان فأذن له راحة منه فلحق بأبي عنان على حين أمضى عزيمته على التوثب فأخرج ما كان بقصر السلطان بالمقصورة من المال والذخيرة وجاهر بالدعاء لنفسه وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع الثاني من سنة تسع وأربعين وسبعائة فبايعه المملأ وقرأ كتاب بيعتهم على الأشهاد ثم بايعه العامة وانفض المجلس وقد استتب سلطانه ورست قواعد ملكه وركب في العبية والآلة حتى نزل بقبة الملعب وطعم الناس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن سليمان بن

يرزكين القائم عليه قم لفارس بن ميمون بن وردار وجعله رديفا له ورفع مكان ابن جرار عليهم كلهم واختص لمناجاته كاتبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو ثم فتح الديوان وجعل يستركب كل من تساقط إليه من قبل أبيه ويخلع عليهم وارتحل إلى المغرب وعقد على تلمسان لابن جرار وانزله بالقصر القديم منها فاستمر بها واستبد إلى أن قدم عليه بنو عبد الواد مجتمعين على سلطانهم عثمان بن عبد الرحمن فقتلوه غرقا في خبر طويل ولما انتهى الأمير أبو عنان إلى وادي الزيتون وشى إليه بالوزير الحسن بن سليمان وأنه عازم على الفتك به بتازا تقربا إلى السلطان أبي الحسن ورفاء بطاعته وأنه قد داخل في ذلك حافده منصور بن أبي مالك الثائر بفاس وأطلعه هذا الواشي على كتاب الوزير في ذلك فلما قرأه تقيض عليه ثم قتله خنقا في مساء ذلك اليوم وأغذد السير إلى المغرب وانتهى الخبر إلى منصور صاحب فاس فزحف للقائه والتقى الجمعان بوادي أبي الأجراف من ناحية تازا فأختل مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق بفاس الجديد فتحصن بها وتبعه أبو عنان فأناخ عليه خارجها وقد تسابل الناس على طبقاتهم إليه وأتوه طاعتهم وكان قد سلك مع الرعية والجنود والبذل والاستيلاف طريقا لم يسبق إليه وكانت منازلته لفاس الجديد في ربيع الآخر من السنة المذكورة فأخذ بمخنفها وأجمع الأيدي والفعل على الآلات لحصارها ثم أرسل إلى مكناسة بإطلاق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة منها فأطلقوا ولحقوا به وحاصروا معه فاس الجديد وضيقوا عليها إلى أن ضاقت أحوال أهلها واختلفت أهواؤهم ونزع إلى أبي عنان أهل الشوكة منهم ثم إن إدريس بن عثمان بن أبي العلاء احتل في فتح البلد بأن أظهر النزوع عن أبي عنان إلى منصور المحصور فدخل البلد وتمكن منه وثار به فيمن معه من حاشيته واقتحمه الأمير أبو عنان عليهم ونزل منصور على حكمه فاعتقله إل أن قتله بمحبسه واستولى على ذلك الملك وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهنئة بالبيعة وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان

أبي الحسن ثم رجعوا عن ذلك وثاروا على عاملهم عبد الله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء فقبضوا عليه وقادوه إلى أبي عنان مبايعين له متقربين به إليه وتولى كبر ذلك فيهم زعيمهم الشريف أبا العباس أحمد بن محمد بن رافع الصقلي من آل الحسين السبط رضي الله عنه كان سلفه قد انتقلوا من صقلية إلى سبتة فاستوطنوها ثم استوطنوا بعدها حضرة فاس واستوسق للأمير أبي عنان ملك المغرب واجتمع إليه قومه من بني مريين إلا من أقام مع أبيه بتونس وفاء بحقه وحص جناح أبيه عن الكرة على بني كعب الناكثين لعهد الناكثين عن طاعته فأقام السلطان أبو الحسن رحمه الله بتونس يرجو الأيام ويأمل الكرة والأطراف تنتقض والخوارج تتجدد وقط من كان معه م حشيته وسثموا المقام بأرض ليست لهم بدار مقام فحسبوا له النهوض إلى المغرب فأسعفهم وعزم على الرحلة كما نذكره إن شاء الله وفي هذه المدة كتب إليه السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر كتابا من إنشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب يسأله عن أحواله ويعزيه عن مصابه ويتأسف له ونص الكتاب ذات استباق والقلوب على حبه ذات اتفاق وعناية الله تعالى عليه مديدة الرواق وأياديه الجمدة فبالأعناق ألزم من الأطواق وأحاديث مجده سمر النوادي وحديث الرفاق مقام محل أبينا الذي شأن قلوبنا الأهتمام بشأنه وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى والصنائع الإلهية تحط ببابه والأطراف الخفية تعرس في جنبه والنصر العزيز يحف بركابه وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه والقلوب الشجية لفرأه مسرورة باقترابه معظم سلطانه الذي له الحقوق المحتومة والفواضل المشهورة والمعلومة والمكارم المسطورة المرسومة والمفاخر المنسوقة المنظومة الداعي إلى الله تعالى في وقاية ذاته المعصومة وحفظها على هذه الأمة المرحومة الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر سلام كريم طيب عميم

كما سطعت في غياهب الشدة أنوار الفرج وهبت نواصم أطراف الله عاظة الأراج يخص مقامكم الأعلى ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد اله جالي الظلم يعد اعتكارها ومقيل الأيام من عثارها ومزين سماء الملك بشموسها المحتجة وأقمارها ومريح القلوب من وحشة أفكارها ومنشئ سحب الرحمة على هذه الأمة بعد افتقارها وشدة اضطرابها ومتداكها بالطف الكفيل بتمهيد أوطانها وتبشير أوطانها والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله صفوة النبوة ومختارها ولباب مجدها السامي ونجارها نبي الملاحم وخائض تيارها ومذهب رسوم الفتن ومطفئ نارها الذي لم ترعه الشدائد باضطراب بحارها حتى بلغت كلمة الله ما شاءت من سطوع أنوارها ووضوح أثارها والرضا عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهدته على إجلاء الحوادث وإمرارها وباعوا نفوسهم في إعلاء دعوته الحنيفية وإظهارها والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال السعادة واستمرارها وانسحاب العناية الإلهية وإسدال أستارها حتى تقف الأيام بياكم موقف اعتذارها وتعرض على مثابكم ذنوبها رغبة في اغتفارها فإنا كتبنا إليكم كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالح الملوك من مواهب السعادة وعرفكم عوارف الآلاء في إصدار أمركم الرفيع وإيراده وأجرى الفلك النوار بحكم مراده وجعل لكم العاقبة الحسنى كما وعد به في محكم كتابه المبين للصالحين من عباده من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وليس بفضل الله الذي عليه في الشدائد الاعتماد وإلى كنف فضله الاستناد ثم ببركة جاه نبينا الذي وضح بهدايته سبيل الرشاد إلا الصنائع التي تشام بوراق اللطف من خلالها وتخبر سيماها بطلوع السعود واستقبالها وتدل مخايل يمنها على حسن مآلها الله الحمد على نعمه التي نرغب في كمالها ونستدر عذب

زلالها وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه والسرور بسعادة أيامه والدعاء إلى الله تعالى في إظهاره وإتمامه ما لا تفي العبارة بأحكامه ولا تتعاطى حصر أحكامه وإلى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاؤه وصان سلطانكم وتولاه فقد علم

الحاضر والغائب وخلص الخلوص الذي لا تغييره الشوائب ما عندنا من الحب الذي وضحت منه المذاهب وإنه لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التي صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمة وجعل على العباد والبلاد والوقاية والنعمة لا يستقر بقولنا القرار ولا نتأني بأوطاننا الأوطار تشوقا لما نتيجته لكم القدر وبيروزه من سعادتك الليل والنهار ورجاؤنا في استئناف سعادتكم يشند على الأوقات ويقوي علما بأن العاقبة للفقوى وفي هذه الأيام عميت الأنبياء وتكالبت في البر والبحر الأعداء واختلفت الفصول والأهواء وعاقبت الوارد الأتواء وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ولو كنا نجد للاتصال بكم سببا أو نلقي لإعانتكم مذهباً لما شغلنا البعد الذي بيننا اعترض والعدو بساحتنا في هذه الأيام ربيض وكان خديكم الذي رفع من الوفاء راية خافقة واقتنى منه في سوق الكساد بضاعة نافعة اشيق الأجل الأوفى الأود الأخلص الأصفى على أبو محمد بن أجانا سنى الله مأموله وبلغه من سعادة أمركم سؤله وقد روى على بابنا وتحيز إلى اللحاق بجانبا ليتيسر له من جهتنا القدوم ويتأني له بإعانتنا الغرض المروم فبينما نحن ننظر في تميم غرضه وإعانتته على الوفاء الذي قام بمقتضاه إذا تصل بنا خبر فزقورتين من الأجناف التي استعنتم بها على الحركة والعزيمة المقترنة بالبركة حطت إحداهما بمرسى المنكب والأخرى بمرسى المرية في كنف العناية الإلهية فتلقينا من الواصلين فيها الأنبياء المحققة بعد التباسها والأخبار التي يعني نصها عن قياسها وتعرفنا ما كان عزمكم على السفر وحركتكم المقرونة باليمن والظفر وإنكم استخرتم الله تعالى في اللحاق بالأوطان التي يؤمن قدومكم خائفها ويؤلف طوائفها ويسكن راجفها ويصلح أحوالها ويذهب أهوالها وإنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهريين بالعزم المبرور والسعد الموفور واليمن الرائق السفور والأسطول المنصور فلا تسألوا عن انبعاث الأمل بعد سكونها ونهوض طيور الرجاء من وكونها واستبشار الأمة المحمدية منكم بقرة عيونها وتحقق ظنونها وارتياح البلاد إلى دعوكم التي ألبستها ملابس العدل والإحسان وقلدتها

قلائد السير الحسان وما منها من باح بما يخفيه من وجهه وجهر بشكر الله تعالى وحمده وابتهل في تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم قصده واستئناس نور سعده وكم مطل الانتظار بديون أمالها والمطاوله من اعتلالها وأما نحن فلا تسألوا عمن استشعر دنو حبيبه بعد طول مغيبه إنما هو صدر راجعه فؤاده وطرف ألفه رقاذه وفكر ساعده مراده فلما بعث فلما بلغنا هذا الخبر بادرننا إلى إنجاز ما بذلنا لخديكم المذكور من الوعد واغتنامنا ميقات هذا السعد ليصل سببه بأسبابكم ويسرع لحاقه بجنابكم فعنده خدم نرجو أن يبسر الله تعالى بحوله أسبابها ويفتح بنبيتكم الصالحة أبوابها وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذي ندين له بالتشيع الكريم الوداد ونصل له على بعد المزار ونزوح الأقطار سبب الاعتداد ما يعني عن القلم والمداد وقد القينا إليه من ذلك كله ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد وكتبنا إلى من بالسواحل من ولاتنا نحد لهم ما يكون عليه عملهم في بر من يرد عليهم من جهة أبوتكم الكريمة ذات الحقوق العظيمة والأبيادي الحديثة والقديمة وهم يعملون في ذلك بحسب المراد وعلى شاكلة جميل الاعتقاد ويعلم الله تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة والموانع الكثيرة والأعداء الذين غصت بهم في الوقت هذه الجزيرة ما قدما عملا على اللحاق لكم والاتصال بسببكم حتى نوفي لأبوتكم الكريمة حقها ونوضح من المسرة طرقها لكن الأعذار واضحة وضوح المثل السائر وإلى الله تعالى نبتهل في أن يوضح لكم من التيسير طريقا ويجعل لكم السعد مصباحا ورفيقا ولا يعدمكم عناية منه وتوفيقا ويتم سرورنا عن قرب بتعريف أنبياتكم السارة وسعودكم الدارة فذلك منه سبحانه غاية آمالنا وفيه أعمال ضراعتنا وابتهالنا هذا ما عندنا بادرننا لإعلامكم به أسرع البدار والله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار بسعادة ملككم السامي المقدر ويبسر ما له من الأوطار ويصل سعدكم ويحرس مجدكم ولسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته اه

ركوب السلطان أبي الحسن البحر من تونس إلى المغرب وما جرى عليه من المحن في ذلك كان الأمير أبو العباس الفضل أبو السلطان أبي بكر الحفصي بعد أن لحق بعمله القدم م بونة قد وفد عليه مشيخة العرب من اولاد أبي الليل وأغروه بملك إفريقية والنهوض إلى تونس ومحاصرة السلطان أبي الحسن بها فأجابهم إلى ذلك ونهض إليها بعد عيد الفطر سنة تسع وأربعين وسبعمائة فحاصرها مدة ثم انفض عنها ثم عاود حصارها ثم انفض عنها ودخل الفقر مع اولاد أبي الليل إلى أن بايعه أهل بلاد الجريد بإشارة أبي القاسم بن عتو المقطوع ودخل في طاعته توزر وقفصة ونقطة والحامة وقابس وجربة وانتهى الخبر إلى السلطان أبي الحسن باستيلاء الفضل على هذه الأمصار واستفحال أمره بها وأنه ناهض إلى تونس فأهله شأنه وخشي على الأمر وكانت بطانته توسوس إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه مع ما أصابهم بتونس من الغلاء والموت الذريع فأجابهم إلى ذلك وشحن أساطيله بالأقوات وأزاح علل المسافرين ولما قضى نسك عيد الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر في فصل الشتاء وهيجان البحر وقلب البد بعد أن عقد لأبيه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين عمر بن حمزة م المصاهرة وتقاديا بمكانه من معرفة الغوغاء وثورتهم به وكانت مدة محاصرة السلطان أبي الحسن بتونس سنة ونصفا واتصل خبر رحيله بالفضل بن أبي بكر وهو ببلاد الجريد فأغذ السير إلى تونس ونزل بها على أبي الفضل المريني ومن كان معه من حاشيته وأهل دولته ثم اقتحمها واتصلت يده بيد أهد البلاد ثم أحاطوا بالقبصة يوم منى حتى استنزلوا أبا الفضل على الأمان فخرج إلى دار أصهاره من بني حمزة فيقي عندهم حتى أنفدوا معه من أوصله إلى أبيه فلحق به بتغر الجزائر وأما السلطان أبو الحسن وجيشه الراكب البحر معه فأنهم لما لججوا احتاجوا إلى الماء فدخلوا مرسى بجاية لخمس ليال من إقلاعه عن تونس فمنعهم صاحب بجاية الحفصي من الورد وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم

فزحفوا إلى الساحل وقتلوا من صدهم عن الماء إلى أن غلبوهم واستقوا وألقوا ثم عصفت بهم الرياح في تلك الليلة وجاءهم الموج من كل مكان وتكسرت الأجناف وغرق الكثير من بطانة السلطان وعمامة الناس وقذف الموج بالسلطان فألقاه على حجر قرب الساحل من بلاد زاوية عاري الجسد مباشرة للموت وقد هلك من كان معه من الفقهاء والعلماء والكتاب والأشراف والخاصة وهو يشاهد مصارعهم واختطاف الموج لهم من فوق الصخور التي تعلقوا بها فمكثوا ليلتهم على ذلك وصبحهم جفن منبقية الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف فيادر أهل الجفن إليه حين رأوه فاحتلموه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواتبوا إليه حين وضع النهار وأبصره فتداركه الله بهذا الجفن فاحتلموه وقذفوا به في مدينة الجزائر وفي نفع الطيب أن أساطيل أب يالحسن كانت نحو الستمانة فغرقت كلها ونجا هو على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغر وهم نحو أربعمائة عالم منهم أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي شارح الحوفي وأبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث يا ابا عمير ما فعل النغير أربعمائة فائدة والأستاذ الزواوي أبو العباس وغير واحد وكان غرق الأسطول على ساحل تدلس وذكر الشيخ أبو عبد الله الأبي في شرح مسلم كلامه على أحاديث العين ما معناه أن رجلا كان بتلك الديار معروفا بإصابة العين فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين وكانت كثيرة نحو الستمانة فنظر إليها الرجل العائن فكان غرقها بقدره الله الذي يفعل ما يشاء ونجى السلطان بنفسه وجرت عليه محن اه ولما احتل بالجزائر وقد تمسك أهلها بطاعته استنشق ريح الحياة ولأم الصدع وأقام الرسم وخلع على من وصل إليه من قل الأساطيل واستلحق واستركب ولحق به ابنه الناصر من بسكرة والتف عليه بعض العرب من أحواز الجزائر ووفد عليه أولياؤه من عرب سويد فنهض إلى جهة تلمسان وقد استولى عليها بنو زيان وسلطانهم عثمان بن عبد الرحمن فيروز إليه أبو ثابت

أخو عثمان المذكور ولما التقى الجمعان اختل مصاف السلطان أبي الحسن واستبج معسكره وانتبهت فساطيطه وقتل ابنه الناصر وظهر يومئذ من بسالته وصدق دفاعه وشدة حملاته حتى أنه أركب طعائنه وخلص محاميا عنها واحتمل ولده جريحا فتوفي بالطريق فواراه في التراب وأخفى قبره ثم خلص إلى الصحراء مع وليه ونزمار بن عريف بن يحيى السويدي ولحق بحلق قومه قبلة جبل وانشرس وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزه ودار ملكه فارتحل معه وليه ونزمار بالنانجة من قومه وخرجوا إلى جبل راشد ثم قطعوا المفاوز إلى سجلماسة في القفر فلما أطلوا عليها وعان أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفرائش على ضوء السراج حتى خرج إليه العذارى من ستورهن ميلا إليه ورغبة في ولايته

وفر العامل بسجلماسة إلى منجاته وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد أبيه سجلماسة نهض إليه في قومه وجموعه بعد أن أراح عليهم وأفاض عطاءه فيهم وكانت بنو مريين نافرة عن السلطان أبي الحسن حاذرة من عقوبته لجنايتهم بالتخاذل في المواقف والفرار عنه في الشدائد ولما كان يبعد بهم في الأسفار ويتجشم بهم المهالك والأخطار فكانوا لذلك مجمعين على منابذته ومخلصين في طاعة ابنه ولما اتصل خبر قدومهم بالسلطان أبي الحسن علم من حاله أنه لا يطيق دفاعهم وكان ونزمار قد أجفل عنه في قومه سويد لأن أباه عريف بن يحيى كان قد نزع إلى أبي عنان قبل قدوم السلطان من تونس فأكرم محله ورفع منزلته فكتب إلى ابنه ونزمار ينهاه عن ولاية السلطان أبي الحسن ومظاهرتة له وأقسم له لئن لم يفارق السلطان ليوقعن بابنه عنتر وكان معه في جملة الأمير أبي عنان فأثر ونزمار رضا أبيه وعلم أن غناءه عن السلطان في وطن المغرب قليل فأجفل عنه ولحق بسكرة فكان بها إلى أن رجع إلى أبي عنان بعد هذا ولما قرب أبو عنان من سجلماسة أجفل السلطان عنها إلى ناحية مراکش ودخل أبو عنان سجلماسة فثقف أطرافها وسد فروعها وعقد عليها ليحتمل بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن وبلغه أن أباه قد سار إلى مراکش فاتزم على اتباعه إليها فلم تطاوعه بنو مريين فرجع بهم إلى فاس إلى أن كان ما نذكره

استيلاء السلطان أبي الحسن على مراکش ثم انهزامه عنها إلى هنتاته أهل جبل درن ووفاته هناك لما أجفل السلطان أبو الحسن عن سجلماسة سنة إحدى وخمسين وسبعماية قصد مراکش وركب إليها الوعار من جبال المصامدة ولما شارفها تسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ونسلوا إليه من كل حذب وفر عامل مراکش إلى أبي عنان ونزع إلى السلطان أبي الحسن صاحب ديوان الجبالية أبو المجد بن محمد بن أبي مدين بما كان في الخزانة من مال الجبالية فاختصه واستكتبه وجعل إليه علامته واستركب واستلحق وجبى الأموال وبث العطاء وخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة وثاب له بمراكش ملك رجي معه أن يستولي على سلطانه ويرتجع فارط أمره وكان أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها وشرع في العطاء وإزاحة العلل ثم ارتحل في جموع بني مريين إلى مراکش وبرز السلطان أبو الحسن لقلته وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم الربيع وترىص كل واحد بصاحبه عبور الوادي فعبه أبو الحسن وكان اللقاء بتامد غوست في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وسبعماية فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره ولحق به أبطال بني مريين ثم راجعوا عنه حياء وهيبة وكى به فرسه يومئذ فيم فره فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله فاعترضهم دونه أبو دينار سليمان بنعلي بن أمد أمير الزاودة من عرب رديف أبيه يعقوب كان هاجر مع السلطان من الجزائر ولم يزل في جملته إلى هذا اليوم فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه ردا له وأسر حاجبه علال بن محمد فأودعه أبو عنان السجن ثم امتن عليه بعد وفاة أبيه وخلص السلطان أبو الحسن رحمه الله إلى جبل هنتانة من جبال درن ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي الهنتاني فنزل عليه وأجاره واجتمع إليه المملأ من قومه هنتانة ومن انضاف إليهم من المصامدة وتأمروا

وتعاهدوا على المدافعة عنه وبإيعوه على الموت وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكش وأنزل عساكره على جبل هنتانة ورتب المسالح لحصاره وحربه وطال عليه ثوابه حتى طلب السلطان من ابنه الإبقاء عليه وأن يبعث إليه حاجبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمر فحضر عنده وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان والتمس له الرضا منه فرضي عنه وكتب له بولاية عهده وأوعز إليه بأن يبعث له مالا وكسى فسرح الحاجب ابن أبي عمر بإخراجها من المودع بدار ملكهم واعتل السلطان خلال ذلك فمرضه أولياؤه وخاصته واقتصد لإخراج الدم ثم باشر الماء للطهارة فورم محل الفصادة ومات رحمه الله في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعماية هكذا عند ان خلدون وابن الخطيب وغيرهما والذي رأيته مكتوبا بالنقش على رخامة قبره بشالة أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة وبعث أولياء السلطان بالخبر إلى ابنه وهو بمعسكره من ساحة مراکش ورفعوه على أعواد نعشه إليه فلقاه حافيا حاسرا وقيل أعواده وبكى واسترجع ورضني عن أوليائه وخاصته وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته ثم دفن أباه مراکش قبلي جامع المنصور من القصبة بالموضع الذي به اليوم قبور الملوك الأشراف السعديين ثم لما نهض أبو عنان إلى فاس احتمل شلو أبيه معه حتى دفنه بشالة مقبرة سلفهم ولا زال ضريحه قائم العين والأثر إلى الآن رحمه الله تعالى بقية أخبار السلطان أبي الحسن وسيرته كان السلطان أبو الحسن رحمه الله أسمر طويل القامة عظيمك الهيكل معتدل اللحية حسن الوجه وكان عفا مائلا إلى التقوى مولعا بالطيب لم يشرب الخمر قط لا في صغره ولا فيكبره محبا للمصالحين عدلا في رعيته

يحب الفخر ويعنى به وقال بعض المشاركة في حقه ما صورته ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله وجرت إلى المشرق أنواء نواله وطابت نسמתه واشتهرت عزماته كان حسن الكتابة كثير الإنابة ذا بلاغة وبراعة وشهامة وشجاعة اه وبني رحمه الله عدة مدارس منها المدرسة العظمى بمراكش قبلي جامع ابن يوسف قال العلامة اليفرنى في النزهة إن الذي بناها هو السلطان أبو الحسن المذكور قلت ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها قدر هذا السلطان وعلم عظم أهميته ومحبهه للعلم وأهله ومنها المدرسة العظمى بطالعه سلا قبلي المسجد الأعظم منها بناها رحمه الله على هيئة بديعة وصنعة رفيعة وأودع جوانبها من أنواع النقش وضروب التخريم ما يجير البصر ويدهش الفكر ووقف عليها عدة أوقاف رصع أسماءها بالنقش والأصباغ على رخامة عظيمة ثم نصب الرخامة بالحائط الجوفي منها كل ذلك محافظة على تلك الأوقاف أ تغير وأما المسجد الأعظم ومدرسته الجوفية فهما من بناء يعقوب المنصور الموحدى حسبما تقدم ذلك في أخباره وعندى أن السور المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا المعروف عندهم بسور الأقواس من بناء السلطان أبي الحسن رحمه الله ولي في ذلك مستند غريب وهو أنى كنت ذات يوم أفلوض بعض القناينة بسلا ممن كان يباشر أمر المياه بها ويصلح ما احتاج إلى الإصلاح منها فقلت كالمستفهم لنفسى من غير قصد توجيه الخطب إليه يا ترى من الذي بنى سور الماء الداخل إلى البلد فقال على البديهة الذي بنى المدرسة هو الذي بنى سور الماء فقلت له وكنت متشوقا يومئذ لتحقيق ذلك وما علمك بهذا فقال إن بيلة المدرسة بنيت المدرسة بدليل الزليج المرصوف حولها بالعمل الكبير الموجود نظيره في سائر حيطان المدرسة وسواربها وهذه البيلة لم تتغير عن حالها إلى أن باشرت إصلاحها في هذه الأيام فحفرت عن قنواتها وتتبع مادة الماء الواصل إليها فإذا عمل تلك القوادس وصنعة بنائها حتى الكلس المفرغ عليها الجامع بينها مماثل لعمل قنوات مبنية بالسور المذكور داخلة فيه بنى عليها يوم تأسيسه من غير فوق بين هذه وتلك في جميع عملها وليس بشيء من القنوات الحادثة بعدهما يشبههما فعلمت أن الذ بناهما واحد فأعجبني كلامه وبلحنته في ذلك فصمم على معتقده وحاولت تشكيكه بكل وجه فلم يتشكك فظهر لي صدق دليله وغلب على ظني ما جزم به وعند الله علم حقيقة الأمر واعلم أن هذا السر من المباني العادية والهيكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكما قوتها مثل ما يقال عن حنايا قرطاجنة ونحوها وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة ممتدا من القيلة إلى الجوف على أضخم بناء وأحكمه موزون سطحه بالميزان الهندسي ليأتي جريان الماء فوقه على استواء ولذلك ينخفض إلى الأرض متى ارتفعت ويعلو عنها إذا انخفضت ويجري على منته من الماء مقدار النهر الصغير في ساقبه قد اتخذت له ولما شارف البلد عظم ارتفاعه جدا لأجل انخفاض الأرض عنه وكلما مر في سيره بطريق مسلوك فتحت له فيه أقواس فسمي لذلك سور الأقواس وبالجملة فهو شاهد لبانية بضخامة الدولة وعظم الهمة والسلطان أبي الحسن رحمه الله بفاس ومكناسة وغيرهما من بلاد المغرب آثار كثيرة فمن آثاره بفاس بيلة الرخام الأبيض المجلوبة من المرية زنتها مائة في وادي قصر كتامة ثم حملت على عجل الخشب تجرها القبائل إلى منزل أولاد محبوب الذين على ضفة وادي سبو فوسقت فيه إلى أن وصلت إلى ملتقاها مع وادي فاس ثم حملت على عجل الخشب أيضا يجرها الناس إلى أن وصلت إلى مدرسة الصهريج التي بعدة الأندلس ثم نقلت منها بعد ذلك بأعوام إلى مدرسة الرخام التي أمر رحمه الله ببنائها جوف جامع القرويين المعروفة اليوم بمدرسة مصباح ومصباح هذا هو أبو الضياء مصباح بن عبد الله الياصولوتي الفقيه المشهور وإنما نسبت إليه لأن السلطان أبا الحسن لما بناها كان أبو الضياء أول من تصدى للدرس بها فنسبت إليه وقد تقدم لنا خبر المدرسة التي بناها عربي جامع الأندلس أيام أبيه وأنفق عليها أكثر من مائة ألف دينار ومن آثاره بمكناسة الزيتون الزاويتان القديمتين والجديدة وكان بنى القديمتين

في زمان أبيه والجديدة حين ولي الخلافة وله في هذه المدينة عدة آثار سوى الزاويتين من القناطر والسقايات وغيرها ومن أجل ذلك المدرسة الجديدة بها وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ولما تم بناؤها جاء إليها من فاس ليوقف عليها ويرى عملها وصنعتها فعد على كرسي من كرسي الوضوء حول صهريجها وجيء بالرسوم المتضمنة للتفتيدات اللازمة فيها فغرقها من الصهريج قبل أن يطالع ما فيها وأشد لا بأس بالغالبي إذا قيل حسن ليس لما قرت به العين ثمن وكان له معرفة بالشعر فمن شعره قوله أرضي الله في سر وجهه وأحمي العرض عن دنس ارتياب وأعطي الوفر من مالي اختيارا وأضرب بالسيف ظلي الرقاب وأخبار كثيرة ومن أراد الوقوف على تفاصيلها فليطلب بكتاب الخطيب بن مرزوق الذي ألفه في دولته وسرته وسماه المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبي الحسن ولما ذكر الوزير ابن الخطيب في كتابه رقم الحل هذا السلطان وصفه بقوله الملك المعهود من خير سلف ومجموع القول إذا القول اختلف الدين والعفاف والجلالة والعز والقدرة والجزالة والعلم والحلم وفضل الدين وصفوه الصفوة من مريين ممهد الملك ومسدي المنن وواحد الدهر وفخر الزمن باني المباني النخبة الشريفة بمقتضى همته المنيفة وتارك المدارس الظريفة شاهدة بأنه الخليفة وقاطع الدهر بغير لهو في مجلس معظم أو بهو أما لتدريس وعلم يدرس أو لبلاد من عدو تحرس أو لأبياد في عباد تفرس أو لثواب ورضا يلتمس أو نسخ قرأ أو عرض حزب أو عدة معدة لحرب ومن أعيان وزرائه عامر بن فتح الله السدراتي وعبد الله بن إبراهيم

الفودودي ومن أعيان كتابه أبو محمد عبد المهيم الحضرمي وأبو محمد بن عبد الله بن أبي مدين العثماني وأبو الحسن علي بن القيايلي التينمالي رحم الله الجميع بمنه ولندكر ما كان من الأحداث ف يهذه المدة في سنة سبعمائة أسس السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق تلمسان الجديدة المسماة بالمنصورة حسبما تقدم الخبر عنها مستوفى وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة كان القحط بالمغرب فاستسقى الناس وخرج السلطان أبو سعيد ماشيا على قدميه لإقامة سنة الاستسقاء وذلك يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان من السنة المذكورة وتقدمت أمامه الصلحاء والفقهاء والقراء يدعون الله تعالى وقدم بين يدي نجواه صدقات وفرق أموالا وفي يوم السبت بعده خرج في جنده إلى قبر الشيخ أبي يعقوب الأشقر بجبل الكندرتين فدعا هنالك ورحم الله تعالى عباده وعاتث أرضه وبلادته وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة توفي الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي المعروف بالصغير بضم الصاد وفتح الغين وكسر الياء المشددة قال ابن الخطيب في الإحاطة وكان ربيعة آدم اللون خفيف العارضين بلبس أحسن زي ويدرس بجامع الأجدع من فاس يقعد على كرسي عال ليعلم القريب والبعيد على انخفاض كان في صوته وكان حسن الإقراء وقورا صبوراً ثباتاً وكان أحد الأقطاب الذين تنور عليهم الفتي بالمغرب فيحسن

التوقيع عليها على طريق الاخصار وترك فضول القول ولاه السلطان أبو الربيع القضاء بفاس وشده عضده فجرى في العدل على صراط مستقيم وفي سنة إحدى وعشرين وسبعمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء لإمام المشهور في علم التعاليم والهيئة والنجوم والأزياج وغير ذلك وكان رحمه الله عز وجل معروفاً باتباع السنة موسوماً بطهارة الاعتقاد منعوتاً بالصلاح وكان انتفاعه بصحبة الشيخ أبي زيد الهزميري رضي الله عنه وفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة في ذي القعدة منها هبت ريح شديدة بفاس ومكناسة وأحوازها واستمر هبوبها يومين وليلتين فعاقت عن الأسفار وهدمت الدور وقلعت الأشجار وفي نسة ثلاث وعشرين بعدها في المحرم منها جرت العين الموالية للمشرق من عيون صنهجة بأحواز فاس بدم عبيط من وقت العصر إلى نصف الليل ثم عادت إلى حالها وفيها كان المطر العظيم والتج الكثير بالمغرب وعم الفحم والحطب حتى بيع الفحم بفاس بدرهمين للرطل وفي جمادى الأولى منها احترق سوق العطارين الكبرى بفاس فجدده السلطان أبو سعيد من باب مدرسة العطارين الكبرى بفاس فجدده السلطان أبو سعيد من باب مدرسة العطارين إلى رأس عقبة الجزارين وعقد عليه هنالك باباً ضخماً وأفرده للعطارين دون غيرهم وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة كانت المجاعة بالمغرب وارتفعت الأسعار في جميع البلاد فيلغ المد من القمح بفاس خمسة عشر درهماً والصفحة منه تسعين ديناراً وغلا الإدام وعمت الخضار بأسرها وكسى السلطان أبو سعيد وأطعم في هذه المسغبة شيئاً كثيراً ودام ذلك إلى قرب منتصف السنة بعدها وفيها في يوم الثلاثاء ثالث عشر رمضان منها نشأ خارج فاس من جهة جوفها سحب عظيم وظلمة شديدة ورياح عاصفة أعقب ذلك برد كثير عظيم الجرم تزن الواحدة منه ربع رطل وأقل وأكثر ونزل في خلاله مطر وابل جاءت منه السيول طامية حملت الناس والدواب وأهلكت جميع ما بجبل زالع من الكروم والزيتون وسائر الشجر

وفي سنة خمس وعشرين بعدها للة الجمعة السادس والعشرين من جمادى منها دخل السيل العظيم مدينة فاس وكاد يأتي عليها بحيث هدم الدور والمساجد والأسواق وأهلك الأفا من الخلق حتى خيف على البلد التلف وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة انتهى تاريخ ابن أبي زرع المسمى بالأنيس المغرب القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ومما هو الغاية في باب الأعراب ما ذكره ابن خلدون قال حضر أشباخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه أمرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورنده حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا وذكرهما أيضا الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرئ في كتابه المسمى بالمحاضرات قال وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوط وتحيض فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام وتلى كاتا يأكلان الطعام فأخذ الناس يبتون ثقات نسايتهم ودهاتهن إليها فكشروا عنها بكل وجه يمكنهم فلم يقفن على غير ما ذكر وسئلت هل تشتهين الطعام فقالت هل تشتهون اللبن بين يدي الدواب وسئلت هل يأتيها شيء فأجبرت أنها صامت ذات يوم أدركها الجوع والعطش فنامت فأتاها آت في النوم بطعام وشراب فأكلت وشربت فلما أفأقت وجدت نفسها قد استغنت فهي على تلك الحال توتى في المنام بالطعام والشراب إلى الآن ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تجيء أمها بها إذا أتت إليها بأربعين يوماً فلم يوقف لها على أمر قال بيد أني أردت أن يزداد في عدد العدول ويضم إليهم الأطباء ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ويوكل من نساء الفرق من يبائع في كشف من يدخل إليها ولا يترك أحداً يخلو بها وبالجملة يبائع في ذلك ويستدام رعيها عليه سنة لاحتمال أن يغلب عليها طبع فتستغني في فضل دون فصل ثم يكتب هذا في العقود ويشاع أمره في العالم وذلك لأنه يهدم حكم الطبيعة الذي

هو أضر الأحكام على الشريعة ويبين كيفية غذاء أهل الجنة وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ويبطل التأثير والتولد ويوجب ان الاقتانات بالعادات لا باللزوم وعند الأسباب لا بها إلى غير ذلك إلا إني لما أشرت بهذا انقسم من أشرت عليه بتبليغه إلى من لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به رأساً لإيثار الدنيا على الدين فإنا لله وإنا إليه راجعون قال المقرئ وقد ذكر قال المقرئ وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة وحدثني غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزرية أنها كانت كذلك وإن عائشة بنت أبي بكر يعني زوجة السلطان أبي الحسن التي استشهدت في طريف اختيرتها أربعين يوماً أيضاً وكم من آية أصيبت وحجة نسبت مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة وكذلك الوباء العام القريب فروطه يوشك أن يطول أمره فينسى ذكره ويكذب المحدث به انقضى عصره وكم فيه من أدلة على أصول الملة اه كلام الشيخ أبي عبد الله المقرئ رحمه الله ويعني بالوباء القريب فروطه وباء منتصف المائة الثامنة أيام كان السلطان أبو الحسن بتونس فإنه كان وباء عظيماً لم يعهد مثله قد عم أقطار الأرض وتحيف العمران جملة حتى كاد يأتي على الخليقة أجمع والأمور كلها بيد الله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي عنان فارس بن أبي الحسن رحمه الله كان هذا السلطان محبوباً في قومه وعشيرته أثيراً عند والده متميزاً بذلك عن سائر أخوته لفضله وعمله وصيانتة وعفافه واستظهار القرآن الكريم وغير ذلك من الأوصاف الحسنة أمه أم ولد رومية اسمها شمس الضحى وقبرها بشالة معروف إلى الآن رأيت مكتوباً عليه بالنقش أنها توفيت ليلة السبت رابع رجب الفرد سنة خمسين وسبعمائة ودفنت إثر صلاة الجمعة في الخامس والعشرين من الشهر المذكور وحضر لدفنها أعيان المشرق

والمغرب اه وكان مولد السلطان أبي عنان بن فاس الجديد في الثاني عشر من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وسبعمئة وبويع في حياة والده يوم ثار عليه بتلمسان حسبما قدمنا الخبر عنه وذلك يوم الثلاثاء من ربيع الأول سنة تسع وأربعين وسبعمئة ولما هلك والده أبو الحسن بجبل هنتانة وانقضى شأن الحصار ارتحل السلطان أبو عنان إلى فاس ونقل شلو أبيه إلى شالة فدفنه بها وأغذ السير إلى فاس وقد استتب أمره وخلا له الجو فاحتل بدار ملكه وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاج ما بأيديهم ثم الملك الذي تطاولوا إليه ولما دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة نادى بالعباء وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد وعرض جيشه ثم نهض يريد تلمسان واتصل خبره بسلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن الزياني فجمع له قومه ومن شابعهم من زناتة والعرب ثم نهض إليه ومعه أخوه ووزيره أبو ثابت فكان اللقاء ببسيط أن كاد آخر ربيع الثاني من السنة المذكورة وأجمع بنو عبد الواد على صدمة المرينيين وقت القائلة وعند ضرب الأبنية وسقاء الركاب واقتراق أهل المعسكر في حاجاتهم فحملوا عليهم وأعجلوهم عن ترتيب المصاف وركب السلطان أبو عنان لتلافي الأمر وخاض بحر القتال ترتيب المصاف وركب السلطان أبو عنان لتلافي الأمر وخاض بحر القتال وقد أظلم الجو بالغياب حتى إذا خلص إليهم وخالطهم في صفوفهم ولوا الدبار واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم قتلا وسبوا وصفدوهم أسرى ولم يزلوا في اتباعهم إلى الليل وتقبضوا على سلطانهم أي سعيد فساقوه إلى السلطان أبي عنان فاعتقله وتقدم على التعبية إلى تلمسان فدخلها في ربيع المذكور واستوت في ملكها قدمه وأحضر أبا سعيد فوبخه وأراه أعماله حسرات عليه ثم أحضر الفقهاء وأرباب الفتي

فاقتوا بحرابته وقتله فأمرى حكم الله فيه فذبح فيم حبسه لتسعة من أعتقاله وفر أخوه الزعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق بعد أن احتل معه حرمه وحرم أخيه ومتخلفهم واحتل بوادي شلف من بلاد مغرواة فعسكر هنالك واجتمع عليه أو شاب من زناتة وحدث نفسه باللقاء ووعدها بالصبر والثبات واتصل خبره بالسلطان أبي عنان فسر ح إليه وزيره فارس بن ميمون في بساكر بني مرين والجند فأغذ السير إليهم ثم ارتحل السلطان أبو عنان من تلمسان على أثره ولما تراءى الجمعان تصادقا الحملة وخاض النهر بعضهم إلى بعض ثم صدق بنو مرين الحملة فاجتازوا النهر وانكشف بنو عبد الواد واتبع بنو مرين آثارهم فاستلموهم ثانية واستباحوا معسكرهم واستاقوا نساءهم وأمورهم ودوابهم وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان أبي عنان وفر أبو ثابت إلى قاصية الشرق في نفر من عشيرته وبني أبيه فاعترضتهم قبائل زواة فانتهبوا أسلحتهم وأرجلهم عن خيولهم ومروا على وجوه حفاة عراة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا وكتب الوزير على أمراء الثغور في شأن أبي ثابت وأصحابه فأذكو العيون عليهم وقعدوا لهم بالمرصاد حتى عثر عليهم بعض الحشم فقبضوا على أبي ثابت وابن أخيه أبي زيان بن أبي سعيد المقتول ووزيرهم يحيى بن داود فرفعوهم إلى أمير بجاية أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر الحفصي وكان خالصة للسلطان أبي عنان منذ أيام والده فاعتقلهم عنده حتى وفد بهم عليه بالمدينة فأكرم السلطان فنزل السلطان مكافأة له ولقاه مبررة وكرامة وأودع أبا ثابت السجن وتوافت إليه وفود النواة بمكانه من لمدينة فأكرم وفادتهم وأسنى عطاياهم من الخل والحملان والذهب والفضة وانقلبوا خيرا منقلب ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل بسكرة والزاب مع وفدهم فأكرمهم ووصلهم وفرغ السلطان أبو عنان من شأن المغرب الأوسط وبث عماله في نواحيه وتقف أطرافه وسمى إلى تملك إفريقيا على ما نذكره إنشاء الله

تملك السلطان أبي عنان بجاية وتولية عمر بن علي الوطاسي عليها لما وفد أبو عبد الله الحفصي على السلطان أبي عنان بلمنية في شعبان من سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة وبالغ في إكرامه ناجاه بذات صدره وشكا إليه ما يلقاه من رعيته من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد وما يتبع ذلك من شقاق الحامية واستبداد البطانة وكان السلطان أبو عنان متشوقا لمثلها فأشار عليه بالنزول عنها وأن يعرضه عنها ما شاء من بلاده فسارح إلى قبول ذلك ودس إليه السلطان مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يشهد بذلك على رؤوس الملاء ففعل وعرضه عنها مكناسة الزيتون ونقم بطانة الحفصي عليه ونزع بعضهم عنه إلى إفريقيا وأمره السلطان أبو عنان أن يكتب بخطه إلى عامله على بجاية ابالنزول عنها وتمكين عمال السلطان منها ففعل وعقد أبو عنان عليها لعمر بن علي الوطاسي من بني الوزير الذين قدمنا خبر ثورتهم بحصن تازوفا أيام يوسف بن يعقوب ولما قضى السلطان أبو عنان حاجته من المغرب الأوسط واستولى على بجاية ثغر إفريقيا انكفا راجعا إلى تلمسان لشهود عيد الفطر بها ودخلها في يوم مشهود حمل أبا ثابت الزياني ووزيره يحيى بن داود على جملين ودخل بهما تلمسان يخطوان بهما في ذلك المحفل بين السماطين فكانا عبرة لمن حضر ثم جنبنا من الغد إلى مصارعهما فقتلا قصصا بالرماح وإلى الله عاقبة الأمور ثورة أهل بجاية ومقتل عمر بن الوطاسي بها لما قدم عمر بن علي الوطاسي بجاية واستقر بها ثقل أمره على نفوس أهلها لأفهم ملكة الحفصي قد استصحب معه في وفادته على السلطان أبي عنان حاجبه فارحا مولى ابن سيد الناس فلما نزل

للسلطان عن بجاية نقم فارح عليه ذلك وأسرها في نفسه إلى أن بعثه الحفصي المذكور مع الوطاسي لينقل حرمه ومتاعه ومعاون داره إلى المغرب فانهى إلى بجاية وبينما هو يحاول ما أرسل في شأنه شكا إليه الصنهاجيون سوء ملكة بني مرين فنجع كلامهم فيه ونفت لهم بما عنده من الضغن ودعاهم إلى الثورة بالمرينيين والقيام بدعوة الحفصيين فأجابوه إلى ذلك وتواعدوا للفتك بعلي بن عمر الوطاسي بمجلسه من القصبية وتولى كبرها منصور بن إبراهيم بن الحاج من مشيختهم وباركه في داره على عادة الأمراء ولما أكب عليه ليلته أطرافه طعنه بخنجره ثم مولج عليه الباقون فاستلموه وذلك في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة وثارت الفوغاء بالبلد ونهف الهاتف بدعوة أبي زيد بن محمد بن أبي بكر الحفصي صاحب قسنطينة وطبروا إليه بالخبر واستدعوه فتناقل عنهم وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان فاتهم أبا عبد الله الحفصي بمدخله حاجبه فارح في ذلك فاعتقله بداره واعتقل وفدا من أشرف بجاية كانوا ببابه ثم راجع شيوخ بجاية بصائرهم وتداركوا أمرهم في الرجوع إلى طاعة السلطان أبي عنان واتفق رأيهم على أن يرقعوا هذا الخرق ويسدوا هذه الثلمة براس الحاجب فارح وصنهاجة الثائرين معه ودخلهم في ذلك القائد هلال مولى ابن سيد الناس ولما عزموا على أمرهم دعوا الحاجب فارحا إلى المسجد ليفاوضوه فيما نزل بهم فأحس بالشئ ولجأ على دار الشيخ أبي العباس أحمد بن إدريس البجائي إمام بجاية ومفتيها فاقترحوا عليه الدار وبأشره مولاه محمد بن سيد الناس بطعنة فأنفذه ورومى بشلوه من أعلى الدار فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى السلطان أبو عنان إليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو في الكتائب فدخلها فاتح سنة أربع وخمسين وسبعمئة وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق أصحاب الفعلة منهم بتونس وتقبض الحاجب ابن أبي عمرو على جماعة من غوغاء بجاية

المتهمين بالخوض في الفتنة بناهزون المائتين فاعتقلهم وأركبهم الأسطول إلى المغرب فاطمان الناس وسكنوا وتوافت لديه وفود النواودة من كل جهة فأجزل صلاتهم ووفد عليه عامل الزاب يوسف بن مزني فأكرم وفادته ثم ارتحل إلى تلمسان غرة جمدى الأولى من السنة ومعه شيوخ النواودة ووجه بجاية قال ابن خلدون وكنت يومئذ في جملتهم فجلس السلطان للوفد وعرض ما جنب إليه من الجياد والهدايا وكان يوما مشهودا وانصرفوا إلى مواطنهم فاتح شعبان من السنة المذكورة قل وانقلب مع الحاجب بعد إسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان والوعد الجميل بتجديد ما إلى قومي ببلدي من الإقطاعات ولما احتل الحاجب ابن أبي عمرو ببجاية ضبط أمرها وأقام أودها وألح على قسنطينة بترديد البعوث وتجهيز الكتائب إلى أن أذعنوا للطاعة ومكنوه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنسوب هناك للفتنة وأوفد أبو زيد الحفصي صاحب قسنطينة ابنه على السلطان أبي عنان فقيل وفادته وشكر سعيه وانكفا الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية وأقام بها إلى أن هلك في المحرم سنة ست وخمسين وسبعمئة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد وعقد السلطان أبو عنان على بجاية لعبد الله بن علي بن سعيد أحد وزرائه فهض إليها في ربيع من سنة ست وخمسين المذكورة فاستقر بها وسلك سنن الحاجب قبله وسيرته وجهز المعسكر إلى حصار قسنطينة إلى أن كان من فتحها ما نذكره بعد إن شاء الله خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن ببلاد السوس ثم مقتله عقب ذلك قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن لما ركب البحر من تونس إلى المغرب عقد على تونس لابنه أبي الفضل هذا وأنه لما ألقع عنها ثار أهل البلاد وشيعة الحفصيين عليه فأخرجوه عنها ولحق بأبيه فكان معه إلى أن هلك وخلص الأمر إلى السلطان أبي عنان فحلحق به هو وأخوه أبو سالم ففكر أبو

عانان في أمرهما وخشي عاقبة ترشيحهما فأشخصهما إلى الأندلس ليكونا مع الغزاة والقراية في إيالة السلطان أبي الحجاج يوسف بن الأحمر ثم ندم على ذلك ولما استولى على تلمسان والمغرب الأوسط ورأى أن قد استفحل أمره واعتز سلطانه أنفذ الرسل إلى أبي الحجاج في أن يشخصهما إليه لأن مقامهما عنده أحوط لجمع الكلمة بخلاف ما إذا غابا عن حضرته وخشي أبو الحجاج غائلته عليهما فأبى من إسلامهما اليد وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته ولا يسيء جوار المسلمين المجاهدين لديه فغضب السلطان أبو عنان لذلك وقام وقعد وأمر حاجبه ابن أبي عمرو أن يكتب إليه ويبالغ في التوبيخ واللوم فعل الحاجب المذكور قال ابن خلدون وقد أوقفني الحاجب على ذلك الكتاب ببجاية فقضيت عجا من فصوله وأغراضه ولما قرأه أبو الحجاج ابن الأحمر دس إلى أبي الفضل وكان أكبر الأخوين بالحق بالطاغية وكانت بينهما ولاية ومخالصة فنزع إليه أبو الفضل وجهز الطاغية له أسطولا أركبه فيه ونزله بساحل السوس من أرض المغرب ونذر السلطان أبو عنان بذلك فأوعز إلى قائد أسطوله باعتراض أسطول الطاغية فاعترضه وأوقع به وكتب ابن الأحمر أثناء ذلك كتابا إلى السلطان أبي عنان يعتذر عن أمر أبي الفضل من إنشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب ونصه المقام الذي شهد الليل والنهار بأصالة سعادته وجرى الفك الدوار بحكم إرادته وتعود الظفر بمن يناويه فاطرد والحمد لله جرين عادته قوليه متحقق لإفادته وعدوه مرتقب لإبادته وحلل الصنائع الإلهية تضفوا على أعطاف مجادته مقام محل أخينا الذي سهم سعده صائب وأمل من كاده خخاسر خانب وسير الفك المدار في مرضاته دانب وصنائع الله تعالى له تصحبها الألفاظ العجائب فسيان شاهد منه في عصمة وغائب السلطان الكذا ابن السلطان لا لكذا أبقاه الله تعالى مسددا لسهم ماضي العزم تجل سعوده عن تصو الوهم ولا زال مرهوب الحد ممثّل الرسم موفور الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القسم فائزا بفلج الخصام عند لد الخصم معظم قدره

ولمترزم بره مبيتهج بما يسببه الله تعالى من عزاز نصره وإظهار أمره فلان سلام كريم طيب بر عميم يخص مقامكم الأعلى ومثابتمكم الفضلى التي حازت في الفخر الأمد البعيد وفازت من التأييد والنصر بالخط السعيد ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذي فسح لملككم الرقيق في العز مدى وعرفه عوارف آلائه وعوائد النصر على أعدائه يوما وغدا وحرس سماء علائنه بشهب من قدره وقضائه فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا وجعل نجح أماله وحسن مآله قياسا مطردا فرب مريد ضربه ضربه نفسه وهاد إليه الجيش أهدى وما هدي والصلاة وأحيا مراسم الحق وقد صارت طرائق قندا أعلى الأنام بدا وأشرفهم محتدا الذي بجاهه نليس أثواب السعادة جددا ونظفر بالنعيم الذي لا ينقطع أبدا والرضا عن آله وأصحابه الذين رفعوا لسماء سنته عمدا وأوضحوا لسبيل اتباعه مقصدا وتقبلوا شيمه الطاهرة ركعا وسجدا سيوفا على من اعتدى ونجوما لمن اهتدى حتى علت فروع ملته سعدا وأصبح بناؤها مديدا مخلدا والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يتوالى مثني وموحدا كما جمع لملككم ما تفرق من الألقاب على توالي الأحقاب فجعل سيفكم سفاحا وعلمكم منصورا ورايكم رشيدا وعزمكم مؤيدا فإنا كتبنا إليكم كتب الله تعالى لكم صنعا يشرح للإسلام خلدا ونصرا يقيم للدين الحنيفي أودا وعزما يملأ أفئدة الكفر كدما وجعلكم ممن هيا له من أمره رشدا ويسر لكم العاقبة الحسنى كما وعد به في كتابه العزيز والله أصدق موعدا من حمراء غرناطة حرسها الله ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استطلاع سعودكم في آفاق العناية واعتقاد جميل صنع الله في البداية والنهاية والعلم بأن ملككم تحدى من الظهور على أعدائه بأية وأجرى جياذ السعد في ميدان لا يحد بغاية وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر إلا لأصحاب الكرامة والولاية ونحن على ما علمتم من السرور بما يهز لملككم المنور عطفًا ويسدل عليه من العصمة سحفا فقلنا لا يرياح لمواقع نعم الله تعالى نصفًا ونعقد بين أنباء مسرته وبين الشكر لله حلقًا ونعد التشيع له مما يقربنا إلى الله زلفى

ونؤمل من إمداده ونرتقب من جهاده وقتا يكفل به الدين ويكفي وتروى غلغ الغلغ والنفوس وتنشفي وإلى هذا وصل الله سعديكم وإلى نصركم وعضدكم فإنا من لدن صدر عن أخيم أبي الفضل ما صدر من الانقياد لخدع الآمال والاعتزاز بموارد الأال وقال رأيته في اقتحام الأهوال وتورط ف يهفوة حار فيها حيرة أهل الكلام في الأحوال وناصب من أمركم السعيد جبلا قضى الله له بالاستقرار والاستقلال ومن ذا يراحم الأبطال ويحزح الجبال وأخلف الظن منا في وفاته وأضمر عملا استأثر عنا بإخفائه واستعان من عدو الدين بمعين فلا وري لمن استنصر به زند ولا خفق لمن تولاه بالنصر بند وإن الطاغية أعانه وأنجه ورأى أنه سهم على المسلمين سدده وعضب للفتنة جرده فسخر له الفك وأمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك فأوردته الهلك والظلم الحلك علمنا أن طرف سعادته كاب وسحائب أماله غير ذات انسكاب وقدم عزته لم يستقر من السداد في غرز ركاب فإن نجاح أعمال النفوس مرتبط ببنياتها وغايات الأمور تظهر في بداياتها وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته لا تجهل ومن غالب أمر الله خاب منه المعول فبينما نحن ترنقب خسار تلك الصفة المعقودة وخمود تلك الشعلة الموقودة وصلنا كتابكم بشرح الصدور وبشرح الأخبار ويهدي طرف المسرات على أكف الاستبشار ويعرب بلسان حال المسارعة والابتداز عن الود الواضح وضوح النهار والتحقق بخلوصنا الذي يعلمه عالم الأسرار فأعاده في الإفادة وأبدأ وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى فعلم منه مال من رام يقبح زند الشتات من بعد الائتنام ويثير عجاجة المنازعة من بعد ركوب القتام هيهات تلك قلادة الله تعالى التي ما كان ليتركها بغير نظام ولم يدر أنكم نصبت له من الحزم حباله لا يفلتها قنيص سددم له من السعد سهما ما له عنه من محيص بما كان من إرسال جوارح الأسطول السعيد في مطاره حائلا بينه وبين أوطاره فما كان إلا التسمية والإرسال ثم الإمساك والقتال ثم الاقتيات والاستعمال فيا له من زجر استنطق لسان الوجود مجدله واستنصر البحر فخذله وصارع القدر فجدله لما جد له وإن خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل غاية بعيدة ومنسب إلى نسبة غير سعيدة

وشائى غمرته من الكفار خدام الماء وأولياء النار تحكمت فيهم أطراف العوالي وصدور الشفار وتحصل منهم من تخطاه الحمام في قبضة الأسار فعجبنا من تيسير هذا المرام وإخمد الله لهذا الضرام وقلنا تكييف لا يحصل في الأوهام وتسد لا تستطيع إصابته السهام كلما قدح الخلاف زندا أطفأ سعديكم شعلته أو أظهر الشتات ألما أبرأ يمن طائرهم علته ما ذاك إلا لئنة صدقت معاملتها في جنب الله تعالى وصحت واسترسلت بركتها وسحت وجهاد نذرتموه إذا فرغت شواغلكم وتمت واهتمام بالإسلام يكفيه الخطوب التي أهدت فحنن نهنيكم بمنح الله ومننه ونسأله أن يلبسكم من إعانتة أوقى جنبه فأملنا أن تطرد أمالكم وتنجح في مرضات الله أعمالكم فمقامكم هو العمدة التي يدافع العدو بسلاحها وتنبج ظلماته بصفاحها وكيف لانهنكم بصنع على جهتنا يعود وبشابقنا تطلع منه السعود فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذي رسومه قد استقلت وكفت وديمه بساحة الود قد وكفت والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عادة ولا يعدمكم رعاية وسعادة وهو سبحانه يعلي مقامكم وينصر أعلامكم ويهني الإسلام أيامكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته اه ولما نزل أبو الفضل بساحل السوس لحق بعبد الله السكسيوي صاحب الجبل المنسوب إليه ودعا لنفسه وكان ذلك إثر مقدم الحاجب ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمئة فجهز السلطان أبو عنان إله عسكره من تلمسان وعقد على حرب السكسيوي واني الفضل لوزيره فارس بن ميمون بن وردار فسار حتى نزل على جبل السكسيوي وأحاط به وأخذ بمخفقه واختط مدينة لمعسكره وتجمير كتابه بسفح ذلك الجبل سماها القاهرة ولما اشتد الحصار على السكسيوي بعث إلى الوزير يسأله الرجوع إلى طاعته المعروفة وأن ينيذ العهد إلى أبي الفضل فقارقه وانتقل لى جبال المصامدة ودخل الوزير فارس أرض السوس فدوخ أقطارها ومهد أكتافها وسارت الألوية والجيش في جهاتها ورتب المسالحو في ثغورها وأمصارها وسار أبو الفضل ينتقل في جبال المصامدة إلى أن انتهى إلى صناعة

وألقى بنفسه على ابن الحميدي منهم مما يلي بلاد درعة فأجاره وقام بأمره ونازله عامل درعة يومئذ عبد الله بن مسلم الزردالي من مشيخة بني عبد الواد كان السلطان أبو الحسن رحمه الله قد اصطنعه أيام فتحه لتلمسان فاستقر في دولتهم واندرج في صنائعهم فأخذ بمخنق ابن الحميدي وأرهبه بوصول العساكر والوزراء إليه وداخله في التقبض على أبي الفضل وأن يبذل له م المال في ذلك ما أحب فأجاب ولاطف عبد الله بن مسلم الأمير أبا الفضل ووعد من نفسه الدخول في الأمر وطلب لقاءه فركب إليه أبو الفضل ولما استمكن منه ابن مسلم تقبض عليه ودفع لابن الحميدي ما اشترط له من المال وأشخصه معتقلا إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعمئة فأودعه السجن وكتب بالفتح إلى القاصية ثم قتله لليل يسيرة من اعتقاله خنقا بحبسبه وانقضى أمر الخوارج وتمهدت الدولة إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله وفادة الوزير ابن الخطيب من قبل سلطانه الغني بالله على السلطان أبي عنان رحمهم الله كان السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر قد أوفد وزيره لسان الدين ابن الخطيب على

السلطان أبي عنان إثر مهلك السلطان أبي الحسن معزبا له بمصابه فقدم ابن الخطيب وأدى الرسالة وجلّى ف ياراض تلك السفارة وعاد إلى غرناطة ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمئة بمصلى عيد الفطر وهو ساجد طعنه بعض الزعانف فأصمها لوقتة وبيع الناس ابنه محمد بن يوسف الغني بالله وقام بأمر دولته مولاه رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصغار من ملوكهم واستبد بالأمر وانفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه من قبل واتخذ لكتابته غيره وجعل ابن الخطيب رديفا لرضوان في أمره وتشارك في الاستبداد معا فجرت الدولة على أحسن حال ثم إن **السلطان الغني بالله** بعث **وزير ابن الخطيب** **سفيراً عنه إلى السلطان أبي عنان** استمدا له على عدوه الطاغية على عادة سلفه في ذلك قال ابن الخطيب لما أشرفت على مدينة فاس في غرض هذه الرسالة خاطبني الخطيب الرئيس أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما نصه يا قادما وافي بكل نجاح أبشر بما تلقاه من أفراح هذي ذرى ملك الملوك فذل لها تتل المنى وتفز بكل سماح معنى الإمام أبي عنان ييمن تظفر ببحر بالندا طفاح من قاس جود أبي عنان في الندا بسواه قاس البحر بالضحضاح ملك يفيض على العفة نواله قبل السؤال وقيل بسطة راح فلجود كعب وابن سعد في النددا ذكر محاه عن نداء ما ح ما أن سمعت ولا رأيت بمثله من أريحي للندا مرتاح بسط الأمان على الأنام فأصبحوا قد ألقوا منه بطل جناح وهم على العافين سبب نواله حتى حكى سح الغمام الساح فنواله وجلاله وفعاله فاقت وأعييت السن المداح وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت كل المنى تنقاد بعد جماح من كان ذا ترح فرؤية وجهه متلافة الأحزان والأتراح فانفض أبا عبد الإله تقز بما تبغيه من أمل ونيل نجاح لا زلت ترثشف الأمانى راحة من راحة المولى بكل صباح فالحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تحصى حمد يوم به جميعنا المقصد الأسنى فيبلغ الأمد الأقصى فظالما كان معظم سيدي للأسى في خبال وللأسف بين اشتغالي بال واشتعال بلبال ولقتومكم على هذا المحل المولوي في ارتقاب ولماوعيدكم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب فما أنت تجتني من هذا المقام العلي بتشييعك وجوه المسرة صباحا وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا بحول الله تعالى ولسيدي الفضل في قبول مركوبة الواصل إليه بسرجه ولجامه فهو من بعض ما لدى المعظم من إحسان مولاه وإعامه ولعمري لقد كان وافدا على سيدي في مستقره مع غير فالحمد لله الذي يسر في إيصاله على أفضل أحواله قال ابن الخطيب فراجته بما نصه راحت تذكرني كؤوس الريح والقرب يخفض للجناح وسرت تدل على القبول كأنما دل النسيم على انبلاج صباح حسناء قد غنيت بحسن صفاتها عن دملج وقلادة ووشاح أمست تحض على اللباد بمن جرت بسعوده الأقالم في الألواح بخليفة الله المؤيد فارس شمس المعالي الأزهر الوضاح ما شئت من شيم ومن هم غدت كالزهر أو كالزهر في الأوداح فضل الملوك فليس يدرك شأوه أنى يقاس الغمر بالضحضاح أسنى بني عباسهم بلوانه المنصور أو بجسامه السفاح وحية من أهداك تحفة قادم في العرف منها راحة الأرواح ما زلت أجعل ذكره وثناءه روح ورحاني الأريج وراح ولقد تمازج حبه بجوارحي كتمازج الأجسام بالأرواح ولو أنني أبصرت يوما في يدي أمرى لطرت إليه دون جناح فالآن ساعدني الزمان وأيقنت من قربه نفسي بفوز قداح إيه أبا عبد الإله وإنه لنداء ود في علاك صراح أما إذا استجذنتني من بعد ما ركبت لما جنت الخطوب رياح فإليكما مهزولة وأنا امرؤ قررت عجزى وأطرحت سلاح سيدي أبقيك الله لعهد تحفظه وولاء بعين الوفاء لتحظه وصلنتي رقعتك التي ابتدعت وبالحق من مولى الخليفة صدعت والفتنى وقد سطت بي الأوحال حتى كادت تتلف الرحال والحاجة إلى الغداء قد شمردت عن كشح البطين وثانية العجموين قد توقع فوات وقتها وإن كانت صلاتها صلاة الطين

والفكر قد غاض معينة وضعف وعلى الله جزاء المولى الذي يعينه فغزيتي بكتيبي بيان أسدها هسور وعلمها منصور وأفاظها ليس فيها قصور ومعانيها عليها الحسن مقصور واعتراف مثلي بالعجز في المضايق حول ومنه وقول لا أدري للعالم فكيف بغيره جنة لكنها بشرتني بما يقل لمؤديه بذل النفوس وإن جلت وأطعنتي من السراء على وجه تحسده الشمس إذا تجلت بما أعملتني به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله في عيده وصدق المخيلة في كرم مجده وهذا هو الجود المحض والفضل الذي شكره هو الفرض وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات من يبدأ بالنوال من قبل الضراعة والسؤال من غير اعتبار للأسباب ولا مجازات للأعمال نسال الله تعالى أن يبقني منها على صحبتها من الهدية والتخفة الودية وقبلتها امتثالا واستجلبت منها عتقا وجمالا وسيدي في الوقت أنسب باتخاذ ذلك الجنس وأقدر على الاستكثار من غنث البهيم والإنس وأنا ضعيف القدرة غير مستطيع لذلك إلا في الندرة فلو رأى سيدي ورايه سداد وقصده فضل ووداد أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة مع وجود الحقوق المترتبة لبسط خاطري وجمعه وعمل في رفع المؤنة على شاكلة حالي معه وقد استصحبت مركوبا يشق علي هجره ويناسب مقامي شكله ونجره وسيدي في الإسعاف على الله أجره وهذا أمر عرض وفرض فرض وعلى نظره المعول واعتماد إغضائه هو المعقول الأول والسلام على سيدي من معظم قدره وملتمزم بره ابن الخطيب في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي القعدة سنة خمس وخمسين وسبعمئة والسماة قد جادت بمطر سهرت منه الأجناف وظن أنه طوفان واللاحق في غدها بالباب المولوي مؤمل بحول الله اه ولما قدم الوزير المذكور على السلطان المذكور تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها وممثل بين يديه واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه بشر وجهك في الناتييات بدر دجى لنا وفي المحل كفف المطر والناس طرا بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا ومن به مذ وصلت جليلهم ما جحدوا نعمة ولا كفروا وجملة الأمر أنه وطن في غير عليك ما له وطر وقد أهتمهم نفوسهم فوجهوني إليك وانتظروا فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن يجلس ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ثم أدى الرسالة ودفع الكتاب ولما عزموا على الانصراف أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه قال ابن خلدون قال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا ونص الكتاب الذي قدم به ابن الخطيب المقام الذي يغني عن كل مفقود بوجوده ويهز إلى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده ونستضيء عند إظلام الخطوب بنور سعوده ونرتث من الاعتماد عليه أسنى ذخير يرثه الولد عن آباءه وجدوده مقام محل أبيننا الذي رعى الأذمة شأنه وصلة الراعي سجية انفرد بها سلطان ومواعيد النصر ينجزها زمانه والقول والفعل في ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه وتطابق فيهما إسراره وإعلانه السلطان لذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبناه الله تعالى محروسا من غير الأيام جنابه موصولة بالوقاية الإلهية أسبابه مسدولا على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه مصروفا عنه من صروف القدر ما يعجز عن رده بوابه ولا زال ملجأ تنتفق لديه الوسائل التي تدخرها لأولادها أولياؤه وأحبابه ويسطر في صحف الفخر ثوابه وتشتمل على مكارم الدين والدنيا ثوابه وتتكفل بنصر الإسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيام كتائبه معظم ما عظم من حقه

السائر من إجلاله وشكره خلاه على الحب طرقة المستضيء في ظلمة الخطب بنور أفقه الأمير عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر سلام كريم بر عميم بخص مقامكم الأعلى ورحمة الله تعالى وبركاته وحكمته وعدله الملك الحق الذي بيده ملك الأمر كله مقدر الأجال والأعمار فلا يتأخر شيء عن ميقاته ولا يبرح عن محله جاعل الدنيا مناخ نقله لا يغتبط العقال بمائة ولا بظله وسيلرحلة فما أكتب طعنه من حله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صفوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رسله الذي نعتمس بسببه الأقوى ونتمسك بحبله ونمد يد الافتقار إلى فضله ونجاهد في سبيله من كذب به أو حاد عن سبيله ونصل إليه ابتغاء مرضاته ومن أجله والرضا عن آله وأحزابه وأنصاره وأهله المستولين من ميدان الكمال على خصله والدعاء لمقامكم الأعلى بعز نصره ومضاء فضله فإنا كئبناه إليهم كتب الله تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوب حماها وعصمة ترجع عنها سهام النوائب كلما فوقها الدهر ورماما وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مسماها وعزا يزاحم أجمار الكواكب منتماها من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ونعم الله سبحانه تتواتر لدينا دفعا ونفعا وألطافه نتعرفها وترا وشفعا ومقامكم الأبوي هو المستند الأقوى والمورد الذي ترده آمال السلام قتروي وتهوي إليه أفئدتهم فتجد ما تهوى ومثابكم العدة التي تأسست مبانيها على البر والتقوى وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم وأبقي مجدكم فإنا لما نعلم نعلم من مساهمة مجدكم التي يقتضيها كرم الطباع وطباع الكرم وتدعو إليها

مرين بأخذ الهبة للسفر وجلس للعباء و عرض الجنود من لدن عزمه على النهوض إلى شهر ربيع الأول من سنة ثمان وخمسين بعدها ثم ارتحل من فاس وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر وسار هو في ساقته على التعبية إلى أن احتل بجاية وتلوم لإزاحة العلال ثم نازل الوزير قسنطينية وجاء السلطان على أثره ولما أطلت راياته وماجت الأرض بجنوده دعر أهل البلب وألقوا بأيديهم إلى الأذعان وانفضوا من حول سلطانهم أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي وجاؤوا مهطعين إلى السلطان أبي عنان وتحيز الحفصي في خاصته إلى القصبه ثم طلبوا الأمان من السلطان أبي عنان فيذله لهم وخرجوا وأنزلهم بمعسكره أياما ثم بعث أبي العباس في

الأسطول إلى سبتة فاعتقله بها وعقد على قسنطينة لمنصور بن الحاج خلوف الياباني من شيوخ بني مرين وأهل الشورى منهم وأنزله بالقصبه في شعبان من السنة المذكورة ووصلت إليه بيعات أمراء بني كعب من سليم وأقبال بني أبي الليل منهم يستحثونه لملك تونس فسرح معهم العساكر وعقد عليها لبحيي بن عبد الرحمن بن تاشفين وبعث أسطوله في البحر مددا لهم وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من أمراء بني الأحمر وكان سلطان تونس يومئذ أبا إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الحفصي ولما اتصل به خبر بني مرين أخرج حاجبه أبا محمد بن تافراجين لقتالهم فزحفت الجيوش على تونس ووصل الأسطول إلى مرساها فقتلهم ابن تافراجين يوما أو بعض يوم ثم ركب الليل إلى المهديّة ففتحها بها ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان وخمسين وسبعمئة وأقاموا بها الدعوة المرينية واحتل يحيى بن عبد الرحمن بالقصبه وأنفذ الأوامر وكتب إلى السلطان أبي عنان بالفتح عظيم سروره ونظر بعد ذلك في أحوال ذلك القطر وقبض أيدي العرب من رياح عن الإتاوة التي يسمونها الخافرة فارتابوا وطالبهم بارهن عن الطاعة فأجمعوا الخلاف والتفوا على أميرهم يعقوب بن علي ولحقوا بالزاب وارتحل السلطان في أثرهم فأجفلوا أمامه إلى القفر فخرّب حصونهم التي بالزاب ورجع عنهم وحمل له ابن مزني عامل بسكرة والزاب جبايته وأطلق المؤمن للعسكر من الإدام والحنطة والحملان والعلوفة ثلاثة أيام وكافاه السلطان على صنيعه فخلع عليه وعلى أهله وولده وأسنى جوائزهم ورجع إلى قسنطينة واعتزم على الرحلة إلى تونس وضاق العساكر ذرعا بشأن النفقات والإبعاد في الرحلة وارتكاب الخطر في دخول إفريقية

فتمشت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان وداخلو الوزير فارس بن ميمون في ذلك فوقهم ثم أذن شيوخ العسكر ونقاؤه لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى يبقى منفردين وأنهى إلى السلطان أبي عنان أن شيوخ العسكر قد عزموا على قتله ونصب إدريس بن عثمان بن أبي العلاء للامر فأسرهما في نفسه ولم يبدها لهم ورأى قلة من معه من الجند فارتاب وكر راجعا إلى المغرب بعد أن كان ارتحل عن قسنطينة إلى جهة تونس مرحلتين فانكفا وأخذ السير إلى فاس فاحتل بها غرة ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين المذكورة وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون لأنه اتهمه بمداخلة بني مرين في شأنه وقتله رابع أيام التشريق قعصا بالرماح وتقبض على مشيخة بني مرين فاستلحهم وأودع طائفة منهم السجن ولما رجع السلطان أبو عنان من إفريقية بلغ خبره إلى الجهات فارتحل أبو محمد بن تافراجين من المهديّة إلى تونس ولما أطل عليها ثارت شيعة الحفصيين على من كان بها من جيش بني مرين فنجوا إلى السفن وركبوا البحر إلى المغرب وجاء على أثرهم يحيى بن عبد الرحمن فيمن كان معهم العساكر وأولاد مهلهل وكان يوم الهبة بناحية الجريد لاقتضاء جبايته فصبوا إلى المغرب واجتمعوا كلهم بباب السلطان أبي عنان فأرجأ حركته إلى العام لقابل وكان ما نذكره إن شاء الله وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر إلى إفريقية لما رجع السلطان أبو عنان من إفريقية ولم يستتم فتحها بقي في نفسه منها شيء وخشي على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الذواودة المخالفين فأهمه شأنهم واستدعى سليمان بن داود من مكانه بجبل طارق وعقد له على وزارته وسرحه في العساكر إلى إفريقية فنهض إليها في ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعمئة وكان السلطان أبو عنان لما خالف عليه يعقوب بن علي وفر إلى القفر أقام مكانه أخاه المنازع له في رئاسة رياح

ميمون بن علي وقدمه على أولاد محمد من الذواودة وأحلّه بمكانه من رئاسة البدو فنزع إليه عن أخيه يعقوب الكثير من قومه وتمسك بطاعة السلطان أيضا طوائف من أولاد سباح بن يحيى فانحاشوا جميعا للوزير ونزلوا بحلهم على معسكره ثم ارتحل السلطان أبو عنان م فاس حتى احتل بتلمسان فأقام بها لمشاركة أحوال الوزير المذكور واحتل الوزير بوطن قسنطينة وبعث إلى عامل بسكرة والزاب يوسف بن مزني بأن تكون يده معه وأن يفاوضه في أحوال الذواودة لرسوخه في معرفتها فارتحل إليه من بسكرة ونزلوا جبل أورابن واقتضوا جبايته ومغارمه وشرودا المخالفين من الذواودة عن العيث في الوطن فتم غرضهم من ذلك وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أول أوطان إفريقية من آخر مجالات رياح وانكفا راجعا إلى المغرب فوفى السلطان أبا عنان بتلمسان ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة فوصلهم السلطان وخلع عليهم وحملهم وفرض لهم في العطاء بالزاب وكتب لهم بذلك وانقلبوا إلى أوليهم فرحين مغتبطين ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزني أوفده أبوه بهدية إلى السلطان من الخيل والرفيق والدرق فتقبلها السلطان وأكرم وفادته ثم استصحبه إلى فاس ليبريه أحوال كرامته وليستبلغ في الاحتفاء به واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعمئة وفاة السلطان أبي عنان رحمه الله لما وصل السلطان أبو عنان إلى دار ملكه بفاس احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى إذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض بالمصلى وأعجله طائف الوجع عن الجلوس للناس يوم العيد على العادة فدخل قصره ولزم فراشه

وذكر ابن خلدون ما حصله إنه كانت بين الوزير حسين بن عمر الفوددي وبين ولي العهد أبي زيان محمد بن السلطان أبي عنان نفرة مستحكمة لسوء طويته وشر ملكته فاتفق الوزير المذكور مع من كان على رأيه من أهل مجلس السلطان على تحويل الأمر عنه إلى غيره من أبناء السلطان فأجمعوا الفتك به والبيعة لأخيه أبي بكر السعيد طفلا خماسيا ثم أغروا الزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي بتطلب أبي زيان ولي العهد في نواحي القصر والتقبض عليه فدخل إليه وتلطف في إخراجهم من بين الحرم وقاده إلى أخيه السعيد فباع وتل إلى بعض حجر القصر فاتلفت فيها مهجته واستقل الحسن بن عمر بالأمر يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ذي الحجة والسلطان أبو عنان أثناء ذلك بجود نفسه وارتقب الناس دفته يوم الأربعاء والخميس بعده فلم يدفن فارتابوا وفشى الكلام فدخل الوزير زعموا إليه بمكانه من قصره ثم غلظه حتى أتلفه ودفن يوم السبت وحجب الحسن بن عمر الولد المنصوب للأمر وأغلق عليه بابه وتقدر بالأمر والنهي دونه انتهى وهذا أول مرض نزل بالدولة المرينية وقال في الجذوة توفي السلطان أبو عنان رحمه الله أبيض اللون تعلوه صفرة طويلة القائمة يشرف على الناس بطوله نحيف البدن عالي الأنف حسنه أعين أذعج جهوري الصوت في كلامه عجلة حتى لا يكاد السامع يفهم ما يقول عظيم اللحية تملأ صدره أسودها وإذا مرت بها الريح تفرقت نصفين حتى يستبين موضع الذقن وكان فارسا شجاعا يقوم في الحرب مقام جنده وكان فقيها

ينظر العلماء الجلة عارفا بالمنطق وأصول الدين وله حظ صالح من علمي العربية والحساب وكان حافظا للقرآن بناسخه ومنسوخه حافظا للحديث عارفا برجاله فصيح القلم كاتبا بليغا حسن التوقيع شاعرا أنشد له صاحب الجذوة اشعارا حسنة من ذلك في الحكمة قوله وإذا تصدر للرياسة حامل جرت الأمور على الطريق الأعوج وقال ابن الأحمر كنت يوما جالسا معه بمقعد ملكه من المدينة البيضاء بفاس فدخل عليه رجل يتصلح فلما نظر إليه بديهة تراهم في ظهورهم كراما ويخفون المكيدة والخداعا وللسلطان أبي عنان رحمه الله آثار دينية من بناء المدارس والزوايا وغير ذلك ومدرسته العنانية بفاس مشهورة إلى الآن ومن مدارسه المدرسة العجيبة بحومة باب حسين من سلا وقد صارت اليوم فندقا يعرف بفندق أسكور ومما قاله أبو بكر بن جزى في بعض ما أنشأه السلطان المذكور من الزوايا قوله هذا محل الفضل والإيثار والرفق بالسكان والزوار دار على الإحسان شيدت والتقى فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار هي ملجأ للواردين ومورد لابن السبيل وكل ركب ساري آثار مولانا الخليفة فارس أكرم بها في المجد من آثار لا زال منصور اللواء مظفرا ماضي الغزائم سامي المقدار بنيت على يد عبدهم وخديم بابهم العلي محمد بن حدار في عام أربعة وخمسين انقضت من بعد سبعين في الأعصار وقال صاحب الجذوة حدثني شيخنا أبو راشد اليزدي أن السلطان أبا عنان هو الذي أحدث بفاس

العلم الأزرق في الصومعة يوم الجمعة وقال في موضوع آخر منها حكى أن السلطان ابا عنان المريني صعد الصومعة يعني بالقرويين ليعتبر المدرنة وترتيبها ووقف على المنجاة وما اتصل بها فاستحسن ذلك وأنعم على الناظر في بمرتب وسع عليه فيه ليستعين به على القيام بشعائر الإسلام وذلك في سنة تسع وأربعين وسبعمئة قال وأمر بإثر ذلك بأن ينصب بأعلى الصومعة صاري من خشب ويشتر فيه علم في الأوقات التي يصلى فيها وبقار فيه سراج مزهر في أوقات صلاة الليل ليستدل بذلك من بعد ومن لم يسمع النداء وفي ذلك اعتناء بأمر الأوقاف وما يتعلق بها من وجوب الصلوات ويترتب عليها من وجوه الحقوق في العبادات ومما قيل في ذلك نور به علم الإيمان مرتفع للمهتدين به للحق إرشاد يأتون من كل صوب نحوه فلهم لديه للرشد إصدار وإيراد وقد لخص ابن الخطيب رحمه الله في رقم الحل سيرة السلطان أبي عنان فقال وخلص الأمر لكف فارس باتي الزوايا الكثر والمدارس الأسد المقترس المصنوع له من نال من كل المساعي أملة واحد أحاد الملوك العظما ومطلع النصر إذا ما أقدموا ومخجل الغيث إذا الغيث هما وعالم النصر إذا ما أقدموا أوجب حق الشعر والكتابة فأملت أعلامها جنباه واستجلب الأماثل الكبارا النباهة العلية الأخيارا يجبرهم على حضور الدولة فهم بنور وشموس حوله وكان جبارا على خدامه ينالهم في القصر على أحكامه مذهبه ألا يقبل عثره حتى لأرباب التقى والثرة فطرة السيف تناغي الدرة إذ غلبت على المزاج المرة ومات فيما قيل شر مينة بعيلة لنفسه مقبیه لم یعن عنه الباس والبسالة وأصبحت مهجته مسالة والغيب ارمه الدببیر من بعده في راحة الورییر ومن اعیان كتابه ابو القاسم بن رضوان وأبو القاسم البرجي ومن اعیان قضاته أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقری وهو جد أبي العباس المقری نفع الطیب وغيره من التألیف الحسان وأبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالی وغيرهما رحم الله الجميع آمنه حامد البدوی کتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الشيخ أبو العباس الناصری

بسم الله الرحمن الرحيم الدولة المرينية القسم الثاني الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي بكر بن أبي عنان بن أبي الحسن المريني هذا السلطان أول من استبد عليه من ملوك بني مرين أمه أم ولد اسمها الياسمين كنيته أبو يحيى وهي كنية كل من اسمه أبو بكر لقبه السعيد بالله صفته دري اللون مستدير الوجه حسن الأنف العس الشفتين براق الثنايا جعد الشعر بويح وأبوه مريض في التاريخ المتقدم وكان محجوبا بوريزه حسن بن عمر الفودودي لا يملك معه ضرا ولا نفعا ولما بويح لحق أخوه عبد الرحمن بن أبي عنان بجبل الكاي وكان أسن منه وإنما آثروه لمكان ابن عمه مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي من وزارته فبعثوا إليه من لطفه واستنزله على الأمان وجاء به إلى أخيه فاعتقله الحسن ابن عمر بقصيته من فاس وبعث على أبناء السلطان الأصاغر الأمراء بالثغور فجاء المعتصم من سجلماسة وامتنع المعتمد بمراكش وكان بها في كفالة عامر بن محمد الهنتاتي وكان عامر هذا من بيوتات هنتاتة وأهل الرياسة والشرف فيهم وكان السلطان أبو عنان قد أوصى إليه بولده المذكور وجعله هنالك لنظره فلما بعثوا عليه منعه من الوصول إليهم وخرج به من

مراكش إلى حصنه من جبل هنتاتة فجهز إليه الوزير حسن بن عمر الجيوش لنظر الوزير سليمان بن داود مشاركة في الاستبداد وسرحه في المحرم سنة ستين وسبعمئة فسار إلى مراكش فاستولى عليها ثم تخطى إلى الجبل فأحاط به وضيق على عامر حتى أشرف على اقتحام الحصن إلى أن بلغه خبر افتراق بني مرين بفاس وظهر منصور بن سليمان بها على ما نذكره فانفض العسكر من حوله وتساقبوا إلى منصور فلحقوا به ولحق به سليمان ابن داود أيضا وتنافس الحصار عن عامر ومكفوله والله غالب على أمره ظهور أبي حمو موسى بن يوسف الزياني واستيلاؤه على تلمسان ونهوض مسعود بن عبد الرحمن إليه وطرده عنها كان بنو عامر بن زغبة من عرب هلال خارجين على السلطان أبي عنان منذ استيلائه على تلمسان وكانت رياستهم إلى صغير بن عامر بن إبراهيم ولما رجع أبو عنان إلى فاس اعتزم صغير على الرحلة بقومه إلى وطنهم من صحراء المغرب لأنهم كانوا منتبذين عنها بأطراف إفريقية فدعوا أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان إلى الرحلة معهم لينصوبه للأمر ويجلبوا به على تلمسان فاجابهم إلى ذلك وأغوا السير إلى المغرب للعبث في نواحيه فجمع لهم أعداؤهم من سويد وكانوا خالصة لبني مرين فالتقوا بقبيلة تلمسان فانهمزمت سويد وهلك كبيرهم عثمان بن ونزمار واتصل بهم في أثناء ذلك خبر وفاة السلطان أبي عنان بفاس فأغوا السير إلى تلمسان وقاتلوا عليها حامية بني مرين ثم اقتحموها عليهم لليل خلون من ربيع الأول سنة ستين وسبعمئة واستباحوا من كان بها منهم وامتلات أيديهم من أسلابهم واستولى أبو حمو على ملك تلمسان واستأثر بما ألفاه بها من متاع بني مرين ومن جملة هدية كان السلطان أبو عنان أعدها هنالك ليعيث بها إلى طاغية برشلونة وفيها فرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام مذهين ثقيلين فاتخذ أبو حمو الفرس لركوبه وصرف باقي الهدية في وجوه مقاصده ولما انتهى إلى

الوزير حسن بن عمر خير تلمسان واستيلاء أبي حمو عليها جمع شيوخ بني مرين وأخبرهم بالنهوض إليها فأبوا عليه من النهوض بنفسه وأشاروا بتجهيز العساكر ووعده من أنفسهم المسير كافة ففتح ديوان العطاء وفرق الأموال وأسنى الصلوات وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد ثم عقد عليهم لمسعود بن عبد الرحمن بن ماساي وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في العساكر والألوية ولما اتصل خير مسيره بأبي حمو أفرج له عن تلمسان ودخلها مسعود في ربيع الثاني من السنة المذكورة فاستولى عليها وخرج أبو حمو إلى الصحراء إلى أن كان ما نذكره ظهور منصور بن سليمان وبيعة مسعود ابن عبد الرحمن له وما نشأ عن ذلك منصور هذا هو منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب ابن عبد الحق وكان الناس يرجفون بأن ملك المغرب سائر إليه بعد وفاة أبي عنان وشاع ذلك على ألسنة الناس حتى تحدث به السمر والندمان وخشي منصور على نفسه من ذلك فجاء إلى الوزير حسن بن عمر وشكا إليه ذلك ففاه أن يختلج بفكرة هذا الوسواس وانتهره انتهارا خلا عن وجه السياسة فانجزر واستكان قال ابن خلدون ولقد شهدت هذا الموطن فرحمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه ثم لما نهض مسعود بن عبد الرحمن إلى تلمسان واستولى عليها كان منصور هذا في جملته ولما فر أبو حمو إلى الصحراء اجتمعت عليه جموع العرب من بني زغبة وبني معقل ثم خلفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بانكاد بللهم وظواعنهم فجهز إليهم مسعود بن عبد الرحمن عسكرا من جنوده انتقى فيه مشيخة بني مرين وأمراءهم وعقد عليهم لابن عمه عامر بن عبد الله بن ماساي وسرحه فزحف إلى العرب بساحة وجدة فصدقه العرب القاتل فانكشفت بنو مرين واستبج معسكرهم واستلبت مشيختهم وأرجلوا عن خيولهم ودخلوا إلى وجدة عراة وبلغ الخبر

إلى بني مرين الذين بتلمسان وكان في قلوبهم مرض من استبداد حسن بن عمر عليهم وحجره لسلطانهم فكانوا يترصون بالدولة الدوائر فلما بلغهم هذا الخبر حاصوا حيصة حمر الوحش وخلصوا نجيا بساحة البلد فاتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب فبايعوه وانتهى الخبر إلى مسعود بن عبد الرحمن وكان في جملته منصور بن سليمان كما قلنا فأكرهه على البيعة وبايعه معه الرئيس الأبيك من بني الأحمر وقائد النصارى والفهدود وتسائل إليه الناس من كل جانب وتسامع الملأ من بني مرين بالخبر فتهاروا إليه وذهب يعيش بن علي لوجهه فركب البحر إلى الأندلس واستتب أمر منصور بن سليمان واجتمع بنو مرين على كلمته فارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب واعترضتهم جموع العرب في طريقهم فأوقعت بهم بنو مرين وامتلات أيديهم من أسلابهم وطعنهم ثم أغوا السير إلى المغرب فاحتلوا بوادي سبو في منتصف جمادى الآخرة من سنة ستين وسبعمئة وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر فبرز واضطرب معسكره بساحة البلد وأخرج السلطان السعيد في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه ولما غشيه الليل انفض عنه الملأ إلى منصور فأوقد الوزير الشموع وأذكى النيران وجمع الموالي والجند حول الفسطاط حتى أركب السلطان وعاد به إلى قصره وتحصن بالبلد الجديد وأصبح منصور بن سليمان فارتحل في التعبية حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وغدا على فاس الجديد بالقتال وجمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار وانتالت عليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة ولحقت به كتائب بني مرين التي كانت مجمرة على حصن عامر بن محمد الهنتاتي ولحق به أيضا قائدها سليمان بن داود وكاد أمره يتم وأقام على فاس الجديد يغاديهما القتال ويرأوحها ثم بدا الخلل في عسكره ونزع عنه إلى الوزير حسن بن عمر طائفة من بني مرين

ولحق آخرون ببلادهم ووقفوا ينتظرون مآل أمره واستمر هذا الحال إلى غرة شعبان فبينما الناس في ذلك إذ ظهر السلطان أبو سالم بجبال غمارة فانصرفت إليه وجوه أهل المغرب وبطل أمر السلطانيين

أبي بكر السعيد ومنصور بن سليمان معا وذابا كما يذوب الملح فأما منصور بن سليمان فإنه فر إلى بادس فقبض عليه وجيء به إلى السلطان أبي سالم فقتله وأما السعيد فإن وزيره الحسن بن عمر لما سمع بظهور السلطان أبي سالم واستفحال أمره نبذ دعوة سلطانه المذكور وبعث بطاعته إلى أبي سالم ووعده بالتمكين من دار الملك إن قدم عليه فكان الأمر كذلك وخلع السعيد يوم الثلاثاء الثاني عشر من شعبان سنة ستين وسبعمئة ثم قتل بعد ذلك غرقا في البحر فإن السلطان أبا سالم بعثه في جملة الأبناء المرشحين من بني أبي الحسن إلى الأندلس ووكّل بهم من بحرسهم ثم بعد ذلك بعث إلى الموكل بهم فحملهم في سفينة كأنه يريد بهم المشرق ثم غرقهم في البحر والأمر لله وحده الخير عن دولة السلطان المستعين بالله أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني كان هذا السلطان جوادا جم العطاء معروفًا بالوفاء كثير الحياء كنيته أبو سالم لقبه المستعين بالله أمه أم ولد رومية اسمها قمر صفته آدم اللون معتدل القامة رحب الوجه واسع الجبين بادن الجسم أعين أدعج معتدل اللحية أسودها وكان بعد مهلك والده السلطان أبي الحسن رحمه الله قد استقر بالأندلس بعثه إليها أخوه أبو عنان كما مر ولما مات أبو عنان المذكور وولي ابنه الصبي طمع أبو سالم هذا في الملك فاستأذن الحاجب رضوان مدير دولة ابن الأحمر بالأندلس في للحاق ببلاده فأبى عليه فغاضه ذلك ونزع عنه إلى طاغية قشتالة وتطرح عليه في أن يحمله إلى بر العدة يطلب ملك أبيه فأسغفه وأمر به فحمل في مركب وألقى به ملاحه في ساحل بلاد غمارة بعد أن تردد في أي السواحل يلقيه ووافق

ذلك اختلاف الكلمة بفاس ومحاصرة منصور بن سليمان للمدينة البيضاء فتسامع الناس بخروجه ببلاد غمارة أوحج ما كانوا إليه فقتلوا إليه من كل وجه وانفض الناس من حول منصور ومشى أهل معسكره بأجمعهم على التعبية فلحقوا بالسلطان أبي سالم واستغذوه إلى دار ملكه فأغذ السير إليها وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد من الأمر لتسعة أشهر من خلافته وأسلمه إلى عمه فخرج إليه وباعه ودخل السلطان أبو سالم البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعمئة واستولى على ملك المغرب وتوافقت وفود النواحي بالبيعات وعقد للحسن بن عمر على مراكز وجهزها إليها بالعساكر تخففا منه وريبة بمكانه من الدولة واستوزر مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي والحسن بن يوسف الورتاجني واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق وجعل إلى أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ توقيعه وكتابة سره قال وكنت نزلت إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرائس لما رأيت من اختلاف أحواله ومصير الأمر إلى السلطان أبي سالم فأقبل علي وأنزلني بمحل التنويه واستخلصني لكتابته أه قديم الغني بالله ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب مخلوعين على السلطان أبي سالم والسبب في ذلك قد قدمنا أن السلطان أبا الحاجب قتل يوم عيد الفطر بالمصلى سنة خمس وخمسين وسبعمئة وولي الأمر من بعده ابنه الغني بالله محمد بن يوسف وكان له أخ اسمه إسماعيل فجعله الغني بالله في بعض القصور من حمراء غرناطة احتفاظا به إلى أن كان رمضان من سنة ستين وسبعمئة فخرج الغني بالله إلى بعض منتزهاته خارج القصبه ولما كانت ليلة سبع وعشرين من رمضان المذكور أو ثمان وعشرين منه تسور جماعة من شيعة إسماعيل

المحبوس عليه القصبه ليلا وأخرجوه من محبسه وأعلنوا بدعوته ثم اقتحموا على حاجبه رضوان داره فقتلوه على فراشه وبين نسائه وضبطوا القصبه وأعلنوا بالدعوة ولم يرح الغني بالله إلا قرع الطبول بالقصبه في جوف الليل فاستكشف الخبر وتسمع فعلم بما تم عليه من خلعه وتولية أخيه فركب فرسه وخاض الليل إلى وادي أش فاستولى عليها وضبطها وباعه أهلها على الموت ثم عمد شيعة إسماعيل الثائر إلى الوزير ابن الخطيب فأودعه السجن بعد أن أغروا به ثائهم واكتسحوا داره واصطلموا نعمته وأتلفوا موجوده وكان شينا يجل عن الحصر واتصل ذلك كله بالسلطان أبي سالم وكانت له مصافاة مع ابن الأحمر من لدن كان عنده بالأندلس فكتب إسماعيل الثائر وشيعته يأمرهم بتخليه طريق الغني بالله للقدوم عليه ويشفع في تسريح ابن الخطيب وتخليه سبيله فأجابوا إلى ذلك وقدم الغني بالله بن الأحمر ووزيره ابن الخطيب على السلطان أبي سالم في السادس من محرم فاتح سنة إحدى وستين وسبعمئة فأجل السلطان أبو سالم قدومه وركب للقائه ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل في ترتيبه وقد غص بالمشيخة والعلية ووقف وزيره ابن الخطيب على قدميه فأثمد السلطان أبا سالم قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ويستحبه لمظاهرة على أمره واستعطف واسترح بما أبكى الناس شفقة له ورحمه ونص القصيدة سلا هل لديها من مخبرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم به الزهر وهل باكر الواسمي دارا على اللوا عفت أيها إلا التوهم والذكر بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى بأكنافها والعيش فينان مخضر وجوى الذي ربي جناحي وكره فيها أنا ذا ما لي جناح ولا وكرت نبت بي لا عن جفوة وملاحة ولا نسخ الوصل الهني بها هجر ولكنها الدنيا قليل متاعها ولذاتها دابا تزور وتزور فمن لي يقرب العهد منها ودوننا مدى طال حتى يومه عندنا شهر والله عينا من رأنا وللأسى ضرام له في كل جانحة جمر

وقد بددت در الدموع يد النوى وللشوق أشجان يضيق لها الصدر بكينا على النهر الشروب عشبه فعاد أجاجا بعننا ذلك النهر أقول لأطعاني وقد غالها السرى وأنسها الحادي وأوحشها الزجر رويدك بعد العسر يسران أبشري بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر والله فينا علم غيب وربما أتى النفع من حال أريد بها الضر وإن تخن الأيام لم تخن النهى وأن يخذل الأقوام لم يخذل الصبر وإن عركت مني الخطوب مجربا نقابا تساوى عنده الحلو والمرفق عجمت عودا صليبا على الردى وعزما كما تمضي المهندة البتر إذا أنت بالبيضاء قررت منزلي فلا اللحم حل ما حبيبت ولا الظهر زجرنا بإبراهيم براء همونا فلما رأينا وجهه صدق الزجر بمنتخب من آل يعقوب كلما دجا الخطيب لم يكذب لعزمته فجر تتناقلت الركبان طيب حديثه فلما رآته صدق الخبر الخبر ندى لو حواه البحر لذ مذاقه ولم يتعقب مده أبدا جزر وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى وترفل في أنياله الفتكة البكر أطاعته حتى العصم في قنن الربا وهشت إلى تأميلة الأنجم الزهر قصدناك يا خير الملوك على النوى لتتصنفا مما جنى عبدك الدهر كففنا بك الأيام عن غلوائها وقد رابنا منها التعسف والكبر وعدنا بذلك المجد فانصرم الردى ولدنا بذاك العزم فانهزم الذعر ولما أتينا البحر يرهب موجه ذكرنا نذاك العمر فاحتقر البحر خلافتك العظمى ومن لم يدين بها فيمانيه لغو وعرفانه نكر ووصفك يهدي المدح قصد صوابه إذا ظل في أوصاف من دونك الشعر دعنتك قلوب المؤمنين وأخلصت وقد طاب منها السر لله والجهر ومدت إلى الله الأكف ضراعة فقال لهن الله قد قضى الأمر وألبسها النعمى ببيعتك التي لها الطائر الميمون والمحتد الحر فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا وقد كان مما نابه ليس يقتر وأمنت بالسلم البلاد وأهلها فلا ظبية تعرى ولا روعة تعرو

وقد كان مولانا أبوك مصرحا بأنك في أولاده الولد البير وكنت حقيقا بالخلافة بعده على الفور لكن كل شيء له قدر فأوحشت من دار الخلافة هالة أقامت زمانا لا يلوح بها البدر فرد عليك الله حقه إذ قضى بأن تشمل النعمى وينسدل الستر وقاد إليك الملك رفقا بخلقه وقد عدموا ركن الإمامة واضطروا وزادك بالتمحيص عزا ورفعة وأجرا ولولا السبك ما عرف التبر وأنت الذي يدعى إذا دهم الردى وأنت الذي يرجى إذا أخلف القطر وأنت إذا جار الزمان محكم لك النقض والإبرام والنهي والأمر وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه مهيب ومن عليك يلتمس الجبر غريب يرجي منك ما أنت أهله فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر ففز يا أمير المؤمنين بببيعة موثقة قد حل عروتها الغدر ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا بيا لمربين جاءه العز والنصر وخذ يا إمام الحق ثاره ففي ضمن ما تأتي به العز والأجر وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم بحق فما زيد يرجى ولا عمرو فإن قيل مال مالك النثر وافر وإن قيل جيش عندك العسكر المجر يكف بك العادي ويحيا بك الهدى وبينك بك الإسلام ما هدم الكفر أعده إلى أوطانه عنك راضيا وطوقه نعماك التي ما لها حصر وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها فقد صدهم عنه التغلب والقهر وهم يرقبون الفعل منك وصفة تحاولها يمينك ما بعدها خسر مرامك سهل لا يؤودك كلفة سوى عرض ما إن له في العلا خطر وما العمر إلا زينة مستعارة ترد ولكن التناء هو العمر ومن باع ما يفنى ببق مخلد فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر ومن دون ما تبغيه يا ملك الهدى جباد المذاكي والمججلة الغر وواد شفر

واضحات شباتها فأجسامها تير وأرجلها در وشهب إذا ما ضمرت يوم غارة مصممة غارت بها الأنجم الزهر وأسد رجال من مرين أعزة عمانها بيض وأسألها سمر

عليها من المأذي كل مفاضة تدافع في أعطافها اللجج الخضر هم القوم إن هبوا لكشف لمة فلا الملتقى صعب ولا المرتقى وعر إذا سلوا أعطوا وإن نوزعوا سطوا وإن واعدوا وفوا وإن عاهدوا وبروا وإن منحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم نشاوى تمشت في معافهم خمر وإن سمعوا العوراء فروا بأنفس حرام على هاماتها في الوعى الفر وتيسم ما بين الوشيج ثغورهم وما بين قضب الدوح يبتسم الزهر أملاي غاضت فكرتي وتبلدت طباعي فلا طبع يعين ولا فكر ولولا حنان منك داركنتي به وأحببتي لم يبق عين ولا أثر فأوجدت مني فانتا أي فانتا وأنشرت ميتا ضم أشلاءه قبر بدأت بفضل لم أكن لعظيمه بأهل فجل اللطف وانتشر الصدر وطوقتني النعمى المضاعفة التي يقبل عليها مني الحمد والشكر وأنت بتتيم الصنائع كافل إلى أن يعود الجاه والعز والوفر جزاك الذي أسنى مقامك رحمة بكف بها عان وينعش مضطر إذا نحن أثبتنا عليك بمدحة فبهيات يحصى الرمل أو يحصر القطر ولكننا تأتي بما نستطيعه ومن بذل المجهود حق له العذر ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى منزله المعد له وقد فرشت القصور وقربت له الجياد بالمرائب المذهبة وبعث إليه بالكسا الفاخرة وربت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي ويطانته من الصنائع وانحفظ عليه رسم سلطانه في الراكب والراجل ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الأداة أديا مع السلطان واستقر في جملته إلى أن لحق بعد بالأنلس وعاد له ملكه سنة ثلاث وستين وسبعمئة وأرغد السلطان أبو سالم عيش ابن الخطيب وأفاض عليه الجرايات وربت له الإقطاعات غير أنه كان مضمرًا لمفارقة السلطان والتخلي عن خدمته والانفراد بنفسه لا اعتنام ما بقي من عمره في طاعة الله تعالى فكان من أمره في ذلك ما نذكره

سفر ابن الخطيب عن مراكش وأعمالها وزيارته لأولياتها ورجالها والسبب في ذلك كان ابن الخطيب رحمه الله عندما حصلت له هذه النكبة وخلصه الله منها بانتقاله إلى بلاد العدة قد عن له رأي في التزه والانقطاع إلى الله تعالى واعتنام بقية العمر فيما يعود نفعه في العاجل والآجل ورفض السلطان وأسبابه وترك ما يلجته للوقوف ببابه فتطفت في استئذان السلطان أبي سالم رحمه الله وطلب منه الإذن في الذهاب إلى جهات مراكش والوقوف على آثار الأقدمين بها والتطرح على أولياتها والمثول بأعتابها والتعلق بأذيالها والتمسك بأسبابها جاعلا ذلك مفتاح العزلة والتخلي عن الدولة فأذن له وكتب إلى العمال بإتحافه والاعتناء به فبقاروا في ذلك كما يفصح عنه بعض شعره الآتي وجعل طريقه على مدينة سلا فتأمل أحوالها ورأها أوفق لمراهه في العزلة فأضمر الاستيطان بها عند عوده من وجهته ولما دخل مدينة أنفى وهي الدار البيضاء مر بها على دار عظيمة تنسب إلى والي جبايتها عيو من بني الترجمان قارون قومه وغني صنفة وكان قد هلك قبل ذلك فقال ابن الخطيب قد مررنا بدار عيو الوالي وهي تكلى تشكو صروف الليالي أقصدت ربهما الحوادث لما رشقته بصانبات النبال كان بالأمس واليا مستطيلًا وهو اليوم ما له من والي وأظنه في هذه الوجهة خاطب شيخ العرب مبارك بن إبراهيم بن عطية ابن مهلهل الخطي ونص ما خاطبه به ساحات دارك للضياف مبارك وبضوء نار قراك يهدي السالك ونوالك المبدول قد شمل الورى طرا وفضلك ليس فيه مشارك قل للذي قال الوجود قد انطوى والبأس ليس له حسام فاتك والوجود ليس له غمام هائل والمجد ليس همام باتك جمع الشجاعة والرجاحة والندى والبأس والرأي الأصيل مبارك للدين والدنيا وللشيم العلا والوجود إن شح الغمام السافك

عند الهياج ربيعة بن مكرم والفضل والتقوى الفضيل ومالك ورث الجلالة عن أبيه وجده فكأنهم ما غاب منهم هالك فجياده للأملين مراكب وخيامه للقاصدين أرائك فإذا المعالي أصبحت مملوكة أعناقها بالحق فهو المالك يا فارس العرب الذي من بيته حرم لها حج به ومناسك يا من يبشر باسمه قصاده فلمه إليه مسارب ومسالك أنت الذي استأثرت فيك غيظتي وسواك فيه مأخذ ومتمارك لا زلت نورا يهتدي بضيائه من جنه للروح ليل حالك ويخص مجدك من سلامي عاطر كالمسك صاك به الغوالي صائك الحمد لله تعالى الذي جعل بيتك شهيرا وجعلك للعرب أميرا وجعل اسمك فالأ ووجهك جمالا وقربك جاها ومالا وآل رسول الله ألا أسلم عليك يا أمير العرب وابن أمراتها وقطب سادتها وكبرائها وأهنيك بما منحك الله تعالى من شهرة تبقى ومكرمة لا يضل المتصف بها ولا يشقى إذ جعل خيمتك في هذا المغرب على اتساعه واختلاف أشياعه مأمنا للخائف على كثرة المذاهب والطوائف وصرف الألسنة إلى مدحك والخلود إلى حبك وما ذلك إلا لسريرة لك عند ربك ولقد كنت أيام تجمعي وإيك المجالس السلطانية على معرفتك متهاكلا وطوع الأمل سالكا لما يلوح لي على وجهك من سيما المجد والحياء والشيم الدالة على العلياء وزكاء الأصول وكرم الأباء وكان والدي رحمه الله قد عين للقاء خال السلطان قرييكم لما توجه في الرسالة إلى الأنلس نائبا في تأنيسه عن مخدومه ومنوها حيث حل بقدومه واتصلت بعد ذلك بينهما المهادة والمعرفة والرسائل المختلفة فعظم لأجل هذه الوسائل شوقي إلى التشرف بزيارة ذلك الجنب الذي حلوه شرف ومعرفة كثر ونخر فلما ظهر الآن لمحل الأخ القائد فلان للحاق بك والتعلق بسببك رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل

بعضي والله تعالى يبسر في البعض عند تقرير الأمر وهدة الأرض وهذا الفاضل بركة حيث حل لكونه من بيت أصالة وجهاد وماجدا وابن أمجاد ومثلك لا يوصى بحسن جواره ولا يبنه على إيثاره وقبيلك من العرب في الحديث والقديم وهو الذي أوجب لها مزية التقديم لم تتفخر قط بذهب يجمع ولا نخر يرفع ولا قصر يبني ولا غرس يجني وإنما فخرها عدو يغلب وثناء يجلب وجزر تحذر وحديث يذكر وجود على الفاقة وسماحة بحسب الطاقة فلقد ذهب الذهب وفنى الشب وتمزقت الأثواب وهلكت الخيل العرب وكل الذي فوق التراب تراب وبقيت المحاسن تروى وتنقل والأعراض تجلى وتصقل والله در الشاعر إذ يقول إنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى هذه مقدمة إن يسر الله بعد لقاء الأمير فيجلى اللسان عما في الضمير ومدحي على الأملاك وقف وإنما رايتك منها فامتدحت على وسمي وما كنت بالمهدي لغيرك مدحتي ولو أنه قد حل في مفرق النجم وقال في الشيخ ابن بطان الصنهاجي صنهاجة أزمور لله درك يا ابن بطان فما لشهير جودك في البسيطة جاحد إن كان في الدنيا كريم واحد يزن الجميع فانت ذاك الواحد أجريت فضلك جعفرا يحيى به ما كان من مجد فذكرك خالد فالقوم منك تجمعوا في مفرد ولد كما شاء العلاء ووالد وهي الليالي لا تزال صروفها يشقى بموقعها الكريم الماجد وبمستعين الله يصلح منك ما قد كان أفسده الزمان الفاسد وقال رحمه الله عندما توسط بسيط تامسنا كأننا بتامسنا نجوس خلالها وممدودها في سيرنا ليس يقصر مراكب في البحر المحيط تخبطت ولا جهة تدري ولا البر يبصر وقال رحمه الله يخاطب أبا العباس أحمد بن يوسف حفيد المولى الصالح سيدي أبي محمد صالح النائم في ظل صيته رضي الله عنه يا حفيد الولي يا وارث الفخر الذي نال في مقام وحال لك يا أحمد بن يوسف جبنا كل قطر يعي أكف الرحال

وقال في نفاضة الجراب لما خرجت من أسفي سرت إلى منزل ينسب إلى أبي حدو وفيه رجل من بني المنسوب إليه اسمه يعقوب فألطف وأجزل وأنس في الليل وطلبني بتذكرة تثبت عندي معرفة فكتبت له نزلنا على يعقوب نجل أبي حدو فعرفنا الفضل الذي ما له حد وقابلنا بالبشر واحتفل القرى فلم يبق لحم لم نثله ولا زبد يحق علينا أن نقوم بحقه ولباقه منا البر والشكر والحمد وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث زحفت إلي ركائب البرغوث نم الظلام بركبها المحدث بالحبة السوداء قابل مقدمي لله أي قرى أعد خبيث كسحت بهن ذباب سرح تجلدي ليلا فحبل الصبر جد رثيث إن صابرت نفسي أذاه تعبدت أو صحت منه أنفت من تحنيثي جيشان من ليل وبرغوث فهل جيش الصباح لصرختي بمغيث وقال رحمه الله وقد أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى ماذا أحدث عن بحر سبحت به من البحار فلا إثم ولا حرج دعاه مبتدع الأشياء مستويا ما إن به درك كلا ولا درج حتى إذا ما المنار الفرد لاح لنا صحت أبشري يا مطايا جاءك الفرج قربت من عامر دارا ومنزلة والشاهد العدل هذا الطيب والأرج ولما وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها واعتبر ما صار إليه حالها بعد الموحدين قال بلد قد غزاه صرف الليالي وأباح المصون منه مبيح فالذي خر من بناء قتيل والذي خر منه بعض جريح وكان الذي يزور طبيب قد تأتي له بها التشريح أعجمت منه أربع ورسوم كان قدما بها اللسان الفصيح كم معان غابت بتلك المغاني وجمال أخفاه ذلك الضريح وملوك تعبدوا الدهر لما أصبح الدهر وهو عبد صريح دوخوا نازح البسيطة حتى نال ما شاء ذابل وصفح حين شبت لهم من البأس نار ثم هبت لهم من النصر ريح أثر يندب المؤثر لم طال بعد الدنو منه النزوح ساكن الدار روحها كيف يبقى جسد بعد ما تولى الروح ومما قاله في الشيخ أبي العباس السبتي رضي الله عنه على لسان سلطانه الغني

بأنه وهو يومئذ بفاس يا ولي الإله أنت جواد وقصدنا إلى حماك المنيع راعنا الدهر بالخطوب فجننا نرتجي من علاك حسن الصنيع فمددنا لك الأكف نرجى عودة العز تحت شمل جميع قد جعلنا وسيلة تريك الزاكي وزلفى إلى العليم السميع كم غريب أسرى إليك فوفى برضى عاجل وخير سريع وقال يخاطب عميد البلاد المراكشية المتميز بالرأي والسياسة والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجافي عن مال الجباية عامر بن محمد بن علي الهنتاتي تقول لي الأظعان والشوق في الحشا له الحكم يمضي بين ناه وأمر إذا جبل التوحيد أصبحت فارعا فخيخ فزير العين في دار عامر وزر تربة المعلوم إن مزارها هو الحج يسعي نحوه كل ضامر ستلقى بمثوى عامر بن محمد ثغور الأماني من ثنابا البشائر والله ما تبيلوه من سعد وجهه والله ما تلقاه من يمن طائر وتستعمل الأمثال في الدهر منكما بخير مزور أو بأعبط زائر لم يكن همي أبقاك الله تعالى مع فراغ الليل وإسعاف الآمال ومساعدة الأيام والليال إذ الشمل جميع والزمان كله ربيع والدهر سميع مطيع إلا زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان ويواصل أمنه بين النوم والأجفان وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية وكانت إليه العودة ومنه البداية فلما حم الواقع وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع وأصبحت

ديار الأندلس وهي البلاقع وحسنت من استدعائك إياي المواقع وقوي العزم وإن لم يكن ضعيفا وعرضت على نفسي السفر بسببك فألقيته خفيفا والتمست الإذن حتى لا نرى في قبلة السداد تحريفا واستقبلتك بصدر مشروح وزند للعزم مقدوح والله سبحانه وتعالى يحقق السؤل ويسهل بمثوى الأمانات المثل ويهين من قبيل هنتاتة القبول بفضلته انتهى ولما ذهب إلى عامر بن محمد المذكور ورقى الجبل زار الموضع الذي توفي به السلطان أبو الحسن رحمه الله وقد ألم بذكر ذلك في نفاضة الجراب إذ قال وشاهدت بجبل هنتاتة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله حيث أصابه طارق الأجل الذي فصل الخطة وأصمت الدعوة ورفع المنازعة وعابنته مرفعا عن الابتذال بالسكنى مفروشا بالحصاء مقصودا بالابتهايل والدعاء فلم أبرح يوم زيارته أن قلت يا حسنها من أرفع وديار أضحت لباغي الأمن دار قرار وجبال عز لا تذل أنوفها إلا لعز الواحد الفقهار ومقر توحيد واس خلافة آثارها تبنى عن الأخبار ما كنت أحسب أن أنهار الندى تجري بها في جملة الأنهار ما كنت أحسب أن أنوار الحجا تلتاح في قنن وفي أ حجار مجت جوانبها البرود وإن تكن شبت بها الأعداء جذوة نار هدت بناها في سبيل وفائها فكأنها صرعى بغير عقار لما توعدا على المجد العدا رضيت بعيب النار لا بالعار عمرت بحلة عامر وأعزها عبد العزيز بمرهف بتار فرسا رهان أحرزا قصب الندى والباس في طلق وفي مضمار ورثا عن النذب الكبير أبيهما محض الوفاء ورفعة المقدار وكذا الفروع تطول وهي شبيهة بالأصل في ورق وفي أثمار أزرت وجوه الصيد من هنتاتة في جوها بمطالع الأقمار لله أي قبيلة تركت لها النظراء دعوى الفخر يوم فخر نصرت أمير المسلمين وملكه قد أسلمته عزائم الأنصار

وارت عليا عند ما عظم الردى والروع بالأسماع والأبصار وتخاذل الجيش اللهام وأصبح الأبطال بين تقاعد وفرار كفرت صنائعه فيم دارها مستظها منها بعز جوار وأقام بين ظهورها لا يتقي وقع الردى وقد ارتمى بشرار فكأنها الأنصار لما أن سمت فيما تقدم غربة المختار لما غدا لحظا وهم أجنافه نابت شفارهم عن الأشفار حتى دعاه الله بين بيوتهم فأجاب ممتلا لأمر الباري لو كان يمنع من قضاء الله ما خلصت إليه نوافذ الأقدار قد كان يأمل أن يكافئ بعض ما أولوه لولا قاطع الأعمار ما كان يقنعه لو امتد المدى إلا القيام بحقها من دار فيعيد ذلك الماء ذائب فضة ويعيد ذلك التراب ذوب نضار حتى تفوز على النوى أوطانها من ملكه بجلائل الأوطار حتى يلوح على وجوه وجوههم أثر العناية ساطع الأنوار ويسوغ الأمل القصي كرامها من غير ما ثنبا ولا استعصار ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجا عن درهم فيهم ولا دينار أو أن يتوج أو يقلد هامها ونحورها بأهله ودراري حق على المولى ابنه إيثار ما بذلوه من نصر ومن إيثار فلعلها زخر الجزاء ومثله من لا يضع صنائع الأحرار وهو الذي يقضي الديون وبره يرضيه في علن وفي أسرار حتى تحج محلة رفعوا بها علم الوفاء لأعين النظار فيصير منها البيت بيتا ثانيا لطنافين إليه أي بدار تغني قلوب القوم عن هدى به ودموعهم تكفي لرمي جمار حبيبت من دار تكفل سعيها المحمود بالزلفى وعتبي الدار وضفت عليك من الإله عناية ما كر ليل فيك أثر نهار ويعني بالمولى ابنه السلطان أبا سالم بن أبي الحسن ثم سار ابن الخطيب إلى أغمات فزار مشاهدها وشاهد معاهدها فحكى عن نفسه رحمه الله

قال وقفت على قبر المعتمد بن عباد في مدينة أغمات في حركة أعملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة إحدى وستين وسبعمائة وهو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض وقد حفت به سدره وإلى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك وعليهما أثر التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك فلم هنتاتة العين دمعها عند رؤيتهما فأنتدت في الحال قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رايت ذلك من أولى المهمات لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا ويا سراج الليالي المدلهجات وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه إلى حياتي لجادت فيه أبيات أناف قبرك من هضب يميزه فنتتجيه حفيات التحيات كرمت حيا وميتا واشتهرت علا فانت سلطان أحياء وأموات مارني مثلك في ماض ومعنتدي ألا يرى الدهر في حال ولا آت ولما انتكأ ابن الخطيب رحمه الله راجعا من سفرته هذه وانتهى إلى سلا أقام بها منتبذا عن سلطانه رافضا للملك وأسبابه طول مقامه بالمغرب على ما نذكره إن شاء الله بقية أخبار ابن الخطيب بسلا حرسها الله قد قدمنا أن ابن الخطيب كان قد عزم على التخلي عن الدنيا والانتطاع إلى الله تعالى وأنه اختار أن يكون مقامه بسلا لكونها يومئذ أعون له على مراده من غيرها حسبما يؤخذ ذلك من مواضع من كلامه من ذلك أنه لما وصف أمصار الأندلس والمغرب في مقاماته المشهورة وصف مدينة سلا بقوله العقيلة المفضلة والبطيحة المخضلة والقاعدة المؤصلة والسورة المفصلة ذات الوسامة والنضارة والجامعة بين البداوة والحضارة معدن القطن والكتاب والمدرسة والمارستان والزواوية كأنها البستان والوادي المتعدد الأجفان القطر الأمين عند الرجفان والعصير العظيم الشأن والأسواق السارة حتى برقيق الحيشان اكتنفها المسرح والخصب الذي لا

بيرح والبحر الذي بأسو ويجرح وشقها الوادي الذي يتم محاسنها ويشرح وقابلها الرباط الذي ظهر به من المنصور الاغتباط حيث القصبة والسباط ثم يقع الانحطاط إلى شالة مرعى الزم ونتيجة الهمهم ومشمخ الأنوف ذوات الشمم وعنوان الرمم حيث الحسنات المكتتية والأوقاف المرتبة والقباب كالآزهار مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار وطل حسان المثل في الاشتهار وهي على الجملة من غيرها أوفق ومغارمها لاحترام الملوك الكرام أرفق ومقبرتها المنضدة عجب في الانتظام معدودة في المواقف العظام ويتأتى بها للعباد الخلوة وتوجد عندها للهموم السلوة كما قال ابن الخطيب وصلت حيث السير فيمن فلى الفلا فلا خاطري لما نأى وانجلا وانجلا ولا نسخت كربى بقلبي سلوة فلما سوى فيه نسيم سلا وكفى بالشايل رزقا طريا وسمكا بالتفضيل حريا يبرز عدد قطر الديم وياع ببخس القيم ويعم المجاشر النائية والخيم أه وما قاله في حق سلا من كونها تتأتى بها للعباد الخلوة هو كذلك معروف عند صلحاء المغرب وعباده من لدن قديم ولذا لما قدم أبو العباس بن عاشر رضي الله عنه من الأندلس وتنفق في بلاد المغرب مثل فاس ومكناسة لم يطب له القرار إلا بسلا وقد صرح رضي الله عنه بذلك حيث قال سلا كل قلب غير قلبي ما سلا أبسلو بفاس والأحبة في سلا بها خيموا فالقلب خيم عندهم فأجروا دموعي مرسلا ومسللا ولما ذكر أبو العباس الصومعي رحمه الله في كتابه الموضوع في مناقب الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه استحباب زيارة الأولياء قال ما نصه ولا سيما في مشاهد الأخبار إذا اجتمعوا في مكان من الأمكنة المشرفة كما كانوا يجتمعون قبل هذا برباط شاكرو وبساحل دكالة وبسلا وبجبل العلم وعند

الشيخ أبي يعزى في أيام الربيع وغير ذلك أه وأقول على ذكر سلا فقد كتب إلي وأنا بمراكش حرسها الله الأخ في الله الفقيه الأديب المحاضر أبو عبد الله محمد بن عزوز الرباطي أصلا المراكشي دارا بطاقة يقول فيها ما نصه الحمد لله وحده السيد الأخ الذي ثوب إخوانه ما اتسخ الفقيه العلامة اللابس من أسلحة العلوم الدرر واللامة أبا العباس السيد أحمد الناصري سلام عليك سلاما ذكي العرف رائج الصرف وبعد فقد اشتقنا إلى لذيذ منكراتكم وحلو فكاهتكم والأن نحب من السيادة أن تشرفونا بنقل قدمكم وتكرمونا بطاعتكم السعيدة بكرة غد إن شاء الله وعلى المحبة والسلام في فاتح رجب الفرد سنة أربع وتسعين ومائتين وألف وألحق بأسفلها ما نصه سلا البحر ما بحر بنيت بشطه كبحر علوم فيك أنشئ صالحا فهذا هو

الفياض بالعلم والتقى وذاك هو الفياض بالماء مالحا ولم ندر هل البيتان له أو تمثل بهما وعلى كل حال فما قاله حفظه الله إنما حملة عليه حسن نيته وصفاء طويته وأما المكتوب إليه بهما فلا والله لا علم ولا تقى إلا أن يتغمنا الله برحمته ثم إنني أجبتُه بنثر تركته للاختصار ووصلته بأبيات أقول فيها ما نصه بعثت أبا عبد الإله مدائحا هو الدر حسنا والشذور لوانحا فنبهت فكري طالما بات نائما وروضت ذهنا طالما ظل جامحا وشيدت من ذكري وقد كان خاملا وهيبت من قلبي الشجي القرائحا وطوقنتي النعمي بتقريضا الذي به ظل مجدي للنجوم مصافحا وإلا فما قدرني وإن جد جده وما قيمتي لو لم تكن لي مادحا فانت أديب العصر حقا ومن غذا لعمرى لأبواب المعارف فاتحا فخذ من أخيك العي واستر عيوبه وسامح فظني أن تكون مسامحا فوصفك يعيبي كل أشدق بارع ولو ظل في بحر البلاغة سابحا فقلت من ذي العرش كل كرامة ووقيت من هذا الزمان الطوائحا ولا زال هذا الدهر طوعك خادمك عاكك وطرف السعد نحوك طامحا ومما مدح به سلا وأهلها قول الإمام العلامة الهمام أبي علي الحسن بن مسعود البوسني رضي الله عنه مرسى سلا مأوى الشمم والمجد عن طول الأمم بلد بحسبك منظر منه ومخيرته أتم مسري الهوموم ومسرح الألبصار مسلاة الغم مترفلا في حلة من حسنه جنب العلم كالحررة الحسنة في كنف الهمام المحترم وتراه من جناته متلألئا بين الأجم كالدر بين زمرد في قرط مارية انتظم وكوجه خود حفه السوالف في دلم وكغرة في أدهم والصبح في حنج الإحم والثغر من زنجية ترنو إليه وقد بسم والبردر ما بين الدجي والشيب في سود اللمم يعلو فويق جنبه علم تدلى من أمم فكأنه تاج اللجين على جبينه ذي عظم أو كالكبير مزملأ أودى بهضته الهرم في رأسه صلح وفيما تحت جبهته غم أو كالجواد بأنفه من ذلك القصر الرثم يكفيك منه هواؤه لا خبث فيه ولا وخم عجا صحيح والهوى أبدا عليل ذو سقم وزلاله العذب الذي يشفي الفؤاد من الضرم حاكى العقار وفاقها بصفاء لون الشيم أبناء مجد في الألى كانوا يراعون الذمم من نبلهم دون العويص ونبلهم خلف الحرم ونفيسهم فقع الفلا ونفوسهم بيض الرخم من كل أبيض وجهه تجلى به سدف الظلم في الخطب بدل لامع ولدى الندى بحر خضم وأحبة كانوا لنا كالماء بالراح التأم لم يعد بين بيننا ولو الفراق بنا ألم اللين بين جسومنا لا بين أنفسنا يحم والعهد حبل ما انفصا عنه الوداد ولا انقصم والصدق نهج قد علا في كل أوجهه علم والبر مرعاة قرى من فيه للحسنى قرم والنفس أرض قد كرا المعين ذوو الكرم والدين روض قد رعى فيه من العقبي رعم والعلم ورد ما حلا إلا لمن نزع الحلم والسر برق ما أضا إلا لمن غسل الإضم والدهر دولاب شما فيه سوى أهل الشمم من ذاق مورده الصري يوما فللدنيا صرم ولنرجع إلى بقية أخبار ابن الخطيب ولما استقر بسلا واطمأن جنبه بها قال يا أهل هذا القطر ساعده القطر بليت فدلوني لمن يرفع الأمر

تشاغلت بالدنيا ونمت مفرطا وفي شغلي أو نومتي سرق العمر ثم حرص على لقاء الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه حتى ظفر به فعظم سروره بذلك وتبجح به إذ قال في نفاضة الجراب ولقيت من أولياء الله تعالى بسلا الولي الزاهد الكبير المنقطع القرين فرارا عن زهرة الدنيا وعزوفها عنها وإغراقا في الورع وشهرة بالكشف وإجابة الدعوة وظهور الكرامات أبا العباس بن عاشر يسر الله لقاءه على تعذره لصعوبة تأتبه وكثافة هيئته قاعدا بين القبور في الخلاء رث الهيئة مطرق اللحظ كثير الصمت مفرط الانقباض والعزلة قد ضرسه أهل الدنيا وتطرحهم فهو شديد الاشمزاز من قاصده مجرمز للوثبة من طارقه نفع الله تعالى به أه كلامه في النفاضة وقال رحمه الله من قصيدته العينية السلاوية التي وجهها إلى سلا أيام خلف بها أهله وولده بولي الله فأبدا وابتدر واحدا الأحاد في باب الورع ومراده بولي الله ابن عاشر المذكور ثم إن ابن الخطيب بعد رجوعه من مراکش جعل ينتاب رباط شالة مدفن الملوك من بني مرين ومنهم السلطان أبو الحسن رحمه الله للدعاء وقرآءة القرآن بها وتعاهدها وقد كتب بذلك إلى السلطان أبي سالم وطلب منه أن يشفع له عند أهل الأندلس في رد متاعه الذي أتلفوه عليه أيام النكبة ونص الكتاب مولاي المرجو لإتمام الصنيعة وصللة النعمة وإحراز الفخر أبقاكم الله تعالى تضرب بكم الأمثال في البر والرضا وعلو الهمة ورعي الوسيلة مقبل موطن قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء في القبة المقدسة وتيمم بالتربة الزكية وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعة إياه من الوجهة المباركة وزيارة الربط المقصودة والترب المعظمة وقد عزم أن لا يبرح طوعا من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعى حتى يصله من مقامكم ما

يناسب هذا التطراح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم والتماس شفاعته في أمر سهل عليكم لا يجر إنفاد مال ولا اقتحام خطر إنما هو إعمال لسان وخط بنان وصرف عزم وإحراز فخر وإطابة ذكر وأجر وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر مما يفتح الله تعالى فيه ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب وقال لي صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب يعني ابن مرزوق سنى الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم أنت يا فلان والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين وقد تقدم تعريف مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبا آده من حضر ذلك المشهد من خدامكم والعبد الآن يعرض عليكم الجواب وهو أنني لما فرغت من مخاطبته بمراى من المملأ الكبير والجم الغفير أكببت على اللحد الكريم داعيا ومخاطبا وأصغيت بإذني نحو قبره وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله فكأنني به يقول لي قل لمولايك يا ولدي وقررة عيني المخصوص برضاي وبري وستر حريمي ورد ملكي وصان أهلي وأكرم صنائعي ووصل عملي أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويقبل عليك الدنيا دار غرور والأخرة خير لمن اتقى وما الناس إلا هالك وابن هالك ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقضى العفو والمغفرة أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ومثلك من ذكر فتذكر وعرف فما أنكر وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبري وتهمم بي وسبق الناس إلى رثائي وأنشدني ومجدني وبكى لي ودعا لي وهنأني بمصير أمري إليك وعفر وجهه في تربتي وأملني لما انقطعت مني أمال الناس فلو كنت يا ولدي حيا لما وسعني أن أعمل معه إلا ما يليق بي وأن أسئلك فيه الكثير وأحتقرن العظيم لكن لما

عجزت عن جزائه وكتله إليك وأحلته يا حبيب قلبي عليك وقد أخبرني أنه سلب المال كثير العيال ضعيف الجسم قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن وأمل أن ينقطع بجوارى ويستتر بدخيلي وخدمتي ويرد عليه حقه بخدمتي ووجهي ووجوه من ضاجعني من سلفي ويعبد الله تعالى تحت حرمته وحرمتي وقد كنت تشوفت إلى استخدامه في الحياة حسبا يعلمه حبيبنا الخاص المحبة وخطيبنا العظيم المزينة القديم القربة أبو عبد الله بن مرزوق فأسأله يذكرك واستخبره يخبرك فأتا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات إلى أن نلحق جميعا برضوان الله تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء وله يا ولدي ولد نجيب يخدم ببابك وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك وقد استقر ببابك قراره وتعين بأمرك مرتبه وداره فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب هذه رغبتى منك وحاجتى إليك واعلم أن هذا الحديث لا بد أن يذكر ويتحدث في الدنيا وبين أيدي الملوك والكبراء فاعمل ما يبقى لك فخره ويتخذ ذكره وقد أقام مجاورا ضريحي تاليا كتاب الله تعالى على منتظرا ما يصله منك ويقراه على من السعي في خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة في جبره وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة فانه الله يا إبراهيم اعلم ما يسمع عني وعك فيه ولسان الحال أبلغ من لسان المقال أه والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه منتظر منكم قضاء حاجته ولتعلموا وتحقروا أنني لو ارتكبت الجرائم ورزأت الأموال وسفكت الدماء وأخذت خسائف الملوك الأعزة ممن وراء النهر من التتار وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنتهم الله تعالى مني من غير عهد بعد أن بلغهم تنلمي بهذا الدخيل ومقامي بين هذه القبور الكريمة ما وسع أحد منهم من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب الحقوق التي لا يغفلها الكبار للكبار إلا الجود الذي لا يتعقبه البخل والعفو الذي لا تقسده المؤاخذة

فضلا عن سلطان الأندلس أسعده الله تعالى وعلا بمواليتكم فهو فاضل وابن ملوك أفاضل وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم وقد سلفكم لا سيما مولاي والدكم الذي أتوسل به إليكم وإليهم فقد كان يتبنى مولاي أبا الحجاج ويشمله بنظره وصارخه بنفسه وأمهه بأمواله ثم صير الله تعالى ملكه إليكم وأنتم من أنتم ذاتا وقبيللا فقد قرئ يا مولاي عين العبد بما رأت في هذا الوطن المراكشي من وفور حشودكم وكثرة جنودكم وترادف أموالكم وعددكم زادكم الله تعالى من فضله ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأمليكم وأعرضت عن ذلك الوطن الأندلسي استوت عليه يد

عدوه وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان وتعلقي بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم وشهرة حرمة شالة معروفة حاش الله أن يضيعها أهل الأندلس وما توسل إليهم قط بها إلا الآن وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة وأملني منكم أن يتعين من بين يديكم خديم بكتاب كريم يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي ويخبر بمثواي متراميا على قبر والدكم ويقرر ما ألزمتكم بسبب هذا الترامي من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا وتطلبون منه عادة المكارمة بحل هذه العقدة ومن المعلوم أنني لو طلبت بهذه الوسائل من صلب ما وسعهم بالنظر العقلي إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن فالحياة والحشمة بأبواب العذر عن هذا في كل ملة ونحلة وإذا تم هذا الغرض ولا شك في إتمامه بالله تعالى تقع صدقتكم على القبر الكريم بي وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقدته ومدح النبي ليلة المولد في جواره وبين يديه وهو غريب مناسب لبركم به إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم وأعود داعيا مثنيا مستدعيا للشكر والتناء من أهل المشرق والمغرب وأتعوض من ذمتي بالأندلس ذمة بهذا الرباط المبارك برثها ذريتي وقد سلوتمت في شيء من ذلك منتظرا ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم ولو ظننت أنهم

يتوقفون لكم في مثل هذا أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته لكنهم أسرى وأفضل وانطاعي أيضا لوالدكم مما لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه وها أنا أترقب جوابكم بما لي عنكم من القبول ويسعني مجدكم في الطلب وخروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض والله سبحانه يطلع من مولاي على ما يليق به والسلام وكتب في الحادي عشر من رجب سنة إحدى وستين وسبعمئة وفي مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة مولاي ها أنا في جوار أبيك فابذل من البر المقدر فيكما أسمع ما يرضيه من تحت الثرى والله يسمعك الذي يرضيك واجعل رضاه إذا نهدت كقبيبة تهدي إليك النصر أو تهديك واجبر بجبري قلبه تمل المنا وتطلع الفتح المبين وشيكا وهو الذي سن البرور بأمه وأبيه فاشرع شره لبنيك وابعث رسولك منذرا ومحذرا وبما تؤمل نيله يأتيك قد هز عزمك كل قطر نازح وأخاف مملوكا به ومليكا إذا سموت إلى مرام شاسع فغصونه ثمر المنا تجنيكا ضمنت رجال الله منك مطالبني لما جعلتك في الثواب شريكا فلنن كفيته وجوهها في مقصدي ورعيتها بركاتك تكفيك وإذا قضيت حوائجي وأربيتني أملا فربك ما أردت بريكا واشدد على قولي يدا فهو الذي برهانه لا يقبل التشكيكا مولاي ما استأثرت عنك بهجتني إني ومهجتي التي تفديكا لكن رأيت جناب شالة مغنما يضي على العز في ناديك وفروض حقك لا تقوت فوقتها باق إذا استجزيت به جزيك وودعتني وتكرر الوعد الذي أبت المكارم أن يكون أفيكا أضفى عليك الله ستر عناية من كل محذور الطريق يقيكا ببفانك الدنيا تحاط وأهلها فالحمد لله جل جلاله ببقيكا وقال أيضا في الغرض المذكور

عن باب والدك الرضي لا أبرح بأسو الزمان لأجل ذا أو يجرح ضربت خيامي في حماه فصبيتي تجني الحميم به وبهمي بشرح حتى يراعي وجهه في وجهتي بعناية تشفي الصدور وتشرح أسوغ عن مثواه سيرى خائبا ومنابر الدنيا بذكرك تصدح أنا في حماه وأنت أبصر بالذي يرضيه منك فوزن عقاك أروح في مثلها سيف الحمية ينتضى في مثلها زند الحفيظة يقدح وعسى الذي بدأ الجميل يعيده وعسى الذي سدا المذاهب يفتح فأجابه السلطان أبو سالم رحمه الله بما صورته من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين يوسف بن يعقوب بن عبد الحق أيد الله أمره وأعز نصره إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأحمى الأوجه الأنوه الصدر الأحفل المصنف البليغ الأعراف الأصيل الأجل الأوسع الأحمى الأوجه الأنوه أبي محمد بن الخطيب وصل الله عزته والى رفعتة سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله تعالى و الرضا على آله وصحبه أعلام الإسلام وأئمة الرشد والهدى وصلته الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعيني بالنصر الأعز والفتح الأسنى إنا كتبنا إليكم كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمر ونجح القول والعمل من منزلنا الأسعد بصفة وادي ملوية يمنه الله وصنع الله جميل ومنه جزيل والحمد لله ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل والعناية المتكفلة برعي الوسائل ذلك بما تميزتم به من التمسك بالجانب العلي المولوي العلوي جدد الله تعالى عليه ملابس غفرانه وسقاه غيوث رحمته وحنانه وبما أهديتم إلينا من التقرب لدينا بخدمة ثراه الطاهر والاشتمال بمطارف حرمة السامية المظاهر وإلى هذا وصل الله حظركم

ووالى رفعتكم فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده المقابل بالإسعاف المستعذب ورده فوقنا على ما نصه واستوفينا ما شرحه وقصه فأثرنا حسن تلطفكم في التوسل بأكبر الوسائل إلينا ورعينا أكمل الرعاية حق ذلك الجنب العزيز علينا وفي الحين عينا لكمال مطلبكم وتمام مآربكم والتوجه بخطابنا في حكم والاعتماد بوقفكم خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت وأبا زكرياء بن فرقاجة أنجدهما الله وتولاها وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم بعد التأكيد عليهما فيه وشرح العمل الذي يوفيه فكونوا على علم من ذلك وابسطوا له جملة آمالكم وإنا لنرجو ثواب الله في جبر أحوالكم وبرء اعتلاككم والله سبحانه يصل مبرتكم ويتولى تكريمكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته كتب في الرابع والعشرين من رجب سنة إحدى وستين فراجعه ابن الخطيب بما نصه مولاي خليفة الله بحق وكبير ملوك الأرض عن حجة ومعن الشفقة والحكمة ببرهان وحكمة أبقاكم الله تعالى على الدرجة في المنعمين وأفري الحظ عند جزاء المحسنين وأراك ثمرة بر أبيكم في البنين وصنع لكم في عدوكم الصنع الذي لا يقف عند معتاد وأذاق العذاب الأليم من أراد في مثابكم بإلحاد عبدكم الذي ملكتم رقه وأويتم غربته وسترتم أهله وولده وأسنيتم رزقه وجبرتم قلبه ويقبل موطئ الأخصم الكريم من رجلكم الطاهرة المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف النصر الفارغة هضبة العز المعملة الخطوة في مجال السعد ومسير الحظ ابن الخطيب من شالة التي تأكد بملككم الرضى احترامها وتجدد بر عيتكم عهدا واستبشر بملككم دفينها وأشرق بحسناتكم نورها وقد ورد على العبد الجواب المولوي البر الرحيم المنعم المحسن بما يليق بالملك الأصيل والقدر الرفيع والهمة السامية والعزة القعساء من رعي الذخيل والنصرة للذمام والاهتزاز لبر الأب الكريم فثاب الرجاء وانبعث الأمل وقوي العصد وزار اللطف فالحمد لله الذي أجرى الخير على يدكم الكريمة وأعانكم على رعي ذمام الصالحين المتوسل إليكم أولا بقبورهم ومتعبداتهم وتراب

أجداتهم ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذي تسبب في وجودكم واختصكم بحبه وغمركم بلطفه وحنانه وعلمكم آداب الشريعة وأورثكم ملك الدنيا وهيأتكم دعواه بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساخ البقاء وفي علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات عن العرب من النصررة عن طائر داست أفراخه ناقة في جوار رئيس منهم وما انتهى إليه الامتعاض لذلك مما أهينت فيه الأنفس وهلكت الأموال وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولا إلى حماكم بالأهل والولد عن حسنة تبرعتم بها وصدقة حملتكم الحرية على بذلها ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم داعم العين خافق القلب واهي الفزعة يتعطي بردائه ويستجير بعليانه كائني تراميت عليهم في الحياة أمام الذعر يذهل العقل ويحجب عن التميز بقصر داره ومضجع رقادته ما من يوم إلا وأجهر بعد التلاوة باليعقوب بالمرين نسال الله تعالى أن لا يقطع عني معروفكم ولا يسلبني عنايتكم ويستعمنني ما بقيت في خدمتكم ويتقبل دعائي فيكم ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس ووضعته بأزائه وقلت يا مولاي يا كبير الملوك وخليفة الله وبركة بني مرين صاحب الشهرة والذكر في المشرق والمغرب عبدك المنقطع إليك المترامي بين يدي قبرك المتوسل إلى الله ثم ولدك بك ابن الخطيب وصله من مولاة ولدك ما يليق بمقامه من رعي وجهك والتقرب إلى الله برعيك والاشتهار في مشرق الدنيا ومغربها ببرك وأنتم من أنتم من إذا صنع صنيعه كملها وإذا من منة تممها وإذا أسدى يدا أبرزها طاهرة بضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك حتى يتم أملي ويخلص قصدي وتحف نعمتك بي وبطمئن إلى مأمك قلبي ثم قلت للطلبة أيها السادة بيني وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التأليف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم فأموتوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم واندفعت في الدعاء

والتوسل الذي أرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه وخاطب العبد مولاه شاكرا لنعتمه مشيدا بصنيعته ومسرورا بقبوله وشأنه من التعلق والتطرح شأنه حتى يكمل القصد ويتم الغرض معمور الوقت بخدمة يرفعها ودعاء يردده والله المستعان أه ولما وصل كتاب السلطان أبي سالم إلى أهل الأندلس أعظموا وسيلته وقبلوا شفاعته وردوا إلى ابن الخطيب ما تأتي رده مما كان ضاح له وأتلف عليه واستمر مقبلا بسلا سنين وزيادة ثم استدعاه سلطانه الغني بالله إلى الأندلس بعد رجوعه إليها واحتوانه على ملكها فأجاب حياء لا رغبة ومكراها لا بطلا إلى كان ما نذكره من شأنه بعد ذلك إن شاء الله ونوادره بسلا وما جرياته كثيرة وفيما ذكرناه كفاية انتفاض الحسن بن عمر الفودودي وخروجه بتادلا ثم مقتله عقب ذلك قد قدما أن السلطان أبا سالم لما استولى على ملك فاس والمغرب عقد للحسن بن عمر على مراكش ووجهه إليها تخففا منه وربية بمكانه من الدولة فاستقر بها وتأنت له بها رئاسة نفسها عليه أهل مجلس السلطان وسعوا فيه عنده حتى تنكر له وأظلم الجو بينهما وأحس الحسن بن عمر بذلك فخشي على نفسه وخرج من مراكش في صفر سنة إحدى وستين وسبعمئة فلقح بتادلا منحرفا عن السلطان ومرتكبا للخلاف فتلقيه بنو جابر من عرب جشم وأجاروه واعصوبوا عليه فسرح إليه السلطان أبو سالم وزيره الحسن بن يوسف الورتاجني فاحتل بتادلا وانشمر الحسن بن عمر إلى الجبل بها فاعتصم به ومعه كبير بني جابر الحسن بن علي الوردغي فأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخبتهم وداخل الوزير بعض أهل الجبل من برابرة صناعة في الثورة بهم وسرب إليهم المال فثاروا بهم وانفض جمعهم وتقبضوا على الحسن بن عمر وقادوه برمته إلى الحسن بن يوسف فاعتقله وانكأ راجعا به إلى الحضرة فدخلها في يوم مشهود استركب السلطان فيه الجند

وجلس ببرج الذهب مقعده من ساحة البلد وحمل الحسن بن عمر على جمل فطيف به بين تلك الجموع ولما قرب من مجلس السلطان أوما إلى تقبيل الأرض من فوق جملة ثم ركب السلطان إلى قصره وانفض الجمع وقد شهر الحسن بن عمر وأصحابه فصاروا عبرة لمن اعتبر ولما دخل السلطان قصره جلس على كرسيه واستدعى خاصته وجلساءه وأحضر ابن عمر فوبخه وقرر عليه ذنوبه فتلوى بالمعاذير وفزع إلى الإنكار قال ابن خلدون وحضرت هذا المجلس يومئذ فيمن حضره من الخاصة فكان مقاما تسيل فيه العيون رحمة وعبرة ثم أمر به السلطان فسحب على وجهه ونققت لحيته وضرب بالعصى وتل إلى محبسه ثم قتل بعد ليال قصفا بالرمح خارج البلد ونصب شلوه بباب المحروق رحمه الله تعالى نهوض السلطان أبي سالم إلى تلمسان واستيلاؤه عليها لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب ومحا أثر الخوارج منه سمت همته إلى تملك تلمسان كما كان لأبيه وأخيه من قبل وأكد عزمه على ذلك ما كان من فرار عبد الله بن مسلم الزرد إلى عاملهم على درعة إليها فأجمع السلطان أبو سالم النهوض إليها وعسكر بظاهر فاس الجديد منتصف سنة إحدى وستين وسبعمئة ولما توافقت لديه الحشود وتكاملت بسدته الجنود ارتحل إلى تلمسان واتصل خبر نهوضه بسلطانه أبي حمو بن يوسف الزياني ووزيره عبد الله بن مسلم الزردالي فنادوا في العرب من بني عامر بن زغبة وبني معقل فأجابوهم كافة الأشرمة قليلة من الأحلاف ثم خرج أبو حمو وشيعته عن تلمسان إلى الصحراء والتفت عليه العرب بحلها ولما دخل السلطان أبو سالم تلمسان واستولى عليها خلفه أبو حمو في عربة إلى المغرب فنزلوا أكرسيف ووطاط وبلاد ملوية وحطموا زروعها وانتسفا وبركتها وخرّبوا عمرانها وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من إفسادهم فأهمه أمر المغرب وكان في جملة من بني زيان محمد بن عثمان ابن

السلطان أبي تاشفين ويكنى أبا زيان فعقد له على تلمسان وأعطاه الآلة وجمع له جيشا من مغراوة وبني توجين ودفع لهم أعطيتهم وانكأ راجعا إلى فاس فأجفل أبو حمو والعرب أمامه ثم خالفوه إلى تلمسان فطردوا عنها أبا زيان واستولوا عليها وثبت قدم أبي حمو بها وعاد أبو زيان إلى المغرب لاحقا بالسلطان أبي سالم قبله وعقد المهادنة مع أبي حمو واستقر الأمر على ذلك وقد كان ابن الخطيب عندما بلغه استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان هناك بقصيدة طويلة يقول في مطلعها أطاح لساني في مديحك إحساني وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان ويقول في أثنائها وقد ألم بشيء من علم الأحكام النجومية لميل السلطان إليه والله من ملك سعيد ونصبة قضى المشتري فيها بعزلة كيوان وسجل حكم العدل من بيوتها وقروفا مع المشهور من رأي يونان فلم تخشى سهم القوس صفحة بدرها ولم تشك فيها الشمس من بخس ميزان ولم يعترض مبتزها قطع قاطع ولا نازعت نوبرها كف عدوان تولى اختيار الله حسن اختيارها فلم يحتج الفرغان فيها لفرغان ولا صرفت فيها دقائق نسبة ولا حققت فيها طواع بلدان وفادة السودان من أهل مالي على السلطان أبي سالم وإغرابهم في هديتهم بالزرافة الحيوان المعروف قد تقدم لنا ما جرى من المواصلات بين السلطان أبي الحسن والسلطان منسا موسى وأخيه أو ابنه من بعده منسا سليمان وتردد الوفود وإسناء الهدايا بينهم وقد كان السلطان منسا سليمان قد هيا هدية نفيسة بقصد أن يبعثها إلى السلطان أبي الحسن مكافأة له على هديته فهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك ثم هلك السلطان منسا سليمان بعده واختلف أهل مالي واقترب أمرهم وقاتلوا على الملك إلى أن جمع الله كلمتهم على السلطان منسا زاطة واستوسق له الأمر ثم نظر في أعطاف ملكه وأخبر بشأن الهدية التي كان منسا

سليمان قد هياها لملك المغرب فأمر بإنفاذها إليه وضم إليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل العظيم الهيكل المختلف الشبه بالحيوانات وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا إلى حضرة فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبعمئة قال ابن خلدون وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا جلس لهم السلطان ببرج الذهب بمجلسه المعد لعرض الجنود ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء فبرزوا يتسلون من كل حذب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا في الأزدحام على الزرافة إعجابا بخلقها وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتواثبهم على الأمر وتعظيم سلطانه وما صار إليه والترجمان بترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيهم عادة معروفة لهم وحيوا السلطان بأن جعلوا يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوك العجم وأشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ووصف الحال ثم ركب السلطان إلى قصره وانفض ذلك الجمع وقد طار به طائر الأشتهار واستقر الوفد تحت جرابية السلطان أبي سالم إلى أن هلك قبل انصرافهم فوصلهم القائم بالأمر من بعده وانصرفوا إلى مراكش ثم منها إلى ذوي حسان عرب السوس الأقصى من بني معقل المتصلين ببلادهم ومن هناك لحقوا بسلطانهم والأمر كله لله وكان مما قيل من الشعر في ذلك اليوم قول ابن خلدون من قصيدة يقول في مطلعها قدحت يد الأشواق من زند وهفت بقلبي زفرة الوجد إلى أن قال في وصف الزرافة ورقيمة الأعطاف حالية موشية بوشائع البرد وحشية الأنساب ما أنست في موحش البيداء بالقرد تسمو بجيد بالغ سعدا شرف الصروح بغير ما جهد طالت رؤوس الشامخات به ولربما قصرت عن الوهد

قطعت إليك تنانفا وصل أسنادها بالنص والوحد تحدى على استنصاعها ذللا وتببب طوع الفن والقد بسعودك اللائي ضمن لنا طول الحياة بعيشة رغد جاءتك في وفد الأحباش لا يبرجون غيرك مكرم الوفد وافوك أنضاء تقليبهم أيدي السرى بالغور والنجد كالطيف يستقري مضاجعه أو كالحسام يسلم من غمد يتنون بالحسنى التي سبقت من غير إنكار ولا جحد ويرون لحظك من وفادتهم فخرا على الأثر الك والهند يا مستعينا جل في شرف عن رتبة المنصور والمهدي جازاك ربك عن خليفته خير الجزاء فنعم ما تسدى وبقبت للندبا وساكنها في عزة أبدا وفي سعد وقول الكاتب البارع أبي عبد الله بن زمرك الأندلسي من قصيدة يقول في مطلعها لولا تألق بارق التذكار ما صاب واكف دمعي المردار لكنه مهما تعرض خافقا قدحت يد الأشواق زند أوارى إلى أن قال في الغرض المذكور وغريبة قطعت إليك على الونى بيذا تببب بها هموم الساري تنسيه طبيته التي قد أمها والركب فيها ميت الأخبار يقاتها من كل مشتمل الدجى فكانما عينه جذوة نار تشنو بحمد المستعين حداتها يتعللون به على الأكوار إن مسهم لفح الهجير أبلهم منه نسيم ثنائك المعطار خاضوا بها ليج الفلا فتخلصت منها خلوص البدر بعد سرار سلمت بسعدك من غوائل مثلها وكفى بسعدك حاميا لدمار وأنتك يا ملك الزمان غريبة قيد النواظر نزهة الأبصار موشية الأعطاف رائقة الحلوى رقمت بدائعها يد الأقدار راق العيون أديمها فكانه روض تفتح عن شقيق بهار

ما بين مبيض وأصفر فاقع سال اللجين به خلال نضار يحكي حدائق نرجس في شاطئ تنساب فيه أرقام الأنهار تحدو قوائم كالجدوع وفوقها جبل أشم بنوره متواري وسمت بجيد مثل جذع مائل سهل التعطف لين خوار تستشرف الجدرات منه ترابنا فكانما هو قائم بمنار تاهت بكلكتها وأتلع جيدها ومشى بها الإعجاب مشى وقار خرجوا لها الجم الغفير وكلهم متعجب من لطف صنع الباري كل يقول لصحبته قوموا انظروا كيف الجبل

تقاد بالأسفار ألفت بيباك رحلها ولطالما ألقى الغريب به عصا التسيار علمت ملوك الأرض أنك فخرها فتسابقت لرضاك في مضمار يتبوؤون به وإن بعد المدى من جاهك الأعلى أعز جوار فارفع لواء الفخر غير مدافع واسحب ذبول العسكر الجرار وانها بأعياد الفتوح مخلولا ما شئت من نصر ومن أنصار وإليها من روض فكري نفحة شف التناء بها على الأزهار في فصل منطقتها ورائق رسمها مستمتع الأسماع والأبصار وتميل من أصغى لها فكانني عاطيته منها كؤوس عقار مقتل السلطان أبي سالم رحمه الله والسبب في ذلك كان السلطان أبو سالم رحمه الله قد غلب على هراه الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق وألقى زمام الدولة بيده فنفق خاصة السلطان وحاشيته ذلك عليه وسخطوا الدولة من أجله ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه فتربصوا بالدولة الدوائر إلى أن كانت أواخر سنة اثنتين وستين وسبعمئة فتحول السلطان أبو سالم عن دار الملك من فاس الجديد إلى القصبة من فاس القديم واختط بها إيوانا فخما لجلوسه فلما استولى عمر بن عبد الله ابن علي بن سعيد الفودودي أحد كبراء الدولة ووزرائها على دار الملك إذ كان السلطان أبو سالم قد خلفه أمينا عليها حدثته نفسه بالتوثب وسهل

ذلك عليه ما كان قد عرفه من مرض القلوب على السلطان لمكان ابن مرزوق فداخل قائد جند النصارى غرسية بن أنطول واتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة فعمدوا إلى تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن فخلعوا عليه والبسوه شارة الملك وقربوا له مركبا وأجلسوه مجلس السلطان وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة وجاهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا إلى بيت المال ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حساب وماج الجند بفاس الجديد بعضهم في بعض واختطفوا ما وصلوا إليه من العطاء ثم انتهوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلاح والعدة وأضرموا النيران في بيوتها سترأ على ما ضاع منها وأصبح السلطان أبو سالم بمكانه من قصبة فاس القديم وكان قد تحول إليها فرارا من قاطع فلكي خوفه إياه بعض منجميه فكان البلاء فيه موكلا بالمنطق فلما علم بالكائنة ركب واجتمع إليه من حضر من أوليائه وغدا على فاس الجديد وطاف بها يروم اقتحامها فامتعت عليه ثم اضطرب معسكره بكدية العرائس لحصارها ونادى في الناس بالاجتماع إليه ولما كان وقت الهجرة دخل فسطاطة للقبولة فتسائل الناس عنه إلى فاس الجديد فوجا بعد فوج بمرأى منه إلى أن انفض عنه خاصته وأهله مجلسه فطلب النجاء بنفسه وركب في لمة من الفرسان وفيهم وزيره سليمان بن داود ومسعود بن عبد الرحمن بن ماساي ومقدم الموالي والجند بيباه سليمان بن ونصار وأن لابن مرزوق في الدخول إلى داره ومضى هو على وجهه فيمن معه ولما غشيم الليل انفضوا عنه حتى بقي وحده ورجع الوزيران إلى دار الملك فتقبض عليهما رئيس الثورة عمر بن عبد الله الفودودي ومشاركه فيها غرسية بن أنطول النصارى واعتقلاهما متفرقين وبعث عمر بن عبد الله الطلب في أثر السلطان أبي سالم فعثروا عليه نائما من الغد في بعض المجاشر بوادي ورغة وقد غير لباسه اختفاء بشخصه وتواريا عن العيون بمكانه فتقبضوا عليه وحملوه على بغل وطيروا بالخبر إلى عمر بن عبد الله فآزع لتلقيه شعيب بن ميمون بن داود وفتح الله بن عامر بن فتح الله

السدراتي وأمرهما بقتله وإنفاذ رأسه فلقياه بخندق القصب إزاء كدية العرائس فأمرأ بعض جند النصارى أن يتولى ذبحه ففعل وحملوا رأسه في مخلاة ووضعوه بين يدي الوزير الثائر ومشيعته وكان ذلك يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمئة ودفن بالقلعة خارج باب الجبسة بأعلى جبل العرض المعروف بجبل الزعفران قال ابن الخطيب في الإحاطة كان السلطان أبو سالم رحمه الله بقية البيت وآخر القوم دماته وحياء وبعدا عن الشرور وركونا للعافية قال وأنشدت على قبره الذي ووريت به جنته قصيدة أدبت فيها بعض حقه بنى الدنيا بني لمع السراب لدوا للموت وابتوا للخراب ومن أعيان وزرائه أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي الخطيب المشهور الذي مر ذكره آنفا ومن قضاة عسكره أبو القاسم محمد بن يحيى الأندلسي البرجي ومن أعيان كتابه الرئيس أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ وأبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري من أهل مالقة صاحب كتاب السياسة وغيره ومما نظمه هذا الفاضل عن إذن السلطان أبي سالم رحمه الله ليكتب في طرة قبة رياض الغزلان من حضرته قوله

هذا محل المنى بالأمن مغمور من حله فهو بالأمان محبور ماوى النعيم به ما شئت من ترف تهوى محاسنه الولدان والهور ويطلع الروض منه مصنعا عجبا يضاحك النور من لألانه النور ويسطع الزهر من أرجائه أرجا ينافح الندى نشر منه منشور معنى السرور سقاء الله ما حملت غر الغمام وحلته الأزاهير انظر إلى الروض تنظر كل معجبة مما ارتضاه لرأي العين تحبير مر النسيم به يبغي القرا فقرا دراهم النور تنديد وتنثير وهامت الشمس في حسن الظلال به ففرقت فوقه منها دنائير كأنما الطير في أفنانها صدحت بشكر مالكة والفضل مشكور والروح ناعمة تهتز من طرب همسا وصوت غناء الطير مجهور والنهر شق بساط الأرض تحسبه سيفا ولكنه في السلم مشهور ينساب للجنة الخضراء أزرقه كالأليم جد انسياب وهو مذعور هذي مصانع مولانا التي جمعت شمل السرور وأمر السعد مأمور وهذه القبة الغراء ما نظرت لشكلها العين إلا عز تنظير ولا يصورها في الفهم ذو فكر إلا ومنه لكل الحسن تصوير ولا يرام بحصر وصف ما جمعت من المحاسن إلا صد تقصير فيها المقاصير تحميها مهابتة لله ما جمعت تلك المقاصير كأنها الأفق تبدو النيرات به ويستقيم بها في السعد تسيير وينشأ المزن في أرجائه وله من عنبر الشجر إنشَاء وتسخير وينهمي القطر منه وهو منسكب ماء من الورد يذكو منه تعطير وتحقق الريح منه وهي ناسمة مما أهب به مسك وكافور ويشرق الصبح منه وهو من غرر غر تلالاً منهن الأسارير وتطلع الشمس فيه من سنا ملك تبسم الدهر منه وهو مسرور ومضى في مدح السلطان والله تعالى يتعمد الجميع برحمته بمنه وكرمه

الخبر عن دولة السلطان أبي عمر تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن المريني هذا السلطان كان محجوبا لوزيره عمر بن عبد الله الفودودي لا يملك معه ضرا ولا نفعا أم ولد اسمها ميمونة صفته طويل القامة عظيم الهيكل بعيد ما بين المنكبين أعين أدعج وكان فارسا بطلا قوي الساعد إلا أنه كان ناقص العقل ولما ثار عمر بن عبد الله بالسلطان أبي سالم وسعى في هلاكه إلى أن قتل كما مر استبد بأمير الدولة ونصب هذا الموسوس يموه به على الناس فبويج ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمئة حسبما سبق وكان نقصان عقل تاشفين من أجل الأسر الذي أصابه بوقعة طريف أيام والده السلطان أبي الحسن إلى أن اقتدي وبقي ناقص العقل مختل المزاج إلى أن كان من أمره ما كان الفتك بغرسية بن أنطول قائد النصارى ومقتل جنده معه والسبب في ذلك لما قبض عمر بن عبد الله على الوزيرين مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي وسليمان بن داود سجنهما متفرقين فأخذ إليه ابن ماساي لمكان صهره منه ودفع لغرسية سليمان بن داود وكان سليمان بن ونصار قد فر مع السلطان أبي سالم كما مر ولما رجع عنه فيمن رجع نزل على غرسية فقبله وأكرمه وكان يعاقره الخمر فقاوضه ذات ليلة في الثورة بعمر بن عبد الله واعتقاله وإقامة سليمان بن داود المسجون بداره مقامه لما هو عليه من السن وروسخ القدم في الأمر ونما الخبر بذلك إلى عمر بن عبد الله فارتاب

وكان خلوا من العصبية ففرع إلى قائد المركب السلطاني من ناشية الأندلس ورماتها وهو يومئذ إبراهيم البطروجي فعاقده على أمره وبإبعه على الاستماتة دونه ثم رأى أن ذلك لا يكفيه ففرع ثانيا إلى يحيى بن عبد الرحمن شيخ بني مرين وصاحب شوارهم فشكا إليه فأشكاه ووعده الفتك بآبن أنطول وأصحابه وانبرم عقد ابن أنطول وسليمان بن ونصار أيضا على عمر بن عبد الله وغدوا إلى القصر وداخل ابن أنطول طائفة من النصارى استظهارا بهم وتوافت بنو مرين بمجلس السلطان على عادتهم وحضر ابن أنطول والبطروجي ويحيى بن عبد الرحمن وغير هؤلاء من الوجوه فسأل عمر بن عبد الله من ابن أنطول تحويل سليمان بن داود من داره إلى السجن فأبى ورض به عن الإهانة حتى سأل مثلها من ابن ماساي صاحبه فأمر عمر بالتقبض عليه فكشّر في وجوه الرجال واختلط سكينه للمدافعة فتواثبت بنو مرين عليه وقتلوه لحينه واستلحموا من وجوه بالدار من جنده النصارى عند دخولهم مع قائدهم وفر بعضهم إلى معسكرهم ويعرف بالملاح جوار فاس الجديد وأرجف الفوغاء بالمدينة أن ابن أنطول قد غدر بالوزير فقتلوا جند النصارى حيث وجدوهم من سكك المدينة وتزاحفوا إلى الملاح لاستلحام من بقي به منهم وركبت بنو مرين لحماية جندهم من معرة الفوغاء وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وأنيبتهم وأمتعتهم وقتل النصارى أيضا كثيرا من مجان المسلمين كانوا يعاقرون الخمر بالملاح ثم سكنت الهبة وما كادت واستبد عمر بن عبد الله بدار الملك واعتقل سليمان بن ونصار إلى الليل ثم بعث من قتله بمحبسه وحول سليمان

بن داود إلى بعض الدور من دار الملك فاعتقله بها واستولى على أمره ثم خاطب عامر بن محمد الهنتاتي في اتصال اليد به واقتسام ملك المغرب بينه وبينه وبعث إليه بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم اعتده عنده ليوم ما تم فسد ما بينه وبين مشيخة بني مرين فاجتمعوا على كبيرهم يحيى بن عبد الرحمن وعسكروا بباب الفتوح واستدعوا عبد الحليم بن أبي علي ابن السلطان أبي سعيد من تلمسان على ما تذكره

ظهور عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد ومحاصرته لفاس الجديد ثم فراره عنها قد قدمنا في أخبار السلطان أبي الحسن أن أخاه أبا علي صاحب سجالمة كان قد انتقض عليه فأمكنه الله منه فقتله وكفل أولاده فلم يميز بينهم وبين أولاده في شيء من الأثيابة ولما أفضى الأمر إلى أبي عنان بعث جماعة من إخوته وقرابته إلى الأندلس تحت حياطة ابن الأحمر وكان فيهم أولاد أبي علي هؤلاء ثم بعد حين سرحوا وقدموا تلمسان على سلطانها أبي حمو بن يوسف فكانوا عنده إلى هذا التاريخ فلما فسد ما بين عمر بن عبد الله وشيوخ بني مرين بعثوا إلى تلمسان جملة منهم لاستقدام عبد الحليم المذكور فسرحه أبو حمود وأعانه بشيء من الآلة وجمع عليه من رغب في طاعته وزحف إلى فاس فتلقتهم جماعة بني مرين بسبو ونزلوا على فاس الجديد يوم السبت سابع محرم سنة ثلاث وستين وسبعمئة واضطربوا معسكرهم بكدية العرائس وحاصروا دار الملك سبعة أيام وتتابع وفودهم وحشودهم ثم إن عمر بن عبد الله برز يوم السبت القابل في مقدمة السلطان تاشفين بمن معه من جند المسلمين والنصارى رامحة وناشبة ووكل بالسلطان من جاء به في الساقفة على التعبية المحكمة وناوشهم الحرب فزحفوا إليه فاستطرد لهم ليتمكن الناشبة من عقربهم من الأسوار حتى فشت فيهم الجراحات ثم صمم نحوهم فانفجر القلب وانقضت الجموع ثم زحف السلطان تاشفين في الساقفة فابذعروا في الجهات وافترق بنو مرين إلى مواطنهم ولحق يحيى بن عبد الرحمن بمراكش مع مبارك بن إبراهيم شيخ الخلط ولحق عبد الحليم وإخوته بتازا بعد أن شهد لهم رجال النولة بصدق الجلال وحسن البلاء في ذلك المقام

ثم إن الوزير عمر بن عبد الله راجع بصيرته في تقديم المعنوه للأمر وعلم أن الأمر لا يستقيم له بذلك فبادر باستقدام أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبي الحسن وكان عند الطاغية بدار الحرب فقدم وخلع الوزير المذكور سلطانة الموسوس يوم الاثنين الحادي والعشرين من صفر سنة ثلاث وستين وسبعمئة فكانت دولته ثلاثة أشهر ويومين ومات وسنة ستون سنة والله تعالى أعلم الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن يعقوب بن أبي الحسن المريني هذا السلطان كان محجوبا للوزير عمر بن عبد الله أيضا كنيته أبو زيان لقيه المتوكل على الله أمه أم ولد اسمها فضة صفته آدم اللون شديد الأدمة معتدل القامة منفرج الأنف دقيق العينين وقال ابن الخطيب في الإحاطة حاله فاضل سكنون منقاد مشتغل بخاصة نفسه قليل الكلام حسن الشكل درب برقص الخيل مفوض للوزراء عظيم التأني لأغراضهم وكان قبل ولايته عند الطاغية بالأندلس فر إليه خوفا على نفسه ولما التبست الأمور على عمر بن عبد الله طلبه إلى الطاغية فسمح به بعد اشتراط واشتراط وفصل من إشبيلية في المحرم فاتح سنة ثلاث وستين وسبعمئة ونزل بسبته وبها سعيد بن عثمان من قرابة الوزير عمر بن عبد الله أرصده لقومه فطير إليه بالخبر فحينئذ خلع عمر تاشفين الموسوس وبعث إلى السلطان أبي زيان بالبيعة والآلة والفساطيط ثم جهز عسكرا لقاؤه فتلوه بطنجة وأخذ السير إلى الحضرة فنزل منتصف

صفر بكدية العرائس واضطرب معسكره بها وتلقاه يومئذ الوزير عمر بن عبد الله اليباني وبايعه وأخرج فسطاطه فاضطرب بمعسكره وتلوم السلطان أبو زيان هنالك ثلاثا ثم دخل في اليوم الرابع إلى قصره واقتعد أريكته وتودع ملكه وقال ابن الخطيب في الإحاطة كان دخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان وبه السعد الأعظم كوكب المشتري من السيارة السبعة أه ولما تم له الأمر خاطبه ابن الخطيب من سلامه مهنا له بقوله يا ابن الخلائف يا سمي محمد يا من علاه ليس يحصر حاصر أبشر فأنت مجدد الملك الذي لولاك أصبح وهو رسم دائر من ذا يعاند منك وارثه الذي بسعوده فك المشيئة دائر ألفت إليك يد الخلافة أمرها إذ كنت أنت لها الولي الناصر هذا وبينك للصريح وبينها حرب مضرسة وبحر زاخر من كان هذا الصنع أول أمره حسنت له العقبي وعز الآخر مولاي عندي في علاك محبة والله يعلم ما تكن ضمائر قلبي يحدثني بأنك جابر كسرى وحظي منك حظ وافر بشرى جودك قد حططت حقيقتي فوسيلتي لعلاك نور باهر وبذلت وسعي واجتهادي مثل ما يلقي لملكك سيف أمرك عامر فهو الولي لك الذي اقتحم الردى وقضى العزيمة وهو سيف باهر وولي جدك في الشدائد عندما خذلت علاه قبائل وعشائر فاستهد منه النصح واعلم أنه في كل معضلة طبيب ماهر إن كنت قد عجلت بعض مدائحي فهي الرياض وللرياض بواكر ثم أتبعها بنثر أضربنا عنه اختصارا والله تعالى الموفق

وفادة ابن الخطيب من سلا على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمهما الله قال في الإحاطة وفدت على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن ابن أبي الحسن من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولي لمن علم في هضبة الملك خفاق أفاقته به من غشية الهرج أفاق تقل رياح النصر عنه غمامة تمد لها أيد وتخضع أعناق وبيعة شورى أحكم السعد عندها وأعمل إجماع عليها وإصفاق قضى عمر فيها بحق محمد فسجل عهد للوفاء وميثاق أحلما ترى عينا أم هي فترة أعندكما في مشكل الأمر مصداق وفاض لفضل الله في الأرض تبغني ومجتمعات لا تريب وأسواق وسرح تهنيه الكلاءة بالكل وفلح لسقي الغيث قام له ساق وقد كان طيف الحلم لا يعمل الخطا وللفتنة العمياء في الأرض إطباق وللغيب إمساك وفي الأرض رجة وللدن والدنيا وجوم وإطراق فكل فريق فيه للبيعي راية وكل طريق فيه للغيث طراق أجل إنه من آل يعقوب وارث يحن له البيت العتيق ويشتاق له من جناح الروح ظل مسجف ومن رفر العز الإلهي رستاق أطل على الدنيا وقد عاد ضوءها ودجى وعلى الأحداق للذعر إحداق فأشرفت الأرجاء من نور ربها وساح بها لله لطف وإشفاق فمن أسن بالشكر لله أعلنت وكان لها من قيل همس وإطباق وليس لأمر أبرم الله ناقض وليس لمسعى النجاح في الله إخفاق محمد قد أحبيبت دين محمد وللخالق أدماء تقيض وأرقام ولو لم تثبت غطى على شفق الضحا دم لسيوف البيغي في الأرض مهراق فأيمن بمشحون من الفلك سايح له باختيار الله حط وإيساق أفلك والدماء تظهر طاعة إليك صفح الماء أزرق رقرق إلى هدف السعد انبرى منه والدجا تضل الحجي سهم من السعد رشاق

فخطت لتقويم القوام جداول وصحت من التوفيق واليمن أوفاق تبارك من أهداك للخلاق رحمة ومستبعد أن يهمل الخالق خلاق هو الله يبيلو الناس بالخير فتنة وبالشر والأيام سم وترياق سمت منك أعناق الوري لخليفة له في مجال السعد عدو وأعناق وقالوا بنان ما استقل بكفه تقيض على العافين أم هي أرزاق وأطنب فيك المادحون وأغرقوا فلم يجد إطناب ولم يغن إغراق ألسنت من القوم الذين أكفهم غمام ندى إن خلف الغيث غيداق ألسنت من القوم الذين وجوههم بدور لها في ظلمة الروح إشراق رياض إذا العافي استظل ظلها فيها جنى ملء الأكف وإبراق أبوك ولي العهد لو سالم الردى وجدك قد فاق الملوك وإن فاقوا فمن ذا له جد كجدك أو أب لآلى والمجد المؤتل نساق وحسب العلا في آل يعقوب أنهم هم الأصل في العلياء والناس لإحق أسود سروج أو بدور أسرة فإن حاربوا راعوا وإن سالموا راقوا يطول لتحصيل الكمال سهادهم فهم للمعالي والمكارم عشاق ومنها لقد نسبت إحسان جدك فرقة تزر على أعناقهم منه أطواق أجازت خروج ابن ابنه عن تراثه ولم تدر ما ضمت من الذكر أوراق ومن دون ما راموه الله قدرة ومن دون ما أموه للفتح إغلاق خذ العفو وإبدل فيهم العرف وتسع جريرة من أبدى لك العذر أخلاق فربما تنبو مهنده الطبي وتهفو حلوم القوم والقوم حدائق وما الناس إلا منذب وابن منذب والله إرفاد عليهم وإرفاق ولا ترج في كل الأمور سوى الذي خزائنه ما ضرها قط إنفاق إذا هو أعطى لم يضر منع مانع وإن حشدت طسم وعاد وعملق عرفت الردى واستأثرت بك للعدا تخوم لمخنت الصليب وأعماق فيسر لليسرى وأحبي بك الوري وللورع إرعاد عليك وإبراق

فجاز صنع الله وازدد بشكره مواهب جود غيظها الدهر دفاق وأوف لمن أوفى وكاف الذي كفى فأنت كريم ظهرت منك أعراق وتهنيك يا مولى الملوك خلافة شجتها تباريح إليك وأشواق فقد بلغت أقصى المني بك نفسها وكم فاز بالوصل المهنا مشتاق فلا راع منها السرب للدهر رافع ولا نال منها جدة السعد أخلاق أمولاي راع الدهر سربي وغالني فطري مذعور وقلبي خفاق وليس لكسرى غيرك اليوم جابر ولا ليدي إلا بمجدك أعلاق ولي فيك ود واعتداد غرسته فراقته به من يانع الحمد أوراق وقد عيل صبري في ارتقابي خليفة تحل به للضر عني أوهاق وأنت حسام الله والله

ناصر وأنت أمين الله والله رزاق وأنت الأمان المستجار من الردى إذا راع خطب أو توقع إملاق وأهون ما يرجى لديك شفاعاة إذا لم يكن عزم حثيث وإرهاق ودونكها من ذائع الحمد مخلص له فيك تقييد يروق وإطلاق إذا قال أما كل سمع لقوله فصمغ وأما كل أنف فنتشاق ودم خافق الأعلام بالنصر كلما ذهبت لمسعى لم يكن فيه إخفاق قال وعدت منه ببر كبير واحترام شهير يشير بذلك إلى ما أكرمه به وكتب له من الظهير الذي يتضمن كمال الاحترام والتوقير ونصه هذا ظهير كريم من أمير المسلمين فلان أيده الله ونصره وسنى له الفتح المبين ويسره للشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأخطى الأرفع الأسمى الأوحى الأرقى العالم العلم الرئيس الأعراف المتقن الأبرع المصنف المفيد الصدر الأحفل الأفضل الأكمل أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل الأسنى الأعز الأرفع الأسمى الأوحى الأرقى العالم العلم الرئيس الأعراف المتقن الأبرع المصنف المفيد الصدر الأحفل المبرور المرحوم أبي محمد ابن الخطيب قابله أيده الله بوجه القبول والإقبال وأضفى عليه ملابس الإنعام والإفضال ورعى له خدمة السلف الرفيع الجلال وما تقرر من

مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال وأمر في جملة ما سوغه من الألاء الوارفة الظلال الفسيحة المجال بأن يجدد له حكم ما بيده من الأوامر المتقدم تاريخها المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من مجبي مدينة سلا حرسها الله ومن حيث جرت العادة أن تمشي له ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه وفيما يستقيده خدامه بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف ولا يتوجه فيه إليه بتكليف يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديدا تاما واحتراما عاما أعلن بتجديد الحظوة واتصالها وإتمام النعمة وإكمالها من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام واتصال الأيام وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعي والمحاشاة في السخر مهما عرضت والوظائف إذا افترضت حتى يتصل له تالد العناية بالطرف وتتضاعف أسباب المنن والعارف بفضل الله وتحرر له الأرواح التي يحرثها بتالماغت من كل وجيبة وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة بالتحريير التام بحول الله وعونه ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه وليمض ما أمضاه إن شاء الله وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخرة من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وكتب في التاريخ هـ وقوله وكتب في التاريخ هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان يكتب بقلم غليظ وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة صح في التاريخ

وفادة ابن محمد الهنتاتي على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمهما الله كان الوزير عمر بن عبد الله الياباني مودة ومصافاة مع الرئيس الشهير أبي ثابت عامر بن محمد الهنتاتي كبير جبل درن والبلاد المراكشية وكان الوزير عمر المذكور قد بعث إليه بصره وظهيره على الملك مسعود بن عبد الرحمن ابن ماساي يكون عنده عدة وعتادا ليوم ما فلما بوبع السلطان أبو زيان استقدم عمر بن عبد الله صهره المذكور لوزارته وكان عامر بن محمد مجمعا القدوم على السلطان المذكور فقدم في صحبته مسعود ونزلا من الدولة بخير منزل وعقد السلطان أبو زيان لمسعود المذكور على وزارته بإشارة الوزير عمر بن عبد الله فاضطلع بها ودفعه عمر إليها استمالة اليد وثقة بمكانه واستظهارا بعصبية وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب شق الأبلمة وجعل إمارة مراكش لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إسعافا لغرض عامر بن محمد في ذلك وخطب إليهم عامر بنت السلطان أبي بكر الحفصي التي توفي عنها السلطان أبو عنان فأجابوه وحملوا أوليائها على العقد عليها وانكفأ راجعا إلى مكان عمله بمراكش بجر الدنيا وراه عزاء وثروة وتابعا وذلك في جمادى الأولى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة فاستقل بأمر الناحية الغربية من مراكش وجبال المصامدة وما إليها من الأعمال واستبد بها ونصب أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم صورة واستوزر له وتمكن سلطانه وعلا ذكره وصارت كأنها دولة مستقلة فصرف إليه النازعون من بني مريين عن

الدولة وجوه مفهم ولجؤوا إليه فأجارهم على السلطان واجتمع إليه منهم ملاً واتسع الخرق على الرافع واضطربت الأحوال بالمغرب وخرج على السلطان أبي زيان الأمير عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد وتغلب على سجالمة وأعمالها ثم غلب عليه أخوه عبد المؤمن بن أبي علي فخرج عبد الحليم إلى المشرق لقضاء فريضة الحج واستمر عبد المؤمن بسجالمة وأقام بها دولة كما كان لوالده من قبل إلى أن فتحها الوزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي وأضافها إلى مملكة فاس ثم انتقض الوزير مسعود أيضا وبايع الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوس بن أبي علي ونصبه للأمر وصار يشوش به على الدولة وشرق عمر بن عبد الله بدائه في أخبار طويلة ولما لم يتم له أمر عبر هو وسلطانه البحر من مرسى غساسة إلى الأندلس فاتح سنة سبع وستين وسبعمائة وأقبلا على الجهاد واستراح الوزير عمر وسلطانه أبو زيان من شغبهما والله غالب على أمره مقتل السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمه الله لما طال استبداد الوزير عمر بن عبد الله على السلطان أبي زيان وحجره أباه إذ كان وضع عليه الرقباء والعيون حتى من حرمه وأهل قصره عزم على الفتك بالوزير المذكور وتناجى بذلك مع بعض ندمائه وأعد له طائفة من العبيد كانوا يختصون به ففما ذلك إلى الوزير بواسطة بعض الحرم كانت عينه له عليه فعاجله وكان قد بلغ من الاستبداد عليه أن كان الحجاب مرفوعا له عن خلوات السلطان وحرمه فدخل عليه وهو في وسط حشمة فطردهم عنه ثم غطه حتى فاظ وأمر به فألقي في بئر بروض الغزلان واستدعى الخاصة فأراهم مكانه بها وأنه سقط عن دابته وهو سكران وذلك في محرم فاتح سنة ثمان وستين وسبعمائة كذا عند ابن خلدون وقال في الجذوة توفي يوم

الأحد الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة وله ثمان وعشرون سنة ودفن بجامع قصره فكانت دولته أربع سنين وعشرة أشهر ويوما واحدا والله أعلم الخبر عن دولة السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله هذا السلطان هو الذي أنعش دولة بني مريين بعد تلاشيها وأعاد إليها شبابها بعد هرمها وتقاضيها وأزال عنها وصمة الحجر والاستبداد وأعادها من العز إلى حالها المعتاد وهو الذي ذكره ابن خلدون في أول تاريخه الكبير وألفه برسمه وحلى ديباجته باسمه أمه مولدة اسمها مريم صفته آدم اللون شديد الأدمة طويل القامة يشرف على الناس بطوله نحيف الجسم أعين أدهج أخنس في وجهه أثر جدري وكان عفا متمسكا بالدين محبا في الخير وأهله لم يشرب خمرا ولا وقع في فاحشة قط وبالجملة فقد كان من صالحى الملوك رحمه الله ولما كان من الوزير عمر بن عبد الله الياباني إلى السلطان أبي زيان رحمه الله ما كان من الخنق والإلقاء في البئر استدعى عبد العزيز بن أبي الحسن هذا وكان في بعض الدور من القصبه بفاس محتاطا عليه من قبل الوزير المذكور فأحضره بالقصر وأجلسه على سرير الملك وبايعه وفتحت الأبواب لبني مريين وسائر الخاصة والعامه فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة بطاعته فتم أمره وثبت ملكه وذلك يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة ثم إن الوزير عمر جرى معه على عادته من الاستبداد ومنع التصرف في شيء من أمور الملك فأنف السلطان عبد العزيز من ذلك وتأفف منه ودارت بينه وبين الوزير أمور إلى أن عمل السلطان على الفتك به فأعد له جماعة من الخصيان بزوايا داره ثم أحضره ووبخه وثار به أولئك الخصيان فقتلوه هيرا بالسيف وصاح الوزير المذكور صيحة أسمع بها بطانته خارج الدار فوثبوا على الأبواب فكسروها واقتحموا الدار فإذا صاحبهم مضر جدمائه قد فرغ منه فولوا الأدبار هاربين ثم تتبع السلطان عبد العزيز حاشية الوزير بالاعتقال والقتل حتى أتى على الجميع في خير طويل واستبد بملكه واضطلع به وأدار الأمور فيه على ما ينبغي والله تعالى أعلم انتفاض أبي الفضل بن أبي سالم ثم مقتله بعد ذلك قد تقدمنا أن أبا الفضل بن أبي سالم كان قد عقد له الوزير عمر بن عبد الله على مراكش إسعافا لكافله عامر بن محمد الهنتاتي فلما فتك السلطان عبد العزيز بالوزير المذكور سولت لأبي الفضل نفسه مثلها في عامر بن محمد لاستبداده عليه وأغراه بذلك بطانته فأحس عامر بالشر فتمارض بداره من مراكش ثم استأذنه في الصعود إلى معصمه من الجبل ليمرضه هنالك حرمه وأقاربه فارتحل بجملته واحتل بحصنه وكان أعز من الأبلق الفرد فينس أبو الفضل من الاستمکان منه ثم أغرته بطانته إذ فاتهم عامر بالفتك بعبد المؤمن بن أبي علي وكان قد انضاف إليه بعد إجماله عن سجالمة فسكرو أبو الفضل ذات ليلة وبعث عن قائد الجند من النصارى فأمره بقتل عبد المؤمن بمكان معتقته من قصبه مراكش فجاه برأسه إليه وطار الخبر بذلك إلى عامر فارتاع وحمد الله إذ خلصه من غائلته وبعث ببيعته إلى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبي الفضل ورغبه في ملك مراكش ووعده بالمظاهرة فأجمع السلطان أمره على النهوض إليها ونادى في الناس بالعتاء وقضى أسباب حركته وارتحل من فاس سنة تسع

وستين وسبعمئة وقد استبد أبو الفضل بمراكش وأعلمها وأقام بها رسم الملك واستوزر واستلحق وجعل شورا لمبارك بن إبراهيم بن عطية الخلطي ولما نهض السلطان عبد العزيز من فاس اتصل خبره بأبي الفضل وهو

منازل لعامر بن محمد فانقض معسكره ولحق بتادلا ليعتصم بجبل بني جابر منها فتبعه السلطان عبد العزيز إليها ونزله وأخذ بمخنقه وقتله فقل عسكره ثم داخل بعض بني جابر في جر الهزيمة عليه على مال يعطيه لهم ففعلوا وانهمت جيوشه وتقبض على أشياعه وسبق مبارك بن إبراهيم إلى السلطان عبد العزيز فاعتقله إلى أن قتله مع عامر بن محمد كما نذكر ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة وراء بني جابر فدخل بنو جابر في شأنه وبذلوا لهم عن السلطان مالا كثيرا في إسلامه فأسلموه وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون فجاء به أسيرا وأحضره أمام السلطان فبوخه ثم اعتقله بفسطاط مجاور له ثم غط من الليل فكان مهلكه في رمضان سنة تسع وستين وسبعمئة لمضي ثمان سنين من إمارته على مراكش وبعث السلطان عبد العزيز إلى عامر بن محمد يختبر طاعته فأبى عليه وجاهر بالخلاف إلى أن كان من شأنه ما نذكره انتفاض عامر بن محمد الهنتاتي وحصار السلطان عبد العزيز إياه وظفره به كان عامر بن محمد الهنتاتي مجير السلطان أبي الحسن من ابنه أبي عنان على ما وصفنا من بلوغ الغاية في الرياسة والاعتزاز على الدولة وطول الاستبداد بمراكش وأحوازها وكان قد حصل في مدة رياسته على ثروة عظيمة وجاه كبير وكان له معتصم بجبل درن أعز من بيض الأنوق قد حصن فيه ماله وسلاحه وذخيرته وكان كلما هاجه هائج صعده إليه وأمن على نفسه فلما صفا الأمر للسلطان عبد العزيز جعل عامرا هذا من أهم أمره فنصب له واستعد لقتاله وعقد على وزارته لأبي بكر بن غازي بن يحيى بن الكاس ونهض إليه من فاس سنة سبعين وسبعمئة فحاصره في جبله سنة كاملة ولما طال الحصار على عامر وشيعته اختلقت كلمتهم عليه وفسد ما

بينه وبين ابن أخيه فارس بن عبد العزيز بن محمد فبعث إلى السلطان وسهل له الطريق لاقتحام الجبل فزحفت العساكر والجنود وشارفت المعتصم ولما استيقن عامر أن قد أحيط به بعث إلى ابنه أبي بكر أن يلحق بالسلطان مختارا له ومشيرا عليه بالتالي هي أحسن وأسلم فألقى الولد بنفسه إلى السلطان فقبله وبذل له الأمان وألحقه بجملته وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخلص إلى السوس فرده الثلج وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض وسد المسالك فاقتحمه عامر حتى هلك فيه بعض حرمه ونفق مركبه وعابن الهلكة العاجلة فرجع أدراجه مختفيا حتى أوى إلى غار مع أدلاء كان قد استخلصهم وبذل لهم مالا على أن يسلكوا به ظهر الجبل إلى صحراء السوس فأقاموا ينتظرون إمسك الثلج وقد شدد السلطان عبد العزيز في التنقيب عنه والبحث فعرث عليه بعض البربر بالغار المذكور فسبق إلى السلطان فأحضره بين يديه وبوخه فاعتذر واعترف بالذنب ورغب في الإقالة فحمل إلى مضرب بني له بإزاء فسطاط السلطان واعتقل هناك وانطلقت الأيدي على معقل عامر ودياره فانتهب من الأموال والسلاح والذخيرة والزرع والأقوات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت واستولى السلطان على الجبل ومعقله في رمضان من سنة إحدى وسبعين وسبعمئة لحول من يوم حصاره وعقد على هنتاتة لابن أخي عامر وهو فارس بن عبد العزيز بن محمد بن علي الهنتاتي وارتحل إلى فاس فاحتل بها آخر رمضان المذكور ودخلها في يوم مشهود برز فيه الناس وحمل عامر وسلطانه تاشفين من بني عبد الحق كان نصبه للأمر مموها به على عادته فحملا معا على جملين وقد أفرغ عليهما لباس رث وعبثت بهما أيدي الإهانة فكان ذلك عبرة لمن رآه ولما قضى السلطان عبد العزيز نسك عيد الفطر أحضر عامرا فقرعه بذنوبه وأتى بكتاب بخطه يخاطب فيه أبا حمو بن يوسف الزياتي ويستجده على

السلطان فشهد عليه به وأمر السلطان بامتحانه فلم يزل يجلد حتى انتشر لحمه وضرب بالعصى حتى ورمت أعضاؤه وهلك بين يدي الوزعة وجنب تاشفين سلطانه إلى مصرعه فقتل قعصا بالرمح وجنب مبارك بن إبراهيم الخلطي من محبسه بعد الاعتقال فألحق بهم ولكل أجل كتاب وصفا الجو للسلطان عبد العزيز من المنازعين وتفرغ لغزو تلمسان على ما نذكره إن شاء الله ارتجاع الجزيرة الخضراء من يد الإسبانول قد قدما ما كان من استيلاء الطاغية على الجزيرة الخضراء أيام السلطان أبي الحسن رحمه الله فاستمرت في ملكتهم إلى هذا التاريخ فنشأت بينهم فتنة وتقاتلوا على الملك وأعروا ثغورهم الموالية للمسلمين من الحامية والجدن فيقبت عورة وتشوف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة الخضراء التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين وكان السلطان عبد العزيز في شغل عن ذلك بفتنة أبي الفضل بن أبي سالم وعامر بن محمد وانتقاضهما فبعث إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس أن يزحف إليها بعساكره وعليه عطاؤهم وإمدادهم بالمال والأساطيل على أن تكون مثوبة جهاده خالصة له فأجاب ابن الأحمر إلى ذلك وبعث إليه السلطان عبد العزيز بأحمال المال وأوعز إلى أساطيله بسببته فانعمرت وألغنت حتى احتلت بمرسى الجزيرة الخضراء لحصارها وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العدد وأعد الآلات للحصار فنازلها أياما قلائل ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريح ويأسهم من مدد ملوكهم فألقوا باليد وسألوا النزول على الصلح فأجابهم ابن الأحمر إليه ونزلوا عن البلد وأقيمت فيه شعائر الإسلام ومحيت منه كلمة الكفر وكتب الله أجرا لمن أخلص في معاملته

وكان ذلك سنة سبعين وسبعمئة وولي ابن الأحمر عليها من قبله ولم تزل إلى أن وقع الاختيار على هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها مرة أخرى فهدمت أعوام الثمانين وسبعمئة وأصبحت خاوية كأن لم تكن بالأمس نهوض السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واستيلاؤه عليها وفرار سلطانها أبي حمو بن يوسف عنها كان أبو حمو بن يوسف الزياتي قد فسد ما بينه وبين عرب سويد ويقض على بعض رؤسائهم محمد بن عريف فاستصرخوا عليه السلطان عبد العزيز وكانت القوارص لا تزال تسري إليه من أبي حمو المذكور فصادفوا منه صاغية إلى ما التمسوا منه واعتزم على النهوض إلى تلمسان وبعث الحاشرين إلى الجهات المراكشبة فتوافى الناس إليه على طيقاتهم واجتمعوا عنده أيام منى سنة إحدى وسبعين وسبعمئة فأفاض العطاء وأزاح العلل ولما قضى نسك عيد الأضحى عرض الجند ونهض إلى تلمسان فاحتل بتازا واتصل خبره بأبي حمو فجمع الجموع وهم باللقاء ثم اختلفت كلمة أصحابه وتفرق عنه العرب من بني معقل فأجفل هو وأشياعه من بني عامر بن زغبة فدخلوا القفر وتقدم السلطان عبد العزيز فاحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وسبعين وسبعمئة فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي بن الكاس على عساكر مريين والعرب وسرحه في اتباع أبي حمو فأدركه ببعض بلاد زناتة الشرق فأجهضوه عن ماله ومعسكره فانتهب بأسره واكتسحت أموال العرب الذين معه ونجا بنمائه إلى مصاب وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة ثم دخلوا القفر بعد ذلك ودوخ الوزير المذكور بلاد المغرب الأوسط وشرده عصاته واستنزل ثواره في أخبار طويلة

واستولى السلطان عبد العزيز على سائر الوطن من الأمصار والأعمال وعقد عليها للولاية والعمال واستوسق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه واستمر مقبما بتلمسان إلى أن كان ما نذكره نزوع الوزير ابن الخطيب عن سلطانه الغني بالله إلى السلطان عبد العزيز بتلمسان قد قدما ما كان من رجوع الغني بالله ابن الأحمر إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمئة ولما استولى على غرناطة وثبت قدمه بها بعث عن مخلفه بفاس من الأهل والولد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله فاستقدم عمر ابن الخطيب من سلا وبعثهم إلى نظره فسر السلطان ابن الأحمر بمقدمه ورده إلى منزلته ودفع إليه تدبير المملكة وخطب بينه وبينه بنمائه وأهل خلوته وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت به الآمال وغشى بابه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافوا على السعاية فيه وقد صم السلطان عن قبولها ونما بذلك الخير إلى ابن الخطيب فشمع عن ساعده للرحلة عن الأندلس والالحاق بالمغرب وكان له حنين إليه ورغبة في الإيالة المرينية من قبل ذلك فقدم الوسائل إلى السلطان عبد العزيز وأوعز إليه بما عزم عليه من اللحاق بحضرته فوعده السلطان بالجميل وبسط أمره فحينئذ استأذن السلطان الغني بالله في تفقد الثغور الغربية من أرض الأندلس فأذن له وسار إليها في جماعة من فرسانه ومعه ابنه علي فلما حادى جبل طارق مال إليه فخرج قائد الجبل لتلقيه وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك وجهز إليه الأسطول من حينه فاحتل بسببته ثم سار منها فقدم على السلطان عبد العزيز بتلمسان سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة فاهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه وأحله بمجلسه محل الأمن والغبطة ومن دولته بمكان الشرف والجزرة وأخرج لوقتته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيرا إلى الأندلس في مطلب أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات من الأمن والتكرمة ثم نزل بعد ذلك مدينة فاس القديمة فاستكثر بها من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات وحفظت عليه رسومه السلطانية وتوفيراته وأقام

مطمئنا بخير دار عند أعر جار وفاة السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله كان السلطان عبد العزيز قد أصابه مرض النحول في صغره ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم عن بعثه مع الأبناء إلى الأندلس فقام بالمغرب ولما شب أفاق من مرضه وصلح بدنه ثم عاوده وجعه في مئواه بتلمسان وتزايد نحوله ولما كمل الفتح واستفحل الملك اشتد به الوجد فصابره وكنتمه عن الناس خشية الإرجاف ثم عسكر خارج تلمسان للحاق بالمغرب ولما كانت ليلة الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمئة قضى نحبه رحمه الله بظاهر تلمسان بين أهله وولده وسبق إلى فاس فدفن بجامع قصره وسنه يومئذ أربع وعشرين سنة وكانت دولته ست سنين وأربعة أشهر ومن نظمه ما ذكره ابن الأحمر في نثر الجمان مذيلا بيتي والده السلطان أبي الحسن اللذين هما قوله أرضي الله في سر وجهه وأحمي العرض من دنس ارتياب وأعطي الوفير من مالي اختيارا وأضرب بالسيوف ظلي الرقاب فقال هو وأحسن وأرغب خالقي في العفو عني وأطلب حلمه يوم الحساب وأرجو عونه في عز نصر على الأعداء محروس الجناب

وعبدك واقف بالباب فارح عبيدا خائفا ألم العقاب الخير عن دولة السلطان السعيد بالله أبي زيان محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن هذا السلطان ممن ولي الأمر وهو صبي وفيه ألف ابن الخطيب كتابه المسمى بأعلام الأعلام بمن بوع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام كنيته أبو زيان أمه عائشة بنت القائد فارح العلي صفة آدم اللون شديد الأدمة ولما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله بظاهر تلمسان خرج الوزير أبو بكر بن غازي بن الكاس على الناس وقد احتمل أبا زيان ابن السلطان عبد العزيز فعزاهم عن سلطانهم ثم طرح ابنه بين أيديهم فارتدحوا عليه باكين متفجعين يعطونه الصفقة ويقبلون بيديه للبيعة ثم أخرجوه للمعسكر وأنزلوه بفساطيط أبيه وتم أمره وكفله الوزير المذكور فكان إليه الإبرام والنقض والصبي كالعدم إذ لم يكن في سن التصرف ثم إن الوزير ارتحل بالناس وجد السير فدخل حضرة فاس وأجلس الصبي للبيعة العامة فبايعوا ثم توافقت لديه وفود الأمصار على العادة واستند الوزير أبو بكر واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفصل واشتغل بأمر المغرب إيراما ونقضا ولما فصل بنو مرين عن تلمسان عاد إليها سلطاتها أبو حمو بن يوسف الزياني والتقت عليه بنو عبد الواد من كل جانب ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهم بالنهوض إليه ثم تني عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوس بن أبي علي بن أبي سعيد بناحية بطوية فإن السلطان ابن الأحمر كان قد سرحه من الأندلس صحبة وزيره مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي

لطلب ملك المغرب تشغيبا على الوزير أبي بكر بن غازي ثم أتبعه بالأمر أبي العباس أحمد بن السلطان أبي سالم الذي كان محتاطا عليه بطنجة فزحف الأمير أبو العباس المذكور إلى فاس وظهره ابن عمه الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوس فحاصروا الوزير أبا بكر بن غازي وسلطانه أبا زيان ابن عبد العزيز وضربوا على فاس الجديد سياجا بالبنا للحصار وأنزلوا به أنواع القتال بعد أن بعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمه الأمير أبي العباس ومظاهرة على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتها وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختص عبد الرحمن بملك سلفه من سجماسة وأعمالها فتراضيا وزحفا إلى فاس كما قلنا وأمدهم ابن الأحمر بجمع من جنده فاستمر الحال على حصار فاس إلى أن أذعن الوزير أبو بكر لخلع سلطانه أبي زيان ومبايعة الأمير أبي العباس فخلعه يوم الأحد السادس من محرم فاتح سنة ست وسبعين وسبعمئة وغرب إلى الأندلس فكانت دولته سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما والله غالب على أمره الخير عن الدولة الأولى للسلطان المستنصر بالله أبي العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن هذا السلطان يقال له ذو الدولتين لأنه ولي الملك مرتين كما سيأتي أمه حرة بنت أبي محمد السبائي كنيته أبو العباس لقبه المستنصر بالله صفته أبيض اللون ربيعة تعلوه صفرة رقيقة أدعج أسود الشعر أكحل الحاجبين ضيق البلج أسيل الخدين براق التنايا جميل الوجه مليح الصورة ظريف المنزع لطيف الشمانل حسن الشكل إذا ركب بويغ أولا بطنجة في شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وسبعمئة ثم بويغ البيعة العامة بالمدينة البيضاء بعد استيلائه عليها يوم الأحد السادس من محرم سنة ست وسبعين وسبعمئة وكان الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوس عندما أشرفوا على فتح فاس شرط عليهم ولاية مراکش عوضا عن سجماسة فعدوا له على كره مخافة أن تفرق كلمتهم ولا يتم أمرهم ففعلوا وطبوا له على النكت فارتحل إلى مراکش واستولى عليها ثم فارقه وزيره مسعود بن عبد الرحمن وأجاز البحر إلى الأندلس فاستقر بها في إيالة ابن الأحمر واستقل السلطان أبو العباس بن أبي سالم بملك فاس وأعمالها واستوزر محمد بن عثمان بن الكاس وفوض إليه أموره فغلب على هواه وجعل أمر الشورى إلى سليمان بن داود فاستقل بها وحاز رئاسة المشيخة واستحكمت المودة بينه وبين ابن الأحمر وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وإبرامهم فصار له بذلك تحكم في الدولة المرينية وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الأندلس وذلك بما كان لابن الأحمر من إعانة السلطان أبي العباس على ملك المغرب حتى تم له وبما كان تحت يده من أبناء الملوك المرشحين للأمر فكان أبو العباس وحاشيته يصانعون له لأجل ذلك والله تعالى أعلم محنة الوزير ابن الخطيب ومقتله رحمه الله لما لجأ ابن الخطيب إلى بني مرين وأصاب عندهم دارا وقرارا عز ذلك على ابن الأحمر وسعى بطائنه عنده في ابن الخطيب لعداوتهم له ثم بلغه أنه يغري السلطان عبد العزيز بتملك أرض الأندلس وقطع دعوة بني الأحمر منها فعظم عليه ذلك ودير الحيلة في قتل ابن الخطيب وتتبع أعداؤه كلمات زعموا أنها صدرت منه في بعض تأليفه فأحصوها عليه ورفعوها إلى قاضي غرناطة أبي الحسن النباهي فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة وبعث ابن الأحمر برسم الشهادة مع هدية لم يسمع بمثلا إلى السلطان عبد العزيز وطلب منه إقامة الحد على ابن الخطيب أو إسلامه إليه فقصم السلطان عبد العزيز عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يؤذى وقال للوفد هلا

انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارحي ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملته ثم لما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله وولي ابنه أبو زيان وقام بأمره الوزير أبو بكر بن غازي عاود ابن الأحمر الكلام في شأن ابن الخطيب وبعث بهدية أخرى إلى الوزير المذكور وطلب منه إسلامه إليه فأبى الوزير وأساء الرد وعادت رسل ابن الأحمر إليه مخففين وقد رهبا سطوته فعند ذلك عمد ابن الأحمر إلى الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوس وكان عنده بالأندلس فأطمعه في ملك المغرب وأركبه البحر فقتل به بساحل بطوية من بلاد الريف تشغيبا على الوزير أبي بكر بن غازي كما مر ثم تاب له رأي آخر فأغرى محمد بن عثمان بن الكاس وهو ابن عم أبي بكر بن غازي المذكور وكان يومئذ بسببة قائما على ثغرها فدخله في البيعة لأبي العباس ابن أبي سالم وكان يومئذ بسببة محتاطا عليه في جملة من القرابة والتزم أن يمده بالمال والرجال حتى يتم أمره لكن بشرط أن ينزل له عن جبل طارق ويبيع له بالقرابة الذين هم بطنجة ليكونوا تحت يده ويسلم إليه ابن الخطيب متى قدر عليه فكان الأمر كذلك فإن السلطان أبا العباس لما استولى على الأمر نزل لابن الأحمر عن جبل طارق فمحا دعوة بني مرين من وراء البحر ثم ملك بعد ذلك سببة فاستولى عليها وبعث إليه بالقرابة المذكورين فأوسع لهم جنباه بقرناطة ثم قبض السلطان أبو العباس ووزيره محمد بن عثمان على ابن الخطيب وطبوا بالأعلام لابن الأحمر فحينئذ بعث وزيره أبا عبد الله بن زمرك وكان من تلاميذه ابن الخطيب وبه تخرج فقدم على السلطان أبي العباس وأحضروا ابن الخطيب بالمشور في مجلس الخاصة وأهل الشورى من الفقهاء وعرضوا عليه بعض كلمات وقعت له في بعض كتبه فعظم عليه النكير فيها فويغ ونكل وامتنع بالعذاب بمشهد ذلك الملائم ثم تل إلى محبسه وتفاوضوا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه فأفتى بعض الفقهاء بقتله فندس سليمان بن داود إليه بعض الأوغاد حاشيته من حاشيته فطرقوا السجن ليلا ومعهم زعانة من أهل الأندلس جاؤوا في لفيق ذلك الوفد فقتلوه خنقا في محبسه وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق ثم أصبح من الغد طريحا على شافة قبره وقد جمعو له أعودا فأضرموها عليه نارا فاحترق شعره واسود بشره وأعيد إلى حفرة وكان في ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان بن داود واعدوها من هنتاته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته وكان ابن الخطيب رحمه الله أيام مقامه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكي نفسه فمما قال في ذلك بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجننا بو عظ ونحن صموت وأنفسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت وكنا عظاما فصرنا عظاما وكنا نقوت

فها نحن قوت وكنا شمس سماء العلا غربنا فناحت عليها السموت فكم جدلت ذا الحسام الطيبي و ذو البخت كم جدلته البخوت وكم سيق للقر في خرقة فنى ملنت من كساه التخوت فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذي لا يفوت فمن كان يفرح منكم له فقل يفرح اليوم من لا يموت وكانت نكبته رحمه الله أوائل سنة ست وسبعين وسبعمائة وعند الله تجتمع الخصوم

بقية أخبار أمير مراکش عبد الرحمن بن أبي يفلوسن رحمه الله قد تقدم لنا ما كان من معاهدة السلطان أبي العباس والأمير عبد الرحمن ابن أبي يفلوسن على ولاية سجلماسة أولا ثم التعويض عنها بمرآش ثانيا فلما فتح السلطان أبو العباس فاسا وفي للأمير عبد الرحمن بعقد فاسار إلى مراکش واستولى عليها وعلى أعمالها واقتسمت مملكة المغرب الأقصى يومئذ بنصفين وكان الحد بين الدولتين ثغر أزمور فكانت في إيالة صاحب فاس وما وراءها إلى مراکش في إيالة صاحب مراکش ثم كانت بينهما بعد ذلك مواصلات ومناقضات ومسالمات ومحاربات يطول جلبها واتصل ذلك إلى منتصف سنة أربع وثمانين وسبعمائة فظفر السلطان أبو العباس بعبد الرحمن بعد محاصرته بقصبة مراکش تسعة أشهر ولما أشرف السلطان أبو العباس على فتحها وانفض الناس من حول الأمير عبد الرحمن ونزلوا من الأسوار ناجين إلى السلطان وبقي هو في قصبته منفردا بات ليلته يراود ولديه على الاستماتة وهما سليم وأبو عمر وركب السلطان أبو العباس من الغد في التعبية إلى القصبة فاقتحمها بمقدمته ولقيه الأمير عبد الرحمن وولده مسافقين إلى الميدان ومباشرين القتال بين أبواب دورهم فجالوا معهم جولة قتل فيها الولدان قتلهم علي بن إدريس وزيان بن عمر الوطاسي قال ابن خلدون وطالما كان زيان يمتري ندي نعمتهم ويجر ذيله خيلاء في جاههم فذهب مثلا في كفران النعمة وسوء الجزاء والله لا يظلم مثقال ذرة وكان ذلك خاتم جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين المذكورة لمضي عشر سنين من إمارة عبد الرحمن علي مراکش ثم رحل السلطان أبو العباس منقلا إلى فاس وقد استولى على سائر أعمال المغرب وظفر بعده ودفع النازعين عن ملكه والله غالب على أمره

ذكر الشاوية وبيان نسبهم وأوليتهم وشرح لقبهم وتسميتهم ذكر ابن خلدون أن الشاوية من ولد حسان بن أبي سعيد الصبيحي نسبة إلى صبيح بالتصغير بطن من سويد وسويد إحدى قبائل بني مالك بن زغبة الهلاليين وكان دخول حسان وأخيه موسى ابني أبي سعيد إلى المغرب الأقصى أيام السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قدموا في صحبة عبد الله بن كندوز العبد الوادي ثم الكمي وكان عبد الله هذا قد نزع عن يغمراسن بن زيان إلى السلطان يعقوب المذكور فقدم عليه قبل فتح مراکش فاهتز السلطان يعقوب لقدمه وأحله بالمكان الرفيع من دولته وأنزل قومه بجهات مراکش وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهماتهم وجعل انتجاع إبله ورواحله وسائر ظهره في إحيائهم فقدم عبد الله بن كندوز على رعايتها حسان وأخاه موسى الصبيحيين وكانا عارفين برعاية الإبل والقيام عليها فأقاموا يتقلبون في تلك البلاد ويتعدون في نجعتها إلى أرض سوس وكانت ماشية السلطان يعقوب متفرقة في سائر المغرب فجمعها لعبد الله بن كندوز وجمعها عبد الله لحسان الصبيحي المذكور فكان حسان يبشر أمور السلطان في شأن تلك الماشية ويطلعه بمهماتهم فحصلت له مداخلة معه جلبت إليه الحظ حتى ارتفع قدره ونشأ بنوه في ظل الدولة وعزها وتصرفوا في الولايات منها وانفردوا بخطة الشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات وكان لحسان من الولد علي ويعقوب وظلحة وغيرهم ومن حسان هذا تفرعت شعوبهم في ولده قال ابن خلدون وهم لهذا العهد يتصرفون في النولة على ما كان لسلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل ولهم عدد وكثرة ونباهة في النولة أه قلت ولفظ الشاوية نسبة إلى الشاء التي هي جماعة الغنم مثلا قال الصحاح والنسبة إلى الشاء شاي قال الراجز

لا ينفع الشاوي فيها شاته ولا حماراه ولا علاته وإن سميت به رجالا قلت شائي وإن شئت شاي اه واعلم أن الشاوية اليوم يطلقون على سكان تامسنا من قبائل شتى بعضها عرب وبعضها زناتة وبربر غير أن لسان الجميع عربي وكان أصل جمهورهم من هؤلاء الذين ذكر ابن خلدون ثم انصافت إليهم قبائل أخر واختلطوا بهم فأطلق على الجميع شاوية تغلبا وهكذا وقع في سائر عرب المغرب الأقصى المواطنين بتلوله فإنهم وقع فيهم اختلاط كبير حتى نسوا أنسابهم وأصولهم الأولى إلا في النادر وذلك بسبب تعاقب الأعصار وتناسخ الأجيال وتوالي المجاعات والانتجاعات ووقعات الملوك بهم في كثير من الأحيان وتقريب بعضهم من بعض ونقل بعضهم إلى بلاد بعض ومع ذلك فأسماؤهم الأولى لا زالت قائمة فيهم لن تتغير إلى الآن فمنها يهتدي الفطن إلى التنقير عن أنسابهم وإلحاق فروعهم بأصولهم متى احتاج إلى ذلك والله تعالى أعلم نهوض السلطان أبي العباس إلى تلمسان وفتحها وتخريبها لما نهض السلطان أبو العباس إلى مراکش وحاصر بها عبد الرحمن بن أبي يفلوسن خالفة إلى المغرب أبو حمو بن يوسف الزباني في جمع من أولاد حسين عرب معقل وذلك بإجراء عبد الرحمن المذكور فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعثوا فيها ثم عمدوا إلى مدينة تازا فحاصروها سبعا وخربوا قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازروت وبينما هم على ذلك بلغهم الخبر اليقين بفتح مراکش وقتل الأمير عبد الرحمن فأجفوا من كل ناحية ومر أبو حمو في طريقه إلى تلمسان بقصر ونزمار بن عريف السويدي في نواحي بطوية المسمى بمرادة فهذمه ووصل السلطان أبو العباس إلى فاس فأراح بها أياما ثم أجمع النهوض إلى تلمسان فأنتهى إلى تاوريرت وبلغ الخبر إلى أبي حمو فاضطرب رأيه

واعترزم على الحصار وجمع أهل البلد عليه فاستعدوا له ثم بدا له فخرج في بعض تلك الليالي بولده وأهله وخاصته وأصبح مخيما بالصفيصيف فأهرع أهل البلد إليه بعيالهم وأولادهم متعلقين به تفاديا من معرة هجوم العسكر عليهم فلم يزع ذلك عن قصده وارتحل ذاهبا إلى البطحاء ثم قصد بلاد مغراوة فنزل في بني بو سعيد قريبا من شلف وأنزل أولاده الأصاغرة وأهله بحصن تاجحومت وجاء السلطان أبو العباس إلى تلمسان فملكها واستقر بها أياما ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها بإجراء ولديه ونزمار جزاء بما فعله أبو حمو في تخريب قصر تازروت وحصن مرادة ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمو ونزل على مرحلة منها وهناك بلغه الخبر بإجازة موسى بن أبي عنان من الأندلس إلى المغرب وأنه خالفة إلى دار الملك فأنكفأ راجعا عوده على بدنه ورجع أبو حمو إلى تلمسان فاستقر ملكه بها إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله خلع السلطان أبي العباس بن أبي سالم وتغريبه إلى الأندلس والسبب في ذلك قد قدمنا ما كان من تحكم ابن الأحمر في مملكة المغرب ودالته على السلطان أبي العباس بما أنه كان السبب في ولايته وبما تحت يده من القرابة المرشحين الذين أرصدهم للتشغيل على دار الملك بالمغرب متى رأى من أحدهم ما لا يوافق هواه وكان مع كثرة تحكمه فيهم يتجنى عليهم في بعض الأوقات بما يتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في أمر لا يجدون عنها محيصا فيضطغن ذلك عليهم وكان يعتد على السلطان أبي العباس بشيء من هذه الهنات فلما نهض إلى تلمسان واستولى عليها سنة خمس وثمانين وسبعمائة اتصل بابن الأحمر أن دار الملك بفاس قد بقيت عورة من الجند والحامية فانتهاز الفرصة وبادر بتسريح موسى ابن السلطان أبي عنان إلى المغرب

واستوزر له مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي رئيس الفتنة وقطب رحاها وكان عنده بالأندلس بعد مفارقة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن فنزل موسى ابن أبي عنان سبئة فاستولى عليها وسلمها لابن الأحمر فدخلت في طاعته ثم تقدم إلى فاس فدخلها من يومه واستقر قدمه بها واتصل الخبر بالسلطان أبي العباس وهو بتلمسان فجاء مبادرا ونزل بتازا فأقام بها أربعاً ثم تقدم إلى الموضع المعروف بالركن فانقض عليه رؤساء جيشه وتسللوا إلى موسى طوائف وأفرادا ولما رأى ما نزل به رجع إلى تازا بعد أن انتهت معسكره وأضرمت النار في خيامه وذلك يوم الأحد الموفي ثلاثين من ربيع الأول سنة ست وثمانين وسبعمائة ثم بعث موسى بن أبي عنان من آتاه بالسلطان أبي العباس في الأمان فقدم عليه وقيده وبعث به إلى ابن الأحمر فبقي عنده محتاطا عليه إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله وكانت دولته هذه عشر سنين وشهرين وأربعة وعشرين يوما ومن وزرائه في هذه الدولة محمد بن عثمان بن الكاس المجذولي ومن كتابه عبد المهيم ابن أبي سعيد بن عبد المهيم الحضرمي تغمد الله الجميع برحمته الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي فارس موسى ابن أبي عنان بن أبي الحسن أمه مولدة اسمها تاملالت صفته أسمى مائل إلى السواد قصير القامة جاحظ العينين عظيم اللحية تملأ صدره قائم الأنف وإذا تكلم يملأ لسانه فمه فيخرج من بين شفثيه ويتحرك فيقبح كلامه بوبع يوم الخميس الموفي عشرين من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وسبعمائة وقام بأمر دولته وزيره مسعود بن ماساي مستبدا عليه ولما استقر أمره بالحضرة وجه إليه ابن الأحمر أمه وعياله وكانوا عنده وهناه وزيره أبو عبد الله بن زمرك بتوشيح يقول في مطلعته

قد نظم الشمل أتم انتظام ولاحق الأعمار بعد المغيب وضاحك الروض تغور الغمام عن مبسم الزهر البرود الشيب إلى أن قال في آخره مولاي بهنيك وحق الهنا قد نظم الشمل كنظم السعود قد فزت بالفخر ونيل المنى وأنجز السعد جميع الوعود وقرت العين وزال العنا وكلما مر صنيع يعود ولم يزل ملكك حلف الدوام يحوز في التخليد أوفى نصيب ينلو عليك الدهر بعد السلام نصر من الله وفتح قريب خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماساي إليه كان الحسن بن الناصر بن أبي علي بن أبي سعيد قد لحق من مقره بالأندلس بحضرة تونس في سبيل طلب الملك وكان الوزير مسعود بن ماساي قد قتل محمد بن عثمان بن الكاس واقتربت حاشيته في الجهات فطلبوا بطن الأرض دون ظهرها ولحق منهم ابن أخيه العباس بن المقداد بتونس فعثر على الحسن بن الناصر بها فتاب له رأي في الرجوع به إلى المغرب لطلب الأمر فخرج به من تونس وقطع المغاور إلى أن انتهى إلى جبال غمارة ونزل على أهل الصفيحة منهم فأكرموا مثواه ومنقلبه وأعلنوا بالقيام بدعوته واستوزر العباس بن المقداد وبلغ الخبر إلى مسعود الوزير فجهز العساكر مع أخيه مهدي بن عبد الرحمن بن ماساي فحاصره بجبل الصحيفة أياما فامتنع عليه فنهض إليه مسعود بنفسه على ما نذكره

وفاة السلطان موسى بن أبي عنان رحمه الله لما كان من استبداد ابن ماساي على السلطان موسى ما قدمناه استتف من ذلك وداخل بطانته في الفتك به فما ذلك إليه وحصلت له نفرة من السلطان طلب لأجلها البعد عنه وبادر إلى الخروج لدافعة الحسن بن الناصر القائم بغمارة واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن عبد الرحمن بن ماساي فلما انتهى إلى قصر كتامة بلغه الخبر بوفاة السلطان موسى وكانت وفاته في جمادى الآخرة طرفة المرض فهلك ليوم وليلة من مرضه وكان الناس يرمون يعيش أبا الوزير بأنه سمه قاله ابن خلدون وقال ابن القاضي في الجذوة توفي السلطان موسى بن أبي عنان مسموما يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمئة وله إحدى وثلاثون سنة فكانت دولته سنتين وأربعة أشهر وولي بعده محمد بن أحمد بن أبي سالم اه ومن كتابه أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي عمرو التميمي وأبو القاسم محمد بن سودة المري ومن قضاته أبو عبد الله محمد بن محمد المغيلي والله تعالى أعلم الخبر عن دولة المنتصر بالله السلطان أبي زيان محمد بن أبي العباس ابن أبي سالم بن أبي الحسن أمه حرة وهي رقية بنت السلطان أبي عنان صفته أبيض اللون قائم الأنف أسبل الخدين بويع بعد خاله موسى بن أبي عنان يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمئة وسنه يوم بويع خمس سنين وخلع يوم الجمعة الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة وغرب إلى الأندلس مع أبيه فكانت دولته ثلاثة وأربعين يوما تحت استبداد الوزير مسعود عفا الله عنه

الخبر عن دولة السلطان الواثق بالله أبي زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن أمه أم ولد اسمها عسيلة صفته أسود اللون عظيم الخلق رحب الوجه طويل القامة والساقين ممثلي الأنف عظيم الساعدين وكان قيل ولايته عند ابن الأحمر بالأندلس في جملة القرابة ولما استوحش الوزير مسعود من السلطان موسى بن أبي عنان بعث ابنه يحيى إلى ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العودة فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره ودس لابن الأحمر في رده وأن بيعت إليه بالواثق هذا ورأه أليق بالاستبداد والحجر فأسغفه ابن الأحمر في ذلك ورد السلطان أحمد إلى مكانه بالحمراء وجيء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده فأجازه إلى سبتة وانفق أن جماعة من الحاشية انتقضوا على الوزير مسعود ولحقوا بسبتة فقدم عليهم الواثق بها ورجعوا به إلى المغرب وتقلبوا في نواحيه إلى أن وصلوا إلى جبل مغيلة قرب فاس فبرز الوزير مسعود في العساكر ونزل قبائلهم وقتلهم هناك أياما ثم وقع الاتفاق على أن يبايع مسعود للواثق بشرط الاستبداد فتم العقد على ذلك قال في الجذوة بويع السلطان الواثق بالله أبو زيان محمد بن أبي الفضل يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمئة وقام بأمره الوزير مسعود بن ماساي ثم حدثت الفتنة بين الوزير المذكور وابن الأحمر بسبب أن الوزير طلب منه إعادة سبتة إلى الإيالة المرينية وكان موسى ابن أبي عنان قد نزل له عنها كما مر وكان طلبه على سبيل الملاطفة فاستشاط ابن الأحمر غضبا وأساء الرد فجهز ابن ماساي العساكر لحصار سبتة مع العباس بن عمر بن عثمان الوصافي ويحيى بن علل بن أمصود والرئيس محمد بن أحمد الأبيكم من بني الأحمر فاستولى عليها

ثم سرح ابن الأحمر السلطان أبي العباس من اعتقاله وبعثه إلى المغرب لطلب ملكه وللتشغيب على ابن ماساي الجاحد لإحسانه فعبر السلطان أبو العباس البحر إلى المغرب فاحتل سبتة واستولى عليها ثم تقدم إلى فاس فحاصرها وضيق على ابن ماساي وسلطانه الواثق بالله وأهرع الناس إلى الدخول في طاعته حتى من مراكش فاستمر الحصار على فاس الجديد ثلاثة أشهر ثم أذعن الوزير مسعود للطاعة على شرط أن يبقى وزيراً ويغرب سلطانه إلى الأندلس فأجيب وخلع الواثق بالله ثم خرج إلى السلطان أبي العباس فبايعه وتقدم أمامه فدخل ملكه يوم الخميس خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمئة ولحين دخوله قبض على الواثق بالله فقيده وبعث به إلى طنجة فقتل بها بعد ذلك وسنه يوم قتل ثمان وثلاثون سنة وبها قبر ومن وزرائه يعيش بن علي بن فارس الياباني ومسعود بن رحو بن ماساي ومن كتابه منصور بن أحمد بن محمد التميمي وأبو يحيى محمد ابن محمد بن أبي القاسم بن أبي مدين ومن قضاته أبو يحيى محمد بن محمد السكاك رحمهم الله تعالى بمنه الخير عن الدولة الثانية للسلطان أبي العباس بن أبي سالم بن أبي الحسن لما دخل السلطان أبو العباس حضرة فاس الجديد في التاريخ المتقدم بويع البيعة العامة في اليوم الثالث من دخوله وهو يوم السبت السابع من رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمئة لمضي ثلاث سنين وخمسة أشهر وستة أيام من خلعه ولما ملك أمر نفسه قبض على الوزير ابن ماساي وعلى إخوته وحاشيته وامتحنهم امتحانا بليغا فهلكوا من العذاب ثم سلط على مسعود من العذاب

والانتقام ما لا يعبر عنه واعتد عليه بما كان يفعله في دور بني مرين النازعين عنه إليه فإنه كان متى هرب منهم أحد عمد إلى بيوته فنهبها فأمر السلطان أبو العباس بعقابه في أطلالها فكان يؤتى به إلى كل بيت فيها فيضرب عشرين سوطا إلى أن يرح به العذاب وتجاوز الحد ثم أمر به فقطعت أربعته فهلك عند قطع الثانية وذهب مثلا للأخرين ظهور محمد بن عبد الحليم بن أبي علي بسجلماسة ثم اضمحلاله بعد ذلك قد قدمنا أن الأمير عبد الحليم بن أبي سعيد كان تغلب على سجلماسة ثم غلبه عليها أخوه عبد المؤمن وسافر عبد الحليم إلى المشرق فهلك في سفرته تلك وكان قد ترك ابنه محمدا هذا رضيعا فشب متقلبا بين الدول من ملك إلى آخر على أن أكثر مقامه إنما كان عند أبي حمو صاحب تلمسان ولما حاصر السلطان أبو العباس فاس الجديد كان محمد هذا عند العرب الأحلاف فلما اشتد الحصار على مسعود بن ماساي دس إلى الأحلاف أن ينصبوا محمد بن عبد الحليم للأمر ويجلبوا به على المغرب ليأخذ بحجزة السلطان أبي العباس عنه ففعلوا ودخل محمد بن عبد الحليم سجلماسة فملكها حتى إذا استولى السلطان أبو العباس على فاس الجديد وأوقع بمسعود ابن ماساي وإخوته خرج محمد بن عبد الحليم عن سجلماسة ولحق بأحياء العرب فسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمته ونزل على أبي حمو بتلمسان إلى أن هلك فسار إلى تونس ونزل على صاحبها أبي العباس الحفصي ثم ارتحل بعد وفاته إلى المشرق لحج الفريضة والله تعالى أعلم

نكية الكاتب ابن أبي عمرو وحركات بن حسون ومقتلها كان محمد بن محمد بن أبي عمرو التميمي وقد تقدم ذكر والده في دولة السلطان أبي عنان كاتباً عند السلطان أبي العباس في دولته الأولى فلما خلع وولي موسى بن أبي عنان تقرب إليه بسالف المخالصة لأبيه من أبي عنان فقد كان أعز بطانته كما مر فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفع منزلته على منازل أهل الدولة وجعل إليه كتابة علامته على المراسم السلطانية كما كان لأبيه وكان يفوضه في مهماته ويرجع إليه في أموره حتى غص به أهل الدولة وسعى هو عند السلطان موسى في جماعة من بطانة السلطان أبي العباس فأتى عليهم النكال والقتل لكلمات كانت تجري بينهم وبينه في مجالس المنادمة عند السلطان أبي العباس حقدوا عليهم فلما ظفر بالخط من السلطان موسى سعى بهم عنده فقتلهم وكان القاضي أبو إسحاق إبراهيم الزناتسي من بطانة السلطان أبي العباس وكان يحضر مع نمائه فحقد عليه ابن أبي عمرو وأغرى به السلطان موسى فضربه وأطافه وجاء بها شنعاء غريبة في الفجح ثم سفر ابن أبي عمرو عن سلطانه موسى إلى الأندلس فكان يمر بمجلس السلطان أبي العباس من محل اعتقاله فلا يلم به وربما يلقاه فلا يحييه ولا يوجب له حقا فأحفظ ذلك السلطان أبا العباس فلما رد الله عليه ملكه وفرغ من ابن ماساي قبض على ابن أبي عمرو هذا وأودعه السجن ثم امتحنه بعد ذلك إلى أن هلك تحت السياط وحمل إلى

داره وبينما أهله يحضرونه إلى قبره إذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب في نواحي المدينة إبلاغاً في النكال فحمل من نعشه وقد ربط في رجله حبل وسحب في سلك المدينة ثم ألقى على بعض المزابل ثم قبض السلطان على حركات بن حسون شيخ العرب وكان مجلباً في الفتنة وكان العرب المخالفون من معقل لما أجاز السلطان أبو العباس إلى

سبته وحركات هذا بتادلاً راودوه على طاعة السلطان فامتنع أولاً ثم أكرهه وجاؤوا به إلى السلطان فطوى على ذلك حتى إذا استقام أمره وملك حضرة فاس الجديد قبض عليه وامتنعه إلى أن هلك وإلى الله عاقبة الأمور أخبار تلمسان واستيلاء السلطان أبي العباس عليها كان السلطان أبو حمو بن يوسف الزياني قد عاد إلى تلمسان وثبت قدمه بها كما قلنا إلى أن خرج عليه ابنه أبو تاشفين آخر سنة ثمان وثمانين وسبعمئة فوقعت بينهما حروب وشرق أبوه بدائه ثم عادت له الكرة عليه في أخبار طويلة فاستمد أبو تاشفين السلطان أبا العباس فأمده بابنه الأمير أبي فارس ووزيره محمد بن يوسف بن علال عقد لهما على جيش كثيف من بني مرين وغيرهم فانتصر أبو تاشفين على أبيه فقتله وبعث برأسه إلى السلطان أبي العباس ثم تقدم فدخل تلمسان آخر سنة إحدى وتسعين وسبعمئة واستمر بها مقيماً لدعوة السلطان أبي العباس فكان يخطب له على منابر تلمسان وبيعت إليه بالضريبة كل سنة كما شرط على نفسه عند توجيه العساكر معه واستمر على ذلك إلى أن مات سنة خمس وتسعين وسبعمئة فتغلب على تلمسان أخوه الأخير يوسف بن أبي حمو ولما اتصل الخبر بالسلطان أبي العباس خرج من الحضرة إلى تازا ومن

هنالك بعث ابنه الأمير أبا فارس في العساكر إلى تلمسان فاستولى عليها وأقام فيها دعوة والده وفر يوسف بن أبي حمو إلى بعض الحصون فاعتصم به إلى أن كان ما نذكره وصول هدية صاحب مصر السلطان الظاهر برفوق إلى السلطان أبي العباس بتازا والسبب في ذلك كان العلامة الرئيس ولي الدين ابن خلدون قد استوطن في آخر عمره مصر القاهرة ونزل من سلطانها بالمنزلة الرفيعة قال رحمه الله وكان يوسف ابن علي بن غانم أمير أولاد حسين من معقل ثم من أولاد جرار منهم قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمئة واتصل بصاحب مصر الملك الظاهر برفوق أول ملوك الجراكسة من الترك قال فتقدمت إلى السلطان المذكور فيه وأخبرته بمحله من قومه فأكرم تلقية وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى صاحب المغرب يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس أعظم موقعها وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها وشرع في المكافأة عليها بمتخير الجياد والبضائع والثياب حتى إذا استكمل من ذلك ما رضىه وعزم على بعثها مع يوسف بن علي حاملها الأول وإنه يبعثه بها من موضع مقامه بتازا اخترمته المنية دون ذلك

وفاة السلطان أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله كانت وفاة السلطان أبي العباس بمحل مقامه من تازا وهو يشارف أحوال ابنه أبي فارس ووزيره صالح بن حمو الياباني وكان قد قدمها لفتح تلمسان والبلاد الشرقية فأصابه حماهم هنالك ليلة الخميس السابع من محرم فاتح سنة ست وتسعين وسبعمئة وحمل إلى فاس فدفن بالقلعة وسنه يومئذ تسع وثلاثون سنة فكانت دولته الثانية ست سنين وأربعة أشهر ومن وزرائه في هذه الدولة صالح بن حمو الياباني ومحمد بن يوسف بن علال الصنهاجي ومن حجابيه أبو العباس أحمد بن علي القبائلي ومن كتابه الشريف أبو القاسم محمد بن عبد الله الحسيني السبتي والقائد محمد بن موسى بن محمود الكردي ويحيى بن الحسن بن أبي دلالة التسولي ومن قضائه القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الزيناسني قال في الجذوة وكان السلطان أبو العباس شاعراً مقلماً بديع التشبيه فمن نظمه قوله أما الهوى يا صاحبي فألقته وعهدته من عهد أيام الصبا ورأيت قوت النفوس وحليها فتخذته ديناً إلي ومذهباً وليست دون الناس منه حلة كان الوفاء لها طرازاً مذهباً لكن رأيت له الفراق منغصلاً لا بفراقاً لا مرحباً ومن أخبار السلطان أبي العباس ما حكاه في فنج الطيب أن الأديب الكاتب أبا الحسن علي ابن الوزير لسان الدين ابن الخطيب كان مصاحباً للسلطان أبي العباس هذا فحضر معه ذات يوم في بستان سح فيه ماء المذاكرة الهتان وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار وأزعم النهار لما قدم الليل على الفرار فقال السلطان أبو العباس لما لان جانبه وسألت بين سرحات البستان جدوله ومذانبه يا فاس أي وأيم الله ذو شغف بكل ربع به مغناه يسبيني وقد أنست بقربك منك يا أملي ونظرة فيكم بالأنس تحييني

فأجابته أبو الحسن ابن الخطيب بقوله المصيب لا أوحش الله ربعا أنت زائرته يا بهجة الملك والدينا مع الدين يا أحمد الحمد أبغاك الإله لنا فخر الملوك وسلطان السلاطين ومن أخباره أيضاً أن كاتبه أبا زكرياء يحيى بن أحمد بن عبد المنان دخل عليه عشاء فقال له أنعم الله صباح مولانا فأنكر السلطان ذلك وظن أنه ثمل فقفطن أبو زكرياء لما صدر منه وتدارك ذلك فأنشد مرتجلاً صبحته عند المساء فقال لي ماذا الكلام وظن ذلك مزاحاً فأجبت إشراف وجهك غرني حتى توهمت المساء صباحاً الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبي فارس عبد العزيز ابن أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله من الاتفاق الغريب أن سلطان فاس والمغرب في هذا التاريخ كان اسمه عبد العزيز بن أحمد ولسان تونس وإفريقية كان اسمه أيضاً عبد العزيز بن أحمد وكانت ولايتهما في سنة واحدة إلا أن مدة الحفصي طالعت جدا أم هذا السلطان أم ولد اسمها جوهر صفته شاب السن ربعة من القوم أدعج العينين جميل الوجه لما توفي السلطان أبو العباس بن أبي سالم رحمه الله بتازا كان ابنه أبو فارس هذا بتلمسان فاستدعاه رجال الدولة منها فقدم عليهم بتازا وبيعوه بها يوم السبت التاسع من محرم سنة ست وتسعين وسبعمئة ولما تم أمره أطلق أبا زيان بن أبي حمو الزياني وكان معتقلاً عنده بفاس لالتجائه إلى أبيه من قبل في خبر ليس تفصيله من عرضنا وبعثه إلى تلمسان أميراً عليها من قبله فسار إليها أبو زيان وملكها وأقام فيها دعوة السلطان أبي فارس ثم

خرج عليه أخوه يوسف بن أبي حمو واتصل بأحباء بني عامر بن زغبة وعزم على الإجلاب عليه بهم فسرب أبو زيان فيهم الأموال فقتلوه وبعثوا إليه برأسه فسكنت أحوال تلمسان وزهبت الفتنة بذهاب يوسف واستقامت أمور دولة السلطان أبي فارس قاله ابن خلدون وهو آخر ما ورخه عن دولة المغرب وأعلم أن ما نسوقه بعد هذا من الأخبار عن هذه الدولة المرينية لم يسمح لنا الوقت بالوقوف عليه في تأليف يخصها أو موضوع يقص أخبارها نسفاً وينصها وإنما نتبعنا ما أثبتناه من ذلك في مواضع ذكرت فيها بحسب التبع لا بالقصد الأول وعلى الله تعالى في الهداية إلى الصواب المعول بقية أخبار السلطان عبد العزيز ووفاته قالوا كان السلطان عبد العزيز بن أبي العباس رحمه الله كثير الشفقة رقيق القلب منقبضاً عن الغدر متوقفاً في سفك الدماء وكان فارساً عارفاً بركض الخيل وبحسن قرص الشعر ويحب سماعه فمن نظمته وقد نزل المطر يشكر الله تعالى عليه قوله الله يلفظ بالعباد فواجب أن يشكروا في كل حال نعمته فهو الذي فيهم ينزل غيئه من بعد ما قنطوا وينشر رحمته توفي رحمه الله يوم السبت ثامن صفر سنة تسع وتسعين وسبعمئة ودفن مع أبيه بالقلعة فكانت دولته ثلاث سنين وشهراً ومن وزرائه صالح بن حمو الياباني ويحيى بن علال بن أمصمود الهسكوري ومن كتابه يحيى بن الحسن ابن أبي دلالة ومن قضائه عبد الحلیم بن أبي إسحاق الزيناسني رحمهم الله تعالى بمنه

الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبي عامر عبد الله ابن أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله تعالى هذا السلطان شقيق الذي قبله أمه الجوهر المتقدمة صفته أدعج العينين حسن الأنف لامي العذار يبيع بعد أخيه عبد العزيز يوم السبت الثامن من صفر سنة تسع وتسعين وسبعمئة وكان التصرف والنقض والإبرام في هذه المدة كلها للوزراء وتوفي السلطان المذكور بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء الموفى ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمئة فكانت دولته سنة وخمسة أشهر سوى أيام ومن وزرائه صالح بن حمو ويحيى بن علال ومن قضائه عبد الرحيم الزيناسني ومن حجابيه أبو العباس أحمد بن علي القبائلي وفارح بن مهدي العليج والله تعالى أعلم وأما أخبار الغني بالله ابن الأحمر بالاندلس فإنه كان أسقط رئاسة الجهاد من بني مرين بها ومحا رسمها من مملكته أيام أجاز عبد الرحمن بن أبي يفلوس للتشغيب على أبي بكر بن غازي بن الكاس حسبما تقدم وصار أمر الغزاة والمجاهدين إليه وبأمره خالدهم بنفسه واستمر الحال على ذلك إلى أن هلك سنة ثلاث وتسعين وسبعمئة فولى مكانه ابنه أبو الحجاج يوسف وبيع الناس وقام بأمره خالد مولى أبيه وتقبض على إخوته سعد ومحمد ونصر فكان آخر العهد بهم ولم يوقف لهم بعد على خبر ثم سعى عنه في خالد القائم بدولته وأنه أعد السم لقتله وأن يحيى بن الصانغ اليهودي طبيب دارهم قد داخله في ذلك ففتك بخالد وتناوشته السيوف بين يديه لسنة أو نحوها من ملكه ثم حبس الطبيب المذكور فذبح في محبسه ثم هلك سنة أربع وتسعين وسبعمئة لسنتين أو نحوها من

ولايته وقد وقعت لبعض الإصينبوليين واسمه منويل بولو القشتيلي على كتاب موضوع في أخبار المغرب الأقصى فنقلت منه بعض أخبار لم أجدها إلا عنده وهو وإن كان ينقل الغث والسمين والرخيص والثمين إلا أن الناقد

البصير يميز حسباءه من دره ويفرق بين حشفه وثمره فمن ذلك أنه حكى عن السلطان أبي الحجاج المذكور ما صورته قال كانت مراسلات السلطان المريني يعني السلطان أبا العباس مع السلطان يوسف بن الغني بالله صاحب غرناطة حسنة في الظاهر تدل على الموافقة والمحبة وكان المريني في الباطن يحب الاستيلاء على مملكة غرناطة ولما لم يمكنه ذلك بالسيف عدل إلى أعمال الحيلة فأهدى إلى السلطان أبي الحجاج كسرى ربيعة أحداهم مسمومة فليسها فهلك لحبسه ومع ذلك فلم يدرك المريني غرضه فإنه لم يلبث إلا يسيرا حتى توفي أيضا اه ولم توفي أبو الحجاج بويح ابنه محمد بن يوسف وقام بأمره القائد أبو عبد الله محمد الخصاصي من صنائع أبيه قال ابن خلدون والحال على ذلك لهذا العهد ولندكر ما كان في هذه المدة من الأحداث ففي سنة خمسين وسبعمئة كان الوباء الذي عم المسكونة شرقا وغربا على ما نبهنا عليه فيما مضى وفي سنة خمس وستين وسبعمئة توفي الولي الزاهد أبو العباس أحمد ابن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي نزيل سلا العارف المشهور قال أبو عبد الله بن سعد التلمساني في كتابه النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب كان ابن عاشر أحد الأولياء الأبدال معدودا في كبار العلماء مشهورا بإجابة الدعاء معروفا بالكرامات مقدما في صدور الزهاد منقطعاً عن الدنيا وأهلها ولو كانوا من صالح العباد ملازما للقبور في الخلاء المتصل ببحر مدينة سلا منفردا عن الخلق لا يفكر في أمر الرزق وله أخبار جلييلة وكرامات عجيبة مشهورة ممن جمع الله له العلم والعمل وألقى عليه القبول من الخلق شديد الهيبة عظيم الوقار كثير الخشية طويل التفكير والاعتبار قصده أمير المؤمنين أبو عنان وارتحل إليه سنة سبع وخمسين وسبعمئة فوقف ببابه طويلا فلم يأن له وانصرف وقد امتلأ قلبه من حبه وإجلاله ثم عاود

الوقوف ببابه مرارا فما وصل إليه فبعث إليه بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورويته فأجابها بما قطع رجاءه منه وأياسه من لقائه فاشتد حزنه وقال هذا ولي من أولياء الله تعالى حبيه الله عنا ه ومناقب الشيخ ابن عاشر وكراماته كثيرة وقد ألف فيها أبو العباس بن عاشر الحافي من علماء سلا كتابه المسمى بتحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر فانظره وفي سنة ست وسبعين وسبعمئة وهي السنة التي قتل فيها ابن الخطيب كان الجوع بالمغرب قال أبو العباس ابن الخطيب القسنطيني المعروف بابن قنفذ في كتابه أنس الفقير ما حصله أنه رجع من هجرته بالمغرب الأقصى في السنة المذكورة إلى بلده قسنطينة فاجتاز في طريقه بتلمسان قال وفي هذه السنة كانت المجاعة العظيمة وعم الخراب المغرب فأقامت بتلمسان نحو شهر أنتظر تيسر سلوك الطريق فالتجأت إلى قبر الشيخ أبي مدين ودعوت الله عنده فوقع ما أمّلته وارتحلت بعد أيام يسيرة فرأيت في الطريق من الخير ما كان يتعجب منه من شاهده وكان أمر الطريق في الخوف والجوع بحيث أن كل من تقدم عليه يتعجب من وصولنا سالمين ثم عند ارتحالنا من عنده يتأسف علينا حتى أن منهم من يسمعا ضرب الأوكف خلفنا تحسرا علينا حتى انتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله وفي سنة ثمان وسبعين وسبعمئة توفي الشيخ الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمران الفزاري السلاوي المعروف بابن المجراد صاحب لامية الجمل وشرح الدرر وغيرهما من التأليف الحسان قال صاحب بلغة الأمنية ومقصد البيت فيمن كان بسببته في النولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب في حق الشيخ المذكور كان محدثا حافظا راوية له معرفة بالرجال والمغازي والسير وكان رجلا صالحا حسن السيرة صادق اللهجة انتفع به الناس وظهرت بركته على كل من عرفه أو لازم مجلسه أو قرأ عليه من صغير أو كبير قال وذلك عندنا معروف بسببته

مشهور بين أهلها وانتقل إلى بلده سلا وتوفي بها في السنة المذكورة قلت وقبره مشهور بها إلى الآن وعليه قبة صغيرة وهو من مزارات سلا خارج باب المعلقة منها عن يمين الخارج على نحو غلوة وأهل سلا يسمونه سيدي الإمام السلاوي رحمه الله ورضي عنه وفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمئة توفي الشيخ الإمام العارف المحقق الرباني أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي المعروف بابن عباد شارح الحكم العطائية وأحد تلامذة الشيخ ابن عاشر المذكور أنفا قال صاحبه وأخوه في الله الشيخ أبو زكرياء السراج في حقه ما نصه كان حسن السميت طويل الصمت كثير الوقار والحياء جميل اللقاء حسن الخلق والخلق على الهمة متواضعا معظما عند الخاصة والعامة نشأ ببلدة رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ثم اشتغل بعد بطلب العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفروعية حتى رأس فيها وحصل معانيها ثم أخذ في طريق الصوفية والمباحثة عن الأسرار الإلهية حتى أشير إليه وتكلم في علوم الأحوال والمقامات والعلل والآفات وألف فيها تأليف عجيبة وتصانيف بدعية غريبة وله أجوبة كبيرة في مسائل العلوم نحو مجلدين ودرس كتبها وحفظها كلها أو جلها إلى أن قال ولقي بسلا الشيخ الحاج الصالح السني الزاهد الورع أحمد بن عاشر وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة قال رحمه الله قصدهم لوجدان السلامة معهم وتوفي رحمه الله بفاس بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ثالث رجب من السنة المذكورة وحضر جنازته السلطان أبو العباس بن أبي سالم فمن دونه وهمت العامة بكسر نعشه تبركا به رحمه الله ورضي عنه ومن فوائده التي نقلها عن شيخه ابن عامر ما ذكره في رسالته قال كنت قد ما خرجت في يوم مولد النبي صائما إلى ساحل البحر فوجدت هنالك سيدي الحاج أحمد بن عاشر رحمه الله ورضي عنه وجماعة من

أصحابه ومعهم طعام يأكلونه فأرادوا مني الأكل فقلت إني صائم فظفر إلي سيدي الحاج نظرة منكرة وقال لي هذا يوم فرح وسرور يستقيح في مثله الصوم كالعيد فتأملت قوله فوجدته حقا وكأنه أيقظني من النوم اه واعلم أنه في آخر هذا القرن الثامن تبدلت أحوال المغرب بل وأحوال المشرق ونسخ الكثير من عوائد الناس ومآلوفاتهم وأزيانهم قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه بعد أن ذكر أن الأحوال العامة للأفاق والأجيال والأعصار هي أس المؤرخ الذي تتبني عليه أكثر مقاصده ما نصه وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهده وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان بملكتهم وبأسهم هذا إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظللالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبه ومقدار عمرانه وكأنا نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فيادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث إلى آخر كلامه رحمه الله فافهم هذه الجملة وتفظن لأحوال الدول التي سردنا أخبارها فيما مضى وأحوال التي نسردها أخبارها فيما بعد وتأمل الفرق بين ذلك والسبب فيه والله تعالى الموفق للصواب بمنه

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد عثمان بن أبي العباس ابن أبي سالم هذا السلطان هو ثالث الإخوة الأشقاء من بني أبي العباس الذين ولوا الأمر من بعد ولاء أمه الجواهر أم أخويه قبله بويح بعد صلاة العصر له من يوم الثلاثاء الموفى ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمئة وسنة يومئذ ست عشرة سنة وكان النقص والإبرام وسائر التصرفات في تولته للوزراء والحجاب والسلطان متفرغ لاستيفاء لذاته ومن أكبر حجابيه أبو العباس القبائلي الذي نذكر خبره الآن حجابية أبي العباس القبائلي وكتبته ومقتله والسبب في ذلك بيت بني القبائلي بيت مشهور في الوزارة والحجابة والكتابة من لدن النولة الموحدية بمراكش إلى هذا التاريخ وكان الرئيس الفقيه أبو العباس أحمد بن علي القبائلي كاتبا مشهورا وحاجبا مذكورا وكان قد بذ الأقران وتصدر الأعيان وبلغ من الجاه ونفوذ الكلمة مبلغا عظيما وكان يجابي بالخطط السلطانية الأقارب والأرحام لا يعدل بها عن سواهم فاضطغت عليه القلوب وكثرت فيه السعيات إلى أن نفذ أمر الله فأوقع به السلطان أبو سعيد وقعة شعاع كان من خبرها أنه كان للحاجب المذكور ولد اسمه عبد الرحمن وكان من فضلاء وقته وكان لعبد الرحمن هذا ولد اسمه علي وكان من نجباء الأبناء فكان لجدته أبي العباس لذلك

ميل إليه ومحبة وافتتان به فاتفق أن مرض هذا الحافظ ذات يوم فنزل جده أبو العباس من الحضرة بفاس الجديد لعيادته بدار ولده عبد الرحمن من عدوة القرويين من فاس القديم

وكانت الدار بزقفة الجبلية من الطالعة فبات الشيخ عند حافده تلك الليلة وكان منذ ولي خطة الحجابة لم يغيب عن دار الملك ليلة واحدة بل كان يأخذ في ذلك بالحزم بحيث يسد أبواب الحضرة ويفتحها ويباشر سائر الأمور السلطانية بنفسه فلما أراد الله إنفاذ قدره غطى على عقله وبصره فتساهل في تلك الليلة وبعث ولده أبا القاسم ليقوم مقامه في غلق الأبواب وفتحها مع صاحب السقيف ومساهمه في القيام بالأمور السلطانية أبي محمد عبد الله الطريفي الآتي ذكره فغلق الأبواب على العادة ولما كان الصباح من الغد تقدم الولد أبو القاسم لأخذ المفاتيح من دار الخلافة فأخرجت إليه وتولى فتح الأبواب وحده دون أن يحضر الطريفي المشارك له في ولاية السقيف فلما جاء أبو محمد المذكور ورأى الأبواب مفتحة بدون حضوره أخذ من ذلك ما قدم وما حدث وأسرهما في نفسه حتى إذا كان المساء وحضر الوقت المعهود لغلق الأبواب طلع للحضرة ولد آخر من ولد الحاجب القبائلي يعرف بأبي سعيد فبادر أبو محمد فسد الأبواب في وجهه قبل أن يصل إليه وأمسك المفاتيح عنده واستبد بها فطلب منه أبو سعيد أن يفتح له الباب فتجهمه وامتنع وكانه أمر دبر بليل ثم تقدم القائد أبو محمد المذكور إلى السلطان أبي سعيد فأعلمه بما اتفق له مع أولاد الحاجب فأوعز إليه السلطان أن لا يفتح الباب بعد غلقه إلا وقت فتحه المعتاد وزاد في الوصية بأن لا يفتح ولا يغلق إلا بحضور السيد ابن السلطان أبي عامر رحمه الله ولما رجع أبو سعيد إلى والده بعدوة القرويين من فاس أعلمه بما اتفق له مع القائد الطريفي فامتلاً غيظاً وقامت قيامته وكانت فيه دالة على السلطان فتخلف عن الحضور ولم يذكر ما قاله الحكماء إذا عانيت من يملك فلا تلمه إنه يهلك ثم استعطفه السلطان فأبى أن يعطف ثم بعث إليه ببراءة بخطه ليزيل ما بصره من المودة فكتب الحاجب جوابها وأقسم أن لا يطأ بساطاً فيه فارح بن مهدي العليج وكان هذا بين التجلة من السلطان فلما وقف السلطان أبو سعيد على جواب الحاجب حمى أنفه وأظلمت الدنيا في عينيه وأمر بالإيقاع بالحاجب في الحين فذبح هو وولده عبد الرحمن يوم الخميس الموفى ثلاثين

من شوال سنة اثنتين وثمانمائة وكان عبد الرحمن هذا فاضلاً شاعراً فمن شعره في الغزل قوله اتسمع في الهوى قول اللواحي وقد أبصرت خشف بني رياح غزال خلف الصب المعني من الوجد المبرح غير صاح وقد قتلت ولا إثم عليها مراض جفونه كل الصباح يقول ولحظه بالعقل يزري علام تطيل وصفي وامتداحي فقلت فنون سحر فيك رافت قضت للقلب بالعشق الصراح جبينك والمقلد والتنايب صباح في صباح في صباح وبقي الحافظ أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المذكور مرتباً في جملة الكتاب وكان فاضلاً شاعراً أيضاً ولما مرض السلطان أبو سعيد في شعبان سنة سبع وثمانمائة وصح من مرضه وهنأته الشعراء بقصائد كثيرة فكان من جملتهم أبو الحسن المذكور فقال هنيئاً لنا ولكل الأنام براحة فخر الملوك الهمام إمام أقام رسوم العلا وحل من المجد أعلى السنام به قرت العين لما بدا صحيحاً وما إن به من سقام وهل هو إلا كبر الدجا يوارى قليلاً وراء الغمام ويظهر طورا فيجلو به عن الناس يا صاح ساجي الظلام أو الليث يعكف في غيله فتحذر منه السباح اهتاج أمولاي عثمان بحر الندى ومردى العداة ونجل الكرام لقد رفع الله مقداركم فنفسى الفداء لكم من إمام أمولاي عبدك قد ضره أفول رضاكم وبعد المرام وأضحى كنييا لإبعادكم مشوقاً لتقبيل ذلك المقام فكن راحماً يا إمام الورى عطوفاً بمملوكك المستهلم لعل الذي ناله ينقضي وتشمل منك هبات جسام فايدك الله بالنصر ما ترنم فوق الغصون حمام

حجابة فارح بن مهدي وأوليته وسيرته قال ابن خلدون يا فراح بن مهدي من معلوجي السلطان يعني أبا العباس وأصله من موالى بني زيان ملوك تلمسان اه وقال في الجذوة هو من موالى السلطان أبي سعيد بن أبي العباس ولا منافاة بين الكلامين والله أعلم ولما قتل أبو العباس القبائلي ولي الحجابة من بعده فارح بن مهدي هذا قال في الجذوة ولم يكن من أهل العلم لكنه كان شجاعاً مجرباً للأمور عارفاً مجيداً في التنديب قد أعطى الرياسة حقها والخطط مستحقها وكان ممسكاً عنانه فلا يميل مع نفسه ولا يسحب أردانه ولا يوحش سلطانه موسوماً عند الخلافة بالأمانة ملحوظاً لديها بعين المروءة والصيانة وكان السلطان أبو سعيد يعتني به لأجل كبر سنه وتربيته الحرة آمنه بنت السلطان أبي العباس كانت تبدي له وجهها في حالي صغرها وكبرها فكانت له بذلك مزية لم تكن لغيره بهذا ذكره التاورتي ولعل فيه تعريضاً بالحاجب قبله ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في كتابه مرآة المحاسن على مدينة تيجساس وصفها بقوله إنها في شرقي تطاوين على مسيرة يوم منها في موضع كثير الحجارة والصخر في سفح جبل من غربيها وتحته من شمالها جرف كثير الصخر عظيمة على مكسر موج البحر ولها نهر نفاع يجلب إليها منه جدول ولها بسيت تركبه الجوارح من كل جهة فتسقي الزرع والكتان والثمار فأهلها في أمن من القحط إلى أن قال ولم تزل عامرة إلى حدود ثمانمائة فجلا عنها أهلها بسبب جور فارح بن مهدي الوالي عليها من قبل بني مرين فخلت من سكانها وانتقلوا إلى القبائل وغيرها ولم يزل سورها ماثلاً إلى الآن اه قلت وفي هذه المدة خربت تطاوين القديمة أيضاً فزعم منويل في تاريخه أن قراصين المسلمين من أهل تطاوين وغيرهم

كانت تغير على سواحل أصبانيا وتغنم مراكبها ولما كانت سنة ألف وأربعمائة مسيحية الموافقة لسنة ثلاث وثمانمائة هجرية بعث الطاغية الريكي الثالث شكوادة لغزو تطاوين ومراكبها فانتهت إلى وادي مرتيل وأفسدت قراصين المسلمين التي به ثم نزلت عساكر الإصبينول للبر فاقتحمت مدينة تطاوين بعد أن جلا أهلها عنها وخربتها وعانت فيها وبقيت خربة نحو تسعين سنة ثم جدد بناؤها على يد الرئيس أبي الحسن علي المنظري الغرناطي كما سيأتي وكانت وفاة فارح بن مهدي في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ست وثمانمائة والله تعالى أعلم حجابة أبي محمد الطريفي وسيرته لما توفي الحاجب فارح بن مهدي ولي الحجابة من بعده أبو محمد عبد الله الطريفي وكان من فضلاء الحجاب وهو الذي بنى مسجد السوق الكبير بفاس الجديد وحبس عليه كتباً كثيرة فكان ذلك من حسناته الباقية نفعه الله بقصده حدوث الفتنة بين السلطان أبي سعيد والسلطان أبي فارس الحفصي والسبب في ذلك لما توفي السلطان أبو العباس الحفصي صاحب تونس ولي الأمر من بعده ابنه أبو فارس المذكور فوزع الوظائف من الإمارة والوزارة وولاية الأعمال على إخوته فاعتضد بهم وكان من جملتهم أخوه أبو بكر بن أبي العباس بقسنطينة فنازع به ابن عمه الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي صاحب بونة وألح عليه في الحصار فصمد إليه السلطان أبو فارس الحفصي وأوقع به على سيبوس وقعة شنعاء انتهت به هزيمتها إلى فاس مستصرخاً صاحبها وهو يومئذ أبو فارس المريني فأقام أبو عبد الله بفاس

إلى سنة عشر وثمانمائة في دولة السلطان أبي سعيد فاتفق أن فسد ما بين السلطان أبي فارس الحفصي وبين أعراب إفريقيا من سليم فقدمت طائفة منهم حضرة فاس مستجدين السلطان أبا سعيد على صاحبهم أبي فارس فألقوا عنده الأمير أبا عبد الله المنهزم بسيبوس كما مر فعد له السلطان أبو سعيد على جيش من بني مرين وغيرهم وبعثه مع العرب فلما انتهى إلى بجاية تلقته أعراب إفريقية طائعة وهون عليه المرابط شيخ حكيم منها أمر تونس فرد الجيش المريني وقصدها بمن انضم إليه من الحشود فأخذ بجاية من أبي يحيى وفر في البحر وعقد أبو عبد الله عليها لابنه المنصور ثم زحف إلى السلطان أبي فارس فخالفه إلى بجاية فاقتحمها من يد ابنه المنصور ووجه به مع جماعة من كبار أهلها معتقلين إلى الحضرة وعقد عليها لأحمد ابن أخيه ونهض لقتال ابن عمه أبي عبد الله المذكور فنزع المرابط عنه إلى السلطان أبي فارس لعهد كان بينهما فانفض جمع أبي عبد الله وقتل واحترز رأسه ووجهه السلطان أبو فارس مع من علقه بباب المحروق أحد أبواب فاس إغاظه للسلطان أبي سعيد وذلك سنة اثنتي عشرة وثمانمائة ثم تحرك السلطان أبو فارس إلى جهة المغرب قاصداً أخذ الثار من السلطان أبي سعيد فاستولى على تلمسان ثم قصد حضرة فاس فلما شارفها جنح السلطان أبو سعيد إلى السلم فوجه إليه بهدايا جلييلة فقبل ذلك أبو فارس وكافاً عليه وانكفاً راجعاً إلى حضرته ولحقته في طريقه بيعة أهل فاس وانتظم له ملك المغرب وبايعه صاحب الأندلس أيضاً قاله صاحب الخلاصة النقية وهو الأديب أبو عبد الله محمد الباجي أحد كتاب الدولة التركية بتونس

استيلاء البرتغال على مدينة سبتة أعادها الله كان جنس البرتغال وهو البردقيز في هذه السنين قد كثر بعد القلة واعتز بعد الذلة وظهر بعد الخمول وانتعش بعد الذبول فانتشر في الأقطار وسما إلى تملك الأمصار فانتهى إلى أطراف السودان بل وأطراف الصين على ما قيل وألح على سواحل

المغرب الأقصى فاستولى في سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة أعادها الله بعد محاصرته لها حصارا طويلا وسلطان المغرب يومئذ أبو سعيد بن أحمد صاحب الترجمة وسلطان البرتغال يومئذ خوان الأول وذكر منويل في تاريخه أن سلطان المغرب يومئذ عبد الله بن أحمد أخو أبي سعيد المذكور وسيأتي كلامه بتمامه وذكر صاحب نشر المثاني في كيفية استيلاء البرتغال على سبتة قصة تشبه قصة قصير مع الزبلاء قال رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصارى جاؤوا بصناديق مقلدة يوهمون أن بها سلعا وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد وجاء أهله إلى سلطان فاس مستصرخين له وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال السود رجلا ونساء وولدانا فأنزلهم بملاح المسلمين ثم ردهم إلى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم حتى تفرقوا في البلاد والأمر لله وحده قال وسمعت من بعضهم أن الذي جرأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض إليهم التصرف في المرسى والاستبداد بغلتها ويبدلوا له خراجا معلوما في كل سنة فكان حكم المرسى حينئذ لهم دون المسلمين ولو كان المسلمون هم الذين يلون حكم المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقلدة لا يعلمون ما فيها والله أعلم بحقيقة الأمر

ولما استولى البرتغال على سبتة اعتنى بها وحصنها واستمرت في ملكهم مدة تزيد على مائتين وخمسين سنة ثم ملكها منهم طاعية الإصنيبول في سبيل مهادة وشروط انعقدت بينهم بمدينة أشبونة في حدود الثمانين ألف وأخبار السلطان أبي سعيد كثيرة وقد أرخ دولته وسيرته الكتاب أبو إسحاق إبراهيم ابن أحمد التاورتي رحمه الله وتوفي السلطان المذكور سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة وولي الأمر من بعده ابنه عبد الحق الأخير كذا ذكره في جذوة الاقتباس وقد ذكر منويل في أمر أبي سعيد ووفاته ما يخالف هذا قال لما كانت دولة السلطان أبي سعيد المريني كان المسلمون أهل جبل طارق قد سموا ملكة ابن الأحمر صاحب غرناطة وتحققوا بأن المريني أقوى منه شوكة وأقدر على تخليصهم مما عسى أن ينالهم به الإصنيبول من حصار ونحوه فبعثوه إليه يخطبون ولايته ويعرضون عليه الدخول في طاعته إن هو أمدهم بما يدفعون به في نحر ابن الأحمر فأعجب أبا سعيد ذلك وللحين بعث إليهم أخاه عبد الله بن أحمد المعروف بسبيدي عو ومعه طائفة من الجيش إمدادا لهم وكان قصد أبي سعيد ببعث أخيه عبد الله الحصول على إحدى الفاندين أما فتح جبل طارق إن كان الظهور له أو الاستراحة منه إن كان عليه لأنه كان يشوش عليه فجاء الأخ المذكور حتى نزل بزارة جبل طارق ففتح أهل البلد الباب وأدخلوه وأدخلوا جنده وتحصن قائد الغرناطي وعسكره بقلعة الجبل وطير الأعلام بذلك إلى صاحبه فبعث إليه جيشا قويته به نفسه فنزل من القلعة وانضم إليه مدده وقاتلوا جيش المريني فهزمه وقبضوا على عبد الله باليد وعلى جماعة من أصحابه وبعثوا بهم أسرى إلى صاحب غرناطة فعمد صاحب غرناطة إلى عبد الله وأنزله في محل معتبر وأحسن إليه فتخلف ظن السلطان أبي سعيد فيما كان يحب لأخيه من التلف وغازه فعل ابن الأحمر معه من الإحسان والإبقاء عليه ثم أن أبا سعيد دبر حيلة بأن بعث من قبله رجلا إلى أخيه ليسقيه السم ويستريح

منه مع أن غوغاء أهل المغرب وقبائله المنحرفة عن السلطان كانوا قد تشوقوا لقنومه عليهم وقيامهم معه فبطلت حيلة أبي سعيد في السم ولم يحصل على طائل ثم إن ابن الأحمر اتفق مع عبد الله على أن يمده بالعسكر والمال ويسرجه إلى المغرب ليستولي على ملكه ويأخذ له بالتأثر من أخيه فقبل عبد الله ذلك وأمهده ابن الأحمر وسرحه إلى المغرب فلما احتل به تبعه عدد وافر من قبائله الذين كانوا مستنقلين لوطاة أبي سعيد فتهض إليه أبو سعيد فكانت الكرة عليه ورجع مفلولا في بسير من الجند إلى فاس فتقبض عليه أهلها وسجنوه وأعلنوا بنصر أخيه عبد الله وفتحوا الباب فدخلت الحضرة واستولى عليها وتم أمره وسجن أخاه أبا سعيد إلى أن مات قال ولما استقل عبد الله بأمر المغرب كله هدأت الرعية واستقامت الأحوال إلا أنه تكدر عيشه بذهاب سبتة التي استولى عليها طاعية البرتغال خوان الأول بعد ما حاصرها أشد الحصار وكان ذلك على السلطان من أعظم النحوس وتكدر المسلمون غاية لفوات هذه المدينة العظيمة منهم ثم ثاروا على السلطان عبد الله واعتورته رماحهم حتى فاض ولما قتل تنازع الملك بعده اثنا من أخوته وبعد قتال شديد ولم ينتصف أحد منهما من صاحبه اتفق أهل الحل والعقد على أن يولوا عبد الحق بن أبي سعيد اه كلام منويل وهذا السلطان عبد الله الذي زاده منويل بين أبي سعيد وعبد الحق لم يذكره صاحب جذوة الاقتباس ويعد أن يكون هذا الخبر الذي ساقه منويل لا أصل له والله أعلم بحقيقة الأمر ومن جملة حجاب السلطان أبي سعيد الرئيس أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الملياني قال في الجذوة أصله من زرهون وتولى حجابة السلطان المذكور قال فغدر مولاه ومخدومه وهتك ستره وخرب داره وبعث بحريمه وقتل أولاده وإخوانه ورفع الأذنان وحط الرؤساء وكان فساد المغرب على يده وقد ذكره التاورتي فأثني عليه قال في الجذوة

ووجدت في طرة نمه وتنقيصه والله أعلم ومن وزراء السلطان أبي سعيد صالح بن حمو اليباني ويحيى بن علال بن أمصمود الهسكوري وقد تقدم ذكرهما ومن كتابه الفقيه الأديب أبو زكرياء يحيى بن أبي الحسن بن أبي دلالة وكان صاحب العلامة عند السلطان المذكور ومن شهد له أهل عصره بالتبزي في النظم الفائق ثم ابنه محمد من بعده ومن قضاته الفقيه أبو محمد عبد الرحيم بن إبراهيم الزيناسني وقد تقدم ذكره والله تعالى أعلم الخبر عن دولة السلطان عبد الحق بن أبي سعيد ابن أبي العباس بن أبي سالم المريني رحمه الله هذا السلطان هو آخر ملوك بني عبد الحق من بني مرين وهو أطولهم مدة وأعظمهم محنة وشدة وهو أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد عثمان ابن أبي العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الزناتي المريني أمه علجة إصنيبولية على ما ذكره منويل وفي أيامه ضعف أمر بني مرين جدا وتداعى إلى الانحلال وكان التصرف للوزراء والحجاب شأن دولة أبيه من قبله على تذكره زحف البرتغال إلى طنجة ورجوعهم عنها بالخبيبة قال منويل كان لطاعية البرتغال خمسة إخوة شجعان فأرادوا أن يدركوا فخرا باستيلائهم على ثغر من ثغور المغرب يضيفونه إلى سبتة ويوسعون به ما ملكوه من أعمالها فركبوا قراصينهم في سنة آلاف عسكري ونزلوا بسبتة ثم زحفوا إلى طنجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وحاصروها وضيقوا على أهلها ثم عاجلهم سلطان فاس وسلطان مراكش وأرهبوهم عن

فتحها وأوقعوا بهم وقبضوا على كبير عسكرهم فرناندو وجماعة من أصحابه وعادوا بهم أسرى إلى فاس فلما صارت عظماء البرتغال في يد المسلمين وأسروهم جنحوا إلى السلم فسالمهم المسلمون على أن يردوا لهم سبتة ويسرحوا لهم كبيرهم وأصحابه الذين معه فرضي البرتغال بذلك وانعقد الصلح عليه ثم كان من قدر الله أن هلك كبير البرتغال الذي وقع الشرط عليه في سجن فاس واستمرت سبتة في يد العدو وعد ذلك من سوء بخت المسلمين والأمر لله وحده وقد ذكر صاحب المرأة أن البرتغال استولى على طنجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وهو غير صواب وإنما كان الحصار فقط والله تعالى أعلم أخبار الوزراء والحجاب وتصرفاتهم كان من جملة وزراء السلطان عبد الحق الوزير صالح بن صالح بن حمو اليباني قالوا وهو الذي أوقع بالفقيه القاضي أبي محمد عبد الرحيم ابن إبراهيم الزيناسني قتله نيجا سنة أربع وثلاثين وثمانمائة ومن وزراء السلطان المذكور الوزير أبو زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي قالوا وفي سنة ست وأربعين وثمانمائة غزا الوزير المذكور الشاوية وكانوا قد تمردوا على الدولة وأعضل داؤهم فقل الوزير المذكور جمعهم وخرب منازلهم ثم كانت وفاته سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة قتله عرب أنكاد على سبيل الغدر قعصا بالرمح وحمل قتيلًا إلى فاس فدفن بالقلعة خارج باب الحبيسة وولي الوزارة بعده علي بن يوسف الوطاسي قالوا فكانت أيامه مواسم لديناته وصيانتة وحفظه أمور الملك ورفقه بالرعية مع العدل وحسن الإدارة ثم توفي بتامسنا خامس رمضان سنة ثلاث وستين وثمانمائة وحمل إلى فاس فدفن بالقلعة أيضا وفي هذه السنة أو التي قبلها استولى البرتغال على

قصر المجاز وهو المعروف بقصر مصمودة والقصر الصغير وهو الآن خراب والله أعلم وزارة يحيى بن يحيى الوطاسي ومقتله ومقتل الوطاسيين معه والسبب في ذلك لما توفي الوزير علي بن يوسف رحمه الله قدم للوزارة بعده أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عمر بن زيان الوطاسي قالوا فكانت ولاية هذا الوزير هي مبدأ الشر ومنشأ الفتنة وذلك أنه لما استقل بالحجابة أخذ في تغيير مراسم الملك وعوائد الدولة وزاد ونقص في الجند ونقص جل ما أبرمه قبله الوزراء وعامل الرعية بالعسف ومن جملة ما نقم عليه أنه عزل قاضي فاس الفقيه أبا عبد الله محمد بن

محمد بن عيسى بن علال المصمودي وقدم مكانه الفقيه يعقوب التسولي وكان المصمودي من الدين وتحري المعدلة بمكان فلما رأى السلطان عبد الحق فعل الوزير واستحواده على أمور الدولة وتبين له أن الوطاسيين قد التحقوا معه رداء الملك وشاركوه في بساط العز وكادوا يغلبونه على أمره سطا بهم سطوة استأصلت جمهورهم إلا من حماه الأجل منهم فقتبض على الوزير يحيى وعلى أخيه أبي بكر وأبي شامة وعلى عمهم فارس بن زيان وقريبهم محمد بن علي بن يوسف وأتى الذبح على جميعهم واستمر البحث عن محمد الشيخ ومحمد الحلو أخوي الوزير المذكور فلم يوجد لذهاب الشيخ في ذلك اليوم للصيد واختفاء الحلو عند قيام الهيئة فكان ذلك من لطف الله بهما واتصل بهما ما جرى على عشيرتهم وبني أبيهم فذهبا إلى منجياتهما وكان من أمرهما ما نذكره وكانت هذه الحادثة الصماء بعد مضي سبعين يوما من وزارة يحيى بن يحيى

المذكور وصفا للسلطان عبد الحق أمره ورأى أن قد شفا نفسه من الوطاسيين ونقى بساط حضرته من قضضهم وأبرأ جسم ملكه من مرضهم والله غالب على أمره رياسة اليهوديين هارون وشاويل وما نشأ عن استبدادهما من المحنة والفتنة قالوا كان السلطان عبد الحق منذ أوقع ببني وطاس لم تسمح نفسه بإعطاء منصب الوزارة لأحد ثم نما إليه أن العامة وكثيرا من الخاصة قد نقموا عليه إيقاعه بالوطاسيين وأن أنهم صاغية إلى محمد الشيخ صاحب أصيلا وكان قد استولى عليها بعد فراره حسبما نذكر وربما شافهه البعض منهم بذلك فولى عليهم اليهوديين المذكورين تأديبا لهم وتشفيا منهم زعموا فشرع اليهوديان في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا في الأشراف والفقهاء فمن دونهم وكان اليهودي هارون قد ولى على شرطته رجلا يقال له الحسين لا يالو جهدا في العسف واستلاب الأموال واستمر الحال على ذلك والناس في شدة وفي سنة سبع وثمانمائة انتزع الإصبينول جبل طارق من يد ابن الأحمر استيلاء البرتغال على طنجة ثم في سنة تسع وستين وثمانمائة استولى البرتغال على طنجة زحفوا إليها من سبتة في ألوف من العساكر واستولوا عليها واستمرت بأيديهم أكثر من مائتين

وخمسة سنين ثم بذلوا لطاغية النجليز سنة أربع وسبعين وألف في سبيل المهادة والصهر الذي انعقد بينهما كما سيأتي مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعيد والسبب في ذلك ثم إن اليهودي عمد إلى امرأة شريفة من أهل حومة البليدة فقبض عليها والبليدة حومة فاس قالوا وكانت بدار الكرمي قرب درب جنبارة فأحى عليها بالضرب ولما ألتهبها السياط جعلت تتوسل برسول الله فحسى اليهودي وكاد يتميز غيظا من سماع ذكر الرسول وأمره بالإبلاغ في عقابها وسمع الناس ذلك فأعظموه وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن موسى الوريكلي وكانت له صلاحية في الحق وجلادة عليه بحيث يلقي نفسه في العظام ولا يبالي وقالوا له ألا ترى إلى ما نحن فيه من الذلة والصغار وتحكم اليهود في المسلمين والعبث بهم حتى بلغ حالهم إلى ما سمعت فنجع كلامهم فيه وللحين أغراهم بالفنك باليهود وخلع طاعة السلطان عبد الحق وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد فأجابوه إلى ذلك واستدعوا الشريف المذكور فبايعوه والتفت عليه خاصتهم وعامتهم وتولى كبر ذلك أهل حومة القلقليين منهم ثم تقدم الوريكلي بهم إلى فاس الجديد فصمدوا إلى حارة اليهود فقتلوه واستلبوه واصطلموا نعمتهم واقتسموا أموالهم وكان السلطان عبد الحق يومئذ غائبا في حركة له ببعض النواحي قال في نشر المثنائي خرج السلطان عبد الحق بجيشه إلى جهة القبائل الهبطية وترك اليهودي يقبض من أهل فاس المغارم فشدد عليهم حتى قبض على امرأة شريفة وأوجعها ضربا وحكى ما تقدم فالتصم ببعد الحق الخبر وانفض مسرعا إلى فاس واضطرب عليه أمر الجند ففسدت نياتهم وتكررت وجوههم وصار في كل منزلة تنفض عنه طائفة منهم فأيقن عبد الحق باللكية وعابن أسباب المنية ولما قرب من فاس استشار هارون اليهودي فيما نزل به فقال اليهودي له لا تقدم على فاس لغليان قدر الفتنة بها وإنما يكون قدمونا على مكناسة الزيتون لأنها بلدنا

وبها قوادنا وشيعتنا وحينئذ يظهر لنا ما يكون فما استتم اليهودي كلامه حتى انتظمه بالرمل رجل من بني مرين يقال له تيان وعبد الحق ينظر وقال وما زلنا في تحكم اليهود واتباع رأيهم والعمل بإشارتهم ثم تعاورته الرماح من كل جانب وخر صريعا للبيدين والقم ثم قالوا للسلطان عبد الحق تقدم أمامنا إلى فاس فليس لك اليوم اختيار في نفسك فأسلم نفسه وانتهبت محلته وفيتت أمواله وحلت به الإهانة وجاءوا به إلى أن بلغوا عين القوادس خارج فاس الجديد فاتصل الخبر بأهل فاس وسلطانهم الحفيد فخرج إلى عبد الحق وأركبه على بغل بالبردعة وانتزع منه خاتم الملك وأدخله البلد في يوم مشهود حضره جمع كبير من أهل المغرب وأجمعوا على ذمه وشكروا الله على أخذه ثم جنب إلى مصرعه فضربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ودفن ببعض مساجد البلد الجديد ثم أخرج بعد سنة ونقل إلى القلة فدفن بها وانقرضت بمهلكه دولة بني عبد الحق من المغرب والبقاء لله وحده ونقل الثقات أن الشيخ أبا العباس أحمد زروق رحمه الله كان قد ترك الصلاة خلف الفقيه أبي فارس الوريكلي لما صدر منه في حق السلطان عبد الحق وكان يقول لا أمن الغندور على صلاتي يعيبه بذلك والغندور في لسان المغاربة ذو النخوة والإبائية وما أشبه ذلك والله يتعمدنا والمسلمين برحمته أمين ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث فقول في سنة سبع وثمانمائة توفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي عالم فاس وأديبها ونحويها صاحب المقصورة وشرح

الخلاصة وغير ذلك من التأليف قبل هو آخر من درس كتاب سبويه في النحو بفاس وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر ابن الفتوح التلمساني ثم المكناسي يقال إن سبب انتقاله من تلمسان أنه كان شابا حسن الصورة جميل الشارة فمرت به امرأة جميلة فجعل ينظر إليها من طرف خفي فقالت اتق الله يا ابن الفتوح يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فتأثر لقولها واتعظ وتاب إلى الله تعالى وجعل من تمام توبته أن يهاجر من الأرض التي قارف الذنب فيها فارتحل إلى فاس فأقام بها مدة وانتفع الناس به ثم انتقل بعدها إلى مكناسة فتوفي بها في السنة المذكورة قالوا وهو أول من أدخل مختصر الشيخ خليل مدينة فاس والمغرب وفي سنة ست وأربعين وثمانمائة كان الوياء العظيم بالمغرب هلك فيه جمع من كبار العلماء والأعيان ويسمى هذا الوياء عند أهل فاس بوياء عزونة وفي سنة تسع وأربعين وثمانمائة في ذي القعدة منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الله العبدوسي مفتي فاس وعالمها الكبير ومحدثها الشهير وكان من أهل الصلاح والخير والإيثار وفي سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة في أواخر ذي القعدة منها توفي إمام الجماعة بفاس الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم الأندلسي الأصل المعروف بالقوري ودفن بباب الحمراء منها وفي سنة تسع وتسعين وثمانمائة في أواخر صفر منها توفي الشيخ العارف بالله المحق أبو العباس أحمد البرنسي الشهير بزروق وكانت وفاته بمسراته من أعمال طرابلس والله أعلم

بقية أخبار بني الأحمر واستيلاء العدو على غرناطة وسائر الأندلس منها وانقراض كلمة الإسلام منها كانت دولة بني الأحمر في هذه المدة متماسكة والفتنة بين أعيانها متشابكة والعدو فيما بين ذلك يخادعهم عما بأيديهم ويروغهم ويسالمهم تارة ويحاربهم إلى أن كانت دولة السلطان أبي الحسن علي ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله فزاعه أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل قدم من بلاد النصارى وبويع بمالقة وبقي بها مدة وعظم الخطب واشتدت الفتن وشرق المسلمون بداء الخلاف الواقع بين هذين الأخوين وتكالب العدو عليهم ووجد السبيل إلى تقريب كلمتهم والتمكن من فسخ عهدهم ودمتتهم وذلك أعوام الثمانين وثمانمائة ثم انقاد أبو عبد الله لأبي السحن فسكنت أحوال الأندلس بعض الشيء ثم خرج عليه ولده أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن وأسرته النصارى في بعض الوقعات فراجع الناس طاعة أبي الحسن ثم نزل لأخيه أبي عبد الله الزغل عن الأمر لآفة أصابته في بصره ثم إن العدو عمد لأسيره أبي عبد الله ابن الحسن فوعده ومناه وأظهر له من أكاذيبه وخدعه غاية مناه وبعثه للتشغيب على عمه طلبا لتفريق كلمة المسلمين وعكس مرادهم وتوصلا إلى ما بقي عليه من حصون المسلمين وبلادهم وطالت الفتنة بين العم وابن الأخ وكل عقد كان بين العدو وبينه انحل وانفسخ وخبت العامة الذين هم أتباع كل ناعق في ذلك ووضعوا وكان ذلك من أعظم الأسباب المعينة للعدو على التمكن من أرض الأندلس والتهامها واستئصال كلمة الإسلام منها ثم إن ابن الأخ استولى على غرناطة بعد خروج العم عنها إلى الجهاد ففت ذلك في عضده وعطف إلى وادي أش فاعتصم بها وحاصر العدو مالقة فقاتله أهلها بكل ما أمكنهم حتى إذا لم يجدوا للقتال مساعا نزلوا على الأمان فاستولى العدو عليها أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ثم استولى بعد ذلك على وادي أش وأعمالها صلحا ودخل في طاعته صاحبها أبو عبد الله العم بعد

أن استهوى العدو قواده بالأموال الجزيلة ثم إن العدو خذله الله وأرسل أبا عبد الله بن أبي الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول في الخطة التي دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد على أموال جزيلة يبيئها له ويكون تحت حكمه مخيرا في أي بلاد الأندلس شاء فشاور رعيته فاتفق الناس على الامتناع والقتال فعند ذلك أرفه العدو حده وجعل غرناطة وأهلها من شأنه بعد أن استولى أثناء هذه الفتن والتضريبات على حصون كثيرة لم تتعرض لنكرها حتى لم يبق له إلا غرناطة وأعمالها وقد اختصرنا معظم هذه الأخبار إذ لم تكن من موضوع الكتاب وإنما ألمنا بهذه النبذة تنميما للفائدة وزيادة في الإمتاع ولما كان اليوم الثاني والعشرون من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة وأسد الزرع ودوخ الأرض وهدم القرى وأمر ببناء موضع بالسور والحفير فأحكمه وكان الناس يظنون أنه عازم على الانصراف فإذا به قد صرف عزمه إلى الحصار والإقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة أشهر واشتد الحصار بالمسلمين غير أن النصراري على بعد الطرق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام يأتي من ناحية جبل شلير إلى أن تمكن فصل الشتاء وقلب البرد ونزل الثلج فانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقيل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال وبان الاختلال وعظم الخطب وذلك أول سنة سبع وتسعين وثمانمائة وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب والقتال ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السنة وقيل الطعام وتفاقم الخطب فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم كأي عبد الله الموافق شارح المختصر وغيره وقالوا انظروا لأنفسكم وتكلموا مع سلطانكم فأحضر السلطان أبو عبد الله بن أبي الحسن أهل دولته وأرباب مشورته وتكلموا في هذا الأمر وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا وكنا نظن أنه يقلع عنا في فصل الشتاء فخاب الظن وبنى وأسس وأقام وقرّب

منا فانظروا لأنفسكم وأولادكم فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين وشاع أن الكلام وقع بين النصراري ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس ثم عدوا مطالب وشروطا أداروها وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون ويحلف على عادة النصراري في العهود وتكلم الناس في ذلك وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصراري بمال جزيل وذخائر ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا إليها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة لقبيلها منهم ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الحمراء ولا حول ولا قوة إلا بالله وفي ثاني ربيع الأول من السنة أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة استولى النصراري على الحمراء ودخلوها بعد أن استوتقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنا خوف الغدر وكانت الشروط سبعة وستين شرطا منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعتهم وعقارهم ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك وأن لا يدخل النصراري دار مسلم ولا يغصبوا أحدا وأن لا يولي على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكة ولا لغيره والسلطان يدفع ثمنه لمالكة ومن أراد الجواز إلى العدو لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره وأن لا يجبر من أسلم على الرجوع للنصراري ودينهم وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصراري فإن أبي الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ولا يعاتب

على من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصراري أيام العداوة ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصراري ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثه ولا يطلع نصراني للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ويسير المسلم في بلاد النصراري أمنا في نفسه وماله ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ولا يمنع مؤذن ولا صائم ولا مصل ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب ويتزكون من المغارم سنين معلومة وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده وأمثال هذا مما تركنا ذكره وبعد انبرام ذلك ودخول النصراري للحمراء والمدينة جعلوا قائدا بالحمراء وحكاما ومقدمين بالبلد ولما علم بذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلح وشملهم حكمه على هذا الوجه ثم أمر العدو ببناء ما يحتاج إليه في الحمراء وتحصينها وتجديد بناء قصورها وإصلاح سورها وصار الطاغية يختلف إلى الحمراء نهارا ويبيت بمحلته ليلا إلى أن اطمأن من خوف الغدر فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبرا بما يرومه منها ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له في سكنه بأندرش فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها ثم احتال عدو الله في نفيه لير العدو وأظهر أن السلطان المذكور طلب منه ذلك ثم كتب لصاحب المرية أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدو ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه وليقف معه وفاء بما عهد له فانصرف السلطان أبو عبد الله في الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر فنزل بمليلة واستوطن فاسا وكان قبل ذلك قد طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك وحين جوازه لير العدو لقي شدة وغلاء وبلاء ثم إن النصراري نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها عليهم أنهم قالوا إن القسيسين كتبوا على جميع من أسلم من النصراري أن

يرجع مهرعا لدينه ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ثم تعدوا ذلك إلى أمر آخر وهو أن يقولوا للرجل المسلم إن جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع أنت نصرانيا ولما تباحث هذا الأمر قال أهل البيازين على الحكام فقتلوه وهذا كان السبب الأعظم في التنصر قالوا لأن الحكم خرج من عند السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن ينتصر فينجو من الموت وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصراري فلم ينفعه ذلك وامتنت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسببا إلا ما كان من جبل بلنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي فشدد النصراري في البحث عنهم حتى إنهم أحرقوا كثيرا منهم بسبب ذلك ومنعوا ذلك ومنعوا من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصراري مرارا فلم يفيض الله تعالى لهم ناصرا إلى أن كان إخراج النصراري إياهم جملة أعوام سبعة عشر وألف بعد أن ساكنوهم بغرناطة وأعمالها نحو من مائة وعشرين سنة كانوا فيها تحت ذمة النصراري كما رأيت والأمر لله وحده ولما أجلاهم العدو عن جزيرة الأندلس خرجت ألوف منهم بفاس وألوف أخر بتلمسان وهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم في الطرقات الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى من الأرياش ونهبوا أموالهم وهذا ببلاذ تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وكذلك بتطاوين وسلا وبيجة الجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى وهو المنصور السعدي منهم عسكريا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور وحصنوا قلعة سلا وهي رباط الفتح وبنوا بها القصور والحمامات والدور

قال أبو العباس المقري في نفع الطيب وهم الآن يعني في حدود الثلاثين وألف بهذا الحال ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام وانقضى أمر الأندلس وعادت نصرانية كما كانت أول مرة والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وفي السنة التي استولى الإصبنيول على غرناطة انكشفت لهم أرض ماركان التي كانت مجهولة قبل هذا التاريخ لسائر الأمم وذلك أن الحكماء الأقدمين من اليونان وغيرهم أجمعوا على أن شكل الأرض كرة وأن الماء قد غمر أحد جانبيها كله بحيث صارت الأرض فيه كأنها بيضة مفرقة في طست ماء قد رسب فيه أكثرها وبرز أقلها وأجمعوا على أن هذا البارز منها هو المسكون ببني آدم وغيرهم من الحيوانات وهو المقسم إلى سبعة أقسام تسمى الأقاليم ولم يهتدوا إلى أن الجانب الآخر منكشفت عنه الماء ولا أنه مسكون كهذا الجانب بل جزموا بأنه ماء صرف يسمى

البحر المحيط واستمر هذا الاعتقاد عندهم ونقله الخلف عن السلف ووضعوا فيه التآليف العديدة إلى أن كانت سنة سبع وتسعين وثمانمائة وهي السنة التي استولى فيها الإصبيول على غرناطة وسائر الأندلس فاتفق أن ظهر في تلك المدة رجل من فرنج جنوة اسمه كلنب بضم الكاف واللام كانت حرقته الملاحة والسفر في البحر وكان بعيد الهمة مولعا بالشهرة مغرئ بالذکر وحسن الصيت فخطر بباله أن جانب الأرض الذي أغفل الحكماء الأولون ذكره وزعموا أنه بحر صرف ربما يكون مسكونا كهذا الجانب وكان جنس البرتغال في هذه المدة قد كثرت أسفارهم في البحر وملكوا عدة محال من جزائره الخالدات فحصل لكلنب الجنوزي بعض غيرة ونفاسه منهم وأراد أن يأتي بأعظم مما فعلوا فعزم على التلجيج في البحر المحيط والإبعاد فيه عسى أن يظفر بمراده فطراح على ملك البرتغال واسمه يومئذ يوحنا الثاني في أن يعينه على ما هو بصده ويهدمه بما يكون سببا في نيل مقصده فلم يلتفت إلى قوله ولا عرج على رأيه ومن قبل ما كان أهل

جنوة يحمقونه وينسبونوه إلى التهور بمثل هذه الآراء فلما لم يجد عند ملك البرتغال مراده تطارح على ملكة الإصبيول وهي يومئذ إيسابيل الشهيبة الذكر عندهم فأسغفته وهيات له ثلاث سفائن وشحنتها بالرجال والسلاح وال زاد والمال ودفعت ذلك إليه فسافر بها كلنب في البحر المحيط على سمت المغرب حتى أرسى ببعض الجزائر الخالدات فأراح بها أياما ثم سافر على سمت المذكور ملججا مدة من شهرين ولما طال السفر على أصحابه الذين معه أرادوا قتله وبينما هم في ذلك ظهرت له أرض ماركان فسار حتى أرسى بأجفانه على ساحلها في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وتسعين وثمانمائة المذكورة فعثر منها على أرض واسعة ذات أقطار ونواحي وجبال وأنهار توفت الحصر حتى قيل إنها تساوي نصف هذا المسكون من الأرض أو تزيد وإذا فيها خلق كثير من بني آدم كهذا إلا أنهم لم يفتقروا قوله ولا فقه قولهم فعاد كلنب إلى ملكة الإصبيول بعد أن بنى هنالك حصنا وترك به بعض الجند وساق من تلك الأرض بعض الغرائب من حيوان وغيره إثباتا لمدعاه فلما قدم على الملكة بعد مغيبه سبعة أشهر وأحد عشر يوما أعظمت قدره ونوحت باسمه وسرت بما أتى به من ذلك كله وعدت ذلك من سعادتها إلى ما تسنى لها من الظفر بجزيرة الأندلس والاستيلاء عليها وتبين للفرنج حينئذ أن الأرض معمورة من كلا الجانبين لا من جانب واحد كما اعتقده الأقدمون فحينئذ تسارعت أجناسهم إلى أرض ماركان واقتسموها واعتنوا بعمرانها وسموها الدنيا الجديدة فكانت من أعظم الأسباب في انتعاشهم وتقويتهم وضخامة دولهم واتساع خطط ممالكهم والأمور كلها بيد الله ومن جملة ما كان مفقودا بأرض ماركان نوع الخيل وكذا غيرها من الحيوانات الأهلية ولما رأوا الأدمي راكبا على الفرس مسرجا ظنوه قطعة واحدة وأن الفارس وفرسه حيوان واحد خلق على تلك الكيفية إلى غير ذلك وأخبار أرض ماركان وكيفية العثور عليها ثم التردد إليها واعتمارها بعد ذلك طويلة وملخصها ما ذكرناه والله تعالى الموفق بمنه

وهذا آخر النصف الأول من كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى قد شرعنا في إملائه منتصف رجب الفرد الحرام من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف وفرغنا منه في منتصف ذي الحجة الحرام في السنة المذكورة ونشرع بعون الله تعالى في الجزء الثاني منه مفتتحا بما يكون كالتوطئة لدولة بني وطاس من أخبار البرتغال على الجملة وعلى الله تعالى الكمال بمنه وفضله أخبار البرتغال بالمغرب الأقصى على الجملة اعلم أن هذا المغرب الأقصى حرسه الله وكلاه بعين حفظه لم يزل بجميع ثغوره وسواحه وأقطاره منذ الفتح الإسلامي إلى المائة التاسعة محفوظا الجوانب من طروق أمم الفرنج وغيرهم من أعداء الدين محفوظا بالحمية من جنود المسلمين مرهوبة شوكة ملوكة عند أمم النصرانية جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة ودولة بعد دولة لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده أو طرقت ثغر من ثغوره أو الاستيلاء على شيء من سواحه ولم يكن أهلها يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه بل هم الذين كانوا يفتخرون بالفرنج في عقر ديارهم وأعز بلادهم ويحامون عن بلاد الأندلس وسواحل إفريقية وغيرها متى هاج أهلها هياج من ذلك حسبما تقدمت الأخبار المفصحة عن ذلك ولم يبلغنا أن جنسا من أجناس الفرنج فيما قبل المائة التاسعة غزا شيئا من أطراف المغرب الأقصى أو ثغرا من ثغوره بقصد الاستيلاء والتملك إلا ما كان من مدينة سلا التي دخلها الإصبيول غدا أيام الفتنة بين اليعقوبين ثم خرجوا عنها لمدة يسيرة حسبما مر وإلا ما كان من محاصرة أهل جنوة لسببها ثم الإقلاع عنها كذلك ونحو هذا مما لا يعتبر فلما دخلت المائة التاسعة ومضى صدرها وتداعت دول المغرب من بني أبي حفص بإفريقية وبني زيان بالمغرب الأوسط وبني مرين بالمغرب الأقصى

وبني الأحمر بالأندلس وأشرفت على الهرم وحدثت الفتن بين المسلمين ودامت فيهم واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات إلى جهاد العدو ومطالبتة في أرضه وبلاده على ما كان لهم من العادة قبل ذلك وافق ذلك ابتداء ظهور الجلائقة وهم الإصبيول والبرتغال وهم البرطقيز بجزيرة الأندلس واستفحل أمرهم فكثرت أسفار البرتغال في البحر المحيط ودام تغلبهم فيه ومرنوا عليه حتى حصلوا على عدة جزائر منه واكتشفوا بعض الرؤوس الساحلية من أرض السودان وغيرها ثم شروا لتملك سواحل المغرب الأقصى فهجموا عليها وجادلوا أهلها دونها حتى تمكنوا منها ونشبو فيها ففويت شوكتهم وعظم ضررهم على الإسلام وطمحت نفوسهم للاستيلاء على ما وراء ذلك حسبما تقف عليه مينا في مواضعه إن شاء الله فاستولوا في سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة بعد محاصرتهم لها ست سنين على ما في بعض تواريخ الإفرنج ثم في سنة اثنتين وستين وثمانمائة استولوا على قصر المجاز ثم استولوا في سنة تسع وستين وثمانمائة على طنجة ثم في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة ملكوا أصيلا وفي هذا التاريخ نفسه أو قبله ببسبر استولوا على مدينة أنفا وبعض سواحل السوس ثم في حدود سنة سبع وتسعمائة نزلوا بأرض الجديدة فيما بين أزموور وتيط وبنوا بها حصن البريجة وطال مقامهم بها ثم في سنة عشر وتسعمائة استولوا على مدينة العرائش ثم بعد ذلك ببسبر في حدود العشر وتسعمائة على ما تقتضيه تواريخ الفرنج ملكوا حصن أكادير وما اتصل به من سواحل السوس الأقصى ثم ملكوا في حدود اثنتي عشرة وتسعمائة رباط أسفي ثم عطفوا على ثغر أزموور فاستولوا عليه في سنة أربع عشرة وتسعمائة ثم المعمورة وهي المهديّة ملكوها أيضا في حدود سنة عشرين وتسعمائة وفي هذا التاريخ نفسه رجعوا إلى مدينة أنفا بعد هدمها فبنوها وسكنوها وبالجملة فلم يبق من ثغور المغرب الأقصى بيد المسلمين إلا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفتح المسلمين من هذا البرتغال بالأمر العظيم ودهوا منه بالخطب الجسيم واستحوذ عدو الله على بلاد الهبط وضايقهم بها حتى

انحازوا إلى الأمصار المنزوية عن الأطراف والقرى النائية عن السواحل وكان ذلك كله فيما بين انقراض دولة بني وطاس وظهور دولة الشرفاء السعديين ولقد ذكر في مرآة المحاسن أن قصر كتامة كان في صدر المائة العاشرة مقصدا للتجار وسوقا تجلب إليه بضائع العدوتين وسلعها قال إذ كان القصر المذكور ثغرا بين بلاد المسلمين وبين بلاد النصارى تحط به رحال تجار المسلمين من آفاق المغرب وتجار الحربيين من أصيلا وطنجة وقصر المجاز وسبتة ولأنه كان محل عناية سلطان المغرب إذ ذاك محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي فإن القصر قاعدة بلاد الهبط التي كانت موقد شرارة السلطان المذكور ومشب نارهم وموشج عصبيتهم مع مجاورته لبلاد الحرب فكان نظره مصروفا إليه واختصاصه موقوفا عليه وتقبل بنوه من بعده مذهبه فيه اه كلامه فهذا يدل على ما كان عليه العدو خذله الله من المضايقة للمسلمين في ثغورهم وبلادهم والله الأمر من قبل ومن بعد ولما نزل بأهل المغرب الأقصى ما نزل من غلبة عدو الدين واستيلائه على ثغور المسلمين تباروا في جهاده وقتاله وأعملوا الخيل والرجل في مقارعتة ونزله وتوفرت دواعي الخاصة منهم والعامّة على ذلك وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتسابا وكم من ولي عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صوابا حتى لقد استشهد منهم أقوام وأسر آخرون وبلغ الله تعالى جميعهم من الثواب ما يرجون فمن استشهد منهم في سبيل الله سيدي عيسى ابن الحسن المصباحي دفين الدعاة بأرض البروزي من بلاد طليق وأبو الحسن علي بن عثمان الشاوي من أصحاب الشيخ أبي محمد الغزواني وأبو الفضل فرج الأندلسي ثم المكناسي وأبو عبد الله محمد القصري المعروف بسفين قتله النصارى عند ضريح الشيخ أبي سلهم وكان قد قصده للزيارة ففتكوا به هنالك وكل هؤلاء معدود في أولياء الله تعالى ومن أسر منهم ثم خلصه الله الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي دفين تانيسيفت من أحواز مراکش والشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من أحواز

فاس ووالد صاحب دوحة الناشر وهو أبو الحسن علي بن مصباح الحسني عرف بابن عسكر والشيخ العلامة أبو العباس أحمد ابن القاضي المكناسي أحد قضاة سلا وهو صاحب جنوة الاقتباس والمنتقى المقصور وغيرهما من التأليف الحسان أسر وهو ذاهب إلى الحج وأبو عبد الله محمد بن أبي الفضل التونسي المعروف بخروف نزيل فاس وشيخ الجماعة بها هؤلاء كلهم أصباة الأسر ثم خَلصه الله بعد حين وغير هؤلاء ممن لم يحضرنا ذكرهم أجزل الله ثوابهم ويسر بمنه حسابهم ولقد ألف الناس في ذلك العصر التأليف في الحَض على الجهاد والترغيب فيه وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثرُوا ونظم الشعراء والأدباء فيه ونثروا فمن ألف في ذلك الباب فأفاد الشيخ المتفتن البارح الصوفي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم ابن يحيى التازي قال في الدوحة وفتت له على تأليف ألفه في الحَض على الجهاد في سبيل الله فكان مما ينبغي أن يتناول باليدين ويكتب دون المداد باللجين أودعه نظماً ونثراً وممن نظم في ذلك فأجاد الشيخ الصالح المتصوف المجاهد أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي قال في الدوحة كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه وله في ذلك أشعار وقصائد زجلية وغيرها وكان معاصراً للسلطان أبي عبد الله محمد ابن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتغالي فكان إذا جاءه زائر أحضه على الغزو فيساعده على ما أراد من ذلك ولما توفي السلطان المذكور ودالت الدولة لولده السلطان أحمد وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط وصاحبهم سلطان البرتغال فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله المذكور فآلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور ولا يمشي إليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وضرورياته فمكث على ذلك إلى أن حضرته الوفاة وكان في النزاع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم يا سيدي أخبرك أن السلطان أمر بالغزو ونادى به وحض الناس عليه والمسلمون في شرح لذلك وفرح ففتح الشيخ عينيه وتهال وجهه فرحا وحمد الله وأثنى عليه

ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك ولهذا الشيخ زجلية ومقطعات حسان في الحَض على الجهاد منها اللامية المشهورة التي خاطب بها السلطان أبا عبد الله المذكور ومطلعها قل للأمر محمد يا طلعة الهلال لولبة في السواحل من أفضل الليال ومنها القصيدة التي مطلعها ظهر الرمل مرادي والعسكر يا كرام نفسي على الجهاد سبلت والسلام ومنها القصيدة التي أولها قم للجهاد رعاك الله منتهاج نهج الرشاد إلى الأرقام لو فهموا من بعد أندلس ما زلت محتدماً لو كان يمكنني في الليل أحتزم إلى غير ذلك مما يطول ذكره قال صاحب الدوحة حدثني الفقيه العدل أبو العباس أحمد الدغموري القصري قال كان الشيخ أبو عبد الله يقول ما غزونا غزوة قط إلا رأيت رسول الله فيها ويخبرني بجميع ما يتفق لي ولأصحابي في تلك الغزوة وله رضي الله عنه في شأن الجهاد والرجولية حكاية ظريفة وهي أنه غز مرة غزوة إلى الثغور الهبطية ثم قدم منها مع أصحابه فوجد زوجته فلانة بنت الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكار قد توفيت وصلى الناس عليها بجامع القرويين وإمامهم الشيخ غازي ابن الشيخ أبي عبد الله محمد بن غازي الإمام المشهور فوصل الشيخ أبو عبد الله ووجد جنازتها على شفير القبر والناس يحاولون دفنها فقال لهم مهلاً ثم تقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه الذين قدموا معه فبادر الناس إليه بالإنتكار في تكرير الصلاة في الجنائز بالجماعة مرتين فقال لهم على البديهة صلاتكم التي صليتم عليها فاسدة لكونها بغير إمام فقالوا له كيف ذلك يا سيدي قال لأن شرط الإمام الذكورية وهي مفقودة في صاحبكم لأن الذي لم يتقلد سيفاً في سبيل الله قط ولم يضرب به ولا عرف الحرب كما كان نبيينا ولم يتعد بالسير النبوية فكيف يعد إماماً ذكراً بل

إمامكم والله من جملة النساء اه وحكى أيضاً في ترجمة الشيخ أبي محمد عبد الله الوريكلي الذي قال له العلامة ابن مرزوق وقد عزم على الرحلة إلى بلاد المشرق في طلب العلم ليس أمامك أحد أعلم منك قال فرجع من هنالك فوجد النصارى قد تغلبوا على طنجة وأصيلاً فالزم الثغور الهبطية لأجل الرباط والجهاد في سبيل الله وبث العلم ونشره قال وكان من عادته أن يشتغل بالتدريس في فصلي الشتاء والربيع ويخرج في الصيف والخريف فيربط في ثغور القبائل الهبطية إلى آخر كلامه وأمثال هذا كثير ذكرنا منه هذه النبذة اليسيرة لتقف بها على أحوال القوم وما كانوا عليه من الرغبة في الجهاد والمثابرة عليه قدس الله أرواحهم وجعل في دار النعيم غدوهم ورواحهم وقد أن أن شرع في الأخبار عن دولة بني وطاس بعد أن نذكر دولة الشريف العمراني الذي بايعه أهل فاس يوم مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعد رحمه الله الخير عن دولة الشريف أبي عبد الله الحفيد وأوليته هذا الشريف هو أبو عبد الله محمد بن علي الإدريسي الجوطي العمراني من بيت بني عمران فرقة من أدراسة فاس وهم واسطة عقد البيت الإدريسي وأوضحهم نسبا وأعلامهم حسبا قال ابن خلدون ليس في المغرب فيما نعلمه من أهل البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبلغ أعقاب إدريس رضي الله عنه قال وكبراًهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العدم بن القاسم بن إدريس بن إدريس وهم نقباء أهل البيت هناك والساكنون ببيت جدهم إدريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة اه والجوطي قال في المرأة نسبة إلى جوطه بجيم مضوم وو او مد وطاء مفتوحة وهاء تانيث وهي قرية عظيمة على نهر سبو في العدة الجنوبية خربت ولم يبق منها إلا آثار ولها مسيل شتوي يعرف بخروط جوطه نزلها السيد يحيى فنسب إليها وقبره هنالك معروف اه

بيعة السلطان أبي عبد الله الحفيد والسبب فيها كان بنو مريين أيام ولايتهم على المغرب يعظمون هؤلاء الأشراف الأدراسة ويوجبون حقهم ويقرّبون إلى الله تعالى برفع منزلتهم وجبر خوطارهم لما فاتهم من رتبة الخلافة التي كانت تكون لهم بطريق الاستحقاق الشرعي فكان بنو مريين لما جيلوا عليه من الجنوح إلى مراسم الدين وانتحالها يرون في أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هؤلاء الأشراف فلذا كانوا يخضعون لهم ويتأدبون معهم ما أمكن ولقد حكى أبو عبد الله بن الأزرق أن الشيخ الكبير أبا عبد الله المقرئ كان يحضر مجلس السلطان أبا عنان ليث العلم وكان نقيب الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من في المجلس إجلالاً له إلا الشيخ المقرئ فإنه كان لا يقوم له فحرت بين الشريف والفقيه المذكور معاتبة ومراجعة في حكاية مشهورة تركناها لعدم تعلق الغرض بها إذ الغرض هو الوقوف على ما كان عليه القوم من التجلة والتعظيم لأهل هذا البيت الكريم فلما اضطربت أحوال الدولة المرينية بفاس واجتمع رؤساء فاس إلى الفقيه أبي فارس الوريكلي في شأن اليهوديين اللذين كانا يحتكمان في المدينة ويعتسفان أهلها أجمع رأيهم على مبايعة هذا الشريف الحفيد وكان يومئذ على نقابة الأشراف بفاس فاستدعوه فحضر وبايعوه في العشر الأواخر من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة وتم أمره وكان من قتله للسلطان عبد الحق ما تقدم ذكره والله أعلم

فتنة الشاوية ووصولهم إلى بلاد الغرب قد قدمنا ما كان من أمر الشاوية وفتنتهم في أيام السلطان عبد الحق ولما كانت أيام الحفيد هذا تزايد ضررهم واستطال شرهم فزحفوا إلى بلاد الغرب من أحواز مكناسة وفاس وعائوا وأفسدوا ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرارة المحاسن على الشيخ عبد الوارث الياصوتي وأنه أخذ من جماعة منهم أبو النجاء سالم الروداني الشاوي والشيخ أبو عبد الله الصغير السهلي والشيخ أبو محمد الغزواني قال وكان الشيخ أبو النجاء أولاً يقرأ بالمدرسة العنانية فلما نزل الشاوية الغرب خرج من فاس خانفا يتربق بذلك في أيام الحفيد اه وبلاد الغرب تطلق في عرف أهله على خصوص بسيط أزغار وما اتصل به إلى ساحل البحر والله أعلم استيلاء البرتغال على مدينة أنفي وأصيلاً رأيت في بعض تواريخ الفرنج أن استيلاء البرتغال على أنفي كان في حدود أربع وسبعين وثمانمائة وأنهم هدموها وبقيت كذلك مدة تزيد على أربعين سنة ثم شرعوا في تحصينها والبناء بها ولم يزالوا مقيمين بها إلى حدود أربع وخمسين ومائة وألف في سنة ست وسبعين وثمانمائة استولوا على أصيلاً وظفروا فيها ببيت مال الوطاسي وأسروا ولده محمدا المدعو بالبرتغالي وابنته وزوجتيه وجماعة من الأعيان وكان الخطب عظيماً وبقي ولد الوطاسي عند البرتغال سبع سنين ثم افتكه والده بعد وكان يوم أسر صبيبا صغيراً وأما مدينة فضالة فلم يقع عليها استيلاء وإنما كانت بها كمبانية خمسة نفر من تجار مادريد قاعدة قشتالة نزلوها بقصد التجارة بإذن سلطان الوقت وكانت سلعمهم توسق وتوضع من مرساها وبنوا بها البناء الموجود

اليوم والله تعالى أعلم خلع السلطان أبي عبد الله الحفيد وانقراض أمره قال في الجنوة لما قامت عامة فاس على السلطان عبد الحق وأقاموا هذا النقيب من أهل مدينة فاس إماماً استمر بها وابنه وزير له إلى سنة خمس وسبعين وثمانمائة فعزل عن الإمامة وكان الذي خلعه أبا الحجاج يوسف

بن منصور بن زيان الوطاسي وكان ذلك سبب ذهاب الشريف المذكور إلى تونس لمدة يسيرة من خلعه وبقيت حضرة فاس الجديد في يد أخت أبي الحجاج المذكور وهي الزهراء المدعوة بزهور مع قائده السجيري إلى أن تولى الأمر أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي والله غالب على أمره الخبر عن دولة بني وطاس وذكر نسبهم وأوليتهم اعلم أن بني وطاس فرقة من بني مرين غير أنهم ليسوا من بني عبد الحق ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله حسبما تقدم كان لبني وطاس هؤلاء بلاد الريف فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان بنو الوزير منهم يسمون إلى الرياسة ويروسون الخروج على بني عبد الحق وقد تكرر ذلك منهم حسبا مر ثم أذعنوا إلى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة فاستعملهم بنو عبد الحق في وجوه الولايات والأعمال واستظهروا بهم على أمور دولتهم فحسن أثرهم لديها وتعدد الوزراء منهم فيها وذكر ابن خلدون أن بني الوزير هؤلاء يرون أن نسبهم دخيل في بني مرين وأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني لحقوا بالبدو ونزلوا على بني وطاس ووشجت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم ولم يزل السرو متربعا بين أعينهم لذلك والرياسة شامخة بأنفهم اه ولما كانت دولة السلطان أبي عنان واستولى على بجاية عقد عليها لعمر بن علي الوطاسي من بني الوزير هؤلاء فنار عليه أهلها واستلحموه في خير من التنبيه عليه ثم لما كانت الدولة الأولى للسلطان أبي العباس بن أبي سالم وخلص ملك مراکش وأعمالها إلى ابن عمه الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن كان من جملة من تحيز إليه وصار في جملة زيان بن عمر بن علي المذكور فكانت له في دولته الوجاهة الكبيرة والمنزلة الرفيعة ثم لما فسد ما بين السلطان أبي العباس والأمير عبد الرحمن كان زيان بن عمر في جملة النازعين إلى السلطان أبي العباس فاتصل به وصار في جملة إلى أن حاصر السلطان أبو العباس قصبه مراکش وبها يومئذ الأمير عبد الرحمن فأبلى

زيان بن عمر في ذلك الحصار وكان أحد الذين باثروا قتل ولدي الأمير عبد الرحمن قال ابن خلدون وطالما كان زيان هذا يمر في ندي نعمتهم ويجر ذيله خيلاء في جاههم فذهب مثلا في كفران النعمة وسوء الجزاء والله لا يظلم مقال ذرة ثم جاء بعده ابنه أبو زكرياء يحيى بن زيان فولى الوزارة للسلطان عبد الحق كما مر ثم بعده ابنه يحيى أيضا وهو الذي قتله السلطان عبد الحق في جماعة من عشيرته وفر أخوه أبو عبد الله محمد الشيخ إلى الصحراء وبقي منتقلا في البلاد إلى أن كان من أمره ما نذكره الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي رحمه الله قد تقدم لنا ما كان من إيقاع السلطان عبد الحق ببني وطاس وإفلات محمد الشيخ ومحمد الحلو من النكبة وأن الشيخ كان قد خرج للصيد فاتصل به الخبر فذهب على وجهه لا يلوي على شيء وأن الحلو اختفى حتى إذا سكنت الهيعة تسلا ولحق بالشيخ فسارا إلى جهة الصحراء وجعلوا يترددان فيما بينهما وبين البلاد الهبطية حتى ملكا أصيلا وذلك قبل استيلاء البرتغال عليها ولما ملك الشيخ أصيلا واستفحل أمره بها تشوفت إليه الأعيان من أهل فاس والرؤساء من أهل دولة السلطان عبد الحق وصاروا يكاتبونه ويقدمون إليه الوسائل سرا وربما دعوه إلى القوم على أن يبذلوا له من الطاعة والنصرة ما شاء فاستمر الحال على ذلك إلى أن قتل عبد الحق وبويع الحفيد فحينئذ أرفه الشيخ حده واستفرغ في المطالبة جهده إلى أن استولى على الحضرة وصفا له ملك المغرب قال في المرأة لما بايع أهل فاس أبا عبد الله الحفيد قام محمد الشيخ الوطاسي في أصيلا واستتبع القبائل واستفحل أمره وحاصر فاسا وقتا

بعد وقت إلى أن دخلت في طاعته في رمضان سنة ست وسبعين وثمانمائة وخرج عنها الحفيد ودخلها محمد الشيخ المذكور في أوائل شوال من السنة المذكورة وهو مورث الملك لبنيه بها اه وقد تقدم لنا أن الذي خلع الشريف من الملك هو أبو الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي وأن حضرة فاس الجديد قد بقيت بعد ذهاب الشريف إلى تونس في يد زهور الوطاسية والقائد السجيري إلى أن قدم السلطان محمد الشيخ والله تعالى أعلم وقال منولى في أخبار محمد الشيخ هذا ما صورته كانت مملكة المغرب الأقصى في غاية الاضطراب والانتكاس حتى طمع في ملكها كل من كانت توسوس له نفسه بذلك واستولى ابن الأحمر على جميع الثغور التي كانت لبني مرين بأرض الأندلس ولم يترك لهم قيد شبر وشاربت أجناس الفرنج للتغلب على المغرب وفي تلك المدة كان بأصيلا محمد الشيخ الوطاسي وكان شجاعا مقداما وأحس من نفسه بالقدرة على الاستيلاء على كرسي فاس وتتحية الشريف عنه لا سيما مع ما كان الناس فيه من افتراق الكلمة فجمع جندا صالحها وزحف إلى فاس فبرز إليه الشريف والتقوا بأحواز مكناسة فوقعت بينهما حرب عظيمة كانت الكرة فيها على الوطاسي ثم جمع عسكري آخر وزحف به إلى فاس وحاصرها نحو سنتين والشريف فيها مع أرباب دولته وفي أثناء الحصار ورد عليه الخبر باستيلاء البرتغال على أصيلا وعلى بيت ماله الذي كان بها وعلى حظاياه وأولاده فأفرج عن فاس ورجع مبادرا إلى أصيلا فحاصرها ولما امتنعت عليه عقد مع البرتغال هدنة وعاد سريعا إلى فاس فحاصرها وضيق على الشريف بها حتى خرج فارا بنفسه وأسلمها إليه فدخلها محمد أ لشيخ وتمت بيعته وتفرغ لتفويخ القبائل التي بأحواز فاس وغيرها فدخلوا في طاعته واغبتوا به اه كلامه

رياسة بني راشد من شرفاء العالم بغمارة وبنواهم مدينة شفشاون وما يتبع ذلك قال في نشر المثاني اختط بعض شرفاء العلم مدينة شفشاون بقصد تحصين المسلمين من نصارى سبتة إذ كانوا بعد استيلائهم عليها يتطاولون على أهل تلك المداشر في أواخر دولة بني وطاس وقال في المرأة كان ابتداء اختطاط مدينة شفشاون في الجهة المعروفة عندهم بالعدوة وهي عدوة وادي شفشاون في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة على يد الشريف الفقيه الصالح الناصح المجاهد أبي الحسن بن أبي محمد المعروف بأبي جمعة العلمي واسمه الحسن بن محمد ابن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال بن القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش ومات شهيدا قبل إتمام ما شرع فيه بتدبير النصاري دمرهم الله مع أهل النفاق إذ ذاك من أهل الخروب وقد جاءهم في سبيل الجهاد وبينما هو يتجهج من الليل في مسجد هناك إذ أضرموا عليه نارا فمات رضوان الله عليه وقام مقامه فيما كان بسبيله من الجهاد والاستنفار له وتجييش الجيوش ابن عمه الأمير الجليل الفاضل الأصيل أبو الحسن علي بن موسى بن راشد بن علي بن سعيد بن عبد الوهاب إلى آخر النسب المتقدم فشرع في اختطاط مدينة شفشاون في العدو الأخرى فبنى قصبته وشيدها وأوطنها بأهله وعشيرته وزل الناس بها فبنوا وصارت في عداد المدن إلى أن توفي سنة سبع عشرة وتسعمائة وورثها بنوه من بعده ولم يزلوا فيها بين سلم وحرب إلى أن أخرجهم منها الشرفاء السعديون عند استيلائهم على بلاد المغرب والله تعالى أعلم

ثورة عمرو بن سليمان السيف ببلاد السوس وشيء من أخباره هذا الرجل هو عمرو بن سليمان الشيطمي المعروف بالسياف ويقال له المريدي بضم الميم وكان ابتداء أمره أنه كان من تلامذة الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلالة الخيرات نقل الثقات أنه كان يتردد إلى الشيخ المذكور أيام حياته ويأتيه بالوواح فيها كلام كثير منسوب إلى الخضر عليه السلام فلا يقول له في ذلك شيئا غير أنه أتى عليه مرات كثيرة ثم لما مات الشيخ المذكور رحمه الله سنة سبعين وثمانمائة ثار عمرو المذكور مظها الطلب بثار الشيخ والانتقام من الذين سموه إذ كان سمه بعض فقهاء عصره فتنبهم حتى قتلهم ثم صار يدعو الناس إلى إقامة الصلاة ويقاثلهم عليها فانتهصر عليهم وشاع ذكره وتمكن ناموسه ثم تجاوز ذلك إلى أن صار يدعو الناس إلى نفسه ويقتل المنكرين عليه وعلى شيخه وأصحابه وسمى أصحابه المريدين بضم الميم قال زروق وما أحقها بالفتح وسمى المخالفين له الجاحدين ثم جعل يتقوه بالمغيبات ويزعم أنه مأذون وربما ادعى النبوة وكان قد أخرج شلو الشيخ الجزولي من قبره وجعله في تابوت وصار يقدمه بين يديه في حروبه كتابوت بني إسرائيل فينتصر على من خالفه وقيل إنه لم يدفنه وإنما أخذه بعد موته فكفنه وجعله في التابوت وجمع الجموع وقاد الجيوش وسفك الدماء واستمرت فتنة في الناس عشرين سنة قال الشيخ زروق رحمه الله بلغني أن شيخنا الفقيه أبا عبد الله القوري ورد عليه سؤال في شأن عمرو بن سليمان السيف فبادرت إليه كي أراه فقال لي قد خرج من يدي فقلت له فما مقتضاه قال مقتضاه أنه يقول إن أحكام الكتاب والسنة ارتفعت ولم يبق إلا ما يقول له قلبه قال زروق وشاع من أمره أنه يقول إنه وارث النبوة وأن له أحكاما تخصه كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام وأن الخضر حي ونبي مرسل وأنه يلقاه ويأخذ عنه بل يدعي ذلك من هو دونه من تلامذته

وحكى بعضهم أن عمرا المذكور لما جعل شلو الشيخ في التابوت كان إذا رجع به من حربه وضعه في روضة عنده يسميها الرباط فإذا جنه الليل أطاف الحرس بالروضة يحرسون التابوت من السراق ويوقد عليه كل ليلة فتيلة عظيمة في مقدار الثوب مغموسة في نحو مدين من الزيت ليفوق الضوء وينتشر ويبلغ من كل الجهات إلى مسافة بعيدة فتكتشف الطرق عمن يأتي عليها كل ذلك مخافة أن يؤخذ منه شلو الشيخ فينتصر به عليه ويقال إن ثورة عمرو المذكورة وفتنته كانت أثرا من آثار دعوات الشيخ الجزولي رحمه الله فقد ذكر تلامذته كالشيخ التباع وغيره أن الشيخ الجزولي خرج عليهم من آخر الليلة التي قتل في صبيحتها فقالوا له يا سيدي الناس يزعمون أنك الفاطمي المنتظر فقال ما يبحثون إلا عمن يقطع رقابهم الله يسلب عليهم من يقطع رقابهم وكرر ذلك مرارا فكانوا يرون أن أثر دعوته ظهر في عمرو السيف والله أعلم وقتل عمرو المذكور سنة تسعين وثمانمائة واختلف فيمن قتله فقيل كان عمرو قد تزوج زوجة الشيخ الجزولي وبنته فلما رأنا ما هو عليه من الزندقة والفساد في الأرض قتلتها امتعاضا للدين ترصدتاه حتى إذا نام عدنا عليه فقتلناه ثم رمت إحداهما وهي بنت الشيخ بنفسها من كوة هنالك في البيت الذي كانوا به فوصلت إلى الأرض سالمة ونجت وبقيت الأخرى وهي الزوجة بالبيت فدخلوا عليها فقتلوا وقيل إنما قتلته زوجته وربيبته وقيل غير ذلك والله أعلم ولما هلك عمرو السيف دفن الناس الشيخ الجزولي وقيل هو دفنه بموضع يعرف بتاصروت ثم نقل بعد إلى مراکش على ما نذكر إنشاء الله ولما ذكر الشيخ أبو العباس الصومعي في كتابه الموضوع في مناقب الشيخ أبي يعزى قصة نقل الشيخ الجزولي إلى مراکش وأنه وجد طريا لم يتغير بعد وفاته بنحو سبعين سنة قال وأعجب من هذا أن عمرا المغيبي السيف زعموا أنه وجد كذلك ولعله أدركته بركة هذا الشيخ مع ما كان عليه والفضل بيد الله اه

وفي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة استدعى السلطان محمد الشيخ الإمام أبا عبد الله بن غازي من مكناسة إلى فاس فولى الخطابة أولا بالمسجد الجامع من فاس الجديد ثم ولي الإمامة والخطابة ثانيا بمسجد القرويين من فاس وصار شيخ الجماعة بها واستوطنها إلى أن مات رحمه الله وفي سنة خمس وتسعين وثمانمائة تحرك السلطان محمد الشيخ إلى دبدو ثم عاد إلى حضرته وفيها أيضا في يوم الخميس السابع من ذي القعدة توفي الوزير أبو عبد الله محمد الحلو الوطاسي ودفن بالقلعة خارج باب الحبيسة وفي سنة سبع وتسعين وثمانمائة استولت الرينة إيسابيليا صاحبة مادريد قاعدة بلاد قشتالة على حمراء غرناطة ومحت دولة بني الأحمر من جزيرة الأندلس ولم يبق للمسلمين بها سلطان وتفرق أهلها في بلاد المغرب وغيرها أبيادي سبا وقد تقدم الخبر عن ذلك مستوفى بناء مدينة تطاوين قال منوبل لما استولى الإصبينول على غرناطة خرج جماعة كبيرة من أهلها إلى المغرب فنزلوا في مرتيل قرب تطاوين ولما نزلوا به لم يقدموا شيئا على الوفاة على سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي فأجل مقدمهم ورحب بهم فقالوا إن ضيافتنا عندك أن تعين لنا موضعا نبني فيه بلدا يكننا ونحفظ فيه عيالنا من أهل الريف فأجابهم إلى مرادهم وعين لهم مدينة تطاوين الخربة منذ تسعين سنة وولى عليهم كبيرهم أبا الحسن عليا المنظري وكان رجلا شجاعا من كبار جند ابن الأحمر وكان قد أبلى معه في حرب غرناطة البلاء الحسن ثم انتقل إلى المغرب كما قلنا ولما عقد له الشيخ الوطاسي على أصحابه رجع بهم إلى تطاوين وشرع في بناء أسوار البلد القديم فجدهه وبنى المسجد الجامع به واستوطنه هو وجماعته ثم أخذ في جهاد البرتغال بسببته وبلاد الهبط إلى أن أسر منهم ثلاثة آلاف فاستخدمهم في إتمام ما بقي

عليه من بناء تطاوين واتصلت الحرب بينهم وبين برتغال سببته كاتصالها بين أهل أزمور وبرتغال الجديدة اه وقوله إن بناء تطاوين كان عقب أخذ غرناطة مخالف لما يقول أهل تطاوين من أن تاريخ بنائهما رمز تقاحة وأن ذلك كان بإعانة الشريف أبي الحسن علي بن راشد فيظهر والله أعلم أن أبا الحسن المنظري كان قد قدم من الأندلس قبل أخذ غرناطة بسنين يسيرة موافق الرمز المذكور والله أعلم قدوم أبي عبد الله بن الأحمر مخلوعا على السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمهما الله لما استولى طاغية الإصبينول على حضرة غرناطة وسائر الأندلس انتقل سلطانها أبو عبد الله بن الأحمر إلى حضرة فاس فاستوطنها تحت كنف السلطان محمد الشيخ بعد أن خاطبه من إنشاء وزيره أبي عبد الله محمد العربي العقيلي بقصيدة بارعة يقول في صدرها مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعيما لما مثله يرعى من الذمم بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور مننم حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا وأفظع الخطب ما يأتي على الرغم حكم من الله حتم لا مرد له وهل مردا لحكم منه منحنم وهي طويلة ثم وصلها برسالة يقول فيها بعد الحمد لله والصلاة على نبيه ما نصه أما بعد فيا مولانا الذي أولانا من النعم ما أولانا لا حظ الله لكم من العزة أرواها ولا أدوى لدوحة نولتكم أغصانا ولا أوراها ولا زالت مخضرة العود مبسمة عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود ممطورة بسحاب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود هذا مقام العائذ بمقامكم المتعلق بأسباب دمامكم المرجعي لعواطف قلوبكم وعوارف أنعامكم

المقبل الأرض تحت أقدامكم المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم وماذا الذي يقول من وجهه حجل وفواد وحمل وقضيته المقضية عن التئصل والاعتذار تجل بيد أني أقول لكم ما أقول لربي واجترائي عليه أكثر واحترامي إليه أكبر اللهم لا بريء فاعتذر ولا قوي فانتصر لكني مستقبل مستعيب مستغفر وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء هذا على طريق التنازل والاتصاف بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف وأما على جهة التحقيق فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق والله إني لأعلم أني إن أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أني منه بريئة لا قول ما لم يكن ولن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني فأقول ما قاله أبو يوسف فصير جميل والله المستعان على ما تصفون على أني لا أنكر عيوبي فأنا معدن العيوب ولا أجد ذنوبي فأنا جبل الذنوب إلى الله أشكو عجري ويجري وسقطاتي وغلطاتي نعم كل شيء ولا ما يقوله المتقول المشنع المهول الناطق بعم الشيطان المسول ومن أمثالهم سبني وصدق ولا تقتر ولا تخلق أفتلني كان يفعل أمثالها ويحتمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ويهلك نفسه ويحبط أعمالها عيادا بالله من خسران الدين وإيثار الجاحدين والمعتدين قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين وإيم الله لو علمت شعرة في فودي تميل إلى تلك الجهة لقطعتها بل لقطفت ما تحت عمامتي من هامتي وقطفتها غير أن الرعاع في كل أوان أعداء الملك وعليه أحزاب وأعوان كان أحمق أو أجهل من أبي ثروان أو أعقل أو أعلم من أشج بني مروان رب متهم بريء ومسربل بسربال وهو منه عري وفي الأحاديث صحيح وسقيم ومن التراكيب المنطقية منتج وعقيم ولكن ثم ميزان عقل تعتبر به أوزان النقل وعلى الراجح الاعتماد ثم إساعة الأحماد المتصل المتعاد وللمرجوح الإطراح ثم التزام الصراح بعد النفض من الزاح وأكثر ما تسمعه الكذب وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله تعالى إليه منجذب ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار ورمينا بما لا يرمى به الكفار فضلا عن الفجار وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ما

لديكم منه حفظ الجار وإذا عظم الإلكاء فعلى تكأة التجلد والاكتهاء أكثر المكثرون وجهد في تعبيرنا المتعثرين ورمونا عن قوس واحدة ونظمونا في سلك الملاحدة أكفرا أيضا كفرا غفرا اللهم غفرا أعد نظرا يا عبد قيس فليس الأمر على ما حبل لك ليس وهل زدنا على أن طلبنا حقا ممن رام محقه ومحققا فطارنا في سبيله عداة كانوا لنا غانظين فانفتق علينا فتق لم يمكنا له رتق وما كنا للغيب حافظين وبعد فاسأل أهل الحل والعقد والتميز والنقد فعند جهينتهم تلقى الخبر يقينا وقد رضينا بحكمهم يوئنا فيوئنا أو يبرئنا فيقينا إبه يا من شرأب إلى ملائنا وقدح حتى في إسلامنا رويدا رويدا فقد وجدت قوة وأيدا ويحك إنما طال لسانك علينا وامتد بالسوء إلينا لأن الزمان لنا مصغر ولك مكير والأمر عليك مقبل وعنا مدير كما قاله كاتب الحجاج المتبر وعلى الجملة فهنا صرنا إلى تسليم مقالك جدلا وذهبا فأقررنا بالخطأ في كل ورد وصدر فله در القائل إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر وكأنا بمعترف إذا وصل إلى هنا وعدم إنصافا يعلمه الهنا قد أزر متجانفا ثم أفت متجانفا وجعل يتمثل بقولهم إذا عبروا قالوا مقادير قدرت ويقولهم المرء يعجزه المحال فيعارض الحق بالباطل والحالي بالعاطل وينزع بقول القائل رب مسمع هائل وليس تحته طائل وقد فرغنا أول أمس من جوابه وتركنا الضغن يلصق حرارة الجوى به وسلم الآن بما يوسعنا تكيئا ويقطعه تسكيئا فنقول له ناشدناك الله تعالى هل اتفق لك قط وعرض خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض مع اجتهادك أثناءه في إصدارك وإبرادك في وقوعه على وفق اقتراحك ومرادك أو جميع ما تزاوله بإدارتك لا يقع إلا مطابقا لإرادتك أو كل ما تقصده وتنويه تحرزه كما تشاء وتحويه فلا بد أن يقر اضطرارا بأن مطلوبه يشذ

عنه مرارا بل كثيرا ما يفلت صيده من أشراكه ويطلبه فيعجز عن إدراكه فنقول ومسالمتنا من هذا القبيل أيها النبيه النبيل ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ما شئنا مما يسايرنا في غرضنا منه ويماشينا كقوله

كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس وقوله أيضا لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه أو كما قال فأخلق به أن يلوذ بأكتاف الأحماء ويؤم على نقت فيه كأنما الجم بلجام حينئذ نقول له والحق قد أبان وجهه وجلاله وقهره بحجته وعلاه ليس لك من الأمر شيئا قل إن الأمر كله لله وفي محاجة آدم وموسى ما يقطع لسان الخصم ويرخص عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دون الوصم وكيفما كانت الحال وإن ساء الرأي والانتحال ووقعنا في أوجال وأوحال قتل عرشنا وطويت فرشنا ونكس لوانا ومللت مثنوانا فحنن أمثل من سوانا وما في الشر خيار ويد الألطاف تكسر من صولة الأغيار فحتى الآن لم ننفذ من اللطيف تعالى لطفه ولا عدنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطا والإفلاك بغداد دار السلام ومتبوا الإسلام المحفوف بفرسان السيوف والأقلام مثابة الخلافة العباسية ومقر العلماء والفضلاء أولي السير الأويسية والعقول الأيباسية قد نزلت بالجيوش ونزلت وزوزلت بالزحوف وزلزلت وتحيف جوانبها الحيف ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف ولا تسئل إذ ذاك عن كيف أيام تجلت عروس المنية كاشفة عن ساقها مبدية وجرت الدماء في الشوارع والطرق كالأنهار والأودية وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم في رقابهم والأردية وللنجيع سيول تخوضها الخيول فتخضبها إلى أرساعها وتهم ظمأها بوردها فتنتكل عن تجرعها ومساعها فطاح عاصمها ومستعصمها وراح ولم يعد ظالمها ومتظلمها وخربت مساجدها وديارها واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف حسبما عرفت أو حسبما تعرف فلانك متشككا متوقفا فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا فإين تلك الجحافل والآراء المدارة في المحافل حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر لم تجد ولا قلامه ظفر إذن من سلمت له نفسه

التي هي رأس ماله وعياله وأطفاله اللذان هما من أعظم أماله وكل أوجل أو قل ريشته وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ثم وجد مع ذلك سبيلا إلى الخلاص في حال مياسرة ومساهلة دون تعصب واعتياص بعد ما ظن كل الظن أن لا محيد ولا مناص فما أحقه حينئذ وأولاه أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه على ما أسداه إليه من رفده وخيره ومعافاته مما ابتلي به كثير من غيره ويرضى بكل إيراد وإصدار تنصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار فالدهر غدار والدنيا دار مشحونة بالأقدار والقضاء لا يرد ولا يصد ولا يغالب ولا يطالب والدائرات تنور ولا بد من نقص وكمال للبدور والعيد مطيع لا مطاع وليس يطاع إلا المستطاع وللخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب للأذهان عن مدها انقطاع ومالي والتكلف لما لا أحتاج إليه من هذا القول بين يدي ذي الجلالة والمجادة والفضل والطول فله من العقل الأرجح ومن الخلق الأسجح ما لا تلتاط معه تهمني بصفره ولا تنفق عنده وشاية الواشي لا عد من نفره ولا فاز قدحه بظفره والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب وتجرب براحتها إلى المتاعب وقيما للأكياس من الناس خدعت وانحرفت عن وصالهم أعل ما كانوا وقطعت وفعلت بهم ما فعلت يبسار الكواعب الذي جبت وجدعت ولئن رهصت وهصرت فقد نهبت وبصرت ولئن قرعت ومعضت ولقد أرشدت ووعظت ويا ويلنا من تنكرها لنا بمره ورميها لنا في غمرة أي غمرة أيام قلبت لنا ظهر المجن وغيم أفضها المصمي وأدجن فسرعان ما عاينا حبالها منبته ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغته فمن استعاذ من شيء فليستعذ مما صرنا إليه من الحور بعد الكور والانحطاط من النجد إلى الغور فبيننا نسوس الناس والأمر إذا نحن فيهم سوقة تنتصف قتبنا لدينا لا بدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقا وجرعتنا من صاب الأوصاب كأسا دهاقا ولم نفرغ إلى غير بابكم المنيع الجنب المنفتح حين سدت الأبواب ولم نلبس

غير لباس نعماتكم وحين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللفهان وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجناف ووجه الله تعالى يبقى وكل من عليها فان وإلى هنا ينتهي القائل ثم يقول حسبي هذا وكفان ولا ريب في اشتمال العلم الكريم على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث والقديم من الأخذ باليد عند زلة القدم وقرع الإنسان وعض البنان من الندم دينا تدينته مع اختلاف الأديان وعادة أطردت على تعاقب الأزمان والأحيان ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها وأعطى من أمانة المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقع النفوس ويكفيها فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصفر ولا سوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهراني الكفر ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة وأما المطالب المشاغب حمة شر لنا لا سعة وادكرنا أي ادكار قول الله تعالى المنكر ذلك غاية الإنكار ألم تكن أرض الله واسعة وقول الرسول المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام أنا بريء من مؤمن مع كافر تتراءى نارهما وقول الشاعر الحاث على حث المطية المتناقلة عن السير في طريق منجاتها البطية وما أنا والتلذذ نحو نجد وقد غصت تهامة بالرجال ووصلت أيضا من الشرق إلينا كتب كريمة المقاصد لدينا تستدعي إلينا تلك الجنبات وتتضمن مالا مزيد عليه من الرغبات فلم نختر إلا دارنا التي كانت دار آبائنا من قبلنا ولم نرتض الانضواء إلا لمن بحبله وصل حبلنا وبريش نبه ريش نبلنا لإدلالا على محل إزاء متوارث لا عن كلاله وامتنالا لولصاة أجداد لا نظارهم وأقدارهم أمالة وجلالة إذ قد روينا عن سلف من أسلافنا في الإيضاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا أن لا يبتغوا إلا لا يبتغوا إذا دهمهم أمر بالحضرة المرينية بدلا ولا يجدوا عن طريقها في التوجه إلى فريقها معدلا فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفجاج وركبنا إلى البحر الفرات ظهر البحر الأجاج فلا غرو أن نرد منه على ما يقر العين ويشفي النفس الشاكية من ألم البين ومن توصل هذا التوصل وتوصل بمثل

ذلك التوصل تطارحا على سدة أمير المؤمنين المحارب للمحاربين والمؤمن للمستأمنين فهو الخليق الحقيق بأن يسوغ أصفى مشاربه ويبلغ أوفى مآربه على توالي الأيام والشهور والسنين ويخلص من الثور إلى الحبور ويخرج من الظلمات إلى النور خروج الجنين ولعل شعاع سعاده يفيض علينا ونفحة قبول إقباله تسري إلينا فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر لإنشاد قول الشريف الرضي في الخليفة القادر عطا أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا تنفرك ما بيننا يوم الفخر تفاوت أبدا كلانا في المعالي معرق إلا الخلافة ميزتك فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوق لا بل الأحرى بنا والأحجى والأأنجح لسعيينا والأرجى أن نعدل عن هذا المنهاج ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج وينشد ما قال في الشيرازي ابن حجاج الناس يفدونك اضطرارا منهم وأفديك باختياري وبعضهم في جوار بعض وأنت حتى أموت جاري فعش لخبزي وعش لمائي وعش لداري وأهل داري ونستوهب من الوهاب تعالى جلت أسماؤه وتعاطمت نعمائوه رحمة تجعل في يد الهداية أعنتنا وعصمة تكون في مواقف المخاوف جننتنا وقبولا يعطف علينا نوافر القلوب وصنعا يسني لنا كل مرغوب ومطلوب ونسأله وطالما بلغ السائل سؤالا ومأمولا متابا صادقا على موضوع الندم محمولا ثم عزاء حسنا وصبرا جميلا عن أرض أورثها من شاء من عباده معقبا لهم ومدبلا وسادلا عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولا سنة الله التي قد خلقت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا فليطير طائر الوسواس المرفرف مطيرا كان ذلك في الكتاب مسطورا لم نستطع عن مورده صدورا وكان أمر الله قدرا مقهورا إلا وإن الله سبحانه في مقامكم العالي الذي أيده وأعانته سرا من النصر يترجم عنه لسان من النصل وترجع فروع البشائر الصادقة بالفتوحات المتلاحقة من قاعدته

المتأصلة إلى أصل فيمثلة يجب اللباد والعياذ ولشبهه يحق الانتجاع والارتجاع ولأمر ما أثرتنا واخترتنا بعد أن استرشدنا الله سبحانه واستخرناه ومنه جل جلاله نرغب أن يخير لنا ولجميع المسلمين ويأوب بنا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع وجناب رفيع أمين أمين ونرجو أن يكون ربنا الذي هو في جميع الأمور حسبنا قد خار لنا حيث أرشدنا وهادنا وساقنا توفيقه وحدانا إلى الاستجارة بملك حفي كريم وفي أعز جارا من أبي داود وأحمى أنفا من الحارث بن عباد ويشهد بذلك الداني والقاسمي والحاضر والباد إن أغاث ملهوقا فما الأسود بن قناب يذكر وإن أنعش حشاشة هالك فما كعب بن مامة على فعله وحده يشكر جليسه كجليس القعقاع بن شور ومذاكره كمذاكره سفیان المنتسب من الرباب إلى ثور إلى التحلي بأمهات الفضائل التي أضعدها أمهات الرذائل وهي الثلاث الحكمة والعدل والشفقة التي تشملها الثلاثة الأقوال والأفعال والشامل وينشأ عنها ما شئت من عزم وحزم وعلم وحلم وتيقظ وتحفظ واتقاء وارتقاء وصول وطول وسماح نائل فبنور حلاه المشرق يفتخر المغرب على المشرق

وبمجدده السامي خطرته في الأخطار وبيته الذي ذكره في النباهة والنجابة قد طار بياهي جميع ملوك الجهات والأقطار وكيف لا وهو الرفيع المنتمي والنجار الراضع من الطهارة صفو البان الناشئ من السراوة وسط أحجار في ضنضى المجد وبحبوح الكرم وسرواة أسرة المملكة التي أكتافها حرم وذوابة الشرف التي مجادتها لم ترم من معشر أي معشر بخلوا أن وهبوا ما دون أعمارهم وجبنوا إن لم يحموا سوى دمارهم بنو مريم وما أدراك ما بنو مريم سم العداة وأفة الجزر النازلون بكل معترك والطيبون معاهد الأزر لهم عن الهفوات انتقاء وعندهم من السير النبوية اكتفاء انتسبوا إلى بر بن قيس فخرجوا في البر عن القيس ما لهم القديم المعروف قد نفذ في سبيل المعروف وحديثهم الذي نقلته رجال الزحوف من طريق القنا والسيوف على الحسن من المقاصد موقوف تحمد من صغيرهم وكبيرهم ذابلهم ولدنهم فله آباء أنجبوهم وأمهات ولدنهم شم

الأثوف من الطراز الأول إليهم في الشدائد والاستناد وعليهم في الأزمات المعول ولهم في الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الخطو الواسع والباع الأطول كأنما عناهم بقوله جرول أولئك قوم إن بنو أحسنوا البنا وإن عاهدوا وفوا وإن عقدوا شدوا وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا وتعذلي أبناء سعد عليهم وما قلت إلا بالذي علمت سعد ويقول الوثيق مبناه البليغ معناه قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم شدوا العجاج وشدوا فوكة الكربا يزيحون عن النزول كل نازح قاصم وليس له منهم عائب ولا واصم فهو أحق بما قاله في منقر قيس بن عاصم لا يظنون لعيب جارهم وهم لحفظ جوارهم فطن حلامهم هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جعل وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حنو النعل بالنعل ثم هو عليهم وعلى من سواهم بالأوصاف الملوكية مستعمل ارفض مزنيهم منه عن غيث ملث يمحو آثار اللزبية وانشق عليهم منه عن ليث ضار منقبض على برائه للوثبة فقل لسكان الفلا لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم فلا يبالي السرحان المواشي سواء مشي إليها النقرا أو الجفلى بل يصدفهم صدمة تحطم منهم كل عرنين ثم يبتلع بعد أشلاءهم المعفرة ابتلاع التنين فهو هو كما عرفوه وأقوه وأخو المنيا وابن جلا وطلاع الثنايا مجتمع أشده قد احتكتك سنه وبان رشده جاد مجد محترم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجد لا يشرب الماء إلا من قليب دم ولا يبيت له جار على وجل أسدى القلب آدمي الروا لايس جلد النمر يزني العناد والنوى وليس بشاري عليه دمامة إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم ولكنه يسعى عليه مفاضة دلاص كأعيان الجراد المنظم فالنجاء النجاء سامعين له طائعين والوجل الوجل لاحقين به خاضعين

قبل أن تساقوا إليه مقرنين في الأصفاذ ويعيب الفداء بنفانس النفوس والأموال على الفاد حينئذ بعض ذو الجهل والقدامة على يديه حسرة وندامة إذا رأى أبطال الجنود تحت خواقف الرايات والبنود قد لفحتهم نار ليست بذات خمود وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عاد وثمود زعقات تؤز الكتائب أزا وهمزا محققا للخيل بعد المد المشبع للأعنة همزا وسلا للهندية سلا وهزا للخطية هزا حتى يقول النسر للذئب هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ثق خليفة الله بذلك في كل من رام أذى رعيته أو أذاك فتلك عادة الله سبحانه في نوي الشفاق والنفاق الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق وينصبون حبال البغي والفساد في جميع النواحي والأفاق فلن يجعلهم الله عز وجل من الأمنين أنى وكيف وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدي كيد الخائنين وما نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم بعد ما زينا معاضها باستعطافكم بدر ثناء أبهى من در العقد التنظيم منتظمين في سلك أوليائكم متشرفين بخدمة عليانكم ولا فقد عزة ولا دعمها من قصد مثابنتكم العزيزة وخدمها وأن المترامي على سنانكم لجدير بحر منكم واعتنائكم وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصنا حصينا عاش ببيعة عمره محروسا من الضيم مصوننا وقد قيل في بعض الكلام من قعدت به نكايه الأيام أقامته إغاثة الكرام ومولانا أيده الله تعالى ولي ما يرفه إلينا من مكرمة بكر ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد في صحائف حسن الذكر ويروي معن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر وغيره من ينم عن ذلك فيوقظ ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ وما عهد منذ وجد إلا سريعا إلى داعي الندى والتكرم بريننا من الضجر بالمطالبة والتبرم حافظا للجار الذي أوصى النبي بحفظه مستقرغا وسعه في رعيه المستمر ولحظه أخذا من حسن الثناء في جميع الأوقات والأبناء بحظه فهو من دوحة السنا فرع عز ليس يحتاج مجتنبه لهن

كفه في الأمحال أغزر ويل وذراه في الجوف أمنع حرز حلمه يسفر اسمه لك عنه فقهم يا مدعي الفهم لغزي لا تسله شيئا ولا تستلنه نظرة منه فيك تغني وتجزى فنداه هو الفرات الذي قد عام فيه الأنام عوم الأوز وحماه هو المنيع الذي ترجع عنه الخطوب مرجع عجز فدعوا ذهنه يزاول قولتي فهو أدرى بما تضمن رمزي دام يحيى بكل صنع ومن ويعافى من كل بوس ورجز وكأنا به قد عمل على شاكلة جلاله من مد ظلاله وتمهيد خلاله وتلقى ورودنا بتلهه واستهلاله وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله وإبرادنا على حوض كوثره المترع بزلاله والله سبحانه يسعد مقامه العلي ويسعدنا به في حلّه وارتحاله وماله وحاله ويؤيد جنده المظفر ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوه واستنزاه وهز النوازل لإطفاء ذباله وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن يريه قرة العين في نفسه وأهله وخدامه وأمواله وأنظاره وأعماله وكافة شؤونه وأحواله وأحق ما نصله بالسلام وأولى على المقام الجليل مقام الخليفة المولى وصلاة وسلاما دائمين أبدا موصولين بدوام الأبد واتصاله ضامنين لمجددهم ومردهم صلاح فساد أعماله وبلوغ غاية أماله وذلك بمشيئة الله تعالى وإذنه وفضله وأفضاله انتهت الرسالة وما كادت ووصل السلطان ابن الأحمر المخلوع بعد نزوله بمليلية إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذرا عما أسلفه متلهفا على ما خلفه وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنين الأندلس وتوفي بها سنة أربعين وتسعمائة ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ذرية من بعده قال في نشر المثاني انقضوا ولم يبق منهم أحد وزعم منويل أنه هلك في وقعة أبي عقبة في حرب الوطاسيين مع السعديين قال ولم يحسن هذا الرجل أن يدفع عن ملكه فدفع عن ملك غيره

استيلاء البرتغال على ساحل البريجة وبنائهم مدينة الجديدة صانها الله سبحانه وتعالى بمنه قال مؤلفه عفا الله عنه قد وقعت لبعض البرتغاليين واسمه لويز مارية على تأليف في أخبار الجديدة من لدن بنوها إلى أن انتزعها المسلمون منهم فاقطفت منه ما أثبتته في هذه الترجمة قال هذا المؤلف لما كانت سنة ألف وخمسمائة واثنين مسيحية قلت ويوافقها من تاريخ الهجرة سنة سبع وتسعمائة تقريبا بعث سلطان البرتغال واسمه منويل من دار ملكه أشبونة عمارة في البحر للاستيلاء على بعض ثغور المغرب فالجأهم هيجان البحر وموجه إلى ساحل البريجة فيما بين أزمور وتيط وكانت البريجة على ما يفهم من كلامه بناء متخذا هنالك للحراسة ونحوها كان يسمى برج الشيخ ولا زال مسمى بهذا الاسم إلى الآن فأرسي البرتغاليون على الساحل المذكور ونزلت طائفة منهم إلى البر فقتلوا بالبريجة وما حولها وأعجبهم المكان فعزموا على المقام به واتفق رأيهم أن يتركوا جماعة هنالك يحفظون المحل ويرجع باقيهم إلى ملكهم يستأذنوه فيما عزموا عليه فتركوا التي عشر رجلا بالبريجة بعد أن حصنوها وشحنوها بما يحتاجون إليه من عدة وقوت ونحوها ورجع الباقيون إلى الملك فأخبروه بشأنهم فأذن لهم وبعث معهم جماعة من البنانيين والعملة ليينوا لهم ما يتحصنون به فقدموا على إخوانهم وشرعوا في إدارة السور على قطعة من الأرض فنذر بهم أهل تلك البلاد من المسلمين وتسايقوا إليهم على الصعب والذلول ففر النصارى إلى البريجة وتحصنوا بها وأفسد المسلمون كل ما كانوا عملوه في تلك الأيام وأحجروهم بحصنهم ووضعوا عليهم الرصد إلى أن فتر عزمهم وأيسوا من نجاح سعيهم فعاد جلهم أو كلهم إلى أشبونة وأعادوا الكلام على ملكهم منويل في شأن البريجة ووصفوا له حسن البقعة وصحة هوائها ومنزلتها من البحر ومن قبائل أهل المغرب من أهل تامسنا ودكالة وغيرهم وأنها عسى أن تكون سلما للاستيلاء

على غيرها من بلاد المغرب لا سيما ودولة المسلمين به يومئذ قد تلاشت وملكهم قد ضعف فوفر ذلك في نفس الملك واستأنف العزم وبعث معهم حصنة من العسكر تحصل بها الكفاية وتتأتى بها المدافعة والممانعة مع جماعة وافرة من البنانيين والمهندسين وحملهم ما يحتاجون إليه من آلة وغيرها فانتهوا إلى الموضوع المذكور بعد سبع سنين من مقدمهم الأول وتحنينا غفلة أهل البلاد وشرعوا في بناء حصن مربع على كل ربع منه برج وثيق ودابوا في العمل ليلا ونهارا فلم تمض مدة يسيرة حتى فرغوا منه وامتنعوا على المسلمين به وكان إنشاؤهم لهذا الحصن على البريجة القديمة بأن جعلوها أحد أرباعه وأضاقوا إليها ثلاثة أرباع آخر وأداروا السور على الجميع واتخذوا في داخل هذا الحصن ماجلا عظيما لحزن الماء وهو النظفية في لسان الجبل بنوه مربعا بترتيب الحصن مساحة كل ربع منه مائة وثلاثون شبرا وجوانبه وقبوه من حجر النصف العجيب

النحت المحكم الوضع والالتزام محمولاً ذلك القبو على ستة أقواس في كل ربع قال هذا المؤلف وامتلاء نحو بلكاظة من هذا الماجن يسع عشرين بوظة من الماء ثم شيدوا على أحد أرباع هذا الحصن طريا عظيماً مرتقعا جدا ليس صادق الترتيب ولا الاستدارة غير مهندس الشكل ثم بنوا في أعلاه على أحد جوانبه بناء آخر لطيفا مستديرا صاعدا في الجويرقي إليه على مدارج لطيفة وجعلوا في أعلاه صاربا خارجا من جوفه وتاقوسا للحراسة يشرف الحارس منه على نحو خمسة وعشرين ميلا من سائر جهاته وجميع هذه البناءات التي ذكرها المؤلف من الحصن وما معه لا زالت قائمة العين والأثر إلى الآن إلا الطري فإنه قد اتخذ في هذه الأيام التي هي سنة سبع وتسعين ومائتين وألف منارا للمسجد الجامع وذلك أن عامل الجديدة في هذا العصر وهو الرئيس الفاضل أبو عبد الله محمد بن إدريس الجراري حفظه الله استأذن الخليفة وهو السلطان الأعظم المولى الشريف أبو علي الحسن بن محمد العلوي نصره

الله في جعله منارا لكون المنار القديم قصيرا لا يسمع الناس الأذان فأذن أعزه الله في ذلك وهذا العامل اليوم جاد في إصلاحه والزيادة فيه وقد أشرف على التمام وكذلك استأذن هذا العامل حضرة السلطان المذكور في إدارة جدار من داخل سور المدينة يكون سترة على منازل أهلها وبيوتهم لأن السور المذكور كان مرتقعا على البلد بحيث يكون الصاعد عليه متكشفا على البيوت واستأذنه في إصلاح القبة المشرفة على البحر المعروفة بقبة الخياطين وكانت قد تلاشت وبتخاذ سجن متسع محكم عن يمين الداخل من باب المدينة المذكورة لأنه لم يكن بها سجن معتبر فأجابته الخليفة المذكور إلى ذلك كله أدام الله علاه وقد تم جل ذلك وعادت القبة إلى أحسن حالاتها التي كانت عليها أيام البرتغال والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ولنرجع إلى موضوعنا الذي كنا فيه فنقول ثم شرع نصارى البرتغال بعد الفراغ من الحصن المذكور في إدارة سور المدينة على أوثق وجه وأحكامه وذلك أنهم عمدوا إلى بقعة مربعة من الأرض مساحة كل ربع منها ثلاثمائة وخمس وسبعون خطوة وجعلوا مركزها الحصن المذكور ثم أداروا بها سورين عاديين ثخن الخارج منهما نحو خمسة عشر شبرا والداخل على نحو الثلاثين منه وبينهما فضاء مردوم بالتراب والحجارة الصغيرة فصار السوران بذلك سورا واحد سعته خمسون شبرا وهذا في غير الربع الموالي للبحر أما هو فليس فيه ردم وإنما هو سور واحد مصمت أضيق مما عدها يسيرا وارتفاع هذه الأسوار من داخل البلد نحو ستين شبرا ومن خارجه نحو السبعين ثم أداروا خارج السور خندقا سحبا وجعلوا عمقه أربعة عشر شبرا بحيث بلغوا به الماء وإذا فاض البحر ملاً ما بين جوانبه واتخذوا للمدينة ثلاثة أبواب أحدها للبحر وهو باب المرسى وقد سد بالبناء في هذه السنين واثنان للبر وجعلوا أمامهما قنطرتين بالعمل الهندسي بحيث ترفعان وتوضعان وقت الحاجة إلى ذلك فصارت المدينة بهذا كله في غاية المناعة

وكان بنو وطاس في هذه المدة أشغل من ذات النحيين مع برتغال سبته وطنجة وسائر بلاد الهبط فلذا تأتي لهؤلاء النصارى أن يفعلوا ما فعلوه في هذه المدة اليسيرة وجعلوا داخل المدينة خمس حارات وسموا كل حارة باسم كبير من قدمائهم على عاداتهم في ذلك واتخذوا بها أربع كنائس واتخذوا المخازن والأهراء للاختزان وسائر المرافق ومن جعلتها هرى كان يسع ستمائة فينكة من الحب وأوطنوها بأهلهم ووعيالهم وكان فيها جماعة من أشرفهم وذوي بيوتاتهم من أهل أشبونه وغيرها وكانوا يعدون فيها أربعة آلاف نفس ما بين المقاتلة والعيال والذرية وكانوا يأملون الاستيلاء منها على مراكش فخبب الله رجاءهم ثم ذكر هذا المؤلف ما كان يقع بين المسلمين ونصارى الجديدة من الحروب والغارات مما لعنا نشير إلى بعضه في محله إن شاء الله استيلاء البرتغال على سواحل السوس وبنائهم حصن فونتي قرب أكادير وما قيل في ذلك ذكر بعض المؤرخين من الفرنج أن استيلاء البرتغال على أكادير كان في مدة ملكهم منويل المذكور أنفا وإن ذلك كان على حين غفلة من أهل تلك البلاد قال منويل لما علم طاعية البرتغال منويل أن مرسى أكادير جيدة لمناعتها وكثرة تجارتها بسبب مجاورتها لقيانل السوس أراد الاستيلاء عليها وكان يظن أن ذلك لا يتأتى له لحصانتها وكثرة القبانل المجاورين لها ثم خاطر وبعث إليها جيشا فاستولوا عليها على حين غفلة من أهلها وحصنوها وبنوا بها دورا وبرجا جيدا وأخذوا في التجارة بها مع أهل السوس وكثرت أرباحهم ثم لما ضعفت شوكتهم خرجوا عنها وعن أسفي وأزمر قلت مراده بأكادير حصن فونتي القريب منه وإلا فأكادير إنما بني بعد هذا التاريخ

بكثير كما سيأتي ثم مقتضى ما ذكره أن يكون زمان استيلائهم عليه موافقا أو قريبا لزمان استيلائهم على البريجة ومقتضى ما نقله في النزهة عن ابن القاضي أن يكون استيلائهم عليه في حدود سنة خمس وسبعين وثمانمائة فإنه لما وصف حال السلطان محمد الشيخ السعدي الآتي ذكره إن شاء الله قال وكان له بخت عظيم في الجهاد فتح حصن النصارى بسوس بعد أن أقاموا به اثنتين وسبعين سنة اه وكان فتحه إياه في حدود سبع وأربعين وتسعمائة والظاهر أنهم استولوا على بعض حصون السوس في التاريخ الأول وعلى بعضها في الثاني والله أعلم وفاة السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمه الله ذكر ابن القاضي في الجذوة أن وفاة السلطان المذكور كانت سنة عشر وتسعمائة قال ومن حملته وزرانه أخوه الناصر بن أبي زكرياء والله أعلم وولي الأمر من بعده ابنه محمد البرتغالي على ما نذكره الخبر عن دولة السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتغالي رحمه الله لما توفي السلطان محمد الشيخ بوبع ابنه محمد البرتغالي في التاريخ المتقدم وكان نصارى سبته وطنجة وأصيلا قد استحوذوا على بلاد الهبط وضابقوا المسلمين بها حتى ألجأهم إلى قصر كتامة فكان هو الثغر يومئذ بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى كما مر وكان السلطان محمد هذا قد عني بجهادهم وترديد الغزو إليهم والإجلاب عليهم حتى شغل بذلك عن البلاد المراكشية وسواحلها فكان ذلك سببا لظهور الدولة السعدية بها سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما نذكره إن شاء الله

استيلاء البرتغال على ثغر أسفي حرسه الله قال منويل كان البرتغال قد تشوفوا للاستيلاء على أسفي وكان أهلها فيهم شجاعة أكثر من غيرهم من أهل الثغور فزحفوا إليها وجرى بينهم وبين أهلها قتال شديد هلك فيه عدد كبير من البرتغال وعظم عليهم أن تمتنع منهم بلدة صغيرة ليس لها حامية سوى أهلها ثم طاولوها بالحصار حتى قل القوت عند أهل أسفي وأشرفوا على الهلاك فحينئذ شرطوا البرتغال وأسلموها إليهم على الأمان فاستولوا عليها وحصنوها غاية لتوقعهم كرة المسلمين عليهم فكان كذلك فإنهم زحفوا إليهم بعد ثلاث سنين من أخذها ووقع بينهم وبين البرتغال حرب شديدة كانت صفوف المسلمين تترادف فيها كأموج البحر وقتل قواد عسكر البرتغال وكبارهم ثم قدمت عليهم شكواده من مادرة بالعسكر والزداد فقويت نفوس البرتغال وارتحل المسلمون عنها بعد أن أشرفوا على الفتح وتبعهم البرتغال لينتهزوا فيهم الفرصة فكر المسلمون عليهم واستلبوهم وهذا أول حصار كان على أسفي ثم بعد سنين قلائل زحف المسلمون إليها أيضا ومعهم عدد من المدافع وقاتلوا قتالا صعبا وزحفوا إلى السور فهدموا منه ثلثة كبير واشتد القتال عليها بما خرج عن العادة ثم رحل المسلمون من غير فتح وأعرضوا عنها مدة لم يحدثوا أنفسهم بالقتال وعمرت أسفي بالنصارى وانتقل إليها التجار وبنوا بها الدور وكانوا يسفون منها الحب ويحملونه في السفن إلى بلادهم ولعل ذلك لهجنة كانت لهم مع المسلمين ثم عادت للمسلمين بعد نحو ثلاث وعشرين سنة وقال الشيخ أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن ما نصه قرأت بخط شيخنا أبي عبد الله القصار أن صاحب أسفي أخرج الشيخ أبا عبد الله محمد بن سليمان الجزولي منها فدعا عليهم فسئل منه العفو فقال أربعين سنة فأخذها النصارى بعدها اه وهذا يقتضي أن استيلاءهم عليها كان في حدود

عشر وتسعمائة لأن وفاة الشيخ الجزولي رحمه الله كانت في سنة سبعين وثمانمائة كما مر وعند الفرنج ما يقتضي أن استيلاءهم عليها كان بعد ذلك بسنتين أو ثلاث والله أعلم زحف السلطان أبي عبد الله البرتغالي إلى أصيلا قال منويل لما أفضى الأمر إلى السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي أراد أن يأخذ بثأره من البرتغال الذين أسروه لسبع سنين فزحف إلى أصيلا في حدود أربع عشرة وتسعمائة وحاصرها وطال قتاله عليها ثم اقتحمها المسلمون عليهم اقتحاما واقتتلوا في وسط الأزقة والأسواق يومين ثم جاء المدد إلى البرتغال من طنجة وجبل طارق فقويت نفوسهم وخرج المسلمون عنهم لكن ما خرجوا حتى هدموها وأحرقوها ولم يتركوا لهم بها إلا الخربات ثم جد البرتغال في إصلاحها وأقاموا بها برهة من الدهر إلى أن رجعت للمسلمين استيلاء البرتغال على ثغر أزمر حرسه الله قال منويل بعث طاعية البرتغال أربع عشرة وتسعمائة إلى ثغر أزمر شكواده فيها ألفان من العسكر وأربعمائة خيالة فدافعهم زيار الوطاسي ابن عم السلطان ونشبت مراكب البرتغال في الساحل وتكسر جملها وعات

فيها المسلمون ورجع الباقي مفلولا ثم بعد أربع سنين بعث إليها الطاغية منوئيل شكوارده فيها عشرون ألفا من العسكر وألفان وسبعمئة خيالة فانتهموا إلى أزمور وحاصروها بحرا وزحفوا إليها من الجديدة برا ووقع حرب شديدة بينهم وبين أهل أزمور وأهل البادية ثم انهزم المسلمون وخرجوا من باب تركه لهم البرتغال قصدا قال لأنه يقال في المثل الفار منك في الحرب

اجعل له قنطرة من فضة يعبر عليها وقال في النزهة كان نزول النصارى بأزمور سنة أربع عشرة وتسعمائة قال وفي هذه السنة بنى النصارى حجر باديس وفي أواخر المحرم منها أخذ النصارى يعني الإصينبول مدينة وهران ونكبوا أهلها فما منهم إلا أسير أو قتل إلى أن أعادها الله للإسلام على يد الأتراك في حدود العشرين ومائة وألف اه قتل أهل أزمور يزعمون أن استيلاء البرتغال على مدينتهم كان متكررا وسيأتي ما يفهم منه ذلك والله أعلم ومن أخبار السلطان أبي عبد الله ما وقعت عليه في تاريخ البرتغاليين من أن السلطان المذكور كتب لطاغيتهم منوئيل يطلب منه أن يتقدم بالوصاية لأصحاب قراصينه البحرية أن لا يتعرضوا لمركبين له كان قد عزم على بعثهما إلى الجزائر ثم منها إلى تونس وكان الطاغية لم يجبه أو أبطأ بالجواب فكرر إليه الكتاب ثانيا في القضية المذكورة وسرد هذا المؤرخ نص الكتابين معا مترجمين بلغته وذكر أن تاريخ الأول منهما الثالث والعشرون من جمادى سنة عشرين وتسعمائة وتاريخ الثاني الثامن والعشرون من ذي القعدة من السنة اه استيلاء البرتغال على ثغر المعمورة حرسه الله قال في نشر المثاني إن الذي اختط حصن المعمورة هو المهدي الشيعي على يد بعض عماله وزعم بعض الفرنج أن المعمورة من بناء يعقوب المنصور الموحد قال ولما كان زمن منوئيل البرتغالي بلغه أن مينا المعمورة جيدة وبلادها نفاة فبعث إليها طائفة من جنده فوصلوا إلى ساحلها ونزلوا في البر المقابل لها وبنوا هناك برجاً لحصارها ثم أرفههم ملكهم المذكور بعمارة تشتمل على مائتي مركب مشحونة بثمانيات ألف

من المقاتلة قال وكان خروج هذه العمارة من مدينة أشبونة في اليوم الثالث عشر من يونيو العجمي سنة ألف وخمسمائة وخمس عشرة مسيحية قلت يوافقها من تاريخ الهجرة تقريبا سنة إحدى وعشرين وتسعمائة فوافقت مينا المعمورة في الثالث والعشرين من يونيو المذكور وحاصروها وألحوا عليها بالقتال أياما وبلغ الخبر بذلك إلى السلطان أبي عبد الله البرتغالي فبعث أخاه الناصر صريخا في جيش كثيف فوصل سادس أغسطس من السنة المذكورة وقاتل البرتغال قتالا شديدا وهزمهم هزيمة قبيحة ثم كانت لهم الكرة على المسلمين فهزمهم واستولوا على المعمورة وثبت قدمهم بها وحصنها بالسور الموجود بها الآن واستمروا بها نحو خمس سنين ثم استرجعها المسلمون منهم في دولة السلطان المذكور والله تعالى أعلم وفي السنة التي استولوا على المعمورة رجعوا إلى موضع مدينة أنفي فشرعوا في بنائها ومن يومئذ سميت الدار البيضاء ويقوا بها مدة طويلة إلى زمن السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل على ما زعم منوئيل أخبار السلطان أبي عبد الله البرتغالي مع الشيخ أبي محمد الغزواني رضي الله عنه أصل الشيخ أبي محمد عبد الله الغزواني دفين حومة القصور من مراکش من غزوان قبيلة من عرب تامسنا وكان في ابتداء أمره يقرأ العلم بمدرسة الوادي من عودة الأندلس بفاس فحصلت له إرادة فسافر إلى مراکش ولازم الشيخ التباع وتخرج به ثم انتقل إلى بلاد الهبط فنزل بها على قبيلة يقال لهم بنو فنكار واجتمع عليه الناس واشتهر أمره وعظم صيته فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله وكان يومئذ ببلاد الهبط قد خرج إليها بقصد الغارة على نصارى أصيلا وكان معه في هذه الحركة الشيخ أبو عبد الله محمد بن غازي الإمام المشهور فتوهم السلطان المذكور من أمر الشيخ الغزواني وخشي

على الدولة عاقبة أمره وأغراه به مع ذلك الفقيه ابن عبد الكبير البادسي السفياني الأصل وكان هذا الفقيه يصحب الولاة والعمال ويخرج في بعوثهم قاضيا فكثرت سعايته بالشيخ حتى وقر ذلك في نفس السلطان فبعث إليه فحضر وأمر بالقبض عليه بالموضع المعروف بتجانوات وجعله في سلسلة وبعث به إلى فاس وتقدم في شأنه إلى ابن شقرون صاحب شرطته بقصبة فاس القديم وكان الشيخ ابن غازي قد مرض في هذه الغزوة وأمر السلطان بحمله إلى منزله من فاس فلما وصل إلى قرب عقبة المساجين اشتد به الحال وأمر أصحابه أن يريحوا به هنالك فبينما هو كذلك إذ مر به الشيخ الغزواني في سلسلته فسأل الموكلين به أن يعوجوا به على الشيخ ابن غازي كي يعوده ويؤدي حقه فلما وقف عليه طلب ابن غازي منه الدعاء فدعا له بخير وانصرف فلما غاب عنه قال ابن غازي لأصحابه احفظوا وصيتي فإني راحل عنكم إلى الله تعالى بلا شك قالوا له يا سيدي ما عندك باس فقال إن الله وعدني أن لا يقبض روحي حتى يريني وليا من أوليائه وقد أرانيه الساعة فدلني ذلك على انقضاء الأجل فحملوه من حينه إلى منزله فكان آخر العهد به هكذا ساق هذا الخبر صاحب الوحة في ترجمتي للشيخين المذكورين وكانت وفاة ابن غازي في أواخر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وتسعمائة وقال صاحب المرأة عن بعض شيوخه بعد أن ذكر سعيه ابن عبد الكبير بالشيخ الغزواني ما نصه فحرك الشيخ الغزواني لزيارة ضريح الشيخ أبي سلهم فعرض له العروسي قائد القصر الكبير وناوله كتاب السلطان يأمره فيه بقدم الشيخ إلى فاس دار الملك إذ ذلك فقال له الشيخ طاعة السلطان واجبة وقال للزائرين معه بلغت النية فتوجه الشيخ إلى فاس من ذلك المكان وكلمتا بات في منزل ذهب جماعة من الذين معه فلم يصل معه إلا القليل وكان الشيخ أبو البقاء عبد الوارث البالصوتي إذ ذاك ساكنا بفاس

ولم يكن صحب الشيخ قبل ذلك فلما دخل الشيخ حضرة فاس لقيه أبو البقاء المذكور فسلم عليه فشد الشيخ يده على يده فلم يرسلها حتى عاهده على الرجوع فلما انفصل عنه اشترى خبزا وعنبا وحمل ذلك إلى الشيخ وأصحابه فوجدهم عند القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله البغرني المكناسي وهو مؤلف المجالس المكناسية فوجدهم في المسجد القريب من دار القاضي المذكور بدرب السعود فنالهم ما معه ووجد الشيخ موكلا به وأصحابه يدخلون ويخرجون ثم دخل القاضي على الشيخ بالمسجد فقال له ما هذا الذي يذكر عنك قال أبو البقاء فتكلمت أنا وقلت إن هذا الرجل قد نزل بلدا عظيمة المناكر وأخذت أعدد مناكرها وصار هذا السيد ينهاهم عن ذلك فهدي الله على يده من هدى وشنته من أبي ققام القاضي وركب إلى دار السلطان ثم رجع إلى منزله فبات ومن الغدر ركب إلى دار السلطان أيضا ومعه الشيخ الغزواني فلما اطمأن بهم مجلس السلطان وكان فيه صاحب تازا وهو أبو العباس أحمد ابن الشيخ أخو السلطان المذكور سكت الجميع وتكلم كاتب السلطان وإمام صلاته قال صاحب المرأة ولم يسم لنا فقال للشيخ ما هذا الذي يذكر عنك فقال له الشيخ أنت لا تتكلم حتى تغتسل من جنابتك فاستشاط الكاتب غضبا فقال له أخو السلطان هؤلاء القوم يعنون الجنابة غير ما تعنيه العامة يشير إلى ما في الحكم فقال له السلطان ومن أين تعرف هذا فقال له من سيدي محمد بن عبد الرحيم بن يجيش ففرح السلطان بمعرفة أخيه ذلك وقال للشيخ نحن نريد قربك وأن تكون معنا في هذه المدينة فقال له على بركة الله فانتقل إلى فاس القديم وبنى خارج باب القليعة داخل باب الفتوح وأقام هنالك ما شاء الله قيل سبع سنين إلى أن كانت سنة تعذر فيها المطر وأخذ الناس في استخراج السواقي للحرث فأخرج الشيخ من وادي اللين ساقية لم يكن

في سواقي السلطان وغيره مثلها فبعث إليه أخوه السلطان وهو الناصر الملقب بالكديد بالكاف المعقودة والذال المشددة على لغة العامة وقال له نحن أحق بتلك الساقية فقال له الشيخ خذها وأخذ في الرحيل إلى مراکش ولما توجه تلقاءها أخذ خنيفه في يده وجعل يشير به من جهة فاس إلى جهة مراکش ويقول أيا يا سلطنة إلى مراکش قال صاحب المرأة هذا حديث شيخنا أبي عبد الله النيجي قال وأخيف معروف وهو نوع من البرانس السود ومعنى أيا بلغة عامة المغرب سيرى معي وموضع بني فنكار أظنه تاصروت فإن بها رسما منسوباً إليه إلى الآن وأنه منزله الذي كان يأتي إليه وما زالت آثاره هنالك والدار التي بنى بباب القليعة هي المتصورة إلى تلميذه الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الهروي المعروف بالطالب ولعل سنة إخراج السواقي هي سنة ست وعشرين وتسعمائة فإنه قد تعذر فيها المطر وحدث الغلاء الكبير المؤرخ بسنة سبع وعشرين وتسعمائة وكأنه أشار إلى انتقال السلطنة عن بني وطاس ملوك فاس إلى الشرفاء السعديين ملوك مراکش يومئذ والله أعلم نهوض السلطان أبي عبد الله البرتغالي إلى مراکش ومحاصرتة أبا العباس الأعرج السعدي بها قد تقدم لنا أن ظهور الدولة السعدية ببلاد السوس كان في سنة خمس عشرة وتسعمائة وما زال أمرهم في الزيادة إلى أن كانت دولة أبي العباس الأعرج منهم فاستفحل أمره وبعد صيته وفتك بنصارى السوس فكاتبه أمراء هنتاة أصحاب مراکش ودخلوا في طاعته فانتقل إليها وملكها في حدود الثلاثين وتسعمائة ولما اتصل خبره بالسلطان أبي عبد الله وهو يومئذ بفاس

قامت قيامته وأقبل في جموع عديدة ومعه وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر كذا في النزهة والذي عند غيره أن الوزير الذي جاء معه هو الناصر

أخو السلطان المذكور ولما رأى أبو العباس السعدي ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة فتقدم السلطان أبو عبد الله ونصب الأنفاض على مراكش ودام الحصار عليها أياما فيحكى أنه قيل للشيخ أبي محمد الغزواني وكان قد استوطن مراكش يومئذ أن أهل مراكش سئموا الحصار فركب الشيخ في جماعة من أصحابه وخرج من باب فاس المعروف اليوم بباب الخميس فوجد رماة السلطان أبي عبد الله يرمون من علا الأسوار من أهل البلد فوقف الشيخ ينظر فجاءت رصاصه ضربت صدره وخرقت الجبة التي عليه والتصقت بلحمه كأنها وقعت في صخرة صماء فقبض عليها بيده وقال هذه خاتمة حربهم ثم رجع إلى منزله فوردت الأنباء على السلطان أبي عبد الله في تلك الليلة بأن بني عمه قد قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوتهم فأصبح من الغد راحلا إلى فاس وظهر مصداق ما قال الشيخ الغزواني ولم يعد لبني وطاس وصول بعدها إلى مراكش ولا إلى أعمالها والله تعالى أعلم ذكر وزراء السلطان أبي عبد الله وما قيل فيهم كان من جملة وزرائه ابن عمه المسعود بن الناصر وهو الذي زحف معه إلى مراكش على ما في النزهة وكان من جملة وزرائه القائمين بأمره أخوه الناصر بن محمد الشيخ المعروف عند عامة فاس بأبي علاقة وبالكنيد على ما مر قال في الجذوة لقب بذلك لكثرة سفكه الدماء وإقدامه عليه فكان يقتل الناس ويجزهم كثيرا وكذا بمكناسة أيام وزارته بها كذا حدث غير واحد ممن أدركه ورآه وتوفي الوزير المذكور سنة ثلاثين وتسعمائة وفاة السلطان أبي عبد الله رحمه الله كانت وفاة السلطان أبي عبد الله البرتغالي سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة على ما في الجذوة ويؤخذ من النزهة أنها كانت سنة اثنتين وثلاثين بعدها والله أعلم وولي الأمر من بعده أخوه أبو حسون بولاية عهده إليه

الخبر عن الدولة الأولى للسلطان أبي حسون بن محمد الشيخ الوطاسي هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيار الوطاسي ويعرف بأبي حسون البادسي قال في النزهة ببيع فاس سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ثم قبض عليه ولد أخيه أبو العباس أحمد بن محمد البرتغال وخلعه وأشهد عليه بالخلع آخر ذي الحجة من السنة المذكورة انتهى الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي رحمه الله تعالى هو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد البرتغالي ابن أبي عبد الله محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي ببيع يوم خلع عمه أبي حسون آخر ذي الحجة من سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة قال ابن القاضي وقد رأيت البيعة التي كتبت له بخط الإمام أبي محمد عبد الواحد ابن أحمد الوائشريسي من إنشائه وعليها خطوط جماعة من فقهاء فاس كأبي العباس الحباك والفقيه أبي العباس أحمد الماوسي وغيرهما اه قال أبو عبد الله البغدادي في النزهة وانظر ما وجه كتب البيعة لأحمد مع أن خلع أبي حسون لم يكن لموجب والوائشريسي من أهل الورع وقال ولعله لأمر لم يظهر لنا والله أعلم اه وقال ابن عسك في الدوحة لما توفي السلطان أبو عبد الله البرتغالي ودالت الدولة لولده السلطان أبي العباس أحمد وغص بالشرقاء القائمين عليه ببلاد السوس وزوجهم بهم عقد الهدنة مع النصارى المحاورين له ببلاد الهبط وصاحبهم سلطان البرتغال فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله محمد بن يحيى البهلولي وكان له رغبة في الجهاد وممن له وصلة بالسلطان أبي عبد الله فكان إذا جاءه زائرا حضه على الغزو

فيساعده على ما أراد من ذلك فلما بلغ الشيخ المذكور ما عقده السلطان أبو العباس من الصلح آلى على نفسه أن لا يقبل السلطان المذكور ولا يمضي إليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وقوت عياله فمكث على ذلك إلى أن حضرته الوفاة وكان في النزاع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم يا سيدي أخبرك أن السلطان أمر بالغزو وأمر بالنداء به وحض الناس عليه والمسلمون في شره لذلك وفرح ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحا وحمد الله وأثنى عليه ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك اه وقعة أنماي بين الوطاسيين والسعديين قد تقدم لنا في خبر السلطان أبي عبد الله أنه لما حاصر مراكش وأصابته الرصاصه الشيخ الغزواني قال هذه خاتمة حربهم ولم يعد لبني وطاس وصول إلى مراكش ولا إلى أحوازها قال في النزهة فكان أبو العباس الأعرج يتلاقى مع أبي العباس الوطاسي بتادلا وأحوازها قال وكانت بينهما معركة بموضع يقال له أنماي وذلك في ذي القعدة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فافترقا على اصطلاح اه وأنماي موضع قرب مراكش به زاوية الشيخ أبي العزم رحال الكوش

عقد الصلح بين السلطانين أبي العباس الوطاسي وأبي العباس السعدي رحمهما الله تعالى لما رأى أهل المغرب ما وقع بين السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي صاحب فاس وأبي العباس أحمد السعدي المعروف بالأعرج صاحب مراكش من التقاتل على الملك والتهالك عليه وفناء الخلق بينهم دخلوا في الصلح بينهم والتراضي على قسمة البلاد وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء منهم أبو حفص عمر الخطاب دفين جبل زرهون وأبو الرواين المحجوب دفين مكناسة الزيتون وكان صاحب حال وجذب فجعل الناس يوصونه بالسكوت مخافة أن يفسد عليهم أمرهم فلما دخلوا على أبي العباس الأعرج وأخيه وزيره محمد الشيخ وتكلموا فيه جاءوا لأجله وجدوا فيها شدة وغلظة وامتناعا من مساعدتهم على ما أرادوا فحلف أبو حفص الخطاب لا دخلوها يعني فاسا ما دمت على وجه الأرض فما دخلوها حتى مات بعد مدة فكان بعضهم يقول لو كان بنو وطاس يعرفون شيئا ما دفنوا أبا حفص الخطاب يعني لتركوه في تابوت على وجه الأرض لأنه حلف لا دخلوها ما دام على وجه الأرض حكاها صاحب متمتع الأسماح وذكر في شرح زهرة الشماريخ أن الصلح انبرم بين الطانقتين على أن للأشراف من تادلا إلى السوس ولبني وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط وإن ممن حضر الصلح المذكور قاضي الجماعة بفاس أبا الحسن علي بن هارون المطغري بالطاء المهمة مطغرة تلمسان والإمام الشهير أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الوائشريسي وغيرهما من مشايخ فاس ويذكر أنه لما تواطأت كلمة الحاضرين على الصلح وعقدوا شروطه وهذات الأصوات وسكن اللجاج أتى بدواة وقرطاس ليكتب الصلح فما وضعت الدواة بين يدي أحد الفقهاء الحاضرين إلا وجم وانقبض ودفعتها عن نفسه استحياء في ذلك المحفل أن يكتب ما لا يناسب الجهتين فقام قاضي الجماعة المذكور وأخذ الدواة وأسودها ووضعها بين يدي أبي مالك

المذكور فأنشأ أبو مالك في الحين خطبة بليغة ونسج الصلح على منوال عجيب واخترع أسلوبا غريبا تحير فيه الحاضرون وعجبوا من ثبات جأشه وجموم قريحته في مثل ذلك المشهد العظيم الذي تخرس فيه ألسن الفصحاء هيبه وإكبارا فقام قاضي الجماعة وقبلة بين عينيه وقال جزاك الله عن المسلمين خيرا وما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر وكان ذلك كله في حدود أربعين وتسعمائة اه غزوة الحمر قرب أصيلا حرسها الله ذكر صاحب الدوحة في ترجمة الشيخ أبي الحسن علي بن عثمان الشاوي رحمه الله أنه استشهد في وقعة الحمر التي كانت في حدود أربعين وتسعمائة بين النصارى والقائد عبد الواحد بن طلحة العروسي على مقربة من أصيلا قال حدثني غير واحد ممن يوثق به ممن حضر الوقعة وبعضهم يصدق بعضا قالوا لما انهزم الناس استقبل الشيخ أبو الحسن النصارى وسيفه في يده وهو يثلو بردة البوصيري فكان ذلك آخر العهد به ولما رجع الناس من الغد ليجملوا قتلاهم لم يوقف له على عين ولا أثر وإنما وجد غنبا من لباسه عند النصارى وفيه أثر طعنة في صدره اه كلام الدوحة وفي المرأة أن الشيخ المذكور مات في حياة شيوخه الغزواني شهيدا في الجهاد سنة خمس وعشرين وتسعمائة اه ولعله الصواب والعروسي المذكور هو من أمراء بني عبد الحميد العروسيين أصحاب قصر كتامة وكانت لهم رئاسة وسياسة وجهاد في العدو إلى أن انقضى أمرهم أعوام الخمسين وتسعمائة قال في الدوحة أخبر غير واحد من فقهاء قصر كتامة أن الشيخ أبا الرواين جاء إلى القصر وصاحبه يومئذ القائد عبد الواحد العروسي في عصبه من أقاربه أولاد عبد الحميد فصعد أبو الرواين صومعة المسجد ثم نادى بأعلى صوته يا بني عبد الحميد اشتروا مني القصر وإلا خرجتم منه

في هذه السنة فسمع القائد عبد الواحد ذلك فقال إن كان القصر له أو بيده فلينزع منا ما بقي لنا إلا كلام الحمقى نلتفت إليه ومن الغد خرج الشيخ أبو الرواين من البلد وهو يقول القائد عبد الواحد وأهله يخرجون من القصر ولا يعودون إليه أبدا فكان كذلك بقدرة الله تعالى وقعة أبي عقبة بوادي العبيد وما كان فيها بين الوطاسيين والسعديين من القتال الشديد هذه الوقعة من أعظم الوقعات التي كانت تكون بين الوطاسيين والسعديين وما زالت العامة تتحدث بها في أنديةها إلى الآن ويبالغون في وصفها والأخبار عنها وقد ذكرها شعراؤهم في أزجالهم الملحونة وهي محفوظة فيما بينهم

وذلك أنه لما طمى عباب السعديين على بلاد الحوز وكادوا يلجون على الوطاسيين دار ملكهم من فاس نهض إليهم السلطان أبو العباس الوطاسي أواخر سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة بجر الشوك والمدر في جمع كثيف من الجند وقبائل العرب في حلقها وطمعها وجاء أبو العباس السعدي في قبائل الحوز بحلقها وطمعها كذلك فكان اللقاء بمشروع أبي عتبة أحد مشارع وادي العبيد من تادلا فنشبت الحرب وتقاتل الناس وبرز أهل الحفاظ منهم والترث وقاتل الناس على حرمهم وأحسابهم وعزهم فأفنى بعضهم بعضا إلا قليلا ودامت الحرب أياما على ما قيل إلى أن كانت الهزيمة على الوطاسيين عشية يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة قال في الجذوة فرجع السلطان أبو العباس الوطاسي إلى فاس وبقيت محلته وقصبة تادلا بين الشريف السعيد قال وتسمى هذه السنة سنة أبي عتبة وقال في المرأة ومما اشتهر من كرامات الشيخ أبي طلحة محمد المصباحي الشاوي الزناتي أنه لما التقى مقاتلة فاس وسلطانهم أبو العباس أحمد الوطاسي ومقاتلة مراكش وسلطانهم أبو العباس أحمد الأعرج ومعه

أخوه المتولي بعده أبو عبد الله محمد الشيخ سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة على مشروع أبي عتبة من وادي العبيد انهزم السلطان أبو العباس الوطاسي وتفرقت جموعه وتبعته الخيل فكانوا يقبضون عليه فحضر هنالك رجل على فرس أنثى فجعل يحول بينه وبينه ويقول له سر يا أحمد ولا تخف ولم يزل معه إلى أن رجعوا عنه وأمن الطلب وقد عرف السلطان صفته وتحققها ولم يزل يسأل عن صاحب تلك الصفة حتى قيل له هذه صفة أبي طلحة المصباحي وتحقق ذلك ولما كان خروج السلطان المذكور الذي وصل فيه تطاوين وتزوج بها الحرة بنت الأمير السيد أبي الحسن علي بن موسى ابن راشد الشريف وذلك في ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وبنطاوين بنى بها وقصد أباه طلحة المذكور ونزل عليه فلما راه عرفه وأيقن أنه الرجل الذي أغاثه فأكب عليه السلطان وذكر ما وقع له معه فقال الشيخ يا رب كيف العيش مع هذه الشهرة فاقبضني إليك فمات عقب ذلك من سنته قال في المرأة سمعت هذه الحكاية من غير واحد وسألت شيخنا أبا القاسم بن أبي طلحة المذكور فقال لي أعدل مجيء السلطان وأنا صغير جدا أفعد في حجر أبي وعند ركبته اه قلت والأمير أبو الحسن بن راشد المذكور هو الذي اختط مدينة شفشاون كما مر وذكر في المرأة أن وفاته كانت سنة سبع عشرة وتسعمائة فيكون السلطان المذكور إنما تزوج ابنته بعد وفاته ولعله خطبها من أخيها الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن والله أعلم وأعلم أن ما سلكتها هنا من تقديم قضية الصلح على وقعة أبي عتبة هو ما يقتضيه التاريخ الذي صرحوا به وسبأني بعد هذا ما ربما يفهم منه أن الأمر بالعكس والجواب أن قضية الصلح تكررت حسبما يؤخذ مما مر والله أعلم وفي هذه السنة أيضا عقد السلطان أبو العباس الوطاسي مع برتقال أسفي صلحا على ثلاث سنين ودخل في هذا العقد أسفي والجديدة وأزمور وكتب البرتغال بذلك إلى ملكهم ووقعت المحادة في البلاد وتفرغ الوطاسي لقتال السعديين

بناء السلطان أبي العباس الوطاسي قنطرة الرصيف بفاس حرسها الله كان السلطان أبو العباس أحمد الوطاسي قد جدد بناء قنطرة الرصيف بحضرة فاس وذلك منتصف سنة إحدى وخمسين وتسعمائة وفي ذلك يقول الفقيه أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشرسي مشيرا إلى التاريخ المذكور جسر الرصيف أبو العباس جدده فخر السلاطين من أبناء وطاس فجاء في غاية الإقتان مرتفقا لمن يمر به من عدوتي فاس وكان تجديده في نصف عام غنا من هجرة المصطفى المبعوث للناس وقال الفقيه أبو مالك أيضا أيا أهل فاس سدد الله سدكم برأي أبي العباس حامي فاس وأحبي به أشجاركم وتماركم على رغم قوم منكربين من الناس فدام ودام السعد يخدم مجده وفاز من الشكر الجميل بأجناس وقال الشيخ أبو زكرياء يحيى السراج ألا سدد الله رأي الذي بتسديده سديدا حصينا وخذل في عزه ملكه وأولاه فتحا ونصرا مبينا إمام الهدى أحمد المرتضى مبيد العدا عدة المسلمينا وقال الإمام أبو الحسن علي بن هارون لقد سدد الله رأي العماد وأبطل في السد رأي الجهول وقرب ما رامه من بغداد بمولاي أحمد منحي يطول فطرده وعكسا لساني بناد عقول الملوك ملوك العقول

وقعة وادي درنة بتادلا وأسر الأمير أبي زكرياء الوطاسي ومهلكه رحمه الله ذكر في المرأة عند الكلام على أبي عبد الله محمد بن يوسف الفاسي وهو والد الشيخ أبي المحاسن رضي الله عنه أن أباه عبد الله المذكور كانت له وجهة كبيرة عند أمير القصر أبي زكرياء يحيى بن أبي عبد الله البرتغالي وهو يومئذ أخو السلطان أبي العباس الوطاسي قال فانتفع بوجاهة أبي عبد الله الفاسي خلق كثير ولم يسامح هو نفسه في نيل شيء من الدنيا بسبب ذلك الجاه إلى أن أسر الأمير أبو زكرياء المذكور في وقعة وادي درنة من تادلا للشرفاء على بني وطاس في رجب سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة ومات في تلك الليالي القريبة غما وأسفا رحمه الله قلت وكان سلطان السعديين يومئذ محمد الشيخ الملقب بالمهدي فإنه تغلب على أخيه الأعرج وانتزع منه الملك وسجنه كما يأتي إن شاء الله تعالى استيلاء السلطان محمد الشيخ السعدي على فاس وقبضه على بني وطاس ومهلكا سلطانهم أبي العباس رحمه الله تعالى بفضلهم لما غلب السلطان محمد الشيخ السعدي على أخيه أبي العباس الأعرج واستولى على مراكش طمحت نفسه للتوغل في بلاد المغرب وقراه ففترغ لحرب بني وطاس ونكث ما كان بينه وبينهم من الصلح ورموا منه بحجر الأرض وردد إليهم البيعوت والسرايا وأكثر فيهم من شن الغارات وصار يستلبهم البلاد شيئا فشيئا إلى أن استولى عليها وكان أول ما ملك من أمصار المغرب مكناسة الزيتون افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار ومقاتلة ثم تقدم إلى فاس فألح عليها بالقتال وضابقتها بالحصار مدة قريبة من السنة ثم استولى عليها بعد أن أسر سلطانها أبا العباس الوطاسي وصار في قبضته وكان دخوله إياها أوائل سنة ست وخمسين وتسعمائة ولما

دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين إلى مراكش عدا أبا حسون المخلوع فإنه فر إلى الجزائر إلى أن كان من أمره ما نذكره ثم إن الشيخ السعدي غدر ببني وطاس فيما قيل بعد أن أظهر العفو عنهم وسرح سلطانهم أبا العباس من ثقافة والله أعلم وفي الجذوة كانت وفاة السلطان أبي العباس الوطاسي بمراكش قرب سنة الستين وتسعمائة اه وزعم منويل أنه قتل مذبحا بدرعة قال زحف أبو عبد الله محمد الشيخ السعدي إلى فاس فيربز إليه أبو حسون الوطاسي وكان قائد جيش ابن أخيه ووقع بينهما قتال عظيم انهزم فيه أبو حسون إلى فاس وحاصره السعدي بها سنتين ولما قلت الأوقات وعجز الوطاسيون عن الدفاع نزلوا على حكم السعدي فقبض على أبي العباس الوطاسي وفر أبو حسون إلى الجزائر واستقل محمد الشيخ السعدي بأمر المغرب وغرب الوطاسيين إلى درعة فقتل أبا العباس الوطاسي الذي كان تلميذا له ذجا اه كلامه بقبية أخبار السلطان أبي العباس الوطاسي وسيرته كان من جملة وزراء السلطان أبي العباس المذكور ابنه محمد ومن أخباره ما ذكره في الدوحة في ترجمة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشتراني دفين مكناسة الزيتون قال من كراماته الشائعة ما اتفق له مع الوزير أبي عبد الله محمد بن السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي لما استوزره أبوه وولاه على مكناسة فكان بها فغضب ذات يوم على أحد المشاورية فهرب المشاوري إلى زاوية الشيخ أبي عثمان فبعث الوزير إلى الشيخ بأن عليه الأمان وبيعه إليه فقال له الشيخ إن شئت أن تذهب إلى سيدك فافعل فقال المشاوري يا سيدي أخاف أن يقتلني فقال الشيخ إن قتلك فانه يقتله فذهب المشاوري إلى الوزير وبقي عنده ليلتين وفي الثالثة قتله ولم يظهر له فجاءت أمه إلى الشيخ وقالت يا سيدي إن ولدي قد

قتله الوزير فقال لها سبق ذلك في علم الله وإن الآخر سيلحقه الآن يعني الوزير فوعك الوزير تلك الليلة وسلط عليه آكال في جسمه فتمزق لحمه وتقطع شينا فشيئا إلى أن هلك لليل قلائل من مرضه فاعتبر الناس والسلطان بذلك ومن ذلك الوقت زاد الأمراء وغيرهم في احترام حرم زاوية الشيخ المذكور اه وكان للسلطان أبي العباس اعتقاد في المتصلحين وأرباب الأحوال فمن فوقهم من أهل العلم والدين من ذلك ما حكاه في الدوحة أيضا في ترجمة أبي الحسن علي الصنهاجي المعروف بالدوار قال كان أبو الحسن المذكور من الملامتية وكان يدخل دور الملوك من بني وطاس فيتلقاه النساء والصبيان يقبلون بيده وقدميه فلا يلتفت إلى أحد ويعطونه الثياب الرفيعة والذخائر النفيسة ويلبسه السلطان يعني أبا العباس من أشرف لباسه فإذا خرج تصدق بجميع ذلك ويمر على حوانيت الزياتين فيعغمس أكمام الحلة التي تكون عليه ويبرقعها بالزيت أو بالسمن ولا يزال يور في الأماكن ويصرخ باسم الجلالة اه قالوا وكان السلطان أبو العباس المذكور واقفا عند إشارة الفقيه أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشرسي وهو ابن صاحب المعيار لا يتعدى أمره ولا يخالف رأيه كما وقع له في مسألة رجل إسلامي يعرف بعبد الرحمن المنجور وكان تاجرا جامعاً للمال فشهد عليه في حكاية طويلة أربعون رجلا من العدول باستغراق ذمته فأخذ السلطان أبو العباس الوطاسي وقتله وصير أملاكه لبيت مال المسلمين

فرغب أولاد المنجور من السلطان أن يؤدوا له عشرين ألف دينار ويرد إليهم أملاكهم ويسقط عنهم بيعة الاستغراق فقال السلطان لحاجبه اذهب إلى الشيخ عبد الواحد الوائشيسي وشاوره في ذلك وعرفه بأني في الحاجة إلى هذا المال لأجل هذه الحركة التي عرضت لي فذهب الحاجب إليه وأخبره بمقالة السلطان ورغبته في قبول ذلك فقال الشيخ

والله لا ألقى الله بشهادة أربعين رجلا من عدول المسلمين لأجل سلطانك اذهب وقل له إني لا أوافق على ذلك ولا أرضاه فرجع الحاجب إلى السلطان وأخبره بما قال الشيخ فرجع السلطان عما عزم إليه ونظير هذا ما اتفق له معه أيضا وهو أن الناس خرجوا يوم العيد للصلاة فانتظروا السلطان فأبطأ عليهم ولم يأت إلى خروج وقت الصلاة وحينئذ أقبل السلطان أبو العباس في أبيته فلما انتهى إلى المصلى نظر الشيخ أبو مالك فرأى أن الوقت قد فات فرقى المنبر وقال معشر المسلمين أعظم الله أجركم في صلاة العيد فقد عادت ظهرا ثم أمر المؤذن فأذن وأقام الصلاة فقدم الشيخ أبو مالك وصلى الناس الظهر فدخل السلطان أبو العباس واعترف بخطيئته رحم الله الجميع الخبر عن الدولة الثانية للسلطان أبي حسون الوطاسي رحمه الله لما دخل السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ السعدي إلى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبض على بني وطاس بها حسبما تقدم فر أبو حسون هذا إلى ثغر الجزائر حقنا لدمه ومستجيشا لتركها ومستجيشا على السعدي وكان الترك قد استولوا على المغرب الأوسط وانتزعوه من يد بني زيان كما سيأتي

فلم يزل أبو حسون عندهم يفتل لهم في الغارات والسنام ويحسن لهم بلاد المغرب الأقصى ويعظمها في أعينهم ويقول إن المتغلب عليها قد سلبنى ملكي وملك آبائي وغلبني على تراث أجدادي فلو ذهبتم معي لقتاله لكننا نرجو الله تعالى أن يتيح لنا النصر عليه ويرزقنا الظفر به ولا تعدمون أنتم مع ذلك منفعة من ملء أيديكم غنائم وذنخائر ووعدهم بمال جزيل فأجابوه إلى ما طلب وأقبلوا معه في جيش كثيف تحت راية باشاهم صالح التركماني المعروف بصالح رئيس إلى أن اقتحموا حضرة فاس بعد حروب عظيمة ومعارك شديدة وفر عنها محمد الشيخ السعدي إلى منجته وكان دخول السلطان أبي حسون إلى فاس ثالث صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة ولما دخلها فرح به أهلها فرحا شديدا وترجل هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيرا وصغيرا شريفا ووضيعا ويكي على ما دهمه وأهل بيته من أمر السعديين واستيشر الناس بمقدمه وتيمنوا بطلعه وقبض على كبير فاس يومئذ القائد أبي عبد الله محمد بن راشد الشريف الإدريسي وأطمأنت به الدار ثم لم يلبث السلطان أبو حسون إلا يسيرا حتى كثرت شكاية الناس إليه بالترك وأنهم مدوا أيديهم إلى الحریم وعاثوا في البلاد فيبادر بدفع ما اتفق معهم عليه من المال وأخرجهم عن فاس وتخلف بها منهم نفر يسير

مجيء السلطان محمد الشيخ السعدي إلى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل السلطان أبي حسون رحمه الله لما فر السلطان محمد الشيخ السعدي من وقعة الأترار بفاس وصل إلى مراکش فاستقر بها وصرف عزمه لقتال أبي حسون فأخذ في استنفار القبائل وانتخاب الأبطال وتعبية العساكر والأجناد فاجتمع له من ذلك ما أشد به أزره وقوي به عضده ثم نهض بهم إلى فاس فخرج إليه السلطان أبو حسون في رماة فاس وما انضاف إليهم من جيش العرب فكانت الهزيمة على أبي حسون فرجع إلى فاس وتحصن بها فقدم الشيخ السعدي وحاصره إلى أن ظفر به في وقعة كانت بينهما بالموضع المعروف بمسلمة فقتله واستولى على حضرة فاس وصفا له أمرها وكان استيلاؤه عليها يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة إحدى وستين وتسعمائة على الصواب خلاف ما وقع في الدوحة والله أعلم بمقتل السلطان أبي حسون رحمه الله انقضت الدولة المرينية بالمغرب والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وبقي علينا الإلماح بأواخر دولة بني زيان ملوك تلمسان وكيف كان انقراض أمرهم فلنشر إلى ذلك فنقول كانت دولة بني زيان على ما علمت من الاضطراب سائر أيام بني مرين وكان منهم في صدر المائة التاسعة السلطان الواثق بالله من أمثل ملوكهم وغلبهم على تلمسان في تلك المدة السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي فأخذوا بطاعته ثم بعد موته سنة سبع وثلاثين وثمانمائة اعتزوا بعض الشيء إلى أن كانت دولة السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد الحفصي فغزا تلمسان أعوام السبعين وثمانمائة مرتين وفي الثانية هدم أسوارها وعزم على استئصال أهلها إلى أن تشفع إليه علمائها وصلحائها فعفا عنهم وكان الباعث له على غزوها أولا ما بلغه من أن الأمير محمد بن محمد بن أبي ثابت استولى عليها ففعل ما فعل وصاهرهم ببعض حفناته وقال صاحب بدائع السلك شاهدت بتلمسان وبعض أعمالها

تصريح

الخطيب باسم السلطان أبي عمرو عثمان صاحب تونس مقدا في الذكر على اسم صاحب تلمسان أبي عبد الله من أعقاب بني زيان لما بينهما من الشرط في ذلك وبقيت حال بني زيان متمسكة إلى أن ظهر جنس الإصبينول في صدر المائة العاشرة بعد ما تم له ملك الأندلس وعظمت شوكته فطمح للتغلب على ثغور المغربين الأدنى والأوسط فاستولى على بجاية سنة عشر وتسعمائة ثم على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة وفعل بأهلها الأفاعيل ثم سما لتملك الجزائر وشره لالتها مها وضايق المسلمين في ثغورهم وضعف بنو زيان عن مقاومته وكان الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد ابن القاضي الزواوي ممن له الشهرة والوجاهة الكبيرة في بسائط المغرب الأوسط وجباله وكانت دولة العثمانية من الترك في هذه المدة قد زخر عبايهم وملك أكثر المسكونة وظهر من قواد عساكرهم البحرية قائدان عظيمان وهما خير الدين باشا وأخوه عروج باشا وكانا قد تابعا الغزو على بلاد الكفر برا وبحرا وأوقعا بأهل دول الأوربا وقائع شهيرة وصار لهم ذكر في أقطار البلاد وتمكن ناموسهم من قلوب العباد فكاتبهم الفقيه أبو العباس المذكور وعرفهم بما المسلمون فيه من مضايقة العدو الكافر وقال إن بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذئب فأقبل الترك نحوه مسرعين واستولى عروج على ثغر الجزائر بعد ما كاد العدو يملكه فقتل نفسه منه ثم استولى على تلمسان وغلب بني زيان على أمرهم وذلك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة على ما في النزاهة ثم إن أهل تلمسان أنكروا سيرة الترك وسموا ملكتهم ويقال إن الترك عسفوهم وصادروهم على أموالهم وكان عروج قد أغرى بالفقيه أبي العباس المستدعي له فقتل شهيدا بعد الثلاثين وتسعمائة ورأى عروج أن أمر المغرب الأوسط لا يصفو له مع وجود الفقيه المذكور ففسد عليه من قتله ثم نهض عروج إلى بني يزناسن فكان الكرة عليه وقتل هنالك مع جماعة من وجوه عسكره وتفرقت جموعه وعادت تلمسان إلى بني زيان فجددوا بها رياستهم وأحيوا رمق دولتهم إلى أن عاود الترك غزوها بعد حين وانتزعوها من يد صاحبها أبي العباس

أحمد بن عبد الله من أعقاب يغمراسن بن زيان قال في المرأة ما نصه قال الشيخ الإمام قاضي الجماعة أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الوائشيسي رحمه الله ومن خطه نقلت قدم حسن ابن خير الدين التركي فاستولى على تلمسان في أواسط شعبان سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وأخرج منها الأمير أحمد ابن الأمير عبد الله ووزيره منصور بن أبي غانم ولحقا بدبدو مع من انضاف إليهما من أمراء تلمسان وكبرائها فغدر بهم عمر بن يحيى الوطاسي صاحب دبدو وأخذ أموالهم واعتقلهم وسرح منصورا في محرم من سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة اه واستمرت تلمسان في يد الترك إلى أواسط صدر المائة الثالثة عشرة فاستولى عليها الفرنسيين على ما نذكره إن شاء الله وأعلم أنه كان في صدر هذه المائة العاشرة أمور عظام منها ظهور الفرنج بالديار المغربية واستيلاؤهم على ثغورها بما لم يعهد مثله قبل ذلك لا سيما البرتغال والإصبينول حسبما تقدمت الإشارة إليه ومنها ظهور دولة آل عثمان ملوك التركمان بالديار الشرقية وما أضيف لها الظهور الذي لا كفاء له وابتداء هذه الدولة وإن كان قبل هذا التاريخ بنحو مائتي سنة لكن إنما كان عنفوان شبابها وقيضان عبايها في هذه المدة لا سيما في دولة سلطانهم الأعظم وخاقانهم الأفخم سليمان بن سليمان خان فإنه ملك أكثر المعمور وقام بدعوته من الأمم الجمهور وهجمت عساكره على ديار الأرنا فقاتلوه في أعز بلادهم واستلبوهم من طارفهم وتلادهم وخضعت ملوكهم لعزته واستكانوا لصولته وأعطوه يد المقادة وآتوه من الطاعة والخضوع ما خالف العادة ثم أوطأ عساكره المغربيين الأدنى والأوسط فاستولى عليهما وكاد يتناول الأقصى ويضيفه إليهما على ما تقف عليه في أخبار السعديين إن شاء الله ومنها ظهور الأولياء وأهل الصلاح من الملامنية وأرباب الأحوال والجذب في بلاد الشرق والغرب لكنه انفتح به للمستورين على النسبة

وأهل الدعوى باب متسع الخرق متعسر الرتق فاختلف المرعى بالهبل وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل وصعب على جل الناس التمييز حتى بين البهرج والإبريز لا سيما العامي الغمر الذي لا يفرق بين الحصباء والنر ويرحم الله الشيخ اليوسي إذ قال في محاضراته ما نصه وقد طرقت أسماع القوم من قبل اليوم كلام أهل الصولة كفحول القادرية والشاذلية رضي الله عنهم وكلام أرباب الأحوال في كل زمان فتعشقت النفوس ذلك وأدعن له الجمهور وخاضوا في التشبيه بهم فما شئت أن تلقى جاهلا مسرفا على نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة فضلا عن أن يعمل فضلا عن أن يخلص إلى الباطن فضلا عن أن يكون صاحب مقام إلا وجدته بصول ويقول وينابذ المنقول والمعقول وأكثر ذلك في أبناء الفقهاء يريد الواحد منهم أن يتحلّى بحلية أبيه ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة بل لمجرد حطام الدنيا فيقول خدام أبي وزريبة أبي ويضرب عليهم المغزم كمغزم السلطان ولا يقبل أن يجوبوا أحدا في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به غيره وإذا رأى من خرج يطلب دينه أو من يدلّه على الله تعالى يغضب عليه ويتوعد بالهلاك في نفسه وماله وقد يقع شيء من المصائب بحكم القضاء والابتلاء فيضيقه إلى نفسه فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالا ثم يخترق لهم من الخرافات والأمور المعتادة ما يدعيه سيرة ودينا يستهويهم به ثم يضمن لهم الجنة على مساوئ أعمالهم والشفاعة يوم المحشر ويقبض على لحمة من ذراعه فيقول للجاهل مثله أنت من هذه اللحمة فيكتفي جهال العوام بذلك ويبقون في خدمته ولدا عن والد قائلين نحن خدام الدار الفلانية وفي زريبة فلان فلا نخرج عنها وكذا وجدنا آباءنا وهذا هو الضلال المبين وهؤلاء قطاع العباد عن الله إلى آخر كلامه فقف عليه في الفصل الخامس والعشرين منها فإنه نفيس وبالله تعالى التوفيق وفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة توفي الفقيه أبو العباس أحمد بن عيسى المواسي البطوي الموقت المشهور وفي سنة اثنتي عشرة بعدها توفي الشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن قاسم التجيبي المعروف بالزقاق فقيه فاس وهو صاحب المنظومة اللامية في علم القضاء وغيرها وفي سنة أربع وتسعمائة في يوم الثلاثاء العشرين من صفر منها توفي الشيخ الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى الوائشري مؤلف المعيار وغيره من التآليف الحسان أصله من تلمسان واستوطن مدينة فاس إلى أن توفي بها في التاريخ المذكور وفيها أيضا توفي الشيخ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد الحق الحرار المعروف بالتابع دفين حومة الفحول من مراكش من أصحاب الشيخ الجزولي رضي الله عنهما وصفه شيخه المذكور بالكيمياء وكان يقال النظره فيه تغني أفاض الله علينا من مدده وفي سنة تسع عشرة وتسعمائة توفي الشيخ الإمام العلامة النظار أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي ثم الفاسي وقد تقدم خبره مع الشيخ أبي محمد الغزواني رحمهما الله وفي سنة ست وعشرين وتسعمائة انحس المطر بفاس والمغرب واضطر الناس إلى استخراج السواقي من الأودية والأنهار لسقي زرعهم وثمارهم وفي سنة سبع وعشرين بعدها كان الغلاء والجوع الكبير الذي صار تاريخا في الناس مدة وفي سنة ثمان وعشرين بعدها كان الوباء بالمغرب سنة الله في خلقه وفي هذه المدة أعني أعوام الثلاثين وتسعمائة على ما في النوحة توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن منصور السفيناني دفين جزيرة الباسيس من بلاد أولاد جلون على مسيرة نصف يوم من مصب نهر سبو في البحر من جهة المشرق وكان من أصحاب الشيخ التابع والروضة التي عليها بناها الشيخ أبو زيد عبد الرحمن المجذوب يقال إنه لما أكملها رآه في المنام وألبسه حلة خضراء وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة في ثاني يوم من ربيع الأول منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الكريم بن عمر الحاجي المعروف بالفلاح ضجيع القاضي عياض في روضته بحومة باب إيلان من مراكش وهو من أصحاب الشيخ التابع أيضا وفي هذه المدة على ما في النوحة توفي الشيخ أبو يشو مالك بن خدة الصبيحي من عرب صبيح كان من أهل العلم والفضل والدين ودفن على ضفة نهر سبو على نحو مرحلة من فاس وقبره مزاراة إلى الآن وفي سنة خمس وثلاثين وتسعمائة توفي الشيخ أبو محمد الغزواني رضي الله عنه دفين حومة القصور من مراكش وقد تقدم شيء من خبره وفي أعوام أربعين وتسعمائة توفي الشيخ الكامل أبو عبد الله محمد بن عيسى السفيناني المختار ثم الفهدي دفين مكناسة الزيتون وهو شيخ جليل القدر شهير الذكر رضي الله عنه ونفعنا به أمين تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس أوله الخبر عن دولة الأشراف السعديين من آل زيدان

بسم الله الرحمن الرحيم الدولة السعدية الخبر عن دولة الأشراف السعديين من آل زيدان وذكر أوليتهم وتحقيق نسبهم اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون إن أصل سلفهم من ينبع النخل من أرض الحجاز وأنهم أشراف من ولد محمد النفس الزكية رضي الله عنه وإليه كانوا يرفعون نسبهم ويقولون في أول ملوكهم القائم بأمر الله مثلا هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد ابن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم ابن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل بن حسن المثني بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فهم بنو عم السادة العلويين أشراف سجدلماسة يجتمعون معهم في محمد بن أبي القاسم المذكور في النسب قالوا والسبب في قديم سلفهم من الحجاز إلى المغرب أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم وتعزيبها العاهات كثيرا فقيل لهم لو أتيتم بشريف إلى بلادكم كما أتى أهل سجدلماسة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم وقد كان أهل سجدلماسة جاؤوا بالمولى الحسن بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم من أرض ينبع في قصة طريفة تأتي في محلها إن شاء الله قالوا فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد مضاهاة لأهل سجدلماسة فعادت عليهم بركته واعلم أن هذا النسب الشريف المسرود أنفا فيه كما قال اليفرنى بتر بين قاسم ومحمد النفس الزكية فإنه لا يعرف في أولاد النفس الزكية من اسمه قاسم وإنما هو قاسم بن محمد بن عبد الله الأشراف بن محمد النفس الزكية ولعله سقط عن ذهول من الناس وقيل الصواب إنه قاسم بن حسن بن محمد بن عبد الله الأشراف بن محمد النفس الزكية واعلم أيضا أن ما زعمه هؤلاء السعديون من انتسابهم لهذا البيت الكريم هو المعروف عند الكافة وتلقاه فضلاء عصرهم بالقبول وأثبتوه في تقريرياتهم ومؤلفاتهم الموضوعية في أخبارهم ومن الناس من يطعن في ذلك ونقله بعضهم عن الشيخ أبي العباس المقرئ صاحب نوح الطيب وأنه صحح أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليلة السعدية طئر رسول الله وهذا النقل ضعيف لأن الشيخ المقرئ صرح في نوح الطيب بشرف هؤلاء السادة في غير موضع وهو من آخر ما ألف وممن طعن في نسبهم المولى محمد فتح بن الشريف السجدلماسي أول ملوك السادة العلويين صرح بذلك في بعض الرسائل التي كانت تدور بينه وبين الشيخ ابن زيدان منهم قال فيها وقد اعتمدنا في ذلك يعني في عدم شرفهم على ما نقله الثقات المؤرخون لأخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر فما وجدوكم إلا من بني سعد بن بكر اه ويحكى شائعا عن الفقيه الورع المولى أبي محمد عبد الله بن علي بن ظاهر السجدلماسي وكان من أهل الصلاح والدين أنه كان ذات يوم جالسا مع المنصور السعدي في بعض قصوره من حضرة مراكش وهما مجتمعان على خوان طعام فقال المنصور للشيخ أبي محمد أين اجتمعنا يا فقيه يعني في النسب فقال أبو محمد على هذا الخوان ويروى في هذا المشور فأسرها المنصور في نفسه ولم يبدها له إلى أن احتال عليه بما كان السبب في إتلاف مهجته فكان المنصور بعد ذلك يدعو الشيخ أبا محمد فيجلسه على الرخام في زمان كلب البرد وهيجانه من غير حائل وقد اتخذ المنصور فيما زعموا لبدية صوف داخل سراويله لا يحس معها بالبرد فإذا

راه أبو محمد جالسا معه تجلد واستحى أن يقوم عن السلطان ويتزكه ويستمرن على المذاكرة في مسائل العلم فعل ذلك به أياما حتى سكنته علة البرد فلم يزل أبو محمد يشتكي من ذلك إلى أن قضت عليه وأتكر هذا صاحب نشر المثاني وردته بتأخر وفاة ابن طاهر عن وفاة المنصور بأكثر من ثلاثين سنة وجواب أبي محمد هذا من النوع البياني المسمى بتلقي المخاطر بغير ما يترقب على ما هو معروف في كتب الفن وإنما سأله المنصور لما مر من أن السعديين يزعمون أن جددهم قدم من ينبع أيضا كما قدم جد العلويين والعلويون ينكرون ذلك كل الإنكار ويقولون إنهم لم يجتمعوا معهم في قبيل ولا دبير قال اليفرنى لكن صحح لنا غير واحد من أشياخنا أن الشيخ ابن طاهر رجع عن ذلك الإنكار وأن المنصور أطلعه بعد ذلك على ظهور فيه خط الإمام ابن عرفه وشيخه ابن عبد السلام بثبوت نسبهم فاطمأنت نفس ابن طاهر لذلك فكان يصرح بصحة نسبهم بعد ذلك ويزجر من يطعن فيه اه قلت وهذا هو الصواب إذ مستند من يطعن في نسبهم عدم وضوحه ولا يلزم من عدم وضوحه عدم ثبوته في نفس



الأمر وإلا فيبعد أن يكون هؤلاء المنكرون قد اطلعوا على أحوال عمود نسبهم وما اشتمل عليه من الآباء والأجداد من لدن مبدئه إلى منتهاه مع طول المدة وتناسخ الأجيال فالتفتير عن ذلك عسير جدا ولذا وكل الشارع أمر الأنساب إلى أهلها وجعلهم مصدقين فيها إذ لا تعرف غالبا إلا من قبلهم فهؤلاء السادة الزيدانيون لو فرضنا أنهم ما كانوا ملوكا ولا بلغوا من الشهرة إلى حيث بلغوا ثم ادعوا هذا النسب الكريم فلا سبيل لأحد أن يدفعهم عنه إلا بقاطع ولا قاطع كما علمت نعم الحكاية المسوقة في سبب دخولهم إلى المغرب يظهر عليها أثر الصنعة والله أعلم بحقائق الأمور وأما تسميتهم بالسعديين فقد قال اليفرنى إن هذه النسبة لم تكن لهم

في القديم ولا وقعت بها تحليتهم في ظواهرهم ولا في سجلاتهم وصدور رسائلهم بل كانوا لا يقبلون ذلك ولا يجترئ أحد على مواجهتهم به لأنه إنما يصفهم بذلك من يقدر في نسبهم ويظعن في شرفهم ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر كما قلنا وكثير من العامة وإخوانهم من الطلبة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم ونحو ذلك مما لا معنى له اه قلت وإنما تصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة به فصار كالعالم الصريف المرتجل مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف والله تعالى يلهمنا الصواب بمنه وفضله الخبر عن دولة الأمير أبي عبد الله محمد القائم بامر الله وبيعته والسبب فيها قال ابن القاضي درة السلوك لم يزل أسلاف السعديين مقيمين بدرعة إلى أن نشأ منهم أبو عبد الله محمد القائم بامر الله فتشأ على عفاف وصلاح وحج البيت الحرام وكان مجاب الدعوة ولقي جماعة من العلماء الأعلام والصلحاء العظام في وفادته على الحرمين الشريفين أخبرني بعض الفضلاء أنه لقي رجلا صالحا بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فأشار له بما يكون منه ومن ولديه وكان قد رأى رؤيا وهي أن أسدين خرجا من إحليلة فتبعهما الناس إلى أن دخلا صومعة ووقف هو ببابها فغيرت له رؤياه بأنه سيكون لولديه شأن وإنهما يملكان الناس ثم رجع إلى المغرب وهو ملعن بالدعوة فيقول في كل محفل إن ولديه سيملكان المغرب وسيكون لهما شأن من غير تردد منه ثقة بخبر الرجل الصالح وبرؤياه المذكورة فما زال إلى أن قام سنة خمس عشرة وتسعمائة اه وقال صاحب زهرة الشماريخ ما صورته إن سبب قيام أبي عبد الله القائم أن أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم الجو واستحكمت شوكة البرتغال وبقي المسلمون في أمر مريح لعنم أمير تجتمع عليه كلمة الإسلام لأن بني وطاس قُتلت ربحهم يومئذ

في بلاد السوس وإنما كان لهم الملك في حواضر المغرب ولم يكن لهم منه بالسوس إلا الاسم مع ما كانوا فيه من قتال العدو بطنجة وأصيلا وحجر بادس وغيرها من غور بلاد الهبط فلما رأى قبائل السوس ما دهمهم من تقاوم الأحوال وكثرة الأحوال وطمع العدو في بلادهم ذهبوا إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك الأقوي نسبة إلى أفة من بلاد السوس فنكروا له ما هم فيه من افتراق الكلمة وانتشار الجماعة وكتب العدو على مباركتهم بالقتال ومراوحتهم وطلبوا منه أن يعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه فامتنع من ذلك وقال إن رجلا من الأشراف بتاجمدرات من درعة يقول إنه سيكون له ولولديه شأن فلو بعثتم إليه وبليعتموه كان أنسب بكم وأليق بمقصودكم فبعثوا إليه وكان ما كان وقال اليفرنى رأيت بخط الفقيه العلامة أبي زيد عبد الرحمن ابن شيخ الجماعة أبي محمد عبد القادر الفاسي ما صورته ذكر لنا الوالد عن سيدي أحمد بن علي السوسي البوسعيدي أن ابتداء دولة الشرفاء بالسوس أن بعض السادة وهو سيدي بركات توسط في فداء بعض الأسارى وأراد أن يكون مع النصرارى اتفاق على أن لا يجسوا أسيرا فكلمهم في ذلك فقالوا له حتى يكون لكم أمير فإن ملككم قد ذهب واضمحل قال ثم إن بعض أهل السوس ساروا إلى قبيلة جسيمة يكتالون الطعام فأخذتهم جسيمة وأكلوا متاعهم وبضاعتهم فذهبوا إلى شيخهم وكان ذا حزم وتدبير فرد عليهم كل ما ضاع لهم حتى لم يبق لهم شيء فلما رجعوا إلى بلادهم قالوا إن هذا الشيخ الرئيس هو الذي يليق أن نبايعه فاجتمعوا وأتوه وطلبوا منه أن يرأسهم فامتنع واحتاط لدينه واعتذر بتشويش هذا الأمر للدين ودلهم على رجل شريف كان مؤنذا بدرعة فقال لهم إن كان ولا بد فاقصدوا الشريف الفلاني فإنه يذكر أن ولديه يملكان المغرب فقصدوه وحملوه إلى بلادهم وباعروه وفرضوا له من المؤنة ما يكفيه وأولاده وبقي هناك في نحر العدو ويروى أنه لما بايعه أهل السوس ورأى قلة ما بيده مع أن الملك لا يقوم إلا بالمال احتال بأن أمر أهل السوس أن يأتوه ببيضة لكل كائون فاجتمع له من ذلك آلاف من البيض لا تحصى لأن الناس استهونوا أمر البيضة فلما اجتمع عنده البيض أمر أن كل من أتى ببيضة يأتي بدلها بدرهم ففعلوا فاجتمع له من ذلك مال وافر فأصلح به شأنه وقرى به جيشه وكانت تلك أول نائبة فرضت في دولة السعديين والله أعلم وقال ابن القاضي إن الأمير أبا عبد الله القائم لما اجتمع بالشيخ ابن مبارك ببلده أفة وذلك سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما مر فإرضه في شأنه ثم عاد إلى مقره من درعة ثم في سنة ست عشرة بعدها بعث إليه فقهاء الصامدة وشيوخ القبائل ودعوه إلى توليته عليهم وتسليم الأمر إليه فلبى دعوتهم وجاء إلى قرية يقال لها تيدسي قرب تارودانت فبايعه الناس بها وأصبحوا معه بقلوب متقدة وأهواء على الجهاد مجتمعة اه وقد ساق منويل أولية هذه الدولة مساقا غريبا ولا يخلو عن فائدة فلنذكر منه ما يقرب إلى الصحة ويكون كالشرح لما مضى أو يأتي من أخبار هذه الدولة قال لما كان السلطان أبو عبد الله

الوطاسي يعني البرتغالي أميرا بفاس ظهر في درعة رجل شريف يعني أبا عبد الله محمدا القائم بامر الله وكان هذا الشريف من قراء القرآن ومن أهل العلم والدين والفقر والخمول ولم يكن من بيت الرياسة وكان له اطلاع على تواريخ قطره وعوائد جبله وأخلاقهم وطبائعهم ورأى ما وصل إليه ملك المغرب من الانحطاط والضعف وتيقن أنه لا يصعب عليه تناوله فأعمل في ذلك فكره ومكره وصار يحض الناس على القيام بأمر دينهم والامتعاظ لها وكان قد بعث ثلاثة من أولاده وهم عبد الكبير وأحمد ومحمد إلى الحجاز بقصد الحج وكانت لهم فصاحة ورجاحة ومعرفة بإدارة الكلام فظهر لهم ناموس في تلك البلاد وأحبهم الناس لا سيما أحمد ومحمد ولما رجعا من مكة أقاما بفاس وهي يومئذ دار الملك وترتب أحمد في مجلس بالقرويين لتدريس العلم فاكنتب بذلك جاها وتقرب محمد إلى السلطان حتى صار مؤيدا لأولاده وبقيت على ذلك مدة وهما في ذلك كله يتحبان إلى الناس ويسعيان في مذاهب الشهرة والبرتغال في أثناء ذلك ملح على الثغور واستلابها من أهلها ولم تكن تقوم للمسلمين معه راية فدعا ذلك الأخوين أحمد ومحمدا إلى أن ندبا السلطان وهو أبو عبد الله البرتغالي إلى المنادة في الناس بالجهاد إظهارا للنصح وهما يسران حسوا في ارتغاء وقصدهما تفرقة الكلمة على السلطان لا غير فاعتز السلطان بنصحهما وقال لهما لا أحد أولى منكما بالقيام بهذه الوظيفة فأجاباه إلى ذلك عن توفر داعية وكمال رغبة فأرسلهما يناديان ويستنفران الناس في نواحي المغرب إلى الجهاد ويحضان الناس عليه وبخطبان بذلك في المحافل ويعظان وتتبع الحواضر والبوادي وتقريا الأحياء والمداشر والقرى إلى أن وصلا إلى درعة حيث أبوهما وأخوهما عبد الكبير فاجتمعا بهما وذاكرهما في أمرهما وأنهما قد أشرفا على المراد وكادا يلجان الملك من بابيه لأن أهل تلك البلاد كانوا سامعين لهم من قبل اليوم فكيف بهم اليوم فحينئذ أخذ الأب وأولاده في نشر معاييب الدولة للعامة ويفررون ذلك بفصاحتهم ووجاهتهم وما أوتوه من القبول وعضدهم على ذلك شيوخ البلد وتبعهم الناس واجتمعوا عليهم من كل جهة وصار حالهم ينمو شيئا فشيئا إلى أن استبدوا على السلطان ولم يرجعوا إليه بعد

وقال في نشر المثاني كان السبب في قيام الشرفاء الزيدانيين واستبدادهم بملك المغرب أن الحرب نشبت بين النصرارى وأهل السوس ودامت وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعدد فاتفق أن خرج الشريفان محمد والشيخ وأخوه أحمد الأعرج للجهاد مع أهل السوس فظهر مكاتهما في الجهاد فلما وفدا على الوطاسي تلقاهما بالرحب وأقبل عليهما لأجل قيامهما بالجهاد وأعطاهما عدة وخيولا كثيرة فرجعا إلى جهادهما ثم عادا إليه مرة أخرى فأعطاهما مثل ذلك وكانت لهما وقائع في النصرارى ونكاية وظهور وصارا يكتبان إلى القبائل فيساعدونهما على ذلك حتى اجتمعت عليهم جموع عديدة فحينئذ خلعا طاعة الوطاسي ودعوا لأنفسهما اه قل منويل وكان أكثر شهرة أمرهم بالسوس الأقصى ودرعة وأعمالهما وصاروا يرفعون إليهم زكواتهم وأغشارهم ثم بايعوهم ونهض هؤلاء الأشراف إلى تارودانت فاستولوا عليها وحصنوها ثم زحفوا إلى أكادير لحرب البرتغال فقاتلوه مدة ولم يفتح لهم وكانوا يشيعون أنهم لا قصد لهم إلا في الجهاد ومحاربة عدو الدين ومن هو سلم له من المسلمين إذ لم يتأت لهم إذ ذاك التصريح بخلع السلطان وفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة تجاوزوا جبل درن إلى بلاد حاحة والشيظامة ثم دخلوا بسيطة عدة وكان بأسفي رجل تنصر اسمه يحيى بن تافوت احتمى بالبرتغال من السلطان وكان معروفا بالشجاعة واتصل خبره بطاغية البرتغال منويل فولاه

على النصارى وعلى أتباعه من المسلمين تأليفا له ولما زحف الأشراف إلى بلاد عبدة كان بينهم وبين يحيى المذكور ونصاراه معركتان شديتان كان الظهور فيهما ليحيى لكن أبو العباس أحمد الأعرج تدارك أمره فورا وجمع عسكريا آخر وخطبهم ووعظهم وزحف إلى يحيى المذكور ففضه وفض نصاراه إلى أن انجحروا بأسفي وأغلقوه عليهم وأتيح لأحمد عليهم ما لم يتقدم لغيره فيهم فيذلك تآتى له أن يتناول ملك المغرب ولما اتصل خبر هذا الظهور له بالسلطان الوطاسي لم يعجبه ذلك وظهر له أن ما كان أحمد وأخوه يحاولانه من أمر الجهاد لم يكن ظاهره كباطنه وحقق له ذلك ما فعلوه من تحصين تارودانت مع ما كان لأبيهم من نفوذ الكلمة بالسوس وكان في هذا التاريخ بمراكش وأعمالها عامل اسمه ناصر بوشنتوف وكان مستنبا على الوطاسي ويبدل له شيئا تافها يتقيه به ولما مر به هؤلاء الأشراف في أول أمرهم داعين إلى الجهاد أحسن إليهم غاية ولما أوقفوا وقعة أسفي أبرموا أمرهم مع ناصر أبي شنتوف وأظهروا له المحبة والموالة وطلبوا منه أن يظاهرهم على جهاد العدو وأن يكونوا يدا واحدة وجندا واحدا عليه فأسعفهم وقدموا مراكش فدخلوها مرة ثانية وأحسن إليهم وبعد أيام خرجوا به للصيد فسموه في خبز صغير يسمى الفريشات فهلك للحين وصفا للأشراف مراكش وأعمالها إذا كان أهلها قد أحبوهم وشروها إليهم ولما تم لهم أمر درعة والسوس ومراكش تسمى أحمد باسم الأمير واستخلف أخاه محمدا الشيخ ولما اتصل الخبر بالوطاسي وأنهم استولوا على مراكش ألقوه ذلك ومن مكر أحمد أنه بعث إليه يقول ما أنا إلا واحد من أعمالك وما كان يعطيه أهل هذه البلاد أزيد لك مضاعفا ومع ذلك لم يطمئن إليه ثم هلك الوطاسي وولي مكانه ابنه أبو العباس أحمد وانقسمت مملكة المغرب فصارت فاس للوطاسي ومراكش وأعمالها لأبي العباس الأعرج وتارودانت والسوس ودرعة لمحمد الشيخ وأما عبد الكبير فإنه كان استشهد قبل هذا في حرب البرتغال قرب أسفي ولما رأى أبو العباس الوطاسي استفحال أمر الأشراف وأنهم أمسكوا عنه ما وعدوا بأدائه لأبيه عزم على حربهم فجمع عسكريا عظيما وزحف إلى مراكش فتحصن أحمد الأعرج بها وقدم عليه أخوه فظاهرة على عدوه وفي أثناء حصاره الوطاسي لمراكش اتصل به الخبر بأن أهل فاس قد قاموا عليه وبايعوا بعض إخوته فرجع إلى فاس وقبض على أخيه التائر عليه ثم كر إلى

مراكش بعسكر أعظم من الأول وفي هذه المرة برز إليه الأشراف خارج البلد ثم تقدموا إليه فكان اللقاء على أبي عقبة من تادلا ووقعت بينهم حرب هائلة لأن الوطاسيين كانوا يرون أن هذه الحرب هي الفاصل بينهم وبين عدوهم والأشراف كذلك وحضر هذا الحرب أبو عبد الله ابن الأحمر سلطان الأندلس المخلوع وأبلى بلاء حسنا حتى قتل وكان الظهور للأشراف ورجع الوطاسي مغلولاً إلى فاس وترك محلته بما فيها من مدافع وغيرها بيد عدوه وبعد هذه الوقعة استولى الأشراف على تافيلالت وملكو أكادير وأسفي وأزمور لأن البرتغال كانوا قد تخلوا عنها ثم عن قريب حدث بين الأخوين الفرة وحاول رجال دولتهما الوفاق بينهما فلم يتفقا وكانت الكرة على أحمد وفر ابنه زيدان الذي كان عضد أبيه في الحروب إلى تافيلالت فاستولى عليها واقتطعها عن عمه محمد الشيخ ثم زحف الشيخ إلى فاس فحاصرها إلى أن قبض على الوطاسيين وغربهم إلى درعة اه كلام منويث ثم نرجع إلى سياقة الخبر عن هذه النولة حسبما عند اليفرني وغيره أخبار الأمير أبي عبد الله القائم في الجهاد وما هيا الله له من النصر فيه لما استتب أمر الأمير أبي عبد الله القائم واجتمعت كلمة القبائل السوسية عليه ندب الناس إلى مقارعة البرتغال وجهاده ونفيه عن ثغور المغرب وبلاده وكانت معه يومئذ جموع حافلة من المسلمين فصدموا معه إلى النصارى وناوشوهم الحرب فأتاح الله للأمير أبي عبد الله الفتح والنصر ونثر أتلء الكفار بمخالب الظفر وأخرج حية الغي من جحرها وأعاد كلمة الإسلام إلى مقرها فلما رأى المسلمون ذلك تيمنوا بطلعته وتفاعلوا بطائره الميمون ونقيته وزادهم ذلك محبة في جانبه وتعظيمها في مكانته ولما فصل من جهاده عاد إلى محله المذكور من تيديسي فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هنالك مناقرة أدت إلى ارتحاله عنها وعوده إلى درعة فلم يزل مقبما

بها إلى سنة ثمان عشرة وتسعمائة فرجع إلى مكانه من تيديسي واطمأنت به دارها وأزال الله عنه ما كان أزعه عنها والله غالب على أمره عقد الأمير أبي عبد الله القائم ولأية العهد لابنه أبي العباس الأعرج رحمهم الله تعالى قد تقدم لنا ما كان من أمر الرؤيا التي رآها الأمير أبو عبد الله القائم في شأن ولديه وأنها يملكان المغرب وفي معنى ذلك أيضا ما يحكى شائعا أن ولدي أبي عبد الله المذكور وهما أبو العباس الأعرج وأبو عبد الله الشيخ كانا يقرآن في مكتب وهما صبيان فدخل ديك فوثب على رأس كل منهما وصرخ فأول ذلك مؤدبهما بأنهما سيكون لهما شأن فمن أجل هذا ونحوه كان والدهما يعلن بأن أمر المغرب صائر إليهما فلما قضى الله ببيئته واجتماع الناس عليه واطمأنت به في البلاد السوسية الدار وطاب له بها المقام والقرار ندب الناس إلى بيعة أكبر ولديه وهو الأمير أبو العباس أحمد المعروف بالأعرج فبايعوه وكان ذلك مبدأ ظهور أمره على ما نذكره إن شاء الله تعالى انتقال الأمير أبي عبد الله القائم إلى أفعال من بلاد حاحة ووفاته بها رحمه الله ثم إن أبا عبد الله القائم وقد عليه أشياخ حاحة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصرة لوائه فشكروا إليه أمر البرتغال ببلادهم وشدة شوكتهم واستطالته عليهم وطلبوا منه أن ينتقل إليهم هو وولده ولي العهد المذكور فأجابهم إلى ذلك ونهض معهم هو وابنه أبو العباس إلى الموضع المعروف بأفغال من بلاد حاحة وترك ولده الأصغر أبا عبد الله الشيخ بالسوس يرتب

الأمر ويهيئ المملكة ويبكر العدو بالقتال ويرأوجه واستمر الأمير أبو عبد الله القائم بمكانه من أفعال مسموع الكلمة متبوع العقب إلى أن توفي به سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ودفن هنالك بإزاء ضريح الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عنه إلى أن نقل إلى مراكش بنقل الشيخ المذكور على ما يأتي إن شاء الله الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد الأعرج ابن الأمير أبي عبد الله القائم رحمه الله كانت ولادة السلطان أبي العباس الأعرج فيما حققه ابن الفاضي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وبويع بولاية العهد من أبيه سنة ثمان عشرة وتسعمائة كما مر ولما توفي أبوه في التاريخ المتقدم اجتمع الناس على بيعته من سائر الأفاق وآتوه طاعتهم عن رضا منهم وإصفاق فاستقام أمره وصرف عزمه إلى تمهيد البلاد واقتناء الأجناد وتعبية الجيوش إلى الثغور وشن الغارات على العدو في الأصال والبكور في أحواز تيلمست وأسفي وغيرهما وكان النصارى قد خيموا بشاطئ البحر وعاثوا في تلك السواحل فأجلاهم عنها وظهر تلك البقاع من رجسهم وأراح أهلها من شؤمهم ونحسهم وفي ذلك يقول البقاع مخلوف بن صالح يمدحه فله هذا الهاشمي وفضله فولاه صال الكفر أعظم صولة

دخل السلطان أبي العباس الأعرج مراكش واستيلاؤه عليها لما كان من إيقاع السلطان أبي العباس بنصارى السوس وانتصاره عليهم ما ذكرناه بعد صيته وانتشر في البلاد ذكره وأهرع الناس إليه من كل جانب ودخلت في طاعته سائر البلاد السوسية فعند ذلك كاتبه أمراء هنتاة ملوك مراكش يخطبون أمره ويرومون الدخول في طاعته فأجاب داعيهم وانتقل إلى مراكش فدخلها في حدود الثلاثين وتسعمائة واستولى عليها وكان من أمره ما نذكره نقل الشيخ الجزولي رضي الله عنه من مدفنه بأفغال إلى مراكش والسبب في ذلك قد تقدم لنا في أخبار عمرو السيف أنه كان في ابتداء أمره من أصحاب الشيخ الجزولي هذا وأنه لما توفي الشيخ المذكور جعل جنته في تابوت وصار يستنصر به في حروبه مدة من عشرين سنة أو نحوها ثم دفن بعد ذلك بأفغال وتقدم لنا أن الأمير أبا عبد الله القائم لما توفي دفنه ابنه أبو العباس بإزاء هذا الشيخ ثم لما ملك أبو العباس المذكور مراكش نقل الشيخ الجزولي إليها ونقل أباه معه فدفنه بقربه أيضا واختلف في سبب ذلك فقيل إن السلطان المذكور خاف أن يثور عليه أحد بتلك البلاد فيستخرج الشيخ من ملحدته وينتصر عليه به فقله إلى مراكش ليأمن من ذلك وقيل إن الحامل له على نقله أنه ذكر له أن تحته كنز فتعلل للنبي عنه بأنه قصد نقله إلى الحضرة تبركا به والله أعلم وكان ذلك كله في حدود الثلاثين وتسعمائة

مجيء السلطان أبي عبد الله الوطاسي إلى مراكش وحصاره للسلطان الأعرج بها ثم إقلاعه عنها لما استولى السلطان أبو العباس الأعرج على مراكش وصفا له أمرها اتصل خبره بصاحب فاس أبي عبد الله الوطاسي المعروف بالبرتغالي فأقبل في جموع عديدة مع وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر ويقال مع أخيه الناصر فلما رأى السلطان أبو العباس ما لا يقل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة والمقاتلة وزحف الوطاسي إلى الحضرة فنصب الأنفاض عليها والى الرمي عليها أياما واشتد الأمر على الناس فكان من ذهبهم إلى الشيخ الغزواني وخروجه إلى باب الخميس وقوله عند إصابة الرصاصة له أنها خاتمة حربهم ما قدمناه في أخبار الوطاسيين مستوفى ثم كان اللقاء بعد ذلك بين الفريقين إنما

يكون في تادلا وأعمالها على ما مر والله أعلم خبر أسفي والثغور رأيت في تواريخ الفرنج أن البرتغال خرجوا من أسفي سنة ألف وخمسائة وثلاثين مسيحية وهذا التاريخ يوافق من سني الهجرة سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وهي وسط دولة السلطان أبي العباس وزعم هذا المؤرخ أنهم خرجوا منها من قبل أنفسهم ونقلوا جميع ما كان فيها من عدة وأثاث إلى الجديدة بعدما خربوها وأفسدوها وأوقدوا فيها النار قال وبقيت اثنتي عشرة سنة وهي مخزية إلى أن أصلحها السلطان محمد الشيخ يعني السعدي الآتي ذكره وفي النزهة ما يقرب من هذا فإنه قال بعد ذكر إيقاع السلطان أبي العباس بنصاري السواحل ما نصه ويقال إن النصارى لما رأوا ما فعل بمن كان منهم بالسوس من القتل والسبي أخلوا ثغر آزمر ورباط أسفي وأصيلا من غير قتال ثم نقل هذا الخبر في محل آخر عن ابن القاضي منسوباً إلى أبي عبد الله الشيخ وسيأتي ذكره في محله وأظن أن الإخلاء كان متكرراً والله أعلم وعلى كل حال فذكر أصيلا هنا غير مناسب إذ هي يومئذ في جهة الوطاسيين وتخومهم فما بال نصارها يخرجون فراراً منها خوفاً من السعديين وليسوا مجاورين لهم ولا متوقعين هجومهم عليهم ثم كان بعد هذا بين أبي العباس السعدي وأبي العباس الوطاسي من الحرب والسلام ما تقدم بيانه كوقعة أنماي ووقعة أبي عقبة وغيرهما مما لا فائدة في إعانته حدوث النفرة بين الأخوين السلطان أبي العباس الأعرج ووزيره أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك كان السلطان أبو العباس رحمه الله من الشهامة والصرامة واستفحال الأمر بالمحل الذي وصفناه قبل وكان أخوه أبو عبد الله الشيخ أصغر سناً منه وكان تحت طاعته واقفاً عند إشارته وكان السلطان أبو العباس يستشير في أموره ويفاوضه في مهماته ويستعين بنجدته في الزحوف والمعارك ويستضيء برأيه في الحوادث الحوالم وكان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة مصيب الرأي حازماً شهماً فكانت كلمتهما واحدة وأمرهما

جميعاً إلى أن دخل الوشاة بينهما فأسدوا قلوبهما وأضى الحال إلى المصافة والمقاتلة وانقسم الجند حزبين وانصرفت كل طائفة إلى متبوعها وصاحب أمرها وتقاتلا مدة وكانت جل القبائل السوسية صاغية إلى الشيخ لما كان نشأ بين أظهرهم وسبروه من نجابته وكفايته منذ تركه أبوه عندهم عند انتقاله إلى أفعال حسبياً مر فاستفحل أمره وغلب على أخيه أبي العباس فيقض عليه واستولى على ما بيده واجتمعت كلمة أهل السوس عليه ثم أودع أخاه وأولاده السجن ووسع عليهم في الجرايات والنفقات وأصبح ملكاً مستقلاً بعد أن كان وزيراً وكان ذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة وفي نشر المثاني أن قبض الشيخ على أخيه أبي العباس الأعرج كان سنة إحدى وخمسين وتسعمائة والأول أصح ولم يزل السلطان أبو العباس وأولاده في حكم التقاف إلى أن قتل يوم مقتل أخيه الشيخ بعد ثمان عشرة سنة أو نحوها حسبياً يأتي إن شاء الله وكانت دولته من يوم بويغ إلى أن قبض عليه أخوه ثلاثاً وعشرين سنة وكان من حجابيه محمد بن علي الأكرطي اليملاي ومحمد بن أبي زيد المنزاري ومن كتابه سعيد بن علي الحامدي رحمه الله أمر زيدان ابن السلطان أبي العباس وما كان منه قال صاحب درة الحجال اختلف الناس هل بويغ لزيدان بن الأعرج بعد وفاة أبيه أم لا وقال شارح زهرة الشماريخ كان زيدان بن أبي العباس بسجلماسة وبويغ له بها فلم يتم أمره ونفي إلى أن توفي سنة ستين وتسعمائة الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المهدي المعروف بالشيخ ابن الأمير أبي عبد الله القائم بأمر الله كانت ولادة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ سنة ست وتسعين وثمانمائة ويلقب بالشيخ بأمغار وهو الشيخ بالبربرية ويلقب من الألقاب السلطانية بالمهدي لقبه به غير واحد من أئمة عصره ونشأ في عفاف وصيانة وعني بالعلم في صغره وتعلق بأهله فأخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ فيه إلى درجة الرسوخ فتح حصن فونتي وأسفي وأزمور وما قيل في ذلك لما استقل السلطان أبو عبد الله الشيخ بأمر السوس واجتمعت كلمته عليه صرف عزمه إلى جهاد العدو الذي يتغوره وحصونه وأرهب حده لتطهيرها من بقايا شغبه وزبونه فانحصرت عليهم واستأصل شأقتهم وقطع من تلك النواحي دابرهم وحسم أقتهم قال ابن القاضي كان الشيخ رحمه الله ماضي العزيمة قوي الشكيمة عظيم الهيبة كثير الغزوات ذا همة عالية وشهامة عالية فعد قواعد الملك وأسس مبانيه وأحيا مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة وكان له سعد وبخت عظيم في الجهاد ويد بيضاء في الإسلام فتح حصن النصارى بالسوس يعني حصن فونتي بعد أن أقاموا فيه اثنتين وسبعين سنة وكان منصوراً بالرعب حتى تركوا له أسفي وأزمور وأصيلا من غير قتال ولا إيجاف عليهم اه ونحوه في تاريخ البرتغاليين زاد مؤرخهم أن ذلك كان بإذن طاغيتهم صاحب أشبونة وقد تقدم نحو هذا في أخبار الأعرج والجواب عنه وكان فتح فونتي سنة سبع وأربعين وتسعمائة كما في النزهة وفتح أسفي سنة

ثمان وأربعين بعدها كما في المرأة وعند البرتغاليين أن ذلك كان سنة ألف وخمسائة واثنتين وأربعين مسيحية وهو موافق لهذا التاريخ الهجري وفي الدوحة لما أخلى النصارى آزمر تسارع إليها جماعة من الفقراء منهم الشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من فاس والشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي دفين تانسيفت قرب مراكش ففقدوا بها يحرسونها حتى يأتي مدد المسلمين ومن يعمرها منهم مخافة أن يرجع إليها العدو فإذا به قد رجع واقتمهم عليهم وأسروهم إلى أن اقتكهم المسلمون قال منوبل كان فداؤهما بألفي ريال وماتني ريال بالثنية فيهما ولما اقتدى الشيخ الكوش وعزم على الخروج وكان أسيراً عند امرأة نصرانية ناولته كتاباً للمسلمين وقالت له هذه كتب كانت عندي ولا حاجة لي بها فخذها إليك فأخذها وخرج بها في قفة على رأسه فكان من جملتها كتاب تنبيه الأئمة الموضوع في الصلاة على النبي فكان ذلك أول دخوله لهذه البلاد على يد الشيخ المذكور اه بناء حصن أكادير قال الشيخ أبو العباس ابن القاضي في كتابه المنتقى المقصور كانت للأمير السلطان أبي عبد الله الشيخ مآثر حسنة منها أنه أول من اختط مرسى أكادير بالسوس الأقصى سنة سبع وأربعين وتسعمائة لما أجلي النصارى من الموضع المعروف بفونتي على مقربة من أكادير المذكور وكان له في اختطاطه رأي مصيب وفراسة تامة اه

استيلاء السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ على مراكش وتجديد البيعة له بها كان السلطان أبو عبد الله الشيخ بعد القبض على أخيه واستقلاله بالأمر قد أقام بالبلاد السوسية مثابراً على جهاد العدو إلى أن قلع عروق مفسدته منها وكانت مراكش في هذه المدة قد توقفت عن بيعته وتربصت عن الدخول في دعوته انقاء للوطاسيين وارتبأ في أمره إلى ماذا يؤول واستمر الحال إلى سنة إحدى وخمسين وتسعمائة فانقادت له حينئذ وبايعه أهلها فقدمها واستولى عليها وخلص له جميع ما كان بيد أخيه المخلوع من تادلا إلى وادي نول والله غالب على أمره نهوض السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ لحرب بني وطاس واستيلاؤه على مكناسة وما اتفق له في ذلك لما استولى السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ على مراكش وصفت له أعمالها طمحت نفسه للاستيلاء على بقية بلاد المغرب وأمصاره وقطع جرثومة الوطاسيين من سائر أقطاره فجمع الجموع وتقدم بها إلى أعمال فاس فلم يزل يستفتحها بلداً بلداً ومصرأ مصرأ إلى أن أتى عليها أجمع وكان أول ما ملك منها مكناسة الزيتون فإنه افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار وقتال كبير

حصار السلطان أبي عبد الله الشيخ حضرة فاس ومقتل الشيخ عبد الواحد الوانثريسي رحمه الله كان السلطان أبو عبد الله الشيخ قد ألح على فاس بالقتال وحاصرها حصاراً طويلاً ولما عسر عليه أمرها بحث عن ذلك فقيل له لا سبيل لك إليها ولا يبايعك أهلها إلا إذا بايعك ابن الوانثريسي يعنون الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد بن أحمد الوانثريسي رحمه الله فبعث إليه السلطان المذكور سرا ووعده ومناه فقال له الشيخ عبد الواحد بيعة هذا السلطان يعني أبا العباس الوطاسي في رقبتي ولا يحل لي خلعيها إلا لموجب شرعي وهو غير موجود وزعم بعضهم أن السلطان المذكور كتب إلى أهل فاس يقول لهم إني إن دخلت فاسا صلحاً ملأتها عدلاً وإن دخلتها عنوة ملأتها قتلاً فأجابته ابن الوانثريسي بأبيات أغلظ له فيها منها قوله كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا خصك المولى بفضل ولا أولى كذا في النزهة قلت وهذا البيت من أبيات قديمة والوانثريسي إنما تمثّل به لا غير فقد ذكر العلامة ابن خلدون في أخبار بني صالح بن منصور الحميري أصحاب قلعة نكور لأول الفتح أن عبيد الله المهدي الحميري صاحب إفريقية لما تغلب على المغرب خاطب سعيد بن صالح بن منصور الحميري يدعو إلى أمره وكتب له في أسفل كتابه فإن تستقيموا استقم لصلحكم وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلاً وأعلوا بسيفي قاهراً لسيوفكم وأدخلها عنواً وأملأها قتلاً فأجابته سعيد بن صالح بأبيات من نظم شاعره الطيطلي نصها كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا علم الرحمن من قولك الفصلا وما أنت إلا جاهل ومنافق تمثّل للجهال في الساعة المثلى وهمتنا العليا بدين محمد وقد جعل الرحمن همتك السفلى فلعل الشيخ كتب لأهل فاس بالبيتين الأولين والوانثريسي كان مطلعاً على القضية فأجابته بجوابهما ولما بلغ ذلك

السلطان الشيخ حقد على الوانثريسي و دس إلى جماعة من المتلصصة بأن يأخذوه ويأتوا به إلى محلته محبوسا من غير قتل وكان الشيخ عبد الواحد يقرأ صحيح البخاري بجامع القرويين بين العشاءين وينقل عليه كلام ابن حجر في فتح الباري ويستوفيه لأنه شرط المحبس فقال له ابنه يا أبت إنني قد سمعت أن اللصوص أرادوا الفتك بك في هذه الليلة فلو تأخرت عن القراءة فقال له الشيخ أين وقفنا البارحة قال على كتاب القدر قال فكيف نفر من القدر إذا ذهب بنا إلى المجلس فلما افترق المجلس خرج الشيخ عبد الواحد من باب الشماعين أحد أبواب المسجد المذكور فثار به اللصوص وأرادوا حمله فأخذ بإحدى عضادتي الباب فضرب أحدهم يده فقطعها وأجهز عليه الباقون فقتلوه بباب المسجد المذكور في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة خمس وخمسين وتسعمائة قال الشيخ المنجور في فهرسته واشتهر عن الفقيه الصالح أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المدعو بأبي شامة أنه رأى الشيخ عبد الواحد في المنام بعد مقتله فسأله عن حاله فأنشأ يقول لقد عمي رضوان ربي وفضله ولم أر إلا الخير في وحشة القبر وإني أسأل الإله بفضله ليحفظني يوم الخروج إلى الحشر وما بعد ذلك من أمور عسيرة كنشر الكتاب والمرور على الجسر استيلاء السلطان أبي عبد الله الشيخ على فاس وقيضه على الوطاسيين وتغريبهم إلى مراکش ثم إن السلطان أبا عبد الله الشيخ جد في حصار فاس وألح عليها بالقتال إلى أن ملكها واحتوى عليها قال في الدوحة لما ألح السلطان الشيخ بالحصار على فاس جاءه الشيخ أبو الرواين المحجوب وقال له اشتر مني فاسا بخمسائة دينار فقال له السلطان ما أنزل الله بهذا من سلطان هذا شيء لم تأت به الشريعة فقال والله لا دخلتها هذه السنة فبني أشهرا والأمر لا يزيد إلا شدة فقال ابن السلطان وهو الأمير أبو محمد عبد القادر ابن الشيخ لأبيه يا أبت افعل ما قال لك الشيخ أبو الرواين فإنه رجل مبارك من أولياء الله تعالى ولم يزل به حتى أذن له في الكلام معه فكلمة الأمير عبد القادر فقال له ادفع المال فدفعه إليه فقال له عند تمام السنة يقضي الله الحاجة وأمرني سبحانه ثم إن الشيخ أبا الرواين فرق المال من يومه ولم يمك منه نفسه حبة ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور في الظهور إلى أن انقضت السنة فدخل فاسا كما قال اه وقال صاحب الممتع والشيخ أبو الرواين هو كان أحد الأسباب في تمكن السلطان المذكور من الملك وإخراج بني وطاس عنه فإنه لما رأى اضطراب أمر الناس وهيجان النصارى على المسلمين جعل ينادي يا حران جئ فإني قد أعطيتك العرب وذلك قبل ظهور السعديين ولم يكن الناس يدرون ما يقول حتى ظهر الحران وهو أحد أولاد السلطان أبي عبد الله الشيخ وهو الذي كان يتقدم للحرب ولم يفتح والده من البلاد إلا ما فتح له على يده وكان دخول السلطان الشيخ إلى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة ولما دخلها تقيض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين إلى مراکش عدا

أبا حسون منهم فإنه فر إلى الجزائر مستجيرا بتركها حسيا مر وقال اليفرني لما دخل الشيخ حضرة فاس دخلها وعليه وعلى أصحابه الدراعات الصفر وسمه البداوة لائحة عليهم فحملوا أنفسهم على التآبد باداب الحاضرة والتخلق بأخلاقهم يعني حتى رسخ فيهم ذلك والله أعلم نهوض السلطان أبي عبد الله الشيخ إلى تلمسان واستيلاؤه عليها قد قدمنا ما كان من استيلاء حسن بن خير الدين التركي على تلمسان وانقراض دولة بني زيان منها سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة فلما فتح أبو عبد الله الشيخ حضرة فاس في التاريخ المتقدم تأقت نفسه إلى الاستيلاء على المغرب الأوسط وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه مع أنهم أجناب من هذا الإقليم ودخلاء فيه فيفتح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم لا سيما وقد فر إليهم عدو من أعدائه ويعيص من أعياص أقتاله وهو أبو حسون الوطاسي فرأى الشيخ من الرأي وإظهار القوة في الحرب أن يبدهم قبل أن يبدهوه فنهض من فاس قاصدا تلمسان في جموعه إلى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر وقتل في محاصرتها ولده الحران وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وتسعمائة ونفى الترك عنها وانتشر حكمه في أعمالها إلى وادي شلف واتسعت خطة مملكته بالمغرب ودانت له البلاد ثم كرت عليه الأتراك وأخرجوه من تلمسان فعاد إلى مقره من فاس ثم عاود غزو تلمسان حين بلغه قيام رعاياها على الترك وانحصار الترك بقصبتها فأقام مرابطا عليها أياما فامتعت عليه وأقلع عنها ولم يعاود غزوها بعد ذلك وخلص أمرها إلى الترك على ما ذكره

امتحان السلطان أبي عبد الله الشيخ أرباب الزوايا والمنتسبين والسبب في ذلك لما كانت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة أمر السلطان أبو عبد الله الشيخ بامتحان أرباب الزوايا والمتصدين للمشيخة خوفا على ملكه منهم لما كان للعامه فيهم من الاعتقاد والمجبة والوقوف عند إشاراتهم والتعبد بما يتأولونه من عباراتهم ألا ترى أن بيعة والده أبي عبد الله القائم لم تتعد إلا بهم ولا ولج بيت الملك إلا من بابهم فامتن جماعة منهم كالشيخ أبي محمد الكوش فألحق زوايته بمراكش وأمر برحيله إلى فاس وفي الدوحة لما امتحن السلطان أبو عبد الله الشيخ زوايا المغرب قيل لأبي علي الحسن بن عيسى المصباحي دفين الداعج التي على وادي مضي من هذا القصر ألا تخشى من هذا السلطان فقال إنما الخشية من الله ومع هذا فالمامة والقبلة لا يقدر أحد على نزعهما والباقي متروك لمن طمعه وكان السلطان المذكور يطلب أرباب الزوايا بودائع أمراء بني مرين وبيتهم بها وبعث خديمه يوما إلى الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشتراني دفين مكناسة يطالبه بشيء من ذلك فوجده جالسا بناحية زوايته يصفى الدوم وإذا بطائر لعله للقلق سلح أمامه فما رفع أبو عثمان بصره حتى سقط الطائر ميتا منتظرا الريش فلما رأى الخديم ذلك فرح وولى هاربا قاله في الممتع والله تعالى أعلم

وفادة الإمام أبي عبد الله الخروبي من جانب دولة الترك في شأن قسم البلاد وتحديدها لما كان من السلطان أبي عبد الله الشيخ ما كان من غزوه تلمسان مرتين وكان يحدث نفسه بمعاودة غزو تلك البلاد عينت دولة الترك من جانبها الفقيه الصالح أبا عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر ودفينها للوفادة على السلطان المذكور في شأن عقد المهادنة وتحديد البلاد فقدم عليه الفقيه المذكور وهو بمراكش سنة إحدى وستين وتسعمائة في هذا الغرض فأكرم السلطان أبو عبد الله وفادته إلا أنه لم تظهر ثمرة لمقدمه وفي المرأة أن أبا عبد الله الخروبي قدم المغرب الأقصى مرتين في سبيل السفارة بين ملوك المغرب الأوسط والمغرب الأقصى فأخذ عنه كثير من أهل المغرب الأقصى وأخذ هو عن الشيخ زروق رحمه الله وفي قدمة الخروبي هذه إلى مراکش أنكروا على الشيخ أبي عمرو القسطلي دفين رياض العروس من مراکش حلق شعر التائب الذي يريد الدخول في طريق القوم وقال إنه بدعة فقالوا له إن الشيخ الجزولي كان يفعله فقال لهم لعله باذن والإذن له لا يعمكم فإن الإذن للنبي يعم أتباعه والإذن للولي لا يعم أتباعه وأنكر عليه مسائل كثيرة وبعث إليه رسالة أذع له فيها وقد وقفت عليها رحم الله الجميع بمنه وتوفي الخروبي هذا سنة ثلاث وستين وتسعمائة ودفن خارج الجزائر والله أعلم

قدوم أبي حسون الوطاسي بجيش التراك واستيلاؤه على فاس ونفيه الشيخ عنها قد قدمنا ما كان من استيلاء السلطان أبي عبد الله على فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقيضه على بني وطاس وفرار أبي حسون إلى الجزائر فلم يزل أبو حسون عند تركها إلى أن قدم بهم مع باشاهم صالح التركماني فاستولى على فاس ثالث صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة ونفى أبا عبد الله الشيخ عنها حسبما مر الخبر عنه مستوفى عود السلطان أبي عبد الله الشيخ إلى فاس واستيلاؤه عليها لما فر السلطان أبو عبد الله الشيخ من وقعة الترك بفاس ووصل إلى مراکش صرف عزمه لقتال أبي حسون فاستنفر قبائل السوس وجمع الجموع وزحف إلى فاس فدارت بينه وبين سلطانها أبي حسون حروب شديدة كان في آخرها الظفر للشيخ فقتل أبا حسون واستولى على فاس وصفا له أمر المغرب وقد تقدمت هذه الأخبار مستوفاة في محلها وكان استيلاء السلطان الشيخ على فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة إحدى وستين وتسعمائة وفي الدوحة أن دخول أبي حسون لفاس كان سنة ستين وتسعمائة وعود السلطان الشيخ إليها واستيلاؤه عليها كان في ذي القعدة سنة ستين أيضا والله تعالى أعلم

مقتل الفقيهين أبي محمد الزقاق وأبي علي حرزوز والسبب في ذلك لما استولى السلطان أبو عبد الله الشيخ على فاس في هذه المرة أمر بقتل الفقيه الصالح قاضي الجماعة بفاس أبي محمد عبد الوهاب بن محمد ابن علي الزقاق لأنه اتهمه بالميل إلى أبي حسون ويحكي أنه لما مثل بين يديه قال له اختر بأي شيء تموت فقال له الفقيه اختر أنت لنفسك فإن المرء مقتول بما قتل به فقال لهم السلطان أقطعوا رأسه بشاقور فكان من حكمه الله وعدله في خلفه أن السلطان المذكور قتل به أيضا كما سيأتي وفي كتاب خلاصة الأثر أن الشيخ الزقاق كان يقول من قتل سوسيا كان كمن قتل

مجوسيا فلما قبض عليه الشيخ قال له أنت زق الضلال فقال له لا والله بل أنا زق العلم والهداية ثم قتله وأمر أيضا بقتل خطيب مكناسة الزيتون الشيخ أبي علي حرزور المكناسي لكلام بلغه عنه وأنه كان يذكره في خطبه ويحذر الناس من اتباعه والانقياد إليه ويقول في خطبته جاءكم أهل السوس الأقصى البعاد ثم يذكر الشيخ ويقول وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبنس المهاد في كلام غير هذا وكان مقتل الفقيهين المذكورين في ذي القعدة سنة إحدى وستين وتسعمائة ترتيب السلطان أبي عبد الله الشيخ أمر دولته وما قيل في ذلك قال البيهقي كان السلطان أبو عبد الله الشيخ مولعا بتبديل أمر الرعية مستيقظا في أمره حازما غير متوقف في سفك الدماء قال ويحكى أنه لما دخل فاسا دخلها وعليه وعلى أصحابه سمة البداة فحملوا أنفسهم على التأديب بأداب أهل الحاضرة والتخلق بأخلاقهم وذكر أن ملك السعديين إنما تأتى على يد رجل وامرأة فأما الرجل ففاسم الزرهوني فإنه رتب للسلطان أبي عبد الله الشيخ هيئة السلاطين في ملابسهم ودخولهم وخروجهم وأداب أصحابهم وكيفية مثلهم بين أيديهم وأما المرأة فالعريفة بنت خجو فإنها علمته سيرة الملوك في منازلهم وحالاتهم في الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وغير ذلك فاكتمى ملك الشيخ بذلك طلاوة وازداد في عيون العامة رونقا وحلاوة بسبب جريانه على العوائد الحضرية لأن أهل البادية مستردلون في عيون أهل الحاضرة قالوا ولم يزل السلطان أبو عبد الله الشيخ يدور على مدن المغرب وأمصاره ويطيل الإقامة بفاس قال في المتنقي ومن مآثره أنه بنى جسر وادي سبو وجسر وادي أم الربيع وتقدم بناؤه حصن أكادير والله تعالى أعلم وضع الوظيفة المسمى في لسان العامة بالنائبة قد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب اختلاف العلماء في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو غير ذلك وعلى القول بأنها فتحت عنوة فهي خراجية كما هو مقرر في كتب الفقه وتقدم لنا أيضا أن أول من وظف الخراج على أرض المغرب عبد المؤمن بن علي وتبعه بنوه على ذلك وقفا نهجهم بنو مريين وفي الظهير الذي كتبه السلطان أبو زيان المريني لابن الخطيب أيام مقامه بسلا شاهد بذلك ولما جاء السعديون من بعدهم سلخوا هذا السبيل أيضا وقول البيهقي إن أبا عبد الله الشيخ أول من أحدث النائبة

بالمغرب يحمل على أنه أول من أحدثها على الوجه الآتي بيانه وذلك أنه لما صفا للسلطان أبي عبد الله الشيخ أمر المغرب واستأصل جرثومة بني وطاس منه التفت إلى ترتيب ملكه وتهذيب أعطافه وتأسيس أمور دولته كما قلنا فمن ذلك أنه فرض على قبائل المغرب الضريبة المسماة في لسان العامة بالنائبة ولم ينزه عنها شريفا ولا مشروفا حتى أرباب الزوايا والمنتسبين ومنهم أولاد الشيخ أبي البقاء خالد المصمودي مع ما كان لأبيهم من الشهرة بالولاية والصيت في بلاده وكان قدر هذه النائبة صحفة من الشعير وعشرين مدا من الفصح لكل نائبة وصاعا من السمن وكبشا لكل أربع نواب وكانت تقرض في زمان الشيخ على الكوائن وتوظف على حسب السكان وتدفع بأعيانها وجرى على ذلك ولده الغالب بالله وأخوه المعتصم ولما جاء المنصور من بعدهم قوم تلك الأعيان بسعر الوقت وصارت تدفع دراهم ثم ازداد ذلك إلى أن خرج الأمر عن القياس واتسع الخرق على الراقع والله لا يظلم مقفلا ذرة مراسلة السلطان سليمان العثماني للسلطان أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك قد قدمنا ما كان من غص السلطان أبي عبد الله الشيخ بمكان الترك من تلمسان والمغرب الأوسط وأنه غزاهم مرتين وقدم الإمام أبو عبد الله الخروبي ساعيا في الهندة فلم يرجع بطائل وكان السلطان الشيخ يقول فيما زعموا لا بد لي أن أغزو مصر وأخرج الترك من أحجارها وكان يطلق لسانه في السلطان سليمان العثماني ويسميه بسطان الحوامة يعني لأن الترك كانوا أصحاب أساطيل وسفر في البحر فأنهى ذلك إلى السلطان سليمان فبعث إليه رسله فهذا سبب المراسلة على ما في النزهة وأشبهه منه بالصواب ما حكاه بعضهم قال لما بلغ خبر انقراض الدولة الوطاسية إلى السلطان سليمان العثماني واستيلاء السعديين على ملك المغرب الأقصى كتب إلى الشيخ يهنئه بالملك ويلتمس منه الدعاء له على منابر

المغرب وبعث إليه بذلك رسولا في البحر فانتهى إلى الجزائر ومنها قدم إلى مراكش في البر ولما وصل إلى السلطان أبي عبد الله الشيخ أنزله على كبير الأتراك في محلته صالح باي المعروف بالكاهية وكان هؤلاء الأتراك قد انحاشوا إلى الشيخ من بقايا القادمين مع أبي حسون فضمهم إليه وجعلهم جندا على حدة وسامهم اليكشارية بالياء ثم الكاف ثم الشين وهو لفظ تركي معناه العسكر الجديد ولما قرأ السلطان أبو عبد الله الشيخ كتاب السلطان سليمان ووجد فيه أنه يدعو له على منابر المغرب ويكتب اسمه على سكتة كما كان بنو وطاس حمى أنفه وأبرق وأرعد وأحضر الرسول وأزعجه فطلب منه الجواب فقال لا جواب لك عندي حتى أكون بمصر إن شاء الله وحينئذ أكتب للسلطان القوارب فخرج الرسول من عنده مذعورا بلتفت وراءه إلى أن وصل إلى سلطانه وكان من أمره ما نذكره فقوم طائفة الترك من عند السلطان سليمان العثماني واغتيالهم للسلطان أبي عبد الله الشيخ رحمه الله لما خرج رسول السلطان سليمان العثماني من عند السلطان أبي عبد الله الشيخ ووصل إلى الجزائر ركب البحر إلى القسطنطينية فانتهى إليها واجتمع بالوزير المعروف بالصدر الأعظم وأخبره بما لقي من سلطان المغرب فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان سليمان فأمره أن يهني العمارة والعساكر لغزو المغرب فاجتمع أهل الديوان وكرهوا توجيهها وعسكر الشيخ ووعده بالمال والمنصب إن هو نصح في اغتيال الشيخ وتوجيه رأسه مع القادمين عليه وفي النزهة أن صالحا هذا كان من ترك الجزائر جاء في جملة

الطائفة الموجهين لاغتيال الشيخ والله أعلم ثم دخل الوزير على السلطان سليمان واعتذر إليه عن توجيه العمارة وقال هذا أمر سهل لا يحتاج فيه إلى تقويم عمارة وهذا المغربي الذي أساء الأدب على السلطان يأتي رأسه إلى بين يديك فاستصوب رأيهم وشكر سعيهم وأمر بتوجيه الجماعة المعينة في البحر إلى الجزائر ومنها يتوجهون إلى مراكش في البر ففعلوا ولما وصلوا إلى الجزائر هيؤوا أسبابا واشتروا بغالا وساروا إلى فاس في هيئة التجار فباعوا بها أسبابهم وتوجهوا إلى مراكش ولما اجتمعوا بصالح الكاهية أنزلهم عنده ودير الحيلة في أمرهم إلى أن توجهت له وفي النزهة أن هؤلاء الأتراك خرجوا من الجزائر إلى مراكش مظهرين أنهم فروا من سلطانهم ورجعوا في خدمة الشيخ والاستيجار به ثم إن صالحا الكاهية دخل على السلطان أبي عبد الله الشيخ وقال يا مولاي إن جماعة من أعيان جند الجزائر سمعوا بمقامنا عندك ومنزلتنا منك فرغبوا في جوارك والتشرف بخدمتك وليس فوقهم من جند الجزائر أحد وهم إن شاء الله السبب في تملكها فأمره بإدخالهم عليه ولما مثلوا بين يديه رأى وجوها حسنا وأجساما عظاما فأكرمهم ثم ترجع له صالح كلامهم فأفرغه في قلب المحبة والنصح والاجتهاد في الطاعة والخدمة حتى خيل إلى الشيخ أنه قد حصل على ملك الجزائر فأمره بإكرامهم وأن يعطيهم الخيل والسلاح ويكونوا يدخلون عليه مع الكاهية كلما دخل فكانوا يدخلون عليه كل صباح لتقبيل يده على عادة الترك في ذلك وصار الشيخ يبعث بهم إلى أشياخ السوس مناوية في الأمور المهمة ليتبصروا في البلاد ويعرفوا الناس وكان يوصي الأشياخ بإكرام من قدم عليهم منهم واستمر الحال إلى أن أمكنتهم فيه الفرصة وهو في بعض حركاته بجبل درن بموضع يقال له ألككال بظاهر تارودانت فولجوا عليه خبائه ليلا على حين غفلة من العسس فضربوا عنقه بشاقور ضربة أبانوا بها رأسه واحتملوه في مخلاة ملؤها نخالة وملحا وخاضوا به أشقاء الظلماء وسلخوا طريق درعة وسجلماسه كأنهم أرسل تلمسان لئلا يظن بهم أحد من

أهل تلك البلاد ثم أدركوا ببعض الطريق فقاتلت طائفة منهم حتى قتلوا ونجا الباقون بالرأس وقتل مع الشيخ تلك الليلة الفقيه مفتي مراكش أبو الحسن علي بن أبي بكر السكتاني والكاتب أبو عمران الوجاني ولما شاع الخبر بأن الترك قتلوا السلطان واستراب الناس بجميع من بقي منهم بالمغرب أغلق إخوانهم الذين كانوا بتارودانت أبوابها واقتسموا الأموال واستعدوا للحصار ولما بويع ابنه الغالب بالله وقدم من فاس نهض في العساكر إلى تارودانت للخذ بثأر أبيه من الترك الذين بها فحاصروهم مدة ولما لم يقدر منهم على شيء عمل الحيلة بأن أظهر الرحلة عنهم وأشاع أنه راجع إلى فاس لثأر قام بها ولما أبعد عنهم مسيرة يوم خرجوا في اتباعه ليلا والعيون موضوعة عليهم بكل جهة إلى أن شارفوا محلة السلطان الغالب بالله فعضف عليهم ولما لم يمكنهم الرجوع إلى تارودانت تحيزوا إلى الجبل وبنوا به قياظهم وجعلوا عليها المنارزات من الأحجار وتحصنوا بها وأحاطت بهم العساكر من كل جهة فقاتلوا إلى أن فتوا عن آخرهم ولم يؤخذ منهم أسير وقتلوا من محلة الغالب بالله ألفا ومائتين وأما الذين نجوا بالرأس فانتهوا إلى الجزائر وركبوا البحر منها إلى القسطنطينية فأوصلوا الرأس إلى الصدر الأعظم وأدخله على السلطان سليمان فأمر

به أن يجعل في شبكة نحاس ويعلق على باب القلعة فبقي هناك إلى أن شفع في إنزاله ودفنه ابنه عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور حين قما القسطنطينية على السلطان سليم بن سليمان مستعدين له على ابن أخيهما السلوخ كما يأتي وكان مقتل الشيخ رحمه الله يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة ولما بلغ خبر مقتله إلى خليفته بمرآكش القائد أبي الحسن علي بن أبي بكر أزنك بدر يقتل أبي العباس الأعرج المخلوع وأولاده ذكورا وإناثا كبارا وصغارا خشية أن يخرجهم أهل مراکش فيبيعوه ولما قتلوا لم يتجرأ أحد على دفنهم فبقوا مصرعين حتى دفنهم الشيخ أبو عمرو القسطلي الولي الشهير بمقربة من ضريح الشيخ الجزولي وهي القبّة التي قرب الضريح المذكور تسمى قبور الأشراف وأما السلطان أبو عبد الله الشيخ

فإنهم حملوا جثته إلى مراکش فدفنت بها قبلي جامع المنصور بروضة السعديين وقبره شهير بها إلى الآن ومما نقش على رخامة قبره هذه الأبيات حي ضريحا تعمدته رحمت وظلت لحدده منها غمامات واستنشقت نفة التقديس منه فقد هبت من الخلد لي منها نسيات بحر به كورت شمس الهدى فكست من أجلها السبعة الأرضين ظلمات يا مهجة غالها غول الردى قنصا وأثبتت سهمها فيها المنيات دكت لموتك أطواد العلا صعقا وارتيح من بعدك السبع السموات وشيعت نعشك المزجي إلى عدن من الملائك ألحان وأصوات يا رحمة الله عطيه سلاف رضا تدور منها عليه الدهر كاسات قضى فوافق في التاريخ منه حلّ دار إمام الهدى المهدي جنات بقية أخبار السلطان أبي عبد الله الشيخ وسيرته كان السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ يلقب من الألقاب السلطانية بالمهدي ونشأ في عفاف وصيانة وعني بالعلم في صغره وتعلق بأهدابه فأخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ فيه درجة الرسوخ حتى كان يخالف القضاة في الأحكام ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه وقع ذلك منه مرارا وله حواش على التفسير وذلك مما يدل على غزارة علمه وقال في المنتقى كان السلطان أبو عبد الله الشيخ رحمه الله أديبا متقنا حافظا حدثني شيخنا أبو راشد أنه كان ممتع المجالسة والمذاكرة نقي الشبيهة عظيم الهيبة ما رأيت بعد شبيخي أبي الحسن علي بن هارون أحفظ منه للمقطعات الشعرية وكثيرا ما ينشد الناس كالتاس والأيام واحدة والدهر كالدهر والدنيا لمن غلب وكان حافظا للقرآن فهما جدا حافظ لصحيح البخاري ويستحضر ما للناس عليه ويقول في شرح ابن حجر ما صنف في الإسلام مثله عارفا بالتفسير وغيره وكان يحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب وكان يحض على

المشاورة ويقول لا سيما في حق الملوك وينشد قول المتنبي ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى وكان يقول ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل فإن طول الأمل وإن كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لأن الرعية تصلح بطول أمله وكان يقول من طول أمله أخذ تلمسان وسبته وغيرهما انتهى وقوله إنه كان يحفظ ديوان المتنبي سببه ما ذكره في الدوحة قال أخبرني الوزير المعظم أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي محمد عبد القادر بن السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف قال لما غدرت قبيلة المنابهة بجد السلطان المذكور وأنجاه الله من غدرتهم عرف الشيخ أبا محمد عبد الله ابن عمر بذلك فكتب إليه يقول أين أنت من قول أبي الطيب المتنبي غاض الوفاء فما تلقاه في عدة وأعوز الصدق في الإخبار والقسم قال فعكف السلطان المذكور على ديوان المتنبي حتى حفظه كله ولم يعزب عنه بيت واحد وإبن عمر المذكور هو أحد أشياخ السلطان المذكور وهو أبو محمد عبد الله بن عمر المضغري الفقيه الفرضي الحاسب فقيه درعة وعالمها وكان قد وفد على السلطان المذكور أيام كونه بالسوس ولما عاد إلى درعة سأله فقهاؤنا كيف وجدت أهل السوس فقال وجدت فقهاءهم على ضعيف الفتاوى وقرأهم على عظيم الدعاوي وعامتهم على كثير المساوي ومن أشياخ السلطان المذكور الإمام الشهير شيخ الجماعة بالصنع السوسي أبو الحسن علي بن عثمان التاملي ذكره في المنتقى وأتت عليه ومن أشياخه علامة فاس ومحققها أبو عبد الله محمد بن أحمد البيهقي أخذ عنه علوما منها التفسير قال المنجور وكنت أنا قارئه بين يدي أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ المذكور وكان شديد المحبة له قال ولما

توفي الفقيه المذكور وذهبت مع ولده صبيحة تلك الليلة التي توفي بها لنخبر السلطان بوفاته وجدناه يقرأ ورده بحمام المربني فخرج السلطان إلينا وهو يبكي بصوت عال يفزع من سمعه حتى رأينا منه العجب وما سكت إلا بعد مدة لما كان يعلم منه من صحة الدين والنصح لخاصة المسلمين وعامتهم وحضر جنازته وكانت وفاته رحمه الله سنة تسع وخمسين وتسعمائة وللسلطان المذكور عدة أشياخ غير هؤلاء ومن وزرائه الرئيس أبو الحسن علي بن أبي بكر أصناك الحلي وأبو عمران موسى بن أبي جمدي العمري وغيرهم ومن قضاته بفاس أبو الحسن علي بن أحمد الخصاصي وبمراكش أبو الحسن علي بن أبي بكر السكتاني رحم الله الجميع وكان للسلطان أبي عبد الله الشيخ عدة أولاد نجباء ومن أنجبهم أبو عبد الله محمد المعروف بالحران القليل على تلمسان ومنهم أبو محمد عبد الله الغالب بالله وأبو مروان عبد الملك الغازي وأبو العباس أحمد المنصور وهؤلاء الثلاثة ولوا الأمر بعد أبيهم ومنهم الوزير أبو محمد عبد القادر وتوفي في حياة أبيه سنة تسع وخمسين وتسعمائة وفي نشر المثاني أنه قتل مخنوقا بأمر أخيه عبد الله الغالب بالله سنة خمس وسبعين وتسعمائة فانه أعلم منهم عثمان وعبد المؤمن وعمر وغيرهم قال المنجور في فهرسته حضرت يوما مجلس أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ وقد حضر عنده أولاده الصناديد الأمراء المولى محمد الحران والمولى عبد القادر والمولى عبد الله فنخل شيخنا الإمام أبو عبد الله البيهقي فلما نظر إليهم حول أبيهم أنشد بيت تلخيص المفتاح فقلت عسى أن تبصريني كأنما بنى حوالي الأسود الحوارد فأعجب ذلك السلطان وأولاده رحمة الله عليهم

الخبر عن دولة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله ابن السلطان محمد الشيخ رحمه الله كانت ولادة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله كما رأيتهم مرقوما على الرخامة التي على قبره في رمضان سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وكان رحمه الله أدعج العينين مستدير الوجه عريضه أسيل الخدين مشرف الوجنتين ربيعة للقصر ونشأ في عفاف وصيانة وحفظ القرآن وأخذ بطرف صالح من العلم وكان ولي عهد أبيه وكان يلقب من الألقاب السلطانية بالغالب بالله لقيه به غير واحد من الأئمة ولما وافته الأنبياء بمقتل أبيه وهو بفاس بايعه أهلها ولم يتخلف عن بيعته منهم أحد وذكر صاحب زهرة الشماريخ أن الفقيه الميقاتي المعدل بمنار القرويين أبا عبد الله المزوار وكان بصيرا بعلم الأحكام والحدثان بينما هو ذات ليلة يرقب الطالع والغارب وقد ابهار الليل واسود ديجوره رأى طالع السلطان الشيخ قد سقط وكانت بينه وبين ابنه أبي محمد عبد الله وصلة فأسرع في الذهاب إليه ليخبره بما رأى فلما بلغ باب فاس الجديد وجدته مغلقا فاستأذن الموكلين به في فتحه فأبوا فقال لهم إني جئت إلى الخليفة يعني خليفة السلطان في أمر مهم عنده وإن لم تعلموه بمكاني الساعة لحقكم منه غدا ما تكرر هون فأنذروا الخليفة المذكور به فحمل إليه وسأله عن قضيته فأخبره بما رأى ونعى إليه أباه فلم يكذب في ذلك وتهدأ واستعد فلم تمض إلا أيام قلائل حتى وافته الأنبياء بمقتل أبيه في تلك الساعة التي قال له المعدل المذكور فصادفه الحال على أهبة واستعداد ولما بلغ أهل مراکش مبايعة أهل فاس له وافقوا عليها فاستوسق له الأمر وتمهد له ملك أبيه وكان ذلك كله في المحرم سنة خمس وستين وتسعمائة

مجيء حسن بن خير الدين التركي إلى فاس ورجوعه منهزما عنها قال ابن القاضي لما ولي السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله الخلافة اشتغل بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدد والعدة ولم تطمح نفسه إلى الزيادة على ما ملك أبوه من قبله وفي سنة خمس وستين وتسعمائة في جمادى الأولى منها غزاه حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان في جيش كثيف من الأتراك فخرج إليه السلطان الغالب بالله فالتقيا بمقربة من وادي اللين من عمالة فاس فكانت الدبرة على حسن فرجع منهزما يطلب صياصي الجبال إلى أن بلغ إلى باديس وكانت يومئذ للترك ورجع الغالب بالله إلى فاس لكنه لم يدخلها لوباء كان بها يومئذ ولما رجع من حركته هذه أمر بقتل أخيه عثمان لأمر نقمه عليه فقتل في السنة المذكورة والله تعالى أعلم بناء جامع المواسين بحضرة مراکش والبركة المتصلة به والمارستان وغير ذلك قال اليفرنى وفي عشرة السبعين وتسعمائة أنشأ السلطان الغالب بالله جامع الأشراف بحومة المواسين من مراکش والسقاوية المتصلة به التي عليها مدار المدينة المذكور والمارستان الذي ظهر نفعه ووقف عليه أوقافا عظيمة قلت وهذا المارستان هو الذي بحومة الطالعة قرب السجن وقد اتخذ اليوم سجنا للنساء قال وهذا السلطان هو الذي جدد أيضا بناء المدرسة التي بجوار جامع ابن يوسف للمتونى وليس هو الذي أنشأها كما يعتقد كثير من الناس بل الذي أنشأها أولا هو السلطان أبو الحسن

المرييني رحمه الله حسبما ذكره ابن بطوطة في رحلته وشاع على الألسنة أن السلطان الغالب بالله توصل إلى بنائها بصناعة الكيمياء وأن الشيخ أبا العباس أحمد بن موسى السلماني علمه إياها حين تلمذ له كما سيأتي قال اليفرني وهو كذب فإن المنقول عن الشيخ المذكور إنكارها وما كان ليفتح على مسلم بابا عظيما من أبواب الفتنة وسببا بليغا من أسباب المحنة لأن هذه الحرفة من أعظم أبواب الفتن وقد أجمع أرباب البصائر على التحذير من تعاطيها لوجوه ثلاثة أولها إنها من المستحيلات كما ذكره ابن سينا مستدلا عليه بقوله تعالى لا تبدل خلق الله وكما أنه ليس في قدرة المخلوق أن يحول القرد إنسانا والذئب غزالا كذلك ليس في قدرته أن يصير الرصاص فضة والنحاس ذهبيا يعني لأن ذلك من باب قلب الحقائق وهو محال ولقد تناظر رجلان فيها فقال مجوزها أنتكر ما تشاهده في الصبغ وتصبير الجسد الأحمر أصفر والأبيض أسود فقال مانعها لا أنكرك ذلك لأن الصبغ ليست بتغيير أصل وإنما أنكرك أن ثوب الصوف الأبيض ترده صناعة الصبغ قطنا أو حريرا أحمر أو أخضر وأما الصبغ فلا شك أن النحاس يصير أبيض ولا يخرج ذلك عن أصله ولا يسلب عنه اسم النحاس بل يقال فيه نحاس أبيض كما لا يسلب صبغ الصوف عنه اسم الصوف ثانيها سلمنا أنها جائزة الوجود لكنها معدومة في الخارج كما ذهب إليه أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله إذ قال ثلاث متفق على وجودها في الغالب وقد اتفق على عدم رؤيتها أهل المشارق والمغرب الكيمياء والعنقاء والغول وأخبارها كلها على وجه السماع والإسنادات وحكايتها كالموضوعات عن العجموات والجمادات ثالثها سلمنا أنها موجودة في الخارج لكنه يحرم تناولها والبيع والشراء بها وقد سئل عنها الشيخ أبو إسحاق التونسي رحمه الله فقيل له أحلال هي إذا كانت خاصة فقال لو دبر النحاس أو غيره من الأجساد حتى صار ذهبيا خالصا لا شك فيه فمتى لم يقل بائعه لميتاعه هذا كان نحاسا أو جسدا من الأجساد فدبرته حتى صار ذهبيا كما ترى لكان غاشا مدلسا قال ومتى ذكره لم يشتر أحد منه ذلك بفلس ويقول فكما دبرته حتى صار ذهبيا فكذلك يدبره غيرك حتى يرجع إلى أصله فمن لم يبين فيها فهو داخل

في قوله من غشنا فليس منا فتكون صناعتها حراما وقيل لبعض الفضلاء لم لا تتعلل بهذه الصناعة فإنها تسلي الخاطر فقال قيل للحمار لم لا تجتر فقال أكره مضغ الباطل وأنشد فقالت لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناولها بعداه ما نقله اليفرني ملخصا مهذبا وهو الحق الذي لا عوج فيه ولا أمت ثم قال وبالجملة فما شاع عن السلطان الغالب بالله من ذلك لا أصل له ولقد كان أهل الورع يجتنبون الصلاة في جامع الأشراف بعد ما بنى مدة ويقال إن موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود والله تعالى أعلم فتح مدينة شفشاون وانقراض أمر بني راشد منها تقدم أن مدينة شفشاون حرسها الله بناها بنو راشد من شرفاء العلم وكانوا أهل جهاد ومرابطة على العدو ببلاد غمارة والهبط ولما توفي مختطها الأمير أبو الحسن علي بن موسى بن راشد بقيت بيد أولاده يتولون رياستها قال في المرأة ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب إلى أن حاصرهم بها الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر ابن السلطان محمد الشيخ السعدي بجيوش عمه السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله وصاحب شفشاون يومئذ الأمير الفاضل أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي الحسن علي بن موسى بن راشد فلما أشد عليه الحصار خرج فيمن إليه من أهله وولده وقرابته وصعدوا الجبل المطل على شفشاون في مسلك وعر صاحبهم فيه السلامة وذلك ليلة الجمعة الثاني من صفر سنة تسع وستين وتسعمائة وساروا إلى ترعة فركبوا منها البحر يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور واستقر الأمير أبو عبد الله بالمدينة المنورة إلى أن مات بها رحمه الله

حصار البريجة المسماة اليوم بالجديدة قد قدمنا ما كان من بناء البرتغال لمدينة الجديدة وتحصينهم لها بما فيه كفاية وكانت غارات المسلمين المجاورين لهم لا تنقطع عنهم وكذلك هم سائر مقامهم بها ولما كانت سنة تسع وستين وتسعمائة جهز إليها السلطان الغالب بالله جيشا كثيفا واستنفر لها قبائل الحوز وعقد عليهم لابنه محمد المعروف بالمسلوخ قتيل وادي المخازن وكان يومئذ ابن عشرين سنة على ما قيل واستوزر له القائد المجاهد الشاعر الفاضل أبا زيد عبد الرحمن بن تودة العمراني وجعل إليه أمر الحرب وابن السلطان صورة فزحف إليها وحاصرها أربعة وستين يوما وملك بعض أسوارها ولم يقض الله بفتحها وفي النزهة ذكر أن القائد ابن تودة دخل البريجة التي قرب أزموور وأخذ أسوارها وعزم على أن يستأصل في الغد بقيتها ولا يبقى للكفر بها أثرا فكتب إليه السلطان الغالب بالله بنهاه عنها فترجع النصارى إليها بعد أن ركبوا البحر عازمين على الجلاء عنها اه وقد وقعت في التاريخ البرتغالي الموضوع في أخبار الجديدة واسم مؤلفه لويز مارية على أخبار هذا الحصار وقد استوعبها وبسطها وتتبع الوقائع فصلا فصلا ويوما ويوما وأتى من ذلك بما يزيد على الكراسة فكان من جملة ما قال إنه لما عزم السلطان الغالب بالله على غزوه وأخذ في تجهيز الجيوش إليهم أتاهم بعض المنتصرة قال وهو عبد أسود فأخبرهم بأن السلطان مستعد لحربهم وكانوا عازمين على التوثق من هذا الجاسوس فأفلت منهم فعملوا أن إظهاره للنتصر كان مكيدة ثم أخذوا في الاستعداد واشتروا من عند قائد أزموور ألفي سيف هكذا زعم قال وفي اليوم الرابع من مارس سنة ألف وخمسمائة واثنين وستين مسيحية وصلت جموع المسلمين إلى حوز الجديدة وهذا التاريخ موافق للتاريخ العربي الذي قدمناه قال فكانت خيل المسلمين نحو ثلاثين ألف والرماة ضعف ذلك وكان فيهم عسكر الترك المعروف بالبلدروش وكانوا يومئذ جندا

للسعديين وكان معهم

عشرون مدفعا عشرة كبيرة وعشرة صغيرة وفيها واحد أعظم من الجميع يسمى ميمونا وكان معهم العلم الكبير الأبيض ورايات أحر ملونة وتقدموا إلى الجديدة فحاصروها حصارا شديدا وحاربوها حربا هائلة وصف هذا المؤرخ ذلك كله وصفا كاشفا وكانت الجديدة يومئذ في غاية الحصانة والمناعة فلم يتمكن المسلمون من النصارى على ما ينبغي وأرسل الترك عليهم أنواع الحراقيات وملكوا المتارزات التي كانت حول السور بعد أن هلكت عليها نفوس من الفريقين ثم صنع النصارى للمسلمين عندها مينا البارود مرتين ففي الأولى كانت المينا تسعة براميل نطف منهن سبعة فأهلكت خلفا من المسلمين والنصارى وفي الثانية كانت تسعة عشر برميلا أمام السور فنقطت بالمسلمين وأتلفت منهم عددا فيعضهم طار في الهواء وبعضهم تحت التراب وكان رماة المسلمين ينالون منهم نبلا عظيما واعترف النصارى لهم بجودة الرمي بحيث كانوا كلما ظهر منهم عسكري على السور اختطفته رصاصة في أخير موضع من بدنه من الرأس أو الصدر قال لويز المؤرخ ولقد قدم في بعض الأيام من أشبونة كبير من كبراء جندهم فقال لهم أروني كيف قتالكم لهؤلاء المسلمين وكيف مصافتكم لهم قال فما ظهر برأسه على السور ليرى محلة المسلمين حتى أصابته رصاصة نثرت دماغه كأن صاحبها كان ينتظره وكان ذلك بنفس نزوله من البحر قبل أن يذهب إلى منزله فعوضه منه المسلمون القير قال فما كان النصارى بعدها يقفرون أن يظهروا على السور إلا في النادر ولما طال عليهم الحصار نذب كبيرهم جماعة منهم للخروج إلى السواحل البعيدة عن محلة المسلمين لعلهم يظفرون بأسير منهم يستكشفونه عن خبر الجيش المحاصر لهم هل هو مرتحل أو مقيم وما مدة الإقامة قال فخرجوا في فلك لهم ليلا وساروا حتى بلغوا ساحل طييط وهي يومئذ خالية وكان بقربها محلة لقائد أسفي فلما طلع الفجر تقدموا إلى البر وأرسوا فلكهم إلى جانب بعض الأحجار هنالك بحيث يخفى على المارين بالساحل ثم كمنوا هنالك فلما كان وقت الإسفار إذا برجل من محلة أسفي أتى على فرسه إلى

شاطئ البحر لبعض حاجاته فلم يرعه إلا النصارى قد أحدقوا به وأخذوا بلجام فرسه وجعل بعضهم فم مكحلته في صدره فلم يملك المسلم من نفسه شيئا ثم أنزلوه عن الفرس وساقوه إلى الفلك أسيرا ولججوا به في البحر ولما بعدوا عن البر شيئا ما رمى أحدهم الفرس برصاص فقتله ثم أسرعوا إلى الجديدة فدخلوها واجتمع النصارى على المسلم وهو كالمبهوت بينهم ثم سأله عن خبر الجيش المحاصر لهم فأخبرهم بأنهم يناجزونهم بعد هذا مرة أخرى أو مرتين فإن لم يظفروا بهم ارتحلوا عنهم فكان كذلك قال وكان ارتحال المسلمين من الجديدة في سابع ماية العجمي من السنة المذكورة فعمل النصارى لذلك عيدا وأحدثوا في كنائسهم صلوات لم تكن قبل وذلك بإشارة باباهم صاحب رومة ومما حكاها هذا البرتغالي فيما كان يجري بين أهل أزموور وبينهم من الحرب وذلك بعد هذا الحصار بمدة يسيرة أنه كان بأزموور امرأة حسناء وخطيها رجل من أهل البلد سماه لويز إلا أنه لم يحسن النطق به لعجمته وأظنه اسمه الميلودي لأن الحروف التي ذكر تقرب منه قال فامتعتت عليه فراودها أياما واشتد كلفه بها فلم تزد عليه إلا تمنعا فبعث إليها ذات يوم يرغيبها في نفسه ويبدلي عليها بمآثره التي من جملتها الشجاعة حتى قال لها وإن شئت أن أتيتك برأس أعظم

نصراني بالجديدة وأشجعه فعلت ولعلها كانت متورة لهم فقالت له إن أنتيتي به تزوجتك فذهب الرجل المذكور إلى قائد أزمور ولم يسمه لوزير وعرض عليه أن يكتب إلى كبير نصارى الجديدة وصاحب رأيهم بأن يعين من جانبه رجلا من شجعانهم ليبارزه إن شاء فأجابته القائد إلى مراده وذهب الرسول بالكتاب حتى وقف على نحو غلوة من المدينة وهذا الموضوع هو الذي كانت تقف فيه رسل أزمور إذا قدمت لغرض فخرج إليه البريد من عند صاحب الجديدة وحاز الكتاب ورجع به إلى صاحبه فلما قرأه أحضر جماعة من وجوه جنده وعرض عليهم ما فيه فقام رجل منهم وقال أن صاحبه وهذا الرجل سماه لوزير وقال كان ابن ثلاثين سنة كامل القامة متملى الأعضاء أسمر اللون كثير شعر البدن أسود اللحية وكان برأسه جرح لم يندمل من وقعة كانت بينهم وبين أهل أزمور قبل ذلك فكتب صاحب الجديدة إلى قائد أزمور إنا قد أجبناك إلى ما دعوت وقد أعجبنا ذلك وما نحن قد عينا لصاحبك قرنه فلتعينا لنا اليوم والساعة التي تكون فيها الملاقة فاتفقا على يوم معلوم وفي ذلك اليوم سار قائد أزمور في أصحابه ووجوه أهل بلده ومعهم الرجل المذكور إلى الجديدة فانتهوا إلى الموضوع الذي جرت العادة أن يقف فيه المسلمون وخرج قائد النصارى في جماعته وشرطوا للمبارزة وكيفية شروطها منها أن تبعد كل جماعة من صاحبيها بخمسين خطوة ولا يلتقي إلا المتبارزان وحدهما برأى من الفريقين ومنها أن مساحة الموضوع الذي يكون فيه مجالهما خمسون شبرا ووسطا من الفريقين وإن من خرج عن هذا المحل منهما ولو قيد شبر كان رقا للآخر وأعطوا خطوطهم بذلك ولما حان وقت البراز خرج عدلان من جانب المسلمين حتى انتهيا إلى النصرائي ففتشاه لينظرا ما عليه من السلاح وما معه لأن من جملة الشروط أن لا يتبارزا إلا بالسيف والرمح فقط فلم يجدا مع النصرائي سواهما قال لوزير وكان صاحبه المذكور يحسن الضرب بكتلتا يديه فشرط عليه العدلان أن لا يقاتل إلا باليمين فرضي ثم خرج شاهدان من جانب النصارى حتى انتهيا إلى المسلم ففتشاه فلم يجدا عنده سوى السيف والرمح أيضا غير أنه قد علق على ذراعه تمانم كثيرة مخروطية في الجلد فقال له الشاهدان لا بد أن تنزع

هذه التمانم لأن صاحبا ليس عنده شيء من هذا وأيضا فيمكن أن تعيق هذه التمانم بعض الوقاية فقال لهم لا أنزعها لأن مثل هذا لا يتقى به في الحرب ولا يغني في الظاهر من السيف والرمح شيئا وإنما فيها أسماء الله ولا يحسن بي أن أطرحها في هذه الحالة التي أنا مشرف فيها على الموت فيكون ذلك سوء أدب مني مع اسم الله تعالى وربما يكون سببا في خذلاني فرجع النصرائيان إلى قائدهما وأخبراهما بالقضية فقال لا بد من نزاعها فعادا إليه وزعم لوزير أن المسلمين وافقوا على نزاعها وقال له العدلان إن الحق مع النصارى لأننا كشفنا صاحبهما كفتا تاما وراوده القائد أيضا فأصر على الامتناع معتذرا بما سلف ولما لم يحصلوا على طائل رجع المسلمون إلى بلدهم ولم يكن براز قال لوزير وعد النصارى ذلك غلبا وجعلوا يصيحون ويخرجون البارود قال وكان سور الجديدة مكسوا بالنساء والصبيان واعتاظ قائد أزمور فسجن المسلم المذكور لكونه جر هذه المذلة على المسلمين قلت من تأمل وأنصف علم أن الفشل إنما هو من جانب النصارى لأن تلك التمانم من حيث الظاهر لا تغني شيئا وكون بركتها تقيه من ضربات السيف وطعنات الرمح فهذا لا يعتقده النصارى بل ولا يسلمونه فلم يبق إلا الفشل والتعلل بما لا اعتبار به عند العقلاء ثم قال لوزير وقد كانت بين المسلمين والنصارى بعد ذلك وقائع فأبلى فيها ذلك المسلم البلاء الحسن وعرف محله من الشجاعة اه والحق ما شهدت به الأعداء وإنما أثبت هذه الحكاية بطولها لغرابتها ولما اشتهلت عليه من خلال الفتوة ومنازع النخوة الإيمانية فسأله سبحانه وتعالى أن يعلي منار الدين ويكتب كيد الجاحدين والمعتدين أمين وفي سنة سبعين وتسعمائة ولى السلطان الغالب بالله الفقيه أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي قضاء فاس فطالت مدته

وفادة السلطان الغالب بالله على الشيخ أبى العباس أحمد بن موسى السملالي رضي الله عنه حكى صاحب الممتع أن السلطان أبى محمد عبد الله الغالب بالله قال للأستاذ أبى عبد الله الترغي إني أجد في نفسي إرادة وطلبا للشيخ فامض فاطلب لي شيئا فذهب يطوف على مشايخ المغرب وكانوا إذ ذاك متوافرين حتى أتى على الشيخ أبى العباس أحمد بن موسى الجزولي ثم السملالي فوجده شيئا جليلا سنيا متواضعا زاهدا ظاهر الورع حسن الأخلاق باهر الكرامات واضح الطريقة جامعا لمحاسن الخلال والأوصاف فرجع إليه وجعل يصف له كل من رأى من المشايخ بما ظهر له فيه حتى أتى على الشيخ المذكور فقال وهو ولي ثم ولي ثم ولي سبعا فقال له كأنك تدلني عليه وأنه مطلوبي وأنه المقدم على غيره فقال له لا أدلك عليه ولا أعندي ما أعرفه به تقديمه غير أن هذا الذي ظهر لي فأزعم السلطان الغالب بالله الرحلة إليه فلما بلغ الشيخ المذكور محيى السلطان إليه خرج يتلقاه وقد هيا له النزول وما يصلحه وأعد له ما يناسبه من الأطعمة الرفيعة النفيسة وقدم إليه الثمر الجيد واللبن الحليب ولما خرج للقاءه أتاه بعضهم بفرس وكان من عادته أن لا يركب وإذا أتاه أحد بمركوب لا يرده عليه بل يستصحبه معه ويعلفه له حتى يرجع ففعل ذلك ولقى السلطان ورجع به معه وأنزله عنده فمكث في ضيافته ثلاثة أيام ثم طلب منه أن يتخذة وسيلة إلى الله تعالى وسأله مع ذلك تمهيد الملك واعتذر إليه بأنه لا يمكنه العيش بدونه ولا يأمن على نفسه ولا تزوييه أرض إذا هو تخلى عنه فقال الشيخ يا عرب يا بربر يا سمل يا جبل أطيعوا السلطان مولاي عبد الله ولا تختلفوا عليه ثم بعد الثلاث انصرف السلطان إلى محله فبقي مدة وهو مسكن مههد الملك في عافية

ثم أتى الترك إلى بوغاز طنجة وسبته فخافهم وتشوش منهم كثيرا ولم يهنا له عيش فجعلت حاشيته يهونون عليه أمرهم فقال دعوني منكم حتى أسقني من رأس العين ثم أبرد بريدا إلى الشيخ فلما انتهى إليه سمعه يقول يا ترك ارجعوا إلى بلادكم ويا مولاي عبد الله هناك الله في بلادك بالعافية فتقدم الرسول وسلم على الشيخ وبلغه سلام السلطان ثم انقلب من فوره بعد ما ورخ وقت سماع مقالته فلما بلغ إلى السلطان أخبره بما كان من الشيخ من تلك المقالة وما كان منه من التاريخ وأقاموا ينتظرون ما يكون فإذا الخبر قد ورد على السلطان بأن الترك قد ارتحلوا وانصرفوا إلى بلادهم وإذا ارتحالهم كان وقت مقالة الشيخ المذكورة ثم إن الشيخ قدم مراكش في بعض الأيام زائرا من كان بها من أهل الله تعالى فرغب إليه السلطان الغالب بالله أن يدخل داره هو وأصحابه ويصنع لهما طعاما وشرط على نفسه أن لا يطعمهم إلا الحلال ولا يطعمهم ما فيه شبهة وحلف للشيخ على ذلك فأسغفه ولما حضر الطعام وضع الشيخ يده عليه ولم يصب منه فلما خرج قيل له مالك لا تتناول من طعام السلطان وقد حلف أن لا يطعمكم إلا الحلال فقال له من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قلبه أربعين يوما ومن أكله وفيه شبهة مات قلبه أربعين سنة اه ومما ينخرط في هذا السلك أن السلطان المذكور كان له اعتقاد في الشيخ أبى عمرو القسطلي وكان يعظمه غاية وكانت عنده مظلة له من سعف النخل يتقي بها الحر تبركا بها ولما توفي الشيخ أبو عمرو المذكور وذلك يوم الجمعة منتصف شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة حضر السلطان المذكور جنازته وحثا التراب على قبره بيده ومن أخبار السلطان المذكور أن الشيخ أبى محمد عبد الله بن حسين المغاري كان ظهر بمراكش وكثرت الجموع عليه وقصده الناس من كل جهة فأرسل إليه السلطان المذكور إما أن تخرج عني أو أخرج عنك فقال

الشيخ ابن حسين بل أنا أخرج وخرج من فوره إلى تامصلوحت فكان من أمره ما كان استيلاء النصارى على حجر باديس والسبب في ذلك قد تقدم لنا في أخبار الوطاسيين أن النصارى بنوا حجر باديس واستولوا على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة واستمروا بهما إلى أن انتزعهما الترك من أيديهم ولما كانت دولة السلطان الغالب بالله وطمع الترك في الاستيلاء على المغرب الأقصى أغرى السلطان المذكور النصارى بالاستيلاء على الثغور الهبيلية وسد أنقابها دونه قال في النزهة ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى عمارة ترك الجزائر وأساطيلهم لا ينقطع ترددها عن حجر باديس ومرسى طنجة يعني البوغاز وتخوف منهم اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجر باديس ويخليها لهم من المسلمين فنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب ولا يجدوا سبيلا إليه فنزل النصارى على حجر باديس وأخرجوا المسلمين منها ونبشوا قبور الأموات وحرقوها وأهانوا المسلمين كل الإهانة ولما بلغ خبر نزولهم عليها لولده محمد وكان خليفته على فاس خرج بجيوشه لإغاثة المسلمين فلما كان بوادي اللين بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم اه وذكر اليفرنى أنه وجد هذه الأخبار في أوراق مجهولة والله تعالى أعلم

فتنة الفقيه أبو عبد الله الأندلسي ومقتله كان الفقيه أبو عبد الله محمد الأندلسي نزيل مراكش متظاهرا بالزهد والصلاح حتى استهوى كثيرا من العامة فتنبوهه وكانت تصدر عنه مقالات قبيحة من الطعن على أئمة المذاهب رضي الله عنهم ينحو فيها منحى ابن حزم الظاهري ويتفوه بمقالات

شنيعة في الدين فأمر السلطان الغالب بالله بقتله فاستغاث بالعامية من أتباعه واعصوبوا عليه ووقعت فتنة عظيمة بمرآكش بسببه إلى أن قتل وصلب على باب داره برياض الزيتون من المدينة المذكورة وكان ذلك أواسط ذي الحجة من سنة ثمانين وتسعمائة ظهر بدعة الشراقة من الطائفة اليوسيفية وما قيل فيهم قال في الدوحة كان الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي نزيل مليانة تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفصالات فبعد صيته وكثرت أتباعه فغلوا في محبته وأفرطوا فيها حتى نسبوا بعضهم إلى النبوة قال وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب أصحابه يقال له ابن عبد الله فإنه تزندق وذهب مذهب الإباضية على ما حكى عنه واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلاف العرب وأهل الأهواء من الحواضر وتعرف هذه الطائفة باليوسيفية قال ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطائفة وسمعت بعض الفضلاء يقول إنه قد ظهر ذلك في حياة الشيخ أبي العباس المذكور فلما بلغه ذلك قال من قال عنا ما لم نقله يبتلي الله بالعلة والقلة والموت على غير ملة

قال صاحب الدوحة ولقد أشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة فساد هذه الطائفة فسجن جماعة منهم وقتل آخرين وهؤلاء المبتدعة ليسوا من أحوال الشيخ في شيء وإنما فعلوا كعمل الروافض والشيعية في أمتهم وإنما أصحاب الشيخ كأي محمد الخياط والشيخ الشطبي وأبي الحسن علي بن عبد الله دفين تافلات وأنظارهم من أهل الفضل والدين وإلا فالأئمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة اه وقال في المرأة ما نصه والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني من كبار المشايخ أهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية وكان كثير التلقين فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروبي أهدت الحكمة في تليفك الأسماء للعامية حتى النساء فقال له قد دعونا الخلق إلى الله فأبوا فقتلنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر قال الشيخ الخروبي فوجدته أوسع مني دائرة قال صاحب المرأة وانتسبت إليه الطائفة المعروفة بالشراقة بتشديد الراء وهو بريء من بدعتهم فما كان إلا إمام سنة وهدى مقتدى به في العلم والدين قد نزهه الله وظهر جانبه وقد أظهرنا شينا من ذلك في حياته فقبراً منهم وقتلهم وبلغ المجهود في تشريدهم قال وحدثني شيخنا أبو عبد الله النجفي أن الشيخ أبا اليقظة عبد الوارث الباصوتي لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم إليه وقع في نفسه من ذلك شيء فقيل له إن الشيخ أبا محمد الخياط من أصحابه فقال أنا نائب إلى الله كفى في طهارة جانبه أن يكون الخياط من أصحابه وكانت وفاة الشيخ الملياني سنة سبع وعشرين وتسعمائة لكن ما كان عنفوان تلك البدعة المدسوسة عليه إلا في دولة السلطان الغالب بالله كما مر والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

احتيال النصارى بمكيدة البارود بجامع المنصور من مراکش وما وقى الله تعالى من شرها كان بقصبة مراکش جماعة من أسارى النصارى من لدن أيام أبي العباس الأعرج وأخيه أبي عبد الله الشيخ فرأوا الجم الغفير من أعيان المسلمين وأهل الدولة يحضرون كل جمعة للصلاة مع السلطان بجامع المنصور من القصبة المذكورة فحدثتهم أنفسهم الشيطانية بأن يصنعوا مكيدة يهلكون بها السلطان ومن معه فحفرها في خفية تحت الجامع المذكور حفرة مألؤها من البارود ووضعوا فيها قتيلاً تسري فيه النار على مهل كي ينقلب الجامع بأهله وقت الصلاة ففطنت المينا وانهت بها القبة الواسعة من الجامع المذكور وانشق مناره شفاً كبيراً ولا زال ماثلاً به إلى الآن وكان ذلك مبلغ ضررهم وكفى الله المسلمين شر تلك المكيدة ولم يتمكن لهم الحال على وفق ما أرادوا وكان ذلك سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وفاة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله رحمه الله قال الشيخ أبو العباس ابن القاضي في شرح درة السلوك توفي السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان سنة إحدى وثمانين وتسعمائة بسبب غم كان يعتريه اه وهذا الغم هو الداء المسمى عند العامة بالضيقة أعاننا الله منه وذكر غيره أنه توفي في شوال بسبب تكلفه للصيام فعدت عليه العلة المذكورة وشاع على السنة الناس أنه بات يصلي ليلة سبع وعشرين من رمضان فوافته ميتته وهو ساجد وذلك كذب ودفن رحمه الله عند ضريح أبيه بقبور الأشراف وقبره معروف ومما كتب بالنتفش على رخامة قبره هذه الأبيات أيا زائري هب لي الدعاء ترحما فإني إلى فضل الدعاء فقير

وقد كان أمر المؤمنين وملوكهم إلى وصيتي في البلاد شهير فما أنا ذا قد صرت ملقى بحفرة ولم يغن عني قائد ووزير تزودت حسن الظن بالله راحمي وزادي بحسن الظن فيه كثير ومن كان مثلي عالماً بحنائه فهو بنيل العفو منه جدير وقد جاء إن الله قال ترحما إلى ما يظن العبد بي سيصير وحكى أنا ابنه أبا عبد الله المعروف بالملوخ لما قرأ هذه الأبيات عاقب ناظمها وقال له إن في قولك ملقى بحفرة دسيسة وتلوياً إلى الحديث القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار فهلا قلت ببلقع أو نحوه بقية أخبار السلطان الغالب بالله وسيرته كان السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله ذا سياسة وخبرة بأحوال الملك وتأن في الأمور ولما ولي الخلافة ألان الجانب وحفض الجناح وسار بسيرة حسنة حتى صلحت الرعية وازدادت الدنيا وانتعش الناس حتى كان يقال ثلاث عينات هم عيون السلطان المولى عبد الله والشيخ أبو محمد عبد الله بن حسين المغاري والشيخ أبو السرور عياد السوسي قال اليفرنى ورأيت من جملة سؤال كتب به الفقيه الصالح خطيب الجامع الأعظم بتارودانت أبو زيد عبد الرحمن التلمساني إلى قاضي الجماعة أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني يقول فيه ولا شك أن مولاي عبد الله مجمع على عدالته وبيعتته وقد أخبرني الثقة من أصحاب الشيخ الجامع أبي العباس أحمد بن موسى السملالي أنه قال مولاي عبد الله ياقوتة الأشراف هو صالح لا سلطان وقد اشتهر بين الأنام وعلى السنة الخاص والعام أن السلطان الغالب بالله كان عدلاً صالحاً ووقع في الرسالة

التي كتب بها ابن أخيه السلطان أبو المعالي زيدان بن منصور إلى الفقيه أبي زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي ما ظاهره يخالف ذلك ويؤن بأنه كان كغيره من الملوك ونص المحتاج إليه من تلك الرسالة مخاطباً للفقيه المذكور يقول وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد بن موسى السملالي كادت تكون قطعية واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته وقد كان على عهد مولانا عبد الله برد الله ضريحه وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه وما برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبه وكان المولى المذكور يعزل ويولي ويقتل وكان شرد منه إلى زاويته المرابط الأندلسي وولد أصناك وأمثالهم وكان الشيخ يقدم للشفاعة فيشفع ولا يتعقب ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فما فتحها حتى أمره ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سبباً لفتح الفتنة وكان قواد المذكور مثل وزيره ابن شقراء وبعد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن مؤمن العليج والهبطي والزهوني وعبد الصادق بن ملوك وغيرهم ممن لا يحضرني ذكرهم لبعده عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمر واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب وكان في عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين والشرفي وأبو عمرو القسطلي وأبو محمد بن إبراهيم التمانرتي والشيطمي وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعي هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فأحسنوا السيرة ولا تعرضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح في ولاة الأمر وقادة الأجناد ممن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع إليهم في تدبيره اه القدر المحتاج إليه من الرسالة المذكورة قال اليفرنى ومثل هذا ما ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله أعطى حجر باديس للطاغية لتقطع بذلك مادة الترك عنه ومثله ما ذكر عنه أيضاً أن قائده ابن تودة أخذ بعض أسوار الجديدة وعزم على فتحها من الغد فكتب إليه السلطان المذكور ينهائه عن ذلك ونظيره أيضاً قضيته مع أهل غرناطة

وأطال فيها هذا البعض المنقول عنه بما استنكفت من ذكره هنا قال وهذه أمور شنيعة إن صح أنه فعلها ولست أدخل في عهدها لأنني إنما رأيتها في أوراق مجهولة المؤلف اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية وطني أنها من وضع بعض أعدائهم لحظة من قدرهم وإخراجه إياهم من النسب الشريف ووصفه دولتهم بالدولة الخبيثة فلذا تجنبت منهم كثيراً من الأخبار التي لا تظن بأولئك السادة رحمهم الله فقد قال الشيخ تاج الدين السبكي رحمه الله في طبقاته إن المؤرخين على شفا جرف هار لأنهم يتسلطون على أعراض الناس وربما وضعوا من الناس تعصباً أو جهلاً أو اعتمادا على نقل من لا يؤثق به قال فعلى المؤرخ أن يتقي الله تعالى اه إلا أن الملوك لا يستغرب في حقهم أن يهدموا أساس الشريعة لينبؤوا منار رياستهم ويستهنوا عظام الأمور لتطيعهم الرعية ساعة كيف لا وشراع أفندتهم تلعب به رياح الشهوات فتلقى سفينة قلوبهم على ساحل بحر القنوط من

رحمة الله تعالى والله يسامح الجميع ويتجاوز عن كافة عصاة هذه الأمة بمنه وفضله اه كلام اليفرنى رحمه الله ومن وزراء السلطان الغالب بالله ابن أخيه الأمير الأجل الأديب الأحفل أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ كان من أنبل الوزراء والطفهم مسلكا وأخفهم روحا وله عارضة في النظم والنثر ذكر الأديب أبو محمد عبد الله بن محمد الفاسى في كتابه الأعلام بمن مضى وغير من أهل القرن الحادى عشر ما صورته قدم الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر السعدى من مراكش إلى فاس ومعه الفقيه قاضى الجماعة أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى والفقيه الإمام أبو العباس أحمد المنجوز فلما تبنت لهم معالم فاس الجديد وتلظى للشوق في جوانحهم أوار وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار وأشد الوزير المذكور لنفسه ارتجالا أخلائي هذا المستقى وربوعه وهذى نواعير البلاد تنوح

وذاك المصلى مطرح الشوق والأسى وتلك منازل الديار تلوح فقال القاضى الحميدى ارتجالا وتلك القباب الخضراء شبه زبرجد بهن غوان طرفين جموح يمس كأملود من الروض يانع شذاهن من حول الديار يفوح فقال الفقيه أبو العباس المنجور ارتجالا أيضا ويرفلن في الحالات يختلن في الحلوى وفيهن أنواع الجمال وضوح يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر لإقبال حب طال منه نزوح ولما بلغت الأبيات إلى الأستاذ أبي العباس أحمد الزمورى قال مذيلا تأمل سنا الحسناء تحت قبابها كشمس غدت تحت السحاب تلوح تحلت ربوع المستقى بجمالها وأنت إلى تلك القباب تروح وبعضهم جعل البيتين الأولين للمولى الأديب أبي محمد عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسى وكان كاتباً للوزير المذكور ويجعل موضع أخلائي أمولاي والبيتين بعدهما للوزير والله تعالى أعلم والمستقى بصيغة اسم المفعول اسم بستان معروف ونظير هذا ما ذكره الأديب المذكور في أعلامه المذكور قال كان الوزير المذكور مع كاتبه المولى عبد الواحد الشريف في بعض الأسفار وأرسلت السماء بغيثها المدمار فقال الوزير المذكور لله أشكو غداة السفق إذ ركضت أيدي المطايا وحادي الريح وحدونا فأجابته الكاتب المذكور والغيم في الأفق قد أرخى نوابه بأسهم الودق لا ينفك يرمينا فقال الوزير حتى استوى الماء والأكام واستترت معالم الرشد لا خربت يهدينا فطلت الخيل في الأمواج سباحة سبج السلاحف نحو الدار يهوبنا فقال الكاتب والنفس في قلق لبين مألّفها والشوق يحدو بنا والحال يقصينا

فقال الوزير كأننا لم نبت والوصل ثالثنا حتى غدا الطير فوق السرح بفشينا وأخبار هذا الوزير ونوادره كثيرة وهو الذي أخرج بني راشد من مدينة شفشاون حسبما مر وكانت وفاته في العشرين من جمادى الثانية سنة خمس وسبعين وتسعمائة ومن وزراء السلطان الغالب بالله أيضا القائد عبد الكريم بن مؤمن بن يحيى العليج الجنوي وعبد الرحمن بن تودة وقاسم الزرهوني وأحمد الهيطي ومن ولاية مظالمه أبو عمران موسى بن مخلوف الكنوسى وهو والى الشرطة وكان فقيها مشاركا وذكر بعضهم أن الشيخ الصالح أبا العباس أحمد بن موسى السملالي كان في بعض قدماته على السلطان الغالب بالله قد انحسر الناس لزيارته بزوايته فوقف أبو عمران المذكور يزود الناس عنه ويقول رحمكم الله من زار خرج فسمعه الشيخ فقال له لا تقل ذلك وقل من جار خرج ومن كتاب السلطان المذكور محمد بن عبد الرحمن السجلماسى ومحمد بن أحمد بن عيسى وغيرهما ومن قضاته بمراكش الفقيه قاضى الجماعة أبو القاسم بن علي الشاطبي وبفاس أبو عبد الله العوفي وأبو مالك عبد الواحد الحميدى رحمهم الله الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المتوكل على الله ابن السلطان عبد الله الغالب بالله رحمه الله لما توفي السلطان الغالب بالله بحضرة مراكش كان ابنه محمد هذا بفاس وكان ولي عهد أبيه فاجتمع أهل العقد والحل بمراكش واستأنفوا له

البيعة وكتبوا بها إليه فوصلت إليه وهو بفاس أوائل شوال سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فبايعه أهل فاس وتم أمره قال ابن القاضى أمه أم ولد وكنيته أبو عبد الله ولقبه المتوكل على الله ويعرف عند العامة بالسلوخ لأنه سلخ جلده وحشي تبنا كما سيأتي وكان مما وقع في أيامه أنه كانت بين المسلمين وبين نصارى طنجة وقعة بالرملة المسماة بأبي غاص من فحس طنجة قرب قنطرة عصماء وذلك يوم الأربعاء منتصف جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وفي هذه الوقعة استشهد الشيخ أبو مهدي عيسى بن الحسن المصباحي فدين الدعا على وادي مضي من عمل القصر فإنه حمل بعد استشهاده إلى الموضع المذكور فدفن بآزاء قبر أبيه في الروضة التي هنالك واستمر أمر أبي عبد الله المتوكل منتظما إلى أواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة فقدم عليه عمه عبد الملك ابن الشيخ بجيش الترك فنثر سلكه وبدد ملكه على ما نذكره ويقال إنه كان أضمر الفتك بعميه أحمد وعبد الملك ففرا منه إلى ناحية الترك على ما سيأتي قالوا وكان السلطان المذكور فقيها أدبيا مشاركا مجيدا قوي العارضة في النظم والنثر وكان مع ذلك منكبرا تياها غير مبال بأحد ولا متوقفا في الدماء عسوقا على الرعية ومن شعره قوله فقم بنا نصطح صهباء صافية في وجهها عسجد في وجهه نط وانهض إليها على رغم العدا قلنا فإن تأخير أوقات الصبا غلط ومن شعره أيضا قوله ساروا فساد فؤادي إثر ظعنهم وخفوني نحيل الجسم حيرانا لا افتقر ثغر الثرى من بعد بيبيهم ولا سقى هائل وردا وريحانا وكان خليفته بمراكش القائد ابن شقراء وحاجبه أحمد بن حمو الدرعي وكتابه يونس بن سليمان الثاملي وعلي بن أبي بكر وغيرهما رحمهم الله تعالى

الخبر عن دولة السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله ابن محمد الشيخ وأولية أمره وماله كان أبو مروان عبد الملك بن أبي عبد الله الشيخ السعدى وأخوه أبو العباس أحمد المدعو بعد بالمنصور مقيمين بسجلماسة سائر أيام أبيهما فلما توفي وولي الأمر بعده ابنه الغالب بالله فر عبد الملك وأحمد إلى تلمسان خوفا على أنفسهما منه فأقاما عند صاحبها حسن بن خير الدين مدة ولحق بهما أخوهما عبد المؤمن فصار ثلاثة الأثافي ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الجزائر ومنها ركب عبد الملك البحر إلى القسطنطينية متطارحا على صاحبها السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله فأمدده بالجند حتى ملك المغرب كما سيأتي ولنذكر هنا كيفية استيلاء العساكر العثمانية على تونس وانقراض أمر الحفصيين منها ثم نرجع إلى بقية أخبار السلطان أبي مروان المعتصم بالله لأنها تنبني على ذلك فنقول اعلم أن أمر بني أبي حفص أصحاب تونس كان قد مرج في هذه المدة وتداعى إلى الاختلال وكان خير الدين باشا التركي المقدم ذكره في أخبار تلمسان قد استولى على تونس في حدود الأربعين وتسعمائة وغلب عليها صاحبها الحسن بن محمد الحفصي ففر الحسن المذكور إلى طاعية الإصنبول صاحب قسنطالة فأعطاه العساكر وجاء بها إلى تونس فزل عسكر النصارى ببرج العيون قرب حلق الوادي وتقدموا إلى تونس فملكوها وانهزم خير الدين إلى الجزائر وشارك النصارى الحسن بن محمد في إمرة تونس واستباحوا أهلها قتل وأسروا ونهبوا يقال إنهم قتلوا من أهل تونس الثلث وأسروا الثلث وأبقوا الثلث وكل ثلث ستون ألفا هكذا عند صاحب الخلاصة النفية ثم ملكوا الموضع المسمى بحلق الوادي وليس هناك واد عنب وإنما هو جون دخل من البحر في البر وعليه مرسى تونس ثم بنى النصارى في الحلق المذكور حصنا عاديا أقاموا في بنائه نحو ثلاث وأربعين سنة بحيث عجز الترك عن هدمه لما ملكوه بعد

ثم تار على الحسن ابنه أحمد المدعو حميدة وملك الحضرة مدة وقاتل نصارى حلق الوادي فامتنعوا عليه ثم غزاه علي باشا صاحب الجزائر واستولى على تونس سنة سبع وسبعين وتسعمائة وطرد أحمد عنها فذهب أحمد إلى طاعية قسنطالة مستغيثا به شأن أبيه من قبله هذا كله ونصارى الحلق لا زالوا متمكنين منه أي تمكين فأمم الطاعية أحمد المذكور بأسطول عظيم واشترط عليه أداء مال فالتزمه ولما وصل الأسطول إلى ظاهر تونس اطلع قائده السلطان أحمد على كتاب من الطاعية مضمونه المشاركة في الحكم فأكر أحمد ذلك وأنف منه وذهب إلى صقلية فبقي بها إلى أن مات وحمل إلى تونس وكان هنالك أخوه محمد بن الحسن فرضي بالمقاسمة ودخل بالنصارى إلى تونس فاستولى عليها وملك قصبتها وجالسه شريكه النصراني بها وانتهبت المدينة وأهين الدين وعم الخراب وتكدر المشرب وتفترق الجمع وارتبطت خيل العدا بالجامع الأعظم وألقيت ما فيه من نفائس الكتب بالطرق ونش قبر الشيخ أبي محفوظ محرز بن خلف فلم يوجد فيه إلا الرمل حماية من الله له وحاشا أن تعدو الأرض على جسد مثله وأرسل محمد بن الحسن إلى الناس بالأمان واستمالهم النصراني بعد بكداب الرفق فأقاموا بدار مذلة وهوان واتصل ذلك كله بالسلطان سليم بن سليمان العثماني فأعظمه وجهد العمارة للحين مع الوزير سنان باشا يقال كانت أربعمائة وخمسين قطعة فخرج بها الوزير المذكور من القسطنطينية وهي إصطنبول غرة ربيع الأول سنة إحدى وتسعمائة ووصلوا إلى حلق الوادي في الرابع والعشرين منه وكان حيدر باشا صاحب القيروان ومصطفى باشا صاحب طرابلس محاصرين لتونس قبل ذلك حتى فتر عزمهم فلما قدم عليهم سنان باشا قويت نفوسهم واعصوبوا عليه وتقدموا إلى الحصن الذي بحلق الوادي فحاصروه حتى اقتحموه عنوة سادس جمادى الأولى من السنة المذكورة أعني سنة

إحدى وثمانين وتسعمائة واستلحموا من به وغنموا ما فيه والتجأ محمد بن الحسن الحفصي وأنصاره من النصارى إلى البستيون وهو حصن آخر كانوا قد بنوه خارج باب تونس فحاصروهم سنان باشا به حتى اقتحمه

عنة وقتلوا من به وامتلأت أيديهم من المغنمات وطهر الله بهم البلاد وكانت إحدى الوقائع الجليلة القدر الباقية الذكر وظفر الوزير بمحمد بن الحسن فاحتلمه معه إلى السلطان سليم فاعتقله في يد قلة أحد حصونه حتى هلك وانقضت بمهلكة دولة بني أبي حفص التي هي بقية الموحدين إذا علمت هذا فاعلم أن استيلاء العساكر العثمانية على تونس كان قبل وفاة السلطان الغالب بالله بنحو خمسة أشهر لأن وفاته كانت في آخر رمضان سنة إحدى وثمانين وتسعمائة كما مر وفتح تونس كان في جمادى الأولى من السنة المذكورة ووقع في النزهة أن فتح تونس كان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وهو غير صواب والله تعالى أعلم مجيء السلطان أبي مروان عبد الملك بن الشيخ السعدي بعسكر الترك واستيلاؤه على المغرب اعلم أنه وقع في النزهة وغيرها أن عبد الملك بن الشيخ وأخاه أحمد كانا في ابتداء أمرهما بسجلماسة فلما توفي أبوهما وولي أخوهما الغالب بالله لحقا بتلمسان فأقاما بها مدة ثم انتقلا إلى الجزائر فلما اتصل بهما خبر وفاة أخيهما الغالب وولاية ابنه محمد المتوكل من بعده ركب عبد الملك البحر إلى القسطنطينية وتطارح على ملكها العثماني في أن يمدد بجيش ليملك المغرب فتناقل عنه العثماني إلى أن بعث بالعمارة لفتح تونس فشهد عبد الملك الفتح وعاد إليه بالبخارة فأسغفه وهذا غير صواب من جهة أن فتح تونس كان متقدما على وفاة الغالب بالله كما مر اللهم إلا إذا كان عبد الملك وفد على العثماني مستعديا على أخيه الغالب بالله وفي أثناء ذلك توفي وولي ابنه المتوكل فيكون الكلام صحيحا وأما ما في النزهة مما يقتضي تأخر فتح تونس عن وفاة الغالب بالله فغير صواب كما مر ولنذكر ما حكوه من ذلك فنقول لما بويغ السلطان أبو عبد الله محمد

المتوكل على الله كان عبد الملك بن الشيخ وأخوه أحمد المدعو بعد بالمصور بالجزائر فركبا البحر إلى القسطنطينية العظمى قاصدين السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله ومع عبد الملك أمه سحابة الرحمانية وزعم بعضهم أن التي كانت معها مسعودة الوزكيتية وهي أم أحمد منهما فانتهيا إلى القسطنطينية وتعلقا بكراء الدولة حتى أدخلوهما على السلطان سليم ودخلت أمهما داره وطلبوا منه أن يبيعت معهما العساكر لتملك المغرب ويقوموا فيه بدعوته فتناقل عنهم مدة إلى أن كان الغزو إلى تونس فكتب السلطان سليم إلى أهل الجزائر وأهل طرابلس أن يوجهوا قراصينهم لحصار تونس مع العمارة الموجهة من قبلة فطلب عبد الملك وأخوه أحمد من الدولاتي وهو صاحب الجزائر أن يجعل لهما رئاسة قرصان منهما يتوجهان فيه للجهاد معه فأعطاهما غليوطة فيها ستة وثلاثون رجلا فركباها ولحقا بعمارة السلطان سليم في جملة مراكب الجزائر هكذا وقع في سيقاة هذا الخبر وهو يقتضي أنهما كانا يومئذ بالجزائر لا بالقسطنطينية فلعلهما عادا إليها من عند السلطان سليم إلى أن سافرا في جملة عسكر الجزائر والله تعالى أعلم ولما فتحوا تونس واستأصلوا من بها من الكفار حسبما مر عين رئيس العمارة العثمانية مركبين يتوجهان بكتاب الفتح إلى السلطان سليم فطلب منه عبد الملك وأحمد أن يأذن لهما في الذهاب معهما بالغليوطة ليأتيا بأمهات التي تركاها هناك فلم يزلوا بالرئيس المذكور حتى أسغفهما فكان من قدر الله تعالى أن هاج البحر عليهم ذات ليلة ففرق مراكبهم ولما أصبح عبد الملك وأحمد لم يجدوا للمركبين أثرا فوافقهم السعد وساعدتهم الريح فوصلوا إلى القسطنطينية قبل المركبين بثلاث وأتصل خبرهما بالصدر الأعظم فأحضرهما وسألتهما عن العمارة وما كان منها فأخبراه بفتح تونس وقصا عليه الحديث من البدء إلى التمام فأعلم السلطان سليما بهما فأدخلهما عليه وسألتهما كذلك فأخبراه وسألتهما عن كتاب الفتح إن أمير العمارة قد بعث به مع مركبين صحبناهما إلى أن فرق بيننا البحر ولم ندر ما كان منهما بعد ذلك

ولما رأيا من السلطان سليم تنازلا واهتزازا لكلامهما طلبا منه في بشارتهما أن يبيعت معهما العساكر إلى الغرب وشفعا في إنزال رأس والدهما ودفنه فقيل شفاعتهما ثم أمر بهما إلى بعض المنازل أنزل لهما به وأكرمهما وبعث إليهما بالألم التي كانت هناك وأرجأ أمرهما إلى قدوم الخبر اليقين وبعد ثلاث قدم المركبان ومعهما كتاب الفتح وظهر صدق عبد الملك وأحمد فحينئذ أقبل عليهما السلطان سليم وأعطاهما مالا وسلاحا وزادا وكتب لهما فرمانا للدولاتي صاحب الجزائر لبيعت معهما خمسة آلاف من عسكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الأقصى ولما قدما على الدولاتي بالفريمان وقرأه على أهل الديوان قالوا علينا الرجال وعليهم المال وهذه عادتنا مع السلطان ولما لم يكن عندهما مال يومئذ تطارحا على الخزانة وعلى الأغا والوكيل وأهديا إليهم ورغبا منهم أن يسلفوا ما يفتقانه في وجهتهما تلك إلى أن يبيعا به إليهم من المغرب فسهلوا لهما وقوموا العسكر بما يحتاج إليه وفرضوا له المؤنة كل يوم بيومه إلى أن يرجع وأشهدوا عليهما بذلك في دفتر فقبلا وأعطوا خطوطهما به ثم نهض عبد الملك وأخوه إلى المغرب يجران عساكر الترك خلفهما وكتب عبد الملك إلى شيعته بالمغرب يعرفهم قومه ويعددهم ويمنيهم إلى أن كان من أمره ما كان وساق اليفرني هذا الخبر وفيه بعض مخالفة لما تقدم قال لما فتحت تونس كان عبد الملك أول من أرسل البشارة مع أصحابه إلى السلطان العثماني فبلغت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فأعطتها السلطان المنكور والتهمت منه أن يعطيها في بشارتها أمر أهل الجزائر بالذهاب معها إلى المغرب فأطاعها ذلك فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان إلى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه لتملك ما كان بيد آباءه فطالبه أهل الجزائر بالراتب فقال لهم أسلفوني وعلي القضاء فاتفق معهم أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة وكان عدد جيش الترك أربعة آلاف وقال في شرح الدررة إن عبد الملك طلب من رئيس الترك أن يعينه

بحصة منهم توصله إلى تخم بلاده ليدخلها إذ الجند كله جند أبيه لا يمكن أن يقاتلوه ويضربوا في وجهه لتعظيمهم إياه فأسغفه على مراده وأرسل معه عصابة وحصاة قليلة فأقبل بهم حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالركن من أحواز فاس فلما سمع بذلك ابن أخيه محمد المتوكل خرج للقاءه بنفسه ولما التقى الجمعان نزع رئيس جند الأندلس سعيد الرغالي إلى عبد الملك وكان عبد الملك يكتب حاشية المتوكل وبطانته ورؤوس أجناده ويعد طائهم ويعد عاصيهم فلما سمع المتوكل بما فعله جند الأندلس فت ذلك في عضده وفشلت ريحه وأيقن بالنكبة ظنا منه أن جنده كله سيفعل فعل الرغالي فكان ذلك سبب جزعه وفراره من المعركة وسبب خراب ملكه وإقامة ملك عمه ويقال إن بعض الجند لما سمع بأن القائد جرمون وأولاد عمران نزعوا إلى عبد الملك أيضا جاء إلى المتوكل وقال له إن القائد ابن شقراء قد غدر وفر إلى عبد الملك وكان ابن شقراء هذا من أكبر قواده وأصدقهم لديه فارتاع المتوكل لذلك وانقلب منهزما وانتهبت خزائنه وأوقد فيها النار ونفط ما كان بها من البارود حتى رئي من رؤوس الجبال ولما انهزم المتوكل بالركن عطف على فاس الجديد فأخذ منها ما يعز عليه من الذخيرة ثم خرج على وجهه إلى مراكش لا يولي على شيء فلقح به القائد ابن شقراء بوادي النجاة على مقربة من فاس وأغلظ له في القول ولاومه على عدم التأييد والتثبيت وكان أمر الله قدرا مقدورا استيلاء السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله على حضرة فاس وما يتبع ذلك لما انهزم المتوكل بالركن وأجفل إلى مراكش تقدم عمه أبو مروان إلى فاس فدخلها واستولى عليها يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة من باب الفتوح وبعد أن دخلها وبايعه أهلها أقام بها أياما ثم طمحت نفسه إلى اتباع ابن أخيه إلى مراكش ولما عزم على النهوض إليه

طالبه الترك بأن يرددهم إلى بلادهم وأن يعطيهم المال الذي اتفق معهم عليه وهم يسمونه بلغتهم البقشيش فيذل لكل واحد منهم أربعمائة أوقية واستسلف المال من تجار أهل فاس حتى يتسع حاله فكان جملة ما أعطى الترك خمسمائة ألف وأعطاهم عشرة من الأنفاض منها النفض الكبير الذي له عشرة أفواه وزادهم من تحف المغرب وطره ما سلى به نفوسهم وركب لوداعهم بنفسه إلى نهر سبو ثم رجع إلى فاس وفي هذه المدة قبض على قاضيهما الفقيه أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي لأمر نغمه عليه وأودعه السجن فبعث الفقيه المذكور أولاده إلى الشيخ الصالح أبي النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي يطلب منه أن يشفع له عند السلطان المعتصم بالله فكتب إليه الشيخ أبو النعيم يحضه على الاستشفاع بالنبي والاستمسك بحبله لأنه باب الله الأعظم فقيل القاضي إشارته وتوجه إلى ربه بكليته فاتاه الفرج من حينه رحم الله الجميع بمنه نهوض السلطان أبي مروان إلى مراكش واستيلاؤه عليها وفرار ابن أخيه إلى السوس وما نشأ عن ذلك ثم إن السلطان أبا مروان نهض من فاس في جنده الذي أقامه وكان غرس يده وفيما انضاف إليه من جند ابن أخيه وتقدم إلى البلاد المراكشية قاصدا حربته وتشريده عنها ولما سمع ابن أخيه بخروجه إليه وقصده إياه تهيأ لملاقاته وسار إلى منازلته فالتقى الجمعان بموضع يسمى خندق الريحان على مقربة من وادي شراط من أحواز سلا فكانت

الهزيمة أيضا على المتوكل وفر برأس طمرة ولجام وأجل كعادته إجمال النعام وتبعه أحمد المنصور خليفة أخيه أبي مروان يومئذ فلما سمع المتوكل باتباعه بعد بلوغه إلى مراكش فر عنها إلى جبل درن وأسلم له مراكش فدخلها أحمد نائبا عن أخيه وأخذ له البيعة على أهلها ثم لحق به السلطان أبو مروان فدخلها يوم الاثنين

تاسع عشر ربيع الثاني سنة أربع وثمانين وتسعمائة وأقام بها أياما ثم خرج في طلب ابن أخيه فعميت عليه أنبؤه وسقط بين سمع الأرض وبصرها فعاد أبو مروان إلى مراكش فأقام بها إلى أن كان من أمره ما ذكره استخلاف السلطان أبي مروان لأخيه أبي العباس أحمد على فاس وأعمالها لما استقر السلطان أبو مروان بمراكش وانقطع خبر المتوكل عنه بالسوس تقدم إليه أخوه أحمد وسأله أن يستخلفه على فاس ليقيه أمرها فأجابته إلى ذلك وولاه عليها فلما منه أن أمر المغرب قد صفا له وإن المتوكل لا يعود إليه وكان الوزير أبو فارس عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي حاضرا للطلبة والعطية فأنكر ذلك ولم يره صوابا وقال لا ينبغي لكما أن تقعدا حتى يحكم الله بينكما وبين ابن أخيكما فغاض ذلك أحمد وظن أنه من سوء رأي عبد العزيز فيه وبغضه لجانبه فأعرض عن مقالة الوزير المذكور وذهب إلى فاس خليفة عليها وبقي السلطان أبو مروان بمراكش وفي هذه المدة كتب السلطان أبو مروان لأخيه أحمد برسالة يقول فيها بسم الله الرحمن الرحيم و من عبد الله المعتمد بالله المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين أبي مروان عبد الملك ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسن بن أبيه الله وأعز نصره وأسعد زمانه المبارك وعصره وأبقى بمنه فخره من إملانه أيده الله ونصره إلى أخينا الأعز الأحمى بابا أحمد حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فاعلم أي لا أحب أحدا بعد نفسي كمحبتني لك ورغبتني في انتقال هذا الأمر بعدي إليك لا لغيرك غير أنني أعتاد منك التراخي في الأمور حتى أنك لا تبالي بعظيم الأمر ولا تعتبره إلى أن ينطرق إلى ما لا يتلافى جبره من الأمور التي تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا الملك وتهذ أركانه ويبلغ العدو معها مناه ومراده من ذلك التراخي إهمالك أمر الجند الذي

بالعرائش وإغفالك له مع ما يترادف عليك في كل ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة إليه من المؤونة والبارود والرصاص الذي لا يستقيم لهم أمر في مقاومة العدو دون ذلك وجعلت تقابل خطابهم بالإهمال وعدم المبالاة والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك ابعث إليهم مؤنة عشرة أيام بينما نصل إن شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجون إليه زائدا على ذلك مع ما عندكم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لا نقبل منك عذرا في هذه المسألة التي لا تحتاج إلى الإهمال ولا بد ولا بد فقد بلغنا أن صاحب النصارى يقرب أصيلا في خمس عشرة مائة من النصارى وتمنيت أن لو حركتك الهمة للاقتحام عليه في مكانه بجيش يكسوه أردية الصغار ويرجع ساعة رؤيته إلى عادته من النذل والفرار فانتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة فإن الساعة لا تقضي إلا الحزم والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم والسلام اه ظهور أبي عبد الله المتوكل بالسوس ومجيئه إلى مراكش واستيلائه عليها كان أبو عبد الله المتوكل بعد فراره من مراكش يجول في جبال السوس ويتنقل في قبائلها وأحيانها إلى أن اجتمعت عليه طائفة من الصعاليك وتآشب عليه ما يشبه أن يكون جيشا فاستهوتهم منه الأضاليل وقادهم قود الملك الضليل وجاء بهم إلى مراكش فسمع به السلطان أبو مروان فخرج لقاؤه فخالفه المتوكل وسلك طريقا غير طريقه وفجا غير فجه وقصد مراكش فدخلها باتفاق أهلها ونصره وكتبوا له البيعة إلا أنه لم يتمكن من القضية

لأن السلطان أبو مروان كان قد ترك بها أخته الست مريم في نحو ثلاثة آلاف من الرماة فتحصنوا بها وبلغ الخبر أبا مروان باستيلاء المتوكل على مراكش فرجع عوده على بدنه إلى أن وافى الحضرة فحاصره بها وكتب إلى أخيه أحمد الخليفة على فاس أن يأتيه بجيش منها فاتاه به أحمد مسرعا وما انتهى إلى مراكش اجتمع بالوزير أبي فارس الوزكيتي فقال له أوقفت على الرأي أول الفكرة آخر العمل فبانت لأحمد نصيحته وزال ما كان يختلج بصدرة عليه ولما جاء أحمد بجيش فاس أسلم المتوكل شيعته من أهل مراكش وفر إلى السوس فبقي أهل مراكش متمادين على الحصار إلى أن اتفق السلطان أبو مروان مع أعيان جراوة فأدخلوه من بعض الأسوار والأنقاب ولما فر المتوكل إلى السوس تبعه أحمد المنصور فكانت بينهما هنالك حروب عظيمة أتاح الله فيها النصر للمنصور منها وقعة تينزرت التي أشده فيها وزيره الكاتب أبو الحسن علي بن منصور الشيطمي البيهتي اللذين قاهلها فيه الكاتب أبو عبد الله بن عيسى وهما هو الغيث والبحر العظيم في الندى وليث إذا جد الطعان هصور يفوق السهام عزمه وانبعائه ويقصر عنه في الثبات ثبير فأجابته أحمد المنصور ببتي أبي فراس الحمداني وهما ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسنة لم يغل المهر ومنها الوقعة التي بعدها بأساطين المنصور وهو في نحو ثلاثة آلاف والمتوكل في نحو ستين ألفا ومع ذلك هزمه المنصور قلت كان أحمد المنصور هذا مجدودا محظوظا مسعودا بحيث أربت سعادته على شجاعته وما كان أخوه عبد الملك يسري إلا في ضوء طلعه ويمن نقيته فلذا كان يقدمه في الحروب ويستكني به في نوازل الخطوب ومن سعادته ما اتفق له في ذهابه إلى العثماني بخبر الفتح وتقدمه

قبل الكتاب بثلاث حتى تسنى له من جانب السلطان المذكور ما كان سببا في استيلائها على المغرب ويستسمع في أخبار دولته من أنباء سعادته ما تقف به على حقيقة الحال إن شاء الله وأما أمر المتوكل فإنه بعد توالي الهزائم عليه فر إلى جبل درن وتوغل في قننه ثم فر منه إلى باديس فأقام بها مدة ثم ذهب إلى سبتة ثم دخل طنجة مستصرحا بعظيم البرتغال والله تعالى لا يهمل من حقوق عباده وزن المثقال الغزوة الكبرى بوادي المخازن من بلاد الهبط والسبب فيها كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله محمد بن عبد الله السعدي لما دخل طنجة قصد طاغية البرتغال واسمه سبستان بكسر السين وفتح الباء والسين وسكون التاء القريبة من الطاء وهو طاغيتهم الأعظم وليس قائد الجيش فقط على ما هو المحقق في تواريخهم وتطرح عليه وشكا إليه ما ناله من عمه أبي مروان المعتمد بالله وطلب منه الإعانة عليه كي يسترجع ملكه وينتزع منه حقه فأشكاه الطاغية ولبى دعوته وصادف منه شرها إلى تملك سواحل المغرب وأمصاره فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه وللحين جمع الطاغية جموعه واستوعب كبراء جيشه ووجوه دولته وعزم على الخروج إلى بلاد الإسلام ومن المتواتر في تواريخ الإفرنج أن كبار دولته حذروه عاقبة هذا الخروج ونهوه عن التفرير ببيضة البرتغال وتوريطها في بلاد المغرب وقبائله فصم عن سماع قولهم ولج في رايه وملك الطمع قلبه وأبى إلا الخروج فأسعفه وخرج من طنجة في جيش قال ابن القاضي في المنتقى المقصور عدده مائة ألف وخمسة وعشرون ألفا وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن يقال إن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفا وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل وكان مع محمد بن عبد الله نحو الثلاثمائة من أصحابه قال بعضهم وكان عدد الأنفاض التي يجرونها مائتين

وقصدوا هلاك المغرب وحصد المسلمين وإدارة رعى الهوان على الدين فعظم ذلك على الناس وامتألت صدورهم رعبا وقلوبهم كربا وبلغت القلوب الحناجر وانتقدت بها نيران الهواجر وكان محمد بن عبد الله المذكور قد كتب عند خروجه بجيش البرتغال إلى بلاد الإسلام رسالة بعث بها إلى أعيان المغرب من علمائه وأشرفه وذوي رأيه يغمض عليهم بها في نكت بيعته ونقضها ومبايعة عمه من غير موجب شرعي وقال لهم ما استصرخت بالنصارى حتى عدت النصر من المسلمين وقد قال العلماء أنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وتهدهم فيها وأبرق وأرعد وقال فإن لم تقبلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وسمى النصارى أهل العودة واستنكف من تسميتهم نصارى فأجابته علماء الإسلام رضوان الله عليهم عن رسالته تلك برسالة دامغة لجيش أباطيلة وفاضحة لركيك تأويله وهذا نص جواب تلك الرسالة حرفا حرفا الحمد الله كما يجب لجلاله والرضى عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر فما نصره ولا استنصروا به حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله وبعد فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد الله السعدي عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة واستدل بحججه الواهية المنكية عن الصواب قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب فقولك خلنا بيعتك التي التزمناها وطوقناها أعناقنا وعقدناها فلا والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع وإنما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه وعلى سبيل الحق وتحقيقه وسنشرح لك ذلك

ونبيته ونسبته لك بالأدلة الشرعية التي ترقيه وتزيهه نعم كنت سلطانا بما عقد لك والدك من البيعة وترك لك من الأموال والعدد والحصون مما لم يتبها مثله لأحد من أسلافكم الكرام رضوان الله عليهم فجاهنوا بما حصل لهم من ذلك في الله حق جهاده حتى استخلصوا من أيدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلاده

وأسسوا لدين الله قواعد وأركاناً وملكوها من المغرب بلاداً معتبرة وأوطاناً فلما وصل ذلك إليك ألفت إليك العباد أعنتها وملكتك أزمته غير مبدلين ولا مغيرين ولا باغين ولا منكرين إلى أن قام عليك عمك بحجته التي لا يمكنك جدها حسباً ثبت كما يجب عقدها فخرجت مبادراً له بدفعها ولقيته بها وأنت واسطة عقدها وحامل راية عهدها وعمك في فنة لا يخطر على بال عاقل أن يقابل جنداً من جنودك أو يدافع ما تحت لواء من ألويتك وبنودك فما هو إلا أن جرى القتال وحضر النزال رجعت على عقبك هاربا هروب مطرود بقصاص وجنودك تتاديبك ولات حين مناص فتركت عدك وملكتك بكل ما فيها وخلفتها لعدوك ينهبها ويسبيها وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكانها بنادونك لمن تركتنا وإلى من تكلنا فلم تلتفت إليهم وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الأموال والعدد الوافرة والرجال والأسوار المرتفعة المانعة والمدينة المشهورة الجامعة فأصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تريد أن تمتد إلى الحریم والأولاد والطارف والتلاد ولا دافع عن الضعفاء والمساكين إلا الله تعالى الذي قال في مثلهم ومن أصدق من الله قبلاً لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فما أمكنهم بعد هروبك عنهم وإسلامك لهم فوضى مهملين إلا النظر في أمرهم وإعمال الفكر في التدبير على أنفسهم فيبيناهم على ذلك إذا بعكم بجنوده على باب مدينتهم قائماً بحجته سالكا في ذلك سبيل أبيه رحمه الله ومحجته حسبما تقرر ذلك عندكم وظهر ولم يخف عنكم منه عين ولا أثر إذ كان مولانا محمد الجد الأكبر عهد لأولاده مولانا أحمد ومولانا محمد الشيخ وإخوانهم لا يتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم إلا الأكبر فالأكبر فالتمزوا ذلك إلى أن كبر أولادهم فطلب جندك من عمك الوفاء بذلك فامتنع فقاتله على ذلك حتى تم له الأمر وانتظم فعهد لوالدك الذي كان أكبر أولاده فلم ينازع أحد في ذلك إلى أن ألقى والدك رحمه الله ذلك وعهد إليك فلم ينازعك أحد فأبى الله إلا الحق فأعطى ملكه لعمك الذي هو أكبركم بعد أبيك فإن سلمت هذا فأبى حجة تدلي بها وأي طريق

تعتمد عليها وإن أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجندك من قبله لثبوتها لعمك مولانا أحمد إذ لا حجة حينئذ لجندك في القيام على عمك فخلفته صحبة لبيعة جندك له فلم يبق إلا التغلب الذي تدلي به في مسألة عمك وفي قيامه عليك فإن كنت تريد أن تسقط حجته بالتغلب عليك فحجتك أبين في السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عقدها لك إذ المعدوم شرعاً كالمعدوم حساً فلم يبق بينكم إلا والملك بعد أبي ليلي لمن غلبا فيلزمك على هذا أن تثبت ما عقده مولانا الجد رحمة الله وعليه فالخلافة لعمك القائم عليك إذ هو أكبركم في هذا التاريخ فإن قلت إن ما عقده الجد غير صحيح فلنا فقد ذكر الإمام الماوردي رحمه الله ورضي عنه في كتاب الأحكام السلطانية له في باب عقد الخلافة أن عبد الملك بن مروان رتبها في الأكبر فالأكبر من بنيه فلم ينازع أحد في ذلك فإن قلت فعل عبد الملك ليس بحجة فلنا سكوت العلماء على ذلك وهم ما هم في زمانه هو الحجة إذ لا يمكن أن يسكتوا على باطل وإقرار أهل العصر الواحد على مسألة من المسائل واتفقهم عليها يقوم مقام الإجماع الذي هو حجة الله في أرضه وكان أيضاً من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرج به مسلم رضي الله عنه في صحيحه في كتاب الإمارة ما نصه قال رسول الله يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند رأسه يقال هذه غدره فلان ابن فلان ألا ولا غادر أعظم غدرنا من أمير عامة قال القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله في كتاب إكمال المعلم على شرح فوائد مسلم يعني لم يحطهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعمد الذي تقلده من أمرهم وفي الباب نفسه عنه ما نصه ما من أمير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم إلا لم يرح راحة الجنة وإن رجبها ليجد من مسيرة خمسمائة عام وفي الإكمال نفسه قال القاضي والذي عليه الناس إن القوم إذا بقوا فوضى مهملين لا إمام لهم فلمهم أن يتفقوا على إمام يبايعونه ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض ويقم لهم الحدود

فلما أسلمتهم وأضحوا بغير إمام وعمك يدلي بحجته التي ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبي وكلام السلف الصالح وأيسوا من رجوعك إليهم وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم إلا الرجوع إلى ما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا على أن يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التي لا يسعك جدها إلا على وجه المكابرة فاطمان الناس وسكنوا وانفتحت السبل وأقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية فإن قلت كان يجب على أهل فاس أن يقاتلوا على البيعة التي التزموها لك فلنا إنما يلزمهم القتال أن لو أقمت بين أظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعي لأن القتال على الحدود الشرعية إنما يكون بعد نصب إمام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك أيضاً جدها إيه ثم وصلت إلى مراكز الغراء التي تجبى إليها الأموال من البيوادي والأمصا وتشد إليها الرحال من سائر الأقطار فليكن أهلها بالترحاب والسرور وأنواع الفرح والحبور فوجدت خزائنها تتدرج ملنا من كل شيء فلما أسوارها ورحابها فهي كما قيل تربة الولي ومدرج الحلي وحضرة الملك الأولي والبرج النير الجلي فحلتها وتمكنت من أموالها وخزائنها ووافقك أهلها فما نكتوا ولا غدروا ولا خرجوا عليك في سلطانك ولا أنكروا فطلب قتال عمك وجندت جنوداً لا يجمعها ديوان حافظ ولا يعهد لها لسان لا فخرت إليه تجر أئنة الخيل ورائك كالسيول والرماء قد ملأت الهضاب والتلول فما كان من حديثك إلا أن وقع القتال وحضر النزال بادرت هاربا محكماً للعادة تاركا للرؤساء من أجنادك والقادة فحلت بهم الخطوب والرزايا واختطفهم أيدي المنايا فتركت أيضاً محلكت بما فيها من حريمك وأموالك وعدتك ثم أسرعت هاربا إلى مراكز فاس فما صدك عنها أحد من أهلها ولا قال لك أحد لست ببيعها فعملوا على القتال معك والتمتع بأسوارها الحصينة والحصار داخل المدينة فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك وأخواتك وعماتك ونساءك وخرجت عنهم من القسبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس ولا راجل ولا فارس فيألبها من مصيبة ما أعظمها ومن داهية ما أضلها ولولا

فضل الله ولطفه ووعده بتطهير أهل البيت لامتدت إليهم أيدي السفلة من الفسقة فأبى حجة تبقى لك بعد هذا وأي كلام لك بين الرجال يا هذا ثم جاءك عمك أيضاً بما سلف من الحجج فوجد أهلها في لطف الله سبحانه وهم يحرسون أولادهم وبناتهم من اليد العادية فأنقذهم الله به أيضاً فبايعوا عمك بما سلف من الحجج واطمانوا وسكنوا ثم هربت للجبل عند صاحبه فصرتما في نهب أموال الرعية وسفك دمايمهم وأكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرآن الداخلون تحت عهد سيد الثقلين في الأمن والأمان فأنت وهم في استيلائك عليهم وظلمك إياهما كما قيل إن هو مسئولياً على أحد إلا على أضعف المجانين ولم تبال بقول النبي أنا خصيم من ظلم ذمياً يوم القيامة ثم خربت العامر وأفسدت ما شيدت الأسلاف للإسلام من المآثر فلما رأى أهل السوس الأقصى ذلك أيقنوا أنك إنما قصدت خراب الإسلام وأهله فنكب عنك أهل الدين والعلم منهم وبقيت كما قيل في خلف كجلد الأجرى فإن قلت إن أولئك الخلف لم يبايعوا عمك فتنقض بهم ما قررناه فلنا لم يطعن في خلافة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من تخلف عنها من أهل الشام وفيهم من قد علمت من الناس والإجماع على صحة بيعته وسمي من تخلف عنها باغياً لقول النبي لعمار تقتلك الفئة الباغية فقتله أصحاب معاوية رضي الله عنه والحديث من أعلام نبوته والقاعدة أن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعول عليه ولا يعد خلاف من خالفه خلفاً وهذا كله بالنظر إلى ما كان من حديثك قبل التحزب مع عو الدين والأخذ

في التخليط العظيم على المسلمين فإنك اتفقت معهم على دخول أصيلاً وأعطيتهم بلاد الإسلام فيألبها ويا لرسوله لهذه المصيبة التي أحدثتها وعلى المسلمين فقتلتها ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ثم لم تتمالك أن أقيمت بنفسك إليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم قال أبو حيان رحمه الله أي لا تتصروهم ولا تستنصروهم بهم وفي كتاب القضاء من نوازل الإمام البرزلي رحمه الله أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المقتوني رحمه الله استفتى علماء زمانه رضي الله عنهم وهم ما هم في استنصار ابن عبد الأندلسي بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين فأجابهم جلهم رضي الله عنهم بردته وكفره فقامل هذا مع قضيتك تجدها أحروية مناسبة لقضية ابن عبد في عقدها ابتداء وأنه متى طرأ الكفر وجب العزل وناهيك بقول النبي عليكم بالسمع والطاعة وبما أفتى العلماء رضوان الله عليهم بردة من استنصر بالنصارى على المسلمين فهو نص جلي في وجوب خلعتك وسقوط بيعتك فلم يبق لك إلا منازعة الحق سبحانه في حكمه ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب وأما قولك في النصارى

فإنك رجعت إلى أهل العدة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى فيه المقت الذي لا يخفى وقولك رجعت إليهم حين عدت النصر من المسلمين فيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله أحدهما كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله والثاني أنك استعنت بالكفار على المسلمين وفي الحديث أن رجلا من المشركين ممن عرف بالنجدة والشجاعة جاء إلى النبي فوجده بحرة الوبرة موضع على نحو أربعة أميال من المدينة فقال له يا محمد جئت لأنصرك فقال له النبي إن كنت تؤمن بالله ورسوله فقال لا أفعل فقال له إني لا أستعين بمشرك وما سمعته من قول العلماء رضي الله عنهم في

الاستعانة بهم إنما هو على المشركين بأن جعلهم خدمة لأزبال الدواب لا مقاتلة فأما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه وقد قيل قديما لسان العاقل من وراء قلبه وفي قولك يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجت لك دليلا على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين وفي ذلك مصادمة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضا والعياذ بالله وقولك فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله إيه أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ما قلت في الحديث يتكلم أحدكم بالكلمة تهوي به في النار سبعين خريفا ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا حملتهم الغيرة الإسلامية والحمية الإيمانية وتجند لهم نور الإيمان وأشرك عليهم شعاع الإيقان فمن قائل يقول لا دين إلا دين محمد ومن قائل يقول سترت ما أصنع عند اللقاء ومن قائل يقول وليعلمن الله الذين ءامنوا وليعلمن المنافقين ومن قائل يقول إنما قصد التشفي بالمسلمين إذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الأفعال القبيحة إلى غير ذلك فجزاهم الله عن الإسلام خيرا ورضي عنهم وبارك فيهم فله درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان فلو لم يكن منهم إلا ما غير قلوبهم على الدين لكان كافيا في صحة إيمانهم وعظيم إيقانهم فقد بلغ نور غضبهم لله سبحانه ساق العرش والحب في الله والبغض في الله من قواعد الإيمان وقولك أيضا متبرنا من حول الله وقوته فإن لم تفعلوا فالسيف فهو كلام هنيان يدل على حماقة قائله فقط أنبا سيفك هذا وأنت مع المسلمين في أربع وعشرين معركة لم تنتب لك فيها راية ثم زال نيوه الآن بالكفار فهذه أضحوكة فتأملها وأما ما نسبته لإمام دار الهجرة فكفك عجزا إن لم تعين لنا نصا جليا نعتمد عليه فيما تحتج به إلا أنك كثرت به سواد القرطاس مغربا بذكره لا مغربا بنصه

وما نسبته للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وتسويغ الغصة بخمر فهو ما نص عليه المالكية في مختصراتهم التي ألفوها للصبيان فعدوك عن ذلك إلى الحنفية إما قصور وإما إلغاء لمذهب مالك رضي الله عنه وهو النجم الثاقب وأما قولك أنتم أهل بغي وعناد فلا نسلم لك ذلك إلا لو أقيمت بين أظهرنا وقاتلت معنا حتى ترى أنسلمك أم لا فأما إذا هربت عنا وتركنا فالحجة عليك لا علينا على أنك في كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره وقد قال العلماء رضي الله عنهم من يقول بتكفير العامة فهو أولى بالتكفير وذلك معزو لزعيم العلماء القاضي أبي الوليد بن رشد والقاضي أبي الفضل عياض وكيف لا تنتظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرها من سائر البلدان وكيف وقع لأمرائهم المستنصرين بالكفار على المسلمين هل حصلوا على شيء مما قصدوه أو بلغوا شيئا مما أملوه على أن أكثر العلماء حكموا بردهم ففاتتهم الدنيا والآخرة والعياذ بالله وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك وعولت على بلوغ الملك بحشودهم وأناى لك هذا مع قول الله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وفي الحديث عن النبي إن تغلب هذه الأمة ولو اجتمع عليها من الكفار ما بين لايات الدنيا وعنه أنه قال سيفاتل آخر هذه الأمة الدجال وعنه أنه قال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته ألا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها وسألته ألا يغلبهم عدوهم الكافر فأعطانيها وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها والكل عليك وإياك نعني وما ذكرته عن عمك فاعلم أنه لما بلغه خبرك واستنصارك بالكفار عقد ألويتة المنصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله من حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل

والتكبير والدعاء له وللأسلام بالنصر والتمكين والفتح الشامخ المبين فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت أن أبواب السماء انفتحت لذلك وقضى ما هنالك وبلغه كتابك الذي كان هذا جوبا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وأنصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة ولولا أن الشرع العزيز أمر بتعظيم جنود الإسلام والمباهاة بها والافتخار بكثرتها لما قررنا لكم أمرها إذ لا اعتماد له أيده الله عليها وكذلك هم لا اعتماد لهم إلا على حول الله وقوته ونصره وتأييده والناس على دين الملك وقد قاتلت وأنت في وسط المسلمين في بضع عشرة معركة لم تنصرك فيها راية فأي نحس وشؤم حلا بديار الروم فإن جلبتهم فله لك ولهم بالمرصاد ارجع إلى الله أيها المسكين وتب إليه فإنه يقبل التوبة عن عباده في كل وقت وحين ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقالته وهذه نصيحة إن قبلتها وموعظة إن وفقت إليها والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو نعم المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام انتهت الرسالة وكان خروج محمد بن عبد الله بجيش البرتغال وفصوله به من طنجة في ربيع الثاني سنة ست وثمانين وتسعمائة قال في المرة أنهم لما خرجوا إلى بلاد الإسلام ضربوا محلاتهم بالفحص على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر وكانت أصيلا قد تصيرت إليهم قبل ذلك بأشهر يعني بعد فرارهم عنها أيام السلطان محمد الشيخ كما تقدم فعابن أهل القصر الهلكة لقرب العدو منهم وقوته التي لا طاقة لهم بها وقتنا النفاق لأجل السلطان محمد بن عبد الله الذي معهم ولأجل بعد صريح المسلمين فإن السلطان أبا مروان المعتصم بالله كان إذ ذاك بمراكش فاستبطنوا وصول الخبر إليه ثم مجئهم بعد ذلك فلم يبق لهم تدبير إلا الفرار والتحصن بالجبال وغيرها

فقال الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي رحمه الله وكان إذ ذاك بالقصر لرجل من أصحابه ناد في الناس أن الزموا بلادكم ودوركم فإن عظيم النصارى مسجون حيث هو حتى يجيء السلطان من مراكش وإن النصارى غنيمه للمسلمين ومن شاء فليقطع خمسين أوقية في النصراني يشير إلى مبلغ قيمة النصراني في الغنيمه فما انتقل النصارى من مكاتيم ذلك أكثر من شهر حتى قدم السلطان أبو مروان وكان مريضا اه وقال في النزهة إن النصارى لما برزوا من طنجة شنوا الغارة على السواحل فأعلم أهلها السلطان أبو مروان وكان بمراكش وشكوا إليه كلب العدو عليهم فكتب السلطان أبو مروان من مراكش إلى الطاغية إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك العودة فإن ثبت إلى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي شجاع وإلا فأنت كلب ابن كلب فلما بلغه الكتاب غضب واستشار أصحابه هل نقيم حتى يلحق بنا من خلفنا من أصحابنا فقال له محمد بن عبد الله الراي أن نتقدم ونملك تطاوين والعرابيش والقصر ونجمع ما فيها من العدة ونتقوى بما فيها من النخائر فأعجب ذلك الراي أهل الديوان ولم يعجب الطاغية وكتب السلطان أبو مروان لأخيه أبي العباس أحمد وكان نائبه على فاس وأعمالها أن يخرج بجيوش فاس وأحوازا ويتهيا للقتال ثم كتب إليه أيضا في شأن مؤنة الجيش كتابا يقول فيه من عبد الله المعتصم بالله المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين أبي مروان عبد حرس الله كريم إخوانه سلام كريم ورحمة الله وبركاته أما بعد فإننا كئيبنا إليكم من محلنتنا السعيدة بتامسنا ولا زائد بحمد الله إلا الخير والعافية والنعم الضافية هذا وإنه ساعة وصوله إليكم تخرجون من الخدام لعمالة مكناسة وقبيلة أزمر وأولاد جلول من يفرض عليهم علف محلنتنا المنصورة ومؤنتها ويأمرهم برفعه وإبلاغه إلى مدينة سلا وقدر ذلك صحيفة شعير وعشرون مدا من القمح لكل نائبة وصاع من سمن وكيش لكل أربع نوابت ووكد عليهم رعاك الله أن يعتنوا بذلك وليصالحه إلى المكان المذكور من غير عطلة وهذا ما وجب به الإعلام إليكم والله يرعاكم بمنه والسلام اه ثم كتب السلطان أبو مروان للطاغية ثانية وذلك بعد ما وصل إلى القصر إني رحلت إليك ست عشرة مرحلة أما ترحل إلى واحدة فرحل الطاغية من موضع يقال له تاهدارت ونزل على وادي المخازن بمقربة من قصر كتامة وكان ذلك من السلطان أبي مروان مكيدة ثم إن الطاغية تقدم بجيوشه وعبر جسر الوادي ونزل من هذه العدة فأمر السلطان بالقتل أن تهدم وجهه إليها كتيبة من الخيل فهدموها وكان الوادي لا مشرع له سوى الفتطرة ثم زحف السلطان أبو مروان إلى العدو بجيوش المسلمين وخيل الله المسومة وانضاف إليه من المتطوعة كل من رغب في الأجر وطمع في الشهادة وأقبل الناس سراعا من الأفاق وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل فكان ممن حضره من الأعيان الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي وغيره قال في المرة كان الشيخ أبو المحاسن في ذلك اليوم في أحد الجناحين وأظنه الميسرة من عسكر المسلمين في مقابلة النصارى

دمرهم الله قال فوق في ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم وحملت عليهم النصارى دمرهم الله فثبت الشيخ وثبت من كان معه إلى أن منح الله المسلمين النصر وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون والشيخ لم يتزلزل ولم يلتفت منذ توجه إلى قتلهم حتى فتح الله عليهم اه ولما التفت الفتتان وزحف الناس بعضهم إلى بعض وحمى الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على ساق توفي السلطان أبو مروان رحمه الله عند الصدمة الأولى وكان مريضاً يقاد به في محفة فكان من قضاء الله السابق ولطفه السابق أنه لم يطلع على وفاته أحد إلا حاجبه مولاه رضوان العليج فإنه كتم موته وصار يختلج إلى الأجناد ويقول السلطان يأمر فلانا أن يذهب إلى موضع كذا وفلانا أن يلزم الراية وفلانا يتقدم وفلانا يتأخر وقال شارح الزهرة لما توفي السلطان أبو مروان لم يظهر الذي كان سائس المحفة موته فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو ويقول للجنود السلطان يأمركم بالتقدم إليهم وعلم أيضاً بموته أخوه وخليفته أبو

العباس أحمد بن الشيخ فكنمها ولم يزل الحال على ذلك والناس في المناضلة والمقاتلة ومعانقة القواضب والاصطلاء بنار الطعان واحتساء كؤس الحمام إلى أن هبت على المسلمين ريح النصر وساعدهم القدر وأثمرت أغصان رماحهم زهر الظفر فولى المشركون الأديار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف في رقاب الكفار ففروا ولات حين فرار وقتل الطاغية سبستيان عظيم البرتغال غريباً في الوادي وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا إلا آثارها فخشعت نفوسهم وتهافتوا في النهر تهافت الفراش على النار فكان ذلك من أكبر الأسباب في استئصالهم وأعظم الحبال في اقتناصهم ولم ينج منهم إلا عدد نزر وشرذمة قليلة وقل في المنتقى المقصور كانت هذه الغزوة من الغزوات العظيمة الوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من أهل الله تعالى حتى إنها أشبه شيء بغزوة بدر حدثنا شيخنا أبو راشد يعقوب البدرى عن يثيق به أن الرجل من حاضري ذلك المعترك كان يستبق إلى النصراني لينتهب فيه الفرصة فما يصله حتى يجده ميتاً اه وبحث في القتل عن محمد بن عبد الله المستصرخ بهم والقائد لهم إلى مصارعهم فوجد غريباً في وادي المخازن وذلك أنه لما رأى الهزيمة فر ناجياً بنفسه واضطر إلى عبور النهر فتورط في غدير منه وغرق فمات فاستخرج الغواصون وسلخ وحشي جلده تبنا وطيف به في مراكش وغيرها من البلاد وممن وجد صريعاً في القتلى يومئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عسكر السريفي الشفشاوني صاحب الدوحة فإنه كان هرب مع المسلوخ وكان من بطانته فدخل معه بلاد العدو فوجد بين جيف النصارى قتيلاً وتكلم الناس في أمره حتى قيل إنه وجد على شماله مستدير القبلة وفيه يقول الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد ابن الإمام الشهير أبي محمد عبد الله الهيبي رحمه الله في منظومته التي نظم فيها أصحاب أبيه معتذراً عن ابن عسكر المذكور ومشيراً إلى توهين ما قيل فيه ومنهم الشيخ الذي لا ينكر محمد أخو الدهاء عسكر

وإن يكن أتى بذب ظاهراً فعرضه من الشكوك طاهر رأيت في النوم ذا بشاره وهيبة حسنة وشارة وكان النقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة ويوافق من التاريخ المسيحي اليوم الرابع من أغسطس سنة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة قال في المنتقى وكان مقدار زمان المقاتلة خمسا وأربعين درجة وقيل اثنتين وخمسين على ما حدثني به بعض الميقاتيين وقال في المرأة وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها بالمغرب إذ لم يتقدم للنصارى خروج به على هذه الصورة إلا أن الغنيمة لم تقسم وإنما انتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبخت الدنيوي وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام فظهر ذلك من غلاء وغيره وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ وقد حضر الشيخ أبو المحاسن هذه الغزوة وأبلى فيها بلاء حسناً وتورع عن الغنيمة فلم يتلبس منها بشيء وبلغت قيمة النصراني ما ذكره الشيخ وكان سبب عدم ضبط الغنيمة وقسمها على الوجه المشروع موت السلطان أبي مروان قبل هزيمة النصارى وكان مريضاً فاشتغل أخوه أبو العباس أحمد بجمع الكلمة ولم يهتبل بأمر الغنيمة فتم له ما قصد وقد ساق منويل في تاريخه خبر هذه الوقعة مساقاً حسناً فقال لما استولى عبد الملك السعدي المدعو عند أهل المغرب بمولاي ملوك على ملك المغرب وطرد ابن أخيه مولاي محمد المعروف بالأكلح يعني المسلوخ ذهب أولاً إلى إصبانيا وتطارح على طاغية الإصبينول فيليب الثاني في أن يعينه على استرجاع ملكه فامتنع ثم دخل أشبونة وتطارح على طاغية البرتغال سبستيان فأجابته وذهب إلى خاله طاغية الإصبينول فيليب المذكور أنفاً وطلب منه الإعانة على ما هو بصده فوعده بأن يعطيه من المراكب والعساكر ما يملك به العرائش لأنه كان يرى أنها تعدل سائر

مراسي المغرب ثم أمده بعشرين ألفاً من عسكر الإصبينول وكان سبستيان قد ساق معه اثني عشر ألفاً من البرتغال وثلاثة آلاف من الطليان ومثلها من الألمان ومن منطوعة الإصبينول وغيرهم عدداً كثيراً وبعث إليه البابا صاحب رومة بأربعة آلاف أخرى وبألف وخمسمائة من الخيل والاثني عشر مدفعا وجمع سبستيان نحو ألف مركب وجاء إلى قادس ولما عزم على اقتحام بلاد المغرب تشفعت إليه جدته وأرباب دولته وشيوخ دينه في الرجوع فصم عنهم وكذلك خاله فيليب حذرهم عاقبة التوغل في أرض المغرب فصم على ذلك كله وجاء إلى قادس ومنها خرج إلى طنجة وكان محمد بن عبد الله المسلوخ ينتظره هنالك فاجتمع به وزحفوا إلى بلاد المغرب وزحف إليهم السلطان عبد الملك في عساكر المسلمين وكانوا أربعين ألفاً وزيادة ومدافعهم أربعة وثلاثين مدفعا وقواد الجيش أبو علي القوري والحسين العليج الجنوي ومحمد أبو طيبة وعلي بن موسى وأخوه أحمد بن موسى الذي كان عاملاً على العرائش فجاء في جمعه إلى السلطان عبد الملك وانضم إليه ولما تقارب الجيشان جمع السلطان عبد الملك الناس وخطبهم ثم استدعى النصارى إلى القتال ونصب لهم علامته فأجمعوا وكان قصدهم المطاولة وقصد السلطان عبد الملك المناجزة وذلك لأن محمد المسلوخ قد دس إليه من سمه قال منويل ولما أحس عبد الملك بذلك وأنه لا محالة هالك بذل نفسه للقتال ليموت في الجهاد وكان المسلوخ يتربص كي يهلك عمه قبل اللقاء فوقع الفتنة في عسكر المسلمين لكن جيش النصارى لم تكن لهم مؤنة يطولون بها فألجأهم ذلك إلى المناجزة ولما انتشبت الحرب هلك عبد الملك للحين قال منويل وكان أمر هذا الرجل عجباً في الحزم والشجاعة حتى أنه لما مات مات وهو واضع سبابته على فمه كأنه يشير إلى جيشه أن يسكتوا عن الخوض في وفاته حتى يتم أمرهم ولا يضطربوا وكذلك كان فإنهم كتموا موته فانصروا وظفروا بالنصارى ظفراً لا كفاء له فكانوا يذبحونهم مثل

الكباش ودهش النصارى وتكببت جموعهم وتراكت أمتعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم بلا ترتيب وزادهم دهشاً أن بعض طوابيرهم كان ينادي صاحب صفارته وراكم وراكم قطعكم العدو ووقدت النار في بارود النصارى فنفط وانهمزوا إلى وادي المخازن فتهاقت جلهم فيه فهلكوا والباقي أسره المسلمون وزعم أن سبستيان هلك تحته في ذلك اليوم أربعة أفراس وكان شاباً حدثاً وقال لأصحابه إن تروني تروني أمامكم وإن لم تروني فأنا في وسط العدو أقاتل عنكم قال وأبدأ وأعاد في ذلك اليوم إلى أن خر قتيلاً وبقي مذكوراً عند البرتغال يسمرن بأخباره وذكره شعراء الأوربا في أشعارهم ولا زالوا يذكرونه إلى الآن وخلفه في ملكه الطاغية الريكي البرتغالي فهو الذي ولي بعده وافتدى جنازته من المسلمين ونقلها إلى سبتة فيقتب هنالك إلى أن هلك الطاغية الريكي وتولى على البرتغال طاغية الإصبينول فيليب الثاني فصار ملك الدولتين معا وهو خال سبستيان أخو أمه فنقل جنازته من سبتة إلى أشبونة ثم أرخ منويل الوقعة بالتاريخ العربي والعجمي موافقاً لما مر فهذا ما ذكره في هذه الوقعة قال في النزهة توفي السلطان أبو مروان عبد الملك بن الشيخ في زوال اليوم المذكور وباع الناس أخاه أبا العباس أحمد المنصور بالله كما سيأتي إن شاء الله قال في درة المجال فانظر لحكمة الله الواحد القهار أهلك ثلاثة ملوك يوم واحد وهم أبو مروان الشيخ وولد أخيه محمد بن عبد الله المسلوخ والطاغية سبستيان وأقام واحداً وهو أبو العباس المنصور اه قلت وفي إهلاك الثلاثة وإقامة الواحد إشارة واضحة لإهلاك دين التثليث ونصر دين التوحيد في ذلك اليوم والله تعالى أعلم ولما بلغت الهزيمة إلى الطاغية الأعظم أعني القائم بالأمر بعد سبستيان لأن التحقيق أنه كان الأعظم يومئذ لما مر بعث إلى المنصور بعد استنقلاله

بالملك وعوده إلى فاس كما سيأتي يلتبس منه الفداء فيمن بقي بيده من الأسارى فأجابته إلى ذلك وحصل له بسببه أموال طائلة وذكر بعضهم أن الأسارى لما ذهبوا إلى بلادهم قال الطاغية لم لم تأخذوا تطاوين والعرائش والقصر قبل أن يصل ملكهم فقالوا له امتنع من ذلك الأمير الذي كان علينا فأمر بهم فأحرقوا جميعاً مضحكة قال في النزهة ذكر بعضهم أن النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفنى من فنى منهم ورأى

أساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم أباحوا للعامة فاحشة الزنى ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم ورأوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم أود ملتهم أخزاهم الله اه وقد وقفت على تاريخ لبعض مؤرخي الفرنج الإنجليزيين من أهل جزيرة مالطة فرأيت أنه قد ألم بخبر هذه الواقعة وصرح بأنها كانت سبب هلاك البرتغال وتلاشي دولتهم وبطلان كرسي سلطنتهم حتى استضافهم إليه طاغية الإصينبول بعد نحو سنتين وصيرهم من جملة رعيته ومن فصول كلامه بعد أن ذكر أن أكثر البرتغال قتلوا في ذلك اليوم ما نصه وكانت يعني الواقعة المذكورة وقعة هائلة ويوما مشؤوما وبالجملة فقد قتل في ذلك اليوم سائر أشرف البرتكيسيين ولم يتخلف منهم أحد فلما بطل كرسي سلطنتهم قام وتقتذ فيليبس الثاني ملك إصبانيا وتزوج ملكتهم وحكم على البلاد كلها اه كلامه إلا أنه ذكر أن السبب في استغاة السلطان محمد بن عبد الله بالبرتغال هو تغلب الإصينبوليين على مملكته وانتزاعها من يده وهو كذب أو غلط ولعله تصحف عليه لفظ الإصينبوليين بالإصينبوليين إذ قد تقدم أن السلطان أبا مروان إنما استولى على المغرب بجيش الترك المنفذ من قبل السلطان سليم العثماني والله أعلم وقد ألم بهذه الواقعة أيضا لويز مارية في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة لكنه لم يبسطها على عادته في السكوت عن ما يكون من الظهور في جانب المسلمين وإشاعة ما يكون من ذلك في جانب النصارى بل

والزيادة فيه ومع ذلك فقد قال في وصفها كلاما هذه ترجمته وقد كان مخبوءا لنا في مستقبل الأعصار العصر الذي لو وصفته كما وصفه غيري من المؤرخين لقلت هو العصر النحس البالغ في النحوسة الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال وانطفا مصباحهم بين الأجناس وزال رونقهم وذويت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجاء واضمحل إبان الغنى والريح وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستان في القصر الكبير من بلاد المغرب اه فهذا كلام هذا البرتغالي قد تحفظت عليه وأديت ترجمته كما هي ليحتمل به من يقف عليه والحق ما شهدت به الأعداء ولما تمت للسلطان أبي العباس المنصور البيعة بوادي المخازن طالبه الجيش بأرزاقهم واستنجزوا وأعطياتهم حسبما جرت به عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لأنهم جعلوها نهى ولم يقسموها على الوجه الشرعي كما سبق فصعب استخراجها منهم لعدم التعيين وجرأة الناس على الغلول فسامحهم فيها وسامحوه في عطائهم ثم أمر المنصور بتوجيه كتب البشارات إلى الأفاق بهذا الفتح المبين فكتب إلى صاحب القسطنطينية العظمى وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به من إظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستئصال شوكتهم ورد كيدهم في نحرهم فوردت عليه الأسرار من سائر الأقطار مهنيين له بما فتح الله على يده حسبما نذكره بعد إن شاء الله بقية أخبار السلطان أبي مروان وسيرته قال ابن القاضي كان سبب وفاة السلطان أبي مروان رحمه الله أنه سقي سما وذلك أن قائد الترك الذين كانوا معه واسمه رمضان العليج بعث إلى بعض قواده أن يتلقاه بكعك مسموم هدية للسلطان المذكور وقت مرورهم عليه وقصد بذلك قتله وذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت لهم الملك بها فلم يكمل الله مرادهم لما شهدوه من عظيم جيش المغرب فهذا كان سبب في موته رحمه الله اه ولما توفي حمل إلى مراکش فقبر بها وكانت مدة

خلافته أربع سنين ومن حجاب القادر رضوان العليج وكتابه محمد بن عيسى ومحمد بن عمر الشاوي وقضاته قضاة ولد أخيه وكان يتزيا بزبي الترك ويجري مجراه في كثير من شؤونه وكان يتهم بالميل إلى الأحداث وربما كان يظهر ذلك وكان أخوه أبو العباس المنصور خليفته على فاس كما مر وكانت له فيه محبة تامة وكان يظهر أنه ولي عهده ويرشحه لذلك كثيرا حسبما أفصحت عنه رسائله التي كان يبعث بها إليه ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث ففي سنة ثمان وعشرين وتسعمائة كان الوباء بالمغرب كما قدمنا وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة نزل مطر غزير بمرآكش حتى امتلأت منه الأبار وتهدمت الدور وصار الناس يؤرخون بعام الأبار وفي سنة إحدى وستين وتسعمائة توفي الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي من أولاد أبي السباع ودفن بزوايته على ضفة وادي تانسيف من أعمال مراکش وقبره مزارة مشهورة وعليه بناء حفيل وفي سنة ثلاث وستين وتسعمائة توفي الشيخ الإمام أبو محمد عبد الله ابن محمد الصنهاجي الطنجي المعروف بالهبطي وكانت وفاته في ذي القعدة من السنة المذكورة وكان رحمه الله من أهل الورع والدين والاتباع للسنن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن فوائده ما حكاه عنه في الدوحة قال سألت شيخنا الإمام أبا محمد عبد الله الهبطي عن الشيخ أبي محمد الغزواني وكان من أصحابه فقلت له يا سيدي ما لسائر المشايخ من أصحاب الشيخ الغزواني كأبي الحجاج التليدي وأبي البقاء الباصوتي وأبي الحسن علي بن عثمان وغيرهم يصرحون بقباطية الشيخ وينسبونك أنت إلى التقصير في حقه حيث لم تقل بما يقولونه فقال لي رضي الله عنه قد علمت معنى الشهادة في الشرع ما هي فقلت نعم فقال لي كيف لي أن أشهد لأحد بمقام معين وأنا لم أسلكه ولم أتحدثه ولم يكشف لي عنه فإن فعلت فقد شهدت شهادة الزور فقلت له وأي شهادة تشهد في الشيخ فقال لي أشهد أنه من العارفين بالله تعالى وأنه كان يجيب بالحل أكثر مما يجيب بالمقال انتهى قلت وهذا شأن أهل الدين والورع المحتاطين لدينهم لا يقدمون على أمر ولا يتفوهون به حتى يكونوا منه على بصيرة وتجد كثيرا ممن عقله وراء لسانه يقولون على الله في غيبه ويخطون خطب العشواء وينسبون المقامات والأحوال لمن ليس منها في قبيل ولا دبير نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا بمنه وفي سنة أربع وستين وتسعمائة في يوم الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان منها كسفت الشمس الكسوف الكلي العظيم وفي سنة خمس وستين وتسعمائة كان بالمغرب وباء عظيم كسا سهله وجباله وأقنى كمامته وأطاله واتصل أمره إلى سنة ست وستين بعدها وفي سنة إحدى وسبعين وتسعمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الجزولي ثم السملالي الشهير ببلاد السوس أخذ عن الشيخ أبي فارس عبد العزيز التباع والشيخ أبي العباس أحمد بن يوسف الراشدي ثم الملياني وفي سنة ست وسبعين وتسعمائة ليلة عبد الأضحى منها توفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عباد الصنهاجي ثم الفرجي الدكالي المعروف بالمجذوب الولي المشهور دفين مكناسة الزيتون كان مأوى سلفه بمدينة تيط قرب أزموور ثم رحل هو ووالده إلى مكناسة فمات بها وفي سنة سبع وسبعين وتسعمائة بعد صلاة الجمعة من أول يوم من المحرم منها زلزلت الأرض زلزالا شديدا وفزع الناس لذلك وفي هذه السنة في الحادي والعشرين من ربيع الأول منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الله بن حسين من شرفاء بني أمغار دفين تامصلوحت وقد تقدم ما جرى بينه وبين السلطان الغالب بالله وفي سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وذلك أواخر شوال منها الموافق لأواسط مارس العجمي حدث بالمغرب جراد كثير وفي أيام السلطان الغالب بالله ظهر نجم لم يكن معهودا ثم ظهرت في أيام ابنه محمد بن عبد الله أعلام حمر في الجو من الناحية الشرقية تبععتها في الأرض أجناد الترك التي

جاء بها السلطان أبو مروان من الجزائر كما مر وفي أيام السلطان أبي مروان المذكور ظهر الكوكب ذو الذنب الكبير في برج العقرب وطلع أياما ثم غاب وظهر بعده كوكب آخر ذو ذنب أصغر منه وعلى أثره كان خروج البرتغال من طنجة وقعة وادي المخازن كما مر والله تعالى أعلم بغييه الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله السعدي المعروف بالذهبي وأوليته ونشأته كانت ولادة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله ابن السلطان أبي عبد الله الشيخ بفاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وأمه الحرة مسعودة بنت الشيخ الأجل أبي العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتي الوارزاتي وكانت من الصالحات الخيرات وستاتي بقية أخبارها وذكر في المنتقى قال مرض المنصور في صغره مرضا شديدا حتى أيس منه فرأت أمه في النوم شخصا يقول لها أزيهه الشيخ أبا ميمونة فإمنا أصابته عين فأزارته إياه فعوفي وكان أبوه المهدي يبنه على أنه واسطة عقد أولاده قال في مناهل الصفا حدثني الشيخ المسن القائد أبو محمد مؤمن ابن الغازي العمري أن المنصور أقبل يوما في حياة أبيه وهو صبي والمجلس غاص بالأكابر فاندفع بخترق الصفوف قال فصاح بي المهدي إذ ذاك وأنا أصغر القوم فقال يا مؤمن ارفعه فيسندك أو ينفع عبيك فابتدرت حمله وكان كذلك فإن المنصور لما أفضت إليه الخلافة كان القائد مؤمن ابن الغازي عنده بالحظوة الرفيعة والمنزلة العالية ونشأ المنصور رحمه الله في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة لأهله وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من لدن عذبت عليه التمام إلى أن تم أمره حدثنا الفقيه العالم سفير الخلفاء أبو محمد عبد الله بن محمد بن

محمد بن علي الجزولي الدرعي أنه اجتمع ببعض أهل المكاشفة بمصر فسأله عن السلطان أبي عبد الله الشيخ وأولاده قال فسميتهم له واقتصرت على الكبار منهم فلم أذكر المنصور لأنه كان أصغرهم سنا يومئذ فقال لي بقي منهم من لم تذكره فقلت له أحمد فقال ذلك واسطة عقدهم ووجه صفتهم فكان كذلك وقال الشيخ أبو فارس عبد العزيز الفشتالي لما أخذ المهدي البيعة لولده السلطان الغالب بالله كما تقدم استقدمه من فاس وأوصاه بالمنصور جدا وقال له إن القائدة فيه أو كما قال وهكذا كان ينبه على أنه واسطة عقد أولاده وكان المنصور رحمه الله يحدث أنه رأى النبي في النوم وأنواره تشرق قال فوقع في نفسي أن أسأله عن نصيبي من الخلافة فكاشفتني بما في خاطري وأجابني بما حقق لي نيلها ثم أشار لي بأصابعه الثلاثة الشريفة ضاماً الإبهام منها إلى السبابة والوسطى وقال أمير المؤمنين اه وقال الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التمارتي في كتابه الفوائد الجمة بإسناد علوم الأمة أخبرني الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله الدغوي صاحب الحسبة بتارودانت أنه رأى في منامه كأنه في حلقة يسرد فيها صحيح البخاري بموضع من دار الخلافة بها وأبو العباس المنصور يومئذ بها وذلك قبل ولايته قال فرأيت في طرة الكتاب هذا اللفظ ورى الزند فكنيت أتأمل معناه فالتفت فإذا برجل انعزل ناحية على طرفة فوقع في نفسي أن أسأله فأتيت به بالكتاب وقلت له يا سيدي ما معنى هذه الكلمة التي في طرة هذا الكتاب فقال لي قل لمولاك أحمد أنا الذي أوريك زندك ما دمت على الحق فإن عدلت عنه فأنا بريء منك فقلت له ومن أنت يا سيدي فقال لي رسول الله لم يمض إلا قليل حتى ولي الخلافة وحمدت سيرته قال أبو زيد وناهيك بزند أوراه النبي وهذا يدل على أن ولاية الإسلام لا تنفقد إلا بأمر النبي وقد اشتهرت المراني بذلك

ويقرب من هذا ما ذكره صاحب ابتهاج القلوب في مناقب الشيخ المجذوب أن الشيخ الصالح أبا عبد الله الملقب بكار ابن الشيخ أبي زكرياء يحيى بن علاء المالكي البوخيصي رأى النبي يوم فشكا إليه أولاد مطاع لما راهم عليه من الفساد في الأرض فقال له النبي يأتيتهم أحمد فكان كذلك أتاهم عقب ذلك السلطان أبو العباس المنصور فأخذهم وقل جمعهم اه وأخبار المنصور من هذا النمط كثيرة وكان رحمه الله طويل القامة ممتلئ الخدين واسع المنكبين تعلوه صفرة رقيقة أسود الشعر أدعج أكحل ضيق البلج براق الثنايا حسن الشكل جميل الوجه طريف المنزح لطيف السمائل وكانت بيعة بعد الفراغ من قتال النصرى بوادي المخازن يوم الاثنين منسوخ جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة واجتمع عليها من حضر هناك من أهل الحل والعقد ثم لما قفل المنصور من غزوته تلك ودخل حضرة فاس يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة جددت له البيعة بها ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادي المخازن ثم بعث إلى مراکش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فأذن لكل للطاعة وساروا إلى الدخول فيما دخلت فيه الجماعة قال الفشتالي لما كانت وقعة وادي المخازن ونصر الله دينه وكبت الكفر وأهله واستوسق الأمر للمنصور كتب إلى صاحب القسطنطينية العظمى وهو يومئذ السلطان مراد بن سليم العثماني وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من إظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستتصال شافتهم فوردت عليه الأرسال من سائر الأقطار مهنيين له بما فتح الله على يده وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر ثم تلتها أرسال طاغية البرتغال وهو الريكي القائم بأمرهم بعد هلاك سبستيان وليس خاله وإنما خاله طاغية الإصبيبول فيليب الثاني الذي جمع المملكتين معا بعد هلاك الريكي المذكور وبعد وقعة وادي المخازن بثلاث سنين قدموا بهدية عظيمة وضعوها يوم دخولهم إلى فاس على الكراريص والعجل فعجب الناس منها

عجبا بليغا وكان ذلك اليوم يوما مشهودا وكان من جملة ما فيها ثلاثمائة ألف دكات من ربال الفضة وأما الطرف النفيسة والأثاث الرفيع فشيء لا يحصى ثم وردت أرسال طاغية الإصبيبول صاحبة قشتالة بهدية عظيمة منها اليواقيت الكبار التي انتزعتها الطاغية من تاج أبائه وصنيديق مملوء من الدر الفاخر وقضب الزمرد وغير ذلك وتكلم الناس فيما بين الهديتين أعني هدية البرتغالي وهدية الإصبيبولي أيهما أعظم ولم يهتد أهل العقل والمعرفة إلى مقدار التفاوت بينهما ثم قدمت أرسال السلطان مراد العثماني ومعهم هدية وهي سيف محلي لم ير مثله مضاء وصفاء متن ثم قدمت أرسال طاغية أفرانسة ومعهم هدية عظيمة ولم تزل الوفود متردفة بباب المنصور والأرسال تصبح وتسمي على أعتاب تلك القصور إلى أن لم يبق أحد ممن تنتشف النفوس إليه وحينئذ اطمانت بالمنصور الدار وطاب المقام وتم القرار وفي جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وتسعمائة مرض المنصور مرضا مخوفا وطال به حتى كادت الأمور تختل ثم تداركه الله على يد الحكيم الماهر أبي عبد الله محمد الطبيب ولما أبل من مرضه أحسن إلى الطبيب المذكور ونثر عليه خروجه من الخلع ما لا يحصى وكان يوم خروجه يوما مشهودا وفي ذلك يقول الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن علي الهوزلي المعروف بالنابغة تردى أدى من سقمك البر والبحر وضجت لشكوى جسمك الشمس والبرد وبات الهدى خوفا عليك مسهدا وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر فلما أعاد الله صحتك التي أفاق بها من غمه البود والحضر تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها وعاد إلى إبانة ذلك البشر وصار بك الإسلام في كل بلدة يهني ويدعي أن يطول لك العمر وصحت لنا الأمل بعد اعتلالها وعادت إلى الإيناع أعضانها الخضر ولا غرو إن صامت على سبط الندى إذا اغبر وجه الأرض واحتبس القطر لبيت أبي العباس أنضت عجافها قديما فخافت أن يعاودها الضر لئن صدنت بيض المعالي لقد غدت تسيء الكماة البيض واللدن السم

بقيت لهذا الدين تحمي دماره ويحميك رب العرش ما بقي الدهر عقد المنصور ولاية العهد لابنه محمد الشيخ المدعو المأمون قال الفشتالي لما أبل المنصور من مرضه المذكور وعاد إلى حاله من الصحة أجمع رأي أعيان الدولة واتفقت كلمة كبرائها على أن يطلبوا منه تعيين من يلي الأمر بعده ويكون ولي عهده وكان المنصور مهيبا لا يقدر أحد على مواجهته بمثل هذا فاتفقوا على أن يكون البائد لذلك القائد المؤمن بن الغازي العمري لما له من الإدلال على المنصور بطول الخدمة وسالف التربية فقال له القائد المذكور يا مولانا الله تعالى حفظ الإسلام بإبلاك من هذا المرض وعصم الدين بإبقائه عليك وقد بقي الناس في أيام سقمك في حيرة عظيمة ودخلهم من الدهش ما لا يخفى عليك فلو عينت لنا من أبنائك القسورة من تجتمع كلمة الإسلام عليه ويشار بالخلافة إليه لكان أولى وأليق بسياسة الملك وإن ابنك الأبرأ أبا عبد الله محمد المأمون حقيق بذلك وجدير بسلك تلك المسالك لما فيه من خلال الخير وخصال السيادة زيادة على ما هو عليه من التيقظ في أموره والحزم في شؤونه وقد ظهرت للناس محاسن سيرته واطلعوا على جميل سيرته فاستحسن المنصور ذلك وأعجبه ما أشار عليه به فقال له سوف أستخير الله في ذلك فإن يكن من عند الله يمضه قلت هذا الذي حكاه الفشتالي على لسان القائد مؤمن في حق المأمون المذكور هو بخلاف الواقع كما ستقف عليه من أحوال المأمون بعد هذا إن شاء الله ولكن المؤرخين والشعراء يمدحون ويقبحون بحسب أغراضهم لا بحسب الواقع غالبا لا سيما إذا كان من يعنونه بذلك مخدوما لهم ومنعما عليهم فلا ينبغي لمن وقف على كلام هؤلاء الصنف منهم أن يعتمد عليه إلا بعد التثبت والتبصر والله تعالى الهادي إلى الصواب بمنه ثم لبث المنصور بعد هذه الإشارة أيام يستخير ربه في ذلك ويستشير من يعلم أهليته للمشورة من أهل العلم والصلاح فلما انقضت أيام الاستخارة وتواطأت الآراء على حسن تلك الإشارة جمع المنصور أعيان حضرة مراکش وأعيان مدينة فاس

وغيرهم من أشياخ القبائل بوجوه الناس من أهل الحواضر والبوادي وأوصى بالعهد لولده المذكور أبي عبد الله محمد المأمون وذلك يوم الاثنين منسوخ شعبان سنة سبع وثمانين وتسعمائة وكان المأمون إذ ذاك خليفة أبيه على فاس فلم يحضر هذه البيعة فبعث إليه المنصور بعد ذلك ليقدم من فاس ويبايع بحضرته ولم يقعه ما كان عقد له من البيعة وهو غائب ولما بعث إليه خرج المنصور بعسكره إلى تانسيفت خارج مراکش ثاني عشر صفر سنة تسع وثمانين وتسعمائة ولم يزل بعسكره هناك متلوما ومنتظرا لقتوم المأمون إلى أن قدم غرة جمادى الثانية من السنة المذكورة فكانت ملاقاتهما من عجائب الزمان ولما اصطف جيش المنصور وجيش المأمون ترجل المأمون عن فرسه وتقدم حافي القدم فعفر وجهه بين يدي والده ثم قبل رجله والمنصور على فرسه واقفا بين الصفيين فدعا له بخير وأظهر الفرح بمقدمه وكان المأمون قد عبا جيشه تعبية لم ير مثلهما وربتهم ترتيبا حسنا في لباسهم وسائر أمورهم فسر المنصور بذلك وبعد أيام من بلوغه أمر به فأجلس في سراطقه الأعظم الذي لم يكن للملوك قبله مثله كما سيأتي وأمر أهل الحل والعقد فادعوا على تقبيل يده واقتضيت منهم الأيمان بحضرته وقام الشعراء فأقصحوا عن وصف الحال وغمر المنصور الناس بالنوال وكان ذلك اليوم يوما مشهودا وبعد أيام منه أمر المنصور المأمون أن يرجع إلى حضرة فاس فرجع ودخل المنصور حضرته وتم

غرضه الذي قصده ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ والسبب في ذلك قال الفشتالي لما وقعت البيعة للمأمون وتكامل أمرها ثار الرئيس الأجل أبو سليمان داود بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وهو ابن أخي المنصور وفر إلى جبل سكيوية وشق العصا ودعا إلى نفسه فانتالت عليه أوثاب من البربر وغيرهم ونجم أمره وأثرت في إذن الرعية جعجعت فبعث إليه المنصور قائده الزعيم أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن بجة فناوشه

القتال بجبل سكيوية فهزمه وفر إلى جبل هوزالة فتحزبوا عليه وقويت بهم شوكته وأخذ يشن لهم الغارات على أهل درعة إلى أن ضاقوا به ذرعا فشكوا أمره إلى المنصور فبعث إليه قائده الذي ذكر فلم يزل في مقاتلته ومقاتلته إلى أن شرده عن جبل هوزالة ففر داود منه إلى الصحراء واستقر به الرحيل بها عند عرب الودايا من بني معقل فلم يزل عندهم إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وكفى المنصور أمره حدوث النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثماني وتلافي المنصور لذلك قد علمت ما كان من التجاء عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور إلى السلطان سليمان العثماني وتطارحهما عليه حتى أمدهما بالجيش الذي كان سببا في تملكهما المغرب ولما صفا الأمر لعبد الملك أهمل جانب العثماني ولم يكتبه بشيء ولا عرج عن ساحته ثم لما ملك المنصور وكتب إلى النواحي بخبر وقعة وادي المخازن كتب إلى السلطان مراد في جملتهم فبعث السلطان المذكور إلى المنصور بالهدية التي تقدم ذكرها وكان المنصور استقبلها وأنف منها فتشاغل عن الوفد وتركهم مهملين بحضرته وتأخر عن جواب السلطان مراد فكان ذلك سببا للنفرة وكان وزير البحر للعثماني واسمه الرئيس علي علوج يبغض المنصور فلم يزل يسعى به عند سطاته ويذكره ما كان من أبيه الشيخ من القحح في ولاية الترك والطعن عليهم وقال له في ذلك قد ضاع صنيعك في هذا الغادر والصنيع والدك من قبلك ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب ويهون عليه أمر المغرب حتى أنن له في توجيه العمارة إليه ومنازلته والأخذ بأفأقه إلى أن يستأصل أمر المنصور ويخمد جمرته ويقال إن السلطان مرادا أمر وزيره المذكور أن يذهب بالعمارة إلى الجزائر فتكون هناك ثم يتقدم بالعساكر في البر إلى المغرب فأخذ الوزير في التأهب لذلك واتصل الخبر بالمنصور على يد بعض قناصل

النجليز فارتحل إلى فاس من حينه وشحن الثغور وملا المراسي وكان على أهبة وكمال استعداد وبعث أرساله إلى السلطان المذكور بهدية عظيمة تلافيا لما فرط واعتادرا عما سلف وكان من جملة أرساله القائد الأنجد أبو العباس أحمد بن ودة العمراني والكاظم الشهير أبو العباس أحمد بن يحيى الهوزالي فركبوا البحر من مرسى تطاوين قاصدين القسطنطينية العظمى وبينهما في أثناء الطريق على تيج البحر لقيهم الوزير علوج في أسطوله قاصدا ديار المغرب عازما على منازل المنصور به فلما رآهم سقط في يده وأيقن بخيبة مسعاه فرام صدهما عما قصدا إليه وأياسهما من تدارك الأمر وقال لهما إن الخرق قد اتسع على الراقع ولو كان لصاحبكم غرض في المسألة ما بقي أصحابنا بأبوابه كالكلاب والبادي أظلم فلم يزل الوزير علوج بالقائد ابن ودة إلى أن صرفه عن رأيه وردده معه وترك الهوزالي يبلغ الرسالة والهدية ظنا منه أن صغير السن لا يحسن مخاطبة الملوك العظام وابن ودة الذي كان عنده مظنة لكمال التدبير وثافته الملوك رده معه فلما انتهى الهوزالي إلى السلطان مراد ودخل عليه أظهر من نبهه ولطف مخاطبته ما حلب به قلب السلطان المذكور واستل السخيمة من صدره واعتذر له عن تأخر المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهن على مخدومه ولا يفيد غلبة خصمه فقبل السلطان مراد الاعتذار وتقبل الهدية بقبول حسن وكتب مع الهوزالي إلى الوزير علوج بالرجوع عن منازل المنصور فرجع بها الهوزالي بطير سرورا ولم يغيب عن علوج إلا نحو الشهر حتى قدم عليه بأمر الملك فقرع لها علوج سن الندم وأسف على تفریطه في الهوزالي وتركه وبعث السلطان مراد رسله مع الهوزالي إلى المنصور يلومه على التراخي في أمور الملوك فلما قدموا عليه أكرم وفادتهم وأحسن نزلهم وردهم مكرمين إلى مرسلهم وبعث معهم الفقيه الإمام قاضي الجماعة بحضرة مراکش أبا القاسم ابن علي الشاطبي والقائد الأنجد أبا زيد عبد الرحمن بن منصور الشيطمي المردي فلما وردوا على خاقان الترك فرح بهم كل الفرح ورتب الشاطبي كلاما بليغا أعرب فيه عن فضل الدولتين وقرر فيه حق أهل البيت وأطرى

المنصور وحض فيه على اتحاد كلمة الإسلام وقرأ ذلك على السلطان مراد فاهتز لسماعه ثم بعد أيام أحسن إليهم وأجزل صلتهم وردهم مكرمين إلى مرسلهم وقال صاحب خلاصة الأثر كان المنصور موادعا لسلاطين آل عثمان فيرسل إليهم بالهدايا في كل سنة وكانوا هم يرسلون إليه بالمكاتيب والخلع السنوية حتى إن السلطان مراد بن سليم كتب إليه أثناء مكاتيبه ملك علي العهد أن لا أمد يدي إليك إلا للمصافحة وإن خاطري لا ينوي لك إلا الخير والسماحة وكانت رسله دائما تأتي إلى القسطنطينية من جانب البحر ويمكنون زمانا طويلا ويتعهدون الوزراء ومن له قرب من الدولة من جملتهم الرئيس الأديب محمد الأمين القفري فقد ذكر صاحب خلاصة الأثر أن هذا الرئيس كان يجمع نفائس الكتب وبيعت بها إلى المنصور فيسبب ذلك كانت المراسلات بينهما غير منقطعة وقد ذكر صاحب خلاصة الأثر في ترجمة الرئيس المذكور بعض تلك المراسلات فانظره ولما تكامل هذا الغرض وصح جسم الدولة من المرض ورجعت الأرسال في أحسن الأحوال عاد المنصور إلى مراکش وفي يوم خروجه من فاس خرج أعيان أهلها ومشيخة العلم بها وقرئ البخاري بين يديه سردا على عادة الخلفاء في ذلك وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وتسعمائة إيقاع المنصور يعرب الخلط والسبب في ذلك قد قدمنا في أخبار الدولة المرينية ما كان لهؤلاء الخلط من الاعتزاز والدالة عليها بسبب ما كان لهم من الشوكة والمصاهرة مع ملوكها ولما أدبرت دولة بني مرين واستولى على ملكهم أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي انحاشوا إليه وأظهروا الخدمة والنصيحة فلما جاء أبو حسون الوطاسي بجيش الترك حسيما شرحنه قبل أوقعا الهزيمة على المهدي لأبي

حسون كما مر فلما غلب المهدي على المغرب وصفا له أمره خلعه من الجندية ووظف عليهم الخراج ومحا اسمهم من ديوان الخدمة ونقل أعيانهم إلى مراکش واتخذهم رهاثن عنده ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المنصور فرأى جلادهم يوم وادي المخازن وحسن بلائهم فاختر النصف منهم ورده إلى الجندية وأبقى نصفهم الآخر في غمار الرعية ونقلهم إلى أزغار فاستوطنوه حينما من الدهر ثم عاثوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد ومدوا أيديهم إلى أولاد مطاع فنهبهم وضايقوا بني حسن فكثرت الشكاية بهم إلى المنصور فضرب عليهم سبعين ألفا غرامة فلم يزدادوا إلا عتوا وشدة فأرسل إليهم ليعتوا طائفة منهم إلى تيكورارين فامتنعوا من ذلك فحينئذ بعث إليهم القائد موسى بن أبي جمدي العمري فانترع منهم الخيل وأبقاهم رجالة ثم حكم السيف في رقابهم واستأصل جمهورهم فمن ثم خضدت شوكتهم ولانت للغامز قناتهم استيلاء المنصور على بلاد الصحراء تيكورارين وتوات وغيرهما لما استقر المنصور بمراكش مرجعه من فاس وأمن من هجوم الترك على المغرب طمحت نفسه إلى التغلب على بلاد تيكورارين وتوات من أرض الصحراء وما انضاف إلى ذلك من القرى والمدن إذ كان أهل تلك البلاد قد انكفت عنهم أيدي الملوك ولم تنسهم الدول منذ أزمان ولا قادم سلطان قاهر إلى ما يراد منهم فسبح للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردهم إلى أمر الله فبعث إليهم القائد أبا عبد الله محمد بن بركة والقائد أبا العباس أحمد ابن الحداد العمري المعقلي في جيش كثيف فقطعوا إليهم القفر من مراکش وانتهوا إليهم على سبعين مرحلة منها فتقدموا إليهم أولا بالدعاء للطاعة والأعداء والأندار فامتنعوا فنانزلوهم وقاتلوهم وطالت الحرب بينهم ياما ثم كان الظهور لجيش المنصور فأوقعوا بهم وأتخنوا فيهم إلى أن أذعنوا للطاعة وصاروا في حزب الجماعة وأنهى خير الفتح إلى المنصور

فسر بذلك سرورا عظيما وقال الشعراء في ذلك وعم الفرح بلاد المغرب وكان ذلك سنة تسعين وتسعمائة وبعد هذا تشوفت نفس المنصور إلى الاستيلاء على بلاد السودان فكان من أمرها ما نذكره إن شاء الله اعلم أن هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين ويجاور البربر بأرض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة وهم المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل السوداني فيه وتتصل بهم من جهة الشرق أمم أخرى تعرف بصوصو بصادين أو سينييين مهملتين مضمومتين ثم بعدها أمم أخرى يقال لها مالي ثم بعدها أمم أخرى تسمى كوكو ويقال كاجو ثم بعدها أمم أخرى تعرف بتكرور ويقال لهم أيضا سغاي ثم بعدها أمم أخرى تدعى كاتم وهم أهل مملكة برنو المجاورة لإفريقية من جهة قبلتها ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر وهكذا إلى آخر الشرق أمم لا يحصيهم إلا خالفهم فأما أهل مملكة غانة فقد كانوا في صدر الإسلام من أعظم أمم السودان أسلموا قديما وكان لهم ملك ضخم وكانت حاضرة ملكهم هي غانة

وهي مدينتان على ضفتي النيل السوداني من أعظم مدن العالم وأكثرها عمراناً ذكرها صاحب نزهة المشتاق وصاحب المسالك والممالك وغيرهما وقال الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي في شرح المقامات الحبرية ما نصه غانة بلد من بلاد السودان وإليها ينتهي التجار يعني من المغرب والمخمل إليها من سجلماسة ومن سجلماسة إليها مسيرة ثلاثة أشهر ومن غانة إلى سجلماسة إياباً مسيرة شهر ونصف ودون ذلك وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز إليها من سجلماسة بالأمتعة والأثقال فتباع في غانة بالتبر فمن سافر إليها بثلاثين حملاً يرجع منها بثلاثة أحمال أو بحملين واحد لركوبه وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها

حدثني غير واحد من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوماً لا يرون فيها ماء إلا على ظهور الإبل فأثمان أحمال الثلاثين حملاً يجتمع فيها من التبر ما يجعل في مزود واحد فيطوون المراحل للخفة قال وغانة بلد مملكة السودان وانتشر الإسلام في أهلها وبها مدارس للعلم وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة فيصبيون الخصب والأمن وكثرة المتاجر فيشترون بها خدماً للتسري ويقومون بها عند أميرها في غاية الكرامة والإمام فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن فوق المراد من ملامسة الأبدان وتفق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف وبياض الأسنان وطيب الروائح اه وقال ابن خلدون كان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح وقال صاحب نزهة المشتاق أنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد اه ثم أن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم في المائة الخامسة واستفحل أمر الملائمين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلي البربر وزحف إليهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه حسبما مر ذلك في أخبارهم فلما رجع الأمير أبو بكر إلى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر واقتضى منهم الأتوات وحمل الكثير منهم ممن لم يكن أسلم قبل ذلك على الإسلام فدا نوابه ثم اضمحل ملك أهل غانة بالكليّة وتغلب عليهم أهل مملكة صوصو المجاورون لهم واستعبدوهم وصيروهم في جملتهم ثم إن أهل مالي كثروا أم السودان في نواحيهم تلك واستطالوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو وملكوها ما كان بأبيدهم وبأيدي أهل غانة ثم افتتحوا بلاد كوكو وأضافوها إلى ملكهم وصارت دولة مالي متصلة فيما بين غانة في الغرب وأرض التكرور في الشرق واعتز سلطنتهم وهابتهم أمم السودان ومن

هذه الدولة كان السلطان منسا موسى بن أبي بكر وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين السلطان أبي الحسن المريني من المهاداة والمواصلة ما تقدم ذكره وكان مع السلطان منسا موسى المذكور الأديب الشاعر أبو إسحاق الطوبجني الأندلسي الذي بنى له القبة المربعة العجيبة الصنعة البديعة النقش والتخريم التي أجازها عليها باثني عشر ألف مثقال من التبر وغير ذلك مما مر ذكره في أخبار الدولة المرينية وكان منها أيضاً السلطان ماري زاطة الذي هادى السلطان أبا سالم المريني وأغرب عليه بالزرافة حسبما تقدم قالوا وكان هذا السلطان مسرفاً مبذراً بحيث أفسد ملكهم وأتلف خيرتهم وكاد أمر سلطنتهم يختل حتى لقد انتهى الحال به في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان من ذخائر الموروثة عندهم وهو حجر يزن عشرين قنطاراً من الذهب العين منقولاً من المعدن كذلك من غير علاج ولا تصفية بالنار فكانوا يرونه من أنفس الذخائر وأكبر الغرائب لنور مثله في المعدن فعرضه منسا زاطة على تجار مصر المترددين إلى بلده فاشتروه منه بأبخس ثمن ثم أصابته علة النوم وهو مرض يطرق أهل ذلك الإقليم كثيراً وخصوصاً الرؤساء منهم بحيث يعتاده غشي النوم عامة زمانه حتى لا يكاد يفيق ولا يستيقظ إلا في القليل من الأوقات ويضر بصاحبه غاية ويتصل سقمه إلى أن يهلك ودامت هذه العلة بهذا السلطان سنتين ثم هلك منها سنة خمس وسبعين وسبعماناً ثم توارث بنوه الملك من بعده فكانوا في تراجع وانتقاص إلى أن انقرض أمرهم من الدول وظهرت دولة آل سكية من أهل مملكة كوكو ويقال كاغو قال الإمام التكروري في كتابه نصيحة أهل السودان إن آل سكية أصلهم من صنهجة وملكو كثيراً من بلاد السودان وأول ملوكهم الحاج محمد سكية بضم السين وسكون الكاف بعدها باء مفتوحة ثم هاء تأنيت وكان الحاج محمد المذكور رحل في أواخر المائة التاسعة إلى مصر والحجاز

بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه فلقى بمصر الخليفة العباسي إذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائماً بها يومئذ حتى محاه السلطان سليم العثماني أيام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور طلب منه أن يأنس له في إمارة بلاد السودان وأن يكون خليفته هناك ففوض إليه الخليفة العباسي النظر في أمر ذلك الإقليم وجعله نائبه على من وراءه من المسلمين فرجع الحاج محمد سكية إلى بلاده وقد بنى أمر سياسته على قواعد الشريعة وجرى على منهاج أهل السنة ولقي بمصر أيضاً الإمام شيخ الإسلام حافظ الأديب جلال الدين السيوطي فأخذ عنه عقائده وتعلم منه الحلال والحرام وسمع عليه جملاً من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه فرجع إلى السودان ونصر السنة وأحيا طريق العدل وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مفعده وملبسه وسائر أموره ومال إلى السيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الأحوال وبرئ جسد الرشاد من الداء العضال وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب رفيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لأئمة الدين محباً للعلماء مكرماً لهم يفسح لهم في المجلس ويوسع عليهم في العطاء ولم يكن في أيامه كلها بؤس ولا بأس بل كانت رعيته في خفض عيش وأمن سرب وفرض عليهم شيئاً خفيفاً من المعارم وظفه عليهم وزعم أنه ما فعل ذلك حتى استشار الإمام السيوطي شبحه ولم يزل على سيرته المذكورة إلى أن اخترمته المنية فقام بالأمر بعده ولده داود بن محمد فأحسن ما شاء وتبع طريقة أبيه إلى أن لحق بربه ومضى لسبيله فقام بالأمر بعده ولده إسحاق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه ولم يكن في أمره بالذم واستمر حاله على الانتظام إلى أن غزته جيوش المنصور فنقضت ملكه ونثرت سلكه وانقرض عليه أمر آل سكية بعد أن كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان وسنذكر كيفية ذلك وأما مملكة التكرور وكانم فقال ابن خلكان ما نصه كانم بكسر النون جنس من السودان وهم بنو عم تكرور وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب إلى أب ولا أم وإنما كانم اسم بلدة بنواحي غانة فسمي هذا الجنس

باسم هذه البلدة وتكرور اسم للأرض التي هم فيها وسمي جنسهم باسم أرضهم اه قلت وكان من كانم الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر وهو الذي دخل على يعقوب المنصور الموحد فأنشده أزال حجاب عني وعيني تراه من المهابة في حجاب وقربني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي وأهل كانم هم أهل مملكة برنو المجاورة لإفريقية من جهة قبلتها كما قلنا وكانت لهم مع الدولة الحفصية في المائة السابعة وما بعدها مهاداة ومواصلة كما كان لأهل مالي مع بني مرين قلت ومن أهل برنو الشيخ العارف بالله تعالى أبو محمد عبد الله البرنوي شيخ الولي العارف بالله تعالى أبي فارس عبد العزيز الدباغ الموضوع في مناقبه كتاب الذهب الإبريز واتصل أمر أهل برنو على الانتظام إلى أن كان من أمرهم مع المنصور ما ذكره وكل هؤلاء الأمم كانوا على دين الإسلام قديماً كما رأيت وكان فيهم العلماء والصلحاء والأدباء والشعراء كما علمته أنفاً وتعلمه فيما بعد إن شاء الله تعالى قال الشيخ أبو العباس أحمد بابا السوداني في تقييده المسمى بمعراج الصعود أن أهل السودان أسلموا طوعاً بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كندا وكنتي وبرنو وسغاي ما سمعنا قط أن أحداً استولى عليهم قبل إسلامهم ومنهم من هم قداماء الإسلام كأهل مالي أسلموا في القرن الخامس أو قبله وكأهل برنو وسغاي اه وقد علمت أن أهل غانة تقدم إسلامهم على هذا التاريخ والله تعالى أعلم ولنرجع إلى ما كنا بصده من أخبار المنصور فنقول

وصول هدية صاحب برنو إلى المنصور بحضرة فاس وما نشأ عن ذلك من بيعته له والتزام طاعته كان المنصور رحمه الله مسعوداً محظوظاً كما أشرنا إليه سابقاً وكان من سعادته ما هيا الله له من مهاداة صاحب مملكة برنو ومخاطبته له حتى كان ذلك سبباً في مبايعته له والدخول في طاعته وكان من خبر ذلك ما حكاه في مناهل الصفا قال وفي سنة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدم رسول صاحب مملكة برنو من ملوك السودان وجلب في هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والإمام وكساء السودان وطرفه وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئتين فوافي المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس وكان يوم ملاقاته يوماً مشهوداً حسناً وأبهة وجلالة جلس نصره الله

تعالى بالفتنين التوأمين المضروبين أمام السياج المحيط بقيابه وهو أفراك واستوقف الموالي والمماليك سماطين من التوأمين إلى القبة العربية ثم منها إلى فسطاط الجلوس المعلوم بالديوان ثم منه إلى باب المعسكر القبلي وأتى بالرسول يخترق السماطين حتى نزل بالديوان وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوسا وكروسي المملكة وسرير الخلافة منصوبا به والمهابة قد أخرجت الألسن وأخشعت القلوب والأبصار فجلس الرسول هنالك مليا ثم توجه به على سبيل الترقى إلى القبة العربية فجلس بها ثم جاء الإذن الكريم بليصاله إلى مقر أمير المؤمنين بالتوأمتين فوقف بين يديه وتشرف بالنظر إلى طلعه السعيدة فأدى الرسالة وقضى فرض التهنة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله واعتزف للمملكة العظيمة بحقها وأظهر من الخضوع والتملق والاستكانة والخدمة والطواعية ما أوصاه به مرسله ثم توجه به إلى معسكر ولي العهد وتاج الإسلام وكافل الأمة بعد والده المولى الأمير أبي عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء فأشرف الرسول على دنيا أخرى وأبهة مدهشة ومحلة هائلة فوقف موقف الحيرة واستدرج إلى أن وصل لقباب ولي العهد ومضاربه وكان قد قعد له

بفسطاط جلوسه أفخم قعود ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه هنا وحيا وفدى وانصرف عنه إلى محل نزوله بالقصبة من فاس وأدر عليه من الإنعام والإكرام ما لم يكن له في حساب وكان من أغراض الرسالة التي أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والأجناد وعدة البنادق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار وكان هذا الرسول قد وفد قبل على سلطان الترك بالإصطنبول السلطان مراد العثماني يطلب منه المدد لجهاز كفار السودان فأخفق سعيه ولم يحصل على طائل فوجهه في هذه النوبة إلى ملك المغرب يطلب منه المدد ولما قرئ كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتباين واضح فكان الذي دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول جر إليهم ذلك توغلهم في الجهل والغباوة وعدم من يحسن الإعراب عن مقاصدهم من فرسان الإنشاء والكتابة لطموح معالم العلوم عندهم على الجملة وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطري توات وتيكورارين وأمل أن يجعلهما ركبا لبلاد السودان والاستيلاء على ممالكها التي وجه إليها عساكره بعد ذلك فبلغت مملكة مالي عظيم السودان إلى أن وردت من نبلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو ورجع الرسول إلى مرسله بعد مكافأته وتوجيه هدية من عتاق الخيل وأشرفها بكسي من ملابس الخلافة وأسباب أخر ولما بلغ الرسول وألقى المعذرة إلى سلطانه استأنف الهدية وأعرب إذ ذاك عن مراده ورد الرسول ثانية إلى باب أمير المؤمنين فوفاه بحضورته ودار خلافته من مراكش فأزال اللبس وبين الغرض وصرح بالمقصود فلما تحقق المنصور بقصد صدق له بالحق والدعاء إلى التي هي أقوم وطالهم بالبيعة له والدخول في دعوته النبوية التي أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد في أقطار البلاد الانقياد إليها وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق أن الجهاد الذي ينتحلونه ويظهرون الميل إليه والرغبة فيه لا يتم لهم

فرضه ولا يكتب لهم علمه ما لم يستندوا في أمرهم إلى إذن من إمام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه إذ هو الكافل لهذه الأمة ووارث تراث النبوة وقيضه الله لحماية بيضة الإسلام وخصه بالشرف القرشي الذي هو شرط في الخلافة بإجماع من علماء الإسلام وأئمة السنة الأعلام والزمهم القيام في أقطارهم بدعوته ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته وعلق لهم أيده الله الإمداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط فالتزمه بالرسول وزعم أيضا عن سلطانه بالقبول والإجابة وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة إذ ليس ببلدهم من يحسن الإنشاء ويوفي الغرض لتلا يخلو بشيء من الشروط التي شارطتهم عليها أمير المؤمنين فأنشأها كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ونصها الحمد الله الذي أعلى لكلمة الحق منارا يسامي في مطالعها النجوم وأزاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة الملهمة وسحاب الغواية المروك وحى على الفلاح بها داعي التوفيق الذي نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة أجلها المعلوم وشرف هذا الموجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والإمامة الحسنية العلوية التي صرفت الوجوه إلى قبلتها المشروعة واستبان الحق بتبليغ الصباح في مبايعتها والانقياد لدعوته المسموعة ونسخ بدولتها الغراء دول الحيف التي هي بسيف النبوة المصلت مقطوعه ولسان السنة مدفوعه وقوض بها مباني الادعاء التي هي على غير أساس الشرع الصحيح مدفوعه وفرق بكلمتها المجموعة على التوحيد فرق التثليث التي هي على مشاققة الله ورسوله تابعة ومتبوعة وخلع بظهورها على أعطاف الحنيفة السمحة رداء العز الفضفاض واستل بتأييدها للدين المحمدي سيف الأئمة والامتراض وأشار للأعادي من بأسها المروع بلسان الحية النضاض وفجر للمؤمنين ينبوع رحمتهما الجاري على حصا عدلها الرضراض ومهد بسببها المنتصاة الأفاق والأقطار تمهيدا أزال عن حكمه الاعتراض وجلا بأنوارها المتألقة سدف الجهالة التي ادلهم جوها وغيم وأسعد الوجود بيمينها الذي لبث في أكتاف مجدها وخيم وقضى لهاب بتراحم الأرض ومن عليها إن شاء الله إلى عيسى ابن مريم و

الذي تعاضدت البراهين الفاطمية على صدق رسالته البارعة ونهج الدين القويم طريقة الحق المثلى ومادته الشارعة وسوغ لمن آمن به مناهل الهدى النيرة الزلال وموارده العذبة ومشارعه نبي الرحمة وشفيح الأمة وعلى آله وأصحابه الكرام أئمة الهدى ومصايح الظلام والدعاء لمولانا الإمام العلوي الهمام أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين نجل سيد المرسلين وخاتم النبيين وسليل الوصي والسبطين وبعد فانه لما أذن الله في ليل الجهالة أن ينجاب وفي شمس الحق الوهاجة أن يرتفع عنها الحجاب وفي العز الخلق الجلاب أن يعود إلى الشباب وفي النجاح والاستقامة أن يفتح لهما الباب وفي الإمارة أن تستند إلى السنة والكتاب وتتعلق من الشرع بأسباب تدارك الله سبحانه الوجود وأعز العالم الموجود واستطارت الأنوار المضينة للأغوار والنجوم بطلوع شمس الخلافة النبوية والإمامة الهاشمية العلوية ففاضت على أديم البسيطة أنوارها وارتفع إلى حيث السها والفرقدين منارها وتبليج بالأصباح نهارها ولاحت في سماء المجد بدورها وأقمارها وكادت تنهب نجوم السماء أتباعها وأنصارها وانتشرت في الأفاق والأقطار على البعد والقرب آثارها وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها وأخبارها وفاض ببركتها على أكتاف المعمور يمها الزاخر وتبارها خلافة ينتمي إلى النبوة عنصرها وتستنبط من رسالة الوحي أسطرها ويناط بعروتها الوقتى خنصرها وإمامة علي وليها والله نصيرها والسبب بدرها الذي حياه منبرها وسريرها والحمد لله الذي اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء والشجرة الطيبة الهاشمية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء إماما ألقى الله له في القلوب حبا جميلا ومولى جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلا وخليفة استرعاه فكان بحسن الرعي لخلقه وعباده كفيلا وانتضى من بلسه وبسالته لحماية حمى الشريعة حساما صقيلا مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله في الأرضين وسليل خاتم النبيين ووارث الأنبياء والمرسلين المفترضة طاعته على الخلق أجمعين والممنون بإمامته المقدسة على العالمين بحر الندى واللباس وعصمة الله للناس أمير المؤمنين المنصور بالله مولانا أبا العباس صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين والأئمة

الطيبين الطاهرين وطيب بأنفاس المغفرة لحودهم أجمعين إمام تهتز لذكرك أعطاف المنابر وتنتقل من شريف دعوته أبهى من نفيس الجواهر وتستضيء البلاد بكليل شرفه الزاهر وتسكن العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر أبقى الله أيامه الغر بقاء يصحب النصر دوامه وخذ له ولأعقابه هذا الأمر الكريم إلى يوم القيامة ولما طلعت أيده الله على هذه الأصقاع الزنجية طلائع إمامته النبوية وخلافته ولاحت في سمانها شهب مناقبه المنيفة الدالة على فخامة شرفه وأناقته وتليت لمجده الآيات اللبينات التي تشبه له بتراث الرسالة وتقضي له على الإسلام وعلى الأنام بحكم الولاء والكفالة وأوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والافتداء بإمامته والانقياد لدعوته وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ووردت به سنة نبيه الكريم كما قال لا تزال الخلافة في قریش ما بقي منهم اثنان وكما ورد في صحيح الخبر إن الخلافة في قریش والقضاء في الأنصار وفي الحبشة الأذان ويدل على هذا تعاضد الخبر والعيان فلا ناكر أن ليس في المعمور على هذا الشرط غيره أيده الله من ثان فهض دليل الشرع أنه إمام الجماعة حقا المستوفي شروطها والوارث للخلافة النبوية والحريص على بيضة الإسلام أن يحوطها وأن القائم بهذا الأمر على الإطلاق غيره دعي ومحاولة دون إبنه المشروع بدعي فتعين لذلك أن الرجوع إلى الحق فريضة واستبان بما تقرر وعلم أن إمارة لا تلاقي في الشروع محلها المشروع منبوذة مرفوضة وعروتها لذلك مفصومة ومفوضة فانتدب لهذه الآثار صحيح الأخبار وصرف إلى رضى الله العناية ووقف من

الشرايع المشروعة حيث مركز الراهبة ومنتهى الغية الرئيس أبو العلاء إدريس أكرمه الله انتداب من وفتت به مطية التوفيق على حضرة الإخلاص والتصديق وأخذت بزمامه السعادة إلى حيث الفوز برضا الله ورضا رسوله حقيق والتأييد صاحب ورفيق وروض الآمال أنيق وراح الراحة والاطمئنان عتيق إلى تقلد إمام بيعة الجماعة أمير المؤمنين المنصور بالله زاده الله تقديسا وتشريفا التي تؤسس إن شاء الله على تقوى من الله ورضوان وتشهد عقدها الكريم ملائكة الرحمن وأثر أسعده الله أن يؤدي

فرضها المعدود من فروض الأعيان وحكمها الذي توجه به خطاب الشرع العام إلى القاصي والدان وينشر سنتها المشروعة في صفعه وما يليه من الأصقاع والبقاع بالسودان تقلدا يستضيء إن شاء الله بأنواره ويستشرف به للعز المكين على مناره ويخمد به للجهل جذوة ناره وتنتظم به في اتباع الحق زمر أنصاره ويجتلي به صورة إنسانه ويستوجب من الله عوارف صنعه وإحسانه ويرهف به للعفو على العزمات حد سيفه وسنانه ويقرع به لرضا الله باب القبول ويتضاعف له ببركته العمل المقبول ويستشوق بمشهد عقده الكريم نواسم النبوة ويعود له به الزمان للشباب والفتوة ويرفع به منار الإمارة على قواعد الشرع الوثيقة ويعدل به في كل الأحوال عن المجاز إلى الحقيقة وتتسنى له به وهي المقصد الأسنى والخاتمة الحسنى الأسوة الحسنة بإمامي بني العباس السفاح والمنصور ويحيى سنتهما التي نقلها ثقافات الأعلام والصدور في مبايعتهما الإمام الخليفة المهدي الأكبر سليل سيد المرسلين وجد مولانا أمير المؤمنين الذي رأى إمام دار الهجرة أنه بتراث الخلافة النبوية أولى وأحق وفي منصب الإمامة على شرطها أعرق وبسريرها ومنبرها أليق فتأكد للمنتدب أكرمه الله بهذه الآثار الشريفة والمناقب المنيفة العزم والقصد وأنجز له فيما أرادته صادق الودع وساعد نيته الصالحة فيه السعد فيبايعه أعلى الله يده على الأمن والأمانة والعفاف والديانة والعدل الذي يشيد للمجد أركانه مبايعة شايعة على عقدها الكريم أكرمه الله أتباعه وجموعه وأشياعه بحكم الوفاق والاتفاق والمواثيق الشديدة الوثائق وجميع الإيمان الصادقة الإيمان أعطوا بها صفقة أيديهم ورفق بها العقيرة مناديبهم عارفين أن يد الله فيها فوق أيديهم وأمضوها على السمع والطاعة والانتظام في سلك الجماعة إضاء بينون به في السر والجهر واليسر والعسر والرخاء والشدة والأزمان المشددة والتزما شروطها طوعا واستوعبها جنسا ونوعا بنيات منهم خالصة صادقة وعدة من الله لهم بالخير سابقة وسعادة بالحسنى لاحقة أبرموا عقدها وأحكموا وعدا وعهدا على حكم الكتاب والسنة والجماعة والأخذ بسنتها أعقابا من أعقاب وأحقابا أثر أحقاب إلى يوم القيامة

واقتراب الساعلة لا يلحق عقدها الكريم فسخ ولا يعقبه بحول الله نسخ ولا يطرُق إليه نقض ولا نكث ولا يشوبه بشوائب الشبهات بحث وأجمع على هذا أسعده الله بالمواثيق المستفضية والإيمان اللازمة المغلظة هو وأتباعه إجماعا شرعيا وحتموه على أنفسهم حتما مقضيا واعتقده اعتقادا أبديا وعرضوا على التزامه بمشهد عقده المبارك أفرادا وأزواجا وحدانا وأفواجا وأشهدوا على الوفاء به بأيمانهم الصادقة البرور ومواثيقهم المتلجة للصدور قائلين بالله الذي لا إله إلا هو الملك القنوس العليم بالخفيات والخبير بالأجال والوفيات وجميع الرسل الكرام والأنبياء وملائكة الرحمن في الأرض والسماء وعلى أنهم إن حادوا عن هذا السبيل وانقادوا لدعاء داعي التغيير والتبديل أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته فهم براء من حول الله وقوته ومن دينه وعصمته ومستوجبون لعذابه وغضبه وسخطه ونقمته وبعدها من رحمته ومن شفاعته نبيه الكريم يوم القيامة لأتمته وأنهم خالعون لريفة الإسلام وخارجون عن سنة الرسول أعلنوا بهذا إعلانا تعضده النجوى وأدوه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى وأحكامه اللازمة لكلمة التقوى استرضاء لله وللخليفة النبوية والإمامة العلوية ورياضة للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة النقية واستيفاء لشروطها وأقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبة مستسلمين إلى الله بالقلوب الخاشعة ومتضرعين إلى بابه الكريم بالأدعية النافعة في أن يعرفهم خير هذا العقد الكريم والعهد الصميم بدأ وختاما وأن يمنحهم بركته التي تصحبهم حالا ودواما لا رب غيره ولا خير إلا خيره أشهد على نفسه بما فيه وعلى رعيته الرئيس أبو العلاء إدريس أسعده الله وأكرمه ويتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائة من الهجرة النبوية انتهى ولما كتبت هذه البيعة دفعت للرسول وأكرم وكافاه أمير المؤمنين على هدية سلطانه وتوجه إلى بلاده بجواب مرسله ولم يلبث أن رجعه سلطانه ثالثة ووجه معه هدية ورسالة وخاض الفقر إلى دار الخلافة فوصل إلى بلاد تيكرارين وهناك اعترضته منيته فاعتل وهلك فأشخص أولو الأمر

الذين بتيكرارين الهدية مع رفاقته القادمين معه من عند سلطانه فوصلوا بها إلى حضرة أمير المؤمنين بمرآش وقدموا إليه رسالتهم وهديتهم فقبلها بقبول حسن وتم السرور وعظم الحبور واستقامت للمنصور الأمور بعث المنصور ورسوله بالدعوة إلى آل سكية وكيفية ذلك لما أدى الوفد الواردون على المنصور من السلطان أبي العلاء صاحب مملكة برنو ما قدموا لأجله ردهم المنصور إلى صاحبهم مكرمين وانتخب رسولا عارفا مجربا ممن لهم بصيرة بأحوال السودان فيبعث معهم عينا يأتيه بأخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها وبعث معه رسالة إلى السلطان إسحاق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو من أرض السودان يأمره فيها أن يرتب على معدن الملح الذي يتغازي بين المغرب والسودان ومنه يحمل الملح إلى أقطار السودان وظيفا بأن يجعل كل من يحمل منه شيئا من الواردين عليه متقلا من الذهب العين لكل حمل تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار لأن ذلك بحر لا ساحل له وكان المنصور لم يكاتبه في ذلك حتى أستفتى علماء إيالته وأشياخ الفتيا بها فأفتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من أن النظر في المعادن مطلقا إنما هو للإمام لا لغيره وأنه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا عن إذن السلطان أو نائبه وبعث إليه المنصور بتلك الفتوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول وكانت من إنشاء العلامة الأديب مفتي الحضرة المراكشية المولى أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي لأن كاتب الإنشاء أبا فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي كان مريضا يومئذ ولما فرغ الشريف المذكور من إنشائها بقي عليه الصدر فلم يدر كيف يقول في مخاطبة إسحاق سكية ولا كيف يمدحه وهل يتوغل في المدح أو يتوسط فكتب أبو مالك حين تحير في ذلك إلى المنصور بما نصه أيديكم الله ونصر

أعلامكم إن مخاطبة هذا الرجل الذي هو في مرتبة ممالك الحضرة المولوية أمر تلثم فيه لساني ووقف عن خوض لجتة بناني لأن النأي عن هذه المحجة قد مد بيني وبينها حجابا وأغلق في وجهي بابا فلا أمن من أن أقحم الوقوع في تفريط أو إفراط وخير الأمور لو علمته الأوساط لكن لا سبيل إلى معرفته إلا بعد علم الطرفين والعبد محجوب عن ذلك دون مين فتركت أيديكم الله الصدر لمن هو به مني أقعد وتحاميت عقده لمن هو له أعقد أبي فارس عبد العزيز الذي فاضت عليه أنواركم وأضاعت له سبل هذا المخبر أقماركم وإلا قرعت هواتف لسان الحال سمعي بقول القائل يا باري القوس بريا ليس يحسنه لا تظلم القوس أعط القوس باريها ولما بلغت رسالة المنصور إلى السلطان إسحاق سكية واطلع عليها شق عليه ذلك وماطل في الجواب وحيث أبطأ الرسول فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم إجابته لما طلب من الوظيفة على الملاحاة فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر إلى السودان فهذا هو الحامل له على قصد تلك البلاد وتدويخها ولما فتح تيكرارين وتوات قوي عزمه على ذلك وطمحت نفسه للاستيلاء على ما هنالك على ما تذكره إن شاء الله مفاوضات المنصور الملاء من أصحابه في غزو آل سكية وما دار بينهم في ذلك قال الفشتالي رحمه الله لما رجعت أرسل المنصور إليه من عند إسحاق سكية وأعلموه بمقالته وامتاعه واحتجاجه بأنه أمير ناحية والمنصور أمير ناحية وأنه لا تجب طاعته عليه شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته والتقى أهل الرأي والمشورة فاجتمعوا وكان يوم اجتماعهم يوما مشهودا فقال لهم المنصور إني عزمتم على منازلة أمير السودان صاحب كاغو

وبعث الجيوش إليهم لتجتمع كلمة المسلمين وتتحذ الرعية ولأن بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش الإسلام ويشد ساعد كتيبته مع أن صاحب أمرهم والمتولي لسلطنتهم اليوم معزول عن الإمارة شرعا إذ ليس بقرشي ولا اجتمعت شروط السلطنة فيه العظمى فلم نزل المنصور ما في كنانته وأبدى ما في خبيثته وعرض ما في عينه سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء فقال لهم أسكنتم استصوابا لرأيي أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لي فأجاب كلهم بلسان واحد ورأي متفق إن ذلك رأي عن الصواب منحرف وأنه بمهامه عن الآراء السويدية ولا يخطر ببال السوقة فكيف بالملوك وذلك لأن بيننا وبين السودان مهامه فيحيا تقصر فيها الخطا وتحار فيها لقطا وليس فيها ماء ولا كلاً فلا يتأتى السفر فيها ولا اعتساف شيء من طريقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعرا وأيضا فإن دولة المرابطين على ضخامتها ودولة الموحيدين على عظمها ودولة

المرينيين على قوتها لم تطمح همة واحد منهم لشيء من ذلك ولا تعرضوا لما هنالك وما ذلك إلا لما رأوا من صعوبة مسالكها وتعذر مداركها وحسبنا أن نفتقنا أثر تلك الدول فإن المتأخر لا يكون أعقل من الأول فلما قضى أولئك الأرقام كلامهم وأبدوا له رأيهم وملامهم قال لهم المنصور إن كان هذا غاية ما استضعفتم به أمري وفيلتم به رأيي فليس فيه حجة ولا ما يخذش فيما عندي أما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجديتها وعطشها فحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك الطرق في كل وقت ويخوضون في أحشائها مشاة وركبانا وجماعة ووجدنا ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها وأنا أقوى أهية منهم وللجيش همة ليست للقوافل وأما قولكم إن من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقابلة الإفرنج ومن بذلك الساحل من الأروام والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية والمرينيين كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان ونحن اليوم قد انسد عنا باب الأندلس باستيلاء العدو الكافر عليها

جملة وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ثم إن أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لأن جيوشهم كانت فرسانا راحة ورماة ناشية ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق وأهل السودان ليس عندهم الآن إلا الرماح والسيوف وهي لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة فمقاتلتهم سهلة وحربهم أيسر من كل شيء وأيضا فإن بلاد السودان أنفع من إفريقية فلاشتغال بها أولى من منازلة الترك لأنه تعب كثير في نفع قليل فهذا جواب ما عرض لكم ولا يحملنكم ترك الملوك الأول ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل فإنه كم ترك الأول للأخر وقد يفتح على المتأخر بما لم يفتح به على المتقدم فلما فرغ المنصور من خطابه وأبدى ما في وطابه استحسن الحاضرون جوابه واستملحوا إشارته واستجادوا رأيه وقالوا له قد طبقت المفضل والأهت الصواب ولم تبق لأحد ما يقول وصدق من قال عقول الملوك العقول فانفصل الجمع على البعث إلى السودان ومناهضة أهله ومتابعة المنصور في رأيه عليه قلت وفي كلام المنصور أمران يحتاجان إلى مزيد بيان الأول ما قاله من أن الملثمين لم تكن لهم سلطنة على السودان يعني بهم الذين أقاموا بأرض المغرب وديروا أمره مثل يوسف بن تاشفين وبنيه فلا يرد عليه أن الأمير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر لأن ذلك كان يعد رجوعه إلى الصحراء واستقراره بها وإعراضه عن ملك المغرب بالكلية كما مر الثاني ما قاله من أن البارود لم يكن في تلك الدول الفارطة يعني به لم يكن موجودا فيها بكثرة بحيث يستغني به الجيش عن غيره ساعة القتال فلا يرد عليه أن ظهوره كان في أوائل المائة السابعة لأول دولة بني مرين كما مر إذ ظهوره في تلك المدة كلا ظهور والله تعالى أعلم بحقائق الأمور

استجازة المنصور لعلماء مصر رضي الله عنهم وتلمذه لهم قالوا ومن اعتناء المنصور رحمه الله أنه بعث إلى علماء مصر يستجيزهم رغبة في اتصال جبل السند واقفاء لأحب ذلك الطريق الأسد وممن أجازه الإمام العارف بالله أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الحسن البكري رضي الله عنه ومن بعض فصول إجازته له قوله يمدح كتاب المنصور إليه ويثني عليه بالفصاحة والبلاغة ما نصه ولقد وصل إلى المثل العديم المثل المزري نظامه بعقود اللال فإذا به السحر إلا أنه الحلال ولو ادعى أحد أن من معجزات أحمد أن يمد الله كراما كاتبين في زمان نجله أمير المؤمنين أحمد بكتاب كريم على أسلوب قويم يرسله إلى محب قديم من النبعة والصميم لم تكذب دعواه فما من خارق في الأمة إلا وهو من معجزاته دال على علاه وأما ما شرفني به من طلب الإجازة فاليوم والحديث له ولكن رب أب أرسل إلى ابنه على يد عبده عطاء فقبله وإليه بأمره حملته وحيث وقع الأمر فأمر مولانا حتم وطاعته غم فمولانا مجاز من هذا العهد من جميع ما يجوز لهذا العبد بجميع ما يجوز له وعند روايته بشرطه المعبر عند أهل الأمر وكذلك مجاز أهل العصر إجازة عام يعام ليكون أبناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الإنعام فإنه هو السبب في تحصيل ذلك المرام وكتب تحريرا في رابع عشرين ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة محمد بن أبي الحسن الصديقي سبط آل الحسن اه وممن استجازه المنصور أيضا من علماء مصر الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن يحيى المصري الشهير ببدر الدين القرافي صاحب ذيل الديباج فأجازة عامة بسط فيها القول ثم ختمها بقوله أجزت لمن تقضل واستجازا وبادر لاقتنا خير وحازا وأبرز في سلوك العلم حالا به من فضل مولانا يجازي إمام كامل غوث البرايا أمير المؤمنين حوى مجازا

وذلك بعد تشريفي بأمر وقصد للإجازة فاستجازا فيادرت امتثالا قدر وسعي ومقتبها مناهج من أجازا وقد أبديت حقا لا محالا بما صار الإمام به مجازا بفتاحة وسنة خير هدى وسلسلة لمن حاز امتيازاً بدار الهجرة العليا إمام بما أبداه من فضل مجازا وأرجو منه يهدي لي دعاء لما أرجوه من خير مجازا بخاتمة تبليغي مراما بجنات أراها لي مفازا وأشياخي يبلغهم رضاء ويواصلهم إلى خير يجازا تجديد المنصور ولاية العهد لابنه المأمون وما وقع في ذلك قالوا وفي شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة جدد المنصور البيعة لولده محمد الشيخ الملقب بالمأمون وأخذها له على إخوته خصوصا لأنهم كانوا في البيعة الأولى قبل البلوغ فأراد أن يستوثق له منهم بعد البلوغ حسما لمادة النزاع بينهم فارتحل المنصور من مراكش إلى تامسنا وبعث الباشا عزوز بن سعيد الوزكيتي لياتيه بولي عهده المذكور من فاس فتوافى القصدان بتامسنا وباتسنا المنصور أخذ البيعة له بنفسه وحضر الأعيان وأهل الحل والعقد وأحضر المصحف الكريم الذي هو مصحف عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه وهو من ذخائر الخلفاء وأحضر الصحبان للشيخين وقرئ ظهير البيعة فتولى قراءته الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي وبجنيه القاضي أبو القاسم الشاطبي يفسر ما أشكل من لفظ الظهير ولما أخذ البيعة آخر أولاده إلى غد يومها فكتبوا خطوطهم عقبها بالموافقة على ذلك والالتزام له ووقع في رسالة السلطان زيدان لأبي زكرياء ابن عبد المنعم الإمام بذكر هذه البيعة فقال إني حضرت بيعة محمد الشيخ صاحب المغرب سامحه الله وحضر أولاد السلطان فاستحلفهم له إلا أنا فإنه رضي الله عنه قال فلان لا يحلف لا يحتاج إليه فيما نامره به ونفعله وعظم

ذلك على إخوتي وظهرت في وجوههم لأجله الكراهية اه ولما فرغ المنصور من تجديد البيعة رأى أن يرشح كلا من أولاده للإمارة ويقسم بينهم البلاد حتى لا تبقى في نفوسهم إحن ولا تتطوي قلوبهم على ضغائن فعقد لأبي فارس شقيق المأمون على السوس وسائر عمائر وعقد لأبي الحسن على مكناسة وما والاها وعقد لزيدان على تادلا ثم عكس ذلك لأمر اقتضاه الحال فنقل زيدان إلى مكناسة ونقل أبا الحسن إلى تادلا ولم يزالوا على ذلك إلى أن كان من أمرهم ما نذكره في محله إن شاء الله ثورة الحاج قرقوش ببلاد غمارة ومقتله قالوا وفي سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ثار رجل يقال له الحاج قرقوش ببلاد غمارة وبلاد الهبط وتسمى بأمر المؤمنين وكان في ابتداء أمره حائكا فتلبيس بالزهد والصلاح واعتقدته العامة ثم استحال أمره إلى ما ذكرنا فأخذ وقتل وحمل رأسه إلى مراكش وانقطعت مادة فساده فلم تبهك أرض ولا سماء بناء المسجد الجامع بباب دكالة من حضرة مراكش حرسها الله كانت الحرة مسعودة أم المنصور وهي بنت الشيخ الأجل أبي العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتي الورزراتي من الصالحات حريصة على اقتناء المفخر رغبة في فعل الخير قال في المنتقى وهي التي أنشأت المسجد الجامع بحومة باب دكالة داخل مدينة مراكش ووقفت عليه أوقافا عظيمة وكان ذلك سنة خمس وتسعين وتسعمائة قال وهي التي بنت جسر وادي أم الربيع وغير ذلك اه

قلت المرقوم على رخامة قبرها أنها بنت جسر بلطف التنبيه وترعم العامة أنها بنت المسجد المذكور كفارة لما انتهكت من حرمة رمضان وذلك أنها دخلت بستانا من بساتين قصورها وهي في حال الوح فرأت به خوفا ورمانا فتناولتهما وأكلت منهما في نهار رمضان ثم ندمت على ما صدر منها وفعلت أفعالا كثيرة من باب البر رجاء أن يتجاوز الله عنها ومنها الجامع المذكور ولا زال النساء والصبيان يسجعون بقضيتها إلى الآن فيقولون عودة أكلت رمضان بالخوخ والرمان في أسجاع غير هذه ولفظ عودة مخفف من مسعودة على طريقة البربر في مثل هذا والله تعالى أعلم بعث المنصور ببيلة الرخام إلى جامع القرويين من فاس حرسها الله قال ابن القاضي في المنتقى المقصور إن المنصور رحمه الله بعث الخصة العظيمة سنة ست وتسعين وتسعمائة إلى جامع القرويين من فاس مع كرسي من المرمر توضع عليه وزنها معا مائة قطار قال وهي الخصة التي تحت منار الجامع المذكور وقال ابن القاضي المذكور فيها نقش برقيتها إمام دار الهدى المنصور شيدني بحر المكارم من أبناء عدنان حزت المفخر بالمنصور أجمعها ومن علاه سنام المجد أرساني من جاء يشكو الظما يوما وقبلي أغناه ما قد همى من صوب أجداني لا تتكرن وجود

الدمع من فرح فالعين تدمع من أفرط سلوان واشرب هنيئا من السلسال لا حرج معين دمع جرى من فيض خلجاني فخر السلاطين من أبناء فاطمة أشاع صيتي إلى أطراف عمان وقد جرت مقلتي تحكي سحائبها كف الخليفة من أبناء زيدان لا زال للدين والدنيا يسوسهما ما هيجت عاشقا ورق بأفنان إنشائي في زمن التاريخ وافقه للدين والأجر بحر الجود سواني

وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين وتسعمائة في ذي الحجة منها سافر المنصور إلى فاس وبينما هو في الطريق وافته بشرى بالفتك بنصاري سنة وأن زعيم الفئة الجهادية وهو المقدم أبو العباس أحمد النقيس التتواني كمن لهم مع جماعة من الفرسان في موضع فخرج النصارى بأولادهم وحشمهم فحال النقيس بينهم وبين سبته وأوقع بهم وكاد يفتحها وسر المنصور بهذا الخبر وأنشده في ذلك الكاتب أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي بيتين زجر له منهما الفال باستيلائه عليها وهما هذه سبته تزف عروسا نحو ناديك في شباب قشيب وهي بشرى وأنت كفو اللواتي كافات بلعها بفتح قريب وفي سنة سبع وتسعين وتسعمائة في اليوم الثاني من ذي القعدة منها أخلى النصارى مدينة أصيلا حملهم الخوف من كتبية المسلمين المرابطة هنالك على الفرار بأنفسهم فتركوها يبابا وذهبوا وفي ذلك يقول أبو العباس ابن القاضي يا أيها المنصور أبشر بالعلل فانه أبلغ في العدا المأمولا أنضامك سيفا لحفت عداته وبكم غدا سيف الردى مفلولا وهزمتك الشرك المتين بعزمك من غير سيف لم يرى مسلولا وأذيتك كيد الخبيث بهمة وفتحتم دار العدا أصيلا أكرم به من مالك بل صالح أضحي لبارود العداة خليلا لا زال في أنف الهدى شما وفي عين العلاء يشاكل التكيلا وأشار بقوله لبارود العداة خليلا إلى ما صنعه النصارى دمرهم الله حين أرادوا الخروج من أصيلا فأنهم حفروا تحت قصبته وملؤوا الحفرة بالبارود وأوقدوا فتيتا تبلغه ناره عند دخول المسلمين فيهلكون ففر نصراني منهم وأخبر المسلمين بذلك ففجأهم الله تعالى من مكيدة الوبال وكفى الله المؤمنين القتال وقال في ذلك أيضا الكاتب البارع أبو فارس عبد العزيز الفشتالي شعرا ذكره صاحب نشر المثاني فانظره وكان في زمن المنصور رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة

والنجدة في قتال العدو ومنهم أولاد النقيس التتوانيون ومنهم أولاد أبي الليث من أهل بلاد الهبط قال في المرأة لما كان المقدم المجاهد الشهيد أبو عبد الله محمد بن الحسن أبو الليث من الشهامة والصرامة على ما كان عليه ومن شدة نكايته في العدو الكافر الطنجي وبعد أثره فيهم جرت أمور بينه وبين صاحب عمل القصر فسعى به إلى المنصور فأمر برحيله إلى فاس هو وعشيرته مغربين عن وطنهم كأنهم في سجن فأقاموا بفاس مدة لا أدري هل هي سنة أم أكثر إلا أنني كنت أراه عند الشيخ سنة ثمان وتسعين وتسعمائة وأنا إذ ذاك صغير ويعني بالشيخ والده أبا المحاسن رحمه الله قال فضافت عليهم أنفسهم من الاغتراب فقال يوما المقدم عمر لأخيه كبيره المقدم محمد لو زرنا الشيخ اليوم وتبركنا به لعل الله يفرج عنا فإن الناس كثيرا ما يقصدونه في المهمات فقال له لا أتحرك فقد غلب اليأس فسار المقدم عمر وحده فلما وصل إلى الشيخ قال له قنطمت قال نعم يا سيدي فقال له الشيخ غدا يخلي سبيلكم إن شاء الله فرجع إلى أخيه وأخبره فلما كان من الغد بعث إليهم القاضي أبو محمد عبد الواحد الحميدي فلما أتوه قال لهم أبشروا بالسراح والرجوع إلى الوطن إن شاء الله فإنه قد قرئ الآن بين يدي السلطان بعض الغزوات التي ذكرها ابن النحاس وغناء أبطال المسلمين فيها فقال السلطان أو غيره ترى هل بقي في هذا الزمان من يماثلهم فقالوا قد بقي من يفعل فعلهم وما هم أولاد أبي الليث المغربون هنا يفعلون مثل ذلك فقال السلطان سرحوهم إلى بلادهم ليحموا تغورهم ويجاهدوا في سبيل الله فرجعوا إلى بلادهم وفعلوا الأفاعيل في عدو الدين إلى أن استشهد المقدم محمد في ربيع الثاني سنة اثنتين وألف اه

غزو السودان وفتح مدينة كاغو ومقتل سلطانها إسحاق سكية رحمه الله قد تقدم لنا ما كان من مفاوضة المنصور لحاشيته في غزو السودان واستقرار رأيهم على ذلك فيقي المنصور يقدم رجلا ويؤخر أخرى إلى أن كانت سنة سبع وتسعين وتسعمائة فقوي عزمه واشتغل بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج إليه الجيش من آلة السفر ومهمات وأمر القواد أن يقوموا حصص القبائل وما يحتاجون إليه من إبل وخيل وبغال وإن من أتى بجمل ضعيف يعاقب واشتغل هو بتقويم آلة الحرب من المدافع والعجلات التي تحملها والبارود والرصاص والكرور وتقويم الخشب واللوح والحديد للغلائط والسفن والفلك والمجانيف والقلوع والبراميل والروايا لحمل الماء وألف التجارون ذلك في البر إلى أن تألف ثم خلعه وشده أحمالا واستمر الحال إلى أن استوفى المنصور أمر الغزو في ثلاث سنين ثم أمر بإخراج المضارب والمباني لوائي تانسيفت فخرجت الأحمال والأثقال من مراكز في اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة ونزلت العساكر وضربت أبنيتها خيلا ورجلا وجملتها عشرون ألفا ومعهم من المعلمين البحرية والطبيجة ألفان فالمجموع اثنان وعشرون ألفا وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جؤذر وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة فاختر منهم من يعلم نجاته ويعرف كفايته وتسعين وتسعمائة وكتب المنصور إلى قاضي تنبكتو الفقيه العلامة أبي حفص عمر ابن عظيم وهيئة لم ير مثلهما وذلك في محرم سنة تسع وتسعين وتسعمائة وكتب المنصور إلى قاضي تنبكتو الفقيه العلامة أبي حفص عمر ابن الشيخ محمود ابن عمراء قيت الصنهاجي يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة ولما نهضوا من تانسيفت جعلوا طريقهم على نثية الكلاوي ثم على درعة ودخلوا الفقر والفيافي فقطعوها في مائة مرحلة ولم يضع لهم عقاب يعير ولا نقص منهم أحد فنزلوا على مدينة تنبكتو ثغر السودان فأراحوا بها أياما

ثم صاروا قاصدين دار إسحاق سكية ولما سمع بقدمهم احتشد أمم السودان وقبائلها وقبائل المثلثين المهادين لهم وخرج من مدينة كاغو يجر الشوك والمدر يقال إنه جمع مائة ألف مقاتل وأربعة آلاف مقاتل وقال الفشتالي ولم يقع بالجيش التي جمع حتى أضاف إليها أشياء السحرة وأهل النفث في العقد وأرباب العزائم والسيمايين طنا منه أن ذلك يغنيه شيئا وهيئات ويرحم الله أبا تمام إذ قال فيما يقرب من هذا الحال السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونها جلاء الشك والريب والعلم في شهب الأرماع لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست ببيع إذا عدت ولا غرب ولما تقارب الجمعان عبا الباشا جؤذر عساكره وتقدم للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة وعقلوا أرجلهم مع الإبل وصدروا مع الضحى إلى العصر وكانت سلاحهم إنما هي الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماحهم مع البارود شيئا ولما كان آخر النهار هبت ريح النصر وانهمز السودان فولوا الأبدان وحق عليهم البوار وحكمت في رقباهم سيوف جؤذر وجنده حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون نحن إخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم وجند جؤذر يقتلون ويسلبون في كل وجه وفر إسحاق في شردمة من قومه ولم يدخل قلعة ملكه وتقدم جؤذر فدخلها واحتوى على ما فيها من الأموال والمتاع وكان ذلك منتصف جمادى الأولى من سنة تسع وتسعين وتسعمائة ويقال إن جؤذرا لم يدخل مدينة كاغو وإنما تحصن بها إسحاق فحاصره جؤذر فيها وكتب إلى المنصور بخبر الفتح وبعث إليه بهدية فيها عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتان من خيار الرقيق وغير ذلك وامتدت العساكر المنصورة في بلاد آل سكية تعيث وتفسد وتسبي وتغنم إلى أن راسل إسحاق الباشا جؤذرا في تقرير الصلح على مال معين يدفعه الآن وضريبة يؤديها كل سنة

فأجابته إلى ذلك على مشورة المنصور وإمضائه إياه ثم كتب إلى المنصور بذلك وكانت العساكر قد أصابته الحمى ووخامة تلك الأرض فاتفق رأي الأمراء على الرجوع والإقامة بتنبكتو إلى أن يأتي جواب المنصور فرجعوا وأخذ جؤذر في إنشاء الغلائط والسفن وتركيبها ولما أكملها دفعها في النيل ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد وقوم عسكرا خفيفا وبعث به مع مملوكة الآخر محمود باشا وهو أخو جؤذر وقلده أمر العساكر كلها وعزل جؤذرا عنها وأمر محمودا أن يبقيه معه وكتب إلى أمراء العسكر يعاتبهم ويوبخهم على ما فعلوه مع إسحاق من الصلح ويؤكد عليهم في الرجوع إلى بلاده واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل إلى العنوة الأخرى وخرج محمود باشا فيمن عين له من العسكر في زمان الحر في وقت لا يقدر على الحركة فيه إلا القطا الكدري وقطع الفقر في خمسين مرحلة أمر لم يسمع بمثله ونزل بالعساكر على ظاهر تنبكتو على رأس سنة الألف فأراح بها ثلاثا ثم شحن الغلائط والسفن والفلك بالرؤساء والملاحين ووجوه الجند فساروا في النيل وسار السواد الأعظم في البر إلى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك إسحاق سكية وكان إسحاق لما رجعت عنه العساكر إلى تنبكتو احتشد أمم السودان المجاورين له وتذامروا وأصفقوا معه

على الموت فلما بلغه رجوع العساكر إلى كاغو قصدهم في جموعه ولما التقى الجمعان لم يكن إلا مقدار فراق ناقة حتى انهزم السودان من سماع رعد المدافع والمهارييس وارتفاع القنابل في الجو وهدير الطبول وتبعته العساكر يقتلون ويأسرون إلى أن غشيم ظلم الليل ورجعوا بالغنائم والسبي فاستراحوا ثلاثا ثم أمر محمود أخاه جؤنرا أن يقيم بمدينة كاغو عامرا لها ويترك معه عددا من العسكر يكون رداء لهم وسار هو في اتباع إسحاق إلى أن لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شنعاء وفر في فل من قومه فعبير النيل إلى العودة الأخرى وتبعه محمود فعبير النيل بعساكره في السفن وسار خلفه إلى أن لحقه فأوقع به وقعة ثالثة احتوى فيها على ما معه من المال والحريم ودخل إسحاق القفر فهلك فيه ثم كانت لمحمود وقعة أخرى مع أخيه الذي كان ينازع في

الملك فإنه قام بعد مهلك أخيه وجمع الجموع وزحف إلى محمود باشا فنهض إليه محمود فهزمه وقتله فيمن معه من جنده وأتباعه وتمهدت له البلاد واستولى عليها استيلاء كليا وكتب بخبر الفتح إلى المنصور ولما بلغه هذا الفتح وصورته كان عنده ذلك اليوم عيدا من الأعياد أخرج فيه الصدقات وأعتق الرقاب وأقام مهرجانا عظيما بظاهر الحضرة خرج له عامة الناس للفرجة والنزهة وزينت الأسواق وأخرجت المدافع بالنفط وتسابت الخيول وأطعم المنصور الناس عدة أيام ونظم الشعراء قصائدهم ورفعوا أمداحهم وأجازهم بما تحدث الناس به دهرا وكتب بخبر الفتح وصورته نسخ وجهت إلى جميع الأفاق وكان مما قيل في ذلك من الشعر ما أنشده الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي فقال جيش الصباح على الدجا متدفق فيياض ذا السواد ذلك يمحق وكأنه رايات عسكرك التي طلعت على السودان بيضا تخفق لاحت وأفهم ليال كله كمحمود صبح في الدجا يتألق نشرت لتطوي منه ليلا دامسا أضحي بسيفك ذي الففار يمزق أربلتين جوانجا وجوارحا في كل مخابها غراب ينق وسرت فكان دليلين إليهم مشحود عزمك والسنان الأزرق لهي الليلي قد جلى أحلاكها نور النبوة من جبينك بشرق صعقت بهن رعود نارك رجعت لصيححتها العراة وخلق سحفا لإسحاق الشقي وحزبه فلقد غدا بالسيف وهو مطوق رام النجاة وكيف ذاك وجؤنر الغضنفر فليق جيش أواخره ببابك سيله عرم وأوله بكأغو محقق لم يشعروا إلا وأسوار الردى ضربت عليهم من فتاك وخذنك كتب الإله على عداك أنهم قنص لسهمك غربوا أو شرقوا ضلت ملوك ساجلوك على العلا سفها وشأوك في العلا لا يلحق أن يشبهوك ولا شبيه يرى لكم في الخلق أين من اللجين الزئبق بشر ملوك الأرض أنك فاتح بالمشرفي على الولا ما غلقوا

وبقاصل لك ذي الففار مفروق ما جموعه وجامع ما فرقوا دامت طيور السعد وهي غوارد بالمشتي لك والمسرة تنطق ما دام أصل علاك في صحف الثنا أصل الفخار وكل غيرك ملحق والمشتي والمسرة بستانان للمنصور وري بهما هذا الشاعر وسيأتي الكلام عليهما وكان محمود باشا لما استوسق له الأمر هناك بعث بنصف جيشه إلى المنصور مع هدية عظيم فيها من الذخائر ما لا يحصى من ذلك ألف ومائتان من متخير الرقيق الجوارى والغلمان وأربعون حملا من التبر وأربعة سروج ذهبا خالصا وأحمال كثيرة من البانور وقطوط الغالية وغير ذلك ولما أفت المنصور سر بذلك سرورا عظيما وأمر بعمل المفرحات في بلاد المغرب وبتزيين الأسواق غدوة وعشية ثلاثة أيام ووفدت عليه الوفود من كل ناحية مهنيين له بما منحه الله من الظفر والنصر وانتظمت الممالك السودانية في سلك طاعته ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب إلى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر قال الفشتالي فكلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة إلى البحر المحيط من ناحية المغرب وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله والله يؤتي ملكه من يشاء ولما فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حمل إليه من التبر ما يعبى الحاسيين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلا النضار الصافي والدينار الوافي وكان ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة لضرب الدينار الوافي دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأفرط والحلى وشبه ذلك ولأجل هذا لقب بالذهبي لفيضان الذهب في أيامه والأمور كلها بيد الله

وفاة أم المنصور الحرة مسعودة الوزكيتية رحمها الله كانت الحرة مسعودة هذه من الخيرات الصالحات وتقدم بعض مآثرها من بناء المسجد الجامع بباب دكالة وغيره وكانت وفاتها سحر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم فاتح سنة ألف ومن المستفيض أنها ربيت بعد موتها فسلت ما فعل الله بها فقالت غفر لي بسبب أنني كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت المؤذن شرع في الأذان فرددت على ثيابي إعظاما لذكر الله تعالى حتى فرغ المؤذن من أذانه فشكر الله لي ذلك فغفر لي وفي سنة إحدى وألف أتى بالقبيلة من بلاد السودان إلى المنصور وكان يوم دخولها لمراتش يوما مشهودا برز لرؤيتها كل من بالمدينة من رجال ونساء وشيوخ وصبيان ثم حملت إلى فاس في رمضان سنة سبع وألف قال في نشر المثاني كان دخول الفيل إلى فاس يوم الاثنين سادس عشر رمضان سنة سبع وألف وبعث المنصور مع الفيل إلى ولده المأمون بهدية سنوية فيها تحف وأموال عريضة وخرج أهل فاس في ذلك اليوم للقاء الفيل بنحو مائة ألف نفس قال بعضهم وبسبب دخول هذه القبيلة إلى المغرب ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة بتابغ لأن أهل السودان الذين قدموا بالقبيلة يسوسونها قدموا بها معهم يشرّبونها ويزعمون أن فيها منافع فشاغت منهم في بلاد درعة ومراتش وغيرهما من بقاع المغرب وتعارضت فيها فتاوى العلماء رضوان الله عليهم فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل ومتوقف والعلم فيها عند الله سبحانه قال اليفرنى قلت من تأمل أدنى تأمل في قواعد الشريعة وأدائها علم يقينا أن تناول هذه العشبة حرام لأنها من الخبائث التي حرمها الله تعالى على هذه الأمة المطهرة وبذلك وصفها في الكتب السالفة إذ قال تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث

وبسط هذا المقام إن تعلم أن الله تعالى اختار هذه الأمة من بين سائر الأمم قال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس واختار لها من الطاعات وأنواع العبادات ما هو أفضلها قال تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا وأفضل تلك العبادات كلها الصلاة التي هي من الدين بمنزلة الرأس من سائر الجسد ثم إذا أمعنت النظر رأيت الشارع قد بالغ في الاحتياط لهذه العبادة الشريفة والاستعداد لها باستعمال كل طيب أمكن واجتناب كل خبيث أمكن فشرع أولا الطهارة الكبرى الشاملة لسائر البدن وحظر من مقاربة الصلاة وما هو في معناها حال الخلو عنها ثم شرع ثانيا الطهارة الصغرى المتعلقة بأطراف البدن زيادة في الاعتناء بها لأنها تبرز في غالب الأحوال فيعلق بها من الأقدار ما لا يعلق غيرها وألزم المكلف استعمال هذه الطهارة عند عروض كل حدث مستفقر حتى الريح والسبب الداعي إلى خروجه ثم ندبه إلى استعمالها عند القيام إلى كل صلاة من الصلوات الخمس ثم إننا إذا تأملنا أفعال هذه الطهارة وجدناها تشتمل على مبالغات كثيرة تستدعي غاية النظافة وتنفي كل قذر وإن قل فشرع الغسل في أعضاء الوضوء مكررا وشرع مسح شعر الرأس بالماء دفعا لما يعلق به من الغبار وشرع تتبع مسام الوجه بالغسل والتنظيم كالمضمضة والاستنشاق ثلاثا تطيبا للنكهة وشرع مسح الأذنين من ظاهرهما وباطنهما حتى الصماخين إزالة لما بداخلهما من تلك الفضلة مع أن الحي ودمعه وعرقه ولعابه ومخاطه كلها طاهرة أو ليس في هذا دليل واضح على أن الحكمة في هذا كله إنما هو المبالغة في النظافة وتطبيب الرائحة والنكهة إذ بذلك يستحق العبد أن يتلبس بالعبادة ويدخل حضرة الرب وشرط للدخول فيها طهارة البدن والثوب والمكان من سائر المستقدرات حتى يكون على أكمل الحالات بعيدا عن القذر بكل وجه ثم لم يكف الشارع بهذا حتى شرع السواك عند القيام إلى كل صلاة وقال لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة كل ذلك المقصود منه طيب النكهة فانظر وتأمل اعتناء الشارع بتطبيب رائحة فم المؤمن ونكهته حتى في حق الصائم الذي خلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك هذا كله في حال الصلاة وأما خارجها فقد علم من الشرع علما ضروريا أن العبد مطلوب بالمحافظة على هذه الحال والبقاء عليها سائر أوقاته متى قدر على ذلك وتيسر له ومن هذا المعنى ما حرم الله تعالى على هذه الأمة من تناول المستقدرات كالميتة والدم وسائر النجاسات إذ علة حرمة الأشياء وتناولها إما كونها مستقذرة كالنجاسات إجماعا وكالحشرات وما تعافه النفوس على مذهب الشافعي رضي الله عنه أو مضرة كالمس والطين ونحوهما مما يضر بالبدن أو ببعض الأعضاء منه أو محترمة إما لذاتها كالأدمي أو لكونها ملكا للغير وهو ظاهر فالشارع له غرض أكيد في اجتلاب الطيبات واجتناب ما يصادها من المستحبات وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعملون في حوائطهم فإذا حضرت الجمعة أتوا إلى المسجد وأبدانهم سهكة فأمرهم النبي بالاعتسال عند كل جمعة ثم منع كل من تلبس برائحة كريهة كالنوم والبصل والكراث من حضورها وحبب إلى النبي من دنيان النساء والطيب

ونذب أمته إلى استعماله في المشاهد العامة مثل الجمع والأعياد ونحوها وخصال الفطرة إنما شرعت لهذا المعنى ففيها كفاية لمن تأملها قوال إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه فدعا للسرف والخيلاء ولئلا يعلق به شيء من النجاسات والأقذار إلى غير هذا مما لو استقصي لطلال ودل دلالة قطعية على أن المطلوب من العبد أن يكون نظيفا طيب الرائحة حسن الزينة طاهر البدن والثوب مجانباً لكل خبيث مستنقذ وهذه حالة أهل الجنة والعكس بالعكس وأنت لا تجد أخبث ولا أفقر من رائحة أفواه شربة الدخان ولا أثنى ولا أعفن من نكهات المستقين لغبار تابغ وهذا النتن من أقيح العيوب في نظر الشرع حتى أنه جعل الخيار لأحد الزوجين إذا كان صاحبه أبخر فإذا لا نشك أن استعمال هذه العشبنة الخبيثة في الفم أو الأنف من أعظم المحظورات لأنها تصدم غرضاً كبيراً من أعراض الشارع وتضاده وتنفيه

وأقول لو كان تنتها يعلق بعضو من الأعضاء غير الوجه لكان هين لكنه يعلق بالفم والأنف اللذين وضعهما الحكيم العلي في وسط الوجه الذي هو أشرف الأعضاء فأى مضمضة وأي استنشاق وأي سواك يزيل ذلك النتن الذي يرسخ في أنفاس أهلها وأفواههم وخياشيمهم رسوخاً لا يماثله شيء ولقد أفصح العامة عن شدة نتن هذه العشبنة وصادفوا الصواب حيث قالوا إن فضلة الدخان المسماة بالقيبر تنجس النجاسة هذا إلى ما يتبع ذلك من المفاسد المتعددة من تغيير عقل متعاطيها حتى أنه إذا انقطعت عنه صار كالمجنون لا يبالي بما يصدر منه ومن دخول الشك في صيامه لأن بقايا ذلك الدخان أو ذلك الغبار قد يمتكث في حلقه إلى طلوع الفجر وما بعده لأن جلهم إذا قرب الفجر والوا استعماله حتى يكون هو خاتمة سحورهم وبالجملة فلا يستعمل ذلك إلا من لا خلق له ولا يكثر بمرءه ولا دين وهو قاذح في الشهادة والإمامة والله تعالى الموفق بمنه نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل أقيت والسبب في ذلك كان بنو أقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو وممن لهم الجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الياشا محمود على حالهم إلى أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وأنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل أقيت فتخوف المنصور منهم وربما وشى إليهم بهم فكتب إلى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم إلى مراكز قبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد ابن

عمر بن محمد أقيت المدعو بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التأليف وكان فيها أيضا الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر ابن محمد أقيت وغيرهما وحملوا مصفدين في الحديد إلى مراكز ومعهم حريمهم وانتهبت ذخائرهم وكتبهم قال في بذل المناصحة سمعت الشيخ أبا العباس أحمد بابا يقول أنا أقل عشيرتي كتبنا وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد وكان القبض عليهم في أواخر المحرم سنة اثنتين وألف ووصلوا إلى مراكز في أول رمضان من السنة المذكورة واستقروا مع عيالهم في حكم التقاف إلى أن انصرم أمد المحنة فسرحوا يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان سنة أربع وألف ففرحت قلوب المؤمنين بذلك ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور بعد تسريحه من السجن وجده يكلم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم كلة مسدولة على طريقة خلفاء بني العباس ومن يشبه بهم فقال الشيخ إن الله تعالى يقول وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب وأنت قد تشبهت برب الأرباب فإن كانت لك حاجة في الكلام فانزل إلينا وارفع عنا الحجاب فزل المنصور ورفعت الأستار فقال له الشيخ أي حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كني وتصفيدي من تنبكتو إلى هنا حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقى فقال له المنصور أردنا أن تجتمع الكلمة وأنتم في بلادكم من أعيانها فإن أذعنتم أذعن غيركم فقال الشيخ أبو العباس فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان فإنهم أقرب إليك منا فقال المنصور قال النبي اتركوا الترك ما ترككم فامتثلنا الحديث فقال أبو العباس ذلك زمان وبعده قال ابن عباس لا تتركوا الترك وإن ترككم فسكت المنصور وانفض المجلس ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهرع الناس إليه للأخذ عنه ولم يزل بمراكش إلى أن مات المنصور لأنه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراكش ولما توفي أذن ابنه زيدان لآل أقيت في الرجوع إلى بلادهم بعد أن مات جماعة منهم بمراكش وقد كان الشيخ أبو العباس يتشوق إلى

روية بلدته ويسكب العبرات عند ذكرها ولم يياس من روح الله في العود إليها وله في ذلك شعر على طريقة الفقهاء ولما خرج من مراكش قاصداً بلده شيعه أعيان طلبتها فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافرين فيرجع سالماً فانتزع الشيخ أبو العباس يده بسرعة وقال لا ردي الله إلى هذا المعاد ولا رجعتي إلى هذه البلاد ثم لحق بتنبكتو فاستقر بها إلى أن مات سنة ست وثلاثين وألف رحمه الله تنمة قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الإسلام من لدن قديم وأنهم من أحسن الأمم إسلاماً وأقومهم ديناً وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة وهذا الأمر شائع في جل ممالكهم المالية للمغرب كما علمت وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق أهل السودان مطلقاً و جلب القطن الكثرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية يمسرون بها كما تسمسرون النواب بل أفحش قد تمالأ الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعاً هو اسوداد اللون وكونه مجلوباً من تلك الناحية وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها في الدين إذ أهل السودان قوم مسلمون فلهما ما لنا وعليهم ما علينا ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الإسلام فالغالب عليهم اليوم وقيل اليوم بكثير إنما هو الإسلام والحكم للغالب ولو فرضنا أن لا غالب وإنما الكفر والإسلام هنالك متساويان فمن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار لا المسلمين والأصل في نوع الإنسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ومدعي خلاف الحرية مدع خلاف الأصل ولا ثقة بخبر الجالبيين لهم والبايعين لهم لما تقرروا وعلم في الباعة مطلقاً من الكذب عند بيع سلعهم وإطرائها بما ليس فيها وفي باعة

الرفيق خصوصاً مما هو أكثر من كيف ونحن نرى أن الذين يجلبونهم أو يتجرون فيهم إنما هم من لا خلق لهم ولا مروءة ولا دين والزمان كما علمت وأهله كما ترى ولا يعتمد أيضاً على قول ذلك العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الأغراض والأحوال في ذلك فإن البائع لهم قد يضربهم حتى لا يقرروا إلا بما لا يقدح في صحة بيعهم وقد يكون للعبد أو الأمة غرض في الخروج من ملك من هو بيده بأي وجه كان فيهبون عليه أن يقر على نفسه بالرؤية كي ينفذ بيعه عاجلاً إلى غير ذلك من الأغراض وقد استفاد عن أهل العدل وغيرهم أن أهل السودان اليوم وقبل اليوم يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويسرقونهم من الأماكن النائية عن مدارهم وعمرانهم وإن فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب في إغارة بعضهم على بعض واختطاف دوابهم ومواشيهم أو سرقتها والكل مسلمون وإنما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل وكيف يجوز له التسري بآبائهم وفي ذلك ما فيه من الإقدام على فرج مشكوك وقد قال الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتاب الحلال والحرام من إحياء علوم الدين ما نصه اعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تنتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسال وتقول هذا مما لا أتحقق حله فلا أخذه بل أفتش عنه وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل ما لا تتيقن تحريمه بالسؤال واجب مرة وحرام مرة ومنسوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله والقول الشافي فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة ثم أطال رضي الله عنه في تقرير ذلك وصرح بأن البائع إذا كان متهما على تزويج سلعته لا يعتمد على قوله فإذا كان هذا في الأموال فكيف باسترقاق الرقاب وملك الألبان الذين للشارع بهما مزيد اعتناء كما هو معلوم من الشرع وأصوله وقد ذكر الشيخ أبو العباس أحمد بابا في تقييده الموضوع في هذه

المسألة المسمى بمعراج الصعود تفصيلاً ختم به كلامه وذكر قبائل من كفار السودان مثل موسى وبعض فلان وغيرهم وقال إن كل من كان من هؤلاء القبائل فيجوز استرقاقه وكذلك ذكر ولي الدين ابن خلدون إن وراء النيل قوماً من السودان يقال لهم لمل قال وهم كفار ويكتون في وجوههم وأصداعهم قال وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وهم عامة رقيقهم وليس وراءهم

في الجنوب عمران يعتبر إلى آخر كلامه لكن هذا التفصيل الذي ذكره الشيخ أبو العباس إنما ينفع أهل تلك البلاد المجاورين لهم والمطلعين على المطلوب منهم ومن غيرهم فأما أهل المغرب الذين هم من وراء وراء وبينهم وبين أرض السودان مهامهم فيح وبقار لا يعمرها إلا الريح فمن الذي يحقق لهم ذلك وقد قلنا إنه لا يجوز الاعتماد على قول الجالبيين لهم وأيضا فمن لنا بأن أولئك القبائل لا زالوا على كفرهم إلى الآن على أن الناس اليوم لا يلتفتون إلى ذلك أصلا ومهما رأى أحدهم العبد أو الأمة بيسمر في السوق إلا ويقم على شرائه غافلا عن هذا كله لا يسأل إلا عن عيوب يذنه لا فرق في ذلك بين أسود أو أبيض وغيرهما بل صار الفسقة اليوم وأهل الجراءة على الله يختطفون أولاد الأحرار من قبائل المغرب وقراه وأمصاره ويبيعونهم في الأسواق جهارا من غير تكبير ولا امتعاض للدين وصار النصارى واليهود يشترونهم ويسترقونهم بمرأى منا ومسمع وذلك عقوبة من الله لنا لو اعتبرنا فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما دهبنا به في ديننا فالحاصل أنه لما كان الأصل في الناس هو الحرية كما قلنا وعلم تواترا أن أهل بلاد السودان الموالية لنا جلمهم أو كلهم مسلمون واستفاض عن أهل العدل وغيرهم أنهم يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويبيعونهم ظلما وعدوانا ورأينا بالمشاهدة أن الجالبيين لهم والمتجرين فيهم إنما هم من لا خلاق لهم ولا دين لهم لم يبق لنا توقف في أن الإقدام على شراء هذا الصنف محظور في الشرع والمقدم عليه مخاطر في دينه وأما

وضع يد الجالبيين لهم عليهم فلا تكفي شرعا في جواز الإقدام على شرائهم منهم لضعف هذه العلامة بما أحترف بها من القرائن المكذبة لها وليستفتت المرء قلبه فقد قال استفتت قلبك وإن أفنوك فإنه متى رجع إلى قلبه في هذه المعضلة إلا ولا يقدر أن يحوم حول هذا الحمى بحال ثم تنزل عن هذا كله ونقول لو لم يكن في ذلك إلا الشبهة القوية وفساد الزمان ورقة ديانة أهله لكان في هذه الأمور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذي هو أحد أصول الشريعة لا سيما عند الإمام مالك رضي الله عنه ما يقتضي وجوب التخلي عن ملبسة هذه المفسدة المزرية بالعرض والدين ففسأله سبحانه أن يوفق من ولاة أمر العباد لحسم مادة هذه الفساد فإن سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان على عهد النبي والسلف الصالح مفقود اليوم وهو السبي الناشئ عن الجهاد المقصود به إعلاء كلمة الله تعالى وسوق الناس إلى دينه الذي اصطفاه لعباده هذا هو ديننا الذي شرعه لنا نبينا وخلافه خلاف الدين وغيره غير المشروع والتفريق إنما هو بيد الله ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين بناء قصر البديع بحضرة مراکش مرسها الله قال في مناهل الصفا كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وإنفاقه فيه جلائل الأموال ونفائس الذخائر هو أنه أراد أن تكون لأهل البيت به مأثرة وشفوف على دولة البرابر من المرابطين والموحدين ومن بعدهم فإن كلا من أهل تلك الدول أبقي بناء يحيى به ذكره ولم يكن لأهل البيت في ذلك المعنى شيء تزداد به حظوتهم مع أنهم أحق الناس بالمجد والسؤدد الأثيل فتصدى لبنائه بقصد تشريف أهل البيت لأن البناء كما قيل هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فيألسن البنيان إن البناء إذا تعاضم شأنه أضحي يدل على عظيم الشأن قلت هذا اعتذار بارد كما لا يخفى

ولما أراد المنصور أن يشرع فيه أحضر أهل العلم ومن يتسم بالصلاح فتحينوا أوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع في تأسيسه في شوال خامس الأشهر من خلافته سنة ست وثمانين وتسعمائة واتصل العمل فيه إلى سنة اثنتين وألف ولم يتخل ذلك فترة وحشد له الصناع حتى من بلاد الإفرنجية فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم حتى كان يبليه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس أعلامهم وجلب له الرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن على ما قيل وكان المنصور قد اتخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما حسبما ذكره الفشتالي رحمه الله في المناهل وأما جبصه وجيره وبقي أنقاضه فإنها جمعت من كل جهة وحملت من كل ناحية حتى أنه وجدت بطاقة فيها أن فلانا دفع صاعا من جبر حمله من تنيكتو وظف عليه في غمار الناس وكان المنصور مع ذلك بحسن إلى الأجراء غاية الإحسان ويجزل صلة العارفين بالبناء ويوسع عليهم في العطاء ويقوم بمؤن أولادهم كي لا تنتشوف نفوسهم وتنتشعب أفكارهم وهذا البديع دار مربعة الشكل وفي كل جهة منها قبة راقعة الهيئة وأحترف بها مصانع آخر من قباب وقصور ودور فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته ولا شك أن هذا البديع من أحسن المباني وأعجب المصانع يقصر عنه شعب بوان وينسى ذكر غمدان ويبخس الزهراء والزاهره ويزري بقباب الشام وأهرام القاهرة وفيه من الرخام المجزع والمرمر الأبيض والأسود ما يحير الفكر ويدهش النظر وكل رخامة طلي رأسها بالذهب الذائب وموه بالنضار الصافي وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافي البشرة وجعل في أضعاف ذلك الزليج المتنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزهر أو برد موشى من عمل صنعا وتستر وأما سقفه فتجسم فيها الذهب وطلبت الجدران به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبص فتكاملت فيه المحاسن وأجرى بين قبابه

ماء غير أسن وبالجملة فإن هذا البديع كان من المباني المتناهية البهاء والإشراق المباهية لزوراء العراق ومن المصانع التي هي جنة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف كل قصر بعد البديع يذم فيه طاب المجنى وطاب المشم منظر رائق وماء نيمير وثرى عاطر وقصم أشم إن مراكشا به قد تباهت مفخرا فهي لللالا الدهر تسمو وبه من الأشعار المرقومة في الأستار والأبيات المنقوشة في الجهات على الخشب والزليج والجبص ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويبهز العقول وعلى كل قبة ما يناسبها وفي بعض القباب مفخرة على لسانها لمقابلاتها وتتبع ذلك يطول لكن لا بأس أن نلم هنا بثمالة من ذلك الحوض ونحوض في بحار تلك البدائع بعض الحوض إذ في ذلك عبرة لمن اعتبر وترويح للقلوب بكيفية فعل الدهر بمن غير ذلك ما نقش خارج القبة الخمسينية لأن فيها خمسين ذراعا بالعمل من إنشاء الكاتب البليغ أبي فارس عبد العزيز الفشتالي على لسان القبة المذكورة سموت فخر البدر دوني وانحطا وأصبح قرص الشمس في أدني قرطا وصغت من الإكليل تاجا لمفرقي ونيطت بي الجوزاء في عنقي سمطا ولاحت بأطواقي الثريا كأنها نثير جمان قد تنبعت لقطا وعديت عن زهر النجوم لأنني جعلت على كيوان رحلي منحطا وأجريت من فيض السماحة والندى خليجا على نهر المجرة قد غطا عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت إليه وفود البحر تغرف ما أنطا بنضنض ما بين الغروس كأنه وقد رقرقت حصابؤه حية رقطا حواليه من دوح الرياض خرائد وغيد تجر من خمائلها مرطا إذا أرسلت لنن الفروع وفتحت جنى الزهر لاح في ذوائبها وخطا برنحها مر النسيم إذا سرى كما مال نشوان تشرب اسفنتا يشق رياضا جادها الجود والندى سواء لديها الغيث أسكب أم أبطا وسالت بسلسال اللجين حياضه بحارا غدا عرض البسيط لها شطا

تطلع منها وسطا وسطا دمية هي الشمس لا تخشى كسوبا ولا غمطا حكمت وحباب الماء في جنباتها سنا البدر حل من نجوم السما وسطا إذا غارت الشمس ألقى شعاعها على جسمها الفضي نهرا بها لطا توسمت فيها من صفاء أديمها نقوشا كأن المسك ينقطها نقطا إذا تنسقت بيض القباب قلادة فأتى لها في الحسن درتها الوسطا تكفني بيض الدمى فكأنها عذاري نضت عنها الفلاند والريطا قدود ولكن زادها الحسن عربها وأجمل في تنعيمها النحت والخرطاسمت صعدا تيجانها فكسرت فوارير أفلاك السماء بها ضغطا فيالك شأوا بالسعادة أهلا بأكنافه رحل العلا والهدى حطا وكعة مجد شادها العز فانبرت تطوف بمعناها أماني الورى شوطا ومسرح غزلان الصريم كناسها حنايا قباب لا الكتب ولا السقفا فلكن به ما طاب لا الإئل والخمطا ووسدن فيه الوشي لا السدر والأرطا ثراه من المسك الفنتيت مدير إذا مازجته السحب عاد بها خلطا وإن باكركته نسمة ينسري بها إلى كل أنف عرف عنبره قسقا أقرت له الزهراء والخلد وانثنت أووين كسرى الفرس تغبطه غبطا جناب رواق المجد فيه مطنب على خير من يعزى لخير الورى سبطا إمام يسير الدهر تحت لوائه وترسي سفائن العلا حيثما حطا وفتاح أقطار البلاد بفيلق يفلق هامات العدا بالظبي خطبا تطلع من خرساته الشهب فانتنت ذوائب أرض الزنج من ضوءها شمطا كئائب نصران جرت لملمة جرت قبلها الأقدار تسبقها فرطا إذا ما عقدن راية علوية جعلن ضمان الفتح في عقدها شرطا فما للسا تلك الأهلة إنما سناجها أبتت مثلا بها خطا يطاوع أيدي المعلومات عنانها فيعتاض من قبض الزمان بها بسطا يد لأمير المؤمنين بكفها زمام يقود الروم والفرس والقبطا أدار جدارا لللالا وسرادقا يحوط جهات الأرض من رعيه حوطا وقال أيضا مما كتب بداخل القبة المذكورة

جمال بدائعي سحر العيون ورونق منظري بهر الجفونا وقد حسنت بقوسي واستطارت سنا يغشى عيون الناظرينا وأطلع سمي الأعلى نجوما ثواقب لا تغور الدهر حيننا وجوى من دخان الند ألقى على أرضي الغياهب والنجونا علوت دوائر الأفلاك سبعا لذاك الدهر ما ألقت سكوننا فصغت من الأهلة والحنايا أساور والخلاخل والبرينا تكنفي حياض مائحات أمامي والشمائل واليمينات يقيد حسننها الطرف انفساها ويجري الفلك فيها والسفينا تدافع نهرها نحوي فلما علاه البحر في غدا دفيننا وقد نشر الحياض على سماها لألي تزدري العقد الثميننا فخرت وحق لي لما احتباني لمجلسه أمير المؤمنين هو المنصور حانز فصل سبق وباني المجد بنيانا مكينا وليث وعى إذا زار امتعاضا يروح زهيره هندا وصينا إذا أمت كتابيه الأعداي بعثن برعه جيشا كميننا يدير عليهم من كل حرب تدقهم رحي أو منجوننا إمام بالمغرب لاج شمسنا بها الشرق اكتسى نورا مبينا بقيت بذى القصور الغر بدرا تلوح بأفقهن مدى السنينا تحف بكم عواكف عند بابي ملائكة كرام كاتبينا لك البشرى أمير المؤمنين ادخلوها مع سلام أمنينا وقال أيضا مما كتب في بهوها بمرمر أسود في أبيض لله بهو عز منه نظير لما غدا كالروض وهو نصير رصفت نقوش حلاه رصف قلاند قد نضدتها في النور الحور فكأنها والتبر سال خلالها وشي وفضة تربها كافر وكان أرض قراره ديباجة قد زان حسن طرازها تشجير وإذا تصاعد نده نوا ففي أنماطه نور به ممتور شأو القصور قصورها عن وصفه سيان فيه خورنق وسدير

فإذا أجلت اللحظة في جنباته يرتد وهو بحسنه محسور وكان موج البركتين أمامه حركات سحب صافحته ديور صفت بصفقتها تماثل فضة ملك النفوس بحسنها تصوير فتدير من صفو الزلال معللا يسري إلى الأرواح منه سرور ما بين أساد يهيج زهيرها وأسود يعلو لهن صغير ودحت من الأنهار أرض زجاجة وأضلها فلك يضيء منير راقت فمن حبسانها وفواق يطفو عليها اللؤلؤ المنثور يا حسنة من مصنع فيهاوه كناس باهى نجوم الأفق وهي تنور وكأنما زهر الرياض بجنبه حيث التفت كواكب وديور ولدسته الأسمى تخير رصفه فخر الورى وإمامها المنصور ملك أناف على الفرادق رتبة وأقله فوق السماك سري قطب الخلافة تاج مفرق دولة رميت بحفلها اللهم الكور وجرى إلى أقصى العراق لربعها جيش على جسر الفرات عبور نجل النبي ابن الوصي سليل من حقن النماء وعف وهو قدير بحر الندى لكنه متموج سيف العلاء لكنه مطرور طود يخف لحلمه ووقاره ولجيشه يوم النزال ثبير دامت معاليه ودام ومجده طوق على جبد العلاء مزور وتعاهدته من الفتوح بشائر يغدو عليه بها مسا ويكور ما زال منزل سعده يرتاده نصر يرف لوأوه المنشور وجرت به مرحا جياذ مسرة وأدار كأس الأأس في سمير وقال بعض الكتاب مما نقش في عضادتي باب القبة الخمينية المذكورة يا ناظرا بالله قف وتأمل وانظر إلى الحسن البديع الأكمل وإذا نظرت إلى الحقيقة فلتقل السر في السكان لا في المنزل وقال بعض الكتاب أيضا ما طرزت به الأستار المذهبة المحكمة الصنعة لتستر بها النواحي الأربعة من القبة الخمينية وتسمى هذه الأستار عند أهل

المغرب بالحائطي ففي الجهة الأولى متع جفونك في بديع لباسي وأدر على حسني حيا الكاس هذي الربا والروض من جرعائها لم تغتذي بالعارض الجباس أنى لروض أن يروق بهاوه مثلي وأن يجري على مقياسي فالروض تغشاه السوام وإنما تأتي إلى كفي طباء كناس وفي الجهة الثانية من كل حسنا كالفضيبي إذا انتنى تزري بغصن البانة المياس ولقد نشرت على السماك ذوانني ونظرت من شرز إلى الكناس وجررت ذيلي بالمجرة عابثا فخرنا بمخترعي أبي العباس ما نيط مثلي في القباب ولا ازدهت بفتى سواه مراتب وكراس وفي الجهة الثالثة ملك تقاصرت الملوك لعزه ورماهم بالذل والإتعاس غيث المواهب بحر كل فضيلة ليث الحروب مسعر الأوطاس فرد المحاسن والمفاخر كلها قطب الجمال أخو الندى والباس ملك إذا وافى البلاد تارجت منه الوهاد بعاطر الأنفاس وفي الجهة الرابعة وإذا تطلع بدره من هالة يعيشى سناه نواظر الجلاس أيامه غرر تجلت كلها أبهى من الأعياد والأعراس لا زال للمجد السني يشده ويقم مبناه على الأساس ما مال بالغصن التسييم وكللت درر الندى في جبد المياس وقال أبو فارس الفشتالي مما كتب على المصرية المطلة على الرياض المرتفعة على القبة الخضراء من بديع المنصور وكان أنشأها في جمادى الأولى من سنة خمس وتسعين وتسعمائة بكر لدي من السرور كوسا وأرض النديم أهله وشموسا وأعرج على غرفي المنيف سماؤها تلق الفرادق في حماي جلوسا

وإذا طلعت بأوجها قمر العلاء لا ترتضي غير النجوم جليسا شرق القصور بريقها لما اجتلت مني على بسط الرياض عروسا واعتضت بالمنصور أحمد ضيعما وردا تخير من بديعي خيسا ملك أرى كل الملوك ممالكا لعلاه والدينا عليه جيبسا وهناك يا شرف الخلافة دولة تلقى برانيتها طلائع عيسا وقال أيضا مما كتب في بعض المباني البديعية معاني الحسن تظهر في المغاني ظهور السحر في حلق الحسان مشابه في صفات الحسن أضحت تمت بها المغاني للغواني بكل عمود صبح من لجين تكون في استقامة حوط بان مفصلة القنود مثلثات مواصلة العقاق من اللتان تردت سابري الحسن يزري بحسن السابري الخسرواني وتعطو الخيزرانة من حماها بسالفة القطيع البرهمني لمجدك تنتمي لكن نماها إلى صنعاء ما صنع البان يدين لك ابن ذي بزى ويعنو لهما غمدان في أرض اليماني غدت حرما ولكن حل فيها لوفدكم الأمان مع الأمانى مبان بالخلافة أهلات بها يتلو الهدى السبع المثاني هي الدنيا وساكنها إمام لأهل الأرض من قاص وداني قصور ما لها في الأرض شبه وما في المجد للمنصور ثاني وقال مما نقش في بعض الأبواب هذي وفود السعد نحوي ترتمي وطلائع البشرى لبابي تنتمي وسمت إلي عفاة عرفك مثل ما يسمو الحجيج إلى سقاية زمزم حطت بمصرعي السعود بشانرا لاحت على الشرفات مثل الأنجم وأوان صناعي أن تقول ولا تيل ببديع أحمد جنة المتتمع وقال الفشتالي لما عرضت عليه هذه الأبيات استحسناها إلا أنه كره لفظة جنة وتغير منها كثيرا وقال الوزير الأديب أبو الحسن علي بن منصور الشيطمي مما كتب على مباح قبة الزجاج

إن شئت تاريخ إكمال البديع فقل إيوان أحمد إيوان السعادات وقال الوزير المذكور مما نقش على أحد أبواب البديع باب أتى كبراعة استهلال وكانما القصر القصيد التالي ولذاك سمي بالبديع وجاء بال إغراق والتجنيس والإيقال وأتى التمام فقلت في تاريخه بيتا بلا عقد ولا إشكال صرح على تقوى من الله انبنى في طالع للسعد والإيقال وقال أيضا في تمام البديع مهنتنا يا مليكا ملكه فيمن ملك كطلوع الفجر من بعد الحلك تم هذا القصر فاسكنه على حسن حال بدوام الملك لك وكان الفراغ من تمام البديع سنة اثنتين وألف وفي تاريخه يقول الوزير المذكور وهو مما نقش بباب الرخام أحد أبواب البديع الحسن لفظ وهذا القصر معناه ياما أميلح مرأه وأباهاه فهو البديع الذي راقت بدائعه وطابق اسم له فيه مسماه صرح أقيمت على التقوى قواعده ودل منه على التاريخ معناه ولاح أيضا وعين الحفظ تكلاه تاريخه من تمام قل هو الله قال في فنج الطيب اخترع المنصور من المصانع ثلاثة أشياء فجاءت غريبة الشكل بديعة الحسن وهي البديع والسمررة والمشتهى وفيهما يقول المنصور موريا بستان حسنك أيدعت زهراته ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى وقوام غصنك بالمسرة ينتهي يا حسن رمان به للمشتهى اه قال اليفرنى والذي ذكره صاحب كتاب البيان المغرب عن أخبار المغرب وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عذاري الأندلسي حسبما رأيته في السفر الثاني منه أن أول من أنشأ المسرة التي بظاهر جنان الصالحة عبد المؤمن بن علي كبير الموحدين قال وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط له عيون كثيرة

قال ابن اليسع وما خرجت أنا من مراکش في سنة ثلاث وأربعين وخمسائة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنة على رخص الفاكهة بمراكش اه ولعل المنصور جدد معالم المسرة بعد اندراسها وأفاض سجال الحياة على ميت غراسها وكان المنصور يفتخر بالبديع كثيرا وينوه بقدره وفي ذلك يقول أبو فارس الفشتالي هذا البديع يعز شبه بدائع أيدعتن به فجاء غريبا أضنى الغزالة حسنه حسدا له أبى عليها لأصيل شحوبا وانقضت الزهر المنيرة إذ رأت زهر الرياض به ينور عجبيا شيدتهن مصانعا وصنلعا أنجزن وعك للعلل المرقوبا وجريت في كل الفخار لغاية أدركتهن وما مسست لغوبا فانعم بملكك دام فيه مؤيدا تجني به فنن الأنعيم رطيبا ولما أكمل المنصور البديع وفرغ من تميمق برده وتطريز حلتنه صنع مهرجانا عظيما ودعا الأعيان والأكابر فقدم لهم من ضروب الأاطعمة وصنوف الموائد وأفرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز ما لم يعهد منه قبل ذلك وكان ممن دخل في غمار الناس رجل من البهاليل ممن كانت له شهرة بالصلاح في

الوقت فقال له المنصور مباسطاً كيف رأيت دارنا هذه يا فلان فقال له إذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب فوجم لها المنصور وتطير منها وتحكى هذه الحكاية عن غير المنصور فإله أعلم قال اليفرنى وقد ظهر مصداق ذلك على يد السلطان المظفر المولى إسماعيل بن الشريف فإنه أمر بهدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف لموجب يطول شرحه فهدمت معالمه ومحيت مراسمه وفرق ما كان به من جموع الإنس وعاد حصيها كأن لم يكن بالأمس حتى صار مرعى للكلاب والمواشي ووكرا للصدى واليوم وحق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب إلا ودخله شيء من أنقاض البديع ولقد تذكرت بهذا ما حكاه بعض مؤرخي الأندلس أن

الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر وهي من عجائب الدنيا مر عليها في أيام المنصور بعض أهل البصائر وهي في نهاية العمران والأزدهاء بسكانها فقال يا دار فيك من كل دار فجعل الله منك في كل دار قال فضرب الدهر ضرباته وسلط عليها أيدي العدوان فهدمت وخربت وتفرقت محاسنها حتى نقل بعض أنقاضها إلى العراق قال اليفرنى ولما دخلت البديع مقلتي من الرحلة ورأيت ما هالني أنشدت أبياتا أنشدها الشيخ محيى الدين بن عربي في كتاب المسامرة لما دخل الزاهرة فوجدتها متهمة وهي ديار بأكناف الملاعب تلمع وما أن بها من ساكن فهي بلقع ينوح عليها الطير من كل جانب فقتصمت أحياناً وحيناً ترجع فخطبت منها طائراً متفرداً له شجن في القلب وهو مروع فقلت على ماذا تنوح وتشنكي فقال على دهر مضى ليس يرجع وأنشدت ما أنشده ابن الأبار في تحفة القادم قلت يوماً لدار قوم تفانوا أين سكانك الكرام علينا فأجابنا هنا أقاموا قليلاً ثم ساروا ولست أعلم أينما فرغ منه سنة اثنتين وألف وشرع في هدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف فمدة عمره مائة وسبعة عشر وهذا القدر هو الذي بقي فيه البديع قائماً فإنه فرغ منه سنة اثنتين وألف وشرع في هدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف فمدة عمره مائة وسبعة عشر سنة على عدد اسمه وذلك من غريب الاتفاق فسبحان من دقت حكمته وجلت قدرته وعمت رحمته لا إله إلا هو الحكيم العليم

ثورة الناصر ابن السلطان الغالب بالله ببلاد الريف ومقتله كان الناصر هذا في حياة أبيه عبد الله الغالب بالله خليفته على تادلاً ونواحيها ولما توفي أبوه المذكور وقام بالأمر أخوه المتوكل كما استوفينا خبره قبض على الناصر فاعتقله فلم يزل معتقلاً عنده سائر أيامه إلى أن قدم المعتصم بجيش الترك وانتزع الملك من يد المتوكل كما مر فسرح الناصر من اعتقاله وأحسن إليه فلم يزل عنده في أرغد عيش إلى أن توفي المعتصم يوم وادي المخازن وأفضى الأمر إلى المنصور ففر الناصر إلى أصيلا وكانت للنصارى يومئذ ثم عبر البحر منها إلى الأندلس فكان عند طاعية قشتالة مدة طويلة إلى أن سرحه الطاعية إلى المغرب بقصد تفريق كلمة المسلمين وإحداث الشقاق بينهم فخرج الناصر بمليبية ونزل بها لثلاث مضت من شعبان سنة ثلاث وألف وتسامعت به الغوغاء والطغام من أهل تلك البلاد فأقبلوا إليه يزفون فكثرت جموعه وتوفرت جيوشه واهتز المغرب بأسره لذلك وذكر اليفرنى في الصفة أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن قاسم القصار كتب كتاباً إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن علي بن ريسون من أهل بلاد غمارة وكان مسموع الكلمة بها يحضه على الاستمساك بدعوة المنصور وأن يلزم الطاعية له فوقع الكتاب في يد المنصور فعرف للشيخ القصار حقه ولما وفد عليه بعد ذلك وصله وولاه الفتوى والخطبة بجامع القرويين وترفة صدقة المساكين ثم إن الناصر خرج من مليبية قاصداً تازا فدخلها واستولى عليها ونزعت إليه القبائل المجاورة لها كالبرانس وغيرهم فتألبوا عليه وتمالؤوا على إغزاه ونصره ولما دخل تازا طالب أهلها بالمكس وقال لهم إن النصارى يغرمون حتى على البييض ولما سمع المنصور بخبره ألقاه ذلك وتخوف منه غاية لأن الناصر اهتز المغرب لقيامه وتشوقت النفوس إليه لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية قال في ابتهاج القلوب في ترجمة الولي الصالح أبي الحسن علي بن

منصور البوزيدي المعروف بأبي الشكاوي دفين شالة إنه كان سائراً يوماً على بغلة ومعه أصحابه فقال لهم يا فقراء أتسمعون ما نقول بغلتي إنها تصبح بالنصر لمولاي الناصر وكذلك الشجر والحجر وإني أرى غير ذلك فكان الأمر كما قال اهتز لقيام الناصر كل شيء ثم قتل عن قريب ولم يتم له أمر اه ثم إن المنصور بعث إليه جيشاً وافرأ فهزمهم الناصر واستقل أمره وتمكن ناموسه من القلوب فأمر المنصور ولي عهده المأمون بمنارلته فخرج إليه من فاس في تعبئة حسنة وهيئة تامة فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على الناصر بالموضع المعروف بالحجاب ومر على وجهه فاحتل بالجلية بلدة من عمل بلاد الزبيبي فلحق به ولي العهد فلم يزل في مقاتلته إلى أن قبض عليه فأزال رأسه وبعث به إلى مراكش وكان ذلك سنة خمس وألف وقيل سنة أربع وألف قال في نشر المثنائي كان مقتل الناصر وإدخاله مقطوع الرأس إلى فاس يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان سنة أربع وألف وهو الأصح وذكر الشيخ أبو علي اليوسفي في المحاضرات ما نصه حدثوا عن صلحاء تادلاً أنه لما قام على السلطان أحمد المنصور ابن أخيه الناصر قال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي إن الناصر يدخل تادلاً يعني دخول الملك فلما بلغ الخبر إلى الشيخ أبي عبد الله محمد الشرقي التادلي قال مسكين بابا أحمد رأى رأس الناصر قد دخل تادلاً فظنه الناصر يدخلها فكان الأمر كذلك فإنه هزم في نواحي تازا ثم قطع رأسه وحمل إلى مراكش فدخل تادلاً في طريقه اه ولما قتل الناصر سر المنصور بذلك وأتته الوفود للتهنئة وقال الشعراء في ذلك منهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عمر الشاوي قال تهنأ أمير المؤمنين فقد جرت بسطوتك الأقدار جري السوابق أضاءت لك الأيام واحلوك على عدوك وارجت رؤوس الشواهد وذلك الذي قد خيب الله سعده تردى فلم تنفعه نصرة مارق فكان كما قد قيل لكن رأسه أتى سابقاً والرجل ليست بسابق

ضمن قول بعضهم في الوزير ابن الفرس وقد رآه مصلوباً منكوس الرأس لقد طمح المهر الجموح لغاية تقطع أعناق الجياد السوابق جرى فجرت رجلاه لكن رأسه أتى سابقاً والرجل ليست بسابق وكتب المنصور بخبر هذا الفتح إلى الأفاق فمما كتبه للشيخين الإمامين أبي عبد الله محمد زين العابدين البكري وأبي عبد الله محمد بدر الدين القرافي رسالة يقول فيها ما نصه من عبد ربه المجاهد في سبيله أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين الحسني إلى الفاضل الذي اعتجز بالقوى وهو زين العابدين وتحلى بحلى المعارف الربانية وتلك حلى العارفين والسالك الذي برز في الطريقة وسلك على المجاز الواضح إلى الحقيقة ففات شأو السابقين والعارف الذي تجرد عن رعونة الأهواء النفسانية فكان سلوكه على التجريد إلى حضرة الواصلين الشيخ العالم الحجة الوافي السيد بدر الدين القرافي والشيخ العارف الواصل السر الكامل سلالة العلماء سبط الفضلاء أبي عبد الله زين العابدين ابن الشيخ السامي المقام قطب المشايخ الأعلام فخر علماء الإسلام الشهير البركة في الأنام أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن الصديقي أبقاكم الله وأرواحكم تتعطر برياحين الإنس في حضرة القدس وتتشمس النفحات الهابة من رياض المشاهدة إلى مدارج الإنس ومعارج النفس وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد حمد الله مفيض أنوار عناية أحمد على صاحبه الصديق مظهر كنوز المعارف الربانية جيلاً بعد جيل من بيت عتيق و الذي اختار لمراقته صاحبه في الغار والعريش والطريق والرضا عن آله أئمة الخلق وسيوف الحق وأصحابه الذين فاضت أنوار هدايتهم على الغرب والشرق وبيبركتهم انتسق لنا الفتح انتساق الأسلاك وبفضلهم يعلو سعدنا على الكفر علو القطب على دائرة الأفلاك فكتبنا هذا إليكم من حضرتنا مراكش حاطها الله وصنع الله لها مفعم السجال وواسع المجال

وعزمتها الماضية تبعث إلى العدا رسل الأوجال والأيام بعز صولتها وبين دولتها بهذه المغارب باسمه الثغور مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله إلى أن تطوى ملاء الدهر هذا وأنه اتصل بعلي مقامنا كتابكم الذي صدحت على أفنان البلاغة سواجعه وعذبت في موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ولطفت في كل معنى من المعاني أفانينه ومنازعه وتألفت على الإجابة في كل مقصد من المقاصد مواصلة العذبة ومقاطعته وأينعت بأزهار العناية الربانية أباطحه الفيح وأجارعه ومعه المنظومات التي سحت بالحكم ديمها ورسا في البلاغة قدمها وربا في منبت المواهب الربانية براعها الفصيح وقلمها وحل من نفوسنا موقعها العجيب محلا من دونه الثريا في مطلعها والبدر ليلة تمامه إعجاباً بها وتوحيها بمهيتها وابتهاجاً بالخوارق التي أطلق الله على لسان مبيديها وإلى هذا فليحط علمكم بأن مقامنا تنفق فيه على الدوام إن شاء الله نفاس بضاعتكم وتنمو فيه مع الأيام سعود مطالعكم وتسمو فيه على كل مقام مقاماتكم وتستوضح فيه على المحبة الصميمة أماراتكم الواضحة وعلاماتكم فعلى هذا تنتقد منكم الخناصر وتشدد الأواخي والأواصر بعز الله ومنه ثم مما نستطرد لكم ذكره على جهة البشرى وإهداء المسرة الكبرى إعلامكم أن عدو الدين

طاعية قشتالة الذي هو اليوم العدو الكبير للإسلام وعميد ملل التثليل وعبدة الأصنام لما انس من تلقاء جنابنا نار العزم تلتهب منا التهاجا وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا وهمنا قد همت بتجديد الأسطول والاستكثار من المراكب المتكفلة للجهاد إن شاء الله بقضاء كل دين مطول وعلم أن الحديث إليه يساق وإلى أرضه بالخسف والتدمير بحول الله يهفو كل لواء خفاق رام خذله الله مكافأنا على ذلك بما أمل أن يفت به في عضدنا الأفوى وعز منا الذي بعناية الله يزداد ويقوى فرمى بمخذول من أبناء أئبنا عبد الله كان ربى لديه وطوحت به الطواخ منذ ثمانية عشر عاما إليه إلى ملييلة إحدى الثغور المصافية لغرب ممالكا الشريعة التي إلى كفالة ولدنا وولي عهدنا كافل الأمة من بعدنا الأمير الأجل الأرضى صارم العزم

المنتضى وحسام الدين الأمضى أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله وصل الله لرابته التأييد والظهور والعز الذي يستخدم الأيام والدهور فالتف عليه من اغتر بأباطيله الواهية البناء من أوباش العامة والغوغاء ومن قضى له من أجناد تلك الناحية بالشقاء جموع تكاثر الرمل وتفوت الحصا والنمل لاح بها للشقى خلب بارق أكذبته أمنيته إذ صدقته منيته فصمم نحوه ولدنا أعزه الله بجنود الله التي إليه وبساکر تلك الممالك التي ألقينا زمام تدبيرها في يديه فما راع الشقى إلا انقضاضه عليه من الجو انقضاض الأجدل وتصميمه إليه بعزائم تدك الطود وتقلق الصخر والجنبل فاستولى عليه بحمد الله للحين وعلى جموعه الأشقياء في يوم أغر محجل وساعة أنزل الله فيها على الخوارج المارقين العذاب المعجل فاستأصلتهم الشفار وحصدت هشيمهم المصوح السنة النار وقبض على الشقى في يوم كان شفاء للصدور ومنتزها لحملة السيوف وربات الخدور وأحرز الله تعالى فخر هذا الفتح العظيم والمن الجسيم لولدنا أعزه الله عز وجل في خاصة أجناده ونهض وحده بأعبائه ونحن على سرير ملكنا وادعون مطمئنون وأجنادنا لاهون ومفتنون فلم يحتج إلى أنجاه من قبلنا ولا إمداده والعاقبة للمتقين والحمد لله حمد الشاكرين وعرفناكم لتأخذوا بحظكم من السرور بهذه البشرى التي سرت الإسلام وساعت بحمد الله عبدة الأوثان والأصنام وتعلموا مع ذلك ما عليه الأحوال اليوم بحول الله لدينا من خفق رايات العزم وشخذ آراء الجزم وأعمال عوامل الجزم إلى مجازاة عدو الدين إن شاء الله على فعلته التي عادت عليه أسفا ولها وإعادة ما كان أسلف من ذلك إن شاء الله بالمكيال الأوفى وقدمنا إليكم التعريف لتمدونا إن شاء الله بأدعيتكم الصالحة في أوقات الإجابة وتحرصوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذي خضوع وإنابة أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضلته وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضلته ومعونته أسباب فتح الأندلس وتجديد رسوم الإيمان بها وإحياء أطلاله الدرس حتى ينطق لسان الدين في أرضها بكلمة

الله التي طالما سكت عنها نداؤه وخرس وشرق بريقه فغص وخنس فبيده الحول والقوة وعنايته العناية المرجوة ثم نوصيكم بحسن الوقوف مع أصحابنا فيما يشتري من الكتب العلمية برسم خزانة الكريمة الإمامية العلية ثم الإتحاف بديوان الشيخ والدكم التماسا لجميل بركاته وتمسكا بما سبق من الإجازة العامة في سائر منظوماته وموضوعاته ومروياته وهذا موجه إليكم والسلام الأتم معاد عليكم ورحمة الله وبركاته في ربيع النبوي سنة خمس وألف اه وهذه الرسالة من إملاء المنصور على ما قيل ومما كتب به أيضا بخط يده إلى سلطان مكة والمدينة والحجاز الشريف أبى المحاسن حسن بن أبى نبي بن بركات ما نصه من عبد الله المجاهد في سبيله الإمام المنصور بالله أحمد أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسيني إلى الأصالة التي تبحجت من ذؤابة هاشم في صميمها وتوغلت من غرفات حرمة الله بين زمزما وحطيمها وتمنعت من عرارة نجد بانتشاق نفحاتها الأريجة وشميمها أصالة السلطان الأئبل الأثير الأسنى الأسمى الأركى السلطان حسن بن أبى نبي أبقاكم الله والبيت ذو الأستار تتفيؤون ظلالة وتلثمون من الحجر الأسود الأسعد خاله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله الذي أعز هذه المثابة العلوية الإمامية النبوية العزيزة الأنصار السامية المحتد والنجار الساحبة أنيال عزاها الوريث الظلال على أهل البيت السامي المقدار سكان الحمى والذين تبوعوا الدار والذى أطلع شمس الهداية الساطعة الأنوار والرضا عن آله الذين تتضاءل لمجدهم السامي المنار الشمس والأقمار وعن أصحابه الذين استأصلوا شأفة الكفر بمواضي الشفار وصلة الدعاء لهذا المقام العلي الإمامي المنصوري الحسيني بنصر تجني الفتوح من قضب رماحه وتجري الأقدار على وفق اقتراحه فكتابنا هذا إليكم من حضرة مراكش حاطها الله ووسع لها المجال في ميادين السجال والأيام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمه الثغور مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله إلى أن تطوى

ملاة الدهور بعز الله وعنايته هذا وإن شيخ الركب المغربي وهو المرابط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما أزمع إلى المعاهد الشريعة الرحيل لتجديد رسم الطاعة الذي ليس بعاف ولا محيل وهب له من محارم الله نسيم يميل وأن للمطايا أن تعمل الوخد والذميل مد إلى علي مقامنا أكف الرغبة في كتاب كريم يتشرف بحمله ويتعرف منه السعادة بحول الله في مرتحلة وحله يتضمن الإيضاء به إليكم في المورد والمصدر ومدة مقامه من جوارك بحرم الله تجاه البيت والمشعر فحملناه هذه العجالة لترعوا له إن شاء الله عنها الحق المعترف وتولوه من جانبكم بما يصدق به الخبر وتدنا له من أماله قطف كل فن مهتصر ومما نكلفكم النهوض لأجل حقوق الأخوة بأعبائه ونظائكم لوشانج الرحم بالاقتناء بأدائه التماس الدعاء مع الأحيان تجاه البيت الحرام وعند الملتمزم والمقام أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضلته وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دينه على الدين كله ويسهل علينا بفضلته ومعونته أسباب فتح الأندلس وتجديد رسوم الإيمان بها وإحياء أطلاله الدرس حتى ينطق لسان الدين فيها بكلمات الله التي طالما سكت عنها نداؤه وخرس وشرق بريقه فغص وخنس فذلك دعاء لا يرد لأنه جرى من أهله في محله ومعاد السلام الأتم عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى وقوله حتى ينطق لسان الدين فيه تورية بابن الخطيب رحمه الله قال الفشتالي كان ترتيب المنصور في الاحتفال بالمولد النبوي الكريم أنه إذا طلعت طلائع شهر ربيع الأول صرف الرقاع إلى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية والمؤذنين النعارين في الأسحار فيأتون من كل جهة ويحشرون من سائر حواضر المغرب ثم يأمر الشماعين بتطريز الشموع وإتقان صنعها فيتبارى في ذلك مهرة الشماعين من كل ما يباري النحل في نسج أشكالها لظفا وإدماجا فيصوغون أنواعا من الشمع التي تحير الناظر ولا تذبل زهورها النواضر فإذا كان ليلة المولد تهباً لحملها وزفاف كواعبها

الصحافون المحترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف فيتزينون لذلك ويكونون في أجمل شارة وأحسن منظر ويجتمع الناس من أطراف المدينة كلها لرؤيتها فيمكثون إلى حين يسكن حر الظهيرة وتجنح الشمس للغروب فيخرجون بها على رؤوسهم كالغذاري يرفلن في حلل الحسن وهي عدد كثير كالنحل فيتسابق الناس لرؤيتها وتمتد لها الأعناق وتبرز ذوات الخدور ويتبعها الأبطال والأبواق وأصحاب المعازف والملاهي حتى تستوي على منصات معدة لها بالإيوان الشريف فتصطف هنالك فإذا طلع الفجر خرج السلطان فصلى بالناس وقعد على أريكته وعليه حلة النياض شعار الدولة وأمامه تلك الشموع المختلفة الألوان من بيض كالدمى وحمر جلبيت في ملابس أرجوان وخضر سندسية واستحضر من أنواع الحسك والمباخر ما يلهي المحزون ويدهش الناظر ثم دخل الناس أفواجا على طبقاتهم فإذا استقر بهم المجلس تقدم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبي ومعجزاته وذكر مولده ورضاعه وما وقع في ذلك باختصار فإذا فرغ اندفع القوم في الأشعار المولديات فإذا فرغوا تقدم أهل الذكر المزعمون بكلام الشنثري وأشعار الصوفية ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين فإذا فرغوا من ذلك كله قام شعراء الدولة فيقدم قاضي الجماعة الشاطبي بلبل منابر الجمع والأعياد فينشد قصيدة يفتتحها بالتغزل والنسيب فإذا تم تخلص لمده النبي ثم يختم بمدح المنصور والدعاء له ولولي عهده فإذا قضى نشيده تقدم الإمام المقتي المولى أبو مالك عبد الواحد الشريف فينشد قصيدته على ذلك المنوال فإذا فرغ تلاه الوزير أبو الحسن علي بن منصور الشيطمي ثم تلاه الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ويليهِ الكاتب محمد بن علي الفشتالي ويليهِ الأديب محمد بن علي الهوزالي النابغة ويليهِ الأديب الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد المسفيوي فإذا طوى بساط القصائد نشر خوان الأطعمة والموائد فيبدأ بالاعيان على مراتبهم ثم يؤذن للمساكين فيدخلون جملة فإذا انقضت أيام المولد الشريف برزت صلات الشعراء على أقدارهم هكذا كان دأبه في جميع الموائد ولا يحصى ما يفرغ فيه من أنواع الإحسان

على الناس اه من كتاب مناهل الصفاء وقال صاحب النفحة المسكية في السفارة التركية وهو العلامة المشارك أبو الحسن علي بن محمد التامجروتى حضرت المولد الشريف بعد القبول من بلاد الترك فاستدعى المنصور الناس لإيوانه السعيد واستدخلهم لقصره البديع المشيد المحتوي على قباب متقابلة عالية وقد مد فيها من فرش الحرير وصفت النمارق وتلدت الأستار والكلل والحجال المخصوصة بالذهب على كل باب قبة وحنية سرير ودار على الحيطان حانطيات الحرير التي هي كأزهار الخمائل ما رنيت قط في عهد الأوائل وتلك القباب مرفوعة الجوانب على قواعد وأساطين من رخام مجزع مطلية الرؤوس بالذهب الذائب مفروش جلها بالمرمر الأبيض مخططا بالسواد يتخلل ذلك ماء عذب فيدخل الناس على طبقاتهم ويأخذ كل مرتبته من قضاة وعلماء وصلحاء ووزراء وقواد وكتاب وأصناف الأجناد فيخيل لكل منهم أنه في جنة النعيم والسلطان جالس في فاخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار وترمقه الأبصار بالتعظيم والإكبار ويجلس من عادته الجلوس ويقف على رأس السلطان الوصفان والعلوج وعليهم الأقبية المخصوصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة مما يدهش الناظر وركز أمامهم الشمع الملون وأذن لعامة الناس فدخلوا من أصناف القبائل على أجناسها من الأجناد والطلبة وسكنت بعد حين الجلبة وأوتي بأنواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والأواني التركية والهندية وأوتي بالطبوس والأباريق وصب الماء على أيدي الناس ونصبت مبخار العنبر والعود وأبرزت صحائف الفضة والذهب وأغصان الريحان الغض فرش بها البساط ورش من ماء الورد والزهر وأنشدوا قصائد وتكلم المنشدون وأحسن إليهم السلطان ثم ختموا المجلس بالدعاء للامير وإذا كان يوم السابع يكون ترتيب أبداع من الأول وهذه سيرته دائما اه وهكذا كانت سيرته في شهر رمضان عند ختم صحيح البخاري وذلك أنه كان إذا دخل رمضان سرد القاضي وأعيان الفقهاء كل يوم سفرا من نسخة

البخاري وهي عندهم مجزأة على خمسة وثلاثين سفرا في كل يوم سفرا إلا يوم العيد وتاليه فإذا كان يوم سابع العيد ختم فيه صحيح البخاري وتهايا له السلطان أحسن تهياي إلا أن العادة الجارية عندهم في ذلك أن القاضي يتولى السرد بنفسه فيسرد نحو الورتين من أول السفر ويتقاض مع الحاضرين في المسائل ويلقى من ظهر له بحث أو توجيه ما ظهر له ولا يزالون في المذاكرة فإذا تعالي النهار ختم المجلس وذهب القاضي بالسفر فيكملة سردا في بيته ومن الغد بيتدئ سفرا آخر وهكذا والسلطان في جميع ذلك جالس قريب من حاشية الحلقة قد عين لجلوسه موضع قال الفشتالي وكان المنصور يعطي أموال لذوي الحاجات عند انقضاء رمضان ويقيم مهرجانا يوم عاشوراء لختان أولاد الضعفاء وكل من ختن منهم أعطي أذرا من كتان وحصه من الدرهم وسهما من اللحم اه وأما ترتيب جيش المنصور وعادته في أسفاره فسنذكرها في الفصل بعد هذا إن شاء الله ولنذكر بعض القصائد الميلادية التي أنشدت بمجالس المنصور حسيما تقدمت الإشارة إليه فمن ذلك قول القاضي أبي القاسم بن علي الشاطبي رحمه الله ما بال طيفك لا يزور لماما وبمنحنى الأحشا ضربت خياما أيعيش فيك عواذلي لسلوهم وأموت فيك صباية وغراما وتبيح نهرك سائلا من أدمعي أو ليس نهر السائلين حراما ما ذقت ماء لملك في سنة الكرى إلا انتهت فكان لي أحلاما عرض إذا حدثت عن بان الحمى فحديث قلبي بالأوجاع هاما أروى حديث الرقمتين مسلسلا عن دمع باكية الغمام سجاما وتلق من جيب النسيم تحية أضحي الهوى بردا لها وسلاما يا جيرة العلمين دعوة شيق للذي عيش بالغضا لو داما فخذوا بجرعاء الحمى قلبي فقد ألف الإقامة بالحمى فأقاما وخذوا بثار أهل نجدانهم سلبوا الفواد وأندفوا الأجساما في كل غرب دموع عيني مشرق لكواكب فيها أثرن ظلما

صليت بنار الشوق ثم رثت إلى إنسانها في لجة قد عاما وتسلسلت عبراتها شوقا لمن وقفت عليه صلاتها وسلاما خير الأنام محمد الهادي الذي أردى الضلال وجب منه سناما كرز العوالم سر طينة آدم ولحفظ ذاك السر جاء ختاماً وأجل إرسال الإله ومن به قد لاذ يونس حين خاض ظلما وتقاصرت عن فرده أعدادهم فلذا تقدم في الحساب إماما أسرى إلى السبع الطباق فأقبلت زمر الملائك وفده إعظاما في ليلة غصت بأملك السما فتسير خلف ركابه وإماما يا خير من بهر المعاند شأنه عجزا فغص بريقه إفحاما أعبي جلالك أن يحيط بوصفه وصف البليغ وأخرس الأقالما صلى عليك الله ما زار الحيا روضا ففتح زهره الأكماما ما لذتي في مدح غير مخلصا إلا بمدحي من بينك إماما خير الورى وإمامها المنصور من في ظل دولته الأنام أناما أضفى على الأرضين ظل مهابة فحمى بها حام العباد وساما وسما على الدنيا عقاب تنوفة فانقض بقترس الأسود بهاما قل للملوك هبوا لمالكم فدى وخذوا لأنفسكم لديه نماما هذا الذي يحيى البلاد بعده ويعيدها نشرا وكن رماما هذا الذي وعد الإله بأنه يطوي البلاد ويفتح الأهراما يا مشبه المهدي في آرائه حزما وفي عزماته إقداما أنت الذي بينه أبناء العلا أرسى البلاد ووطد الإسلاما فكانها من حولك الأشبال في غاب الوشيج نبوات أجاما وأمينها المأمون غضب سماها علم أناف على الهضاب سناما وأجل مضطلع تخيره الورى بعد الإمام فقدموه إماما وجها أحمد عهد أمة أحمد فوفى فكان لرعيه المعتاما لا يعدون النصر سيفك أنه سيف يحوط الدين والإسلاما خذها ينم على العبير مديحها ويفض عن مسك الختام ختاماً وقال العلامة مفتي الحضرة أبو مالك المولى عبد الواحد بن أحمد

الشريف الفيلاي أرفت وشاقتني البروق اللوامع وذكرى خليط هيجتها المربع مراع عفتها الروامس والسما تراق من الأشواق فيها المدامع كأن لم تكن من قيل قدما أو أهلا إذ السلك منظوم وشملي جامع تذكرني عهد الأجازع واللوى وأين اللوى مني وأين الأجازع سحنبا بها ذيل الصباية برهة وجفن الردى عنا وحاشاك هاجع وقفت بها باليزل واللبل داس أنازعها الشكوى بها وتنازع أسانها عن جيرة بان حبيهم وضمت هواهم بعد ذاك الأضالع فهل قدموا نحو العقيق صدورهم ولاح لهم برق من الغور لامع يخبر عن دار الرسول وقربها عراص بها للوحي فاضت بنايع ديار بها حل الحمى سيد الورى وهبت على الأشرار منها زعازع عليك صلاة الله يا خير مرسل ويا خير من تتني عليه الأصابع فلولاك هذا الكون ما زال معدما وأنت الذي يرجوه عاص وطائع لك الفخر في الدارين والموقف الذي لأهواله كل النبيين جازع فأدمهم والكل تحت لوائك وليس لنا والله غيرك شافع فجازك رب العرش ما أنت أهله جزاء به يشجي المناوي المخادع وجازى إماما قد نمته إليكم أصول وآباء كرام فوارع سميك وابن السبط حقا ومن له عوارف في أعناقنا وصنائع فدم للعلا يا ابن الخلائف مفردا إليك اشتراؤها وغيرك بائع ودام ولي العهد بعذك صارما يخب إلى نيل العلا ويسارع هو الأمن المأمون من كل فتنة لفيض الندى من راحتيه يدافع فيك أقول والنصوص شواهد أحاديث صحت ليس فيها منازع بكم رأس هذا القرن جدد ديننا وفاضت بحور للعلوم هوامع أشار بهذا إلى ما أخرجه أبو داود عن رسول الله قال إن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها وحمله بعض الأئمة على أن المجدد من الملوك وقيل من العلماء

وقيل من الأولياء والصواب الإطلاق وقال الوزير القائد أبو الحسن علي بن منصور الشيطمي رحمه الله تعالى من بعد أهل قبا وأهل كداء شوقي يزيد وعز ذلك عزائي ولي الشفاء بقربهم وهم جلا ما في الخواطر من صدق وصداء لكنه بعد المزار فأين من تلك المعاهد ساكن الحمراء بانوا وهاج الشوق ذكر ربوعهم ذات السن والرند والأضواء وشدا بهم حادي الركاب فكاد أن تدع القلوب جسومها بفضاء يا سعد لو أن الزمان مساعدي ومجيب داعي اليبعد بعد ندائي لركبت حرفا كالهلال منافرا للهمز إلا في المنادي النائي ولجبت أحباء الفلا وطوبتها طي الملا بنجبية فوداء تختاض في جوف الظلام كأنها سري تولج في ضمير حجاج وتخال في لجج السراب سفينة تجري القلوب بها بريح رخاء هل أنزلن بها المخصب من منى وأزور بعد معاهد الزوراء فأحط عنها الرحل ثم مخيما في ظل احمد بغيتي ومنائى وامرغ الخدين ملتثما ترى وطنته رجلا خاتم النبىء محيي الهدى ماحي الضلالة والردا بالبليض والخطية السمراء صلى عليه الله ما نسخ السخا لوما وما أجلي الدجا ابن ذكاء وعلى صحابته الكرام وآله أكرم بهم من سادة فضلاء أكرم بوارث مجده وعلائه سبط الرسالة غرة الأبناء خير الخلائف أحمد المنصور من حاز الكمال وشرط كل علاء الصارم الهندي في يمنى الهدى والكوكب الوقاد في الظلماء يا أيها الملك الذي بسبوفه حاط الهدى وبرأيه الوضاء ذخر الإله لك الفتوح وصانها كالزهر في الأكمام والأوعاء لا بد من فتح بروقك واضح كالصبح يدرأ في نحور عداء وستملك الحرم الشريف وينتمي للوائك المنصور دون مرآة وترى الجهات وقد أنت مفقادة بظلي نبيك السادة النجباء وتقر عينا بالخليفة منهم وزر البرية عدة الأمراء بمحمد المأمون خير من ارتقى درج الكمال ودب للعلياء فرع سيحكي أصله ولقد حكى بمقاصد قد سدنت ودهاء وقال الكاتب أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي رحمه الله تعالى هم سلبوني الصبر والصبر من شائي وهم حرموا من لذة الغمض أجماني وهم أخفروا في مهجتي ذم الهوى فلم يثبهم عن سفكها جني الجاني لئن

أترعوا من قهوة البين أكوسي فشوقهم أضحي سميري وندماني وإن غادرتني بالعرء حملهم كفى أن قلبي جاهد أثر أظعاني فف العيس واسأل ربهم أية مضوا للجزع ساروا مدلجين أم البان وهل باكروا بالسفح من جانب اللوا ملاعب آرام هناك وغزلان وأين استقلوا هل بهضب تهامة أناخوا المطايا أم على كئيب نعمان وهل سل في بطن المسيل تشوقا نفوس ترامت للحمى قبل جثمان وإذا زجروها بالعشي فهل تى أزمتهما الحادي إلى شعب بوان وهل عرسوا في دير عيدون أم سروا يوم بهم رهبانهم دير نجران سروا والدجى صبيغ المطارف فانتتى بأحداجهم شتى صفات وألوان وأدلج في الأسحار بيض قبايهم فلحن نجومها في معارج كئيبان لك الله من ركب يرى الأرض خطوة إذا زمها بدنا نواع أبدان أرحها مطايا قد تمشي بها الهوى تمشي الحميا في مفاصل نشوان وييم بها الوادي المقدس بالحمى به الماء صدا والكلا نبت سعدان واهد حلول الحجر منه تحية تفلوح عرفا ذاكي الرند والبان لقد نفتح من شيخ يثرب نفحة فهاجت مع الأسحار شوقي وأشجاني وقتت منها الشرق في الغرب مسكة سحبت بها في أرض دارين أرداني وأذكرني نجدا وطيب عراره نسيم الصبا من نحو طيبة حياني أحن إلى تلك المعاهد إنها معاهد راحاتي وروحي وريحاني وأهفو مع الأشواق للوطن الذي به صح لي أنسي الهني وسلواني وأصبوا إلى أعلام مكة شائقا إذا لاح برق من شمام وشهلان أهيل الحمى ديني على الدهر زورة أحت بها شوقا لكم عزمي الواني متى يشتفي جفني القريح بنظرة يزعج بها في نوركم عين إنساني ومن لي بأن يدنوا لقاكم تعظفا ودهري عني دائما عطفه ثاني سقى عهدهم بالخيف عهد تمده سوافح دمع من شؤني هتان وأنعم في شط العقيق أراكة بأفياها ظل المنى والهوى داني وحيا ربوعا بين مروة والصفاء تحية مشتاق لها الدهر حيران ربوعا بها تتلو الملائكة العلا أفانين وحى بين ذكر وقرآن وأول أرض باكرت عرساتها وطرزت البطحا سحائب إيمان وعرس فيها للنبوة موكب هو البحر طام فوق هضب وغيطان وأدى بها الروح الأمين رسالة أفادت بها البشرية مداخل عنون هنالك فض ختمها أشرف الورى وفخر نزار من معد بن عدنان محمد خير العالمين بأسرها وسيد أهل الأرض الإنس والجنان ومن بشرت بالبعوث من قبل كونه نواصس كهان وأخبار رهبان وحكمة هذا الكون لولاه ما سمت سماء ولا غاضت طوافح طوفان ولا زخرقت من جنة الخلد أربع تسبح فيها آدم حور وولدان ولا طلعت شمس الهدى غب دجية تجهم من ديجورها ليل كفران ولا لحقت بالمذنبين شفاعة يذود بها عنهم زباني نيران له معجزات أحرست كل جاحد وسلت على المرتاب صارم برهان له انشق قرص البدر شقين وارتوى بماء همي من كفه كل ظمان وأنطقت الأوثان نطقا تبرأت إلى الله فيه من زخارف ميان دعا سرحة عجماء فلبت وأقبلت تجر ذبول الزهر ما بين أفنان وضاءت قصور الشام من نوره الذي على كل أفق نازح القطر أوداني وقد بهج الأنوار بدعوته التي كست أوجه الغبراء بهجة نيسان وأن كتاب الله أعظم آية بها افتضح المرتاب وابتأس الشاني

وعدى على شأو البليغ بيانه فهبهاث منه سجع قس وسحبان نبي الهدى من أطلع الحق أنجما محا نورها أسداف إفك وبهتان بعزتها ذل الأكاسرة الألى هم سلبوها تيجانها آل ساسان وأحرز للدين الحنيفي بالظبا تراث الملوك الصيد من عهد يونان ونقع من سمر القنا السم قيصرها فجره منه مجاجة تعبان وأضحت ربوع الكفر والشرك بلقعا يناغي الصدا فيهن هائف شيطان وأصبحت السمحا تروق نضارة ووجه الهدى بادي الصبابة للرائي أيا خير أهل الأرض بيانا ومحتدا وأكرم كل الخلق عجم وعربان فمن للقوقاني أن تحيط بوصفكم ولو سجلت سبفا مداخل حسان إليك بعثاها أماتي أجدبت لتسقى بمزن من أيديك هتان أجرني إذا أبدى الحساب جرائمي وانقلت الأوزار كفة ميزاني فأنت الذي لولا وسائله عزه لما فتحت أبواب عفو وغفران عليك سلام الله ما هبت الصبا وماست على كئيباتها ملد قصبان وحمل في جيب الجنوب تحية يفوح بمسرها شذا كل تربان إلى العمرين صاحبك كليهما وتلوهما في الفضل صهرك عثمان وحيي عليا عرفها وأريجها ووالي على سبطيك أوفر رضوان إليك رسول الله صممت عزمة إذا أزمعت فالشحط والقرب سبان وخاطبت مني القلب وهو مقلب على جمرة الأشواق فيك فلباني فيا لبت شعري هل أزم قلانصي إليك بدارا أو أفلق كيراني وأطوي أديم الأرض نحوك راحلا نواجي المهاري في صحاصح فيعان يرنحها فرط الحنين إلى الحمى إذا غرد الحادي بين وغناني وهل تمحون عني خطايا اقترفتها خطى لي في تلك البقاع وأوطان وماذا عسى يثني عنائي وإن لي بآلك جاها سهوة العز أمطاني إذا صد عن زوارك لباس والعنا فجدو ابنك المنصور أحمد أغناني عمادي الذي أوطا السماكين أخصمي وأوفى على السبع الطباق فأداني متوج أملاك الزمان وإن سطا أهل سيوفا في معاهد تيجاني

وقاري أسود الغاب بالصيد مثلها إذا أضرب الخطى من فوق جذران هز بر إذا زرا البلاد زهيره تضاعل في أخياسها أسد خفان وإن اطلعت غيم القتام جيوشه وارزم في مركومه رعد نيران صبين على أرض العداة صواعقا أسلن عليهم بحر خسف ورجفان كتائب لو يعلون رضوى لصدعت صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان عديد الحصا من كل أروع معلم وكل كمي بالرديني طعان إذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا هنتهم إلى أوداجها شهب خرصان من اللاه جر عن العدا غصص الردى وعفرون في وجه الثرى وجه بستان وقتحن أقطار البلاد فأصبحت تؤدى الخراج الجزل أملاك سودان إمام البرايا من على نجاره ومن عترة سادوا الورى آل زيدان دعائم إيمان وأركان سوؤد ذووهم قد عرست فوق كيران هم العلويون الذين وجوههم بدور إذا ما حولكت شهب أزمان وهم آل بيت شديد الله ملكة على هضبة العلياء ثابت أركان وفيهم أتى الذكر الحكيم وصرحت بفضلهم آيات ذكر وقرآن فروع ابن عم المصطفى ووصيه فناهيك من فخرين قريبي وقربان ودوحة مجد معشب الروض بالعالا يجاد بأموه الرسالة ريان بمجدهم الأعلى الصريح تشرفت معد على العرباء عاد وقحطان أولئك فخرى إن فخرت على الورى ونافس بييتي في الولا بيت سلمان إذا اقتسم المداح فضل فخارهم فقسمي بالمنصور ظاهر رجحان إمام له في جبهة الدهر مبسم ومن عزه في مفرق الملك تاجان سما فوق هامات النجوم بهمة يحوم بها فوق السموات نسران وأطلع في أفق المعالي خلافة عليها وشاح من علاه وسمطان إذا ما احتبى فوق الأسرة وارتدى على كبرياء الملك نخوة سلطان توسمت لقمان الحجا وهو ناطق وشاهدت كسرى العدل في صدر إيوان

وإن هزه حر التناء تدفقت أنامله عرفا تدفق خلجان أيا ناظر الإسلام شم بارق المنا وباكرو لروض في ذرا المجد فينان قضى الله في عليك أن تملك الدنيا وتقتحها ما بين سوس وسودان وإنك تطوي الأرض غير مدافع فمن أرض سودان إلى أرض بغداد وتملأها عدلا يرف لوأه على الحرمين أو على رأس غمدان فكم هنأت أرض العراق بك العلا ووافت بك البشرية لأطراف عمان فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم أتاك استلابا تاج كسرى وخاقان ولو نشر الأملاك دهرك أصبحت عيالا على عليك أبناء مروان وشايحك السفاح يفتاد طائعا برأيه السوداء أهل خراسان فما المجد إلا ما رفعت سماكه على عمدي سمر الطوال ومران وهاتيك أيكار القوافي جلوتها تغازلهن الحور في دار رضوان أتتك أمير المؤمنين كئيبا لطائم مسك أو خمائل بستان تعاطمن حسنا أن يقال شبيها فراند در أو قلاند عقيان فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها وللدن تحميه بملك سليمان ولا زلت بالنصر العزيز مؤزرا تقاد لك الأملاك في زي عبدان انتهت القصيدة الفريدة قال في نفع الطيب أخبرني ناظمها أنه أراء بقوله ونافس بييتي في الولا بيت سلمان قبيلة سلمان التي منها لسان الدين ابن الخطيب إشارة إلى ولاء الكتابة للخلافة كما كان لسان الدين رحمه الله وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفارسي رضي الله عنه انتهى وهذه القصيدة على طولها من غرر القصائد ولذا لم يذكر في المنتقى من الأمجاد المنصورية غيرها وقد أتى عليها في نفع الطيب جدا وتتبع ما قيل في هذا الاحتفال وإقامة المولد العديم المثال من الأمجاد يفضي إلى الطول وفي هذا القدر كفاية وبالله التوفيق ذكر سيرة المنصور في ترتيب جيوشه وحالات أسفاره قال الفشتالي كانت السيرة على عهد أبي عبد الله المهدي وولده الغالب بالله وابنه المتوكل سيرة العرب في الجيش والمأكول والملبس وغير ذلك ولما ولي المعتصم حمل الناس على السيرة العجمية وجنح إليها في سائر شؤونه لما رأى منها في بلاد الترك حيث كان بها فكره الناس ذلك وأنفوا منه ووقفا مع العوائد فلما جاء الله بالمنصور ألف بين سيرتي العرب والعجم واصطفى من العجم موالى رباهم بنعمته وأسلمهم درور إحسانه منهم مصطفى بابي ومعناه بلغة الترك قائد القواد ويختص به قائد الإصباحية وكان برسم حراسة الباب العالي ومنهم الباشا محمود وهو صاحب خزائن الدار بيده مفاتيح بيوت الأموال ومنهم القائد علوج قائد جيش العلوج والباشا جؤدر فاتح السودان وهو قائد جيش الأندلس وكان لأهل الأندلس جيش عظيم رماة وعمار قائد جيش السوس فهؤلاء أكابر العلوج وتلبيهم طائفة أخرى منها بخيتيار وبغا ثم إن جيش العجم من الأتراك والعلوج قسمه إلى أقسام منها البياك وهم أهل القلانص الصفرية المذهبة ذوات الأعراف من ريش النعام

الملون يقفون سماطين أمام قبته أو فسطاطه والسلاق أهل القلائس الطويلة البيض المرسل على المناكب ويناط بها من أعلى الجباه جعاب صفر مذهبة ويضيئون إليها وقت الحزام أجنحة طولا يؤلفونها أيضا من ريش النعام الباقي على أصل خلقته ويركزونها في الجعاب المنوطة بالقلائس من أعلى الجباه ويرسلونها إلى وراء ويقف هؤلاء خلف البيك وبلدروش وهم أهل اللقايف وهي رماح قصيرة غليظة العصى مغشاة بالحديد ومرصعة بالمسامير البيض ركبت عليها أسنة عظام وزجاج هائلة بنبت من ريشتي كل سنان منها أضلاع مستقيمة ويقف هؤلاء خلف السلاق والشنشرية وهم أهل الطعام وضعا ورفع لا غير وقائدهم بختيار من سبي وادي المخازن والقبيجة وهم أهل حفظ الأبواب وغلقتها وفتحها وقائدهم مولود المشاوري وطائفة من هؤلاء تحرس ليلا

وتطوف على مساييف السور المحيط بالدار ومن وظيفة هؤلاء خدمة الكرسي والسرير اللذين يجلس عليهما السلطان بالإيوان وتعاهد أنماط الجلوس وكنسها والشواش وهم الذين يتولون ضبط الجيوش في المصاف في حرب أو سلم وإنهاء الكتب والرسائل للجهات بخير أو شر قال الفشتالي وهذا مما زادت به دولته على سائر الدول فإذا خرج في يوم عيد أو ملاقة أو تهنئة خرجوا متزيين وكل قائد يقف عند مبدأ انبعاث حبل جيشه تحت ألوية محفوفة بجيش من رؤساء جنده أهل الخيل وهم الذين يدعون عندهم بالبكباشات فاصلا بذلك بين جيشه وجيش من يردفه خلفه وهكذا يمتد إلى انبعاث الجيش من تلقاء أمير المؤمنين وكل يعرف مركزه ورتبته لا يتعداه إلى غيره بتقديم أو تأخر ولا يجد السبيل إلى ذلك لو أراد أن الفشتالي والترتيب الذي جرى به العمل في عساكر النار أن يتقدم أولا جيش السوس ثم يردفه جيش شراكة وكل منهما ينقسم حبلين ثم يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالي من المعلوجي ومن انضاف إليهم وعسكر الأندلس ومن ليس جلدتهم ودخل في زمرةم وهذا يسيران صفيين متساويين لاستواء مرتبتهما وعند العطاء تارة يتقدم هؤلاء وتارة هؤلاء غير أن الموالي يكونون في الميمنة لمزية الولاء وكلاهما يحظى بموالاة ركاب السلطان ويتقدم قائدهما محمود قائد الموالي وجونر قائد الأندلس وترفع على رأس كل منهما الرايات ويحفه عسكر من بكباشات ثم يواصل بهذين العسكرين الدخلة العظيمة المؤلفة من البيك والسلاق وبلدروش تفسير الفرق الثلاث أمام المنصور صفوفها متساوية فأما البيك فيلون ركابه يحفون به يمينا وشمالا ويرفع بالبيض رماحه اليزنية المنصوبة أمامه ومنهم صاحب المظل المرفوع على رأسه كالغمامة بحمله حالة ركوبه أقربهم درجة لقائدهم أبرويز وإذا مشى المنصور إلى جامع المنصور من جهة قبور الأشراف أو للمشتهي وهو الروض المتصل بقصر البديع على رجليه حمله أبرويز بنفسه ثم يسير عن يمينهم وشمالهم السلاق ويسير عن

يمين هؤلاء وشمالهم ببلدروش أهل اللقايف وتتكيف من الجميع صورة تزرع الرعب في القلوب وتسير الجنايب فيما بين سماطي هذه الدخلة مجنوبة صفا صفا إلى ألوية عساكر النار ومنبعث حبالها الممدودة بقودها صنف يدعون السراجة ركبانها وكانت جنائب الخلفاء بقودها الرجل من الزعة وهذا أكمل مزية وجيش الإصباحية الذي إلى نظر بيلارباي ينقسم كتيبتين عظيمتين تسير إحداهما ذات اليمين والأخرى ذات الشمال أمام الموكب الذي يرفع اللواء العظيم الأبيض المدعو باللواء المنصور علامة على شعار الدولة على رأس المنصور يسامته من خلفه وهناك ألوية كثيرة ذات ألوان مختلفة وأمامه الطبل العظيم الذي يسمع دويه من مسافة بعيدة ومن خلفه الطبول الأخر معها الغيطات واحدها غيطة يتولى الفخ فيها قوم من العجم أساتيد يتعلمونها فينفخون فيها فتنبعث منها أصوات وتلاحين لا تحرك الطباغ ولا تبعثها على شيء دون الحرب فإنها تتجمع الجبان وتقوي جأش الخائف حكمة فيلسوفية وهناك مزامير أخر وجعاب طوال صفرية على مقدار النفير تسمى الطرباط مما أحدثه أيضا في دولته وزادت به دولته فخامة وضخامة ثم يردف هذه الألوية والآلات من خلف أمير المؤمنين موكبه العظيم فهذا ترتيب جيش المنصور انتهى باختصار من كتاب مناهل الصفا وليس اتخاذ المظل مما أحدثته الدولة السعدية كما زعم بعضهم بل كان ذلك موجودا في الدول القديمة شرقا وغربا قال اليفرني وما ذكره الإمام الفشتالي من توافر أجناد المنصور وتكاثر جيوشه هو كذلك وقد أولعت العامة في ذلك بأخبار واهية وزعموا أن المنصور خرج مرة إلى الرملة بظاهر مراكش ولم تعلم أصحابه بخروجه حين علموا بخروجه تبعوه خفافا وثقالا فأمر بعد ما معه هناك من الجيش فوجد ثمانين ألفا فقال يا سبحان الله قد خاطرنا بأنفسنا حيث ركبنا في هذا العدد يستقله ولا يخفى ما في هذا الكلام من الإفراط والذي ذكره الشيخ أبو العباس أحمد أبقاي الأندلسي في كتابه المسمى ب رحلة الشباب إلى لقاء الأحباب ما معناه قال إن جزيرة الأندلس التي استردادها من أيدي

الكفار سهل واسترجاعها منهم قريب لما دخلت مراكش في أيام المنصور وجدت عنده من الخيل نحو من ستة وعشرين ألفا فلو تحركت همته لفتحها لاستولى عليها في حين اه بالمعنى اه كلام اليفرني وأما بيان حالة المنصور في السفر فقد قال شارح زهرة الشماريخ إن المنصور كان قليل الأسفار وإنما سافر إلى فاس مرتين لا غير وإنما كان متفرغا لذاته واستيفاء شهوته مدة خلافته قال اليفرني وبه يعلم أن ما شاع على الألسنة من أنه كان يركب فباس ستة أشهر وبمراكش مثلها ليس بصحيح والله أعلم وكان المنصور إذا سافر استعد غاية الاستعداد وأحسن في التهيئة ما شاء قال صاحب النفحة المسكية كان له قصر من عود مسمر بمسامير ومخاطيف وحلق وصفائح مفضضة على هيئة عظيمة وقد أحرق بذلك كله سرداق كالسور من نسيج الكتان كأنه حديقة بستان وزخرفة بستان وفي داخل القصر المذكور القباب الملونة بيضا وسودا وحمرا وخضرا كأنها أزاهير الرياض قد نقش ذلك أحسن النقش وملئ بأبهى الفرش واللسرادق الذي هو كالسور أبواب كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ثم ينتهي منها إلى القصر الذي فيه القباب وهذا القصر كأنه مدينة تنتقل بانتقاله وهو من الأبهات الملوكية التي لم يوجد مثلها عند الملوك الماضين اه ومما يتعلق به ما حكاه أبو فارس الفشتالي في المناهل قال خرج المنصور يوم الاثنين عاشر شعبان سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة لزيارة أضرحة الصالحين بأغامت قال فتأخرت وراءه فلحقني المولى عبد الواحد بن أحمد الشريف وأنا في أخريات الناس فأنشده أبا فارس بن الخليل وودعوا فقلت وولوا وحسن الصبر مني شيعوا فقال وغرد حادي البين وانشقت العصا وكاد فؤادي للنوى ينقطع فقلت إلى الله أشكو فرقة منهم وقد تجرعت من كأس النوى ما تجرعا ثم زدت لئن شرد السلوان عني بعدهم ففي صحبة المنصور أنسي أجمع ثم قال تدور عليه هالة لقبابه ومركزها قصر الخلافة يلمع فقلت سباح به بحر الندى متموج ومن أفقه شمس الإمامة تطلع وكان المنصور خرج لزيارة أغامت في شارة حسنة فلما بلغ أغامت مكث فيه يومين وفي الثالث نهض إلى زيارة الإمام أبي عبد الله الهزميري وعاج على ضريح الشيخ سيدي عبد الجليل ووقف عند الجبانة الكبرى فدعا ما تيسر وفرق أموالا على ذوي الحاجات على يد القاضي الشابطي والفقير الأمين أبي الحسن علي بن سليمان التاملي وكان معه الفقير القاضي أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي كان قد استقدمه من فاس برسم القراءة معه وكان الحميدي لوذعيا خفيف الروح وفي هذه السفارة صدرت منه الأبيات التي تبارى في معارضتها شعراء الدولة وقد ذكرها في النزهة فلتنظر هناك ومما يتعلق بأخبار الحميدي المذكور أن المنصور سافر مرة إلى تارودانت ومعه جماعة من الأعيان كالقاضي الحميدي وأبي العباس المنجور وغيرهما فخيم المنصور بباب تارودانت وضرب الناس أحببتهم فمر رجل عليه أظمار بالية وهيئة رثة ويقال إن هذا الرجل هو أبو عثمان الهلالي الروداني فوطئ على طناب من أطناب خيابة القاضي الحميدي فصاح القاضي من هذه البقرة التي قوضت على خيمتي متهمكا بالرجل فألقى إليه الرجل قرطاسا فيه أبيات وقال البقرة من لا يجيب عن هذه ونص الأبيات إلى بابك العالي مسائل ترتقي تقطن لهن يا حميدي واصلق فما الحكم في الأوزاع هل ساغ أكلها وما الحكم في موتى المجانين فانطق

وهل جاز للمسيوق بعد تشهد دعاء إذا ما رام إكمال ما بقي وما وزن ليس يا أديب وأصله وما جمع قلة لصاع فحقق وما وزنه شمر ولاتن وانتنا بجمع سواء والمقيد أطلق وبين لنا من في أعوذ برينا من إبليس والتخمين في الكل فائق فيدا للحميدي ما لم يكن يحسب وتوقف عن الجواب فرفعت القضية إلى المنصور فاستغربها وقال هذا رجل من أهل البادية فضح قاضي قضاء الحواضر وأمر المنجور فأجاب عنها يقال بعد أربع سنين وبعد موت السائل ونص الجواب جوابك في الأولى إباحة أكلها بمذهبا فأجزم بذلك وصدق كذا ابن حبيب في الخشاش أباحه لمحتاجه مثل العقارب فاسبق وقد قيل في الأوزاع يحرم أكلها وذلك في الكافي ليوسف فائق ومستفذر يحكي المخالف منعه وأنكره التنبيه فافهم ودقق ورجح ما

يحكي المخالف بعض من له العزو للتحقيق لا للتشدد وميت مجنون جرى خلف حكمه بعلم كلام لا تكن غير متق وتحققها إن الجنون الذي طرا يصير كموت فصل الحق يعقب فأونة بعد البلوغ طروه وحينما يرى قبل البلوغ فطبق وأونة إثر الصلاح وقوعه وحينما بعضيان الكبيرة يلتقي وحينما يديوم للممات وتارة يفيق فخذ حكم الجميع ويوثق ويندب للمسبوق دعوى تشهد وفاق إمام في المناجاة فارتق وليس له فعل كفال وأصله بكسر لياء فاكسر العين ترتق وجعك صاعا في القليل بأصوع وأصوع بهمز الواو فانهج ونمق وإن شئت فقله فيرجع أصعا لضابط تصرف فللعلم شوق وصاع كعالم عينه فرع ضمة وتحريكه فتح فزنه وحقق وجمع سواء فالذي منه جامد بأسوية علم يقاس ففرق ومشتقه وزن الخطايا قياسه سواسية ثقل فبالحق فانطق ومقصد من في العوذ بدء لغاية فإبليس مبدأ العوذ عند الموفق

انتفاض ولي العهد محمد الشيخ المأمون على أبيه المنصور وما آل إليه أمره في ذلك كان المأمون كما تقدم ولي عهد أبيه المنصور وكان خليفته على فاس وأعمالها سائر مدة أبيه وكان للمنصور اعتناء تام به واهتمام بشأنه حتى قيل إن المنصور كان لا يختم على صندوق من صناديق المال إلا قال جعل الله فتحه على يد الشيخ رجاء أن يقوم بالأمر بعده فلم يساعد القدر وخرج الأمر كما قال القائل ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن فأساء المأمون السيرة وأضر بالرعية قال اليفرنى وكان فسيقا خبيث الطوية مولعا بالعبث بالصبيان مدمنا للخمر سفاكا للدماء غير مكترث بأمور الدين من الصلاة وشرائطها ولما ظهر فسادها وبان للناس عواره نهاه وزير أبيه القائد أبو إسحاق إبراهيم السفيناني عن سوء فعله فلم ينته واستمر على قبح سيرته فأعاد عليه اللوم فلح في مذهبه ولما أكثر عليه من التقرير سقاه السم فكان فيه حنف القائد المذكور ومما أنكر عليه أنه قبض على كاتب أبيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى وهو مؤلف كتاب الممدود والمقصود من سناء السلطان المنصور ووظف عليه أموالا وابتزته ذخائره حتى كان مما أخذ منه ثمانون حسكة مذهبة ومائة تخت من الملف المختلف الألوان فلما كثرت قبائحه وترددت الشكايات لأبيه كتب إليه لينكف عن غيه وينزجر عن خبثه فما زاده التحذير إلا إغراء فلما رأى المنصور أنه لم يكثر بأمره ولم ينزجر عن قبائحه عزم على التوجه إلى فاس بقصد أن يمكر به ويؤديه بما يكون رادعا له فسمع الشيخ بذلك فجمع عساكره وهيا جنده ودفع المرتب لأصحابه وكان عدد جيشه فيما قيل اثنين وعشرين ألفا كلهم بكساوى الملف والحريير

على أحسن شارة وأكمل زي وعزم أنه إن بلغه خروج أبيه من مراكش أن يتوجه في أصحابه إلى تلمسان ويستجير بالترك فلما بلغ المنصور ما عزم عليه الشيخ من الذهاب إلى تلمسان تخلف عن الخروج من مراكش وكتب إلى الشيخ يلاطفه ويأمره أن لا يفعل وولاه سجماسة ودرعة وتخلي له عن خراجها وقال له قد سوغتكه ولا أطالبك فيه ومراده بذلك أن تسكن نفرتة ويرجع إليه عقله فآظهر الشيخ امتثال الأمر وخرج يؤم سجماسة فما انفصل عن فاس بشيء يسير حتى ندم ورجع إليها وعاد لما كان عاكفا عليه فبعث إليه المنصور أعيان مراكش وعلمائها فقصحوه ووعظوه وخوفوه وسخط والده وحذروه عاقبة العقوق ولم يألوا جهدا في نصحه فوجوده مشغول القلب عن نصيحتهم مغمور الذهن بخلاف قولهم إلا أنه أظهر الرجوع عما كان عازما عليه من الفرار عن أبيه وأقصر في الظاهر عن بعض تلك المساوي فرجع الوفد إلى المنصور وقالوا له إنه قد تاب وحسنت حاله واطمأنت نفسه وأنه واقف عند الأمر والنهي فلم يطمئن المنصور لقولهم وقال لهم لعل هذا إطفاء لنار الشحنة وكتب لإصلاح الباطن وصمم على المكر بالشيخ فكتب إليه كتابا طويلا يلومه فيه على بعض الأشياء وفي ضمن ذلك تسكين خاطره حتى يبعثه على حين غفلة ونص الكتاب من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله أومره وظفر عساكره إلى ولدنا وولي عهدنا الأمير الأجل الأفضل الأكمل الأعز بابا الشيخ وصل الله كمالكم وسنى من خير الدارين آمالكم ووسلام عليكم ورحمه الله أما بعد فكتابتنا هذا إليكم من حضرة مراكش حاطها الله ولا جديد إلا ما عوده مولانا من الخير لله الحمد وله المنة هذا والذي أوجه أسعدكم الله وكلاكم أنه بلغنا أنكم قد استخدمتم هناك جماعة من أولاد طلحة كأولاد أخي علي بن محمد وأخي علي بن ملوك وغير هؤلاء وأنك قد فرضت لهم في أعطيائهم نحو خمسة آلاف وإلى هذا أي مصلحة ظهرت لك في استخدام هؤلاء القوم حتى تتحمل كلفة فرض هذه الفروض بل ما

في ذلك إلا الفساد البين لأن هذا الذي تعرضتم له لا يفي به المغرب ولا يقوم معه بكم شيء ومسالمة هؤلاء أولاد طلحة إن كنت رأيت استخدامنا وأردت تقليدنا في ذلك واقفنا سيرتنا فيه فاعلم أن بيننا وبينكم في هذه المسألة فرقا من وجوه منها إن مراكش ليست كفاس وإن خدمتهم هنا لبعدهم عن بلادهم ليست كخدمتهم هناك وأبضا هؤلاء الناس أنا أعرفهم وكنتم في بلادهم وهذه الخدمة كانوا قد طلبوها مني وأنا هناك فوعدتهم إذ لا يمكنني وأنا ببلادهم إلا مساعدتهم فلما جاؤوا اليوم وطلبونا بالوعد لم يمكن إلا الوفاء لهم به فعليه شرطنا عليهم مراكش وسكناها وعلى هذا الشرط استخدمناهم ومع هذه الوجوه كلها والاعتبارات فقد ندمت والله على استخدامهم غاية الندامة وكنتم في ذلك على خطأ إذا كان الأولى إن كنا حاسناهم وتركتناهم في الخدمة وأما أنت ففي مندوحة عن هذا كله لأنه لا وعد لك سابق حتى يلزمك الوفاء به ويمكنك أن تحيلهم على إذنا ومشورتنا فنكفهم عنك بالشرط الذي شرطنا عليهم من الخدمة هنا بمراكش وسكناها وعلى هذا الشرط استخدمناهم من استخدامنا وإلى هذا فالذي تؤكد به عليك أن تنقصهم من الخدمة ولا تستخدم منهم حتى فارسا واحدا أصلا من الذين ذكرنا لك ومن غيرهم من كافة أولاد طلحة وأمرناك أن تتصل لهم فينا وتقول لهم إن السلطان معني من استخدامكم هنا وتقرأ عليهم كتابنا الواصل إليكم صالحة هذا لتتفادى منهم ولكن الجفاء مع هذا كله لا تظهره بل تحسن اللقاء بهم وتواليهم بإظهار البشر والقبول وباب الطمع تسده دونهم والذي شق علينا أعظم من هذا كله واستتكرناه ولم نجد صبيرا عليه هو ما وجدناهم قد اطلعوا عليه أعني أولاد طلحة علي بن محمد وغيره من أحوالكم وأخباركم وأفنيانهم قد توصلوا من ذلك إلى ما لم يتوصل إليه أحد من كبار خدامكم أهل بلادنا وخواص أهل بلادنا لأن أهل بلادنا أحياء ما لهم بحث إلا في مصالح أنفسهم هؤلاء إنما ينتقدون ويبحثون عن الغرة وعورات المملكة فإذا بكم تتخذونهم بطانة وأصدقاء وتطلعونهم بأحوالكم

وأمرهم مع أن القوم لا زالوا ببلاد العدو وبين أظهرهم وما يطلعون عليه تحتاج قطع وتجزم بأن الترك قد اطلعوا عليه حتى كأنهم شاهدوه ووقفوا بأنفسهم عليه وأبضا لو كانوا أصدقاء ولا يريدون بنا إلا خيرا فالقوم عرب لا يتحفظون على ما يطلعون عليه ولا يفهمون ما يحسن إخفاؤه ولا إبدائه ولا يتمالكون قولا ولا نطقا وبالجملة فقد أحرقتنا هذه المسألة وتفترت لها أكبادنا وصارت قلوبنا منها مطعونة وما عندكم علم بأن الناس كانوا يتحفظون في أقل الأمور أن يطلع عليها الأجانب وإن كانوا أحب من كل محب وأقرب من كل قريب وهل ما عندكم علم بأننا أخانا بابا منصور كان عرض له عرض ضعيف جدا أراد أن يطلبه من أخينا بابا عبد الله وحضر في المجلس منصور بن المزوار فلم يرد بابا منصور لفطنته أن يذكر ذلك حتى يشاور من بزازته لئلا يكون عيب في ذكر ذلك بمحضره فعليه شاور القائد دحو بن فرج كان بزازته فقال له هذا رجل براني فلا تطلب شيئا قدما على أن منصور بن المزوار هذا كان مع أسلافنا من أقرب ما إليهم من خواص الخدام أهل بلادنا محبة وقربا لأنه أسلف معهم خدمة عظيمة فقد كان عدوا للترك وبينه وبينهم أرواح وحضر مع أخينا باب حمو الحران جميع ما كان في تلك البلاد أيام استيلائه على المغرب الأوسط ثم مع بابا عبد القادر كذلك وشرب معهم الحلوة والمرة ولما جاء من تلمسان جاء بأولاده منها رحلا كما جاء منها بابا عبد الله بأولاده وكما جاء معهم خدامنا أهل تلك البلاد وما زال على الخدمة والوفاء حتى حصلت له يد عظيمة مع أسلافنا وناهيك بمن بلغ إلى أن قلده حضرة تازا ثم بلاد الفحص التي لا تعطى كلتاها إلا لأقرب الخدام الموثوق بمحبتهم وخدمتهم وقربهم ومع بلوغه إلى هذا المبلغ كله محبة وصداقة وهجرة وانقطاعا حتى انه في دخول صالح رئيس مدينة فاس رحل بأولاده مع السلطان إلى هنا كما فعل أهل هذه البلاد وحين دخلنا نحن من جهة الشرق لفاس رحلوا أيضا مع صاحب الجبل إلى مراكش ولا يعدوا أنفسهم من هذا الجانب أبدا في الحديث القديم ثم إن الناس استبعدوا أن يطلبوا أقل المسائل بمحضره وقالوا إنه

براني فضلا عن هؤلاء الذين ما زالوا إلى اليوم في بلاد العدو يباكرونه ويرأونونه فإذا بكم تنزلون معهم إلى أن تطلعوهم على أمورهم ويتوصلوا إلى المعرفة بأحوالكم فما تمالكنا لهذه المسألة ولا وجدنا عليها صبيرا ومن جملة الأمور التي غاظتنا وقلنا كيف يتوصل الرجل البراني

إلى أمثال هذه الأمور أن علي بن محمد كان يتكلم يوما معنا وأخذ يثني عليكم في نجدتكم وصبركم عند الشدة وسخاكتكم عند الحاجة ثم قال إلا أن الخيل ليست عنده لا في الحركة الأولى ولا في الثانية لأن القبائل أهل الخيل امتنعوا من الحركة معه وهي التي غاظتني وقلت كيف يتوصل الرجل البراني إلى أمثال هذه الأمور حتى أننا ما وجننا إلا الرد عليه وعكس ما عرفنا أنهم اعتقدوه وقلنا اللهم نسبة التقصير إليكم ولا اعتقادهم خلو البلاد من الخيل لأننا فهمنا منهم ذلك ولهذا أجبته وقلت له إن ولدنا لم يعطهم شيئا وأعطى من لا يستحق من ضعفاء القواد المعروفين بأكل المال وعدم المخزنية ولو أعطى تلك القبائل لحشرها عليه لأن أولاد مطاع عندهم من الخيل نحو الثلاثة آلاف وعند أولاد أبي عزيز نحو ألف ونصف وعند الغربية وعند أولاد عمران وعند عبدة وعند الشياظمة وعند أولاد أبي رأس وعند أحمر وعند المنابهة أهل سايس وعند المنابهة أصحاب عمر بن محمد عبو وجعلت أعد له قبائل السوس وقبائل مراكش وأحصى له خيلهم بما بهته وقلت له لو أنصفهم لحرك منهم معه ستة عشر ألفا أو أكثر ويكون قد ملأ بهم تلك البلاد وسال عليها من سيل العرم لا في الحركة لأولى ولا في الثانية ولو وجه إليهم المحركين والرماة لآتوه أيضا بلا خلاص وإلى هذا نوصيكم على المحافظة من أولئك الناس ومن رفع الحجاب لهم عن أموركم والاطلاع على أحوالكم وعدم الغفلة عن أمثال هذا واعلم أن من جملة ما بلغنا أيضا أن الخلط رجعوا كلهم رماة على يد مصطفى باشا مع حديث عهدهم بالفساد والخلاف وكنا انتشينا معهم بالعودات فإذا بهم اليوم بالمداغ وعدة النار وهل هذا يجوز عليكم حتى تسمحو فيه مع أن هذه المسائل ليست بغائبة عنكم سمعتموها بالسمع فقط ولا طويلة عهد حتى

تتساها بالأمس شاهدت وبارتت وأريت فما الذي أنسك فلعلمهم وما زال جرحهم الآن لم يبرأ لأن خروج القائد مؤمن الخارج الآن ما كان إلا إليهم والآن نؤكد عليك أن تقتصمهم من الخدمة ولا تسمع لمصطفى في هذه المسألة وقد سمعنا أيضا أن قواد الفساد الذين عندكم من أولاد حسين قد صارت جملتهم من باب الخميس إلى دار الدبيبيغ وكانكم نسيتم أيضا ما عمل أولاد حسين بالأمس دون بعد من النهب وأضرموا من الفساد في البلاد حتى ينزلوا تلك المنازل وإلى هذا فساعة وصله إليكم تقيض على قواد الفساد هؤلاء خصوصا أحمد بن عبد الحق من أولاد يحيى بن غانم الذي كان أبوه حاجبا عند المريني فهو أصل الفساد ثم لا تترك لقبائلهم جناحا واحدا وزد للقائد مؤمن بن ملوك ألف رام ليستوفي لكم الغرض في هؤلاء وأمثالهم من كل ما تأمره به لأن بقاء الرماة هنالك ما فيه إلا الاستغلال بالفساد في المدينة فتحتاج أن تتولاهم بالقتل كل يوم باطلا فكان خروجهم إذ ذاك دفعا لمضرتهم وجلبا للمصالح بهم وحتى الكاتب اللائق بأمثالكم ورسائلكم لم يكن عندكم لأن كتبكم تأتي بخط سالم وهو غير عارف بالإنشاء وتارة بخط الكريني وهو جاهل مع أنك لما كنت خليفتنا وولي عهدنا كنت بصدد أن يكتب لك كل أحد لا صاحب الجزائر ولا صاحب تونس وحتى صاحب الترك وصاحب النصارى وكل من يكتب لنا من ملوك الأرض بصدد أن يكتب لك فتحتاج حينئذ إلى من يحسن الجواب عنك لكل من يكتب إليك ويكون أيضا ممن يوثق به في المحافظة على أسراركم وإلى هذا فلا بد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرى وصاحب مشورك وصاحب المظالم كما هنا هو عندنا السيد علي بن سليمان واعلم أن مما تحتاج أن ننبهك عليه مسألة القواد الذين يريدون أن يحملوك أثقال أولادهم مثل ما فعلت في أولاد القائد بركة وإخوتهم الذين استخدمتهم وجعلت لهم خمسمائة أوقية فؤكد عليك أن لا تستخدم منهم أحدا فما أعطيناهم سلا إلا ليرفع فيها أولاده وإخوته وكذلك

الحكم في أمثاله ممن أعطيناهم عملا وقلدناه قيادة ومن جملة من نحذرك من استخدامهم في الرماية أهل الجبال من أهل الصحفة والدينار فلا تستخدموا منهم أحدا وإلا فاعلموا أنك ما أردتم حينئذ أن يفرموا لكم ولا يعطوكم شيئا وإن أردتم الخدمة فهاهم أهل هذه البلاد مثل أهل السوس وأهل درعة وأهل مراكش فكل ما تستخدمون من هؤلاء فلا عليكم وإذا لم يكن من هؤلاء وكان ولا بد من غيرهم فمن أهل فاس سكان الحاضرة وأما من عداهم فلا على أن الرماة أهل السوس ها هي عندنا كثيرة فكل ما تريد منهم عرفنا نبعثهم إليك ونضيفهم إلى خدمتك ونؤكد عليك أن تكتب بجواب هذه الأمور كلها فصلا فصلا مع المملوك الحامل لهذا الكتاب إن شاء الله ولا بد وهذا موجب إليكم والله يحرس بمنه علاكم والسلام وفي مهل جمادى الأولى من عام أحد عشر وألف اه ثم لم يلبث المنصور أن بعث إلى ولده زيدان وكان خليفته على تادلا بإمره أن يرسل مائة من الفرسان على طريق تافيلات وكل من وجوه قاصدا للغرب من ناحية مراكش يرودنه وأرسل مولاة مسعود الدوري على طريق سلا يفعل مثل ذلك وخرج المنصور من مراكش في اثني عشر ألفا أوائل جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وألف وجد السير فلم يمض إلا أيام قلائل حتى نزل بالوحد موضع قريب من فاس والشيخ في جميع ذلك لا شعور له بخروج أبيه ولا بما هو عليه فبعث يوما عيونيه يرصدون له من قدم من مراكش ويكشفون عن الخطر فما راعهم إلا الأباطح تسيل بأعناق الجياد وأفواه الشعاب تقذف بالجيوش من بطون الأودية والوهاد لأنهم كانوا قد عميت عليهم الأنباء بقطع المنصور للسبلة فرجعوا إلى الشيخ مسرعين والرعب يفت في أعضادهم ويطفئ جنوة عزائمهم فقصوا عليه ما دهمهم وأخبروه بما رأوا فعلم أنه محاط به فلم يمكنه إلا الفرار فركب من حينه وفر إلى زاوية الشيخ الصالح أبي الشتاء من بلاد فشتالة قرب نهر ورعة وكان الشيخ أبو الشتاء قد توفي قبل ذلك سنة سبع وتسعين وتسعمائة كما في

المرأة فنزل بالزاوية ومعه بطانته وأصحاب دخلته من الأحداث وقرناء السوء فبلغ خبره المنصور فبعث إليه الباشا جودرا مع القائد منصور النبيلي وحلف لهما بأغلظ الأيمان إن لم يأتيها به ليكرن بهما ويجعلهما عبرة فذهبا إليه فامتنع من الدخول في يدهما وانعزل في أصحابه حتى ناوشوه القتال وتراموا بالنبال ثم قبضوا عليه وأتوا به إلى المنصور في خير طويل فأمر به إلى مكناسة فسجن بها ودخل المنصور دار الملك من حضرة فاس الجديد وشكر الله على ما أولاه من الظفر والنصر من غير إراقة دم وتصديق في ذلك بأموال عظيمة وكتب بذلك إلى ولده أبي فارس خليفته على مراكش يعلمه بما كيف الله له من الظفر والنصر ونص الكتاب إلى ولدنا الأجل الأرضى الأكمل الأصدق الأجدد الأسمى الأسنى بابا أبي فارس وصل الله كمالكم وسنى بمنه آمالكم وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فكتابنا هذا إليكم أسعدكم الله من محلتنا السعيدة بالمستقى ولا شيء إلا ما جرت به الأقدار وحكم به الفاعل المختار وما جاء به من عجائب الدهر الليل والنهار وهي قضية أخيكم التي ثارت إلي بها صروف الدهر من مكمني وطلعت علي من مأمني إلا أن الله تعالى بصنعه الجميل كفانا أولا ثم شفانا آخرا لله الحمد دائما والشكر واظبا وشرح ذلك أسعدكم الله ووقاكم سوء إن الحال كان انتهى في معالجة أمره الذي تجاوزنا في وجوه الخير إليه حد الاستقصا وأتينا في محاولة استصلاحه من أحوال السياسة المرجوة النجاح بما لا يحصى إلى ما كنا سوغناه من ولاية سجماسة بخراجها وخراج درعة وأبنا له التوجه إليها بجملته وجمعه رجاء أن تسكن بالانتباد إليهما نفرتة وتطمئن نفسه ويثوب إليه قلبه الطائر ويراجعه أنسه الحائر فأظهر أولا التوجه إليهما ونهض مرتحلا عن فاس موربا بالقدوم عليهما ثم بدا له على الحين فكر راجعا إلى فاس ورجونا أن يكون قد ذهب عنه النفار والشماس وثاب لنفسه السكون والاستئناس فإذا به قد انطوى برجوعه على خلاف ما أظهر فأبدي ما أضرم فما كان إلا أن

طرا عليه خبر نزولنا بالوحد فلم يتمالك أن أقلع ليلة الخميس خامس عشر شهر تاريخه إقلاعا أز عجه من الدار فريدا وطارت به النفرة إلى أن حل بزواية الشيخ أبي الشتاء وحيدا فتلاحق به من جيش رماة اليكشارية ومتفرقة سماسرة الفتقن وطلائع الشوم والمحن جمع عظيم وعدد من كثرته لا يريم فيادرت حينئذ بتجهيز جودر باشا من غير إغفال في خمسمائة صباحية ومعه القائد مؤمن بن ملوك في خمسمائة فارس ثم أردفناه ببعوث آخر تألبت إليه وتناثرت عليه تناهز الألفين ورماة بابا زيدان حفظه الله فأحذقت به من كل الجهات وملكوا عليه الفجاج والتثبات ونحن مع ذلك خلال هذه الأحوال لم نهمل مقابلة نفرتة بالتسكين وما يخشن من أحواله بالتليلين بارسال المرابطين تجاهه بمواثيق تهنئه وعهود تؤنسه وتقرب أمانيه رجاء أن يثوب إليه ثابت استبصار أو يخطر له خاطر إقلاع عما هو عليه وإقصار وقرناء السوء المتلاحقون به من جيشه يقدحون للشر نارا ويزينون له عوقفا ونفارا فدهمتهم حينئذ عساكرنا المظفرة بالله في مصافهم دونه ودارت بين الفريقين حرب عظيمة فخدمت النار من وقت الظهر إلى العصر فأظهر الله تعالى فئة الحق على فئة الباطل وقضى بما جرى به القضاء المحتوم الحكم العادل وكتبناه إليكم وقد حصل في القبضة كما سبق به القضاء والقدر وجعل بمكان الاحتياط عليه من مكناسة فكانت مشيئة الله في ذلك من إحدى العجائب العبر وعرفناكم أسعدكم

الله لتستشعروا صنع الله في هذه الداهية التي فجئت بها الأيام ودهمت والغاشية التي اعتركت وادلهمت وتقدرنا ما صنع الله في ذلك من حسن العاقبة حق قدره وتشكروه فهو الجدير بجميل حمد كل لسان وشكره ونسأله تعالى أن يجعلكم في حيز الكفاية وجانب الوقاية حتى لا تساووا بقریب مأمون ولا ببعيد مظنون وفي ليلة الثلاثاء الموفي عشرين من جمادى الأولى عام أحد عشر وألف اه ثم إن أم الشيخ واسمها الخيزران بعثت إلى أعيان مراکش الذين قدموا مع المنصور ترغبت إليهم في أن يشفوا لولدها عند أبيه ويعتدروا عنه بما يزيل ما في بطنه عليه فتقدموا إلى المنصور وقالوا له إن الشيخ قد

صلحت حالته وتاب مما كان عازما عليه وأنه ندم على ما فرط منه فقال لهم اذهبوا إلى مكناسة واختبروا أمره كفايا وانظروا هل رجع عن أباطيله وتتصل من أضاليه فلما أتوه وجدوه أخيب مما تركوه وعابنوا منه من القبايح ما يقصر عن وصفه اللسان فلما جلسوا إليه في محبسه لم يسألهم إلا عن أصحاب بطانته وقرناء السوء من أهل غيه ولم يظهر الأسف إلا على تلك العصابة ورأهم أهل الإصابة وكان من الأعيان الذين وجههم المنصور أولا وأخرا أولاد الشيخ أبي عمرو القسطلي وأولاد الشيخ أبي محمد عبد الله بن ساسي وأولاد الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكر وغيرهم فلما رجعوا إلى المنصور من مكناسة سألهم عن الخبر فافق بعضهم وقال وجدناه تائبا نادما على ما صدر منه وتكلم بعض أولاد الشيخ ابن ساسي فقال لا والله لا داهنت في حق الله ولا واجهت الأمير بالخديعة إن ولدك لا نأذن لك أن تؤمره على اثنين ولا تحكمه على عيال الله فإنا وجدناه خبيث الطوية قبيح السريرة لم يندم على ما فرط منه فسكت الحاضرون ولم يتكلم أحد فقال لهم المنصور افتوني في أمر هذا الولد فلم يجبه أحد إلا باشاه عبد العزيز بن سعيد الوزكيي فإنه قال له الرأي أن تقتله فإنه لا يجبر أمره ولا يرجى صلاحه وقد رأيت ما صنع فلم يعجب المنصور ذلك وقال كيف أقتل ولدي ثم بعث إلى مكناسة يأمر بالتضييق على الشيخ والزيادة عليه في ذلك ثم خرج المنصور فزل بمحلته في ظهر الزاوية قاصدا مراکش بعد أن استخلف ابنه زيدان على فاس وأعمالها وقد كان كتب إلى ولده أبي فارس خليفته على مراکش برسالة أجابه فيها عما كتب به إليه في شأن الوياء الذي ظهر بالسوس ومراكش هل يفر منه أم لا ونصها من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الإمام الخليفة المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسني أيد الله بعزیز نصره وأمره وظفر عساكره وأسعد بمنه موارده ومصادره إلى ولدنا الأجل الأفضل الأكمل الأعز الأبر الأبعد الأمجد الأرضي بابا أبي فارس وصل الله تعالى عنايتكم

ووالى بمنه رعايتكم وسلام عليكم ورحمة الله أما بعد فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العالمة بالله المدينة البيضاء حاطها الله عن الخير والعافية ونعم الله المتوفية لله الحمد وله المنة وأنه اتصل بعلي مقامنا كتابكم الأعز عشية يوم الثلاثاء فكتبنا إليكم صبيحة يوم الأربعاء ولولا أنه وصل يوم الديوان ما كنا نؤخر كتب الجواب لكم عن ساعة وصوله في اليوم بنفسه حرصا منا بذلك على المبادرة بوصوله إليكم في الحين وإلى هذا أسعدكم الله أن أول ما تبادلون به قبل كل شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوياء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد ويبقى في القصة وصيفنا مسعود مع القائد محمد بن موسى بن أبي بكر وتركوها مائة رام تقفون بها من رمايتكم مع أصحاب السقيف وتتكون على الله وتخرجون بالسلامة ثم لا تعملوا كعملنا في الاقتصار على الرميطة والتقلب بها بل لا تزيدوا إذا خرجتم على المقام أكثر من يومين ثم اطوا المراحل إلى أن تنزلوا بسلا وتدخلوها دخول هناء وعافية إن شاء الله وهناك يكون لقاءنا بكم لقاء يمن وسعادة إن شاء الله ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق أسعدكم الله فلازموه وإذا استشعرت منه حرارة وتخوفتموها فاستعملوا من الوزن الوصف المعروف منه ولا تهملوه وأما ولدك حفظه الله فلما كان من سن الشبيبة بحيث منعه الحال من الدوام على الترياق فيها هي الشربة المعروفة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة هناك عند التونسي فيكون يستعملها هو والأبناء الصغار المحفوظون بالله حتى إذا أحس ببرد المعدة من أجلها تعطوه الترياق المرة والمرتين على قدر الحاجة فيعود إليها والله تعالى بمنه وبحرمة صفة خلقه خير البشر محمد يتولى حمايتكم جميعا ويحكم من جميل كلاءته ورعايته حصنا منيعا وأن يعاقب البلاد والعباد بمنه وفضله والسلعة أسعدكم الله تبادلون بإرسالها إلينا وكذلك القائد مسعود النبيلي تعزمون بإرساله إلى حيث أمرناه بالمقام من خنق الوادي بالسوس وطريق تاحظيشت واعلم أسعدكم الله ما قط أرضانا أن أمرها يتم وقبل عقلنا الكريم إن أهل درن يتجرون بسببها ولكن هذا سبب يكون حجة عليهم إن شاء الله وأنتم

تحاولون أسعدكم الله سلوك الناس على يوبياون على العادة وتجهدوا في أن تكون إن شاء الله سابلة وأولانكم أعني أهل طريق تاحظيشت يسكت عنهم حتى نصل بخير وعافية لتلك البلاد إن شاء الله ومسالمة أيسي التي كتبت لكم من خنق الوادي على الزرع وأنه ما عندهم ما يكفيهم منه سوى شهر فقد كنا كتبنا لكم أسعدكم الله على حمل الزرع إليهم على البحر فإن كان قد تيسر ذلك فيكون قد بلغ إليهم وإن لم يكن ذلك قد تيسر فلتأمر أيسي هذا بالتبدير على الزرع ولو بالشرء والزموه عهدته وشدهوا عليه في أمره وخالنا القائد حمو بن محمد الذي استأذنتكم في الخروج عن ذلك المرض من المحمدية فإذا تفاقش فلا عليه في الخروج ويلتحق بأهل تلك المحلة بخنق الوادي ويترك في القصة أهل الأندلس مع قائدهم ومسالمة مؤمن بن منصور مع هكسيمة التي ذكرتم أسعدكم الله إن مؤمنا قد تناقل بدمنات بسبب مرض ألم به حتى جاء به شواش وإن أخاه ذلك المفسود بعث إليه يلتقي معه بتامصلوحت فعلى بركة الله والحاضر بصيرة وهذا موجه إليكم والله يصل بمنه رعايتكم والسلام وفي يوم الأربعاء رابع عشر رمضان المعظم عام أحد عشر وألف عرفنا الله خبره وبركته وبعد أن كتبنا لكم هذا بلغنا كتابكم ونحن نجيبكم عما تحتاجون إلى الجواب عنه والبطاقة التي ترد عليكم من السوس من عند الحاكم أو ولد خالك أو غيرهما لا تقرأ ولا تدخل دارا بل تعطى لكاتبكم هو يتولى قراءتها ويعرفكم مضمونها ولأجل إن كاتبكم يدخل مجلسكم ويلابس مقامكم حتى هو لا يفتحه إلا بعد أن تغمس في خل ثقيف وتنتشر حتى تيبس وحينئذ يقرأها ويعرفكم بمضمونها إذ ليس يأتيكم من السوس والله سبحانه أعلم ما يوجب الكتمان عن مثل كتابكم وقد طالعا كتاب ولد خالك أحمد بن محمد بن الصغير وصح عندنا من فحوى كلامه ما ذكرتم عنه من أنه أكثر من خبر الوياء ليحده ذريعة للخروج من السوس

والذي تأمرونه به أنكم تحذرونه من القدوم عليكم بمراكش وإن ذلك لا يرضينا منه وكيف يروم الخروج من موضع عيناه له من غير أمرنا لا سيما مع غيبتنا عن البلاد وأنه إن فعل ذلك لا محالة تسقط منزلته عندنا ثم لا يعود أبدا إليها إلا أن تفاقش المرض بتلك الناحية فلا عليه في الخروج والتنقل قرب البلاد أو يلتحق بمحلة أصحابه الذين بخنق الوادي وأما ما ذكرتم عن محمد بن عبد الرحمن الوردى فقد طالعا الجريدة التي جرد لكم وتصفحناها ورأينا أن جل ما يطلبه بها لا يمكن مع غيبتنا والذي نأمركم به في مسألته أنكم تحاولون في رده لموضعه فإنه بذلك الموضع أليق من أخيه بكثير وكل ما يمكنكم من أغراضه المسطرة فاقضوه له وما لا يمكن عدوه به عند قدومنا إن شاء الله وأما أمر أخي أحمد بن الحسن الذي عيناه لجباية درعة وذكرتم أنه غير لائق بها وأنكم استصغرتموه عن تلك العمالة فلا شك أنه كما ذكرتم ولكن إنما وقع الاختيار عليه لأمرين الأول الذمة لأنه بماله ولا نخشى إن شاء الله على مالنا الثاني إن خراج درعة سهل معلوم ولعله يكره هذه الولاية ويجب الجلوس بداره ويغري من يتكلم فيه عندكم فإن كان من ذكره لكم مثل مسعود أوتاودي فاتمه وقد طالعا في جريدتكم أنكم وجهتم مع زرع المعاصر مائة رام وهذا الذي ذكرتم ما نعلم أنا كتبنا لكم عليه قط وإنما كتبنا لكم على الزرع تحملونه في البحر برسم المحلة التي هناك بخنق الوادي فإن كان هو هذا فحن أردناه للمحلة وإن كان غيره فعرفنا بقضيته فإن زرع المعاصر إنما يلزم اليهود والنصارى المكثرين للمعاصر وفيها أيضا ما أخبركم به أحمد بن محمد بن موسى بخير ما سقط من القطرة وإنكم عنفتموه على عدم المبادرة وقد أشكل علينا الأمر لأنكم لم تعرفوا مقامنا بالساقط هل هو من القديم أو من هذا الإصلاح الذي أمرنا به فعرفنا لتكون على بصيرة من ذلك وفيها أيضا مسألة أولاد طلحة فببروا عليهم إما من عند أيسي أو غيره حتى لا يرجعوا إلينا شاكين وولد إبراهيم بن الحداد إلى الآن لم يصل وزمام الأسرى وصل وأما الدراقة التي ذكرتمتها السلتة المعدة لها عند صاحب بيت ثيابنا فوجه ليوسف العبد حتى تكلمه

ومره يخرجها من عنده وركبها في موضعها ولا تركب التي عندكم بل تمسكونها لأنفسكم واعلم أنني تركت عند أولئك المعلمين أعني معلمي بركاضو سلاتي برسم ابنتنا العزيزة طاهرة صانها الله وكلاها وحيث يفرغون من الدراقة اجمعهم عليها كي نجد ذلك طالعا إن شاء الله فإنا قد

أمرنا بنسج درارق تلكم السلاتي هذا والمراد أن تجد السلاتي قد فرغ منها إن شاء الله وقصر الخيل مع الحمام حرض المعلمين على المبادرة باشتغالهما بهما وحاول أن تسقفوا ذلك البلاط الذي يوالي سور القصبه من قصر الخيل والقبه التي فيه لنجده كاملا إن شاء الله عند قدومنا عليكم وحتى سوارى الرخام ركبوها في تلك الجهة إذا سقتم ولا تزالوا تعرفونا بما تزايد من الأشغال في الموضوعين المذكورين وأوصيكم أعزكم الله أن تتفتقوا فرسنا الأحمر الصغير ولا تتركوهم يعطونه القصيل لنلا يكثر لحمه ويزداد ألمه بل انظر له من يركبه كل يوم بل لا تنزع السرج بالكلية عن ظهره بياض النهار كله أو أعطوه لصاحب المسرة يركبه في ذهابه وإيابه لداره والمسرة وأوصوه أن لا يركبه غيره ولا ينزل عن ظهره النهار كله وأوصيكم أيضا إذا ظهر المرض بتلكم الناحية وخرجتم خروج يمن وسلامة بحول الله وقوته أن لا تتركوا وراءكم بنت عمكم والدة ولدنا العزيز بابا عبد الملك حفظه الله وأمر يوسف العبد أن يخرج لكم من عند صاحب بيت الثياب القدر المحتاج إليه من الترياق الجديد الذي كان بقية المشور ويدخل على أيديكم لدارنا واستدعوا أم المال قهرماتة الدار وأعطها إياه برسم أهل دارنا وأمرها أن تعطيه إياه في كل رابع من اليوم الذي يأكلونه فيه وهي أيضا تأكل منه والعبد يوسف أيضا يأكل منه وحتى صاحب السقيف أعطوه منه أعني مسعود بن مبارك والله سبحانه يرعاكم ويتولى حفظكم أنتم وأولادكم وقد استودعناكم الله الذي لا تضيع لديه الودائع وأنتم في أمان الله وحفظه والله سبحانه خليفتي عليكم أنتم في يمين الرحمن وكلتا يديه يمين والسلام الأتم

عائد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ونسلم على ولدنا الأعز الأرضى بابا عبد الملك وعلى ابنتنا الرضية سيده الملك ونحن في غاية الاشتياق والتوحيش لها جمع الله بكم الشمل جميعا أمين بحرمة سيدنا محمد وعلى آله خير آل والسلام اه قال مؤلفه عفا الله عنه قد وقع في كلام المنصور رحمه الله أمران يحتاجان إلى التنبية عليهما الأول إنه لولده أبي فارس في الخروج من مراكز إذا ظهر بها أثر الوباء ولو شيئا يسيرا وهذا الأمر محظور في الشرع كما هو معلوم ومصرح به في الأحاديث والثاني أمره إياه أن لا يقرأ البطائق الواردة عليه من السوس وإنما يتولى قراءتها كاتبه بعد أن تغمس في الحل وهذا عمل من أعمال الفرنج ومن يسلك طريقهم في تحفظهم من الوباء المسمى عندهم بالكرنتينة وقد اتفق لي فيها كلام أذكره هنا تنميما للفائدة وذلك أنه لما كانت سنة ست وتسعين ومائتين وألف عرض لنا سفر إلى حضرة السلطان المولى أبي علي الحسن بن محمد الشريف أيده الله عز وجل بمراكش المحروسة بالله فخرجنا من سلا أواخر ربيع الأول من السنة المذكورة ومررنا في طريقنا على المحب القائد الأنبل أبي عبد الله محمد بن إدريس الجراري بثغر الجديدة وهو يومئذ متول لعمليها فأجل قدومنا على عادته حفظه الله في محبة العلم ومن ينتمي إليه وحضر معنا عنده بعض فقهاء الوقت وكانت السنة سنة وباء فجرت المذاكرة فيما يستعمله النصارى في أمر الكرنيتينة من حبس المسافرين وشذاذ الأفاق عن المرور بالسبل والدخول إلى الأمصار والقرى ومنع الناس من مرافقهم وأسباب معاشهم وحصل التوقف تلك الساعة في حكمها الشرعي ماذا يكون لو أجريت على قواعد الفقه ثم بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر وقفت على رحلة العلامة الشيخ رفاعه الطهطاوي المصري في أخبار باريذ فرأيت ذكر في صدرها أنه وقعت المحاوره بين العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد المناعي التونسي المالكي المدرس بجامع الزيتونة ومفتي الحنفية بها العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد البيرم في إباحتها الكرنيتينة وحظرها فقال المالكي بحرمتها وألف في ذلك

رسالة واعتماده في الاستدلال فيها على أن الكرنيتينة من جملة الفرار من القضاء وقال الحنفي بإباحتها واستدل على ذلك من الكتاب والسنة أيضا فلما وقفت على هذا الكلام تجدد لي النظر في حكم هذه الكرنيتينة وظهر لي أن القول بإباحتها أو حرمتها منظور فيه إلى ما اشتملت عليه من مصلحة ومفسدة ولو مرسله على ما هو المعروف من مذهب مالك رحمه الله ثم يوازن بينهما رجحت على الأخرى عمل عليها فإن استوتت كان درء المفسدة مقما على جلب المصلحة كما هو معلوم في أصول الفقه ونحن إذا أمعنا النظر في هذه الكرنيتينة وجدناها تشتمل على مصلحة وعلى مفسدة أما المصلحة فهي سلامة أهل البلد المستعملين لها من ضرر الوباء وهذه المصلحة كما ترى غير محققة بل ولا مظنونة لأنه ليست السلامة مقرونة بها كما يزعمون وأنه مهما استعملها أهل قطر أو بلد إلا ويسلمون لا دائما ولا غالبا بل الكثير أو الأكثر أنهم يستعملونها وبيالغون في إقامة قوانينها ثم بصيبيهم ما فروا منه كما هو مشاهد ومن زعم أن السلامة مقرونة بهذا دائما أو غالبا فعليه البيان إذ البينة على المدعي فنتج من هذا أن مصلحة الكرنيتينة مشكوكة أو معدومة وإذا كانت كذلك فلا يلتفت إليها شرعا بل ولا طبعاً لأنها حينئذ من قبيل العبث وأما المفسدة فهي دنيوية ودينية أما الدنيوية فهي الإضرار بالتجار وسائر المسافرين إلى الأقطار بحبسهم وتسويقهم عن أغراضهم وتعطيل مرافقهم على أبلغ الوجوه وأقبحها كما هو معلوم وأما الدينية فهي تشويش عقائد عوام المؤمنين والقدح في توكلهم وإيهام أن ذلك دافع لقضاء الله تعالى وعاصم منه وناهيك بهما مفسدتين محققتين ترتكبان لشيء يكون أو لا يكون فإن العامة لقصور أفهامهم قد تذهب أو هامهم مع هذه الظواهر فيقفون معها ويقعون في ورطة ضعف الإيمان عيانا بالله فإن قلت هذا الكلام فيه ميل إلى سوء الظن بالعامه وهم جمهور الأمة قلت ليس فيه ميل إلى سوء الظن بهم وإنما فيه تقرير الخوف عليهم والاحتياط لهم حتى لا نتركهم هملا يفعلون ما شاؤوا أو يفعل بهم ما يضرهم في دينهم ودنياهم مع أن سد الذريعة قاعدة من قواعد الشرع لا سيما في المذهب

المالكي ولأمر ما جاءت الشريعة المطهرة ممثلثة من التحذيرات من مكامن هذه المفساد ونحوها ورد الأسباب والمسببات كلها إلى الله تعالى مع ما في استعمال هذه الكرنيتينة مع الاقتداء بالأعاجم والتزيي بزي الكفرة الضلال ورمقهم بعين التعظيم ونسبتهم إلى الإصايب والحكمة كما قد يصرح به الحمقى من العوام فأما إذا وافق قدر بالسلامة عند استعمالها فهي الفتنة والعباد بالله فأى مفسدة أقيح من هذه فالحاصل أن الكرنيتينة اشتملت على مفساد كل منها محقق فتعين القول بحرمتها وجلب النصوص الشاهدة لذلك من الشريعة لا تعوز البصير وقد ذكر العلامة الحافظ القسطلاني في تفسير سورة النساء من الجامع الصحيح عند قوله تعالى ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم ما نصه دل على وجوب الحذر من جميع المضار المظنونة ومن ثم علم أن العلاج بالدواء والاحتراز عن الوباء والتحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب اه وهو يقتضي بظاهره أن الاحتراز عن الوباء واجب بأي وجه كان ولا يخفى أنه يتعين تقييده بالوجه الذي ليس فيه مفسدة شرعية كعدم القدوم على الأرض التي بها الوباء ونحو ذلك مما وردت به السنة ولا تأباه قواعد الشريعة كبعض العلاجات المستعملة في إبانة المنقولة عن أئمة الطب أما بالوجه الذي يشتمل على مفسدة أو مفساد كهذه الكرنيتينة فلا هذا ما تحرر في هذه المسألة والله أعلم ولما وقف على هذا الكلام أخونا في الله العلامة الأستاذ أبو محمد عبد الله بن الهاشمي ابن خضراء السلاوي وهو اليوم قاضي حضرة مراكش كتب إلي ما نصه وأما حكم الكرنيتينة فهو ما ذكرتم من الحظر وبه أقول لما فيه من الفرار من القضاء مع المفساد العظيمة التي لا تقي بها مصلحتها على فرض تحققها أو غلبة ظن حصولها سيما وقد انتفيا بعد التجربة المتكررة في الجهات المتعددة ولا يخالف في هذا الحكم إلا مكابر متبع للهوى فمأذا بعد الحق إلا الضلال ثم جلب حفظه الله من النصوص ما يشهد لذلك تركناها اختصارا والله تعالى الموفق بمنه

وفاة المنصور رحمه الله كان المنصور رحمه الله بعد فراغه من قضية ابنه المأمون قد عزم على الرجوع إلى مراكش فلما بلغه ظهور الوباء بتلك الناحية تریبص إلى أن دخلت سنة اثنتي عشرة وألف فانتشر الوباء في بلاد الغرب أيضا فكان مصاب المنصور به على ما ذكره قال صاحب الأصلية وهو الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بأبي محلي كنا نسمع أن السلطان المنصور إذا خرج من مراكش قاصدا مدينة فاس لا يرجع إلى مراكش وذاع هذا الخبر في الناس قبل نزوله فكان الأمر كذلك ثم لا أدري من أين للناس بذلك هل أنطقهم الله به أو عن علم تلقوه عن أربابه وكأته الأشبه والله أعلم قال ومن هذا ما ذكره بعضهم أيضا لكن بعد الوقوع والنزول أن دخول ربابات أبي العباس المنصور في حياته للسودان واستيلاءه على سلطنتها سكية في دار إمارته كاغو مع تنبكتو وأعمالها كل ذلك من أمارات خروج الإمام المهدي الفاطمي وكذلك الوباء المنتشر في هذه الأعوام وكثرة الهرج والغلاء في سائر البلاد حتى الآن وبقي من إمارات خروجه فيما نسمع فتح وهران إما على يده أو بإذنه فيما يقوله من لا علم عنده بحقيقة الأمر اه وكان ابتداء مرض المنصور بمحلته خارج فاس الجديد قرب سيدي عميرة يوم الأربعاء حادي عشر ربيع النبي سنة اثنتي عشرة وألف ودخل إلى داره بالمدينة البيضاء عشية ذلك اليوم واحتل بها بعد الغروب وتوفي هنالك ليلة الاثنين

الموالي لتاريخه ودفن بآزاء مقصورة الجامع الأعظم هناك ضحوة يوم الاثنين المذكور وحضر جنازته ولده زيدان وقدم للصلاة مفتي فاس وخطيب جامع القرويين بها الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار قال اليفرنى كانت وفاة المنصور بالوباء وقال الشيخ أبو محمد عبد الله بن يعقوب السملالي في شرحه لجامع شامل بهرام كان بالمغرب وباء استطال به من سنة سبع إلى سنة ست عشرة ألف وعم سهل المغرب وجبله حتى أفنى أكثر الخلق ومات به جمع من الأعيان وبه مات السلطان أبو العباس أحمد المنصور رحمه الله ونحوه ذكره صاحب الفوائد وغيره قال اليفرنى وبه تعلم ما شاع على الألسنة من أن المنصور سمه ولده زيدان بإشارة من أمه الشيبانية في باكور أوائل ظهوره وقطع عنه الأطباء إلى أن هلك وأن المنصور لما أحس بذلك قال استعجلتها يا زيدان لا هناك الله بها أو كلاما هذا معناه قالوا وبسبب ذلك لم تنصّر لزيدان راية فإنه انهزم في زهاء سبع وعشرين معركة كله كذب لا أصل له لأن المنصور طعن بالوباء ولم يذكر أحد ممن يوثق به ما شاع على ألسنة العامة وأضرابهم من الطلبة اه ثم نقل المنصور رحمه الله بعد دفنه إلى مراكش دفن بها في قبور الأشراف قبلي جامع المنصور من القصبه وقبره هناك شهير عليه بناء حفيبل ومما نقش على رخامة قبره هذه الأبيات هذا ضريح من غدت به المعالي تفتخر أحمد منصور اللوا لكل مجد مبتكر يا رحمة الله اسرعي بكل نعمي تستمر وباكري الرمس بماء من رضاه منهمر وطيبى ثراه من ندى كذكره العطر وافق تاريخ الوفاة دون تنفيذ ذكر مقعد صدق داره عند مليك مقتدر

بقية أخبار المنصور وبعض سيرته كان المنصور رحمه الله حسن السياسة حازما يقظا مشاورا في مهمات الأمور وكان قد اتخذ يوم الأربعاء للمشورة وسماه يوم النديوان تجتمع فيه وجوه الدولة ويتطرحون فيه وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الأمور وعظيم النوازل وهناك يظهر شكايته من لم يجد سبيلا للوصول إلى السلطان قالوا ومن حزمه انه كان متطلعا لأخبار النواحي بحثا عنها غير متراخ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله ولا يبيط بالجواب ويقول كل شيء يقبل التأخير إلا مجاوبة العمال عن رسائلهم وكان الكتاب لا يفارقون مراكزهم إلا في أوقات مخصوصة قال الفشتالي ولقد كنا بالباب يوما يعني معشر الكتاب قيل أن يخرج المنصور فورد النذير على الكاتب أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي بأن ولدا له في النزاع فلم يملك نفسه أن ذهب إلى داره فخرج المنصور على أثره فسأل عنه فقيل إنه ذهب إلى داره فاستشاط غضبا وبعث إليه فحيء به مزعجا وما شككنا في عقوبته فلما مثل بين يديه قال له ما الذي ذهب بك فذكر له أمر ولده وأنه اشتد به المرض ولم ينجع فيه دواء طبيب فرق له وقال إن أمراض الصبيان قلما ينجع فيها إلا طب العجائز ولا كعجائز دارنا فابعث من يسألهم ومن حزمه أنه اخترع أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد أن لا يطلع عليه أحد يمزج فيها الخط المتعارف فيصير الكتاب مغلقا فإذا سقط ووقع في يد عدو أو غيره لا يدري ما فيه ولا يعرف معنى ما اشتمل عليه فكان إذا جهز أحد أولاده ناوله خطأ من تلك الخطوط يفك بها رسائله إليه ويكتب عنوانه كذلك ومن ضبطه أنه تعلم الخط المشرقى فكان يكتب به علماء المشرق كتابة كاحسن ما يوجد في خط المشاركة ومما وقع له في ذلك أنه بعث بطاقة

بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتبه أبي عبد الله بن عيسى يستدعي منه كتابا فبعثه ابن عيسى إليه وبعث معه بهذين البيتين سقتني كؤس السرور دهاقا خطوط أنتني في مهرق رأت كف أحمد في الغرب بحرا فجاءت إليه من المشرق وكان المنصور على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظف على الرعية أموالا طائلة يلزمهم بأدائها وزاد الأمر على ما كان عليه في عهد أبيه حسبما مر وكانت الرعية تشتكي ذلك منه ونالها إحجاف منه ومن عماله وكان غير متوقف في الدماء ولا هيب للوقعية فيها قال اليفرنى وتتبع ما وقع في ذلك يناقض المقصود من الإغضاء عن العورات والستر على الفضائح وقد المعنا لك بما يكون دالا على ما وراءه وذكر أن بعض عمال المنصور عدا على امرأة من دكالة فأخذ منها أموالا فقدمت المرأة على المنصور بمراكش تشكو له ما نالها من عامله فلم يشكها ولا كشف ظلامتها فخرجت إلى أولادها بالباب وقالت لهم انصرفوا فإنني كنت أظن أن رأس العين صافية فإذا بها مكدرة فلذا تكدرت مصارفها ويحكى أن الفقيه القاضي أبا مالك عبد الواحد الحميدي قد سافر في جمع من فقهاء فاس وأعيانها إلى مراكش بقصد العبد مع المنصور كما هي العادة فمروا في طريقهم على جماعة رجال ونساء قد سلخوا في سلسلة واحدة وفيهم امرأة أخذها الطلق وهي في كرب المخاض فرأوا من ذلك ما أهمهم وأحزنهم فبقي ذلك في نفس القاضي فلما جلس إلى المنصور ذكره له وأظهر الشكاية منه فسكت المنصور عن جوابه وهجره على ذلك أياما ثم إن القاضي تطف في القول وأظهر التوبة مما صدر منه وعدها بادرة فقال له المنصور لولا ما رأيت ما أمكنك أن تحيء مع أصحابك مسيرة عشرة أيام في أمن ودعة فإن أهل المغرب مجانيين مارتانهم هي السلاسل والأغلال ولقد وفد القاضي المذكور على المنصور في بعض المواسم مع الفقهاء فلما انصرفوا من الحضرة جمعتمهم الطريق بآرباب الموسيقى وأصحاب

الأغاني من أهل فاس وقد كانوا وفدوا أيضا على المنصور على سبيل العادة فأخرج بعضهم شبابة من الإبريز مرصعة أعطاه إياها المنصور وبعضهم قال أعطاني كذا وقال الآخر أجازني بكذا مما لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الفقهاء فقال القاضي لأن بلغت فاسا لأردن أولادي إلى صنعة الموسيقى فإن صنعة العلم كاسدة ولولا أن الموسيقى هي العلم العزيز ما رجعنا مخفقين ورجع المغني بشبابة الإبريز فنقل إلى المنصور هذا الكلام فلذعه عليه ببسير من الملام وذكر أبو زيد في الفوائد ما صورته عدا محمد الكبير خال المنصور على رجل بدرعة في ضيعة له فشكاه إلى المنصور فقال له كم تساوِي ضيعتك قال سبعمائة أوقية قال خذها وقل لخالي الموعد ببني وبينك الموقف الذي لا أكون أنا فيه سلطان ولا أنت خال السلطان فرجع صاحب الضيعة وأبلغ إلى العامل كلام المنصور فأمسك برأسه ساعة ثم قال له الحق بضيعتك ورغم له كل ما أكل منها اه وقال في المناهل كان للمنصور مصانع اخترعها ومآثر خلفها منها المعقلان الكبيران اللذان أنشأهما بفاس أحدهما خارج باب عجيسة والآخر قبالة بباب الفتوح وهذان المعقلان يعرفان عند العامة بالبستين وهما من الإتقان بحيث لا يعرف قدرهما إلا من وقف عليهما وكان الشروع في بنائهما يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة تسعين وتسعمائة ومن ذلك الحصنان اللذان بناهما بثغر العرائش أحدهما يعرف بحصن الفتح وهما أيضا في نهاية الوثافة والحسن ومن ذلك معاصر السكر فإنه أحدثها بمراكش وبلاد حاحة وشوشاوة قال الفشتالي وكان ابتداء ذلك والده أبو عبد الله الشيخ فكثر السكر في أيامه بالبلاد المغربية حتى لم تكن له قيمة وقد تقدم أنه كان يشتري الرخام من النصارى بالسكر ومن مآثره النبيلة العظمى مع كروسيها من المرمر بجامع القرويين تحت منار الجامع المذكور وقد تقدم الخبر عنها وقال ابن القاضي في المنتقى المقصور إن اللباس المسمى بالمنصورية وهو لباس من الملف لم يكن مستعملا قبله وهو

أول من اخترعه وأضيف إليه فقيل المنصورية وكان في مدة المنصور من الأحداث أنه في سنة سبع وثمانين وتسعمائة وقع غلاء عظيم بالمغرب حتى عرف ذلك العام بعام البيقول قال في المرأة لما انتهب الناس غنيمة وادي المخازن كان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام فظهر أثر ذلك من غلاء وغيره وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ وفي هذه السنة أيضا أصاب الناس في بعض فصولها سعال كثير قل من سلم منه وكان الرجل لا يزال يسعل إلى أن تفيض نفسه فسمى العامة تلك السنة سنة كحيكحة وفي سنة إحدى وتسعين وتسعمائة توفي الشيخ العارف بالله تعالى الكبير الشأن أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوبي نسبة إلى جنوة من بلاد الفرنج كان أبوه نصرانيا وأمه يهودية وسبب إسلام والده ما حكاه أبو العباس الأندلسي في رحلته أنه كان له فرس ببلده جنوة فانطلق ليلا ودخل الكنيسة العظمى وراث فيها من غير أن يشعر بذلك أحد من السدنة ولا غيرهم ثم بادر بإخراج الفرس ولما أصبح أهل الكنيسة ورأوا الروث قالوا إن المسيح جاء البارحة على فرسه إلى الكنيسة وراث فيها فاهتز البلد لذلك وتنافس النصارى في شراء ذلك الروث حتى بيع قدر الذرة منه بمال جزيل فعلم أن النصارى على ضلال وهاجر إلى بلاد الإسلام فنزل برباط الفتح من أرض سلا فوجد هناك امرأة يهودية فتزوج بها وولدت له الشيخ أبا النعيم فنشأ مثلا في العلم والولاية ومحبة النبي وكان رضي الله عنه يقول خرجت من بين فرث ودم أخذ الطريقة عن أبي محمد الغزواني وقدم عليه مراكش ثم عاد إلى فاس فمات بها في

السنة المذكورة ودفن خارج باب الفتوح وفي سنة خمس وتسعين وتسعمائة توفي الشيخ العلامة الإمام أبو العباس أحمد بن علي المنجور كان متبحرا في العلوم خصوصا أصول الفقه أخذ عن اليبسيتي وأبي زيد سفيان العاصمي وأبي الحسن بن هارون وأبي مالك الوائشريسي وغيرهم وفي سنة سبع وتسعين وتسعمائة توفي الشيخ أبو الشتاء الشباوي دفين جبل أمركو من بلاد فشتالة ويقال اسمه محمد بن موسى وكني بأبي الشتاء لأن الناس قحطوا ولجؤوا إليه فسقوا في الحين وهو من أصحاب الشيخ الغزواني ويقال ما لقيه إلا مرة بقبيلتهما الشاوية فعيته ومكنه فهم على وجهه وكان من أمره ما كان وفي ثامن عشر ربيع الثاني سنة ثلاث وألف توفي القاضي أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الحميدي ودفن بروضة الشيخ أبي زيد الهزميري خارج باب مصمودة من عدوة فاس الأندلس وقد تقدمت بعض أخباره وفي سنة أربع وألف توفي الشيخ أبو الحسن علي بن منصور البوزيدي المعروف بأبي الشكاوي دفين شالة وبها كان سكناه أخذ عن الشيخ المجنوب وأبي الروابن المحجوب وغيرهما وأولاده ينتسبون إلى عيسى بن إدريس الحسني دفين أيت عتاب والله تعالى أعلم وفي سنة ست وألف توفي الشيخ الرباني أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعري دفين تاستاوت من مشاهير الأولياء كان أول نشأته بمكناسة الزيتون ثم خرج إلى البادية بعد أن صعبت عليه القراءة ورأى النبي فقال له لن تقرأ ولكنك شيخ فخرج إلى البادية وكان يظن أنه يكون من أشياخ القبائل حتى هبت عليه نفة رحمانية فقدم مراكش وأخذ عن الشيخ أبي عمرو القسطلي ورجع إلى باديته فبنى مسجدا في الموضع الذي عين له شيخه لسكناه فيقال إنه لما قيل له جعلت محرابه منحرفا عن القبلة أشار بيده إلى جهة مكة فترحزت الجبال حتى شاهد الحاضرون مكة والله على كل شيء قدير وكان الشيخ أبو عبد الله محمد الشرفي معاصرا له فقيل له إن الشيخ ابن مبارك قال أهل زماننا محسوبون علينا فقال شهدوا أنا من أهل زمان ابن مبارك وفي هذه السنة أيضا كان الطاعون العظيم بمراكش وغيرها بحيث عم تلؤل المغرب واستطال فيها ومات به جمع من الأعيان منهم الشيخ ابن مبارك المذكور وفي سنة تسع وألف في جمادى الآخرة منها كان سيل عظيم بفاس ثم

في شعبان من السنة المذكورة كان سيل أعظم من الأول تهدمت منه الدور والحوائيت وتهدم سد الوادي بفاس على وثاقته وإحكامه وهذا السد هو الذي كان جده السلطان أبو العباس أحمد اللوطاسي ثم جده المنصور في هذه المرة من أحباس القرويين وفي سنة عشر وألف توفي الشيخ العارف بالله الرباني أبو عبد الله ويقال أبو عبد الله محمد فتحا الشرقي ابن الولي الصالح أبي القاسم الزعري الجابري ثم الرثمي هكذا نسبه صاحب المرأة وغيره ورفع أبو علي المعداني في كتابه الروض الفائح نسبه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم نقل عن حفيده العارف بالله تعالى أبي عبد الله محمد الصالح بن المعطي ما نصه إن الشيخ سيدي محمد الشرقي لم توجد هذه النسبة العمرية بخطه فيما عثرنا عليه أما بنو أخيه وبنوه وحفدته فقد وجدت بخط الثقة منهم وتواتر نقلها عنهم وكتبت في إجازاتهم وكذا في تمليكاتهم اه وهذا الشيخ أعني أبا عبد الله الشرقي كان من أكابر أهل وقته يقال إنه بلغ درجة القطبانية وتخرج به جماعة من الأولياء وبعث إليه المنصور جماعة يختبرونه فظهرت لهم كراماته وانفتحت له مع الشيخ المنجور كرامة حملته على أن وفد عليه زائرا ومدحه بقصيدة ذكر بعضها اليفرنى في الصفة وله مع أبي المحاسن الفاسي مراسلات ومواصلات ووقع بينهما كلام طويل انظر ابتهاج القلوب أخذ رضي الله عنه عن والده عن الشيخ التتابع واعتمد على الشيخ الكبير أبي عبد الله محمد بن عمرو المختاري من أحواز مكناسة وأخذ أيضا عن ابن مبارك الزعري وأبي محمد بن ساسي وتوفي أوائل المحرم من السنة المذكورة ودفن بجعبان وقبره شهير فنعنا الله به وبسائر أهل الله ثم الجزء الخامس يليه الجزء السادس وأوله الخبر عن دولة السلطان أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم الدولة السعدية القسم الثاني الخبر عن دولة السلطان أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور رحمه الله تعالى لما توفي المنصور رحمه الله وفرغ الناس من دفنه اجتمع أهل الحل والعقد من أعيان فاس وكبرائها والجمهور من جيش المنصور على بيعة ولده زيدان وقالوا إن المنصور استخلفه في حياته ومات في حجره وكان ممن تصدى لذلك القاضي قاضي الجماعة بفاس أبو القاسم بن أبي النعيم والقاضي أبو الحسن علي بن عمران السلاسي والأستاذ أبو عبد الله محمد الشاوي والشيخ النظار أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار وغيرهم ويحكى أن القاضي ابن أبي النعيم قام في الناس خطيبا وقال أما بعد السلام عليكم فإن رسول الله لما مات اجتمع الناس على أبي بكر رضي الله عنه ونحن قد مات مولانا أحمد وهذا ولده مولانا زيدان أولى بالملك من إخوته فباعه الحاضرون يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وألف قالوا وكان زيدان لما توفي والده كتم موته وبعث

جماعة للقبض على أخيه الشيخ المسجون بمكناسة فمنعهم من ذلك الباشا جؤدر كبير جيش الأندلس وحمل الشيخ موثقا إلى مراكش حتى دفعه إلى أخيه أبي فارس وكان شقيقا له فلم يزل مسجونا عنده إلى أن كان من أمره ما يأتي كذا قال بعضهم وقال في شرح زهرة الشماريخ إن زيدان لما اشتغل بدين والده احتال القائد أبو العباس أحمد بن منصور العلاج فذهب بنصف المحلة إلى مراكش نازعا عن زيدان إلى أبي فارس ومر في طريقه بمكناسة فأخرج الشيخ من اعتقاله واحتلمه معه إلى أبي فارس فسجنه فلم يزل مسجونا عنده إلى أن كان من أمره ما نذكره والله تعالى أعلم انحراف أهل مراكش عن طاعة زيدان وبيعتهم لأبي فارس وما نشأ عن ذلك من الفتنة كان المنصور رحمه الله قد فرق عمالات المغرب على أولاده كما مر فاستعمل الشيخ علي فاس والغرب وولاه عهده واستعمل زيدان على تادلا وأعمالها واستخلف عند نهوضه إلى فاس ابنه أبا فارس على مراكش وأعمالها وكان يكتبه بما مر بعضه من الرسائل فلما اتصل بأهل مراكش وفاة المنصور وكتب إليهم أهل فاس بمبايعتهم لزيدان امتنعوا وبايعوا أبا فارس لكونه خليفة أبيه بدار ملكه التي هي مراكش ولأن جل الخاصة من حاشية أبيه كان يميل إلى أبي فارس لأن زيدان كان منتبذا عنهم بتادلا سائر أيام أبيه فلم يكن لهم به كثير إمام ولا مزيد استناس مع أنه كان جديرا بالأمر لعلمه وأبيه وكمال مروته رحمه الله إلا أن السعد لم يساعده وقد قيل في المثل قديما قاتل بسعد وإلا فدع ولما شق أهل مراكش العصا على زيدان كثر في ذلك القيل وقال حتى صدرت فتوى من قاضي فاس ابن أبي النعيم ومفتيها أبي عبد الله القصار تتضمن التصريح بحديث إذا بويع خليفتين فاقتلوا الآخر منهما وكانت بيعة أبي فارس بمراكش يوم الجمعة أواخر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة وألف وهو شقيق الشيخ المأمون أمهما أم ولد اسمها الجوهر ويقال الخيزران واسم

أبي فارس هذا عبد الله وتلقب بالوائق بالله وكان أكولا عظيم البطن مصابا بمس الجن ويقال إنه لذلك ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح الشيخ أبي العباس السبتي وشيد منارة وشحن الخزانة التي يقبلها الجامع المذكور بمنتخب الكتب ونفيس الدفاتر كل ذلك رجاء أن تعود عليه بركة ذلك الشيخ بالبرء من تلك العلة وكان مع ذلك يميل إلى المروءة والرفق وحسن السيرة رحمه الله نهوض السلطان زيدان لحرب أبي فارس وانهزامه بأمر الربيع ثم فراره إلى تلمسان لما بايع أهل مراكش أبا فارس بن المنصور عزم زيدان على النهوض إليه فخرج من فاس يوم بلاد الحوز واتصل الخبر بأبي فارس فجهز لقتاله جيشا كثيفا وأمر عليهم ولده عبد الملك إلى نظر الباشا جؤدر فقيل له إن زيدان رجل شجاع عارف بمكايد الحرب وخدعه ووليك عبد الملك لا يقدر على مقاومته فلو سرحت أخاك الشيخ لقتاله كان أقرب للرأي لأن أهل الغرب لا يقاوتونه لأنه كان خليفة عليهم مدة فهم اتس به من زيدان فأطلق أبو فارس أخاه المأمون من ثقاف السجن وأخذ عليه العهود والمواثيق على النصح والطاعة وعدم شق العصا ثم سرحه في ستمائة من جيش المتفرقة الذين كان المنصور جمعهم ليعث بهم إلى كاغو من أعمال السودان وقال له ولأصحابه جدوا السير الليلة كي تصبحوا بمحلة جؤدر على وادي أم الربيع فلما انتهى الشيخ إلى المحلة المذكورة وعلم الناس به أهرعوا إليه واستبشروا بمقدمه ثم كانت الملاقاة بينه وبين السلطان زيدان بموضع يقال له حوارة عند أم الربيع ففر عن زيدان أكثر جيشه إلى المأمون وحنوا إلى

سالف عهده وقديم صحبته فانهم زيدان لذلك ورجع أدراجه إلى فاس فتحصن بها وكان أبو فارس قد تقدم إلى أصحابه في القبض على الشيخ متى وقعت الهزيمة على زيدان فلما فر زيدان انعزل الشيخ فيمن انضم إليه من جيش أهل الغرب وامتنع على أصحاب أبي فارس فلم يقتلوه منه على شيء وانتعش أمره واشتدت شوكته ثم سار إلى فاس يقفو أثر السلطان زيدان ولما اتصل بزيدان خبر مجيئه إليه راود أهل فاس على القيام معه في

الحصار والذب عنه والوفاء بطاعته التي هي مقتضى بيعتهم التي أعطوا بها صفتهم عن رضى منهم فامتنعوا عليه وقلبوا له ظهر المجن وأعلنوا بنصر الشيخ وبيعه لتقديم صحبتهم له ولما أيس زيدان من نصرهم وقد أرهقه الشيخ في جموعه خرج من فاس بحشمه وثقله ناجيا بنفسه وتبعه جمع عظيم من أصحاب الشيخ فلم يقدروا منه على شيء وذهب إلى تلمسان فأقام بها إلى أن كان من أمره ما نذكره وأما الشيخ فإنه لما وصل إلى فاس تلقاه أهلها ذكورا وإنثاء وأظهروا الفرح بمقدمه فدخلها ودعا لنفسه فأجيب واستبذ بملكها ثم أمر جيش أهل مراکش أن يرجعوا إلى بلادهم فانقلبو إلى صاحبهم مخفيين وكان الشيخ لما تم غرضه من الاستيلاء بالأمر والانفراد بالسلطنة دعا بالشيخين الفقيهين قاضي الجماعة أبي القاسم بن أبي النعيم ومفتيها أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار فلامهما على مبايعة زيدان وقولهما فيه وفي أخيه أبي فارس إن أولاد الإمام لا يتقدمون في الأمر على أولاد الحرائر وكان أبو فارس والشيخ ولدي أمه اسمها الخيزران كما مر وزيدان أمه حرة من الشبانات وعزم أن ينكل بهما ثم بعث بهما مع جيش مراکش إلى أخيه أبي فارس ليرى فيهما رايه فأما الشيخ القصار فتوفي رحمه الله على مقربة من مراکش بزواية الشيخ ابن ساسي وحمل إلى مراکش فدفن بقبة القاضي عياض

وذلك في أواسط سنة اثنتي عشرة وألف وأما القاضي أبو القاسم فاجتمع بأبي فارس فقبل عذره وصفح عنه وردده مكرما إلى فاس هكذا ذكره بعضهم وقيل إن الذي بعث بالشيخ القصار إلى مراکش هو السلطان زيدان على وجه يخالف هذا والله أعلم نهوض عبد الله بن الشيخ لحرب عمه أبي فارس واستيلائه على مراکش ثم إن الشيخ المتغلب على فاس دعا بتجار أهلها فاستسلف منهم مالا كثيرا وأظهر من الظلم وسوء السيرة وخبث السريرة ما هو شهير به ثم تتبع قواد أبيه فنهب ذخائرهم واستصفى أموالهم وعذب من أخفى من ذلك شيئا منهم ثم جهز جيشا لقتال أخيه أبي فارس بمراكش وكان عدد الجيش نحو الثمانية آلاف وأمر عليه ولده عبد الله فسار بجيوشه فوجد أبا فارس بمحلتة في موضع يقال له إكلميم ويقال في مرس الرماد فوقعت الهزيمة على أبي فارس وقتل نحو المائة من أصحابه ونهبت محلته وفر هو بنفسه إلى مسفيوة ودخل عبد الله بن الشيخ مراکش فأباحها لجيشه فنهبت دورها واستبيحت محارمها واستغل هو بالفساد ومن يشابهه أباه فما ظلم حتى حكى أنه زنى بجواري جده المنصور واستمتع بحظاياها وأكل رمضان وشرب الخمر فيه جهارا وعكف على اللذات وألقى جلباب الحياء عن وجهه وكان دخوله مراکش في العشرين من شعبان سنة خمس عشرة وألف

مجيء السلطان زيدان إلى المغرب واستيلائه على مراکش وطرده عبد الله بن الشيخ عنها كان السلطان زيدان لما فر من فاس إلى تلمسان كما مر أقام بها مدة وكان قد بعث إلى ترك الجزائر يستمدهم ويستعديهم على أخويه فأبطؤوا عليه وطال عليه انتظارهم فلما يس منهم توجه إلى سجلماسة فدخلها من غير قتال ولا محاربة ثم انتقل عنها إلى درعة ومنها إلى السوس فكتب إليه أهل مراکش وقد ندموا على ما فرطوا فيه من أمره والدخول في طاعته أن يأتيهم ولو وحده فتوجه إليهم ودخل عليهم ليلا فلم يفجأ عبد الله بن الشيخ إلا نداء أهل مراکش بنصر السلطان زيدان وتحزبوا معه وتقدموا إلى قائدهم عبد الله أعراس الذي ولاه عليهم الشيخ فقتلوه وخرج عبد الله فارا بجموعه من أهل فاس والمغرب فحاصروهم أهل مراکش بين الأسوار والجنات وقتلوا من أصحاب عبد الله بموضع يعرف بجنان بكار نحو الخمسة آلاف وخمسائة وأمر زيدان بقتل كل من تخلف عن عبد الله من جيشه فأتى القتل على جميع من وجد بمراكش من جيش أهل فاس وذلك في أواخر سنة خمس عشرة وألف وفر عبد الله بن الشيخ ناجيا بنفسه حتى قدم على أبيه بفاس في أسوأ الحالات مفلول العساكر مهزوم الجموع معتاضا عن جيش النصر بجيش الدموع

عودة عبد الله بن الشيخ إلى مراکش واستيلائه عليها وطرده زيدان عنها لما قدم عبد الله بن الشيخ على أبيه بفاس سلبيا مهزوما قامت قيامته ورأى أن يهيب عسكرا آخر ويجدد جمعا ثانيا فلم يجد لذلك طاقة لفرأخ يده من المال وقلة جبايته واستحى أن يستسلف من التجار لأنه كان استسلف منهم فلم يرد لهم شيئا ولما أعينته الحيلة رجع على قواده فقبل لهم ظهر المجن ونهب أموالهم واستلب ذخائرهم وصار يفرقها على التجار فاجتمع له من ذلك أموال عريضة فرقها في جيشه ونهبا عبد الله للمسير إلى مراکش وكان أهل فاس قد غضبوا لمن قتل من إخوانهم بها ونادوا بأخذ ثأرهم حتى إن بعضهم خرج مع عبد الله من غير أخذ مرتب ولا جامكية فخرج عبد الله بجموع عديدة وجيوش حفيلة ولما بلغ خبره للسلطان زيدان بعث إليه الطح مصطفى باشا في جيوش كثيرة قال في شرح زهرة الشماس كان بعث مصطفى باشا وخروجه من مراکش في شعبان سنة ست عشرة وألف فالتقى الجمعان بموضع يقال له تافلقت على طريق سلا فهزم مصطفى باشا وقتل من جيش مراکش نحو التسعة آلاف وبعث الشيخ جماعة من عدول فاس إلى موضع المعركة حتى أحصوا القتلى ثم توجه عبد الله إلى مراکش فبرز إليه أهلها في سنة وثلاثين ألف مقاتل والتقى الجمعان بموضع يقال له رأس العين فانهزم أهل مراکش وتقدم عبد الله بن الشيخ فاقحمها بجيشه وفر زيدان إلى المعال المنيعة والجبال الشامخة فبقي منتقلا هنالك إلى أن كان من أمره ما نذكره

ثورة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وانقراض أمره وعود زيدان إلى مراکش لما دخل عبد الله بن الشيخ مراکش واستولى عليها فعل فيها أعظم من فعلته الأولى وهربت شردمة من أهل مراکش إلى جبل جيليز واجتمع هنالك منهم عصابة من أهل النجدة والحمية وانفق رأبهم على أن يقدموا للخلافة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وكان رجلا خيرا دينيا صبورا وقورا فبايعه أهل مراکش هنالك والتفوا عليه فخرج عبد الله بن الشيخ لقتال من بجبل جيليز والقبض على أميرهم المذكور ولما التقى الجمعان انهزم عبد الله وولى أصحابه الأديار فخرج من مراکش مهزوما سادس شوال سنة ست عشرة وألف وترك محلته وأفاضه وعدته وجل الجيش وأخذ على طريق تامسنا وامتنح أصحابه في ذهابهم حتى كان مد القمح عندهم بثلاثين أوقية والخبزة من نصف رطل بربع مقال ولم يزل أصحابه ينتهبون ما مروا عليه من الخيام والعمود ويسبون البنات إلى أن وصلوا إلى فاس في الرابع والعشرين من شوال من السنة المذكورة وأما محمد بن عبد المؤمن فإنه لما دخل مراکش واستولى عليها صفح عن الذين تخلفوا بها من أهل المغرب من جيش عبد الله بن الشيخ وأعطاهم الراتب فلم يعجب ذلك أهل مراکش ونقموا عليه إبقاءه عليهم وكانوا نحو الألف ونصف فكتبوا سرا إلى السلطان زيدان بالجبل فاتاهم وخيم نازلا بظاهر البلد فخرج محمد بن عبد المؤمن إلى لقاؤه فانهزم ابن عبد المؤمن ودخل السلطان زيدان مراکش واستولى عليها وصفح هو أيضا عن الفئة المتخلفة عن عبد الله بن الشيخ وذكر في شرح زهرة الشماس إن هذا الثائر بجبل جيليز اسمه أبو حسون من أولاد السلطان أبي العباس الأعرج والله أعلم ولعل هذا الصواب بدليل ما يأتي في رسالة زيدان إن شاء الله

خروج جالية الأندلس من غرناطة وأعمالها إلى بلاد المغرب وغيرها قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية صاحب قشتالة على غرناطة وأعمالها سنة سبع وتسعين وثمانمائة وإن أهل غرناطة التزموا طاعته والبقاء تحت حكمه على شروط اشترطها عليه قد ذكرنا بعضها فيما سلف وأن عدو الدين قد نقض تلك الشروط عروة عروة وكان أهل الأندلس من أجل ذلك كثيرا ما يهاجرون من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام أثناء هذه المدة السالفة غير أن عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم وأثر فيهم ذلك أثرا ظاهرا طول صحبتهم لهم ونشأة أعقابهم بين أظهرهم فكانت تصدر منهم في بعض الأحيان مقالات قبيحة في حق ولاة المسلمين من أهل المغرب وعامتهم لا سيما إذا نالهم منهم بعض الظلم ولقد رأيت في كتاب المعيار وغيره سؤالات وقتاوى صدرت عن علماء المغرب في حق هؤلاء الصنف منهم وكان الملوك السعديون قد جمعوا منهم جندا كبيرا وبهم فتح المنصور إقليم السودان واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت سنة ست عشرة وألف فهاجر جميع من لم ينتصر منهم إلى بلاد المغرب وغيرها قال في نفح الطيب كان النصارى بالأندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى أنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكنين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقبض الله لهم ناصرا إلى أن كان إخراج النصارى إياهم أعوام سبعة عشرة وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف آخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وهكذا كان ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل منهم من هذه المضرة وأما الذين خرجوا بناوحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد قد عمروا فراها الخالية وبلادها اه

وقال صاحب الخلاصة النقية في أمراء إفريقية ما نصه وفي سنة ست عشرة وألف قدمت الأمم الجالية من جزيرة الأندلس فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه وأباح لهم بناء القرى في مملكته فبنوا نحو العشرين قرية واغتنب بهم أهل الحضرة وتعلموا حرفهم وقلنوا ترفههم اه ثم قال في نفع الطيب وكذلك خرج طوائف منهم بنطاوين وسلا والجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكريا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والنور وهم الآن بهذا الحال ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام اه كلام نفع الطيب وقوله وحصنوا قلعة سلا يعني بها رباط الفتح إذ هي يومئذ مضافة إلى سلا ومعودة منها والله تعالى أعلم استيلاء السلطان زيدان على فاس وفرار الشيخ بن المنصور عنها إلى العرائش ثم إلى طاغية الإصينبول كان الشيخ بن المنصور عفا الله عنه على ما تقدم من قبح السيرة والإساءة إلى الخاصة والعامة حتى ملته النفوس ورفضته القلوب وضاق أهل فاس بشؤمه ذرعا وكان قد بعث ابنه عبد الله مرة ثالثة إلى حرب السلطان زيدان بمراكش وأعمالها فخرج عبد الله من فاس آخر ذي الحجة سنة ست عشرة وألف فالتقى الجمعان بوادي بوركراك فكانت الهزيمة على عبد الله وفر في رهط من أصحابه وترك محلته بما فيها بيد السلطان زيدان فاستولى عليها وانضم إليه جيش عبد الله من أهل فاس وغيرهم ميلا إليه ورغبة في صحبتته فعفا عنهم وتآلفهم واستفحل أمر السلطان زيدان وتكلم به أهل فاس وسائر بلاد الغرب واتصل الخبر بالشيخ وعرف أن قلوب الناس عليه خفاف الفضيحة وأصبح غاديا في أهله وحشمه إلى ناحية العرائش فاحتل

بالقصر الكبير وهناك لحق به ابنه عبد الله مهزوما من وقعة بوركراك وانضم إليهما أبو فارس بن المنصور فإنه بعد فراره من مرس الرماد إلى مسفيوة أقام بها مدة ولما استولى السلطان زيدان على مراكش كما مر شدد في طلبه ففر إلى السوس ولما أعييت عليه المذاهب وزيدان في طلبه لحق بشقيقه الشيخ فكان معه إلى هذا التاريخ ثم إن السلطان زيدان بعث كبير جيشه مصطفى باشا إلى فاس فانتهم إليها ونزل مخيما بظهر الزاوية ووجد لأصحاب الشيخ زروعا كثيرة فأرسل مصطفى باشا عليها جيشه فانسفوها ودخلت فاس في طاعته ثم نهض إلى ناحية القصر الكبير ناويا القبيض على الشيخ وحزبه واتصل بالشيخ خبره ففر إلى العرائش ومنها ركب البحر إلى طاغية الإصينبول مستصرخا به على السلطان زيدان وحمل معه أمه الخيزران وبعض عياله وجماعة من قواده وبطانته وذلك في ذي القعدة سنة سبع عشرة وألف وانتهى مصطفى باشا إلى القصر الكبير فقبض على من وجد به من أصحاب الشيخ وفر عبد الله وأبو فارس فنزلا بموضع يقال له سطح بني وارتنين فبلغ خبرهما إلى السلطان زيدان فجاء حتى نزل قبائليهما بموضع يقال له آرورات ففر من كان معهما إلى السلطان زيدان ولما بقيا أوحش من وتد بقاع فرا إلى دار اليهودي ابن مشعل من بلاد بني يزناسن فأقاما بها واختصر صاحب المرأة هذا الخبر فقال كان المعالي زيدان بن المنصور التقى مع ابن أخيه عبد الله بن الشيخ صاحب فاس برؤوس الشعاب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال سنة سبع عشرة وألف فانهزم عبد الله بن الشيخ وفر إلى محلة أبيه بالعرائش ثم رجع إلى جهة فاس وانتهى إلى دار ابن مشعل واستولى عمه السلطان زيدان على محلته وسار إلى فاس فدخلها وأقام بها اه وفي دخلة السلطان زيدان هذه إلى فاس قبض على الفقيه القاضي أبي

الحسن علي بن عمران السلاسي رحمه الله قال اليفرنى في الصفوة كان القاضي المذكور ممن أخذ عن الشيخ القصار وكان مع ذلك لما ولي القصار الفتوى والخطابة بجامع القرويين يسعى عند السلطان في تأخيره حتى آخر وولي هو مكانه مدة يسيرة ثم أعيد القصار وكانت بينهما شحنة عظيمة بسبب فتوى تنازعا فيها ثم أفضت الحال بالقاضي أبي الحسن إلى أن قبض عليه السلطان زيدان بسبب أنه عثر له على كتاب كتبه إلى بعض إخوته ينتقصه فيه ويوهن أمره فأوغر ذلك قلب السلطان عليه فسطا به وسجنه ونهب داره وأثاثه ثم سقاها سما على ما قيل فكان فيه حقه وقد حكى هذا الخبر في موضع آخر من الصفوة مطولا فقال كان القاضي أبو الحسن علي بن عمران السلاسي شديد الانحراف عن الشيخ العارف بالله أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي سيئ الاعتقاد فيه ولم يزل يسعى به ويكيد فاتفق أن اجتمع بالشيخ في بعض الليالي بعض من يتعاطى العلم فتكلموا في مسائل من صفات الله فنقل كلام الشيخ إلى القاضي على غير وجهه فأنكر ذلك وركب من حينه إلى السلطان زيدان وهو يومئذ بفاس منتهزا للفرصة فقال إن ههنا رجلا يعلم الناس البدع ويلقهم آراء الفرق الضالة فقال له السلطان من هو قال فلان قال أخو سيدي يوسف قال نعم قال سمعنا أنه أعلم من أخيه ثم بعث السلطان إليه وهو مستشيط غضبا لخبر بلغه من ثورة بعض أقاربه عليه فجاء الشيخ أبو زيد ولم يخلع نعله حتى بلغ بساط السلطان فسلم عليه ومد يده فصافحه ثم تكلموا في المسألة فانقطع القاضي ولم يجد ما يقول إلا أن الناقل لم يحسن نقلها فقال له الشيخ فهلا تثبتت وكان بعض علماء مراكش حاضرا فبالغ في عتاب القاضي وقيل للشيخ ما سبب الوحشة بينك وبين هؤلاء فقال لا شيء إلا الاستغناء عنهم فقالوا يا سيدي هذا وصف يوجب الحب فما انفصل الشيخ عن السلطان حتى اطلع على ما يوجب القبض على القاضي فقبض عليه ونهب داره في الحين فنزل الشيخ من فاس الجديد فلقى أثاث القاضي في الطريق جيء به منهوبا وبقي في السجن إلى أن مات مسموما رحمه الله وكان

الأديب الكاتب أبو عبد الله المكلائي قد كتب إليه بأبيات يقول فيها ما نصه أما لهلال غاب عنا سفور فيجلى به خطب دجاء تثور فصيبرا لدهر رام يمنحك الأسي فانت عظيم والعظيم صبور سيظهر ما عهدته من جمالك فللبدر من بعد الكسوف ظهور وتحبى رسوم للمعالي تغيرت فلمبيت من بعد الممات نشور أبا حسن إني على الحب لم أزل مقيما عليه ما أقام تبير ففي الفم ماء من بقايا ودادكم وذلك عندي سائغ ونمير عليكم سلام الله ما هطل الحيا وغنت بأغصان الرياض طيور قال منشئها وقد أنشدتها بين يديه بمحبسه فيكى حتى ظننت أنه سيهلك ثم أفاق وقال لله الأمر من قبل ومن بعد الروم فراجعتني رضي الله عنه بأبيات يقول فيها تفتق عن زهر الربيع سطور فما هي إلا روضة وغدير هزمت من الصدر الجريح همومه فانت على جند الكلام أمير محمد هل في العصر غيرك شاعر له معكم في الخافقين ظهور فإني على صفو الوداد وإني ساشدوا وقلبي بالهموم كسير متى وعسى يثني الزمان عنانه بنهضة جد والزمان عثور فتدرك آمال وتقضي مآرب وتحدث من بعد الأمور أمور عليك سلام الله مني فإني غريب بأقصى المغربين أسير وكانت وفاة القاضي المذكور رحمه الله في جامع المشور في مهل ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف عود عبد الله بن الشيخ إلى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل مصطفى باشا رحمه الله لما دخل السلطان زيدان حضرة فاس واستولى عليها أقام بها إلى أن دخلت سنة ثمان عشرة وألف فاتصل به خبر قيام بعض الثوار عليه بناحية مراكش فهض إليها مزعجا واستخلف على فاس مولاه مصطفى باشا ولما اتصل خير نهوضه بعبد الله بن الشيخ وهو بدار ابن مشعل زحف إلى فاس فيمن انضم إليه فبرز إليه مصطفى باشا وضرب محلته بظاهر فاس من ناحية باب الفتوح قال في المرأة وعرض لأبي الحسن علي بن يوسف الأندلسي المعروف بالبيطار غرض من أمور العامة كان يتردد فيه إلى المحلة فركب إليها يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف فالتقى الجمعان يومئذ بين الظهرين فأجلت الحرب عن مقتل مصطفى باشا وفقد أبو الحسن ابن البيطار وقال في النزهة لما رحل زيدان إلى مراكش بسبب ما بلغه من قيام بعض الثوار عليه هنالك قدم عبد الله بن الشيخ وعمه أبو فارس إلى فاس فخرج مصطفى باشا لمقاتلتها فعثر به فرسه وقتل وأخذت محلته بأسرها وهلك ما لا يحصى من الناس ووقع النهب حتى انتهب من البقر التي تحلب نحو ستة آلاف ودخل عبد الله بن الشيخ فاسا مع عمه أبي فارس وذلك سابع عشر ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف

تلخيص خبر أبي فارس ومقتله رحمه الله تعالى تقدم لنا أن أبا فارس بن المنصور بوبع بمراكش وبعث أخاه الشيخ لقتال السلطان زيدان فنكت الشيخ عهده واستبد عليه ثم بعث إليه ابنه عبد الله فهزمه إلى مسفيوة ثم فر منها إلى السوس فأقام عند حاجب أبيه عبد العزيز بن سعيد الوزكي ثم لما بالغ زيدان في طلبه فر إلى أخيه الشيخ فلم يزل مع ابنه عبد الله بن الشيخ إلى أن قتل مصطفى باشا ودخل عبد الله فاسا فاستولى عليها كما ذكرناه أنفا فاتفق رأي قواد شراكة على قتل عبد الله وتولية عبد أبي فارس فبلغ ذلك عبد الله فدخل على عمه أبي فارس ليلا مع حاجبه حمو بن عمر فوجده على سجدته وجواريه حوله فأخرجهم وأمر بعمه فخنق وهو يضرب برجليه إلى أن مات وذلك في جمادى الأولى سنة ثمان عشرة

وَألف هذا هو الصواب لا ما في نشر المثاني على اضطرابه فأسف الناس عليه لأنه كان يرده عن المناكر وبزجره عن كثير من القبائح وذكر في المنتقى أبياتا من إنشاء الكاتب أبي محمد عبد القادر بن أحمد بن القاسم الفشتالي مما كتب تطريزا على نجاد الواثق بالله أبي فارس المذكور وهي أتيه وأزرى بكل نجاد يروق على حلة اللابس إذا كنت يوم الوغى محملا لبعضب حكى شعلة القابس على عاتق الملك المرتضى سليل الوصي أبي فارس

عودة السلطان زيدان إلى فاس واستيلاؤه عليها ثم إعراضه عنها سائر أيامه لما سمع السلطان زيدان وهو بمراكش بمقتل مصطفي باشا نهض إلى فاس وجاء على طريق الجبل وكان نصارى الإصبيول يومئذ قد نزلوا على العرائش وحاولوا الاستيلاء عليها وذلك بإذن الشيخ كما سيأتي وكان عبد الله بن الشيخ بفاس فسمع بنزول النصارى على العرائش فاستنفر الناس وحضهم على الجهاد فتهدوا لذلك وعزموا على النهوض إليها فما راعهم إلا السلطان زيدان قد أقبل من ناحية أدخسان وقد أنزل به محتلته وتقدم إلى جهة فاس وضرب بأنفاضة فأنهزم الناس عن عبد الله ودخل شراكة فاسا فبعث زيدان قائده عبد الصمد لتسكين روعة أهل البلد وأمر المنادي أن ينادي بنصره فنزل المنادي إلى أن بلغ باب السلسلة فقام في وجهه بعض السباب من أهل العدة وضربه فجرحه ورجع المنادي وبطل الأمر فبلغ الخبر السلطان زيدان فأمر بإطلاق السبيل في أهل فاس وتحكيم السيف فيهم ثم ندم فأمّنهم وسكن روعتهم ونزل زيدان بوادي فاس فخرج الناس للقائه وهو غضبان عليهم وقد استولى على فاس وتمكن منها فأخذ يسب أعيانهم وهم يقتلهم ولكن الله سلم ثم إن العرب اجتمعوا عند قنطرة المهومة في نحو ثمانية آلاف فخرج إليهم زيدان ومعه عرب الشرق فأتهموا عنه ولم يبق معه إلا رط يسير فرأى زيدان أمامه خيلا قليلة فقصدتها فإذا فيها عبد الله بن الشيخ وقد رأى زيدان مقبلا إليه ففر مع أن زيدان إنما قصد الفرار إليه من غير علم له به فاستنبت أمر زيدان وتراجع إليه أصحابه ومن الغد رجع إلى فاس فخرج إليه أهل فاس يهنتونه كبارا وصغارا فاتهمهم بأنهم يستهزئون به فأمر بهم فسلبوا رجالا ونساء فكان بعضهم ينظر إلى عورة بعض وكان عدد السلب نحو عشرة آلاف كسوة ودخل أصحاب زيدان فاسا فتهبوا وفعّلوا فيها الأفاعيل ثم أمر زيدان بتسكين الروعة والأمان وكان ذلك كله سادس رجب سنة تسع عشرة وألف فلما كان اليوم الحادي عشر من الشهر المذكور نزل عبد الله بن الشيخ برأس الماء فخرج إليه زيدان واقتتلوا فانهزم زيدان وقتل من أصحابه نحو الخمسمائة وفر إلى محتلته التي ترك بأدخسان وكان ذلك آخر رجوع زيدان إلى فاس فإنه لما أعياه أمر الغرب أعرض عنه وصرف عنايته إلى ضبط ما خلف وادي أم الربيع إلى مراكش وأعمالها وتوارث بنوه سلطنته على ذلك النحو من بعده وبقي عبد الله بن الشيخ يقطع الأيام بفاس إلى أن هلك وقام بأمر فاس من بعده ثوارها وسيابها على ما نذكر وفي كتاب ابتهاج القلوب في أخبار الشيخ المجذوب ما صورته تكلم الشيخ سيدي كدار يوما في ملوك وقته فقال أما الشيخ معطي العرائش فإن أهل الله قد دفقوا أوتاده هنالك حتى يموت فلم يتجاوز محله إلى أن قتل به حوز تطاوين كما سيأتي وأما زيدان فإنه لما أطلق السبيل في أهل فاس ضربه مولاي إدريس بركلة صيرته وراء أم الربيع فلم يتجاوز به بعد ذلك اه استيلاء نصارى الإصبيول على العرائش والسبب في ذلك قد تقدم لنا ما كان من خبر الشيخ المأمون من أنه فر إلى العرائش ومنها ركب البحر إلى طاعية الإصبيول مستصرخا به على أخيه السلطان زيدان فأبى الطاغية أن يمدد فراوده الشيخ على أن يترك عنده أولاده وحشمه رهنًا ويعينه بالمال والرجال حتى إذا ملك أمره بدل له ما شارطه عليه ولم يزل به إلى أن شرط عليه الطاغية أن يخلي له العرائش من المسلمين وبملكه إياها فقبل الشيخ ذلك والتزمه وخرج حتى نزل حجر باديس في ذي الحجة سنة ثمان عشرة وألف ثم تقدم فنزل ببلاد الريف ولما سمع ذلك أهل فاس خافوا من شوكتة وذهب جمع من علمائهم وأعيانهم كالقاضي أبي القاسم بن أبي النعيم والشريف أبي إسحاق إبراهيم الصقلي الحسيني وغيرهما لملاقته وتهنئته بالقدوم فلما وصلوا إليه فرح بهم وأمر قبطان النصارى أن يخرج مدافعه وأنفاضة إرهابا وإظهارا لقوة النصارى الذين استنصر بهم ففعل حتى اصطكت الأذان وارتجت الجبال ونزل القبطان من السفينة للسلام على الأعيان فلما رأوه مقبلا أمرهم الشيخ بالقيام له فقاموا إليه أجمعون وجازوه خيرا على ما فعل مع الشيخ من الإحسان والنصرة وسلم هو عليهم بنزع قلنسوته على عادة النصارى وأنكر الناس على أولئك الأعيان قيامهم للكافر وضربوا بعضى الذل حتى أنهم في رجوعهم إلى فاس تعرض لهم عرب الحياينة فسلبواهم وأخذوا ما معهم وجردوهم من ملابسهم جميعا ما عدا القاضي ابن أبي النعيم فإنه عرف بزي القضاء فاحترموه ثم إن الشيخ انتقل إلى القصر الكبير وهو قصر كتامة وقصر عبد الكريم فأقام به مدة وراود قواده ورؤساء جيشه أن يقفوا معه في تمكين النصارى من العرائش ليفي له الطاغية بما وعده من النصر فامتنع الناس من إسعافه في

ذلك ولم يوافق على غرضه إلا قائده الكرني فإنه ساعده على ذلك فبعثه الشيخ إليها وأمره أن يخليها ولا يدع بها أحدا من المسلمين فذهب الكرني المذكور وكلم أهلها في ذلك فامتنعوا من الجلاء عنها فقتل منهم جماعة وخرج الباقون وهم يبيكون تخفق على رؤوسهم ألوية الصغار ولما خرج منها المسلمون أقام بها القائد الكرني إلى أن دخلها النصارى واستولوا عليها في رابع رمضان سنة تسع عشرة وألف ووقع في قلوب المسلمين من الامتناع لأخذ العرائش أمر عظيم وأنكروا ذلك أشد الإنكار وقام الشريف أبو العباس أحمد بن إدريس العمراني ودار على مجالس العلم بفاس ونادى بالجهاد والخروج لإغاثة المسلمين بالعرائش فانضاف إليه أقوام وعزموا على التوجه لذلك ففتت في عضدهم قائدهم حمو المعروف بأبي دبيرة وصرف وجروهم عما قصدوه في حكاية طويلة وكان الشيخ لما خاف الفضيحة وأنكار الخاصة والعامة عليه إعطاه بلدا من بلاد الإسلام للكفار احتال في ذلك وكتب سؤالا إلى علماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه أنه لما وغل في بلاد العدو الكافر واقتحمها كرها بأولاده وحشمه منعه النصارى من الخروج من بلادهم حتى يعطيهم ثغر العرائش وأنهم ما تركوه خرج بنفسه حتى ترك لهم أولاده رهنًا على ذلك فهل يجوز له أن يفدي أولاده من أيدي الكفار بهذا الثغر أم لا فأجابوه بأن فداء المسلمين سيما أولاد أمير المؤمنين سيما أولاد سيد المرسلين

من يد العدو الكافر بإعطاء بلد من بلاد الإسلام له جائز وإنا موافقون على ذلك ووقع هذا الاستفتاء بعد أن وقع ما وقع وما أجاب من أجاب من العلماء عن ذلك إلا خوفا على نفسه وقد فر جماعة من تلك الفتوى كالإمام أبي عبد الله محمد الجنان صاحب الطرر على المختصر وكالإمام أبي العباس أحمد المقرئ مؤلف نفع الطيب فاقتنيا مدة استبراء لدينيهما حتى صدرت الفتوى من غيرهما وبسبب هذه الفتوى أيضا فر جماعة من علماء فاس إلى البداية كالشيخ أبي علي الحسن الزيتاني شارح جمل ابن المجراد والحافظ أبي العباس أحمد بن يوسف الفاسي وغيرهما بقية أخبار الشيخ ومقتله رحمه الله وتجاوز عنه ثم إن الشيخ ابن المنصور نزل بالفحص واجتمعت عليه لمة من أهل الدعارة والفساد على شاكلته فنهض بهم إلى تطاوين فاستولى عليها وأخرج منها كبيرها المقدم المجاهد أبا العباس أحمد النقيس ولم يزل الشيخ يجول في بلاد الفحص ويعسف أهلها إلى أن ملته القلوب وتمالاً أشياخ الفحص على قتله لما رأوا من انحلال عقيدته ورفقة ديانتته وتمليكه ثغر الإسلام للكفار ففتك به المقدم أبو الليف في وسط محلته بموضع يعرف بفتح الفرس وبقي صريعا مكشوف العورة أياما حتى خرج جماعة من أهل تطاوين فحملوه مع من قتل معه من أصحابه كالدبيريين وبعض أولاده ودفنوه خارج تطاوين إلى حمل الشيخ إلى فاس الجديد مع أمه الخيزران فدفنا به وكان مقتله خامس رجب سنة اثنين وعشرين وألف

وقال منوبل إنه وصل إلى قرب تطاوين وبنى هنالك أفراكا وأقام ينتظر اجتماع الجيوش عليه ثم سكر ذات يوم على عادته وخرج إلى عين ماء هنالك فاستلقى قربها في نبات أخضر أعجبته خضرته فجاءه أناس من أهل تلك البلدة فعرفوه وشدخوا رأسه بصخرة فقتلوه ويقال إن قتله كان بإشارة الثائر أبي محلي الآتي ذكره وإنه كتب إلى المقدمين النقيس وأبي الليف يحضهما على قتله فقتلوه وانتهبوا ماله وكان شيئا كثيرا ومن جملة ما نهب منه نحو المد من الباقوت وبقي من أثائه نحو وسق سفينة كان قد تركه بطنجة فاستولى عليه نصاراها من البرتغال لما قتل وكان للشيخ عفا الله عنه مشاركة في العلم ويد في مبادئ الطب أخذ عن أشياخ الحضرتين وله شعر متقارب ومن كتبه الأديب المتفقد أبو العباس أحمد بن محمد الغريسي التغلبي وكان من أهل الإجابة والتبريز في صناعة الإنشاء قال الشيخ أبو محمد العربي الفاسي في شرحه لدلائل الخيرات عند قوله وكان لي جار نساخ ما نصه وقد كان الشيخ الكاتب الرئيس أبو العباس أحمد الغريسي شيخ كتاب الإنشاء بحضرة فاس رحمه الله استعار مني كتاب

الأبناء في شرح الأسماء للإقليشي ثم مرض مرض موته فعدته فوجدت الكتاب عند رأسه ومعه كراريس منسوخة وأخرى معدة للنسخ فقال لي إني إذا وجدت راحة كتبت منه ما قدرت عليه فإذا غلبني ما بي أمسكت فقال له ولم تتكلم هذا فقال إني عصيت الله بهذه الأصابع ما لا أحصيه فرجوت أن يكون ما أعانيه على هذه الحال من نسخ هذا الكتاب خاتمة عملي وكفارة لذلك فكمّل الله قصده وأتم الكتاب وتوفي من مرضه ذلك وقد طال به سنة عشرين والف اه ولهذا الكاتب يقول الشاعر تمتعت يا غرديس والدهر راقد وأنت بفاس وابن حيون واجد بسعدك راحت خيزران لغيرها مصائب قوم عند قوم فوائد

رياسة ولي الله تعالى أبي عبد الله سيدي محمد العياشي على الجهاد ومبدأ أمره في ذلك هذا الرجل هو ولي الله تعالى المجاهد في سبيله أبو عبد الله محمد فتحا ابن أحمد المالكي الزباني المعروف بالعياشي ونسبته إلى بني مالك ابن زغبة الهلاليين وهم اليوم قبيلة من عرب الغرب كان رحمه الله مستوطنا مدينة سلا وكان من تلامذة الولي العارف بالله تعالى أبي محمد عبد الله بن حسون السلاسي دفين سلا وكان ابتداء أمر أبي عبد الله أنه كان ملازما لشيخه المذكور من أقرب التلامذة إليه وأسرعهم إلى خدمته وأولهم دخولا عليه وأخرهم خروجا عنه وكان مع ذلك كثير الورع قليل الكلام مديما للصيام وقراءة القرآن فكان الشيخ ابن حسون ملتفتا إليه ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن شاعت مناقب الشيخ وكثر غاشيه فأهدى له يوما بعض أشياخ القبائل فرسا فأمر الشيخ بإسراجه وقال أين محمد العياشي فقال ها أنا ذا يا سيدي فقال الشيخ اركب بحول الله فرسك ودينيك وأخذتك فقفهقر تادبا فحلف عليه ليركبن وحبس له الركاب بيده وقال له ارتحل عني إلى أزموور وانزل على أولاد أبي عزيز ولا بد لك من الرجوع إلى هذه البلاد وسيكون لك شأن عظيم فودعه أبو عبد الله ووضع الشيخ يده على رأسه وبكى ودعا له بخير فقصد ناحية أزموور ونزل حيث عين له شيخه المذكور وذلك لأول دولة السلطان زيدان سنة ثلاث عشرة وألف فلم يزل أبو عبد الله العياشي متأبرا على الجهاد شديد الشكيمة على العدو عارفا بوجوه المكاييد الحربية بطلا شهما مقداما في مواطن الإحجام وقورا صموتا عن الكلام فطار بذلك في البلاد صيته وشاع بين الناس ذكره لما هو عليه من

التضيق على نصارى الجديدة وكانوا يومئذ قد أمرهم ففرح بذلك قائد أزموور ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن توفي قائد الفحص والبلاد الأزموورية فسأل السلطان زيدان عمن يليق بتولية ذلك الثغر فقيل له سيدي محمد العياشي فكتب إليه بالتولية فقيل ونهض بأعباء ما حمل من ولاية الفحص وجهاده وكانت له مع نصارى الجديدة وقائع وضيق عليهم حتى منعهم من الحرث والرعي فبعث النصارى إلى حاشية السلطان زيدان بالتحف ونفائس الهدايا ليعزلوا عنهم أبا عبد الله المذكور لمضايقته لهم فخوفوا السلطان زيدان عاقبته وحضوه على عزله وأظهروا له أنه مسموع الكلمة في تلك النواحي وأنه يخشى على الدولة منه وكان أبو عبد الله العياشي كلما بعث بالغانم وما يفتح الله به عليه من الأسارى إلى مراكزه ازدادت شهرته وتناقل الناس حديثه فوغر بذلك قلب زيدان وحقق عليه فبعث إليه قائده محمد السنوسي في أربعمائة فارس وأمره بالقبض عليه وقتله وألقى الله في قلب القائد المذكور الشفقة عليه لما يعلم من براءته مما قذف به فبعث إليه خفية أن أنج بنفسك فإنك مغدور فخرج أبو عبد الله العياشي في أربعين رجلا فرسانا ومشاة قاصدين سلا فاستقر بها سنة ثلاث وعشرين وألف ولما انتهى السنوسي إلى أزموور ولم يجد له أثرا أظهر العناية بالبحث عنه وعاقب شرذمة من أهل الفحص على إفلاته تعمية على السلطان وإقامة لعززه عنده فقبل السلطان زيدان ذلك والله غالب على أمره

ثورة الفقيه أبي العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بأبي محلي قال في كتابه أصليبت الخريت ما ملخصه كانت ولادتي سنة سبع وستين وتسعمائة بسجلماسة والذي تلقيته من أبي وكافة عمومتي أن أولاد أبي محلي من ذرية العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وأما جدنا الأشهر المكنى بأبي محلي فتح الميم والحاء وكسر اللام المشددة بعدها باء تحتيه ساكنة مع كبير شهرته لا علم لي الآن بسبب تكتيته بذلك ولا بتفاصيل أحواله بعد البحث عنه قال وبخطة القضاء اشتهر نسيينا فنعراف بأولاد القاضي زواويتنا بزواوية القاضي ولم تزل بقية العلم في دورنا وخصوصا دار أبي اه وقال صاحب البستان أبو محلي هذا اسمه أحمد بن عبد الله وينتسب إلى بني العباس ويعرفون في سجلماسة بأولاد ابن اليسع أهل زاوية القاضي انتهى قلت أما الانتساب إلى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقد أنكر ابن خلدون وجود النسبة العباسية في المغرب قال في فصل اختلاط الأنساب وما بعده ما نصه ولم يعلم دخول أحد من العباسيين إلى المغرب لأنه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الأدارسة والعباسيين فكيف يسقط العباسي إلى أحد من شيعة العلويين اه ثم قال أبو محلي في الكتاب المذكور فلما نشأت في حجر والدي بذل مجهوده في تعليمي وقد كانت أمي رأت وهي حامل بي وليا من أولياء الله تعالى أحد شيوخ التربية ببلدنا وهو الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله السجلماسي قد سقاها فدحا من لبن وأرجو الله صدق تأويلها بالعلم والدين وحق اليقين قال وكان خروجي لطلب العلم بفاس في حدود الثمانين وتسعمائة وأنا يومئذ مراهق أو بالغ الحلم لا همة لي إلا في العلم فأقمت بفاس نحو خمس سنين إلى أن جاء النصارى إلى وادي المخازن فدهش الناس واستشرت أخوا من الطلبة فدلتني على الخروج إلى البادية حتى ينجلي نهار الأمن فخرجت إلى كركرة فحفظت فيها الرسالة وقد كنت ما حصلت بفاس إلى النحو ثم رجعت إلى فاس بعد أن زال الدهش بهزيمة النصارى وولاية المنصور والنحو صنعتي وفي الفقه رغبتني وقد كنت في الخرجة الأولى إلى البادية زرت قبر الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه فطلبت الله عنده أن أكون من الراسخين في العلوم بأسرها وتوبة يتقبلها فما دار علي الحول إلا وأنا بزواوية الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن مبارك الزعري لا عن قصد لكوني إذ ذاك مولعا بالعلم أما طريق الفقر فلا تخطر لي ببال لأن المعتمد يومئذ في فقراء الوقت أخلاق الضلال فكنت أشد الناس حذرا منهم إلى أن انكشف الستر فرأيت ما رأيت ووعيت فصاحبت شيخي الذي لولاه مع فضل الله لهلكت ولولا هدايته بإذن الله لضللت أعني أبا عبد الله مولاي محمد بن مبارك الزعري القبيل الجراري السبيل وهو رضي الله عنه من قبيلة عرب بالمغرب يقال لهم زعير بصيغة التصغير والنسب إليها زعري على التكبير وهي قبيلة من عرب السوس بالمغرب الأقصى قال فيقيت في صحبة شيخي المذكور نحو من ثمان عشرة سنة وما فارقه إلا عن أمره إذ هو الذي وجهني إلى بلدي سجلماسة من غير اختيار قاتلا لي صلاحهم فيك ثم ناولني عصاه ويرنسه ونعله من غير طلب مني لشيء من ذلك وجعل في رأسي قلنسوة كالخرقة بيده اليمنى عند الوداع فلما استوطنت بلدي عن إذنه زرت منه إحدى عشرة مرة وفي الأخيرة منها وذلك بعد مقفلي من الحجة الأولى التي كانت سنة اثنتين بعد الألف دعا لي بقوله بلاك الله أكثر مما بلاني فتأولتها بإقبال الخلق كما ترى وقد صاح عندها صيحة عظيمة لم أر مثلهما منه منذ

صحبتة إذ عادته كانت الطمأنينة ولما توفي رحمه الله بقيت نحو من ثلاث سنين عاطلا ثم تحلى النحر بدرر لطائفه الموعود بها فله الحمد على ما أسدى وله الشكر فيما أولى ثم ذكر بقية أشياخه كالشيخ أبي العباس المنجور والشيخ أبي العباس السوداني والشيخ سالم السنهوري وغيرهم ممن يطول ذكرهم قال ثم كملت الفائدة بعد المقفل من الحج فرجعت إلى الديار المغربية ونزلت بوادي الساوره ثم تحولت بجميع عيالي إلى الوادي المذكور هذا ملخص أوليته منقولاً من كتابه المذكور وقال الشيخ أبو العباس أحمد التواتي رحمه الله تعالى في رسالته التي سماها مقامة التحلي والتخلي من صحبة الشيخ أبي محلي وهي رسالة طويلة مسجعة قال كان الفقيه أبو محلي في أول أمره فقيها صرفا ثم انتحل طريقة التصوف مدة حتى وقع على بعض الأحوال الربانية ولاحت له مخايل الولاية فاتحشر الناس لزيارته أفواجا وقصدوه فرادى وأزواجا وبعد صيته وكثرت أتباعه قال فلما سمعت بذلك ذهبت إليه وجلست عنده إلى أن وجدته يشير إلى نفسه بأنه المهدي المعلوم المبشر به في صحيح الأحاديث فتركته وراءه ونبذته بالعراء اه وقال الشيخ اليوسي في محاضراته وقد تكلم على الدعوى الفاطمية ما نصه وممن ابتلي بها قريبا أحمد بن عبد الله بن أبي محلي التستاوتي خاض في الطريق حتى حصل له نصيب من الذوق وألف فيها كتابا يدل على ذلك ثم نزعت به هذه النزعة فحدثونا أنه كان في أول أمره معاشرا لمحمد بن أبي بكر الدلائي وكان البلد إذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت فقال ابن أبي محلي لابن أبي بكر ذات ليلة هل لك في أن نخرج

غدا إلى الناس فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فلم يساعفه لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر فلما أصبحا خرجا فأما ابن أبي بكر فانطلق إلى ناحية النهر فغسل ثيابه وازال شعته بالحلق وأقام صلاته وأوراده في أوقاتها

وأما ابن أبي محلي فتقدم لما هم به من الحسبة فوقع في شر وخصام آداه إلى فوات الصلاة عن الوقت ولم يحصل على طائل فلما اجتمعا بالليل قال له ابن أبي بكر أما أنا فقد قضيت مأربي وحفظت ديني وانقلبت في سلامة وصفاء ومن أتى منكرا فإله حسيبه أو نحو هذا من الكلام وأما أنت فانظر ما الذي وقعت فيه ثم لم ينته إلى أن ذهب إلى بلاد القبلة ودعا لنفسه وادعى أنه المهدي المنتظر وأنه بصدد الجهاد فاستخف قلوب العوام واتبعوه اه وصار ابن أبي محلي يكتاب رؤساء القبائل وعظماء البلدان يأمرهم بالمعروف ويحضهم على الاستمسك بالسنة ويشيع أنه الفاطمي المنتظر وأن من تبعه فهو الفائز ومن تخلف عنه فمويق وربما كان يقول لأصحابه محرضا لهم على نصرته أنتم أفضل من أصحاب النبي لأنكم قمتم بنصر الحق في زمن الباطل وهم قاموا به في زمن الحق ونحو هذا من زخارف كلامه وإلى ذلك أشار الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحي في بعض قصائده معرضا بأبي محلي المذكور فقال يا أمة المصطفى الهادي أليس لكم فيمن مضى أسوة من سائر العلماء نسيتم دين خير الخلق وافترقت أراؤكم فغدا الإسلام منقسما أتخسبون بأن الله تارككم سدى وخلفكم قد تعلمون لما ناشدتمكم بالذي في العرض يجمعنا أما فظنتم ومالاه كمن فهمنا بأن مغربكم قد عمه سخط من المهيمين يا لله معتصما إن قيل للناس إن الهرج يوفيقكم قالوا الفقيه فلان قبلنا اعتزما لو لم يكن جاز ما ألقى الإمام به ولا أتاه ألا تبينوا الذي انهتما ومن يقل قال خير الخلق قيل له ها صاحب الوقت يكفيني الذي علما ونحن أفضل من صاحب الرسول لنا أجز يضاعف في أجزارنا نظما وزخرفوا ترهات القول فانفعلت لهم نفوس عوام رشدها عدما

نهوض ابن أبي محلي إلى سجلماسة ودرعة واستيلاؤه عليها ثم على مراكش بعدها كان أبو العباس بن أبي محلي عفا الله عنه لما كثرت جموعه وانتال الناس عليه يصرح بوجوب القيام بتغيير المنكر الذي شاع في الناس ويقول إن أولاد المنصور قد تهالكوا في طلب الملك حتى فنى الناس فيما بينهم وانتهبت الأموال وانتهكت المحارم فيجب الضرب على أيديهم وكسر شوكتهم ولما بلغه ما فعل الشيخ من إجلاء المسلمين عن العرائش وبيعها للعدو الكافر استشاط غضبا وأظهر انه غضب لله لا لشيء سواه فخرج يوم سجلماسة وكان خليفة زيدان عليها يومئذ يسمى الحاج المير فخرج عامل زيدان لمصادمته وهو في نحو أربعة آلاف وابن أبي محلي في نحو أربع مائة فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على جيش زيدان وأشاع الناس أن الرصاص يقع على أصحاب أبي محلي باردا لا يضرهم ونفخ الشيطان في هذه الفرية فسكنت هيئته في القلوب وتمكن ناموسه منه ولما دخل سجلماسة أظهر العدل وغير المناكر فأحبته العامة وقدمت عليه وفود أهل تلمسان والراشدية يهنئونه وفيهم الفقيه العلامة أبو عثمان سعيد الجزائري المعروف بقدورة شارح السلم وهو من تلامذة ابن أبي محلي كما ذكره في الأصلية ولما بلغ خبر الهزيمة إلى زيدان وانتهى إليه فلها جهز إليه من مراكش جيشا وأمر عليه أخاه عبد الله بن المنصور المعروف بالزبدة فسمع به أبو محلي فسار إليه فكان اللقاء بينهما بدرعة فوقعت الهزيمة على عبد الله بن المنصور ومات من أصحابه نحو الثلاثة آلاف قروي أمر ابن أبي محلي واشتدت شوكته وجمع بين سجلماسة ودرعة وكان القائد يونس الأيسى قد هرب من زيدان لأمر نقمه عليه وقصد إلى أبي محلي فجاء معه يقوده ويطلعه على عورات زيدان ويهون عليه أمره وما زال به إلى أن أتى به

إلى مراكش فبعث إليه زيدان جيشا كثيفا فهزمه أبو محلي وتقدم فدخل مراكش واستولى عليها وفر زيدان إلى ثغر آسفي وهم بركوب البحر إلى بر العدو هكذا في النزهة وذكر الوزير البرتغالي في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة إن نصارى الجديدة بعثوا إلى السلطان زيدان بمائتين من مقاتلتهم إعانة له على عدوه من غير أن يطلب منهم ذلك فلما وصلوا إليه أنف من الاستعانة بهم على المسلمين لكنه أحسن إليهم وأطلق لهم بعض أسراهم وردهم مكرمين هذا كلامه والحق ما شهدت به الأعداء وذلك هو الظن بزيدان رحمه الله ولما دخل أبو محلي قصر الخلافة بمراكش فعل فيه ما شاء وولد له هنالك مولود سماه زيدان ويقال إنه تزوج أم زيدان وبنى بها وديت في رأسه نشوة الملك ونسي ما بنى عليه أمره من الحسبة والنسك وفي المحاضرات للشيخ اليوسي رحمه الله ما صورته وزعموا أن إخوانه من الفقراء ذهبوا إليه حين استولى على مراكش برسم زيارته وتهنئته فلما كانوا بين يديه أخذوا يهنئونه ويفرحون له بما حاز من الملك وفيهم رجل ساكت لا يتكلم فقال له ما شأنك لا تتكلم وألح عليه في الكلام فقال الرجل أنت اليوم سلطان فإن أمنتني على أن أقول الحق قلته قال له أنت آمن فقل فقال إن الكرة التي يلعب بها الصبيان يتبعها المائتان وأكثر من خلفها وينكسر الناس وينجرحون وقد يموتون ويكثر الصباح والهول فإذا ففتشت لم يوجد فيها إلا شراويط أي خرق باليه ملفوفة فلما سمع ابن أبي محلي هذا المثل وفهمه بكى وقال رمنا أن نجبر الدين فأتلفناه انتهى

استصرخ السلطان زيدان بأبي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحي ومقتل أبي محلي رحمه الله لما التفت الرعا من العامة على أبي محلي وكثرت جموعه وعلم زيدان ضعفه عن مقاومته كتب إلى الفقيه أبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي ثم الداودي مستغيثا به ثم وفد عليه بنفسه وكان يحيى بزواوية أبيه من جبل درن وله شهرة عظيمة بالصقع السوسي وله أتباع فاتاه السلطان زيدان وقال له إن بيعتي في أعناقكم وأنا بين أظهركم فيجب عليكم الذب عني ومقاتلة من ناواني فليبي أبو زكرياء دعوته وحشر الجيوش من كل جهة وخرج يوم مراكش في ثامن رمضان سنة اثنتين وعشرين وألف ولما انتهى إلى فم تانوت موضع على مرحلتين من مراكش كتب إليه أبو محلي بما نصه بسم الله الرحمن الرحيم من أحمد بن عبد الله إلى يحيى بن عبد الله أما بعد فقد بلغني أنك جندت وبندت وفي فم تانوت نزلت اهبط إلى الوطاء ينكشف بيننا الغطاء فالذنب ختال والأسد صوال والأيام لا تستقيم إلا بطعن القنا وضرب الحسام والسلام فأجابته يحيى بما نصه من يحيى بن عبد الله إلى أحمد بن عبد الله أما بعد فليست الأيام لي ولا لك إنما هي للملك العلام وقد أتيتك بأهل البنادق الأحرار من الشبانة ومن انتمى إليهم من بني جرار ومن أهل الشرور والبؤس من هشتوكة إلى بني كنسوس فالموعد بيني وبينك جليلز هنالك ينتقم الله من الظالم ويعز العزير ثم زحف يحيى إلى مراكش في جموعه فنزل بقرب جليلز جبل مطل على مراكش وبرز إليه أبو محلي والتحم القتال بينهما فكانت أول رصاصة في نحر أبي محلي فهلك مكانه وانذرت جموعه ونهبت محلته واحتر

رأسه وعلق على سور مراكش فبقي معلقا هنالك مع رؤوس جماعة من أصحابه نحو من اثنتي عشرة سنة وحملت جثته فدفنت بروضة الشيخ أبي العباس السبتي تحت المكتب المعلق هنالك عند المسجد الجامع وزعم أصحابه أنه لم يموت ولكنه تغيب قال اليفرنى وحدثني من أتق به من أهل وادي الساورة أن فيهم إلى الآن من هو على هذا الاعتقاد وذكر الشيخ اليوسي في المحاضرات أن أبا محلي كان ذات يوم عند أستاذه ابن مبارك فورد عليه وارد حال فتحرك وجعل يقول أنا سلطان أنا سلطان فقال له الأستاذ يا أحمد هب أنك تكون سلطانا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ووقع في يوم آخر للفقراء سماح فتحرك أبو محلي وجعل يقول أنا سلطان أنا سلطان فتحرك فقيرا آخر وجعل يقول ثلاث سنين غير ربع ثلاث سنين غير ربع قال وهذه هي مدة ملكه اه ويذكر انه لما طاف بالبيت في وجهته الحجازية سمع وهو يقول يا رب إنك قلت وقولك الحق وتلك الأيام تداولها بين الناس آل عمران فاجعل لي يا رب دولة بينهم قالوا ولم يسأل حسن العاقبة فرزق الدولة وآل به الأمر إلى ما أيرمته يد القدرة وكان أبو محلي رحمه الله فقيها محصلا له قلم بليغ ونفس عال وله تأليف منها الوضاح والقسطاس والأصليط والهودج ومنجنيق الصخور في الرد على أهل الفجور وجواب الخروبي عن رسالته الشهيرة لأبي عمرو الفسطلي وغير ذلك وقد وقعت بينه وبين يحيى بن عبد الله مراسلات ومهاجيات نظما ونثرا كقوله أبحي الخسيس النذل مالك تدعي بزور شعارا للفقول الأوائل كدعواك في بيت النبوة نسبة وأنت دنيء من أخس القبائل ووجهك وجه القرد قبح صورة ورأسك رأس الديك بين المزابل

وبزعمون أن يحيى كان معاشرًا لأبي محلي أيام الطلب بالمدرسة بفاس قال اليفرنى وحدثني صاحبنا القاضي أبو زيد السكتاني أنه وقف على تأليف كبير مشتمل على ما وقع بين يحيى وأبي محلي من الشعر في غرض الهجاء وغيره وقد رمز تاريخ ثورة أبي محلي ووفاته الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد المريدي المراكشي فقال قام طيشا ومات كبشا ولا يخفى ما فيه بعد إفادة التاريخ من حسن التلميح وبديع التورية ولما قتل ابن أبي

محلّي دخل يحيى مراکش واستقر بدار الخلافة منها وألقى بها عصا تسياره ورام أن يتخذها دار قراره فكتب إليه السلطان زيدان يقول أما بعد فإنا كنت إنما جئت لنصرتي وكف يد ذلك الثائر عني فقد أبلغت المراد وشفيت الفؤاد وإن كنت إنما رمت أن تجر النار لقرصك وتجعل الملك من قنصك فأقر الله عينك به والسلام فتجهز يحيى للعود إلى وطنه وأظهر العفة عن الملك وأنه إنما جاء ليدافع عن السلطان الذي بيعته في عنقه وانقلب إلى بلاده ورجع زيدان إلى مراکش فاستقر بدار ملكه وقد قيل إن يحيى رام الملك وأن أجناده من البربر لم يساعده في قصة طويلة والله أعلم

بقية أخبار أبي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحي وما دار بينه وبين السلطان زيدان رحمه الله هو يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي الداودي المناني وكان جده سعيد واحد وقته علما ودينا وهو الذي أحيا الله به السنة بالسوس وانتعش به الإسلام فيه وتوفي سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة فخلفه ولده أبو محمد عبد الله وجرى على نهجه وسبيله بل كان بعض الناس يفضلونه على أبيه وتوفي سنة اثنتي عشرة وألف ودفن بزداغة من جبل درن حيث كانت زاويته ولما مات جلس ولده أبو زكرياء يحيى موضعه وانتهج سبيله وكان فقيها مشاركا رحل إلى فاس وأخذ عن شيوخها كالمنجور وغيره وعن الشيخ العارف بالله أبي العباس أحمد الحسني على ما وجد بخطه السوساني الشهير بأدقال دفين درعة وهو معتمده أخذ عنه كثيرا من الفنون وأجازة في علوم الحديث إجازة عامة وكان يحيى شاعرا محسنا وكانت له شهرة عظيمة بالصلاح وله اتباع كوالده وجده وتوجهت إلى زيارته الهمم وربكت إليه النجائب إلا أنه وقع له قريب مما وقع لأبي محلي قنصدي للملك وخاض في أمور السلطنة فتكدر مشربه وقد قال بعض العلماء إن الرياسة إذا دخلت قلب رجل لا تقصر عن ذهاب رأسه ولذلك قال صاحب الفوائد في حقه إنه قام لجمع الكلمة والنظر في مصالح الأمة فاستمر به علاج ذلك إلى أن توفي ولم يتم له أمر وكان يرسل السلطان زيدان ويكثر عليه ويجير عليه من استجار به ويروم إلى مناصحته ابتغاء ويحسو من ذلك حسوا في ارتغاء وكان زيدان يتحمل منه أمرا عظيما فمما كتب به يحيى إليه ما نصه من يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم كان الله له بجميل لطفه أمين اللهم إنا نحمدك على كل حال ونشكرك يا ولي المؤمنين على دفع اللأواء والمحال ونستوهيك يا مولانا جميل لطفك وجزيل فضلك في المقام والترحال عاندين بوجهك الكريم من مؤاخذتنا بسوء أعمالنا يا شديد المحال هذا وسلام الله الأتم ورضوانه الأعم ورحمته وبركاته على المولى الإمام العلم المقدم العلوي الهمام كيف أنتم وكيف أحوالكم مع هذا الزمان الذي شمر عن ساقه لسلب الأديان وألح في اقتضاء هواه على كل مديان فإنا لله ولا حول ولا قوة إلا بالله وهو حسينا ونعم الوكيل وبعد فالباعث به إليكم في هذه البطاقة أمور ثلاثة مدارها على قوله الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولخاصة المسلمين وعامتهم فالأول بيان سبب الركون إلى جانبكم والثاني الحامل على دفع مناويكم والثالث ملازمة نصحكم وتذكيركم والضجر مما يصدر منكم ومن أعوانكم للرعية أما الأول فله أسباب كثيرة منها مراعاة الجنب النبوي الكريم في أهل بيته ورضي الله عن أبي بكر الصديق القائل أرقبوا محمدا في أهل بيته والقائل لقرابة رسول الله أحب إلي أن أصل من قرابتي يا أهل بيت رسول الله حكيم فرض من الله في القرآن أنزله يكفيكم من عظيم المجد أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له ومنها نصح خاصة المسلمين الذي هو الدعاء بالهداية لهم ورد القلوب النافرة إليهم ونصحهم بقدر الإمكان مشافهة ومراسلة ومكاتبة وقد

بدلنا الجهد في الجميع أخلص الله القصد في الجميع وأما الثاني فلما جرى القدر بتغلب ذلك الإنسان المتسلط على النفس والحريم والأموال وأدخل بتأويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس في المذهب وتعدى خصوص الولاية إلى سائر الرعية فاضلها ومفضولها ومد مع ذلك يد الوعيد المؤكد بالإيمان إلينا في الأنفس والأموال فتأشدها كما تقرر في فتاوى الأئمة رضي الله عنهم حيث توفرت فيه فصول الصائل كلها بشاهد العيان فكان الأمر كما قدر الله تعالى لله الأمر من قبل ومن بعد الروم وأما الثالث فالكاتب والسنة والإجماع أما الكتاب فسورة والعصر قائمة البرهان في كل أو أن وعصر وقال تعالى في قضية كلمه رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين القصص وقد استشهد به بعض العلماء في بري قلم لكاتب بعض الأمراء المتقدمين وحسبنا الله ونعم الوكيل وقوله جل من قائل وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان المائدة وأما السنة فالحديث الأول قوله المعين شريك وقوله من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يقدر فيلسانه فإن لم يقدر فقلبه وذلك أضعف الإيمان وقد كنا مقصرين على التغيير باللسان والقلم لكون التغيير العملي إليكم حتى جذبتونا إليه ودللتمونا بارتكاب أصعب مرام عليه وقوله من أعان على قتل مسلم ولو بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله وقد قال المواق في شرحه على المختصر من أعان على عزل إنسان وتولية غيره ولم يأمن سفك دم مسلم فهو شريك في دمه إن سفك ثم أتى بالحديث المتقدم استعظما لذلك الأمر الفطيع فإنا لله وإنا إليه راجعون على أنا انخدعنا بالله حتى كنا نأمن بالقطع سفك الدماء إذ ذلك حيث كتبت إلينا مرارا وأمنت وأرسلت وكنت أتخوف من هذا الواقع اليوم بآزور وأسفي ومراكش والغرب وكذلك كنت ألححت عليكم في تقرير العهد حتى أتاني القائد عبد الصادق بمصحف ذكر انه لسلطان تلمسان في جرم صغير وقال لي أمرني السلطان أن أحلف لك فيه نيابة عنه على بقاءه

على العهد فيما بينك وبينه من تأمين كل من أمنت من أمنته وإمضاء كل ما رأيت صلاحا للأمة ثم لم أكف حتى أتى القاضي فكنت إلي معه إن كل ما رأيت فيه الصلاح للأمة أمضيته وأنت أمنت كل من أمنت ثم بعد استقرارك في دارك كتبت إلي كتابا إنك باق على ما تعاهدنا معك عليه من الأمور كلها على معيار الشريعة فما راعني إلا وقد أخفرت في ذمة الله وأمانتي الذي عقته للناس فمن أسور ومقيد ومطلوب بمال ومطرود عن بلد وأخبار آخر ترد علينا من جهة السواحل وأن الناس تباع فيها للعدو مدره الله ولم نر من اهتبل بذلك ممن قلدتموه أمور الثغور فلم ندر هل بلغك ذلك فتسقط عنا ملامة الشرع أو لم يبلغك فأعلمنا الله لتطمئن قلوبنا فإني أكاتبك في ذلك فلا أرى جوابا ففضيت والله من الأمر عجا فإن عدت ما من الله به عليك من رجوعك إلى سرير ملكك واجتماعك بسربك أمنا من قبيل النعم فقيده بما تقيد به كما في كريم علمك وإن رأيت بنظر آخر فإن الله ما في السموات وما في الأرض وأما الإجماع فلم نر من العلماء من نهى عن نصح خاصة المسلمين وتنبههم على ما يصلح بهم وبالرعية بل عدوه من الدين للحديث الأول وغيره وأما استشعرناه من امتعاضكم من عدم الأئمة القول في مكاتبتنا لكم فما خاطبناكم قط رعا لذلك ولو بنصف ما خاطب به الأئمة الأول أهل زمانهم اتكالا على مطالعتكم لكتبهم وعلمكم بما لم تعلمه من ذلك ولم نروه ويكفيكم نصح الفضيل وسفيان وإماننا مالك رضي الله عنهم لمعاصريهم من الولاية ومنهم من بكى وانتفع ومنهم من غشي عليه وتوجع ومنهم من ندم واسترجع إلى غير ما ذكرنا على اختلاف الأعصار وتنوع الدول والأقطار فبذلك اقتدينا وبما كان عليه أشياخنا وأسلافنا لكم ولأسلافكم علمنا كالفقيه شيخ والدنا رحمه الله سيدي عبد الله الهبطي لجدكم المرحوم بكرم الله فطمعت بنجح النصح ونفقه دنيا وأخرى فهذا أصل قضيتنا معكم وهلم جرا والذكرى تنفع المؤمنين على كل الأحوال والحمد لله على كل حال و أواخر ربيع النبوي الأنور كتبه عن إذنه رضي الله عنه

عبد ربه محمد بن الحسن بن أبي القاسم لطف الله به بمنه اه فأجابه السلطان زيدان رحمه الله بما نصه بسم الله الرحمن الرحيم و من عبد ربه تعالى المقترف المعترف زيدان بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد إلى السيد أبي زكرياء يحيى بن السيد أبي محمد عبد الله ابن سعيد أعاننا الله وإياكم على اتباع الحق ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد ورد علينا كتابكم فضضنا ختامه ووقفنا على سائر فصوله ثم إننا إن جاوبناكم على ما يقتضيه المقام الخطابي ربما غيركم ذلك وأدى إلى المباحضة والمشاحنة فيحكي عن عثمان رضي الله عنه أنه بعث إلى علي رضي الله عنه وأحضره عنده وألقى إليه ما كان يجده من أولاد الصحابة الذين اعصوبوا بأهل الردة الذين كان رجوعهم إلى الإسلام على يد الصديق رضي الله عنه وهو في كل ذلك لا يجيبه فقال له عثمان رضي الله عنه ما أسكتك فقال يا أمير المؤمنين إن تكلمت فلا أقول إلا ما تكره وإن سكت فليس لك عندي إلا ما تحب ولكن لما لم أجد بدا من الجواب أرى أن أقدم لك مقدمة قبل الجواب فلتعلم أن الحجاج لما ولاه عبد الملك العراق وكان من سيرته ما يغني أشتهاره عن تسطيره هنا فتأول ابن الأشعث الخروج عليه وتابعه على ذلك جماعة من التابعين كسعيد بن جبير وأمثلة من أولاد الصحابة رضي الله عنهم ولما قوي عزمهم على ذلك استدعوا الحسن البصري لذلك فقال لا أفعل فإني أرى الحجاج عقوبة من الله فنزع إلى الدعاء أولى قال بعض فضلاء العجم يؤخذ من هذا أن الخروج على السلطان من الكبائر وجواز

المقام تحت ولاية الظلم والجور وقد علمت ما كان من أمر عبد الرحمن بن الأشعث وسعيد وأمثاله وعلمت قضية أهل الحررة لما أوقع بهم جند يزيد بن معاوية بالحرم الشريف ولما بلغه الخبر أنشد

ليت أشياخي يبدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل وشاع ذلك عنه وذاع وكان على عهد أكابر الصحابة وأولادهم ولا تعرض أحد منهم لتكثير عليه ولا تصدى لقيام ولا خاطبه بسلام وأما ما يرجع إلى جواب الكتاب فأما ما حكيت عن الصديق رضي الله عنه في أهل البيت والأحاديث الواردة فيهم وأنه يجب تعظيمهم واحترامهم وتبجيلهم لأجل النبي فإن كان يجب عليكم تعظيمهم فإن تعظيمهم يجب على أولى وأولى عملا بقوله تعالى قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا المودة في القربى الشورى وأجرى الله تعالى عادته أنه ما تصدى أحد لعداوة هذا البيت النبوي إلا كبه الله لوجهه وأما ما أوردت من الأحاديث في النصح فإني والله أحب أن تتصحنى سرا وعلانية مع زيادة شكري عليه وأراها منك مودة وأعدها محبة ولكنني أفعل ما أقدر عليه لأن الله سبحانه يقول لا يكلف الله نفسا إلا وسعها البقرة ولهذا قال أكثر العلماء في صدور تصانيفهم ولم آل جهدا في كذا لأن النفوس الشريفة العالية لا تترك من فعل الخير والجد في اكتسابه إلا ما عز تناوله عليها وصعب اكتسابه وأما ما ذكرت من أمر أبي محلي وسيرته وما كان تسلط عليه أما ما كان من استنهاضكم إليه المرة بعد المرة وتكررت في ذلك إليكم الرسل حتى أجبت إليه فلا نحتاج فيه إلى إقامة حجة غير كونه خرج عن الجماعة وقد قال من أراد أن يشق عصامك فاقتلوه كأننا من كان وإلا فلو دخل الملك من بابه وبإيعاه أهل الحل والعقد وأخذ ذلك بوسائط مثل بيعة جندا المرحوم التي تضافرت عليها علماء المغرب وأهل الدين المشاهير فلو كان وصل إلى ذلك بمثل هذه الوسائط لم يجب حربه ولا القيام عليه بما ذكرتم لأن السلطان لا يعزل بالفسق والجور وإلا فإن الصحابة في زمن يزيد بن معاوية لا يحصى عددهم وما تصدى أحد للقيام عليه ولا قال بعزله وإلا فإنهم لا يقيمون على الضلالة ولو نشروا بالمناشير وأما أبو محلي فبمجرد قيامه يجب عليك وعلى غيرك إعانتنا عليه لأنك في بيعتنا وهي لازمة لك فالطاعة واجبة عليك واعلم أيضا أن والدك أفضل منك بدليل أبأؤكم خير

من أبناكم إلى يوم القيامة وكان عمنا مولاي عبد الملك رحمه الله وسامحه على ما كان عليه واشتهر به إعلانا وكان والدك في دولته وبيعته ووفد عليه ولم يستكف من ذلك ولا ظهر منه ما يخالف السلطنة ولا أنكروا ولا عرض بما يسوء سلطان الوقت ولا سمع ذلك منه فإن كان راضيا بفعله فهو مثله وإن لم يرض فما وجه سكوته والوفادة عليه وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد ابن موسى الجزولي كادت تكون قطعية واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته وقد كان على عهد مولاي عبد الله برد الله صريحه وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه وما برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبه وكان المولى المذكور يعزل ويولي ويقتل وكان قد شرد منه إلى زاوية الشيخ المذكور المرابط الأندلسي وولد أضاك وأمثالهم وكان الشيخ المذكور يقدم للشفاعة فيشفع ولا يتعقب ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فما فتحها حتى أمره ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سببا لفتح الفتنة وكان قواد المذكور مثل وزيره ابن شقراء وعبد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن مؤمن العليج والهبطي والزرهوني وعبد الصادق بن ملوك وغيرهم ممن لم يحضرني ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمر واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب وكان في عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين ومحمد الشرقي وأبو عمرو القسطلبي ومحمد بن إبراهيم التامنارتي والشيطمي وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعي هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فأحسنوا السيرة ولا تعرضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح في ولادة الأمر وقادة الأجناد ممن نكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع في تدبيره إليهم ومثل من نكر من الأولياء كان علامة الزمان ورواد وقته شيخ مشايخ إفريقية وبعض أهل المغرب عبد العزيز القسنطيني الشيخ المتكلم الصوفي صاحب الآيات البيئات قد كان من سكان تونس وكان ملوك تونس ومن انضاف إليهم على الفساد الذي لا ينحصر

واشتهر أمرهم حتى عرفوا به في المشارق والمغرب ولم يبرح الشيخ المذكور من بينهم ولا تصدى لتغيير المنكر والأمر بالمعروف حتى قبضه الله إليه وأما ما ذكرت من أن من أعان على قتل مسلم ولو بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله هذه حجة عليك لا علينا لأن ما سعيت في قتل أحد يعلم الله ولا قتل من قتل إلا بأمر القضاة وأهل العلم إن كان واعلم أنه إذا كان هذا يكون وعيدا في قتل الواحد فما بالك بمن يريد فتح باب الفتنة حتى لا يقف القتل على المئين والآلاف ونهب الأموال وكشف الحريم إلى غير ذلك أما تعلم أن فتنة أبي محلي قد هلك بسببها من النفوس والأموال ما لا يحصى عدده ولا يستوفي نهايته كاتب وكان كل ذلك على رقبته لأنه هو المتسبب الأول الفاتح أبواب الفتنة لأنه كان يقتل كل من انتمى إلينا حتى قتل بسببه في يوم واحد بمكان واحد خمسمائة قتيل ولولا أبو محلي ما قتلوا وأعظم ما حرمة النفوس من هذا الذي قلت قوله تعالى كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا المائدة وليس في قول المواق ما يحتج به على السلطان وإنما هو في أصحاب الخطط على الترتيب الذي كان على عهده مثل أصحاب الشرط كصاحب الشرطة الذي ينفذ أحكام القاضي وصاحب شرطة السوق الذي ينفذ الأحكام عن قاضي الحضرة وغير ذلك من الولايات وولاية أبي محلي لا تعد ولاية حتى يعتبر عزله وما عند المواق وغيره وقفنا عليه وعرفناه وتلقيناه عن الأشياء الجللة وعرفنا ما عند الشافعية والحنفية ودرسناه المرة بعد المرة ولست ممن ينطبق عليه قوله أشقى الناس عالم لم ينفعه الله بعلمه ولكن لماذا تحتج بقول المواق لغرضك وتجعله حجة ولم تجبنا نحن فيما كتبنا إليك به في يونس اليوسي وقتلنا لك

الحرم لا يجبر عاصيا قال الأبى وهذا يحتج به على أهل الزوايا وأضربت عن الجواب وليس ذلك من أدب الجدل ولكن أخبرنا عن الوجه الذي منعت به يونس اليوسي من الشرع فإن متاعنا عنده وإمام أهلنا في داره إلى يوم الواقعة وترتب في ذمته للمسلمين من الأموال والدماء ما علمت فإن كنت ممن يريد العدل فهلا عدلت فيه فحينئذ نعلم أنك لا تريح جهته ولا تذهب بك النفس مذهبا لا جرم حينئذ تكون عند ما تريد ومع هذا لما أمسكنا زوجته وكتبنا لنا فيها سرحناها ساعة وصول خطابك من غير توقف فلو كنت عاديا لعبثت بها عبثه هو باماء أهلي وأهل داري على أنني ما رددت شفاعتك منذ عرفتك بعثت لي إبراهيم بن يعزى فسرحناه لغرضك على أنه ترتب في ذمته ما ينيف على خمسين ألف أوقية وذلك الممل إنما يقال له بيت مال المسلمين وإنما كان يجب تخليده في السجن وأهل الحصن أخرجناهم منه عن آخرهم وأنفدتم كتابكم بردهم فأمرنا بردهم عن آخرهم وابن يعقوب أوزال حاكم البلد وشبه الخليفة تركناه على دارنا وحرك من غير إذننا ولا مشورتنا وبعثنا مكانه فأنفذت الكتاب فيه فرد لمكانه ما هو الأمر الذي سافرت كتبك فيه ولا أسرعنا فيه خفافا وأما مسألة أهل أزمور فلما جاء كتابكم عزلنا صاحبه وسرحنا من كان عنده وردنا الخيل وقضية الحناشة الناس في شأنهم بالاجتهاد وقضية العرب اعلم أن العرب قد أفسدوا الأرض واستطالوا سواء هذه البلاد والغرب والذي يليق بهم ما أفتى به سحنون في عرب إفريقية والمغرب ولو طالبناهم بمجرد العشر مدة هذه الفتنة في المغرب لأتى ذلك على أموالهم والناس قد خرجوا عن أطوارهم وأحبوا الفتن طلبا للراحة وانظر كتاب الإفادة كذا للقاضي واستطالتم فيه عليه في قضية شرعية مشروحة في رسمها القديم على أنهم أضعف الناس قلبا انظر ما صدر منهم فما بالك بالعرب الذين خرجوا عن الطاعة وتساوى الشيخ والصغير في ذلك فإن كنت تصغي لمقالاتهم وإسعاف شهواتهم والتعرض للسلطان دونهم فهذا نفس خراب العالم وطالع كتاب صاحبنا من عند الرحامنة وما صدر منهم لخدمكم ورأيت أن أقدم

لك مقدمة أمام هذا وإن كانت أدبية قيل لابن الرومي وهو علي بن العباس لم لم تقل كقول ابن المعتز كان آذرونا والشمس فيه عاليه مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه فاجاب بأن قال لا يقدر أن يقول هو في مثل قولي في وصف الرقاقة ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللبح بالبصر ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها فورا كالقمر إلا بمقدار ما تتداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر وقال كل منا وصف أواني بيته ورب البيت أعلم بما فيه وأهل مكة أدري بشعبها والصيرفي أعرف بنقد الدينار وقصة الخضر والكليم صلوات الله على نبينا وعليهم فيها كفاية لمن يعتبر في خرقه السفينة وقتله الغلام وإقامته الجدار والكليم يرد عليه في كل ذلك حتى أنبأه الله بسر ما لم يعلم على أن علم

الخضر في علم موسى كحلقة ملقاة في فلاة هكذا قال بعض العلماء وقال بعضهم كل منهم على علم خصه الله تعالى به ومن هنا جوز ابن عربي الحاتمي في بعض كتبه وأحسب أن ذلك في الفصوص أن الولي الذي يتخذ الله ويصطفيه بمحبته يطع على علم لم يطع عليه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فقال مشيرا إلى نفسه أطلعتني الله على علم لم يطع عليه آدم فمن دونه واعلم أن السلطنة لها أسرار لا بد منها وسياسة ينكر ظاهرها ولكن نرجع إلى غرضك ومرايك أخبرنا كيف تحب أن يسلك الناس في العرب فإن كنت تحب أن يسلك الناس فيهم مسلك مولاي عبد الله فالزمان غير الزمان والأسعار قد طلعت وبلغت النهاية والله تعالى قد بعث أنبياءه وأنزل كتبه بحسب ما يقتضيه الزمان وهذا يعرفه من خالط الشرائع والكتب المنزلة وأخذ العلم من أفواه الرجال وأدبته مجالس العلم ونحن نلخص لكم الكلام

على بعض ما أورد الناس في الخارج أما ما بنوا عليه فرضه في صدر الإسلام والدول العظام فلا نطيل بذكره شهرته وأما في المغرب خصوصا فأول من فرضه عبد المؤمن بن علي وجعله على أقطاع الأرض بناء على أن المغرب فتح عنوة وإليه ذهب بعض العلماء ومنهم من يقول إن السهل فتح عنوة والجبل فتح صلحا فإذا تقرر هذا وعلمت أن أهل ذلك العصر قد بانوا وانثروا وبقي السهل كله إرثا لبيت المال تعين أن يكون الخراج فيه على ما يرضي صاحب الأرض وهو السلطان والجبل تتعذر معرفة ما كان الصلح عليه ولا سبيل إلى الوقوف عليه فيرجع فيه إلى الاجتهاد وقد اجتهد سلفنا الكرام رضوان الله عليهم في فرضه لأول الدولة الشريفة على حسب وفق أئمة السنة ومشايخ أهل العلم والدين في ذلك العهد فجرى الأمر على السنن القويم إلى أن هبت عواصف الفتنة لأيام ابن عمنا صاحب الجبل وإدالة مولانا الإمام وصنوه المرحوم على حواضر المغرب وبسمله عند الزحف بالأتراك وامتدت به الفتنة في الجبل إلى أن هلك مع النصارى في الغزوة الشهيرة وجاء الله من مولانا المقدس بالجبل العاصم للإسلام من طوفان الأهوال فقدر رضي الله عنه الأسياء حق قدرها ورأى أن المغرب غب تلك الفتن قد فغر فمه لانتقامه عدوان عظيمائكم الترك وعدو الدين الطاغية فاضطر رحمه الله إلى الاستكثار من الأجناد لمقاومة العدو والذب عن الدين وحماية شعور الإسلام فدعا تضاعف الأجناد إلى تضاعف العطاء وتضاعف العطاء إلى تضاعف الخراج وتضاعف الخراج إلى الإجحاف بالرعية والإجحاف بالرعية أمر يستتفك رضي الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول أيامه فلم يمكن له حينئذ إلا أن أمعن النظر رحمه الله في أصل الخراج فوجد بين السعر الذي بنى عليه في قيمة الزرع والسمن والكيش الذي تعطيه الرعية منذ زمن الفرض وبين سعر الوقت أضعافا حينئذ تحرى رحمه الله العدل فخير الرعية بين دفع كل شيء بوجهه ودفع ما يساويه بسعر الوقت فاخاروا السعر مخافة أن يطع إلى ما هو أكثر

فأجابهم إليه رضي الله عنه وعرف الناس الحق فلم ينكره أحد من أهل الدين ولا من أهل السياسة لبت شعري لو طلبنا نحن الرعية بسعر الوقت الذي طلع اليوم إلى أضعاف مضاعفة ماذا تقولون وقد انتقدتم علينا ما هو أخف من ذلك والحاصل راجعوا رضي الله عنكم ما عند الإمام الماوردي في الأحكام السلطانية في ضرب الخراج فقد استوفى الكلام في ذلك وأما ما تقضيه من العجب لتعطل أجوبتنا عنك فنحن نراجع أقل منك ولكن كتابك أكد مبناه على قصة أهل أزمور فأنفدنا من أخرج الذي كان به وأقصاه عنه وشرده من كان عنده فتوقف الجواب حتى رجع الخديم حينئذ أجبتكم بما وصلكم وتعجيل الأجوبة وبطؤها فاعلم أن الذي يقتضيه ذلك أمور منها أن يكون الأمر الذي ورد الخطاب فيه منكم ما سمعت به ولا بلغني فنتوجه للبحث عنه والفحص عن أسبابه فربما أوجب ذلك البطم بحسب الأماكن والبلدان فيكون جوابنا على أساس وبيان وإن كان عندنا خبر ما ورد فيه خطابكم فالجواب لا يتأخر وقد وقع هذا منا غير مرة وكون تعطيله منشأه ما من الله به علينا من رجوعنا إلى سرير ملكنا واجتماعنا بسرينا آمين اعلم أن أهل هذا المغرب لما تمالؤوا علي وخرجت إلى المشرق والتقيت بالترك والأروام وجالسوني وجالستهم وخطبوني وخطبتيهم ففهمهم مشافهة ومنهم مراسلة وكنت أيام مقامي في أرضهم كمقامي على سرير ملكي لأن كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرؤوسهم كان ينتجع فضلي ويبد كفه رغبة في نعمتي وواسبت الجميع عطاء مترفا مع قلة الزاد والذخيرة وترفعت عن مواساة الأمائل والأكابر من العجم والعرب ولا ركنت لأحد بل تجودت بما قدرت عليه من الأخبية حتى جعلت محلة برماتها وخيلها فترامت علي العجم بالرغبة وبسطوا أكف الضراعة في المقام عندهم والدخول في جملتهم وعرضوا علي الإقطاعات السنوية والبلادات الملوكية بلطف مقال وأدب خطاب حتى قال لي القبطان مراد رئيس المجاهدين وما مثلك يكون مع العرب ها نحن نخدمك بأموالنا وأنفسنا وبمالنا من السفن حيث أردت وأحببت وما انفصلت عنهم حتى

كنت لهم بخطي إني أحمل أهلي وحاشيتي وأرجع إليهم إلا إن تمكن لي الدخول في الملك والغلبة على البلاد أو بعضها وقلت من عندهم ولم يتعلق بثوب غفافي ما يشينه معهم ولا مع العرب ولا كان لأحد علي منة ولا نعمة إلا فضل الله سبحانه وكان فضل الله علينا عظيما ثم إني دخلت سجلماسة على رغم أنف أهلها وواليتها ومنها دخلت السوس وجعلت ولي الله العارف به أبا محمد عبد الله بن المبارك واسطة بيني وبين أخي حتى اجتمعت بأهلي ومالي ثم بعث إلي الترك بأحد بلكباشات اسمه مصطفى صولجي إلى السوس راغبين في إنجاز الوعد وجنحت للمسير إليهم فرأيت الأهل والأيتام قد عظم الأمر عليهم واستعظموا الخروج فأسعفت رغبتيهم في المقام بالمغرب وشيعت الرسول قافلا إلى قومه من سجلماسة عند الدخول الثاني لها ومغالبية أهلها عليها وعززته برسول من عندي إليهم بتحف وأموال ورد بها عليهم مع رسولهم ثم إني اقتحمت مراکش على أهل فاس على كثرة عددهم وعددهم وقلت ففتح الله ثم خرجت إلى السوس مرة أخرى وأوقعت بولد مولاي أحمد الشريف وجموع مراکش وقد تعصبوا عليه لأنهم شعبة جده فضضته على رغمهم ونازلته بالسهل والحزن حتى أمكن الله منه وحكم بيني وبينه ثم نجم الغوى أبو محلي وغلبيت على الرأي وقد قال من هو أفضل مني مولانا علي كرم الله وجهه لا رأي لمن لا يطاع ودخل هذه البلاد وخرجت أنا إلى السوس ريثما تجتمع قبائلنا في المكان الذي كان اجتماعهم فيه إلى أن بلغتهم وقصد إليهم أبو محلي فقاتلوه ورحل عنهم بعد أن أثنوا فيه بالقتل ثم وافيتهم فكان الحرب بيننا سجلا فهل سمعتم خلال هذه الأحوال أنني احتجت إلى أحد فيما قل أو جل وهذا كله بحيث لا يخفى عليك اللهم أن تعدوا الوفاة التي وفدنا عليك من قبيل الاضطراب والاحتياج فلا أدري على أي ما قصدتك لطلب دنيا لأني كنت أسمع ما أنت عليه من مائة الدين والصلاح والإقبال على طاعة الله والتمسك بسنة رسول الله

ولا غرو أن من كان هذا وصفه كان جديرا بأن يقصد للدعاء ولإصلاح القلب ولا شك أننا نزلنا دارك وحللنا بمكانك ولما وقع الاجتماع بك جرت المذاكرة في أبي محلي وغيره حتى كتبت الكتاب الذي علمنا عليه وها هو بخط يدك فإن نسينا بعض ما فيه ولا فعلنا فأخبرنا به نستدركه وهذه مراکش التي ذكرتم قد كنت فيها ما ذكرتم ووقفت على عبد المؤمن بن ساسي وعدته مرة أخرى في مرضه وهل قصدته لطلب دنيا أو عرفته لأجلها ومحمد بن أبي عمرو لما وقفت على المدرسة التي من بناء مولاي عبد الله ووقفت عليه في داره وكل ذلك إنما نفعه تأكيدا للمحبة وزيادة في المعرفة بالله ولو علمت أن ذلك يعد عيبا ويظن أنه نوع من الاحتياج ما كنت والله لأقف على أحد ولو أنه يملكني الدنيا بخدافيرها لأن الخير والشر بيد الفاعل المختار فهو أولى بالاضطرار إليه وأما سربي فما تروع قط حتى يأمن وأما من كان بالدار التي ذكرتم فإنما هم أهلي ومتروك أعمامي وهذه الدار التي ذكرتم فيها نحن ننقل عنها إلى بعض البلاد الغربية البحرية كما قلت لك ذلك مشافهة ساعة قلت لي ينبغي للأشراف بناء بالجبل لوقت ما وحكيت ذلك عن والدك وأما ما أخبركم به القاضي أيام ورودي إلى السوس وقت بلغني كتابكم الذي نصه قد اجتمعت أناس وفسدت النيات وتعينت المطاعم وأردنا تدبيركم لأن الملوك أهل التدبير والمراد رجوعنا لأوكارنا من غير وصمة تلحق الجانبين فكلما حمل فهو عني والتزمته إلى الآن إلا ما طرأ علينا فيه النسيان فذكرونا به فإنا لا نخرج عنه وأما يمين المصحف وأني حلفت فيه للقائد عبد الصادق فلا والله ما حلفت فيه ولا أحلف لأحد إلى لقاء الله أما علمت أي حضرت بيعة الشيخ المأمون صاحب الغرب سامحه الله وحضر أولاد السلطان واستحلفهم له إلا أنا رضي الله عنه فإنه قال فلان لا يحلف لا يحتاج إليه فيما نأمره به ونفعله وعظم ذلك على إخوتي وظهرت في وجوههم لأجله الكراهية ولكن الذي قلت لعبد الصادق أحلف للمرابط فإني أوفى لك به ولا زلت على ذلك لأن

الذي كنت تقول في ذلك الوقت أخاف أن تقع في أهل مراکش والأكابر ونحوهم مثل حكومة عبد القادر ونحوها أما أهل مراکش فما تعرضنا لأحد منهم حتى تركنا متاعنا لأجلكم كولد المولوع وغيره وهذا الميدان والشقراء فابعت من رضىت ينادي فيهم من له حق علينا ننصفه منه ومن خدامي أيضا وإن كنت سمعت قضية منصور العكاري فالعكاري نزل أهلنا في خيمته عند وقعة رأس العين فلما أرادوا الطلوع إلى الجبل تركوا أكثر مالهم في خيمته مع بعض الخدم خوفا من غائلة البربر لما كان وقع منهم لأهل بابا أبي فارس فأخذ سلمات من ذهب يزيد على ستين ألف أوقية وكان أيام أبي حسون معه وفي جملته حتى مات القائم فينزل حجتة بإنجازة عشرين ألفا والباقي حتى يؤديه على سعة وطلب منا أن يتعمل ويتولى بعض الخطط لينتفع ويجمع بعض ذلك فصرناه حتى إذا جاء أبو محلي ووقع ما وقع طالبناه بمتاعنا وهو لا يسعه إنكاره وهكذا عبد الكريم الذي في زاويتك بنفسه يعلم أن إخوته أخذوا لي سلعة في وسط حلثهم وأنا بين بيوتهم تزيد على خمسين ألفا وأخذوا الإبل وها نحن سكتنا عنهم ولا طالبناهم بها وأيضا قال لك انظر ما فعل باخوتي وصرت تكاتينا وأنت لا علم عندك بأصل المسألة وأما الأموال فإن الله سبحانه قد وسع علينا من فضله وعندنا ما يكفي الخامس والسادس من الولد وعرفنا الناس وعرفونا وعاملناهم وعاملونا ولو أردت خمسمائة ألف مثقال من أصحاب أفلا منك أو من أصحاب الإنجليز وكتبت إليهم في ذلك ما تأنوا في بعثه ولا لأنوا فيه بمعدرة وقد كفانا الله به والحمد لله على ذلك واعلم أن الظن فيك جميل ولولا ذلك ما أعطيتك خمسة آلاف مثقال وسمحت بالمال الذي حمل إليكم ابن عبد الواسع أولا وسلعة السفن أخيرا وبهذا كله تستدل على صفاء السريرة وصالح النية والله سبحانه يعلم ذلك وأما الامتناع من عدم الأنة القول وحسن الخطاب فكما قال تعالى وقولوا للناس حسنا البقرة وإنك لم تبلغ ولو نصف ما خاطب به

الأئمة رضوان الله عليهم أهل زمانهم اتكالا على علمنا به وحسبي نصح الفضيل ابن عياض وسفيان ومالك رضوان الله عليهم فهذه المسألة حسبي في الجواب منك انتهى ما وقفنا عليه من هذه الرسالة وهي دالة على براعة الرجل فقها وأديا وكمال مروءة وعلو همة رحمه الله وغفر ذنوبه استيلاء نصارى الإصبيبول على المعمورة ونهوض أبي عبد الله العياشي لجهادهم وانتفاض أندلس سلا على السلطان زيدان رحمه الله قد قدما في أخبار الوطاسيين ما كان من استيلاء البرتغال على المعمورة المسماة اليوم بالمهدية ومقامهم بها سنين قلائل ثم جلائهم عنها ثم لما استولى الإصبيبول خذله الله في هذه المدة على العرائش كما مر طمحت نفسه إلى الاستيلاء على غيرها وتعزيرها بأختها فرأى أن المهدية أقرب إليها فبعث إليها الطاغية فيليبس الثالث من جزيرة قادس تسعين مركبا حربية فانتهوا إليها واستولوا عليها من غير قتال لفرار المسلمين الذين كانوا بها عنها هكذا في تواريخ الفرنج وقال شارح الزهرة كان نزول النصارى بمرسى الحلق سنة اثنتين وعشرين وألف وقيل سنة ثلاث وعشرين بعدها وقيل غير ذلك وكان عدو الله الإصبيبول أراد أن يضمها إلى العرائش لينضبط له ما بينهما من السواحل وتتقوى عساكره بهما فخبى الله ظنه ولقي من أهل الإسلام عرق القربة وكان أبو عبد الله العياشي بعد رجوعه من أزموه وسلامته من اغتيال قائد زيدان دخل سلا في نحو أربعين رجلا وزار ضريح شيخه أبي محمد بن حسون وبات عنده فجاءه أهل سلا وذكروا له ما هم فيه من الخوف من نصارى المعمورة وأن مسارحهم قد امتدت إلى الغابة وأن النصارى ألفان من الرماة سوى الفرسان فأمرهم بالتهيب إليهم وفي نشر المثاني ما نصه وفي أواخر جمادى الثانية سنة ثلاث وعشرين وألف أخذ النصارى المهدية فكتب أهل سلا إلى السلطان زيدان فبعث إليهم أبا عبد الله العياشي الذي كان مقدما بوكالته على الجهاد بدكالة وهو يقضي أن مجيء العياشي إلى سلا كان بإذن السلطان لا فرارا منه والأول أصح اللهم إلا أن يكون مجيئه فارا كان يعد هذا التاريخ والله أعلم وأمر أبو عبد الله العياشي أهل سلا بالتهيب للغزو واتخاذ العدة فلم يجد عندهم إلا نحو المائتين منها وكانت السنون والفتن قد أضعفتها فحضرهم على الزيادة والاستتكار منها فكان مبلغ عدتهم بما زادوه زهاء أربعمئة ثم نهض بهم إلى المعمورة فصادف بها من النصارى غرة فكانت بينه وبينهم حرب قريبا إلى أن غربت الشمس فقتل من النصارى زهاء أربعمئة ماتان وسبعون وهذه أول غزوة أوقعها في أرض الغرب بعد صدوره من ثغر أزموه ومنها أقصرت النصارى عن الخروج إلى الغابة وضاق بهم الحال ثم إن السلطان زيدان لما بلغه اجتماع الناس على سيدي محمد العياشي بسلا وسلامته من غرة قائده السنوسي بعث إلى قائده على عسكر الأندلس بقصبة سلا المعروف بالزعروري وأمره باغتياله والقبض عليه ففاوض الزعروري أشياخ الأندلس في ذلك فاتفق رأيهم على أن يكون مع العياشي جماعة منهم عينا عليه وطلبة على نيته واستخبارا لما هو عازم عليه وما هو طالب له فلازمه بعضهم وشعر العياشي بذلك فانقبض عن الجهاد ولزم بيته ثم إن الله أوقع النفرة بين السلطان زيدان وبين أهل الأندلس وذلك أن السلطان المذكور كان قد بعث قبل ذلك إلى القائد الزعروري أن يجهز إلى درعة أربعمئة من أندلس سلا فجهزهم إليها وطالت غيبتهم بها ففر أكثرهم ونفرت قلوبهم عن الزعروري وسلطانه فكان زيدان يبعث إلى أهل الأندلس بسلا بتجديد البعث إلى درعة فيأبون الانقياد إليه في ذلك وكرهوه وأزمعوا على خلع طاعته ثم وشوا إليه بقائده الزعروري فبعث زيدان

بالقبض عليه فقبض عليه ونهب أهل الأندلس داره وكتبوا إلى السلطان بذلك مظهرين طاعته مكيدة ونفاقا فبعث إليهم مولاه وقائده المملوك عجيبا فمكث بين أظهرهم مدة فلم يعبوا به وصاروا يهزؤون به ثم عدوا عليه فقتلوه فظهر منهم شق العصا على السلطان زيدان وأظلم الجو بينه وبينهم وبقي أهل سلا فوضى لا والي عليهم وكثر النهب وامتدت أيدي اللصوص إلى المال والحريم وسيدي محمد العياشي ساكت لا يتكلم واستمر الحال على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره بعد هذا إن شاء الله انعطاف إلى خبر عبد الله بن الشيخ بفاس والثوار القائمين بها وما تخلل ذلك قد قدما ما كان من قدوم السلطان زيدان إلى فاس أواسط سنة تسع عشرة وألف واستيلائه عليها ثم خروجه عنها وإعراضه عنها وعن أعمالها إلى آخر دولته وكان عبد الله بن الشيخ حياة أبيه الشيخ تحت أمره يصغي إليه ولا يقطع أمرا دونه وقيل إنه خرج عن طاعته سنة عشرين وألف ولما قتل أبوه ببلاد الهبط كما مر استبد عبد الله هذا بفاس وما انضاف إليها على وهن وفشل ربح وكان غالب جنده من شراقة وشراقة هؤلاء هم عرب بادية تلمسان وما انضاف إليها وسموا بذلك لأنهم في ناحية الشرق من المغرب الأقصى فأهل تلمسان وأعمالها يسمون أهل المغرب الأقصى مغاربة وأهل المغرب الأقصى يسمون أهل تلمسان وأعمالها مشاركة لكن العامة يلحون في هذه النسبة فيقولون شراقة فكان غالب جند عبد الله من هؤلاء العرب ومن انضم إليهم فهم حماته وأنصاره وبهم كان يعتصم حتى أعطاهم أجنة الناس ودورهم فكان الرجل من أهل فاس يأتي بستانه فيجد الأعرابي بخيمته في وسطه فيقول له أعطانيه السلطان ومدوا أيديهم إلى حريم الناس ونهبوا الأسواق وجأهروا بالفساد وأظهروا السكر في الطرقات واقتحموا على الناس دورهم حتى أن امرأة كانت تطبخ خليعا وولدها رضيع عندها فاقتحم عليها الدار أحد شراقة فهربت

المرأة وأغلقت عليها مشربة لها فلم يقدر لها على شيء فراودها على النزول فأبته فقال لها إن لم تنزلي رميت الولد في الطنجير فتمادت على الامتناع فرمى به فيه فما هو إلا أن رأته ولدها في وسط الطنجير صاحت وألقت بنفسها عليه فاندقت رقيتها وماتت فغاظ الناس ذلك وأعظموه وقام رجل منهم يقال له أبو الربيع سليمان بن محمد الشريف الزرهوني محتسبا على شراقة واعصوب عليه كثير من العامة وقاموا بنصرته فقتل شراقة والتلمسانيين بفاس حيث وجدوا وحكم السيف في رقابهم ونفاهم عن فاس وحماها من إذايتهم وطهرها من رجسهم فاستحسن الناس أمره وأذعنوا إليه قال في المرأة وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الأول يعني سنة عشرين وألف ثار بفاس الشريف أبو الربيع سليمان بن محمد الزرهوني وعضده الفقيه أبو عبد الله محمد اللطفي المعروف بالمربوع وتبعهما أهل فاس بأجمعهم وأخرجوا من كان بها من جيش السلطان وقتلوا كثيرا منهم وجرت في ذلك خطوب ألت بعد سنين إلى انقطاع الملك بفاس وبقي الناس فوضى إلى الآن اه كلام المرأة وكان ابتداء أمر شراقة واشتداد شوكتهم سنة ست عشرة و ألف كانوا إدالة على أهل فاس نازلين بقصبة الطالعة وبقصبة أخرى وبيعض الفنادق وقرب باب المسافرين إلى أن قام عليهم الشريف أبو الربيع في التاريخ المتقدم وكان عبد الله بن الشيخ يوم ثورة أبي الربيع وفقهه بشراقة غالبا في سلا فلما بلغه الخبر قدم ورام أن يصلح بين أهل فاس وبين شراقة وراودهم على ذلك فقالوا لا لا قسميت تلك السنة سنة لا لا ثم أمر أبو الربيع أهل فاس بشراء العدة والتهيب لقتال شراقة وخرج إليهم فاقتلوا خارج باب الجبسة فانهزمت شراقة واستتب أمر أبي الربيع وسكنت أحوال المدينة وأمن الناس أماتا لم يعهد من زمان السلطان الغالب بالله وفي يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الثانية سنة عشرين وألف كانت

وقعة المترب موضع خارج باب الفتوح وسببها أن أهل فاس استغاث بهم الملائقة واستصرخوهم على شرافة مكيدة وحيلة فخرجوا في يوم شديد الريح وكمن لهم شرافة بخولان وأغاروا عليهم بغتة فانهزم الناس وقتل من أهل فاس نحو الألفين وفي نشر المثاني سبعمائة فقط قال وجلهم هلك بالعطش وغلقت الأبواب واضطربت المدينة وهاج الشر بسبب ذلك مدة ثم خرج أهل فاس مرة أخرى لقتال عبد الله بن الشيخ فهزمه وأسروه وبقي في أيديهم فعفوا عن قتله وأطلقوه وذهبوا خلفه حتى دخل داره من فاس الجديد ولما قتل أبوه الشيخ سنة اثنتين وعشرين كما مر واتصل خبر مقتله بابنه عبد الله عزم على الأخذ بثأره من قاتليه أولاد أبي الليث وأزمع المسير إليهم ووافقه على ذلك الشريف أبو الربيع والفقير المربوع وأصحابهما وامتنتت العامة من الذهاب معهم لأن الشيخ لم تبق له في نفوس المسلمين مودة حيث باع العرائش للنصارى فاجتمعت العامة بجامع القرويين وقالوا لا نقبل سليمان ولا المربوع وحاصوا حيصة حمر الوحش واتخذوا رؤساء آخرين فوقع بسبب ذلك شر عظيم أدى إلى قتل الشريف مولاي إدريس بن أحمد الجوطي العمراني التونسي وسبب ذلك أن منادي أبي الربيع مر ينادي في السوق باستنفاذ الناس مع عبد الله بن الشيخ فقام إليه الشريف مولاي إدريس وضربه بعضا وسبه فأقبل أبو الربيع ومن معه واقتحموا على مولاي إدريس دار القبطون وقتلوه على خصتها ولما كان صباح القبر من الغد قام ولد مولاي إدريس وشكا هضمته لعلماء فاس فأمره بالصبر ثم التف عليه أهل العدو وقصدوا دار أبي الربيع وناوشوه الحرب فرجعوا مفلولين وقتل بعضهم والأمر لله وحده ووقع الغلاء حتى بيع الفمخ بأوقيتين وربيع للمد وكثرت الأموات حتى أن صاحب المارستان أحصى من الأموات من عيد الأضحى من سنة اثنتين وعشرين وألف إلى ربيع النبوي من السنة بعدها أربعة آلاف وستمائة وخربت أطراف المدينة وخلت المدارس ولم

يبق بلمطة إلا الوحوش وكثر النهب في القوافل ولما كان المحرم فاتح سنة ست وعشرين وألف قبض الشريف أبو الربيع على أربعة من كبار شرافة ثم قتلهم فوجم لها للمطيين وخاف الناس على المدينة وتوقعوا الشر وعظم الرعب في القلوب حتى وقعت بسبب ذلك الهزيمة في كل مسجد من مساجد الخطبة بفاس وذلك أنه كان إمام جامع القرويين ذات يوم يخطب والناس في صحن المسجد فوقع شؤبوب من المطر غزير فابتدر من في الصحن الدخول إلى تحت السقف فظن الناس أن أبا الربيع قد قصده شرافة فانهزموا وخرجوا من المسجد لا يلوي أحد على أحد فبلغ الخبر إلى أهل جامع الأندلس فاقتدوا بهم وبلغ الخبر إلى أهل الطالعة فكان كذلك وتتابع الهزائم بالمساجد وفي يوم السبت الخامس من صفر سنة ست وعشرين وألف قتل الشريف أبو الربيع غدرا في جنازة رجل لمطي خرج إليها فقتله الفقيه المربوع وقتل أباه وأبناء عمه وستة من أصحابه ودفن مع والده بمسجد الجرف ولما قتل أبو الربيع بقيت فاس في يد المربوع واعصوب عليه للمطيين واشتدت شوكته ثم قدم جمع من عشيرة أبي الربيع من زرهون وحاولوا الفتك بالمربوع ففطن بهم ووقع بينه وبينهم قتال هلك فيه نحو مائة وثلاثين رجلا وسلم المربوع منها وقال صاحب معتمد الراوي لما قتل أبو الربيع الزرهوني قام أخوه مولاي أحمد يطلب بثأره وساق معه نحو أربعمائة من الزرانة واقترح بهم فاس وقتلوا الفقيه المربوع وشيعته من المطيين فالتفت أهل فاس على المربوع وقتلوا معه الشريف ويدا واحدة فانهزم الشريف وقتل جل من معه وكاد يقبض عليه باليد ففر إلى روضة سيدي أحمد الشاوي ومعه نحو الثمانين من أصحابه فتبعهم الفقيه المربوع في جمع عظيم من المطيين واقترح عليهم الروضة ففر الزرانة إلى بيوت دار الشيخ فهجم عليهم المربوع بجنده وقتلهم أجمعين ثم إن المربوع والمطيين جاؤوا برجل يقال له عبد الرحمن الخنافي كان يتعبد بزرهون فاستقدمه في جمادى الأولى سنة سبع

وعشرين وألف وراموا أن يملكوه ويجتمعوا عليه فأنزلوه مع أصحابه في روضة الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم واتصل الخبر بالقائد أحمد بن عميرة وزير عبد الله بن الشيخ فأتى وفتك بأصحاب الرجل المذكور ولجأ هو إلى ضريح الشيخ ابن حرزهم فرمى من طاق هنالك فقتلوه وسقط ميتا على القبر وبطل أمره ولما سئم أهل فاس من الفتن وكثرة الحصار وضاق بهم الحال من غارات الأعراب ذهبوا إلى عبد الله بن الشيخ بفاس الجديد ونصروه وأظهروا المحبة له ففرح بهم غاية وتحالفت العامة والخاصة على نصره والإذعان إليه فصيح عنهم وعفا لهم عما سلف وبعث وزيره إلى المربوع بالأمان فلم يأمن وخاف على نفسه وصمم مع المطيين على قتال عبد الله وتهيؤوا له حتى لم تصل الصلوات الخمس بالقرويين ثم إن القائد حمو بن عمرو وزير عبد الله أمر بأن ينادى بأمان للمطيين ففر المطيون عن المربوع حينئذ حتى لم يبق معه إلا قليل ثم بعث إليه عبد الله بسبخته وخاتمه أمانا فلم يأمن وفر ليلا إلى بني حسن فأخذه شيخهم سرحان وأتى به إلى عبد الله فعفا عنه وعادت دولة عبد الله إلى شبابها واستتب أمره وتمهدت له البلاد وذلك في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وألف فجمع الجيوش وبعث بعض جنده لحصار تطاوين وبعضهم لقبض الأعتار وبعث وزيره حمو بن عمرو مع المربوع لأرجين موضع من جبال الزبيب فغدر المربوع بالوزير وقتله اعتمادا على كلام سمعه من عبد الله فغضب عبد الله وأسرها في نفسه ثم في يوم الاثنين ثالث ربيع النبوي سنة ثمان وألف قتل المربوع للمطي ونهبت داره وقال في نشر المثاني قتله عبد الله بن الشيخ وعلقه على البرج الجديد خارج باب السبع ثم أنزله ولعبت عليه خيله ثم بعد أيام وظف عبد الله على اللطميين ثمانين ألفا فقتل عليهم أمرها فهربوا في كل وجه فأسقط عنهم نصفها والله تعالى أعلم

ثورة محمد بن الشيخ المعروف بزغودة على أخيه عبد الله بن الشيخ وما وقع في ذلك قال في شرح زهرة الشماريخ لما رأى أهل بلاد الهبط ما وقع من افتراق الكلمة وتوقد الفتن بايعوا محمد بن الشيخ المعروف بزغودة على ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وكان الذي قام بدعوته الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن عيسى بن عبد الرحمن الإدريسي المحمدي البيونسي المعروف بابن ريسون وهي أم جده علي نزيل تاصروت وبايعوه على الكتاب والسنة وعلى إحياء الحق وإماتة الباطل فلما بلغ خبره أخاه عبد الله خرج لقتاله فالتقى الجمعان بوادي الطين واقتتلوا فانهزم عبد الله وتقدم محمد إلى فاس فدخلها واستولى عليها في شعبان سنة ثمان وعشرين وألف وقبض على بعض عمال عبد الله فقتلهم واستصفى أموالهم وفي آخر شعبان المذكور وقعت الحرب بينهما بمكناسة فانهزم محمد ودخل عبد الله فاسا في مهل رمضان من السنة وأظهر العفو عن الخاص والعام ثم قتل أهل فاس قائده ابن شعيب وأخذوا حذرهم من عبد الله ثم وقع قتال بين أهل الطالعة وأهل فاس الجديد ودام أياما عديدة حتى اصطلحوا لتاسع رجب من سنة تسع وعشرين وألف ثم إن عبد الله خرج لقتال أخيه محمد فوقعت المعركة بينهما بوادي بهت فانهزم محمد وفر شريدا إلى أن قتله ابن عمه كما سيأتي إن شاء الله وفي يوم الجمعة خامس ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين وألف قتل الفقيه العالم القاضي أبو القاسم بن أبي النعيم بعد أن نزل من صلاة الجمعة

بفاس الجديد فقتلته اللصوص بباب المدرسة العنانية وفي نشر المثاني قتله للمطيين بالزربطانة لأنهم اتهموه بالميل إلى عبد الله بن الشيخ فوقع بسبب قتله شر عظيم بين أهل العدوتين من فاس ولم يزل عبد الله في معالجة أهل فاس فتارة يميلون إليه وتارة ينحرفون عنه لفساد سيرته وقيح طوبته حتى كان قائده مامي العلي يهتج الدور جهارا ويعطي عبد الله كل يوم على ذلك عشرة آلاف مما ينهب من الناس من غير جريمة ولا ذنب وقام عليه بمكناسة أيضا رجل يقال له الشريف أمغار وقام عليه بتطاوين المقدم أبو العباس أحمد النقيس ولم يبق في يده إلا فاس الجديد وأما فاس القديم فتارة وتارة كما ذكرنا أنفا لأنه استولى عليها الشريف أبو الربيع والفقيه المربوع ولما قتلا كما ذكرناه أنفا قام فاس محمد بن سليمان المطي المدعو الأقرع وعلي بن عبد الرحمن فقتل ابن سليمان وقام أحمد بن الأشهب مع ابن عبد الرحمن المذكور فوقعت فتن وحروب ثم قام الحاج على سوسان وابن يعلى وتولى أيضا يزورر ومسعود ابن عبد الله وغيرهم من الثوار وكانت فاس أيام هؤلاء على فرق وشيع لا يأمن التاجر على نفسه إلا إن استجار بأحد من هؤلاء ووقع من الفتن ما أظلم به جو فاس وفتن أفعالها العاطر الأنفاس وخلا أكثر المدينة واستولى عليها الخراب ودام الشر بين أهل العدوتين حتى كادت فاس تضمحل ويعفو رسمها وحدث غير واحد من الثقات أنه لما دامت الحرب بين أهل العدوتين ولم يكن لأهل الأندلس غلبة على اللطميين قال الشيخ أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد الفاسي لا يغلب أحد اللطميين ما داموا مواظبين على قراءة الحزب الكبير للإمام الشاذلي رضي الله عنه وكانت طائفة من اللطميين يفرؤونه كل صباح بزواوية سيدي رضوان الجنوي من عبادة اللطميين فسمع ذلك أهل عبادة الأندلس فاحتلوا على إبطال قراءة ذلك الحزب بأن بعثوا

أحدا فاحتال على أولئك الذين يقرؤونه فاستضافهم فباتوا عنده جميعا في منزله فلما طلع الفجر أو كاد زعم أن مفتاح الدار قد سقط منه وتلف ولم يزل يعاني فتحها إلى أن طلعت الشمس فخرجوا ولم يقرأوا الحزب ذلك اليوم وأخبر أهل الأندلس بذلك فحملوا على أهل عدوة اللطيين فهزموهم وتحكموا فيهم مع أنهم كانوا لم يجدوا إليهم سبيلا قبل ذلك ببركة حزب الشاذلي رضي الله عنه وذكر بعضهم أن سبب هذه الفترة ما حكى أن عبد الله بن الشيخ عزم على التنكيل بأهل فاس في بعض غلباته عليهم أيام خروجهم عليه فاستشفعوا إليه بالصالحين المجذوبين سيدي جلول بن الحاج وسيدي مسعود الشراط وكان من الملامتية فلما وقفا بين يديه قال أما وجد أهل فاس شفيعا غير هؤلاء الخراءين في ثيابهما فغضب سيدي جلول وقال والله لا تصرف فيها يعني فاسا أحد أربعين سنة وانصرفا فيقال إن عبد الله بن الشيخ انقلبت معدته فخرج غائطه من فمه أياما إلى أن أتى بالشيوخين فاسترضاهما فكان أمر فاس كما قال سيدي جلول لم بطأئى رؤوس أعيانها سلطان إلى أن جاء الله بالمولى الرشيد بن الشريف السجلماسي رحمه الله كما سيأتي وإنما كان يتصرف فيها رؤساء أهل فاس الذين يسمونهم السياب قال اليفرنى وهذه حكاية صحيحة سمعتها من غير واحد بفاس ملخصها ما ذكرنا ولم يزل عبد الله في محاربة أهل فاس القديم من سنة عشرين وألف إلى أن توفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وألف بسبب مرض اعتراه من إسراره في الخمر وإدمانه عليه وكان لا يفارقه ليلا ولا نهارا ويتعاطاه سرا وجهارا قال في شرح زهرة الشمرايخ ولما توفي عبد الله ولي بعده أخوه عبد الملك في شعبان سنة اثنتين وثلاثين وألف ولم يزل مقتصرًا على ما كان قد صفا لأخيه إلى أن توفي في ذي الحجة سنة ست وثلاثين وألف

ومن آثار عبد الله بن الشيخ القبة التي على الخصة الكائنة أسفل المنارة التي بوسط صحن جامع القرويين فإنه لم يكن في القديم إلا الخصة المقابلة لها شرقي الجامع المذكور غربية قال اليفرنى حدثني شيخنا الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد قال كان شيخ شيوخنا الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد مبارزة يقول إن أحمد ابن الأشهب الذي تقدم ذكره قبل في الثوار أخبر به النبي قال والحديث بذلك مذكور في كتاب الجامع الكبير للحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله اه وقتل ولد ابن الأشهب رابع جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وألف فتك به علي بن سعد في جامع القرويين وهو في صلاة العصر وقامت بسبب ذلك حرب بين أهل الأندلس واللمطيين وانتهت السلع التي بسوق القيسارية وسوق العطارين وبنى للمطيين الدرب الذي بباب العطارين واستمرت الحرب نحو ثمانية أيام ثم اصطلحوا ثورة أبي زكرياء بن عبد المنعم بالسوس ومغالبته لأبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة على تارودانت كان الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي لما رجع من مراکش إلى السوس حسيما مر بدا له في طلب الملك وجمع الكلمة لما رأى من افتراقها في حواضر المغرب وبواديه وكان المرابط أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن الولي الصالح أبي العباس أحمد بن موسى السملالي ويقال له أيضا أبو حسون قد ظهر بالصقع السوسي عند قتل ربح السلطان زيدان به واستولى على تارودانت وأعمالها فلما ثار الفقيه أبو زكرياء سار إلى تارودانت فتغلب عليها وملكها من يد أبي حسون المذكور وبعد أن وقع بينه وبينه معارك ومقاتلات كبيرة وكان

القاضي بتارودانت يومئذ الفقيه العالم أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني وكان أبو زكريا قد استشاره فيما عزم عليه فلم يوافق على ذلك ولم يساعده على مراده لما فيه من الخروج على السلطان بلا موجب فغضب عليه الفقيه أبو زكرياء حتى أمر بقتله غيلة فيما قيل فخرج القاضي من المدينة خائفا يترقب وذهب إلى مراکش فاستقر بها وعصمه الله منه وكتب إلى أبي زكرياء برسالة يعظه فيها وينهاه عن الخروج على السلطان ونصها بسم الله الرحمن الرحيم ويقول الفقير الشديد الحاجة إلى رحمة مولاه الغني به عن سواه السائل منه التوفيق واللطيف في ظنعه ومأواه كاتبه عيسى بن عبد الرحمن السكتاني عفا الله عنه وسمح له الحمد لله الذي جعل الصدق بالحق وظيفة الأنبياء وأورثه بعدهم من خلفه فريق العلماء ومن أكد أمر الصلح وقال الدين النصيحة فليل لمن يا رسول الله فقال لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم والرضا على آله وصحبه الذين سلخوا سبيله وانتهجوا من المناهج طريقه وعن التابعين وتابع التابعين لهم إلى وقوع الفصاحص بين الخليفة وبعد فاني لما قفلت بحمد الله بسلامة وعافية إلى جبلي وجدت أهلي وأولادي مستوحشين من البادية وإن كانت محل سلفي ومقر تلادي بعد أن ألفوا الحواضر وطبعوا على طباعها فكانوا أحق بها وكنت في غاية الضيق والتأسف لما حل بالأولاد فتذكرت قول بعض فقهاء الأندلس ممن نابه مثل ما نابني وأصابه مثل ما أصابني أليس من القبيح مقام مثلي بدار الخسف منكسف الجمال أخاط أهل سامنة وسرح وأرتع بين راعية الجمال فأجلت فكري وإن كان الكل بقدر الله وإرادته فرأيت أن ذلك وفي القضاء لطف أمر أنتجه كما لا يخفى على ذي بصيرة ما حل بالمغرب من

افتراق الكلمة وتلاعب شياطين الإنس والجن بذوي العقول منهم فصاروا أحزابا وفرقا فاتبع كل طائفة من هواها ما كانت تعبد حتى إذا عرض لعائق أو عرض عليه منهم الإقلاع بادره الشياطين فسدوا عليه بابه وأروه بإغوائهم وزينوا له أن ذلك يشينه لدى العامة ويوجب له السقوط من أعين الناس مع أنه لا يعده من السقوط إلا الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس وأين يغيب عن الموقف أن السقوط من عين الله هو الطامة الكبرى وأين غاب عنه أن العبرة بكتاب الله وسنة رسوله لا بكلام الهمج الرعاع ممن لا يزال الشيطان يلعب به أخذًا بزمامه ساكنا على قلبه ولسانه وأين يغيب عنه من كتاب الله فأما من طغى وأثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى النازعات قفلت إنا لله وإنا إليه راجعون هذه مصيبة عظيمة نزلت بمغربنا فافترق ملاحم وقتلت سرواتهم وانتهت أموالهم وهتكت حرمهم ومزقت أعراضهم وفسدت أدبيانهم واختلت وبدت عن التوفيق آراؤهم وكادت تطمع بل طمعت فيهم أعداؤهم اللهم يا ذا الطول والامتنان يا حنان يا منان يا ذا الجلال والإكرام تداركنا بألطافك الخفية في ديننا ودينانا يا خالق الأرض والسماء فإن قلت ما ذكرته من أن خروجك من الحواضر إلى البوادي هو نتيجة افتراق الكلمة كما فعله من يقتدي به من الصحابة رضي الله عنهم فتبدي صحيح وما دليلك على التلاعب قلت ما خرج أئمة الصحاح من منع الخروج على الأئمة وأن الواجب في حق من رأى منهم ما يكره الصبر والاحتساب إذ غائلة الجور وإن تفاحش أقل بكثير من غائلة الخروج الذي يترتب عليه فساد المهج والأموال والأعراض والأديان وهتك الحرم ولهذا صبر على الحجاج من علماء الصحابة والتابعين من صبر حتى لقوا الله تعالى سالمى الأديان وبعادته مغتتمى الزمان وتذكر فما بالعهد من قدم بالمرابط أبي محلي كان في قطره عالي الصيت يقصد ويتبرك به ويعتقد فيه أنه من قطب زمانه وبلغ به الحال إلى أن سولت له نفسه أو سول لها أنه يصلح به

ما لم يصلح بغيره من أهل الزمان فقام وأعانه عليه قوم آخرون حتى ملأ الدنيا صياحا ودعاوى وعياطا وأكاذيب لا يشهد لها عقل ولا نقل فتمرد على المسلمين حتى لم يسلموا من لسانه ويده فقتل ونهب وسب واغتتاب وحمل نفسه ما لا تطيقه فاستهوت شياطين الإنس والجن والنفس والهوى ثم بعد ذلك كله لم يحصل من سعيه على طائل وأفته الغفلة عن الكتاب والسنة والرضا عن النفس حتى أنه حكمها فصارت تلعب به إلى أن فاه وادعى بدعاوى استبيح بها ما كان معصوما من دمه وهلك بسببه بعده نفوس وأموال وغير ذلك أبشك من ارتاض بالكتاب والسنة ونظر بعين الشريعة إن فعله ذلك مما حمله عليه من تجب مخالفته من الشيطان والنفس والهوى وربما اسحسن فعله ذلك من شيعته من ابتلي به أو قلده تقليدا رديا في فعله فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين وإلى الآن كانوا يستصوبون فعله ويستحسنون قوله مع أنه بمعزل عن الكتاب والسنة فإن قلت وهذه طائفة الفقراء ما بين متعصب متحزب ومتحيل متصيد ومتسور على ما استأثر به الباري من الغيوب مرتكب للآثم مصر على العيوب قلت وهذه طائفة الفقراء فيها جل ما تقدم وزادات تضيق عن الإحاطة بها السطور والطروس قد بددتها والعباد بالله الفتن وشردها ما تخوفته من المحن بانة العلوم واضمحلت الفهوم وتعطلت الرسوم فلا منطوق يذكر ولا مفهوم هذا الزمان الذي كنا نحارده في قول كعب وفي قول ابن مسعود وقتل وهذا الشيخ أبو زكرياء وهو الذي يساق إلى نصحه الحديث كنا نستسقي به ونستشفى وكانت تشد إليه الرحال ولا يأنف من إتيانه النساء والرجال قد آتته من أقطار مغربنا الوفود ودانت له الذناب والأسود وكان يعلم الجهال ويهدي الضلال ويطعم الجائع ويكسو العريان ويعين ذا الحاجة ويغيث اللهبان وهي سبيل يا لها من سبيل وطريقة ما أحسنها من طريقة ثم صارت تلك الجموع وكان أمر الله قدرا مقفورا أيدي سبا

وتلاشت شذر مدر ما لها من نبا أيها الشيخ أكرمك الله بتسديده أو تجد في الوجود ملكا أعظم من ذلك الملك فتطلبه أو سلطانا يوازيه أو يقاربه فتحولوه أين خفي عليك الشيء وهو ضروري أم أين ضلت عنك النصوص من الكتاب والسنة وأنت منقولي معقولي ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق الحديد لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم غافر وإن أبغض الكلام إلى الله أن يقول الرجل للرجل اتق الله فيقول عليك نفسك وهو طرف من حديث خرجه النسائي وقد وعظتك وذكرتك إن نفعت الذكرى قال جل من قائل وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين الذريات فقلت من التعجب ليت شعري أليقظ أمية أم نيام فإن قال شيطان من شياطين الإنس أو الجن هذا ما أريد به وجه الله قلت الله الموعد إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وإن خطر هذا وهجس بقلب الشيخ أكرمه الله والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم قلت أدل دليل على أي قصدت محض النصيحة هو أنه استصحبني على دفاع أبي محلي فنصحته وقلت له إن هذا لا تستقيم معه الديانة فكأنه ما قيل فانفصلت عنه وهو يقول استخر لي الله فكاتبته بأن لا يفعل ثم لما نزل وكان على باب الغزو من تارودانت خلوت به فقلت له إذ ذاك إن الناس يقولون كذا وكذا وعرفته إذ ذاك بما عرفته من أبناء الزمان فجمعنا في رملة إلى الآن أتخيل حرها وتبراً من كل ما يقال وما زلت على المنع إلى أن جاءت كراريس من قبل أبي محلي فتأملتها فوجدتها مشتملة على كفریات في جزئیات فيحنذ شرح الله صدری لإباحة دفاعه ثم وإن قلت ذلك فنفسی أمره ولا أقول في نفسی ما كان یقوله سحنون فی قضية ابن أبي الجواد مالی وله الشرع قتله ولو قلت أو غششت لغششت فی قضية ذلك الرجل وزینت لك قتاله أولاً لأن ذلك هو مقتضى التعصب للأمير وإذا لم أتعصب إذ ذاك فكيف أستسهله الآن فتعین

أني نصحت لكم أن قبلتم ما قلتم قال تعالى عن نبي من أنبيائه ولكن لا تحبون الناصحين الأعراف أشدك الله الذي بإذنه تقوم السموات والأرض أما قلت لك بعد رجوعي العام الأول من مراكش بل الذي قبله إن العذر لا يحسن وصرحت ولوحت بأن شق العصا لا يحل غير مرة وما كفاي القول الدال على ذلك إلى أن زدت الفعل بالخروج من مدينة لا أبغضها كما قال فواشه ما فارقتها عن قلبي لها وإني بشطبي جانبها لعارف ورضيت بالبادية مع فجائها فرارا من الفتن وعملا بقوله يوشك أن يكون خير مال الرجل غنما يتبع به سعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن ثم بعد فعلى هذا كله نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا وعدوا علي من القبايح طاعتي للأئمة مع أنك يوم جاء إلى دارك قلت لهم هذا أميركم ونحن لا نشك أنك من المعترين في مغربنا وأن بيعتك لأحد لازمة لنا وكذلك حين ذهبت إلى مراكش في وقعة أبي محلي قد أراد أهل مراكش فأبيت وأبحت البلاد لخدم الأمير وقلت لهم إنه الأمير وفهمه الناس عنك بلسان الحال ولسان المقال ونصروه بمرأى منك وسمع أفشك بعد أن كان منك هذا أنك مبالغ وأنت قدوة وإذا كان هذا فأى حجة لك على الأمير ولا على المأمورين فمن زين لك قتاله فقد غشك إذ هو مسلم وابن مسلمين فإن قلت موافقتي مشروطة بشروط لم يوف لي بها قلت هب أنه لم يوف لك أفستبيح قتاله لأجل ذلك والرسول يقول إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار الحديث فبالله أيها الشيخ ما تقول في هذا الحديث وأنظاره وما تقول فيما انتهب أو عسى أن ينتهب من أموال الناس وأخذ بغير حق وأنفق في سبيل الطاعات والرسول يقول لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس أو ما تستحي من ربك يوم تسأل عن النكير والظمير ولست ممن خفي عليه ذلك كله فتعذر عند

المخوفين أو ما علمت أن كثيرا من العوام يعتقد جواز ذلك إذ رآك ارتكبته فتكون قد سننت هذه السنة وضل بسبب ذلك كثير من الناس أو ما خشيت دعوة المظلوم التي ما بينها وبين الله حجاب أو ما كنت تعير من يرتكب مثل ذلك من الولاة وتتأسف عليه لا تعير أخاك المؤمن الحديث لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم أما انتبهت لما وقع لأهل درعة من النهب والسلب واسترقاق الأحرار وهتك الحرم إن دماءكم وأعراضكم عليكم حرام الحديث وقد أتانا السؤال من قبل الشيخ عن صنع سكتانه ذلك ولم يستطع إذ ذاك من نظر بنور العلم أن يقول لهم في وزر نظرا إلى ما آل إليه الحال في أهل درعة مع أن جلهم حملة القرآن وعامتهم بله وأكثر أهل الجنة البله أفيلق بحق الصلحاء أن يسلط عليهم من لا يرحمهم ولا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي إنما يرحم الله من عباده الرحماء من لا يرحم لا يرحم أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء أو نسيت أنه يقتص للجماء من القرناء وأن الظلم الذي لا يتركه الله ظلم الناس بعضهم لبعض أفي علمك أن حسناتك تفي بما عليك من التبعات أو أنه لا تباعة لأحد عليك ولو كنت بدريا لاحتمل أن يقال في شأنك ما قاله لعمر وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم أو كما قال والظلم ظلمات يوم القيامة أو تستطيع أن تقتحم ظلمات الصراط وأنت مسؤول عن القيراط وحتى أهل تارودانت بلغنا أنه لم يغن في شأنهم الترويع بل بلغ بهم الحال والجور إلى التفرغ فائق الله أيها الشيخ ولا تكن كمن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم هذا ما يتعلق ببعض حقوق الناس على العموم ويتعلق بحق كاتبه على الخصوص إنك أخذت عليه أن يؤدي الطاعة للأمير ويرعى ما هو من شيم المؤمنين من حسن العهد والتبري من الغدر وشق العصا بعد أن بذل وسعه في نصحك ونصح الأمير وحاول بكلية على جمع الكلمة وتعيب في ذلك

واقترح فيه عقوبات لا يقطعها إلا بأزل ولا سبيل إليها لمن يكون في دينه وعمله مثلي ممن هو نازل لعمر أبنيك ما نسب المعلى إلى كرم وفي الدنيا كريم ولكن البلاد إذا اقتشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم إذا غاب ملاح السفينة فارتمت بها الريح هوجا دبرتها الضفادع ولكن ليس من شرط النصيحة كمال الناصح كما أنه ليس من شرط تغيير المنكر عدم ارتكاب المغير ما غير لأن هذه طاعة وتلك أخرى والتوفيق بيد الله سبحانه نعم بلغني مع ذلك وجزم لي به أنك مع بذل النصح لك وللأمير أصلح الله الجميع وأصلح ذات بينهم أخذت علي بالرصد في فقولي لصبيتي والرجوع إليهم رعاية لما يجب ويندب من حقوقهم وهل هذا إلا حكم الهوى والشيطان عندك ما تستبيح به ذلك مع أنني والحمد لله أينما كنت لا أسعى إلا في مصلحة جهد الاستطاعة أو بث نصيحة حين لا أرى من يبئها أو إغاثة مهوف حين تجب إغاثة لئن بسطت إلي يدك لتقتلني المائدة الآية ولكن الله عز وجل يقول ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله فاطر وفي التوراة من حفر حفرة فليوسعها ولا تحفرن بثرا تريد بها أخابين وجدت ما يسوغ لك ارتكاب مثل هذا قولاً أو فعلاً أو إشارة أو تصريحاً أو تلويحاً وأي جريمة توازي هذه الجريمة أو كبيرة من الآثام أكبر منها والله الموعد وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون الشعراء هذا والسعاية المصحوبة بسوالي عن دفاع سكتانه أين تجدون ما يوجب إباحتها أين غاب عنكم إنها من الكبائر وأين غاب عنكم قوله إن الرجل ليتكلم بكلمة يهوي بها في النار سبعين خريفاً أهذا من أخلاق المؤمنين والصالحين وأنت من بيت الصلاح ما كان جدك يرضى مثل هذا ما كان أبوك امرأ سوء مريم وهذا والله أعلم نتيجة قرناء سوء ولا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله

مقاله وإلى هذا ينتهي حق الصحبة أعني بذل النصح إن الله يسأل عن صحبة ساعة

ونحن صحبناك واعتقدناك ونصحناك ووعظناك انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فنصرتناك بالرد إلى الجادة أين أنت من مولانا الحسن بن علي إذ تخلى عن الأمر لابن عمه معاوية مع أنه هاشمي علوي فاطمي إحدى ریحانتي النبي ومعاوية أموي يجمعهما عبد مناف فتخلى عن الإمارة مع أنه إمام وابن إمام وأصلح الله به وهو سيد بين فئتين عظيمتين من المسلمين بعد أن كان يلقب بأمير المؤمنين فقال له بعض أصحابه إذ سلم عليه يا عار المؤمنين فلم يكثر بذلك وقال النار أشد من العار ألهمنا الله وإياكم رشد أنفسنا وجعلنا وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه انتهى ولم يزل الفقيه أبو زكرياء مصمماً على طلب جمع الكلمة إلى أن اخترمته المنية قال صاحب الفوائد ما صورته قام الشيخ أبو زكرياء بجمع الكلمة والنظر في مصالح الأمة واستمر به علاج ذلك إلى أن توفي ولم يتم له أمر انتهى وكانت وفاته ليلة الخميس سادس جمادى الثانية من سنة خمس وثلاثين وألف بقصبة تارودانت وحمل من الغد إلى رباط والده دفن بجنبه رحمه الله

بقية أخبار السلطان زيدان وذكر وفاته رحمه الله قد ذكر المؤرخ لويز البرتغالي في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة شيئاً من أخبار السلطان زيدان رحمه الله فقال كان السلطان زيدان صاحب مراكش مسالماً لنا كافاً عن حربنا وكانت القبائل تفتات عليه في غزونا فكانت غاراتهم لا تنقطع عنا وكان هو أيضاً معهم في شدة ومكابدة من أجل اعوجاجهم عليه ثم ذكر أن من جملة من غزاهم في دولته السيد سعيد الدكالي قلت وأظنه والد السيد إسماعيل الزاوية المشهورة ببلاد دكالة قال فهض سعيد بحال وغيره وامتعض للإسلام وسار إلى الجبل الأخضر وغيره فجمع الجموع نحو اثني عشر ألفاً وزحف بهم إلى الجديدة ووافقه على ذلك قائد آز مور وبعض أشياخ الشاوية وكانوا في نحو مائتين وخمسين من الخيل

وارتاع النصرارى منهم وخافوا خوفا شديدا وأمرهم قائدهم بالجد في حراسة الأسوار والأقواب وأن يسدوا باب الجديدة ولا يفتحوها منه إلا خوخته وحاصرهم المسلمون ثلاثا ثم قضى الله بوفاة السيد سعيد فاتقرو ذلك الجمع قال لويز مات أسفا على ما فاتته من الفتك بالنصارى كما يجب وفي سنة أربع وثلاثين وألف خرج السلطان زيدان من مراکش وقصد ناحية أزموه ولما انتهى إلى الموضع المعروف بأمر كرس من بلاد دكالة حمل إليه نصرارى الجديدة هدية نفيسة ثم قدم ثغر أزموه في نحو أربعين ألفا من الخيل على ما زعم لويز ودخل البلد وأخرج أهل أزموه عدة مدافع من البارود فرحا به ولما سمع نصرارى الجديدة بذلك أخرجوا مدافعهم أيضا فرحا بالسلطان وأدبا معه

وفي سنة ست وثلاثين وألف ثار على السلطان زيدان الفقير إبراهيم كانت هكذا سماه لويز ولم أدر من هو قال وفي خامس عشر من دجنبر من السنة توافق جيش الثائر المذكور مع جيش السلطان للحر ببلاد دكالة وكان جيش السلطان يومئذ ألفا وخمسمائة فقط وجعل على مقدمته ابنه عبد الملك فانهزم إبراهيم وقتل وقتل جماعة كثيرة من أصحابه وقبض على ولده فبعثه السلطان مع عدد وافر من رؤوس أصحابه إلى مراکش وأخرج نصرارى الجديدة المدافع أيضا فرحا بهذا الخبر فبعث إليهم السلطان زيدان بفرس أحمر لقائدهم إكراما له وكتب إليهم بكتاب تاريخه سادس رمضان سنة ست وثلاثين وألف مكافأة لهم على أدبهم معه انتهى كلام لويز وقال اليفرنى رحمه الله كان السلطان زيدان من لحن مات أبوه المنصور ويوبع هو بفاس في محاربة مع إخوته وأبنائهم ومقاتلة مع القائميين عليه من الثوار الذين تقدم ذكر بعضهم ولم يخل قط في سنة من سني دولته من هزيمة عليه أو وقعة بأصحابه ووقعت بينه وبين إخوته معارك يشيب لها الوليد وكان ذلك سبب خلاء المغرب وخصوصا مدينة مراکش ومما عد عن نحص زيدان واستدل به على فشل ربه أنه في بعض الوقائع بعث كاتبه عبد العزيز بن محمد التعلبي بعشرة قناطير من الذهب إلى صاحب القسطنطينية العظمى وطلب منه أن يمدد ببعض أجناده كما فعل مع عمه عبد الملك الغازي فجهز له السلطان العثماني اثني عشر ألفا من جيش الترك وركبوا البحر فلما توسطوه غرقوا جميعا ولم ينج منهم إلا غراب واحد فيه شردمة قليلة وقال منويل إن قراصين الإصبنيول غنمت في بعض الأيام مركبا للسلطان زيدان فيه اثناث نفيسة من جملة ثلثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك قال اليفرنى وكان زيدان غير متوقف في الدماء ولا مبال بالعظائم قلت وهو مخالف لما ذكره زيدان في رسالته التي خاطب بها أبا زكرياء

المتقدمة من أنه ما سعى في قتل أحد إلا يفتوى أهل العلم والظن بزيدان أنه ما قال ذلك إلا عن صدق وإلا فمن البعيد أن يفخر على خصمه ويدلي بشيء هو متصف بضده وكان زيدان فقيها مشاركا متضلعا في العلوم وله تفسير على القرآن العظيم اعتمد فيه على ابن عطية والزمخشري قال اليفرنى وكان كثير المراء والجدال كما وقع له مع الشيخ أبي العباس الصومعي قتل الذي وقع له مع الصومعي هو أنه لما ألف كتابه الموضوع في مناقب الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه وسماه المعزى بضم الميم وفتح الزاي بصيغة اسم المفعول من الرباعي عارضه زيدان وهو يومئذ بتادلا واليا عليها من قبل أبيه بأنه لم يسمع الرباعي من هذه المادة وإنما قالت العرب عزاه يعزوه ثلاثيا فأصر أبو العباس رحمه الله على رأيه إلى أن لطمه زيدان على وجهه بالنعل فشكاه إلى المنصور فقال له لو لطمك وهو المخطى لعاقبته أما إذا كان الصواب معه فلا قلت كان زيدان يومئذ في عنفوان الشبيبة فصدر منه ما صدر فإن يك عامر قد قال جهلا فإن منظمة الجهل الشباب ومع ذلك فما كان من حقه أن يفعل وأظن أن انتكاس رأيه سائر أيامه إنما هو أثر من آثار تلك اللطمة فإن الله تعالى غير على المنتسبين إلى جنابه العظيم وإن كانوا مقصرين ففسأله سبحانه أن يجنبنا موارد الشقاء ويسلك بنا مسالك الرفق في القضاء وللسلطان زيدان شعر لا بأس به منه قوله ففتنتنا سواكف وخذود وعيون مدعجات رفود ووجوه تبارك الله فيها وشعور على المناكب سود أهلكتنا الملاح وهي ظباء وخضعنا لها ونحن أسود وقوله مررت بقبر هامد وسط روضة عليه من النوار مثل النمارق

فقلت لمن هذا فقالوا بذلة ترحم عليه إنه قبر عاشق وكانت وفاته رحمه الله في المحرم فاتح سنة سبع وثلاثين وألف ودفن بجانب قبر أبيه من قبور الأشراف قبلي جامع المنصور من قصبة مراکش ومما نقش على رخامة قبره قول القائل هذا ضريح من به تفتخر المفخر حامي حمى الدين بكل ذابل وباتر لا زال صوب رحمة الله عليه ماطر أرخ وفاة من غدا جارا لرب غافر زيدان سبط أحمد مبتكر المآثر أجل من خاض الوغا وللأعادي قاهر ومن شدا رضوانه نفحة كل عاطر بمقعد الصدق علا أبو المعالي الناصر ووزراؤه الباشا محمود ويحيى أجانا الوريكي وغيرهما وكتابه عبد العزيز الفشتالي كاتب أبيه وعبد العزيز بن محمد التعلبي وغيرهما وقضاته أبو عبد الله الرجراجي وغيره وترك عدة أولاد منهم عبد الملك والوليد ومحمد الشيخ وهؤلاء ولوا الأمر بعده وأحمد وغيرهم رحم الله الجميع الخير عن دولة السلطان أبي مروان عبد الملك بن زيدان رحمه الله لما توفي السلطان زيدان رحمه الله في التاريخ المتقدم بوبع ابنه عبد الملك ولما تمت له البيعة ثار عليه أخواه الوليد وأحمد فوقعت بينه وبينهما معارك وحروب إلى أن هزمهما واستولى على ما كان بيدهما من العدة والخزيرة وفر أحمد إلى بلاد الغرب فدخل حضرة فاس يوم الجمعة الخامس والعشرين من صفر بعد وفاة أبيه بستة وأربعين يوما فاتسم بسمه

السلطان وضرب سكته وفي ثالث عشر شوال من السنة عدا على ابن عمه محمد بن الشيخ المعروف بز غودة فقتله غرا بالقصبة ولما كان الحادي عشر من ذي الحجة سنة سبع وثلاثين وألف أخذ أحمد المذكور وسجن بفاس الجديد على يد قائدهم عيو وباها وبقي مسجوناً سبع سنين ثم خرج من السجن مستخفيا بين نساء في سابع رجب سنة أربع وأربعين وألف وأعلن العامة بنصره ولم يتم له أمر ثم توفي قتيلا في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وألف رمي برصاصة من بعض العامة فكان منها حتفه وذلك بفاس الجديد ولم يتم له أمر ظهور أبي عبد الله العياشي بسلا ومبايعة أكابر عصره له على الجهاد والقيام بالحق قد تقدم لنا انتقاض أندلس سلا على السلطان زيدان وقتلهم مولاه عجيبا فقيت سلا فوضى لا والي بها فكثر النهب وامتدت أيدي اللصوص إلى المال والحريم وسبدي محمد العياشي ساكت لا يتكلم وكثرت الشكايات من التجار والمسافرين بمخافة السبل وقطع الطرقات فأهرع الناس إلى أبي عبد الله المذكور من كل جانب وكثرت وفوده وأشرقت في الجو السلاوي أنواره فشمع عن ساعد الجد وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولما طالبه الناس بالتقدم عليهم والنظر في مصالح المسلمين وأمور جهادهم مع عدوهم أمر أشياخ القبائل وأعيانها من عرب وبربر ورؤساء الأمصار أن يضعوا خطوطهم في ظهورهم بأنهم رضوه وقدموه على أنفسهم والتزموا طاعته وأن أي قبيلة خرجت عن أمره كانوا معه يدا واحدة على مقاتلتها حتى تقيء إلى أمر الله فأعطوا بذلك خطوطهم في ظهورهم وأنهم رضوه وقدموه على أنفسهم ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا إلى تازا

وكان الحامل له على طلب ذلك منهم أنه بلغه عن بعض طلبية الوقت أنه قال لا يحل الجهاد إلا مع الأمير ففعل ذلك خروجا من تلك الدعوى الواهية والإلا فقد كتب له علماء الوقت كالإمام أبي محمد عبد الواحد بن عاشر والإمام أبي إسحاق إبراهيم الكلالي بضم الكاف المعقودة والإمام أبي عبد الله محمد العربي الفاسي وغيرهم بأن مقاتلة العدو الكافر لا تتوقف على وجود السلطان وإنما جماعة المسلمين تقوم مقامه ولما كمل أمره وبايعة الناس على إعلاء كلمة الله ورد الظلم عن ضعفاء الأمة ضاق الأمر على عرب المغرب لاعتقادهم الفساد وعدم الوازع ومحبتهم الخلاف والفتنة فنكت بيعة جماعة منهم وكان من نكت الناصر بن الزبير في لمة من شراكة فقاتلهم أبو عبد الله حتى ظفر بهم ثم عفا عنهم ونكت أيضا الطاغى بالتاء بدل الطاء في لسانهم مع جموعه أولاد سجير فغلبهم وعفا عنهم وكذلك عرب الحباينة طغوا على أهل فاس وعاثوا تلك البلاد بإغراء ولد السلطان زيدان فقاتلهم أبو عبد الله فكانت الدبرة عليهم وتاب على يده جماعة من رؤساء شراكة الذين كانوا مع الحباينة وكانت عاقبة كل من بغى عليه خسرا وكان أهل سلا قد لقوا من نصرارى المعمورة مضرة وشدة فلما اجتمعت الكلمة على أبي عبد الله العياشي ورد الله كيد من نكت في نحره كان أول ما بدأ به أنه تهيأ للخروج إلى حلق المعمورة واستعد لقتاله ومنازلة من فيه من النصرارى طمعا في فتحه فيفتوى المسلمون بذخائره وكان المسلمون قد حاصروه قبل ذلك فلم يقدروا منه على شيء وصعب عليهم أمره وكان أبو عبد الله إذا أراد الله أن يظفره بغنيمة رأى في منامه أنه يسوق خنازير أو نحوها ولما سار بجموعه إلى الحلق ونزل عليه رأى قطعتين من

الخنزير معها عنوز فكان من قضاء الله وصنعه أنه في صبيحة تلك الليلة قدمت أغربة من سفن النصارى بقصد الدخول إلى الحلق فضيق عليهم رماة المسلمين الذين بالخذق فأرادوا أن ينحرفوا إلى البحر فردهم البحر إلى ساحل الرمل هنالك فتمكن المسلمون منهم وقتلوا وسبوا ووجدوا في الأغربة زهاء ثلاثمائة أسير من المسلمين فأعتقهم الله وأسر يومئذ من النصارى أكثر من ثلاثمائة وقتل منهم أكثر من مائتين وظفر المسلمون بقطبان من عظامهم ففدى به الرئيس طابق رئيس أهل الجزائر وكان عندهم محبوبا في قصص من حديد واستقامت الأمور لأبي عبد الله العياشي بسلا وبنى داره داخل باب المعلقة منها وبنى برجين على ساحل مرسى العدوتين من ناحية سلا وهما المعروفان اليوم بالبيستين ثم كانت غزوة الحلق الكبرى وكان من خبرها أن جيش أهل فاس خرجوا بقصد الجهاد فنزلوا بموضع يعرف بعين السبع وكنموا فيه ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع خرج النصارى إلى تلك الجهات على غرة فظفر بهم المسلمون وكان النصارى لما خرج جيش أهل فاس أعلمهم بذلك مسلم عندهم مرتد فأعطوه سلعا وجاء بها إلى سلا بقصد بيعها والتجسس لهم على الخبر فأخذ وقتل وعميت عليهم الأنباء إذ كانوا ينتظرون من يرد عليهم فيخبرهم ولما أبطأ عليهم خرجوا فلم يشعروا إلا بالخيل قد أحاطت بهم وقتل منهم نحو الستمائة ولم ينج إلا القليل حتى لم يبق في الحلق تلك الليلة إلا نحو أربعين رجلا منهم وغنم المسلمون منهم أربعمائة من العدة ولم يحضر أبو عبد الله العياشي في هذه الواقعة لأنه كان قد ذهب إلى طنجة حقا على يوم المسامير لأن النصارى خذلهم الله كانوا قد صنعوا نوعا من المسمار بثلاثة رؤوس تنزل على الأرض والرابع يبقى مرفوعا وثبوا ذلك في مجالات القتال مكيدة عظيمة تتضرر منها الفرسان والرجالة فلما رجع وأعلم بضعف من بقي بالحلق بعث إلى أهل الأندلس بسلا يصنعون له السلام كي يصعد بها إلى من بقي في الحلق فيستأصلهم فتأقلا عن صنعها غشا

للإسلام ومناواة لأبي عبد الله حتى جاء المدد لأهل الحلق وكانت تلك الرابطة بين أهل الأندلس والنصارى متوارثة من لدن كانوا بأرضهم فكانوا أنس بهم من أهل المغرب فلما أتى أبو عبد الله بالسلام لم تغن بعد شيئا ومن هنالك استحسنت البغضاء بينه وبين أهل الأندلس وكان أهل الأندلس قد أعلموا النصارى بأن محلة أبي عبد الله النازلة لمحاصرة الحلق ليست لها إقامة فبلغ ذلك أبا عبد الله فأقام عليهم الحجة وشارر العلماء في قتالهم فأفتى أبو عبد الله العربي الفاسي وغيره بجواز مقاتلتهم لأنهم حادوا الله ورسوله والوال الكفار ونصحوهم ولأنهم تصرفوا في مال المسلمين ومنعوه من الراتب وقطعوا البيع والشراء عن الناس وخصوا به أنفسهم وصادقوا النصارى وأمدوهم بالطعام والسلاح وكان سيدي عبد الواحد بن عاشر لم يجب عن هذه القضية حتى رأى بعينه حين قدم إلى سلا بقصد المرابطة فرأى أهل الأندلس يحملون الطعام إلى النصارى ويعلمونهم بعبورة المسلمين فأفتى حينئذ بجواز مقاتلتهم فقاتلهم أبو عبد الله وحكم السيف في رقابهم أياما إلى أن أخذ بدعتهم وجمع الكلمة بهم ولما وقعت غزوة الحلق الكبرى قدمت الوفود على أبي عبد الله بقصد التهنية بما منحه الله من الظفر فحضر الناس على استئصال شافة من بقي بالحلق من النصارى وعير العرب بترك الكفار في بلادهم وكان ممن حضر من العرب جماعة من الخلط وبنو مالك والتاغي والخيبي وغيرهم فقال لهم أبو عبد الله والله والله والله إن لم تأخذكم النصارى لتأخذنكم البربر فقالوا يا سيدي كيف يكون هذا وأنت فينا فقال لهم استكثروا أنتم الذين تقطعون رأسي فكان كذلك وهذا من كراماته رضي الله عنه ثم صرف عزمه إلى التصييق على نصارى العرائش وشن الغارات عليهم فقدم في جمع من المسلمين وكمن بالغابة نحو من سبعة أيام فخرجوا على حين غفلة فمكن الله من رقابهم وكان في مدة كمنه بالغابة أخذ حناشا من عرب طليق يقال له ابن عيود والحناش في لسان عامة أهل المغرب هو الجاسوس فأراد عبد الله قتله فقال له اسبغني وأنا تائب إلى الله وأنا أنفع المسلمين

إن شاء الله فتركه فذهب إلى النصارى وكان موثوقا به عندهم حتى كانوا يؤدون إليه الراتب فقال لهم إن أحياء العرب وحلها قد نزلوا بوادي العرائش فلو أغرمت عليهم لغنمتموهم فخرجوا فمكن الله منهم وطحنهم المسلمون في ساعة واحدة طحت الحصيد ولم ينج منهم إلا الشريد وكان ابن عيود قد بقي بأيديهم فأخذوه ومثلوا به ونزعوا أسنانه وأرادوا قتله لولا أنه رفعهم إلى شرعهم وكان عدد من قتل من النصارى نحو ألف وكانت هذه الواقعة سنة أربعين وألف بقية أخبار السلطان عبد الملك بن زيدان ووفاته قال اليفرنى كان عبد الملك بن زيدان فاسد السيرة مطموس البصيرة وبلغ من قلة ديانته أنه تزايد له مولود فآظهر أنه أراد أن يحتفل لسابعه فبعث إلى نساء أعيان مراکش ونساء خدامه أن يحضرن وصعد هو إلى منارة في داره فنظر إلى النساء وهن منتشرات قد وضعن ثيابهن فآيتهن أعجبت به بعث إليها وكان مدمنا على شرب الخمر إلى أن قتله العلوج بمراكش وهو سكران يوم الأحد سادس عشر شعبان سنة أربعين وألف ودفن إلى جانب قبر أبيه وبسط منويل خبر مقتله فقال لما ثار الوليد على أخيه عبد الملك وعادت الكرة عليه بقي منتقلا في البلاد ثم رغب إلى أخيه حتى رده إلى مراکش فأخذ الوليد يستميل رؤساء الدولة ووجهها وتجارها ويعددهم بالإحسان حتى وافقوه على الفتك بأخيه فترصدوه حتى غفل البوابون ودخلوا عليه قبته وهو منكمئ على طنفسة فرموه برصاصة وتناولوه بالخنجر المسماة عند المغاربة بالكيميات وقامت الهيئة بالمشور والقصبه فخاف الوليد على نفسه من بعض فواد الجند فأخرج جنازة أخيه إلى المشور حتى شاهده الناس ميتا فسكنوا وانقطع أملهم وبليغوه انتهى قال اليفرنى ومما رأيت منقوشا على رخامة قبره هذان البيتان

لا تقتنن فإن الله منان وعنده للورى عفو وغفران إن كان عندك إهمال ومعصية فعند ربك أفضل وإحسان ومن وزرائه محمد باشا العليج وبحيى آجانا الوريكى وجوذر وغيرهم وقاضيه الفقيه أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني قاضي مراکش ومفتيه أبو العباس أحمد السملالي رحم الله الجميع الخبر عن دولة السلطان أبي يزيد الوليد بن زيدان رحمه الله لما قتل السلطان عبد الملك بن زيدان في التاريخ المتقدم ببيع أخوه الوليد بن زيدان فلم يزل مقتصرا على ما كان لأخيه وأبيه من قبله لم يجاوز سلطانه مراکش وأعمالها وعظمت الفتن بفاس حتى عطلت الجمعة والتراويح من جامع القرويين مدة ولم يصل به ليلة القدر إلا رجل واحد من شدة الهول والحروب التي كانت بين أهل المدينة واقتسم المغرب في أيام أولاد زيدان طوائف فكان حاله كحال الأندلس أيام طوائفها كما ذكرنا ونذكر بعد إن شاء الله ظهور أبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة بالسوس ثم استبلاؤه على درعة وسجلامة وأعمالها هذا الرجل هو أبو الحسن ويقال أبو حسون علي بن محمد بن محمد بن الولي الصالح أبي العباس أحمد بن موسى السملالي وكان بدء أمره أنه لما ضعف أمر السلطان زيدان بالصقع السوسي وفشل ريعه فيه نبع هو فدعا لنفسه وجر نار الرياسة إلى قرصه وتألبت عليه البرابرة من بسائط جزولة وجبالها والتفت عليه غالب القبائل السوسية فاستولى على تارودانت وأعمالها إلى أن أخرجه عنها الفقيه أبو زكرياء بن عبد المنعم بعد حروب

وقتن عظيمة حسبما مررت الإشارة إليه ولما توفي أبو زكرياء في التاريخ المتقدم صفا لأبي حسون قطر السوس ونفذ فيه أمره وسمعت كلمته ثم بعد مهلك زيدان مد يده إلى درعة فاستولى عليها ثم استولى سجلامة ونواحيها فاستحكم أمره وتقوى عضده ولم يزل أمره نافذا في سجلامة إلى أن ثار عليه الأسد الهصور المولى محمد بن الشريف فأخرجه من سجلامة بعد حروب يشيب لها الوليد ثم أخرجه من درعة أيضا على ما نذكره بعد وقد وقعت على سؤال رفع من جانب أبي حسون إلى القاضي أبي مهدي السكتاني في شأن مدينة إيليج دار رياسته ومقر عزه يستفتيه في إحداث كنيسة اليهود بها هل يجوز أم لا وفيه مع ذلك بعض الكشف عن حال هذه المدينة فلنذكره ونصه الحمد لله الذي ارتضى للإسلام ديناً وأنزل به على خيرة خلقه كتابا مبينا الفقيه الأجل العلامة الأحفل القاضي الأعدل خاتمة المحققين ومعتمد الموثقين أبا مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني وفقه الله لما يرضيه وأعانه على ما هو متوليه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تقرر عند سيدنا أمر هذه الحضرة العلية العلوية إيليج آدم بهجتها كما رفع كغيرها من الحواضر درجتها وأنها محدثة فتوفرت ببركة بانيتها عمارتها ومبانيها فاتخذها مسكنا أهل السهول والحرزون وجمعت لطيب تربتها بين الضب والنون فنزلها برسم الاستيطان أو شاب من أهل الذمة بإذن مختظها

الإمام العالي الهمة فآخطوا بها عن إذنه منازلهم وبنوا بفنائها كنيسهم وصيروها متعدهم فاتفق والحديث شجون أن جرى ببعض أندية علمائها ومحضر جمع من نيهاء البلدة وفقهائها كلام أفضى بهم إلى ذكر الكنيسة المذكورة والمجادلة في محصل الحكم الشرعي فيها في النواوين المسطورة فأفتى بعضهم بوجود هدمها لأنها محدثة ببلاد الإسلام ولما في تركها من المفاسد العظام وأنها لا تترك لهم متعبدا وجزم الكلام وقال هذا محصل ما ذكره في مثل هذه القضية الأعلام وأفتى فريق بجواز إبقائها وأنه لا ينبغي تقويض بناتها ولا التعرض لهم في إحداثها إذ على مثل

هذا من دينهم الفاسد أقروا وأعطوا الذمة فأعطوا الجزية صاغرين ولم يرد منع اجتماع دينين إلا في جزيرة العرب وكم من بلد إسلامي محدث مشحون بالعلماء أحدثت فيه ولم يقولوا بمنعه وتواطؤهم على تركها كالنص والدليل على جواز إحدائها وإبقائها بعده واستمر الحجاج وكثر اللجاج ولم يتفق كل فريق بما أباده الآخر من الاحتجاج فغطت لذلك إلى أن تفرقوا فيها بعلمكم النافع بين العذب والأجاج بفتوى تبيين صحيح الأقوال من سقيمها وتفصل بين ليلي وغريمها ولولا محل النزالة من الدين ما رفعت إليكم فذلك وجب الجواب عنها عليكم مع مسألة أخرى وهي أنهم طلبوا أن تترك لهم بقعة يوارون فيها جيف موتاهم لأن مسافة ما بينهم وبين أفران التي هي مقبرة قديمة لهم بعيدة هل يساعفون أم لا والله يبيحك ومجدكم محروس وظل من استزلكم مكنوس والسلام عليكم الجواب الحمد لله وعلى فقهاء بلادنا السوسية حرسها الله وأكرمهم باتباع سنة رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته أما بعد فقد وقف كتابه عفا الله عنه على نازلة أهل الذمة النازلين بإبليغ مختط أولاد السيد البركة قطب بلادنا سيدي أحمد بن موسى نفعنا الله ببركاته وبارك في ذريته وسددهم لما فيه رضاه أمين ولما وقفت عليها وتاملتها فرأيت أن الصواب فيها الفتوى بمنع إحداث أهل الذمة الكنائس فيها وبهدم ما بنى فيها بعد إحداثه لأن إبليغ من بلاد الإسلام ولا فيه شبهة لأهل الذمة الطارين عليه لا باعتبار الفتح العنوي ولا باعتبار الصلح على الخلاف في المغرب باعتبار فتحه وحاصل أمرها خفاء الحال فيها وإذا كان الأمر هكذا فالحكم أنها ملك لمدعيها الحائز لها والأراضي أقسام أرض إسلام لا يجوز إحداث الكنائس بها باتفاق ثم إن وقع شيء من ذلك هدم وأرض إبليغ من هذا القسم فإن ملكوا الأرض التي بنوا فيها الكنيسة بوجه من وجوه التملك كالعطية وجب هدمها ونقضها ويكون لهم ما يسوغ من المنافع وإن كان بناء الكنيسة شرطا ردت العطية وفسخ البيع إن كان به لأنه في معنى التحسيس على الكنيسة والحاصل أن وجه دخول اليهود إبليغ معلوم وأن بلده ملك للإسلام فبناء اليهود فيها الكنائس معصية وتمكينهم منه إغناء عليها وهذا لا يخفى وأما الجواز والإفتاء به في النازلة فبمعزل عن الصواب والاستدلال على الجواز بحضور المغرب وسكوت علمائها وموافقة أمرائها لا يتم لأن أصل تمكينهم من الكنائس مجهول إذ يحتمل أمورا منها أنه يحتمل أن يكون بعهد كان لهم في غير تلك البلاد من إقرارهم على بلد يسكنونه مع بقائهم على معتاداتهم ثم نقلوا لمصلحة اقتضت ذلك أو أرجح ولأن البلاد تقدم فيها اليهود وغيرهم من أهل الصلح والحاصل أن وجه دخولهم مجهول في هذه البلاد بخلاف إبليغ ونازلة إبليغ معلومة الدخول فبينهما بون فقياس إحداهما على الأخرى لا يصح وبالله التوفيق وكتب عيسى بن عبد الرحمن وفقه الله أمين ولما علم المرابط بالحكم أمر بهدمها ومنع اليهود مما أرادوه

بقية أخبار السلطان الوليد ابن زيدان ووفاته رحمه الله قال في شرح الزهرة كان الوليد بن زيدان متظاهرا بالديانة لين الجانب حتى رضيته الخاصة والعامية وكان مولعا بالسماح لا ينفك عنه ليلا ولا نهارا إلا أنه كان يقتل الأشراف من إخوته وبني عمه حتى أفنى أكثرهم وكان مع ذلك محبا في العلماء مائلا إليهم بكلية متواضعا لهم وله ألف القائد أبو الحسن علي بن الطيب منظومته المشهورة في الفواكه الصيفية والخريفية وألف القاضي أبو مهدي السكتاني شرح صغرى الصغرى للسوسى برسمه والقصة المعروفة بالوليدية على ساحل البحر المحيط فيما بين أسفي وتيط هي منسوبة إليه وأظنها من بنائه والله أعلم وأما وفاته فبسببها أن جنده من العلوج طالبوه بمررتهم وأعطيتهم على العادة وقالوا له أعطنا ما نأكل فقال لهم على طريق التهمك كلوا قشر النارج بالمسرة فغضبوا لذلك وكن له أربعة منهم فقتلوه غدرا يوم الخميس الرابع عشر من رمضان المعظم سنة خمس وأربعين وألف وقال منوبل لما ولي الوليد قتل أخاه إسماعيل واثنتين من أولاد أخيه عبد الملك وسبعة من بني عمه ولم يترك إلا أخاه الشيخ بن زيدان استصغارا له إذ كان سنه يومئذ إحدى عشرة سنة وكانت أمه تخاف عليه من الوليد فكانت تحرسه منه حراسة شديدة وألقى الله محبته في قلب سائر نساء القصر لما رأين من هلاك الأعياص وعرضه الملك للزوال وكن حازمات يقمن مقام الرجال حتى إن بعضهن كانت لها طينجات في حزامها دائما تحرس الشيخ من أخيه الوليد ثم إن رؤساء الدولة سئمو ملكته فاتفقوا مع نساء القصر على قتله وكان الوليد عازما على قتل أخيه الشيخ أيضا فاحتال بأن صنع ذات ليلة صنيعا عظيما وطعاما كثيرا دعا إليه وجوه الدولة وأعيان مراكش وكان أخوه الشيخ عنده في الدار لا يتركه يخرج بحال وعزم أنه إذا اشتغل نساء القصر بأمر الطعام ونحوه خالف إليه وقتله فكان من قدر الله أن العلوج قد عزموا في تلك الليلة على اغتيال الوليد فكنموا له في الحجرة التي كان الشيخ محبوبا فيها ثم لما جاء الوقت واجتمع الناس في القبة التي أعدها لهم الوليد قام ودخل إلى الحجرة التي فيها الشيخ للفتك به فوجد الألاج كامنين له هناك فلما رآهم فرغ وقال ما لكم فرموه بالرصاص ثم تناولوه بالخناجر حتى فاظ انتهى الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله لما قتل السلطان الوليد في التاريخ المتقدم اختلف الناس فيمن يقدمونه للولاية عليهم ثم أجمع رأيهم على مبايعة أخيه محمد الشيخ والقاء القيادة إليه فأخرجوه من السجن وكان أخوه الوليد قد سجنه إذ كان يتخوف منه الخروج عليه فبويع بمراكش يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة خمس وأربعين وألف ولما بويع سار في الناس سيرة حميدة والألن الجانب للكافة وكان متواضع في نفسه صفوحا عن الهفوات متوقفا عن سفك الدماء مائلا إلى الراحة والدعاء متظاهرا بالخير ومحبة الصالحين وهو الذي بنا على قبر الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي بزوايته قبة حافلة البناء رانقة الصنعة إلا أنه كان مكنوس الراية مهزوم الجيش وبسبب ذلك لم يصف له مما كان بيد أبيه وإخوته إلا مراكش وبعض أعمالها

وقد ثار عليه رجل من هشوتكة خارج باب الخميس من مراكش وقاسى في محاربه تعبا شديدا ولم يزل يناوشه القتال إلى أن كانت له عليه الكرة ففرق جمعه ثم خرجت عليه أيضا قبيلة الشياظمة فقصدهم وكانت الملاقاة بينه وبينهم عند جبل الحديد فانهزم هزيمة شنعاء ثم حدث بينه وبين أهل زاوية الدلائي ما ذكره بعد إن شاء الله ومما ذكره منوبل من أخباره أنه كان محسنا لسائر رعيته وكان حاله على الضد من جور أخيه الوليد وعسفه قال وسرح الفريالية الذين كانوا في سجن مراكش وأعطاهم الكنيسة التي بالسجينة منها وخالفت عليه سلا وأعمالها انتهى بقية أخبار أبي عبد الله العياشي بسلا والتغور وما يتبع ذلك كان أمر أبي عبد الله العياشي بسلا وسائر بلاد المغرب على ما وصفناه قبل من جهاد العدو والتضييق عليه والمصابرة له والإبلاغ في نكايته فانتعش به الإسلام وازدهرت الأيام ودخلت في طاعته القبائل والأمصار من تامسنا إلى تازا كما قلنا لا سيما فاس وأعلامها فإنهم قد شايعوه وتابعوه على ما كان بصده من الجهاد والرباط وحصل لهم بصحبته وولايته أتم اغتباط ولم يزل في نحر العدو إلى أن أمن سرب المسلمين وحق القول على الكافرين

وفادة أعلام فاس وأشرافها على أبي عبد الله العياشي بسلا هذه الوفاة قد ذكرها الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي في فاتحة شرحه الصغير على المرشد المعين قال في نشر المثاني وسببها ما وقع من الحرب بين أهل فاس وبين الحيانية وشرافة على قنطرة وادي سبو وقتل فيها من أهل فاس خمسة وأربعون رجلا فخرج شرفاء فاس وفقهاؤها إلى سلا مستغيثين بأبي عبد الله العياشي قال وكان الذي أغرى الحيانية بفاس هو أحمد بن زيدان النفوا عليه وقاموا بدعوته ووصلوا أيديهم بشرافة وفعلا بفاس وأهلها الأفاعيل حتى اختطفوا في بعض الأيام نساءهم من الجنات وباعوهن في القبائل وفعلا بهن ما لا يجوز قال الشيخ ميارة قد من علي ذو العظمة والجلال الكريم المتفضل المتعالي بزيارة الولي الصالح العالم العامل السائح قلب الزمان وكهف الأمان المجاهد في سبيل رب العالمين المرابط في الثغور مدة عمره لحياطة المسلمين ذي الكرامات الشهيرة العديدة والفتوحات العظيمة الحميدة من لا شبيه له في عصره وما قرب منه ولا نظير ولا معين له على نصرة الإسلام ولا نصير إلا الله الذي تفضل به علينا وأقره بمنه وجوده بين أظهرنا فهو كما قيل حلف الزمان لبائتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر البركة القوة المجاب الدعوة أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد العياشي أبقى الله بركته وعظم حرمة وبلغه من خير الدارين أمنيته وأطل للمسلمين عمره وقواه وجعل الجنة نزله ومأواه مع جماعة من أعيان السادة من الشرفاء والفقهاء القادة وذلك أواسط ذي الحجة الحرام متم سبعة وأربعين وألف عام وهو رزقا الله رضاه بتغر سلا أمنا الله من كل مكروه وبلا فاجتعت إذ ذاك بنجله السعيد الموفق الرشيد العالم الهمام

حجة الله في الإسلام ذي العقل الراجح والهدى الواضح عهود من الآباء توارثتها الأبناء المتواضع الخاشع صاحب القلم البارع سيدي وسندي أبي محمد عبد الله سلمه الله من كل مكروه ووقاه فحظني حفظه الله على اختصار الشرح المذكور يعني شرحه الكبير على المرشد المعين بعد أن طالع

جله وسر به كل السرور وحث علي في تقديم ذلك على جميع الأمور فلما قفلت من وجهتي شرعت في ذلك تاركا للتسوية طالبا من المولى سبحانه السلامة من الخطأ والتحريف انتهى المقصود منه قال في نشر المثنائي إن أبا عبد الله العياشي قدم فاسا ونظر في أمرها وغزا عرب الحياينة مرارا وأتخن فيهم حتى خضعوا للطاعة إيقاع أبي عبد الله العياشي بنصاري الجديدة سبب هذه الغزوة كما ذكره الفقيه العلامة قاضي تامسنا أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الغنمي الشاوي المعروف بسبيدي رحو الغنمي أن نصاري الجديدة عقدوا المهادنة مع أهل أزمور مدة فكان من عزة النصاري وذلة المسلمين في تلك المدة ما تنفطر منه الأكباد وتخزل له الأطواد فمن ذلك أن زوجة قبطانهم خرجت ذات يوم في محقتها ومعها صواحبها إلى أن وصلت حلة العرب فقتلها أهل الحلة بالزغاريت والفرح وصنعوا لها من الأطعمة وحملوا لها من هدايا الدجاج والحليب والبيض شيئا كثيرا فظلت عندهم في فرح عظيم ولما كان الليل رجعت ووقع لها أيضا أنها أمرت القبطان زوجها أن يخرج بجيشه وبيعت إلى قائد أزمور أن يخرج بجيش المسلمين فيلعبوا فيما بينهم وهي تنتظر إليهم بقصد الفرجة والنزهة فكان كذلك فجعلوا يلعبون وهي تنتفرج فيهم فما كان بأسرع من أن حمل نصراني على مسلم فقتله فكلم قائد المسلمين القبطان وأخبره بما وقع فقال له القبطان فما يضركم إن مات شهيدا يهزأ بالمسلمين ويسخر منهم قال

وكان الولي الصالح العابد الناسك الزاهد المجاهد رافع لواء الإسلام ومحبي منهاج النبي سيدي محمد العياشي كلما سمع شيئا من ذلك تغير وبات لا يلتذ بطعام ولا منام وهو يفكر كيف تكون الحيلة في زوال المعرفة عن المسلمين بتلك الجهة وغسل أعراضهم من وسخ الإهانة وهو مع ذلك يخاف من العيون الذين يربصونه من صاحب مراكش وقائد أزمور ومن قبطان الجديدة إذ كان ما خلف وادي أم الربيع إلى مراكش باقيا في دعوة السلطان لم يدخل في دعوة أبي عبد الله المذكور فمكث كذلك ثلاث سنين ولما رأى أن الأمر لا يزيد إلا شدة أوعز إلى بعض أولاد نؤيب من أولاد أبي عزيز أن يجلبوا إلى النصاري شيئا من الفصح خفية وأن يكون ذلك شيئا فشيئا حتى تطمئن نفوسهم ويذوقوا حلاوته ويوهمهم النصح والمحبة فلما حصل ذلك جاءه جماعة منهم وأخبروه الخبر وأطلعوه على غرة النصاري خذلهم الله فعزم على قصد الجديدة ثم بدا له في تقديم غزو العرائش ثم يأتي الجديدة بغتة ففعل رحمه الله وكان ذلك أوائل صفر سنة تسع وأربعين وألف ثم عزم على قصد الجديدة فنكروا له أن وادي أم الربيع في نهاية المد والامتلاء فلم ينته عن ذلك وسار حتى بلغ الوادي المذكور على مشرع أبي الأعوان فوجده ممتلئا جدا لا يكاد يدخله أحد إلا غرق فقال لأصحابه وسائر من معه توكلوا على الله واجتهدوا في الدعاء ثم اقتحم الوادي بفرسه وتبعه الناس فعبروا جميعا ولم يتأذ منهم أحد وكان الماء يصل إلى قريب من ركب خيلهم مع أن مد ذلك الوادي حين امتلائه لا يدرك له قعر عند الناس كما هو شهير وهذه كرامة عظيمة وقعت له رضي الله عنه وكان القاضي أبو زيد الغنمي حاضرا لها وشاهدها ولم يقع مثل هذا فيما علمناه إلا للصحابه رضي الله عنهم مثل ما وقع لسعد بن أبي وقاص في عبوره دجلة لفتح المدائن ومثل ما وقع للعلاء بن الحضرمي في فتح بعض بلاد فارس وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

ولما وصل أبو عبد الله إلى الجديدة وجد طائفة من أولاد أبي عزيز قد نذروا به ولجؤوا إلى القبطان خوفا منه أن يوقع بهم لأجل مهادنتهم للكفار واتصالهم بهم فخرج القبطان في خيله وكان سيدي محمد كامنا بإزاء الجديدة بالغابة التي كانت هناك وقد زالت اليوم فلما انفصل القبطان بجيشه عن الجديدة حمل عليهم أبو عبد الله فقطعهم عنها ففروا إلى جهة البحر فأوقع بهم فهلكوا ولم ينج منهم إلا سبعة وعشرون رجلا فتغير صاحب مراكش من ذلك وأنكر ما صنع أبو عبد الله وكذا أنكره قاضيه الفقيه أبو مهدي السكتاني وقد ذكر لوزير مارية خبر هذه الوقعة فقال إن طائفة من المسلمين قدموا على قائد البرتغال بالجديدة وقالوا له إنا قد جنناك من عند المولى محمد بن الشريف يطلب منك تعيينه بجماعة من عسكري على بعض عدوه فأسعفهم بذلك وكان شابا غرا لم يجرب الأمور فنهاه بعض كبار عسكريه وحذره عاقبة الغدر فأبى وعزم على الخروج مع أولئك المسلمين وتقاعد عنه عسكريه فقال لهم إني أخرج وحدي وذهب ليخرج وحده فتبعوه حينئذ وكانوا مائة وأربعين فارسا فلما انفصلوا عن الجديدة بمسافة وجدوا خيلا كثيرة كامنة لهم فلم يشعروا حتى أحاطت بهم نصف دائرة منهم فما كلمهم حتى كملت الدائرة عليهم وصاروا مركزا حينئذ التفت قائد العسكر إلى ذلك الرجل الذي نهاه عن الخروج وقال له ما الحيلة فأجابته بأن الحيلة القتال حتى نموت ثم أنشد له شعرا مضمناه إني أشرت عليك وأنت أعظم جاها مني فلم تسمع والآن نقتل معا وتختلط دماؤنا حتى لا يتميزان ولا يعرف دم الشريف من الوضيع والحاصل أن المسلمين أوقعوا بهم حتى لم يرجع منهم إلى الجديدة إلا ثلاثة وأسر منهم خمسة عشر أحياء والباقي أتى عليه القتل وقامت بالجديدة مناخة عظيمة لم يتقدم مثلها وسجن الأسارى بسلا سنين في بعض دهاليزها حتى افتداهم سلطانهم خوان الذي جمع مملكتهم من يد الإصبينول انتهى ولما قدم سيدي محمد العياشي من هذه الغزوة سار إلى فاس للنظر في أمرها لما هاجت من الحرب بين أهلها وذلك أن رجلا منهم يقال له ابن الزين عدا على رجل آخر يقال له أحمد عميرة فرماه برصاصة من عليه مسجدة فوق سويقة ابن صافي فقتله وهاجرت الحرب بفاس بين أهل عدوة الأندلس وكان المقتول رئيسهم وبين اللطيين قدم سيدي محمد العياشي فاسا في آخر جمادى سنة خمس مائة وألف فأصلح بينهم وأقاد من قاتل عميرة كبير الأندلسيين وبالجملة فغزوات سيدي محمد العياشي رحمه الله كثيرة وذبه عن الإسلام وحمانيته للدين مما هو شهير عند الخاص والعام وفي هذه الغزوة يقول الكاتب الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد الكلاني مادحا لسيدي محمد العياشي ومشيرا إلى الكرامة التي وقعت له في عبور النهر حديث العلا عنكم يسير به الركب وينقله في صحفه الشرق والغرب وحكم فرض على كل مسلم تتل به الزلفي من الله والقرب فانت رفيع من أصول رفيعة نجوم الدياجي في الأنام لها سرب سمي رسول الله ناصر دينه تجلى بكم عن أفقه الشك والريب ولم أر بحرا جاوز البحر قبلكم تجود لمستجد أنامله السحب وما يستوي البحران عندي فإن ذا أجاج لعمرى في مذاق وذا عذب وكان رحمه الله عازما على أخذ العرائش فحال بينه وبينها انصرام الأجل وكذلك كان ملحا على أخذ طنجة فلم تساعده الأقدار

مقتل أبي عبد الله العياشي رحمه الله والسبب فيه قدمنا أن أهل الأندلس بسلا تحزبوا على أبي عبد الله العياشي ورموه عن قوس واحدة وأنه كان قد اطلع على خبثهم ونصحهم للكفر وأهله وأنه استفتى العلماء فيهم فأفتوه بلباحة قتال من هذه صفته فأطلق فيهم السبيل أياما فقتل من وجد منهم وهرب أكثرهم فهربت طائفة منهم إلى مراكش وهربت طائفة إلى الجزائر وأخرى إلى النصاري وفرقة إلى زاوية الدلاء فجاء أهل الدلاء يشفون في أهل الأندلس فأبى أبو عبد الله أن يقبل فيهم الشفاعة وقال إن الرأي في استئصال شأقتهم فلما رأى أهل الدلاء امتناعه ورد شفاعتهم غضبوا لذلك وأجمعوا على حربته ومن قبل ما كانت القوارص تسري منهم إليه يدل على ذلك الرسالة التي كتب بها الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي إلى أبي عبد الله العياشي ونصها الحمد لله الحليم العفو الرؤوف المنزه عن صفات من وصف بها مؤف و مدينة العلم المسورة بسور السماحة والحلم وعلى ساداتنا آله وصحبه وكل من انتظم في سلك أتباعهم من أهل حزبه هذا وإن المجلى بنور طلعه ظلم الظلم والفساد المحلي خزائن المعالي بموجبات النفاق على حين الكساد المستوطن حبه بسويداء الفؤاد من ألفت إليه المكارم أزمة الانقياد وصلحت به بحمد الله العباد والبلاد حوطة الإسلام وحمانيته وخديم الدين المحمدي وكفايته سيدي محمد بن أحمد العياشي المحمود الأوصاف بشهادة من يعد من أهل الإنصاف زاده الله من المكارم أعلاها ومن نفائس درر المجد أغلاها وتوجه بتاج الكرامة والرضى وأمه بدائم مدده السرمدى حتى يرضى وسلم جنباه القدسي العلمي العملي المرابطي المجاهدي من جميع البلايا وأتحفه من تحفه الفاضلة الوهية بأعلى المزايا وأهدى إليه من طيب بركاته ورحماته ما يرضاه دينه العلمي لحماته قد شهدنا على أنفسنا بالإقرار بفضلته علينا وأن ما يسره يسرنا وما

يضره يضرنا علم ذلك منا يقينا من له معنا أدنى مخالطة بحيث لا يمكنه أن يدفع ذلك بنوع من المغالطة وإن الضار بالعين ضار بإنسانها لكن النفوس الإنسانية محل لخطاها ونسيانها ومن أقمناه لديكم مقام الخادم والولد قد ساءنا منه ما ساءكم مما عنه ورد وطلبنا من جميل أوصافكم معاملته بالصفح والجميل فلن يزال الإنسان إلا من عصمه الله يستمال أو يميل ولولا الحرارة ما عرف الظل ولولا الوابل لقليل النهاية في الظل وما عرف العفو لولا الإساءة ولا يقال صبر المرء إلا فيما ساءه وما عرفنا صاحبه إلا محبا لجانب كل من للدين ينتسب فإن خرج عن نظركم فقد آتاه الغلط من لا يحسب انتهى وكان الشيخ ابن أبي بكر رحمه الله يطيل التثاء على أبي عبد الله العياشي ويذيع محاسنه وكان يقول في دعائه اللهم أجز

عنا سيدي محمد العياشي أفضل المجازاة وكافه أحسن المكافأة واجعل مكافأتك له كشف الحجب عن قلبه حتى تكون أقرب إليه منه اللهم لا تحرمه توجيه إليك وانقطاعه لخدمتك اللهم نفس كربته وكمل رغبته وأجب دعوته وسدد رميته واردد له الكرة على من عداه في الحق إنك على كل شيء قدير انتهى فهذا حال الشيخ ابن أبي بكر رحمه الله مع أبي عبد الله العياشي ثم قدر الله أن حدث بين أولاده وبين العياشي من النفرة ما أفضى إلى المقاتلة وذلك بسبب رده شفاعتهم في أهل الأندلس وأمور أخر فأجمعوا على حربه كما قلنا فخرج إليهم أبو عبد الله العياشي فأوقع بهم وهزم جمعهم وقتك بالعرب الذين كانوا مع التاغاي فتفرقت الجموع وتبرأ التابع من المتبوع ثم ذهب أبو عبد الله العياشي إلى طنجة بقصد الجهاد فلما قفل من غزوه وجد البربر من أهل الدلاء قد وصلوا إلى أطراف أزغار ومعهم التاغاي والدخييسي وأهل حزبهم من الكدادرة وغيرهم وعزموا على مصادمة أبي عبد الله فأراد أن بغض الطرف عنهم ويصرف عناه عن جهتهم فلم يزل أصحابه

به إلى أن برز لمقاتلتهم فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على أبي عبد الله العياشي وقتل فرسه تحته فرجع إلى بلاد الخلط وكان رؤساء الخلط أكثرهم في حزب التاغاي وعلى رأي الكدادرة فرجعت البربر إلى أوطانهم وبقي أبو عبد الله العياشي عند الخلط أياما ثم غدروا به فقتلوه بموضع يسمى عين القصب واحتزوا رأسه وحمله بعضهم إلى سلا وكانه حمله إلى أهل الأندلس إذ هم أعداؤه بها قال في شرح المثاني ودفنت جثته بإزاء روضة أبي الشتاء رضي الله عنه ومن كراماته المتواترة أنهم لما حملوا الرأس سمعوه ليلا وهو يقرأ القرآن جهارا حتى علمه جميع من حضر فردوه إلى مكانه وتاب بسببه جماعة من الناس وأما القبة المنسوبة إليه بقبيلة أولاد أبي عزيز من بلاد دكالة فالظاهر أنها متخذة على بعض معاهده التي كان يولي إليها أيام كونه بالقبيلة المذكورة في ابتداء أمره كما مر وليس هناك قبر له على الصحيح ولما قتل أبو عبد الله العياشي فرح النصراري بمقتله غاية الفرح وأعطوا البشارة على ذلك وعملوا المفراحات ثلاثة أيام وكان مقتله رحمه الله تسع عشر المحرم سنة إحدى وخمسين وألف وقد رمزوا لتاريخ وفاته بقولهم مات زرب الإسلام بإسقاط ألف الوصل وحدث رجل أنه كان بالإسكندرية فرأى النصراري يومئذ يفرحون ويخرجون أنفاسهم فسألهم فقالوا له قتل سانطو بالمغرب وفي الرحلة لأبي سالم العياشي قال أخبرني الشيخ محمد الفزاري بمكة قال كان بالمدينة المشرفة رجل مغربي من أهل القصر في السنة التي قتل فيها الولي الصالح المجاهد سيدي محمد بن أحمد العياشي قال فجاءني ذات يوم وقال لي إني رأيت في النوم أختي ورأيت رجلا جالسا مقطوع اليد تسيل دما فقلت له من أنت قال الإسلام قطعت يدي بسلا قال فلما أخبرني قلت له الذي يظهر لي من رؤياك أن الرجل الصالح المجاهد الذي كان بسلا قد قتل قال وبعد ذلك في آخر السنة قدم حجاج المغرب فأخبرونا بموته

وقد رثي رحمه الله بقصائد كثيرة منها قصيدة الأديب البليغ أبي العباس أحمد الدوغاي التي ذكرها في النزهة ويحكي أنه وجد مقيدا بخط أبي عبد الله العياشي المذكور أن جملة ما قتله من الكفار في غزواته سبعة آلاف وستمئة وسبعون ونيف ومما مدحه به العلامة الإمام الشهير أبو محمد عبد الواحد بن عاشر قوله يا حادي الأظعان في الرياشي أبلغ سلامي فخرنا العياشي من نوره بدا وفضله غدا تحدو به الركبان والمواشي طود الهدى عين الندى فرد الورى فريد وقته الإمام الخاشي لله سيف صارم وقاصم ظهر العدا كبيرهم والناشي يتركهم عند اللقا رهن الشفا صرعى على الأرض كما الكباشي يا مسلمين تهنيكم حياتكم ما عاش فيكم سيدي العياشي أنام لا شك الأنام الكل في ظل الأمان لين الفراش يا عاذلي في حبه عدلك دع ولا تحدثني حديث الواشي إني امرء بالحسن مفتون وعن جميع لوم لانمي عاشي هديتي إلى الكرام أبرزت سلامها للسامعين فاشي وثناء الناس عليه كثير فقد أتى عليه الشيخ ميارة كما مر وأبو عبد الله محمد العربي الفاسي وابن أبي بكر الدلائي وغيرهم وكان رحمه الله مجاب الدعوة ما دعا الله في شيء إلا استجيب له شوه ذلك منه مرارا ومن أدعيته المحفوظة عنه اللهم إني أسألك باسمك السريع المجيب الذي خزنت فيه قوات رحمتك وخواتم إرادتك وسرعة إجابتك يا سريع لمن قصده يا قريب ممن سأله يا مجيب من دعاه أسرع لي بقضاء حاجتي وبلوغ إرادتي يا سميع يا مجيب يا سريع يا قريب أمين أمين يا رب العالمين وكان فقيها مشاركا في الفنون وله أتباع ظهرت عليهم بركاته ولاح عليهم سره ومن أتباعه الشيخ أبو الوفاء إسماعيل بن سعيد الدكالي

القاسمي صاحب الزاوية المشهورة ببلا دكالة ومن أتباعه أيضا المقدم المجاهد أبو العباس الخضر غيلان الجرفطي وقد ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي في رسالة كتب بها إلى المجاهد المذكور يقول فيها ما نصه من عبيد الله تعالى محمد بن ناصر كان الله له إلى الفارس القائم بنصر دين الله البائع نفسه في إعلاء كلمة الله الخضر غيلان سلام عليك ورحمة الله وبركاته وإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني احبك في الله وإن لساني لهج بالتضرع إلى الله تعالى في نصرك على الكافرين منذ خرج النجليز والباعت على إعلامك بهذا أمران أحدهما قوله إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه والثاني استنهاض همته للجد فيما أنت بصدده من الجهاد وعدم الالتفات إلى ما تورط فيه غيرك من الاعتزاز بالفاني فأتت ما دمت في هذا على طريق صلحة وعباد الله الصالحون كلهم معك ورحم الله صاحبك الذي أسس لك هذه الطريق الصالحة ورباك عليها أعني أمير المؤمنين نور البلاد المغربية سيدي محمد العياشي جزاه الله عنا وإياك عن المسلمين خيرا فهو سيدنا وسيد غيرنا الذي ندين الله بمحبته ويجب علينا وعلى المسلمين تعظيمه وتعظيم من هو منه بسبيل ثم قال الشيخ ابن ناصر رحمه الله بعد كلام ما نصه وتستوصي بأل سيدنا وسيد المسلمين في زمانه كافة خيرا سيدي محمد العياشي فهو عزك وبتعظيمهم قوام أمرك وهذا من نصيحتي إليك التي هي من نتيجة محبتنا لك فعاملهم بالوفاء ولا تراخدهم بالجفاء انتهى المقصود منه ولولد سيدي محمد العياشي وهو الفقيه العلامة سيدي عبد الله أرجوزة نظم فيها أهل بدر وتوسل بهم إلى الله تعالى في هلاك الذين تمالؤوا على قتل أبيه فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى دارت عليهم دائرة السوء ولم ينج منهم أحد وفي

البيستان إن أبا عبد الله محمد الحاج الدلائي دخل بلاد الغرب وذلك بعد مقتل أبي عبد الله العياشي فلقبه ولده سيدي عبد الله المذكور بجموع الغرب بوادي الطين فوقت الحرب في قبائل وانتهبت حلهم ومواشيهم انتهى وكان ذلك في أوائل ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وألف ولسيدي عبد الله ابن سيدي محمد العياشي في بعض زيارته لأبيه قوله أتينا إليك وأنفسنا تكاد من الخوف منك تنوب ولم ندر أين هوك الذي تحب فتنحو إليه القلوب أقمنا فخفنا وجننا فخفنا فمن خوفنا قد دهنتنا خطوب فها نحن من خوفنا منك حيرى وها نحن من خوفنا منك شيب قال اليرفني في الصفة وأخبرني حافده العلامة قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد العياشي أن جده سيدي عبد الله المذكور كان قد أصابه مرض أعبى الأطباء علاجه فلما طال عليه أمره رغب منهم أن يحملوه إلى ضريح الشيخ سيدي الحاج أحمد بن عاشر بسلا فلما وقف على الضريح أشد ارتجالا أقول لدائي إذ تقام أمره وعز الدوا من كل من هو ناصرى إلا فانصرف بالله عني إنني أنا اليوم جار للولي ابن عاشر قال فكأنما نشط من عقال وانقشع عنه سحاب ذلك الضرر في الحال وكانت وفاة سيدي عبد الله المذكور ليلة عرفة سنة ثلاث وسبعين وألف ودفن بجوار الولي الأشهر الشيخ أبي سلهم من بلاد الغرب وبنيت عليه قبة صغيرة وأخبار العياشيين ومحاسنهم كثيرة وبيتهم بيت خير وصلاح رحمهم الله ونفعنا بهم آمين

ظهور أهل زاوية الدلاء وأوليتهم بجال تادلا وما يتبع ذلك أما نسبتهم فهم من برابرة مجاط بطن من صنهاجة حسبما ذكره ابن خلدون وغيره وكان مبدأ أمر أهل زاوية الدلاء أن جدهم الولي الأشهر سيدي أبا بكر بن محمد وهو المعروف بحمي بن سعيد بن أحمد بن عمر بن يسري المجاطي كان ممن أخذ عن الشيخ الصالح أبي عمرو الفسطلي دفين مراكش وسكن الدلاء واتخذ هنالك زاوية فجاء ولده الولي الأظهر أبو عبد الله محمد بن أبي بكر فكمل من الفضائل ما بقي وأبدى من الأسرار ما خفي فتنقل الركبان حديث هذه الزاوية وقصدها الناس من كل ناحية إلى أن كان من أولاد الرجلين ما نذكره وأخذ الشيخ محمد فتحا بن أبي بكر عن الشيخ أبي عبد الله محمد الشرقي فحصل له من الحظوة والوجاهة فوق ما كان لسائر من عاصره وكان أعلام الوقت كالحافظ أبي العباس المقرئ والحافظ أبي العباس بن يوسف الفاسي والإمام أبي محمد بن عاشر والفقيه العلامة أبي عبد الله محمد ميارة وغيرهم يقصدون زيارته والتبرك به ويراجعون في عويص المسائل العلمية وكان رحمه الله عالما حافظا دراكا متوسعا في علمي التفسير والحديث وعلم الكلام حسن المشاركة فيها وفي غيرها وكانت وفاته سنة ست وأربعين وألف قال اليرفني وحدثني غير واحد من أشياخنا أنه لما دنت وفاته جمع أولاده وعشيرته وقال لهم إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من

اعترف غرفة بيده البقرة وأنا أقول لكم ولا ومن اعترف غرفة بيده يشير بذلك إلى ما تجاذبوه من أمر الرياسة بعده وذلك من مكاشفاته رضي الله عنه وقد اعترض عليه بعض الطلبة في قوله وأنا أقول بأنه سوء أدب لمقابلة كلام الله بكلامه وأجاب عنه حافده وهو الفقيه العلامة الشهير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي بن محمد بن أبي بكر برسالة مستقلة ولما توفي خلف من الأولاد عدة فكان أكبرهم أبو عبد الله محمد الملقب بالحاج لأنه حج مع أبيه ووحده مرارا ويقال إنه خطب الناس يوم عرفة على ظهر الجبل لأمر اقتضاه الحال ولم يكن ذلك لأحد من أهل المغرب قبله وفي أيامه تكامل أمر أهل الدلاء وشاع ذكرهم وكان للزاوية في أيامه وأيام أبيه صيت عظيم وكان بها من معاطاة العلوم والدؤوب على درسها وإقرانها وقرآنها ليلا ونهارا ما تخرج به جماعة من صدور العلماء وأعيانهم كالشيخ اليوسي وأضرابه حتى كانت إليها الرحلة في المغرب لا يعدها الطالب ولا يأمل سواها الراغب وتمهد الأمر بها لأبي عبد الله محمد الحاج وأولاده وإخوانه وبني عمه إلى أن تملك مدينة فاس ومدينة مكناسة وأحوازهما وكافة القطر التادلي قال في نشر المثاني وفي سنة ست وأربعين وألف كان قيام محمد الحاج الدلائي على الشيخ ابن زيدان قلت ولعل المكاتبه الآتي بيانها بعد إنما كانت في هذا التاريخ وقال في البستان وفي سنة خمسين وألف زحف محمد الحاج الدلائي بعساكر البربر إلى مكناسة فاستولى عليها ثم زاد إلى فاس فاعترضه أبو عبد الله العياشي بجموع أهل الغرب ووقعت الحرب بينهما فانهزم العياشي وسار محمد الحاج لحصار فاس فرجع العياشي وأعاد حربا ثانية فانهزم محمد الحاج وعاد إلى بلاده وفي سنة إحدى وخمسين وألف بعد موت العياشي نزل محمد الحاج على فاس وحاصرها ستة أشهر وقطع عنها المواد وجميع المرافق إلى أن لحقهم الجهد وارتفعت الأسعار فدخلوا تحت

حكمه ولما قام اجتمعت عليه برابرة ملوية وأذعنوا له واعصوبوا عليه وقد كانت بينه وبين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وقعة أبي عقبة فانهزم فيها السلطان المذكور وانتشر جمعه وذلك في سنة ثمان وأربعين وألف ومن ثم قطع النظر عما وراء وادي العبيد ذكر ما وقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وبين أهل زاوية الدلاء من المراسلات والمعاتبات قال في الزهة وفي أيام السلطان محمد الشيخ بن زيدان قويت شوكة أهل الدلاء وانتشرت كلمتهم في بلاد الغرب وضعف الشيخ عن مقاومتهم وعجز عن مقارعتهم وبعث إليهم قاضيه العلامة الفقيه أبا عبد الله محمد المزوار المراكشي يطلب منهم ترك الشنآن والرجوع إلى اجتماع الكلمة ويحتج عليهم بأن أباهم الولي الصالح سيدي محمد بن أبي بكر كان قد بايع أخاه الوليد بن زيدان والتزم طاعته وأنهم أولى الناس باقتفاء طريقته واتباع منهجه فلما بلغهم القاضي المذكور وأدى الرسالة ونزل ما في العيبة وبين قصده اعتذروا إليه بمسائل وتعللوا بوجوه قال اليفرنى وقد وقعت على رسالة كتب بها السلطان محمد الشيخ المذكور إليهم بعد رجوع القاضي من السفارة وهذا نص القدر المحتاج إليه منها بعد الخطبة ولنصرف عن الغرض لمن عيناه لمسنون العتاب

والمفترض من هم لدقائق المجاز ضابطون وفي حقائق الجواز خابطون أهل وطن الدلاء لمن هو لورود الشراب محتاج السيد أبو القاسم بن إبراهيم والسيد أبو عمرو والسيد محمد الحاج ومن لنشر صحف الإنصاف منهم مطابق كالسيد المسناوي والسيد عبد الخالق ولا زائد إلا قصد إيقاظكم من الغفوة التي طال كطلوع الشمس من المغرب ليلها وامتد كأرض المحشر فرسخها وميلها هل هذا منكم استخفاف بحضرة الخلاف أو تعام وتصام عما يجب على الرعايا من لازم الوظائف هذا من العار الماحي لصحف المناقب ولا يلوي بمن توخاه إلا للمهيح الذي لا تحمد لمنتمجعه العواقب وخصوصا مثلكم الذي شق عصا الشفاق وشرع يمد أيدي الأطماع في استخلاص قبائل الأفاق وكنتم لا تدرن لباس القمصان ولا الشواشي إلى أن جسرکم على وطء الغرب فأخذكم معه المعتز محمد العياشي فنبتتم موائد الضيوف وتقلدتم بلا حياء السيوف وأعانكم اضطراب القبائل مع وقوع الجوع ومن مضى إلى أي قطر تعذر عليه الرجوع إلى أن أمكنتم من أزمته الرعايا وكل عنيد من رباط تازا إلى وادي العبيد فاستحليتم سكر الجبايات من الأبريز والفضة إلى أن جمعتم منه ما لا ينحصر في عد بواسطة القرافي والمنتصر من غير أن تنفقوه على إقامة جند ولا انتفع به إلا أشبايع المومسات وشياطين الفساد والشر ولم ترقبوا مكر من رفعكم من غمار عموم البرابر وأقعدكم في القباب على الأسرة وفي بيوت الله على الكراسي والمنابر عويتم علينا معشر الثوار كالذئاب من كل عراء وشعبة لتكون عزيمة نهوضنا إليكم معطلة صعبة وأن لا ندري أين تميل النفوس ألتلك الصحارى أم إلى إيليق السوس وهذا المغرب لا يخلو ملآن من نواميس كل كاهن ومدع قرقار تسمي فيه اليوم خاملة وتصبح بالمخبل والمنقار ومعادين الهمز والمز والمجون هم أهل الزوايا والديارات والفنادق والأسواق والسجون لكن من صفعته يمينه لا يبكي ومن ألقى

بيده إلى التهلكة لا يشكي أهملناكم وأمهلناكم لعواندكم من العبادة والطعام فظلمتم لنا في الحلو عظاما ووعام لم تعلم الفقراء إلا بحرمة جاه الدخيل على صلح أو زواج أو لسماح البخيل وحتى الآن دعوناكم لعقد البيعة الواجبة لنا على كل من أطاع أو عصى من وجدة إلى حدود السوس الأقصى فنزهد لكم فيما يقوم بحق تلك الزاوية وأهلها بشرط أن تفيقوا من سنة الغفلة وجهلها وإن أمسكتكم أقدام الانقياد عن سلوك سبيل السداد وقبول سوله فأذنوا بحرب من الله ورسوله فقد شبعنا لكم فقيرنا وقاضينا أبا عبد الله محمد المزوار فصددتموه أرباب صد وانقلب من المحاوره مردودا أقيح رد لو لم نبال بكم بالفكر والذكر ما صرفنا فيما سلف وصيفنا الأمين مباركا السوسي فشيده ضريح السيد محمد بن أبي بكر فدنستم خالص عرضه فإنه كان لكم علينا بريدا وبصيرة بما انطوت عليه منكم غرة السريرة قصص علينا دون أن نفضحه إن عين الجحش فراره ولا يسعنا أن تدعكم مع أشراف سلجماسه وبني موسى تلعبون بنا كهر الغالية في الققص لا يعطي غناء غلته إلا بوخر المسال التي تكلفه الرقص وحاصل الغرض تأدية البيعة كما عقدها أبوكم الأبر الجواد المرحوم الفاضل المجيد لأخينا الأرضى مولاي الوليد لنتنظم كلمة الإسلام في الأقطار إذ لو فعلتم لاقتفى أثركم جموع المنتجعين والأمصار وإن عظمت عليكم مفارقة تقبيل الرأس واليد والركبة فانظروا صبيحة طلوعي عليكم طلوع الفجر على غسق الليل بخضرم خضرم من الرماة والخيل ونؤم بعدكم دولة الأشراف الصحراوية ونلوي على زاوية الساحل إلى أن تعود الإيالة الشيخية علوية عالية بالصيت والذكر أو تهوي إلى حضيض بني سعد بن بكر انتهى وكان جواب أهل زاوية الدلاء عن هذه الرسالة ما حاصله باختصار ولا زائد بعد حمد الله إلا أن مسطوركم الأحرش لما ورد ساحتنا سلب الأذهان والعقول فلا جارحة إلا ولها حصة من الطين فكادت الحبالى

تسقط المشاييم فضلا عن الجنين فياله من صوت زجر لا ينسى علينا طول السنين أسمعتنا غرائب لم تمر مرارتها على أهل الدهر الآتي والغابر لو صدح بها على جبانة لنهض أهل المقابر حتى سمتنا بالخسف في أسواق المذلة والهوان وما نحن الأعز وركن لكل من طرقته وصمة أو عمه وأنت تعمل بتدبير وإشارة الأعلاج المجبولين على طبائع الخداع والغش وتبني على قواعد ما لكم بها من عرين ولا عش ومن الدليل الشاهد والبرهان فتكهم بأخيك مع مشاورة النسوان على غيب من الجند والديوان فلا تدعهم بخدعونك وهم سلبوا روح جندك السمي من غمد الجسد وحملوا هامته في مخلاة من مسد وإيم الله لنن داموا لك في الغرب بطانة لطفوا عليك ثلاثا أوطانه وأما نحن فبيعة والدنا رحمه الله لم نزل لنا في الأعناق ولا ينبغي أن تعاد فتكر كالتظهير لمن تحرر وأيضا منعنا من تجديدها انسال البربر عن ساحتنا فتكون أقوى سبب لفضيحتنا وأجلها هذا الأجل الذي لا تؤده سموم الليالي ولا حرارة قيظ المصيف مولانا محمد بن مولانا الشريف عقاب أشهب على قنة كل عقبة لم يقنعه عد المال دون حسم الرقية وربما غرتنا غلة فيشن الغارة على شعوب شعاب ملوية أو ينشر جيوشه على رباط تازا بالرايات والألوية سيما وجناحه ذوو النفوس النفيسة وبربر صنهجة وعرب دخيسة بزاة النزوات بالحلة والمحال والغزوات والعياشي كما تعلمون كانت همه هجرته أولا لملة أهل الشرك ثم مد خطا العزم إلى درجة الملك وأما وصيفكم الأمين مبارك السوسي فحيث أناخ علينا ككل الإقامة لاخطاط ضريح الوالدين رحمهما الله قمنا بوظيف حقه الظاهر والباطن حيث اختبر بعين الحقيقة أرجاء أغوار المواطن ولا شك أن حال مطالعته هي التي أرخصت لنا في سوق خواتركم الأسعار إلى أن نصبتم لنا بعد الرضا حبال الأذعار الجالية للعار وجد قبائلنا متبذدة على ضم حبوب الصيف وأعيانهم مغتدين على الخيول بدون رمح ولا منفع ولا سيف فخالهم على غرة غنيمة باردة وما علم أنهم أغوال الخيل صادرة وواردة فإن كانت معابنته

هي التي أطمعتك أن يعودوا بعد العز نوابت فما درى أن منه كان الخاوي الخائب من ركب الخيل لنفسه دون راتب المخزن لا ترضى همته أن يهان فيحزن وقاضيك السيد محمد المزوار حيث عاين وفود الأقاليم منتشرة كالجراد على الأزقة والأدواب دون من لازم خدمة الأبواب تحقق عيانا أن انتظام شمل المالك والمملوك لا يكون إلا على عظمة الملوك قصص عليكم وعلى من حضر ما اعتقد وسمع ونظر وحتى الآن إن قصدتم الغرب أو حصن فاس لا تتالك من جانبنا مساءة ولا بأس فبعد أن يكون لكم في المدينة البيضاء الجديدة والقديمة قرار يكون لنا بعد ذلك حكم الاختيار بين أن نؤمن لك أو نترك لك الديار أو نستصرخ بمن هو مثلك شريف حقيقي وسلطان له شغف أكثر منك في ضبط الأوطان فقبال إذ ذاك القصوره بالساط ولقي بطانة من شاط لأسنان الأمشاط أبيهما للغرب غلب نؤدي له على الرغم ما طلب وإن قتعحت بحوز الحمراء من مراش ورفضت عنك معاناة الهراش والتناوش فدعنا ومراعاة من تجارته الرئاسة وهمة اشتراء نفيس السياسة ضرغام غاب سجماتة وأما صاحب إيلغ السوس فما مراده ومراد ذويه إلا غنيمه سلامة الأعراض وتجارة سلب النفوس وفيما تلوناه عليك من القصص كفاية فلئن غادرتنا مستترين في حرمة الاحترام والوقار فنعم وإن زاحمتنا بمنكب الهوان يدافعك عنا من ادعى أنه زعم وإن طرفنا مناخ عزمك على عبور وادي العبيد أو أم الربيع فهناك يجمع الله بين من يشتري ويبيع والسلام وكتب عن إذن جمهور إخوته عبد الله المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي في يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب انتهى ولما رأى السلطان محمد الشيخ بن زيدان تعاصي أهل زاوية الدلاء عليه واستحكام أمر الغرب لهم وتقويهم بالعدد والعدد صرف عنائه عن مقارعتهم ومال إلى مسالمتهم وقطع النظر عما في أيديهم والأمر كله لله

ذكر ما دار بين السلطان محمد الشيخ ابن زيدان وبين الأمير المولى محمد بن الشريف رحمهما الله تعالى كانت المكاتبات والمرسلات تقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدي وبين الأمير المولى محمد بن الشريف السلجماسي فمن ذلك رسالة بعث بها السلطان المذكور إلى الأمير المذكور فكان من فصولها أن قال له وبلغني أنك تعلن في النوادي من الحواضر والبوادي إن جرثومة انتمائنا لبني سعد بن بكر بن هوازن مع أنها في بني نزار بن معد وافية المكابيل ثقيلة الموازن وأنا من تيديسي أحد القصور بوادي درعة ومنها أنبت الله أصلنا فأزهر غصنه وأثمر فرعه فلئن كان غرضك حط منطقة قدرنا من اللب فهذا من العلى عليك عار وأن تحاول محونا من صحيفة النسب فتلك دعوى لا تغلي أو ترخص أسواق الأسعار وقد صرنا إليك نسخة من مناهج الصفاء في أخبار الشرفاء ليطلع عليها أنظارك من الملوك فيزول ما بالخاطر من إشراك الشوك فأجابه المولى محمد بن الشريف عن هذا الفصل بأن قال له وعتابكم أننا عزوناكم لبني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور وناشرون لذلك في الحل والمدن والقصور تائه ما فهنا بذلك عن معابرة لكم ولا جهل ولا بأن نضيفكم لمن لا عشيرة له ولا أهل بل اعتمدنا في ذلك بحمد الله على ما نقله الثقات المؤرخون لأخبار الناس من علماء مراکش وتلمسان وفاس ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر فما وجدكم إلا من بني سعد بن بكر ولا معول على كتاب المنصور من الفشتالة ولا ابن القاضي المكتاسي ولا ابن عسكر الشريف الشفشاوني وسواهم إذ الكل أهل بساطكم ومحل مزاحم وانبساطكم ولقد بلغتنا نسخة مناهل الصفا فلم نجد فيها موردا عذب وصفا وكفى دليلا بالباطن والظاهر قول الثقة مولانا عبد الله بن

طاهر ومع هذا فلم نعتمد دفعكم عن شرف النسب ولا رفعكم على ما وسمكم الله به من زينة الحساب انتهى الغرض من هذه الرسالة وأشار بقوله قول الثقة مولانا عبد الله بن طاهر إلى ما اتفق له مع المنصور حين جالسه على المائدة وقال له المنصور أين اجتمعنا فقال له ابن طاهر على هذا الخوان والحكاية قد مرت في صدر هذه الدولة السعدية ومما كتب به السلطان محمد الشيخ بن زيدان للأمير المذكور أيضا وذلك حين غلب المولى محمد على فاس ومملكها فكتب إليه السلطان المذكور يحذره من عائلة أهل الغرب وغدرهم برسالة من إنشاء وزيره القائد أبي عبد الله محمد بن يحيى آجانا وفي آخرها قصيدة من إنشاء القائد المذكور وهي يا شيل مولانا الشريف محمدا شمس السعادة والهلل الأكمل ملأت مهابتك الكبيرة مغربا فزهت بمشرفة أصبهان وموصل صقر الصباصي على الأعادي صائل طورا يغير وفي الملاحم سبيل أنيابه البيض الحداد صوارم وبكل ظفر منه أبتر مفضل فجنحك الجرد العتاق وإن نظرت إلى تلمسان يطيش الشمال هابتك ثوار الأقالم عنوة والوحش فهي يغص منها المنهل قد طبت إن عرفت عروقك في الوغا خلت العنابر ديف فيها المنديل يا مالكا سعدت به أوطانه فيما مضى وزها به المستقبل نادى بك النصر العزيز لمغرب ولكم على فاس الجديد الكلل فاحذر كما حذر الغراب ولا تكن كالبلط يطفو عن مطاه القوقل واعدل تفوز ولا توأخي طامعا ترد العداة وتعم عنك العدل لا تصد من جبل البرابر واصطبر حتى يهون على الجواسيس مدخل لا تأمن الأعراب في أقوالها واقمع فضاضة من يجور ويختل وعليك بالغارات في أوطانها بكتائب تسبي الأناث وتقتل واغضض ولا تردى تجار مدائن يبقى عليك الستر دأبا يسبل

لا تتخذ من حصن فاس صاحبا أو حاكما يصل الأمور ويفصل كالبعل عاتته الفرار وإن غدا في مرتبط فمتى استغرك يركل لا تتقلن إلى الصحارى ذخائر فيقول أهل الغرب حتما يرحل واضرب لبيبت الملك أوتاد الدها تزداد صيتا في القلوب وتقبل ألف وفود الغرب واعرف قدرها وقروم كل قبيلة لا تجهل وابسط يدك على العيال هنيئة وإذا غرست عروق عدل تنتقل هذي وصايا قد أضعنا حقوقها في آخر مما نحاه الأول فمتى نشد إلى المعالي رحالنا بأياه نصر والمقادير تخذل فرضينا متبعين أحكام القضا والله يحكم ما يريد ويعدل فأجابه المولى محمد بن الشريف في سنة تسع وخمسين وألف بقصيدة ختم بها جوابه من إنشاء الفقيه أبي عبد الله محمد بن سودة الفاسي ونصها أمحمد الشيخ بن زيدان الرضا فخر الخلائف والهمام الأكمل فلقد أجبته عما قد كاتبتني نظما ونثرا كي ترى ما يمثل إنني أبث لكم وصايا جملة إن أنت للنصح المصرح تقبل فإلى متى طول الرقاد أما ترى أضعان ملكك كل يوم ترحل والدهر ينتف في رياش جناحك ويدنسن من الصفا ما تغسل ما من مملك ذاق لذة راحة إلا تجلى له الهوان فيفسل أخرى الذي كثرت شقا ثواره يعوي عليه لكل عاد معقل تحتال تخدعه بكل حباله حتى يصاد كما يصاد النعل فاستيقظن من الخمار ومن رعى في أرض أساد الشرى لا يغفل وانفض غبار الذل واخلع ثوبه يزداد وجهك بهجة ويهال ضيعة ملكك في الرخا وتركته للخزي في دار الهوان يذلل وركنت للظل الوريث وغادة يزهو البيع بها إذا ما ترفل وإذا أردت دوام هيبه همة وتدوم في ستر عليك يسبل دع عنك في الحمرا مروق سفرجل ومدربلا بالزعفران يفلل واركب مطايا الصافيات إلى الوغا أما تحوز مزية أو تقتل

واقرع طيولا للرعاة وفي الوغا يجبي إلى الحرب العوان الجحفل وخض الفقار وهز رحما وادرع واثن العنان وفي يمينك منصل خاطر بنفسك في الفيافي جائل تردى العدو وكل ليل منزل واصطد نهارك بالسلاق وبعدها عقبانها وكذاك صقر اجدل وقد الجيوش كما الوحوش ولا تدع من يعص أمرك وازجرنه فيفعل جنب آجانا الجبن في تدبيره واصحب شجاعا للذخائر ببذل لا تجمعن من العلوج بطانة فطباعها الغدر البليغ الأعجل أما الشبانة فاحذرن من غيها لا بد تغدر بالأخير وتخذل ترجو عواقب دولة لنفوسها وتود من وافي جنابك يجفل يعطف عليك الدهر بعد نفوره فتعود أيام السعود وتقبل ما ذاق زيدان أبوك حلاوة من ملكه حتى غدا الحنظل فإذا امتثلت صواب صدق وصيتي يصغي الزمان لكم ويصفو المنهل واعلم أن هذه الرسائل والأشعار التي أثبتناها هنا نازلة كما ترى عن درجة البلاغة وعادمة لما تستحقه من فن الوزن ونقد الصناعة ولكن لما كان الكتاب كتاب تاريخ وأخبار لا كتاب أدب وأشعار لم نبال بذلك إذ كان المقصود منها ما تضمنته من بيان الأحوال والإفصاح عنها على أصح منوال فإن هذه الرسائل هي عماد التاريخ وملاكه ونازلة منه بالمحل الذي نزلت من الدار أسلاكه فلذا أكثرنا منها في هذا الكتاب والله تعالى الملمه للصواب

وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله كانت وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله سنة أربع وستين وألف وفي نشر المثاني أنه توفي قتيلا سنة ثلاث وستين وألف ودفن بقبور الأشراف من قصبة مراکش في روضة أبيه وعشيرته ومما نقش على رخامة قبره قول القائل لبدر سموات المعالي أقول وفي ذا الضريح كان منه نزول محمد الشيخ بن زيدان غاله حمام فحزن العالمين طويل إمام الأنام ذو المائر فعله له غرة في الصالحات جميل حباه إله العرش رحمي تخصصه بما هو في الفردوس منه كليل وزراؤه يحيى آجانا وولده محمد وغيرهما وقضاته أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني وأبو عبد الله محمد المزوار رحم الله الجميع الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله لما توفي السلطان محمد الشيخ في التاريخ المتقدم بويع ابنه أبو العباس أحمد والعمامة يقولون مولاي العباس بدون لفظ الكنية وقام مقام أبيه في

جميع ما كان بيده إلا أن حي الشبانات وهم أخواله قويت شوكتهم في أيامه وغلظ أمرهم عليه ووثبوا على الملك وراموا الاستبداد به فضايقوه وحاصروه بمراكش أشهرها ولما رأت أمه أن الأمر لا يزيد إلا شدة كلمته في أن يذهب إلى أخواله ويأخذ بقلوبهم ويزيل ما في نفوسهم عليه فذهب إليهم فلما تمكنوا منه قتلوه غيلة وأقبلوا إلى مراكش مسرعين وبايعوا فيها لأميرهم عبد الكريم بن

أبي بكر الشباني ثم الحريري كما سيأتي وكان مقتل السلطان أبي العباس رحمه الله سنة تسع وستين وألف كذا في النزهة والذي في نشر المثاني أنه قتل سنة خمس وستين وألف والله أعلم بغيته قال اليفرنى رحمه الله وقد أذكرتني هذه الفعلة قول المولى محمد بن الشريف في قصيدته السابقة أما الشبانة فأحذرن من غيها لا بد تغدر بالأخير وتخذل فإن الأمر وقع كما قال مع أن المولى محمد بن الشريف كتب بالقصيدة المذكورة للسلطان محمد الشيخ في سنة تسع وخمسين وألف وغدر الشبانات للسلطان أبي العباس كان سنة تسع وستين وألف ولعل المولى محمد بن الشريف تلقى ذلك من بعض أهل الكشف أو نحوهم فإن كلامه كثيرا ما يقع فيه مثل هذا وبمهلك السلطان أبي العباس رحمه الله انقضت دولة السعديين من آل زيدان وانهار جرفها وانطوى بساطها وسبحان من لا يبدي ملكه ولا يزول سلطانه لا إله إلا هو العزيز الحكيم الخبر عن دولة الشبانات بمراكش وأعمالها وما آل إليه أمرها من دثورها واضمحلالها لما قتل السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان في التاريخ المتقدم ثار كبير حي الشبانات بمراكش من عرب معقل وهو الرئيس عبد الكريم بن القائد أبي بكر الشباني ثم الحريري وحرير فخذ منها هي النبعة والصميم فيها وعبد الكريم هذا يعرف عند العامة بكرم الحاج فدخل مراكش ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه بها سنة تسع وستين وألف وانتظمت له مملكة مراكش ونواحيها وسار في الناس سيرة حميدة وكان

في أيامه الغلاء المؤرخ بعام سبعين وألف وهو غلاء مفرط بلغ الناس فيه غاية الضرر حتى أكلوا الجيف ولم يزل مستقيم الرأي بمراكش إلى أن توفي بها سنة تسع وسبعين وألف قيل أن يدخلها المولى الرشيد بن الشريف بأربعين يوما وقال منويل لما بايع أهل مراكش عبد الكريم الشباني خالفت عليه أسفي وأعمالها فغزاهم ثم رجع مفلولا إلى مراكش وكانت المجاعة المشهورة عقب ذلك ثم قتله بعض أجناده دخل عليه فطعنه برمح فأتلفه ثم قبض على القاتل وقتل أيضا في الحين ولما توفي بايع الناس ولده أبا بكر ابن عبد الكريم فيقي إلى أن قدم المولى الرشيد وتقبض عليه وعلى عشيرته فقتلهم ثم تتبع الشبانات فأفانهم قتلا وأخرج عبد الكريم من قبره فأحرقه بالنار وانقضت دولة الشبانات والبقاء لله وحده ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث فنقول في سنة ثلاث عشرة وألف في ثاني عشر محرم منها توفي الولي الكبير أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسن الخالدي السلاسي المعروف بابن حسون نسبة إلى جده الحسن المذكور وهذا الشيخ هو دفين سلا الشهير بها أصله من سلاس مدشر على مرحلة من فاس ثم انتقل إلى سلا وسبب انتقاله إليها أنه كان بين أهل سلاس حروب ومقاتلات فكان الشيخ أبو محمد عبد الله إذا غلب أهل مدشره فرح وإذا انهزموا حزن فافكر في نفسه وقال محبة الغلبة تستدعي محبة الشر للمسلمين وعلي عهد الله لا جلست في موضع أفرق فيه بين المسلمين وأبغى الشر لهم فارتحل إلى سلا ولما استقر بها أتاه جماعة من عشيرته يراودونه على الرجوع إلى بلادهم وحثوا عليه في ذلك فأخذ قنحا وملاه من ماء البحر ووضع ثم قال لهم ما بل ماء البحر يضرب بعضه بعضا وتتلاطم أمواجه وما لهذا الماء الذي منه في القنح ساكن فقالوا له لأنه لم يبق في البحر فقال لهم الغربية تصفي

وتسكن فعلموا مراده وانصرفوا أيسين قلت وفي انتقاله من سلاس إلى سلا إشارة لطيفة وهي أن لفظ سلاس باعتبار تكيكه سلو موصول بحرف السين وهو حرف نو قرون ثلاثة متشعبة فيؤخذ منه بطريق الإشارة أنه سلو موصول بكر بخلاف لفظ سلا فإنه سلو محض وقد قدمنا في أخبار ابن الخطيب رحمه الله أن مدينة سلا كانت مقصدا للعبادة وأهل الخلوة والافتراق من لدن قديم أخذ الشيخ ابن حسون عن أبي محمد الهيطي عن أبي محمد الغزواني عن التابع عن الجزولي رضي الله عنهم وكان صاحب أحوال تهدي إليه الثياب الرقيقة فيأمر بها فتلقى في بيت مسدود فتبقى فيه حتى يأكلها السوس وتضيق وكان كل يوم يصيح على بابة أرباب الآلات بالطبول والأبواق يضربون عليه النوبة وغير ذلك وقد تكلم عليه الشيخ اليوسي في المحاضرات وحمله محملا جميلا وكرامات ابن حسون كثيرة شهيرة فنعنا الله به وبأمثاله وفي السنة المذكورة في ربيع الأول منها توفي الشيخ العارف بالله تعالى العلامة أبي عبد الله محمد العربي الفاسي الموضوع لهذا القصد بالخصوص وفي سنة أربع عشرة وألف كان الغلاء العظيم بفاس قال صاحب الممتع في ترجمة الشيخ أبي عبد الله محمد بن حكيم بالأندلسي أنه اعتراه ذات يوم حال فجاء إلى بعض أقران فاس وجعل يقول لصاحب الفرن أغلق فرنك أغلق فرنك ويصيح به فإذا بالغلاء العظيم حدث عقب ذلك وهو غلاء سنة أربع عشرة وألف فتعطل ذلك الفرن ويغيره من أقران المدينة وكان يمر بالطرقات فيقول للناس يأكلون عن أولادهم ويكرر ذلك على جهة الإنكار فجاء الغلاء المذكور فكان الناس يأكلون في الأسواق عن أولادهم ولم يكن يعهد الأكل بالأسواق قبل ذلك

وفي سنة خمس عشرة وألف في ثاني جمادى منها جاء بفاس سيل عظيم حتى غمر دور عمل الفخارين وذهب ببعض أنادر الزرع وحمل أمة من باب الفتوح فماتت وفي سنة اثنتين وعشرين وألف حدث الشر بفاس ووقع الغلاء حتى بيع القمح بأوقيتين وربع للمد وكثرت الموتى حتى أن صاحب المارستان أحصى من الموتى من عيد الأضحى من سنة اثنتين وعشرين وألف إلى ربيع النوي من السنة بعدها أربعة آلاف وستمئة وخربت أطراف فاس وخلت المداشر ولم يبق بلمطة سوى الوحوش وفي سنة ثلاث وثلاثين وألف وذلك عند فجر يوم السبت الثاني والعشرين من رجب منها حدثت زلزلة عظيمة بفاس ذكر صاحب الممتع في ترجمة أبي عبد الله بن حكيم المذكور أنها كانت قبل الزلزلة المذكورة يصيح المردومات المردومات فإذا بالزلزلة حدثت قال فما بقيت دار من دور فاس غالبا إلا دخلتها الفوس وفي خامس شعبان من السنة المذكورة نزل برد عظيم قدر بيض الدجاج وأكبر وأصغر ورئي حجر عظيم منها نزل على خيمة فخرقها وفر أهلها عنها وبقي لم يذب نحو ثلاثة أيام وفي سنة ست وثلاثين وألف توفي الإمام العارف بالله تعالى أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي المعروف بالعارف بالله وهو أخو أبي المحاسن المذكور أنها ومناقبه شهيرة أيضا وفي السنة المذكورة كان الغلاء بفاس والمغرب وفي سنة أربعين وألف عشية يوم الخميس ثالث ذي الحجة منها توفي الشيخ الإمام العلامة الهمام أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري نسبا الأندلسي أصلا الفاسي منشأ ودارا الفقيه المشهور كان رحمه الله له الباع الطويل في المشاركة في العلوم مع غاية التحرير والتحقيق وله التأليف الحسان التي أغنى فيها عن الخبر والعيان وكان ورعا سنيا وكان لا

يتخذ القراء على جناز أقرابه ويقول يمنعني من ذلك أنهم يفسدون قراءة القرآن وقراءتهم تلك عذر في التخلف عن الجنائز وفي سنة اثنتين وخمسين وألف توفي الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي وكان رحمه الله متقنا عالما له عناية كبيرة بتحصيل المسائل وتقييدها والإطلاع على غريبها وشريدها وهو صاحب مرآة المحاسن وكان جوالا في بوادي المغرب وحواضره حتى أدته خاتمة المطاف إلى مدينة تطاوين فألقى بها عصا التنسيار إلى أن توفي في السنة المذكورة ثم نقل إلى فاس بعد سنتين فوجد طريا رحمه الله وفي سنة ستين وألف كان بالمغرب رخاء مفرط وبلغ صاع البر بمدينة سلا متقالا وكاد ينعم بالكلية وهو غلاء لم يعهد مثله وانتشر الفساد في البلاد وحل بالمغرب وباء كبير حتى كان الناس يموتون في كل طريق رجالا ونساء نسال الله العافية وفي سنة سبعين وألف كان الغلاء المفرط بالمغرب لا سيما بمراكش وهذه السنة هي المعروفة عند العامة بسنة كروم الحاج لا زالوا يضربون المثل بغلائها إلى اليوم والله تعالى يحفظ المسلمين ويحلهم من كنفه في حصن حصين أمين تم الجزء السادس ويليها الجزء السابع وأوله الخبر عن دولة الإشراف السجلمايين من آل علي الشريف وذكر نسبهم وأوليتهم كتاب الاستقصا ج إدخال مكتبة الزهراء



بسم الله الرحمن الرحيم الدولة العلوية الخبر عن دولة الأشراف السجلمايين من ال علي الشريف وذكر نسبهم وأوليتهم اعلم أن نسب هذه الدولة الشريفية العلوية من أصرح الأنساب وسببها المتصل برسول الله من أمتهن الأسباب وأول ملوكها كما سيأتي هو المولى محمد بن الشريف بن علي الشريف المراكشي بن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف السجلمايي ابن الحسن بن محمد بن حسن الداخل ابن قاسم بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد بن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي وفاطمة بنت رسول الله هكذا ذكر هذا النسب الذي هو حقيق بأن يسمى سلسلة الذهب جماعة من العلماء كالشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي والشيخ أبي عبد الله محمد العربي بن يوسف الفاسي والعلامة الشريف أبي محمد عبد السلام القادري في كتابه الدر السنني فيما بفا من النسب الحسنني وغيرهم وقد تقدم في أخبار السعديين أن الصواب أن يزداد في عمود هذا النسب الشريف بعد قاسم الآخر ما نصه ابن الحسن بن محمد بن عبد الله الأشتر بن محمد النفس الزكية إلى اخر ما مر قال أبو عبد الله الفاسي في المرآة إن الشرفاء الذين لا يشك في

شرفهم بالمغرب كثيرون كالجوطين من الحسينيين الإدريسيين وكشرفاء تافيلالت من الحسينيين أيضا والمحمديين وكالصقليين والعراقيين وكلاهما من الحسينيين بالياء الساكنة بين السين والنون فإن شرف جميعهم لا يختلف فيه اثنان من أهل بلادهم ومن يعرفهم من غيرهم ا ه وعن شيخ الجماعة الإمام أبي محمد عبد القادر الفاسي رحمه الله أنه قسم شرفاء المغرب بحسب القوة والضعف إلى خمسة أقسام ومثل للقسم الأول المتفوق على صحته بأصناف منهم هؤلاء السادة السجلمايين وقال الشيخ أبو علي اليوسي رحمه الله شرف السادة السجلمايين مقطوع بصحته كالشمس الضاحية في رابعة النهار وعن الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله بن معن الأندلسي أنه كان يقول ما ولي المغرب بعد الأدراسة أصح نسبا من شرفاء تافيلالت وبالجملة فإن شرف هؤلاء السادة السجلمايين مما لا نزاع في صراحتة ولا خلاف في صحته عند أهل المغرب قاطبة بحيث جاوز حد التواتر بمرات رضي الله عنهم ونفعنا بهم وبأسلافهم امين دخول المولى حسن بن قاسم إلى المغرب واستيطانه بسجلماية والسبب في ذلك قالوا إن أصل سلف هؤلاء السادة رضي الله عنهم من ينبع النخل من أرض الحجاز قالوا وكان رسول الله قد أقطع جداهم علي بن أبي طالب أرض ينبع فاستقرت ذريته به وتناسلت إلى هذا العهد وكان أول من دخل منهم المغرب المولى حسن بن قاسم فحكى عن الفقيه العالم أبي عبد الله محمد بن سعيد المرغيثي صاحب الرجز المسمى بالمقنع قال أخبرني الشيخ الإمام المولى أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسنني أن جده الداخل إلى المغرب هو المولى حسن بن قاسم قال وكان دخوله

إليه في أواخر المائة السابعة وكان يومئذ من أبناء الستين ونحو ذلك وتوفي رحمه الله قبل انقضاء المائة المذكورة ا ه وخبر ابن طاهر هذا هو أصح ما ينقل في كيفية الدخول ووقته وذكر بعضهم عنه أن دخوله كان سنة أربع وستين وستمائة وقال الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن هلال أن دخوله كان في أوائل النول المرينية ذكر ذلك في منسكه فعلى هذا يكون دخوله في دولة السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني وقد أشرنا إلى ذلك في محله فيما سلف وقال العلامة أبو سالم العياشي في رحلته إن المولى حسن بن قاسم دخل المغرب في المائة السابعة وكان سكنه من ينبع النخل بمدشر يعرف بمدشر بني إبراهيم فهؤلاء كلهم اتفقوا على أن الدخول كان في المائة السابعة وهو الصحيح الصواب إن شاء الله وزعم بعضهم أن ذلك كان في المائة السادسة وهو بعيد واختلفوا في السبب الداعي إلى دخول هذا السيد إلى المغرب فذكر صاحب كتاب الأنوار السننية فيما بسجلماية من النسبة الحسنية أن سبب دخوله أن ركب الحاج المغربي كان يتوارد على الأشراف هنالك وكان شيخ الركب في بعض القنمات رجلا من أهل سجلماية يظن أنه السيد أبو إبراهيم فلما حج اجتمع بالموسم بالسيد حسن المذكور وكانت سجلماية وأعمالها يومئذ شاذرة من سكنى الأشراف فلم يزل أبو إبراهيم يحسن للمولى حسن موطن المغرب والسكنى بسجلماية حتى استماله فأجمع السير مع الركب وقدم به أبو إبراهيم فاستوطن ببلدهم سجلماية وقال حافده المولى أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر فيما قيد عنه وكان الذين أتوا به من أهل سجلماية أولاد البشير وأولاد المنزاري وأولاد المعتصم وأولاد ابن عاقلة وصاهره منهم أولاد المنزاري ا ه وذكر صاحب الأرجوزة أن الشيخ أبا إبراهيم الذي جاء به من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال بعضهم إن أهل سجلماية لم تكن

تصلح الثمار ببلدهم فذهبوا إلى الحجاز بقصد أن يأتوا برجل من أهل البيت تبركا به فأتوا بالمولى حسن المذكور فحقق الله رجاءهم وأصلح ثمارهم حتى عادت بلادهم هي هجر المغرب وقال غيره إن سبب إتيانهم به أن الأشراف من آل إدريس رضي الله عنه كانوا قد تفرقوا ببلاد المغرب وانتشر نظامهم واستولى عليهم القتل والصغار من أمراء مكناسة وغيرهم فقل الشرف بالمغرب وأكره كثير من أهله حقتا لدمائهم فلما طلع نجم النول المرينية بالمغرب أكبروا الأشراف ورفعوا أقدارهم واحترموهم ولم يكن ببلد سجلماية أحد من آل البيت الكريم فأجمع رأي كبرائهم وأعيانهم أن يأتوا بمن يبتكرون به من أهل ذلك النسب الشريف فيقول إن الذهب يطلب من معدنه والياقوت بجلب من موطنه إن بلاد الحجاز هي مقر الأشراف ولذلك الجوهر النفيس من أجل الأصداف فذهبوا إلى الحجاز وجاؤوا بالمولى حسن على ما ذكرنا فأشرفت شمس البيت النبوي على سجلماية وأضاءت أرجاؤها وظللتها من الشجرة الطيبة ظللها وأفاؤها حتى قيل إن مقبرة أهل سجلماية هي ببيع المغرب وكفاها هذا شرفا وفخرا ومزية وذخرا وذكر بعضهم أن أهل سجلماية لما طلبوا من المولى قاسم بن محمد أن يبعث معهم أحد أولاده وكان يومئذ أكبر شرفاء الحجاز ديانة وجاهة اختبر من أولاده من يصلح لذلك وكان له على ما قيل ثمانية من الولد فكان يسأل الواحد منهم بعد الواحد ويقول له من فعل معك الخير فما تفعل معه أنت فيقول الخير ومن فعل معك الشر فيقول الشر فيقول اجلس إلى أن انتهى إلى المولى حسن الداخل فقال له كما قال لإخوته فقال من فعل معي الشر أفعل معه الخير قال فيعود ذلك بالشر قال فأعود له بالخير إلى أن يغلب خيري على شره فاستنار وجه المولى قاسم ودخلته أريحية هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفي عقبه فأجاب الله دعوته وكان المولى حسن الداخل رجلا صالحا ناسكا له مشاركة في العلوم خصوصا علم البيان فإنه كانت له فيه اليد الطولى ولما استقر بسجلماية

واطمأنت به الدار وزوجته الشيخ أبو إبراهيم ابنته وسكن على ما قيل بموضع يقال له المصلح ولما توفي تنازع أهل سجلماية في موضع دفنه حتى كادت نار الحرب تشب بينهم فأجمع رأيهم أن يدفنه بمحل وسط هم فيه سواء فمسخوا أرض سجلماية بالحبال وقسموها أرباعا ودفنوه بمكان سوي يتوسط جميع النواحي ولم يحفظ تاريخ وفاته وما استنبطه اليفرنى في ذلك فمبني على غير أساس والله تعالى أعلم ذكر ذرية المولى حسن بن قاسم وتناسلها بالمغرب والإمام بشيء من مناقب المولى علي الشريف لما توفي المولى حسن بن قاسم رحمه الله لم يخلف إلا ولدا واحدا وهو المولى محمد ثم خلف المولى محمد هذا ولدا واحدا أيضا وهو المولى الحسن يسمى باسم جده وهو المدفون حول المدينة الكبرى بإزاء الشيخ أبي عبد الله الخراز من أرض سجلماية وخلف المولى الحسن المذكور ولدين أحدهما المولى عبد الرحمن المكنى بأبي البركات وهو أكبرهما ومن ذريته أولاد أبي حميد بالتصغير القاطنون بوادي الرتب بالقصر الجديد على مرحلة من سجلماية ومنهم أيضا الشرفاء النازلون ببني زروال وثانيهما المولى علي المعروف بالشريف ومنه تفرعت فروع المحمديين وتكاثرت وكان رحمه الله رجلا صالحا مجاب الدعوة كثير الأوقاف والصدقات حاجا مجاهدا ذا همة سننية وأحوال مرضية رحل في بعض الأوقات إلى فاس واستوطنها مدة طويلة وكان سكنه منها بالحومة المعروفة بجزاء ابن عامر من عدوة القرويين وترك هنالك دارا ثم أقام مدة بقرية صفر وخلف بها عقارا وأثارا هي بها إلى الآن وأقام مدة أخرى ببلد جرس التي على مرحلتين ونصف من سجلماية وترك بها مثل ذلك ودخل عدوة الأندلس برسم الجهاد مرارا وأقام بها مدة طويلة ثم عاد إلى سجلماية فكاتبه أهل الأندلس يطلبون منه العود إليهم ويحضونه على

الاعتناء بأمور الجهاد ويشكون إليه ضعف أهل الأندلس عن مقاومة العدو وأنها شاذرة ممن تجتمع عليه القلوب وقد كانوا راودوه وهو مقيم عندهم على أن يبيعه ويملكوه عليهم والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك ورعا وزهدا وعزوفًا عن الدنيا وزهراتها قال اليفرنى رحمه الله وقد وفقت على رسائل عديدة بعث بها إليه علماء غرناطة يحضونه على الجواز إليهم واستتفار المجاهدين إلى حماية بيضتهم ويذكرون له أن

كافة أهل غرناطة من علمائها وصلحاتها ورؤسائها قد وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم دون توظيف سلطان عليهم أموالا كثيرة برسم الغزاة الذين يردون معه من المغرب وحلوه في بعض تلك الرسائل بما نصه إلى الهمام الضرعام قطب دائرة فرسان الإسلام الشجاع المقدم الهصور الفاتك الوقور الناسك طليعة جيش الجهاد وعين أعيان الأنجاد المؤيد بالفتح في هذه البلاد المسارح إلى مرضاة رب العباد مولانا أبي الحسن علي الشريف اه نص التحلية وكتبوا مع ذلك إلى علماء فاس يلتمسون منهم أن يحضوا المولى عليا على العبور إلى العودة فكتب إليه أعلام فاس يمثل ذلك وحثوه على المسارحة إلى إغاثتهم وذكروا له فضل الجهاد وأنه من أفضل أعمال البر وكان من موجبات تخلفه عن إغاثة أهل غرناطة أنه كان قد عزم على الذهاب إلى الحج فقالوا له في بعض تلك الرسائل وعرضوا هذه الوجهة الحجبية التي أجمع رأيكم عليها وتوفر عزمكم لديها بالعبور إلى الجهاد فإن الجهاد أصلحك الله في حق أهل المغرب أفضل من الحج كما أفتى به الإمام ابن رشد رحمه الله حين سئل عن ذلك وقد بسط الكلام عليه في أجوبته ووجه ما ذهب إليه من ذلك اه وكان ممن كتب إليه من علماء غرناطة جماعة منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن سراج شيخ المواق وقاضي الجماعة بها ومن شيوخ فاس الذين كتبوا إليه الفقيه أبو عبد الله العكرمي شيخ شيوخ الإمام ابن غازي وأبو العباس أحمد بن محمد بن ماواس وأبو زيد عبد الرحمن الرقعي صاحب الرجز المشهور وغيرهم

ومما ضمنه أهل الأندلس في رسائلهم القصيدة الآتية في مدح المولى علي وصاحبه الفاضل أبي عبد الله محمد بن إبراهيم العمري وحثهما على إجابتهما وهي من إنشاء الفقيه أبي فارس بن الربيع الغرناطي يقول فيها أيا ركبنا يطوي المغفور والفقرا رشدت ولقيت السلامة والخيرا ترحل وجد السير يوما وليلة وسافر تجدها في مطالعها زهرا تحمل رعاك الله مني إلى الحما تحية مشتاق تهيجه الذكر وأم ديار الحي من سجالمة فتلك ديار تجمع العز والفخرا وسلم على تلك الديار وأهلها سلام محب لم يطق عنهم صبيرا فعندي لهم حب جرى في مفاصلي ومزاج مني العظم والدم والشعرا فتلك بقاع الدين والخير والهدى فكم من تقي في سماها سما بدرها هم القوم لا يشقى بهم جساؤهم يبضوع عبير الزهر من بينهم نشرا وقل يا أهيل القبلة السادة الأولى إذا ما دعوا في حادث أسرعوا النفرا وخص سليل الهاشمي ابن صهره علي الذي يعلو على زحل قدرا أبا الحسن المولى الشريف الذي به على الغرب شمس النصر طبقت الصحرا ولاحت بأفاق القلوب عجائب بها سلب الألباب تحسبها سحرا هو الصقر مهما اهتز كل مجلجل هزير إذا ما انتبش الناب والظفرا هو الغوث إن دارت رحى الحرب لققا وغيث إذ ما المزن ما أرسلت قطرا أغار على الأعلاج فاجتاح جمعهم وجد لهم قتلا وشدهم أسرا بطنجة قد طاب الممات لزمنة بنصرتها ترجو من الملك الأجرأ دعاها بأقصى السوس قوم فأسرجوا من الصافيات الجرد لم يأخؤا الحذرا فهبت ركاب القوم والشمس أشرفت وأرهب جيش الله أعداءه خسرا ولا عجب أن الألى هو منهم ليوث الشرى قد أوسعوا مرحبا شرا أجر جارك اللهفان من غمراته أبا حسن وانصر جزيرتك الخضرا وناد أبا عبد الإله خليلكم به تجلب السراء في حادث الضرا سليل أبي إسحاق أكرم به أبا لقد خلف الفرع الزكي الرضي البرا ليس الذي لبي نداء أهل طنجة وجمع أهل الغرب من حينه طرا

وأوقع بالكفار أي وقبحة فمن لم يمت بالسيف ما له ذعرا وأصبح ثغر الدين أشنب باسمه وأرهب وجه الكفر من حزن قترا ونال من الله السعادة والرضى وجنات عدن في المعاد له نخرا وقل أيها العدل الذي اتخذ التقى شعارا وسامى في منازلها الشعرا أرى كل ما في الغرب أصبح قانطا لأندلس يرجو بطاعتكم نصرا وغرناطة الغراء نانتكما أقبلا وبالراية البيضاء كي تنصر الحمرا فساكنها وقف عليكم رجاءهم والطفل والكاعب العذرا فجننا بمن في أرضكم حاميا لهم رجالا وفرسانا غطارفة غرا حماة أباة الضيم من كل ماجد كريم يباري الغيث والسيل والبحرا فدونكما الكفار تعني طغاتها وتشعب من قتلاهم الوحش والطيروا لقد طمع الكفار ملك رقابنا وإهلاكهم في أرضنا الحرث والثمرا منازلنا من كل حصن وقرية تتاديبكما غوثا لخطب أتى أمرا فكم من ضعيف لا حراك بجسمه وشيخ بها أربى على مائة عسرا وبيض وسمر من أوانس كالدمى وصبية مهد لا تع النفع والضرا ومنبر جمع للخطاية والدعا ومسجد دين للصلاة وللإقرا وكرسى علم مقعد لمهذب تصدر يلمى ما يضيء لنا الصدرا وأجدات أبناء الصحابة فوقها وكل ولي أشعث لايس طمرا تتاديبكما غوثا من الله سرعة فقد كاد أن يستأصل الكفر ذا البرا فحثوا لنا بالسير بعدا وقرية أجبرانا من كيد من أضمر الجؤرا وعزما بأخرى مثل تلك التي مضت ليبيصر هذا الفئس مثلكم كبيرا وأنتم بحمد الله تدرن ما أتى عن المصطفى في الغزو من خبر خبرا فله ما أسنى وددت لو أننى قتلت فاحيي ثم أقتل مذ مرا وما في كتاب الله من آية أنت كشمس الضحى في الصحو سافرة غرا خذاها بحمد الله عذرا جبينها يبضوع شذى تهدي لمغناكما عطرا وتبلغ عني للكرام تحية من أندلس للغرب قد عبروا البحرا فعونا رجال الله عوننا لعودة أحاطت بها اليأساء واشتدت الضرا

فأنتم لنا الجند القوي ونحوكم تشوفنا فاستجلوا نحونا السيرا وننتي على خير البرية ذي الهدى محمد المبعوث بالملة اليسرا وآل وصحب ثم تال لنهجمهم ومن لذوي الإسلام قد قصد النصرا وبهذه الرسائل العنبة الألفاظ المستوفقة الألفاظ يعلم أن المولى عليا الشريف رحمه الله كان مشهورا في عصره متقدما على كافة أهل مصره وأنه كان ملحوظا بالإجلال عندهم والإكبار وأن هذه الدار العالية البناء والأسوار معظمة من لدن قديم مشهود لها بالخير والتقديم وأظن أن وقعة طنجة المشار إليها في هذه القصيدة هي وقعة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وقد تقدمت الإشارة إليها في محلها وقد كان للمولى علي المذكور جهاد في ناحية أكدج من بلاد السودان ورزق الظفر والفتح كما ذكره مسبوفا في النزهة فلينظر هناك وذكر صاحب كتاب الأنوار السنبية أن المولى عليا مكث أربع عشرة سنة لا يولد له ثم ولد له بعد ذلك ولدان أحدهما المولى محمد بفتح الميم والثاني أبو المحاسن يوسف وهو أصغرهما أما المولى محمد فخلف أربعة أولاد وهم السيد الحسن والسيد عبد الله والسيد علي والسيد قاسم وهم على هذا الترتيب في السن ويقال لسائرهم أولاد محمد نسبة إلى هذا الجد وفروعهم كثيرة يطول تتبعها وأما المولى يوسف فإنه ولي زاوية أبيه واجمع الناس على أنه المتأهل لها دون غيره لزوجته ووفور عقله فتولاها بعد نزاع ورسم توليته لها لم يزل موجودا عند بعض حفدته وكان ذلك كله في دولة بني مرين وقال صاحب كتاب الأنوار وقد قيل إنه لم يكن له ولد حتى بلغ ثمانين سنة فولد له تسعة من الولد خمسة منهم أشقاء وأهمهم حليلة من ذرية بعض المرابطين بسجلامة وهم السيد علي وهو جد الملوك أبقي الله فضلهم والسيد أحمد والسيد عبد الواحد والسيد الطيب والسيد عبد

الواحد المكنى بأبي الغيث جد الأشراف البلغيثيين وإنما كني بذلك لكثرة ما نزل من الغيث عند ولادته وكان الناس قبله في جذب شديد وهم على هذا الترتيب في السن وأربعة أشقاء أهمهم طاهرة من ذرية بعض المرابطين أيضا وهم السيد الحسن بالتكبير والسيد الحسين بالتصغير والسيد عبد الرحمن والسيد محمد ومن منازل هؤلاء الأشقاء اليوم الموضع المعروف بأخنوس وتفصيل أنساب هؤلاء الأولاد الثمانية يطول فلنقتصر على ذكر المولى علي المتنى لأنه الغرض المقصود فنقول ولد للمولى علي المذكور ثلاثة من الولد وهم السيد محمد والسيد محرز والسيد هاشم جد الأشراف المرانيين أهل زاوية المراني وكلهم قد عقبوا فأما المولى محمد فولد له المولى علي الشريف المراكشي وهو المثلث مع عدة أولاد سواه والمولى علي هو جد الملوك أيضا وتوفي بمراكش وبنى عليه حافده أمير المؤمنين المولى الرشيد قبة بدعية تلقاء ضريح القاضي عياض رحمه الله وولد للمولى علي الشريف المذكور تسعة من الولد المولى الشريف اسما وكانت ولادته سنة سبع وتسعين وتسعمائة وهو جد الملوك والمولى الحفيد والمولى حجاج والمولى محرز والمولى حرون والمولى فضيل والمولى أبو زكرياء والمولى مبارك والمولى سعيد فهؤلاء هو أولاد المولى علي الشريف وكان المولى الشريف أفضلهم وأشرفهم وله رحمه الله عدة أولاد كلهم نجوم زاهرة نوو همم باهرة منهم المولى محمد بفتح الميم وهو أكبرهم والمولى الرشيد والمولى إسماعيل وهؤلاء الثلاثة ولوا الأمر بالمغرب على هذا الترتيب ومنهم المولى الحران وسياتي والمولى محرز والمولى يوسف والمولى أحمد والمولى الكبير والمولى حمادة والمولى عباس والمولى سعيد والمولى هاشم والمولى علي والمولى مهدي وهو شقيق إسماعيل من بينهم هذا ما تيسر ذكره من نسب هذه الدولة الشريفة ذات الظلال الوردية وبالله التوفيق.

الخبر عن رياسة المولى الشريف بن علي وما دار بينه وبين أبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة قد قدمنا أن ظهور أبي حسون السملالي كان في أيام السلطان زيدان بن المنصور السعدي وأنه استولى على القطر السوسي أولا ثم تناول درعة وسجلامة ثانيا قالوا وكان استيلاؤه على سجلامة سنة إحدى وأربعين وألف باستدعاء المولى الشريف بن علي له واستصراخه إياه على بني الزبير أهل حصن تابو عصامت أعدائه كذا في

البيستان فقدمها أبو حسون واستولى عليها وولى عليها عاملا من قبله ورجع إلى مقره من أرض السوس وقال اليفرنى في النزهة كان أبو الأملاك المولى الشريف بن علي وجبها عند أهل سجماسة وسائر المغرب يقصدونه في المهمات ويستشفعون به في الأزمان ويهرعون إليه فيما جل وقل قال وكان قد مر ذات يوم وهو صبي على الإمام المولى أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني فسأل عنه إذ لم يكن يعرفه قبل ذلك فقيل له هو ابن المولى علي الشريف ففرح به أبو محمد ومسح على ظهره وقال ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين فعلم الناس أن ذلك كان لا محالة لما يعلمون من صحة كشف أبي محمد وصدق فراسته فكان المولى الشريف بعد أن كبر وولد له الأولاد يتبع أن هذا الأمر لا بد أن يصير إلى بيته ويكون لهم شأن عظيم اعتمادا على فراسة أبي محمد بن طاهر رحمه الله ثم كان بين المولى الشريف المذكور وبين أهل تابوعصامت وهي حصن منيع من حصون سجماسة عداوة تامة فاستصرخ عليهم أبا حسون السملالي صاحب السوس لصداقة كانت بينهما واستصرخ أهل تابوعصامت أهل زاوية الدلاء فأغاث كل منهما من استصرخه والتقى العسكران معا بسجماسة لكنهما انفصلا على غير قتال حقنا لدماء المسلمين وكان ذلك سنة ثلاث وأربعين وألف ولما رأى أهل تابوعصامت ما بين المولى

الشريف وأبي حسون من الصداقة والوصلة مالوا بكليتهم إلى أبي حسون وخدموه بأنفسهم وأولادهم وأظهروا له النصح وصدق المحبة طمعا في استفادته على المولى الشريف إذ كان ظاهرا عليهم به فلم يزالوا يسعون في ذلك إلى أن أظلم الجو بينهما واستحكمت العداوة وتوفرت دواعيها ولما رأى ابنه المولى محمد بن الشريف ذلك اهتبل الغرة في أهل تابوعصامت وخرج ليلا في نحو مائتين من الخيل مظهرا أنه قاصد لبعض النواحي ثم كبسهم على حين غفلة وتسور عليهم حصنهم فما راح أهل تابوعصامت إلا المولى محمد في جماعة قد وضعوا السيف فيهم وحقموه في رقابهم فلم يكن عندهم دفاع واستمكن منهم واستولى على ذخائرهم وشفى صدر أبيه مما كان يجده عليهم ولما انتهى الخبر بذلك إلى أبي حسون حمى أنفه واشتد غضبه وكتب إلى عامله بسجماسة واسمه أبو بكر يأمره أن يحتال على المولى الشريف حتى يقبض عليه ويبيعته إليه به حبيسا فامتثل أمره وتقبض على المولى الشريف غدا بأن تمارض ثم استدعاه لعينته والتبرك به ثم قبض عليه وبعث به إلى السوس فاعتقله أبو حسون في قلعة هنالك مدة إلى أن افتكه ولده المولى محمد بمال جزيل وعاد المولى الشريف إلى سجماسة في خبر طويل وكان ذلك كله في حدود سنة سبع وأربعين وألف قال في البيستان وأعطى أبو حسون المولى الشريف وهو معتقل عنده جارية مولدة من سبي المغفرة كانت تخدمه قال وهي أم المولى إسماعيل وأخيه المولى مهدي اه ولست أدري ما مراده بهذا فإن كانت الجارية نسبية في المغفرة فهي حرة فيكون المولى الشريف قد وطئها بعقد النكاح وهذا هو الذي يغلب على الظن بدليل أن السلطان الأعظم المولى إسماعيل رحمه الله لما عزم على جمع جيش الودايا قال لهم أنتم أخوالي إشارة إلى هذا الصهر كما سيأتي وإن كانت مملوكة لهم ثم صارت إلى أبي حسون فالوطء حينئذ كان

بملك اليمين والله تعالى أعلم وصاحب البيستان كثيرا ما يجازف في النقل ويتساهل فيه فلا ينبغي أن يعتمد على ما ينفرد به من ذلك وبالله التوفيق الخبر عن إمارة المولى محمد بن الشريف وبيعته بسجماسة والسبب في ذلك لما قبض أبو حسون على المولى الشريف وسجنه عنده كان ولده المولى محمد بفتح الميم مجمعا على إهلاك من بقي من أهل تابوعصامت واستئصال شأقتهم وكان قد تقوى عضده بعض الشيء بما أخذ من أموالهم في الوقعة السالفة فاتخذ بعد تغريب أبيه إلى السوس جيشا لا بأس به وانضم إليه جمع من أهل سجماسة وأعمالها وذلك سنة خمس وأربعين وألف وكان أصحاب أبي حسون قد أسأوا السيرة بسجماسة ونصبوا حباله الطمع في الناس حتى ملتهم القلوب وزرعوا بغض الملكة السوسية في قلوب الخاصة والعامة ومن عسفهم أنهم كانوا قد ضربوا الخراج بسجماسة وأعمالها على كل شيء حتى على من يجدونه في الشمس زمن الشتاء وفي الظل زمن الصيف وضيقوا على الناس حتى ازدرتهم العيون وملتهم النفوس فلما قام المولى محمد واجتمع عليه من ذكرناه آفا دعاهم إلى الإيقاع بأهل السوس فأجابوه ووجد فيهم داعية لذلك فأعصوبوا عليه وصرخوا عزمهم إلى محو دعوة أبي حسون من بلادهم فثاروا بعماله للحين وأخرجوهم عنها صاغرين بعد قتال شديد ثم أجمع رأيهم على بيعته المولى محمد فباعوه سنة خمسين وألف في حياة أبيه ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجماسة فاستتب أمره واستحكمت بيعته ووافقه المقدر وساعده السعد وافتتح من ملك المغرب بابيه وإذا أراد الله أمرا هيا أسبابه

استيلاء المولى محمد بن الشريف على درعه وطرده أبا حسون السملالي عنها لما تمت البيعة للمولى محمد بن الشريف وجمع الله سبحانه شمله بأبيه كما مر شمر لمضايقة أبي حسون السملالي وأهل السوس ببلاد درعه إذ كانت تحت ولايته كما قلنا فقبض إليه في جمع كثير ووقعت بينهما حروب فظيعة يشيب لها الوليد ثم انقش سحب تلك الفتنة عن انتصار المولى محمد وانتهزام أبي حسون وفراره إلى مسقط رأسه من أرض السوس فاستولى المولى محمد على درعه وأعمالها واتسعت إيالته وتوفرت جموعه وعظمت جبايته وطار في بلاد المغرب صيته وكان من أمره ما نذكره وقعة القاعة بين المولى محمد بن الشريف وأهل زاوية الدلاء وما نشأ عنها لما صفا للمولى محمد بن الشريف قطر سجماسة ودرعه حدثته نفسه بالاستيلاء على الغرب إذ هو يومئذ مقر الرياسة ومتبوا الخلافة فما دام لم يحصل عليه استيلاء فالملك عرضة للزوال وصاحبه ناسج على غير منوال وكان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائي يومئذ مستوليا على فاس ومكناسة وأعمالها وامتدت ولايته بعد مهلك أبي عبد الله العياشي إلى سلا وأعمالها فلما ظهر المولى محمد بالصحراء واستفحل أمره وقويت شوكته خاف محمد الحاج منه الوثوب على فاس فعاجله بالحرب وغير إليه نهر ملوية وكان الدلائي أشد قوة من الشريف وأكثر جمعا فضايقه بإقليم الصحراء وقصد سجماسة مرارا وكانت بينهما أثناء ذلك وقعة القاعة ضحى يوم السبت الثاني عشر من ربيع النبوي سنة ست وخمسين وألف فكانت الهزيمة فيها على الشريف وتقدم الدلائي إلى سجماسة فاقتحها واستولى عليها وفعلت البربر فيها الأفاعيل العظيمة

ثم انبرم الصلح بينهما على أن ما حازت الصحراء إلى جبل بني عياش فهو للمولى محمد وما دون ذلك إلى ناحية الغرب فهو لأهل الدلاء ثم استنتى أهل الدلاء خمسة مواضع أخر كانت في إيالة المولى محمد فجعلوها لهم وهي الشيخ مغفر في أولاد عيسى والسيد الطيب في قصر السوق وأحمد بن علي في قصر بني عثمان وقصر حليلة في وطن غريس وأسريير في فركلة فهذه الأماكن الخمسة شرطوا على المولى محمد أن لا يحرك لهم منها ساكنا وانبرم الصلح على ذلك ورجع أهل الدلاء في جموعهم فما كان غير بعيد حتى أطلع المولى محمد على ما أوجب الفتك بالشيخ مغفر وبعض من شرطوا عليه بقاءه فتفك بهم واصطلم نعمتهم فبلغ ذلك أهل الدلاء فجمعوا جموعهم ونهضوا إلى سجماسة عازمين على استئصال المولى محمد وشيعته وأن لا يدعوا له قليلا ولا كثيرا وكتبوا إليه كتابا يتهددونه فيه ورموه بالعدو وأنه ناكث ومقسم حانث وأغلظوا له في الكلام وأحشوا عليه في الملام فأجابهم المولى محمد برسالة يقول فيها إلى السيد محمد الملقب بالحاج ابن السيد محمد بن أبي بكر بن سيري الوجاري الزموري ومن شمله رداء الديوان من الأبناء والإخوان سلام على جلمهم سلام استحباب وسنة فقد كتبنا إليكم من سجماسة كتب الله لها من شركم أنفع التمامم وألبسها من الظفر بكم أرفع العمامم وبعد السلام فإن نيران هذه الفتنة التي أضرمتموها بعد خمودها لستم لها بأهل إذ لم يعرفكم أهل المغرب إلا بإطعام قصاص العصائد وهو بعضكم لبعض بما لا يسمع من شيع القصاصد أما العلوم فقد أقرنا لكم فيها إنصافا بالتسليم لو قصدتم بها العمل وأجر التعليم وإيم الله لئن نظم فينا الديان يوما من الدهر شمل الديوان لتعاين أنت أو بنوك ما يحبه لنا البنون والإخوان ولقد حدث

السادة أهل البصيرة أن ستدور عليكم منا الدائرة المبيرة أنطمعون في النجاة بعد ترويعكم الشرفاء والشريفات والعابدين والعبادات فشمروا إن شئتم عن ساعد الجد للصلح واغتموا السلم ما دام يساعذك وقت النجح فإن الحرب نار والتخلف عنها بعد إيقادها شنار والله يعلم أن هذه المرادة ليست بجزع ولا وجل منكم وما تشبهكم عند الهراش إلا بما يطيش حول المصاييح من الفراش بل المراد الأكيد نشر رداء التبري ليلا تجارون متى أنشبتنا فيكم مخالب التجري وما قدفتم به أعراضنا من خسة القدر وأنا قساة لا نصغي لقبول العذر فأنتم تتنهون عن الفحشاء وقد ملأتم منها الأجشاء وإن زجرتم عنها قلتم كلا وحاشا لكن من نتج نسلا نسب إليه ومن خاف من شيء يسلط عليه وأما ما احتوى عليه بساط الغرب ما بين بربر

وعرب فقد طمعا من الله كونه في القبضة عندما تمكن إليه النهضة إن لم أكنه بالذات والديوان فيالأبناء والإخوان كعوائد الدول يشيد الأخير منها ما أسسه الأول وانظر ما يكون لخاطركم به اطمئنانا فمساعدكم عليه الآن قلله دره من دغوعي أشاع عارك بأبيات أنشدناها مولاي محمد بن مبارك واعلم بأنك من دجال مغرب فيعيسى صولة نصره ستوموت أنتم عكاكز خلفتمك عاهر وأبو يسير جدكم جالوت شبانكم مرد وكل كهولكم قرنان صنعة شيخكم ديوت ضجرت لدولتكم سموات العلى واستثقلتها الأرض والبهמות وما أنت في الحقيقة إلا قرد من القروء والقراد اللاصق في كل كلب مجرود وما حرصتم به من الصلح بين الملوك مكيدة فقد سبقكم بها السلطان أبو حمو رحمه الله وحتى الآن رغبتم في الخير فهو مطلبى ومغناطيس طبي وإن عشقتم الغير فجوابي لكم قول المتنبى ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمم

استيلاء المولى محمد بن الشريف على فاس ثم رجوعه عنها كان محمد الحاج الدلائي مستوليا على فاس بعد سيدي محمد العياشي كما قلنا وكان أهل فاس يمرضون في طاعته تارة ويستقيمون أخرى فولى عليهم قائده أبا بكر التاملي وأنزله بدار الإمارة من فاس الجديد فاتفق أن وقعت بينه وبين أهل فاس القديم حرب فحاصروهم وقطع عنهم الماء فكتب أهل فاس إلى المولى محمد بن الشريف يستصرخونه ويضمنون له الطاعة والنصرة بما شاء من عدد وعدة متى قدم عليهم واحتل بين أظهرهم ووافقهم على ذلك عرب الغرب من الخلط وغيرهم فاعتنمها المولى محمد منهم وأقبل مسرعا حتى اقتحم دار الإمارة بفاس الجديد منسلخ جمادي الثانية سنة ستين ألف وقبض على أبي بكر التاملي فسجنه وباعه أهل البلدين فاس القديم وفاس الجديد معا واتفقوا على نصرته والقيام بأمره وكتبت له البيعة بفاس سبع رجب فاقام عندهم نحو أربعين يوما واتصل الخبر بمحمد الحاج فجهز إليه جيشا كثيفا فبرز إليهم المولى محمد ودافعهم يوما أو بعض يوم فضعف عنهم وانهزم بظهر الرمكة خارج فاس يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة تسع وخمسين وألف فأسلم فاسا وانكفأ راجعا إلى سجماسة ودخل أهل فاس الذين كانوا معه مدينتهم فأغلقها عليهم وحاصروهم التاملي وأصحابه وقطع عنهم الماء وجرت خطوب هلك فيها جماعة من أعيان فاس منهم عبد الكريم اللايريني الأندلسي ومحمد بن سليمان وغيرهما وكان ذلك أواخر صفر سنة إحدى وستين وألف ثم راجعوا طاعة أهل الدلاء فولى عليهم الحاج ولده أحمد ولما استقر بفاس طالب أهلها بإخراج الجناة ورؤوس الفتنة من ضريح المولى إدريس رضي الله عنه فتعصب لهم الشريف أبو الحسن علي بن إدريس الجوطي وقام دونهم ثم عجز واختفى حتى أخرج بالأمان إلى زاوية أهل المخفية

ومنها خرج عن فاس بالكلية وسكنت الفتنة وكان ذلك في رمضان سنة إحدى وستين وألف واستمر أحمد الدلائي أميرا على فاس إلى أن توفي في عشرين من ربيع الأول سنة أربع وستين وألف وخلفه أخوه محمد ومات سنة سبعين وألف رحم الله الجميع ثم وثب على فاس الجديد أبو عبد الله الدريدي فاستولى عليه استيلاء المولى محمد الشريف على وجدة وشنه الغارات على تلمسان وأعمالها وما نشأ عن ذلك لما آيس المولى محمد بن الشريف من فاس والمغرب صرف عزمه لتمهيد عمائر الصحراء وبلاد الشرق فسار يتقرب الحلل والمداشير والقرى إلى أن بلغ بسيط أنكاد فبايعته الأحلاف وهو العمارة والمنبات من عرب معقل وبايعته سقونة منهم أيضا فسار بهم إلى بني يزناسن وكانوا يومئذ في ولاية الترك فأغار عليهم وانتهب أموالهم وامتلات أيد العرب من مواشيهم ثم انتفى إلى وجدة وكان أهلها يومئذ حزبين بعضهم قائم بدعوة الترك وبعضهم خارج عنها فانحاز الخارجون إلى المولى محمد فأغزاهم بشيعة الترك فانتهبوهم وشردهم عن البلد وصفت وجدة له فاستولى عليها وكان ذلك أعوام الستين وألف ثم دلته العرب على أولاد زكري وأولاد علي وبني سنوس المجاورين لهم فشن عليهم الغارات وانتهبهم فدخلوا في طاعته ثم سار إلى ناحية ندرومة فشن الغارة على مضغرة وقديمة وطرارة وولهاصة ورجع إلى وجدة فاقام بها مدة ثم توجه إلى تلمسان فأغار على سرحها وسرح القرى المجاورة لها واكتسح بسانها فبرز إليه أهلها ومعهم عسكر الترك الذي كان بالقبصة فأوقع بهم وقتل منهم عددا كثيرا ورجع عوده على بدنه إلى وجدة فشتى بها

ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء فأغار على الجعافرة وانتهب أموالهم وقدم عليه هنالك محمود شيخ حميان من بني يزيد بن زغبة وهم اليوم في عداد بني عامر بن زغبة فقدم عليه محمود المذكور في قبيلته مباحا له وتمسكا بطاعته وقدمت عليه أيضا دخيسة ففرح بهم وأكرمهم ودلوه على الأغواط وعين ماضي والغاسول فنهب تلك القرى وأستولى على أموالها وفرت أمامه عرب الحارث وسويد وحصين من بني مالك بن زغبة فنزلوا بجبل راشد متحصنين به فرجع عنهم واضطربت أحوال المغرب الأوسط واشربت رعاياه إلى الانتفاض على الترك وأخذ باي معسكر يخذنق على نفسه وبعث إلى صاحب الجزائر المسمى عندهم بالدولة يخبره بما لحق الرعايا من عيث صاحب سجماسة فأخرج صاحب الجزائر عساكره وهيا مدافعه واستعد لحرب المولى محمد وقدم نائبه بالعساكر إلى تلمسان فلما سمع به المولى محمد استمر راجعا إلى وجدة وفرق العرب الذين كانوا مجتمعين عليه ووعدهم لفصل الربيع القابل ثم قفل إلى سجماسة بعد ما شب نيران الحرب في الإيالة التركية ونسفا نسفا وضرب أولها بأخرها ولما وصل عسكر الترك إلى تلمسان وأخبروا بروجع المولى محمد إلى تافيلالت سقط في أيديهم ووجدوا البلاد خالية وكل الرعايا قد أفلتت عن أوطانها وتحصنوا بالجبال ولم يأتهم أحد بمؤنة ولا خراج وانحرف عنهم أهل تلمسان أيضا وكانوا قد ركعوا إلى المولى محمد وخاطبوه فرأى الترك أنهم قد شوركوا في بلادهم وزوجموا في سلطانهم فرجعوا إلى الجزائر وكان من أمرهم ما نذكره الآن

مراسلة عثمان باشا صاحب الجزائر للمولى محمد بن الشريف وما دار بينهما في ذلك لما رجع عسكر الترك إلى الجزائر وأخبروا صاحبها عثمان باشا الدولة بحال الرعايا وما نالها من صاحب سجماسة جمع أهل ديوانه وأرباب مشورته وتفاوضوا في أمر المولى محمد وكيف التخلص من سطوته فلم يروا أجدى لهم من أن يبعثوا إليه برسالة مع اثنين من أعيان الجزائر وعلمائها واثنين من كبار الترك ورؤسائها لأنهم كانوا لا يتمكنون من حربه لو أرادوا ذلك لأنه يغير ويظفر وينتهب ثم يصحر فلا يمكنهم التعلق بأذياله ولا قطع فراسخه وأمياله فيبعثوا إليه برسالة من إملاء الكاتب أبي الصون المحبوب الحضري مع الوفد المشار إليه يقول فيها الحمد لله الذي وصى ولا رخص في مدافعه اللص والصائل شريفا أو مشروفا ونص وهو الصادق سبحانه على فصم عرى أصله المتأصل مجهولا أو معروفا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وعلى آله تيجان العز وبراق الجباه والخياشم وصحابتة صوارم الصولة الحاسمة من الكفر الطلي والغلاصم بالرماح العاملة والسيوف القواصم ولا زائد بعد حمد الله إلا مقصد خطاب الشريف الجليل القدر الصادق للهجة والصدر من رتق الله به فتوق وطنه وحسى به من أحزاب الأباطيل أنجاد أرضه وأغوار عطنه حاقف مولانا علي وسيدتنا البتول وولد مولانا الشريف بن مولانا علي السيئلت الصؤل سلام عليكم ما رصعت الجفان سموت البحور ولمعت الجواهر الحسان على بياض النحور ورحمة الله تعالى وبركاته ما أساغت محض الحلال ذكاته وبعد فقد كاتبناكم من مغني غنيمة المقيم والظاعن والزائر رباط الجريد مدينة ثغر الجزائر صان الله من البر والبحر عرضها وأمن من زعازع العواصف والقواصف أرضها إلماعا لكم معادن الرياسة وفرسان القيافة والعبافة

والفراسة فضلا عن سماء صحا من الغيم والقتام جوه وضحى نشرت عليه الوديقة وشبا ففتشا ضوؤه بأن شؤون المملكة لم يتوان عن مكنون علمكم أمرها ولا أعوز عزائمكم زيدها وعمرها وذلك أن الوهاب سبحانه منحكم هيبه وهمة في الجود والحلم والحماسة واختار لكم عنوان عنايتها في غاب الصون سجماسة لكن فاتكم سر رأي التدبير وأركبتم حزمكم جموع الجهل والتبذير مع أن ذلك في الحقيقة دأب كل مؤسس لدولة لا يجمعها إلا بجنايات الجولة والصولة فخرقت على الإيالة العثمانية جلاب صونها الجديد من وجدة الأبلق إلى حدود الجريد فشوشت علينا أخلاق أخلاط الأعراب إلى أن تعوقوا علينا في أرفق الأراب وشننت الغارة الشعواء على بني يعقوب فحسنت رسمهم على العقيب والعرقوب وغادرت جماهرهم تسعى على عيالهم الزباني والموزونة في أسواق مستغانم وديار مازونه وجررت ذيل المذلة على أطراف الغاسول والأغواط فالتقطتهم بطانتك التقاط سباع الطير الوطواط وقادك الجاهل الجهم محمود حيمان لعين ماضي و الصوانع وبني يظفيان فراحت رياح وسويد ينفض كل بطل منهم غباره وطينه على طود راشد وبليد قسطينية ولا كانا إلا ما هتكتم من ستر السر على مرسى أبي الربيع السيد سليمان مع أنكم أولى من براعي حرمة وتوقيره ويدافع عنه وعمن سواه ويردف فقيره وتنسبون العجم للجهل وأنهم جفاة وأجلاف ثم صرتم بدلا وأخلاف خرج جيش قصبنا

بتلمسان بما لديهم من الرماة والفرسان فهزمتهم بقرار وقتلتهم قتل مذلة واحتقار فقلنا هذا أقل جزاء كل كلب حقير عقور يعرض عرضه لصولة الأسد الهصور ولا وافقت الأفته في الغالب إلا الحضر مع شيع في الأجنة تجني الجنى والخضر كان أولاد طلحة وهادج وخراج يؤدون لهذه المثابة ما نقل وخف من الخراج ولا يفوتنا من ملازمها وبر ولا شعر ولا صوف ولا سقب ولا جدي ولا خروف إلى أن طلعت علينا غرة شمسك السعيدة

فعدت كل شعبة قريبة عنا بعيدة وأعانتك افتراق الجفاة من أهل وجدة وأن نصيبك الأوفر منهم أهل جدة ونجدة ولولاك ما ثار علينا أهل تلمسان وأنكروا ما لنا عليهم من قديم الحنائة والإحسان وردوا عليك الساحة واليساط ومرغوبهم أن تزفر علينا بسطوة الثعبان والساط مع علمنا اليقيني أن شجرتنا لا تضعع بز عازع حيان ولا تدرس ولو انهارت عليها جبال جيان وأن الحجر لا يدق بالطوب والخاطف لا يطأ أوطية الخطوب كذلك في المثل جندك خلال الصدر والورود لا يصيرون لصواعق البارود ولا تتجح حجة الدروع والذوابل إلا في سوق شن الغارات على حلل القبائل وأما أسوار الجحافل وأوار الكتائب فلا يصدمها فيهدمها إلا سيول الخيول والرماة الرواتب وزنت صولتك لبني عامر لاذة النفار لكفن الكافر وداخل الوسواس والسوس جبال طرارة ومضغرة وبني سنوس والرعيا تود أن يحتفل لبنيها في ضروعها لتختزن في تين الخداع سنبل زروعها وإن قبلت منهم الأقوال والأفعال تمل طبايعها على الدولة فتصير كالأغوال وإياك والغرر لما عثرت عليه في كتاب البوني وأوراق السيوطي وعلى بادي وابن الحاج ورسالة أهل سبتة لعبد الحق بن أبي سعيد المريني بأنك المخصوص بصعود تلك الأدرج ذلك منك بعيد الوصول لا تدركه بالمسرة ولا بقبانغ النصول وإن أوتاد الروم والترك تنقوض من أرض الغرب ولا يبقى من يباذعكم فيها بحرب ولا ضرب ليس لك في غنيمة إدراك طمع ولا سبيل لتبديد ما نظمته حازمنا وجمع وقد غرتك أضغاث الأحلام وأغواك ضباب الغيب فأصبح ظنك منه في غياهب الأظلام فإن حرمت به فأنت لا شك حائث وإن كان منكم يقينا فرايع أو ثالث أولكم ثائر والثاني مقتف له سانز والثالث لكما أمير ناثر إما عادل أو جائر ولا تمدن باع المخاطرة إلى أوطاننا فتحشى مخالبا سطوة سلطاننا أما الشجاعة الغريزة فقد علمنا أن لك منها بالمهيمن أوفر نصيب وممن ضرب فيها فأصاب

الغرض بسهم مصيب لكن غاية كفاية الشجاع إذا حمى الوطيس الدفاع سيما في هذا الحين التي أبخستها عند الخلاص صناعة البارود والرصاص وجسرك علينا كونك عقابا على فرع شجر أو يعسوب نحل احتل صدع حجر لو رأيت ملوك أحاد أمصار البر والبحر لعلمت أنك محجوب ومحجور في حق ذلك الحجر وتحققت أن بين الأمراء مداراة ومراعاة وأن أحوال الدول أيام وساعات كل أحد يخاف على صدع فخاره ويطلق بخوره تحت تنن بخاره وما مرادنا إلا أمان العرب في المواضع ليطيب لها جولان الانتقال في المشتاة والمرايع ويجلب إليهم الغني والعييم ما يحصل له فيه ربح من الكساء والحناء والأديم فإن تعلقت همتك بالإمارة فعليك بالمدن التي حجرها عليك همج البرابر فصار يدعى لها بها على المنابر فشد لها حيازيمك لتذوق حلالة الملك المعجونة بمرهم النجاة أو الهلك دع عنك وطن الرمال والعجاج ومخاطرة النفس في الفدافد والفجاج فنادتلك جدك من الأب والأم وما لك فيه من أخ وخال وعم إلا ما تجنبت ساحات تلمسان ولا زاحمتها بجموع رماة ولا فرسان وإن اشتهت الأعراب غارات بعضها على بعض فموعدها ما نأى عنا من مطلق الأرض وخمسنا أبدا على الغالب لتعلموا أن رأيهم عن معاني الصواب غائب إذ كلهم ذوو جفاء ونفار ويعمهم عند الدول ما يعم الكفار ليبيي بيننا وبينكم الستر المديد على النوام ونلغي كلام الوشاة من الأرقام وقد شيعنا نحوكم أربعة صحاب تسر بمجالستهم الخواطر والرحاب الفقيه الوجيه السيد عبدالله النفزي والفقيه الأبر السيد الحاج محمد بن علي الحضري المزغني واثنتين من أركان ديواننا وقواعد إيواننا أتراك سيوط وغاية عرضنا جميل الجواب بما هو أصفى وأصدق خطاب والله تعالى يوفقنا لأحمد طريق ويحشرنا مع جدك في خير فريق أمين والسلام وكتب في منتصف رجب الفرد الحرام عام أربعة وستين وألف اه

ولما وصلت الرسل إلى المولى محمد وقرأ الكتاب اغتاض مما تضمنه من العتاب فأحضر الرسل وعائتهم على قول مرسلهم وتحامله عليه فقالوا له نحن أتيناك سفراء برسالة باشا الجزائر فاكذب لنا الجواب ولا تقابلنا بعتاب فقال صدقتم فكتب إليهم بكتاب يقول في أوله وبعد فقد كتبنا إليك من غرة جبين الصحارى وصرة أمصار المغارب والبراري مغني سجماسة التي هي قاعدة العرب والبربر المسماة في القديم كنز البركة حالي السكون والحركة ومضى في كتابه إلى أن ختمه ولم يجيبهم إلى ما أرادوا ولما رجعوا برسالته إلى صاحب الجزائر قراها بمحضر أرباب الديوان ثم ردهم في الحين دون كتاب ولما قدموا على المولى محمد ثانية قالوا له إنه لم يكن لنا علم بما في الكتاب ولو اكتفيناه به ما رجعنا إليك نحن جنك لتعمل معنا شريعة جدك وتقف عند حدك فما كان جدك يحارب المسلمين ولا يأمر بذهب المستضعفين فإن كان غرضك بعد الجهاد فربط على الكفار الذين هم معك في وسط البلاد وإن كان غرضك في الاستيلاء على دولة آل عثمان فابرز إليها واستعن بالرحيم الرحمن فلا يكن عليك في ذلك ملام فهذا ما جننا له والسلام وأما إيقاد نار الفتنة بين العباد فليس من شيم أهل البيت الأمجاد ولا يخفى عليك أن ما تفعله حرام لا يجوز في مذهب من مذاهب المسلمين ولا قانون من قوانين الأعمام وهذان فقيهان من علماء الجزائر قد جاءا إليك يسمعا منك ما تقوله ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله فقد تعطلت تجارتنا وأجفلت عن وطننا رعبتنا فما جوابك عند الله في هذا الذي تفعله في بلادنا وأنت ابن رسول الله مع أنه لم يعجزنا أن نفعله نحن في بلادكم ورعيتمكم على أننا محمولون على الظلم والجور عندكم لكن تأبى ذلك همة سلطاننا فلما سمع المولى محمد كلامهم أثر فيه وعظهم وداخلته القشعريرة

وعلاه سلطان الحق فأدعن له وقال والله ما أوقعنا في هذا المحذور إلا شياطين العرب انتصروا بنا على أعدائهم وأوقعونا في معصية الله وأبلغناهم غرضهم فلا حول ولا قوة إلا بالله وإني أعاهد الله تعالى لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتمكم بسوء وإني أعطيتكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنا إلى ناحيتكم إلا فيما يرضي الله ورسوله وكتب لهم بذلك عهدا إلى صاحب الجزائر وقنع بما فتح الله عليه من سجماسة ودرعة وأعمالهما ولم يعد يغزو الشرق ولا توجه إليه بعد ذلك إلى أن خرج عليه أخوه المولى الرشيد فكان من أمره معه ما نذكر بعد إن شاء الله ثورة المقدم أبي العباس الخضر غيلان الجرفطي ببلاد الهبط كان أبو العباس الخضر غيلان الجرفطي من أصحاب أبي عبد الله العياشي وكان مقدما على الغزاة ببلاد الهبط ولما قتل العياشي في التاريخ المتقدم استقل هو برياسة تلك الجهة واستمرت حاله إلى ثلاث وستين وألف فتار بالفحص وزحف إلى قصر كتامة فبرز إليه أهله فاقتتلوا مليا ثم انهزموا واتبعهم الخضر فاقتحم القصر عنوة وقتل جماعة وافرقة من أعيانه وفر الكثير منهم إلى فاس منهم أولاد الفقيه عبد الله القنطري من أعيان القصر وبقي الخضر متغلبا على تلك الناحية وفي ذي الحجة سنة تسع وستين وألف خرج من فاس المرابط الرئيس أبو سلهم بن كدار واتصل بالخضر غيلان وصار في جملته وكان أبو سلهم المذكور ممن ظاهر الدلائبين على سيدي محمد العياشي فيقي ذلك في قلب الخضر غيلان حتى قبض على أبي سلهم المذكور واعتقله بأصيلا ثم سرحه بعد حين قاله في نشر المثالي

وفاة المولى الشريف بن علي رحمه الله كان المولى الشريف بن علي بسجماسة وأعمالها على ما وصفناه قبل من الوجاهة والرئاسة والسيادة ممثلا الأمر متبوع العقب منذ نشأ ثم بايعه أهل سجماسة سنة إحدى وأربعين وألف ونازعه بنو الزبير أصحاب تابوعصامت وبذلك استصرخ عليهم أبا حسون السملالي حتى ملك سجماسة كما مر ولما تخلص من نكبة السوس وعاد إلى سجماسة وجد ابنه المولى محمدا قد قام بالأمر بعده فقتل له عنه وقطع بقية عمره فيما يرضي الله تعالى إلى أن أتاه اليقين ثالث عشر رمضان سنة تسع وستين وألف بسجماسة مسقط رأسه ومقر عزه ومنبت أشباله ومدراج ملوكه وأقياله وجددت البيعة للمولى محمد ففارقه أخوه المولى الرشيد فخرج إلى الجبال فبقي منتقلا في أحياها إلى أن كان من أمره ما نذكره إغارة المولى محمد بن الشريف على عرب الحياينة من أعمال فاس وما يتبع ذلك لما كان آخر سنة ثلاث وسبعين وألف أغار المولى محمد بن الشريف على زرع الحياينة بأحواز فاس فانتسفه وأفسده ووقعت عقب ذلك مجاعة عظيمة أكل الناس فيها الجيف والدواب والأدمي وختلت الدور وعطلت المساجد وخرج أهل فاس يستغيثون بأهل الدلاء وكان الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي بن ظاهر الحسن بن علي بن فاسا بقصد أن يبابيعه أهلها فلم يجيبوه وقيل بل نصره بعضهم وخرج إلى عرب الحياينة فذهب بهم إلى قتال المولى محمد بن

الشريف فلم يلقه وفي أوائل سنة أربع وسبعين وألف حاز طاعية النجليز طنجة من يد البرتغال قال في البستان لضعفهم عن مقاومة المسلمين يومئذ بسبب أن

المسلمين غزوه في هذه الأيام فقتلوا منهم ستمائة مقاتل ثم غزوه فقتلوا منهم أربعمائة أخرى وقال منويل القشتيلي في كتابه الموضوع في أخبار المغرب الأقصى سبب ذلك أن طاعية البرتغال وهو إخوان السداس يقال بالخاء والجيم أراد تأكيد المحبة بينه وبين طاعية النجليز وهو كارلوس الثاني فزوجه أخته وجهها إليه بمفاتيح طنجة فيقيت بيده اثنتين وعشرين سنة ثم تخلى عنها للمسلمين في قيام المولى الرشيد بن الشريف على أخيه المولى محمد ومقتل الأخ المذكور رحمه الله قد قدمنا ما كان من فرار المولى الرشيد عن أخيه المولى محمد يوم وفاة أبيهما رحمه الله فذهب المولى الرشيد يومئذ إلى تدغة فأقام بها مدة ثم سار إلى دمنات فأقام بها مدة أيضا ثم أتى زاوية أهل الدلاء فأقام عندهم ما شاء الله فيقال إن بعض أهل الزاوية أشار عليه بالخروج منها خوفا عليه من الفتك به لأن الدلائيين كانوا يزعمون فيما عندهم من العلم أن خلاء زاويتهم يكون على يده قتل المولى الرشيد إشارته ثم خرج إلى جبل أصرو فأقام به برهة من الدهر ثم توجه إلى فاس ومعه نفر قليل فبات بظاهر فاس الجديد فأكرم رئيسها أبو عبد الله الدريدي ضيافته ومن الغد ارتحل عنها إلى تازا ثم إلى عرب الأحلاف قال في الزهة إلى أن أدته خاتمة المطاف إلى قصبه اليهودي ابن مشعل وكان لهذا اليهودي أموال طائلة وذخائر نفيسة ولع على المسلمين صولة وكان لهذا اليهودي أموال طائلة وذخائر نفيسة وله على المسلمين صولة واستهانة بالدين وأهله فلم يزل المولى الرشيد يفكر في كيفية اغتيال اليهودي المذكور إلى أن أمكنه الله منه في خبر طويل فقتله واستولى على أمواله وذخائره وفرقها فيما تبعه وانضاف إليه من عرب أنكاد وغيرهم فقوي عضده وكثر جمعه

وقال صاحب نشر المثاني إن المولى الرشيد لما رحل عن فاس قدم على الشيخ أبي عبد الله اللواتي بأحواز تازا وكان الشيخ المذكور ينتحل طريقة الفقر ويعظم أهل البيت فبالغ في إكرامه فبينما هو مقيم عنده إذ رأى ذات يوم رجلا ذا هيئة من مماليك وأتباع وخيل وهو يصطاد كهينة الملوك فسأل عنه فقيل له هذا ابن مشعل من يهود تازا فاتصرف المولى الرشيد وجعل مدية في فمه وجاء إلى الشيخ اللواتي فلما رآه الشيخ على تلك الحال أعظم ذلك وقال له المال والرقبة لك يا سيدي فما الذي دهاك قال تأمر جماعة من عشيرتك يسرون معي حتى أفنك بهذا اليهودي غيرة على الدين فقال قد فعلت لا يتخلف عنك منهم أحد فاختر المولى الرشيد منهم جماعة وواعدهم على تبييت اليهودي واقتحام داره عليه وكان اليهودي قد اتخذ دارا بالبليداء على نحو مرحلة من تازا في جهة الشرق فلما كانت ليلة الموعد تقدم المولى الرشيد إلى دار ابن مشعل في صورة ضيف فأضافه ابن مشعل ولما انتصف الليل أحاط أصحابه بالدار وكبس المولى الرشيد اليهودي في بعض خلواته فقتله وأدخل الرجال فاستولى على دار ابن مشعل بعد الفتك بأصحابه وحراسه وعثر فيها على أموال كثيرة وذخائر نفيسة وقيل وهو الشائع عند بني بزنانس أن ابن مشعل المذكور كان مقيما بين أظهرهم قد اتخذ حصنا ببعض جبالهم وهم محدقون به فجاءهم المولى الرشيد ولم يزل يلاطفهم في شأن اليهودي حتى أثر كلامه فيهم ونما إلى اليهودي بعض ذلك وأنهم مسلموه فنزل إلى المولى الرشيد بهدية نفيسة يسترضيه بها فلم يكن بأسرع من أن قبض عليه وقتله وتقدم إلى الدار فاستولى عليها واستخرج ما فيها من الأموال فأنه أعلم أي ذلك كان ثم إن المولى الرشيد دعا لنفسه أعراب الشرق وجمع كلمتهم ونزل وجدة واتصل بذلك كله بأخيه المولى محمد صاحب سجداسة فتخوف منه

لما يعلم من صرامته وشهامته فيفض لقتاله والقبض عليه فلما التقى الجمعان ببسط أنكاد كانت أول رصاصية في نحر المولى محمد فكان فيها حفته وذلك يوم الجمعة للتاسع من المحرم سنة خمس وسبعين وألف ودفن بدار ابن مشعل فأسف المولى الرشيد لقتله وأظهر الحزن عليه وتولى تجهيزه بنفسه فحمله إلى بني بزنانس ووراه هنالك في رمسه رحمه الله وغفر له وكان المولى محمد شجاعا مقداما لا يبالي بالعظائم ولا يخطر بباله خوف الرجال ولا يدري ما هي النكبات والأوجال وتقدم وصف أهل الدلاء له بقولهم الأجدل الذي لا تؤده هموم الليالي ولا حرارة قيظ المصيف عقاب أشهب على قنة كل عقبة لا يقعه المال دون حسم الرقبة وشجاعته شهيرة وكان مع ذلك قويا في بدنه أيدا في أعضائه وجسمه لا يقاوم في الصراع ولا يزول في الدفاع حكى أنه في بعض أيام حصاره لتابوعصامت جعل يده في بعض ثقب الحصن وصعد عليها ما لا يحصى من الناس حتى كأنها خشبة منصوبة ولينة مضروبة وكان سخيا جدا حتى أنه أعطى الأديب الشهير المتقدم في صناعة الشعر المعرب والملحون أبا عثمان سعيدا التلمساني صاحب القصيدة العيقية وغيرها نحوًا من خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب جائزة له على بعض أمداحه فيه وحكاياته في هذا المعنى شهيرة ولما قتل رحمه الله قام بسجداسة ولده المولى محمد الصغير مقامه لكن لم يتم له أمر وسياتي بعض خبره إن شاء الله

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى الرشيد بن الشريف رحمه الله لما قتل المولى محمد بن الشريف رحمه الله في التاريخ المتقدم وانحشرت جموعه كلها إلى أخيه المولى الرشيد فبايعوه البيعة العامة ودخل في طاعته الأحلاف وبنو بزنانس وغيرهم وبعث إلى أهل تلك النواحي كلها من العرب والبربر يدعوهم إلى الطاعة واجتماع الكلمة فقدمت عليه وفودهم بالهدايا وكتب من كان مع أخيه في ديوان جيشه وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح وعظم أمره وعلا كعبه ثم احتاج إلى المال وكان قد أخذ ولد اليهودي ابن مشعل يوم قتل أباه فجاءت أمه تطلب فداءه فتفرس فيها ومأظلتها به ثم قال لا أسرحه حتى تدليني على مال زوجك أو أقتله فأنعمت له بذلك وركب معها إلى القصبه فدلته على خزانه في بيت فنقب عنها فلقى فيها خرابي مملوءة ذهبًا وفضة فاستخرجها وارثاش بتلك الأموال وفرق منها على من معه من العرب والبربر وسائر الأجناد فحسنت حاله وحالهم وعد ذلك من سعاداته ولما قضى إربه ورتب جنده بعث رسله إلى الأفاق بالأعدار والإنذار والوعود والوعيد لأهل الطاعة والعصيان ثم سار على أثرهم قاصدا فتح المغرب الذي كان قد تعذر على أخيه من قبله فنزل على وادي ملوية وأقام به أياما للاستراحة وانتظار من يأتيه من أهل تلك النواحي مثل جاوت والريف وغيرهما فلم يأت أحد والله غالب على أمره

فتح مدينة تازا ثم سجداسة وما تخلل ذلك لما أقام المولى الرشيد رحمه الله على ملوية ولم يأت من أهل المغرب أحد تقدم إلى تازا فاقتحمها بعد محاربة طويلة وبايعه أهلها والقبائل التي حولها ولما اتصل خبر ذلك بأهل فاس اجتمعوا مع جيرانهم من عرب الحياينة والبهاليل وأهل صفر وغيرهم وتحالفوا على حرب المولى الرشيد وعدم بيعته بحال ظنا منهم أنه يفعل بهم ما فعله أخوه المولى محمد بالحياينة من النهب والقتل وأمر رؤساء فاس عامتها بشراء الخيل والعدة والإكثار منها ووظفوا على كل دار مكحلة ومن لم توجد عنده مكحلة منهم يعاقب فاشترتوا من ذلك فوق الكفاية وخرجوا إلى باب الفتوح لعرض الخيل والسلاح وعملوا للعب المسمى بالميز واجتمعوا أيضا مع الحياينة وأكدوا الحلف على حرب المولى الرشيد ولما بلغه خبرهم وما هم عليه أعرض عنهم وعدل إلى سجداسة وكان ذلك منه صوابا في الرأي إذ قدم الأسهل فالأسهل وتناول الأخف فالأخف ولما أتاه على سجداسة حاصرها نحو تسعة أشهر إلى أن فر عنها ابن أخيه المولى محمد الصغير المنتزى بعد أبيه كما مر فخرج منها ليلا ودخلها المولى الرشيد واستولى عليها وسد فرجها ورتب حاميتها ومهد أطرافها ورجع إلى تازا فاحتل بها ولكل أجل كتاب

حصار مدينة فاس ثم فتحها والإيقاع بثوارها لما قتل المولى الرشيد رحمه الله من سجداسة إلى تازا أقام بها أياما فاتفق أهل فاس مع أحلافهم من الحياينة أن يغربوا عليه بمستقره منها ويبدؤوه بالحرب قبل أن يبدؤهم ليكون ذلك كسرا من شوكته وفتا في عضده فتأهبوا للحرب وخرجوا في شوال سنة خمس وسبعين وألف ولما قابلوا محلته افتترقت كلمتهم ورجعوا منهزمين من غير قتال فتيبهم المولى الرشيد إلى قنطرة نهر سبو خارج فاس ثم رجع عنهم فبعثوا إليه في الصلح فلم يتم بينه وبينهم صلح إلى أن ملك أطراف المغرب كله وكان ذلك من حسن تدبيره وترتيبه الأمور ثم دخلت سنة ست وسبعين وألف ففي صفر منها زحف إلى فاس وحاصرها وقتلها ثلاثة أيام فأصابته رصاصية في طرف أذنه ورجع سالما ثم عاد إلى حصارها مرة أخرى في ربيع الأول من السنة المذكورة فقتل ونهب ورجع إلى تازا لأنه لم يأت بقصد فتحها ثم توجه إلى الريف بقصد الرئيس أبي محمد عبد الله أعراس التائر به فكانت بينهما وقعات وحاصره في بعض حصونه إلى أن قبض عليه في رمضان من السنة ففعا عنه واستبقاه وكر راجعا إلى فاس فنزل عليها في أواخر ذي القعدة من السنة وقتلها قتلا شديدا إلى ثالث ذي الحجة فاقتحم فاسا الجديد من أعلى السور من

ناحية الملاح وفر أميرها يومئذ أبو عبد الله الدريدي وهذا الدريدي كان في جملة من إخوانه بني دريد بن أئيج الهالبيين وكانوا في ديوان السعديين ولما بايع أهل فاس الرئيس أبا عبد الله محمد الحاج الدلائي كان الدريدي هذا في عسكره فلما فشلت ريح أهل الدلاء بالمغرب نزع عنهم واستبد بفاس الجديد وحالف أهل فاس القديم على حرب الدلايين ثالث جمادى الثانية سنة أربع وسبعين وألف وقد كان أحمد بن صالح الليريني رئيس أهل عدوة الأندلس قد خطب ابنة الدريدي لولده صالح بن أحمد فزوجه إياها والتحم

ما بينهما فكان الدريدي يشن الغارات على قبائل البربر الذين بأحواز مكناسة وغيرها ويأتي بالنهب والطلب يقرع عليه إلى أن يدخل دار الإمارة واستمر على ذلك إلى أن اقتحم عليه المولى الرشيد فاسا كما قلنا ففر إلى منجاته وقال في النزهة بل قتله المولى الرشيد وسكن هيجة فاس الجديد ومن الغد زحف إلى فاس القديمة فحاصرها وقتلها فضعفوا عن مقاومتها وفر رئيس المظبيين ابن الصغير وولده ليلا إلى بستيون باب الجبسة ولما طلع الفجر فر أيضا رئيس عدوة الأندلس أحمد بن صالح فرأى أهل فاس أن أمرهم قد ضعف وكلمتهم قد افتقرت فخرجوا إلى المولى الرشيد وبايعوه واجتمعت كلمتهم عليه فبعث في طلب ابن صالح فوجد بحوز المدينة فجاء به وسجن بباب دار ابن شقراء لفاس الجديد ثم قتل وقتل معه عدة من أصحابه ثم قبض على ابن الصغير وولده وبعد سبعة أيام أمر السلطان بقتلها فقتلا واستقام أمر فاس وصلحت أحوالها قال في النزهة افتتح أمير المؤمنين المولى الرشيد فاسا القديمة فحكم السيف في رؤسائها وأفناهم قتلا فتمهدت البلاد واجتمعت الكلمة وكان دخوله حضرة فاس القديمة صبيحة يوم الاثنين أوائل ذي الحجة سنة ست وسبعين وألف وبويع بها يومه ذلك ولما تمت له البيعة أفاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطاء وبسط على أهلها جناح الشفقة والرحمة وأظهر إحياء السنة ونصر الشريعة فحل من قلوبهم بالمكان الأرفع وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامية اه وولي قضاء فاس السيد حمدون المزوار ثم خرج إلى بلاد الغرب فقصده الخضر غيلان الثائر ببلاد الهبط وكان يقصر كتابة فزحف إليه المولى الرشيد فانهزم الخضر إلى أصيلا ورجع المولى الرشيد عنه إلى فاس أوائل ربيع الأول سنة سبع وسبعين وألف فكتبت له البيعة

بفاس وقرنت بين يديه قبل زوال يوم السبت الثامن عشر من ربيع الأول المذكور ثم في شهر ربيع الثاني من السنة غزا المولى الرشيد أحواز مكناسة وقصد آيت والللال من البربر شيعة محمد الحاج الدلائي فأوقع بهم ورجع عوده على بدنه وبعد رجوعه نزل محمد الحاج بجموع البربر قرب وادي فاس بأبي مزورة من أحواز فاس فقاتله المولى الرشيد ثلاثا ورجع كل إلى وطنه ثم خرج المولى الرشيد إلى تازا وأعمالها حادي عشر رجب ففقدتها ورجع إلى فاس في شوال من السنة المذكورة ثم عزل العقيد قائد مكناسة ثم خرج ثاني يوم النحر من السنة إلى بني زروال فأوقع بالشريف النابغ فيهم وبعث به محبوسا إلى فاس فدخلها ثاني محرم سنة ثمان وسبعين وألف ثم مال المولى الرشيد إلى تطاوين فقبض على رئيسها أبي العباس النقيس في جماعة من حزبه وقدم بهم إلى فاس فسحبهم بها أوائل ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وألف إلى أن كان من أمرهم ما نذكره فتح زاوية الدلائي وتغريب أهلها إلى فاس وتلمسان وما يتبع ذلك لما كانت ضحوة يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وألف خرج أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله غازيا زاوية أهل الدلاء وكان قد أسند الفتوى إلى الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد الفاسي فلقى جموع الدلايين وعليهما ولد محمد الحاج ببطن الرمان من فازاز فانتشبت الحرب بين الفريقين مليا ثم انهزم الدلايون ورجعوا يقفون أثرهم إلى الزاوية قال الشيخ اليوسي رحمه الله في محاضراته كان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائي قد ملك الغرب بسنين عديدة واتسع هو وأولاده وإخوته وبنو عمه في الدنيا فلما قام السلطان المولى الرشيد بن الشريف ولقي جموعهم ببطن الرمان ففضها دخلنا على الرئيس أبي عبد الله المذكور وكان لم يحضر المعركة لعجزه وكبر سنه يومئذ فدخل عليه أولاده وإخوته وأظهروا له عجزا شديدا وضيقا عظيما فلما رأى منهم ذلك

قال لهم ما هذا إن قال لكم حسبكم فحسبكم يريد الله تعالى قال اليوسي وهذا كلام عجيب وإليه يساق الحديث والمعنى إن قال الله تعالى لكم حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين اه وكان استيلاء المولى الرشيد على الزاوية في ثامن المحرم سنة تسع وسبعين وألف ولما خرج إليه أهلها عفا عنهم ولم يرق منهم دما ولا كشف لهم سترا حلما وكرا منه رحمه الله قال في النزهة لما وقعت الهزيمة على أهل الدلاء دخل المولى الرشيد الزاوية وأمر بمحمد الحاج وأولاده وأقاربه أن يحملوا إلى فاس ويسكنوا بها فحملوا إليها واستوطنوها مدة ثم أمر أن يذهب بهم إلى تلمسان فغربوا إليها وسكنوها مدة وحدثوا أن محمدا الحاج رحمه الله لما دخل تلمسان قال كنت وجدت في بعض كتب الحدثان أي أدخل تلمسان فظننت أي أدخلها دخول الملوك فدخلتها كما ترون ولم يزل بها إلى أن توفي فاتح سنة اثنتين وثمانين وألف ودفن عند ضريح الإمام السنوسي رضي الله عنه ولما توفي المولى الرشيد رجع أولاده وأقاربه إلى فاس فاستوطنوها بإذن من السلطان المظفر المولى إسماعيل ولما دخل المولى الرشيد الزاوية غير محاسنها وفرق جموعها وطمس معالمها وصارت حصيدا كان لم تغن بالأمس بعد أن كانت مشرقة إشراق الشمس فمحت الحوادث ضيائها وقلصت ظلالها وأقياءها وطالما أشرفت بأبي بكر وبنيه وابتهجت وفاحت من شذاهم وتأرجت ارتحل عنها فرسان الأقالم الذين ينجاب بوجوههم الظلام وبنات عنها ربات الخنور وأقامت بها أتافي القفور ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعمت آثارهم وذهبت الليالي بأشخاصهم وأبقت أخبارهم فتل ذلك العرش وعدا الدهر حين أمن من الأرض ولم يدفع الرمح ولا الحسام ولم تنفع تلك المنن الجسام فسحقا لدنيا ما رعت لهم حقوقا ولا أبقت لهم شروقا وهي الأيام لا تقي من تجنيها ولا تبقى على مواليتها ومدانيتها

أذهبت آثار جلق وأخذت نار المحلق وذلكت عزة ابن شداد وهدت القصر ذي الشرفات من سندان وكل يلقى معجله ومؤجله ويبلغ الكتاب يوما أجله ولقد أحسن ربي نعمتهم المقر بإحسانهم ومنهم شيخ مشايخ المغرب على الإطلاق الإمام الذي وقع على علمه وعمله الاتفاق أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي رحمه الله في رائيته التي رثى بها الزاوية المذكورة وبكى أيامها يقول في مطلعها أكلف جفن العين أن ينثر الدرا فيأبى ويعتاض العقيق بها خمرًا وهي طويلة شهيرة قلت ولم يصرح فيها بأسمانهم مراعاة لجانب السلطان وذلك هو الواجب والمناسب فرحم الله الشيخ اليوسي ما كان أعرفه بمقتضيات الأحوال فتح مراکش ومقتل الأمير أبي بكر الشباني وشيعته لما فرغ المولى الرشيد رحمه الله من أمر الزاوية توجه إلى مراکش في الثاني والعشرين من صفر من السنة أعني سنة تسع وسبعين وألف فاستولى عليها وقتل رئيسها أبا بكر بن عبد الكريم الشباني وجماعة من أهل بيته وقال في النزهة لما بلغ أبا بكر الشباني وقومه مسير المولى الرشيد إليهم خرجوا فارين بأنفسهم من مراکش إلى شواق الجبال لما خامر قلوبهم من رعبه فدخل المولى الرشيد مراکش وأقنى من وجد بها من الشبانات وقبض على أبي بكر وبني عمه فعرضهم على السيف واستنزل تلك الفئة الشريفة من الصياصي وأخذ منهم بالأقدام والنواصي وأخرج عبد الكريم من قبره فأحرقه بالنار ولما فتح مراکش قام بها نحو شهر ثم رجع إلى فاس فدخلها يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة وفي هذه السنة خرج المولى محمد الصغير من تافيلالت في شيعته وخلي سبيل البلد وفيها

أيضا ركب الخضر غيلان البحر إلى الجزائر وخلي سبيل أصيلا ولما رجع المولى الرشيد إلى فاس عزل أبا عبد الله الفاسي عن الفتوى وعزل الفقيه المزوار عن قضائهما منسوخ جمادى الثانية من السنة وولى القضاء الفقيه أبا عبد الله محمد بن الحسن المجاصي والخطابة بجامع القرويين الفقيه أبا عبد الله محمدا البوعناني وفي منتصف رجب من السنة المذكورة غزا المولى الرشيد بلاد الشاوية ورجع إلى فاس في سابع رمضان العام فعفا عن بعض أهل الدلاء وبقي الآخرون بضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم إلى تمام السنة فعفا عن الجميع ودرهم إلى بلادهم إلا ما كان من محمد الحاج وبنيه فإنهم غربوا إلى تلمسان ومات هو هنالك ولما ولي الأمر المولى إسماعيل وقعت الشفاعة في الأولاد فرجعوا إلى فاس كما مر وفي يوم السبت سابع عشر ذي الحجة من السنة غزا المولى الرشيد آيت عياش من برابر صنهاجة وفيها أمر بضرب السكة الرشيدية وأقرض تجار فاس وغيرها اثنين وخمسين ألف متقال بقصد التجارة إلى أن ردوها بعد سنة وفي هذه السنة أيضا حاز طاعية الإصينبول مدينة سبتة من يد البرتغال في سبيل مشاركة وقعت بينهم في مدينة أشبونة واستمرت في يد الإصينبول إلى الآن بناء قنطرة وادي سبو خارج فاس وفي يوم السبت الرابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وسبعين وألف أمر المولى الرشيد ببناء قنطرة نهر سبو الأوقاس الأربعة خارج فاس فأخذوا في تهيئة الأسباب

وحفر الأساس وفي منتصف جمادى الثانية سنة ثمانين وألف شرعوا في البناء بالأجر والجبر فكملت على أحسن حال ولما تكلم الشيخ اليوسي في المحاضرات على الحديث الصحيح إن

أخنع الأسماء عند الله رجل تسمى بملك الأملاك قال ما نصه ومن البشيع الواقع في زماننا في الأوصاف أنه لما بنى السلطان المولى الرشيد بن الشريف جسر نهر سبو صنع بعضهم يعني القاضي أبا عبد الله المجاصي أبياتا كتبت فيه برسم الأعلام أولها صاغ الخليفة ذا المجاز ملك الحقيقة لا المجاز قال فحمله اقتناص هذه السجعة والتغالي في المدح والاهتبال بالاسترضاء على أن جعل ممدوحه ملكا حقيقيا لا مجازيا وإنما ذلك هو الله وحده وكل ملك دونه مجاز الممدوح وغيره اه وفي هذه السنة وذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين من رجب خرج المولى الرشيد غازيا الأبيض فقبض على أولاد أخي الأبيض ولما وصل إلى تازا أمر بقتلهم فقتلوا ثم مرض مرضا شديدا أشرف منه على الموت فأمر بتسريح المساجين وإخراج الصدقات فعافاه الله وفي منتصف ذي القعدة من السنة أمر بإعمال وليمة العرس لأخيه المولى إسماعيل بدار ابن شقراء من حضرة فاس الجديد قال اليفرني احتفل المولى الرشيد في ذلك العرس بما لم يعهد مثله اه وكانت العروس من بنات الملوك السعديين وفي شوال من السنة جدد قنطرة الرصيف بفاس والله أعلم فتح تارودانت وإيلغ وسائر السوس قد قدمنا أن أبا حسون السملالي كان مستوليا على بلاد السوس فاستمر حاله على ذلك إلى أن توفي سنة سبعين وألف وكان رحمه الله لين الجانب محمود السيرة موصوفا بالعبقة متوقفا في الدماء ولما هلك خلفه ولده أبو عبد الله محمد بن أبي حسون فلما كانت سنة إحدى وثمانين وألف غزا المولى الرشيد رحمه الله بلاد السوس فاستولى على

تارودانت رابع صفر من السنة وأوقع بهستوكة فقتل منهم أكثر من ألف وخمسمائة وأوقع بأهل الساحل فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف وأوقع بأهل قلعة إيلغ دار ملك أبي حسون فاستولى عليها في مهل ربيع الأول من السنة وقتل منهم بسخ الجبل أكثر من ألفين وصفا أمر السوس للمولى الرشيد وفي هذه السنة أيضا في سابع ربيع الأول منها قتل المولى إسماعيل وكان نائبا عن أخيه بفاس ستين رجلا من أولاد جامع وكانوا يقطعون الطريق فقتلهم وصلبهم على سور البرج الجديد وفيها في جمادى الأخيرة منها أمر المولى الرشيد بضرب فلوس النحاس المستديرة وكانت قيل مربعة وهي الأشقوقية وجعل أربعة وعشرين في الموزونة وكانت قيل ثمانية وأربعين ورجع إلى فاس في ثالث رجب من السنة وفي أول شعبان منها شرع في بناء مدرسة الشراطين بدار الباشا عزوز من فاس وكان قد أمر ببناء مدرسة عظيمة بازاء مسجد أبي عبد الله محمد بن صالح من حضرة مراکش والله لا يضيع أجر من أحسن عملا تأليف جيش شراقة وأوليتهم وشرح لقبهم قد قدمنا في أخبار السعديين أن لفظ شراقة في الأصل لقب لعرب بادية تلمسان ومن انضاف إليهم وسموا بذلك لأنهم في جهة الشرق عن المغرب الأقصى فأهل تلمسان مثلا يسمون أهل المغرب الأقصى مغاربة وأهل المغرب الأقصى يسمون أهل تلمسان مشاركة إلا أن العامة يلحون في هذه النسبة فيقولون شراقة بتخفيف الراء وإيقاف المعقودة وقد كان للسعديين جند من هؤلاء العرب كما مر ولما جاء الله بدولة أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله واجتمع عليه من عرب أنكاد وغيرهم ما قدمنا ذكره نزع إليه من أهل تلك البلاد عدة قبائل

بعضها من العرب وبعضها من البربر أنفا من ولاية الترك فقبلهم فمن العرب أشجع وبنو عامر ومن البربر مديونة وهوارة وبنو سنوس فأمر رحمه الله ببناء القصب الجديدة بفاس بديار لمتون وعرصه ابن صالح وبذل لأصحابه وقواده ألف مثقال لبناء سورها وأمرهم ببناء النور فيها وأعطى شراقة هؤلاء ألف دينار لبناء قصبه الخميس بعد أن كان أنزلهم أولا بأحواز فاس فحصل منهم الضرر لأهل المدينة وشكوكهم فأمرهم بالانتقال بجلتهم إلى بلاد صديبة وفتالة بين النهرين سبو وورغ وأقطعهم تلك الأرض وعزل عزابهم وأمرهم ببناء بيوتهم على حدة ثم أعطاهم ألف دينار لبناء سور القصبه كما قلنا وجعلهم قبيلة واحدة فلم تتميز الآن عربهم من بربرهم ثم خرج المولى الرشيد رابع رمضان من السنة لزيارة الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه ومنه ذهب إلى سلا فزار صلاحها وعاد إلى فاس فدخلها منسلخ رمضان المذكور ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وألف في صفر منها بعث خيلا للجهاد على طنجة وفي منتصف جمادى الأولى بعث خيلا أخرى إلى السوس وعليهم أبو محمد عبد الله أعراس ثم خرج إلى الصيد بتافراطست فبلغه هنالك خبر ثورة ابن أخيه المولى محمد بن محمد بمراكش فرجع إلى فاس فدخلها يوم السبت حادي عشر رمضان ثم خرج منها عصر يومه ذلك فلقه ابن أخيه بفرارة مقبوضا عليه بيد أصحابه فبعث به إلى تافيلالت وسار هو إلى مراکش وبعث قائده زيدان العامري إلى فاس في ذي القعدة ليأتيه بالجيش لغزو السوس فأثاه أهل السوس طائعين ولم يبق للحركة محل بعد أن كانت الأخبية قد أخرجت إلى وادي فاس وضربت به فاستقرت قواعد الملك للمولى الرشيد وتمهدت أمور الدولة والله غالب على أمره

وفاة أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله كان أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله في المدة مقيما بمراكش كما قلنا إلى أن كان عيد الأضحى من سنة اثنتين وثمانين وألف فلما كان ثاني يوم النحر وهو يوم الخميس ركب فرسا له وأجراه فجمح به في بسنان المسرة ولم يملك عنانه فأصابه فرع شجرة نارنج فهشم رأسه وقيل دخل في أذنه وكانت فيه منيته رحمه الله ودفن بمراكش بالقصبه منها ثم نقل إلى ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حزمه بفاس لوصية منه بذلك ومات رحمه الله وسنه اثنتان وأربعون سنة لأنه ولد سنة أربعين وألف ورتاه بعضهم بقوله وما شج ذات الغصن رأس إمامنا لسوء له خدن المحبة جاحد ولكنه قد غار من لين قده وإن من الأشجار ما هو حاسد قلت لا يخفى أن مثل هذا الشعر لا يحسن أن تمدح به الملوك فإنه بالغرل أشبه منه بالرتاء وكان قد وقع بين المولى الرشيد رحمه الله وبين شيخ الوقت الإمام أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي رضي الله عنه مكاتبات توعدده أمير المؤمنين في بعضها فمات عقب ذلك وكفى الشيخ المذكور أمره ومن متأثره رحمه الله أنه لما مر في بعض حركاته بالموضع المعروف بالشط من بلاد الظهراء أمر بحفر آبار شتى فهي الآن تدعى بأبار السلطان إضافة له يستقي منها ركب الحجيج في ذهابه وإيابه فهي إن شاء الله في ميزان حسناته وكان رحمه الله محبا في جانب العلماء مؤثرا لأغراضهم مولعا بمجالستهم محسنا إليهم حيث ما كانوا ومن نوادره معهم ما حكى أن العلامة أبا عبد الله محمد المرابط بن محمد بن أبي بكر الدلائي حضر يوما بمجلس السلطان المذكور وذلك بعد الإيقاع بزوايتهم وتغريبهم إلى فاس فأنشد السلطان معرضا بالفقيه المذكور قول أبي الطيب المتنبي ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد ففهم أبو عبد الله المرابط إشارته فقال أيد الله أمير المؤمنين إن من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا فاستحسن الحاضرون حسن بديهته ولطف منزعه ومن تواضع المولى الرشيد رحمه الله مع أهل العلم ما حكاه صاحب الجيش من أنه بعث إلى بعض علماء عصره ليقرا معه بعض الكتب فامتنع ذلك العالم وقال كما قال الإمام مالك رضي الله عنه العلم يؤتى ولا يأتي قال فكان المولى الرشيد رحمه الله يتردد لمنزل ذلك العالم للقراءة عليه وقد ذكر صاحب نشر المثاني أنه كان يحضر مجلس الشيخ اليوسي بالقرويين اه وهذه لعمرى منقبة فخيمة ومأثره جسيمة فرحم الله تلك الهمم التي كانت تعرف للعلم حقه وتقدر قدره قالوا وكان رحمه الله جوادا سخيا رحل الناس إليه من المشرق فما دونه وقصده بعض طلبية ثغر الجزائر فامتدحه ببينتين وهما فاض بحر الفرات في كل قطر من ندى راحتك عذبا فراتا غرق الناس فيه والتمس الفقر خلاصا فلم يجده فماتا فوصله بألفين وخمسين دينارا قال اليفرني وشأوه رحمه الله في السخاء لا يلحق والحكايات عنه بذلك شهيرة وفي أيامه كثر العلم واعتز أهله وظهرت عليهم أبيهته وكانت أيامه أيام سكور ودعة ورخاء عظيم حتى قيل إنه في اليوم الذي بويغ فيه بفاس كان القمح في أول النهار بخمس أواق للمد وصار في آخره بنصف أوقية فتيمن الناس بولابته وأغبطوا بها والله تعالى أعلم

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المظفر بالله أبي النصر المولى إسماعيل بن الشريف رحمه الله لما توفي المولى الرشيد رحمه الله في التاريخ المقدم وكان أخوه المولى إسماعيل بمكناسة الزيتون خليفة على بلاد الغرب فبلغه خبر موته فاجتمع الناس عليه وابعوه واتفقت كلمتهم عليه ثم قدم عليه أعيان فاس وأعلامها وأشرفها ببيعتهم وقدم عليه أهل بلاد الغرب من الحواضر والوادي كذلك بهدياهم وبيعتهم إلا مراکش وأعمالها فإنه لم يأت منها أحد فجلس رحمه الله للوفود إلى أن فرغ من شأنهم ورتب أموره بمكناسة وعزم على السكنى بها إذ كان لا يبغى بها بدلا حيث أعجبه ماؤها وهوأها هكذا في البستان وقال أبو عبد الله اليفرني في النزهة ونحوه في نشر المثاني لما توفي المولى الرشيد رحمه الله اتصل خبر وفاته بالمولى إسماعيل وهو يومئذ خليفته بفاس الجديد ليلة الأربعاء السادس عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين وألف فبويغ رحمه الله وحضر بيعته أعيان

المغرب وصلحاهو بحيث لم ينازع في أنه أحق بها وأهلها أحد ممن يشار إليه زاد في الظل الظليل ووافق على بيعته أهل الحل والعقد من العلماء والأشراف كالشيخ أبي محمد عبد القادر بن علي الفاسي والشيخ أبي علي اليوسي وأبي عبد الله محمد بن علي الفيلالي وأبي العباس أحمد بن سعيد المكيدي وأبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي وأخيه أبي زيد صاحب نظم العمل والقاضي أبي مدين وغيرهم من بقية الأعيان وكانت بيعته في السنة الثانية من يوم الأربعاء السادس عشر من ذي الحجة المذكور أتفا ووافق ذلك اليوم الثالث من شهر إبريل العجمي وكان سنة يوم بويغ ستا وعشرين سنة لأن ولادته كانت عام وقعة

القاعة وهي مؤرخة بخط من يوثق به سنة ست وخمسين وألف ولما تمت بيعته نهض بأعباء الخلافة وضبط الأمور وأحسن السيرة ثورة المولى أبي العباس أحمد بن محرز بن الشريف وما كان من أمره لما توفي المولى الرشيد رحمه الله واتصل خبر وفاته بأهل سجلماسة وغيرها أقبل ابن أخيه المولى أبو العباس أحمد بمن محرز مبادرا إلى مراكش طالبيا للأمر وداعيا إلى نفسه والتفت عليه طوائف من عرب السوس وغيرهم وغلب على تلك النواحي ونشبت أهل مراكش بلامع برقه وبذلك تقاعدوا عن الوفاة على أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله ولما صح عنده خبر ابن محرز وذلك في آخر ذي الحجة من السنة نهض إلى مراكش فوصل إليها وبرز إليه أهلها فيمن انضم إليهم من قبائل أحوازها وقتلوه فانتصر عليهم وهزمهم ودخل مراكش عنوة يوم الجمعة سابع صفر سنة ثلاث وثمانين وألف فعفا عن أهلها وأجفل ابن محرز وشيعته إلى حيث نجوا ولما احتل المولى إسماعيل بمراكش أمر بنقل شلو أخيه المولى الرشيد في تابوته إلى فاس ليدفن بصريح الشيخ ابن حرزم كما مر ثم قفل السلطان إلى مكناسة منسلاخ ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وألف

انتقاض أهل فاس وقتلهم القائد زيدان وإعلانهم بدعوة ابن محرز وما نشأ عن ذلك من محاصرة السلطان لهم لما قفل أمير المؤمنين المولى إسماعيل إلى مكناسة أخذ في ترتيب أمور دولته وفرق الراتب على الجند وكان عازما على غزو بلاد الصحراء فلم يرعه إلا الخبر بأن أهل فاس قد انتقضوا وقتلوا قائد الجيش زيدان بن عبيد العامري وكان مقتله ليلة الجمعة ثاني جمادى الأولى من السنة فزحف السلطان إليهم وحاصرهم واستمر القتال بينه وبينهم أياما ثم بعثوا إلى المولى أحمد بن محرز ليأتيهم فيجتمعوا عليه فقدم دببو وأنزل على ملوية وبعث إليهم رسوله يعلمهم بمجيئه فأعلنوا بنصره وذلك يوم الخميس العشرين من جمادى الثانية من السنة وفي منسلاخ الشهر المذكور بعثوا عشرة من الخيل للقائه بتازا ثم أصبح عليهم رسول الخضر غيلان يعلمهم بأنه قد قدم من ثغر الجزائر في البحر وأنه نزل بتطاوين مع رؤسائها أولاد النقيس فتشعبت الآراء وتعددت أسباب الهراش وتكاثرت الظباء على خدش وهاجت فتنة بفاس قتل فيها نفر من أولاد الثائر المتقدم أبي الربيع سليمان الزرهوني على يد مولاي أحمد بن إدريس من شرفاء دار القيطون ثم قتل بعض شيعة الزرهوني مولاي حفيد بن إدريس أبا الشريف المذكور وكان ما كان مما لست أنكره ولما اتصل خبر ابن محرز بالمولى إسماعيل نهض إليه في جنوده قاصدا تازا فحاصرهم بها أشهرها ففر عنها ابن محرز ودخل الصحراء ولما علم السلطان بفراره عدل إلى ناحية الهبط بقصد الخضر غيلان فحاربه إلى أن ظفر به وقتله يوم الأحد العشرين من جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وألف وعاد إلى فاس الجديد أواسط جمادى الثانية من السنة وحاصر أهل فاس وطولهم ولم يحدث معهم حربا إلى أن أذعنوا إلى الطاعة وراجعوا بصائرهم ففتحوا البلد وخرجوا إلى السلطان تائبين فعفا عنهم وذلك في سابع عشر

رجب سنة أربع وثمانين وألف فكانت مدة انتقاضهم أربعة عشر شهرا وثمانية عشر يوما ذاقوا فيها وبال أمرهم ثم ولي عليهم القائد أبا العباس أحمد التلمساني وعلى فاس الجديد الوزير أبا زيد عبد الرحمن المنزاري وسار إلى مكناسة ثم عاد بالقرب إلا أن هذين الوليين قد جارا في الحكومة وعاتا في البلدين بضرب الأبخار ونهب الأموال وغير ذلك والله لا يظلم مثقال ذرة وعزل أيضا عن خطابة القرويين الفقيه أبا عبد الله البوعناني وولاها القاضي أبا عبد الله المجاصي وذلك في آخر رجب من السنة والله أعلم بتجديد أمير المؤمنين المولى إسماعيل بناء مكناسة الزيتون واتخاذها لياها دار ملكه كانت مدينة مكناسة الزيتون من الأمصار القديمة بأرض المغرب بناها البربر قبل الإسلام ولما جاءت دولة الموحدين حاصروا مكناسة سبع سنين ثم افتتحوها عنوة أواسط المائة السادسة وخربوها ثم بنوا مكناسة الجديدة المسماة بتاكرارت ومعناها المحلة واعتنى بها بنو مدين من بعدهم فنوا قصبته وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا والربط وكانت يومئذ هي كرسي الوزارة كما أن حضرة فاس الجديد هي كرسي الإمارة واختصت مكناسة بطيب التربة وعبودية الماء وصحة الهواء وسلامة المختزن من التعفن وغير ذلك وقد وصفها ابن الخطيب في مواضع من كتبه مثل النفاضة والمقامات وغيرهما وأثنى عليها نظما ونثرا وأشد قول ابن عبدون من أهلها فيها إن تقفخر فاس بما في طيها وبناتها في زيبها حسناء يكفيك من مكناسة أرجاؤها والأطيبان هواؤها والماء فلما كانت بهذه المثابة كان أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله لا

يبغي بها بدلا فلما فرغ من أمر فاس رجع إليها وشرع في بناء قصور بها بعد أن هدم ما يلي القصبة من الدور وأمر أربابها بحمل أنقاضها وبنى لهم سورا على الجانب الغربي وأمر ببناء دورهم به وهدم الجانب الشرقي كله من المدينة وزاده في القصبة القديمة ولم يبق أمامه إلا الفضاء فجعل ذلك كله قصبة وبنى سور المدينة وأفردها عن القصبة وأطلق أيدي الصناع في البناء ومدامة العمل وجلبهم من جميع حواضر المغرب ولما لم يقته ذلك فرض العملة على القبائل مناوية فصارت كل قبيلة من قبائل المغرب تبعث عددا معلوما من الرجال والبهايم في كل شهر وفرض الصناع وأهل الحرف على الحواضر فصار أهل كل مصر يبعثون من البنائين والنجارين وغيرهم عددا معلوما كذلك وأسس المسجد الأعظم بداخل القصبة مجاورا لقصر النصر الذي كان أسسه في دولة أخيه المولى الرشيد رحمه الله ثم أسس الدار الكبرى التي بجوار الشيخ المجنوب واستمر البناء والغرس بمكناسة سنين كما سيأتي التنبيه على ذلك في مجلسه إن شاء الله مجيء المولى أحمد بن محرز إلى مراكش واستيلائه عليها ونهوض السلطان إلى محاصرته بها ثم دخلت سنة خمس وثمانين وألف فيها ورد الخبر على السلطان المولى إسماعيل وهو بمكناسة بدخول ابن أخيه المولى أحمد بن محرز مراكش واستيلائه عليها وكان السلطان يومئذ متوجها إلى أنكاد لما بلغه من عيب العرب الذين به وقطعهم الطريق فلم يثته ذلك عنهم بل سار إليهم وأوقع بسقونة منهم وقتل خلقا كثيرا ونهب ورجع مؤيدا منصورا ثم استعد لحرب ابن محرز وخرج في العساكر على طريق تادلا فكان اللقاء بينهما على أبي عقبة من وادي العبيد فاقتتلوا وانهزم ابن محرز وقتل كبير جيشه

حيدة الطويري ورجع أدراجه إلى مراكش فتبعه السلطان المولى إسماعيل وألقى بكله على مراكش أوائل سنة ست وثمانين وألف ونما إليه أن بعض أهل محلته قد أضمرروا الغدر منهم الشيخ عمر البطوني وولده وعبد الله أعراس وإخوته هؤلاء كانوا أمراء عسكريه فحقنهم وأتلف نفوسهم وبعث إلى من بقي منهم بفاس فقبض عليهم وقتلوا وحيزت دورهم وأمواهم واستمر السلطان محاصرا لمراكش إلى ربيع الثاني من سنة سبع وثمانين وألف فشدد في الحصار وازدلف إليها في جنوده فوقع قتال عظيم مات فيه من الفريقين ما لا يحصى وانحجر ابن محرز داخل البلد وبقي يقاتل من أعلى الأسوار ثم تمادى الحصار إلى ثاني ربيع الثاني من سنة ثمان وثمانين وألف فاشتد الأمر على ابن محرز وضاق ذرعا فخرج فارا عن مراكش ناجيا فيما أبقته الحرب من جموعه ودخل السلطان المولى إسماعيل المدينة عنوة فاستباحها وقتل سبعة من رؤسائها وكحل ثلاثين منهم وهدات الفتنة وذهبت أيام المحنة والله غالب على أمره تأليف جيش الودايا وبيان فرقهم وأولييتهم هذا الجيش من أمثل جيوش هذه النولة الشريفة أبقى الله فضلها ويسط على البلاد والعباد بمنها وعدلها وهو ينقسم إلى ثلاثة أرحاء رحي أهل السنوس ورحى المغفرة ورحى الودايا ويطلق على الجميع ودايا تغلبا فأما أهل السوس فمنهم أولاد جرار وأولاد مطاع وزرارة والشبنات وكلهم من عرب معقل وكانوا في القديم جندا للدولة السعدية وكان ملوكها يستنقروهم للغزو بحللهم لاعتيادهم ذلك أيام كونهم بالصحراء ثم أنزلوهم ببسيط ازغار مراغمة لعرب جشم من الخلط وسفيان وغيرهم إذ كانت

الخلط شيعة بني مدين وأصهارهم كما مر فلما جاءت الدولة السعدية بقوا منحرفين عنها وكلما طرقها خلل ثاروا عليها وخرجوا عن طاعتها فقبض لهم السلطان محمد الشيخ السعدي هؤلاء القبائل من معقل وزاحمهم بهم في بلادهم وشغلهم بهم فكانت تكون بينهم الحروب فتارة تنتصف

معقل من جشم وتارة العكس حتى أوقع المنصور السعدي بالخلط وقيعته الشهيرة وأسقطهم من الجندية فقل أولاد مطاع إلى زبيدة قرب تادلا ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم استطلت الشبانات عليها بما كان لهم من الخولة على أولاد السلطان زيدان فاستبدت فرقة منهم بمراكش كما مر وتارت أخرى بفاس الجديد مع أبي عبد الله الريدي المتغلب بها حسبما سلف إلى أن نقل أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله جميعهم إلى وجدة كما سيأتي ثم خلطهم بعد باخوانهم من المغافرة والودايا وصير الجميع جيشا واحدا فهذه أولية أهل السوس وأما المغافرة فسيأتي بيان كيفية اتصالهم بالمولى إسماعيل ومصاهرته له وأما الودايا فكان السبب في جمعهم واستعمالهم في الجندية أنه لما فتح المولى إسماعيل رحمه الله مدينة مراكش الفتح الثاني وأجفل ابن محرز عنها أقام بها أياما ثم خرج إلى الصيد بالبسيط المعروف بالبحيرة من أحواز مراكش فرأى أعرابيا يرعى غنما له وبيده شفرة يقطع بها السدر ويضعه لغنمه لتأكل ورقة فقال للوزعة علي بابي الشفرة فأسرعوا إليه وجاؤوا به إلى أن أوقفوه بين يديه فسأله فانتسب له إلى ودي كغني قبيلة من عرب معقل بالصحراء وأخبره بأنهم دخلوا من بلاد القبلة بسبب جذب أصابهم قال دخلنا السوس بنجع كبير فافترقنا وذهبت كل طائفة منا إلى قبيلة فنزلت عليها ونحن نزول مع الشبانات فقال له المولى إسماعيل رحمه الله أنتم أخوالي وسمعت بخبري ولم تأتوني والآن أنت صاحبي وإذا رجعت بغيرك

إلى خيمتك فأقدم علي إلى مراكش وأوصى به من يوصله إليه ثم بعد أيام قدم أبو الشفرة على السلطان فكساه وحمله وبعث معه خيلا يجمع بها إخوانه من قبائل الحوز فجمع من وجد منهم وجاء بهم إلى السلطان فأثبتهم في الديوان وكساهم وحملهم ثم نقلهم بحلتهم إلى مكناسة الزيتون دار الملك ومقر الخلافة ثم دخل نجع آخر بعدهم فأثبتهم في الديوان أيضا وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم وعين لسكانهم من مكناسة المحل المعروف بالرياض بجوار قصبته وأمرهم ببناء الدور وأعطى أعيانهم رؤساءهم والنواب وهي الزوايا التي لا تغرم مع القبائل ثم قدم نجع ثالث جاؤوا من جهة القبلة فأثبتهم كإخوانهم الذين قدموا قبلهم وسلك بهم مسلكتهم ولما نقل رحمه الله زراة والشبانات الذين كانوا بفاس الجديد مع الريدي بعث بهم إليها أيضا ليجتمعوا مع إخوانهم ثم قسم الودايا الذين بالرياض قسمين فبعث نصفهم إلى فاس الجديد وعمره بهم وولى عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن عطية منهم وأبقى النصف الآخر بالرياض من مكناسة وولى عليهم القائد أبا الحسن عليا المدعو بأبي الشفرة فكانا يتداولان القسمين مرة هذا ومرة هذا ثم استقر الأمر على أن صار أبو الشفرة بفاس وابن عطية بالرياض وأما خبير الخلط فإنه لما أوقع بهم المنصور السعدي تفرقوا في القبائل شذر مذر وصاروا عيالا على غيرهم ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم اجتمعوا ورجعوا إلى أزغاز فغلبوا عليه وغفوا وكثروا وتمولوا وأكثروا من الخيل والسلاح إلى أن جاء الله بالمولى إسماعيل رحمه الله فانترع منهم خيلهم وسلاحهم كغيرهم من قبائل المغرب وضرب عليهم المغارم واستمروا على ذلك إلى أيام السلطان المرحوم المولى محمد بن عبد الله فظهروا في دولته وكانوا يعكسون معه في حروب ويغرمون ما وجب عليهم

من الزكوات والأعشار وكذلك مع ابنه المولى سليمان وابن ابنه المولى عبد الرحمن بن هشام رحم الله الجميع بمنه وهم اليوم في عداد القبائل الغارمة وكذا قبائل الحوز الذين هم من عرب معقل كلهم غارمة والله تعالى المتولي لأمر العباد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه انتفاض البربر شيعة الدلانيين والتفافهم على أحمد بن عبد الله منهم وإيقاع السلطان بهم لما كان أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله مقيما بمراكش بعد فرار المولى أحمد بن محرز عنها بلغه اجتماع البربر الصنهاجيين على أحمد بن عبد الله الدلاني وعيئهم فيمن جاؤهم من قبائل العرب من تادلا إلى سايس فبعث رحمه الله عسكريا إلى تادلا إغاثة لأهلها على البربر فهزمتهم البربر وقتلوا ويخلف وانتهبوا واستولوا على تادلا ثم بعث إليهم عسكريا آخر فيه ثلاثة آلاف من الخيل وعقد عليه ليخلف فيهم البربر وقتلوا ويخلف وانتهبوا عسكريا ثم أعقبهما بعسكر ثالث فوقع به ما وقع بالأوليين هذا كله والسلطان مقيم بمراكش يرصد ابن محرز الذي بالسوس ثم بلغه قيام أخيه المولى حمادة بالصحراء وحره لأخيه المولى محرز التآمر بها أيضا وهو والد المولى أحمد صاحب السوس فقدم السلطان رحمه الله الأهم ورجع إلى حرب البربر بتادلا خوفا من اتساع خرقهم على الدولة وهناك لقيه أخوه المولى الحران جاء مسترخيا له على أخيه المولى حمادة ثم تقدم السلطان رحمه الله إلى البربر فأوقع بهم وقعة شغناء واستلحمهم وقطع منهم سبعمائة رأس بعث بها إلى فاس مع عبد الله بن حمدون الروسي وفي نشر المثاني أنه قتل من البربر يومئذ ثلاثة آلاف فزينت المدينة وأخرجت المدافع وكان يوما مشهودا ولما انقضت الواقعة فر المولى الحران من

المحلة إلى الصحراء ورجع السلطان إلى مكناسة فدخلها في أواسط شوال سنة ثمان وثمانين وألف وفي هذه الأيام ولي قضاء فاس الفقيه الورع أبا عبد الله محمد العربي بردلة بعد عزل القاضي أبي عبد الله المجاصي وولي مظالمها وجبايتها عبد الله الروسي وولي موارثها أباه حمدون وأمر بقتل أهل تطاوين الذين كانوا بسجن فاس وهم عشرون فضربت أعناقهم ورفعت على الأسوار ثم جيء بالمولى الحران من الصحراء مقيدا مغلولاً فلما قابلته من عليه وأطلقه وأعطاه خيلا وأقطعته مداشر بالصحراء يتعيش بها وسرحه إلى حال سبيله عود الكلام إلى بناء حضرة مكناسة الزيتون واستمر السلطان المولى إسماعيل رحمه الله بمكناسة قائما على بناء حضرتها بنفسه وكلما أكمل قصرا أسس غيره ولما ضاق مسجد القصبية بالناس أسس الجامع الأخضر أعظم منه وجعل له بابين بابا إلى القصبية وبابا إلى المدينة وجعل رحمه الله لهذه القصبية عشرين بابا عادية في غاية السعة والارتفاع مقبوة من أعلاها وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الأجرام والمهاريس الحربية الهائلة الأشكال ما يقضي منه العجب وغيره مقبو القنابيط يسع زرع أهل المغرب وجعل بجواره سواقي للماء في غاية المعجم مقبوا عليها وجعل في أعلاها برجاً عظيماً مستدير الشكل لوضع المدافع الموجهة إلى كل جهة وجعل بها إصطبلا عظيماً لربط خيله ويغاله مسيرة فرسخ في مثله مسقف الجوانب بالبرشلة على أساطين وأقواس عظيمة في كل قوس مربوط فرس وبين الفرس والفرس عشرون شبرا يقال إنه كان مربوطا بهذا الإصطبل اثني عشر ألف فرس مع كل فرس سائس من

المسلمين وخادم من أسرى النصراني يتولى خدمته وفي هذا الإصطبل سانية من الماء دائرة عليه مقبوة الظهر وأمام كل فرس منها ثقب كالمعدة لشربه وفي وسط هذا الإصطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل على أشكال مختلفة وفيه أيضا هري عظيم مربع الشكل مقبو الأعلى على أساطين عظيمة وأقواس هائلة لوضع سلاح الفرسان أصحاب الخيل وينفذ إليه الضوء من شبابيك في جوانبه الأربعة كل شبك ينيف وزنه على قنطار من حديد وفوق هذا الهري من أعلاه قصر يقال له المنصور ولا يقصر ارتفاعه من مائة ذراع خمسون في الأسفل وخمسون في الأعلى وفيه عشرون قبة في كل قبة طاق عليه شبك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة من الجبل إلى الجبل وكل قبة مسقفة بالبرشلة والفرمود وغير ذلك ثم أربع قباب منها متقابلة سعة كل واحدة منها سبعون شبرا في مثلها وبقي العشرين أربعون ويجاور هذا الإصطبل بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب طوله فرسخ وعرضه ميلان ويتخلل هذه القصور التي في داخل القلعة بشوارع مستطيلة متسعة وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية وبين الأخرى ورحاب عظيمة مربعة معدة لعامة المشور في كل جانب إلى غير ذلك مما لا يحيط به الوصف قال صاحب البستان وقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك في دولهم ولا شاهدنا في آثارهم بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الإسلام لرجح بها ما بناه السلطان الأعظم المولى إسماعيل رحمه الله في قلعة مكناسة دار ملكه ولم تنزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال لم تخلفها عواصف الرياح ولا كثرة الأمطار والتلوج ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام والهياكل الجسام قال ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج

ورخام ولبن وقرمود ومعين وغير ذلك إلى وقتنا هذا وبنيت من أنقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة وأما الجدران فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والروم يعجب من عظمتها

ويقول ليس هذا من عمل بني آدم ولا يقوم به مال اله تأليف جيش عبيد البخاري وذكر أوليتهم وشرح تسميتهم هذا الجيش من أعظم جيوش هذه الدولة السعيدة كما نقف عليه وكان السبب في جمعه ما وجد مفصلا في كناش كاتب الدولة الإسماعيلية ووزيرها الأعظم الفقيه الأديب أبي العباس أحمد اليعمدي رحمه الله قال لما استولى السلطان المولى إسماعيل بن الشريف على مراکش ودخلها أول مرة كان يكتب عسكره من القبائل الأحرار حسبما مر حتى أتاه الكاتب أبو حفص عمر بن قاسم المراكشي المدعو عليايش وبيتهم بيت رئاسة من قديم وكان والده كاتباً مع المنصور السعدي ومع أولاده من بعده فتعلق أبو حفص بهذا بخدمة السلطان المولى إسماعيل وأطلعه على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر المنصور فسأله السلطان رحمه الله هل بقي منهم أحد قال نعم كثير منهم ومن أولادهم وهم متفرقون بمراكش وأحوازها ويقبائل الدير ولو أمرني مولانا بجمعهم لجمعهم فولاه أمرهم وكتب له إلى قواد القبائل يأمرهم بشد عضده وإعانتة على ما هو بصده فأخذ عليايش يبحث عنهم بمراكش وينقر عن أنسابهم إلى أن جمع من بها منهم ثم خرج إلى الدير فجمع من وجد به ثم سار إلى قبائل الحوز فاستقصى من فيها حتى لم يترك بتلك القبائل كلها أسود سواء كان مملوكاً أو حرطانياً أو حراً أسود واتسع الخرق وعسر الرتق فجمع في سنة واحدة ثلاثة آلاف

رأس منهم المتزوج والعزب ثم كتبهم في دفتر وبعث به إلى السلطان بمكناسة فتصفحه السلطان وأعجبه ذلك فكتب إليه يأمره بشراء الإماء للأعزب منهم ويدفع أثمان المماليك منهم إلى ملاكهم ويكسوه من أعشار مراكش ويأتيه بهم إلى مكناسة فاجتهد عليايش في ذلك واشترى من الإماء ما قدر عليه وجمع من الحرطانيات عدداً إلى أن استوفى الغرض وكساهم وألزم القبائل بحملهم إلى الحضرة فحملوا من قبيلة إلى أخرى إلى أن وصلوا مكناسة فأعطاهم السلطان السلاح وولى عليهم قوادهم وبعث إليهم إلى الموضع المعروف بالمحلة من مشرع الرملة من أعمال سلا ثم بعث السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد بن العياشي المكناسي إلى قبائل الغرب وبني حسن وأمره بجمع العبيد الذين بها فمن لا ملك لأحد عليه يأخذه مجاناً ومن كان مملوكاً لأحد فليعط صاحبه ثمنه ويحوزه منه فخرج ابن العياشي وطاف في تلك القبائل واستقصى كل أسود بها وكان السلطان قد كتب أيضاً إلى عماله بالأمصار بأن يشتروا له العبيد والإماء من فاس ومكناسة وغيرهما من حواضر المغرب عشرة مثاقيل للعبد وعشرة مثاقيل للامة فاستوعبوا ما وجدوا حتى لم يبق عند أحد عبد ولا أمة فاجتمع مما اشتراه العمال ثلاثة آلاف أخرى فكساهم السلطان وسلحهم وبعث بهم إلى المحلة بعد أن عين لهم قوادهم ثم أن ابن العياشي قدم بدفتر فيه ألفان من العبيد فيهم المتزوج والعزب فكتب السلطان إلى القائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي صاحب بلاد الهبط أن يشتري للأعزب منهم الإماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطاوين ويعين لهم قوادهم ويبيعهم بهم إلى المحلة فصار المجموع ثمانية آلاف وهذا العدد هو الذي نزل أولاً بها ثم ألزم السلطان قبائل تامسنا ودكالة أن يأتوا بعبيد المخزن الذين عندهم فلم يسعهم إلا الامتثال فجمعوا كل عبد في بلادهم وزادوا بالشراء من عندهم وأعطوهم الخيل والسلاح وكسوهم وبعثوا بهم إليه فمن تامسنا

ألفان ومن دكالة ألفان فأنزلهم السلطان بوجه عروس من أحواز مكناسة إلى أن بنى قسبة أدخسان فأنزل عبيد دكالة بها وأنزل عبيد تامسنا بزواوية أهل الدلاء ثم دخلت سنة تسع وثمانين وألف فيها غزا السلطان المولى إسماعيل صحراء السوس فبلغ أقاوطاط وتيشيت وشنكيظ وتخوم السودان فقدمت عليه وفود العرب هنالك من أهل الساحل والقبلة ومن دليم وبربوش والمغافرة وودي ومطاع وجرار وغيرهم من قبائل معقل وأدوا طاعتهم وكان في ذلك الوفد الشيخ بكار المغفري والد الحرة خناتي أم السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل فأهدى الشيخ المذكور إلى السلطان ابنته خناتي المذكورة وكانت ذات جمال وفقه وأدب فتزوجها السلطان رحمه الله وبنى بها وجلب في هذه الغزوة من تلك الأقاليم ألفين من الحرطين بأولادهم فكساهم بمراكش وسلحهم وولى عليهم وبعث بهم إلى المحلة ونقل هو إلى حضرته من مكناسة فكان عدد ما جمع من العسكر البخاري أربعة عشر ألفاً عشرة آلاف منها بمشرع الرملة وأربعة آلاف بأدخسان وما والاها من بلاد البربر ثم عفوا وتناسلوا وكثروا حتى ما مات المولى إسماعيل إلا وقد بلغ عددهم مائة وخمسين ألفاً كما سيأتي إن شاء الله واعلم أنه قد وقع في هذه الأخبار لفظ الحرطاني ومعناه في عرف أهل المغرب العتيق وأصله الحر الثاني كان الحر الأصلي حر أول وهذا العتيق حر ثان ثم كثر استعماله على الألسنة فقيل الحرطاني على ضرب من التخفيف وأما سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخاري فإن المولى إسماعيل رحمه الله لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض حمد الله تعالى وأثنى عليه وجمع أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح البخاري وقال لهم أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله وشرعه المجموع في هذا الكتاب فكل ما أمر به ففعله وكل

ما نهى عنه نتركه وعليه نقائل فعاهدوه على ذلك وأمر بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام حروبهم كتابوت بني إسرائيل وما زال الأمر على ذلك إلى هذا العهد فلماذا قيل لهم عبيد البخاري قال في البستان كان مال هذا العسكر البخاري مع أولاد أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله مثل مال الترك مع أولاد المعتصم بن الرشيد العباسي في كونهم استبدوا عليهم وصاروا يولون ويعزلون ويقتلون ويستحيون إلى أن تم أمر الله فيهم وتلاشى جمعهم وتفرقوا في البلاد شذر مذر وما أحياهم إلا السلطان المرحوم المولى محمد بن عبد الله ولما عفوا وكثروا خرجوا عليه بابنه المولى يزيد وفعولوا ففعلتهم التي فعلوها من قبل حسبما تسمعه بعد إن شاء الله غزو أمير المؤمنين المولى إسماعيل بلاد الشرق وانعقاد الصلح بينه وبين دولة الترك أهل الجزائر ثم غزا أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله بلاد الشرق فترك تلمسان عن يساره وأصح في ناحية القبلة فقدمت عليه هنالك وفود العرب من ذوي منبع ودخيسه وحميان والمهابة والعمور وأولاد جرير وسقونه وبني عامر والحشم فسار بهم إلى أن نزل القويعة على رأس وادي شلف المسمى اليوم بوادي صا وكان رائده إليهما والبال له عليها هم بنو عامر بن زغبة فخرج جيش الترك مع ثغر الجزائر بقضهم وقضيضهم ومدافعهم ومهاريهم ونزلوا على وادي شلف قبالة السلطان رحمه الله ولما كان وقت العشاء أرحوا مدافعهم ليدهشوا العرب الذين مع السلطان فكان الأمر كذلك فإنه لما انتصف الليل انسل بنو عامر من محلة السلطان وأصبحت الأرض منهم بلاقع ولما أصبح بقية العرب وعلموا بفرار بني عامر انهزموا دون قتال ولم يبق مع السلطان إلا عسكره الذي جاء به من المغرب فكان ذلك سبب تأخره عن حرب الترك وقفو له إلى حضرته وكتابه الترك في أن يتخلى لهم

عن بلادهم ويقف عند حد أسلافه ومن كان قبلهم من ملوك الدولة السعيدية فإنهم ما زاحموهم قط في بلادهم وبعثوا إليه بكتاب أخيه المولى محمد بن الشريف الذي كان بعث به إليهم مع رسلهم حسبما تقدم وبكتاب أخيه المولى الرشيد الذي فيه الحد بينه وبينهم فوقع الصلح على ذلك الحد الذي هو وادي تافنا ولما قفل السلطان رحمه الله ومن في طريقه بمدينة وجدة أمر ببنائها وتجديد ما تنلم منها ثم قفل إلى فاس ثم منها إلى الحضرة بمكناسة الزيتون وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وألف خروج الإخوة الثلاثة من أولاد المولى الشريف ابن علي بالصحراء وما كان من أمرهم وفي أواخر رمضان سنة تسع وثمانين وألف بلغ السلطان رحمه الله وهو بمكناسة خروج إخوته الثلاثة المولى الحزان والمولى هاشم والمولى أحمد بن الشريف بن علي مع ثلاثة آخرين من بني عمهم وأنهم تدرجوا إلى آيت عطاء من قبائل البربر فنهض إليهم السلطان رحمه الله بالعساكر وسلك طريق سلجلماسة فكان اللقاء بجبل ساغرو في عشرين من ذي الحجة من السنة فالتقى جيش السلطان وجيش الخارجين وجلهم آيت عطاء فاقتتلوا وكان الظفر للسلطان بعد أن هلك من جيشه ثم من رماه فاس بالخصوص نحو أربع مائة دون من عداهم وهلك قائد العسكر موسى بن يوسف وانهزم الإخوة وأبعوا المفر إلى الصحراء وكان في تلك السنة وباء عظيم قد انتشر في بلاد المغرب فرجع السلطان على طريق الفايجة فأصابه تلج عظيم بثنية الكلاوي من جبل درن أهلك الناس وأتلف متاعهم وأخبيتهم وما تخلصوا منه إلا بمشقة فادحة ولما نزلت العساكر بزواوية الشيخ أبي العزم سيدي رحال الكوش مدوا

أيديهم إلى أموال الناس وزرعوهم بالنهب لما مسهم من ضرر الجوع فشكا الناس ذلك إلى السلطان فأمر بقتل كل من وجد خارج المحلة فقتل في ذلك اليوم من الجيش نحو الثلاثمائة ثم أمر بجر الوزير أبي زيد عبد الرحمن المنزري لأمر نقمه عليه وقتل أصحابه بالرصاص فجر الوزير المذكور إلى فاس ومكناسة ولم يصل إليهما إلا بعض شلوه فطرح على المزبلة ووصل السلطان إلى مكناسة فاحتل بدار ملكه واقعد أريكة عزه ثم دخلت سنة تسعين وألف ففي المحرم منها وقع الوباء بفاس وأعمالها فأمر السلطان العبيد أن يردوا الناس عن مكناسة فكانوا يتعرضون لهم في

الطرق بناحية سبو وساييس يردونهم عن مكناسة وكل من يأتي من ناحية القصر وفاس يقتلونه فانقطعت السبل وتعذرت المرافق وفي أواخر الحرم من هذه السنة أوقع جيش المسلمين بنصاري طنجة فقتلوا منهم نحو ثلاثمائة وخمسين وانتزعوا منهم قصبه بأربعة أبراج واستشهد من المسلمين نحو الخمسين رحمهم الله نقل زرارة والشبانان إلى وجدة وبناء القلاع بالتحوم وما تخلل ذلك وفي هذه السنة التي هي سنة تسعين وألف أمر أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله بنقل عرب زرارة والشبانان قوم كروم الحاج من الحوز إلى وجدة لما كانوا عليه من الظلم والفساد في تلك البلاد فأنزلهم بوجدة ثغر المغرب وكتبهم في الديوان وولى عليهم أبا البقاء العياشي بن الزويجر الزراري وتقدم إليه في التصديق على بني يزناسن إذ كانوا يومئذ منحرفين عن الدولة و متمسكين بدعوة الترك فكان زرارة والشبانان يغيرون عليهم ويمنعونهم من الحرث ببسيط أنكاد وأمر السلطان رحمه الله أن تبنى عليهم قلعة من ناحية الساحل قريبة وجدة بالموضع المعروف برفادة وأمر القائد

العياشي أن ينزل بها خمسمائة فارس من إخوانه يمنعونهم النزول ببسيط ترفية والارتفاق به من حرث وغيره ثم أمر رحمه الله أن تبنى قلعة أخرى بطرف بلادهم بالعيون وينزل بها القائد المذكور خمسمائة أخرى من إخوانه أيضا وأمر أن تبنى قلعة ثالثة بطرف بلادهم على ملوية وينزل بها خمسمائة فارس كذلك وجعل للقائد العياشي المذكور النظر في القلاع الثلاث وهو بوجدة في ألف فارس فكانوا في الدفتر ألفين وخمسمائة ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وألف ففي جمادى الثانية منها خرج السلطان من الحضرة في الجنود قاصدا بني يزناسن الذين تمادوا على العصيان فاقترح عليهم جبلهم واعترف بروعهم وانتسف زروعهم وضروعهم وحرق قراهم وقتل رجالهم وسبى ذراريهم فطلبوا الأمان فأمن بقتلهم على أن يذفروا الخيل والسلاح التي عندهم فذفعوها من غير توقف وقاموا بدعوته جبرا عليهم ثم نزل ببسيط أنكاد وحضر عنده قبائل الأحلاف وسقونه فأرسلهم من خيولهم وجردهم من سلاحهم وانتزعها منهم وألزم أشياخهم أن يجمعوا له ما بقي بحتلهم منها ففعلوا ثم فعل بالمهاية وحميان كذلك وانكفأ راجعا إلى المغرب ولما نزل وادي صا أمر ببناء قلعة تاوريرت التي بناها السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني فجدها وأنزل فيها مائة فارس من عبيده بعيالهم وأولادهم ولما نزل بوادي مسون أمر أن تبنى به قلعة أخرى بجوار القديمة وأنزل فيها مائة فارس من العبيد كذلك ثم أنزل بتازا ألفين وخمسمائة من خيل العبيد بعيالهم وولى عليهم منصور بن الرامي وجعل نظر القلاع التي بتازا ووادي صا للقائد منصور المذكور وعين لكل قبيلة من قبائل تلك البلاد قلعتها التي تدفع بها زكواتها وأعشارها لمؤنة العبيد وعلف خيولهم وهم حراس الطريق فمن وقع في أرضه شيء عوقب عليه قائد تلك القلعة ولما وصل السلطان إلى الكور أمر أن تبنى به قلعة أيضا وأنزل بها

مائة فارس من عبيده بعيالهم ولما انتهى إلى فاس أنزل بقصبة الخميس التي بنى سورها المولى الرشيد خمسمائة من الخيل بعيالهم من شراقة العرب والبربر الذين قدموا مع المولى الرشيد رحمه الله حسبما تقدمت الإشارة إليه ثم أمر رحمه الله ببناء قلعة بالمهدومة وأخرى بالجديدة من أعمال مكناسة وأنزل بكل واحدة مائة من خيل العبيد بعيالهم لحراسة الطرق وبكل قلعة فندق لمبيت القوافل وأبناء السبيل ثم دخل السلطان رحمه الله حضرته مؤيدا منصورا وذلك في خامس شعبان سنة إحدى وتسعين وألف فتح المهديّة ومحاربة ابن محرز بالسوس وما تخلل ذلك قد تقدم لنا ما كان من استيلاء جنس الإصبيول على المعمورة المسماة بالمهدية في حدود العشرين بعد الألف وما كان بينهم وبين أبي عبد الله العياشي وأهل سلا من الحروب واستمروا بها إلى أن كانت سنة اثنتين وتسعين وألف فاقتحمها جيش السلطان المولى إسماعيل رحمه الله قال في النزهة ومن محاسن الدولة الإسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كبد العدو عنه قال وقد فتح السلطان المولى إسماعيل عدة مدن من يد النصاري كانت من مفساد المغرب ولم يهأأ للمسلمين معهم قرار من ذلك المعمورة فإنه رحمه الله قد افتتحها عنوة بعد أن حاصرها مدة وكان فتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وألف وأسر بها نحو الثلاثمائة من الكفار اه وقال في نشر المثاني كان فتح المهديّة عنوة عند صلاة الجمعة خامس عشر ربيع الثاني من السنة قيل يقتال وقيل بدون قتال وإنما أخذت بقطع الماء عنها وجيء بالنصاري الذين كانوا بها أسارى ولم يصب أحد من المسلمين وقال في البستان وفي سنة اثنتين وتسعين وألف ورد الخبر على

السلطان إسماعيل بأن ابن أخيه المولى أحمد بن محرز الذي بالسوس قد استولى على بلاد آيت زينب وقويت شوكته فأمر السلطان رحمه الله بتفريق الراتب وتجهيز العساكر إليه من فاس وتوجهت في ثامن ربيع الأول من السنة ثم بلغه أن العسكر المحاصر للمهدية قد أشرف على فتحها وتوقفوا على حضوره فنهض رحمه الله إليهم حتى حضر الفتح وأخرج رئيس النصاري فأمنه وأمن أصحابه وكانوا ثلاثمائة وستة أنفس وأما الغنيمة فقد أحرزها المجاهدون من أهل الفحص والريف الذين كانوا مرابطين عليها مع القائد عمر بن حدو البطوني ورجع السلطان إلى مكناسة بعد أن أنزل بالمهدية طائفة من عبيد السوس لعمارتها وسد فرجتها وحضر هذا الفتح جماعة من متطوعة أهل سلا منهم الولي الصالح أبو العباس سيدي أحمد حجي من صلحائها المشهورين بها واعلم أن السور العادي الذي اليوم بالمهدية هو من بناء البرتغال أيام استيلائهم عليها في دولة الوطاسيين كما مر ولما فرغ المجاهدون من أمر المهديّة ارتحلوا مع أميرهم عمر بن حدو فأصابه الوباء فمات في الطريق وتولى رئاسة المجاهدين أخوه القائد أحمد بن حدو تقسمها هو والقائد أبو الحسن علي بن عبد الله الريفي وكان أولاد الريفي هؤلاء من الشهرة في الجهاد والمكانة في الشجاعة ومكاند الحرب بمنزلة أولاد النقيس وأولاد أبي الليث وأضرابهم رحم الله الجميع ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وألف فيها غزا السلطان بلاد الشرق فنهض بني عامر ورجع إلى مكناسة وأمر بإخراج أهل الذمة من المدينة وبنى لهم حارة خارجها بالموضع المعروف ببريمة وكلف أهل تافيلالت الذين بفاس بالرحيل إلى مكناسة والسكنى بحارة اليهود القديمة التي أخليت فلم يزل أهل تافيلالت يذهبون أرسالا ويسكنونها بالكراء حتى ضاقت بهم ثم بلغه أن الترك قد خرجوا بعسكرهم واستولوا على بني يزناسن وعلى

دار ابن مشعل وأنهم قد مدوا يد الوفاق إلى ابن محرز وراسلوه وراسلهم وانبرم كلامهم معه على حرب السلطان وبلغه مثل ذلك من نائبه بمراكش فكتب إليه أن يحتاط في حراسة مراكش ويأخذ بالحزم في ذلك ويقيم في نحر ابن محرز إلى أن يرجع السلطان من غزو تلمسان ثم خرج رحمه الله بالعساكر لمصادمة الترك فوجدهم قد رجعوا إلى بلادهم لما بلغهم من خروج النصاري بشرشال فساروا إليهم وفتكوا فيهم فتكة بكرا وردوهم على أعقابهم صاغرين ورجع السلطان رحمه الله من وجهته وقد دخلت سنة أربع وتسعين وألف فسار على تفتته إلى مراكش فأراح بها ثم نهض منها إلى السوس فالتقى بابن أخيه المولى أحمد بن محرز في أواخر ربيع الثاني من السنة وقامت الحرب بينهما على ساق واستمر القتال نحو من خمسة وعشرين يوما هلك فيها من الفريقين ما لا يحصى ودخل ابن محرز تارودانت فتحصن بها وكان الوقت وقت غلاء فضاق الأمر على أهل الحركة فجعلوا يهربون وكثر فيهم السجن والضرب والرد إليها في الحين ثم كان بينهما حرب أخرى هلك فيها خلق كثير نحو ألفين وجرح السلطان وجرح ابن محرز أيضا وذلك في أواسط جمادى الآخرة من السنة واستمر الحال على ذلك إلى رمضان من السنة قال أبو عبد الله أكتسوس حدثني بعض الثقات أن السلطان المولى إسماعيل رحمه الله لما أعياه أمر ابن أخيه المذكور أصبح ذات يوم دهشا كنيبا فقال لوزيره الفقيه أبي العباس اليجمدي إني رأيت في هذه الليلة رؤيا أحزنتني إلى الغاية فقال وما هي يا مولانا وعسى أن تكون خيرا قال رأيت كأن هذه الجنود التي معنا ما بقي منها أحد ولم يبق إلا أنا وأنت مختفين في غار مظلم فسجد الوزير اليجمدي شكرا لله تعالى وأطال السجود ثم رفع رأسه وقال أبشر يا مولانا فقد نصرنا الله على هذا الرجل فقال له السلطان ومن أين لك ذلك فقال له من قوله تعالى ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا التوبة

قال عليه الصلاة والسلام فما ظنك باثنين الله ثالثهما فسر السلطان بذلك غاية السرور وانسرى عنه ما كان يجده من الغم وعلم أن رؤياه بشارة من الله تعالى له وعلى أثر ذلك وقع الصلح بينهما في رمضان ورجع السلطان إلى حضرته فدخلها في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة امتحان القضاة والسبب فيه قال العلامة القادري في الأزهار الندية وفي هذه السنة أعني سنة أربع وتسعين وألف أمر السلطان بالقبض على جميع القضاة وامتحنوا ووصفوا بالجهل وسجنوا في مشور فاس الجديد حتى يتعلموا ما لا بد منه من أحكام ما هم مدفوعون إليه ثم أخرجوا أيام المولد الكريم إلى مكناسة فهددوا بها أيضا حتى أمر بجبس بعضهم أو قبله ثم أطلقوا معزولين اه قال أكتسوس ولعل المراد بهم قضاة البوادي ومن في معناهم قلت

ولم أر في الأزهار شيئا من هذا ولعله في نسخة الأصل لأنهم نكروا أنهما نسختان إحداهما مختصرة من الأخرى والله أعلم غزو البربر وبناء القلاع بإزاء معاقلم ثم دخلت سنة خمس وتسعين وألف فيها خرج السلطان في العساكر إلى جبال فزاز لحرب صنهاجة من البربر الذين هنالك فلما سمعوا بخروج السلطان انهزموا إلى ملوية فدخل السلطان بلادهم واختط قلعة بعين اللوح بسفح جبلهم ثم نزل بعين أصرو فأمر ببناء قلعة هنالك بسفح الجبل أيضا ثم تبع آثارهم إلى أن دخلوا جبل العياشي وتربص رحمه الله بملوية إلى أن دخل فصل الشتاء وكان قصده بذلك التربص إتمام سور القلعتين ولما عزم على الرجوع أنزل بقلعة أصرو ألف فارس وبقلعة عين اللوح خمسمائة فارس فأخذوا بمخفهم واستراح الناس من عيبتهم ببسيط سائس ولما منعوا

من السهل وانقطعت عنهم الميرة وقلت الأقوات خشعوا ونزل وهدموا مكناسة على السلطان تائبين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح والاشتغال بالحرث والنتاج فدفعوها عن يد وهم صاغرون وهؤلاء هم آيت ادراسن فأعطاهم السلطان رحمه الله عشرين ألفا من الغنم ألزمهم برعايتها وحفظها وأسقط عنهم الوظائف فصلحت أحوالهم وصاروا في كل عام يدفعون صوفها وسمنها ويزيدهم الغنم إلى أن بلغ عددها ستين ألفا وقلت شوكتهم وذهب بأسهم فتح طنجة قد تقدم لنا أن طنجة صارت إلى جنس النجليز من يد البرتغال واستمرت بيده إلى سنة خمس وتسعين وألف فعقد السلطان المولى إسماعيل رحمه الله للقائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي على جيش المجاهدين ووجهه لحصار طنجة فضيقوا على من بها من النصارى وطاولوهم إلى أن ركبوا سفنهم وهربوا في البحر وتركوا خاوية على عروشها وذلك في ربيع الأول سنة خمس وتسعين وألف قاله في الزهة وقال في البستان لما ضاق الأمر على النصارى الذين بطنجة وطال عليهم الحصار خربوها وهدموا أسوارها وأبراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب وشرع قائد المجاهدين علي بن عبد الله الريفي في بناء ما تهدم من أسوارها ومساجدها في فاتح جمادى الأولى من السنة قلت وأعقاب هذا القائد لا زالوا اليوم بطنجة وكثيرا ما تكون فيهم الرياسة هنالك ثم اتفق أن تشب بقرب ساحلها مركب قرصاني جاء مددا لأهل سنة فيه أموال وبضائع فحارب المسلمون أهله عليه واحتوتوا على ما فيه وألزم السلطان قبيلة غمارة بجر مدافعه النحاسية إلى مكناسة وأرسل الرماة من أهل فاس لجرها أيضا فأتوا بها لأربعين يوما والله غالب على أمره

غزو البربر ثانيا وبناء القلاع في نحورهم ثم دخلت سنة ست وتسعين وألف فيها خرج السلطان غازيا بلاد ملوية وجعل طريقه على مدينة صفرو ففرت قبائل البربر إلى رؤوس الجبال وهم آيت بوسي وشغروسن وأيوب وعلامه وقادم وحيون ومدبونة فأمر السلطان ببناء قلعة بأعليل وأخرى على وادي كيكو من أسفله وأخرى على وادي سكورة وأخرى على وادي تاشواكت ثم خرج السلطان بملوية ففرت القبائل المذكورة إلى جبل العياشي وتفرقا في شعبه فأمر ببناء قلعة بدار الطمع وقلعة بتابوست وقلعة بقصر بني مطير وقلعة بوطواط وقلعة بالقصايي وأقام على نهر ملوية بيت السرايا ويشن الغارات على البربر قريبا من سنة والعمل مستمر في بناء القلاع إلى أن أكملت أسوارها وأنزل رحمه الله بكل قلعة أربعمائة من خيل العبيد بعيالهم وجاءته وفود البربر تائبين طائعين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح فدفعوها وصفا له رحمه الله هذا الربع الشرقي من جبل درن والله ولي التوفيق بمنه مقتل المولى أحمد بن محرز وفتح تارودانت وما يتصل بذلك وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين وألف بلغ السلطان المولى إسماعيل رحمه الله وهو بمكناسة أن أخاه المولى الحران وابن أخيه المولى أحمد بن محرز قد دخلا قسبة تارودانت واستحوذا على تلك الجهات فنهض إليهما ووالى السير حتى أتاهما بكليلة على تارودانت وحاصرهما بها أياما فاتفق أن ابن محرز خرج ذات يوم في جماعة من عبيده لزيارة بعض الأولياء فلقية جماعة من زرارة أصحاب السلطان فلم يعرفوه وظنوا أنه بعض قواد ابن محرز فقتلوه فماصعهم هنيئة ثم قتلوه فإذا هو ابن محرز

ولما اتصل الخبر بالسلطان خرج حتى وقف عليه فعرفه وأمر بتجهيزه ودفنه فدفن مع الغرناطي أحد قواد الجيش وكان قد قتل ذلك اليوم وكان مقتل المولى أحمد رحمه الله في أواسط ذي القعدة سنة ست وتسعين وألف بعد تشييبه على السلطان أربع عشرة سنة ثم بعد أيام خرج أهل تارودانت ليلا إلى قبر المولى أحمد فنبشوه ونبشوا قبر الغرناطي لأنه كان قد التبس عليهم به فاستخرجوها معا حتى عرفوا المولى أحمد فحملوه في تابوته وتركوا الغرناطي على سفير قبره واستمر المولى الحران محصورا بتارودانت والحرب قائمة على ساق إلى أن دخلت سنة سبع وتسعين وألف فكانت حرب هلك فيها نحو الستمائة نفس من الجند منهم القائد زيتون والباشا حمدان وغيرهما ثم كانت حرب أخرى أعظم من الأولى ثم ثالثة كذلك هلك فيها القائد أبو زيد عبد الرحمن الروسي وتولى مكانه ابن الغرناطي واستمر الحال بها إلى جمادى الأولى من سنة ثمان وتسعين وألف فاقترح السلطان تارودانت عنوة بالسيف واستباحها واستولى عليها وفر المولى الحران إلى حيث أمن على نفسه ولما اتصل خبر الفتح بأهل فاس عينوا وفدا من كبارهم وأشرفهم وغلماهم فقدموا على السلطان بقصد التهنئة يقدمهم ولده المولى محمد بن إسماعيل فأكرمهم وفادتهم وخرج أولاد النسب من سبته وكانوا قد لجؤوا إليها بعد مقتل الخضر غيلان فقدموا على السلطان يسكروه من تارودانت فأمر بردهم إلى تطاوين وقتلهم بها وأمر بقتل من كان منهم مسجوناً بفاس فقتلوا أجمعون رحمهم الله ثم دخلت سنة تسع وتسعين وألف فيها قتل السلطان من السوس فدخل دار ملكه مكناسة واستقر بها ويعت إلى عامل فاس أن يخرج من بها من أهل الريف إلى تارودانت بقصد عمارتها والسكنى بها وفي خامس جمادى الأولى من السنة استدعى السلطان فقهاء فاس لحضور ختم التفسير عند قاضيه أبي عبد الله المجاصي فحضروا وأكرمهم ووصلهم

غزو برابرة فزاز وبناء قلعة آدخسان لما تهبأ السلطان رحمه الله لغزو أهل جبل فزاز نهض إليهم وصعد الجبل من الناحية الغربية فأول من قدم عليه من برابرتة بالطاعة زمور وبنو حكم فولى عليهم رئيسهم بابشي القبلي فاستصفي منهم الخيل والسلاح ثم تجاوزها إلى المال فاستصفاها أيضا وجمع ذلك كله وقدم به على السلطان وهو ببسيط آدخسان فقدمه إليه فأكر السلطان عليه ذلك وقال له ما حملك على ما فعلت ولم أمرك به فقال له يا مولانا إن كان غرضك في صلاحهم وفلاحهم فهو الذي فعلت لك ولهم وإن سرت معهم بغير هذا أتعبوك وأتعبوا أنفسهم وإنما طهرتهم من الحرام ليشتغلوا باكتساب الحلال فإنه ينمو ويزكو فاستحسن السلطان قوله وأمضى فعله وأقام رحمه الله بأدخسان يحارب آيت ومالو سنة كاملة حتى بنى قلعة آدخسان الجديدة بمحل القديمة التي كان بناها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله وخربت ولما دخل فصل الشتاء أنزل بالقسبة ألفا وخمسمائة فارس من عبيد أهل دكالة الذين كانوا بوجه عروس نقلهم إليها بأولادهم وأنزل بزواوية أهل الدلاء ألفا وخمسمائة فارس من عبيد الشاوية الذين كانوا بوجه عروس أيضا نقلهم بعيالهم وأمرهم بحصار البربر ومنعهم من النزول للمرعى والحرث ونحوهما ثم قفل إلى مكناسة قال صاحب البستان وهو أبو القاسم الصياني وفي هذه المرة نقل معه جدنا الفقيه الأستاذ ابا الحسن علي بن إبراهيم بأولاده إلى مكناسة وسبب ذلك أنه لما نزل بأدخسان واجتمع عليه الأشراف الذين باركوا قال لهم دلوني على رجل صاحب فقه ودين يؤمني في الصلوات فقالوا له ليس بهذا الجبل أتقى من سيدي علي بن إبراهيم فأتوا به فكان إمامه في المحلة ولما قفل أخذ معه قال فهذا سبب انتقال جدنا من أركو إلى الحضرة

اه بيان تربية أولاد عبيد الديوان وكيفية تأديبهم قد قدمنا أن جمهور عبيد البخاري كانوا بالمحلة من مشرع الرملة وأنهم تتاسلوا بها وكثروا إلى الغاية فلما كانت سنة مائة وألف أمر السلطان رحمه الله أولئك العبيد أن يأتوه بأبنائهم وبناتهم من عشر سنين فما فوق فلما قدموا عليه فرق البنات على عريفات داره كل طائفة في قصر للتربية والتأديب وفرق الأولاد على البنائين والنجارين وسائر أهل الحرف للعمل والخدمة وسوق الحمير والتدريب على ركوبها حتى إذا أكملوا سنة نقلهم إلى سوق البغال الحاملة للأجر والزليج والقرمود والخشب ونحو ذلك حتى إذا أكملوا سنة نقلهم إلى خدمة المركز وضرب ألواح الطابية حتى إذا أكملوا سنة نقلهم إلى المرتبة الأولى في الجندي فكساهم ودفع إليهم السلاح يتدربون به على الجندي وطرقها حتى إذا أكملوا سنة دفع إليهم الخيل يركبونها أعراء بلا سروج ويجرونها في الميدان للتمرس بها والتدريب على ركوبها حتى إذا أكملوا سنة وملكوا رؤوسها دفع إليهم السروج فيركبونها بها ويتعلمون الكر والفر والثقافة في المطاعنة والمراعاة على صهواتها حتى إذا أكملوا سنة بعد ذلك صاروا في عداد الجند المقاتلة فيخرج لهم السلطان البنات اللاتي قدمن معهم ويزوج كل واحد من الأولاد واحدة من البنات ويعطي

الرجل عشرة مثاقيل مهر زوجته ويعطي المرأة خمسة مثاقيل شورتها ويولي عليهم واحدا من آياتهم الكبار ويعطي ذلك القائد ما يبني به داره وما يبني به أخصاص أصحابه وهي المعروفة عندنا بالنواويل ويبعث بهم إلى المحلة بعد أن يكتبوا في ديوان العسكر واستمر الحال هكذا ففي كل سنة يأتي من المحلة عدد صغير ويتوجه إليها من عند السلطان عدد كبير من سنة مائة وألف إلى أن توفي السلطان رحمه الله في التاريخ الآتي فبلغ عدد هذا العسكر البخاري مائة ألف وخمسين ألفا منها ثمانون ألفا مفرقة في قلاع المغرب لعمارتها وحراسة طرقها وسبعون ألفا بالمحلة وعدد القلاع التي بناها المولى إسماعيل رحمه الله بالمغرب ست وسبعون قلعة لا زالت

قائمة العين والأثر بأفاق المغرب يعرفها الخاص والعام إلى الآن هكذا وجد في كتابات الدولتين الرشيدية والإسماعيلية الفقيه أبي الربيع سليمان بن عبد القادر الزرهوني المتوفى بتارودانت سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف وكان عنده دفتر العسكر كله سواء السواد الأعظم والمتفرق في قلاع المغرب قال صاحب البستان وأين هذا مما نقله المؤرخون على وجه الغرابة من أن الخليفة المعتمد بن رشيد رحمه الله بلغ عدد مماليكه الذين اشتراهم والذين جلبهم من بلاد الترك ثمانية عشر ألفا قال وهذا العدد الذي جمعه أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله من العبيد لو خاض به البحر إلى الأندلس وكانت تلك القلاع سفنا ومراكب جهادية لاستولى عليها والتوفيق من الله اه قلت وهو لعمرى كلام مقبول لكن الإنسان مجبور في قالب مختار وتصاريح الأمور جارية بيد الله لا بيد غيره وما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه وقال الشاعر لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها وقال الآخر لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه وقال وإذا ما خلا الجبان بأرض طرب وحده والنزلا ومن أمثال العامة القاعد على الجرف محسن للسباحة هذا كله بالنظر إلى الحقيقة فأما الشريعة فقد قال تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل الأنفال الآية وعلى كل حال فلا يسوغ للإنسان أن يهمل الاستعداد المأمور به شرعا ويكل الأمر إلى القدر وإلا فيكون مخطئا مخالفا للشرع والطبع قال للأعرابي الذي ترك ناقته مرسله أعقلها وتوكل وقال الشاعر

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر اللهم إنا نسألك العفو والعافية والتوفيق والल्प فيما جرت به المقادير يا نعم المولى ونعم النصير فتح العرائش وفي هذه السنة أعني سنة مائة وألف في آخر شوال منها سار القائد أبو العباس أحمد بن حنو البطوئي في جماعة من المجاهدين لحصار العرائش وكان الإصبيول خذله الله قد استولى عليها على يد الشيخ بن المنصور السعدي كما مر فنزل القائد أبو العباس المذكور عليها وضيق على الكفار الذين بها وحاصروهم نحو من ثلاثة أشهر ونصف كذا في النزهة وقال المؤرخ منوب إن مدة الحصار كانت خمسة أشهر قال وكان طاغية الفرنسي وهو لويز الرابع عشر قد أعان المولى إسماعيل على فتح العرائش وحاصرها بحرا بخمس فراقط وقطع عنها المادة مدة ثم ألق عنها ثم بعد ذلك كان الفتح قال في النزهة فتحها المسلمون بعد معاناة شديدة وذلك أنهم حفروا المينات تحت خندق سورها الموالي للمرسى وملووها بارودا ثم أوقدوها بالنار فنفطت وسقط جانب من السور فافتحم المسلمون منه وتسلقوا إلى ما كان من النصارى على الأسوار فوقعت ملحمة عظيمة وفر باقيهم إلى حصن القبيبات الذي بناه المنصور السعدي واعتصموا به يوما وليلة فامر قلوبهم الجزع وطلبوا الأمان فأمنهم القائد أبو العباس المذكور على حكم السلطان فنزلوا عليه فأخذوا أسارى بأجمعهم ولم يعق منهم إلا أميرهم وحده وتم الفتح وذلك يوم الأربعاء الثامن عشر من المحرم سنة إحدى ومائة وألف وما في البستان وقلده صاحب الجيش أن نصارى العرائش اعتصموا بحصن القبيبات سنة كاملة خطأ لا يعول عليه وكان عدد نصارى العرائش قبل الاستيلاء عليهم ثلاثة آلاف ومائتين

ولما ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو ألفين وقتلوا منهم اثنتي عشرة مائة ووجد بها من البارود والعدة ما لا يحصى كثرة فمن المدافع نحو مائة وثمانين منها اثنان وعشرون من النحاس والباقي من الحديد ومنها مدفع يسمى الغصاب طوله خمسة وثلاثون قدما بالحساب ووزن كرتة خمسة وثلاثون رطلا بحيث حلق عليه بقرب خزانتة أربعة رجال كذا سمع من المشاهدين لذلك بعد السؤال كذا في النزهة قال منوب في كتابه إن النصارى ما أسلموا أنفسهم حتى شرطوا شروطا معتبرة لكن السلطان نكث اه قلت حكى أبو القاسم العميري في فهرسته ما حصله أن نصارى العرائش ادعوا أن الفتح المذكور إنما كان صلحا وتأمينا لا عنوة ثم لما طال النزاع في ذلك أمر السلطان قاضي حضرته المكاسبية أبا عبد الله محمد المعروف بأبي مدين ببيان الحكم في ذلك فأجاب جوابا طويلا حرر فيه حكم الشريعة المحمدية بما لا غاية فوقه وحكم على أولئك النصارى بالأسر وقد ذكر ذلك بتامه في الفهرسة المذكورة فليظن هنالك وأمر السلطان رحمه الله بإشخاص أولئك النصارى إلى مكناسة الزيتون وكانوا ألفا وثمانمائة على ما في البستان فكان يستخدمهم مع غيرهم من المساجين والأسرى في بناء قصوره بالنهار وبيوتون ليلا في الدهليز وهو في عرف المغاربة هري تحت الأرض وأسكن السلطان رحمه الله أهل الريف العرائش وأمر قائدهم أن يبني بها مسجدين وحماما وبينى داره بقلعتها وفي فتح العرائش أنشد الخطيب البليغ أديب فاس ومفتيها أبو محمد عبد الواحد بن محمد الشريف البوعاني فقال ألا أبشر فهذا الفتح نور قد انتظمت بعزكم الأمور وطير السعد نادى حيث غنى قد انشروحت بفتحكم الصدور وضوء النصر ساعده التهاني ونور الفخر نحوكم يدور وقد

واقتمكم الخبرات طرا وطاب العيش واتصل السرور حميتم بيضة الإسلام لما بعين الحق قد حرس الثغور وجاهدتم وقاتلتهم فأنتم لدين الله أقمار تنير وأطلعتم صوارمكم نجوما لدى هيجاء صاحبها كفور فأنتم البدر يوم السلم حسنا في يوم الوغا الأسد الهصور وفي ثغر العرائش قد تبدي لقد ركم على الشعري الظهور لقد كان الملوك فساروها وراموها وبان لها نفور فلما جاءها انقادت وقالت إليك بحق مولانا المصير ملكت قياد عزتها بذل فما أغنى الحصار ولا العبور قهرتم بأبطال ضخام على الهيجاء كلهم جسور فكم رأس من الكفار أمسى قطيع الرأس مجرورا يخور وكم نحر قلادته رماح وسن الرمح مركزه النحور وكم أسرى وكم قتلى بأرض وكم جرحى دماؤهم تقور تمر بها الطيور فتنتقيها ويات الذئب وهو لها شكور وأضحى الناس كلهم نشاوى على طرب وما شربت خمور فيشراكم بهذا الفتح نور وبشراكم بما من الغفور به زادت ما تترك علوا وقد عظمت به لكم الأجور ألا يا معشر الكفار هذا يبيدكم وليس له فتور ألا يا أهل سبتة قد أتاكم بسيف الله سلطان وقور إذا ما جاء سبتة في عشي تناديه إذا كان البكور ووهران تنادي كل يوم متى يأتي الإمام متى يزور متى يأتي ويفتحها سريعا ويلحق أهلها منه تبور فيهمهم ويقتلهم ويسبي وسيف الحق في يده ينور أيا مولاي قم وانهض وشمّر لأندلس فأنت لها الأمير وجاهدهم وحاربهم وفرق جموعهم فربكم النصير ولا يمنع بفضل الله منها كما قد قيل بر أو بحور لسان الحال ينشد كل يوم ومعنى الحال تفهمه الصدور بقرطبة تتال المجد طرا وبأتي العز والملك الكبير

وذلك بعون الله سهل ومن بركاتكم أمر يسير أيا مولاي إسماعيل هذا عبيدكم الضعيف المستجير بندايدكم بندايدكم ويدعو دعاء لا تعييه الدهور فيارب البرية ياإلهي وبا رحمن يا نعم المجير أتب هذا الأمير بكل خير ولا تجعل تجارته تيور وأبق الملك فيه وفي بنيه ولو كرهت زيود أو عمور ونحن رعية نرجو هناء وبالسلطان تنتظم الأمور عليكم من عبيدكم سلام مدى الدنيا يضمخه العبير يعم جنابكم ما قال صب ألا أبشر فهذا الفتح نور وقال في ذلك الفقيه العالم الورع الشهير أبو محمد عبد السلام بن حمدون جسوس رحمه الله رفعت منازل سبتة أقرالها تشكو إليكم بالذي قد هالها مع بادس وبريجة تعطفوا وتنبهوا كي تسمعوا تساءلها يابن النبي الهاشمي محمد قل يا أمير المؤمنين أنا لها فقد قضيتم للعرائش حاجة مع طنجة فاقضوا لذي أمالها عار عليكم أن تكون أسيرة بجواركم وجنودكم تغزى لها إن لم تكونوا أخذين بثأرها من ذا يفك من الوثاق حبالها لا تسمع من جاهل ومثبط ومصعب من جهله أحوالها إن الذين تقدموا قد جاهدوا بنفوسهم وبمالهم أمثالها فتملكوا أملاكها وديارها وتقسما أموالها ورجالها فابعث لها أهل الشجاعة عاجلا حتى تراهم نازلين جبالها وأمدهم بمؤونة ومعونة كيفما تقطع بالعدا وأصلها وارف لهذا الغرب رأسا إنه في الضعف ما دام العدا أنزلها أبقاك ربي للخلافة عدة تقفو الشريعة مؤثرا أفعالها وأقبل هدية من أتى بنصيحة يبغي الثواب ولا تقل من قالها وقال في ذلك الشريف الأديب أبو محمد عبد السلام بن الطبيب القادري

علا عرش دين الله من كل العرائش وهد بنصر الله قصر العرائش وهي طويلة انظرها في نشر المثاني إن شئت ثم في الثاني والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة نهى السلطان عن لبس النعال السود ونادى في سائر أمصار المغرب وأمر بلبس النعال الصفراء مكانها لما قيل من أن الناس

اتخذوا النعال السود منذ استولى النصارى على العرائش على يد المأمون السعدي كما تقدم وفي أوائل ذي الحجة من هذه السنة قتل السلطان ثلاثة وستين رجلا من الطائفة المسمون بالعكاكرة فتح أصيلا ولما فرغ المجاهدون من أمر العرائش عمدوا إلى مدينة أصيلا فنزلوا عليها وحاصروا النصارى الذين بها سنة كاملة وأظنهم الإصبيبول إلى أن بلغ بهم الحصار كل مبلغ فطلبوا الأمان فأمنوهم على حكم السلطان ولما لم يطمئنوا لذلك ركبوا من الليل سفنهم ونجوا إلى بلادهم ودخل المسلمون المدينة فملكوها وذلك سنة اثنتين ومائة وألف وعمرها أهل الريف أيضا وبني بها قاندهم مسجدين ومدرسة وحماما وبني داره بقلعتها والله أعلم حصار سبتة ثم سار المجاهدون بعد الفراغ من أصيلا إلى سبتة فنزلوا عليها وحاصروها واستأنفوا الجد في مقاتلتها وادمهم السلطان بعسكر من عبيده وأمر قبائل الجبل أن تعين كل قبيلة حصتها للمرابطة على سبتة وكذلك أمر أهل فاس أن يبعثوا بحصتهم إليها فكان عدد المرابطين عليها خمسة وعشرين ألفا وتقدم السلطان إليهم في الجد والاجتهاد فكان القتال لا ينقطع عنها صباحا ومساء وطال الأمد حتى أن السلطان رحمه الله اتهم القواد

الذين كانوا على حصارها بعدم النصح في افتتاحها لئلا يبعث بهم بعدها إلى حصار البريجة فيبعدوا عن بلادهم مع أنهم قد سئموا كثرة الأسفار ومشقات الحروب واستمر الحال إلى أن مات القائد أبو الحسن علي بن عبد الله الريفى وولى بعده ابنه القائد أبو العباس أحمد بن علي والقتال لا زال والحال ما حال وفي كل سنة يتعاقب الغزاة عليها والسلطان مشغول بتمهيد المغرب ومقاتلة برابرة جبل فازان وغيرهم ولم يهيبه الله فتحها على يديه ودار القائد أحمد بن علي ومسجده اللذان بناهما بإزاء سبتة أيام الحصار لا زالتا قائمتين العين والأثر إلى اليوم وحكى الغزال في رحلته أنه رأى بأحد أبواب سبتة خرقا قديما لم يصلح فسال أهلها عنه فقالوا إنه من أثر الرمي الذي كان يرميه الجيش الإسماعيلي وهو أثر كرة خرقت الباب ونفذت إلى داخل البلد وتركتاه على حاله ليعتبر به من يأتي بعدنا ويزداد احتياطا وحزما أو كلاما هذا معناه والله تعالى أعلم غزو السلطان المولى إسماعيل برابرة فازان وإيقاعه بهم كان السلطان إسماعيل رحمه الله في هذه المدة مشغولا بتمهيد المغرب واستئصال أممه من معانهم إلى أن فتح أقطاره كلها وبني قلاعها وربت حاميتها ولم يبق له بالمغرب كله إلا قنة جبل فازان الذي فيه آيت ومالو وآيت يف المال وآيت يسرى فعزم على النهوض إليه وافترض عذرتة ولما أراد الخروج إليهم استخلف على فاس الجديد كبير أولاده المولى أبا العلاء محرز وبعث إلى مراکش ابنه المولى أبا اليمن المأمون وترك بمكناسة ابنه المولى محمد المدعو زيدان وكان فارس أولاده الموجودين يومئذ ولما ولي المأمون على مراکش أمر برئيس الحضرة وإمام الكتاب الفقيه أبا العباس أحمد اليمحمدي أن يعطيه التقليد ويوصيه بما تنبغي الوصاية به

وكان المولى المأمون منحرفا عن الوزير المذكور فمشى إليه على كره منه وحاز منه التقليد واستمع لوصيته امتثالا لأمر والده ثم عاد إليه وقال يا مولانا إن اليمحمدي ينقصك ويزعم أنه الذي علمك دينك في كلام آخر فقال له السلطان رحمه الله والله إن كان قد قال ذلك إنه لصديق فإنه الذي علمني ديني وعرفني بربي نقل هذه الحكاية صاحب البستان وصاحب الجيش وكلاهما قال إنه سمعها من السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد رحمه الله وهي منقبة فخيمة للمولى إسماعيل في الخضوع للحق والاعتراف به رحم الله الجميع ثم دخلت سنة ثلاث ومائة وألف والسلطان عازم على النهوض إلى فازان وبعث مع ذلك بالراتب والعدة إلى أهل فاس وأمرهم بالنهوض إلى الترك مع ولده المولى زيدان فخرجوا في رمضان من السنة وبعد العيد أخذ السلطان في الاستعداد للنهوض إلى فازان ثم بدا له فخرج في أثر المولى زيدان فلقح بأطراف المغرب الأوسط وأبرم الصلح مع الترك ورجع إلى الحضرة هكذا ساق صاحب البستان هذا الخبر والذي رأيت في نشر المثاني هو ما نصه قد اختار السلطان المولى إسماعيل الفقيه أبا عبد الله محمد الطبيب الفاسي لعقد المهادنة مع الترك في حدود سنة ثلاث ومائة وألف بعد وقعة المزارع معهم لعلمه وفصاحته وبيته فذهب نحو الجزائر صحبة ولد السلطان وهو مولاي عبد الملك ومعهم الكاتب أبو عبد الله المدعو الوزير وغيرهم من وجوه النولة الإسماعيلية فلما قاربوا الجزائر خرج صاحبها في جنده وقتل ونهب حتى انتهى الخبر إلى فاس بأنهم قتلوا أجمع وصادف ذلك يوم عاشوراء فحزن الناس لذلك وأمسكوا عن الإنفاق حتى بقي ما عهد أن يشترى في ذلك اليوم ملقى لما عرا الناس من الغم ثم جاء الخبر بأنهم قادمون بعافية وأنهم وصلوا إلى تازا ففرح الناس واستأنفوا الإنفاق كيوم عاشوراء ومات بابشي القبلي فولى السلطان علي زمور وبني حكم ولده أبا الحسن علي بن يشي ثم دخلت سنة أربع ومائة وألف وفيها تهيأ السلطان للنهوض إلى البربر

أهل فازان فاستنفر القبائل وحشد الجيوش واستعد الاستعداد التام بالمدافع والمهاريب والمجانيق وسائر آلات الحصار فنزل رحمه الله في جند العبيد ببسط أدهسان وربت على البرابر العساكر من كل جهة فبعث الباشا مساهلا في خمسة وعشرين ألفا من الرماة طلع بها من تادلا على وادي العبيد حتى نزل خلف آيت يسرى وبعث علي بن بركات مع آيت يمو وآيت أدراس فنزلوا بتغالين وبعث علي بن يشي مع زمور وبني حكم وأمره أن ينزل بعين شوعة وبعث إلى أهل تدغة وفركلة وغريس والصباح أن يقدموا بجموعهم على علي بن يشي وبعث إليه مع ذلك بعسكر الطنجية بالمدافع والمهاريب وسائر آلات الحرب وبعث نصارى العرائش يجرونها على طريق أعليل ثم على قصر بني مطير إلى أن اجتمعوا بعلي بن يشي على عين شوعة وضرب السلطان لأمرأ الجنود لإنشابه الحرب موعدا معلوما وقال لهم إذا كان وقت العشاء من ليلة كذا فليأخذ الطنجية في إخراج المدافع والمهاريب بالكور والبنب طول ليلتهم ليحصل للبربر الدهش فإذا أصبحت فليقدم كل قائد من ناحيته ولينشب الحرب ليكون القتال في ساعة واحدة من جميع الجهات ففعلوا ما أشار به عليهم ولما كانت الليلة المعينة لم يرع البربر إلا رعود المدافع والمهاريب تصعق في الجور ونيرانها تنفخ في ظلمات الليل وأصداء الجبال تتجاوب من كل ناحية فقامت عليهم القيامة وظنوا أن الأرض قد زالت بهم فقوضوا أبنيتهم وحملوا عيالهم للفرار وصاروا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ولما أصبحوا زحف إليهم السلطان من ناحيته وزحفت إليهم العساكر من باقي الجهات واشتد القتال فانهزموا وتفرقوا في الشعاب والأودية شذر مدر وصار كل من قصد منهم ثنية أو منفذا وجد العساكر مقبلة منها والمدافع مصوبة نحوها فحل بهم القضاء وتصرف فيهم البلاء كيف شاء فقتلت رجالهم وسببت نساؤهم وأولادهم ونهب أثاثهم وحيزت مواشيهم وأنعمهم واستلبت خيلهم وسلاحهم واستحر القتل والنهب فيهم

ثلاثة أيام والعساكر تلتقطهم من الأودية والشعاب وتستخرجهم من الكهوف والغيران وأمر السلطان قواده مساهلا وعلي بن يشي وعلي بن بركات بجمع رؤوس القتلى وجمع الخيل والسلاح ويوافوه به لأدهسان فجمعوا ما عثروا عليه من ذلك فكان عدد الرؤوس ينيف على اثني عشر ألفا وعدد الخيل الفحول ينيف على عشرة آلاف وعدد المكاحل ينيف على ثلاثين ألفا وبالإستيلاء على هؤلاء البربر كمل للسلطان المولى إسماعيل رحمه الله فتح المغرب واستولى عليه كله ولم يبق به عرق ينبض وكتب في الديوان من آيت يمور ألف فارس أنزلهم مع علي بن بركات بقلعة تغالين وأنزل محلثهم على رأس منزل آيت ومالو ولم يترك لقبيلة من قبائل المغرب خيلا ولا سلاحا وإنما كانت الخيل والسلاح عند العبيد والودايا وآيت يمور وأهل الريف المجاهدين بسبتة قال أبو عبد الله أكتسوس رحمه الله وكان المولى إسماعيل رحمه الله ارتكب أخف الضررين وأدنى المفسدتين في إضعاف قبائل المسلمين بسلب الخيل والسلاح مع أن المطلوب هو توقيفهم بذلك لمقابلة العدو الكافر قال تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل الانفال الآية ورأى المولى إسماعيل أنه لما أعد ذلك العسكر القوي الشديد قام عن المسلمين بواجب وكفاهم كل مؤنة وأراحهم من كلفة القيام بالخيال والسلاح مع أن الفساد الذي يظهر منهم عند ملك الخيل والسلاح أعظم وذلك بقطع الطرقات ونهب الأموال وخلع اليد من الطاعة قال وهذا القدر الذي اعتدنا به عن السلطان ظاهر غاية الظهور ولعله خفي على الشيخ اليوسي حتى كتب إليه برسالته المشهورة أنه قلت ما فعله السلطان المولى إسماعيل رحمه الله من ذلك ظاهر المصلحة لا يخفى على أحد وجد استحسانه ولا يتوهم عاقل أن أهل فازان ومن في معانهم يتخذون الخيل والسلاح للجهاد يوما ما فلا يحتاج السلطان رحمه الله في مثل ذلك إلى الاعتذار وقوله أن ذلك الاعتذار خفي على اليوسي ليس على ما ينبغي لأن الشيخ اليوسي رحمه الله ما تكلم مع

السلطان في أمر أولئك القبائل ومن في معانهم وإنما كلامه معه في أمور ثلاثة الأول في جباية المال من وجهه وصرفه في وجهه الثاني في إقامة رسم الجهاد وشحن الثغور كلها بالمقاتلة والسلاح الثالث في الأنتصاف من الظالم للمظلوم وكف اليد العادية عن الرعية ونص هذه الرسالة الحمد

الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين قطب المجد ومركزه ومحاز الفخر ومأزره وأساس الشرف الباذخ ومنبعه ومنط
الفضل الشامخ ومجمعه السلطان الأعظم الأجل الأفخم مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف لا زالت أعلامه منصوره وأيامه على العز واليمن
مقصورة سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والإجلال والدعاء لسيدنا بصالح الأحوال
وذلك بعض ما أوجبه يده المبسوطة علينا بالبر والإحسان والفضل والامتنان والتوقير والاحترام والإنعام والإكرام مع ما له علينا وعلى غيرنا من
الحقوق التي أوجبتها منزلته السلطانية ومثابته الطوقية الفاطمية فكتبتنا هذه البطاقة وهي في الوقت منتهى الطاقة وكنا كثيرا ما نرى من سيدنا
التشوق إلى المعوطة والنصح والرغبة في استفتاح أبواب الريح والنجح فأردنا أن نرسل إلى سيدنا ما أن وفق إلى النهوض إليه رجونا له ربح
الدنيا والآخرة والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة ورجونا وإن لم تكن أهلا لأن نعظ أن يكون سيدنا أهلا لأن يتعظ وأن يحتمي من جميع المذام
ويحتفظ فليعلم سيدنا أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له والناس عبيد الله سبحانه وإمام له وسيدنا واحد من العبيد وقد ملكه الله عبيده
ابتلاء وامتحانا فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة العالية عند الله
تعالى وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في ملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق ومتعرض
لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير إذن كيف يفعل به يوم يتمكن منه ثم
نقول إن على السلطان حقوقا كثيرة لا تقي بها البطاقة ولنقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها الأول جمع المال من حق وتقريفه في حق الثاني إقامة
الجهاد لإعلاء كلمة الله وفي معناه الثغور بما تحتاج إليه من عدد وعدة الثالث الانتصاف من الظالم للمظلوم وفي معناه كف اليد العادية
عليهم منهم ومن غيرهم وهذه الثلاثة كلها قد اختلفت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لنلا يعترف بعدم الاطلاع والغفلة فإن تنبيهه وفعل فقد فاز وذلك
صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة وإلا فقد أدينا الذي علينا أما الأمر الأول فليعلم سيدنا أن المال الذي يجبي من الرعية قد
أعد للمصالح التي ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء والقضاة والأئمة والمجاهدين والأجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من
المصالح ومثال هؤلاء كأيامهم لهم ديون قد عجزوا عن قبضها إلا بوكيل ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل فإن استوفى الوكيل الدين
بلا زيادة ولا نقصان وأداه إلى اليتامى يحسب ما يجب لكل فقد برئ من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم وحصل له أجران أجر القبض
وأجر الدفع وإن هو زاد على الدين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم له أو نقص اليتيم من حقه الواجب له فهو ظالم له وكذا إن استوفى
الديون وأمسكها ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم فليظن سيدنا فإن جياة مملكته قد جرى ذبول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا
العظم وامتشوا المخ ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا أما الدنيا فقد أخذوها وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شيء شهدناه لاشيء ظنناه ثم إن أرباب
الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل من يزين له الوقت فإن كثيرا من
الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون الله تعالى ولا يحفظون من المداينة والنفق والكذب وفي أفضل منهم قال جده أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي
طالب كرم الله وجهه المغرور من غررتموه اه وأن يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل على خواص الناس من أهل الفضل والدين والخير ليكتسب
محبتهم وتناهم ونصرهم كما قيل

أفاتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ولا يهتمهم فيتمنوا غيره ويتطلبوا دولة أخرى
كما قيل إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيب ولا حظ تمنى زوالها وما ذلك من بغض لها غير أنه يريد سواها فهو يهوى انتقالها وليعلم سيدنا
أن السلطان إذا أخذ أموال العامة ونثرها في الخاصة وشيد بها المصالح فالعامة يذعنون ويعلمون أنه سلطان وتطيب قلوبهم بما يرون من إنفاق
أموالهم في مصالحهم وإلا فالعكس وأيضا السلطان متعرض للسهم الراشقة من دعوة المظلومين من الرعية فإذا أحسن إلى الخاصة دعوا له
بالخير والسلامة والبقاء فيقابل دعاء بدعاء والله الموفق وأما الأمر الثاني فقد ضاع أيضا وذلك أنه لم يتأت في الوقت إلا عمارة الثغور وسيدنا قد
غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله فكانوا إذا سمعوا الصرير تهتز الأرض خيلا ورماة وقد
بلغني اليوم أنهم سمعوا صرخا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصي والمقابع وهذا وهن في الدين وغرر على
المسلمين وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة وتكليفهم الحركات وإعطاء العدة كساتر الناس فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من قلعية إلى
ماسة ويحرصهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون إليه فهم
حماة بيضة الإسلام ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ونجدة في المضايق وغيره على الإسلام ولا يولي فيها
من همته ملء بطنه والأتكاء على أريكته والله الموفق وأما الأمر الثالث فقد اختلف أيضا لأن المشعبين للانتصاف بين الناس في البلدان وهم العمال
وخدمهم هم المشغولون بظلم الناس فكيف يزيل

الظلم من يفعله ومن ذهب يشتكي سبوه إلى الباب فزادوا عليه فلا يقدر أحد أن يشتكي فليتيق الله سيدنا ولينق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله
حجاب وليجهد في العدل فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا قال تعالى إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء
والمنكر والبغى الآية وقال تعالى ولينصرن الله من ينصرون إن الله لقوي عزيز الحج ثم ذكر تعالى المنصورين وشروط النصر فقال الذين إن مكنتهم
في الأرض أقاموا الصلوة وأتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر الحج فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الأمور الأربعة
فمتى اختلف عليهم أمر الرعية وتسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة فليعلموا أن ذلك من إخلالهم بهذه الأمور فكان عليهم الرجوع إلى الله تعالى وتفقد
ما أمرهم به ورعاية ما استرعاهم إياه وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم وأن العدل يستقيم معه الملك
ولو مع الكفر وقد عاش الملوك من الكفرة المثين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا عليه من العدل
في الرعية استصلاحا لدنياهم فكيف بمن يرجو صلاح الدنيا والدين قال بعض الحكماء الملك بناء والجند أساسه وإذا ضعف الأساس سقط البناء فلا
سلطان إلا بجند ولا جند إلا بمال ولا مال إلا بجباية ولا جباية إلا بعمارة ولا عمارة إلا بالعدل فالعدل أساس الجميع وقد صنع أرسطوطاليس
الحكيم للملك الإسكندر الشكل المستند عنه وكتب عليه العالم بستان سياحه الدولة سلطان تعضده السنة السنة سياسة يسوسها الملك راع
يعضده الجيش الجيش أعوان يكفلهم المال المال رزق بجمعه الرعية الرعية عبيد يفقدهم العدل العدل مألوف وبه صلاح العالم العالم بستان إلى
آخره وقال راع وكلكم مسؤول عن رعيته وقال

إن رجلا يخوضون في مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة أو كما قال وقال ما من وال يلي ولاية إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولتان فأما عدل
يفكه وأما جور يوبقه وعن مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره بالأبطح فقلت يا أمير المؤمنين أين
تسير فقال بعيره من إبل الصدقة شرد أطلبه فقلت أذلت الخلفاء من بعدك فقال لا تلمني فوالذي بعث محمد بالحق لو أن عناقا ضلت بشاطيء
الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة إنه لا حرمة لوال ضيع المسلمين ولا لفاسق روع المؤمنين وقد رأى رضي الله عنه شيئا يهوديا يسأل على
الأبواب فقال ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شابا ثم ضيعناك اليوم وأمر أن يجري عليه قوته من بيت المال وليعلم سيدنا أن أول العدل أن
يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال إلا بحق وليسأل العلماء عما يأخذ وما يعطي وما يأتي وما يذر وقد كان بنو إسرائيل يكون فيهم الأمير على
يد نبي فالنبي يأمر والأمير ينفذ لا غير ولما كانت هذه الأمة المرحومة انقطعت منها النبوة بنبيها خاتم النبيين فلم يبق إلا العلماء يقتدى بهم قال
علماء أمي كانبيا بنو إسرائيل فكان حقا على هذه الأمة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذوا وعطاء وقد توفي واستخلف أبو بكر رضي
الله عنه وكان قبل ذلك يبيع ويشترى في السوق على عياله فلما بوبع أخذ ماله الذي للتجارة وذهب للسوق على عادته حتى رده علماء الصحابة
وقالوا إنك في شغل بأمر الخلافة عن السوق وفرضوا له ما يكفيه مع عياله وجعلوا المال على يد أمين فكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما

اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء الفضلاء ولا يقتدي بأهل الأهواء وليسأل من معه من الفقهاء التفات كسيدي محمد بن الحسن وسيدي أحمد ابن سعيد وغيرهما من العلماء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون في الله لومة لائم فما أمره به مما ذكرناه ومما لم نذكره فعله وما نهوه عنه انتهى هذه طريقة النجاة إن شاء الله تعالى نسأل الله تعالى أن يرزق سيدنا توفيقا وتسديدا وإرشادا وتأييدا وأن يصلح بوجوده البلاد والعباد وأن يحسم بسيفه أهل الزبغ والعداء أمين والحمد لله رب العالمين ولما فرغ السلطان رحمه الله من وقعة فازاز وآيت ومالو دعا علي بن بشي وعقد له على عشرة آلاف من الخيل وقال له لا أرى وجهك إلا إذا أغرت على كروان وأنتيتي منهم بعدد هذه الرؤوس التي هنا لأنهم كانوا بوادي زيز يعيثون في طريق سجماسة وينهبون الرفاق فسار علي بن بشي حتى صبحهم وهم عارون فنهب حللهم ومواشيهم وقتل منهم العدد الكثير ثم نادى في تلك القبائل كلها من أتى برأس كرواني فله عشرة مثاقيل فصار كل من انحاز إليه أحد منهم يقطع رأسه ويأتي به إليه واستمر البحث عنهم في المدر والوبر إلى أن قضى من جماعهم الوطر ولما اجتمعت عنده أعطى كل من أتى برأس متقلا واحدا وجاء إلى السلطان باثني عشر ألف رأس كما اقترح عليه وفق ما اجتمع منها بأدخسان فشكر له فعله وولاه على قبائل العرب والبربر ودخلت سنة خمس ومائة وألف فلم يكن فيها شيء يذكر ثم دخلت سنة ست ومائة وألف ففي ربيع منه خرج المولى زيدان ابن السلطان بالساكر قاصدا ناحية تلمسان بعد أن قتل النائب بفاس أبا العباس أحمد السلوي فقاتل الترك ونهب ورجع ثم دخل سنة سبع ومائة وألف فلم يكن فيها شيء يذكر ثم دخلت سنة ثمان ومائة وألف ففي يوم عرفة منها قدم عشرة رجال من إصطنبول ومعهم كتاب من السلطان مصطفى بن محمد العثماني صاحب القسطنطينية العظمى إلى السلطان المولى إسماعيل يندبه إلى الصلح مع أهل الجزائر فانتدب رحمه الله وامتلأ أمر السلطان المولى إسماعيل علماء فاس بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم منها وما نشأ عن ذلك وفي ذي القعدة من هذه السنة أعني سنة ثمان ومائة وألف ورد كتاب من حضرة السلطان على القاضي والعلامة بفاس يعاتبهم ويوبخهم على عدم موافقتهم على تملك العبيد المثبتين في الديوان ثم ورد كتاب آخر من السلطان يمدح العامة ويذم العلماء ويأمر بعزل القاضي والشهود كذا في البستان قال أبو عبد الله أكنسوس هذا الكلام الذي نقله صاحب البستان عن السلطان المولى إسماعيل رحمه الله فيه نظر فإنه كلام مجمل وقضية جمع العبيد المذكورة مفصلة في الكناش الكبير الإسماعيلي وفيه تمييز المماليك الأرقاء الذين اشتروا بالثمن على الوجه الشرعي بخطوط العدل وهؤلاء لا كلام فيهم وأما غيرهم من أهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة فإن السلطان لم يدع فيهم الملكية وإنما الكلام في جبرهم على الجندية ووجه السلطان إلى علماء المشرق والمغرب السؤالات عن ذلك فكتبوا إليه الأجوبة المتضمنة للجواز بخطوطهم وكل ذلك في الكناش المذكور مبسوطا وهو شيء كثير وحاشى الله مقام السلطان المولى إسماعيل رحمه الله أن يدعى تملك الأحرار وقد تقدم كلام الشيخ اليوسي وبيان ما أنكر على السلطان ولو كان ما ذكر الصياني متصفا به السلطان المذكور لكان ذلك أول ما ينكره اليوسي ولا يسعه السكوت عليه مع أنه أنكر ما هو أقل من ذلك وأخف بمراتب نعم في الكناش طوائف معروفة متميزة ثبت عند السلطان المذكور أنهم كانوا أرقاء للمصور السعدي فلما انقرضت الدولة السعدية تفرقوا في الأقطار وهم الذين تقدم الكلام عليهم في دفتر عليلش وقد وقع البحث عن رفيتهم وسئل أهل الأسنان من كل قبيلة فعينوا الرقيق من غيره فثبت ذلك كله عند السلطان ومع ذلك لم يدخلهم في الأرقاء الخالص الذين اشتروا بالثمن بل ميزهم على حدة فكان ذلك الجند عنده على

ثلاث مراتب المرتبة الأولى خالص الرقية المرتبة الثانية خالص الحرية المرتبة الثالثة واسطة بينهما اه والله تعالى أعلم تقريق المولى إسماعيل رحمه الله أعمال المغرب على أولاده فعقد لابنه المولى أحمد على تادلا وأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من الخيل وعقد لابنه المولى محمد المدعو بالعالم على إقليم السوس ورتب معه ألف فارس وعقد لابنه فيني قسبة جديدة وبنى بها قصره وبنى مسجدا أعظم من مسجد أبيه بالقصبة الأولى واستقر بها وعقد لابنه المولى عبد الملك على درعة وأعمالها وأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من الخيل وعقد لابنه المولى محمد المدعو بالعالم على إقليم السوس ورتب معه ألف فارس وعقد لابنه المأمون الكبير الذي كان بمرآكش على سجماسة وأعمالها نقله من مراكش إليها وأنزله بقصبتها التي بناها له بتيزيمي ورتب معه خمسمائة من الخيل وبعد سنتين توفي الملك المأمون فولى السلطان مكانه ابنه المولى يوسف وعقد لابنه المولى زيدان على بلاد الشرق فكان يغير على رعايا الترك إلى أن شردهم عن نواحي تلمسان وانتهى في بعض أيام غاراته إلى مدينة معسكر فافتحمها وانتهب دار أميرها عثمان باي وأخذ ما فيها من الفرس والخرثى والأدام وغير ذلك لمغيب عثمان عنها في بعض غزواته فانتبه المولى زيدان فيها الفرصة فكان ذلك سبب عزله عن الشرى وتولية أخيه المولى حفيد مكانه لأن السلطان رحمه الله لم يرض فعله ونهيه لدار الباي

للصلح الذي كان انعقد بينه وبين السلطان مصطفى العثماني كما مر ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائة وألف فيها غزا السلطان بلاد الشرق وحارب الترك بها لانتقاض الصلح الذي كان بينه وبينهم بسبب غارات المولى زيدان المتقدمة ولما قتل السلطان من وجهه هذه هلك من جنده أثناء الطريق عدد كبير من العطش فمن أهل فاس بالخصوص أربعون نفسا سوى من هلك من غيرهم وفي هذه السنة قتل القائد عبد الخالق بن عبد الله الروسي صاحب فاس عبدا من عبيد دار السلطان دخل عليه بغير إذنه فقتله فبعث السلطان ولده المولى حفيدا من مكانة إلى فاس ليأتيه به فاستشجع إليه عبد الخالق بالعلماء والأشراف فلم يقبده المولى حفيد وذهب به مسرعا فلما دخل على السلطان بمكانة عفا عنه ورجع إلى فاس سالما ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة وألف فيها استدعى السلطان عبد الخالق الروسي من فاس فلما قدم عليه قتله وبعث ابنه المولى زيدان إلى فاس وبعث معه حمدون بن عبد الله الروسي واليا عليها بدلا من أخيه المقتول والله أعلم تنازع أولاد السلطان وثورة المولى محمد العالم منهم بالسوس ومقتله لما دخلت سنة أربع عشرة ومائة وألف وصل المولى عبد الملك بن السلطان صاحب درعة إلى ضريح المولى إدريس الأكبر بزهرهون مهزوما لاستيلاء أخيه المولى أبي النصر على درعة وتغلبه على تلك النواحي فبعث السلطان ولده المولى الشريف إلى درعة واليا عليها فثار المولى محمد العالم ببلاد السوس ودعا لنفسه وزحف إلى مراكش فحاصرها في رمضان من السنة المذكورة وفي العشرين من شوال افتحمها عنوة بالسيف فقتل ونهب ولما اتصل خبره بالسلطان بعث ولده المولى زيدان في العساكر لقتاله فقدم مراكش فصادف المولى محمدا قد خرج عنها وعاد إلى تارودانت ولما احتل المولى زيدان بمراكش عاثت عساكره فيها ثم تبع أخاه المولى محمدا العالم إلى السوس فنزل على تارودانت واتصلت الحرب بينهما إلى أن دخلت سنة خمس عشرة ومائة وألف وفيها قدم المولى حفيد حضرة فاس الجديد ووظف على أهل فاس مغرما ثقيلًا وجاء الزعيم واليا عليها ثم عزل وولى مكانه أبو علي الروسي فقتل أناسا وصلبهم وفي متم شوال من السنة المذكورة مات المولى حفيد بفاس الجديد هذا كله والحرب قائمة بين المولى زيدان والمولى محمد العالم ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة وألف ففي ثالث صفر منها ورد أمر السلطان على فاس بأن تعطى كل عتية عظم سرج ولا يحرر من ذلك أحد كائنا من كان وفي الحادي والعشرين من صفر المذكور ورد الخبر باستيلاء المولى زيدان على تارودانت وقبضه على أخيه المولى محمد العالم بعد محاربتة له ثلاث سنين هلك فيها أمم وقواد ورؤساء وأعيان يطول ذكرهم ولما دخلها المولى زيدان عنوة قتل جميع من بها حتى النساء والصبيان هكذا في البستان وفي ربيع الأول من السنة وصل المولى محمد العالم مقبوضا عليه إلى وادي بهت فبعث السلطان من قطع يده ورجله من خلاف بعقبة بهت ولما وصل إلى مكانة خامس عشر الشهر المذكور هلك رحمه الله قال أبو عبد الله أكنسوس لما توفي المولى محمد العالم صلى عليه القاضي أبو عبد الله محمد العربي بردلة فنقم عليه ذلك بعض الحسدة وأوغر قلب السلطان عليه وقال له إنه يبغضك ولولا شدة بغضه لك ما نازع إلى الصلاة على عدوك الذي ثار عليك ورام نزع الملك من يدك فكتب السلطان إلى القاضي بردلة يتهدده ويوبخه فأجابته القاضي بأن صلاته نظيرة صلاة الحسن البصري على الحجاج بن يوسف فلما ليم على ذلك قال استحيت من الله تعالى أن أستعظم ذنب الحجاج في جنب كرم الله الغفور الرحيم

على أنني ما صليت عليه بغير إذن بل خرج الإذن من الدار المولوية وبلغ ذلك مبلغ الشهرة التي لم يبق معها شك وذلك على لسان مترجم ينسب الأمر إلى الجانب المولوي فلا افتيات بعد ذلك بل الواجب هو القيام بذلك ولو بغير إذن إجلالا وتعظيما لجانب مولانا نصره الله ولما قال لعلي بن

أبي طالب رضي الله عنه في قضية الحديبية امح لفظة رسول الله قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه والله لا أحوه أبدا فتعارض وجوب امتثال أمر الرسول بالمحو ووجوب الإجلال لمقامه الأرفع فرجح رضي الله عنه وجوب الإجلال ثم الصحيح أن الحدود كفارات ففي الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له اه باختصار قال أكنسوس وكانت هذه القضية من الفتن العظيمة بالمغرب عمت أهل القطر السوسي وخصت أعيان غيرهم من العلماء الذين كانوا يخاطبون المولى محمد العالم لولا لطف الله تعالى فإن الشيخ أبا عبد الله المسناوي الدلائي كان من أخص الناس بالمولى محمد فوشى به إلى السلطان وقيل له إنه من شدة اتصاله به لا يغيب عنه عزمه على القيام عليك فهو إذا موافق له على ذلك فيبادر بعض أصحاب السلطان ممن كان يجنح للمسناوي بالاعتذار عنه بأنه كان ينهيه عن القيام وأنشد للمسناوي في ذلك مهلا فإن لكل شيء غاية والدهر يعكس حيلة المحتال فالبدل ليس بلوح ساطع نوره والشمس فاهرة السنة في الحال فإذا توارت بالحجاب فعند ذا يبدو بدو تعزز وجمال فوقع ذلك من السلطان وتحقق براءة الشيخ رحم الله الجميع قال أكنسوس وقولنا عمت أهل القطر السوسي لأن ظهوره التام إنما كان هنالك ولأن جل من ينتسب إلى العلم والصلاح منهم كانوا معه موافقين له ومؤيدين فعله اه قال في نشر المثاني كان المولى محمد العالم ماهرا في فنون شتى كالنحو والبيان والمنطق والكلام والأصول وكان يفعل للشعر وتأخذ

أريحية الأدب وكتب له أخوه مولاي الشريف في صدر كتاب بعث به إليه ما خاطب به سيف الدولة بن حمدان أخاه ناصر الدولة رضيته لك العليا وإن كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرق أما كنت ترضى أن أكون مصليا إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق فاقترح المولى محمد علي الشيخ أبي عبد الله المسناوي أن ينوب عنه في الجواب لأنه كان في جملة الوافدين عليه حينئذ فقال رحمه الله بلى قد رضيته أن تكون مجليا ويتلو نداكم في العلا من له السبق ومالي لا أرضى لك المجد كله وأنت شقيق النفس إن عرف الحق ولكن ذوو الضغن انتحوا ذات بيننا فغادرنا إفسادهم وبها رفق وفي هذا التاريخ أعني سنة سبع عشرة ومائة وألف انتزع النجليز جبل طارق من يد الإصبينول حاصره ثلاثة أيام برا وبحرا في جند يسير فملكه لاشتغال الإصبينول يومئذ عنه بأمر الفتنة التي حدثت في ملكه ولما ملكه النجليز عظم ذلك على أجناس الفرنج خصوصا الإصبينول والفرنسيين ورأوا أن النجليز قد ملك عليهم باب أوروبا ولذا حاصروه مرارا فلم يحصلوا منه على طائل واستمر في يده إلى الآن ولما دخلت سنة تسع عشرة ومائة وألف ورد الخبر بموت المولى زيدان ابن السلطان بتارودانت وحمل في تابوت إلى مكناسة فدفن ليلا إلى جانب أخيه المولى محمد العالم وفي هذه السنة أمر السلطان بهدم قصر البيدع الذي بناه المنصور السعدي بقصبة مراكش وقد تقدم الكلام عليه قال اليفرني في النزهة ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب إلا ودخله شيء من أفاض البيدع اه ثم دخلت سنة عشرين ومائة وألف فيها افتتح الترك مدينة وهران وكانت بيد الإصبينول مدة فردها الله على المسلمين يومئذ وفيها أمر السلطان بقراءة حديث الإنصاف يوم الجمعة عند خروج الخطيب وجلسه على المنبر

محنة الفقيه أبي محمد عبد السلام ابن حمدون بسوس رحمه الله قد تقدم لنا ما كان من أمر السلطان المولى إسماعيل رحمه الله لعلماء عصره بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم من ذلك ولما كانت سنة عشرين ومائة وألف تجددت المحنة وألزم الرئيس أبو محمد عبد الله الروسي فقهاء فاس أن يكتبوا على الديوان المذكور فمن كتب نجا ومن أبي قبض عليه ثم قبض على أولاد جسوس واستلب أموالهم وأجلس فقيهم الشيخ أبا محمد عبد السلام بن حمدون جسوس بالسوق مقيدا يتطلب الفداء ثم حمل مسجوناً إلى مكناسة ودخلت سنة إحدى وعشرين ومائة وألف فعفا السلطان عن الفقيه المذكور وسرحه وبعث به إلى فاس ليزعج الحراطين الذين بها إلى مكناسة فقدم وأزعجهم في ربيع الأول من السنة المذكورة ثم كان عاقبة الفقيه المذكور أن قتله القائد أبو علي الحسن بن عبد الخالق الروسي فمن الناس من يقول إن ذلك كان بأمر السلطان ومنهم من يقول بغير أمره اه وقد وقفت على تقييد بخط شيخنا الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز محبوبية السلاوي رحمه الله وكان واعية يقول فيه إن امتحان الفقيه أبي محمد جسوس كان من أجل امتناعه من الموافقة على ديوان الحراطين الذي اخترعه عليش المراكشي للسلطان الجليل المولى إسماعيل رحمه الله حسبما هو مشهور فجهاه بعض السفهاء وهجا فاسا من أجله وحقد عليه السلطان فاستصفي عامة أمواله وأجرى عليه أنواع العذاب وبيعت دوره وأصوله وكتبه وجميع ما يملك هو وأولاده ونساؤه ثم صار يطاف به في الأسواق وينادي عليه من يفدي هذا الأسير والناس ترمي عليه بالdraهم والطل وغير ذلك من النفاس أياما كثيرة فيذهب الموكلون به بما يرمى عليه حيث ذهبوا بأمواله وبقي على ذلك قريبا من سنة فكان في ذلك محنة عظيمة له ولعامة المسلمين وخاصتهم ولما دنا وقت شهادته رحمه الله وقد أيس من

نفسه كتب بخطه رقعة وأذاعها في الناس يقول فيها ما نصح الحمد لله يشهد الواضع اسمه عقبه على نفسه ويشهد الله تعالى وملانكته وجميع خلقه أني ما امتنعت من الموافقة على تمليك من ملك من العبيد إلا لأني لم أجد له وجه ولا مسلكا ولا رخصة في الشرع وأني إن وافقت عليه طوعا أو كرها فقد خنت الله ورسوله والشرع وخفت من الخلود في النار بسببه وأيضا فإني نظرت في أخبار الأئمة المتقدمين حين أكرهوا على ما لم يظهر لهم وجهه في الشرع فرأيتهم ما أتروا أموالهم ولا أبدانهم على دينهم خوفا منهم على تغيير الشرع واعتزاز الخلق بهم ومن ظن بي غير ذلك وافترى على ما لم أقله وما لم أفعله فإله الموعد بيني وبينه وحسبنا الله ونعم الوكيل والسلام وكتب عبد السلام بن حمدون جسوس غفر الله ذنبه وستر في الدارين عيبه صبيحة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائة وألف اه ثم بعد ذلك بيومين أمر أبو علي الروسي بقتله فقتل رحمه الله خنقا بعد أن توضأ وصلى ما شاء الله ودعا قرب السحر من ليلة الخميس الخامس والعشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة ودفن ليلا على يد القائد أبي علي الروسي انتهى ما وجدناه مقيدا واعلم أن قضية الفقيه أبي محمد رحمه الله من القضايا الفظيعة في الإسلام والأسباب التي أثارها أولا وأكثتها ثانيا حتى نفذ أمر الله فيما قضاه وقدره في أرله بعضها ظاهر وبعضها خفي الله أعلم بحقيقته غير أن المعروف من حال الفقيه المذكور هو الصلابة في الدين والورع التام وناهيك بشهادته هذه دليلا على ذلك وقضيته قد تعارضت فيها الأنفال ودخلها التعصب فلا يوقف منها على تحقيق وغفران الله وراء الجميع فإنه تعالى أهل التقوى وأهل المغفرة قال أبو عبد الله أكنسوس وقد جرى ذكر قضية الفقيه أبو محمد عبد السلام هذا بمجلس السلطان المرحوم المولى سليمان ابن محمد فقال ما قتله مولانا إسماعيل وإنما قتله أهل فاس قال ولم يمكننا أن نسأله عن حقيقة ذلك اه وفي شعبان من السنة المذكورة عزل

السلطان أبا علي الروسي عن فاس وولي مكانه حمدون الروسي ثم بعد مدة يسيرة أخر حمدون وأعيد أبو علي وفيها قدم عبد الله الروسي ومعه أمر السلطان ببيع أصول المجاورين بالمشرق يعني بالحرمين الشريفين ثورة المولى أبي النصر ابن السلطان بالسوس ومقتله رحمه الله ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف فيها تار أبو النصر ابن السلطان المولى إسماعيل ببلاد السوس وخب في الفتنة ووضع وفي سنة أربع وعشرين ومائة وألف سرح السلطان كاتبه الخياط بن منصور من السجن وولاه درعة وفي سنة خمس وعشرين بعدها قتل السلطان الخياط المذكور وأخاه عبد الرحمن وفيها ورد الخبر على السلطان بأن أولاد دليم من عرب السوس قد قتلوا ولده المولى أبا النصر التأثير بها وفي سنة ست وعشرين ومائة وألف قتل السلطان القائد أبا الدشيش وثلاثة من القواد معه وسبعة عشر من العبيد بمشروع الرملة وفي جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين ومائة وألف توفيت الحرة عائشة مباركة زوج السلطان وهي أم ولده المولى أبي الحسن علي الآتي ذكره وفي سنة تسع وعشرين ومائة وألف سافر ولد السلطان وهو المولى أبو مروان بن إسماعيل إلى الحجاز بقصد الحج وفي رمضان منها بعث والي وجدة إلى الحضرة مائة رأس من رؤوس بني بزنانس وفي سنة ثلاثين ومائة وألف ورد كتاب من السلطان إلى فاس يتضمن تحرير أهل فاس من الكلف كلها ثم ورد عقبه كتاب آخر يوبخهم فيه ويخبرهم بين أن يكونوا جيشا أو نائبه فقال رجل منهم يدعى ولد الصراوي إنما يكون الكلام أمام السلطان فقتل وأصبح مصلوبا فبلغ ذلك السلطان فقبض على أبي علي الروسي وأصحابه وولي على فاس

حمدون الروسي ثم بعد ذلك عمد حمدون الروسي إلى عبد الخالق بن يوسف فقتله فقبض السلطان عليه وعلى أخيه مسعود وولي على فاس حمو قصارة ثم بعد أيام قدم أبو علي الروسي واليا على فاس وفي هذه السنة ورد الخبر بموت المولى أبي مروان بالمشرق وفيها عزل السلطان أولاده

عن الأعمال كلها ولم يترك إلا ولي العهد المولى أحمد بتدالا ثم بعث ولده المولى عبد الملك إلى مراکش وولاه قطر السوس واستقامت الأمور وسكنت الرعية وهدأت البلاد واشتغل السلطان ببناء قصوره وغرس بساتينه والبلاد في أمن وعافية تخرج المرأة والذمي من وجدة إلى وادي نول فلا يجدان من يسألها من أين ولا إلى أين مع الرجاء المفرط فلا قيمة للقمح ولا للماشية والعمل تجبي الأموال والرعايا تدفع بلا كلفة وصار أهل المغرب كفلاحي مصر يعملون ويدفعون في كل جمعة أو شهر أو سنة ومن نتج فرسا ربا حتى إذا بلغ أن يركب دفعه إلى العامل وعشرة مثاقيل معه ثمن سرجه هذا إذا كان المنتوج ذكرا فإذا كان أنثى ترك له ويدفع للعامل مثقالا واحدا ولم يبق في هذه المدة بأرض المغرب سارق ولا قاطع طريق ومن ظهر عليه شيء من ذلك وفر في القبائل قبض عليه بكل قبيلة مر عليها أو قرية ظهر بها فلا نقله أرض حتى يوتى به أينما كان وكلما بات مجهول حال بحلة أو قرية تقف بها إلى أن يعرف حاله ومن تركه ولم يحتط في أمره أخذ بما اجترحه وأدى ما سرقه أو اقتطفه من قتل أو غيره وكانت أيامه رحمه الله غزيرة الأمطار كثيرة البركة في الحرائة والتجارة وغيرهما من أنواع المعاش مع الأمن والخصب والرخاء المحتد بحيث لم يقع غلاء طول أيامه إلا مرة واحدة فبلغ القمح في أيامه ست أواق للمد والشعير ثلاث أواق للمد ورأس الضأن ثلاث أواق ورأس البقر من المثقال إلى المثقالين سائر أيام الرخاء والسمن والعسل رطلان بالموزونة والزيت أربعة أرطال بالموزونة هكذا نقله صاحب البستان وهو مخالف لما سيأتي في الحوادث من أن الجذب والغلاء قد بلغا مبلغهما أعوام التسعين وألف ولعل ما ذكره صاحب البستان كان في آخر دولة السلطان المذكور

حسبما هي عادة الله تعالى في مثل ذلك غالبا والله تعالى أعلم ببناء ضريحي الإمامين إدريس الأكبر والأصغر رضي الله عنهما لما كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف أمر السلطان رحمه الله بهدم قبة ضريح المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه بزواوية زرهون وشراء الأصول المجاورة له من جهاته الأربع وهدمها وزيادتها فيه فهدمت القبة وجميع ما حولها وأعيدت على هيئة بديعة واستمر البناء والعمل في المشهد الشريف إلى أن تم سنة أربع وثلاثين ومائة وألف هكذا في البستان وغيره وقال في نشر المثاني وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف أمر السلطان المظفر المولى إسماعيل بتجديد بناء مقام مولانا إدريس الأصغر باني فاس حيث ضريحه بها وأمر ببناء قبته التي هي عليه الآن بما اشتملت عليه من المحاسن التي يعز وجودها وأمر بتوسعة صحن المسجد على ما هو عليه اليوم من الهيئة التي لا نظير لها بفاس وتم تسقيف القبة في آخر ذي الحجة من العام المذكور ثم أمر رحمه الله بإقامة الجمعة فيه فهي تقام فيه من يومئذ جعل الله ذلك في ميزان الأمر به والمتولى له أمين وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف مات القائد عبد الله الروسي بمكناسة وفيها غضب السلطان على أهل فاس وبعث إليهم حمدون الروسي وأخاه أبا علي وأمرهم بمصادرتهم وقيض المال منهم فبعثوا علماءهم وأشرفهم للشفاعاة فلم يقبل وشرعوا في دفع المال حتى لم يعرف له عدد ولم يسلم من الغرامة أحد وتغيب الناس في تلك المدة وخلت المدينة من ذوي اليسار وفي هذه السنة أيضا في المحرم منها خرج عسكر الإصبنيول من سبتة على حين غفلة من المسلمين فضربوا في محلتهم واستولوا عليها وعلى خباء القائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي ونهبوا وقتلوا وسلبوا

وحازوا شبارات المسلمين وعسائهم وحازوا قصبه أفراك واستشهد من المسلمين نحو ألف ورجعوا عودهم على بدنهم إلى سبتة ومنها ركبوا البحر إلى جزيرتهم ولم يبق بسبتة إلا سكانها ثم كانت الكرة للمسلمين عليهم بعدها بقي بأيدي المسلمين منهم نحو ثلاثة آلاف ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ففي المحرم منها مات الباشا غازي بن شفاء صاحب مراکش بوجدة وفي صفر منها مات باعيز بن صدوف صاحب تارودانت وفيها انتقل المولى عبد الملك بن السلطان إلى تارودانت فاستقر بها إلى أن كان من أمره ما نذكره عند التعرض لدولته إن شاء الله وفاة أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله كانت أيام أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله على ما ذكرنا من الأمن والعافية وتمام الضبط حتى لم يبق لأهل الذعارة والفساد محل يآوون إليه ويعتصمون به ولم تقلهم أرض ولا أظلمتهم سماء سائر أيامه فقد كان خليفة ونايبا عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين وسلطانا وملكا مستقلا سبعا وخمسين سنة حتى كان جهلة الأعراب يعتقدون أنه لا يموت ويقال إن البعض من أولاده كانوا يستبطنون موته ويعبرون عنه بالحي الدائم وهذه المدة التي استوفاهها المولى إسماعيل في الملك والسلطان لم يستوفها أحد من خلفاء الإسلام ومولوكه سوى المستنصر العبيدي صاحب مصر فإنه أقام في الخلافة ستين سنة لكن لا سواء فإن المولى إسماعيل رحمه الله استوفى مدة الخلافة بثمرتها وتملاها بكمال لذتها لأنه وليها في إبان اقتداره عليها واضطاعه بها بعد سن العشرين كما مر لا في مدة النيابة ولا في مدة الاستقلال ولم يكن عليه استبداد لأحد ولا نغص عليه دولته منغص سوى ما كان من ثورة ابن محرز وابنه المولى محمد العالم ومن سلك سنتهم من القرابة وكلهم كان يشغب في الأطراف لم يحصل منهم

كبير ضرر للدولة بخلاف المستنصر العبيدي فإنه ولي وهو ابن سبع سنين فكان في صدر دولته تحت الاستبداد وحدث في أيامه الغلاء العظيم قال ابن خلكان وهو غلاء لم يعهد مثله بمصر منذ زمان يوسف عليه الصلاة والسلام واستمر سبع سنين أكل الناس فيها بعضهم بعضا وبيع رغيف واحد بخمسين دينارا وكان المستنصر في هذه الشدة يركب وحده وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها وكانوا إذا مشوا يتساقطون في الطرقات من الجوع إلى غير ذلك فلذا قلنا لا يستوي حال ملك المولى إسماعيل وملك المستنصر رحمهما الله ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائة وألف مرض أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله في نشر المثاني كان ابتداء مرضه في ثاني يوم من جمادى الأولى من السنة المذكورة ولما أحس بالضعف بعث إلى ولده المولى أحمد صاحب تدالا يستقدمه فقدم عليه وأقام ثلاثا ثم اخترمته المنية رحمه الله يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائة وألف وتولى غسله الفقيه أبو العباس أحمد بن أبي القاسم العميري وصلى عليه الفقيه العلامة أبو علي الحسن بن رحال المعداني ودفن بضريح الشيخ المجذوب رضي الله عنه من حضرة مكناسة قال في البستان كان السلطان المولى إسماعيل قد عهد بالأمر إلى ولده المولى أحمد المذكور وكان يعبر عنه بولي العهد وأنكر أكنسوس أن يكون السلطان المذكور قد عهد لأحد من أولاده قال كما أخبرنا بذلك السلطان العالم المولى سليمان بن محمد رحمه الله مرارا وكان يحكي في ذلك خبرا وهو أن المولى إسماعيل لما أيقن بالموت دعا وزيره وعالم حضرته الكاتب أبا العباس اليمحدي وقال له إني في آخر يوم من أيام الدنيا فأحببت أن تشير علي بمن أقلده هذا الأمر من ولدي لأنك أعرف بأحوالهم مني فقال له يا مولانا لقد كلفنتي أمرا عظيما وأنا أقول الحق أنه لا ولد لك تقلده أمر المسلمين كان لك ثلاثة المولى محرز والمولى المأمون والمولى محمد فقبضهم الله إليه فقال له السلطان جزاك الله خيرا وودعه

وانصرف ولم يعهد لأحد وإنما العبيد كانوا يقدمون من شأوا ويؤخرون من شأوا وكان المولى سليمان رحمه الله يحكي ذلك عندما يعرض له ذكر أولاده هو والله أعلم ببقية أخبار المولى إسماعيل رحمه الله ومآثره وسيرته قال اليفرني في النزاهة لم يزل أمير المؤمنين إسماعيل رحمه الله في مقارنة أعدائه إلى أن دوخ بلاد المغرب كلها واستولى على سهلها ووعرها واستولى على تخوم السودان وانتهى منها إلى ما وراء النيل وانتشرت دولته في عمارتها وبلغ من ذلك ما لم يبلغه المنصور السعدي وامتدت مملكته في جهة الشرق إلى بسكرة من بلاد الجريد ونواحي تلمسان والله أعلم حيث يجعل رسالاته اه وقال في البستان كان للمولى إسماعيل من الولد على ما تواتر به الخير خمسمائة ولد ذكر ومن البنات مثل ذلك أو قريب منه قال والذي عقب من أولاده على ما رأيناها عيانا في دفتر السلطان المولى محمد بن عبد الله إذ كان يصلهم في كل سنة وكان يبعثني لتفرقة الصلة عليهم بسجلماسة مائة دار وخمس دور كلها لأولاده لصلبه وأما الذين لم يعقبوا أو عقبوا وانقطع نسلهم فليسوا في دفتر وأما الحفدة والأسباط فكان عددهم في أيام السلطان المولى محمد بن عبد الله ألفا وخمسمائة وستين وقد زادوا اليوم في دولة السلطان المولى سليمان بن محمد ولم يزل يصلهم إلى الآن على ما في دفتر والده ومن زاد يزداد له قال وأما ما أدركناه من أولاد المولى إسماعيل لصلبه في دولة السلطان المولى محمد قزمانية وعشرون رجلا تعرفهم بالاسم والعين ومن بناته لصلبه مثل ذلك قد أنزلهن السلطان بقصر حمو بن بكة ورتب لهن المؤنة والكسوة والصلة في كل سنة وأنزل معهن الحوافد اللاتي لا أزواج لهن وكل واحدة من هذه النور المائة

والخمس التي بسجلماصة لواحد من أولاد صلبه لأنه كان رحمه الله إذا رأى أحدا من أولاده الذين لم يرد إقامتهم معه بالمغرب قد بلغ أرسله إلى بسجلماصة وبني له بها قصرا أو دارا وأعطاه نخلا وأرضا للحراسة والفلاحة ومماليك يقومون له بخدمة أصله وحرارة أرضه في الشتاء والصيف ويعطي كل واحد من ذلك على قدر مرتبته عنده ومنزلة أمه منه فتناست أولادهم ونمت فروعهم ووفر الله جمعهم وحفظ نظامهم وكان رحمه الله سيد النظر في نقل أولاده بأهانتهم من مكناسة إلى تافيلالت مع بني عمهم من الأشراف ليتدربوا على معيشتها التي تنوم لهم فكان ذلك صونا لهم من نكبات الدهر وفضيحة الخصاصة بعد موته وزوال النعمة وانزواء رداء الملك السائر لهم بين العامة فتجحوا وأفلحوا بخلاف إخوانهم الذين ربوا بمكناسة واستمروا بها إلى أن توفي والدهم ومرونا على شهواتهم فإتهم لم ينم لهم نسل كإخوانهم الذين بالصحراء هذا ما يتعلق بنسل السلطان المولى إسماعيل وأما مبانیه بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده ومدارسه وبساتينه فشيء فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول القديمة والحديثة من الفرس واليونان والروم والعرب والترك فلا يلحق ضخامة مصانعه ما شيده الأكاسرة بالمدائن ولا الفراعة بمصر ولا ملوك الروم برومة والقسطنطينية ولا اليونان بأنطاكية والإسكندرية ولا ملوك الإسلام ودولة العظم كبنى أمية بدمشق وبني العباس ببغداد والعبديين بإفريقيا ومصر والمرابطين والموحدين وبني مرين والسعديين بالمغرب وما بديع المنصور بقصر من قصوره ولا بستان المسرة بأحد بساتينه فقد كان عنده بجان حمرية مائة ألف قعدة من شجر الزيتون وحبسه كله على الحرمين الشريفين ومرت عليه بعد وفاته العصور وأيام الفترة والفتن والناس يحتطبونه فلم يظهر فيه أثر من ذلك ولما بويع السلطان المولى محمد بن عبد الله أحياء وأجرى الماء إليه وأمر بلحصاء ما بقي من شجرة فوجدوه ستين ألفا فكان رحمه الله يبعث بثمان مائة إلى الحرمين تنفيذًا لأمر جدّه وكذا ابنه المولى سليمان رحمه الله

قال صاحب البستان ولقد شاهدت الكثير من آثار الدول فما رأيت أثرا أعظم من آثاره ولا بناء أضخم من بنيانه ولا أكثر عددا من قصوره لأن هؤلاء الدول كان من اعتنى منهم بأمر البناء غاية أمره أن يبني قصرا ويتأق في تشييده وتجيده وهذا السلطان لم يقتصر على قصر ولا على عشرة ولا عشرين بل جعل مباني العالم كلها في بطن تلك القلعة المكناسية كما قيل كل الصيد في جوف الفرا هذا كلام صاحب البستان رحمه الله ثم قال وكان في سجنونه من الأسارى خمسة وعشرون ألفا ونيفا كانوا يعملون في بناء قصوره منهم الرخامون والنقاشون والتجارون والحدادون والمنجمون والمهندسون والأطباء ولم تسمح نفسه قط بفداء أسير وكان في سجنونه من أهل الجرائم كالمقاتل والمحاربين والسارق نحو الثلاثين ألفا تظل في العمل مع أسرى الكفار ويبيتون في السجون والأهراء تحت الأرض ومن مات منهم دفن في البناء حتى لم يبق بالمغرب من أهل الفساد عرق ينبض ومما مدح به المولى إسماعيل رحمه الله قول الفقيه الأديب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الجزولي من قصيدة له مولاي إسماعيل يا شمس الورى يا من جميع الكائنات فدى له ما أنت إلا سيف حق منتضى الله من دون البرية سله من لا يرى لك طاعة فانه قد أعماه عن طرق الهدى وأضله ولذا لم يبق في هذه المدة من الأحداث ففي سنة إحدى وسبعين وألف توفي الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد المفضل بن الشيخ أبي العباس أحمد المرسي ابن الشيخ الأكبر أبي عبد الله سيدي محمد الشرقي كان رحمه الله صالحا خيرا من فضلاء عصره حافظا للقرآن بالسبع قد اشتهر قدره في الناس كثيرا وكان يفر من ذلك وإذا سأله أحد أن يتخذ شيئا يقول نحن إخوة في الله والدرهم الكامل ينفق منه أخذ القراءات عن الفقيه الأستاذ أبي عبد الرحمن بن القاضي وكتب له الإجازة بذلك وكان له نصيب من العلوم سوى القراءات وانتسب في

الطريق للولي الصالح أبي عبد الله محمد الحفيان الرتبي السجلماصي من أصحاب الشيخ أبي عبيد الشرفي وتخرج عليه نجباء من طلبة القراءات وكان رحمه الله كثير الطعام بزاوية جده أبي عبيد الشرفي ثم انتقل إلى ناحية سلا فسكن بأحوازها وبقي هناك إلى أن مات في التاريخ المذكور فحمل إلى المدينة المذكورة ودفن بطاعتها قرب المسجد الأعظم وقبره اليوم مزاراة عظيمة وكان له كلام كثير على طريق العروبي الملحون خاطب به الرئيس محمد الحاج الدلائي حين مشيت الوشاة بينهما فوعدت من أجل ذلك بينهما مكاتبات ومعاتبات رحمهما الله وفي سنة اثنتين وسبعين وألف توفي الشيخ الرباني أبو إسحاق إبراهيم ابن أحمد بن عبد الله بن حسين المصلوحي دفين تاملوحت من أعمال مراکش وقد تقدم التنبيه على وفاة جده أبي محمد عبد الله بن حسين المذكور وكانت له شهرة عظيمة وكان ابتداء أمره أنه تلمذ له طائفة من الفقهاء بمرآكش واجتمع عليه ناس فأنكر ذلك السلطان زيدان بن المنصور وأمر بالقبض عليه فخرج إلى قبيلة سكتانة حيث ضريحه اليوم فاستقر بها إلى أن توفي وكان يقول لا يأتينا إلا من آمنه الله لأن مقامنا هذا مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا وكان يقول دارنا دار سر لا دار علم وكان إذا دخل شهر المحرم ترك حلق الشعر والزينة فإذا ليم على ذلك قال ما فعلنا هذا إلا امتعاضا لقتل الحسين رضي الله عنه وأسفا على ما وقع به وكان يعمل السماع ويجتمع أصحابه على الحضرة على الكيفية المعهودة وربما تواجد فدخل معهم وكان له مشاركة في العلوم أخذ عن الشيخ المنجور وأبي محمد بن طاهر الحسني وأبي مهدي السكتاني وغيرهم وتوفي في التاريخ المتقدم عن سن عالية يقال أناف على المائة وبنيت قبة حافلة وقبره اليوم مزاراة عظيمة وفي أواخر سنة ثلاث وسبعين وألف مع السنة التي بعدها حدثت جماعة عظيمة بالمغرب لا سيما فاس وأعمالها أكل الناس فيها الجيف والدواب والأدمي وخلت الدور وعطلت المساجد ثم تدارك الله عبادته بلطفه

وفي سنة خمس وسبعين وألف في عاشر رمضان منها وقعت زلزلة عظيمة بفاس وغيرها من بلاد المغرب قال الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الهادي الشريف السجلماصي وقعت الزلزلة في التاريخ المذكور ونحن بمجلس البخاري عند شيخ الجماعة الإمام أبي محمد عبد القادر الفاسي رحمه الله فقام كل من بالمجلس حتى الشيخ ظنا منا أن السقف يسقط علينا لأن خشبه صوتت وخرج سرعان الناس يلتمسون الخير فأخبر بها كل من كان راقدًا أو جالسًا حتى النائم انتبه ومن كان ماشيا لم يشعر بها فسئل الشيخ عن ذلك وهل هو كما تزعم العامة من أن الثور الذي عليه الدنيا أو الحوت يتحرك فأجاب بأن ذلك باطل لا أصل له وتلا قوله تعالى وما نرسل بالآيات إلا تخويفا للإسراء وقال أيضا ذكر بعض الحكماء أن ذلك يقع في اختناق الريح في جوف الأرض وفي يوم الإثنين الثامن والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وألف توفي البهلول المتبرك به سيدي قاسم بن أحمد بوعسرية المعروف بابن اللوشة دفين ضفة وادي أرض من بلاد أزغار ولم يتزوج قط فلم يكن له عقب هكذا في نشر المثاني ولعله تصحيف والصواب ما يأتي من أنه توفي سنة سبع وتسعين بمئنة بمهملتين والله أعلم وفي سنة خمس وثمانين وألف توفي شيخ السنة وإمام الطريقة أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن ناصر بن عمرو الدرعي ثم الأغلاني الشهير بابن ناصر نسبة إلى جده المذكور في النسب قال تلميذه الشيخ أبو علي اليوسي في فهرسته كان الشيخ رضي الله عنه مشاركا في فنون من العلم كالفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث والتصوف عابدا ناسكا ورعا زاهدا عارفا قائما بالطريقة شاربا من عين الحقيقة وكان رضي الله عنه مع إكبابه على علوم القوم وانتهاجه منهج الطريقة لا يخل بعلم الظاهر تدريسا وتأليا وتقييدا وضبطا ففجع الله به الفريقين وصحبه الناس شرقا وغربا فانتفع به الخلق قائما بالتعليم والتربية للمريدين بقوله وفعله والترقية بهيمته عن همة عالية وحالة مرضية وعلم

صحيح وبصيرة ونورانية مع التمكن والرسوخ فكان إذا تكلم انتقش كلامه في القلب وإذا وعظ وضع الهناء مواضع النقب ثم أطال الشيخ اليوسي في ترجمته وذكر له كرامات عديدة وقد أفصح عن حاله ووصفه في قصيدته الدالية المشهورة الموضوعة في مدحه وأتى فيها من الإجلال لهذا الشيخ والتعظيم بما كان سبب ربه ولهذا الشيخ شيوخ وأتباع معروفون في كتب الأئمة الذين تعرضوا لبيان ذلك وطريقته المتصلة برسول الله معروفة أيضا وكان والده سيدي محمد بن أحمد من أكابر الأولياء كثير الأوراد لا يفتر لسانه عن الأذكار حسبا نقله غير واحد والله تعالى أعلم قال مؤلفه عفى الله عنه وهذا الشيخ هو جدنا وإليه تنتسب فأنا أحمد بن خالد بن حماد بن محمد الكبير بن أحمد بن محمد الصغير بفتح الميم ابن محمد بن ناصر الشيخ المذكور فنعنا الله به وأفاض علينا من مدده ومدد أمثاله وأسلافنا ينتسبون بعد الشيخ المذكور إلى سيدنا جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه ولست الآن من ذلك على تحقيق ولعلنا نحققه في موضع آخر إن شاء الله وفي حدود التسعين وألف كان انحباس المطر والغلاء قال الشريف أبو عبد الله محمد الطيب القادري في الأزهار الندية أن الفمخ قد بلغ في هذه المدة إلى أربعين أوقية للمد بسبب تأخر المطر والمد صاع ونصف وصلى الناس صلاة الاستسقاء فأول إمام خطب فيها القاضي أبو عبد الله محمد العربي بردلة وكررها ثلاث مرات فنزل مطر يسير لم

يكف ثم أعيدت الصلاة رابعة فكان الخطيب فيها الفقيه أبو عبد الله محمد البوعناني ثم أعيدت خامسة والخطيب القاضي بردلة ثم أعيدت سادسة والخطيب أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي وفيها بلغ القمح ستين أوقية وهو غلاء لم يسمع بمثله ثم أعيدت الصلاة سابعة والخطيب أبو عبد الله البوعناني ثم أعيدت ثامنة والخطيب الشيخ الولي الزاهد أبو عبد الله محمد العربي الفشتالي وفي عشية غده نزل المطر مع رعد وبرق ففرح المسلمون وأكثروا من حمد الله

تعالى ثم أعيدت الصلاة تاسعة والخطيب القاضي بردلة وخرج يومئذ في جملة الناس شيخ الإسلام وبركة الأمة الإمام أبو محمد سيدي عبد القادر الفاسي ركبنا على حمار جاعلا الأشراف من أهل البيت الطاهر أمامه مستشفعا بهم إلى الله تعالى فنزل عند الرجوع مطر قليل ومن الغد نزل المطر الغزير الكافي النافع فانحطت الأسعار ونزل القمح إلى خمس وثلاثين أوقية بعدما كررت الصلاة تسع مرات وكانت الصلاة التاسعة يوم الاثنين خامس المحرم فاتح سنة إحدى وتسعين وألف وفي سنة تسع وثمانين وألف في ليلة الجمعة الثاني عشر من شعبان منها توفي الشيخ المولى أبو محمد عبد الله الشريف الوزاني الشهير وكان عمره يوم توفي خمسا وثمانين سنة وتوفي ولده الشيخ المولى أبو عبد الله محمد وقت العشاء ليلة الجمعة الثامن والعشرين من المحرم سنة عشرين ومائة وألف وعمره يومئذ ثمانون سنة وتوفي ابنه الشيخ القطب المولى التهامي ابن محمد طلوع شمس يوم الاثنين فاتح المحرم من سنة سبع وعشرين ومائة وألف وعمره ست وستون سنة وتوفي الشيخ مولاي الطيب ابن محمد يوم الأحد وقت طلوع الفجر ثامن عشر ربيع الثاني سنة إحدى وثمانين ومائة وألف وعمره نيف وثمانون سنة وتوفي ابنه الشيخ مولاي أحمد ضحوة يوم السبت الثامن عشر من صفر سنة ست وتسعين ومائة وألف وتوفي ابنه الشيخ مولاي علي بن أحمد يوم الثلاثاء آخر يوم من ربيع الأول سنة ست وعشرين ومائتين وألف وتوفي ابنه الشيخ سيدي الحاج العربي بن علي يوم الأربعاء فاتح سنة سبع وستين ومائتين وألف وقد أتينا بوفاة هؤلاء السادة الوازنيين مجموعة هنا لما في ذلك من المناسبة والقريب ويتصل نسبهم بالمولى يملح بن مشيش أخي المولى عبد السلام بن مشيش ثم بالمولى إدريس بن إدريس رضي الله عنهم وأماتنا على محبتهم وحشرنا في زمريهم وفي سنة تسعين وألف وقع الوباء العظيم بالمغرب فكان عبيد السلطان يردون الواردين من الأفاق على مكناسة الزيتون كما مر

وفي سنة إحدى وتسعين وألف بعد ظهر الأربعاء الثامن من رمضان منها توفي شيخ الجماعة بفاس والمغرب الإمام الكبير العالم الشهير الشيخ أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي ولا يحتاج مثله رضي الله عنه إلى تعريف فإن مآثره أشهر من قفا نيك قالوا ومع غزارة علمه وانتفاع أهل المغرب الثلاثة به لم ينضد لجمع كتاب مخصوص ولا شرح متن من المتون وإنما كانت تصدر عنه أجوبة يسأل عنها فيجيب ويجيب وجمعها بعض أصحابه فجاءت في مجلد وفي سنة خمس وتسعين وألف توفي الولي الصالح أبو محمد عبد الله العوني دفين سلا من أصحاب الشيخ سيدي محمد المفضل وفي سنة ست وتسعين وألف توفي الشيخ العلامة المشارك أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي صاحب نظم عمل فاس و الأفنوم في مبادئ العلوم وغيرهما من التأليف الحسان وفي سنة سبع وتسعين وألف توفي الشيخ العارف بالله تعالى ذو الأحوال الربانية والمواهب العرفانية أبو القاسم بن أحمد الوشحة السفياني المعروف بأبي عسرية لأنه كان يعمل بشماله أكثر من يمينه كان من المولاهين في ذات الله تعالى ومن أهل الأحوال والشطحات يقال إنه حمل وهو صبي إلى الشيخ أبي عبيد الشرفي فبرك عليه ودعا بقرب من ماء فصبت عليه وقال لولا أنا بردنا هذا الصبي لأحرقته الأنوار ولذا كان يهتف بأبي عبيد كثيرا وينادي باسمه وينسب جميع ما يظهر على يده له وفي سنة إحدى مائة وألف أمر السلطان الناس بأن لا يلبسوا النعال السود ولا يلبسوها إلا اليهود وتقدم التنبيه على ذلك عقب فتح العرائش وفي سنة اثنتين ومائة وألف توفي الشيخ الإمام على الأعلام آخر علماء المغرب على الإطلاق الذي وقع على علمه وصلاحه الاتفاق أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي نسبة إلى آيت يوسي قبيلة من برابر ملوية وأصله اليوسي كان رضي الله عنه غزالي وقته علما وتحقيرا وزهدا وورعا قال في

فهرسته كانت قراءتي كلها أو جلها فتحا ربانيا ورزقت والله الحمد قريحة وقادة فكنت بأدنى سماع ينفعني الله فقد أسمع بعض الكتاب فيفتح الله علي في جميعه فتحا ظاهرا وأبلغ فيه ما لم يبلغه من سمعته منه ورب كتاب لم أسمع أصلا غير أن سماع البعض في كل فن صار مبدأ للفتح وتتميمها لحكمة الله في سنة الأخذ عن المشايخ ولا تستوحش مما ذكرناه ظنا منك أن الربح أبدا يكون على قدر رأس المال كلا فقد يبلغ الدرهم الواحد ألف مقال وما ذلك على الله بعزيز وكان معظم قراءته بالزاوية الدلائية لم يزل مقيما بها عاكفا على بث العلم ونشره إلى أن استولى عليها المولى الرشيد بن الشريف فنقله إلى فاس فأقام بها مدة ثم خرج إلى البادية فاستوطن بقبيلته إلى أن مات رحمه الله وكان رضي الله عنه متضلعا من العلوم العقلية والنقلية حتى قال في تأليفه المسمى بالفصل بين الخاصة والفصل أنه بلغ درجة الشيخ سعد الدين التفتازاني والسيد الجرجاني وأضرابهما وسأله يوما سائل بمجلس درسه فقال له اسمع ما لا تسمعه من إنسان ولا تجده محررا في ديوان ولا تراه مسطرا ببنان وإنما هو من مواهب الرحمن ولما دخل مراكز تصدر بها لإقراء علم التفسير بجامع الأشراف فمكث في تفسير الفاتحة قريبا من ثلاثة أشهر وهو يبدي كل يوم أسلوبا غريبا وتحقيرا عجيبا فعجب الناس من غزارة مادته مع أنه ربما يات في ضريح بعض الأولياء والناس معه فلا يطالع كتابا ولا يراجع مؤلفا فإذا أصبح وجلس على الكرسي أطلق لسانه بما يبهر العقول وكان الشعر عنده أسهل من النفس وشعره كله حكم وأمثال كشعر العرب القدماء وقصيدته الدالية في شيخه ابن ناصر دالة على امتداد باعه ورسوخ قدمه في المعارف الفنون والله در الإمام أبي سالم العياشي إذ قال من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه وبالجملة فهو آخر العلماء الراسخين بل خاتمة الفحول من الرجال المحققين حتى كان بعض الشيوخ يقول هو المجدد على رأس هذه المائة

لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار إمام وقته وعابد زمانه رحمه الله ورضي عنه وفي سنة ثلاث ومائة وألف في ليلة الأربعاء السابع من شهر ربيع الأول منها توفي الولي الصالح أبو العباس سيدي أحمد حجي قال الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن عبد القادر التسنوتاني في حقه ما نصه رجل خير صالح ولقد اجتمعت به بمكناسة سنة ست وتسعين وألف فما رأيت منه إلا خيرا اه ولما توفي خلفه ولده ووارث سره وضجيعه في قبره الولي الصالح سيدي أبو محمد عبد الله حجي المعروف بالجزار وضريحهما مزارة شهيرة بسلا وفي سنة تسع أو عشر ومائة وألف توفي الفقيه العدل النوازلي الفارض الحاسب أبو الحسن علي بن محمد المعروف بأبي شعرة السلاوي ودفن قريبا من ضريح الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه وفي سنة خمس عشرة ومائة وألف توفي الإمام الفقيه الأديب الناظم النائر أبو القاسم بن الحسين الغريسي ثم السلاوي المعروف بأبي زائدة وذلك في جمادى الأولى من السنة ودفن قرب ضريح الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه وفي سنة ثمان عشرة ومائة وألف في ضحى يوم الأربعاء الثامن والعشرين من المحرم منها كسفت الشمس كسوفاً كلياً وسمى ذلك العام عام الظليماء وفي سنة تسع عشرة ومائة وألف توفي الشيخ الإمام العلامة الهمام ذو التصانيف المفيدة في كل فن الحجة المتبرك به حيا وميتا أبو سرحان سيدي مسعود جموع الفاسي ثم السلاوي وذلك يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى من السنة ودفن بزواية الشيخ سيدي أحمد حجي داخل مدينة سلا وفي سنة عشرين ومائة وألف توفي الولي الصالح العابد الناصح أبو العباس أحمد بن عبد الله معن الأندلسي نزيل المخفية من فاس حرسها الله

وفي هذه السنة أيضا كان إحداث قراءة المسمع الحديث المتضمن لأمر الناس بالإنصاف وقوله أنصتوا رحمكم الله ثلاثا عند خروج الإمام يوم الجمعة من المقصورة وجلوسه على المنبر وفي سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف وذلك وقت عصر الثلاثاء الثاني والعشرين من صفر منها توفي الولي الصالح سيدي أبو محمد عبد الله بن سيدي أحمد حجي المعروف بالجزار ودفن بآزاء قبر أبيه كما مر وفي يوم الأربعاء العشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة توفي الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن الأمين الحاج محمد الصبيحي السلاوي ورثاه الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن عبد القادر التسنوتاني بقوله جزعنا وإن كنا على العلم أنه إذا ما أراد الله أمرا تجلأ لفقد الإمام المجتبي العالم الرضي الصبيح ومن في وقته قد تنبلا وإلا فمختار الإله اختيارنا ونرجو له خيرا عميما مكملا ورثاه أيضا صديقه الملائف الشيخ أبو العباس أحمد بن عاشر الحافي السلاوي رحم الله الجميع وفي سنة سبع وعشرين ومائة وألف ليلة الأربعاء فاتح رجب منها توفي الولي الصالح العالم العامل العارف الشهير الشيخ أبو العباس

أحمد بن عبد القادر التستائوتي من كبار أصحاب الشيخ ابن ناصر ومن حفدة الشيخ أبي عبد الله محمد بن مبارك الزعري المتقدم الذكر ومآثر هذا الشيخ أشهر من أن تذكر وزواياه عميمة النفع والبركة بالمغرب وكانت وفاته بمكناسة الزيتون وضريحه بها شهير عند روضة الشيخ سيدي عبد الله بن حامد رضي الله عنهم ونفعنا بهم وفي سنة تسع وعشرين ومائة ألف في الثامن عشر من ربيع الأول منها توفي الشيخ القدوة الإمام السني أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي وهو ولد الشيخ ابن ناصر المتقدم وخليفته ووارث سره وفضله رضي الله عنه أشهر من أن يبينه عليه ومن ذلك ما حكاه الشيخ أبو علي الحسن بن

محمد المعداني في كتابه الروض الياقوت الفائح في مناقب الشيخ أبي عبد الله الصالح قال حدث بعض العلماء الأجلة أنه لما دخل الشيخ أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي المدينة المشرفة في حجته الأخيرة جلس تجاه الحجرة النبوية والناس يزحمون عليه لأخذ العهد وتلقين الأوراد وهو منبسط لذلك فقلت في نفسي إن هذا الرجل مغرور راض عن نفسه كيف يتصدى في هذا المكان الذي تخضع فيه الملوك وجميع الإنس والجن والملائكة وإذا طلعت الشمس اختفى السراج قال فكاشفني بما في نفسي والتفت إلي وقال والله ما جلست لما ترون حتى أمرني النبي وما أذعنت له حتى هددت بالسلب قال فسقطت على يديه أقبلها وقلت له يا سيدي أنا نائب إلى الله تعالى فدعا لي وانصرفت ومما حكاه صاحب الكتاب المذكور قال حدث الرجل الصالح البركة الفقيه الناصح سيدي محمد بن إبراهيم المجاصي قال كان السلطان المولى إسماعيل بن الشريف رحمه الله قد استدعى الشيخ سيدي أحمد بن ناصر وكان به حنق عظيم عليه وعزم إذا وصل إليه أن يفعل به مكرها لا تدرى حقيقته غير أن الأمر شديد فجاه إلى الشيخ جماعة من العلماء الأعلام واصحابه الملازمين له وقد تخوفوا عليه وعلى أنفسهم غاية فكلما الشيخ في ذلك واستفهموه ليعلموا ما عنده من عادة الله تعالى مع أوليائه من النصرة لهم والذب عنهم فلم يسمعوا منه كلمة ثم راجعوه في ذلك حتى هابوه وسكنوا عنه وقدم الشيخ المذكور على السلطان فلما انتهى إلى قصبه آكراي قرب مكناسة الزيتون إذا برجل مجاطي يقال له الحاج عمرو لقيه هنالك فلما رآه الشيخ نزل عن فرسه ليسلم عليه فقال الشيخ ما الخبر يا ولدي فقال الرجل ما الخبر يا سيدي والله لو ددت أن سيدي لم يصل إلى هنا ولم يخرج من داره يعني أن الأمر عظيم فقال له الشيخ رضي الله عنه بلسان العناية الربانية ولا ما يشوش إذا كان في رقيبك شبر وأشار بيده فاعمل فيها ذراعا ومد ذراعه ففرح العلماء الذين معه وكل من حضر بتلك المقالة وتيقنوا الأمن على الشيخ وعلى أنفسهم لما يعلمون من عادة الله الكريمة معه فكان الأمر كما قال فإن السلطان جاء إليه

بنفسه وهو في روضة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر وولفاه بالقبول والتعظيم والتبجيل والتكريم وصافحه بيده وجلس معه في داخل القبة ساعة ولما خرج السلطان رحمه الله من عنده جعل ينادي بلسانه في أصحابه ويقول زوروا سيدي أحمد بن ناصر يا ناصر يا الناس زوروا سيدي أحمد بن ناصر يا الناس ويكررها من صميم قلبه قال سيدي محمد بن إبراهيم فلما انصرف السلطان من عند الشيخ رضي الله عنه جئت إليه وقلت له يا سيدي إنا نخاف أن ينزلنا السلطان بضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن المجذوب ويطول بنا المقام فقال لي لا نبقي إلا هنا وبعد غد نصرف إلى بلادنا إن شاء الله فكان الأمر كما قال بعد أن جاء الأمور من السلطان يأمره بالنزول بضريح الشيخ المجذوب فقال لا أنزل إلا هنا فبقي في موضعه ثم بعث إليه السلطان يأمره بالتوجه إلى بلاده معظما مكرما اه وفي سنة تسع وعشرين ومائة ألف في ليلة عيد الفطر منها توفي الفقيه العالم القاضي أبو العباس أحمد ابن العلامة أبي الحسن علي المراكشي وصلي عليه من الغد ودفن بالموضع المسمى بالعلو من رباط الفتح وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة ألف في ليلة الأحد ثامن عشر المحرم منها توفي الشيخ الصالح أبو علي الحسن بن عبد الله العابدي السجيري ودفن بزواوية من حومة السويقة من سلا وفرغ من بناء قبته في رجب من السنة بعدها وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة ألف يوم الاثنين خامس عشر رجب منها توفي الشيخ العلامة خاتمة المحققين وآخر قضية العدل بفاس الشيخ أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد بردلة الفاسي وفي التاريخ المذكور توفي الشيخ العلامة المتبرك به أبو العباس أحمد بن سليمان ذو التأليف العديدة في الحساب وغيره بحضرة مراكش رحمه الله وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة ألف كانت جاحة الجراد بالعدوتين سلا ورباط الفتح وأعمالهما وخلفه قلمه السمي في لسان المغاربة بأمرد فكان كالسيل العام لم يترك ورقة خضراء إلا أكلها وكان ذلك في شوال من السنة المذكورة وفي سنة تسع وثلاثين ومائة ألف يوم الأربعاء ثاني عشر

صفر منها توفي الشيخ العارف بالله تعالى سيدي محمد الصالح ابن الشيخ العارف بالله تعالى سيدي محمد المعطي ابن سيدي عبد الخالق ابن سيدي عبد القادر ابن الشيخ الأكبر سيدي محمد الشرقي ومناقبه قد تكفل بها كتاب الروض الفائح في مناقب الشيخ أبي عبد الله الصالح لأبي علي المعداني وفي هذه السنة ضحى يوم السبت ثامن ذي القعدة منها توفي الفقيه العلامة المحقق سيدي أبو بكر ابن علي الفرجي المراكشي ثم السللاوي واحتفل الناس لجنائزته وازدحموا على نعشه حتى كادوا يقتتلون عليه ودفن قرب داره بزواوية سيدي مغيث من طاعة سلا حرسها الله الخير عن الدولة الأولى لأمير المؤمنين المولى أبي العباس أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي رحمه الله لما توفي أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله في التاريخ المتقدم اجتمع قواد العسكر البخاري وقواد الودايا وعايان الدولة وكتابها وقضائتها وبايعوا المولى أبا العباس أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي ليبسط يده بالعطاء قال أكتسوس بايعوه بإشارة العبيد التنبؤية بالجبر ولم يكن ذلك عن عهد من أبيه وكتبوا ببيعته إلى الأفاق ولما اتصل بأهل فاس خبر موت السلطان كان أول من بدؤوا به أن قتلوا قائدهم أبا علي الروسي ثم بايعوا السلطان المولى أحمد وكتبوا ببيعته وتوجه بها أعيانهم إلى مكناسة فدخلوا على السلطان المولى أحمد وأدوا البيعة والطاعة فقبلهم ولم يظهر لهم سوء بما ارتكبه من قتل قائدهم بل أعطى العلماء والأشراف جائزة البيعة وولى القائد المحجوب العالج وردداهم مكرمين ثم قدم عليه قواد القبائل والأمصار وأعيانها من أهل الحواضر والبوداي

مبايعين ومؤيدون الطاعة فجلس للوفود وأجاز كلا على قدر مرتبته وردداهم إلى بلادهم وتفرغ لشأنه فأفتح عمله بقتل عمال أبيه وأركان دولته فقتل علي بن يشي القبلي أمير البربر وثنى بأحمد بن علي أمير الأعمال الفاسية وما اتصل بها من بلاد الهبط والصحيح أن أحمد بن علي المذكور كان عند بيعة المولى أحمد في السجن ففسد إليه علي بن يشي من ذبحه فيه فسلط الله عليه السلطان فقتله وكان جزاؤه من جنس عمله وقتل السلطان أيضا الباشا ابن الأشقر ومرجان الكبير قائد عبيد الدار وصاحب بيوت الأموال وكان لنظره ألفان ومائتان من المفاتي كلها موزعة على أبواب القصور وكل واحد من هؤلاء الخصيان له عبدان وثلاثة وأكثر يخدمونه واعلم أن المولى أحمد رحمه الله كان مستبدا عليه في كثير من الأحوال يشير العبيد عليه فيفعل وما قتل من قتل من رؤساء الدولة إلا بإشارتهم وقتل جماعة من القواد والكتاب سوى من تقدم وطاف على بيوت الأموال ومخازن السلاح والكسي فأمر بإخراج ذلك وتفرقت على العبيد وقواد الجيش وأعطى من ذلك فوق الكفاية وعم العلماء والأشراف والطلبة بالنوال وخص أفرادا من العسكر بألوف فاعتبط الناس به وحمدوه رحمه الله إغارة القائد أبي العباس أحمد بن علي الريفي على تطاوين وما دار بينه وبين الفقيه أبي حفص عمر الوقاش كان القائد المجاهد أبو العباس أحمد بن علي الريفي يلي رئاسة المجاهدين هم وأبوه من قبله بالنغور الهبطية أيام السلطان المولى إسماعيل رحمه الله وكانت له ولأبيه اليد البيضاء في فتح طنجة والعرائش وغيرهما حسبا سلف بعضه فكانت له بذلك وجهة كبيرة في الدولة خصوصا ببلاد الهبط وكان بتطاوين يومئذ الفقيه الأديب أبو حفص عمر الوقاش من بيوتاتها وأهل الرياسة بها كان أولا كتابا مع السلطان المولى إسماعيل رحمه الله وكانت له المنزلة العالية عنده ثم لما ضعف عن الخدمة السلطانية بكر سنة

ولاه على تطاوين وأعمالها فحدثت بينه وبين القائد أبي العباس الريفي منافسة أوجبتها المجاورة والمعاصرة فكان يبلغ كل واحد منهما عن صاحبه ما يحفظه واستمر الحال على ذلك إلى أن توفي السلطان المولى إسماعيل رحمه الله وأفضى الأمر إلى ابنه المولى أحمد فضع الحزم وأهمل أمر الجند حتى سقطت هيبة السلطان من قلوب الولاة في النواحي فانتبه أبو العباس الريفي الفرصة في أهل تطاوين وزحف إليها في جيش كثيف ودخلها على حين غيبة من أهلها وحاول الفتك فيهم فبرز إليه الفقيه أبو حفص الوقاش في أهل تطاوين وحاربه فانتصر عليه وأوقع به وقعة أعظم مما كان أضمر له وقتل من إخوانه عددا كثيرا ونجا القائد أبو العباس بجريعة الدفن ولما اتفق للفقيه أبي حفص هذا الفتحة الذي لم يكن له في حساب

استخفه النشاط و غلبت عليه حلوة الظفر حتى طمع في الملك وفاه من ذلك بما كان ينبغي له ولكل عاقل كتمانته فقال قصيدته المشهورة ينعي فيها على أهل الريف فعلتهم وينتقص دولتهم ويفتخر على أهل فاس فمن دونهم ويخبر عن نفسه بما يؤول إليه أمره فأزرى بأبده على كبر سنه مع أنه كان من أهل الأدب البارع والعلم والرياسة والقصيدة المشار إليها هي قوله بلغت من العليا ما كنت أرثجي وأيامنا طابت وغنى بها الطير ونادى البشير مفصحا ومصرحا هلم أباحص فأنت لها الصدر نهضت مجيبا للندا راقصا به وما راغني إذ ذاك زيد ولا عمرو شرعت بحمد الله للملك طالبا وقلت للمولى المحامد والشكر أنا عمر المعروف إن كنت جاهلي فسل تجد التقدير عندي ولا فخر أنا عمر الموصوف بالبأس والندى أنا عمر المذكور في ورد الجفر ظهرت لأحبي الدين بعد اندراسه فطوبى لمن أمسى يساق له الأمر ولم يبق ملك يستتب بغربنا فعندي انتهى العلم المبرح والسر أنا عمر المشهور في كل غارة أنا البطل المقدم والعالم الحبر ضببط بلادي وانتدبت لغيرها وعمما قليل يعظم الجاه والقدر وجئت بعدل للإمامين تابعا أنا الثالث المذكور بعدهما وتر

يعني أنه ثالث العمرين وقد كان يصرح بذلك ثم قال ففرطوط والرحمون والكوط عصبتي وراغون كنزي والصغير به القهر أولئك أنصاري وأرباب دولتي وأهلي وأصهاراي هم الأنجم الزهر وقد دام بالديمان مجدي وسؤددى وفخري في الأقطار باد كما الفجر هلالى بدا لما هلالى أجباني وغيلان إذ لبي به عظم الوفر ودولة أهل الريف حتما تمزقت فلم يبق بالتحقيق عندي لها جبر أنقناهم لما أتوا شر بأسنا فأبوا سراعا والصوارم والسمر تطير الأقف والسواعد منهم هنيئا فحق للأنام بنا البشر بخفي حنين أب عنا كبيرهم وما فاته منا نكال ولا خسر فمن ذا يضاهيني ومالي وافر وذكرى مغمور به البر والبحر إلى غير هذا مما لا غرض لنا في جلبه وقد أجابه الفقيه أبو عبد الله محمد بن بجة الريفي ثم العرائشي بقصيدة يقول فيها في صفحة الدهر قد خطت لنا عبر منها ادعاء الحمار أنه بشر من مر عنه الصبا وما رأى عجا خبره بعجاب دهره الكبر وهي طوبلة إلا أن قائلها لم يحكم صناعة الشعر فلذا تركناها ولما اتصل خبر هذه الواقعة بأمر المؤمنين المولى أحمد رحمه الله أغضى عن الفريقين ودخل داره وعكف على ملذاته وترك الناس وشأنهم وثار ببلاد الغرب والقصر وأعماله فساد كبير بين القبائل وأصحاب المخزن وهلك في ذلك بشر كثير وسقطت هيبة الخلافة وانحل نظام الدولة بالمره لا سيما مع ما دهاها من قتل رجالها القانمين بأمرها وكان ذلك منتهى مراد العبيد فقد كان علي بن يشي أمير الأمراء ورئيس البربر وغيرهم وكان أحمد بن علي أمير جبال مرموشة وبني وراين وعرب الحباينة وبرابرة غياثة والجبال فكان رديف علي بن يشي ومباريه في نصح الدولة وجباية الأموال وكان ابن الأشقر أمير الزراهرة وعلى يديه أعشار القبائل كلها من أهل الغرب وبني حسن وغيرهم رديفا للأولين وكان القائد مرجان صاحب بيوت

الأموال وبيده دفتر الدخل والخرج عارفا بقدر مما يدفعه العمال كل سنة فلما أتى عليهم القتل رحمهم الله خف على الرعية ما كانوا يحملونه من ثقل وطأنهم واستراحوا ممن كان يحول بينهم وبين الفساد وبزجرهم عن القبيح خصوصا البربر فانهم كانوا في أقصاع النحاس فخرجوا منها بمهلك علي بن يشي وأخذوا في اشتراء الخيل واقتناء السلاح وعادت هيف إلى أدبانها وتبعهم على ذلك غيرهم من قبائل العرب فكانما كانوا على ميعاد وامتدت أيدي النهب في الطرقات وكثرت الشكايات بباب السلطان فما وجدت الناس من يشكيبهم هذا حال مكناسة وأعمالها فأما فاس فقد كفى الودايا أمرها ونابوا عن البربر في العيب بأطرافها وعظم الخطب واشتد الأمر ثم دخلت سنة أربعين ومائة وألف ففي المحرم منها أغار الودايا على سوق الخميس من فاس فنهبوا وقتلوا وقبضوا على طائفة من أهل فاس فأودعهم السجن بفاس الجديد فبعث أهل فاس جماعة من أشرفهم إلى السلطان بمكناسة يشكون إليه ما نالهم من جور الودايا فلما وصلوا إليها وثب عليهم محمد بن علي بن يشي قبل أن يجتمعوا بالسلطان فسجنهم أيضا فلما اتصل بأهل فاس ما جرى على إخوانهم بمكناسة أخذهم ما قدم وما حدث فأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم وشمروا لحرب الودايا فكتب الودايا إلى السلطان يعلمونه بأن أهل فاس قد شقوا العصا وخرجوا عن الطاعة فسرب السلطان إليهم العساكر بكل صارم وذابل وتفاقم الأمر واختلط الحابل بالنابل وركبت المدافع والمهارييس والمجانيق لحصار فاس واستمر القتال إلى أن بعث السلطان أخاه المولى المستنضي في جماعة من أشرف مكناسة ومعهم أشرف فاس الذين سجنهم محمد بن علي بن يشي لتلافي الأمر وعقد الصلح بين الودايا وأهل فاس فانقذت الصلح ونهض عسكر السلطان إلى مكناسة فما ساروا يوما أو يومين حتى انتقض ذلك الصلح وغدا الودايا على حصار فاس ورميها بالكور والبنب واستمر الحال على ذلك إلى أن قدم من

جانب السلطان القائد أبو عمران موسى الجراري ساعيا في الصلح فاجتمع أهل فاس وافوضهم في ذلك فأذعنوا وبعثوا معه جماعة من الأعيان والعلماء والأشراف ينفون على السلطان لئتم لهم ذلك بعد أن أخذوا جماعة من أصحاب أبي عمران توثقا بأخوانهم ولما قدم أولئك الوفد مكناسة منعوا من الدخول على السلطان ورجعوا إلى فاس مخفيين واستمر الأمر على حاله إلى أن كاتبهم عبيد الديوان يطلبون منهم موافقتهم على عزل السلطان المولى أحمد وتولية أخيه المولى عبد الملك صاحب السوس فأجابوهم إلى ذلك وطاروا به كل مطير وأكرموا ودفروهم وحالفوهم على الوفاء ورجع العبيد إلى مكناسة شاكرين ففوضوا من بها من قواد الجند وتذكروا فيما وقع فيه الناس من الفساد وانقطاع السبل وتعضر الأسباب وتحققوا بما أتوه من سوء التدبير في تقديم المولى أحمد لكونه كان ضعيف المنة غير مطلع بأعباء الخلافة فأجمعوا على عزله واستبدال غيره به ولما تم أمرهم على ذلك بعثوا إلى أخيه المولى عبد الملك جريدة من الخيل وكتبوا إليه كتابا يستحثونه للقدوم وأعلموه بما أجمع عليه رأيهم فأجاب وأقبل مسرعا نحو مكناسة ولما انتهى إلى وادي بهت واتصل خبره بالعبيد دخلوا على السلطان المولى أحمد وقبضوا عليه وأخرجوه من دار الملك مخلوعا وسجنوه بداره التي كان يسكن بها قبل البيعة خارج القصبه وكان ذلك في شعبان سنة أربعين ومائة وألف الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى أبي مروان عبد الملك بن إسماعيل رحمه الله لما خلع السلطان المولى أحمد رحمه الله وسجن خارج القصبه كما مر اجتمع من الغد الجيش كله وركبوا لملافة المولى أبي مروان عبد الملك بن إسماعيل فاجتمعوا به خارج مكناسة وأدوا واجب الطاعة والتفوا عليه ودخلوا به الحصرة في زي الملك وأهبة السلطان ثم حضر أعيان الدولة وأمرؤها

وقضاتها وعلماؤها وأشرافها فبايعوه وكتب بيعته إلى الأفاق ومن الغد قدم عليه أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم ببيعتهم فدخلوا عليه وبايعوه ثم قدمت عليه الوفود للتهنئة من حواضر المغرب وبواديه فجلس لملاقاتهم وقابلهم بما يجب من البشر إلى أن قرع من شأنهم وتفقذ أخاه المولى أحمد المخلوع فأمر به إلى فاس كي يسجن بها ثم بدا له فأمر بتوجيهه إلى سجلماسة قال في الأزهار الندبية لما بعث السلطان المولى أبو مروان بأخيه المولى أحمد المخلوع إلى تافيلالت كتب إلى عامله بها أن يسلم عينيه بفور بلوغه فلما ذلك إلى المولى أحمد ففر إلى زاوية الشيخ أبي عثمان سيدي سعيد أحنصال وكان مقدم الزاوية يومئذ السيد يوسف ابن الشيخ سعيد المذكور وكان يتكلم في الحدثن فقال للمولى أحمد إنك سترجع إلى الملك فكان كما قال ورجا الناس أن يكون السلطان المولى أبو مروان كآبيه وأن يسير فيهم بسيرته ويسد مسده فخاب الظن وأخفق المسعى وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس وأمسك الله يده عن العطاء فلم يسمح للعسكر ولا للوفود بدرهم فكان ذلك من أكبر الأسباب في اختلاف أمره وتفسخ دولته فطلب العسكر البخاري منه جائزة البيعة على العادة فبعث إليهم بأربعة آلاف متقال وكان راتبهم على عهد السلطان المولى إسماعيل رحمه الله مائة ألف متقال ولما بوع السلطان المولى أحمد زادهم في الراتب خمسين ألفا فلما وصلت إليهم جائزة المولى أبي مروان سقط في أيديهم وعلمو أنهم لم يصنعوا شيئا في بيعته وتناجوا بعزله وأضمرؤا ذلك وتحينوا وقت الفرصة فيه فلما إليه ذلك عنهم فأخذ حذره وصار يكتب قبائل العرب ويعددهم ويمينهم ويحضهم على اجتماع كلمتهم كي ينفعوه يوما ما ظنا منه أنهم يقاومون العبيد ثم كتب إلى البربر أيضا يغريهم بالعبيد وأغرى العبيد بالبربر وقال لهم في جملة من ذلك إنه لا يستقيم لنا أمر إلا بعد الإيقاع بهؤلاء البربر وشغلهم بالاستعداد لغزوهم وكتب إلى أهل فاس يأمرهم أن يبيعوا رمايتهم إلى حضرتة لغزو البربر وأخذ في التضريب بين العسكر والبربر واطلع العبيد على خستته فحاصوا عنه حيصة حمر الوحش وأصفقوا على عزله ورد أخيه المولى أحمد لملكه لسخاته وبسط يده وكذبوا فإن المولى أبا مروان رحمه الله كان أنسب حالا بالخلافة من أخيه المولى أحمد لنجدته وحزمه وكان قد عزم على تطهير الحضرة وبسط الدولة من اقتيات العبيد

وتحكمهم على أعيانها إلا أنه لم يحكم التدبير في ذلك فعاجلوه قبل أن يعالجهم ولما تحقق المولى أبو مروان بما عزم عليه العبيد من خلعه بعث إليهم الشيخ البركة مولاي الطيب بن محمد الوزاني واعطا ومذكرا فاتاهم ووعظهم ووعدهم الخير إن أفلعوا ونهاهم عن الخروج على السلطان واتباع سبيل السلطان وخوفهم في ذلك من سخط الله فما زادهم إلا نفورا ثم بعثوا بجريدة من الخيل إلى سجلماسة ليأتوا بالمولى أحمد وفي أثناء ذلك ركب العبيد من الديوان وأغاروا على مكناسة فاكنتسحوا سرحها ثم اقتحموا المدينة فنهبوا واستباحوا حرمتها وقتلوا من ظفروا به من أعيانها ثم دخلوا دار الملك للقبض على السلطان المولى أبي مروان فلم يجده لأنه لما سمع بما فعله العبيد بمكناسة ركب في جماعة من أصحابه وفر إلى فاس فدخل حرم المولى إدريس رضي الله عنه واستجار به وبعث إلى أهل فاس فاستجار بهم فوعده الدفاع عنه والقيام بأمره ولما علم العبيد بموضع المولى أبي مروان من فاس وما وعده به أهلها حبسوا رماهم الذين كانوا قد قدموا مكناسة بقصد غزو البربر كما تقدمت الإشارة إليه وثقفهم حتى يقدم السلطان المولى أحمد من سجلماسة ويرى فيهم وفي أخيه وأبيه وكان ذلك في ذي الحجة سنة أربعين ومائة وألف

الخبر عن الدولة الثانية لأمير المؤمنين المولى أبي العباس أحمد الذهبي رحمه الله لما راسل العبيد المولى أحمد بنا إسماعيل بسجلماسة وأعلموه بما عزموا عليه من عزل أخيه ورد الملك إليه بادر بالقدوم إلى مكناسة فدخلها في التاريخ المتقدم وحضر أعيان الدولة من القواد والقضاة والكتاب وبايعوه البيعة الثانية وكتبوا بذلك إلى الأفاق ثم دخل دار الملك وفرق الأموال والكسي في العسكر والعلماء الأشراف وبالغ في ذلك تقصيا مما نغمه العبيد على أخيه وكان فعل أخيه أقرب إلى الصواب لو سلك الوسط وأحكم أمره ورتبه ترتيب ذو الحزم ولكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن حصار أمير المؤمنين المولى أحمد لفاس والسبب في ذلك لما بوع المولى أحمد البيعة الثانية قدم عليه الوفود من القبائل والأمصا فآكرم فادتهم وتخلف عنه أهل فاس فلم يقدم عليه أحد منهم لأنه لما قدم من سجلماسة وأعلم بمكان أخيه وبمكان رماهم المتقين بمكناسة أمر بسجنهم والتضييق عليهم فأوجسوا منه شرا وحذروه ولأنهم كانوا قد ارتكبوا العظيمة أولا في قتل أبي علي الروسي ونهب داره وماله ومال المخزن الذي كان تحت يده فكانوا يتوقعون سطوة السلطان المولى أحمد بهم أول ما بوع ثم لم يلتفت إليهم لشغله بنفسه فلما عادت الدولة إليه ارتابوا به وحدوا عن طاعته وتقدموا إلى المولى عبد الملك وجددوا له البيعة وأعلنوا بنصره والقيام بأمره ثم ورد عليهم كتاب السلطان المولى أحمد يأمرهم أن يسلموا إليه أخاه ويدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يأذنوا بحربه فجهروا بالخلاف وأغلقوا الأبواب ووطنوا أنفسهم على الحصار ثم بعث إليهم

السلطان القائد البيهقي قائد الرماة المسجونين بمكناسة وأمره أن يعرض عليهم الدخول في الطاعة ويسرح لهم إخوانهم المسجونين وحمله كتابا إليهم يتضمن ذلك وغيره فلما فرغ القائد المذكور من قراءة كتاب السلطان عليهم وثبوا عليه فقتلوه ثم جرّوه برجله وصلبوه على التوتة التي بحومة الصفارين ثم وثبوا على الحاج الخياط عدل فقتلوه على باب داره وخرج الشريف أبو محمد عبد الله بن إدريس الإدريسي في كتيبة من الخيل والرماة إلى زواغة فأغار على سرح الودايا واستاق من البقر والغنم شيئا كثيرا فدخل به فاسا وبيع بأبخس ثمن وتوزعت الأيدي فبيعت البقرة بست موزونات والشاة بموزونة على ما قيل وهاجت الحرب بين أهل فاس والودايا ثم نهض السلطان المولى أحمد ففتح محرم من سنة إحدى وأربعين ومائة وألف في عسكر العبيد وودايا مكناسة فزحف إلى فاس ونزل عليها ثاني يومه ونصب عليها المدافع والمهاويس والآلات الحصار وانشأ العسكر على بساينها وبعثها فانتسفوا ثمارها واجتاحوا غلها وأمر الطبجية بموالة الكور والبنب والحجارة عليها ليلا ونهارا ففعلوا ودام ذلك إلى أن عمها الخراب وتهدم الكثير من دورها وهلك عدد وافر من رجالها بعضهم في القتال وبعضهم بالهدم والحجارة واستمر الحصار نحو خمسة أشهر فضاق بهم الحال وضعفوا عن القتال وقلت الأوقات وارتفعت الأسعار فأذعنوا للطاعة وصالحوا المولى أحمد على إسلام أخيه المولى عبد الملك إليه وتمكنه منه على الأمان فبعث السلطان المولى أحمد إلى أخيه المولى عبد الملك يخبره بين التغريب إلى سجلماسة والمقام بالحرم الإدريسي فاختار المقام بالحرم ثم إن السلطان تقدم إلى أهل فاس في أن لا يجتمع أحد منهم بأخيه ولا يجالس ولا يكلمه ولا يبيع من أحد من أصحابه شيئا ولا يشتري منه ومن فعل شيئا من ذلك فإنه يعاقب فلما رأى المولى عبد الملك ما عامله به أخوه من التضييق بعث ولده إلى العبيد يطلب منهم أن يؤمنوه ويخرج معهم إلى

حيث شأوا فقدم عليه الباشا سالم الذكالي في خمسين من القواد وعاهدوه بالحرم الإدريسي أن لا يصيبه مكروه فخرجوا به حتى قدموا به على أخيه فلما مثل بين يديه أمر به أن يحمل إلى مكناسة مقبوضا عليه فوصل إلى مكناسة وسجن بدار الباشا مساهل ثم رحل السلطان المولى أحمد عن فاس قافلا إلى مكناسة وعند حلوله بها مرض مرض موته ولما أحس من نفسه بالموت أمر بخلق أخيه المولى عبد الملك فخلق ليلة الثلاثاء أول يوم من شعبان ثم توفي السلطان المولى أحمد يوم السبت رابع شعبان المذكور سنة إحدى وأربعين ومائة وألف فكان بين وفاتها ثلاثة أيام رحمها الله وأعلم أن ما ذكرناه من هذه الأخبار هو الذي عند صاحب البستان وقلده أبو عبد الله أكنسوس حذو النعل بالنعل ورايت بخط جننا من قبل الأم وهو الفقيه الأستاذ أبو عبد الله محمد بن قاسم الإدريسي الجباري عرف بابن زروق وكان حيا في هذه المدة ما نصه ببيع المولى أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي يوم وفاة والده رحمه الله بعد أن تار بالمغرب والقصر وحوزة فساد كبير بين القبائل وأصحاب المخزن وهلك في ذلك بشر كثير وبعد مكثه في الملك سنة واحدة وثمانية أشهر خلع ويبيع أخوه المولى عبد الملك في الآخر من رجب سنة إحدى وأربعين ومائة وألف وهو بالسوس الأقصى بمدينة تارودانت ثم ورد على دار المملكة بالحاضرة المكناسية ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم من السنة المذكورة ثم تار عليه أخوه المولى أحمد المخلوع في عاشر المحرم ففتح سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف واقتحم عليه دار الملك من مكناسة عنوة ووقع فساد كبير بالمدينة المذكورة وهلك بشر كثير في الحرب ومنهم من قتل صبورا وفر المولى عبد الملك ناجيا بنفسه إلى فاس ثم حاصره بها المولى أحمد نحو من أربعة أشهر حتى خرج إليه على الأمان فأمر بسجنه بمكناسة ثم قتل المولى عبد الملك صبورا مخنوقا في أواخر رجب المذكور أيضا اه كلامه والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر

قالوا وكان المولى أحمد رحمه الله أشبه الناس بالأمين بن الرشيد العباسي في زيه ولهوه وإكبابه على شهوته وتضييع الحزم والجد حتى فسدت الأحوال وتراكت الأهوال وذكر معاصروه أنه لم يكن شهد حربا قط قبل خلافته وكان مع ذلك جوادا متلافا فألت به الأمور إلى ما ذكرنا والله الأمر من قبل ومن بعد الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل رحمه الله كان المولى عبد الله بن إسماعيل وهو ولده الحرة خنثي بنت بكر المغفري أيام خلافة أخيه المولى أحمد منحاشا إلى أخيه المولى عبد الملك ومقيما معه ببلاد السوس فلما خلع المولى أحمد ويبيع المولى عبد الملك وقدم مكناسة قدم المولى عبد الله في ركابه واستمر مقيما بها إلى أن تار العبيد بالمولى عبد الملك وفر إلى الحرم الإدريسي فخرج المولى عبد الله من مكناسة إلى سجلماسة وأقام بداره بها إلى أن توفي السلطان المولى أحمد في التاريخ المتقدم فاجتمع أعيان الدولة من العبيد والودايا وسائر القواد والرؤساء وانفقوا على بيعة المولى عبد الله بن إسماعيل وهو يومئذ بسجلماسة فنادوا باسمه وأعلنوا بنصره في المحلة ومكناسة وبعثوا جريدة من الخيل لتأتي به وكتبوا مع ذلك إلى أهل فاس يعزونه عن هلك من إخوانهم أيام الحصار ويحضونهم على الموافقة على بيعة المولى عبد الله بن إسماعيل ولما وصل الكتاب إلى فاس قرئ على منبر جامع القرويين فأجابوا بالموافقة إن حضر ولما وصلت الخيل إلى المولى عبد الله وأعلموه بما اتفق عليه الناس في شأنه أقبل مسرعا حتى نزل بظاهر فاس بالموضع المسمى بالمهراس فخرج أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم لملاقاته فسلموا عليه واستبشروا بقدمه فسر بهم والآن لهم القول ووعدهم بالجميل

وأعلمهم بأنه من الغد دخل لحضرتهم لزيارة المولى إدريس رضي الله عنه فرجعوا مسرورين مغتبطين ومن الغد أخذوا زينتهم ولبسوا أسلحتهم ونشروا ألويتهم وخرجوا لميغاده فركب السلطان فرسه وركب معه خاصته وأهل موكبته وفي جملتهم حمدون الروسي عدو أهل فاس وتقدم السلطان فدخل على باب الفتوح وتوسط المدينة فرأى بعض سماسة الفتن من أولاد ابن يوسف حمدون الروسي وكان قد قتل أباهم حسبما مر فصمدوا إليه فلما رأهم تتحى عنهم قليلا فتبعوه فعلم أنهم عزموا على اغتياله فركض فرسه إلى السلطان وهو على قنطرة الرصيف وأخبره خبر أولاد ابن يوسف وخص وعم بالإرجاف في حق أهل فاس فعذل السلطان عن قصدته ورجع على طريق جامع الحوت ثم على جزاء ابن عامر

وخرج على باب الحديد إلى فاس الجديد ولم يزر ولم يعلم الناس موجب الرجوع عن الزيارة إلى أن شاع الخبر بذلك فمشى علماء فاس وأشرفها إلى السلطان ورفعوا إليه بيعتهم واعتذر إليه بعض الفقهاء بأن ما وقع في جانب حمدون إنما هو من بعض السفهاء فأعرض السلطان عن ذلك وضم عن سماعه وكانت البيعة التي رفعها أهل فاس من إنشاء الفقيه العالم الوجيه أبي العلاء إدريس بن المهدي المشاط المنافي نسبة إلى عبد مناف بن قصي وهذا الفقيه هو الذي كان السلطان المولى إسماعيل رحمه الله بعثه قاضيا على تادلا مع ابنه المولى أحمد الذهبي حين ولاه عليها كما مر ونصها الحمد لله الذي جعل العدل صلاحا للملك والرعية والعباد كما جعل الجور هلاكا للحرب والماشية والبلاد وسد العادل بعانيته وأعد للجائر ما هو معلوم له يوم المعاد وجعل المقسطين على منابر من نور يوم القيامة كما جعل القاسطين في العذاب والحسرات والأنكاد فأسد الملوك يوم القيامة من سلك مع الرعية سبيل السداد وأصلح ما أظهره الجائر في الأرض من الفساد نحمده أن تفضل علينا بإمام عادل ونشكره إن حكم فينا من لا يصغي في الحق لقلوب عادل فولى علينا الخليفة من نسل الشفيق يوم التناد

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لا يسأل عما يفعل يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء في أي وقت شاء وأراد ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله الشفيق في أمته يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يقبل من القاسطين فداء بطريف ولا تلاد الذين أظهروا الشريعة ومحو الظلم محمو المداد أما بعد حمد الله الذي أمر بطاعة أولي الأمر ووعد من نصر دينه بالظفر والنصر فقال عليه السلام ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية وفي صحيح مسلم عنه قال من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع فاضربوا عنقه بالسيف كأننا من كان وفي صحيح مسلم أيضا عنه قال من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد وأراد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله من أكره من أميره شيئا فليصبر فإن من خرج عن السلطان شيئا مات ميتة جاهلية وفيه أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميره فقد أطاعني ومن عصى أميره فقد عصاني وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا ين عتبة لعلك لا تلقاني بعد اليوم فعليك بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة للأمر وإن عبدا حبشيا واتفق أئمة الدين على أن نصب الإمام واجب على المسلمين وإن كان من فروض الكفاية كما أن القيام بذلك من الواجبات كما دلت عليه نصوص الأحاديث والآيات وقال الشاعر لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا ولما كان من أمر الله سبحانه ما أراده وقدره فقبض إليه خليفته وأقبره دهش المسلمون وخافوا من توالي الشرور والفتن فتوجهوا إليه سبحانه في أن يغمدهم السيف وطلبوا من فضله المعهود أن يصرف عنهم ضرور المحن والحتوف فأجاب الكريم الدعوات ونفس الهموم والكربات ونشر

رحمته وأزاح نغمته فصارت القلوب ناعمة بعد بؤسها والوجوه ضاحكة بعد عبوسها والشرور والفتن قد أدبرت وأعلام الأمن والعافية قد أقبلت فوفق الله جيوش المسلمين للأعمال المرضية والهمم لما فيه صلاح الدنيا والدين والراعي والرعية فاقتضى نظرهم السديد ورأيهم الموفق الرشيد بيعة من في أفق السعادة قد طلع وظهر في سماء المعالي بده وارتفع الإمام الهمام العلوي الهاشمي العدل في الأحكام الموصوف بالكرم والشجاعة والشهامة والحزم والنجدة والزعامة المتواضع لله المتوكل في جميع أموره على الله أمير المؤمنين مولانا عبد الله بن الشريف الجليل الماجد الأصيل أمير المؤمنين مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف فبايعوه أعزه الله على كتاب الله وسنة الرسول وإقامة العدل الذي هو غاية المأمول بيعة التزمتها القلوب والأسنة وسعت إليها الأقدام والرووس خاضعة مذعنة لا يخرجون له من طاعة ولا ينحرفون عن مهيع الجماعة أشهدوا على أنفسهم عالم الطويات المطلع على جميع الخفيات قائلين إننا بايعناك وقلدناك لتسير فينا بالعدل والرفق والوفاء والصدق وتحكم بيننا بالحق كما قال تعالى لنبيه في محكم وحبه يداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فأحكم بين الناس بالحق ص وقال تعالى وقوله الحق ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما الفتح وقال تعالى ولا تكن للخائنين خصيما النساء وهذه الرعية تطلب من ربها أن يعين مالكها ويساعده ويقذف الرعب في قلب من يريد أن يعانده وأن يفتح عليه ما عسر على غيره ويمده بعزيز نصره إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وبيده القوة والحوال نعم المولى ونعم النصير شهد بذلك على نفسه ومن معه العبد الفقير المذنب الحقيير مملوها وكاتبها إدريس بن المهدي المشاط بمحضر فلان وفلان وجمهور الفقهاء والأعيان في يوم الاثنين سابع رمضان سنة إحدى وأربعين ومائة وألف ثم سافر السلطان في الحين إلى مكناسة كما نذكره

حدث الفتنة بين أمير المؤمنين المولى عبد الله وأهل فاس والسبب في ذلك قد قدمنا ما كان من وسوسة حمدون الروسي للسلطان المولى عبد الله في جانب أهل فاس واعتذار بعض الفقهاء لدى السلطان عن ذلك ثم إن السلطان أمر أهل فاس ببعث طائفة منهم تكون معه على العادة فعينوا الخصمات التي كانت تغزو مع الملوك قبله فذهبت معه إلى مكناسة ولما استقر بالحضرة قدم عليه أعيان الديوان وعمال القبائل ووفود الحواضر والبوداي ففرق المال ولم يجرم أحدا سوى أهل فاس فإنه لم يعطهم شيئا ثم حضر عيد الفطر فقدمت وفود الأمصار ليشهدوا العيد مع السلطان على العادة وقدم وفد فاس لهذا الغرض وحضروا صلاة العيد مع السلطان بالمصلى ولما قدم الناس هداياهم بعد رجوع السلطان إلى منزله قدم أهل فاس هديتهم على العادة فأعطى الناس وحرّمهم ثانيا قلت ولست أشك في أن شيطاننا من شياطين الإنس كان موكلا بهذا السلطان يفره بأهل فاس ويوغر صدره عليهم ويفسد ما بينه وبينهم وإلا فكيف تقتضي السياسة أن يعمد ملك كبير إلى أخصر رعيته ولبيها وصميمها يفسد ضمائرنا عليه ويزرع بغضه في قلوبها وهب أنهم أساؤوا الأدب أليس التعاطف مطلوبيا في مثل هذا ما أمكن لا سيما في حق السلطان وقد كان المنافقون يؤذون رسول الله وأصحابه فيحلم عنهم وقال له بعض أصحابه ألا نقتلهم فقال له كيف يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ومن الحكم الماثورة قولهم التعماري يدفع شرا كثيرا وقال الشاعر ليس الغني بسيد في قومه لكن سيد قومه المتعابري

ومن الغد أمر السلطان بإحضار أهل فاس بالمشور ثم خرج عليهم فقاموا إليه وأدوا واجب التحية فقال لهم يا أهل فاس كاتبوا إخوانكم يسلموا إلينا البساتين والقصبات فإنها للمخزن ومن وظائفه فإن أبوا فإني أتيتهم وأهدم عليهم تلك القرية فأجابوا بالسمع والطاعة وعادوا إلى رحالهم ولما كان المساء اتخذوا الليل جملا وأسروا ليلتهم كلها ولم يصبحوا إلا بباب فاس فاجتمعوا بأخوانهم وقرروا لهم مقالة السلطان وما عزم عليه في حقهم فاجتمع أعيانهم وتفاوضوا في شأنهم وشأن السلطان وأحضروا نسخة البيعة وتصفحوا شروطها وقالوا إنا لم نبايعه على هذا الذي يعلمنا به ثم أعلنوا بخلعه والأمر لله وحده حصار المولى عبد الله مدينة فاس لما أعلن أهل فاس بخلع السلطان المولى عبد الله عزموا على الحرب ووطنوا أنفسهم على الحصار ونادوا في المدينة من أراد الخروج إلى بلده وأمأنه من غير أهل البلد فليتهيا في ثلاث ثم أغلقوا أبواب المدينة واستعدوا للقتال ولما سمع السلطان بخبرهم تهيأ لغزومهم فأخذ أهبطه وخرج من مكناسة في الخامس والعشرين من شوال سنة إحدى وأربعين ومائة وألف فنزل على فاس ووزع الجنود عليها من كل ناحية وأطلق يد الجيش بالبعث في أطرافها من تخريب المصانع وقطع الأشجار وإفساد المزارع وأمر بطم الوادي فاتحسب عنهم ماؤه وزحفت العساكر فكان القتال على كل باب سائر النهار فإذا كان المساء أمر الطبجية والأعلاج بإرسال الكور والبنب وحجارة المنجنيق فكان الناس لا يستريحون بالنهار ولا ينامون بالليل واشتد الكرب وريع السرب واستمر الحال إلى أن دخلت سنة اثنتين

واربعين ومائة وألف فازداد الأمر شدة وارتفعت الأسعار وانعدمت الأقوات وكثر الهرج فبعثوا إلى السلطان في الصلح فقال على تسليم البساتين والقصاب فأبوا وتجلدوا ثم بعد ذلك وقع الصلح على يد القائد أبي عبد الله محمد السلاوي بضريح المولى إدريس رضي الله عنه واستصحب معه جماعة من أشرف فاس وعلماؤها إلى السلطان وهو بفاس الجديد فأكرم مقدمهم ووصلهم بألف دينار وكساهم وولى عليهم الحاج أبا الحسن عليا السلاوي فدخل الوالي المذكور القصبية ثاني ربيع النبوي سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف وشحن البساتين والقصاب بالمقاتلة من أصحابه وافتتح عمله بقتل الشيخ دحمان المنجاد من رؤساء فاس ولما اتصل خبره بالسلطان عزله وولى على فاس أحد أولاد حمدون الروسي المعروف بالبادسي ثم بعد مدة بسيرة عزله وولى عبد النبي بن عبد الله الروسي ثم لما عزم على النهوض إلى مكناسة عزله أيضا وولى عليهم عدوم حمدون الروسي وارتحل في العشرين من ربيع الأول من السنة وفي هذه السنة بعث السلطان ولده المولى محمدا مع أمه السيدة خنثا إلى الحجاز بقصد حج البيت والمولى محمد يومئذ دون بلوغ وفي نشر المثاني إن هذه الحجة كانت سنة ثلاث بعدها قال إن أم السلطان المولى عبد الله وهي السيدة

خناتى بنت بكار المغربية التمسدت من ولدها المذكور السفر إلى المشرق بقصد حج بيت الله الحرام فأجابها إلى ذلك وهياً لها جميع ما تحتاج إليه ووجه معها ولده الذي أيد الله به الدنيا والدين بعده سيدي محمد بن عبد الله فحج معها في هذه السنة يعني سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف نهوض السلطان المولى عبد الله إلى قتال البربر وإيقاعه بهم لما استقر السلطان المولى عبد الله بمكناسة وتقدد حال البربر وجدوا قد عادت إلى حالها الأول من ركوب الخيل واقتناء السلاح والعيث في الطرقات فأمر العبيد بالاستعداد لغزوهم وتمهيد البلاد والنقصير من بأوهم فخرج إلى تادلا وصمد إلى آيت يمور الذين كانوا قد نزلوا بها وأضروا بأهلها حين نقتهم آيت ومالو عن رأس ملوية وعلبوم عليه فنزلوا تادلا وأقودوها ناراً فكثر شاكيهم بباب السلطان فهض إليهم على ما سبق ولما أحسوا بدونه منهم فروا أمامه ودخلوا بلاد آيت يسري فقتبهم إلى أن أوقع بهم على وادي العبيد وقتل منهم ألفاً وانتهبهم وعاد إلى تادلا ظافراً والله غالب على أمره ذكر ما صدر من السلطان المولى عبد الله من العسف المخل بالسياسة والتناقض المعير في وجه الرياسة لما عاد السلطان المولى عبد الله إلى تادلا قتل عشرين رجلاً من أعيان رماة أهل فاس وكتب إلى إخوانهم يعتذر عن قتل من قتل منهم ويأمرهم بتجديد بعث آخر وتوجيهه إليه فعينو طائفة من رماةهم وجهوها بعد أن عرضها القائد حمدون الروسي برأس الماء ثم من الغد قتل القائد حمدون المذكور عبد الواحد تيبير ومحمد بن الأشهب من أهل فاس بباب السجن وأمر بجرهما في سكك المدينة ثم أصبح غاديا على أبواب فاس فقتبها بالهدم فهدم باب المحروق وباب الفوج وباب الجيسة وباب بني مسافر وباب الحديد وحمل مصاريحها كلها إلى فاس الجديد وفي أول يوم من المحرم من سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف شرع حمدون الروسي في هدم سور مدينة فاس وجر الأنقاض التي بها إلى فاس الجديد وفي أثناء ذلك

ورد كتاب من السلطان يتضمن العفو عن أهل فاس والرضا عنهم فارتاب حمدون الروسي وفر إلى زرهون ثم قفل السلطان من تادلا فأقام بمكناسة مدة يسيرة وخرج غازياً بلاد السوس فقدمها ومهداها وعاد مؤيداً منصوراً وفي هذه السنة أمر ببناء باب منصور العليج بمكناسة فجاء في غاية الضخامة والفراهة وأكمل سوق القصبة فجاء على ما ينبغي والله أعلم هدم السلطان المولى عبد الله مدينة الرياض من حضرة مكناسة وما اتصل بذلك كانت مدينة الرياض زينة مكناسة وبهجتها إذ كان بها آثار أكابر دولة أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله وبها دور العمال والقواد والكتاب وسائر أعيان الحضرة الإسماعيلية بل كل من كان له وظيف في خدمتها السلطانية بنى داره بها وتنافس الأكاير والرؤساء في تشييد الدور وتنجيد القصور وتناوها في ذلك حتى كان بدار علي بن يشي القبلي أربع وعشرون حلقة يجمعها باب واحد وكانت دار القائد عبد الله الروسي وأولاده على ذلك المنوال بل أعظم ضخامة وأكمل حضارة حتى كأنها حومة مستقلة وكان لأمثالهما من القواد مثل ذلك أو قريب منه فخلدوا بها الآثار العظيمة والمعالم الفخيمة وبني كل عامل مسجداً في حومته وكان بوسطها المسجد الأعظم الإسماعيلي ومدرسته وحمامه وفنادقه وأسواقه الموقوفة عليه وكانت تنفق بها البضائع التي لا تنفق في غيرها فأتى عليها من أيام النحوس يوم ركب السلطان المولى عبد الله عند فجره ووقف على تل عال يشرف منه عليها وأمر النصارى والشعبانية بهدمها فتسارعوا إليها وشرعوا في هدمها من كل ناحية والناس نيام فلم يرعهم إلا بيوتهم تتساقط عليهم فمن أسرع وخف بحمل متاعه وأثأته نجا ومن لا معين له أو تراخي في حمل متاعه ضاع تحت التراب وكان بها طائفة كبيرة من أخواله الودايا وغيرهم فارتحل

الودايا إلى فاس الجديد وانضموا إلى إخوانهم الذين بها وتفرق غيرهم بمدينة مكناسة ولم تمض عشرة أيام حتى صارت مدينة الرياض كدية من التراب ولم يبق بها إلا الأسوار قائمة الأشخاص والجدران مائلة للعيان والأمر لله وحده قالوا وفي هذه السنة بعث السلطان المولى عبد الله بعثاً مع القائد أبي عمران موسى الجراي إلى بعض الجهات وكانوا نحو ثلاثمائة فلما قدموا عليه قتله وقتل أصحابه معه وقدم عليه أيضاً وفد من عند الباشا أحمد بن علي الريفى في مثل هذا العدد من طنجة ومعهم هدية الباشا المذكور فقتلهم فكان قتلهم سبب نفرة أحمد بن علي عنه وسعيه في إفساد دولته وقتل أيضاً من قبيلة حجاوة مانتي رجل على دعوى قطع الطريق ببلادهم ولما أمر بقتلهم وأخرجوا إلى المحل المعد لذلك خرج النظارة والبطالون من أهل البلد للفرجة عليهم بباب البيوي فيبينما هم كذلك إذا بالسلطان قد برز من الباب ولما رأى اجتماع الناس قصد نحوهم فلما رأوه فروا إلى كهف هناك قريب فاختفوا فيه فأتى السلطان حتى وقف على باب الكهف وكان من قربه أكوام من حجر أعدت للبناء بها فأمر الأعوان من المسخرين بوضع أسلحتهم وردم باب الكهف بذلك الحجر مع التراب ففعلوا وهلك ذلك الجمع الكثير غما ولم يوقف لهم بعد على خبر ولا عرف لهم عدد ولما صدرت منه هذه الأفعال الشنيعة عفا الله عنه كتب إليه أهل الديوان من مشروع الرملة ينكرون عليه قتله للمسلمين دون موجب فبعث إليهم بالراتب وأمرهم بالتهيؤ لغزو أهل فازاز فشد عليهم بذلك وفي هذه السنة بعث محمد بن علي بن يشي الزموري القبلي واليا على فاس وقال له خذ منهم المال واطرحه في وادي أبي الخراييب ولا تتركه لهم فما أطغاهم إلا المال حتى استخفوا بأمر الملك فقدم محمد بن علي المذكور فاساً ونزل بدار أبي علي الروسي بالمعادي وعين من كل حومة نقيباً

عارفاً بأهل اليسار فجمعوه لهم حتى كانوا بين يديه فأمر بسجنهم ثم وظف عليهم أولاً خمسمائة ألف متقال وزعها على التجار وأهل اليسار دون غيرهم من العشرة آلاف إلى الألف ثم شرع في قبض المال الموزع ومن تراخي منهم في الدفع ضرب وسجن ومن تغيب من أهل اليسار حبس ولده أو أخوه أو زوجته إلى أن استوفى العدد المذكور ثم عطف على أهل الصنائع والحرف وأرباب الأصول من الفلاحين وغيرهم فوزع عليهم قدراً وافراً من الألف إلى المائة وما دون ذلك حتى لم يبق في المدينة أحد إلا وقد عزم ففر الناس إلى البوادي والقرى والجبال ومنهم من وصل إلى السودان وتونس ومصر والشام حتى لم يبق بفاس إلا النساء والذرية ومن لا عبرة به من الرجال حتى أن الذين كانوا بالسجن فينفس خروجهم منه فروا بأنفسهم ولم يرجعوا على أهل ولا ولد وأقام محمد بن علي على هذا العمل بفاس ثلاثة عشر شهراً وكلما اجتتى مالا بعث به إلى السلطان بمكناسة وكانت هذه الخطوب كلها فيما بين سنة ثلاث وأربعين إلى سنة خمس وأربعين ومائة وألف بعث السلطان المولى عبد الله جيش العبيد إلى فازاز وإيقاع أهله بهم وفي سنة ست وأربعين ومائة وألف جهز السلطان المولى عبد الله جيشاً من العبيد يشتمل على خمسة عشر ألفاً من الخيل وعقد عليهم للباشا قاسم ابن ويسون وأضاف إليهم ثلاثة آلاف من جيش الودايا وعقد عليهم للقائد عبد الملك بن أبي شفرة ووجههم إلى جبال آيت ومالو فلما عبر الجيش وادي أم الربيع على قنطرة البروج ونزلوا بسيط أدخسان كادهم البربر بأن أظهروا الفرار أمامهم وتوغلوا في الجبال فقتبهم العبيد إلى أن توغلوا في تلك الجبال ونشبوا في أوعارها والبربر تفر منهم في كل وجه وهم يتبعونهم إلى

أن حان وقت المساء فبعث البربر ليلاً طائفة منهم لسد الثنايا والأنقاب التي دخل منها جيش السلطان فأحكموا سدها بشجر الأرز والحجارة ولما أصبحوا هجموا على الجيش من كل ناحية وصدفوهم القتال إلى أن ردهم على أعقابهم فلما انتهى العبيد إلى الثنايا التي دخلوا منها وألفوها مسدودة دهشوا وخشعت نفوسهم وازدحموا عليها بعد أن ترجلوا وتركوا الخيل والسلاح والأبنية فيها من الأثاث فنهب البربر جميع ذلك ثم جردوا باقي العسكر من الثياب ولم يقتلوا أحداً ورجع العبيد إلى مكناسة راجلين متجردين من المخيط والمحيط فكان ذلك من أقوى الأسباب التي بغضت السلطان المولى عبد الله للعبيد لأن ذلك كان بإشارته بزعمهم مع إسرافه في قتل رؤسائهم كما سيأتي ومع ذلك فقد أنعم عليهم بالمال والكسي ووعدهم بإخلاف جميع ما ضاع لهم ورجعوا إلى مشرع الرملة متمتعين لتلك الفعلة ثورة العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره إلى وادي نول وما نشأ عن ذلك لما كانت سنة سبع وأربعين ومائة وألف فسد ما بين السلطان المولى عبد الله وبين العبيد لإسرافه في قتلهم حتى كاد يأتي على عظمتهم وكان ذلك منه جزءاً لهم على قتلهم لأخيه المولى عبد الملك حسبما سبق إذ كان ما بينه وبينه صالحاً كما مر فقتل منهم كل من سعى في قتله أو شارك فيه أو وافق عليه حتى بلغ عدد من قتل منهم يزيد من عشرة آلاف فأجمعوا على خلعه وقتله وفس إليه بعضهم بما عزموا عليه في شأنه ففر ليلاً من مكناسة ولم يصبح إلا بحلة آيت أدراسن فأجلوا مقدمه وتباروا في إكرامه ولما عزم على النهوض عنهم ركبوا معه وصحبوه إلى تادلا ثم ودعوه

وعدوا إلى بلادهم ومضى هو إلى مراکش ومنها ذهب إلى السوس فنزل بوادي نول على أخواله المغفرة وكان معه يومئذ ولده المولى أحمد في سن البلوغ والمولى محمد السلطان بعده صغيرا وأقام عند المغفرة نحو ثلاث سنين وأما والي فاس محمد بن علي بن يسي فإنه لما اتصل به فرار السلطان من مكناسة فر هو أيضا عن فاس ليلا ولم يصبح إلا بزهرهون فاطمان بها جنبه وكان ما تذكره الخبر عن نولة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بالأعرج رحمه الله لما فر أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل من مكناسة إلى وادي نول اجتمع عبيد الديوان وانفقوا على بيعة المولى أبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بالأعرج وكان يومئذ بسجلماسة فكتبوا إليه بذلك وبعثوا بالكتاب مع جريدة من الخيل لتأتي به فأقبل مسرعا ولما وصل إلى مدينة صفرو لقيه بها أعيان فاس وأشرفها وعلماؤها فبايعوه ففرح بهم وأكرمهم وعادوا في صحبته إلى فاس الجديد فولى عليهم مسعودا الروسي وذلك في ربيع الثاني سنة سبع وأربعين ومائة وألف وأمره أن لا يقبض منهم إلا الزكوات والأعشار الشرعية وما جرت به العادة من الهدايا الخفيفة وكان رحمه الله موصوفا بالحلم والعقل متوقفا في الدماء فسنته الله في آخر أمره وأجمل خلاصه ثم نهض إلى مكناسة ولما قدمها بايعه الجيش بها البيعة العامة هكذا في البستان ورأيت بخط جدنا الإمام الفقيه الأستاذ أبي عبد الله محمد بن قاسم بن زروق الحسن بن الإدريسي ما نصه وفي اليوم الأول من جمادى الأولى من

سنة سبع وأربعين ومائة وألف ثار عبيد الرملة على أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل ونقضوا بيعته وأعلنوا بنصر أخيه المولى علي ولد عائشة مباركة وخرج لهم المولى عبد الله عن دار الملك بمكناسة بعد أن أخذ ما كان بها مما أعجبه من خيل وعدة ومال من غير قتال ولا محاربة ودخل أخوه المولى علي دار الملك بمكناسة يوم الجمعة فاتح جمادى الثانية من السنة المذكورة وكتبه في الثاني عشر من الشهر المذكور محمد بن زروق كان الله له بمنه اه كلامه بحروفه ولما استقر السلطان المولى أبو الحسن بمكناسة قدمت عليه الوفود ببيعتهم وهداياهم من جميع البلدان فأجازهم وفرق المال على الجيش إلى أن نفذ ما عنده واحتاج فقبض على الحرية خنثاى بنت بكار أم السلطان المولى عبد الله فاستصفى ما عندها ثم امتحنها لتقر بما عسى أن تكون قد أخفته فلم يحصل على طائل وكانت هذه الفعلة معدودة من هناته عفا الله عنه قال أبو عبد الله أكنسوس وخنثاى هذه هي أم السلاطين أعزهم الله وكانت صالحة عابدة عالمة حصلت العلوم في كفالة والدها الشيخ بكار وقال رأيت خطها على هامش نسخة من الإصابة لابن حجر وعرف به بعضهم فقال هذا خط السيدة خنثاى أم السلطان المولى عبد الله بلا شك اه ثورة أهل فاس بعاملهم مسعود الروسي وانتقاضهم على السلطان أبي الحسن رحمه الله ثم إن مسعودا الروسي عامل فاس عدا على الحاج أحمد بوادي رئيس للمطيين فقتله وأمر بجره إلى

باب الفتوح إذ كان هو الذي سعى في قتل أخيه أبي علي الروسي عقب وفاة السلطان المولى إسماعيل كما مر فلما ارتكب مسعود هذه الفعلة اجتمع أهل فاس وأخذوا أسلحتهم وتقدموا إلى القائد مسعود ليقتلوه بصاحبهم ففر مسعود ولم يدركوه ففعلوا على السجن فكسروه وقتلوا الحرس والأعوان الذين به وسرحوا المساجين إلى حال سبيلهم ولما اتصل خبرهم بالسلطان المولى أبي الحسن غض الطرف عنهم وبعث إليهم أخاه المولى المهدي ومعه القائد غانم الحاجي وكتب إليهم يقول إني قد عزلت عنكم مسعودا الروسي ووليت عليكم غانما الحاجي فلم يقبلوه ورجع من الغد إلى مكناسة ثم رجعوا بصانئهم بإشارة أهل المروءة منهم وبعثوا جماعة من العلماء والأشراف بهدية كبيرة مع المولى المهدي إلى السلطان تلافيا لما فرط منهم ولما دخلوا على السلطان قبض هديتهم وعدد عليهم ذنوبهم ثم أمر بهم إلى السجن ولما انتهى الخبر إلى أهل فاس قامت قيامتهم وأغلقت أبواب المدينة وأعلنوا بالخلاف ثم عطفوا على أصحاب مسعود الروسي وكل من كان له به اتصال فقتلوه في كل وجه وأنشبووا الحرب مع الودايا في كل ناحية وفي رمضان من السنة المذكورة قدم من عند السلطان القائد أبو محمد عبد الله الحمري من قواد العبيد فاجتمع بأهل فاس واعتذر إليهم عن السلطان وطلب منهم أن يبعثوا معه جماعة منهم إلى السلطان لرتنق هذا الفتق فأسغفوه وبعثوا طائفة من علمائهم وأشرفهم وأصحابهم هدية نفيسة إلى السلطان وكتب عبد الله الحمري إلى السلطان يعتذر إليه عنهم ويشفع لهم عنده فدخلوا على السلطان وعاتبهم ثم عفا عنهم وسرح لهم إخوانهم الذين كانوا في السجن وولى عليهم عبد الله الحمري ثم لما دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة وألف عزله وولى عليهم عبد الله بن الأشقر وسكنت الهيئة واستقام الأمر بعض الشيء

غزو السلطان أبي الحسن أهل جبل فازاز في جيش العبيد وهزيمتهم إياه لما كانت أواخر سنة ثمان وأربعين ومائة وألف أخذ السلطان أبو الحسن في الاستعداد وتجهيز العساكر لأيت ومالو وكان ذلك منه إسعافا للعبيد ليأخذوا بثأرهم من البربر في الواقعة السابقة أيام السلطان المولى عبد الله فخرج إليهم في المحرم فاتح سنة تسع وأربعين ومائة وألف في جيش كثيف من العبيد فلما نزلوا بإقباله إليهم ودنوه منهم أظهروا الفرار أمامهم مثل الفعلة الأولى فصاروا يتأخرون ويتبع آثارهم فينزل منازلهم إلى أن عبروا وادي أم الربيع ودخلوا في الجبال فعبى السلطان خلفهم وتقدم العبيد إلى الجبال والأوعار فاقترحوا عليهم فلما توسطوها كرت البربر عليهم وانقضوا عليهم من الثنايا انقضاض العقبان وأحاطوا بهم من كل وجه فولوا منهزمين وازدحموا على الثنايا وسلخوا سبيلهم في المرة الأولى من ترك الخيل والسلاح والأبنية والأثاث والنجاة بمجرد أعناقهم وسلبهم البربر حتى من الثياب ولم يتعرضوا للسلطان في مركبه وخاصته إلى أن عبر وادي أم الربيع فرجعوا عنه ولما دخل مكناسة طالبه العبيد بالكسوة والسلاح والراتب فلم يكن عنده ما يعطيهم فشغبوا عليه ومرضوا في طاعته وقد أجمل صاحب نشر المثاني هذه الأخبار فقال وفي هذه السنة يعني سنة تسع وأربعين ومائة وألف أهلك الله كل من خرج على السلطان مولاي عبد الله وقويت الفتن وارتفعت الأسعار وانحبست الأمطار وقاسى الناس الشدائد من الغلاء وقيل الإدام وانقطع اللحم وهلكت رقاب كثيرة ولم يزل الأمر في شدة وفر الناس كل فرار

تحرك السلطان المولى عبد الله من السوس وفرار السلطان أبي الحسن إلى الأحلاف وما كان من أمره إلى وفاته لما كان شهر ذي الحجة من سنة تسع وأربعين ومائة وألف ورد الخبر بأن السلطان المولى عبد الله قد أقبل من وادي نول ووصل إلى تادلا فاهتز العبيد له وتحذرت فرقة منهم برده إلى الملك وخالفهم سالم الدكالي في جماعة من شيعته وقالوا لا نخلع طاعة مولانا علي إذ كان سالم هذا وأصحابه هم الذين تسببوا في خلع المولى عبد الله وتولية أخيه المولى علي ثم إن شيعة المولى عبد الله قويت وكثروا أصحاب سالم وأعلنوا ببيعتهم ففر سالم فيمن معه من القواد إلى زاوية زرهون مستجيرا بها ولما سمع بذلك السلطان المولى أبو الحسن فر من مكناسة إلى فاس الجديد فصدده الودايا عن الدخول إليها فعدل إلى قنطرة وادي سبو فنزل هناك يوما أو بعض يوم إلى أن قضى بعض إربه ثم أصبح غاديا إلى تازا فاحتلتها ثم انتقل عنها إلى عرب الأحلاف فأناخ بديارهم ففرحوا به وأكرموه وصاهروه وأقام بين أظهرهم عدة سنين معرضا عن الملك وأسبابه إلى أن رجع إلى مكناسة فاستوطنها بإشارة أخيه السلطان المولى عبد الله حين وفد عليه بدار الدبيغ من فاس سنة تسع وستين ومائة وألف فأعطاه مالا وجنات ومزارع مما كان لجانب المخزن بمكناسة وبعثه إلى داره بها فأقام يسيرا ثم وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وبعثوا به إلى أخيه السلطان المولى عبد الله وقالوا إن هذا قد أفسد علينا بلادنا فأخذهم وسرحهم إلى تافيلالت فاستقر بها إلى أن مات رحمه الله كما سيأتي

الخبر عن الدولة الثانية لأمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل رحمه الله لما فر السلطان المولى أبو الحسن من مكناسة إلى الأحلاف اجتمعت كلمة العبيد والودايا على بيعة السلطان المولى عبد الله فبايعوه وهو بتادلا وتبعهم على ذلك أهل فاس وسائر القبائل ثم إن سالما الدكالي الذي بزهرهون كتب إلى أهل فاس يقول لهم إن الديوان قد اتفق على خلع المولى عبد الله وبيعة سيدي محمد بن إسماعيل المعروف بابن عريبة والمشورة لعلمائكم فأجابوه بأن قالوا نحن تبع لكم فلما سمع أهل الديوان بما فعله سالم الدكالي وما تقوله عليهم خرجوا من المحلة إلى زرهون وقبضوا على سالم الدكالي ومن معه من القواد وبعثوا بهم إلى السلطان المولى عبد الله بتادلا فاستفتى فيهم القاضي أبا عنان وكان يومئذ معه فأفتاهم بقتلهم فقتلهم ثم نemit مقالة سالم الدكالي إلى المولى محمد ابن عريبة وهو بتافيلالت فظن أن الأمر صحيح فأقبل مسرعا إلى أن وصل إلى مدينة صفرو فوجد الناس قد بايعوا السلطان المولى عبد الله وراجعوا طاعته فسقط في يده ثم دخل فاسا مستخفيا وأقام بدار الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الشامي وكان صديقه معتادا له وكان أبو زيد يعده بالملك ولما أقبل السلطان المولى عبد الله من تادلا خرج للقاءه أهل فاس وفيهم الأشراف والعلماء وكذلك أهل مكناسة فوافوه بقصبة أبي فكران ولما مثلوا بين يديه عاتبهم وعدد ما سلف منهم ثم أمر بأعيانهم فقتلوا وفعل مثل ذلك بأعيان مكناسة واستباحهم

وعزل قاضيهم أبا القاسم العميري ورجع أشراف فاس وعلماؤها مذعورين مما نابهم بعد أن ولي السلطان عليهم محمدا بن علي بن يشي واستمر هو مقيما بقصبة أبي فكران ولم يتقدم إلى فاس لعدم ثقته بهم

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى محمد بن إسماعيل المعروف بابن عريبة والسبب فيها لما فعل المولى عبد الله بأعيان فاس ومكناسة ما فعل من القتل والاستباحة وأقام منكمشا بقصبة أبي فكران نبغت رؤوس الفتنة من الودايا بفاس الجديد وأخذوا في نهب الطرقات ثم أغاروا في يوم خميس على سرح فاس وأجلاب سوقها فاستاقوها حتى لم يتركوا لهم بقرة ولا شاة ولا بهيمة غيرهما ولما رأى أهل فاس ما نزل بهم اجتمعوا وتحالفوا على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى محمد بن عريبة فمشوا إليه وهو بدار الشيخ أبي زيد الشامي فأخرجوه وأخذوا عليه العهود ثم بايعوه في عاشر جمادى الأولى سنة خمس مائة وألف وهيووا له كل ما يحتاج إليه من خيل وسلاح وآلة حرب وتباروا في طاعته وخدمته وكتبت بيعته في خامس عشر الشهر المذكور وكتب عليها الفقهاء خطوطهم وامتنع بعضهم من ذلك وقالوا ببيعة السلطان المولى عبد الله في أعناقنا فلا نخلعها فعزلوا عن الخطط وامتحنوا ثم كتب أهل فاس إلى عبيد الديوان يعرفونهم ما صنعوا ويطلبون منهم موافقتهم فأجابوهم إلى ذلك وبايعوا السلطان المولى محمد بن عريبة وتم أمره ولما رأى السلطان المولى عبد الله أن أمر أخيه قد تم فر إلى جبال البربر وأقام هناك ثم فتحت أبواب فاس وانتقل السلطان المولى محمد إلى فاس الجديد ومن الغد نهض إلى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة وقدمت عليه الوفود من سائر الأقطار بهداياهم فأجازهم وفرق ما كان عنده من المال على العبيد وكان ما نذكره

بدء اختلال أمر السلطان المولى محمد بن عريبة وما تسبب عن ذلك لما فرق السلطان المولى محمد بن عريبة على العبيد ما عنده من المال لم يقعهم ذلك واستزادوه فأطلق عفا الله عنه أيدي الذهب في أموال المسلمين وأخذ هو في استخراج الحبوب والأقوات من دور أهل مكناسة غصبا ويحث عنها في الأهراء والمطامير وكل من ذكر له أن عنده قمحا أو شعيرا قبض عليه وصادره إلى أن يظهر ما عنده وكل من جلب من أهل البادية حبا أخذ منه كرها فكثر الهرج وعمت الفتنة وفر الناس من مدينتهم وعم النهب خارجها وانقطعت السبل ووقع الناس في حيص بيص والأمر لله وحده إغارة السلطان المولى عبد الله على الإصطبل من مكناسة وما نشأ عن ذلك ثم إن السلطان المولى عبد الله الذي كان مقيما عند البربر قدم ذات ليلة في جماعة من أصحابه حتى دخل الإصطبل وقتل من وجد به من العبيد وحرق أخصاصهم ورجع عوده على بدنه ولما نذر به السلطان المولى محمد بن عريبة نادى في الناس بالنفير وركب في خيله ورجله وقصد السلطان المولى عبد الله وهو بالموضع المعروف بالحاجب ولما رأى العساكر مقبلة إليه والخيل تتعادي خلفه فر بنفسه وترك ابنته بما فيها فانتبهها العبيد وتبعوه إلى أن بلغوا وادي ملوية فتوغل في الجبال ولم يقفوا له على أثر ولما قفلوا راجعين اعترضهم البربر وتسابلوا عليهم من المخارم والشعاب فصدقوهم القتال وهزموهم واستلبوا ما معهم من الأثقال ورجعوا بخفي حنين قال في البستان ولما انتهوا إلى أحواز صفرو بعث المولى محمد ابن

عريبة جماعة من جيشه إلى من هنالك من المستضعفين من أهل المزداغ وغيرها من القرى وأمر بقطع رؤوسهم وبعثها إلى فاس موها أنها رؤوس البربر اه والله أعلم بنية أخبار السلطان المولى محمد بن عريبة وما تخللها من الهرج والشدة لما قفل السلطان المولى محمد بن عريبة من خرجته في أثر أخيه المولى عبد الله وكان حيث ذكرنا بعث أخاه المولى الوليد بن إسماعيل إلى فاس وأمره بضرب البعث عليهم توصلا إلى ما في أيديهم من المال بحيث أن من أعطى المال منهم يقيم بداره ومن أتى يخرج في البعث فتحير الناس وقدم المولى الوليد حضرة فاس وقبض على الحاج أبي جيدة برادة وكان مثرها فقتله وأخذ أمواله وباع أصوله وقبض على الحاج عبد الخالق عديل فأخذ أمواله ثم تسلط على أهل الزوايا وكل من ذكر له أنه من أهل اليسار إلى أن استوفى غرضه ثم سار إلى مكناسة ففعل بأهلها مثل ذلك حتى لم يسلم منهم إلا القليل هذا والناس في محنة عظيمة من المجاعة والفتنة ونهب الدور بالليل بحيث كان أهل اليسار لا ينامون وصار جل الناس لصوصا والودايا يعيشون في الجنات خارج المدينة ويغيرون على القصارين بوادي فاس وبعد أن صار الناس يقصرون كتابهم بمصمودة انتهبوه منهم بها بل تناولوا القفل من الفنادق والسلطان معرض عن جميع ذلك لا يلتفت إليه ولقد هلك في هذه المدة من الجوع جم غفير أخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا وزيادة سوى الذين كفنهم أهلهم وعشيرتهم وبالجملة فقد كانت أيام المولى محمد بن عريبة هذا أيام نحس ووبال على المسلمين وكذا أيام أخيه المولى المستضيء الذي إليه يساق الحديث وكل ذلك والله تعالى أعلم من استيلاء العبيد على الدولة وشؤم أفتياتهم عليها وتحكمهم في أعيانها طوع أهوائهم وحسب أغراضهم إذ

معلوم أنه لا ينشأ عن كثرة الخلع والتولية إلا هذا وشبهه نسل الله تعالى اللطف والحفظ في الأهل والدين والمال في الحال والمال وقد تكلم صاحب نشر المثنائي على هذه السنة أعني سنة خمس مائة وألف فقال وفي هذه السنة هزم جيش الثائرين على مولاي عبد الله يعني العبيد هزيمة عظيمة بعد أن صدر منهم فساد كبير وذلك على يد البربر وارتفعت الأسعار جدا وجعل اللصوص يهجمون على الناس في دورهم ليلا ويقتلونهم وهم يستغيثون فلا يغاثون وبلغ الخوف إلى أبواب الدور المتطرفة بفاس نهارا فلا يستطيع أحد أن يخرج عن باب مصمودة في العودة ولا عن باب القصبة القديمة في الطالعة ولا عن حومة الحفارين باب عجيسة وكثر الهدم في الدور لأخذ خشبها وكثر الخراب وخلت الحارات فتجدت الدرب مشتتلا على عشرين دارا وأكثر وكلها خالية وفي هذه المدة قتل الفقيه العلامة أبو البقاء يعيش الشاوي بداره بالدوح وقتله كان سبب خلاء الدوح واقتضح أهل المروءة من الناس ومن يظن به الدين وكل من قدر على الفرار فر من فاس وقتل من سلم منهم بعد خروجه عن البلد وخرج جماعة وافرة من أهل فاس إلى تطاوين وما والاها لجلب الميرة إذ كان الله تعالى قد سخر العدو الكافر بحمل الطعام إلى بلاد المسلمين فاشترى أهل فاس منه شيئا كثيرا لكن امتنع الجمالون من حمله لهم وماطلوهم فشكروهم لوالي تلك البلاد ورئيسها حينئذ أحمد بن علي الريفى فأظهر لهم النصح وأبطن الغش لانحرافه عن السلطان ومن يتعلق به فنط الجمالين وهم قبيلة بدواة فازدادوا امتناعا وتعاصيا حتى بقي أهل فاس معطلين بميرتهم نحو ستة أشهر فهلك بسبب ذلك خلق لا يحصون جوعا وكلهم في عهدة أحمد بن علي الريفى وما أغنى مال ولا متاع في طلب القوت ولولا أن الله سخر العدو الكافر بجلب الميرة للمغرب لهلك أهله جميعا فيما أظن وذلك كله من شؤم الفتن والخروج على الملوك

وأما الأصول والسلع فلم يكن شيء منها يبلغ عشر ثمنه المعتاد ولم يقيض الله لهذا المغرب راحة حتى من برجوع السلطان مولاي عبد الله هذا كلام صاحب نشر المثنائي وهو الفقيه المؤرخ سيدي محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري وقد حكى هذه الأخبار عن معاينة لأنه كان يومئذ حاضرها وشاهدها ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة وألف والناس في شدة وفي الرابع والعشرين من صفر منها ثار العبيد على السلطان المولى محمد بن عريبة فقبضوا عليه وعلى قائده على فاس الشريف أبي محمد عبد المجيد المشامري ووضعوا في رجلي كل واحد منهما قيادا وأخرجوا ابن عريبة وعياله من دار الملك إلى داره التي على وادي ويسلن بجنان حمرية وركلوا به جماعة من العبيد يجرسونه وكتبوا إلى أخيه المولى المستضيء بن إسماعيل بتأفيلت يستدعونه للقدوم عليهم ليملكوه الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى المستضيء بن إسماعيل رحمه الله لما قبض العبيد على السلطان المولى محمد بن عريبة أعلنوا ببيعة أخيه المولى المستضيء بن إسماعيل وكتبوا بذلك إلى الأفاق فسأدهم الناس عليه وبعثوا جريدة من الخيل على عاداتهم لتأتي به فأقبل مسرعا ولما انتهى إلى مدينة صفرو لقبه أهل فاس بها في أشرفهم وعلماهم وأوأ بيعتهم ورجعوا معه إلى فاس الجديد فأراح به وولى عليهم القائد أبا العباس أحمد الكعبي فاستتاب الكعبي عليهم من قبله شعشوع اليازغي والحال ما حال والظلم ما زال ثم ارتحل السلطان المولى المستضيء إلى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة وقدمت عليه الوفود والقبائل والأمصار بهداياهم فقابلهم بما يجب واستتب أمره

ذكر ما صدر من السلطان المولى المستضيء من العسف والاضطراب لما استقر السلطان المولى المستضيء بمكناسة كان أول ما بدأ به أن بعث بأخيه المولى محمد بن عريبة مقيدا إلى فاس ومنها إلى سجلماسة فسجن بها وبعث بقائده السيد عبد المجيد المشامري والشيخ أبي زيد عبد الرحمن الشامي يسجنان بفاس الجديد ونهبت دار المشامري وصور إلى أن مات تحت العذاب ومثل به ثم بعث السلطان كتابه إلى أهل فاس ولكن رسم أن

يقرأ بفاس الجديد ويحضر أعيان أهل فاس لاستماعه فارتابوا وتعجبوا ولم يحضر منهم الا نحو العشرين فقبض عليهم وسجنوا هنالك ثم وظف عليهم مال ثقيل لم يقوموا به وافترقت الدولة في أيام هذا السلطان واحتاج إلى المال ليقطع عنه لسان العبيد فأخذ في البحث عما في المخازن الإسماعيلية التي لم يلبثت إليها الملوك قبله فوقع على خزيرين من الحديد فاستخرجه وباعه ووقع على الخزيرين الكبير وفيه الآف من قناطر الكبريت فباعها أيضا ووجد شيئا كثيرا من ملح البارود والشب والبقام وغير ذلك مما كان يجلب إلى الحضرة من غنائم أجناس الفرنج فباع ذلك كله ثم اقتلع شراب القبة الشطرنجية وكانت من نحاس مذهب واقتلع الدرابيز التي عن يمينها وشمالها من الحديد المنتخب من باب الرخام إلى قصر المولى يوسف ودفعها لأهل الذمة وألزمهم أداء ثمنها فأجحف بهم ثم أنزل المدافع النحاسية التي كانت بأبراج الحضرة فكسرها وضربها فلوسا فما أغنى ذلك شيئا وقتل في هذه المدة نيفا وثمانين رجلا من عرب بني حسن وسلط العذاب على مساجين أهل فاس ليغرموا المال فغرموا ما قدروا عليه ثم أمر بالقبض على تجار أهل فاس ليشترؤا أصول مساجينهم فعذبوا إلى أن أدوا بعض المال وعجزوا وأفتى العلماء أن هذا البيع الواقع في هذه الأصول صحيح تقديمًا لخالص الأنفس على الأموال

ثم قبض هذا السلطان على شريف من الأشراف العراقيين من أهل حومة كرنيز اتهمه بأن الحرة خنثى بنت بكار استودعته مالا فضرب وامتنح ثم ولى على فاس المولى أبا حفص عمر المدني وكان رفيقه وجليسه فاستناب المولى أبو حفص على فاس رجلا يقال له ابن زيان الأعور وتقدم إليه في مصادرة أشراف فاس واستصفاء أموالهم فامتلأ ابن زيان أمره وما قصر وكان الحامل لأبي حفص على هذا أن داره بفاس كانت قد نهبت أيام المولى محمد بن عريبة ولم ينكر ذلك أحد من أهل فاس فحفظها أبو حفص عليهم إلى أن أداته الأيام منهم في هذه المرة ففعل ابن زيان ما فعل فأمر السلطان المولى المستضيء بالقبض على ابن زيان وأن يطاف به على حمار والسياط في ظهره وهو يقول هذا جزء من يؤذي الأشراف فطيف به ثم أزيل رأسه وعلق على باب المحروق هذا والأشراف لا زالوا في العذاب ثم أمر بمساجين أهل فاس فحملوا إليه في السلاسل والأغلال ثم قتلوا بباب القصبية عن آخرهم وأمر بإخراج ولد مامي من الحرم الإدريسي فلما وصل إليه قتله وأسرف المولى المستضيء في القتل والعسف وأراد أن يتشبه بأخيه المولى عبد الله الذي جرد السيف وبسط الكف فغطى سخاؤه عيبه وهيباته فقد كان المولى المستضيء مسيكا مهزوم الراية على ما قيل تغمدنا الله وإياه والمسلمين بالرحمة والعفو والغفران ثم قتل القائد غانما الحاجي ووالي مكناسة القائد سعدون وستة من أولاد الزياتي أصحاب السجن ثم إن السلطان المولى عبد الله أغرى البربر الذين كان مقيما فيهم بشن الغارات على الودايا والعيث في طرفاتهم ففعلوا وانقطعت السبل وتعذر المعاش وكان المولى زين العابدين بن إسماعيل محبوبا عند أخيه السلطان المولى المستضيء فأمر بإخراجه وإحضاره بين يديه فأحضر وضرب ضرب التلف وبعث به مقيدا إلى تافيلالت ليسجن مع بعض أشرافها فبعث العبيد جماعة منهم فانترزوه من يد حامله وبعثوا به إلى القائد أبي العباس أحمد الكعبيدي ببني يازغة وتقدموا إليه في الاحتفاظ به والاعتناء بشأنه

إيقاع الباشا أبي العباس أحمد بن علي الريفي بأهل تطاوين قد قدمنا ما كان من إغارة الباشا أبي العباس أحمد بن علي الريفي صاحب طنجة على أهل تطاوين وهزيمة أبي حفص الوناش له وفتكه بأصحابه فاستحكمت العداوة بين الريفي والوناش من يومئذ وبقي الريفي يتربص به الدوائر ويترصد له الغوائل إلى أن بويع السلطان المولى المستضيء في هذه المدة فلم يقدم عليه أحد من أهل تطاوين ولا دخلوا في بيعته فوجد أبو العباس الريفي السبيل بذلك إليهم وأغرى بهم السلطان المذكور وفسد إليهم أنهم شقوا العصا وخالفوا الأمر مع ما كان قد نقل عن الفقيه أبي حفص في تلك القصيدة من التصريح بطلب الملك فنجح ذلك في المولى المستضيء وكتب إليه يأمره بالإيقاع بأهل تطاوين فاغتمها أبو العباس الريفي واقترح تطاوين في جموعه على حين غفلة من أهلها وانتهبها وقتل من أعينها نحو الثمانمائة وظف على من بقي منهم مالا ثقيلًا وهدم أسوارها ونظمها في سلك ما كان مستوليا عليه وبنى بها دار الإمارة الموجودة الآن شغب العبيد على السلطان المولى المستضيء وفراره إلى مراكش لما كان منتصف ذي القعدة من سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف شغب العبيد بمكناسة على السلطان المولى المستضيء وتأمروا في عزله ومراجعة طاعة أخيه المولى عبد الله ولما أحس المولى المستضيء بما أجمعوا عليه خرج من مكناسة في شيعته وأنصاره قاصدا ضريح الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه فقبضه المولى عبد الله في جمع من العبيد فأدركوه ببعض الطريق فكر عليهم وقتلهم حتى رجعوا عنه ومضى لوجهه إلى أن وصل إلى طنجة فأقام بها نحو الشهرين عند أحمد بن علي الريفي

ومنها توجه إلى مراكش فإتهم كانوا قد بايعوه وكان أخوه المولى الناصر نائبا عنه بها ولما استقر بمراكش كاتب قبائل الحوز يستصرخهم على أخيه المولى عبد الله ويستنفرهم للخروج معه إليه فتقاعدوا عنه لأن عبدة والرحامنة وأهل السوس كانوا شيعة للمولى عبد الله ولم يبق في حزب المولى المستضيء إلا أهل دكالة أخواله وبنو حسن عرب الغرب ولما رأى المولى المستضيء تقاعد قبائل الحوز عنه أقام بمراكش يزجي الأيام إلى سنة خمس وخمسين ومائة وألف والباشا أبو العباس الريفي صاحب طنجة يقتل للعبيد في الذروة والغارب إلى أن بايعوه ثانية بعد أخيه المولى زين العابدين وبعد خلع السلطان المولى عبد الله حسيما نذكره بعد إن شاء الله مراجعة العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله ودخلهم في دعوته قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الله كان مقيما في هذه المدة عند البربر وأنه تبع المولى المستضيء عند خروجه من مكناسة ثم رجع عنه ولما بلغه خبر مسيره إلى مراكش سار في اعتراضه إلى أن بلغ قصبية وادي الأزم فلم يقف له على خير فأقام يتجسس أخباره إلى أن اتفق العبيد على بيعته وهو بالأزم فبايعوه أوائل سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف وكتبوا ببيعته وبعثوا بها إليه مع بعض خاصتهم وكتبوا مع ذلك إلى أهل فاس والودايا في الموافقة فوافقهم وبايعوا السلطان المولى عبد الله وخطبوا به على منابرهم وزينت فاس ولما انتهى الحال إلى هذا الحد فر الوزير أبو الحسن علي العميري من مكناسة إذ كان وزير المولى المستضيء واحترم أخوه القاضي أبو القاسم العميري بضريح بعض صلحاء مكناسة وبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم وعلماهم ببيعته إلى السلطان المولى عبد الله ومعهم جماعة من التجار وحجاج الركب الحجازي بهدياها هذا كله والسلطان لا زال

مقيما بقصبية الأزم وتولى العبيد بمكناسة النقض والإبرام لتأخر مجيء السلطان وظهر منهم الإدلال والاستبداد على الدولة وبعثوا من قبلهم القائد أبا محمد عبد الله الحمري واليا على فاس وقالوا عن أمر الديوان وكثر القطاع بالطرقات واللصوص بالمدينة وعادت هيف إلى أديانها مجيء السلطان المولى عبد الله إلى مكناسة وما ارتكبه من أهلها وفي خامس عشر رجب سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف تحرك السلطان المولى عبد الله من الأزم وقدم مكناسة فقبض على قاضيها الفقيه أبي القاسم العميري والسيد أبي العباس أحمد الشدادي والعباس بن رحال والفقيه المليتي وأزال عمامتهم وفضحهم وقال لهم كيف تزوجون حرمي من أخي وأنا حي ونكل بهم النكال الشديد ثم أمر بسحبهم إلى السجن وأعطى دار القاضي العميري أحد العبيد وقال لهم من أراد منكم دارا بمكناسة فليأخذها فامتدت أيدي العبيد في الناس حتى صاروا يقفون بالأبواب ويقول العبد لصاحب الدار إن سيدي قد أعطاني دارك أو أعطاني ابنتك فيفتدي منه بالمال ولحقهم من العبيد فوق ما يوصف ومن شكى منهم عوقب وسجن والسلطان مقيم بباب الريح لم يدخل القصبية التي كان بها المولى المستضيء وولى في هذه المدة على فاس شيخ الركب الحاج عبد الخالق عدل وولى على قضائتها الفقيه أبا يعقوب يوسف بن أبي عنان وتقدم إليه في أن يعزل القضاة والخطباء الذين خطبوا بالمولى المستضيء في سائر البلدان وأما الودايا فإنه لم يقدم على المولى عبد الله منهم أحد ولا بايعوه وكذا الباشا أحمد بن علي الريفي وأهل الريف والفحص وقبائل الجبل فاغتم المولى عبد الله ذلك ثم شغقت الحرة خنثى أم السلطان في قومها الودايا وبعثت إليه جماعة منهم فقبلهم وعفا عنهم

مجيء السلطان المولى سليمان من مراكش إلى القصر ثم مسيره إلى فاس وحصاره إياها كان السلطان المولى سليمان رحمه الله في هذه المدة مقيما بمراكش وكان العبيد قد ندموا على ما فرط منهم برباط الفتح من التخلف عن السلطان ونهب أثاثه حسيما مر فجعلوا يتسللون إليه من مكناسة مثنى وفرداى حتى اجتمع عنده جلهم لا سيما من كان منهم معروفا بعينه مثل القواد وأرباب الوظائف ولما بلغه ما كان من بيعة المولى إبراهيم بن يزيد تربص قليلا حتى إذا بلغه خروجه إلى المراسي فلق وخرج من مراكش في جيش العبيد وبعض قبائل الحوز يباده إليها ولما وصل إلى رباط

الفتح عبر إلى سلا ونزل برأس الماء ولما حضرت الجمعة دخل المدينة فصلى بالجامع الأعظم منها ودخل دار الحاج محمد بن عبد الله معنيو من أعيان أهل سلا واستصحب معه الفقيه المؤقت أبا العباس أحمد بن المكي الزواوي من أهل سلا أيضا بقصد القيام بوظيفة التوقيت ولما وصل السلطان إلى قصر كاتمة أتاه الخبر بدخول المولى إبراهيم إلى تطاوين فأقام هناك وكتب إلى الودايا وإلى من بقي بمكناسة يحضهم على التمسك بالطاعة وكتب إلى ولده المولى الطيب بفاس الجديد يأمره أن يبعث إليه بالفقيه الأديب أبي عبد الله محمد أكنسوس وهو صاحب كتاب الجيش قال أكنسوس قدمننا على السلطان بريصانة على مرحلتين من القصر قاصدا تطاوين ومحاصرة المولى إبراهيم بن يزيد بها قال فورد عليه كتاب من عند القائد أبي عبد الله العربي السعدي صاحب طنجة بوفاة المولى إبراهيم وبيعة أخيه المولى السعيد وأنهم قد عادوا به إلى فاس ولما تحقق بذلك رجع على طريق القصر يؤم فاسا ويسابق السعيد إليها فوافياها في يوم واحد فنزل السعيد بجموعه بقطرة سبو ودخل السلطان دار الإمارة بفاس الجديد مع الودايا ولما كان فجر الغد في تلك الليلة أغارت خيل الودايا

شغبت العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره ثانية إلى البربر لما كان شهر ربيع الأول من سنة أربع وخمسين ومائة وألف شغبت العبيد على السلطان المولى عبد الله وهما بخلعه والإيقاع به فنذرت بذلك أمه الحرة خنثى بنت بكار ففرت من مكناسة إلى فاس الجديد ومن الغد تبعها ابنها السلطان المولى عبد الله ونزل برأس الماء فخرج إليه الودايا وأهل فاس وأجلوا مقدمه واهتزوا له فاستعطفهم السلطان وقال لهم أنتم جيشي وعنتي ويميني وشمالي وأريد منكم أن تكونوا معي على كلمة واحدة وعاهدكم وعاهدوه ورجعوا وفي أثناء ذلك بلغه أن أحمد بن علي الريفي قد كاتب عبيد مشرع الرملة وكاتبوه واتفق معهم على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى زين العابدين وكان يومئذ عنده بطنجة وأنهم وافقوه فوجه لها السلطان المولى عبد الله ثم استعجل أمر المولى زين العابدين ففر المولى عبد الله إلى بلاد البربر كما سيأتي إن شاء الله الخبير عن دولة أمير المؤمنين زين العابدين بن إسماعيل رحمه الله كان ابتداء أمر السلطان المولى زين العابدين أنه قدم مكناسة في أيام أخيه المولى المستضيء فلما سمع به أمر بسجنه قبل أن يجتمع به فسجن مدة ثم أمر يوما بإخراجه وضربه فضرب وهو في قيده ضربا وجيعا أشرف منه على الموت كما مر ومع ذلك فلم ينطق بكلمة ثم رده إلى السجن ثم أمر ببعثه مقيدا إلى سجلماسة كي يسجن بها مع بعض الأشراف المسجونين هنالك فلما سمع بذلك قواد رؤوسهم من العبيد بعثوا من رده من صفرو إلى فاس ومن هنالك بعثوا به إلى القائد أبي العباس أحمد الكعبيد ببني يازغة وأمروه أن يحفظ به مكرما مجلا

ثم لما فر المولى المستضيء عن مكناسة وراجع العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله دخل المولى زين العابدين مدينة فاس فاطمان بها وسر بولاية المولى عبد الله وخلق المولى المستضيء ثم ذهب إلى مكناسة وأقام بها مدة ثم سار إلى طنجة فقدم على صاحبها الباشا أحمد بن علي الريفي فأكرم وفادته وأحسن مثواه واستمر مقبلا عنده إلى أن كاتب عبيد الديوان في شأنه ووافقوه في بيعته فبايعه الباشا أحمد وبايعه أهل طنجة وتطاوين والفحص والجلال وخطبوا به على منابرهم ثم هيا له الباشا أحمد كنيبة من الخيل من عبيد الديوان وغيرهم وبعثهم معه إلى مكناسة فدخلها في ربيع سنة أربع وخمسين ومائة وألف وبويع بها البيعة العامة وقدمت عليه وفود القبائل والأمصار فقابلهم بما يجب وتم أمره وفر السلطان المولى عبد الله من رأس الماء ودخل بلاد البربر ولم يقدم على المولى زين العابدين أحد من الودايا ولا من أهل فاس وكان فيه أناة وحلم لم يظهر منه عسف ولا امتدت يده إلى مال أحد إلا أنه لقله ذات يده نقص العبيد من رأتهم فكان ذلك سبب انحرافهم عنه كما سيأتي بقية أخبار المولى زين العابدين وانقراض أمره لما استقر السلطان المولى زين العابدين بحضرة مكناسة وتم أمره فأقام بها نحو الشهرين ثم تهبأ لغزو الودايا وأهل فاس الذين تخلفوا عن بيعته فهض إليهم في جيش العبيد منتصف جمادى الأولى سنة أربع وخمسين ومائة وألف ولما بات جيشهم بسبي عميرة بقصد حصار فاس اختلفت كلمة العبيد ومن الغد قرضوا أبنيتهم وارتحلوا إلى مكناسة وكفى الله الودايا وأهل فاس شرهم إلا أنهم حرقوا ببادر الزرع التي كانت للودايا بالخميس ولما وصلوا إلى مكناسة نهبوا ثمار جناتها وأفسدوا ما قدروا عليه منها

وانصرف جمهورهم إلى مشرع الرملة والذين دخلوا مكناسة مع السلطان طالبوه في الراتب وشددوا في اقتضائه فلم يكن عنده ما يرضيهم به فشغبوا عليه ومرضوا في طاعته هذا والسلطان المولى عبد الله مقيم بجبال البربر مطل على الحضرة ومتحفظ للوثبة فلما علم بما المولى زين العابدين فيه من الاضطراب نزل من الجبل وتقدم حتى دخل فاسا الجديد وذلك في سادس عشر جمادى الآخرة من السنة فلقبه الودايا وأهل فاس واهتزوا لمقدمه وطاروا به سرورا ثم خرج من يومه إلى دار الدبيغ فاحتل بها ولما اتصل خبره بأخيه المولى زين العابدين ضاق ذرعه وخشعت نفسه وأصبح غاديا من مكناسة إلى حيث يأمن على نفسه معرضا عن الملك وأسبابه فكان ذلك آخر العهد به إلى أن توفي رحمه الله الخبير عن الدولة الثانية لأمر المؤمنين المولى عبد الله رحمه الله لما فر السلطان المولى زين العابدين عن مكناسة اجتمع العبيد واتفقوا على أن يرجعوا طاعة السلطان المولى عبد الله فيعتوا طائفة من قوادهم ووجهوها إليه فقدموا عليه منتصف رمضان من السنة المذكورة وهو بدار الدبيغ فيجوه وأخبروه بأن إخوانهم قد خلعوا المولى زين العابدين وبايعوه فسر المولى عبد الله بقدمهم وخرج الودايا إلى العبيد فاختلفوا بهم وسروا بمقتهم وأجروا الخيل في ميدان المسابقة واللعب بالبارود وزينت مدينة فاس وجددت البيعة العامة من الودايا وأهل فاس وقبائل العرب والبربر واستمر الحال على ذلك إلى آخر ذي القعدة من السنة فكان ما نذكره

مجيء المولى المستضيء من مراکش ومحاربه لأخيه المولى عبد الله وما يتبع ذلك لما اجتمعت كلمة العبيد والودايا وسائر أهل بلاد المغرب على طاعة السلطان المولى عبد الله أقام رحمه الله بدار الدبيغ واستمر الحال على ذلك إلى آخر ذي القعدة من سنة أربع وخمسين ومائة وألف فارتاب العبيد بمقامه هنالك ورفضه المقام بين أظهرهم بمكناسة التي هي دار الملك يومئذ فقبلوا له ظهر المجن على عادتهم واستدعوا المولى المستضيء من مراکش ليبيعه واتصل خبرهم بالمولى عبد الله وأنهم قد بعثوا الخيل إلى المولى المستضيء لتأتي به فأخذ السلطان من ذلك المقعد المقيم وشمر عن ساعد الجد وأخذ في تأليف قبائل العرب والبربر ووصل يد بعضهم ببعض ثم ألف بينهم وبين الودايا وأهل فاس وأخى بين الجميع فأعطوه صفقة إيمانهم بأنهم يموتون دونه فتم له منهم ما أراد وفي أثناء ذلك قدم الحاج أحمد السوسي من مراکش ودخل فاسا فتحدث عنه بأنه قد دس إلى أهل فاس في مراجعة طاعة المولى المستضيء والتمسك بدعوته ونمى ذلك إلى السلطان المولى عبد الله فأمر بقتله فقتل ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة وألف ففي المحرم منها زحف المولى المستضيء من مراکش إلى بلاد المغرب ودخل مكناسة في جيش العبيد وبني حسن وغيرهم وقدم في ركابه الوزير أبو الحسن العميري وأخوه القاضي أبو القاسم وفي آخر المحرم المذكور ورد كتاب من عند القائد أبي العباس أحمد الريفي إلى أهل فاس يدعوهم إلى بيعة مخدومه المولى المستضيء والدخول في طاعته فصموا عن ذلك ونبذوه

وفي ربيع الأول من السنة المذكورة زحف المولى المستضيء في جيش العبيد إلى فاس وعسكر بظهر الزاوية خارجها ففر السلطان المولى عبد الله من دار الدبيغ إلى آيت دارسن ومن الغد هاجت الحرب بين العبيد وبين الودايا وأهل فاس والحيانية وشراقة وأولاد جامع وهلك فيها من الفريقين عدد كثير وفي ربيع الثاني قدم السلطان المولى عبد الله بجر أم البربر خلفه من زمر وبني حكم وجروان وآيت أدراسن وآيت ومالو في عدد لا يحصيه إلا خالقهم وفي شارة من اللباس وشكة من السلاح تسر الصديق وتسوء العدو ولما عين المولى المستضيء وعبيده تلك الجموع وعلموا أنهم لا طاقة لهم بحربهم اتخذوا الليل جملا وأسروا إلى مأمهم ونجوا بأنفسهم واصبحت الديار منهم بلاقع فسر الناس بذلك وشكروا الله على انفضاض تلك الجموع بلا قتال وفي سادس جمادى الأولى من السنة توفيت أم السلطان الحرة خنثى بنت بكار المغفوية رحمها الله وكانت فقيهة أدبية ودفنت بقبور الأشراف من فاس الجديد وفي جمادى الثانية منها حدثت فتنة بفاس بين الحاج عبد الخالق عديل والشريف المولى أبي عبد الله محمد العالي الإدريسي فشكاه عديل إلى السلطان فأمر بالقبض عليه فعاد الشريف بضريح جده رضي الله عنه فألزم السلطان أهل فاس إخراجه فضيخوا عليه إلى أن طلب الأمان فأمناه وساقوه إلى السلطان فوجهه ثم ضربه وسجنه ثم أمر أهل فاس بقتل أصحابه فقتلوه

هدية السلطان المولى عبد الله رحمه الله إلى الحرم النبوي على مشرفه أفضل الصلاة والسلام وفي هذه السنة أعني سنة خمس وخمسين ومائة وألف سافر الركب المغربي إلى الحرمين الشريفين فبعث معه أمير المؤمنين المولى عبد الله رحمه الله هدية نفيسة فيها ثلاثة وعشرون مصحفاً بين كبير وصغير محلاة بالذهب مرصعة بالدر والياقوت ومن جملتها المصحف الكبير العقباني الذي كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثماني الذي كان عند بني أمية بالأندلس وانتقل إلى هذه العدة المغربية على يد عبد المؤمن بن علي حسبما مر الكلام عليه مستوفى وأما هذا المصحف العقباني فهو مصحف عقبة بن نافع الفهري الصحابي المشهور فاتح المغرب كان نسخه بالقيروان من المصحف العثماني على ما قيل وبقي متداولاً بين أهل المغرب إلى أن وقع بيد الأشراف السعديين وأخذ فيه المنصور منهم العهد لولده الشيخ علي إخوته كما مر ولما وصل إلى هذا السلطان رحمه الله غربه من المغرب إلى الحرم الشريف فعاد به الدر إلى وطنه والإبريز إلى معدنه قال الشيخ أبو عبد الله المسناوي رحمه الله قد وقعت على هذا المصحف حين أمر السلطان المولى عبد الله رحمه الله بإخراجه وبعثه إلى الحجرة الشريفة فظهر لي أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر ليعد ما بينهما اه وبعث السلطان رحمه الله معه ألفين وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلف الألوان للحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى التحية وتقبل الله من السلطان عمله وأجزل ثوابه أمين

مشايعة الباشا أبي العباس الريفي للمولى المستضيء على المولى عبد الله وزحفه إلى فاس وما يتصل بذلك لما دخلت سنة ست وخمسين ومائة وألف أقبل الباشا أبو العباس أحمد ابن علي الريفي في جموع الفصص والجبل والريف قاصداً فاساً وأعمالها حتى نزل بالعسال من مزارع فاس وذلك في الثاني والعشرين من المحرم منها وراود أهل فاس على الانحراف عن طاعة مولاي عبد الله فأبوا وأقبل المولى المستضيء في جموع العبيد وعليهم القائد فاتح بن النويني حتى نزل قريباً منه في الثاني والعشرين من صفر ولما زحف هذان الجيشان إلى فاس اضطربت نواحيها ودهش الناس من هول هذا الريفي لأنه جاء في استعداد لم يعهد مثله وأرز الحيانية وشرافة وأولاد جامع إلى أسوار فاس ونزلت حللم داخلها وخارجها وبعثوا مزارعها وجناتها وانتهبوا مواشيتها وهلك الكثير منها جوعاً وهزلاً وماجت الفتنة موج البحر وارتفعت الأسعار ولقي الناس كل شدة وفي كل صباح ومساء ترعد المدافع وتقرع الطبول بمحلتى المولى المستضيء والريفي فاستعد الناس للحرب وركب السلطان المولى عبد الله من دار الدبييع في نحو عشرة من الخيل وأسرع إلى آيت أدراسن وهم بسبب عشار فدخل حلة عبد الله بن يشي منهم وقلب سرجه وسط جموعهم فالقف عليه من حضر منهم وقالوا ما الذي ناب مولانا فقل جنتمك لتتصروني على هذا الجبلي الذي كان خديماً وعبدنا وأطعنا ما جمع من المال في خدمتنا ثم أراد أن يفضحنا وجرأه علينا أخوانا المستضيء وأراد الاستيلاء على بلادنا وهي في الحقيقة بلادكم وما قصد إلا إهانتكم وأنتم أحق من ينصر أهل البيت ولا يتحمل العار وعليكم السلام ثم ركب فرسه ورجع عوده على بدنه فلم يبيت إلا بدار الدبييع ومن الغد زحف أحمد الريفي إلا بلاد الحيانية ظناً منه أنهم لا زالوا مقيمين بها فلما لم يجد بها أحداً رجع إلى محله الذي كان به ومن الغد

كانت حرب خفيفة بينه وبين الودايا ومن لافهم من الحيانية وشرافة وأولاد جامع ثم من الغد ركب أحمد الريفي في رماته وتقدم حتى وقف على كدينة تامزيت فوق القنطرة وعبرت جموعه لارورات ثم عبر المولى المستضيء في جموع العبيد وخلفوا رماته ومدافعهم وأتقاهم بالمحلة وكتب المولى المستضيء كتابه وصف جنوده بذلك البسيط وزحف الودايا وأهل فاس والحيانية وشرافة وأولاد جامع وجاءت البربر بجموعها فأشرفوا عليهم بالعين المقبوة إلى دار ابن عمرو ولما وقعت عينهم على جموع المولى المستضيء ووزيره الريفي بذلك البسيط صاحوا بهم وشدوا عليهم شدة رجل واحد فكانت الهزيمة واستحرف فيهم القتل والسلب وازدحموا في القنطرة وتساقطوا في الوادي فهلك الكثير منهم والبربر في أثرهم يقتلون ويسلبون وأما الريفي فإنه لما رأى الهزيمة عليه لم يزد على أن ركب فرسه ونجا برأس طمرة ولجام على الحالة التي وصفها أبو الطيب إذ قال لا يأمن النفس الأقصى فيدركه فيسرق النفس الأذى ويعتقم ولم يعرج هؤلاء ولا أحد من المنهزمة على المحلة حتى انتهى إليها البربر فتركوا اتباع المنهزمة واشتغلوا بنهبها فأتوا على ما فيها من الأخبية والكراع والأثاث الفاخر ولم يتركوا بها إلا المدافع والمهاريس وألثها من كور وبنب وبارود فإن القائد أبا عزة صاحب الشربيل وقف على ذلك حتى حازه وعاد الناس وقد امتلأت أيديهم من الغنائم فلقبهم طوائف من البربر لم يكونوا قد شهدوا الواقعة فاستلبوا ما بأيديهم قال صاحب البستان حدثني السلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله عن هذه الواقعة وكان قد شهدها وهو في سن البلوغ قال بعثني والدي مع أخوانا الودايا فلما هبت رياح النصر وانهمز العدو في ساعة واحدة وكنت يومئذ في خمسين فارساً بين ودايا وأصحاب تقدمنا إلى المحلة فوقفتنا على قبة الباشا أحمد وأحرزناها ثم أمرت الحمارة فحملوا لنا من صناديق

على عشرين بغلة ومن الملف والكتان على ثلاثين جملاً لعرب بدواة أصحاب الإبل وحملوا لنا قبتين إحداهما لأحمد الريفي والأخرى لأظنها للمولى المستضيء وأما العرب والبربر والودايا وأهل فاس فقد أخذت كل طائفة بناحية تحمل ما قدرت عليه ثم لما انفصلنا عن المحلة قافلين لقبتنا كتاب من البربر الذين لم يحضروا الواقعة وبنفس ما خالطونا طاروا بما في أيدينا حتى لم ندر أين البيغال ولا الإبل وانفرد بكل بغلة وجمل جماعة من الخيل خمسون أوستون أو أكثر ولم يجتمع منا اثنان وعدنا كما جننا وهكذا وقع لكل من انتهب شيئاً من حزبنا إلا من دخل مع البربر في حصتهم ولما فرغ الناس من النهب اشتغل عبيد السلطان بجمع الرؤوس فكان عددها ما بين أبيض وأسود نحو التسعمائة فيها رأس الباشا فاتح بن النويني ثم بعث السلطان المولى عبد الله البيغال لجر تلك المدافع والمهاريس وحمل الكور والبنب فسبق ذلك كله إلى دار الدبييع ثم بعث بغالاً أخرى لحمل البارود وكان ثلاثمائة برميل في كل واحد فنطار من البارود الجيد فأدخل ذلك كله لحزبين فاس قال السلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله في حديثه وكان هذا أول بعث بعثني فيه والدي وأول حرب شهدتها وأنا يومئذ في سن البلوغ وكان لي ولوع باللعب بالرمح والمطاعنة به إلى أن مهرت فيه اه كلامه ولما اجتاز المنهزمة بجبل الزبيب اعترضهم أهله وقتلهم فقتلوا في جملتهم سيدي محمد بن المستضيء بظنونه من أهل الريف ثم خلص الريفي وأصحابه إلى طنجة بعد غضب الريق وكان أمر هذه الواقعة فتحا عظيماً على أمير المؤمنين المولى عبد الله وشيعته قال في نشر المثاني فراجع طائفة من العبيد طاعة مولاي عبد الله وجاءته قبائل المغرب بالهدايا من كل ناحية فتألفهم وألان لهم القول وأمر العبيد بالمسير إلى طنجة لحرب الريفي فساروا ثم رجعوا ولم يلقوا كيدا

معاودة أحمد الريفي غزو فاس وما كان من أمره مع السلطان المولى عبد الله إلى حين مقتله لما وصل أحمد الريفي إلى طنجة أخذ في إخلاف ما ضاع له ولقومه من خيل وسلاح وأخبية ونحوها وجدد لجيش العبيد من ذلك ما جده لأهل الريف وأخذ في الاستعداد لمعاودة غزو فاس وأقسم أن لا يأكل لحماً ولا يشرب لبناً حتى يدخل فاساً وينهبها كما انتهبوا محلته وبعث إلى سلطانه المولى المستضيء بمائتي فرس ومائتي خباء وألف مكحلة وخمسين ألف متقال يفرقها على العبيد يتقون بها وضرب له موعداً يجتمعون فيه على حرب السلطان المولى عبد الله وشيعته من الودايا وأهل فاس فكان أمر الريفي فيما أنفق كما قال تعالى فسيفقوناً ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون الأنفال ولما كان شهر جمادى الأولى من سنة ست وخمسين ومائة وألف خرج أحمد الريفي من طنجة قاصداً حضرة فاس في أكمل شكة وأحسن استعداد ولما انتهى خبره إلى السلطان المولى عبد الله لم يسعه التخلف عن لقائه فكتب إلى عرب الحيانية وشرافة وأولاد جامع وكتب إلى عرب الغرب من سفيان وبني مالك وسائر شيعته يستنفرهم ويحضهم على نصرته وفرق الراتب على العبيد والودايا وزرارة وأخرج أهل فاس بعثهم الذي عينه على العادة وكتب السلطان إلى آيت أدراسن وجروان يخبرهم بعزمه على مصادمة الريفي وجمعه ويقول لهم إن أردتم المال والغنيمة فتأهبوا للنهوض إلى طنجة ففخ ناس منهم وقدم عليهم منهم ألفان من الخيل وأكثر منها رماة ثم خرج السلطان من فاس أواخر جمادى الأولى ونزل على وادي سبو وأقام به إلى أن عرض عساكره ورتبها فجعل رماة عبيده ورماة أهل فاس رحي واحدة وعقد عليهم للقائد أبي عزة صاحب الشربيل وجعل الودايا

وزرارة وأهل السوس خيلهم ورماتهم رحي واحدة وعقد عليهم لحاجبه القائد عبد الوهاب اليموري وسار على هذه التعبية فلقية شرافة وأولاد جامع وأولاد عيسى فجعلهم رحي واحدة وعقد عليهم للشيخ أبي العباس أحمد بن موسى الشرقي ولما عبر وادي ورغة لقيه أهل الغرب في جموعهم ينتظرونه هنالك فباتوا معه تلك الليلة بعين قرواش ومن الغد جعل بني مالك في رحي وعقدهم عليهم لقائهم أبي سلهم الجمادي وجعل سفيان في

رحى وعقد عليهم لقائدهم عبد الله السفيناني وسار على هذه التعبية في ظل النصر والسعادة وأما المولى المستضيء في العبيد وبني حسن فإنه لما بلغه نهوض السلطان المولى عبد الله من فاس خلفه إلى مكناسة دار الملك فدخلها على حين غفلة من أهلها وعاث وانتهب وفعل فيها بنو حسن الأفاعيل من سبي النساء والذرية وغير ذلك ثم تدارك أهل مكناسة أمرهم وتجمعوا لحرب عدوهم فقاتلوا بني حسن في وسط المدينة وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم ما لا يحصى ورجعوا منهزمين وأما أحمد الريفي فإنه زحف إلى القصر في جموع لا تحصى من أهل الريف والفحص والجبل وأهل العرائش والقصر والخلط وطلبيق وبدواة وغيرهم وأقام ينتظر سلطانه المولى المستضيء وجمعه ولما أبطأ عليه واتصل به خبر زحف السلطان المولى عبد الله إليه ارتحل من القصر عامدا نحوه فالتقى الجمعان عشية ذلك اليوم بدار العباس على وادي لكس وقال في نشر المثاني كان اللقاء بالموضع المسمى بالمنزه من أحواز القصر في ربيع جمادى الآخرة سنة ست وخمسين ومائة وألف ولما تراءى الجمعان هم جيش السلطان المولى عبد الله بالنزول فقال السلطان رحمه الله لا نزول إلا على الغنيمة أو الهزيمة ثم عبر إليهم في جنوده وأعجلهم على النزول وصمد إليهم في كتيبة من أخواله وعبيده فخالط

مقدمتهم فضفها وكان فيها أهل الفحص وبدواة وطلبيق والخلط ثم ظهرت كتيبة أهل الريف التي فيها قلب العسكر وحده وفيها الباشا أحمد بن علي فحمل عليها السلطان حملة ثانية ألحقها بالمقدمة وتقوضت جموع الريفي من كل جانب وانهزموا للحين ومروا على وجوههم لا يلوي حميم على حميم ومضى جيش السلطان في أثرهم يقتلون ويسلبون إلى أن جنهم الليل وقتل الريفي في المعركة وبقيت الأبنية والأثقال بيد السلطان كما هي فنزل بها بدار العباس وعادت العساكر مساء بالغنائم وبرأس الباشا أحمد بن علي الريفي عرفه بعضهم بين القتلى فزال رأسه وأتى به السلطان فسر به وبعث به إلى فاس فعلق بباب المحروق وانقضى أمل أحمد الريفي وذهبت أيامه وكل من عليها فأن وبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام الرحمن وقد خلف هذا الريفي آثارا كثيرة بطنجة وتطاوين وأعمالها من أبنية وغيرها تشهد بعلو همته رحمه الله زحف السلطان المولى عبد الله إلى طنجة واستيلائه عليها لما فرغ السلطان المولى عبد الله رحمه الله من أمر الريفي أصبح غاديا يوم طنجة ولما شارفها خرج إليه رجالها يحملون المصاحف على رؤوسهم والصبيان يحملون الألواح بين أيديهم مستشفعين تائبين فعفا عنهم إلا من كان من بطانة أحمد الريفي ودخل السلطان طنجة واستولى عليها وأمر بالاحتياط على دار الريفي ومتاعه ثم أمر الخوارجا عديلا في جماعة من تجار فاس بإحصاء ما بدار الريفي فدخلوها وتطوفوا خزائنها واستخرجوا ما فيها من مال وسلاح وسروج وكسي وملف وكتان وفرش وخرشي وأثاث يفوق الحصر فأحصى ذلك كله وأحصى العبيد والإماء والخيل والبعال وجميع الماشية من إبل وبقر وغنم فجيء من ذلك بشيء كثير فأعطى الماشية كلها للبربر ثم أطلق يد الجيش على الأمراس فانتشلوا ما فيها من قمح وشعير فأتوا عليه ثم تتبع حاشية الريفي من عمال وكتاب وغيرهم ممن كان له به اتصال فاستصفي ما عندهم من المال والذخيرة إلى أن استوفى غرضه وكان هذا الريفي قد رسخ مجده بطنجة وأعمالها وعظمت ثروته لامتداد الدولة له ولأبيه بها منذ الفتح فكان ظفر السلطان المولى عبد الله بخزانته من باب الظفر بالكنوز الفارونية وقدمت عليه في أثناء ذلك وفود القبائل التي هنالك فعفا عنهم وأمنهم وأقام رحمه الله بطنجة أربعين يوما وانقلب راجعا إلى فاس مؤيدا منصورا وبالله التوفيق اعترض المولى المستضيء للسلطان المولى عبد الله وعود الكرة عليه ومقتل بني حسن لما انهزم المولى المستضيء من مكناسة بعد إيقاعه بأهلها خرج إلى حلة بني حسن وأقام بين أظهرهم فاتصل به خبر مقتل ناصره ووزيره على أمره أحمد الريفي ففت ذلك في عضده وهد أركانه ثم لما بلغه فتح طنجة واستيلاء السلطان عليها استأنف جده وأرهب حده وأخذ في تحريض العبيد وبني حسن على تجديد البعث والنهوض لاعتراض أخيه السلطان المولى عبد الله مرجعه

من طنجة فخرج كبير بني حسن يومئذ وهو قاسم أبو عريف يطوف في أحيائها ويستنفر جموعها وخرج المولى المستضيء في لمة من وجوه العبيد إلى مشرع الرملة فجهز بها عشرة آلاف فارس من عبيده ووافاه قاسم أبو عريف بمثلها من بني حسن فكان مجموع الجيشين عشرين ألفا سوى من انضاف إليهم ثم ساروا لاعتراض السلطان ولا علم له بهم وقدم المولى المستضيء أمامه الطلائع والعيون فعادوا إليه بخبر السلطان وأنه باثت تلك الليلة بدار العباس فصبحه المولى المستضيء في جموعه على حين غفلة منه فلم يبرح السلطان المولى عبد الله إلا نواصي الخيل مقبلة إليه فعبا جيشه على عجل وأقام الرماة حوالي المحلة ثم صمد إليهم في الخيل وأنشب القتال فلم تكن إلا ساعة حتى انهزم بنو حسن ولوا الأديار وكانوا ميمنة الجيش وثبت المولى المستضيء والعبيد في الميسرة فصمد إليه السلطان وصدقه القتال فهبت ريح النصر وتمت الهزيمة على المولى المستضيء وعبيده ومروا على وجوههم لا يلوون على شيء فجرد السلطان مع القائد أبي عزة صاحب الشربيل كتيبة من الخيل في أثرهم وتقدم إليهم أن لا يقتلوا أحدا من العبيد وإنما يجردونهم لا غير فلم يقتل أحدا من العبيد في هذه الواقعة واسترحر القتلى في بني حسن فهلك منهم ما ينيف على الألف وانتهب منهم أكثر من خمسة آلاف فرس ومن السلاح مثل ذلك وهذه الواقعة هي التي خضدت شوكة بني حسن وقلت من غرهم ونجى المولى المستضيء في فلهم وأقام بحلثهم ينتظر أن تدول له دولة لأنهم كانوا شبيعة كأهل دكالة وأهل مراکش وكان أخوه المولى الناصر خليفته على مراکش كما مر وقفل السلطان المولى عبد الله إلى فاس الجديد فاحتل بها وفرق المال على أخواله وعبيده وأسهم لأهل فاس وأقام بدار الدببيغ إلى أن دخلت سنة سبع وخمسين ومائة وألف فقدم عليه في شهر ربيع الثاني منها جماعة من قواد العبيد تائبين خاضعين متتصلين مما فرط منهم فعاتبهم وقال لهم لا كلام اليوم بيني وبينكم حتى أقطع دابر بني حسن ومن معهم من شيعة المستضيء ثم عفا عنهم وأعطاهم الراتب وأمرهم بالقوم عليه إلى مكناسة بقصد غزو بني حسن فعادوا إلى مشرع الرملة عازمين على ذلك وأخذ هو في الاستعداد أيضا ونهض من فاس في جيش العبيد والودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع وعرب الغرب ولما انتهى إلى مكناسة وافاه بها عبيد مشرع الرملة في وجوههم وأهل الحل والعقد منهم فجددوا التوبة واستأنفوا البيعة بمحضر القضاة والعلماء وأعطوا صفقة الطاعة من عند آخرهم والله غالب على أمره

نهوض السلطان المولى عبد الله إلى بلاد الحوز وتدويخه إياها وإجفال المولى المستضيء عنها كان المولى المستضيء في هذه المدة مقيما عند بني حسن كما قلنا ولما بايع العبيد السلطان المولى عبد الله واجتمعت كلمتهم عليه خرج في طلبه وطلب شيعته من بني حسن فسلك طريق الفج ليحول بين بني حسن والشعاب فصبحهم بسيط زبيدة وهم غارون والمولى المستضيء بين أظهرهم فلم يرعهم إلا الخيل تجوس خلال بيوتهم وتسوق أنعمهم وشاءهم وتنتهب أثاثهم ومتاعهم فانفضوا في كل وجه وتفرقوا شذر منذر وأفلت المولى المستضيء رحمه الله بجريعة الذقن وتوزعت العساكر السبي وجاء بنو حسن يهرعون إلى السلطان طالبين عفوه فأمر بالكف عنهم ورد عليهم سببهم وترك لهم خيلهم ومضى إلى قبائل دكالة إذ اتصل به أن المولى المستضيء قد فر إليها فلما نزل قصبه أبي الأعوان ونزلت عساكره أمامه بذلك البسيط من دكالة فر أهلها مع المولى المستضيء إلى التلول ونزلوا قرب دمنات وشرعت عساكر السلطان في انتشار الحبوب من الأمراس واستخراج الدفان من الهميل وتخريب القرى وتقطيع الأشجار وكلما فرغت من ناحية انتقلت إلى غيرها متقلبة في ذلك البسيط نحو السنة والسلطان مقيم بالقصبه إلى أن اكتسح أرض دكالة وتركها أنقى من الراحة ليس بها ما يأكله الطائر أو يتظلل الحائر ثم انتقل إلى بلاد السراغنة ولما توسطها قدمت عليه وفودها ووفود سائر قبائل تلك الجبال بمؤناتهم وهداياهم فقبلهم وعفا عنهم ثم انتقل إلى ناحية دمنات ففر أهل دكالة والمولى المستضيء أمامه إلى جبال مسفيوة فتحصنوا بها وكانت مسفيوة قد

بأبعته ودخلت في دعوته فقدم السلطان المولى عبد الله حتى نزل بوادي الزرات فقدمت عليه هنالك عرب الرحامنة وزمران وسائر أهل الحوز وكانوا متمسكين بطاعته فنزلوا معه بالوادي المذكور وعاثت العساكر في بلاد مسفيوة وأوسعوها نهبا وتخريبا والحرب في ذلك كله قائمة مع المولى المستضيء على ساق إلى أن صار وادي الزرات أخرب من جوف حمار ثم انتقل السلطان إلى وادي كجي فعاثت فيه العساكر على عايتها وعجز أهل الدفاع فهذمت حصونهم وحرقت قراهم وقطعت أشجارهم وصار وادي كجي أوحش من وادي الزرات فطلبوا الأمان وأعلنوا بالطاعة وجاؤوا مستشفعين بصبيبتهم فقال لهم السلطان على شرط أن تأتوا بالمستضيء فقالوا إنه قد فر بالأمس ولو كان عندنا لأتيناك به فقبلهم وعفا عنهم ثم جاء أهل دكالة بنسائهم وذراريهم وقالوا هذه نساؤنا وأولادنا لك وأما المال فقد ذهب وما عندنا ما نقتاته فاقبل بنا ما بدا لك فعفا عنهم وأن لهم

في الرجوع إلى بلادهم وكان ذلك أواخر سنة سبع وخمسين ومائة وألف ولما دخلت سنة ثمان وخمسين بعدها ارتحل عن بلاد مسفيوة ونزل بقصبة الصم بإشمام الصاد زايا وبها قدم عليه وفد من مراکش كما يأتي وأما المولى المستضيء فإنه لما فر من مسفيوة قدم مراکش وحاول الدخول إليها فصدده أهلها عنها ورفضوا دعوته وأعلنوا بنصر السلطان المولى عبد الله بمرأى منه ومسمع فلم يبق له حينئذ بمراكش مطمع وكان أخوه المولى الناصر قد مات يومئذ فأخرجوا إليه أتائه فتسلمه منهم وكر راجعا إلى بلاد الفحص فلم يزل تلفظه أرض إلى أرض إلى أن احتل بطنجة قانعا من الغيبة بسلامة المهجة وسيأتي تمام خبره بعد إن شاء الله

وفادة أهل مراکش على السلطان المولى عبد الله بالصم واستخلافه ولده سيدي محمدا عليهم لما طرد أهل مراکش المولى المستضيء عن بلادهم تأمروا فيما بينهم وأجمعوا الدخول في طاعة السلطان المولى عبد الله وعينوا جماعة من وجوههم وأوفدوها عليه وهو بقصبة الصم فانتهوا إليه وقدموا بيعتهم وأخبروه بما كان من المولى المستضيء وما عاملوه به من الصد والإبعاد فقبلهم وعفا عنهم بعد العتاب ثم طلبوا منه هم وقبائل الحوز أجمع أن يطأ بلادهم ويدخل مصرهم فوعدهم بذلك ولم يبرح من مكانه إلى أن وفدت عليه قبائل الدير كله فلما تفقد الجيش الذي خرج به من مكناسة وجد أكثره قد فر ولم يبق معه من العسكر المخزني إلا النصف وأما القبائل فلم يبق معهم منه إلا أعيانهم في الأخبية لطول الغيبة وكثرة الحروب وقلة الزاد فلم يمكنه التقدم إلى مراکش على تلك الحال وإنما تألفهم بأن دفع لهم ولده المولى محمدا رحمه الله وقال لهم إنني استخلفته عليكم فرضوا به وقرت أعينهم فكان ذلك أول ما انخرست شجرة الدولة العلوية بمراكش حتى صارت حضرتها ودار ملكها بعد أن كانوا لا يبيغون بمكناسة بدلا ثم بعث السلطان ولده المولى أحمد وكان أسن من المولى محمد خليفة عنه برباط الفتح وأضاف إليه قبائل الشاوية وبني حسن ثم أذن السلطان لعامل فاس عبد الخالق عديل في الرجوع إلى فاس فمرض بالطريق ومات بعد أن دخل فاسا ودفن بزاوية سيدي عبد القادر الفاسي ثم رجع السلطان إلى مكناسة على طريق تادلا بعد أن أقام ببلاد الحوز سنة كاملة فقدمها في شهر ربيع الثاني سنة ثمان وخمسين ومائة وألف ولما شارف مكناسة لم يدخلها ونزل بقصبة أبي فكران فقدم عليه بها جماعة من المجاهدين أهل الريف من طنجة فوق المائة ومعهم زوجة الباشا أحمد الربيقي وولداها منه فقدمت هدية عظيمة فقبض السلطان الهدية وقتل الولدين ومن

معها من أهل الريف ثم قتل معهم ثلاثمائة من بني حسن كانوا قد قدموا عليه للتهنة فكان ذلك سبب نفرة الناس عنه فساعت عنه الأحدثه وكثرت القالة من الجيش والرعابا حتى في الأسواق وانقبض الناس عنه حتى أهل فاس فضلا عن غيرهم مكر السلطان المولى عبد الله بأعيان البربر وإخفار ذمة محمد واعزيز فيهم ثم إطلاعهم بعد ذلك لما صدر من السلطان المولى عبد الله ما صدر من قتل أهل الريف وبني حسن وانقباض الناس عنه انقبض في جملتهم البربر فلم يأتهم منهم أحد وكانوا قد حرثوا بأحواز مكناسة فلما أدرك زرعهم أمر السلطان العبيد بانتهابه فعمدوا إليه وحصدوه ودرسوه وأكلوه فازدادت نية البربر فيه فسادا ولما رأى انقباضهم عنه كاتب كبيرهم محمدا واعزيز وكانت بينهما خلة ومصافاة حتى كان يقول له أنت أي إذ كان محمد واعزيز هذا هو الذي حشد له جموع البربر وشايعه على عدوه أحمد الربيقي حتى قتله فكتب إليه يلومه على انقباضه عنه وتخلف قبيله عن الحضور ببابه مع أنهم شيعته ومواليه فلما ورد عليه كتاب السلطان لم يسعه التخلف عن إجابته واستشار في ذلك قومه فلم يوافقوه فراجعهم فقالوا ألا ترى إلى ما وقع بمن وفد عليه من غيرنا فقال لا ترون إلا الخير ولم يزل بهم حتى غلبهم على رأيهم ونفروا عنه لجمع الهدية وتعيين الوفد فجمعوا من ذلك ما قدروا عليه ثم أتوه فأعادوا عليه القول وحذروه الغدر فقال هذا لا يكون ولستم مثل أولئك فما وسعهم إلا إجابته وأقبلوا معه حتى انتهوا إلى قسبة أبي فكران حيث هو السلطان فاجتمعوا بالحاجب أبي محمد عبد الوهاب اليموري فلما رآهم بهت وتحركت منه الرحم البربرية لكنه لم

يمكنه ردهم بعد بلوغهم إلى ذلك المحل وكانوا نحو المائة كلهم أعيان فترجلوا عن خيولهم ووضعوا أسلحتهم ثم دخلوا على السلطان المولى عبد الله فوجدوه جالسا على كرسية بوسط القلعة فأدوا واجب التحية فأجابهم وأمرهم بالجلوس فجلسوا بين يديه ثم دخل الحرس والزبانية فوقفوا على رؤوسهم وأحاطوا بهم وأخذ السلطان في معاتبتهم على ما يرتكبونه في الطرقات والغارات على المستضعفين من الأعراب وغيرهم وانتهاج بضائع التجار وما كانوا يعاملون به عساكر الملوك من النهب والسلب وعدد عليهم الحسائف القديمة والأفعال الذميمة ثم أمر الحرس بالقبض عليهم فانقضوا عليهم انقباض العقبان ولم يكن بأسرع من أن ألقوا بين يديه مقرنين في الحبال ولم يقبض على محمد واعزيز من بينهم فقال له يا مولانا أغدرا بعد أمان ولست من أهله فقال له إن هؤلاء القوم قد حادوا عن الدين وحل ما لهم ودمهم لخروجهم عن الطاعة وشقهم عصا الجماعة وقد أعياني أمرهم وما عدت إلى هذا الأمر بعد خروجي منه إلا من أجلهم أردت أن أقابل هذا التيس الأسود يعني العبيد بهذا الكيش الأبيض يعني البربر وأستريح من غصة من هلك منها وأتمسك بالأخر ولولا أنك بمنزلة والذي ما أطلعك على ما في ضميري فقم في حفظ الله ولا بأس عليك فقال محمد واعزيز والله لا أقوم ولا أكون إلا مع إخواني حيثما كانوا فإن هلكوا هلكت معهم ويكون لك غدرك وإن سلموا سلمت معهم ولا يتحدث الناس أنني سقتهم إلى الذبح ورجعت أنا سالما فبأي وجه أسير إلى أولادهم وأي أرض تحميني من عشيرتهم وإلى أين أقصد فإن كان لا بد من القتل فقتلك لي معهم أجمل بي ولا إثم عليك في ذلك ولا عار لأني أنا الذي سقتهم إليك وأرحتهم عليك بعد أن عرضوا علي هذا كله فلم أقبل منهم فلما سمع السلطان هذا الكلام العالي وتمكنت منه صولته الحق جعل يتدبره ثم التفت إلى الحاجب عبد

الوهاب وقال يا عبد الوهاب لا خير في الرجل يقول للرجل أبة ثم لا يشفعه في جماعة من قبيلة خلوا عنهم فسرحوهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور فركبوا خيلهم وساروا إلى حلتهم ولسان حالهم ينشد ما قاله الأعرابي الذي بال بواسط فضره الحجاج وسجنه ثم أطلقه إذا نحن جاوزنا مدينة واسط خرنا وبلنا لا نخاف عقابا زحف البربر إلى السلطان المولى عبد الله بأبي فكران وفراره إلى مكناسة لما خلص جماعة البربر إلى حلتهم أقبلوا على محمد واعزيز وعاتبوه على ما حملهم عليه من الوفاة على السلطان والقرب منه حتى جرى عليهم ما جرى مع أنهم كانوا في غنى عن ذلك كله وقالوا له نحن متنا ويعتنا ولا بد لنا من الأخذ بالثأر فقال شأنكم وما تريدون فخلصوا نجيا وتفاوضوا في شأنهم إلى أن أجمع رأيهم على غزو السلطان لمضي ثلاث ومن تخلف عنها أحرقت خيمته فقال لهم محمد واعزيز إياكم والطرقات ثم أفعلوا ما بدا لكم ففترقوا لحللهم واستعدوا للحرب وأقبلوا في اليوم الرابع يجرون الشوك والمدر فلم يرع السلطان وهو بأبي فكران إلا الرايات قد أطلت عليه من الحاجب والخيل تسيل بها الأودية والشعاب فلم يسعه إلا أن حمل أقاله وأركب عياله وجعلهم أمامه مع رحي من رماة المسخرين وأرذفهم رحي أخرى من الخيل ثم تلاهم هو في موكبه وردفته رحي ثالثة من خيل العبيد جاءت من خلفه وانحدر في بطن الوادي وتفرق الجند عن يمين الوادي ويساره وسار السلطان على هذه التعبية وكلما دفعت خيل البربر على المسخرين من الجند أطلقوا عليهم شؤبوا من الرصاص فيسقط منهم الأربعون والخمسون وإذا دفعت خيلهم على رحي الخيل فكذلك وعلى موكب السلطان فكذلك وهكذا إلى أن دخل باب القزدير فاحتل بمكناسة

وهلك من العبيد في هذه الوقعة نحو الثلاثمائة ومن البربر على ما قيل نحو الخمسمائة وجمعوا قتلاهم فكفونهم في أخبية العبيد إذ كانت بأبيديهم ولم يرجعوا بسوى ذلك وكانت هذه الوقعة أواسط سنة سبع وخمسين ومائة وألف واعلم أنه قد وقع هنا لفظ الرحي ولفظ المسخرين وغير ذلك وهي ألقاب لطوائف من جيش هذه الدولة السعيدة فلا بد من بيان الاصطلاح في ذلك تتميمًا للفائدة فنقول إن الجيش السلطاني اليوم بهذه الدولة الشريفة ينقسم أولا إلى ثلاثة أقسام أصحاب ومسخرين وجيش فأما الأصحاب فهم طائفة من الجند تلازم السلطان حضرا وسفرا لا يفارقه بحال وهم أرباب الوظائف المخزنية منهم الكتاب الذين هم إلى نظر الوزير الأعظم ومنهم أرباب الفرائض ومنهم القهارمة القائمون على طعام السلطان وشرابه ومنهم أرباب الوضوء وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم وكل طائفة برئيسها وأما المسخرون فهم ملازمون للسلطان حضرا وسفرا أيضا وشأنهم أن يكونوا فرسانا في الغلب وقد يكون فيهم الرماة وهم أهل الشوك والغناء وهم الموجهون في المهمات لأن عليهم المدار في الأمور المخزنية كما يقتضيه تسميتهم بالمسخرين وإذا ركب السلطان في سفر أو نحوه انقسموا قسمين فالعبيد منهم يكونون خلفه لأنهم الموالي والودايا وشرافة يكونون أمامه وأما الجيش فهو أصل الجميع كما يقتضيه لفظه ومنه تنتخب الطوائف السابقة وهو عسكر السلطان الذي يحويه ديوانه إلا أن

معظمه يكون متفرقا في حله وبلاده إلا إذا أراد السلطان غزوا فيوجه على ما يحتاج إليه منه أما الجميع أو البعض ويكون ذلك مناوبة على ما هو معروف عندهم وأما الرحي فهي عبارة عن ألف من الجيش خيلا أو رماة وربما زانت أو نقصت بحسب ما يتفق والله أعلم

شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وانتقاله إلى فاس وانتقال عبيد الديوان من مشروع الرملة إلى مكناسة لما وصل العبيد الذين كانوا مع السلطان المولى عبد الله بأبي فكران إلى مكناسة واجتمعوا بإخوانهم الذين كانوا هنالك تكلموا بما في أنفسهم على السلطان من الغيظ وفتنوا بما في صدورهم عليه من الإحنة وقالوا إنه قد قال لمحمد واعزيز أردت أن أصدم هذا التيس الأسود بهذا الكيش الأبيض ودارت بينهم هذه الكلمة وأخذت منهم كل مأخذ وقالوا لم يبق لنا شك في أن هذا الرجل لا عرض له إلا في هلاكنا فانظروا لأنفسكم أو دعوا ثم كتبوا إلى عبيد الديوان يخبرونهم بما صدر من السلطان في جانبهم ويستشيرونهم في أمره فجاء بعض عيون السلطان من عبيد مكناسة إليه وأخبروه بما دار بين العبيد وبما كتبوا به إلى أهل الديوان فطير السلطان بالكتابة إلى ودايا فاس الجديد يقول لهم إن كانت لكم حاجة بآبنا أختكم عبد الله فاقدموا عليه الساعة ثم أخذ في جمع أثنائه وتنصيده وحمل ماله وشده وإسراج خيله وإنهاض رجله وقال لخاصته غدا إن شاء الله نرجع إلى أبي فكران فلما كان وقت العشاء وصل إلى باب القزدير من جيش الودايا أربعمئة فارس فأخرج إليهم السلطان أثنائه وماله وعياله ثم ركب في خاصته وأسروا ليلتهم ولم يصبحوا إلا بفاس الجديد فدخل السلطان داره وأمن على نفسه وأما عبيد الديوان فإنه لما بلغهم كتاب إخوانهم الذين بمكناسة وقرؤوه قالوا إنه لا يجمل بنا المقام في وسط بني حسن لا نفع إخواننا ولا نفعوننا فأجمعوا الرحيل والانتقال إلى مكناسة وبعد ثلاث انتقلوا إليها وأعدوا مشروع الرملة واستراحت تلك البلاد من عيظهم لا سيما سلا وأحوازها فإنهم كانوا قد أشجوا أهلها ولاقوا منهم عرق القربة

ولما وصلوا إلى مكناسة نزلوا بالمدينة وبالقصبة وبالاصطبل وبريعة وبهدراش وبالرحاب التسعة فملؤوها واجتمعوا بإخوانهم واطمان جنبهم ولما كان عيد الفطر من سنة تسع وخمسين ومائة وألف قدم على السلطان بفاس جماعة من قوادهم مع القاضي والفقهاء والأشراف من أهل مكناسة فحضرها معه العبيد على العادة وطلبوا منه أن يرجع إلى مكناسة وتتصلوا مما بلغه عنهم واعتذروا إليه فوعدهم الرجوع وأعطاهم مالا وانصرفوا إلى منازلهم ولما كانوا بالجديدة قرب مكناسة اعترضهم البربر وجردوهم وأخذوا ما معهم ولم يتركوا إلا القاضي أبا القاسم العميري على بعلته وأصبح الوفد على باب مكناسة عراة ينظر بعضهم إلى بعض إجلاب محمد واعزيز على السلطان المولى عبد الله وانتقاض أهل فاس والقبائل عليه لما رجع البربر إلى بلادهم من وقعة أبي فكران كتب كبيرهم محمد واعزيز إلى أهل فاس يتظلم من السلطان المولى عبد الله ويخبرهم بما اتفق له معه من إيفار ذمته وعزمه على الفتك بإخوانه ويدعوهم مع ذلك إلى أن يكونوا معه بيدا واحدة فأجابوه إلى ذلك ودخلوا في حزب البربر ثم كتب واعزيز بمثل ذلك إلى عرب الغرب من سفيان وبني مالك وكبيرهم يومئذ حبيب المالكي فقالوا نحن لكم تبع وحرينا حريكم وسلمنا سلمكم وانتقضت الفتوق على السلطان من كل جهة وهاجت الحرب بين الودايا وأهل فاس وبعد أيام ورد الخبر بأن ركب الحاج قد وصل إلى تازا وهو محصور بها فاستغاث أهل فاس بالبربر لياتهم بإخوانهم فجردوا منهم خمسمائة من الخيل إلى تازا فمروا في طريقهم بغرب الحياينة فانضموا إليهم ودخلوا في حزبهم وصاروا بأجمعهم إلى تازا فخلصوا الركب الذي بها ودموا بهم إلى فاس فدخلوا على باب الفتوح ونزل البربر والحياينة بالزيتون ودخل

جماعة منهم المدينة لقضاء أغراضهم وفي أثناء ذلك أغار عليهم الودايا ففضوهم وقتلوا منهم كثيرا فأمرهم السلطان أن يعلقوا رؤوسهم على سور قصبة شراقة ففعلوا ثم بدا لأهل فاس في مراجعة طاعة السلطان فبعثوا إليه في ذلك فأجابهم بأن يقدموا عليه فخرج إليه العلماء والأشراف والأعيان فلما مثلوا بين يديه عدد عليهم أفعالهم ووبخهم وشرط عليهم شرطا منها أن يعطوه زرع أهل الغرب المخزون عندهم وأن يهدموا دورهم ويبنوا بأنفاسها دار الدبيغ ويختاروا إحدى خصلتين إما أن يكونوا جيشا وإما أن يكونوا نائبة فقالوا نجمع على هذا الأمر مع إخواننا ويكون الجواب ولما رجعوا من عنده أغلقوا أبواب مدينتهم وقالوا لا نقبل شيئا من ذلك كله وعادت الحرب جذعة وارتفعت الأسعار وعظمت الأخطار وفي سابع ذي الحجة من سنة تسع وخمسين ومائة وألف نهب عامة فاس قفاطين المخزن التي كانت بفندق النجارين على يد الأمين الحاج الخياط عدل وأرادوا مصادرتة على مال المخزن الذي عنده فاقتدى منهم بثلاثة آلاف متقال فأطلقوه بعد القبض عليه وكانت القفاطين ثلاثة آلاف قفطان فرقوها على رماثهم يعيدوا بها عيد الأضحى واستمرت الحرب بينهم وبين الودايا وسائر شعبة السلطان إلى أن دخلت سنة ستين ومائة وألف وفي أوائل جمادى الأولى منها قدمت قبائل البربر وقبائل الغرب لمشايعة أهل فاس على حرب السلطان فزل محمد واعزيز في بربره بجبل أطغات ونزل حبيب المالكي في أهل الغرب وطلق والخلط بدار الأضياف وانجرم الودايا بفاس الجديد والعبيد بقصبة شراقة والسلطان بدار الدبيغ وضاق الخناق على السلطان وشيعته ومن الغد ركب حبيب في عربيه وزحف إلى السلطان بدار الدبيغ والبربر على أثره ولما وصل إلى حزمها بلغه أن البربر قد نهبوا محلته فرجع منهزما وعبر الوادي وتوجه إلى بلاده وأما البربر فإنهم لما فرغوا من محلة أهل الغرب أجلوا إلى سلايس ويقال إن السلطان دس بالليل إلى محمد واعزيز بمال على أن يخذل عنه هذه الجموع ويفرقها ففرقها بنهب محلة أهل الغرب وبجبهة العير يفدي حافر الفرس ولما انقضت هذه الجموع إلى بلادها بقي أهل فاس في القتال والحصار سنتين وزيادة كما سيأتي وبعثوا أثناء ذلك إلى المولى المستضيء المقيم بأحواز طنجة ليقدم عليهم فيبايعوه وتجمع كلمتهم عليه فرد رسلهم بمخ العرقيب ووعد عرقيب ذكر السبب الذي هاج بعث السلطان المولى عبد الله الجيوش إلى أهل الغرب ومراجعتهم طاعته وفي سنة ستين ومائة وألف أثناء حرب الودايا لأهل فاس قدم جماعة من عرب بني حسن على السلطان المولى عبد الله شاكين إليه عرب الغرب وأنهم لما انقلبوا راجعين بجموعهم إلى بلادهم مروا بحلة بني حسن فأغاروا عليها وانتهبوها فحركوا من السلطان ما كان كامنا في صدره عليهم وبعث إليهم جيشا كثيفا من العبيد والودايا وأمرهم بالفتك بأهل الغرب ونهب أموالهم وأن لا يبقوا لم على سيد ولا ليد فخرج الجيش يوم بلاد الغرب فنذروا به وانجفلوا أمامه عن بلادهم وتبعهم طليق والخلط فأرزوا إلى مدينة العرائش وتحصنوا بسورها فتبع الجيش آثارهم حتى نزل عليهم بها وحاصروهم ثلاثة أشهر هلكت فيها ماشيتهم جوعا وبعقب ذلك وردت عليهم جماعة من الودايا بأمان السلطان ومصحفه وسبخته فعاهدوهم على ذلك وأفرج الجيش عنهم وخرجوا مع الودايا فقدموا على السلطان بهديتهم فعفا عنهم وولى عليهم كبيرهم حبيبا المالكي وأضاف إليه قبائل الجبل كلها وأما الجيش الذي كان على العرائش فإنهم لما قفلوا باتوا بقصر كتامة فضيفهم أهله بما قدروا عليه من الطعام والعلف ومن الغد دخلوا القصر فاستباحوه ونهبوا وسبوا وقتلوا وفعلوا الأفاعيل العظيمة واستمروا على ذلك

أيام وكان الحادث عظيما وعز ذلك على الناس كلهم وتأسفوا له وكان ذلك في محرم سنة إحدى وستين ومائة وألف زحف البربر إلى الودايا ومظاهرة أهل فاس لهم عليهم لما كان جمادى الثانية من سنة إحدى وستين ومائة وألف عزم السلطان المولى عبد الله على غزو البربر فخرج من فاس الجديد حتى أتى أبا فكران فعسكر به ظنا منه أن العساكر ستقدم عليه هنالك كما هي العادة فلم يأتها أحد فبعث إلى العبيد يستنفرهم لغزو البربر فقالوا حتى يأتي الودايا والقبائل ونأتي نحن أيضا ولما رأى تتألف الناس عنه عاد إلى منزله وأعرض عما كان هم به ولما سمع البربر برجوعه عنهم طمعو فيه وأجمعوا غزوهم فقال لهم محمد واعزيز الرأي أن ننزل بسلايس ونحول بينه وبين العبيد حتى لا يصل إليهم ولا يصلوا إليه فأقبلوا حتى نزلوا ببسيط سلايس ثم تقدمت جموعهم حتى شارفوا مزارع فاس الجديد فأغاروا على الودايا ونهبوا ماشيتهم وزرعهم وضيقتهم عليهم ثم وصلوا إليهم بأهل فاس فدخلوا مدينتهم وتسوقوا بها فباعوا واشتروا عشرة أيام وانقلبوا إلى أهلهم فاكهين وفي أول رجب من السنة المذكورة ورد الخبر بأن أهل الريف قبضوا على المولى المستضيء المقيم ببلادهم ونهبوا خيله وأثنائه وماله وثقفوه حتى يدفعوه لأخيه المولى عبد الله لأنه كان قد اشتغل بظلم الناس بالفحص وطنجة وقيض على القائد عبد الكريم بن علي الريفى وهو أخو أحمد بن علي المتقدم الذكر فأخذ ماله وسمل عينيه وأما أهل تطاوين فلم يبايعوه ولا عرجوا عليه وفي شعبان أحرق الودايا باب المحروق ليلا فظن لهم الحرس ودافعوه عن الباب ومن الغد ركبوا به أبوابا جددا

مراجعة أهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله وانعقاد الصلح بينهم وبين الودايا لما طال الحصار على أهل فاس وأضرت بهم معاداة جيرانهم من الودايا وسنموا الحرب راجعوا بصائرهم وجنحوا للسلم وطاعة السلطان فاتفق أن كان عندهم رجل من أشرف تافيلالت فأرسلوه إلى السلطان واسطة بينهم وبينه وبعثوا معه كتابا بالاعتذار والتوبة فقبل السلطان ذلك وسر به ووقع منه الموقع وكتب إليهم يفي ظنونهم ويسل سخائمهم ويقسم لهم أنه لم يأمر بحربهم ولا إضرارهم قط وإنما فعل ذلك الودايا من قبل أنفسهم فلما وصل إليهم كتاب السلطان بذلك طابت نفوسهم وفرحوا وعينوا جماعة من فقهاءهم وأشرفهم وأهل الخير منهم فأوفدوها على السلطان بمكناسة في شوال من السنة المذكورة ففرح بهم وأكرمهم وصرح لهم بالعفو والرضا عنهم فاغتنبوا بذلك وانقلبوا إلى أهلهم فرحين مستبشرين ثم كان الصلح بينهم وبين الودايا بضريح المولى إدريس رضي الله عنه وفتحت أبواب المدينة بعد الحصار سنتين وثلاثة أشهر وكان ذلك في ذي القعدة من سنة إحدى وستين ومائة وألف ولما حضر العيد قدموا على السلطان وهو بمكناسة بالخبر وعادوا به خوفا من البربر

خروج العبيد على السلطان المولى عبد الله وبيعتهم لولده سيدي محمد والسبب في ذلك لما راجع أهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله واصطلحوا مع الودايا وهذات الفتنة ساء البربر ذلك وكرهوه وبلغهم مع ذلك أن السلطان قد استنفر العبيد لغزوه فاحتالوا في تفريق الكلمة على السلطان بأن أخذوا في شن الغارات على العبيد بمكناسة والتضييق عليهم واختطاف أولادهم من البحائر والجنات فراسل العبيد البربر في المسألة والصلح فقالوا لهم إن السلطان أمرنا بهذا فلما سمع العبيد ذلك منهم لم يشكوا في صدقهم بسبب ما كانوا أسلفوه من التقاعد عن السلطان والتناقل عن النهوض معه لغزو البربر حتى عاد إلى منزله بعد المسكرة بأبي فكران كما مر ثم اتفق رأي العبيد على الفتك بالسلطان واغتياله ونما إليه ذلك منهم فخرج فارا من مكناسة إلى دار الدبيبيغ فاستقر بها وكان ذلك في صفر سنة اثنتين وستين ومائة وألف ولما ضاق العبيد ذرعا بفعل البربر كاتبوهم في الصلح فأجابوهم إليه على شرط أن يبايعوا سيدي محمد بن عبد الله فبايعوه بمكناسة وبعثوا إليه ببيعتهم وهو بمراكش مع جماعة من أعيانهم وخطبوا به بمكناسة وزرهورن والسلطان بدار الدبيبيغ لا يملك من أمره شيئا ولما قدم وفد العبيد على سيدي محمد بن عبد الله رد بيعتهم وعاتبهم على ما ارتكبه في حق والده وتآلفهم بشيء من المال وأعرض عن الخوض في أمر البيعة إذ كان رحمه الله بارا بوالده ساعيا في مرضاته وبعث إليه في صفر من هذه السنة بهدية قدرها على ما قيل ثلاثون ألف متقال فرجع وفد العبيد من عند سيدي محمد وقد أيسوا من إجابته إياهم ومع ذلك استمروا على الخطية بمكناسة وزرهورن

ثم إن السلطان المولى عبد الله رحمه الله لما رأى أن القلوب قد نفرت عنه وأن العبيد والبربر قد امتدت عيونهم إلى ولده سيدي محمد وتعلقت آمالهم به بتلافي أمره وأخذ في استصلاح الرعية وتآلفها فأمر في شعبان من السنة المذكورة بأن ينادى بأسواق فاس على العبيد الذين بها من لم يحضر إلى دار الدبيبيغ لوقت كذا فلا يلومن إلا نفسه فحضر العبيد الذين بفاس كلهم فأعطاهم خمسة ننانير لكل واحد وقال لهم ابعثوا إلى إخوانكم الذين بمكناسة فمن أتى منهم إلي قبض مثل ما قبضتم فكتبوا إليهم فلم يزددهم ذلك إلا نفورا وبعثوا إلى البربر الذين بسايس يقولون لهم كل من صادفتموه منا متوجها إلى فاس فاقتلوه وأعلنوا بخلع السلطان ثم استدعى السلطان بعد ذلك محمد واعزيز كبير البربر ووعده ومناه فقدم عليه في إخوانه في رمضان فأعطاهم عشرة آلاف دينار وحضر العيد فقدموا عليه أيضا فأعطاهم عشرة آلاف أخرى وأعطى الودايا عشر آلاف أيضا وأعطى أهل فاس مثل ذلك ولج العبيد في نفورهم وركبوا رأسهم في جماعهم عن السلطان والقرب منه مجيء سيدي محمد بن عبد الله من مراكش إلى مكناسة وتوسطه للعبيد في الصلح مع والده رحمهما الله ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة وألف ففي أواخر جمادى الأولى منها قدم المولى محمد بن السلطان المولى عبد الله من مراكش إلى مكناسة فوجد العبيد لا زالوا يخطبون به فعاتبهم على ذلك وقال لهم إني بريء منكم ومن فعلكم هذا وإنما أنا خديم والدي فتركوا الخطية وراجعوا بصائرهم وجددوا البيعة للسلطان وتلافوا أمرهم في طاعته وكانت هذه هي البيعة السابعة للعبيد مع السلطان المولى عبد الله لأنهم خلعوه قبلها ست مرات

حسبما مر الخبر عن ذلك مستوفى ولما تم لسيدي محمد مع العبيد ما أراد من مراجعتهم طاعة والده ارتحل من مكناسة في جيشه الذي قدم به من الحوز وكان نحو أربعة آلاف واستصحب معه جماعة من أعيان العبيد وقدم على والده بدار الدبيبيغ فخرج الودايا وأهل فاس لملاقته وفرحوا بمقدمه ولما دخل على والده أدى التحية وأهدى إليه هدية نفيسة وشفع للعبيد عنده فشفعه فيهم وقال له لا تبت هنا فقال نعم يا سيدي ولم يبت إلا برأس الماء وأصبح غاديا إلى مراكش ثم حضر العبيد فقدم على السلطان جماعة من جروران وبني مطير فأعطاهم عشرين ألف متقال وقدم عليه قواد العبيد من مكناسة فلم يعطهم شيئا وفي هذه السنة توفي المولى أحمد ابن السلطان المولى عبد الله بفاس ودفن بقبور الأشراف رحمه الله انحراف العبيد ثانية عن السلطان المولى عبد الله والتجاوزهم إلى ابنه سيدي محمد بمراكش والسبب في ذلك لما أعطى السلطان المولى عبد الله بني مطير وجروران عشرين ألف متقال وكرم العبيد قامت قيامتهم وقلبوا للسلطان ظهر المجن وانفقوا على الذهاب إلى ابنه سيدي محمد بمراكش فقدموا عليه في ذي القعدة سنة أربع وستين ومائة وألف وقالوا له إما أن تكون سلطاننا وإما أن نباع عمك المولى المنصفي وشكوا إليه إهمال والده جانبهم وقالوا له إنه أعطى البربر أعداء الدولة وحرمانا فرضخ لهم بشيء من المال طيب به نفوسهم وكتب لهم كتابا إلى والده يستعطفه لهم وانقلبوا من عنده مسرورين

وأما السلطان المولى عبد الله فإنه لما سمع بذهاب عبيد مكناسة إلى مراكش أعطى الودايا عشرة آلاف ريال وأعطى العبيد الذين معه ثلاثة آلاف ريال ولما قدم عبيد مكناسة على السلطان بكتاب ابنه سامحهم وأعطاهم عشرين ألف ريال وتم الصلح بينهم وبينه وعادوا إلى مكناسة مغتبطين وفي هذه السنة بعث سيدي محمد من مراكش بهدية إلى والده مع جماعة من أصحابه فأثنى عليه خيرا ودعا له به وفيها ورد الخبر بأن أهل تطاوين قتلوا عاملهم أبا عبد الله الحاج محمدا تميم ثم قدم جماعة منهم على السلطان معتذرين من قتله فقال لهم أنتم وليتموه عليكم وأنتم قتلتموه فاختراروا لأنفسكم فوقع اختيارهم على أبي عبد الله الحاج محمد بن عمر الوقاش فولاه عليهم وانصرفوا إلى بلدهم ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة وألف فيها قدم أهل تطاوين على السلطان المولى عبد الله لحضور عيد المولد الكريم وبيدهم هدية مقدارها ثلاثون ألف متقال وقدم بصحبتهم باشدور الإصينبول ومعه مائة ألف ريال وما يناسبها من الحرير والملف والكتان وغير ذلك بقصد فكأن أسرى جنسه فقبض السلطان المال وقال للباشدور حتى تأتوا بأسرى المسلمين وأعطى العبيد من ذلك المال ريالين لكل واحد وأعطى نساءهم مثل ذلك وكانوا ألفين ومائتين ثم دخلت سنة ست وستين ومائة وألف فيها قدم عبيد مكناسة على السلطان لحضور العيد فأعطاهم عشرة آلاف ريال وفيها نهض أهل فاس لشراء الخيل والعدة والإكثار منها وفيها انعقدت الشروط بين السلطان وبين جنس الإصطادوس وهم سبع قبائل من الفلامنك وهي اثنتان وعشرون شرطا مرجعها إلى عقد الأمان والصلح بين الإياليين وأن يجعل جنس الإصطادوس قنصلا أو أكثر بالبلد الذي يختاره من بلادنا ويكون يعطي خط يده المسمى بالبايصورط لمن

يسافر من مراكش إلى جهة بلادهم وكذلك هم أيضا إلى غير ذلك وفي هذه السنة أو ما يقرب منها أغار نصارى الجديدة على آزموور واقتحموا بضريح الشيخ أبي شعيب ليلا وقتلوا به عددا كثيرا من أهل آزموور نحو الخمسين وكانت الليلة ليلة الجمعة وعادة أهل آزموور أن يبيتوا ليلة الجمعة بضريح الشيخ المذكور فلما ذلك إلى النصارى الذين بالجديدة فجاءوا مستعدين حتى اقتحموا عليهم على حين غفلة وأطفؤوا المصابيح ووقع القتل حتى كان المسلمون يقتل بعضهم بعضا ورجع النصارى عودهم على بدئهم وذكره لويز مارية مؤرخ الجديدة فقال ما ملخصه وفي ليلة الثاني عشر من نوفمبر سنة اثنتين وخمسين وسبع عشرة مائة مسيحية خرج عشرة من برتغال الجديدة وقصدوا آزموور حتى دخلوا بضريح الشيخ أبي شعيب ليلا وقتلوا هنالك أربعين من المسلمين وقامت الهيعة بالبلد وتسابقوا إليهم على الصعب والنزول فرجع النصارى من حينهم وأدركهم المسلمون بالطريق فجرحوا بعضهم ونجوا بعد مشقة فادحة هكذا زعم لويز وأن النصارى كانوا عشرة فقط وأهل آزموور يزعمون أنهم كانوا أكثر من ذلك

بكثير والله أعلم ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة وألف فلم يكن فيها حدث في الدولة ثم دخلت سنة ثمان وستين بعدها فيها توفي محمد واعزير كبير آيت أدراسن ووازعها الذي كانت تقف عند إشارته وتجري أمورها على مقتضى إدارته

فتنة آيت أدراسن وكروان مع الودايا والسبب في ذلك لما مات محمد واعزير لم يبق بآيت أدراسن من يقوم فيها مقامه فهاجت الفتنة بينهم وبين جروان فزحفوا إلى كروان وأوقعوا بهم فانهزمت كروان أمامهم ولجؤوا إلى دار الدببغ معتصمين بها ومستحجرين بالسلطان الذي بها وضاق بهم رحب الفضاء وعمدوا المرعى فشرعوا في بيع مواشيهم فبلغت البقرة بسوق فاس خمس أواق والشاة أوقية فأمر السلطان المولى عبد الله الودايا بنصرتهم وأخى بينهم وبينهم وعقد لهم حلفا مؤكدا معهم فقاموا لحمايتهم والدفاع عنهم وأنشروا القتال فكانت الهزيمة على آيت أدراسن ففرت خيلهم ومقاتلتهم وانكسرت حلتهم وقتلوا في كل وجه ومن سلم منهم لجأ إلى بلاد شراقة فاستجار بها فكان عدد من قتل منهم بتلك الواقعة نحو الخمسمائة وهذا سبب حلف الودايا مع جروان ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة وألف فيها قدم على السلطان المولى عبد الله عبيد مكناسة ورغبوا إليه في الذهاب معهم إليها إذ هي دار ملكه وملك أبيه من قبله فقال لهم كيف أذهب معكم وفي وسطكم فلان وفلان لجماعة سماهم منهم كانوا منحرفين عنه فرجع العبيد إلى منزلهم ولما جن الليل طرقت أولئك المسلمين وأمثالهم في رحالهم فقتلواهم إرضاء للسلطان وتطبيبا لنفسه وكان منهم القائد محمد السلوي والقائد سليمان بن العسري والقائد زعبول وغيرهم ولما بلغ السلطان ذلك بعث إليهم بأربعين ألف مقاتل راتبا وصرافهم إلى مكناسة وقال لهم إذا فرغت من عملي أتيتكم وفي هذه السنة أيضا قدم عليه القائد أبو عبد الله محمد الوفاش في أهل تطاوين بهدية فيها ألف ريال وبأسارى وسلع من سلع النصرارى غنمتها قراصينهم فأكرمه السلطان وأعطاه جارينين وانقلب إلى أهله مسرورا وفيها قدم على السلطان أخوه المولى أبو الحسن المخلوع بدار الدببغ

فأعطاه مالا وأثاتا قيمته عشرة آلاف مثقال وخبره بين تافيلالت ومكناسة فأختار مكناسة فأعطاه مستفاد مكسها وجنات المخزن التي بها وأرضا للحرثة فقدم المولى أبو الحسن مكناسة واستوطن واغتبط بها ولما جاء وقت إبان الحرث وحرث وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وقيده وبعثوا به إلى السلطان مقيدا وقالوا له إن هذا قد أفسد علينا بلادنا فحل بيننا وبينه فسرجه وبعث به إلى سجلماسة وفي هذه السنة أيضا نهب البربر جميع ماشية الودايا وأفسدوا زروعهم وبحائرهم ثم دخلت سنة سبعين ومائة وألف فيها كانت بين آيت أدراسن وكروان حرب فظيعة أعان فيها الودايا كروان فهزموا آيت أدراسن ببسيط النخيلة من سايس والله أعلم وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل رحمه الله كانت وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل رحمه الله في السابع والعشرين من صفر الخير سنة إحدى وسبعين ومائة وألف ودفن بقبور الأشراف من فاس الجديد حيث دفن ولده المولى أحمد رحمهما الله قال صاحب البستان كان أمير المؤمنين المولى عبد الله فيه شدة وبطش وبسبيهما نفرت قلوب الجند والرعية عنه وبقي مهملًا بدار الدببغ سنين لا يأتيه أحد وبيعه في أعناق الناس وهم فارون منه لكثرة ما سفك من الدماء بغير سبب ظاهر واستمرت حالته على ذلك مدة اثنتي عشرة سنة من سنة تسع وخمسين إلى سنة إحدى وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفر لنا وله ولسائر المسلمين ومما مدح به هذا السلطان قول بعضهم

عليك سلام يا ضياء العوالم ويا بهجة الأشراف من آل هاشم ويا من سما غضبا على كل جاهل وأصبح مسرورا به كل عالم وأصبح ظل الله في الأرض ناظرا إلى كل مسكين بمقلة راحم ويا من كساه الله منه مهابة تذلل لها رغا أنوف الأعاجم ويا من له حزم وعزم وسطوة تفقت إرهابا قلوب الضراغ كفاك افتخارا أن عزك ظاهر وجودك منسى به جود حاتم وكون سجاياك التي فاح عرفها سجايا الملوك الشم أهل المكارم لعمرى لقد ألفت إليك زمامها ضروب العلا إذ كنت أحزم حازم فمقت على الملك المشيد ركنه تذود لديه بالقتا والصوارم وأغناك رب الناس عن جمع عسكر برأي مصيب للعساكر هازم ونفس علت فوق السماكين همة وعقل غني عن هداية عالم فجننت وسيل الغرب قد بلغ الزبي وأسواقه معمورة بالجرائم ونار الشرور في الفجاج تأججت قطاب لأهل البيغي هناك المحارم فدوخته من بعدما استنشرت به بغاث وقد طالت رعاة الهائم فأمنتنا من كل طار وطارق وحصنتنا من كل داه وداهم انعطاف إلى سبابة الخبر عن آخر أمر المولى المستضيء رحمه الله قد تقدم لنا أن السلطان المولى عبد الله خرج سنة سبع وخمسين ومائة وألف في طلب أخيه المولى المستضيء وأنه دوخ بلاد الحوز لأجله وشرده عن جبال مسفوية ولجأ إلى مراکش فطرده أهلها ولما لم يجد بالحوز مستقرا رجع أدراجه بقتري البلاد والقرى ويصل حرارة التهجير ببرك السرى فاجتاز ببلاد دكالة ثم بتامسنا ثم ببني حسن فزهوا فيه فتقدم إلى طنجة وأعمالها فاستقر بالفحص منها وطاب له المقام به وعسف أناسا في تلك المدة إلى أن عدا على القائد عبد الكريم الريفى فسجنه وسلمه وأخذ ماله كما

مر فوثب عليه أهل الريف وقبضوا عليه ونهبوا خيله ومضاربه وأثاته وسلبوا أصحابه وامتحنوه وأوثقوه حتى يبعثوا به إلى أخيه المولى عبد الله ثم بدا لهم فسرحوه ولما خلص من المحنة كتب إلى أخيه المولى عبد الله وهو بفاس يعتذر إليه عما سلف منه ويطلب منه محلا يستقر به فأجابه السلطان المولى عبد الله بأنك لم تأت إلي ذنبا ولم ترتكب في حقي عيبا إنما كنت تطلب ملك أبيك كما كنت أطلب ملك أبي والآن فإن أردت الخمول مثلي فأقم بأصيلا واسكن بها فهي أحسن من دار الدببغ التي أنا بها وأرح نفسك كما أرحتها وإن كنت إنما تطلب الملك فشانك وإياه فإني لا أنازعك فيه والسلام فلما وصل إليه كتاب السلطان انتقل إلى أصيلا واستوطنها واعتنى بها وأصلح ما يحتاج إلى الإصلاح منها وأصلح دار الخضر غيلان التي بقصبتها وسكنها سنة أربع وستين ومائة وألف واجتمع عليه بعض أهل الطمع والشره ممن كان هنالك فدلوه على وسق الزرع للكفار وتوسطوا له في الكلام مع بعض تجار النصرارى الذين بطنجة وتعاقفوا معه على وسقه فانقل ذلك التاجر إلى أصيلا ولما قدم عليه مركبه وسق الزرع وأدى صاكنته أي واجبه فظهر للمولى المستضيء الريح في ذلك فشرهت نفسه ورغب في شراء الزرع وبيعه ممن يأتيه من التجار وتسامع النصرارى بأن الزرع يوسق من مرسى أصيلا فلم تمض إلا أيام قلائل حتى قدمت مراكبهم من كل وجه وعمرت المرسى وقصد الأعراب البلد بالقمح والشعير من كل فج والمولى المستضيء يشتري منهم ويبيع للنصرارى والمراكب تسوق ما قدرت عليه فكان يحصل له الربح في ذلك مضاعفا ربح الثمن وربح الصاكنة فحسنت حاله وأثرى وكثر تابعوه وأخذ في شراء العدة من تطاوين وتسليح أصحابه وتقويمهم واتصل خبره بالسلطان المولى عبد الله فندم على إنثته له في المقام هنالك وكتب إلى القائد أبي محمد عبد الله السفياني يأمره بالزحف إلى

المولى المستضيء وحصاره بأصيلا حتى ينفيه عنها وكتب إلى ولده سيدي محمد بمرآكش يأمره أن يبعث إليه من يخرجها منها ويكون معه القائد عبد الله السفياني في خمسمائة من الخيل فيبعث إليه سيدي محمد رفيقه وابن عمه المولى إدريس بن المنتصر في مائة فارس وأمره أن يستصحب معه في طريقه عبد الله السفياني في خمسمائة من الخيل كما رسم له والده ويضيفوا على المولى المستضيء بأصيلا حتى يخرجوه منها فمضى المولى إدريس والسفياني حتى نزلا عليه وحاصراه فخرج إليهما وراود ابن أخيه المولى إدريس على الإفراج عنه وتركه وشأنه واعتذر إليه بأن السلطان أذن له في سكنى أصيلا وأعطاه مستفاد مرساها ينتفع به فلم يقبل المولى إدريس منه ولم يزل به حتى أخرجه واستولى على ما وجد بداره من مال وأثاث وسلاح وبارود وغير ذلك فساقه إلى عمه السلطان المولى عبد الله وأما المولى المستضيء فإنه لما خرج من أصيلا سار إلى فاس فنزل بصريح الشيخ أبي بكر بن العربي رضي الله عنه وقدم ولده إلى السلطان المولى عبد الله يشكو له ما فعل به ولده سيدي محمد من تجهيز العساكر إليه ونفيه عن أصيلا فكان من جواب السلطان أن قال له قل لأبيك ذاك لا سبيل لي عليه هو أعظم شوكة مني ومنك فسر إلى بلاد أبيك وجدك وأرح نفسك من التعب والموت قريب مني ومنك فلما بلغه كلام السلطان لم يسعه إلا التوجه إلى مدينة صفرو بعد أن ترك عياله بدار الشريف المولى التهامي بالجوطيين من فاس ونزل هو بدار الإمارة من صفرو ولما قدم المولى إدريس بن المنتصر على السلطان بمال المولى المستضيء وأثاته قبض السلطان البارود والسلاح ورد الباقي وأرسل إلى عامل فاس يأمره أن يكتب إلى المولى المستضيء ليعتد وكيفا يحوز إليه متاعه فكتب إليه فبعث من حاز ماله وأثاته ودفعه إلى عياله بدار المولى التهامي وكان المولى المستضيء لما اطمأنت به الدار بصفرو بعث إلى أعيان آيت يوسي على ما

قيل قدموا عليه فندبهم إلى نصرته والقيام بدعوته فتخاذلوا عنه وقالوا له سر إلى آيت أدراسن وكروان فإن أجابوك فنحن معهم ولما لم يتم له أمر بصفرو بعث من حمل إليه عياله وأثاثه من فاس وذهب إلى سجلماسة فاستوطنها وذلك سنة ست وستين ومائة وألف وأعرض عن الملك وأسبابه واستمر مقيما بها إلى أن توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفرله انعطاف إلى سياقة الخبر عن هؤلاء العبيد الذين جمعهم السلطان المولى إسماعيل من لن وفاته إلى دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد تقدم لنا أن السلطان المولى إسماعيل كان قد اعتنى بجمع العبيد وترتيبهم وتهذيبهم إلى أن بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا وبلغوا في أيامه من العز والرفاهية وتشبيد النور والقصور وارتباط الجياد وانتخاب السلاح واقتناء الأموال وحسن الشارة والزي ما لم يبلغه غيرهم وكان بالمحلة من مشرع الرملة منهم سبعون ألفا ما بين خيل ورماة وكان عدد الكيشارية منهم وهم أصحاب الباشا مساهل خمسة وعشرين ألفا كلهم رماة إلا القواد منهم فإنهم كانوا أصحاب خيل وكان بتانوت ووجه عروس منهم خمسة آلاف يدعون قواد رؤوسهم كلهم أصحاب خيل وباقي العدد وهو خمسون ألفا كانوا متفرقين في قلاع المغرب لعمارتها وحراسة الطريق وحماية الثغور وكانوا في غاية من الكفاية والسعة لأن كل قبيلة من قبائل المغرب كانت تدفع أعشارها في قلعها المبنية بها لمؤنة جيشها وعلف خيلها واستمر ذلك إلى أن توفي السلطان المولى إسماعيل رحمه الله فانقطع بوفاته عن جيش القلاع المدد الذي كان به قوامهم ولما ولي بنوه من بعده واتصلت الفتن بينهم أهملوا أمر هؤلاء العبيد ولم يلتفتوا إليهم فضغفت مادتهم وتلاشى أمرهم وانتشروا في القبائل التي كانوا

مجاورين لها للتكسب على أنفسهم وأولادهم ولما أعروا تلك القلاع التي كانوا مقيمين بها امتدت إليها أيدي القبائل من العرب والبربر بالتهب والتخريب واقتلعوا أبوابها وخشبها ومراق منها وتركوها خاوية على عروشها لم يبق بها إلا الجدران قائمة وهكذا كان حال محلة مشرع الرملة فإنه لما ارتحل العبيد عنها إلى مكناسة أيام السلطان المولى عبد الله خلفهم بنو حسن فيها بالتهب والتخريب وكل من عثروا عليه متأخرا بها نهبوه واستلبوا ما معه وأخذوا كل ما تركوه مما ثقل عليهم حتى يرجعوا إليه إذ كان العبيد يظنون أنهم سيرجعون إلى مشرع الرملة ثم تجاوزت بنو حسن ذلك إلى تخريب الدور والقصور وحمل أبوابها وخشبها إلى سلا فكانت تباع بها بالبخص فقد كان بهذه المحلة دور وقصور ليست بالحواضر وكان كل قائد منهم يفخر على نظيره ببناء أعظم من بنائه وتشبيد فوق تشبيده وتتميق أحسن من تتميقه وتزويق أبدع من تزويقه فأتى بنو حسن على ذلك كله وانتسفه وطمسوا أعلامه في أسرع من لحس الكلب أنفه ولم يتركوا إلا الجدران قائمة إلا أن خربوها بعد ذلك شيئا فشيئا بل صاروا يبعثون الأرض على الدفان التي بها فعثروا من ذلك على شيء كثير ثم إن العبيد الذين رحلوا إلى مكناسة لم يصل منهم إليها إلا دون النصف إذ تفرقوا في القبائل وقت رحيلهم فكل من كان أصله من قبيلة قصدها وكل من كان له مندر عاد إليه ثم الذين وصلوا إلى مكناسة لم يستقر بهم قرار لقلة ذات اليد وغلاء الأسعار وكان الوقت وقت مجاعات وفتن فلم يبق بها إلا القواد أهل اليسار وأهل الحرف الذي يتعيشون بحرفهم ومع ذلك فقد ضاقت بهم السكنى بها من أجل غلبة البربر الذين كانوا يغيرون عليهم ويتخطفون أولادهم من البحائر والجنات المرة بعد المرة فتسلل جلمهم للمعاش بالقرى والقبائل ونسوا أمر الجندي والتمرس بالقنا والقبائل وتفرق منهم ذلك الجمهور وبه عاقبة الأمور ولما وقعت الزلزلة بمكناسة سنة تسع وستين ومائة وألف حسبما نذكره في الأحداث هلك من العبيد فحسب نحو خمسة آلاف وهكذا لم يزلوا في

تلاش واضمحلال وتناثر واختلال إلى أن كانت دولة السلطان الأعظم المولى محمد بن عبد الله رحمه الله فأدرك منهم صباية يسيرة وعصابة حقيرة فاعتنى بهم وجمعهم من القبائل بعد الانتشار وأحيا رسمهم بعد الاندثار وأظهرهم بعد الخمول وأركبهم المسومة من الخيول ورفع لهم الأعلام والبنود وصيرهم من أعز الجنود وهو الذي جدد هذه الدولة الإسماعيلية بعد تلاشيها وأحياها بعد خمود جمرتها وتمزيق حواشيتها بحسن سيرته وبمن نقيبته رحمه الله تعالى ورضي عنه وهنا انتهى بنا الكلام على السادة الأشراف أولاد المولى إسماعيل رحم الله الجميع بمنه قال أكتسوس والحق الذي لا شك فيه أن كل من قام منهم بعد بيعة السلطان المولى عبد الله فإنما هو ثائر عليه لا إمامه له وإنما يكون خبره مسوقا من جملة أخبار دولة المولى عبد الله قتل ومثله يقال في السلطان المولى أحمد بن إسماعيل فهو الإمام المعترف والمولى عبد الملك خارج عليه وقد علم من مذهب الأشعرية أن طرو الفسق لا يعزل الإمام والله تعالى أعلم وأحكم انعطاف إلى سياقة الخبر عن خلافة سيدي محمد ابن عبد الله بمراكش من مبتدئها إلى منتهاها قد تقدم لنا أن السلطان المولى عبد الله كان قد خرج سنة سبع وخمسين وألف في طلب أخيه المولى المستضيء إلى أن شرده عن بلاد مسفيوة وأنه قدم عليه هنالك أهل مراكش ورغبوا إليه أن يدخل حضرتهم ولم يساعده الوقت فلما عزم على القبول إلى بلاد الغرب بعث ولده الأكبر المولى أحمد إلى رباط الفتح نائبا عنه بها وأضاف إليه قبائل الشاوية وبني حسن وما بينهما وبعث ولده الأصغر سيدي محمدا مع أهل مراكش نائبا عنه فيها فكان ذلك أول انغراس شجرة الملك العلوي بمراكش واتخاذها كرسيا لهم ولما وصل سيدي محمد رحمه الله إلى مراكش نزل بقصبتها وهي يومئذ خراب

ليس بها إلا آثار السعديين والموحدين قبلهم قد أحنى عليها الدهر وعشش بها الصدا واليوم فضرب بها مضاربه ثم شرع رحمه الله في حفر أساس داره بالفضاء البعيد عن القصور الخربة بها من داخل السور ولما رأى عرب الرحامنة ذلك اتفقوا على منعه لأنهم كانوا قد ألفوا العيث في أطراف مراكش فأحبوا أن لا تكون بها دولة تكبهم عن ذلك فاجتمع طائفة من غوثهم وتقدموا إلى الخليفة سيدي محمد وجبهوه بالمنع وأخرجوه عن القصبة بعد أن شرع في العمل فانتقل سيدي محمد رحمه الله عن مراكش إلى أسفي وأما المولى أحمد صاحب العدوتين فإنه قدم رباط الفتح ونزل بالقصبة منها وانضاف إليه عبيد القصبة واستمر خليفة بها إلى أن سمع أهل العدوتين ما عامل به الرحامنة خليفة مراكش فجرى هؤلاء على سننهم واتفقوا على طرد المولى أحمد بن عبد الله عن بلادهم فتقدموا إليه بالحرب وحاصروه بالقصبة ومعه عبيد فلان الذين كانوا فيها إدالة من عهد السلطان المولى إسماعيل وقطعوا الميرة والماء إلى أن مسهم الجهد وعضهم الحصار فظلبوا الأمان أن يخرجوا بأنفسهم فأمنوهم وخرج المولى أحمد فسار إلى أخيه سيدي محمد بأسفي فنزل عليه ثم كان آخر أمره أن توفي بفاس كما مر سنة أربع وستين ومائة وألف ولما خرج المولى أحمد إلى أسفي عمد أهل رباط الفتح إلى عبيد القصبة فأنزلوهم منها وفرقهم بالمدينة حتى لا تبقى لهم شوكة ولا عصيبة هذا ما كان من خلافة المولى أحمد وأما خلافة سيدي محمد فإنه لما خرج من مراكش قاصدا إلى أسفي اعترضته قبائل عبدة وأحمر وضيوفه ببلادهم وأهدوا إليه وتسابقوا على الخيل ولعبوا بالبارود سرورا بمقدمه وتنويها بشأنه وصحبوه إلى أسفي فدخلها ونزل بقصبتها ففرح أهل أسفي بمقدمه واغتنبوا به وكان مبارك الناصية أينما توجه ولما اطمانت به الدار رفع إليه أهل أسفي هداياهم وتبعهم على ذلك تجار النصارى واليهود وتباروا في ذلك وتنافسوا فيه وعمر سوقه عرب عبدة برجالاتهم وأعيانهم وبدلوا له أولادهم لخدمته وأوصلوه

بكل ما قدروا عليه وسرح للتجار وسق السلع بالمرسى فأهرعت إليه المراكب من بر النصارى بأنواع سلعتها وقصدها التجار بالبضائع من كل جهة يبيعون بها ويشترون وكثرت الخيرات ونمت البركات فاستركب واستلحق وعلا أمره وطار صيته في البلاد الحوزية ودخل الشياظمة وحاجة في طاعته وتباروا في خدمته فلم تمض عليه ستة أشهر حتى كان يركب في نحو الألف فلما سمع الرحامنة ما صار إليه أمر عبدة وأحمر اقتالهم من تشرفهم بولائه وتقدمهم في خدمته نفسوا ذلك عليهم وراجعوا بصائرهم فاجتمع طائفة من أعيانهم وقدموا عليه أسفي وقدموا بين يديهم هدية استرضوه بها ولما دخلوا عليه اعتذروا إليه مما فرط منهم ونسبوا ذلك إلى السفهاء وأنهم لم يأمرؤا بشيء من ذلك ولا رضوه وأقسموا له أن لا يبرحوا من بابة حتى يسير معهم إلى مراكش ولو أقاموا هنالك سنة وأسعفهم وسار معهم وصحبه من أعيان عبدة نحو ألف فارس وكان في موكبه من أصحابه وحاشيته نحو الخمسمائة كلهم بالخيول المسومة والشارة الحسنة والشكة التامة ولما انتهى إلى مراكش نزل بالقصبة وجاءه أهل مراكش بهداياهم وكذا قبائل الحوز ثم تلاهم قبائل الدير كله بهداياهم أيضا وجاء الرحامنة بأولادهم للخدمة السلطانية منافسة لعبدة وأحمر في ذلك وقفاهم في ذلك سائر أهل الحوز وقدم عليه عبيد دكالة الذين كانوا بسلا فاجتمعوا إليه وحسنت منزلتهم عنده ولما سمع بذلك عبيد مكناسة تسللوا إليه فرادى وأزواجا فاستعملهم في خدمة البناء فبنوا بيوتهم وأصلحوا شؤونهم واجتهد هذا الخليفة في بناء داره الكبرى بقصبة مراكش إلى أن أكملها وسكنها ثم شرع في بناء مئذنة من أسوار القصبة وركب أبوابها وأفردها عن المدينة ثم غرس بستانا عظيما متصلا بداره الكبرى على

جهة الغرب سماه النيل وأسس قصرا آخر متصلا بغربي هذا البستان سماه القصر الأخضر ويسمى أيضا المنصور وجعل لهذا البستان أربعة أبواب في زوايا الأربع كذا قيل والموجود اليوم ثلاثة أبواب فقط وجعل له بابين آخرين أحدهما للدار الكبرى شرقا والآخر للقصر الأخضر غربا وجعل في وسط هذا البستان قبة منتخبة

يتصل بها من جهاتها الأربع ممشي تمضي إلى قباب أخر منتخبة أيضا وطول هذا البستان ينيف على مائتي خطوة تقريبا وعرضه قريب من ذلك وهذا القدر هو مساحة ما بين القصرين أعني الدار الكبرى والقصر الأخضر ثم أصلح هذا الخليفة جامع المنصور الذي بالقصبة إذ كان متهدما يومئذ ثم أسس مسجدا آخر للخطبة بجوار قصره وهو المعروف اليوم بمسجد بريمة وهو مسجد حافل بديع وبنى مدرستين لطلبة العلم بالقصبة المذكورة وبنى حماما بريمة وعمر مساجد غير ذلك للأحرار والعبيد وفرق الأموال على من انحاش إليه منهم لعمارة مساكنهم وبناء دورهم بعد أن كانت من الطين والقصب وكتب الكتاب وجد الأجناد فاجتمع لديه من العبيد ألف وخمسمائة كلهم فارس شاكى السلاح ومن عبدة وأحمر مثل ذلك ومن الرحامنة وأهل الحوز ألف فارس كذلك ولما خرج العبيد بمكناسة على والده وقدموا عليه بمراكش مبايعين له عاتبهم وقدم مكناسة وأصلح بينهم وبين والده كما مر ولما كانت سنة تسع وستين ومائة وألف غزا بلاد السوس ودوخها ومهد أقطارها وجبى أموالها وقرر الحامية بتارودانت منها ثم سار إلى أكادير فقبض على الطالب صالح الثائر به والمستبد بمال مرساه فسجنه واستصفى أمواله التي استفادها من المرسى ورتب الحامية في أكادير أيضا ثم إن الطالب صالحا المذكور ذبح نفسه في السجن وأفضى إلى ما قدم بعد أن ترك في القدر السوسي صيتا وذكرنا وهو الذي يوجد طابعه على السلاح السوسي من مكحلة وسكين وخنجر إلى الآن وهو سلاح منتخب عندهم وقفل الخليفة سيدي محمد رحمه الله إلى مراكش مؤيدا منصورا فمكث فيها أياما يسيرة ثم خرج غازيا بلاد الشاوية في السنة نفسها لما ظهر منهم من الفساد وقطع الطرقات ونهب المارة قتل من أعيانهم عددا وبعث الباقي في السلاسل إلى مراكش ثم تقدم إلى أرض سلا فبات برباط الفتح وخرج إليه أهلها بالمؤمن والهدايا واستبشروا بمقدمه وأما أهل سلا فلم يخرج إليه منهم أحد بل أغلق صاحبها عبد الحق بن عبد العزيز فينش أبوابها في وجهه فأعرض عنه سيدي محمد رحمه الله وتكب المرور بسلا وعبر مشرع المجاز أسفل من العدوتين وسار إلى قصر كتامة من بلاد الهميط فقدم عليه به عبيد مكناسة مع كبيرهم الباشا الزباني وفي ذلك اليوم قتل العبيد باشاهم المذكور وقتلوا معه القائد يوسف السلاح لأنهم كانوا يمنعانهم من القدوم عليه إلى مراكش فولى عليهم القائد سعيد بن العياشي ومن الغد ارتحل إلى تطاوين فلتاقه أهلها مع قائدهم محمد بن عمر الوقاش فقبض عليه وتهده ثم أطلقه ثم مضى إلى جهة سبتة حتى أشرف عليها ثم سار منها إلى طنجة ثم كر راجعا فمر بالعرائش ثم بسلا فلم يحفل به عبد الحق أيضا فطوى له سيدي محمد رحمه الله على البت ثم سار إلى مراكش فاستقر بها مؤيدا منصورا إلى أن وافقه الخلافة الكبرى بها بعد وفاة والده رحمه الله تم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن وأوله الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم الدولة العلوية القسم الثاني الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لما توفي أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل في التاريخ المتقدم اعني السابع والعشرين من صفر الخير سنة إحدى وسبعين ومائة وألف كان الناس قد ستموا الهرج والفتن وأعيامهم التفاقم والاضطراب وملوا الحرب وملتهم إذ كانت أيامه لا سيما أخرياتهما كأيام الفترة التي ليس فيها سلطان وكانت حال الرعية معه مثل الفوضى الذين لا وازع لهم فكان ذلك من أقوى الأسباب التي صرفت وجه أهل المغرب كله إلى بيعة السلطان سيدي محمد رحمه الله وجمعت كلمتهم عليه لا سيما مع ما كان قد ظهر منه أيام خلافته من حسن السياسة وكمال النجدة وجودة الرأي وتمام المعرفة بإدارة الأمور على وجهها وإجرائها على مقتضى صوابها حتى أحبته القلوب وعلقت به الأمل وعرفت له من بين بني أبيه تلك الشئشنة وتضافت على ولائه ونصره القلوب والأسنة فلما قضى الله بوفاته والده بادر أهل فاس إلى عقد البيعة له من غير توقف ولا تريث قال ولده الفقيه أبو محمد المولى عبد السلام بن محمد بن عبد الله في كتابه المسمى بكرة السلوك بوجه مولانا الولد السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله البيعة العامة الصحيحة التامة وحضرها جماعة من أعيان

العلماء مثل قاضي الجماعة بمكناسة السيد سعيد العميري وقاضي الجماعة بفاس السيد عبد القادر أبي خريص وشيخ الجماعة بها السيد محمد بن قاسم جسوس والإمام المحقق حامل لواء المعقول والمنقول الشيخ أبي حفص عمر الفاسي وابن عمه السيد أبي مدين الفاسي وهو الذي تولى كتابة البيعة بيده وإمام جامع الشرفاء بفاس الأستاذ المولى عبد الرحمن المنجرة والشيخ العلامة السيد التاودي ابن سودة المري وإمام المسجد الكبير بفاس الجديد السيد عبد الله السوسي والإمام الحافظ السيد أبي العلاء إدريس العراقي وغيرهم ممن لا يحصى كثرة وقوله في قاضي مكناسة السيد سيدي العميري صوابه ابنه أبو القاسم العميري ووصل الخبر بموت السلطان المولى عبد الله إلى ابنه سيدي محمد وهو بمراكش فأقام مأتمه وازدحم على بيعة أهل مراكش وقبائل الحوز والدير وقدمت عليه وفود السوس وحاجة بهداياهم ثم قدم عليه العبيد والودايا وأهل فاس من العلماء والأشراف وسائر الأعيان وقبائل العرب والبربر والجبالي وأهل الثغور كل ببيعته وهديته لم يتخلف عنه أحد من أهل المغرب فجلس للوفود إلى أن فرغ من شأنهم وأجازهم وزاد العبيد بأن أعطاهم خيلا كثيرة وسلاحا كثيرا عرفوا بها محلهم من الدولة وانقلبوا مسرورين مغتبطين مجيء السلطان سيدي محمد بن عبد الله عقب البيعة من مراكش إلى فاس وما اتفق له في ذلك لما فرغ أمير المؤمنين المولى محمد رحمه الله من أمر الوفود أخذ في الاستعداد للنهوض إلى الغرب فخرج من مراكش في عسكر الحوز ووجهة حتى انتهى إلى مكناسة فدخل دار الملك بها وفرق على العبيد الخيل والسلاح والمال وكانوا على غاية من سوء الحال والاستكانة لغلبة البربر إذ كانوا يتخطفون أولادهم من البحائر والجنات ويبيعونهم في

قبائلهم كما قلنا فجزر الله صدعهم بولاية هذا السلطان الجليل ثم لما قضى إربه من مكناسة ارتحل إلى فاس ولما نزل في عساكره بالصفصافة خرج لملاقاته الودايا وأهل فاس فهش للناس وألان جانبه لهم واختلط بهم فكانوا يطوفون به ويقبلون أطرافه ولا يمنعم أحد وفرق المال والكسوة والسلاح في الودايا وعبيد السلوقية وأعطى الفقهاء والأشراف وطلبة العلم وأهل المدارس والمكتبيين والأئمة والمؤذنين والفقراء والمساكين وأزاح علل الجميع ولم يحرم أحدا ولما حضرت الجمعة جاء من المحلة في ترتيب حسن وزى عجيب فخرج أهل البلدين لرؤيته وامتألت الأرض من العساكر والنظارة ودخل فاسا الجديد فصلى به الجمعة ثم جلس لفقهاء الوقت وسأل عنهم واحدا واحدا حتى عرفهم ثم خرج إلى تربة والده فزارها وأمر بتفريق الصدقات عندها وترتيب القراء بها ثم دخل إلى دار الحرم فوقف على من بها من أخواته وعزاهن في مصاب والدهن وطيب نفوسهن ثم رجع عشية النهار إلى المحلة فبات بها ومن الغد جاء إلى دار الدبببب فدخلها ووقف على متخلف والده من مال وأثاث وسلاح وخيل إلى أن عاينه وأحصاه وأبقى ذلك بيد من كان بيده من أصحاب والده وأوصاهم بالاحتفاظ به بعد أن جعل الجميع إلى نظر الحاجب أبي محمد عبد الوهاب اليموري وعامل أصحاب أبيه بالجميل وخفض لهم الجناح وألان لهم القول ووصلهم بمال اقتسموه فيما بينهم ثم بعد ذلك حاز منهم ما كان بأيديهم من مال والده فكان أكثره ذهبا من ذلك ألف خرج وتسمية المغاربة السماسط من الجدل الفيلاي بأقالها في كل واحد ألفا دينار بالنتنية من ضربه وكانت تكون على سروج خيله في السفر فإذا نزل الجيش وضربت الأخبية رفعها الموكلون بها كل واحد اسمه وعينه إلى القبة السلطانية وعند الرحيل كذلك تدفع لهم بالإحصاء والتقييد ومن ذلك مائة رحي من الذهب الخالص كقرص الشمع في كل رحي وزن أربعة آلاف ريال وكانت تكون محمولة على البغال في أعدلها مغطاة بالقطائف المسماة عند المغاربة بالحنابل مشدودا عليها بالحبال أربع أرحاء في كل

عدلين فالمجموع خمس وعشرون بغلة تسير أمامه فإذا نزل الجيش رفعت إلى القبة السلطانية كالذي قبلها وكان السلطان المولى عبد الله رحمه الله يرى ذلك من الحزم حيث يحمل ماله معه أينما سار لا يفارقه ومما وجده سيدي محمد من مال والده أيضا ثلاثمائة ألف ريال إلا خمسة عشر ألفا ووجد نحو العشرين ألفا من الموزونات الدقيقة من ضرب سكتة هذا ما خلفه رحمه الله من المال الصلوات وكان يكون على يد القائد علال بن مسعود من وصفاته فحاز ذلك كله أمير المؤمنين سيدي محمد ونقله إلى محلته ووكل به وزعته وتقدم إلى أصحابه بأن يعاملوا أصحاب أبيه

بالتوقير والاحترام ونظمهم في سلك خدمته فمن ظهرت نجابته أذناه ومن لا عبرة به أقصاه ثم وفد عليه بفاس عامة قبائل الغرب وازدلفوا إليه بالهدايا والتحف فأكرم كلا بما يناسبه وكان في ابتداء أمره سهل الحجاب رفيقا لم يعزل أحدا من قواد القبائل وعمال الحواضر الذين كانوا في دولة أبيه في حكم الاستبداد بل أبقى ما كان ولم ينكب أحدا إلا بعد الاستيلاء والاختيار غير أن أهل تطاوين كان قاندهم أبو عبد الله محمد بن عمر الوقاش منحرفا عنه أيام خلافته بمراكش فكان إذا كتب إليه بأمر نبذ وراء ظهره وربما قال للرسول المرأة لا تتزوج برجلين أو كلاما يشبه هذا يعني أنه مجبور لطاعة السلطان المولى عبد الله فلما بويع السلطان سيدي محمد وقدم حضرة فاس انقبض عنه الوقاش المذكور وعاذ بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش بماله وولده خوفا على نفسه من السلطان لسوء ما قدم عليه أهل تطاوين طائعين متصلين من فعل عاملهم المذكور ومخبرين بشأنه فولى السلطان عليهم الفقيه أبا محمد عبد الكريم بن زاكور أحد كتابه كان بعثه من مراكش إلى العرائش واليا عليها فلما وفد عليه أهل تطاوين ولاه عليهم لكونه حضريا مثلهم وأقام السلطان سيدي محمد رحمه الله بفاس شهرين وعاد إلى مكناسة والله أعلم

إحداث المكس بفاس وبسائر أمصار المغرب وما قيل في ذلك لما بويع السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله وقدم حضرة فاس رفع إليه أهلها ما كانوا يؤدونه إلى والده المولى عبد الله مما كان موظفا على الموازين كميزان سيدي فرج وميزان قاعة السمن وميزان قاعة الزيت وغير ذلك وقدره ثلاثمائة مثقال في كل شهر يجب فيها لكل سنة ثلاثة آلاف مثقال وستمائة مثقال فلما حضر فقهاء فاس عند السلطان سيدي محمد كلمهم في شأنها حتى يكون الأمر فيها مسندا إلى فتوى الفقهاء فقالوا إذا لم يكن للسلطان مال جاز له أن يقبض من الرعية ما يستخدم به الجند فأمرهم أن يكتبوا له في ذلك فكتبوا له تأليفا اعتمده السلطان ووظف على الأبواب والغلات والسلع وكان ممن كتب له في ذلك العلامة الشافعي التاودي ابن سودة والعلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم جسوس والإمام أبو حفص عمر الفاسي والفقيه الشريف أبو زيد عبد الرحمن المنجرة والفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الصادق الطرابلسي والفقيه القاضي أبو محمد عبد القادر أبو خريص وغيرهم فاعتمد السلطان على فتواهم ووظف ما ذكرناه آنفا واعلم أن أمر المكس مما عمت به البلوى في سائر الأقطار والدول منذ الأعصار المتطاولة والسنين الأولى فلا بأس أن نذكر ما حرره العلماء في ذلك فنقول قد تكلم على ذلك الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتابه شفاء الغليل بما نصه فإن قال قائل توظيف الخراج على الأرض ووجوب الارتفاقات مصلحة ظاهرة لا تنتظم أمور الولاية في رعاية الجند والاستظهار بكثرتهم وتحصيل شوكة الإسلام إلا به ولذلك لم يلف عصر خاليا عنه والملوك على تفاوت سيرهم واختلاف أخلاقهم تطابقوا عليه ولم يستغنوا عنه فلا تنتظم مصلحة الدين والدنيا إلا بإمام مطاع ووال

متبع يجمع شتات الإيمان ويحمي حوزة الدين وبيضة الإسلام ويرعى مصلحة المسلمين وغبطة الأنام ولا يستتب ذلك إلا بنجدته وشوكته وجنوده وعدته فيهم مجاهدة الكفار وحماية الثغور وكف أيدي الطغاة المارقين ومنعهم من مد الأيدي إلى الأموال والحرم والأزواج فهم الحراس للدين عن أن تنحل دعائمه وتتخاذل قواه بتوغل الكفار في بلاد المسلمين وهم الحماة للدنيا عن أن يخلت نظامها بالتغالب والتسالب والتواثب من طعام الناس بفضل العرامة والبأس ولا يخفى عليكم كثرة مؤنهم واستياعاب حاجاتهم في نفوسهم وعيالهم والمرصد لهم خمس الخمس من الغنائم والفيء وذلك مما يضيق في غالب الأمر عن الوفاء بخراجاتهم والكفاية لحاجاتهم وليس يعم ذلك إلا بتوظيف الخراج على الأغنياء فإن كنتم تتبعون المصالح فلا بد من الترخيص في ذلك مع ظهور المصلحة قلنا الذي نراه جواز ذلك عند ظهور المصلحة وإنما النظر في بيان وجه المصلحة فنقول أولا التوظيف في عصرنا هذا مزاجه ومنهجه ظلم محض لا رخصة فيه فإن أحاد الجند لو استوفيت جرياتهم ووزعت على الكافة لكفتهم برهة من الدهر وقدرا صالحا من الوقت وقد شمخوا بتنعيمهم وترفعهم في العيش وإسرافهم في إفاضة الأموال على العبارة ووجه التجميل على سائر الأكاسرة فكيف يقدر احتياجهم إلى توظيف خراج لإمدادهم وإرفاقهم وكافة أغنياء الدهر فقراء بالإضافة إليهم فاما لو قدرنا إماما مطاعا مفتقرا إلى تكثير الجند لسد الثغور وحماية الملك بعد اتساع رقعته وانبساط خطته وقد خلا بيت المال عن المال وأرهقت حاجة الجند إلى ما يكفيهم وخلت عن مقدار كفايتهم أيديهم فلإمام أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافيا لهم في الحال إلى أن يظهر مال في بيت المال ثم إليه النظر في توظيف ذلك على وجوه الغلات والارتفاقات بحيث لا يؤدي تخصيص بعض الناس به إلى إيغار الصدور وإيحاش القلوب ويقع ذلك قليلا من كثير ولا يجحف بهم ويحصل به الغرض ثم استدلت الشيخ أبو حامد رضي الله عنه لذلك من النقل والعقل بما يطول جلبه وقال في كتابه المستصفي ما نصه إن قيل توظيف الخراج من المصالح فهل إليه من سبيل قلنا لا سبيل إليه مع كثرة الأموال في أيدي الأجداد أما إذا خلت الأيدي ولم يكن في بيت المال ما يفي بخراجات العسكر ولو تفرقوا واشتغلوا بالكسب لخيف دخول الكفار بلاد الإسلام فيجوز للإمام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند ثم إن رأى في طريق التوزيع التخصص بالأراضي فلا حرج لانا نعلم أنه إذا تعارض شران وضرران وجب دفع أشد الضررين وأعظم الشرين وما يؤديه كل واحد منهم قليل بالإضافة إلى ما يخاطر به من نفسه وماله ولو خلت خطة الإسلام عن ذي شوكة يحفظ نظام الأمور ويقطع مادة الشرور لفسدت الأرض ومن عليها وقوله على الأغنياء يريد من له قدرة وطاقة على دفع شيء لا يجحف به ووقع في جواب للقاضي أبي عمر بن منظور رحمه الله إن لضرب الخراج وتوظيفه على المرافق شروطا الأولى منها أن يعجز بيت المال وتتعين حاجة الجند فلو كان في بيت المال ما يقوم به لم يجز أن يفرض على الرعية شيء قال يدخل الجنة صاحب مكس وهو إغرام المال ظلما ثانيهما إن الإمام يتصرف فيه بالعدل فلا يجوز له أن يستأثر به دون المسلمين ولا أن ينفقه في سرف ولا أن يعطي من لا يستحق ولا أن يعطي أحدا أكثر مما يستحق ثالثا أن يصرفه في مصروفه بحسب المصلحة والحاجة لا بحسب الشهوة والغرض وهذا يرجع إلى الثاني رابعها أن يكون الغرم على من يكون قادرا عليه من غير ضرر ولا إحجاف ومن لا شيء له أو له شيء قليل فلا يغرم شيئا خامسها أن الإمام يتفقد هذا في كل وقت وربما جاء وقت لا يفقر فيه إلى زيادة على ما في بيت المال وكذلك إذا تعينت المصلحة في

المعونة بالأبدان ولم يكف المال فإن الناس يجبرون على التعاون بأبدانهم على الأمر الداعي للمعونة بشرط القدرة وتعين المصلحة والافتقار إلى ذلك انتهى المقصود منه والله تعالى أعلم مقتل أبي الصخور الخمسي وما كان من أمره لما رجع السلطان محمد بن عبد الله من فاس إلى مكناسة أقام بها يسيرا ثم خرج إلى جبال غمارة بسبب ما بلغه عن المرابط أبي عبد الله محمد العربي الخمسي المعروف بأبي الصخور وكان له صيت وشهرة بقبائل الجبل وكان يظهر التنسك والعبادة ويزعم أنه يستخدم الجن فكان للعلامة فيها اعتقاد كبير ثم صار يقول للناس هذا السلطان لا تطول مدته فأخذ السلطان وقتله وبعث برأسه إلى فاس وولى على قبائل غمارة والأخماس وتلك النواحي الباشا العياشي وأنزله بمدينة شفشاون ونقل إلى مكناسة فدخلها مريضا فاتح محرم سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف فقال المرجفون ما أصابه المرض إلا من قتله لأبي الصخور وقالوا إنه قد صدق في قوله لا تطول مدته فعاقى الله السلطان وأكذب ظن الشيطان وأقام السلطان بمكناسة إلى أن انسلخ المحرم ودخل صفر فعاد إلى مراكش بعد أن أمر بنقل عبيد السلوقية إلى مكناسة وضمهم إلى إخوانهم واستصحب معه إلى مراكش من رجالاتهم ألفا فلما دخلها أعطاهم الخيل والسلاح والكسي وعادوا إلى مكناسة ثم قدم عليه منهم ألف آخر فأركبهم وكساهم واستمر حاله معهم على هذا إلى أن استوفوا خيلهم وسلاحهم وكساهم ولم يسألهم عما كان في أيديهم أيام الفترة

خروج السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الثغور وتفقده أحوالها ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف فيها خرج أمير المؤمنين المولى محمد بن عبد الله من مراكش فقدم مكناسة وفرق الراتب على العبيد بها وبعث إلى الودايا راتبهم وأمرهم بالنهوض معه للتطواف على الثغور البحرية من بلاد المغرب فخرج من مكناسة حتى أتى مدينة تطاوين فنزل بها وأمر ببناء برج مرتيل الذي بها وفرق المال على العبيد المقيمين به منذ أيام السلطان إسماعيل وهم بقية عبيد سبتة أعني الذين كانوا يرابطون عليها فإنه لما انحلت نظام الملك بموت المولى إسماعيل وتفرقت العبيد المرابطون على سبتة فحلقت كل طائفة منهم بقبيلتها التي جلبت منها بقي هذا الألف الذي لا قبيلة له هنالك فنقلهم أبو حفص الوقاش إلى مرتيل وأحسن إليهم وصار يدفع بهم في نحر من يريده بمكورة من القبائل المجاورة له ثم رحل السلطان من تطاوين إلى طنجة وجعل طريقه على سبتة فمر بها ووقف

عليها ونظر إلى حصانها ومناعتها وتحقق أن لا مطمع فيها إلا بالجد وأمر العسكر الذين حوله بإخراج دفعة من البارود وتسميها العامة حاضرونا ففعلوا وأجابهم النصراري بمثل ذلك بالمدافع والكور حتى تزلزلت الجبال فعجب السلطان من ذلك وما كان قصده بهذه السفرة إلا الوقوف على سبته واختبار حالها لأنه لم ينظر إليها بعين التأمل والاختبار في المرة الأولى فلما تبين له حالها أرجأ أمرها إلى يوم ما أوصى أهل أنجرة بتعيين حصته من الرماة لحراسة نواحيها والوقوف على حدودها وبذل لهم مالا يستعينون به على ذلك ثم سار إلى طنجة فنزل قريبا منها وخرج إليه أعيانها ورؤسائها من أهل الريف يقضهم وقضيتهم بشاهم عبد الصادق بن أحمد بن علي الريفى كان قد قدم عليه بمراكش أيام خلافته

بها فلما مثلوا بين يدي السلطان في هذه المرة أكرمهم وفرق المال والكسي فيهم وأمر الباشا عبد الصادق أن يبعث أخاه عبد الهادي للوقوف على إنشاء الغلائط بتطاوين ثم سار السلطان رحمه الله إلى العرائش فألفها خالية ليس بها إلا نحو المائتين من أهل الريف تحت كنف أهل الغرب فولى عليها عبد السلام بن علي وعدي ثم أنزل بها مائة من عبيد مكناسة ثم سار إلى سلا فعبير الوادي ونزل برباط الفتح وأقام به أياما وأمر قائده أبا الحسن عليا مارسيل أن يبني صقالة أي برجاً كبيراً على البحر وأمر قائد سلا عبد الحق فينش أن يبني مثلها بسلا على البحر مقابلتها ثم أمر بإنشاء سفينتين إحداهما لأهل سلا والأخرى لأهل رباط الفتح وكانت عندهم سفينة واحدة مشتركة بينهم أنشؤوها أيام الفترة وفيها كانوا قد خرجوا إلى حصن أكادير ومنه بعثوا فدهم إلى سيدي محمد بن عبد الله وهو يومئذ خليفة بمراكش فأكرم الرسل وبعث معهم مالا كثيراً إلى المجاهدين بالعنوتين وفي مدة مقامه برباط الفتح هذه المرة صرف جيش العبيد والودايا إلى بلادهم وسار هو إلى مراكش ولما احتل بها كتب إلى تجار النصراري بأسفي يأمرهم أن يشتروا له إقامة المراكب القرصانية من صواري ونطاقات وقمن ومخاطيف وجبال وقلوع وبتاتي وغير ذلك فتنافسوا في شراء ذلك وازدلفوا إلى السلطان بجلبه وانتخابه ثم استقدم جراطين الصحراء الذين بالرتب وتفايلات وهم الجبابرة والمعركة وأولاد أبي أحمد لما بلغه عنهم من أنهم يعينون عمه المولى الحسن على محاربة الأشراف الذين هنالك فنقلهم إلى مكناسة وأعطاهم الكسوة والسلاح وكتبهم في ديوان الجيش وفي هذه السنة وصل الخبر بموت المولى المستضيء بن إسماعيل بتفليلت كما مر

إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالودايا والسبب في ذلك كان هؤلاء الودايا أحد أركان العسكر الإسماعيلي حسبما تقدم وكان المولى إسماعيل رحمه الله قد اعتنى بشأنهم وأخذ بضيعهم وجمعهم بعد الفرقة وأغناهم بعد العيلة وأسكنهم فاسا الجديدة وأعماله فاستوطنوه وألفوه وصاروا هم أهل بين سائر الجند فكان لهم في الدولة الغناء الكبير واتخذوا الدور والقصور وتوالت عليهم بالعز وإبابة الضيم السنون والشهور ولما توفي رحمه الله كانوا بفاس الجديد على غاية من تمام الشوكة وكمال العصبية وقد ملكوا أمر أنفسهم على الدولة وغلظت قناتهم على من يريد غزها من أهلها فكانت أحكام الملوك من أولاد المولى إسماعيل لا تمضي عليهم سيما مع ما حازوه من شرف الخوذة للسلطان المولى عبد الله الذي هو أكبرهم قدراً وأعظمهم صيتاً وكان شأنه معهم أن يستكثر بهم تارة وعليهم أخرى والفتن فيما بين ذلك قائمة حسبما مر شرح ذلك مستوفى فلما كانت أواخر دولة السلطان المولى عبد الله وهلك محمد واعزيز كبير البربر افتقرت آيت أدراسن وجروان ووقعت الحرب بينهم مرتين أعان فيها الودايا جروان والحواء على آيت أدراسن بالنهب والقتل حتى أجلوهم من تلك البلاد ثم لما بويع السلطان سيدي محمد انحاز إليه آيت أدراسن إذ هم شيعه أبيه أيام محمد واعزيز فولى عليهم ولد محمد واعزيز وأنزلهم بأحواز مكناسة إذ كان عالماً بما ناله من جروان والودايا وتظاهرهم عليهم واشتغالهم مع ذلك بإفساد السابلة وقبض الخفارات عليها وكان رئيسهم لذلك العهد رجلاً يقال له جبور لصاً مبيراً فأخى السلطان سيدي محمد بين آيت أدراسن وآيت يمور وحالف بينهم وأوصى عامله على مكناسة

بهم وتقدم إلى جروان بالكف عن إزابتهم فلم يرجعوا ولم يقلعوا بل تماردا على حرب آيت أدراسن وظاهرهم الودايا على عانتهم وأرادوا أن يسيروا فيهم بالسيرة التي كانوا عليها أيام السلطان المولى عبد الله فلما ظن منهم أن ذلك يتم لهم مع ابنه سيدي محمد وهيئات إذا رأيت نوب الليث بارزة فلا تظن أن الليث ميتهم ولما اتصل الخبر بالسلطان أمر قائد العبيد وقائد آيت يمور أن يشدوا عضد آيت أدراسن وينهضوا لنصرتهم على أعدائهم جروان حيث انتصرت لهم الودايا فهاجت الحرب وكشرت عن أنبيائها وشمرت عن ساقها فبرز الودايا بجموعهم ونزلوا بوادي فاس في أول يوم من رمضان وأقاموا هنالك مفطرين منتهكين لحرمة الصيام بسفرهم الحرام ثم اجتمعوا هم وجروان وساروا إلى جهة مكناسة وأقبل آيت أدراسن نحوهم بمن لافهم من العبيد وآيت يمور فكان اللقاء على وادي ويسلن فوقعت الحرب فانتصر آيت أدراسن عليهم وهزمهم وانتهبوا محلة جروان ومحلة الودايا وقتلوا منهم نحو الخمسمائة وحزوا رؤوس أعيانهم فعلقوها على الباب الجديد من مكناسة ورجع الودايا إلى فاس مفلولين لم يتقدم لهم مثلها ولما اتصل خبر ذلك بالسلطان اغتاض على الودايا بسبب أفتياتهم عليه وانتهاكهم حرمة جواره فعزم على المكر بهم وأسرها في نفسه ولم يبدها لهم واستمر مقيماً بمراكش إلى أن دخلت سنة أربع وسبعين ومائة وألف فخرج من مراكش قاصداً مكناسة ومضمرًا الإيقاع بالودايا وأحس الودايا بذلك منه فلما وصل إلى مكناسة بعثوا إليه عجايزهم متشغعات ومعذرات عما فرط منهم فاجتمعن به أثناء الطريق وتوسلن إليه بالرحم والقرابة فرق لهن وأعطاهن كسي ودراهم وعن صحبته إلى فاس فنزل بالصفصافة وخيمت بها عساكره وخرج أهل فاس والودايا لملاقته فألان لهم القول وأظهر البشر ومن الغد أمر بعمارة المشور بدار الدبيغ وقدم

أهل فاس طعام الضيافة على العادة فأمر السلطان بإدخاله إلى دار الدبيغ ولما صلى العصر خرج على الناس بالمشور فوقف لهم وقدم الوفود هداياهم على العادة ولما فرغ من ذلك كله أمر العبيد والودايا بالدخول إلى دار الدبيغ لأكل طعام الضيافة وكان قد أعد بها ألفاً من المسخرين للقبض على أعيان الودايا أفردهم في ناحية فلما دخلوا وغلقت الأبواب وثبوا عليهم وجردوهم من السلاح وكثفهم وألقوهم على الأرض ولما طعم الجيش وسائر الناس أمر السلطان الخيل بالركوب وشن الغارات على حلة الودايا والمغافرة بلمطة فركبت الخيول وتقدمت إليهم وسار السلطان في موكبه خلفهم ولما شرق شارق فاسا الجديد رماه الودايا من أبراجه بالكور فلم تغن شيئاً وتقدم السلطان حتى وقف بالموضع المعروف بدار الرخاء فلم يكن إلا هنيئة حتى أقبلت العساكر بالسبي والأثاث والخيام وانتسفا الحلة نسفا ولما جن الليل خرج من كان بقي من أعيانهم بفاس الجديد وتفرقوا شذر مذر فذهب بعضهم إلى ضريح الشيخ أبي العباس أحمد الشاوي وبعضهم إلى زاوية الشيخ اليوسي وبعضهم إلى ضريح سيدي أبي سرغين بصفرو وغير ذلك وبقي الضعفاء على الأسوار يطلبون الأمان فعطفته عليهم الرحم ورق لهم فأمّنهم وأخرجهم إلى فاس القديم وأدال منهم بفاس الجديد بألف كانون من العبيد فنزلوه وعمره واقفر من الودايا بعد أن كانوا أهله مدة طويلة كما علمت ثم أمر السلطان رحمه الله بأربعة من مساجين الودايا فسرحوا أحدهم القائد قدور بن الخضر الشهير الذكر وأمرهم أن يقفوا على إخوانهم المسجونين حتى يعينوا أهل الفساد من غيرهم ويأتوه بزمامهم ويتحروا الصدق في ذلك فعينوا له خمسين من عتاتهم أهل زيغ وفساد فأمر بأن تضرب على أرجلهم الكبول ويقرن كل اثنين منهم في سلسلة ثم بعث منهم إلى مراكش اثنان على الجمل فسجنوا بها وطهرت الأرض من شيطنتهم ثم

أمر السلطان رحمه الله القائد قدور بن الخضر أن يسرح الباقين من إخوانه ويضم إليهم من الودايا والمغافرة تكملة ألف ويشرد من عداهم إلى قبائلهم وحللهم ثم عين السلطان رحمه الله لأولئك الألف إصطبل مكناسة ينزلون به ويكون قصبه لهم فحملوا أولادهم إلى مكناسة واستوطنوها مع العبيد غير أنهم قد انفردوا بالإصطبل كما قلنا وولى عليهم السلطان القائد قدور بن الخضر وكان أصغرهم سناً وأكملهم عقلاً وأصدقهم خدمة وأمره بتأديبهم وإجراء الأحكام عليهم حتى رئموا ملكة الدولة وسكنوا تحت تصرفها وخضعوا لأمرها ونهيبها وأخذ السلطان في دفع الخيل والسلاح والكسي لهم شيئاً فشيئاً إلى أن أركبهم كلهم فصلحت أحوالهم ونمت فروعهم واستمروا بمكناسة إلى أن ردهم إلى فاس الجديد المولى يزيد بن محمد لأول ولابته كما سيأتي إن شاء الله تعالى وفي هذه السنة أعني سنة أربع وسبعين ومائة وألف باع السلطان أمكاس فاس لعاملها الحاج محمد الصفار باتني عشر ألف مقال في السنة ثم ارتحل إلى مراكش فاحتل بها إلى أن كان من أمره ما نذكره مجيء السلطان سيدي محمد بن عبد الله من مراكش إلى الغرب مرة أخرى وما اتفق له في ذلك ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة وألف فيها خرج السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من مراكش يريد بلاد الغرب وعرج في طريقه على جملة من القبائل الذين كانوا مشتغلين بالفساد فأوقع بهم وشردهم من خلفهم وذلك

أنه وصل إلى بلاد الشاوية فنهبهم وانتسف أموالهم وقتلهم وقبض على عدد كثير منهم بعثهم في السلاسل إلى مراكش ثم عدل إلى جهة تادلا فمر على برابرة شقيرين من آيت ومالو فنهب أموالهم وقتل من ظفر به منهم ثم سار إلى بلاد الغرب عازما على الإيقاع بحرب الحيانية لإفسادهم وتمردهم فابتدأ أولا بنهب آيت سكاتو وثنى ببني سادان وثالث بالحيانية ففروا إلى جبال غيائة وتحصنوا بها فترك الجيوش ببلادهم تأكل زروعهم وتقدم هو إلى تازا ثم اقتحم على الحيانية جبال غيائة فأبادهم قتلا وتشريدا والعساكر ببلادهم تنتسف الزروع وتحرق العنائر وتستخرج الدفان إلى أن تركتها أنقى من الراحة وعاد إلى مكناسة وفي مقامه بها قبض على الشيخ محمود الشنكيطي المتصوف التابع بفاس كان قد قدم من بلاده ونزل بمستودع القرويين وأظهر التنسك فصار يجتمع عليه الأعيان والتجار من أهل فاس ويعتقدونه قال في البستان فلم يقتصر على ما هو شأنه من إقبال الخلق عليه بل صار يتكلم في الدولة ويكتب البربر ويزعم أن سلطان الوقت جائر ولم يوافق عليه من الأولياء أحد فمما ذلك إلى السلطان فأمر بالقبض عليه وبعث به إلى مراكش فسجن بها ثم امتحن إلى أن مات ولم تيكه أرض ولا سماء وقال أكنسوس إنه كان يقول إن السلطان يموت إلى شهر ففشا ذلك في العامة وتساوقوا إلى شراء الفحم والحطب وادخار الأقوات وحصلت فتنة بفاس فأنتهى ذلك إلى السلطان فكتب إلى عامل فاس بالقبض عليه وتوجيهه إلى مراكش ثم أمر السلطان أيضا وهو بمكناسة بالقبض على الأمين الحاج الخياط عدل وإخوته فسجنوا في مال كان عليهم بعضه له وبعضه لوالده من قبله وفي تمام السنة أمر بتسريحهم وبعث الحاج الخياط منهم السيد الطاهر بناتي الرباطي سفيرين عنه إلى السلطان مصطفى بن أحمد العثماني صاحب القسطنطينية العظمى وفيها أيضا استخلف السلطان رحمه الله ابن عمه المولى إدريس بن المنتصر بفاس وولاه على قبائل الجبال كلها وفيها أمر بتحبس الكتب الإسماعيلية التي كانت بدوية الكتب بمكناسة وعددها اثنا عشر ألف مجلد وزيادة فحبسها على مساجد المغرب كله ولا زالت خزائنها مشحونة بها إلى الآن مكتوبا عليها رسم التحبب باسم السلطان

المذكور ثم ارتحل إلى مراكش وفيها أيضا تولى الحاج محمد الصفار مكس فاس باثنين وعشرين ألف مثقال في السنة إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بقبيلة مسفيوة والسبب في ذلك كان هؤلاء مسفيوة شيعة للمولى المستضيء حسبا تقدم ولما زحف السلطان المولى عبد الله إلى بلاد الحوز وشرد أخاه المولى المستضيء عن مسفيوة وأوقع بهم الوقعة التي تقدم الخبر عنها أذعنوا إلى طاعته في الظاهر وبقيت الحسانف كامنة في صدورهم فكانت تلك الطاعة التي أظهرها له هدنة على دخن واستمر حالهم على ذلك إلى أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله فشرى فسادهم وقال في البستان كان هؤلاء مسفيوة من الطغيان والاستخفاف من الدولة على غاية لم تكن لأحد من يوم استخلف سيدي محمد بمراكش وهو يعالج داهم فما نفع فيه تزيق إلى أن قدم مراكش قدمته هذه فوفد عليه بها مائة وخمسون من أعيانهم فانتهم فيهم الفرصة وقتلهم كلهم سوى القاضي ثم سرب الخيول للغارة على حلثهم فانتسفوها وأبلغوا في النكاية فانخضت بذلك شوكتهم واستقامت طاعتهم وصلحت أحوالهم فيما بعد ذلك ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة وألف فيها جاء السلطان من مراكش إلى الغرب ونهب في طريقه آيت سبير من زمور الثلج وبددهم ولما وصل إلى مكناسة أمر القبائل بدفع الزكوات والأعشار فكانت الحيانية وشرافة وسائر الحوزية يدفعون واجبهم بهري فاس وكان أهل الغرب وبنو حسن والبربر يدفعون بهري مكناسة ثم نهض السلطان إلى غزو مرموشة فهزمهم ونهب أموالهم واستولى على معقلهم وقتل منهم عددا وافرا وذلك بعد أن انتصروا على عسكر السلطان أولا وظهروا عليه فتقدم إليهم رحمه الله بنفسه وعبده

المسخرين فأوقع بهم وشرهم ثم صار إلى تازا فأصلح شؤونها وثقف أطرافها وعاد سالما مظفرا وفي هذه السنة توفي قائد القواد الذي كان من السلطان بمنزلة الوزير أبو عبد الله محمد بن حدو الذكالي الذي كان ولاءه على دكالة لأول ولايته ثم أضاف إليه تامسنا وتادلا مكان البيوزراري الجابري عمود الدولة المحمدية رحمه الله ولما توفي ولي السلطان مكانه ابن عمه القائد أبا عبد الله محمد بن أحمد ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة وألف فيها أمر السلطان ببناء قبة الشيخ أبي الحسن علي بن حزمه بفاس وفيها ثار رجل اسمه أحمد الخضر بصحراء فجيح فكان يزعم أنه المولى عبد الملك ثم صار يزعم أنه داعيته وقتل الناس بتلك الجهات وجرت على يديه حروب وخطوب فبعث السلطان إلى عرب تلك البلاد فقتلوه وبعثوا برأسه إليه وهو بمكناسة وكان السلطان يومئذ مريضا فعافاه الله وسافر إلى مراكش ولما اجتاز برباط الفتح بعث منه الرئيس الحاج التهامي مدور الرباطي بأشورا إلى بلاد السويد ليأتيه بإقامة المراكب والبارود وبعث أيضا الرئيس أبا عبد الله محمد العربي المستيري الرباطي بأشورا إلى بلاد النجيز ليصلح بها قرصانه ويجعل له إقامة جديدة فقدمها وجدد قرصانه واستصحب معه إقامة مركبين ومدافع نحاسية وغير ذلك وعاد لتمام السنة ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة وألف فيها كانت وليمة عرس ولد السلطان المولى علي بن محمد بمراكش على ابنة عمه المولى أحمد بن عبد الله وعرس ابن أخيه سيدي محمد بن أحمد على ابنة السلطان وكانت وليمة عظيمة حضرها عامة أهل المغرب بهداياهم وأبهاهم وشارتهم واستقامت الأمور للسلطان رحمه الله

بناء مدينة الصويرة حرسها الله لما فرغ السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من وليمة عرس أولاده سار إلى ناحية الصويرة بقصد بنائها وعمارتها فوقف على اختطاطها وتأسيسها وترك البنائين والعملة بها وأمر عماله وقواده ببناء دورهم بها وعاد إلى مراكش وقال الكاتب أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال في رحلته ما ملخصه إن السبب في بناء مدينة الصويرة هو أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان له ولوع بالجهاد في البحر واتخذ لذلك قراصين حربية تكون في غالب الأوقات بمرسى العدوتين ومرسى العرائش وكان سفرها في البحر مقصورا على شهرين في السنة زمان الشتاء لأن المراسي متصلة بالأودية وفي غير إبان الشتاء يقل الماء ويعلو الرمل بأفواه المراسي فيمنع من اجتياز القراصين بها ويتعذر السفر ففكر السلطان رحمه الله في حيلة يتأتى بها سفر قراصينه في سائر أيام السنة فينبى ثغر الصويرة واعتنى به لسلامة مرساه من الأفة المذكورة وذكر غير الغزال أن الباعث للسلطان المذكور على بناء الصويرة هو أن حصن أكادير كانت تتداوله الثوار من أهل السوس مثل الطالب صالح وغيره ويسرحون وسق السلع منه اقتياتا ويستبدون بأرباحها فرأى أن حسم تلك المادة لا يتأتى إلا بإحداث مرسى آخر أقرب إلى تلك الناحية وأدخل في وسط المملكة من أكادير حتى تتعطل على أولئك الثوار منفعتهم فلا يتشوف أحد إليه فاخطت مدينة الصويرة وأتقن وضعها وتأنق في بنائها وشحن الجزيرتين الدائرتين بمرساها كبرى وصغرى بالمدافع وشيد برجاً على صخرة داخل البحر وشحنه كذلك فصار القاصد للمرسى لا يدخلها إلا تحت رمي المدافع من البرج والجزيرة معا ولما تم أمرها جلب إليها تجار النصارى بقصد التجارة بها وأسقط عنهم

وظيف الأعشار ترغيبا لهم فيها فأهرعوا إليها من كل أوب وانحدروا إلى مرساها من كل صوب فعمرت في الحين واستمر الترخيص لهم فيها مدة من السنين ثم رد أمرها إلى ما عليه حال المراسي من أداء الصاكة وغيرها من اللوازم وهي الآن بهذا الحال والله تعالى أعلم هجوم الفرنسيين على ثغر سلا والعرائش ورجوعه عنهما بالخيبة قد قدمنا ما كان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من اللوع بأمر البحر والجهاد فيه فلم تزل قراصينه تتردد في أكناف البحر وتجوس خلال ثغور الكفر فتقتل وتأسر وتغنم وتسبى إلى أن ضاق بهم رحب الفضاء وكاد يستأصل جمهورهم حكم القضاء فمنهم من فرغ إلى طلب المهادة وحسن الجوار ومنهم من كذبته نفسه فتطاول إلى الأخذ بالثأر ومن هذا القسم الثاني جنس الفرنسيين فإن قراصين السلطان رحمه الله كانت قد غنمت منه مركبا ساقته إلى مرسى العرائش وغنمت منه غير ذلك في مرات متعددة فدعا ذلك إلى أن هجم على طائل فاجيب منها بضعف ذلك فلم يلبث إلا وأجفانه هاربة تقفو أواخرها الأوائل وفر هاربا مهزوما ساقط الألوية مذموماه وأرأيت بخط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد بن المكي السدراتي السلاوي رحمه الله ما صورته هجم الفرنسيين على مدينة سلا يوم الجمعة الحادي عشر من ذي الحجة متم سنة ثمان وسبعين ومائة وألف فاقاموا يوم الجمعة ويوم السبت بظاهر البحر لم يفعلوا شيئا وفي يوم الأحد تقدمت سفنهم فرموا من البنب مائة وسبعين وهدمت الدور وفر النساء والصبيان خارج البلد ولم يبق بها إلا القليل وكان يوما مشهودا وفي

صبيحة يوم الاثنين أرسل الله عليهم الريح ففرقت مراكبهم ونفس الله عن المسلمين وفي يوم السبت الآتي بعده رجعوا فرموا مائة وعشرين وفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من الشهر المذكور رموا مائة ونيفا وثلاثين ولم يستشهد من المسلمين في تلك المدة سوى رجل واحد اه قال الغزال ثم

إن الفرنسيين عالج ما انصدع من أجدانه في حرب سار ثم هجم على ثغر العرائش قال السدراتي فرمى عليها فيما ذكروا أربعة آلاف نفص ونيفا وثلاثين نفصا وخربوها وهدموا دورها ومسجدها قال وذلك مفتح سنة تسع وسبعين ومائة وألف وفي يوم الخميس الثاني من المحرم وقيل التاسع منه ليلة عاشوراء اقتحموا المرسى في خمسة عشر قارباً مشحونة من العسكر بنحو الألف وفيها من الشلطاظ والفسيان عدد كثير وتصاعدوا مع مجرى الوادي إلى مراكب السلطان التي كانت هنالك فحرقوا سفينة منها وهي التي غنمها المسلمون منهم وعمدوا إلى أخرى فكسروها بالمعاول والفؤوس ثم تكاثروا عليهم المسلمون وقتلهم بنو جرفط وأهل الساحل حتى ردوهم على أعقابهم ولما انقلبوا راجعين إلى مراكزهم وجدوا عرب الغرب مع قائدهم حبيب المالكي قد أخذوا بمخنقهم على فم المرسى وانبتوا لهم على الحجر الذي هنالك وبعث الله ريحا من جهة البحر عظمت بها أمواجه ومنعتهم من الخروج فكانوا إذا توسطوا الوادي ليخرجوا ردتهم الريح وإذا انحازوا إلى أحد الشطين رماهم المسلمون بالرصاص حتى استأصلوا جمهورهم ثم سبحوا إليهم حتى خالطوهم في قواربهم فاستاقوا أحد عشر قارباً ونجا أربعة وتقسيمهم المسلمون بين قتل وأسير وتفرقوا في الأعراب والبادية أيدي سبا ثم أمر السلطان بجمعهم وأعطى كل من أتى بأسير منهم مالا وكسوة فاجتمع منهم نحو الخمسين فبقوا في الأسر إلى أن توسط في فدائهم طاغية الإصينبول ففدوا بمال له بال

وأما رؤوس القتلى فقد أمر السلطان رحمه الله بتوجيه نحو الثمانين منها إلى سلا فعلقت بالصقالة القريبة من ضريح الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه وبعد هذا وقع الصلح مع جنس الفرنسيين وانعدت الشروط معه كما سيأتي ثم إن السلطان رحمه الله قدم العرائش عقب الواقعة وأقام بها شهرا واعتنى بشأنها فبنى بها الصقائل والأبراج حتى صارت من أعمر الثغور ويبد الله تصريف الأمور مراسلة السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لطاغية الإصينبول وما اتفق في ذلك كان السبب الذي أوجب مراسلة السلطان سيدي محمد بن عبد الله لطاغية الإصينبول أن جماعة من أسرى المسلمين الذين كانوا بأصبانيا كتبوا مكاتيب عديدة إلى السلطان رحمه الله يعلمونه بما هم فيه من ضيق الأسر وثقل الإصر وما نالهم من الكفار من الامتهان والصغار وكان فيهم من ينتمي للعلم ومن يقرأ القرآن وغير ذلك فلما وصلت كتبهم إلى السلطان وقرنت عليه تأثر لذلك ووقعت منه موقعا كبيرا وأمر في الحسن بالكتب إلى طاغية الإصينبول يقول له إنه لا يسعنا في ديننا إهمال الأسارى وتركهم في قيد الأسر ولا حجة في التغافل عنهم لمن ولاه الله الأمر وفيما نظن أنه لا يسعكم ذلك في دينكم أيضا وأوصاه أن يعتني بخواص المسلمين الذين هنالك من أهل العلم وحملة القرآن وأن لا يسلك بهم مسلك غيرهم من عامة الأسارى قال مثل ما فعل نحن بأساركم من الفرائلية فإننا لا نكلفهم بخدمة ولا نخفر لهم ذمة فلما وصل هذا الكتاب إلى الطاغية أعظمه وكاد يطير سرورا به وللحين أمر بإطلاق الأسارى الذين بحضرته وبعث بهم إلى السلطان ووعده أن يلحق بهم غيرهم من الذين بقوا بسائر إيالاته فوقع ذلك من السلطان رحمه

الله الموقع وعظم في عينيه وكان كريم الطبع يحب الفخر ويعنى به فأطلق طاغية الإصينبول جميع من كان تحت يده من أسارى جنسه وعززهم بأسرى غير جنسه أيضا لتكون للطاغية بذلك مزية على سائر الأجناس وبعث معهم بهدية فيها عدد من الأسود على يد قائد سبته فاتصل ذلك كله بالطاغية فطارت نفسه شعاعا من شدة الفرح وشمر عن ساعد الجد وهيا هدية استوفى فيها غاية مقدوره وبعثها مع كبراء القسيسين والفسيان وأصحابهم كتابا أفصح به عما بين جنبيه للسلطان من المحبة والاعتراف بالفضل والمنة وطلب منه مع ذلك أن يتفضل عليه ببعث أحد أرباب دولته وكبرائها لتتشرف أرضه بمقدمه وتشتهر هذه المواصله والملاحظة عند أجناس الفرنج فيعظم بذلك قدره ويكمل فخره فأسغفه السلطان رحمه الله بذلك وبعث إليه خاليه الرئيسين أبا يعلى عمارة بن موسى وأبا عبد الله محمد بن ناصر وكلاهما من الودايا ومعهما كاتبه أبو العباس أحمد الغزال بعثه كتابا لهما لا غير فلما وصلوا إلى جبل طارق كتب الغزال إلى بعض وزراء السلطان يقول له إنني أريد منك أن تعرف أمير المؤمنين أن هذين الرجلين لا معرفة لهما بقوانين النصارى وإنني قد خفت عاقبة الأمر فيما ينشأ عن رأيهما فلا يؤخذني أمير المؤمنين بشيء من ذلك إن كان فأخبر الوزير السلطان فقال صدق وقد ندمت على تقديمهما عليه وما راعيت إلا منزلتهما والآن فاكتب إلى الطاغية وقل له إنني قد بعثت إليك بكتابي أحمد الغزالي بأشورا وبعث بالكتاب إلى الغزال فإذا بلغه فليستمسك به وليجز الكتاب الأول الذي عندهما وليلي الأمر دونهما فلما بلغه كتاب السلطان امتثل وقضى الغرض على الوجه المطلوب وأبقى ذكرا جميلا رحمه الله وفي هذه السنة أعني سنة تسع وسبعين ومائة وألف أزم السلطان أهل فاس ببعث الإدالة منهم إلى الصويرة وهي خمسون راميا بقاندها وفقهه مدرس ومؤقت ومؤذن وشاهدان وأسقط عنهم البعث الذي كانوا يفرضونه للمملوك

قبله وهي خمسمائة رام فعينوا الإدالة المذكورة بعد التي واللتيا وبعثوهم إليه بمراكش فبعثهم السلطان إلى الصويرة ورتب لهم المؤن والمرافق فكانوا يقومون على المرسى وينتفعون بمستفادها فحسنت حالهم وابتغطوا بها واستمر الحال على ذلك وفي هذه السنة بعث أيضا السلطان الرئيس أبا الحسن عليا مرسيل الرباطي إلى بلاد الفرنسيين لتقرير الصلح معهم وقبض مال أسارى العرائش وشراء الإقامة منه فبدلوا المال والإقامة معا طائعين وفيها بعث السلطان الفقيهين السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي والسيد الطاهر بناني الرباطي بأشورين إلى صاحب الإسطنبول السلطان مصطفى العثماني وأصبحهما هدية نفيسة فيها خيل عتاق بسروج متقلة بالذهب مرصعة بالجواهر والياقوت ونفيس الأحجار وفيها أسياف محلاة بالذهب ومرصعة بالياقوت المختلف الألوان وفيها حلبي من عمل المغرب فقبل ذلك السلطان العثماني وابتهج به ثم كافأ عليه بمركب موسوق من آلة الحرب مدافع ومهاريس وبارود وإقامة كثيرة للمراكب القرصانية من كل ما تحتاج إليه وفي هذه السنة خرج السلطان إلى بلاد الريف فجعل طريقه على تطاوين ثم على بلاد غمارة وانتهى إلى جارت وبلاد الريف فمهد تلك النواحي كلها ورجع على طريق تازا وفيها قدم المولى علي ابن السلطان خليفة عن أبيه فنزل فاسا الجديد وأضاف إليه قبائل الجبل والريف وفيها قدمت ربة الدار العالية المولاة فاطمة بنت سليمان من مراكش إلى فاس بقصد الزيارة فركبت ذات ليلة إلى ضريح المولى إدريس رضي الله عنه وضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم وضريح الشيخ أبي عبد الله التاودي فطافت عليهم وتبركت بتربهم وذبحت أكثر من مائة ثور وأخرجت صدقات كثيرة ثم خرجت بعد ذلك إلى مدينة صفرو فزارت ضريح سيدي أبي سرغين وضريح سيدي أبي علي وذبحت وتصدقت

وعادت إلى فاس ثم ذهبت إلى زيارة الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه فصحبها في ركابها أعيان فاس وأشرفها وعلماؤها ولما كانت بآثناء الطريق اعترضها قواد الغرب بهداياهم وبشاراتهم وزبيهم ووافاها قواد الثغور بضريح الشيخ عبد السلام في مواكبهم وخيلهم ورجلهم وذلك عن أمر من السلطان رحمه الله قال صاحب البستان وكنت يومئذ واليا على العرائش فحضرت في جملتهم ولما قضت أرب الزيارة فرقت الأموال على الأشرف من أهل جبل العلم وغمرت الناس بالعطايا ثم عادت إلى القصر ومنه سارت إلى العرائش فأقامت بها ثلاثة أيام وانفض قواد الثغور كل إلى محله وسافرت المولاة المذكورة إلى مراكش في ألف فارس من العبيد كانوا قد قدموا معها من مراكش عليهم القائد مصباح وكان فعلها هذا من الآثار العظيمة والمناقب الفخيمة رحمها الله اعتناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بثر العرائش وشحنه بألة الجهاد قد تقدم لنا أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله قدم العرائش عقب وقعة الفرنسيين فوقف عليها واعتنى بأمرها وبنى بها الصقائل والأبراج وصونها ثم كان قدوم ابنه المولى يزيد في هذا التاريخ إلى فاس وفي ركابه جماعة من رؤساء البحر والطبجية أهل الإجابة في الرمي وكان قدومه بأمر السلطان لجر المدافع والمهاريس النحاسية التي كانت بفاس الجديد ومكناسة ونقلها إلى ثغر العرائش ففعلوا وألزم السلطان القبائل الذين بالطريق أن يتولوا جرها فكانت كل قبيلة تجرها إلى التي تليها إلى أن وصلوا إلى مشرع مسعيدة من نهر سبو قال صاحب البستان فورد علينا أمر السلطان بالعرائش أن نخرج إلى لقائهم في الجند وقبائل الحوز يعني حوز العرائش قال فوافيناها على

وادي سبو فتولى أهل الغرب جر تلك المدافع والمهاريس إلى أن أوصلوها إلى وادي الدردار قرب تاجناوت ثم جرها أهل العرائش وقبائل حوزها إلى المدينة وكان يوم دخولها مهرجانا عظيما أخرجت فيه المدافع والمهاريس والبارود وتسابقت القبائل على الخيول ولعبوا بالبارود إلى المساء ثم رجع المولى يزيد ومن معه من الرؤساء والبحرية والطبجية إلى حضرة السلطان بمكناسة وقد تم الغرض المقصود إيقاع السلطان سيدي محمد بن

عبد الله بأيتم يمور أهل تادالا ونقلهم إلى سلفات والسبب في ذلك لما انقضى أمر العرائش تفرغ السلطان لقضاء ما كان قد بقي عليه من أمر الرعية فخرج من مكناسة إلى تادالا مضمرا الإيقاع بأيتم يمور لما كان يبلغه عنهم من الفساد في الأرض فلم بلغها مكر بهم بأن أرسل إليهم يستنفرهم خيلا ورجلا وأراهم أنه يريد أن يذهب بهم في سرية هيأها لأيت ومالو فلما قدموا عليه أمر بعرض العساكر كلها ووقف رحمه الله بإزاء القصبية ثم عرضت عليه عساكر الجند ثم القيتال بعضها إثر بعض وكلما مرت عليه قبيلة أوقفها في ناحية عينها لها وكلما مر به جيش أوقفه كذلك حتى غصت الأرض بالخيال والرجل واستدارت من كل الجهات ولم يبق إلا أيت يمور فجاؤوا في آخر العرض ولما مثلوا بين يديه أمر أهل رجاه أن يرموهم بالرصاص على زناد واحد فأطلقوا عليهم شويوبا منه تساقط له عدد كثير وكان قد تقدم إلى العساكر المستديرة بهم أن ينفحوهم بالرصاص كلما قصدوا جهة من جهاتهم فكانوا كلما قصدوا ناحية طالبين الخلاص منها رماهم أهلها فتساقط منهم العصبة الكبيرة إلى أن خلصوا من ناحية أهل دكالة بعد أن هلك منهم ما ينيف على الثمانمائة فأمر السلطان برؤوسهم فجزت وبعث بها إلى فاس فعلقت على الأسوار وأمر العساكر بنهب حللهم فانتسفوها وسبقت مواشيهم وخيامهم وأثاثهم وفر من أفلت منهم إلى جبل

أيت يسري ثم رحل السلطان عنهم إلى مراكش فوفدوا عليه بعد أيام خاضعين تائبين فعفى عنهم ونقلهم إلى جبل سلفات من أحواز فاس فأوطنوه حينما من الدهر إغراء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بأيتم أدراسن والسبب في ذلك لما كان من السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لأيت أدراسن من الإحسان ما كان حتى أوقع بالودايا لأجلهم مع أنهم صميم الجند وركن النولة وأطال لهم الرسن في ذلك بما أطغاهم وحملهم على الدالة عليه صدرت منهم هذات اعتدها السلطان عليهم فانتدب لتأديبهم بأن كتب وهو بمراكش إلى الودايا لقتالهم وإلى العبيد وجروان يأمرهم أن يجتمعوا على حربهم والإيقاع بهم فكان ذلك عند الودايا من أكبر متمناهم فاجتمعوا مع من ذكر ونهدوا إليهم فكيسوهم في ديارهم وجرت بينهم حرب فظيعة انهزم في آخرها أيت أدراسن ونهبت حللهم وقتل منهم عدد كثير وأسر مثل ذلك ووجهوا في السلاسل إلى السلطان بمراكش وفي هذه السنة أعني سنة تسع وسبعين ومائة وألف أمر السلطان بجمع جند الكيشارية من قبائل الحوز وروكل بجمعهم القائد عبد النبي المنهبي وأن يثبتهم في ديوان العسكر وأن كل من كان عزبا وأراد الدخول في الجندية فليكتبه فاجتمع له من ذلك أربعة آلاف وخمسائة فأعطاهم السلطان الكسي والسلاح واستخدمهم مدة ثم كان مآلهم أن رجعوا إلى إخوانهم وقبائلهم وضرب عليهم المعزوم في جملتهم وفيها مات عامل فاس الحاج محمد الصغار فولى السلطان على فاس ابنه العربي بن محمد الصغار ثم دخلت سنة ثمانين ومائة وألف فيها قدم السلطان إلى مكناسة وقبض على القائد عبد الصادق بن أحمد الريفي صاحب طنجة وعلى مائة من

قربائه وأهل بيته فأودعهم السجن ثم سار إلى طنجة فدخلها ونهب دار عبد الصادق المذكور ونقل إخوانه بأولادهم إلى المهديّة وولى عليهم محمد بن عبد الملك من بيتهم ولم يترك بطنجة من أهل الريف إلا أهل المروءة والصلاح وأنزل معهم ألفا وخمسائة من عبيد المهديّة بعددهم بحيث لا يطمعون في قيام ولا يحدثون أنفسهم بثورة ووقع بخط الفقيه أبو العباس أحمد السدراتي أن انتقال أهل الريف إلى المهديّة كان بعد هذا بنحو أربع سنين والله أعلم مقتل عبد الحق فنيش السلاوي ونكبة أهل بيته والسبب في ذلك قد قدمنا في آخر دولة السلطان المولى عبد الله ما كان بحواضر المغرب وبواديه من الاضطراب فسمما بعض القواد والعمال بالأمصار إلى مرتبه الاستقلال وطرحوا طاعة السلطان في زاوية الإهمال فمنهم صاحب سلا عبد الحق بن عبد العزيز فنيش كان قد استحوذ على مدينة سلا وأعمالها واستبد بأمرها بما كان له من العشييرة والعصبيّة بها ولما اجتاز سيدي محمد بن عبد الله من مراكش إلى القصر أيام والده أغلق عبد الحق هذا أبواب سلا في وجهه ولم يحفل به ذهابا وإيابا حسبما مر ثم لما ولى الله السلطان أمر المسلمين أعرض عما أسلفه عبد الحق من جريرته وأبقاه في مدينته على رياسته فاستمر على ذلك برهة من الدهر وكان فظا غليظا فقتل رجل من أعيان سلا قيل كان هذا الرجل من قربائه وقيل كان من أولاد زنبير فرفع أولياؤه أمرهم إلى السلطان بمكناسة وحضر عبد الحق معهم وثبت أن قتله للرجل كان على وجه الظلم فحرك ذلك من السلطان ما كان كامنا في صدره عليه فقبض عليه ودفعه إلى أولياء المقتول ليتولوا قتله بأيديهم فحبسوا عنه لما كان له في قلوبهم من الهيبة فأمر

السلطان الوزعة بقتله بمرأى منهم فقتلوه فيما قيل بأيدي الفؤوس ثم بعث السلطان من احتاط على أموال عبد الحق والفنانشة أجمع وأمر ببيع أصولهم بعد إعمال الموجبات بأن الفنانشة مستغرقت الزمة وأن جميع ما بأيديهم اكتسبوه من الغصوبات وغيرها من وجوه الظلم وضرب الآتاوات على الضعفاء والمساكين حتى عند نكاحهم فبيعت أصول عبد الحق وعشيرته لبني حسن وكانت تنيف على مائة أصل من بين ربع وعقار وكان ذلك سنة ثمانين ومائة وألف ثم غربهم السلطان إلى العرائش فسجنوا بها مدة وغرب بعضهم إلى الصويرة ثم عفا عنهم وقربهم وولاهم رياسة الرماية بالمهراس والمدفع المعروفة برياسة الطنجية وفرقهم على التّعور فكان بعضهم بالعرائش وبعضهم بطنجة وبعضهم برباط الفتح وبعضهم بالصويرة وأعطاهم الدور المعتبرة والرياح المغلة ورتب لهم الجرايات العظيمة حتى بلغوا من الثروة والعز والجاه ما لم يبلغه أحد في دولته رحمه الله كذا في البستان ومن القواد الذين كانوا في حكم الاستبداد أيام السلطان المولى عبد الله ثم نكبه ابنه السلطان سيدي محمد بعد حين القائد أبو الحسن الحاج علي بن العروسي الدكالي البوزراري كان قائد المولى المستضيء بعد أيام ولايته ولما أفضى الأمر إلى السلطان سيدي محمد قبض عليه وأودعه المطبق عدة أعوام ثم سرحه وولاه مدينة شفشاون وتوارث الرياسة بنوه من بعده ولهم آثار بئر الجديدة منها مسجدا مكتوبا عليه اسم بانيه إلى الآن ومن القواد المستبدين قائد تامسنا المدعو ولد المجاطية وقائد تادالا الرضي الوردغي فعزلهم السلطان سيدي محمد وولى على تامسنا وتادالا القائد محمد بن حدو الدكالي المتقدم الذكر ومنهم أبو عريف قائد بني حسن فعزله السلطان وولى مكانه أبا عبد الله محمد القسطلاني ومنهم الباشا حبيب المالكي قائد الغرب كان رأس الأمراء أيام أبيه فقبض عليه وأودعه

المطبق وأمر بهدم قصره وحمل أنقاضه إلى العرائش ونهب ماله ومأشيتيه ولما طرح الباشا حبيب بالمطبق منع نفسه من الطعام والشراب إلى أن مات ميتة جاهلية عيادا بالله فهؤلاء أنياب القبائل وأهل العصبيّة منهم تتبعم السلطان واحدا بعد واحد إلى أن أراح الدولة من ضررهم والله أعلم وفي هذه السنة أعني سنة ثمانين ومائة وألف انعقدت الشروط بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين جنس الفرنسيين وهي عشرون شرطا مضمنها ومرجعها إلى المهادنة والصلح والمخالطة بالبيع والشراء مع التوقير والاحترام من الجانبين وإذا سافرت مراكبهم من مراسيمهم إلى إيالتنا فتصحب معها الورقة المسماة بالباصبورط من عند أمير البحر المرتب بكل مرسى من مراسيمهم فيها اسم المركب ورتبته وبيان ما اشتمل عليه من الوسق ومن أين جاء وإلى أين يذهب وعليه طابع أمير البحر وهو طابع الجنس وإذا سافرت مراكبنا من مراسينا إلى إيالتهم فتصحب كذلك خط يد القنصل المرتب بمرساتنا من ذلك الجنس باسم المركب ورتبته وما اشتمل عليه محتوما عليه طابع الجنس أيضا وكان القياس أن مراكبهم تحمل طابعنا وخطنا ليحصل لها التوقير كما نحمل نحن طابعهم وخطهم ليحصل لنا التوقير منهم ولكن لما لم تجر العادة بترتب متأصلنا بمراسيمهم اكتفي بطابعهم من الجانبين إذ المقصود حاصل بذلك ولا يلتبس على رؤساء البحر طابع جنس بأخر فإذا التقى مركب بمركب وأخرج كل ورقته عرف من أي جنس هو وعومل على مقتضى ذلك ورود هدية السلطان مصطفى العثماني على السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله وفي هذه السنة أعني سنة ثمانين ومائة وألف بعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله خديمه الرئيس عبد الكريم راغون التطاوني

باشدورا إلى السلطان مصطفى العثماني وأصبحه هدية نفيسة مكافأة له على هديته التي كان أرسلها مع السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي والسيد الطاهر بناني الرباطي حسبما مر ثم لما دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة وألف قدم الحاج عبد الكريم المذكور من عند السلطان المذكور ومعه هدية عظيمة أعظم من الأولى وهي مركب موسوق بالمدافع والمهاريس النحاسية وإقامتها وإقامة المراكب القرصانية من صوار ومخاطيف وقلوع وقمن وحبال وبراميل وغير ذلك من آلات البحر وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم المعرفة بأفراع المدافع والمهاريس والكور والبنب وبصناعة المراكب القرصانية وفيهم معلم مجيد في الرمي بالمهراس إلى الغاية فنزلوا بمرسى العرائش قال صاحب البستان وكنت يومئذ واليا بها فورد أمر السلطان بتوجيه المعلمين إلى فاس فيقيمون بها حتى يقدم السلطان من مراكش إلى مكناسة فيجتمعون به هنالك ولما وصل

السلطان إلى مكناسة وحضروا عنده فووضهم في الخدمة وأراد أن يحيي آثار دار الصنعة التي كانت بسلا تصنع بها المراكب الجهادية على عهد الموحدين وبني مريين فقالوا نحتاج أن تبني لنا دارا على هيئة كذا ومن نعتها كذا وكذا ورسما له شكلها في قرطاس فرأى أن أمرها لا يتم في عشر سنين ولا أكثر ولا يكفي في بنائها مال فأعرض عن ذلك وبعث معلمي النيب إلى تطاوين فكان أحدهم يفرغ البنية من قطارين وبعث معلمي المراكب إلى سلا فأنشؤا فيها ثلاث شكطريات وبعث معلم الرمي إلى رباط الفتح فكان يعلم بها الطبخية من أهل سلا والرباط وتخرج على يديه نجباء ومن ثم توارث أهل العدوتين هذه الصناعة مدة إلى أن لم يبق بها اليوم إلا الاسم ورد أصحاب المدافع والمهاريس إلى فاس فأقاموا بها إلى أن توفوا هنالك رحمهم الله

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين جنس الدينمرك وهي عشرون شرطا ترجع إلى تمام الصلح والأمن من الجانبين أيضا والأول منها مضمنة خروج أمر المراسي المغربية من يد تجار الدينمرك فلا يتصرفون فيها بشيء لكون الكمبانية التي كانت تدفع من المراسي قد تفرقت بعد التزام قصلهم بأداء اثني عشر ألف ريال وخمسمائة ريال التي بقيت بزمة تجارهم من ذلك ولا تعود المراسي لأيديهم بحال والآخر منها مضمنة أن يدفع طاغية الدينمرك للسلطان كل سنة خمسة وعشرين مدفعا من مدافع المعدن وزر كورتها من ثمانية عشر رطلا إلى أربعة وعشرين ويدفع معها ثلاثين قمنة ومن اللوح الروبلي ألفي لوحة مختلطة ومن الريال ستة آلاف وخمسمائة والكل واصل إلى المحل الذي يريده السلطان وإن أراد الطاغية أن يدفع بدلا عن جميع ذلك خمسة وعشرين ألف ريال فله ذلك ومثل هذا انعقد مع جنس السويد أيضا إلا أن قدر المدفوع من جانبه عشرون ألف ريال فقط في كل سنة ومع أجناس آخر وعشرين ألف ريال فله ذلك واستمرت هذه السنة إلى أن انقطعت سنة إحدى وستين ومائتين وألف في دولة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله حسبما نذكر ذلك في محله وفي هذه السنة أعني سنة إحدى ومائتين ومائة وألف كانت فتنة الدعى كلخ بمراكش وهو رجل صلوك اسمه عمر كان ينتسب إلى الشيخ أبي العزم سيدي رحال وكان يظهر للعامة الكرامات الكاذبة وتبعه السواد الأعظم من جهلة البادية لأنه وعدهم أن يفتح لهم بيت المال ويهبولون منه الذهب والفضة هبلا من غير ممانع فأهرع الناس إليه وتقدم إلى مراكش فدخلها في عالم من الأوباش شعارهم هاتان الكلمتان كلخ شلخ رافعين بها أصواتهم وهم كالسيل المنحدر من عل فوق الهرج بالمدينة وغلقت الأسواق واتصل الخبر بالسلطان وهو بداره فأمر الوزعة والعبيد

فاعترضوهم دون القصة ويقضوا عليه ولما صار في أيديهم فر من كان معه من الطعام وساقوه إلى السلطان فقتله وسكنت جعجعتة للحين انعقاد الصهر بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين سلطان مكة الشريف سرور رحمه الله كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يحب الفخر ويعنى به وله رغبة في الخير وأهله ولما كان سلطان مكة الشريف سرور رحمه الله بالمثل الذي أكرمه الله به بلدا ومحتدا رغب السلطان سيدي محمد رحمه الله في مصاهرته وسمحت نفسه الشريفة ببذل كريمته فما دخلت سنة اثنتين ومائتين وألف وعزم ركب الحاج المغربي على السفر إلى الحجاز بعث معهم السلطان المذكور ابنته وزفها على بعلمها المذكور وبعث ولده الأكبر وخليفته الأشهر المولى علي بن محمد لإقامة فريضة الحج ومعه شقيقه المولى عبد السلام صغيرا دون بلوغ ليكون مع أخته وكلاهما في صحبة الركب المغربي كما قلنا وأصبحهما هدية لأمير طرابلس وهدية لأمير مصر والشام وهدية عظيمة لأهل الحرمين الشريفين ومالا كثيرا يفرق على أشرف الحجاز واليمن وجوائز سنوية للعلماء والنبلاء وأرباب الوظائف بمكة والمدينة وبعث معهم من وجوه أهل المغرب وأولاد أمراء القبائل وأشباههم ومن أكابر خدامه وأصحاب أشغاله بالخيول المسومة والسلاح الشاكي والشارية الحسنة وما تحدث به أهل المشرق دهرًا وكان في جهاز ابنة السلطان ما يزيد على مائة ألف دينار من الحلوى والياقوت والجوهر وكان يوم دخولها إلى مكة يوما مشهودا حضره عامة أهل الموسم الأعظم من الأفاق وتناقلت حديثه الركب والرفاق

اعتناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بعبيد السوس والقبلة وجلبهم إلى أجدال رباط الفتح وفي هذه السنة أعني سنة اثنتين ومائة وألف بعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله ابن عمه المولى علي بن الفضيل وكتابه أبا عثمان سعيد الشليح الجزولي إلى بلاد السوس لجمع عبيد المخزن الذين بها وبعث وصيفه المحجوب ابن قائد رأسه لإقليم طاطا وأقاوتيشيت من بلاد القبلة لجمع العبيد الذين هنالك فجاؤوا بألفين من عبيد السوس بأولادهم وألفين من عبيد القبلة بأولادهم كذلك فأنزلهم السلطان بظاهر مراكش إلى أن أعطاهم السلاح والكسي وولى عليهم القائد المحجوب المذكور ثم لما سار إلى رباط الفتح أمر بقطع جنات أجدال الذي بظاهر البلد وأنزل العبيد به وبنى لهم الدور والمسجد والمدرسة والحمام والسوق وزاد عليهم ألفين وخمسمائة من الودايا جلبها من القبائل وكتب الجميع في البيوان وجعلهم في مقابلة عبيد مكناسة والودايا الذين بها وأفاض فيهم العطاء الكثير لسكانهم بتغر من تغور الإسلام فتح الجديدة قد ذكر لوزير مارية خبر هذا الفتح ونحن نلخص ما ذكره من ذلك قال لما ولي السلطان سيدي محمد بن عبد الله سلطنة المغرب كان لا يقر له قرار من أجل مشاركة البر تغال له في قطعة من أرضه وكان شهما ذا أنفة وإبالية فاستشار أهل الرأي من دولته في غزو الجديدة وفتحها فقالوا له لا يظن سيدنا أن أخذها يكون بأن تحمل المسلمون عليها دفعة واحدة حتى يفتحوها مثلا فإن ذلك لا يجدي شيئا ولا يحصلون إلا على القتل كما وقع في أيام السلطان الغالب بالله السعدي وإنما يتوصل إلى فتحها بالحصار

والمطاوله برا وبحرا فعمل على ذلك بعد أن كرهه أولا ولما عزم على النهوض إليها جمع جيشا كثيفا من قبائل مراكش والحوز والسوس وغير ذلك زعم لوزير أنه اجتمع له من المقاتلة نحو سبعين ألفا ويطن أن هذا من مبالغته على عادته في ذلك وكان نزوله على الجديدة في رابع مارس العجمي سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف مسيحية وفي تواريخ الإسلام أن نزوله عليها كان في فاتح رمضان من سنة اثنتين ومائتين وألف عربية ولما نزل عليها أمر بحفر الأساس لاتخاذ أشبار من جميع جهاتها ونصب عليها خمسة وثلاثين مدفعا بين كبير وصغير ورمى عليها كورا وبنيا كثيرا في أيام متعددة سقط منه داخلها أكثر من ألفين وهدمت كثيرا من أبنيتها وقتلت عددا وافرًا من أهلها وكان من جملة أهلها رجل عسكري قد أناف على السبعين سنة وعجز عن حضور القتال وله زوجة وأولاد فلما رأى تساقط النيب مثل المطر طلب النجاة لنفسه وعياله ففر إلى هري هنالك كان فوقه خزائن قمح فاختلف تحتها واختفى معه أناس آخرون وظنوا أن البنية لا تنفذ في خزين القمح وتخرق السقف الذي تحته وتصل إلى الهري الذي هم به ففضى الله تعالى بأن سقطت به بنية تجاوزت القمح والسقف وسقطت على الشيخ فقتله ومن معه وكانوا تسعة أنفس وانجرح آخرون ولما طال الحصار على أهل الجديدة كتبوا إلى طاغيتهم فأنشأ عليهم بالخروج إن عجزوا عن المدافعة وكانت هذه المكاتبه من غير علم من العامة وبينما هم كذلك إذ ورد عليهم مركب من أشبونة ظنوه مددا لهم فإذا به قد أتى بكتاب الطاغية يأمرهم بالخروج ويتحملوا بأولادهم وعبالهم في مراكبهم ويدفعوا البلد للمسلمين ولما علم العامة بذلك امتنعوا وحاصروا حصية حمر الوحش وسبوا الكتاب ومن أرسله وقالوا لا نخرج منها حتى نهلك عن أذننا إذ هي مأثرة أجداننا عجنت طينتها بدمائهم وفتيت عليها

نفوس أكابره وأشرافهم ثم توسط بين عامتهم وكبيرهم القسيسون وسهلوا عليهم الأمر حتى انقادوا وبعث كبيرهم إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله يطلب منه أن يكف عن القتال ويوجهه ثلاثة أيام ليدفع له البلد فأجابه السلطان إلى ذلك واشترط عليه أن لا يخرجوا إلا في ثيابهم التي على ظهورهم ولا يحملوا معهم شيئا غيرها فامتثلوا قال لوزير حتى أن عسكريا منهم حمل معه كسوة أخرى لم تسمح بها نفسه فراها كبيرهم وهو يريد أن يصعد إلى المركب فانتزعها منه وألقاها في البحر ولما أيسوا من حمل شيء معهم أحرقوا الأثاث والفرش وعرقبوا الخيل وقتلوا الماشية وكسروا الأواني والعدة وفسلوا أكثر من مائة مدفع وآخر الأمر أنهم دفنوا مينات البارود في حوماتها كل مينا فيها أكثر من أربعين برمبلا وتركوا رجلا حدادا اسمه بطروس فيقال إنه الذي أوقد المينا عند دخول المسلمين إليها فهلك فيها نحو خمسة آلاف وتهدم السور الجنوبي منها ولما وصلوا إلى أشبونة أسكنهم طاغيتهم ببلدة يقال لها بلين فأصابهم الوحوم وهلك منهم أكثر من ثلاثمائة نفس ثم انتقلوا إلى بلاد البرازيل فبنوا هناك مدينة سموها مازكان الثانية باسم الجديدة هذا ملخص ما ذكره لوزير ومن خط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد السدراتي أن فتح الجديدة كان صبيحة يوم السبت الثاني من ذي القعدة سنة اثنتين ومائتين وألف ووافق ذلك اليوم الثامن والعشرين من فبراير العجمي وهو ثالث أيام الحسوم اه وكان

ممن شهد هذا الفتح المعلم الحاج سليمان التركي المجيد في صناعة الرمي بالمهراش فأبدا وأعاد وحضرها أيضا جماعة من فنانة سلا فأبلوا بلاء حسنا وعمرها السلطان بأهل دكالة إذ هي في وسط أرضهم وأضاف إليهم حصنة من عسكر اليكشارية وأعقابهم بها لهذا العهد والله أعلم

سعي السلطان سيدي محمد بن عبد الله في فكك أسرى المسلمين وما يسر الله على يديه من ذلك قد تقدم أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان قد بعث خاليه عمارة بن موسى ومحمد بن ناصر الوديين وكتابه أبا العباس الغزال إلى طاغية الإصبيبول وأن الغزال قد أحكم الصلح وقضى الغرض على ما ينبغي وفي تلك السفرة وقع التقادي بين السلطان والطاغية في الأسرى التي كانت بينهما حسبا مر فلما كانت هذه السنة التي هي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف كتب طاغية الإصبيبول إلى السلطان يقول إنه لم يبق ببلادي أحد من أسرى إياتكم ولم يبق عندي إلا أسرى أهل الجزائر الذين عندهم أسرانا وطلب منه مع ذلك أن يتوسط له عند صاحب الجزائر في المفاداة بينه وبينه وكانت أسرى الإصبيبول تزيد على أسرى الجزائر بكثير وطلب أن تكون هذه المفاداة على يديه أعني على يد السلطان رحمه الله الرئيس بالرئيس والبلوط بالبلوط واليكانجي باليكانجي والبحري بالبحري والجندي بالجندي ومن فضلت عنده فضلة فالبحري بخمسائة ريال والرئيس بألف فأسغفه السلطان في طلبه وانتدب للسعي في إنقاذ المسلمين من أيدي الكفار ابتغاء مرضاة الله ورجاء ثوابه وكان السلطان قد كتب إليه مع الغزال وصاحبيه فيمن تحت أيديهم من سائر أسرى المسلمين فبعثوا إليه بأهل المغرب فقط واعتذروا بأنهم حسبوا أسرى الجزائر ليفكوا بهم أسراهم ولما كتب السلطان أهل الجزائر وعرض عليهم ما طلبه طاغية الإصبيبول امتنعوا من الفداء فكتب السلطان إلى باي الجزائر ثانيا فامتنع ثم

أعاد إليهم الكتابة ثالثا وحضهم على فكك أسرى المسلمين ووعظهم وخوفهم عقاب الله ورغبتهم في ثوابه فأذعنوا وامتثلوا وطلبوا منه أن يبعث إليهم رجلا من خاصته يقف على المفاداة بنفسه ويدفعون إليه أسراهم في يده ويتسلم مثل عندهم من إخوانهم فلما ورد على السلطان كتاب أهل الجزائر بالامتنال كتب إلى الطاغية يأمره أن يبعث بما عنده من أسرى المسلمين في مركب إلى الجزائر وينتظر هنالك الباشدور الذي يوجهه من قبله حتى تكون المفاداة على يده وبعث السلطان لهذا الغرض كتابه أبا العباس الغزال وصاحبيه وعند وصولهم إلى الجزائر أرسى مركب الإصبيبول بظاهر مرساها وأنزل من أسرى المسلمين ألفا وستمائة ونيفا فأخرج أهل الجزائر من أسرى النصارى مثلهم ألفا وستمائة ونيفا أيضا وبقيت عندهم من أسرى النصارى فضله ففداها الإصبيبول بالمال وانفصلوا ورجع الباشدور ومن معه إلى حضرة السلطان وكتب الله أجر ذلك في صحيفته ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف فيها غزا السلطان قبائل تادلا لإفسادهم ومحاربة بعضهم بعضا فنهب أموالهم وشردهم في كل وجه وولى عليهم القائد صالح بن الرضي الوردغي فاستصفي أموالهم وأقرهم حتى لم يقدروا على الانتقال من محل إلى آخر من قلة الظهر ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة وألف فيها غزا السلطان برابرة جروان لما ظهر منهم من الفساد وإغرائهم ابنه المولى يزيد بالانتزاع على الملك واجتماعهم على محمد وناصر المعروف بمهاوش رأس الفتنة وتباريهم في خدمته فقدم من مراكش وطرقهم وادي كريكرة فأوقع بهم ونهب أموالهم وقتل منهم نحو الخمسمائة وتركهم عالة يتكفون الناس بمكناسة وفاس ثم نقلهم إلى بسيط أزغار وأنزلهم وسط العرب فانحسرت مادة فسادهم

حصار السلطان سيدي محمد بن عبد الله مدينة مليلية من تغور الإصبيبول لما كانت أواخر سنة أربع وثمانين ومائة وألف غزا السلطان سيدي محمد بن عبد الله مدينة مليلية وفيها نصارى الإصبيبول فأحاطت عساكره بها ونصب عليها المدافع والمهاريب وشرع في رميها أول يوم من المحرم سنة خمس وثمانين ومائة وألف واستمر على ذلك أياما فكتب إليه طاغية الإصبيبول بعاتبه على حصارها ويذكره المهانة والصلح الذي انعقد بينه وبينه ويقول له هذا خط كاتبك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لا زال تحت يدي فأجابته السلطان رحمه الله بأن قال إنما عقدت معك المهانة في البحر فأما المدن التي في إياتنا فلا مهانة فيها ولو كانت فيها مهانة لخرجتم إلينا ودخلنا إليكم فكيف ادعاء المهانة مع هذه المداهنة فبعث إليه الطاغية عقد الصلح بعينه فإذا هو عام في البر والبحر فكف عن حربها وأفرج عنها وترك هنالك جميع آلات الحرب من مدافع ومهاريب وكراريس وبنب وكور وبارود وشرط على الطاغية حملها في البحر ورداها إلى الثغور التي جلبت منها لما في جرها في البر من المشقة على المسلمين فأنعم بذلك وبعث مراكبه حملت بعضها إلى تطاوين وبعضها إلى الصويرة وذلك محلها الذي سبقته منه وكان ذلك سبب تأخير الغزال عن كتابته وبقي عاطلا إلى أن كف بصره ومات رحمه الله وسمعت من بعض فقهاء العصر وقد جرت المذاكرة في كيفية هذا الصلح فقال إن الغزال رحمه الله لما أعطى خط يده بالصلح والمهانة كتب في الصك ما صورته وإن المهانة بيننا وبينكم بحرا لا برا فلما حاز النصارى خط يده كئطوا لام الألف وجعلوا مكنانها واوا فصار الكلام هكذا بحرا وبرا وأن السلطان رحمه الله إنما أخره لاختصاره الكلام وإجحافه به حتى سهل على النصارى تحريفه وكان من حقه أن يأتي بعبارة مطلقة مفصلة

حتى لا يمكن تحريفها فيقول مثلا والمهانة بيننا وبينكم إنما هي في البحر وأما البر فلا مهانة بيننا وبينكم فيه أو نحو هذا من الكلام فيصعب تحريفه وقد نص أهل علم التوثيق على هذا وأن الموثق يجب عليه أن يبسط الكلام ما استطاع ويجتنب الاختصار المجحف وما يؤدي إليه بوجه من الوجوه والله أعلم نهوض السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى جبال آيت ومالو والسبب في ذلك ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة وألف فيها خرج السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله إلى جبال آيت ومالو وكان ذلك في غرض قائده بلقاسم الزموري فإنه كان قد ولاه عليهم فلم يقلوه فطلب من السلطان الإعانة عليهم فأمدته بثلاثة آلاف فارس مضافة إلى من معه من إخوانه زمور وبنو حكم وسار إليهم فلما نزل على وادي أم الربيع من ناحية تادلا زحفوا إليه فولى عنهم مديرا ولم يعقب واتصل خبر هزيمته بالسلطان فاغتاظ على آيت ومالو وأخذ في الاستعداد لغزوه وبرزت العساكر بظاهر مكناسة وبعث السلطان إلى أمراء القبائل من العرب والبربر يستنفرهم فوافاه بمكناسة على الصعب والذلول ولما تكاملت الجنود نهض إليهم قال صاحب البستان وهو الكاتب أبو القاسم الصياني بالصاد المشممة زايا كلفظ صراط في قراءة حمزة وكنت معه في هذه السفرة وساق الحديث عنها بأن قال كنت مع السلطان وأنا يومئذ في حيز الإهمال أتوقع الموت في كل وقت بسبب ما كتب إليه في شأن القائد بلقاسم الزموري المذكور أنفا وأني أنا الذي أفسدت عليه قومه ولما وصل السلطان إلى محلة بلقاسم ونزلت عساكره في بسيط كريكرة أشار على السلطان بأن يقسم تلك الجيوش على ثلاثة أقسام تلت منها ينزل بتاسماكت من وراء العدو وتلت

ينزل بزواوية أهل الدلاء على طريق بلادهم وتلت يذهب معه على طريق تيفيط ويتقدم السلطان في عساكره حتى ينزل بأدخسان وتقصدهم العساكر من كل وجه وقرب على السلطان الأمد البعيد باللسان والرأي الذي لا يفيد وكان هو لا يعرف البلاد ومن الغد اقتربت العساكر فتوجه كل إلى ناحيته التي عينت له وتقدم السلطان إلى أدخسان ولما عبر وادي أم الربيع قدم كروان أمامه للغارة عليهم فساروا إلى أن بلغوا قصبه أدخسان فلم يجدوا بها نافع نار فأقاموا هنالك إلى أن لحق بهم السلطان فقال أين هؤلاء قالوا ما رأينا أحدا وهذه قصبه أدخسان فأمر بنزل الجيوش وبقي هو على فرسه متحيرا فاستدعى أبا القاسم الصياني قال فأسرعت نحوه فقال لي أتعرف هذه البلاد قلت نعم أتم المعرفة قال وأين أهلها قلت في جبلهم قال أوليس هذا جبلهم وهذا أدخسان قلت لا هذه قصبه المخزن والجبل من تلك الثنابا السود فما خلفها وأريته الثنابا فقال وأين الزواوية التي سار إليها الجيش مع قدور بن الخضرم وسرور قلت هي عن يمين الثنابا في البسيط قال وأين تاسماكت التي سارت إليها أم البربر مع ولد محمد واعزير قلت بيننا وبينها مرحلتان من وراء الثنابا قال ومن أين يأتي القائد بلقاسم فأريته الثنابا التي يطلع منها وقلت له إنه لا يصل إلينا إلا غدا إن سلم وما صنعنا نحن قلت ضربنا في حديد بارد فإن الذي بالزواوية لا يجدي والذي بتاسماكت لا يجدي وأيت ومالو متحصنون بالجبل وبلقاسم رجل مشؤوم عافى الله مولانا من شؤمه قال فظهر للسلطان خلاف ما سمع من بلقاسم وتحقق فساد رأيه وعلم أنه قد أخطأ فيما ارتكبه من التغرير بالمسلمين قال ثم بينت له السبب الذي نفر به آيت ومالو عن بلقاسم حتى عرفه قال اكتب إلى قومك صيان يقدموا علينا فإني قد سامحتهم فكتب إليهم وبعث بالكتاب من أدخسان مع بعض الأشراف واثنتين من أصحاب السلطان فخاضوا إليهم الليل واجتمعوا بهم

ومن الغد أصبح عندنا أربعة منهم بهديتهم فدخلت بهم على السلطان فأكرمهم وقبل هديتهم وقال إني سامحتكم لوجه كاتبتي فلان وردهم مبشرين إلى إخوانهم وباتت العساكر تلك الليلة بلا علف ولا تبن ومن الغد ظهرت محلة بلقاسم ومعه مختار والعبيد وكانوا قد باتوا على القتال طول ليلتهم ولما

وصلوا إلى السلطان أمر أن ينزل العبيد بجواره وينزل بلقاسم مع قومه زمر وبني حكم وأعرض عنه ثم أمره بتسريح إخوانه إلى بلادهم وسرح القبائل كلها إلى بلادها وفرق ذلك الجمع وأرتحل راجعا إلى تادلا وأما الذين نزلوا بتاسماكت مع ولد محمد واعزيز فيبينهم آيت ومالو بغارة شعواء شردوهم بها في كل وجه ونهبوا محتلتهم وقتلوا منهم عددا كثيرا ورجعوا إلى مكناسة مفلولين ولما بات السلطان بالزهرونية ورد عليه أصحاب قدور بن الخضري بكتابه يقول فيه إن البربر قد تألبوا علينا من كل أوب فإن لم يدركننا سيدنا هلكننا قال الصياني فأمرني السلطان بالمسير إليهم والاحتياط في خلاصهم بكل ما يمكن وبعث معي مائة فارس فوافيت الزاوية الدلائية فوجدت قبائل البربر محيطة بهم فاجتمعت بأيت يسري ووعدهم من السلطان بالبقاء الجزيل إن هم فسحوا لجيشه حتى يسلك في بلادهم فأنعموا بذلك ورحل الجيش مع الفجر وعدلنا به من آيت ومالو وعبرنا الوادي إلى بلاد آيت يسري وسار معنا نحو المائة من أعيانهم إلى أن أخرجونا إلى وادي تاقبالت من تادلا ورجعوا قال وتقدمت إلى السلطان فأخبرته بخلاص الجيش ووصوله إلى وادي تاقبالت فسره ذلك ودعا لي بخير وقال لا بد أن ترجع إليهم الساعة وأعطاني مالا أفرقه عليهم وأرسم لهم المنازل التي ينزلونها في مسيرهم إلى مكناسة وبها ينتظرون السلطان فرجعت إليهم في الحين وأخبرتهم برأي السلطان في المسير إلى مكناسة ورسمت لهم المنازل على نحو ما أمر ولما أصبحنا فرقت عليهم المال

وارتحلوا إلى مكناسة وانقلبت إلى السلطان فوجدته قد أصابته حمى أقام لها بقصبة تادلا وكان الطبيب أبو العباس أحمد أدراق يعالجه ولا يدخل عليه إلا أنا وهو وصاحب طعامه الحاج عبد الله إلى أن عوفي فوصل الطبيب بألف دينار ثم سافر إلى مكناسة وبوصوله إليها قبض على بلقاسم الزموري ونكبه واستصفى أمواله وولي على زمر وبني حكم ولد محمد واعزيز قال الصياني ومن ذلك الوقت رفع السلطان منزلتي على أقراني وصار يقدمني في المهفات ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة وألف فيها انعقدت الشروط بين السلطان وبين البرتغال وهي اثنتان وعشرون شرطا مضمنا الصلح والأمان كالشروط المتقدمة ذكر ما آل إليه أمر اليكشارية الذين استخدمهم السلطان من قبائل الحوز لما جمع السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله هذا الصنف من رماة الجند وسامه اليكشارية كالذين من قبلهم وكان جمعهم على يد القائد عبد النبي المنبهي حسبا سبق حصل منهم ضرر كبير للرعية في المال والحريم وصاروا يعيشون في غلل جناتهم مما يمررون به أيام أسفارهم حتى صار ذلك الفساد عندهم عادة وما من منزل يبيتون به إلا ويكلفون أهله ما لا يطيقون فإذا كلمهم أعيان الرعية في الرق بالناص قالوا هذه عادة لا نتركها وهي من قوانين الدولة ولما علم السلطان بما يرتكبونه من العسف أسقطهم من الجندية ونزع منهم السلاح ورددهم إلى المغرم مع إخوانهم وأراح الناس من شرهم ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة وألف فيها عزل السلطان القائد محمد بن أحمد البوزراري عن قبائل تامسنا وتادلا وما اتصل بهما ولم يترك

له إلا إخوانه من أهل دكالة وولي على السراغنة أبا عبد الله محمد المعروف بالصغير وعلى أهل تادلا صالح بن الرضي الوردغي وعلى أولاد أبي رزك المزاني القائد صاحب الطابع وعلى أولاد أبي عطية عمر بن أبي سلهم المزاني وأمر محمد بن أحمد أن يقبض من إخوانه الذين كانوا عمالا على هذه القبائل ما احتجبه من الأموال أيام ولايتهم واستصفى منهم مائة وخمسين ألفا خروج العبيد على السلطان سيدي محمد بن عبد الله ومبايعتهم لابنه المولى يزيد وما نشأ عن ذلك ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة وألف فيها كانت الفتنة العظمى التي هي خروج العبيد على السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبيعتهم لابنه المولى يزيد وكان السبب في ذلك أن السلطان كتب إليهم وهو بمراكش يأمرهم أن يعينوا منهم ألف كانوا ينقلون بأولادهم إلى طنجة يكونون بها وبعث إليهم بالكتاب مع القائد الشاهد رأس الفتنة وولاه على ذلك الألف فلما أتاهم بكتاب السلطان قال لهم لا يذهب معي إلا الأعيان ومن له دار وأرض وضيفة ولا يذهب معي إلا أمثالي فلما سمع اقتراحه أولئك الأجلاف ركبوا رأسهم في سبيل الخلاف واستفهم الشيطان حتى صرحوا بخلع السلطان جريا في ذلك على مذهبه القديم والتقات إلى فعل سلفهم الذميمة فلما أنهى خبرهم إلى السلطان بعث إليهم ابنه المولى يزيد وكان عنده بمراكش كي يستصلحهم به فزاداد فسادهم وعظم عنادهم قال صاحب البستان وكنت يومئذ برباط الفتح فلما ذهبت إلى مراكش لقيت المولى يزيد بالسانية موضع على نحو نصف يوم منها قال فسألني عن خبر العبيد فقصصته عليه فسره ذلك وجد في السير ففهمت قصده وعرفت ما يؤول إليه أمره فيهم وزعم أنه لما قدم على السلطان لأمه في

بعثه المولى يزيد فاعتترف بالخطأ في ذلك ولما وصل المولى يزيد إلى مكناسة واجتمع بالعبيد لم يقدموا شيئا على بيعته والخطبة به ففتح بيوت الأموال وأعطاهم حتى رضوا ثم فتح مخازن السلاح والبارود ففرقه فيهم ثم دخل في بيعته من كان قريبا من قبائل العرب والبربر غير الودايا وآيت أدراسن وجروان الذين هم شبيعة السلطان فإتهم تعصبوا له قال صاحب البستان وبعد ثلاث بعثني السلطان إلى الودايا وأحلافهم بمكاتيب فقدمت عليهم بها وأقمت عندهم إلى أن زحف إليهم المولى يزيد في جيش العبيد وهم بالأروى وكانت آيت أدراسن وجروان قد دخلوا مع الودايا وظاهروهم على العبيد فوقع الحرب بالمشتهى داخل القصبه فانهزم العبيد وسلطانهم وقتل منهم نحو الخمسمائة وأما الجرحى قبلا عدد وانقلبوا مفلولين واتصل الخبر بالسلطان فخرج من مراكش في الجند وقبائل الحوز يريد مكناسة ولما وصل إلى سلا وسمع المولى يزيد بقومه فر إلى ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حمدوش ثم إلى ضريح المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه بزهرهون فتقدم السلطان إلى زهرهون ولما دخل الضريح الشريف أتاه أشرف زهرهون بابنه المولى يزيد فعفا عنه وسامحه واستصحبه معه إلى مكناسة ولما وجه إليها خرج إليه نحو المائة من العبيد من ذوي أسنانهم ومعهم الأشراف والمرابطون والنساء والصبيان فعفا عنهم وسامحهم على شرط الخروج من مكناسة فأذعنوا وأقام السلطان بمكناسة يدبر أمرهم إلى أن فرقه على الثغور فبعث منهم رحبين إلى طنجة ورحبين إلى العرائش ورحى إلى رباط الفتح وقصد بتفرقتهم دفع غائلتهم وتوهين عصبيتهم ثم عمد إلى الذين كانوا برباط الفتح ففرقه أيضا فبعث ألفين منهم إلى السوس وألفا إلى مراكش وأبقى ألفين برباط الفتح مع عبيد مكناسة المغربيين إليها واستراحت الدولة من شرهم استراحة ما

ثم إن العبيد الذين بطنجة وثبو على قائدهم القائد الشيخ وعلى قائد أهل الريف محمد بن عبد الملك وأرادوا قتلها فهربا لأصبلا والسلطان يومئذ لا زال بمكناسة ولما أنهى إليه خبرهم كتب إلى أعيانهم يتوعدهم فقبضوا على أصحاب الفعلة وبعثوا بهم إليه وتيروا منهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف فاستكانوا بعض الشيء ورجع القائد إلى طنجة ثم لما سافر السلطان إلى مراكش أخذ معه عبيد مكناسة فأنزل أهل القصبه منهم بالمنصورية قرب وادي النفيخ لأنهم كانوا رأس العصاة واستصحب الباقيين إلى مراكش فأنزلهم بها بعد أن عزل عنهم قوادهم الذين حضروا فعلة المولى يزيد وأبقاهم عاطلين مهملين وولى عليهم أناسا من غيرهم ذكر ما سلكه السلطان سيدي محمد بن عبد الله في حق العبيد من التأديب الغريب ثم إن العبيد الذين بالثغور عاثوا بها وأضروا بأهلها في جناتهم وأموالهم وأعراضهم فأنهى خبرهم إلى السلطان أيضا ولما أعياه أمرهم ورأى أن تأديبهم بالتفرقة لم يقد فيهم انتقل رحمه الله معهم إلى مرتبة أخرى من التأديب لم يسبق إليها كانت تزيقا لقطع دائهم ونارا لحسم عرق بلائهم وذلك أنه لما بلغه ما هم عليه من الجور والطغيان نهض من مراكش عازما على الإيقاع بهم فلما وصل إلى رباط الفتح كتب إلى أهل طنجة والعرائش منهم يقول إني قد رضيت عنكم وبررت قسمي في نفلكم من مكناسة إلى الثغور والان إذا وصلتكم الإبل والبيغال التي أبعثها إليكم فلتحمل أهل طنجة بأولادهم ومتاعهم وليقدموا إلى دار عربي من بلاد سفيان فليزولوا بها ثم يبعثوا الإبل والبيغال إلى أهل العرائش ليحملوا بأولادهم ومتاعهم إلى دار عربي كذلك فإذا اجتمعتم أنتم وهم بها فإني أبعث إليكم بغالي تتحملون عليها إلى مكناسة كلكم فلما وصل إليهم كتاب السلطان بذلك طاروا فرحا وأحبوا الرجوع إلى مكناسة ولما وردت عليهم الإبل والبيغال ارتحلوا من طنجة وفي أثناء ذلك

بعث إليهم السلطان قائدهم سعيد بن العياشي الذي خلعه أيام الفتنة وأوصاه أن يقيم بدار عربي حتى يقدم عليه عبيد طنجة والعرائش فأنهى إليها ووافاه بها عبيد طنجة فنزلوا عليه بقضهم وقضيضهم ووصلت الإبل والبيغال إلى أهل العرائش فجاءوا حتى نزلوا مع إخوانهم كما رسم السلطان ثم إن السلطان رحمه الله نهض من رباط الفتح حتى وافى مشرع مسيعة من وادي سبو ثم انتقل منه إلى سوق الأربعماء من بلاد سفيان ثم تقدم إلى قبائل الغرب وبني حسن أن يسيروا إلى العبيد ويعسكروا عليهم من جميع الجهات فامتثلوا ولما استداروا حولهم وأحاطوا بهم إحاطة بياض العين بسوادها قدم السلطان ودعا رؤساء القبائل فحضروا عنده فقال لهم إني قد أعطيتكم هؤلاء العبيد بأولادهم وخيلهم وسلاحهم وكل مالهم فاقبضوهم

الآن وكل واحد منكم يأخذ عبدا وأمة وأولادهما فالعبد يحرث والأمة تطحن والولد يرعى الماشية فحذوهم وتقلوا سلاحهم واركبوا خيولهم والبسوا كساهم بارك الله لكم فيهم فانتم عسكري وجندي دونهم فلما سمعت قبائل الغرب وبني حسن هذا الكلام من السلطان وثبوا على العبيد من غير أن تكون منهم وقفة واقتسموهم في أسرع من لحس الكلب أنفه وتوزعوهم شذر مذر وصيروهم عبدة لمن اعتبر وقفل السلطان راجعا إلى رباط الفتح ولما دخله نفى العبيد الذين بها إلى مراكش فأنزلهم بها بعد أن عزل عنهم قوادهم وولى مكانهم غيرهم واستمر عبيد طنجة والعرانش موزعين في القبائل أربع سنين ثم عفا عنهم واستردهم من القبائل إلى الجندية وأركبهم وكساهم وسلحهم لكنه ميزهم وجعلهم قبائل في الخلط وطلق منهم أنزلهم بقصر كتامة وسفيان وبنو مالك أنزلهم بمسيعة وبنو حسن أنزلهم بسبيدي قاسم والحباينة وأهل الجبل أنزلهم بتامدرت من أعمال فاس وأقاموا هنالك عدة سنين بوجهون حصتهم في البعوث ويعسكرون مع السلطان متى احتاج إليهم ثم جمعهم رحمه الله بعد ذلك ونقلهم إلى مراكش وأقبل عليهم بالعتاء إلى أن عادوا أحسن مما

كانوا حالا ثم بدا له فيهم فبعث عبيد السوس إلى تارودانت وعبيد حاحة والشبانات إلى الصويرة وعبيد السراغنة وتادلا ودمنات إلى تيط الفطر وعبيد دكالة إلى أزموور وعبيد الشاوية إلى أنفي وعبيد زعير والدغماء إلى المنصورية وعبيد بني حسن إلى المهديّة وأبقى معه بمراكش عبيد سفيان وبنو مالك والخلط وطلق والمسخرين من أصحاب العباس وكان قيام هؤلاء العبيد سببا لافتراق الكلمة وانحلال نظام الملك بالمغرب وسرى فسادهم في القبائل كلها عربا وبربرا وكثير الهرج وانحبس المطر ووقع المجاعة وعظمت المجاعة واستمر الحال على ذلك نحو من سبع سنين من سنة تسعين إلى سنة ست وتسعين ومائة وألف فكانت هذه المدة كلها مجاعة أكل الناس فيها الميتة والخنزير والأدمي ونفى أكثرهم جوعا والسلطان في ذلك كله يكابد المشاق العظام ويصير على الجنود الأموال الثقال راتبا بعد راتب وعتاء بعد عطاء إلى أن خلصوا من المجاعة وصلحت أحوال الجماعة وكان رحمه الله قد رتب الخبز في كل مصر يفرق على ضعفائه في كل حومة وأسلف القبائل الأموال الطائلة يقتسمونها على ضعفائهم إلى أن يؤدوها زمان الخصب والرخاء ولما عاش الناس وهموا بأدائها سامحهم بها وقال ما أعطيتها بنية الاسترجاع وإنما ذكرت السلف لئلا يستبد بها الأشياخ والأعيان إذا سمعوا أنها هبة فرحم الله تلك الهمة الشريفة ما كان أعلاها وأعظمها وأرفأها وأرحمها وأسقط رحمه الله في تلك المدة جميع الوظائف والمغارم عن قبائل المغرب إلى أن عاشوا وتمولوا وكان يعطي التجار الأموال ليجلبوا بها الأقوات من بر النصارى فإذا وصلت أمرهم أن يبيعوها بثمنها الذي اشتريته به رفقا بالمسلمين وشفقة على الضعفاء والمساكين ولما دخلت سنة سبع وتسعين ومائة وألف مطر الغزب وعاش الناس وحرثوا وأدرك الزرع ورخصت الأسعار وازدهت الدنيا ودرت الجبايات وأخذ أمير المؤمنين رحمه الله في تمهيد المغرب ثانية واستئناف العمل والجد والله غالب على أمره

إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بأولاد أبي السباع وتشريدهم إلى الصحراء وما يتبع ذلك لما كان بالمغرب ما تقدم من الفتنة وشغل السلطان بإنعاش الضعفاء عن ضبط الأطراف وقمع البغاة بها نبغت نوابغ الفتن ببعض القبائل منها وعادت هيف إلى أديتها فمن ذلك قبيلة أولاد أبي السباع بأحواز مراكش فطلما ارتكبوا العظائم واجتروا وغدوا في الفتنة وراحوا واستطالوا على من بجوارهم وغزوه في أرضهم وديارهم فلما كانت هذه السنة التي هي سنة سبع وتسعين ومائة وألف جهز إليهم السلطان العساكر فقاتلوه وقتلوه وانتهبوا أموالهم وشردوهم إلى السوس وقبض السلطان على كثير من أعبانهم فأودعهم سجن مكناسة إلى أن هلكوا به وأوعز إلى قبائل السوس أن يطردوا بقيتهم وينفوه إلى بلاد القبلة مسقط رأسهم ومنبت شوكتهم وبأسهم ففعلوا ثم نقل قبيلة زمران بعد الإيقاع بهم إلى بلاد أولاد أبي السباع فعمروها ثم نقل تكتة ومجاط وذوي بلال من شوشاوة الحوز إلى الغرب فنزلوا بفاس الجديد وأعماله ثم أعاد آيت يبور من جبل سلفات إلى تادلا ثم نقل كطاية وسمكت ومجاط من تادلا إلى الغرب ثم أعاد جروان من أزغار إلى الجبل وفي هذه السنة أيضا كانت فتنة الدعي محمد والحاج البيموري كان يزعم أنه من الأولياء ويتكلم في المغيبات ويشيع أنه ينتظر صاحب الوقت فسرى فساد في قبيلته وتجاوزها إلى غيرها فقصده جهلة البربر من كل قبيل وأغرى آيت يبور بمن جاورهم من قبائل العرب وكانوا يومئذ لا زالوا بسلفات فتصدى لهم قائد سفيان أبو عبد الله محمد الهاشمي السفياني وجمع له الجموع من قبائل الغرب وصمد إليه وهو في قبيلة آيت يبور فعبير نهر سبو وأنشبت الحرب معهم فكانت الدبرة عليه وانهزمت جموع الغرب وقتل القائد

الهاشمي المذكور وعدد كبير من وجوه قومه وتركوا محلتهما بما فيها للبربر وعظم أمر هذا الدعي وشمخت أنوف قبيلته به وشرى ضلالهم ولما قدم السلطان إلى مكناسة بعث من قبض عليه وساقه إليه فقتله وأراح الناس من وساوسه وفي هذه السنة بعث السلطان ولده المولى عبد السلام لأداء فريضة الحج لأنه لم يكن أدرك الحلم عام حج مع أخيه المولى علي ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة وألف فيها غزا السلطان برابرة زموور وبني حكم فلما أظلم قومه انشتمروا إلى شعاب تافودايت وتحصنوا بها فاحتال عليهم بأن قام عنهم وأوعز إلى آيت أدراسن وكروان أن يرصدوهم متى برزوا إلى الفضاء فلينهبوهم فلما توجه السلطان قافلا إلى مراكش خرجت زموور من شعابها فلم يرعهم إلا آيت أدراسن وكروان قد أحاطوا بهم فانتهبوا حللهم وتوزعوا أموالهم وتركوهم عالة يتكفون الناس ذهاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى تافيلالت وتمهيد إياها والسبب في ذلك كان الشريف المولى حسن بن إسماعيل عم السلطان مقيما بتافيلالت وكان آيت عطة وآيت يفلان من برابرة الصحراء شيعية له فكان إذا حدث بينه وبين أشرف سجماسة حادث استكثر بهم عليهم وحاربهم وربما قتل منهم وكان السلطان يبلغه بعض ذلك عنه فیسوءه إلا أنه كان يتقل عليه أن ينال عمه منه مكروه ولأنه كان مشغولا بما هو أهم فاستمر الحال إلى أن ترددت أشرف سجماسة بالشكاية منه فلم يسع السلطان إلا زجره وقطع عادية بربره عن الأشرف فعزم على المسير بنفسه إلى سجماسة وكان ابنه المولى يزيد يومئذ بالمغرب فلم يرد السلطان أن يتركه خلفه لئلا ينشأ عنه ناشيء فتنة فاحتال في إبعاده بأن وجهه إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج

في غير ركب بل أفرده عنه وأصبحه أمينا يصير عليه وأناسا قليلين يكونون في خدمته دفعا لغائلته ثم سافر السلطان إلى سجماسة برسم زيارة تربة جده المولى علي الشريف رضي الله عنه وحسم داء عمه المولى حسن وشيعته ولما شارف السلطان تافيلالت قدم أمامه أبا القاسم الصياني لإخراج البربر من قصورهم في الأمان وإن كان عندهم ما يتقلهم من زرع أو تمر يعطيهم ثمنه لينقطع بذلك عذرهم وإن أقاموا حتى أدركهم السلطان بها فإنما إنهم على أنفسهم فامتثل البربر الأمر وخرجوا إلى الصحراء ولم يأت السلطان حتى لم يبق منهم أحد بتلك القصور وأفرده المولى حسن وانكسرت شوكته ثم بعث إليه أبا القاسم الصياني أيضا يعرض عليه السكنى بمكناسة وينفذ له ما يكفيه من الظهر لحمل عياله وأتقاه قال الصياني فذهبت إليه وباشرت أمره إلى أن أجاب ومن الغد سرت به إلى مكناسة وأمرني السلطان أن أعطيه دارا يسكنها وترتب له ثلاثمائة مثقال لكل شهر ينفقها على نفسه وعياله وأمرني مع ذلك إذا فرغت من شأن عمه المذكور أن أصحب معي أولاده الثلاثة المولى سليمان والمولى حسن والمولى حسين وأن أصحب معهم قدرا من المال وعددا من المدافع والمهاريب والبنب وطائفة من الطبخية من علوج اللمان وألفا من عسكر الثغور رجاله لجر تلك المدافع والمهاريب قال فقضيت الغرض على ما ينبغي وعدت إليه وهو بسجماسة بجميع ما أمرني به فبلغنا ونحن أثناء الطريق وفاة ولد السلطان وخليفته بفاس المولى علي بن محمد وكان من سادة العلويين ونجبانهم ومن أهل المروءة والأوصاف المحمودة عقلا وعلما وأدبا وكراما وعلو همة زاد في البستان وكان مجلسه مجمع الفضلاء والأدباء والنبلاء يتشبه بأخلاق المولى محمد العالم ابن المولى إسماعيل في كرمه وأدبه وكان له اعتناء كبير بنسخ كتب العلم الغربية وكتب الأدب وكان كثيرا ما يبعث بأشعاره

ومخاطباته لأهل عصره وأدباء وفتة من الفاسيين والبكريين والقادريين كما كان المولى محمد العالم مشغولا بأشعار أولاد السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردي رحم الله الجميع ولما بلغ أولاد السلطان إلى أطراف سجماسة قدموا الأعلام إلى السلطان واستأذنوا في التقدم فخرج رحمه الله لملاقاتهم وأمر الأشراف وسائر أهل البلد أن يخرجوا للسلام عليهم ويشاهدوا آلة الحرب التي ليست ببلادهم فخرجوا وخرج السلطان في موكبه وركبت العساكر خلفه في أحسن زي وأكمل ترتيب فكان ذلك اليوم من أيام الزينة ولما قضى غرضه من سجماسة وثقف أطرافها وترتب عربها وبربرها وحسم داء آيت عطة وآيت يفلان ولى عليهم القائد علي بن حميدة الزراري من كبار قواده وأعيان دولته ثم نهض السلطان إلى مراكش

بعد أن أقام بسجلماسة شهرا وكان سلوكه إلى مراکش على طريق الفانجة قال صاحب البستان وكان قد ردني إلى الغرب لآتيه بجيش من أولاد عبيد الثغور ألقاه بهم بمراكش ليزيدهم في جيشه ويقبضوا السلاح والكسوة بها ولما انتهى السلطان في طريقه إلى ثنية الكلاوي نزل عليه الثلج الكبير فسد المسالك وتفرقت العساكر في كل وجه وحال الثلج بينهم وبين أخبيتهم ورحالهم وبات السلطان منتبذا ناحية عن مضاربه وقبائه معزولا عن طعامه وشرابه ولم تلتق طائفة من العسكر مع صاحبيتها إلى أن طلعت الشمس فرفع الله عنهم الثلج وأصبح ذلك اليوم عيد الأضحى فخطب السلطان الناس بنفسه ودعا للسلطان عبد الحميد بن أحمد العثماني ودخل مراکش سالما معافى وسلم الله العسكر من ذلك الثلج فلم يهلك منه أحد والحمد لله

خروج السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الصويرة بقصد النزهة واغتنام الراحة وما اتفق له في ذلك لما قدم السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من سجلماسة إلى مراکش أقام بها إلى أن دخل فصل الربيع فاعتزم على الخروج إلى الصويرة والوقوف عليها ومعاندة مبانيتها ومعالمها إذ كان له ولوع بهذه المدينة التي أنشأها واغتبط بها وقصد أيضا زيارة رجال رجاجة بالساحل والتبرك بآثارهم وكانت سفرته هذه سفرة فرجة وجمام نفس واغتنام لذة فأشخص معه جماعة من علماء العصر وأئمنه فكان يملئ عليهم الحديث النبوي ويؤلفونه على مقتضى إشارته منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد بن الإمام سيدي عبد الله الغربي الرباطي والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله محمد المير السلاوي والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدى والفقيه العلامة أبو زيد عبد الرحمن أبو خريص هؤلاء أهل مجلسه الذين كانوا يؤلفون له ويسردون ويخوضون فيما يجمعه ويستخرجه من كتب الحديث التي جلبها من المشرق كمسند الإمام أحمد ومسند أبي حنيفة وغيرهما وكان معه جماعة وافرة من الكتاب المعبرين في الإنشاء والترسيل كالسيد المهدي الحكاك المراكشي والسيد عبد الرحمن بن الكامل المراكشي والسيد أحمد بن عثمان المكناسي والسيد أحمد الغزال الفاسي والسيد محمد سكيرج الفاسي والسيد الطاهر بناتي الرباطي والسيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي والسيد سعيد الشليخ الجزولي والسيد إبراهيم إقبيل السوسي وصاحب البستان أبي القاسم الصياني وغيرهم وكان خروجه لهذه الفرجة سنة ثمان وتسعين ومائة وألف في فصل الربيع فضربت قباة بظاهر مراکش ثم ضرب عليها السياج المحيط بها

المسمى بأفراك وفي وسط تلك القباب القبة العظمى التي أهداها إليه طاغية الفرنج وكانت مبطنة بالديباج ومحاربيها من الموير الحر المختلف الألوان وسفائنها من الكالون والإبريز وأطنابها من الحرير الصافي زعموا أن مبلغ ما صير عليها الطاغية نحو خمسة وعشرين ألف دينار ومصدق ذلك أن فتاحتها التي تكون في أعلى العامود وتسميها العامة بالجمور كانت من الذهب الخالص وزنها أربعة آلاف مثقال ذهباً وكان السلطان رحمه الله قد أخرجها في هذه النوبة ابتهاجا بها وخرج معه الخاصة من القواد والكتاب وغيرهم بفازاتهم الرفيعة ومضاربهم البديعة ثم توجه في ذلك الموكب العجيب يرتاد البلاد النزهة والأماكن البهجة التي تروق الطرف وتستغرق الوصف وتبسط النفس وتجلب الأنس فأقام شهرين كاملين يتقلب في تلك البساتن ويستوفي اللذات ويتقوى المعاهد ويقتنص الطائر والشارد إلى أن وصل إلى ثغر الصويرة فوقف عليه وقضى غرضه منه على الوجه الأكمل وانقلب راجعا إلى حضرته فاجتاز في طريقه برباط شاكراً وهو من مزارات المغرب المشهورة وكان مجمعا للصالحين من قديم الزمان ووقع في التشوف أن شاكر الذي ينسب إليه هذا الرباط من أصحاب عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب وأنه هنالك فلما مر به السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله في سفرته هذه أمر بتجديد مسجده وحفر أساسه وتشبيده وفي قوله طلع مع وادي نفيس إلى أن بلغ مدينة أغمات فزار ضريح الشيخ أبي عبد الله الهزميري وغيره من صلحاتها ونزل بمحلته تحت القرية ولما استقر به المنزل جاءه جماعة من أهلها مع قاضيهم بكيش جيد وأنية فيها شيء من الشهد فدخل القاضي على السلطان ولما مثل أمامه أنسه السلطان بالكلام وسأله عن أشياخه فأجاب بما لا طائل تحته فقال السلطان للحاجب ابعت بالقاضي إلى خباء القاضي أبي زيد

عبد الرحمن بن الكامل وهو الذي يتوجه قاضيا مع المحلة إلى السوس إن شاء الله فأنزله عليه وادفع له هذا الكيش وهذا العسل فسار الحاجب بالقاضي وبالكيش والعسل إلى خباء قاضي العسكر أبي زيد بن الكامل وأمره أن يكرم القاضي ليلته ومن الغد ارتحل السلطان قافلا إلى مراکش فلما تعالی النهار نزل على وادي نفيس وضرب له هنالك صيوان الرضاة على شاطئ النهر ثم استدعى القاضي أبا زيد وسائر الكتاب ولما جلسوا بين يديه سأل القاضي على وجه المداعبة وقال له بم أجزت ضيفك على كبشه وعسله فتلعثم في الجواب وعلم أن السلطان قصد اختباره بذلك وأنه لم يصنع شيئا حيث أهمل أمره ولما رأى رحمه الله خجلته قال فلعلك لم تجزه فلو مدحته على كبشه وعسله لصادفت المقصود وخرجت من العهدة وما بعثت إليكم إلا بسبب هذا الكيش والعسل فإني سهرت ليلتي ولم أقم ونذرت ما اتفق للمنصور السعدي مع كتابه في مثل هذه القضية وعلمت أنه لم يبق في وقتنا هذا كتاب ولا أدباء ولا أمراء وأسماعكم ما اتفق للمنصور في زيارته هذه القرية الأغماتية ثم أمر كاتبه ابن المبارك أن يقرأ عليهم ما حكاه الفشتالي في مناهل الصفا عن خروج المنصور السعدي إلى أغمات بقصد الزيارة والنزهة وما اتفق للقاضي أبي مالك عبد الواحد الحميدي مع من أهدى له الكيش والعسل من الشعر والذي شايعه عليه جماعة من كتاب الدولة وقد أئمننا بخبر هذه الخرجة للمنصور عند ذكر أخباره حسبا مر وقد ذكر صاحب النزهة أبيات الحميدي ومن قفا نهجه من الكتاب فلتنظر هنالك فقرأ الكاتب المذكور الترجمة كلها على الكتاب حتى سمعها وعاب السلطان عليهم تقصيرهم في قضيتهم الموافقة لها وفي ظني أن السلطان رحمه الله أمرهم بنسخ ذلك ومراجعته تحريكا لهمتهم والله أعلم

ذكر السبب الذي هاج غضب السلطان سيدي محمد بن عبد الله على ابنه المولى يزيد رحمه الله ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة وألف فيها قدم ولد السلطان المولى عبد السلام من الحجاز فولاه السلطان رحمه الله تارودانت والسوس وما إليها ثم لما حضر زمان خروج الركب الحجازي أحضر السلطان صهره وابن عمه المولى عبد الملك بن إدريس وكاتبه أبا عبد الله محمد بن عثمان المكناسي وأبا حفص عمر الوزريق وشيخ الركب أبا محمد عبد الكريم بن يحيى وحملهم على وجه الأمانة مالا لأشرف مكة والمدينة وسائر الحجاز واليمن وقدره ثلاثمائة ألف ريال وخمسون ألف ريال وبعث معهم صلوات أخر لأناس معينين في حقائق مختوم عليها مكتوب على كل واحد منها اسم صاحبه وأمرهم أن يذهبوا أولا إلى القسطنطينية حتى يكون مسيرهم إلى الحجاز مع أمين الصرة الذي يوجهه السلطان العثماني إلى الحرمين كل عام وإنما ارتكب السلطان هذه المشقة حذرا من ابنه المولى يزيد أن يعترضهم في الطريق وينتزع منهم المال فبعثهم السلطان في البحر في بعض قراصين السلطان عبد الحميد وكتب إليه أن يبعثهم مع أمين صرته فلما وصلوا إلى القسطنطينية وجدوا أمين الصرة قد سافر بالركب إلى الحجاز فأقاموا بها إلى العام القابل وحينئذ سافروا صحبة الركب ولما وصلوا إلى المدينة المنورة ففرقوا على أهلها وعلى سائر شرفاء الحجاز حظهم من المال ولما وصلوا إلى مكة وجدوا المولى يزيد بها يترصدهم ففرقوا على أهل مكة حظهم وبقي عندهم حظ اليمن والحقاق التي فيها صلوات الذهب فتغفلهم المولى يزيد وقت القبوله وهجم عليهم في جمع من أصحابه وهم بدار شيخ الركب عبد الكريم بن يحيى فانترع منهم ما قدر عليه وأخذ الحقاق وذهب فذهب شيخ الركب والمولى عبد الملك والكاتبان إلى أمير

مكة الشريف سرور وأخبروه الخبر فبعث أعوانه إلى المولى يزيد فحضر عنده وألزمه رد المال وتهده فرد البعض وجحد البعض فبسبب هذا فيما قيل غضب السلطان عليه وتبرأ منه وكتب بالبراءة منه مناشير بعث بها إلى الأفاق فعلق أحدها بالكعبة والأخر بالحجرة النبوية والثالث ببيت المقدس والرابع بصريح الحسين بمصر والخامس بصريح المولى علي الشريف بتأفيلات والسادس بصريح المولى إدريس بزهران والسابع بصريح المولى إدريس بفاس وكتب إلى السلطان عبد الحميد بأن لا يقبله إذا أوى إليه واستمر المولى يزيد مقيما بالمشرق ولم يقدر أن يواجه أباه لسوء صنيعه إلى سنة ثلاث ومائتين وألف كما سيأتي إن شاء الله وفي هذه السنة أعني سنة تسع وتسعين ومائة وألف أسر أهل الجزائر نصرانية من قرابة طاغية الإصبينول كانت متوجهة في مركبها من أصبانيا إلى نابل لزيارة ابن عمها الذي هو صاحب نابل فلما عرف أهل الجزائر محلها من قومها امتنعوا من فدائها بكل وجه فكتب طاغية الإصبينول إلى السلطان رحمه الله يسأله أن يشفع له في فدائها بكل ما يطلبون فأسغفه وكتب

لصاحب الجزائر في شأنها فاعتذر إليه بأن النصرانية في سهم العسكر ولا يمكنه إكراههم على فداها فلما رد صاحب الجزائر شفاعة السلطان كتب إلى السلطان عبد الحميد بذلك فكتب عبد الحميد رحمه الله إلى أهل الجزائر يوبخهم على رد شفاعة السلطان ويقول لهم إن الواجب أن تسرحوها له بدون مال وما عسى أن يبلغ ثمن هذه النصرانية ولو طلب مني سلطان المغرب ألف نصرانية لبعثتها إليه وحتى الآن تأمركم أن تبعثوا إليه بهذه النصرانية ولو كانت هي الملكة ولا تقيضوا فيها فداء أو ما رأيتم ما افكته ملك المغرب من أسرى الترك من كل جنس حتى لم يبق في أسر الكفار مسلم وأنتم تردون شفاعته في نصرانية لا بال لها فلا تعودوا لمثل هذا فيكون سببا لتغيير باطننا عليكم والسلام ولما ورد عليهم فرمان السلطان عبد الحميد لم يسعهم إلا إرسال النصرانية إلى حضرة السلطان رحمه الله وكتبوا إليه بالاعتذار وقالوا إنما امتنعنا من فداها خوف بلوغ خيرها إلى ملكنا فلم نر أن نفتأ عليه وذلك هو الواجب علينا من طريق الخدمة والطاعة فحب من سيدنا أن يقبل عذرنا ولا يظن بنا خلاف هذا والسلام ذكر ما كان من السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى أهل زاوية أبي الجعد حماها الله هذه الزاوية من أشهر زوايا المغرب ولها الفضل الذي يفصح عنه لسان الكون ويعرب تداولها منذ أزمان فحول أكبر ورثوا مقام الولاية والرياسة بها كائرا عن كابر قد عرف لهم ذلك السوق والملوك والغني والصعلوك ولم تزل الملوك من هذه الدولة وغيرها تعاملهم بالإجلال والإعظام والتوقير والاحترام ولما كانت دولة السلطان الجليل الماجد الأصيل نعم على كبيرها لوقتها المراتب البركة أبي عبد الله سيدي محمد العربي بن الشيخ الأكبر سيدي المعطي بن الصالح بعض ما ينقذه الأمير على الأمور والإنسان غير معصوم والمخلوق ناقص إلا من أكمله الله فاتفق أن كان السلطان رحمه الله قافلا في هذه السنة من رباط الفتح إلى مراکش فجعل طريقه على تادلا ونزل على زاوية أبي الجعد فأمر على ما قيل بهدما وطرد الغرباء الملتفين على آل الشيخ بها ثم نقل سيدي العربي المذكور وعشيرته إلى مراکش فأسكنهم بها واستمروا على ذلك إلى أن توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله وبويع ابنه المولى هشام بن محمد بمراكش فأذن لهم في الذهاب إلى بلادهم فعادوا إلى زوايتهم واطمانوا

بها برهة من الدهر ولما كانت دولة السلطان المولى سليمان بن محمد نعم أيضا على سيدي العربي المذكور أمورا نقلها إليه الوشاة عنه فأمر بنقله إلى فاس بعد مكاتبات ومعاتبات يطول جلبها فانتقل إليها وأقام بها مدة ثم سرحه إلى بلاده ثم دخلت سنة مائتين وألف فيها بعث السلطان سيدي محمد رحمه الله كاتبه أبا القاسم الصياني بأشورا إلى السلطان عبد الحميد العثماني بهدية عظيمة من جملتها أحمال من سبائك الذهب الخالص مثل بارات الحديد وكان السلطان رحمه الله يقصد بمثل ذلك الفخر على الملوك وإظهار الغنى وكمال الثروة وذلك من غريب السياسة لمن أقدره الله عليها فقدم أبو القاسم القسطنطينية وألقى بها عبد الملك بن إدريس وشيخ الركب والكاتبين لا زالوا مقيمين بها ينتظرون الموسم من العام القابل قال فأقمت بالقسطنطينية ثلاثة أشهر وعشرة أيام وقضيت الغرض وانقلت إلى السلطان وبعث معي السلطان عبد الحميد أحد خدامه بهدية إلى السلطان رحمه الله قال ولما قدمنا على السلطان نوه بقدري وقال لا أوجه الهدايا للعثماني إلا معك وكان الرئيس الطاهر بن عبد الحق فينش السلاوي حاضرا وقال لا أوجه القراصين الحربية إلا مع الطاهر يسليه بذلك قال وسألني عن مقدار راتب عسكر الترك الذي يقضونه في كل ثلاثة أشهر فقلت له ستون أوقية لكل واحد فاستقل ذلك فقلت له إنه لا يكلفهم في أيام الغزو بمؤنة ولا علف خيل كل أمور السفر عليه ثم ذكر الصياني هنا كلاما طويلا في وصف القسطنطينية العظمى وحال أهلها خارجا عن موضوع كتابنا هذا والله الموفق

ذكر عدد عسكر الثغور في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله وما كان يقبضه من الراتب كان يتغر الصورة أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ما بين جيش وطبجية وبحرية ألفان وخمسمائة وبأسفي مائتان من الطبجية ومائتان من البحرية وتبسط خمسمائة من العبيد وبأزمور خمسمائة منهم كذلك وبأنفي ألفان من العبيد وبالعدوتين ألفان من الطبجية والبحرية وبالهدية ألفان وخمسمائة من العبيد وبالعرانش ألف وخمسمائة ما بين جيش وطبجية وبحرية وبأصبلا والساحل مائتان ما بين طبجية وبحرية وبطنجة ثلاثة آلاف وستمئة من أهل الريف وتبطين ثمانمئة ما بين جيش وطبجية وبحرية فكانت جملة عساكر الثغور ستة عشر ألفا وخمسمائة وراتبهم ثلاثين أوقية لكل واحد في كل ثلاثة أشهر من حساب مثقال للرأس في كل شهر وكانوا في ابتداء الأمر يقبضون راتب كل شهر عند انتهائه فلما كانت هذه السنة أعني سنة مائتين وألف أنعم السلطان رحمه الله على عساكر الثغور بتعجيل راتب خمس عشرة سنة بحساب مثقال للرأس في كل شهر وهذا مال له بال فإنه يقارب ثلاثة ملايين فعل ذلك رحمه الله إعانة لهم وتوسعة عليهم ثم أمر أن يجعل في كل مرسى من مراسي المغرب بيت مال وعند تمام كل ثلاثة أشهر يفتح بيت المال ويعطي لعسكر ذلك الثغر ثلاثون أوقية للرأس حضروا أم غابوا إعانة لهم على عيالهم وأما عطاء الغزو وعطاء عاشوراء والصلات والصدقات فكان يبعث بذلك كله من عنده لا من بيوت الأموال واستمر الحال على ذلك إلى أن توفي رحمه الله فوثب عبيد الثغور على بيوت أموالها وفتحوها واكتسحوها ثم ساروا إلى مكناسة مسقط رأسهم وكان ذلك بإشارة المولى يزيد رحمه الله

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين وألف فيها غزا السلطان قبيلة شراقة بأحواز فاس فنهبهم وشردهم فلجؤوا إلى ضريح الشيخ أبي الشتاء بفشتالة فعفا عنهم ثم سار إلى الحياينة فأطلق الجيش في زروعهم فحصدوها ودرسوها واستصفوها عن آخرها ثم جرد الخيل في طلبهم فاكتسحوا حلهم وأتاهم قال صاحب البستان وكنت يومئذ قد توجهت بجيش إلى عامل وجدة أبلغه إياه فلما رجعت أدرت السلطان ببلاد الحياينة فقلدني ولاية تازا وأعمالها فسرت إليها وأقمت بها سنة كاملة وفي هذه السنة قدم ولد السلطان المولى مسلمة بن محمد من المشرق مفارقا لأخيه المولى يزيد ثم دخلت سنة اثنتين ومائتين وألف فيها أرسل السلطان رحمه الله إلى أيت عطة يأمرهم أن يبعثوا بستمئة رجل منهم وبأربعمائة من عبيد تافيلالت فالمجموع ألف ليكسوم ويسلحهم ويستعملهم في خدمة البحر وجنديته فبعثوا بهم إليه قال صاحب البستان ولما قدموا عليه بمكناسة استدعاني من تازا فقدمت عليه فأمرني أن أتوجه بهم إلى تطاوين كي يقبضوا السلاح والكسوة بها ثم أسير بهم إلى طنجة يكونون بها وأمرني أن أكون أتعادهم بركوب الغلائط العشرين التي بمرساها والخروج بها إلى البوغاز وسواحل أسبانيا والتردد فيها بينهما ليتدربوا على البحر ويتمنروا به قال فذهبت بهم إلى تطاوين على ما رسم السلطان رحمه الله فأخذوا السلاح والكسوة ونفذنا إلى طنجة فأقمنا بها شهرين وكل يوم يركبون السفن ويتطاردون بها فيما بينهم فتارة يخرجون إلى البوغاز وتارة يطرقون سواحل أسبانيا وتارة يرجعون إلى أن زالت عنهم دهشة البحر وفارقهم ميده وأفوه ولما أقبل فصل الشتاء كتب إلى السلطان بالقدوم بهم فلما حللنا مكناسة أمر رحمه الله بعمارة

المشور لدخولنا عليه فلما مثلنا بين يديه دنا منا إلى أن كان في وسطنا وكلم البربر بلسانهم وسألهم عن حالهم في سفرهم فذكروا خيرا فسره ذلك منهم ونشط ثم قال لهم هذا كاتبني وصاحبني قد وليته عليكم وعلى أولادي وبنيني عمي وسائر أهل الصحراء فاسمعوا له وأطيعوا قال ففزعنا وخرس لساني وفهم السلطان عني الكراهية لذلك ثم دخل بستانه وبعث إلى فدخلت عليه فقال لي طب نفسا ولولا أنني أحبك ما وليتكم على أولادي وأهل بيتي وإني لا أستغني عنك وهذا ابن حميدة الذي وليناه بسجلماسة لم تظهر له ثمرة وكل يوم يأتيني بشكوى بولدي الحسين وتطاوله على الناس ولا يمنعه من ذلك وما وليتكم عليهم إلا لهذا الغرض فإتهم يهابونك لمحكك مني ثم كتب إلى جميع أولاده وأعيان سجلماسة وأمر لي بمال الصائر والبناء وعينه ثم ودعته وانفصلت فخرجت من مكناسة إلى فاس ثم منها إلى سجلماسة فدخلتها واستوطنتها وجاء العامل الذي كان بها قبلي حتى قدم على السلطان فقبض عليه ونكبه فنوم المولى يزيد من المشرق واحترامه بضريح الشيخ عبد السلام ابن مشيش رضي الله عنه والسبب في ذلك لما كانت سنة ثلاث ومائتين وألف قدم ولد السلطان المولى يزيد بن محمد من المشرق في ركب الحاج الفيلالي وقصد سجلماسة فلما كان بقرية أبي صمغون لقيه رفقة من أهل سجلماسة فسألهم عن البلاد وأهلها ومن المتولي عليها قالوا أبو القاسم الصياني فلما سمع المولى يزيد ذلك سقط في يده ووجع ثم التفت إلى شيخ الركب الشريف المولى عبد الله بن علي والي الأشراف الذين معه فقال لهم إني كنت عازما على الوصول معكم إلى بلدكم والاستيجار بضريح جدي المولى علي الشريف وأبعث مع أعيان بني

عمي ونوي أسنانهم من يشفع لي عند أبي والآن حيث كان الوالي بهذه البلدة هو الصياني فلا يستقيم لي معه أمر ولا يخيظ ببني وبين والدي بخيظ أبيض وهؤلاء عيالي فخذوهم بارك الله فيكم وادهبوا بهم مع أصحابي ينزلون بدار أخي المولى سليمان ويكونون بها وأما أنا فسأسير إلى ضريح

الشيخ عبد السلام بن مشيش أكون به حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ثم قدم عياله مع أصحابه في جملة الركب وكتب إلى أخيه المولى سليمان بوصيه بعياله خيرا وكتب أيضا إلى شقيقته المولاة حبيبة بالرتب وإلى بني عمه الذين هنالك وبعث بالمكاتيب مع أصحابه ولما وصل الركب إلى بلاد القنادسة تقدم أحد أصحابه بالمكاتيب إلى المولى سليمان ولما قرأها توقف ولم يدر ما يصنع ثم جاء بها إلى أبي القاسم الصياني وأخبره الخبر وقال إن والدي غاضب عليه وإن أنا قابلت عياله فريما ألحقتي به فما العمل فكتب أبو القاسم إلى شيخ الركب بنهائه عن استصحاب عيال المولى يزيد معه وحذره غضب السلطان عليه وقال له إن أردت السلامة لنفسك فابعث بالعيال إلى المولاة حبيبة بالرتب والسلام ولما وصل كتابه إلى شيخ الركب وكانت فيه غلظة نجح فيه كلامه فحبس الركب إلى أن وصل أصحاب المولى يزيد بعياله فبعث معهم من يدلهم على طريق الرتب فسلخوا على وادي كثير ونزلوا عند المولاة حبيبة وكتب أبو القاسم الصياني بالخبر إلى السلطان فزعم أنه استحسن فعله ثم أمره أن يهيبه الظهر والزيد وبعث بهما إلى عيال المولى يزيد مع ثلاثين من العبيد ليأتوا بهم إلى دار البيبي يكونون بها مع أمه وكان السلطان قد أخرجها من الدار وأسكنها بدار البيبي ففعل الزياني ذلك كله وبهذه القضية كان المولى يزيد يعتد على الصياني حتى أنه لما أفضى إليه الأمر قبض عليه وضربه وأمتحنه ولما وصل المولى يزيد إلى ضريح الشيخ عبد السلام رضي الله عنه بعث جماعة من أشرف العلم للشفاعة فيه فأمرهم السلطان أن يأتوا به

فراودوه على الإتيان فامتنع ثم بعث إليه ثانيا فأبى ثم ثالثا فأبى فكتب إليه بالعفو مرارا فلم يقبل وتصدى للخلاف وكشف وجه العصيان وصار يكتب لوالده بما يحفظه هكذا زعم الصياني ولا يخفى أن الرجل كان مناونا له فلا ينبغي أن نسمع منه جميع ما ينسبه إليه والله أعلم بحقيقة الأمر ثم إن السلطان بعث إليه شقيقه المولى مسلمة في عسكر وأمره أن ينزل بقرية ويضيق عليه ويمنعه النزول من الحرم ثم بعث إليه عسكرا آخر مع القائد العباس البخاري فنزلوا بقرب الحرم من الناحية الأخرى وضيقوا عليه حتى منعه التصوف بكل حال وفي مدة مقامه هنالك أخذ في تأسيس داره وبناء مسجده ولا زالت جدرانها قائمة أسفل الجبل إلى الآن واستمر المولى يزيد محصورا هنالك إلى أن بلغه خبر وفاة أبيه رحمه الله فكان من أمره ما نذكره إن شاء الله وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لما اعتصم المولى يزيد بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وراوده السلطان على النزول مرارا فأبى نهض إليه من مراکش وأراد أن يحضر عنده بنفسه لعله تسكن نفسه ويذهب ما بصدرة من الجزع والنفرة وكان عند خروجه من مراکش به مرض خفيف فتحمل المشقة وجد السير فتزايد به المرض في الطريق فوصل إلى أعمال رباط الفتح في ستة أيام فأدركته منيته رحمه الله وهو في محفته على نحو نصف يوم أو أقل من رباط الفتح فأسرعوا به إلى داره من يومه ذلك وهو يوم الأحد الرابع والعشرون من رجب سنة أربع ومائتين وألف ومن الغد اجتمع الناس لجنائزه وانحشروا من كل وجه فجهز ودفن بقبة من قباب داره وتأسف الناس لفقدته خاصة وعامة رحمه الله ورضي عنه

بقية أخبار السلطان سيدي محمد ابن عبد الله ومآثره وسيرته كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله محبا للعلماء وأهل الخير مقربا لهم لا يغيبون عن مجلسه في أكثر الأوقات وكان يحضر عنده جماعة من أعلام الوقت وأئمتهم منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد ابن الإمام سيدي عبد الله الغربي الرباطي والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله سيدي محمد المير السلاوي والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدى والفقيه السيد أبو زيد عبد الرحمن المدعو بأبي خريص هؤلاء هم أهل مجلسه الذين كانوا يسردون له كتب الحديث ويخوضون في معانيها ويؤلفون له ما يستخرجه منها على مقتضى إشارته وكانت له عناية كبيرة بذلك وجلب من بلاد المشرق كتبا نفيسة من كتب الحديث لم تكن بالمغرب مثل مسند الإمام أحمد ومسند أبي حنيفة وغيرهما وألف رحمه الله في الحديث تأليف بإعانة الفقهاء الذين ذكراهم أتفا منها كتاب مساند الأئمة الأربعة وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم التزم فيه أن يخرج من الأحاديث ما اتفق على روايته الأئمة الأربعة أو ثلاثة منهم أو اثنان فإذا انفرد بالحديث إمام واحد أو رواه غيرهم لم يخرج وهذا المنوال لم يسبق إليه رحمه الله وكان كثيرا ما يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع فقيهاها ومن يحضره من علماء فاس وغيرها للمذاكرة في الحديث الشريف وتفهمه ويحصل له بذلك النشاط التام وكان كثيرا ما يتأسف أثناء ذلك ويقول والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة ويتحسر على ما فاتته من قراءة العلم أيام الشباب ولما فاتته الاشتغال بفنون العلم في حال الصغر اعتكف أولا على سرد كتب التاريخ وأخبار الناس وأيام العرب ووقائعها إلى أن تملأ من ذلك وبلغ فيه الغاية القصوى وكاد يحفظ ما في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني من كلام العرب وشعراء الجاهلية

والإسلام ولما ولاه أمر المسلمين بعد وفاة والده زهد في التاريخ والأدب بعد التزلع منهما وأقبل على سرد كتب الحديث والبحث عن غريبها وجلبها من أماكنها ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها ورتب رحمه الله لذلك أوقاتا مضبوطة لا تتخرم حذا بها حذو المنصور السعدي في أوقاته المرسومة عند الفشتالي في مناهل الصفا حتى أنه كان إذا خرج لزيارة أو صيد أو نزهة أيام الربيع وأقام الأسبوع ونحوه فإذا حانت الجمعة ودخل تحرى النزول بمنازل المنصور التي كان ينزل بها وقت خروجه لزيارة أعمات ونحوها ورجوعه ويقول هذه منازل المنصور رحمه الله وهو أستاذنا في مثل هذه الأمور ومن عجيب سيرته رحمه الله أنه كان يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره وإعراضهم عن الأمهات المبسطة الواضحة تضيق للأعمار في غير طائل وكان ينهى عن ذلك غاية ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما ويبالغ في التشجيع على من اشتغل بشيء من ذلك حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل وإنما كان يحض على كتاب الرسالة والتهديب وأمثالهما حتى وضع في ذلك كتابا مبسوطا أعانه عليه أبو عبد الله الغربي وأبو عبد الله المير وغيرهما من أهل مجلسه ولما أفضى الأمر إلى السلطان العادل المولى سليمان رحمه الله صار يحض الناس على التمسك بالمختصر ويبدل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة والكل ماجور على نيته وقصده غير أنا نقول الرأي ما رأى السلطان سيدي محمد رحمه الله وقد نص جماعة من أكابر الأعلام النقاد مثل الإمام الحافظ أبي بكر بن العربي والشيخ النظار أبي إسحاق الشاطبي والعلامة الواعية أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون وغيرهم أن سبب نزوب ماء العلم في الإسلام ونقصان ملكة أهله فيه إكباب الناس على تعاطي المختصرات الصعبة الفهم وإعراضهم عن كتب الأقدمين المبسطة المعاني الواضحة الأدلة التي تحصل لمطالعها الملكة في أقرب مدة ولعمري لا يعلم هذا يقينا

إلا من جربه وذاقه وقد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب أن ملوك بني عبد المؤمن كانوا يحملون الناس على الرجوع في الأحكام إلى الكتاب والسنة كل ذلك اعتناء بالعلم القديم ومحافظة على أصوله والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية رضي الله عنهم وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل وكان يقول عن نفسه حسبا صرح به في آخر كتابه الموضوع في الأحاديث المخرجة من الأئمة الأربعة أنه مالكي مذهبنا حنبلي اعتقادا يعني أنه لا يرى الخوض في علم الكلام على طريقة المتأخرين وله في ذلك أخبار ومجريات قلت وهو مصيب أيضا في هذا فقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتاب الإحياء إن علم الكلام إنما هو بمنزلة الدواء لا يحتاج إليه إلا عند حدوث المرض فكذلك علم الكلام لا يحتاج إليه إلا عند حدوث البدعة في قطر وقد حرر الناس القدر المحتاج إليه في حق العامة وغيرهم والمنتدئين والمنتهين والأغبياء والأذكياء بما ليس هذا محل بسطه وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله عالي الهمة يحب الفخر ويركب سنامه ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الأكفاء ويخاطبونه مخاطبة السادة ويمدهم بالأموال والهدايا حتى علا صيته عندهم وحسبوه أكثر منهم مالا ورجالا وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ويضع الأشياء مواضعها ويعرف مقادير الرجل ويؤدي حقوقهم ويتجاوز عن هفواتهم ويراعي لأهل السوابق سوابقهم ويتفقد أحوال خدامه في الصحة والمرض ولا يغفل عن من كان يعرفه قبل الملك وكان من الشجعان المذكورين في وقته يبائر الحروب بنفسه ويهزم الجيوش بهيبته وكان يقتني الرجال

ويعمل بقواعد السياسة في الحروب وكان إذا وجه أحدنا ممن يعرف نجدته وكفايته ينشد قول ابن دريد والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمرنا وبالجملة فقد كان رحمه الله من عظماء الملوك وخذل آثارا كثيرة بالمغرب فمن ذلك بمرآكش تجديد ضريح الشيخ أبي العباس السبتي ومسجده ومدرسته وضريح الشيخ التباع ومسجده وضريح الشيخ الجزولي ومسجده وضريح الشيخ الغزواني ومسجده وضريح الشيخ ابن صالح ومسجده وضريح المولى علي الشريف ومسجده الأعظم وضريح الشيخ ميمون الصحراوي ومسجد الملوك ببريمة ومدرسته وتجدد جامع المنصور والمسجد الأعظم بباب دكالة والمسجد الأعظم بباب هيلانة والمسجد الأعظم بالرحبة ومساجد القصبية ومدارسها الست ومسجد زاوية الشرايي ومسجد رباط شاكر ومدينة الصويرة بمساجدها ومدارسها وصقائلها وأبراجها وكل ما فيها ومسجد أسفي ومدرسته ومسجد مدينة تيط ومدينة أنفا ومسجدها ومدرستها وحماتها وصقائلها وأبراجها ومدينة فضالة ومسجدها ومدرستها والمصورية ومسجدها وجامع السنة ورباط الفتح ومساجد أجدال السنة وأبراجه والصقالتين الكبيرتين بسلا ورباط الفتح ومسجد العرائش ومدرسته وصقائلها وأبراجها وسوقها وصقائل طنجة وأبراجها والمسجد الأزهر ومدرسته بإصطبل مكناسة ومسجد البردعيين بها وضريح الشيخ ابن عيسى وضريح الشيخ أبي عثمان سعيد ومسجده ومدرسة الصهريرج ومدرسة الدار البيضاء ومسجد بريمة ومدرسته ومسجد هدراش ومسجد باب مراح وثلاثة أفراس بقنطرة وادي سبو خارج فاس وضريح الشيخ علي بن حرزهم وضريح الشيخ دراس بن إسماعيل

وضريح أبي عبد الله التاودي ومدرسة باب الجيسة ومسجد تازا ومدرسته وضريح المولى علي الشريف بسجلماصة وقصبية الدار البيضاء بها ومسجدها ومدرستها ومسجد الريصاني ومدرسته وأوقافه على المارستان بفاس ومرآكش فهذه الآثار كلها مما سمت إلى تخليد همته الشريفة وبعضها أنشأها وبعضها أصلحه وجمده ورتب للأشراف بتفانيات في كل سنة مائة ألف مثقال سوى ما ينعم به عليهم في أيام السنة متفرقا ورتب لأهل الحرمين الشريفين وشرفاء الحجاز واليمن مائة ألف مثقال أيضا في السنة ولشرفاء المغرب مائة ألف مثقال كذلك وأما الطلبة والمؤذنون والقراء وأئمة المساجد كانت تأتيهم صلواتهم في كل عيد وأما ما كان ينفقه في الجهاد على رؤساء البحر وطبجيته وما يضيئه على المراكب الجهادية والآلات الحربية التي ملأ بها بلاد المغرب فشيء لا يحصيه الحصر وأما ما أنفقه من الأموال في فكاك أسرى المسلمين فأكثر من ذلك كله حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير لا من المغرب ولا من المشرق ولقد بلغ عددهم في سنة مائتين وألف ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة وأوقافه بالحرمين الشريفين وكتبه العلمية المحبسة بهما لا زالت قائمة العين والأثر إلى الآن وأما اعتناؤه بالمراكب القرصانية فقد بلغ عددها في دولته عشرين كبارا من المربع وثلاثين من الفراكت والغلائط وبلغ رؤساء البحر عنده ستين رئيسا كلها بمراكبها وبحريتها وبلغ عسكر البحرية ألفا من المشاركة وثلاثة آلاف من المغاربة ومن الطبجية ألفين وبلغ عسكره من العبيد خمسة عشر ألفا ومن الأحرار سبعة آلاف وأما عسكر القبائل الذي كان يغزو من الجند فمن الحوز ثمانية آلاف ومن الغرب سبعة آلاف وكانت له هيبة عظيمة في مشوره وموكبه يتحدث الناس بها وهابته ملوك الفرنج وطواغيتهم ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف يطلبون مسالمة في البحر بلغ ذلك رحمه الله بسياسته وعلو همته حتى عمت مسالمة أجناس النصارى كلهم إلا المسكوب فإنه لم يسالمة لمحاربهه للسلطان العثماني ولقد وجه رسله وهديته إلى طنجة فردها السلطان رحمه الله وأبى من مسالمة ووظف على الأجناس الوطائف فالتزموها وكانوا يؤدونها كل سنة واستمر ذلك من بعده إلى أن انقطع في هذه السنين المتأخرة وكانوا يستقبلون مرضاته بالهدايا والأطراف وكل ما يقدرون عليه ومهما كتب إلى طاعية في أمر سارع إليه ولو كان محرما في دينه ويحتال في قضاء الأغراض منهم بكل وجه أحبوا أم كرهوا وكان أعظم طواغيتهم طاعية النجليز وطاعية الفرنسيين فكانوا يأنفون من أداء الضريبة علانية مثل غيرهم من الأجناس فكان رحمه الله يستخرجها منهم وأكثر منها بوجه لطيف وكان له عدة أولاد أكبرهم أبو الحسن علي والمأمون وهشام وعبد السلام هؤلاء لربة الدار المولودة فاطمة بنت عمه سليمان بن إسماعيل ثم عبد الرحمن أمه حرة من أهل رباط الفتح ثم سليمان والطيب وموسى أمهما علة من سبي الإصبيبول ثم الحسن وعمر أمهما حرة من الأحلاف ثم عبد الواحد أمه حرة من أهل رباط الفتح ثم سليمان والطيب وموسى حرة من الأحلاف أيضا ثم الحسن وعبد القادر حرة من الأحلاف أيضا ثم عبد الله حرة من عرب بني حسن ثم إبراهيم لعلجة رومية ومما مدح به السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من الشعر أرجوزة الأديب البليغ أبي العباس أحمد الونان المعروفة بالشقمقبية التي يقول في مطلعها مهلا على رسلك حادي الأبنيق ولا تكلفها بما لم تطق وهذه الأرجوزة مشهورة بين الناس وهي من الشعر الفائق والنظم البديع الرائع أبان منشئها عن باع كبير وإطلاع غزير على أخبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها بحيث أن من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الأدب وقد كنت في أيام التعاطي اعتنيت بتصحیح ألفاظها والتتبع لأخبارها وأمثالها والتتفير عن تلميحاتها وتلويحاتها حتى فضضت ختامها واستوعبت مبدأها وتمامها ثم شرعت في كتابة شرح عليها يحيط بمعانيها

ويستوعب دقائق مبانيتها فكتبت منه نحو أربعة كراريس ثم عاقت الأقدار عن إتمامه نسأل الله سبحانه وتعالى أن يصرف عنا العوائق فيما ينفعنا في ديننا ودينانا ويحفظنا بالسعادة الدنيوية والأخروية في متقلبنا ومثواننا إنه ولي ذلك والقادر عليه ومن وزراء السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله الوزير الشهير أبو عبد الله محمد العربي قادوس المدعو أفاندي كان من موالى السلطان وغرس نعمته وربى دولته وأصله من أعلام الإصبيبول وكان شعلة من الذكاء والفتنة وركنا شديدا من أركان الدولة المحمدية في حسن التدبير والحزم الذي لا يعزب عنه من أمور الحضرة قليل ولا كثير وقد أدرك من فخامة الجاه وضخامة الرياسة غاية تفرد بها في وقته بحيث كانت الأعظم من وجوه الدولة تقف ببابه اليومين والثلاثة فلا يتيسر لهم لقاءه ولما توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله امتحن المولى يزيد هماما الوزير في جملة من امتحنه من أهل مراكش كما سيأتي الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى يزيد بن محمد وأوليته ونشأته رحمه الله كان المولى يزيد هذا عند والده رحمه الله بعين العناية ملحوظا ومن النفاض محروسا ومحفوظا وكان عامة أهل المغرب وخاصتهم من الجند والرعية متشوفين له ومغتنبين به يهتفون باسمه ويلهجون بذكره لما كان عليه من الكرم والشجاعة والتمسك بمذاهب الفتوة والدين والاعتناء بجوائز أهل البيت ومحبة أهل الخير وإكرامهم وإقامة الصلوات لأوقاتها حضرا وسفرا لا يشغله عن ذلك شاغل فأصابته عين الكمال وصار ينتقل من حال إلى حال حتى خالطته جماعة من الأعمار كانوا في خدمته فلزموه وحسنوا له الاستبداد على والده والخروج عليه وأتوه من بين يديه ومن خلفه حتى وقر ذلك في صدره وارتمس فيه وكان ذلك على حين أوان الشيبية وأخذها

منه مأخذها وكانت همته طماحة لا تقف به عند غاية فاستعجل الأمر قبل أوانه وخرج على والده بجيش العبيد حسبما مر ولسان حاله ينشد فإن يك عامر قد قال جهلا فإن مظنة الجهل الشباب فسقطت منزلته عند أبيه بعد أن بلغ من الحظوة لديه ما بلغ وكان يرشحه للخلافة ويقمه على كبار إخوته لما ظهر له من نجدته واقتداره وجوده في محل الجود ورغبته في الجهاد وولوعه بصناعة الرمي بالمهراث فأسند إليه أمر الطبجية والبحرية وصار يوجهه مع الرؤساء والطبجية إلى الثغور كل سنة ليقف على الملازمين لصقائلها وأبراجها ويعلمهم ما يحتاجون إلى تعلمه ولما راه والده مغتبطا بذلك وتوسم فيه النجابة أقبل عليه بالعاء ثم ولاه الكلام مع قناصل الأجناس الذين بالمراسي واستنابة في ذلك وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ولاه السلطان على قبيلة كروان وهم يومئذ أعظم قبائل البربر خيلا ورجالا فأسند إليه أمرهم وتقدم إليه في أن يفهم عن الحرب مع آيت أدراسن فسار إليهم واغتنبوا به واغتنب بهم وصار أحداثهم وأبناء أعيانهم يركبون معه للصيد فغمرهم بالعاء وأنعم عليهم بالخيل والسلاح والكسي ولزموا مجلسه حتى أفسدوا قلبه وحسنوا له الانتزاع على الملك وقالوا هذا بيت المال الذي بقية الخياطين هو في يدك وليس دونه مانع وبه يقوم ملكك ومتى استدعيت إخواننا آيت ومالو لم يتوقفوا عنك طرفة عين ولا يقوم لهم شيء من الجند وغيره ولم يزلوا يفتلون له في الذروة والغراب حتى شرهت نفسه وصار لا حديث له إلا في ذلك واطلع على ذلك قائد الودايا أبو محمد عبد القادر بن الخضمر وكان محبا في

جانب السلطان صادق الخدمة والطاعة له فكتب إليه بما عليه ولده مع جروان وأنهم يأتون إليه بالمائة والمائتين وبيبتون عنده بالقصبة ونحن خفنا أن يبرز من ولدك أمر فتعاقبنا عليه فأخبرناك بالواقع

ولما وصل كتابه إلى السلطان بعث للحين قائده العباس البخاري في مائة من الخيل للقبض على المولى يزيد وأصحابه وقد قلنا لك أن الجند والرعية معا كانوا معتبين بالمولى يزيد فلما وصل القائد العباس إلى سلا دس إلى المولى يزيد أنه مقبوض فلينج بنفسه فخرج المولى يزيد من مكناسة ليلا في خاصته وأصحابه من جروان وقصدوا آيت ومالو ولما وصل القائد العباس إلى مكناسة ألقاهم مقفرا من المولى يزيد وشيعته فأقام بها وكتب إلى السلطان يعلمه بالخبر فبعث السلطان إلى المولى يزيد كاتبه أبا عثمان سعيد الشليخ فقدم عليه بزواية آيت إسحاق لأنه لم يجد من قبائل آيت ومالو إلا مهاوش وشقيرين فتجاوزهم إلى الزاوية المذكورة ولما أتاه أبو عثمان المذكور بكتاب والده وأمانه سار معه إلى مراکش ولما وصل إليها دخل ضريح أبي العباس السبتي فاحترم به ثم عفا عنه السلطان واجتمع به فتنصل مما رمى به ونسب ذلك إلى سفهاء جروان وأنه لم يوافقهم على ذلك فأضمر السلطان الإيقاع بهم ولما قدم من مراکش سنة أربع وثمانين ومائت ألفا قصدهم بالكريكرة وأوقع بهم وقتل منهم نحو الخمسمائة حسبا مر وأنزل المولى يزيد مع أخويه المولى علي والمولى عبد الرحمن بفاس فأقام بها مدة ثم حدثت حرب بينه وبين أخيه المولى عبد الرحمن بوسط فاس العليا وهلك فيما بينهما عدد وبلغ خبر ذلك إلى السلطان فقدم مكناسة وبعث من يقبض عليهما فقبض على المولى عبد الرحمن وأصحابه وفر المولى يزيد إلى ضريح المولى إدريس الأكبر بزروان فأتى به الأشراف إلى والده فسامحه ثم سرح المولى عبد الرحمن وسأل عن أحوال أصحاب الأخوين معا ثم عرف صالحهم من طالحهم فأخرجهم من السجن وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وكانوا ثلاثين رجلا وسرح الباقين ونقل المولى عبد الرحمن إلى مكناسة وترك المولى يزيد بفاس ثم إن المولى عبد الرحمن كان يسابق يوما في الميدان ويلعب بالبارود فقتل رجلا من بني مطير فجاء إخوته إلى

قائدهم محمد بن محمد واعزيز فأدى دينه من عنده وعفوا وكتب عليهم سجلا بذلك وسكنت الهيئة فاتفق أن وجه السلطان قائده العباس إلى مكناسة لقتل أناس كانوا بسجن مكناسة فلما سمع به المولى عبد الرحمن ظن أنه قدم في شأن المطيري المقتول وأن خبره قد بلغ السلطان ففر من مكناسة ليلا إلى وجدة ثم إلى تلمسان واتصل خبر فراره بالسلطان فسأل عن السبب فأخبره القائد العباس بالواقع فبعث إليه الأمان فلم يثق ثم سار إلى تلمسان إلى سجداسة فبعث إليه السلطان من يؤمنه ويأتي به إليه فلم يثق وفر إلى السوس فبعث إليه السلطان أمانا إلى السوس ففر إلى القبلة وأقام يتردد في قبائلها إلى أن توفي السلطان رحمه الله فجاء إلى تارودانت فأقام بها وطلب الأمر فلم يتم له أمر ومات رحمه الله وأما المولى يزيد فإنه أقام بفاس إلى أن استدعاه والده للقدوم عليه بمراكش فقدم عليه ثم اتفق قيام العبيد على السلطان بسبب الإدالة التي أمرهم بتوجيهها إلى طنجة حسبا مر فبعث المولى يزيد لإصلاحهم وردهم عن غيهم فلما وصل إليهم استقزوه بقولهم وحرخوا منه ما كان ساكنا واستخرجوا ما كان كامنا فبايعوه وخطبوا به حسبا مر الخبر عن ذلك مستوفى وانحرف ثور بن الخضر بالودايا عنه ولما فتح المولى يزيد بيت المال وأعطى العبيد بعث إلى الودايا بعهظتهم يستهويهم به وكان شيئا كثيرا فردوه عليه وانضم محمد واعزيز في بربره إلى الودايا فقصدهم المولى يزيد والتقوا بالمشتهي من مكناسة فهزموه وقتل من العبيد ما ينيف على الخمسمائة ثم قدم السلطان في العساكر وجموع القبائل ففر المولى يزيد إلى زروان فقتلته السلطان وزار المولى إدريس رضي الله عنه فشفع له الأشراف الأدارسة فيه فقبل شفاعتهم وعفا عنه حسبا مر ثم بعد هذا بعثه إلى المشرق وصدر منه بمكة في حق شيخ الركب ما صدر فكانت تلك الفعلة هي المخالفة وبها تبرا السلطان منه ثم قفل من المشرق سنة ثلاث ومائتين وألف والتجأ إلى ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش إلى أن توفي والده حسبا قصصنا عليك من قبل وبإياه التوفيق

بيعة أمير المؤمنين المولى يزيد بن محمد رحمه الله لما توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله في التاريخ المتقدم وبلغ خبر موته المولى يزيد وهو بالحرم المشيشي بابيعه الأشراف هنالك وسائر أهل الجبل وتقدم إليه السابقون من الجند الذين كانوا محاصرين له فبايعوه واستتب أمره فتوجه إلى تطاوين إذ هي أقرب الثغور إليه فبايعه أهلها والقبائل المجاورة لها وأطلق الجند على يهود تطاوين فاستباحهم واصطلم نعمتهم ثم وفد عليه أهل طنجة والعرائش وأصيلا فقابلهم بما يجب ثم توجه إلى طنجة فخرج عسكرها لقاتله ففرح بهم وأحسن إليهم وبها قدم عليه وفد أهل فاس من أشرفها وعلمائها وأعيانها فأكرمهم وولى عليهم أبا عبد الله محمد العربي الذيب ثم انتقل إلى العرائش فوفاه بها حاشية أبيه وخدمه ووجوه دولته بمختلف والده وقيابه وخيله وبغاله وسائر أثائه فأحسن إليهم وصاروا معه في ركابه إلى زروان ولما وصل إليها قدم عليه أخوه المولى سليمان من تافيلالت بقبائل الصحراء عربها وبربرها ومعه بيعة أهل سجداسة وكان قد استجار به محمد واعزيز فإنه كان خانقا على نفسه من المولى يزيد لانحرافه عنه أيام أبيه فسار في صحبته بقبائله ولما اجتمع بالسلطان سامحه وأبقاه على قومه ولما دخل مكناسة قدمت عليه قبائل الغرب كلها عربها وبربرها حتى عصاة آيت ومالو ودجالهم مهاوش فأعطى مهاوش وحده عشرة آلاف ريال وأعطى الذين قدموا معه مائة ألف ريال ثم قدمت عليه قبائل الحوز كله من عرب وبربر لم يتخلف عن بيعته أحد وقدم عليه أهل مراکش وأعمالها ببيعتهم ونصها الحمد لله المنفرد بالملك والخلق والتدبير الذي أبدع الأشياء بحكمته واخترع الجليل منها والحقير الغني عن المعين والمرشد والوزير ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء وهو

المدير القدير جاعل الملوك كفا للألف العادية ولايتهم مرتعا للعباد في ظل الأمن والعافية وبيعتهم أمنا من الهرج والفساد وقمعا لأهل الشر والعناد فهم ظل الله على الأنام وحصن حصين للخاص والعام حسبا فأصبح بذلك سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فتبارك الله ربنا الذي شرف هذا الوجود وزين هذا العالم الموجود بهذه الخلافة المباركة والإمامة الحسنية الهاشمية العلوية والطلعة القرشية المحمدية التي انصرفت الوجوه إلى قبيلتها المشروعة واستبان الحق عند مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة نحمده تعالى على ما من به علينا من هؤلاء الإمامة السعيدة ونشكره جل جلاله شكرا نستوجب به من الهنا أفضله ومزيده ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له ليس في الوجود إلا فعله أجرى الأقدار على حسب ما اقتضاه حكمه وعدله ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله ومصطفاه من خلقه وخليفه سيد المخلوقات كلها من إنس وجان المصطفى من ذوابة معد بن عدنان صاحب الشريعة المطهرة التي لا يختلف في فضلها اثنان والدين القويم الذي هو أفضل الأديان الذي اختصه الله ما بين الأنبياء بمزية التفضيل والتقديم واقتضى على أمته الغراء فريضة الصلاة والتسليم وأتتى عليه في كتابه الحكيم فقال جل ثناؤه وتقدست صفاته وأسماؤه وإنك لعلى خلق عظيم القلم صلى الله عليه صلاة متصلة الدوام متعاقبة بتعاقب الليالي والأيام وعلى آله الكرام الأطهار وصحابته النجباء البررة الأخيار الذين أوضحوا لنا الحق تبيانا وأسوا لهذه الملة السمحة قواعد وأركانها وعلى من اتقى أثرهم القويم واهتدى بهديهم المستقيم إلى يوم الدين أما بعد فإن الله تعالى جعل صلاح هذا العالم وأقطاره المعمورة ببني آدم منوطا بالأئمة الأعلام محوطا بالملوك الذين هم ظل الله على الأنام فطاعتهم ما داموا على الحق واتفقا والله سعادة والاعتصام بحبلهم إذ ذاك واجب وعبادة قال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن النساء وقال عليه السلام إن أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا وقال عليه السلام على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة وقال عليه السلام من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبيية أو يدعو إلى عصبيية أو ينصر عصبيية فقتل فقتلته جاهلية ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي لذي عهدها فليس مني ولست منه أخرجها مسلم كلها وقال عليه السلام السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه الضعيف وبه ينتصر المظلوم ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة أو كما قال وقال عليه السلام السلطان العدل المتواضع ظل الله ورحمه في الأرض يرفع الله له عمل سبعين صديقا ولما كان أهل بيت سيد المرسلين أعظم قريش في قلوب المؤمنين وأكرمهم منزلة عند رب العالمين أنالهم الله تعالى في خلقه فضلا كبيرا ومنحهم إجلالا ورفعة وتعتظيما وتكبيرا قال الله تعالى

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا الأحزاب وقال عليه الصلاة والسلام النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي وإن ممن آمنن الله به علينا من أهل هذا البيت الشريف الذي أولاه الله أشرف التعظيم وأعظم التشريف وقدمه تعالى لسلطانه العزيز ورفع له علا على منصة التبريز عميد المجد الذي لا يتناهى فخره ووحيد الحسب جل منصبه وقدره الإمام الذي ألقى له الإمامة زمامها وقدمته الأفاضل لفضله إمامها من جاءت له الخلافة تجر أذيالها وأخذها دون بني أبيه ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها ومن جبلت قلوب الخلاق على محبته وألقى له القبول في الأرض لمجده ولعلو همته السلطان السعيد الوائق بربه المعين الرشيد أبا المكارم والمفاخر سيدنا ومولانا يزيد ابن مولانا الإمام السلطان

الهمام المرحوم بالله سيدي محمد ابن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الله ابن السلطان الجليل أمير المؤمنين مولانا إسماعيل ابن مولانا السادة الأشراف ذوي الفضل والكرم والإنصاف قدس الله أرواحهم في أعلى الجنان ومنحهم فضله الرضا والرضوان أيد الله ببقائه الدين وطوق بسيفه الملحدين وكتب تحت لوائه المعتدين وكتب له النصر إلى يوم الدين وأعاد به الأرض من لا يدين بدين وأعاد بعدله أيام آياته الخلفاء الراشدين وأسكن في القلوب سكنيته ووقاره ومكن له في الوجود وجمع له أقطاره هو والله ممن فيه استحقاق ميراث آياته الأعلام وتراث أجداده الكرام المجمع عليه أنه في هذه الأيام فرد هو الأمان وواحد وهكذا في الوجود الإمام الراقي في صبح سماء هذه الذروة المنيفة الباقي بعد الأئمة الماضين نعم الإمام ونعم الخليفة سلالة الأخيار وخالصة أبناء النبي المختار أسمى الله إيالته الشريفة وأثار البسيطة بأنوار مملكته الشامخة المنيفة انعقد الإجماع من أهل هذه الحضرة المراكشية حاطها الله وما حولها من أهل السوس وكافة الرحامنة وغيرهم من قبائل عديدة حسبما تضمنته أسماء من يكتب اسمه منهم عقبه بخط من يكتب منهم أو خطوط العدول الثقافات عمن لم يكن يحسن الكتابة وأذنوا لمن يكتب عنهم بيعة تم بمشيئة الله تمامها وعم بالصوب المغنق غمامها سعيدة ميمونة شريفة لها السلامة في الدين والدنيا مضمونة صحيحة شرعية ملحوظة مرعية دائمة لازمة جازمة صحيحة صريحة متعبة مريحة على الأمن والأمانة والعفاف والديانة وعلى ما بويح به مولانا رسول الله والخلفاء الراشدون من بعده والأئمة المهتدون الموفون بعهده وعلى السمع والطاعة وملازمة السنة والجماعة قربت بها نواظرهم وشهدت بذلك على صفاء بواطنهم وظواهرهم وأعطوا بها صفقة أيديهم وأمضوا إمضاء يدينون به في السر والجهر والمنشط والمكره والبسر والعسكر أجمع عليها أرباب العقد

والحل وأصحاب الكلام فيما قل وجل ومن يوصف بعلم وقضاء ومن يرجع إليه في رد وإمضاء لم يخالف فيها إمام مسجد ولا خطيب ولا ذو فتوى يسأل فيجيب ولا من يجتهد في رأي فيخطيء أو يصيب ولا معروف بدين وصلاح ولا فرسان حرب وكفاح ولا طاعن برمح ولا ضارب بصفاح ولا ولاة الأمر والأحكام ولا حملة العلم الأعلام ولا حماة السيوف والأقلام ولا أعيان السادة الأشراف ولا أكبر الفقهاء ومن انخفض قدره ومن أنف بيعة تمت بها نعمة من وحد الله قائلين الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله الأعراف إن الذين يبياعونك إنما يبياعون الله الفتح الآية فمن حضر خواص من ذكر وعوامهم قيد شهادته بمضمن العقد المنصوص ملتزما لجميع ما اقتضاه من العموم والخصوص باسطا كفه بالدعاء والابتهاج والتضرع لذي العزة والجلال قائلا اللهم كما خصصت مولانا أمير المؤمنين بمزيد الكرامة وارتضيت له مقام الإمامة وانتخبته من أشراف الناس وصنت به وجوههم عن لباس فانصره اللهم نصرا مؤزرا واجعل نصيبه من غنايتك وكفايتك جزيلا مؤفرا وأن له في كل مرام فتحا مبينا وظفرا ميسرا معينا وأسعدنا اللهم بأيامه واكلأه بكلاءتك في طعنه ومقامه واجعل بيعته المباركة بيعة تخلد بها مآثره تخليدا وتؤيد علوه وتأييده ونصره تأييدا وأقفه على الأنام شفيقا وبجميعهم بارا رقيقا وأعنه اللهم على ما وليته من أمور عبادك ومهد له أتم التمهيد في أقطار بلادك وكن له فيما يرضيك مؤيدا وظهيرا واجعل له من لدنك وليا وسلطانا نصيرا أجب دعاءنا إنك با مولانا ولي ذلك وبه تقدير وأنت نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين في ثامن عشر شعبان عام أربعة ومائتين وألف انتهت

انتقال الودايا من مكناسة إلى فاس وعبيد الثور منها إلى مكناسة لما كان السلطان المولى يزيد رحمه الله بمكناسة أمر الودايا أن ينتقلوا منها إلى فاس الجديد مسقط رؤوسهم ومنبت شوكتهم وبأسهم وبذل لهم خمسين ريالاً للرأس إعانة لهم على نقلتهم فعدوا إلى فاس الجديد واستوطنوه بعد تغريبهم عنه بمكناسة ثلاثين سنة كما سبق ثم أمر عبيد الثور أن ينتقلوا منها إلى مكناسة لتجتمع كلمتهم بها وأنعم على أهل كل ثغر منهم ببيت ماله الذي به فاقتموه وانقلبو إلى مكناسة معتبطين نقض الصلح مع جيش الإصنبول وحصاره سبته قال منوبل القشتلي في كتابه الموضوع في أخبار المغرب لما ولي المولى يزيد بن محمد رحمه الله أظهروه معاداة الإصنبول وصمم على حربهم فتفادى طاغيتهم من حربته بكل وجه وبعث باشدوره إليه بطنجة يهنئه بالملك ويتملق له فأعرض عن ذلك ولم يحفل به ولا بهديته بل عمد إلى من كان بمرايسه من نصارى الإصنبول تجارا وقرابية وغيرهم وقيض عليهم وسلكتهم في السلاسل وساقهم إلى طنجة فحبسهم بها قال وكانت قراصين المسلمين الحربية يومئذ ستة عشر قرصانا وفيها من المدافع ثلاثمائة مدفع وستة مدافع قلت قد تقدم أن القراصين أكثر من ذلك بكثير واستمر النصارى محبوسين بطنجة إلى أن اتفق أن كان قرصان للإصنبول بطوف بساحل العرائش فظفر بمركب هنالك وأسر بعضهم وكان المولى يزيد يومئذ بالعرائش فنظر إليهم بمرآة الهند وهو على سطح داره إذ أسروهم وبعث الصريح في أثرهم فقاتوه ثم وقع التفادي بينه وبين الطاغية في أولئك الأسرى بأسرى طنجة اه كلام منوبل

ثم إن السلطان المولى يزيد رحمه الله زحف إلى سبته واستنفر الناس لجهادها والمرابطة عليها واستصحب معه آلة الحرب من المدافع والمهاريب ونصب عليها سبعة أشبارات كان جلها لفنانشة سلا وأهرعت إليه المتطوعة من حاضر وباد ونسلوا إليه من كل حذب وواد وأقام على حصارها مدة ثم أفرج عنها وسار إلى ناحية مراكش لأمر اقتضى ذلك فلما وصل إلى مدينة أنفا بدا له من الرجوع فرجع ونزل عليها واستأنف الجد وأرهف الحد وأرسل إلى قبائل الحوز يستنفرهم للجهاد والمرابطة فتفادوا عنه بعد أن أشرف على فتحها وكان ما ذكره انتقاض أهل الحوز على السلطان المولى يزيد ابن محمد وبيعتهم لأخيه المولى هشام رحمهما الله لما قدمت قبائل الحوز على السلطان المولى يزيد بمكناسة ظهر لهم منه بعض التجافي عنهم وأنزلهم في العطاء دون البربر والودايا وغيرهم فسأدت ظنونهم به وانفسدت قلوبهم عليه ولما رجعوا إلى بلادهم تمشت رجالاتهم بعضها إلى بعض وخب الرحامنة في ذلك ووضعوا واتفقت كلمتهم مع أهل مراكش وعبدة وسائر قبائل الحوز فقدموا المولى هشام بن محمد للقيام بأمرهم وأتوه ببيعتهم وطاعتهم ولما اتصل خبر ذلك بالمولى يزيد وهو محاصر لسبته أقنع عنها وسار إلى الحوز فشرذ قبائله ووصل إلى مراكش فدخلها عنوة يقال إن دخوله إليها كان من الباب المعروف بباب يغلى فاستباحها وقتل وسمل وكان الحادث بها عظيما ثم استجاش عليه المولى هشام قبائل دكالة وعبدة وقصده بمراكش فبرز إليه المولى يزيد ولما التقى الجمعان بموضع يقال له تازكورت انهزم جمع المولى هشام وتبعهم المولى يزيد فأصيب برصاصة في خده فرجع إلى مراكش يعالج جرحه فكان في ذلك حنقه رحمه الله وذلك أواخر جمادى الثانية سنة ست ومائتين وألف

ودفن بقبور الأشراف قبلي جامع المنصور من قسبة مراكش ولقد كان رحمه الله من فتيان آل علي وسمحاتهم وأبطالهم له في النجدة والكفاية المحل الذي لا يجهل والسبق الذي لا يلحق والغبار الذي لا يشق ولا يضره تنقيص من نفسه من الحسدة عفا الله عنا وعنهم فإن مكان الرجل غير مكانهم وهمته العالية فوق تزويراتهم تغمد الله الجميع بعفوه وغفرانه أمين ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث ففي شعبان سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف توفي الفقيه العلامة القاضي بسلا أبو عبد الله محمد السوسي المنصوري ودفن قرب الولي الصالح سيدي مغيث من طاعة سلا وله شرح على مختصر السنوسي في المنطق وآخر على كبراه وفي ضحى يوم السبت الثامن والعشرين من المحرم فاتح سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف توفي الفقيه المرابط البركة سيدي الحاج الغزواني ابن البغدادي من حفدة الولي الأشهر سيدي محمد الشرقي رضي الله عنه ودفن بداره بجوار سيدي مغيث أيضا وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين ومائة وألف توفي الفقيه العلامة الإمام صاحب التصانيف المفيدة والأجوبة العتيقة أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي رحمه الله ورضي عنه وفي يوم الجمعة الرابع من

رجب سنة ست وأربعين ومائة وألف كمل بناء قبة ولي الله تعالى أبي العباس سيدي الحاج أحمد بن عاشر رضي الله عنه على يد القائد أبي عبد الله الحوات وفي الشهر نفسه توفي الفقيه القاضي النوازلي أبو العباس سيدي أحمد الشداددي بزواوية زرهون وفي سنة خمسين ومائة وألف ولد الشيخ أبو العباس أحمد التجاني شيخ الطائفة التجانية وسياتي الكلام عليه إن شاء الله وفيها كانت المجاعة العظيمة بالمغرب والفتن ونهب الدور بالليل بفاس وغيرها وصار جل الناس لصوصا

فكان أهل اليسار لا ينأون لحراستهم دورهم وأمتعتهم وهلك من الجوع عددا لا حصر له حتى لقد أخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا وزيادة سوى من كفته أهله هذا بفاس وليقتس عليها غيرها وفي زوال يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين ومائة وألف توفي قاضي سلا الفقيه العلامة السيد أبو عمرو عثمان التواتي ودفن داخل روضة سيدي الحاج أحمد بن عاشر رضي الله عنه وفي سنة ثلاث وستين ومائة وألف كان الوباء بالمغرب وانحباس المطر فلحق الناس من ذلك شدة ثم تداركهم الله بلطفه وفي سنة تسع وستين ومائة وألف كانت الزلزلة العظيمة بالمغرب التي هدمت جل مكناسة وزرهون ومات فيها خلق كثير بحيث أحصي من العبيد وحدهم نحو خمسة آلاف وتكلم لويز مارية على هذه الزلزلة فقال إنها مكثت ربع ساعة وتشققت الأرض منها واضطراب البحر وفاض حتى ارتفع ماؤه على سور الجديدة وفرغ فيها ولما رجع البحر إلى مقره ترك عددا كثيرا من السمك بالبلد وفاض على مسارحهم ومزارعهم وأشجارهم فنسف ذلك كله نسفا واضطربت المراكب والفلك بالمرسى فتكسرت كلها وفر نصارى البلد إلى الكنيسة وتركو ديارهم منفتحة ومع ذلك لم يفقد منها شيء لا اشتغال الناس بأنفسهم وتكلم صاحب نشر المثاني على هذه الزلزلة فقال وفي ضحوة يوم السبت السادس والعشرين من المحرم سنة تسع وستين ومائة وألف زلزلت الأرض زلزالها ومادت شرقا وغربا واستمرت كذلك نحو درج زمني وفاض ماء البرك والصحاريح على البيوت وتكدرت العيون ووقف ماء الأودية عن الجري وسقطت الدور وتصدعت الحيطان وأخذ الناس في هدم ما تصدع خوف سقوطه وفرح الناس وتركو حوائنهم وأمتعتهم ووقع بمدينة سلا أن ماء البحر انحصر عنه إلى أقصاه فجاء الناس ينظرون إليه فرجع الماء إلى جهة البر وتجاوز حده المعتاد بمسافة كبيرة

فأغرق جميع من كان خارج المدينة في تلك الجهة وصادف قافلة ذاهية إلى مراكش فيها من النواب والناس عدد كثير فأتلف الجميع ورمى بالقوارب والزوارق التي في الوادي إلى مسافة بعيدة جدا ثم بعد هذه بنحو ستة وعشرين يوما عادت زلزلة أخرى أشد من الأولى بعد صلاة العشاء هي التي أثرت في مكناسة غاية وهلك تحت الهدم بها نحو عشرة آلاف نفس وفعلت بفاس أيضا فعلا شنيعا انظر تمام كلامه فقد أطال في وصفها وفي يوم الأحد التاسع والعشرين من رمضان سنة سبع وسبعين ومائة وألف انكسفت الشمس وبقي منها مثل الهلال ثم انجلت بعد حين وفي فجر يوم الأحد الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة إحدى وثمانين ومائة وألف توفي الشريف البركة مولاي الطيب بن محمد الوزاني وعمره بنيف على الثمانين سنة وبعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف انكسفت الشمس وظهرت النجوم لكثرة الظلام ثم انجلت ورجعت لحالها بعد نصف ساعة ونحوها وفي أعوام تسعين ومائة وألف كانت المجاعة الكبيرة بالمغرب وانحبس المطر ووقع القحط وكثر الهرج ودام ذلك قريبا من سبع سنين وفي أواخر ربيع الثاني سنة أربع وتسعين ومائة وألف توفي الشيخ العلامة الإمام المحقق البارع أبو عبد الله محمد بن الحسن بناني الفاسي الفقيه المشهور صاحب التآليف الحسان مثل حاشيته البديعة على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاتي على مختصر خليل حكى العلامة الرهوني في حاشيته قال لما أخبر الشيخ التاودي ابن سودة بوفاته جاء فزعا وهو يبكي فلقبه بعض الناس فقال له الله يجعل البركة فيكم فقال لم تبق بركة بعد هذا الرجل وذلك لمعرفته بمكانته وفي ضحى يوم السبت الثامن عشر من صفر سنة ست وتسعين ومائة وألف توفي الشريف البركة المولى أحمد بن الطيب الوزاني رحمه الله ونفعا به وبأسلافه أمين

حدث الفتنة بالمغرب وظهور الملوك الثلاثة من أولاد سيدي محمد بن عبد الله وما نشأ عن ذلك لما قتل المولى يزيد رحمه الله بمراكش افتقرت الكلمة بالمغرب فأقام أهل الحوز وأهل مراكش على التمسك بدعوة المولى هشام وشايه على أمره القائد أبو زيد عبد الرحمن بن ناصر العبدوي صاحب أسفي وأعمالها والقائد أبو عبد الله محمد الهاشمي بن علي بن العروسي الدكالي البوزراري وكان المولى مسلمة بن محمد شقيق المولى يزيد خليفة عنه ببلاد الهبط والجبل يدبر الأمر بثغورها وينظر في أمورها فلما اتصل به خبر وفاة أخيه دعا إلى نفسه أهل تلك البلاد فبايعوه وانفقوا كلمتهم عليه ووصل خبر موت المولى يزيد إلى فاس وأعمالها فبايعوا المولى سليمان بن محمد رحمه الله وكان من أمره ما نذكره الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي الربيع المولى سليمان بن محمد رحمه الله كان المولى سليمان بن محمد أعلق بقلب أبيه من سائر إخوته على ما قيل لسعيه فيما يرضي الله ورسوله ويرضي والده واشتغاله بالعلم والعكوف عليه بسجلماسة وغيرها ولم يلتفت قط إلى شيء مما كان يتعاطاه إخوته الكبار والصغار من أمور كالصيد والسماع ومعاقرة النذمان وما يزرى بالمرءة ولم يأت فاحشة قط من صغره إلى كبره وكان رحمه الله يرى له ذلك ويثيبه عليه بالعطايا العظيمة والذخائر النفيسة الأصول المعبزة التي تغل الألف وأكثر وينوه بذكره في المحافل ويبعث إليه بأعيان الفقهاء والأدباء إلى سجلماسة ليقرأ عليهم ويأخذ عنهم ويدعو له في كل موقف على رؤوس الأشهاد ويقول إن ولدي سليمان رضي الله عنه لم يبلغي عنه قط ما يكدر باطني عليه فأشهدكم أنني عنه راض ونشأ رحمه الله نشأة حسنة

طيبة وكانت شمائل الملك لائحة عليه إلى أن أظفره الله به وكنا قدما أنه قدم على أخيه المولى يزيد بقبائل الصحراء فأجل مقدمه وأكرم وفادته فأقام المولى سليمان سليمان بن محمد رحمه الله بفاس إلى أن كانت وفاة المولى يزيد في التاريخ المتقدم فاتصل خبر موته بأهل فاس ومكناسة فقاموا على ساق وانفق العبيد والودايا والبربر وأهل فاس على بيعته لما كان عليه من العلم والدين والفضل وسائر الأوصاف الحميدة التي تفردها عن غيره ولما قدم العبيد والبربر من مكناسة إلى فاس اجتمعوا بأعيان الودايا وأهل فاس ودخلوا ضريح المولى إدريس رضي الله عنه وبايعوا أمير المؤمنين المولى سليمان يوم الاثنين سابع عشر رجب سنة ست ومائتين وألف ولما تمت بيعته انتقل إلى فاس الجديد فاستقر بدار الملك منها وقدمت عليه وفود القبائل من العرب والبربر بهداياهم ثم قدم عليه بعدهم قبائل بني حسن وأهل الغرب ثم أهل العدوتين سلا ورباط الفتح وانحرف بعض أهل رباط الفتح عن بيعته كما سيأتي ثم قدم عليه أهل التَّغور الهبطية بعد أن توقفوا عن بيعته مدة يسيرة لأنهم كانوا قد بايعوا المولى مسلمة كما مر ونص بيعة أهل فاس الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الحمد لله الذي نظم بالخلافة شمل الدين والدنيا وأعلى قدرها على كل قدر فكانت لها الدرجة العليا وأشرف شمسها على العوالم وأثار بنورها المعالم وأصلح بها أمر المعاش والمعاد وألف بها بين قلوب العباد من الحاضر والباد وجعلها صوتنا للدماء والأموال والأعراض وغل بها أيدي الجباية فلم تصل إلى مفاصد الأغراض وقام بها أمر الخلق واستقام وأقيمت الشرائع والحدود والأحكام ونصب منارها علما هاديا وأقامه إلى الحق داعيا فأوى لظلها الوريث القوي والضعيف والمشروف والشريف فسبحان من قدر فهدى ولم يترك الإنسان سدى بل أمره ونهاه وحذره اتباع هواه وطوقه القيام بالنقل والفرض وهو أحكم

الحاكمين ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين البقرة فمن رحمته نصب الملوك ومهد الطريق للسير والسلوك ولو ترك الناس فوضى لأكل بعضهم بعضا وآل الأمر إلى الخراب وأفضى لولا الخلافة لم تؤمن لنا سبل وكان أضغفنا نهبنا لقوانا والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأنام أصل الوجود ومبدأ وغاية الكمال ومنتهاه سيد الأولياء وإمام الأنبياء وقائد الأصفياء وعلى آله أولى المجد العميم والقدر العظيم وأصحابه الخلفاء الراشدين والهداة المهتدين الذين شيخوا أركان الدين ومهدوا قواعدهم للمشيدين وأخبروا عنه وأسندوا إليه قال إن الله اختص بهذا الأمر قريشا وأنزل عليه والله يؤتي ملكه من يشاء البقرة هذا ولما قضى الله سبحانه وله البقاء والذوام بنزول ما لا بد منه من فجأة الحسام لمن كان قائما بهذا الأمر العظيم وانتقاله إلى دار عفو ورضوانه العميم أسكنه الله فسيح الجنان وسقى ثراه سحائب الرحمة والغفران وجب على الناس نصب إمام لقوله عليه الصلاة والسلام من مات وليست في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية فجالت أفكارهم وخصت عقولهم وأنظارهم فيمن يقدمون لهذا المنصب الأعظم ويسلك بهم السبيل الأقوم فهداهم التوفيق والتسديد والرأي الصالح السديد إلى من نشأ في عفة

وصيانة ومروءة وديانة وعكوف على تحصيل العلم الشريف ودؤب على التحلي بحلى العمل المنيف مع نجدة ونباهة وذكاء وفضانة ونزاهة وعلو همة وقوة عزيمة وتدبير وسياسة وخبرة بالأمر وفراصة فتي جمع الله له بين الصرامة والحلم وزاده بسطة في العلم والجسم والبسه الهيبة والوقار ورقاه أعلى رتب العز والفخر وهو السري المقدم الشهم الأبر الهمام ذو الأخلاق الطاهرة الزكية والمآثر الظاهرة السنية عالي القدر والشأن فريد العصر ووحيد الأوان أبو الربيع مولانا سليمان ابن مولانا أمير المؤمنين محمد ابن

مولانا أمير المؤمنين عبد الله ابن مولانا أمير المؤمنين إسماعيل ابن مولانا الشريف فاتنقد الإجماع من أهل هذه الحضرة الإدرسية وما حولها من البقاع على تقدمه وإمامته واستبشروا بإمرته وخلافته وبادروا إلى تعيينه وبايعوه بيعة انعقد على ألوية النصر عقدها وطلع في أفق الهناء سعدتها حضرها الصدور والأعيان وأهل الوجاهة في هذا الزمان وذوو الحل والعقد ومن إليهم القبول والرد من علماء وأعلام وأصحاب الفتاوى والأحكام وعظماء أشراف كرام ورماء كبرا وولاة أمرا ورؤساء أجناد والمتقدمين في كل ناد من عرب البدو والحضر وجيوش العبيد والبربر فانعقدت بحمد الله مؤسسة على التقوى واشتد بها عضد الإسلام وتقوى بيعة تامة محكمة الشروط وفيه العهود وثيقة الربوط جارية على سنن السنة والجماعة سالمة من كل كلفة ومشقة وتباعة رضي الكل بها وارتضاها وألزم حكمها بالسمع والطاعة وأمضاها شهد بذلك الحاضرون على أنفسهم طوعا وأدوا إليه تعالى ما وجب عليهم شرعا جعلها الله رحمة على الخلق وأقام بها في البسيطة العدل والحق وأيد بعونه وتأييده وتوفيقه وتسديده ما تلقاها بالقبول وأحيا به سنة سيدنا ومولانا الرسول وشرف وكرم فهيننا لأرضنا إذ أقتت مقاليدنا إلى من يحمي حماها ويحقق دماها ويكبت عداها ويدفع رداها ويبصر الشريعة ويشيد مبناها ويعلم بحقيقة الحق ويوضح معناها نصره الله ونصر به وأمات البدع والظلاله بسببه ودمر به شيعة الجور والفساد وأبقى الخلافة في بيته إلى يوم التناد وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين والراوين عنهم والمتلقين منهم أمين وفي ثامن عشر رجب الفرد الحرام من سنة ومائتين وألف من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام أفر العبيد إلى الله سبحانه عبد الله تعالى محمد التاودي بن الطالب ابن سودة المري كان الله له وليا وبه حفيا أحمد بن التاودي المذكور أخذ

الله بيده وكان له في جميع الأمور وأتاله الثواب والأجر وعبد الله تعالى محمد بن عبد السلام الفاسي لطف الله به أمين وعبد القادر بن أحمد بن العربي بن شقرون أمته الله بمنه أمين ومحمد بن أحمد بننيس كان الله له وليا ونصيرا أمين وعبد ربه وأقر عبيده إليه محمد بن عبد المجيد الفاسي لطف الله به وعبد ربه سبحانه يحيى بن المهدي الشفشاوني الحسني لطف الله به وعبد ربه علي بن إدريس كان الله له ولطف به أمين وعبد ربه تعالى محمد بن إبراهيم لطف الله به وعبد ربه سبحانه محمد بن مسعود الطرناطي وفقه الله بمنه أمين وعبد ربه سبحانه سليمان بن أحمد الشهير بالفشتالي كان الله له وأصلح حاله وعبد ربه محمد الهادي بن زين العابدين العراقي الحسيني وفقه الله وعبد ربه سبحانه محمد التهامي طاهر الحسني وفقه الله أمين وعبد الملك بن الحسن الفضيلي الحسني لطف الله به أمين وعبد ربه إدريس بن هاشم الحسني الجوطي لطف الله به أمين انتهى حرب السلطان المولى سليمان لأخيه المولى مسلمة وطرده إلى بلاد المشرق لما تمت بيعة السلطان المولى سليمان بن محمد رحمه الله بفاس باتفاق أهل الحل والعقد من الجند والعلماء والأشراف وسائر الأعيان تداعى أمر المولى مسلمة إلى الاختلال وكان أول ما ابتدأ به عمله بعد تلك البيعة المستعجلة أن بعث جريدة من الخيل إلى نظر القائد أبي عبد الله محمد الزعري إلى رباط الفتح وذلك باستدعاء محتسبها أبي الفضل العباس مرينو وأبي عبد الله محمد المكي بن العربي فرج من أهلها المنحرفين عن المولى سليمان إلى التمسك بدعوة المولى مسلمة وكان أهل رباط الفتح يومئذ على فرقتين فرقة دخلت في طاعة المولى سليمان وفرقة أقامت بالتمسك ببيعة المولى مسلمة

ولما اتصل بالمولى سليمان خبر مسير الزعري إلى رباط الفتح عقد لأخيه المولى الطيب على بني حسن وبعثه في اعتراضه فتوافى الجيشان معا برباط الفتح ووقعت الحرب فانهمز الزعري وشيعته وقتل العباس مرينو وفر المكي فرج إلى الزاوية التهامية فاستجار بها وقبض المولى الطيب على الزعري وجماعة من أصحابه ثم سرحه بأمر السلطان المولى سليمان واجتمعت كلمة أهل العدوتين على طاعته هكذا ساق صاحب البستان هذا الخبر وآل فرج يثبونه ويقولون إن أصل هذه الفتنة أن آل مرينو كانت لهم الوجاهة مع المولى يزيد رحمه الله فسعوا عنده بال فرج وقالوا له إنهم تقاعدوا على مال الوزير أبي عبد الله محمد العربي قانوس الذي أمته عندهم فيطش بهم المولى يزيد وصادرهم واستحكمت العداوة يومئذ بينهم وبين آل مرينو فلما توفي المولى يزيد بادر آل مرينو ومن لأفهم إلى بيعة المولى مسلمة وانحرف عنهم إلى بيعة المولى سليمان من لم يكن من حزبهم ولما قتل العباس مرينو عمد أوباش رباط الفتح إلى شلوه وربطوا في رجله حبلا وجروه في أسواق المدينة وعرضوه على حوانيتها حلنوتا إذ كان في حياته محتسبا رحمه الله وكان السلطان المولى سليمان في هذه المدة مقيما بفاس لم يتحرك منه ثم أن المولى مسلمة صاحب بلاد الهبوب بعث ولده إلى آيت يمور وأمرهم أن يشنوا الغارة على أهل زرهون الذين هم في طاعة السلطان ففعلوا وكثر عيئهم في الرعايا فسار السلطان المولى سليمان إلى مكناسة واستنفر جيش العبيد وقبائل البربر ثم وافاه الودايا وأهل فاس وشراقة فاجتمع عليه الجم الغفير وصد بهم إلى آيت يمور فألفاهم على نهر سبو بالموضع المعروف بالحجر الواقف فصمدت إليهم العساكر وأوقعت بهم وقعة شنعاء وفر ولد المولى مسلمة فلقح بأبيه ولجأ آيت يمور بقضهم وقضيضهم إلى جبل سلفات وبقيت حلتهم بماثبتها وأتأثها بيد السلطان فانتهت جيوشه من العبيد والودايا والبربر ويات السلطان هنالك ولما أصبح بعث إليه آيت يمور نساءهم وأولادهم للشفاعة وطلب العفو فعفا عنهم وثابوا إليه وبايعوه فأنعم عليهم بماثبتهم وزرعهم وعاد إلى فاس ثم

بلغه أن المولى مسلمة معسكر ببلاد الحياينة فنهض إليه من فاس فأوقع به فانهمز المولى مسلمة وجيشه ونهب جيش السلطان حلة الحياينة وجاؤوا تائبين فعفا عنهم ونظمهم في سلك الجماعة وتفرق عن المولى مسلمة كل من كان معه من عرب الخلط وأهل الجبل ولم يبق معه إلا خاصته وأولاده وابن أخيه المولى حسن بن يزيد فسار إلى جبل الزبيب فلم يقبلوه ثم انتقل إلى الريف فأهملوه ثم صعد إلى جبل بني يزناسن فطردوه ثم توجه إلى ندرومة فمنعه صاحبها من الوصول إلى الباي صاحب الجزائر وكان ذلك عن أمر منه فتوجه إلى تلمسان وأقام بها قال صاحب البستان وهناك اجتمعت به في ضريح الشيخ أبي مدين بالعباد يعني حين قدم تلمسان مفارقا للسلطان المولى سليمان وزعم أن المولى مسلمة لما اجتمع به لأمه على تخذيل الناس عن بيعته وحضه إياهم على بيعة أخيه المولى سليمان قال فبينت له حال المولى سليمان وما هو عليه من اتباع سيرة والده في العدل والرفق بالرعية وبذلك أحبه الناس فلما سمع كلامي بكى واعترف بالحق وتلا قوله تعالى ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير الأعراف ثم طلب من صاحب الجزائر أن يأذن له في الذهاب إلى المشرق والمرور ببايئته فأبى وبعث من أزعه من تلمسان إلى سجلماسة ولما اتصل خبره بالسلطان المولى سليمان وأنه عاد إلى سجلماسة أرسل إليه مالا وكسي وعين له قصبية ينزلها ورتب له ما يكفيه في كل شهر كسائر إخوته فلم يطب له مقام بها وسار إلى المشرق فاجتاز في طريقه بصاحب تونس الأمير حمودة باشا ابن علي باي قال صاحب الخلاصة النقية قدم المولى مسلمة بن محمد على الأمير حمودة باشا شريدا أثر خلعه من مملكة فاس فأنزله أسنى منزلة وأجرى عليه جراية سلطانية وبالغ في بره اه ثم أن المولى مسلمة سافر إلى المشرق فأقام بمصر مدة ثم توجه إلى مكة فنزل على سلطانها صهره على أخته فأكرمه ورتب له جراية ثم عاد من مكة إلى مصر وساعت حاله في هذه المدة وضائق عليه الأرض بما رحبت فرجع إلى تونس ونزل على حمودة

باشا المذكور فعاود إكرامه ثم طلب منه أن يشفع له عند أخيه المولى سليمان فكتب له بذلك فأخذ كتابه وانحدر إلى وهران وطلب من أميرها الشفاعة أيضا فكتب له وبعث بمكاتيب الأميرين إلى السلطان المولى سليمان فقبله وأمره أن يذهب إلى سجلماسة ينزل بها بدار والده ويرتب له ما يكفيه من مؤنة وكسوة ويقاسمه نعمته ويبقى بعيدا عن سمسارة الفتن حتى لا يجدوا سبيلا إلى إيقاد نار الفتنة فلما بلغه جواب أخيه لم يرض ذلك وعاد إلى المشرق فبقي يتردد به إلى أن وافته منيته واستراح من تبع الدنيا رحمه الله نهب عرب أنقاد لركب حاج المغرب وما نشأ عن ذلك ثم بلغ السلطان المولى سليمان رحمه الله أن جماعة من التجار والحجاج الذين قدموا من المشرق خرجوا من وجدة متوجهين إلى فاس فلما توسطوا أرض أنقاد عدت عليهم عربها فنهبتهم فاستدعى السلطان رحمه الله الكاتب أبا القاسم الصياني وأمره بالمسير إلى وجدة يكون واليا بها ويصلح ما

فسد من أعمالها فكره الصياني ذلك واستقال فلم يقله السلطان وعزم عليه في المسير إليها وعين له مائة فارس تذهب معه فامتثل راغما وأضمر أنه إن فارق السلطان يذهب إلى أحد الحرمين الشريفين فيقيم به بقية عمره وجمع موجوده وخرج فخرج معه قفل التجار الذي كان محصورا بفاس ولما توسطوا أرض أنجاد وجدوا العرب في انتظارهم فثاروا بهم وقتلوه فتماسكت خيل السلطان هنيئة ثم كثرهم العرب فهزمهم ولم يبق من تلك الخيل إلا قائدها في عشرة من إخوانه وانتهت العرب ما كان في ذلك القفل من أمتعة التجار وسلعها ولم ينج من نجا منه إلا بنفسه قال الصياني فلجأنا إلى قصبه العيون وتفرق جمعنا وقتل منا سبعة نفر وجرح آخرون فبعثت من أتانا بالقتلى فدفعناهم ثم سرحت قائد الخيل إلى وجدة مع بعض العرب الذين هنالك وطلعت أنا مع برابرة بني بزنانس وليس معي إلا مركوبي

وفرس آخر كان عليه مملوك لي قتل في المعركة قال ثم خلصت إلى وهران فنزلت عند الباي محمد باشا فأظهر التأسف والتوجع وراودني على المقام فأبيت ثم ذكر الصياني أنه بعد هذا ذهب إلى تلمسان واجتمع هنالك بالمولى مسلمة بن محمد وتلاوما وتعاتبا حسبا ذكرناه أنفا وكان ذلك أواخر سنة ست ومائتين وألف بعث السلطان المولى سليمان الجيوش إلى الحوز ونهوضه على أثرها إلى رباط الفتح وعوده إلى فاس قد قدما أن أهل مراکش وقبائل الحوز كانوا متمسكين بدعوة المولى هشام بن محمد من لدن دولة المولى يزيد رحمه الله ولما صفت بلاد الغرب للسلطان المولى سليمان رحمه الله تاققت نفسه إلى تمهيد بلاد الحوز والاستيلاء عليها فعقد لأخيه المولى الطيب بن محمد على عشرة آلاف من الخيل وعين معه جماعة من فواد الجيش وبعثهم إلى قبائل الشاوية وذلك أواخر سنة سبع ومائتين وألف ثم زحف السلطان على أثرهم إلى رباط الفتح فمحا بقية آثار الفتنة التي نشأت بها وأقام ينتظر ما يكون من أمر أخيه وفي سادس شوال من السنة صلى السلطان الجمعة بمسجد القصبه منها وكان هو الإمام وخطب خطبة بليغة تشتمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير من الحرام واجتناب الأثم ووعد وأقال في آخر خطبته وانصر اللهم جيوش المسلمين وعساكرهم ودعا لكافة الأمة وصلى في الركعة الأولى بسورة الجمعة وفي الثانية بسورة الغاشية الخ ولما قدم المولى الطيب بلاد الشاوية تنافس فواد الجيش الذين معه وتنازعوا الرياسة وصار كل واحد منهم يرى أنه صاحب الأمر وكان من أعظمهم تهورا القائد الغنيمي كان من فواد المولى يزيد رحمه الله فأيقاه المولى سليمان على رياسته تألفا له فاستبد على سائر القواد في الرأي إذ كان رديف

الخليفة المولى الطيب وصاحب مشورته فلما كان وقت اللقاء تحاذلوا عنه وجروا عليه الهزيمة وتركوا أخبيتهم وأثأثم بيد العدو ورجعوا مفلولين إلى السلطان برباط الفتح وهم عشرة آلاف فارس كما مر فما وسع السلطان رحمه الله إلا الرجوع بهم إلى فاس لتجديد آلة السفر والغزو ثانيا وإخلاف ما ضاع من الأخبية والسلاح والأثاث حسبا يذكر بعد إن شاء الله ثورة محمد بن عبد السلام الخمسي المعروف بزبطان بالجيل لما كانت سنة ثمان ومائتين وألف ثار بقبيلة الأخماس من جبال عمارة رجل من طلبتها يقال له محمد بن عبد السلام ويدعى زبطان فاجتمعت عليه سمسرة الفتن من كل قبيلة وكثر تابعوه وكان السبب في ثورته أن القائد قاسم الصريدي كان واليا بتلك الناحية أيام المولى يزيد رحمه الله فلما بويع المولى سليمان ولي على تلك الناحية القائد الغنيمي المتقدم الذكر وكان عسوقا فيما قيل فقبض على القائد قاسم واستصفى أمواله وبث عليه العذاب كي يظهر ما بقي عنده حتى هلك في العذاب فثار زبطان واجتمعت عليه الغوغاء من أهل تلك البلاد ولما شرى داؤه بعث السلطان بجيش إلى القائد الغنيمي وأمره أن يقصد زبطان وجمعه فزحف إليه ببلاد غصاوة قرب وازان وأوغل في طلبه فهناه من معه من رؤساء الجيش عن التورط بالناس في تلك الجبال والشعاب فلج واقتحمها بخيله وراميته ولما توسطها سالت عليه الشعاب بالرماة من كل جانب وهاجت الحرب وأحاط العدو بالجيش فقتلوا منهم وسلبوا كيف شاؤوا وردوهم على أعقابهم منهزمين ولما اتصل خبر الهزيمة بالسلطان اغتاط وقبض على الغنيمي ومكن منه أولاد قاسم الصريدي فباشروا قتله بأيديهم واقتصوا منه بأبيهم وولى على قبائل الجبل أخاه المولى الطيب وفوض إليه أمر الثغور وأنزله طنجة وبقي المولى

الطيب يدير أمر القبائل الجبلية وثورها من تطاوين إلى طنجة إلى العرائش وكلما بدت له فرجة سدها أو فرصة انتهزها وحارب قبائل الفحص إلى أن استكانوا وانقادوا إلى الطاعة ثم حارب أهل حوز طنجة وأصيلا من بني يدير والأخماس من أصحاب زبطان فكانت الحرب بينهم سجالا ثم لما دخلت سنة تسع ومائتين وألف أمد السلطان أخاه المولى الطيب بجيش وافاه بطنجة فخرج منها ومعه عسكرها وعسكر العرائش وصمد إلى بني جرفط عش الفساد ونزل على بلادهم وقتلهم في عقر ديارهم فقتل مقاتلتهم وأحرق مآشرهم وانتهب أموالهم ومزقهم كل ممزق فجاؤوه خاضعين تائبين فعفا عنهم ثم تقدم إلى بني حرشن من بني يدير على تقيته ذلك ففر الثائر زبطان إلى قبيلته بالأخماس وتسالت عنه القبائل التي كانت ملتفة عليه واستنزله المولى الطيب بالأمان فظفر به وبعث به إلى السلطان فأمنى له أمانة وولاه على قبيلته وصار من جملة خدام الدولة ونصحاتها إلى أن ملك زمامها وتعين غيره للقيام بأمرها فأخر ونقله السلطان إلى تطاوين فسكنها وربت له بها ما يكفيه وبقي إلى أواخر دولة السلطان المولى سليمان ولما خرج عليه المولى إبراهيم بن يزيد ودخل تطاوين كانت لزبطان هذا في التمسك بدعوة السلطان اليد البيضاء وأغنى غناء جميلا في تثبيت تلك القبائل وتسكينها ثم وفد على السلطان بطنجة سنة ست وثلاثين ومائتين وألف وقد طعن في السن فأحسن إليه غاية الإحسان وإلى الآن لا زال أهل الأخماس يستنصرون بحفدته ويعتقدون فيهم ما تعتقده آيت ومالو في آل مهاوش والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وفي ذي الحجة من هذه السنة أعني سنة تسع ومائتين وألف توفي العلامة الإمام السيد التاودي بن سودة المري الفاسي صاحب الحاشية على البخاري والحاشية على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني على المختصر وشرح العاصمية والزقاقية وغير ذلك من التأليف المفيدة وكان رحمه الله خاتمة الشيوخ بفاس ومناقبه شهيرة

أخبار المولى هشام بن محمد بمراكش والحوز وما يتصل بذلك قد قدما أن أهل مراکش وقبائل الحوز كانوا قد خرجوا على السلطان المولى يزيد وبايعوا أخاه المولى هشام بن محمد ولما قتل المولى يزيد بمراكش استقرت قدم المولى هشام بها وأطاعته قبائل الحوز كلها وكان وزيره القائم بأمره صاحب أسفي القائد عبد الرحمن بن ناصر العبيدي وكان غاية في الجود وبسط الكف وصاحب دكالة والحوز القائد محمد الهاشمي بن العروسي وكان ذا شوكة بعصبيته وقومه فكان هذان القائدان إليهما النفض والإبرام في دولة المولى هشام هذا بكثرة ماله وعطائه وهذا بعصبيته وشدة شوخته فدانت للمولى هشام قبائل دكالة وعبدية وأحمر والشياطمة وحاحة وغير ذلك واستمر الحال على ذلك برهة من الدهر إلى أن افرقت عليه كلمة الرحامنة وتجنوا عليه بأنه قتل عاملهم القائد أبا محمد عبد الله بن محمد الرحماني غيلة على أنه كان مدبر دولته والقائم بأمره قال أكنسوس هكذا شاع أن المولى هشام هو الذي أمر بقتل عبد الله الرحماني وابن الداودي قال والذي تحدثت به السلطان المولى سليمان مع بعض الناس هو أن الفرقة المنحرفة من الرحامنة قتلوه وأظهروا أن المولى هشام هو الذي دس إليهم بذلك وكذلك أمر ابن الداودي والله أعلم ولما قتل القائد عبد الله خلعت الرحامنة طاعة المولى هشام وبايعت أخاه المولى حسين بن محمد وزحفوا به إلى مراکش فلم يبرح المولى هشام إلا طبولهم تفرع حول القصبه وأرهفه وأعجلوه عن ركوب فرسه فخرج يسعى على قدميه إلى أن أتى ضريح الشيخ أبي العباس السبتي فعاد به وثابت إليه نفسه وبعد أيام تسلل وسار في جماعة من حاشيته إلى أسفي ونزل على وزيره القائد عبد الرحمن بن ناصر فأكرم مثواه وأحسن نزله وغدا وراح في طاعته ومرضاته ودخل المولى حسين قصر الخلافة

بمراكش فاستولى على ما فيه من الذخيرة والأثاث من متاع المولى هشام ومتخلف المولى يزيد فاضطر أهل مراکش حينئذ إلى مبايعة المولى حسين والخطبة به وكان ذلك سنة تسع ومائتين وألف وافرقت الكلمة بالحوز فكان بعضه كعبدية وأحمر ودكالة مع المولى هشام وبعضه مثل الرحامنة وسائر قبائل حوز مراکش مع المولى حسين وانقدت نار الفتنة بين هؤلاء القبائل وتقاتلوا في الحروب إلى أن بلغ عدد القتلى بينهم أكثر من عشرين ألفا هذا كله والسلطان المولى سليمان مقيم بفاس معرض عن الحوز ومتربصين بأهله الدوائر إلى أن ملوا الحرب وملتهم وكان ذلك من سعادته فصاروا يتسللون إليه أرسالا ويسألونه الذهاب إلى بلادهم ليعطوه صفقة يبعثهم فكان يعدهم بذلك ويقول إذا فرغت من أمر الشاوية قدمت عليكم إن شاء الله ثورة المولى عبد الملك بن إدريس بأنفا والسبب في ذلك كانت قبائل الشاوية منذ هزموا جيش المولى الطيب بن محمد وهم حذرون من سطوة السلطان عالون بأنه غير تاركهم فعزموا على تلافي أمرهم عنده وأوفدوا عليه جماعات من أعيانهم المرة بعد المرة يسألونه

أن يولي عليهم رجالا يكونون عند نظره ويقفون عند أمره ونهيه فولى عليهم ابن عمه وصهره على أخته المولى عبد الملك بن إدريس بن المنتصر ووجهه معهم فقدم المولى عبد الملك أرض تامسنا ونزل بمدينة أنفا وهي المسماة اليوم بالدار البيضاء وتولى القيام على مستفاد مرساها وصار يسهم فيه لأعيان الشاوية الذين معه وكان قصده بذلك أن يتألفهم على الطاعة والخدمة فلما حصل لهم ذلك السهم من المال تطاولوا إلى الزيادة عليه وقد قيل في المثل قديما لا تطعم العبد الكراع فيطعم في الذراع فصار المولى عبد الملك يقاسمهم المستفاد شق الأبلمة فلما بلغ السلطان ذلك كتب إليه يعاتبه على

فعله ثم نهض على فتنة ذلك من فاس يريد تامسنا إذ لم يشف المولى عبد الملك الغليل في ضبطها فلما بلغ كتاب السلطان المولى عبد الملك أنف من ذلك العتاب وكانت له وجهة عند السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله وكان من كبار بني عمه وخواص قرابته ثم اتصل به الخبر بخروج السلطان من فاس فطارت نفسه شعاعا واستشار بطانته من الشاوية فقال لهم إن هذا الرجل قادم علينا لا محالة وليس له قصد إلا أنا وأنتم فما الرأي قالوا الرأي أن نبايعك ونحاربه قال ذلك الذي أريد فبايعوه ولما انفصل السلطان عن رباط الفتح بعث في مقدمته أخاه وخليفته المولى الطيب وعقد له على كتيبة من الخيل وتبعه السلطان على أثره ولما بات بقطرة الحلاج جاءه الخبر بأن قبائل الشاوية قد بايعوا المولى عبد الملك بن إدريس واتصل بالمولى عبد الملك وهو بانفا أن السلطان بانت بالقطرة فتضاعف خوفه وفر فيمن بايعوه من أهل الشاوية وأخلى مدينة أنفا من خيله ورجله ففرح أهلها بخروجه من بين أظهرهم لنلا يعديهم جربه ويادروا بإخراج المدافع ليلا إعلاما للسلطان بفراره ثم أنفذوا إليه رسلهم بجلية الخبر فهدى لهم السلطان وبعث معهم كتيبة من الخيل تقيم بانفا وتقدم هو بالعساكر إلى قسبة علي بن الحسن فأغار على حلة مديونة وزناته فهدبها وامتلات أيدي الجيش وأغل المولى عبد الملك في الفرار إلى جهة أم الربيع وعاد السلطان بالنعم والماشية إلى رباط الفتح فدخلها مؤيدا منصورا ونقل تجار النصرى الذين كانوا بانفا إلى رباط الفتح وأبطل مرساها واستمرت معطلة إلى دولة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام فأحياها كما سيأتي إن شاء الله ثم ارتحل السلطان المولى سليمان إلى مكناسة فاحتل بها وقال في ذلك العلامة الأديب أبو محمد عبد القادر بن شفرون مولاي أنت الذي صفت مشاربه إن تغز ناحية أوليتها جلدك هذي البشائر وافت وهي قاتلة أعوذ بالله من شر الذي حسدك

فاصعد على منبر الإقبال معتبلا فالسعد أنجز ما كان به وعذك وانهض إلى غاية الأمل تدرکہا فالآن قالت لك العلياء هات يدك ولا تخف أبدا من سوء عاقبة فليس يفلح من بالسوء قد قصدك ألبسك الملك العميم نائله من الرضى حلا قوى بها مددك فضلا من الحكم الترضي حكومته جعلها كالشجا في حلق من جحدك فاشكر صنيع الذي أولاك مكرمة تتل رضاه وتبلغ بالرضى رشدك قدوم عرب الرحامنة على السلطان المولى سليمان ومسيره إلى مراكش واستيلائه عليها قد قدمنا أن أهل الحوز افتتحت كلمتهم على قسمين فيعضهم بايع المولى حسين بن محمد وبعضهم أقام على بيعة أخيه المولى هشام وأنه نشأ عن ذلك حروب تفتنى فيها الخلق فلما كانت سنة عشر ومائتين وألف قدم على السلطان بمكناسة جماعة من أعيان الرحامنة مبايعين له وسائلين له المسير معهم إلى بلادهم لتجتمع كلمتهم عليه فوعدهم بأنه إذ فرغ من أمر الشاوية ومهد طريقه بها إلى الحوز سار إليهم ثم قوى عزمه رحمه الله فخرج في العساكر من مكناسة وقصد تامسنا فلما احتل بها قدم عليه أولاد أبي رزق وفر أولاد أبي عطية وأولاد حريز الذين عندهم المولى عبد الملك بن إدريس ولجؤوا إلى وادي أم الربيع فقصدهم السلطان هناك وأوقع بهم وفر المولى عبد الملك إلى أخواله بالسوس فأقام عندهم إلى أن شفع فيه أخو السلطان المولى عبد السلام بن محمد وأخته الملاء صفية وكانت زوجة المولى عبد الملك فقبل السلطان شفاعتهما فعفا عنه وعاد إلى فاس واطمان جنبه وأما الشاوية فإنهم قدما على السلطان تائبين خاضعين فعفا عنهم وولى عليهم الأستاذ الغازي بن المدني المزمرى فصلحت الأحوال على يده

ورجع السلطان إلى فاس مظفرا منصورا فأقام بها إلى أن دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين وألف فتهدى للغزو وخرج إلى بلاد دكالة فاستولى عليها وعلى مدينة أزموور وتيط وبايعه أهل تلك الناحية وقدم عليه أعيان دكالة تائبين وخرجوا من زمرة عبدة وسلطانهم المولى هشام وانتظمو في سلك الجماعة وهناك قدم عليه أعيان الرحامنة ثانية ببيعتهم فأكرمهم ورحفهم إلى مراكش وهم في ركابة فلما شارفها فر عنها سلطانها المولى حسين إلى زاوية المولى إبراهيم بن أحمد الأمازي بالجليل فدخل السلطان المولى سليمان إلى مراكش واستولى عليها وبايعه أهلها وقدم عليها بها قبائل الحوز والبير وقبائل حاحة والسوس بهدياهم مغتبطين فسر بهم وأكرمهم وأصلح بين قبائل الحوز وجمع كلمتهم وأهدر دماءهم ومهد بلادهم ورتب حاميتها وأنزل بقسبة مراكش أهل الحوز الذين كانوا بها أيام والده ورتب لهم الجرايات وأمر بألف من عبيد السوس يأتون لسكنى القسبة واستقامت الأمور دخول أسفي وصاحبها القائد عبد الرحمن بن ناصر العبدى في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله كان عبد الرحمن بن ناصر هذا على ما وصفناه قبل من الوجاهة ونفوذ الكلمة بأسفي وأعمالها وكان مستوليا على جباية مرساها وخلد بها آثارا مثل الدار الكبرى التي على شاطئ البحر ومسجد الزاوية وغير ذلك وكان جوادا بالعباءة ولما استولى السلطان المولى سليمان رحمه الله على مراكش بعث إليه كتابه أبا عبد الله محمد بن عثمان المكناسي ليأتيه به أو يأذن بحربه ولما وصل الكاتب المذكور إليه بأسفي ألفاه مريضا فاعتذر عن القوم على السلطان بالمرض وكتب ببيعته وأدى طاعته وانتقل المولى هشام عنه إلى زاوية الشرايى فأقام بها فبعث إليه السلطان من أمره وجاء به إليه فلقاه مبرة وتكرمة وقدم إليه المراكب والكسي وأنزله بدار أخيه المولى المأمون

ريثما استراح ثم بعثه إلى رباط الفتح فاستوطنها ورتب له من الجراية ما يكفيه ولما قدم الكاتب ابن عثمان على السلطان ببيعة عبد الرحمن بن ناصر واعتذر له عنه بالمرض قبل ظاهر عذره وأرجأ أمره إلى يوم ما وحكى صاحب الجيش أن المولى هشام لما قدم على السلطان بمراكش ونزل بدار أخيه المولى المأمون أتاه السلطان بعد ثلاث إلى منزله رجلا لقرب المسافة ولما التقيا تعانقا وتراحما ثم جاء معه المولى هشام حتى دخلا بستان النيل من باب الرئيس ونصب له السلطان كرسيًا جلس عليه وجلس هو أمامه إعظاما له لكونه أسن منه ثم صار يستدعيه صباحا ومساء فيجلسان ويتحدثان ثم يفترقان وكان لا يتعدى ولا يتعشى إلا وهو معه وكلما دخل عليه رفع مجلسه وأجله وإذا ذكره لا يذكره إلا بلفظ الأخوة بأن يقول أخي المولى هشام دون سائر بني أبيه ولما طلب المولى هشام منه السكنى برباط الفتح أجابه إليها وقضى مآربه وأزاح عله ثم عاد إلى مراكش فكانت منيته بها كما نذكره دخول الصويرة وأعمالها في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله كان من خبر دخول الصويرة وأعمالها في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله أن الحاج محمد بن عبد الصادق المسجيني وهو من عبيد الصويرة كان قد قدم من الحج عامنذ فمر على السلطان المولى سليمان وهو بالغرب فدخل عليه فولاه على الصويرة وكتب له العهد بذلك وأمره بإخفائه حتى يختبر حال أهلها ويعلم أين هوامه إذ كان ذلك قبل أن يطأ السلطان بلاد الحوز ويستولي عليها وكانت الصويرة حينئذ من جملة النواحي التي إلى نظر عبد الرحمن بن ناصر ومن في حربه وتحت غلبة حاحة وعصبيتها وكان الوالي بها يومئذ القائد أبو مروان عبد الملك بن بيهي الحاحي وكانت

له نباهة وذكر في قبائل حاحة وما اتصل بها فقدم ابن عبد الصادق الصويرة على أنه قدم من حجة لا غير فأراح بمنزله ثلاثا ثم جاء إلى باب القائد وأظهر عبد الملك بن بيهي وأقام من جملة الأعوان في الخدمة المخزنية إذ تلك هي وظيفته وخف في خدمة القائد المذكور واعتمل في مرضاته وأظهر من النصح ما قدر عليه ولازم الباب ليلا ونهارا فكان عبد الملك لا يخرج إلا ويجده قائما محتزما على الباب كما قال مسلم بن الوليد في فتى بني شيبان يزيد بن مزيد بن زائدة تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل فلم يلبث أن حلى بعينه وعظمت منزلته لديه فقدمه على الأعوان وعلى الحاشية حتى اتخذ صاحب رأيه وجعله عيبة سره وابن عبد الصادق في أثناء ذلك يحكم أمره مع إخوانه مسكينة وأهل أكادير سرا وأذنه صاغية لخبر السلطان متى يطأ بلاد الحوز فلما سمع بوصوله إلى دكالة واستيلائه على أزموور وتيط أفضى بأمر ولايته إلى خاصته وشيعته ووادعدهم لمظاهرتهم إياه على أمره ليلة معلومة وعبد الملك لا علم له بما يراد به وكان ابن عبد الصادق فيما قيل قد أخذ عليه أنه إذا حدث أمر ولو ليلا يخرج إليه حتى يفوضه فيما يكون عليه العمل فجاءه في تلك الليلة وقد هيا جماعة من عبيد الصويرة الذين أعدمهم للقيام معه وتركهم بحيث يسمعون كلامه إذا تكلم وقال لهم إذا سمعتموني أكلمه وأرجعه في القول فبادروه واقبضوا عليه ثم تقدم واستأن

على عبد الملك فخر ج إليه وبينما هو يكلمه أحاط به العبيد وقبضوا عليه وعلى جماعة من أصحابه من حاحة الذين كانوا يخدمونه ولم يملكوهم من أنفسهم شيئا حتى أخرجوهم عن البلد في تلك الساعة ودفعوا لعبد الملك فرسه وأغلقوا الباب خلفه وصفا لهم أمر البلد ومن الغد جمع ابن عبد الصادق أهل الصويرة وقرأ عليهم كتاب السلطان بولايته عليهم فأذعنوا وأجابوا ولم يبق فيها محجمة دم ثم ورد الخبر عقب ذلك بدخول السلطان إلى مراكش واستيلائه عليها وبها تم له أمر المغرب وصفا له ملكه ولم يبق له فيها منازع وذلك بعد مضي خمس

سنين من ولايته رحمه الله ثم إنه استخلف أخاه المولى الطيب نائبا عنه بمراكش وقفل إلى فاس من عامه فمر على طريق تادلا وأمر عاملها القائد عبد الملك أن يغير على بني زمور وينهب أموالهم ويقبض على مقاتلتهم ويلقاه بهم إلى الصخرة فكرب القائد عبد الملك في الجيش الذي كان معه واحتال عليهم بأن أرسل إليهم بالقدوم عليه فرسانا فلما قدموا عليه أمر بالقبض عليهم وشدهم وثاقا وحاز خيلهم وسلاحهم ثم أغار على حلتهم فنهبها وقدم على السلطان بمالهم ورقابهم وكانوا مائتي رجل بالثنية فبعث بهم السلطان إلى مكناسة فسجنوا بها حتى صلحت أحوالهم بعد ذلك وسرحهم استرجاع السلطان المولى سليمان مدينة وجدة وأعمالها من يد الترك وفي هذه السنة أعني سنة إحدى عشرة ومائتين وألف بعث السلطان المولى سليمان بالعساكر من فاس إلى وجدة فعقد على الودايا للقائد أبي السرور عياد بن أبي شفرة وعلى شرافة للقائد محمد بن خدة وعلى الأحلاف للقائد عبد الله بن الخضمر وأمرهم أن يأتوا أرض وجدة ويذوقوها ويقاتلوا الترك الذين استحوذوا عليها ومانعوا دونها وكتب مع ذلك إلى الباي محمد باشا في أن يتخلى عنها وعن قبائلها التي كان يتصرف فيها أيام الفترة أو يأتى بالحرب فامتثل الباي محمد ذلك ولم يمانع بل كتب إلى نائبه بها أن يتركها لأربابها ويتخلى عن قبائل بني يزناسن في وقتها وأعمالها وأولاد زكري وأولاد علي ورأس العين فامتثل ودخل جيش السلطان لوجدة وجبى عامله زكواتها وأعشارها واستخلف نائبا بها وقفل بالعساكر على السلطان وهو بفاس وقد تمهد الملك ووشجت عروقه وألقى السعد بجرانه والحمد لله وفي هذه السنة قدم الشيخ الفقيه المتصوف أبو العباس أحمد التجاني إلى

فاس فاستوطنها وكان الباي محمد بن عثمان صاحب وهران قد أزعه من تلمسان إلى قرية أبي صمغون فأقام بها وأقبل أهلها عليه ثم لما مات الباي المذكور وولي بعده ابنه عثمان بن محمد سعى عنده بالشيخ التجاني فبعث إلى أهل أبي صمغون وتهدهم ليخرجوه ولما سمع بذلك الشيخ المذكور خرج مع بعض تلامذته وأولاده وسلك طريق الصحراء حتى احتل بفاس ولما دخلها بعث رسوله بكتابه إلى أمير المؤمنين المولى سليمان يعلمه بأنه هاجر إليه من جور الترك وظلمهم واستجار منهم بأهل البيت الكريم فقبله السلطان وأذن له في الدخول عليه والحضور بمجلسه ولما اجتمع به ورأى سمته ومشاركته في العلوم أقبل عليه واعتقه وأعطاه دارا معتبرة من دوره كان أنفق في عمارتها نحو من عشرين ألف متقل ورتب له ما يكفيه وأقبل عليه الخلق واشتهر أمره بفاس والمغرب وهو شيخ الطائفة التجانية رحمه الله ونفعا به ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف فيها خرج السلطان في العساكر من مكناسة يريد عبد الرحمن بن ناصر بأسفي وعزم على حربه إلا أن يؤدي الطاعة هو وقبيلته مباشرة طوعا أو كرها ولما عبر وادي أم الربيع قدم إليه القائد أبو السرور عياد بن أبي شفرة في جيش الودايا وقال له إذا قدمت عليه فأزعه للمجيء فإن قدم فأقم أنت بأسفي وإن امتنع من المجيء فاكذب إلي وأقم هنالك حتى أقدم عليك فلما وصل إليه القائد عياد لم يسعه إلا للمجيء لملاقاة السلطان فجاء وهو مريض في محفته ومع جموعه وقبائله حتى اجتمع بالسلطان بالموضع المعروف بمائة بئر وبير بين عبدة ووكالة فباعه مباشرة وأدى الطاعة هو وإخوانه مباشرة كما اقترح السلطان وتحقق بأن تأخره إنما كان للمرض الذي به فوفى له السلطان بعهده وزاد في كرامته بوصوله معه إلى أسفي ودخله إلى داره بعد تثبيت رؤساء الجيش له عن الدخول معه ثم عقد له على قبائله وأمره بقبض الواجب منهم زاد صاحب الجيش وشكره على إيوانه لأخيه المولى هشام ثم سار السلطان إلى مراكش فدخلها مظفرا منصورا

وفي هذه السنة حدث الوباء ببلاد المغرب وعم حاضره وبواديها ولما فشا بمراكش وأعمالها رجع السلطان إلى مكناسة وترك أخاه المولى الطيب نائبا عنه بها فبلغه أثناء الطريق وفاة كاتبه أبي عبد الله محمد بن عثمان تركه بمراكش مصابا بالوباء قال صاحب البستان فلما وصل السلطان إلى مكناسة استقدمني من فاس فقدمت عليه وقلدني كتابته بعد أن أخرجني عنها سنة وفي أثناء ذلك بلغه وفاة إخوته الأربعة خليفته المولى الطيب والمولى هشام والمولى حسين والمولى عبد الرحمن بالوباء الثلاثة الأول بمراكش والرابع بالسوس ودفن المولى هشام والمولى حسين بقبعة إلى جنب الشيخ الجزولي رضي الله عنه وقبرهما مشهور بمراكش قال صاحب البستان فبعثني السلطان إلى مراكش لأتية بمختلف إخوته الذين هلكوا بها ومختلف الكاتب ابن عثمان وبعث معي خيلا وبغالاً لأحمل المتخلف المذكور والوباء لا زال لم ينقطع قال فوصلت إلى مراكش وجمعت المتخلف ورجعت به إلى فاس وقد ارتفع الوباء وازدهرت الدنيا ودرت ألبان الجباية للسلطان وفي هذه المدة قدم على حضرة السلطان بأشور الإصبينول فعقد معه شروط المهادنة وكان الذي تولى عقدها معه الكاتب ابن عثمان المكناسي قبل وفاته ببسبر وهي ثمانية وثلاثون شرطا مرجعها إلى الصلح والأمان من الجانبين إلا أنها أشد ببسبر من الشروط التي انعقدت مع السلطان المرحوم سيدي محمد رحمه الله من ذلك أن شروط سيدي محمد كانت تتضمن أنه إذا تشاجر مسلم ونصراني فالذي يفصل بينهما هو الحاكم إلا أن القتل يحضر وقت الفصل عسى أن يدفع عن ابن جنسه بحجة إن كانت وصارت شروط السلطان المولى سليمان تتضمن أن كل واحد منهما يتولى أخذ الحق منه حاكمه ويدفعه لخصمه وإذا فر نصراني من سبته أو مليلية أو تكور أو بادس أو أراد إسلاما فلا بد من حضور القتل إن كان وإلا فالعدل يسمعون منه ثم شأنه وما يريد

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف فيها وجه السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد الرهوني لجمع أموال المنقطعين فجمع منها ما قدر عليه وعاد سالما معافي ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وألف فيها أرسل السلطان كاتبه المذكور عاملا على السوس ومعها طائفة من الجند فقبائله ورجع وأحبه أهل السوس لحسن سيرته ولين جانبه وفي هذه السنة في اليوم الثامن من ربيع الثاني توفي الفقيه العلامة الماهر أبو عبد الله محمد المير السلاوي وكان من أهل المشاركة والتحقيق والخط الحسن رحمه الله ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين وألف فيها بعث السلطان العساكر لبرابرة آيت ومالو وعقد عليها للكاتب أبي عبد الله الحكماوي وبعث معه جماعة من قواد الجيش وقواد القبائل فلم يرضوا إمارته عليهم إذ كلهم كانوا أسن منه وفيهم من هو أعرف بأحوال البربر ومكايدهم فخذلوه وقت اللقاء وجروا عليه الهزيمة وأستولى البربر على أثنائهم ومدافعهم وجردوا الكثير منهم وقبضوا على الكاتب حتى أجاره بعض البربر فأبقوا عليه إلى أن بعثوا به إلى السلطان ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين وألف فيها بعث السلطان الجيش إلى بلاد درعة مع كاتبه أبي العباس أحمد أشقراس فدخلها وأستولى على قصورها المغصوبة وأخرج منها العرب والبربر وجبى أموالها ومهد نواحيها وأمن سبلها حتى صار ما بين السوس ودرعة والفانجة مجالا للتجارة وممرا لأبناء السبيل يغدون به ويروحون آمنين على أموالهم وأنفسهم ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين وألف فيها بعث السلطان العساكر إلى بلاد الريف مع أخيه المولى عبد القادر والقائد محمد بن خدة الشرقي وقائد العسكر أحمد بن العربي فجبى قبائل الريف من قلعية وكبدانة وغيرهما عن ثلاث سنين سلفت ولما رجعت العساكر أغارت على المطالسة وبني أبي

يجبى بكسر الباء الأخيرة فاستاقوا ماشيتهم وسبيهم وقدموا بهما على السلطان فسرح السلطان السبي ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين وألف فيها أغار آيت أدراس على رفاق تافيلالت بطريق ملوية ونهبوا بعض القفل وذلك بسبب أن السلطان كان قد قبض على محمد بن محمد واعزيز وسجنه بالجزيرة وولى عليهم أخاه أبا عزة بن محمد واعزيز فلم يقبلوه وجمعوا كلمتهم على ابن عمه أبي عزة بن ناصر وكان منحرفا عن السلطان ومفارقا له فولوه أمرهم ولما رأى السلطان اعوجاجهم سرح لهم محمدا واعزيز وولاه عليهم وأمره بالقبض على أبي عزة بن ناصر فأبى فغضب السلطان عليه ثانية وهم به ففر محمد واعزيز وكشف وجه العصيان فنهض حينئذ إلى آيت أدراس في العساكر وأرسل إلى قبائل آيت ومالو أن يأتوهم من خلفهم وتقدم هو حتى نزل بقرب أغليل ووقعت الحرب فصر الله السلطان وانهزم آيت أدراس ونهبت ماشيتهم واحتوى البربر على كلهم وفر أولاد واعزيز الثلاثة برؤوسهم لأيت ومالو وشرعت العساكر في إخراج زروعهم إلى أن استصفوها وأمر السلطان بهدم قصورهم فهدمت وأعطى كروان بلادهم ورجع إلى فاس مظفرا منصورا ثم لم يبق بها إلا يسيرا حتى خرج إلى تازا وترك عامل فاس أبا العباس

أحمد اليموري ببلاد الحياينة لقبض خراجهم ولما احتل بتازا جهز العساكر إلى وجدة مع الشيخ عبد الله بن الخضر لجباية قبائلها وجهز جيشا آخر مع عامل سجماسة أبي عبد الله محمد الصريدي فنزل ملوية وجبى قبائلها وطلع إلى بلاد الصحراء مع أوديتها إلى ناحية فنجب فجبى أموال تلك النواحي ثم توجه إلى سجماسة ففرق الجيش على أقاليم صحرائها درعة والفانجة وتدغة وفركلة وغريس وزيز والخندق ومدغرة والرتب فجبى أموال تلك القبائل كلها وقرر عماله ونوابه بكل إقليم منها ومهد طريق الصحراء ورجعت عساكره منصورا

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين وألف فيها عزل السلطان القائد أبا العباس أحمد اليموري عن فاس وولى عليها صهره المولى حبيب بن عبد الهادي فقام بها أحسن قيام وكان ذا عقل ومروءة وسمت ودهاء وفيها توجه السلطان في العساكر إلى مراكش ولما احتل بها بعث جيشا إلى السوس لنظر الكاتب أبي عبد الله الرهوني وبعث جيشا آخر إلى عامل حاحة لنظر أبي العباس أحمد اليموري ثم خرج السلطان في جيش ثالث إلى ثغر الصويرة لمشاهدتها والوقوف على آثار والده بها فانتهى إليها وأقام بها أياما وفرق المال على جندها أحرارا وعبيدا ونظر في أمور مرساها وأمر بإصلاح ما لا بد منه فيها وعاد إلى الغرب مؤيدا منصورا فتنة الفقير أبي محمد عبد القادر ابن الشريف الفيلبي واستحوذاه على تلمسان وبيعته للسلطان المولى سليمان والسبب في ذلك لما كانت سنة عشرين ومائتين وألف هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك وكان السبب في ذلك أن باي هيران كان له انحراف عن الفقراء والمنتسبين وسوء اعتقاد فيهم فقتل بعض الطائفة الدراوية وأمر بالقبض على مقدمهم أبي محمد عبد القادر بن الشريف الفيلبي تلميذ الشيخ الأكبر أبي عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد الدراوي شيخ الطائفة المذكورة ففر أبو محمد عبد القادر المذكور إلى الصحراء ونزل بحلة الأحرار فاجتمع عليه أهل طائفته وامتعضوا لمن قتل منهم ولنفي مقدمهم عن وطنه وعشيرته وامتعضت لهم عشائرهم من قبائل العرب الذي هنالك وزحفوا لحرب الترك على حين غفلة منهم فقتلهم في كل وجه ولما دخل فصل الربيع من السنة المذكورة بعث صاحب الجزائر عسكريا إلى باي هيران وأمره بغزو العرب فنهض إليهم ووقعت الحرب بينه

وبينهم فانهمز الترك ثانية ونهب العرب محلتهم وتبعوهم إلى هيران فحاصروهم ولما منى الباي منهم بالداء العضال كتب إلى السلطان المولى سليمان يعرفه بما داهاه منهم ويطلب منه أن يبعث إليهم شيخهم أبا عبد الله المذكور ليفهم عنه ويراجعوا طاعة المخزن فيبعث السلطان رحمه الله الشيخ المذكور ومعه الأمين الحاج الطاهر بادو المكناسي فانتهى الشيخ إلى ابن الشريف وهو في جموعه بظاهر هيران فشكا إلى الشيخ ما نال الفقراء والمنتسبين وسائر الرعيه من عسف الترك وجورهم وانتهاهم في ذلك إلى القتل والطرده عن الوطن فتوقف الشيخ وربما صدر منه بعض تقييح لفعل الترك وما هم عليه فازدادت العرب بذلك تظاهرا على الترك وتكالبوا عليهم فاتهم الباي السلطان بأنه الذي يغيرهم لأنه كان ينتظر الفرج على يده ويرجو رفع الخرق من جهته فأخفق سعيه وحينئذ نصب مدافعه في وجه جموع العرب وفرقهم بالكور والضولي فانهمزوا عن هيران وأبعدوا المفر ثم تذامروا وتحالفوا وزحفوا إلى تلمسان فنزلوا عليها وحاصروها وكان أهل تلمسان خصوصا وقبائلها عموما لهم التفات كبير إلى السلطان المولى سليمان رحمه الله لما أكرمه الله به من شرف النسب وطيب المنبت ولما اشتهر عنه من العدل والرفق بالرعية والشفقة عليها فكانوا يحبون الدخول في طاعته والانخراط في سلك رعيته فلما نزلت العرب على تلمسان تمتشت الرسل بينهم وبين الحضرة من أهلها وانفقوا على خلع طاعة الترك ومبايعة السلطان المولى سليمان ففتحوا باب المدينة ودخل ابن الشريف وطائفته وأخذ البيعة بها للسلطان المولى سليمان وخطب به على منابرها ووجه وفده وهديته إلى السلطان مع شيخه أبي عبد الله المذكور ثم نهد في عريه وحضره من أهل تلمسان لحرب الكرغلية الذين بالقصبة فأجرحهم بها وضيق عليهم فلم يبق للترك حينئذ شك في أن ذلك كله بأمر السلطان فكتبوا إلى الدولاتي وهو باشاهم الأعظم صاحب الجزائر يعلمونه بالواقع واستمرت الحرب بينهم

وبين ابن الشريف في وسط المدينة وعظم الخطب واشتد الكرب وقدم الشيخ على السلطان بوفد أهل تلمسان والعرب وهدية ابن الشريف وبيعته وأخبره بأن الناس في شدة من أمر الترك وأنهم قد تطارحوا على بابه وعلقت آماليهم به وراموا الاستقلال بظل عدله فأرأى السلطان رحمه الله أن يسلك في حقهم وحق الترك مسلكا هو أرفق بالجميع فيبعث القائد أبا السرور عياد بن أبي شفرة الودي وأمره أن يحجز بين الحضرة والترك حتى يقدم الباي إلى تلمسان ورد معه الوفد الذين قدموا مع الشيخ وتقدم إليه في القبض على ابن الشريف إن هو لم يرجع عن الحرب إلى السلم ثم كتب السلطان إلى الباي بما أزال شكه وأبطل وهمه ولما شارف القائد عياد تلمسان فر الشريف إلى منجته ودخل القائد عياد المدينة فحجز بين الفريقين وقدم الباي إلى تلمسان فأصلح بينه وبين رعيته ومكنه من بلده وانقلب إلى حال سبيله ومع ذلك لم يتم للترك ما أرادوا من أجل القحط الذي كان قد عم حتى عمدت الأقوات وجلا أهل تلمسان عنها إلى بلاد المغرب وكذا عربها وأهل جبالها كلهم جلا عن أوطانهم حتى لم يبق لبائنا الترك مع من يتكلم فضلا عن أن يتأمر فجعل يكتب إلى السلطان ويرغب إليه أن يرد عليه أهل تلمسان وعربها فكلهم السلطان رحمه الله في الرجوع فأبوا وقالوا نذهب إلى بلاد النصرارى ولا نجاور الترك فنجمع علينا الجوع والقتل فرق لهم السلطان وتركهم بل جبرهم بأن صار يعينهم بالعباء ويتحولهم بالصدقات المرة بعد المرة حتى كان عطاؤه إياهم كالأرب المفروض وعالج داءهم مع الترك إلى أن أخصبت بلادهم ورخصت أسعارهم فترجعوا حينئذ إلى أوطانهم وكتب السلطان إلى الباي في شأنهم بالعدل وحسن السيرة فامتثل وكف أيدي الكرغلية عنهم ولم يبق منهم بالمغرب إلا من كان عليه دين للترك فلم يقدر على الرجوع لأن أرباب الدين لا يقيمون لهم وزنا ولا يعملون معهم شرعا والله أعلم

ذكر ما اتفق للسلطان المولى سليمان رحمه الله في وسط دولته من الخصب والأمن والسعادة واليمن كان هذا السلطان رحمه الله موصوفا بالعدل معروفا بالخير مرفوع الذكر عند الخاصة والعامة قد ألقى الله عليه منه المحبة فأحبته القلوب ولهجت به الألسنة لحسن سيرته وطيب سيرته واتفق له في أواسط دولته من السعادة والأمن والعافية ورخاء الأسعار وابتهاج الزمان وتبليج أنوار السعد والإقبال ما جعله الناس تاريخا وتحديثا به دهرا طويلا حتى صارت أيام السلطان المولى سليمان مثلا في السنة العامة ولقد أدركنا الجم الغفير ممن أدرك أواسط دولته فكلهم يثني عليها بملء فيه ويذهب في إطرانها كل مذهب لولا ما كدر آخرها من فتنة البربر التي جرت معها فتنا أخر كما نذكر بعد إن شاء الله فمما هيا الله له من أسباب الخير والسعادة أنه بويع مطلوبيا لا طالبا ومرغوبا لا راغبا ثم لما بويع كان ثلاثة من إخوته كلهم يزاحمه في المنصب ثم لم يزل أمرهم يضعف وأمره يقوى إلى أن كفى الجميع من غير ضرب ولا طعن ولا بارز أحدا منهم قط ولا واجهه بسوء ومن ذلك أنه لما دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان عامله إلى صحراء فنجب وجبى أموالها واسترجع قصر المخزن الذي أعتصبه أهلها من يد العبيد الذين كانوا به أيام السلطان المولى إسماعيل رحمه الله ووجه في السنة المذكورة جيشا مع عامل فاس باعقيل السوسي ومعه جماعة من قواد القبائل إلى ناحية الشرق فنزل العامل مدينة وجدة وجبى تلك القبائل كلها ثم بدا له فهض إلى عرب الأعشاش وكان ذلك خطأ منه في الرأي إذ كانت لهم شوكة وكان في غنى عن التعرض لهم بما در عليه من الجبايات الوافرة من تلك القبائل لكن الحرص لا يزال بصاحبه حتى يقطع عنقه فلما علموا بقصده إياهم عدلوا عن لقائه إلى المحلة فأغاروا عليه وانتهبوها فرجع أهلها منهزمين

من غير قتال وتركوا أنقالهم بيد العدو ولم يجتمعوا إلا على وادي ملوية ومن هناك انفض الأحلاف إلى بلادهم ووقف باعقيل بالجيش وأحجم عن القوم خوفا من السلطان فيبعث إليه من قبض عليه وأتاه به فكفبه وعزله عن فاس وولى عليها وصيفه ابن عبد الصادق ثم عزله وولى عليها محمد واعزيز ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف فيها خرج السلطان المولى سليمان بالعساكر إلى تادلا يريد بني موسى وآيت أعتاب ورفالة وبني عياط الذبح أووا بني موسى فبث السلطان عليهم العساكر فنهوا بني موسى ومن أوامهم من رفالة وبني عياط وأحرقوا مداشرهم وقطعوا أشجارهم وأبلغوا في النكاية إلى أن أذعنوا إلى الطاعة وجبوا زكواتهم وأعشارهم وعادوا منصورين وفي السنة المذكورة فتح على السلطان إقليم تيكرايين وتوات من أقصى الصحراء وجبى عامله خراجهم وعاد سالما معافي وفيها حدثت الحرب بين السلطان مصطفى بن عبد الحميد العثماني وبين الموسكوب فكتب العثماني إلى السلطان يطلب منه أن يشد عضده بأمره بأن يقيم قراصينه بباب البوغاز من مرسى طنجة لئلا تدخل قراصين الموسكوب منه وتعيث في الجزر التي هي في ملكة العثماني كما فعلت في دولة عمه السلطان مصطفى بن أحمد فأمر السلطان رحمه الله رؤساء

قراصينه بالتهيبىء والمقام هنالك فعلوا ولم يظهر شيء حكى هذا الخبرصاحب البستان ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف فيها عقد السلطان لوصيفه القائد أحمد بن مبارك صاحب الطابع على جيش كثيف وضم إليه جماعة من قواد الجند والقبائل وسار حتى نزل على حدود بلاد آيت ومالو وأحاطت العساكر السلطانية بهم من كل جهة وكان ذلك في فصل الشتاء فمنعوهم من النزول إلى البسيط للمرعى وجلب الميرة إلى أن ضاعت مواسيهم وأذعنوا

لدفع ما وظف عليهم فدفعوا الماشية والكرراع وخلقى سبيلهم وفيها خرج السلطان من مكناسة لتفقد أحوال الثغور البحرية وكان المتولي على جمعها القائد الشهير أبو زيد عبد الرحمن بن علي أشعاش التطواني فعزله السلطان في هذه المرة وولى عليها القائد محمد السلاوي البخاري ثم ولاه على قبائل الغرب والجبال كلها وتبع السلطان رحمه الله الثغور كلها وأحسن إلى أهلها ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين وألف فيها خرج السلطان إلى تادلا يريد عرب وريجة وقبائل البربر الذين هنالك فأغارت عساكر السلطان عليهم ووقعت بينهم حرب فظليعة هلك فيها عدد من الفريقين ثم انتصرت العساكر السلطانية عليهم فهزموهم ونهبوا أموالهم والجؤوهم إلى الطاعة فجاؤوا تائبين فعفا عنهم ثم أنفذ جيشا كثيفا لأيت يسري بعد أن قبض منهم على عدد معتبر فشنوا الغارة عليهم وقتلوهم فأذعنوا لإعطاء المال ولما بذلوه سرح لهم إخوانهم المقبوض عليهم وعاد السلطان مظفرا منصورا ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين وألف فيها غزا السلطان بلاد الريف فنزل عين زورة وسرح الكتائب في قبائل الريف فحاربوها وهزموها وقتلوا مقاتلتها وسلبوا ذراريها وحرقوا مداشرها والجؤوهم إلى الطاعة فقدموا على السلطان تائبين فعفا عنهم على أن يدفعوا ما ترتب عليهم ثم عين السلطان الأمناء الذين استوفوه منهم على التمام وعاد مظفرا منصورا وفي هذه السنين كلها كانت الرعية في غاية الطمأنينة والعافية والأمن والخصب والرخاء وكامل السرور والهناء حتى كانت هذه المرة في جبهة ذلك العصر ودمية في محراب ذلك القصر ثم انعكست الأحوال وتراكت الأحوال وعظمت الأوجال واتسع في الفتنة المجال وتم على هذا السلطان الجليل العالم النبيل في آخر عمره ما لم يتم على أحد من ملوك بني أبيه والله الأمر من قبل ومن بعد

بدء هيجان فتنة البربر وما نشأ عنها من التناقم الأكبر لما دخلت سنة ست وعشرين ومائتين وألف قامت الفتنة بين قبائل البربر وكان ابتداءها أولا بين آيت أدراسن وكروان وبين أعدائهم آيت ومالو أهل جبل فازاز ثم لما انتشبو الحرب غدرت كروان بإخوانهم آيت أدراسن وانحازوا إلى آيت ومالو فانهمزمت آيت أدراسن ووضع آيت ومالو فيهم السيف ونهبوا حلتهم بما فيها وتركوهم بالقلاع مدقعين ولعصا الذل مهطعين ولم يفلت منهم إلا أصحاب الخيل الذين نجوا بنواصبيها وقدموا على السلطان شاكين باكين فقام وقعد لذلك لما أوجب الله عليه من النظر لهم إذ هم رعيته وشيعته وشيعة والده من قبله فجهز العساكر لنصرتهم وعادوا إلى حرب كروان فظاهروهم آيت ومالو عليهم وهزموهم مرة أخرى ثم بعد هذا اتفقت البربر على حرب آيت أدراسن مناوأة للسلطان وبغضا في قائدهم محمد واعزيز الذي كان يوليه عليهم ويعثوا إلى دجالهم مهاوش المعد عندهم لأمثالها وتحالفوا عنده على معصية السلطان وطاعة الشيطان وعاثوا في الطرقات والرعايا واتسع الخرق وعظم الفسق فسارت إليهم العساكر من باب السلطان حتى نزلت بأحواز صفرو وكانت لنظر القائد محمد الصريدي الذي يبغضه البربر كبغض محمد واعزيز أو أكثر فكشفوا القناع في العصيان وزحفوا إلى الجيش وهو نازل حول صفرو فأحاطوا به وانتهبوه ففر من أفلت منه وتحصن الباقي بمدينة صفرو ونهبت القرى المجاورة لها وعاثوا في طرقات الصحراء فهبوا من وجنوا بها مقبلا أو مدبرا وأعضل الداء وأعوز النواء والسلطان مقيم بمكناسة يعالج دوائهم فما نفع فيه ترياق وشمخت أنوف البربر وكلما بعث إليهم جيشا هزموه أو سرية انتهبوها قيل إن منشأ ذلك كان من أجل تمسك السلطان رحمه الله بمحمد واعزيز وجبرهم على طاعته وكانوا قد نفرؤا عنه لسوء سيرته فيهم

والمعروف من حال السلطان المولى سليمان رحمه الله خلاف هذا فإنه كان قلما تشكر رعية إليه بعاملها إلا ويعزله عنها تحريا للعدل واتهاما للعمل حتى لقد عيب عليه ذلك في بعض الأحوال من جهة السياسة ولما أعيا السلطان أمرهم تركهم فوضى ووكل القائد عباد بن أبي شفرة بتدبير أمرها وتوجه إلى مراکش فكان عباد على أمرهم أعجز وبسياستهم أجهل وصار يتألفهم بالعطاء ويجري المؤن على كل من يقدم عليه منهم من طعام وعلف ونحو ذلك فكان ذلك مما زاد في طغيانهم حتى كانوا ينهبون أموال الناس ومتاعهم بباب فاس ويدخلون لقبض الخفارة وأخذ الميرة وإذا تكلم أحد من أهل البلد قال القائد المذكور إن السلطان أمرني بذلك وربما عاقب من يعترض عليه وإنما أمره السلطان أن يسوسهم على الوجه الذي لا ضرر فيه على الدولة ولا على الرعية والله أعلم إجلاب السلطان المولى سليمان على برابرة كروان ورجوعه عنهم من أصرو وما نشأ عن ذلك لم وصل السلطان إلى مراکش استنفر قبائل الحوز كلها وقدم بهم إلى مكناسة واستنفر قبائل الغرب من الأحلاف والحيانية وأهل الفحص وأهل الغرب وبني حسن وأهل الثغور وضرب البعث على جيش العبيد والودايا وشرافة وأولاد جامع واستصحب معه البربر الذين هم في طاعته حتى لم يبق أحد بالمغرب وخرج في هذا الجمع العظيم قاصدا كروان وهم يومئذ بتاسمات ولما وصل إلى الموضع المعروف بأصرو وبقي بينهم وبينه نصف مرحلة بحيث صار يرى محلتهم ويرون محلته بدا له فرجع يريد آيت يوسي فكان ذلك الرجوع سبب الخذلان ولما رآته عيون كروان راجعا ظنوا به جينا فجرؤوا على الجيش وتبعوه من خلفه إلى أن خالطوا أخريات

الناس فأوقعوا بهم وقتلوا ونهبوا وأين أوله بينهما مرحلة ولا علم للسابق بما جرى على اللاحق ثم نزل السلطان على آيت يوسي بقرب آعليل وصاروا بنو مكبلد أمامه وكروان من خلفه ولم يكن علم بما وقع في العسكر من النهب والقتل إلى أن ورد عليه منهزمة العبيد ليلا فأخبروه بما وقع وأن قائد عسكره أبا عبد الله محمد بن الشاهد قد قتل في جماعة من القواد وغيرهم ففت ذلك في عضده وتجلد رحمه الله ليلته تلك ولما أصبح ركبت العساكر وقصدت آيت ومالو الذين كانوا مع آيت يوسي ولما وقعت الحرب انهزم عسكر السلطان وألجأهم البربر إلى شعب لا منفذ له فترجلوا وتركوا الخيل ونجوا بأعناقهم وحمتهم آيت يمور وآيت أدراسن حتى خلصوهم وكانت حلتهم قريبا من العسكر فلو تبعوهم لوقعوا عليها ولما حصلت هذه المزية لهؤلاء البربر الذين هم شيعة السلطان ولم تظهر للعرب مزية حقنوا ذلك عليهم وصاروا كل من دنا من المحلة منهم قبضوا عليه وقتلوه وقالوا إن البربر كلهم سواء فلما وقع ذلك بشيعة السلطان امتعضوا ورفعوا أمرهم إليه فأمر كاتبه وعامله محمدا السلاوي أن ينظر في أمرهم فبحث القائد المذكور حتى اطلع على حقيقة الأمر وعلم فساد نية البربر لما وقع بهم من القتل وسط المحلة ورأى أن القصاص في ذلك الوقت متعذر وأن عاقبته غير مأمونة فأشار على السلطان بالرجوع قبل أن يتسع الخرق على الراقع فرجع وكان رجوعه أكبر غنيمة وكثرة هذه الجموع بلا ترتيب سبب تلك الهزيمة والأمر كله لله وهذه الواقعة تعرف عند الناس بوقعة أصرو إضافة إلى الموضع الذي انتهى إليه السلطان من بلاد البربر ثم رجع عنه وقد جعلها العامة تاريخا يقولون كان ذلك عام وقعة أصرو والله تعالى أعلم

مراسلة صاحب تونس حمودة باشا ابن علي باي للسلطان المولى سليمان رحمه الله وما اتفق في ذلك وفي هذه المدة أو ما يقرب منها بعث صاحب تونس وهو الرئيس حمودة باشا ابن علي باي العالم الأديب الطائر الصيت الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي إلى السلطان المولى سليمان رحمه الله فقدم عليه حضرة فاس ومعه هدية وكتاب يتضمن طلب الإمداد بالميرة لحدوث المسغبة بالبلاد التونسية فأعظم السلطان رحمه الله مقدم هذا الشيخ واهتزت له فاس وامتدح السلطان بقصيدة من جيد شعره يقول في أولها إن عز من خير الأنام مزار فلنا بزورة نجله استبشار ومن جملتها قوله هذا الخليفة وابن أكرم مرسل وسليل من تمطى له الأكوار وخلصا الأشراف والخلفاء من بيت البتول وحيدا الأظهار وأجل وارث ملك إسماعيل من بطل شذا أخباره معطار وأعز سلطان وأشرف مالك شرقت بملك يمينه الأحرار وأحق من تحت السماء بأن يرى ملك البسيطة والورى أنصار لكن إذا كل القلوب تحبه فغيره الأجسام وهي نفار هذا سليمان الرضي ابن محمد من أشرفت لجبينه الأنوار هذا الذي رد الخلافة غضه وسما به للمسلمين منار وأعز دين الله فهو بشكره في أيكها تترنم الأطيوار فأعجب السلطان ومن حضر بها وأمده بمطلبه من الميرة وبهدية جليلة وأب الشيخ من سفارته بخير مآب

وصول كتاب صاحب الحجاز عبد الله بن سعود الوهابي إلى فاس وما قاله العلماء في ذلك وفي هذه المدة أيضا وصل كتاب عبد الله بن سعود الوهابي التابع بجزيرة العرب المتغلب على الحرمين الشريفين المظهر لمذهب بهما إلى فاس المحروسة وأصل هذه الطائفة الوهابية كما عند صاحب التعريبات الشافية وغيره أن فقيرا من عرب نجد يقال له سليمان رأى في المنام كأن شعلة من نار خرجت من بدنه وانتشرت وصارت تأكل ما قابلها فقص رؤياه على بعض المعبرين ففسرها له بأن أحد أولاده بجدد دولة قوية فتحقتت الرؤيا في ابن ابنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان فال مؤسس للمذهب هو محمد بن عبد الوهاب ولكن نسب إلى عبد الوهاب فلما كبر محمد احترمه أهل بلاده ثم أخبر بأنه قرشي ومن أهل بيت النبي وألف لهم قواعد وعقائد وهي عبادة الله واحد قديم قادر حق رحمان يثيب المطيع ويعاقب العاصي وأن القرآن قديم يجب اتباعه دون الفروع المستنبطة وأن محمدا رسول الله وحبيبه ولكن لا ينبغي وصفه بأوصاف المدح والتعظيم إذ لا يليق ذلك إلا بالقديم وأن الله تعالى حيث لم يرض بهذا الإشراف سخره ليهدي الناس إلى سواء الطريق فمن امتثل فيها ونعمت ومن أبي فهو جدير بالقتل فهذه أصول مذهبه وكان قد بثه أولا سرا فقلده أناس ثم سافر إلى الشام لهذا الأمر فلما لم يجد به مراده رجع إلى بلاد العرب بعد غيبته عنها ثلاث سنين فاتصل بشيخ من أشياخ عرب نجد يقال له عبد الله بن سعود وكان شهما كريم النفس فقلده وقام بنصرة مذهبه وقائل عليه حتى أظهره واقتسم الرياسة هو ومحمد بن عبد الوهاب فابن عبد الوهاب صاحب الاجتهاد في مسائل الدين وابن سعود أمير الوهابية وصاحب حربهم ولا زال أمر هؤلاء الوهابية يظهر شيئا فشيئا إلى أن تغلبوا على الحجاز والحرمين الشريفين وسائر بلاد العرب ثم

قال صاحب التعريبات الشافية إن مساجد الوهابية خالية عن المنارات والقباب وغيرها من البدع المستحسنة لا يعظمون الأئمة ولا الأولياء ويفنون مواتهم من غير مشهد واحتفال يأكلون خبز الشعير والتمر والجراد والسماك ولا يأكلون اللحم والأرز إلا نادرا ولا يشربون القهوة وملابسهم ومسكنهم غير مزينة اه ولما استولى ابن سعود على الحرمين الشريفين بعث كتبه إلى الأفاق كالعراق والشام ومصر والمغرب يدعو الناس إلى اتباع مذهبه والتمسك بدعوته ولما وصل كتابه إلى تونس بعث مفتيها نسخة منه إلى علماء فاس فتصدى للجواب عنه الشيخ العلامة الأديب أبو الفيض حمدون بن الحاج قال صاحب الجيش كان تصدي الشيخ أبي الفيض لذلك الجواب بأمر السلطان وعلى لسانه وذهب بجوابه ولده المولى إبراهيم بن سليمان حين سافر للحج قلت وهذا يقتضي أن كتاب ابن سعود ورد على السلطان المولى سليمان بالقصد الأول لا أن نسخة منه وردت بواسطة علماء تونس والله تعالى أعلم حج المولى أبي اسحاق إبراهيم ابن السلطان المولى سليمان رحمه الله وفي هذه السنة أعني سنة ست وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان المولى سليمان رحمه الله ولده الأستاذ الأفضل المولى أبا اسحاق إبراهيم بن سليمان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع الركب النبوي الذي جرت العادة بخروجه من فاس على هيئة بدية من الاحتفال وإبراز الأخبية لظاهر البلد وقرع الطبول وإظهار الزينة وكانت الملوك تعنى بذلك وتختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب وغير ذلك مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما فوجه السلطان ولده المذكور في جماعة

من علماء المغرب وأعيانه مثل الفقيه العلامة القاضي أبي الفضل العباس بن كيران والفقيه الشريف البركة المولى الأمين بن جعفر الحسني الرتيبي والفقيه العلامة الشهير أبي عبد الله محمد العربي الساحلي وغيرهم من علماء المغرب وشيوخه فوصلوا إلى الحجاز وقضوا المناسك وزاروا الروضة المشرفة على حين تعذر ذلك وعدم استيفائه على ما ينبغي لاشتداد شوكة الوهابيين بالحجاز يومئذ ومضايقتهم لحجاج الأفاق في أمور حجهم وزياراتهم إلا على مقتضى مذهبهم حكى صاحب الجيش أن المولى إبراهيم ذهب إلى الحج واستصحب معه جواب السلطان فكان سببا لتسهيل الأمر عليهم وعلى كل من تعلق بهم من الحجاج شرقا وغربا حتى قضوا مناسكهم وزياراتهم على الأمن والأمان والبر والإحسان قال حدثنا جماع وافر من حج مع المولى إبراهيم في تلك السنة أنهم ما رأوا من ذلك السلطان يعني ابن سعود ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام من صلاة وطهارة وصيام ونهي عن المنكر الحرام وتقية الحرمين الشريفين من القانورات والأثام التي كانت تفعل بهما جهارا من غير تكبر وذكروا أن حاله كحال أحاد الناس لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس وأنه لما اجتمع بالشريف المولى إبراهيم أظهر له التعظيم الواجب لأهل البيت الكريم وجلس معه كجلوس أحد أصحابه وحاشيته وكان الذي تولى الكلام معه هو الفقيه القاضي أبو إسحاق إبراهيم الزداعي فكان من جملة ما قال ابن سعود لهم إن الناس يزعمون أننا مخالفون للسنة المحمدية فأبي شيء رأيتونا خالفنا من السنة وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا فقال له القاضي بلغنا أنك تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوى فقال لهم معاذ الله إنما نقول كما قال مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة فهل في هذا من مخالفة فالوا

لا وبمثل هذا نقول نحن أيضا ثم قال له القاضي وبلغنا عنكم أنكم تقولون بعدم حياة النبي وحياة إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم فلما سمع ذكر النبي ورفع صوته بالصلاة عليه وقال معاذ الله إنما نقول إنه في قبره وكذا غيره من الأنبياء حياة فوق حياة الشهداء ثم قال له القاضي وبلغنا أنك تمنعون من زيارته سائر الأموات مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن إنكارها فقال معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا وهل منعناكم أنتم لما عرفنا أنكم تعرفون كيفيتها وأدائها وإنما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالألوهية ويطلبون من الأموات أن تقضى لهم أغراضهم التي لا تقضيها إلا الربوبية وإنما سبيل الزيارة الاعتبار بحال الموتى وتذكر مصير الزائر إلى ما صار إليه المزمور ثم يدعو له بالمغفرة ويستشفع به إلى الله تعالى ويسأل الله تعالى المنفرد بالإعطاء والمنع بجاه ذلك الميت إن كان ممن يليق أن يتشفع به هذا قول إمامنا أحمد بن حنبل رضي الله عنه ولما كان العوام في غاية البعد عن إدراك هذا المعنى منعناهم سدا للذريعة فأبي مخالفة للسنة في هذا القدر أه ثم قال صاحب الجيش هذا ما حدث به أولئك المذكورون سمعنا ذلك من بعضهم جماعة ثم سألنا الباقي أفرادا فاتفق خبرهم على ذلك اه قلت مسألة زيارة قبور الأنبياء والأولياء مشهورة في كتب الأئمة وهي من القرب المرغوب فيها عند الجمهور ومنعها قوم من الحنابل وشدد تقي الدين ابن تيمية منهم فيها محتجا بقوله عليه الصلاة والسلام لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى وهو عند الجمهور مؤول بأن المعنى لا تشد الرحال لصلاة في مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد اه وقد بسط القول في هذا صاحب المواهب اللدنية والقول الفصل أن التبرك بآثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء رضي الله عنهم وزيارة مشاهدهم من الأمر المعروف عند أمة محمد المجمع عليه

خلفا وسلفا لا يسع إنكاره غير أن للزيارة آدابا تجب المحافظة عليها وشروطا لا بد من مراعاتها والوقوف لديها ثم القول بمنعها مطلقا سدا للذريعة في حق العامة إذ هم أكثر الناس وغولا في ذلك فيه نظر أما الأنبياء فلا ينبغي لعاقل أن يحرم نفسه من الوقوف على مشاهدهم والتبرك بتبريتهم والاحتماء بحماهم ولا أن يقول بذلك لمزيد ارتفاع درجتهم عند الله تعالى ولندور اتفاق زيارتهم لأكثر الغرباء وأما الأولياء فالقول بمنع زيارتهم سدا للذريعة مع بيان العلة وإشهارها بين الناس حتى لا يلتبس عليهم المقصود قول وجبه لا تأباه قواعد الشريعة بل تقتضيه والله أعلم وهذا القول هو الذي راه الشيخ الفقيه الصوفي أبو العباس أحمد التجاني رحمه الله حتى نهى أصحابه عن زيارة الأولياء وأقول إن السلطان المولى سليمان رحمه الله كان يرى شيئا من ذلك ولأجله كتب رسالته المشهورة التي تكلم فيها على حال متفقرة الوقت وحذر فيها رضي الله عنه من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة وبين فيها بعض آداب زيارة الأولياء وحذر من تغالي العوام في ذلك وأغلظ فيها مبالغة في النصح للمسلمين جزاه الله خيرا ومن كلامه فيها ما نصه تنبيه من الغلو البعيد ابتهال أهل مراکش بهذه الكلمة سبعة رجال فهل كان لسبعة رجال شيعة يطوفون عليهم إلى أن قال فعلينا أن نقتدي بسبعة رجال ولا نتخذهم آلهة لنلا يؤول الحال فيهم إلى ما آل إليه في يغوث ويعوق ونسرا إلى آخر كلامه وصدق رحمه الله فكم من ضلالة وكفر أصلها الغلو في التعظيم وما ضلت النصارى إلا من غلوه في عيسى وأمه عليهما السلام قال الله تعالى ياهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق النساء الآية ومن ذلك قصة يغوث ويعوق ونسرا المشار إليها وهي مذكورة في الصحيح وفي كتب التفسير وحكى ابن إسحاق في السيرة أن أصل حدوث عبادة الحجر في بلاد العرب أن آل إسماعيل عليه السلام لما كثروا حول الحرم وضلقت بهم

فجاج مكة تفرقوا في النواحي وأخذوا معهم أحجارا من الحرم تبركا بها فكان أحدهم يضع الحجر في بيته فيطوف ويتمسح به ويعظمه ثم توالى السنون وخلصت الخلوف فعبدوا تلك الأحجار ثم عبدوا غيرها وذهبت منهم دينانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلا يسيرا جدا بقي فيهم إلى أن صبحهم الإسلام هذا معنى ما ذكره ابن إسحاق وقد تكلم الشاطبي وغيره من العلماء فيما يقرب من هذا وذكروا أن الغلو في التعظيم أصل من أصول الضلال ولو لم يكن في ذلك إلا قضية الشيعة لكان كافيًا فالحاصل أن خير الأمور الوسط ومن هنا أيضا كان السلطان المولى سليمان رحمه الله قد أبطل بدعة المواسم بالمغرب وهي لعمرى جديرة بالإبطال فسقى الله تراه وجعل في عليين مثواه ولما كان رمضان من سنة سبع وعشرين ومائتين وألف قدم المولى إبراهيم ابن السلطان المذكور من الحجاز ونزل بطنجة وكان قدومه في قرصان الإنجليز لأن والده رحمه الله كان قد وجهه إليه مع بضع قراصينه إلى الإسكندرية فصادفوه قد اندحر إلى جزيرة مالطة فركب المولى المذكور فيما خف من حاشيته في قرصان النجليز وسبق إلى طنجة فاحتل بها ثم سار إلى حضرة والده بمكناسة فأقام عنده ثلاثا ريثما استراح ثم انفصل عنه إلى داره بفاس فخرج لملاقاته جيش الودايا وأشرف فاس وأعلامها وسائر عامتها وفرح وسرور وكان يوم دخوله يوما مشهودا ولما وصل القوم الذين كانوا معه نشروا محاسنه وفضائله ومكارمه المحمودة وفواضله وما فعله من البر في طريق الحج خصوصا في مفاوز الحجاز فقد أنفق فيها على الضعفاء والمساكين ما لا يحصى وشاع ذكره في الحرمين الشريفين وتجاوزهما إلى مصر والشام والعراقين ولما نفذ ما عنده استسلف من التجار الذين كانوا معه أموالا طائلة أنفقها في سبيل الله ولما قدم أربابها على السلطان عرفوه بما استسلفه منهم ولده وأطلعوه على حساباتهم فعرف أن ما فعله ولده صواب فأمر رحمه الله لأولئك التجار بقضاء ما أسلفوه وأن يزداد لهم مقدار ربحه

تطيبنا لنفوسهم وقال إنما تتعاطون التجارة لتتنموا أموالكم وتربحوا فلا ينبغي أن ننقصكم من ربحكم شيئا فأما نحن فربحنا هو ما أنفقناه ولدنا في سبيل الله وقد مدح هذا النجل الأرضي جماعة من أدياء مصر وغيرها بقصدان نفيسة ومن جملة من منحه الفقيه العلامة الأديب أبو إسحاق إبراهيم عبد القادر الرباعي التونسي فإنه بعث بقصيدة رائقة إلى والده السلطان المرحوم يمدح النجل المذكور ويهنته بالقدوم وألم فيها بذكر السلطان فأعجبته وهزت من عطفه وأمر كتاب دولته أن يأخذوا منها نسخا وشرحها بعضهم ونصها هذي المنى فأنعم بطيب وصال فلطالما أضناك طول مطال ماذا وكم أوليتني يا مخبري بقدمه من منة ونوالي بشرتني بحياتي العظمى التي قد كنت أحسبها حديث خيال بشرتني بآبى الرسول لو إنما روجي ملكت بذلتها في الحال بشرتني بسلالة الخلفاء من أمدهم تنثى بكل مقال من حبه فرض الكتاب أما ترى إلا المودة حين يتلو التالي من ضمهم شمل العباء وأذهبوا رجسا فيالك من مقام عالي من قوموا أود المكارم بعد ما شادوا الهدى بمعارف ونصال لولاهم كان الورى في ظلمة مدت غياهبها بكل ضلال أباك الأطهار فاقصد يا أبا إسحاق يا نجل المليك العالى يا حبه وصفيه من قومه وخياره من سائر الأنجال لو لم تكن أهلا لصفو وداده لم يستتبك لجدك المفضل لكن توسم فيك كل فضيلة فجنى يمينك راية الإقبال وأقام جودك بل وجودك زاد من يبغى ببيت الله حط رحال أنت استطاعتم فما عذر الذي ترك الزيارة خيفة الإقلال وبك المشاعر أطربت طرب التي وجدت على وله فقيد فصال ووصلتها رحما هناك قطيعة دهرا ولم تبلل به ببلال

وتأنس الحرمان منك بطلعة أغنتهما عن وابل هطال كرم لكم أدريه يوم أفاضه عني سليمان باي سجال وهب الألوفا وكان أكرم منزل يسلى الغريب ببره المتوال يوم التشرف لي بلثم يمينه وتمتعي من وجهه بجمال وتلذذي بخطابه المعسول إذ حفت به للدرس أي رجال لم أنسه يوما حسبت نعيمه بلذات الجنات ضرب مثال عجبا له يحيي القلوب بعلمه ويميت جند الفقر منه بمال وإذا تقلد للوغي فحسامه تعنو الرقاب له بدون قتال تتلوه بالفتح المبين عساكر قد أرهفت بالنصر حد نصال تخشى الملوك مقامه ولذكرة رعبا تطير فرائص الأبطال وينال أمه بخفض جناحه مالم يس خطر قط منه ببال حتى سعى لصفى منهله الذي يسعى لمروته ذرو الأتقال وأنت لمغزبه الشريف مشارق والشمس تغرب لاقتضاء كمال لما تكرر صفوها بضلاله جاءتة كيما ترتوي بزلال ومتى تخلف عاجز فيقلبه يسعى لفعل شعائر الإجلال أمنية وقعت أشرت لذكرها في مدحه قتما بصدق مقال تهوى المشارق أن تكون مغاربا لتتال من جدواه كل منال يا فخر دين الله منه بناصر وسعادة الدنيا به من وال لا تتفخر فاس ولا مراکش بولائه كل الأنام موال أو ليس في كل البقاع ثناؤه ورد البكور وسحة الأصال أو لم يشد للدين والعلماء والأشرف والصلحاء أي جلال أو لم يعم بجوده أقطارها لا فرق بين جنوبها وشمال أو لم يسر ركبائها بمحاسن ضاعت لها سرج بجنج ليال أو ليس أحيا سنة العمرين في زمن إلى بدع الهوى مياش شيم يهز الراسيات سماعها ويعجن في أنف الزمان غوال أوصاف والدك الإمام المرتضى للدين والدنيا بحسن خلال ذلك الربيع أبو الربيع ومن به حياى الهدى وشرائع الأفضال كل الكمال له وأنت مقره والفرع عين الأصل عند مال يا ابن المليك ابن المليك ابن المليك ابن المليك سلالة الأقبال أنستيم ذكر العباسية الأولى زالوا وما زالوا ببعين جلال لكم الفخار بذاته وسواكم مستمسك من فخركم بظلال ولي الفخار بأن نسجت مديحك حلا تجد وكل شيء بال أملي معانيها على ودادكم فجرى به طبع كما للسلسال ولو أنني حاولت مدح سواكم عقل القريبة عنه أي عقل فكأنما طبعي شريف حينما لا يهتدي لسوى مديح الال أو قد درى أن المديح تعرض وسواكم لا يرتضى لسؤال أبقاكم كهفا يلاذ بمجدهم مختاركم لإلانة الآمال وأدام للإسلام والدك الذي هو رحمة وسعت وبغير جدال وعليكم وعلى الذي يهواكم أركى الرضى من حضرة المتعال ما دام ذكركم بكل صحيفة تبعنا لأحمد سيد الإرسال صلى عليه مسلما رب الورى وعلى مقدم حزبه والتالي وعزز هذه القصيدة بمثلها بحرا وقافية ورويا الفقيه العلامة الأديب أبو الفيض حمدون بن الحاج الفاسي يقول في مطلعها بشارك إبراهيم بالإقبال إقبال عز لم يكن بالبال وهي طويلة تركناها اختصارا وفي هذه السنة توفي الشريف البركة المولى علي ابن المولى أحمد الوزاني وذلك يوم الثلاثاء آخر يوم ربيع الأول سنة ست وعشرين ومائتين وألف غزو السلطان المولى سليمان بلاد الريف والسبب في ذلك لما كانت سنة سبع وعشرين ومائتين وألف بلغ السلطان أن قبائل الريف من قلعبة وغيرهم صاروا يبيعون الزرع للنصارى ويسوقونه من بلادهم ففقد لعامله على الثغور أبي عبد الله محمد السلاوي على جيش كثيف وأنفذه إليهم

فسار العامل المذكور وقصد قلعبة عش الفساد ولما شارفها سرب إليهم العساكر فنهوا أموالهم وحرقوا مداشرهم وانتسفوا أرضهم وديارهم وتركوهم أفقر من ابن المدلق ثم بث عماله في تلك القبائل فجبوها واستوفوا زكواتها وأعشارها وعاد ظافرا وفي هذه السنة وذلك صباح يوم الجمعة السابع عشر من محرم منها توفي الشيخ العلامة الإمام خاتمة المحققين بالمغرب سيدي محمد الطيب بن عبد المجيد بن عبد السلام ابن كيران الفاسي صاحب التآليف البديعة والحواشي المحررة مثل شرح الحكم العطائية وشرح السيرة النبوية وغير ذلك من التآليف المعروفة والموجودة بأيدي الناس ثم لما دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف بلغ السلطان ثانيا أن أهل الريف لا زالوا مقيمين على بيع الزرع للنصارى وأنهم أضافوا إلى بيع الزرع بيع الماشية وقد كان السلطان منع النصارى من سبق ذلك بالمراسي فافتات هؤلاء القوم على السلطان وأعطوهم من ذلك ما أرادوا طمعا في الربح وكان السلطان قد تقدم إلى القائد محمد السلاوي في كفهم عن ذلك لأنه كان قد ولاه عليهم وأضافهم إلى من كان إلى نظره من أهل الجبل والثغور فكان لا يلتفت إليهم وربما قبض أهل المروءة منهم على سفلتهم ممن يتعاطى ذلك ويبيعون بهم إليه فيسرحهم على طمع فاتسع الخرق وصار كلهم يفعل ذلك ولما تحقق السلطان بفعلهم أمر رؤساء قراصينه أن يذهبوا إلى جهة الريف ومراسيها وكل من عثروا عليه بها من مراكب النصارى فليأخذوه فساروا وقبضوا على بعض النصارى فأسروهم ولم يقنعه ذلك حتى أمر بغزو الريف وعزم على النهوض إليهم بنفسه وأذن في الناس بذلك وجهز العساكر مع القائد محمد السلاوي ووجه معه ولده المولى إبراهيم بعساكر الثغور وعرب سفيان وبني مالك فساروا على طريق الجبل وخرج السلطان من فاس في السنة المذكورة ومعه السواد الأعظم فسلك الجادة إلى تازا وكارت حتى نفذ إلى بلاد الريف فلم يرعهم إلا العساكر محيطة بهم من كل وجه فنهبهم وحرقوا مداشرهم واستخرجوا

أمراسهم وبنفانتهم وولى السلطان عليهم أحمد بن عبد الصادق الريفى وتركه في بلادهم في حصة من العسكر يستخلص منهم الأموال وعاد السلطان إلى دار ملكه مؤيدا منصورا خروج السلطان المولى سليمان إلى بلاد الحوز وتمهيدها ثم دخوله مراکش كان السلطان المولى سليمان

رحمه الله قد ولى على قبائل تامسنا القائد كريبران الحريزي فيقال إنه أساء السيرة فيهم فنبذوا طاعته وخرجوا عليه فقدم على السلطان مستصرخا عليهم فخرج إليهم في العساكر سنة ثلاثين ومائتين وألف وتقدم إلى جيرانهم من القبائل بأن يزحفوا إليهم من خلفهم ففعلوا وهجم هو عليهم من أمامهم وأوقع بهم وقعة شنعاء أتلقت موجودهم وأباحت نساءهم وأولادهم وفر منهم طائفة فعبروا وادي أم الربيع زمان مدة فهلك جهم ثم ترك فيهم عامله في حصنة من الجند وأمره باستخلاص الأموال منهم وتقدم هو إلى ناحية مراكش لقمع أهل الفساد من قبائل الحوز مثل دكالة وعبدية والشياطمة الذين خرجوا أيضا على عاملهم الحاج محمد بن عبد الصادق صاحب الصويرة فأصلح من شأنهم وعزله عنهم لما علمه من سوء سيرته فيهم ونقله من الصويرة إلى مراكش ثم منها إلى فاس فولى أخاه أبا العباس أحمد على عسكر القلعة بمراكش وعاد رحمه الله إلى الغرب وفي هذه السنة في الثالث عشر من رمضان منها توفي الشيخ العلامة الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الحاج الرهوني صاحب الحاشية الكبيرة على مختصر الشيخ خليل وغيرها من التأليف النافعة والخطب البارعة وباعه في العلوم خصوصا الفقه مقرر معلوم رحمه الله ونفعا به وفي ليلة الاثنين الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة توفي الشيخ العالم العارف الإمام أبو العباس أحمد التجاني شيخ الطائفة التجانية وكانت وفاته بفاس المحروسة وضريحه بها شهير عليه بناء حفيظ رحمه الله ونفعا به غزو السلطان المولى سليمان قبائل الصحراء وإيقاعة بأيت عطة والسبب في ذلك لما كانت سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف بلغ السلطان المولى سليمان أن بعض قبائل الصحراء كعرب الصباح وبرابرة آيت عطة اشتغلوا بالفساد وعظم ضررهم واستولوا على قصور المخزن التي هنالك من عهد السلطان المولى إسماعيل فعقد لابنه المولى إبراهيم على جيش كثيف ووجهه إليهم فساد ونزل أولا على قصور العرب ونصب عليهم آلة الحرب فبدهم ثم زاد إلى قصور آيت عطة فنصب عليهم الآلة كذلك وضيق عليهم إلى أن طلبوا الأمان فأمنهم فطلبوا أن يفرج بالجيش عنهم قليلا حتى يخرجوا بعيالهم خوفا من معرفة الجيش فأشفق لهم وأفرج عنهم وكان ذلك مكيدة منهم فلما نفس عن مخنقهم أدخلوا معهم ما شاؤوا من رجال وسلاح وقوت وتمادوا على الحرب فسقط في يد المولى إبراهيم وحمل أنفه وكان معه جماعة وافرة من أعيانهم رهنا عنده فقتل طائفة منهم وساق نحو المائة إلى فاس فقتلهم بباب المحروق ولما أنهى خير فعلة البربر إلى السلطان عاب على ابنه إفراجه عنهم أولا وقتل الرهائن ثانيا ثم أنهم أوفدوا جماعة منهم على السلطان راغبين إليه أن يبيقهم بالقصور فردهم بالخيبة وقال لهم لا بد لي من الوصول إلى تلك القصور إن شاء الله حتى تكون لي أولكم ولما انسلخ رمضان من السنة وأقام سنة عيد الفطر شرع في تجهيز العساكر إلى الصحراء وقمع ظلمة آيت عطة ثم بعث في مقدمته السواد الاعظم من جيش العبيد وعقد عليهم لوصيفه الأتجب القائد أحمد بن مبارك صاحب الحاتم وبعث معه الطنجية بالمدافع والمهاريب وآلة الحصار والهدم فخرجوا من فاس في

زي فاخر وشوكة تامة وبعد انفصالهم عنها طرأ على السلطان من بعض الثغور البحرية خبر بأن عمارة العدو تزوج بالبحر وتجمع عند جبل طارق ولم ندر إلى أين تريد فتأخر السلطان عن الخروج حتى يبين له أمر هذه العمارة ثم ورد الخبر اليقين بأنها قد قصدت ثغر الجزائر وأصاب الفرنج من هدم الأبراج وتخريب الدور والمساجد وحرق الأشجار شيئا كثيرا لكن لما رجعوا مفلولين مقتولين هان الأمر وصغرت المصيبة ولما جاء البشير بانهزام الفرنج عن الجزائر قوي عزم السلطان على متابعة من وجه من عسكره إلى الصحراء فخرج في غرة ذي القعدة من السنة المذكورة فيمن تخلف معه من العسكر وقبائل العرب والبربر وجد السير إلى أن عمر وادي ملوية فقيه البشير هنالك بخر الفتح والاستيلاء على القصور وقتل أهلها وسببهم ونهب بضائعهم وأمتعتهم فجد السير إلى أن خيم بأغريس ومنها كتب إلى القائد أحمد أن يوافيه بالجيش لبلاد فركلة للنزول على القصور الخربات التي بها آيت عطة فاجتمعوا مع السلطان بها ونصبوا عليها المدافع والمهاريب ودام الرمي عليها ثلاثة أيام حتى كثر الهدم والقتل وعابنوا الموت الأحمر فأرسلوا إلى السلطان النساء والصبيان للشفاعة في الخروج بؤوسهم فأمنهم ولما جن الليل خرجوا حاملين أولادهم على ظهورهم خوفا من معرفة الجيش ولما أصبح السلطان أمر بنهب ما في القصور من القوت والمتاع والكراع وكمل فتح هذه الأماكن التي كانت نعمة لأهل ذلك القطر الصحراوي ولما من الله على السلطان بهذا الفتح شكر صنع الله له بأن فرق على العسكر وقبائل تلك الأقطار ما وسعهم من الخيرات قال صاحب الجيش أعطى الشرفاء مائة ألف متقال غير ما كان يعطيهم في كل سنة وقسم رحمه الله ذلك بخط يده فكتب لدار مولاي عبد الله كذا ولشرفيات حموكية كذا ولشرفاء تافيلالت كذا ولشرفاء تيزيمي وأولاد الزهراء كذا ولشرفاء الرنتب كذا ولشرفاء مدغرة كذا ولشرفاء زيز

والخفق والقصابي كذا وأعطى الطلبة والعميان والمقعدين والزمنى وزوايا تافيلالت مائة ألف متقال قسم ذلك بخط يده أيضا وجعل للفقيه المدرس أربعة أسهم ولغيره سهمين والسهم من كذا وللطالب الذي يحفظ القرآن برسمه حتى صفا لوحه سهمان ولغيره سهم والسهم من كذا ولا فرق بين الأحرار والحراطين ولكل واحد من الضعفاء والعمى والمقعدين كذا الأحرار والحراطين سواء وللزوايا كذا فلزاوية الشيخ سيدي الغازي كذا ولزاوية سيدي أبي بكر بن عمر كذا ولزاوية سيدي أحمد الحبيب كذا ولزاوية سيدي علي بن عبد الله كذا ولزاوية ضريح مولانا علي الشريف كذا ولمقبرة أحنوس كذا ووجه المال مع الأمين السيد المعطي مريو الرباطي وأمر الشرفاء أن يعينوا أربعين من ثقاتهم وأمنائهم حتى لا تقع زيادة فيما كتبه بيده ولا نقصان وأمر القاضي أن يعين عشرة من الطلبة وعشرة من العوام للقيام على تفرقة ذلك ثم أعطى المدرسين زيادة على ما تقدم وكذا الأئمة والمؤذنين ولم ينس أحدا كل ذلك بخط يده رحمه الله قال صاحب الجيش ولا زال هذا الزمام عندي ثم بعد قضاء وطره من الزيارة والصلة توجه إلى مراكش على طريق الفاتحة لتفقد أحوال جيش الحوز الذي كان وجهه من مراكش لإقليم درعة فيبلغه أثناء الطريق أن آيت عطة الذين بدرعة لما سمعوا بقرية منهم خرجوا من القصور هاربين وتركوها بيابا وتحصنوا بجبل صاغرو ولما دخل السلطان مراكش سرح العساكر إلى السوس لتفقد أحواله وجباية أمواله وتمهيد أطرافه وأخذ هو رحمه الله في استصلاح قبائل الحوز من دكالة وعبدية والشياطمة فقتل وعزا وسجن وولى من ولى وطهر تلك الأعمال من ولاة السوء الذين كانوا بها وعاد إلى حضرته بفاس وكان دخوله إليها سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف ولما دخلها أخذ في تجهيز ولديه المولى علي والمولى عمر لأداء فريضة الحج إلى أن استوفى الغرض في ذلك وعين من يتوجه معهما من الخدم والتجار

وسائر الحاشية وخرجا مع الركب النبوي على الهيئة المعهودة في حفظ الله وفي هذه السنة عزل السلطان وصيفه ابن عبد الصادق عن فاس وولى عليها كاتبه أبا العباس أحمد الرفاعي الرباطي المدعو القسطلاني كان يعلم أولاده فنقله عن ذلك إلى مرتبة الولاية وأوصاه أن يسير بالعدل في الضعفاء والمساكين ويشد على الفجرة والمتمردين وفي هذه السنة عشية يوم الاثنين سابع ربيع الثاني منها توفي الشيخ العلامة المحقق الأديب البليغ أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن بن حمدون بن عبد الرحمن السلمي المرادسي الشهير بابن الحاج صاحب التأليف الحسنة والفوائد المستحسنة والخطب النافعة والحكم الجامعة رحمه الله ونفعا به وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف عزل السلطان الفقيه أبا العباس عن فاس لعجزه عن القيام بالخطبة وولى على فاس خديمه الحاج أبا عبد الله محمد الصفار من بيت رئاسة وفي هذه السنة أبطل السلطان الجهاد في البحر ومنع رؤساءه من القرصنة به على الأجناس وفرق بعض قراصينه على الإيالات المجاورة مثل الجزائر وطرابلس وما بقي منها أنزل منها المدافع وغيرها من آلة الحرب وأعرض عن أمر البحر رأسا بعد أن كانت قراصين المغرب أكثر وأحسن من قراصين صاحب الجزائر وتونس قاله منوب وفي هذه السنة قدم ولدا السلطان المولى علي والمولى عمر من المشرق مع الركب ونزلوا بثغر طنجة وكان السلطان قد بعث إليهما بمركب من مراكب الجليز فانتهى إلى الإسكندرية وحملهما ومن معهما من الخدم والتجار وسائر الحاج ولما نزلوا بطنجة حدث الوباء بالمغرب فقل الناس إن ذلك بسببهم فانتشر أولا بتلك السواحل ومنها شاع في الحواضر والبوادي إلى أن بلغ فاسا ومكناسة في بقية العام ولما دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف شاع الوباء وكثر في بلاد الغرب فتوجه السلطان إلى مراكش وكان الأمر لا زال محتلا ثم زاد

وتفاحش حتى أصاب الناس منه أمر عظيم وفي هذا الوباء توفي الشيخ المرابط البركة سيدي العربي ابن الولي الأشهر سيدي المعطى بن الصالح الشرقاوي وضريحه شهير بأبي الجعد رحمه الله ونفعنا به وأسلافه أمين وقعة طيان وما جرى فيها على السلطان المولى سليمان رحمه الله لما وصل السلطان رحمه الله إلى مراكش سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف أقام بها إلى رجب منها ثم أخذ في الاستعداد لغزو برابرة فازان وهم آيت ومالو بطن من صنهجة وعرفت الوقعة بوقعة طيان فخذ منهم فحشد السلطان رحمه الله عرب الحوز كلهم وكتب إلى العبيد بمكناسة يأمرهم أن يوافوه بتادلا وكتب إلى ولده وخليفته فغاس المولى إبراهيم أن يوافيه بها بجيش الودايا وشرافة وعرب الغرب وبرابرتة وعسكر الثغور وكان الناس يومئذ في شدة من هذا الوباء الذي عم الحواضر والبوادي وكان السلطان لما أخذ في استتفار هذه القبائل لا علم له بتفاحش الوباء بالمغرب وكان الواجب على ابن السلطان أن يعلم أباه بما الناس فيه من فتنة الوباء فيعفيهم من الغزو أو يؤخره إلى يوم ما فجمع ولد السلطان الجموع وجلهم كاره وسار لميعاد أبيه فوافاه بتادلا فاجتمع للسلطان فيما يقال من الجيوش نحو ستين ألفا وزحف إلى البربر فانتهى إلى بسيط أدخسان وبها مزارع البربر وفدنها فأرسل السلطان الجيوش في تلك الزروع وكانت شيئا كثيرا فأتوا عليها وبعث البربر إليه بنسائهم وولدانهم للشفاعة وأن يدفعوا للسلطان كل ما يأمرهم به من المال وينصرف عنهم فأبى وزحف إليهم فقاتلهم يوما إلى الليل ولقد أخبرني من حضر الوقعة أن المقاتلة كانت في هذا اليوم من عرب البرابرة زمور وجروان وآيت أدراسن إلا أن القتل استحر في العرب دون البربر وذلك أن كبير زمور الحاج محمد بن الغازي دس إلى

ظيان بأنما نحن وأنتم واحد فإذا كان اللقاء فلا ترمونا ولا نرميكم إلا بالبارود وحده وذلك أن السلطان لما قدمهم للقتال في أول يوم منه وأخر عرب الحوز استرابوا بأنه إنما أراد أن يصدم بعضهم ببعض وتسلم له العرب ففعل ابن الغازي ما فعل ولما راح مقاتلة العرب مع العشي أخبروا السلطان بأن هؤلاء البربر الذين معه لا أمان فيهم وإنما ظلوا يتزامون بالبارود لا غير ولأجل ذلك قد هلك من إخواننا كثير ولم يهلك منهم أحد فأسرها السلطان في نفسه ولم يبديها لهم ولما كان الغد وركب الناس للقتال أرسل إلى البربر أن لا يركب منهم أحد وقال لهم إني أردت أن أجرب العرب اليوم وأختبر فاندتهم فأظفروا الطاعة وتقدم العرب إلى القتال وأقام البربر في أحييتهم إلى منتصف النهار ثم ركبوا خيولهم وتسابقوا إليها عن آخرهم قال المخبر بهذا الخبر شاهدتهم ساعة ركبوا فكنت لا ألتفت إلى جهة إلا رأيتها حمراء من كثرة سروجهم التي كانت على ظهور الخيل إذ ذلك ثم تصابحت البربر فيما بينها وتقدمت برابياتها إلى الجهة التي فيها القتال وأتوا من خلف العرب الذين كانوا في نحر العدو وهم يتصايحون فلم يردهم إلا صياح البربر من خلفهم وراياتهم قد أطلت عليهم من كل جهة وكانت شيئا كثيرا فظنوا أن ظيان قد التحفتهم من خلفهم فخشعت نفوسهم وفشلوا ورجعوا منهزمين لايولي حميم على حميم فأخذتهم البربر من بين أيديهم ومن خلفهم يقتلون ويسلبون وحصل انزعاج كبير في المحلة وتمت الهزيمة عليها ولم يبق بها إلا جيش الودايا والعبيد هكذا أخبرني من شاهد هذه الوقعة ممن يوثق به وساق صاحب الجيش الخبر عنها بأن قل كان انخزال برابرة زمور برأي كبيرهم الحاج محمد بن الغازي وكانت له وجاهة في النولة وكان الحسن بن حمو واعزيز كبير آيت أدراسن يساميه في المنزلة ولما خرج المولى إبراهيم بن السلطان في هذه الغزوة كان ابن واعزيز قد حظي لديه حتى صار من أخص ندمائه نفوس ابن الغازي عليه ذلك ودبر بأن جر

الهزيمة على الجيش أجمع فإنه أظهر الفرار وقت اللقاء حتى سرى القتل في الناس وانهزموا ثم عطفت البرابر مع العشي على محلة السلطان فشرعوا في نهبها وأحاط عسكر العبيد بها من كل جهة وصاروا يقتلون البربر على أطراف الأخبية ولما أقبل المساء ترك العبيد الأخبية وأرزوا إلى أفراك السلطان وصار القتال على أفراك إلى وقت العشاء فهلك من العبيد خلق كثير وصار القتال بالسيوف والرمح وما زال أصحاب السلطان يترسون عليه بأنفسهم حتى عجزوا عن الدفاع وخلص البربر إلى السلطان وأراد رجل منهم يقال إنه من بني مكيد أن يجرده فأعلمه بأنه السلطان فاستحلفه البربري فحلف له فنزل عن فرسه وأركبه وطار به إلى خيمته وكان البربر يلقونه وهو ذاهب به فيقولون من هذا الذي معك فيقول أخي أصابته جراحة ولما وصل به إلى خيمته أعلن بأنه السلطان فأقبلت نساء الحي من كل جهة يفرحن ويضربن بالدفوف ثم جعلن يتمسحن بأطرافه تبركا به وينظرون إليه إعجابا به حتى أضجرته ولما جاء رجال الحي أعظموا حلولة بين أظهرهم وأجلوه وسعوا فيما يرضيه ويلائمه من وطء ومطعم ومشرب بكل ما قدروا عليه فلم يقر له قرار معهم ويقال إنه بقي عندهم ثلاثا لا يأكل ولا يشرب أسفا على ما أصابه إلا أنه كان يسد رمقه بشيء من الحليب والتمر وتتصل البربر له مما شجر بينهم وبينه وأظهروا له غاية الخضوع والاستكانة حتى أنهم كففوا نساءهم وقدموهن إليه مستشفعين بهن على عادتهم في ذلك وبعد ثلاث أركبوه وقدموا به في جماعة من الخيل إلى قصبه أكراي فنزلوا به قريبا منها وبعث رحمه الله إلى مكناسة يعلم الجيش بمكانه فجأوه مسرعين ودخل مكناسة بعد أن أحسن إلى ذلك الفتى البربري وإلى جميع أهل حيه غاية الإحسان وأمر رحمه الله أن يعطى لكل من أتى سلبيا من المنهزمين حائك وثلاثون أوقية ففرق من ذلك شيئا كثيرا بباب منصور العليج من مكناسة وأصيب المولى إبراهيم ابن السلطان في هذه

الوقعة تجراحات معظمها في رأسه فحمل جريحا إلى فاس فمات بها وكانت مصيبتة على السلطان أعظم مما أصابه في نفسه والأمر لله وحده قال صاحب الجيش كان السلطان الحازم سيدي محمد بن عبد الله لا يرد الشفاعة في مثل هذا المقام وربما دس إلى من يظهر ذلك صورة حتى يكون نهوضه عن عز وذلك من حسن سياسته وكانت هذه الوقعة الفادحة سبب سقوط هيبة السلطان المولى سليمان من قلوب الرعية فلم يمتثل له بعدها أمر في عصاتها حتى لقي الله تعالى ولما دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف كثر عيث البربر وإفسادهم السابلة واستحذوا على مزارع مكناسة ومسارحها فنصب لهم السلطان رحمه الله حباله الطمع وكادهم بها بأن صار كلما وفد عليه جماعة منهم كساها وأحسن إليها فتسامعوا بذلك فقادهم الطمع إلى أن وفد عليه منهم في مرة واحدة سبعمائة فارس من أعينهم فقبض عليهم وجردهم من الخيل والسلاح وأودعهم السجن ثم أمر بالقبض على كل من وجد منهم بسوق مكناسة وصفرو فقبض بصفرو على نحو الثلاثمائة من آيت يوسي وقامت بسبب ذلك فتنة البربر على ساق فإنهم امتعضوا لمن قبض عليه من إخوانهم وزحفوا إلى مكناسة وحاصروها وجأوا معهم بدجالهم أبي بكر مهاوش وتحزبوا وصاروا يدا واحدة على كل من يتكلم بالعربية بالمغرب وكان مهاوش في هذه الأيام قد أمر أمره لأنه لما عزم السلطان على غزوه كان يعدهم بأن الظهور يكون لهم فلما صدق عليهم ظنه اعتقدوه واقتنوا به وزحفوا إلى مكناسة فضيقوا على السلطان بها فجعل رحمه الله يعالج أمرهم بالحرب تارة والسلام أخرى إلى أن طلبوا منه أن يسرح لهم إخوانهم ويرجعوا إلى الطاعة والدخول في الجماعة فسرحهم لهم على يد المرابط أبي محمد عبد الله بن حمزة العياشي فلما ظفروا بإخوانهم نقضوا العهد الذي أخذ عليهم المرابط المذكور وعادوا إلى العيث وإفساد السابلة ثم تبعهم على

ذلك قبائل العرب واختلط الحابل بالنابل واشتد الأمر وبلغ الحزام الطبيين والله در العلامة أبي مروان عبد الملك التاجموتي إذ يقول هم البرابر لا ترجو نوالهم وسل من الله تعجيل النوى لهم لا بلغ الله قلبا منهم أملا وبلغ الله قلبي ما نوي لهم ثم لما سقطت هيبة السلطان وزال وقعه من القلوب سرى فساد القبائل إلى الجند فإن العبيد عادوا على كبيرهم القائد أحمد بن مبارك صاحب الخاتم فقتلوه أفتياتا على السلطان مع أنه كان من أخص دولته لنجابته وكفايته وديانته واعتماد السلطان عليه في سائر مهماته ولما قتلوه اعتذروا للسلطان بأعدار كاذبة فقبل ظاهر عذرهم وطوى لهم على البيت قال أكنسوس كان القائد أحمد وأبواه وإخوته قد أعطاهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله لابنه المولى سليمان فنشأ القائد أحمد في كفالته وتخلق بأخلاقه من زمن الصبا إلى مماته وكانت حياته مقرونة بسعادة السلطان المذكور نكر آل مهاوش وأوليتهم وما آل إليه أمرهم أما الذي كان منهم في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله فاسمه محمد وناصر والواو في لغة البربر بمعنى ابن وكان والده مرابطا من آيت مهاوش فرقة من آيت سخمان منهم وكان جده أبو بكر من أتباع الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن ناصر الدرعي رحمه الله وكان الشيخ المذكور قد جرى في مجلسه يوما ذكر

الدجال فقال الشيخ لا يخرج الدجال حتى تخرج دجاجيل من جملتهم مهوش ومعناه من جملتهم ولد هذا الرجل فكان الأمر كذلك فإنه لما شب محمد وناصر قرأ القرآن والعربية والفقه وحصل على طرف من علم الشريعة ثم تنسك وتزهد ولبس الخشن فيقال إنه حصل له نوع من الكنف شاع به خبره عند البربر وأكبوا عليه واشتهر أمره أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله ولما انتهى أمره نهض إلى قبيلة جروان الذين كانوا يخدمونه فبهيم بسببه وفر مهوش إلى رؤوس الجبال وبقي مختفياً إلى أن بويع السلطان المولى يزيد رحمه الله وكان قد اتصل بمهوش قبل ولايته وذلك حين فر من والده ولجأ إليه حسيماً مر فأواه مهوش وأحسن إليه ولما بويع السلطان المذكور وفد عليه مهوش في جماعة من قومه ففرح بهم المولى يزيد وأعطى مهوش عشرة آلاف ريال وأعطى الذين قدموا معه مائة ألف ريال ولما هلك محمد وناصر هذا ترك عدة أولاد أكبرهم أبو بكر ومحمد والحسن إلا أنهم تبعوا سيرة أبيهم في مجرد التجديل والتمويه على جهلة البربر وتثبيطهم على طاعة السلطان ولم يكن معهم ما كان مع والدهم من التظاهر بالخير والدين فأمرهم عند أهل جبل فازاز واعتقدوهم ووقفوا عند إشارتهم ثم لما جاءت دولة السلطان المولى سليمان رحمه الله واتفتت له الهزيمة التي مر ذكرها وأمتلأت أيدي البربر من خيل المخزن وسلاحه وأثاث الجند وفرشه بطروا وظهر لهم إن ذلك إنما نالوه ببركة مهوش لأنه كان يعدهم بشيء من ذلك فتمكن ناموسه من قلوبهم واستحكمت طاعتهم له وتمردوا على السلطان بسبب ما كانوا يسمعون منه إلا أن كيدته كان قاصراً على أهل لسانه ووطنه لا يتعداهم إلى غيرهم ثم بعد ذلك بزمان انطفأ ذباله ولم يزل في انتقاص إلى الآن والله غالب على أمره حدوث الفتنة بفاس وقيامهم على عاملهم الصفار لما توالفت هذه الفتنة على السلطان رحمه الله وانفتحت عليه الفتوة وصار الناس كأنهم فوضى لا سلطان لهم قام عامة أهل فاس على عاملهم الحاج محمد الصفار فأرادوا عزله وتصببت له طائفة من أهل عدوته واقتربت

الكلمة بفاس حتى أدى ذلك إلى الحرب وسفك الدماء ونهب الدكاكين وتراموا بالرصاص من أعلى منار مسجد الرصيف وبلغ ذلك السلطان وهو يومئذ بمكناسة يعالج داء البربر فزاده ذلك وهنا على وهن فكتب إلى أهل فاس كتاباً شحنه بالوعظ والعتب وأمر ابنه المولى علياً أن يقرأه عليهم فجمعهم وقرأه عليهم حتى سمعوه وفهموه ونص الكتاب المذكور بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم إلى أهل فاس السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فإن العثماني بإصطنوبول وأمره ممتثل بتلمسان والهند واليمن وما رآه قط ولكن أمر الله بيمثلون بأبها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن النساء وكان يجزي بالسبيئة السبيئة ولكن يعفو ويصفح واعلموا أن العمال ثلاثة عامل أكل السحت وأطعمه الغوغاء والسفلة وعامل لم يأكل ولم يطعم غيره انتصف من الظالم وعامل أكل وحده ولم يطعم غيره فالأول تحبه العامة والسفلة ويبغضه الله والسلطان والصالحون والثاني يحبه الله ويكفيه ما أهمه من أمر السلطان والثالث كعمال اليوم يأكل وحده ويمنع رفته ولا ينصر المظلوم فهذا يبغضه الله ورسوله والسلطان والناس أجمعون وهذا معنى حديث أزهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس الخ وحديث العمال ثلاثة الخ فلو كان للصفار مائدة خمر وطعام يأخذ من الأسواق ويتغذى عنده ويتعشى السفلة والفساق ويدعو اليوم ابن كيران وغدا ابن شقرون وبعدة بنيس وابن جلون ويفرق عليهم من الذعائر لأحبوه وما قاموا عليه ولو أردتم النصيحة لله ولرسوله ولأميريه لقدم علينا ثلاثة منكم أو ذكرتم ذلك لولدنا مولاي علي أصلحه الله فأخبرنا بذلك وقل للصفار الكلاب لا تتهارش إلى على الطعام والجيف فإذا رأت كلباً بباب دار سيده ولا شيء أمامه لم تعرج عليه وإن رآته يأكل فإن هو تعامى وأشركهم فيما يأكل أكلوا معه وسكتوا وإن هو قطب وجهه وكشر عن أنيابه تراموا عليه وغلبوه على ما في يده وهذا الصفار لم يتق الله ويزهد الزهد الذي ينصره الله به ولم يلاق الناس بوجهه طلق ويطرف مما يأكله فلسطينهم الله عليه ولما رأى يوسف بن تاشفين النعمة التي فيها ابن عباد قال أكل أصحابه وأعوانه مثله فقالوا لا فقال إنهم يبغضونه ويسلمونه للمكاره لاستبداده دونهم ولتغيير المنكر شروط وما يعقلها إلا العالمون وكم من مرة قلنا لكم العلماء هو ينكرون ما ينكر ويعلموننا بما كان ولكن الجلوس بلا شغل والفرار وعدم الحمد حملكم على ما يحرم عليكم الكلام فيه إن الشباب والفرار والجده مفسده للمرء أي مفسدة وأما بيت مال الله والأحباس فانه حسيب من بدل وقد كنتم تكلمون على المكس والحريير والقشيبية وغير ذلك فأرى حكم الله من ذلك وانظروا لمن تعرفونه من العمال وأما الفسق فهو عادة وديدن كل من قام في الفتنة وكم مرة رمت قطعة فلم أجد إليه سبيلاً لأن جل كبرائكم بالمصاري والعرضات وإنما أولي عليكم البراني لأنكم لا تحسدونه وإن أكل وحده والحاسد يريد زوال النعمة عن محسوده والتاجر لأن التاجر لا يطعم في مال أحد ويكفيه الرفعة والجاه لنماء ماله وانظروا ما أجبتمكم به وما كتبتكم لنا به واعرضوه على فقهاءكم فمن قال الحق منا ومن قال الباطل أخذتم بحظكم من الفتنة وهذه الرسالة قد شرحها الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد الكريم اليازغي وكان أهل فاس قد كتبوا إلى السلطان رحمه الله في شأن عاملهم الصفار المذكور واعتذروا عن خروجهم عليه بأنه اشتغل بما لا يرضي الله من الفسق ومد اليد إلى الحريم فأنكروا عليه فأجاب السلطان رحمه الله بالرسالة المذكورة خروج السلطان المولى سليمان من مكناسة إلى فاس وما لقي من سفهاء البربر في طريقه إليها قد تقدم لنا أن البربر طلبوا من السلطان تسريح إخوانهم وأنه بذلك

تصلح أحوالهم ويرجعون الطاعة ولما سرحهم نكثوا العهد وازدادوا تمرداً فلما أعيا السلطان أمرهم وكل أمرهم إلى الله وعزم على الخروج من مكناسة إلى فاس لما حدث بها من الشغب أيضاً فولى على مكناسة وجند العبيد ولده المولى الحسن وكان له علم وحزم ثم خرج السلطان رحمه الله من مكناسة ليلاً على خطر عظيم وأسرى ليلته ولم يعلم البربر بخروجه حتى أصبح وقد جاوز المهودمة وشارف وادي النجاة فتيهوه على الصعب والذلول ونهبوا كل من تخلف من الجيش واستولوا على كثير من روم السلطان وكان مع السلطان في تلك الليلة المرابط البركة أبو محمد عبد الله بن حمزة العياشي فجعل يكف البربر عن الجيش فلم يغن شيئاً لأنه كان كلما كفهم من ناحية أغاروا من ناحية أخرى وخلص السلطان إلى فاس وقد ازداد حنقة على البربر فلما دخلها أمر بنهب دور البربر القاطنين بفاس فنهبوا كل من فيه رائحة البربرية ولو قديماً فكان ذلك فتنة في الأرض وفسادا كبيراً وأقام السلطان بفاس إلى رجب من السنة المذكورة أعني سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف ثم خرج لإصلاح نواحي بلاد الهبط فوصل في خروجه هذه إلى قصر كنامة فمهد تلك البلاد وأمن سبلها ورجع إلى رباط الفتح فقدم عليه بها قبائل الحوز على بكرة أبيهم من حاحا والشياظمة وعبدة والرحامنة وأهل السوس والسرراغة وزمران وأهل دكالة وقبائل الشاوية وتادلا وقدم عليه أيضاً قبائل بني حسن وعبيد الديوان وقبض في هذه المرة على نحو المائة من زعير وأودعهم السجن ودخل شهر رمضان ففرق عمال القبائل كلا إلى عمله وأمرهم بالقدوم عليه لعيد الفطر ويستصحبوا زكواتهم وأعشارهم وكان قد عزم على المقام برباط الفتح إلى أن يقيم سنة العيد به وتجتمع عليه العساكر فيتوجه بها لغزو البربر ثم بدا له رحمه الله فسافر مع قبائل الحوز إلى مراكش في عاشر رمضان المذكور

ذكر ما حدث من الفتنة بفاس وأعمالها بعد سفر السلطان المولى سليمان إلى مراكش لما عزم السلطان المولى سليمان رحمه الله على السفر إلى مراكش ندب جند العبيد إلى السفر معه فنتأقلوا عليه وظهر منهم قلة المبالاة به وأحس منهم بذلك فأعرض عنهم وبعد يوم أو يومين انسل من بين أظهرهم وقصد محلة أهل الحوز فدخل قبة القائد محمد بن الجبلاني ولد محمد الصغير السريغيني وكان السلطان يطمئن إليه منذ كان رفيقه في نكبته عند طليان إذا كان ابن الجبلاني المذكور مأسورا عندهم وسرحوه للسلطان فراققه إلى مكناسة حسيماً مر ولما احتل السلطان بمحلة أهل الحوز ازداد فساد نية العبيد وسافر السلطان إلى مراكش وترك مضاربه وأثائه بيدهم فتوزعوا وعادوا إلى مكناسة وسمع الناس بما ارتكبه هؤلاء العبيد في حق السلطان فعاد شباب الفتنة إلى عفوانه وسرى في الحواضر والبوادي سم أفعوانه فخب عبيد مكناسة بعد قدوم إخوانهم عليهم في الفتنة ووضعوا وامتنع عمال الغرب وبني حسن من دفع الزكوات والأعشار وطرودوا جباة السلطان وعمد الودايا بفاس إلى حارة اليهود التي بين أظهرهم بفاس الجديد فانتهبوها واستصافوا موجودها وأخذوا ما كان تحت أيدي اليهود من كتان وحرير وفضة وذهب لتجار أهل فاس إذ كانوا يخيطون لهم ويصنعون ما تدعو الحاجة إلى خياطته وصنعتة فضاعت في ذلك أموال لا يحصيها قلم حاسب ثم جردوهم رجالاً ونساءً وسبوا نساءهم واقتضوا أباكرهم وسفكوا دماءهم وشربوا الخمر في نهار رمضان وقتلوا الأطفال ازحاما على النهب ثم تجاوزوا هذا كله إلى حفر

البيوت على الدفائن فوقوا بسبب ذلك على أموال طائلة ولما رأوا ذلك قبضوا على أعيانهم وتجارهم وصادروهم بالضرب والنكال ليدلوهم على ما دفتوه من المال ومن عنده يهودية حسناء حلوا بينه وبينها حتى يفتديها بالمال وكان هذا الحادث العظيم في الثالث عشر من رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف ولما فرغوا من اليهود التفتوا إلى أهل فاس فاستأقوا السرح وبهائم الحرث والجنات ومنعوا الداخل والخارج فقام بفاس هرج عظيم وغلقوا الأبواب ومالوا على من وجدوه من الودايا داخل البلد فأوقعوا بهم ونهبوهم وحمل الناس السلاح ونقلت البضائع والسلع من الأسواق إلى النور خوفا عليها واجتمع أهل الحل والعقد منهم فعينوا من يقوم بأمرهم فقدم للمطوبون رجلا منهم يقال له الحاج أحمد الحارثي وقدم أهل العودة رجلا منهم يقال له قدور المقرف وقدم أهل الأندلس رجلا منهم يقال له عبد الرحمن بن فارس فضبطوا البلد وبينما هم كذلك قدم عليهم جماعة من أعيان الودايا وتلافوا أمرهم معهم والتزموا رد ما نهبوه لهم من السرح وما نهب في جملة أموال اليهود مما كان يصنع عندهم فخذت بذلك نار الفتنة بعض الشيء وقد قال أديب الوقت في هذا الخطب الذي اتفق في هذه المدة جملة من الأشعار من ذلك قول الكاتب البارع أبي عبد الله محمد بن إدريس الفاسي أعين العين للمحبين داء والدوا في شفاهها والشفاء فإذا ما رمين سهما لصب فالهوى قد هوى به والهواء كيف يعدل نحو رأيي عدول من رمته ظبي للحاظ الظباء سعد ساعد أخوا الغرام بقرب من سعاد فقد عناه العناء زارني ضيف طيفها فشحاني وسرى الطيف للمحب حياء هب شوقي أذهب نشر كباها وعرتني من ذكرها العرواء فسقى عهدا العهاد وحيا الملك العادل الحياء الحياء ليس إلا أبا الربيع ربيع خلقه الجود والجدى والوفاء بسليمان قد سلمنا وسدنا فالعلي منزل له والعلاء ملك العلاء والمعالي وسما فله الفخار سما غرة المجد درة العقد من قد راق من فضله السنا والسنا نجل خير الورى وأفضل من قد نبأت بظهوره الأنبياء

من إذا رجاء راج لنول قبل حل الحبي آتاه الحياء خلق دمت وخلق بهي من ذكي نوره تغار ذكاء كفه كفت الفساد وكفت كل عاد فما له أكفاء راحة راحة لكل فقير بچياء تحيا به الأحياء روضة راضت العلوم ولكن عرفها العرف والثراء الثناء قد روى فضله الأفاضل طرا فعلى الفضل والرواة رواء لأبي القاسم الظياني لديهم فضل سبق له علا وعلاء جمع الوصف أحكم الوصف صدقا وآتاه الإنشاء كيف يشاء صالح ناصح أمين رصين قد ثناه إلى علاك السناء كيف لا يحسن السناء ويسمو في إمام له المعالي رداء إنما هو معجز مستقل يقتدي بفعاله العقلاء بسط العدل في البسيطة فالدين له بسطة به وارتقاء وغدا بإقامة الدين فالعرب غريبا أنصاره الغزباء لم يجد في البرابر الغلف برا شأنه البر في البدا والبراء نقضوا العهد خالفوا الأمر والنهي إلا إنهم هو السفهاء خالفوا منتقى الخلاق جهلا بعمامهم فلا عداهم عماء عادة في جودهم جودها لهم الدهر الارتداد رداء قد دعاهم مهلوش لضلال فعليهم وبالهم والوباء شق جهلا عصا الإمام شقفا وعصى الله لا هناه الهناء واقتفى أثرهم الغواة ضلالا فغاباهم ما أن عليه غباء وإذا خبئت أصول فروع لاح من فطهم عليه لواء وكذا العرب أعربوا عن مساوهم في سوى الخروج سواء ناقفوا رافقوا الخبيثين كفرا همزوا لمزوا فليس براء والودايا جاؤوا بادوء عيب داؤهم ماله الزمان دواء قتلوا سلبوا أخافوا وحافوا ما ثأهم عن القبيح ثناء ما رعوا ذمة ولا فعل ذم بل عراهم من الحياء عراء

وإمام الأنام يحلمهم عنهم ويوالي وما يفيد الولاء نهبوا حارة اليهود وهنوا دورهم وعرى النساء سبوا لو تراهم بين الرعايا عراة يحتذيتهم رجالهم والنساء خفروا ذمة النبي فذموا لعماه فلا سقامهم عماء يا إمام الهدى عليك بوقم ملا الغرب بغيهم واليغاء قد طم ظلمهم وعم أذاهم وانجلي عنهم فحق الجلاء كم سدلت عليهم أي ستر ووهبت فما أفاد العطاء وحدوت إلى الرشاد فحادوا ودعوت فما أفاد الدعاء نلت رشدا برشدهم وجهادا فأبى منهم الرشاد إياء وإذا خذل الإله أناسا من محياهم يزول الحياء فعييد الإله خير عبيد قد كفى منهم الإمام كفاء حاربوا ضاربوا على الحق راعوا ذمة الله لا عداهم علاه فاتخذهم مواليا وجنودا واصطفاهم فإتهم أصفياء قد أصاب الأعداء منهم عذاب ودهى منهم الدهاة دهاء وإذا سخر الإله أناسا لسعيد فإنهم سعداء يا إله الأنام خذ بيديه وأعنه فقد عناه العناء فبنام الأنام في ظل أمن ورداه للماردين رداء وعليه السلام ما سار سار وشدت فوق ورقها الورقاء ثم حدث على تفتة ذلك فتنة أخرى بفاس بسبب نزاع جرى بين قاضيها الفقيه أبي الفضل عباس بن أحمد التاودي وبين مفتيها الفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الدكالي في قضية الشريفيين الشفشاوني والعراقي من أهل فاس وهي معلومة فأنهى الأمر إلى السلطان فأخبر الفقيه أبا عبد الله عن الفتوى فغضب للمفتي جماعة من المدرسين وطلبة العلم وتعصبا له وتحزبوا على القاضي فكتبوا رسما يتضمن الشهادة بجوره وجهله ووضعوا خطوطهم وناطوا به قصيدة تتضمن الشكوى به وشرح حاله للسلطان ووجهوا بهما إليه ونص القصيدة

يا أيها الملك الذي عدلته أحيت مآثرها الصديق أو عمرا يا أيها الملك الذي منقابه في غرة الدهر قد لاحت لنا قمرا أنت الذي وضع الأشياء موضعها وفي العلوم الذي أحيا الذي اندثر أنت الذي صير الدين القويم كما أوصى به من سما الأملك والبشرا ولم يزل بك في عز وفي حرم يجني نورو العلم من رياضة ثمرات تذب عنه بأسيايف وأونة بفكرة تحكم الأحكام والصورا ومن يرم هدمه تأخذ صاعقة من راحتك فلا تبقى له أثر

وقد شكنا الدين من هضم ومن كمد أصابه فهو بيكي الدمع منهرا سطت عليه يد القاضي الذي غمرت أفضية الجور منه البنو والحضرا أعفى مراسمه جورا وأبدله جهلا بما يذهب الألباب والفكرا جاء الولاية وهو من شيبته يرى القضا حرفة يجني بها وطرا فلم يكن همه فيه سوى نقص أو نخرة تترك الضعيف منكسرا أما حقوق الورى فإنها عدم مجهولة جعلت منبوذة بعرا فاستنقذت ملة المختار جحك من هذا الذي ما درى وردا ولا صدرا يأتي الحكمة عباسا ومنقضا مما به من سقام يجلب الكدرا فلا يرى أرسم الخصمين من ملل لكن يحكم أوهاما بها جهرا ويستبد برأيه وحيث بدت فتوى تبصره ألقى بها حجرا ولا يمكن خصما قد دعاه إلى تسجيله ما رأى في الحكم معتبرا ملت قلوب الورى منه وليس لهم إلاك يا من به الإسلام قد نصرا ضجوا لعزتك بشكون سيرته بعيرة تترك الفؤاد منظرنا فأدركن يا عماد الدين صارمه رعية ترتجي من حلمك مطرا فأنزلنه لقد طغي بعزته ولم يخف في غد لظي ولا سقرا واصرفه عنهم كصرفه ضعيفهم واعزله عزلا فإن الأمر قد أمرا فانت غيهم إن أزمة أزمت وأنت كهفهم إن حادث ظهرا ولما وصل الرسم والقصيدة إلى السلطان رأى أن ذلك من التعصب الذي يحدث بين الأقران فرفضه لكمال أناة وعقله ولم يقبل شهادة عالم

على مثله فلما رأوا أن السلطان لم يساعدهم هجموا على القاضي وهو بمجلس حكمه وأرادوا قتله وسدد نحوه الشريف أبو عبد الله محمد الطاهر الكتاني كابوسا أخرجه فيه فأخطاه فانزعج القاضي ولزم بيته وقدموا مكانه الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن الدلائي ثم عزلوه وولوا مكانه الفقيه أبا عبد الله محمد العربي بن أحمد الزرهوني فكانت عاقبة أمره أنه لما أفضى الأمر إلى السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله نفاه إلى الصويرة والله تعالى أعلم خروج أهل فاس على السلطان المولى سليمان وبيعتهم للولى إبراهيم بن يزيد والسبب في ذلك لما استمر السلطان المولى سليمان رحمه الله مقبلا بمراكش والفتن بفاس وسائر بلاد الغرب قد تجاوزت مداها وعم أذاها ورفعت الشكايات إليه من فاس وغيرها بما الناس فيه من الكرب العظيم والخطب الجسيم كتب رحمه الله بخط يده كتابا إلى أهل فاس يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم من حلف البربر والاعتماد عليهم في حراسة بلادهم وسائر مرافقهم كما كانوا قديما أيام الفترة في دولة السلطان المولى عبد الله إلى أن يفرغ من شأن الحوز ويقدم عليهم هكذا زعم صاحب البستان قال أكنسوس كان مراد السلطان بذلك الكتاب تهيج أهل فاس على التمسك بطاعته وترغيبهم في محبته ونصرتهم وقد فعل مثل ذلك بمراكش فإنه جمع أعيانها وأعيان الرحامنة عقب صلاة الجمعة وقال لهم قد رأيتم ما جرت به الأقدار من فساد قلوب الرعية وتمادي القبائل على الغي والفساد ومن يوم رجعنا من وقعة ظيان ونحن نعالج أمر الناس فلم يزدادوا إلا فسادا وقد جرى على الملوك المتقدمين أكثر من هذا فلم ينقصهم ذلك عند رعيته بل قاموا معهم وأعانوهم على أهل الفساد حتى أصلحوهم وإني قد عجزت

بشهادة الله لأنني ما وجدت معينا على الحق وكم مرة تحدثني نفسي أن أترك هذا الأمر وأتجرد لعبادة ربي حتى أموت فقال من حضر من أعيان الرحامنة وغيرهم يا مولانا بارك الله لنا في عمرك وجعلنا فدءك ونحن أمامك ووراءك فمرنا بما نشاء فقولك مطاع وأمرك ممثل وما رأينا منك إلا الخير فسر السلطان بمقاتلتهم ودعا لهم بخير ولما فعل مع أهل مراكش هذا الأمر أراد أن يسلك مثله مع أهل فاس فوقع ما وقع ولما بعث السلطان بالكتاب المذكور إلى ابنه المولى علي بفاس أمره أن يقرأه على أهلها بحضور الفقيه المقتي السيد محمد بن إبراهيم الدكالي والفقيه

الشريف السيد محمد بن الطاهر الفيلاي والفقير الكاتب السيد أبي القاسم الظياني والأمير السيد الحاج الطالب ابن جلون الفاسي فجمعهم المولى علي في المسجد الذي بباب داره بزقاق الحجر وقرأ عليهم الكتاب المذكور وكان المسجد غاصا بالخاصة والعاما فازحمتوا عليه ليروا الكتاب بأعينهم وأكثروا عليه فضجر وقام ودخل داره وأغلقها عليه فقال بعض الناس إن السلطان قد خلع نفسه وقال لكم قدما من ترضونه وقال آخرون إنه لم يخلع نفسه وجعل آخرون يقرعون باب المولى علي ويقولون أخرج إلينا كتاب السلطان حتى نقرأه ونعلم ما فيه فقال لهم إني أحرقتهم فازدادوا ريبا وصدقوا أن السلطان قد خلع نفسه واجتمع رؤساء أهل فاس منهم الحاج محمد بن عبد الرزيق والسيد محمد بن سليمان وعلال العاقبة وقدر بن عامر الجامعي ولم يكن من أهل فاس وإنما كان قاطنا بالطالعة وهؤلاء من أهل عدوة الأندلس وكذلك عبرهم من أهل عدوة القرويين والمطيين ثم جمعوا الطلبة الذين حضروا قراءة الكتاب وألزمهم أن يكتب كل واحد منهم ما سمع فكتب لك واحد ما ظهر له ثم حازوا خطوطهم وخلصوا منها ما هو مرادهم وهو أن السلطان عجز وعزل نفسه وأمر الناس أن ينظروا لأنفسهم هذا والحرب قائمة بين أهل فاس والودايا فكتب أهل فاس إلى قواد البربر يستصرونهم على الودايا ويستقدمونهم للنظر والخوض معهم فيمن يتولى أمر الناس فقدم الحسن بن حمو واعزيز المطيري كبير آيت أنداسن في وجوه قومه وقدم الحاج محمد بن الغازي كبير زمور وبني حكم في وجوه قومه فاجتمعوا بأهل فاس وتفاوضوا في أمر البيعة فوقع اختيارهم على المولى إبراهيم بن يزيد وكان ذا سمت وانقباض وصهر السلطان على ابنته وكان يسكن بدر بن زيان قرب المدرسة العنانية فكان لا يخرج إلا من الجمعة إلى الجمعة يصلي بالمدرسة ثم يعود إلى داره فاختره لذلك من غير اختبار ولا تمحيص ثم قالوا إن السلطان لا بد له من مال ورجال فتكفل ابن واعزيز بالرجال وقال عندنا من الخيل والرجال ما لن يغلب من قلة وتكفل الحاج الطالب بن جلون بالمال وأحال على جماعة من التجار وسماهم وذكر أن السلطان لم اعزم على السفر إلى مراكش ودع عندهم بواسطته مالا له بال ولما تم لهم ما أرادوا غدوا على المولى إبراهيم بن يزيد فأحضره وشرطوا عليه شروطا منها إخراج الودايا من فاس الجديد وكانوا كلما شرطوا عليه شرطا حرك لهم رأسه أي نعم ثم بايعوه صبيحة الرابع والعشرين من محرم سنة ست وثلاثين ومائتين وألف ويقال إنهم لما خاطبوه أولا امتنع فقالوا له إن لم نبايعك بايعنا رجلا من آل المولى إدريس رضي الله عنه فخاف خروج الأمر من بيتهم وأجاب والله أعلم وحضر هذه البيعة الشريف سيدي الحاج العربي ابن علي الوزاني والشيخ أبو عبد الله سيدي محمد العربي الدرقاوي وكان ابن الغازي الزموري من أخص أتباعه وهو رئيس البربر في ذلك الوقت وعليه وعلي ابن واعزيز كانت تدور هذه الأمور وحضرها أيضا أبو بكر مهاوش كبير آيت ومالو ولما أحكموا أمرهم كتبوا إلى العبيد بمكناسة ليساعدوهم فامتنعوا إلا أن من كان يبغض السلطان منهم وعدهم سرا ثم كتبوا إلى الودايا بمثل ما كتبوا به إلى العبيد فكانوا عنها أبعد فبعث أهل فاس الشيخ

أبا عبد الله الدرقاوي إلى الودايا ليأتي بيعتهم وكان له فيهم أتباع فقبضوا عليه وأودعوه السجن وكتبوا بذلك إلى السلطان فما سخط ولا رضي واستمر المولى إبراهيم والبربر مقيمين بفاس إلى أن نفذ ما عندهم من المال الذي أظهره لهم الحاج الطالب ابن جلون فاتفق رأيهم على الخروج من فاس وكان من أمرهم ما نذكره مسير المولى إبراهيم بن يزيد إلى تطاوين ووفاته بها لما نفذ ما كان عند المولى إبراهيم بن يزيد وشيعته من المال واستهلكوه في غير فائدة تفاوضوا فيما يصنعون فأجمع رأيهم على أن يسيروا إلى المراسي بقصد فتحها والاستيلاء على مالها فخرجوا بالمولى إبراهيم مستبدين عليه ضاربين على يده وإنما المتصرف والأمر والناهي هو أبو عبد الله محمد بن سليمان وأما ابن عبد الرزيق وجماعة من أصحابه الذين أسسوا هذا الأمر فأنهم هلكوا في حرب الودايا في عشية واحدة في وقعة ظهر المهراس وحزت رؤوسهم وبعث بها إلى السلطان بمراكش ولما برزوا من فاس مروا بآيت يمور ونزلوا بالولجة الطويلة ووادوا من هنالك من عرب بني حسن وأهل الغرب ودخيسة وأولاد نصير على الانخراط في سلكهم فأبو عليهم وعزم القائد محمد بن يشو على أن يبيتهم بغارة شعواء تفرق جمعهم فدمس إليهم محمد بن قاسم السفيني اللوشي وكان منحرفا عن السلطان بما عزم عليه ابن يشو وأشار عليهم أن يعبروا النهر إلى ناحيته ليحميهم ممن أرادهم فعبروا إليه وانضم إليهم فيمن معه وساروا إلى قصر كتامة فنزلوا بالكدية الإسماعيلية ومنها كتبوا إلى أهل الثغور والعرائش وطنجة وتطاوين يدعونهم إلى بيعة سلطنتهم والدخول في حزبهم فأما أهل العرائش وطنجة فأجابوا بالمنع وقيل أن أهل العرائش بايعوا ووفد عليه بعضهم ولعل ذلك

كان في ثاني حال وأما أهل تطاوين فامتنعوا وكان قاضي طنجة أبو العباس أحمد الفلوس قد عزم على بيعة المولى إبراهيم فنذر به عاملها أبو عبد الله محمد العربي السعدي ففاهه وقدم للقضاء مكانه الفقيه الأديب أبا البقاء خالد الطنجي ولما ورد على المولى إبراهيم وحزبه جواب أهل تطاوين بالقبول ساروا إليها فدخلوها واستولوا على مال المرسى وعلى مخازن السلطان وما فيها من سلاح وكتان وملف وغير ذلك فتوزعته البربر ثم انتهوا ملاح اليهود واكتسحوه فعتروا فيه على أموال طائلة يقال إنهم وجدوا به عددا كثيرا من فنانق الضبلون والبنديقي فكان ابن الغازي الزموري وغيره من رؤساء ذلك الجمع لا يعطون أصحابهم إلا البنديقي فكثر جمعهم لذلك ولما مضت لهم من قدومهم تطاوين سبعة وأربعون يوما توفي المولى إبراهيم رحمه الله وكان قد دخلها مريضا يقاد به في المحفة فأخفوا موته ودفنوه بداره وكان من أمرهم ما نذكره بيعة المولى السعدي بن يزيد بتطاوين ورجوعه إلى فاس لما توفي المولى إبراهيم بن يزيد أخفى رؤساء دولته موته ليلتين أو ثلاثا ثم دعوا أهل تطاوين إلى بيعة أخيه المولى السعدي بن يزيد فافتقرت كلمتهم فمنهم من أبي ومنهم من أجاب فأحضر ابن سليمان وابن الغازي وأشباعهما من أبي من أهل تطاوين وألزمهم البيعة فالتزموها وكتبوها وأحكموا عقدها وكان المتولي يومئذ بتطاوين الحاج عبد الرحمن بن علي أشعاش فأخروه وولوا مكانه أبا عبد الله محمد العربي بن يوسف المسلماني وكان داهية شهما وبينما هم في ذلك ورد عليهم الخبر بمجيء السلطان من مراكش وأنه قد وصل إلى قصر كتامة ففت ذلك في عضدهم وخرجوا مبادرين إلى فاس على طريق الجبل وكان من أمرهم ما نذكره

مجيء السلطان المولى سليمان من مراكش إلى القصر ثم مسيره إلى فاس وحصاره إياها كان السلطان المولى سليمان رحمه الله في هذه المدة مقما بمراكش وكان العبيد قد نموا على ما فرط منهم برباط الفتح من التخلف عن السلطان ونهب أثاثه حسبا مر فجعلوا يتسللون إليه من مكناسة مثني وفرادى حتى اجتمع عنده جلهم لا سيما من كان منهم معروفا بعينه مثل القواد وأرباب الوظائف ولما بلغه ما كان من بيعة المولى إبراهيم بن يزيد تربص قليلا حتى إذا بلغه خروجه إلى المراسي قلق وخرج من مراكش في جيش العبيد وبعض قبائل الحوز يبادره إليها ولما وصل إلى رباط الفتح عبر إلى سلا ونزل برأس الماء ولما حضرت الجمعة دخل المدينة فصلى بالجامع الأعظم منها ودخل دار الحاج محمد بن عبد الله معينو من أعيان أهل سلا واستصحب معه الفقيه المؤقت أبا العباس أحمد بن المكي الزواوي من أهل سلا أيضا بقصد القيام بوظيفة التوقيت ولما وصل السلطان إلى قصر كتامة أتاه الخبر بدخول المولى إبراهيم إلى تطاوين فأقام هنالك وكتب إلى الودايا وإلى من بقي بمكناسة يحضهم على التمسك بالطاعة وكتب إلى ولده المولى الطيب بفاس الجديد يأمره أن يبعث إليه بالفقيه الأديب أبي عبد الله محمد أكنسوس وهو صاحب كتاب الجيش قال أكنسوس فقدمنا على السلطان بريصانة على مرحلتين من القصر قاصدا تطاوين ومحاصرة المولى إبراهيم بن يزيد بها قال فوردي عليه كتاب من عند القائد أبي عبد الله العربي السعدي صاحب طنجة بوفاة المولى إبراهيم وبيعة أخيه المولى السعدي وأنهم قد عادوا به إلى فاس ولما تحقق بذلك رجع على طريق القصر يؤم فاسا ويسابق السعدي إليها فوافياها في يوم واحد فنزل السعدي بجموعه بقنطرة سبو ودخل السلطان دار الإمارة بفاس الجديد مع الودايا ولما كان فجر الغد في تلك الليلة أغارت خيل الودايا

على محلة المولى السعدي بالقنطرة فانتسفوها بما فيها وقتلوا من البربر وأهل فاس وغيرهم خلقا كثيرا واحتوا على أموال طائلة مما كانت البربر قد نهبت من ملاح تطاوين وأفلت المولى السعدي وبطانته بجريعة الذنق ودخلوا فاسا فأغلقوها عليهم وثابت إليهم نفوسهم وفي هذه الأيام قتل المعلم الأكبر أبو العباس أحمد عنيقيد التطاوني وكان عجا في صناعة الرمي بالمهراس وكان المولى السعدي قد أتى به من تطاوين ليحاصر به على فاس الجديد فدمس إليه السلطان من قتله ناداه رجل وهو في محلة أصحابه ليلا يا فلان أجب مولانا السلطان فظن أنه دعي إلى المولى السعدي فقال ها أنا ذا وبرز من خبائه فرماه المنادي برصاصة كان فيها حتقه ثم عزم السلطان على محاصرة فاس حتى يفينوا إلى أمر الله ولكن اكتفى من الحصار

بمنعهم من الدخول والخروج وكان الودايا قد ألحوا عليه في أن يرميهم بالبنب فأبى رحمه الله وقال لو كانت البنية التي نرميها تذهب حتى تقع بدار ابن سليمان أو بدار الطيب البياز أو غيرهما من رؤوس الفتنة لفلعلنا ولكن إنما تقع في دار أرملة أو يتيم أو ضعيف حبسه العجز معهم ثم إن أهل فاس بذؤوا بالرمي وكان معهم سعيد العجل عارفا بالرمي فجعلوا يقصدون دار السلطان فوقعت بنية بالموضع الذي كان يجلس فيه للقرءة ووقعت أخرى بالمدرسة التي بباب داره وكان بها جماعة من طنجية سلا ورباط الفتح فقتلت منهم أربع نفر منهم الباشا أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسين فنيش السلاوي فعند ذلك حنق السلطان وأمر أن يؤتى بالمهاريس الكبار من طنجية من فرمة ثمانين إلى فرمة مائة فجيء بها ونصبها عليهم فكان القتال لا يفتر ليلا ونهارا والكر والبنب تختلف بين أهل البلد في كل وقت واستمر الحال على ذلك قريبا من عشرة أشهر ولا يدخل أحد إلى فاس ولا يخرج منها إلا على خطر وفي أثناء هذه المدة نهض السلطان إلى طنجية للنظر في أمر تطاوين الخارجة عليه بعد أن تقدم إلى الودايا في الحصار والتصبيح على فاس إلى

أن يعود إليهم ولما استقر بطنجية بعث إلى أهل تطاوين وراودهم على الرجوع إلى الطاعة فأبوا ولجوا في عصيانهم فبعث إليهم جيشا كثيفا مع القائد حمان الصريدي البخاري فنزل بوادي أبي صفيحة وحاصروهم مدة فكانت الحرب بينه وبينهم سجالا مرة له ومرة عليه وهلكت نفوس من أعيان تطاوين وغيرهم مجيء المولى عبد الرحمن بن هشام من الصويرة إلى الغرب واستخلافه بفاس وما تخلل ذلك كان المولى عبد الرحمن بن هشام في ابتداء أمره بتفانيات ولما توسم فيه عمه المولى سليمان مخايل الخير والنجابة استقدمه منها وولاه على الصويرة وأعمالها فكفاه أمرها وقام بشأنها ثم لما كان المولى سليمان بطنجية في هذه المرة واستعصى عليه أمر فاس وتطاوين وانصرم فصل الشتاء وأقبل الربيع كتب إلى ابن أخيه المولى عبد الرحمن المذكور يأمره بالقدوم عليه في قبائل الحوز ويلقاه بهم برباط الفتح وكان عرض السلطان أن يزحف بهم إلى فاس إلا أن السياسة اقتضت أن يكون الأمر هكذا فجمع المولى عبد الرحمن قبائل الحوز وقواده وقدم بهم إلى رباط الفتح ولما لم يجدوا السلطان به تتأقلا عن العبور مع المولى عبد الرحمن إلى بلاد الغرب لأن السلطان إنما وعدهم أن يلقوه برباط الفتح فكتب المولى عبد الرحمن إلى عمه يعلمه بصورة الحال وكان السلطان رحمه قد استوزر في هذه المدة الفقيه أبا عبد الله أكتسوس فبعثه إلى المولى عبد الرحمن وأصبحه مالا يفرقه على جيشه لينشطوا للقدوم وكان قدر المال خمسين أوقية لكل فارس وأمره إذا قدم أرض سلا أن ينزل عند عاملها أي عبد الله محمد بن أبي عزة المعروف بأبي جميمة وبعث للمولى عبد الرحمن ليعبر إليه في وجوه الجيش لقبض الصلة ولا يذكر لهم سفرا فإذا قبضوها فليقرأ عليهم كتابه وكان مضمنا أنه يأمرهم بالقدوم عليه لقصر كتامة لقبض الكسوة

التي أتى بها من طنجية وحينئذ يذهب معهم السلطان إلى الحوز ففعل الوزير ذلك كله وتقدم المولى عبد الرحمن في جيشه إلى قصر كتامة قال الوزير المذكور فلما جئنا القصر وجدنا السلطان لا زال مقبلا بطنجية فتقدمت إليه وأعلمته بوصول المولى عبد الرحمن وجيشه إلى القصر فخرج السلطان من طنجية وجعل طريقه على أصيلا ولما بات بسوق الأحد بالغربية بعث إليه المولى المجذوب سيدي محمد بن مرزوق يدعو للقدوم عليه والبيات عنده فأجاب دعوته ودخل عليه وتبرك به ومن هناك كتب إلى ابن أخيه المولى عبد الرحمن أن يتقدم بالجيش إلى العرائش ويلقاه به هناك ففعل المولى عبد الرحمن وهناك اجتمع بعمه السلطان المولى سليمان فسر بمقدمه ودعا له بخير وأثنى عليه بمحضر أولئك الملأ من الناس ثم دعا السلطان قواد الحوز فيهم القائد عبد الملك بن بيهي والقائد علي بن محمد الشيطمي والسيد محمد بن الغنيمي نانبا عن الحاج حمان العبدوي وكان في ركابه ابنه فضول بن حمان صغيرا والقائد بلعباس بن المزوار الذكالي البوزراري والحاج العربي بن رقية البوزراري والقائد محمد بن حديدة البوعزيزي والقائد المعطى الحمري والقائد الصديق ابن الفقيه العمراني ولم يكن فيهم من الرحامنة إلا الحاج المعطى بن محمد الحاج ولم يكن فيهم من السراغنة ولا من الشاوية أحد ولما اجتمعوا خرج عليهم السلطان وجلس على طنفسة ثم دعا بالقائد عبد الملك بن بيهي فأجلسه إلى جنبه ودعا له بخير ثم قال إنكم تعبت في سبيل الله ونحن أتعب منكم ونسأل الله أن لا يضيع أجرنا وأجركم وأعلموا أنكم في طاعة الله وطاعة رسوله ولكم المزية التامة وقد وجب علينا الإحسان إليكم وقد ظهر لي أنك حين وصلت إلى هذا المحل لا ينبغي لكم أن ترجعوا بدون زيارة مولانا إدريس وكنت أردت أن أوجهكم إلى بلادكم من هنا ولكن أنا لا يمكنني أن أرجع إلا بعد أن يحكم الله بيني وبين هؤلاء الخارجين عن الحق وأنتم لا تجمل بكم أن ترجعوا بغير سلطان فاصبروا قليلا وتمموا عملكم حتى تذهبوا إن شاء الله بسلطانكم فرحين مستبشرين

فقالوا كلهم سمعا وطاعة لا نفارقك حتى نرجع بك ولو مكثنا عشر سنين وعلى أثر هذا عقد السلطان لقائد خيل الجيش البخاري الحاج إبراهيم بن رزوق على مائتين من الخيل مفروضة من الحوزية والعييد وأمره أن يسير إلى تطاوين ويقم بمرتيل ويمنع أهلها من الوصول إلى المرسى ففعل وارتحل السلطان من العرائش يريد فاسا في قبائل الحوز فمر ببلاد سفيان ونزل بسوق الأربعاء منها قرب ضريح سيدي عيسى بن الحسن المصباحي فأصابه مرض هنالك وورد عليه الخبر بأن إبراهيم بن رزوق قد كاده صاحب تطاوين العربي بن يوسف حتى قبض عليه وعلى أصحابه وسلبهم وسجنهم فآلم هذا الخبر السلطان وزاده إلى ما به من المرض ثم أبل منه بعد أيام فنهض إلى فاس وعرج على طريق تازا ولما بات بسوق الخميس بالكور من بلاد الحياينة أغارت عليه غيابة ومن شايهم من أهل تلك النواحي وكانوا قد دخلوا في بيعة أبي يزيد فداروا بالمحلة ونضحوا بالرصاص فقام السلطان وجعل يسكن الناس بنفسه ونهاهم عن الركوب والاضطراب فحفظ الله المحلة في تلك الليلة ولم يصب أحد من الناس ولا من الدواب وأصبحت قتلى العدو مصرعة حول المحلة ثم دخل السلطان مدينة تازا فوجد عليه بها أهل الريف وعرب أنقاد والصحراء وجعلوا يزدحمون عليه ليروا وجهه ويقولون إنه والله للسلطان لأن أهل فاس كانوا يشيعون موته ويكتبون بذلك إلى القبائل ثم تقدم السلطان إلى فاس فنزل بقطرة وادي سبو وذلك أواخر رجب سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف وكان أهل فاس قد سموا الحرب وعضهم الحصار وملوا دولة أبي يزيد فاختافت كلمتهم عند ما قدم السلطان وهاجت الحرب داخل البلد بين شيعة السلطان وشيعة السعيد فكثرتهم شيعة السلطان وفتحوا الباب وخرجوا إليه بالأشراف والصبيان والمصاحف وتهافتوا على فسطاطه تائبين خاضعين وجاء السعيد في جوار المولى عبد الرحمن بن هشام ومعه الأمين الحاج الطالب ابن جلون فكان جواب السلطان لهم أن قال قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين يوسف وكان رحمه الله قد رأى

وهو سائر إلى فاس رؤيا وهي أنه دخل فاسا وزار تربة المولى إدريس رضي الله عنه وقلده سيفا وصعد المنار وأذن فكان من عجيب صنع الله أن فتح عليه فاسا ودخلها وزار المولى إدريس وأذن بمنارة على الهيئة التي رأى وجاء رجل من أولاد البقال فقلده سيفا تصديقا للرؤيا ولما دخل ضريح المولى إدريس وجد الشريف البركة سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني هنالك فعاتبه السلطان عتابا خفيفا وزال ما بصدرة عليه وانقطعت أسباب الفتن والحمد لله واعلم أن ما صدر من أهل فاس ومن واقفهم على هذه البيعة لا لوم عليهم فيه وما كان من حق السلطان رحمه الله أن يبعث إليهم بذلك الكتاب الذي أوقعهم في حبص بيص وكان سببا لهذه الفتن وقرول أكتسوس إن السلطان أراد تهيجهم على التمسك بطاعته كما فعل مع أهل مراکش ليس بشيء أو ما علم السلطان رحمه الله كلام الكبراء خصوصا الملوك مما تتوفر الدواعي على نقله وأن العامة إذا نقلته وضعته غالبا في غير محله وفي الصحيح أن عمر رضي الله عنه بلغه وهو بمنى أن رجلا قال والله لو قد مات عمر لباعنا فلانا يريد رجلا من غير قريش فقال عمر رضي الله عنه لأقومن العشبة فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصوبهم فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الموسم يجمع رعاع الناس يغلبون على مجلسك فأخاف أن يسمعو منك كلمة فلا ينزلوها على وجهها ويطيروا بها عنك كل مطير فامهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة فتخلص بأصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار فيحفظوا مقاتلك وينزلوها على وجهها فقال عمر والله لأقومن به في أول مقام أقومه بالمدينة الحديث فانظر كيف منع عبد الرحمن عمر رضي الله عنه من الكلام بالموسم وبمحضر العامة خوفا من وقوع الفتنة وانقاد له عمر حيث علم أن ذلك هو الصواب وكان وقافا عند الحق هذا والناس ناس والزمان زمان وفي خير القرون فكيف في زمان قل علمه وكثر

جهله و غاض خيره و فاض شره و أمر السلطان متداع مختل و الفتنة قائمة على ساق كما رأيت فلهذا قلنا ما كان من حق السلطان أن يبعث بذلك الكتاب الموجه بمقصدتين المحتمل احتماليين ولكن قضاء الله غالب ولما افتتح السلطان رحمه الله فاسا وصفا له أمرها عزم على النهوض إلى تطاوين فاستخلف على فاس وأعمالها ابن أخيه الفارس الأنجد السري الأسعد المولى عبد الرحمن بن هشام لعادلته وكفايته وحسن سياسته وأخذ معه المولى السعيد بن يزيد وخرج في جيش الودايا والعبيد وقبائل الحوز أوائل شعبان سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف فجعل طريقه على بلاد سفيان ولما وصل إلى الموضع المعروف بالحجر الواقف بين نهري سبو وورغة قدم عليه هنالك القائد أبو عبد الله محمد بن العامري الليحايوي في قومه بني حسن والقائد أبو عبد الله محمد المعتوجي السفياني وقاسم بن الخضري قومه سفيان وبني مالك وقدم عليه هنالك أولاد الشيخ أبي عبد الله سيدي العربي الدراقوي صبية صغارا يشفعون في أبيهم ليسرحه لهم فوصلهم وكساهم وقال لهم والله ما سجنته ولا أمرت بسجنه ولكن أتركوه فسيسرحه الله الذي سجنه فكان الأمر كذلك فإنه بقي في السجن حتى توفي السلطان المولى سليمان ويبيع المولى عبد الرحمن بن هشام فافتتح عمله بتسريحه ولما نزل السلطان رحمه بمشرع مسيعة من نهر سبو وفد عليه أهل تطاوين تائبين ومعهم قاندهم العربي بن يوسف المسلماني وكان الناس يظنون أنه ينكل به ويمن قام معه في الفتنة فلم يفل لهم إلا خيرا حتى لقد قال له ابن يوسف يا مولانا إن أهل تطاوين لم يفعلوا شيئا وإني أنا الذي فعلت يريد أن يبرئهم ويفديهم بنفسه فقال له السلطان رحمه الله ما عندك ما تفعل أنت ولا هم وإنما الفاعل هو الله تعالى وصفح عنهم وأحسن إليهم ولما صفا أمر تطاوين ولم يبق ببلاد الغرب منازع انقلب السلطان راجعا إلى الحوز وجد السير إلى مراكش فدخلها في رمضان من السنة المذكورة

وقعة زاوية الشراذي وما جرى فيها على السلطان المولى سليمان رحمه الله هؤلاء الشاردة أصلهم من عرب معقل من الصحراء وهم طوائف زرارة والشبانات وهم الخالص منهم ويضاف لهم بعض أولاد دليم وتكنة وذوو بلال وغيرهم وكانت منازلهم في دولة السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله غربي مراكش على بعض يوم منها فنشأ فيهم الشيخ أبو العباس الشراذي من أهل الصلاح زمن أصحاب الشيخ سيدي أحمد بن ناصر الدرعي فاعتقده وربما ناله بعض الإحسان من السلطان المذكور ثم نشأ ابنه السيد أبي محمد بن أبي العباس فحري مجرى أبيه وبني الزاوية المنسوبة إليهم واعتقده قومه أيضا بل وغيرهم فقد ذكر صاحب نشر المثاني أن السيد محمدا هذا لما قدم من الحج سنة سبع وسبعين ومائة وألف اجتاز بمدينة فاس فاجتمع عليه ناس منها وتلمنوا له وبنوا له زاوية بدرج من عدوة الأندلس وأثنى عليه وعلى أبيه فانظره ثم جاء ابنه المهدي بن محمد فسلك ذلك المسلك أيضا ونشأ في دولة السلطان المولى سليمان رحمه الله واتخذ شيئا من كتب العلم من غير أن يكون له فيه يد تعتبر ثم تظاهر بمعرفة السيميا والحدثن فازداد ناموسه وتمكن من جهلة قومه وربما نمى شيء من أمره إلى السلطان فتغافل عنه ثم لما قدم السلطان رحمه الله مراكش هذه المرة وجد أمره قد زاد واستقل وكان الشاردة يومئذ قد حسنت حالهم فأثروا وكثروا وكان السلطان قد ولى عليهم رجلا منهم اسمه قاسم الشراذي فحدث بينه وبين المهدي ما يحدث بين المرابطين وأرباب الولاية وكان ربما التجأ جان إلى زاوية المهدي فيقبض عليه القائد ويخرجه منها فاستحكمت العداوة بين القائد وبين المهدي ثم جرى شأن بين المهدي وبين بعض قرابته ففر ذلك القريب إلى مراكش وكان القائد قاسم بها فشكا إليه عمه المهدي فاغتمها

القائد ودخل على السلطان فشرح له حال المهدي وما هو عليه من التهور والسمو بنفسه إلى المحل الذي لا يبلغه وأنه لا يستقيم أمر المخزن بتلك القبيلة معه ولم يزل به حتى أعطاه السلطان مائتين من الخيل أغار بها على الزاوية فانتهبوها على حين غفلة من أهلها وجلبهم غائب في أعماله فتسامعوا بأن الخيل قد عاثت في ديارهم وجاؤوا على الصعب والذلول وأوقعوا بخيل المخزن واستلبوهم من خيلهم وسلاحهم وعادوا إلى مراكش راجلين فعظم ذلك على السلطان واغتاظ واتفق أن كان مع السلطان عامل مراكش أبو حفص عمر بن أبي ستة وعامل الرحامنة القائد قاسم الرحماني وكلاهما عدو للشاردة لا سيما الرحماني فشنعوا في ذلك بمحض السلطان وأسودوا وأحموا في غزو الشاردة وتأديبهم حتى لا يعودوا لمثلها وفي أثناء ذلك ندم الشاردة على ما كان منهم وبعثوا إلى السلطان بالشفاعات وذبحوا عليه وعلى صلحاء مراكش فلم يقبل منهم ويقال إن ذلك لم يكن يبلغ السلطان لأن النقص والإبرام إنما كان لعمر بن أبي ستة وقاسم الرحماني وكان السلطان رحمه الله كالمغلوب على أمره معها فلم يزالوا به حتى بعث إلى قبائل الحوز يستنفرهم لغزو الشاردة فاجتمعوا عليه وكان معه جيش الودايا وكبارهم مثل الطاهر بن مسعود الحساني والحاج محمد بن الطاهر وغيرهما ومعه القائد محمد بن العامري في بني حسن وغيرهم من قبائل الغرب ولما أجمع السلطان الخروج إليهم قدم أمامه قاسم الرحماني إذ كان قد تكفل له بأن يكفيه أمر الشاردة وحده فكان مسترعا إليهم قبل كل أحد فربط بعين دابة ثمانية عشر يوما والوسائط تتردد بين السلطان وبين الشاردة وكادت كلمتهم تختلف إذ قام فيهم رجل مراتب اسمه الحبيب من أولاد سيدي أحمد الزاوية وبعث نحو الأربعين من الشاردة إلى السلطان سعيًا في الصلح فأشار الرحماني وابن أبي ستة فيما قيل على السلطان بالقبض

عليهم فيقبض عليهم وحبزت خيلهم وسلاحهم فشرى الداء وأعوز الدواء ثم زحف السلطان وانتشبت الحرب أول النهار ولما اشتد الحر وكان الزمان زمان مصيف تحاجزوا ثم عاد قاسم الرحماني فأنشب الحرب مع العشي فكانت الدبرة عليه وقتل وحمل رأسه على رمح وانهزم جيش المخزن ووقع الفشل في المحلة فتفرقت القبائل وباتوا لا يلبون على شيء ولما طلع النهار لم يبق مع السلطان إلا جيش المخزن فزحف الشاردة إلى المحلة ورأوا السلطان قد بقي في قلة فطمعوا فيه وأنشبو الحرب فاتهزم الجيش الذين كانوا مع السلطان وتركوا المحلة بما فيها فتوزعت الشاردة شذر مذر وانحاز السلطان في حاشيته وقصد مراكش فلقبهم في طريقهم ساقية ماء حبستهم عن المرور وخالط الشاردة القوم الذين كانوا مع السلطان وجعلوا يستلبون من ظفروا به منهم وتراكم المنهزمة على السلطان ولجؤوا إليه وقتل الشاردة عمر بن أبي ستة خلف ظهره ولما رأى السلطان رحمه الله ذلك نادى في الناس أن لا يقتل أحد نفسه على ولا على هذه الأسلاب أعطوهم منها ما شأوا واجتمع نحو العشرين من كبار الشاردة وتقدموا إلى السلطان فقالوا يا مولانا تحيز إلينا لئلا تصيبك العامة فانحاز إليهم وكان راكبا على بغلته فالتقوا عليه وساروا به إلى زاويتهم وأنزلوه بالدار المعروفة عندهم بدار الموسم واحترموه وغدوا وراحوا في خدمته وكان مع وصيفه فرجى صبيبا صغيرا وهو الذي ولي إمارة فاس الجديد في دولة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام وكان معه أيضا عبد الخالق بن كيربان الحريزي شابا كما بقل عذاره وبقي عندهم ثلاثة أيام وحضرت الجمعة فصلاها عندهم وخطبوا به ومن الغد ركبوا معه وصحبوه إلى مراكش إلى أن وصلوا إلى عين أبي عكاز فودعوه ورجعوا ومما قال لهم عند الوداع إن الذين أرادوا أن يفتحوا باب الفتنة على الناس قد سد الله أبوابها برووسهم يعني الرحامنة وبعد وصول السلطان إلى مراكش

بيوم أو نحوه عاد الرحامنة على محمد بن أبي ستة فقتلوه بسبب أن الشاردة كانوا قد أسروه ثم استحيوه واتخذوا عنده عهدا وبدا بأنه إذا أفضت إليه ولاية مراكش بعد أخيه عمر المقتول يحسن في إدارة أمرهم عند السلطان فسمع الرحامنة بذلك فقتلوه قال صاحب الجيش لما عزم السلطان على الخروج إلى زاوية الشراذي يعني قيل ذلك بثلاث إلى السوس في شأن ابن أخيه المولى بن ناصر بن عبد الرحمن وكان عاملا عليها فكثرت الشكايات به إلى السلطان فيعني في شأنه فلما جنت تارودانت تربصت قليلا فلم يفجأنا إلا خبر الهزيمة على السلطان بالروايات المختلفة فقاتل يقول إنه قد قتل وآخر يقول إنه قد مات حنق أنفه وآخر يقول لا بأس عليه ثم ورد علينا كتابان من عند السلطان أحدهما بخط الكاتب مطبوعا والآخر بخط يده تحقيقا لسلامته يقول فيه إن هذه الحركة ما وقعت إلا لهلاك الظلمة والملبس علينا المظهرين للمحبة لنا وهم في الباطن أعدى الأعداء مثل قاسم الرحماني وفلان وفلان وأما أولاد أبي ستة فقد قتل زرارة عمر الله عليه والحاصل هان علينا كسر الخابية بموت الفار وقد أوسوس والشريف سيدي محمد بن عبد الجليل الوزاني أصابته رصاصة رعائية رحمه الله عليه والحاصل هان علينا كسر الخابية بموت الفار وقد أحسنت في التربص فأترك الأمر على طيبته واصحاب معك أشياخ السوس وعدهم منا بالإحسان ومساعدتهم على ما يطلبونه منا والسلام اه ولما دخل السلطان مراكش راجع القوم الذين انهزموا عنه بصائرهم وأقبلوا إليه خاضعين تائبين وعلى أبوابه في العفو راغبين فما وسعه إلا الإعراض

عن أفعالهم الذميمة وطاعتهم السقيمة ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم أمرهم بالتهيب لغزو برابرة الغرب فتوجهوا إلى بلادهم ليأتوا بحصصهم إلى عيد المولد الكريم فانقضى أجله رحمه الله

وفاة أمير المؤمنين المولى سليمان بن محمد رحمه الله كان أمير المؤمنين المولى سليمان رحمه الله في هذه المدة قد سئم الحياة ومل العيش وأراد أن يترك أمر الناس لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام ويتخلى هو لعبادة ربه إلى أن يأتيه اليقين قال ذلك غير مرة وتعددت فيه رسائله ومكاتيبه فما كتبه في ذلك هذه الوصية التي يقول فيها الحمد لله لما رأيته ما وقع من الإلحاد في الدين واستيلاء الفسقة والجهلة على أمر المسلمين وقد قال عمر إن تابعناهم تابعناهم على ما لا نرضى وإلا وقع الخلاف وأولئك عدول وهؤلاء كلهم فساق وقال عمر فبايعنا أبا بكر فكان والله خير وقال رسول الله حق أبي بكر يأبى الله ويدفع المسلمون ورشحه بتقديمه للصلاة إذ هي عماد الدين وقال أبو بكر للمسلمين بايعوا عمر وأخذ له البيعة في حياته فلزمت وصحت بعد موته وقال عمر هؤلاء الستة أفضل المسلمين وقال رسول الله العبد صهيب وقال أبو عبيدة أمين هذه الأمة وقال ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر وقال في أبي بكر وعمر أكثر من هذا فصار المدح للتعريف واجبا وإظهار حال الرجل لينتفع به فأقول جعله الله خالصا لوجهه الكريم ما أظن في أولاد مولانا الجد عبد الله ولا في أولاد سيدي محمد والذي رحمه الله ولا أولاد أولاده أفضل من مولاي عبد الرحمن بن هشام ولا أصلح لهذا الأمر منه لأنه إن شاء الله حفظه الله لا يشرب الخمر ويزني ولا يكذب ولا يخون ولا يقدم على الدماء والأموال بلا موجب ولو ملك ملك المشركين لأنها عبادة صهيبية ويصوم الفرض والنفل ويصلي الفرض والنفل وإنما أتيت به من الصويرة ليراه الناس ويعرفوه وأخرجته من تافيلالت لأظهره لهم لأن الدين النصيحة فإن تبعه أهل الحق صلح أمرهم كما صلح سيدي محمد جده وأبوه حي ولا يحتاجون إلي أبدا ويغبطه أهل المغرب ويتبعونه إن شاء الله

وكان من تبعه اتبع الهدى والنور ومن اتبع غيره اتبع الفتنة والضلال واحذر الناس أولاد يزيد كما حذر والذي وقد رأى من اتبعه أو اتبع أولاده كيف خاض الظلمة ونالته دعوة والده وخرج على الأمة وأما أنا فقد خفت قواي وهون العظم مني واشتعل الرأس شيبا حفظني الله في أولادي والمسلمين أمين نصيحة وصية سليمان بن محمد لطف الله به اه وفي أثناء هذه المدة وقعت غدره ذوي بلال في انتهابهم الصاكة الواردة من مرسى الصويرة وكان انتهابهم إياها باتفاق من الشياظمة الذين جاؤوا معها وقادهم علي بن محمد الشبظمي هو الذي انتهب أكثرها وكان فيها من الذخائر النفيسة والأموال الثقيلة شيء كثير وهذه الواقعة هي التي هدت أركان السلطان المولى سليمان رحمه الله فاعتراه مرضه الذي كان سبب وفاته ولما أظلم المرض أعاد العهد للمولى عبد الرحمن بن هشام وبعث به إلى فاس إذ كان خليفة بها كما مر فدعا رحمه الله بصحيفة بيضاء ودعا بالطابع الكبير فجاء به ولم يحضره إلا أهله من النساء فطبع الصحيفة بيده وكتب بعض الكتاب وأكملته بعض حظياه ممن كانت تحسن الكتابة ثم طواه وختم عليه ودعا القائد الجبلاني الرحماني الحويوي وكان قائد المشور وقال له ادع لي فارسين يذهبان بهذا الكتاب إلى فاس وقد عينت لهما سخرة كبيرة يقضانها هناك إذا أسرعا السير فكان ذلك الكتاب هو العهد الذي قرئ بفاس ونصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أخواننا الودايا ورماة فاس وأعيانها ورؤساءها سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعلى ابن عمنا الفقيه القاضي مولاي أحمد والفقيهين ابن إبراهيم والأزمني وبعد فقد وجدت من نفسي ما ليس بتارك أحدا في الدنيا وهذه وصية أقدمها بين يدي أجلي والله ما بقي في قلبي مقال ذرة على أحد من خلق الله لأن ذلك أمر قد قدره الله وسبق علمه به ولست فيه بأوحد وما وقع لمن قبلي أشنع وأقطع واني قد عقدت

بين أخوالي وأهل فاس أخوة بحول الله لا تنقسم بربتها الأبناء عن الآباء وأوصي الجميع بما أوصى الله به الأولين ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا النساء وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله الحشر وبسنة رسول الله بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ ولن تزال هذه الأمة بخير ما أخذوا بكتابتك الله وقد عهدت لابن أخي مولاي عبد الرحمن بن هشام ورجوت الله أن يكون لي في هذا الأمر مثل ما لسليمان بن عبد الملك في عهده لعمر بن عبد العزيز إنا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا وءاثراهم يس من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة وقد انعقد الإجماع على عقد البيعة بالعهد والقاضي والفقيهان يبينون لكم هذا فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول النساء وإني أشهد الله أنني مقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الرحمن بن هشام وبيبعته أياه وقد أدبت لأمة رسول الله ما علي من النصيحة وأرجو الله أن يثيبني بهذه النية الصحيحة وهو المطلع على ما في الضمائر والعالم بالسرائر والسلام وفي ربيع النبوي عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف اه ثم تهادى بالسلطان رحمه الله مرضه إلى أن توفي ثالث عشر ربيع الأول وهو الثاني من عيد المولد الكريم من السنة المذكورة ومات رحمه الله ثابت الذهن صحيح الميز على غاية من اليقين والفرح بقاء ربه ودفن بصريح جده المولى علي الشريف بباب آيلان من مراكش وقد رثاه جماعة من أدباء العصر من ذلك قول الفقيه الأديب الكاتب البلنغ أبي عبد الله محمد بن إدريس الفاسي نبأ

عزى أوهي عزى الإيمان وأبان حسن الصبر عن إمكان شقت لموقعه القلوب وزلزلت أرض النفوس ورج كل مكان فقد الإمام أبي الربيع المرتضى جزعت لعظم مصابه التقلان وبكت عيون الدين ماء جفونها وجدا عليه وكل ذي إيمان لم نعي الناعون خير خليفة وعرا الفؤاد طوارق الأحزان مزقت ثوب تجلدي من فقده ونثرت در الدمع من أجفاني عجا لموت غاله إذ لم يخف فتك الملوك وسطوة السلطان وسما لمنصبه المنيف ولم يهب غضب الجنود وغيره الأعوان لو كان ينفع خاض فرسان الوغا حرصا عليه موافق النيران وحموه بالنفس النفيسة إنما يحمون روح العدل والإحسان لكن قضاء الله حم فلا يرى للمرء في دفع القضاء بدران والموت مورد كل حي كأسه وسوى المهيم في الحقيقة فإن إن غاب عنا شخصه فلقد ثوى فينا الثناء له بكل لسان ومنابق ومفاخر ومآثر شاعت له في سائر الأوطان ومعارف وعوارف ووسائل ومسائل قد أوضحت ومعاني وبدور أولاد وآل قد فقوا آثاره في العلم والعرفان تخذوا الديانة والصيانة شرعة وتقلدوا بصورم الإيقان أخلاقهم ووجوههم وأكفهم كالزهر والأزهار والأمزان إن حاربوا ابنوا شجاعة جدهم أو خاطبوا أزرؤا على سبحانه من كل من جعل القرآن سميره وسما بوصف العلم والتبيان كم آية ظهرت له وكرامة دامت دلالتها مدى الأزمان قد كان أوحد دهره ولذاته في العدل والتمكين والإحسان قد كان عالم عصره وفريده في الفهم والتحقيق والإتقان قد كان فردا في البلاغة إن جرت أقلامه بهرت بسحر بيان من للعلی من بعده من للنهي من للنتی وتلاوة القرآن يا رسمه ما ذا حويت من العلى وطويت من علم ومن عرفان

يا رسم كم وارتيت من كرم ومن جود ومن فضل ومن إحسان يا رسم كم حجبت عنا شمسها وضياؤها في سائر البلدان ووسعت بحر علومه وسخاته فطمي بضيق بطنك البحران فلو استطعت جعلت قلبي قبره حبا وأحشائي من الأكفان ولو أن عمري في يدي لوهبتة وفديته بالأهل والإخوان لكن يخفف بعض أقال الأسي علمي به في جنة الرضوان فسقى ثراه من المواهب ديمة وهمت عليه سحاب الغفران ورد الرسول بموت خير خليفة وولاية العهد الرفيع الشأن فجزعت من حزن لما قد نابني وطربت من فرح بما أولاني ما مات من ترك الخليفة بعده مثل المؤيد عابد الرحمن ملك تسربل بالنقى حتى ارتقى من نهجه الأتقى على كيوان يا واحدا في الفضل غير مشارك أقسمت ما لك في البرية ثان لله ببعثك التي قد أشبهت فيما تواتر بيعة الرضوان قد أحكمتها يد الشريعة والنقى بعري النصوص وواضح البرهان سعد الذي أضحي بها متمسكا وهوى العنيد بهوة الخسران وجرى على التيسير أمرك فاستوى ملك الورى لك في أقل زمان وأنت لنصرتك المغارب كلها فيعبيدها لك في الحقيقة داني عقدوا على النصح القلوب وإنما عقدوا بنصرك رايه الإيمان لو شئت من أهل المشارق طاعة لأتوك من يمن ومن بغداد هابنك أصناف الطغاة بزعمهم لما وثقت بنصرة الرحمن وبسطت عدلك في الورى فكانما قد عاش في أيامك العمران يا أهل بيت المصطفى أوصافكم جللت عن الإحصاء والحسبان طاب المديح مع الرثاء بذكركم فنظمته كفلاند العقيان

بقية أخبار السلطان المولى سليمان رحمه الله ومآثره وسيرته لما بويع أمير المؤمنين المولى سليمان رحمه الله رد الفروع إلى أصولها وأجرى الخلافة على قوانينها بإقامة العدل والرفق بالرعية والضعفاء والمساكين ومن وفور عقله وعدله إسقاط المكوس التي كانت موظفة على حواضر المغرب في الأبواب والأسواق وعلى السلع والغلال وعلى الجلد وعشبة الدخان فقد كان يقبض في ذلك أيام والده رحمه الله خمسمائة ألف مقال

معلومة مثبتة في الدفاتر مبيعة في ذم عمال البلدان وقواد القبائل كل مدينة وما عليها ومن ذلك المكس كان صائر العسكر في الكسوة والسروج والسلاح والعدة والإقامة والخيابة والتفانيف لوفود القبائل والعفاة والمؤنة للعسكر ولور السلطان وسائر تعلقاته فكان ذلك المكس كافيا لصوائر الدولة كلها ولا يدخل بيت المال إلا مال المراسي وأعشار القبائل وزكواتهم وكان مستقدا هذا المكس يعادل مال المراسي وأعشار القبائل فزه فيه هذا السلطان العادل فعوضه الله أكثر منه من الحلال المحض الذي هو الزكوات والأعشار من القبائل وزكوات أموال التجار والعشر المأخوذ من تجار النصارى وأهل الذمة بالمراسي وأما المسلمون فقد منعهم من التجارة بأرض العدو لنلا يؤدي ذلك إلى تشهير ما بأيديهم أو المشاجرة مع الأجانب هكذا بلغنا والله أعلم وكانت القبائل في دولته قد تمولت ونمت مواشيتها وكثرت الخيرات لديها من عدله وحسن سيرته فصارت القبيلة التي كانت تعطي عشرة آلاف مثقال مضاربة أيام والده يستخرج منها على النصاب الشرعي عشرون وثلاثون ألف مثقال وذلك من توفيق الله له وتمسكه بالعدل والحلم والجود والحياء وجميل الصبر وحسن السياسة والتأني في الأمور واجتنابه لما هو بضد ذلك فأما الحلم فهو دأبه وطبعه وقد اتفق أهل عصره على أنه كان أحلم الناس في زمانه وأملك لنفسه عند الغضب من أن يقع في الخطأ ومذهبه

درء الحدود بالشبهات والتماس التأويل وقبول العذر حتى لقد حكي عنه أنه ما اعتمد البطش بأحد وتصدى لنكبته لغرض نفساني أو لحظ دنيوي وحسبك من حلمه ما قابل به الخارجي عليه قال صاحب الجيش لما عزمت على الخروج من فاس أيام الفتنة لملاقاة السلطان المولى سليمان بقصر كتامة جئت إلى القاضي أبي الفضل عباس بن أحمد التاودي لأودعه فكان من جملة ما أوصاني به قال قل لمولانا السلطان يقول لك عباس إنا نخاف إذا ظفرت بهؤلاء الظلمة أن تصفح عنهم فلما اجتمعت بالسلطان أبانته مقالة القاضي فقال كيف أصفح عنهم وقد قال النبي لأبي عزيز لا أتركك تمسح سبتك بمكة وتقول خدعت محمدا مرتين فلما فتح الله عليه فاسا كان جوابه أن قال لا تتربيع عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين بل تعجل بالخروج منها مخافة أن يغيره بعض بطانته بأحد منهم فلعمري لقد صدق من قال إن التخلق يأتي دونه الخلق وأما الدين والتقوى فذلك شعاره الذي يمتاز به ومذهبه الذي يدين الله به من أداء الفريضة لوقتها المختار حضرا وسفرا وقيام رمضان وإحياء لياليه بالإشفاق ينتقي لذلك الأساتيد ومشايخ القراء ويجمع أعيان العلماء لسرد الحديث الشريف وتفهيمه والمذاكرة فيه على مر الليالي والأيام ويتأكد ذلك عنده في رمضان ويشاركهم بغزارة علمه وحسن ملكته ويتناول راية السبق في فهم المسائل التي يعجز عنها غيره فيصيب المفصل ويواظب على صيام الأيام المستحبة من كل شهر ويعظم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ويرفع مناصبهم على سائر رجال دولته ويجري عليهم الأرزاق ويعطيهم الدور المعترية والضياح المغلة ويحسن مع ذلك إلى من دونهم في المرتبة من المدرسين وطلبة العلم ويؤثر المعتنين منهم وذوي الفهم بمزيد البروتضعيف الجارية حتى لقد تنافس الناس في أيامه في اقتناء العلوم وانتحال صناعتها لا اعتزاز العلم وأهله في دولته وسعة أرزاقهم

وأما صبره عند الشدائد واحتمال العظام وتجلده عند حلول الخطب ونزول المقدور فحدث عن البحر ولا حرج وعن الجبل سكونا ورسوخ قدم قال صاحب البستان ولو حدثنا بما شاهدناه منه لكان عجباً وأما العدل فإنه ما رئي في ملوك عصره أعدل منه ومن عجيب سيرته أنه كان يلزم العمال رد ما يقبضونه من الرعايا على وجه الظلم من غير إقامة بيئة عليهم على ما جرى به عمل الفقهاء من قلب الحكم في الدعوى على الظلمة وأهل الجور حسبما ذكره اللواترسي وغيره ومن عدله واقتصاده ما حكاه لنا الفقيه أبو العباس أحمد بن المكي الزواوي الموقت بالمسجد الأعظم من سلا قال مر السلطان المولى سليمان بسلا سنة ست وثلثين ومائتين وألف فزل برأس الماء واستدعاني للقيام بوظيفة التوقيت عنده قال فدخلت عليه فإذا هو رجل طويل أبيض جميل الصورة ففاوضني في مسائل من التوقيت وكان يحسنه فأجيبته عنها فأعجبه ذلك ثم وصلني بضميلونين وأخرج مجانيته من جيبه ليحققها فرأيت مجدولها من صوف ثم حضرت صلاة العصر فتقدم وصلى بنا فرأيت سراويله مرقعاً وكان إمام صلاته الراتب هو الفقيه السيد الحاج العربي الساحلي لكنه صلى بنا تلك الصلاة ولما فرغنا من الصلاة وانقلبنا إلى منازلنا جاء بالطعام وهو قصيعة من الكسكس عليها شيء من اللحم والخضرة وليس معها غيرها قال وكانت عادة المولى سليمان في السفر أن لا يتخذ كشيئة أي مطبخاً إنما هو طعام يسير يصنع له ولبعض الخواص مما يكفي من غير إسراف حتى أن الكتاب كانوا يقبضون ست موزونات ويعولون أنفسهم وكانت أقاتهم وأزواهم خفيفة أه وأما سياسته الخاصة في جبر القلوب واستئلاف الشارد وتسكين المرتاب وإرضاء الولي ومجاداة العدو والدفاع بالتالي هي أحسن عند اشتباه الأمور ومعاناة الرجال بوجوده المكائد والحيل في الأمور التي لا ينفع فيها حرب ولا قوة فشيء لا يبلغ فيه شأوه ولا يشق غباره وأما عادته في الحرب فقد أخذ فيها بسيرة العجم بحيث لا يباشر

الحروب بنفسه ويعمل بأهل الصدر الأول فيقف في قلب الجيش كالجبل الراسي وأمرؤه يباشرون الحروف بأنفسهم في الميمنة والميسرة وهو رده لهم كلما رأى فرجة سدها أو خلا أصلحه وهو كالصقر مطل على حومة الوغا فإذا أمكنته فرصة أنتهزها ومن شدة ثباته وعدم تزحزحه أنه كان لا يركب وقت الحرب إلا البغلة وبذلك جرى عليه في وقعة طليان والشراردة ما جرى فكان حماته يفرّون عنه بلا حياة ويبقى هو ثابتاً رحمه الله وأما جمعه لأشتات العلوم فلقد كان وارثاً من ورثة الأنبياء حاملاً للواء الشريعة جامعا مانعا إذا بوحت في الأخبار كان كجامع سفیان أو في الأشعار فكنا بعبارة ذبيان أو في الفطنة والفراسة فكنا بياس أو في النجدة والرأي فكالمهلب وإذا خاض في السنة والكتاب أبدى ملكة مالك وابن شهاب ولو تصدى في الفقه للفتيا والتدريس لم يشك سامعه أنه ابن القاسم أو ابن إدريس وإذا تكلم في علوم القرآن أنهل بما يغمر مورد الظلمان قال صاحب البستان ولا يعرف مقدار هذا السلطان إلا من تغرب عن الأوطان وحمل عصا التسيار ورمته به في الأقطار الأسفار وشاهد سيرة الملوك في العباد وما عمت به البلوى في سائر البلاد ولا يتحقق أهل المغرب بعدله إلا بعد مغيبه وفقدته المرء ما دام حيا يستهتان به ويعظم الرزء في حين يفنقذ ومن آثاره الباقية وبناءاته العادية فيفاس المسجد الأعظم بالرصيف الذي لا نظير له كان حفر أساسه المولى يزيد واشتغل عنه وتركه فافتتح هو عمله ببنائه وتشبيده وأبناه دينا على الملوك وبنى مسجد الديوان كان صغيراً فهمه وزاد فيه أملاكاً وجعله مسجداً جامعاً تقام فيه الجمعة وبنى مسجد الشرا بلبين زاد فيه ووسعه وجعله مسجداً جامعاً كذلك وبنى مسجد الشيخ أبي الحسن بن غالب وضريحه وبنى ضريح الشيخ أبي محمد عبد الوهاب التازي وهدم مدرسة الوادي ومسجدها لتلاشيها وجددها على شكل آخر وجدد المدرسة العنانية وأصلح مسجد القصبة البالية وبيضه بالجص وزلجه وبنى باب الفتوح على هيئة ضخمة وباب بني مسافر والباب الجديد

على براح أبي الجلود وبنى القنطرة على الوادي بينهما وجدد قنطرة الرصيف مرتين وأصلح قنطرة وادي سبو وأصلح طرق فاس الجديد كلها من داخل وخارج ورصفها بالحجارة وأصلح أبواب فاس الجديد كلها ورمم ما تلثم منها وجدد قصور الملك الخربة بها وزاد غيرها وأمر بتبييض مساجد الخطب وتبليط أرضها وبنى مسجد صفرو وجدد أسوارها وبنى لأهله حماماً به وبنى مسجد المنزل ببني يازغة وبنى مسجد وجدة وحماماً بها وأصلح قلعتها ودار إمارتها وبنى مسجد وازان ومسجد تطاوين وأخرج أهل الذمة من جواره وبنى لهم حارة بطريق المدينة وبنى الصقائل والأبراج بطنجة وجدد مسجد أصيلا وأسوارها وجدد قصور الملك بمكناسة بعد تلاشيها وأصلح القناطر التي بين فاس ومكناسة وبنى قنطرة على وادي سيدي حرازم بخولان وبنى مسجد الجزائر بسلا ووقف عليه أوقافاً تقوم بمصلحته وأخرج يهودها من وسط البلد من حومة باب حسين وبنى لهم حارة على حدتها غربي البلد وبنى المسجد الأعظم بحومة السويقة من رباط الفتح وبنى دار البحر لنزوله وبنى قنطرة وادي حصار بتامسنا وبنى مسجد أبي الجعد بتدالا وبنى قنطرة وادي أم الربيع وقنطرة تانسيفت بمراكش بعد سقوطها وبنى المسجد الأعظم الذي كان أسسه على بن يوسف الممتوني بمراكش وبناه بناء ضخماً وأزال منارته التي كانت به قديماً وشيد منارة أخرى بديعة الحسن رائقة الصنعة وأكمل مسجد الرحبة الذي كان أسسه والده رحمه الله ومات قبل تمامه وجدد قصور والده بمراكش وأصلحها وصان القصبة وعمرها ثم ختم رحمه الله ديوانه بالحسنة العظيمة والمنقبة الفخيمة وهي عهده بالخلافة لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام على كثرة أولاده ووجود بعض إخوته ولعمري أن هذا العهد لمنقبة جليلة للعاهد والمعهود إليه أما العاهد فإنما لم نسمع بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأحد من خلفاء الإسلام

وملوكه عدل بولاية العهد عن ولده المستحق لها إلى غيره حتى كان هذا الإمام الجليل الذي أحيا سيرة العمرين نعم قد عهد سليمان بن عبد الملك لابن عمه عمر بن عبد العزيز

رحمهما الله لكن حكى ابن الأثير أن سليمان لما حضرته الوفاة عزم أن يعهد لابن له صغير فوعظه رجاء بن حيوة فرجع عن ذلك وشاوره في ابنه داود وكان غازيا بالقسطنطينية فقال له رجاء لا تدري أحي هو أم ميت فحينئذ رجع إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأما المعهود إليه فإن في العهد إليه دون الأبناء والإخوة شاهدا عدلا على كمال فضله وإحرازه لخلال الخير وتبريزه فيها على من عداه من بني أبيه وعشيرته ولعمري أن ذلك لكذلك فإن المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله قد اشتهرت ديابته وأمانته عند القاضي والدان حتى صار لا يختلف في عدالته اثنان تم الجزء الثامن ويليه الجزء التاسع وأوله الخير عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام

بسم الله الرحمن الرحيم الدولة العلوية القسم الثالث الخير عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام وأوليته ونشأته كان المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله منذ نشأ وهو متمسك بالثقوى والعفاف متصف بالصيانة وجميل الأوصاف من الانقباض عن الخلق وملازمة العبادة والصوم وقيام الليل وترك ما لا يعني والجد في الأمور كلها حتى عرفت له هذه الشنونة وتطابقت على حبه ومدحه القلوب والأسنة ولما نشأ هذه النشأة الطيبة أقبل عليه عمه السلطان المولى سليمان رحمه الله وضمه إليه واعتنى بشأنه ورفع منزلته حتى علا أولاده ولما بعث أولاده إلى الحرمين الشريفين بقصد أداء فريضة الحج بعثه في جملتهم فظهر له في تلك السفرة من الورع والدين والتمسك بأسباب اليقين ما رفع قدره وأشاع بالصلاح ذكره وكان السلطان رحمه الله قد أعطاه بضاعة ينفقها في سفرته تلك ويستعين بها على حجه فلما أب من سفره أتى بالبضاعة إلى عمه وقال له يا سيدي هذه البضاعة التي أعطيتني إنما أخذتها لأنفق منها إذا نفذ ما عندي وكانت معي بضاعة جمعتها بقصد إنفاقها في هذه الوجهة ولم أرد أن أخطئها بغيرها وقد حصلت الكفاية بها والحمد لله فعجب عمه من شأنه وازداد محبة وغيطة فيه ورد له البضاعة وطيبها له ودعا له بخير

وكان في أول أمره مقوما بتفانيه ثم استقدمه السلطان المولى سليمان في آخر عمره وولاه بتغر الصويرة وأعمالها فقام بذلك أحسن قيام ثم استقدمه منها في فتنة ابني يزيد كما مر واستخلفه على حاضرة المغرب وأم أمصاره مدينة فاس فقربت بولايته العيون وطابت الأنفاس كل ذلك فعله به ترشيفا للأمر وتقديما له فيه على زيد وعمرو بيعة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله قد تقدم لنا أن السلطان المولى سليمان لما حضرته الوفاة جدد العهد لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام وبعث به إلى فاس ثم كانت وفاة السلطان عقب ذلك فوصل خبر وفاته إلى فاس في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف فحضر القاضي الشريف المولى أحمد بن عبد الملك والعلامة المقتي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم والتاجر الأمير الحاج الطالب ابن جلون وسائر أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم وحضر أعيان الودايا وقوادهم ولما قرئ العهد ترحموا على السلطان المولى سليمان وبايعوا للسلطان المولى عبد الرحمن وسلموا عليه بالخلافة وتم أمره وسر الناس بذلك خاصة وعامة ثم ترادفت على حضرته بيعة أهل الديوان وسائر الجنود وحل من الملك العزيز في فلك السعود وكتبت البشائر بذلك إلى البلدان فوفدت بيعات أهل الأمصار وهداياهم ولم يتوقف عن هذه البيعة الشرعية أحد منهم واستنشر أهل المغرب بولايته وبان لهم مصداق يمينه وسعادته بتوالي الأمطار ورخص الأسعار والعافية آناء الليل وأطراف النهار ولما تمت هذه البيعة المباركة وحصل ما ذكرنا من الأمن والعافية وحسن الحال والرفاهية استوزر السلطان رحمه الله الفقيه العلامة الأديب أبا عبد الله محمد بن إدريس الفاسي فقال مولاي بشراك بالتأييد بشراكا قد أكمل الله بالتوفيق سراكا الفتح والنصر قد وفاق جيشهما والسعد واليمن قد حيا محياكا الله ألبسك الإقبال تكريمة وبالتقى والنهي والعلم حلاكا فراسة الملك المرحوم قد صدقت لما تفرس فيك حين ولاكا

أعدت للدين والدنيا جمالهما فأصبحا في حلى من حسن مغناكا وزادك الغيث غوثا في سحائبه فجاد بالقطر قطرا فيه مأواكا ثم وردت على السلطان تهنة عالم إفريقية ومفتيها وأديبها الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي بقصيدة يقول فيها نصر من الرحمن جل لعبده أيروم خلق نقض ميرم عقده وعدت به الأقدار وهي نوافذ لا تحسبن الله مخلف وعده والله أعلم حيث يجعل نصره في الشاكرين له سوابغ رفده فلتبسم ثغر الهنا مستبشرا فالوقت ينطق عن سعادة جده أن يمض مولانا سليمان الرضا وعليه تبكي الباكيات لفقده العلم والثقوى وكل فضيلة منشورة طويت به في لحدده فلقد أقام لنا أبا زيد هدى نورا مبينا يستضاء برشده لو لم يكن كفا لما أوصى به وبنوه ترفل في ملابس مجده سعدت به الأيام ثم أراد أن تبقى السعادة للورى من بعده أعظم به نصرا يدم سروره للخائفين سرى توضع رنده أهدى إلى الأعداء أقل غصة والأوليا منتعمون بشهده فاستنشروا باليمن من مرضاته واستمطروا نيل المنى من وده ما هو إلا ابن الرسول وهل فتى في الناس يعدل عن مكارم جده وتتأسفت أسلافه كرما كما راق النواظر لؤلؤ في عقده لا غرو أن جمع المحاسن كلها منهم فأرث الجمع حق لفرده لا يأفك الخراص حيث يقول قد ذهب الزمان بعمره وبزيده فبسيق ما ننسخ يقد أديمه حتى ولو وفى العيان برده فلكم وكم من آخر زما له فضل عظيم لا يحاط بسرده يا أهل فاس والمغرب كلها والشرق من مصر لغاية حده بهنيكم هذا الزمان فإن في أيامه للدين مطلع سعده والعلم والثقوى وكل معظم عند الشريعة فهو بالغ قصده النور أوقد منهم أترامه يرضون إلا باستدامة وقده

الله يبقى نوره متوقدا يبنى الزمان ولا فناء لخلده ويخص مولانا الأمير بنعمة لا تنقضي وعناية من عنده وبديمه ظلا وريفا كلما حمى الورى هر عوا لجنة برده وحسام فتح كلما نهضت به عزماته فالنصر شاحذ حده وتمام بدر كلما اقتعد السرى لم يسر إلا في منازل سعده وعليه تسليم تأرج نده لكنه في الفضل عادم نده ثم الصلاة على النبي وآله والحمد في بدء الكلام وعوده اجتماع البربر على بيعة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام والسبب في ذلك قد تقدم لنا أن البربر بعد وقعة طليان اتفقوا على مناواة السلطان ومنايذته وأنهم صاروا يدا واحدة عليه وعلى كل من يتكلم بالعربية بالمغرب فلما توفي السلطان المولى سليمان وبويع السلطان المولى عبد الرحمن زاد البربر ذلك الحلف توكيدا وشدة وأعدوا لعصيانهم واعوجاجهم أكمل عدة لا سيما رئيسهم الحاج محمد بن الغازي الزموري فإنه لما فعل فعلته في وقعة طليان من جرة الهزيمة على المولى سليمان ثم عززها بأختها من بيعته للمولى إبراهيم بن يزيد والإجلاب فيها بالقرب والبعيد خاف أن يأخذ بذلك من يأتي بعده من بني أبيه وعشيرته فجد في صرف وجوه البربر عن السلطان واستعان في ذلك بأبي بكر مهاوش فروض له رؤساء البربر حتى اجتمعت كلمتهم على أن لا يتركوا بأرض المغرب ذكرا للسلطان وحزبه وربما شايهم على ذلك بعض غواة العرب مثل الصفاة والتوازيط من بني حسن وزعير وجل عرب تادلا فلما أراد الله سبحانه نقض ما أبرموا ونثر ما جمعوا من ذلك ونظموا جعل لذلك سببا وهو أن الشيخ أبا عبد الله الدرقاوي كان مسجوناً عند الودايا كما تقدم في أخبار فتنة ابني يزيد واستمر في السجن

إلى أن بويع المولى عبد الرحمن وكان ابن الغازي من أصحاب الشيخ المذكور وممن له فيه اعتقاد كبير فوفد عليه أولاد الشيخ ونزلوا عليه لكي يسعى في تسريح والدهم وألحا عليه فلم يجد بدا من إظهار الطاعة للسلطان والدخول في الجماعة فوفد على السلطان في جمع من وجوه قومه بهديتهم وبيعتهم فلما رأى باقي البربر الذين حالفوه من آيت أدراسن وجروان أنه قدم على السلطان ظهر لهم خيانتهم فنبذوا ذلك العهد وساروا إلى بيعة السلطان وخدمته بأموالهم وأنفسهم فقدم عليه الحسن بن حمو واعزيز كبير آيت أدراسن في وجوه قومه وأدى الطاعة ودخل في حزب الجماعة وعليه وعلى ابن الغازي كان يدور أمر البربر في ذلك الوقت فخذل الله فيما بينهم وجمع كلمتهم على السلطان من غير ضرب ولا طعن ولا إيجاف وبخيل ولا رجل فقابلهم السلطان بغاية الإحسان لا سيما ابن الغازي فإنه استخلصه وجعله عمدة رأيه وعيبة سيره حتى كان لا يقطع أمرا دونه بعد أن سرح له الشيخ أبا عبد الله الدرقاوي رحمه الله ثم إن السلطان زوج ابن الغازي بإحدى حظايا عمه السلطان المرحوم وهي ابنة القائد عمر بن أبي سنة فعلا قدر ابن الغازي في الدولة بذلك واطمأن إلى السلطان بعد أن كان يسايره على أوفاز وذهب معه إلى مراكش مرتين حسبما نذكره بعد إن شاء الله نهوض السلطان المولى عبد الرحمن لتفقد أحوال الرعية ووصوله إلى رباط الفتح لما فرغ السلطان المولى عبد الرحمن

رحمه الله من أمر الوفود والتهاني بحضرة فاس التفت إلى النظر في أحوال الرعية وتثقيف أطراف المملكة فولى على فاس وصيفه أبا جمعة بن سالم الذي كان يوباها على الدار الكبرى بفاس الجديد ثم لما عزم على السفر عزله وولى مكانه ابن عمه سيدي محمد بن الطيب ثم نهض من فاس الجديد بقصد تفقد الممالك فجعل طريقه على بلاد سفيان وسار حتى وصل إلى قصر كتامة وعسكر هناك بالكدية الإسماعيلية وبها وفد عليه المولى عبد السلام ابن السلطان المولى سليمان رحمه الله في جماعة من الأشراف والكتاب فيهم أبو عبد الله أكنسوس وكان المولى عبد السلام المذكور قد قدم من تافيلالت إلى مراکش عقب وفاة والده بقصد أخذ البيعة على أهل مراکش لأخيه المولى عبد الواحد بن سليمان وكان قد بويع بتافيلالت وأعطوه صفقة أيامهم فلما صادف المولى عبد السلام الأمر قد تم للسلطان المولى عبد الرحمن واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه سقط في يده فأعرض عما جاء لأجله وتدارك أمره عند السلطان بالوفادة عليه والدخول في بيعته قال أكنسوس لما قدمنا على السلطان المولى عبد الرحمن من مراکش إلى قصر كتامة أمر بإدخاله عليه لشدة تشوفه إلى أخبار السلطان المرحوم المولى سليمان فدخلت عليه وجلست بين يديه نحو ساعتين وسألني عن كل شاة وفادة قال ثم دخلت عليه بعد صلاة المغرب وسألني عن بقية الأخبار ثم ذكر أولاد عمه السلطان المرحوم وقال والله لا يرون مني إلا الخير ثم بعد يومين أو ثلاثة نهض إلى رباط الفتح فاستقر بها ثم وفدت عليه قبائل الحوز ورؤساؤها فعيد هناك عيد الفطر من سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف ثم رجع إلى فاس ومعه أعيان قبائل الحوز الذين وفدوا عليه ولما احتل بفاس قدم عليه عمه المولى موسى بن محمد مع جماعة من أهل مراکش وفيهم المولى عبد الواحد بن سليمان المباع بسجلماسة فأكرمهم وأجلهم ولم يلم أحدا من شيعة المولى عبد الواحد ولكن عفا وصفح وقابل بالإحسان ثم ولى على مراکش ابن عمه المولى مبارك بن علي بن محمد وبعثه في صحبتهم فقدمها وتصرف في أمرها إلى أن كان منه ما نذكره ثم أمر السلطان رحمه الله بشراء دار أبي محمد عبد السلام شفشاق الفاسي وكانت مجاورة لقبه المولى إدريس رضي الله عنه بينها وبين القيسارية ثم

أمر بهما وزيايتها في مسجد المولى إدريس رضي الله عنه وجمع الصنائع والعملة على ذلك فتأنتقوا فيه ما شأوا حتى جاء أحسن من المسجد القديم وكان الذي تولى القيام على ذلك الشريف المولى الهاشمي بن ملوك البلغيني فعمل ذلك في مدة يسيرة على غاية من الإبداع والإتقان وكتب الله أجر ذلك في صحيفة السلطان وفي هذه المدة توفي الشيخ الأكبر العارف الأشهر أبو عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي رضي الله عنه وكانت وفاته ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من صفر سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف ودفن يوم الثلاثاء بأبي بريح من بلاد غمارة وقبره شهير وكان رضي الله عنه عجيب الحال كبير الشأن ورسائله موجودة في أيدي الناس وله فيها نفس مبارك فنعنا الله به وبأمثاله خروج السلطان المولى عبد الرحمن إلى مكناسة ونقله آيت يمور إلى الحوز ومسيره إلى مراکش لما سافر السلطان المولى عبد الرحمن السفارة الأولى إلى رباط الفتح كان قصده أن ينظر في أحوال الرعايا وما هي عليه حتى يكون على بصيرة فيما يأتي ويذر من أمرها ثم لما عاد إلى فاس استعد الاستعداد التام بقصد تدويخ المغرب وتمهيد أقطاره ولم شعثه وتدارك رفقته إذ كانت الفتنة أيام الفترة قد أحالت حاله وكسفت باله وكان المولى مبارك بن علي صاحب مراکش قد استولت عليه بطانة السوء وكثرت به الشكايات إلى السلطان فعزم السلطان رحمه الله على أعمال السفر إلى مراکش فخرج من فاس وقصد أولا مكناسة فلما دنا منها خرج العبيد إلى لقائه بالأعلام مرفوعة على العصي وكانوا جماعة يسيرة فقال لهم السلطان رحمه الله أين جند عبيد البخاري فقالوا هذه البركة التي أشارتها الفتنة وعلى الله ثم عليك الخلف فدخل السلطان رحمه الله مكناسة وتفتد بيت مالها فألفاه أنقى من الراحة ووجد العبيد على غاية من الفلة والخصاصة حتى لقد باعوا الخيل والسلاح وأكلوا

أثمانها فأنعشهم وجدد رسمهم وقواهم بالخيل والسلاح والجرابات حتى صلح أمرهم وذهب فقرهم قال صاحب الجيوش وحاصل الأمر أن هذا السلطان رحمه الله وجد الدولة قد ترادفت عليها الهزاهز وصارت بعد حسن الشبيبة إلى قبح العجائز قد تقانت رجالها وضاق مجالها وذلك من وقعة طيان إلى موت السلطان المولى سليمان فلما جاء الله بهذا السلطان المؤيد لم يجد بها إلا رمقا قليلا وخيالا قليلا قد وهت دعائمها وأشرفت على الانهدام المفضي إلى حالة الانعدام فأمده الله بضروب السعادة الخارقة للعادة فقام بأعبائها بلا مال ولا رجل والعناية من الله تساعدته والقتل يباعدته حتى أقام بناء الملك الإسماعيلي على أساسه ورد روحه إلى الجسد بعد خمود أنفاسه ولما قضى رحمه الله أربه من مكناسة صرف عزمه إلى آيت يمور وكانوا نازلين بجبل سلفات وبالولجة الطويلة من عهد السلطان سيدي محمد رحمه الله فعفوا وكثروا وأطغاهم نزولهم بتلك الأرض العجيبة ذات المزارع الخصيبة فأضروا بجيرانهم من أهل زرهون وأهل الغرب وغيرهم فأمر السلطان رحمه الله القائد أبا عبد الله محمد بن يشو المالكي العروي أن يحتال في كياهم والإيقاع بهم ففعل وقبض على نحو الأربعمائة منهم وبعث بهم إلى السلطان ثم نقلهم السلطان إلى حوز مراکش وسار إلى رباط الفتح فاحتل به وعقد لأخيه المولى المأمون بن هشام على مراکش وولاه عليها مكان المولى مبارك بن علي ثم خرج السلطان من رباط الفتح قاصدا مراکش فمر بقبائل الشاوية وساس أمرهم بما اقتضاه الحال وقتل الهاشمي بن العباس الزياني وكان هذا قد قتل قائد الشاوية أبا إسحاق إبراهيم الوراي احتال عليه بأن دعاه للاصطياد فلما خلا به رماه برصاصة فقتله بالموضع المعروف بتادارت قرب مديونة فأمر السلطان رحمه الله بالهاشمي أن تصرب عنقه بذلك الموضع وذلك بعد أن ولاه على قبيلته مدة ثم مر بقبائل دكالة فأوقع بالعونات وتقدم إلى مراکش فلما دخلها

بعث من جاء بمحمد بن سليمان الفاسي موقد نار

فتنة إبراهيم بن يزيد فأتى به من سجن الجزيرة فضربت عنقه ونصب رأسه على باب الخميس من مراکش وكان مسجوناً معه أبو عبد الله محمد الطيب البيز الفاسي فأخرجه السلطان من السجن ومن عليه إذ لم يكن على مذهب ابن سليمان بل كان صاحب مروءة وجد في الأمور ولذلك استخدمه السلطان رحمه الله فجعله أمينا على مرسى طنجة أولا ثم ولاه على فاس ثانياً والله تعالى أعلم نكبة ابن الغازي الزموري وما آل إليه أمره قد قدمنا أن الحاج محمد بن الغازي الزموري كان قد بايع السلطان المولى عبد الرحمن وسعى في سراح الشيخ أبي عبد الله الدرقاوي رضي الله عنه وأن السلطان استخلصه وصاهره بإحدى حظايا عمه المولى سليمان رحمه الله لما وصل معه إلى مراکش ثم اضطرب كلام أكنسوس في أن السلطان قبض على ابن الغازي في أول قدمة قدمها معه إلى مراکش أو بعدها وكان السبب في ذلك أن ابن الغازي المذكور كانت له دالة على السلطان قد جاوزت الحد الذي ينبغي أن تسير به الرعية مع الملوك وكانت عادته أن يحضر بالعادة والعشي إلى باب السلطان كغيره من كبار الدولة ووجوها على العادة في ذلك فلما كان في بعض الليالي وهو راجع إلى منزله رصده بعض العبيد بالطريق فرماه برصاصة فأخطأه فوصل إلى منزله وقد ارتاب بالسلطان فمن دونه من أهل الدولة وحملته دالته على أن أطلق لسانه وأبرق وأرعد وتألّى وأوعد وبلغ ذلك السلطان فأغضى له عنها ثم أفضى به التهور إلى أن انقطع عن الحضور بباب السلطان غضبا على الدولة فأطال له السلطان الرسن كي يرجع فلم يرجع وبلغ السلطان أنه يحتال في الفرار فعاجله بالقبض عليه وبعث به إلى جزيرة الصويرة التي هي سجن أهل الجرائم العظام فسجن بها مدة ثم أصبح ذات يوم ميتا وذلك في سنة أربعين ومائتين وألف على ما قيل

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان رحمه الله وبني جنس الصارود وهي ثمانية وعشرون شرطا كلها ترجع إلى تمام الصلح ودوام الأمن والمجاملة في التجارات وسائر أنواع المخالطات والثالث عشر منها يتضمن لزوم مراكب المسلمين أن تعمل الكرنينية إن تعين موجبها عند دخول مرسى من مراسي الصارود وكذلك هم أيضا ولاية الشريف سيدي محمد بن الطيب على تامسنا ودكالة وأعمالها كان السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله قد ولى ابن عمه الشريف سيدي محمد بن الطيب بن محمد بن عبد الله على فاس فأقام بها مدة ثم ولاه على قبائل تامسنا ودكالة بأسرها وفوض إليه النظر في أمرها وكان سيدي محمد هذا ذا شدة وشكيمة عبد العصابة دوسري البطش حجاجي السيف وكان قد اتخذ كلابا ضخاما تسميها العامة القناجر يوم الناس أنه إذا غضب على أحد ألقاه إليها فتقرسه وكان ربما جاء إليه بالجاني فيقوم إليه ويباشر ذبحه بيده حتى لقد حز أصبعه في ذبحه لبعض الجناة فقدم سيدي محمد هذا تامسنا وأوقع بأولاد حريز وقعة شناعة فقبض على جماعة كبيرة منهم وضرب منهم نحو مائتي رتبة وهدم قصبه كيربان الحريزي المسماة بمرجانة فتسامعت القبائل بسطوته فدعروا واقتسعت جلودهم لهيبته ثم زحف إلى دكالة ومعه

بعض مساجين أهل تامسنا فلما وصل إلى شاطيء وادي أزموهر أحضر أولئك المساجين فقطع البعض وقتل البعض ثم عبر الوادي ونزل بأزموهر فإزداد الناس رعبا منه وخشعت له قبائل دكالة بأسرها ثم تقدم إلى الجديدة فاحتل بها وكانت يومئذ خربة لا زالت على الهيئة التي فتحت عليها أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله وكانت تسمى قبل الفتح بالبريجة فلما فتحت وتهدم صورها بالميني صار الناس يسمونها بالمهومة فأمر سيدي محمد بن الطيب ببناء سورها وترميم ما تلثم منها وسمها

الجديدة وتهدد من يسميها بغير ذلك فسميت الجديدة من يومئذ وهو الذي بنى القبيبة الصغرى المقابلة لباب المسجد الجامع بها ثم لما صفا للسلطان أمر هذه البلاد بسبب ابن الطيب وبسبب ما حدث في المغرب من الجوع الذي أهلك الناس وكاد يأتي عليهم بعثه إلى الصحراء لتدويح أهلها وجباية زكواتها وأشعارها فذهب إليها وعاد مخففا فولاه السلطان على وجدة فأقام بها يسيرا ورجع بلا طائل شروع السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله في غرس أجداث بحضرة مراكش لما صفا للسلطان رحمه الله أمر المغرب شرع في غرس أجداث غربي مراكش وهو بستان عظيم جدا يشتمل على جنات كثيرة معروفة بحدودها وأسمائها وأكرتها وتشتمل كل واحدة منها على نوع أو أنواع من الأشجار المثمرة النفاة من زيتون ورماني وتفاح وليمون وعنب وتين وجوز ولوز وغير ذلك وكل نوع منها يغل ألوا في السنة بحيث أن غلة الليمون وحده تباع بخمسين ألفا وأكثر إذا كانت صالحة وفي خلال هذه الجنات من قطع الأزهار والرياحين والبقول المختلفة اللون والطعم والرائحة والخاصية ما لا يأتي عليه الحصر حتى أن منها ما لا يعرف جل أهل المغرب ولا رآه قط لكونه جلب من أقطار أخرى وفي وسطه برك عظام تسير فيها القوارب والفلك وتصب فيه العيون كأمثال الأنهار لسقي تلك الجنات وعليه من الأرحاء شيء كثير وتلك البرك منها ما ضلعها الواحد يكون ملتئين خطوة وأقل وأكثر وفي داخله أيضا من المنتزهات الكسروية والقباب القيصرية والمقاعد المروانية ما يستوقف الطرف ويستغرق الوصف مثل دار الهناء والدار البيضاء والصالحة والزاهرة وغير ذلك ويتصل به جنان رضوان الفائق بحسنه وقيابه ومقاعده البهية على ذلك كله والحاصل أن هذا البستان

جنة من جنان الدنيا يزري بشعب بوان وينسى ذكر غمدان إلى جنة المنارة والعافية وغير ذلك من منتزهات مراكش العجيبة التي أنشأها هذه الدولة في إبان الإقبال والشببية ولما شرع السلطان رحمه الله في غرس هذا البستان جلب له العين الآتية من بلاد مسفوية المسماة بتاسلطات وهي من أعذب العيون ماء وأخفها وأنفعها للبدن وكانت مسفوية متغلبة على هذه العين من لدن دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله يعمدون إليها بالليل فيفرونها سواقي على جناتهم ومزارعهم فكان ذلك دأبهم إلى أن جاء السلطان المولى سليمان فأعياه أمرهم فيها فأقطعهم إياها على ألف متقال يؤدونه كل سنة فلما جاء السلطان المولى عبد الرحمن انتزعها منهم رغما عليهم وجاء بها تشق الوهاد والربي حتى ألقت جرائها بأجدال السعيد وعم نفعها وربها القريب منه والبعيد وفي ذلك يقول الوزير أبو عبد الله محمد بن إدريس رحمه الله وردت وكان لها السعود مواجها والحسن مقصورا على مواجها وبنت طلائع بشرها من قبلها كالشمس طالعة لدى أبراجها وتسير ما بين الأباطح والربي ترمي فريد الدر من أمواجها وتصوغ من صافي النضار سبائكا حلت بها الأعطاف من أثباجها هبطت إليك من الجبال وطالما تعبت ملوك الأرض في إخراجها وأنتك رغبة تجر ذبولها وتفويض غمر النيل من أفواجها تنساب مثل الأفعوان وتنتني كالغصن بين وهادها وفجاجها خطب الملوك نكاحها فتمنعت وأنتك واهبة حلال زواجها فلتنهك الخود الرفيع فخارها وليهنها أن صرت من أزواجها حراء عباسية بدوية نشرت ذوائبها على ديباجها وافتك وافدة وقد صبغ الحيا وجناتها وجرى على أدرجها فكانها بلفيس جاءت صرحها لكنه صرح بغير زجاجها عرفت أناملك الشريفة أبحرا عرفت بحار الأرض في عجاجها

فأنتك طالبة الأمان لنفسها لتتال بعض الطيب من ثجاجها لبتك إذ سمعت نداك وأقبلت مرهوبة تستن من إزعاجها ونزعها بالقهر من غصابها والسابقون رضوا ببعض خراجها واعلم أن هذه الأخبار التي سردناها من أول هذه الدولة السعيدة إلى هنا تبعنا في جلها أبا عبد الله أكنسوس وقد ساقها رحمه الله مجردة عن التاريخ الذي هو المقصود بالذات من الفن ونحن لما لم نعثر في الوقت على ما يحقق لنا تواريخها رتبناها بحسب ما أدى إليه الفكر الروية وأثبتناها لئلا تذهب فاندتها بالكلية وعلى كل حال فهي في حدود الأربعين من مائة التاريخ والله أعلم ولاية القائد أبي العلاء إدريس بن حمان الجراري على وجدة وأعمالها قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله كان قد ولي ابن عمه سيدي محمد بن الطيب على وجدة ورجع عنها بلا طائل وكانت ولاية هذا الثغر عند السلطان من أهم الولايات وأخصها بمزيد الاعتناء لبعدها عن دار الملك ومتاخمتها لمملكة الترك فكانت ثغرا من الثغور وكثرة قبائلها واختلاف آراء أهلها وتعدد عصبيتهم في العرب والبربر ففكر السلطان رحمه الله فيمن يكتفي هذا المهم ويسد له هذا المسد فوقع اختياره على القائد الأنجد أبي العلاء إدريس بن حمان بن العربي الودبي الجراري فرماها به وجعل أمرها إليه وعول في شأنها عليه وكان هذا الرجل سنج وحده وقريب دهره في جودة الرأي وإدارة الأمور على وجهها وإجرائها على مقتضى صوابها ومحبة السلطان ونصحها فولاه عليها في أوائل سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف فقام بأمرها أحسن قيام واستوفى جباية أهل المداشر منها والخيام ثم حملة نصحه وصدق خدمته على أن يستأذن السلطان في أن يكون يقاتبه بجميع ما يحدث في تلك البلاد من الأمور الداخلة في الدولة

والخارجة عنها ليكون السلطان على بال من ذلك الثغر فاستأذن في ذلك بواسطة الوزير أبي عبد الله بن إدريس فكان من جواب الوزير له أن قال حسبما وقفت عليه بخطه إني أخبرت سيدنا المنصور بالله بما كتبت في شأنه فأعجبه ذلك وقال لا بأس به وليكن خفيا من غير شعور أحد ليطلع سيدنا على الأمور ويكون على بصيرة فيها فلا تقصر في ذلك واجتهد في إصلاح ما ولاك وأعظم ذلك وأهمه أمان الطريق وخمود الفتنة حتى لا يصل من تلك الناحية إلا الخير فأنت من فضل الله ذو رأي وبصيرة بالأمور وخصوصا تلك النواحي والله يوفقك ويسدك وهذه النواحي بخير وعافية وفي نعم من الله وافية قد نزل فيها المطر الغزير وكثر الخصب وحرث الناس الحرث الكثير وسيدنا بمكناسة الزيتون ولا ما يشوش البال غير أن والدته المقدسة صارت إلى عفو الله ورحمته وذلك قبل تاريخه بشهر ونحن على المحبة والسلام في الخامس والعشرين من جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف محمد بن إدريس لطف الله به انتهى لفظ الكتاب المذكور وفي هذه المدة كان السلطان رحمه الله قد استعمل الشيخ أبا زيان بن الشاوي الأحلافي على تازا وأعمالها وأوصاه بالتعاون على أمر الخدمة السلطانية بالقائد إدريس فكانا في إدارة الأمور بتلك النواحي كفرنسي رهان ولكن التبريز إنما هو للقائد إدريس ولما دخل رمضان من السنة المذكورة عزم السلطان رحمه الله على المسير إلى بلاد الشرق وجدة وأعمالها للوقوف على تلك التخوم بنفسه والنظر في أمورها برأيه إذ لم يكن وطأها قبل ذلك فاستنفر القبائل لحضور عيد الفطر والنهوض إليها ولما حضر العيد وفد على السلطان جماعة من بني يزناسن وعرب أنقاد فباحثهم رحمه الله عن حال بلادهم فشكروا قلة الخصب فصدده ذلك عن المسير إليهم ووعدهم بأنه سيطأ أرضهم من العام القابل في أول يناير ثم صرف رحمه الله وجهته تلك إلى التطواف على مراسي المغرب والنظر في أمورها وإحياء مراسم الجهاد بها فخرج من مكناسة منتصف شوال من السنة أعني سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف فمر بأرضات من أعمال وازان وصار إلى تطاوين ثم إلى طنجة ثم

أصيلا وزار وليها أبا عبد الله محمد بن مرزوق وتبرك به ثم مر بالعرائش وهكذا تتبع الثغور ثغرا ثغرا إلى أسفي وفي أثناء ذلك ورد عليه الخبر بانقراض الشراردة على المولى المأمون صاحب مراكش وخروجهم عن الطاعة وإفسادهم السابلة ونهبهم الرفاق وأبدؤوا في ذلك وأعادوا حتى كانوا يصلون إلى جنات مراكش فسد السلطان رحمه الله قصده نحوهم وكان من أمرهم ما نذكره فتح زاوية الشراذي والسبب الداعي إلى غزوها قد قدمنا ما كان من أمر المهدي بن الشراذي الزراري مع السلطان المولى سليمان رحمه الله بما فيه كفاية ثم لما بوع السلطان المولى عبد الرحمن بايعة المهدي في جملة الناس ولما قدم السلطان مراكش قدمته الأولى لقيه الشراردة في خمسمائة فارس بمشروع ابن حمى مؤيد الطاعة ففرح السلطان بهم وأكرم وفادتهم ولما عزموا على الرجوع كان في جملة ما قال لهم السلطان رحمه الله إن ما فات قد مات وما نهب في أيام الفتنة فهو هدر ومن الآن من فعل شيئا يخاف على نفسه فرجع الشراردة إلى بلادهم وعيد السلطان بمراكش عيد المولد فحضرت الوفود وحضر الشراردة في جملتهم وساقوا للسلطان خمسة عشر جملا من الكتان وخمسة أحمال من الملف وأربعة آلاف متقال عينا مما كانوا نهبوه من صاكة

الصورة قبيل وفاة السلطان المولى سليمان رحمه الله حسبما أشرنا إليه قبل فكان من تمام إحسان السلطان إليهم وتآلفه إياهم أن قال لهم افرضوا لي مائتي فارس منكم تذهب إلى درعة وهذا الكتان والملف هو كسوتهم والمال صائرهم ففعلوا وكساهم السلطان وأنعم عليهم ثم لما ولي أخاه المولى المأمون على مراکش مرضوا في طاعته ودعا المهدي تهوهر إلى أن شكاه إلى السلطان وهو بمكناسة يومئذ ويعتد عليه بأنه يأخذ منهم الزكوات والأعشار على غير وجهها الشرعي وأنه ولي عليهم أربعة عمال أو خمسة عوض عامل واحد كان يتولى عليهم فأغضى السلطان عن ذلك وبالغ في الأناة القول له في كتابه ووعده بأنه إذا وصل إلى مراکش يشكبه من أخيه وفي أثناء ذلك وقبل وصول كتاب السلطان إليه أغرى إخوانه بالخروج عن طاعة السلطان والاشتغال بما يسخط الله ويرضي الشيطان فانبثت خيولهم في الطرقات ومخروها مخرًا وانتسفوها نسفًا وعمدوا إلى قوادهم الذين ولاهم المولى المأمون عليهم فقبضوا عليهم وأدعواهم السجن وانتهبوا دورهم ووصل المسافرون والتجار إلى باب السلطان مجردين عرا يشكون ما دهمهم من أمر الشراردة وتكاثر عليه شذاهم فحينئذ استأنف السلطان جده وأرهب حده وكتب إلى أخيه المولى المأمون باستنفا قبايل الحوز وجمعها عليه حتى يقدم عليه وسار السلطان في جيش العبيد والودايا وآيت أدراسن وزمور وعرب بني حسن وبني مالك وسفيان وكتب إلى الشاوية ودكالة أن تكون خيلهم معدة حين يمر بهم وكان المهدي قد عظم ناموسه وتمكن من جهلة قومه وكاد يتجاوزهم إلى غيرهم حتى صار يعرض أو يصرح بأنه المهدي المنتظر وكان السبب الأقوى في طغيانه وطغيان قومه ما اتفق له في هزيمة السلطان المولى سليمان رحمه الله فظن المهدي وشرارته أن لا غالب لهم من الله ولما برز السلطان رحمه الله من رباط الفتح لقيه ركب الحجاج الذين انتهبهم هشتوكا والشياظمة الذين بأحواز أزموور وكانت العادة يومئذ بالمغرب أن ركب الحاج تأتي من أفق المغرب فتجتمع بفاس ومنها يخرج الركب على الهيئة المعهودة في ذلك الزمان فلما وصل هؤلاء الحجاج من أهل السوس وغيرهم إلى الشياظمة وهشتوكا انتهبوهم وجردوهم من المخيط والمحيط فسمع السلطان رحمه الله شكواهم وامتنع لانتهاك حرمتهم وزحف إلى هؤلاء المفسدين فأوقع بهم وقعة شنعاء بالموضع المعروف بفرقالة من أعمال أزموور حتى كانوا يلقون أنفسهم في البحر طلبًا للنجاة بعد أن أثروا في المحلة أول النهار ثم كانت الكرة عليهم وحكم السلطان السيف في رقابهم وامتلأت أيدي العسكر من أثاثهم وماشيتهم وكانت هذه الوقعة طليعة الفتح ومقدمة الظفر ثم عبر إلى أزموور ومنها إلى الجديدة ثم سار مع الساحل

حتى وصل إلى أسفي فزار الشيخ أبا محمد صالح رضي الله عنه وعطف إلى الزاوية الشراوية فيغتها وطلعت عليها رايته المنصورة بالله مع الصباح ولم يعرج على مراکش وقبل نزول الجيش وضرب الأخبية أنشبت الحرب معهم ففقتلوا وتحاجزوا مع الظهر وكان الزمان زمان مصيف ودامت الحرب سبعة أيام ونصب عليهم السلطان المدافع والمهارييس العظام وفي اليوم الخامس من تلك الأيام كان عيد المولد الكريم يوم الأربعاء من سنة أربع وأربعين ومائتين وألف فأراد السلطان رحمه الله أن يعفي الناس من الحرب ذلك اليوم فحمل الشراردة طغيانهم وبغيهم على أن تقدموا للجيش وأنشوا الحرب فأمر السلطان بالزحف إليهم والنكاية فيهم وكان المعلم الأكبر أبو عبد الله محمد بن عبد الله ملاح السلاوي حاضرا في هذه الوقعة فتقدم إليه السلطان بالوصاة بالجد والاجتهاد في الرمي فرمى عليهم في ذلك اليوم مائتين وثمانين بنية كلها في وسط الزاوية تتفرقع عند نزولها فتأتي على ما جاورها من جدار وغيره حتى شاهدوا في ذلك اليوم الموت الأحمر وكانوا هم أيضا يرمون بالكور والبنب من المدافع والمهارييس التي استولوا عليها في محلة السلطان المولى سليمان ثم لما كان عشى الجمعة السابع من أيام الحرب افتقرت كلمتهم وعزم المهدي على الفرار فقال له أصحابه كيف تفر وتتركتنا وأين ما كنت تعندا فقال لهم أما أنتم فالذي أورتكم أسلافكم هو الخدمة مع السلطان فلا تستكفوا منها وأما أنا فالذي عندي وسمعت من آياتي أن الحرب تدوم على هذه القرية سبعة أيام ثم يستولي عليها السلطان الذي يجيء من ناحية البحر وهو هذا في كلام آخر تكهن لهم فيه واعتقد الجهلة صدقه بعد أن أتلفوا عليه نفوسهم وأموالهم ومن يضل الله فما له من هاد ولما جن الليل ركب فيما قيل على حمار وركب معه شردمة من أصحابه نحو العشرين فارسا فتبعوه إلى الموضع المعروف بتيزكي فودعهم وذهب إلى السوس بعد أن سفك الدم الحرام وانتهب المال الحرام وملأ صحيفته من الأثام نسال الله العفو والعافية ولما فر المهدي عنهم تفرقوا شذر مذر وباتوا يتحملون بنسائهم وأولادهم إلى منجاتهم والذين صعب عليهم الخروج

اجتمعوا وساروا إلى القواد الأربعة فسرحوهم ورجعوا إليهم في الوساطة عند السلطان فأصبحوا على أطراف المحلة يستأذنون على المولى المأمون فأذن لهم ودخلوا عليه وشفعوا فيمن بقي منهم وطلبوا الأمان فأمنهم ثم تقدموا إلى السلطان فاستأذنا فأذن لهم ودخلوا وأخبروا بما عقد لهم المولى المأمون من الأمان فأمضاه لهم ثم أمر السلطان بجمع الشراردة الذين بقوا بالقصبة فجمع له منهم نحو الألفين وعالت الجيوش في بيوتهم وأمتنعهم وقيل إن السلطان رحمه الله لم يؤمنهم ولما قبض عليهم عزم على تحكيم السيف في رقابهم فاستفتى العلماء فيهم فتحاموا الإفتاء بآرافة الدم حتى أن منهم من أفتى وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن المرابط المراكشي بأنهم تابوا قبل القدرة عليهم فتوقف السلطان رحمه الله عن قتلهم وكان واقفا عند الحق دائرا مع الشرع حيث دار ثم أمر رحمه الله بالاحتياط على عيال المهدي وأولاده فاحتيط عليهم فجيء بهم إليه وبعثهم إلى مكناسة فأنزلوا بدار القائد محمد بن الشاهد البخاري الذي هلك في وقعة أعليل مع السلطان المولى سليمان وأمر السلطان بسور القصبة فهدم إبرارا لقسمه وحيزت المدافع والمهارييس التي كانت منصوبة عليه ولما انتضى أمر الحرب وتم الفتح هلك المعلم محمد ملاح نفطت فيه بنية فقتلته وقتلت جماعة معه فوقف السلطان عليه بنفسه حتى أقر وأحسن إلى أولاده بعد ذلك ورأيت بخط الوزير ابن إدريس في بعض مكاتيبه ما نصه واعلم أن الله سبحانه قد فتح علينا الزاوية الشراوية وأهلك أهلها الظالمين ولم تبق لهم باقية ولا زالت العساكر مقيمة على هدمها وتخريبها وقد قبض منهم على أكثر من ستمائة رجل ورحبت الناس بما وجدت فيها من الأثاث والذخائر والأنعام اه ثم إن السلطان رحمه الله فرق مساجين الشراردة فسجن بعضهم برباط الفتح وبعضهم بمكناسة وبعضهم بفاس ثم بعد مضي نحو السنة سرحهم ونقلهم إلى بسط أزغار وجمع إخوانهم من القبائل فضمهم إليهم ولا زالوا

مواطنين به إلى الآن وأما المهدي فإنه ذهب إلى السوس وانتهى إلى آيت باعمران من ولتية فنزل على مرابطها أبي عبد الله محمد أعجلي الباعمراني واستمر عنده ثلاث سنين وضافت عليه الأرض بما رحبت ثم بعث له عند أمير المؤمنين قبيل السلطان شفاعته وجاء المهدي في قيده إلى أن دخل على السلطان بمراكش وبكى أمامه وتضرع فسامحه السلطان ثم بعثه إلى مكناسة فاجتمع بأولاده وبعد مدة يسيرة ولاه السلطان على إخوانه قال أكنسوس عاملهم بالإساءة عادت محبتهم له عداوة وضجوا إلى السلطان منه فعزله ثم حج المهدي بإذن السلطان ورجع فولاه أيضا فلم يقبلوه ثم سجن ثم سرح وتقلبت به الأحوال وتأخرت وفاته إلى أوائل شوال من سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف في أول دولة سلطان العصر وإمام النصر أمير المؤمنين المولى الحسن بن محمد رضي الله عنه ولما تم فتح الزاوية المذكورة قال شعراء العصر في ذلك فمنهم الفقيه الأديب أبو عبد الله أكنسوس قال بشارت لا تحيط بها الشروح كأن سميعها فنن مروح سقى ربع البشير بها غمام يبكرها هتون أو يروح تفديه المحافل وهو يشدو فتوح في مضمونها فتوح وتأمل أن تقبله الغواني تذبل له المباسم أو تبيح بشارت كاد يسمعها دفين وبسري في الجماد بهن روح شفى المولى المؤيد كل صدر به من قبل وقعتها جروح وأدرك ثار عصبته وأضحى لعة قدره شرف صريح لقد حسم الفساد بكل أرض فساد به لنا الدين المسيح وزر على زرارة كل خزي تشق له المجاسد إذ تنوح وقد كانت تصر على ازورار وكانت لا ينهتها قبيح ومن كانت مراكبه جماحا فسحقا حين تصرعه الجموح أتيح لهم لحينهم جهول غوى للضلال له جنوح

يقودهم إلى العصيان سرا ويظهر أنه البر النصوح يحدثهم إذا ما حم خطب حديثا كان مصدره سطيح هو الدجال في سمت وفعل فمن يدعوهم مهديا وقوح فاهلكه الإمام فكان عيسى كذا الدجال يهلكه المسيح فصير دار منعتة فلاتنا على أطلالها اليوم السنيح وفر عن الذمار على حمار عليل العرض جوؤه صحيح فيالوم الذليل فلا وهين فيعذر بالفرار ولا جريح وخير من جبة في هوان بيوه به الفتى موت مريح أيطمع في النجاة فلا نجا سيدرکه الهيز المستبيح إذا كان الشراب له بحارا تخوض إليه سلهبة سبوح سترکه العزانم من إمام تنك له المعائل والصروح إمام قد أعاد

لنا سرورا و جاد لنا به الزمن الشحيح أعر الله ملك بني علي بصولته وتم له الوضوح و جرد من جلالته حساما يزيل به الضلالة أو يزيح وقد كان الخلائق في ظلام فلاح على الخلائق منه بوح وأصبحت الأباطح باسمات وكان على مناظرها كلوح أعر معود للنصر ساع إلى العلياء مسعاه نجيب يخاطر في مثال العز دأبا برأي كل مدركه رجيج فرايات السعود عليه نشر وساحات الفخار لديه جوح أبا زيد فأنت لنا ملاذ وجاهك في المهم لنا فسبح فقد زانت مأتراك الليالي ولاح لعدلك الوجه المليح وهذا الدهر كالطوفان موجا وطاعتك السفين وأنت نوح وأنت خليفة الرحمن من لا تؤمنه فمشره نشوح كما أن الشبابة حين زاغت وهب لها من الطغيان ريج عصفت عليهم باليأس تزجي كتابك كالحساب إذا تلوح فألقيت الجران على ذراهم بجيش كلهم بطل مشيح

فجاء العفو منك وهم ثلاث أسير أو كسير أو ذبيح وقد قسمت بلادهم بعدل ودورهم كما قسم الوطيح وقد نظمت مكابدهم قديما بني سعد وزيدان نطيح فظنوا آل إسماعيل يرون لغير الحزم طرفهم الطموح وما علموا بأنكم سيوف لحدكم نجيعهم سفوح أبا زيد إذا تبقى عليهم بصفح ربما ندم الصفوح فلا تحلم فإن الجرح يكوي طريا بالمحاور أو يقيح فلا زالت بك الدنيا عروسا ومجدك من مفارقها يفوح ومن ذلك قول بعضهم ولعله الفقيه أبو محمد عبد الله الديلمي قال بشرى تقر بأعين الإيمان كالوصل ينسخ دولة الهجران جاد الزمان بها على مقداركم فتقاصرت عنها خطا الأذهان أين المفر لمن عنا عن أمركم أتري البغاث تفوت ما لعقبان الأمر أمر الله غير منازع لاح الصباح لمن له عينان يا من يطالب أمرهم بدلائل أتطالب البرهان بالبرهان إن كنت تجهل فالصمام معلم يشفي البريء به ويشقي الجاني كم من غوي قد عتا عن أمرهم كزرارة فمضى إلى الخسران أين المفر لمن عتا عن أمركم يوم الكفاح إذا التقى الصبا وتهد وطأته الأعداء منهم معقل لو أنهم صعدوا إلى كيوان لكنهم باؤوا بأخسر صفقة فكأنهم غصبوا أبا غبشان جيش تسد وفوده مسرى الصبا وتهد وطلأته ذرى تهلان يا مالكا ملا الوجود محاسنا لا تختفي عن أعين العيمان أجريت بين المعتقين مكارم يسلموا الغريب بها عن الأوطان لوقيل للغيث اعترف لم يعترف إلا بفضل نداكم الهتان إنسان الدهر أنت وإنما تكمبل شكل العين بالإنسان ذكرك بالأفواه تعذب كاللما وتخف كالبشرى على الأذان أيقظت جفن الحق من إغفائه وأقمت ميلة عطفه الكسلان ألقى لك الزمن العصى زمامه وعنا لطاعة أمرك الثقلان فالدهر دونك دافع ومدافع وصروفه لكم من العبدان إذا أشرتم في الزمان لمقصد كان القضاء لكم من الأعوان أخلصت للرحمن في طاعته فإذا دعيت بعباد الرحمن ألقيت رحلي في ذراك مخيما فجرئت في الأمل طوع عنان وتركت أوطاني وجئت وإنما من فرط حيك غبت عن أوطاني يا ليت قومي يعلمون بأنني من جودكم أرد الفرات الثاني لا زلت في أسعد ميسوطة مقبوضة عنها يد الحدثن واستمر السلطان مقيما بمراكش مدة طويلة وبعث أخاه المولى المأمون بن هشام لقطر السوس فجابه ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ففي شعبان منها عقد السلطان الصلح مع جنس النابريال ويقال له استرياك وهي اثنا عشر شرطا مضمنها المخاطبة بالبيع والشراء وغير ذلك مع الأمان والاحترام من الجانبين والآخر منها مضمناه الصلح الدائم على هذه الشروط لا يفسده أمر يحدث بعده ولا يقع فيه زيادة ولا نقصان ثم حدثت الفتنة عقب هذا بيسير على ما نذكره هجوم جنس النابريال على ثغر العرائش والسبب في ذلك قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله قد طاف في آخر سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف على ثغور المغرب ومراسيه وأنه أراد إحياء سنة الجهاد في البحر التي كان أغفلها السلطان المولى سليمان رحمه الله وأمر أعني المولى عبد الرحمن بإنشاء أساطيل تضم إلى ما كان قد بقي من آثار جده سيدي محمد بن عبد الله وأذن لرؤساء البحار من أهل العدوتين

سلا ورباط الفتح أن يخرجوا في القراصين الجهادية للتطواف بسواحل المغرب وما جاورها فخرج الرنيسان الحاج عبد الرحمن باركاش والحاج عبد الرحمن بريطل فصادفوا بعض مراكب النابريال فاستاقوها غنيمه إذ لم يجدوا معها ورقة الباصبورط الممهودة عندهم وعثروا فيها على شيء كثير من الزيت وغيرها وكان بعضها قد جيء به إلى مرسى العدوتين وبعضها إلى مرسى العرائش فهجم النابريال على مرسى العرائش بسنة قراضين يوم الأربعاء الثالث من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ورمى عليها من الكور شيئا كثيرا من الضحى إلى الاصفرار وعمد في أثناء ذلك إلى سبعة قوارب فشحنها بنحو خمسمائة من العسكر ونزلوا إلى البر من جهة الموضع المعروف بالمقصرة وتقدموا صفوفها قد انتشب بعضهم في بعض بمخاطيف من حديد لئلا يفروا ومشوا إلى مراكب السلطان التي كانت مرسة داخل الوادي وهم يقرعون طنابيرهم ويصفرون ومراكبهم التي في البحر ترمي بالضوولي مع امتداد الوادي لتمنع من يريد العبور إليهم فانتهوا إلى المراكب وأوقدوا فيها النار وقصدوا بذلك أخذ ثأرهم فيما انتزع منهم فلم يكن إلا كلا ولا حتى انثل عليهم المسلمون من كل جهة من أهل الساحل وغيرهم وعبر إليهم أهل العرائش وأحوازا سبعا في الوادي وعلى ظهر الفلك إلى أن خالطوهم وقتكوا فيهم فتكة بكرا وكان هنالك جملة من الحصادة يحصدون الزروع في الفدن فشهدوا الواقعة وأبلوا بلاء حسنا حتى كانوا يحتزون رؤوس النابريال بمناجلهم وقد ذكر منويل هذه الواقعة وبسطها وقال إن النابريال قتل منهم ثلاثة وأربعون سوى الأسرى وتركو مدفعا واحدا وشيئا كثيرا من العدة وأقلت الباقي منهم إلى مراكبهم وذهبوا يلبنتون وراءهم واعلم أن هذه الواقعة هي التي كانت سببا في إعراض السلطان المولى عبد الرحمن عن الغزو في البحر والاعتناء بشأته فإنه رحمه الله لما أراد إحياء هذه السنة صادف إبان قيام شوكة الفرنج ووفور عددهم وأدواتهم

البحرية وصار الغزو في البحر يثير الخصومة والدفاع والتجادل والنزاع ويهيج الضغن بين الدولة العلية ودول الأجناس الموالية لها حتى كاد عقد المهادنة ينقصم وأكد ذلك اتفاق استيلاء الفرنسيين على ثغر الجزائر وهو ما هو فوجم السلطان رحمه الله وأعمل فكره ورويته فظهر له التوقف عن أمر البحر رعا للمصلحة الوقتية ولقطة المنفعة العائدة من غزو المراكب الإسلامية وانضم إلى ذلك إعلان الدول الكبار من الفرنج مثل النجليز والفرنسيين بأن لا تكون المراكب إلا لمن يقوم بضبط قوانين البحر التي يستقيم بها أمره وتحمدها العاقبة وتدوم بحفظها المودة على مقتضى الشروط ومن مهمات ذلك ترتيب القناصل بالمراسي التي تريد الدولة دخول مراكبها إليها وتجارتها فيها أي دولة كانت ومن هذه المهمات ما قد لا يساعد عليه الشرع أو الطبع مثل الكرنينيات وما يترتب عليها إلى غير ذلك مما فيه هوس كبير فاشتد عزم السلطان رحمه الله على ترك ما يفضي إلى ذلك وتأكد لديه إيماله لتوفر هذه الأسباب ولعمري أن تركه لمصلحة كبيرة لمن أمعن النظر فيها وما يعقلها إلا العالمون وأما فتنة النابريال هذه فإنها تفاعلت بواسطة النجليز حيث وجه بأشدوره مع باشدور النابريال فقدموا على السلطان رحمه الله مكناسة في شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين ومائتين وألف استيلاء الفرنسيين على ثغر الجزائر وما تترتب على ذلك من دخول أهل تلمسان في بيعة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله كان استيلاء طاغية الفرنسيين على ثغر الجزائر في آخر المحرم فاتح سنة ست وأربعين ومائتين وألف وكان السبب في ذلك أن أترك الجزائر كانوا يومئذ مع الفرنسيين على طرفي نقيض قد تعددت بينهم الوقعات برا وبحرا وكثرت بينهم الذحول والترات وكان الترك يؤذونهم أشد الإذابة وأمير

الجزائر يومئذ واسمه أحمد باشا قد أمر أمره وأراد الاستبداد على الدولة العثمانية وربما شكا طاغية الفرنسيين إلى السلطان محمود العثماني فقال له شأنك وإياه فهجم الفرنسيين في العدد والعدد على ثغر الجزائر فاستولى عليه بعد مقاتلات ومجاولات في التاريخ المتقدم وكان السلطان المولى عبد الرحمن يومئذ بمراكش فاتصل به خبر الجزائر في أوائل صفر فنهض إلى مكناسة في التاريخ المذكور ولما وقع بأهل الجزائر ما وقع اجتمع أهل تلمسان وتفاوضوا في شأنهم واتفقوا على أن يدخلوا في بيعة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله فجاءوا إلى عامله بوجدة القائد أبي العلاء إدريس بن حمان الجواربي وعرضوا عليه أن يتوسط لهم عند السلطان في قبول بيعتهم والنظر لهم بما يصلح شأنهم ويحفظ من العدو جانبهم ثم عينوا جماعة منهم للوفادة على السلطان تأكيدا للطلب واستعجالا لحصول هذا الأرب فقدموا على السلطان بمكناسة غرة ربيع الأول من السنة المذكورة فأكرم السلطان وفادتهم وأجل مقدمهم ولما صرحوا له عن مرادهم توقف في ذلك رحمه الله وكان هواه إلى قبولهم أميل إلا أنه أراد أن يبني ذلك على صريح الشرع كما هي عادته فاستفتى علماء فاس فأفتى جلهم بتأييد المقصود ورخص له بعضهم في ذلك فأخذ السلطان رحمه الله بقول المرخص مع أن أهل تلمسان لما بلغهم فتوى أهل فاس كتبوا إلى السلطان في الرد عليهم ما نصه ليعلم سيدنا قطب المجد ومركزه ومحل

الفخر ومحرز ه أساس الشرف الباذخ ومنبعه وبساط الفضل الشامخ ومجمعه السلطان الأعظم الأجد الأفخم نجل الملوك العظام سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن هشام أبى الله سيدنا للمسلمين نخرا ومنحه مودة وأجر أن فتوى ساداتنا علماء فاس مبنية على غير أساس لأنهم اعتقدوا أن في عنقنا للإمام العثماني بيعة وهذا لو صح لكان علينا حجة وليس الأمر كذلك وإنما له مجرد الاسم هنالك وعامل الجزائر إنما كان متغلبا وبالدين متاعبا فأهلكه الله بظلمه وتطاوله على عباد الله وجوره وفسقه إن الله يمهل على الظالم حتى يأخذه

فإذا أخذه لم يفلته ويدل على تغلبه واستقلاله عدم وقوفه عند أمر العثماني وامتناله بل لا يكثر به أصلا ولا يتبع له قولاً ولا فعلاً كيف وقد أمره أن يعقد مع النصارى صلحا فلم يقبل له قولاً ولا نصحا وطلب منه بعض الأموال ليستعين بها على ما حل به مع النصارى من الأهوال فامتنع غاية الامتناع ولم يمكنه من شبر منها فضلا عن الباع حتى أخذها العدو الكافر وهذا جزء كل فاسق فاجر مال جمع من حرام سلط الله عليه الأعداء اللئام وهذا كله من هذا المتغلب متواتر مشاهد بالعيان مستغن عن إقامة الدليل والبرهان الناس كلهم عبيد الله وإماؤه والسلطان واحد منهم ملكه الله أمرهم ابتلاء وامتحاناً فإن قام فيهم بالعدل والرحمة والإنصاف والصلاح مثل سيدنا نصره الله فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة عند الله تعالى وإن قام فيهم بالجور والعسف والطغيان والفساد مثل هذا المتغلب فهو متجاسر على الله في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق ومتعرض لعقوبة الله الشديدة وسخطه هذا وعلى فرض تسليم أن العثماني في عنقنا بيعة فلا تكون علينا حجة لأنه تبعاد علينا فطره فلم يغن عنا شيئا ملكه لما بيننا وبينه من المفاوز والقفار والبحار والقرى والمدن والأمصار وربما قرب محله من جهة البحر لكن منعه الآن من ركوبه الكفار على أنه ثبت بتواتر الأخبار البالغة حد الكثرة والانتشار أنه مشغول بنفسه ومقره عاجز عن الدفع عن إيالته القريبة من محله حتى أنه هادن النصارى خمس سنين على عدد كثير من المئين وأعطى فيه منهم ضمانا ليكون في المدة المذكورة على نفسه وحشمة أمنا فكيف يمكنه مع هذا الدفاع عن قطننا وناحيتنا وبلدنا وأدل دليل على بعده عن هذا المرام خبر مصر ونواحي الشام فقد استولى عليها أعداء الدين مدة تزيد على الخمس سنين فلم يجد لهم نفعا ولا ملك عنهم دفعاً حتى استعان بالعدو الكافر والله تعالى قد يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر هذا ونص الأبى في شرح مسلم موضح عن مثل قضيتنا ومعلم على أن الإمام إذا لم ينفذ في ناحية أمره جاز إقامة غيره فيها ونصره فانتظار نصرته يؤدي إلى الهلاك كيف وقد تناولت

إليها الأعناق وتشوقت إليهما من كل جانب العيون والأحداق فأعرضنا عن الكل صفحا وطوبنا عنه الجوانب كشحا مقبلين إلى عتية باب سيدنا نصره الله وسدته داخلين تحت طاعته ملتزمين لخدمته متوافقين مع القبائل والأمصار وأهل الرأي والاستبصار لعلنا أن سيدنا نصره الله المتأهل في هذا الأمر العريق الجدير بالإمامة الحقيقي كيف وقد ورثها كبرا عن كابر وإليهم انتهت المآثر والمفاخر فنطلب من سيدنا نصره الله أن يلتزم لنا بفضل من هذه البيعة القبول مستشفعين بجاه جده الرسول صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وصحابته المنتخبين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين اه ولما وقف السلطان رحمه الله على هذا الكلام قبل بيعتهم والتزمتها وعقد عليهم لابن عمه المولى علي بن سليمان وأضاف إليه كتيبة من الجند من أعيان الودايا والعبيد ووجه الجميع مع أهل تلمسان بعد إكرامهم وتمام الإحسان إليهم وكتب إلى عامله القائد إدريس يستوصيه بالجميع خيرا ويكون بصيرة عليهم وأشركه في النظر والرأي مع المولى علي بل الاعتماد في الحقيقة إنما كان عليه وقد وقفت على كتاب الوزير أبى عبد الله بن إدريس بخط يده للقائد المذكور في هذه القضية يقول فيه ما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله محبنا وخال سيدنا الأراضى السيد إدريس بن حمان الجراري سلام عليك ورحمة الله تعالى ويركاته عن خير سيدنا أيده الله وبعد فقد وصلنا كتابك صحبة أعيان تلمسان وقبائل أحوازها فوقفتنا معهم كل الوقوف وبنلنا المجهود فوق الطاقة وقبلهم مولانا وقابلهم بالإحسان والإكرام كما هو شأنه ذهابا وإيابا وهاهم وجههم مولانا مكرمين ورشح ابن عمه مولاي عليا للخلافة عليهم لما يعلم من عقله ودرايته وسياسته وأنه ذو نفس أبيه لكون تلك النواحي لا يصلح لها إلا من اتصف بهذه الأوصاف ليميزوا حالة الساعة مع ما كانوا فيه وكما رشح مولانا ابن عمه المذكور رشحك لتكون واسطة بينهم وبينه لكون الأوصاف المذكورة موجودة فيك فكن عند الظن بك وإياك والطمع وازهدوا فيما في أيدي

الناس وكل ما تحتاجون إليه مما لا بد منه أخبرونا به يصلحكم ولا تكتموا عنا شاذة ولا فاذة واعلم أن مولانا انتخبك من وسط أبناء جنسك وقربك منه ولا زلت لديه في الترقى فالله فكن عند الظن بك ببارك الله فيك أمين وقد أكرم سيدنا كل واحد بما يناسبه من الكسوة وصنع لهم في كل بلد دخوله مهرجانا وأدخلهم سيدنا لوسط داره وجميع جناته وأماكن المملكة التي لا يدخلها إلا الخاصة غابته أنهم نالوا من العناية فوق الظن ووقفنا معهم فوق ما تحب وفيهم الكفاية ولم يبق إلا ما عندك فكن عند الظن بك فإن سيدنا نصره الله جرب غيرك وطرحه وهذا معيارك نسال الله أن يكون معيار التبر الخالص وما وعدك به سيدنا سيرد عليك حين تستقر بالبلد ويحسن تصرفك على عين الحاضر والبادي وفي وصية سيدنا في كتابه الشريف متقع وعلى المحبة والسلام في ثالث عشر ربيع الثاني عام ستة وأربعين ومائتين وألف محمد بن إدريس لطف الله به اه نص الكتاب بحروفه ولما وصل المولى علي إلى تلمسان وجه السلطان في أثره خمسمائة فارس ومائة رام وجماعة وافرة من حذاق الطبجية من أهل سلا ورباط الفتح فيهم ولد عامل سلا محمد ابن الحاج محمد أي جمية وكان من النجباء ثم لما دخل المولى علي تلمسان واستقر بها فرح به الحضر من أهل تلمسان واعتبطوا به وقدمت عليه الوفود من كل ناحية وأخذ عليهم البيعة للسلطان هو والقائد إدريس وانحرف عنه الكرغلية من الترك الذين كانوا إدالة بقصبة تلمسان من لدن قديم وحاصرهم المولى علي وقتلهم مدة إلى أن ظفر بهم واستولى على ما في أيديهم وانحرف عنه أيضا قبيلتا الدوائر والزماله من عرب تلك الناحية ويقال إن أصلهم من جند كان للمولى إسماعيل رحمه الله بعثه إدالة بتلك الناحية واستمروا هنالك وتناسلوا إلى هذا التاريخ فأظفر الله المولى عليا بهم وانتهب الجيش متاعهم ومتاع الكرغلية من قبلهم ونشأ عن ذلك من الفساد ما نذكره بعد هذا إن شاء الله

وفي أوائل رمضان من السنة المذكورة خرج القائد إدريس من تلمسان في جماعة من الجيش الذين معه بقصد تدويخ القبائل الذين هنالك وأخذ البيعة على من لم يكن بايع منهم وكان الذين بايعوا هم أهل معسكر والحشم والمشائيل منهم وبنو شقران والمرابطون أهل غريس وورغية وتحليت وحميان وغير هؤلاء ونص بيعتهم الحمد لله الذي أنار الخلافة وجه الزمان وأطلع في صحيفة غرته طواع السعد واليمن والأمان وهدى من ارتضاه من الأنام للدخول تحت ظل راية مولانا الإمام والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الطيبين وبعد فلما وفد على حضرة مولانا الخليفة أبى الحسن علي ابن أمير المؤمنين مولانا سليمان أعلى الله ثراه في علبين جميع القبائل المسطرة يمنتته وقرأ عليهم كتاب مولانا المنصور ذي اللواء المنشور والسيوف المشهور أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن ابن مولانا هشام أدام الله رعيه وجعل فيما يرضيه سعيه بمحضر خليفته الطالب الأرشد الماجد الأسعد القائد السيد إدريس الجوارى وتلقوه بالإجلال والتعظيم والتبجيل والتكريم أشهدوا على أنفسهم أنهم عقدوا البيعة لمولانا الإمام أيده الله وأدام عزه وعلاه والتزموا بالسمع والطاعة وفي جديدهم انتظموا بيعة تامة مستوفية الشروط وافية العهود وثيقة الربوط قبلها الكل وارتضاها وأوجب العمل بمقتضاها فمن سمع ما ذكر ممن ذكر قيده في مهل جمادى الثانية عام ستة وأربعين ومائتين وألف وبعده علامة العدلين المتلقين من رؤساء القبائل المذكورة فهؤلاء الذين بايعوا ومن لم يكن بايع بعد فهم الذين خرج القائد إدريس المذكور لأخذ البيعة عليهم كما قلنا والحاصل أن السلطان رحمه الله كان قد اعتنى بأمر هذه الناحية غاية الاعتناء وبنل المجهود في إمدادها بالعدد والعدد والمال مرة بعد أخرى وبعث الشريف البركة سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني إلى أهل تلك البلاد يدعوهم إلى الطاعة ويحضهم على الدخول في أمر الجماعة لكونهم كان لهم فيه وفي سلفه اعتقاد كبير وبعث الشريف الأخير أبا محمد عبد

السلام البوعناني فولاه خطة الصبابة لتلمسان وبعث من الكسي والرايات والأعلام والمدافع والمهاريس والبارود والرصاص شيئا كثيرا لكن لم يكن إلا ما أرادته تعالى فافتقرت كلمة العرب الذين هنالك لضعف إيمانهم وقلة همتهم فجهل مال إلى الدخول في حزب النصارى عندما استولوا على مدينة وهران في هذه الأيام ثم سرى ذلك الاختلاف في قواد جيش السلطان فتنافسوا وتحاسدوا وكثر القيل والقال منهم على السلطان ثم ختموا

عملهم بانتهاب أثاث الكرغلية وتقاعدهم عليه ثم بانتهاب مال الزمالة والدوائر وماشيئهم في جوار الشريف سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني وفسد العمل وخاب الأمل فحينئذ رأى السلطان رحمه الله استرجاع تلك الجيوش التي لم يبق طمع في صلاحها بعد أن أمر بالقبض على القائد إدريس لكونه سعى به عنده وأنه شارك في نهب الكرغلية والزمالة والدوائر وتقاعد على النفيس من أثاثهم فرجعت الحلة وكان رجوعها في آخر رمضان من السنة المذكورة وفي هذه السنة منتصف جمادى الثانية منها حدثت زلزلة بقرية من قرى تلمسان تسمى البليدة فجعلت عاليها سافلها وهلك أهلها والأمر لله كيف شاء فعل خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن والسبب في ذلك كان خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله في المحرم فاتح سنة سبع وأربعين ومائتين وألف وكان السبب في ذلك أن الطاهر بن مسعود المغفري الحساني والحاج محمد بن الطاهر الغفري العقيلي والحاج محمد بن فرحون الجراري كانوا من كبار قواد هذا الجيش وأعيانه وكان السلطان رحمه الله يعيّنهم في المهمات ويستكفي بهم في الأقطار النائية والجهات وكانوا هم يظهرون للسلطان الطاعة وهم في الباطن منحرفون عنه بسبب أن الدالة التي كانوا يدلون بها على السلطان المولى

سليمان رحمه الله انقطعت عنهم مع السلطان المولى عبد الرحمن وزالت من أيديهم فكانوا يمرضون في الطاعة بعض الأحيان والسلطان يطويهم على غرهم ويلبسهم على عرهم إلى أن كان البعث إلى تلمسان فوجههم إليه فيمن وجه من أعيان الجيش ورؤسائه فكانت قوارصهم لا تنقطع عن الدولة وشغبيهم لا يفترون من التطاول والصولة ثم كان نهب الزمالة والدوائر فأبدؤوا في ذلك وأعدوا وشايعهم على فعلهم القائد أحمد بن المحجوب البخاري وأظهروا عدم المبالاة بالسلطان وخليفته وعامله وكانت بينهم وبين القائد إدريس الجراري منافسة باطنية فخاف من الاعتراض عليهم فيما ارتكبوه من النهب أن يسندوا برأسه هذا الخرق فأسعفهم وانتهب معهم وكان ما قدمناه من استرجاع السلطان لذلك الجيش وبعث من قبض على القائد إدريس بوجدة وحيي به إلى تازا فسجن بها ولما وصل جيش تلمسان إلى عنق الجمل قرب فاس خرج إليهم القائد الطيب الوديني البخاري وكان واليا على فاس فقبل أراد أن يقبض عليهم بإذن من السلطان وقيل أراد أن يحوز منهم أرجلهم وحقاتهم التي ملؤوها من النهب وكان الودايا والعبيد لما فعلوا فعلتهم تحالفوا وتعاهدوا على أن يكونوا يدا واحدا على من أرادهم بسوء كائننا من كان فلما خرج إليهم الطبيب الوديني تجهمه وهموا به فرجع أدراجه وأنهى ذلك إلى السلطان فأغضى عنهم ثم بعد أيام عزم السلطان على القبض على الحاج محمد بن الطاهر العقيلي فأحس هو بذلك فذهب إلى الطاهر بن مسعود وتطارح عليه وقال له إني مقبوض لا محالة فإن ولاك السلطان من أمري شيئا فأحسن ولا تؤاخذني بما كان مني إليك وقد كان الطاهر بن مسعود قبل هذه المدة عاملا بتارودانت فعزله السلطان بابن الطاهر فأساء إليه فلماذا قال له ما قال فقال الطاهر بن مسعود وأنت مقبوض قال نعم قال علي وعلي لا جرى عليك أمر تكرهه ما دمت حيا ثم إن السلطان أحضر الحاج محمد بن الطاهر وأحمد بن المحجوب ففرعها وأمر بالقبض عليهما فقبض أعوان الودايا على أخيهم وقبض أعوان العبيد على أخيهم وخرجوا بهما إلى السجن مع العشي وكان الطاهر بن مسعود قد

ترصد بباب دار السلطان للحاج محمد بن الطاهر ليفتكه وصاحبه فلما خرجا قام الطاهر بن مسعود إلى الأعوان فراوهم على إطلاق المسجونين فأبوا وقالوا إنهما مسجونان عن أمر السلطان فتصامم عن ذلك واستل خنجره وضرب إدريس البواب الوديني على ترقوته فخدشه وانتزع منه المسجون وتقدم لافتكك أحمد بن المحجوب فأبى وانتهره وقال لا أخالف أمر السلطان وكان الودايا يظنون قيام العبيد معهم لحفلهم السابق فخذل الله فيما بينهم ثم أسرع الطاهر وابن الطاهر إلى فرسيهما فركبهما ونجوا إلى ناحية دار الديببغ وثارت المغفرة بباب دار السلطان وحملوا السلاح وأخرجوا البارود والرصاص وقامت شعبة السلطان لمداغعتهم فكثرهم الودايا وهزمهم حتى أغلقوا عليهم باب المشور وسأل السلطان عن الهيعة فأعلم بالخبر وكان معه الحسن بن حمو واعزيز فقال له يا مولانا إن هؤلاء ما جسروا على هذا الفعل ببابك حتى عزموا على ما هو أكثر فدعا السلطان بفرسه وركبه مع الغروب وخرج من باب البجاة ومعه ابن واعزيز وبعض أصحابه خيلا ورجلا ولما علم الودايا بخروج السلطان ركبوا قبضهم وقبضهم من فاس الجديد ومن قصبه شراقة فأدركوا السلطان عند قنطرة عباد فنزلوا إلى الأرض يقبلون حوافر فرسه ويتشفعون له ويبتروون من فعل أولئك السفهاء وكان الحال إذ ذلك حال مطر خفيف والشمس قد غربت أو كادت تغرب فسادهم رحمه الله على الرجوع وأشار عليه الحاج محمد بن فرحون بأن يذهب معه إلى قصبه شراقة وكانت يومئذ لأهل السوس فذهب معه إلى داره من غير أن يطمئن إليه ولكن ذلك الذي اقتضاه الحال في تلك الساعة ولما استقر بدار ابن فرحون اجتمع عليه المغفرة والودايا وأهل السوس وأساء عليه المغفرة الأدب بل عزموا على الفتك به ولكن الله تعالى وقاه شرهم فاختلقت كلمتهم وتذامر أهل السوس فيما بينهم وقالوا لا يبيتن السلطان الليلة إلا بداره واستنفضوه فنهض رحمه الله وركب فرسه وصحبوه إلى داره في ذلك الليل فاستقر بها وبعد ذلك بأيام انتقل السلطان إلى بستان أبي الجلود خارج فاس الجديد على حين غفلة من الودايا وانحاز

شعبة السلطان إليه من العبيد وغيرهم ونزل جلمهم بفاس القديم وبقي الودايا وهدم بفاس الجديد ثم استدعى السلطان عبيد مكناسة فقدموا عليه ولما علم الودايا بعزم السلطان على الخروج من بين أظهرهم ساءهم ذلك وعلموا أنه إن خرج من بين أظهرهم لا يتركهم حتى يوقع بهم فراودوه على المقام وتنصلوا وأظهروا التوبة وتقدم سفهاؤهم إلى العبيد فأنشبو معهم الحرب وهلك من الفريقين عدد ثم تدارك السلطان أمرهم وتلطف وطيب أنفسهم وأجمع على الخروج إلى مكناسة فخرج بقله وأثائه وأمواله وسلك طريق قيقب وعقبة المساجين كأنه يريد بلاد الغرب وخرج لتشييعه جماعة وافرة من أعيان الودايا ثم أنهم ندموا ونكسوا على رؤوسهم وربما سمعوا من العبيد بعض كلام فحمت أنوفهم وتحزبوا وأوقعوا بالعبيد فانهزموا عن السلطان وانتهب الودايا خبرته وأثائه وقام عقاليهم دون العيال حتى رده إلى الدار محفوظا مصونا ولم يفعلوا أحسن منها وأما المال والأثاث فقد أتى عليه النهب وكان شيئا كثيرا وتقدم السلطان رحمه الله لطيبته وتبعه سفیه من سفهاء الودايا كان أراد الفتك فيه فحماه الله منه ووصل السلطان رحمه الله إلى مكناسة فاستقر بها واتصل خبر هذه الفتنة بالقائد إدريس بن حمان الجراري وهو مسجون بتازا فاحتل على سراح نفسه بأن افتعل كتابا على لسان السلطان وبعث به إلى عامل تازا فسرعه وكان السلطان رحمه الله قد بعث إلى القائد إدريس المذكور وهو بتلمسان أربع ورقات محتوما عليها بالخاتم السلطاني الكبير وأمره السلطان رحمه الله أن يحتفظ بتلك الورقات ولا يستعمل واحدة منهن إلا في أهم المهمات مما يتوقف عليه غرض السلطان والدولة ولا تمكن مشاورته فيه لبعد المسافة بين فاس وتلمسان فعمد القائد إدريس إلى واحدة من تلك الورقات فكتب فيها بتسريعه فسرجه وجاء يجد السير إلى فاس وينفس ووصله كتب إلى السلطان يعلمه بما صنع وأنه لا زال على ما يعهد مولانا من بدل النصح والسعي في صلاح السلطان والجيش فأجابه السلطان رحمه الله بما نصه وبعد فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه والحمد لله على سلامتك وما وجهنا لك إلا بقصد أن نسرحك لأننا تحققنا أنك كنت مغلوبا عليك فلا عهدة عليك بل من تمام عقلك مساعدتك لمن نهب ولو منعتم من ذلك لتفانم الأمر هنالك وأنت عليك الأمان ظاهرا وباطنا في الحال والاستقبال فلا تخش من شيء أبدا فإنك ممن نتهمه بالدين والعقل والصدق وقد عاينت وسمعت ما صدر من إخواننا من النزعة الشيطانية ولا ينبغي أن نقابلهم بمثل ما قابلنا به من لا عقل له منهم وإن قابلناهم به لا نلتقي أبدا وأنت اسع في الخير والصلاح ما أمكنك وتحمل لهم عنا بالأمن من كل ما يخافونه من جانبنا ففسارتهم أولى من صلاح القبائل فقف على ساق الجد لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس والسلام في السابع عشر من المحرم فاتح عام سبعة وأربعين ومائتين وألف انتهى لفظ الكتاب الشريف ثم إن القائد إدريس أحسن القيام على عيال السلطان الذين بقوا بفاس الجديد وكان فيهم حظيته المولاة فاطمة بنت المولى سليمان وتقدم القائد إدريس إلى أمين الصائر من قبل وقال له ما كنت تدفع إلى دار السلطان كل يوم من دقيق ولحم وإدام وغير ذلك فاكذب لي بقدره وابتعث إلى به فأحضر الأمين المذكور وبعث إليه به فصار يبعث بذلك القدر إلى دار السلطان كل يوم وانقطع الماء ذات يوم عن دار السلطان فكان القائد إدريس يحمل قرب الماء إليها كل يوم وأصلح القنوات وجد في ذلك حتى رجع الماء إلى مجراه ثم إن السلطان رحمه الله استنفر قبائل الغرب كلها حوزا وغربا وثغورا فقدموا مكناسة على بكرة أبيهم وسمع الودايا بذلك فاستدعوا الشريف سيدي محمد بن الطيب من بعض الأعمال

والتفوا عليه وبإيعوه فحينئذ تبرأت منهم القبائل التي كانت تعدهم بالقيام معهم من مجاورهم لأن سيدي محمد بن الطيب كانت قبائل المغرب قد تنازرت منذ أيام ولايته على تامسنا ودكالة وفعله بأهلها الأفاعيل فكان مبعوضا عند العامة وزحف السلطان إلى فاس الجديد فحاصروهم بها ونصب عليهم المدافع والمهاريس وتعاقب عليهم الرمي بها من محلة السلطان بعين قادوس ومن بسنيون أبي الجلود وبسنيون

باب الجيسة وبسنيون باب الفتوح ودام الحصار أربعين يوما والحرب لا تتقطع في كل وقت وكان الودايا يرمون أيضا بالكور والبنب وابلي بنوحسن في تلك الأيام البلاء الحسن ثم إن السلطان عزم على البناء عليهم وجلب اللواحين فشرعوا في العمل وسئم الودايا الحرب وملوها فأذعنوا إلى الصلح وسعى في الوساطة بينهم وبين السلطان الأمين الحاج الطالب ابن جلون الفاسي فأمنهم السلطان على شرط الخروج من فاس الجديد فأذعنوا ثم بعثوا شفاعتهم بالمشايخ والصبيان والألواح على رؤوسها ومعهم سلطانهم ابن الطيب فسامح رحمه الله الجميع وقال لهم في جملة ما قال الحمد لله إذ لم أغلبكم ولم تغلبوني لأنني لو غلبتكم لذبحت هذه الجيوش أو لآدكم ولم أقدر أن أردّها عنكم ولو غلبتموني لفعلتم كل ما تقدرون عليه فهذا من لطف الله بي وبكم قلت وهذا كلام دال على وفور عقل السلطان رحمه الله وكمال شفقتة ورحمته ثم لما عزم السلطان على النهوض إلى مكناسة ولى على جيش الودايا كله القائد إدريس بن حمان الجراري وذلك في الحادي والعشرين من جمادى الثانية سنة سبع وأربعين ومائتين وألف ثم نهض إلى مكناسة فاحتل بها ولما حضر عيد الفطر قدمت الوفود على السلطان بمكناسة واستقامت الأحوال وكتب رحمه الله إلى القائد إدريس أن يحضر العيد في جماعة وافرة من إخوانه نحو الخمسمائة فحضروا ودخلوا على السلطان ذات عشية بالمشور فوبخهم حتى ظن الناس أنه يقبض عليهم ثم سرحهم فعدوا إلى فاس الجديد ولما عزم السلطان رحمه الله على النهوض إلى مراكش قدم أولا فاسا ونزل خارج البلد ونظر في شأنه وشأن الجيش والرعية ثم ارتحل يريد مراكش فلما انفصل عن فاس بيوم أو يومين كتب إلى القائد إدريس يأمره أن يبعث إليه بالطاهر بن مسعود والحاج محمد بن الطاهر يذهبان معه إلى مراكش بقصد الخدمة بها مع ولده وخليفته سيدي محمد بن عبد الرحمن فذهبا على فرسيهما مسرحين إلا أنهما كانا حذرين من السلطان لما قدما من الفعل الشنيع الذي كان سبب هذه الفتنة العظيمة فدما مراكش وترتبا في

الخدمة مع الخليفة المذكور وانسلخت هذه السنة وفيها عزل السلطان وزيره الفقيه أبا عبد الله محمد بن إدريس وامتنحه وبقي عاطلا مدة ثم رده إلى خطته وكان السلطان في مدة تأخيرها إياه قد استوزر مكانه الفقيه العلامة الأديب السيد المختار بن عبد الملك الجامعي فقام بأعباء الخطة وبرز فيها رحمه الله وفيها بنى السلطان رحمه الله المارستان الكبير على ضريح ولي الله تعالى أبي العباس أحمد بن عاشر بسلا وكان على ضريح الولي المذكور القبة والمسجد فقط فأدار السلطان رحمه الله على ذلك كله مارستانا كبيرا وبنى به مسجدا آخر وبيوتا للمرضى تنيف على العشرين وأجرى إليه الماء وجعل ميضأة بازاء المسجد للرجال وأخرى شرقها للنساء فجاء ذلك من أحسن الأعمال وكتب الله أجره في صحيفة السلطان ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف ففي صفر منها ورد على القائد إدريس كتاب من عند السلطان وهو يومئذ لا زال برباط الفتح يأمره أن يبعث إليه بالحاج محمد بن فرحون الجراري فوصل إليه مسرحا فقبض عليه وبعثه إلى الصويرة وبأثر ذلك ورد على السلطان كتاب من عند ولده سيدي محمد يعلمه بأنه قبض على الطاهر بن مسعود والحاج محمد بن الطاهر لكونهما لم يقلعا عن ضلالهما وشيطنتهما حتى أنهما عزا على اغتياله بمصلى عيد الأضحى من السنة الفارطة فحماه الله منهما ولما وصل السلطان إلى مراكش صار يكتب إلى القائد إدريس برؤوس الفتنة والقبض عليهم واحدا بعد واحد إلى أن استوفى جلهم وكان القائد إدريس في هذه المدة قد أحس بأن باطن السلطان لا زال متغيرا على الودايا فألح عليه في البحث والاستكشاف عما هو مضمرة لهم وما يريد بهم وما الذي يجلب رضاه عنهم ويصفي باطنه عليهم فكتب إليه السلطان رحمه الله كتابا أفصح فيه عن مراده يقول فيه بعد الافتتاح والطابع الشريف بينه وبين الخطاب ما نصه خالنا الأرضي القائد إدريس الجراري سلام عليك ورحمة الله تعالى وبعد فاعلم بأنك طلبت منا مشافهة وكتابة أن نعرب لك عن مرادنا

ونطالعك بغاية قصدنا وأمنيتنا في الجيش وما يجلب رضانا عنهم وكنا نجيبك عن ذلك جوابا إقناعيا لعدم وثوقنا وقتئذ بصدق لهجتك وكان يخيل لنا أنك تباحتنا على جهة الاطلاع على خبيثة أمرنا والآن اتضح ما أنت عليه من الصدق ووفور المحبة وخلوص النية حتى صرت به كأحد أولادنا وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل وعليه فأنت أولى من نبته سرنا ولا ندخر عنه شيئا من خبيثة أمرنا فاعلم أنك أشدك الله أن من بارزنا بالسوء قولا وفعلا من ذلك الجيش هم المغفرة كافة واستوى في ذلك كبيرهم وصغيرهم وقريبهم وضعيفهم ولم يلف منهم رجل رشيد ولو ساعدهم الودايا وأهل السوس وخوايا بينهم وبين هواهم لكان ما أرواه من تلف مهجنتنا ولكن الله سلم ولا يخفى على أحد ما استوجبوه لذلك شرعا وطبعه وسالف خدمتهم وكظم الغيظ المرغوب فيه ارتكبا في جانبهم أخف ما أوجب الله تعالى على أمثالهم قال جل علاه إنما جزاؤا الذين يجارون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا المائدة الآية وقد أليت على نفسي وأشهدت الله وملائكته أن لا يضمني سور فاس الجديد والمغفرة به فهذا هو محض الصدق والآن بين لنا كيف يكون العمل في ذلك وما نقدم وما نؤخر لأن المراد قضاء الغرض من غير مشقة ولا فضيحة للجيش وهل تقضى هذا أو تكتمه وعلى تقدير امتثالهم عين لنا أي محل ينتقلون إليه من ثغور إيالتنا كالرباط وغيره أو قصبه مراكش فإن النفس لم تسمح بهم بالكيفية بل المراد زجرهم وإقامة بعض حق الله فيهم ويحصل لنا الاطمئنان والسكينة ونبر قسمنا فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين وما ذكرت من أنا عاهدناك ووعدناك بالإحسان والتتويه بشأنك فإنه وعد صدق لا مرية فيه إن شاء الله وكيف وقد استوجبنا منا كل جميل وقدمك لمعالى الأمور عقلك وصدقك ولو ألقينا في الجيش مثلك لضمنا عليه البراجم والرواجب وفعلنا في جانبه ما هو الواجب وقد اقتصرنا حيث طلبت أن تكون بمنزلة القائد قدور بن الخضر عند سيدي الكبير رحمهما الله فأنت

عندنا بمنزلة أعظم من منزلته واليد التي اتخذت عندنا أعظم مما اتخذ هو عند سيدي الكبير قدس الله سره فقد جازاه على الصدق فقط أما أنت فقد شاركته في هذه المرتبة وفتته بما هو أعظم وهو إحسانك لعيالنا وأولادنا ولولا أنت لهلكوا جوعا فلا يكفر هذه الضبيعة إلا لنيم وحاشانا الله من ذلك فطب نفسا وقر عينا فلك عندنا من المكانة والخطوة مالمو اطلعت على حقيقته لطربت سرورا ونشاطا وسترى إذا انجلي الغبار ولا زال أهلنا يتذكرون إحسانك إليهم بحضرتنا ويلتمسون لك الدعاء الصالح من جانبنا وفي الحديث ما معناه أن امرأة من بني إسرائيل أبصرت كلبا يلحق الحمئة من شدة العطش فسقته فغفر الله لها فكيف بمن أسدى معروفًا لجماعة انقطع رجاؤهم إلا من الله والله لن يخزيك الله أبدا والسلام في ثامن عشر رمضان المعظم عام ثمانية وأربعين ومائتين وألف اه نص الكتاب ثم إن الله تعالى هيا للسلطان أمره في الودايا وألهمه رشده فيهم فأمر أولا بنقل رحي المغفرة إلى قصبه الشراذي من أعمال مراكش وظن الناس أنه يقتصر على ذلك لأنه رحمه الله لم يكن يظهر إلا أنه يريد نقل المغفرة فقط ثم نقل رحي الودايا إلى العرائش وأحوالها ثم ردهم إلى جبل سلفات ثم بعد ذلك بمدة يسيرة نقل رحي أهل السوس إلى رباط الفتح فأنزل حلتهم بالمصورية على شاطئ وادي النفيخ وقوادهم ووجوههم بقصبه رباط الفتح ثم رد الحلة بعد مضي ست سنين إلى قصبه تمارة قرب رباط الفتح وكانت متلاشية فأمر السلطان بعد سنتين أو ثلاث بترميمها وإصلاحها وكان رحمه الله قد أسقط هذا الجند الودي من الجندية وأعرض عنه بالكيفية سنين ثم استردهم في حدود الستين كما سيأتي ولما أخلى السلطان فاسا الجديد من جيش الودايا بأسره وكان بمراكش بعث بالطاهر بن مسعود وبالحاج محمد بن الطاهر فسجنا به مدة ثم قدمت عريفة الدار الحاجة زويده بكتاب من عند السلطان على ولده سيدي محمد فباس يتضمن الأمر بقتل الطاهر وابن الطاهر بالمحل الذي افتك فيه الأول الثاني فأخرجنا إلى المحل المذكور وحضر

الوصيف القائد فرجي وقدم الطاهر بن مسعود فأخرجت فيه عمارة وحز رأسه ثم قدم الحاج محمد بن الطاهر ففعل به مثل صاحبه فيقال إنه زهقت نفسه قبل القتل لأنه لم يسئل منه دم وأما الطاهر بن مسعود فسأل منه دم كثير وأمر سيدي محمد ولد السلطان بمواراته فوروري وأما ابن الطاهر فإنه رمى على المزبلة ووكل به الحرس إلى أن أكلته الكلاب ولم يبق إلا رجلاه بالقيد وكان ذلك في حدود خمسين ومائتين وألف وأما ابن فرحون وأصحابه فيهم استمروا في سجن الجزيرة إلى أن هلكوا واعلم أن هذه الوقعة الهائلة دالة على كمال عقل السلطان ووفور حلمه وفضله حتى أنه ما عامل هؤلاء القوم الذين أدوه أشد الإذابة إلا ببعض البعض مما استوجبوه كما قال وكما رأيت وعلمت ونسأله سبحانه وتعالى أن يتغمنا والمسلمين

برحمته وبقينا وإياهم مصارع السوء وبنينا الأمن في الدنيا والفوز في الآخرة بجنته إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير ظهور الحاج عبد القادر بن محيي الدين المختار بالمغرب الأوسط وبعض أخباره لما رجع جيش السلطان من تلمسان مع المولى علي بن سليمان حسبا مر بقي أهل تلمسان فوضى ورجعت الحرب بين الحضرم من أهلها والكرغلية جذعة وهاجت الفتن بين قبائل العرب الذين هنالك واختلط الحابل بالنابل وكان الفقيه المرابط محيي الدين عبد القادر المختار نسبة إلى أحد أجداده المشهورين بتلك الناحية نازلا وسط حلة الحشم عند المشائيل منهم وكان متظاهرا بالخير وتدريس العلم واتخذ زاوية لطلبة العلم وقراء القرآن فاشتهر عند أولئك القبائل واعتقدوه فلما دهم العدو أهل تلك البلاد وجاشت فيما بينهم الفتن اجتمع الحشم وبعض بني عامر وتفاوضوا فيما نزل بهم فأجمع رأيهم على بيعه الشيخ محيي الدين المذكور فذهبوا إليه

وعرضوا عليه ما في أنفسهم فتجافى عن منصب الرياسة وأظهر الورع واعتذر بأنه قد شاخ وذهب منه الأطباء وإنما هو هامة اليوم أو غد فسدكوا به وتطارحوا عليه فأشار عليهم بولده الحاج عبد القادر بن محيي الدين وكان له يومئذ عدة أولاد ليس الحاج عبد القادر أكبرهم ولا أعلمهم ولا أصلحهم وإنما كان فيه مضاء وإقدام فأسعفوه بشرط أن يكون نظره منسحبا عليه ومشيرا بما تدعو الضرورة إليه ولما تم أمر الحاج عبد القادر جمع كتيبة من بني عامر والحشم وزحف إلى وهران وكانت يومئذ في ملكة النصارى قد استولوا عليها منذ ستة أشهر أو سبعة فأوقع بهم وقعة شنعاء قتل فيها وأسر وأبلغ في النكاية ورجع مظفرا منصورا فقيمونا به وأحبوه وتمكن منهم ناموسه واتخذ عسكريا من الحشم وبني عامر لا بأس به ولما سمع به أهل تلمسان وهم أحوج ما كانوا إلى من يقوم بأمرهم وفدوا عليه وأخبروه بما كان منهم من مبايعة السلطان المولى عبد الرحمن صاحب مراكش وفاس وأنهم يبايعونه على بيعته والإعلان بدعوته فأجابهم الحاج عبد القادر إلى ذلك وأخذ عليهم البيعة وأظهر الطاعة والانقياد للسلطان المولى عبد الرحمن وخطب به على منابر تلمسان وغيرها وولى على تلمسان وأعمالها وزيره أبا عبد الله محمد البوحميدي الولهاصي وكتب إلى السلطان يعلمه بأنه بعض خدمه وقائد من قواد جنده واستقام إلى الحاج عبد القادر وثبتت قدمه في تلك الإيالة التلمسانية ثم إن قبيلتي الزمالة والدوائر الذين قدما نكروهم انحرفوا عن الحاج عبد القادر لأسباب منها أنهم كانوا معادين للحشم ولما قرب الحاج عبد القادر الحشم وجعلهم جنده ازدادت عداوتهم ونفرتهم عن الحاج عبد القادر وساروا إلى وهران وأعلنوا بدعوة الفرنسيين فقبلهم وحماهم وحدثت بينه وبين الحاج عبد القادر بسببهم حروب صعبة حدثني الأمين السيد الحاج عبد الكريم ابن الحاج أحمد الرزيني التطاوني قال ذهبت سنة سبع وأربعين ومائتين وألف إلى مدينة وهران بقصد التجارة بها وذلك عقب استيلاء الفرنسيين عليها قال وكنت يومئذ في سن

الشباب حين بقل عذاري فأقمت بها مدة وكان الحاج عبد القادر بن محيي الدين إذ ذاك مهاندا لكبير الفرنسيين بوهران والجزائر قد أنزل كل واحد منهما ببلد الآخر ففصله وتجاره على العادة في ذلك أيام الهدنة فلما كان ذات يوم ورد الخبر بأن قبيلتي الزمالة والدوائر من إيالة الحاج عبد القادر وهم نحو الألفين كانوا قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران مستجيرين بالفرنسيين وقد رفعوا سنجقة وأعلنوا بأنهم تحت حكمه ومن جملة رعيته فبعث إليهم الفرنسيين يعلمهم بأنه قد قبلهم ولا يصيبهم مكروه فلما كان من الغد بعث الحاج عبد القادر مع كبير دولته الحاج الحبيب ولد المهر المعسكري كتابا إلى الفرنسيين يقول فيه إنك قد علمت أن هؤلاء القوم الذين فروا إليك هم رعيتي ومن إياتي وعليه فلا بد أن تردهم علي وإلا فالحرب بيني وبينك فامتنع الفرنسيين من ردهم وأجاب إلى الحرب واتفقوا أن يخرج كل منهما إلى الآخر تجاره الذين في أرضه وأن من بقي منهم بعد ثلاث فهو هدر واتفقوا أيضا على أن يكون القتلان آخر من يخرج وأن يكون خروجهما في ساعة معلومة من الليل بحيث يلتقيان على المحدة التي بين أرض المسلمين وأرض النصارى ففعلوا وخلص كل إلى أمانته ولما انقضى الأجل تزاخفوا للقتال في يوم معلوم فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد ولما كان عشي النهار سمع الناس من داخل البلد ضوضاء وجلبة عظيمة وبارودا كثيرا وإذا بالحاج عبد القادر هزم الكفار هزيمة شنعاء حتى ألجأهم إلى سور البلد وازدحموا على أبوابه وركب بعضهم بعضا وجاءت خيالتهم من خلفهم فركبهم أيضا ومشوا عليهم ورفسوم بخيلهم فهلك بهذا الازدحام من الفرنسيين نحو أربعة آلاف دون الذين هلكوا خارج البلد بالكور والرصاص والتوافل والرماح واستولى المسلمون على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط وأخبية وأثاث وكانت فتكة بكرا قال الحاج عبد الكريم المذكور وكنت في تلك المدة مساكنا لبعض كبراء عسكر الفرنسيين في دار واحدة فلما انقضت الوقعة بيوم أو يومين سألته كم تراه يكون هلك من عسكر الفرنسيين في هذه الوقعة قال أقرب لك أم

أبعد قلت بل أقرب قال أنا كبير من كبراء العسكر وتحت نظري ثمان عشرة مائة بقي منها في هذه الوقعة ثمانية عشر عسكريا انتهى كلام هذا المخبر ثم إن الزمالة والدوائر لجوا في موالة الفرنسيين وأحكموا أمرهم معه وولوا عليهم رجلا منهم يقال له المصطفى بن إسماعيل كان هو السبب الأكبر في تملك الفرنسيين بلاد المغرب الأوسط وجل الحروب التي كانت تكون بين المسلمين والنصارى في تلك المدة على يده إلى أن قتل منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف ضاعف الله عليه غضبه ونقمته ولما اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين وحماية بيضة المسلمين أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده لأنه رأى أنه قد قام بنصرة الإسلام على حين لا ناصر له فصار السلطان رحمه الله يمدد بالخيول والسلاح والمال المرة بعد المرة على يد الأمين الحاج الطالب بن جلون الفاسي وغيره وطالت الحرب بينه وبين الفرنسيين واستولى الفرنسيين في بعض الكرات على تلمسان وضابحة الحاج عبد القادر فيها حتى أخرجه منها ثم استردها الفرنسيين بعد معارك شديدة ومواقف صعبة إلا أن ضرر الحاج عبد القادر للفرنسيين كان مقصورا على قتل النفوس واستلاب الأموال وأما الفرنسيين فكان ضرره بالمسلمين عائدا على تملك بلادهم وتنقصها من أطرافها ودام ذلك مدة من ست عشرة سنة وبالجملة فلقد كان الحاج عبد القادر هذا في أول أمره على ما ينبغي من المثابرة على الجهاد والدرء في نحر العدو ولولا أنه انعكس حاله في آخر الأمر وخلصت الأرض للفرنسيين والله غالب على أمره وفي سنة خمس وخمسين ومائتين وألف ولد مؤلف هذا الكتاب أحمد بن خالد الناصري السلاوي أخبرتني والدتي الست فاطمة بنت الفقيه السيد محمد بن محمد بن قاسم بن زروق الحسني الإدريسي الجباري أنني ولدت بعد طلوع الفجر صبيحة يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة

المذكورة وفي محرم فاتح سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف توفي الوزير الشهير السيد المختار بن عبد الملك الجامعي بمراكش واستوزر السلطان بعده الفقيه أبا عبد الله محمد بن علي الحاجي النكافي مدة يسيرة ثم أخره ورد وزيره الأقدم أبا عبد الله محمد بن إدريس رحم الله الجميع وفي هذه السنة كان الوباء بالمغرب بالإسهال والقيء وغور العينين وبرودة الأطراف وفي سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف ورد سؤال من عند الحاج عبد القادر بن محيي الدين إلى علماء فاس يقول فيه ما نصه الحمد لله سادتنا الأعلام أئمة الهدى ومصابيح الظلام فقهاء الحضرة الإدريسية ومرمى المطالب ومحط الرجال العيسية أطباء أدواء الدين ومحققين حقه ومبطلين باطله ومنتجين قضاياه المتخيلة عقيمة وباطلة جوابكم أبقاكم الله فيما عظم به الخطب واشتد به الكرب بوطن الجزائر الذي صار لغربال الكفار جزائر وذلك أن العدو الكافر يحاول ملك المسلمين مع استرقاقهم بالسيف وتارة بحيل سياسته ومن المسلمين من يداخلهم ويباعهم ويغلب الخيل إليهم ولا يخلو من دلائتهم على عورات المسلمين ويطالهم ومن أحياء العرب المجاورين لهم من يفعل ذلك ويتمالزون على الجحود والإنكار فإذا طلبوا بتعيينه جعجعو والحال أنهم يعلمون منهم الأعيان والآثار فما حكم الله في الفريقين في أنفسهم وأموالهم فهل لهم من عقاب أم يتركون على حالهم وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة عن الحريم والأولاد إذا استنفره نائب الإمام للدفاع والجلاد فهل يعاقبون وكيف عقابهم ولا يتأتى بغير قتالهم وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم كيف العمل فيمن يمنع الزكاة أو يمنع بعضها من التحقق بعمارة نمته في الحال فهل يصدق مع قلة الدين في هذا الزمان أم يكون للاجتهاد فيه مجال ومن أين يرزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد ثغورهم عن المغيرين ولا بيت مال وما يجمع من الزكاة لا يفي بشعبهم فضلا

عن كسوتهم وسلاحهم وخیلهم ومؤنتهم وزیهم فهل تترك فيستبيح الكافر الوطن أم يكون ما يلزمهم على جماعة المسلمين وإذا كان فهل على العموم أم على الأغنياء فقط ولا يمكن اختصاص الأغنياء لجفوة الأعراب وجهالهم وهل يعد مانع المعونة باغيا أم لا وما حكم أموال البغاة وهل القول بعدم

ردها يجوز العمل به أم لا أجبوا عما ذكرنا وما يناسب المقام والحال مما لم يحضرنا داووا علنا أبقاكم الله فقد ضاق من هذه الأمور الذرع وكاد القائم بأمر المسلمين لضيق الأسباب أن يتخلى عن الأمر وي طرح ثوب الإمارة والذرع ماجورين والسلام في تاسع عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة صدره عن إذن الحاج عبد القادر بن محيي الدين لطف الله به وقد أجاب عن هذا السؤال بإشارة السلطان الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن عبد السلام مديش التسولي بجواب طويل يشتمل على خمس كراريس وزيادة وهو موجود بأيدي الناس ولأجل ما كان يصل من هذه الأمور من جانب الحاج عبد القادر كان السلطان رحمه الله يبذل مجهوده في إمداده بالخيول والسلاح والمال وغير ذلك ثم لم يكن إلا ما أَرادَه الله وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف بعد ظهر يوم السبت العشرين من ربيع الأول منها توفي الفقيه العلامة المتفطن المحدث أبو العباس أحمد بن الحاج المكي السدراتي السلاوي ودفن صبيحة يوم الأحد في الجبانة التي قرب ضريح ولي الله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر وشهد جنازته خلق كثير وأمه الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله محمد الهاشمي طوبى وللقيه أبي العباس المذكور شرح حفيظ على موطأ الإمام مالك رضي الله عنه وهو موجود بأيدي الناس وفي سنة أربع وخمسين بعدها وذلك صبيحة يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان منها توفي الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله طوبى المذكور أنفا وكان رحمه الله من قضاة العدل وأهل العلم بالنوازل والأحكام محمود السيرة ذا سكينه ووقار وفي سنة ست وخمسين ومائتين وألف وذلك في سابع جمادى الأولى منها كمل بناء المنار بالمسجد الأعظم من سلا وكان المنار الذي قبله قد أصابته صاعقة تداغت لها أركانه فأمر السلطان رحمه الله بفضه وإعادته جديدا فأعيد على هيئة متقنة أحسن مما كان وأعظم وصير عليه بواسطة أمناء مرسى العدوتين ثلاثة آلاف مقاتل وأربعمئة مقاتل وأربعة وعشرون متقلا وست أواق وثلاث الأوقية والريال الكبير يومئذ من سعر ست عشرة أوقية وكان جل الصائر من بيت المال وأقله من مال الحبس وكان الذي يتولى النظارة يومئذ والقيام على البناء عامل سلا الأبر الأخير السيد الحاج أحمد بن محمد بن الهاشمي عواد وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف توفي الفقيه العلامة المحقق البارح أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي المدعو مديش صاحب الشرح الكبير على تحفة ابن عاصم في الأحكام وشرح الشامل وحاشية الزقاقية وغير ذلك من التأليف الحسان رحمه الله ونفعنا به وفي منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف غزا السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله قبيلة زمور الشلح وكانوا قد تجاوزوا الحد في الإفساد وإخافة العباد والبلاد فأوقع بهم وقعة شعناء كسرت من حدهم وقلت من غريهم وكتب السلطان رحمه الله في ذلك إلى ولده وخليفته سيدي محمد كتابا من إنشاء وزيره أبي عبد الله بن إدريس يقول فيه ما نصه ولدنا الأرضي الأبر الأرشدي سيدي محمد أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وإشفاقا وحملهم على الاستقامة بالإرهاب من الشدة في بعض الأمور هداية وإرفاقا فلم يرد الله بهم خيرا لفساد نيتهم وخبث طويتهم وانكالمهم على حولهم وقوتهم فما رأوا منا ليئا وسادا إلا ازدادوا شدة وفسادا ولا أظهرنا لهم عظة وإرشادا إلا أظهروا تطاولا وعنادا وما أخرنا المحلة المنصورة عن الركوب إليهم إبقاء وألفا إلا ظنوا ذلك عجزا وضعفا قد طمس الإعجاب منهم بصرا وسمعا ولم يروا أن الله قد أهلك من قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا ووضع النداء في موضع السيف بالعلو مضربه كوضع السيف في موضع النداء فلما رأينا لجاجهم في عمالهم وعدم رجوعهم عن هوانهم وأنهم لم يعتبروا بجلالهم عن بلادهم ولا بما أصابهم من الفتنة في أنفسهم وأولادهم ولم يراعوا ما نهب من زرعهم القائم والحصيد ولا ما استخرج من مخزونهم الكثير العتيد رأينا قتالهم شرعا وجهادهم ذبا عن الدين ودفعنا فاعتمدنا على حول الله وقوته وأمرنا بالزيادة عليهم في الأخذ والتصديق والمبالغة في النهب والتحريق وتركهم محصورين في أوعارهم ومقهورين في أوكارهم إذ رب مطاولة أبلغ من مصاولة فتوات عليهم الغارات وتتابع عليهم النكبات لا يجدون إلى الراحة سبيلا أينما تقفوا أخنوا وقتلوا تقتيلا ففي كل يوم تتمر العوالي رؤوس رؤسائهم وتتخطف أيدي المنايا أهل بأسائهم وكلما رادوهم إقداما وطلبا ازدادوا توغلا في الجبال وهربا حتى نهكتهم الحرب وضربتهم موالاة الطعن والضرب وضاع بالحصار الكسب والمال ولحق الضرر الأولاد والعيال فجعلوا يرحلون لقبائل جوارهم طالبين لحفهم وجوارهم وبلغ البؤس فيهم غايته وأظهر الله فيهم آيته وهم في خلال هذا كل حين يتشفعون ويتذللون في قبول توبتهم ويتضرعون ونحن نظهر لهم التمتع والإبابة لبنني أمرهم على أساس الجد ونجازيهم على ما ارتكبه من خلف الوعد فلما أنجزت القهرية فيهم وعدنا وبلغت العقوبة فيهم حدها قابلا إساءتهم بالإحسان وراعينا فيهم وجه المساكين والنساء والصبيان فولينا عليهم منهم ثلاثة عمال ووظفنا عليهم خمسين ألف مقاتل وشرطنا عليهم تقويم مائتين من الحراك مثل قبائل الطاعة والتزام الصلاح والخدمة جهد الاستطاعة فقاموا بذلك أحسن قيام وأعطوا المراهين في أداء المال بعد أيام وكان أخذهم بعد تقديم الأعدار وتكرير الإنذار وعفونا عنهم عفو غلب واقدار ورب عقاب أنتج حسن طاعة وتوبة نصوح تداركت ما سلف من التفريط والإضاعة وفي الناس من لا يصلح إلا مع التشديد وربك يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد وما عن رضى منها عطية أسلمت ولكنها قد قادها للهدى القهر أردنا بها الإبقاء فزاد عجبها وأدبها التشديد والفتك والأسر ولو قيودا النعمة بالشكر لأنمو الزوال وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال الرعد والسلام في فاتح رجب الفرد الحرام عام تسعة وخمسين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف انتقاض الهدنة مع الفرنسيين وتمحيص المسلمين بإيسلي قرب وجدة والسبب في ذلك كانت الهدنة معقودة بين هذه الدولة الشريفة وبين جنس الفرنسيين من لدن دولة السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ولما حدث الشنآن بين ترك الجزائر والفرنسيين واستولى الفرنسيين على ثغورهم جاء أهل تلمسان إلى السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله راغبين في بيعته والدخول في طاعته فقبلهم بعد التوقف والمشاورة كما مر ولما أعرى جيش السلطان تلمسان واجتمع أهل ذلك القطر على الحاج عبد القادر محيي الدين تحت كلمة السلطان بر به وأحسن إليه وقاوم الفرنسيين بتلك البلاد أشد المقاومة إلا أن فائدة حربه كانت تظهر في قتل النفوس واستلاب الأموال وفائدة حرب الفرنسيين كانت تظهر في انتقاص الأرض والاستيلاء عليها وشنان ما بينهما ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين وألف تم استيلاء الفرنسيين على جميع بلاد المغرب الأوسط وصار الحاج عبد القادر ينتقل في أطرافها فتارة بالصحراء وتارة ببني يزناسن وتارة بوجدة والريف وغير ذلك وربما استكثر في هذه التنقلات بمن هو من رعية السلطان أو جنده فمد الفرنسيين يده إلى إيالة السلطان رحمه الله فشن الغارة على بني يزناسن وعلى وجدة وأعمالها المرة بعد المرة ثم اقتحم وجدة على حين غفلة من أهلها وانتهبها وكثر عيته في الحدود فكلم من جانب السلطان رحمه الله فيما ارتكبه من إيالته فتعل بأن الهدنة قد انتقضت بإمداد الحاج عبد القادر بالخيول والسلاح والمال المرة بعد المرة وبمحاربة جيش السلطان المرابط على الحدود له وبمحاربة بني يزناسن له مع الحاج عبد القادر وغير ذلك مما اعتد به وكان الحاج عبد القادر في هذه المدة قد فسدت نيته أيضا في السلطان وفي الجهاد مع أنه ما كان لجهاده ثمرة ورام الاستقلال وأخذ في استفساد القبائل الذين هنالك وتحقق السلطان بأمره وشرى الشر وتفاقم الأمر فعمد السلطان رحمه الله على حرب الفرنسيين وتقدم إلى أهل الثغور بالاستعداد والحراسة وإرهاق الحد لما عسى أن يحدث ثم عقد لابن عمه المولى المأمون بن الشريف على كتيبة من الجند ووجهها إلى ناحية وجدة وعززه بالفقيه أبي الحسن علي بن الجنوي من أعيان رباط الفتح فكانت لهم مناوشة مع رابطة الفرنسيين التي هنالك ثم أخذ السلطان رحمه الله في أسباب الغزو والاستعداد التام وحشد الجنود واتخاذ الرايات والبنود واستنغار القبائل وقال في ذلك الوزير ابن إدريس أشعارا يستنفر بها أهل المغرب ويحضهم على الجهاد وإيقاظ العزائم له من ذلك قوله يا أهل مغربنا حق النفير لكم إلى الجهاد فما في الحق من غلط فالشرك من جنبات الشرق جاورك من بعد ما سلم أهل الدين بالشطط فلا يغرنكم من لين جانبه ما عاد قبل على الإسلام بالسخط فعنده من ضروب المكر ما عجزت عن دركه فكرة الشبان والشمط فواتح المكر تبدو من خواتمه فعنده المكر والمكروه في نمط وأنتم القصد لا تبفن في دعة إن السكون إلى الأعدا من السقط من جاور الشر لا يعدم بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سقط قد يعبط الحر في عز يخلده وليس حي على ذل بمغتنب وفي هذا الشعر تضمنين بيت ابن العسال وهو مشهور فاجتمع للسلطان رحمه الله في هذا الاستنغار ثلاثون ألف فارس تزيد قليلا أو تنقص قليلا فيها

الجند وحصص القبائل في أكمل شكة وأحسن زي ولم يشهدا من الودايا سوى نفر يسير لأنهم كانوا في زاوية الإهمال عند السلطان ثم عقد رحمه الله على هذه الجنود لولده وخليفته سيدي محمد بن عبد الرحمن وسار حتى نزل بوادي إيسلي من أعمال وجدة وكان الحاج عبد القادر لا زال جاثلا في تلك الناحية ومعه نحو خمسمائة فارس ممن كان قد بقي معه من أهل المغرب الأوسط لأن حاله كان قد أخذ في التراجع والانحطاط ولم تبق له هنالك كبير فائدة بل انقلب نفعه ضررا وحزمه خورا بفساد نيته واستفساده لجند السلطان ورعيته ولما احتل الخليفة سيدي محمد بإيسلي وعسكر به جاءه الحاج عبد القادر يستأذن عليه في الاجتماع به فأذن له واجتمع به وهو على فرسه فدار بينهما كلام كان من جملته أن قال الحاج عبد القادر إن هذه الفرش والأثاث والشارة التي جنتم بها حتى وضعتوها بباب جيش العدو ليس من الرأي في شيء ومهما نسيتم فلا تنسوا أن لا تلاقوا العدو إلا وأنتم متحملون منكمشون بحيث لا يبقى لكم خباء مضروب على الأرض إلا فإن العدو مني رأى الأخبية مضرورية لم ينته دون الوصول إليها ولو أفنى عليها عساكره وبين كيف كان هو يقاتله وكان هذا الكلام منه صوابا إلا أنه لم ينجع في القوم لانفساد البواطن ولا حول ولا قوة إلا بالله وربما انتهره بعض حاشية الخليفة على التصح بمحضره والإشارة عليه قبل استيشاره فرجع الحاج عبد القادر عوده على بدئه وانتبذ ناحية في جيشه ولسان حاله يقول لم أمر بها ولم تسؤني ولما كانت الليلة التي وقعت الحرب صبيحتها جاء رجلان من أعراب تلك الناحية وطلبوا الدخول على الحاجب وهو الفقيه السيد الطيب بن اليماني المدعو بأبي عشرين فدخلا عليه وقالوا إن العدو عازم على أن يصبحكم غدا إن شاء الله فاستعدوا له وأعلموا الأمير فيقال إن الحاجب قال إن الأمير الآن نائم ولست بالذي أوقظه ثم جاء عقب ذلك أربعة أناس آخرون يعلمون بأمر العدو فكان سبيلهم سبيل الأولين ولما طلع الفجر وصلى الخليفة الصبح جاء عشرة من الخيل قيل من العرب وقيل من حرس الخليفة فأعلموا بمجيء العدو وأنهم تركوه قد أخذ

في الرحيل فأمر الخليفة رحمه الله الناس بالركوب والاستعداد وأن لا يبقى بالمحلة إلا الرماة وكانوا دون الألف وبعث إلى بني يزناسن بالركوب فركبوا في ألوف كادت تساوي جيش الخليفة وصارت الخيل نحو العدو مصطفة مد البصر وراياتها تخفق على هيئة عجيبة وترتيب بديع وكان الخليفة سائرا في وسطهم ناشرا المظلة على رأسه راكبا على فرس أبيض وعليه طيلسان أرجواني قد تميز بزبه وشارته ولما تقارب الجيشان جعلت الفرسان تبرز من الصفوف كأنما تتعجل القتال فأمر الخليفة رحمه الله بالسكينة والوقار والسير بسير الناس ثم لما التقى الجمعان وانتشبت الحرب رصد العدو الخليفة وقصده بالرمي مرات عديدة حتى سقطت بنبة أمام حامل المظلة وجمح فرسه به وكاد يسقط ولما رأى الخليفة ذلك غير زيه بأن أسقط المظلة ودعا بفارس كميته فركبه وليس طيلسانا آخر فاخفى حينئذ وكان المسلمون قد أحسنوا دفاع العدو وصدموه صدمة قوية برقت لهم بها بارقة وكانت خيلهم تنفر من صوت المدافع ولكنهم كانوا يقمونها إقحاما وثبتوا في نحر العدو مقدار ساعة ولما التقوا إلى جهة الخليفة ولم يروه بسبب تغير زيه خشعت نفوسهم وقال المرجفون إن الخليفة قد هلك فماج الناس بعضهم في بعض وتسابق الشراردة إلى المحلة فعمدوا إلى الخباء الذي فيه المال فانتهبوه وتقاتلوا عليه وتبعهم غيرهم ممن كان الرعب قد ملك قلبه وجعل الناس يتسللون حتى ظهر الفشل في الجيش من كل جهة فتقدم بعض الحاشية إلى الخليفة وقال له يا مولانا إن الناس قد انهزموا وهم الآن بالمحلة يقتل بعضهم بعضا ويسلب بعضهم بعضا فقال يا سبحان الله والتفت فرأى ما هاله من أمر الناس فرجع عوده على بدئه وانهم من كان قد بقي معه عن آخرهم وتبعهم العدو يرمي الكور والضبولي من غير فترة وثبت الله بعض الطبجية بالمحلة ولكن سال الوادي فطم على القرى ونفذ أمر الله ولم يهزم المسلمين إلا المسلمون كما رأيت ولما استولى العدو على المحلة فر النهاب الذين كانوا

بها وبقيت في يده بما فيها وكانت مصيبة عظيمة وفجعية كبيرة لم تتجع الدولة الشريفة بمثلها وكان هذا الحادث العظيم في الساعة العاشرة من النهار منتصف شعبان سنة ستين ومائتين وألف ولما رجح المنهزمة تفرقوا شذر مذر وأهلك الناس العطش والجوع والتعب حتى كان نساء عرب أنكاد يستلبنهم كيف شئن وانتهى الخليفة إلى تازا فأقام بها أربعة أيام ريثما اجتمع إليه الرماة وضعاف الجيش ثم قدم فاسا وكان السلطان رحمه الله قادما من مراکش إلى فاس فاتصل به خير الوقعة وهو برباط الفتح فنهض إلى فاس مجدا واتصل به في أثناء طريقه خبر وقعتين اثنتين أخريين وهما هجوم الفرنسيين على طنجة والصويرة ورميه إياهما بألوف من الكور والبنب ووقع بالصويرة حادث عظيم بسبب الغوغاء الذين بالبلد والشياطين المجاورين لهم فإبهم لما رأوا العدو دخل الجزيرة ظنوا أنه سيدخل البلد فمدوا أيديهم للنهب وكان ذلك أولا في اليهود ثم عم غيرهم وكان ما كان مما لست أذكره فكان هذا مما زاد غيظ السلطان وكمده فعمد إلى جماعة من قواد الجيش وحلق لحاهم تأديبا لهم وذكر منويل هذه الوقعة فزع عن عساكر الفرنسيين كانت يومئذ عشرة آلاف وإنه كان غرضه محاربة الذين كانوا يحاربونه على أطراف البلاد حتى لقد أعطى خط يده للنجليز أنه إذا حارب وغلب لا يملك من أرض المغرب شيئا قال فذلك لما وقعت الهزيمة بعث بإبها رسله يطلب الصلح مع أن السلطان المولى عبد الرحمن لم يظهر عجزا ولا فل ذلك من غربه بل استأنف الجد وشرع في جمع العدد اه كلامه ثم إن السلطان رحمه الله هادن الفرنسيين على يد الفقيه أبي سلهم بن علي أزطوط عامل طنجة والعرائش على شروط ثمانية من جملتها نفي الحاج عبد القادر من تلك البلاد لما في بقاءه هنالك من آثاره الفتنة بين التولتين بلا فائدة ودعت المصلحة الوقتية السلطان رحمه الله إلى أن أسقط عن جنس

الدينمرك وجنس السويد ما كنا يؤديناه إلى الدولة العلية كل سنة فالأول خمسة وعشرون ألف ريال والثاني عشرون ألف ريال وكذلك أسقط عن غيرهم وظائف أخر والأمر كلها بيد الله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون الأنبياء وفي سنة إحدى وستين ومائتين وألف أخذت السكة في الارتفاع وكان الريال الكبير ذو المدفع بست عشرة أوقية والريال الصغير الإفرنك بخمس عشرة أوقية والبندي بثلاثين أوقية والدرهم الصغير بأربع موزونات والكبير بست موزونات ولما أخذت السكة في الارتفاع أخذت الأسعار في الارتفاع أيضا وحاول السلطان رحمه الله حصرها فلم تنحصر وعلت ذلك والله أعلم أنه لما وقع مع الفرنسيين هذا الصلح وأسقط السلطان عن الأجناس ما كانت تؤديه كثر خطارهم وتجارهم بمراسي المغرب وازدادت مخالطتهم وممازجتهم لأهله وكثرت تجارتهم في السلع التي كانوا ممنوعين منها وانفتح لهم باب كان مسدودا عليهم من قبل فظهر أثر ذلك في السكة وفي السلع أما السكة فلأن سكتهم كانت هي الغالبة وهي أكثر روجانا من سكة المغرب فلا بد أن يكون الحكم والتأثير لها والتجار يعتبرون فيها من الفضول والأرباح الناشئة عن تغاير القطرين ما لا يهندي إليه غيرهم من العامة وتبعهم على ذلك تجار المسلمين وأما السلع فلأن تجار النصراري يغالبون في أثمانها أكثر من غيرهم كما هو مشاهد ثم ما دامت بلاد الفرنج مترقية في التمدن وحسن الترتيب واتساع الأمن والعدل إلا وسكنا وأسعارنا دائمة الترقى في الغلاء على نسبة كثرة المخالطة واتساع مادة البيع والشراء فتأمله والله الموفق وفي هذه السنة ثار أهل رباط الفتح على عاملهم الحاج محمد بن الحاج محمد السوسي وكان السبب في ذلك أن الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبدي من أهل الوجاهة بالرباط ومتنوع العقب فيها وكان كثيرا ما يجالس

العامل المذكور ويدلي عنده بالصدقة والمودة فيقال إنه تشفع عنده في بعض أهل البلد فرد شفاعته فغضب الزبدي وعظم عليه ذلك وكان أهل البلد قد سموا ملكة السوسي ومرضوا في طاعته لأسباب تعدها الرعية على العمال فجاء الزبدي إلى منزله وجمع جماعة من أعيان البلد ممن يعلم انحرافهم عن العامل المذكور وأطعمهم وأطلعهم على خبيثة صدره في أمر العامل فوجدهم إليه سراعا فتحالفوا وتعاهدوا على أن لا يبقى متوليا عليهم بحال ثم مشوا إليه وأندروه وتقدموا إليه بأن يلزم بيته ثم أجمع رأيهم على تقديم الزبدي مكانه فقدموه وضبط أمر البلد واتصل الخبر بالسلطان رحمه الله وهو بفاس فقام وقعد وكتب إليهم بالوعظ والتفريع فصموا عن سماعه وتمادوا على شأنهم ثم بعث إليهم القائد الطيب الوديني البخاري يتولى عليهم ويقبض على أهل الفساد منهم فأحشوا عليه وطردوه من البلد مع العشي فعبير إلى سلا في مطر غزير ورجع إلى السلطان فأعلمه الخبر فاحتال السلطان رحمه الله بأن بعث الفقيه الكاتب أبا عبد الله محمد العربي بن المختار الجامعي فقدم رباط الفتح وجمع أعيانها وخيرهم فيمن يتولى عليهم فاختروا الزبدي فولاه السلطان عليهم وحمدا سيرته وبعد نحو ستة أشهر قدم السلطان رباط الفتح وترثت بها مدة حتى نفر عن رؤوس الفتنة فقبض عليهم وعلى قائدهم الزبدي وبعث بهم إلى فاس فسجنوا بها ثم سرحوا بعد حين وفي سنة اثنتين وستين ومائتين وألف

نهض السلطان من فاس ونهض الخليفة سيدي محمد من مراکش والتقى بمشرع أبي الأعوان من دكالة وعيدا هنالك عيد المولد الكريم ثم سار السلطان إلى مراکش وانحدر الخليفة إلى فاس وفي هذا العيد بعث أبو عبد الله أكنسوس إلى السلطان بالقصيدة وفي سنة ثلاث وستين ومائتين وألف تم بناء البرج الكبير بسلا المعروف بالصقالة الجديدة وكان السلطان رحمه الله شرع في بنائه زمان انتفاض الصلح مع الفرنسيين وتم في هذه المدة على أكمل الأحوال وأحسنها

بقية أخبار الحاج عبد القادر وانقراض أمره وما آل إليه حاله قد قدمنا ما كان من فساد نية الحاج عبد القادر وأنه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب فلما كانت الهزيمة بإيسلي ازداد طمعه فصار يدعو أهل النواحي إلى مبايعته والدخول في طاعته وكاتب الخواص من أهل فاس والدولة وكتابه على ما قيل ثم احتال بأن بعث جماعة وافرة من الحشم وبني عامر شيعته إلى السلطان قدمهم أمامه في صورة هراب مستجيبين بالسلطان فقبلهم السلطان وأنزلهم على نهر سبو ثم تقدم الحاج عبد القادر حتى وصل إلى القعدة الحمراء بين التسول والبرانس وكان قصده أن يجتمع بشيعته ويصل يدهم بيده ويتم له ما أراد فلما أطلع السلطان على دسيسته بعث إلى أولئك الجماعة عسكريا من الشراة عليهم القائد إبراهيم بن أحمد الأكل فاجتاحوهم بعد جهد جهيد وقتل شديد من ذلك أنهم اعتصموا ببروة وجعلوا يقاتلون على حريمهم وكانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة في الأرض فكانوا كلما توجهت إليهم طائفة من الجيش استأصلوها بالرصاص وكانوا يجمعون موتاهم وينصبونهم أشبارا ينترسون به ويقاؤون من خلفه ولما أعي الجيش أمرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خاطوهم في معصمهم وجالدهم بالسيف وطاعونهم بالرمح والتوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون أبناءهم ونساءهم بأيديهم فرارا من السبي والعار ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم في قبضة الأسار وبعد هذا وجه السلطان ولده سيدي محمدا لحسم دانه في جيش كثيف وكان رئيس الجيش وكبيره بعد الخليفة القائد محمد بن عبد الكريم الشرقي المدعو أبا محمد وكان له ذكر في الشجاعة والرأي ولما وصل الخليفة إلى سلوان بعث إليه الحاج عبد القادر جماعة فيهم وزيره أبو عبد الله البومهيدي يتصل مما رمي به وأنه لا زال على الطاعة والخدمة للسلطان وقدموا إلى الخليفة هدية ثم وقع الاتفاق على أن يقدموا على السلطان رحمه الله فينها إليه الأمر والعمل على ما قل

فرجه معهم الخليفة من يصحبهم إلى أبيه بفاس وفي أثناء ذلك عمد الحاج عبد القادر ذات ليلة إلى طائفة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل كلهم بطل مجرب انتقامهم انتقاء وكان جيش الخليفة منقسما قسمين بعضه معه وبعضه مع أخيه المولى أحمد فضمد الحاج عبد القادر إليهما في ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر الكلب من ظلماتها الطنبا بتلك العصبية الذين هم فتيان الكريهة ومساير الهجاء وجمرات الحرب كالما شهد بهم الوقائع وخاض غمرات الموت مع الفرنسيين وغيره فلم يقف بهم إلا بين المجلنين وأطلقوا الرصاص مثل المطر وأرسلوا حراقيات على الجمال وتهاويل مفزعة فماج الناس في ذلك الظلام الغاسق ونزل بهم من الهول ما يقصر اللسان عن وصفه وقام الخليفة فجعل يسكن الناس بنفسه ويمنعهم من الركوب خوف الفرار وأمر العسكر والطبجية بالرمي بالكور والضوبلي فكانوا يرمون إلى جهة محلة المولى أحمد ظنا منهم أن العدو لا زال مقابلهم ومحلة المولى أحمد يرمون إلى جهتهم كذلك فهلك من المحلنين بسبب ذلك بشر كثير وأما الحاج عبد القادر فإنه فر في أصحابه بعد أن حملوا الكثير من موتاهم معهم وكان للقائد محمد في تلك الليلة ذكر ولما أصبح الناس وتفقدوا حالهم وجدوا فيهم من الجرحى نحو الألف ومن القتلى ما يقرب ذلك وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الحاج عبد القادر الذين أجهضم القتال عن حملهم نحو الخمسين وأسروا نفرا أحياء فشاهدوا من طمأنينتهم عند القتل ما قضا منه العجب ووجدوا عليهم كسي رقيقة مطرزة بالصقلى والحريز ونحو ذلك فلقد كان للرجل اعتناء بالجيش كما نرى ثم إن الخليفة رحمه الله أمر باتياع الحاج عبد القادر فقتبته الكتائب المختارة فكان اللقاء ثانيا بمشرع الرحائل من وادي ملوية قرب البحر عند مسقط ملوية في البحر فصدته الجيوش صدمة أخرى فنى فيها كمامته وكسرت شوكته وقل حده وخشعت نفسه وأيس من جبر حاله ففر إلى الفرنسيين ولجا إليه وترك محلته بما فيها فاستولى جيش الخليفة عليها

حكى من حضر أن الخيل كان يطردون الجماعة من أصحاب الحاج عبد القادر وهم راجلون ليأسروهم فما كانوا يدركونهم إلا بعد المسافة البعيدة جدا والحاصل أن مقام هذا الرجل في الشجاعة معروف وبصارته بمكاند الحرب معلومة لولا ما ذكرناه من انعكاس حاله ورومه الاستبداد وخلعه طاعة الإمام الحق الذي كانت بيعته في عنقه واعلم أنه قد يقف بعض المنتقدين على ما حكيناه من أخبار هذا الرجل فينسبنا إلى تعصب وسوء أدب والجواب أنا ما حكينا إلا الواقع وأيضا فلقد قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله حضرت يوما بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه لغرض الرسالة وجرى ذكر بعض أعدائه فقلت ما أعتقد في إطرأ ذلك العدو وما عرفته من فضله فأفكر علي بعض الحاضرين ممن لا يحطب إلا في جبل السلطان فصرفت وجهي وقلت أيدكم الله تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء بل غير ذلك أحق وأولى فإن كان السلطان قد غلب عدوه كان قد غلب غير حقير وهو الأولى بفخره وجلالة قدره وإن غلبه العدو لم يغلبه حقيز فيكون أشد للحسرة وأكد للفضيحة فوافق رحمه الله على ذلك واستحسنه وشكر عليه وخجل المعترض اه ولما كان هذا الفتح كتب السلطان إلى البلاد وزينت الأسواق وأعلنت المفرجات ونص ما كتب به السلطان بعد الافتتاح وبعد فإن الفاسد الفتان وخليفة الشيطان أبعد في الجسارة وامتنى مطي الخسارة واستوسع سبيل العناد واستنزل سبيل الرشاد وقال من أشد منه قوة وسولت له نفسه الأمانة الاتصاف بالإمارة وأراد شق عصا الإسلام وصدع مهج الأنام فأعلن بكل قبيح واستشكل كل صريح واستبطن المكر والخداع وفاق فيه عابدي ود سواع وشاع في طرف الإيالة ضرره وساء مخبره وهو في خلال ذلك يظهر مظاهر يستهوي بها أهل الجهالة والعماية والضلالة فأيسنا من رشده وعرفنا مضمير قصده فجهزنا له محلة منصوره ذات أعلام منشورة جعلنا في وسطها ولدنا الأبر سيدي محمد أصلحه الله وأسندنا إليه

أمرها وقلدناه تدبيرها وعهدنا إليه أن يسعى في حقن الدماء جهد الإمكان ويحتال على إقامة أود هذا الفتان وأن يعالج داءه بكل دواء وأن لا يتبع فيه الأغراض والأهواء وأن يجعل القتال آخر عمله وعدمه غاية أمله فلما رأى عدو نفسه إحاطة الجيوش به وجه وفدا من قبله يدعي التوبة فيما مضى والكون على وفق المقتضى فأجبناهم بأن أحب الحديث إلى الله أصدق إن صاحبكم هذا إن أراد الخير لنفسه واحتاط لدينه وعمل لرمسه يختار أحد أمرين أما أن يدخل لإيالتنا هو ومن معه آمنين على أنفسهم ومالهم لهم وما لنا وعليهم ما علينا أو يصحر فطلبوا منا الإمهال حتى يوجهوا بعضهم يخبرونه بالملاقة ويستدركون الأمر قبل القوات فأجبناهم إلى ذلك فما وصلوا حتى ضرب على المحلة ليلا فرده الله بالخبيثة وأشوه أوبه وترك قتله صرعى بعد ما حمل منهم عندا وجعل يدفن منهم في قفوله ويخفي ما حل به في أقوله فتقدمت إليه المحلة الغالبة بالله وقاتلته قتالا أذاقته فيه الوبال والخيال فكانت الكرة عليه فأجفل إجمال النعام واستدبر المعركة وهام ومات من خاصته ورؤسائه وأهل شدته وذوي بأسائه عدد معتبر ومن هو أدهى وأمر وعادت جموعه جمع تكسير وجيوشه موزعة بين قتيل وأسير وسخر بهم بعد أن كانوا ساخرين وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ومن الله استمد التوفيق والهداية إلى أرشد طريق والسلام في الثاني والعشرين من محرم الحرام فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف قال صاحب كرامات الشرف وأما الحاج عبد القادر فإنه فر إلى الفرنسيين كما قلنا بقي عنده مدة قال صاحب كرامات الشرف ما صورته لما فر الحاج عبد القادر إلى الفرنسيين بقي عندهم ست سنين ثم أعتقه نابليون الثالث وعين له مرتبا سنويا يدفع إليه من بيت مال الدولة فسكن دمشق الشام ولم يزل قاطنا بها إلى هذا اليوم اه قلت وهو الآن في قيد الحياة حسبما يبلغنا والله تعالى يتولى أمر المسلمين ويتداركهم بلطفه وفضله أمين

قال أبو عبد الله أكنسوس وفي ضحى يوم الإثنين الرابع من المحرم فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف توفي الوزير الأعظم الفقيه الأجل الأكرم إمام عملة الرياح ومقدم حملة ذلك الشراة مقلد الدولة بقلاند النثار والنظام في المواقف العظام والمزري ببدائعه وأوابده وروائعه بديع الزمان والفتح بن خاقان أبو عبد الله محمد بن إدريس جدد الله عليه ملابس الرضا كلما لاح نجم وأضا فولى السلطان مكانه الفقيه الجيبب ذا الأخلاق العاطرة والأمانم الكافة الماطرة والرأي الأصيل والأمر المحبوك والباطن الصافي الذي يحاكيه الذهب المسبوك أبو عبد الله محمد العربي بن المختار الجامعي ثم لما قدم السلطان رحمه الله لحضرة مراکش آخر قدما قدمها سنة سبعين ومائتين وألف عزله وولى مكانه الفقيه الكاتب اليجي

النزبه أبا عبد الله محمد بن عبد الله الصفار التطواني وفي أوائل رمضان من هذه السنة أعني سنة أربع وستين ومائتين وألف خرج السلطان رحمه الله من فاس إلى ناحية وجدة فوصل إلى عين زورة فوقف على تلك النواحي وأصلح من شأنها وعاد إلى فاس ليلة عيد الأضحى من السنة وفي سنة خمس وستين ومائتين وألف كانت فتنة عرب عامر بأحواز سلا وفتنة عرب زعير بأحواز رباط الفتح وكتب هاتان القبيلتان على المدينتين وأحوا عليهما بالغرارات والنهب والمبالغة في العيث والإفساد بالطرقات والجنات واستاقوا السرح مرارا وبقي النتائج عند أربابه حتى هلك ضياعا إلى غير ذلك ولما تجاوزوا الحد في الطغيان بعث السلطان وصيفه الباشا فرجى صاحب فاس الجديد فأرقع بعامر وقعة شنعاء رابع يوم النحر من السنة ومزقيهم شذر مذر بعد أن تحصنوا بالعراك فيما بين سلا والمهدية وفي هذه السنة حج ولد السلطان المولى الرشيد والمولى سليمان واعتنى بشأنهما صاحب مصر وصاحب الحجاز غاية ورجعا من السنة القابلة وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب كان يطلع في ناحية المغرب ويغرب بعد

العشاء مدة من شهر ونحوه ففرغ الناس من ذلك وتخوفوه كما قال أبو تمام وخوفوا الناس من دهيا مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب وفي سنة ست وستين ومائتين وألف أحدث السلطان المكس بفاس وغيرها من الأمصار أحدثه أولا في الجلد على يد المصطفى الدكالي بن الجيلاني الرباطي والمكي القباچ الفاسي ثم أحدثه في البهائم ثم تفاحش أمره في دولة ابنه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله وهلم جرا وفي هذه السنة وذلك ليلة السادس والعشرين من رمضان توفي ولي الله أبو عبد الله سيدي عبد القادر العلمي البركة الشهير صاحب الأزجال الملحونة وكانت وفاته بمكناسة الزيتون ودفن بحومة سيدي أبي الطيب وعليه بناء حفيلا إلى الغاية رحمه الله ورضي عنه وفي هذه السنة بعث السلطان ولده المولى عبد القادر وهو ابن اثنتي عشرة سنة إلى سلا بقصد القراءة بها فنزل بدار قاضيها أبي عبد الله محمد بن حسون عواد وكتب إليه السلطان رحمه الله بأن يعود الولد المذكور الخشن من المطعم والملبس وأن لا يمكنه من شرب الأتاي إلا مرة أو مرتين في الجمعة وفي هذه السنة أيضا كان الغلاء الكبير والجوع المفرط وكان أكثره بقبايل الحوز من ابن مسكين وعبد دكالة وغيرهم فأهرعت هذه القبائل إلى بلاد الغرب والفحص وأكلت الناس الجيف والميتة والنبات وصار يعرف عند أهل البادية بعام الحيزي وعام يرني وكان الرجل يأكل ولا يشبع وإذا أمعن في الأكل وتضلع شعبا لم تمض إلا هنيهة حتى تضطرم أحشاه جوعا وكان المد بسلا ورباط الفتح وهو مد كبير جدا قد بلغ ثمانية عشر مثقالا فجعله العامة تاريخا يقولون كان ذلك عام ثمانية عشر مثقالا وفي سنة سبع وستين ومائتين وألف وذلك ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني منها توفي الفقيه العلامة القاضي بسلا أبو عبد الله محمد بن حسون عواد ودفن بزواية الشيخ سيدي أحمد بن عبد القادر التستوتوني من حومة باب أحسين من المدينة المذكورة وكان رحمه الله عارفا بالفقه والحديث والنحو قد أفنى عمره في جمع الكتب ونسخها وخطه معتمد سالم من التصحيح وكانت فيه شفقة على الضعفاء والأشراف ونوي البيوتات كثير البرور بهم والإحسان إليهم رحمه الله وفي يوم الأربعاء فاتح هذه السنة توفي الشريف البركة الأفضل أبو عبد الله سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني وكان جليل القدر شهير الذكر نفعنا الله به وبأسلافه وفي سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجم الفرنسيين على ثغر سلا وذلك بسبب مركبين وردا إلى مرسى العدوتين مملوعين قمحا وكانت السنة سنة مسغبة فقتل المركبان بساحل سلا فتسارعت العامة إليهما وانتبهوا ثم تجاوزوا ذلك إلى ألواح المركبين وأتتهما فتوزعوا وكان المركبان لتجار الفرنسيين فتكلموا في شأنهما مع السلطان رحمه الله فكتب إلى عامل سلا أبي عبد الله محمد بن عبد الهادي زنيير يستكشفه عن الخير فجدد ذلك ظنا منه أنه يدفع بذلك عن البلد ولما لم يحصل الفرنسيين بالكلام مع السلطان على طائل هجم على سلا يوم الثلاثاء مهل صفر من السنة المذكورة في خمسة

بابورات وقباچ كبير ويقال له النابويس يشتمل على نحو ستين منفعا أو أكثر ومن الغد زحف بمراكبه حتى سامت بها البلد في الساعة العاشرة من النهار وشرع في رمي الكور والبنب إلا واحدا منها فإنه تباعد قليلا وبقي ينظر قيل هو للنجليز وكان ترادف الكور والبنب على البلد على صورة فضيحة مثل الردع القاصف تكاد تنهد له الجبال وكان في أول النهار لا يفتر وبعد الزوال صار تتخلله فترات بسيرة واستمر الحال على ذلك إلى أن غربت الشمس ومضى نحو نصف ساعة وكانت مدة الرمي ثمان ساعات ونصفا وبذل الناس مجهودهم في مقابلتهم بالرمي وفي آخر النهار عجز الناس وبقي يرمي وحده واستشهد من المسلمين نحو سبعة أنفس وكان الكور والبنب الذي رمى به العدو في ذلك اليوم شيئا كثيرا فالمقل يقول سبعة آلاف والمكتر يقول اثنا عشر ألفا وكان البنب يتفرقع بعد مدة وقتل أناسا ووقع في المسجد الأعظم ومناره كور كثير حرق

السقوف والحيطان وكذا في دور أهل البلد فأنعم السلطان على الناس بإصلاحها من بيت المال وقد ساق منوبل خبر هذه القصة وقال إنه لما انقضى للفرنسيين الزاد يعني الكور والبارود أفلح ليلا لأنه خاف إن لم يذهب طوعا ذهب كرها ولما اتصل الخبر بالسلطان رحمه الله وهو يومئذ بفاس كتب كتابا يقول فيه ما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه عبد الرحمن بن هشام الله وليه خديما الأرضي الطالب محمد بن عبد الهادي زنيير وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد وصلنا كتابك مخبرا بما صدر من مراكب عدو الله الفرنسيين من استرسال الرمي على المدينة من ضحي النهار إلى قرب العشاء ثم أفلعوا بالخبية والهوان ورددهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا ومنح الله المسلمين من الصبر والثبات واليقين ماقرت به عين الدين وكان قذا في عين أهل الشرك المعتدين واستشهد من المجاهدين من ختم الله له بالسعادة الأبدية والحياة السرمدية فالحمد لله على إعراز دينه ونصر ملة نبيه ولا زالت والحمد لله مشكاة الإسلام ساطعة الأنوار مشيدة المنار والله متم نوره ولو كره الكافرون الصف ولا يخفى عليكم ما ورد من آيات القرآنية والأحاديث النبوية في فضل الجهاد في سبيل الله والصبر لإعلاء كلمة الله وقد قتمت بالواجب عليكم في ذلك وكنتم عن الظن بكم وأتيتم بالمطلوب منكم أصلحكم الله ورضي عنكم ومن قتل فقد أكرمته الله بالعظيم الذي لا نفاذ له وكل ما تلف يخلفه الله فما كان في الله تلفه فعليه سبحانه خلفه فزيدوا في التيقظ والصبر أعانكم الله وقد أمرنا خدامنا أمناء العدوتين بتوجيه معلمين للغاية لقطع الكرايط وكتبنا لخديما ابن الحفيان بإنزال خيام بقربهم يأوون إليها حسبما طلبت ولا تعدمون شيئا مما يخصكم إن شاء الله وما ذكرت من اجتماع أهل المدينة عندك مع القاضي والأمين راغبين في الكتب لحضرتنا العلية بالإنعام عليهم بما يصلحون به صفاتهم ومساجدهم ودورهم وأسوارهم فها نحن كتبنا لأمناء العدوتين بالقدوم عليكم والتطواف على المحال المتهممة دور

وغيرها بمحضرك مع القاضي والعدول وتقويم إصلاح كل محل بالمناسب وأما الجامع الكبير وسيدي ابن عاشر فييسرون لهما الإقامة وعن تيسيرها يشرعون في إصلاحهما وأما الصقالة الجديدة والسور فيشرعون الآن في إصلاحهما إصلاحا متقنا بالطابية الجديدة التي لا يؤثر الكور فيها شيئا ويجعلون لها ساترا على كيفية بحيث يكون الضارب في أمان ولا تتراخوا في ذلك ونحن على نية إحداث بستين جيد إن شاء الله عند منتهى السور من جهة الصقالة الجديدة فالعزم العزم والحزم الحزم ويصلك كتاب أقرأه على خداما أهل سلا والسلام في ثامن صفر عام ثمانية وستين ومائتين وألف انتهى نص الكتاب الشريف وقد أحدث السلطان رحمه الله هذا البستين فجاء في غاية الجودة والمتانة والحسن وهو أثر من آثار الدول العظام وفي هذه السنة ورد كتاب من السلطان في شأن حصر السكة يقول فيه ما نصه وبعد فقد طالما حاولنا حصر الزيادة في السكة وحذرنا وأندرنا وأوعدنا من تعدى فيها حدا أو مد فيها بغير ما عينا يدا فلم يزد الناس إلا تطاولا فيها وإقداما عليها فاستخرنا الله في أمرها فظهر لنا أن نزيد فيها ما تواتأ الناس على زيادته ولم يرجعوا عنه تميميا للأعداد وتكميلا للإنذار فمن وقف عند ما حدنا ولم يحد عما أبرمنا فقد اختار سلامة نفسه وماله ومن تعدى واقتات في ذلك بأدنى شيء فقد سعى في هلاك نفسه ويناله من الويال واللكال ما يتركه عبرة لمن اعتبر وتذكره لم تذكر وقد أعذر من أنذر وها نحن جعلنا للبندي أربعين أوقية وللضبلون اثنين وثلاثين مثقالا وللريال ذي المدفع عشرين أوقية وللذي لا مدفع فيه تسع عشرة أوقية وللبيضة التي بالمدفع خمس أواق وللتي لا مدفع فيها أربع أواق وللدرهم الرباعي أربع موزونات ونصف موزونة وللدرهم السداسي سبع موزونات فعلى هذا العمل فأعلموا به من إلى نظركم وفي إياتكم ومرورهم بالوقوف عنده ومن حاد عنه وشتمتم عليه رائحة الخوض والتعدي فيه ازجروه زجرا شديدا وأعلمونا والسلام في رابع عشر ربيع الثاني عام ثمانية وستين ومائتين وألف

وفي سنة تسع وستين ومائتين وألف غزا السلطان رحمه الله قبيلة زمر التلج وكان بمكناسة فكتب أولا لابنه وخليفته سيدي محمد بمرآكش فنهض منها ومر على تالدا فأوقع ببني موسى وقطع منهم أربعة وستين رأسا وقيض على مائة وخمسين مسجوناً وكانوا قد قتلوا عاملهم أبا العباس أحمد بن زيود ثم دخل الخليفة رباط الفتح يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة فأقام به إلى يوم السبت السادس عشر منه ثم عبر الوادي ونزل بقرمبم من أعمال سلا ثم سار من الغد وبات بسبيدي علال البحرأوي فأقام هناك يومين ثم رحل فنزل بتيفلت وأقام أياماً ثم تقدم إلى دار ابن الغازي وكان السلطان رحمه الله قد خرج من مكناسة فنزل الخميسينات وشن الغارات على زمر فتوغلوا في الجبال فاننتسف السلطان أموالهم وأكل زروعهم حتى أشجاهم ثم ارتحل عنهم إلى مراکش وارتحل الخليفة إلى فاس وذلك في السادس والعشرين من ذي القعدة من السنة ومن هذا التاريخ صار السلطان والخليفة رحمهما الله يغروانهم كل سنة ويجتمعان عليهم فتننتسف الجنود زروعهم وأموالهم حتى أضر بهم الحال وأشرفوا على الهلاك وكادت تعدم الأوقات وأذعنوا إلى الطاعة طوعا وكرها ولما نهض السلطان عنهم في هذه المرة كتب كتابا يقول فيه وبعد فإن فساد زمر يعرفه الخاص والعلم والجمهور أشد سوادا من الليل وأقوى مضاهاة بالسيل وطالما ذكرناهم ووعظناهم وحذرناهم وأنذرناهم وغضضنا الطرف عنهم مقابلين شنتهم باللين وتحريكهم بالتسكين فأطغاهم العجب وأبظروهم وغطى الشر سمعهم وبصرهم ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا المائدة ولما رأينا ضلالهم لم يسفر عنه صبح الإقلاع وشعائر الإسلام استولت عليها يد الضياع استنهضنا إليهم الجيوش المنصورة التي لم تزل أولية الفتح أمامها بحول الله منشورة واستقدمنا ولدنا الأبر سيدي محمدا حفظه الله من مراکش في جيش يقدمه اليمن والإقبال ويسوقه السعد في المقام والترحال ونهضنا نحن من مكناسة الزيتون في جيش شحن الفضاء وملأ النواحي والأرجاء خيلا ورجالا خفافا وثقالا وكنا فيما تقدم

نحارب هؤلاء المفسدين في المحل المشهور بالخميسات فكانت المحال لا تستوعبهم قتلا ونهباً وتشريدا وضرباً فرأينا هذه المرة أن ننزل عليهم أولا بعين العرمة محل أفسدهم على الإطلاق والشمول والاستغراق فخيمننا بها أياماً ثم رحلنا منها ونزلنا بمحصى ثم رحلنا منه ونزلنا الخميسات وفي خلال مقامنا ورحيلنا حل ولدنا سيدي محمد حفظه الله من الرباط ونزل بتيفلت محل المفسدين ومحط رجال البيعة المعتدين وتقاربت المحلتان فعظمت على المفسدين بذلك النكابة وبلغت فيهم الحد والنهائية واشتغلت المحال بأكل زروعهم وتبديدها واستخراج خباياهم قديمها وجديدها وهم حيارى ينظرون وإلى ما حل بهم من البلاء يبصرون وكلما عزموا على المدافعة رجعوا بالهوان وتخطفت رؤوس زعمائهم العقبان فعجزوا إذا وخرجوا من بلادهم وأيقنوا أن الشفاء المكتوب عليهم حكم بطردهم وبعادهم ولم يبق بها أنيس إلا اليعافير والا العيس وتحصنوا بأوعارهم المعلومة وصياصيمهم المشوومة في جبال تنقيب بالغيوم وكادت تصافح النجوم فضاق بهم الحال وهلك العيال وضاعت الأموال جوعا وعطشا وتصرف فيهم البلاء كيف شاء ومع تحصنهم بتلك الأوعار وملتف تلك الأشجار كانت الجيوش تود أن تقتحمها عليهم وتهب نفيس أعمارها في أخذهم ونحن قد هبنا الرفق الذي يزين وتركنا الخرق الذي يشين فأمرنا بالإسماك عنهم حتى تلفظهم أوعارهم وتحرقهم نارهم فلما طال بهم الأمد وتجروا حمى الكمد استجاروا بولدنا سيدي محمد حفظه الله فشفع عندنا فيهم فقبلنا شفاعته على شروط قبلوها وحقوق التزموها ومثالب نبذوها وجنحنا إلى الحلم والعفو اللذين أمر الله بهما وأسندنا أمرهم إلى ولدنا المذكور قطعاً لأعدائهم ونهضنا عنهم والحمد لله محتسبين والله أسأل توفيق المسلمين أجمعين أمين في السادس والعشرين من ذي القعدة الحرام عام تسعة وستين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب أيضا وفي أوائلها استوزر السلطان رحمه الله الفقيه العلامة الأفضل أبا عبد الله محمد بن عبد الله

الصفار التطاوي عقب قدومه إلى مراکش وفيها تم بناء البستين العظيم بسلا الموضوع بالزاوية الشمالية منها على شاطئ البحر وكان الصائر عليه بأمر السلطان من أحباس المسجد الأعظم برباط الفتح خمسون ألف مثقال أو ما يقرب منها وفيها أيضا وقعت نادرة بفاس وهي أن الإمام كان يخطب يوم الجمعة بمسجد القرويين فسقط بالصف الثالث منه قطعة من الجبص المبني به السقف تزن نحو ربع قطار ففر الناس الذين كانوا بذلك الصف فرأهم الذين من خلفهم ففروا فرارهم غيرهم ففعلوا مثلهم حتى تقوضت صفوف المسجد كلها وخرجوا يتسابقون إلى الأبواب ووقع عليها ازحام شديد وجاوزت مقدمتهم سوق الشماعين وتركو نعالهم ولبدهم وطيلاسهم بل وقلانسهم وضاع من المصاحف والأجزاء ودلائل الخيرات ما لا يحصى كل ذلك وهم لا يدرون ما وقع وما تراجعوا إلا بعد حين ثورة إبراهيم يسمر اليزدكي بالصحراء لما كانت أواسط إحدى وسبعين ومائتين وألف ظهر إبراهيم يسمر اليزدكي بصحراء تافيلالت وكان السبب في ذلك أن برابرة الصحراء يومئذ كانوا حزيين حزب آيت عطة ولهم العزة والكثرة بذلك القطر وحزب آيت يلمان وهم دون ذلك وكانت آيت عطة تؤدي الأشراف بتلك الناحية وتسي جوارهم فقام إبراهيم هذا في آيت يلمان وجنح إلى الأشراف وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم وصار يأمر قومه بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويذكر السلطان بخير ويحض قومه على طاعته حتى اشتهر بذلك القطر وكثر التناء عليه واتفق أن حدث في أثناء ذلك بينهم وبين آيت عطة شأنان فزحف إليهم إبراهيم وأوقع بهم وقعة بعد العهد بمثلها فازداد قومه فيه محبة وغيطة وعلقت به آمال الأشراف وأحبوه لأن غلبة آيت عطة يومئذ كانت من الأمر الغربي وانضم إلى ذلك بسط يده بالعبادة للبعيد والقريب واتصل خبره بالسلطان وكان من طبعه رحمه الله محبة أهل الخير والجنوح لهم فأقبل عليه

ورفع من قدره وولاه على تلك الناحية فاشتد أمره وطار ذكره وسرت فيه نخوة الرياسة فأراد الاستبداد واستحل حاله إلى الفساد حتى صار يرد على السلطان أمره ثم تدنى قليلا قليلا من أطراف المملكة وقوي حسه بالمغرب فكتب إليه السلطان رحمه الله الكتابات وبعث البعوث فقاتلوه برهة ثم قبض الله بعض قرابته فاعتاله واحتز رأسه وجاء به مقربا إلى السلطان وهو يومئذ بمرآكش فأمر السلطان بإعمال المفرحات واستدعى أهل مراکش على طبقاتهم فأفاض عليهم النعم وغمرهم بالإحسان غمر الديق نادرة كان ممن استدعاه السلطان رحمه الله في هذا الصنيع أهل المدارس من طلبة العلم المتعربين بها فجلسوا ناحية من القوم ولما خرج الطعام من دار السلطان وفرق على طبقات الناس اتفق تأخير عن هؤلاء الطلبة واتفق أيضا أن سأل بعض الحاشية بعض الأعوان القائمين على الطعام فقال له من الذي بقي بدون إطعام فقال لم يبق إلا الطلبة والطحانون وكان كذلك فسمعه أحد الطلبة فقال لأصحابه ألا تسمعون إلى ما يقول هذا فقالوا وما قال قال لهم قال إنه لم يبق إلا أنتم والطحانون فقد شوركتم معهم بالعطف بالواو والله لا جليستم وقاموا مغضبين فقتبهم بعض حاشية السلطان واستعطفهم فلم يرجعوا واتصل الخبر بالسلطان فقال دعهم فسنصلح شأنهم ومن الغد دعاهم إلى بستان الوزير ابن إدريس داخل باب الرب من مراکش وأفاض عليهم من النعم ما غمرهم ثلاثة أيام حتى رضوا ثم عمدوا إلى ثمار البستان فاستلبوها عن آخرها وهذه القصة تدل على كرم طبع السلطان رحمه الله وسعة أخلاقه وتعظيمه للعلم وأهله وقد ذكرت بهذه النادرة قول القائل إذا شوركتم في أمر بدون فلا يك منك في هذا نفور ففي الحيوان يجتمع اضطرابا أرسطاليس والكلب العقور وتحقيق

مسألة هذا العطف مذكور في باب الفصل والوصل من علم المعاني وبستان ابن إدريس هذا هو الذي يقول فيه أبو عبد الله أكتسوس رحمه الله ألمم بمغنى اليمن من ذا المجلس وأدر بساحته نجوم الأكويس واسعد فإن الدهر أسعد أهلها وأهلهم فيه حلول المعرس واشرب هنيء الليل في جنباته يغنيك عن جيرون أهل المقدس واصرف عن الزهراء ذكرك ساليا وعن الخورنق والرسوم الدرس لو قلت ما نالت بدائع حسنة غرف البديع وحق مجدك لم تس نصر تحف به المحاسن كلها وتحار في مرآه عين الأكييس فإذا أردت إصابة الأعراض من كل المنى أو كل معنى أنفس أرسل مهام اللفظ في أكتافه إن الحنايا الحذب فيه كالقلس لا شيء أهني من تقييء ظله المخضل أو من زهره المتنتفس تتمثل الأزهار في أنهاره مثل المجرة والنجوم النكس وترى الجداول تلتوي بغصونه تحكي البرين عن الغواني الميس طابيت حسي الكاسات تحت ظلاله وتسابقوا للذات نحو المحتسب يا منزلا قد خصصته سعادة واستبدلته أنعما من أبؤس أصبحت مأوى للوزير محمد نجل الأدارسة الكرام المغرس إنسان عين الكون من لبست به رتب العلى أبهى وأبهج ملبس يا أيها البحر الذي من فيضه كل الأمانى والغنى للمفلس يهنيك ذا القصر الذي أنشأته بالسعد في علم انشراح الأنفس قابل قدور الدوح في جنباته بالغيد ترقل في بهي السندس ومتى شربت زلاله فامزج به راح المرأشف من أغن العيس لا زلت تشرف من مطالع سعده كالبدر يظهر من خلال الحندس والدهر يخدم جانبك ويحتمي بجلالك العالي الأعز الأفعس وفي هذه السنة أعني سنة إحدى وسبعين ومائتين

وَألف كان الوباء بالمغرب وهو إسهال مفرط يعترى الشخص ويصعبه وجع حاد في البطن والساقين ويعقبه تشنج وبرودة واسوداد لون فإذا تَمادى بالشخص حتى جاوز أربعاً وعشرين ساعة فالغالب السلامة وإلا فهو الحنف وفي هذا الوباء مات شيخ الطريقة أبا عبد الله سيدي محمد الحراق التطاوني وبموته أقلع الوباء من تلك البلدة ومات به بسلا منتصف ذي القعدة من السنة مائة وعشرون نفساً وفي هذا اليوم توفي عامل سلا أبو عبد الله محمد بن عبد الهادي زنيبر وفي سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف التفت الخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى عرب الخط فاستعملهم في الجندية بعد أن كانوا في عداد القبائل الغارمة من لدن المنصور السعدي فاعتنى بهم الخليفة المذكور ونقلهم من بلاد سفيان وبني مالك وأحواز العرائش وأنزلهم بزقطة ووادي مكس من أعمال مكناسة وكساهم وأجرى عليهم الجرايات ثم اختل أمرهم بعد سنتين أو ثلاث وفي سنتين وسبعين ومائتين وألف ورد كتاب من السلطان رحمه الله يقول فيه بعد الافتتاح ما نصه خديماً الأَرْضِي الطالب عبد العزيز محبوبية وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فيوصول كتابنا هذا إليك عين عشرين من الولدان النجباء لتعلم علم تطبجيت وانظر لهم معلماً ماهراً أو معلمين من طبجية البلد يعلمهم ويشرعون في التعلم الآن فيبدوون بمقدماته ثم يتدربون منها إلى الأخذ في تعلم رماية المدفع والمهراس وهكذا حتى يجوبوا ويمهروا في الصنعة ويصيروا قادرين على الخدمة ونطلب الله أن يعينهم ويفتح بصائرهم وهؤلاء العشرين يكونون زاندين على من هنالك من الطبجية ونأمر الأمانة أن يرتبوا لهم إعانة على ذلك خمس عشرة أوقية في كل شهر للواحد ثم من ظهرت نجابته منهم وفاق غيره فإننا نزيده في المرتب كما نأمرهم أن يرتبوا لمعلمهم واحد أو اثنين ثلاثين أوقية للواحد في كل شهر زيادة على راتبهم المعلوم واعتن بأمرهم غاية الاعتناء وقد كتبنا لغيركم من المراسي مثل هذا وسننظر من تظهر ثمرته واعتناؤه والسلام في عشرين من ذي القعدة عام ثلاث وسبعين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان وبين النجليز وهي قسمان قسم في أمور التجارة وبيان الصاكة والأعشار وأن لا تعطى من أعيان السلع إلا إذا أراد التاجر ذلك عن طيب نفسه وهي خمسة عشر شرطاً وقسم في أمور الهدنة بشمول الأمن والاحترام لرعيتي الجانبين في أي موضع كانوا وهي ثمانية وثلاثون شرطاً وكان المباشر لعقدها أبو عبد الله محمد الخطيب التطاوني بطنجة بعث السلطان المولى عبد الرحمن أولاده إلى الحجاز وما اتفق لهم في ذلك وفي سنة أربع وسبعين ومائتين وألف بعث السلطان رحمه الله أولاده إلى الحجاز بقصد أداء فريضة الحج وهم المولى علي والمولى إبراهيم والمولى عبد الله والمولى جعفر وابن عمهم المولى أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله وبالغ السلطان رحمه الله في حسن تجهيزهم بما لم يتقدم مثله لإخوتهم الذين حجوا قبليهم لا من الأموال ولا من الرجال ولا من الأدوات والمراكب الفارهة والمرافق العديدة وبعث معهم من الأموال شيئاً كثيراً لأشراف الحرميين ولخواص معينين من الفقهاء والمجاورين ووجه أكابر التجار والأمانة العارفين بعوائد البلاد والأقاليم والأمم مثل الحاج محمد بن الحاج أحمد الرزيني التطاوني والحاج محمد بن جنان البارودي التلمساني وبعث معهم قاضي مكناسة الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب بن سودة المري الفاسي وأخاه الفقيه العلامة السيد أحمد بن سودة في جملة من الفقهاء يقرؤون عليهم أخبرني الحاج عبد الكريم بن الحاج أحمد الرزيني وهو أخو الحاج محمد المذكور أنفاً أن السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله لما عزم على بعث أولاده إلى الحجاز استدعى الأمين الحاج محمد المذكور فدخل عليه

فأوصاه بما تنبغي الوصاية به وأخبره أن المال الذي عينه للنفقة على الأولاد المذكورين هي نفقة جمعت من حلال بعضها من أصول بتأفيلات وبعضها من غيرها ما هو حلال وقال له احتفظ بذلك المال واجعل السخاء فيه بمنزلة الملح في الطعام اه ولما عزم الأولاد المذكورين على الانفصال إلى وجهتهم أصحابهم السلطان رحمه الله وصية كافية يقول فيها ما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وأولادنا عبد الله وإبراهيم وعلياً وأبا بكر وجعفرنا وفقنا الله وإياكم للعمل بطاعته وحفظكم وأرشدكم وتولاكم وكان لكم في سائر أحوالكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فإنه لما كانت الأولاد قطع الأكباد وعماد الظهور وثمار القلوب وشفاء الصدور وجب أن يكون لهم الآباء السماء الظليلة والسحابة المنبيلة وخير الآباء للأبناء ما لم تدعه المودة للتفريط في الحقوق وخير الأبناء للآباء ما لم يدعه التقصير إلى المخالفة والعقوق قال رسول الله الأولاد من رياحين الجنة وقال القائل وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض إن هبت الريح على بعضهم تمتنع العين من الغمض هذا وإن أولى ما زود به والد ولده وصية يتخذها في سفره إمامه ومعتده فاعلموا أنا وجهناك لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام واستودعناكم الله الذي لا تضيع ودائعه فأفقدوا قدر هذه الوجهة التي قصدتموها واعرفوا حق هذه العبادة التي يمتنوها فتوجهوا لها بحسن النية راغبين من الله سبحانه بلوغ القصد والأمنية وأوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية فإن خير الزاد التقوى وبما أوصى به إبراهيم بنبيه يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون البقرة وبما قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم يا بني أقم الصلوة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر لقمان الآية واستوصوا بعضهم بعضاً خيراً وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة وأحرموا مولاي عبد الله أكبركم فكونوا عند إشارته فإن للسنة حقاً في

التقدم وفي الحديث الشريف كبر كبر ومنذ نوبنا توجيهكم لهذه الوجهة السعيدة ونحن نجبل الفكر فيمن توجه معكم حتى وقع اختيارنا على خدينا الحاج محمد الرزيني لكونه نعم الرجل واجتمع فيه من الأوصاف المحمودة ما افترق في غيره فكونوا له بمنزلة الأولاد البررة وليكن لكم بمنزلة الوالد الشفيق كما قال القائل وكان لها أبو حسن علي أبا برا ونحن له بنين وأزرناه بالحاج أبي جنان البارودي لمروءته وحسن هديه وسمته وكلاهما خير والحمد لله وآثرناكم على أنفسنا بالفقيه الأواحد المشارك السيد المهدي ابن سودة وتوجه معه أخوه وهو أيضاً ممن يشفع بعلمه فأوفوا كل واحد منهم قسطه ومستحقه مما أرشد إليه الرسول فهذب وأدب إذ قال ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه وحافظوا على دينكم واشتغلوا بما يعينكم واتركوا ما لا يعينكم ففي الحديث الشريف من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه واعكفوا على قراءتكم ولا تضيعوا الأوقات في البطالة خصوصاً ما يتعلق بالعبادة التي أنتم بصدها فمن الآن اصرفوا كليتكم لقراءة المناسك وابدؤوا بأسهلها وأقربها مناسك المرشد المعين ثم منها إلى ما هو أوسع فروعاً وأكثر مسائل وعلى الفقيه السيد المهدي المذكور أن لا يأل جهداً ونصيحة في تعليمكم والقراءة معكم واجعلوا أيضاً وقتاً مع أخيه فإنه من طلبة الوقت المدرسين فلم يبق لكم عذر في التقصير والبطالة وكل من توجه معكم من الأصحاب والأتباع والدايات فهو في رعايتكم وفي الحديث كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فعلموهم أمر دينهم ومناسك حجهم وخاطبوهم في ذلك على قدر ما يفهمون ليكون عملهم في صحيفتكم وفي الحديث خيركم من تعلم وعلم وفيه أيضاً لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس وتحلوا بحلية أهل الفضل والكمال وكونوا على ما ينبغي من الأدب مع الخلق ومع الخالق وهذبوا أخلاقكم وهشوا وبشوا لملافة الناس وعاملوا كل واحد بما يستحقه ولا زال الناس يذكرون هنالك أحاكم مولاي سليمان

أصلحه الله ويدعون له في تلك الأماكن الشريفة لما رأوا من سعة أخلاقه وحسن بشره وبشاشته مع الناس ونعهد إليكم أن لا تتركوا من الدعاء في أي موضع حللتموه من تلك المواطن الشريفة خصوصاً عند الملتزم والمقام وغيرها من الأماكن التي ترجى إجابة الدعاء عندها وتوبوا عنا في استلام الحجر الأسعد وفي زيارة قبر النبي والتسليم عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وعليكم بالاستقامة في جميع أموركم وسلوك سبيل الموافقة والانتلاف وترك المشاجرة والاختلاف ومخالفة الهوى والنفس والشيطان فإن له مزيد تسلط بالشر في طرق الخير فكونوا في جميعها على حذر قال تعالى إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا فاطر نسال الله لكم الحفظ والسلامة والأمن والعافية ذهاباً وإياباً في أنفسكم ودينكم وديناكم ونستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتم عملكم فتوجهوا في حفظ الله على مهل حتى تصلوا إلى القصر وأقيموا به في جوار أبي الحسن بن غالب نفعنا الله وإياكم ببركاته كما فعل إخوانكم قبل فإن المقام بالقصر خير من المقام بطنجة حتى يقدم البايور ويكتب لكم الخطيب بالإعلام وحينئذ توجهوا إليها راشدين وقد كتبنا بذلك للطالب محمد الخطيب وطالعوا الحاج محمد الرزيني على كتابنا هذا حين تتلاقوا معه إن شاء الله واعلموا أننا عينا عشرين ألف ريال بقصد أن يشتري بها حبس في سبيل الله عشرة آلاف ريال يشتري بها ما يكون حبساً بمكة وعشرة آلاف ريال

يشترى بها ما يكون حبسا في سبيل الله بالمدينة المنورة وهي من جملة ما حاز الحاج محمد الرزيني ورفيقه فيما حازا من الصائر رجاء أن يبقى أجر ذلك جاريا منتفعا به إن شاء الله والسلام في السادس من رمضان المعظم عام أربعة وسبعين ومائتين وألف قال أكنسوس وكان ركوبهم من طنجة في قرصان النجليز فلما بلغوا إلى الإسكندرية تلقاهم صاحب مصر بغاية الفرح والسرور ووفق ما يوصف من الإكرام والبرور وأنزلهم في أعز مساكنه وأبهها وأهجعها وأشهاها وأعد فيها كل ما يحتاج إليه من أواني الفضة والذهب وفرش الحرير والديباج والنفائس الغربية ورتب لهم الرواتب العالية من أنواع الأطعمة والأشربة الفاخرة التي تناسب أقدارهم وأباح لهم الدخول إلى كل محل أرادوا رؤيته من الأبنية والمصانع والرياض والبساتين الملوكية التي يتعجب من رؤيتها وتنقل أخبارها فشاهاوا من ذلك ما لا يكشف حقيقته اللسان وما لا يظن أن تتاله قدرة الإنسان ثم ركبوا في بحر القلزم إلى جدة فقصوا مناسكهم وشفوا غلتهم من مباشرة شعائر الشريعة المطهرة من الطواف والسعي والوقوف وزيارة المشاهد المباركة وتوجهوا إلى أعظم المقاصد وأسناها التي هي لنفوس المؤمنين غاية مناهة زيارة شفيح الأمم في الموقف الأعظم وكانوا صادفوا بمكة وخما وفساد هواء مات منه كثير من الحجاج الأفاقين فمات من أصحابهم جملة ومات من أولاد السلطان المولى إبراهيم والمولى جعفر الأول بمكة والثاني بالمدينة وسلم الله الباقي وأكرمه وأعلى مقامه وعظمه وجمع له بين شرف الحياة وثواب احتساب مصيبتة لمن مات ولما فازوا بزيارة سيد الأرضين والسماوات ووافقتهم السعادة في ذلك المقام الذي تتضاءل دونه جميع المقامات وأدركوا ما أموه من لثم تراب أشرف البقاع وأكرم الحجر وانفجر عليهم من كرم الله ما انفجر ونال كل واحد ما كان يؤمله ويرجوه فخرجوا من المدينة راجعين بكل خير وغسلوا بالدموع ما كانوا عفروه في تلك الأماكن من الوجوه ولكن نالهم مشقة فادحة من عتاة الأعراب في المسافة التي بين المدينة وينبع لأنهم انفردوا عن الركب عند الرجوع ولولا لطف الله لاستوصلوا عن آخرهم ولقد كانت نجاتهم من تلك الشدة من أعجب العجائب وفي خلوصها منها عبرة لأولي الأبواب فإنهم كمن بعث بعد مماته وإقباره وانقطاع أنفاسه وأخباره والحمد لله الذي لا تخفر ذمته ولا تنتهك حرمة فلما بلغوا ينبع وجدوا المراكب التي تحملهم في انتظارهم فركبوا قافلين ورياح السلامة تسوقهم وأرياح التجارة والسعادة قد تكفل بها سوقهم فلما وردوا حضرة مراكش تحت ظلال السلامة وقد نشر عليهم القبول بنوده وأعلامه باتوا بقترة تانسيفت وفي الغد ركبت الخيول والعساكر السلطانية لتلقهم وخرج أهل

مراكش في زيهم وزينتهم وكان يوم لقائهم يوما مشهودا وموسما من المواسم المعظمة معدودا وفي سنة خمس وسبعين ومائتين وألف وذلك يوم الجمعة السابع عشر من محرم منها توفي عالم فاس والمغرب والمجيد في صناعة التدريس والتحرير لا سيما مختصر الشيخ خليل الفقيه العلامة الأوحى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الفيلالي الفاسي وكان المصاب به خصوصا عند طلبية العلم عظيما ولم يترك بعده في إجابة تحرير المسائل الفقهية مثله رحمه الله ونفعنا به وفي ليلة السادس من شعبان منها بعد العشاء الأخيرة زلزلت الأرض زلزالا يسيرا وفي رابع شوال من هذه السنة ورد المجاهد أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي فينش السلاوي من مدينة لوندرة إلى ثغر سلا ومعه مركب موسوق فيه سبعة عشر مدفعا ومهراسان عظيمان من المعدن وأشياء أخر من آلة الحرب وكان جلبه لذلك بأمر السلطان المولى عبد الرحمن لعمارة البستون الجديد بسلا الذي قدمنا ذكره قبل والله تعالى أعلم وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب أيضا وهي المرة الثالثة في هذه المدة وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله كان أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن رحمه الله قد قدم مراكش فاتح سنة سبعين ومائتين وألف ولأول دخوله عزل الوزير أبا عبد الله الجامعي ورتب مكانه الفقيه أبا عبد الله غريط أياما يسيرة ثم استوزر الفقيه أبا عبد الله الصفار التطاوي واستمر السلطان مقيفا بمراكش إلى آخر سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف فغزا زمور الشلح واجتمع عليها هو والخليفة سيدي محمد على العادة ثم صار الخليفة إلى مراكش واتحدر السلطان إلى مكناسة فاستمر مقيفا بها يغزو زمور الشلح ويعود إليها وربما ذهب في بعض

الأحيان إلى فاس إلى أن دخلت سنة ست وسبعين ومائتين وألف فمرض مرض موته وقد كان ابتداء به وهو منازل لزومور فهض عنها إلى مكناسة وتمادى به مرضه إلى أن توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من محرم فاتح سنة ست وسبعين ومائتين وألف ودفن بين العشاءين أول ليلة من صفر بضريح السلطان الأعظم المولى إسماعيل رحم الله الجميع بمنه وقد كنت رثيته بقصيدة شئتني الآن وأولها أمن طيف ذات الخال فليك هائم ودمعك هام واكتئابك دائم وهل أذكرتك النائبات عشائرا عفت منهم بعد المعالي معالم ورثاه الفقيه أبو عبد الله أكنسوس بقوله هذي الحياة شبيهة الأحلام ما الناس إن حقت غير نيام حسب الفتى إن كان يعقل أن يرى منه لأدام رؤية استعلام فيرى بداية كل حي تنتهي أبدا وإن طال المدا لتنام والنفس من حجب الهوى في غلظة عما يراد بها من الأحكام أوليس يكفي ما يرى متعاقبا بين الورى من سطوة الأيام من لم يصب في نفسه فمصابه بحبيبه حكما على إلزام بعد الشبيهة شبيهة يخشى لها ذو صفة أن يبنتلى بسقام دار أريد بها العبور لغيرها ويظنها المغرور دار مقام منع البقاء بها تخالف حالها وتكرر الإشراق والإظلام لو كان ينجو من رداها مالك في كثرة الأنصار والخدام لنجا أمير المؤمنين ومن غدا أعلى ملوك الأرض نجل هشام خير السلاطين الذين تقدموا في الغرب أوفي الشرق أو في الشام سر الإله ورحمة منشورة كانت سراقق ملة الإسلام قصدته عادية الحمام فما عدت إن هددت علما من الأعلام لم تحجب الحجاب منها طارقا كلا ولا دفعت يد الأقوام والمملك في عز مهيب شامخ وإمامه في جراءة الضرعام

عجبا لها لم تخش من فتكاته والأسد تزار حوله وتحامي عجبا لها لم تستح من وجهه والوجه أبهج من دور تمام عجبا لها لم ترع طول قيامه متهجدا لله خير قيام تبا لها لم تدر من فجعت به من معتق وأرامل الأيتام أسفا على ذات الجلال وأنه لأجل من أسف وفرط هيام يا مالكا كانت لنا أيامه ظلا ظللنا دائم الإنعام لا ضير أنك قد رحلت ميمما دار الهناء وجنة الإكرام في حضرة تغنو عليك بشائر من حورها بتحية وسلام ضاجعت في تلك القصور كواعبا درية الألوان والأجسام تسقيك صرف السلسبيل مروقا وتدير كأسا من مدام فلك الرضى فانعم بما أعطيتك ولك الهناء بنيل كل مرام بقية أخبار أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن وسيرته ومآثره يكفيك أيها الواقف على أخبار هذا الإمام الجليل السري النبيل من مناقبه خصلتان إحداهما شهادة عمه السلطان المولى سليمان له بالثقوى والعدالة والمحافظة على خصال الخير ونوافله حتى قدمه على بنيه حسبما مر ذلك كله مستوفى والثانية إقامته صلب هذه الدولة الشريفة بعد إشرافها على الاختلال وردها إلى شبابها بعد أن حان منها الزوال والارتحال كما رأيت أيضا فعلى التحقيق أن المولى عبد الرحمن رحمه الله هو المولى إسماعيل الثاني وأما حزمه وضبطه وكمال عقله وتأنيه في الأمور ووضعته الأشياء مواضعها وتبصره في مبادئها وعواقبها وإجراؤها على قوانينها فما أظنك تجهل منه شيئا بعد أن قصصنا عليك ما مضى من أخباره رحمه الله وقد رأيت كيف نزلت به النوازل وترادفت عليه الهزاهز من غير معين يذكر أو وزير يعتبر إلا في القليل النادر فقام رحمه الله بأعباء ذلك كله وعالج حلوه ومره حتى رد النصاب الملكي

إلى أصله وأحل عزه في محله وأما ورعه وصبره وحياؤه وتوقفه في الدماء توقفا تاما إلا إذا ححصن الحق وصرح الشرع فكل ذلك أمر معلوم يعلمه الخصوص والعموم وأما آثاره بالمغرب فشيء كثير من ذلك ما افتتح به ولايته من بناء ما تهدم من مرسى طنجة وصير عليه مالا عظيما حتى أعاده أحسن وأحصن مما كان ومن ذلك تجديد الحرم الإدريسي بفاس وبناء مسجده وتوسعته وتنميته حسبما مر ومن ذلك البرجان العظيمان بسلا وأشباز الكبير المواجه للبحر منها والمارستان الكبير بضريح الشيخ ابن عاشر والمنار الشهير بالمسجد الأعظم منها وخزين البارود بالقليعة وغير ذلك وأشبار الكبير برباط الفتح وبنى بأعمالها لحفظها وتأمين طرقها قصبين كبيرتين إحداهما الصخيرات والأخرى قصبية أبي زنيقة فأمّن الناس بهما وارتفقوا بالتردد إليهما وجدد ما تهدم من أبراج الصويرة واعتنى بها وصير عليها أموالا ثقلا فجاءت في غاية الإقتان والحصانة ومن آثاره بمراكش أجدال الشهير وتجديد جامع المنصور بالقصبة بعد أن لم يبق منه إلا الاسم فأعادها إلى حالته الأولى على ضخامته وانفساحه وعلو بناه وتجديد جامع الكتبيين مرتين وإصلاح قبة الشيخ أبي العباس السبتي رضي الله عنه والزيادة في جامع الشيخ أبي إسحاق البلقي بسوق الدقايق منها وهدم جامع الوسطى وإعادته على شكل بديع وهينة حسنة وبناء جامع أبي حنون وإقامة الجمعة به كما كانت أولا وبناء جامع

القنارية والزيادة فيه ومن آثاره بحضرة فاس العليا تجديد بستان أمانة المرينية قال أكنسوس وكان هذا البستان خرابا تألفه الوحوش مع أنه بباب دار السلطان وفي سره الحضرة وقد كان في الدول المرينية على هيئة بهية فيه ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها وفيه مقاعدهم ومنزلهم العالية ومجالسهم المشرفة على بساتين المستقى إلى أن قال وبالجملة فقد كانت تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا وجنتها حازنة من البهجة المرتبة العليا ثم أخذت عليها الأيام بصروفها ومحت من تلك الرسوم جميع حروفها فرأها

الملك قبل مولانا المؤيد فلم يرقوا لحالها ولا أنفذوها من أحوالها مع أنها في جوارهم وعقر ديارهم فعطف الله عليها هذا السلطان المبارك فأعاد بعد الممات محباها وأبرز من ظلمات العدم جميل محباها الخير عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله كان سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام رحمه الله بعين الرضى من والده منذ نشأ وشب وكان متميزا عن سائر إخوته بشدة البرور بأبيه ومتصفا بالسكينة والوقار والصلاح والتقوى وسائر خصال الخير واستخلفه أبوه صغيرا فجرى على السنن الأقوم وحمدت سيرته ولما رأى منه السلطان رحمه الله مخايل النجابة والصلاح فرض عليه وألقى بزمام مملكته بيديه ولم يدخر عنه شيئا من أمور الملك ووظائفه فاستلحق في أيام أبيه واستركب واتخذ العساكر وجند الأجناد وقدم وأخر وخفض ورفع وأعطى ومنع حتى كأنه ملك مستقل وكانت العادة أنه إذا كان السلطان بمراكش كان سيدي محمد هذا بفاس أو بمكناسة وبالعكس فلما مرض السلطان رحمه الله مرض موته بمكناسة كان سيدي محمد بمراكش فلم يرعه إلا ورود الكتب عليه من أخيه المولى العباس ومن الوزير أبي عبد الله الصفار أن السلطان قد أشرف ووقع اليأس منه فهض سيدي محمد من مراكش منزعا وجد السير لعله يدرك حياة أبيه فلما كان ببلاد السراغنة على مرحلتين من مراكش اتصل به الخبر بوفاة السلطان رحمه الله ثم قدمت عليه بيعة أهل الحضرتين فاس ومكناسة وجميع الجيش البخاري وسائر أهل الحل والعقد من أعيان القبائل والبربر فاسترجع السلطان لمصابه وشكر الله إذ أبقي أمر المسلمين في نصابه وكتب بالخبر إلى مراكش وبعث بالبيعة الواردة عليه فاجتمع أهل مراكش على طبقاتهم بجامع الكتبيين وحضر عامل البلد يومئذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي ستة وقائد الجيش السوسي بالقصبة أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد

الجرائي وقواد الحوز من الرحامنة وغيرهم فقرأ كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بالأخبار بموت والده واجتماع الناس على بيعته فارتفعت الأصوات بالترحم على السلطان الصائر إلى عالم الرضى والرحمة وبالنصر لهذا الذي اختاره الله لحماية الأمة وكتب أهل مراكش بيعتهم من إنشاء أبي عبد الله أكنسوس وكذا الجيش السوسي وأهل الحوز وقدموا على السلطان سيدي محمد بمكناسة مؤدين الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فأكرم وفادتهم وأجل مقدمهم وأفاض عليهم من الإحسان ما غمرهم وكان مما قيل في تهنئته بالملك قول أبي عبد الله أكنسوس وجوه الأمانى حسنها متجدد ومنظرها يحكيه خد مورد قضى الحب في كل القلوب بأنها ممالك أرباب الجمال وأعد وكم من عصي للهوى متعفف يفر من السود العيون ويبعد تصيده ظبي على حين غفلة مهفهب مستن الوشاحين أعيد فأصبح مفقود الفؤاد مخبلا وأي فؤاد عاشق ليس يفقد والله في أسر الغرام ونهره نفوس ضعاف ليلهن مسهد إذا الليل أضواها تكنفها الهوى وليس لها غير الكواعب منجد وذئ ظمأ بين الضلوع يجنه إلى رشفات للصبابة تبرد تراءى له من منحى الجزع برقه فظن بأن الجزع ثغر منضد وتذكره تلك البروق مباسما عليهن مرفض الجفان معقد يراقب أسراب النجوم بمقلة تقسمها شطرين نسر وفرقد ويهفو لأيام العقيق فتنتني مدامعه مثل العقيق تبتد وهل ينتهى عهد من سكن اللوى إذا العيش غرض والحبايب تسعد وما زالت الأيام تغري بنا النوى وتنفي الذي نهواه عنا وتبعد ولست أبالي للزمان صروفه وكهفي أمير المؤمنين محمد خليفة رب العالمين بأرضه وصارمه الشاكي الشبات المهند إمام تولى الله تشييد ملكه وناهيك ملكا بالإله يشيد وصفوة هذا الخلق من آل هاشم وأعلى ذوي التيجان فخرا وأمجد

وأرحبهم في العز باعا وفي العلى وأكثرهم في الفضل حفا وأزيد أنته عروس الملك عاشقة له وكم عاشق عنها يذاذ ويطرد وألقت على شوق إليه زمامها قطاب لها منه الجناب الممهّد فأصبحت الأيام تزهر بعدله وتنعم في ظل الهناء وتسعد ففي باه مأوى المكارم والندى وفي باه الخيرات تولى وتوجد ودولته للعز والنصر مآلف وحضرته للأمن واليمن موعد تذل ملوك العالمين ليأسه وتركع مهما أبصرته وتسجد له راحة في الجود ما الغيث عندها وما البحر والدر النفيس المقلد له أنعم تأوي إلى ظلها المنى وتسحب أنيل السماح وترقد وعزم على الخيرات ليس بسامع مقالة من في المكرمات يزهد ورأي ينير الخطب عند اعتكاره ويفسخ ما أيدي النوائب تعقد ووجه إذا ما لاح أيقنت أنه محيا له وقت السعادة مولد حيي كثير الابتسام مبارك يكبر ربي إن بدا ويوحد أهر بهذا المدح منه معاطفا تجر ذيول الفخر إن هو يحمده له العسكر الجرار تبرق في الوغا صوارم منه والمدافع ترعد يعد إلى الأعداء كل كنيبة من الرعد يحدها الوشيع المسدد وكل كمي كالغضنفر مغضبا وكل صقيل هو ماض مجرد بيد العدا قبل اللقاء مهابة فصارمه يفرى الطلى وهو مغمّد هو الملك المشهور بالحلم والدها وبالعلم والشهب الدراري تشهد تشد لإدراك الغنى عند بابه ركائب أنصاها النوب المشدّد يحدث عنه الوفد عند صورته أحاديث من بحر إذا البحر يزيد إلى مجده أمانا قد تطولت وليس لها إلا حياه المؤيد فيما ملكا يجمي الرعية بأسه ويحييهم بالبلد والبذل أرغد يدبر فيهم كل يوم مصالحا تعود بما يرضون والعود أحمد ويشملهم بالعدل والفضل والندا ويصلح بالمصصام من هو مفسد هنيئا لك الملك الجديد فإنه يدوم بحمد الله وهو مسرمد

هنيئا لنا نحن العبيد فإننا بسؤدد مولانا الإمام نسود ودونك يا خير السلاطين كاعبا بديعة حسن للنهي تتودد تدبير كزوس الراح دون تأثم إذا هي أثناء المحافل تنتشد فلا زلت ما بين الملوك مخبرا كما اختبر ما بين المعادن عسجد وفي هذه الأيام ظهر المولى عبد الرحمن بن سليمان بن محمد وقرب من فاس طالبا للملك قيل إن بعض أبناء عمه بفاس ومكناسة لما توفي السلطان رحمه الله كاتبوه واستحثوه للقبوم وواطهم على ذلك بعض عبيد البخاري وبعض البربر الذين بأحواز مكناسة ولما قرب من فاس كان الفقيه أبو عبد الله محمد العربي بن المختار الجامعي يومئذ يلي أمر شرافة بها فقام في ذلك أحسن قيام وحمل الناس على الثبات والتمسك بطاعة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن فكان ذلك سببا في سكون هذه الفتنة وانحسام مادتها فرجع المولى عبد الرحمن بن سليمان عوده على بدئه وأيس من بلوغ قصده وأقام بزواية العياشي عند البربر إلى أن أضمحل أمره ولما قدم السلطان سيدي محمد رحمه الله من مراكش إلى مكناسة اجتاز بمدينة سلا ونزل برأس الماء في الثالث والعشرين من صفر سنة ست وسبعين ومائتين ألف وبعد الزوال دخل في جماعة من حاشيته وزار الشيخ أبا محمد عبد الله بن حسون والشيخ أبا العباس أحمد بن عاشر رضي الله عنهما ودخل البستيون الكبير ورأى مدافعه منصوبة على عجلات الحديد وكانت تغوص في الأرض إذا جرت من شدة ثقل المدافع فأشار بأن يفرش لها بساط من العود الجيد المحكم الصنعة والتركيب حتى يتأتى جرياتها عليه بلا كلفة فصنعت لها كما أشار رحمه الله وقد كنت مدحته بقصيدة لم يبق على ذكرى الآن منها إلا بيتان وهما حوى العلويون المعالي كلها وما منهم إلا ذرى المجد صاعد ولكن أمير المؤمنين محمد هو البدر في العلياء وهي الفراق

انتقاض الصلح مع الإصبنيول واستيلاؤه على تطاوين ورجوعه عنها والسبب في ذلك كان السبب في انتقاض الصلح مع جنس الإصبنيول أن العادة كانت جارية مع أهل سبته من النصارى وأهل اللانجرة من المسلمين أن يتخذ كل من الفريقين محلا للحراسة على المدة التي بينهما وكان النصارى يتخذون هنالك بيوتا صغارا من اللوح والمسلمون يتخذون أخصاصا من البردى ونحوه فلما كان آخر دولة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله بنى نصارى سبته على المحدة بيتا من حجر وطين وجعلوا فيه علامة طاعتهم المسماة عندهم بالكرونة فتقدم إليهم أهل اللانجرة وقالوا لهم لا بد أن تهدموا هذا البيت الذي لم تجر العادة بينائهم وترجعوا إلى حائلكم الأولى من اتخاذ بيوت الخشب فامتنع النصارى من ذلك فعمد أهل اللانجرة إلى ذلك البيت فهدموا وإلى تلك الكرونة فنجسوها بالعزرة وقتلوا منهم أناسا وضيقوا على أهل سبته بالغارات حتى كانوا يصلون إلى السور فرفع أهل سبته أمرهم إلى كبيرهم بطنجة فكلم كبيرهم نائب السلطان بها وهو يومئذ أبو عبد الله محمد ابن الحاج عبد الله الخطيب التطاوني وشكا إليه ما نال أهل سبته من عيث اللانجرة فدافعه الخطيب فلم يندفع وقال لا بد من حضور اثني عشر رجلا منهم بطنجة وسامهم بأسمائهم ولا بد من قتلهم جزاء على فعلهم فعظم الأمر على الخطيب وربما كلف في ذلك باشدور النجليز فقال له أحضر هؤلاء المطلوبين على عين الأجناس

وإذا حضروا وظهر حق الإصبيبول فأنا ضامن أن لا يصيبهم شيء فأعجب الخطيب ذلك وعزم عليه فاتصل الخبر بأهل اللانجرة وأن الخطيب عازم على أن يكتب إلى السلطان في شأن اثني عشر رجلا منهم بأعينهم فمشوا إلى الشريف سيدي الحاج عبد السلام بن العربي الزراني وقالوا له إن الخطيب لا ينصح السلطان ولا المسلمين وإن كل ما قاله النصارى يساعدهم عليه حتى جسرهم علينا ونحن جنناك لتعلم السلطان بأمرنا وتسأله أن يمننا بالقبائل المجاورة لنا ونحن نكفيه

هذا المهم وفي أثناء هذه المدة توفي السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله وولي ابنه سيدي محمد وقدم مكناسة واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه فكتب له الشريف سيدي الحاج عبد السلام بأمر أهل اللانجرة وقرر له مطلبهم فشاور السلطان في ذلك بعض حاشيته فمال إلى الحرب وذلك كان الراجح عند السلطان لأنه عظم عليه أن يمكن العدو من اثني عشر من المسلمين وفق اقتراحه واختياره يقتلهم بمحضر الملائم من نواب الأجناس ورأى رحمه الله أن لا يمكنه من مطلبه حتى يعذر فيه فاستخار الله تعالى وبعث خديمه الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبيدي الرباطي إلى الخطيب بطنجة وأمره أن ينظر في القضية ويستكشف الحال وأن لا ينجح إلى الصلح إلا إذا لم يجد عنه محيصا وكثر المتصحون لدى السلطان وهونوا عليه أمر العدو جدا مع أنه ليس من السياسة تهوين أمر العدو وتحقيره ولو كان هينا فقيرا فوصل الزبيدي إلى طنجة واجتمع بالخطيب وافوضه في القضية فوجد الخطيب جانحا إلى السلم فأبى أن يساعده على ذلك وأظهر كتاب السلطان بتفويض النظر إليه في النزالة فتأخر الخطيب عنها وترك الخوض والكلام فيها وأخر الأمر أن الزبيدي انفصل مع نائب الإصبيبول على الحرب وذهب إلى حال سيبله وأزال الإصبيبول سنجة من طنجة وركب إلى بلاده في الحين وكتب الزبيدي إلى السلطان بالخبر فكتب السلطان إلى الثغور يخبرهم بما عهده مع الإصبيبول من الحرب وأمرهم أن يكونوا على حذر وأن يأخذوا أهبتهم للجهاد وفتح السلطان بيت المال وأبدأ وأعاد في تفريق المال والسلاح والكسي وقدم أولا القائد المأمون الزراري إلى تطاوين في نحو مائة فارس وخمسمائة من رماة العسكر فرابطوا خارج تطاوين إلى جهة سبتة ثم برز جيش الإصبيبول من سبتة في نحو عشرين ألفا من العسكر في غاية الاستعداد وكمال الشوكة ونزل على طرف المحدة داخل أرضه وكان خروجه يوم السبت أواسط ربيع الأول سنة ست وسبعين ومائتين وألف فهض إليه أهل اللانجرة ومن جاورهم من قبائل الجبل وتسامع الناس بذلك فقدموا من كل جهة حتى اجتمع منهم نحو

الخمسة آلاف وزحفوا إلى العدو وقتلوه نحو نصف شهر وكل يوم يقتل منه ضعف ما يقتل من المسلمين لأن حربه كان زحفا بالصف وحربهم كان مطاردة بالكر والفر فلا بد أن يهلك منه أكثر مما يهلك من المسلمين غير أنهم لم يتمكنوا من مخالطته في معسكره ولا من هزيمته لأنه كان يحصن على نفسه بأشبار والمنازلات بخناشي الرمل وغيرها غاية التحصين ثم بعث السلطان رحمه الله أخاه الفقيه العلامة المولى العباس في كتيبة من الخيل نحو الخمسمائة فارس فنزل بموضع يعرف بعين الدالية قرب طنجة ثم بعد أيام زحف إلى العدو فنزل بمدشر يقال له البيوت باللانجرة واستمر القتال بين المسلمين والنصارى على نحو ما سبق نحو العشرة أيام ثم انتقل المسلمون إلى موضع آخر يعرف بأبي كدان خوفا من كرة العدو ودمه إياهم فكان ذلك مما جراً العدو عليهم وأظهر الفشل فيهم وقتلوا هنالك نحو الخمسة عشر يوما ثم إن العدو اجتمع يوما وتحمل بخيله وزحف إلى المسلمين فصدتهم بجميع قوته وشوكته فصبروا له وصدفوه اللقاء فردوه على عقبه ولما لم يستقم له ذلك جمع نفسه ذات ليلة من غير شعور من المسلمين وركب البحر ونزل بمحل يعرف بالفنيديق لأنه كان هنالك فندق قديم وكان العدو في تنقلاته هذه لا يفارق الساحل ليحمي ظهره بمراكبه البحرية وكان بين الفندق ومحلة المسلمين نحو ساعة ونصف فأشار أهل الرأي على المولى العباس بأن يتأخر قليلا لكون العدو قد ضايقه فتأخر المولى العباس بالجيش إلى موضع يعرف بمجاز الحصار فآراد طمع العدو في المسلمين وظهر له ضعف رأيهم في مكان الحرب وعدم ثباتهم لدى الطعن والضرب وكان قائد عسكر الإصبيبول يسمى أردنيل ووزيره المشير عليه يسمى بريم وربنتهم يومئذ إيسابيل الثانية ثم عاد المسلمون إلى مطاردة العدو ومقاتلته على نحو ما أسلفنا فكانوا يذهبون إليه وهو بالفنيديق فيقاتلون من الصباح إلى المساء فكانوا ينالون منه وينال منهم وفي أثناء هذه المدة وفد جماعة من أهل تطاوين على السلطان رحمه الله بمكناسة فأعظموا أمر العدو

وتخوفوا معرفته في مالهم وأولادهم لأنهم كانوا قد أحسوا بشدة شوكته فوعدهم السلطان رحمه الله بأن يمددهم ويحامي عنهم ولا يدخر عنهم شيئا من العدد والعدد حتى يعذر فيهم وفي غيرهم ثم إن العدو ارتحل من الفنيديق بعد نحو عشرة أيام وتقدم نحو تطاوين وكان الناس قبل هذا لا يدرون أين هو قاصد ولما ارتحل من الفنيديق عرفوا أنه قاصد تطاوين فنزل بموضع يقال له النيكرو فأقام هنالك نحو ثمانية أيام والقتال على حاله المتقدم غير أن العدو كان في مادة قوية من البر والبحر يصل إليه من سبتة وغيرها كل ما يحتاج إليه من طعام وعلف وأرز وشعير وبقسماط وغير ذلك حتى أنه كان إذا ارتحل ترك من ذلك فضلة كثيرة يعيشف فيها ضعفاء أهل تلك الناحية وكان ذلك مكيدة مقصودة عنده يظهر بها القوة والرفاهية وكان شذاذ المتطوعة من أهل البادية يهجمون على معسكره بالليل ويجلبون منه البغال والثيران ويصبجون بها في تطاوين وغيرها وكان ضعفاء العقول من العامة يستحسنون ذلك وينشطون له ويرون أنهم قد صنعوا شيئا مع أن ذلك لا عبرة به في جنب ما كان يستولي عليه العدو من الأرض ويتقدم به في نحر المسلمين وهم يتأخرون والحاصل أن المسلمين لم يكونوا يقاتلون على ترتيب مخصوص وهيئة منضبطة إنما كانوا يقاتلون وهم متفرقون أيدي سبا فإذا حان المساء تفرقوا إلى محالهم في غير وقت معلوم وعلى غير تعبئة فكان قتالهم على هذا الوجه لا يجدي شيئا وكان العدو يقاتل بالصف وعلى ترتيب محكم وكانت عنايته بما يستولي عليه من الأرض ويرى تقدمه إلى أمام وتأخر المسلمين بين يديه إلى خلف هزيمة عليهم وقد ذكر ابن خلدون في فصل الحروب قتال أهل المغرب الذي هو المطاردة بالكر والفر وعابه فقال وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صوفيا ونوع بالكر والفر أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب وقتال الزحف أوثق وأشد

من قتال الكر والفر وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصوفهم إلى العدو قداما فذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته وفي التنزيل إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص الصف اه ولازال العدو هكذا ينتقل شيئا فشيئا حتى وصل إلى وادي يعرف بوادي أسمير وكان يتحرى في تنقلاته يوم السبت معتمدا في ذلك حكما نجوميا على ما قيل فلما احتل بأسمير صادف ريحا شرقية هاج من أجلها البحر حتى لم تقدر مراكبه أن تحاذيه قرب الساحل فانقطعت عنه مادة البحر وطلع ماء البحر في وادي النيكرو من خلفه فأفعمه وقطع عنه المادة من سبتة كما طلع أيضا في وادي أسمير من أمامه فحيسه عن العبور وصار العدو متوسطا بين الوادين والبحر عن يساره وانقطعت عنه المواد حتى حكى بعض عسكره بعد ذلك اليوم أن الكليظة وهي خيزة صغيرة تشبه البقسماط كانت أول النهار تباع ببسيطة وفي آخره بيعت بريال ولا وجود لها وأيقنوا بالهلاك لو وجدوا من ينتهز الفرصة فيهم ولكن أين اليد الباطشة ويقروا على تلك الحال يومين أو ثلاثة ثم سكن البحر وانفش الواديان وجاء المدد ولما رأى المسلمون أن العدو وصل إلى ذلك المحل تقهقروا ونزلوا بمدشر القلايين بينه وبين تطاوين نحو نصف ساعة ثم إن العدو عبر الوادي من آخر الليل وأصبح بموضع يقال له المضيق وكان متطوعة الأعراب في هذه المدة على قسمين الحازمون وأهل الغيرة منهم يقولون لولا أنه بين الجبال ومتحصن بالمنازلات لفلنا وفعلنا والآخرين يقول أحدهم ما لي وللتقدم إلى هذه الشرمة وإنما أهل تطاوين يقاتلون عن تطاونهم وأما أنا فحتى يصل إلي بخيمتي في عبدة أو دكالة أو كلاما هذا معناه كأنه يعتقد أنه لا تجب عليه نصرة المسلمين نعم الذين قاتلوا قتالا شديدا وأحسنوا الدفاع وقاموا بالنصرة بنية خالصة وهمة صادقة هم طائفة من شبان أهل فاس وطائفة من أهل زرهون والبعض من آيت يمور وخصوصا الحسين المعروف بأبي ريالة منهم فإنه أبدا وأعاد وآتى بما لم يسمع إلا في زمان الصحابة رضي الله عنهم حكى من حضر وتواتر عنه أنه كان معلما براءة صفراء وكان يضمها إلى صدره ويسددها نحو العدو ثم يحمل على صفهم فيخرقه حتى يأتي من خلفه ويفتك فيهم أشد الفتك ثم يعود ويستلب خيل العدو ويفودها بأرسانها ويأتي بها حتى يدفعها لمن بإزائه وكان إذا تقدم نحو العدو يقول لمن حوله تقدموا فانا درفتكم وأنا سوركم

تكرر ذلك منه المرة بعد المرة ولما أصبح العدو بالمضيق فارق البحر وصمد إلى تطاوين فدخل بين جبليين وكان في انتهاء ذلك المضيق الذي بين الجبليين من جهة تطاوين ويسمى فم العليق بعض أخبية أهل فاس وغيرهم فصمد العدو نحوهم وبغتهم بالكور والضوبلي وهو يفرح بطوبه حتى أعجل البعض منهم عن حمل أثقاله ولما وصل إلى هذا الموضع حصل بتطاوين انزعاج كبير واستأنف الناس الجد والاجتهاد والقتال وتذامر جيش المسلمين وكان اليوم شديد المطر وقاتلوا قتالا شديدا وأبدا أبو ريالة وأعاد في هذا اليوم هلك تحته فرسان وأرسل له المولى العباس فرسه وكان يعتني به ويؤنه بقدره ويبعث الطبل يفرح على خبائه وأصابته في هذا اليوم جراحة خفيفة وهلك من المسلمين والنصارى عدد كثير قيل هلك من أهل تطاوين فقط نحو الخمسمائة وكان الظهور في ذلك اليوم للعدو ومن الغد ارتحل من فم العليق وعدل يسارا إلى المرسي فنزل بها ليتمكن من مدد البحر واستولى على برج مرتيل وما والاها كدار مرتيل التي هي الديوانة وبمجرد وصوله إليها حصنها بأشبارات الرمل والمدافع وغير ذلك واتخذ بها دورا من اللوح وحوانيت منه وأقام مطمئا وصارت المراكب تتردد له في البحر بالأقوات والعدة والعسكر وجميع ما يحتاج إليه حتى استراح ثلاثة عشر يوما ولم يكن في هذه المدة قتال ولا أنشبه العدو وفي هذه الأيام ورد المولى أحمد بن عبد الرحمن في جيش بعث به السلطان من مكناسة ونزل بموضع يقال له فم الجزيرة بالتصغير وكان المولى العباس نازلا بمدشر القلايين بمحل مرتفع يشرف على ما حوله ولما استراح العدو

وصلحت أحوال جيشه أنشب القتال فكان يخرج فيحوم حول المحلطين فيقاتل ويرجع فكان بريم دائما يكون في أول المقدمة على فرس أبيض مشهورا عندهم موصوفا بالشجاعة وجودة الرأي ثم إن العدو عزم على مصادمة المسلمين والهجوم على تطاوين فارتحل يوم السبت الحادي عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف وانكش واجتمع وتقدم للقتال وأرسل جناحا من الخيل طالعا مع الوادي إلى جهة المدينة وجناحا من العسكر الرجالة طالعا من الغابة إلى جهتها أيضا وزحف بعسكره شيئا فشيئا وهو في ذلك يرمي الكور والضوبلي والبغال تجر المدافع والجناحات ممتدان يكتنفان محلة المولى أحمد ولما قريبا منها وكاد ينطيقان عليها فر من كان بها وتركوا الأخبية والأثاث بيد العدو فاستولى عليها ونزل هنالك بعسكره وحصن عليه وتقهقر المولى العباس بجيشه حتى نزل خلف تطاوين وبقيت بينه وبين العدو وكان في تقهقره هذا قد دخل المدينة ومر في وسطها واضعا منديلا على عينيه وهو يبكي أسفا على الدين وقلة ناصره ولما استقر بالمحلة مع العشي خرج إليه أهل تطاوين وشكروا إليه ما نزل بهم من أمر العدو واستأندوا في تحويل أثاثهم وأمتعتهم وحريمهم إلى مداخل الجبل وحيث يأمنون على أنفسهم قبل حلول معرفة العدو بهم فأذن لهم وعذرهم وكان قيل ذلك قد منع الناس من نقل أمتعتهم وحريمهم لنلا يفتنوا المسلمين ويجروا عليهم الهزيمة ولكي يقاتلوا عليها بالقلب والقالب فلما كان هذا اليوم وشكروا إليه أمر العدو الذي قد أطل عليهم ولم يبق إلا أن يثب وثبة أخرى فيصير بها في وسط البلد عذرهم وكان العدو حين نزل بقم الجزيرة عشية ذلك اليوم قد أرسل أربع كورات على تطاوين فوقعت في وسط المدينة كأنه يعلمهم بأنه قد أشرف عليهم ولم يبق دون أخذهم قليل ولا كثير ولما سمع الناس كلام المولى العباس انطلقوا مسرعين إلى نقل أمتعتهم وقام الضجيج في المدينة واختلط المرعى بالهمل وامتدت أيدي الغوغاء إلى النهب وخلع الناس جلباب الحياء وانهار من كان هنالك من أهل الجبل والأعراب والأوباش ينفقون ويكسرون أبواب الدور والحوانيت والداخل للمدينة أكثر من الخارج

وباتوا ليلتهم كذلك إلى الصباح ولما طلع النهار وتراءت الوجوه انتقلوا من نهب الأمتعة إلى المقاتلة عليها فهلك داخل المدينة نحو العشرين نفسا وعظمت الفتنة وتخوف من بقي بتطاوين عاجزا عن الفرار فاجتمع جماعة منهم على الحاج أحمد بن علي أبيعير أصله من طنجة وسكن تطاوين وتشاوروا فيما نزل بهم فأجمع رأيهم على أن يكتبوا كتابا إلى كبير محلة العدو أردنيل يطلبون منه أن يقدم عليهم لتحسم مادة الفتنة التي هم فيها فكتبوا الكتاب ووجهوه مع جماعة منهم فما انفصلوا عن المدينة غير بعيد حتى عثروا على طلائع العدو يطوفون حول المدينة ويحرسون محلتهم فتسابقوا إليهم وهشوا وبشوا وسألوهم ما الذي أقدمكم فقالوا جئنا بكتاب إلى أردنيل فأبلغوهم إليه فأظهر أيضا البشر والفرح وقدم إليهم طعاما من الحلواء وقال لهم في جملة كلامه إنني أفعل معكم ما لم يفعله الفرنسيين مع أهل الجزائر وتلمسان يعني من الإحسان وكذب خذله الله فإن ذلك من حيله التي يستهوي بها الأعمار ويفسد بها الدين وإلا فأني إحسان فعله الفرنسيين مع أهل الجزائر وتلمسان أسنا نرى دينهم قد ذهب وأن الفساد قد عم فيهم وغلب وأن ذرارهم قد نشؤوا على الزندقة والكفر إلا قليلا واما قريب يلحق التالي بالمقدم والله تعالى يحوط ملة الإسلام ويكسر بقوته شوكة الزنادقة وعبدة الأصنام ولما عرضوا على العدو الدخول إلى بلدهم قال لهم أما اليوم فيوم الأحد وهو عيد النصارى ولا يحل لي التحرك والانتقال وأما غدا فانظروني في الساعة العاشرة من النهار فرجعوا إلى أهلهم وأصحابهم وأعلموهم بمقالة العدو والحال ما حال والقتال لا زال وأبواب الحوانيت تكسر والطور تخرب والقوي يأكل الضعيف وباتوا ليلة الاثنين كذلك وأصبحوا من الغد كذلك ثم إن العدو استعد وأخذ أهفته وتقدم إلى تطاوين بعد أن فرق عسكره على جهتين فرقة مرت مع أردنيل على الجبابة قاصدة الباب الذي يفضي إليها وفرقة ذهبت مستعلية إلى جهة القصبية والبرج ولما وصل أردنيل إلى الباب وصل الآخرون إلى القصبية فأما أردنيل فوجد الباب مغلقا وكلمه المسلمون من داخل المدينة فأمرهم بالفتح فقالوا إن المفاتيح قد ذهبت في الفتنة فقال اكسروا الأقفال فكسروها ودخل ودخل معه كبراء عسكره فتوجه هو إلى دار المخزن فنزل بها واقترب كبراء العسكر في المدينة بأيديهم ورقات مكتوب فيها أسماء الدور التي ينزلون بها كل واحد بداره مكتوبة في ورقته فكان أحدهم يسأل عن دار الرزيني وآخر يسأل عن دار اللبادي وآخر يسأل عن دار ابن المفتي وهكذا بحيث دخلوا على بصيرة بأمره البلد ودور كبارها فاستقر كل واحد منهم في داره التي عينت له وأما الذين ذهبوا نحو القصبية فإيهم لما وصلوا إلى السور أنشبو فيه سلاليم من قمن غلاظ برؤوسها مخاطيف معوجة وتسلقوا فيها بسرعة ولما صاروا في أعلى البرج رفعوا سنجقهم في أعلى الصاري وأخرجوا عليها مدفعا ولما سمع المشغلون بالنهب والقتل حس المدفع رفعوا رؤوسهم إلى البرج وبمجرد ما وقع بصبرهم على بنديرة العدو تلوح خرجوا على وجوههم فارين كالنعم الشارد فالأمر لله ولا حول ولا قوة إلا بالله وأسفي على الدين وأهله ولما استقر العدو بالبلد رتب حكماها وكف اليد العادية عنها وولى على المسلمين الحاج أحمد أبيعير المذكور أنفا وكان دخوله إلى تطاوين واستيلاؤه عليها ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف ورتاها الأديب الشريف السيد الفضل أفيال بقصيدة يقول فيها يا دهر قل لي على مه كسرت جمع السلامة نصيبته للداوي ولم تخف من ملامة خفضت قدر مقام للرفع كان علامه ملكته لأعاد ليست تساوي قلامة فالدين يبكي بدمع يحكيه صوب الغمامة على مساجد أضحت تباع فيها المدامة كم من ضريح ولي تلوح منه الكرامة علق فيه رهيب صليبه ولجامه ومنزل لشريف وعالم ذي استقامة

صار كنيفا للعلاج ولم يراع احترامه وكم وكم من أمور للدين فيها اهتضامه تنبكي عليها عيون كابة وندامة تطوان ما كنت إلا بين البلاد حمامة أو كخطيب تردى من بعد ليس العمامة بل كنت روضا بهيجا زهرك أبدى ابتسامه أو كمحيا عروس علاه في الخد شامة فقت بهاء وحسنا فاسا ومصر وشامه رماك بالعين دهر ولا كزرق اليمامة ففرق الأهل حتى لم يبق إلا ارتسامه ما كان أحلى زمانا وما ألد غرامه مضى لنا مع بدور ذوي نهى وفخامه ما بين إنشاء شعر وبين إنشاء مقامه وشملنا في التثام والبسيط بهوى التثامه حن السرور إليه شوقا ورام التثامه ساعده السعد حتى نال المنى ومرامه يا حسنها من ليال لو لم تصر كالمنامة تطوان يا دار أنس وخيس أهل الزعامة هل للوصل سبيل فالهجر أكمل عامه والقلب ذاب اشتياقا وحسرة واستهامة والوجد أضعف جسما وكاد يبيري عظامه يا أهل تطوان صبرا فما لخطب أدامه دوام حال محال وهل لظل إقامة إن غاب نجم سعود ولاح نجم شامة فسوف يطلع بدر يحو سناه ظلامه فاعتصموا برجاء وارعوا بصدق ذمامه

وحسنا الظن تنجوا دنيا ويوم القيامة وفوضوا الأمر لله يكف عنا انتقامه ما فاز إلا ذكي قدم خيرا أمامه حيث أقامه يرضى ولو بقصر كتامة ولا يزل ذا انتظار في كل وقت ختامه يراقب الله سرا وجهرة باستدامه يطلب حسن ختام وحل دار المقامة ثم إن أردنيل بعد أن رتب الحكام بتطاوين عاد إلى محلته وقسم عسكره قسمين وأنزله مكننفا للبلد شرقا وغربا واختار منه عشرة آلاف فأدخلها المدينة وبقي هو خارجا بإحدى المحلطين قال إن جيشه كان يوم دخل تطاوين سبعين ألفا كلها مقاتلة في غاية الاستعداد وكمال الشوكة ثم أمر بالنداء في البلد أن من أوقف نارا تلتزمه العقوبة

الشديدة حذرا من أن تكون هنالك مينا للمسلمين أو ما أشبهها بقيي الناس على ذلك نحو أربعة أيام لم يوقدوا فيها نارا ونادى أيضا بأن من فر من أهل البلد ولم يأت إلى متاعه وأصله إلى سبعة أيام فلا شيء له بعد ولم يقدم شيئا على نقل البارود والمدفع الذي كان للمسلمين بالمدينة فأما المدفع فحمله إلى أصبانيا وأما البارود فجعله بضريح ولي الله تعالى سيدي السعيد وكذا فعل بجميع آلات الجهاد ثم عمد إلى ضريح سيدي عبد الله البقال فجعله كنيسة وجعل مسجد الباشا مختزنا للآرز والشعير ومسجد القصبه مختزنا للكليط ثم سار في المسلمين بالتوقيير والاحترام ولم يسلمهم خسفا ولا كلفهم شغلا ولا اقتضى منهم مغرما كان يتألفهم بذلك ومن باع منهم شيئا أضعف له في الثمن وأربحه وكذا فعل مع أهل المدائش الذين حول البلد حتى اتخذ الناس سوقا بموضع يعرف بكدية المدفع خارج تطاوين وشاح خبره في قبائل الجبل فاتهاروا عليه من كل جانب ورحبت الناس فيه ثم كتب أردنيل كتباً وبعث بها إلى قبائل الجبل يعدهم ويمنيهم إن هم قدموا عليه وخالطوه بالبيع والشراء ويتوعدهم إن لم يفعلوا فقدموا من كل أوب وارتفعت الأسعار

فزادت ضعف ما كانت عليه وأكثر واستمرت كذلك فلم ترجع بعد ثم أخذ في ترتيب بناء المدينة وتبديل شكلها حسبما جرت به عادة النصارى في مناهم فهدم ما لم يوافق نظره وفرز النور من سور البلد وكل دار كانت ملتصقة بالسور فصلها عنه واستمر على هذا الحال نحو العشرين يوما ثم دار الكلام بينه وبين المولى العباس في الصلح وتسامع الناس به ففرح المسلمون والنصارى معا أما المسلمون فرجه فرحهم ظاهر وأما النصارى فإنهم وإن كان لهم الظهور فهم لا يدركونه سهلا بل مع القتل العظيم والجرح الكثير والمشقة الفادحة قال تعالى إن تكونوا تألمون فإنهم يآلمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون النساء هذا إلى مفارقة بلادهم التي ألفوها وعواندهم التي ربوا عليها لا سيما عامة جيشهم الذين الغلبة في ضمن هلاكهم فدماؤهم هي ثمنها كما قيل بجبهة العير يفد حافر الفرس حتى من حضر أن عسكر النصارى لما سمعوا بتناول الصلح حصل لهم من الفرح أضعاف ما حصل للمسلمين وصاروا يترددون إليهم ويبحثونهم عما تجدد من الأخبار وكلما سمعوا بشيء من أمر الصلح طاروا فرحا وذلك لأن قتال النصارى كله على الإكراه إذ لا يمكن عسكريا منهم أن يفر من الزحف حال القتال لأن الخيالة والسيافه من ورائهم يذمرونهم إلى الإمام ومهما رجع أحد منهم إلى خلف وترك في الصف فرجة ضربت عنقه في الحين فالموت عندهم في الفرار محقق وفي التقدم مظنون فيختارون المظنون على المحقق اللهم إلا إذا اشتدت الحرب وحمى الوطيس واختلط الرجال بالرجال أمكن الفرار حينئذ لاشتغال الرئيس والمرؤوس كل بنفسه وبهذا الضبط لم تنتفح لهم هزيمة منذ خرجوا من سبتة ومن عادة العدو في الحرب أنه إذا نهض للقتال ارتحل بجميع ما في عسكره كأنه مسافر فترى العسكري منهم إذا تقدم للقتال حاملا معه جميع ما يحتاج إليه من ماء وطعام وبارود ورمصاص حتى موسى والمقص والمرأة والصابون وغير ذلك قد اتخذ لجميع ذلك أوعية لطافا وعلقها عليه فلا يؤده حملها لأنه اقتصر من كل على قدر الحاجة وأما الأخبية فيحمل كل ثلاثة رجال خبء ولا تلحقهم كلفة في حمله لأن أخبيتهم في غاية اللطافة والصفافة وأعمدتها لطاف صلبة فهي مع كفايتها على الوجه الأتم في غاية الخفة بحيث إذا لف الخبء بما فيه كان كلا شيء ولو أراد أن يحمله واحد لفعل لكنه يقسمه ثلاثة أشخاص زيادة في الرفق ولئلا يحصل الضجر إذا طال السفر وأما المدافع فقد اتخذوا لها عجلات أفرغت إفرغا وركبت عليها على وجه محكم واتخذوا للعجلات بغالا خصية تجرها في غاية الفراهة والارتياض ويجعلون فوق تلك العجلات صناديق الإقامة من بارود ورمصاص وضوولي وغير ذلك وتجلس الطنجية على تلك الصناديق ويقوم آخرون حولهم قد أخذوا أهبتهم للقتال بكل ما يمكن ثم تتدفع العساكر على هذا الترتيب صفوفًا صفوفًا وتتقدم شيئا فشيئا يخلف بعضها بعضا كأنها أمواج البحر تترق الشمس على طموس رؤوسها وتلمع على عددها المصفولة والآتيا وهو في هذه الحالة لا يقتر من رمي الكور والضوولي والشرشم على كل جهة هكذا قتاله أبدا وإذا أدركه المساء أو وقعت محاجزة أثناء النهار وكان قصده الثبات ثبت بمحلته ذلك ولا يتزحزح عنه بحال إلا إذا فني كل عسكره أو جله فيمثل هذا الضبط كان له الاستيلاء والظهور وأما مقاتلة المسلمين له فكانت غير منضبطة وإنما قتاله من قاتله منهم باختياره ومن قتل نفسه وإن كان هنالك ضبط من أمير الجيش فكلما ضبط ومتى ظهر له أن يذهب ذهب مع أن الله تعالى يقول وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستنذوه النور لكن المقاتل من المسلمين يأتي القتال وليس معه ما يأكل ولا ما يشرب فيالضرورة إذا جاع أو عطش ذهب يبحث عما يقيم به صلبه ثم هم يقاتلون على غير صف ولا تعبية بل يتفرون في الشعاب ومخارم الأودية وحول الأشجار فيقاتلون من ورائها وإذا دفعوا في نحر العدو دفعوا زرافات ووحدانا ثم إذا أدركهم المساء وقعت المحاجزة ذهب كل إلى خبائه الذي تركه وراه بمسافة بعيدة

وهم في هذا كله ليس لهم وازع يحملهم على ما يراد منهم فالحاصل أن جيش مغربنا إذا حضروا القتال وكانوا على ظهور خيولهم فهم في تلك الحال مساوون في الاستعداد لأمير الجيش لا يملك من أمرهم شيئا وإنما يقاتلون هداية من الله لهم وحياء من الأمير وقليل ما هم وقد جربنا ذلك فصح ففروا عن الاستعداد للمولى سليمان في وقعة طبيان أولا وفي وقعة الشراذة ثانيا وكان السلطان المولى عبد الرحمن أهيب في نفوسهم منه فكانوا يلزمون غرزه لكنه لما بعثهم إلى تلمسان فعلوا فعلتهم وسلوكوا عادتهم ولما شهدوا مع الخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمن وقعة إيسلي جاؤوا بها شعاعا غربية في القبح ولولا أنه قام بنفسه ليلة الحاج عبد القادر ومنع الناس من الركوب لربما عادوا إلى فعلهم وأحسن ما كانت حالهم في هذا الحرب فإنهم قاوموا العدو وفرقوا صفوفه غير مرة لكنهم أتوا من عدم الضبط الذي هو كضبطه فعدم ملاقاتهم للعدو في الكيفية القتالية هو الذي أضر بهم وأوجب لعدوهم الظهور عليهم إذ الشيء كما علمت إنما يقاوم بمثله والشر إنما يدفع بضده فالتناهي إنما يحصل بين الضدين أو المثلين وحربنا وحرب الإصينبول كان من باب الخلافين ولا تنافي بين الخلافين كما هو مقرر في علم الحكمة والتوفيق إنما هو بيد الله ولنرجع إلى الكلام على الصلح المتناول فنقول لما دار الكلام بين المولى العباس رحمه الله وبين أردنيل في الصلح استعدوا للاجتماع في يوم معلوم بمكان سوي بين المحتلين فلما كان ذلك اليوم ضرب بالمحل المعين خبء وجاء المولى العباس ومعه جماعة من وجوه جيشه وفيهم أبو عبد الله الخطيب النطاوي وخرج أردنيل ومعه جماعة من وجوه عسكره وخرج معه مقدم المسلمين بتطاوين الحاج أحمد أبغير رجاء أن يكون هو الترجمان بين الأميرين فيفوز بنكر ذلك الجمع وفخره فأخفق رجاءه لأنه لما توافى الجمعان إلى الخبء بقي الناس كلهم قائمين على بعد منه ولم يدخله إلا المولى العباس وأردنيل والخطيب لا رابع لهم فيما قيل وأبدى أردنيل من

الأدب والخضوع للمولى العباس ما جاوز الحد وتفاوضوا ساعة ثم انفض المجلس وتناقل الناس أن حاصل ما دار بينهما أن أردنيل رغب في الصلح وتأكيد الوصلة بينهما وبين المسلمين على شروط ذكرها وأن المولى العباس توقف فيها وأحال ذلك على مشورة أخيه السلطان سيدي محمد وذهب كل إلى سبيله وبقي الناس ينتظرون الجواب بأي شيء يأتي من عند السلطان وبعد أيام ورد الخبر بأن السلطان لم يقبل ذلك الصلح فاستمر الناس على حالتهم الأولى من كون محلة العدو بتطاوين وبعضها خارجا شرقا وغربا ومحلة مولاي العباس على بعد من البلد مقدار نصف يوم ثم إن المسلمين اجتمعوا ذات يوم وبيتوا محلة العدو النازلة خارج البلد في ليلة معلومة فتقدموا إليها وذلك في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين وألف وهجموا عليها في ليلة مظلمة والنصارى غارون وتفكروا فيهم فتكة بكرا باتوا يقتلونهم الليل كله ومن الغد كذلك إلى المساء وقاتل النصارى ذلك اليوم أيضا ولكن الظهور كان للمسلمين ولولا قوة نفوس العدو باستنادهم إلى البلد وتحصن كبيرهم بها لكانوا انكسروا كسرة شنيعة وكان عدد القتلى من النصارى في هذه الواقعة نحو الخمسمائة والجرحى أكثر من ألف وأما المسلمون فكان القتل فيهم ضعيفا ولما أصبح أردنيل ورأى ما حل بعسكره ساءت أخلاقه وقلب لأهل تطاوين ظهر المجن وأبدل تلك الشفقة التي كان يعاملهم بها بالغلظة والبشاشة بالاكفهرار وعمد إلى مسجد الشيخ أبي الحسن علي بركة رحمه الله فاتخذة مارستانا للجرحى فطلت الجرحى تنقل إليه وفرض على أهل تطاوين اللحف والقطائف فجمع من ذلك شيئا كثيرا فرشه بالمسجد المذكور لجرحاه وصار عامة عسكر النصارى بتطاوين كلما لقوا أحدا من المسلمين عبروه بالعدو وقبحوه ثم إن أردنيل أقام بعد هذه الواقعة نحو عشرة أيام ريثما استجم جيشه وأبلى جرحاه وخرج في تمام الشوكة وكمال الاستعداد يريد أن يضرب في محلة المسلمين فجعل تطاوين

خلفه وتقدم حتى كان بوادي أبي صفيحة فلما شعر به الناس من أهل المداشر والمتطوعة تسابقوا إليه من كل جانب ووافق ذلك اليوم قدوم عرب الحباينة جاؤوا في حرد كبير وحقق شديد فقويت قلوب الناس بهم واشتد أزرهم وتقدموا إلى العدو فأنشبوها معه الحرب بأبي صفيحة قبل أن يصل إلى محلة المسلمين وكثروه فأوقعوا به وقعة أنست ما قبلها فقتلوا منه ما خرج عن الحصر وأما الجرحى فقل ما شنت وكست قتلاه الأرض ولما أعياه الدفن جعل يجمع الجماعة من الثمانية إلى العشرة ويهبل عليها التراب ومع ذلك بقي منه عدد كبير بلا دفن حتى أثنى موضع المعركة من شدة نتن الجيف ونال المسلمون من عدوهم في هذا اليوم ما لم ينالوا قبله مثله ولا ما يقاربه وكان الذكر فيه لعرب الحباينة ثم للمتطوعة غيرهم وأما محلة المولى العباس فكانت بعيدة عن المعركة بمسافة كبيرة وقد ذكر منوبل خير هذا اليوم فأقر بأنه أهرق منهم دم كثير وخسروا فيه عددا كبيرا من نفوس العسكر والخيل ولما بلغ المولى العباس أن العدو قد برز من تطاوين وأن المسلمين يقاتلونه الآن في أبي صفيحة قلب رأيه واستأنف النظر في عاقبة أمره ورأى أن المسلمين وإن نالوا من العدو في هذه المرة وأبلغوا في نكايته لكن الثمرة ضعيفة من جهة أن نكايته له إنما هي في القتل والجرح ونكايته في أخذ الأرض والاستيلاء عليها كما قلنا غير مرة فجنح رحمه الله إلى الصلح واختاره على الحرب حتى تدور للمسلمين سعود إن شاء الله أخبرني صاحبنا القائد الأجل أبو عبد الله محمد بن إدريس بن حمان الجراري حفظه الله قال لما طالت الحرب بين المسلمين والنصارى على تطاوين استدعاني السلطان وسيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله وأعطاني ستين ألف منقل أذهب بها إلى جيش المسلمين المرابط على تطاوين بقصد المؤنة والصالر وقال لي مع ذلك إذا وصلت إلى محلة المسلمين فانظر

حالهم وتبصر في جميع أمورهم وما هم عليه في قتال عدوهم من الضبط وعدمه وهل هم مكفيون في جميع ما تدعو الحاجة إليه أم لا واستوعب ذلك وانتفى بالأمر على وجهه قال فذهبت فوصلت إلى المحلة يوم الخميس وفي صبيحة اليوم الذي يليه كان حرب أبي صفيحة فجاء النذير إلى المولى العباس وأخبره بأن المسلمين الآن يقاتلون العدو قال فركبت في جماعة من الناس وذهبت لأنظر حال المسلمين وحال عدوهم كما أمرني السلطان رحمه الله فوصلت إلى مقاتلة المسلمين فإذا هم يرتادون موضعا ينزلون به أقتالهم ويضربون به أحييتهم ليقتروا لقتال عدوهم فإذا هم عزموا على النزول بوادي أكراز فأجهضهم العدو عنه بالرمي بالكرور والضوبلي وهو متقدم أمام لا يثنيه شيء فتأخروا عن ذلك المحل ونزلوا بمحل أمنوا به على أحييتهم وأثأتهم ثم تقدموا إليه وقاتلوه قتالا شديدا حتى رده على عقبه بالموضع المعروف بأمصال مرتين أو ثلاثا وقتلوا منه ما جاوز الحصر وفي ذلك اليوم استشهد عامل سفيان وبني مالك أبو محمد عبد السلام بن عبد الكريم بن عودة الحارثي وبات العدو تلك الليلة بوادي أكراز الذي كان المسلمون أرادوا أن ينزلوا به وباتت محلة المسلمين بالفنديق وتفرق جل متطوعتها كل إلى حال سبيله على عادتهم وكان الوقت وقت شتاء وبرد غاية قال فلم يعجبني ذلك ومن الغد وهو يوم السبت أصبح العدو مقيما والمسلمون مقيمين كذلك وكان الرأي أن يعالجوه بوقعة أخرى ويلحوا عليه كي يكسروا شوكتهم ويهضموا ما دام متألما ولا يتركوه حتى يجم ويستريح لكنهم لم يفعلوا ودار الكلام في ذلك اليوم في الصلح فأذعن كل من الأميرين أمير المسلمين وأمير النصارى وجنحوا إليه لأنهم كانوا معا قد سئمو الحرب وملوا القتال ثم من الغد وهو يوم الأحد تداعوا للاجتماع بعد أن نهض العدو من محله الذي كان نازلا به واجتمع وانكش وأظهر القوة بالتهيبىء للحرب والتعبئة للقتال حتى أنه إذا كان صلح فذاك وإلا فالقتال فعل ذلك مكيدة والحاصل أن المولى العباس تقدم في جماعة من وجوه الجيش

وتندى أردنيل في جماعة من أصحابه كذلك بعد أن أمر يضرب خباء صغير يجتمعان به وتقدم أردنيل على الخباء بكثير لملاقاة المولى العباس وإظهاره للأدب معه فتلقى به وعادا إلى الخباء وحضر معهم الترجمان ورجلان آخزان وأبرمو الصلح وأعطى كل خط يده بذلك وانفصلوا وذهب كل إلى محله وكان ذلك آخر حرب بين المسلمين والإصينبول ولما وصل الخبر بانعقاد الصلح إلى عسكر النصارى فرحوا فرحا لم يعهد مثله وجعلوا ينادون الباص الباص أي الصلح الصلح ودخلوا تطاوين وهم رافعون بها أصواتهم وكلما لقوا مسلما هشوا له كأنهم يهينونه بالصلح وكان الصلح قد انعقد بين المسلمين والإصينبول على شروط منها أن يدفع السلطان إليهم عشرين مليونا من الريال ويخرجوا من تطاوين وما استولوا عليه من الأرض التي بينها وبين سبتة إلا شيئا يسيرا يزداد لهم في المحدة على سبيل التوسعة وكان انعقاد هذا الصلح في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين وألف وترأخى السلطان رحمه الله في دفع هذا المال فاستمر العدو مقيما بتطاوين حتى يستوفيه وبعد سنة من يوم هذا الصلح استوفى عشرة ملايين منه وبقيت عشرة وقع الاتفاق فيها على أن يقتضيه العدو من مستقاد مراسي المغرب فأقام أمناه بها لاقتضاء نصف داخل كل شهر منها وهم الآن بهذا الحال والله تعالى يكفي المسلمين شرهم وشر كل شر وبعد ما وقع هذا الاتفاق أسلم النصارى تطاوين إلى المسلمين وكان خروجهم منها ضوة يوم الجمعة الثاني من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف بعد أن مكثوا فيها سنتين وثلاثة أشهر ونصف ووقعة تطاوين هذه هي التي أزلت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله وكثرت الحمليات ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسال الله تعالى العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ولما فرغ السلطان رحمه الله من أمر تطاوين جد في جمع العسكر المرتب على الترتيب المعهود اليوم وكان هذا السلطان أول من أحدثه من ملوك المغرب وكان إحداثه إياه في دولة أبيه رحمه الله بعد رجوعه

من وقعة إيسلي مع الفرنسيين ثم جد فيه في هذه الأيام فجمع منه ما تبسر جمعه ثم رتب المكوس على الأبواب والمبيعات وكتب في ذلك كتبا للأفاق فمما كتبه لأمناء مرسى الدار البيضاء في ذلك ما نصه ويعد فإنما لما أخذنا في جمع النظام للمصلحة المتعينة الواضحة البينة المقر أمرها لدى الخاص والعام واجتمع منه عدد يسير واختبرنا ما صير عليه في شهر واحد فاجتمع فيه عدد كثير فكيف أن جمعنا منه عددا معتبرا يحصل به المراد ويكون قذى في أعين أهل العناد اقتضى الحال ذكر ذلك لكبراء التجار لينظروا فيما يستعان به على أمرهم إذ لا بد من كفايتهم وإلا انحل نظام جمعهم وفي ذلك ما لا يجله من له أدنى عقل ومحبة في الدين فأشاروا بفرض إعانة لا ضرر فيها على الرعية وسطروها في ورقة وهي كل شيء بالنسبة لما ارتكبه الملوك في مثل هذا للاستعانة به على المصالح المرعية وللضرورة أحكام تخصها كما هو معلوم مقرر ومسطر في غير ما ديوان محرر ثم اقتضى نظرنا أن نسد الأمر في ذلك لأهل العلم ليقرروا للناس حكمه تقريرا تنتشر له الصدور ويعمل بمقتضاه في الورود والصدور وإن كان جلهم يعلم هذا إذ من المعلوم أن الرعية لا يستقيم أمرها إلا بجند قوي بالله ولا جند إلا بمال وهو لا يكون إلا من الرعية على وجه لا ضرر فيه وقد أخذ الناس هذه مدة بحضرتنا العالية بالله وبمكناسة وتازا والعدوتين ومراكش في ذلك وسلخوا في ترتيبه أحسن المسالك ولا تشك أن بركة ذلك تعود عليهم في أموالهم وأولادهم وأنفسهم فبوصول هذا إليكم قوموا على ساق الجند في القبض من الناس بالباب على نحو ما في الورقة المشار إليها ولا دخل للنصارى في ذلك والله أسأل أن يبارك للمسلمين في مالهم ويعوضهم خلفا أمين والسلام في الثاني والعشرين من رجب الفرد الحرام عام سبعة وسبعين ومائتين وألف وإذا انجر بنا الكلام على اتخاذ العسكر وترتيبه فلا بد من تنميط الفائدة بذكر كلام نافع

القول في اتخاذ الجيش وترتيبه وبعض آدابه اعلم أنه واجب على الإمام حماية بيضة الإسلام وحياطة الرعية وكف اليد العادية عنها والنصح لها والنظر فيما يصلحها ويعود عليها نفعه في الدين والدنيا ولا يمكنه ذلك إلا بجند قوي وشوكة تامة بحيث تكون يده غالبية على الكافة وقاهرة لهم فاتخاذ الجند إذا واجب وعليه فيندب له أن يتخذ لهم ديوانا يجمع أسماءهم ويحصي عددهم ليحصل الضبط وينتقى اللبس وأول من اتخذ الديوان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر عقيل بن أبي طالب ومخزومة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله بعدها الأقرب فالأقرب فهكذا ينبغي للإمام أن يرتب جنوده في ديوان يحفظها ويستور يجمعها ثم ينبغي أن يكون عنده أولا ديوان كبير هو الأم يجمع أسماء العساكر كلها الحاضرة والغائبة والخاصة والعامة ثم يجعل دواوين صغارا يشتمل كل واحد منها على طائفة مخصوصة مثل عسكر الإمام الذي يلازمه حضرا وسفرا وعساكر الثغور والقلاع ونحو ذلك وتكون هذه الدواوين الصغار بمنزلة الفروع للكبير تجدد كلما تجددت الطوائف كما سيأتي وكل ديوان منها يشتمل على أرحاء مثلا وكل رعى على مئين وكل مائة بضباطها وطبيبيها وعالمها الذي يعلمها أمر دينها وغير ذلك قال صاحب مصباح الساري ما ملخصه كانت الدولة العثمانية في أول أمرها إذا

استخدمت طائفة من الجند بقيت في الخدمة طول عمرها ولما كان هذا الأمر صعبا يعني وغير مقتضى للتسوية بين الرعية في هذا الحق العظيم اقتضى نظرهم أن يعملوا القرعة بين أبناء الرعايا عند انتهاء كل خمس سنين فمن استكمل مدة خدمته وتبصر بما يلزمه من حرب عدوه وقدر على المطالبة والمدافعة ذهب إلى حال سبيله لطلب معيشته فذو الحرقة يرجع إلى حرقة

والتاجر إلى تجارته وهكذا ويؤتى بطائفة أخرى بدلها حتى تصير الرعية كلها جندا قادرة على المطالبة والمدافعة متى احتاجت إلى ذلك ثم من استوفى مدة خدمته بقي معدودا في صنف الرديف سبع سنين أخرى ومعنى الرديف أنهم يكونون عدة للدولة متى احتاجت إليهم في نازلة عظيمة أو حرب عامة مثل ما يكون بين الأجناس فإذا انسلخت السبع سنين فهو حر دائما وأبدا فلا يضرب عليه بعث ولا يكلف بغزو إلا أن يشاء فجملة مدة الخدمة العسكرية بين أصلية ورديفية اثنتا عشرة سنة وشرط المستخدمين في العسكر أن يكونوا في سن العشرين إلى خمس وعشرين سنة فمن زاد على ذلك أو نقص لا تقبله الدولة لينضبط الأمر وإن اصطاح على أقل من ذلك أو أكثر فلا بأس فإذا أريد إعمال القرعة بينهم وذلك عند رأس خمس سنين كما قلنا اجتمع كل من هو في ذلك السن من أهل الناحية مثل مراكش وأعمالها وفاس وأعمالها والعدوتين وأعمالها في يوم معلوم من السنة لا يتقدم ولا يتأخر فيحضر نائب السلطان ويحضر القاضي والشهود وتكتب بطائق على عدد رؤوس الحاضرين فلان بن فلان الفلاني سنة كذا فإذا اجتمع لنا من البطائق مائة ونحن غرضنا استخدام خمسين مثلا أخذنا تلك البطائق واحدة واحدة حتى نستوفي الخمسين ثم نفتحها فمن عثرنا عليه فيها فهو عسكري في تلك المدة ومن أخطأته القرعة ذهب إلى حال سبيله لكنه إن جاوز سن العسكرية الذي هو خمس وعشرون سنة ولم تصبه القرعة فهو في صنف الرديف إلى سبع سنين كما قلنا والذين أصابتهم القرعة وأثبتوا في الديوان يرخص لهم في الذهاب إلى محالهم عشرين يوما لقضاء أوطارهم ثم يحضرون بعدها إلى القشلة ومن تخلف عن حضور هذا الجمع بدون عذر مقبول يثبت في الديوان بلا قرعة ويسقط من أصل العدد المطلوب ولا تقبل فيه شفاعا ولا فداء ومن ليس له إلا ابن واحد من رجل كبير أو امرأة أرملة أو نحو ذلك ولا كافي له سواء فإنه يسرح له لنلا يضيع لكن بعد حضور الجمع وإثبات ما ادعاه ومن له ولدان وأصابتها القرعة فيمسك واحد ويسرح له الآخر ومن له أربعة أو خمسة وأصابت القرعة منهم ثلاثة

فأكثر أمسك اثنان وسرح الباقي ويعفى عن كل من كان مفردا في بيته وعن كل أعور وأشل وأعرج وأحدب وعن كل ميتلى بداء مزمن أو علة معدية أو ضعيف الجسم نحيف البنية لا يقدر على الأعمال الجندية وغير سالم المزاج وهكذا ويعفى عن طلبة العلم لكن بعد حضورهم وامتحانهم فمن ظهرت نجابته خلى سبيله لأنه قد قام بوظيف هو من أهم الوظائف ومن كان قليل الفهم أو مقسم البال أو طائش الفكرة لا ترجى فاندته وإنما تستر بطلب العلم دخل في القرعة وإذا كان لرجل ولدان وأصابت القرعة أحدهما وأراد إبداله بالآخر فذلك له إذا توفرت فيه شروط الخدمة وإذا أراد أن يبدله بغير أخيه من عبد أو أجير فلا بد من زيادة قدر معلوم من المال لا يحفف به ولا يؤدي إلى تعطيل تجارته ولا يبيع أصله ولهذا البذل شروط الأول أن يكون سالمامن الأفات المتقدمة الثاني أن لا يكون ممن استوفى مدة الخدمة التي هي خمس سنين ودخل في صنف الرديف اللهم إلا إذا لم تكن القرعة أصابته حتى جاوز السن المعلوم وصار في صنف الرديف فهذا يقبل الثالث أن يكون من أهل تلك الناحية فلا يقبل مراكشي عن فاسي مثلا وبالعكس الرابع أن لا يكون من العبيد السود اللهم إلا إذا كان في الجند صنف منهم فيقبل في صنفه ولا بأس إذا كان مملوكا أبيض الخامس أن لا يكون من الذين استعملوا في الجندية وأخرجوا منها لعراض خلقي أو خلقي مثل أفة بدنية أو فعل قبيح من سرقة ونحوها السادس أن لا يكون البذل قد جيء به بعد ثلاثة أشهر ثم إذا فر البذل فينتظر محبته إلى شهر فإن جاءه والإ أخذ به صاحبه الذي جاء به ثم إذا انتظم هذا الجمع العسكري فأول ما يعلمونهم أمر دينهم مما لا بد منه على سبيل الاختصار بأن يلقنوا كيفية اللفظ بالشهادتين وبين لهم معناها بوجه إجمالي فإن جل العوام سيما أهل البادية والقرى النائية لا يفقهون ضروريات دينهم ويعلمون كيفية الوضوء والصلاة ويلزمون بالمحافظة عليها حتى أن من لم يحضر منهم وقت النداء لها يعاقب عقابا شديدا وإلا فلم يحضر عند سماعه الطرنيطة ولا يحضر إذا سمع داعي الله فهذا أول ما يتعلمونه لتعود عليهم بركة الدين وينجح سعيهم في حماية

المسلمين فإن لم نرد بجمع هذا الجند إلا حفظ الدين فإذا كان الجند مضيعا له فكيف يحفظه على غيره ويعود على المسلمين نفعه ثم بعد هذا يعلمون الأمور التي تدل على كمال المروءة وعلو الهمة من الحياء والحشمة والإيثار وترك الكلام الفحش وتوفير الكبير ورحمة الصغير ويلقنون أن من أفضل الخصال عند الله وعند العباد الغيرة على الدين والوطن ومحبة السلطان ونصحه ويقال له مثلا إذا كان العجمي الزنديق بغضب لدينه الباطل ووطنه فكيف لا يغضب العربي المؤمن لدينه ودولته ووطنه ولا بد من ترتيب مجلس يومي يسمعون فيه سيرة رسول الله ومغازي الخلفاء الراشدين وسلف الأمة وأخبار رؤساء العرب وحكمتها وشعرائها ومحاسنهم وسياساتهم وليتخير لهم من الكتب الموضوعة في ذلك أنفعها مثل كتاب الأكلفاء لأبي الربيع الكلاعي وكتاب ابن النحاس في الجهاد وكتاب سراج الملوك ونحوها فإن ذلك مما يقوي إيمانهم ويحرك همهم ويؤكد محبتهم في الدين وأهله وينبهون على التحافظ على ثيابهم وأطرافهم من الأوساخ والأوضار التي تدل على دناءة الهمة ونقصان الإنسانية وعدم النخوة ويلزمون بتترك استعمال الدخان فإنه مناف لثقافة الدين ومذهب للمروءة والمال بلا فائدة ثم إذا رسخت فيهم هذه الآداب في ستة أشهر أو عشرة أو أكثر أخذوا في تعلم الثقافة وأمور الحرب ثم من أهم ما يعتنى به في شأنهم أن لا يتخلقوا بأخلاق العجم ولا يسلكوا سبيلهم في اصطلاحاتهم ومحاوراتهم وكلامهم وسلامهم وغير ذلك فقد عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم فيريدون تعلم الحرب ليحفظوا الدين فيضيعون الدين في نفس ذلك التعلم فلا تمضي على أولاد المسلمين سنتان أو ثلاث حتى يصيروا عجمًا متخلقين بأخلاقهم متأدبين بأدابهم حتى أنهم تركوا السلام المشروع في القرآن وأبدلوه بوضع اليد خلف الأذن فيجب على معلمهم في حالة تعليمه إياهم أن يعدل عن الاصطلاح العجمي إلى العربي ويعبر عن الألفاظ العجمية بالعربية وإن كان أصل العمل مأخوذاً عن العجم فليجتهد

المعلم الحاذق في تعريبه وليس ذلك بعسير على من وفقه الله إليه وليس فيه إلا إبدال لفظ عجمي بلفظ عربي بأن يقول مثلا أمام خلف دائرة نصف دائرة وهكذا فإذا مرونا عليه شهرا أو شهرين كان أسهل شيء عليهم لأن تلك هي لغتهم التي فيها نشأوا وعليها ربوا فالعمل عجمي والكلام الذي يبنهون به على ذلك العمل عربي فأي كلفة في هذا وبه يندفع عنهم التشبه بالعجم المنهي عنه شرعا فإن التزبي بزبهم لا يأتي بخير أبداً وهو والله من أفسد الأشياء للدين الذي نريد أن نحوطه بهم قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من لم تصلحه السنة فلا أصلحه الله ثم عمود هذا كله وصلبه العقيم له وروحه الذي به حياته هو الكفاية في المطعم والملبس وليختار لهم من الأغذية أطيبها وأنفعها للبدن وليجعل لهم كسوتان كسوة الشتاء وكسوة الصيف وليتخير لهم من المساكن والمنازل أطيبها وأصلحها هواء وأبعدها عن محل الوخم ويلزمهم بالاعتناء بتنظيف مساكنهم وتبريدها وتطيبها حتى لا ينشأ عنها داء وإذا تراخوا في مثل ذلك عوقبوا عليه لأنه دال على دناءة الهمة ودنيء الهمة لا يأتي منه شيء وليرتب لهم الأطباء العارفين حتى إذا أصاب أحدا منهم مرض عالجه الطبيب في الحال فإن هذا الجند هو سور الإسلام وسياج الدين فيحفظه يحفظ الدين وبسلامته يسلم فإذا اتخذ الجند على هذه الكيفية التي ذكرنا سهل على الناس الدخول في الجندية وتنافسوا فيها ومن كان عنده من الرعية درهم طابت نفسه بأن يقتسمه معهم ويكون الجند حينئذ في مرتبة هي أشرف من مرتبة الرعية بكثير لأن الجند يحفظهم والرعية تكسب وتبذل لهم ثم إذا ظهر من أحاد الجند نجابة أو شجاعة أو نصيحة في الخدمة السلطانية رفع قدره ونوه باسمه ليغتنب هو بمنزله ويزداد في خدمته ويغبطه غيره وينافسه في خصاله التي أكسبته تلك المنزلة وليقس ما لم يقل والله الهادي إلى التوفيق بمنه ولنرجع إلى التاريخ فقول وفي سنة سبع وسبعين ومائتين وألف وذلك في يوم الثلاثاء الثاني عشر

من ذي القعدة منها توفي والدنا الفقيه المرابط الأخير أبو البقاء خالد بن حماد بن محمد الكبير الناصري بقبيلة سفيان ودفن بتربة الشيخ أبي سلهم رضي الله عنه وكان رحمه الله من الورع والتحري في أكل الحلال على جانب عظيم بحيث فاق أكثر أهل زمانه في ذلك وكان ديناً وقوراً كثير الأوراد ذا صمت وجد وله إمام بالفقهاء والسيرة النبوية مرجو البركة عند العامة رحمننا الله وإياه والمسلمين ثورة الجبلاني الروكي ومقتله كان

الجيلاني الروكي من عرب سفیان رجلا حامل الذكر ساقط القدر حرفته رعي البهائم ونحو ذلك من عمل أهل البادية فوكل به جني أو شيطان ففاه بالمخاريق وتبعته العامة فثار ببلاد كورت وتقدم إلى دار القائد عبد الكريم بن عبد السلام بن عودة الحارثي السفياني في أخلاط من الأوباش بالعصي والمقاليع فحاصر القائد المذكور في داره من الظهر إلى الغروب ثم اقتحم العامة عليه داره فقتلوه وقتلوا جماعة من إخوته وبني عمه ونهبوا ما وجدوا بداره وكان شينا كثيرا من المال والأثاث وبقي أولئك القتلى مصرعين ببقاء الدار ثلاثة أيام لم يدفنوا وافتتنت العامة بهذا الروكي ونسبوا له الخوارق والكرامات من غير استناد إلى دليل ووعدهم بأنه يستولي على الملك ويحكم المتمسكين بدعوته في الأموال كيف شاؤوا وضاعت نفوس في تلك الفتنة ونهبت أموال واختلط المرعى بالهمل وكنت حاضرا لهذا الخطب العظيم فكان من افتتاح العامة بهذا المعنوه واعتقادهم فيه وجهلهم المركب في أمره ما لا يكاد يصدق به إذا حكي وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله يومئذ برباط الفتح فاهتز لهذا الخطب لأن الشيطان كان قد نفخ في أبطال الروكي وشاعت في العالم حتى اهتز لها النصارى الذين كانوا يتطاوين وحدثوا أنفسهم بالفرار ثم إن السلطان رحمه الله أغراه أخاه المولى الرشيد فلما سمع الروكي بمجيئه وعد أوباشه بأنه سينصر عليه وأن خيل السلطان

تكون غنيمة له وقال لهم اتخذوا الشكائم أي الأرسان من الدوم وأعدوها لتقودوا بها خيل السلطان فاتخذ جمع عظيم من العامة الحبال والأرسان وتوشحوا بها تحت الثياب وجعلوا يتبعون الروكي أينما ذهب انتظروا لوعده ولما قرب المولى الرشيد منه أخذ أمره في النقصان وناموسه في البطلان ولما كان المولى الرشيد قرب سوق الأربعاء من بلاد سفیان جعل الشكائمة يقربون من المحلة ويتطوفون حولها مختفين بالأودية والشعاب والكدى ينتظرون هزيمتها بخارق من خوارق دجالهم فأعلم المولى الرشيد بمكانهم فبعث الخيل فالتقطوهم في ساعة واحدة ولم يفلت منهم إلا القليل وسيقوا إلى براط الفتح فسجنوا به مدة وأما الروكي فإنه قصد جبل زرهون ودخل روضة المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه فاجتمع عليه جماعة من الأشراف الأدارسة والعلويين وغلقت أبواب القبة وتقدم إليه شريف علوي ففتك فيه وأراح الناس من شره واحتزوا رأسه ويده وحملوهما إلى السلطان فبعث بهما إلى مراکش فعلقا بجامع الفناء مدة وكان جهلة العوام لا يصدقون بموته ويقوا ينتظرون رجعه سنتين أو ثلاثا ومن يضل الله فما له من هاد الرد وكان مقتل الروكي في أواسط شعبان سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف ولم تجاوز مدته أربعين يوما وكان مما كتبه السلطان في شأنه ما نصه وبعد فإن فتانا من سفیان مرق من الدين وقتن بأمر شيطنته من اغتر به من المسلمين وجمع عليه أوباشا من أمثاله وأضرابه وأشكاله وتقدم بهم لدار خديمنا ابن عودة فقتلوه ثم تقدم بهم للشراردة فقتلوه ثم تقدم بهم لزواوية مولانا إدريس فقتله أهلها قتالا يرضى الله ورسوله ولم يحصل لهم من قتاله ضجر ثم قبضوا عليه وقتلوه وعلقوا رأسه بباب الزاوية المسمى بباب الحجر وأغلقت الأبواب بعد ذلك على من دخل معه من أتباعه وأنصاره وأشياعه فقبضوا عليهم وجعلوهم في السلاسل والأغلال ونحن على نية إقامة الحد عليهم إن شاء الله جزاء وفاقا على ما ارتكبه من الفساد وقبيح الأعمال ومن كان منهم حينئذ خارجا عن الباب تخطفته الأيدي وجنوا ثمار ما سعوا فيه من البغي والتعدي وقطع دابر جميعهم فالحمد لله حق حمده وما كل نعمة إلا

من عنده وأعلمناكم لتكونوا على بصيرة إذ ربما يبلغ المرجفون على عادتهم النازلة على غير وجهها والسلام في ثامن عشر شعبان المعظم عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله بعرب الرحامنة لما كان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله ببلاد الغرب مشتغلا بأمر الإصينبول وحربه على تطاوين ثار عرب الرحامنة بالحوز وعمدوا إلى سوق الخميس بمراكش فأغاروا عليه وانتهبوه وسلبوا المازة وأرباب الجنات وضايقوا أهل مراکش حتى منعوهم من الارتفاق حول المدينة فانقطع السبل وارتفعت الأسعار وقطع الرحامنة ما حول الأسوار من الأشجار واحتطبوها وحصدوا الزروع في الفدن واغتصبوها واشتد الحصار وتخاذلت الأنصار ودام الحال إلى أن فرغ السلطان رحمه الله من حرب الإصينبول وفتنة الروكي فوجه وجهته إلى مراکش فلما قرب منها تحزب الرحامنة وأجمعوا على حربه فأنحازوا إلى ناحية الرميلة والأودية وزاوية ابن ساسي ليجولوا بينه وبين الدخول إلى مراکش فهجم عليهم وأوقع بهم وقعة سبقوا بها بعد ساعة إلى مراکش مقرنين في الحبال حتى ضاقت بهم السجون ولولا أنه رحمه الله كف أيدي الجيش عنهم لاستأصلوهم ثم عفا عنهم بعد أن انتزع منهم بلاد آيت سعادة وغواطم والأودية وهي من أخصب البلاد وأزكاها وكتب السلطان في هذه الوقعة لأخيه المولى الرشيد بكتاب مختوم عليه بالخاتم الكبير بن الافتتاح والخطاب وبداخل الخاتم محمد بن عبد الرحمن غفر الله له وبدانته ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في أجامها تجم وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب هود وبأركان الخاتم الله

محمد أبو بكر عمر عثمان علي ونص الافتتاح الحمد لله الذي تدارك الأمة باللطف الكفيل بتمهيد أقطارها وتيسير أوطارها وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين نصرنا الدين بالصفاح والأسنة وأوضحوا أحكام السنة أخاصا الأعرى الأرضى مولاي الرشيد أصلحك الله وأعانك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فإنه لما تواترت الأنباء المحققة بعد التباسها وتواردت الأخبار التي بغني نصها عن قياسها بما ارتكبه ظالموا أنفسهم الرحامنة من أنواع الفساد التي أذاعوها وأظهورها وأشاعوها وقد كانت في صدورهم كامنة صرفنا الوجهة إليهم وطوينا المراحل من أجلهم ولما حللنا ببلادهم أرسلنا عليهم سيل العرم من العساكر المنصورة والجيش الموفورة فما كان غير بعيد حتى أتوا برووس منهم كثيرة محمولة على أسنة الرماح وأسارى من مقاتلتهم مجردين من الثياب والسلاح ومن نجى منهم رجع مجردا إلا من خيبة سعيه وما سقى إلا بكأس بغيه واستولت العساكر والأجناد على جميع ما كان عند أهل الفساد ومن المعلوم أن من سل سيف البغي يعود إلى نحره ومن ركب متن الشقاق يغرق في بحره وأن الفتنة نار تحرق من أوقدها والمخالفة صفقة تعود بالخسارة على من عقدها ولما أردنا معادوتهم لقطع دابرهم وتشتيت ما بقي من رماد أثرهم تعلقوا بالمراطين من ذوي الوجاهات وأكثروا من الذبائح على المحال وتوجيه العارات وقاموا بواجب السمع والطاعة في كل ما أمرناهم به جهد الاستطاعة فأبقينا عليهم وإن عادت العقرب عدنا بحول الله لها وكانت النعل لها حاضرة فالحمد لله الذي خيب أمالهم وأبطل أعمالهم وخذل أنصارهم وأركد أعمارهم لما اعمى أبصارهم وردهم ناكسين على الأعقاب بعد سلب الأموال وقطع الرقاب ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب الأنفال ونعوذ بالله من الأراء المعكوسة والحظوظ المنكوسة وسوء الفعل الذي يورد المهالك والحرمان الذي يجعل البصير كالأعمى في دجنة الليل الحالك هذا ويصلكم ما قطع من رؤوس قتلاهم لتتعلق بباب المدينة ويعتبر بها المعترفون ويبتذروا بها

المتذكرون والله أسأل أن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك وأن يكون لنا وللمسلمين بما كان لأوليائه وأحبابه وأصفيائه وأن يوفقنا وإياهم لما يحبه ويرضاه ويختم للجميع بخير والسلام في ذي الحجة الحرام عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف ومن تمامه وأن عقلت يوما واحدا فادفعها لحملتها ولا بد ليتوجهوا بها إلى مكناسة صح به اله نص الكتاب الشريف وفي سنة تسع وسبعين ومائتين وألف سافر شيخنا الفقيه العلامة البارع أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوي إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فوافته منيته بمكة المشرفة بعد الفراغ من الحج والعمرة ودفن بالمعلاة وكان رحمه الله واعية دراية نفاة كثير الدرس والتقييد والنسخ للكتب المعنوية فصيح العبارة حسن النعمة والصوت عارفا بالحديث دؤوبا على سرده عارفا بالنحو والفقه وعلوم الآلة لازمانه وانتقنا به وعادت علينا بركاته رحمه الله ونفعنا به وكنت رثيته بقصيدة ذهبت في جملة ما ذهب من شعري إذ لم يكن لي اعتناء بتقييده ومطلعها ملازمة التذكار تذهب باللب وتغري قديم الوجد بالهائم الصب وفي سنة ثمانين ومائتين وألف وذلك يوم السبت الرابع عشر من شعبان منها كانت هذه البارود بمراكش وذلك أنه كان بجامع الفناء منها فندق في بعض بيوتة نحو أربعائة قطار من البارود وبه أيضا شيء من فحم الريش المتخذ للبارود فوقعت فيه نار وسرت منه إلى البارود فنفض وقت الغروب من اليوم المذكور والناس كثيرون حول الفندق فطار الفندق بما فيه وكانت حيطانه عادية وطار من كان حوله من الناس قيل نحو الثلاثمائة منهم من لم يوجد أصلا ومنهم من وجد بعضه من يد أو رجل ونحو ذلك وتهدمت كل دار كانت متلاشبة بمراكش وانخلعت الأقفال من الأبواب وصرصرت السقوف والحيطان وكان الحادث عظيما وفي هذه السنة ورد يهودي من اللوندرية على السلطان بمراكش يطلب منه الحرية ليهود المغرب وذلك لأنه

لما كانت وقعة تطاوين ودهم الناس ما دهمهم من أمر حمايات وأكثر من تعلق بها اليهود لم يقتصروا على ذلك وراموا الحرية تشبها بيهود مصر ونحوها فكتبوا إلى يهودي من كبار تجارهم باللوندة اسمه روشايل وكان هذا اليهودي قارون زمانه وكانت له وجهة كبيرة في دولة النجليز لأنها كانت تحتاج إليه فيسلفها الأموال الطائلة وله في ذلك أخبار مشهورة فكتب يهود المغرب إليه أو بعضهم يشكون إليه ما هم فيه من الذلة والصغار ويطلبون منه الوساطة لهم عند السلطان رحمه الله في الإنعام عليهم بالحرية فعين هذا اليهودي صهرا له للوفادة على السلطان رحمه الله في هذا الغرض وفي غيره وأصبح هدايا نفيسة وسأل من دولة النجليز أن يشفعوا له عند السلطان ويكتبوا له في قضاء غرضه ففعلوا وقدم على السلطان بمراكش وقدم هدايا وسأل تنفيذ مطلبه فتجافى السلطان رحمه الله عن رده مخفقا وأعطاه ظهيرا فتمسك به اليهودي يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله لهم من حفظ الذمة وعدم الظلم والعسف ولم يعطهم فيه حرية كحرية النصارى ونص الظهير المذكور بالطابع الكبير بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماء الله وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمس المنيرة ويدرهم من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إيلاننا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام حتى لا يلحق أحدا منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم وأن لا يستعلموا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيقهم بما يستحقونه على عملهم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة ونحن لا نوافق عليه لا في حقه ولا في حق غيرهم ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فإننا نعاقبه بحول الله وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبينناه كان مقررا ومعروفا محررا لكن زدنا هذا المسطور تقريرا وتأكيدا

ووعيدا في حق من يريد ظلمهم وتشديد ليزيد اليهود أمانا إلى أمنهم ومن يريد التعدي عليهم خوفا إلى خوفهم صدر به أمرنا المعتر بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ثمانين ومائتين وألف ولما مكثهم السلطان من هذا الظهير أخذوا منه نسخا وفرقوها في جميع يهود المغرب وظهر منهم تطاول وطيش وأرادوا أن يختصوا في الأحكام فيما بينهم لا سيما يهود المراسي فإنهم تحالفوا وتعاهدوا على ذلك ثم أبطل الله كيدهم وخيب سعيهم على أن السلطان رحمه الله لما أحس بطيش اليهود عقب ذلك الظهير بكتاب آخر بين فيه المراد وأن ذلك الإيضاء إنما هو في حق أهل المروعة والمساكين منهم المشغولين بما يعينهم وأما صعايلكم المعروفون بالفجور والتطاول على الناس والخوض فيما لا يعني فيعاملون بما يستحقونه من الأدب واعلم أن هذه الحرية التي أحدثها الفرنج في هذه السنين هي من وضع الزنادقة قطعا لأنها تستلزم إسقاط حقوق الله وحقوق الوالدين وحقوق الإنسانية رأسا أما إسقاطها لحقوق الله فإن الله تعالى أوجب على تارك الصلاة والصوم وعلى شارب الخمر وعلى الزاني طائعا حدودا معلومة والحرية تقتضي إسقاط ذلك كما لا يخفى وأما إسقاطها لحقوق الوالدين فلأنهم خذلهم الله يقولون إن الولد الحدث إذا وصل إلى حد البلوغ والبنيت البكر إذا بلغت سن العشرين مثلا يفعلان بأنفسهما ما شاءا ولا كلام للوالدين فضلا عن الأقارب فضلا عن الحاكم ونحن نعلم أن الأب يسخطه ما يرى من ولده أو بنته من الأمور التي تهتك المروعة وتزري بالعرض سيما إذا كان من نوي البيوتات فارتكاب ذلك على عينه مع منعه من الكلام فيه موجب للعقوق ومسقط لحقه من البرور وأما إسقاطها لحقوق الإنسانية فإن الله تعالى لما خلق الإنسان كرمه وشرفه بالعقل الذي يعقله عن الوقوع في الرذائل ويبعثه على الاتصاف بالفضائل وبذلك تميز عما عداه من الحيوان وضابط الحرية عندهم لا يوجب مراعاة هذه الأمور بل يبيح للإنسان أن يتعاطى ما ينفر عنه الطبع وتأباه الغريزة الإنسانية من التظاهر بالفحش والزنى وغير ذلك إن شاء لأنه مالك أمر نفسه فلا يلزم أن يتقيد بقيد ولا فرق بينه وبين البهيمة

المرسلة إلا في شيء واحد هو إعطاء الحق لإنسان آخر مثله فلا يجوز له أن يظلمه وما عدا ذلك فلا سبيل لأحد على إلزامه إياه وهذا واضح البطلان لأن الله تعالى حكيم وما ميز الإنسان بالعقل إلا ليحمله هذه التكاليف الشرعية من معرفة خالقه وبارئه والخضوع له لتكون له بها المنزلة عند الله في العقبي إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض الأحزاب الآية واعلم أن الحرية الشرعية هي التي ذكرها الله في كتابه وبينها رسول الله لأمتة وحررها الفقهاء رضي الله عنهم في باب الحجر من كتبهم فراجع ذلك وتفهمه ترشد وبالله التوفيق وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف كمل بناء الدار الفيحاء التي أنشأها السلطان سيدي محمد رحمه الله بأجدال من ظاهر رباط الفتح بجوار ضريح جده سيدي محمد بن عبد الله وهي دار كبيرة حسنة البناء واسعة المقاعد والفناء يقال إنها من أخوات بديع المنصور ولما كمل بناؤها أمر السلطان رحمه الله أن يختم فيها فقهاء رباط الفتح صحيح البخاري أولا وفقهاء سلا ثانيا فدخلناها في جملتهم وتقصينا منازلها ومقاعدنا فرأينا ما ملأ ألبصارنا حسنا وإتقانا وعجيب صنعة وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف حدثت فتنة بفاس وذلك أن الناس كانوا في صلاة الجمعة بمسجد القرويين خامس ربيع الأول وكان فيهم التاجر الأمجد أبو عبد الله حبيب بن هاشم بن جلون الفاسي فلما سجد مع الناس شخ بعض اللصوص رأسه بحجر كبير من أحجار التيمم التي تكون بالمسجد ثم انحنى عليه بخنجر كان بيده فقطع به صفاق بطنه وساوره التاجر المذكور وما بالعبر من قاصص ولما وقعت الضجة قطع الناس صلاتهم وخرجوا فارين من المسجد وتركوا ثيابهم ونعالهم ومصاحفهم وغير ذلك فقاتل يقول إن الإمام المهدي قد خرج وأخر يقول إن الناس يذبح بعضهم بعضا في الجامع واهتزت المدينة ثم تراجع الناس بعد حين وأما اللص فإنه خرج شاهرا سلاحه حتى وصل إلى باب المسجد فكثره الناس وقبضوا عليه وانتزعوا السلاح من يده وكشفوه فإذا به قد أدار حبالا كثيرة من تحت الثياب

على بدنه وقاية له فقتلوه هنالك وبقي التاجر ابن جلون يعالج جراحاته إلى أن مات من آخر الليل واتهم أولياؤه ناسا من أعيان فاس بأنهم أغروا بقتله ولم يثبت ذلك وفي هذه السنة أعني سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف وجه السلطان رحمه الله قائد جيشه أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم الشرفي وعامل سلا أبا عبد الله محمد بن سعيد السلاوي بشدورين إلى دولة فرنسا بباريس وكان السبب في ذلك ما أخبرني به القائد أبو عبد الله بن سعيد المذكور قال كان سيدنا أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله قد أصبحنا كتابا إلى طاغية الفرنسيين وأمرنا بالكلام معه في شأن هؤلاء النواب الذين يبعثهم إلى المغرب وأن يكون ينتخبهم من بيوت الأعيان وممن يتصف بالتأني وحسن السيرة والوقوف عند ما حد لهم ولما وصلنا إلى باريس شرحنا ذلك للطاغية المذكور كتابة ففرح وقابلنا بما لا مزيد عليه من البرور الذي لا نقدر على شرحه مع إن إكرامنا والحمد لله لهم يفوق ذلك في الصوائر وكنا توجهنا ومعنا خيول وغيرها وأقمنا بباريس شهرا وكان مقامنا بدار كثيرة الفرش والأثاث من الفضة والمعدن ووكل بنا أمين يصير علينا حسب نظرنا وقومة يباشرون فرش المنزل وتنظيفه وغير ذلك ومعنا أصحابنا وطباخنا إلا أنهم منعزلون بمحل يخصهم وفي كل يوم تستدعينا الدولة للفرجة بمحل يسمى التياترو فيه مواعظ وحكم لمن تبصر ومتعة للنفس لمن كان حظه النظر وقد أكرمنا الطاغية بمنزله وأكرمنا الوزراء وعامل البلد والأعيان ليلا وكل واحد يجمع علينا أعيان الدولة وأهل البلد نساء ورجالا وعادتهم عند دخولك المنزل أن تحيي الزوجة ومن معها بالسلام أولا ثم بعد ذلك تحيي الرجل ورأينا من الطاغية ووزيره على الأمور البرانية من البرور والباشاشة ما جاوز الحد وطلب منا هذا الطاغية أن نبحث له في كتب التاريخ بالمغرب هل نعثر على تاريخ بناء رومة وفي أي وقت بنيت واسم بابيها ونبعث به إليه كلام العامل المذكور وهو حفظه الله من أمثل الناس

وأعدلهم وأتقاهم وله المنزلة الكبيرة عند السلطان وعند الناس حرس الله مجانته وأدام بمنه عاقبته وسلامته ونص الكتاب الذي وجههم به السلطان رحمه الله مكتوبا فيه اسم السلطان بداخل الطابع الشريف بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم من عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره إلى الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بالمغرب الأقصى وهو محمد بن عبد الرحمن وفقه الله أدام الله نصره وزين بالخيرات عصره إلى المحب الذي حل من مراتب الرياسة أسنانها وحاز من خصال التقدم أقصاها وأدناها فأصبحت أسن الرؤساء لهجة بركه مفضحة بتسليم فكره ملك الممالك الفرنسية السلطان نابليون الثالث بعد فموجب تحرير هذا المسطور إليكم إعلامكم بما تضمنه الفؤاد من خالص المحبة وحفظ الوداد وإتنا مسرورون بما يتجدد لدينا كل وقت من عقد أسبابها وما يظهر كل

حين من تشييد أركانها وفتح أبوابها فإن محبتنا معكم الشخصية زادت على ما كانت عليه في عهد الأسلاف وذلك لما جبلتم عليه من صفاء الطوية وحسن الائتلاف فإن القلوب في الوداد تتضاهى وما بني على أصل وثيق كان جديرا بأن يعظم وينتهي وبموجب ذلك عينا للسفارة إليكم خالنا الأرضي الأندج القائد محمد بن عبد الكريم الشرقي وهو أحد باشات جيشنا ومن كبراء رجال دولتنا مع ما تشرف به من قرابة الرحم لدينا ومع خديمتنا الأرضي الأمين الحاج محمد بن سعيد قائد سلا وهو عندنا أيضا بالمكان المكين لما تخلق به من الأدب والعقل الرصين والغرض من توجيههما تجديد العهد بكم والحرص على مواصلة المواصلة معكم لما في ذلك من تأكيد أسباب المحبة بين الدولتين وتمهيد طريق الخير بين الإيالتين والظن بشيمنتكم مقابلتهن بحسن القبول وتبليغهم في وجهتهم غاية المأمول جريا على عادتكم القديمة وسلوكا على طريقتكم القويمة وقد حملناهم ما في خاطرنا من أمور السياسة الجالبة لمصالح الجانبين ما يقررونه لديكم ويعرضونه عليكم ففي أخبارهم كفاية وأوصيناهم بحسن الاستماع لما تلقونه

إليهم والأدب في تلقي ما تعرضونه عليهم كما أننا نتحقق أنكم لحسن معاملتكم ومزيد محبتكم توصون نوابكم الذين توجهونهم للخدمة بإيالتنا السعيدة بحسن المعاملة والتقصي في ترحيب الصدر والمجاملة والوقوف عند الشروط والعمل بمقتضاها والتمام في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هـ واعلم أن هذا الكتاب ببيع في بابه غريب في منواله قد اشتمل من التوريات والنكات ومقتضيات الأحوال على ما يشهد لمنشئه بالمعرفة والمهارة والبصيرة والبصارة رحمه الله وفي شوال من هذه السنة مرض السلطان رحمه الله مرضا شديدا أشرف منه على الهلاك بل أشاع المرجفون أنه قد هلك واضطربت أحوال الرعية وعاد أعراب البادية إلى العيث في الطرقات واستلاب الناس بها من المارة وغيرهم وحاصر عرب عامر مدينة سلا وعاثوا في جناتها ومنعوا الدخول إليها والخارج منها وغلقت الأبواب واستمر ذلك إلى عيد الأضحى ثم ورد الخبر اليقين بإبلال السلطان وإفاقة من علته وكانت علته الداء المعروف بالخوانق بلغ به إلى حد اليأس والإشراف ثم تدارك الله المسلمين بلطفه ومن على إمامهم بعافيته فأعملت المفرحات والولائم في جميع الأمصار قال أبو عبد الله أكنسوس ما ملخصه لما أفاق السلطان رحمه الله من علته هذه كتب حجاب الحضرة ووزراؤها لابنه الخليفة المنتصر بالله أبي علي المولى حسن بن محمد يهنئونه بعافية السلطان فأمر هذا الخليفة أعزه الله بإخراج المدافع والأنفاض حتى اهتزت الجبال ثم دعا أيده الله الناس الدعوة الحفلا فلم يتخلف ممن كان بمراكش أحد من العقلاء فأمر أيده الله بتهيئة جنان رضوان ففتحت أبوابه وفرشت قصوره وقبابه وفجرت أنهاره حتى تفتقت أزهاره وحضر وجوه الدولة وأعيانها ورؤساء القبائل وأقيالها وكان ذلك بأثر عيد الأضحى قبل انفصال وفود العيد عن الحضرة ثم اندفع عليهم من الدار المولوية من سيول موائد الطعام الفاخر ما مع الأول منهم والآخر هذا للعاملة المطلقة والأوزاع الملققة وأما الخواص والوجوه

فلهم الحظ الأوفر من العافية والخطاب بصريح الترحيب دون كناية بالقعود على الفرش الحريرية المذهبة والمقاعد العالية المطنبة والرش بمياه الأزهار ومباخر الطيب وكل معنى لطيف ومنظر عجيب وقد أحضر كل واحد ما شاء من آلات اللهو والفرح على حسب ما انتهى واقترح فلا تكاد تسمع في تلك المجالس والمغاني إلا أصوات المثالث والمثاني وضروب الألحان والأغاني واستمر الناس في ذلك ثلاثة أيام والمولى الخليفة أعزه الله مع إخوته وبني عمه في القبة المحمدية الصوبرية المشرفة على مجاري الخيل وملاعبها ومطاردها ومتاعبها وكل عشية يركب من بالحضرة من الوجوه والأكابر على عتاق الخيل والجياد الضومر ويبيدي ما عنده من الثقافة والفروسية مع إظهار الشارة المخزنية والأبهة الملوكية ثم بعد هذا شرع كبار الدولة ووجوهها ورؤساؤها وقوادها في انتخاب الصنائع والولائم كل على حسب ما أداه إليه اختياره واعتناؤه ثم تتابع الناس في مهاتهم وأظهار أنبأهم وانتخاب دواعي الأفراح ومقتضيات الردءاء والانشراح فما يمر احد ببستان إلا ويوجد به جماعة زاهية وطائفة منبسطة لاهية هـ وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف كان بالمغرب جراد سد الأفق وذلك في ربيع الأول الموافق لشهر مارس العجبي فأكل النجم والشجر ثم عقبه فرخه المعروف بأمرد فأكل كل خضراء على وجه الأرض واستلب الأعواد من أوراقها وقشرها من لحائها وفاض في الأمصار حتى دخل على الناس في بيوتهم وفي سنة أربع وثمانين ومائتين وألف كان الغلاء المفرط بالمغرب الذي لم يتقدم مثله بلغ فيه الربيع وهو ربع ثمن المد بسلا ورباط الفتح سنتين أوقية وباع الناس أنثاهم وحليهم بالبخس وكان الأمر شديدا على الضعفاء وفي ذي القعدة من هذه السنة توفي القائد الأجل أبو محمد عبد الله بن عبد الملك بن بيهي الحاحي وكان من كبار قواد المغرب وأهل البذل والإيثار والمعروف له في ذلك أخبار مذكورة رحمه الله

وفي سنة خمس وثمانين ومائتين وألف كان الوباء بالمغرب بالقيء والإسهال المفرطين على نحو ما وصفناه في السنين الماضية وفي زوال يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة توفي قاضي سلا الفقيه العلامة الورع أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد بن منصور ودفن بالجبانة المتصلة بصريح الشيخ أبي العباس بن عاشر رضي الله عنه وكانت لهذا القاضي سيرة حسنة وعدل في الأحكام وتأن فيها مع سمت ومروءة وانقباض رحمه الله وبقيت سلا بلا قاض أربعين يوما حتى وقع اختيار السلطان على شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبي بكر ابن الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد عواد رحم الله الجميع وفي هذه السنة أمر السلطان رحمه الله بضرب الدرهم الشرعي وحاول ضبط السكة به وحمل الناس على أن لا يذكروا في معاملاتهم وأنكحتهم وسائر عقودهم إلا الدرهم الشرعي وشدد في ذلك وكتب فيه إلى ولاية الأمصار يقول في كتابه ما نصه وبعد فإن أمر السكة من الأمور الواجبة المتعين رد البلب إليها والاهتمام بشأنها والنظر فيما يصدر بسببها من النفع والضرر للمسلمين وبيت مالهم وقد كان أسلافنا رحمهم الله اعتنوا كثيرا بشأنها وبضبط مصالحها ودفع مفسادها وجعلوها على قدر شرعي معلوم لضبط أمرها والتبرك بتلك النسبة إذ بذلك يعلم المسلم علم يقين كمال النصاب عنده فتجب عليه فيه الزكاة التي هي من دعائم الإسلام أو عدم كماله فلا يكون مخاطبا في بشيء ولما رأينا ما حدث فيها من التغيير وعدم الضبط ونشأ عن ذلك من الضرر للمسلمين وبيت مالهم ما لم يخف على أحد اقتضى نظرنا السيد ردها لأصلها الأصيل الذي أسسه أسلافنا الكرام سنة ثمانين ومائة وألف أذننا فيهم أسوة حسنة في الإجمال والتفصيل فرددنا الدرهم الكبير المسلوك على وزن الدرهم الشرعي والمنهاج المرعي كما كان على عهد جدنا سيدي الكبير قدسه الله وجدد عليه وابل رحمه الله حيث تكون عشرة دراهم منه هي المتقال كما هو معلوم إن عشرة دراهم من الدراهم التي كانت تروج قبل على عهد أسلافنا رحمهم الله هي المتقال وبهذا العدد

الذي هو عشرة منه في المتقال تكون جميع المعاملات والمخاطبات في البيع والابتياح وغيرهما بين جميع رعييتنا السعيدة في كل البوادي والحواضر وبه أمرنا جميع العمال ومن هو مكلف بعمل من الأعمال وإشاعته ليلبغ الشاهد الغائب وبه يقبل لجانب المال وأمرناهم بالعمل بهذا الأمر الذي أصدرناه وأبرمناه بحول الله وأمضيته وأن يعاقبوا كل من عثروا عليه ارتكب خلاف ذلك وبأن يسلكوا به أضيق المسالك جزاء وفاقا على مخالفته وتعديه الحد واقتيابته نعم ما سلف من المعاملات بجميع أنواعها فيما تقدم قيل تاريخ هذا الكتاب فحكمه حكم ما تقدم في السكة فلا يكلف أحد بزيادة ومن كان بذمته شيء فيما سلف يؤديه بحساب ما كانت تروج به السكة في الريال والدرهم والعمل بهذا الذي أمرنا به هو من الآن لما يستقبل إن شاء الله وبهذا يزول الإشكال فيما تقدم بين الناس في المعاملات ونسأل الله أن يخلص العمل في سبيله ومرضاته ويجازي من فضله وكرمه على قصده وصلاح نياته والسلام في ثامن شوال عام خمسة وثمانين ومائتين وألف هـ وفي يوم الجمعة السادس عشر من شوال المذكور توفي البركة الخير المنتسب سيدي الحاج محمد بن العربي الدلائي الرباطي بالدار البيضاء ودفن يوم الجمعة بالزاوية المنسوبة إليه بها رحمه الله ونفعا به وفي هذه السنة كان سوق دار البلبار ببباريس من أرض افرانسا وذلك أن الطاغية نابليون الثالث لما بلغ من ضخامة الدولة ونفوذ الكلمة ما قل اتفاهه لغيره من الأجناس حاول أن يتجاوز ذلك إلى أن يجلب إلى رعيته ودار ملكه كل أمر غريب في العالم حتى يجتمع عنده ما اقترق عند غيره فكتب إلى ملوك الأفاق يقول إنه قد عزم على إقامة سوق ببباريس في وقت معلوم وطلب معلوم أن يبعثوا بتجارهم لحضورها وجلب سلعهم وغرائبهم إليها وقصده بذلك عموم النفع وتعدي الصنائع والحرف من أمة إلى أخرى فأجاب الملوك داعيه بمقتضى العرف الجاري

بين الدول والعادة المقررة من عهد الملوك الأول ولم يبق إلا من بعث تجاره ونفائسه وغرابيه من الجليل إلى الحقيبر وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله قد بعث تجاره محمد بن العربي القباقي الفاسي المعروف بالفرنساوي وهذا الرجل من العارفين باللسان الفرنسي البصيرين بعوائد ذلك الجيل ولذا لقب بالفرنساوي وبعث معه السلطان رحمه الله كل شيء غريب مما اختص به قطر المغرب من سروج مذهبة ومناطق مزخرفة وقطائف منمقة وغير ذلك من الأعلى إلى الأدنى حتى الزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه في محاله وحضر هذا السوق الملوك فمن دونهم من كل إقليم حتى السلطان عبد العزيز العثماني رحمه الله فكان الحال كما قال أبو الطيب المتنبي تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجيح وأقامت عمارتها ثلاثة أشهر ثم انفض الناس إلى بلادهم ولما بلغ نابليون الثالث إلى هذه الغاية فجنته وقعة البروس التي كسرت من شوكته وفتت من غربه وقبض عليه باليد وحوصرت دار ملكه بباريس مدة طويلة فبلغ فيها لحم الحمار أربعة ريبالات افرنك لكل رطل على ما قيل ولم تغب عنهم محنة ووقع الصلح على شروط منها ألف مليون من الريال تدفعها دولة افرانسا لدول البروس وفي سنة ست وثمانين ومائتين وألف وذلك عشية يوم الخميس الرابع عشر من شعبان منها توفي الوزير أبو عبد الله محمد الطيب بن اليماني المدعو بأبي عشرين وكان سبب وفاته أنه كان به داء الحصر فدخل الميضة التي بمشور أبي الخصيصات من دار السلطان بحضرة مراكش فيقال إن مثانته تمزقت فمات رحمه الله وحمل إلى داره وصلى عليه بعد الجمعة بمسجد المواصلين وحضر جنازته الجم الغفير ودفن بضريح الشيخ أبي محمد الغزواني من حومة القصور وكان رحمه الله ذا جد في الأمور ونصح للسلطان وللمسلمين وفي سنة سبع وثمانين ومائتين وألف وذلك ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الثاني منها خسف القمر خسوفا كليا بعد الغروب إلى نصف الليل وفي فجر يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى من السنة المذكورة توفي الولي الصالح الناسك السني أبو عبد الله محمد الطيب ابن الشيخ الأشهر مولاي

العربي الدرقاوي ودفن بمحل زاويته بأمجوط من بلاد بني زروال وكان من خيار عبد الله على غاية من التقوى والورع والتواضع من الناس يركب الحمار ويلبس الجبة ولا يتميز عن أصحابه بشيء مع السكينة والوقار وعدم الخوض فيما لا يعني والإعراض عن زهرة الدنيا وأهلها رحمه الله ونفعنا به وفي التاسع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة انكسفت الشمس وكان ابتداء الكسوف على ما أعطاه التعديل بعد الزوال بنحو نصف ساعة وكاد يكون كليا حتى أظلم الجو وبقي من الشمس حلقة نورانية بسيرة ولم يمكن تحقيق وقت التجلي لتراكم السحاب وفي هذه الأيام ظهرت حمرة في السماء غريبة أرجوانية مع غايه الصحو وكان ظهورها يكون فيما بين العشاءين معظمها في جهة الشمال ودامت كذلك نحو سبعة أيام وانقطعت وفي ليلة السبت الثامن من شوال من السنة وذلك في الساعة الثالثة منها زلزلت الأرض ولم يشعر بها كثير من الناس لكونهم نياما وفي سنة تسع وثمانين ومائتين وألف غزا السلطان سيدي محمد رحمه الله قبائل تادالا فمر على السماعلة منتصف رجب ثم منهم لبني زمرور ثم لأبي الجعد ثم منه توجه لقصبة تادالا وعبر القنطرة ونزل على بني عمير ثم زحف لبني موسى فأوقع بهم لأنهم كانوا خارجين على عاملهم الغزواني ابن زيدوح فقطع منهم خمسين رأسا وقبض على أربعين مسجوناً وفي أثناء ذلك قدم عليه وفد أهل مراكش وكانوا قد ثاروا على عاملهم أحمد بن داود لكونه كان يسير فيهم سيرة غير حميدة فقدموا على السلطان منتصليين مما فرط منهم فأعرض السلطان عنهم ولم يسمع منهم كلاماً ولا قبل لهم عنرا فرجعوا مخفقين ثم تقدم السلطان رحمه الله إلى مراكش وهو غضبان على أهلها وكانوا مظلومين فيما قيل إلا أنه ليس على السلطان في أمرهم فلما شارف المدينة خرجوا إليه بالعلماء والقراء وصبيان المكاتب متشفعين فلم يقف لهم ولا التفقت إليهم وكان ابنه وخليفته المولى الحسن حاضراً يومئذ فتقدم إلى أهل مراكش ورق لهم وقال لهم قولاً جميلاً وكان هذا الحادث في رمضان

من السنة المذكورة ثم لم يلبث ابن داود بعد ذلك إلا مدة بسيرة حتى توفي وتخلصت قانية من قوب وعضو الله بعد ذلك مرقيب وفي سنة تسعين ومائتين وألف كانت جائحة النار بكثير من بلاد المغرب أحرقت الزروع والثمار وأجبت الجنات وتراجع الناس في أثمان ما بيع منها بعد إقباط الموجبات وكانت أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله في أولها شديدة بسبب ظهور العدو على المسلمين وما عقبه من الغلاء والموت ثم بعد ذلك اتسع الحال وحصل الأمن وانخفضت شوكة قبائل العرب بالمغرب وأمنت الطرقات من عيثم وازدهت الدنيا ورخصت الأسعار رخصاً يسيراً وكان الناس مبعثين في أيامه وغلث الدور والأمالك حتى كانت في بعض السنين لا تسمسر ومن يشتري داراً إنما يشتريها بالتقشير عنها والطلب من ربه بالثمن الجافي واتخذ الناس ذوو اليسار المراكب الفارهة والكسي الرفيعة والذخائر النفسية وتأنقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لا سيما بفاس ورباط الفتح ولاحت على الناس سمة الحضارة الأعجمية وكان للسلطان سيدي محمد رحمه الله في كل بلد عيون يكتبون له بما يقع من الولاة فمن دونهم فكانت الرعية كأنها في كف يده وكان يختار أولئك العيون من العوام فكانوا يكتبون له بالعث والسمين فيسمع ذلك كله فينتقي منه الصحيح وي طرح السقيم فاستقامت أحوال الرعية بذلك وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله كانت وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله في زوال يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام سنة تسعين ومائتين وألف بداره بحضرة مراكش في البستان المسمى بالنيل ولم يمرض إلا يوماً أو بعض يوم قيل إنه شرب دواء مسهلاً فكان فيه أجله والله أعلم ودفن ليلاً بضريح جده المولى علي الشريف قرب ضريح القاضي عياض وكتب على رخامة قبره أبيات ليست من جيد الشعر وهي

أمستعيراً حولي رويدك إنني ضريح سعيد حل فيه سعيد هو العلوي الهاشمي محمد إمام له في الملك سعي حميد أبوه أبو زيد وقدس ذكره فقد كان يبدي في العلى ويعيد ترحم عليه واعتبر بمصابه فعقد نفيس قد أصيب فريد ومن رام تاريخ الوفاة فقل له بشعرك أرخ ما عليه مزيد ببقية أخبار السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله ومآثره وسيرته كان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله متقياً لله تعالى بانبا أمره على الشرع لا يشذ عنه طرفه عين حتى أنه لما عزم على بناء داره التي برباط الفتح قام جماعة من أهل البلد يطلبون منه النصف في جنتهم التي هنالك فأذن رحمه الله لإعمال الشرع معهم واستتاب وكيلاً عنه واستتابوا هم وكيلهم أيضاً وتحاكموا لدى قاضي سلا الفقيه أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد بن منصور ثم انفصلت القضية عن ضرب من الصلح بأن أعطاهم أثمان جنتهم أو بعضها وذهبوا بسلام وكان رحمه الله حازماً في أمره عالي الهمة رامياً بها الغرض الأقصى إلا أن الزمان لم يساعده كل المساعدة فكانت همته أجل من دهره وكان ذا سياسة وسكينة وتأن في الأمور وتبصر بالعواقب كثير الحياء بعيد الغضب سريع الرضى مشفقاً على الرعية متوقفاً في الدماء لا يرايل خوف الله قلبه رحمه الله ونفعنا به وبأسلافه وله آثار بالمغرب منها ما خلد أيام خلافته في حياة والده ومنها ما فعله بعد ولايته فمن آثاره في أيام أبيه كما قال أكنسوس إجراء الأنهار وتقجير العيون التي عجز الملوك المتقدمون عنها وتكملة غرس أجدال بحضرة مراكش وكان في زمان الصيف يناله الجذب من قلة الماء لأن بركة التي كان يختزن بها الماء كانت قد تعطلت بامتلائها بالتراب والطين الذي

تجلبه السيول إليها وأعظمها البركة الكبرى التي بدار الهناء وكان يقال لها البحر الأصغر وطولها اثنتا عشرة مائة قدم وعرضها تسعمائة قدم حسبما أخبر من قاسها وكان تربيعها بمنزلة سور قصبة فجاء من بني في وسطها قرية بدورها وأزقتها وأسواقها فجاء السلطان سيدي محمد رحمه الله أيام خلافته فأمر بإخراج ما في تلك البرك والصحاريج كلها وتنقيتها من الطيون المتحجرة فاجتمع على ذلك عالم من الناس فكسوها وعادت إلى حالها الذي بنيت لأجله وهو اختزان الماء لوقت المصيف وبذلك كمل المراد من أجدال وصار أمناً من العطش والأمحال ومن ذلك أيضاً إحياء عين أبي عكاز خارج باب الطبول من مراكش وكانت لها بركة باندة على الوصف الذي ذكرنا فعمد إليها سيدي محمد رحمه الله وفجر لها عينا ثرة وماء غداً وأجرها إلى البركة المذكورة بعد أن أمر بتنقيتها وإصلاحها فعاد ذلك البسيط الذي حولها مزارع نفاعاً تغني الزارعين وتبهج الناظرين وبني رحمه الله حولها قلعة يأوي إليها الأكرة والحراثون بأنعامهم ومواشيهم واتخذ هنالك من إناث الخيل المعدة للنتاج عدداً كثيراً ومن ذلك إحياء عين المنارة وبركتها العظمى التي تقرب من البحر الأصغر بدار الهناء وكانت قد عطلت منذ زمان فقبض الله لها هذا السلطان فجمع الأيدي عليها حتى أخرج ما في جوفها من جبال الطين وأصلح ما تشعثت من حيطانها وأجرى إليها العيون والأنهار وأمر بغرس ما حولها من

الفضاء بأنواع الأشجار وضاهى بها جنة أجدال ومن ذلك أيضا إجراء النهر المسمى بتاركي المستمد من وادي نفيس فإنه ضاهى به النهر القديم الذي هناك وهذا النهر الجديد أنفع منه وأوسع أحياه الله به تلك البساتن التي بين مراكش ووادي نفيس ومن ذلك أيضا إجراء النهر الذي جلبه من تاسناوت إلى البسيط الذي بين بلاد زمران والرحامنة والسرراغة وهو المسمى بفيطوط فصار ذلك كله رياضاً مخضرة وبساتين

ذات أزهار مقطرة وبنى رحمه الله فيها قصبة عامرة يأوي إليها الوكلاء والفلاحون وصارت أهلة بعد أن كانت بائدة غامرة ومن آثاره بعد ولايته أمر المؤمنين داره الكبرى بأجدال رباط الفتح والسور الكبير المحيط ببسطها وجلب الماء إليها بعد أن صير عليها أموالاً كثيرة وأحيا جامع السنة قربها وكان باندا يعيش فيه الصدى واليوم وأقام فيه الصلوات الخمس والخطبة كل جمعة وأحيا المسجد الصغير هناك المسمى بمسجد أهل فاس واعتنى به وزخرف سقفه وانتهج الطريق من الدار المذكورة إلى الوادي أسفل من حسان تسهيلاً على المارة وتقريباً عليهم ومنها أنه نقل طائفة من الجيش السوسي الذي بالمنشبة وأوطنها حول الدار المذكورة بأجدال فاستطابوا المقام هناك وحسنت حالهم وانعمرت بهم تلك الناحية وهم الآن بهذا الحال ومنها بالدار البيضاء المسجد الجامع بالسوق وكان الصائر عليه من أحباس المسجد القديم وإنما السلطان رحمه الله أن في بنائه بإشارة عاملها يومئذ أبي عبد الله محمد بن إدريس الجراري ومنها الحمام القديم الذي بها وكان الصائر عليه من بيت المال وأصلح رحمه الله أسوار الجديدة وأبراجها واعتنى بشأن الثغور وبعث من نوابه من يتفقد أحوالها ومنها بمراكش دار فابريكة تزديج البارود بالمحل المعروف بالسجينة من مراكش وجاءت على عمل متقن وهيئة ضخمة إلا أنها اليوم معطلة لقلة المادة ومنها دار فابريكة تزديج البارود بالمحل المعروف بالسجينة من مراكش أيضاً ومن ذلك برج الفنار الذي على ساحل البحر بأشقار قرب طنجة يسرج فيه ضوء كثير يظهر للسيارة في البحر ليلاً من مسافة بعيدة وصير عليه مالا له بال وكانت المراكب تشب بذلك الساحل كثيراً إذ لم يكن لها علامة تهدتي بها في البحر ولما اتخذ السلطان رحمه الله هذا الفنار أمنت من تلك الآفة وله رحمه الله آثار كثيرة يطول ذكرها جعلها الله في ميزان حسناته ورفع بها في عليين درجاته

الخبر عن دولة ملك الزمن أمير المؤمنين المولى حسن بن محمد بن عبد الرحمن ولد الله ملكه لما توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله اجتمع أهل الحل والعقد من كبار الدولة وقواد الجيش والقضاة والعلماء والأشراف وأعيان مراكش وأحواها على بيعة نجله أمير المؤمنين المولى أبي علي حسن بن محمد لما توفر فيه من شروط الإمامة وتكامل فيه من النجدة والشهامة والزعامة ولما اتصف به من الفضل والدين وسائر خصال الخير وأسباب اليقين ولأن والده رحمه الله كان استخلفه في حياته وألقى عليه بجميع مهماته فنهض بأعبائها وتقلب من مغاني السعادة في ظلها وأفيائها قال أبو عبد الله أكنسوس لما استخلف المولى الحسن حفظه الله لم تشغله شؤون الخلافة المترددة أثناء الليل وأطراف النهار ولا في قصوره السلطانية من الحدائق والأزهار عن وظائف الدين وأسباب اليقين من نوافل الخير من صلاة وصيام وتلاوة كما حدثني بذلك بعض بطانته وأنه يجد لها في خلواته لذة وحلاوة فلما توفي السلطان كما قلنا كان المولى حسن أيده الله غائبا عن الحضرة بأبي ربي من بلاد حاجة فكتب إليه رؤساء الدولة بما حدث من موت السلطان واجتماع الناس على بيعته فقدم مراكش في السابع والعشرين من رجب سنة تسعين ومائتين وألف ولما دنا منها خرج للقائه الوزراء والقضاة والأشراف والأعيان وسائر أهل مراكش برجالهم ونساءهم وصبياتهم فملؤوا تلك البطح وضائق بهم الأرض وأخذوا يعزونه ويهنئونه وهو أيده الله يقف لكل جماعة منهم على حديثها حتى النساء والصبيان إشفاقاً عليهم وتطيباً لنفوسهم وكان يوم دخوله لحضرة مراكش يوماً مشهوداً وموسماً من مواسم الخيرات معدوداً ولما استقر بدار الملك قدمت عليه الوفود من جميع الأمصار ونسلاوا إليه من سائر النواحي والأقطار وكل وفد يأتي ببيعته وهديته واغضب الناس بولايته وتيمنوا بطلعته فقابل أيده الله كلا

بما يستحقه من الإكرام وأفاض على الرعية جلائل الإنعام وشرع في تجهيز الجيوش وفتح بيوت الأموال فغمر الناس بالعطاء وكسا وأركب ونهض من مراكش يوم الاثنين رابع رمضان من السنة المذكورة قاصداً حضرة فاس والوقوف على الرعاية والنظر فيها بما يصلحها فمر على بلاد السرراغة وخرج منها إلى البروج ومنها إلى كيسر من بلاد تامسنا فاتصل به هناك خير فنته أهل فاس وإيقاعهم بالأمين الحاج محمد بن المدني بنيس وكان السبب في ذلك على ما قيل أنه لما وصل خير وفاة السلطان إلى فاس وأن الناس اجتمعوا على بيعة أمير المؤمنين المولى حسن أعزه الله واجتمع أهل فاس لعقد البيعة أيضاً اشترط عامتهم لا سيما الدباغون أن يزال عنهم المكس فيقال إن بعض من أراد جمع الكلمة من العلماء والأعيان تكفل لهم بذلك عن السلطان ولما تمت البيعة أصبح الأمين بنيس غادياً على عمله من ترتيب وكلائه لقبض الوظيف في الأسواق والأبواب وغيرها فكلها بعض أعيان فاس في التأخر عن هذا الأمر قليلاً حتى تطمئن النفوس ويثبت الحق في نصابه وحينئذ يؤتى الأمر من بابه فأبى وأصر على ما هو بسدده فثار به العلامة وهدموا داره وانتهبوا أثاثه واستصفوا موجوده وأرادوا قتله فاختفى ببعض الأماكن حتى سكنت

الهيعة ثم تسرب إلى حرم المولى إدريس رضي الله عنه وأقام به وأمن على نفسه وكانت فتنة عظيمة يطول شرحها واتصل بالسلطان وهو بكيسر أيضاً خير فتنة أهل أزمو وقتلهم لئلا يعمروا وكان عاملهم يومئذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي سنة المراكشي ونائبه هو أحمد بن المؤذن الفرجي من سكان أزمو وكان قتلهم له تاسع عشر رمضان من السنة ثم أن أهل فاس كتبوا إلى السلطان أعزه الله وهو ببلاد تامسنا رسالة بليغة يتصلون فيها من فعلة بنيس ويرمون بها العامة والغوغاء ومن لا خلاق لهم ونصها الحمد لله وحده الكريم الذي لا يجعل بعقوبة من ارتكب الذنب وتعمده والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الشفاعة الكبرى والجاه العظيم المخاطب بقول مولانا في كتابه الحكيم وإنك لعلى خلق عظيم القلم وعلى آله الذين أوجب الله لهم مودة وحبا وأنزل فيهم قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة في القربى الشورى وأصحابه الذين كانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم فكانت الملائكة يوم حنين نصرهم وعونهم هذا ونخص المقام الذي علا قدره واستنار ضوءه وفجره وجله الفخار والوقار وعلاه البهاء وكساه وألبسه الرسول من رداء الشرف يوم كان علي وفاطمة والحسان في داخل كساه من ارتقى وفاق وساد ومهد به للخلافة المهاد والوساد وتزينت بمدائحه الطروس العاطلة وخجلت لسماحته الغيوب الهائلة من ضربت المفخر رواقها بناديه ولم تزل المعالي تدعوه لنفسها وتناديه واتخذت بيعته جلباباً للأجياد والاعناق وأغضت مهابته الجفون والأحداق عين أعيان الدولة الشريفة المولوية وصدر المملكة العلوية الذين لم تزل سيرتهم في سجلات الآثار المحمودة مرسومة ومأثرهم في الدواوين مرقومة وألقى إليه هذا القطر المغربي الرسن وحل منه محل الوسن السلطان المؤيد مولانا الحسن سلالة القوم الذين زكت نفوسهم وأينعت في حدائق المزايا غروسهم ويسير المجد تحت الويتهم وتتعطر المجالس بطيب أفينتهم لا زال السعد يراوحوك ويغاديك والعز نائماً بواديك والطعن في عين حاسديك والقذى في عين أعاديك وجعلك الله من صروف الزمان في أمان ولا قطع الله عن جماعة العلماء جميل عادتكم ولا سلب المسلمين ملايس سعادتكم ورفع في بروج السعادة أعلامك ومكن من رقاب الأعداء حسامك وجعل الفتح أينما توجهت قبالتك وأمامك وشريعة جند مقلدك وأمامك في نعمة طويلة الأعمار وروضة حلوة الثمار أما بعد أبعد الله عن ساحة سيدنا كل شر وقرب منها المحسن والبر وأبقاها ملجأ للمحتاج والمضطر فإنه لما ورد علينا من حضرة سيدنا العظمى ومكانته الشما كتاب سني معظم الصفات والأسماء بديع المعاني رائق المباني غمر ببلاغته البلغاء وركي ببراعته أعلى المنابر فمن تكلم دونه فقد لغا بادرانه بالتقيل وأحللناه محل التاج والإكليل فقرأ على الجم الغفير وفرح بوروده الكبير والصغير واطمأنت بنشره النفوس وارتفع به كل كدر وبوس وتشوق الحاضرون

لسماع ما فيه وأنصت لقراءته ذو المروءة والسفيه والجامع غاص بأهله وكل حال بمحلها فلما قرىء الكتاب تبين أن صدره مدح وعجزه لوم وعتاب فاشتمل على بسط وجمال وقبض وجلال وجمع بين ترغيب وترهيب فارتاب منه كل مريب فلما تم وختم وتقرر كل ما فيه وعلم تفرقت الجماعات أفواجا وارتجت المدينة ارتجاجاً وحصل للناس بذلك الجزع وعمهم الخوف والفرع والذي أوقع الناس في ذلك ما في الكتاب من الأمر بتدارك ما وقع فهموا أن ذلك برد ما ضاع وقد تفرق في الأفاق وما اجتمع وذلك غير ممكن كما سيأتيين والحق أوضح وأبين من أن يبين على أن المقصود بذلك والمراد حسم مادة الفساد لينقطع من جماعة السفهاء عدواؤها ولئلا تنفذ نار الفتنة فيتعذر إطفائها أما ما وقع في قضية الحاج محمد بنيس حتى أفضى به الحال إلى الاحترام بمولانا إدريس وفعل بأمكنته الفعل الخسيس وليم بسببه المرؤوس والرئيس حتى توجهت الحجة على

مسموع الكلمات إذ هي متوجهة من جهات فقد تندفع الحجة بشرح القضية على وجهها وإيرادها على مقتضى كنهها من غير قلب للحقيقة ولا خروج عن متن الطريقة وفي كريم علم سيدنا أن للإنسان أعذارا يرتفع عنه بها الملام ولا يعاتب معها ولا يلام وذلك أن ما وقع من النهب وقع بغتة في يوم يستعظم شاهده وصفه ونعته والمدينة وقتند عامرة بالبادية والحاضرة ولا معرفة لنا بمن نهب ولا بمن أتى ولا بمن ذهب أمر أبرزته القدرة لم يمكنا تلافيه ولم يقد فيه نهي سفيه فلو صدر ذلك من أحد معينين وأفراد مخصوصين لأمكن الانتصاف وانتزع منهم ما أخذوه من غير اعتساف لكن الأمر برز وصدر من قوم مختلطين من بدو وحضر فيهم الأبيض والأسود والأحمر وما منهم إلا من استأسد وتتمر وليس في وجوههم من الحياء علامة ولا أثر لا يقليون موعظة إذ ليسوا من أهل الفكر فلا يمكن دفعهم إلا بجيش عظيم وعسكر يصاح فيهم بالنهي وهم في طغيانهم يعمهون ولا يلتفتون إلى من نهاهم بل لا يشعرون ولا يسمعون الصم الدعاء إذا ما يندرون ثم لما كان اليوم العاشر من شهر تاريخه وقع بالحرم الإدريسي ما وصلكم ولا أظنه إلا فصل لكم لكن عمنا أظاف الله ورحماته وحفظ الضريح ورحبائه ولم تنتهك حرمانه وحمته حماته ورماته فأبوابه قد فتحت وزواره بمشاهدة أنواره قد منحت ومما في الكتاب المذكور أن السفينة إذا لم ينته فهو مأمور ولعمرك أنه ليس منا علم بذلك ولا شعور وكيف يأمر العاقل بالمحذور أم كيف يرضى مسلم بهتك حرمة الإسلام وأهله وما يوجب افتراق الكلمة من قول أحد أو فعله وقد جاء الوعيد بما يلزم من سكت وحضر فكيف بمن باشر أو أمر لكن باب التوبة والحمد لله مفتوح لمن يغدو عليه أو يروح فسنال الله أن يمن عليهم بالتوبة من ارتكاب هذه الحوبة وقد كتبنا لسيدنا بهذا الكتاب والمدينة بحمد الله أمانة والنفس مطمئنة ساكنة والأيدي على التعدي مكفوفة والطرق مسلوكة غير مخوفة وذلك بعد معاناة في إخماد نار الفتنة ونصب وأظاف الله تتوارد وتصب بعد أن كانت نار الفتنة توقدت وتاججت وبلغت القلوب الحناجر وبالأكدار قد مزجت وكل من له مروءة ودين وعد من المهتدين بذل في صلاح المسلمين جهده وأبدى من الفعل الجميل ما عنده ولقاضيها بارك الله فيه اليد الطولى فلم يقع منه تقصير في القضية الثانية ولا الأولى هذا وكما في علمكم أن الملك من ملك هواه ولم يغتر بهذا العرض الفاني وما أغواه وقهر نفسه عند الغضب وابتكر ما يوصله إلى الله واقتضب وأن الكريم إذا حاسب مسامح وإذا قدر عفا ولو أبدى المسيء إساءته وهذا فليقتضل سيدنا بيقول شفاعته من يضع اسمه في هذا الكتاب من العلماء والأشراف ومنهم بعدم صواب ما صدر من السفهاء إقرار واعتراف ولا يستغرب صدور الخير من معدنه والفضل من موطنه وتحتاشي أخلاقك الفاخرة وشيمك الطاهرة أن تكون شفاعتنا في هؤلاء العصاة مردودة وجماعتنا عن ساحتكم مبرودة وحسن الظن بكم تحمل لجانبكم الزعيم والكفيل على أن لا نرى منكم إلا الجميل فليمن سيدنا على هذه الحضرة الفاسية منا ولا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا وكيف والحلم من داركم برز وخرج وفي أوصافكم الحسان اندرج فأحبينا أن تكون هذه المنقبة في أوصافكم تذكر وفي صحيفتكم تكتب وتسطر فقابلوا بالصفح والإغضا عما سلف ومضى وكلنا من رعيكم ومقتطفون من ثمار روضتكم ومستمدون من مائدتكم والظن الأقوى بكم أنكم تقبلون الشفاعة منا وتمنون على المستضعفين من رعيكم منا وكأنا بكتابكم بضمن ذلك يتلى وكلماته أشهر من العسل وأحلى والله يتولى أمر الائتلاف بمتعود إحسانه ويجمع قلوبنا على طاعته وموجبات رضوانه حتى تكون في ذات الله إخوانا وعلى الدين أنصارا وأعوانا والقلوب بيد من له الأمر والاختيار وربك يخلق ما يشاء ويختار وإذا تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للأبرار وخير العمل عمل قرب إلى الجنة وأبعد من النار فالواجب على كل مسلم أن يدع ما يزرى بالإسلام ويهينه ولا يلتفت لدواعي القطيعة فإنها تقوي الكفر وتعيته أما علمنا أن من ورائنا عدوا يشتهي مواطئ أقدامنا وتتكيس أعلامنا تقضي أخوة الإسلام ومناصرته ومعاضدته ومواصلته أن لا يكون لجميعنا طموح إلا إليه ولا تمالؤ إلا عليه وفتنا الله لما فيه رضاه وجعل سعينا فيما يحبه ويرضاه أمين والسلام في منتصف رمضان المعظم عام تسعين ومائتين وألف ١٥ ثم دخل السلطان المولى الحسن أعزه الله رباط الفتح صبيحة يوم الخميس التاسع والعشرين من رمضان المذكور وكان العيد يوم السبت فأقام السلطان أيده الله سنة العيد برباط الفتح وختم به صحيح الإمام البخاري على العادة وكان فقيه المجلس ومدرسه يومئذ الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب ابن سودة الفاسي وحضر ذلك المجلس وفرد المغرب وقضاة العدوتين وعلماؤها وحضرنا في جملتهم ومدح السلطان بقصائد بليغة واحتفل أعزه الله لهذا الختم بأنواع الأطعمة والأشربة والطيب وفرق الأموال على من حضر ثم وصل أهل العدوتين من علمائهما وقرائهما ومؤدبيهما وطبجيتيها وبحريتهما على العادة وهناك قدم عليه أهل أزموه منتصلين مما صدر من عامتهم في حق محمد بن المؤذن فقابلهم بالبشر والصفح إلى أن بحث عن رؤوس الفتنة بعد ذلك فعاملهم بما يستحقونه وأقام السلطان أعزه الله رباط الفتح إلى يوم السبت الثاني والعشرين من شوال من السنة فنهض قاصدا مكناسة فغير المجاز ومعه من جنود الدولة وعساكر القبائل ما يجل عن الحصر وكان نهوضه عن إزعاج بسبب ما اتصل به من خبر المولى عبد الكبير بن عبد الرحمن بن سليمان ولد الذي كان ثار لأول بيعة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن فسلك هذا الولد مسلك أبيه وأطمعه شياطين البربر في الملك حتى أوردوه مورد الردى وحان وسقط العشي به على سرحان ولما كان السلطان أعزه الله ببلاد بني حسن بلغه خبر القبض عليه فكتب كتابا إلى الأمصار يقول فيه ما نصه وبعد فإن عبد الكبير بن عبد الرحمن الذي سولت له نفسه ما سولت من الرأي المنكوس والحظ المعكوس كان تحزب بشياطين وأوباش من برابرة بني أمكيد وأتوا به لأيت عياش قرب فاس فلما سمع بذلك خدامنا أهل فاس وأخواننا شراقة وغيرهم من الجيش السوسي وقبائل الصلاح قاموا على ساق في طرده وإبعاده ونفيه من ساحتهم وتشيتت رماده وقابلوه بالنكاية والوبال ورأى منهم ما لم يخطر له ببال ورجع بخفي حنين ثم بعد الطرد والإبعاد لم يبال بما هو عليه من سوء الحال ولا أقلع عما طمع فيه من المحال ولا انتبه من نومته ولا أفاق من سكرته وبقي على دورانه عند البربر إلى أن ختم مطافه بالوصول لأيت يوسي فحكم الله فيه هنالك وأتى به مقبوضا عليه وذهبت ربحه وسقط في أيدي من كان آواه من البربر وحصلوا كلهم على الخسران والخزي والخذلان وها الفتان متقف تحت يد أخينا الأرضى مولاي إسماعيل رعاه الله فالحمد لله حق حمده ولا نعمة إلا من عنده وهو المسؤول بنبيه ومجد وعظم أن يؤدي عنا وعن المسلمين شكر نعمته وأن يجزينا على ما عودنا من جزيل فضله ومنته هذا وقد كتبنا لكم هذا بعد ما خيمنا بحول الله ببلاد الصفاقية من بني حسن ومحلنا المظفرة بالله محفوفة بالنصر والعز بحمد الله وأعلامنا المنصورة بالله رياح اليمن والسعادة تسوقها والأرياح تكفل بها سوقها وقد أعلماكم لتأخذوا حظكم من الفرح بما حول مولانا جل وعلا من عظيم نعمه فله الحمد وله المنة والسلام في السادس والعشرين من شوال عام تسعين ومائتين وألف ١٥ ثم تقدم السلطان أعزه الله إلى دار ابن العامري فأوقع بأولاد يحيى فرقة من بني حسن وكانوا قد ثاروا بعاملهم عبد القادر بن أحمد المحروقي فهدموا داره وانتهبوها وعاثوا في الطرقات وأخافوها فأوقع بهم السلطان المولى الحسن أعزه الله وقعة كادت تستأصلهم وتأتي عليهم فتشفعوا إليه وتطارحوا عليه وأظهروا التوبة والخضوع فقبل توبتهم وولى عليهم ثلاثة عمال ووظف عليهم مالا له بال ونهض أعزه الله إلى مكناسة الزيتون في سابع ذي القعدة من السنة فدخلها مظفرا منصورا ولما احتل بها كتب أيده الله إلى الأمصار بما نصه وبعد فأنا بإثر الفراغ من أمر القبيلة الليجوية وبناء أمرها على أساس الجد بحول الله وحصول المراد من كمال استقامتها بحمد الله وجهنا الوجهة السعيدة لوطن أسلافنا الكرام قدسهم الله بمكناسة الزيتون وتقدمنا في محلنا السعيدة المنصورة التي أرخى اليمن والظفر عليها ستوره فلقينا في طريقنا أهل هذا القطر المغربي من البرابرة وغيرهم على اختلاف شعوبهم وقبائلهم مظهرين غاية الفرح بمقدمنا ومتركين بيمن طلعتنا وقائمين بالسمع والطاعة لعلنا جانبا وحلنا حضرتنا السعيدة بمكناسة الزيتون في يوم كان من الأيام السعيدة المشهودة والأوقات المعودة بل فاق ذلك اليوم السعيد بما وقع فيه من السرور كل موسم وعيد فالحمد لله على ما حول وأولى من فضله العميم وخيره الجسيم وهو المسؤول بنبيه ومجد وعظم أن يؤدي عنا وعن المسلمين شكر نعمته وأن يجزينا على ما عودنا من جزيل فضله ومنته أمين والسلام في العشرين من ذي القعدة الحرام عام تسعين ومائتين وألف ١٥ وكان دخوله أعزه الله إلى مكناسة بعد زيارته تربة المولى إدريس الأكبر وصلاته الجمعة بها وأطل أيده الله المقام بمكناسة وفي مدة مقامه بها أوقع ببني مطير ومن لأفهم من مجاط وبني ميكيد وأيت يوسي وغيرهم بعد أن طال قتاله لهم ثم اقتحم عليهم معاقلمه وانتهى إلى الموضع المعروف بالحاجب ببجوحة قرارهم ومحل منعهم وانتصارهم بل تجاوزته عساكره

المنصورة وأعلامه المنشورة بمسافة بعيدة إلى أن دخلت فم الخنيق الذي هو أول بني مكيد فاستباحته هناك حلاتهم وطارت برؤوس عناتهم ومزقتهم في أعز مكانهم كل ممزق وقبضت منهم على عدد وافر من الأسرى بعث به السلطان أعزه الله إلى الأمصار فكانت عبدة لأولي الأبصار وكان إيقاعه ببني مطير منتصف محرم فاتح سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف واستمر مقيما بمكناسة إلى فاتح ربيع الأول منها وفي يوم الاثنين ثالث الشهر المذكور نهض أيده الله إلى فاس فدخلها يوم الخميس السادس منه بعد ما تلقاه أسرافها وأعلامها وأعيانها وجميع رماها حتى النساء والصبيان مع العامل والقاضي واجتمعت به مقدمتهم بوادي النجاة فالآن جانبه لهم وتنزل لملاقاتهم تطيبيا لنفوسهم ولما وصل إلى البلد لم يعرج على شيء دون قصد ضريح المولى إدريس رضي الله عنه وزيارته والتبرك به وانهار عليه الضعفاء والنساء والصبيان يقبلون أطرافه ويتمسحون بأذياله وقدم الذبائح للحرم الإدريسي وغيره وأفاض من العطايا على الضعفاء والمساكين ما جاوز الحصر وكان يوم دخوله يوما مشهودا وموسما من مواسم الخيرات معدودا وعيد بفاس عيد المولد الكريم وقدمت عليه الوفود من كل ناحية واجتمعت ببيابه وجوه القبائل من كل قاصية ودانية وازدان العصر وعم الفتح والنصر واستقامت الأمور ونادي منادي السرور في الخاص والجمهور ولما فرغ السلطان أعزه الله من شأن العيد أمر أمينه أبا العباس أحمد بن محمد ابن شقرون المراكشي أن يرتب الوظيفة المجمعول على أبواب فاس وأسواقها على ما كان عليه في حياة السلطان سيدي محمد رحمه الله ففعل وكان ذلك أواخر الشهر المذكور ولما جلست الأمناء كل بمحله واستقامت الأحوال وذهبت الأهوال ثقل ذلك على الدباغين ومرضوا فيه وذهبوا إلى الشريف الفقيه المولى عبد الملك الضرير وقالوا له أنت الذي أوقعتنا في هذا كله بضمناك إسقاط المكس أولا حتى صدر منا في حق بنيس ما صدر والان أخرجنا مما أوقعتنا فيه أما بإسقاط المكس وأما بإخراج بنيس من بين أظهرنا لنلا تدول له دولة علينا والرجل قد صارعنا لنا فقام الفقيه المذكور وقدم على السلطان

أعزه الله وذكر له ما عزم عليه السلفة من الدباغين فأعرض السلطان أيده الله عن ذلك وقابل بالجميل فقل الفقيه المذكور إن لم يكن شيء مما ذكرت لسيدنا فالأولى بي أن أنتقل إلى تافيلالت ولا أبقى بين أظهر هؤلاء القوم فأسعه السلطان وبعث جملة من الحمارين لحمله وحمل أولاده ولما رأى الدباغون ذلك نفخ الشيطان فيهم وعمدوا إلى الحمارين فطردوهم وارتجت فاس وماجت الأسواق وقامت الفتنة على ساق واتصل الخبر بالسلطان أيده الله فاستدعى عامل فاس إدريس بن عبد الرحمن السراج وكان متهما بالخوض في وقعة بنيس وما ترتب عليها بعد فأظهر الطاعة والامتثال وركب بغلته يريد القدوم على السلطان بفاس الجديد فقام الدباغون دونه ومنعوه من الذهاب إلى السلطان وتهديوه بالقتل إن فعل فبعد ووقع ذلك منه الموقع لأنه كان متخوفا على نفسه ولما رأى السلطان أيده الله تمادي هؤلاء الطغام ومحكمهم ولجاجهم بعد أن بالغ في الإلانة الجانب والمقابلة بالجميل ومن ذلك إعراضه أعزه الله عن الكلام في أمر بنيس أمر بحصارهم والتضييق عليهم لعلهم يرجعون ثم لم يكفهم عصيانهم حتى صعقوا على منار المدرسة العثمانية وعلى غيرها مما هو مطلق على فاس الجديد وأخذوا في الرمي بالرصاص حتى أصابوا بعض من كان بأبي الجلود ولما انتهوا من سوء الأدب إلى هذه الغاية أمر السلطان أيده الله بمقابلتهم على قدر جريمتهم فطافت بهم العساكر ورموهم بالكور من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة من العسكر سور فاس من جهة الطالعة وأخذوا في النهب والقتل وعظم الخطب واشتد الكرب وفي أثناء ذلك بعث السلطان أعزه الله وزيره أبا عبد الله الصفار يعظهم ويعرض عليهم الأمان بشرط التوبة والرجوع إلى الطاعة فأذعنوا وامتثلوا وانطفأت نار الفتنة وانحسرت أسباب المحنة فعجل السلطان أيده الله بالكتابة لجميع الأفاق وتلطف واعتذر بأنهم الذين بدؤوا بالحرب والبادي أظلم ومع ذلك فبمجرد ما أذعنوا إلى الطاعة كف عنهم رحمة لهم وإبقاء عليهم وكان هذا الحادث يوم الثلاثاء رابع ربيع الثاني من السنة

ونص كتاب السلطان أعزه الله ويعد فيعد ما كتبنا لكم في شأن ما تلقانا به أهل فاس من الفرح والسرور والاحتفال في جميع الأمور اختبرناهم وبلونا أحوالهم فألفينا أحوالهم تصدق أقوالهم فأمرناهم حينئذ برد المستفادات لحالها المعتاد كما فعلنا بمكناسة وغيرها من البلاد فامتثلوا طائعين وجدوا في دفعها مسارعين ومن جملة من أمنا عليها ابن شقرون المراكشي الأمين فلم نشعر بالدباغين أصحاب فعلة بنيس إلا وقد ملنوا رعبا وتخوفوا أن يركبوا في المؤاخذة بها مركبا صعبا فطلبوا إخراج بنيس من بين أظهرهم وإبعاده وهم حينئذ عند السمع والطاعة المعتادة فلم نساعدهم فزادوا تخوفا وظهر منهم طيش أبان منهم تشوشا وتشوشا فتصدينا بحول الله وقوته لتربيتهم وتأنينا كل الثاني في مفاجأتهم وأحجمنا حياء من معالجتهم تأديبا مع حرمهم الأكبر سيدنا ومولانا إدريس الأزهر ومراعاة لجماعة أهل الله الأحياء والنائمة وإعذارا وإنذارا لتكون الحجة عليهم شرعا وطبعاً قائمة حتى ابتدؤنا وكسروا الحرم فقبلناهم والبادي أظلم فما كان إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى ظهر نصر الله فهدمت دور وصوامع وخربت فنادق ومصانع كانوا يضربون منها ويترسون بها ونهبت حوانيت ودور واستلبت أيدي الجيش أقواما منهم وأسرت أسرى وأخذوا تكالا للأخرة والأولى لكنا بمجرد ظهور سطوة الله القاهرة فيهم والفتح أمرنا بالنداء في الحين بالعفو والصفح وكف أيدي القتل والأسر عنهم إبقاء عليهم وشفقة لهم حتى يظهر مال أمرهم ويصفوا كدر غمرهم وفي عصر ذلك اليوم ورد العلماء والشرفاء والرؤساء والعرفاء ضارعين صارخين شغعاء على شرط أداء الحقوق والتزام الشروط والبقاء على ما كانوا عليه قيد حياة مولانا المقدم من اللوازم والمغارم فشفعناهم على الشروط المذكورة وقبلناهم على التزام الحدود المحصورة وأعلمناهم لتفجروا بنصر الله وتكونوا على بال من حقيقة الواقع ولنلا تصبخوا للأخبار الكاذبة مسامحاً المسامح أو تلتفتوا إلى أقوال المرشحين الذين لا يدينون الله بدين ولا يريدون إلا فتنة المؤمنات والمؤمنين والسلام في ربيع الثاني سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف

هـ ثم إن السلطان أعزه الله قبض على عامل فاس إدريس السراج وعلى ولده واثنين آخرين معه من رؤوس الفتنة وغربهم إلى مراكش وولى على فاس القائد الجياني بن حمو البخاري أحد قواده واستقامت الأحوال وكان مما قيل من الشعر في هذه الوقعة قول صاحبنا الفقيه الأديب أبي عبد الله محمد بن ناصر حركات السلاوي حفظه الله الله ياتلك التي تأري الفنا لا تنفسي ما كان صبري قد بنى كلا وقد هيجت مني لوعة قد أوشكت في مهجتي أن تهدنا وأتيت موطن مصرع العشاق ثم بكيت حتى كدت تبكي الموطنا لو كانت الأجيال تعقل لانتنت تبكي لما بك رافة وتحننا فبأي رأي يا حميمة قد غدا منك البكا عوض الترنم والغنا وبأي ذنب قد فجعت قلوبنا وسقيتنا كأس الأسي بدل الهنا أو ما كفاك من المتيم مهجة ما شأنها إلا معاناة العنا صب له في كل يوم عبدة وتلهف بقتده قد القنا كيف اصطباري والحبيب مصارمي والذهر مغرا بالوشاية بيننا دعني فعدلك للمتيم ضلة شر عليه من مفاصة الضنا تائه لارقات لعيني عبدة حتى ترى وجه المليك الأيمنا اليد الشهم السري الأصيد الفخم النهي الباهي الهمام الصيدنا الأعظم المستعظم العذب الحلبي المستعذب الحسن الثنا المستحسن قد حاز في الأشراف كل فضيلة ملاً المسامح حسنهما والأعيان ومكارما ومحاسنا ومفاخر لو ذاق لذتها الكفور لأمنأ فلذاك سيدنا المقدس خصه بمآثر ما تنتهي فتدونا ورث الخلافة كابرنا عن كابر لا كالذي يأتي إليها ضعيفنا عشقته عشق ابن الملوح خذنه وصبت إليه صبا العيون إلى الرنا وله وقد لبته قبل دعائه ألفت أزمته وقالت ها أنا ملك به الملك الأغر تشيدت أركانه في العز محكمة البنا أضحي به يختال فخرنا قانلا لسواك يا ركن الوري لن أركنا

والدهر سلم والحظوظ بواسم والنصر يقبل من هناك ومن هنا والسعد قد ألقى عصا تسياره في قصره متاليا أن يقطننا حسنت بطلته الدنيا فكأنها حلتي به هذا الزمان تزينا إن المزايا والعطايا والحجا أخلاق سيدنا تناء أودنا لا لا تقس قيسا به في النبل أو في الفضل فقعاقا وأحنف في الأنا أو في الشجاعة عامرا أو في الندى معنا وفي الإفصاح قس الألسنا فهم لو اطلعوا على خصلاته لغدت ظنونهم بذلك تيقنا فاستصغروا ما كان يصدر منهم وأتى جميعهم إليه مذعنا ليت الملوك السالفين قد أحضروا فرأوا مليكا مالكا حسن الثنا ولو أنهم علموا ضخامة ملكه قالوا لنا ملك ولكن قدونا ولو أنهم سمعوا بعظم سماحه تافروا وقالوا لبيته في عصرنا ولو أنهم قد أبصروا إقدامه بهتوا وقالوا ليس ذا في طوقنا هذا الأمير ابن الأمير ابن الأمير ابن الأمير الملكي رسن الدنيا هاذ العصامي العظمي الذي وسع الأماكن فضله والأزمنة ما زال يسمح بالجوائز والله حتى لقد تخذ السماحة ديدنا فخم تنبه تلذذا بحديته حتى نظن الأرض قد مادت بنا طبع الفؤاد على مونه فما ندعو له بالنصر إلا هيمننا يا أيها الملك السميذع والذي ما كان مشبهه مضى في غربنا ما زلت تجتاب البلاد بسيرة عمرية تدر المعاصي مذعنا وتبين للناس الرشد وسبله وترهيم نهج السواء البينا وتدمر العاتي

بأبيض صارم وتقوم المعوج بالسمر القنا لولا البغاة من الأنام وجورهم ما فارتقت بيض السيوف الأجنفا لكن بلملك قد حقت دماءهم ما أوشكت من بغيهم أن تحقنا وأمت في ظل الأمان جفونهم لولاك لم يك لامرئ أن يأمننا ولقد تركتهم وكل قبيلة تنثني عليك ثنا القلوب على المنا حتى أتيت الحضرة الفاسية الغراء معتجرا بأثواب السن

والملك من فرط السرور بك أزهى وله فم بجمل نذكرك أعلننا وأتاك أهلها قولا هل لنا يا ماجدا من عطفة تشفي الضنى يا طالما اشتاقت إليك قلوبنا شوق الفقير إلى ملاقة الغنى فمحتهم بعد الضراعة عزة وكسوتهم بعد الأسا ثوب الهنا هذا وما صبحتهم بكرهية حتى جنى جهلا بفضلك من جنا شربوا كزوس الحنف لولا أنها أبقته عليهم رافة وتحننا وأتاك أرباب البصائر قولا يا لا تؤاخذنا بزلة غيرنا فصفت عنهم صفح مقتدر ولم تترك جيوشك فيهم أن تتخنا وحبوتهم بعد الأسى بمسرة منعت قلوب الناس أن تتحزنا فعدى ببيغيته المصافي وانثى ببنامة الكسفى من قد شيطنا لو كان في الإحسان شيء يبقى لنهاك طبع الجود أن لا تحسنا إن الكريم إذا تمكن من أذى صاحبت به أحلامه فتحننا مثل الشجاع إذا سطى يوم الوغا أضحى بري طعم الردى حلو الجنا لا كالجبان فلو تكلف نجدة صدته خشيته الحمام فأقينا وكذا اللئيم إذا أراد تفضلا جاءته أخلاق اللئام فأشقتنا لو أن جودك في الورى متفرق ما كان فيهم من برى متمسكنا ولو أن بأسك قد تفرق بينهم ما كان يمكن لامرئ أن يجبنا لو لم تكن مولى خميس أرعن لكفتك هيبتك الخميس الأرعنا لو أن من أثنى على هرم رأى يوما علاك لقال غيرك ما عنا شهد الأنام بأن مجدك باهر لم بجحدنه جاحد فببرها يدعوك الحسن الرضى طرا ولو شوركت في حسن دعوك الأحسنا يا أيها الشهم السرى ومن به أضحى على الأقطار يفخر قطرنا إنى امتدحتك والمحبة شافعي ومحبة الأشراف نعم المقتنى وتحصني أبدا بعزة ركنكم ومعزز من بالكرام تحصنا لا زالت أمداحي لأفقس مجدكم متواليات أو يصدني المنا تائه لا قمنا بشكركم ولو أعضاؤنا كانت جميعا ألسنا

فلمدحك في الحياة وإن نمت قامت عظمتنا بمدحك بعدنا خذها إليك خريدة فكرية طلعت بغيظ قلوب أبناء الزنى بهرت قلوب ذوي النهي بمحاسن منعت خرائد فكرهم أن تحسنا فاصرف إليها منة عين الرضى وامنع بفضلك حسننا أن بغيضا دامت إليك من المهيمن نصرة تدع المعاند ضارعا مستهجنا بمحمد المختار جدك خير من قد أوضح النهج القديم وبيننا صلى عليه الله ما جن الدجى وأمالت الريح الجنوب الأغصنا والأل والصحب الصناديد الذرى والمناحي قصادهم نيل المنا ثم شرع السلطان أعزه الله بجمع العسكر وتنظيمه زيادة على ما كان في حياة والده فالزم أهل فاس بخمسائة وألزم أهل العدوتين بستمائة وألزم غيرهما من الثغور بمائتين مائتين ولم يتخذ من مراکش ولا أعمالها شيئا فصعب على الناس ذلك وجمعوا منه ما قدروا عليه واعتنى السلطان أعزه الله به فكان يباشر عرضه وترتيبه بنفسه وفي أيام مقامه بفاس نبغ نابغ بأعمال وجدة يقال له أبو عزة الهبري من هبرة بطن من سويد وسويد من عرب بني مالك بن زغبة الهالبيين وكان هذا الرجل فيما زعموا يخط في الرمل ويتعاطى بعض السحريات فتبعه بعض الأوباش الذين لا شغل لهم وتأشوا عليه ودنا من أطراف الإيالة وقوي حسه وكان السلطان أعزه الله عازما على النهوض إلى تلك الناحية وتمهيدها ونفي الدجاجة عنها فاستعد غاية الاستعداد وجدد الفساطيط وكسى الجنود فرسانها ورماتها قديمها وحديثها وعرضها كلها ثم نهض من فاس منتصف رجب سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف ولما بات في الليلة الثانية بأيت شغروسن أغار على المحلة ليلا أبو عزة الهبري ومعه سعيد بن أحمد الشغروسنى ويقال إنه إدريسى النسب فماجرت المحلة بعض الشيء ثم تراجع الناس وأخذوا مراكزهم وصوبوا المدافع والآلات الحرب نحو عدوهم فشردهم فكان ذلك آخر العهد بهم وقبض على عدد من أصحابه وقطعت رؤوس منهم وتقدم السلطان أعزه الله

في جموع مؤلفة من الجيش السيد المظفر وأنجاد نظام العسكر وغزاة القبائل الغربية بربرية وعربية إلى بني سادان وآيت شغروسن فأوقع بهم وقتل وأسر وانتسفت الجيوش زروعهم وبعثرت أرضهم وديارهم فملجوا إلى بني وراين فأمر السلطان أيده الله بقتال الجميع ثم جاء بنو وراين منتصلين متبرئين إلى السلطان منهم فقبلهم وولى عليهم رجالا من أعيانهم ثم جاء بنو سادان وآيت شغروسن تائبين خاضعين فعفا عنهم ووظف عليهم مائة ألف مقاتل وزيادة أربعمائة من الخيل فأذعنوا لأدائها واستوقاها السلطان أعزه الله منهم في أوائل شعبان من السنة ثم تقدم إلى تازا فدخلها في أوائل الشهر المذكور ولما احتل بها قدمت عليه وفود قبائلها متمسكين بحبل الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فرحين مغتبطين وبكل ما أمكنهم من الخدمة مقربين وجاءت عرب الأحلاف ومن جاورهم حاملين هوداجهم المحلاة بأحسن حلبيهم وشاراتهم التي يستعملونها في مواسمهم وزيهم فقبل السلطان أعزه الله كلا بما يجب من المجاملة وحسن المعاملة ما عدا ثلاث فرق من غيائة المجاورين لتازا وهم بنو أبي قيطون وأهل الشقة وأهل الدولة فإنهم كانوا يضررون بأهل تازا ويغيرون عليهم فالزمهم السلطان أيده الله بأداء ما تعلق لهم بذمتهم فأدوه في الحال ثم وظف عليهم ثلاثين ألف ريال أخرى لبيت المال فأدوها أيضا عن طيب أنفسهم ومن عداهم من أهل غيائة فإنما أدوا الزكوات والأعشار وأظهروا حسن الطاعة والامتثال وفي هذه الأيام جيء إلى السلطان بالهبري أسيرا فإنه لما خرج السلطان أعزه الله في طلبه وطلب غيره أبعد في الصحراء ولم تزل تلفظه البلاد وتتدافعه الشعاب والوهاد إلى أن ساقته خاتمة النكال إلى قبيلة بني كلال وهم على أربع مراحل من تازا فقبضوا عليه وجاؤوا به إلى السلطان أسيرا حتى أوقفوه بين يديه مصفدا كسيرا فأظهر الهبري الجزع وتضرع وخضع فحقن السلطان أعزه الله دمه وأمر به فطيف في المحلة على جمل ثم أمر ببيعه إلى فاس فسجن بها بعد أن طيف

به في أسواقها ثم مضى السلطان أعزه الله لوجهه حتى بلغ قصبه سلوان على طرف الإيالة المغربية من جهة الشرق فوفدت عليه قبائل تلك النواحي وأهدوا وماتوا وأظهروا غاية الفرح والسرور حكى من حضر أنهم كانوا يزدحمون عليه لتقبيل يده وركابه ووضع ثيابه على أعينهم تبركا به وفي أوائل رمضان من هذه السنة في ليلة الخامس أو السادس وقع تناثر في الكواكب وتداخل واضطراب عظيم على هيئة مفزعة بعضها مشرق وبعضها مغرب وبعضها إلى هيئة أخرى فكان الحال كما وصف الأعمى بقوله كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبه دام ذلك إلى قرب السحر وأقام السلطان أعزه الله بهذه البلاد حتى عيد بها بعيد الفطر وكان المشهد هنالك عظيما والموسم مخيما وحضر بنو يزناسن ومعهم كبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود فأهدى هدية كبيرة وولاه السلطان على تلك القبائل من بني يزناسن وغيرها وقفل أعزه الله راجعا فأدرکه فصل الشتاء بتلك الجبال والفيافي فاشتد البرد وقلت الأقوات وهلك بسبب ذلك عدد كثير من الجند ولحق الناس مشقة فادحة وأظهر السلطان نصره الله يومئذ من الشفقة والبرور ما تناقله الناس وتحدثوا به فإنه كان يسير بسير الضعيف ويقف على المرضى حتى يصلح من شأنهم ويأمر بدفن من يدفن وحمل من يحمل وإذا سقط لأحد دابته أو رحله وقف عليه بنفسه حتى يعان عليه وهكذا إلى أن دخل حضرة فاس بحيث أدرك به عيد الأضحى من السنة فعيد بها وتفرغ للنظر في أمر العسكر يقوم عليه بنفسه ويعرضه على عينه ويتصفح قوائم مؤنه ورواياته فاطلع أيده الله على ما كان يدلسه القائمون على ذلك من الزيادة الباطلة فعزل من عزل وأنب من يستحق التأديب ثم قبض على كبير العسكر السوسى وهو الحاج منو الحاحي وكانت فيه شجاعة وإقدام إلا أنه كان مفرضا في التهور والإدلال على الدولة وكبرائها فأدى ذلك إلى الانتقام منه بالضرب والسجن والاحتياط على ماله وضياعه

ولا زال مسجوننا إلى الآن ثم سرح من السجن واستوطن مراکش عام ألف وثلاثمائة وخمسة وفي هذه المدة شرع السلطان أعزه الله في بناء داره العالية باله العامرة المزرية بمصانع المعتمد وقباب الزهرة وذلك في البيستان المعروف ببستان أمانة داخل فاس الجديد عمد أعزه الله إلى ناحية من ذلك البيستان فقطع ما كان بها من الشجر وبنى فيها قبة فارهة فائقة الحسن بدعية الجمال يقال إنه ضاهى بها بعض قباب المعتمد بن عباد بإشبيلية ثم بنى الدار الكبرى بزلتها وهي من عجائب الدنيا حسبا بلعنا بالغ أيده الله في تجديدها وتنميقها وأودعها من النقش العجيب والترخيم البديع والزليج الرفيع المزري بخمائل الزهر وقطائف الهند وبديع الطوس بحيث جزم كل من رأى ذلك بأن مثله لم يتقدم في دولة من دول المغرب وجلب لقبابها الأبواب من بلاد الأروام يقال إن ثمن أحد الأبواب خمسة عشر ألف ريال مسلمره من الفضة المذهبة وعوده من أفضل أنواع العود لا تعرف له قيمة وفيه من الترخيم والنقش ما يدهش الفكر ويحير النظر وباقي الأبواب من البلور الصافي المذهب المودع فيه كل نقش غريب وبها خوحدات مركبة بهينة بدعية كل ذلك قد عمه الذهب النضار الذي يدهش الأبصار وجلب لذلك من الأثاث الرومي ما قيمته ألوف من الريال وفيها

من الفرش والحائطيات المزخرفة ما لا يدري ثمنه ولا يعرف معدنه وموطنه إلى غير ذلك من المقاعد الحسنة والمنازل المستحسنة الراقية الطرف البديعة الصنعة والرصف وفي مدة مقام السلطان أيده الله بفاس بلغة عن ولد البشير بن مسعود بعض استبداد فاقتضى نظر السلطان أعزه الله أن يبعث من قبله عاملا لجباية تلك النواحي فعقد لأخيه المولى علي على جيش وأضاف إليه القائد أبا زيد عبد الرحمن بن الشليح الزراري بمنزلة الوزير والظهير وبعثهما إلى ناحية وجدة وكان ابن الشليح المذكور يومن بتولي عمالة تازا وكان أهل وجدة وأعمالها بكرهون ولأية ولد البشير عليهم وبحبون ولأية ابن الشليح إذ كان له ذكر وصيت في تلك الناحية وربما كاتبه عرب أنقاد وكاتبهم ولما أحس ولد البشير بذلك انصبغت العداوة بينه وبين ابن الشليح فلم يكن إلا كلا ولا حتى

وجه السلطان أيده الله ابن الشليح المذكور واليا على وجدة وأعمالها وجابيا لأموالها وناظرا في شؤونها وأحوالها فقامت قيامة ولد البشير وعلم أنه لا يصفو له عيش معه فعزم على أن يطرده عن تلك البلاد ويرده من حيث جاء وكان ولد البشير هذا حسن الطاعة للسلطان إلا أنه انفسد أمره بما ذكرناه ولما قرب ابن الشليح من أرضه خرج إليه في خيله ورجله ولما التقت مقدمة الجيش بهم انتشبت الحرب بينهم وقامت الفتنة على ساق وكان غرض ولد البشير أن يضم إليه أبا السلطان وجيشه ويقوم بخدمتهم ويتردد عنه عدوه فقط فلم يستقم له ذلك وكان رأيه هذا خطأ إذ ليست هذه بطاعة كما لا يخفى ثم انهزم الجيش وعمدت بنو يزناسن والعرب إلى المحلة فانتهبوها وعاد عبد الرحمن بن الشليح إلى السلطان أعزه الله وهو بفاس فأخبره الخبر وبأثر ذلك كتب ابن البشير إلى السلطان يتصل من أمر ابن الشليح ومحلته وأنه لا زال على الطاعة لم يبذل ولم يغير وإنما الذي انتهت المحلة هم الكنتافي من غير إذن لهم ولا موافقة على ذلك وحتى الآن فكل ما ضاع من تلك المحلة يؤديه بأكثر منه فطوى له السلطان أيده الله عليها وأرجأ أمره إلى وقت آخر وكان قد اتصل به في ذلك الوقت خبير أبي عبد الله محمد الكنتافي صاحب جبل تينمل وكان أصل هذا الرجل أنه كان من أشياخ قبيلته وكان المتولي عليهم هو قائد الجيش السوسي أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الجراوي وكان الكنتافي هذا أحرز من غراب وأمنع من عقاب قد اتخذ حصنا في رأس جبل تينمل حيث كان ظهور مهدي الموحدين حسبا مر في أخبارهم وتحصن به وصار يؤدي للقائد الجراوي كل ما يأمره به من غير توقف إلا أنه لا ينزل إليه فلما توفي الجراوي المذكور وولى السلطان على الجيش السوسي وما أضيف له وصفه القائد أحمد بن مالك ضايق الكنتافي بعض الشيء وسار معه بغير سيرة الجراوي قبله فأنف الكنتافي من ذلك وأعلن أنه في طاعة السلطان ومقتل يبعثه يموت عليها ويبعث عليها ولا يقبل ولأية أحمد بن مالك ولو ألقى في النار فكتب أحمد بن مالك إلى السلطان وهو بفاس يعلمه بأن الكنتافي قد خلع الطاعة وفارق الجماعة وأشاع

المرجفون بأنه يحاول الاستقلال بالأمر التفاتا إلى ما كان لسلفه من أهل ذلك الجبل منذ سبعمائة سنة وربما حن هو إلى ذلك أيضا وقد حكى ابن خلدون أن أهل ذلك الجبل كانوا في زمانه على هذا الاعتقاد تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست ينبع إذا عدت ولا غرب واستأذن أحمد بن مالك السلطان أعزه الله في غزو هذا الكنتافي فأذن له فبعث إليه كتيبة من الجند ففضها الكنتافي فازداد المرجفون تقولا وتخرصا ثم بعث إليه ابن مالك جيشا آخر أعظم من الأول فهزمه الكنتافي أيضا وقبض على جماعة منهم باليد فمن كان من جيش السلطان سرحه إظهارا للطاعة ومن كان من القبائل المجاورة له ضرب عنقه وكانوا عددا وافرا فتفاحش أمر الكنتافي في الحوز وكاد يستحيل إلى فساد فبعث ولده إلى حضرة السلطان بفاس وكتب له بشرح قضيته وأنه مظلوم من قبل أحمد بن مالك وما ارتكبه في حق الجيش إنما هو مدافعة عن نفسه وأنه لم يقتل جنديا قط وبالغ في الاتصال وتقديم الشفاعات والذبيح والعارات فأرجأ السلطان أعزه الله أمره ونهض من فاس منتصف رمضان سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف فوصل إلى رباط الفتح ليلة عيد الفطر فاتفق أن وقع بها نادرة وهي أن جماعة من شهود اللقيف اثني عشر جاؤوا إلى القاضي أبي عبد الله بن إبراهيم رحمه الله ليلة التاسع والعشرين من رمضان وشهدوا عنده أنهم رأوا هلال شوال بعد الغروب رؤية محققة لم يلحقهم فيها شك ولا ريبه فسمع القاضي شهادتهم وسجلها وكتب للسلطان بذلك وهو بقرميص فارتحل السلطان في جوف الليل ودخل داره وأصبح من الغد معيدا وعيد أهل العدوتين وأعمالهما والجم الغفير من أهل المغرب الذين حضروا مع السلطان ولما كان ظهر ذلك اليوم وهو التاسع والعشرون من رمضان حقق الفلكيون من أهل الولاية أن العيد لا يمكن في ذلك اليوم وتكلموا بذلك فاهوا به فكثر الكلام بذلك وكان جل الناس على شك أيضا ولما حان وقت الغروب ارتقب الناس الهلال والسماء مصحبة ليس فيها قرعة فلم يروا له أثرا فأمر السلطان أعزه الله بالنداء وأن الناس يصبحون صبابا لأن رمضان لا زال فصام الناس من الغد وبعد ذلك

ظهر الهلال ظهورا معتادا وتبين كذب الشهود فسجنوا ثم سرحوا بعد حين ولما قضى السلطان أعزه الله سنة العيد نهض إلى مراكش فلما قرب من زاوية ابن ساسي بين بلاد الرحامنة وزمران نزل هنالك على الرحامنة وكانوا قد حصل منهم اعوجاج وتمرض فوظف عليهم من الأموال ما أثقل ظهورهم وفرض عليهم من العسكر والخيل ما امتحنوا في أدائه ولم يقم عنهم حتى أدوا جميع ذلك وحتى خرج الأشراف والمنتسبون من أهل مراكش إلى السلطان للشفاعة فيهم والرغبة إليه في دخوله منزله فقبل السلطان أيده الله شفاعتهم وارتحل عنهم فدخل مراكش آخر ذي القعدة من السنة وكانت مدة مقامه على الرحامنة ستة عشر يوما وكان يوم دخوله إلى مراكش يوما مشهودا وفي رابع ذي الحجة بعده قبض على مائتين وثمانين شخصا من أعيان أولاد أبي السباع وكانوا قد عاثوا في ذلك الحوز على عادتهم وعظم ضررهم واستطار شرهم وخرجوا على عاملهم السيد عبد الله بن بلعيد وصلوا على القائد أبي حفص عمر المتوكي وكان القتل بينهم وبين شبيعة عاملهم ابن بلعيد المذكور ففر إلى السلطان بفاس فأرعى أعزه الله لهم الحبيل وأطال عليهم الرسن وولى عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن زروال الرحماني صورة حتى اطمانوا بذلك وأنسوا ولما قدم أعزه الله مراكش ضرب البعوث على قبائل الحوز فتاب أولاد أبي السباع في ذلك ثلاثمائة فارس فقدمت مراكش بخيلها وأسلحتها وكان السلطان أيده الله يومئذ قد أخذ في عرض بعوث القبائل داخل مشور أبي الخصيصات فجاء أولاد أبي السباع للعرض فلما توسطوا المشور المذكور أغلقت الأبواب وقبض عليهم وجردوا من السلاح وحملوا إلى السجن وكانوا مائتين وثمانين كما قلنا ثم وجه السلطان أعزه الله إلى حلتهم القائد العربي الرحماني مع كتيبة من الجيش فنزلوا عليهم وأغرهم ستين ألف ريال فأدوها في الحال بعد بيع ماشيتهم بأبخس ثمن وحينئذ بعث السلطان إلى عاملهم عبد الله بن بلعيد فاستدعاه من فاس وقدم وولاه عليهم فاطمانوا وأطاعوا وجد السلطان أيده الله في جمع العساكر والاستعداد إلى أواخر صفر من سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف

فقدم عليه أبو عبد الله محمد الكنتافي صاحب الجبل مستأمنا بالمرايط أبي علي الحسن بن تيمكيلشت فقابله السلطان بالعمو والصفح وأكرم وفادته وولاه على إخوانه وانقلب إلى أهله مسرورا ولما حضر عيد المولد الكريم احتفل السلطان أيده الله غاية الاحتفال على عادة أسلافه الكرام قدس الله أرواحهم وجعل في عليين عنوهم ورواحهم وتشنفت الأسماع بالأمداح النبوية في الليلة المباركة بالمسجد المعد لذلك وأنشدت قصائد لأدباء العصر وبعد العيد كسا السلطان نصره الله جميع الجيش والعسكر والكتاب حتى الأمناء والطلبة وفي مهل ربيع الثاني من السنة المذكورة خرج من مراكش يؤم بلاد الغرب فجعل طريقه على ثغر الجديدة فأقام بها أياما بعد أن زار تربة بني أمغار برباط تيط وتفقد أحوال ثغر الجديدة ووقف على أبراجها وأسوارها وياشر في الرماية بالمدفع وكان رميه صوابا بحيث أصاب الغرض أعزه الله وأهدى له جميع تجارها من المسلمين والنصارى واليهود فقبل ذلك وكافا عليه وكان أعزه الله حين عزم على النهوض من مراكش قد كتب إلى عامله على مدينة أنفي وهو القائد الأجل الأنصح أبو عبد الله الحاج محمد بن إدريس بن حمان الجراري أن يتقدم إلى ثغر الجديدة ويقم هنالك حتى يأمره بما يكون عليه عمله فامتلأ القائد المذكور ولما قدم السلطان أعزه الله إلى الثغر المذكور اجتمع به القائد المذكور وطلب منه أن يجدد له ظهيرا بالتوقيير والاحترام حسبا كان عليه هو ووالده من قبله مع السلطان الأعظم المولى عبد الرحمن وابنه السلطان المرحوم سيدي محمد رحمهما الله فأجابته أعزه الله إلى ذلك وكتب له ظهيرا يقول فيه ما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله كتابنا هذا أسماء الله وأعزه الله وأعز أمره وجعل في الصالحات طيه ونشره يستقر بيد ماسكه خديمتنا الأرضى الطالب محمد بن إدريس الجراري ويتعرف منه أننا بحول الله وقوته أنزلناه المنزلة التي كان بها هو ووالده عند أسلافنا الكرام

ولحظناه بعين الرعاية والبرور والاحترام هو وأولاده وإخوته فلا يروا من جانبنا العالي بالله إلا الخير لأنهم خدام أبناء خدام ودارهم دار المحبة والنصيحة فلا نسلمهم ولا نفوتهم ولا نضيع لهم

سالف خدمتهم ولا نكتشف عنهم جليات حرمتهم بحول الله وقوته والسلام صدر به أمرنا المعترف بالله في تسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف ولما قضى السلطان أعزه الله أريه من ثغر الجديدة نهض إلى أمور فتلقيه أهلها بالفرح والسرور والبهجة والحبور فهش لهم وقابلهم بما يناسب ودعا لهم بخير وزار ضريح الشيخ أبي شعيب وأبي عبد الله محمد واعدود رضي الله عنهما وقدم لضريحهما ذبائح وطاف بأسوار البلد وأبراجه وأمر بتحصين برج هنالك كان مقابلا للمرسى ثم خرج من أمور بعد يوم أو يومين فانتهى إلى مدينة أنفى فدخلها في الثالث والعشرين من ربيع الثاني المذكور وعزل عنها القائد أبا عبد الله محمد بن إدريس الجراري وولى مكانه الحاج عبد الله بن قاسم حصار السلاوي ثم كتب إلى أبي عبد الله الجراري المذكور بولايته على الجديدة وأعمالها ونص كتابه إليه خديما الأرضى الطالب محمد بن إدريس الجراري وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فإننا أعفيناك من ولاية الدار البيضاء ووليناك على الجديدة ولم نعزلك عنها سخطا لسيرتك ولا هضما لجانب خدمتك وإنما اقتضت المصلحة ذلك تقديما للأهم فالأهم وأنت منا وإلينا ودارك دار الخدمة والصلاح فلا نسلمك ولا نفوتك ولا نهضم لك جانبنا والسلام في الثالث والعشرين من ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف هـ واعلم أن هذا العامل من أمثل عمال السلطان نصره الله وأعقلهم وأرجحهم وأنصحهم قد استعمله الملوك الثلاثة المولى عبد الرحمن وابنه سيدي محمد وابنه المولى الحسن رضي الله عنهم فظهرت كفايته ونصيحته وحمده ولايته وسيرته وهو الآن بهذا الحال حفظنا الله وإياه والمسلمين آمين ولما احتل السلطان أعزه الله بالدار البيضاء طاف في أبراجها وأمر الطبعية بنصب الأغراض المسماة بالفريبيات في البحر ثم أمر برميها وهو حاضر وربما باشر معهم ثم اجتاز بعد الفراغ على باب المرسى ومحل وضع السلعة للتجار بها فوقف عليه وتامله كما فعل بثغر الجديدة وودع

بإصلاح المون على شاطئ البحر لأن البحرية يتعبون فيه وقت إنزال السلع وسقها وأقام بالدار البيضاء بالمحلة خارج البلد يومين وأهدى إليه تجارها من النصارى واليهود والمسلمين وأظهر النصارى الفرح وأكثروا من تعليق الصناجق وإيقاد الحراقبات باللبلل وإرسالها في الجو فقابلهم السلطان أعزه الله بالجميل وحمل النصارى منهم على خيل مكافأة لهم على هديتهم فطاروا بذلك فرحا حتى أنهم كتبوا بذلك لأهل دولتهم ونشروه في كرازيطهم وأجوبتهم وفي هذه المدة وجه السلطان أعزه الله خديمه الأنجد الفاضل أبا عبد الله الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبيدي الرباطي بأشدرها وسفيرا عنه إلى دول الإفرنج مثل دولة فرنسا ودولة النجليز ودولة الطالين ودولة البلجيك واستصحب معه هدايا نفيسة وأموالا طائلة صيرها في وجهته تلك ورافقه في سفارته هذه الأمين الأرضى السيد بناصر ابن السيد الحاج أحمد غنام الرباطي برسم القيام بخطة الأمانة والقهرمانية وصاحبنا الفقيه الأديب فلكي العصر وحاسبه الشريف أبو العلاء إدريس بن محمد الجعدي السلاوي برسم القيام بخطة الأمانة إلى أهل هذه الدول وقضوا الغرض على أكمل الوجوه وأحسنها وعداوا مسرورين في أواخر شعبان من السنة وفي هذه الوجهة قيد صاحبنا أبو العلاء المذكور رحلته البديعة المسماة بتحفة الأخبار بغرائب الأخبار قد اشتملت على كل نادرة وغريبة وأفصحت عن صنائع الفرج وحيلها العجيبة وعند قوله وقدمه على حضرة السلطان أيده الله منحه بقصيدة جيدة مطلعها أسلم دهرى في المرام وفي القصد فينقض ما أبرمت للصلح من عقد وأسأله الرحمى فيبيدي ازوراره ونفرته عني فيا عظم ما يبدي وكم لي استرضيه وهو مغاضب ولا يرعوي عما جناه على عمد ومنها في آخرها وهذي بنات الفكر مني هدية إلى الملك المنصور ذي الجود والرفد

فإن أهملت عدلا فإني مهمل وإصادفت وقت القبول فيا سعدي وما كنت في باب القريض مبرزا شهيرا ولكني تعاطيته جهدي لأجل امتحاني لذت فيه بربنا فأصبحت ذا وجد وقد كنت ذا فقد فما أنا ضيف زائر لحماكم وحسبي رضاكم فهو نفس المنى عندي وبأربنا أعط الأمير مرامه وظفره بالمطلوب منك وبالقصد ثم إن السلطان أعزه الله نهض من الدار البيضاء ومعه الجند الوافر والعسكر المجر والجم الغفير من قبائل الحوز وأهل دكالة وتامسنا فأوقع بعرب الزيادة أهل تامسنا وتقدم إلى رباط الفتح فدخله غرة جمادى الأولى من السنة فمكث به نحو سبعة أيام وعبر إلى سلا فزار أولياءها ودخل مسجدها الأعظم وصلى الظهر به وأمه في صلاته يومئذ صاحبنا الفقيه العلامة البارح أبو محمد عبد الله بن الهاشمي بن خضراء ودخل السلطان أعزه الله خزنة الكتب العلمية بالمسجد المذكور وتاملها ومعه يومئذ شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبو بكر بن محمد عواد فطلب من السلطان أيده الله أن يزيد في شراء الكتب للخزانة المذكورة فأذن له بأن يشتري من ذلك ما ثمنه نحو مائة ريال ففعل وهي يومئذ بالخزانة المذكورة ووصل أيده الله علماء العدوتين ومجاهديها على العادة وقد كتبت أنشأت قصيدة في غرض من الأغراض فلما اتفق قدوم السلطان أيده الله هذه المرة حولتها إلى مدحه ونصها قلب كراه من النوى مقياس فعدا به الوسواس والخناس ونحول جسم يشتكي ألم الضنى وجوى به تتصاعد الأنفاس والدمع في الوججات محمرا غدا ولدى الوشاة به انتفى الإلباس إن الألى يستعذبون ملامه ما أن لهم بعدا به إحساس قدما عدلت ذوي الغرام سفاهة حتى غوث بمنسميه أداس وحسبته حلو الجنى فأساغني من بأسه ما لا يسيع الباس إن الذين علقهم قد انجدوا بمها الخدور ودونها الحراس أبدا أو مل في حياتي وصلهم واليوم قد غلب الرجاء الياس

ما كنت أحسب قبل إلمامي بهم إن الأطباء لها البيوت كناس تحكى بدور التم بخفي ضوءها ضوء الشمس إذا بهن تقاس من كل خود كاعب يهدي لنا نشر الخزامي عطفها المياس تسبي بقد السمهري وباسم يرمي الشعاع كأنها النبراس وكان هاتيك الخدود وفاحما في ظلها ورد حواه الألس لله ما عيش تقضي بيننا فكانما أيامه الأعراس طاب السرور لنا به وتأرجت أصاله واقترت الأعراس أيام روض اللهو غض نوره ومنادمي فيه المنى والكاس بالله يا قلب استفق ودع الهوى إن الهوى غول النهى الفراس أو ما رأيت المخلدين إلى المنا سكنوا الثرى وعراهم الإفلاس واعمل ليوم لا تخس شعيرة فيه إذا ما ينصب القسطاس وإبك الذنوب بكاء خندف بعلمها لما جلا عن ربعاها الياس وإذا حوت كفاك فابن مبادرا مجدا تخلده لك الأنفاس من غير تبذير لمالك لا تكن حلو الجنا فتلوك الأضراس كم من فتى جاز الحضيض إلى الذرى وبنى على لم تبلة الأرماس وإذا وعدت فكن لوعدك منجزا كيما ترى لك في الفخار غراس فالمنع في جنب الوفاء صنيعه والتبر في جنب المطال نحاس وإذا حصلت على الرياسة فاذكرن من كان يجمعه بك الإيناس واحذر مناصبة الدنى فرابما خان الحسام وطاشت الأقواس كم يغن يوما عن كليب مجده لما حشاه بالقتال جساس وإذا تصاحب فاصحبن مهذب راز النهى وله بهن مراس فالمرء ويحك إنما يذري به ويؤزبه الأصحاب والجالس وإذا البذي جفاك يوما فاحتسب فالجهل بالطبع الكريم يساس وإذا عرتك لممة فاصبر ولا تكن الجزوع وهمك الإيجاس واحفظ لسانك واله من عيب الورى كل امرئ بفعله منقاس وادأب على حفظ العلوم وكن بها ذا خبرة وملائك الأطراس

فالعلم أنفع للفتى وأجله ما قد وعاه القلب لا القرطاس وارو الحديث وكن به متأدبا والفقه حقه يطعك قياس وأقم بعلم النحو لفظك ولتكن فيه المقدم إذ به الإيناس كل العلوم إذا نظرت رأيتها والنحو مصباح لها وأساس واكتب من الشعر المهذب نبذة فالشعر أفضل ما وعاه الراس إن لم تقله فكن له مستحضرا إن رمت نطقا يرتضيه الناس كم من وضع قد علا بقريضه رتباً تشرفه وحسبك شاس إذ خلصته من الأسار وقده أبيات علقمة الفتى القنعاس وإذا قصدت أحا النوال بمدحة فاقصد فتى له في الندى أراس مثل الإمام أبي علي رضي حسن الذي هو في العلى نبراس الماجد الملك الهمام المرتضى فخر الملوك سنامها والراس شملت بلاد المغرب رافته وقد بهج الزمان وعمت الأعراس وحيا الورى من نبيله حتى لقد طاب السرور وطابت الأنفاس سعدت بمقدمه سلا وتقدست مراکش الحمراء منه وفاس أبدا سيوف العزم منه على العدا برق وغيث نواله بجاس شهم بصير بالأمر مجرب يقظان من داء الضلالة ياس حلب الزمان شطوره فمتى اعصى داء الخطوب فرأيه النسطاس يقلى الوفود بحشمة وطلاقة لا يختشى منه أذى وشماس في الجود كعب والبسالة عامر والحلم قيس والذكاء إياس فانه يحفظه ويحفظ ملكه حتى يصيب عداه منه عماس ويشيد للإسلام من عزماته عزاً تطاطىء دونه الأجناس وينيله مجدا ينسى ذكره في عزة فقساء ليس نقاس فليعل ملك بني على وليدم ما خلدت مروان

والعباس وقد تبعني صاحبنا شاعر العصر الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات في روي هذه القصيدة دون بحرهما وهي من ميلادياته قال

أدر كؤوسك فالسراء في الكأس واشرب على طرب بروضك الكاسي وقم لتتظر وجه الدهر مبتهجا مستبشرا بعد تطيب وتعباس والأفق طلق وذا
النسيم منطلق مسكي نشر خلال الجو جواس والأرض تضحك من بكا الغمام كما يشكو الكئيب على مستهزئ قاسي كأنها وهي بالربيع حالية
عواطل قد تحلت يوم أعراس والورق من ضحك الأزهار نائحة كنوح صب على أحبابه أسى والنوح زاهية الأفنان زاهرة تهدي البهائم إلى البهار
والأس كأنما الزهر إذ تراه منتترا على جدولها الحباب في الكاس كأنما طيب نشره شمائل من قد ساد بالمكرمات سائر الناس إمامنا الحسن المجلي
بطلعه عن الوري كل أزيمة وقسفا كسا الرعية أثواب المني جددا من بعد ما اشتملت بكل إدراست سبط الرسول وفرع من سلالته طيب الفروع
ترى بطيب أغراس خليفة الله من دانت لعزته شم الملوك برغم كل دمناس أنداهم في الندى كفا وأشجعهم قلبا وأسطاهم بكل دعاس من ذا ينزله
عند الجلال وهل يهول الليث يوما صوب ولاس قد عمه النصر في ورد وفي صدر وحفه اليمن من ساق إلى راس مولى تردى رداء المكرمات فقل
ما شئت في شيم له واتواس لم يمض مشبهه على الحقيقة في بني أمية أو أبناء عباس من ذا يدانيه في حلم وفي كرم ومن يضاويه في الإقدام
والباس يا كم به قوي الضعيف وامتلات كف الفقير وأثرى رب إفلاس سلا كمثل سلا الغرا وضرتها أو مثل مراکش وحضرتي فاس فكم بها من
مأثر له كرمت ليست تعد بأقلام وأنفاس بل كل مصر وقرية له ديم تهمني لأهلها بكل ارغاس فدا الأمير أدام الله عزته طول المدى كل أنفاس
وأنفاس إلبها أيها الجحاح مانسة أزرت طلاوتها بكل مياس خريدة من بنات الفكر غانية لرقمها يتمنى كل قرطاس

جاءتكم تطلبك القبول عاندة بالله من شر وسواس وخناس فليهنها أنها تشرفت بك إذ حوت معاني من مديحك الراسي وأنها لك قد وافت مهنة بليلة
ذات أسفار وإهلاس أكرم بها ليلة غراء قد فضلت بأفضل الرسل كل ذات إعباس إذ أشرق الكون من أنوار مولده حتى كفاه سناها كل نبراس
والشرك في الهون قد أضحت طوائفه مستيقنين حلول البؤس والبأس إذ هالهم أمر أحمد وأوقعهم في حيرة عيشت بهم وإبلاس تيقنوا أنه ما كان
يخبرهم بشأنه كل قسيس وشماس وأصبحت جملة الأصنام ساقطة منكسات الرووس أي تنكاس وفي انصداع البناء أصبحت عبر لهم كذا في خمود
نار أفراس والجن لا تصل السماء إذ منعت منها بشهب لرميها وحراس ومن يرم منهم للسمع مستترقا ينحط محترقا منها بمقياس محمد صفوة
الباري وخيرته من خلقه الجن والأملك والناس جاءت شريعته البيضاء مطهرة للدين من كل أدران وأدناس ولم تنزل أمد الأعصار رافعة عن الهدي
كل شبهة وتدلّاس أصل الهدى والندى فليس يشبهه هطال غيث ولا تيار رجاس فلا تقسه بشيء في مكارمه فما ترام خلاله بمقياس فإنه البحر في
فضل وفي كرم وفي الشجاعة ضيغم بأخياس كانوا به يتقون في الوغا بدلا عن اتخاذ مغافر وأتراس أسرى به الملك الأعلى لحضرته والروح
مونسه أتم إيناس والليل أحرس ليس فيه يسمع من صياح ديك ولا عواء لؤاس حتى دنا فتدلى ثم كلمه وقد رأى ربه بمقة الراس ونال من فضله
عزت جلالتة ما لا يسام بأوهام وأحداس فأب والدين أسست قواعد على أصول حميدة وأساس تراه كالقمر المنير في غسق من الدجى بين
أصحاب وجلاس غدا يحدث والملا يصدقه وليس يرتاب غير المائق الماس

دعا على المعتدي عتيبة فعدا يوما بدعوته قتيل هماس ورد عين قتادة فصار بها بعد العمى ذا تمقل وإيناس والماء من كفه السحما سال فكم من
وارد عذبه الروي وكم حاسي هو الرسول الذي جمت فضائله فليس تحصر أو تحصى بأطراس مديم ذكر فإن تدهل لواحظه فالقلب ليس بذاهل ولا
ناسي فالأرض طاولت السماء قاتلة لخبر رسل يبطن خير ارماس كل النبيين طرا لانزون به كمثل نوح ويونس والياس كذلك موسى وعيسى
والخليل به لدفع باس بيوم الحشر أباس يا أكرم الخلق يا خير الوري شرفا يا من أتانا بتطهير وتقداش أشكوك داء أساي فأسه كرما فما لداء الأسي
سواك من أسى قسا الزمان وفي قسم النوائب لم يعدل فيا ورجه من قاسم قاسي لكن قصدتك والكريم قاصده ما أن يرد بخيبة ولا يأس وقد توصلت
للمولى بجاهك أن يشد بالشرعة البيضاء أمراسي وأن يحسن أعمالي ومعتقدي فيه ويكشف بلبالي ووسواسي وأن يعاملني بالعفو عن زللي وأن
يبدل إقلاي بقعاس وأن يهيب أسباب السعادة لي حتى أتنيخ بذاك البيت عرماسي إذ قلت من أم طيبتي ومات بها نال الشفاعة في أهل وفي ناس
صلى عليك إله العرش ما نفتح نوافع الزهر من دوح وأخياس صلي عليك إله العرش ما اعصمت بك الخلائق من عار ومن كاس صلي عليك
إله العرش ما رمقت بيض القراطيس يوما سود أنفاس والأل ما قال تشوان بحجم أدر كؤوسك فالسراء في الكاس ثم نهض السلطان أعزه الله من
رباط الفتق في عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف قاصدا مكناسة وجعل طريقه على زمر الشلح فخرجوا إليه متذللين
خاضعين متقربين إليه بالهدايا والضيافات فضرب عليهم الإتاوة والبعت فانقادوا ثم دخل أعزه الله مكناسة ثامن عشر الشهر المذكور فمكث بها
أياما يسيرة ثم نهض إلى فاس فمكث بها أياما يسيرة كذلك

اجتمعت إليه الجنود وخرج قاصدا بلاد وجدة وبني يزنانس وكبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود وكان خروجه من فاس منتصف جمادى
الثانية من السنة فاجتاز بتازا وأناخ على قبيلة غيائة جاعلا الهضبة المعروفة بزراع اللوز أمامه قبلة ووظف عليهم المؤنة قيل إنه ووظف عليهم
مائة صحفة من القمح والشعير فدفعوا شيئا يسيرا وعجزوا وتعللوا بأن هذا الذي جرت العادة أن يدفعوا للملك من قبل وكانت هذه القبيلة لم يهيجا
هيج منذ قديم لتحصنهم بجبالهم وأوعارهم ولهم استطالة على أهل تازا يركبونهم كل خسف فظهر للسلطان أعزه الله قتالهم فقاتلهم يوم الخميس
أواخر الشهر المذكور واقتحم عليهم حصنهم المعروف بالشقة وهو خندق بين جبلين فيه واد وعلى حافته بنايات ودور فحرق ذلك كله وهدمه
وانتسف ما فيه من قمح وشعير وأدام وغير ذلك وقطع منهم رؤوسا يسيرة ولما كان الغد وهو يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر المذكور
ركب السلطان أيده الله وركب معه أهل المحلة إلا قليلا وقدم المدافع والمهاريس أمامه واقتحم الشقة فتبعه الناس ودخلوا بلاد غيائة وتوسطوها
وقاتلوا أهلها فهزمهم والسلطان أمام الجيش في موكبه فسار حتى بلغ المداشر ورمى عليها من الكور والبنب شيئا يسيرا وكانت غيائة قد وضعت
الكمائن على الأتقاب وشحنوها بالرماة وتركوا منفذا واحدا يفضي إلى مهواة متلفة ذات شقوق غامضة وأشجار شانكة وصخور متراكمة لا يدرك
قعرها ولا يبصرها إلا من وقف عليها ولما وغل الجيش في مزارعهم ومداشرهم خرجت الكمائن من خلفهم ورموهم عن يد واحدة بالرصاص
فدهش الناس وتذكروا فعلهم القديم من الانهزام عن الملوك بلا موجب إذ لم يكن في شوكة غيائة هؤلاء وكثرتهم ما ينهزم منه ذلك الجيش اللهم
ولو تلبثوا يسيرا وقاموهم لهزمهم في الحال كما هزمهم أول مرة ولكن العادة العادة فولوا مدبرين لا يلوون على شيء وتكاثر الرصاص على
موكب السلطان حتى سقط حامل الراية وجرح المولى عرفة أخو السلطان وقتل سيدي محمد بن الحبيب نقيب الأشراف بالعدوتين وأما الجيش
وقواده فإنهم لما انهزموا صرفوا وجوههم إلى المهواة

التي ذكرنا وقصدوها على عبياء وقد ارتفع دخان البارود وغبار الخيل فتهافت فيها تهافت الفراش في النار لا يعلم اللاحق ما وقع بالسابق إلى أن
امتلات من الخيل والرجال والأثاث وما كادت وكان ذلك قضاء من الله وتمحيصا منه فهلك من الناس والخيل ما لا يحصى وبقيت أشلاؤهم ناشية
في تلك الأوعار تلوح مثل المجزرة وترجل السلطان أعزه الله عن فرسه حتى خلس من تلك الشقوق ثم ركب واجتمع الناس عليه وراجعوا
بصائرهم بعد الكائنة ثم انشمر غيائة بعدها إلى رؤوس الجبال وتركوا المداشر والجنات فاقتحمها السلطان بعد يومين أو ثلاثة عليهم فلم يقف أمامه
منهم أحد فعانت فيها وحرقتها وجعلها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وكتب أيده الله بذلك إلى الأفاق وذكر في كتابه أن الخيل والرماة قد انتسفا بلادهم
انتسفا ودوخوها أماما وخلفا حتى أشرفوا على بلاد جيرانهم وأناخوا فيها بكلتهم وجرانهم ثم توجه السلطان نصره الله إلى نواحي وجدة فأنتهى
إليها أوائل شعبان من السنة فتلقاه بنو يزنانس خاضعين تائبين فعفا عنهم كونهم ثغرا من ثغور المسلمين وعصبة تدخر لنصرة الدين إلا أنه عزل
عنه ولد البشير وبعث به مسجوناً إلى فاس وولى عليهم قوادا منهم من أهل الحزم ووظف عليهم قدرا صالحا من المال فشرعوا في دفعه
في الحال والتزموا رد ما تعلق بدمهم من المظالم وصلحت أحوالهم واستقام أمر تلك الناحية ولما قضى السلطان أعزه الله غرضه منها فقل راجعا
إلى فاس فدخلها ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم وكتب بذلك إلى الأمصار يقول هذا وقد كتبنا لكم هذا بعد القبول من حركتنا السعيدة

وحولنا بحضرتنا العالية بالله بفاس بالفتوحات الجديدة والإنعامات المزيدة حلول عز وظفر وإسعاد ونصر من لدنه لم يكن بحيلة ولا استعداد وذلك بعد الفراغ من ترتيب تلك القبائل وتطهيرها مما تعلق بها من الرذائل ولنا بفضل الله في هذه الحركة من أثر الخير واليمن والبركة ما أتج الصدور وحمنا غبه في الورد والصدور وتركتنا أهل تلك النواحي وساكني جبالها والضواحي على أحسن ما يكون صلاحا واطمننا وسلوكا للجادة المخزنية بالقلب والقالب سرا

وإعلانا وأيقنا طائفة من جيشنا السعيد عند قبائل الريف زيادة في الاطمئنان والتأليف بقصد استيفاء ما بزمهم من الواجب واستخلاص ما تعلق بهم من الحقوق التي ألزموها ضربة لازب وذلك كله من تيسير الله ورفده وفضله على عبده فما النصر إلا من عنده فأما نحن فلا حول لنا ولا قوة ولا أنصار مرجوة ولا نعتمد على عدة ولا عدد بل على فضله تعالى المعول والمعتمد عرفنا الله حق النعمة وألهمنا شكرها وحمدها وأجرنا على عوانده الجميلة وفوائده الجليلة التي لا يقدر قلم الواصف أن يدرك حصرها وحدها وقد اقتضى نظرنا العالي بالله إعلامكم بذلك لتأخذوا حظكم من الفرح بتأييد الله ونصره وتخلصوا في حمد نعمه الجزيلة وشكره والسلام في السادس والعشرين من رمضان عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف اه استمر السلطان أعزه الله مقبها بفاس وجد في بناء مقاصيره ومنتزهاته ببستان أمانة من فاس الجديد وكتب أيده الله إلى وصيفه أحمد بن مالك قائد الجيش السوسي بالمشيئة من حضرة مراكش أن يبني له على الباب المعروف بباب الرئيس من الدار الكبرى بالحضرة المراكشية قبة فارهة ويبالغ في رفعها وتنجيدها وتنميقها فشرع فيها في شوال من السنة المذكورة وكنا يومئذ نتولى إحصاء صائرها وصائر غيرها من البناءات المراكشية فكان ما صير على القبة وحدها أكثر من مائة ألف مثقال وكذلك بنى بمكناسة القبة العظيمة التي طاولت السماء ترفعا وذهبت في الجو صعدا بحيث أشرفت على ما حولها من بسيط سانس وغيره حتى صارت مثلا في الطول والاشتهار وبنى أعزه الله قبة عظيمة حافلة على ضريح الشيخ العارف بالله تعالى أبي عبد الله سيدي محمد الصالح ابن المعطي الشرفاوي بأبي الجعد فصير عليها أكثر من ثلاثين ألف مثقال تقبل الله منه وفي عاشر شوال من هذه السنة أعني سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف توفي الفقيه العلامة الناسك قاضي رباط الفتح أبو زيد عبد الرحمن ابن الفقيه العلامة السيد أحمد بن التهامي البربري ودفن بزواوية حنصالة من البلد المذكور وكان رحمه الله من أمثل قضاة الوقت ومن المتحررين للعدل ولي

القضاء برباط الفتح أكثر من عشرين سنة ثم تخلى عنه من غير عزل ودخل داره فلم يخرج بعد فاحتمل السلطان والناس ذلك واعتقدوه واستمر حاله على ذلك إلى أن توفي في التاريخ المذكور رحما الله وإياه والمسلمين وفي سنة أربع وتسعين ومائتين وألف وذلك يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من محرم منها توفي الفقيه العلامة الأديب شاعر العصر أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس المراكشي ودفن قرب ضريح الإمام أبي القاسم السهيلي خارج باب الرب من مراكش وحضر جنازته الجم الغفير من الناس وهو صاحب كتاب الجيش رحمه الله وفي صبيحة يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة ولد لنا ولد سميناه محمدا العربي وكان من عجيب صنع الله أنه ولد مختونا ولذا ذكرناه هنا وهو الآن حي أصلحه الله وأنبته نباتا حسنا وجعله من عباد الله الصالحين ومن العلماء العاملين أمين وفي جمادى الأولى من السنة أخذ السلطان أعزه الله في الاستعداد بالحضرة الفاسية للحركة استعدادا لم يتقدم له مثله حتى أنه كتب إلى أخيه وخليفته بمراكش المولى عثمان بن محمد أن يوجه إليه من العدة الرومية وهي مكاحل مركبة فيها توافلها ما قدرها ألف وستمائة وعشرون مكحلة تخرج أبخاشها بالحبة الرومية وأن يوجه إليه أربعمائة ألف وعشرة آلاف من الحبة المذكورة وعشرة قناطر من البارود ومائة قطار من ملحه ومدفيعين وكتب أعزه الله إلى أمنا الصائر بأن يبعثوا إليه بثلاثمائة وستين سرجا وستمائة كسوة من الملف للعسكر وخمسة عشر ألفا من البلغة ومثلها من النعالة وبعث أعزه الله عمه المولى الأمين بن عبد الرحمن إلى رباط الفتح لجمع عساكر الثغور وحشد قبائل دكالة وتامنا والغرب وبنى حسن وغيرهم ووجه أخاه المولى الحسن الصغير لحشد قبائل الدير والجيش المتفرق بها ثم كان خروج السلطان من فاس إلى مكناسة وأخر الشهر المذكور ولما سمعت قبائل البربر بخروجه ارتابت وحذرت وظنت كل قبيلة أنها المقصودة ففرت مجاط وبنو مطير إلى رؤوس الجبال

عرب عامر من بني حسن إلى زمر الشلح وكان الناس يظنون أن السلطان يغزو في هذه السنة برابرة الجبال والصحراء فخرج الأمر بخلاف ذلك وفي هذه المدة وفد على السلطان أيده الله عدة باشدورات للأجناس مثل باشدور الفرنسي والإصينبول والبرتغال وتكلم الفرنسيين في شأن بابور البر والتغراف وإجرائهما بالمغرب كما هما بسائر بلاد المعمور وزعم أن في ذلك نفعا كبيرا للمسلمين والنصارى وهو الله عين الضرر وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم نسأله سبحانه أن يكتب كيدهم ويحفظ المسلمين من شرهم ثم نهض السلطان نصره الله من مكناسة في أواسط رجب في جمع وافر وعدة كاملة فاجتاز ببلاد زمر الشلح فأظهروا له غاية الطاعة والخضوع وقدمت عليه وفودهم من كل جانب رافعين أعلامهم وشارتهم وزينتهم التي يستعملونها في مواسمهم وأعيادهم وأدوا له من المال والمؤن والضيافات ما استكثر الناس ذلك وتحدثوا به ثم زحف إلى عرب السهول من أعمال سلا فأوقع بهم وشردهم من خلفهم وكتب أعزه الله في العشرين من رمضان إلى الأفاق يعلمهم بما أتاح الله له من الظهور والنصر والسعادة وخضوع قبائل البربر له وتباريهم في طاعته وخدمته وبذلهم من الجباية ما لم يكونوا يبذلون القليل منه لغيره وذكر في كتابه أن ذلك كله بمحض فضل الله ومجاري السعادة وحسن السياسة من غير ضرب ولا طعن ولا سفك دم حتى أن قبيلة بني حكم قد أظهروا بعض الاعوجاج فقام إليهم إخوانهم من زمر قوقوما اعوجاجهم حتى فازوا إلى أمر الله وكفى الله السلطان أمرهم ثم ذكر في كتابه أعزه الله أمر السهول وأنه بعد أن أوقع بهم أمر بجمع فلهم ورأى استصلاح كلهم تأمين جلهم لعمارة بلادهم بهم رجاء نفع ما تقدم من أديهم وفي ليلة الجمعة الرابع عشر من شعبان من السنة خسف القمر خسوفا

كليا بحيث ذهب نوره واختفى شخصه حتى لم ير منه شيء وبقي كذلك نحو ساعتين ثم أخذ في التجلي شيئا فشيئا إلى أن عاد إلى امتلائه وفي هذه المدة قلت فلوس النحاس بمراكش وأعمالها حتى كادت تنعدم وذلك بسبب غلاء الريال الأفرنجي بمراكش ورخصه بفاس فكان صرفه بمراكش يومئذ بثلاث وستين أوقية وصرفه بفاس بثلاث وخمسين أوقية فصار التجار يجلبون فلوس النحاس من مراكش إلى فاس ويصرفونها بالريال فيربحون في كل ريال نحو مثقال وتمالؤوا على ذلك وتوفرت دواعيهم عليه حتى قلت الفلوس بمراكش وتقاعد الناس عليها لما فيها من الربح وتعطل معاش الضعفاء بذلك ولحق الناس ضرر كثير فكان الرجل يطوف بالبسيطة والريال في الأسواق فلا يجد من يصرفه له ولا يتأتى له أن يشترى من ضروريات معاشه ما قيمته أقل من بسيطة واتصل الخبر بالسلطان أعزه الله فكتب في الأفاق يأمر الناس برد صرف الريال إلى الثلاثة مثاقيل وربع مثقال فامتثل الناس ذلك ونودي به في الأسواق فانعكس الحال على التجار وتقاعدوا على الريال والبسيطة وفاضت الفلوس في الأسواق حتى صارت معاملة الناس ليست إلا بها وحصل للتجار من الضرر في رخص الريال ما كان حصل للضعفاء في قلة الفلوس لأن التجار حينئذ صاروا يبيعون سلعهم التي بذلوا فيها الريال العالي بالقراريط النحاسية التي صار صرف الريال فيها على النصف فأمسك الناس سلعهم وامتنعوا من بيعها وتعطلت المرافق أو كادت فكتب السلطان ثانيا برد أسعار السلع والأقوات على النصف مما كانت حتى تحصل المساواة بين الأثمان والمثمنات فنشأ بذلك هرج كبير وضرر للناس في معاشهم وأبى الله إلا أن تعود السكة إلى حالتها التي كانت عليها وقد بينا العلة في ذلك قيل هذا وأن السك والأسعار لا تزال في الزيادة ما دامت المخالطة مع الفرنج تكثر بكثرتها وتقل بقلتها وفي يوم الأربعاء ثالث رمضان من السنة توفي عالم المغرب السيد المهدي بن الطالب ابن سودة الفاسي كان علامة متقنا فصيحا عارفا بصناعة الدرس حسن الإيراد فيه بحيث فاق أهل زمانه يقال إن له تأليف لكن لم

نقف على شيء منها رحمه الله ثم عيد السلطان عيد الفطر من هذه السنة بزبيدة من بلاد زعير ولم يدخل رباط الفتح على قربه منها وفدت عليه هنالك قبائل المغرب وأهل الأمصار فشهدوا العيد معه وأجازهم وكساهم على العادة ولما فرغ من أمر العيد عين عامل رباط الفتح وهو القائد أبو محمد عبد السلام بن محمد السوسي وعين الحاج عبد الكريم بن أحمد بريشاء التطاوني والحاج محمد بن عبد الرزاق ابن شقرون الفاسي للذهاب إلى مادريد دار ملك الإصينبول بقصد السفارة عنه إلى دولتهم والمكافأة لهم على مجيء باشدورهم حسبما مر التنبيه عليه ففعلوا وعادوا بحيث

أدركوا عيد الأضحى من السنة مع السلطان أعزه الله بمراكش ثم نهض السلطان بعد عيد الفطر من زبيدة يوم البلاد المراكشية فاجتاز بتادلا وسكن قبائلها وأوقع ببني عمير وقبض منهم على ما يناهز أربعمئة مسجون سيقت في السلاسل والأغلال إلى السجن وفر بنو موسى إلى رؤوس الجبال حتى استنزلهم السلطان على الأمان ودخلوا في الطاعة والتزموا الخدمة ثم نهض السلطان أيده الله إلى مراكش فدخلها في عشر ذي الحجة من السنة فكان بها عيد لم يعهد الناس مثله منذ قديم وكتب إلى الأفاق يعلم الناس بما من الله به من النصر والتأييد والفتح والعز والمدد وأقام السلطان بمراكش في هذه المرة مدة طويلة إلى أن كان من أمره ما نذكره ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين وألف فكانت هذه السنة من أشد السنين على المسلمين قد تعددت فيها المصائب والكروب وتلونت فيها النوائب والخطوب لا أعدها الله عليهم فكان فيها أولا غلاء الأسعار وكان منشأه وابتدأه من تنقيف السكة في آخر السنة الماضية ثم عقب ذلك انحباس المطر لم تنزل من السماء قطرة وأجبرت الناس وهلكت الدواب والأنعام وعقب ذلك الجوع ثم الوباء على ثلاثة أصناف كانت أولا بالإسهال والقيء في أوساط الناس بادية وحاضرة ثم كان الموت بالجوع في أهل البادية خاصة هلك منهم الجم الغفير وكان إخوانهم يحفرون على من دفن منهم ليلا ويستلبونهم من أكفانهم عثر بسلا على عدد منهم وأمر

السلطان أعزه الله عمال الأمصار وأمناءها أن يرتبوا للناس من الأقوات ما ينتعشون به ففعلوا وبعد هذا كله حدث الوباء بالحمى في أعيان الناس وأملائهم فهلك منهم عدد كثير وفي هذه المسغبة مد النصرى أيديهم إلى الرقيق فاشتروه وكان ابتداء ذلك أنهم كانوا يعاملون ضعفاء المسلمين وصبيانهم بالصدقات والإرفاقات ثم تجاوزوا ذلك إلى شراء الرقيق منهم والأمر لله وحده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائتين وألف فكان في أوائلها موت الناس بالحمى كما قلنا فمات في المحرم منها الوزير الأعظم أبو عمران موسى بن أحمد وكان شغلة ذكاء وتمثال فطنة ودهاء غفر الله لنا وله واستوزر السلطان مكانه الفقيه الأخير أبا عبد الله محمد بن العربي بن المختار بن عبد الملك الجامعي من بيت الوزارة وأهل العراقة فيها ويبلغنا عنه أنه يحب أهل الخير ويلين جانبه للضعفاء والمساكين ويحب السلطان وينصح له ويغار على جانبه المعظم وحماء المحترم ويتجافى عن الطمع الذي هو أصل كل مفسدة في الدين والدنيا سنده الله وفي ظهر يوم الأحد عاشر صفر من السنة المذكورة توفي شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبو بكر ابن الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد عواد كان رحمه الله من أهل المشاركة في العلم والاعتناء به كثير الدرس كثير التقيد ختمنا عليه رحمه الله عدة كتب كبار جعلها الله في ميزان حسناته منها صحيح البخاري نحو عشر مرات وصحيح مسلم ثلاث مرات وشفاء القاضي عياض مرارا وكتاب الاكتفا لأبي الربيع الكلاعي مرة وأخرى إلى غزوة خيبر وشمائل الترمذي مرتين بشرح أبي عبد الله محمد بن قاسم جسوس وإحياء الغزالي رضي الله عنه وعوارف المعارف للسهروردي وتأليف غيرها من كتب النحو والفقه والبيان والكلام وغير ذلك مما يطول ذكره وبالجملة فقد انتفعنا عليه واستفدنا منه رحمه الله ونفعنا به وولي القضاء بعده الفقيه العالم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الجبري عرف بابن الفقيه من بيت العلم والدين والصون وهو رحمه الله يتحرى المعدلة في أحكامه ويتنهج صريح الشرع في جميع أموره سنده الله وكلاه وتولى

الخطابة بالمسجد بعد شيخنا المذكور شقيقه الفقيه أبو الحسن علي بن محمد عواد وهو مجيد في الخطابة ومن أهل المروءة والدين والعلم وفقنا الله وإياه والمسلمين لما يحبه ويرضاه وفي هذه الأيام استدعى السلطان أيده الله خديمه الأمين الأرمى السيد محمد بن الحاج محمد التازي الرباطي إلى حضرته العالية بالله بمراكش فقدم عليه الأمين المذكور وأجل السلطان مقدمه وأسند إليه أمر خراج المغرب ومراسيه ومستفاداتها وما يتبع ذلك من صوائرها وفوض إليه في ذلك تفويضا تاما لعلمه بنصحه وأمانته وضبطه وهذا الرجل من أمثل أهل المغرب وأصدقهم وأصحهم للسلطان وأشدهم غيرة على الدين والوطن حتى لو كان في الدولة عشرة رجال على شاكلته ومذهبه لكان يظن أن يكون لها بذلك النجاح التام نسأل الله تعالى أن يصلح أمرها ويشيد بمنه عزها وفخرها وفي ربيع الثاني من السنة ورد أمر السلطان أعزه الله على ولاية العدوتين أن يوجهوا عددا من أمنائهم وعدولهم للخدمة السلطانية بالمراسي المغربية فقدموا عليه بمراكش وكان في جملتهم أخونا في الله الفقيه العلامة الحافظ أبو محمد عبد الله بن الهاشمي بن خضراء السلاوي فقال قصيدة في مدح السلطان نصره الله نصها لبيك لبيك يا خير السلاطين أدامك الله في عز وتمكين دعوت عبيدك فاستجاب مبتدرا وقد اتاخ على الطير الميامين يهدي إليك تحية مباركة أذكى وأطيب من مسك ونسرين ممرغا وجنتيه فارحا جدلا إذا فاز منك بتخصيص وتعيين مؤملا راجيا بلوغ مقصده مستبشرا برضى بالنجح مقرون يا نجح سعيي ويا بشراي قد سعدت حالي وفزت بتقريب وتأمين من مبلغ معشري أني أويت إلى ظل منيد يظلني ويؤويني ظل الإله على عياده وكفى به كفيلا وذخرا للمساكين رب السماح فما معن بن زائدة وأبين من راحيته نهر سيحون لله من ملك جلت مآثره عن أن يحيط بها حصر بتدوين دعا المعالي فانقادت ملبية يضيون عن وصفها بطن الدواوين له السعادة قد ألفت أزمتهما والفتح رائده في كل ما حين وبشر طلعت يسر ذا حزن وأين ما حل كان خير ميمون حامى الشريعة والرحمن ناصره ماضى العزيمة لا يرضى بثوهين في كل قطر تناء عنه منتشر أي انتشار يفوق مسك دارين ساس العباد بتدبير ومعدلة وأحسن الأمر في الدنيا وفي الدين وليس يعبا بالدنيا وزينتها لكنه بين مفروض ومسنون وطبق الأرض عدله ونعمته مجاله بين تسكين وتحسين بسعده الغرب قد بدت محاسنه فجر ذبلا على بغداد والصين وتاه مزدريا بكل مملكة يمس في حلل نوات تلورين نعم الإمام الهمام المرتضى حسن فخر الملوك سلالة السلاطين السيد الملك ابن السيد الملك المعروف بالليلين بحر خضم مغيب سيد بطل بد اللبوث وفرسان الميادين دانته بطاعته العدا بأجمعها مذ البست ملبس الصغار والهون وفاق من قبله حلما ومكرمة وسطورة بهرت أهل الأواوين لا غرو إن نال ما فات الألى غبروا وشاد ما عجزوا عنه بتحصيلين قد يدرك الأخر الشأو الذي قصرت عنه الأوائل في ماضى الأحابيين تبارك الله ما أسمى مفاخره كسبا وارثا من الشم العرائين ولا ترى الغرس قد زكت أرومته إلا أتى الفرع منه في أفانين يا خير من أمه الراجي وأكرم من يثني عليه بمعرب وملحون ويا ابن خير الأنام من نبوته له وادم بين الماء والطين ويا ملاذ الورى يا من سما كرميا يا نعمة عظمت يا كرز مسكين يا منبع الجود يا تاج الفخار ويا ماوى العفاة ويا سلوان محزون يا من روى عن أبيه رفع سؤدهه يا من أوامره إليه تدعوني وفدت ملتصما رضاك يا سندي وليس شيء سوى رضاك يرضيني فأمنن علي بعبقة تصاحبني مدى الدهور وللعلی ترقيني بقيت ما شئت في عز ومقدرة ودمت في نعم بحق جبرين

ولما وقف السلطان أعزه الله على هذه القصيدة هزت من عطفه وأمر أن يسأل منشئها عن مطلبه فاقترح أن يؤذن له في الإفتاء وأن يعطى ظهيرا بالتوقير والاحترام وأن ينعم عليه بما يقتضى الاعتناء به فأنعم عليه السلطان أعزه الله بالإذن في الإفتاء وبظهير الاحترام ونفذ له راتباً من أحباس جامع ابن يوسف إعانة له على الدرس به ثم كان نهوض السلطان أيده الله من مراكش قاصداً بلاد الغرب غرة جمادى الأولى سنة ست وتسعين ومائتين وألف فاجتاز في طريقه بتادلا وأناخ على قبيلة آيت أعتاب فأوقع بهم في أوعارهم وأعز معاقلمهم وأوكرهم وقطع منهم واحدا وعشرين رأسا ثم زحف إلى بني موسى فأدوا الطاعة وقاموا بواجبها ثم سار محفوقا بالنصر واليمن إلى أن دنا من مكناسة الزيتون فزحف إلى بني مطير وكان شرهم قد استطار في تلك النواحي كل مطير فإنه لما سافر السلطان نصره الله عن مكناسة سنة أربع وتسعين كما مر زحف بنو مطير هؤلاء إلى عرب دخيسة وأولاد نصير الذين أنزلهم السلطان بسايس وبوأهم إياه عوض مجاوط وأوقعوا بهم وقعة شغعاء وقد صبرت العرب في ذلك اليوم صبورا جميلا حتى أن جماعة منهم قد عقلوا أنفسهم في حومة الحرب لئلا يفروا وقاتل إخوانهم دونهم حتى كثرهم البربر فقبضوا عليهم باليد وضربوا أعناقهم وقتلوا منهم نحو مائتين وهلك من البربر مثل ذلك أو أكثر ولما انهزمت العرب عمد بنو مطير إلى مجاوط فأنزلوهم بسائس على ما كانوا عليه قبل ثم انطلقوا في الطرقات بالعبث والإفساد فيها والنهب للمارة ولم يدخروا شيئا من الشيطنة ليوم آخر وكثرت الشكايات بهم على السلطان وهو بمراكش فلما قدم أعزه الله قدمته هذه لم يقدم شيئا على تأديبهم فنهض إلى رأس بلادهم ومزرعة فسادهم أكراي والحاجب وغيرهما وتفرق آثارهم في تلك الجهات حتى جاوزت عساكره الحاجب بمساييف كثيرة وتوغلت البربر في قنن الجبال فأمر السلطان أدام الله علاه بني مكيد أن يزحفوا إليهم من ناحية قبلة أكراي فزحفوا وانبثوا على حدودهم إلى غابة أفتاق التي هي الحد بين بني مكيد وآيت شغروسن وآيت يوسي فحصرهم من تلك الجهات ثم نزل بإزائهم

آيت يوسي وآيت شغروسن وآيت عياش وآيت والان من جهة الشمال وامتدوا وامتدوا إلى حدود وادي النجاة وربط حذوهم من جهة الغرب وراء وادي النجاة القائد العربي بن محمد الشرقي المدعو بابا محمد ووصل جناحه عليهم قبائل الغرب والحوز وصار بنو مطير في مثل أحوال القضاة وضاق بهم رحب الفضاء وأيقنوا بالهلاك واليوار ولفظتهم السهول والأوعار ونهبت الجنود زروعهم والقائم والصيد واستخرجت من مخزونهم الكثير والعنيد ولما انتهى الحال بهم إلى هذه الغاية تطارحوا على السلطان بالشفاعات وأكثروا من التوسل بالذبايح والعارات فرق لهم وأقلع عنهم بعد أن ألزمهم إعطاء خمسمائة مرهون ووظف عليهم مائة وخمسين ألف ريال بعد أداء الحقوق ورد المظالم وشرط عليهم إخراج قبيلة مجاط من بين أظهرهم وضمنهم طريق مكناسة وفاس وجعل العهدة فيها عليهم جريا على عاداتهم القديمة من جعلهم النزائل بها والحراس فالتزموا ذلك كله وأدوه وبعد ذلك نهض السلطان عنهم إلى مكناسة فدخلها أواخر رجب الفرد من السنة واستمر بها إلى أن دخلت سنة سبع وتسعين ومائتين وألف فنهض إلى فاس ولما احتل بها فرق الجيوش في النواحي لجباية الزكوات والأعشار والوظائف المخزنية فانتهدت السرايا والبعوث إلى آيت يزدق من برابرة الصحراء فأذعنوا وأدوا ما كلفوا به من الزكوات والأعشار وغيرها وإلى آيت يوسي وغيرهم فأطاعوا وأذعنوا إلا آيت حلي وهم بطن من آيت يوسي فإنهم انصرفوا عن عاملهم وأبوا من أداء ما وظف عليهم فأوقع بهم جيش السلطان وقطعوا منهم عددا من الرؤوس وساقوا مثلها من المساجين فعلقت الرؤوس بأسوار فاس وبعد ذلك أذعن آيت حلي للطاعة فقبلهم السلطان أيده الله وألزمهم ولاية عاملهم الذي كانوا منحرفين عنه وكان ذلك في أواخر صفر من السنة المذكورة ثم كان عيد المولد الكريم فاحتفل له السلطان على العادة وبعث إلى حضرته صاحبنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن خضراء بقصيدة ميلادية يقول فيها أمل المديح محبرا يا منشد وأعدّه تطريبا فذلك أحمد هذا أوان مسرة وسعادة هذي الليالي الغر هذا الموعد

أو ما ترى علم البشارة لائحة أو ما تشاهد نورها يتردد هذا زمان ظهور طلعة أحمد في عالم الأجساد هذا المولد طوبى لمن يروي غريب حديثه متأدبا ويعيده ويردد طوبى لمن يقضي حقوق مديحه ويجيده نظما بديعا ينشد فمديح خير الخلق أعظم قرينة لكنه في ذا الأوان مؤكد يا ليلة ما كان أعظم قدرها مع فجرها طلع النبي محمد فاسرد شمائله الحسان وما له من معجزات بالنبوة تشهد واذكر عجائب مولد قرت به عين المحب وضاق منه الأحقد واجعل دعائك للإمام المرتضى إن الدعاء له لحق وأكد وأملأ بدر مديحه أسماع من حضروا لديه وضمهم ذا المشهد ساس الرعية صادقا فعنت له أمم وقد كانت قديما تشرد من كفه فاضت مواهب جمة فالكف منه للعفاة المورد طود أتاد شامخ ذو همة عليا يقصر عن علاها الفرقد ما جود حاتم طيبى ما حلم أحف ان ذا هو الحليم الأجود أركى الملوك أرومة وأجلهم قدرا وأسقيهم لأمر يحمد باهى به الغرب الممالك فاعتدى منه يغار قريبها والأبعد ومن آخرها مولاي يا تاج الملوك وفخرهم فليهنك العيد الأغر الأسعد لله موسم مولد لك عائد بمسرة موصولة تتجدد لا زلت ممنوحا جلائل أنعم ما اهتز في روض بهي أمل لا زلت محروسا بعين عناية ما رنم الحادي وحبر منشد وفي ربيع الثاني من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ورد كتاب السلطان أعزه الله على قاضي سلا بتعيين صاحبنا الشريف الأديب فلكي العصر أبي العلاء إدريس بن محمد الجعدي السلاوي للذهاب إلى مراكش برسم القيام على إحصاء صنائر السلطان بها بدلا عن الفقيه أبي محمد عبد الله بن

خضراء فامتثل الشريف المذكور وسافر في التاريخ المذكور ومدح جناب السلطان أسماه الله بهذه القصيدة التي يقول فيها لبيك يا منقذي من لجة العدم سعيًا على الجفن لا مشيا على القدم فذا أوان سعود كنت أرصده وذي مناي كما في سابق القدم فهو المرام وكل العز يعقبه ولا يحال بأني أحقر الخدم قصدت أعتاب ملك شامخ بهج يقري الضيوف ويعني صاحب العدم أنزلت رحلي بها وعندنا أمني وهل يخيب نزيل الجود والكرم شمريت عن ساعدي والأذن واعية فهاب أهل الحسام سطوة القلم أرضى بذاك الذي أضاء مغربنا بعدله فغدا يمس في نعم أركى الأئمة شيمة وأرفعهم قدرا وأسقيهم لكل مغتتم أميرنا الحسن المحمود سيرته تروغ صولته الأسود في الأجم نجل السلاطين قد أحيا متأثرهم ونال ما عجزت عنه ذؤو الهمم قد شاد للدولة الغراء مفخرها فساد عند ملوك العرب والعجم تاج الملوك وفخرهم وسيدهم وخير من قد مضى في غابر الأمم قد لاحظته السعود وهي في شرف وكل نحس عداه وهو عنه عم النصر سابقه والسعد قائده والفتح يخدمه من جملة الخدم والجود سيرته والحلم حليته والجد عادته فاحذر من الندم ليث إذا ما أحس الحي سطوته ألقوا سلاحهم مخافة النقم غيبث إذا الأرض يوما مسها عطش غوث توسل به لباريء النسم مدير عالم مفكر فطن ومفحم باهر بأفصح الكلم كل الفهوم له أفتت أزمته ونوره يهتدي به لدى الظلم بها يقاوم من بغى ويدمغه بها يدافع أهل الريب والنهم كم دبر الروم من كر ومن حيل توجو النجاح بها والنجم في عقم يرى بنور حجاه كل عاقبة وعين تدبيره للأمر لم تتم فصل الخطاب حياه الله مكرمة وحكمة عظمت من أبداع الحكم فاطلب رضا ودم على محبته مدا الدهور وجانب داعي السام

فهو المنى لذوي الحجا وبعيئتهم وسيبب يمناه مثل الزاخر العرم يذني الأصول إلى نيل الوصول ويحيينا بنعمته كالأرض بالديم ما زال يحيي بها بلاد مغربنا فاقرع بصدقك باب الجود تغتتم واسلك سبيل الصفا تتل به شرفا واقبل نصيحة من حباك واستقم يا غاية القصد إني راغب طرب مستمسك بجوار منك لم يضم مولاي يا من مزايه وأنعمه في الناس أشهر من نار على علم مولاي أنت الذي تغني الضعيف إذا ما الدهر أفضى به لقبضة الهرم بشارك إن الفرج سوف يدركها منكم صغار به نداس بالقدم فأتت ذو مدد وهم ذوو نكد وأنت ذو جنل وهم ذوو غم مولاي جد برضاك لي وخذ بيدي واحرس جنابي به من سائر الألم واجعل ثياب الرضى سترًا علي ولا يرى به حبل عروتني بمنفصم فما أنا ذاك عند باب سيدنا أرجو قبولًا ووصلا غير منصرم أبواق ربك في عز ومكرمة بالله أمرك نافذ على الأمم أدامك الله منصور اللواء على كل الأعادي ولا برحت في نعم وفي آخر هذه السنة ورد كتاب السلطان أيده الله باستدعاء صاحبنا أبي محمد بن خضراء أنفا لتوليته خطة القضاء بحضرة مراكش فامتثل ووفد على أمير المؤمنين آدم الله علاه بحضرته السعيدة من فاس المحروسة بالله فولاه القضاء بمراكش وسار إليها وهو الآن بها محمود السيرة حسن السريرة سده الله وكلاه وقال في وفانته على الحضرة الشريفة قصيدة يمدح بها الجناب المولوي ونصها لبيك دمت مؤيدا ومظفرا ولك الكمال كما تشاء موفرا وافي خديمك أمرك العالي الذي في ضمنه إسعاده بين الورى إذ خص دونهم بأشرف دعوة يا سعد من أضحي

بها مستبشرا فأجاب مبتدرا إجابة صادق لم يلهه أهل ولا حب الذرى وطوى المراحل كي يحل بحضرة يلقي بها وجه الأمانى مسفرا فبدت له الدار المنيفة يا لها دارا أعز حمى وأبهى منظرا ونحا الجناب المستجار بظله وأناخ فيه خاضعا ومعفرا يهدي إليك تحية مختارة أدكى من المسك الذكي وأعطرا ويمد كفيه بصدق داعيا لك بالبقاء مهنا ومبشرا ويبيد شكر مواهب أوليتها كرما وحق لمتلها أن يشكرا ويعيد ذكر محاسن أوتيتها ويصوغ مدحك صوغ تبر أحمرًا ويروم إقبالا عليه بالرضى يا فوزه إن بالرضى هو بشرًا إن ناله نجحت له أماله وندنت مناه وارتنى واستبشرا يا من يؤمل رفعة وسعادة يمد حمى المولى الهمام لتظفرا ملك عظيم القدر جل كماله عن أن تعد خصاله أو تحصره ملك كريم الطبع عز مثاله خلقا كريما لم يضاها ومفخرًا ملك جزيل الفضل عم نواله كل الأنام وفاق غيثًا ممطرًا ملك أفاض على الرعية خيره وأنامهم في ظله متبصرًا ملك جميل سياسة وسريرة ويبدل ظاهره على ما أضمرًا ملك ترقى في سماء مكارم فغدا به أفق المكرم مقعرا ملك رحيم خاشع متواضع ويرى اكتساب الحمد أريج متجرا قرت به عين الخلافة واغتنى من سعده ذا القطر أنعم أزهرًا من أهل بيت المصطفى أكرم به نسبا شريفا ما أجل وأظهرًا جمع المفخر مكسبا وورثة وحوى مآثر حقها أن تؤثرًا ماضي العزيمة في الأمور مسدد في رأيه الميمون ليس مقصرا قل للمحاول شأوه في مجده أو رفده أو حلمه أطرق كرا هذا همام لا يشق غياره هذا همام لن يجارى إن جرى مولاي يا أركى الأئمة شيمة وافيت بباك أبتغي منك القرا لا أبتغي إلا الرضى وكفى به فأنلني الحظ الجزيل الأوفرا مولاي ما عندي إليك هدية إلا مديحك هاك منه جوهرًا نظمته فكرة مخلص متودد خذه إليك منظما ومحبرا

لا زلت في نعم تدوم ونصرة وسعادة لا زلت أنت الأكبر لا زلت في حل العناية رافلا لا زلت في ملك كبير أبهرا واعلم أن الأمداح في جناب هذا الملك الجليل الشريف الأصيل كثيرة والقصائد المفصحة عن علو قدره وشموخ مجده وفخره شهيرة خطيرة لا سيما لأصحابنا السلاويين ممن ذكرناه منهم وممن لم نذكره ولولا خوف الإطالة لأثبتنا من ذلك ما يزرى بالحبر ويفصح بالذكرى والعبير وفيما ذكرناه كفاية والله يجزي كلا بنيتيه

وخلوص طوبته ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف فيها تجددت الشروط بين السلطان أعزه الله وبين أجناس الفرنج في سبيل تأكيد المهادنة وجلب نفع التجارة وكان من جملة ما أن النصارى وأهل حمايتهم يلزمون بغرامة الوظائف المخزنية المرتبة على الأبواب كسائر رعية السلطان وقدر ذلك الوظيف ستة بلايين لكل حمل وفي هذه المدة التي هي أواسط السنة المذكورة أخذ السلطان أعزه الله في التأهب للحركة والنهوض من مكناسة الزيتون فاصدا حضرة مراکش الحمراء فاحتلتها في آخر السنة المذكورة وعيد بها عيد الأضحى ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف فيها تحرك السلطان أعزه الله لغزو بلاد السوس الأقصى فأخذ في التأهب والاستعداد لذلك وأمر قبائل دكالة وتامسنا بحمل القمح والشعير والتين إلى مرسى الجديدة ومرسى الدار البيضاء ليحمل منهما في المراكب إلى ساحل السوس الأقصى بقصد إرفاق الجيش وإعانتة وكان السبب في ذلك أن جنس الإصبيبول كان متشوقا لتملك بعض المراسي السوسية منذ انعقاد الهدنة معه عقب حرب تطاوين وكثيرا ما كانت مراكبه الحربية والتجارية تتردد إلى تلك النواحي فيستهوئ أهلها بأسباب التجارة ونيل الأرباح فرميا سكنوا إليه وربما نفروا منه وتكلم السلطان أعزه الله مع كبرائهم في ذلك فاحتجوا بأن صلح تطاوين كان منعقدا على فتح بعض المراسي السوسية وأنهم الآن قد عزموا على الأخذ بشرطهم المذكور وإلا أفضى الحال إلى ما لا يليق فرأى السلطان أعزه الله أن من الواجب أن ينهض إلى تلك البلاد ليباشر أمرها بنفسه لا سيما وكان أهلها قد بعد عهدهم بإجراء الأحكام السلطانية فيما بينهم على مقتضياتها فنهض إليها في رمضان من السنة المذكورة فأنتهى منها إلى قرب وادي نول ومهد أقطارها وولى على أهلها القضاة والعمال واتخذ هناك مرسى للوسق والوضع تسمى أساكا وكتب في ذلك كتابا لولادة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح أما بعد فإننا لما نهضنا من مراكش بحول الله وقوته وسطوته الباهرة ووصلته وجيوش الله المظفرة موفورة وجنوده سبحانه مقطورة وأعلامها منشورة منصوره نهضة معتمد على مولاة متقلد لما قذف في قلبه فأبداه متمسك بعروته الوثقى التي من استمسك بها بلغ مناه وانتهينا بمعونة الله لمبدأ هذه الأقطار السوسية وامتطينا صهوتها وهي ذلولا في ربوع اليمن ساعيه وبنود الله خافقة على مفارق الظفر وبذرى المجد سامية تواردت على حضرتنا العالية بالله الوفود متناسقة متتابعة وانتظمت في سلك السمع والطاعة والخدمة الجامعة فتسارعوا إلى ما إليه دعوا وتلقوه تلقى الظمان فنهوا وكرعوا وأوقدوا لوفود كبرائهم وأعيانهم وأشياخهم مصباحا واستصاؤوا بضيء نور الله غدوا ورواحا ومدوا أعناق الإذعان وبسطوا أيدي المسالمة والإبقاء عليهم والامتنان بعد ما كانت قد بلغت منهم القلوب الحناجر وارتعدت فرائصهم من هيبته الله ثم اطمأن البر وشرق الفاجر وانتهبت أجناس المراسم المخزنية التي عفت بعد نومتها فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها وصرفنا إليهم عنان الترتيب بعد أن وطأنا لهم كنف الترحيب فيؤأنا من توسمنا فيه الأهلية للتولية على إخوانه مهادا وقلدناه أمرهم جمعا وفرادى وضربنا للكل فيها على مقتضى السياسة بمعونة الله بسهم مصيب وأرعيناه من مربع خدمتنا الشريفة المرعى الخصب حتى وقع التمكن من أزمتهم وأجلسنا خاصتهم وعمالهم على أسرتهم فاتصلت بهم المخزنية اتصال الأرواح بالأجساد واستنارت هذه الأرجاء بنور الله استنارة عمت الحاضر والباد فأدوا من الطرف والهدايا ما فيه غنية لمن ركب متن المزايا

مع كون البلاد لم تنكح بالمخزن مدة من السنين تنيف على عدد الستين ولو لم نزل من هذ الفتوح الباهرة بفضل الله إلا عشرا لكان في جنب من قدم عهده بالمخزنية كثرا ولكن ما عودنا سبحانه إلا الجميل إذ هو المتصرف الغني القاهر القوي الكفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ثم ولينا عليهم من القضاة من فيهم الكفاية لإقامة شرائع الدين ولم نأل جهدا في انتخابهم من أمثال المقلدين علما بأن الشرع عليه المبني وبه يعمر المعنى ويعزز الحس والمعنى ثم تطارح شرفاؤهم ومرابطوهم على أعلى جنابنا بإقرارهم على عواندهم وإيقانهم على أعرافهم ومحادثهم التي عندهم عليها ظهائر أسلافنا المقدمين أئمة المسلمين وأمراء المؤمنين وكذا ظهائر من غير من الملوك المتقدمين رضوان الله عليهم أجمعين فانتهجنا نهجهم وسمكنا بحول الله أوجههم وساعدناهم فأقرنا وجددنا لكل ظهيره وأجريناه على ما أسس له من المجد وجعلناه نجيه وسميره وحيث كان القصد الأهم من هذه الوجهة المباركة هو حماية دمار هؤلاء المسلمين والدفاع عن بلادهم ورقابهم وأموالهم مما طمحت إليه نفوس المؤمنين وكان ملاك ذلك هو فتح المرسى بوادي نول بحمل يسمى أساكا بأرض قبيلتي تكنة وآيت باعمران إذ بفتحها يستقيم أمر الدفاع ويسهل على أهل ذلك المحل البيع والابتياح يقينا بأن سد أبواب الضرر من الأمر المحتوم وإرشاد الضال في الشرع من المقرر المعلوم تسابق القبيلتان المذكورتان اللتان تلقينا جنابنا العالي حين عبرنا وادي والغاس وقصدنا بجيوش الله بلادهم قصد طبيب أس فقتلوا ركابنا السعيد بحمل يعرف بأمصو قرب مرسى تسمى باكلو إذ هو الطرف الموالي لآيت باعمران المسمى بالساحل وإليه شنت هذه المراحل وبين أمصو ومحل المرسى الذي أريد فتحه مرحلتان وبثلاث عشرة ساعة ميفاتية مقدرتان فأتوا بشرفائهم وقهائهم ومرابطيهم وأعيانهم وأشياخهم المالكين لقيادهم فقبولوا بما قوبل به أمثالهم ونسب أن ينصف به حالهم ثم ولينا عليهم عدة من العمال جعلناهم بحول الله عدة في تلك الأعمال وحينئذ وقع الكلام معهم في شأن المرسى فامتثلوا ما أمرناهم به من فتحها امتثال

من أضحى يقلب في رضا الله ورسوله وأمسى ثم وجهنا معهم سرية من أعيان الجيش معتبرة ومعهم من الفقهاء والمهندسين من يعتد بهم في رسم تلك المرسى وتخطيطها على نهج القواعد المقررة والأعمال المحررة اقتضى المقام والحال تسبيقها رفقا بعباد الله واعتبارا بأن الله سبحانه قد قضى الغرض ووهبه وأسدها وما تشاؤون إلا أن يشاء الله قل إن الفضل بيد الله وما يكمن من نعمة فمن الله ثم أمنا في المحل المذكور لانتظارهم في تشييد منارهم فإن انقلبو بالمقصود فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإن لم يشفوا الغليل شددنا بحول الله لذلك المرسى عزمات الرحيل وقطعنا تلك المغازات هذا وقد نصبنا قائدا من قواد جيشنا السعيد مختارا من ذوي الرأي السديد وأقمناه بقصبة تيزنيت محل المخزن في القديم بقصد أن يكون إعانة لسائر عمال القطر السوسي من وادي والغاس إلى منتهى وادي نول وكليميم يتفوضون معه فيما عسى أن يعرض لهم من المهمات ولا سيما إذا كان المخزن بعيدا عن هذه الشرفات بعد ما عرفناهم بأنا أقمناه مشرفا للتفاوض معه وبصيرة على ما قصدنا من فتح ذلك المرسى إيثارا للنعمى ودفعاً للبؤسى ففرحوا بذلك فرح الظمان الوارد والضال الواعد ووقع الإشهاد عليهم بكل ما فصلناه وأبرم عقده معهم على نحو ما رسمناه فكان ذلك تمام العمل الذي قصدناه والمورد الذي أردناه وانتحنياه والله تعالى يخلص في ذاته العمل ويجعل هذه الوجهة المباركة بفضلته ومنته من الجهاد المنقبّل إنه جواد كريم متفضل غني حلیم والسلام في متم شعبان عام تسعة وتسعين ومائتين وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله وفي أواخر صفر سنة التثنتين وثلاثمائة وألف قام نواب الإصبيبول من مراسي المغرب الأقصى بعد أن أقاموا بها نيفا وعشرين سنة لاستيفاء ما وقع الصلح عليه في حرب تطاوين وكان جملة المال المصالح عليه عشرين مليوناً من الريال الكبير وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله قد دفع منه عشرة ملايين معجلة والعشرة الباقية هي التي استوفاهم الإصبيبول في المدة المذكورة أقام أمناء مع أمناء السلطان بمراسي المغرب

فكان كل فريق يستوفي نصف الداخل حتى تم العمل وفي صبيحة يوم الاثنين ثاني ربيع الثاني من السنة المذكورة توفي الشيخ المنور الذاكر الخاشع أبو عبد الله محمد الهاشمي الطالبي من صلحاء أهل سلا وكانت وفاته فجأة تعشى تلك الليلة عشاء خفيفا على عادته وصلى العشاء وتلا أوراده منفردا في بيته كما كان يفعل ثم أصبح ميتا من غير أن يحضره أحد وكان قد ناهز الثمانين وشاخ وابتضت لحبته ورأسه وحضر جنازته الجم الغفير من أهل العدوتين سلا والرباط وازدحموا على نعشه وتناوبوه تبركا به وصلى عليه بالمسجد الأعظم من سلا عقب صلاة الظهر ودفن بالبيت القلبي من داره وتردد الطلبة إلى قبره مدة لقراءة القرآن والبردة وغيرها من الأمداح وعظم مصاب الناس بموته وكيف لا وقد كان مصباح العدوتين بل وغيرهما في زمانه مع ما أكرمه الله تعالى به من التواضع وحسن الخلق ولين الجانب مع الناس بحيث لم يعهد ذلك ولم يرو إلا عن السلف الصالح ومن سلك سبيلهم من أمثالهم رضي الله عنهم وكان مجلسه مجلس علم وحياء ووعظ وذكر للأولياء والصالحين وسيرهم وأخبارهم لا يسمع في مجلسه لغو ولا خوض في دنيا إنما هو سرد الأحاديث وأخبار الصالحين ونحو ذلك محافظا على الصلوات وقيام الليل والأذكار وبذل المعروف والأمر به ما أمكن وبالجملة فقد كان في سيرته وأخلاقه على مقتضى السنة النبوية وآثار السلف الصالح رضي الله عنهم ونفعنا بمحبته

ومحبة أمثالهم أمين وبعد غروب الشمس من ليلة الجمعة فاتح ذي الحجة من السنة المذكورة توفي الفقيه العلامة البارح أبو عبد الله محمد بن المندي كنون عالم فاس والمغرب وصلى عليه عقب صلاة الجمعة بجامع الأندلس من فاس حرسها الله ودفن بالموضع المعروف بالقباب وكان رحمه الله فقيها عالمًا متضلعا قولًا بالحق صادعا به لا يهاب في ذلك كبيرًا ولا صغيرًا ولقد امتحن في ذلك من قبل السلطان فلم يفل ذلك من غربه ولم يوه من صرامته ولا حده وله عدة تأليف من أحسنها اختصار حاشية الرهوني على مختصر الشيخ خليل جدد الله عليه الرحمت أمين ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثمائة وألف ففي ليلة العشرين من صفر منها وقع في النجوم تئاتر كبير ورمي شديد تشريقًا وتغريبًا وغير ذلك على خلاف المعتاد حتى لقد أذكرت قول بشار بن برد الأعمى في وصف الحرب كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبه ودام ذلك من وقت الغروب إلى نصف الليل وفي هذه الأيام كانت بين جيوش الرجل المنصور القائم ببلاد الحبشة والنوبة المتسمى بالمهدي وبين جيش النجليز حروب عظيمة بعد العهد بمتلها وكان للمهدي المذكور على النجليز غاية النصر والظهور ولولا أن التعرض لخبره ليس من موضوع الكتاب لشرحت ذلك فإن أمره عجيب جدا وفي أواسط ربيع الأول من السنة المذكورة ورد أمر السلطان أيده الله بتسريح ما كان موظفا على أبواب المدن والقرى مما كانت تؤديه العامة على أعمال السلع والتجارات من المكوس وكتب في ذلك إلى عامل سلا وقته بما نصه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسم السلطان أيده الله خذينا الأرضى الحاج محمد بن سعيد السلاوي وفقه الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد شرح الله صدرنا لرفع العطاء في سائر الأبواب بالمدن والمراسي عن كل ما يمر به عليها داخلا وخارجا وأصدرنا أمرنا الشريف لأمين المستقادات بتغفر سلا المحروس بالله كغيره بإنهاض المشترين لأبوابه الجالسين لقبض بها والمتصرفين في شؤونها لحال سبيلهم وإعمال الحساب مع مشتربيها المذكورين على ما تصرفوا فيه إلى يوم الإنهاض وتوجيه القائمة بذلك لحضرتنا العالية بالله وغير الأبواب من الأماكن المعطى فيها وعليها تبقى على حالها حتى ننظر في أمرها بحول الله وأعلمناك لتكون على بال والسلام في ثاني ربيع الأول عام ثلاثة وثلاثمائة وألف ولما ورد هذا الكتاب فرح الناس به ودعوا للسلطان بالنصر والتأييد من خالص نياتهم نطلب الله تعالى أن يتم نعمته على المسلمين بتسريح ما بقي موظفا من مبيعات الأسواق ويريح الناس من شؤمه فإنه لا شيء أشأم من هذه المكوس على الدول نسأل الله العافية وفي عاشر جمادى الثانية من

السنة المذكورة خرج السلطان مولاي الحسن أيده الله من حضرة مراکش غازيا بلاد السوس الأقصى وما وراءها من عرب معقل وسائر قبائل الصحراء لما بلغه من اضطراب الرعايا بتلك البلاد وخروجه على ولايتهم وأن بعض تجار النجليز قد تسور على مرسى بتلك السواحل يسمى طرفاية ووصل يده في البيع والشراء ببعض القبائل الذين هناك وأراد أن يبني بالمحل المذكور فنهض السلطان أيده الله لحسم مادة هذا الفساد ولما توسط بلاد السوس وأصلح أحوالها وثقف أطرافها كتب كتابا إلى ولاة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح ما نصه وبعد فإننا بحول الله القوي المعين الفاتح لما أغلق كما يشاء في الحين أو بعد حين المؤيد بعنايته عبده في كل مصدر ومورد وتحريك وتسكين كتبنا إليكم هذا يوم حولنا وسط خدامنا قبائل آيت باعمران بحبوحة مجامع قبائل السوس الأقصى ومناخ الأعيان نعلمكم بما وجهنا المولى سبحانه في هذه الحركة المباركة من تعاقب المنن والآيادي وابتسام ثغر الزمان بما أملناه من العلي المنان في هذا النادي لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وبهده مقاليد السموات والأرض وهو الولي والنصير والسميع والبصير فكان من أمر هذه القبائل السوسية والقسامة الساحلية أن تلقوا ركبنا السعيد أفواجا فأوجا ناشرين أعلام الفرخ تجاه جيوش الله المظفرة سري وإدلاج حاشدين جمعهم مصحوبة بأعيانهم ومن يعتد به من فقهاءهم وشرافهم ومرابطيهم من غير أن يكون جمعهم خداجا مستنحجين للفرز بخاطرنا الشريف مقدمات الامتثال والسمع والطاعة لله ولرسوله استنتاجا مقدمين بين يديهم هداياهم منتزين بأبنائهم وإخوانهم وسراياهم مادين أعناق الامتثال عاضين بالنواجذ على الخدمة وصالح الأعمال فأتوا بمؤنتهم على قدر الاستطاعة ومهوا لسلوك الجيش السعيد ما صعب من طرقهم حتى صارت مسلوكه مشاعة ونحن في كل ذلك تعاملهم بالبرور ونيسط البشر إليهم ونفاليهم بما ارتسم فيهم من السرور وما نحن بحول الله جادون في الخلوص إلى المقصد الذي لأجله نقلنا هذه الخطوات واستعملنا

فيه الفكر وأسهرنا أحداق الاعتبارات من صرف النظر لفتح مرسى أساكا مركز ساحل وادي نول وجمع القبائل العربية والبربرية ومنتهى ذلك المسكون ولا سيما من جاءت بينهما كالام والعنصر وهما كالتأمين لها يستمدان منها ويرضعان خلاصة لبن ثنيها وهما القبيلتان الباعمرانية والتكنة ومن تراكم عليهما وارتفت من قبائل العرب والبربر أو كان على حكمهما فيما ارتضع وارتشف هذا إن كانت تصلح لذلك وتعود منفعتها على المسلمين والإسلام بعد الاستخارة مرارا في اختطاطها وتحقق صلاحيتها كشفا واستبصارا وفتوح في الإقدام على ذلك بحول الله الأسد من الأنتظار والمنهاج القويم الجاري على اعتراف هاتيك الأقطار ثم إن كانت موافقة للأصلح أقدمنا وإن لم يظهر وجه المصلحة أعرضنا عنها إلى غيرها قال الله العظيم ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها البقرة وما آل إليه الأمر نعلمكم به وتشنف أذناكم بما سنح من سره فإنه لكل عمل نتيجة بعد العنوان والله المولى المستعان والهادي إلى سواء السبيل وهو نعم المولى ونعم الوكيل والسلام في تاسع شعبان الأبرك عام ثلاثة وثلاثمائة وألف ثم تجاوز السلطان أيده الله فطر السوس الأقصى إلى صحراء كليميم فوفدت عليه هناك أشياخ عرب معقل وكبرواها خاضعين مطيعين وفرحوا بعقد السلطان ووطنه بلادهم غاية الفرح حتى لقد اتخذوا موضع خبائه الذي كان مضروبا به مزارا يبتكرون به إلى الآن إذ لم يكونوا هم ولا آباؤهم من قبل رأوا سلطانا بأرضهم ولا سمعوا بوصوله إليها وأجروا خيولهم وإبلهم بمحضره ولعبوا عليها بالبارود إذ عادة عرب الصحراء أن يسابقوا على الإبل كما يسابقون على الخيل ومن هناك وجه السلطان أيده الله كتيبة من جيشه إلى مرسى طرفاية فغيروا ما كان أحدثه أولئك التجار من النجليز بها وطمسوا أعلامه وفر من كان بها من النصارى إلى بابوراتهم التي كانت على ذلك الساحل وأمر أيده الله ببناء مرسى أساكا واتخاذها محلا للوسق والوضع هناك ورتب الحامية والعسات بتلك

السواحل من أكادير إلى كليميم وكتب بذلك كله إلى ولاة المغرب وقفل راجعا فأوقع في رجوعه بقبيلة داوتنان من أهل السوس الأقصى ثم كانت عاقبة القضية النجليزية أن قام فيها أرباب دولتهم وقعدوا وخبوا في التشغيب على عادتهم ووضعوا حتى وقع الصلح على مال دفعه السلطان إليهم تسكيننا للأمر ودفعنا لما هو أعظم والأمر لله وحده وفي عشية يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية من السنة المذكورة غيمت السماء غيما كثيفا أسود وذلك بمراكش ونواحيها وهبت ريح سوداء مع رعد قاصف ثم نزل برد مثل البيض وأعظم وتهدمت بمراكش دور كثيرة ومات تحت الهدم خلق كثير نيفوا فيما قيل على المائة وفر الناس إلى أضرحة الأولياء بعد أن ودعوا عشائهم وأحببتهم ولزموا الاستغفار والتضرع إلى الله تعالى حتى انجلى الغيم بعد نحو ساعتين والحمد لله على حلمه بعد علمه وعلى عفوه بعد قدرته وفي هذه السنة اشتد حرص أجناس الفرنج على تنقيص صاكة الأعشار وطلبوا من السلطان أيده الله أن يحط عنهم من صاكة السلع الموسوقة التي كانت مسرحة من قبل وأن يسرح لهم ما كان متفقا قبل ذلك وأبدؤوا في ذلك وأعادوا وقاموا فيه وقعدوا فلما رأى السلطان أيده الله شدة حرصهم وتكاليفهم كتب كتابا إلى الرعية يستشيرهم فيه ويقول بعد الافتتاح أما بعد فقد كان طلب منا بعض نواب الأجناس بطنجة على وجه الخير والمحبة فيما سلف من أعوام تحديد شروط التجارة بقصد تسريح الأشياء المنوعة الوسق كالحبوب مطلقا والأنعام والبهائم ونحو ذلك ونقصان صاكة الخارج ذاكرين أن تسريح ذلك في النفع لبيت المال وللرعية وهذه مدة من خمسة أعوام ونحن ندافع ونسدد ونقارب بما يقتضيه الوقت والحال عملا بقول سيد الوجود في وقائع وقضايا سدودا وقاربوا لإبقاء ما كان على ما كان إذ لا أقل من ذلك سيما في هذا الزمان الذي أشار إليه بقوله يأتي على الناس زمان يمر فيه الحي على قبر الميت فيقول ليتني مكانك وحاشى لله

أن نتسبب للمسلمين في غلاء أو نوافق لهم على ضرر وكفى بالله شهيدا وكيف والله سبحانه قد استرعانا عليهم والني يقول كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته والآن قد اشتد حرصهم على ذلك وتمألؤوا فيه على كلمة واحدة وضمموا عليه ولما أفضى الحال إلى ما أفضى إليه مما لا ينبغي ولم يمكن إلا الإعلان بذلك والمشاورة فيه مع من يعتد به استشرنا فيه جميع من يشار إليه بالخير والفضل والدين والعقل والذكاء والدهاء موثوقا بدينه وأمانته فلم ينشروا فيه بخير واتفقوا على أن لا مصلحة في تسريح ذلك أصلا وبنينا ما يترتب على الكل من المفاسد ففصل الحيوان

أول ما يترتب على تسريحه من الضرر غلاؤه على ضعفه الرعية بل يؤدي إلى فقده بالكلية من هذه الإيالة وأشيء آخر لا يفي بها التعبير هنا وفصل النقص من الصاكة يترتب عليه ضعف المدخول الذي منه يقوم المخزن الجيش والعسكر ومصالح الرعية وأعظمها تضعيف الرعية بالقبض منهم كتضعيف المكوس وضرب الخراج عليها تقوية لبيت المال والجيش وما أبداه بعض نواب الأجناس الراغبون في تسريح ذلك من المصالح المالية العائدة على رعييتنا السعيدة على مقتضى ما ظهر لهم رده بما يطول شرحه ولا يفي به قرطاس ولما رأينا الأمر استحلال إلى أسوأ حال أو كاد تداركتنا هذا الخرق بالرفء وجنحنا إلى السلم امتثالاً لقوله تعالى وإن جنحوا للسلم فاجنح لها الأنفال الآية وارتكبنا أخف الضررين فاقتضى نظرنا الشريف أن ظهر لكم درء لتلك المفاسد المقدم على جلب المصالح أن يساعدوا على تسريح أشيأ بقصد الاختيار من تلك الأمور الممنوعة الوسوق كالفحم والشعير وذكران البقر والغنم والمعز والحمير ثلاث سنين فقط على شرط الاختيار في المنفعة التي ذكروها في تسريحه الكل بأعشاره المعلومة في مثله على أن يكون تسريح ذلك في وقت غلته مع وجود الخصب مدة من ثلاثة أشهر وبعد مضيتها يتقف ولا يسمع كلام من أحد في تسريحه ولا يقبل منه عذر فيه وفي العام المقبل إذا كان صالحاً يسرح ثلاثة أشهر بقصد الاختيار أيضاً وإذا كان ناقصاً لا يقع اختبار بتسريحه المدة

المحدودة ويبقى مثقفاً على أن ذلك ليس بشرط وإنما هو على سبيل الاختيار حتى يظهر ولتعلموا أنكم لن تزالوا في سعة فإن ظهر لكم ذلك فالأمر يبقى بحاله وإن ظهر لكم ما هو أسوأ وأحوط في الدفاع عن المسلمين فأعلمونا به إذ ما أنا إلا واحد من المسلمين وأعلمناكم بما كان امتثالاً لقوله تعالى لهم وشاورهم في آل عمران وإلا فما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرزقين الجمعه والسلام في سابع رجب الفرد الحرام عام ثلاثة وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أعزه الله ولما قرىء هذا الكتاب على خاصة الناس وعامتهم أجابوا كلهم بأن الرأي ما رآه السلطان وفقه الله إلا ما كان من بعض العامة الأعمار الذين لم يجربوا الأمور ولا اهتموا إلى النظر في العواقب فإنهم قالوا ما نعطيهم إلا السيف لكن لم يلتفت إليهم وقد كتبت في هذه المسألة جواباً مطولاً رأيت إثباته هنا خشية ضياعه ونصه اعلموا حفظكم الله أن النظر في هذه النزلة يكون من وجوه أحدها من جهة الفقه والحكم الشرعي ثانيها من جهة الرأي والسياسة وهذا لا بد أن يجري على ضابط الفقه أيضاً ثالثها من جهة الفهم عن الله تعالى والنظر في تصرفاته سبحانه في هذا الوجود بعين الاعتبار فأما الوجه الأول فاعلم أن الفقهاء رضوان الله عليهم قد نصوا على أنه لا يجوز بيع آلة الحرب من السلاح والكرراع والسروج والترسة ونحو ذلك من الكفار الحربيين لما يخشى من تقويتهم بذلك على المسلمين هذه علة المنع وهي تقييد أمرين أحدهما أن كل ما هو في معنى السلاح مما يفيدهم تقوية حكمه حكم السلاح في المنع وهو منصوص عليه فلا نحتاج إلى التطويل بجلبه ثانيهما إن ما لا يتقون به ويجوز بيعه منهم كيف ما كان وعدم التقوي يكون بأحد وجهين إما يكون ذلك المبيع ليس من شأنه التقوي به في الحرب كبيع المأكولات والملبوسات وغير ذلك مما هو مسرح لهم اليوم وقيله بزمان وإما يكون من شأنه أن يتقوى به فيها ولكنه عديم الفائدة بالنسبة إلى حالهم اليوم لما تقرر من أنهم صاروا من القوة والاستعداد والتفنن في أنواع الآلات الحربية إلى

حيث صارت آلتنا عندهم هي والحطب سواء والدليل على ذلك أنهم يبيعوننا أنواعاً من الآلات الحربية نقضي العجب من جودتها وإتقانها ومع ذلك فينقل لنا عنهم أنهم لا يبيعوننا منها إلا ما انعدمت فائدته عندهم لكونهم ترفقوا عنها إلى ما هو أجود منها واستنبطوا ما هو أتقن وأنفع إلا فيما قل وعلى هذا فتنبغي اليوم الفتوى بجواز بيع سلاحنا منهم فضلاً عن غيره لجزماناً بأن ذلك لا يفيدهم في معنى التقوي شيئاً وإن كانت هناك فائدة فهي كلاً فائدة هذا إذا لم تتوقع ضرراً منهم عند امتناعنا من البيع فأما إذا كنا نتوقعه منهم كما هو حالنا اليوم فيرتقي الحكم عن الجواز إلى ما هو فوقه وللضرورة أحكام تخصها فإن قلت فقد أقدمت بهذا الكلام على ما لم يقدم عليه أحد قبلك في استجارتك بيع السلاح من الحربيين قلت إنما ذكرت السلاح توطئة لما الكلام فيه حتى يؤخذ حكمه بالأحرى ثم إنني ما أقدمت عليه إلا بالقاعدة الفقهية لا مجازفة كما أقدم من قبلي على إجازة بناء الكنائس بأرض المسلمين لأجل الضرورة الداعية إلى ذلك فقد أفتى علماء الأندلس في القرن الخامس بالإذن للنصارى في إحداث الكنائس بأرض العنوة وبما اختطه المسلمون من الأمصار مع أن الموجود في كتب السلف هو المنع وما ذلك إلا لأن الأحكام المرتبة على الأعراف تختلف باختلاف تلك الأعراف قال القرافي في كتاب الأحكام في الفرق بين الفتاوى والأحكام في السؤال التاسع والثلاثين ما نصه إن قلت ما الصحيح في هذه الأحكام الواقعة في مذهب مالك والشافعي وغيرهما المرتبة على العادة والعرف اللذين كانا حاصلين حالة جزم العلماء بهذه الأحكام فهل إذا تغيرت تلك العوائد وصارت تدل على ضد ما كانت تدل عليه أولاً فهل تبطل هذه الفتاوى المسطورة في الكتب ونفتي بما تقتضيه هذه العوائد المتجددة أو يقال نحن مقلدون وما لنا أحداث شرع لعدم أهليتنا للاجتهاد فنفتي بما في الكتب المنقولة عن المجتهدين فالجواب إن إجراء هذه الأحكام التي مدرکہا العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الإجماع وجهالة في الدين بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة

المتجددة وليس ذلك تجديداً للاجتهاد من المقلد حتى تشترط فيه أهلية الاجتهاد بل هذه قاعدة اجتهاد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم فيها من غير استئتناف اجتهاداً ونحوه له في كتاب الفروق ونقله عنه الأئمة واعتمده فبان من هذا أنه لا معنى للإفتاء اليوم بمنع بيع شيء من الكفار أياً كان إلا المصحف والمسلم وما في معناهما لأنهم بلغوا اليوم من القوة إلى الحد الذي لم يكن لأحد في ظن ولا حساب إلا أن يريد الله كفايتنا إياهم بأمر من عنده فهو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه وذلك ظننا به تعالى فإن قلت ههنا مضرة أخرى تمنع من بيع ما طلبوه وهي التضييق على المسلمين في معاشهم ومرافقهم لأنهم إذا أكبوا على شراء هذه الأشياء فلا بد أن تغلو وترتفع أثمانها وفي ذلك من الإضرار بالمسلمين ما لا يخفى ولذا أفتى الأئمة بمنع الحكرة في كل ما للناس به حاجة من طعام وأدام وعروض فإن كان في الحال سعة ولم يضر الاحتكار بالناس جاز في الطعام وغيره قلت والناس اليوم والحمد لله في سعة وأما حصول التضييق عليهم في معاشهم ومرافقهم بسبب تسريح وسوق هذه الأشياء للنصارى فمشكوك فيه قد يحصل وقد لا يحصل والشك مطروح في نظر الشرع بخلاف المضرة المتوقعة منهم عند المنع والمحاربة مقطوع بها نظراً للقرائن القوية والعادة فإن قلت بل الغالب حصول التضييق لا أنه مشكوك فقط قلت ليس بغالب فقد رأيناهم منذ أزمان وهم مكبون على سوق أشياء كثيرة مثل القطناني وغيرها ومع ذلك لم يحصل فيها والحمد لله إلا الرخاء بل الحق إن هذا من علم الغيب لا ينبغي لأحد أن يحكم عليه بغلبة ولا قلة لأن الحكم في ذلك بالتخمين من باب التخرص على الله تعالى في غيبه وهو حرام على أن النصارى إذا اشتروا منا شيئاً من ذلك فإنما يشترونه بالثمن الذي له بال ويعشرونه بالصاكة التي لها بل فتحصل الأرباح للرعية وللسلطان وهذه منفعة مقطوع بها وأما الغلاء فمشكوك كما قلنا والحاصل أن الأبحاث والتفريعات في هذا الموضوع كثيرة وفي هذه النبذة كفاية لمن استبصر والله الموفق وأما الوجه الثاني وهو النظر من جهة الرأي والسياسة ولا بد فيه من

الفقه أيضاً إذ كل سياسة لا تستضيء بنور الشرع فهي ضلال فقول لا يخفى أن النصارى اليوم على غاية من القوة والاستعداد والمسلمون لم الله شعهم وجبر كسرهم على غاية من الضعف والاختلال وإذا كان كذلك فكيف يسوغ في الرأي والسياسة بل وفي الشرع أيضاً أن ينادى الضعيف القوي أو يحارب الأعرل الشاكي السلاح وكيف يستجاز في الطبع أن يصارع المقعد القائم على رجله أو يعقل في النظر أن تتأطح الشاة الجماء الشاة القراء كما قال الشاعر أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان فالمحاربة على هذا الوجه مما لم تقل به سياسة ولا وردت به شريعة فهذا رسول الله وهو خير الخلق عند ربه وأكرمهم لديه قد صالح المشركين يوم الحديبية صلحاً قال فيه بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم نحن المسلمون فكيف نعطي الدنيا في ديننا ورد أبا جندل رضي الله عنه إلى المشركين وهو يرسف في قيوده ويصرخ بأعلى صوته يا معشر المسلمين كيف أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني والقصة مشهورة لا حاجة إلى التطويل بها وقد عزم رسول الله يوم الأحزاب أن يعطي عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان ثلث تمر المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه حتى رده عن ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عباد رضي الله عنهما حين أحسوا من أنفسهم بمقاومة العدو وأين نحن منهم ديناً وبقينا وبصيرة وثباتنا في الحرب وقد أفتى الفقهاء

رضوان الله عليهم لأجل هذا الوارد عن رسول الله جواز عقد الهدنة مع الكفار على إعطاء المال انظر المختصر وغيره فإذا كان إعطاء المال مجانا جائزا عند الضرورة فكيف لايجوز إعطاء بعض الممتلكات بأثمانها التي لها بال وأيضا فهؤلاء الأجناس إنما دعونا في ظاهر الأمر إلى السلم لا إلى الحرب وغاية مطلوبهم في هذه النازلة الاستكثار من ضروب المتاجرة التي ينشأ عنها في الغالب كثرة المازجة بيننا وبينهم ولعمري أن في اختلاطهم بنا وممازجتهم لنا لمضرة وأي مضرة وما يعقلها إلا العالمون ولكنها تستصغر بالنسبة إلى

مضرة المحاربة وليس من الرأي والسياسة أن يدعوك خصمك إلى السلم فتدعه إلى الحرب ما وجدت إلى السلم سبيلا وهذا هو الذي فعله رسول الله يوم الحديبية فإنه قال لأصحابه لما اغتاطوا من ذلك الصلح وقال بعضهم والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا بل هو أعظم الفتح قد رضي المشركون أن يدفعوك بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم من الأمان إلى آخر ما قاله وإلى هذا ونحوه الإشارة بقوله تعالى وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله الأنفال ذكر تعالى ذلك عقب قوله وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل الأنفال إشارة إلى أن الصلح يجوز ولو كان بالمسلمين قوة واستعداد كما نبه عليه بعض المفسرين فكيف ولا قوة ولا استعداد إلا أن يتداركنا الله بلطف من عنده واختلف المفسرون هل الآية منسوخة أم لا والصحيح كما في الكشف وغيره إن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام مصلحة للإسلام وأهله من حرب أو سلم وليس يحتم أن يقاتلوا أبدا أو يجابوا إلى الهدنة أبدا وهذا هو المعلوم المسلم شرعا وطبعيا أما الشرع فهذه الآية وقصة الحديبية وقوله تعالى والصلح فدللت الآية الكريمة على أن السلم أولى من الحرب وهذا هو العلم المسلم شرعا وطبعيا أما الشرع فهذه الآية وقصة الحديبية وقوله تعالى والصلح خير النساء وقوله والفتنة أشد من القتل البقرة وهاتان الآيتان وإن نزلتا في شيء خاص لكن يجوز الاستشهاد بهما فيما نحن فيه وفي غيره إذ هما من الكلام الجامع الجاري مجرى المثل والحكمة وعن علي رضي الله عنه ما دعوت إلى المبارزة قط وما دعاني أحد إليها إلا أجبتة فقيل له في ذلك فقال الداعي إلى الحرب باغ والباغي مصروع وأما الطبع فلا يحتاج إلى شاهد لأن كل عاقل يعلم أن السلم خير من الحرب وقد قال شريك لمعاوية رضي الله عنهما في مقابلة جرت بينهما إنك ابن حرب والسلم خير من الحرب وقال الحصين بن نمير السكوني لابن الزبير رضي الله عنه يوم مات يزيد اذهب معي إلى الشام لأدعو الناس إلى بيعتك فلا يتخلف عنك أحد فقال ابن

الزبير أما دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فلا وجعل ابن الزبير يجهر بذلك فقال له الحصين أكلمك سرا وتكلمني جهرا وأدعوك إلى السلم والخلافة وتدعوني إلى الحرب والمناجزة كذب من زعم أنك داهية العرب ا ه فقد عاب عليه ذلك من جهة الرأي كما ترى وأشد صاحب الكشاف وغيره لدى قوله تعالى وإن جنحوا للسلم فاجنح لها الأنفال قول العباس بن مرداس رضي الله عنه السلم تأخذ منها ما رضية به والحرب يكفك من أنفاسها جرع وفي كتاب الفتن من صحيح البخاري ما نصه كان السلف يستحبون أن يتمثلوا بهذه الآيات عند الفتن الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزيتها لكل جهول حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ولت عجوزا غير ذات حليل شمطاء ينكسر لونها وتغيرت مكروهة للشم والتقبيل قال القسطلاني المراد أنهم يتمثلون بهذه الآيات ليستحضروا ما شاهدوه وسمعوه من حال الفتنة فإتهم يتذكرون بإنشادها ذلك فيصدهم عن الدخول فيها حتى لا يغتروا بظواهر أمرها أولا ا ه ولا شك أن هذه حالة العامة الأغمار الذين لم تضرسهم الحروب ولا حنكتهم التجارب تجدهم إذا ظهرت مخايل فتنة نسال الله العافية استشرافوا إليها وتمنوا خوضها وربما تآلى بعضهم وقال والله لئن حضرته لأفعلن وأفعلن وقد قال عليه الصلاة والسلام لا تتمنوا لقاء العدو وحال هذا الغمر المتآلي هو الذي أفصح عنه المتنبي بقوله وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزلا فهذا القطر المغربي تدارك الله رفق على ما ترى من غاية الضعف وقلة الاستعداد فلا تنبغي لأهله المسارعة إلى الحرب مع العدو الكافر مع ما هو عليه من غاية الشوك والقوة وقد تقرر في علم الحكمة أن المعاندة والمدافعة إنما تحصل بين المتضادين والمتماثلين ولا تحصل بين المتخالفين وحالنا اليوم مع العدو ليس من باب التضاد ولا من باب التماثل وإنما هو من

باب التخالف فافهم بل لو فرضنا أن أهل المغرب اليوم مماثلون للعدو في القوة والاستعداد لما كان ينبغي لهم ذلك لأنه ليست العدة وحدها كافية في الحرب ولا كثرة الرجال والمقاتلة وحدها بالذي يعني فيها شيئا بل لا بد مع ذلك من اجتماع الكلمة وكون الناس فيها على قلب رجل واحد ولا بد مع ذلك من ضابط بجمعهم وقانون يسوسهم حتى تكون الجماعة كالبدن الواحد يقوم جميعا ويقعد جميعا وهذا معنى ما صح في الحديث من قوله المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا فإن لم يكن ضابط وقانون فلا بد من نفاذ البصيرة في الدين وقوة اليقين والألفة فيما بين المسلمين والغيرة على الوطن والحريم وجودة الرأي والتمرس بالحروب ومكاييد المشركين وأهل المغرب اليوم إلا القليل منسلخون من هذا كله أو جله فقد توالى عليهم الأجيال في السلم والهدنة وبعد عهد أسلافهم فضلا عنهم بالحرب وشدائدها ومعاناة الأعداء ومكاييدها وإنما همهم مأكولهم ومشربهم وملبوسهم كما لا يخفى حتى لم يبق من هذه الهيئة فرق بينهم وبين نساتهم وليس الخبر كالعيان فكيف يحسن في الرأي المسارعة إلى عقد الحرب مع أجناس الفرنج وما مثلنا ومثلهم إلا كمثل طائرین أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء والأخر مقصوصهما واقع على الأرض لا يستطيع طيرانا ولا يهتدي إليه سبيلا فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذي هو لحم على وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء وهل يكون في ذلك إن كان إلا هلاك هذا وسلامة ذاك بل وغنيمة فإن ذاك ينقر هذا متى وجد فيه فرصة للنقر ويبعد عنه ويطيير إذا لم يجدها وهكذا يستمر حاله معه حتى يثبته أو يملكه بالكلية وليس في طوق هذا إلا أن يدفعه عن نفسه في بعض الأحيان إذا تآتى له ذلك ولكن إلى متى فهكذا حالنا مع عدونا فإنه بقراصينه الحربية ذو أجنحة كثيرة فهو علينا بالخيار بهجم علينا في ثغورنا إذا شاء ويبعد عنا فلا ندركه متى شاء وقصارانا معه الدفع عن أنفسنا إذا اتفقت كلمتنا ولم تشغلنا غوغاء الأعراب من خلفنا وهيهات فقد جرب ذلك مرارا فصح والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين كما قال عليه السلام والكلام في

هذا الفصل أيضا طويل وفيما أشرنا إليه كفاية فإن قلت أراك قد صيرت الجهاد الذي حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم محض فتنة وقد زهدت الناس فيه وقطعت آمالهم منه بهذا الكلام قلت أعلمت يا أخي ما هو الجهاد الذي حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم اعلم أن الجهاد المذكور هو قتال أهل الشرك والطغيان على إعلاء كلمة الرحمن لينساقوا بذلك إلى الدخول في دين الله طوعا أو كرها ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى مع نفاذ البصيرة وخلوص النية والغيرة على دين الله وكل ذلك بشرط القوة المكافئة أو القريبة منها ومهما اختل ركن أو شرط مما ذكرنا كان إلى الفتنة أقرب منه إلى الجهاد بل نقول إن الجهاد الشرعي قد تعذر منذ أحقاب فكيف تطلبه اليوم فإن كنت تسارع إلى الحرب لتدركه جهلا منك بحقيقة الأمر فأعلم أنك إنما تسارع إلى إيقاد نار الفتنة وإيجاد العدو السبيل عليك وإمكانه من ثغرتك وتسليطه على السبي لحريمك ومالك ودمك نسال الله العافية اللهم إلا أن تكون ممن اختارهم الله وأهلهم لذلك وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه كما نسمع اليوم عن أمة الحبشة والنوبة الذين يقاتلون عساكر النجلاز على تخوم صعيد مصر وغيرها فقد تواتر النقل وصح الخبر أن دولة النجلاز قد بارت حيلها مع هؤلاء القوم وأنها وجهت إليهم العساكر من الديار المصرية بكل قوة وشوكة مرة بعد أخرى فمحقوهم محقا مع أنهم لا يقاتلونهم في الغالب إلا بالحرب على عادة السودان في ذلك والنصر بيد الله وأما الوجه الثالث وهو الفهم عن الله تعالى والنظر في تصرفاته سبحانه في هذا الوجود بعين الاعتبار فهذا حق الكلام فيه أن يكون من أرباب البصائر المتتورة والقلوب المطهرة لا من أمثالنا الذين أصبحوا على أنفسهم مسرفين وفي أودية الشهوات منهمكين تداركنا الله بلطفه لكننا نقول وإن كان القول من باب الفضول إذا نظرنا ما عامل الله تعالى به عبده أمير المؤمنين مولانا الحسن أيده الله وجدناه والحمد لله مصنوعا له مصحوبا بالعناية الإلهية مكلوفا بعين الرعاية الربانية تصحبه السعادة أينما توجه ويختار له في جميع ما يحاوله ولا تتجلي مهماته إلا عن

ما يسر لسديق ويسوء العدو فالحمد لله على ذلك حمدا كثيرا وهو مع ذلك جميل الظن بربه حسن العقيدة في توكله عليه مفردا وجهته إليه حريصا على استصلاح رعيته ذا غيرة تامة على الدين والوطن بحيث فاق بذلك وغيره من خصال الخير كثيرا من ملوك عشيرته الذين تقدموه وإذا كان كذلك فمن الرأي الذي لا رأي فوقه أن نفوض إليه في ذلك ونتق بحسن رأيه ويمن نقيته ونجاوبه في هذه النازلة بأن الأمر في ذلك إليه لا إلى

غيره إذ هو الذي طوَّقه الله أمرنا وكلفه النظر لنا والنصح لدينا وإن كان لا بد من المشورة فليست إلا مع أهل الحل والعقد وقد قال العلماء أهل الحل والعقد هم أهل العلم والدين والبصر بهذا الأمر الخاص لأنه يشترط في كل من ولي النظر في أمر ما من الأمور العلم به فما اختاره أمير المؤمنين اخترناه وما انشرح له صدره وأمضاه أمضيته وكيف لا وما عوده الله إلا خيرا وعسى أن تكرر هو شيئا وهو خير لكم الآية وعسى أن يكون فيما طلبه هؤلاء الأجناس فساد أمرهم وصلاح أمرنا وذلك الظن به تعالى وما هو عليه بعزيز فيكون تدميرهم في تدبيرهم وقد استرونا والحمد لله نسيم الفرج مما كنا فيه قبل اليوم تمم الله علينا نعمته أمين وأيضا ففي التفويض في هذه النازلة ضرب من التبري من الحول والقوة بحيث ساقط الأقدار إلينا هذا الأمر فينبغي أن نتلقاه بالرضى والتسليم بخلاف ما إذا استعملنا فيه حيلتنا ورأينا فيكون من باب الدخول في التدبير وشتان ما بين التفويض والتدبير والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري كان الله له في عاشر شعبان سنة ثلاث وثلاثمائة وألف هـ ثم إن الله تعالى لطف في هذه النازلة بمنه اللطيف الجميل وكفى مؤنتها من ذلك المطلوب بشيء قليل وذلك أن السلطان أيده الله سرح لهم وسق القمح والشعير ثلاث سنين ووضع عنهم من صاكتهما نحو الربع لا غير ولم يحصل والحمد لله للرعية ضرر قط ثم دخلت سنة أربع وثلاثمائة وألف فيها كتب السلطان مولاي الحسن أيده الله إلى علماء فاس كتابا يستفتيهم في حكم التجارة في الأعشاب المرقدة

والمفسدة ويستشيرهم في تسريحها وإسلاكها ونص ذلك الكتاب بعد الافتتاح أحبابنا فقهاء فاس الأجلة المرضيين وعلماها المرشدين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فطلما قدمنا رجلا وأخرنا أخرى في تسريح الصاكة التي هي الأعشاب المرقدة والمفسدة ونحوها وكان تسريحها من أهم الأمور لدينا وأكد من تسريح غيرها كالأبواب لما نجده في نفسنا لها من الاستقباح ونستقذره من أمرها في الغدو والرواح مع مزيد ثقلها على فؤادنا وكونها أخرج في روعنا وكان أسلافنا قدسهم الله اجتهدوا في قطعها وحسم مادتها بكل ما أمكنهم وأضى بهم الحال إلى إحراقها مرارا ولما رأوا تماؤل الرعايا والسفهاء والمقلين والمعدمين عليها ارتكبوا فيها ما يحصل به التضيق على مستعمليها وتمنع منهم فلا يلحقها إلا من عنده ما يشريها به وهم في أولئك الرعايا قليل مع النظر لما يحصل لبيت المال من النفع الكثير فحيزت لجانب المخزن لتحصيل المقصد المذكورين وحيث قذف الله في قلبنا تسريحها ورفض درن ما يحصل منها تعارض لدينا أمران وهما إبقاؤها بيد المخزن وتسريحها أما الأول فهو الذي فرنا منه وبيننا علله وأما الثاني وهو التسريح فمقتضاه إغراء الرعايا والسفهاء على استعمالها ولا سيما مع انحطاط ثمنها فيتناولها القوي والضعيف فيصير ذلك ذريعة إلى إباحة ما كانوا ممنوعين منه فيتجاهرون به ولا يخشون رقبيا ويأتي منها من بر النصارى ما لا حصر له فيعشر كسائر المعشرات المباحة وتنبني على ذلك مفاصد هي أعظم من كونها محوزة وأشكل الأمر فلتبينوا المخلص من ذلك بما تقتضيه قواعد الشريعة المطهرة حتى نخرج من عهدة ذلك فإن الخطب عظيم والسلام في الثالث والعشرين من المحرم عام أربعة وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله وأجاب عنه علماء فاس وفرهم الله بجواب طويل مرجعه إلى حرمة استعمال تلك الأعشاب والتجارة فيها حسبما عليه الجمهور من الفقهاء والصوفية رضوان الله عليهم ولما كان المقصود الأهم للسلطان أيده الله هو الإشارة بكيفية التخلص من ورطة تسريحها والحصول على السلامة مما عسى أن ينشأ عنه من المفاصد المرموز إليها في الكتاب الشريف كتب

إلى بعض الأجابة من فاس بقصد المذاكرة في النازلة فأجبت عنها بما نصه اعلم حفظك الله أن ما أجاب به سادتنا فقهاء فاس من حرمتها ووجوب تخلي المخزن عن بيعها هو الحق الذي لا محيد عنه لما اشتملت عليه تلك الأعشاب من المفاصد العديدة التي كل واحدة منها كافية في الجرم بحرمتها وقد بينا شيئا من ذلك في كتاب الاستقصاء عند الكلام على حدوثها ودخولها لبلاد المغرب أيام المنصور السعدي فلينظره من أراده فإنه كاف في هذا الباب وأما ما أشار إليه الكتاب الشريف من أن مصلحة احتياز المخزن لها واستبداده ببيعها هي التضيق على مستعمليها حتى لا يتناولها منهم إلا المملوك بثمنها دون الفقير الخ فهي مصلحة موهوبة أو معدومة لجزمنا بأن الحامل لمتعاطيها على استعمالها إنما هو التبدل وقلة المروءة ورقة الديانة وخسة النفس وسقوط الهمة كما أن الوازع لمن لم يتعاطاها إنما هو كمال المروءة ومتانة الديانة وشرف النفس وعلو الهمة لا فقدان ذلك الثمن التافه كيف لا وهي لا يتعاطاها في الغالب إلا الفقراء المقولون فصلاحة التضيق عليهم في ثمنها مفقودة كما ترى وإذا كان كذلك فالواجب شرعا ومروءة هو تنزيه منصب الإمامة الإسلامية والخلافة النبوية التي هي أهم الخطط الدينية والمناصب الشرعية عن التجارة فيها وتطهير تلك الساحة الكريمة من التلوث بأقدارها إذ لا يناسب ذلك حال مطلق المسلمين فكيف بجانب أمير المؤمنين وأيضا ففي تناول ذلك الجنب لها بالتجارة والاستبداد بالربح تهيج للامة عليها وإغراء لهم بتعاطيها كما قرره علماء فاس حفظهم الله ولو نهوا عنها لما انتهوا بل ربما احتجوا بأنها لو كانت حراما ما احتازها المخزن واستبد بربحها ومن العادة المقررة أنه لا يمثل إلا قول الممثل ولا يؤتمر إلا بأمر المؤتمر ولما اتبهم الصلح بين رسول الله وبين قريش يوم الحديبية وأمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا أمسكوا ولم يفعلوا حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة رضي الله عنها يا نبي الله اخرج ثم لا تكلم منهم أحدا كلمة حتى تحرق بدنك وتدعو حالقك فيلحقك فخرج

ولم يكلم أحدا منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فحرقوا وجعل بعضهم يبلق بعضها حتى كادوا يقتتلون اهـ فكذلك نقول هنا إن العامة مهما رأوا الأمير تعاطى شيئا تعاطوه وإذا رأوه نبذوا أمرنا نبذوه لأن العامة مولعون بالاعتداء بالأمير ومن في معناه من الكبراء حسبما قرره ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران من تاريخه وأما التخوف من الإتيان بها من بر النصارى واشتغالهم بالتجارة فيها بأسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها وما ينشأ عن ذلك من المفاصد فهو مأمون بمقتضى الشروط المنعقدة بيننا وبينهم حسبما تضمنه الشرط الثاني والخامس والسابع من شروط التجارة المنعقدة مع النجليز خصوصا وغيره عموما سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف فقد صرح في الشرط الثاني منها بأن هذه الأعشاب ونحوها من جملة الممنوعات دخولا وخروجاً ثم نبه على ذلك أيضا في الخامس والسابع فلينظره من أراده وإنما يكون لهم بعد تخلي السلطان عن بيعها أن يجلبوا منها ما يحتاجونه لأنفسهم فقط لا أكثر منه كالخمر ألا ترى أنهم اليوم إنما يجلبون منها ما يشربونه ويتبايعونه فيما بينهم ولا سبيل لهم إلى التجارة بها في أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها فكذلك هذه الأعشاب حكمها حكم الخمر حذو النعل بالنعل وإذا امتنع المخزن من التجارة فيها مع بقاء منع الرعية منها أيضا فلا حجة للنصارى في ذلك ولا متكلم لهم فيه إذ ليس في امتناع المخزن حينئذ إلا تأكيدات المنع الذي كان قبل وإنما تكون لهم الحجة إذا بيعت لبعض الرعايا دون بعض لأن حاصل شروط التجارة الخمسة عشر ومدارها على أن رعايا الأجناس يكون لها ما لرعية الإيالة المغربية من التحجير والإطلاق والتخصيص والتعميم بحيث لا يستبد أحد من الرفيقي بنوع من أنواع التجارة دون الآخر إلا ما للمخزن فيه غرض ومصلحة في تنقيفه من أشياء مخصوصة فإنه يتقفه بنظره إذا شاء ويسرحه كذلك متى شاء وإن اقتضى نظره أن يستبد بأرباح شيء من ذلك دون رعايا الرفيقيين فله ذلك وإنما الممنوع أن يبيع لرعيته دون رعايا غيره أو يبيع لبعض الأجناس دون بعض هذا هو الممنوع في الشروط أما هو في خاصة نفسه ومصلحة ملكه فله أن

يستبد من تلك الممنوعات بما شاء هذا حاصل تلك الشروط وإن طالقت وامتدت إذا علمت هذا فكيف يخوف عند امتناع السلطان من بيع تلك الأعشاب مع استمرار منع الرعية منها أيضا الإتيان بها من بر النصارى ومتاجرتهم بها في أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لها الخ هذا لا يتوهم نعم يتخوف من ذلك إذا امتنع السلطان من بيعها وأذن للناس فيه وأطلق لهم يد التصرف به وليس هذا مراد السلطان أيده الله وإن أوهمه لفظ الكتاب الشريف حيث قال طالما قدمنا رجلا وأخرنا أخرى في تسريح الصاكة الخ ولعل الكاتب أو المملي عليه لم يحرر مراد السلطان أيده الله فنسج الكتاب على ذلك المنوال وأوهم أن أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن يمتنع من بيع تلك الأعشاب تقذرا لها وتأففا منها وبييحه لرعيته من المسلمين وغيرهم ومعاد الله أن يكون هذا مراده كيف وهو أشقى الملوك واتقاهم الله وأحبهم لرعاياه وأحدهم عليها وأحرصهم على جلب النفع لها ودفع الضرر عنها وأعلمهم بقول جده عليه الصلاة والسلام لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه فقد بان لك من هذا

التقرير أن الواجب شرعا ومروءة هو المبادرة إلى رفض التجارة في تلك الأعشاب وتطهير ساحة الإمامة الإسلامية من قدرها قال الله تعالى في وصف رسوله صلوات الله عليه ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبيث الأعراف وكما يجب على أمير المؤمنين أيده الله تطهير ساحة الخلافة منها يجب عليه السعي في تطهير ساحة المسلمين أيضا منها لما أسلفناه أنفا فإن قلت أما ما ذكرته من المبادرة إلى تطهير ساحة الخلافة منها فسبل متيسر إن شاء الله وأما تطهير ساحة المسلمين منها فيظهر أنه في غاية الصعوبة لأن العامة إذا حملوا على رفضها كرة وألجأوا إلى ترك استعمالها بالمرّة ضاق بهم المتسع وساءت أخلاقهم وحاصوا حيصة حمر الوحش وربما صدر منهم ما لا ينبغي من الإعلان بالخلاف والمجاهرة بالعصيان ومن وصايا أرسطوطاليس الحكيم لتلميذه الإسكندر يا إسكندر تغافل عن العامة ما أمكن ولا تلجأها أن تقول فيك إلا خيرا فإن العامة إذا قدرت

أن تقول قدرت أن تفعل أو كلاما هذا معناه والحاصل أن فطم العامة عما اعتادوه من بعض الجهالات وصرفهم عما مروءة عليه من بعض الضلالات في غاية الصعوبة ولا يتيسر ذلك إلا لمن هياه الله له من نبي مرسل أو ولي كامل أو إمام عادل وإذا كان صرف العامة عن هذه المفسدة التي اعتادوها ونشؤوا عليها جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن يؤدي إلى الهرج والخلاف جزما أو ظنا فالواجب هو تركهم على ما هم عليه لأن تغيير المنكر له شروط منها أن لا يؤدي إلى منكر أعظم كما هو مقرر في الأصول والفروع فلنا كل ما قررت في هذا السؤال حق لا محيد عنه ولكن نحن لا نقول إن أمير المؤمنين أيده الله يحمل العامة على رفضها كرة ويلجئهم إلى تركها بالمرّة بل يسلك معهم في ذلك سبيل التدرج كما سلكه رسول الله في تحريم الخمر على العرب فإن الله تعالى بعث محمدا والعرب من أعشق الأمم للخمر وأشدهم بها ولوعا وأكثرهم لها حبا حتى كانت شقيقة روحهم ومغناطيس أنفسهم قد اتخذوا لها المجالس الحفيلة واختاروا لها القينات الجميلة وضربوا عليها بالمعازف والدفوف وحكموا لها على غيرها من مألوفاتها بغاية الشفوف حتى نسبوا بها في أشعارهم وتوجوا بها بنات أفكارهم وبالجملة فلا يؤثر عن أمة من محبة الخمر ومحها ما أثر عن العرب فلذلك لما انصرفت عناية الشرع الكريم إلى تحريمها كان ذلك على سبيل التدرج كما هو معلوم في الكتاب والسنة حتى تم مراد الله ورسوله من العرب فرفضوها بالكليّة وسماها الشارع أم الخبائث زيادة في التفتير منها وما حرمت آلات اللهو إلا من أجلها ومبالغة في تحريمها إذ هي وسيلة إليها كما حققه الغزالي رحمه الله في كتاب السماع من الإحياء وفي تفسير الخازن بعد سرده كيفية التحريم ما نصه والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيرا فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق عليهم فلا جرم استعمل هذا التدرج وهذا الرفق قال أنس رضي الله عنه حرمت الخمر ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها وما

حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر إذا علمت هذا فنقول كذلك ينبغي لأمر المؤمنين أيده الله أن يسعى في تطهير رعيته من خبث هذه الأعشاب التي لا شيء أخبث منها كما أوضحت في كتاب الاستقصاء ويسلك معهم فيها سبيل التدرج صارفا همته إليه ومستعينا بالله ومتوكلا في ذلك عليه فإنه لا يصعب ذلك عليه إن شاء الله إذا كان عون الله للمرء ناصرا تهيأ له من كل صعب مراده وقال البوصيري لسيد الوجود أقول ولأمر المؤمنين من حال جده قسط والحمد لله كل أمر تعنى به تغلب الأعيان فيه ويعجب البصراء وكيفية التدرج في ذلك أن يأمر أيده الله علماء المجالس وخطباء المنابر ووعاظ الكراسي بالتواطىء على ذم تلك الأعشاب وتقيبها في نفوس العامة وإبداء معائبها لهم وشرح مفسادها لديهم والتغليظ في ذلك بأبلغ ما يمكن ومن قدر على تأليف ألفه أو شعر نظمه أو رسالة أنشأها ويستمررون على ذلك ثلاثة أشهر أو أربعة أو أكثر من ذلك فإن ذلك لا بد أن يؤثر في نفوس العامة بعض التأثير فإن الهمم إذا توطأت على شيء أثرت فيه بعون الله لا سيما هم أهل الخير وفي الحديث يد الله مع الجماعة ثم بعد مضي هذه المدة وتقرر قبحها في نفوس العامة يكتب أمير المؤمنين أيده الله إلى قضاته ويأمرهم بتفقد الشهود وأئمة المساجد فمن عثروا عليه أنه يستعمل شيئا من تلك الخبائث أسقطوا شهادته وحظروا إمامته وأن لا يقبلوه ولو في اللقيف ويوالي الكتابة والاعتناء بذلك مدة مثل الأولى أو أكثر فيزداد قبحها في نفوس العامة وتعزف نفوس كثير منهم عنها ثم بعد هذا كله يكتب لولاة الأمصار وعمال البوادي أن يتقدموا إلى رعاياهم بمنع ازدياعها وانحار شيء منها أو التجارة فيه بوجه من الوجه فإذا تم هذا الغرض على هذا الوجه تخلى هو حينئذ عن بيعها وأمر بإحراق باقيها وسد حاناتها المسماة في عرفنا بالقهاوي ويمنع الناس من استعمالها في المجامع العامة كالأسواق ونحوها ويشدد في ذلك ويعلن بالنداء في جميع الإيالة المغربية بأن حكم هذه

الأعشاب حكم الخمر فكما لا يتجاهر بالخمر في الأسواق ونحوها كذلك لا يتجاهر باستعمال هذه الأعشاب فيها ومن فعل ذلك أدب أدب يليق به ويرتد به غيره فهذا أقصى ما يفعله السلطان والتوفيق بعد ذلك بيد الله وإذا تم هذا العمل في نحو ثلاث سنين فهو قريب وإذا يسر الله ذلك كان فيه بشرى للمسلمين وعنوانا لهم على تجديد دينهم ولعمري ما كان أمر الخمر في العرب إلا أرسخ من أمر هذه الأعشاب في الناس اليوم بكثير وأن الشبهة كانت فيها أقوى منها في هذه وذلك مظنة سهولة زوالها وتطهير البلاد والعباد منها وما ذلك على الله بعزيز قائله وكتبه أحمد بن خالد الناصري لطف الله به في خامس عشر ربيع الثاني سنة أربع وثلاثمائة وألف ثم إن السلطان أيده الله رفض التجارة فيها وأحرق ما كان محوزا لجانب المخزن منها ومنع تجار الأجناس من جلبها إلى قطر المغرب إلا القدر الذي يستعملونه في خاصة أنفسهم منها بشرط تعشيره وقصر نزوله على مرسى طنجة دون سائر المراسي المغربية والحال على ذلك لهذا العهد ولما دخلت سنة خمس وثلاثمائة وألف غزا السلطان مولاي الحسن أيده الله آيت ومالو من برابرة فازاز وهم بطن من صنهاجة يشتمل على أفخاذ كثيرة مثل طزيان وبنو مكيد وشقيرين وآيت سخمان وآيت يسري وغيرهم أم لا يحصيهم إلا خالفهم قد عمروا جبال فازاز وملؤوا قننها وتحصنوا بأوعارها منذ تملك البربر المغرب قبل الإسلام بأعصار طويلة فلما كانت السنة المذكورة خرج السلطان من مكاسة الزيتون عاشر رمضان منها بقصد غزو هذه القبائل العاصية وتنبؤخ بلادها إذ لم تكن تبذل الطاعة إلا للواحد بعد الواحد من ملوك دول المغرب في الأعصار المترخية حسبما يعلم مما أسلفناه في هذا الديوان من أخبارهم وأخبار غيرهم فانتهى السلطان إلى تلك الجبال ودوخها ثم إلى قسبة أدخسان التي بناها المولى إسماعيل رحمه الله فوفد عليه هناك جل تلك القبائل وبذلوا الطاعة وأظهروا الخضوع وبذلوا المون والأنزال للجيش والهدايا للسلطان إلا ما كان من آيت سخمان فإتهم أظهروا الطاعة أولا كغيرهم وطلبوا من السلطان أن يبعث معهم طائفة من

الجيش ليدفعوا لهم المون وما وظف عليهم من الهدايا والأنزال فأرسل معهم السلطان مائتي فارس وعقد عليهم لابن عمه الشريف الفاضل الناسك مولاي سرور بن إدريس بن سليمان وجده سليمان هذا هو أحد ملوك هذه الدولة العلوية حسبما تقدم فلما توسطوا حلة آيت سخمان مع العشي نتاجوا فيما بينهم والشيطان لا يفارقهم فاتفقوا على الغدر بأصحاب السلطان وفرقوهم على مدارهم وحلهم فلما كان وقت العشاء الأخيرة أظهروا علامة بينهم وسعت كل طائفة إلى من عندها من أصحاب السلطان فأرغوا بهم فقتلوا منهم نحو العشرين على ما قيل وأقلت الباقون بجريعاء الذقن وكان فيمن قتل منهم كبيرهم الشريف مولاي سرور المذكور وكان من خيار عشيرته رحمة الله عليه رموه برصاصة وطعنوه بتفالة وكانت هذه الفعلة الشعاء بإشارة كبيرهم علي بن المكي من بقية آل مهوش الذين تقدم الخبر عنهم في دولة السلطان مولاي سليمان رحمه الله ثم أسروا من ليلتهم تلك فلم يصبحوا إلا بأبوت حديد وآيت مرغاد وغيرهما من قبائل البربر وتفرقوا شذر مذر وبقي منهم نفر يسير على ما قيل فقبض عليهم من الغد وضربت أعناقهم وقال بعض من حضر الواقعة إنهم لما فعلوا فعلتهم هربوا من تحت الليل وتركوا زروعهم وأمتعتهم في مدارهم ولما انتهى الخبر إلى السلطان بعث في طلبهم طائفة من عسكره وضم إليهم خيل شقيرين وإخوانهم وكانوا راكبين مع السلطان مظهرين للطاعة فانتهبوا أمتعتهم وانتسفوا زروعهم وهدموا أبنيتهم وحرقوا بيوتهم وأبلغوا في النكاية وتحامت خيل شقيرين ذلك إبقاء على إخوانهم وتعصبا للبربرية وربما دسوا إليهم من أعلمهم بالحال وأمرهم بالإبعاد في الأرحال ولما اطلع السلطان على خبيثة شقيرين أمر بنهب حلهم وأسر من ظفر به منهم وقتله فأوقع بهم جيش السلطان وقعة شعاء فأسروا منهم عددا وافرا وضربوا أعناق نحو الثلاثين منهم وانتهبوا حلهم ومدارهم حتى كأن لم تكن

بالأمس ومن الغد جاءت نساؤهم وأطفالهم فاستجاروا بالمدافع واستغاثوا بالسلطان فرق لهم وسرح مساجينهم وكساهم وعفا عنهم وكان هذا كله في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة أعني

سنة خمس وثلاثمائة وألف ثم قفل السلطان راجعا فدخل مكناسة الزيتون أواخر ذي الحجة خاتمة السنة المذكورة ثم دخلت سنة ست وثلاثمائة وألف فيها غزا السلطان جبال غمارة فخرج من حضرة فاس عاشر شوال من السنة المذكورة فسلك تلك الجبال ودوخها وزار تربة الشيخ الأكبر والكبرى الأحمر أبا محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ثم تقدم إلى مدينة تطاوين فدخلها يوم الأربعاء ثامن المحرم من السنة التي تليها أعني سنة سبع وثلاثمائة وألف فأقام بها نحو الخمسة عشر يوما وزار صلحاءها وتطوف في معالمها وتبارى وجوه أهل تطاوين وكبراهم في الإهداء إليه وبذل المجهود في الاعتناء بحاشيته وجيشه وأعجب ذلك السلطان وحاشيته ورأوا منهم ما تقر به أعينهم وأنعم عليهم السلطان بعشرة آلاف ريال لبناء قنطرة يرتفقون بها في واديهم المحيط بمدينتهم لكن لم يحصل مقصود من ذلك لعدم إتقان بنائها فتهدمت في الحال وضاع ذلك المال ثم سار السلطان من تطاوين إلى طنجة ثم منها إلى العرائش ثم عاد إلى فاس فأقام بها إلى أواسط شوال من السنة المذكورة ثم غزا آيت سخمان الذين قتلوا ابن عمه مولاي سرور فأوقع بهم وقبض على نفر منهم ولم يتمكن منهم على ما ينبغي ثم سار إلى مراكش فأعرس لجماعة من بنيها وبناته ووفدت عليه الوفود من أقطار المغرب بالتهنئة وتباروا في الهدايا والتحف على ما ينبغي وبالغ السلطان في إكرامهم وإفاضة الإنعام عليهم واستمر أيده الله على كرسي ملكه وأريكة عزه وسلطانه والأيام سلم له والدنيا مهتأة بعزه ونصره والرعية طوع نهيته وأمره إلا ما كان من نواب أجناس الدول فإتهم أكثروا التردد إليه والاقتراحات عليه والتلونات لديه فمرة بالنصائح الفارغة ومرة بالتلذذات الباطلة والحجج الواهية وأخرى يطلب التخفيف من الأعباء والتفويض من الصاكنات إلى غير ذلك مما لا تكاد تقوم له الجبال الراسية وهو يدافعهم ويروغهم وحيدا لا ناصر له ولا معين إلا الله الذي أيد به الدين وعصم به الإسلام والمسلمين ولما كانت سنة عشر وثلاثمائة وألف خرج السلطان مولاي الحسن أيده

الله غازيا صحراء تافيلالت وقبائلها فخرج إليها من فاس عقب عبد الأضحى من السنة المذكورة ففضى الأوطار من تمهيد تلك الأقطار على ما ينبغي ثم كتب كتابا إلى ولاية المغرب يصف فيه الحال وما قاساه في تلك السفرة من الحل والارتحال فقال في كتابه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسمه المبارك ما نصه وبعد فإن الله تعالى لما أقام عبده بمحض الفضل والاختيار وأورثه الأرض وعمر به الأقاليم والديار لم تكن لنا همة فيما عدا السعي في صلاح المسلمين وانتظام أمورهم وجمع كلمة المؤمنين ولم نأل في ذلك جهدا حتى يسر الله سبحانه قتل في الوصول إلى سائر قبائل رعيتنا السعيدة وتخلنا أراضيهم كلها بجيوش الله المصحوبة بالعناية المزيدة فلم نترك من الأقاليم إلا النزر الغير المعبر أو ما كان في الوصول إليه إلا مجرد المشقة والضرر وتفقدنا من أحوالها الأمور وأجريناها على ما يرضي الله من الاستقامة في الورد والصدور وكان مما بقي علينا الوصول إليه هذه الأصقاع الصحراوية والمعازل البربرية التي كان يفهم قبل أنها صعبة المرتقى عديمة وجوه الارتقا فاستخرنا الله تعالى وتوكلنا عليه وفوضنا الأمر كله إليه وعلمنا أنه تعالى إذا أراد أمرا هيا له الأسباب وفتح إلى الوصول إليه المغالق والأبواب وكل شيء منه وإليه كما قال ابن عطاء الله في حكمه إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك وما من نفس تبديه إلا وله فيك قدر يمضيه فنهضنا من حضرنا العلية فاس المحمية واستقبلنا هذه النواحي البربرية ونصر الله وقتحه يواليان علينا في كل أوان ويتجددان ما تجدد الملوان ونعم الله لدينا متسابقة وتديرات قدرته الجليلة لنا محكمة العقد متناسقة فجاوزنا بلاد آيت بوسي مرورا وعبرنا بلاد بني مكيلا عبورا ووجدناهم جميعا مفادين للطاعة أتم انقياد ملقين لجانبنا العالي بالله الرسن والمقاد واقفين مع النهي والأمر لم يتخلف عنهم في ذلك زيدهم ولا عمرو واستقبلنا بجيوش الله المنصورة وجنوده الموفورة قبيلة آيت أزدك الذين هم بيت القصيد وعتبة القصيد فسبقت إليهم من الله الهداية وطويت عنهم اعلام الضلالة والغواية وتلقونا بأرائل بلادهم خائفين وجلين ومن

سطوة الله فزعين فجنحنا للعبور إيثارا له وحرصا على حقن الدماء وعدولا عن القتال نظرا للصبيان والعجائز والشيوخ وضغفا الحال ومعاملة بالصفح لمن كان منهم ضل وغوى أخذا بقول الله تعالى وأن تغفوا أقرب للتقوى البقرة وبعد أن تحققت منهم التوبة وسعوا في تحصيل مرضات الله وخطارنا الشريف بما محاه عنهم الهوة والحبوة وصير سيئاتهم حسنات وأبعدهم عن المثلاث فقابلناهم بما أزال دهشتهم وفزعهم وكشف جزعهم فانشروا وسابروا ركابنا الشريف في زيهم وجموعهم بسرور ونشاط مغتبطين بمقدنا السعيد أتم اغتباط إلى أن خيمنا عليهم بأوطاط فأطهروا من حسن الامتثال والطاعة ما وصلوا به إلى الغاية وقاموا بواجب المحلة السعيدة من الضيافات والمبرة وشرعوا على الفور في دفع ما وظفناه عليهم من الأموال متسارعين إلى الأداء في الحال منقادين لكل ما أريد منهم من الأعمال فنهضنا للتخيم بمركز بلادهم على وادي زيز وحادي الميامين يحدو بالفتح المبين والنصر العزيز فاستوفينا منهم فيه ما بقي من المفترض وحصلنا منهم بعناية الله على غاية العرض ثم ارتحلنا عنهم مصحوبين بكنينة منهم معتبرة وافرة العدد كثيرة المدد مشتملة على عدد له بال من خيولهم وصناديد رجالهم وقلنا ببلاد آيت مرغاد قتلوا ركابنا الشريف بطاعة وخضوع وانقياد مظهرين الإذعان في كل ما منهم يراد وقاموا بأداء الفرائض والنوافل مبتهجين بطلعتنا الشريفة في سائر المنازل وكل ذلك بتيسير الله وتسنيدته وإرشاده وتوفيقه وإرادته وتسهيله كما قال صاحب الحكم ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك مع سياسة صدقت بها أبناء الكتب وادخرت بها المرهفات في الحقب وحققت الدماء براءة مداد الأقلام وصينت الأعراس وأغنى الكلام السياسي عن الكلام ودوخنا بلادهم كلها غورها ونجدها على ما هي عليه من الوعورة وتعاضم الجبال التي يخال أنها تتادم القمر وتصافح الكوكب ميمها بزغ وظهر فسبحان الله ما أعظم شأنه وأوضح برهانه إلى أن قلنا بمركز أرضهم بتادغوست وبها قرار قطب رحاهم في جاهليتهم المفسد علي بن يحيى المرغادي الذي طالما حذره الإنذار ولسان حاله يقول لا حياة لمن تنادي فوقع القبض عليه وجهناه مصفدا إلى مراكش على سنة الله فيمن زلت به القدم وصار حليف التأسف والندم وأراح الله منه العباد وطهر منه البلاد وفيما قبل ذلك كنا وجهنا من آيت حديدو ما وظف عليهم في المغارم ويأتي من عندهم بما هو لهم لازم فلم يظهر منهم ما يفيد ورجع الموجهون بغير طائل ولا عتيد فترصدنا من أعيانهم وأهل الحل والعقد منهم جماعة وافرة تقرب من المائتين وقبضنا عليهم بأجمعهم جزاء وفاقا حتى يؤدوا جميع ما فرض عليهم بحول الله وتوجهنا والسعادة تقدمنا والميامين تحفنا وصحبة ركابنا الشريف من جيش آيت مرغاد قدر كثير العدد قوي المدد مشتمل على ألوف من الخيل والأبطال وليوث الحرب والنزال إلى أن وصلنا إلى قصر السوق فوجدنا به جيش خدامنا آيت عطة في انتظار جانبنا الشريف لمصاحبة ركابنا السعيد المنيف وهم في عدد عديد وقوة ما عليها من مزيد يقربون من الأربعة آلاف فارس وكلهم ليوث عوايس ومعهم من رماة إخوانهم عدد كثير معتبر كأنهم سيل إذا اندحر فنهضوا مع جانبنا العالي بالله في جموعهم وكثرة عددهم وعديدهم إلى مدغرة فتبركنا منها بمواطء الأسلاف وتعاهدنا أمور أهلها بحسن مباشرة وإسعاف وأنعمنا على شرفائها بعشرين ألفا من الريال وجهناها إليهم صحبة ولدنا مولاي عبد العزيز أصلحه الله وفرقت فيهم صلة لهم وأداء لحقوق القرابة والاتصال وتزودنا من دعائهم الصالح بمقبول مستجاب يرجى أن لا يكون بينه وبين الله حجاب ونهضنا عنهم إلى بلاد

عرب الصباح فتلقوا مواكبنا السعيدة في زيهم بفرح وانشراح وقاموا بالواجبات من المبرة والضيافات ودفعوا في الحين جميع المفروضات ونهضنا من بلادهم إلى تافيلالت بقصد زيارة جدنا الأكبر القطب الواضح ذي السر الأظهر مولانا علي الشريف رضي الله عنه ونفعنا به فخرج أهلها من جميع الشرفاء والعاملة لملاقاة رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا وكهولا أفواجا أفواجا جموعا وفرادى وأزواجا وحصل لهم إبتهاج عظيم برؤيتنا واملؤوا فرحا وسرورا

بمقدنا وانشرحت هنالك الخواطر وسرت الضمائر وأدينا واجبا بصلة رحم من هنالك من ذوي القرابة والرحم وكان ذلك عندنا من الأمر المهم وأنعمنا عليهم بعشرين ألف ريال أخرى كأهل مدغرة وجهناها إليهم مع ولدنا مولاي عبد العزيز ومولاي بلغيث حفظهما الله وقسمت فيهم صلة وأقمنا هناك ثمانية عشر يوما بقصد الاستراحة والزيارة ومشاهدة آثار الأسلاف قدسهم الله وما أجلها مآثر وأعظم سناها في تلك المظاهر وعانينا ما لهم من الأملاك والأصول ونفقدناها بما أحيا موتها كفاحا وازدادت به بهجة ونجاحا فله الحمد بداية ونهاية وله مزيد الشكر أولا وغاية نسأله

سبحانه أن يجعل ما ارتكبه في ذلك كله خالصا لوجهه جاريا على سبيله المستقيم ونهجه ويتقبله بأحسن قبول ويبلغنا في صلاح المسلمين غاية المأمول ويجعل في طاعته الحركة والسكون وعلى حوله وقوته الاعتماد والركون وقد نهضنا إلى حضرتنا الشريفة المراكشية سائلين من الله سبحانه الإعانة والقوة والتيسير وبلوغ الأمانة وأعلمناكم لتكونوا مستبصرين بما كان وتفرحوا بفضل الله وفتحه ونصره في الإسرار والإعلان وهو المسؤول سبحانه أن يجعل البداية عنوان الاختتام ويبلغنا من كل خير غاية المرام والسلام في خامس عشر جمادى الأولى عام أحد عشر وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله وكان رجوعه إلى مراكش على طريق الفاتحة ولما انتهى إلى ثنية الكلاوي أصاب الناس تلح كثير ويرد شديد تألموا منه حتى السلطان ثم خلصوا منه بعد عصب الريق وفي مدة غيبة السلطان هذه حدثت حرب شديدة بين زناتة الريف وبين نصارى الإصبيبول من أهل مليلية وما والاها فمحققتهم زناتة محقا وشردوا بهم من خلفهم استنصالا وقتلا وكان السبب في ذلك أنهم اقترحوا على السلطان أن يزيدهم في مساحة أرض مليلية على عاداتهم في كثرة الاقتراحات والتلونات فأسغفهم وزادهم من أرض زناتة نحو الغلوة وصار الحد المشترك بين الفريقين قريبا من تربة ولي الله سيدي وارياش وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير الذكر يتناوبونه للزيارة ويتبركون به ويدفون عنده موتاهم فلم يحل لنصاري مليلية بناء العسات وغيرها إلا بمحل يشرف على تربة الولي المذكور ويكشف عنها فراودهم أهل الريف عن التخلي عن ذلك الموضع والبناء بغيره فأبوا وأصرروا على الامتناع وربما لسعومهم بما أحفظهم من الكلام المؤلم على عاداتهم في ذلك فإن هذا الإصبيبول منذ كانت له الغلبة في حرب تطاوين وأهل المغرب معه في غناء شديد من كثرة ما يتعنت ويتجنى عليهم ويسمعهم من محفظات الكلام وصريح الملام لا سيما أوباشهم ورعايعهم وثالثه لقد سمعت أناني من ذلك ما يضيق له الصدر ولا ينطق به اللسان وإذا رفعت الشكاية بهم إلى أكابرهم غصوا الحق وجادلوا بالباطل هذا دأبهم وديبنتهم وإلى الله وحده المشتكى وله سبحانه العتبي حتى يرضى ولا حول ولا قوة إلا به فلما سلخوا هذا المسلك ونحوه مع أهل الريف أذقوهم من بأسهم شديد العقاب وأليم العذاب كما هو معلوم فلما احتل السلطان أيده الله بحضرة مراكش من هذه السفارة قدم عليه وفد الإصبيبول يطالبون الإنصاف من أهل الريف في هذه النازلة واستصحبوا معهم سربا من الحمام الطيار بالمكاتب والأخبار ودار الكلام بينهم وبين السلطان في النازلة وحكم فيها من لم يكن ذا بصيرة بمعضلات النوازل من غافل أو متعاطل فوقع الفصل على أن يدفع السلطان عن دماء قتلاهم أربعة ملايين من الريال وتم الصلح على ذلك وكانوا في تلك المدة كلما دار بينهم وبين السلطان كلام في القضية أطاروا به الحمام إلى أرباب دولتهم بمدريد والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وفي آخر هذه السنة كانت وفاة السلطان مولاي الحسن بن محمد رحمة الله عليه ورضوانه فإنه خرج من مراكش فاتح ذي القعدة من السنة المذكورة غازيا قبائل البربر الذين بجبال فازاز لا سيما آيت سخمان الذين غدروا بأصحابه وابن عمه حسبا تقدم قريبا وكان رحمه الله قد قدم من حركة تافيلالت وهو مريض مرضا خفيفا في الظاهر ولكنه مزمن في الباطن فكان يتكلف معه الخروج للناس وينفذ القضايا ويجلس للوفود ويجيزهم ويفعل جميع الأمور المخزنية ثم خرج من مراكش في التاريخ المذكور على ما به

من الألم والمرض وتحامل حتى انتهى إلى وادي العبيد من أرض تادلا فأدركه أجله هناك في الساعة الحادية عشرة من ليلة الخميس ثالث ذي الحجة الحرام متم عام أحد عشر وثلاثمائة وألف وحمل في تابوت إلى رباط الفتح ودفن بزاء جده الأعلى سيدي محمد بن عبد الله رحمة الله على جميعهم أمين وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان رحمه الله من خيار الملوك العلوية وأفاضلهم بما نشر من العدل وأصلح من الرعايا وأبقى من الآثار بالمغرب وثغوره فاشه تعالى يجبر كسر المسلمين فيه ويعوضهم أجرا عن مصابه أمين وبيع أهل العقد والحل نجله الأرضي الأبر المرتضى مولانا عبد العزيز ابن مولانا الحسن نصره الله نصرا عزيزا وفتح له قنجا مبينا أمين وهو الآن على كرسي ملكه بفاس المحروسة كما ينبغي وعلى ما ينبغي وقد تسرب إليه جماعة من نواب الأجناس كعادتهم مع والده من قبله فقدموا عليه حضرة فاس مظهرين أنهم إنما قدموا للتهنئة ومرادهم خلاف ذلك ويمكرون ويمكر الله والله خير المكرين الأنفال وما ظنك بمن يزعم أنه قدم للتهنئة وهو مقيم بالحضرة هذه مدة من أربعة أشهر يتجسس الأخبار ويتطلع العورات ويتصد الغفلات ويحصي الأنفاس لعله تظهر له خلة أو تمكنه فرصة نسال الله تعالى أن يرد كيده في نحره ويعديه بعاره وعره أمين ولعمري ما الحامل على هذا ونحوه إلا قلة الحياء من الله ومن الناس وإلا فما معنى الإقامة في سبيل التهنة أربعة أشهر ثم انظر مايزاد منها بعد ذلك وكان مما يؤثر من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت وحسبنا الله ونعم الوكيل واعلم أن أحوال هذا الجيل الذي نحن فيه قد باينت أحوال الجيل الذي قبله غاية التباين وانعكست عوائد الناس فيه غاية الانعكاس وانقلبت أطوار أهل التجارة وغيرها من الحرف في جميع متصرفاتهم لا في سكرتهم ولا في

أسعارهم ولا في سائر نفقاتهم بحيث ضاقت وجوه الأسباب على الناس وصعبت عليهم سبل جلب الرزق والمعاش حتى لو نظرنا في حال الجيل الذي قبلنا وحال جيلنا الذي نحن فيه وقايصنا بينهما لوجدناهما كالمضادين والسبب الأعظم في ذلك ملابسة الفرنج وغيرهم من أهل الأربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم في الأفق الإسلامية فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته إليها جذبة قوية وأنا أحكي لك حكاية تعتبر بها وتستدل بها على ما وراءها وهي أنني ذاكرت ذات يوم رجلا من أهل جيلنا في هذا المعنى فقال لي إن لي راتبنا سلطانيا أقبضه في كل شهر قدره ثلاثون أوقية قال فكننت في حدود الستين ومائتين وألف أقبض فيه عشر بسائط لأن صرف البسيطة يومئذ ثلاث أواق فلما أخذت السكة في الارتفاع بعد الستين صرت أقبض فيه تسع بسائط وقلوسا ثم بعد ذلك بسنة أو سنتين صرت أقبض ثمان بسائط وقلوسا ثم سبع بسائط وقلوسا وهكذا إلى أن صرت اليوم في أعوام التسعين أقبض في الثلاثين أوقية بسيطة واحدة وشيئا من القلوسا ه فانظر إلى هذا التفاوت العظيم الذي حصل في الجيل في مدة من ثلاثين سنة أو نحوها فقد زادت السكك والأسعار فيها كما ترى نحو تسعة أعشار والعلة ما ذكرناه ويكثر بكثرة الاختلاط والممازجة مع الفرنج ويقل بقلتها والدليل على ذلك أن أهل المغرب أقل الأمم اختلاطا بهم فهم أرخص الناس أسعارا وأرْفَقهم معاشا وأبعدهم زيا وعادة من هؤلاء الفرنج وفي ذلك من سلامة دينهم ما لا يخفى بخلاف مصر والشام وغيرهما من الأمصار فإنه يبلغنا عنهم ما تصم عنه الأذان فليتأمل هذا الذي ذكرناه وليعرف منه سر الله في خلقه واعلم أيضا أن أمر هؤلاء الفرنج في هذه السنين قد علا علوا منكرا وظهر ظهورا لا كفاء له وأسرت أحواله في التقدم والزيادة إسراعا متضاعفا كتضاعف حبات القمح في بيوت الشطرنج حتى كاد يستحيل إلى فساد وعلم عاقبة ذلك وغايته إلى الله تعالى المنفرد بالغيب

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم وهذا ما قصدنا جمعه من هذا الكتاب والله الملهم للصواب ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخسرين الأعراف وصلي الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تقرير الطبعة الأولى لكتاب الاستقصا تقرير العلامة الأديب السيد أحمد بن المأمون البلغيثي الحسيني بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه ذوي المجد الفخيم الحمد لله الذي أنعم علينا بالكمال الإنساني وتكرم إلينا بأحسن التقويم في النطق اللساني نحمده وله الحمد في الأولى والآخرة على نعمه التي لا تحصى ونشكره على مننه التي لا تعد بالاستقصا ونصلي ونسلم على نبيه سيدنا ومولانا محمد أفصح من بالصاد نطق المنزل عليه في حكيم الذكر وكذلك نقص عليك من أبناء ما قد سبق وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن قص علينا قصصهم من أئمة الدين صلاة وسلاما ندرك بهما مدارك الكمال ونبلغ بهما منتهى الآمال أما بعد فيقول العبد الفقير إلى مولاه الغني الكبير أحمد بن المأمون الحسيني العلوي البلغيثي السجلماسي أصلا ودارا الفاسي منشأ وقرارا تقبل الله صالح أعماله وبلغه في الدارين غاية آماله لما أن وقتت على هذا التاريخ المفيد وقوف طالب مستفيد ألفيته مرغوب اللبيب ومحبوب الحبيب قد جمع فأوعى وبلغ من الإقتان غاية المسعى حيث احتوى على أخبار الأقطار المغربية واستقصى أهم الأوطار من أنباتها الشهية فطابق اسمه مسماه ووافق لفظه معناه كتاب رأيت الحسن فيه

مفصلا كما فصل الياقوت بالدر ناظمه فكان له نشر يفوح وبهجة كما افتر عن زهر الرياض كمانمه ولعمري أنه لتاريخ تشد إليه الرحال وتعتكف بجماعه الأزهر جهابذة

الرجال إذ أغنى وأقنى وبلغ الناظر فيه ما تمنى يغني عن غيره من الموضوعات في فنه بصحة أسانيد المرفوعات على أعلام حسنة تتناوب منه سطوره والطورس لا تلتفت لغيري فلا عطر بعد عروس وكيف لا ومؤلفه العلامة من هو في غرة هذا العصر علامة الطالع الأسعد والسند الأصعد المحقق النقاد والمشارك في جميع الفنون بالذهن الوقاد المرتوي من نهر كل فضيلة بما راق وحلا أبو العباس سيدي أحمد الناصري الدرعي شمس ثغر سلا أبقى الله بركته وأدام في اكتساب المعالي حركته قلله دره من مؤلف ألف بين الكمالات وشفن السمع بأصح المقالات في هذا التاريخ الذي أرخت في صحائف الكمال آياته وخلدت في دفاتر المدج فضائله وكراماته وقد زاده رونق الطبع نورا على نور وأفاده اجتلاء على منابر الظهور ففرب نوره لمقتبسه وسهل ملكه لملتمسه ولما ملك حسنه خاطري وفوادي وسلك بين منهج قصدي ومرادي وصرت به أنشط من ظبي مقمر وأسط عليه من ذئب متمم تشوقت لإنشاء امتداحه وتشوقت لإملاء أمداحه بما لا أعده في شيء من طبقات الفصاحة عند فرسان هذا الميدان ولكن عذري عند الواقع عليه أنه لقطعة عجلان ما له في الأدب يدان فقلت في ذلك مؤرخا تمام طبعه في بداعة صنعه ورقة طبعه بقول وسيط من بحر البسيط أخبار أهل الهوى ما زال يرويها أجباز كأس رحيق الراح يرويها حتى إذا سمعوا العشاق مخبرها هاموا وقاموا بالأحان تواتبها لكتهم أبدا في الدهر ما سمعوا ما نالني في هوى خود أفديها خود بها الصب قد لذ العذاب له لما غدا وهو مطروح بناديها يرجو رضاها ولم تسمح بوصلته وبالتذلل والشكوى يناديها قد استرقت في شرع الغرام وما رقت لما به من نار يقاسيها حتى استبان لها أني على تلف وأن ما بي منها ليس تمويها جاءت إلي على فور تعلقني بالعطف من طلعة سبجان باريها فاتحفتني بحفت الرمز من مقل السيف حاجبها والحسن كاسيها إن أومات بلحاظ جرحت كبدي أو أعرضت بلغت روعي تراقيها

ما حيلتي في الهوى وما دوا كبدي العطف يجرحها والهجر يبليها اني خلعت عذاري فاعزوني في حب الملاح فإن القلب يبغيتها فهل ملام على من صار ذا وله بغاة سلبت عقلي معانيها إذا بدت لأولي الألباب شمتهم صرعى وطرحى جميعا في مغانيها يا حسن ما حدثتني عندما عطفت في شأن من يبعادي كان يغريها قالت لك الوصل مني ليس يعقبه هجر على رغم من يبغني لك النية تخال نطق لاماها عندما نطقت أخبار تاريخ الاستقصاء تمليها ذلك الكتاب الذي فاقت صناعته كل التواريخ بالإتقان عاديها الله ما قد حوى من كل واقعة يلهيك عن نغمة الأحان راويها ومن محاسن أحوال تتوق لها الأسماح من كل ذي لب يدانيها ومن نوادر قد كانت لذي أدب تود إذن العلا أن لو تحليها أغنى وأقنى بأخبار مصححة قد كان في المغرب الأقصى دواعيها كم من فوائد قد كانت أو ابد لم تظفر بها به يستدعيك قاصيها ما شئت من أدب غض ومن ملح تشناقها همم ترحو توافيها فاعكف عليه ونزه في بدائعه أبصار ففرك تستجني أمانيتها فإنه روضة أشجارها قصص أزهارها حكم إن رمت تجنيها أنهارها من معين ما به كدر من كل معنى غدا للنفس شافيتها بل جنة جمعت أمال أنفسنا وتستند بها أبصار رائيها لا غرو حيث غدا مفتاح بهجتها من فيه يرسل أعط القوس باريها ذلك الأديب الأريب العالم العلم الهمام غايته من ذا يجاريها الناصري أبو العباس أحمد من نال العلا واعتلى أعلى أعاليها نقاد كل فنون العلم ليس له بغيرها شغل دأبا يوليها فكم أجاد وكم أسدى فوائدها في كل قطر من الأقطار يوليها أنسى إياسا بأفكار له وقد ترى شمس الهدي كشافا لباعيتها فهذه قيسة من نور عمله قد مدت إليها أقاصي الأرض أيديها نالت أشعتها الأيدي على بعد كالشمس مع رفعها يبدو تدانيها

تريك سيرة قطر الغرب كيف مضت رأى الحقيقة في أفكار قاريها إن التواريخ في أخبارها كثرت لكن ذا قد حوى أصح ما فيها بل زاد أنباء قوم لم تكن جمعت مما جرى عن قريب فيه تليها مع ما حوى من علوم من مؤلفة بدت معالمها هديا لأتيتها أعظم بها منحة قد عم نائلها وطاف في شاسع الأقطار ساقبها فرقة الطبع قد نمت بها وسرت لطبع آياتها كيما تجليها فعدا منها محباها كما قمر يهدي الضليل بها إن جا يماشيتها كمال طبع حلاها جاء وفق مني فالحمد لله كم نعماء يسديها مع منتهى أرب قل كي تزخره معالم الطبع بالبشرى تناهيها سنة هذا التاريخ يعرف من بين أنواعه بالمذيل وحقيقته أن تكون جملة التاريخ ناقصة فتكمل بحرف أو أكثر مع التنبيه عل ذلك بإشارة تتضمن تورية وبيان ذلك هنا أن جامع عدد قولي معالم الطبع بالبشرى تناهيها هو عشرة وثلاثمائة وألف فتوقف العدد المؤرخ به على اثنين أشرت لها بقولي مع منتهى أرب ومنتهى أرب هو الباء التي باثنين فاستوفى عدد التاريخ هذا وليعلم من يقف عليه من أدباء أهل المغرب أني حسبت حرف الشين من قولي بالبشرى بثلاثمائة على اصطلاح المشاركة فيها لا بألف كما هو اصطلاحنا وهي أحد الحروف الستة التي اختلف فيها اصطلاح الفريقين وقد تدهبت بمذهبهم في هذا التاريخ مراعاة لمحل الطبع كما يستحسن ذلك مني سالم القريحة والطبع والله الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل

تقريب الأديب السيد إبراهيم الأزهرى حمدا لمن أضاء عقول الخلف بانوار توارخ السلف وصلاة وسلاما على من قص عليه أحسن القصص في كتابه المكنون وأخبره بسران ما كان وما يكون وعلى آله وأصحابه الذين أشرقت صحائف التاريخ بأياتهم الباهية الباهرة وتزينت المحافل بمحاسن إحصانهم الزاهية الزاهرة أما بعد فإن علم التاريخ كثر يجب التحلي بنفانس فرائده وروض لا غنية لأحد عن مجاتي فوائده وكم للعلماء فيه من تصانيف مهمة عادت بالمنافع الجمة على كل أمة فلم ترتق أمة إلى عرش تمدنها إلا بتجرها في هذا الفن وتقننها وأن أجل ما ألف فيه كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى فهو أول كتاب كشف الغطاء عن هذه الممالك وقرب لمن يهيمه الوقوف على حقيقة أخبارها جميع المسالك وأبان عن أول من دخلها من الصحابة رضي الله عنهم لرفع أعلام الإسلام وما هي عليه من المعارف التي لم تطو سجلات نشرها تعاقب الأيام لا سيما بلاد الأندلس وما لها من الحضارة والأبهة والنضارة وما لبلاد الجزائر من كل أثر جليل يشهد برفعة قدرها جيلا بعد جيل مع تحرير التراجم للملوك والأعظم وما دهم هذه البلاد من الوقائع الحربية التي أثارت غبارها يد الدسائس الأجنبية وما ثبت لهذه الدول من الاختراعات والاستكشافات وما بينها وبين الدول الأخرى من المواصلات والمعاهدات كل ذلك بعبارات صادقة ومحركات شائقة حديث المغرب الأقصى قد استقصاه الاستقصا كتاب جل مبدعه على نسق به اختصا بدا والناس في شغف ليقنتن النهى قنصا فتأهوا في محاسنه فأرشدهم بما أوصى فيائه ما أعلى وما أعلى وما أحصى فكيه في فكاهته صدوق القول إن قصا

عليه فكن أشد الناس في استقصائه حرصا تجد غررا حوت دررا عليها تكثر الغوصا وكيف لا ومؤلفه إنسان عين الأدب وترجمان لسان العرب جوهر بحور المعارف وسويداء صدور العوارف من أجمعت الفضائل على التباهي بسيرته وتسابقت المحامد إلى الاقتباس من مشكاة سريرته ألفته الحكمة فسامرها وما سلا علامة المشرق والمغرب فضلا عن كونه تاج مجد سلا بحر العلم الخضم الراوي شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري السلوي ولأجل أن يعم النفع الجزيل بهذا الأثر الجليل قام حضرة مؤلفه بطبعه في إحدى مطابع القطر المصري حتى أشرق بدر كماله على الكوكب الدرعي بمشاركة كل من صاحب الحسب العاطر والنسب الطاهر صاحب الشرف والمجد السنني السيد الحبيب البلغيتي الحسني وحضرة من هو لكل كمال مصطفى جناب محمد أفندي مصطفى فهؤلاء السادة هم السبب في تميم نفعه وتعطير الأفاق ببير طبعه بمطبعة حضرة الأفندي الشهيرة بإتقان الصناعة وكمال رونق الطباعة جزاهم الله بمنه وفضله أكمل جزءا من العلم وأهله وكان انتهاء طبعه الأنيق واستكمال حسنه الرقيق في أواخر شهر رمضان المعظم سنة اثنتي عشرة بعد الألف والثلاثمائة من هجرته تم الجزء التاسع والأخير من كتاب الاستقصا